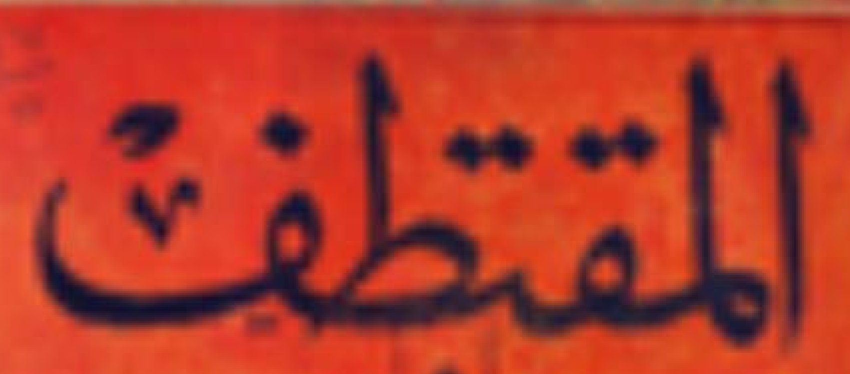
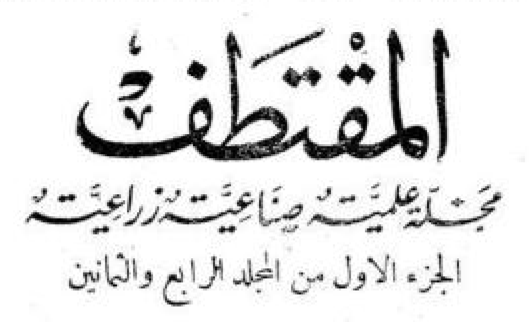


December



الجزء الاول من المجلد الرابع والثمانين

١ يناير سنة ١٩٣٤ — ١٥ رمضان سنة ١٣٥٢

تحويل العناصر

مباحث العلماء تحقق احلام الاقدمين
ولكنها تختلف في مرماها

استهوت فكرة تحويل العناصر ألبابَ الكيماويين الاقدمين . فراحوا يبحثون عن حجر الفلاسفة الذي يمكنهم من تحويل العناصر بعضها الى بعض ، ومن تحويل سخيفها الى ذهب ، ولا يزال الموضوع يستدعي عناية الباحثين في اقطار الارض . بل ان طائفة من العلماء في معامل الجامعات والشركات الصناعية ، مكبّون على البحث في هذا الموضوع ، ولا عناية لهم الآ به

ونحن اذا نظرنا الى مباحث الكيماويين الأقدمين ، بعيون علماء اليوم وما يلقونه من المصاعب التي تعترضهم وتقطع عليهم سبيل تحقيق الغرض الذي يصبون اليهِ ، فهمنا ان الخيبة كانت بلا ريبة مصير اسلافهم . ولكن الاقبال على هذا البحث عصراً بعد عصر يرجع في الغالب الى كتابات ارسطوطاليس التي كان لها تأثير عظيم في العصور المتوسطة واتجاهات ابنائها الفكرية . فالمادة كانت في نظر ارسطوطاليس مؤلفة من مادة اولية او اساسية ، تختلط بالعناصر الاربعة، التراب والهواء والنار والماء . والمواد تختلف بعضها عن بعض بمقدار ما تحتوي عليهِ من هذه العناصر الاربعة . فاذا اخذت بهذا الرأي ، فمن الأمور التي لا تحتاج الى دليل ، امكان تحويل المادة الواحدة الى اخرى ، اذا كشفت الطريقة التي تمكن الباحث من تغيير مقدار ما في المادة الواحدة من احد العناصر الداخلة في بنائها . وكان طبيعيًّا ان تتجه الافكار الى تحويل العناصر المعدنية السخيفة الى ذهب . وقام رجال في عصور مختلفة ادّعوا انهم نفذوا الى سرّ تحويل النحاس او الرصاص او غيرها من الفلزات الى ذهب . وكان الكيماويون القدماء ، معتمَد بعض الحكام في ايام الضيق ، لكي يسدّوا العجز في

بيوت المال بصنع الذهب من المعادن السخيفة . وكانوا يفلحون احياناً في صنع ممدن لهُ رواء الذهب ولكنهُ ليس ذهباً ، فلم تسفر تجاربهم الا عن خفض قيمة النقد الذهبي ، بصنعهِ من مادة ليست ذهباً على الاطلاق

وبعد ما اثبتت المباحث التجريبية فساد القول بامكان تحويل المعادن السخيفة الى ذهب ، ظلّ الناس يعتقدون في صحة هذا الامكان ، حتى ليستطيع شطّار الخادعين ، في هذا العصر العلمي ، ان يدّعوا عثورهم على طريقة لتحويل العناصر الى ذهب ، فيؤلفوا الشركات لهـذا الغرض ، ويبتزّوا الاموال من جيوب عباد الله الآمنين

التحول ممكن !

اثبتت مباحث علماء الكيمياء في القرن التاسع عشر ان المادة تظهر في نحو ثمانين عنصراً متميزاً احدها عن الآخر ، والذرّات التي منها تتركب العناصر ، لا يمكن تحويلها او ابادتها ، بقوة من القوى الطبيعية المعروفة ، كالحرارة والضغط . وعلى ذلك ظهر ان فكرة تحويل العناصر متعذّرة ، الاّ اذا وفّق الباحثون الى وسائل اقوى فعلاً في الذرّات من الحرارة والضغط . وثبت في الوقت نفسهِ ، من دراسة الجدول الدوري الذي وضعهُ منديليف العالم الروسي ، ان لا بدّ من وجوه شبهٍ بين العناصر المختلفة في بنائها . فلما اكتشف السر جوزف طمسن الالكترون (الكهرب) سنة ١٨٩٧ تأيّد هذا الرأي . واسفرت المباحث في الالكترون عن انهُ يحمل شحنة كهربائية سالبة، وان كتلتهُ جزء من ١٨٤٠ جزءًا من كتلة ذرة الايدروجين وهو اخفّ العناصر .ثم ان احد هذه الالكترونات او اكثر من واحد ، يمكن ان يزال من مدارهِ حول نواة الذرّة ، بفعل الاشعة التي وراء البنفسجي أو الاشعة السينية ، فتصبح الذرّة بعد ذلك موجبة الكهربائية بدلاً من ان تكون متعادلتها ، وتختلف خواصها عن خواص الذرّة المتعادلة . والتحوُّل في الخواص ، يكون وقتيًّا ، لان الكهرب لا يلبث ان يعود الى مداره السويّ حول النواة ، وتعود الذرّة متعادلة الكهربائية ، وخواصها على ما كانت عليهِ

ففي الفترة بين زوال الكهرب من مداره حول النواة ، وعودتهِ اليه ، تحوَّلت الذرّة من شيء الى شيءٍ آخر . ولكنَّ الادلة المعتمدة بين العلماء حينئذٍ ، كانت تشير الى تعذّر احداث تحوُّل دائم في بناء الذرّة وخواصها ، بازالة بعض كهاربها او اضافة كهارب اليها . وكلُّ تغير من هـذا القبيل لا بدّ ان يكون وقتيًّا

ولكن بكرل الفرنسي اكتشف فعل الاشعاع سنة ١٨٩٦ واقبل رذرفورد وصدي البريطانيان على درس هذه الظاهرة فأثبتا سنة ١٩٠٣ ان الاشعاع مظهر من مظاهر عدم الاستقرار في بناء الذرّة . ففي العناصر المشعة ، تنفجر الذرة على حين فجأة، وينطلق منها اما دقيقة ضخمة (الضخامة نسبية طبعاً) تعرف بدقيقة الفا ، او دقيقة صغيرة سريعة تدعى دقيقة بيتا — هي والالكترون سواءٌ . فيسفر

هذا الانفجار والانطلاق عن ان الباقي من الذرة يختلف في خواصهِ الطبيعية والكيمائية عنهُ قبل انفجاره وانطلاق ما انطلق منهُ

فلما طال البحث في هذا الموضوع ، تبين ان عنصري الاورانيوم والثوريوم ، يتحولان بالانفجار والانطلاق الى عناصر اخرى مشعة ، منها الراديوم المشهور ، وهذا بدوره يتحول بعد ان ينقضي زمن طويل على اشعاعهِ الى نوع خاص من الرصاص . وفي التجارب التي قام بها رذرفورد ورمزي وصدي ، تبين ان دقائق الفا المنطلقة من الراديوم في حالة اشعاعهِ ، انما هي ذرات عنصر الهليوم ، ولكنها تحمل شحنة كهربائية بدلاً من ان تكون متعادلة . فلما قيست قوة انطلاق دقائق الفا وبيتا من ذرّات العناصر المشعة تبين انها طاقة عظيمة جدًّا ، تفوق مليون ضعف ، الطاقة المتولدة من اتحاد الذرّات في مادة مفرقعة

على ان تحوّل العناصر المشعّة ، يتمّ من تلقاء نفسهِ ، ولا سيطرة للعالم عليهِ بالقوى الطبيعية التي يملكها ، فهو لا يستطيع ، بالضغط العظيم او الحرارة العالية او البرد الشديد ان يسرع انطلاق الدقائق من الذرات او يبطئهُ . والعناصر المشعة قليلة اذا قيس عددها ، بعدد كل العناصر المعروفة ، ومعظم العناصر مستقرٌّ ولا يحدث فيهِ فعل الاشعاع ، واذاً فالعناصر بوجهٍ عام — ما عدا العناصر المشعة — لا يمكن تحويلها بعضها الى بعض في احوال عادية

بناء الذرة

وعليهِ وجب على المهتمين بتحويل العناصر ان ينتظروا قليلاً ، حتى يتسع نطاق معرفة الباحثين ببناء الذرة نفسها لعلَّ هذه المعرفة ، تمهّد السبيل ، الى استنباط وسيلة جديدة تمكنهم من تغيير هذا البناء . والمسلّم بهِ الآن ، ان ذرّات العناصر كلها ، مبنية بناءً كهربائيًّا . ففي وسط الذرّة نواة صغيرة ولكن كتلتها كبيرة — بل ان معظم كتلة الذرة في كتلة النواة — وتحمل شحنة كهربائية موجبة تختلف ، باختلاف العناصر من واحد الى ٩٢ . وعلى مسافة من النواة توجد الكهارب موزّعة على طريقة لم يقرّها البحث بعد — كانت في البدء تحسب كالسيارات حول الشمس في ذرّة بور الدنمركي — ولكنها تتحرك حركة رحوية سريعة . وعدد الكهارب حول النواة مساوٍ لعدد الشحنة الموجبة على النواة . فالذرّة التي على نواتها شحنة موجبة رقم ٥ لها خمس كهارب في جوّها . وقطر النواة ، لا يزيد في الغالب عن جزء من ١٠٠٠٠٠ جزء من قطر الذرّة نفسها ، ولكن معظم كتلة الذرّة مقيم في النواة ، وللنواة سيطرة على عدد الكهارب في الذرّة ، وعلى حركتها كذلك . ولما كانت خواص الذرة الطبيعية والكيمائية مرهونة بعدد الشحنات الكهربائية الموجبة على نواتها ، فمن الممكن ان تختلف اوزان الذرات من عنصر واحد من دون ان يختلف عدد شحناتها الموجبة على النواة

واذاً فقد نجد عنصراً لهُ نوعان او اكثر من الذرّات . وكل نوع وزنهُ يختلف عن وزن النوع الآخر ، ولكن الشحنة الكهربائية في الاثنين واحدة . فذرّات الليثيوم — ولهذا العنصر مقام خاص

في درس تحويل العناصر — نوعان او نظيران (كلمة نظير العربية وضعها الدكتور صرُّوف لتقابل كلمة ايسوتوب) احدهما وزن ذراته ٦ والآخر وزن ذراته ٧ والثاني اكثر من الاول . وذرات عنصر من العناصر هي في الغالب خليطٌ من ذرات « نظرائهِ » . وسوف نجد ان نظيري الليثيوم يختلفان في مقدرة العلماء على تحويلهما بالمعنى الكيماوي . فاحدهما يسهل تحويله ، والآخر يتعذر تحويله او يحتاج الى طريقة تختلف عن طريقة تحويل صنوه

هذا ما يعرف عن بناء الذرّات بوجهٍ عام . ويرجع الفضل في معرفتنا عن انتظام الكهارب وحركتها ، وطريقة اشعاع الأشعة السينية منها ، الى مباحث بور Bohr وانداده . ولكن مانعرفهُ عن بناء النواة لا يزال يسيراً . فنحن نعرف مقدار الشحنة الكهربائية على النواة . ولكننا نجهل انتظام الدقائق فيها . كنا الى عهد قريب نظن ان نواة الذرّة مركبة من نوعين من الدقائق الكهربائية — الكهارب وهي سالبة الكهربائية والبروتونات وهي موجبتها . ثم ثبت ان دقائق الفا — وهي نوى ذرات الهليوم ، ووزن الدقيقة منها ٤ اذا قوبلت بوزن البروتون ١ — لها شأن خطير في بناء النواة.وفي السنة الماضية اكتشف النيوترون — وهو دقيقة وزنها كوزن البروتون اي ١ وشحنتها الكهربائية متعادلة . وفي مطلع الصيف الماضي اكتشف البوزيترون — والمظنون أنهُ يقابل الكهرب — اي انهُ كهرب ولكن شحنته موجبة بدلاً من ان تكون سالبة . وعليهِ يصحُّ ان نحسب نواة ذرّة من ذرات العناصر الثقيلة مبنية من انواع مختلفة من الدقائق ، شحنة بعضها موجبة كدقائق الفا والبروتون والبوزيترون ، وشحنة البعض الآخر متعادلة كالنيوترون ، وكلها مرتبطة بعضها ببعض بقوى عظيمة جدًّا في حيّزٍ ضيّق ، فينشأ من ارتباطها بناءٌ مستقرٌّ

قذائف الطبيعة

ان مشكلة تحويل عنصر الى آخر ، كما يراها علماء العصر الحديث تقتضي احداث تغيير في الشحنة التي على نواة الذرّة . وهذا مستطاعٌ نظريًّا ، بزيادة دقيقة ذات شحنة كهربائية ، كدقيقة الفا او بروتون الى النواة ، او بطرح احدى دقائقها . وانما يجب ان نذكر ، ان بناء النواة مستقرٌّ ، وان دقائقها مرتبطة بعضها ببعض ، بقوى عظيمة . فلكي نحطم نواة من النوى ، يظهر في باديء الامر ان لا بدَّ من ان نعمد الى قوى عظيمة الطاقة . ومن الطرق التي يمكن استعمالها ، اطلاق مقذوفات صغيرة عظيمة السرعة على نواة الذرة . فدقائق الفا التي تنطلق من تلقاء ذاتها من ذرّة الراديوم في حالة الاشعاع، من اسرع المقذوفات التي يستطيع العالم الطبيعي استعمالها ، ومن اعظمها طاقة . لذلك قيل انهُ اذا اطلق تيار من ذرات الفا على مادة من المواد ، فيحتمل ان تصيب احداها ، نواة ذرّة من الذرات ، او ان تصير على قرب عظيم منها ، وفي الحالين لا بدَّ من ان تؤثر في القوى التي تربط بين دقائق النواة ، فتفقد النواة استقرار بنائها وتنقسم الى نواتين

لذلك عمد اللورد رذرفورد سنة ١٩١٩ الى امتحان هذا الرأي بالتجربة ، لعله يأتي بدليل عملي على

ان تحويل بعض العناصر مستطاع باطلاق دقائق الفا على نوى الذرات . وكانت تجاربه بسيطة اذ اخذ مركَّباً من مركبات الراديوم واستعمله مصدراً لمقذوفاته — دقائق الفا — ومن المعروف انهُ اذا اصطدمت دقائق الفا بلوح عليه سلفور الزنك ، ظهر أثر الاصطدام في لمعات من الضوء تمكن رؤيتها في غرفة مظلمة . فقال رذرفورد ، اذا اعتمدنا على هذه الطريقة في اكتشاف اثر دقائق الفا فلعلّنا نعثر على شيءٍ جديد . اخذ مركب الراديوم وسدَّد دقائق الفا المنطلقة منهُ الى غاز الاكسجين فلم يرَ أثراً ما . فلما ابدل الاكسجين بالنتروجين ، رأى لمعات خاصة ، على مسافة لا تستطيع ، دقائق الفا الوصول اليها . ثم ثبت ان سبب هذه « اللمعات » بروتونات ، لابدَّ ان تكون قد انطلقت من نوى ذرات النتروجين عند اصطدامها بدقائق الفا المنطلقة من الراديوم . واذاً فذرة النتروجين قد تحوَّلت بانطلاق بروتون او اكثر منها . وهذه التجربة كانت اول دليل علمي ، اقامهُ الانسان ، على ان التحويل ممكن بوسائل ابتدعها الذهن البشري

ولم يعرف اولاً كيف تمَّ هذا التحوُّل . ولكن مباحث بلاكت Blackett الحديثة بيَّنت انهُ لابدَّ ان تكون احدى دقائق الفا قد اخترقت نواة ذرَّة من ذرات النتروجين ، فاحدث وجودها اضطراباً في بناء النواة المستقرّ ، فطرد بروتون من النواة بسرعة عظيمة . وهو البروتون الذي دلَّت اللمعات على وجوده

فلننظر الآن في هذا الامر من ناحية الارقام . اننا نعلم ان كتلة النواة في ذرَّة النتروجين ١٤ وان شحنتها الكهربائية ٧ . فاذا اصطدمت بها دقيقة الفا ، واخترقتها واستقرَّت فيها ، اضيف وزنها — وهو ٤ — الى وزن النواة فيصبح ١٨ ، واضيفت شحنتها الموجبة — وهي ٢ — الى شحنة النواة فتصبح ٩ ولكن النواة اذ ذاك تفقد بروتوناً واحداً وزنهُ ١ وشحنته الكهربائية ١ كذلك فيصبح وزن النواة بعد اضافة دقيقة الفا وطرح بروتون واحد ، ١٧ وتصبح شحنتها ٨ . ولكن شحنة نواة ذرَّة الاكسجين ٨ واذن فالتفاعل الناشيء عن اصطدام ذرة النتروجين بدقيقة الفا ، وما تلاهُ حوَّل ذرَّة النتروجين الى ذرة اكسجين

وقد يقال ان وزن نواة ذرة الاكسجين ١٦ وليس ١٧ فكيف ذلك . فنقول ان للاكسجين نظيراً isotope وزن ذرَّتهِ ١٧ وهذا على ما بيَّنا واقع في الطبيعة

ثم تبيَّن من تجارب الدكتور شدك Chadwick احد علماء جامعة كمبردج ، ان اثني عشر عنصراً على الاقل من العناصر الخفيفة يمكن تحويلها باطلاق دقائق الفا عليها . والراجح ان طريقة التحوُّل فيها شبيهة بما يصيب النتروجين في حالة تحوُّلهِ . اي ان دقيقة الفا تندمج في نواة الذرَّة ، ثم ينطلق من النواة بروتون واحد ، فيزيد وزن الذرة ٣ (الفرق بين وزن الدقيقة وهو ٤ ووزن البروتون المنطلق وهو ١) وتزيد شحنتها الكهربائية ١ . وهذه التجارب تثبت ان الباحث اذا اجاد التجربة استطاع ان يحوّل ذرَّة عنصر من العناصر الاثني عشر ، الى ذرَّة عنصر آخر ، اعلى منه في جدول العناصر

ويجب ان ننبه في هذا المقام ان المقدار المتحوّل من عنصر ما الى عنصر آخر يسير جداً ، بل هو اقل من ان يمكن اكتشافه بالكواشف الكيمائية . ولولا ابتداع طرق عجيبة في دقتها لاحصاء الذرات القليلة المتحولة ، لما اتيح للباحثين ، ان يتبينوا نجاحهم في تجاربهم . ولما كانت نوى الذرّات دقيقة كلّ الدقة ، فاحتمال اصابتها بالمقذوفات المطلقة عليها ، ضئيل جداً . ففي تجربة النتروجين يبلغ الاحتمال ١ الى ١٠٠٠٠٠ اي ان دقيقة واحدة من مائة الف دقيقة مطلقة على غاز النتروجين يحتمل ان تصيب نواة احدى الذرات . وهذا الاحتمال يقلُّ في العناصر الاخرى . ويستحيل على الباحث ان يوجّه مقذوفاته الى نوى الذرات ، ولذلك فهو يطلقها على مقدار من الغاز ، فيتفق ان تصيب احدى نوى ذرّاته في الفينة بعد الفينة

ولكن بعض العناصر ، كالليثيوم والكربون والاكسجين لم تعنُ لقذائف دقائق الفا اي ان اطلاق دقائق الفا عليها ، لم يؤثر في نوى ذرّاتها فلم تتحوّل ، كما تحولت بعض ذرات النتروجين

ويختلف عنصر البريليوم عن هذه الطائفة وتلك . فان قذفه بدقائق الفا لم يطلق منه بروتونات كما هي الحالة في النتروجين وغيره ، ولا هو ظلَّ جامداً لا يتأثر بها كالاكسجين ، بل انطلق منه نوع من الاشعاع القوي النفوذ ، لاحظه العالم الالماني Bothe اولاً ثم درسته مدام كوري جوليو (وهي ابنة مدام كوري) وتبيّنت فيه خواصَّ عجيبة . وتلاها الدكتور شدك الانكليزي ، فاثبت ان هذا الاشعاع انما هو تيار من دقائق لم تعهد من قبل دعاها « نيوترونات » Neutrons وهي تماثل البروتونات في ان وزن النيوترون كوزن البروتون ١ ولكن النيوترون متعادل الكهربائية حالة ان البروتون موجبها واذاً فتحوّل عنصر البريليوم يختلف عن تحوُّل النتروجين فذرّة البريليوم تلتقط دقيقة الفا وتطلق نيوتروناً وبذلك يتحوّل البريليوم الى كربون

هذه « النيوترونات » المنطلقة من نوى البريليوم ، قذائف عجيبة ، يمكن استعمالها باطلاقها على نوى ذرّات اخرى فتحوّلها وهي لصغر حجمها ، وتعادل كهربائيتها تخترق ذرات المادة من دون ان تفقد شيئاً كثيراً من طاقتها . ولا تنمُّ على نفسها ، الاّ اذا اصطدمت بنواة ذرّة من الذرّات . فقد اثبت فذر Feather ان اطلاق النيوترونات على الاكسجين يحوّله ، بقذف دقائق الفا من نوى ذرّاته . وهذه الحقيقة لها شأن خاص لان اطلاق دقائق الفا على الاكسجين لم تؤثر فيه على الاطلاق

قذائف العلماء

لقد عالجنا حتى الآن تحويل العناصر باطلاق قذائف عليها ، منبعثة من تلقاء نفسها من انحلال العناصر المشعّة كالراديوم . ولكن ما لبث الباحثون ان ادركوا ، ان توسيع نطاق معرفتهم ببناء الذرة وتحويل العناصر ، يقتضي قذائف اخرى منوعة . وكان معروفاً ان اطلاق تيار كهربائي في غاز لطيف ، يخرج منهُ مقذوفات منوعة من ذرات وجزيئات سريعة الانطلاق . فاذا اسرعت هذه الذرات المنطلقة بامرارها في فراغ معرّض لفعل الجذب الكهربائي ، فقد تصبح سرعتها كافية

لاطلاقها على نوى الذرات بغية تحطيمها . فاذا اطلق مثلاً تيار كهربائي في غاز الايدروجين في احوال معيَّنة، انقذف تيار من القنابل الصغيرة السريعة ، لا يقذف مثلها مائة الف غرام من الراديوم ، في الوقت نفسهِ . ثم ظنَّ انه اذا استعملت تيارات كهربائية عالية الضغط — من رتبة مليون ڤولط — تمكَّن العلماء من الحصول على مقذوفات سريعة يستطيعون استعمالها ، كما استعملوا دقائق الفا من قبل . وبعد سنين من المحاولة والامتحان ، تمكن كوكروفت وولتن في جامعة كمبردج ، من اطلاق بروتونات ، مولدة توليداً صناعياً ، بالطريقة التي ذكرناها ، على ذرات عنصر الليثيوم ، فقذفت هذه الذرات ، دقائق الفا منها ، اي ان نوى ذرات عنصر الليثيوم حطمت لاول مرة في تاريخ العلم على ما نعلم ، بواسطة قذائف صنعها الانسان

وقد انجلت الآن الطريقة التي يحدث بها هذا التحطيم . فمن أُلوف البروتونات المطلقة على ذرات الراديوم يصطدم بروتون بنواة ذرة من الذرات . اما وزن البروتون فواحد . واما وزن نواة ذرة الليثيوم فسبعة . فاذا اصطدم البروتون بالنواة ، لا تلبث النواة ان تنفصل الى قسمين كل منهما دقيقة الفا — وهي ذرة الهليوم — وزنها ٤ ومجموع وزنيهما ٨ اي مجموع وزن نواة الليثيوم (وهو ٧) ووزن البروتون (وهو ١) . وبعد ما نجح كوكروفت وولتن في تحويل الليثيوم الى هليوم ، عمدا الى اطلاق مقذوفاتهما على عنصري البور Boron والفلور Fluorine فوجدا ان اطلاقها يسفر عنه انقذاف دقائق الفا من ذرات هذين العنصرين . اي ان ذرات هذين العنصرين تتحوَّل بوجهٍ عام كما تحولت ذرات عنصر الليثيوم . والظاهر ان اطلاق دقائق الفا على العناصر يحوّلها الى عناصر اعلى منها في جدول العناصر ، فالنتروجين يتحوَّل الى اكسجين واما اطلاق البروتونات فيحوّلها الى عناصر ادنى منها في جدول العناصر ، فالليثيوم يتحوَّل الى هليوم

وثمة نوع ثالث من المقذوفات يستعمل في تحويل العناصر . هي بروتونات الايدروجين الثقيل . ولا يخفى على من قرأ مقالتنا في مقتطف اكتوبر ١٩٣٣ في « الايدروجين الثقيل » ، ان لعنصر الايدروجين نظيراً ، يشبههُ في خواصهِ الكيمائية ، ولكن ذرته اثقل من ذرة الايدروجين العادي ، وان الماء المصنوع من هذا الايدروجين اكثف من ماء الايدروجين العادي بنحو ١٠ او ١١ في المائة ، ويختلف عنه في درجة غليانهِ وتجمده . وقد عمد الاستاذ لورنس الاميركي الى اطلاق بروتونات الايدروجين الثقيل (ووزن البروتون منها ٢ بدلاً من ١ وهو وزن بروتون الايدروجين العادي) ثم زاد سرعة انطلاقها بطريقة خاصة استنبطها ، فوجدها افعل في تحطيم الذرات من البروتونات العادية

ولعلَّ القارىء يسأل دهشاً بعد هذا البيان الوافي ، عن غرض العلماء في درس تحويل العناصر هل يريدون ان يصنعوا الذهب والبلاتين من النحاس والرصاص والفضة ؟ فنقول لا انهم يبحثون عن اسرار الكون وصلة بناء الذرة بتركيب الشموس وضيائها وحرارتها ، وصلة ذلك بالأشعة الكونية ، وهل في هذه المعرفة اي تعليل لنسبة الموجود من العناصر في القشرة الأرضية . هذه المسائل العويصة تفتن لبَّهم ، والنفوذ الى بعض الغازها أثمن من الذهب وأغلى من البلاتين !!

اجنحة المدافع المصرية

مصطفى صادق الرافعي

إستجنحي(1) يا مدافع مصر وطيري ، إن المجد يطلب منا إنسانه البرقي

لقد مدّت لغة القوة في هذا العصر مدّها حتى أصبح الطيران بعض معاني المشي ، ولم يعد العالم يدري كيف تكون الصورة الاخيرة التي يستقر فيها معنى إنسانه

فلتتمجد مصر بانسانها البرقي الذي تخرج النار بيده من أعراض السحاب ، وتفرقع في أصابعه هزمات الرعد ، ويجعل في قبة السماء صلصلة وجلجلة ، ويحمل الاسم المصري الى معلّق النجم فيضع له من هناك التعريف الناري الذي وضعته الدول العظمى لأسمائها

ولتتمجد مصر بانسانها البرقي الذي يشعرها حقيقة العلو العالي ، والعمق العميق ، والسعة التي لا تحد ، ويزيد في معاني أحيائنا معنى جديداً لاحياء السحب ، وفي معاني امواتنا معنى جديداً لموتى الكواكب

إنسان برقي يتم بشجاعته في السماء بطولة فلاحنا الانسان الشمسي في الارض ، ويعلو بكبرياء مصر الوطني في ذروة العالم فتظهر طياراتها العظيمة قدرة في الجو كما ظهرت آثارها العظيمة قدرة في الثرى

إنها مصر . مصر القادرة التي سحرت القدم بقوتها وفنها فبقي فيها على حاله وجلالته وانهزم الدهر عنه كأنه قوة على قوة الزمن نفسها

فاستجنحي يا مدافع مصر وطيري . ان المجد يطلب منا انسانه البرقي

* * *

ولما فتح السجل ذات صباح لتكتب مصر اسماء الفوج الاول من نسورها الحربيين ، صاح مجدها الخالد من أعماق التاريخ :

أضرمي الشعلة الآدمية الاولى يا مصر ، وافتحي القبر الجوي الاول وألحدي فيه من عنصريك المسلمين والاقباط ، وضعي الحياة في أساس الحياة ، واستقبلي عصرك الجديد بأذان المسجد ودق الناقوس ليباركه الله ، وليتلق الشعب اول طياريه بقلوب فيها روح المعركة وأكباد عرفت مس النار ، ولا ينظرن الى طياراته الاول إلا بعد ان ينظر النعشين فيرى مجد الموت في سبيل الوطن ، فتسطع نظراته ببريق الكبرياء

---

(1) اي اتخذي الاجنحة ولم تأت الكلمة في اللغة بهذا المعنى ولكنا استعملناها فيه قياساً على كلامهم

ولمعة العزيمة وشعاع الايمان ، ويأتلق فيها النور السماوي الذي يجعل الناس في بعض ساعاتهم كواكب ، نور صلاة الشعب على موتاه الشهداء

واستجاب القدر لصوت المجد ، فالتج الظلام في وضح الصبح ، وانطفأ سراج النهار في قبة الفلك ، وأطبقت نواحي الجو إطباق ليلة تساقطت اركانها ، وأقبل الضباب يعترض اعتراض جبل عائم يتذبذب في بحر ، واستأرض السحاب فتخلى عن طبيعته السماوية الرقيقة ، وتذامرت العناصر على القتال يحمض بعضها بعضاً ، وتفشت السماء بوجه الموت كالح فاربد وانتفخ وتكسرت فيه الغضون كل غضن كسفة ظلام ، وعاد أوسع شيء أضيق شيء فكان الفضاء كصدر المحتضر ليس معه الا عمر ساعة وأنفاسها

وابتدرت الى مجد الموت الطيارة المصرية الاولى وكان فيها انكليزيان يقودانها فأباها الموت فذهبت فانتحرت أسفاً وتردت متحطمة وانسل الرجلان من مخالب الردى وكانا في الطيارة كورقتين من النبت في فم جرادة همت تقضمهما . . . .

وتستبق الثانية فاذا فيها وديعة الكرم من عنصري مصر «حجاج ودوس»[1] وكان سراً من اسرار مصر اجتماعهما في مداحض الغمام ومزالقه ليكونا هدية مصر الاولى الى مجدها الحربي ، ثم ليكونا هدية المجد الى إحساس هذا الشعب يحس منهما العالم المنطوي له في مستقبل النصر

واعتسفت طيارة الشهيدين طريق الفناء ومتاهة الحياة ، فذهبت عنها معارف الارض وعميت عليها معالم السماء ، وخرجت من تصريف أيدي البطلين الى تصريف أجلهما ، وأصبحت كأنها تطير في الانفاس الباقية لهما فما تتقدم ولا تتأخر ، ولم تعد طيارة محملهما بل جناحاً ممدوداً لهما من رحمة الله

ثم اجترها الموت الى غور فانحطت من الهواء جانحة كالطائر يطلب ملجأ في العاصفة ثم انهضت واثبة وتمطرت منقلبة فاشتعلت فاستعرت فأنضجت راكبيها رحمهما الله

وكثيراً ما يكون منظر الحزن في الحياة هو انهماك الحياة في عمل جديد تبدع منه السرور والقوة . احترق البطلان لتتسلم مصر في نعشيهما رماداً لن يبني تاريخ العزة الوطنية الا به

فاستجنحي يا مدافع مصر وطيري . ان المجد يطلب منا إنسانه البرقي

* * *

صنعت النار الآدمية الحقيقة ، ووضعت لنا الاسم البديع الذي نطلقه على

(١) هما فؤاد حجاج وشهدي دوس ، وكان في الطيارة الاخرى التي تحطمت المستر بليت والمستر سميث

طيّارينا الأبطال ؛ فلا تسمّوهم نُسور الجو ولكن سموهم « جمرات الجوّ »

صنعت نارُنا الحقيقة ، وأوحت الينا أن نستبدلَ من انفسنا حالة بحالةٍ ، وأن نُفاجيء شعورَنا الحالمَ فنصدمَه بآلام اليقظة المرّة ، وأن نغير قاعدة الحياة في التربية المصرية فلا تكون : العيشَ العيش ولكن القوة القوة

صنعت النارُ الحقيقة ، وأثبتت لنا ان الحياة إن هي الاّ اداةٌ للحي وليس الحيُّ اداةً للحياة ، فليتصرّفْ بها على قوانين الروح وآمالها فيسمُوَ وتسمو ، ولا يَدَعْها تتصرفْ على مذاهب اقدار المادة وتصاريفها فيُذلَّها وتذلّه . وفي قانون الروح : لا قيمة لعالَم الاشياء الاّ كما تَصلُحُ لنا ، وفي قانون المادة وضَغْطة الحياة : كما تصلُحُ لنا وكما نصلُحُ لها .....

بَلى ، قد صنعت النارُ الآدميةُ الحقيقةَ وأعطتنا قصةَ الحرية كاملةً في معنى واحد ، وهو أن هذه الحرية لعاشقيها كأجمل الجميلات للمتنافسين عليها : جمالها متوحش ، وخلاعتها مُفترِسة ، وظرفُها سفّاكٌ للدم

فاستجنحي يا مدافع مصر وطيري . ان المجد يطلب منا انسانه البرقي

* * *

والى السماء يا « جمرات الجو » ، فاذا استويتم على السحاب فليست الطيارةُ ثَمّ طيارةً بل حقيقةً حيةً عاملةً للمجد ، فلتحملْ معناها المصري من بطلها المصري

واذا سبحتم في مهبط القدَر فليس الطيّارُ ثَمّ طياراً بل حياةً عبقريةً أرسلتها مصر تستنزلُ للحياة اقداراً سعيدة

واذا خضتم في المعركِ الضَّنْكِ تتبعثر فيه الآجالُ على الرياح فليس الجسمُ المصريُّ هناك من لحم ودم بل ناموساً طبيعيًّا ماضياً الى غاية

واذا تقاذفتم في بحر الشمس فأنتم هناك على شِباكٍ طرحتموها لصيد أيام مضيئة تلتمع في تاريخ مصر

واذا نفذتم من أقطار السماوات فانظروها بأعينكم تلك العُلى وافهموها بقلوبكم ذاتية الوطن المصريّ تعلو وتعلو ولا تزال أبداً تعلو

انما الطيارةُ وسلاحُها وطيّارُها تأليف من الانسانية والعناصر معناه في العزيمة « لا بدّ » . ومتى هدرت الطيارة هديرَها فانما تقول للبطل منكم : هلُمّ من عال الى أعلى ، الى أكثرَ علوًّا ، الى اقصى حدود الواجب على النفس حين يأخذ الواجبُ الكلَّ وحين تعطي النفسُ الكل

فاستجنحي يا مدافع مصر وطيري . ان المجد يطلب منا انسانَه البرقي

العلم وحياتنا اليومية

العلم والفلاح — فوائد البكتيريا — مواد جديدة للبناء

عجائب الكيمياء — احوال العمال

العلم والفلاح

الزراعة اقدم اعمال الانسان المتمدن واوثقها صلةً بحياته. والمباحث العلمية الحديثة في طبائع الارض والتربة قد ايّدت معظم النتائج العامة التي توصل اليها الانسان القديم بالممارسة الطويلة. فقد ادرك الفلاحون الاقدمون ان روث الحيوانات يزيد خصب الارض. فأثبت العلم الحديث ان التربة تستمدُّ من روث الحيوانات مركّبات النتروجين التي لا ندحة عنها لحياة النبات. فلما ارتقى البحث في العهد الحديث اصبح في مستطاع الانسان ان يصنع هذه المركبات، في شكلٍ مركّز، هي الاسمدة الكيماوية، وإضافتها الى التربة تزيد خصبها اضعافاً كثيرة. وكذلك شرع الانسان يستعمل الاسمدة الطبيعية النقية اولاً مثل نترات الصودا ثم الاسمدة الصناعية كسلفات الامونيا

ولا يخفى ان نترات الصودا يستخرج من مناجم في بلاد شيلي. فهو في الواقع سماد طبيعيٌّ ولكنه نقيٌّ الى حدٍّ كبير. اما سلفات الامونيا فيصنع من سوائل الامونيا في معامل الغاز. بيد ان المناجم التي تحتوي على السماد الطبيعي وشيكة النفاد، ولا بدَّ للانسان من ان يبحث عن وسائل يستطيع ان يصنع بها مركّبات النتروجين التي لا ندحة عنها لخصب ارضه

والهواء اغنى مصادر النتروجين. فأربعة اخماس الهواء نتروجين حرٌّ مباح لمن يشاء. ولكن النتروجين في الهواء، غاز غير قابل للتفاعل مع العناصر الاخرى، وانما يختلط اختلاطاً بالاكسجين الذي لا بدَّ منهُ للحياة. فالمشكلة التي اعترضت العلماء هي مشكلة استنباط طريقة لحمل جانب يسير من هذا النتروجين على الاتحاد بالعناصر الاخرى، فتصنع منهُ المركّبات النتروجينية اللازمة للتربة. وهذا العمل يعرف بتثبيت النتروجين الجوّي. ولم يفلح علماء الكيمياء في حل هذه المشكلة الاّ في العقد الثاني من القرن العشرين

ولذلك غير طريقة واحدة. منها الطريقة المستعملة في بلاد النروج، حيث يحمل اكسجين الهواء على الاتحاد بنتروجينهِ، بواسطة نور القوس الكهربائي. وبعد ذلك يحوّل هذا الاكسيد الى المركّبات الاخرى. ولكن لما نشبت الحرب العالمية وقلَّ ورود نترات الصودا الى المانيا، لما ضربهُ الحلفاء حولها من الحصر البحري، اكتشف احد الكيماويين الالمان طريقة تثبيت نتروجين الهواء، بجعله يتحد بالايدروجين، فتتولد الامونيا من اتحادهما، ومن الامونيا يصنع سماد سلفات الامونيا (النشادر) الالماني المشهور. هذا من ناحية الكيماوي. اما علماء النبات فقد بينوا للفلاح، كيف يثبّت بعض النبات من الفصيلة البقلية كالفول والعدس والحمص والبرسيم نتروجين

الهواء بواسطة حبيبات من البكتيريا على جذوره ، شأنها امتصاص قليل من نتروجين الهواء وتحويله الى مركبات نتروجينية يسهل امتصاصها على جذور النبات . فهذه الحبيبات تتناول النتروجين من الهواء اولاً ثم تناوله الى النبات في شكل يسهل عليه امتصاصه . واكتشاف هذه الحقيقة مكن علماء الزراعة من اعداد التربة لزراعة نبات يستنفد كثيراً من المركبات النتروجينية في خلال نموه ، بزراعة نبات من هذه الفصيلة اولاً ، فيمد التربة بالمركبات النتروجينية اللازمة للمحصول التالي

ثم ان علم الوراثة اصبح له شأن عظيم عند الفلاح . ذلك ان القواعد التي اكتشفها مندل والذين جروا مجراه ، قد مكنت العلماء من استنباط اصناف جديدة من الحنطة والشعير والبطاطس وغيرها هي اكثر محصولاً واشد مقاومة للآفات . وزراعة اشجار الفاكهة قد خضعت للسيطرة العلمية وخصوصاً ما كان منها مرتبطاً بمكافحة الحشرات ، وتطعيم الاشجار . بل ان المباحث العلمية ، قد زادت مقدار السكر في قصب السكر والبنجر ثلاثة اضعاف . ثم ان التجارب تجرب في استنباط وسائل لتجفيف العشب تجفيفاً صناعياً ، وقد اثبتت هذه التجارب ان قيمة العشب الغذائية ، من حيث هو علف للمواشي ، تزيد اذا جفف تجفيفاً سريعاً . وكذلك يبطل القول المأثور في الغرب « اصنع التبن ما زالت الشمس مشرقة » Make hay while the sun shines

وكانت الزراعة في الماضي عملاً يدوياً في الغالب . وهي لا تزال كذلك في معظم اسيا وافريقية وبعض اوربا . فلا تزال ترى في الصين والهند ومصر وايطاليا ، الثيران تجر المحاريث القديمة ، والنساء يجمعن التبن ويحزمنه في اوربا الشرقية والمتوسطة . وهي مشاهد خلدتها صورة الانجلوس المشهورة واضرابها . ولكن العلم والصناعة اخذا يغزوان الزراعة بالوسائل الميكانيكية للحرث والبذر والحصد والجني ، وكثيراً ما ترى الآلات التي تسير بقوة الاحتراق الداخلي (كالسيارات) تحرث وتبذر وتحصد . ولعل الامة التي شأت سائر الامم في هذه الناحية هي الولايات المتحدة الاميركية

ولكن استعمال الآلات في الزراعة يخلق مشكلات اجتماعية لا بد من مواجهتها . فاذا كان الحراث الآلي ، يعمل عمل عشرة محاريث تجرها الخيل واذا كان الحراث الآلي لا يحتاج الا الى عمل رجل واحد ، فلا بد للمجتمع من ان يبحث عن عمل للرجال التسعة ، الذين تعطلوا عن العمل لاستعمال الآلات . واذا كان الجري على الاساليب العلمية ، في الحرث والزرع والتسميد يمكننا من ان ننتج حبتين من الحنطة حيث كنا لا ننتج الا حبة واحدة ، فلا بد ان يأتي يوم (وقد رأينا ذلك بعيوننا في ما نعانيه الآن) تهبط فيه اسعار المحاصيل ، فلا تدر ربحاً ما على زراعها ، وينكب العالم بضائقة اقتصادية خانقة . وقد اشارت احدى المجلات العلمية ، الى ان زراع اشجار المطاط يرفضون استعمال الاسمدة الخاصة بهذه الاشجار لان الاسعار التي يبيعون بها مطاطهم الآن اقل من من ان تغريهم بزيادة المحصول . والعلاج لمثل هذه المشكلات ليس اقلال الانتاج ، في المصانع والحقول ، لان الوف الالوف من الناس في بقاع مختلفة من الارض ، لا يزالون يحتاجون الى ضرورات العيش وهم لا ينالونها ، وانما العلاج يقوم بتنظيم الانتاج والتوزيع تنظيماً علمياً عالمياً

فوائد البكتيريا

اثبتت مباحث العلماء ان البكتيريا طائفتان . طائفة ضارة تسبب الامراض . واخرى مفيدة تحدث التخمير وتستمدّ النتروجين من الهواء وتحولهُ غذاءً للنبات . فخصب الارض الى حدّ بعيد مرهون بفعل البكتيريا . وخصب الارض اساس لحياة النبات والحيوان . ثم ان صنفاً من البكتيريا في معد وامعاء الحيوانات ذات الحافر كالفرس والجمل والغنم والبقر ، يمكنها من هضم القش والتبن ، واذاً فالبكتيريا لا بدَّ منها لحياة الانسان الذي يغتذي باللحم . على ان الانسان ادرك فائدة هذه الاحياء الدقيقة ، قبل ان تدرس في المعمل على شريحة المكرسكوب . فاستعملها في صنع العجين الذي لا يختمر ويصبح صالحاً للخبز الاّ اذا اضيف اليه قليل من الخميرة والخميرة قريبة الصلة بالبكتيريا . ثم ان تعطينه لعيدان الكتان في الازمنة القديمة دلَّ على انهُ فهم عمل هذه الاحياء من دون ان يراها . يضاف الى ذلك استخراج الكحول بتخمير السكر والنشاء . كل ذلك يتوقف على فعل البكتيريا . ولكن البحث الحديث بيَّن لنا كيف تفعل البكتيريا هذه الافعال ، فمهّد للانسان سبيل السيطرة عليها

فقد عني باستور العظيم في دور من ادوار حياته بالبحث في طرق صنع الجعة ، فاكتشف ان تحضير الجعة بحسب الطرق القديمة ، قد يفضي احياناً الى حموضتها بدخول بكتيريا اخرى من الهواء ، غير البكتيريا الخاصة بصنع الجعة . وتلاهُ بحّاث آخرون اثبتوا كذلك ان انضاج الجبن والزبدة بمجرّد تعريضها للبكتيريا التي في الهواء ، قد يفضي الى دخول بكتيريا ضارّة بها ، تفسدها وتجعلها غير صالحة للاكل . لذلك ترى في مصانع الالبان الحديثة ، مزدرعات نقية من البكتيريا الخاصة ، اللازمة لتحضير الجعة ، او انضاج الجبن والزبدة ، وبذلك يطمئن الصانع ، وصاحب المصنع ، الى ان النتائج لا بدَّ ان تأتي كما يتوقعها . وللاسباب عينها ترى المخابز الكبيرة تستعمل نوعاً خاصًّا من الخميرة ، محضراً بطريقة خاصة ، تجعله نقيًّا من الشوائب التي قد تفسد العجين

وتستعمل البكتيريا كذلك في تحضير بعض المركّبات الكيمائية كالجليسيرين والحامض اللبنيك (لاكتيك) والحامض الليمونيك (ستريك) والخلّ . والعلماء متجهون الآن ، الى وجوب السيطرة على البكتيريا التي لا بدَّ منها في تحضير هذه المركّبات واضرابها ، حتى لا تترك النتائج عرضة للمصادفة

أشرنا في الفقرة السابقة الى فعل بعض البكتيريا — التي في حبيبات الجذور في الفصيلة البقلية — في امتصاص نتروجين الهواء وتحويله الى مركّبات يسهل على الجذور امتصاصها . وقد عني بعض العلماء حديثاً ، باعداد مزدرعات نقية من هـذه البكتيريا ، يمكن شراؤها ورشُّ الارض بها ، حتى تكثر فيه المركّبات النتروجينية . والواقع ان العلم الآن في مستهلّ عصر ، قد يستطيع في خلاله من استعمال البكتيريا في مئات الاغراض . وليس ما ذكرنا هنا الاَّ مثالاً على نواحي فائدتها الكبيرة

العلم ومواد البناء

لم يكتف العلم بأنهُ ابدع للناس وسائل جديدة للعمل ، بل ابدع لهم كذلك مواد جديدة يعملون بها .

فقد حرر العلم الانسان من استرقاقه للطبيعة ، من ناحية المواد التي تجهزه بها ، فهي آناً سخية تجود وتغدق ، وآناً بخيلة ، تقتّر وتمسك. فصار قادراً ان يجاريها في صنع اغلب ما يحتاج اليه من المواد ، مستقلاً عن جودها وامساكها. فعلم الكيمياء مثلاً ، مكّن الانسان من السيطرة على خواص الفولاذ (الصلب) فيصنع منهُ صنفاً شديد القساوة ، وآخر يسهل مطّه ومدّه ، وثالثاً يستطيع الثبات على تقلّب الحرارة . وبهذه الاصناف من الفولاذ تمكن من صنع التربينات المائية والبخارية والمولدات والمحركات الكهربائية وآلة الاحتراق الداخلي وكل الادوات اللازمة التي يقتضيها القياس الدقيق في العلم والصناعة

خطا الانسان الخطوة الاولى نحو السيطرة على الفولاذ في اواسط القرن التاسع عشر . وكان الحديد الصلب ، معتمد المهندسين ، في بناء خطوط السكك الحديدية والآلات الضخمة لأن الفولاذ كان لا يزال غالي الثمن عسر المنال . ولكن في سنة ١٨٥٦ استنبط المهندس البريطاني هنري بسمر Bessemer (١٨١٣—١٨٩٨) طريقة لصنع الفولاذ من دون نفقة كبيرة . والمبدأ في طريقته ، نفخ الهواء المضغوط في الحديد الخام المصهور فتتأكسد الشوائب التي تخالطه ، وبذلك يتنقّى ، فاذا تماسكت دقائقه لم يكن بينها ما يجعلهُ قصماً . فاذا اضيف الى الحديد المصهور الذي عولج بهذه الطريقة قليل من الكربون او السلكون او المنغنيس ، جُعلت خواص الفولاذ على ما يشتهيها الصانع

واستنباط هذه الطريقة لصنع الفولاذ من دون نفقة كبيرة ، مهد السبيل لارتقاء المواصلات بواسطة السكك الحديدية والسفن البخارية . وكذلك نرى ان القاطرة الحديثة ، لا تختلف في اصولها عن القاطرات التي صنعها مستنبطها ستيفنسن في اخريات ايامه ، وانما تفوقها ، لان فولاذ هذه يفوق حديد تلك . ولا يخفى ان بناء البواخر الحديثة ، ما كان مستطاعاً ، لولا اتساع معرفة المهندسين بخواص الفولاذ ، ومقدرتهم على صنعه بحسب ما يريدون . يضاف الى ذلك انهم يستعملون الآن الاشعة السينية في امتحان قطع الفولاذ المستعملة ، ليكتشفوا ما فيها من مواطن الضعف في بنائها ، من شرخ داخلي ، او فراغ ، لا يلبث ان يأتي الضغط عليه حتى ينقصم الفولاذ حيث يكون الشرخ او الفراغ . وفي العهد الحديث ، اهدت الكيمياء الصناعية الى الانسان مادة جديدة من مواد البناء ، نعني الخرسانة المسلحة التي يبنى بها السدود العظيمة كسد خزان اسوان وخزان سنّار ، وحواجز الامواج والصروح الشامخة . والخرسانة ، مزيج من الحصى والرمل والماء تربط بينها مادة لاحمة مصنوعة من الجير والصلصال . توضع الخرسانة في شكل معجون في قوالب من الخشب او الحديد ، يتخللها قضبان او اعمدة من الفولاذ ، فتتحجر وتصبح هي والاعمدة قطعة واحدة اصلب من الصخر ، والخرسانة تحمل الضغط وتحفظ الاعمدة الفولاذية من الصدإ

وقد كان لاكتشاف هذه المادة الجديدة من مواد البناء ، اثر كبير في فن العمارة ، لانها اغنت المهندسين عن اقامة الاعمدة والقناطر في الصروح العظيمة . وقد تغيّر كذلك فن الزخرفة المعمارية ، فصرنا أميل الى الخطوط المستقيمة في المباني الحديثة ، على نحو ما يشاهد من ناطحات السحاب ، في اميركا والمباني الحديثة في عواصم اوربا ، بل في القاهرة

عجائب الكيمياء

والصناعة الحديثة لا تستغني عن الكيماوي ، لانهُ يستطيع ان ينفذ بكواشفه الى صميم المواد ويعرف بناءها . فالعمال في مصانع الحديد قد يهيئون المرجل الذي يحتوي على قدر هائل من الحديد المصهور وقد خلطت بهِ مقادير معيَّنة من العناصر الاخرى لتقسيته او لجعله اقبل للمدّ والمط ، ولكنهم لا يستطيعون ان يصبّوهُ ، حتى يأخذ الكيماوي نموذجاً منهُ ويفحصهُ ، ثم يجري العمال بحسب النتائج التي يسفر عنها بحثهُ . وفي المناطق المعدنية ، حيث تستخرج المعادن من المناجم ، ترسل نماذج من ركاز المعدن الى الكيماوي ليحللها ويفحصها . اما صناعات الزجاج والخزف والصابون والسكّر والمطاط ومواد التصوير الشمسي فكلها صناعات كيمائية ولا يستغنى فيها عن الكيماوي ووسائله

وقد اسفرت المباحث الكيمائية الحديثة ، عن صنع مواد جديدة ، يستطيع الصنّاع عن ان يستعملوها في صنع اشياء اصبح الناس لا يستغنون عنها ، بل ان التوسع في صنعها بحسب مقرّرات العلم ، رخّص ثمنها وقرّبها من متناول رقيقي الحال . وفي طليعة هذه المواد ، الاشياء المصنوعة من السلولوس . هذا المركّب ، المؤلف من الكربون والايدروجين والاكسجين ، هو المادة الرئيسية في جدران الخلايا النباتية . فمن السلولوس يصنع الحرير الصناعي فبعد ما يحوّل الى رُبٍّ يعالج بالصودا الكاوية ويُمَدُّ في خطوط دقيقة تعالج بعد ذلك باساليب خاصة وتصبح صالحة للنسج والحياكة . واذا عولج السلولوس بالحامض النتريك ، تولّدت مادة تعرف بالنترسلولوس . وهذه المادة اذا ضغطت في الكافور كانت لنا مادة السلولويد ، التي تستخدم عوضاً عن العاج والابنوس في مئات الاشياء كالازرار ومقابض السكاكين والامشاط وسماعات التلفون وشرائط التصوير الشمسي والصور المتحركة . فاذا وضع غشاء رقيق منها بين لوحين من الزجاج وضغطا ، تكوّن لوح زجاجي لا يتشظى اذا تكسّر ويستعمل الآن في السيارات امام مقعد السائق . ثم ان النتروسلولوس نفسه مادة مفرقعة وتستعمل في نسف الصخور ، وشق الطرق . فاذا حلّت ، في مواد خاصة ، تحوّلت الى مادة تمنح السطح الذي تبسط عليه غشاء لامعاً كالزجاج ولذلك تستعمل في دهن اجسام السيارات لحفظ معدنها من التلف

ثم اننا نستطيع الآن ان نركّب بوسائل الكيمياء الصناعية ، مواد ، ما كنّا نستطيع الحصول عليها الّا من الطبيعة . فكحول الخشب ، كان لا يستخرج قبلاً الّا من تقطير الخشب ، اما الآن فيستطاع تركيبهُ بالصناعة من اول اكسيد الكربون والايدروجين . ثم ان اكسدة كحول الخشب يولد مادة « الفورملدهيد » التي تستعمل مطهراً ، وتباع في الصيدليات محلولة في الماء باسم « فورمالين » . فاذا عولج جبن اللبن بالفورملدهيد ، تحوّل الى مادة قاسية تحلُّ محلّ العاج . ولكن اذا عولج الفورملدهيد بالحامض الكربوليك او غيره من المواد المقطرة من قطران الفحم الحجري ، تحول الى مادة تدعى بايكلَيت ، تستعمل لعزل الاسلاك الكهربائية ولذلك كان لها شأن كبير ، في تقدم الصناعات الكهربائية . والبايكليت نفسه يمكن ان يصقل ويستعمل محل الخزف . ولكنهُ اخفّ من الخزف فيستعمل غطاء للآنية في السفن البحرية والجوية حيث لوزن الاشياء مقام خاص

وقد نفذت الكيمياء الى البيت . فالادهان النباتية كدهن جوز النارجيل ، يمكن ان تصفى ثم توضع في علب ، وتباع باسم « مرجرين » . والمصابيح الكهربائية الوضاءة ، التي حلت محل مصابيح الزيت وروائحها الكريهة ، انما هي نتيجة البحث الكيماوي . كذلك السكاكين المصنوعة من الفولاذ الذي لا يدبغ ، باضافة قليل من معدن الكروم ، توفر على ربة البيت كثيراً من التعب في تنظيف السكاكين وصقلها بعد استعمالها . اما الثلاجات التي لا يستغنى عنها الناس في البلدان الحارة ، والقائمة على مبدإ ضغط سائل نشادري ، ثم تبخيره ، فمن هدايا الكيمياء الصناعية الى ربات البيوت

العلم واحوال العمل

كان للعلم اثر مباشر وغير مباشر في تحسين احوال العمل . فالمصانع الآن أحسن تهوية ، والمع ضوءًا او اجمع للوسائل الصحية مما كانت في منتصف القرن الماضي . بل ان بعض العلماء قد انصرفوا الى درس عمل العمال فأثبتوا انهُ اذا ازيلت بعض الحركات التي يقوم بها العمال ، قلَّ تعبهم وزاد انتاجهم. بل انهم اشاروا بوجوب منحهم فترات للراحة وفي بعض المصانع يعطون قليلاً من الشاي حتى يستجمّوا قواهم . وقد يتمكن العلم في المستقبل من تخفيف التعب الجثماني ، والسآمة العقلية في الاعمال الرتيبة التي تقتضيها الصناعة الآلية الحديثة . ثم ان استعمال القوة الكهربائية لادارة الآلات قلل في المعامل الاذرعة الحديدية الطويلة والسيور الجلدية فاصبحت المصانع انظف مما كانت واقل ضجة واخفّ وطأة على الاعصاب . بل ان علم الصحة العامة قد انصرف الى الامراض الخاصة بالعمال . فالعمال الذين كانوا يشتغلون بصنع عيدان الثقاب كانوا يصابون بمرض مميت في الانف والفكين من جرّاءِ استعمال الفصفور الاصفر . ولكنَّ البحث العلميَّ اثبت ان الفصفور الاحمر صالح كالاصفر لصناعة عيدان الثقاب . وفي الوقت نفسه لا يسمّ العمّال . ومنذ ما اكتشفت هذه الحقيقة واقبلت المعامل على استعمال الفصفور الاحمر ، قلت حوادث التسمم بالفصفور حتى اصبحت من النوادر . وكان صنّاع الزجاج والحديد ، يصابون بمرض في عيونهم سببهُ طول تعرضها للحرارة العالية في الاتاتين التي يصهر فيها الحديد والزجاج . ولكن العلم حماهم من هذا المرض بواسطة نظارات تصنع من زجاج خاص ، يحجب عن العيون الحرارة العالية . وكان المشتغلون بمواد يدخل الرصاص في تركيبها ، كالزجّاجين والخزافين والدهّانين يصابون في الغالب بتسمم الرصاص . اما الآن فالتعليمات الصحية والعناية الطبيـة ، تقي كثيرين منهم وعلاوة على ذلك اثبت البحث العلمي ، ان الدهان الذي كان يستعمله الخزافون ، يمكن صنعه او صنع ما يماثله من دون ادخال الرصاص في تركيبهِ

ولا يخفى ان الغبار في بعض الصناعات ، يتغلغل في اعضاء التنفس ويعرض البنائين والخزافين والمعدنين والمشتغلين بالفلزّات ، لانواع من مرض التدرن . ثم ان سبب التسمم بالرصاص هو اولاً الاكل بأيد تناولت دهاناً رصاصيًّا من دون غسلها ، وثانياً تنشّق هواء فيهِ دقائق الرصاص او دخانه. وقد كشف العلم عن بعض الوسائل التي تقي المشتغلين بالفلزّات، كصانعي المبارد ، من فعل هذا الغبار. وما تقدم امثلة فقط على اثر العلم في تحسين احوال العمل

طائر الفينكس

اسطورة الحياة المثلى

بقلم ميخائيل نعيمه

لعلّ اصعب ما يلاقيه الفكر هو الفصل بين حقيقة الحياة ووهمها . غير ان اكثر الناس لا يفكرون فلا يترددون لحظة في اقامة الحدود بين ما يدعونهُ حقيقة وما يروقهم ان يدمغوه بدمغة الوهم او الخرافة . هكذا فالغراب في نظرهم حقيقة . اما الفينكس فخرافة لا يؤمن بها الاّ البسطاء والقدماء

ألا فليزجّني من شاء بين القدماء والبسطاء لانني اومن بالفينكس . وانا اومن بالفينكس لانني اومن بالخيال الذي ابتدعهُ . او ليس الخيال حقيقة ؟ اذنْ كل ما يحبل بهِ الخيال ويلده ويغذيه ، سواء كان اجمل الجميل او اقبح القبيح ، يشترك في حقيقة الخيال . ونحن لو نظرنا في الخيال الذي يعمل بغير انقطاع لوجدنا ان ما دون النزر من اعماله يتخذ شكلاً محسوساً . فلو رضينا بهذا النزر وحدهُ حقيقة ، ونبذنا ما بقي كما لو كان وهماً او غير حقيقة ، لكان الخيال ذاته خرافة والانسان نفسه اسطورة

ان خيالاً يلد طائراً كالفينكس لخيال مبدع في ذاته ومن ذاته . الانسان خلق الفينكس . وللانسان الحق ان ينظر الى ما خلقهُ ويقول : « هو حسن جدًّا » بل انني اضيف الى ذلك ، حتى وان رماني البعض بالتجديف ، ان الله نفسه ، لو انهُ فكّر بطائر كهذا الطائر ، لخلق واحداً مثله . وقد يكون ان خيال الانسان يتمم خيال خالقه . اوَ لم يصنع الله الانسان على صورته ومثاله؟

من روايات هذه الاسطورة الكثيرة الروايات ان الفينكس يسكن الجزيرة العربية . فتعال نفلت من نطاق الجدران والسقوف ونهرب بالخيال الى غاب في مجاهل تلك الشقة من الجزيرة التي دعاها الاقدمون « العربية السعيدة » والتي نعرفها اليوم باسم اليمن . لعلنا نطلُّ على الفينكس في موطنه

هوذا الشمس قد ارتفعت في المشرق . السماء صافية زرقاء ، ونسمات الصبح العليلة تتهادى بين الاشجار مدغدغة اوراقها الفضية . في الغاب نهر وسيع عميق يسير بجلال نحو البحر حاملاً على صفحته الصافية خيالات الاشجار والادغال المتعانقة عن جانبيه . كيفما التفتّ لا ترى الاّ جمالاً وسلاماً . حتى انك لتحسبك في جنة من جنان الفردوس . غير ان الاشجار تحذرك من الانخداع بالظواهر . فهي تعرف ان فيها وعليها وحواليها قد اشتبك الموت والحياة في صراع عنيف . كل ما في الغاب من مخلوقات تمشي ، ومخلوقات تدب او تزحف ، ومخلوقات تمتطي الهواء وتهمزه بالاغاريد ، يدأب بلا انقطاع طالباً قوتاً لنفسه او مطلوباً ليكون قوتاً لسواه . ولا مهرب من ذلك الدُردور حتى للصخور التي في الغاب . كل ما ينبثق من الارض تبتلعهُ الارض رويداً رويداً لتعود فتلفظهُ حيوانات

وطيوراً وزحافات وحشرات واشجاراً واعشاباً وازهاراً . فالحياة ههنا ، شأنها في كل المسكونة ، تشتعل كعليقة موسى من غير ان تحترق

في رأس اعلى شجرة في الغاب قد جثم طائر لا شبيه له في كل الخليقة . وقد اتجه نحو الشمس فبانت كل ريشة من صدره القرمزي الناعم كما لو كانت تلتهب بنار من عالم آخر . وكل ريشة من جناحيه الذهبيين ، المغموسة اطرافهما في زرقة ولا زرقة السماء ، كما لو كانت تقدح شرراً من شرر الثريا . عنقه الطويل البديع ، المطوق في الوسط بطوق ناصع البياض ، قد تقوّس الى الامام . اما رأسه الدقيق الصنع فقد ارتدّ قليلاً الى الوراء مسدّداً منقاره الطويل الحادّ نحو الشمس . لقد جمع هذا الطائر بين زخرفة الطاووس دون خيلائه وجمال طائر الفردوس دون خجله . هو ينظر بطمأنينة الى الشرق كأنهُ لا يشعر بوجود شيءٍ في العالم سوى الشمس — مصدر النور والحياة . ترفُّ من حواليه طيور كثيرة ، بين كبيرة وصغيرة ، واذ تمرّ بهِ تخفض اجنحتها مسلمة عليه سلام الاعجاب واحترام . حتى ان القويّ من الفراش الذي يتمكن من الصعود اليهِ يرفُّ حواليه مرتين او ثلاثاً ثم يهبط الى الارض شاكراً جذلاً

الغاب تعج بالاصوات من طائر يناجي عشيره ، او وحش ينادي رفيقه . الاّ هذا الطائر الغريب — فهو لا يناجي احداً ولا احد يناديه . اذ لا عشير ولا رفيق لهُ لا في مشارق الارض ولا في مغاربها ، ولا في عالم آخر من العوالم الدائرة في الفضاء . سواءُ من الطيور منهمك في بناء اعشاش او تربية فراخ . اما هو فلا عش يبنيه ولا فراخ يزقها . سواءُ من الطيور يرفُّ هنا وهنالك طالباً غذاءه . اما هو فلا يقتات بشيءٍ حي بل بالبخور والعطور . سواءُ من الطيور يصيح فرقاً وقد علق بمخالب عدوّه . اما هو فلا يعرف الخوف لانهُ لا يؤذي مخلوقاً فلا يؤذيه مخلوق . لا ولا تؤذيه العناصر . هو وحيد في العالم كله . لكنهُ لا وحدة في قلبه ولا وحشة . سواه من الطيور يبدل ريشه مرة في كل سنة . اما هو فلم يبدل ريشة واحدة منذ كان لهُ من العمر يوم واحد — وذاك منذ خمسمائة سنة !

لقد نبتت في الغاب اشجار كثيرة فنمت حتى طاولت السحب . ثم هرمت وتفسّخت واخلت مكانها لاشجار اخرى . ولقد جرفت الفصول المسرعة اجيالاً لا تحصى من الطيور والحشرات والحيوانات ثم جاءت بغيرها لتحلّ محلها . ووراء حدود الغاب : في مملكة البشر ، قد طغت موجة فوق موجة من اعمال الناس ثم تكسرت وتبعثرت على شواطىء الزمان الذي لا بداية لهُ ولا نهاية . امم بكاملها اطلّت على الحياة ثم توارت ، فكأنها لم تكن . ومدن عديدة شمخت بابراجها وقببها الى السماء فلم تلبث ان عانقت التراب . ممالك علت ثم انخفضت . غزاة ومغزوون . ابطال وانذال . عاشقون ومعشوقون . رؤوس متوّجة ورؤوس بلا تيجان — كل هؤلاء مشوا على الارض فترة من الزمن ثم عادت الارض فاحتضنتهم ليمشي فوقهم سواهم من ابناء الارض . حيث كانت تكرّ انهار جبارة نبتت اليوم اشواك واحساك وبنى النمل قراه والجرذان جحورها . كم من جنان غناء ابتلعتها الصحراء ، وكم من صحراء أورقت وازهرت ! كم آله أُنزل عن عرشه وآله أجلس على عرش ! كل ما في الكون تغير وتحول في خلال خمسة

قرون الا هذا الطائر الذي في عينيه — كما في عيني يهوه — «الف سنة كيوم امس الغابر وكهجعة من الليل»

غير ان الوقت قد ازف حتى للفينكس ان «يتغير» . لا صوت يهمس في اذنيه . لا اصبع تدلّهُ كيف يتجه . ولا قوة خارجية تأمره ان يفعل ما هو عازم ان يفعله . لكنه بدليل من نفسه، وبصوت من داخله يدير وجهه نحو الشمال الغربي، وبعد ان يصفّق بجناحيه ثلاثاً، يمتطي الهواء ، ولا حزن في قلبه على امساء خمسة قرون يتركها وراءهُ . ولا خوف من اغواء خمسة اخرى يقابلها. وهو يعرف بحجته كل المعرفة

في وادي النيل البعيد مدينة كان المصريون يدعونها «آنو» واليهود «بيت شمس» والروم «هليوبولس» وفي تلك المدينة هيكل مكرّس لعبادة الاله « راع » . الفينكس يعرف المدينة والهيكل ، ويعرف الفسحة على المذبح التي سيستقر عليها . لانهُ منذ اجيال لا تحصى يقصد جلجثته هذه مرةً في كل خمسمائة سنة ليقتبل عليها الموت . ومرة في كل خمسمائة سنة يعود منها تاركاً الموت في حيرة وارتباك

يشقّ الفينكس الهواء بجناحيه القويين مسرعاً نحو وادي النيل . فتجتمع من حوله شتى الطيور لترافقه ولو بعض المسافة فتظهر له تجلتها واحترامها . ولا يزال يطوي المسافات الى ان تبدو لعينيه هليوبولس

في هيكل راع نافذة فوق المذبح تطل منها الشمس فتمتزج اشعتها بدخان البخور وتضفر منهُ ذوائب من ذهب وفضة كأنها انفاس ارواح تائهة . وهذه الذوائب تلتف وتنحل فوق المذبح كأنها خيوط ممدودة على منوال خفي ويد خفية تحوك منها انسجة غريبة . ليس في الهيكل الواسع المظلم سوى كاهن عجوز غارق في تأملاته

يسمع الكاهن فجأة حفيف اجنحة يقطع عليه مجرى تأملاته . واذ يرفع عينيه يرى على المذبح طائراً يغتسل بنور الشمس ، وقط لم تقع عيناه على اجمل منه . فتأخذه الدهشة لاول وهلة . ولا تلبث دهشته ان تنقلب الى رهبة اذ يحدّق في الطائر على المذبح فيراه قد انتصب رافعاً جناحيه الى فوق ، ثم يراه يصفق بهما تصفيقاً حاداً . وما هي الا لمحة طرف حتى يلتهب الجناحان فيظهران كأنهما مروحتان من نار . فيندمج الطائر بأشعة الشمس حتى يشكل على الكاهن ان يفرق بينهما . وما هي الا لمحة اخرى حتى يرتفع الجناحان الى فوق ، وقد كفّا عن التصفيق ، فتبدو كل ريشة فيهما كأنها مشعال نار حيّة . يكاد الكاهن لا يصدق عينيه من شدة دهشته . فحيث رأى منذ لحظة طائراً حيّاً يبصر الآن السنة من لهيب تثب الى فوق . ويا لهُ من لهيب مدهش لم يسبق له ان أبصر مثيله في كل حياته . هو لهيب يرتد البصر كليلاً عن بهائه ، وتسكر الانفاس بعطره . ألا تبارك راع الازلي الابدي الذي يحيي نفسه بنفسه ويحيي كل شيء !

يملأ اللهيب الهيكل باشباح مريعة ، كلها يثب الى فوق ويتلاشى في وثباته . ورويداً رويداً تخمد النار تاركة حفنة من الرماد المتوهج . يا للخسارة اذ يهلك طائر بديع كهذا الطائر ، وان يتلاشى في هيئة مفجعة كهذه الهيئة ! ولكن . . . أحقاً انه قد هلك ؟ يفرك الكاهن عينيه ليتأكد انه ليس في منام . فيرى — ويا للعجيبة ! — طائراً يخرج من كومة الرماد المتوهج ، كاملاً بكل تفاصيله ، عجيباً بجماله كالطائر الذي التهمته النار منذ لحظة . فيهبط الكاهن على ركبتيه ، ويغطي عينيه بيديه ، ويحني رأسه الابيض حتى يلامس الارض ويتمتم كلمات يكاد لا يسمعها :

«يا راع! ايها الكائن الجميل الذي يجدد ذاته في حينه. ايها الطفل الالهي. يا وريث الابدية. ياوالد نفسه. يا أمير الارجاء السفلى ومدير الأحياء العليا. يا آله الحياة. يا رب المجد. كل نسمة تحيا بشعاعك»

***

ان خيالاً جريئاً وخصباً، اذا ما أعطيته مثالاً كمثال الفينكس، تعمق فيه ووشى حواشيه الى ما لا نهاية له. فالقدماء مع محافظتهم على الفينكس كطائر يحيا فرداً ويجدد ذاته بذاته، قد ابتدعوا اساطير مختلفة لموته وللمدة التي يحياها بين التجدد والتجدد. وما الرواية التي حاولت ان اصورها في ما سبق الا واحدة من تلك الروايات الكثيرة التي ضاع مصدرها في زمان قلما كان يحفل بالاسماء والتواريخ لانه كان يهتم قبل كل شيء بحقائق الحياة الثابتة او بالفكرة الابدية

لا خلاف على ان اسم الفينكس يوناني. والكلمة تعني، في بعض معانيها الكثيرة نوعاً من النخيل ولعل اليونان عرفوا ذلك النوع من النخيل في بلاد فينيقية اولاً فأسموه باسم البلاد. او انهم اسموا فينيقية باسم ذلك النوع من النخيل لانه كان يكثر فيها. وقد يكون انهم اطلقوا اسم الفينكس على ذلك الطائر الخرافي لانهم اخذوا الاسطورة عن الفينيقيين، وفي الفقرة الآتية من نشيد بولاق للاله راع ما يدعم الظن بان اسم الفينكس مأخوذ من فينيقية

« المجدُ له في الهيكل عند ما ينهض من بيت النار. الآلهة كلها تحب اريجه عند ما يقترب من بلاد العرب. هو رب الندى عند ما يأتي من ماتان. ها هو يقترب بجماله اللامع من فينيقية محاطاً بالآلهة»

ان يكن اصل الاسم في شك فأصل الطائر ذاته اكثر تعقداً من الاسم. فقد يكون فينيقياً. وقد يكون مصرياً. واقرب شبيه لهُ في الآثار الكتابية القديمة نجده في ذلك السفر المصري الغريب المعروف بكتاب الاموات. وهو مجموعة فصول شائقة في العلوم الباطنية والفلسفة والشعر والسحر يرجع بعضها الى القرن الاربعين قبل التاريخ المسيحي. ولعلَّ هذه المجموعة هي اغنى ما ورثناه عن سكان وادي النيل الاقدمين. فهي من اولها الى آخرها تنبض بايمان المصريين القدماء بالخلود. فالموت عندهم لم يكن الا سياحة بين عالمين او انتقالاً من شاطئ الحياة الادنى الى شاطئها الاقصى. ولما كان حكماؤهم كانوا يدركون ان عامة الناس اجهل من ان تتناول الحقيقة مجردة تراهم اقاموا لهم بنايات عديدة من الرموز كيما يسهلوا عليهم ان يدركوا بالحس ما هو أبعد من الحس. وكان احد رموزهم طائراً من نوع الغرنوق او مالك الحزين. وكانوا يدعونه « بنو » والاسم مشتق من كلمة تعني الرجوع. وهذا الطائر كان يمثَّل في اساطيرهم وفي رأسه ريشتان منحنيتان الى خلف. من يطالع « كتاب الاموات » يرَ ان هذا الطائر كان يرمز الى راع — الاله الذي ولد نفسه من نفسه، والذي لا يعرف الموت — النهار المنبثق من حقوي الليل، والنور المتغلب ابداً على الظلمة. فمن هذا القبيل، وكذلك من حيث الصلة بينه وبين هليوبولس، ترى ان طائر « البنو » يشترك في بعض خصائص الفينكس. غير انه ليس مذكوراً في كتاب الاموات او في كتاب آخر كطائر يموت بالنار كل خمسمائة سنة او اكثر ثم ينهض متجدداً من رماده

الا ان كاهناً مصرياً اسمه هورابولو، عاش في القرن الخامس قبل المسيح ، جعل صلة متينة بين البنو والفينكس . ففي ترجمة كتاباته اليونانية التي وصلت الينا نسمعه يتكلم عن طائر معروف عند المصريين وفي تقاليدهم يجدد نفسه بنفسه . واسمه في الترجمة اليونانية « فينكس » . وبعد ان يتكلم هورابولو عن ظهور هذا الطائر مرة في كل خمسمائة سنة يصف موته هكذا : —

«عند ما يشعر الفينكس بدنو اجله يطرح نفسه بعنف على الارض فينجرح ويسيل دمه . ومن دمه المتجمد يولد فينكس آخر . وهذا حالما يكتسي بالريش يطير بوالده الى هليوبولس . واذ يبلغانها يموت الوالد عند شروق الشمس. فيحرقه الكهنة المصريون. اما الفينكس الجديد فينطلق الى بلاده»

من بعد هورابولو اخذت حكاية الفينكس تنتشر وتزداد شهرة في الغرب الى حد انها استرعت انتباه اكبر المؤرخين والشعراء واللاهوتيين القدماء . ومنهم هيرودوتس . فهذا المؤرخ ، في سياق وصفه لسياحة قام بها في مصر، يتكلم عن الفينكس كما لو كان طائراً عربياً . ثم يضيف متحفظاً : «اما انا فلم ابصره الا في الصور» — لكن الشاعر اوفيد لا يتحفظ قط في وصفه. فهو يتكلم عن الفينكس كطائر يجدد ذاته بذاته ويتغذى بالعطور لا غير . ويقول انه بعد ان يعيش خمسمائة سنة يبني لذاته عشاً من القرفة والناردين والمر في رأس نخلة . وفي ذلك العش يلفظ آخر انفاسه . ومن جثته يولد فينكس جديد. وهذا ، عند ما تكتمل قواه ، ينتشل العش من الشجرة — وهو مهده ولحد ابيه — ويطير به الى هليوبولس في مصر حيث يضعه في هيكل الشمس. واكثر جرأة من الشاعر اوفيد المؤرخ طاشيتوس الذي لا يتردد في ذكر ظهور الفينكس كحادث تاريخي في زمان القنصل بولس فابيوس (سنة ٣٤ م)

كذلك درجت حكاية الفينكس على ألسنة القدماء واقلام كتابهم وشعرائهم. وكان آباء الكنيسة المسيحية اكثر الناس اقبالاً عليها . فقد اتخذها امثال ترتوليانوس وكلمندس وابيفانيوس وسواهم رمزاً لقيامة المسيح من الموت . اما روفينوس فقد وجد فيها حجة لا تدحض على ولادة المسيح من عذراء اذ قال : « ما بالنا نستغرب ان تحبل العذراء وتلد ومن المثبت ان الطائر الشرقي المعروف باسم الفينكس يولد ذاته من غير ذكر ويحيا ابداً وحيداً ولا رفيق له من جنسه. وابداً يخلف نفسه بنفسه ؟»

من اقدم الآثار الكنسية التي فيها ذكر للفينكس كتاب «الفيزيولوغوس» الاسكندري. وهو مجموعة حكايات وثنية عن الحيوانات والطيور استخلص منها جامعوها مواعظ وارشادات وحججاً دينية . وقد ورد فيها ان الفينكس طائر هندي لا يتغذى بشيء الا الهواء . ومرة في كل خمسمائة سنة يقصد هليوبولس حاملاً على جناحيه انواع الطيب . وهناك يحرق نفسه على مذبح الهيكل . فتخرج من رماده دودة تتحول بعد ثلاثة ايام الى فينكس كامل . وهذا الفينكس يحيّي الكاهن ثم يطير الى بلاده. وتنتهي الحكاية بالموعظة الآتية : —

« يا لهُ من رمز كوّنه الله لارشاد الناس . فالله ، خالق السرّ الذي تم في المسيح ، قد بيّن لنا هنا مشيئته . المسيح كالفينكس ، جاء بعد قرون عديدة حاملاً طيوب الحياة واتخذ طبيعة بشرية ومثلما يُصعِدُ الفينكس لحمه على المذبح في مدينة الشمس المصرية ، هكذا رفع المسيح صليبه بارادته

على الجلجثة في مدينة اورشليم . ومثلما يستلقي الفينكس على ظهره ويحرق نفسه حتى الموت ، هكذا اقتبل المسيح الموت وانفصلت روحه عن جسده . وكما ان الدودة المولودة من رماد الفينكس تتحوَّل بعد ثلاثة ايام الى طائر كامل ، هكذا الله الكلمة اقام جسده في اليوم الثالث . وكما ان الفينكس يستكمل قوامهُ وشكله في اليوم الثالث ، كذلك جسد المسيح الناهض من القبر اصبح ابديًّا وغير متغيّر . ومثلما يعود الفينكس الى الهند — موطنه الأول — هكذا عاد المسيح بجسده الجديد الى موطنه الأبدي »

وفي اللاتينية كتاب يدعى Anecdota Syriaca وهو مجموعة حكايات سريانية وردت فيه حكاية الفينكس هكذا

« يقولون كذلك ان في بلاد الهند طائراً عظيماً يأتي مرة في كل خمسين (كذا) سنة الى جبل لبنان وهناك يجمع اطيب العطور واجل الازهار ثم يعود الى الهند . ومجيئه يكون في شهر نيسان . في ذلك الشهر يقيم كاهن المنطقة مذبحاً على رأس جبل عال ويبني حول المذبح شبه بيت من اغصان الكرمة فيأتي الطائر ويدخل البيت ويقف على المذبح . ثم يأخذ يصفق بجناحيه حتى يلتهبا ويلتهب البيت معهما الى ان يصبح الكل رماداً . وبعد ثلاثة ايام يصعد الكاهن الى قمة الجبل ويتفحص الرماد وفيه يجد دودة صغيرة . والدودة هذه تكبر وتتحول الى طائر كالذي احترق . وهذا الطائر يعود من حيث أتى . وكما ان لهذا الطائر ان يحرق نفسه ثم يجددها تماماً ، فبالاحرى قوة المسيح على اقامة جسده الطاهر من القبر . فحقًّا قيل في الانجيل المقدس (يوحنا ١٠ — ١٨) : « ولي سلطان ان ابذلها ولي سلطان ان آخذها ايضاً » ألا فلنذهب الى الرب يسوع بالصوم والصلاة والعطور الطيبة والاعمال الصالحة لنكون اهلاً لان نقتبل من ملكوت السموات »

***

لقد بقي الايمان بالفينكس حيًّا خلال عصر التجدد (الرنسانس) . وبعد ذلك اخذ يتقهقر من وجه « العلم » الذي لا يؤمن الاَّ « بالبرهان الحسي » . حتى اصبح « خرافة » قلَّ من يهتم بها ، وقلَّ من يعرف عنها اكثر من اسمها . غير ان الفينكس ما أُدرج في اكفان النسيان والاهمال الاَّ بعد ان ترك في العالم آثاراً من جماله لا تمحى . ويندر ان تجد امة قديمة لم تنسج على منواله ولم تخلق لها طائراً قريباً منهُ . فالعرب قد خلقوا العنقاء والسمندل . والفرس « السيمورغ » . والهنود « غارودا » والصينيون « فنغ — هوانغ » واليابانيون « هو — أو » . مَن شاء ان يقابل بين رقي الامم الروحي فليقابل بين الطيور التي ابتدعها خيالها ففي المقابلة درس جميل ولذة كبيرة . اما انا فلي لذة اكبر في درس الفينكس . وقبل ان اودع هذا الطائر العجيب احب ، اذا استطعت ذلك ، ان انفذ الى سرّه فاعرف القصد من وجوده . لنقل انه رمز . ولكن الى ماذا يرمز ؟ ألعله وليد شوق الانسان الفاني الى عدم الفناء ؟ ام تراه قناعاً من الجمال حاكهُ الوهم لاعين قرّحتها الشناعة ؟ ام هو رؤيا من رؤى الالهام الذي ينير الآباد بطرفة عين وينشب من خلال الاشكال الحسية الى روح الاشياء وجوهرها ؟

ان اكثر البحاثين الذين وقفت لهم على رأي في الفينكس يتخلصون منهُ بقولهم ان المصريين القدماء اتخذوه رمزاً للشمس في شروقها وغروبها . لانهم كانوا يعبدون الشمس تحت اسم راع . واذ انني

لست بحاثة ولا عالماً اسمح لنفسي ان اخالف هذا الرأي دون ان اجلب لذاتي سخط البحاثين وعداوة العلماء

لا جدال في ان سواد الشعب المصري القديم كان يتخذ الشمس الهاً له . اما مؤلفو كتاب الاموات، وشائدو الاهرام، وخالقو ايزيس واوزيريس واسرارهما، ومعلمو ديموقريطوس وفيثاغوروس وافلاطون ، فكيف تصدق انهم كانوا يعبدون جرماً سماوياً — مهما عظم ذلك الجرم وعجب — وهم قد رادوا الفضاء واكتشفوا سبل النجوم ؟ بل ان الشمس لم تكن لامثال هؤلاء اكثر من رمز محسوس لـ « راع » — الوالد نفسه من نفسه . المحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء . المبدع الاشكال ولا شكل له . والخالق البدايات والنهايات ولا بداية له ولا نهاية . وما آلهة المصريين ، على وفرتها ، سوى صفات متنوعة لذلك الاله الواحد . ان من يقرأ كتاب الاموات ، ولو قراءة سطحية ، لا يسعه ان يقول غير هذا القول . وانا اجلّ حكماء المصريين عن حماقة تجعل من الشمس رمزاً لراع ، ثم تخلق الفينكس الذي لم يكن يبصره الاّ نفر قليل من الناس — وذلك مرة في قرون عديدة — لتجعله رمزاً للشمس التي يراها كل انسان في كل يوم . انما يرمز الفينكس الى ما هو ابعد وابقى من الشمس — الى الحياة في مظهريها كمادة وروح

في خواء الظواهر المتقلبة تعوّد الانسان ان يميز بين نوعين من التغيير ، وان يدعو الواحد موتاً والآخر حياة . اما الفينكس فكأني به يقول ان الحياة والموت واحد لان مصدرهما واحد ، وهو الروح المرموز اليه بالنار . فالنار ابداً هي هي . تلتهم الاشياء ثم تنوعها وتكثرها لكنها لا تلتهم ولا تنوع او تكثر ذاتها . هي النار او الروح — تلك الحياة الاولية التي يدعوها العلم الحديث « قوة » تنظم ذرات الاشياء على اختلاف انواعها ثم تنثرها . فهي متغلغلة في كل شيء — في ركام الجليد الطافي على وجه المياه مثلها في الشمس . وفي الزناد مثلها في كتلة اللحم النابضة في صدر الانسان . وهي عندما تلتهم شيئاً ترده الى عناصره الاصلية . لكنها لا تتلاشى ، بل تنعتق من سجنها الوقتي . وهكذا عندما يحرق الفينكس نفسه لا « يموت » حتى لحظة واحدة . لان النار التي هي روحه تبقى حيةً في رماده . وهي التي تعود فتجمع ذرات جسده من جديد . فهو ، وان بدل جسده مرة في كل خمسمائة سنة ، لا يبدل الروح التي لا يطرأ عليها انقطاع ولا تغيير

ثم ان الناس يتباهون بما يدعونه « نمواً » و « تقدماً » اما الفينكس فكأني به يقول ان ليس في الحياة نموّ وتقدم . اذ ان كل ما ينمو يحمل في داخله جراثيم موته وانحلاله ، وكل ما يموت وينحل لا يدوم ، وكل ما لا يدوم لا وجود او لا حقيقة له في ذاته . بل هو يتناول حقيقة وجوده من الحقيقة الواحدة التي هي اليوم مثلها امس . وغداً مثلها اليوم . فلا يطرأ عليها اقل تغيير او تبديل . وهي لا « تنمو » اذ لا شكل لها ولا قياس ، ولا بداية ولا نهاية . وهي لا « تتقدم » اذ ليس في الوجود ما هو خارج عنها لتتقدم من ذاتها اليه . الفينكس يقول ان السبيل الاوحد الى « النمو » هو بالنقصان — بالتجرد من الاشكال الخارجية للتوصل الى الحقيقة الكامنة في الاشكال — الى النار التي هي رمز الروح الكائن في كل شيء . وان السبيل الاوحد الى « التقدم » هو بالرجوع الى الوراء — كل الى هليوبوليسه

اما المدة التي يحياها الفينكس بين التجدد والتجدد، والتي تختلف باختلاف الروايات بين خمسين وخمسمائة وخمسمائة وثمانين والف واربعمائة واحدى وستين، حتى وسبعة آلاف سنة، فالمتفق عليه انها ترمز الى ادوار وتقلبات فلكية. فلنتركها لعلماء الهيئة. غير ان فيها معاني لا علاقة لها بدورة الافلاك. فكأني بالفينكس الذي يعمر مثل هذه الاجيال الطويلة يقول ان اعمار الكائنات موقوفة على جمال حياتها الباطنية وائتلافها مع ذاتها ومع ما حواليها من كائنات سواها. فهي تطول بطول تلك الالفة وتقصر بقصرها. هكذا ترى الفينكس الذي لا يسطو على مخلوق من اجل طعامه، ولا يقاتل مخلوقاً من اجل رفيقة او عشيقة، يعيش في الفة مع كل مخلوق. ولانه لا يشتهي شيئاً تراه لا يخاف شيئاً بل يحيا في سلام مع كل شيء. ومن ثمّ فانا لا اعرف مثالاً كمثال الفينكس يبين لك ان نقاوة الجسد — كنقاوة القلب — قوة لا تقهر. فهذا الطائر لا يغذي جسده بنبات الارض او بحيوانها، بل بعطورها. لذلك يعمر قروناً طويلة. الاّ ان هذا الغذاء، على كل ما فيه من طهارة، معرض للانحلال. ولذلك يعرّض جسد الفينكس الذي يتغذى بهِ للانحلال حتى بعد قرون. فالنظام الاعلى قد حتم على كل ما يولد من مصدر قابل للتغير ان يكون عبداً للتغير. وعلى كل ما يتغذى بالمادة ان يغذي بدوره المادة. وكل ما يأخذ ان يعطي بقدر ما يأخذ. وكل ما يشتهي شيئاً خارجاً عن ذاته ان يكون محطاً لشهوات الاشياء الخارجة عن ذاته

هناك صفة تفرّد بها الفينكس عن كل الطيور التي ابتدعها خيال الانسان. فهو ابداً وحيد ولا رفيق له من جنسه. كأنه ذكر وانثى معاً. وكأني به يعلن بذلك مع الناصري ان في الوجود ارجاء « لا يتزوجون فيها ولا يزوجون ». وان الذكر والانثى عنصران مختلفان في دورة محدودة من دورات الحياة. وان الاثنين يتوحدان في عوالم غير عالمنا هذا. وبلك، ان انت انستَ من نفسك ميلاً الى التعمق في بواطن الحياة، ان تقرأ في الفينكس معاني غير التي قرأت واجمل مما قرأت الاّ انك قد تكون ممن لا يؤمنون بغير ما يلمسون ويبصرون. وحينئذٍ فالغراب احق بايمانك من الفينكس. وما الفينكس عندك الاّ خرافة متهرئة واسطورة قديمة. ألا خذ غرابك واعطني الفينكس

***

ها أنا اطبق اجفاني فتنهض امامي من خرائبها مدينة آنّو العاتية الزاهية — هليوبولس — بيت الشمس — وقد قام في وسطها هيكل راع بكل أبهتهِ. وعلى مذبح الهيكل أبصر طائراً مغموراً بنور الشمس وهو يصفّق بجناحيهِ الجبارين تصفيق جذل وغبطة. ها صدره القرمزي قد التهب فتحولت كل ريشة فيه الى لسان من نار ثم تحول الطائر كله الى ذبيحة متوهجة ونور معطر وعناق محرق بين الحياة والموت. واذ تهدأ النار فأبصر فينكس جديداً ناهضاً من كومة الرماد، اهتف كالمسحور مع كاهن الهيكل: « يا راع! ايها الكائن الجميل الذي يجدد ذاته في حينه. ايها الطفل الالهي. يا وريث الابدية. يا والد نفسه. يا امير الارجاء السفلى ومدبر الاحياء العليا. يا آله الحياة. يا رب المجد. كل نسمة تحيا بشعاعك. »

لبشر فارس

الذكرى

ورقةٌ جفّت على غصنٍ ذوى
فزع العصفورُ منها فانزوى
عبِث الطلُّ بها ثمّ ارعوى
نبذتها الريحُ في عُرضِ الفضا

شاخ حبّي فضوى ثمّ انطوى
مال عنهُ القلبُ، طلّاب جوى
شَمِتَ الرشدُ بهِ حتى ارتوى
عضّهُ الذلُّ فولّى مُرمِضا



جهاد الملك فيصل

مراحل العراق نحو جمعية الامم

للامين الريحاني

من كتابه « فيصل الاول » (قريب الظهور)

ما قدّر لملك من ملوك العرب في هذا الزمان اجتياز ما اجتازه الملك فيصل من غمرات المشاكل الوطنية والدولية . ولا قدر لسياسي من ساسة الدول الصغيرة ان يوفق مثله بين شتى العناصر المتضاربة التي اكتنفت المفاوضات لعقد معاهدة كانت تبدو دائماً في طور التكوين . فلم تكن الوضعية لتثبت حتى اساساً على حال من الاحوال . هي وضعية ذات انوار وظلال مضطربة متقلقلة ، وضعية مقيدة بعوامل من التبدل والتغير كانت تنبعث ليس من لندن فقط ، بل من جنيف ، ايضاً ومن انقره وطهران والرياض . فأين من هذا الاضطراب ، وتضارب المنافع والاغراض ، طريق الثقة والاطمئنان ؟ اين تلك الطريق التي كان يتلمسها ويتحسسها الملك فيصل ، وقلما يجدها سليمة امينة . ولا غرو ، فقد كثر فيها لمع السراب ، وتعددت فيها الحفر والاخاديد ، فاشتد في الملك الحذر ، وازداد الاحتياط

انها لحرب سلمية ، انها لحرب في الغيب . وقد تخللت واقعاتها سحب من الغازات السامة ، فجعلت التقنع ـ التستر ـ المخادعة ـ من لوازم الدفاع وقد كانت القضية ومعضلاتها في منزلة من الخطورة تصغر عندها الشخصيات ، وان كانت ملكية ، وتضؤل المطامع الخاصة ، وان كانت لاكبر السياسيين . فمن اهم الواجبات اذن هو ان تحلّ هذه المعضلات ، وتسوّى تلك القضية على مبدأ العدل الثابت ، والرضى الدائم ، فضلاً عن التأمينات الوطنية والدولية . هي ذي الحقيقة الكبرى التي قلما غابت عن بال الملك فيصل . فقد كان ، والحق يقال اشد ملوك العرب شعوراً باشتراك المنافع ، واكبرهم تقديراً للوضعية الاوربية في ذا الاشتراك

على ان واجبه الاول هو في صون حقوق البلاد من غوائل السياسة التي مرّ ذكرها ، سياسة المخاتلة واللين. وهمه الاول هو ان يحفظ المملكة الفتية من عوادي الشقاق والفوضى التي بدأت تفتك بها في اواخر السنة الاولى من حياتها . وقد أشفق الانكليز انفسهم مما كان يهدد العراق يومئذ . فكتبت المس بل الى امها في شهر آب سنة ١٩٢٢ تقول « اننا نخشى انفجاراً ثانياً » (وهي تشير الى الانفجار الاول ، اي الثورة الاخيرة)

ولكان الانفجار لولا صبر فيصل وتعقله ، ولولا حكمته وبعد نظره . وما بالى ان يتهم بالعداء

للانكليز ، وما بالى ان يقال انه يؤثر مصالحهم على مصالح البلاد . فقد مر بالتُّهم الانكليزية والمراقية مر الكرام ، ومشى الى غرضه بقدم ثابتة ، وهمة صادقة . وما كانت مهمته هذه من المهمات التي يغبطه عليها احد من السياسيين او الحكام . فهناك الدسائس والمؤامرات والمخاتلات والخيانات ، يغالبها ويتغلب عليها . وهناك الاقليات والمشائخ المطيعون دائماً في مناوأته ، يداريهم ويجاملهم ليستميلهم اليه . وقد كان لكل خطوة اتجاه ، ولكل خطة اسلوب يختص بها . وكانت كلها بمجموعها تؤدي به من موحل الى آخر اوحل منه . ومع ذلك كله فقد كان هدفه طول ذلك الجهاد واحداً — هدفاً بعيداً ثابتاً ناصعاً لا يتغير ، ولا يثنيه عنه شيء في مغالبات الناس وحماقتهم ، او في نكد الزمان وعواديه . وهذا الهدف هو عصبة الامم . سعى وجاهد فيصل ليصل بالعراق الى عصبة الامم ، لا لفضل فيها خاص ، بل للتخلص بواسطتها من هذا الشيء الذي ولدته — من هذا الانتداب ابنها ، ومن نيره

وقد كان عليه ان يقود العراق في اجتيازه المراحل ، الواحدة بعد الاخرى ، الى تلك المحجة البعيدة . ولكنه كان مقيداً في القيادة بخطة اخرى غير خطته ، بل بخطط غير تلك التي كانت توحي بها السياسة الفيصلية . كيف لا ، وللانكليز وجهة نظر يجب ان تتقدم ، وان تغيرت كل يوم ، وجهة نظره ، او تلتئم بها . كيف لا وللانكليز حق في الارشاد ، وأساليب في الارشاد عجيبة . فعليه ان يسلك بموجبها ، او يتلمس سبيله بتعقل انكليزي ، كما يتلمس الجواد طريقه خلال الضباب في لندن

بل كان عليه ان يرى وراءه كما يرى امامه ، وان يحسن فوق ذلك شيئاً من علم المناقضات . وها نحن في الفصل الاول من هذا العلم الطريف ، تعقد معاهدة تحالف مع حكومة دستورية نيابية ، لا مجلس نيابي لها ولا دستور ! ولا بأس فانه من الممكن ، في علم المناقضات ، ان تجر العربة الحصان(١)

وعند ما تدنو ساعة الاعجوبة — اي عند ما تشرع الامة في سن دستورها الاساسي — ينبغي ان لا يحدث ما قد يمنع الحصان من السير وراء العربة . وبكلمة عربية مجردة من المجاز الانكليزي ينبغي الا يكون في دستور الامة — ذات السيادة — ما يناقض مضمون المعاهدة ، ولقد حاول فيصل ان يسير بنور هذه الحكمة الانكليزية — ان يهتدي بهذا الهدي البعيد الضياء — وان يفوز فوق ذلك بحب شعبه واحترام جيرانه . فهل افلح سعيه هذا المثلث الزوايا ؟ سنعود الى هذه المسألة ونتقصاها في الفصل التالي . اما الآن فعلينا ان نتتبع الحوادث

بعد ايام من عقد المعاهدة صدر بلاغ ملكي بوجوب انتخاب المجلس الوطني التأسيسي ليجتمع في الشهر الاول من سنة ١٩٢٣ . ولكن المعارضة المستمرة حالت دون مباشرة العمل . وكانت تزداد شدة في الشيعة ، اذ افتى المجتهدون بمقاطعة الانتخابات ، وهم يموهون سياستهم الفارسية بما يظهر من عطفهم على الاتراك . وكان آية الله الشيخ مهدي الخالصي اشد زملائه تطرفاً وانكرهم مكابرة حتى في مجابهة الملك . فغضب رئيس الوزارة عبد المحسن السعدون غضبته الاولى وامر بتسفير آية الله الكبرى

وعند ما أبعد الشيخ مهدي الخالصي الى بلاد فارس ، صاح زملاؤه محتجين ، وختموا احتجاجهم

---

(١) مثل انكليزي يضرب لمباشرة الامور من آخرها

بان حمل كل منهم عصا الترحال ، ونفض عن نعله غبار العراق . راحوا يشاركون اخاهم الاكبر منفاه في طهران . فحمدل السعدون . ولـكن العقبات ظلت قائمة في سبيله . بل كانت المحنة تحته تشتد بدعاء اولئك المجتهدين ، على بعدهم ، وبصلوات اتباعهم الحارة

فزع الملك وفزع العميد الى السعدون . توحدت قوات البلاط والمفوضية والحكومة على المعارضة ففتت في ساعدها ، وما تمكـنت من القضاء عليها ، وقد استمرت الحال هذه سنة كاملة ، سقطت خلالها وزارة السعدون . فجاء جعفر باشا العسكري بأمر ملكي يستأنف الجهاد جهاد المعارضين بانتخاب المجلس لانه كما ادعوا سيسن قانوناً يتضمن الاعتراف بالمعاهدة . مضت وزارة جعفر في سبيلها ، وكانت تمدّها المفوضية وعمدها البلاط بكل ما لديهما من القوة القانونية والنفوذ الادبي غير القانوني وكانت في النهاية موفقة . فجرت الانتخابات ، واجتمع المجلس التأسيسي الذي فتحه الملك فيصل في ٢٧ اذار (مارس) سنة ١٩٢٤ اي بعد سنة وخمسة اشهر من يوم توقيع المعاهدة

وفي خلال ذلك عقدت وثيقتان في لندن ولوزان هما للعراق على جانب من خطر الشأن . الاولى الملحق الذي جعل مدة المعاهدة اربع سنوات بدل العشرين سنة ، والثاني عهد الصلح بين تركيا والحلفاء فجاءت هاتان الوثيقتان مدداً للحكومة في خضد شوكة المعارضة ولو خارج المجلس . اما في المجلس فقد كان الوطنيون المتطرفون الاكثرية فيه ، فحملوا على المعاهدة ، وخصوصاً على ملحقاتها الثلاثة التي تتعلق بالجندية والمالية والقضاء حملات شديدة ، تخللها نوع من الجدل لا يندر في الغرب ويستغرب في الشرق . فدارت رحى القتال ، بالايدي والكراسي، بينهم وبين انصار الحكومة . وكان حزب العمال البريطاني قد فاز في الانتخابات فتولى الحكم هناك ، فناط المتطرفون بوزارته كبير الآمال ، وامعنوا في العصيان . ان احرار بغداد يحيون احرار العمال بلندن ، ويستعطفونهم

وقد رأى المندوب السامي الجديد السر هنري دوبس شيئاً من البراعة في هذه المناورة ، فحاول مغالبتها بتعديل الاتفاق المالي وهو غير متيقن ما قد يكون موقف الحكومة الجديدة فيه . وما عتم ان جاءه الخبر اليقين . فلا يزال النور في وزارة المستعمرات نور المستر تشرشل ، ولا تزال القاعدة في عهد العمال كما كانت في عهد السلف — « العجلة تجر الحصان »

اجل يجب ان تقر المعاهدة قبل كل شيء . وبعد ذلك « تعيد الحكومة البريطانية النظر في تعهدات العراق المالية » وكان احرار بغداد يتوقعون غير هذا من اخوانهم احرار لندن ! فازدادوا تمرداً اذ رأوا عكس ما أمّلوه ، وتفانوا ، لجأوا الى الكراسي ، في سبيل المعارضة . فارسلت اذ ذاك وزارة المستعمرات بلاغها المصعق — ان لم يتخذ المجلس في اليوم العاشر من حزيران (يونيو) او قبله قراراً حاسماً ، تحسب الحكومة البريطانية المعاهدة مرفوضة وتستدعي نظر عصبة الامم الى الانتداب. وبكلمة اخرى قد انذرت العراق بالحكم الانكليزي التام ، بالحكم المباشر

ومما شجع الحكومة البريطانية يومئذ في ذا العمل مفاوضتها والاتراك في مسئلة الحدود العراقية الشمالية . وقد كانت الموصل موضوع البحث والنزاع . فهل تفادون بالموصل ، يا أحرار بغداد ؟ نعم .

الموصل . ستخسرون الموصل . وسرى التهامس في الدوائر السياسية ، وفي الاندية ـ سنخسر الموصل حتماً اذا رفضنا المعاهدة

وكان المجلس قد ارفض لاجل غير مسمى ، فصدر الامر باجتماعه ثانياً فأطاع الامر ثلثان او اقل من أعضائه . وعند ما جاء اليوم العاشر من حزيران ، وأدبر نهاره ، وأقبل ليله ، لم يكن في المجلس العدد الكافي للنصاب القانوني . فبادر بعض رجال الحكومة والبلاط لكشف المحنة . راحوا يفتشون في بغداد عن الاعضاء المتلكئين والمختبئين ، فاهتدوا اليهم وتوسلوا ـ حاسنوهم بالكلام ، وجاملوهم ووعدوهم وتوعدوهم ـ وظفروا بعد ذلك بهم . فجاءوا المجلس وكمل النصاب في الساعة الاخيرة قبيل نصف الليل . وكانت تلك الليلة من ليالي فيصل المدلهمة . ولكنه في الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة تنفس الصعداء ، اذ جاءه الخبر ان المجلس قد أقر المعاهدة[1]. على أنه اضاف الى الاقرار ملحقاً يعرب فيه عن امله بأن تعدل الحكومة البريطانية ، براً بوعدها الاتفاق المالي في القريب العاجل وألا تتنازل لتركيا ، في أي حال كان ، عن ولاية الموصل . وبعد ذلك استأنف اعماله بهدوء وسكينة . فأنجز الدستور وقانون الانتخاب وأقرهما ثم ارفض عقده وتفرق اعضاؤه

هذي هي المرحلة الاولى التي اجتازها العراق في طريقه إلى عصبة الامم . وقد اجتازها بالرغم عن مناصبة الشيعة ومقاومتها ، من دون ان يحدث ما ينكد عيش المتشرعين والمتعاهدين . ومن الحقائق الثابتة الاخرى هو ان الحكومة البريطانية سترشح العراق لعضوية العصبة في سنة ١٩٢٨ أي بعد اربع سنوات من تاريخ معاهدة لوزان . وماذا عسى أن يكون بعد ذلك شأن المعارضة ؟ بل ماذا عسى أن تقول في الحكومة البريطانية . وقد برهنت في تلك السنة أي بعد شهرين من اقرار المعاهدة على صدق نياتها . فقد وقف اللورد بارمور في مجلس العصبة بجنيف في دورة ايلول (سبتمبر) يقدم المعاهدة الانكليزية العراقية وملحقاتها للموافقة ، ويقول : قد تقدم العراق في السنتين الاخيرتين تقدماً سريعاً مما يجعل سياسة الانتداب وفقاً لمادة ٢٢ من ميثاق العصبة غير موافق له بعد حين . ثم اعرب عن يقين أنه سيصبح في سنة ١٩٢٨ أهلا لعضوية العصبة فترشحه الحكومة البريطانية لذلك

وقد نهجت هذا المنهج الحكومة البريطانية في تقريرها عن العراق لعام ١٩٢٥ وتكلم مندوبها أمام لجنة الانتدابات الدائمة بلهجة اصرح من لهجة اللورد بارمور عن تقدم الحكم الوطني الدستوري . ومما لا ريب فيه أن بريطانيا كانت راغبة في إنهاء الانتداب رغبة العراق رغبة صادقة ، اللهم بعد ان يكون قد امنت بواسطة المعاهدة علاقتها ومصالحها هناك

وها هنا حد السلامة . ها هنا تجابه الحكومتين العقباتُ التي نشأت عن مسألة الحدود التركية العراقية ومع أن نيات الحكومة البريطانية كانت صادقة شريفة فيها كذلك ، فقد أخفقت مساعيها لحل المشكل مباشرة ، فاضطرت إذ ذاك أن تحيل المسألة إلى عصبة الامم عملا بمضمون معاهدة لوزان . وقد عينت العصبة بناء على ذلك لجنة من قبلها فزارت العراق في أوائل سنة ١٩٢٥ وقضت ثلاثة أشهر تستكشف

(١) كان الاعضاء ٦٩ فوافق على القرار ٣٦ وقاومه ٢٤ وامتنع التسعة الباقون عن الاقتراع

الحدود الشمالية وتحققها وتدرس أحوال الاقليات هناك وتسمهم يشكون ويتدللون

وكان الاشوريون اشد تلك الاقليات المزعجة ازعاجاً . مع انه لم يكن لهم في ذلك الحين على الاقل ما يسوّغ الشكوى . بل كانوا عكس الامر مغمورين بالعطف . مدللين . عطفت عليهم حكومة جعفر . ودللتهم حكومة ياسين . وجاءهم حتى من الملك فيصل الكلمة التي فيها كل الضمان والامان . فقد تعهدت الحكومة العراقية ان تقدم الاراضي لاولئك الذين يضطرون بعامل التحديد الجديد ان يخرجوا من بلادهم . وان تنشيء ادارت محلية تضمن لهم الحد الاقصى من الحرية في مزاولة اعمالهم ، وفي المحافظة على تقاليدهم وثقافتهم. وقد كان لموقف الحكومة العراقية الوقع الحسن في نفس اللجنة فخططت معلمئة الحدود التي ضمنت ولاية الموصل للعراق

غضب الاتراك لذلك ، وبعد ان أعلنت الحدود الجديدة التي دعيت « بخط بروسل ». اخترقت جنودهم تلك الحدود . وهجموا على بعض القرى فذبحّوا بأهلها الاكراد والاشوريين . وتقدموا في اغارتهم جنوباً وهم يهددون بالاستيلاء على الموصل . فروعوا حتى عصبة الامم التي عينت لجنة اخرى لاعادة النظر في تلك الحدود . فجاءت اللجنة الثانية وساحت ودرست وحققت وقدمت تقريرها الى العصبة في جلسة كانون الاول (دسمبر) سنة ١٩٢٥

وبينما كانت اللجنة قائمة بعملها في الشمال انتخب العراق مجلسه النيابي الاول . ففتحه الملك فيصل في غرة تموز (يوليو) ، وهو مستبشر بهذه الخطوات التي تقرب تلك المحجة القصية بجنيف . فها كم دستورنا ، وها كم مجلسنا النيابي ، وهذه حدودنا الشمالية قد تحددت . فماذا يبتغون بعد ذلك منا ؟

سافر الملك فيصل الى اوربا في الشهر الثاني وهو على توعكه ووهن جسمه فرح مبتهج . فقد راح في هذا الصيف مستشفياً ومستكشفاً جوّ السياسة . وكان امله أن يصل بالعراق الى العصبة قبل الموعد. وما المانع ونحن نجتاز المرحلة بعد الاخرى بسرعة مدهشة . فراسل وحادث وقابل من لهم النفوذ الاكبر في السياسة الدولية وفيهم المخلصون والمحبون وظل على اتصال بهم وهو يستشفي بأحدى مدن الينابيع المعدنية بجنوب فرنسا . وهناك الغير المخلصين والمحبين في حومة السياسة الدولية ، والغير العاملين في سبيل السلام والغير الآمرين بالمعروف وهم من اصحاب الامر والسلطان . وكان لاصواتهم ولهمساتهم وحتى لانفاسهم في الجو المضطرب مكان ، أي مكان . ولا بد ان يكون قد سمع فيصل ، كما سمع بطل الرواية مكبث (١) بعض اصوات الحقيقة في ذلك الصيف من فم « بنات الديجور » بنات عم الثالثات في العقد . وأخلق بهن ان ينطقن ، إن في هذا الشرق او في ذاك الغرب ، باسم زمان عـتل زنيم

« المليح قبيح ، والقبيح مليح —
هـات الحطب وهات الشيح
وانفخي ، وانفخي ، وانفخي يا ريح » (٢)

(١) هي من روايات الشاعر الانكليزي الاشهر شكسبير، وفيها تشاهد العرافات اللواتي يدعوهن « بنات الديجور »
(٢) هذا ما تقوله السواحر الثلاث في تلك الرواية ، ومعناه ان ما يراه الناس مليحاً هو قبيح في اعيننا ، وما يرونه قبيحا هو عندنا حسن . وقد جاءت بهذا المعنى الآية : « وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم »

ايه ايتها السواحر الشقيقات . النـافخات والنافثات . ايه بريطانيا وتركيا وجنيف ، انفخي في النار السياسية . انفثن في العقد الدولية . وقلّسنَ . وقلّسنَ في باقي الاسرار . حول النار . وتبأن لهذا الملك العربي ، المتحدر من صلب نبي العرب

فيصل العراق :

النجم بعيد قريب ،

والعصبة اخت الحبيب ،

هات الحطب ، وهات الشيح ،

وانفخي ، وانفخي ، وانفخي يا ريح

فيصل العرب :

على مغزل العصبة غزل العراق ،

وغزل الشقاق والاشتياق

وكان مجلس العصبة يدرس في ذلك الحين تقرير لجنة الحدود الثانية ، فاثبت في جلسة كانون الاول (دسمبر) ما قررته اللجنة الاولى — اي خط بروسل — على شرط — على شرط ان تعقد انكلترا والعراق معاهدة جديدة لمدة خمس وعشرين سنة ! « المليح قبيح والقبيح مليح ... »

وكان فيصل قد عاد الى بغداد متشائماً ، ولـكنه لم يتوقع مثل هذا الشؤم ، ومثل هذه الكريهة. ما ذا عدا عما بدا . فقد اقرت العصبة منذ سنة (في جلسة ايلول سنة ١٩٢٤) المعاهدة العراقية الانكليزية وأقرت الملحق الذي خفض مدتها من عشرين سنة الى اربع سنوات . فما الذي جرى خلال السنة ليبرر هذا الانقلاب ؟ وما السبب يا ترى في رفض الملحق ونبذه ؟ هل وقفت العصبة هذا الموقف الجديد لخير بريطانيا العظمى ، ام لخير تركيا ، ام لخير العراق ؟ ام هل كانت قد اشربت حب الاشوريين والاكراد فهامت بهم ، وأغدقت عليهم خمساً وعشرين سنة من بركات الحماية البريطانية ؟

لاشك ان الاقليات في ولاية الموصل كانت يومئذٍ في حاجة الى الحماية ، وخصوصاً من غوائل الاتراك ، ولـكن العراق كان مستعداً وقادراً . فضلاً عن حليفته العظمى ، ان يقوم بهذه الحماية ، اضف الى ذلك ان دستور العراق يضمن لهذه الاقليات كل ما لسواهم في البلاد من الحقوق المدنية والدينية. فماذا فوق هذا تبتغي عصبة الامم ؟ وكيف تسوّغ موقفها الشاذ المحفوف بالغموض ؟ انه لمن الصعب جداً ان ندرك الحقيقة كلها في نيتها واغراضها . فهل هي في عملها انسانية الشعور والاحسان . تعطف على اقلية مظلومة . وقل مهددة بالفناء . وتود ان تخلصها وتضمن لها اسباب العيش والاطمئنان ؟ أم هي في عملها اوروبية النزعة ، مسيحية الشعور ، تفصل بين دولتين أسلاميتين من جهة . وبينهما وبين دولة مسيحية كبرى من الجهة الاخرى . فتسمح بالدخول على مقرراتها لاغراض اقلية مسيحية . او بالحري لاغراض رؤساء تلك الاقلية الدينيين . وأصحاب المصالح من أشياعهم ؟ انه لا يسهل ان نتغلب على اعتقادنا في صحة الموقف الاول . من ان نتغلب عليه في الثاني

ولكن التحليل لا يريح البال ولا يدخل على القلب السرور . حملت بريطانية قرار العصبة الجديد وساومت في تنفيذه فوصلت المعاهدة الجديدة الى بغداد في اواخر كانون الاول (دسمبر) فوقعها رئيس الوزارة السعدون بعد ان وعده المندوب السامي الوعود في ما يتعلق بالاتفاق المالي وبدخول العراق في عصبة الامم . ثم جاء الرئيس بالمعاهدة الى المجلس فتصدت لها المعارضة يتقدمها ياسين الهاشمي وطلبت ان تحال الى لجنة خاصة للدرس فرفض السعدون الطلب واقترح ان تكون المناقشة سرية فأيد اقتراحه رجال حزب التقدم وكانوا قد رفعوا اليه عريضة يلحون فيها بالاسراع في المناقشة . وعند ما اخرج المتفرجون خرج كذلك رجال المعارضة فلم يبال الرئيس بذلك . وعند ما اقفلت ابواب المجلس فاه بكلمة وجيزة صريحة شديدة : أيها السادة اذا رفضنا ان نقر هذه المعاهدة خسرنا الموصل . وما زال الامر كذلك فلا بأس اذا جاملنا المندوب السامي في طلبه بل في طلب وزير المستعمرات المستر إمري وهو ان يتم الاقرار قبل افتتاح دورة المجلس النيابي البريطاني في اول شهر شباط (فبراير) وكان المجلس او ما تبقى فيه بعد خروج المعارضة من حزب السعدون فبالغ بالمجاملة بعد الحوقلة والاتكال على الله . وأقر المعاهدة اكراماً للموصل لا للمستر إمري في ١٨ كانون الاول (دسمبر) بما يقارب الاجماع [1] . وفي هذه المعاهدة عاد الانكليز الى تعديل نص عهدهم الذي يتعلق بدخول العراق عصبة الامم فجاء كما يلي : « عند ما تنتهي المعاهدة الاولى عملاً بالملحق المعقود في شهر نيسان سنة ١٩٢٣ ، وبعد ذلك في كل اربع سنوات متوالية الى ان تنتهي الخمس وعشرون سنة اي مدة المعاهدة الجديدة ، وتنظر الحكومة البريطانية في هل يمكن أن تتوسط لادخال العراق في عصبة الامم » هو المطال والتحمّل ، بل هو العهد المنقوض . وقد رطم العراق وتضعضع . وأمسى الملك فيصل في حال جهاد شبيهاً بحاله في سنة ١٩٢٢ ، بل اشد وانكد . واحر قلباه من قلبه شبم . . .

ومع ذلك فما وهن منه العزم ولا ضعفت ثقته بالله وبنفسه . بل كان دائماً يقول : سنسير بعون الله من معاهدة الى اخرى ، وسنظفر بالتي فيها حقنا بأجمعه — سنظفر بالمعاهدة التي ستدوم . وبعد بضعة اشهر انعشت آماله وآمال العراق المعاهدة الثلاثية — التركية العراقية البريطانية — التي عقدت في انقرة في الخامس من شهر حزيران سنة ١٩٢٦ ، فاعترفت تركيا بخط «بروسل» وسلمت للعراق بولاية الموصل

وقد ادب الملك مأدبة رسمية احتفالاً بهذا الحدث وتفاؤلاً به ، فخطب خطبة اعرب فيها عن رغبته الشديدة بالسلم وجيرانه كلهم ، وانه سيبذل ما في طاقته في هذا السبيل . وقد اشار المندوب السامي في تقريره الى هذه الخطبة فقال : وقد اعرب الملك عن امتنانه للحكومة البريطانية وتقديره لجهود ممثليها في سبيل العراق » . ولكن الحوادث التي تتابعت بعد ذلك وتفاقمت لا تشف عن شيء من روح الامتنان والتقدير . ليصور المندوب صوره السياسية الزاهية الالوان . ليموه وينمق ما يشاء وشاءت سياسة المحال ، فان الحقيقة البارزة الناصعة هي ان العراقيين فقدوا الثقة بالانكليز ، ففقدوها كلها ، وكان احتقارهم لممثلي الحكومة البريطانية يزداد يوماً فيوماً ، احتقروهم نعم ومقتوهم [للفصل تتمة]

(١) من الثمانية والثمانين ، عدد اعضاء المجلس ، كان تسعة غائبين و ١٩ من المعارضين الذين خرجوا والباقي اقروا المعاهدة

أثر الحضارة العربية

في الاندلس وصقلية وما اليهما[1]

بقلم محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ووزير معارف سوريا سابقاً

لما بدأ العرب بفتوحاتهم في الاسلام فقضوا على فارس واقتطعوا من بيزنطية مملكة الروم الشرقية الشام ومصر وسواحل افريقية كانت فارس والروم اقوى دول العالم واكثرها حضارة ، وكان العرب شبه متحضرين يتعلمون ممن غلبوهم ما يصلح الملك والسلطان . وما انقضى ثمانون سنة على خروج العرب من جزيرتهم حتى اضافوا ما عرفه المغلوبون الى ما عرفوه ثم من اساليب الحرب والادارة فرأيناهم وقد مكّن لهم في الغرب يستولون على الاندلس ويتوسعون في فتوحهم جنوبي فرنسا

وبينا كان بنو أمية في الشام يدبرون ملكاً عظيماً ويضعون اسس المدنية العربية بنقل العلوم المادية عن السريانية والقبطية والرومية ويعنون كل العناية بتدوين العلوم الدينية والادبية وقد بدأت طلائع الحضارة في البلاد التي اظلها سلطانهم ، كانت بلاد الغرب اللاتيني في احط دركات المدنية بل كانت الى همجية مرمضة تمد بداوة العرب في جزيرتهم قبيل الاسلام مدنية اذا قيست ببداوة الغرب . بلى كان الناس يعيشون في بلاد اللاتين والانجلوسكسونيين والجرمانيين والصقالبة في توحش مدلهم وأوربا غاصة بالغابات الكثيفة متأخرة في زراعتها والمستنقعات في كل ناحية تحصد الارواح والوبائة والاوبئة تنادي تلك الشعوب القذرة وتراوحها لا يعرفون البيوت الصحية ولا الفرش الوثيرة تنام الاسرة كلها في غرفة واحدة على فرش من تبن او نبات مجفف وهي الى الفطرة بعاداتها وأكلها وشربها ولباسها ومجالسها . وبيوت لندرا وباريس اكواخ صغيرة بنيت من احجار مصفورة مصفوفة كيفما اتفق وهناك قلاع وابراج وكنائس لا هندسة لها

وليس في الغرب شيء اسمه أمن وأمان ويقضي على كل انسان ان يكون على استعداد في كل حين ليردّ الاشقياء عن داره وحقله وفي غدوه ورواحه فلا ينام الا وسلاحه الى جنبه ولا يستطيع المرء ان يسير فراسخ قليلة دون ان يستهدف للقتل او السلب ، وقد جعل بعض ارباب القوة من نهب عروض الناس في الطرق مهنة لهم يعيشون منها يقتلون ويقتلون وما من حكومة قوية تناقشهم الحساب على ما تجني ايديهم لان الامراء كانوا مع رجال الدين اشبه برؤساء عصابات منهم بزعماء بلاد. ولم تكن اوربا كلها قد دانت بالنصرانية بل كان من ممالكها من لم يزل على مجوسيته ووثنيته. والنصرانية

(١) القيت في جامعة القاهرة الاميركية وينتظر ان تصدر مع سائر المحاضرات في كتاب على حدة يطبعه وينشره الياس انطون الياس صاحب المطبعة والمكتبة العصرية

دخلت المدن اولاً وتسربت الى القرى والعساكر بعد ازمان ، وبينا كان شارلمان اعظم ملوك الغرب أميًّا او يقرب من الامية كان المنصور والرشيد والمأمون تترجم لهم كتب الطبيعيات والرياضيات والفلك والطب والفلسفة والصناعات . وبينا كان اهل غاليا اميين كلهم ما دوّنوا كتاباً ولا اخباراً ولا عرفوا ادباً ولا شعراً ، كان العرب قد انشأوا في كل قطر نزلوه كتلاً علمية ومجالس ادبية واصبح عامتهم يقرأون ويكتبون وخاصتهم ينظمون وينثرون ويخطبون ويؤلفون ويبحثون في العلم والفلسفة على طريقة اشبه بطرق اهل المدنيات الحديثة على حين كان نبلاء القرون الوسطى في الغرب لا يمتازون عن الفلاحين بتهذيبهم وعلمهم وكلهم اميون جهلاء قساة الطباع يستحلون كل منكر لا همّ لهم غير الشراب والطعام والصيد والغارات

وبينا كان الغرب لا يعرف حياة الرفاهية ، ومن اهله كسكان شلشويق (شلزويك هولشتان) في الدانيمرك مَن كانوا كالوحوش يسترون عوراتهم بقطع من الجلود شأن كثير من الشعوب في شرق اوربا وشمالها ولا يحسنون لفق الجلود ولا خياطتها ايضاً كان العرب قد دخلوا في مباهج الحياة ورفاهة العيش يلبسون ونساءهم اجمل الاكسية من الحرير والقطن والصوف والكتان ينسجونها في معاملهم ويحوكونها على انوالهم وهي وافية بحاجات الحضري والقروي منهم على اختلاف الفصول

كان اول احتكاك مدني وقع بين العربي والغربي في آسيا الصغرى لانها كانت ميداناً للغارات بين العرب والروم منذ اقتطع العرب الشام من املاك البيزنطيين وحاولوا ان يتقدموا الى فتح القسطنطينية. وتكون الغزوات بين الفريقين سجالاً فيأخذ كل فريق من الفريق الآخر أسارى قد يقضون في بلاد عدوهم اعواماً فيتعلم العربي الرومية ويتعلم الرومي العربية ويزور في ايام المهادنات والسلام بعض اهل الطبقة العالية والوسطى البلاد المجاورة ويرى كل ما عند الفريقين من اسباب التفوق وما خلت بلاده مما عند جاره من عوامل النهوض واساليب القوة في الامم

ولما انبلج فجر القرن الثاني زادت ساحة اخرى لتعارف العربي بالغربي وهي ساحة جنوب اوربا الغربية أضيفت الى ساحة جنوب اوربا الشرقية بفتح العرب الاندلس سنة (٩٢هـ) عند ما قضوا على مملكة الويزغوت او الغوط كما كان يطلق عليهم العرب . وانحاز الاسبانيون الى شمال جزيرة ايبريا يعتصمون في جبال جليقية ويستأثر العرب بمعظم بلاد اسبانيا والبرتقال يستصفونها من البحر الرومي الى بحر الظلمات ويقرون اهل البلاد على قضائهم وادارتهم ويعدلون فيهم ويقلدونهم بعض الاعمال الصغرى ينتهون منها الى كبرياتها بعد زمن قليل . ومن عادة العرب اذا فتحوا قطراً ان يبقوا لاهله اوضاعهم ومصطلحاتهم وتراتيبهم وان يحكموه لاول الامر حكماً اشبه بالحماية ثم يحيلونهُ ملكاً صرفاً، وهذا من بديع سياستهم. وكانت الجزية التي ضربها العرب على غير المسلمين زهيدة بالقياس الى ما كانوا يستمتعون بهِ من الراحة والهناءة وقضت شروط الصلح على ان تحمل على كل رجل حر بالغ ديناراً واحداً في السنة واربعة امداد قمح واربعة امداد شعير ومقداراً من الخل والعسل والزيت وعلى العبد نصف ذلك وان تحفظ على اهل البلاد دماؤهم فلا يسبون ولا يفرق بينهم وبين اولادهم ونسائهم ولا يكرهون على دينهم ولا تحرق كنائسهم

وما عتم الاسبانيون والبرتقاليون ان شاهدوا الفرق المحسوس بين ثقافة العرب الغالبين وثقافة

المغلوبين وادعى بعضهم ان حضارة الاندلس كانت لا بأس بها بدخول العرب وفاته ان القوم نسوا لغتهم بمجرد استيلاء الغريب على اسبانيا فما انقضت ثلاثون سنة على الفتح حتى اصبح الناس ينسخون الكتب اللاتينية بحروف عربية كما كان يفعل اليهود بمخطوطاتهم العربية وما مضى نصف قرن حتى دعت الحال الى ترجمة التوراة والقوانين الكنسية الى اللغة العربية ليتمكن رجال الدين انفسهم من فهمها وما اتت على الفتح خمسون سنة حتى اصبح الناس كلهم يتكلمون بالعربية والعقود والمواثيق تكتب بالعربية حتى بين الاسبانيين انفسهم. واتخذ النصارى من اللغة العربية ترجماناً لعواطفهم وقلوبهم واخذوا يحبون تلاوة قصائد العرب وقصصهم ويدرسون كتب علماء الاسلام وفلاسفتهم لا ليردوا عليها بل ليحلّوا بها منطقهم، يقرأون العربية بلذة ويقتنون كتبها بالاثمان الغالية يؤلفون منها خزائن نفيسة ويذكرون في كل مكان ان آداب العرب مما يعجب به واذا حدثتهم عن كتبهم الدينية اجابوك بازدراء ان هذه الكتب غير حرية بالتفاتهم ، وما كنت تجد في الف رجل من يكتب رقعة مناسبة باللغة اللاتينية وانت اذا كلفت احدهم ان يكتب بالعربية تجد جمهوراً يعبرون عن افكارهم بهذه اللغة على صورة بديعة وقد ينظمون من الشعر العربي مايفوق بما فيه من الصناعة شعر العرب انفسهم

لم يمض قرن على فتح الأندلس حتى اخصبت القرى وكثرت المزارع واتصل العمران وتزاحم الناس بالمناكب في المدن ، وغدت قرطبة عاصمة البلاد كعواصم اوربا اليوم : تنار ليلاً بالمصابيح يستضيء الساري بسرجها ثلاثة فراسخ ، وكان من رجال الحسبة وهي أشبه بالمجالس البلدية ودواوين الشرطة اليوم، ان بلّطوا الشوارع واخذوا كل يوم يرفعون القمامات والقاذورات ويزال ضرر المجاري والقني لئلاَّ يتأذى بها السكان ولا يبني من يحب البناء الاَّ على طريقة هندسية يعينها له ديوان الحسبة ليترك فراغاً يتمتع بهِ الجيران وابناء السبيل لا يمنع عنهم الشمس والهواء ولا تتضايق المارّة مهما كثر سوادهم . فقرطبة اذاً اول مدينة في العالم كان لها مثل هذا النظام . وما لبثت ان غدت عاصمة علم وصناعة وفن وتجارة، وكعبة يحج اليها بعض النابهين من اهل الغرب ينظرون الى تراتيب العرب وعدلهم واحكامهم نظر الدهشة والاستغراب ومثلها كانت طليطلة وغيرها من قواعد الأندلس في الشمال والجنوب

ونقل بنو أمة منذ كانت الاندلس احدى ولاياتهم وبعد ان فتحها عبد الرحمن الداخل الاموي فتحاً ثانياً واستقلَّ بملكها بعد تغلب العباسيين على دولة اهله في الشرق — اصول آلهِ في ادارتهم واحكامهم واوضاعهم وطراز هندستهم في القلاع والجسور والدور والقصور والجوامع حتى لقد جعل العرب البيوت والمساكن في ارض الاندلس على الطراز الذي عرفوه في عاصمتهم القديمة دمشق كأن تدخل البيت من دهليز طويل ينتهي بفناء واسع وسطه حوض ماء وعلى جوانب صحن الدار غرف وابهاء ومقاصير يأوي اليها اهل البيت في الصيف وفي الشتاء ينزلون في الطبقة الثانية من الدار وفيها جميع المرافق وفناء الدار غاص بالازهار وبعض الاشجار المثمرة او الملطفة للهواء . والدار طبقتان فقط وتكون غرف الرجال ومثاوي الضيوف منعزلة عن غرف النساء ولايزال هذا الترتيب في البيوت محبباً الى الناس في الولايات المعروفة بالولايات الأندلسية الى يوم الناس هذا يجددون دورهم

على هذا الطراز. واصبحت الاندلس على عهد عبد الرحمن الثالث الاموي عالم الملوك وحامي الآداب والعلوم والصنائع والتجارة وعلى عهد اخلافه ولا سيما ابنه الحكم الثاني احسن الممالك حضارة وعلماً وحسن ادارة في القرون الوسطى بل ما وسع المرابطين والموحدين وان كانوا من البربر الاَّ ان يخدموا الحضارة العربية ، بل ان الملوك من بني الاحمر لم يسعهم فيما بعد الاَّ ان ينسجوا في الاندلس على منوال الامويين كما لم يجد ملوك الطوائف والمتغلبون على الاطراف مندوحة من الجري على هذا المثال في خدمة العلوم والآداب يغالون في اختيار خيرة العلماء والادباء لتقليد الاعمال . ولقد وهت في الاندلس بعد بني امية امور كثيرة ولا سيما في السياسة ولم يضعف فيها العلم والصنائع والتجارة والزراعة ، وكان ولاة الامر الى الخير في عامة احوالهم تقل الرشوة فيهم ويبتعدون عن كل ما لا يمت باصل من اصول الدين في الجملة . وكان معظم ملوك الغرب على اتصال دائم بملوك الاندلس وامرائها يوم كانوا لاول سلطانهم في عاصمتهم قرطبة وكذلك لما ضغط عليهم ملوك قشتالة وقبعوا في عاصمتهم غرناطة . وما بقي من آثار العرب الكثيرة في جامع قرطبة وقصر الحمراء في غرناطة الى اليوم دليل ناطق بما بلغته حضارتهم من مراقي الفلاح الباهر

وادخل العرب الذين جاءوا الى الاندلس وسكنوا في المدن والارياف سكنى دائمة طرائق معيشتهم واصول زراعتهم وصناعاتهم على النحو الذي ألفوه في المشرق ادخلوا اليها كثيراً من اصناف الحبوب والبقول والاشجار وزرعوا الفلوات واحيوا الموات وعمروا القرى والمدن وادخلوا الى الاندلس معظم الصنائع واخذوا يجرّون المياه في بسائط الجزيرة بما اقاموه من الخزانات والنواعير وبما عرفوه من اساليب الهندسة في تقسيم المياه ، واسداد بلنسية الباقية الى اليوم شاهدة بتفننهم في اعمال الري والسقيا ، وهي أثر من آثار نبوغهم في الهندسة . وغلب هذا العلم على اهل هذه الولاية حتى لنقرأ في تراجم الرجال ان فلاناً امام الجامع الاعظم كان مهندساً وفلاناً قاضي الجماعة وقاضي القضاة كان مهندساً رياضياً . وامتع العرب ابناء البلاد من النصارى — وكانوا يسمونهم المستعربين كما يسمون المسلمين الخاضعين لاسبانيا المدجنين — بتمامة حريتهم يبنون ما شاءوا من بيع وكنائس ويعقدون مجامع اساقفتهم ، وقد عقدوا (سنة ٧٨٢ م) مجمعاً في اشبيلية وفي (سنة ٨٥٢ م) مجمعاً في قرطبة . وكان رجال الدين من النصارى يدعون الى دينهم في صميم بلاد الخليفة الاندلسي وربما وقفوا على ابواب المساجد يتسقطون المسلمين ليبثوا دينهم بينهم ويتعرضون للقتل والاهانة حتى تكتب لهم الشهادة والسعادة . والمسلمون لا يتعرضون لهم واذا مرُّوا باللغو مرُّوا كراماً . وبلغ من سياسة العرب في الاندلس انه اذا شجر خلاف بين مسلم ونصراني من الجند يعطي الحق غالباً للنصراني فنشأت بذلك وحدة وطنية بين الغالب والمغلوب . وكان الغالب يومئذٍ في أقصى قمم عظمته وقوته

ولقد علَّم العرب الشعوب النصرانية كما قال العلامة جوستاف لوبون أثمن الصفات الانسانية واعني بها التسامح ، وما تناول التبدل الذي ادخلوهُ الى الغرب الماديات والعقليات فقط بل تعداها الى تحسين الاخلاق ، وكان العرب ينطوون على صفات فيها الكرم والاحسان وفيها الشمم وعزة النفس مما لم يكن له أثر عند غيرهم . وانتحل الاسلام كثير من الاندلسيين وما كان لهم غير مصلحة

متقبلة في ذلك لان النصارى في الحكم العربي كانوا يعاملون كاليهود ايضاً بقواعد المساواة ولهم ان يتولوا جميع اعمال المملكة ، وكانت تجري على سادات الاسبان احكام الاسلام فيختلطون باشراف العرب ومن ظل محتفظاً منهم بدينه تنسى تقاليده ، فصار يحجب نساءه كالمسلمين ويقتدي بازيائهم والبستهم وعاداتهم في مآدبهم ورفاهيتهم ولذائذهم ويزهد في اللغة اللاتينية ويجتهد في تعلم اللغة العربية وتناسى الاسبان اصولهم واستمرئوا بحضاراتهم واخلاقهم وانشأوا يفصحون بالعربية وصار الخلفاء يختارونهم عمالاً لاداراتهم وامناء لمشورتهم يفضون اليهم باسرارهم وكان كثير من اذكياء الجلالقة والقشتاليين والليونيين والنافاريين دع من كانوا في البلاد الواقعة في حكم المسلمين من ارض الاندلس يتعلمون العربية ويقصدون الخليفة الاندلسي او احد رجاله يستخدمون في ارضه

وتزوج العرب من بنات الاسبانيات والبرتقاليات وشاع هذا الزواج بين العرب وامسى ملوك النصارى على عهد انقسام الاندلس بين ملوك الطوائف يتزوجون من بنات امراء المسلمين فقد تزوج الفونس السادس بزايدة ابنة امير اشبيلية وعقد مثل هذا الزواج غير مرة وكان عدد المتزوجات من الاسبانيات والبرتقاليات من المسلمين وعدد المسلمات المتزوجات من الاسبانيين والبرتقاليين آخر ايام الاندلس كثيراً جداً حتى جرى لذلك كلام في الشروط التي تمت بين الغالب والمغلوب. ومن العرب من آثر زي الاسبانيين من الملابس والسلاح واللجم والسروج وكاف بلسانهم وكثير من اهل الطبقة العالية من المسلمين كانوا يعرفون لسان جيرانهم ويتشبهون بهم في الاكل والحديث وكثير من الاحوال والهيئات وكان بعض ملوك بني الاحمر يتزيا بزي الاسبان وكذلك اجنادهم . وذكر العلامة ابن خلدون ان الاندلسيين لعهده اخذوا يتشبهون بامم الجلالقة في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم واحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت وعدّ ذلك من علامات الاستيلاء . ولقد قالوا ان عزيز بن خطاب وكان من اكابر العلماء لما ملك على مرسية استمع خطبة الخطيب حاسر الرأس على مثال ملوك الافرنج وكذلك كان ابن هود يسير في بلاده حاسراً وعلى هذا درج بنو الاحمر . وكان يسمح لعلماء المسلمين هناك ان يرخوا ذوائبهم على مثال رجال الفنون والادب من الاسبان وأخذ النساء والبنات المسلمات يقلدنَ الاسبانيات في العهد الاخير بملابسهنّ والسفور او الحجاب الذي لا بال له» وبلغ من تسامح امراء المسلمين في الاندلس ان منذر بن يحيى صاحب سرقسطة وأذكنها ان اجرى زواج ريمند الجليقي وشانجه القسطلي من ملوك الاسبان على يديه وكتب عقد النكاح بينهما بحضرة سرقسطة في حفل من اهل الملتين . وذكروا ان بعض الاندلسيين كانوا يعرضون في قصورهم التماثيل الجميلة وفيها صور الآدميين وغيرهم

كانت الاندلس العربية البلد الوحيد في الغرب الذي كانت فيه حقوق اليهود مصونة من جور الجورة فانهالوا عليها من كل فج وكثر فيها سوادهم ومنهم من انصرف الى خدمة الدولة وتعلم العلوم كالطب ونحوه ومنهم من انتفع بما ربطته حكومة الاندلس مع البلاد المجاورة من الصلات التجارية فكانوا من اول التجار الذين تسافر متاجرهم مع متاجر العرب والبربر وغيرهم على الاساطيل التجارية

مقلعة من مالقة وبجاته والمريّة ولشبونة وبرشلونة تحمل الى الشرق والى شمال افريقية وجنوب اوربا غلال الاندلس وتأتي اليها بغلال البلاد القاصية . وبعد انقضاء عقود من السنين كان الفضل لبعض علماء اليهود في الاندلس بنقل الحضارة من العربية الى العبرانية واللاتينية فحملوا علم سادانهم بالامس الى من لم يلقوا منهم في معظم الادوار الا العنت والارهاق ورب كتاب ضاع اصله العربي وبقيت ترجمته اللاتينية او العبرانية على نحو ما كان من السبعين كتاباً التي نقلها في مدينة طليطلة من العربية الى اللاتينية جيراردو دي كريمونا في القرن الثاني عشر وهي في الهيئة والنجوم والهندسة والطب والطبيعة والفلسفة

وعدّن عرب الاندلس المناجم على اختلاف ضروبها فكانوا يبعثون بما يستخرجونه من ارضهم ويصنعونه من السلاح في معاملهم وبالحرير والجوخ والجلد والسكر والورق الى افريقية وسائر بلاد المشرق والمغرب واشتهرت معامل الورق في شاطبة اشتهار قرطبة بجلودها وسلاحها وحليّها واشبيلية بحريرها ومالقة بزجاجها والمرية بوشيها وديباجها وجوخها وباجة بنسج كتانها وسرقسطة بسلاحها وربة بسجادها وطليطلة ومرسية بأسلحتها . وكانت اوربا الغربية تأخذ ورقها من الاندلس واوربا الشرقية تستبضعه من معامل دمشق وحلب وطبرية وطرابلس من الديار الشامية . وحمل العرب الى الغرب من جملة الصنائع صناعة السجاد وصناعة السفن فجعلوا في كل فرضة بحرية من موانئ الاندلس على البحر الرومي وبحر الظلمات دور صناعة تخرج لهم السفن الوافية بالغرض في تلك العصور . فكان الانتفاع من البر والبحر على اتم حالاته . وكانوا يستخرجون من دابة تحتك بحجارة على شط البحر في شنترين وبرّاً في لون الخز لونه لون الذهب وهو عزيز قليل تنسج منه ثياب فيتلوّن في اليوم الواناً ويحجز عليها ملوك بني امية فلا تنقل الا سرّاً وتزيد قيمة الثوب على الف دينار لعزته وحسنه . بلغ من غرام ملوك غرناطة بالعلم انهم فرضوا جوائز للمخترعين لينشطوهم ويلقوا المنافسة بينهم وربما ميزوهم بامتيازات خاصة وان يجيزوا بالمال الكثير من يستظهرون كتاباً يعينونه في الفن الفلاني . وكما كانت للاندلسيين مجامع علمية تجتمع في اوقات مخصوصة من السنة كان علماؤهم يؤلفون رسائل يفهمها كل انسان تكون له عوناً على الانتفاع بالاعمال العامة اي دساتير سهلة التناول يتدارسها الصناع والعملة فتعبدهم فيما هم بسبيله

وانتقلت بعض صناعات العرب واساليبهم الى فرنسا ولاسيما في الزراعة وحفر الترع والخلجان ونظام الري وكانوا انشأوا الطرق والجسور والفنادق للسياح والمستشفيات والجوامع والرباطات في كل محلة ومنزل ورأى الفرنسيس كيف عمر العرب ناربون وبروفنسيا لما استولوا عليهما وكيف نظموا اساليب سقياها وادخلوا اساليب عمرانهم الى قرقشونة ونيم واتون وصانس وافنيون ومرسيليا وارل وبوردو ومنها ما جعلوه قاعدة لاعمالهم الحربية والبحرية ووقفوا عند حدود سبتمانيا حيث اقاموا لهم فيها مراكز دائمة وعقدوا عهوداً مع اهل البلاد . وكان رجال الكهنوت في تلك الاصقاع يؤثرون حكم العرب على حكم الغزاة من الجرمانيين لان هؤلاء ما كانوا يتحرجون من الاستيلاء على املاك الكنائس واخذت الصلات العديدة تنعقد بين المسلمين والنصارى ولما ارتد العرب عن اقليم سبتمانيا سنة (٧٥٩ م) احتفظوا هناك باملاكهم وبيوتهم

آياته في خلقه

[طلب الينا نفر من اصدقاء المقتطف — وطلبهم عزيز علينا — ان ننشر في كل عدد منه فصلا في عجائب المخلوقات، وما جهزتها به الطبيعة من وسائل العيش والكفاح، فاخترنا لهذه الفصول العنوان السابق، وهو عنوان مقالة لمنشىء المقتطف الدكتور صروف — رحمة الله عليه — ونشرنا المقالة نفسها توطئة للفصول التي اعددناها عسى ان يصيب القراء من مطالعة هذه الفصول لذة وفائدة]

الآيات البينات

في ادارة المقطم والمقتطف مطبعة او آلة طباعة يديرها سير من الجلد تحركهُ الكهربائية فتسحب الورق من لفتين كبيرتين وتمرّهُ فوق حروف الطباعة بعد ان تحبّرها وتطبعهُ من وجهيهِ وتقص منهُ صحيفتين بعد صحيفتين وتضع احداها داخل الاخرى وتلصقها بها وتطويهما طولاً وعرضاً اربع طيات فيخرج المقطم منهما مطبوعاً مقصوصاً ملصوقاً مطويًّا. وهي تطبع كذلك اثني عشر الف نسخة في الساعة وتقصها وتلصقها وتطويها وتعدها تعمل ذلك كلهُ من غير ان تساعدها يد او يرشدها عقل. ولكن لقد اشتغلت عقول مئات من العلماء وعملت ايادي الوف من العمال مدة سنين كثيرة الى ان صارت هذه الآلة تعمل هذا العمل. وحتى الآن لا يخرج منها عدد واحد من المقطم مطبوعاً الاَّ بعد ان تشتغل العقول وتعمل الايادي في بلدان كثيرة في عمل الورق والحبر واستخراج الفحم الحجري وتوليد الكهربائية ناهيك بما يلزم للآلات الكهربائية من المواد والعمال وبما لزم لسبك الحديد والنحاس والرصاص والنكل ونحو ذلك من المعادن التي دخلت في عمل آلة الطباعة وعمل الحروف وعمل الآلات الكهربائية. ولو احصينا جميع الذين اشتغلوا في عمل كل ما يلزم لطبع عدد واحد من المقطم لبلغ عددهم الوفاً وعشرات الالوف. فمن يقول ان المطبعة تطبع الجريدة لذاتها وينكر كل ما وراءها من العقول يخالف كل معقول

***

يُزرع القمح في هذا القطر في نحو مليون وربع مليون من الافدنة ومساحة الفدان ٤٢٠٠ متر مربع ولا يقل عدد السنابل في المتر المربع عن مائتي سنبلة فعدد السنابل كلها التي تنبت كل سنة

في القطر المصري وحده لا يقل عن مليون مليون سنبلة اي اكثر من عدد كل سكان الارض ستمائة ضعف . وفي كل سنبلة بل في كل حبة من حبوبها من الدقة في التركيب والحكمة في الوضع والصفات الموروثة والمكتسبة والاستعداد للنمو والتوليد ما لا يوجد عشر معشاره في آلة الطباعة المشار اليها آنفاً . فمن يستطيع ان ينكر وجود العقل الموجد لها والمتولي شؤونها ولو بايجاد القوى التي تحرك كل دقيقة من دقائقها وكل ذرة من ذراتها

واذا استقريت بذور الكيمياء وحللت دقائق حبة القمح رأيت ان كل دقيقة منها مؤلفة من ملايين وملايين الملايين من الذرات الصغيرة وكلها متحركة ولا تحرك اجزاء آلة الطباعة وفيها من الصفات والخواص ما يميز القمح الصعيدي عن البحيري والهندي عن البلدي . ثم اذا علمت ان ما يزرع من القمح في هذا القطر ليس جزءًا من مائة مما يزرع في الارض كلها ولا جزءًا من مائة الف جزء مما ينمو من سائر الحبوب والبزور رأيت ان عالم النبات وحده يذهل العقول حتى لا ترى لها مندوحة عن الاعتراف بالقوة الخالقة المدبرة

وعالم الحيوان لا يقل عن عالم النبات في غرائبه . ترى حيواناً من اصغر الحيوانات الدنيا السابحة في الماء طوله جزء من ثلاثة آلاف جزء من العقدة اي لو جمع ثلاثة آلاف حيوان منه ونظمت طولاً في سطر واحد ما بلغ طولها اكثر من عقدة (بوصة) فلا يرى الا بالمكرسكوب . راقب بعضهم هذا الحيوان في العام الماضي ودرس طبائعه وكتب عنه يقول :— رأيته اولاً مستطيلاً وله ذنب دقيق طويل وعند مغرز هذا الذنب في بدنه ذنب آخر غليظ قصير فيسبح في الماء بتحريك هذين الذنبين . وبعد ان يسبح مدة تختلف من بضع دقائق الى بضع ساعات يسكن ويصير كرويًا ويبقى ذنبه الطويل متحركاً متمعجاً كالافعى وحركته تجعل امواجاً في الماء تندفع اليه بما فيها من الميكروبات . وحينما تدنو هذه الميكروبات منه ينحني عليها ذنبه الطويل وتنفتح لها فتحة بين الذنبين فتبتلعها . على هذه الصورة يلتقم هذا الحيوان غذاءه وقد يلتقم حيوانات صغيرة من نوعه فهو من الحيوانات المفترسة على صغر جسمه وحقارة قدره . وقد التقم واحد امامي خمس حيوانات صغيرة من نوعه في تسع ساعات وقبض على ثلاثة أُخرى ليبتلعها لكنها تملصت منه وهربت بعد ان كاد يفترسها . وفي باطنه سائل حامض يهضم ما يفترسه كما تهضم معدنا الطعام . ثم يسكن مدة بعد ما يغتذي الغذاء الكافي ويعود جسمه مستطيلاً كما كان اولاً وتكثر المادة الحبيبية فيه ويحدث له حينئذٍ امر من امرين إما ان يستدق من وسطه ثم ينقسم الى حيوانين مستقلين كلٌّ منهما مثل الحيوان الاول واما ان يتغير شكله وتضعف حركته ويأتي حيوان آخر يشبهه وهو في شكله الاول ويلتصق به فيمتزج الحيوانان امتزاج التزاوج الحقيقي ويصيران حيوانًا واحداً كرويًا فيزول ذنباه ويسكن مدة طويلة ست ساعات او اكثر ثم ينفجر من احد جوانبه وتخرج البزور منه وكلٌّ منها جزء من ثلاثين الف جزء من العقدة . وهذه البزور تعوم في الماء وتنمو رويداً رويداً وبعد نحو ساعتين يتولد لكلٍّ منها ذنبان ويصير حيوانًا كاملاً . اي ان

هذا الحيوان الذي لا يرى بالعين لصغرهِ يولد ويتحرك ويغتذي ويتزوج ويلد حيوانات كثيرة من نوعه إما بالانقسام وإما بالولادة

وكم في مياه الارض من الملايين وملايين الملايين من مثله وكم في هوائها وترابها من مثل ذلك وكل حيوان منها يولد ويسعى ويأكل ويغتذي ويتزوج ويلد وفي بنيتهِ من الاعضاء والآلات ما يفوق آلة الطباعة المشار اليها آنفاً اتقاناً واحكاماً عدا ما فيها من ذرات العقل المدبر والاعصاب التي تشعر وتدبر حركات الحيوانات وتكيّفها بحسب الاحوال التي تعرض لها حتى تهاجم وتدافع وتفترس وتهتضم وتغتذي وتتزاوج وتتوالد

وما هي هذه الحيوانات الميكرسكوبية الدنيا بالقياس الى الحيوانات الكبيرة ، الى الاسماك والطيور والزحافات والى الحيوانات العليا كالهر والاسد والفرس والفيل بل بالقياس الى الانسان سيد المخلوقات في هذه الارض فهل يعقل ان ليس في الكون قوة خالقة مدبرة اوجدت هذه الكائنات او اوجدت القوى التي توجدها وتدبرها وتدبر حركاتها

هذه هي بعض الآيات البينات التي لا يخفي عقل الانسان عنها وعمّا تدلُّ عليهِ الاَّ اذا تكاثف الاغضاء تكاثفاً أوكان خاملاً لا يفكر ولا يقيس ولا يستنتج

الاكسجين وحياة الحيوان

عجائب الوسائل التي ابتدعتها الطبيعة

تشبَّهُ الحياةُ بالشعلة . فيقال اذا طاح الردى بشابٍّ « اطفئت فيهِ شعلة الحياة » . وهذا التشبيهُ ليس من ابتداع الخيال الوثاب فقط ، بل هو قائم على اساس من الحقيقة . فالشعلة لا يمكن ان تستمرَّ الاَّ اذا استمرَّ تفاعل كيماويٌّ معيَّن ، هو اتحاد الاكسجين (الاكسدة) بمادة عضوية لهوبة . والفرق بين شعلة النار وشعلة الحياة ، ان الاكسدة في الاولى بسيطة وشديدة ، تتمّ على درجات عالية من الحرارة ، وأما الثانية فمعقَّدة ولطيفة . فالخشب يشتعل ولكن الجسم الحي يحترق احتراقاً بطيئاً . الشعلة حامية وأما الجسم فدافئٌ فقط . وفي كلا الحالين ، في الخشب المشتعل ، أو في خلايا الجسم الحي ، ترى المادة تتأكسدُ . فالاكسجين لا بدَّ منهُ للشعلة ولا بدَّ منهُ كذلك للحياة

والحاجة الى الاكسجين يشترك فيها الاحياء جميعاً من ادناها وابسطها الى اعلاها وأكثرها تعقيداً . وما مصدر الاكسجين ? ينفخ الهواءُ في الاتون بمنفاخ قوي فتستمدُّ النار من تيارهِ

الاكسجين الذي تحتاج اليهِ . والاحياءُ تستمدُّ الاكسجين من الهواء كذلك . وليس ثمة اي مصدر آخر للاكسجين تستطيع الاحياءُ ان تتناولهُ منهُ . ومقدارهُ في الهواء كبير جدًّا ، فالهواءُ الذي يملأ الفضاء فوق كل ميل مربع من الارض فيهِ خمسة ملايين طن من الاكسجين . ولما كان الانسان في خلال حياتهِ لا يستنفد اكثر من طنّ واحد من الاكسجين ، فلا خوف اذاً من ان يصاب الناس بقحط الاكسجين يوماً من الايام ، اذا ظلّت الاحوال الجوية على ما هي عليهِ الآن

والمسألة التي تهمُّ الاحياء ، ليست « هل هناك مقدارٌ كافٍ من الاكسجين » لان المقدار يفوق ما تحتاج اليهِ ، وانما « ما هي الوسائل التي تمكّنها من الحصول عليهِ » . ان الاحياء الدنيا تعيش في الماء ، بل المرجّح عند علماء الحياة ، ان الحياة نفسها بدأت في البحر لا على اليابسة . فالاحياءُ الاولى كانت بعيدة عن الهواء ، فكيف كانت تستطيع الحصول على الاكسجين الكافي لافعال الحياة ؟ والجواب عن ذلك ان الاكسجين ، يمكن حلّهُ الى حدٍّ ما في الماء ، فاذا تكسرت الامواج او أزبد البحرُ ، حلَّ بعض الاكسجين الذي في زبد الامواج في المياهِ ، وكذلك لا يعسر على حيّ يقطن البحر من الحصول على قدر من الاكسجين ، اذا كان جسمهُ مجهزاً بآلة لذلك ، واذا كان مسكنهُ غير بعيد الغور

ولكن هل تستطيع الاحياءُ البحرية ان تتناول كل ما تحتاج اليهِ من الاكسجين مما ذاب منهُ في الماء ؟ الغالب ان حاجتها الى الاكسجين يسيرة ، فمعظمها صغير الحجم ، والحيوانات ذوات الخلية الواحدة منها لا تزيد على رأس دبّوس او هي اصغر . فالمقدار الذي تحتاج اليه من الاكسجين يسير . وهي تستمدّهُ من الماء ، بامتصاصه ، كما تمتص قطعةُ السكر ، الشايَ او القهوةَ ، اذ يُصَبُّ احدهما في الفنجان . على ان قلة ما تحتاج اليهِ الحيوانات الواحدة الخلية ، من الاكسجين ليس سببهُ صغر حجمها فقط ، بل كونها باردة وقليلة الحركة كذلك . فاذا اخذنا حيوانين متساويين حجماً وكان احدهما بارداً قليل الحركة ، وكان الآخر ، دافئاً نشيطاً كثير الحركة ، كانت حاجة الثاني الى الاكسجين اعظم من حاجة الاول

***

على أنَّ البحر يحتوي على حيوانات ، بلغت درجات متفاوتة في سلم الارتقاء . وهي في ارتقائها اصبحت معقدة البناء كبيرة الحجم . خذ مثلاً حيوان التوتياء (الرتسا) فهو حيوان شائك ، لم يبلغ درجة عالية في سلم الارتقاء ، ولكنه لا يقل عن البيضة حجماً وقد يبلغ حجم رأس الطفل . هذا الحيوان لا يمكن للاكسجين ان يخترق سطحه ، كما يتغلغل الشاي في قطعة من السكر . ثم اذا اعتمد حيوان التوتياء على امتصاص الاكسجين ، وتغلغله في الجسم ، تعذّر عليهِ العيش لأن الامتصاص والتغلغل بطيئان ، وجسم التوتياء في جميع اجزائهِ يحتاج الى هــذا الغاز الذي يحفظ شعلة الحياة متقدةً في جسم صاحبها . لذلك ابتدعت الطبيعة لهذا الحيوان جهازاً من الاقنية تطوف

بكل اجزاء الجسم ، يدخلها ماء البحر ، فيتصلُ كل جزءٍ من الجسم بالماء الذي فيه الاكسجين ويمتصُ منه ما يحتاج اليهِ ، او ما يستطيعهُ

قلنا ان السائل الذي يدور في اقنية التوتياء ماءٌ ، والواقع انهُ ليس ماءً لانهُ اذا وضع في الهواء تخثر . بل انهُ نوع بدائي من الدم او هو من المحاولات الاولى التي حاولت بها الطبيعة خلق سائل يؤدي وظيفة الدم

***

نلتفت الآن الى حيوان اعلى مرتبة في سُلَّم النشوء . هو الكركند (القريدس في سواحل الشام والجمبري في مصر — معجم الحيوان) وهو من الحيوانات البحرية عشارية الارجل . حركة هذه الحيوانات اشد من حركة التوتياء فحاجتهُ الى الطاقة التي مصدرها اتحاد الاكسجين بالمواد العضوية اعظم من حاجة التوتياء . ومن الطبيعي ان ننتظر ان تكون الوسائل التي جهزتهُ بها الطبيعة لتناول الاكسجين اوفى من وسائل الحيوان السابق . فللكركند ، اقنية يندفع فيها السائل الحاوي للاكسجين ، ويصحُّ ان ندعوها اوعية دموية . وله قلب يدفع هذا السائل ، وله علاوة على ما تقدم ، وسائل خاصة يستطيع ان يتناول بها الاكسجين من ماء البحر هي نوع من الخياشيم التي نجدها في الاسماك . فالصدفة التي تغطي ظهر الكركند يتدلى منها ترسان تغطيان جانبي الحيوان من دون ان تكونا ملتصقة بهما . فاذا ازيل الترسان رأينا تحتهما اجساماً تشبه الريش في بنائها . وكل ليف من الياف هذه الاجسام يحتوي على اوعية دموية في داخلها . فالدم الذي يدور في هذه الاوعية ، مفصول عن ماء البحر المحتوي على الاكسجين ، بغشاء رقيق جداً ، بنيت منهُ جدران الاوعية ، وتقيه الترسان من صدمات الاجسام الصلبة في البحر . فاذا جاء الدم من انسجة الكركند الى هذه الاوعية المكشوفة لماء البحر ، كان خالياً من الاكسجين فيمتصه من الماء الذي يحيط بجدران الاوعية ويعود الى الانسجة ليغذيها بهِ

***

ولكن هنا شيءٌ عجيب . ذلك ان الاكسجين تصعب اذابتهُ في الماء . بل هو يختلط بهِ بنسبة جزئين الى مائة جزءٍ حجماً . واذاً فعلى الكركند ان يتناول قدراً كبيراً من ماء البحر لكي يستخرج منهُ المقدار الذي يحتاج اليهِ من الاكسجين . لذلك ابتدعت الطبيعة مادة كيمائية يسهل حلُّها في الماء ، فاذا حلّت فيهِ ، سهل على الماء حمل مقدار كبير من الاكسجين . اي ان هذه المادة تسهل انحلال الاكسجين في الماء . ولهذه المادة صفة اخرى عجيبة . ذلك انهُ اذا وصل الدم الحامل للاكسجين الى انسجة الكركند ، تخلّت هذه المادة عن الاكسجين الذي نقلتهُ من الاوعية الجانبية — وهي بمثابة رئات لهذا الحيوان . وتدعى هذه المادة « هيموسيانين » وهي من مركبات النحاس . وهي تذكرنا بالهيموغلوبين الذي في دم الانسان ، ووظيفته امتصاص الاكسجين من

الرئتين وحمله الى الانسجة . ولكن اذا قرَّ الحيوان ولم يتحرك الماء حواليه نفد الاكسجين من الماء الراكد ، فتعذر عليهِ الحصول على ما يحتاج اليهِ منهُ ، ولذلك ترى في الكركند جهازاً آخر كالجذاف دائم الحركة ، الغرض منهُ تحريك الماء ، بغية اقصاء الماء الذي نفد منهُ الاكسجين ، ليحل غيره محله

فمشكلة الحصول على الاكسجين في الحيوانات العليا ، تتمثل لنا في حياة الكركند فهي اولاً تجهز الجسم بعضو يستطيع ان يمتصَّ الاكسجين (العضو الشبيه بالخيشوم في الكركند والخياشيم في السمك والرئة في الانسان) ثم جهاز آخر لنقل هذا الاكسجين من مكان امتصاصهِ الى كل جزء من الجسم ، ثم جهاز ثالث لتجديد المادة التي يؤخذ منها الاكسجين سواء كانت ماء في حالة الحيوانات البحرية او هواء في الحيوانات العليا التي تقطن اليابسة . وليس جهازا التنفس والدورة الدموية الاَّ الوسائل التي ابتدعتها الطبيعة — مع تباين في درجة ارتقائها — لتحقيق هذا الغرض

***

والحشرات شبيهة بالحيوانات المفصلية الارجل (كالكركند) التي تعيش في الماء . ولكن الحشرات تعيش في الهواء ، وهي اقرب اتصالاً ، بالاكسجين . على ان الوسائل الطبيعية التي يستعملها الكركند لتناول الاكسجين من الماء وتوزيعه في الجسم لا تجديها نفعاً . لذلك نشأ في اجسام الحشرات نظام آخر ، هو انابيب تمتدُّ من سطح الجسم ، الى داخله حيث تتشعب فيهِ . ولكن هذه الانابيب ليس فيها جهاز ينفخ الهواء فيها او يخرجهُ منها . فاذا طالت الانابيب ، اي اذ كبر حجم الحشرة تعذر عليها التنفس . ولذلك ظلَّت الحشرات بوجهٍ عام صغيرة الحجم ، لهذا السبب . وذبابة التنين من اكبر الحشرات ، ولكن جسمها ليس ضخماً ، فلا يقتضي انابيب طويلة ، لا تصلح للتنفس متى طالت

فاذا انتقلنا الى الحيوانات الفقرية ، رأينا كيف جهزتها الطبيعة باوفى الاجهزة للتنفس . فالاداة الاولى اللازمة لتناول الاكسجين هي الرئة والرئة في الانسان عبارة عن اكياس صغيرة ، كل كيس منها مقسَّم الى خلايا او حجر صغيرة ، يدخلها الهواء بواسطة الاستنشاق . وفي جدران الحجر اوعية دموية دقيقة ، رقيقة الجدران تمنع الدم من اختراقها ولكنها لا تمنعهُ من امتصاص الاكسجين من الهواء في الرئة . وهذا البناء يعرِّض اكبر مساحة من دم الانسان للهواء حتى يمتصَّ اكبر قدر منهُ يحتاج اليهِ

وتختلف طرق نفخ الرئة وتفريغها باختلاف الحيوان . ولكنهما يتمَّان عادة بحركة عضلية يسيطر عليها الجهاز العصبي . فالضفدع تملأ فمها ماء ثم تطبق فمها وتسدُّ منخارها ، فيجري الماء الى الرئتين ، وفيها يتصل الماء بالاوعية الدموية فيمتص الدم الاكسجين منهُ . ثم تفرغ رئتيها بفتح الانف

اما طريقة نفخ الرئة في الطيور وتفريغها فلا تزال الى حدٍ ما لغزاً من الالغاز . ذلك ان رئة الطير ، ليست كرئة الانسان كيساً قائماً عند نهاية انبوبٍ ، كالقصبة في الانسان ، ولكنها عبارة عن رئات كثيرة صغيرة ، قائمة على جانبي انبوب ويظن بعض العلماء ان الطير في اثناء طيرانه يستنشق الهواء ويزفره وفقاً لكل حركة من حركات جسمهِ ، تحدثها عضلاته . وهذا النظام يسهل على الطير الطيران مسافات طويلة من دون ان تلهث تعباً ، لان الاستنشاق والزفير في الانسان من اصعب الامور في خلال العدو السريع

اما الحيوانات الدافئة الدم ، فالدماغ فيها مسيطر على حركة اعضاء التنفس شهقاً وزفيراً . فاذا كان التنفس عنيفاً ، حدث تغيُّر في تركيب الدم ، فتتأثر بذلك مراكز الدماغ المسيطرة على التنفس لتبطيء الحركة العضلية الخاصة بذلك ، ويضعف التنفس . واذا كان التنفس ضعيفاً وحاجة الجسم الى الاكسجين غير كافية ، تغيَّر كذلك تركيب الدم ، فتتأثر بتغييرهِ المراكز العصبية ، وتبعث بالرسائل العصبية الى العضلات الخاصة فيشتدُّ التنفس ويسرع

***

بقيت كلمة نقولها عن الانسان . فقد ارتقى فيهِ الشعور بارتقاء الجهاز العصبي وقوى الشعور والادراك فيهِ هي اول ما يتأثر في جسمه ، بنقص الاكسجين في الدم . بل ان شدَّة احساس الدماغ بفقد الاكسجين بلغت درجة ، يصعب معها الاحتفاظ بالوعي من دون اكسجين ، اكثر من بضع ثوانٍ . فليس في الرئتين من الاكسجين الاَّ مقدار يكفي الانسان نحو دقيقتين وفي الدم مقدار يكفي مدى دقيقة واحدة . فاذا منع الانسان من التنفس تعذَّر عليهِ الاحتفاظ بوعيهِ اكثر من دقيقتين او ثلاث دقائق

وقد وصف احد الرحَّالين ، الغوَّاصين على اللؤلؤ ، فقال انهم يغوصون ، ويظلُّون غائصين لا يتنفسون ، حتى يكاد الاكسجين كلهُ ينفد من رئاتهم ودمهم ، ولا يصلون الى سطح الماء الاَّ وقد اصيبوا بالاغماء ، فينتشلون ، ويلقون حيث التنفس سهل عليهم ، فلا يكادون يستعيدون قوامهم بالتنفس السويّ ، حتى يستعدُّوا لغوصة اخرى

***

ولا يخفى ان الانسان يجد في الطبيعة آناً وفي الحضارة آناً آخر ، ما يدفعهُ الى اختراق طبقات الجوّ ، او الى الهبوط في المناجم العميقة طلباً للفحم والحديد والذهب والماس . وهو في كلا الحالين يبلغ اجواءً اكسجينها اقل من اكسجين الجوّ العادي الذي يعيش فيهِ ، فيحتاج الى زيادة العنف في حركة التنفس طلباً للاكسجين . فاحياناً يزيد الهيموغلوبين في الدم ، وهو المادة التي تمتصهُ من الرئتين وتحملهُ الى الانسجة . واحياناً يتضخم الصدر حتى تزداد مقدرة الانسان على الشهيق والزفير . وكلّ ذلك تلبية لداعي حاجة الجسم الى الاكسجين

الجوع والتاريخ

تلخيص عن ولز

لاسماعيل مظهر

للاشتغال بفلاحة الارض واستغلالها اثر كبير في تكوين التاريخ الانساني . فان بدء استغلال الارض وفلحها يعتبر فتحاً جديداً في تطور الحضارة . وللاشتغال بالزراعة تدرجات دقيقة وخطى تطورية تكونت حلقاتها خلال ازمان طويلة ترجع الى ما لا يقل عن عشرين الف سنة على الاكثر وثمانية آلاف سنة على الاقل

وقبل هذا التاريخ كان الانسان حيواناً من الحيوانات النادرة الوجود . كان الانسان من السوائم المفترسة ، لا يمتاز على بقية الحيوانات الا بميزتين : الاولى — انه كثير التنقل محبًّا للمهاجرة من مكان الى مكان . والثانية — انه يستخدم ادوات خاصة . وعلى الجملة كان متوحشاً ، يعيش في جماعات صغيرة ، قدرتها على التفاهم بالكلام لم تكن كاملة في الراجح . وكانت ملكيتهُ تنحصر في الاشياء المنقولة دون الاشياء الثابتة ، وينفق كل حياته جادًّا وراء الصيد طلباً للغذاء ، وتتعاقب عليه فترات طويلة لا تتسق فيها احواله فمن فترة مفرطة الطول يطوي فيها على الجوع والحاجة الشديدة ، الى اخرى ينعم فيها بالامتلاء وما فوق الكفاية . كان يتبع مسير الحيوانات وجولاتها التي تطلب فيها الغذاء ، او الهجرة اتقاء تغاير الفصول . كان حرًّا . وكان محتاجاً . فحياته اذن كانت محوطة بالخطر الدائم . مدخولة بالمخاطرات التي لا بدَّ منها

انتقل الانسان من هذه الحالة الى حالة اخرى ينتج فيها طعامه ويحفظه للحاجة . بدأ اولاً بايلاف قطعان من بهائم الانعام التي يصيدها ، ولا يكترث للبقاء في مكان اللهمَّ الا حيث يجد حبوباً او جذوراً او ثماراً يكتفي بها عن اللحوم . غير ان جولاته في الصيد كانت تتقيد حينذاك بوجود المراعي التي تغتذي بها قطعانه التي ألّفها ، وبانتظار الغلة مما زرع . ثم تكاثرت لديه الادوات وتعددت الوسائل . فكان ذلك سبباً في ان يتكاثر الانسان في بعض البقاع تكاثراً لم يعرف من قبل ثمانية آلاف خلون من السنين . بل بلغ تكاثره حدًّا لم يفقه فيه اي نوع من انواع القردة العليا . فبنى البيوت وحاز الاملاك . وتبدل من السعي وراء الغذاء بالصيد ، حالة استقرار اشتغل فيها بالزراعة مستهدياً بتعاقب الفصول ينتج غذاءه بعرق جبينه . وخزن الطعام . وهنا بدأ الانسان طور العمل وبدأت مشكلة العمال تأخذ صورتها البدائية . فمن وجبات كانت تأتي عفواً وبحسن الطالع حيناً ، وبالمخاطرة والمغامرة حيناً آخر ، وقّت الانسان وجباته ونظمها . وكان هذا طور انتقال عظيم الاثر في تاريخ الحضارة . فان الانسان قد انتقل فيه من حيوان يعيش عيش المصادفة والاتفاق ، الى حيوان «اقتصادي» نظيم الحياة

والانسان هو الحيوان الوحيد من بين ذوات الثدي — Mammalia — الذي خطا هذه الخطوة الكبيرة . فان تاريخ الطبيعة لا يدلنا على حيوان من ذوات الثدي استطاع ان يجتاز هذه المفازة المخيفة من مفاوز الحياة . فالقندس — Beaver — يبتني ويخزن والسنجاب يؤلف قطعاناً وجماعات ، والكلاب تدفن العظام . ولكن لا يجب ان ننسى ان هذا ليس بكاف لتنظيم الحياة على الصورة التي استطاعها الانسان . اما الحشرات فقد سبقت ذوات الثدي في هذه الناحية وحياة النمل والنحل وتكوينها جماعات تعاونية رشيدة ، لأسمى المثل التي نضربها

وقبل ان يأخذ الانسان بعادة الاستقرار ، غشيه عهد التنقل والتجوال ، خوطه الاشفاق والوجل وعضته الحاجة بنابها السام . مرت بالانسان كل هذه الاطوار قبل ان يضع نظام العمل المنتج . ولقد بدأ العمل في عهد الانسان الظُرّاني القديم — Paleo-lithic ولكنهُ كان عملاً بالصدفة ولمجرد التسلية . فكان يكب على عمل الادوات التي تلزمهُ حيناً بعد حين ، ولكنها كانت تُجتَبَلُ بايدي الذين يحتاجون اليها عادة . وعكف على دبغ الجلود . وانصرف البعض الى الصيد ، كما تفرغ غيرهم الى العناية بالنار يذكونها بالوقود لئلاّ تَخبُو . فان من اكبر الكوارث التي كانت تنزل بالانسان في ذلك العهد العهيد ، ان تخبو ناره . ويذهب بعض ثقاة الباحثين ان جماعات الانسان الاولى كانت تعهد الى نفر منهم بخدمة النار ليكونوا مسؤولين عنها . ومن ذلك انحدر الينا بعض الطقوس التي لا تزال مقدسة في بعض الاديان . والغالب ان عبادة النار طرف موروث من هذه العادة القديمة . وبالجملة نريد ان نقول ان في العصر الذي اتخذ فيه الانسان الصيد وسيلة لمعاشه ، لم يكن هنالك من نظام للعمل على ما يفهم من معنى العمل الدوري المنتظم المرهون بظروفه اي العمل كما تفهمهُ الآن

***

على ان اكثر العمل المضني الذي كانت تحتاج اليه الجماعة كان من نصيب النساء . فان الانسان البدائيّ لم يكن يفهم للشهامة ولا للنخوة او النجدة معنىً . فكانت الجماعة اذا عزمت على الانتقال من مكان نزلت فيه ، حمل النساء والشابات كل ما يوجد من المتاع ، ومشى الرجال بغير شيء الاّ اسلحتهم وهم على استعداد لدفع الطوارىء . ولا شك في ان العناية بالاطفال كانت ايضاً من نصيب النساء

كانت هذه الحالة سبباً في ان يذهب البعض الى القول بان النساء كنّ اول من بدأ في فلح الارض وهذا المذهب لا تنقصهُ المرجحات الكثيرة . فان جمع الحبوب ومواد الاكل الخضرية كانت من عمل النساء ، لان الرجال كانوا يخرجون دائماً في جولاتهم الطويلة للصيد والقنص . ولا يبعد ان يكون النساء هنّ اللائي لاحظنَ ان الحبوب تنمو في الامكنة التي كانت من قبل مخيماً لجماعات أُخر ، يكونون قد بذروا الحبوب على وجه الارض قرباناً لالهة من الآلهة عسى ان يعوّض عليهم ما بذروا اضعافاً تعد بالمئات . وعلى هذا لا نشك في ان اول طور من الاطوار التي تدرجت فيها الزراعة ، كانت عبارة عن استلاب محصول بذره الغير فان الجماعات التي كانت لا تزال في طور « الرُعاة » — Pastoral — يرجح ان يكونوا قد زرعوا ، ليحصدوا اذا انقلبوا راجعين الى مكانهم الاول . وليس مما يبعد

احتماله ان يكون بين عادة التضحية بالنفس البشرية والبذار، علاقة بدأت منذ ذلك العهد الذي عكف فيه الانسان على استلاب المحاصيل الزراعية التي كانت تترك ليتم نضجها . فان انساناً كان يُذبح ويترك حيث كان البذار ليحرس الزرع حتى يعود اصحابه اليه . ويغلب ان تكون الزراعة قد بدأت في قطع صغيرة من الارض تفلحها النساء بايديهن . فكانت مصدراً إضافيًّا للغذاء . والمرجح ان الزراعة لم تصبح شيئاً ذا بال في حياة الجماعات البدائية ، الاَّ تحت تأثير ظروف استثنائية

وانهُ ليسهل عليك ان تتصور كيف ان الانسان البدائيّ قد لاحظ الفائدة من الزرع في الاراضي التي ينتابها الفيضان في ازمان دورية من السنة . فانهم كانوا يبذرون مادة عيشهم في الماء قبل انحساره تماماً ، فيجدون انهُ ارتدَّ اليهم اضعاف ما كان بين ايديهم . ويقول الاستاذ « اليوت سميث » ان الزراعة النظامية باعتبارها حاجة لاسلوى وعبثاً ، بدأت في مصر . والحق أنهُ لا يوجد على ظهر الكرة الارضية بقاع من الارض اكثر ملاءمة من مصر لتعليم الانسان ضرورة الزرع في ازمان دورية . والراجح ان الزراعة النظامية بدأت في اراضٍ كانت تنتابها الفيضانات. ومن هنا لا يصعب على الانسان ان يفكر في الوسائل التي يكرر بها فعل الطبيعة. فالطبيعة تغمر الارض بالفيضان، وهو يغمرها بطرق الريّ الصناعي

بيد انهُ لا يجب ان يغيب عنا ان الزراعة ليست حضارة . فان زراعة الحنطة قد ذاعت الى شواطىء المحيط الاطلانطيقي — بحر الظلمات — والمحيط الهادىء ، بانتشار الانسان الظرّاني الحديث — Neolithic — ويرجع ذلك الى ١٥٠٠٠ او على الاقل الى ١٠٠٠٠ سنة قبل أن تبدأ الحضارة في ان يكون لها وجود حقيقي . ذلك لان الحضارة شيء اكثر من العكوف على زرع الحنطة في ازمان دورية . انها عبارة عن استقرار جماعة من الناس في بقعة ما يمتلكونها ويزرعونها على التوالي. جماعة تعيش مستقرة في مشيدات تأهل بهم ، فتكوّن مدينة او قلعة ، ويكون لهم فوق ذلك اصول من العرف او القانون تجري عليها المعاملات

ان اول الاشياء الضرورية التي احتاج اليها الانسان الظرّاني الحديث ليستقرّ استقراراً تامًّا في مكانٍ، بعد ان كان استقراره مرهوناً بكثرة الارزاق، كان من غير شك نبعاً يزوّده بحاجته الدائمة الى الماء ، ووجود العلف الكافي لبهائمه ، والغذاء اللازم له ، ثم وجود المواد التي يشيد منها مساكنه. كان من الواجب لكي يستقر ان يجد كل الاشياء الضرورية على مدار الفصول ، بحيث يكفى الحاجة التي تلجئهُ الى التجوال . ولا ريبة في ان هذه الضرورات كان من الممكن ان يحصل عليها الانسان البدائي اذا ما هبط اي وادٍ من وديان اوربا او آسيا التي تجري فيها الانهار . وفي مثل هذه الوديان استقرّ الانسان منذ ازمان موغلة في القدم ، كما نستدل على ذلك بقدم مساكن البحيرات في سويسرا غير اننا لا نقع على بقاع اجتمعت فيها هذه الظروف ، فكانت اكمل او اشد ملاءمة مما هي في مصر وما بين النهرين — دجلة والفرات — وعلى شواطىء الخليج الفارسي

في هذه البقاع ينابيع للماء لا تغيض . وقوة الاشعة التي ترسل بها الشمس مما تحتمله الاجسام البشرية . ناهيك بغلاتٍ تكاد تكون محققة النتائج عاماً بعد عام . ويقول هيرودوتس ان الحنطة كانت

تغل للمزارع مائتي ضعف ما يبذر ويذكر بلنيوس انها كانت تحصد مرتين ، ثم تكون بقاياها علفاً للاغنام . وكانت تلك البقاع غنية بالنخيل وكل صنوف الثمار الاخرى . اما مواد البناء فمصر غنية بها والوسائل كثيرة . وما بين النهرين تكاد تعدل مصر من هذه الوجهة

وفي مثل هذه البقاع يمسك الانسان عن التجوال ويستقر من غير ان يفكر فيما يمكن ان تخبيء الاقدار .وقد يتكاثر النسل ويلهي الناس التكاثر حتى يخيل اليهم ان كثرتهم دريئة لكل خطر يأتي من ناحية الغزو الخارجي . ولقد تكاثر الناس في هذه البقاع فعلاً حتى بلغ عددهم مبلغاً لم يبلغ مثله في أية من البقاع الاخرى وعلى مدى تاريخه الماضي . وعني الانسان بسكنه فاصبح امعن في المادية وانقرضت الحيوانات المفترسة من مساحات كبيرة من الارض ، وزاد الامن على النفس ، فاعتاد الناس ان يمشوا في الطرقات وفي خلال المزارع غير متقلين بالسلاح شأن اسلافهم ، وبدأ السلام بين الناس أن يكون ضرورة ، فسالموا . وبالجملة فان الانسان في هذه البقاع قد امتدت جذوره أكثر مما امتدت في اي بقعة اخرى من الارض

***

وكانت مصر وما بين النهرين اصلح البقاع واكثرها ملاءمة لاستقرار الانسان. على ان جغرافية هذه البقاع قد تغيرت عما كانت عليه منذ سبع آلاف سنة مضين . فان وديان البحر الاحمر ووديان شرقي البحر المتوسط ، كانت مغمورة بالمياه في ذلك الحين . ولكن شواطيء بلاد العرب ، وعلى الاخص الجزء الجنوبي الغربي منها ، كانت اكثر خصباً مما نعرف في كل ما تبع ذلك من العصور . وكان البحر الاحمر يتصل ببوغاز طبيعي بالبحر المتوسط ، كما ان الخليج الفارسي كان اكثر امعاناً في الامتداد الى الشمال

في الوقت الذي بدأ الانسان يستعمر فيه وديان الانهار العظمى ، كانت تتكوّن في بقاع اقل خصباً وارقّ حالاً واكثر بعداً عن الملاءمة لحياة الاستقرار ، كغابات اوربا الواسعة العريضة ، والصحاري العربية ، وسهول آسيا التي ما كانت الطبيعة تجود عليها بخير اكثر من انها تصبح مراع صالحة خلال ادوار معينة من السنة — كانت تتكوّن جماعات من الناس اقل عدداً ، ولكنهم انشط وأشجع وأصبر على المشاق ، نشأوا من سلالات تختلف عن السلالات المتحضرة ، فكانوا الذين ندعوهم جماعات البدو البدائية . وعلى الضد من الجماعات التي استقرت وعكفت على الزراعة ، كان هؤلاء البدو يعيشون في اباحة من عرف الحضارة مروّعين مخاطرين بأنفسهم وبأموالهم وأولادهم. كانوا بالقياس الى الاولين نحاف الاجسام جوعى . ما يجمعهم شيء بقدر ما يجمعهم التعاون على الصيد . وما يحفزهم الى الحرب مع جيرانهم الاّ رغبة الحصول على المراعي ليسدوا من قطعانهم رمقاً ليس من دونه شيء الاّ الموت . ولقد يحدث ان ينتقل اليهم اسلوب عمل السلاح واستخدام المعادن الذي استكشفه المتحضرون ، فيزدادون قوة وفروسة . وبذلك انتقلوا بجهد المتحضرين من العصر الظّراني الحديث

Neolithic الى العصر البرونزي — Bronze Age — فاشتد بهم السعي للقتال وألحت عليهم الرغبة فيه : لما ان ارتقى سلاحهم فأصبح امضى وأقتل . ناهيك بأنهم كانوا خفاف الحركة سريعي الانتقال لما ان حفزتهم الحاجة الى ان يكونوا اخف وأسرع ، فكانوا

على انه لا يجب ان يخيل الينا ان حالة البدو طور ضروري يجب ان يسبق حالة الاستقرار والتحضر . فان الانسان لم يكن بدياً الا حيواناً بطيء الحركة والانتقال يتبع صيده ويمضي الى غذائه على قدر الحاجة . ثم اختلفت الطرق . فنزعت جماعات الى ترك عادة الانتقال بتة فاستقرت وتحضرت ، وجدّت اخريات الى زيادة السرعة والتنقل فكانت بدواً رحلاً . وأخذ المتحضرون يعتمدون في حياتهم على الحبوب لتكون غذاءهم . وعمد البدو الرحل الى اللبن ليكون رأس غذائهم . وبهذا نرى ان اختلاف اسلوبي الحياة انتهى بنقيضين

ولم يكن من مفر ان يتصادم النقيضان ، المتحضرون والبدو ، وان يظهر البدو للمتحضرين في ثوب برابرة أجلاف ، وان يظهر المتحضرون للبدو في لباس الليونة والخنث ، فيتخذون منهم مرعى خصيباً وموارداً للسلب والنهب . فكانت تخوم الحضارات الناشئة مسرحاً للغزو المتتالي والصدام الدائم ، بين قبائل البدو والقبائل الجبلية من ناحية ، وبين المتحضرين الذين هم اكثر عدداً ، ولكنهم اقل في الطعان جلداً

ولم تتجاوز هذه الحال ان تكون مناوشات او غزوات على التخوم . فان المتحضرين كانت لهم غلبة العدد . وكان البدو يغزون ليسلبوا ، اذ لم تكن الاقامة في مستطاعهم . وهذا التنابذ المتبادل قد يستمر على ما صورنا اجيالاً عديدة . ولكن لا تلبث الحال على هذا طويلاً ، حتى يبرز في الميدان زعيم (او قبيلة) من خلال هذه الفوضى المستحكمة في حياة البدو ، فيكون اشد عزماً واصلب عوداً فيفرض عليهم بنفوذ قبيلته ان يدينوا بالاتحاد لقوته . فاذا دانوا له ، فالويل اذن لاقرب حضارة تتجه اليها انظارهم . ينقضّون عليها كالسيل المزبد ، ويجتاحون السهول المذللة المسالك المجردة عن السلاح ويبدؤون حرباً للغزو والاقامة ، فبدلاً من ان يحملوا بعد الغزو سلاحهم وغنائمهم ، يستقرون في الأرض المغزوّة ، وتصبح برمتها لهم غنيمة وسلباً . ويرتد اصحاب الارض من المتحضرين عبيداً يدفعون الجزية او قطّاع اخشاب او حمّالي ماء ، وينقلب البرابرة الاجلاف ملوكاً وامراء واسياداً لهم صفة الارستقراطية والنُّبْل . ثم يأخذون في التحضر ويتعلمون من المهزومين المغلوبين على امرهم الفنون واساليب الترف التي يعكف عليها عبيدهم المتحضرون ، ثم تمتد الرّبالة الى اجسامهم ، ويعرف الشبع طريقه الى بطونهم ، ولكنهم يظلون اجيالاً عديدة حائزين لكثير من صفاتهم البدوية عاكفين على الكثير من عاداتهم القديمة ، فيخرجون للصيد ويزاولون الالعاب الرياضية ، فيركبون الخيل او يستبقون بالمركبات ، في حين انهم ينظرون الى العمل وعلى الاخص الى الزراعة ، نظر من يؤمن بأنه نصيب المغلوبين ومن حظ السلالات الدنيا والطبقات السفلى في المجتمع

« البقية في باب الاخبار العلمية »

النيل في العهد الفرعوني

جغرافيته . فيضانه . مقاييسه

للدكتور حسن كمال

النيل اطول انهار القارة الافريقية وثاني انهار العالم طولاً . وهو يروي الجزء الشمالي الشرقي من إفريقية مبتدئاً باقليم خط الاستواء عند منطقة البحيرات ومنتهياً عند البحر الابيض المتوسط . ويبلغ طوله ٣٤٧٣ ميلاً . وكان له عند قدماء المصريين عدة اسماء منها «حمبي» وهو اسمهُ المقدّس. وقد ظلّ هذا الاسم يطلق عليهِ حتى زوال الوثنية ومنها « البحر الكبير» او (أور) وقد استعمل كثيراً في العصور المتأخرة وفي العهد القبطي . اما في الكتاب المقدس فقد ورد اسمهُ « يور » ومعناهُ « نهر » . اما اليونان والرومان فسموه « نيلوس » . ولما أتى العرب اطلقوا عليهِ اسم « النيل » او « نيل مصر »

وقلما نجد بين كائنات هذا العالم ما اثر في نفس الانسان وانضى تفكيره واذكى خياله مثلما أثر نهر النيل في سكان واديه . ويظهر من الآثار ان قدماء المصريين عرفوا مجرى هذا النهر من البحر الابيض المتوسط شمالاً الى ملتقى النيلين الازرق بالابيض جنوباً . ولا يبعد انهم عرفوا ايضاً مجرى النيل الازرق حتى منبعه ومجرى النيل الابيض حتى بحر الغزال . ثم وقفت في وجوههم منطقة السدود فعجزوا عن الوصول الى اقليم البحيرات . والمعلومات التي اكتسبها هؤلاء القوم اخذها عنهم الفرس واليونان . اما هيردوتوس (حوالى ٤٥٧ ق . م .) فقد تتبع مجرى النيل حتى الشلال الاول وكان يظن ان منبع النيل عند بحيرة (تشاد) . ورسم اراتوستينيس Eratosthenes امين مكتبة الاسكندرية عام ٢٥٠ ق . م . خريطة لوادي النيل قريبة من الصواب تبين مجراه حتى موقع الخرطوم ورسم ايضاً نهري العطبرة والنيل الازرق . وكان اول من أشار الى وجود بحيرات استوائية كمنبع لنهر النيل

فلما جاء عام ٢٠ ب . م . كتب يوبا Juba الثاني ملك موريتانيا في كتابه المسمى Libyca — وقد اورد ذلك بلينيوس في كتاباته — ان نهر النيل ينبع من بلاد موريتانيا الغربية بالقرب من المحيط من بحيرة حيواناتها تشبه حيوانات النيل . ومن ثمَّ يتخذ النهر مجرى تحت الارض بضعة ايام حتى يبلغ بحيرة اخرى مماثلة للاولى في اقليم موريتانيا القيصرية . بعدها يستمر سائراً في مجراه تحت الارض مدة عشرين يوماً حتى يصل الى منبع يقال له نجريس Nigris على حدود افريقية واثيوبيا . ثم يخترق

اقليم إتيوبيا حيث يسمى باسم استابوس Astapus . وقد استرعت هذه النظرية عناية كثير من الباحثين ولا يبعد انها كانت سبباً في النظرية القائلة بان نهر النيجر فرع من النيل

وصعد استرابون في النيل حتى اسوان (وكان معاصراً للملك يوبا السالف الذكر) وقال ان الباحثين الاقدمين عزوا فيضان النيل الى الامطار الصيفية التي تهطل على الجبال الجنوبية. وهذا الرأي اثبتته البعثة التي ارسلها بطلميوس الى تلك الاقاليم . وفي هذا الوقت ظهر رجل يوناني يقال له داليون Dallion قيل عنهُ انهُ تتبع مجرى النهر حتى النيل الابيض . وارسل نيرو بعثتين لاستكشاف نهر النيل وقال سنيكا Seneca ان رجال هاتين البعثتين وصلوا الى اقليم المستنقعات (وهو قسم النيل فوق الصوبات) . وفي ذلك الوقت ايضاً توغل التجار اليونانيون في افريقية حتى شاطىء زنجبار . وفي عام ٥٠ بعد الميلاد قدم تاجر يوناني من شاطىء افريقية الشرقي واخبر سوريا من طيرة يهتم بعلم الجغرافية يدعى مارينوس Marinus انهُ لما توغل في افريقية مسافة خمسة وعشرين يوماً بلغ اقليماً بهِ بحيرتان كبيرتان وسلسلة جبال مغطاة بالثلج وان النيل يبدأ من هاتهِ البقعة . ولم نعثر للآن على رواية مارينوس نفسه انما عثرنا على ملخصها في كتاب بطلميوس (راجع دائرة المعارف البريطانية : طبعة ١٤ مجلد ١٦ ص ٤٥٥)

الى هنا انتهى باختصار تاريخ جغرافية نهر النيل القديمة من اقدم العصور الى العهد المسيحي اما ما يتعلق بجغرافية قسمه المصري فقد سبق ان المعنا الى ان قسمه الواقع بين الشلالات والقاهرة لم يتغير كثيراً على مرور الزمن

اما قسمه الشمالي للقاهرة فقد كان اولاً مغموراً بالبحر الملح ومتصلاً بالفيوم . وكانت الدلتا في تلك المدة مستوحلة فأخذ النيل يقذف طميه السنوي في هذا الجون حتى ملأها وكان تياره محولاً على الشاطىء الشرقي ثم اخذ يخترق له طريقاً في الجون وهو مستمر في جريانه الى ان صدم كثباناً من الرمال لا تزال آثارها باقية عند بنها . وكان كل ما اقتطعه من الشاطىء القاصي في تلك الكثبان فيرسب ويتراكم بعضهُ فوق بعض حتى تكوَّنت منهُ الدلتا ولذلك قال هيرودوتس عنها انها هدية النيل . ثم ان طمي النيل اخذ يتراكم الى ما وراء بنها وظل مستمراً في رسوبه وامتداده حتى تلاقي برأس ابي قير فوقف عندها . ثم ان ذلك الطمي المتراكم اخذ يجف ويتجمد ويعلو شيئاً فشيئاً حتى نشأت عنهُ الاراضي وقد قدَّر علماء طبقات الارض المدة التي اخذ النيل يواصل بطميه مصر باكثر من ٧٤ الف سنة حتى أتمَّ تكوين وادي النيل والدلتا معاً . قال ماسبرو ان هذه المدة مبالغ فيها لان الطمي كان سريع السير في المدة القديمة اكثر منهُ الآن

قال المرحوم كمال باشا في كتابه الحضارة المصرية القديمة — « أما فروع النيل الاصلية فكانت ثلاثة اولها الفرع الكانوبي اي فرع ابي قير وكان يجري الى الغرب ويصب في البحر الابيض المتوسط بقرب أبي قير في النهاية الغربية من القوس السالف الذكر الذي كان يحدّ خطّ الساحل . والثاني الفرع البيلوزي اي فرع الطينة وهو الفرع الشرقي وكان يجري في طول سلسلة جبال العرب ماراً بالنهاية

الشرقية من قوس الساحل . والثالث الفرع السبنتيتي أي فرع سمنود وكان يقسم المثلث المحصور بين فرعي أبي قير والطينة وبين البحر الابيض المتوسط الى قسمين متساويين منذ الفي سنة تقريباً . ومبدؤه من قرية تسمى (كاركاسو) او (كركسورا) كانت على مقربة من امبابه وعلى بعد ستة كيلو مترات من الجهة البحرية للقاهرة الآن . ولما ملىء فرع الطينة زال انقسام المثلث . وكانت تلك الفروع الثلاثة تجتمع في ملتقى يخرج منهُ رياحات وترع وجداول بعضها طبيعي والبعض الآخر صناعي . وكانت تارةً تتسع وتارةً تسدّ وطوراً تفتح واحياناً تتقفل ثم تتشعب الى عدة فروع تجري في اراضي الوجه البحري ويبقى فيها الطمي حتى أصبحت خصبة صالحة لانبات الزرع ....

***

قال هيردوتوس : للنيل قديماً سبعة افواه تعرف الآن بالاشاتيم وهي تصب في البحر الابيض فيما بين الاسكندرية واراضي الجفار . وذلك ان النيل كان يتفرع من جهة القناطر الخيرية الى ثلاثة افرع كبيرة احدها بحر الطينة وهو الشرقي وثانيها البحر الغربي يجري الى الرحمانية فينقسم الى فرعين وهو فرع كانوب وفرع رشيد وثالثها بحر الوسط يستمر الى اتريب فيخرج من بحر موسى ثم الى سمنود فيخرج منهُ بحر ويش ثم يستمر الى المنصورة تقريباً فينقسم الى البحر الصغير وبحر دمياط فيكون مجموع فروع النيل سبعة وهي : —

الاول بحر الطينة : — كان كبيراً جدًّا وله فروع ويشق القليوبية والشرقية ويصب في البحر الابيض المتوسط عند مدينة الطينة . وكان عليهِ وعلى افرعهِ مدن عظيمة منها الطينة التي عرف بها البحر ومنها مدينة رمسيس فوق الترعة الاسماعيلية وهي التي خرج منها بنو اسرائيل مع موسى عليهِ السلام ومنها مدينة الفرما ومدينة القناطر من اسم قنطرة كانت على هذا البحر تمرّ عليها القوافل بين مصر والشام

الثاني بحر موسى : — والغالب انهُ بحر السردوس المعروف الآن ببحر صان وبالبحر المنديسي وهو بحر بمديرية الشرقية يتجه الى صان فيصب في البحر الابيض المتوسط من اشتوم ام فرج ببورسعيد وكان لهُ معاطف وفروع كبيرة آثارها باقية الى الآن في الارض المسبّخة

الثالث البحر الصغير : — يشق بلاد الدقهلية ويمرّ باشمون وطناح والمنزلة وكان يصب في البحر الابيض المتوسط من اشتوم الديبة . والارض التي بين المنزلة وبين هذا الاشتوم كانت تزرع وكان بها قرى عامرة ازالتها عوامل الايام

الرابع بحر ويش : — كان يمرّ بمديرية الغربية ويصب في البحر الابيض المتوسط عند مدينة (بوتو) القديمة وكان بها معبد كبير لهذه المعبودة كانت تزوره الناس في كل سنة . وكان لهذا الفرع فروع متشعبة تمتد يميناً وشمالاً . ولذلك كانت تلك الجهة خصبة ثم فسدت بعدئذٍ باضمحلال الفرع وصارت تلالاً وسباخاً . وقد سدّ فمه واوصل بالبحر الشبيني وسمي ببحر بسنديلة

الخامس فرع دمياط : — يخترق الوادي الخصب الواسع ويصب في البحر الابيض المتوسط
السادس فرع رشيد : — يجري موازياً لجبل برقة جهة الشمال الى رشيد ثم يصب في البحر الابيض المتوسط

السابع بحر كانوب : كان يشق مديرية البحيرة من اسفلها الى ان يصب في البحر الابيض المتوسط بقرب ابي قير وكان له فروع من الجهتين وارض جيدة ذات مزارع وبساتين وكروم ومدن عامرة منها مدينة مريوط التي اشتهرت قديماً بجودة النبيذ ومنها مدينة كانوب التي عرف بها هذا الفرع وكان بها دير ومعبد تحتمي فيه الارقاء وكانت تحجه اغلب الناس . وكان في الشاطىء الآخر من هذا الفرع حزاء مدينة كانوب مدينة اقدم منها تسمى باليثيوس اندثرت واشتهرت بعدها مدينة كانوب ثم غرقت هذه ايضاً بسد ابي قير وصارت بحيرة ثم نضب ماؤها وصارت سباخاً . ولا تزال اطلالها باقية الى الآن» (شكل ١ و ٢ و ٣)

***

وبديهي ان آراء المصريين الاقدمين عن منبع النيل كانت عرضة لكثير من التغيير . فقد كانوا يتصورون اولاً ان النيل ينبع بين صخور منطقة اصوان واستمروا على هذا الرأي مدة طويلة . لكنهم لما توغلوا في افريقية طمعاً في الفتوحات او اضطراراً الى الغزوات تبين لهم خطأهم . ويظهر انهم لما يئسوا من معرفة منبع النيل الحقيقي نسبوه الى اصل سماوي واحاطوا هذا الرأي بعدة خرافات وخزعبلات . ومما ساعد على ثبات هذه الخرافات مكانة هذا النهر المقدسة عندهم وشدة تبجيلهم له على مدى العصور . لذلك زعموا ان النيل يخرج من نيل سماوي في يومه الموعود وان سبب فيضانه السنوي ان المعبودة (ازيس) لما فقدت اخاها وزوجها وهو (ازوريس) بقيت مدة من الدهر لا صديق لها حتى ان ذرية عبادها نسوا اسمها . وكانت في ١١ بؤونة من كل سنة تدمع على زوجها دمعة واحدة فتنزل تلك الدمعة في النيل السماوي فتفيضه ويزداد به النيل الارضي ويسمون ليلة نزولها ليلة اللجة المنهمرة من دموع المعبودة الكبيرة (راجع نصوص هرم اوناس) ولا تزال هذه الرواية متناقلة بين عامتنا الى يومنا هذا فتراهم يقولون بنزول النقطة من السماء الى النيل ليلة ١١ بؤونه التي توافق ١٧ او ١٨ يونيه . وحينئذ يبتدىء فيضان النيل الذي هو في الحقيقة نتيجة هطول الامطار على جبال الحبشة كل سنة ابتداء من يونيه الى سبتمبر . ومعروف ان هذه المياه الغزيرة تقذف معها مقادير كبيرة من الغرين الذي يرسب على اراضي مصر والذي تولدت منه الدلتا من قديم الزمن . ويقدر مقدار مياه الفيضان النيلي التي تمر بالنيل الازرق كل ثانية بحوالي ٣٥٠٠٠٠ قدماً مكعبة او تزيد وبالنسبة الى غزارة هذه المياه تجد مياه النيل الابيض محبوسة وقتئذ ولا تساهم بنصيب يذكر في الفيضان

وعلى الفيضان النيلي تتوقف آمال الفلاح المصري القديم (والحديث ايضاً) لانه اساس دخل الخزينة الفرعونية التي تعتمد على اموال الاراضي المزرعة ومقادير الحبوب التي تصدر الى الاسواق

الخارجية . ثم ان الفيضان اساس نعيم الاهالي لان الوجه القبلي يكاد يكون عديم الامطار ولا يعتمد اهله مطلقاً على الامطار في مزارعهم . اما الوجه البحري فقليل الامطار، لذلك كان المصريون شديدي الاهتمام بأمر الفيضان حتى ألهّوا النيل ورسموه بشكل آدمي بين الذكر والانثى حاملاً فوق رأسه زهور البردي بدل التاج المصري. وكثيراً ما رسموا رسمين لمعبود النيل يقدمان لفرعون مصر قطري مصر العلوي والسفلي ممثلين في نبات اللوطس والبردي ويعلوهما لفظة « الضم » . وبهذه الطريقة كانوا يزينون عرشهم مظهرين بذلك خصب القطر وغناه في عهد ذلك الملك

***

والفيضان الواطىء يعرقل مرافق البلاد الاقتصادية كل العرقلة وقد وردت عدة قصص على الآثار للقحط الذي حل بالقطر من جراء انخفاض الفيضان مما يشير الى عظم تأثير هذه النكبة في نفوس القوم وقتئذ . واهم ما ورد عن ذلك هو الشرح المدوّن على الحجر الصوان المعروف بحجر السبع سني القحط الذي اكتشفه المستر ويلبور الاميركي في ٦ فبراير سنة ١٨٨٩ اثناء مباحثه في مصر ثم ارسل نقوشه وصوره الى الاستاذ بروكش الاثري الالماني عام ١٨٩١ واليك ترجمة الجزء الاول من هذا الاثر:

في السنة الثانية عشرة من حكم ملك مصر (زوسر) ارسل جلالته الى الامير (معدو) رئيس معابد الوجه القبلي والبحري ومدير قسم اصوان رسالة قال فيها — «انني اجلس فوق عرشي في بؤس وضيق . فقلبي متألم لما صُدعت به بلادي من قلة فيضان النيل سبع سنين. فقد نفدت الحبوب والخضروات والمأكولات وكثرت السرقات والتعديات. فاذا هم القوم يمشون خانتهم قواهم فالشبان يجرون اعضاءهم جرًّا. وقلوب الطاعنين يئست من الفرج. فعجزوا عن السير وسقطوا على الارض . وأمسكوا بطونهم بأيديهم تألماً وتضجراً من الجوع . اما وزرائي فقد عجزوا عن النصيحة وطرشوا . وأما المخازن ففارغة هاوية . وأما البلاد فخربة تعسة » . (راجع مقالتي بالمقتطف عدد فبراير سنة ١٩٢٤ صفحة ١٥٢)

هذا الوصف يظهر درجة القحط الذي اصاب القطر المصري في تلك العصور . ولكى اظهر للقارىء عظم الكارثة في مثل تلك الاحوال اورد هنا ما شاهده عبد اللطيف البغدادي اثناء اقامته في القطر المصري سنة سبع وتسعين وخمس ماية هجرية (راجع الافادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادي صحيفة ٤٩)

« ودخلت سنة سبع (أي سبع وتسعين وخمس مائة) مفترسة اسباب الحياة . وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الاسعار واقحطت البلاد وأشعر اهلها البلاء . وهرجوا من خوف الجوع وانضوى اهل السواد والريف الى امهات البلاد وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن وتفرقوا في البلاد ايادي سبا . ومزّقوا كل ممزّق. ودخل الى القاهرة ومصر خلق عظيم . واشتد بهم الجوع . ووقع فيهم الموت . وعند

نزول الشمس الحمل وبىء الهواء ووقع المرض والموتان واشتدّ بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبقر والارواث . ثم تعدوا ذلك الى ان اكلوا صغار بني آدم . فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون او مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل »

ومما يدل على الجهد العظيم الذي كان يبذله المديرون ايام انخفاض الفيضان ما ورد في مقبرة امنمحت (الاسرة الثانية عشرة بني حسن) هذا تعريبه : —

« ولما حلت سنوات القحط هممت بنفسي وحرثت الحقول في حدود مديريتي من اقصاها الشمالي الى اقصاها القبلي وهكذا مكنت الخلق من المعيشة ويسرت لهم الغذاء فلم يوجد جوعان لديّ واطعمت الارملة كما اطعمت المتزوجة ولم اميز في عطائي الابن البكر على سائر الاخوة بل كانوا جميعاً سواء امام عيني . ولما ارتفع ماء النيل (وحل الفيضان العظيم) كثر القمح والشعير وكل شيء فلم اضنّ على الناس بشيء من الزيادة لاحتفظ به لنفسي »

***

وهناك نصوص وردت بمقبرة رجل مصري اسمه (بابا) ولقبه (ابانا) بمدينة الكاب يرجع تاريخها الى حوالي زمن الاسرة الثالثة عشرة ترجمها المرحوم كمال باشا ومنها يستدل على عظم اهتمام كبار القوم بأهل بلدتهم وقت القحط الناجم من قلة فيضان النيل . واليك نصها : —

« كنت ذا قلب رؤوف لا آلف الغضب . ولذا اكرمتني المعبودات بالخير الجزيل في دار الدنيا وكان اهل بلدي وهي الكاب يهنئونني بالصحة والسلامة . وكنت اقتص من المسيئين . ورزقت من الاولاد مدة حياتي باثنين وخمسين ولداً (بين ذكر وانثى) وكان لكل واحد منهم سرير وكرسي ومائدة وكانوا يأكلون كل يوم ١٢٠ هنا من القمح والحبوب . وكانت لهم ثلاث بقرات حلوبة و ٥٢ رأس من الماعز وثمانية حمير . وكانوا يحرقون من البخور ما ينوف على الهنّ (مكيال مصري قديم) ويصرفون من الزيت ملء زجاجتين . فان ناقضني احد وظنّ انه اضحوكة فأشهد المعبود (مونت) على ما قلته من الحق . وانني احضرت جميع ذلك في بيتي . وكنت اعطي اللبن الرائب في قدر والبوظة في قدر طويل ضيق الرأس يعرف بالدلق بمقدار يزيد على الهنّ . وجمعت قمحاً كثيراً محبة للمعبود الطيب (اي الملك) . وكنت متيقظاً وقت الزراعة في السنين المخصبة . فلما حصل القحط مدة سنين كثيرة كنت اعطي القمح لاهل المدينة في كل مجاعة »

من ذلك يتضح ان لفيضان النيل تأثير كبير في نفوس القوم لأن سعادتهم ووجودهم في هذا الكون يكادان يعتمدان عليه بخلاف الحال في البلدان الاخرى التي تعتمد على الامطار في مزروعاتها

وقد تمكن المصري على مرور الزمن من معرفة مقدار محصول القطر بوجه التقريب من مقدار فيضان النيل فكان يجهز الاراضي الممكن زرعها ويتخذ العدة لذلك قبل زوال الفيضان . وهذا الاهتمام بالفيضان هو الذي اذكى فيهم الحمية لايجاد طريقة لقياسه فابتكروا مقاييس النيل وسجلوا ارتفاعات الفيضان على مدى العصور وشادوا في كل جهة من جهات القطر الرئيسية مقياساً تتبعوا به يومياً حالة الفيضان من حيث الارتفاع والانخفاض . وكانوا لا يسمحون للمياه ان تدخل الترع والرياحات الا اذا بلغ الفيضان حدًّا معيناً وجرت العادة ان يصحب ذلك مهرجان تشترك فيه الناس وتقوم فيه بالعبادات والقربان لمعبوداتهم . لانهم اعتبروا كثرة المياه من علامات رضى الآلهة وقلتها عارضاً لغضبهم كما يلاحظ ذلك في بعض نصوصهم . ولا يبعد ان يكون ارتفاع مستوى النهر وقت فيضانه الآن هو نفس ما كان عليه قدماً . لكن قاع النهر ومسطح الاراضي المزروعة عرضة دائماً للتغيرات فجرى النيل وقوة اندفاعه من جهة ورسوب الغرين على الاراضي الزراعية اثناء الفيضان من جهة اخرى يغيران كثيراً من منسوب الاراضي بالنسبة الى النهر على مرور الزمن . لهذا السبب فسر بعضهم عدم تناسب المقاييس المدونة على جزيرة اسوان مع حالة الفيضان الحالي حيث لوحظ ان اعلى العلامات القديمة هي الآن دون حدّ الفيضان الحالي بمسافة كبيرة

***

ومن اقدم النصوص التاريخية التي لها صلة بقياس النيل هي الواردة على حجر بالرمو الذي يرجع تاريخه الى الاسرة الاولى على الارجح . وتوجد بدار التحف المصرية قطع صغيرة منه متممة للحجر الاصلي . وقد ورد على هذا الأثر اسماء لملوك كانوا يحكمون مملكة الوجه البحري (اي قبل ضمه الى الوجه القبلي في عهد الملك مينا) . ومدوّن مع كل منها اهم الحوادث التاريخية التي حصلت في عهده . وقد ورد ذكر ملوك أخر غير ملوك العهد السابق لعصر الاسر مثل الملك سنفرو (الاسرة الثالثة) وسحورا ونفركارع وغيرهم . ومن ضمن الحوادث المنقوشة على هذا الاثر مناسيب النيل التي بلغها فيضانه السنوي . وبفحصها يتضح ان ارتفاع النيل وقت الفيضان كان يتراوح بين ذراع وثماني اذرع عن مستواه المعتاد . وهذا المقدار يتفق مع حالته في العهد الروماني وحالته الراهنة ايضاً

والمعروف ان المصريين كانوا يقيسون زيادة نيلهم بذراعهم المقدرة بأربعة وخمسين سنتمتراً . فاذا بلغ أربع عشرة ذراعاً نادوا بحسن زيادته . ولعلّ المناداة الآن مأخوذة عنهم

***

ولضبط اعمال الميزانية والضرائب كان الوزير الجنوبي يقدم للملك تقريراً شهريًّا عن المصروفات والايرادات يعاونه في ذلك رؤساء الاقلام وكبار الموظفين . ولما كانت الضرائب مرتبة على نتاج الارض وهذا ايضاً مرتبطاً بدرجة فيضان النيل كحالنا الآن كانت ترسل الى وزير الجنوب بلاغات رسمية عن حالة فيضان النيل (برستد)

عجائب التلفزة

عين صناعية لها شبكية من البطاريات

بشرتنا مجلة العلم العام الامريكية ببشرى ثلجت لها صدور الباحثين في المخترعات العلمية ، وهي أن فوجاً من المهندسين الاميركيين قد جربوا من عهد قريب صندوقاً صغيراً أسود ، مجهول التركيب ، كان موضوعاً على ركيزة مثلثة القوائم . وكان في رأس ذلك الصندوق ، الشبيه بالبرج ، عدسة ناتئة منهُ نتوءاً يخيل لناظره انهُ صندوق آلة تصوير شمسي . والواقع انهُ كان يحوي آلة تصوير فذة في نوعها ، قضى مخترعها في اختراعها عشر سنوات كاملة . وهي اقرب الآلات الميكانيكية المصورة شبهاً للعين البشرية . واسمها ايكونوسكوب اي منظار الاشباح ومخترعها الدكتور زوريكين Dr. Vladimir K. Zworykin . ويقال ان ذلك المنظار سيذلل العقبات التي ما زالت تحول دون بلوغ التلفزة الشأو العملي الذي ينشدهُ لها العلماء . فيتاح وضع طائفة من بطاريات عيون التلفزة بجوار ميكرفونات الراديو في ميادين الالعاب الرياضية ، وفي غيرها من محال الاحتفالات العامة الجليلة ، فتلتقط توًّا مناظر الوقائع والاصوات الحقيقية ، وترسلها في الجو نبضات كهربائية ، فيستطيع كل من كان لديه تلفاز في داره ، وهو جالس بازائهِ ، التمتع برؤية الحوادث التي تقع على بعد أميال من سكناه

ولا غرو اذا أوشكت ان تتحقق نبوءات العلماء الاعلام الذين سبق أن تنبؤا بذلك منذ سنين فقد تمَّ الشطر العلميُّ من ذلك الاختراع » ولم يبق الاَّ شطراه التجاريُّ والماليُّ ، وما يلحقهما من المعضلات الواجب حلُّها قبل بلوغ المرام . ولعلَّ ذلك قريب ، فقد صرَّح الدكتور زوريكين أن العين الميكانيكية التي اخترعها قد حلَّت المعضلات التي أبقت التلفزة في طور الاختبار العلمي حتى الآن

ولكل من المزايا الثلاث لتلك العين الصناعية « الايكونوسكوب » شأن خطير في تقدم التلفزة واليك البيان : —

فالمزية الاولى للايكونوسكوب ، خفته وسهولة نقله من مكان الى آخر فيتيسر للمرء حمله على عاتقه معلقاً بسير أسوة بحمله آلة تصوير الصور المتحركة المألوفة ، ولذلك يسهل نقله الى اماكن الحوادث

وثاني مزايا الايكونوسكوب احساسه بالنور فيتمكن به المصور من تصوير الحوادث في ريعان النهار في المحترفات Studios كما يصورها في الخلاء ، ويرسلها في الاجواء

وثالث مزاياه كونه عيناً للتلفزة ، مجردة من الاجزاء الميكانيكية المتحركة ، خالية من الاقراص الدوَّارة والمحركات الداوية . وهذا مما لا يقيد سرعة الايكونوسكوب في التقاط صور الحوادث

ولما كان احراز جميع هذه المزايا ، نتيجة اتباع القواعد الاصلية للتلفزة ، فلا مندوحة لنا عن

ايراد تلك المبادىء فيما يلي لكي يسهل على القارىء فهم احدث اختراع فيها

فاول قاعدة للتلفزة ، وضع الصورة في المرسل الكهربائي ، ثم تلقيها حالاً في مكان قصيّ وذلك بالجهاز اللاقط . وكانت الوسيلة الاولى لذلك النقل بطارية السلينيوم ، ثم حلت محلها حديثاً اختها الاشدّ احساساً منها بالضوء ، وهي البصاصة الكهربائية او العين الكهرنورية . وتانك البطاريتان تحولان الضياء نبضات كهربائية تذاع اما بالاسلاك ، واما بالامواج الكهربائية اللاسلكية

فان اردنا استعمال تينك البطاريتين ، لا بدّ لنا من تجزئة الصورة اجزاء ، يذاع كل جزء منها نبضات كهربائية ، اما قوية ، واما ضعيفة ، بحسب ذلك الجزء ، نيراً كان أو معتماً . ويمكن ارسال تلك النبضات توًّا الى الجهاز اللاقط حيث تحوّل نوراً كما كانت ، فيُعاد تكوين الصورة المنقولة

وأسهل اسلوب لاتمام تلك الغاية ، عرض الصورة المراد نقلها على لوحة ذات مربعات مكوّنة من بصاصات كهربائية ، منسقة بعضها بجانب البعض ، ثم ارسال جميع النبضات الكهربائية التي تتولد من تلك البطاريات الحساسة بالنور مرة واحدة الى مصابيح كهربائية مطابقة لها . (او توجيهها الى غلف عدسات جهاز مربعات مشابه للنوع المتقدم موضوع خلف ستار الجهاز اللاقط) وقد نجح في هذه الطريقة عالمان فرنسيان منذ سنة ١٩٠٦ فأرسلا نماذج بسيطة من الصور بوساطة جهاز مؤلف من ٦٤ بصاصة كهربائية كلٌّ منها يتصل بغلاف العدسة التي في الجهاز اللاقط بوساطة سلكين . فان أريد الحصول على صورة واضحة كاملة وجب توليد ٧٠٠٠٠ جزء مختلف على الأقل من عناصر الصورة الاصلية ، النيرة منها والمعتمة ، كل جزء منها على حدته . ومن البديهي انه يستحيل نقل مثل ذلك العدد الفاحش من النبضات في آنٍ واحد لانه يستوجب استخدام ١٤٠٠٠٠ سلك من الجهاز الناقل الى كل جهاز لاقط . ومن ثمّ نشأ مشروع اما استطلاع Explore الصورة واما Scan تقصّيها جزءاً فجزءاً من الوجه الى سائر الاعضاء ونقلها جزءاً فجزءاً بدلاً من نقلها مرة واحدة وهذا لا يحتاج غير سلك واحد او مجاز لاسلكي مفرد

ولا مراء ان التجارب الحديثة في التلفزة ما زالت كلها قائمة على ذلك الاساس . وقوامهُ اقراص دوّارة مرصعة بعدسات او مثقوبة ثقوباً بحيث يمرُّ كل جزء من اجزاء الصورة المراد نقلها من ذلك الثقب ، او يمرُّ على عدسة احدى البصاصات الكهربائية ، نيراً كان ذلك الجزء او معتماً . فيتولد من مرور الاجزاء على البطاريات الحساسة بالنور ، سلسلة من النبضات الكهربائية تذاع في الجوّ . وفي الجهاز اللاقط تتحكم النبضات الكهربائية في الضوء الذي يجتاز مجرًى ملائماً على ستار الالتقاط لكي تعيد تكوين الصورة . وقد يتم ذلك العمل سريعاً بحيث ان أثر شعاعة النور في الجهاز اللاقط يصير صورة تامة وحيدة . وتتكرر هذه العملية عدة مرات في كل ثانية من الزمن لكي تظهر للناظر صوراً متحركة

وقد صادف مهندسو التلفزة من عهد حديث عقبة ، وهي عدم تمكنهم من تحسين الصور اكثر مما هي عليه ، لان تحسينها يستوجب ادارة الجهاز المرسل اسرع من المعتاد لكي يحوي نقطاً مفردة

من نقط الصورة اكثر من المعتاد . اذ كانوا يعجلون ادارة آلاتهم بحيث لا تكاد تستطيع البصاصات الكهربائية المثبتة في الاجهزة المرسلة مجاراتها في التقاط كل جزء من اجزاء الصورة التي تدور أمام البصاصات الكهربائية . ولذلك لم يتمكن العلماء من القيام بالتلفزة العملية الا في محترفاتهم بوساطة ضوء الشمس الباهر

ولئن فشل العلماء في اقتحام تلك العقبة التي خيل لهم استحالة التغلب عليها ، فقد اتيح للدكتور زوريكين الفوز بأن نبذ جميع الوسائل الحالية ، وعدل الى المبادىء الاساسية للتلفزة ، فبلغ ما كان يطمح اليه ، فاخترع عيناً ميكانيكية تعدُّ معجزة في التلفزة . ونعني بها الايكونوسكوب ذا العدسة التي تعكس صور المشاهد على شبكية صناعية مثل شبكية العين الطبيعية . وهذه الشبكية العجيبة هي دعامة الاختراع كله . وتتركب شبكية العين الصناعية التي اخترعها الدكتور زوريكين من ملايين من البصاصات الكهربائية الدقيقة متصلة بعضها ببعض كشبكية العين البشرية المكونة من مستقيمات ومخروطات لا تحصى ، مطابقة للضوء . وتلك البصاصات من معدن يحس بالضوء ، يرسب فوق واجهة صفيحة رقيقة من معدن الميكا — الطلق — بتبخر المعدن في اناء مفرغ من الهواء . ثم ان الغشاء المعدني المغشَّى به ظهر تلك الصفيحة الطلقية العازلة للكهرباء ، وكذلك الجزء المفضض من الانبوب المحتوي على الشبكية الصناعية ، يقومان مقام قطبي الدائرة الكهربائية ، فيمثلان العصب البصري في العين البشرية الذي ينقل ما تراه شبكيتها

ولكن بقيت امام الدكتور زوريكين عقبة اخرى وهي كيفية جمع العين الميكانيكية للنبضات من تلك البطاريات التي تعد بالملايين حتى تتكوَّن صورة واحدة فرأى انه لا محيص له من الاتجاه قليلاً الى (طريقة الحلقة) فأتيح له اختراع طريقة جديدة ، من كل الوجوه ، لتلك الغاية بأن وضع الشبكية في أنبوب من انابيب كروكس التي تولد الاشعة السلبية والتي تطلق شعاعة من الكهارب (الكترونات) على البطاريات الكهربائية الحساسة بالنور المختلطة بعضها ببعض[1] . ولما كانت الشعاعة السلبية يمكن تحريفها من موضعها بالمغناطيس ، وضع الدكتور زوريكن ذلك الانبوب بين اربعة قضبان مغناطيسية كهربائية تحرك الشعاعة تحريكاً امامياً وخلفياً تجاه الشبكية الصناعية بمعدل عشرين ميلاً في الدقيقة فتمر على كل مصباح دقيق من مصابيحها عشرين مرة . وفي اثناء تحرك الشعاعة ، تشحن البطاريات الكهربائية الدقيقة الحساسة بالنور ، كلما تعرضت للنور . وكلما سطعت الشعاعة السلبية المتحركة على بطارية حساسة بالنور ، افرغت شحنتها الكهربائية كما تنطلق البندقية اذا تحرك نابضها . فتتولد من ذلك موجة او نبضة فجائية في جهد الدائرة الكهربائية المشتركة بين جميع البطاريات الحساسة بالنور

وعلى ذلك النمط تنتظر كل بطارية من ملايين البطاريات الحساسة بالنور ، دورها ، فتنطلق في

---

(١) المقتطف : المستنبط الاول لهذه الطريقة هو حسن كامل الصباح المهندس في معامل الشركة للكهربائية العامة باميركا . وقد استخرج بها « باتنتة » وذكر استنباطه هذا في مقال نشره المقتطف سنة ١٩٣٠ عدد مايو

الجو وتذيع ما التقطته من صورة المشهد الاصليّ ، نوراً كان او قتاماً فتؤلف الصورة التي يلتقطها الجهاز اللاقط من مجرى النبضات الكهربائية التي تذاع في الجو من الجهاز اللاسلكي المرسل

وقد تتم تلك العملية عاجلاً بحيث يحدث التقصي في الصورة ٣٠ مرة في الثانية . وفي فترة الانتظار التي تنقضي قبل اذاعة الصورة في الجو ، تشحن كل بطارية حساسة بالنور شحنات كهربائية تفوق شحنتها بالوسائط الاخرى ألوف المرات ، اذ تكون البطاريات محملقة في الصورة دائماً ، لا متغاضية عنها — ولذلك ترى (الايكونوسكوب) يعمل في الخلاء وفي داخل البيوت في اي نور مما كان يعتبر بالامس غير ممكن استعماله للتلفزة . فصار كل نور يستطاع به التقاط الصور بالفوتوغرافيا المألوفة ، صالحاً الآن للتلفزة

ولو سمعت ، اول وهلة ، شرح هذه القاعدة العويصة ، ثم رأيت الآلة نفسها ، لدهشت من خفتها وفائدتها وبساطة وظيفتها . وقد سبق الدكتور زوريكين ان اخترع منذ عدة سنين تلفازاً للبيوت صالحاً لالتقاط الصور سماه Kinescope كينوسكوب ، قوامه انبوب من أنابيب الأشعة السلبية يشبه الانبوب المستعمل في الجهاز المرسل وانما يختلف عنه باستبدال الشبكية فيه بنافذة من مادة مضيئة تُنار كلما صوبت اليها الشعاعة السلبية . ثم ان قضبان المغناطيس الكهربائي تحرك تلك الشعاعة تحريكاً مطابقاً له في الجهاز المرسل ، فيتم احداث التموج في الشعاعة نفسها في اثناء ذلك بالنبضات اللاسلكية الآتية من الجو . فترى الشعاعة المتحركة تتقصى الصورة متتبعة اجزاءها النيرة والمعتمة التي تقع على النافذة النيرة في الانبوب . فان جلس امرؤ تجاه الآلة في داره ، ابصر صورة متحركة ، طولها نحو خمس بوصات ، وعرضها نحو اربع بوصات ، ان شاء كبرها ، والا ابقاها كما هي عليه . ويرى الحوادث القاصية كأنهُ يشهدها بنفسه . والعجيب في ذلك الجهاز خلوه ، من اوله الى آخره ، من اي جزء ميكانيكي متحرك حتى التيارات النابضة نفسها التي تحرك قضبان المغناطيس الكهربائي في الجهازين المرسل واللاقط ، فانها تتولد من ضرب من الانابيب المفرغة من الهواء . فلا بأس باستعمال اي تلفاز لاقط من التلافيز المصطلح عليها لالتقاط الصور من الايكونوسكوب ومنها الاشكال الحالية التي تلقي بها الصور الكبيرة على ستائر المسارح

اذن يسوغ لنا ان نتوقع بناء مسارح جديدة تعرض فيها على روّادها ، حوادث العالم عند وقوعها ، بدلاً من عرضها عليهم بعد ساعات او ايام بشُرُط السينما . وسيتاح بهذا الاختراع بلوغ التلفزة ، الى المنزلة التي تسهلها في البيوت والمحال العامة . ومتى تم ذلك سيوجد زمن كاف لانشاء وظائف اخرى لهذه العين الميكانيكية في زمني الحرب والسلم ، وفي عالمي الصناعة والعلم . كأن توضع تلك العين في عدسة ميكروسكوب قوي ، لم يصنع مثله حتى اليوم ، ثم تنار بشعاعة من الاشعة التي فوق البنفسجية ، فتظهر عجائب لم يسع العالم رؤيتها الا بالفوتوغرافيا . وهذا الاختراع كغيره من المخترعات الخطيرة لا يمكننا الآن التنبؤ بما سوف يترتب عليه من المعجزات

عوض جندي (عن مجلة العلم العام)

السفن والملاحة بمصر

للدكتور علي مظهر

مصر القديمة

ان صحّ ما نقله المقريزي الينا في خططه (ص ١٩ ج ١) كان مصرايم حفيد نوح هو اول من صنع السفن في النيل ولكن ذكر ان اول سفينة كانت ثلاثمائة ذراع طولاً في عرض مائة ذراع ونحن نرتاب في هذا الامر ونعتقد ان حجم تلك السفينة مبالغ فيه

ويظهر ان سكان مصر في العصور القديمة كانوا يعنون ببناء السفن سيان كان ذلك في النيل او في البحار المالحة وقد كان النيل هو اهم طرق المواصلات في القديم وربما كانت سفن النيل من اسرع هاته السبل واقلها كلفة ومشقة. كما ان سواحل مصر نفسها على البحرين الابيض والاحمر وسواحل البلاد التي افتتحتها كبلاد الشام وغيرها وحاجة مصر الى نقل جندها الى البلد الذي تريد وحماية تلك السواحل والقيام على حراستها وحاجة مصر الى ان تكون على صلة تجارية او غير تجارية مع البلاد الاخرى جعلها تعنى ببناء السفن وصنع الاساطيل لما قدمنا من الاسباب

والزائر لآثار مصر الباقية يرى رسوماً عديدة لسفن تمخر البحار وقد رأينا كثيراً من ذلك في المقابر القديمة والبنايات التي تركتها لنا يد الحدثان وقد روى كثير من المؤرخين ان اول من صنع السفن بعد الطوفان هو « مينا » قبل الميلاد بنيف وخمسة آلاف سنة (١)

وكثر اختلاط قدماء المصريين بالأمم الاخرى لاسيما الفينيقيين الذين بزّوا غيرهم في العصور القديمة في صناعة السفن وركوب البحر ولذا أخذ المصريون يتقنون صناعة السفن حتى وصلوا الى مكانة حسدوا عليها في تلك العصور. ولما اخضع فراعنة مصر فينيقية لسلطانهم زادت تلك الصناعة عندهم خطراً وكان اهل مصر كغيرهم يستعملون الشراع والمجاذيف في اسفارهم النيلية وكانوا يشدون القلاع على الصواري على هيئة المربع (وليس على هيئة المثلث كما يرى الآن). واذا ما انحدروا من أعلى النيل ازلوا الشراع ونكسوا الصواري واستعملوا المجاذيف (٢). وكانت السفن المعدة للبحار الملحة تشبه السفن النيلية في الشكل والاستعمال ولكنها كانت اكثر صلابة واكبر من سفن النيل

وكانت السفن تحمل الأحجار اللازمة للبناء كما كانت تسير الى بلاد العرب وبلاد الشام لنقل الاخشاب النفيسة والصمغ والعطور والذهب والفضة واللازورد والحجارة النفيسة والمتاجر كما كانت تسير لحمل الجنود المقاتلة وكثيراً ما فعلت وعادت منصورة. وقد ذكر عن حاتاسو ابنة تحوتمس الاول ثالث ملوك العائلة الثامنة عشرة بطيبة انها سارت لقتال بلاد « بون » وانها حاربت اهلها وانتصرت عليها وكانت هي أول ملوك مصر الذين قادوا الاساطيل في البحر الملح (٣)

---

(١) حقائق الاخبار ص ٢ ج ٢ (٢) حقائق الاخبار ص ٤ ج ٢ (٣) حقائق الاخبار ص ٥ ج ٢

وترى صور تلك الغزوة البحرية على جدران مباني «القرنة» وقد صورت السفن تصويراً حسناً

وقد ذكر ديودورس الصقلي ان رمسيس الثاني كان مهتماً بأمر البحرية المصرية فشيد جملة سفن في البحر الاحمر والبحر الابيض وبعث من القصير اسطولاً كبيراً به نيف وثلاثمائة سفينة حربية واستولى على سواحل هذا البحر وعلى جزره ومدنه وثغوره كما استولى على جزائر بحر الهند . وارسل اسطولاً ثانياً الى سواحل فينيقية فاستولى عليها وعلى كثير من جزائر بحر الارخبيل بعد ان هزم اليونان في عدة وقائع بحرية بينما كان يفتح الفتوحات الكثيرة في اواسط آسيا وافريقيا وروى البعض ان فتوحاته كانت اكثر من فتوح اسكندر المقدوني الشهير (١)

وذكر ديودورس الصقلي ايضاً ان سيزوستريس انشأ في النيل سفينة كبيرة بلغ طولها ما يعادل ١٤٠ متراً . وذكر بلنيوس ان احد البطالسة انشأ سفينة في مثل هذا الطول وعليها اربعمائة بحار واربعة آلاف جذاف ونحو ثلاثة آلاف جندي (٢) وآثار المبالغة واضحة جداً فيه ولعله يقصد سفناً لا سفينة واحدة . وكانت القوة البحرية المصرية في عهد بطلميوس الاول اكبر واعظم قوة في العالم البحري حينئذٍ (٢٩٣ ق.م) فقد كان في دار الصناعة نحو ٣٥٠٠ سفينة بين كبيرة وصغيرة حربية وتجارية وكان يعنى بالفنون البحرية وصناعة السفن وقد ارتقت الملاحة المصرية في ايامه واتسع نطاق التجارة العامة البحرية (٣) . ويجمل بنا ان نذكر عناية الملك نيخاوس الثاني (٦١٢ ق.م) فقد اعدّ اسطولاً لاستكشاف سواحل افريقية

واستخدم بعض الفينيقيين وامرهم ان يسافروا في البحر الاحمر من خليج السويس الى الجنوب وقيل انهم لبثوا زهاء ثلاث سنوات حتى جاؤوا الى رأس الرجاء الصالح وصعدوا شمالاً حتى بلغوا بحر الزقاق (جبل طارق) ودخلوا البحر الابيض حتى وصلوا الى مصر ورووا ما شاهدوه اثناء سفرهم وقد كانت هذه الرحلة من اخطر المشاريع البحرية شأناً واحفها بالاخطار في الازمان القديمة وكل من يطالع هذا الخبر يلحقهُ العجب من ان ملكاً من ملوك مصر كان يعيش قبل ٢٥٠٠ سنة يقوم بعمل كبير كهذا العمل وهو لم يتيسر الاّ لملوك البرتقال منذ ٤٠٠ سنة فحسب . ويظهر ان قوات مصر البحرية بالبحر الاحمر كانت اكثر منها بالبحر المتوسط . وفكر كثير من ملوك مصر مثل سيزوستريس ونيخاوس وبطلميوس الثاني وغيرهم في توصيل البحرين بحفر ترعة نيلية لجمع الاساطيل في اي مكان يحتاج اليه عند الضرورة . وقد ساعدت تلك الاساطيل مصر في فتوحها وغزواتها فقد امتدّ سلطانها على اكثر جزائر بلاد آسيا والبحر الاحمر وافريقيا وجزائر اليونان وسوريا

وقد ضربنا صفحاً عن شكل السفن ومعداتها في ذلك العصر القديم ومن اراد التوسع في ذلك فليراجع ما كتب في حقائق الاخبار في اوائل الجزء الثاني

مصر بعد الفتح الاسلامي

وجاء عمرو بن العاص الى مصر غازياً وفاتحاً من قبل الخليفة عمر وقد تسنى لذلك الغازي ان

(١) حقائق الاخبار ص ٦ ج ٢ (٢) حقائق الاخبار ص ٧ ج ٢ (٣) حقائق الاخبار ص٧ ج ٢

يستولي على بعض سفن الروم في واقعتي الاسكندرية ثم صرَّح الخليفة بركوب البحر فأخذ في صنع السفن في مصر على مثال سفن الروم

وقد رأينا عبد الله بن ابي سرح يخرج على رأس اسطول مصري مركَّب من مائتي سفينة لغزو قبرص (٢٨ هـ) ثم قاد اسطولاً آخر في مثل هـذا العدد المذكور (٣٤ هـ) في واقعة ذات الصواري التي انتصر فيها على قسطنطين بن هرقل وكان قد جاء في الف مركب يريد الاسكندرية فنصر الله عبد الله وقيل انها سميت غزوة ذات الصواري لكثرة صواري المراكب واجتماعها وتسمى في كتب الافرنج بواقعة فونيكنته Phoeniconte البحرية لوقوعها بالقرب من فونيكه . وبعد هذه الواقعة ازدادت اساطيل الاسلام بسرعة حتى تمكنت اساطيل معاوية من فتح بوغاز غليبولي سنة ٦٥٥ م . ولولا النار الاغريقية اذ ذاك لتمكّن معاوية من فتح القسطنطينية التي قصد فتحها سنة ٦٦٨ م بعد ان أعدَّ لها عدته من الاساطيل . وفي عهد الخليفة المتوكل العباسي نزل الروم بدمياط في يوم عرفة سنة ثمان وثلاثين ومائتين وامير مصر يومئذٍ عنبسة بن اسحق فلكوها وقتلوا بها جمعاً كثيراً من المسلمين وسبوا النساء والاطفال وساروا الى تنيس فاقاموا باشتومها ولذا اهتمَّ بأمر صناعة السفن للدفاع وأنشئت الشواني برسم الاسطول وجعلت غزاة للبحر كما كان هناك عسكر للبر

عصر الطولونيين والاخشيد

وقد عني ابن طولون بامر الاساطيل فزاد في بناء السفن وجهزها بالآلات والرجال وكانت دار الصناعة ايامه بجزيرة الروضة . وكان ينشأ بها الحربيات والشلنديات وغيرها من انواع السفن وصار لهُ بها الهيبة في قلوب اعدائهِ[1] وذكر ابن اياس انهُ لما مات احمد بن طولون (٢٧٠ هـ) ترك الف مركب من سفن الحرب والشواني وقد عني بنوه بهذا الامر وانشأوا السفن للحرب وكانت لهم قوة بحرية ذات شأن وخطر حتى ان كانت ايامهم الاخيرة واخذت بحريتهم تقل قيمتها وتنقرض

ولم تكن عناية الاخشيديين بالسفن كبيرة ولذا طمع الروم في الاغارة على مصر وقد جاؤوا الى دمياط عام ٣٥٧ هـ في بضع وعشرين سفينة فقتلوا واسروا مائة وخمسين من المسلمين واستمرت الاستهانة بامر هذه الصناعة حتى زالت دولتهم بقدوم الفواطم الى مصر

عصر الفواطم

اما عناية الفواطم بالاسطول فكانت كبيرة جداً وقد عني بها المعز لدين الله منذ قدومه لمصر وتابعهُ بنوه في هذا الطريق فقد كانت المراكب تنشأ بمدينة مصر والاسكندرية ودمياط واوسعوا في النفقة على امراء السفن ومن ركب البحر وكانت السفن ايام المعز لدين الله نيفاً وستمائة قطعة ولم تنقص في اواخر ايامهم عن مائة قطعة . وكانت لهم منظرة يجلس فيهـا الخليفة لوداع الاسطول ولقائهِ على ساحل النيل الى جوار جامع المقس فكان يجلس الخليفة في تلك المنظرة يستعرض الاساطيل ويوسم في العطاء لهم وما غنمه الاسطول فهو للغزاة لايشاركهم فيهِ احد الاَّ ماكان من الاسرى والسلاح. وقد قلت العناية بالاساطيل عقب سقوط دولة الفواطم لهذا تجرأ الفرنجة على الدنو من مصر (تتلى)

(١) حقائق الاخبار ص ٢٤ ج ٢

اوربا بعد الحرب العالمية

فصل المأساة الاخير

١ — الثورة الروسية

كانت روسيا اقلّ الامم الاوربية الكبرى استعداداً لخوض غمار الحرب . ولكن البحث في الوثائق الرسمية اثبت أنها كانت البادئة في تعبئة الجيوش ، فاجتمع تحت ألويتها ما لا يقلُّ عن خمسة عشر مليوناً من الجند . وما لبث الجيش ان ادرك بعد سنتين من القتال ، ان الطبقة الحاكمة في روسيا ، عاجزة عن قيادة الجيش او تغذيته او تجهيزه بالملابس والذخائر . فكان طبيعيًّا ان يلقي الجيش اللومَ في خذلانه على القيصر . وكان ضباط الجيش لايدرون ، ما يقع في القصور الامبراطورية بين سمع القيصر وبصره . ولو انهم عرفوا ما كان يعرفهُ الوزراء حينئذٍ ، لما غادروا قراهم للاشتراك في الحرب . وكان القيصر ، ضعيف الارادة ، مبلبل الخاطر ، وكان لا يفقه ما قد يكون تأثير الحرب في روسيا . وكانت افعالهُ اليومية ، تسير بمقتضى اهواء القيصرة ، وهي امرأة غير متزنة ، تستهويها اللذة ، ويسيطر عليها الراهب راسبوتين . وكان راسبوتين فلاَّحاً من فلاَّحي سيبيريا يحمل على رأسهِ ندبة جرحٍ اثراً لضرب مبرّح اصابهُ لسرقتهِ المواشي فأصبح الآمر الناهي في البلاط الروسي وكان في نظر القيصرة نبيًّا يستطيع ان ينجي ابنها العليل ويمنحهُ الصحة والعافية . ولكن رجال البلاط عرفوا فيهِ ، رجلاً فاسداً منغمساً في اللذّات . فلما ضاق الاشراف بهِ ذرعاً ، دبّرت ضدّه مؤامرة ، قتل فيها سنة ١٩١٦

ثورة مارس سنة ١٩١٧

ولكن اغتيال راسبوتين لم يكن كافياً لاعادة الثقة ، الى الجنود الروس في صفوف القتال ، ولا الى العمال في مصانع الذخيرة . ولما تعدّدت حوادث الفساد والارتكاب ، فقد الجيش كل ثقتهِ في الحكومة . وكانت طبقة الحكام تحسُّ بقصورها وعجزها عن تنظيم البلاد — لموالاة الحرب — ولكنها كانت مقيّدة بقيود التقاليد ، فلم تحرّك اصبعاً لتحسين الحال ، وتحويل الخيبة الى نجاح . فأخذ الجنود يفرّون من الصفوف ، حتى ليقال ان نحو مليون جنديٍّ روسيٍّ ، فرّوا من الجيش في شهر يناير سنة ١٩١٧ واخذت نفقات المعيشة ترتفع في المدن ، حتى اصبحت طبقات العمّال على وشك الموت جوعاً

واذا الثورة تنفجر في بتروغراد . كان اليوم — ٢٣ مارس — يوم النساء الدولي ، فاغتنم النساء العاملات في العاصمة ، هذه الفرصة ، ليعلنَّ اضرابهنَّ . ولو ان الاضراب انحصر في النساء العاملات لقضي الامر بالقوة وبالحديد . ولكن العمَّال ، رأوا في اضراب العاملات دعوة لهم ، فلم تنقض بضع ساعات حتى اعلن في بتروغراد اضراب عام ، وحفلت شوارعها بالمشاغبين . ودعي القيصر الى العاصمة فهرول اليها . ولكن العمال حالوا دون وصوله ، لانهم تصدُّوا لقطاره ومنعوه من دخول المحطة فاضطرَّ ان يعود من حيث أتى . وصدرت الاوامر الى جنود القوزاق بالهجوم على المضربين وتفريقهم ، ولكن القوزاق عطفوا على المضربين ، كأنهم واياهم على اتفاق . ثم دعيت فرقة المشاة لاطلاق النار على الجماهير . فرنَّت أصداء طلقات متفرقة في الفضاء وقتل بعض المشاغبين . ولكن فرقة المشاق نفسها كانت تنفذ بعض الاوامر الصادرة اليها متلكئة . ولم تمض عليها فترة حتى انضمَّت الى المضربين في الهجوم على مراكز البوليس . فلما كان اليوم الثالث من ايام الاضراب كان العمال قد اصبحوا اسياد بتروغراد . وكانوا لا يعلمون لماذا ثاروا ، ولا ما يفعلون وقد احرزوا النصر ، فالاضراب جاء عفواً ، كأن العمال قرّروا في ذوات نفوسهم ان ساعات العمل المرهقة والطعام اليسير الذي لا يسدُّ جوعاً ، اصبحا مما لا يطاق . فلم يكن للمضربين خطة ، ولا زعماء ، ولا نظام

***

وكان في بتروغراد ، جمعية ثورية منظمة ، ولكنها دهشت لهذه الثورة المفاجئة ، لانها لم تكن تتوقعها . نعم ان الحزب الاشتراكي ، كان قد مضى عليه سنوات ، وهو يبثُّ دعايتهُ في صفوف العمال ، وفي سنة ١٩٠٣ كان الحزب قد قرَّر ان الانتقال بالبلاد الى الدولة الاشتراكية ، لا يتمُّ الاَّ بالعنف ، وان الوسائل السلمية لا تجدي نفعاً . فعرف هذا الفريق القائل بالعنف ، بفريق البولشفيك اي الاكثرية . وعرف الفريق الآخر بالمنشفيك . وحدثت فتنة سنة ١٩٠٥ نشأت عن خذلان روسيا في حربها مع اليابان . وكان العمال قد انتخبوا مجالس — سوفيتات Soviets — من صفوفهم تتولى ادارة المصانع ، وكان الجنود والفلاَّحون قد فعلوا ما هو شبيه بذلك في بعض القرى والثكنات . فلما حدثت فتنة سنة ١٩٠٥ واحتدمت ، ابعد زعماء الحزب الاشتراكي من روسيا . لذلك لما حدثت ثورة ١٩١٧ الاولى كانت ثورة من دون زعماء ، يتولون توجيهها

ولكن العمال في سنة ١٩١٧ ظلوا يذكرون المجالس — السوفيت — التي انتخبت سنة ١٩٠٥ لذلك كان من الطبيعي ان يتجهوا بعد فوزهم الى انتخاب مجالس على نمط ما فعلوا سنة ١٩٠٥ وكان معظم الممثلين الذين اختاروهم لهذه المجالس من الفريق المنشفيكي في الحزب الاشتراكي القائل بوجوب اتباع الوسائل السلمية ، في تحويل الدولة الى النظام الاشتراكي . ولما كان رجال الفريق المنشفيكي ، معارضين في استعمال العنف ، لم يختاروا للحكومة رجالاً من صفوف الاشتراكيين ، بل من صفوف الاحرار ، الميالين الى الاصلاح . وكذلك أنشئت حكومة وقتية برآسة البرنس لووف Louv فلما تسلمت هذه الحكومة مقاليد الحكم ، لم تدع مجالس السوفيت بلاغاً نهائيًّا بوجوب اصلاح

حال العمال ، بل اكتفت بطلب حرية القول وحرية الصحافة. والواقع ان هذه المجالس ، ما كانت تدري الهدف الذي ترمي اليه . ولا كان وزراء البرنس لووف يدرون ماهم يريدون . وقد قال تروتسكي في تاريخه للثورة الروسية ، واصفاً هذه الحالة الشاذة : — «كان الثوار يتوسلون الى الاحرار ليخلصوا الثورة من الاخفاق . وكان الاحرار يتوسلون الى الملكيين لكي يخلصوا الاحرار من الخيبة » . كان العمال قد ثاروا في بتروغراد فأيدهم العمال في موسكو . ولكن روسيا لم يكن فيها رجل واحد ، يعرف ان يحول هذه الثورة الى انقلاب تام .

لنين

كان لنين الرجل الوحيد الذي يستطيع ان يتولى الزعامة . ولنين كان منفياً من بلاده ، يقيم في سويسرا . فلما قرأ في الصحف عن فتنة بتروغراد ، ادرك ان اليوم الذي ما زال يتطلع اليه ويعمل في سبيله من ٣٦ سنة قدجاء وهو في السابعة والاربعين من عمره . كان والده معلم مدرسة قد ارتقى حتى صار مفتشاً للمعارف ، ثم رقي الى طبقة الاشراف لتنظيمه تعليم الشبان في مقاطعة على نهر الفولجا . فلما كان لنين في السابعة عشرة من عمره ، أُعدم شقيقهُ الاكبر لاشتراكه في مؤامرة دُبّرت لاغتيال القيصر اسكندر الثالث . فتحول لنين من ذلك اليوم الى صفوف الثوار وقبيل ان يتم دراستهُ القانونية ، وينال شهادتهُ . كان قد انشأ اتحاداً للكفاح في سبيل تحرير طبقة العمال . وكان قد قرأ كتابات كارل ماركس ، فآمن معهُ ، بانهُ حيث تكون وسائل الانتاج ملكاً للافراد ، لا يتورع هؤلاء الافراد عن ظلم العمال في سبيل جني الربح الطائل وحشد الثروة . فيفرضون عليهم عملاً يزداد ارهاقاً حتى ينقلب العمال على اسيادهم ويسيطرون هم على وسائل الانتاج. وفي سنة ١٨٩٦ نفي لنين الى سيبيريا مدة ثلاث سنوات ، لانهُ كان يدعو عمال بتروغراد ، الى الانتقاض على الدولة . وكانت فتاة تدعى كروبسكايا ، قد اشتركت معهُ في دعايته فتبعتهُ الى المنفى ، واصبحت زوجتهُ . فكتب لنين في منفاه مؤلفهُ العظيم ، (نشوء الرأسمالية في روسيا) فلما انقضت مدة النفي ، ذهب الى مونيخ حيث انشأ جريدة ثورية . وفي سنة ١٩٠٣ كان من فريق البولشفيك الذي انفصل عن الحزب الاشتراكي . ولم يشترك في فتنة ١٩٠٥ ، ولكنَّ أثرهُ ظهر في بعض حوادث التمرد البحرية التي وقعت في كرونستاد وسفيبورج في السنة التالية . ثم ذهب مع زوجته الى باريس ومنها الى لندن حيث اصبح محوراً لمساعي فريق من الثوار الروس . فلما نشبت الحرب الكبرى كان هو وزوجتهُ في زوريخ يعيشان في غرفة رثة

كانت الحرب في نظر لنين ، عملاً جنونياً ، فيها القضاء المبرم على الحضارة الرأسمالية القائمة على الاستبداد والمنافسة ، الحضارة التي قضى حياتهُ مشهراً بمساويها . وكان من البدء معارضاً في خوض روسيا لغمراتها ، وكان يحس ان طبقات العمال في روسيا ، غير راضية عنها كذلك

فلما جاءتهُ انباء الفتنة التي وقعت في ٢٣ مارس ١٩١٧ كان يعلم ما يتحتم عليه ، والى اين يجب ان

يتجه . على ان دول الحلفاء ، رفضوا ان يسمحوا لهُ في اختراق بلدانها للعودة الى روسيا . ولكن المانيا ، سمحت لهُ في ذلك املاً منها في انهُ يدعو الى السلم عند عودته بيد انها اشترطت عليهِ وعلى صحبه ان لا يغادر احد منهم القطار الذي يقلّهم في ارض المانية

وفي مساء ١٦ ابريل سنة ١٩١٧ وصل لنين الى محطة فنلندا في بتروغراد . فقابلهُ فيها زعماء الحزب البولشفيكي وساروا بهِ رغماً عنهُ الى ردهة الانتظار ، حيث اعدُّوا لهُ حفلة استقبال . وكان الجمهور يهتف طالباً من الزعيم خطبة وكان ينتظر منهُ ان يقول كلمات منمقة يهنئهم بها على الثورة ، ولكن خطبته صعقتهم . فانه لعن البولشفيك لانهم ضيّعوا الفرصة السانحة للقبض على زمام الامور . واعلن ان الحكومة الوقتية التي يرئسها البرنس لووف يجب ان تسقط في الحال وان السلطان ، كلّ السلطان ، يجب ان يكون في ايدي السوفيت ، وان روسيا ، يجب ان تنسحب من الحرب

فلما ذهب ، الى دار الحزب البولشفيكي — وكانت البناية خاصة باحدى راقصات القيصر قبلاً — ردّد الكلام الذي قالهُ في استقبال المحطة . فحسبهُ البولشفيك مجنوناً او على الاقل حسبوهُ منفيًّا قد فقد صلتهُ بسير الحوادث في روسيا . ولكن الحكومة الوقتية — وكان المسيطر عليها رجل يدعى كرنسكي — كانت في عجزها كحكومة القيصر . ثم تمرّد بحّارة الاسطول في كرونستاد وأنشأوا مجالس سوفيتية . فلما رفض الجيش تنفيذ خطة الهجوم التي اعدّت لشهر يونيو ، بدأ البولشفيك ينضمون رويداً رويداً الى لنين ، ويسلمون بآرائهِ . ولكنهُ اضطرّ في خلال ذلك ان يبتعد عن بتروغراد الى ان تسنح الفرصة التالية للثورة فذهب الى فنلندا ، وجعل يرقب الحوادث من هناك ، وكان على اتصال دائم بحزبهِ ، فقال لهم يجب ان يكون شعارنا : — « السلطان للسوفيت ، والارض للفلاحين ، والخبز للجوعى ، والسلام لجميع الناس » . كان هذا شعاره الذي يؤمن بهِ ، وقد اتيح لهُ ان يعيش حتى يحققهُ

ثورة نوفمبر

عاد لنين الى بتروغراد في نوفمبر ، متخفياً . وفي جلسة عقدها الحزب البولشفيكي ، ودامت طوال الليل اقنعهُ بوجوب الاضراب ضدّ حكومة كرنسكي . فأنشىء حرس احمر ، ونظمت المجالس السوفيتية التي اكثريتها من البولشفيك للتمهيد ، لذلك الاضراب . وفي ليلة ٦ نوفمبر (كان يوم ٢٤ اكتوبر بحسب التقويم الروسي اليولياني) اعلن لنين وتروتسكي الثورة بالتلفون . كانا حينئذ على اتصال بالاسطول الروسي في كرونستاد وبالحرس الاحمر ، وبالذين عهد اليهم في قطع خطوط المواصلات حتى لا تستطيع حكومة كرنسكي طلب النجدة . قال تروتسكي لهؤلاء . اذا لم تستطيعوا تحقيق ما عهد اليكم بالكلام فاستعملوا السلاح

فلما استيقظت بتروغراد في الصباح كان البولشفيك قد تقلدوا زمام الاحكام وأنشأوا مجلس قوميسيرية الشعب لتوليها . وقد كتب تروتسكي في سيرتهِ وصف ذلك قال : — من دون اضطراب

ومن دون حرب او سفك دماء ، احتلّ الجنود او البحارة او الحرس الاحمر ، داراً بعد اخرى ، بناء على اوامر صادرة من معهد سمولني (مركز ادارة الحزب البولشفيكي) . ومن محاسن ما يرويه تروتسكي ، انهُ عهد الى بحّار انكليزي يدعى ماركن في حماية مخازن الخمر ، حتى لا يستولي عليها الثوار ويسكروا بها ؛ فلما عجز عن حمايتها حطّم زجاجاتها فجرت الخمر في مجاري المدينة الى نهر النيفا

كان العمل الذي اتخذته الحكومة الجديدة على عاتقها ، من وراء المقدرة الانسانية . « السلطان للسوفيت » . لقد انشئت مجالس السوفيت في بتروغراد وموسكو وكرونستاد . ولكن لا بدّ من اقناع سائر البلاد الروسية ، باقتفاء أثر هذه المدن . « الارض للفلاحين » . نعم لا شك في ان الفلاحين لا يتوانون عن اغتصاب الارض ولكن المشكلة كلّ المشكلة في توزيعها بالعدل على جميع الناس. «الخبز للجوعى». لقد صادرت حكومة السوفيت ، الغذاء والخبز ، ووزعت التذاكر على مؤيديها ، وجعلت تمنح كل حامل تذكرة نصيبهُ من الاغذية المصادرة . اما الذين يقاومون السوفيت فليموتوا جوعاً . و « السلام لجميع الناس » . ان الحوائل التي تحول دون تحقيق هذا الغرض ، يصعب تخطيها . فروسيا مرتبطة بمعاهدة مع الحلفاء بأن لا تنفرد في عقد الصلح . ولكنّ البولشفيك انكروا هذه المعاهدة وانكروا كذلك ايّة رابطة تربطهم بالحلفاء . قالوا ان الحرب هي حرب الرأسماليين ، وليست حرب الشعب الروسي . وكذلك اقترح ، في ٢٠ نوفمبر عقد هدنة مع المانيا واحلافها ، وفي ٢٠ دسمبر عقد مؤتمر الصلح في مدينة برست ليتوفسك

كان مؤتمر برست ليتوفسك من اغرب المؤتمرات . هنا على جانب واحد من المائدة الخضراء ، كان ممثلو المانيا الامبراطورية حملة القاب فخمة ، يقابلهم على الجانب الآخر ، تروتسكي ، ابن فلاح يهودي ، منفوش الشعر ، قضى حياته بين السجن والمنفى . وما كان تروتسكي يحمل في حقيبته شيئاً يستطيع ان يساوم به . ذلك ان روسيا نفسها كانت قد طلبت عقد الهدنة ، لعجزها عن مواصلة الحرب ، فكأنها قد هزمت ، وللمانيا الحق في ان تملي شروطها عليها . ولكن ثلاثة اشهر انقضت ، قبلما وقّعت المعاهدة . في خلال هذه الاشهر الثلاثة ، ماطل تروتسكي وجادل وناقش ، حتى امتلأت صحف العالم ، بأنباء المؤتمر . فكان مؤتمر برست ليتوفسك اعلاناً عظيماً للحكومة البولشفيكية الجديدة . فلما نشرت مواد المعاهدة تبيّن انها شديدة كلّ الشدة وبمقتضاها سلمت روسيا بخسارة اوكرانيا وبولونيا وفنلندا ولتوانيا واستونيا ولتفيا اذ منحت هذه البلاد استقلالها. وخسرت بلاد القوقاس ايضاً لتركيا . وكذلك خسرت روسيا ، ربع سكانها ، وثلاثة ارباع حقول الحنطة في بلادها . وفرضت عليها غرامة قدرها ستة ملايين مارك

كانت معاهدة برست ليتوفسك معاهدة املتها المانيا الظافرة . ولكنها في الواقع كانت نصراً لتروتسكي ، لانهُ احرز الاعلان المطلوب للحكومة الروسية الجديدة ، حالة ان المانيا ، وهي لا تزال مشتبكة في الحرب مع الدول الاخرى ، لا تستطيع ان تنفذ شروط المعاهدة بالسيف . وعاد تروتسكي من برست ليتوفسك الى بتروغراد ، لينظم الجيش الاحمر لمقاومة اعداء النظام الجديد

٢ — الثورة الالمانية

كانت المانيا ، في مستهل سنة ١٩١٨ في خطر من نشوب ثورة فيها ، كما كانت روسيا في مستهل السنة السابقة . ففي يناير سنة ١٩١٨ اعلن اضراب عام في برلين فبطشت الحكومة باصحابه . واضطر العمال ان يعودوا الى العمل بالقوة . وفي يوليو اعدّ اركان حرب الجيش الالماني ، خطة هجوم ، ظنّ كلُّ الخبراء العسكريين ان نجاحها مكفول . ذلك ان روسيا كانت قد خرجت من الحرب ، وايطاليا قد هزمت ، فاستطاع الالمان ان ينقلوا وحدات جيشهم الى الجبهة الغربية . ولكن الخطة منيت بالخيبة . واخفق الالمان في معركة المارن الثانية ولم يخترقوا صفوف الحلفاء . فَسرَتْ موجة يأس وقنوط في طبقات الامة الالمانية

وتلا معركة المارن الثانية ، هجوم الحلفاء . وانسحبت بلغاريا من المعترك في سبتمبر . وتركيا في اكتوبر ، وكانت المانيا قد سئمت حكامها ، فدعي البرنس ماكس اوف بادن — وهو من الاحرار — لانشاء وزارة . واشار الجنرال لودندورف على البرنس ماكس ، في ٣ اكتوبر بان يبعث الى رئيس الولايات المتحدة الاميركية ، بمذكرة يقترح فيها المحادثة في عقد الصلح على اساس شروطه الاربعة عشر ، وكان ولسن قد اقترحها اساساً للصلح في خطبة اذاعها في يناير سنة ١٩١٨ وبمقتضاها كان يتعين على المانيا ان تخلي البلجيك وروسيا والبلقان ، وان تتخلى عن الالزاس لورين لفرنسا ، وتمزّق معاهدة برست ليتوفسك الجائرة مع روسيا . هذا من حيث تخطيط الخريطة الاوربية . اما من حيث المبادىء العامة ، فقد اقتراح ولسن في خطبته المشار اليها ، عقد معاهدات السلام في جلسات علنية ، ويجب ان تنطوي هذه المعاهدات ، على حرية البحار المطلقة وازالة الحواجز الاقتصادية على قدر الامكان وانشاء مساواة بين الامم في احوال التجارة

وجاء نبأ المذكرة التي بعث بها البرنس ماكس ، طالباً الصلح على أساس شروط ولسن ، ضربة اقسى من الاخفاق في معركة المارن ، على القوة المعنوية الالمانية . واذن فليس مما يبعث على الدهشة ان يرفض الاسطول الالماني ، تنفيذ الاوامر الصادرة اليه في أواخر اكتوبر ، بالخروج من ولهلمزهافن ومهاجمة شواطىء البلجيك . وفي الحال وزعت وحدات الاسطول على اربعة مرافىء المانية وكذلك اجتنب حدوث تمرّد بين رجاله . ولكن ذلك لم يطل . ففي ٤ نوفمبر ، احتلّ بحّارة السفن المرابطة في كيل ، مدينة كيل ، وطالبوا بالاعتراف بمجالسهم السوفيتية ، فسيّرت فرقة من المشاة عليهم ، ولكن الجنود سلّموا سلاحهم ، وانشأوا مجالس سوفيتية خاصة بهم . وفي ٥ نوفمبر ، رفع العلم الاحمر على وحدات الاسطول الالماني في كيل

وكذلك تحوّل التمرّد الى ثورة سياسية . كانت المدن الالمانية على شواطىء بحر بلطيق ، قد رفعت العلم الاحمر ، وكان البحّارة والجنود والعمال ، قد قبضوا على زمام الامر فيها وانشأوا مجالسهم السوفيتية . اما في بافاريا الكاثوليكية ، فقام رجل يدعى كورت أيسنر — وهو كاتب

مشهور — وقاد مظاهرة ضدّ مواصلة الحرب ، وتمرّد الجند ، وفي صباح ٩ نوفبر ، استيقظ سكان بافاريا فرأوا في الشوارع الواحاً تعلن ان بافاريا اصبحت جمهورية حرّة مؤلفة من مجالس الجنود والعمال والفلاحين السوفيتية . في ذلك اليوم نفسهِ ، انفجرت الثورة في برلين ، وكان البرنس ماكس قد اقنع الامبراطور غليوم في الصباح ، بوجوب التنازل عن العرش ، ومغادرة البلاد ، لان ذلك هو السبيل الوحيد ، لاجتناب نشوب حربٍ اهلية . ولكن التنازل عن العرش جاء متأخراً ، فلم ينجّ الحكومة من السقوط . في الصباح اعلن اضراب عام ، ورفضت الجنود ان تطرد الجماهير من الشوارع ، فاستقال البرنس ماكس ، وتولى ايبرت زعيم الجناح الايمن من حزب الاشتراكيين الدمقراطيين (وهو يقابل المنشفيك في روسيا) تأليف حكومة اشتراكية معتدلة ، واجتمع ممثلو مجالس السوفيت الخاصة بالجنود والعمال ، لوضع نظام للحكومة المحلية

على ان الشيوعيين لم يرضوا عن سمة الاعتدال في هذا الانقلاب فاشتبكوا في بعض معارك في شوارع المدينة بعد ما ارخى الظلام سدولهُ

لم يقتل في خلال النهار اكثر من خمسة عشر رجلاً ، راحوا فدية الانقلاب من النظام الامبراطوري الى الحكم الشعبي في المانيا . وتبع سقوط آل هوهنزولرن سقوط نحو عشرين بيتاً من البيوت المالكة في الدول الالمانية . وكذلك اصبحت المانيا جمهورية برآسة ايبرت ، صانع السروج

***

كانت المشكلة الاولى التي واجهتها الحكومة الجديدة ، مشكلة انهاء الحرب . كان البرنس ماكس قد بعث بالسياسي ارزبرجر ، لمفاوضة فوش في عقد هدنة . فكانت الشروط التي املاها فوش ، شديدة صارمة ، ومنها انشاء منطقة حياد على ضفة الرين الالمانية ، وتسليم جميع مدافع الجيش الالماني وطياراته ، وسفن الاسطول . ولكن الالمان اضطروا الى التسليم بها في ١١ نوفبر ، وهم يرجون ان تكون شروط الصلح اقلّ صرامة منها . الم يقل ولسن ان شروطه الاربعة عشر سوف تكون اساساً لمعاهدات الصلح ؟

وكانت المشكلة الثانية التي واجهتها الحكومة الجديدة ، مشكلة تغذية الامة الالمانية . ذلك ان الثورة كانت قد حالت دون انتاج المواد الغذائية فمات كثيرون جوعاً . وفي الشهور الثلاثة الاولى من عهد الجمهورية زادت وفيات الاطفال ثلاثة اضعاف . ولولا جمعيات الغوث الاميركية ، لفشا الموت جوعاً في المانيا الجمهورية

اما المشكلة الثالثة فكانت معالجة المقاومة العنيفة للجمهورية ، من ناحية الحزب الشيوعي المعروف بحزب « سپارتاكس » . ففي ٩ نوفبر طلب الشيوعيون ، تحديد يوم العمل بست ساعات واستيلاء الامة على البنوك والارض والصناعات والتنازل عن السلطة للمجالس السوفيتية . وكان حزب ايبرت ، حزب الاشتراكيين الدمقراطيين ، يؤمن بالحكومة البرلمانية ، ورغماً عن المظاهرات العنيفة التي قام بها الشيوعيون ، قرّرت الحكومة اصدار الاوامر لانتخاب جمعية تأسيسية

ولكن زعماء الشيوعيين امثال ليبنخت وروزا لوكسمبرج ، قرّروا ان يكافحوا ، على مثال ما كافح لنين ، لجعل المانيا شيوعية . ولكنهم كان يعوزهم عبقرية لنين . ففي ٦ يناير ١٩١٩ احتلّوا ادارات الصحف ووزارة الحربية ودار محطة برلين ، ولكنهم لم يتمكنوا من الثبات فيها ، واضطرّوا الى التراجع امام النار التي اطلقها عليهم فلول الجيش الامبراطوري . وقد كتب احد الذين شهدوا تلك الايام في برلين قال : « ولو كان للسپارتاكيين زعماء حربيون ، واستبدلوا الكلام والخطابة بالحرب ، لسهل عليهم اخراج الحكومة الاشتراكية من الولهلمستراس واقامة النظام السوفيتي في برلين » . ولكن ثورتهم تبعها ، نوع من حكم الارهاب في برلين ، وقبض الجمهور على ليبنخت وروزا لوكسمبرج وهما في طريقهما الى السجن وقتلا شرّ قتلة

***

ومع انخذال السپارتاكيين في فتنة ٦ يناير ظلّ الغموض يكتنف المصير النهائي بين المعتدلين والمتطرفين . فالبرلمان الجديد انتخب ايبرت رئيساً للريخ ، ولكن السپارتاكيين رفضوا ان يعترفوا بالبرلمان . وفي مارس ، احتلّ السوفيت في برلين ، الجانب الشرقي من المدينة . ولولا العوبة ابتدعها نوسكي Noske وزير الدفاع ، لكان الشيوعيون فازوا في احداث الانقلاب . ذلك ان نوسكي اعلن للصحف ان الشيوعيين قتلوا ستة وخمسين رجلاً من رجال البوليس ، وذكر اسماءهم واحداً واحداً فانقلبت الامة على الشيوعيين . وكذلك تمكن نوسكي من اخماد الثورة بعد اربعة ايام من القتال ، سقط في خلالها ١٢٠٠ قتيل في برلين . وخمد الاضطراب في النواحي الاخرى ، بعد تسليم يسير، لمطالب السوفيت ، في كونجسبرج وبرسلو وسيليزيا العليا وهمبرج وغيرها

خبا صوت الشيوعيين ، حتى الربيع واذا الاضراب يتلو الاضراب في المناطق الصناعية في الرور واسن . ولكن الحكومة تغلبت على المضربين بالحكم العرفي ، ومنع الطعام عن المناطق المضربة حتى يعود العمال الى العمل . وحدث شغب في مجدبرج وبرنسويك ودرسدن . اما في مونيخ فلما اغتيل آيْسنر قام الشيوعيون يحتجّون واعلنوا انشاء جمهورية سوفيتية ثانية . ولكن نوسكي لم يلق صعوبة كبيرة في تحطيم سوفيت بافاريا . وكذلك ضعف شأن الشيوعيين في المانيا . فلما اديلت المانيا من مؤتمر الصلح تلك الضربة القاسية — معاهدة فرساي التي اعلنت في ٨ مايو ١٩١٩ — نسي الالمان الحرب الاهلية ، واجتمعوا حول حكومة الرئيس ايبرت

***

في كلا روسيا والمانيا ، فرضت الحرب العالمية على الامة بواسطة حكومة اوتوقراطية . وفي كلا الحالين ، افضت الحرب الى ثورة . وفي كلتا الثورتين ، انشئت اولاً حكومة حرّة ، (حكومة البرنس لووف وحكومة البرنس ماكس) . اما المانيا فكان فيها طبقة متوسطة قوية احتفظت بالحكومة البرلمانية والنظام الرأسمالي . وأما في روسيا ، فان الطبقة المتوسطة تخاذلت امام حكومة العمال ، يقودها ويدير دفتها نبوغ لنين

المشكلات الاجتماعية الكبرى في الشرق العربي

النهضة التركية الكمالية

او الحياة بعد الموت

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

دعونا النهضة التركية عقب الحرب العالمية « كمالية » للقسط الوافر الذي استقلّ بهِ الغازي مصطفى كمال باشا في احداثها وهي تختلف عن الفاشستية والنازية اختلافاً جوهريًّا في انها لم تكن تغلّباً حاسماً فقط على حكومة من ابناء البلاد برأسها خليفة تحفُّ بهِ العقائد المتوارثة بل كانت ايضاً انتصاراً باهراً في ميدان الحرب على دولة اجنبية يعضدها الحلفاء وفي مقدمتهم انكلتره وانقاذاً للشعب التركي من الاضمحلال حتى اذا كان هنالك شيءٌ يدعى حياة بعد الموت فهو تجدد شباب تركيا بعد الهرم ونهوض ابنائها ينفضون تراب الموت السياسي عن وجوههم . لا جرم ان هذه النهضة اتخذت شكلاً عسكريًّا منذ ما تألفت لان رجالها من الجنود وفيها جميع الفضائل والنقائص التي عرفت في اعمال الرجال العسكريين ، ولم تبلغ المانيا في ادق ساعات محنتها ولا ايطاليا في اشأم ازماتها ما بلغتهُ تركيا يوم احتلّ الحلفاء عاصمتها وسخر الانكليز الجيش اليوناني لاكتساح ازمير وداخليتها وامضى الخليفة محمد السادس حفيد محمد الفاتح ! معاهدة (سيفر) الطافحة بالمخازي والحافلة بالنصوص القاضية على الحياة القومية التركية قضاءً مبرماً . فقد تنازل فيها هو وحكومته والمجلس الاعلى الذي عقده عن تراقيا وازمير وداخليتها وجانب من الدردنيل لليونان وسمحوا بتأليف دولة ارمنية في لب بلادهم وسجلوا على انفسهم ديوناً باسم تعويضات لا يمكن اداؤها الا اذا عاشوا ابد الدهر في ربقة الذل واعادوا سلطة الامتيازات الاجنبية الى سالف مجدها فرضوا ان يكونوا وهم في بلادهم ادنى مرتبة من الاجنبي النازل بها وقبلوا الاَّ يكون لهم جيش او اسطول لا في الغبراء ولا على ظهر الماء ولا في كبد السماء . وقصارى القول انهم وضعوا المناديل في اعناقهم ورفعوا ايديهم بالاستسلام ، وما دوّنا هذه الخلاصة المخزية الاَّ لنبين للقراء في العالم العربي كيف تعمل الهمة الثابتة والعزيمة الصادقة في انهاض الركب المقعدة ، وكيف تكون الحياة بعد الموت ، وفي ميسورهم الآن ان يفسروا الانقلاب

الكمالي الخطير من وجهتيهِ السياسية والاجتماعية . وغني عن البيان ان الوطنيين الترك ارادوا من الوجهة السياسية ان يكونوا قبل كل شيء اسياداً في بلادهم فضمنوا هذه السيادة بحجة السلاح الدامغة ، لان الذي يملك القوة لايحتاج الى برهان آخر ، ثم طهروا بلادهم تطهيراً سياسيًّا من الطراز الاول وذلك بالغاء التدخل الاجنبي الغاء صريحاً باتًّا حتى صارت « الاجنبية » في تركيا الحديثة وبالاً على صاحبها وسبباً من الاسباب التي تحسب عليهِ بدلاً من ان تحسب له . فاذا اراد اجنبي اليوم ان يباشر عملاً مجدياً في تركيا فضَّل ان يكون له شريك وطني يحميهِ عند الحاجة بخلاف ما يعمله الوطنيون في بعض البلدان العربية حيث يبحثون عن الشريك الاجنبي لتحقيق هذه الحماية ، ثم لم تعد مسألة الارمن مسألة انشاء دولة ارمنية في لب الاناضول ولا قضية اليونان قضية تأليف امبراطورية يونانية على انقاض الدولة العثمانية بل المسألة كلها التوسل بالطرق الممكنة للمحافظة على البقية الباقية من هذه « الاعضاء الأثرية » في تركيا الحديثة كما حرص علماء الانسان عبثاً على المحافظة على الافراد القلائل من اهل (تسمانيا) الذين انقرضوا على بكرة ابيهم في اواخر القرن الماضي . ومما يدل على مقدار التأثر في الذهنية التركية مما اصابها من الكبرياء الاجنبية في البلاد ان منشأة دولية في الاستانة تابعة لسكة حديد الشرق ومراكب النوم فيها غفل مديرها الايطالي في السنة الماضية فحرم على المستخدمين الوطنيين ان يتكلموا بلغتهم على التلفون — يعني حرَّم على الترك ان يتكلموا بالتركية في الاستانة !— فكان الويل وكان الثبور وكانت عظائم الامور . ولولا هربه من شباك المكتب لهجم عليهِ المتجمهرون من الموظفين والطلبة وعلموه درساً لن ينساه في احترام اللغة التركية . فاين هذا مما نعانيه في بعض اقطار العالم العربي حيث تكتب الاعلانات حتى للوطنيين باللغات الاجنبية ، وفي بعض مسارح السينما تترجم المناظر بالانكليزية والفرنسية بل باليونانية ايضاً ولا تترجم بالعربية ، وان ترجمت فقد توضع على لوح حقير في الزاوية المهملة وبلغة مغلوطة لا تنطبق على المعنى . كل ذلك احتقاراً لها — ومن احتقر لغة فقد احتقر اهلها . وحدث لي في سبتمبر الماضي انني ارسلت تعزية الى بغداد بوفاة الملك فيصل فأبت شركة (ايسترن) قبولها لانها مكتوبة بالعربية مما حملني على ارسالها بواسطة شركة ماركوني ، يعني ان بعض الفرنجة يأبون علينا ان نتخاطب في اقطارنا بلغتنا ، والغريب ان يجري ذلك كله امام الوطنيين من غير اقل ملاحظة فعالة تبدر منهم كأنَّ الامر لايعنيهم ما داموا قد تعلموا تلك اللغات الاوربية وامتازوا على سائر اخوانهم في الوطن بفهمها فكأن هذه الرشوة الادبية التي فرحوا بها ألهتهم عن ذاك الواجب المقدس

***

وقد دلني الاستقراء في الشرق والغرب على ان معيار حب الاستقلال في الامة يكون على قدر حرمتها للغتها وسعيها لانعاشها ، وان الذي لا يغار على لغته لا يغار على أمته

وتدل مثل هذه المظاهر في الترك على ما تأصل في نفوسهم من النفرة من الحالة السياسية التي كانوا عليها ومن تسلط الاجانب عليهم في عقر دارهم ليس فقط بالامتيازات الاجنبية المضنية التي كان هؤلاء يتمتعون بها بل بالمظاهر الاخرى اللغوية والادبية التي تجعل للاجنبي ميزة على ابن البلاد، وقد تعدت محاربة الوطنيين الترك السياسة الاجنبية التي خضعت لها الدولة العثمانية في الماضي الى محاربة الاوضاع السياسية التركية الماضية نفسها ، وساعد على ذلك خنوع السلطان محمد السادس وحكومته واقدامهم على امضاء معاهدة ستبقى رمزاً لانحلال الخلافة العثمانية وزوال كل اثر من آثار عظمتها . فاذا اضفنا الى هذا العمل المزري ان الخلافة في السنين الاخيرة ولا سيما في زمن السلطان عبد الحميد كانت بؤرة الرجعى وموئل الجامدين ومحط آمال المتطرفين من اهل المحافظة ادركنا الاسباب التي أوجدت حول الغازي من جاراهُ من المخلصين على الغاء الخلافة من تركيا ومحو أثرها من ادمغة الترك ومحاربتها في البلاد الاخرى خشية تأثيرها في البقية الباقية من المؤمنين بها

***

ولكن سيبقى السؤال الآتي ماثلاً في اذهان الكثيرين من الاختصاصيين بالشؤون السياسية العالمية — ناهيك بمن يعنون بالشؤون الدينية الاجتماعية — وهو : ألا تستطيع النهضة التركية الحديثة ان تحتفظ بالخلافة اداة للسياسة الخارجية كما تفعل اوربا العلمانية التوسعية في اعتمادها على الاكليروس وان تمنع جولانها الداخلي بحصرها في منطقة معينة لاتتعداها ؟ ومما لاشك فيه على الاطلاق ان خلافة روحية عليها مسحة من تقديس القرون الوسطى قد تكون بأيدي الكماليين في مثل البحران السياسي العالمي الحاضر سلاحاً ماضياً فيما لهم من العلائق بالدول الاوربية. قال (دليزل بورنس) في كتابه السياسة الدولية (١)

« اما الاسلام فهو الدين الثالث العظيم ذو الشأن الدولي ، والحج السنوي الى مكة من جميع الاقطار الاسلامية هو موضوع اهتمام السياسيين والموظفين ، فانه يربط برباط واحد أبعد الاقوام وهو السبيل لنشر الآراء والسياسة في جميع البلدان الاسلامية . . . ويجوز ان يؤثر الاسلام في الموقف الدولي نظراً لوجود عدد كبير من المسلمين تحت الحكم البريطاني ، مما يدعو بريطانيا خاصة الى تجنب جرح عواطف المسلمين » . وبعد ما اشار الكاتب الى التنافس بين انكلترا وفرنسا في آسيا والى الاعانات التي جمعت للدولة العثمانية في الهند في ابان حربها مع الروسيا سنة ١٨٧٧ والى الاحتجاجات التي طيرها الهنود على ايطاليا لمهاجمتها طرابلس الغرب ومقاومتهم العنيفة لفكرة تمزيق تركيا في سنة ١٩١٩ قال «واخذت فرنسا تشعر بموقفها الاسلامي في مراكش وافريقيا الوسطى وربما في سورية ايضاً ، وقد يؤثر هـذا الحال في سياسة فرنسا الخارجية . . . وعلاوة على ذلك فالاقوام

(١) International Politics p. 43

والامم الاسلامية لها شيء مشترك بينها يفوق الآراء اللاهوتية: فالاسلام هو قانون للحياة والشريعة الاسلامية حقيقة سياسية ... وعلينا ان نتذكر ان العقائد الدينية الاسلامية بل الافكار السياسية الاسلامية هي المستولية في بعض اجزاء الهند، وفي فارس، وتركيا وآسيا الصغرى وبلاد العرب وبين جميع السكان القاطنين في افريقيا شمال الدرجة الخامسة عشرة من الطول الشمالي »

***

اما وقد خطا الترك هذه الخطوات الواسعة في الميدان السياسي فلا عجب ان تتناول حربهم التجددية الميادين الدينية والاجتماعية والتشريعية وما الى ذلك من الاوضاع الادبية، فالاساليب التي نجحت في الحرب وحققت للترك استقلالهم السياسي استهوتهم ايضاً في هذه الميادين فانبروا يتركون كل شيء حتى القرآن، وأخذوا يطهرون على زعمهم التركية من العربية والفارسية ظنًّا منهم ان الاستقراض في اللغة حالة مثل الاستقراض في المال، وفاتهم انهم بعملهم هذا يحرمون لغتهم من اكبر المزايا التي تشاركها فيها الانكليزية اعظم اللغات الاوربية انتشاراً. وكم ندبنا حظنا معاشر العرب لان لغتنا محافظة وهي شديدة النفرة من مثل هذا الاستقراض، ونظرة واحدة في المدونات العلمية الحاضرة في شتى اللغات الاوربية الحية كافية لاقناع اشد المطهرين الترك تطرفاً، بالخدمات الجلّى التي تقدمها اللاتينية واليونانية للعلماء، وقد يستظهر الطبيب او المحامي الانكليزي او الفرنسي او الالماني المئات او الالوف من الكلمات المشتقة من هاتين اللغتين من غير ان يشعر بأقل غضاضة وطنية

***

ومن المهازل التاريخية التي تدل على سرعة الانتقال من الماضي الى الحاضر ان الذي كان يذهب من العرب الى المشنقة في سنة ١٩١٥ وما بعدها بتهمة الخيانة للخليفة صار له زميل يقابله من الترك يذهب الى المشنقة في سنة ١٩٢٥ وما بعدها بتهمة الدعوة الى الخلافة !

وتعد النظم المتعلقة بالاحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث من اشد النظم ثباتاً ومحافظة ومع ذلك فقد تخلى الترك عما لهم منها بجملته واستبدلوا به احدث النظم التي نبتت في ديار الغرب مع تعديل طفيف لا يعد شيئاً مذكوراً

***

وقصارى القول ان تركيا من الوجهة العلمية التاريخية هي حقل تجارب تشبه مخابر البيولوجيين وقد تكون سائرة في سبل اصلاحية لم نألفها او لا نقرها، ومن الصعب جداً الحكم على مصيرها الاجتماعي النهائي. وان كانت بوادر النجاح الاقتصادي السياسي تلازمها ملازمة جلية في مراحلها كما يتضح من مقابلة الادوار التي مرت فيها منذ نهاية الحرب العالمية الى اليوم، ولا مشاحة في انها

باعتمادها على السلاح وعلى سواعد ابنائها قد سلكت السبيل التي يجب على كل امة تطلب الحياة ان تسلكها ، وفي وسعنا ان نتخذ منها حجة على الذين يزعمون ان الثورة لا تأتي بطائل . فلو احنى الوطنيون رؤوسهم للخليفة محمد السادس وحكومته وسجلوا على تركيا معاهدة (سيفر) المريعة فأين يكون الترك اليوم ؟ وماذا تنفعهم عصبة الامم المتفسخة وعهدها الذي لا يتجاوز جدرانها ؟ ثم ان الانقلاب الذي تم فيها حتى الآن قد سار بها شوطاً مهما تراجعت بعده لن تكون قريبة مما كانت عليه بوجه من الوجوه ، وهي في تنظيمها الاقتصادي ومقاومة الشرور التي تنطوي عليها الرأسمالية المتطرفة ، وفي تشجيعها العمل ومحاربة البطالة وفتح المعابر والطرق ومد السكك الحديدية وتسهيل المواصلات تسير سير الفاشستية ، ولممثليها السياسيين ومندوبيها في المؤسسات الدولية كلمة مسموعة على قدر جيشها المدرَّب وسلاحه الماضي ، ولاول مرة في الجيل الحاضر ازل زعيم شرقي بقوة السلاح رئيس وزارة دولة اوربية معظمة مثل المستر لويد جورج عن دست الوزارة بعد ما كان يدعى « منقذ بريطانيا » في الحرب العالمية

***

اما المجلس الوطني الكبير في (انقره) فهو مثال آخر على حبوط الطريقة البرلمانية القديمة في الامم الناشئة التي هي احوج ما تكون الى سرعة الانجاز في العمل ، وهو نسخة ثانية عن برلمان ايطاليا ، وكما يمثل هذا ارادة الدتشي كذلك يمثل ذاك ارادة الغازي ، بل ان موسوليني عاف اخيراً برلمانه ومل اجتماعاته التي صار يراها عطية وعلى غير جدوى فأمر بحله ، على ان الناظر الى هذين المجلسين لا يرى فيهما بالاجمال ما يرى في البرلمانات الديمقراطية الاعتيادية من المساجلات الفارغة المملة والاعتراضات التي لا يراد من معظمها الا اظهار كفاءة المعترضين او وضع العقبات في سبيل المشروعات لاغراض في النفس ، وقد تخسر هذه الطريقة الدكتاتورية في الاحوال القليلة الانتقادات الجوهرية المخلصة الثمينة التي تصدر من النواب الاكفاء الصالحين المستقلين ولكنها تعتاض عنها الاتساق وسرعة الانجاز وهو المطلوب في الدرجة الاولى في عصر الزعازع والعواصف

***

ويشعر العالم العربي بشيء من الامتعاض وخيبة الامل لمحاولة تركيا الحديثة صرم حبال المجد التي تربطها بتاريخنا المشترك ولكننا نرجو ان تكون هذه البوادر مظهراً اجتماعياً موقتاً من مظاهر النفرة من الماضي القريب فقط واحتجاجاً صاخباً على الجمود العتيق البالي ، ذلك لان الترك هم من صميم الشرقيين ولان الامة الحية ذات التاريخ الحافل بالحوادث اهون عليها ان تنسلخ من بلادها من ان تنسلخ من دواعي مجدها وفخارها

خطط الرئيس روزفلت

نتائجها وغرضها الاجتماعي البعيد

قل ما شئت في الرئيس روزفلت ، وانظر الى أعماله بعين الاقتصادي المحافظ ، او بعين الخصم الحزبيّ العنيد ، وشكّ ما اردت ان تشكّ في نتائج الخطط التي يختطّها ، والوسائل التي يتوسل بها ، افعل كل ذلك ، ولكنك لا تستطيع ان تتهمهُ بانهُ قابع في البيت الابيض ، مكتوف الايادي ينظر الى الازمة نظراً جامداً ، وهو ينتظر فعل الطبيعة الشافي او علاجاً الهيًّا يهبط عليهِ من السماء

فهو رجل قال من الساعة الاولى ما معناهُ « شعارنا العمل ، والعمل السريع . فاذا حال الكنغرس دون ذلك طلبنا ان يخوّلنا سلطة واسعة النطاق لتنفيذ الخطط التي نراها لتفريج الازمة » . وقال في رسالة بعث بها الى مجلس الامة : — « ان الاحوال الجديدة تقتضي وسائل جديدة للخلاص »

وقد مضى عليهِ تسعة اشهر في منصب الرآسة ، وهو آية في النشاط ودقة الاستجابة لمطالب الرأي العام . فانهُ بعدما انتزع من مجلس الامة ، القوانين التي تخوّله السلطة اللازمة ، لمعالجة الحالة في خلال عطلة المجلس ، عمد الى مشروع الانعاش الصناعي فأزال المنافسة الحادّة بين اصحاب الصناعات التي ترمي الى قهر الخصم ، ولا تسفر الاّ عن خفض الاسعار وتشريد العمال ، فكان من أثر هذا المشروع ، رغم المعارضة القوية التي لقيها ، ان ارتفعت اسعار المصنوعات ، وأجور العمال وعاد نحو مليونين ونصف مليون من العمال المتعطلين الى العمل . ثم ادرك ان هذا لا يكفي في بلادٍ فيها نحو ١٢ مليون عامل متعطل عن العمل ، وان رفع الاسعار وأجور العمال لا يجدي الاّ اذا قابله من ناحية الجمهور اقبالٌ على الشراء ، والاقبال على الشراء لا يتمّ الاّ اذا تداول الناس النقود ، اجوراً لعملٍ يقومون بهِ ، فأخرج مشروع الاعمال العامة ، ولكن تنفيذهُ تأخر لاسباب فنيّة . ثم تبيَّن ان اسعار المصنوعات تتقدم اكثر من تقدم اسعار الحاصلات الزراعية ، وهذا يرفع اسعار المعيشة في نظر جمهور الزرّاع وهم طائفة كبيرة ، فعمد الى مساعدة الزرّاع وامدادهم بالمال على حاصلاتهم ، لقاء شروط معينة ترتبط بمساحة الاراضي المزروعة وغيرها . ثم رأى ان يعمد الى شراء الذهب في السوق الاميركية والاسواق الخارجية بتعيين سعرٍ له اعلى من سعر السوق ، فيخفض بذلك سعر الدولار ، واذا خفض سعر الدولار ارتفعت اسعار الحاصلات والمصنوعات ، وهو ما يتوخّاه . وسوف يمضي في هذه السبل جميعاً الى ان يبلغ مستوى الاسعار ما كان عليه سنة ١٩٢٦ . وهو متوسط اسعار البضائع والمحصولات بعد الحرب . وعندئذ يستطيع المدين ان يسدد دينه من دون ان يغبن

اذا نظرت الى خطط الرئيس روزفلت نظر الاقتصادي المحافظ ، تحيرت وفهمت الحيرة التي اصابت الدوائر المالية العالمية . ولكن اذا شئت ان تفهم ما يرمي اليهِ ، وجب ان تنسى مبادىء الاقتصاد الى حين ، وتعمد الى النظر في المسألة من ناحيتها السياسية والاجتماعية

ذلك ان الانتخابات التي تمّت من سنة لم تسفر عن مجرّد انتقال السلطة من هوفر الى روزفلت ،

او من الجمهوريين الى الدمقراطيين ، وانما كانت ثورة او انقلاباً ، بكل ما في الثورة والانقلاب من المعاني الصميمة . فهذا الانتخاب اسفر عن انتقال السلطة من أيدي الدائنين الى أيدي المدينين ، وهذا النزاع بين الدائن والمدين في اميركا يقابل الى حدٍّ بعيد ، النزاع الصامت احياناً والصاخب احياناً اخرى ، بين المتمول والعامل في اوربا . على ان الحزب الذي فاز ، اي الحزب الدمقراطي ، ليس حزب مدينين فقط ، ولا الحزب الذي خذل ، اي حزب الجمهوريين ، حزب دائنين فحسب . بل في كلا الحزبين عناصر قوية من الفريقين . وانما اتفق ان الحزب الجمهوري بعد بقائهِ في الحكم اثنتي عشرة سنة ، أصبح معروفاً بأنهُ خادم لمصالح فريق خاص ، هو فريق الدائنين . واما الحزب الدمقراطي ، فبعد قليل من التردد ، وقف موقف المدافع عن مصلحة المدين . وقد أسبغ عليهِ الرئيس روزفلت ثوباً خلاباً ، اذ دعاهُ « بالرجل المنسيّ » ، اي الذي نسيت مصالحه ولم ترعَ الرعاية اللازمة . فكان لهذه العبارة رنّة وأثر في الانتخابات فهذا الانقسام في حياة اميركا السياسية لهُ خطرهُ ، وقد فات بعض الناس في البدء ، ولا يزال فريق منهم يجهل ما لهُ من الشأن الخطير . فالرئيس صرح من البدء ، انهُ يرمي الى اعادة توزيع الثروة توزيعاً يقضي على سيطرة الممولين المطلقة ، على حياة الامة الاميركية ، وان الممولين في المستقبل يجب ألا يكونوا ، الا أمناء من قبيل الامة ، على ادارة المشروعات الكبيرة ، لقاء مرتب لا بأس بهِ . ثم قال انهُ في السير وراء غرضهِ ، لا يبغي ان يجري على المبادىء والاصول المعروفة ، بل سوف يبتدع وسيلة أثر اخرى ، بعضها قديم وبعضها جديد ، بعضها جرّب وبعضها لم يجرّب ، حتى يبلغ المحجة ويحقق الغرض

* * *

مضت ستة أشهر او تزيد على شروع الرئيس روزفلت والجنرال هيوجنصن وأعوانهما في تنفيذ مشروع الانعاش الاقتصادي الذي قصدا بهِ الى اعادة الرخاء في اميركا . وقد صرح الجنرال جنصن عند شروعهِ في تنفيذ الخطط الجديدة أنه في خلال شهرين يعرف مصيرها ، نجاحاً او اخفاقاً . ولما كانت المصاعب والعراقيل المنوّعة التي قامت في سبيل العمل ، لم تكن في الحسبان فقد كان من الانصاف ، ان يؤخر الحكم على المشروع او لهُ الى حين . والكلمة التالية نظرة اجمالية في نتائجهِ

كان غرض مشروع الانعاش سباعيًّا أهم وجوهه تقصير ساعات العمل ، وانعاش الصناعات الكاسدة ، ونقص العمال المتعطلين ، ومساعدة الزراع ، وزيادة مقدرة الجمهور على الشراء . فالحكم على المشروع يقوم بالنظر في هذه الاغراض ما حقق منها وما لم يحقق

كان الجانب الاول من المشروع الذي وضع موضع التنفيذ ، تقصير ساعات العمل ورفع مستوى أجور العمال . فوضعت الدساتير الصناعية لكل صناعة على حدة وأمضيت ، واستعمل الضغط والاجبار في بعض الاحيان لحمل أصحاب الصناعات المتلكئين على امضائها . فنقصت ساعات العمال ورفعت اجور العمال . ولكن النتائج لا تبعث على الرضى التام . لان تقصير ساعات العمل وزيادة الاجور للعمال ، يعنيان زيادة نفقات الصناعة والانتاج ، وهذا لا بدَّ ان يظهر في أثمان البضائع التي تظهر في السوق . حتى وزيرة العمل الاميركية المس بركنز ، تصرح اليوم ، بان المشكلة هي ايجاد طريقة لرفع الاجور

رفعاً حقيقيًّا لا رفعاً نسبيًّا ، إذ ما يجني العامل من زيادة اجوره ، اذا زادت نفقات معيشته ، مثل زيادة أجوره ، او فاقتها . فالأجور زادت ، ونفقات الانتاج ارتفعت ، وأسعار العروض تخطَّت ما كانت عليهِ وما تزال آخذة في ذلك ، ويظن بعض الخبراء ، أن اجور العمال الحقيقية سوف تصبح في آخر الشتاء ، أقل مما كانت في العهد السابق لروزفلت

وكان احد الاغراض كما قدمنا انعاش الصناعة الكاسدة ، والاحصاءات الاخيرة تشير الى نقص في انتاج الصناعات الثقيلة (كالصلب والحديد والفحم) في سبتمبر عن يوليو وأغسطس . ففي منتصف شهر يوليو الماضي كان انتاج مصانع الصلب ٥١ في المائة من الانتاج الذي تستطيعهُ . وهو الآن ٣٤ في المائة فقط . ونقص استهلاك القطن من ٦٧١ الف بالة في اغسطس سنة ١٩٣٣ الى ٥٧٥ الف بالة في سبتمبر (يقابلهما ٥٥٨ الف بالة في سبتمبر سنة ١٩٣٢) والاحصاءات من معظم الصناعات الاخرى ، تشير الاشارة نفسها ، لذلك ترى زعماء الصناعة منقبضين لهذه الحالة ، وبعضهم — ومنهم المستر فورد — يقاومون المشروع مقاومة سلبية . فيشتكون من أن الدساتير الصناعية أسفرت عن زيادة اضطرابات العمال . فالاضراب والشغب ، ممتدان من شاطىء المحيط الاطلنطي الى شاطىء المحيط الهادىء . ولذلك تراهم ينظرون نظرة تشاؤم الى الحال ، وخوفهم من زيادة نفقات الانتاج حمل بعضهم على نقل أعمالهم الى كندا . أما في مسألة نقص العمال المتعطلين فقد قصَّر المشروع عن الغرض الذي عينه ، مع ان ما تم لا يمكن ان يستصغر شأنه على الاطلاق فقد عين الجنرال جنسن يوم ٤ سبتمبر الماضي ، ميعاداً لاعادة ٦٠٠٠٠٠٠ عامل الى العمل . فلما حلَّ ذلك اليوم كان قد عاد مليونا عامل الى العمل فقط . واعادة مليوني عامل الى العمل في خلال شهرين ليس بالامر اليسير ، ولكن اذا نظرنا الى ان المتعطلين في اميركا كانوا يربون على ١٢ مليوناً ، عرفنا أي غرض بعيد ، وضعه الرئيس ومعاونه نصب عيونهما وقد زاد عدد العمال الذين عادوا الى العمل الآن الى نحو ثلاثة ملايين

وكان الظنُّ انه لا يلبث ان يوضع مشروع الاعمال العامة — الطرق والتحريج والمباني العامة — موضع التنفيذ ، حتى يحتاج القائمون به الى نحو مليون من العمال ولكن تنفيذ المشروع تأخَّر تأخراً غير منتظر ، لقيام العراقيل الفنية في وجه مديريه ، لان كل عمل من هذه الاعمال يحتاج الى دراسة مستفيضة من الوجهة الفنية والهندسية ، قبل اقراره ، واميركا بلاد مترامية الاطراف ، وهذه الدراسة لا يمكن اتمامها بسرعة ، على وجه يدعو الى الثقة

أما الحالة الزراعية فخطيرة كل الخطورة ، لان طوائف كبيرة من الفلاحين ، ثائرة على الحكومة فالاضراب والشغب ممتدان في الولايات الزراعية . وقد أنذر زعماء الفلاحين ، الرئيس روزفلت ، بانه اذا لم يفعل في الحال ، ما يساعد الفلاحين ، امتد الاضراب والشغب . وأصل البلاء ارتفاع اسعار المعيشة ، وهبوط أسعار الحاصلات . فما يشتريه الفلاح غال . وما يبيعه رخيص . ففي خلال اربعة أشهر من ١٥ ابريل الى ١٥ يوليو ارتفعت أسعار الحاصلات قليلاً . ووعد الرئيس بعمل كل ما يمكن عمله لرفعها كذلك . ولكن رغم ما توسلت بهِ الحكومة ، من حرق ٦ ملايين خنزير ،

وطمر القطن في الوف من الافدنة ، وإمداد زرّاع القمح بالنقد ، هبطت الاسعار ولم ترتفع . والفلاحون الاميركيون ، لا يستطيعون ان ينظروا الى المسألة من كل وجوهها ، ولا هم يدركون المصاعب التي تلقاها الحكومة ، والعراقيل التي تقوم في وجهها ، ولا هم يقدرون الجهود الجبارة ، التي يبذلها الرئيس واصحابهُ وعلاقة ذلك بالازمة العالمية . وكل ما يهمهم هو ان يزيد مقدار ما ينالونه من النقد ، لقاء قطنهم ولبنهم وخضراواتهم ، ليدفعوا بهِ ثمن ملابسهم وحاجاتهم الاخرى. فهم محنقون على الحكومة والاضراب والشغب ، اعراب عن حنقهم هذا. وقد حاول الرئيس وصحبه زيادة حركة البيع والشراء ، بالقيام بدعاية قوية عنيفة واسعة النطاق يدعى بها الشعب الى الشراء الآن كان شعارها «اشتروا الآن» . ولكن الدعاية لم تسفر عن نجاح كبير . فالاسعار آخذة في الارتفاع ، والناس وقد نُسعوا، ممتنعون عن الشراء ويميلون الى خزن دريهماتهم لليوم المطير

فالرئيس روزفلت يواجه حالة صعبة معقدة . لقد فقد كثيراً من أنصاره . وبعض أصحاب البنوك والصناعات ، بل كثير منهم ، يقاومونه والفلاحون جازعون لا صبر لهم على هذه الحالة . وقد كان اتحاد العمال الاميركي ، مؤيداً له ، وقد بدأ ينتقد . وتقلّب الدولار يحير التجار والصناع . والجمهور فقد شيئاً كبيراً من حماسته . والجنرال جنصن جانباً من ثقته . فانه لما خطب في ١٦ اكتوبر الماضي أشار الى وجوب ايجاد «طريقة للخروج من هذا المأزق» وما كان يعترف بهِ من قبل

بعد كتابة هذه السطور جاءت الانباء من الولايات المتحدة الاميركية ان صحة التفاؤل عادت الى الناس . فالاسعار عادت الى الارتفاع ، وزاد انتاج المصانع ، على ما يستدلّ من زيادة ما تنتجهُ صناعة الحديد والصلب ، ونشاطها في الغالب يؤخذ مقياساً لنشاط حركة الصناعة والتجارة في اميركا. وكان الاستاذ سبراغ خبير الخزينة قد صرّح يوم استقال ان حكومة روزفلت لا تلبث ان تفقد ثقة الناس بمقدرتها المالية ، ولكن الانباء الاخيرة تشير الى ان الثقة عالية بالحكومة لا تزال كالصخر الراسي والشعب من وراء الرئيس يؤيده في محاولاتهِ الجبارة يدلّ على ذلك استقرار الحال في المناطق الزراعية والمرجّح ان يكون الرئيس ، عند اجتماع مجلس الامة في يناير ، السيّد القابض على ناصية الحال

هذه هي الحالة ملخصة . أما مقاومة بعض العناصر لروزفلت فمفهومة . أصحاب المصانع والبنوك يقاومونه ، لان روزفلت لا يرمي فقط الى اعادة الرخاء الى اميركا ، بل الى اقامة الاجتماع الاميركي على أساس ، لا يكون المرابون والماليون أصحابَ السيطرة عليه . وهو يرمي الى تخفيف أعباء الديون الاهلية . والخاسر في ذلك الدائن و « البنكير » . قد يعيد المشروع الرخاء الى اميركا . وقد يفضي بها الى الفوضى . فاذا أفضى الى الفوضى فقد يكون روزفلت آخر الرؤساء ، على ما قال في نكتة لاحد أصحابه . ولكننا نميل الى الاخذ بأن نتائج مشروع الرئيس ، أعظم من ان يحكم عليها في الحال ، وأبعد ظهوراً من شهر أو شهرين ، وسنة أو سنتين . إنه يرمي الى تنظيم الحياة الاقتصادية بعد ما كانت الحياة الاقتصادية سائرة على فلسفة Laissez—Faire أي ترك الامور تجري في أعنتها وكل دور انتقال في التاريخ يصحبه نوع من الفوضى والاضطراب ، يحير البصر ويزيغ حكم المعاصرين

الحوادث الدولية

كانت سنة ١٩٣٣ حافلة بالحوادث الدولية الجسام . ففي يناير تقلّد هتلر منصب المستشار في دولة الريخ ، وفي مارس نصّب فرنكلن روزفلت رئيساً للولايات المتحدة الاميركية ، وما كاد يتسلّم مقاليد الرآسة ، حتى دعا رؤساء الحكومات المدينة لاميركا للمباحثة في شؤون الديون وبرنامج المؤتمر الاقتصادي العالمي فخفَّ في من خفَّ الى وشنطن المستر مكدونلد ممثلاً لبريطانيا والمسيو هريو ممثلاً لفرنسا ، وكانا لا يزالان في عرض البحر لما أعلن الرئيس حَظْر اصدار الذهب من الولايات المتحدة الاميركية . وفي يونيو اجتمع المؤتمر الاقتصادي العالمي في لندن . فظهر في الحال ان الاتفاق على المسائل الاساسية فيه متعذر ، لان الولايات المتحدة الاميركية ، رفضت تثبيت النقد ، وجارتها في ذلك بريطانيا . ففضَّ المؤتمر على ان تبقى لجنة دولية مهمتها ان تدعوه الى الاجتماع متى ظُنَّ ان احوال العالم الاقتصادية والمالية مواتية للاتفاق . ثم اجتمع مؤتمر نزع السلاح وفضَّ على ان يجتمع في اكتوبر فلما اجتمع ثانية في اكتوبر ظهر ان الاتفاق مع المانيا متعذر ، لانها رفضت الاقتراح الفرنسي القاضي بفترة طولها اربع سنوات لا يسمح لالمانيا في خلالها ان تتسلح . ولما اجتمعت جمعية الامم في سبتمبر واكتوبر ، وتبين لالمانيا انهُ لا يمكن تحقيق مبدإ المساواة الذي سلم لها بهِ ، هجرت جمعية الامم وخرجت من مؤتمر نزع السلاح في ١٤ اكتوبر . واجريت الانتخابات الالمانية في ١٢ نوفمبر ففاز فيها هتلر بتأييد يكاد يكون اجماعيًّا . وخشي ان يستعمل هذا الفوز لاحداث حدث في السياسة الدولية ، ولكنهُ عمد في الحال الى عقد معاهدة عدم اعتداء بين المانيا وبولونيا . وفي خلال ذلك انشأت دول الاتفاق الصغير شبه اتحاد سياسي اتفقت فيهِ على توحيد سياستها الخارجية ، وعقدت روسيا معاهدات عدم اعتداء مع جيرانها ، وفازت في نوفمبر باعتراف حكومة الولايات المتحدة بها ، وخرجت اميركا عن قاعدة الذهب ، وعمد روزفلت الى طريقة شراء الذهب في السوق الاميركية والاسواق العالمية لخفض سعر الدولار ورفع اسعار البضائع والمحصولات الاميركية ، ونشبت ثورة في كوبا ، وتقرَّبت تركيا من اليونان وبلغاريا ويوجوسلافيا ورومانيا، واحتفلت في ٢٩ اكتوبر بانقضاء عشر سنوات على انشاء الجمهورية. واحتفظت النمسا باستقلالها بتأييد فرنسا وايطاليا وبريطانيا واعلن المجلس الفاشستي الاعلى انهُ لابدَّ من اصلاح جمعية الامم . وتوالت الوزارات الفرنسية بعد سقوط وزارة دالادييه حتى فازت اخيراً وزارة المسيو شوتان في مجلس النواب والشيوخ بالموافقة على المقترحات المالية التي تمكنها من موازنة الميزانية الفرنسية ، وأسفر الانتخاب الاسباني في ١٩ نوفمبر عن اتجاه الى احزاب اليمين فحدثت حوادث شغب قام بها الشيوعيون والسنديكاليون . ولكن الحكومة قبضت على ناصية الحال وأُلِّفت وزارة راديكالية . وفي ٣ ديسمبر اجتمع مؤتمر الجامعة الاميركية في منتيفيديو عاصمة باراغواي والراجح انهُ يسفر عن تقلد جمهورية الارجنتين زعامة جمهوريات اميركا الجنوبية المتوسطة

قصي عليَّ قصة

لرابندرانات طاغور

اول ما يتعلَّم الطفل الكلام يقول لجدَّته : —

« قصّي عليَّ قصة »

فتبدأ الجدَّة بالحكاية قائلة : —

« كان في قديم الزمان امير وكان له صديق هو ابن الوزير . . . »

اما المعلّم فيقطع الحديث على الجدَّة بقوله : —

« حاصل ثلاثة مضروبة في اربعة يساوي اثني عشر »

ولا يفتأ اولئك الذين يغارون على صالح الولد يقرعون طبلة اذنه بقولهم :

« حاصل ثلاثة مضروبة في اربعة يساوي اثني عشر . وهذا القول حقيقة راهنة . اما قصة الامير فحديث خرافة . لذلك . . . »

ولكن قولهم هذا لا يحرك ساكناً في نفس الطفل لأن خياله قد طار به الى مجاهل قطر لم يرتده قط انسان، حيث ذبح الامير الجنّي . أما الحساب فلا اجنحة له ليحلق بالولد الى ذلك القطر النائي

فيهزّ حينئذٍ اولئك الذين يعنون بشؤون الطفل رؤوسهم قائلين : —

« لقد ساءت تربية هذا الولد . فلا خير منه يرتجى »

فيخرس كلامُ المعلم الجدَّة . ولكنّ راوية يتلو راوية في قصِّ القصص على الولد بلا انقطاع . وعبثاً يعيد النصحاء النصيحة على مسمعهِ بقولهم : —

« هذه قصص لم يسجلها التاريخ ، فهي روايات ملفقة كاذبة »

فمن المدرسة الابتدائية الى الاعدادية ، ومن المدرسة الاعدادية الى الكلية ، يحاول المصلحون تقويم أود الولد ولكن مساعيهم تذهب ادراج الرياح . فلا يستطيعون حمله على الاقلاع عن طلب القصة . فهو ابداً يلح قائلاً : — « اريد قصة »

نال جائزة نوبل الادبية سنة ١٩١٣

***

تتراكم القصص سنة فسنة في كل بيت من بيوت الناس في اقطار

عن كتابه
الزورق الذهبي

المعمور قاطبة سواء أكانت القصة مكتوبة ام مما يرويه الرواة ببنات شفاههم . فتغمر القصص كل ميراث آخر انتقل الى المرء من آبائه واجداده

ولكن قد فات المربين ان يعملوا الفكرة الصحيحة في هذا الامر وهو ان تصنيف القصص والروايات نزعة الخالق ذاته . فان لم تنتزع هذه العادة من نفس الخالق فليس في الاستطاعة نزعها من نفوس البشر

أخذ الخالق ، وهو منهمك في معمله ، يبني العناصر . وكان الكون يومئذ كتلة بخارية . فنضد الصخور والمعادن طبقة فوق طبقة ولو رأينا الخالق في ذلك الحين لما وجدنا أثراً لنزعة الطفولة فيه . وكل الذي صنعه حينئذ كان مما ندعوه الآن شيئاً جوهريًّا

ثم لاحت بوارق الحياة . فنما العشب وبسقت الاشجار . وظهرت الطيور والوحوش والاسماك . فبنى بعضها عشاشاً وسرح بعضها على سطح الارض ناشراً نوعه . اما البعض الآخر فاختفى تحت وجه الغمر

تعاقبت الدهور . وأخيراً في ذات يوم ابتدع الخالق الانسان . والى ذلك الحين كان شأن المبدع في بعض اعماله عالماً وفي البعض الآخر رازاً . اما يوم خلقه الانسان فاصبح فناناً أديباً

فأخذ يعلن النفس البشرية بحكايات يصنفها . لان الحيوانات اكلت ونامت وربت صغارها . اما حياة الانسان فتحركت في عناصر القصة — في تيار تكوّنت امواجه المتلاطمة من اصطدام الهوى بالانفعال والفرد بالمجتمع والعقل بالجسد والرغبة بالحرمان . وكما ان النهر ليس سوى جدول ماء جار كذلك الانسان فانهُ سيل تلفيق جارف . فاذا اجتمع آدميان فلا بد من ان يتساءلا قائلين : « ما الخبر ؟ ما الذي جرى ؟ » . اما الاجوبة عن هذا السؤال فقد حاكت شبكة عظيمة غطت وجه الارض . وما تلك الاجوبة سوى قصة الحياة — سوى تاريخ الانسان الحقيقي

فعالمنا سداه التاريخ ولحمتهُ القصّة . وليس تاريخ « اسوكا » [1]

ترجمة
عبدالمسيح وزير

(١) عاهل هندي بوذي مشهور ملك ٢٦٤ — ٢٢٨ او ٢٢٧ ق . م ويقول فيه المؤرخ كوبان « لو كان مقياس شهرة المرء عدد القلوب التي تحترم ذكراه والالسن التي لهجت ولا تزال تلهج بذكره لعد « اسوكا » اشهر من « شرلمان » و « قيصر »

و« اكبر » [1] الحقيقة الوحيدة في نظر الانسان . فقصة الامير الذي ارتاد الابحر السبعة في طلب الدرّة اليتيمة قصة حقيقية في نظره كتاريخ ذينك العاهلين . ولا فرق عنده بين حقيقة الانسان الخرافي وبين حقيقة الانسان التاريخي . لان بيت القصيد ليس الامر الذي يصح اعتمادنا عليه بل حديث الخرافة الذي يلذّ لنا استماعه دون غيره

والانسان تحفة فنية . فالخالق في ابداعه الانسان لم يُعْنَ جلّ عنايته بعنصره الآلي ولا بعنصره الاخلاقي ، بل بذل قصاراه في ابداع مخيلته . اما اولئك الذين يغارون على صالح الانسان ، فيحاولون ستر هذه الحقيقة . ولكن الحقيقة سرعان ما تشتمل فتحرق ذلك الحجاب . فينتهي الامر الى الفزع . فيحاول معلمو المدارس ومحبو الخير التوفيق بين النظام الاخلاقي وبين الخرافة . ولكن متى اجتمع الاثنان اخذ احدهما بخناق الآخر الى ان يُقْضَى عليهما كليهما فتعلو انقاضُ الخراب ركاماً

اشجان القمر

لبودلير
١٨٢١–١٨٦٧
الشاعر الفرنسي

— يحلم القمر الليلةَ في كسل متزايد
كأنهُ كاعب بارعة الجمال مستندة الى وسائد شتّى
تسمرُ على مدار ثدييها — قبل ان تهجع — يداً غافلة رفيقةً
— يستسلم القمر لغشيات طويلة كأنهُ مشرف على الموت
وهو مستلقٍ على ظهورٍ مصقولةٍ لجروف ليّنة
يسرّح بصرهُ في المرئيات البيض المتصاعدة في زرقة
الفضاء كأنها مجموعة ازدهارات
— واذا ارسل القمر دمعة خفية الى هذا العالم وهومسترخٍ متقاعد
يتلقّف شاعر ورعٌ ، عدوٌّ للنوم ، تلك الدمعة الشاحبة
ذات الاضواء الملوّنة كأنها قطعة من حجر الاوبال
ثم يجعلها في قلبه بنجوةٍ من عيون الشمس

[ترجمها بشر فارس]

---

(١) اعظم عواهل الهند المغوليين واسدهم رأياً . ولد سنة ١٥٤٢ م وتوفي سنة ١٦٠٢ م

الدسيسة

Conspriacy

لشكسبير ١٥٦٤—١٦١٦

ربّك يا دسيسة خبّرينا لأية خسّة تتحفزينا
وفي اي التلاع وأيّ ليلٍ ضريرِ النجم اقم تجثمينا
ومالك تمعنين وراء سترٍ فهل من قبح وجهك تخجلينا
وهل أحسست لؤمك فاستدارت بك الشبهات تنحلك اليقينا
واقسم لو اجنّك الف كهفٍ يضلّ بهيمُ ظلمتهِ السفينا
لشقّ الفجر ليلك واستطالت يدٌ تبتزُّك السرّ الدفينا
وصلد الزندِ ان الححتَ قدحاً عليهِ تنفس القبسَ الكمينا
ولكن ان طلبتِ حمىً منيعاً تخلّفَ بشاشة المتبسمينا
وتحت اللفظ يقطر منك ودًّا هنالك تكمنين فتختفينا

من روايته «يوليوس قيصر»

[ترجمها شعراً الشيخ فؤاد باشا الخطيب]

الصديق الغادر

للشريف الرضي

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه ابى بعد طول الغمز ان يتقوما
تقبّلت منه ظاهراً متبلجاً وادمج دوني باطناً متجهما
فأبدى كروض الحزن رقت فروعه واضمر كالليل الخداريّ مظلما
ولو أنني كشّفته عن ضميره اقمتُ على ما بيننا اليوم مأتما
فلا باسطاً بالسوء ان ساءني يداً ولا فاغراً بالذم ان رابني فما
كعضو رمت فيه الليالي بفادح ومن حمل العضو الاليم تألما
اذا امر الطبّ اللبيب بقطعه اقول عسى ضنًّا به ولعلّما
صبرت على إيلامه خوف نقصه ومن لام من لا يرعوي كان ألوما
هي الكفُّ مضٌّ تركها بعد دائها وان قطعت شانت ذراعاً ومعصما
اراك على قلبي وان كنت عاصياً اعزّ من القلب المطيع واكرما
حملتك حمل العين لج بها القذى ولا تنجلي يوماً ولا تبلغ العمى
دع المرء مطويًّا على ما ذممتهُ ولا تنشر الداء العضال فتندما
اذا العضو لم يؤلمك الاّ قطعتهُ على مضضٍ لم تبق لحماً ولا دما
ومن لم يوطّن للصغير من الاذى تعرض ان يلقى اجلّ واعظما

٣٥٩—٤٠٦

[اختارها محمود محمد شاكر]

الزمان

لشلي ١٧٩٢—١٨٢٢

ايها البحر الذي لا يسبر غَوْرُهُ ، يا مَنْ امواجهُ السنون

يا خضمَّ الزمان يا من امواههُ لوعات

قد امتزجت عبرات البشر بها حتى اصبحت لاذعة .

ايها الأَتيُّ الذي لا ضفة لهُ . في مدك وجزرك

تقبض على حدود الفناء

تعاف الفرائس وتجأر مستزيداً منها

ثم تمجُّ حطامك عند شاطئك المتجهم .

انت غادر في السكون ، عاتٍ في العاصفة .

من ذا الذي يجسر على خوض عبابك

ايها البحر الذي لا يسبر غورهُ

في فترة من فترات يأسه

المنحر

لهلن مولتز

باعثٌ من اليأس ، ويد لا ترتعش ، واضطراب في بحار الابدية

واذا رجل اعياه التعب عن الكدح يفارق الحياة بجبهة موصومة .

هناك أشجار يستند اليها وشموس تنير سبله الملتوية ، وسبلنا

ولكن نال منه الذعر حتى فزع منه الى باب يدخل بهِ الى دار صديق .

ايها الموت تقبّلهُ على الرحب مع انهُ قادم اليك على عجلٍ

ولا تجعله يثير غضبك لانك تباطأت عنهُ

اننا نرأف بهِ ونحن دونك .

وإنهُ لَيَغرق اذا حببٌ يتجمع فوق الامواج الابدية

ها هوذا غلام ما انفكَّ يخطىء حتى انطلق الى داره بعنف

شاعرة اميركية معاصرة

حسناء القرية

لوشنغطن ارفنغ
الكاتب الاميركي

كنت اطوف في داخلية بلاد الانكليز أروّح الخاطر والنفس من عناء الاعمال . ففي عصر ذات يوم القيت عصا الترحال في قرية خلعت عليها الطبيعة رداءً من السكينة والعزلة . والبست سكانها ثوباً من البساطة يندر في القرى الواقعة على السبل العامة . فأتيت فندق القرية حيث تناولت شيئاً من الطعام ثمَّ خرجت امتع الطرف بمحاسن تلك المناظر . ولم أسرْ طويلاً حتى بلغت الكنيسة وقد قامت بمعزلٍ عن البيوت ، فاذا بها قديمة العهد . وكان النهار ماطراً والجوُّ لا يزال محجوباً بالغيوم المكفهرّة الاَّ رقعة منهُ في الغرب انفرجت عنها السحب ، فاندفعت اشعة الشمس وراءها واضاءت اوراق الاشجار الدامعة وابتسم بها وجه الطبيعة ابتسام السكينة والهدوء . وكأن الشمس قبل الغروب تقيٌّ بارٌّ يكاد يفارق الحياة وهو يبتسم على هموم العالم واحزانهِ ، وكان سكينة انحلالهِ دليل على انهُ سيقوم الى المجد العتيد. [ثم حدّث الكاتب كيف رأى جنازة تسير الى الكنيسة القديمة فاستقصى اخبارها فعرف انها جنازة فتاة ماتت ضحية حبّ عقيم لضابطٍ قال فيهِ : —]

لكنهُ (اي الضابط) لم يفاتحها امر الحبّ ولا اتى على ذكرهِ وانما هنالك من الطرق للافصاح عنهُ ما هو ابلغ من الكلام واسرع منهُ بلوغاً الى القلب واشدُّ وقعاً فيهِ . فاتقاد العينين ، ورنّة الصوت، والرقة التي تنبعث في كل لفظةٍ ونظرةٍ وحركةٍ — هذه صورة بلاغة الحبّ يشعر بها الواحد ويدركها لكنهُ يعجز عن وصفها . فلا بدع اذاً ان الفتى اكتسب قلباً خليّاً طاهراً ... اما الفتاة فاحبتهُ وهي لا تفقهُ ما الحب ولم تقف لتسأل نفسها عن ذلك الشعور الذي انبثق في فؤادها فشغلها عن سائر الخواطر والعواطف .... فاذا حضر حبيبها صارت كلها آذاناً وعيوناً لسماع كلامهِ والتملي من مرآهُ ، واذا غاب عادت تتأمل فيما حدث لها في اجتماعهما الاخير . وكانا يقضيان زمان اللقاء يتماشيان في الحقول والهضاب المجاورة بين الخضرة والاشجار ، فعلّمها ان ترى في الطبيعة حولها جمالاً جديداً لم تكن تراهُ وحدها « البقية صفحة ١٢٧ »

١٧٨٣—١٨٥٩

بسائط الفسيولوجيا

« اعرف نفسك » حكمة كانت شعاراً لليونان الاقدمين . وهذه الحكمة على جلالة قدرها في تلك العصور القديمة ، اجلُّ شأناً في عصرنا الحاضر . كانت معرفة اليونان بافعال الاحياء ، ووظائف اعضائها اقلَّ من معرفتنا نحن ولكن حاجتهم اليها كانت اقل من حاجتنا ، لان معيشتهم كانت اقرب الى الطبيعة من معيشتنا. فكانوا ينفقون معظم وقتهم في العراء. ولا يزدحمون ازدحامنا في الدور المقفلة. وكان طعامهم بسيطاً مغذيًّا . وكانت اجسامهم نشيطة لان اعمالهم كانت تتيح لهم استنشاق الهواء النقي وتمرين العضلات فلا تهزل ولا تضمر

ولكن الناس في هذا العصر مزدحمون في مدنٍ مزدحمة. وقلَّ من تتاح لهُ فرصة التمرين الرياضيّ الاَّ اذا قصد الى ذلك ووفّر له العزم والوقت والنفقة. فنحن اكثر تعرضاً منهم للامراض المعدية ، لاننا نقيم في الغالب في دور مقفلة ، وننتقل بالسيارات الخاصة او العامة ، ونستعمل التليفون بدلاً من المشي الى مكتب صديق نريد مخاطبتهُ ، ونأكل اصنافاً من الطعام ، يختلط فيها المفيد بالضارّ ، وبعض هذه الاطعمة محضر في معامل فلا ندري هل هو نقي من الشوائب او لا . ثم ان اعمال طائفة كبيرة منا تلقي على اعصابنا عبئاً ثقيلاً ، لان عمل الدماغ ، يحلُّ عندها الى حدٍّ بعيد ، محلّ عمل العضلات

***

في هذه الحياة المعقّدة المضنية ، يصبح الاحتفاظ بالصحة والنشاط ، عملاً صعباً . فالناس في المدن ، يسكنون في احوال غير طبيعية حتى المعيشة في الريف تواجه مشكلات جمة معقّدة . فنحن في حاجة متزايدة ، الى فهم نواميس الحياة ، لكي نتمكن من المحافظة على الصحة الخاصة والعامة

فتعلّم الفسيولوجيا (الفسلجة — تعريب العراق — او علم وظائف الاعضاء اي عملها ترجمة) لا بدَّ منهُ لفهم القوانين الصحية وتطبيقها ، وبسائطهُ تستهوي القارىء لما فيها من العجائب ، لانها تنمُّ على حكمة الخالق في خلق كل عضو من الاعضاء ، واختصاصه بوظيفة من الوظائف ، وانشاء الصلات المحكمة بين الاعضاء جميعها ، حتى تعمل معاً عملاً متسقاً منتظماً ، هدفهُ صحة الكيان الفرديّ وسلامتهُ

والفسيولوجيا فروع اهمها الفسيولوجيا السوية وهي دراسة الاعضاء في حالتها الطبيعية ، والفسيولوجيا التجريبية ، اذ يعمد الباحث الى تغيير مقادير الغذاء واصنافه ودرجات الحرارة والرطوبة لمعرفة أثرها

في الجسم الحي والفسيولوجيا الباثولوجية وهي دراسة الاعضاء في حالة المرض . ولكن الغرض من هذه السلسلة، بسط اهم الحقائق عن اعضاء الجسم ووظائفها ، بكلام عام خالٍ من التعقيد . ونرجو ان يستفيد منهُ قرّاء هذا الباب وقارئاتهُ ، الفائدة التي نرجوها من كل ما ننشرهُ في المقتطف

الاعضاء والانسجة

نحن نعلم ان الاحياء تغتذي وتتنفّس وتحسُّ وتفرز ، والعليا منها لها دورة دموية وجهاز عصبي يتدرج تعقيداً ، بتدرجها ارتقاءً في سلّم التطوّر . وقد يدهش بعض القرّاء ، اذا قلنا لهم ان النبات كذلك يغتذي ويتنفس ويفرز ولهُ سائل يدور في جسمهِ دوران الدم

والفرق المهم بين الاحياء الدنيا والاحياء العليا ، ان الاحياء الدنيا تقوم باعمال الحياة المتقدمة جملةً . فجسم الكائن الدنيء بجملتهِ ، يتحرك ويتنفس ويغتذي . ولكن الاحياء العليا لها اعضاء ، وكل عضو لهُ عملٌ خاصٌ بهِ . فالقلب ، رئيس الدورة الدموية ، والمعدة للهضم ، والعين للابصار . « فالعضو » هو ذلك الجانب من الجسم الحيّ الذي لهُ عمل خاص او وظيفة خاصة ، يقوم بها . وهو في عملهِ هذا ، يشترك مع الاعضاء الاخرى ، في حفظ كيان الجسم الحيّ . واذن نستطيع ان نتصور الجسم على أنهُ مجموعةٌ من الاعضاء التي تتعاون لتحقيق غرض خاص هو صحة الكيان وسلامتهُ

بناء الاعضاء

فاذا مضينا في تحليل الاعضاء نفسها وجدنا ان العضو في الجسم، كالنافذة في الدار او كالكرسي في البهو . فالنافذة ليست خشباً كلها وانما يدخل في بنائها الخشب والحديد والزجاج . والكرسي يدخل في تركيبهِ ، الخشب والجلد والقماش والقش او القطن . كذلك الانف في الجسم . فالجلد يغطيه من الخارج ، والغشاء المخاطي من الداخل ، وهو قائم على هيكل من الغضروف والعظم وتجري فيهِ اوعية دموية واعصاب ، وفي مدخلهِ شعر لتنقية الهواء الذي تتنفسهُ ، وفيهِ عضلات تمكننا من تحريكهِ ، حركة يسيرة . فالانف مؤلف من انسجة مختلفة ، ألجلد نسيج ، والعظم نسيج ، والغضروف نسيج وهكذا . « فالنسيج » هو نوع خاص من المادة الحية يعمل عملاً واحداً . والعضو في الغالب يبنى من انسجة مختلفة فاليد عضو مؤلف من عظم وعضل وعصب ودم وغيرها . وكلٌّ من هذه نسيج

الخلايا

بعد اكتشاف المكرسكوب في مطلع القرن السابع عشر ، عمد الباحثون ، الى تكبير الانسجة النباتية والحيوانية ، بعدستهِ ، لمعرفة بنائها فثبت لاحدهم في الثلث الاول من القرن التاسع عشر ان الانسجة مؤلفة ، من وحدات ، اشبه شيءٍ بلبنات البناء . وكانت هذه الوحدات قد رؤيت قبل

قرن او قرنين من الزمان . فدعيت « خلايا » واحدتها « خلية » لانهُ ظن انها خالية من الداخل . ولكن العالمين الالمانيين شليدن وشوان اقاما على اساس علمي نظرية « البناء الخلوي » اي ان الانسجة مؤلفة من خلايا . وكان بعض الباحثين يرى ان هذه الخلايا تتصل بعضها ببعض بواسطة انابيب دقيقة ولكن الرأي الغالب ان كل خلية مستقلة عن الاخرى ، الاّ بما تتبادلهُ عن طريق الامتصاص من السوائل

والخلايا في الجسم انواع مختلفة . وهي تختلف شكلاً وبناء . فالخلايا « المخاطية » كالاقراص او كالاسطوانات والمسافة بين الخلية الواحدة والاخرى قليلة جداً . والخلايا « الغضروفية » كانصاف الدوائر في شكلها وبعيدة واحدتها عن الاخرى يملأ الفراغ بينها مادة تفرزها الخلايا ، كالملاط بين اللبنات في الجدار . « والخلايا العظمية » تكون مرزوزة في العظم الحديث ، ثم تبتعد بعضها عن بعض رويداً رويداً اذ يكثر ما تفرزه الخلايا فيستقرُّ فيما بينها . وهذا الافراز يحتوي على مادة فصفات الكلس . وهو الذي يتحجّر ويمنح العظم قوامهُ الجامد . والخلايا « العصبية » تختلف شكلاً بعضها عن بعض فبعضها مستدير وبعضها مستطيل وبعضها لا شكل لهُ . والخلايا « العضلية » اشبه بالالياف المستدقة من اطرافها . فاذا انقبضت العضلة قصرت الالياف وثخنت من وسطها . والخلايا « الدموية » هي الكريات السابحة في سائل الدم فالكريات الحمر اقراص والكريات البيض لاشكل خاص لها

***

وتختلف الخلايا حجماً كذلك . فبعض الخلايا الحيوانية الصغيرة لا يزيد على ٢/١٠٠٠ من الملمتر حالة ان بيضة الدجاجة — وهي خلية فردة — قد تزيد على بضعة سنتمترات

بناء الخلية

وقد عني الباحثون في العصر الحديث عناية خاصة ببناء الخلية . وتلخص مباحثهم في ان كل خلية مبنية من كتلة لزجة من المادة الحية (البروتوبلاسما) في داخلها كتلة كثيفة تعرف بالنواة ، والظاهر ان افعال الحياة في الخلية مركزها هذه النواة . لانهُ اذا ازيلت النواة من الخلية لم تطل حياتها بعد ذلك . وثمة اجزاء اخرى . فنستطيع ان نعرّف الخلية بقولنا انها « كتلة من البروتوبلاسما لها نواة ويحيط بها جدار في الغالب » . اما البروتوبلاسما من الناحية الكيماوية ، فركبة في الغالب من عناصر الكربون والايدروجين والاكسجين والنتروجين والحديد والكبريت والكلسيوم والفصفور . وقد توجد مقادير يسيرة من عناصر اخرى في بعض الخلايا . ولكنَّ العناصر المذكورة هي العناصر الاساسية . فالبروتوبلاسما ليست الحياة ، وانما هي المادة التي تبزغ فيها الحياة . ولا بدَّ لكل خلية من نواةٍ ، ولا بدَّ كذلك لكل نواة من بروتوبلاسما تحيط بها

حياة الخلايا

وتمتاز الخلايا الحية عن الجوامد ، في مقدرتها على النماء والترميم والتكاثر بالانشطار . وليس في العالم المادي مادة تتصف بهذه الصفات الا مادة البروتوبلاسما . ونمو الخلية يتم بما تمتصهُ من الخارج . ففي الجسم الانساني ، نتناول الغذاء ونهضمهُ ثم يسري في الدم فتمتصهُ الخلايا كل خلية تمتص ما يوافقها وتمثلهُ . ثم ان الآلة المصنوعة من افضل انواع الفولاذ تبرى وتندثر رويداً رويداً فلا بدَّ من تجديد اجزائها . والخلايا ايضاً يأتي عليها القدم فتندثر او يندثر جانب منها ، فيجب ان تجدَّد بناءها ، او ان تحلَّ خلايا جديدة نشيطة محلَّ الخلايا القديمة الضعيفة . والنمو والتجدُّد او الترميم من صفات المادة الحية . يضاف الى ذلك ان الخلايا الحية تستطيع ان تتكاثر بالانشطار . فالخلية الواحدة تنشطر خليتين . والاثنتان تنشطران اربعة . وهذا الانشطار نوع من التناسل في الحيوانات الدنيا

والحيوانات نوعان . نوع مؤلف من خلية واحدة ، تستطيع ان تقوم بافعال الحياة الاساسية كالاغتذاء والهضم والتنفس والحركة والتكاثر . ولكن جسم الانسان مؤلف من الوف والوف الالوف من الخلايا . على ان الخلية الواحدة منها لا تستطيع ان تقوم بافعال الحياة مستقلة عن الاخرى . لكل خلية عمل خاص ولكن عملها يتوقف على اشتراكها مع الخلايا الاخرى . فالاجسام الكثيرة الخلايا ، تعتمد على مبدإ تقسيم الاعمال ، فخلايا تختص بالتناسل ، واخرى تختص بالحركة ، واخرى بتلقي الاحساس ونقلهِ . وتقسيم الاعمال ، والاختصاص ، اساس لاجادة العمل واتقانهِ ، على انهما يقتضيان التعاون التام ، بين الخلايا المختلفة والانسجة والاعضاء المتباينة . وهذا يجعل جسم الانسان آلة معقدة التركيب ، دقيقة البناء . والفصول التالية تفصل لنا هذا البناء حتى نستطيع الاحتفاظ بهِ سليماً صحيحاً

« في العدد القادم فصل في بناء الجسم من الناحية الكيماوية »

الملح وحاجة الجسم اليه

بحث صحي علمي

يرجع استعمال الملح في طعام الانسان والحيوانات الى ابعد ازمنة التاريخ . ويروي المؤرخ اللاتيني « طاشيتوس » Tacitus الذي عاش نحو قرن واحد قبل الميلاد عن نشوب حروب طاحنة بين قبائل الجرمان طمعاً بامتلاك مناجم الملح في جوار حدود بلادهم . كما ان « بلنيوس » العالم الطبيعي الروماني صاحب الانسيكلوبيديا الشهيرة المؤلفة من ٣٧ مجلداً في تاريخ العلوم القديمة والذي هلك في انفجار

فيزوف سنة ٧٩ م . قد اوصى باستعمال الملح كدواء جزيل النفع في كافة الآلام الجسمية والنفسية

ولم يبزغ فجر القرن الثاني عشر حتى عمّ استعمالهُ هذا بين طبقات الناس فأصبح طعاماً ضرورياً لايمكن الاستغناء عنهُ لحياة الانسان وعيشهِ وفرضت عليهِ ضرائب اميرية فادحة كانت سبباً لاندلاع نيران ثورات دامية طيلة القرون الوسطى . وقد دامت هذه الفوضى حتى أواخر القرن الثامن عشر ثم زالت بزوال وطأة تلك الضرائب عن كاهل الاهلين ، لا سيما في فرنسا سنة ١٧٩٠ .لكن ما لبثت الحال ان رجعت في سنة ١٨٠٤ الى ما كانت عليهِ قبلاً عند ما سنّت الحكومات من جديد قانوناً يقضي بفرض جباية على ملح الطعام قدرها عُشرَي فرنك للكيلو غرام الواحد ، وحتى ايامنا هذه لا يزال هذا القانون معمولاً بهِ في كثير من البلدان ، ومنها فرنسا ، حيث لا يمكن ، بدون رخصة اغتراف ليتر واحد من ماء البحر لاستخراج الملح منهُ

﴿ الملح في ماء البحر ﴾ : الملح في الارض اما جامد كالصخر (ملح برّي) ، او ذائب في ماء البحر حيث يختلف فيهِ من ٢٥ غراماً الى ٣٥ غراماً في الليتر الواحد. ويذهب بعض العلماء الى ان هذا المقدار في العصور الخوالي — عند ما كانت درجة البحار أعلى مما هي عليهِ الآن ، اي ٤٠ الى ٤٢ درجة — لم يتعدَّ الـ ٨ الى ٩ غرامات في الليتر الواحد . لكنَّ الامطار ومجاري المياه أخذت تغسل تدريجاً الاراضي الصلبة وتجرف الى الاوقيانوسات من الملح على توالي السنين مايكفي لتغطية سطح الكرة الارضية بطبقة لا يقلّ سمكها عن ٢٥ متراً

﴿ الملح في الجسم ﴾ : يؤخذ من احصاءات العلماء ان متوسط ما يستهلكهُ الانسان من الملح يتباين من ٤ كيلو غرامات الى اربعة ونصف سنويًا . لكن هل هذا المقدار لازم لجسم الانسان حقيقة ؟ هذا ما يزال الكيماويون والاطباء يختلفون في تقديره . وانما هناك شيء لا ينكر وهو ان الملح ذو تأثير نافع جدًا في بعض الحيوانات الداجنة لانهُ يساعدها على هضم بعض انواع العلف والكلأ وان اغلب الحيوانات المذكورة ، عدا الكلب والهر ، لها ميل خاص للطعام المالح

اما مقدار مايحويهِ الجسم من الملح فيبلغ بحسب الاختبارات الحديثة نحو ٢٠٠ غراماً موزعة كما يلي : ٧ غرامات بالألف في الدم ، ونحو غرام واحد بالألف في العضلات الطرية، و٧ ر١ غرام في المادة العصبية و١٣ر١ غرام في الكبد . اما العظام فخالية منهُ بعكس الغضاريف التي تحتوي منهُ على مقدار وافر

كذلك نجد الملح في مفرزات جسم الانسان: فالبول يقذف منهُ يوميًا الى الخارج نحو ١٣ غراماً (وهذا الرقم يهبط وقت وجود الحمّى) ، والعرق غرامين في الاربع وعشرين ساعة ، واللعاب نحو غرام واحد بالمائة، والحليب ٣٥ر١ غرام في الليتر الواحد (اي اكثر من حليب البقر الذي لايحتوي الأ على ٨١ سنتغرام بالألف) . واخيراً الجهاز الهضمي الذي يحتوي على مقدار وافر منهُ اذ بفضل وجوده في خلايا المعدة يتكوّن الحامض الايدروكلوريك الذي يعطي للعصارة المعدية خواصها المعروفة . فاذا كثر مقدار الملح في طعامنا كثرت افرازات العصارة المعدية

وليس الملح لازماً فقط لافراز العصارة المعدية هذه بل ان وجوده في الدم يساعد بوجهٍ خاص

على طرد ، كافة الاخلاط ونفاية الجسم السامة الخطرة عن طريق الكليتين : كالحامض البولي ، والكرياتين والسكر عند المصابين بداء البول السكري الخ . . . واذا ما فحصنا البول بعد ثلاثة أيام من الانقطاع التام عن استعمال الملح لم نجد فيه اكثر من غرام او غرامين في الاربع وعشرين ساعة، حالة ان مقداره في الدم يبقى دائماً ثابتاً ، ولهذا يجب ان نوجد الـ ١٣ غراماً من الملح المستخرجة يومياً من الجسم . فما العمل ؟

ان التغذية تحلّ هذه المعضلة حلاً سهلاً . فالمواد الغذائية الاعتيادية تدخل يومياً في جسمنا ٧ غرامات من الملح . ولكي نكمّل الـ ١٣ غراماً المطلوبة يجب ان نضيف الى اطعمتنا الستة الغرامات الناقصة وذلك بتمليح هذه الاطعمة — تمليحاً قد يصل الى ١٥ و ١٧ و ٢٠ غرام يومياً بما نتناوله من المآكل المتبّلة ، والحساء وغيرها وذلك إما قصداً او بالعادة . وفي الواقع ان الملح مهيج للشهية والتغذية ونحن نفرط في استعماله من غير ان نشعر شأننا بوجه عام في المهيجات الاخرى كالقهوة والمشروبات الكحولية والتدخين مثلاً . وعلى كلٍّ فاننا نجد في التركيب الكيمائي للاطعمة المذكورة ان نسبة الملح فيها كما يأتي : ١٥ سنتغراماً بالألف في الليتر الواحد من المرق ، ونحو غرام واحد بالألف في اللحم ، و ٨١ سنتغراماً بالألف في لبن البقر ، و ١٢ر١ غرام بالمائة في البيض ، و ٢٣ بالمائة في سمك الاسما Raie كذلك في اسماك البحر الاخرى الغنية بالملح بنوع خاص، ثم الجبن المملح... واخيراً الخبز الذي يتراوح مقدار الملح في الكيلو غرام الواحد منهُ من ٥ الى ١٥ غراماً بحسب كونهِ عادياً او فاخراً

﴿الملح في الاطعمة النباتية﴾ : ولنذكر الآن شيئاً عن الاطعمة النباتية التي لها شأن كبير والتي قدّرت نسبته بنحو ٧٧ ٪ من مجموع اطعمة الانسان . واليك بعض الارقام عن نسبة وجود الملح في ١٠٠ جزء من البقول الطرية المحروقة: العدس ١٨ر٥ غرامات، الفاصوليا البيضاء ٧١ر٣ غرامات ، البسلة ٩٠ر١ غرام ، الفول ٤٤ر٢ غرامين. اما البطاطس فخالية منهُ عدا نوع او نوعين منها، بعكس الهليون والقنبيط (القرنبيط) اللذان يحتويان على مقدار كبير منهُ . لكنّ الاثمار والفاكهة الغضّة كالتفاح والكمثرى (والاجاص) والخوخ والكرز الخ.. فمقداره فيها ضئيل جداً ويتراوح ما بين ٣ر ١٤ سنتغراماً بالألف

فيجب اذن أن نملح اطعمتنا بنسبة ٦ غرامات يومياً . ولربّ سائل يسأل : هل هذا التمليح الاضافي هو بالحقيقة ضروري ونافع لجسم الانسان ؟ الجواب عن هذا ان المسألة لا تزال حتى الآن قيد البحث وآراء الاطباء مختلفة بشأنها . فالاستاذ ريشه Richet يجد ان غرامين ونصف من الملح تكفي يومياً لشخص وزنهُ ٦٠ كيلو غراماً . كما ان بعض الكيمائيين يرون ان الحدّ النهائي لذلك هو غرامين فقط . وفي كلتا الحالتين يظهر ان الارقام المذكورة لا تفي بحاجة الجسم ، بينما السبع غرامات المنوّه عنها اعلاه هي اقرب الى الحقيقة الراهنة لانها مستندة على اختبارات فسيولوجية

عرفنا مما تقدم ان الملح يساعد على افراز العصارة المعدية ويزيد مقدار حامض الكلور ، ففي بعض حالات سوء الهضم نرى الافرازات المذكورة تزداد زيادة فائقة سواء من جهة مقدارها أم من

جهة حموضتها، ومصحوبة باعراضها المختلفة المزعجة : كالتجشوآت، والتقيوآت الحامضة والحرقة الخ.. أليس بالامر المعقول اذاً أن نفتكر والحالة هذه أن بتقليلنا استعمال الملح يقلّ مقدار العصارة المعدية وحموضتها ؟ ان الاختبار يؤيد هذه النظرية الصائبة لاننا كثيراً ما نشاهد زوال الاعراض المتقدم ذكرها والشفاء من سوء الهضم، مع تحسن في حالة الشخص العامة بفضل الاطعمة قليلة الملح او بالامتناع عن هذا الملح مؤقتاً

﴿ الملح والكلى ﴾ : ولننظر الآن من جهة تأثير الملح في الكليتين : فعندما تكون «المصفاة» الكلوية متلبدة بالاوساخ او مصابة باحد الامراض كما هي الحال مثلاً في التهاب الكلية، او البيلة الآحينية Albuminurie او ايضاً مرض بريط Bright يصعب حينئذٍ على الملح أن «يمر» بتلك المصفاة الى الخارج فيأخذ اذ ذاك يتجمع ويتراكم في الخلايا، فيملأ الانسجة ويجذب اليه مصل الدم وتكون النتيجة ظهور ما تراه عادة في التهابات الكلية من الترشحات والانتفاخ والاورام في الارجل والسيقان، والاستسقاء وغيره

فراحةً للمريض من هذه الحالة المزعجة إن لم نقل المؤلمة، كان لا بدَّ من اتخاذ الوسائل الفعالة المدرّة للبول والمزيلة للاعراض المذكورة الناتجة عن ركود الماء في النسيج الخلوي. وقد رأى الاطباء في الحمية عن الملح او بالاقتصار على الاطعمة قليلة الملح : كالحليب والسكر والخبز مثلاً اكبر مساعد على ذلك، خصوصاً في امراض القلب. وفي الواقع ان هذه الاطعمة لا تُدخل في جسمنا إلاَّ قدراً ضئيلاً جداً من الملح لا يتعدى ١٫٢٧ غرام في الاربع وعشرين ساعة لمائة غرام من الخبز مع ليترين من الحليب المحلى بالسكر بنسبة ٤٠ غرام في الالف

هذا من جهة. ومن جهة اخرى اذا ما اردنا مثلاً ان نملّح الحليب او اطعمة الاشخاص المصابين باحد الامراض المتقدم ذكرها فلا تلبث تلك الاضطرابات ان تظهر كما كانت، وعلى الضد نرى الاضطرابات نفسها تزول عندما نرجع الى الحمية عن الملح في طعامنا. وقد تبين الآن انه يمكن للمصاب بالبيلة الآحينية ان يقتات كالشخص السليم — بشرط ان يكون طعامهُ خالياً من الملح

أما عند المبتلين بالصرع ففائدة الحمية عن الملح لا تقدّر، لا سيما اذا قرنت باستعمال برومور البوتاس الذي هو دواء الصرع. ففي هذه الحالة يكون أثر هذا الدواء، ولو كان مقداره يسيراً، اضمن واعظم فائدة مما لو كان وحده. فنستنتج من هذا كله ان الملح له فوائد ومضار، ولا بدَّ من ان اذكر ان الافراط في استعماله يوميّاً يؤثر تأثيراً سيئاً جدّاً في اعضائنا بما يسببه من تصلب الشرايين، والهرم الباكر — نتيجة تراكم الملح في خلايا الجسم

فعلينا اذن ان نرجع الى المثل القديم المأثور وهو : لا زائد ولا ناقص.. بل الاعتدال في كل شيء. وخير الامور اوسطها. فستُ غرامات من الملح يوميّاً مضافة الى اطعمتنا الاعتيادية يظهر انها المتوسط الكافي لدوام صحة الانسان وسلامة جسمه

الدكتور عبده رزق
طبيب مستشفى تذكار مود في القورنه بالعراق

الزواج والصحة والفحص الطبي

هذه مقالة صريحة في موضوع عمراني حيوي ولابدّ من مواجهة الحقائق في مثل هذه الموضوعات. فكثيرون من الوالدين يرفضون ان يزوجوا بناتهم من رجال ادمنوا المسكرات مثلاً ولكن التقاليد المرعية تمنعهم ان يسألوا هل طالب الزواج مصاب بمرض خبيث معدٍ او لا . لذلك آثرنا نقل هذه المقالة المفيدة بتصرّف عن مجلة الاسكفري العلمية

ان الاحوال التي يطلب فيها من الشاب ان يفحص جسمهُ فحصاً طبيًّا دقيقاً ويحصل على شهادة طبية رسمية قليلة جدًّا اشهرها حين التأمين على حياته في شركة من شركات التأمين الكبرى فيفحصه حينئذ احد اطباء الشركة . كذلك تطلب الحكومة مثل هذا الفحص ممن يطلب الانضمام الى مصلحة من مصالحها . وهذا عمل القومسيون الطبي هنا . وفي بعض البلدان التجارية تطلب الشركات التجارية ذلك ممن يطلب الانضمام الى مكتب من مكاتبها البعيدة وهذا ما تفعلهُ شركتنا ڤاكوم وشل في مصر على مانعلم. وفي كل هذه الاحوال لايحسب طلب الشهادة الطبية او الفحص الطبي اهانة او امراً غريباً

وعلى الضد من ذلك نشاهد قلة الاهتمام بزواج فتيان هذا العصر وفتياته من الوجه الصحي . فشركات التأمين والحكومات والشركات التجارية تطلب شهادة صحية لتؤمن على مصالحها اذ تعلم ان من يتولى السهر على تلك المصالح كفوءٌ من الوجهة الصحية . ولكن ما اكثر الرجال الذين تراهم مستعدين للتضحية بسعادتهم مدى الحياة لانهم لم يهتموا بفحص صحتهم فحصاً طبيًّا دقيقاً والتأكد من انهم صالحون للزواج

فمن الواجب ان تتخذ خطة جديدة في امر الزواج . وكل الذين على اهبته سواء كانوا رجالاً او نساء وكل الآباء يجب ان يطالبوا بحق لهم وهو الوقوف على حالة طالب الزواج الصحية وهل هو سليم من الامراض المعدية. فما من شاب يجرب ان يخفي عن حميهِ حالتهُ المالية مع ان الاسئلة التي توجهُ اليهِ في هذا الموضوع تحسب مخلة باللياقة ولكن الامور الصحية اهم مما لا يقاس من الامور المالية

كثيرون لا يعيرون علم « اصلاح النسل » Eugenics التفاتاً لانهم يرون ان قواعدهُ تقضي بان يكون المتزوجون من مستوى واحد في العقل والجسم والطبقة الاجتماعية وان عاطفة الحب الجنسي يجب الاَّ تكون الدليل الى الزواج وهذه امور لا يحتملها العمران الآن . لكن لماذا نختلف على الاسماء والمسألة المهمة بسيطة جدًّا وهي ان علم الطب ارتقى ارتقاءً كبيراً واصبح الطبيب البارع قادراً ان يشخص الامراض المعدية بدقة تامة . وكثيرون من المصابين بهذه الامراض لا يدرون انهم مصابون بها. لذلك يجب ان ينشأ رأي عام يقضي بفحص طالبي الزواج فحصاً طبيًّا دقيقاً واذا كانوا مصابين يجب الاَّ يتزوجوا ما زالوا كذلك

فعلى والد كل فتاة ان يعرف هل زوجها العتيد مصاب بالسلّ مثلاً او بمرض زهري . وتلك المعرفة في مصلحة ابنتهِ وهي مما يسهل الحصول عليهِ

مكروب السل معروف شكلهُ وكل بكتيريولوجي يستطيع البتّ في هل هو في بصاق احد او لا. فاذا كان في بصاق احدٍ فصاحب ذلك البصاق يجب الاَّ يتزوج لانهُ اذا تزوج اعدى امرأتهُ واولادهُ ايضاً . والحوادث التي تؤيد هذا القول كثيرة

***

كذلك امتحان الدم يظهر بصورة لاتقبل الشك هل صاحب الدم مصاب بمرض زهري . ولاشك ان القارىء يستطيع ان يعدّد الامثلة التي هدمت فيها سعادة عائلة اتصل مكروب احد هذه الامراض الخبيثة الى افرادها لان الوالد لم يهتم بفحص جسمهِ قبل اقدامهِ على الزواج

فالواجب يقضي اذاً على كل رجل شريف ان يكون على بينة من حالتهِ الصحية قبل ان يقدم على الزواج . ولكن كثيرين من الرجال يصابون بمرض خبيث معدٍ ولا يدرون لذلك يقع الواجب على والد الفتاة بان ينبه صهرهُ العتيد الى ذلك الامر وان لا يكتفي بعد ذلك الاَّ بشهادة طبية رسمية . وذلك لا يعني انهُ في حالة الاصابة يمنع عقد الزواج بين شاب وفتاة قد تحابا بل يؤجل الزواج ما زال احدهما مصاباً وعلى المصاب ان يتعالج حتى ينال الشفاء التام وهذا ليس بالامر المستحيل على الطب في هذا العصر

وهناك مسألة الامراض العقلية الموروثة وهي معقدة لا يسهل البتُّ فيها كالسلّ وغيره . فقد تعلم فتاة ان خطيبها من والدين ماتا في بيمارستان المجانين وترفض الانفصال عنهُ وقد تكون في ذلك على حق ولكن خير لها ان تعرف ذلك قبل ان تعلن عزمها النهائي فان كون والديهِ مجنونين لايستلزم انتقال الجنون اليهِ وهذا تشارلس لام احد كبار الكتّاب عند الانكليز كان ابن معتوهين واخا معتوه

كذلك قد يظهر الفحص الطبي ضعفاً في القلب وقد يصاب صاحب القلب الضعيف بما يقعدهُ عن العمل كل حياته . فيقول قائل ان زواجاً أُبطل لهذا السبب يكون ابطاله مدعاة للخجل فنقول ان الاهتمام بمثل هذه المسألة يوازي الاهتمام بمسألة ثروة الخطيب على الاقل

***

لم نذكر حتى الآن فوائد فحص المرأة فحصاً طبيّاً قبل زواجها لان الرجل في الاسرة عليهِ المعوّل في اعالتها ولذلك يجب ان نعير صحتهُ التفاتاً كبيراً

لكنّ على المرأة ان تعرف بعض الحقائق عن حالتها الصحية لئلاَّ يكون زواجها مجلبة للتعس والالم والشقاء . فبعض النساء تعسر عليهنَّ الولادة لسبب في تكوين اعضاء الولادة . وهناك بعض الامراض الوراثية التي لاتنتقل الاَّ بالنساء اشهرها النزف الدموي ولكنهُ نادر جدّاً لايهمنا بحثه هنا

فالحاجة اذاً جلية غاية الجلاء وقد يأتي يوم يصبح الزواج المنعقد بين اثنين احدهما مصاب بمرض معدٍ جريمة يعاقب عليها . والوالد الذي يهمل البحث عن صحة صهرهِ العتيد باخلاص مسؤول لدى ابنتهِ التي يحق لها ان تعتمد عليهِ في ذلك

كلمة تمهيدية

اهمية التعليم المنزلي للفتاة

بقلم المربية الفاضلة فاطمة فهمي

الرجل بدون البيت وبدون المرأة شريد في هذا العالم. فاذا سلمنا بهذا الاعتراف وجب ان يكون شاغل الامة الاول هو البيت وتعليم ربة البيت، ثم لايهم بعد ذلك ماذا يكون شاغلها الثاني او الثالث، فقد بعثت المرأة منذ البدء لتكوين البيت وتهذيب المعيشة فيهِ وتربية الاطفال وسيظل البيت يطلب منها الى ما شاء الله القيام بهذه المهمة رغم اتساع دائرة اعمالها اليوم. فاذا فهمت كل فتاة ذلك جيداً ما احتقرت البيت واعتبرت العمل فيهِ مهيناً لها بل رأت فيـهِ عظمة المهنة التي خصتها بها الطبيعة

أقول ذلك وقلبي مفعم بالاسى إذ حينما ادركت وزارة المعارف خطر هـذا التعليم لكل فتاة وشكى بعض الآباء خلو المناهج منهُ أدخلتهُ في باقي مدارسها (الثانوية للبنات) ولكن جعلتهُ علماً اختيارياً فلم يقبل عليهِ مع الاسف إلاَّ القليلات. وقد عتبت على طالبة ذكية عدم التحاقها بهذا القسم فكانت حجتها انهُ عمل شاق غير جذاب وترى انهُ من ظلم الرجل ان يخصها بهِ! وهذا نقص في العقل دون شك اوجدهُ نقص التعليم المنزلي في التعليم العام. فلو جعلنا هذا التعليم أساساً لتعليم البنت مطلقاً ونهجنا فيهِ نهجاً صحيحاً كان وسيلة لتربية عقلها وقلبها واعتبرتهُ عملاً منقفاً ذا خطورة اجتماعية وقومية واقتصادية ولاحترمت البيت وعاشت له وعملت من أجلهِ

وان اكبر وسيلة للقضاء على حب الترفه والراحة وعلى الاستخفاف بالحياة المنزلية التي يشكو منها العالم كله اليوم هو تعليم الفتاة واجباتها التي بعثت من أجلها قبل كل شيءٍ آخر — وليست العلوم المنزلية علوماً آلية كما يظن البعض ولكنها من الفنون الجميلة التي تثقف العقل وتربي حسن الذوق فإن كياسة ترتيب البيوت وملاحـة نظامها تفتن الفتاة بحب الاشياء الجميلة وتعلمها تقدير الجمال في الانسجام. وان الاشياء التي نراها كل يوم عادية تستطيع المرأة الملمة بفن التعليم المنزلي بحسن ترتيبها وتنسيقها ان تكسبها بهاءً جديداً تتراءى في شكل فني ظريف. وليس هذا فقط فقد تخلق ابهى الاشياء من لا شيء

ومنذ سنوات جاء ضمن اسئلة امتحان التدبير العملي لفتاة مصرية بانكلترا عمل ثلاث اشياء جديدة من ملابس بالية وقصاصات مختلفة من الاقمشة فعملت مظلة لمصباح من منديل للرأس من الحرير كالذي تلبسه الفلاحات عندنا. ثم نموذجاً صغيراً لستارة من البفتة السمراء بعد خياطة قطع عليها من قصاصات القماش المشجر فبدا كأنهُ ورد بالبوية ابدع صنعه واتقن تلوينه — واخيراً من

جميع القماصات الباقية كونت وسادة تسر رؤيتها العين — وقد احتفظت بها جميعها الى عهد قريب فكانت موضع اعجاب الكثير

وهذا مثل بسيط يتبين منه كيف يمكن الانتفاع بهذا الفن في كل خطوة من خطوات البيت — هذا عدا ما في خدمة الغير من اعضاء الاسرة لاسيما المرضى والشيوخ والاطفال وفي اصلاح ما أفسده الضعف وأفسدته الايام . واذا كانت بعض ممالك اوربا قد جعلت هذا الفن اجبارياً كما انشأ بعضها جمعيات للعمل على منع المرأة من هجر منزلها فأولى بنا نحن الذين تئن بيوتنا من الفوضى ألا نخص طبقة دون سواها بهذا الجزء الهام من التعليم فانه لازم لجميع الطبقات على السواء . للفقيرة كي تعمل بنفسها والمتيسرة كي تعمل بمن يساعدها والغنية ليكون اشرافها اشراف الملم بجميع الامور فلا تنخدع بالظاهر ولا تعيش تحت رحمة الخدم طول حياتها . وقد فكرت وزارتنا في انشاء مدرسة عليا لتعليم هذا الفن تعليماً صحيحاً يتفق وثقافة الفتاة الحديثة . والامل كبير في تنفيذ الفكرة سريعاً وان كانت مدرسة واحدة لا تسد رمق الحاجة الا انها على كل حال تكون نواة صالحة لعدة مدارس في المستقبل وحينئذٍ تظفر بالمرأة الصالحة ويمهد راحة الانسان وخيره وهو «البيت»

***

والفتاة المصرية الى عهد قريب كانت تتعلم شؤون الدار من امها بالتقليد، على اعتبار ان التعليم المنزلي لا يحتاج الى دراسة نظرية منظمة ، ولا يحتاج الى تعليم مدرسي . ولكن الاخذ بهذه الفكرة ، له خطره على الثقافة النسوية وعلى تطور البيت المصري

واظهر نتيجة لهذا ، الجمود في نظامنا المنزلي من طهي او حياكة او تنسيق لاثاث البيت . فالفتاة المصرية التي تعرف شيئاً من الطهي تنقله من امها او من الخادمات العارفات بذلك وهؤلاء عمن سبقهن وهكذا . لهذا كانت المحافظة على اساليب الطهي قوية ثابتة في حياتنا المنزلية : فألوان الطعام التي كانت مستعملة منذ قرن مضى ما زلنا نستعملها الى اليوم

والتجديد في الطهي امرٌ لا بد منهُ ، فالمواد الاولية التي نستعملها الآن في الطهي ليست هي المواد القليلة التي كانت معروفة في القرن الماضي ، فهذا بطبيعته قد وسّع دائرة الطهي . وليس للفتاة المصرية ان تعتمد فقط على التقليد في تعليمها المنزلي ، بل لا بد وان تعرف الاسس النظرية التي بنيت عليها التعاليم المنزلية ، وهذا ما يميز اليد العاملة ، من اليد المفكرة المتفننة التي للفتاة المثقفة تثقيفاً شاملاً

وما نقوله عن التجديد في الطهي نقوله عن التجديد في تأثيث المنزل وعن الحياكة والتطريز وعن ادارة المنزل . كل هذا يؤكد لنا اهمية التعليم المنزلي المدرسي ، ويوضح لنا ان النهضة النسوية في مصر لا تزال قاصرة الى ان تعنى العناية اللائقة بأخص ما يعني المرأة وهو التعليم المنزلي

فاطمة فهمي

ناظرة مدرسة المعلمات بالقبة وخريجة لندن



عقل الطفل في تطوره

بقلم احمد عطية الله

مقدمة عن الطفولة — ان اهتمام الآباء بمستقبل ابنائهم ، والتفكير في اعدادهم للغد ، يحدوهم الى تناسي حاضر هؤلاء الاطفال ولا يتيح لهم الفرصة للبحث في تكوين الطفل الجسمي والعقلي ، ولا في التطورات التي يسير عليها عاماً بعد عام منذ ولادته

فالطفل في نظر بعض الآباء وهو في سنته الثالثة هو نفسه في العاشرة من عمره ، بل ان كثيراً من الآباء لا يزالون يعاملون ابناءهم وقد اضحوا شباناً كما كانوا يعاملونهم في سن السابعة ؟ وان كان يرجع بعض هذا الى تكوين العادة فيهم الا انه يوضح لنا ان اهتمام الآباء بدراسة اطفالهم دراسة جدية ، وعنايتهم بتعرف تطورات هؤلاء الاطفال الجسمية والنفسية ضعيف عند البعض ، بل ومنعدم عند البعض الآخر

ولا ينجم ضعف العناية بدراسة الاطفال عن اهمال فحسب ، بل ان القائمين بتربية الطفل آباء كانوا ام معلمين ، يكونون فكرة خاطئة عن تكوين الطفل وعن استعداده ، فيأخذونه بوسائل تعوق نموه الطبيعي ، وتضر باستعداداته ، وتجعل عمل التربية مستحيلاً . فالاعتقاد الذي كان سائداً في القرون الوسطى بأن الطفل ما هو الا رجل صغير ، كان عاملاً اساسيًّا في فساد الوسائل التي كان يأخذ بها القائمون بالتعليم في تلك العصور ، كاهتمامهم بتقليده البالغين في لباسهم وفي تقاليدهم الاجتماعية وعنايتهم بتلقينه العلوم الفلسفية والدينية والاخلاقية

كيف بدأت دراسة الطفل — والنهضة العلمية الحديثة التي انفجرت في اوربا واميركا في اواخر القرن الماضي والتي عملت على تقدم كثير من العلوم والدراسات ، ساعدت ايضاً على ظهور علوم ودراسات لم تكن معروفة من قبل وكان هذا نتيجة لتقدم البحث وارتقاء طرق التنقيب في العلوم الاخرى . فدراسة الاطفال وهي احدى هذه الدراسات الجديدة ، لم تصر علماً مستقلاً له طرقه ومادته وأغراضه ، الا منذ نصف قرن . ولا شك ان عوامل لم تكن موجودة من قبل ساعدت على ظهور هذا العلم ، وعلى اعطائه المكانة التي له الآن . فمن هذه العوامل التقدم الكبير في دراسة علم النفس ، الذي يدور البحث فيه على مظاهر الحياة العقلية عند الانسان . فباتساع دائرة هذه الدراسة ابتدأ الباحثون يشعرون (اولاً) بأن هناك فروقاً بين الاستعداد العقلي للرجل البالغ وبين الاستعداد العقلي للطفل

(ثانياً) بأن الطفل يسير في مراحل حتى يصل الى طور الرجولة الكاملة ، وهذا التطور يحدث تدريجيًّا الى ان يقف في سن خاصة

(ثالثاً) ان لكل طور من اطوار الطفولة مميزات خاصة ؟

التربية ودراسة عقل الطفل — مشكلة التربية كانت عاملاً اساسيًّا على الاهتمام بجعل دراسة الطفل علماً مستقلاً له شأنه الخاص . ولقد اخذ هذا الاهتمام مظاهر متعددة ، منها انصراف جماعة من العلمـاء الى دراسة طبائع اطفالهم ، وجعل هؤلاء الاطفال ميداناً لابحاثهم وتجاربهم ، فجعلوا سجلاً لحياة هؤلاء الاطفال يقيدون فيه كل ما يشاهدونه ماثلاً في سلوكهم منذ ولادتهم . ومن هؤلاء داروين في انجلترا ، وبرير في المانيا ، واستانلي هول في امريكا ، فهذه الابحاث الفردية وان لم تكن قد جعلت دراسة الاطفال علماً مستقلا في نظرياته فهي على الاقل قد ولدت الميل لدراسة الطفل على انه موضوع حري بالدراسة

ثم ان تكوين جمعيات الآباء والامهات صارت خطوة جدية في تاريخ هذا العلم ، وان كانت النتائج التي وصلت اليها مثل هذه الجمعيات ليس من السهل ان تقرر صحتها لانها مبنية على المشاهدات الخاصة التي قد تخطىء وقد تصيب ، الا ان هذه الجمعيات قد مهدت السبيل الى تكوين جمعيات اخرى قوامها الاخصائيون في الطب وعلم النفس جعلوا الطفل محور دراستهم وعلى هذه الابحاث تقدمت دراسة الطفولة ، تقدماً محسوساً في هذه السنين الاخيرة

وليست مشكلة التعليم فقط هي التي عملت على الاهتمام بدراسة الطفل ، بل ان تقدم المجمع الانساني خلق عوامل اخرى ، كان لها الفضل ايضاً في التوسع في دراسة الطفل

فمن هـذه العوامل مشكلة تشغيل الاطفال في بعض المهن والصناعات ، وبحث انواع المهن التي تكون اصلح لاستعداد الاطفال الفسيولوجي والعقلي ، وعدد السـاعات التي يشتغلها الطفل ، مع دراسة الاضرار التي تنجم عن تشغيل الاطفال في سن مبكرة

ثم هناك مسألة الاجرام عند الاطفال ، ودراسة الاسباب الداعية له ، وتقدير مسئولية الاطفال القضائيـة والاخلاقيـة ، وبحث انواع العقوبات الناجعة لتلافي هذه الاضرار

ثم هنالك مسألة الشذوذ العقلي عند الاطفال ، والمظاهر الشاذة لسلوك الاطفال كالهرب من البيت والمدرسة ، والميل الى تكوين العصابات

كل هذه العوامل جعلت الاهتمام بدراسة الطفل ضروريه لا محيص منها . اذا اردنا ان نأخذ الطفل بالوسائل الانسانية الطبيعية

احمد عطية الله
عضو المجمع البريطاني لعلم النفس

المقال الثاني

معنى الطفولة ومميزاتها العامة وطرق دراستها

المقال الثالث

النمو الحسي عند الاطفال

المقال الرابع

تطور عقل الطفل من الولادة الى العام الثالث

الاولاد ودرس الطبيعة

كتاب الطبيعة مفتوح امام جميع الناس ، ودارسهُ لا يحتاج الى تعلُّم حروف الهجاء ولا الى درس لغة اجنبية ، بل يكتفى فيهِ ان يفتح الانسان عينيهِ واذنيهِ وينظر ويقابل ويستنتج . واذا كان لهُ منبه ينبههُ الى امامهُ ، ومرشد يرشده الى كيفية النظر والبحث والمقابلة جرى في هذا الدرس من نفسهِ بعد ذلك . والاولاد يحبُّون الطبيعة . انظر اليهم في بستان يمرحون بين اشجاره ورياحينهِ ويقطفون من اثماره وازهاره . او انظر اليهم على شاطىء البحر ، يجمعون الابواق والاصداف ، او يحفرون خنادق الرمل ، ويبنون منهُ الدور والقلاع . او راقبهم يحتضنون اجراء الكلاب والهررة او يراقبون حركات الطيور في اقفاصها تجد البهجة والحبور على وجوههم . وفي حركاتهم . حتى الطفل الصغير الذي لم يناهز السنة يبتهج بمنظر جرو او عصفور اكثر مما يبتهج بمنظر والديه

ثم اذا كبر الولد وصار رجلا او امرأة ، كثرت مطالب الحياة عليهِ او اضطرَّ ان يوجه اهتمامه الى امور اخرى ، لكن الميل الى الطبيعة يبقى في نفسهِ ويعود الى شدَّتهِ متى شاخ . واذا ربي من صغره على درس الطبيعة ، وتعشقها وجد فيها عزاء وسلوى عن هموم الحياة ومتاعبها ، مهما كان سنهُ

وهنا مجال واسع للامّ الحكيمة لكي تربي اولادها على درس الطبيعة . مثال ذلك ان الاولاد يقطفون الازهار ويلعبون بها ثم يرمونها . فالام الحكيمة تلتفت اليها وتخبر ولدها كيف تنمو الازهار ، وكيف تتكوَّن البذور منها . والوقت الذي تنمو فيهِ من السنة . وتقابل زهرة باخرى . فيتعلَّم الولد منها اموراً كثيرة من علم النبات ، وهو غير مثقل بهم الدرس والمذاكرة ولا بدَّ ان يكون ذلك كلهُ بلغة يفهمها الولد ، وبصور وتشابيه ، يدركها عقلهُ

والاولاد يسرُّون برؤية الطيور على الاشجار والاسماك في البرك . والام الحكيمة تستطيع ان تغتنم الفرص حين رؤيتها وتذكر لهم قصصاً كثيرة عن الطيور والاسماك تشرح لهم فيها طبائعها

ومعلوم ان الوالدة لا تستطيع شيئاً من ذلك ما لم تكن هي قد قرأت كتاب الطبيعة وطالعت كثيراً مما كتبه الكتَّاب في الموضوع . ومن هنا مقام علوم التاريخ الطبيعي والطبيعة في مدارس البنات

واذا ربي الولد على حب الطبيعة ، بقي عمره كله فرحاً بها وزاد ذلك في سروره ولين عريكته

وترى في هذا الصدد ان ملك اسوج خرج مرة هو وزوجته يجولان لجمع النباتات والازهار وركبا حمارين ولم يكن معهما الأ خادم واحد فالتقى بهما رجل فرنسي من علماء النبات وظنهما مثله من علماء النبات ، وجال معهما وبقي الثلاثة يبحثون عن النباتات الى الظهر فطلب منهما ان يدلاه على مكان يتغدى فيه فقال لهُ الملك تعال هنا نغديك في بيتنا فشكره العالم وسار معهما الى ان وقفا امام القصر . فالتفت العالم دهشاً . فقال له الملك الامر كما ترى وانا ملك اسوج ولكن ذلك لا يمنعك من ان تتغدى معنا . وكان حديث المائدة على النبات . وكذلك ترى ان عشاق الطبيعة متساوون في حبهم لها وفي نسبتهم اليها

مميزات الطفل النفسية

بين الثالثة والتاسعة من عمره

— ١ —

ان حواس الطفل في الدور الاول من حياته حساسة كاللوح الفوتوغرافي تتأثر بكل ما يقع ضمن دائرتها وهي في هذا الدور من الحياة لا تزال كذلك وعليها يجب ان نعتمد في نقل الافكار الجديدة والمبادىء العلمية الاولية لانها منافذ النفس وابواب العلوم

لو كان المعلم يستطيع ان ينقل الافكار من عقله الى عقل تلميذه كما ينقل قطعة من الاثاث من مكان الى آخر لكان فن التعليم اسهل الفنون وابسطها بل لما كان فنا على الاطلاق . ولكن انى له ان يفعل ذلك والتلميذ لديه معلومات محدودة نفذت الى مكامن عقله عن طريق حواسه وكلما اراد المعلم ان يضيف الى هذه المعلومات شيئاً جديداً وجب عليه ان يفسره بعبارات مألوفة لدى الولد . على اننا لا نعلم الولد سوى كلمات وعبارات لا يفهم لها معنى ولا يقوم لها في عقله صورة ما لم تكن في جزئياتها مطابقة لكلمات وعبارات عرفها قبلاً وان كان مجموعها جديداً

يعرف كاتب هذه السطور ولداً يُربي عمره على الثلاث سنوات اطعمتهُ امهُ في احد الايام قطعة من الحلوى المعروفة في لبنان «بالسنيوره» وذكرت امامهُ هذا الاسم وفي صباح اليوم الثاني جاءت الى بيتهم بائعة اللبن واتفق ان اسمها او كنيتها كان سنيوره فلما دعتها امه باسمها نظر اليها متعجباً وسألها قائلاً — انا اكلتك يا سنيوره فمن أين اتيت الآن ؟ ويروى ايضاً عن فتاة رأت شاربي خالها الصغيرين ولم تكن قد لاحظتهما من قبل فسألتهُ وأحرجتهُ بسؤالها — «أهذا حاجب ثالث ؟»

فالولد مثل كل احد من الناس لا يستطيع ان يدرك الجديد الا بعد ان يجد فيه علاقات تربطهُ باشياء قديمة يعرفها . كذلك لا نقدر ان نتصور المستقبل الا بدرس الماضي وما التاريخ سوى سلسلة منظومة الحلقات يرتبط تاليها بسابقها

فتقديم الافكار الجديدة بطريقة سهلة وبعبارات مألوفة لدى التلميذ ، تقرب اليه المعنى وتسهل عليه الفهم والادراك وهذا هو واجب المعلم الاكبر . وهو السر في نجاح بعض الكتّاب والمؤلفين واخفاق البعض الآخر . لذلك يتحتم على المعلم ان يدرس معارف تلاميذه قبل الشروع في تعليمهم لكي يصبح على بيّنة مما هو فاعل والا ذهبت اتعابهُ ادراج الرياح

— ٢ —

قوة التصور والخيال لها أثر كبير في تكييف حياة الولد في هذا الدور من الحياة ومن اهم مظاهرها

تعطشهُ لسماع القصص . على أنهُ يتطلب الآن قصصاً مترابطة الاجزاء منسقة الحوادث تتلو مسبباتها اسبابها فترسم لهُ صوراً من الحياة فاذا كان المعلّم محدّثاً ماهراً قدر ان يستهوي الولد بقصصهِ وأحاديثهِ . وعليهِ ان لا يودعها المبادىء الفلسفية العالية التي لا يتمكن الولد من ادراك كنهها .
وزد على ذلك فان الولد يصبح قادراً في هذا الدور من الحياة على التفريق بين الحقيقة والخيال وتظهر فيهِ قوة التصور والتمييز والتفضيل والنقد البسيط فبينما نرى الطفل في الدور الاول من طفولتهِ لا يفرّق بين القصص الوهمية الخرافية والحوادث الواقعية الحقيقية تجدهُ في هذا الدور وبوجهٍ خاص في نصفهِ الثاني مميزاً منتقداً يسأل « هل هذا صحيح ؟ » و « هل هذا في حيّز الامكان ؟ » والاشياء التي يصدّقها لمجرَّد سماعها يطلب الآن ان يقف على اسرارها وخفاياها . فلذلك يجب على المعلّم ان يوجهُ قليلاً الى هيكل الحقيقة الفخم وان يطلعهُ على الاسرار البسيطة التي يقدر ان يفهمها فيزداد بذلك كنز معارفهِ واختباراتهِ ويصبح مستعداً للدرجة الثانية في سلّم التقدم العلمي ومراتب النشوء الفكري مما سبق يتضح لنا ان قوة الفهم والادراك بدأت بالتنبُّه والظهور ولا يكتمل نموها الا في دور البلوغ

— ٣ —

لا يمرّ يوم جديد من حياة الولد الا ويأتيهِ باختبار جديد يضيفهُ الى اختباراتهِ السابقة ويبدأ بتفهم المبادىء الطبيعية البسيطة فيربطها بعضها ببعض ويوجد بينها علاقة السبب بالمسبب ويعلم انهُ اذا وقع السبب فلا بدَّ من وقوع المسبب . وعلى المعلّم ان يتوقف عن قصص الجن والحكايات الخرافية حينئذٍ لان تلميذهُ بدأ يدرك الحقيقة الطبيعية الكبرى في مبدأها الاولي — وهي ان الاشياء تسبب بعضها بعضاً

وهذا الانتقال لا يتم الا تدريجيًّا ولكنهُ يظهر في دور الطفولة الثاني. فوجود الولد في المدرسة يوسع دائرة اطلاعهِ وأفق نظرهِ الى الحياة ويولّد فيها افكاراً كثيرة لم يسبق لها وجود في عقلهِ فينمو نمواً عقليًّا سريعاً . كذلك تكثر اسئلتهُ لانهُ يريد ان يفهم العلاقات المختلفة بين شتى الامور ليكوّن كلاً كاملاً في جميع جزئياتهِ ولذلك يريد ان يربط هذه الاجزاء بنواميس وقوانين شاملة يدركها ويفهمها هو . ومن هذا القبيل يتعرض المعلّم الى ارتكاب ثلاث اغاليط وهي :

١ — ان يحسب المعلم الولد قادراً على ادراك كل شيء مهما يكن بسيطاً فيفسر لهُ المبادىء العلمية الجديدة لديهِ كما لو كان يفسرها لشبان قد اكتملت فيهم قوى الفهم والادراك . نعم ان الولد شرع يفهم علاقة السبب بالمسبب لانهما يحدثان معاً في زمن واحد وفي مكان واحد. تشرق الشمس فينتشر النور في الآفاق . هو يعرف هذه الحقيقة لان الامرين يقعان في زمن واحد ولكنهُ لا يفهم التعليل الفلسفي ولا العلاقة المنطقية بين الشروق وانتشار النور . انهُ لا يستطيع ان يفهم هذه العلاقات قبل ادراك سن البلوغ حينما يكتمل فيه نمو القوى العاقلة

٢ — ان الاعمال السافلة في رأيهِ هي الاعمال التي يرافقها العقاب العنيف او غضب الوالدين

الشديد . والاعمال الحسنة هي التي يسر بها والداه واقاربهُ وتعود عليهِ بالثناء . فهو لا يستطيع ادراك القوانين الادبية بمعناها الفلسفي البعيد الغور ولكنه يفهمها كسبب ونتيجة لانهُ يحكم على الامور بعواقبها وعلى الحوادث بنتائجها . فلذلك يجب ان يكون نصحنا وارشادنا موافقاً لاعمالنا وسلوكنا فاذا قلنا ان الكذب ممنوع يجب ان نعاقب الولد كلما كذب حتى تثبت لهُ ان الكذب عاقبتهُ وبيلة واذا امتدحنا الصدق امامهُ فعلينا ان نثني عليهِ حينما يصدق في اقوالهِ وافعالهِ او نجيزه على ذلك. على اننا قد نرى مسوغاً لمخالفة بعض القوانين والخروج عليها في بعض الاحيان فنفعل غير ما نقول ، لسبب نعتقده كافياً ولكن يجب ان نتجنب هذه المخالفات امامهُ لانهُ غير قادر ان يفهم السبب مهما تكن الحجة بالغة والدليل قوياً ، فيحدث ذلك تشويشاً في عقله ويصبح كأنه سائر في ظلمات حالكة يتلمس طريقه تلمساً ولا يهتدي الى السبيل القويم . يجب ان نحيطه بنظام ادبي شامل لا يتغير ولا يتبدل فينشأ وللمبادىء والعادات التي كسبها في صغره سلطة النواميس الطبيعية وقوتها

٣ — الصراحة والاخلاص — ذكرنا ان الطفل في هذا الدور من الحياة كثير الاسئلة ولذلك يتحتم علينا ان نكون في اجوبتنا عنها مثالاً للصراحة والاخلاص . المقترنين بالحكمة فالولد الذي يسأل امهُ لتطلعهُ على حقيقة الغول ولا تصدقه الخبر لا يلبث ان يعرف خطأه حينما يضحك منهُ رفاقهُ في المدرسة فيترك ضحكهم اثراً سيئاً في نفسهِ فيعتقد ان امهُ عرضتهُ لتلك الصدمة الاجتماعية لانها لا تخلص لهُ القول ولم تصارحهُ الحقيقة فيفقد ثقتهُ الكبيرة بها . والطفل في هذه السن باشد حاجة الى عطف الام وحنانها ونصحها وارشادها فاذا فقد ثقتهُ بها فبمن يلوذ ؟ كذلك المعلم الذي يطلب من تلاميذه ان يعتقدوا شيئاً لا يعتقده هو ولا يطلعهم على السبب الذي دفعه الى ذلك لانهم في رأيه لا يستطيعون ادراكه يرتكب الخطأ عينهُ لان الولد يلوم المعلم حينما يقف على جهلهِ وقد كان من واجب المعلم ان يطلعهُ بصراحة واخلاص على الحقيقة . فخير للتلميذ ان لا يذكر الموضوع امامه على الاطلاق من ان يذكره ناقصاً مشوهاً

— ٤ —

ان الولد في هذا الدور يميل الى قراءة الروايات ومطالعة الاشعار القصصية الحماسية . فلنجرب ان نربي فيهِ عادة حميدة هي مطالعة الروايات الشهيرة المعروفة بحسن اسلوبها وبلاغة تعابيرها وما تعيه من الحكم والعبر . وقد يجيء التلميذ الى معلمهِ ويسأله أحقيقة وقائع تلك الرواية ام لا ؟ فعلى المعلم عندئذٍ ان يصدقهُ الخبر فيقول : كلاً ان هذه الحوادث كما هي ليست واقعية ولكن ألا تظن ان هناك حوادث كثيرة مثلها ؟ ألا تظن ان الحكم التي وعتها حكم غالية والنصح ثمين يحسن بنا الجري عليهِ فيصبح المعلمُ ملجأ التلميذ عند اضطراب بحر الوجود ، يعتمد عليهِ ويلوذ بهِ حين تقوم في وجهه مشاكل الحياة فيأتيهِ طالباً عونهُ وارشاده للسير في سبل النماء الفكري والادبي حتى يصبح قادراً ان يعتمد على نفسهِ . واذ ذاك تصير المبادىء التي كونها في صغره والاخلاق التي وضعت اركانها في طفولتهِ حصن حياتهِ الاجتماعية الحصين ومعقلها الثابت الاركان

باب المراسلة والمناظرة

في بحور الشعر

حول نقد «صنّاجة» الرياشي

بقلم بشر فارس

نقد الشاعر حسن كامل الصيرفي ديوان قبلان افندي الرياشي في «مقتطف» شهر ديسمبر الماضي. وليس لي ان اتعرض لذلك النقد. الاّ انني اصبت فيهِ ما لم اطمئنَّ اليهِ. فلقد ذهب الاستاذ الصيرفي الى ان للشاعر سقطاتٍ في الوزن، والذي عندي انهُ وهم فيما ذهب اليهِ. واليك بيان ذلك

قال الاستاذ الصيرفي: «فمن سقطاته في الوزن — وفي الصنّاجة من ذلك كثير — قوله:

وبعـد قليل اتى كاهن يضيء الشموع ويذكي البخورا
ويتلو الصلاة على «نعشه م وهو» جاثٍ يناجي الاله الغفورا

وقوله: وما كان في لحمهِ «شبع» ولا كان قتل الضعيف اضطرارا

وقوله: نـظرت «ربات» الجمال اليـهِ يتغنى بحبهـا ويجيد

«وكان يصح ان تكون كلمة «جثوًّا» بدل «وهو جاثٍ» وكلمة «مشبع» بدلاً من «شبع» و«ربّة» عوضاً عن «ربّات» ليستقيم لهُ الوزن، ولعلَّ هـذه وما يشابهها اخطاء مطبعية يتداركها الشاعر في طبعة ثانية» اهـ

***

والتحقيق أن الوجه على غير ما يذهب اليهِ الاستاذ الصيرفي. فإذا تدبرنا مآخذهُ وجدناها مقصورة على بحرين: اولهما المتقارب (فعولن فعولن فعولن فعولن، مرتين) والآخر: الخفيف (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن، مرتين)

(١) اما المتقارب فكأنَّ الاستاذ الصيرفي يأخذ على الشاعر استعماله «العروض» تارةً (فَعَلْ) واخرى (فعولن) — (وذلك حين يقول «جثوًّا» بدل «وهو جاث»)، ثم كأنه يأخذ عليهِ قبض ١ فعولن) بحيث تكون (فعولُ) — (وذلك حين يقول «مشبع» بدلاً من «شبع»)

والذي اراهُ أن استعمال «فَعَلْ» و«فعولن» في «العروض» في القصيدة الواحدة شائع متواتر: قال الشريف الرضي (طبعة بيروت ص ٧٦٢)

ألسنا بني البيض من «هاشمٍ» اعز جناباً واوفى ذماما
فان رابكم ما يقول «الفصيح» فسالوا القنا واستشيروا الحماما

وقال مهيار (طبعة دار الكتب ص ٣٥٢):

تشككني وهي طوع «الريا ح» تتبعها يمنةً او يسارا
وتجلو عليك بنات «الفسيل» اذا كست السعفات الثمارا

هذا واما قبض (فعولن) بحيث يجيء (فعولُ) فلا غبار عليهِ وفي الابيات التي مرّت بك امثلة في ذلك

(٢) بقي ان الاستاذ الصيرفي يأخذ على الشاعر استعماله في « الخفيف » (مستفعلن) بدلاً من (مفاعلن) — وذلك حين يأخذ عليهِ قوله « ربّة » عوضاً عن « ربّات » في هذا البيت :

نظرت « ربات الجمال » اليهِ يتغنى بحبها وبجيده

والذي اراهُ ان استعمال (مستفعلن) بدلاً من (مفاعلن) لامطعن فيهِ ولا مغمز. قال عديّ بن زيد

ايها الشامت المعير بالدهر أأنت المبرأ الموفور
ام لديك « العهد الوثيق » من الايّـام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلّـدن او كا ن عليهِ « من ان يضام » خفير

وقال أبو تمام (طبعة محمد جلال ص ٢٩٣)

فتح الله في اللـواء لك الخا فق يوم « الاثنين » فتحاً مبينا
حوّمته « ريح الجنوب » ولن يحـمد صيد العقاب حتى تحوما
نعمة الله فيك لا اسأل الله م اليها « نعمى سوى » ان تدوما

وقال مهيار (طبعة دار الكتب ج ٢ ص ١١٤ ، ١١٥)

وامتطت وحدها الى غاية المجد ظهوراً « خشناً وطرقاً » وعورا
وتصفوا « من ناصر الدولة » ابناً يشهد الفخر ظافراً منصورا

وقال ابو العلاء: غير مجدٍ « في ملتي » واعتقادي نوح باكٍ ولا ترنم شاد
وشبيه « صوت النعي » اذا قيـس بصوت البشير في كل ناد
خفف الوطأ ما اظن أديم الا رض إلاّ « من هذه الاجساد »

وقال البحتري: وتماسكت حيث زعزعني الدهر م التماساً « منه لتعسي » ونكسي

وقال (طبعة رشيد عطية ص ٢٧٥)

في سماء « من خضرة » الروض فيها أنجم من شقائق النعمان
واصفرار « من لونه » وابيضاض كاجتماع اللجين والاقحوان
وتذكرت وافد الشيب فاستعجلت م حظي « في الراح والريحان »

هذا والمعلوم ان اصل هذا الوزن (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن ، مرتين)

قال ابو تمام (ص ٣٦)

اي مرعى « عين ووادي » نسيب لحبته « الايام في » ملحوب

وقال ابن المعتز (طبعة بيروت ص ٢٣٣)

راض نفسي « حتى رضيت » ابليـس قديماً « قد طاوعته » النفوس
اسكبوها « في الدن من » عهد نوح كظلام « فيه نهار » حبيس

ب . ف



على هامش السيرة

للدكتور طه حسين

الدكتور طه حسين غنيٌّ عن التعريف ولكن ذلك لا يمنعنا ان نقول انهُ بين الكتاب في هذا العصر فذٌّ لا يجارى ، في كثرة انتاجه وجودته وتعدُّد نواحيه . فهو قائم على تحرير « كوكب الشرق » عمله فيهِ يقتضي التغلغل في الشؤون السياسية في مصر ، بقراءة صحفها جميعاً والاجتماع بقادة الرأي فيها ، ويقتضي كذلك الاحاطة باتجاه التيارات الدولية في السياسة والاقتصاد . ولكنهُ مع ذلك يجد لديهِ متسعاً من الوقت لكي ينصرف الى شؤون الادب والنقد والثقافة بوجهٍ عام فيكتب المقالات الادبية للرسالة ، ويلقي المحاضرات العامة ، ويخرج مثل هذا الكتاب النفيس

***

ولا تعجبن اذا قلنا لك ان هذا الكتاب الاخير للدكتور طه حسين لمن صنف كتاب الايام . فان اختلف الموضوع في ذينك المؤلفين فان الاسلوب واحد فيهما . ذلك ان كليهما قائم على سرد اخبار وحوادث . وما نظن احداً من كتاب اليوم يقدر على ان يقص على الناس قصصاً مليئة في ذلك الظرف وتلك السهولة

ليس « على هامش السيرة » بالكتاب العلمي المحض المتبادر الى الذهن . أنهُ كتاب تأثري ، افرغ فيه الدكتور طه حسين ما اختلج في نفسه وجاش في صدره وهو يطالع السيرة . ومن ذا يحس بمحتويات السيرة مثل طه حسين وهو الذي تخرج في الازهر قبل كل شيء ثم اولع بقراءة الكتب الصفر واقبل على اخبار عرب الجاهلية ودرس شعرهم ونظر في القرآن وما يليه من تفاسير وقصص

***

والذي يجعل بين هذا الكتاب وكتاب الايام وجهاً من الشبه ذلك الاسلوب الرشيق الذي به يصف الدكتور طه حسين الاشخاص ويسرد الحوادث . فكأن الاشخاص بمرأى وكأن الحوادث بمسمع ولربما انطلق الدكتور فيما يصف ويسرد حتى لانهُ يخرج عن موضوع بحثه ويستطرد من هنا وهناك فيفتح لك آفاقاً ويكشف عن حجب وانت منقاد اليه انقياداً بل مسحور برشاقة تعبيره وفصاحة عبارته

مقالبر الكتب

١ — ابن خلدون (حياته وتراثه الفكري)

(تأليف محمد عبد الله عنان — مطبعة دار الكتب العربية سنة ١٣٥٢ وسنة ١٩٣٣)

نشأ ابن خلدون في بيت من بيوت المجد قد نزح من الاندلس الجميل الى تونس الفيحاء ، ونما في بيت من العلم والرياسة ، والشرف والسياسة ، وصبغ بصبغة الجيل الذي عاش فيه ، فلما استوى على سوقه وجد ما بين يديهِ من دول الاندلس والمغرب كالنساء الضرائر ، لاتفتر واحدة عن الكيد لصواحباتها . وكان صدر هذا الشاب (ابن خلدون) يغلي بأمانيهِ وأوهامهِ ومطامعهِ ، فرأى فيه أهلهُ ومن يحيط بهم من أهل الشرف والرياسة ، وهو في سن العشرين ، بارقة من النبوغ والعبقرية والسيادة ، وتداول الناس امره حتى سمع بهِ أبو محمد بن تافراكين فاستدعاه لكتابة (العلامة)[1] عن السلطان أبي اسحاق فكان ذلك اول اتصاله بالحياة السياسية في دول المغرب والاندلس ، والتي خاض (ابن خلدون) فيما بعد غمرتها وتلظى بها وأصلى فيها او شبَّ نيرانها ، وكان لها في تاريخ حياته أثر بيّن ، حبيبٌ حيناً وبغيض أحياناً . ومكث ابن خلدون في عمله هذا حتى نزعت به همته الى الرحلة من تونس سنة ٧٥٣ الى (قَفْصَة) ثم الى (بسكرة) فنزل ضيفاً على صاحبها (يوسف بن مزني) ومن هناك قصد الرحلة الى (أبي عنان) بتلمسان ولكنهُ لم يمض في طريقه حتى لقيه (ابن أبي عمرو) صاحب (بجاية) فصرفه عن أبي عنان وحمله معهُ مكرَّما الى (بجاية) فكان فيها حديث الناس حتى بلغ ذكره (أبا عنانٍ) وكان لهُ مجلس من العلماء فرأى ان يستدعى (ابن خلدون) لما بلغه عنه فحمله على خير محمل سنة ٧٥٥ وأتمَّ بهِ مجلس العلماء واختصَّه بالكتابة والتوقيع بين يديه . وكان اصحاب (أبي عنان) من اكثر اهل البلاد حسداً وغيرةً ، فكادوا لهُ كيداً عظيماً لما رأوا من حظوتهِ عن السلطان ، فلم يجد صاحبنا بدًّا من التقحم في غمرات الدسائس والمكايد ، ولعلها وافقت هوى من نفسه ، فبرع في الدس والكيد والتلوُّن واثارة الفتن حتى اضطرمت في عهده البلاد ناراً من الفتنة كان هو مثيرها حيناً ومطفئها احياناً . واستمر أمره على ذلك فيما تقلب فيه من امر الدول المغربية والاندلسية وليس سبيلنا هنا ان نترجم لابن خلدون ولكنا قدَّمنا هذه الكلمة لما كان للدسائس من الخطر في حياة هذا الرجل ، وقد استقصى ذلك الاستاذ عنان في كتابه بايجاز وعرضه على القارىء عرضاً جيلا

كان هذا الرجل ذكيًّا قادراً بايغاً دقيق العبارة جيد الافصاح عن ضمير نفسه . مشرق الفهم رحب الادراك ، يقع لهُ الامر من الامور فيفصّله ويبيّنه ويوضحهُ ويجمع اليه القرائن ويجيد القياسَ بين شيءٍ وشيءٍ مما يحدثُ لهُ أو لغيره من الناس فوَضعَ من ذلك في ذهنهِ شيئاً كثيراً ، هو الذي اجتمع لهُ حين ألّف مقدمته المشهورة في الشرق والغرب ، فاخرج فيها من

(١) ذكر (العلامة) الاستاذ عنان في كتابه ولم يفسرها ، وكان الاولى تفسيرها ، لانها شيء قد درس قلما يفهم احد ما يعني بها . والعلامة عندهم في ذلك العصر هي : « الحمد لله ، والشكر لله » تكتب في كتاب السلطان او مرسومه بالقلم الغليظ بين البسملة وما بعدها من الكلام

الحقائق ، والنظريات والأسس في حياة الدولة ما لم يجمعهُ كتاب عربيٌّ قبلهُ . وما ذلك الا لانهُ كان — كما أسلفنا — (بليغاً ، دقيق العبارة ، جيّد الافصاح عن ضميره نفسهِ)

واكثر الناس على ان ابن خلدون هو أولُ من اهتدى — من العرب — الى هذه الحقائق العظيمة التي اثبتها في مقدمته ، فهذا صحيح من ناحية ، هي انهُ اول من دوّنها جميعها بين دفتي كتاب، ولكنني لا اشكُّ ان اهل السياسة والرياسة في الدول العربية في الشرق والغرب كانوا يجيدون ما اجاد ابن خلدون من هذا العلم ، وكانوا يعرفون ذلك حقَّ المعرفة ، وهناك ادلة كثيرة على ذلك ليس هذا موضعُ ايضاحها وتفصيلها . وأنا لا اظنُّ ان رجلاً مثل (لسان الدين بن الخطيب) الوزير الاندلسيُّ البارع في السياسة والادب كان يجهل من هذا ما علمهُ ابن خلدون ، بل ارجح الظنّ عندي أن (لسان الدين) كان على شرف من هذا العلم يكاد يفوق به صديقه ابن خلدون الا ان ما تهيأ لابن خلدون من البلاغة التي لا صنعة فيها ومن دقة العبارة ومن جودة القياس ، ومن براعة الافصاح عمّا يترجرج في نفسه وضميره — لم يتهيأ — للسان الدين بن الخطيب فقد كان هذا شاعراً كاتباً بليغاً على أسلوب غير هذا الذي كان لابن خلدون ، ولم يكن لسان الدين بأقل من ابن خلدون في إشراق الفهم ورحب الادراك ولكنه كان أقلَّ منهُ في القياس بين النظائر التي كانت تحدث لهُ وهو وزير الدولة أو التي كانت تجدُّ في الجوِّ السياسيِّ المتلبّد بغيوم من الدسائس والفتن والاهوال الرائحة الغادية على الدولة وأهلها

نقل الاستاذ عنان ، قول جمبلوفتش « لقد اردنا ان ندلّل على انه قبل اوجست كونت ، بل قبل فيكو الذي اراد الايطاليون ان يجعلوا منهُ اول اجتماعيّ اوربيّ ، جاء مسلم تقيٌّ فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن ، وأتى في هذا الموضوع بآراء عميقة وما كتبه هو ما نسميه اليوم علم الاجتماع » واستوقفتني هذه الكلمات زمناً طويلاً ترامى فيهِ الفكر ، واستيقظ في القلب ذلك الاحساس بالظلم والغبن والتجاهل الذي لقيه الفكر العربيّ في هذه الازمان وما قبلها

ان القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وحياً لا شكَّ فيهِ ، بآيات بيّنات فيها حاجة الانسان المدنيّ العامل الظافر بالسعادتين في الدنيا والآخرة ، وكان هذا القرآن مادّة العلم العربيّ على القرون ومنهُ استقى ابن خلدون وغير ابن خلدون من علماء هذه الامة الاسلامية ومنه خرج التشريع العظيم الذي ملأ الارض عدلاً وكان منهُ ما نسميه علمُ الفقه . ففي هذا العلم تجد علم الاجتماع مفرّقاً في مسائله وأحكامه ، ومن رجع الى كتب الأئمة (المتقدمين خاصة) وجدَ من أسس علم الاجتماع ما لا يدعُ شكّاً في نفس احد من ان ابن خلدون انما استخرج اسسه (وأسس غيره مما أتى به في مقدمته) من هذا المورد الذي لا ينفد . ولا بدَّ من ان نقول ان القرآن اتى بأسس هذه العلوم مختصرة غير مفصلة وان الرسول في حديثه بيّن بعضها وترك بعضاً للفكر الانساني لئلا يضيقَ وينحصرَ ويجمد اذا اتاهُ بالتفاصيل كلّها. هذا وليس من المعقول ان يوحيَ الله الى رسولٍ من رُسله بكلّ شؤون الحياة مفصلة ولئن فعل ، فمن ذا الذي يحفظها ، كما حفظ القرآن والحديث ؟!

من العلوم الاسلامية علم مجهول لا تجد فيه الآ كتباً قلائل مما نجا من عبث الأيام وجهل علماء المتأخرين بقدره وخطره ، ذلك هو علم (القواعد) الـّف فيه كثير من الأئمة ، وخيرما أُلـّف فيه كتاب القواعد (للعزّ بن عبد السلام) وكتاب (ابن رجب) . ففي هذا العلم تجد من روائع الفكر العربي في علوم الاجتماع والحياة مايبهرك ويفتنك، وارجو ان اوفـّق قريباً الى كتابة كلمات عن هذا في هذه المجلة

هذا وحقُّ كتاب الاستاذ عنان اكثر من هذه الكلمة ، لانهُ بذل فيه من الجهد في المراجعة والتثبُّت والنظر ما عهد فيه ، ولولا ان احدنا اذا امسك قلمه للكتابة انفتحت له الابواب من كلٍ ناحية ، وتطلب كل باب منها مقالة او اكثر لتركنا النفس على غلوائها ، وعرضنا للقارىء تفصيلا لما اوجز الاستاذ عنان ، ووقفنا عند كلّ ما يثير في النفس افكارها وآراءها وخيالها وآلامها من الظلم والغبن والتجاهل التي نزلت بالفكر العربي

٢ — قلب جزيرة العرب

تأليف «فؤاد حمزة» المطبعة السلفية ومكتبتها سنة ١٣٥٢ — سنة ١٩٣٣

قام كثير من الاعاجم الاوربيين ، وجاسوا خلال الجزيرة العربية ، ودرسوا — على قدر ما وفقوا اليه — أمر هذه البلاد ، وألـّفوا في ذلك كتباً كثيرة تشهد لهم بالفضل والبراعة والسبق الى ما تأخرعنهُ ابناء هذه البلاد وأحِبّاؤها من احفادها الذين رحل اجدادهم منها الى بقية البلاد التي تنطق بالعربية الآن كمصر والشام والمغرب وغيرها. وقد وضع بعض العرب كتباًعن الجزيرة العربية الاّ انها لاتفي بحاجة الامم العربية المتباعدة: ولا تكشف لهم عن سرّ هذه الجزيرة، ولاتقوم صلةً بينهم وبينها

وقد اثار هذا الاستاذ فؤاد حمزة لتأليف كتابهِ (قلب جزيرة العرب) على أتمّ ما رأى من طريقة لتعريف ابناء العربية ببلاد العربية، والاستاذ فؤاد اقرب من ننتظر منهُ الاجادة في غرض كهذا لانهُ عربيٌّ مخاص لهذه البلاد ، ثم لانهُ قد سلخ اعواماً طوالاً في قلب الجزيرة (بلاد نجد) وفي الحجاز الذي فاء الى حُكم ابن سعود النجدي، ثم هو قد تقلـّب على رمالها كما تقلب في سياستها وأمور دولتها . فاذا كتب في حال هذه الجزيرة في ايامنا هذه كان اقرب الى الاجادة ممن يدخلها سائحاً يخرج منها كاتباً او مؤلفاً

وقد بدأ كتابه بذكر طبيعة الارض العربية ، وتكوينها الجيولوجي وما في هذه البلاد من انهار وبحيرات وغير ذلك من سهولها وجبالها وجوّها وامطارها وسيولها الكثيرة . وهـذا بابٌ واسع جدًّا كان على المؤلف ان يستوفيه لولا ما في ذلك من المشقة والتعنت، والحاجة التي لا تتمّ من الآلات الحديثة التي يصعب نقلها واستعمالها ، وبخاصة اذا كان الذي يقوم بذلك فرد برأسهِ لا أعوان له ولا أنصار . وقد كان من الفرض على الامم العربية ان تتعاون على ذلك ، الاّ ان المآرب السياسية قد عاقت ذلك واخرته الى اجل نسأل الله ان لا يجعله بعيداً . ثم اتبع هذا بالكلام على الحالة الاجتماعية في الجزيرة ، وهذا كسابقه مما لا بدَّ لهُ من التوسع حتى يقع في مجلدات ولكن المؤلف اوجزه على خير ما يكون الايجاز وعرض فيه للقارىء أهم مايفكر فيه أو يخطر على باله واجاد في ذلك اجادة الخبير الذي شاهدَ وسمعَ وفهمَ كلَّ ما شاهدَ وما سمع بعين عربية واذن عربية وقلب

عربيّ ، ونقول ذلك لان كثيراً ممن كتبَ من الاعاجم انما رأى بعين أعجمية وسمع بأذن أعجمية وتلقف ذلك بقلب أعجميّ حتى كثر الخطأ في كلامهم ، ثم لان السياسة كان لها يد ورجل ايضاً فيما كتبوا ودوّنوا من شؤون هذه البلاد الاجتماعية والسياسية

ويلي هذين البابين ، باب قد استكمل بهِ المؤلّف نقصاً كبيراً في فرع من علوم العرب ألا وهو « الانساب » . فان علم الانساب (انساب القبائل وغيرها) كان من اهم ما امتازت بهِ الامة العربية ، وقد ألّف المتقدمون في ذلك الكتب المطوّلة ، واستقصوا فيها انساب العرب قبيلةً قبيلة وبطناً بطناً وفخذاً فخذاً ولم يتركوا صغيراً ولا كبيراً في هذا الباب الاَّ ذكروه ، ففي هذا الباب حشد المؤلف ما في الجزيرة الآن من القبائل وفروعها على قدر ما اتيح لهُ ، وتوثّق لذلك من اهل البلاد وعلماء الانساب فيها وردَّ ما استطاع من هذه القبائل الى اصولها من القبائل العربية الاولى ، وبذلك وصل بين هوّتين في تاريخ النسب العربيّ ، وكان اسبق من اخرج للناس هذه الانساب التي اهملها مؤرخو هذا العصر . فلما انتهى المؤلف من التعريف بالقبائل التي تسكن البادية العربية الآن اوجز تاريخ الحكم الذي مرَّ بهذه الجزيرة حتى انتهى الى الدولة القائمة الآن — دولة عبد العزيز بن السعود وآله

هذه ترجمة ما في الكتاب من العلم ، وبقي علينا ان نقول الكلمة في قدر هذا الكتاب وغيره من الكتب التي من بابته . فالأمم العربية الآن تمزقها السياسة الاستعمارية التي تتولى كبرها وتحمل اوزارها ام الاعاجم من الاوربيين . وقد بلغوا منا مبلغاً عظيماً في التمزيق والتفريق بالدسائس حيناً وبالتعليم الفاسد حيناً ، وبالنكبة القاصمة التي تدفّق علينا سيلها وسماها الناس الجنسيات وتهافتوا عليها كما يتهافت الفراش على حتفه من النار . ولا بدَّ للامم العربية فيما بين الصين الى اقاصي الغرب أن تعلم ان الجنسيات فتنة لا يراد بها الا الشرّ للعرب اولاً وللشرق الغني ثانياً ، وان تعلم ان حياتها في النصرة والتعاون والتآزر ، وان تعلم ان لا حياة لواحدة منها ما دامت الاخرى لا تزال على (المشنقة) الاستعمارية ، وان تعلم ان لا سبيل الى الحرية الاَّ بالعلم الانسانيّ الذي يتلقفهُ قلبٌ عربيٌّ ليبقى عربيًّا لا ليتحوَّل من عربيتهِ الى ارجوحة بين العربية والاعجمية . وما من سبيل الى ذلك الاَّ بايقاظ الاحساس العربيّ في كل قلب ، وعقد الآمال على المادة العربية والمجد العربي ، وما من سبيل الى ايقاظ هذا الاحساس إلا بالتعارف والتكاشف ، وسبيل التعارف الآن هي هذه الكتب التي تكشف للعرب عن خفايا بلادهم وتصل ما تقطّع من اواصرهم بالمعرفة وفي المعرفة المحبة ، وفي المحبة التآلف ، وفي التآلف التناصر ، وفي التناصر الحرية والاستقلال

وهذه الجزيرة العربية — على ما فيها من الضعف — هي مادة هذا التناصر ، وهي مهوى قلوب الامم العربية والاسلامية وهي معقدُ الآمال ، وهي حصنُ العرب واليها تحشد القوى الاعجمية وتدبر الدسائس ، وفيها تلقى الفتن ، وتوقد نيرانُ العداوة بين اهلها . . . لأن الاعاجم الاوربيين يعلمون من ذلك ما يتجاهله ابناء العربية أو ما يتورطون في تجاهله وانكاره . فعمل الامم الناطقة بالعربية على التعارف والتكاشف هو عملها الى الحرية والمجد والظفر بالاماني والآمال

محمود محمد شاكر

دائرة المعارف الاسلامية

ينقلها الى العربية — محمد ثابت الفندي — احمد الشنتناوي — ابرهيم زكي خورشيد — عبد الحميد يونس
عنوان ادارتها ٢٣ شارع قصر النيل بمصر

« الحضارة الاسلامية وليدة البعثة النبوية . . . مثّلت فيها مثّلت حضارات اليونان والروم والفرس . وشملت اممًا مختلفة الامزجة والطبائع ، فلم تكن حضارة العرب فحسب وانما كانت حضارة الامم الاسلامية جميعها ، او قل هي حضارة العصور الوسطى التي ربطت العلم القديم بالعلم الحديث . ولقد اهتم العالم الحديث اهتمامًا خاصًّا بالدور التي لعبته تلك الحضارة (كنا نفضل لو قيل . . . « بما كان لتلك الحضارة من الشأن والاثر ») فأكبَّ فريق من علماء الغرب « المستشرقين » على دراسة تراث تلك الحضارة العظيمة بما فيها من دينٍ سمحٍ رضيٍّ كريم ، ومن لغة غنية بمفرداتها ، مرنة باشتقاقاتها ، جميلة برسم حروفها ، ومن ادب يصور نبضات القلوب وخلجات النفوس ونجوى الضمائر ، ومن تصوّف وفناء في التأمل ، ومن فلسفة بلغت الغاية في عمقها وشمولها ، ومن حكم وتشريع لم تصل الانسانية بعد الى خير منهما . وقد اذاعوا دراساتهم في كتب عدّة ومجلات خاصة ، ثم رأوا من بداية هذا القرن ان يجمعوا خلاصة ابحاثهم في كتاب جامع يتبعون فيه منهج القواميس والمعاجم ، فكتبوا « دائرة المعارف الاسلامية » (او دائرة معارف الاسلام ؟) باللغات الاوربية الكبرى — الانكليزية والفرنسية والالمانية — وهنا نحن نتقدم بترجمتها الى قرّاء اللغة العربية »

وقد اختمرت فكرة ترجمة هذه الدائرة في رؤوس طائفة من شباننا النجباء ، من نحو ثلاثة اعوام فعكفوا على دراسة المشروع من جميع نواحيه وألمّوا بكل الصعوبات المادية والمعنوية التي كثيرًا ما تعترض الاعمال العلمية والادبية .... ولكنهم اقدموا وجردوا العزم للقيام بالعمل وقد صدر الجزء الاول والجزء الثاني من نتاج عملهم فهنئهم بالتفكير فيه اولاً والاقدام عليه ثانية

وغنيٌّ عن البيان ان هـذا العمل يصطدم بمصاعب شتى لعلّ أهمها صعوبة الترجمة ترجمة دقيقة في موضوعات لا بدّ فيها من الاطلاع على ما كتبهُ علماء الاسلام وفلاسفتهُ وما اكثرهُ ، حتى تستقيم العبارة مع ما كتبوه ، وتأتي الالفاظ في اماكنها . وقد أشار بعض النقاد الى ما يعتور الجزء الاول من النقص في هذه الناحية . وليس هذا مجال العودة الى ذكرهِ ، وانما نعلم ان الادباء القائمين على اتمام هذا العمل الخطير ، يطلبون الحقيقة ، ويرحبون بالنقد ، لانهم يبغون ان يجيء عملهم اقرب ما يكون الى التمام . وقد راجعنا بعض ما جاء في الجزء الثاني على الاصل الانكليزي فرأيناهُ وافيًا بالمرام بوجهٍ عام

وقد أشار احد الكتّاب كذلك ، الى وجوب التعليق على كتابات المستشرقين ، بما يقوّم معوجّها في بعض النواحي ، لان المستشرقين ، بلغت ما بلغت معرفتهم للغة العربية ، وفلسفة الاسلام ، لا بدّ

ان تفوتهم اشياء ، او هم قد يتأثرون ببعض الوان الدعاية الغربية ، فينساقون مع التيار، ويشطون عن الحقيقة . وهذا التعليق قد يكون متعذراً على القائمين بعمل الترجمة والنشر وهو بحدّ ذاته جهد عظيم ، ولكن ذلك لا يمنع ان تعهد لجنة ترجمة الدائرة الى نفر من علماء الاسلام على رأسهم الأمير شكيب ارسلان ، في وضع التعليقات اللازمة ونشرها جنباً الى جنب مع اجزاء الدائرة ، — قل مثلاً جزءا من التعليق لكل خمسة اجزاء من الدائرة كي تظهر في ثوبها العربي

والجزآن اللذان بين أيدينا مطبوعان طبعاً متقناً على ورق جيد، وحبّذا لو عنيت اللجنة باختيار حرف اسود ، لعنوانات الفقرات حتى يستطيع القارىء ان يميزها من دون عناء

١ — مطبوعات جامعة بيروت الاميركية

A Post-War Bibliography of the New Eastern Mandates

أحسنت دائرة علوم الاجتماع في كلية الآداب والعلوم بجامعة بيروت الاميركية في اخراج هذا السفر النفيس . فالبحث العلمي يقتضي معرفة الحقائق . والتوصّل الى الحقيقة لا يتمّ الاّ عن طريق المقابلة والموازنة بين الآراء . واذاً فالباحث يحتاج الى الاطلاع على المراجع التي بسطت فيها هذه الآراء ، سواءٌ أكانت مقالات في الصحف اليومية والمجلات ، او كتباً ورسائل طبعت ونشرت على حدة . لذلك عنَّ لطائفة من الاساتذة الذين عيّنوا حديثاً في جامعة بيروت الاميركية ان يجمعوا هذه المراجع ، الخاصة بسورية والعراق وفلسطين وشمال الجزيرة العربية ، مبتدئين من يوم الهدنة — ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ — الى آخر سنة ١٩٢٩ وهم ينوون ان ينقحوا المجموعة كل خمس سنوات لذلك يتوقعون من العلماء الباحثين ، ان يبيّنوا لهم ما وقع في المجموعة الاولى من نقص او خطإ لان غرضهم الحقيقة قبل كل شيء . وقد جمعوا كل ما تمكنوا من العثور عليه في اللغات الآتية ، الفرنسية والانكليزية والالمانية والهولاندية والايطالية واللاتينية والعربية والعبرية والارمنية والتركية والفارسية والسريانية والكردية . وهم لا يدّعون انهم جمعوا كل ما كتب وبوّبوه، ولكنهم لم يدّخروا وسعاً في تحقيق الغرض الذي وضعوهُ نصب عيونهم . اما الموضوعات التي جمعوا مراجعها فهي المباحث التي تتناولها العلوم الاجتماعية بوجهٍ عام كالحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بل انهم لم يهملوا الدين وعلم الاجناس والتربية والجغرافية البشرية وعلم النفس وتراجم الافذاذ ، وعهدوا الى الاستاذ ستيورت دُدّ Dodd استاذ علم الاجتماع المساعد في الجامعة ، ليشرف على اخراج هذه المجموعة

***

اهدت الينا الجامعة النسخ الانكليزية والايطالية والعبرية من هذه المجموعة النفيسة ، ففتحنا المجموعة الانكليزية اتفاقاً عند الصفحة ٦٩ من فهرس الكتاب فرأينا ذكر مقالة للمستر مورغنتو سفير اميركا في الاستانة سابقاً عنوانها «الصهيونية : تسليم لا حلّ» نشرت سنة ١٩٢١ في مجلة عمل العالم

في الولايات المتحدة وانكلترا . ورأينا ذكر مقالة للمستر (؟) مُس عنوانهُ «اليهود واليهودية في تدمر» ظهرت سنة ١٩٢٨ في نشرة البحث الأثري الفلسطيني . وعلى هذا النمط تجد مئات بل الوف المقالات والرسائل والكتب التي نشرت في اللغة المذكورة وتعالج ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية في الشرق الادنى . والمجموعة مرتبة اولاً بحسب أسماء الكتّاب وثانياً بحسب الموضوعات

٢ — الاصول العربية لتاريخ سورية

في عهد محمد علي

توفّر الدكتور اسد رستم استاذ التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الاميركية ، على دراسة تاريخ الشرق الادنى في عهد محمد علي ، وقضى السنين الطوال في البحث والتنقيب ، وانفق المال في اقتناء الكتب النادرة والرسائل المخطوطة . وقد شرع من بضع سنوات في نشر ما دعاه « الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي» وهذا هو المجلد الخامس وهو يحتوي على الاوراق السياسية لسنة ١٢٥٦ هجرية والى القارىء مثالاً من هذه الاوراق يتبين منها اسلوب الكتابة في ذلك العصر وناحية من نواحي الموضوعات التي تبسطها هذه الاوراق ولا بدَّ منها مادَّة للمؤرخين : —

فقدان الامن بضواحي بيروت

غاية ربيع الاول سنة ١٢٥٦

الامير محمود نامي والقنصل مور . ١٦×٢٣ س . من الورق الصكوكي الرقيق . وهو محفوظ في دار القنصلية البريطانية في بيروت وعلى ظهره كلمة circular بالانكليزية

الجناب الاكرم حضرة المحب الاجل المحترم قونسلوس بك دولة الانكليز المحتشم حفظه الله تعالى ليس خافي محبتكم الحال الواقع من ظهور خروج بعض اشقيا من رعايا جبل لبنان كما هو المسموع والمحسوس بالقرب من هذه الناحية ومن جرآ ذلك رعايا بيروت من اسلام وذميون سكنا البريه متحسبين وعمال ينزلوا عفشهم الي البلده والبعض نزلوا من محلاتهم الي البلده فبحيث الحالة هذه وللمحافظة المامورين بها واحتراساً لامرٍ ما مآ اقتضى التنبيه بان كافة البوابات تقفل اذآن المغرب وبالاذن يصير فتح بوابة السراي الي حد العشآ فقط وبعد اذآن العشا المتقدم شرحه ما في رخصه لفتح البوابه كلياً بل الذي يكون داخل البلده يفضل بها كما والذي خارج البلده ايضاً وحيث ذلك عايد لراحة الضمير ولاجل المحافظه المامورين بها اقتضي افادة محبتكم بذلك والله تعالى يحفظكم

غاية ر ١ سنة ٢٥٦ الختم مير محمود محافظ بيروت

فن الصحة

الجزء الثاني — الصحة الاجتماعية — تأليف الطبيب احمد حمدي الخياط — استاذ فن الجراثيم وعلم الصحة — في المعهد الطبي العربي بدمشق

كان الجزء الاول من هذا السفر المفيد ، يشتمل على قواعد الصحة البدنية ، عالج فيه المؤلف البيئة الصحية ، كالارض والهواء والماء والغذاء والمسكن والملبس ، ثم عرض لصحة الاجهزة البدنية : كصحة الجلد وصحة اعضاء الحركة وصحة جهاز التنفس وصحة اجهزة الدوران والهضم والاعصاب

فالجزء الثاني الذي بين ايدينا ، متمم للجزء الاول ، ومن اقتنى ذلك لا يستغني عن هذا . وقد قال في فاتحته : — يختصُّ هذا القسم بالبحث عن القواعد الصحية التي لها علاقة بالحياة الاجتماعية اكثر من الحياة الفردية كالبحث في صحة الوليد ، والتربية والتعليم والمدارس والمشافي (المستشفيات) وسبل الوقاية من الامراض السارية او الاجتماعية» . والى القارىء كلمة في المقابر ، افتتح بها الفصل الخاص بموضوع دفن الموتى ، ونواحيه الصحية والعلمية . قال :

«القبر هو الحفرة التي تلقى فيها جثة الانسان بعد موته . ومهما تكن اسباب الوفاة فالاحتياطات الواجب اخذها لتحديد انتشار الضرر منهُ مهمة وضرورية جداً . وقد جرت العادة ، منذ الازمان القديمة ، للتخلص من كل ضرر يحتمل وقوعه من شلو الانسان بعد تركه الحياة ، أن يدفن في الارض في حفرة بعيدة عن كل اتصال بسطحها ، حيث يكون عرضة للتحلل والتفسخ بتأثير الجراثيم المتنوعة ، فيصبح بعد قليل من الزمن او كثير ، هباء ويعود تراباً ، أي كما بدأ يعود ، كأن لم يكن شيئاً

«ولا بد لحسن جريان هذا التفسخ والتحلل ، لحصول الفناء بصورة معتدلة او سريعة ، من النظر في جبلة الارض المعدة للدفن وكثرة رطوبتها او قلتها ، او خلوها منها البتة ، لما في ذلك من التأثير الكلي في تعجيل الفناء او تأخيره كما يأتي بيانه . كما انهُ لا بد لتمام الفائدة من ذلك وجودة الوقاية وحفظ الصحة أن ينظر في احوال مياه تلك الارض او رطوبتها او اتصالها بمياه بعض المدن او عدمه ، وملاحظة هوائها وانتشاره في جو المدينة وما يتبع ذلك ، ثم العناية بنقل الاموات ودفنها حرصاً على الصحة العامة ووقاية لها من ضرر تلك الاشلاء إلى أن يواريها التراب »

والجزء الثاني ابوابهُ منسقة احسن تنسيق ، اولها باب صحة الوليد ، وقد عرض فيه لتلقي الوليد عند ولادته ومهده ولباسه وتغذيته ونظافته واسنانه وتلقيحه ضدَّ الجدري . اما الباب الثاني فوقفهُ على بحث التربية والتعليم من وجوههما الصحية ، وفي هذا الباب شيءٌ من علم النفس المطبَّق . اما النبذة التي كتبها عن المدارس فيجب ان تكتب بماء الذهب وتوضع في كل وزارات المعارف في الشرق . ويتناول في البابين الرابع والخامس ، المستشفيات والمقابر . ثم عرض لسبل الوقاية من الامراض بوجه عام كالعزل والتطهير وابادة الحشرات والجرذان . ثم فصَّل ذلك في الفصل الذي يليه ، كل مرض على حدة ، كالجدري والحصبة والحمى القرمزية وغيرها — من الامراض السارية — والادواء الزهرية على اختلافها من الامراض الاجتماعية

روائع من قصص الغرب

نقلها كامل كيلاني — نشرتها مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر — صفحاتها ٥٧٦ قطع متوسط

قال الناقل في مقدمته :

« هذي طباع الناس معروضة   فخالطوا العالم او فارقوا »

« هكذا يقول شيخ المعرّة ابو العلاء . وليست القصص الاّ معرضاً رائعاً تتمثل فيه الوان الحياة وجوانبها ومُثُلها العليا وخلجاتها الخفية المستسرّة . وقد برع كتّاب الغرب وشعراؤُه في هذا الفن براعة لا توصف ونقل الينا كثير من ادبائنا ومترجمينا روائع من قصصهم الخالد . ورأى الناس في هذه المائدة من الوان الغذاء الفكري ما بهر البابهم وسحر عقولهم فراحوا يطلبون المزيد من هذه الالوان المعجبة الشهية .... وقد توخيت في اختياري ، أن تجمع كل قصة من هذه المجموعة الى عمق الفكرة دقة والتحليل وسمو الغاية وبراعة الاداء ، كما توخيت ان اختار من روائع الغرب قصصاً انسانية عامة غير محلية ، وهذا القصص الانساني صالح لكل امة وفي كل زمنٍ لانهُ لا يكاد يعرف بيئة بعينها »

القصة الاولى تمثيلية للكاتب الفرنسي جان سارمان Jean Sarment وعنوانها « صيّاد الخيال » ونحن لم نقرأ القصة بالفرنسية فلا نستطيع ان نهدي القارىء الى عنوانها بتلك اللغة . وانما تلخّص فكرتها في قول شكسبير « انها قصة يرويها مخبول ، حافلة بالضجيج والصخب ، ثم هي بعد لا تعني شيئاً » . والرواية آية من آيات الادب الفرنسي في الدرامة العصرية ، ففيها شعرٌ وفيها اجتماع وفيها تحليل لنواحي النفس . اما الحوار — ولا يخفى عليك ان براعة الحوار سرٌّ من اسرار التأليف المسرحي — فيبلغ في بعض فصولها أعلى مراتب الابداع

ويلي ذلك اقصوصة لفرنسوى كوبيه — الفرنسي — عنوانها النافذة المنوّرة ، ثم مختارات ، من قصص ذلك القاصّ الايطالي البارع — العبقري في نظر طائفة كبيرة من النقاد — ونعني بوكاتشو . ويليها قصة « ممرّ الاغراء » لفولتير وانت تعلم ان فولتير من اساطين الاحرار الذين اثاروا بكتاباتهم الثورة الفرنسية ، وملأ عصرهُ بآثار فكرهِ الحرّ ، ونتاجهِ الخصب ، من علم وأدب وشعرٍ وقصص . ثم فصل من « ديدرو » زعيم الانسكلوبيذيين الفرنسيين . ويلي ذلك قصة كاملة بعنوان جورجينا تأليف الفرد سرفن في نحو مائة صفحة فرواية تمثيلية اخرى تامة من تأليف بول ارفييه عنوانها « القول يبقى » وهي من غرر الروايات المسرحية ، ومختارات من سرفنتس وسوفت وغيرهم من اعلام الادب الاوربي

فنشكر للناقل عنايتهُ بهذا النوع من الانتاج الادبي ، ونهنئ مطبعة عيسى البابي الحلبي ، بحسن اختيارها وشدّة عنايتها بنتاج القرائح المعاصرة ، جنباً الى جنبٍ مع عنايتها بمؤلفات الاقدمين

اطياف الربيع
وأبو شادي في الميزان

حالت اشغالنا دون مطالعة ديوان اطياف الربيع ، الذي أصدره الدكتور احمد زكي ابو شادي في منتصف الصيف الماضي ، ولكننا قرأنا محاضرة الاستاذ محمد عبد الغفور التي عنوانها «ابو شادي في الميزان» فأعجبنا فيها قولهُ صفحة ١٣ : «هنا شاعرية عجيبة متأججة ، اول مؤهلاتها الوراثة ثم الثقافة ، وتشمل الوراثة تكوينهُ العصبيّ الحيّ الذي لا يهدأ والذي تؤثر فيهِ اطياف الحياة تأثيراً قويًّا متواصلاً كما تؤثر فيهِ اخيلته وتصوّفه واحلامه وتجاربه المتعددة ومطالعاتهُ الكثيرة وسياحاتهُ واحتكاكه بالناس ...» وقولهُ صفحة ١٥ : «واعدّ من مؤهلاتهِ كشاعر عظيم ، انسانيته العميقة وتسامحه الجميل الذي اعطانا شعراً انسانيًّا عالياً لا اثر للتصنّع فيهِ . ولولا انهُ يعيش في ذاتهِ كانسانٍ حسّاسٍ كريم النفس لما كان من الميسور ان نظفر منهُ بكل هذا الشعر الانساني العالي الذي يفيض رحمة وصفاء وحناناً» وقولهُ صفحة ١٦ : «.... رجل .... يحب الحياة غاية الحبّ ويتذوق الاستمتاع بها نهاية التذوّق يتغنى بجمالها واوصافها البديعة . . الخ . وقد اجاد المحاضر عبد الغفور في اختيار مقطعات من شعر ابي شادي للتمثيل على الاغراض التي نظم فيها . وانما لا نوافقه على ان قصيدتهُ في المغفور لهُ الملك فيصل تنزل في المكانة التي اعدّها لها المحاضر ، في ما قالهُ عنها صفحة ٤٤ . وفي المجموعة التي تحتوي على هذه المحاضرة بحث نفيس للاديب صالح جودت موضوعه «السخط على البيئة في شعر أبي شادي» وبحثان آخران للاديبين مختار الوكيل في «الاطياف في شعر أبي شادي» ومحمود احمد البطاح في «الشخصية في شعر أبي شادي»

ونكتفي الآن في الاشارة الى ديوان اطياف الربيع ، بقول خليل مطران في مقدمة الديوان

«قرأ ابو شادي الشعر عربيًّا فأشجاه ، وقرأه افرنجيًّا فأشجاه ، وطالع التواريخ ومنها بخاصة اصول الادب الاغريقي ، وقارن بين متباين المذاهب في البيان . سواء اكانت تلك المذاهب خيالية وجدانية لا تعدو حكايات حالٍ عن النفس كما هي في لسان الضاد ، ام خيالية وجدانية موضوعية اساسُ الجمال فيها بناؤها على الحق او الواقع او ما يتشبه بهما كما هي في اللغات الافرنجية . وعلى اثر هذه المطالعات وجد ابو شادي في نفسه باعثاً شديداً على وجهة فنية جديدة يوليها شطره فأحدث في العربية شعراً سلساً بألفاظه ، قريب المأخذ بسهولته ، سليماً بلغته جهد ما تسعه المعاني العصرية منقيداً بأوزانه ولكن تقيد الموشك ان يعمد الى الافتكاك من كل ثقيل الكلفة فيها . وعمّر ابيات منظوماته بمعانٍ تاريخية متشعبة المصادر وصور جديدة من كل لون وضرب ، وافكار في الجمال آخذة من كل مأخذ شرقي او غربي

«وأبو شادي — بين اعماله الكثيرة الشاقة التي لا تضمها الآرابطة شغفه بالعلم والادب وأخذه بهما وتسخيره قواه الجمة لهما — يقول هذا الشعر في فضول من وقته ، ولكنه يجمع له كل عزيمة رأيه وكل بواعث وجدانه . يقوله بحرارة واقتناع . يقوله على ان البداهة تتناوله ، وان الناس

جدراء بأن يفهموه فهمه . يقوله مرسلاً ارسالاً ، وفي كل قصيدة صورة مستكملة لا بدَّ منها ، وكل صورة لها طرافتها وغرابتها وجزئياتها ، وفي هذه الجزئيات اشارات تاريخية ورموز اصطلاحية وفي هذا كله جملة وتفصيلاً لا يعنيه ان يكون من قرائه من لم يطالع الميثولوجيا او لم يتتبع ما نحا به الغربيون نحوها من اساطير الاسرائيلية القديمة والمسيحية الاولى ، ولا يعنيه ان تكون الاسماء الاعجمية في شعرنا مما تنبو به اسماعنا ، ولا يعنيه ان تكون طائفة من الالفاظ التي اتخذها من العربية قد نيطت بها معان هي غير معانيها في الاصل . معان لا تدرك مراميها الحديثة الاّ من طريق المقاربة او المقارنة بالمواضعات الاجنبية ، بل كل همه هو ان يبث بثه ويتقن مثاله ويبلغ شعوره الى ادنى خلجة من خلجات الحس فيهِ . ويضيف الى ذلك انهُ لا يرى عيباً في الوثبات يثبها في استعاراته الى ابعد مدى ، ولا يرى عيباً في بعض موازين الشعر يحرفها قليلاً او كثيراً لتكون من الجزالة او السهولة او الرنة الموسيقية بحيث يريد ، ولا في القوافي — وقد اتحد الحرف فيها — ان تلزم لزوماً لصيقاً ما اقره الجهابذة من مراعاة تجانس مخصوص فيها قبل الحرف . تجيش في نفسه الشودة فينشدها ، او تتجلى لعينه صورة فينقلها ، او تتدفق في ذهنه خواطر فيشق لها الانهار بشق قلمه السيال . وفي الكثير منها ابتكار عجيب وابداع مدهش ، وفي جوانب منها هنات من الاغراب في اللفظ او المعنى يراها هيّنات بجانب مأربه السامي الكبير »

النبي

تأليف جبران خليل جبران — ترجمة الارشمندريت انطونيوس بشير — طبع بالمطبعة العصرية بمصر

لما صدر كتاب النبي كتبنا عنهُ الكلمة الآتية : « هو خلاصة آرائهِ في الحب والموت والزواج والاولاد والهوى والعقل والفرح والالم والثياب والبيوت والصلاة والدين والقوانين والمعرفة وغير ذلك على لسان نبي سمّاهُ المصطفى . وكأننا بالمؤلف قضى حياتهُ يستعدُّ لاخراج هذا السفر النفيس فان كتبهُ السابقة من عربية وانكليزية ليست سوى مقدمات لما في هذا الكتاب من حكمة وفلسفة وشعرٍ وفنّ

« فلا نرى فيهِ جبران الثائر الذي نراهُ في « العواصف » ولا جبران الشاعر الذي نراهُ في « ايتها الارض » « وايها الليل » وغيرها ولا جبران المتألم في « لكم لبنانكم ولي لبناني » وفي صورة « وجه امي وجهُ امتي » ولا جبران المعلم الحكيم في « القشور واللباب » ولا جبران الرسّام الرمزي في جميع ما ابرزتهُ ريشتهُ الساحرة ولا جبران الخياليّ في « بين ليل وصباح » وفي « حفار القبور » بل نرى في هذا الكتاب جبران الذي هو مزيج من هذه العناصر جميعها بل هو خلاصتها المختارة . فانك لا تقرأ فصلاً من فصولهِ الا وترى امامك حكمة في خيال وفلسفة في بلاغة وجمالاً في فن واي فن ! انهُ جعل اللغة الانكليزية تنقاد لمرامهِ ولا كانقيادها لابنائها . وايّ جمال ! في تلك الرسوم البديعة « التي لا بدّ منها لا كمال الكتاب » فالصورة الاخيرة منها من اروع ما تصور بهِ القوة المدبرة التي وراء هذا الكون — يد تعمل وبصيرة ترى وحولها العوالم صنعها في حلقات متراكزة »

والترجمة التي بين ايدينا للارشمندريت انطونيوس بشير حسنة غير اننا كنا نفضل لو نشرت الصور التي رسمها جبران بريشته دون غيرها

ديوان زكي مبارك

لعلّ المقدمة التي كتبها الدكتور زكي مبارك خير مايكتب في تحليل شعره ولا غرو، فقد تجرّد كناقد من ذاتيته، وعمد الى ما يعرفهُ عن نفسهِ — « اذ كنت اعرف بهِ من سواي » — فجعله اساساً لتلك النظرة النقدية التي انصف فيها نفسهُ وشعره. قال عن نفسهِ: « فان الشاعر نفسهُ يحدثنا في مواطن كثيرة من مؤلفاته الادبية والوجدانية بانهُ يجهل قلبهُ كلّ الجهل ». واشار في الموضوع نفسه الى رسالة كان قد كتبها فقال فيها «واعيد عليك يا صديقي ان الازمة الباقية هي ازمة القلب. فقد فهمت كل شيء وبقي قلبي كالغابة المجهولة في ضمير الظلماء». وكلاهما قول شاعر. ثم اشار في ظرف الى اول عهده بالشعر، وكيف الهمتهُ اياهُ اولاً « بنية خفيفة الروح حلوة الحـديث » كانت تداعب قلبهُ المتفتح بالفاظ مطلولة تتمثل في هذه الكلمات «انت يا ولد عيونك خضر زي عيوني». وقد ظلّت هذه الفتاة منية روحهِ الى ان اغارت الاقدار فسلطت عليها الموت فأهدى الديوان الى بقاياها في التراب اذ قال: « الى تلك الفتاة التي خفق لها القلب اول خفقة، والتي قلت فيها اول قصيدة، وسكبت عليها اول دمعة، الى تلك الفتاة المنسية التي تنام في قبر مجهول تحت سماء سنتريس ... » ثم يمضي الشاعر في وصف الاطوار التي مرّ فيها شعرهُ في الازهر ثم في الجامعة المصرية ثم ديار الغرب. ثم هو لا ينكر ان في اشعاره صدىً للاخيلة البدوية، « وعذر صاحبنا انهُ حفظ في حداثته ثلاثين الف بيت من الشعر القديم ». وفيها «كذلك اسراف في النفرة من عبث الشباب اذ كان يجاهد نفسهُ وهواهُ جهاد الابطال». اما «اشعاره الحديثة ففيها مرونة في التعبير، وفيها ترحيب بطيّبات الحياة وفيها احياناً دعوة الى موجبات النزق والطيش »

***

وانك لترحّب اذ تقرأ اشعار هذه المجموعة باشراق ديباجتها وجرسها، والاجادة في اختيار الفاظها. قال في قصيدة الديوان الاولى

جَنَتْ عليَّ الليالي غير ظالمةٍ ... اني لاهلٌ لما القاهُ من زمني
فما رأيت من الاخطار عادية ... الا بنيتُ على اجوازها سكني
ولا لمحتُ من الآمال بارقة ... الاَّ تقحمت ما تجتاز من فتنِ
اصبتُ دنياي معنىً لا قرارَ لهُ ... في ذمة المجد ما شردت من وسنِ

ومن غرر الديوان قصيدة «غريب في باريس» صفحة ١٠٨ وحبذا الحال لو لم يجعل اسم الديوان بالفرنسية Poèmes Erotiques لا لعيب في الاسم نفسهِ، ولكن في عدم انطباقهِ على السمة الغالبة على قصائد الديوان، وان كان في بعضها « ترحيب بطيّبات الحياة واحياناً دعوة الى موجبات النزق والطيش »

فيصل

تأليف كريم ثابت — حبس ريعهُ لمنكوبي فلسطين — مطبعة المقطم

يمتاز هذا الكتاب بكونه يعالج ناحية خاصة من نواحي حياة الملك فيصل الحافلة بالاعمال فالمؤلف يروي ما عرفهُ بنفسه من اخلاقه وما خبره بذاته من آرائهِ في رحلاتهِ المتعددة وفي اجتماعاته بمختلف المناسبات ويدوّن ما سمعه من اقواله مما لم يتح لغيره من المؤلفين

فهو يحدثك في الصفحات الاولى عن مقابلته الاولى لجلالته في فندق شبرد سنة ١٩٢٠ وهو في طريقهِ الى العراق — وقد كان المؤلف طالباً في مدرسة — فيقول له وقد عرف انهُ يدرس اللغة العربية على استاذ خاص « بارك الله فيك ، ان من يتبرأ من لغة آبائهِ وأجداده يتبرأ آباؤه واجداده منهُ . ولا يؤلمني اكثر من ان بعض الشرقيين الذين يستحيون من لغتهم الاصلية ويتظاهرون بأنهم لا يستطيعون الاعراب عن افكارهم بها بوضوح وجلاء » فهو يملي درساً بليغاً في المحافظة على القومية على بعض الشبان المتفرنجين» . ويحدثك في فصل آخر عن رحلة الملك المرحوم الى اوربا سنة ١٩٢٦ واجتماعهِ بجلالتهِ حين عودتهِ وقوله: «لقد أثرت مدنية سويسرا تأثيراً عظيماً في نفسي وثبت لي ان المدنية الحقيقية لا تكون بالقصور الشامخة والبنايات الفخمة وان الاستقلال الحقيقي لا يشيد الاّ على التعليم فالتعليم هو الركن الاكبر وحجر الزاوية لكل امة تبغي التقدم ، يجب علينا ان نتعلم حتى اذا تعلمنا تعين علينا ان نبني . ان ما شاهدتهُ في سويسرا ليس وليد يوم او شهر او سنة بل هو ثمرة جهود بذلها شعب نشيط في خلال عشرات من السنين . هنالك بنى الآباء للاولاد والاولاد للاحفاد فيجب علينا نحن ايضاً في الشرق ان نبني لاولادنا ويجب على اولادنا ان يبنوا للاحفاد»

ويحدثك في مكان آخر عن مرافقتهِ لجلالتهِ في رحلتهِ الى ايران سنة ١٩٣٢ فيروي ما قاله له في الاغراض التي رمى اليها من رحلتهِ تلك وهو « ان الغرض من رحلتي الى ايران هو رغبتي في توثيق اواصر الصداقة والمودة مع جارتنا فنحن نريد ان نعيش مع جميع جيراننا بصفاء ووئام . ان الدول لم تعد تفكر الآن الاّ في شيء واحد وهو تعزيز مرافقها الاقتصادية لكي تعيش ونحن نريد ان نعيش

ويتكلم في مكان آخر عن ذكرياته في خلال رحلته الى اوربا في الباخرة اسبيريا فيروي ما سمعه من جلالته عن رأيه في الحكم والحكام وعن الحياة في الشرق وقد قال « لنا نحن معشر الشرقيين في حياتنا العمومية عيبان الاول اننا لم نكن نهتم بتنظيم عملنا والثاني اننا كنا دائماً اذا فكرنا في مشروع جديد لا ننظر الاّ الى الصعاب التي يمكن ان تعترض تنفيذه ننظر اليها لا بعين الحكمة لتدبير الحلول اللازمة لتذليلها بل بعين التردد والتخاذل فنحجم عن الاقدام» . وجر الحديث الى تعليم المرأة فبسط جلالته رأيه بقوله « لا اريدها متعلمة ولكنني اريد ان تعرف كيف ترعى ولدها وكيف تجعل زوجها سعيداً هذا ما اريد ان تتعلمه الفتاة العراقية قبل كل شيء وهذا ما اعتقد انهُ لا مندوحة لكل فتاة عنه . اما كيف تختار ملابسها وكيف تتكلم في المجالس فهذا من الكماليات التي اتركها للاغنياء وهم احرار فيها اما التعليم النسائي العام عندنا فسيكون قائماً على الاساس الذي قلته»

باب الأخبار العلمية

امير الصعيد

امر ملكي

نحن فؤاد الاول ملك مصر

بعد الاطلاع على القانون رقم ٣٥ لسنة ١٩٣٣ الخاص بوضع نظام الاسرة المالكة

ونظراً لاستحسان نسبة امارة ولي عهدنا الى اقليم تضاف اليه تنويهاً بمكانه بين امراء الاسرة المالكة

امرنا بما هو آت :

١ — يطلق على ولي عهدنا الامير فاروق لقب « امير الصعيد »

٢ — على رئيس ديواننا بالنيابة تنفيذ امرنا هذا

صدر بسراي عابدين في ٢٤ شعبان سنة ١٣٥٢ — ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٣

« فؤاد »

توراة سينا وشيء عنها

في التلغرافات العامة ان المتحف البريطاني اشترى بواسطة الحكومة البريطانية ومساعدتها المالية التوراة المشهورة باسم (كودكس سيناتيكس) او الكتاب السيناني وهي اقدم مخطوطة وجدت للكتاب المقدس باللغة اليونانية ولا يفوقها في القدم والشهرة سوى المخطوطة الفاتيكانية المعروفة «بكودكس فاتيكانوس» وهي باللغة اليونانية ايضاً

وقد عثر على المخطوطة الاولى المسيو تسخندورف في دير القديسة كاترينا بسيناء في سنة ١٨٤٤ واشتراها قيصر الروس في سنة ١٨٦٩ وهي مكتوبة على ورق رفيع في اعمدة كل أربعة منها في صفحة وكانت تتألف في الاصل من العهد القديم والعهد الجديد اي الأناجيل الاربعة ورسائل الرسل وهي كاملة وفي آخرها رسالة الرسول برنابا ورسالة راعي هرماس ولكنهما غير كاملتين والمرجح انه كان بينهما مخطوطة اخرى فقدت تماماً

ومن رأي تسخندورف ان هذه المخطوطة نسخها اربعة كتاب في القرن الرابع من التاريخ المسيحي وقد وجد بمقابلة هذه المخطوطة بالمخطوطة الفاتيكانية ان احد هؤلاء الكتاب الاربعة هو الذي سبق ان نسخ المخطوطة الاخرى (الفاتيكانية)

واصل المخطوطة السينائية مصحح في عدة اماكن والمرجح ان التصحيح عمل في القرنين السادس والسابع وقد قال المصحح في آخر سفر استير انه اعتمد في هذا التصحيح على نسخة قديمة كتبها بامفيليوس مؤسس مكتبة قيصرية بفلسطين

ويظن ان هذه التوراة كانت في الاصل في مكتبة قيصرية ولكن آخرين يذهبون الى انها كانت في الاسكندرية . اما الرأي الاول فيدعمه ما اثبته المصحح في آخر سفري استير وعزرا من انه صحح التصحيح في مكتبة قيصرية وان تقسيم اصحاحات اعمال الرسل يمكن رده الى تلك المكتبة اما الرأي الثاني فيقرره امران : الاول

ان خط احد نساخ التوراة الاربعة مماثل كل المماثلة لشكل الخط القبطي اليوناني الموجود في البردي. والثاني ان تبويب رسائل بولس الرسول هو على المنوال الذي وضعهُ القديس اثناسيوس الاسكندري

جامعة استانبول الجديدة

في الوقت الذي احدث فيه الترك انقلاباً من جهة الفن بعنايتهم بالفن البيزنطي في جامع ايا صوفيا احدثوا انقلاباً آخر من جهة العلم فاسسوا جامعة جديدة وتحولوا بجملتهم الى علوم الغرب الوضعية والعملية وقطعوا صلتهم بعلوم الاسلام. وعدلوا عن اضافة « معهد الدراسات الاسلامية » الى جامعتهم كما كان مقترحاً عليهم في اول الامر وقرروا ان لا يدرس الفقه الاسلامي في جامعتهم اما اللغات الشرقية فيكون تعلمها اختيارياً في معهد اللغات القديمة وأدبياتها

وقد يكون السبب في حذف العلوم الدينية من جامعة استانبول الجديدة هو علم الترك بان هذه العلوم تدرس على وجه اكمل من ذلك في جامعة اسلامية قديمة مخصصة لها وهي الجامعة الازهرية في مصر وعدم استطاعة الترك انشاء جامعة تنافسها في استعدادها ولكن هناك سبباً آخر على ما يقال وهو ان الحكومة التركية تعتقد ان التخصص في العلوم الدينية لا يطابق حالة العصر المتجه الى اقتباس علوم الغرب . وان العلوم الوضعية هي التي كانت سبب ما بلغهُ الغرب من التقدم فيجب ان تكون هي اساس التعليم في تركيا

وكان لا بدَّ لتركيا ان تدعو عدداً كبيراً من علماء الغرب وأساتذته للتدريس في هذه الجامعة لتكون قادرة على تأدية المهمة التي انشئت لاجلها فماذا تفعل لتحقيق هذه الغاية ؟

لم يكن المرجح ان تستطيع انقرة اجتذاب رجال من المشهورين الذين يشار اليهم بالبنان من الاوساط العلمية الاوربية واقناعهم بالمجيء الى تركيا لان البلاد بعيدة. ولان الوسط العلمي فيها متأخر . ولان الكاتب الفرنسوي بيار لوتي ومن على شاكلته من الكتَّاب وصفوا تركيا وصفاً قصصيًّا ونسبوا اليها اموراً خيالية . اضف الى ذلك ان لغتها صعبة وتحتاج الى دراسة خاصة الى غير ذلك من العقبات التي يتعذر معها تزويد جامعتهم بهيئة ذات كفاءة ومقدرة من علماء الغرب

غير ان ما حدث في المانيا من الانقلاب غيَّر الظنون وذلل العقبات وجعل عدداً كبيراً من كبار العلماء اليهود يبحثون لهم عن عمل او عن مناصب علمية في بلدان اخرى تعوضهم من المناصب التي نزعت من ايديهم في المانيا او التي كان ينتظر ان تؤخذ منهم عملاً بما ترمي اليهِ الحملة على اليهود هناك

في اثناء هذا الانقلاب الالماني كان الترك يؤسسون جامعتهم ويؤثثونها فلم تشعر حكومة انقرة الاَّ وقد تقدمت اليها طلبات عدة من علماء المان من اليهود كانوا اساتذة في جامعات المانية ورغبوا الى تركيا في ان تسند اليهم عملاً فيها فاغتنمت هذه الفرصة التي سنحت لها ومن المائة والخمسين منصباً التي تحتاج اليها الجامعة اسندت ٣٨ الى علماء اجانب عينتهم في كراسي التعليم الرئيسية في المعهد الجديد . ومن هؤلاء اثنان وثلاثون عالماً من الالمان والجانب الاكبر منهم

من الجنسية اليهودية وخمسة من العلماء الفرنسيين وكان الاولون يدرسون في جامعات برلين وبينا ومونستر وفرنكفورت وجوتنجن وكولوني ومربورج وبرسلاو وغيرها. ومنهم استاذ الفلك وكان من علماء مرصد بوتسدام

وسيتولى هؤلاء الاساتذة المثقفون باحدث اساليب العلوم الوضعية الغربية — تدريس الكيمياء والبكتريولوجيا والنبات والطبيعة العملية والفلك والنباتات الطبية والهندسة الكهربائية والصحة والجراحة وهي علوم يجيد الالمان تدريسها وهم خير العلماء المتضلعين منها

وستدرس في جامعة استانبول ايضاً العلوم البشرية الآتية وهي علم الاجتماع والتاريخ والاقتصاد والفلسفة والرياضيات واللغة اللاتينية وادبياتها والحقوق . وهذا العلم الاخير يقبل عليه الطلبة الترك كثيراً فان من ١٨٠٠ طالب في الجامعة يتعلمه ٥٠٠

ولا شك في ان حكومة انقرة لم تنجح في اقناع هؤلاء العلماء بالمجيء الى تركيا الا بعد ما اغرتهم بالرواتب الحسنة فقد عينت لكل منهم راتباً قدره ٤٠٠ ليرة تركية في الشهر أي نحو ٧٥ جنيهاً انكليزياً في حين يتقاضى الاستاذ من الترك ٣٠٠ ليرة او نحو ٤٠ جنيهاً . وقد تعاقدت معهم على التدريس مدة خمس سنوات وتعهدت لهم باعداد ما يحتاجون اليه من معامل الكيمياء والطبيعة ولم تبخل الحكومة التركية بشيء في اعداد هذه المعامل بل جهزتها بجميع الآلات والادوات العلمية وبلغ ما خصصته للانفاق على اتمام مباني الجامعة وللمعامل ولرواتب العلماء مليوني ليرة تركية وثماني مائة الف ليرة

ومن هذا المبلغ الطائل مليون ونصف مليون ليرة ستصدر بها الحكومة قرضاً داخلياً مضموناً بمالية الدولة لان ميزانيتها الحالية ليس فيها من الوفر ما تدخره للانفاق على هذا المعهد العلمي ولولا ما تعلقه الحكومة من الشأن الكبير على تجديد الجامعة وما تؤمله من ورائها من نشر الثقافة العالية في البلاد لما اضطرت الى حمل عبء هذه النفقة في وقت استحكمت فيه حلقات الازمة الاقتصادية

ولكن حتى بعد كل هذا النجاح في تدبير العلماء الاكفاء والمعامل الحديثة وبعد انفاق هذا المال الكثير على الجامعة لا تزال توجد امام الحكومة صعوبات اخرى ومن هذه الصعوبات مسألة اللغة التي تدرس بها العلوم . ومما زاد هذه المسألة تعقيداً ان العلماء الذين عينوا لا يتكلمون الا لغتهم الالمانية . في حين ان الطلبة الترك لا يعرفون لغة اجنبية او انهم لا يعرفون سوى اللغة الفرنسية لان المدارس الثانوية لا تعلم سواها . وقد كانوا يدرسون الحقوق بها ايضاً

ومع ذلك فان الترك لا يتقنون هذه اللغة كما ينبغي وكان هذا من بواعث تأخر التعليم في تركيا . حتى اعترف كبار الترك الآن بان تركيا لا تتقدم تقدماً حقيقياً الا اذا اتقن ابناؤها لغة اجنبية ما كالالمانية او الانكليزية او الفرنسية . ومما نص عليه قانون الجامعة الجديدة انه اذا رسب طالب مرتين في امتحان لغة اجنبية فصل من الجامعة

ولكن الى ان يتعلم الطلاب الترك لساناً اجنبياً ويتعلم الاساتذة الاجانب اللغة التركية تمَّ الاتفاق على ان يكون التعليم باللغة التركية بعد مضي ثلاث سنوات باسلوب غير مألوف وهو ان

يتلو الاساتذة محاضراتهم بلغتهم الاصلية ثم يترجمها مترجم الى التركية للطلبة ثم يعرض هؤلاء ما يرومون من اسئلة ويتولى المترجم ترجمتها الى لغة الاستاذ . وهذا يقتضي ان يرافق كل استاذ مترجم من الترك وتدبير هؤلاء المترجمين الاكفاء في الترجمة من اشق الامور

ومما تعهد به العلماء الاجانب هو ان يصدروا في كل سنة كتاباً باللغة التركية يتضمن نص المحاضرات التي القوها

ولا حاجة الى القول ان الغازي يرمي من وراء هذه الجامعة الى تخريج علماء ترك وليس الغرض منها مقتصراً على تخريج قضاة ومحامين واطباء وموظفين بل ان يتذوق خاصة الترك لذة البحث العلمي وتنشأ في البلاد معاهد ومجامع علمية يرتقي بواسطتها العقل التركي الى مرتبة الكمال في الدراسات العلمية وتذيع اسماء العلماء والمكتشفين الترك في العالم كما ذاعت في ايام ابن سينا وابن رشد لما كان الشرق يعلم الغرب اساليب الفلسفة

الطيران في مصر

طبع الاحتفال بافتتاح مؤتمر الطيران في دار الاوبرا يوم (الاربعاء ٢٠ دسمبر) فن الطيران بمصر بطابع رسمي يلفت اليه النظر في الشرق والغرب

ومن سوء الحظ ان الحالة الجوية البديعة في معظم ايام السنة عندنا ساءت في هذا الاسبوع بسبب الاضطرابات الجوية في اوربا وسورية فهاج البحر المتوسط واتصل تأثير ذلك كله بنا فحال دون وصول جانب من الطائرات التي كان طياروها يمنون النفس بالاشتراك في المباراة المعدة للطيران وحضور اجتماعات المؤتمر وحفلاته وقضى امس بتأجيل المباراة الاولى حذراً من فعل العواصف

ولا يسع الباحث الا الاستغراب لقرار الذين استصوبوا عقد هذا المؤتمر واقامة مباراته في هذا الفصل من فصول السنة مع ان المأثور هو ان الجزء الاخير من شهر دسمبر عرضة لهذه العواصف ولكن ما كتب فقد كتب ولات ساعة مندم . غير ان الذي يبعث على الاسف هو ان تخيب آمال هذا العدد الكبير من الطيارين والمندوبين الاجانب وقد استقرَّ في اذهانهم مما سمعوا وما قرأوا ان جو مصر لا يعلى عليه في كل ما يتعلق بالطيران فيرونه الآن غائماً او ملبداً بالسحب او عاصفاً وهو ما لا يحدث عندنا في مجموعه في اكثر من عشرين يوماً من ٣٦٥ يوماً

ولكن فن الطيران اخذ يخطو في مصر خطوات كبيرة يدفعه الى الامام ثلاثة عوامل اولها عناية الحكومة بتنظيم شؤونه واعداد المطارات في الاسكندرية والعاصمة ومدن مصر الكبيرة واهتمامها بالطيران العسكري وتأليف سلاح الطيران وعزمها على التوسل بالطائرات لقضاء جانب من اعمال الحراسة والرقابة وهو مبدأ سيتسع تدريجيًّا بما يبدو للعيان من فوائده

والثاني نشاط شركة مصر للطيران وحسن استعدادها وكفاية معداتها وهمة القائمين بأمرها والمنوط بهم ادارتها فان هذه الشركة على قرب العهد بنشوئها فازت بقسط عظيم من النجاح فأنشأت في البلاد اهتماماً بالطيران وسهلت سبله لمن يشاء وأنشأت مدرسة في هليوبولس واخرى

في الاسكندرية لتعليمه وبالامس احتفلت بفتح خط جوي عظيم بين القاهرة واسوان وهي تدرس مشروع انشاء خط جوي بين مصر وفلسطين . وهذه مقدمات لما سيتلوها من خطوط اخرى قد تكون اطول منها

والثالث اقبال الشبان المصريين والشابات على تعلم فن الطيران ورغبتهم فيه ونجاح جانب منهم نجاحاً جعل جريدةعظيمة كجريدة التيمس الانكليزية تنوه بمقدرة الطيارة لطفيه النادي

ومما زاد هذه الرغبة مشاهدة الناس لاعتماد بعض العظماء على الطائرات في انتقالهم كالسر برسي لورين وطلعت حرب باشا . ولو كانت الاحوال المالية غير ما هي وفي طاقة الناس ان يشتروا الطائرات كما كانوا يشترون السيارات في عهد اليسر والرخاء لكثر عدد الذين يطيرون ولما خلا جو مصر من طائرات في النهار

ومما يزيد الناس ولوعاً بالطيران علاوة على الاعتبارات المتقدمة انه مطابق لما في فطرة البشر من النزوع الى العلاء نزوعاً ما برحوا في العصور الغابرة يحاولون اظهاره بالشعر وسواه ولكن بما كان ابلغ ما خطر لهم التعبير عنه حكاية بساط الريح فانها ستظل الى آخر الدهر من ابدع ما نسجته مخيلة الانسان

عجائب العين الكهربائية

نقل برنامج لاسلكي بشعاعة نور

شاهد حديثاً المولعون بالراديو أعجوبة من أعاجيب القرن العشرين وذلك في مساء ذات يوم اذ سمعوا أنغاماً موسيقية ، منقولة على شعاعة من أشعة النور ، لا على امواج الراديو المألوفة

وتفصيل ذلك الحادث الغريب ، انهُ اجتمعت فرقة موسيقية في برج صرح كريسلر بمدينة نيويورك حيث عزفت الحانها امام ميكروفون ، ولم يكن في ذلك البرج سلك ارضي ينقل الصوت المكبر الى قاعة الموسيقى التي تبعد عنه نصف ميل ، بل كان هناك عوضاً عنه ، شعاعة زرقاء تنبثق من نور مصباح كهربائي كشاف قوته ٥٠٠٠٠ شمعة تنقل الانغام الموسيقية الى الجهة المقصودة ، فاخترقت السقوف التي تعترضها حتى وصلت الى قاعة الموسيقى حيث كان في نافذة تلك القاعة ، عدسة كبيرة تلتقط الشعاعة ثم تحصرها في بصّاصة كهربائية ، فالتقطت الالحان الموسيقية واطلقتها في الجو ، وبلغ من شدة اتقان الاذاعة ان كثيراً ممن سمعوها لم يعرفوا كنهها

واستخدام شعاعة النور بمثابة سلك تليفوني ليست فكرة حديثة فقد سبق المستر جون بلامى الخبير الكهربائي بشركة الكهرباء العامة في الولايات المتحدة ان استنبط مثل ذلك الاستنباط (وقد وصفناه سابقاً) اذ تحادث من المنطاد لوس انجيليس الى سطح الارض . ثم تمكن حديثاً من نقل الاصوات ، بتلك الواسطة من قنة جبل الى مدينة شنيكتادي بولاية نيويورك والمسافة بينهما ٢٥ ميلاً . ولا جرم ان طريقة استخدام اشعة الضوء بدل الاسلاك التليفونية ما زالت في حيز المختبرات العلمية غير ان الجهاز الجديد الذي اخترع وعرض حديثاً على مستعملي الراديو يتوقع الخبيرون نجاحه في الاعمال التجارية

ورب سائل يسأل . وكيف يستطاع نقل الكلام بشعاعة الضوء فنقول :

يتوقف ذلك على اختراع وسيلة تجعل المصباح

الكهربائي يخفق خفقاناً يتفق ونبضات الصوت البشري . وقد فاز العلماء بتلك الامنية بالبصامة الكهربائية اذ توضع في مجال نور المصباح حيث تكون بمثابة جهاز مستقبل يلتقط تموجات النور ويصيرها نبضات كهربائية يسمع صوتها بالبوق (سماعة اللاسلكي المكبرة للصوت) والشعاعة الناطقة يمكن تسديدها الى محطة الاستماع بحيث يتعذر اعتراضها على اي انسان كان بعيداً عن مجراها. وبذلك يتسنى جعل تلك الشعاعة الناطقة خفية فتنتقل الرسائل السرية في ابان الحرب

ولقد كانت اعوص العقبات التي تغلب عليها المجربون استنباط نور ينبض عشرة آلاف نبضة في الثانية (وهي السرعة الضرورية لجعل الكلام او صوت الموسيقى يسمع طبيعيًا) ويظل متألقاً تألقاً كافياً ليتخلل ابعاداً شاسعة فذللت

عوض جندي

الجوع والتاريخ

(تابع المنشور على الصفحة ٥٠)

في خلال السبعين الفارطة من القرون كانت هذه الرواية تتكرر في الوف من مختلف المناظر والصور وتتعاقب على تاريخ المدنية . ففي بدايات التاريخ الاول التي نستطيع ان نحل رموزها نقع على طبقتين من الناس . طبقة حاكمة لا تعمل : وطبقة محكومة شأنها العمل . وكذلك نلحظ ان الارستقراطيين بعد مرور بضعة اجيال من استقرارهم وتحضرهم ، يبدؤون يلقون بنظرة احترام على الفنون ، وعلى المعارف ، وعلى سنن التحضر ويفقدون شيئاً بعد شيء خشونتهم الاصلية . ثم يأخذون في التزاوج من المغلوبين مظهرين بذلك شيئاً من روح التسامح بين الغازي والمغزو . ثم يعكفون على مبادلة الآراء الدينية ، ويدرسون تدرجاً كل المعلومات التي تتطلبها بيئتهم ، كخصائص الارض ، وطبيعة الاقليم . وبذلك يندمجون ، فيصبحون جزءاً من الحضارة التي غزاها اوائلهم . ولن يصل بهم الامر إلى هذا الاندماج ، حتى تكون الطبيعة قد هيأت لهم قوماً آخرين ، نحالاً جائعين ، ينقضون على هذه المدنية من جديد انقضاض السيل المزبد . ومن هذا تكوّن التاريخ

حسناء القرية

(تابع صفحة ٨٨)

وهو يطرفها بالاخبار والنوادر بالكلام المسبوك ، كلام اهل الطبقة العليا من الناس ، فكان كمن يتنفس في أذنيها انفاس التخيل والشعر والحرية

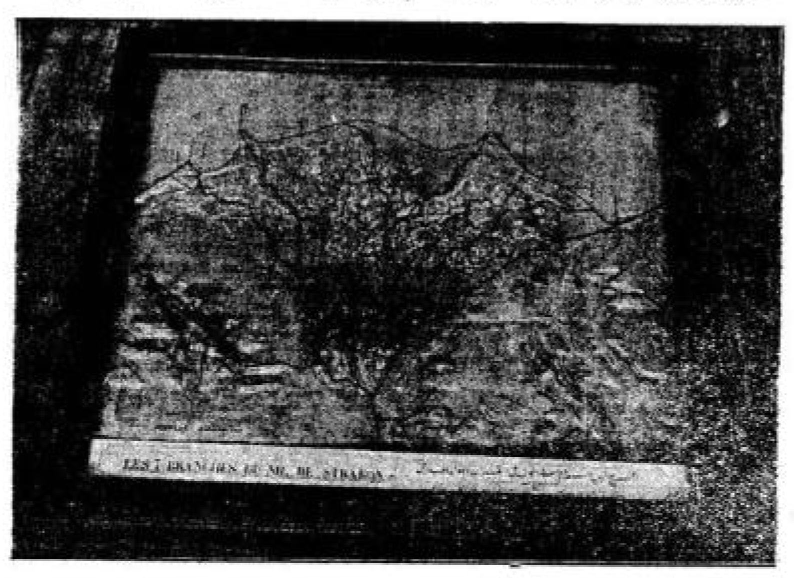
وكان انعطاف هذه الفتاة اليه كأطهر ما يكون عليه الحب . وقد يحدث ان جمال منظره وبهاء بزته العسكرية خلبا لبها لاول وهلة وانما الذي أسر فؤادها مبلغهُ من التربية والمعرفة والتعليم . فكان حبها لهُ يقرب من العبادة فنبه فيها اجتماعهُ بها رقة شعورها واستعدادها الفطري للتخيل الشعري فاستيقظت فيها تلك العواطف للشعور بالجمال والرفعة والعظمة ولم تحفل بالبون الشاسع بينهما في المقام والغنى ... فكانت تصغى لاحاديثه باذنين مسحورتين . وقد اغضت عينيها حياء وابتهاجاً وتورد خداها فاذا التفتت اليه التفاتة الظبي النفور على سبيل الاعجاب به عادت فاستردت لحظتها وهي تتنهد وقد صبغ وجهها الحياء شعوراً بتقصيرها عنهُ



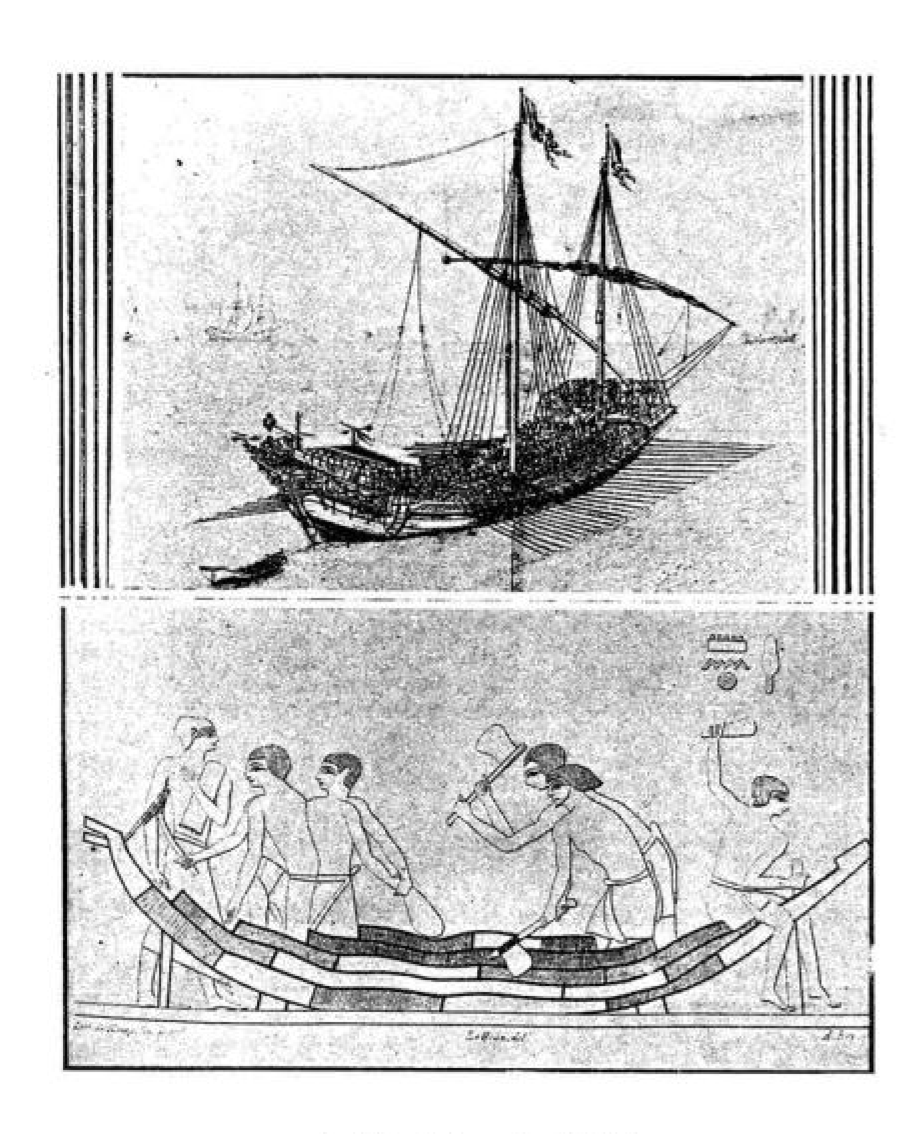
شكل ٣ — صورة لانموذج مجسم لافرع النيل في عهد بطلميوس في القرن
الثاني الميلادي عن صاحب السمو لامير الجليل عمر طوسون
تصوير الدكتور حسن كمال



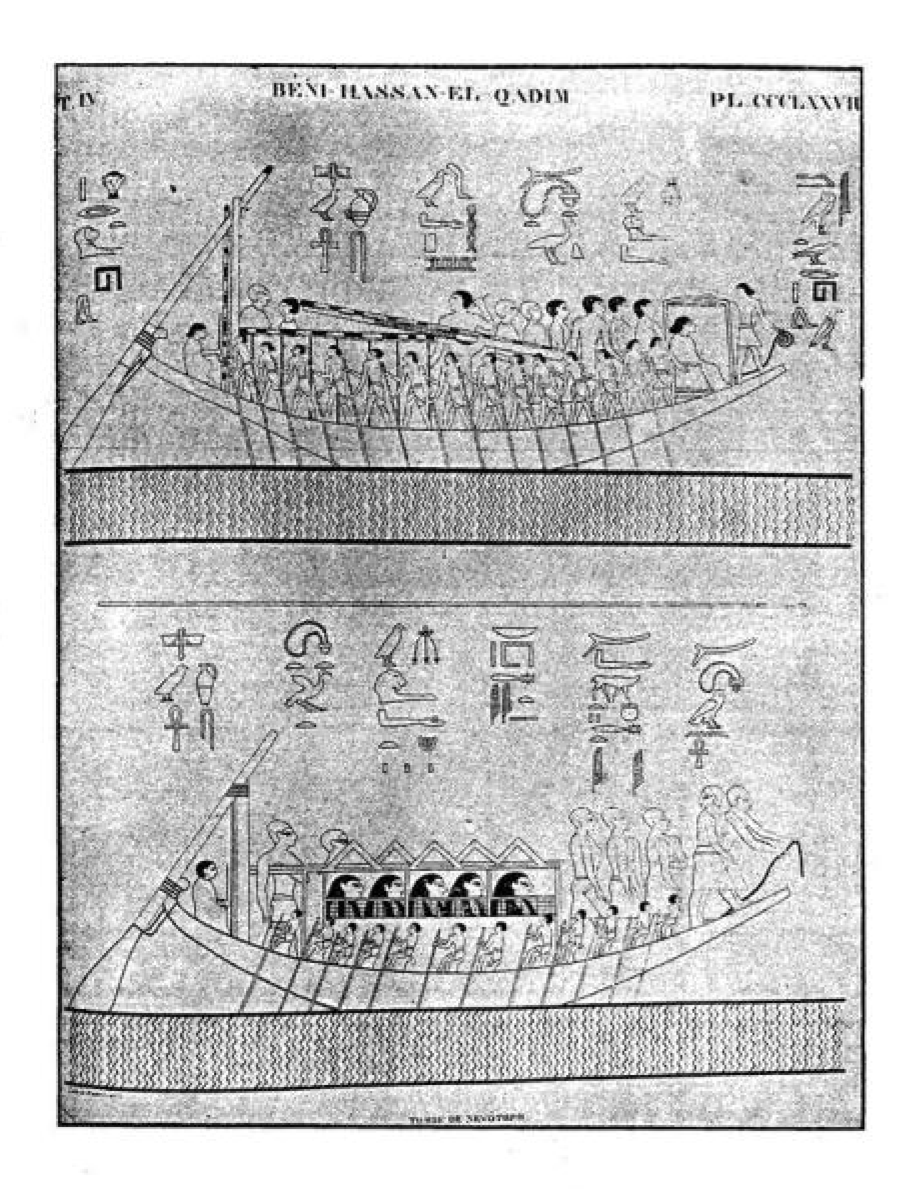
شكل ١—صورة لانموذج مجسّم لافرع النيل في عهد هيردوتوس. عن صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسون—القرن الخامس قبل الميلاد . تصوير الدكتو حسن كمال



شكل ٢—صورة لانموذج مجسّم لافرع النيل في عهد استرابون في القرن الاول الميلادي—عن صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسون . تصوير الدكتور حسن كمال

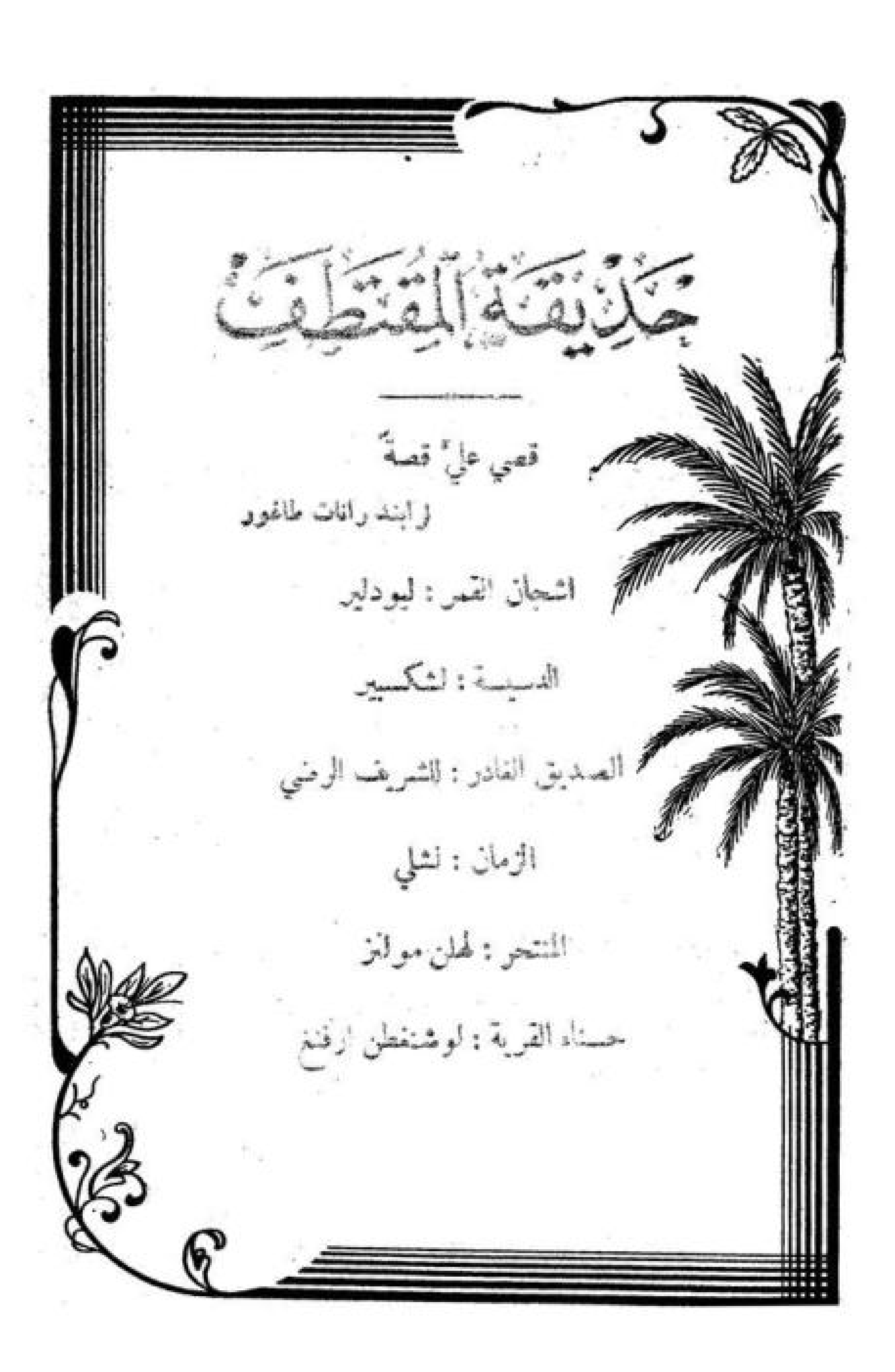


صناعة السفن في عهد الاسرة الثانية عشر



سفن مصرية صنعت في عهد الاسرة الثانية عشرة


سير الزمان
فصل المأساة الاخير
الثورة الروسية
الثورة الالمانية
النهضة التركية الكمالية
للدكتور شهبندر
خطط الرئيس روزفلت
لانعاش الولايات المتحدة
الحوادث الدولية
سنة ١٩٣٣



حديقة المقتطف

قصي عليّ قصة

لرابندرانات طاغور

أشجان القمر : لبودلير

الدسيسة : لشكسبير

الصديق الغادر : للشريف الرضي

الزمان : لشلي

المنتحر : لهلن موانز

حسناء القرية : لوشنطن ارفنغ


مملكة المرأة
بسائط الفسيولوجيا
الملح وحاجة الجسم اليه
بحث صحي علمي
الزواج والصحة والفحص الطبي
اهمية التعليم المنزلي للفتاة
للعربية فاطمة فهمي
عقل الطفل في تطوره
لاحمد عطية الله
الاولاد ودرس الطبيعة
مميزات الطفل النفسية

الجزء الاول من المجلد الرابع والثمانين

صفحة

١ تحويل العناصر
٧ اجنحة المدافع المصرية . لمصطفى صادق الرافعي
١١ العلم وحياتنا اليومية
١٧ طائر الفينكس . لميخائيل نعيمه
٢٥ جهاد الملك فيصل . لأمين الريحاني
٣٣ أثر الحضارة العربية . لمحمد كرد علي
٣٩ آياته في خلقه
٤٦ الجوع والتاريخ . لاسماعيل مظهر
٥١ النيل في العهد الفرعوني . للدكتور حسن كمال (مصوَّرة)
٥٨ عجائب التلفزة . لعوض جندي
٦٢ السفن والملاحة بمصر . للدكتور علي مظهر (مصوَّرة)
٦٥ سير الزمان
فصل المأساة الاخيرة
النهضة الكمالية : للدكتور شهبندر
خطط الرئيس روزفلت
٨٣ حديقة المقتطف : قصي عليَّ قصة : لرابند رانات طاغور . اشجان القمر : لبودلير . الدسيسة : لشكسبير . الصديق الغادر : للشريف الرضي . الزمان : لشلي . المنتحر : لهلن مولتز . حسناء القرية : لوشنغطن ارفنغ
٨٩ مملكة المرأة : بسائط الفسيولوجيا . الملح وحاجة الجسم اليهِ . الزواج والصحة والفحص الطبي . اهمية التعليم المنزلي للبنات : لعربية فاطمة فهمي . عقل الطفل في تطوره : لاحمد عطية الله . الاولاد ودرس الطبيعة . مميزات الطفل النفسية

١٠٦ باب المراسلة والمناظرة * في بحور الشعر العربي : لبشر فارس
١٠٨ مكتبة المقتطف * على هامش السيرة . ابن خلدون . قلب جزيرة العرب . دائرة المعارف الاسلامية . مطبوعات جامعة بيروت الاميركية . الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي . فن الصحة . روائع من قصص الغرب . اطياف الربيع وشعر ابو شادي . النبي . ديوان زكي مبارك . فيصل
١٢٢ باب الاخبار العلمية * امير الصعيد . توراة سينا . جامعة استانبول الجديدة . الطيران في مصر . عجائب العين الكهربائية



December 1930 | ديسمبر ١٩٣٠

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثاني من المجلد الرابع والثمانين

١ فبراير سنة ١٩٣٤ — ١٦ شوال سنة ١٣٥٢

علم الطبيعة بين عهدين

التحوُّل في النظر الكوني

بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين

اكتب هذه الكلمة وأمامي صورة لافوازييه العالم الفرنسي العظيم الذي حزَّت عنقه بمقصلة الثورة الفرنسية ، بحجة ان زعماءها لا يحتاجون الى العلماء . كان لافوازييه أول من فسر تفسيراً صحيحاً فعل « الاحتراق » من الوجهة الكيمائية ، على انه اتحاد المادة المحترقة بالاكسجين . هذا الرجل الفرنسي العبقريّ ، لايزال مذكوراً في كتب الطبيعة والكيمياء ، ببحثهِ الالميّ في ناموس حفظ الطاقة والمادة ، وهو من الاركان التي قام عليها علم الطبيعة في القرن التاسع عشر

وقد انقضت نحو مائة واربعين سنة ، على تلك المأساة التي فقد فيها هذا العالم رأسه ، ونحن اذا تطلعنا حوالينا الآن وجدنا اننا في عالم جديد من علمي الطبيعة والكيمياء فقد انقضت حاسة الاستقرار ، في هذين العلمين ، كأنهما كانا مضربين في الصحراء ، فهبت عليهما ريح عاتية اقتلعتهما وتركتهما مسفى للرمال . ولو انهُ اتيح للعالم لافوازييه ان يعود الى الارض من نحو ربع قرن او ثلث قرن فقط ، لما رأى في علم الطبيعة شيئاً يتنكر له . كان لا بدَّ له ان يجد حقائق جديدة ، ومستنبطات كثيرة ، ولكنه ما كان يستطيع ان يتبين تحولاً في الاصول التي يقوم عليها العلم

واذ كان الزمن يسير سيره الطبيعي متنقلاً من القرن التاسع عشر الى القرن العشرين ، كانت

عقول الرجال تختمر بصور جديدة للطبيعة . واذا التجارب والنظريات ، توهن من مقام الآراء القديمة التي مضت في استحواذها على ميدان العلم من ايام لافوازييه الى أيام رنتجن في العقد الاخير من القرن الماضي . واذا نحن بين ليلة وضحاها من ليالي الزمان وأضحيته في غمار ثورة تقلب علم الطبيعة رأساً على عقب . فانهار كذلك البناء المستقر المشمخر الذي شاده علم الطبيعة في القرن التاسع عشر ، واصبحنا امام مكتشفات لا يستطيع ان يصدقها من آمن بفراداي ومكسويل وكلفن ، مع انها تسير اليوم تحت الوية رجال أمثال پلانك واينشتين وطمسن ورذرفورد وملكن

واذا أنت سألت من تريد ، ممن درس علم الطبيعة الحديث ، ما رأيه في ناموس حفظ المادة — اي ان المادة لا تتلاشى وانما تتحول فقط — الذي قال بهِ لافوازييه لاجاب انه يصدق في احوال الطبيعة كما نحسُّ بها نحن ، ولكن الايمان المطلق بصحته ، في عالم الذرّ الدقيق ، قد انقضى عهده . كان الرأي القديم ، أن المادة مؤلفة من دقائق صغيرة صلبة ، لا يمكن ان تتلاشى . ولكن ذلك الرأي كان لهُ عهد وانقضى . وأصبحنا اليوم نعتقد ، ان الجبال الدهرية الراسية ، والانهار الجارية ،وأجسامنا الحية ، وهواءنا الذي نتنفسه ، وهذا الورق الذي اكتب عليه ، وهذا الضوء الذي تبعثه الينا الشمس والكواكب ، انما هذه جميعاً دقائق من الطاقة الكهربائية ، أو هي حزم من دقائق الطاقة الكهربائية

فالمادة والطاقة في أصلهما، بحسب آراء العلم الحديث، ترتدان الى شيء واحد هو الطاقة الكهربائية

واذاً فاحداهما يمكن تحويلها الى الاخرى

واذاً فالمادة يمكن ان تحول الى طاقة . واذاً فالمادة لا تحفظ كما قال لافوازييه

***

ونحن لا نعدو الحقيقة ، ان قلنا انَّ علم الطبيعة الآن ، وهو في غمرات هذا الانقلاب الخطير ، مختلط عاليه بسافله . كان يظن في اواخر القرن الماضي ان علم الطبيعة علم مستقر ، وان مبادئه الاساسية ، قد كشفت جميعاً . ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر كشفت قواعد الميكانيكيات واخرج هوجنس نظريته الموجية في الضوء . وفي القرن التاسع عشر أيّد فرنل الفرنسي وينغ الانكليزي ، نظرية الضوء الموجية . وعلى هذه المباحث نهضت صورة الاثير المالىء لرحاب الفضاء ، وبني ناموس حفظ الطاقة ، وقام القول بان الطاقة المتحولة انما تتحول الى درجات اوطأ ولا يعكس أي ان الطاقة القصيرة الامواج القوية الفعل تتحول الى طاقة طويلة الامواج ضعيفة الفعل ، وكذلك محتوم على الكون ، في المستقبل البعيد جدًّا ، ان ينتهي من تحول الطاقة فيه ، الى طاقة لا قدرة لها على احداث التحوّل . وهذا ما يعرف بناموس الترموديناميكس الثاني . ثم جمع فراداي ومكسويل بين الكهربائية والضوء وقالا بنظرية الضوء الكهرطيسية (من كهربائية ومغناطيس) اي

ان امواج الضوء تخضع لقوانين الكهربائية والمغناطيس . وبعد ذلك قام هرتز وأثبت وجود الامواج الكهرطيسية التي أطول من امواج الضوء ، وكذلك افتتح عهد اللاسلكي العظيم ، الذي جرى في ميدانه ، لودج وبرانلي ومركوني وفلمنغ وده فرست وغيرهم

كانت هذه هي الاركان التي يقوم عليها علم الطبيعة في القرن التاسع عشر

فلما ناوله القرن التاسع عشر الى القرن العشرين ، كان ينتظر منه ان يحافظ عليه ، ويضيف اليهِ شيئاً هنا وشيئاً هناك ، من دون ان يتعدى عليهِ ، بالتحويل ، دع عنك التدمير والنقض

ولكن العلم ليس شديد الاحترام ، إلاَّ للحقيقة . وهذا هو الانقلاب ، قد أقبل علينا في خلال ثلاثين سنة ، بخيله ورجله ، فلا نستطيع أن نفلت منها . اكتشفت اولاً أشعة اكس، ثم فعل الاشعاع ، فثبت ان المادة ليست دقائق مستقرة لا تتحول . ثم كشف طمسن الالكترون ، فبيَّن ان الذرة التي كانت تحسب كالكرة الصلبة ، انما هي مركبة من دقائق اصغر منها . ثم كشف الراديوم ففتح ميدان البحث في تحوُّل العناصر أمام العلماء ، وعند الحد الفاصل بين القرنين التاسع عشر والعشرين ، أعلن بلانك ، ان الطاقة — الضوء والحرارة وغيرها — ليست متصلة البناء، بل هي كالمادة ذرية البناء ، وهذا هو المبدأ الذي تقوم عليهِ نظرية الكم ، كما تدعى ، ونظرية « المقادير » كما نحب ان ندعوها، لان مقدار ترجمة Quantum وهو اسم النظرية في اللغات الاعجمية . فاقتضت هذه النظرية اعادة النظر في نظرية الضوء الموجية ، فوجد العلماء انفسهم في مأزق ، وهم الآن يحسبون الضوء دقائق أو مقادير من الطاقة تسير سيراً موجيًّا ، ولكن المخرج التام من المأزق لم يكشف بعد

***

ثم جاء اينشتين ، وبنى على تجربة قام بها العالم الاميركي ميكلصن ، فادخل فكرة النسبية واستغنى عن اثير القرن التاسع عشر ، وقال انهُ من المستحيل علينا التوصل الى معرفة الحركة المطلقة لان كل حركة انما تتم بالنسبة الى مشاهدها فتختلف في اتجاهها وسرعتها في نظره عنهما في ناظر مشاهد آخر . وحبك من الزمان والمكان شيئاً جعلهُ وحدة الكون الطبيعي او ما يدعوه بالحادثة (Event)

ولم تمض سنوات ، حتى بدا لنا كأنَّ حلم الكيماويين الاقدمين قد بدأ يتحقق . وها هو ذا رذرفورد ، وغيره من علماء الطبيعة يطلقون المقذوفات المنطلقة من الراديوم ، وغيرها من المقذوفات التي يصنعونها هم، على ذرات العناصر، فيحولونها ، فيجعلون النتروجين اكسجيناً ، والليثيوم كربوناً . انهم يحولون العناصر ، ولكنهم لا يبغون صنع الذهب ، بل يبحثون عن الحقيقة ، وهي عندهم أغلى من الذهب وأغنى من البلاتين

وقد تحول كذلك النظر الى السماء فالكون يمتد وراء المجرة الى مجرات اخرى وهي كلها تتفرق جميعاً كأنها نثار قنبلة قد انفجرت . ومن رحاب الفضاء تجيئنا أشعة قوية النفوذ والاختراق للاجسام نحسبها

ملكن دلائل على تكون العناصر الثقيلة في رحاب الفضاء ويقول جينز انها اشارات الى فناء المادة في تحولها الى اشعاع . فالاول يقول ان الكون يبتدىء حيث ينتهي اذ تتحول الطاقة الى مادة ، واما الثاني فيقول ان الطاقة اذا تحولت الى طاقة ضعيفة بحسب ناموس الترموديناميكس الثاني ، فلن ترتد

وأدهى من كل هذا ان العالم هيزنبرج الالماني ، اثبت انهُ اذا تغلغلت الى عالم الالكترونات تعذر عليك أن تؤمن بأن في الطبيعة سبباً ومسبباً او علة ومعلولاً ، فناموس السببية يضعف عند ما يدخل عالم الالكترونات وهذا ما يعرف عند علماء العصر بمبدإ عدم التثبُّت Principle of Uncertainty ، ومن هنا ما يدعى أزمة العلم الحديث

***

وازمة العلم الحديث شبيهة بأزمة الاقتصاد الحديث . فالازمة الاقتصادية هي أزمة «كثرة وفيض» اكثر منها ازمة «فقر وامحال» . كذلك في العلم . ففي عصر حافل بنشاط علمي يضاهي عصر غليليو ونيوتن ، نسمع نغمة حيرة تتردد في المحافل والمجامع . فكأن العلم بعد ما غزا الطبيعة فقد ثقته في نفسه . فارتبك وتجلجل . ذلك ان الثورة التي طغت على العلوم الطبيعية الحديثة ، فقلبت اوضاعها الاساسية جعلت العالم والعامي سواء ، في اعتقادهما ان النظريات العلمية غير كافية للاعراب عن الحقيقة بل هما يرتابان في أن الطبيعة يمكن ان تكون حقيقة كما يصورها لنا رجال العلم ، محدثوهم وقدماؤهم على السواء

فالرجال الذين يعالجون نظرية المقدار يقولون ان الاوليات العلمية وناموس العلة والمعلول تتهاوى بين ايديهم اذ يحاولون تطبيقها على الالكترون والبروتون . ولما كانت كل الاشياء المادية مبنية من الكترونات وبروتونات فمعنى قولهم هذا أنهم لا يؤمنون بعد الآن في السببية او الجبرية . يقول اينشتين ان الايمان بناموس السببية مهدد اليوم من قبل أولئك الذين انار هذا الناموس سبيلهم — اي علماء الطبيعة . فكأن قول الفيلسوف كونت لما حذر العلماء من التمادي في النفوذ الى ما وراء المكروسكوب من اسرار الطبيعة ، قد صح بحذافيره

كان كونت ناقماً — لما قال قوله هذا — على علماء الاجتماع ، الذين يريدون أن يتعمدوا درس مظاهر الاجتماع الى البحث في الاسباب الاولى فقادهم ذلك الى الشقاق والفوضى . فخشي أن تصاب العلوم الطبيعية بما أصيبت به العلوم الاجتماعية ، اذا شرع علماء الطبيعة في البحث عن الاسباب الاولى . وكان رأيهُ ان يكتفي العلماء ، بتخطيط الظاهرات الطبيعية ، من حيث انتظامها العملي ، لتكون مرشداً للانسان في حياته اليومية ، لانهُ اذا حاول العالم ان يتقصّى النواميس الطبيعية كما هي وراء مظهرها الواقعي ، فقد يجد أنها ليست مطلقة ، وأنها لا تخرج عن كونها احتمالات ، لا نواميس على الاطلاق . ولكن العلم لم يأبه لنصح الفيلسوف ، وها هو ذا مرتطم محيَّر لا يعرف من المأزق مخرجاً

***

ولا ريب في انه من المستطاع ان يقام الدليل على ان سرعة تقدم العلوم قد بلغ بها رأس منحدر

أخذت تنزلق من شاهقه الى سفحه . فبرتراند رسل الفيلسوف الانكليزي يبدي قلقه من وجود الهوة التي نشأت بين الصور المجردة التي يرسمها العلم الحديث والصور التي يرسمها ويدركها الذهن البشري . وكأن العلم الحديث أصبح برج بابل جديد تبلبلت فيه الالسنة ، فلا يفهم الجمهور الثاوي عند قاعدته ، ما تقوله الخاصة المقيمة على قمته

والاثر النفسي للانقلاب الذي احدثه اينشتين واتباعه فزعزع الصورة التي رسمها نيوتن للكون ، هو ان النظريات العلمية لا تخرج عن كونها شيئاً ذهنياً لا يطابق الحقيقة . يقول الاستاذ بردجمن احد علماء جامعة هارفرد «كنا نتوقع ان يكون هدف النظريات الطبيعية الكشف عن الحقائق الاساسية اما اليوم فاننا لا نصرُّ كثيراً على الحقائق الاساسية ، وذلك لاننا اضعف ثقة مما كنا في ان الحقيقة الاساسية ، التي كانت هدفنا ، لها اي معنى على الاطلاق »

بل ان حيرة ادنجتن وشكَّهُ اوضح من حيرة رسل وريبة بردجمن ، وهو يعبر عنهما بصورة شعرية اذ يقول بأنهُ واثق من اننا لا نستطيع ان نكتشف بالعلم ، الا آثار خطانا على الرمل ، واننا لا نستطيع الخروج من التعميم الصادر عن ذواتنا ، الا في « علم المقدار » وهناك نكتشف ان ليس للطبيعة نظام معقول . فكل النواميس التي نصوغها ليست الا نواميس مصطنعة وان الناموس الوحيد ، هو ان ليس في الطبيعة ناموس

وقد نستطيع ان نمضي في سرد اقوال العلماء والمشتغلين بالعلم ، التي من هذا القبيل ، فنرسم لحالة العلم في العقد الرابع من القرن العشرين ، صورة قاتمة تبعث القنوط في النفس ، ولكن هل هذه الصورة تمثل الحقيقة والواقع

***

لا يحتاج الكاتب الى ان يكون فيلسوفاً عملياً ، لكي يؤمن بالقول المأثور « من ثمارهم تعرفونهم » . فاذا نظرنا الى العلم هذه النظرة ثبت لنا في الحال ان القول بانهياره سابق لاوانه على الاقل ، لاننا لا نعرف عصراً ، يفوق هذا العصر ، في كثرة ما انتجهُ العلم من الثمار . ولا نحن نستطيع ان نحسب نظرية النسبية ، صورة ذهنية غير مطابقة للحقيقة ، بعد ما ايَّدتها المباحث في مختلف فروع البحث الطبيعي والفلكي ، حتى في ميدان نظرية المقدار حيث ثبت ان النواميس العالمية ليست الا احتمالات كبيرة ، وان المبدأ الاساسي في الطبيعة هو مبدأ الصدفة لا مبدأ الحتم . هنا يتبين لنا عند انجلاء الغبار من ميدان المعمعة ، ان القول بأن النواميس الطبيعية ليست الا احتمالات كبيرة ، لا يضير العلم ، وانما يضير كرامة العالم فقط او ما يحسبهُ العالم كرامتهُ ، لانهُ كان يقول بأن النواميس العلمية التي اكتشفها نواميس مطلقة . ولعلَّنا نجد في هذا القول ما يطمْئننا الى حين

فؤاد صروف

المصطلحات العلمية

والفاظها العربية

للامير مصطفى الشهابي

كلما تناول احدنا معجماً علمياً باحدى اللغات الاوربية الكبيرة وأخذ يقلب صفحاته التي لا تحصى يهوله ما تحويه تلك الصفحات في طياتها من آلاف الالفاظ في العلوم والمخترعات الحديثة ويروعه ان تكون لغتنا العربية خلواً منها او من معظمها ويشوقه ان يظل الناطقون بالضاد صادفين عن الاخذ بيد هذه اللغة المباركة لاهين عن جعلها تتسع لعلوم هذه الايام كما اتسعت لعلوم الاقدمين في السنين الخوالي . واذا ما تحدثت في هذا الامر مع الذين درسوا العلوم الحديثة بلغة اجنبية اجابك جمهورهم بانهم يأسون من صلاح لغتنا للاغراض العلمية في عصر الناس هذا فهي اذن على ما يرون مقضيٌ عليها إن عاجلاً وان آجلاً . لكنك اذا استقصيت بواعث هذا الاعتقاد القائم فيهم رأيتها تنحصر في شيئين الاول جهلهم اسرار اللغة العربية ومكامن الحياة فيها والثاني قلة ثقتهم بكفاءة من جعلوا انفسهم او جعلتهم السياسة قوّامين على هذه اللغة افراداً كانوا او جماعات او حكومات

فالجهل بوسائل النمو في اللغة العربية لا يستلزم فقد هذه الوسائل لانها موجودة يعرفها كل من جدَّ في طلبها وهي كامنة في اللغة لكنها تحتاج الى من يثيرها من مرقدها ويبعث فيها الروح فتعود الى الحركة وتعود العربية معها الى الحياة . ويتضح من ذلك ان السر في جمود لساننا ليس منبعثاً عن قصور هذا اللسان بل عن تقصير ابنائه وعن اهمال الحكومات التي تتكلم به . وقبل اثبات هذا الاهمال وذاك التقصير لا بد لنا من ذكر اهم حاجات لغة الضاد وذكر الذين يمكنهم ان يضمنوا لها تلك الحاجات . فما تحتاج اليه العربية قبل غيره اصبح شيئاً معروفاً لكثرة لوك الالسنة لهُ ووفرة سيلان الاقلام به على القراطيس . وخلاصته ايجاد الفاظ عربية او معربة لابحاث العلوم العصرية والمخترعات والمصنوعات والادوات الحديثة وهي آلاف مؤلفة من الالفاظ . ولا بدَّ لمن يتصدّون لوضع هذه الالفاظ من ان يجمعوا بين امور ثلاثة وهي اولاً الاختصاص بعلم او بفن وممارسته نظريًّا وعمليًّا ثانياً التغلغل في سرائر اللغة العربية ولاسيما فيما يتعلق بذلك العلم او ذلك الفن ، ثالثاً اتقان لغة واحدة على الاقل من لغات اوربا الغنية بالعلوم والفنون . ولقد قلت في المجلد الثامن من مجلة المجمع العلمي العربي انهُ اذا فقد شرط واحد من هذه الشروط الثلاثة فقدت معهُ معظم الفوائد التي تُرجى ممن يودّون اصلاح لغة الضاد والعمل في احيائها بايجاد الالفاظ اللازمة للعلوم والفنون والمخترعات الحديثة

واذا انعمنا النظر في مواهب علمائنا واستعرضناهم واحداً واحداً نجد هذا فقيهاً باللغة العربية عليماً بصرفها ونحوها وبيانها وبديعها وعروضها لكنهُ يجهل حتى مبادىء العلوم الحديثة التي يتعلمها الصبيان في المدارس . وذاك قد درس العلوم واتقنها بلغات اجنبية لكنهُ لم يحفل بلغتهِ ولم يصمد لمدارستها فظلت صلته بها متراخية . وثالث حصل على الشروط الثلاثة التي ذكرتها لكنهُ اغترَّ بنفسه وحمَّلها فوق طاقتها فراح يؤلف الموسوعات او المعاجم العلمية ويضع الالفاظ جزافاً وفاتهُ ان عمر الانسان اقصر من ان يحيط بعلم واحد من العلوم الحديثة وان العالم المحقق ربما افنى زهرة عمره في الفاظ هذا العلم دون ان يستوفيها كلها . ولهذا لا بد لمن يجشم نفسهُ وضع الالفاظ بالعربية من ان يقتصر في عمله على الالفاظ المتعلقة بعلم اختص به واطلع على دقائقه . وقبل ان ابحث عن السبل التي يجب ان نسلكها في وضع الالفاظ للمصطلحات العلمية يفيد ان اذكر كيف اهتدى الاوربيون الى آلاف الكلمات التي اضافوها الى لغاتهم وما هي الطرق التي ساروا عليها للوصول الى هذا الهدف . ولنتمثل باسماء النباتات لان في حديثها لذة ولانه جرت مراسلات فيها لا تخلو من فكاهة بيني وبين مسيو غانيوبان احد علماء النبات الاختصاصيين في متحف المواليد الفرنسي في باريس وهو صاحب معجم مخطوط في اشتقاق اسماء الاجناس النباتية وله رأي قويم في صدد هذه الاسماء

تسمية النبات

لنفرض ان عالماً نباتياً رحل الى مجاهل افريقيا او فيافي الجزيرة او سهول الصين الفسيحة يلتقط الاعشاب ويتعرف اليها حتى اذا عثر على نبتة لا يعرفها راح يدرس تحليتها اي صفاتها النباتية فاذا بها مما لم يدرسه احد قبله فالنبتة اذاً جديدة لدى النباتيين وعليه اذن ان يضع لها اسماً جديداً . واول اسم يتبادر الى ذهنه اسم نفسه تنويهاً بهِ وتخليداً له جزاء ما يلقاه ذلك العالم من النصب في عمله الشاق . وهذا شيء مستملح لا غبار عليه البتة وليس بامكان احد ان يستقبح إيثار النفس على الغير في مواضيع كهذه . لكن صاحبنا النباتي له اسم واحد فاذا اطلقه على العشبة الاولى التي كان اول موجد لها فبماذا يسمي النباتات الاخرى التي يعثر عليها وقد تكون كثيرة تعد بالعشرات. وهنا يجول في خلده تسمية النبات باسم الاقليم او الكورة التي وجده فيها . ولكن اسماء الكُوَر في الشرق الاقصى او لدى زنوج افريقيا كثيراً ما تكون ثقيلة على السمع لتنافر مخارج حروفها او لغير ذلك من الاسباب فيعنُّ على باله اطلاق اسم احد العلماء على ذلك النبات فيستعرض أسماءهم فيرى ان كلاًّ منهم قد نسب اليه نبات من النباتات من قبل احد النباتيين الذين تقدموه ، ولهذا يقف صاحبنا يائساً من ايجاد اسم لعشبته في هذه الناحية ايضاً فيتجه الى نواح اخرى أهمها درس صفات العشبة المذكورة في اوراقها او ازهارها او غير ذلك من اعضائها حتى اذا وجد في احدها صفة بارزة سمى العشبة باللفظة اليونانية او اللاتينية التي تدلُّ على تلك الصفة ، وهكذا يظن النباتي انه اوجد اسماً جديداً لجنس النبات الذي عثر عليه . لكنه كثيراً ما يتفق ان اجناساً نباتية اخرى تكون

حائزة على الصفات نفسها وان احد علماء النبات كان اطلق اللفظة اليونانية المذكورة على جنس نباتي آخر فيرجع صاحبنا بالخيبة ويعود الى التفتيش عن صفات بارزة اخرى في عشبته او يطرق ابواباً لم يطرقها بعد كتسميتها باسم احد الآلهة الاقدمين او بالاسم الذي يعرفها بهِ اهالي تلك البلاد او بالصفة الدالة على أهمّ ما فيها من الخواص الطبية او الصناعية الخ

يتضح مما مرَّ ذكره ان علماء النبات منذ القرن السابع عشر الى اليوم قد لقوا عرق القربة من وضع اسماء علمية لاجناس النباتات العديدة فلا غرابة اذن ان يجيء بعض هذه الاسماء ثقيلاً على الاسماع فليس كل نبات يدعى حنطة او شعيراً او تفاحاً او رماناً بل هناك الوف من الاجناس ومئات الالوف من الانواع والاصناف النباتية ليس لها اسماء حتى في ارقى اللغات الاوربية . ومن المستحيل ان تجيء كل الالفاظ التي توضع للدلالة عليها خالية من كل شائبة . والحال واحد في كثير من العلوم الاخرى كعلم الحيوان والجيولوجية والمعدنيات والطب والحشرات والآلات الزراعية والصناعية وغيرها فهي كلها تحتاج الى وضع آلاف مؤلفة من الاسماء العلمية التي تسمو عن متناول العامة ولا يحفظها سوى الخاصة من الناس . ويلخص ما قلناه عن اسماء اجناس النباتات العلمية وعن الطرائق التي اتبعها العلماء المشّابون في وضعها ان تلك الطرائق هي اولاً تسمية النبات باسم الذي كشف عنه كقولنا لينيا وفورسكاليا فهما نباتان منسوبان الى النباتيين المشهورين لينيوس وفورسكال. ثانياً نسبة النبات الى المدينة او الكورة او الاقليم حيث تكون منابته الطبيعية كلفظة ادينيا فهي من عدن العربية وقد وضعها فورسكال للدلالة على نبات وجده في عدن . ثالثاً الاحتفاظ بالاسم الذي عرفه الاقدمون كاليونان والعرب مثل كوفيا فهي من القهوة وبستاسيا من الفستق وموزا من الموز وكلها مأخوذة من العربية . رابعاً نسبة النبات الى احد العلماء او الملوك او الحكام المشهورين ممن احبّوا المشايين وعطفوا عليهم وأعانوهم في اعمالهم الشاقة مثل دَرْوينيا فهي منسوبة الى العلامة داروين الشهير وكوبرنيكيا فهي نخلة نسبوها الى الفلكي كوبرنيكوس وهكذا . خامساً نسبة النبات الى احد آلهة الاقدمين من يونان ورومان وغيرهم مثل مركورياليس فهي منسوبة الى مركور (عطارد) إلـه الفصاحة والتجارة عند اليونان ، وأبولونيكا فهي باسم أبولون إلـه الشعر والصنائع النفيسة وغيرها عند اليونان والرومان ، وباسيفلورا اي زهرة الآلام (يسمونها الساعة في دمشق) فهي تدل على آلام المسيح لان زهرة هذا النبات تشبه خشبة الصليب ومسامير العذاب . وسماها الدمشقيون « ساعة » تشبيهاً لها بمينا الساعة وعقربيها . سادساً تسمية النبات بالنعوت الدالة على بعض خواصه الطبية او الصناعية او غيرها مثل بُلمُوناريا ومعناها عشبة الرئة لانها تستعمل في بعض امراض الرئة . ومثل متريكاريا ومعناها عشبة الرحم لانهم كانوا يستعملونها في امراض الرحم. سابعاً الاحتفاظ بالاسم الذي يطلقه سكان البلاد الاصليون على النبات المبحوث عنه . مثال ذلك إتسوغة وهي لفظة يابانية تدل على شجرة مشهورة من اشجار الفصيلة الصنوبرية . ومثل سكويا

وهي تطلق في كليفورنيا على « الشجرة الجبارة » المنسوبة الى الفصيلة الصنوبرية ايضاً

ثامناً الرجوع الى صفة بارزة من صفات النبات وتسميته باللفظة اليونانية التي تدل على تلك الصفة. وهذا الشكل في وضع الاسماء هو الاعم مثال ذلك النبات المسمى أسبيديسترا من الفصيلة الزنبقية فهو مبذول في بيوت دمشق وأراه امامي وانا اكتب هذه المقالة . فهذه اللفظة معناها الدُرَيقة اي الترس الصغير لان زهرته مِيسماً لحمياً غليظاً على شكل قبعة مستديرة محدبة تغطي الزهرة كغطاء القدر. ولنتمثل ايضاً بنبات ثان تمثل به صاحبنا العالم النباتي الفرنسي الذي ألمعت اليه. وهو النبات المسمى اكريدوكربوس فان هذه اللفظة مركبة من لفظتين يونانيتين معنى الاولى جرادة ومعنى الثانية ثمرة . فترجمة الاسم العلمي اذن عشبة الثمرة الجرادية او الجرادية الثمرة . وفي الحقيقة اذا القى الانسان نظرة على ثمرة هذا النبات رآها تشبه جرادة طائرة مبسوطة الجناحين . وأسماء النباتات التي وضعت على هذه الطريقة تعد بالالوف ولهذا يقولون ان اليونانية واللاتينية هي للغات الاوربية معين لا ينضب . ولهذا ايضاً ترى علماء النبات يشعرون بماهية النبات من تلاوة اسمه . والعكس بالعكس اي اذا كان النباتي قديراً في صنعته يدرك من نظرة يلقيها على نبتة من النباتات اهم صفات تلك النبتة كما يدرك الاسم الذي يجب ان يكون وضع لها . تاسعاً اتباع طرق شاذة في وضع اسماء النباتات كأن يكون النبات منسوباً الى أحد العلماء لكن اسم هذا العالم طويل يصعب التلفظ به فيحرفونه ويختصرونه حتى يسلس على اللسان ويرنّ جيداً في الاذن . وكان يبدلوا مكان الحروف في اسم احد النباتات اي يستعملوا القلب المعروف في اللغة العربية ويخلقوا على هذا الشكل اسماً جديداً لنبات جديد . ومما يتفق لهم ايضاً ان يضيق العالم بالامر ذرعاً فيضع للنبات اسماً لا معنى له كلفظة لوازا الدالة على زهرة معروفة فانها لا معنى لها وقد ركبها ادنسون من حروف وردت على خاطره عفواً

النقل الى العربية

اما وقد عرفنا كيف وضع العلماء الاوربيون اسماء لذلك العدد العظيم من النباتات اصبح من السهل علينا استنتاج السبل التي يجب ان نسلكها في وضع الفاظ عربية او معربة لها . واذا أنعمنا النظر في قائمة اجناس النباتات نجد منها عدداً عرفه اجدادنا ووضعوا له اسماء عربية او عربوا اسماءه اليونانية كما نجد عدداً لم يعرفوه . فالقسم الاول ندع الفاظه العربية او المعربة على حالها ونستعملها كما وردت في كتب العشّابين والاطباء كابن البيطار وغيره بعد التثبت من صحة اللفظة لان النساخ وعمال المطابع كثيراً ما يعبثون بها

اما القسم الثاني فهو الاهم بل هو بيت القصيد لان ما جهله اجدادنا من النباتات يبلغ اضعاف ما عرفوه منها . ففي هذا القسم أرى ان نسير في وضع الاسماء للمسميات على الطريقة الآتية . وهي :

اولا اسماء الاجناس النباتية المنسوبة الى افراد من الناس (علماء وملوك وحكام وغيرهم) او الى آلهة القدماء فهذه يجب ان تُعرب إما بأن تترك على حالها واما بأن تجعل بصيغة النسبة . مثال ذلك شجرة

مكلورا فهي منسوبة الى المواليدي الاميركي المسمى مكلور . ولذلك نسميها مكلورا كما هي اللفظة العلمية او مكلورية بصيغة النسبة . ولا يجوز لنا ان نعبث بتلك اللفظة واشباهها لانها انما وضعت للتنويه باسماء العلماء واصحاب السلطان من محيي العلوم ومن حق هؤلاء على الناس أن لا تضيع اسماؤهم عملاً بارادة النباتيين الكاشفين الذين سموا النباتات بتلك الاسماء . لكنهُ من البديهي انهُ اذا كان يوجد بلساننا لفظة عربية فصيحة تدل على نبات لفظتهُ العلمية منسوبة الى احد العلماء فمن واجبنا في هذه الحال ترجيح اللفظة العربية . ومن الامثلة على ذلك البقلة التي تطلق عليها لفظة العكوب فان اللفظة العلمية التي تدلُّ على جنس هذا النبات هي غونداليا وهي محرَّفة عن اسم الطبيب الالماني غوندلشيمر فنحن لسنا بحاجة الى تعريب اللفظة العلمية المذكورة ما دام يوجد لدينا لفظة عربية ترادفها . ثانياً اسماء الاجناس النباتية المنسوبة الى مدينة او كورة او اقليم فهذه ايضاً لا بد من استبقائها على حالها او جعلها بصيغة النسبة شريطة أن يرسم الاسم كما يرسمه العرب فيقال عدني لا أدني للنبات الذي يسمونه ادينيا وهكذا . ثالثاً اسماء الاجناس النباتية الموضوعة بلسان سكان البلاد التي عثروا فيها على تلك النباتات . فهذه ايضاً يجب ان نعربها ولنا اسوة في ذلك باللسان العلمي وبجميع الالسنة الاوربية الكبيرة

رابعاً اسماء الاجناس النباتية الدالة على صفة بارزة من صفات النباتات . فهذه الاسماء (وعددها هو الاكبر) تترجم الى العربية بمدلولات معانيها فيقال اذن الدب للنبات المسمى اركتوتيس وزهرة الرمال للنبتة المسماة ارينارايا وشجرة البهاء للشجرة التي تدعى كالودندرون الخ . وليس من المناسب على ما ارى تعريب هذه الالفاظ العلمية كما شاهدت في بعض الكتب والمعاجم العلمية العربية لان تعريب هذه الاسماء اي نقلها الى العربية على حالها يدلّ على ان الناقل يجهل معناها الاشتقاقي او على انه لم يجشم نفسه تحري هذا المعنى اثناء النقل . وهو ملوم في الحالين

وهنا اصل الى مسئلة لم اتعرض لها بعد في هذا المقال وهي ان اسم النبات العلمي يكون في العادة مركباً من لفظتين الاولى تدل على الجنس والثانية تدل على النوع . فكل ما اوردته الى الآن يتعلق باللفظة الدالة على الجنس وهي المهمة . اما اللفظة الدالة على النوع فانهُ يكون لها معنى في معظم النباتات ولهذا يجب علينا ان نترجم هذا المعنى الى العربية لا ان نفعل كما فعل بعض اصحاب المعاجم العلمية الذين اكتفوا بتعريب لفظة النوع جهلاً منهم بمعناها اللاتيني . مثال ذلك « كمبانولا ريانا » ومعناها الجُرَيس الملتحي فلفظة كمبانولا تدل على الجنس وقد ترجمناها بمدلولها وفاقاً لما مرَّ ذكرهُ ولفظة ريانا تدل على النوع وهي صفة معناها الملتحي فلا يجوز ان نعربها بل ينبغي ان نترجمها بلفظة الملتحي وهكذا في كل الالفاظ الدالة على النوع اذ نقول الجريس النبيل والجريس المجتمع الزهر والجريس الكبير الورق والجريس الجذروفي الخ . واللغة العربية تتسع لكل الاسماء التي لها معانٍ من هذا القبيل . والدليل على ذلك انني اوجدت في « معجم الالفاظ الزراعية » نحو الفي لفظة عربية تدل على نباتات زراعية ما كان يعرفها اجدادنا وليس لها اسماء بلغتنا . وقد نشرت قسماً من هذه الالفاظ مع مرادفها

من الالفاظ العلمية في رسالة اسميتها الرسالة النباتية طبعها مجمعنا العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٣٢

اما الاسماء الدالة على الصنف او الضرب النباتي فعددها كبير جداً ويندر وجودها في المعاجم بل توجد في كتب الازهار والاشجار والكتب الزراعية والنباتية المهمة . واذا كان للفظة التي تعبر عن الصنف معنى من المعاني التي لها لفظ بالعربية ترجمنا معناها والا تركناه على حاله وعربناه اضطراراً كما يفعل الاجانب عند ما ينقلون الى لغاتهم اصناف بلادنا فهم يقولون مثلاً قمح حوراني وبلدي ونورسي وعنب داراني وزيني وقاصوفي تاركين ألفاظ الصنف على حالها . وقد ازداد عدد الاصناف النباتية ولاسيما الزراعية منها حتى عجز ارباب الزراعة المشتغلون بإيجاد الاصناف الجديدة عن ابتكار اسماء لها لذلك تراهم احياناً يرقمونها بأرقام تدل عليها او ينسبونها الى اشخاص من اقاربهم او اصدقائهم او صديقاتهم او حبيباتهم . وربما سموها باسماء خيلهم او كلابهم او حقل من حقولهم او مكان يمثل ذكرى من ذكرياتهم وهكذا . واذا اردتم امثلة على ما ذكرت راجعوا مئات الاصناف من الورد او البغونيا او الاقحوان او غيرها من الازهار والرياحين واشجار التزيين والكروم ولاسيما الهجن الاميريكية من الكروم المستعملة مطعمة لاتقاء اضرار حشرة الفيلوكسرا المشهورة

وجوه الاعتراض وردها

هذا مجمل في اجناس النباتات وانواعها واصنافها وفي كيفية نقل كل منها الى العربية . ورب معترض يقول كيف ندخل على لساننا هذا الجيش الجرار من الاسماء المعربة لنباتات منسوبة الى اشخاص او الى كور وقد تكون تلك الاسماء ثقيلة على السمع او خارجة عن الاوزان العربية فنجيبه بأن بعض الالفاظ المعربة قديماً ومنها ما ورد في القرآن نفسه لا اوزان عربية لها كلفظة ابراهيم وابريسم وخراسان وإطريفل الخ . فلم يمنع ذلك اجدادنا من أخذها وادخالها في لسانهم . وقد ذكر اهل اللغة ان المعربات لا يشترط فيها ان تكون على الاوزان العربية لكنه لابأس بتشذيبها حتى تصير على نهج كلام العرب واسلوبهم . اما ان يكون بعض الالفاظ المعربة ثقيلا في الاذن فهذه مسئلة لا يعتدُّ بها كثيراً لان الاذن تألف بالممارسة اغرب الاسماء . والدليل على ذلك اننا لا نستثقل اليوم الفاظ كرويا وباذنجان وأنيسون ونرجس ونيلوفر وعشرات من امثالها وكلها معربة قديماً . بل نكاد لانستثقل لفظة بطاطس وبنادورى وطماطم وهي اشد وقعاً على الاذن من لفظة الكَنَهْور التي لم ترق صديقنا الاستاذ احمد امين كما صرّح في « الرسالة » على حين ان لفظة الكنهور لازمة لنا في علم الجويّات وهي أخف على السمع من مئات من الالفاظ العلمية الاخرى . بل يمكن استعمالها في الادب والشعر اذا وضعت حيث يجب ان توضع كما في البيتين الآتيين وهما من قصيدة لي عنوانها « حنين الى القاهرة »

ان الكنهور في جوّ الشآم اذا كانون هاج اعاصيراً تغادينا

من رائق الجوّ في مصر وقد نسمت ربَّا تداعب في الروض الرياحينا

ولا يظنن اننا نشكو وحدنا ثقل بعض الالفاظ العلمية وصعوبة التلفظ بها . فنحن والاوربيون

في ذلك سواسية لأن لغاتهم كلغتنا لا تهضم في باديء الامر تلك الالفاظ لكن كثرة استعمالها تنتهي بجعلها قابلة للهضم . فلنا اذن اسوة بهم

هذا بيان موجز في الوسائل التي اتخذها العلماء الاوربيون لوضع ذلك العدد العظيم من الاسماء للمسميات النباتية . وهذه هي الطريقة التي ارى وجوب اتباعها لنقل تلك الاسماء الى العربية . ولا أظن انه سبقني احد من كتّاب العرب الى ايضاح هذه الطريقة على الوجه الذي جلوتها بهِ ، وهي التي يجب اتباعها في ايجاد المصطلحات العلمية في العلوم السائرة كالحيوانات ومنها الحشرات والزراعة والطب وغيرها. وخلاصتها اولاً تحري الالفاظ العربية الاصيلة والمولدة في كتب اللغة واستعمالها للدلالة على ما يرادفها من الالفاظ العلمية . وقد اوجدت بهذه الطريقة بضع مئات من الاسماء والافعال في «معجم الالفاظ الزراعية» مما لم يرد في المعاجم الاعجمية العربية ونشرت قسماً منها في مجلة مجمعنا الدمشقي بعنوان « الفاظ عربية لمعانٍ زراعية » و «الوان الخيل وشياتها» و «اصطلاحات النباتات الدنيا» الخ. ثانياً ترجمة كل ما له معنى سهل الترجمة من الصفات والموصوفات. ثالثاً تعريب ما ينسب الى شخص او مدينة او كورة او غير ذلك من الاعلام وكذا كل ما يرجح ادخاله على حاله في متن اللغة كالراديو والفلم واشباههما

وهنالك طرائق غير ما ذكرت يمكن الرجوع اليها في بعض العلوم كعلم الحشرات مثلاً . فمن المعلوم ان الحشرات آلاف مؤلفة وانه ربما افنى المرء عمره في درس انواع رتبة من رتبها . وقد قلت في احدى مقالاتي اني اعرف عالماً اوربياً اختصاصياً برتبة مُغْمَدة الاجنحة سلخ عشرين سنة من عمره وهو مكب على انواع هذه الرتبة درساً وتنقيباً ولما ينته بعد . وآخر لم يتناول من هذه الرتبة سوى فصيلة واحدة لا يتجاوزها الى غيرها من الفصائل . ومن المعروف ان لهذا الجيش الجرار من الحشرات اسماء علمية لكنهُ ليس لعدد كبير منها اسماء باللغات الاوربية حتى اللغات الكبيرة منها . ونحن لا نحتاج الآن الى وضع اسماء لغير ما يهمنا من الحشرات اي لغير التي لها تأثير في صحة الانسان وفي مرافقهِ الاقتصادية . فالحشرات التي تؤثر بنا وبزرعنا لا تتجاوز اليوم بضع مئات . وأمامنا طريقتان في ايجاد اسماء لها الأولى الرجوع الى اصل اللفظة العلمية والى اشتقاقها وترجمة معناها اذا كان لها معنى سهل الترجمة او تعريبها اذا كانت منسوبة الى احد الاعلام وهي الطريقة التي تكلمت عليها باسهاب في النبات . والطريقة الثانية اضافة الحشرة الى النبات الذي تستولي عليه كأن يقال سوسة الفول وذبابة البرتقال وخنفساء الحنطة وفراشة الدقيق الشهباء وقملة الزيتون وبقة الخطمي وقتع ساق التفاح وأرَقة القطن الخ . وهذه الطريقة اسهل من الاولى وأدلّ على نوع الحشرة واضرارها . وهي متبعة في اللغات الاوربية لكثير من الحشرات وان كانوا يعدونها غير علمية. ومن البديهي ان اتباعها يتعذر كلما كان للنبات الواحد حشرات عدة تفتك بهِ . ومع هذا فقد سهل عليَّ العمل بها في «معجم الالفاظ الزراعية» تجاه جميع الحشرات التي يهمنا وضع اسماء لها

ومن الشواذ نقل المصطلحات الكيماوية فهي وان كان لها معانٍ يمكن ترجمتها لكن جمهور العلماء

على وجوب تعريبها وهو الاصلح فنقول كبريتات وحامض كبريتور وحامض كبريتيك وهلمَّ جرًّا لانه من الصعب ترجمة الادوات الجديدة التي تضاف على اول اسم او على آخره فتقلب مدلوله الى مادة جديدة . ومن الشواذ ايضاً اشتقاق افعال ونحت كلمات جديدة لا غنى لنا عنها وان كان الاشتقاق والنحت سماعيين . ولا يجوز ان نجمد اللغة لان قدماء النحويين او اللغويين افتوا بأنهُ لا يجوز لاحد ان يشتق او ينحت . ولو عاش هؤلاء في ايامنا هذه واطلعوا على العلوم الحديثة وما تستلزمه من الافعال والاسماء لكانوا اكثر تساهلاً في هذا الصدد . ومن الامثلة على الافعال المشتقة حديثاً سلفر اي عالج بالسلفور وبرعم اي طعم بالبرعم. ومما نحتوهُ اخيراً تحتُربة من تحت التربة وهي طبقة من التراب تكون تحت الطبقة السطحية التي يتناولها المحراث الخ . واذا رجعنا الى التاريخ نجد ان الذين نقلوا كتب العلوم القديمة الى العربية واضافوا الى لساننا مصطلحات عديدة لتلك العلوم ليسوا بلغويين ولا نحويين بل هم اناس هضموا تلك العلوم واخضعوا اللغة لاغراضهم فنمت وازدهرت . ومن هؤلاء ثابت بن قرة الحراني وسنان بن جابر الحراني والطوسي وابن الحمصي والنسطوري وحنين بن اسحق وابن ماسويه وابن وحشية وابن البطريق وقسطا بن لوقا البعلبكي والحجاج بن مطر وغيرهم

وعند ما بدت حاجتنا الملحة الى وضع الالفاظ العلمية الجديدة منذ اوائل القرن الماضي الى اليوم لم ينبر لها او لم يبرز فيها سوى من جمعوا بين العلم واللغة كاحمد ندى وعلي رياض واحمد حمدي الجراح وفنديك ويوحنا ورتبات وجورج بوست وبطرس البستاني وبشاره زلزل ويعقوب صرُّوف ونفر من المستشرقين مثل فريتاغ ولين ودوزي وغير هؤلاء . اما اذا استعرضنا الاحياء الذين يعملون في اغناء ثروة اللغة العربية نجد ان جلهم رجال اختصوا بفن من الفنون علميًّا وعمليًّا فجعلوا يبحثون عن الالفاظ المتعلقة به فتيسر لهم الوصول الى ما يبتغونه او الى بعض ما يبتغون . والخلاصة ان حاجة اللغة العربية الى المصطلحات العلمية لا يسدها سوى الذين اشرت اليهم في بدء هذا المقال وهم الذين جمعوا بين الاختصاص بأحد العلوم واتقان قواعد اللغة العربية ومفرداتها والاطلاع على لغة واحدة على الاقل من لغات اوربة الغنية بالعلوم والفنون . اما ان نعهد الى النحويين واللغويين بوضع الفاظ في الطب والزراعة والرياضة والفلك والحيوان والنبات والحشرات واشباهها فمعناه كما قال الدكتور يعقوب صرُّوف رحمه الله « تخويلك قاضياً تطبيب الابدان وطبيباً تصوير الالوان » فعلماء اللغة يستعان بهم في مراجعة بعض الالفاظ وفي ضبط بعضها ونفعهم في هذا الباب لا ينكر . لكنه ليس من الصواب تحميلهم فوق طاقتهم وندبهم لغير ما اختصوا بهِ . واتساع الفنون في هذه الايام لا يدع مجالاً في ميدان الاعمال المفيدة لغير الاختصاصيين من العلماء . وقد انقضى الزمن الذي كان الانسان فيه لا يعد عالماً ما لم يدرس العلوم باسرها وما لم يصنف فيها جميعاً . ولا شك أنه اذا تكاتف فقهاء لغتنا وعلماؤنا الاختصاصيون بالفنون الحديثة على العمل معاً في سبيل هذه اللغة قطفنا من تكاتفهم اينع الثمار وازكاها

وقفة في سلع

وهي المعروفة بوادي موسى او البتراء

للشيخ فؤاد باشا الخطيب

تلك القبور ، وماثل الاطلال — صُحُفٌ منشَّرةٌ وذكرٌ عالِ
للنفس بينهما وحولَ حماهما — عظةٌ ومسرحُ عبرة وجلالِ
ان ناح مرتجزُ السحابِ عليهما — فاستسقِ صيِّب دمعك الهطّالِ
هي (سلع) والبتراء ترجمة اسمها — نسجت عليهِ عناكب الاهمالِ
وادلُّ منهُ ومن معاهدِ انسها — زمن يروّع كلَّ ناعم بالِ
فاذا العروبة هجنة ممسوخة — واذا المنازل والديار خوالِ
وادٍ تحفُّ به الشوامخُ ممعنٌ — في السَّفح اربدُ قالص السربالِ
يندسُّ آونة ويسنح تارة — بين الوهاد — ومن وراه جبالِ
متعرجٌ يلتف غير معرّج — ويجول حين يهيم كلَّ مجالِ
فلو انَّ مرتاعاً يروع مشرَّداً — ماكان اعجبَ منهُ في الايغالِ
متجاوب الاصداء تسمع كلما — اصغيت فيه هماهمَ الاغوالِ
إن صرّحت باليأسِ منهُ امدّها — املٌ على الايام ليس بسالِ

* * *

شقَّ الاديم الى الصميم مهرولاً — في الارض بين حزونة ورمالِ
ذكر القطين لجدّ يهبط خلفهم — يتقحم الاعماق غير مبالِ
قد كان منتجع العفاة ولم يزل — بعد العفاء محطّ كلِّ رحالِ
لمشمّرٍ بين البلاد ، مخبّرٍ — نبأ العباد ، وسائحٍ جوّالِ
قلق المجاز كأنَّ كلَّ طمرّة — سرُح اليدين عليهِ ذات شكالِ
غبرت تعض على الشكيم تغيظاً — وتدبّ بين تعسف وخبالِ
تترقب القدر المتاح تلفتاً — فتغصُّ حين تهم بالتصهالِ
ويهولها الامد السحيق كأنها — تجتاز فوقَ مزالق الاجيالِ

* * *

اشرفتُ منهُ على العصور تمثلت — ومشيت بين هدى وبين ضلالِ

وشققت جيب الارض من اطرافها … حتى انتهيت اليهِ نضوَ كلالِ
وشهدت فيهِ مدينة منحوتةً … في الصخر تحتَ مشيَّد التمثالِ
موصولة حجراتها بفنائها … نقراً على عُمُد لهنَّ طوالِ
لبست إياة الشمس في الوانها … وزهت بأروع زخرفٍ وصقالِ
والقصر نحو القصر ينظر شاخصاً … نظر المدله مؤذناً بزيالِ
ان ورّع العبرات جاش اتيُّها … وَهمتْ سجالٌ منهُ بعد سجالِ

* * *

ومغارةٍ وقفت حيالَ مغارةٍ … ومدرَّج في إثر آخرَ تالِ
يتشعّث الدرج الشتيت خلالها … كخطوط أعسر او دبيب نمالِ

* * *

بلد كأنَّ يداً دَحتْهُ نخرٌ من … قُلَلِ الجبال ممزَّقَ الاوصالِ
فهنا الصخور على الصخور تحطمت … وهناك منهُ حقيقة كخيالِ
او كالطلاسم فوق مُهرق ساحرٍ … في كلّ زاوية خبيئة حالِ
موتٌ تطوف بهِ الحياة وموقفٌ … خشعت لديهِ طوارق الاهوالِ
تمضي القرون على القرون كأنها … وقد انحدرنَ اليهِ بضعُ ليالِ

* * *

فانظر الى الامصار كيف تنكّرت … والى القضاءِ يصولُ كل مصالِ
والى الانام تلفّهم اكفانهم … بعدَ الجهادِ ونضرةِ الآمالِ
وانزع الى الملك المهيمن فوقهم … فالعلمُ ملَّ تنطّس الجهّالِ
وجدالَ دجّالٍ وسخفَ موسوسٍ … يتشدقان بطائش الاقوالِ

* * *

تلك الربوع فسَلْ بها آثارها … واسمع فثمَّ جواب كلِّ سؤالِ
فلعلّ عن (موسى الكليم) محدثاً … بين التلاع يصيحُ والادحالِ
ولعلَّ (طور سنين) بين هضابها … باقٍ كعهدِ الوحي غير مذالِ
واذا اقتبستَ من الخرائب حكمةً … فلقد افدتَ غنىً وحسنَ مآلِ

* * *

سبحان من يهب الحياةَ تبرعاً … من قبل ايّ رضى وايّ سؤالِ
متصرف في الكون غير مفرّط … يبني الجديد من القديم البالي
كتب الخلود على الوجود فلم يكن … في الموتِ غير تحوّلِ الاشكالِ

غلاب الموت

كيف قهر بانتنغ البول السكري بالانسولين

— ١ —

اي شأن لبانتنغ ، بل اي صلة له بالبول السكري ؟ انها لجرأة على العلم من هذا الجرّاح كان العلماء قد جمعوا قدراً كبيراً من الحقائق المتصلة بهذا المرض . ولكن بانتنغ كان براءً من هذه المباحث جميعاً، لانهُ لم ينوِ في حياتهِ ان يكون طبيباً متوفراً على معالجة المصابين بهِ . انتظم في الجيش الكندي في خلال الحرب الكبرى ، وذهب الى فرنسا ، فلم تبدُ عليهِ آيات الذكاء الخارق لا في المعاهد العلمية ولا في الجيش . ولكنه كان عنيداً ، لايقرُّ بهزيمة . قيل انهُ جرح في ذراعهِ في خلال الحرب ، فأشار عليهِ الاطباء بقطعها والاَّ تعرض للموت فصاح بهم : « اني اريد ان احتفظ بذراعي » . وها هوذا قد عاد من ميادين الحرب ، وذراعهُ لم تقطع

اشتغل فترةً في مستشفى الاطفال في تورنتو ، ثم استقال وذهب الى بلدة صغيرة في اونتاريو ليمارس الجراحة فيها . فانتظر ثمانية وعشرين يوماً قبل ما جاءه المريض الاول . وكذلك ختم الشهر الاول من ممارسته الجراحية المستقلة ، بمريض واحد ودخلٍ قدره ثمانون قرشاً . وفي نهاية الشهر تمكن من الفوز بعمل معيد في مدرسة طبية هناك ، وقد فعل ذلك لا لطموح علمي فيه بل لاجل العيش . فكان يقضي الليالي الطوال مكبًّا على كتب العلم بين يديه ، يعدُّ الدروس لليوم التالي . ومضى على ذلك الى ان كانت ليلة ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٢٠

كان في تلك الليلة يطالع في وظيفة الغدة الحلوة (البنكرياس) فتغلغلت في نفسهِ حقيقة قديمة ولكنها خطيرة : اذا ازيلت منا جميعاً الغدد الحلوة متنا بالبول السكري . كان في عهد الطب قد تعلم ان هذه الغدة تفرز في قناتها الى المعى الدقيق مفرزات خفية الفعل ، تساعد على هضم المواد السكرية والدهنية والنشوية في الطعام . جلس في تلك الليلة التاريخية يقرأ كيف استأصل منكوفسكي Minkowski الالماني الغدة الحلوة من كلب سليم ، ثم خاط جانبي الجرح في البطن حيث استخرجت الغدة ، وأحاطهُ بكل ضروب العناية ، وجعل يراقبه يهزل امام عينيه رويداً رويداً ، ويشتدُّ ظمأه وجوعه ، ويضعف نشاطه ، ويزداد السكر في بوله ، وفي اقل من عشرة ايام نفق ذلك الكلب بداء البول السكري .

ثم اقبل على مباحث العلماء الآخرين فقرأ كيف اكتشف ذلك الالماني الآخر — لانغرهانز Langerhans — اجساماً صغيرة في تلك الغدة ، كانت اشبه شيء بالجزائر في البحر مفصولة عن الخلايا التي تولّد المفرزات الهاضمة وعلم ليلتها ان هذه الجزائر لا قناة لها ؟ فسأل نفسه وما الفائدة منها ؟

وخطر على باله في تلك الليلة ان يصرّح لتلاميذه في اليوم التالي، ان هذه الخلايا—خلايا الجزائر التي كشفها لانغرهانز – هي ما يقينا من البول السكّري بل لتستطيع ان تربط القناة الحلوة في كلب وتمنع مفرزاتها من الوصول الى المعى الدقيق ومع ذلك لا يصاب الكلب بالبول السكري . . . ولكن اذا استأصلت الغدة كاملة . . . . ! ثم ان الباحث الاميركيّ اوغي Ogpie كان قد بحث في الغدد الحلوة في اناس ماتوا بالبول السكّري فوجد كتل الخلايا المعروفة بجزائر لانغرهانز مريضة حائلة. هل تفرز هذه الخلايا هرموناً ؟ هل تصبُّ هذه الخلايا في الدم اذ تكون سليمة ، افرازاً داخليًّا يحتوي على مادة مجهولة ، تمكّن خلايا الجسم ، من حرق السكّر الذي في الدم، لتتناول من حرقهِ طاقة الحرارة التي تحتاج اليها ؟ لم يسمع بعدُ ان احداً كشف هذه المادة المجهولة في افراز هذه الخلايا

ها هوذا بانتنغ قد قضى الليلة يبحث في ما تقولهُ طوائف البحّاث في انحاء العالم ، كيف قضت سنوات تبحث عن هذه المادة المجهولة ، وتخفق في بحثها . وها هي ذي الاحصاءات الطبية يؤخذ منها ان الوفاً من الرجال والنساء والشبان والشابات يموتون ، بالبول السكري رهز الاطفاء جياعاً . فكيف يستطيع احد ان ينتظر من بانتنغ اكسير الحياة لهؤلاء الناس المقضيّ عليهم . بل انك لو قلت لهُ انهُ بعد ساعة واحدة فقط ، سيكشف اول الطريق الذي يفضي بهِ الى ذلك الاكسير ، لضحك من قولك !

وانقضى الهزيع الثاني من تلك الليلة التاريخية ، وقام بانتنغ الى سريرهِ ، بعد بحثهِ المتقدّم ، ليأخذ قسطاً من الراحة ، فوجد على المائدة قرب سريرهِ ، آخر عدد من مجلة « الجراحة والولادة وامراض النساء » وكان قد وصلهُ في النهار ففتحهُ ، ليتصفح مباحثهُ ... مهلا ... اتفاق غريب ... هوذا اسم يطالعهُ من احدى الصفحات مقترناً بالغدة الحلوة ! يكبُّ على الصفحة التي فيها مقالة هذا الرجل . امرٌ عجيب كيف تحوّل موضوع الدرس ، المملّ ، الى بحث أخّاذ . ان هذا الكاتب يثبت ، انهُ اذا سدّت الحصى القناة الحلوة ، ومات المريض ، وشرّحت غدتهُ هذه تبيّن ان الخلايا العادية التي تولّد الافراز الهضمي تكون قد ضمرت وضؤلت وحالت وماتت . واما الخلايا في جزائر لانغرهانز فسليمة سويّة . . . . طار النوم من عينيهِ . . . ان هؤلاء الذين تسدُّ الحصوات قنوات غددهم الحلوة لا يصابون بالبول السكّري . اذاً ثمة علاقة بين الاصابة بهذا الداء ، وبين جزائر لانغرهانز . وعمد الكاتب الى الكلاب يشق بطونها ، ويربط قنوات الغدد ، ثم يخيط الجرح ويترك الكلاب تعيش عيشة سوية ، ثم بعد ايام يشقُّ بطونها ثانية ، فيرى الغدد الحلوة حائلة ، ولكن جزائر لانغرهانز فيها سليمة سويةً . . . . وهذه الكلاب لم تصب بالبول السكّري

أوى بانتنغ الى سريره ، ولكنهُ لم ينم اذ كيف ينام وفي دماغهِ عاصفة ، وهو يحاول من دون وعيٍ ، ان يصل بين عملية الكلاب ، وبين انقاذ المصابين بالبول السكّري من الموت المحتوم . أليس ثمة وسيلة ، لاستخلاص خلايا الجزائر السليمة في كلب ، حالت بقية غدتهِ ، واستعمالها في كلب مصاب بالبول السكّري فيبقى على قيد الحياة ؟؟ وفي الساعة الثانية بعد نصف الليل هبَّ من سريرهِ ،

وكأنَّ الهاماً هبط عليهِ ودوَّن في دفترهِ : — « اربط قناة الحلوة في الكلب . ثم انتظر ستة اسابيع الى ثمانية حتى تحول . ثم استأصل بقيتها واصنع منها خلاصة »

عندئذٍ استطاع ان ينام ، ولما استيقظ في الصبح ادرك انهُ لم يولد ليكون جرَّاحاً

— ٢ —

ذهب بانتنغ الى الاستاذ مكلود Macleod رئيس قسم الفسيولوجيا في كلية الطب بجامعة تورنتو وها هوذا في مكتبهِ يحاول ان يستنجد بالالفاظ العلمية الضخمة ، ليقع من الاستاذ الكبير ، موقع الاحترام والقبول . ولكنه لا يصيب الاَّ تلك العبارات الثلاث البسيطة ، التي دوَّنها في الساعة الثانية بعد نصف الليل ، .... قال .... اننا اذا ربطنا قناة غدة البنكرياس الخ . . . وكان الاستاذ مكلود عالماً ، فأراد ان يعرف هل ما يقولهُ بانتنغ قد ثبت بالامتحان ، وتأيد بمباحث الاطباء والعلماء . ولعله اشار على بانتنغ في شيءٍ من التعالي بوجوب انصرافهِ بضع سنوات الى القراءة في تشريح الحلوة ووظيفتها . او لعله انقضَّ عليهِ كالصقر واثبت لهُ في جملة او جملتين ، وهو العالِم بكيمياء السكر في الدم ، ان بانتنغ يجهل هذا الموضوع الخطير كلَّ الجهل . على ان بانتنغ كان رجلاً عنيداً ، راسخاً كالجبال لا تميد مع الريح ، فاعترف للعالم الكبير امامهُ انهُ لا يعلم الاَّ اليسير من تشريح الحلوة ووظائفها وكيمياء السكر في الدم ، وانهُ لم يثبت بالتجربة ان ما يقولهُ صحيح ، ولكنهُ يحسُّ في قرارة نفسهِ انه صحيح . وكلما اعاد مكلود في مسألة البرهان العلمي وضرورتهِ ، بدأ بانتنغ يتبيَّن ، بان ما يحسُّ بهِ في قرارة نفسهِ لا بدَّ ان يكون صحيحاً

ولا ريب ان الاستاذ مكلود يستحق الثناء من التاريخ ، لانهُ صبر على سماع هذيان الرجل واخيراً سألهُ ما يريد ، فقال عشرة كلاب ومساعداً وثمانية اسابيع ليثبت ... ما عجز عنهُ فطاحل العلماء !

فلما اخبر بانتنغ استاذهُ في الجراحة وغيرهُ من اصدقائهِ الخلَّص ، بانهُ ينوي ان يبيع عيادتهُ ، ويستقيل من عمل التدريس قالوا لهُ جميعاً ان ذلك حمق وتهوُّر ، وان حماستهُ لهذه الفكرة العارضة ، لا بدَّ ان تخفَّ سورتها ، واشاروا عليهِ بالعودة الى بلدتهِ والمضي في عمله هناك . فعاد . ولكن هذه الفكرة ظلَّت مستحوذة عليهِ ، لا تفارقهُ . ما العمل وليس امامه معمل يجرّب فيهِ ، ولا كلبٌ يستلُّ منهُ حلوتهُ . فأكبَّ على ما كتب في الموضوع يطالعهُ ، واهمل عيادتهُ ، لانهُ كان اذا كلَّت عيناه من المطالعة عمد الى التصوير وهو لايدري من اصولهِ شيئاً

١٦ مايو سنة ١٩٢١ وها هوذا ، بانتنغ في جامعة تورنتو ، في غرفة حقيرة ، عالم لم يعيَّن من قبل احد للبحث في موضوع اخفق فيهِ من سبقهُ من الباحثين ولا يتوقع ان ينال من احد اجراً ما

ها هوذا في غرفة حقيرة ، وليس له فيها الاَّ دكة من الخشب ، ومساعدٌ لا يزال طالب طبٍّ في الحادية والعشرين من عمره وعشرة كلاب . كان هـذا المساعد ، تشارلز بست Best بارعاً في قياس مقدار السكر ، في دم الكلاب المصابة بالبول السكري وبولها . وكان اوسع علماً من بانتنغ

بكيمياء السكر في الدم والبول ، لان بانتنغ كان يكاد لايعرف شيئاً . ولعلَّ جهل هذين الباحثين ، كان اول باعث من بواعث نجاحهما ، حيث اخفق الآخرون لشدة تقيدهم بما عُرف

أخذ بانتنغ الكلاب العشرة وبقر بطونها ، وربط قنوات الغدد الحلوة فيها ، فنجحت العمليات لانهُ كان جرّاحاً بارعاً . وانقضت سبعة اسابيع او ثمانية عليها وهو ينتظر . وفي اليوم السادس من شهر يوليو سنة ١٩٢١ ، أخذ كلبين من الكلاب العشرة وكانت كلتها مرحة لم يؤثر فيها بقر البطون ولا ربط القنوات، وخدّرها بالكلوروفورم وبقر بطنيهما ثانية ، منتظراً ان يرى الحلوة في كلّ منهما ، وقد ضمرت وحالت ، بحسب نظريتهِ فوجدهما على حالتهما الطبيعية . سبعة أسابيع قد ذهبت عبثاً ؛ وليس في التجربة ما يدل ايسر دلالة على صحة ما احسَّ بصحتهِ . ثم ما لبث ان تبيّن لهُ انهُ قد شدَّ رباط القنوات، فحدثت فيها غنغرينا ،ثم نمت الطبيعة قناة اخرى ، صرفت فيها مفرزات الغدّة . فأقبل على الكلاب الاخرى وبقر بطونها ، فوجد ان رباط القنوات لم يكن شديداً فيها كما كان في الكلبين السابقين، وبحث فيها فوجدها قد ضمرت حتى لكاد يتعذَّر عليهِ ان يجدها

كان مكلود قد سافر الى اوربا ، ليزور معاهد العلم او ليتنزَّه ، ومن مفاخره انهُ لم يأمر بطرد بانتنغ من الجامعة اذا انقضت الاسابيع الثمانية ولم يفز بضالتهِ . وما كان بست يملك مالاً فاقترض من بانتنغ . أما كيف كان بانتنغ يعيش فأمر قد يظلّ من مطويات تاريخ العلم الحديث

وأخيراً اقبل اليوم المشهود ، يوم ٢٧ يوليو ١٩٢١ . كان بانتنغ قبل تسعة ايام قد تناول كلباً واستلَّ منهُ الحلوة وترك الكلب يتغذّى غذاءً عاديًّا كسائر الكلاب . ولكنهُ اخذ يهزل ويضعف ، وصار شديد الظماء ، شديد الجوع ، فلما قيس مقدار السكر في دمه ، تبيّن انهُ كبير، حتى ليصح ان تقول ان دمهُ كان في اليوم الثامن واليوم التاسع اشبه شيء بشراب سكّري كثيف قاتم. وعجز الكلب عن النهوض، وعن تحريك ذنبه ، لشدة ما ضعف وهزل . ذلك ان جسمهُ، وقد استلت منه الغدّة الحلوة عجز عن حرق السكر فتجمَّع في دمه . وكان السكر الذي يسقاه شراباً لتغذيتهِ ينصرف مع بوله ، لا يستطيع ان يستفيد منه شيئاً . وكان في صباح يوم ٢٧ يوليو سنة ١٩٢١ على وشك الموت

اقبل بانتنغ ومعهُ كلب من الكلاب التي ربطت قنوات غددها الحلوة فوضعهُ على المشرحة وشقَّ بطنهُ واستلَّ الغدّة الحلوة الحائلة وناولها الى بست ، فهرسها في قليل من ماءٍ ملحٍ بارد ثم صفّاها ، ووضعها في الحقنة وحقنها في وريد الكلب الذي يوشك ان يموت . وجلس الاثنان ينتظران ساعة مرّت كأنها دقيقة. كان بانتنغ يرقب الكلب ، فاذا هو يرى دلائل النشاط تدبّ فيهِ . فاخذ قليلاً من دمهِ ، واعطاهُ لصديقهِ بست ، في غرفة اخرى، ليفحص ما فيهِ من السكّر ، وقد كان بالامس كالشراب السكري ؛ فاذا المساعد بست يصيح بأن مقدار السكّر قد هبط الى الصفر . واذا الكلب يرفع رأسهُ اولاً ، ثم ينهض وهو يهزُّ ذنبهُ ويمشي مترنحاً . ولكنهُ واقف ، ويمشي على كل حال ... كان الماء المسكّر ، قبل ساعة يمرُّ في جسمه ويخرج مع بولهِ ولا يستطيع الكلب ان يحرقهُ .

ها هوذا الآن يسقى الماء المسكّر ، فيتناول الجسم سكّره ويحرقهُ ، ويستمدُّ منهُ النشاط ... ولكن الكلب مات في اليوم التالي !

— ٣ —

من كان ينتظر دوام هذه العجيبة ؟ كلُّ ما فعلهُ بانتنغ وصاحبهُ ، انما هو حقن قليل من حُلْوة كلب آخر كانت قد ربطت قناتها في دم كلب سُلّت منهُ حُلْوتهُ . حدّق بانتنغ ببست وكره ان يقول انهُ وقد التوى غصن النصر في يديهما ، لا يرى انهما قد فازا بشيء عملي ، اذ من المتعذّر ان تضحي بعشرات الكلاب لكي تحفظ كلباً واحداً حيّاً فترة يسيرة من الزمن

ولكن الحقنة كان لها اثر عجيب . ألا يمكن ان يكون ذلك الاثر قد جاء اتفاقاً ؟ اذن لا بدَّ من اعادة التجربة . فاعاداها ، والجوّ حارٌّ رطب يثقل الصدور ، وحقنا الكلب الثاني ، بحقنة كالاولى فانقذاهُ بعد ما كان مائتاً لا ريب فيهِ ، واضطرّا ان يقتلا كلبين سليمين من الكلاب التي ربطت قنوات غددها ، لكي يبقوا هذا الكلب الثاني حيّاً ثلاثة ايام

ولكن الكلب مات لما توقّفا عن حقنهِ . وهذا مما لا يطاق !

جرّب بانتنغ في خلال هذه الايام الثلاثة ان يحقن الكلب المائت ، بخلاصة الكبد او بخلاصة الطحال ولكن ذلك لم يجدهِ شيئاً . وكانت الكلاب العشرة التي طلبها من مكلود قد نفدت . وكان مكلود لا يزال في اوربا لا يدري المصاعب التي اصطدم بها بانتنغ ، ولا كان يرتاب ، ان في معمله كان هذان الشابان ، يمهّدان سبيلاً لمكافحة الموت ، المكشر للانسان في البول السكري

وجرّبا التجربة الثالثة في كلبة كان لها مكانة خاصة عندهما ، فحفظاها حيّة ثمانية ايام متوالية ، بعد ما اشرفت على الموت وهما يحقنانها بخلاصة الغدد الحلوة الضامرة المستخرجة من خمسة كلاب . ولكن ما الفائدة ؟ لا ريب في ان المادة المجهولة ، التي تمكن الجسم الحيّ من حرق السكّر الذي يتناولهُ ، موجودة في خلايا جزائر لانغرهانز — فدعاها أيلتين نسبةً الى أيلند او أيْلت اي جزيرة — ولكن الأيْلتين كالجواهر النادرة يكاد يتعذر الحصول عليهِ ، وعلى سطح الارض الوف وعشرات الالوف من المرضى بالبول السكري ، المصابين بعجزهم عن حرق السكر الذي يتناولونه . فاين السبيل الى ايجاد كلّ « الأيلتين » الذي يحتاجون اليهِ جميعاً

وانقضت الايام سراعاً ، وتتالت الايام شهوراً ، وبانتنغ يبحث عن مصدر يستطيع ان يستمدَّ منه هذا « الاكسير » . وجاء شهر نوفمبر وتعرّت الاشجار من اوراقها وعاد مكلود من رحلتهِ الى اوربا وأكبَّ على البحث في موضوع لا صلة لهُ بالبول السكري . ونفد مال بانتنغ ، وكثرت ديونه واصبح لايستطيع المضي في عمله الاّ اذا اسعفهُ احد بيسير من المال ليحصل به على القوت الضروري . فهبَّ الى نجدتهِ الاستاذ هندرسن ، رئيس قسم الصيدلة في جامعة تورنتو ، وعيّنهُ مدرساً في القسم ، يتناول مرتب المدرس ، ولا يلقّن الطلاب دروساً

وكان في ذات ليلةٍ من ليالي نوفمبر يطالع في كتاب قديم للعالم لاجس Laguesse فعثر على قولٍ مؤداه ان خلايا جزائر لانغرهانز اكثر في حلوة الطفل الوليد من الخلايا التي تفرز الافراز الهضمي . فقال بانتنغ اذا صحّ ذلك على الطفل الانساني ، فلا بدَّ ان يصح على جرو الكلاب . واذا صحّ على الجرو فلا بدّ ان يصح على الجنين ، ورجّح ان حلوة الجنين معظمها من خلايا جزائر لانغرهانز . فذهب الى صديقهِ الاستاذ هندرسن في الصباح وأطلعه على اكتشافه فقال له هندرسن « وكيف تستطيع ان تحصل على اجنّة الكلاب . عليك ان تربيها وتنتظر حملها »

ولكن بانتنغ كان قد قضى جانباً من صباه في المزارع وعرف كيف تسمَّن البقر للذبح . فذهب مع صديقه بست الى السلخانة وعادا بحلوات تسعة عجول — او بالحري اجنة عجول تختلف اعمارها من ثلاثة اشهر الى اربعة . ثم تبيَّن لهما انهما اذا استعملا الكحول المحمَّض بدلاً من ربط قناة الحلوة ثم هرس بقيتها في الماء الملح استطاعا ان يعتمدا على حلوات البقر الكبيرة ، بدلاً من حصر الاستخلاص في حلوات الاجنة . فعجبا كيف لم يخطر ذلك على بالهما من قبل . ولكن احد حكماء الكتّاب يقول : « كل المشكلات سهلة . . . بعد ما تُحَلّ »

— ٤ —

كان « غلكريست » صديقاً لبانتنغ ، تلازما حديثين وتصاحبا طالبين في مدرسة الطب ، ثم افترقا ، فذهب كلٌّ في سبيلهِ . وأصيب «غلكريست» بداء البول السكري فهزل جسمه وشحب وجههُ ، وتراكم السكر في بولهِ ودمهِ ، وتصاعدت من فمهِ رائحة الاستون الناجم عن انحلال الادهان في جسمهِ . وكان يدرك ادراك الطبيب ان هذا لا ريب سائر بهِ الى القبر ، فبدّلت بشاشتهُ الطبيعية ، كآبة وقتاماً . وكان يجرُّ رجليه جرًّا اذ يذهب كل يوم لعيادة مرضاه ، ويكاد يمتنع عن كل طعامٍ ، لان اقلّ طعام كان يزيد السكر في دمهِ . وفي ذات يوم من ايام الخريف سنة ١٩٢١ التقى بالفهِ القديم بانتنغ فقال لههذا «قد أبشرك قريباً ببشرى عجيبة» . ثم اصيب «غلكريست» بالنزلة الوافدة وهي من الاصابات التي يخشاها المصابون بالسكر ، فزاد هزالهُ واصبح لا يستطيع ان يتناول اكثر من ثلاث اوقيات من المواد النشوية من دون ان يظهر السكر في بولهِ . وعجز عن العمل لضعفهِ وهو يودّ لو استطاع ان يأكل ما يشتهي ، ليكفي ذلك الجوع الذي يعضهُ بنابٍ ، ولكنهُ كان يدرك ان ذلك قد يزيد السكر في بولهِ ودمهِ حتى يصاب بغيبوبة تكون القاضية عليهِ

فعلّق كل امله ببانتنغ وهو متعلّق من الامل بحبل اوهى من خيط العنكبوت

كان بانتنغ جرّب تلك المادة العجيبة — أيلتين — في الناس بعد الكلاب . جرّبها في نفسهِ وبست قبل ان جرّبها في احدٍ ، لكي يثبت ان هذه المادة التي تفيد الكلاب المصابة بالبول السكري لا تضرُّ البشر . وكان في مستشفى تورنتو العمومي ، مصابون قد اشفوا ، فجرّب حقنهم بالايلتين فردُّوا الى الحياة . فتناقلت الناس هذه الاخبار همساً . وذهب بانتنغ الى اجتماع طبي معقود في

جامعة يايل ، فلم يمنح الاَّ بضع دقائق لتلاوة رسالتهِ ، لكثرة الرسائل العلمية الخطيرة !

واقبل يوم ١١ فبراير سنة ١٩٢٢ وجيء « بغلكريست » الى معمل بانتنغ وبست . هو الآن الحيوان الذي يجرّبان فيهِ تجاربهما . وهو لا يكاد يفرق عن الكلاب التي سلّت حلواتها ، لان حلوتهُ كانت عاجزة عن القيام بعملها . فهل يمكنه « الايلتين » من حرق السكر في دمهِ ؟ فسقي اوقية من الغلوكوس ، ثم اخذت قطرات من دمهِ فاذا السكر فيها كثير كثير. ثم حقن حقنة من الايلتين وجلس بانتنغ وبست يراقبانهِ، ومضت ساعة وساعتان ، ولم يبد على غلكريست ان جسمه بدأ يحرق الغلوكوس بفعل الايلتين العجيب. فاستولت السوداء على بانتنغ . هل تفيد هذهِ المادة العجيبة الكلاب ولا تفيد الناس ؟ جلس كئيباً وهو يكاد لا يجرؤ ان ينظر الى إلفهِ القديم ظنّاً منهُ انهُ مائت لا محالة وكان مضطرّاً ان يسرع للحاق بقطار مسافر الى الشمال لزيارة اهلهِ فترك العليل في المعمل ومضى . وما كاد يخرج، حتى همَّ غلكريست بالخروج وهو لا يدري ان في خفايا جسمهِ انتصرت آية الحياة والعلم، على آية الموت . فاقنعهُ بست بالبقاء ريثما يحقنهُ حقنة ثانية . وما لبث بعيدها حتى تنفس في الآلة الخامسة بذلك ، فأحسَّ ان لهُ رئتين يتنفس بهما ، وكان لثقل تنفسهِ لا يحسُّ بهما من قبل . ثم شعر بصفاء في ذهنهِ وان تخذيهِ قد فكّتا من عقال حديديّ كان يثقلهما فاسرع الى دارهِ، وخاطب بانتنغ عند وصوله وقال ان العجيبة قد تمّت . وجلس عندئذٍ يتناول العشاء الذي يشتهي وبعد العشاء خرج للنزهة مشياً على الاقدام فجعل الناس يحدقون فيهِ ماشياً باسماً وكأنهُ عاد من عالم آخر

عندئذٍ ادرك مكلود ان بانتنغ المتعثر ، قد حقق ما عجز عنهُ اكبر الفسيولوجيين . ولا ريب في انهُ باهى في ما بينهُ وبين ذات نفسهِ ، بانهُ لم يمنع عن بانتنغ المساعدة والكلاب والاسابيع الثمانية . فصدف الآن عن تجاربهِ العلمية الخاصة واقبل هو ومساعدوهُ على الايلتين — بعد ما غيّر اسمهُ الى انسولين — يدرسون طرق تحضيره ، وانضمَّ اليهم كولب من جامعة البرتا . اما بانتنغ فترك لهم هذه التفصيلات ووجّه عنايتهُ الى المصابين يودُّ ان ينقذهم من براثن الموت وذهب مكلود الى مؤتمر الجمعية الطبية الاميركية فالقى رسالة علمية في هذا الاكتشاف الخطير، فاصغى اليهِ اساطين الطب وقرّروا ان يوجّهوا الشكر الى « الاستاذ مكلود ومساعديهِ لما نفحوا بهِ الانسانية من نعمة الانسولين ! »

من عجائب الطبيعة البشرية ضنّ الزميل على زميله احياناً بالثناء الذي يستحقُّ . فقد روى الدكتور بول ده كروف (١) ان جماعة من الاطباء والبحّاث ، جلسوا في ليلة يتحدثون ، فلما ذكر بانتنغ هُزّت الرؤوس وقلبت الشفاه . وكان ده كروف جديد العناية بسيرة بانتنغ والانسولين، فأفاض في الحديث . فقيل ولم يعزَ الفضل كلهُ لبانتنغ ، فلما اطلعهم على الحقيقة قالوا واذا كان الفضل كل الفضل له فلا ريب في انهُ كان موفقاً ولن يستطيع ان يكتشف اكتشافاً آخر مثلهُ

ولكن من يستطيع ذلك !

(١) Men Against Death وعنه لخصنا هذا الفصل

كيف تولدت الطيور

علمٌ في أدب

لا يخفى ان في تولُّد انواع الحيوان مذهبين الاول انها خُلقت وكل نوع منها قائم برأسهِ بمميزاتهِ وان ما بينها من التشابه انما كان لان خالقها اراد ان يكون بينها هذا التشابه من بعض الوجوه كما اراد ان يكون بينها اختلاف من وجوه اخرى لاغراض لا نعلمها . والثاني ان انواع الحيوان متولدة كلها من اصل واحد او بضعة اصول وان ما بينها من التشابه دليل على وحدة اصلها وما بينها من الفروق عرَض تولد فيها لاختلاف المؤثرات الخارجية كما تتولد المميزات في افراد النوع الواحد باختلاف الامكنة والمؤثرات . وعلى هذا المذهب الثاني اكثر علماء الطبيعة وهم يقولون ان الطيور تولدت من الزحافات المعروفة بالعظايات . وقد وضع بعضهم رواية فكاهية عبَّر بها عن كيفية هذا التولد على اسلوب بديع قال :

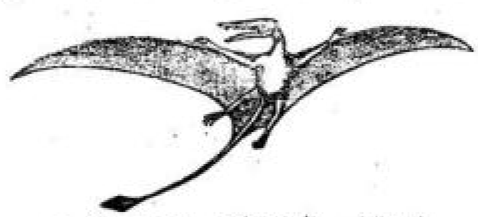
حدث منذ عشرين مليوناً من السنين ان ذكراً وانثى من العظايات الكبيرة تزاوجا واستقرَّا في احد السواحل البحرية في غربي اوربا وكان لكلٍّ منهما رأس كبير طويل مستدقٌّ كمنقار الطائر ويدان طويلتان ورجلان قصيرتان والذكر منهما اكبر من الانثى جسماً واشد عضلاً فعاشا كلاهما بالرفاء والهناء على احسن حال في ذلك العصر وهو العصر الثاني من العصور الجيولوجية . وكان غارهما شديد الرطوبة ولكن رطوبته لم تضرَّهما بل نفعتهما ولا سيما بعد ان علا النبات حولهُ وصار يحجبهما عن الانظار

ولم تمضِ ايام كثيرة حتى ولدت الانثى ولداً ذكراً فاحتضنتهُ كالام الرؤوم ورآهُ ابوهُ فأحبهُ وجعل يسعى لزوجتهِ وولده ثم انتبه هو وهي ان في ولدهما شيئاً لم يرياهُ في اولاد غيرهما من العظايات وهو غشاءان لحميَّان صفيقان يمتدَّان من يديهِ الى حقويهِ . فجعلا يفكران في امر هذين الغشائين ولا يدركان المراد منهما ولا كيف تولدا الَّا ان ذلك لم يصرفهما عن حب ولدهما لان الولد فلذة من الكبد . ولما رأيا ان هذين الغشائين كالجناحين سمياه ابا جناح ولم يكن في الارض حيوان مجنَّح غير الحشرات

وشبَّ ابو جناح شديد الاعصاب قوي العضل فافتخر والداهُ بهِ وجعلا يسيران في طلب الرزق ويأخذانهِ معهما يعلمانه الصيد والقنص .ولم يكن العدوان شديداً بين الحيوانات في تلك الايام لانها كانت تعلم ان بعضها خلِق لبعض اكلاً فاذا اقتنص الكبير منها الصغير خضع الصغير لحكم القدر .

ورأى ابو جناح من والديهِ عضداً لهُ فاغترَّ بنفسهِ ولم يعد يحسب لغير الايام حساباً . وظلَّ على هذه الحال والخيلاء ملء دماغهِ الى ان رأى عظاية من نوعهِ في ريعان صباها فشغفت لبهُ وكاشفها بما في فؤادهِ فنظرت الى جناحيهِ وتبسمت ثم قالت لهُ لا تنتظر مني وصلاً ما لم ارَ منك فعلاً تمتاز بهِ على اقرانك . فقال لها اذا كان الامر كذلك فسترين مني ما تفتخر كل زوجة ان تراهُ في زوجها . واخذ من ذلك الحين يفكّر في طريقة يظهر بها بسالتهُ حتى ترغب حبيبتهُ فيهِ

واتفق ذات يوم انهُ كان واقفاً على قمة اكمة فرأى وحشاً كبيراً يدنو منهُ وهو طويل العنق هائل الجثة جسمهُ مغطى بحراشف كبيرة صفيقة كالدروع وذنبهُ غليظ يستدق رويداً رويداً حتى يصير كالقصبة وهذا الوحش من نوع العظايات ولكنهُ من اكبرها جسماً واشدها بطشاً فعلم ابو جناح انهُ اذا قبض ذلك الوحش عليه لم يكن الاَّ لقمة في فيهِ . وكان ابواه قد علَّماه ان يهرب من وجههِ حينما رآه والاَّ قضي عليهِ اما الآن فلم يرَ الى الهرب سبيلاً لان الوحش باغتهُ مباغتة فشلَّ اعصابهُ . ولكن المصائب تنتج الغرايب والحاجة تفتق الحيلة فحدث حينئذٍ ما لم يحدث في عالم الزحافات من قبل فانهُ لم يكد ذلك الوحش يمد عنقهُ ليلتهم ابا جناح حتى بسط ابو جناح ذراعيهِ ووثب طالباً الفرار وجعل يرفرف مسرعاً خوفاً من عدوه فحمله الهواء كما يحمل الحشرات . فثبت لهُ حينئذٍ ان ذينك الغشائين اللذين لم يعلم لهما نفعاً قد انقذاه من الهلكة . ورأت العظايات ابا جناح طائراً في الجوّ فوقفت مدهوشة لانهُ اول حيوان طار في الهواء . ولم يكد يصل الى الارض حتى علم انهُ اتى من الفعال لم يأتهِ غيرهُ من الاقران واجتمعت العظايات حولهُ تسمع قصتهُ من الوحش وتنظر الى جناحيهِ مدهوشة وطلبت منهُ ان يجرّب الطيران امامها ففعل وطار فوق رؤوسها ثم عاد الى المكان الذي طار منهُ والعيون شاخصة اليهِ . وكانت حبيبتهُ بين الجماعة وقد خفق فؤادها حبًّا وسروراً فلم يكن الاَّ ايام حتى اقترنا ثم ولد لهما ثلاثة اولاد ولكلٍ منها المزية التي كانت للوالد اي غشاءان صفيقان من ذراعيهِ الى حقويهِ . وتوالد نسلها دهوراً طوالاً وهذه الخاصة فيهِ الى ان ولد لهُ اولاد على اجنحتها ريش وهي الطيور المعروفة . وقد حدث هذا كلهُ منذ الوف وملايين من السنين والآثار المتحجرة في الارض تدل على ذلك كما تدل آثار الهياكل المصرية القديمة على السكان الاقدمين وعمرانهم . ويقول علماء الطبيعة ان التغير يحدث في الافراد من وقت الى آخر فاذا نفع لحفظ الفرد وظهر في نسله بالوراثة استمرَّ فيهِ وقوي رويداً رويداً بالاستعمال حتى يصير من المميزات او المقومات للنوع فيصير نسل ذلك الفرد نوعاً قائماً برأسه لكن الاختلاف الطبيعي لا يرسخ في النسل ويصير من مقومات النوع الاَّ بعد دهور طوال



احد الطيور المسننة المناقير وهي متوسطة بين الزواحف والطيور الحالية

عناية الحيوان بنسله

او « الشمرجة »

للدكتور كامل منصور المدرس بكلية العلوم (١)

ان الكائن الحي هو الجسم الذي يتغذى بمواد مخالفة لتركيبه وتؤدي هذه التغذية الى النمو فالتكاثر فكأن التكاثر نتيجة واجبة لازمة على كل كائن حي وكأنّ الكائن الحي بعد تكاثره قد أدّى واجبه الوحيد نحو نوعه وجنسه فتنقضي حياته ويموت

من أبسط طرق التكاثر الجنسي (الشقّي) ما نعرفه عن بعض نجوم البحر (كف مريم). تضع الانثى عدداً كبيراً من البيض وليس للبيضة غلاف ما وليس فيها مواد غذائية مختزنة . وينتج الذكر حيوانات منوية كثيرة ويطرح هذان النوعان من المنتجات في البحر وبذلك تترك عملية الاخصاب ونمو البيضة المخصبة للمقادير . فاذا لم تسعف البيضة بالحيوان المنوي هلكت واذا أخصبت ابتدأت ادوار نموّها متعرضة فيها جميعها لكافة الاخطار وكثيراً ما ينتهي بها الامر الى القضاء العاجل عليها فاما ان تعبث بها الامواج واما ان يبتلعها غيرها واما ان تموت جوعاً او غير ذلك . الاّ ان من هذه الملايين من البيضات ما يصل الى دور التمام وهذا وان يكن قليلاً قلّةً نسبيةً الاّ انه كافٍ لتواصل النوع . والاسراف في هذه الطريقة جليٌّ

وهناك طريقة ثانية قد تقلل الاخطار التي يتعرض لها النسل اذ نجد للبيضة غلافاً قويّاً وبداخله مقدار وافر من الغذاء اللازم للجنين في اثناء ادواره الاولى. يفقس الجنين من البيضة هنا اما على حالة يرقة تنمو وتتطور فتصل الى شكل أبويها واما على شكل الحيوان الكامل مباشرة . ففي هذه الطريقة يقضي الصغير ادواره الاولى في مأمن من كثير من الاخطار . وعلى ذلك نجد عدد البيض قليلاً اذا قوبل بمثله في نجوم البحر والسبب في قلته غالباً ان نسبة ما ينجو منه اكثر مما ينجو في الحالة الاولى . وكلما ارتفعت هذه النسبة قلّ عدد البيض او بوضع آخر كلما زادت الاخطار ازداد عدد البيض

وفي كثير من الحيوانات يبقى البيض داخل الجهاز التناسلي وهناك ينمو بعيداً عن معظم العوائل الخارجية فاذا ما تم نموّه ترك امه وابتدأ حياته حرّاً مستقلاً ففي امثال هـذه الحالة يقل عدد البيض كثيراً . وقد يصل في حالات كثيرة الى واحدة فقط

لا علاقة لكل ذلك بموضوع العناية بالنسل بل هذه كلها وسائل وأساليب تدبرها يد الطبيعة

(١) من محاضرة القيت في المجمع المصري للثقافة العلمية

دون مجهود ملموس من جانب الابوين . والآن سأنتقل الى وصف ما يمكن ان يسمى الاعتناء الابوي او الشمرجة ولسهولة الشرح نقسم الموضوع الى (١) وضع البيض (٢) وقاية او حراسة البيض او الصغار (٣) التغذية (٤) نظافة السكن (٥) الارشاد

﴿وضع البيض﴾ تضع معظم الحيوانات بيضها في اماكن أمينة بعيدة عن الاعداء الطبيعية فالبعض يترك بيضه تحت غطاء كصخر او ما أشبه او يضعهُ داخل شق والبعض يبني لذلك عشوشاً محكمة الصنع وغالباً ما تكون مواضع وضع البيض في نفس البيئة التي تعيش فيها الحيوانات التامة النمو الاَّ انهُ في حالات كثيرة تعيش الحيوانات التامة النمو في بيئة تختلف عن البيئة التي تربَّت فيها ففي هـذه الحالات التي تتغرب فيها الحيوانات التامة النمو عن بيئتها الاصلية فهي تحج عائدة الى تلك البيئة لتضع بيضها او تلد صغارها

فالضفادع مثلاً تتربى في الماء واكثرها يعيش على مقربة من الماء الا ان هناك ضفادع جبلية تبعد محال معيشتها عن الماء فاذا قرب وضع البيض راحت باحثة عن بقعة ماء لتترك فيها بيضها . وما يأتيه العاجوم المولد في هذه الناحية غريب في بابه . هذا نوع جبلي وعند وضع البيض لا تذهب الانثى الى الماء بل تشتبك مع ذكرها فيلتف حبل البيض على رجليهِ وعند انتهاء الاشتباك يبقى الذكر حاملاً هذه الامانة فيعيش بها على شاطىء اقرب بركة مبللاً اياها عديداً واذا ما اقترب ميعاد الفقس نزل بها الى الماء حتى تخرج الصغار فيحرَّر من عبوديته

وبعض السلاحف يعيش في الاعماق البحرية وعند البيض يرتحل الى الشاطىء ليضع بيضه في الرمل

ومن ابدع الامثال التي تظهر لنا ما لاختيار الاماكن لوضع البيض من الشأن ما هو معروف عن كثير من اسماك الانهر كالبوري وسمك سليمان وثعبان الماء او حنش السمك

فالبوري معروف لنا جميعاً يعيش في مياه النيل حتى دور التناسل فيتجه نحو البحر ومبايضه محشوة وهناك يضع بيضه في بقاع ثابتة وكثيراً ما تكون هذه السفرة حافلة بالاخطار ولكن هذا كله لا يمنع عن تأدية الوظيفة التناسلية على الوجه الاكمل . وبعد فقس البيض ترجع الصغار متجهة نحو مداخل البحيرات او المصارف او الانهر وتصعد ضد تيارها الى حيث تجد مرعاها وكثيراً ما يصعب دخول هذه السميكات في بعض المصارف لوجود سدود او طلمبات كما هو الحال في بحيرة مريوط وقد تنبهت لذلك مصلحة مصايد الاسماك وعملت على نقل السميكات بانتشالها من امام السد ونقلها الى داخل البحيرة

اما سمك سليمان فيرحل رحلتهُ التناسلية على عكس البوري . يعيش هذا السمك في البحر وعند البيض يغزو الانهر رغم تيارها الشديد ورغم سدودها وشلالاتها العديدة (ولا يتغذى) حتى يصل الى المنابع وهناك يضع البيض ويقفل راجعاً . اما الصغار فتمضي ما يقرب من ثمانية عشر شهراً في المياه العذبة ثم تتجه نحو البحر وهنا أيضاً لوحظ منذ زمان بعيد ان يد الانسان كثيراً ما عبثت بصغار

هذا السمك ولذلك اصدر هنري الثامن سنة ١٥٣٣ امراً يحرم صيدها خوفاً من قلة محصولها المقبل

اما حكاية ثعبان السمك (الانكليس) وهو يعيش في أنهر اوربا وافريقيا الشمالية فهي اعجب ما كشف عنهُ البحث العلمي في القرن الحالي ويرجع معظم الفضل في هــذا المضمار لعالم دنيماركي وهو الدكتور يوهانس شمدت وقد نعاه البريد بالغاً من العمر ٥٦ سنة فقط

اثبت لنا هذا البحاثة ان هذا النوع من السمك لا يتوالد على مقربة من اماكن وجوده بل يرحل بسرعة ١٠ أميال في اليوم لمدة ثلاثة سنوات حتى يصل الى بقعة ثابتة وهناك يضع بيضه . وقد ثبت لنا الآن قطعيًّا ان احناش النيل تتجه ايضاً ناحية هذه البقعة وفيها تتوالد . تقع هذه البقعة على مقربة من جزائر برمودا ويبلغ عمقها نحو ٣٠٠٠ قامة وبعد التلقيح ووضع البيض تموت الحيوانات الكبيرة اما البيض فيخرج منهُ يرقات صغيرة الرأس مفلطحة الجسم شفافة تتغذى وتنمو هذه اليرقات قريباً من سطح الماء وتتحرك رويداً رويداً ناحية الشرق حتى اذا ما اقتربت من سواحل اوربا كان طولها نحو ثلاث بوصات وكان عمرها نحو الثلاثين شهراً . عند هذا الحجم وهذا السن تقف اليرقات عن التغذي وتتطور الى جسم خيطي يقل طولاً ٢٫٥ بوصة عن سابقه المفلطح تلك هي الحنيشات او الثعابين الزجاجية وهذه الحنيشات هي التي تقتحم مصبات الانهر . رغم الشقة الواسعة بين موضع البيض والبيئة المستقبلة ورغم هذا السفر الشاق والزمن الطويل فان ما يصل من الحنيشات الى مصبات الانهر لا يعد ولا يحصى فقد قدر ان ما صيد منها في يوم واحد في ناحية جلوستر بانكلترا كانت زنته ثلاثة اطنان وفي كل طن ٢٢٤٠ رطلاً وفي كل رطل ١٤٠٠٠ يرقة . تجتاز الحنيشات عقبات كثيرة مختلفة حتى تصل الى محل مناسب وهناك تتغذى وتنمو ولا تبلغ الأشد بعد ٥ او ٧ سنوات للذكور وثمانية الى اثنى عشر عاماً للاناث

﴿ تغذية الصغير ﴾ قلَّ من الحيوانات من يضع بيضه او يلد صغيره في مكان بعيد عن الغذاء الطبيعي ومعرفتكم باعداء الزرع واعداء الانسان تكفي فلا أشرح هذه النقطة

وبعض الحيوانات يجمع الغذاء اللازم لصغاره ويجهزه في عش محكم الصنع واذا ما تمَّ النمو داخل غلاف البيضة خرجت اليرقة وهي في مأمن داخل العش او الخلية وتغذت بما خزن لها وبلغت دور التمام يختلف نوع الغذاء المختزن باختلاف الانواع . ففي كثير من نحل العسل تخزن الشمالة الرحيق وحبوب اللقاح وتجعل منها غذاء للصغار بعد دور البيضة وكثير من النحل الاحاوي يشابه مخزونه مخزون نحل العسل . اما الزنابير فالبعض منها يجمع اليرقات ويخدرها بحقنها ببعض مفرزاته ويضع في كل منها بيضةً حتى اذا ما فقس البيض وجد النسل غذاء كافياً في جسم الفريسة التي اقتناها له ابواه

والبعض الآخر من الزنابير متطفل يضع بيضه مباشرة بواسطة آلة وضع البيض في جسم فريسته وهذا من اسهل السبل لضمان تغذية الصغار

وانواع الجعلان تخزن الغذاء في شكل كور وتضع بيضة واحدة في كل منها . اما قصة محار المياه

العذبة (انودونتا) ففي غاية الغرابة . تفقس اليرقات داخل خياشيم الام وتبقى حتى مرور سمكة (روديوس) فتخرج من مخابئها وتلتصق بجسم هذه السمكة متطفلة عليها حتى تمام تطورها الى محارة صغيرة فتنفصل وتقع الى القاع لتعيش عيشة مستقلة . ولكن ادهى من ذلك ان لسمكة روديوس هذه قصة اغرب من قصة المحار اذ انها في اثناء انتفاخ المحارة ترسل آلة وضع البيض الى ما بين المصراعين وتلصق بيضها بجسم المحارة ليبقى هناك في مأمن حتى الفقس . والبعض من الحيوانات يحمل الغذاء للصغير بعد فقسه كما هو معروف عن بعض انواع النحل . اما الطيور فجهودها في هذا السبيل غاية في العظم فثمة طائر مثلاً يجمع يرقات الحشرات ويحضرها لفراخه في عشها

ومما نعرفهُ الآن ان رحلات الابوين الى العش في هذه الحالة لا تقل عن ٤٧٥ مرة يومياً

وتغذية الصغار بمفرزات من جسم الابوين كثيرة الامثلة واشهر هذه الامثلة حالة الحيوانات الثديية او اللبونة ، ومن الحيوانات الاخرى نجدها في الطيور من امثال الحمام

ففي الحيوانات اللبونة تقوم الام بعملية التغذية اما في حالة الحمام فيتناوب الابوان اطعام صغارهم بافرازات لبنية تحضر في آخر المريء وتمر الى الخارج عن طريق الفم الى فم الفرخ الصغير . يغذى فرخ الحمام بهذا مدة وجيزة ثم يعطى البذور تدريجياً من صغيرة الى اكبر منها فيتدرج بذلك الجهاز الهضمي ويقوى الفرخ على ابتلاع الحبوب التي يتغذى بها أبواه ثم على تكسيرها

﴿ الاعتناء بنظافة المسكن ﴾ النظافة غريزة عند الحيوانات ولو تأملنا في حياة احدها وجدنا هذه الغريزة ظاهرة دون جدال وانما تختلف سبل النظافة باختلاف نوع الحيوان وبيئته . ليس لنا ان نتكلم الآن عن النظافة عموماً بل عن كيف تحفظ الحيوانات صغارها نظيفة وكيف تعتني بحفظ مسكنها خالياً من البقايا التي لا لزوم لها . الامثلة على ذلك كثيرة . خذ لذلك مثل البقرة اولاً فانها تلعق ولدها لتنظفه مما علق بجسمه واللعق للنظافة غريزة طبيعية عندها تأتيها دون تعقل او تفكير ولكن ادهى من ذلك ما تأتيه بالمشيمة اذا لم تبعد عنها فانها تلتهمها « نعم ان البقرة لا تأكل مشيمة غيرها اذا قدمت لها لانها ليست من اللواحم (آكلات اللحوم) ولكن حرصها على مصلحة ولدها يدفعها الى تنظيف ما حوله حتى لا يتعفن ذلك المكان ويكون مأوى للجراثيم التي قد تضرها معاً »

وما تعمله الطيور من هذا القبيل ينبئنا ايضاً بمقدار اهتمام الطبيعة بنظافة محال السكنى . اذ انه بالرغم عن انهُ في حالات كثيرة يغطى البراز بافراز يجف على شكل جلد يحفظ ما تحته فانك لتجد ان الابوين حريصين اشد الحرص على ازالة هذه القمامات وابعادها عن العش ويحكى عن ثقة ان بعض الطيور اذا وجد ان ميعاد التبرز قد فات يتحايل على صغيره حتى يؤدي هذه العملية ومتى اتمها الصغير ازيلت البقايا من العش باسرع ما يمكن . وفي حالة النسور تتبرز الصغار ذرباً فتتلبد بطانة العش مع بقايا الفرائس وكلما تراكمت الاوساخ في هذه البطانة سلخها الابوان واستبدلاها بفراش نظيف جديد

ويحكى كذلك عن بعض الزنابير الاحادية التي تجمع يرقات بعض الحشرات الاخرى وتخدرها وتضع

بيضها فيها انها تفتح الخلية اثناء نمو الصغير وتنظفها من بقايا اليرقة السابقة وتضع لصغيرها غذاء طازجاً

﴿ الارشاد ﴾ أما ما نعلمه عن ارشاد النسل بين الحيوانات فمعظمه مستمد من حياة الطيور واللواحم كيف يتعلم الفرخ الصغير الطيران وكيف يتعلم البعض الآخر السباحة والعوم بل كيف يتعلم فرخ الدجاجة التنقير . كل هذه غرائز أسسها موروثة ولكن لاسبيل الى اظهارها الا بارشاد الابوين

فالنسر يعود فرخه وهو في العش تمرين عضلات اجنحته واذا ما اجبر هذا الفرخ على التمرين الجدي خارج العش كان ذلك تحت اشراف ابويه فطوراً يشجعانه كأن يطيرا طيراناً بطيئاً على مقربة منهُ حتى لا يتسرب اليه اليأس وطوراً يحركان أجنحتهما لينقل الصغير تلك الحركات عنهما ويتأصل في فن الطيران . واذا وجد ان الصغير على وشك الخيبة ازلق احد الابوين برشاقة تحت مستوى جسم هذا الغشيم ودعمه واقياً اياه شر السقوط . والعوم غريزة يرثها صغار الطير المائي ففراخ البط تنزل الماء مباشرة دون تحريض (وابن الوز عوام) اما الاوز العراقي (البجع) والنورس فهي تزج بفراخها قهراً في الماء لاول مرة . اما التنقير فلا تأتيه فراخ الدجاج او فراخ النعام مثلاً دون ارشاد الام ويمكن الاستعاضة عن الام في هذه العملية بتحريك الاصبع او القلم على شكل رقبة ورأس الطير المنقر ومن اول مشاهدة تقلد الفراخ الصغيرة هذه الحركات ولن تنساها مطلقاً

اما العصفور (Swallow) فيتدرَّج به أبواه حتى يتم تمرينه ففي اول يومين بعد الخروج من العش يتدرب الصغير على خفة الحركة واتزان الجسم في الهواء ويتكفل الابوان باطعامه في العش عند انتهاء التمرين وفي اليومين التاليين تعطى الفراخ غذاءها في الهواء من منقاري الابوين وهذا معناه ازدياد الحنكة والاتزان والخطوة الاخيرة هي ان يسقط المدرب اثناء طيرانه طعام الصغار على مقربة منها وعليها هي الآن ان تلتقطهُ في اثناء سقوطه فاذا نجحت في ذلك اصبحت اهلاً لاستقلالها في المعركة الحيوية . وفي اللواحم نجد ان الهررة تعوّد اولادها مداعبة الفيران وقنصها وكذلك حال ابن عرس . ويستغرق تدريب الشبل سنة ونصف حتى يتضلع من الصيد ويمكنهُ ان يحافظ على سمعة ابيه ومما هو جدير بالذكر هنا ان رعاة الاغنام في الجهات القريبة من مرابض الاسود لا يهدأ لهم بال ما دام هناك اشبال تحت التمرين على مقربة منهم اذ ان اول دروس الشبل العملية هي اقتناص الحملان وهذا الدرس يكون تحت المدربين الكواسر

سمعتم الآن اليسير عن بعض ضروب عناية الحيوانات بنسلها فهي تختار المحال المناسبة لوضع البيض بعدت تلك عنها ام قربت وهي تبني العشوش لايواء الصغير وهي تراقب صغارها بيضاً كانوا ام احياء في عشهم وهي تخزن الغذاء المناسب وتستعدّ لتغذية الصغار اذا فقسوا وهي تحضر لاولادها قوتهم يوماً فيوم مهما تكلفت في ذلك من المشاق وهي تعتني باعداد ولدها لحياته المستقبلة معلمة اياه كيف يقنص وكيف يدافع عن نفسه وهي فوق ذلك كله تعتني بنظافة مسكنها حرصاً على ولدها مما قد ينشأ عن تراكم الاقذار [ثم عطف المحاضر على فائدة هذه الامثلة في عنايتنا باطفالنا]

أثر الحضارة العربية

في الاندلس وصقلية وما اليهما

بقلم محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ووزير معارف سوريا سابقاً

— ٢ —

كان اختلاط العرب بالاسبانيين والبرتقاليين والكتلانيين والفرنسيس والبشكنس Les Basques اختلاط محارب مع محارب يعرفونهم لاول الامر بغاراتهم بأخذ بعضهم من بعض اسرى فلما طال الزمن رأت تلك الامم المضعوفة انهُ لا مناص لها من ان تتعلم في مدارس الامة المرهوبة . وهكذا كان فان كثير من نبهاء الافرنج رحلوا الى الاندلس يأخذون عن علمائها العلم ويقتبسون من انوارهم ومنهم او من مشهوريهم البابا سلفستر الثاني (جربرت) وقد درس الرياضيات والفلك عند علماء العرب في اشبيلية وقرطبة فكان اعظم علماء عصره في قومه ولما صعد الكرسي البابوي سنة (٩٩٩ م) كان اول البابوات الذين وجهوا وجهتهم الى توحيد قوى الغرب لمقاومة المسلمين في استعمارهم في الشرق والغرب ومثله كثيرون ممن اخذوا عن العرب وكتبت لهم مكانة بما تلقوه عنهم بين قومهم

***

وذكروا ان شانجه امير ليون كان يستشير اطباء العرب. واطباء العرب من الاندلسيين هم الذين نقلوا الطب الى فرنسا . في زمن انشأ فيهِ الاندلسيون في كل ناحية من بلادهم المدارس وخزائن الكتب والجامعات العلمية في المواصم وغيرها كانت مواطن العلم في الغرب زمناً طويلاً ومنها اليوم صلمنقة عاصمة العلم في اسبانيا وقلمرية عاصمة العلم في البرتقال على نحو ما نشهد بعهدنا مدينة ليبسيك في المانيا واكسفورد في انكلترا . وزالت الامية في الاندلس بما انشأ الملوك من المدارس وكان في قرطبة عشرات من الكتاتيب للفقراء واصبح الرجال والنساء على السواء يكتبون ويقرأون بل ربما كان من ابناء الفلاحين من يشعرون وينظمون

واخذ الاسبان عن العرب في الاندلس وصقلية معنى الشعر وبعض اوزانهِ وموضوعاته ولم يكن

للشعر الغربي الى عهد العرب شاعر افرنجي يرفع الرأس ما خلا اغاني هي اشبه بشعر العامة منها بشعر الخاصة . واحتذى الاسبانيون حذو العرب في القصائد التاريخية والمواليا ونمت رياض الادب الغنائي فتفشت عدوى الاشتغال بالادب العربي بين اساقفة النصارى المستعربين وراحوا يقرضون الشعر بلغة عربية عالية . وكثير من قصائد الذين كانوا يجوبون في الولايات (ترو بادور وتروفير)(١) هي قصائد عربية واقتبس دانتي شاعر الطليان كثيراً من افكار العرب في روايته المهزلة الالهية وخصوصاً من أبي العلاء المعري. وتأثر الادب الروائي والشعر الاسباني بالاسلوب العربي واخذوا عن العرب اوزان التفاعيل الثمان والاغاني الاسبانية القديمة منتحلة من دواوين شعراء العرب الى غير ذلك ، ثم ان اسبانيا تأثرت ايضاً بالموسيقى العربية وما زالت الموسيقى الاسبانية في اسبانيا وجميع البلاد التي استولت عليها في سالف الدهر ولا سيما الارجنتين والبرازيل هي الموسيقى العربية بل سرت الموسيقى العربية الى البيع الاسبانية وما كانت ألحانها الاّ عربية في القرن الثالث عشر للميلاد وكذلك يقال في الرقص فان الرقص الاسباني الى اليوم هو بالرقص العربي اشبه وبايقاعه وتلاحينه اعلق . وهكذا يقال في كثير من ادوات الموسيقى الاسبانية فانها او اكثرها مما اقتبسوه عن العرب وهؤلاء جاؤا به من الحجاز وهذه نقلتها عن فارس وعن الروم

ويقول الاسبان اليوم انك اذا أنصت للغناء في شوارع قرطبة وإشبيلية وغرناطة لعهدنا توقن انهُ غناء عربي واذا طعمت في دار أندلسية تجد الطعام طعاماً مغربيًّا واذا شهدت من يجلسون الى خُوان في مقهى تحصي لهم عادات أهلية خاصة . وان جميع حياة الاندلس تذكر بالامة العربية القديمة ، وان الحدائق والحقول تسقى من ترع وقني عربية وان الموسيقى عربية ، وهناك صناعات صغيرة وتجار صغار وقوافل من الحمير والآن تجتاز الازقة على ما نحو ما هي في البلاد العربية واذا استمعت من بعد الى تلفظ اهل تلك المدن الاندلسية يتكلمون بالاسبانية تحسبهم يتكلمون بالعربية لا بالاسبانية . اما هندستهم وشوارعهم واحياؤهم وأفنية بيوتهم فهي عربية صرفة على مثال ما هو من نوعها في دمشق وتونس

***

يقول لوبون ان تأثير العرب في الغرب كان عظيماً واليهم يرجع الفضل في حضارة اوربا ولم يكن نفوذهم في الغرب اقل مما كان في الشرق ولكنه كان يختلف عنه . أثروا في بلاد المشرق بالدين واللغة والصنائع اما في الغرب فلم يؤثروا في الدين وكان تأثيرهم في الفنون واللغة ضعيفاً وعظم تأثيرهم بتعاليمهم في العلم والآداب والاخلاق . ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير الذي أثره العرب في الغرب الاّ اذا مثل

(١) (Les Troubadours & les Trouvères) التروبادور شعراء ينظمون باللغة الفرنسية القديمة كانوا بعد القرن الحادي عشر الى القرن الخامس عشر والتروفير شعراء بلغة وال كانوا يعانون ذلك من القرن الحادي عشر الى القرن الخامس عشر يختلفون الى الملوك والعظماء ينشدون الاشعار ويضربون على الاوتار وربما اقاموا في قصورهم مدة

لعينيهِ حالة اوربا في الزمن الذي دخلت فيه الحضارة . واذا رجعنا الى القرنين التاسع والعاشر من الميلاد يوم كانت المدنية الاسلامية في اسبانيا زاهرة باهرة نرى المراكز العلمية الوحيدة في عامة بلاد الغرب كانت عبارة عن مجموعة ابراج يسكنها سادة نصف متوحشين يفاخرون بانهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون وكانت الطبقة العالية المستنيرة في النصرانية عبارة عن رهبان فقراء جهلة يقضون الوقت بالتكسب في اديارهم بنسخ كتب القدماء ليبتاعوا ورق البردي لنسخ كتب العبادة

قال وطال عهد الجهالة في اوربا وعمَّ تأثيره بحيث لم تعد تشعر بتوحشها ولم يبدُ فيها بعض ميل للعلم الاَّ في القرن الحادي عشر وبعبارة اصح في القرن الثاني عشر ولما شعرت بعض العقول المستنيرة قليلاً بالحاجة الى نضو كفن الجهل الثقيل الذي كان الناس ينوءون تحته طرقوا ابواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون اليهِ لانهم وحدهم كانوا سادة العلم في ذلك العهد . ولم يدخل العلم اوربا في الحروب الصليبية كما هو الرأي الشائع بل دخل بواسطة الاندلس وصقلية وايطاليا وفي سنة ١١٣٠ أنشئت مدرسة للترجمة في طليطلة بعناية رئيس الاساقفة واخذت تنقل الى اللاتينية اشهر مؤلفات العرب وعظم نجاح هذه الترجمات وعرف الغرب عالماً جديداً ولم تفتر الحركة في هذه السبيل خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر . ولم تنقل الى اللاتينية كتب الرازي وابي القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم بل نقلت اليها كتب اليونان امثال جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرخيدس وبطليموس وهي الكتب التي كان المسلمون نقلوها الى لسانهم

اصبحت اللغة العربية منذ النصف الثاني من القرن الثامن للميلاد لغة العلم عند الخواص في العالم المتمدن وحافظت على مرتبتها الاولى بين سائر اللغات الى آخر القرن الحادي عشر وكان يقضي على كل من يحب الاطلاع من اهل القرن الحادي عشر على آراء عصره ان يتعلم اللغة العربية ولذلك قالوا ان كثير من زعماء النهضة كروجر باكون وغيره كانوا يعرفون لغتنا . وكان ملوك الاندلس يفاوضون جيرانهم باللغة العربية وهؤلاء يجيبونهم بها على لسان تراجم لهم يجيدون العربية ، واكثر سفراء الافرنج عند ملوك الاندلس يقضي عليهم ان يلموا ولو الماماً خفيفاً بلغة العرب

***

وبعد ان اخذ الغرب العلم عن كتب العرب وقلدهم في مخابرهم ومعاملهم وجامعاتهم ومدارسهم وقرئت كتبهم وعلومهم في جامعات الغرب مدة ستمائة سنة ودام ذلك الى القرن الثامن عشر لا نستغرب ان تدخل في جميع اللغات الغربية الالفاظ العلمية العربية ولا سيما في الايطالية والفرنسية والاسبانية والبرتقالية وفي كل لغة من هذه اللغات اللاتينية بضعة الوف من الالفاظ العربية اخذوها مضطرين عن العرب لا لان هؤلاء احتلوا بلادهم او اماكن منها بل لان العلم العربي كان وحده هو المتفوق في العالم وكان العرب دعامته ورعاته خلال بضعة قرون

نعم لم يجد العلم ملجأ اميناً له غير العرب في تلك القرون وهذه فرنسا لم تنهض من كبوتها بعد غارات البرابرة الا بعد ثمانية قرون وذلك بفضل العرب ومن علماء فرنسا من يعز عليهم الاعتراف بهذه الحقيقة وبينما كانت المدنية الاسلامية زاهرة كانت فرنسا في احط دركات التأخر ولم ينتشر الطب والصيدلة في ربوعها الا بمساعي اطباء اليهود الذين اعتصموا باسبانيا ثم باقليم لانكدوك بعد القرن الحادي عشر وفي لانكدوك انشأوا عدة مدارس ومنها مدرسة مونبليه ، واضطرت بعض الامم الغربية ان تحمل بعض ابنائها على تعليم اللغة العربية وأسست جنوة مدرستها لتعلم العربية سنة (١٢٠٧م) ورأى ملوك قشتالة بعد وقعة العقاب التي كتب فيها النصر للاسبان على العرب ان لا يقاطعوا الماضي القديم وانهم في حاجة الى ان يتعلموا من معلميهم القدماء من العرب فحاول الفونس العاشر ان يعمل لاسبانيا النصرانية ما عمله العرب لاعلاء شأن الاسلام وذلك بالاخذ من احسن ما في الحضارتين الاسلامية والنصرانية ومزجهما بالحضارة الاسبانية فأسست سنة (١٢٥٤م) في اشبيلية مدرسة عامة لاتينية وعربية واستدعى الملك الى عاصمته العلماء من جميع الملل والنحل ليؤسس مدرسة طليطلة الثانية يجمع فيها بين الاوضاع العربية وغيرها . وقضى مجمع فينا الديني سنة (١٣١٢م) ان تؤسس في باريس واكسفورد وبولون وصلمنقة دروس عربية لتنصير المسلمين ودروس عبرانية لتنصير اليهود . وعنيت ايطاليا منذ ذلك العهد عناية خاصة بالعربية ترى تعلمها من الضرورات لكل تجار المدن البحرية وكان من ذلك ان احتكرت البندقية تجارة اوربا مع الشرق واستأثرت بتجارة آسيا الصغرى وتمت للبندقية وبيزا وجنوة وطقانة معرفة الشعوب الاسلامية اكثر من عامة اهل اوربا وكان من العادة الجارية في طبقة التجار من ابناء البندقية ان يتكلموا بالتركية والعربية ويأخذوا انفسهم ببعض العادات والالسنة بالمصطلحات الشرقية

وملك البيزيون والجنويون والبنادقة املاكاً مهمة في الشواطىء الشرقية من البحر المتوسط وفي غيرها فامتزجوا بأهل البلاد وتأخرت الممالك الاخرى في تلقف العربية الى القرن السابع عشر والثامن عشر ومنها هولندا والمانيا وفرنسا وانكلترا والنمسا والبرتغال وروسيا وبولونيا الخ

***

اصبح البحر الرومي بما فتحه العرب من شواطئه بحراً عربيًّا اوائل القرن الثالث وذلك لان شواطىء افريقية واسبانيا وكثير من الجزر كجزائر منورقة وميورقة ويابسة المعروفة بجزائر الباليار او الشرقية وغيرها دخلت في حكمهم ولما فتحوا في سنة (٢١٢ هـ) جزيرة صقلية وكانوا غزوها غير مرة منذ اخذوا يسافرون على سفنهم على عهد الخليفة الثالث واتبعوها بجزيرة سردانية وغيرها تراجعت سفن الروم الى الموانىء القريبة من بلادهم وامتدت غزوات العرب الى بلاد انكبردة او لمبارديا وقلورية اي كالابرا من جنوبي ايطاليا واستولوا على اكثر اصقاعها الجنوبية نحو تسع وعشرين سنة . ومن البلاد التي احتلوها احتلالاً موقتاً و غزوها وتخلوا عنها ربو والبندقية وطارانت وسامرن وامالفي

ونابل ورومية وجنوة والغالب ان العرب في الولايات التي نزلوها من جنوبي ايطاليا لم يؤثروا بصناعاتهم وعلمهم ولم يخلفوا أثراً من آثارهم كالنقود والرنوك والمصانع والجوامع على ما حقق ذلك العلامة نالينو

اما في جزيرة صقلية فان العرب طالت فيها ايامهم الى سنة ١٠٨٤م وأثروا فيها انواع التأثير فتركوا لاهلها اولاً عاداتهم وقوانينهم وحريتهم الدينية المطلقة واكتفوا منها بجباية قليلة كان مقدارها اقل مما كان يستوفيه اليونان منهم واعفوا منها النساء والاولاد والرهبان وحافظوا على جميع الكنائس الموجودة ولم يسمحوا بأنشاء غيرها على خلاف ماجروا عليه في الاندلس وعمدوا الى الزراعة والصنائع فاحيوها وادخلوا اصنافاً من الزرع لم تعرفها الجزيرة ومنها القطن وقصب السكر والزيتون والبردي والكتان والمران واقاموا المجاري التي لم تبرح ماثلة للعيان وعلموا الناس عمل القني ذات الانابيب المعقفة (السيفونات) وكانت قبلهم غير معروفة

وانشأ العرب في صقلية مصانع لصنع الورق ومنها انتشرت الوراقة في ايطاليا . وعدنوا مناجم الجزيرة وعلموا اهلها صنع الحرير. والغالب ان صناعة صبغ الثياب انتشرت في اوربا من صقلية ومن مصانع الصقليين كانت تصدر الاكسية المحلاة بالجواهر والطنافس المصورة والمنقوشة والجلد المدبوغ والحلى البديع وبالاجمال حمل العرب الى صقلية مظاهر غريبة من فنهم وقناطرهم العالية الجميلة ونقوشهم من المقرنصات وجمال قاشانيهم ذي الميناء والفسيفساء المعمولة من الرخام الملوّن وصورهم الجميلة وبهيج صناعاتهم وما كادت اعلامهم تعلو هذه الجزيرة العظيمة حتى نمت التجارة وكانت قبلهم ضئيلة وانشأوا يقلعون على سفنهم الى الجهات الاربع وكانت لهم حكومة ذات مجد ورقي وكثر المسلمون فيها خلال قرنين حتى اصبحوا نصف سكان الجزيرة

وسار النورمان على سياسة رشيدة لما استولوا على صقلية وقضوا على سلطان العرب فيها فابقوا المسلمين على عاداتهم ودينهم ولسانهم واستعملوا منهم كثيرين في قصورهم وحروبهم فكان منهم القواد والعظماء والعلماء في خدمة الدولة الجديدة وبقيت لغتهم رسمية في الجزيرة مدة حكم النورمان وتعلم ملوكها العربية ومنهم من برزوا فيها ونظموا فيها الاشعار وطربوا لادبها وهكذا تخلق النورمان باخلاق رعاياهم وعاملوهم معاملة نادرة في باب التسامح السياسي وعدم التحزب الديني في القرون الوسطى حتى اتهم البابوات امراء النورمان بانهم دانوا بالاسلام وما زالوا بهم حتى قضوا عليهم بهذه التهمة وغيرها

كان روجر اول ملك نورماني استخلص صقلية من العرب هو واضع اساس هذا التسامح مع المسلمين وهو الذي استقدم اليهِ من بر العدوة — وبر العدوة ما سامَتَ الاندلس وصقلية من شمالي افريقية ويعنون بالعدوة المغرب الاقصى والاوسط والادنى — الشريف الادريسي وبالغ في اكرامه وطلب اليهِ ان يبقى في صقلية وان يحقق لهُ اخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب وندب لذلك اناساً البنّاء وجهزهم روجر الى اقاليم الشرق والغرب والجنوب والشمال وسيّر منهم قوماً مصورين ليصوروا ما شاهدوه عياناً فكان اذا حضر احدهم بشكل أثبته الشريف ادريسي حتى تكامل له ما

اراد وجعله مصنفاً سماه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق وهو من أجل كتب الجغرافيا التي بقيت من تآليف العرب . وعمل الادريسي لروجر كرة أرضية من الفضة كانت من اجل ما ابتدعته قريحة عربية رسم فيها العالم ببحره وبره وجباله وسهوله وانهاره وبحيراته ومدنه وممالكه

كان تأثير العرب في صقلية بعلمهم اكثر من تأثيرهم بمبانيهم ومصانعهم وكان الروح فيها عباسيًا ثم فاطميًا لان بني الاغلب امراء افريقية اي تونس للعباسيين تولوا ذلك منها اولاً ثم جاء الفاطميون فخضعت لسلطانهم اما في الاندلس فكان الروح امويًا بحتاً لاسلطان فيها لغير العرب. يقول العلامة آماري المستشرق الصقلي ان صقلية مدينة للعرب وايطاليا مدينة لصقلية بابتكار الشعر الوطني بمعنى انه منذ قلد البلاط الصقلي البلاط الملكي الاسلامي بدأت العناية بقرض الشعر تلك العناية التي كانت السبب في نهوض الشعر الايطالي. وقال رينالدي لم يساعد العرب فقط على انهاض الشعر الصقلي والايطالي بل أنهم امدوا القصص الايطالية بشكلها ومادتها . وفي بلرم التي اتخذها العرب عاصمة صقلية وعمرت عمراناً غريباً، انشأ العرب اول مدرسة للطب وما عهد مثلها في جميع اوربا فقد انشئت مدارس الطب في الغرب بعد مدرسة صقلية العربية باعوام ومنها انتشر الطب في بلاد ايطاليا وساعد ان البابوات كانوا رحلوا الى افنيون من ارض فرنسا فخلا الجو للعلم العربي ثم تفرغ العرب بعد ذهاب سلطانهم من الجزيرة الى العلم والتجارة . فكانوا نحو قرنين آخرين بعد خروج صقلية من ايديهم رجال المال والاعمال فيها بل كانوا سادتها بالفعل . ومن كان له العلم والمال لا ينقصه شيء من القوى والاعمال

اخرجت هذه الجزيرة في العهد العربي عظماء من الرجال في العلم والادب وكان عددهم بالقياس الى من اخرجت الاندلس قليلاً وقلّ فيهم النوابغ في علوم العقل على نحو ما كان في الاندلس ولكن عمل صقلية في التمدين لم ينقص كثيراً عن مهمة الاندلس فاذا كانت هذه الجزيرة غذت غرب اوربا بضعة قرون بمدنيتها فان صقلية كانت مدة رسالتها ثلاثة قرون ترسل اشعة المدنية العربية الى اواسط اوربا . ولعلّ ما دعا صقلية الى ان تكون دون الاندلس في هذا المضمار كون العرب فيها قلائل واكثر من نزلوها من البربر بخلاف الاندلس التي كان فيها العرب كثرة غامرة هاجروا اليها وكانت لهم مستقراً ومقاماً

وقصارى القول ان العرب في الاندلس وصقلية بما كان لعنصرهم من المرونة تتقبل كل نافع بقبول حسن كتب لهم الابداع في صنائعهم ومصانعهم وشعرهم وأدبهم وعلمهم وعملهم كأنّ هواء الغرب علمهم ان يغيروا ما حملوا معهم من مدنية الشرق بما يلائم تلك البيئة الجديدة وحببوا من دون اكراه ما نقلوه الى اهل البلاد فطبعوه بطابعهم وصاغوه الصياغة التي لا تنافي تعاليمهم ونظمهم فقرّبوهم من مناحيهم ومنازعهم ووقفوهم على سر حضارتهم وتفوقهم . وسرى النور من ارض احتلوها الى ارض بعيدة عنهم ومن شعوب تمثلوا فيهم بعض الشيء الى شعوب ما وسعهم الا ان تجاريهم فيما لا يخرجهم عن تقاليدهم وتعاليمهم والاحتفاظ بمقوماتهم من جنس ولغة

جهاد الملك فيصل

مراحل العراق نحو جمعية الامم

لامين الريحاني

من كتابه « فيصل الاول » (قريب الظهور)

— ٢ —

كانت السنة التي عقبت ابرام المعاهدة الاخيرة اظلم ما كان من عهد السر هنري دوبس المظلم. فقد توترت العلاقات فيها بين البلاد والمفوضية، وتكاثفت صفوف المعارضة للسياسة البريطانية، وانتشر في البلاد روح عداء للبريطانيين باصرة عاقلة، فكانت لذلك ابلغ واسرع في تقويض اركان سياستهم الادبية على الاقل. ولا عجب وهم هم المخلفون بالوعود، الناقضون للعهود

وما حلت المعاهدة من العقد جميعها غير عقدة واحدة هي الحدود التركية العراقية، وظلت الاتفاقات الاضافية، المالية فيها على الاخص والعسكرية مفتوحة للبحث، للمحادثة، للنزاع. بيد ان وزارة السعدون كانت تنتظر تسوية المشاكل المالية على الاقل وتقديمها في اتفاق جديد. فخاب املها واستعفى رئيسها عبد المحسن حرداً ناقماً

فانتدب الملك جعفر العسكري ليؤلف وزارة جديدة. فجاء يباشر العمل باسم الله وباسم التفاهم العراقي البريطاني — هم بليتنا، يا اخي، ونحن بليتهم. فيجب علينا ان نتفاهم لنحدد على الاقل البليتين

وكان المندوب السامي السر هنري دوبس قد بدأ يشعر هذا الشعور، ويدرك هذه الحكمة. لا سيما ان بليته الشخصية اوجبت عليه الاسراع في العمل، اذ كانت اسبابها تتصل بوزارة المستعمرات التي طالما اصمّت اذنها لاقتراحاته وآرائه ولكنه توفق في النهاية الى شيء من الاقناع فقبل رئيسه الوزير ان يعاد النظر في المعاهدات لتعديل بعض بنودها. وبدأت المفاوضات فوراً في بغداد، ثم فرّ المتفاوضون هاربين من حر العراق، واستأنفوا العمل بلندن في الخريف. وكان الملك فيصل قد تقدمهم الى اوربا ينشد العافية، ويستوحي عن كثب مقامات السياسة الدولية واربابها. وقد حطّ رحاله على مياه « إكس » المعدنية فكان اتصاله بوفد العراق بلندن متوفر الاسباب قريبها. على ان المفاوضات كانت سريعة التطور. فرأى الوفد ان يكون الملك اقرب اليهم، فأبرقوا بذلك اليه

غادر الملك فيصل « اكس لِه بان » فعرج على باريس في طريقه الى لندن. ويوم كان في عاصمة الفرنسيس قرأ في صحف الاخبار في الصفحة الاولى، مطبوعاً بالحرف العريض نبأ جاء من العراق من كركوك،

من عاصمة النفط ، ينبيء بالحدث الخطير . الا ان « بابا كركر » لمن المرسلين . « بابا كركر » بكر الآبار ، ينطق بالخير ويبشر بالبركات . فبينما كانت الشركة التي منحت امتيازها في سنة ١٩٢٥ تسبر غور « كركر » وقبل ان بلغت الثمانين بعد المائة قدم الى قلبه ، انفجر انفجاراً هائلاً ، وقذف بخيره عالياً — مائة وستين قدماً فوق الارض « بابا كركر » — « بابا كركر » ! تبارك اسمك وتمجد ! وسيساعدنا نبأك في حل المشاكل والمعضلات . عبر الملك فيصل بحر المانش وهو سابح في سماء من احلام النفط والاستقلال

ولكن لندن عدوة الاحلام . ووزارة المستعمرات فيها تقرأ انباء « بابا كركر » وتمضي في امورها . ومن تلك ما كان مهيئاً لفيصل . فقد صدم في وزارة المستعمرات ، يوم وصوله ، صدمة عنيفة جاءت في مذكرة كانت منتظرة هناك . جاش في صدره الغيظ وهو يقرأ ، ويتأمل خط كاتبها . عرف الخط وتأكده فازداد تغيظاً . نعم هو خط المندوب السامي السر هنري دوبس نفسه ، كلماته التهم والتوبيخ — الملك فيصل يناصب بريطانيا العظمى العداء — الملك فيصل لا يمثل العراق بما يفعل ويقول . الملك فيصل يناصر المعارضة ويشجع سراً المعارضين والمتطرفين . وينبغي ان يعلم انه ملك دستوري لا يجوز له ان يتدخل في شؤون الدولة بل ينبغي ان يتركها لرؤساء الحكومة وللبرلمان . ويجب عليه ان يترفع عن المنازعات والسياسات الحزبية ..... وعند ما سأل الملك معنى ذلك وبيانه اجيب انهُ جاءهم في التقارير الرسمية من بغداد

ليس في تلك المذكرة نظراً الى الزمان والمكان ، شيء من حسن الذوق وليس فيها ، نظراً الى الاحوال ، شيء من الاصالة والسداد . وهب ان ما جاء في التقارير المبنيّة عليها صحيح ، فهل تساعد يا ترى في انجاح المفاوضات ؟ وهب ان اضطراب الجوكان وقتيًّا وان حلم الملك فيصل وصبره تغلبا على شعوره ، فكيف السبيل الى التوفيق بين حقائق السياسة وظواهرها ؟ كيف نستطيع ان نوفق بين معاهدة سنة ١٩٢٢ وبين الاحوال الحاضرة ؟

* * *

مما لا مراء فيه ان العراق في السنوات الاخيرة تقدم تقدماً يذكر ان في السياسة والاقتصاد ، وان النفقات البريطانية الادارية والعسكرية هبطت هبوطاً جسيماً (١) ومما لا ريب فيه ان كفاءة العراق للعضوية في عصبة الامم هي اظهر مما كانت يوم رفع اللورد بارمور صوته في مجلس العصبة ، وردد تقرير سنة ١٩٢٥ صداه امام لجنة الانتدابات الدائمة ، تنويهاً بالعراق وتأييداً لمطالبه

ولكن — ولكن — « نظراً » الى حكم العصبة بالموصل للعراق وتقييد ذلك الحكم بشرط أن تمدد المعاهدة خمساً وعشرين سنة ، ودفعاً للظنون التي قد يثيرها التعديل او محاولتهُ في نفوس الاتراك فيعودون الى المطالبة بالموصل ، فضلاً عن اتهامهم بريطانية والعراق بنقض العهود بعد بلوغ الارب — نظراً الى هذه الامور كلها ليس من مصلحة الحكومتين أن تستعجل الانضمام الى عصبة الامم . بل

(١) لم تتجاوز النفقات في سنة ١٩٢٧ التسعمائة الف ليرة ذهبية

ينبغي أن تؤجل المسألة الى سنة ١٩٣٢[١] وستظل في هذه الاثناء العلاقات البريطانية العراقية على حالها

اما الوفد العراقي فقد قاوم هذا التمحّل وحاول التغلب عليه ، مصرًّا على تعديل يُعدّ تعديلاً فاخفق في محاولاته ومساعيه ، ووقف المتفاوضون امام العقدة التي لا تحل . فغضب جعفر بلندن كما غضب قبله السعدون ببغداد ، وحمل حقائبهُ وارتحل . وكان الملك فيصل قد عقد النية على الرحيل لولا فرصة سنحت لاعادة المحادثة والحكومة . فقد أُقيمت له مأدبة وداع ، حضرها بعض الوزراء فخطب فيها خطبة بليغة بصراحتها . ومما قال انهُ يؤثر العودة صفر اليدين على ان يحمل معاهدة لا تفضل التي سبقتها بشيء ، بل هي دونها في بعض موادها . فهز الوزراء رؤوسهم ان صحيح ، وأكدوا له بعد ذلك ان الامل لم ينقطع ، وان المأزق قد يتسع للخلاص

توقف الملك فيصل عن السفر ، وابرق الى وزيره جعفر الذي كان قد بلغ الاسكندرية ، يأمره بالعودة . امتثل جعفر الامر ، فعاد ادراجه ، ثم استؤنفت المفاوضات ، وقبلت المعاهدة ، دون تعديل فيها يستحق الذكر . فما السبب يا ترى في هذا الانقلاب الفجائي ؟ ما الذي حمل الملك وجعفر على القبول بعد ان صرح الاول ذلك التصريح ، واعرب الثاني عن رفضه بالرحيل ؟ هل اعتمد الملك على وعود الوزراء اصحابه ومعها ضمانات وزارية سرية ، ام هل كان الملك مكرهاً

اقف ها هنا لاقول كلمة فيها بيان شخصي . الليلة كان الملك فيصل يقص عليَّ قصة هذه المعاهدة ، او ما كانت قسمته فيها من المفاجآت المفرحة والمفجعة ، من « بابا كركر » في صحف باريس الى تلك المذكرة في وزارة المستعمرات بلندن ، جاءهُ رئيس الوزراء نوري السعيد بالخبر السارّ من منطقة القتال ببرزان ، فتحول الحديث من لندن الى بلاد الاكراد . وما سنحت بعد ذلك الفرص — سنحت الفرص ؟ انما هي كلمة باطلة لا يجوز ان اموّه بها ذنبي . فقد ذهلت عن الموضوع في ما كان بعد ذلك من

---

(١) النصوص المختلفة للتعهد الواحد هي كما يلي

« يتعهد صاحب الجلالة البريطانية بان يتوسط لادخال العراق في عصبة الامم باسرع ما يمكن »

المادة ٤ — معاهدة ١٩٢٢

« ينتهي اجل المعاهدة بدخول العراق في عصبة الامم . ولا يتأخر ذلك في اي حال عن الاربع سنوات من تاريخ عقد الصلح وتركية »

الملحق للمعاهدة — نيسان سنة ١٩٢٣

« عند انقضاء مدة معاهدة ١٩٢٢ والملحق لها ، تنظر الحكومة البريطانية فيما اذا كان العراق قد بلغ الرقي الذي يؤهله للعضوية في عصبة الامم »

المادة ٣ — معاهدة ١٩٢٦

« اذا استمر العراق في رقيه الحاضر وظلت الامور جارية بمجراها الحسن ، يؤيد صاحب الجلالة البريطانية في سنة ١٩٣٢ ترشيحه لعضوية العصبة »

المادة ٨ — معاهدة ١٩٢٧

وكذلك تتلون العهود وتنتقض . فالعهد الذي قطعه الانكليز في سنة ١٩٢٢ ، عدلوه في سنة ١٩٢٣ ونقضوه في سنة ١٩٢٦ ، ثم بعث حياً سنة ١٩٢٧ وهو مقيد بشرطين

وقد جاء في تقرير الحكومة البريطانية على ادارة العراق لسنة ١٩٢٨ صفحة ٢٧ ما يلي :

« ان هذا التقلب في موقف الحكومة البريطانية بعث الريبة في نفوس العراقيين بحسن نيات انكلترا ، ولكن فيهم الاعتقاد بأنها لا ترغب في تأسيس دولة مستقلة في العراق . بل ان قصدها الحقيقي هو ان تستعمر البلاد »

المجالس والاحاديث وما عاد الملك اليه. وقد يكون شريكي في الذنب، رحمه الله، فشغلني مراراً عن السياسة بتلك الاحاديث الحافلة بالعبر وباللطائف البشرية ولكني وانا اعود الآن الى تقصّي الحوادث، استعين ببعض الوثائق والتقارير الرسمية، علني استطيع ان اجلو للقراء خبر ذلك الحدث او ازيل شيئاً من غموضه

اعيد اذن السؤال: هل كان الملك فيصل مكرهاً في قبول معاهدة ١٩٢٧؟ يسارع بعض الكتاب والسياسيين العرب، في مثل هذه الاحوال، الى اتهام الحكومة البريطانية بالمكر والخداع دون ان يتحققوا الحوادث، ودون ان يثبتوا التهم. وقد قالوا في الحادث الذي نحن بصدده انها اثارت عرب نجد على العراق في ذلك الحين لتنفذ سياستها فيه، لتجبر الملك فيصلاً على قبول المعاهدة. وفي ظاهر الامر ما يسوّغ الظن على الاقل. فقد أغار عرب نجد على العراق في خريف سنة ١٩٢٧ ثم في شتاء السنة التالية

ولكن ذلك لا يثبت الحقيقة كلها. فهل كان عرب نجد، او بالحري هل كان الملك عبد العزيز ابن سعود مدفوعاً من الحكومة البريطانية في تلك الاغارات لاكراه العراق واذلاله؟ اذا لم يكن الامر كذلك فكيف اتفقت يا ترى تلك الاغارات وانقطاع تلك المفاوضات بتاريخها الواحد؟ فهل هي الصدف، هل هي الاقدار التي أضرمت النار على حدود العراق عند ما كان جعفر يتجهز للرحيل؟ فاذا كانت الصدف او الاقدار بريئة من هذا الاثم، فهل الانكليز بريئون؟ واذا لم يكونوا بريئين فكيف تستطيع ان تثبت ذلك؟ وهب ان الامر لا يحتاج الى الاثبات، وهب اننا قبلناه على ظاهره، فهل الانكليز وحدهم ملومون؟ اوَ ليس اللوم الاكبر على العرب الذين يقبلون بان يذلّوا اخوانهم العرب لاعزاز الاجنبي؟ اني اجلّ ابن سعود عن هذه المعرّة وامثالها، وان الحقائق الراهنة في هذه المسألة لا تسوّغ حتى الظنون. فقد كان لحوادث نجد واغارات اهله اسبابها النجدية العراقية. وكان للانكليز يد فيها. ولكن الصلة مفقودة بين سياسة الامن وسياسة المعاهدات. وبكلمة اخرى ان السلسلة التي تربط البادية بوزارة المستعمرات حلقة مفقودة، ولا نظنها في ما يتعلق بموضوعنا موجودة(1)

(1) اني مثبت الحقائق التاريخية في ما يلي: —

ا — ما رضي عرب مطير بالحدود النجدية العراقية المقررة في معاهدة العقير (تشرين الثاني سنة ١٩٢٢) وقد احتجوا لدى ابن سعود وتحاجوا مراراً بخصوصها

ب — قررت الحكومة العراقية بناء مخفرين عسكريين الواحد في أبي الغار والآخر في البصية للمحافظة على تلك الحدود ومنع الغزوات بين البلادين

ج — قلق عرب مطير وهم يرتادون الاماكن المجاورة للمخفرين وما دونهما في الايام المجدبة، وخافوا ان يفقدوا ما يدعونه حقاً شرعياً تقليدياً — فرفعوا امرهم الى ابن سعود فاحتجت حكومة نجد (ت ١ سنة ١٩٢٧) على المخفرين بحجة انهما يحدثان الاضطراب فضلاً عن انهما يخالفان المادة الثالثة من معاهدة العقير

د — بعد شهر ونصف من احتجاج حكومة نجد (في ٢٥ ت ٢) اغار عرب مطير على مخفر البصية واكتسحوه

ه — قبل هذه الاغارة بيوم واحد ارسل ابن سعود وزيره الشيخ حافظ وهبه الى الكويت بالطيارة ليحضر المؤتمر المقصود عقده هناك لبحث المسائل التي تتعلق بالحدود النجدية العراقية. ولكن غزوة البصية حدت بوكيل المندوب السامي الى تأجيل المؤتمر

و — في اوائل ك ١ اغار عرب نجد على القبائل العراقية في لواء الناصرية

ز — في ١٣ ك ١ قبل ان وقعت المعاهدة البريطانية العراقية بيوم واحد هاجم سرب من الطيارات الانكليزية اولئك العربان كما فعلت قبلاً في غزوة الشهر السابق

اما الملك فيصل فاني اميل الى الاعتقاد انه كان يجاري الوزراء اصحابه ، ويتبع في الوقت نفسه سياسة خاصة به ، فيوصل الخيوط ويقطعها عملاً بتطور الاحوال . اذكر كلمة بليغة لاحد العرب وفيها حكمة رائعة : « غلبتمونا وجهلتم اننا شئنا هذه الغلبة لكم » ولا عجب اذا انتهج الملك فيصل هذا المنهج ، بعد تلك الولجة ، وهو متيقن انهُ سيرطم الانكليز برطمة المعاهدات التي تتابعت السنة بعد السنة ، فتزداد العقد تعقيداً ، ويقنطون اذ ذاك من الغايات غير المفيدة

وقد كان . فقد بلغ فريق من السياسيين هذه المرحلة وقامت صحافتهم تندد بالحكومة — هي ذي الدعاية التي رحب فيصل بها — فقالت ان الحالة امست لا تطاق ، وانها « من انكر الحالات في العلاقات الدولية الحاضرة » . وعند ما يرفض المجلس النيابي العراقي المعاهدة غداً ، فاذا عساها ان تقول في « الحالة المنكرة ؟ »

اذن سنورد هذه المعاهدة حتفها ، سنشيعها الى القبر . وسيكون في الجنازة النصر الباهر للمعارضة — للبلاد ، ولكن الحكومة البريطانية اعدت كذلك العدة للعمل ، وجاء المفوض السامي السر هنري دوبس ليكلل المعاهدة بالاقرار البرلماني . واحد يريد دفنها ، وآخر يريد تتويجها

انتقل المسرح من لندن الى بغداد ، وجاء المتصارعون — الملك وجعفر والسر هنري — يستأنفون الصراع . من مدينة الضباب جاءوا الى مدينة الغبار — وفي الحالين حال الستار دون الابصار

ما كان المندوب السامي ليطمئن الى وزارة جعفر ، فباشر لابدالها بوزارة اخرى . ولو كان له ان يرى شيئاً من مناورة جعفر الاولى لكفى نفسه مؤونة المناصبة . جاء جعفر بالمعاهدة للعرض لا للتلويح ، واول ما كان من مناورته ، عند وصوله بغداد ، انهُ اذاع مضمونها ، فأثار عليها الرأي العام . حملت عليها الصحافة حملات شديدة ، وقامت المعارضة تندد بها وبالوزير حاملها . رمى جعفر بالمعاهدة الى الامة تمزقها قبل ان تصل الى المجلس ، وهو يضحك في سره ، ثم استقال . وقد عدت استقالته النصر الاول للسر هنري دوبس . ثم دعي عبد المحسن السعدون لتأليف وزارة جديدة وعبد المحسن صديق الانكليز . كيف لا وهو الذي حمل المجلس منذ سنة على اقرار المعاهدة الاخيرة. لبي عبد المحسن الدعوة ؛ فعدَّ ذلك نصراً ثانياً للسر هنري . وهذا البرلمان لا يعوَّل عليه ، فينبغي ان يحل . وكان عبد المحسن يرى هذا الرأي ، فحل البرلمان ، وفاز السر هنري فوزه الثالث

ثم جرت الانتخابات ، وكان لحزب التقدم (حزب السعدون) الاكثرية الساحقة في المجلس الذي اجتمع في ايار سنة ١٩٢٨ ، فتم النصر للسر هنري دوبس

اما الملك فيصل فقد سار في الوقت ذاته سيره ، ودبر تدبيره . افليس السعدون وزيره الاول ،

ح — اغار عرب نجد الكرة مرتين بعد توقيع المعاهدة في شهري ك ٢ وشباط من سنة ١٩٢٨

ط — اضف الى ذلك ان فيصل الدويش شيخ مطير كان ثائراً كما برهنت الحوادث على ابن سعود لمطامع شخصية سياسية وان ابن سعود في قمع ثورة الدويش والقضاء عليه لم يكن مدفوعاً بغير مصالحه ومصالح بلاده

وزيره لا وزير سواه ؟ اوَليس هو فضلاً عن ذلك من اشراف العرب ، ومن كبار الوطنيين في العراق ؟ والزعيم الاول المهيمن على حزبه ، المتمتع بثقة انصاره ؟

كان السر هنري عالماً بذلك ، وعالماً فوق ذلك بأمور كثيرة . ولكنما فاته الشيء الذي فيه العلم . وهو ان صديقه السعدون قد غير خطته السياسية ، فلا يرى من الآن حاجة الى الضغط على المجلس . بل لا يرى ان يعرض المعاهدة عليه قبل ان يتم تعديل الاتفاقين المالي والعسكري . وهو اذا اصرَّ على ذلك يكفي نفسه شر المعاهدة فتظل مدفونة في مكتبه . ذلك لان في الاتفاقين عقداً عصى حلّها اسلافه وسلف السر هنري » . وما كانت شروط الحكومة البريطانية هذه المرة اخف مما سبقها . فقد قيدت ملكية العراق لميناء البصرة ولسكة الحديد بقيود ثقيلة وتحمّلت على عادتها في مسألة التجنيد الاجباري

تلبد جو المفوضية بالغيوم . فقد تمردت لجنة المجلس المعينة لدرس الاتفاقين ، فضربت باقتراحات المندوب السامي عرض الحائط . وتمردت الوزارة ، فأصرت على تعديل كلي جوهري ، وتمرد المجلس الذي اصبح حزب التقدم فيه — حزب السعدون — اشد تطرفاً من المتطرفين انفسهم

صُعقت المفوضية . تبلبل السر هنري دوبس . فالاذعان لارادة العراقيين مستحيل ، والرد لمطالب العراقيين خيبة له ، هو الطامح الآمل بابرام المعاهدة . فعمل المكره عليه ، قبل بالخيبة . ثم استقال السعدون ، وكان النصر الاكبر ، في رفض المعاهدة والاتفاقين ، للامة وللبلاط ، فهتف الملك بشكر الله وحمده . ولكن الحساب لم ينته بينه وبين المندوب السامي . فلا يزال هناك دين صغير — تلك المذكرة في وزارة المستعمرات المكتوبة بخط يده . لم ينسها الملك فيصل ، وعندما سقطت وزارة السعدون (كانون الثاني ١٩٢٨) واخفقت المساعي المتكررة لتشكيل وزارة جديدة ، وأقبل السر هنري الى البلاط يطلب مقابلة الملك ، حان وقت الحساب

السر هنري : « البلاد بلا وزارة يا صاحب الجلالة ، وهي تنتظر ان تعينوا من يؤلفها »

الملك فيصل : « ولكني ملك دستوري ، وعلى الملك الدستوري ان يلزم الحياد »

وعند ما جاء المرة الثانية بالمهمة نفسها ابرز تلك المذكرة وقال : « هذا تريده انت يا حضرة المندوب . يجب على الملك الدستوري ألاّ يتدخل بشؤون الدولة(١) أليس كذلك ، ان شؤونها الآن بيدك ولك ان تعين من تشاء » . ومرت ثلاثة اشهر ، والبلاد بلا وزارة ، والملك فيصل في موقفهِ لا يتحول عنه . انكسفت المفوضية بعد انهزامها مرتين متواليتين ، واسترجعت المعاهدة التي كانت اصل الازمة ، وحانت ان تنتهي مدة السر هنري دوبس كمندوبٍ سامٍ في العراق ، فانتهت قبل اوانها . وكان من الممكن ان تنتهي بأوانها وبسلام

(١) « بعد ان اعلن الدستور اخذ الملك فيصل يتجنب التدخل اكثر من اللازم بشؤون الدولة » (السر هنري دوبس . وفي رسائل غرترود بل ، الجزء الثاني ، صفحة ٥٥٤)

خليل شيبوب

غيوم الخريف

جاء الخريف بغيمه يتهادى — في الجوّ مطرداً عليه طرادا
لما علت شمس الضحى خلعت على — تلك الغيوم من النضار بجادا
مدّت اشعتها حبالاً فوقها — نشر الخريف غيومه ابرادا
فكسا بها الافق القصيّ مطارفاً — تذرو عليها الماطراتُ رمادا
شيبت سواد في البياض فشابهت — شَيْباً علا فوق الرؤس سوادا
ان الغيوم سرادقات فخمة — ركزت لها تلك الشعاع عمادا
او انها صحف النذيرِ الى الورى — بشتائهم أنْ قد دنا ميعادا
او ان هذا الجوّ صدر واسع — تغلي اشعة شمسه احقادا
حانٍ على بحر خضمٍ هائج — يرغي بموج غيومه ازبادا
فاذا صفا وصفت تدرج وشيها — يققاً مدارجهُ اتسقن صعادا
رقّت حواشي بردها وتباعدت — فاذا السماء وراءها تتهادى
كغلالةٍ زرقاء جمّل لونها — وشي المخرّم فوقها اسنادا
يا حسن الوية السلام خوافقاً — خفق القلوب اذا خلصنَ ودادا

حارت بها هذي الطبيعة فا كتست — بالظلّ مدّ ذيوله وتمادى
والماء رقّ وراق يجري منسياً — حرّ الهجير وجرهُ الوقادا
الارض جسم والمياه لها دم — يغذو بها الاغوار والانجادا
عادت الى الحقل العوامل بعد ما — في الصيف كنّ فرغنَ منه حصادا
وتنفس الحيوان في روحاته — وغدا يطيب له التراب وسادا
وتعرّت الاشجار من اوراقها — وتبدّلت اغصانها اعوادا
وتداعت الاطيار من آفاقها — تبني الوكون وتستحثُّ الزادا
وبدت طلائع للشتاء مغيرة — جاءت بأول برده مرتادا
ان الشتاء لكل حي راحة — تسليه من عنت الحياة جهادا
مترقباً عود الربيع وعودها — بقوى الشباب كأنه قد عادا

سبحانك اللهمّ كونك كله — نظم تقلبها هدًى ورشادا
قد شدته للناس دار عبادة — وبه دعينا في الكتاب عبادا
في كل خافية وظاهرة لك التسبيح — ان همساً وان انشادا

آياته في خلقه

الطبيعة رائد المخترعين

﴿ السمك النشَّاب والقسي والسهام ﴾ : لئن استوضحت امرءاً تتوسم فيه الحصافة « أي اختراع تعتقد ان الانسان مخترعهُ من اصوله الى فروعه » لاجابك من فوره « القسيّ والنُشّاب » وما شا كلها كالبندقية وكل سلاح يقذف قذيفة نارية . والواقع ان من يتوهم ذلك لمخطئ . لان الطبيعة اخترعت تلك القاعدة، قبلما عرف الانسان بعصور طويلة ، وسيلة قتل الطيور بقذفها بالحصى

ويؤيد قولنا ان كثيراً من النباتات وبعض الحيوانات تتذرع بالقذائف الى الحصول على غذائها وافضل مثال لذلك « السمك النشَّابُ » الذي يعيش في مياه بحار الهند ، ويعرف عند العلماء باسم Toxotes Jaculator اي « السمكة ذات البندقية » ويتغذى غالباً بالحشرات التي تأوي الى النباتات التي تنمو على السواحل . ولما كانت تلك السمكة عاجزة عن الوثوب من الماء الى الحشرات حين تحوم حول تلك النباتات ، فانها تتوسل الى قنصها بقذفها ببندقيتها ، أسوة بالصائد الذي يصوّب بندقيته الى الطيور من بعيد . فترى السمكة تشتف الماء حتى ينتفخ شدقاها ، ثم تقبض فمها وتبعّ ما فيه من الماء بشدة على فريستها . وقلما تخطىء المرمى ، فتصرعها ثم تلتهمها

﴿ المحقنة وأنياب الافاعي ﴾ : لم يعرف الاطباء المحقن الذي يستعمل لحقن الادوية تحت الجلد الاّ في خلال النصف الاخير من القرن الماضي . فتوسلوا بهِ الى حقن المرضى في الانابيب الدموية بالطفيف من العقاقير المخدّرة ، تخفيفاً لآلام العمليات الجراحية وتمكيناً للمريض من احتمالها . مع ان الطبيعة اخترعت ذلك الاختراع قبل الانسان بملايين السنين ، بيد أنها تملأ محاقنها سمّاً، جاعلة اياهُ سلاحاً دفاعيًّا لبعض مخلوقاتها . وما الانياب السامة للافعى ذات الاجراس ، وللصل المصري ، — الناشر — وما اليها من الثعابين السامة ، الاّ محاقن طبيعية في اجسامها تماثل المحاقن الصناعية التي يستخدمها الاطباء سواء بسواء . والنحل والزنابير والبعوض ، وما شا كلها من انواع النمل ، مجهزة بمحاقن مملوءة سمًّا تقتل بهِ غيرها من الحشرات وتكدّر به صفو سيد المخلوقات . ولكن المحاقن التي في ابدان تلك الحشرات تختلف اختلافاً طفيفاً في تركيبها ، عنها في انياب الافاعي .

لان ابرة أية حشرة من هاتيك الانواع تخرق الجلد بعباضع دقيقة تتحرك حركة سريعة ، متصلة بالانبوب الذي يسري منهُ السم الى الملسوع (١)

﴿ القصر البلوري والزنبق المائي ﴾ : ومع ان الطبيعة سبقت ان اخترعت كثيراً جدًّا من المخترعات التي استطاع البشر تقليدها ، غير ان المخترعين قلما يقتبسون مخترعاتهم مباشرة من الطبيعة ولقد كان بدءُ احتذاء الطبيعة في اعمالها كل الاحتذاء ، موافقاً لتاريخ بناء القصر البلوري في لندن — وهو أول صرح بُني بالفولاذ والزجاج فقط . ويعتبر النموذج الاول الذي قلّده المهندسون فيما بعد في كل ما انشأوه وينشئونه من سقائف المصانع ومحطات السكك الحديدية

وتفصيل ذلك الحادث انه في سنة ١٨٥١ احتاجت ادارة المعرض في لندن الى بناء فسيح للمعروضات، فتبارى المهندسون في عرض الرسوم المختلفة ، فلم تحز القبول ، لان ذوي الشأن كانوا يعترضون على كل رسم منها لعدم استيعابه للشروط المطلوبة كافةً

فجاءهم ذات يوم بستانيٌّ ، وهو يوسف بكستون وعرض عليهم بغتة رسماً غير متقن (مسوَّدة) لبناية تقام على قاعدة جديدة من كل الوجوه . وكان قد درس الزنبق المائي المسمى Victoria Regia وهو نبات مائي ذو اوراق ضخمة تستطيع الورقة الواحدة منها حمل طفل متوسط الجرم . وكان قد قد وقف على سرّ قوة احتمال الورقة الزنبقية فاقتبس باكستون اختراع الدعائم الفولاذية من نظام اضلاع اوراق الزنبق المائي المستديرة العائمة الضخمة . واضاف اليها الواحاً من الزجاج كالالواح التي تركب في أطر مشاتل النباتات في بستانه . فكان ذلك اساس بناء القصر البلوريّ . واعترافاً بفضله ، أنعمت عليه حكومته بلقب سير، فاصبح البستاني الخامل الذكر ،السير يوسف باكستون المهندس المشهور

﴿ نبات الجرّة والثلج الصناعي ﴾ : ولا يخفى على كل منا كيفية صيرورة يوم صيهب (٢)، بارداً ، عقب انهمار بارقة (٣) thunderstorm فجائية . ويعلم دارسو الطبيعيات ان الحرارة تستنفد في تبخير بعض الماءِ وتحويله مطراً يبرِّد الجو . وان بعض المواد ، كالنشادر والحامض الكربونيك ، يستنفدان حرارة كثيرة في تبخرهما تفوق ما يستنفده الماء فينشأ من تبخرهما رطوبة اشد من رطوبة الماءِ وان هذا هو اساس صناعة الثلج . ومع ذلك فقد سبقت الطبيعة الانسان بزمن بعيد فاستخدمت نتيجة تبخر الحامض الكربونيك والماء ، لنفع النبات المسمى « نبات الجرّة » الذي ينمو في بلاد الهند . وهو يستهدف غالباً للعطش ازماناً طويلة ، فيحتاج بطبيعتهِ الى الاستعانة بجهاز للتبريد لكي يحصل بهِ على الماء من الهواء . وبعض اوراقه تشبه الجرّة في شكلها ، ويمتد من ساقهِ جذر طويل مفرّع متصل بقعر الجرة. وسطح باطن الجرة يفرز ماء وحامضاً كربونيكاً فاذا ما تبخّر ذلك المزيج المرطّب،

(١) اللسع لذوات الابر واللدغ بالفم — فالعقرب تلسع والحية تلدغ

(٢) الصيهب — اليوم الحار ، او شدة الحر (٣) البرقة بوزن الغرفة · والبارق سحاب ذو برق والسحابة بارقة — مختار الصحاح — المترجم . وهذه افضل ترجمة للفظ Thunderstorm الانكليزي

انخفضت درجة الحرارة في الجرة فيترتب على ذلك اجتماع رطوبة الهواء على جذر الشجرة من الداخل كاجتماع قطرات الماء على سطح جرة من ماء مثلوج ، فتنحدر تلك الرطوبة الى الاسفل حتى تصل الى قعر الجرة حيث يمتصها النبات وينتفع بها

﴿ الحارود — كلب الماء — واختراع الخزانات ﴾ : ولا يغرب على الكثيرين من القراء ان الحارود النشيط هو مخترع الحياض التي يخزن فيها الماء لادارة المصانع . وانهُ ايضاً اول من قنَّى القنيّ لجر المياه واستخدامها للنقل والانتقال بالسفن . وكلب الماء يأتي ذلك في الغياط القريبة من الاشجار لكي يتمكن من قطع اغصانها وتعويمها في القناة ليستعملها في بناء الخزان او بمثابة كتل للطعام

وطالما افتخر المهندسون البشريون بحفر قناة بناما ، وهم خليقون بالفخر ، بيد أنها ليست اغرب من بعض الترع التي يحفرها ذلك الحيوان البحري المهندس

وقد رأى المستر ارنست طمسون سيتون ترعة من ذلك النوع انشأتها كلاب الماء في جبال اديرونداك في نيويورك فاذا طولها ٦٥٤ قدماً وعرضها يتراوح بين قدمين وثلاث اقدام وعمقها قدمان

ويمتاز الخزان الذي ينشئه كلب الماء بغرابة شكله اذ يبنيه من اغصان الاشجار المتينة والطين . وقد يبلغ عرضه ٢٠ قدماً وعمقه ١٢ قدماً وطوله ١٢٠٠ قدم . فلا شك ان ذلك الحيوان المهندس هو رائد المخترعين للخرسانة المسلحة لان مواد البناء التي يستخدمها في بناياته اي الطين والاغصان تقابل خليط الاسمنت والقضبان الحديدية المؤلفة[1] للابرق المسلح

﴿ الارضة الافريقية وناطح السحاب ﴾ : تبني الارضة — وتعرف بالنمل الابيض وهي ليست نملاً — بيوتها من الصلصال فيتصلب من الشمس تصلباً شديداً بحيث تستطيع زمرة من الناس الوقوف على سقوفها دون ان تتصدع . وتجعل الارضة بيوتها مقبَّبة ، ذات طبقات عدة من المخادع ، تعلو بعضها بعضاً لاغراض شتى . وتوصلها بعضها ببعض بمجازات تحفرها في جوف الارض فتصبح بمثابة مدينة يعلوها سقف واحد كأنها صرح من الصروح المكتظة بدوائر الاعمال ، الحافلة بالسكان التي يطلق عليها اسم (ناطحات السحاب)

وقد يبلغ ارتفاع بيت الارضة ١٢ قدماً مع ان ارتفاع اشهق مباني العالم اي الامبيرستيت ١٢٠٠ قدم . فان اردت المقارنة بين ذينك البيتين باعتبار قامة بانيه ، اتضح لك البون الشاسع بين مجهود الارضة ، ومجهود الانسان . اذ عمارة «الامبيرستيت» لا يزيد ارتفاعها على ٢٠٠ ضعف قامة انسان طوله ست اقدام . على حين ان بيت الارضة يفوق ٥٠٠ ضعف قامتها التي لا تعدو ربع بوصة ! ! اذن تكون ابذخ مباني البشر واشهرها شيئاً حقيراً بازاء بناية الارضة المهندسة البارعة ! !

﴿ الزنابير وصناعة الورق ﴾ : معظم الناس يعرف ان الورق الذي تطبع عليهِ صحفنا اليومية من

(١) الابرق كالبرقاء والجمع ابارق — غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة — ولعل هذا افضل لفظ يسوغ استعماله بدلاً من الخرسانة المسلحة . وهو مقتبس من معجمي الفيروزابادي ومختار الصحاح

عجينة الخشب او رُبّهِ . بيد انهم لا يفقهون كوننا نتأسى في ذلك بأقدم صناع الورق — ونعني بها الزنابير — !! تلك الحشرات النشيطة التي حذقت صناعة الورق ، قبل ان يتعلم الصينيون صناعته بالايدي بدهور. وطريقة الزنابير تقوم بمضغ اوراق الشجر او الياف الخشب حتى تصيره عجينة فتستعملها في بناء عشها اما في حفير من الارض واما في غصن شجرة واما ملصقاً بعرق خشب بدار قديمة او هري عتيق

﴿ مذبنة زهرة Venus, Flytrap ﴾ : يدلنا التاريخ البشري ان الانسان حينما شرع يفكر في صيد الحيوان ليقتات بلحمه (اخترع الفخّ) وكان ذلك الفخ بمثابة حفير في السبيل التي اعتادت الحيوانات الطريدة سلوكه ، ثم اخفاه الحفير عن عيونها بغطاءٍ ركيك ، حتى اذا مرّت عليهِ نالهُ بها فتسقط فيهِ حيث لا تستطيع حراكاً فيفاجئها الصائد ويقتلها . ثم تدرج العالم من ذلك الى اتقان الحبائل رويداً رويداً حتى اتيح لهم صنع الفخ الفولاذي ذي النابض . الا ان الطبيعة قد سبقت الانسان الى صنع الفخاخ منذ ملايين السنين ممثلة في نبات ضئيل ينبت في ولايتي كارولينا الشمالية والجنوبية وفلوريدا بأميركا ويعرف باسم مذبنة زهرة . فاذا نصب ذلك الفخ رأيت شقي الورقة المستديرين فاغرين ، وثلاث شوكات متينة كالاسنان نابتة في وسط كل من الشقين . وويحاً للحشرة التعسة التي تمس الشوكة العليا فتكون كمن يبحث عن حتفه بظلفه إذ ينطبق الشقان عليها بغتة وتشتبك توًّا اسنان الشقين بعضها ببعض كما تشتبك اصابع الكفين اذا تداخلت بعضها ببعض فتستقر الحشرة في جوف النبات وحينئذ تفرز غدده سائلاً هاضماً وتمتص المادة النيتروجينية التي في الحشرة وقد يقضي النبات عدة ايام في هضم ذبابة واحدة وقلما تتمكن الورقة الواحدة من هضم ذبابتين او ثلاثاً قبل موتها

﴿ اجهزة تنفس الحشرات والكمامات الواقية من غبار الصناعات ﴾ وقد ترتب على الصناعات العصرية طائفة من الحرف التي يستهدف ذووها الى الذرات التي تتناثر منها . ومنها حرفة الحفر على الزجاج والمعدن بنسف الرمل ، التي تقتضي توجيه مجرى من الرمل الناعم بوساطة الهواء المضغوط على سطح من الزجاج من ثقوب مقطع[1] فينجم عن ذلك طيران ذرات الرمل والزجاج ، فان تعرض الصانع على الدوام لاستنشاقها ، احدثت تهيجاً في رئتيه فرضاً وبيلاً . ولذلك يجهز الصناع بأقنعة او كمامات للتنفس تنقي الهواء مما يشوبه من الذرات الصلبة وذلك بوساطة شبكة معدنية دقيقة لكي تحول دون دخولها (اي الذرات) في رئتي الصانع . وقد يخيل للمرء ان هذا الاختراع ليس من مستلزمات الطبيعة . والواقع ان الحشرات تكاد تكون كلها مجهزة بأمثال ذلك الجهاز

ويجهل الكثيرون من الخلق كون الحشرات لا تتنفس بأفواهها . والحاصل ان الهواء يدخل

---

(١) المقطع — جاء في اللسان والمقطع بكسر الميم ، مثال يقطع عليه الاديم والثوب وغيره (اريك) Stencil

اجسامها شهيقاً ويخرج منها زفيراً ، وذلك من جوانبها مباشرة بوساطة صف من المسام يسمى Spiracles مؤلفة من شعور دقيقة تقي تلك المسام من دخول الغبار . ولو حرمت الحشرات من تلك المصافي لصارت حالاً اجهزة التنفس كلها في اجسامها غير مجدية

﴿ البقباق[1] المائي والزوارق ومقاذيفها Water—boatman ﴾ قبل ان يعرف العالم في العصور الاولى من التاريخ البشري طريقة تجويف كتل الخشب وجعلها زوارق ، وقبل ان يتعلموا كيفية تسييرها بمقذافين ، اخترعت الطبيعة مقاذيف متقنة لنفع حشرة مائية ضئيلة سميتها البقباق المائي وقد يتسنى لك رؤية تلك الحشرات في الماء الضحل على شواطىء البرك الصيفية . والبقباق يقطع سابحاً بمقاذيفه الطبيعية مسافة لا تزيد على نصف بوصة كلما حرك مقذافيه مرة واحدة — ولو تأملته عن كثب لرأيت الشعور المتينة الناتئة من جوانبه تنقبض في الماء حينما يبغي التقدم . وتنبسط حين يبغي التقهقر . وعلى ذلك النمط ترى الطبيعة اتقنت صنع المجذاف على شكل الريشة قبل ان يحذق الناس ذلك بملايين السنين . والطبيعة تراعي دائماً الاقتصاد في مخترعاتها — فان ذينك المقذافين اللذين جهزت بهما البقباق المائي هما ساقاه . وهذه هي خطة النشوء والارتقاء — اي انه اذا استجدت حاجة لمخلوق من المخلوقات لا يمكن ان يعيش من غير استيفائها ، عدّلت الطبيعة اي عضو من اعضائه حتى يفي بتلك الحاجة . ولو عرف الناس مخترعات الطبيعة كنه المعرفة من قديم لكانوا استطاعوا اختراع بعض مخترعاتهم قبل تواريخ اختراعها بالوف السنين

ولما اخترع روبرت فلطون باخرته الاولى جعل رفاسها بمثابة عجلتين على جانبيها . ثم حسن غيره من المخترعين تلك الطريقة فجعلوا البواخر التي تشق عباب المحيطات ذات رفاسات مختلفة عن ذلك النوع فبدأوا باختراع الرفاس اللولبي وذلك النوع ما يزال مستخدماً لتسيير البواخر من اصغرها الى اكبرها . مع انه لم يكن معروفاً منذ مائة سنة . والحيوانات الدقيقة التي تؤلف اجسامها من خلية واحدة والتي تسمى ذات الذوائب او السياط flagellates تنطلق بسرعة في مياه البرك وتستخدم الرفاس اللولبي الذي في جسم كل منها وهو ذنبها منذ عصور لا حصر لها . فاذا ابصرتها سابحة في الماء خلتها طيارة يدور محركها فيشق الهواء فيدفعها الى الامام ساحباً جسمها وراءها . وعلى ذلك الاسلوب تسبح تلك الحيوانات الدقيقة ذات الاجسام اللولبية الاشكال في الماء محركة ذوائبها الطويلة قدامها

﴿ عظام الجمجمة والتعشيق في النجارة ﴾ : يعرف كل نجار ان اوثق رباط لزوايا اي صندوق من الخشب هو التعشيق اي ادخال ألسنة من الخشب من جانب في تجاويف مطابقة لها في الجانب الآخر فتشتبك الزوايا بعضها ببعض كما تشتبك اصابع اليد بالاخرى اذا ضممت كفيك — ويعرف هـذا الاشتباك في اللغة الفصحى بالاشتباك التدريزي وعند العامة والنجارين في مصر باسم (نقر ولسان) اي انثى وذكر — وعاشق ومعشوق — والطبيعة اول من اخترع هذه الطريقة وغيرها من

(١) لم اعثر على ترجمة لذلك الاسم فاطلقت عليه البقباق المائي مقتبساً اياه من بقبق الكوز في الماء

القواعد الصالحة للبناء التي يستعملها الانسان . وحسب المرء ان يفحص الخطوط الموصلة بين العظام المكونة للجمجمة فيجدها كلها على مثال العاشق والمعشوق . فلا غرو اذا كان سميتون المهندس الاسكتلندي قد نهج هـذا المنهج في ربط احجار اساس منارة اديستون Eddystone حيث تثور عواصف البوغاز الانكليزي (بحر المانش) وامواجه الطاغية . وقد اقيمت تلك المنارة على انقاض منارة قديمة ،كانت مبنية بالاحجار فاكتسحتها الامواج والعواصف اضعف بنائها. فلما نيط بذلك المهندس تجديد البناء لم يرَ أفضل من طريقة تعشيق حجارة الاساس بعضها ببعض ثم تعشيقها هي ايضاً في سطح صخر اديستون المبنية عليهِ المنارة نفسها. وقد انقضى على بناء تلك المنارة مائة وخمسون سنة ولم تؤثر فيها العناصر تأثيراً يذكر

﴿ النحل في قفيره واجهزة الهواء في المسارح والمصانع والمناجم ﴾ : لا يخفى ان لكل مسرح من المسارح العصرية ، ولكل مصنع من المصانع الحديثة الطراز ، ولكل منجم من المناجم الجديدة جهاز لتجديد هوائه وذلك الجهاز يعد حديثاً في هندسة البناء البشرية اذا قسناه بقاعدة تجديد الهواء التي عرفها النحل واستخدمها منذ دهور . والغايات التي يتوخاها النحل من ذلك التجديد الهوائي في خلاياه ، لا تختلف عما يقصده الناس ، فالنحل يولد تياراً من الهواء بتحريك اجنحته. والانسان يجدده بالمراوح الكهربائية ولذلك يؤلف النحل صفاً طويلاً من جنوده تقف عند مدخل قفيره وتأخذ في الدويّ بلا انقطاع ، ضاربة الهواء باجنحتها فتحركه وتحدث فيهِ تياراً يخفف وطأة الحرارة في القفير أو يقلل ما يلحقهُ من الرطوبة

﴿ اصحاب مزارع تربية المواشي وحبائل الصيد والحرابي ﴾ : ومن قبل ان يتعلم رعاة المواشي بازمنة طويلة كيفية القبض على العجل الهارب بقذف ربقة حول قرنيه ، اخترعت الطبيعة مثل تلك الاحبولة التي تلقى من بعيد على الطريدة — ممثلة في الحرباءة — وهي اول مخلوق يستفيد بتلك الوسيلة وبها يتسنى لذلك الحيوان قنص الفراش وغيره من الحشرات من بعد يتراوح بين ٦ بوصات و٨ بوصات

والواقع ان ربقة الحرباءة انما هي لسانها ذو الطرف اللزج فبذلك اللسان يتيسر للحرباءة وهي جاثمة على اي غصن من اغصان الاشجار ان تقنص اية حشرة تراها على بعد مناسب لطول لسانها فتزحف اليها دون ان تزعجها حيث تختطفها بلسانها في طرفة عين ثم تفترسها . ومن ثمَّ ترى الطبيعة قد جهزت الحرباءة بذلك اللسان العجيب لانها تأوي الى الاشجار حيث يتعذر عليها الوثوب من شجرة الى اخرى لصيد فريستها . فتستعين بلسانها على ادراك كل بعيد عنها ، فان خلت الانسان اول مخترع لاي اختراع تراه حديثاً في عرفك ، فانك تخطيء لان الطبيعة اخترعتهُ قبل ذلك بالوف السنين . وهذا سبب كون العلم الآن يشير على المخترعين باستجلاء غوامض الوسائط الطبيعية الميكانيكية واستقرائها حتى يقتبسوا منها ما يصلح لاستفادة المجتمع الانساني من الاختراعات الجليلة الشأن

(عن مجلة العلم العام) عوض جندي

لمصطفى صادق الرافعي

قلبي ... يا قلبي

قلبي ، أأنتَ نصيري في محبّتها ... أم أنت يا قلبُ فيها بعضُ أعدائي ؟
كلُّ الذي فيكَ من بُرْئي وعافيتي ... هو الذي فيكَ من سُقمي ومن دائي

* * *

يا رحمتا لكَ من قلبٍ كصومعةٍ ... في رأسِ شاهقةٍ في جوفِ صحراء
شيدَت من الصخرِ لكنْ في طهارتِها ... هي الغمامةُ قد شيدت من الماء
تطوي معاني هذي الأرضِ في كلم ... كالطفلِ عالمُهُ في بعضِ أسماء
فالموتُ فيها بلا معنىً يُميتُ كما ... فيها الحياةُ بلا معنىً لإحياء

* * *

يا حسرتا لكَ من قلبٍ تقلّبَ من .. ... جوعٍ لجوعٍ وإظماءٍ لإظماء
عند الأحباءِ لا يألو منازعةً ... وإن تكنْ روحُهُ عند الأحبّاء
ناءٍ قد ازورَّ عن ناءٍ وما ابتعدا ... لكنْ معاندُ من يهوَى هو النائي
يظلُّ ذاكرَ حبٍّ غيرَ محتفلٍ ... ذكرى ، وناسيَ حبٍّ غيرَ نسّاء

* * *

أوفى بكَ الحبُّ يا قلبي على زمنٍ ... كالأرضِ بعد حصادِ الزرعِ للرائي
سوداءَ شعثاءَ مغبرًّا جوانبها ... من بعدِ لألاءِ ريّا النبتِ خضراء
قلبي ، أئِنْ بِتَّ مطويًّا على حُرَقٍ ... من الصبابةِ تُطفيها بإطفائي ؟
ويْكَ اتّئِدْ ، إنّ نيرانًا تحرّقني ... في حبها ، هي نيراني وأضوائي

* * *

يا بؤسَ للقلبِ من هجرٍ عرفْتُ به ... ثِقَلَ الزمانِ على قلبي وأحشائي
يمرُّ يومٌ فيومٌ في تسلسلِه ... والحبُّ حابِسُني في يوم أخطائي
مثلَ الضبابِ على الأنوار يتركُها ... مرضى من النورِ قد حُمّت بظلماء
وشقّةُ الهجرِ تمضي لا انتهاء لها ... إذا الدلالُ مشى فيها بإبطاء ! !

* * *

قلبي ، أأنت نصيري في محبتها ... أم أنت يا قلبُ فيها بعضُ أعدائي
كلُّ الذي فيك من بُرْئي وعافيتي ... هو الذي فيك من سُقمي ومن دائي

النيل في العهد الفرعوني

مقاييسه . اعياده . مدحته

للدكتور حسن كمال

— ٢ —

سنذكر للقارىء بياناً موجزاً لبعض مقاييس النيل التي كانت في عهد الفراعنة والتي لا تزال آثارها باقية للآن مبتدئين بأقصاها جنوباً ومنتهين بأقصاها شمالاً

(١) مقياس النيل في جهة سمنة : — في قلعة سمنة القديمة (بالسودان) نقوش غاية في الخطورة خاصة بمناسيب النيل وقت الفيضان . ويظهر ان مشروعات الري العظمى التي شادها امنمحعت الثالث (١٨٢٠ ق . م .) في الفيوم تطلبت معرفة حالة الفيضان قبل وصوله الى الفيوم بمدة كافية وكتابة هذه الاحوال بالضبط على الصخور وارسال اخبار الفيضان بواسطة اشارات من تل الى آخر حتى المركز الرئيسي . وهذه النصوص اوردها لبسيوس في مجلده الثاني من الدنكمالر لوحة ١٣٩ وهي تقع على ارتفاع عشرين قدماً فوق سطح النيل الحالي . ومن هنا نشأ كثير من الارتباك والتخمين في تفسير هذا الفرق العظيم . ويستدل من طريقة نقش هذه النصوص انها حفرت عند حد المياه الحقيقي وليست عند النهاية العليا لحبل طوله عشر اذرع او عشرون ذراعاً مثلاً بينما نهايته السفلى تمس سطح النهر ويرى الاستاذ بتري ان نصوص سمنة تشير الى انخفاض قاع النهر في بلاد النوبة العليا بخلاف الحالة في مصر وهذا ينشأ من امرين اولهما تآكل قاع النهر الحجري وثانيهما ارتفاع قاع النهر عند طرف النوبة الجنوبي (راجع تاريخ مصر للاستاذ بتري جزء ١ ص ١٩٥) . والنصوص التي في جهة سمنة هي خاصة بالفيضان سنوياً في عهد الملك سباك حوتب الاول (٢٤٦٠ ق . م .) الى الرابع (اسرة ١٣) — راجع بتري جزء ١ ص ٢٥٩) . والمعروف ان امنمحعت الثالث (١٨٢٠) كان اعظم ملوك اسرته اهتماماً بأمور الري فهو الذي اصدر امره لحامية قلعة سمنة بأن تقيس في جهتها اقصى ارتفاع لمياه النيل كل سنة فتأسس لذلك مقياس النيل المذكور اعلاه . ولما كانت اخبار هذه المقاسات ترسل على عجل الى موظفي مكتب الوزير بمصر السفلى فقد تمكن القوم وقتئذ من تقدير مقدار الحبوب الممكن انتاجها في البلاد في السنة التالية . وبناء على ذلك قدروا نسبة الضرائب والرسوم التي تطلبها الادارة المالية من ذوي الاملاك (برستد تاريخ مصر ١٢٣ ترجمة الدكتور حسن كمال)

(٢) مقياس النيل بمعبد كلابشة : — هذا المقياس في الجهة الغربية لممر المعبد الداخلي .

وهو محفوظ بحالة جيدة . ونكتفي الآن بالاشارة اليه تاركين التفصيل للمقاييس الاخرى التي تفوقه شأناً

(٣) في جزيرة انس الوجود (بيلاق او فيلة) مقياس للنيل وهو عبارة عن بئر في الجنوب الشرقي من اطلال الهيكل هناك وفيهِ سلم مستقيمة تحتوي اولاً على ٥٢ درجة وتنتهي ببسطة مربعة تنعطف منها على اليمين ١٢ درجة ممتدة الى ماء النيل . اما الماء فيدخل في هذه البئر من باب مصنوع باسفلها ومن بعض فجوات في الحائط يعلو بعضها بعضاً بمقادير متفاوتة . وفي هذه البئر جهة الشمال في اتجاه الدرجة المربعة التقاسيم القديمة منقوشة في الحجر بكيفية غير متقنة ومجزأة الى سبعة اقسام واحد يشمل ٤٢ درجة مقدَّرة بثلاث اذرع واربعة يحتوي كل منها على ٢٨ درجة وكل قسم مقدَّر بذراعين . ثم يلي ذلك قسمان آخران كل منهما ١٤ درجة وكلاهما مقدرٌ بذراع . فعلى ذلك يكون مجموع الاذرع ١٣ ذراعاً . وقد اكتشف هذا المقياس المرحوم محمود باشا الفلكي عام ١٢٨٦ هجرية واصلحهُ وابقى تقاسيمه القديمة وجعل فيهِ المقياس عربيًّا بحسب الطريقة المتبعة في مقياس الروضة

وقد قدَّر الباشا المذكور الذراع القديمة المستعملة لمقياس النيل فوجدها ثلاثة وخمسين سنتيمتراً . ولم يعلم بالضبط حتى الآن تاريخ انشاء هذا المقياس (عن المرحوم كمال باشا في الحضارة القديمة ص ٧٤)

(٤) وفي جزيرة اصوان (ويقال لها ايضاً الجزيرة وعند الافرنج الفانتين) مقياس للنيل في مقابل مدينة اصوان وهو عبارة عن سلم مدرَّج ينتهي بالمقياس وهذا عبارة عن تقاسيم ونقوش على جدار البئر . والتقاسيم عبارة عن اذرع والذراع مقسمة الى اقسام صغيرة كل منها يعادل اصبعين . وبعد ما مضى على هذا المقياس حوالي الالف سنة بلا استعمال اصلح في عهد الخديو اسماعيل عام ١٨٧٠ ميلادية كما يستدل على ذلك من النقوش العربية والفرنسية هناك . وعلى جدران السلم تشاهد نقوش يونانية يرجع تاريخها الى العهد الروماني توضح مناسيب النيل . ومقاسات هذا المقياس رومانية العهد والاذرع مكتوب عليها بالخط اليوناني . اما المقياس الحديث فمنقوش على الواح من الرخام

قال استرابون ان هذا المقياس مصنوع من احجار منحوتة نحتاً متساوياً وهو واقع على ضفة النيل ومنقوش عليهِ مناسيب النيل القصوى والصغرى على حدٍّ سواء لان الماء في هذه البئر يعلو وينخفض مع ماء النهر . وعلى جانب البئر علامات تشير الى ارتفاع الماء الى العلو الكافي للريّ وغير ذلك . وهذه المناسيب تقرأ وتدوَّن وتنشر للعلم ..... ولهذا شأنهُ عند الفلاحين اذ عليهِ تترتب مواعيد الريّ والمحافظة على الترع والجسور الخ . ولهُ ايضاً شأن كبير عند الموظفين الماليين لان منسوب النيل وقت الفيضان له علاقة بالضرائب . فكلما علا المنسوب زادت الاموال

(٥) وفي معبد حوريس بأدفو دهليز مدرَّج تحت الارض يبدأ من القسم الشرقي للممرّ حول المعبد وهذا الدهليز ينتهي الى مقياس قديم عبارة عن بئر دائري خارج المعبد ويحيط بهِ سلم حلزوني وعلى حائط هذا السلم المقاييس والارقام الديموتيقيّة الخاصة بقياس النيل . وهذه البئر كانت متصلة بالنيل بطريق سفلي سدَّ الآن ولم يعد على اتصال بالنهر

(٦) وفي الركن الشمالي الشرقي للسور الخارجي لمعبد مدينة هابو بالاقصر فوق البحيرة المقدسة وعلى بعد ٤٥ ياردة والى الشمال الغربي منها يوجد مقياس للنيل ويتوصل اليه بباب منقوش عليه اسم الملك نقتانب الاول وهذا الباب يوصل الى حجرة ثم الى دهليز ينتهي بسلم مدرّج يصل الى عمق ٦٥ قدماً حيث توجد مقاييس الفيضان النيلي

(٧) مقياس الكرنك : — على جدار مرسى السفن القديم لمعبد الكرنك نقوش تدل على مناسيب النيل في عهد عدة فراعنة . وقد نشر هذه النقوش وترجمها الاستاذ ليجران في مجلة السيتشرفت الالمانية عدد ٣٤ . وهذا المرسى مشاد باحجار ضخمة وعليه ٤٥ نصاً خاصة بمناسيب النيل ابتداء من السنة السادسة للملك شيشاق الاول الى السنة التاسعة عشرة من عهد الملك بسامتيك الاول. اما النصوص فبسيطة ولا يجد الباحث صعوبة في ترجمتها وهي عبارة عن تكرار العبارة الآتية:—

« النيل في العام ... من حكم جلالة ملك الوجهين القبلي والبحري ... » وبجانب هذه النصوص توجد نصوص اخرى تاريخية واخرى لها علاقة بازي . خذ مثلاً النص الخامس الخاص بالعام الثالث لحكم الملك اوسركون الثاني فانهُ يخبرنا عن فيضان عالٍ جداً. وقد عثر الاستاذ دارسي في معبد الاقصر على نصوص هيروغليفية يرجع تاريخها الى ذلك الزمن شرحها امام المعهد العلمي المصري قائلا ان الثمانية الاسطر الاولى تصف حالة طيبة في هذا الفيضان غير الاعتيادي من حيث وفرته حتى منع القيام بالاحتفالات الكبيرة المعتادة للمعبود امون حامي المدينة. يلي ذلك دعاء من الملك الى المعبود امون ليوقف هذا الفيضان عند حده»

قال الاستاذ بتري في تاريخه عن مصر الجزء الثالث ص ٢٥١ ان هذا الفيضان حصل حوالي ١٠ اغسطس سنة ٨٧٦ ق.م . وهو ميعاد مبكر جداً لان اعلى الفيضان يبلغ اقصاه في طيبة حوالي ٢٥ اغسطس في الازمنة الحاضرة

وقبل الفراغ من هذا البحث يجدر بنا ان نذكر شيئاً عن مقياس الروضة ومقابلته بالمقاييس الفرعونية . فالمقاييس في العهد القديم كانت آباراً متصلة بالنيل ومنقوش على جدرانها المقاسات المصرية القديمة. ويظهر ان المقاييس تطورت بعد ذلك فجُعلت التقسيمات على عمود خاص وسط البئر وقد سبق ان ذكرنا ان لعظم الفيضان النيلي أثراً في نفس المصري القديم حتى اعتبره من عمل المعبودات فلما دخل العرب مصر تأثروا ايضاً بهذا الحادث السنوي العظيم وتذكروا قوة المولى جل وعلا فنقشوا الآيات القرآنية الشريفة عليه . وهذا المقياس شيّد في ايام سليمان بن عبد الملك الخليفة الاموي على يد أسامة بن زيد التنوخي عام (٩٦ — ٩٧ هجرية) (ويقابله ٧١٤ — ٧١٦ ميلادية) . وهو مكوّن من بئر رباعية الشكل تصل اليها مياه النيل من ثلاثة سروب وفي وسطه عمود مثمن الاضلاع نقشت عليه تقاسيم الاذرع التي تعرف بها ارتفاعات المياه . وكانت ابنية هذا المقياس اعظم كثيراً مما هي الآن فقد كان لها دار وفي جانب الدار فسقية عظيمة ذكرها ابن دقاق. وكان للمقياس قبة اما الآيات القرآنية التي نقشت عليه فهي :—

على الجانب الشرقي المقابل لمدخل المقياس : بسم الله الرحمن الرحيم : وانزلنا من السماء ماء مباركاً فانبتنا به جنات وحب الحصيد

على الجانب الشمالي : وترى الأرض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج

على الجانب الغربي : ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير

على الجانب الجنوبي : وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد

وهذه الآيات الشريفة موجودة الآن في المواضع التي ذكرت في رواية ابن خلكان

***

اعياد النيل السنوية التي يحتفل بها الآن هي في الحقيقة تكرار لاعياد فرعونية قديمة فمن هذه عيد ١١ بؤونة (١٨ يونيه) — المعروف بليلة النقطة — لاعتقاد العامة انهُ في هذه الليلة تنزل نقطة من السماء في النيل فتسبب فيضانهُ . والحقيقة ان هذه التسمية ناشئة من اعتقاد قدماء المصريين بان دمعة المعبودة ازيس تنزل في النيل في تلك الليلة فتحدث فيضانه . وادعى علماء الفلك الاقدمون انهم تمكنوا من تحديد الساعة التي تنزل فيها هذه النقطة . واعتاد قدماء القبط ان يمضوا هذه الليلة على شاطىء النيل مؤدين انواع الخزعبلات — كأن يضع كل فردٍ من عائلة قطعة من العجين على سطح منزله فمن تخمرت عجينته سعد صاحبها . وفي ٢١ يونيه يرتفع منسوب النهر قليلاً وفي ٤ يوليو (٢٧ بؤونة) ينادي منادي النيل بان الفيضان بلغ الحد المطلوب . ولا بد ان القارىء سمع هذه المناداة مراراً ومن عدة اشخاص لانها دارجة ومنتشرة في القطر . يلي ذلك عيد جبر البحر او يوم وفاء البحر ويقع هذا في منتصف شهر مسرى (منتصف اغسطس) . ويحتفل رسمياً بهذا العيد بمهرجان العقبة وذلك جهة فم الخليج . وفي هذا اليوم يصل منسوب النيل حد ١٦ ذراعاً

قابل هذا بما كان يقوم بهِ اجدادنا الاقدمون اذ يحين الانقلاب الصيفي ويأتي الماء لمقدس من اصوان الى جبل السلسلة . فان القسوس المقيمين في هذا الجبل او الملك الحاكم أو ابنه كانوا يتقربون بثور او حيوان آخر ويلقون في الماء قرطاساً من البردي مختوماً يشتمل على امرٍ فيهِ اطلاق الحرية للنهر بالزيادة كي يضمن لمصر الخير بفيضان معتدل . فاذا كان المتقرب بالقربان هو نفس الملك نقشوا على الصخر ما فيهِ تذكرة بهذا الاحتفال وكانوا يعتنون بهذا العيد سواء حضرهُ الملك او لم يحضره لانهم كانوا يراعون الرواية القديمة القائلة « ان سعادة السنة وشقاءها متوقفان على ذلك المهرجان . فان حصل في شأنه إهمال او توانٍ رفض النيل الامر الصادر اليهِ واغرق الاهالي والجهات »

وفي هذا الموسم كان الفلاحون يأتون بالزاد ويأكلون معاً اياماً متوالية ويشربون حتى يثملوا ويستمرون على ذلك حتى يأتي اليوم الكبير فتخرج حينئذٍ القسوس من المحراب ومعهم التمثال فيزفونهُ على الشاطىء بالالحان والاصوات المطربة والترتيل والمديح وصدح الآلات الموسيقية

وفي الجهة البحرية من جبل السلسلة معبد شيد في العام الاول لحكم الملك منفتاح مرسوم فيهِ

الملك يقدم القرابين للمعبودات (حراصت) و (بتاح) ومعبود النيل (وذلك على يمين الداخل) ويقدم ايضاً القرابين للمعبودات (امون) و (موت) و (خنسو) (وذلك على يسار الداخل) . اسفل ذلك تشاهد نقوش لمدحة النيل الطويلة وقائمة بالهدايا التي تقدم لمعبود النيل

اما السبب في الاحتفال بفيضان النيل جهة جبل السلسلة فهو ان النيل اعتبر قدماً انهُ ينبع من صخور ذلك الجبل . واستمر القوم يعملون المهرجان في تلك الجهة على توالي العصور بالرغم من تتبعهم للنيل الى اقاصي السودان السابق ذكرها في المقال السالف

ويقال ان السبب في تسمية هذا الجبل بهذا الاسم هو ان وادي النيل كان موصداً في تلك الجهة بسلسلة عظيمة مثبتة في جانبيه المقابلين لبعضهما

وللنيل مدحة كان القوم ينشدونها في اعياده وُجدت مدوّنة على عدة آثار منها درج ساليير الثاني ودرج انسطاسي السابع (وهما محفوظان في دار التحف بلندن) ودرج تورين . وايضاً على قطعة حجرية ostraca تعرف باسم الاستاذ جولنشيف الروسي وقد سبق ان المعنا الى نقش هذه المدحة بجبل السلسلة وذلك في ٢١ مايو سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد في عهد الملك رمسيس الثاني ثم اعيد نقشها بنفس الجهة في السنة السادسة من حكم رمسيس الثالث اي سنة ١١٩٦ قبل الميلاد (الذي حكم القطر من سنة ١١٩٨ — سنة ١١٦٧ . م) . واليك ترجمتها عن المرحوم كمال باشا (الحضارة القديمة) : —

السلام عليك أيها النيل يا من ظهرت على هـذه الارض واتيت لاحياء مصر . انت الذي يختفي مجيئك في الغياهب الى يوم الترتيل بقدومك . انت البحر المفيض بمياهك على البساتين التي اوجدتها الشمس لنا لتحيي جميع ما يكون . انت الذي تمتنع عن ريّ الصحراء حين نزولك من مياه السماء . فمعبود الارض (سب) يتولع بايجاد العيش ومعبود الحبوب (نبرا) يقدم قرابينه . والمعبود (بتاح) يصلح احوال العامل . انت صاحب الاسماك . متى تجاوزت الشلال لم يعد الطير ينزل الى الحقول . انت صانع القمح وموجد الشعير ومطيل اجل المعابد . ان تعطلت اصابعك او اعتراك كساد اصبحت الالوف من الناس في فاقة . وان نقصت وقت نزولك من السماء افنيت المعبودات والخلق وتكدرت الحيوانات وصارت الارض كباراً وصغاراً في عذاب . واذا كانت الحال على عـكس ذلك واستجيب دعاء الناس حين تفيض وتكون لهم نيلاً مباركاً عند ارتفاعك حينئذ تصبح الارض مبتهجة وتنشرح كل ذي بطن ويهتز كل ظهر من الضحك وتمضغ كل سنة . يا مجلب الارزاق ومكثر المأكولات ومبدع أحسن الاشياء . انت صاحب الجرائم . انت اللطيف بمجيئك حين تكون خليــلاً لهم . نعم انت الذي توجد علف الحيوانات وتعطي كل ما لزم لقرابين المعبودات . فالبخور الناتج عنك هو الاجود . انت الذي تهتم بالقطرين فتمتلىء المخازن وتزداد خيرات الفقراء . انت الذي تستجيب دعاءهم عند تقديم النذور فلا ينقصهم شيء . انت سند الفقراء لم تصوّر في حجر ولم تمثل بتمثال ذي التاج المزدوج . ولم تبصرك العين ولم تدفع لك جزية . ولم يؤت اليك بقربان . ولم يؤثر فيك كلام السحر

الخفي ولم يعرف لك مكان . ولم يهتد الى مقرك بسر الطلاسم السحرية . لا بيت رحيباً يكفيك . ولا احد يطلع على ضميرك . ان ذراري اولادك تنشرح منك . لانك تحكم كملك اوامره نافذة على جميع اهل الارض . يتجلى في مشهد من سكان اهل الجنوب وسكان اهل الشمال . وهو الذي يشفق فيجفف دموع الاعين ويفيض باحسانانه . اينما وجدت حلت الافراح وانشرحت الصدور واخذ التمساح يثب سروراً لان طائفة المعبودات المصاحبة لك اعدت كل شيء واخذ الفيضان يروي الحقول ويجعل جميع الناس في تهامة . وكل يروي بدون نزاع . فاذا دخلت كنت محاطاً بالاغاني . واذا خرجت صاحبك التهليل . واذا رقصوا فرحاً يوم ظهورك من غياهبك فما ذلك الا لكون عجزك اضمحلال لهم وفساد . ومتى تضرعوا اليك لينالوا الماء السنوي شوهد اهالي مصر الوسطى واهالي الوجه البحري مصطفين بعضهم بجانب بعض وشوهد كل امرىء حاملاً بعدد صنعته ولا ينزوي احد وراء جاره . ولا يلبس احدٌ ملابس الاعياد . ولا يتحلى بحليّ . وطائفة المعبودات التسعة تلبث في ظلمة . لكن متى منحت الزيارة تعطر كل انسان . انت منبت الارزاق الحقيقية التي هي رغبة الناس . هذا هو كلام الالتماس الذي يجعلك مجيباً لدعائهم . اذا تكرمت بلجج المحيط السماوي على الانسانية قدم إلـه المحبوب (نبرا) قربانه وتهجدت لك كل المعبودات ولم تنزل الطيور فوق الجبال . ومتى عجنت يداك شيئاً صار ذهباً او طوبة صارت فضة . نعم لا يؤكل اللازورد . لكن القمح افضل من الاحجار الكريمة . لقد شرعوا ينشدون على الناس ويرتلون لك ويصفقون باستمرار لتبتهج من اجلك ذراري اولادك وليكثروا من اجلك اناشيد المديح كيف لا والنيل هو آلـه الثروة الذي يحسن الاراضي ويكثر السفن في عيون الناس . وهو الذي يحيي قلوب النساء الحبالى ويحب كثرة الحيوانات . اذا ما ارتفعت في عاصمة الامير شبع الغني وعفى الصغير اللوطس وصار كل شيء ثابتاً وجيداً للغاية ووجدت جميع الحشائش لاولادك ، ولو اغفلت عن اعطاء الغذاء زالت السعادة من المساكن وحلّ بالارض الضعف الشديد

ولعلّ اقدم رسم للنيل هو الوارد في لوح العاج للملك مينا اول ملوك الاسرة الاولى وجد بالعرابة يرجع تاريخه الى حوالي (٣٤٠٠ سنة ق . م .) تشاهد عليهِ نقوش تعتبر من اقدم النقوش الهيرغليفية المعروفة للآن . وهو مقسم الى اربعة اقسام . فالقسم العلوي يحوي في طرفه الايسر رسم الباز الملكي الخاص بالملك مينا وفي طرفه الايمن رسم معبد منصوب في حوشه رمز المعبودة (نيث) وتعلو هذا الرسم سفينة . اما القسم الثاني فيشاهد في طرفه الايسر الملك قابضاً على وعاء من « مزيج الذهب والفضة » ومقدماً القرابين اربع مرات . ويشاهد في الطرف الايمن رسم ثور داخل حوش يعلو احد اطرافه طائر (الفينكس) والقسم الثالث يحوي رسم النيل تمخر فيه السفن وتشرف عليه المدن وتعترض مجراه الجزر . والقسم الرابع ويحوي رسوماً هيرغليفية قديمة غير مفهومة

السفن والملاحة بمصر

من صلاح الدين الى نابليون

للدكتور علي مظهر

— ٢ —

عصر الايوبيين وسلاطين المماليك

ولما كان صلاح الدين وعصر الايوبيين عنى سلاطين هذه الاسرة بأمر الاساطيل دفاعاً عن البلاد التي كانت الفرنج تغير عليها او تطمع في ذلك . وقد افرد صلاح الدين للاسطول ديواناً وعين له عدة اقاليم وبلدان للانفاق عليه وكانت لهم اساطيل في البحر الاحمر كما كانت لهم في البحر المتوسط الابيض

ويظهر مما ذكره المقريزي ان عناية صلاح الدين بالاسطول كانت اكثر من عناية خلفائه فقد كانوا لا يفكرون في امره الا عند الحاجة وقات العناية بذلك حتى طمع الفرنج في بلادهم وهاجموها لما علموا بضعف البحرية الايوبية وسار الحال كذلك حتى ان كانت دولة المماليك الاتراك وعني الظاهر بيبرس البندقداري بأمر الاسطول (٦٥٨ هـ) وتقدم بعمارة الشواني في الاسكندرية ودمياط وكان يقوم على ذلك بنفسه وقد كانت بعض مراكبه تسير للفتح والغزو كما كانت تدافع احياناً عن مصر وغيرها وعنايتهم .كانت ضرورية لان اساطيل الروم كانت تجيء الى الثغور وتتعدى على الاهالي بالسلب والنهب كما كانت تتعرض لسفن التجارة في البحر

وفي سنة ٩٠٤ هـ — سنة ١٤٩٨ م كانت سفن البرتقال قد اكتشفت طريق الهند مارة برأس الرجاء الصالح يقودها فاسكو دو غاما ثم ارسل فرانسوى دالميدا وأخذت السفن البرتقالية تمخر بين البصرة وعدن وتتعدى على سفن مصر والعرب التجارية وتنهبها وتستولى عليها وانقطع طريق الهند عن مصر

ولما طلب السلطان مظفر شاه ملك كجرات والسلطان عامر ملك اليمن المساعدة من السلطان الغوري[1] ارسل خمسين سفينة حربية وجيوشاً كثيرة يقودها الامير حسين بك الكردي (٩١٣ هـ)

---

(١) راجع مقالات (صفحة من تاريخ التجارة المصرية) لاحمد زكي باشا بمجلة المقتطف سنة ١٩١٧ (من عدد سبتمبر الى عدد ديسمبر)

لمطاردة سفن البرتقال بقيادة فرانسوى دالميدا وقد حدثت وقائع عادت بعدها سفن مصر بعد ان فقدت بعض قطعها ثم عاد سنة ٩١٧ هـ قاصداً جُزرات ثانية وقد ساعدت سفن البنادقة السفن المصرية في هذه الغزوة البحرية لان الضرر لحق بالفريقين من تحويل البرتقال لتجارة الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح وكان ذلك في ايديهم من قبل

ولم تكن سفن البحر الاحمر هي كل ما كان للغوري فقد كانت لهُ اساطيل بالبحر الابيض وقد رأيناهُ بعد الامير كركور اخا السلطان سليم بعشرين سفينة حربية لتساعدهُ على ان يكون سلطاناً بدل اخيه وقد وقع اغلب هذه السفن في يد العثمانيين . وقيل بل اصابتها زوبعة شديدة غرق كثير منها واستولى العثمانيون على باقيها . وفي سنة ٩١٩ هـ دخل اسطول برتقالي الى البحر الاحمر واخذ في اعمال النهب والتخريب فسار اليهِ الاسطول المصري بقيادة الامير حسين بك الكردي وقد تمكن من اجلاء السفن البرتقالية عن عدن فلما انتصر المصريون سار الاسطول البرتقالي طالباً عرض البحر

وعاد الاسطول المصري الى مياه اليمن فعاد البوكرك Albuquerque البرتقالي باسطوله واراد الاستعانة بنجاشي الحبشة على المصريين وفاوضهُ في امر تحويل مصب النيل الى البحر الاحمر ليموت اهل مصر وبلادها عطشاً (!!؟) وكان يظن هذا امراً يسيراً

وقد ضايقتهُ الاساطيل المصرية واحتلت جزيرة قمران كما استولت على كثير من بلاد اليمن واقلع الامير حسين الى عدن وهاجمها واستولى على زيلع وغيرها وجاءهُ مدد بقيادة الامير سلمان احد امراء مصر فجعلهُ يرافق سفن تجار عدن القاصدة بلاد الهند وكان سلمان هذا على خمسين غراباً(١)

وما زالت سفن البرتقال تتعدى على سفن المسلمين في تلك المياه حتى استولت الدولة العثمانية على مصر وقامت اساطيلها بمحاربة البرتقال حتى منعت عدوانهم واطمأنت ثغور بلاد العرب من شرهم

البحرية بمصر بعد ان صارت ولاية عثمانية

لما فتح سليم مصر وضع لها نظاماً تسير عليهِ في ادارتها وجعلت اساطيله تتردد على مياهها اما لحراستها او لاظهار قوة الدولة في نفوس من بقي من المماليك لاسيما على ثغور البحر الابيض

وبعد ان عاد السلطان الى الاستانة كان خير الدين بك الوالي الفعلي الذي تركه سليم على مصر فاخذ في اصلاح المراكب الموجودة بالنيل يساعدهُ في ذلك خير بك امير الامراء

اما ما كان لمصر من اغربة (مراكب بحرية) بالبحر الاحمر حينئذٍ ايام قانصوه الغوري فقد كان معظمها قد ضاع وفقد وما بقي منها حجزهُ الامراء المصريون بجهات اليمن بقيادة سلمان رئيس الاسطول الذي ذكرنا اسمه

وجاءت الاخبار من مكة في سنة ٩٢٥ هـ انهُ يوجد للفرنج (البرتقال) ما يقرب من اربعين

(١) نوع من السفن ايامئذ ولمعرفة اسماء السفن يراجع كتاب سفن الاسطول الاسلامي لعبد الفتاح عباده

مركباً في قبالة جده وان هاته المراكب بقيت بالبحر وتقوم باعمال القرصنة وتقطع على التجارة طرقها فما وسع والي مصر الاّ ان أرسل جماعة من المماليك الشراكسة وغيرهم يبلغ عددهم ثلاثمائة مع الحجاج وجعلهم يقيمون في جدة خشية ان يطرقها الفرنج ويفاجئونها وقد ساروا براً لانهُ لم تكن لديه قوة بحرية يرسلها لهذا الغرض

ومن ذلك الحين اخذت العناية ببناء السفن تزداد واهتم بصناعتها خير الدين بك فأمر بذلك في دار صناعة بولاق وقد جاء في تاريخ ابن اياس (ج ٣ ص ٢١٤) ان ملك الامراء عرض المراكب الاغربة التي انشأها ولعبت قدامه في البحر وانشرح من ذلك سنة ٩٢٦ هـ . اهـ

وقد كان من جراء التعدي المتوالي من مراكب البرتقال على السواحل المصرية وغيرها بالبحر الاحمر ان اهتمَّ السلطان سليمان بأمر الثغور البحرية فجعل أنظمة خاصة لادارة السواحل المصرية والامور البحرية فيها وعين ثلاثة امراء بحر لمصر كل امير لثغر من ثغورها دمياط والسويس والاسكندرية وسُمي كل منهم قبودان بك وكان تعيينهم وابدالهم بغيرهم راجعاً الى السلطان مباشرة

وكانت الدولة ترسل حاميتها رأساً من الاستانة تحت قيادة امراء البحر المذكورين وتمدهم كل سنة بما يلزم من الذخائر الحربية

ولم يكن هؤلاء الامراء البحريون يعتبرون من جيوش مصر الاّ لانهم يقيمون في ثغورها وتصرف لهم مرتباتهم من خزائنها الاّ انهم كانوا مستقلين تمام الاستقلال عن حكومتها وكانوا يتلقون الاوامر من دار الخلافة رأساً وكثيراً ما كانت توجد اغربة حربية تحت قيادة هؤلاء الامراء البحريين ما عدا من كان بالسويس لما ذكرناه

ولما ازدادت العناية بصناعة السفن ارسلت بعضها وعليها بعض الملاّحين العثمانيين والمغاربة لمقاتلة البرتقال وكانوا يعبثون بالبحر الاحمر فقاتلوهم حتى تغلبوا على المراكب البرتقالية وقبضوا عليهم واخذوا ما كان معهم بالمراكب وكان بها بضائع وجوخ واصناف فاخرة وكبلوا الفرنج وارسلوا الى ملك الامراء وكان ذلك عام ٩٢٧ ثم جهزت مراكب اخرى في اواخر تلك السنة لما عاد البرتقال الى العبث بالسواحل المصرية واعمال القرصنة وقد وجدوا سفن الفرنج وفيها تمار ومعهم بضائع قدرت قيمتها بخمسين الف دينار ودار القتال بينهما فدارت الدائرة على البرتقال وقبض عليهم وأخذت بضاعتهم (ابن اياس ج ٣ ص ٢٧٤ — ٢٧٧) وزاد عبث البرتقال في البحر حتى كادت التجارة بين مصر وغيرها من بلاد العرب وبلاد الهند تنقطع الى ان استغاث بهادر شاه حاكم كجرات من بلاد الهند بالسلطان سليمان وكانت اساطيل البرتقاليين تتعدى على بلاده لتمنع التجارة بين الهند ومصر فأصدر سليمان امره الى والي مصر اذ ذاك الخادم سليمان باشا (٩٤٤ هـ) بأن يسيّر اسطولاً في البحر الاحمر لنقل الجنود العثمانية الى بحر الهند فجهز ستين غراباً وثلاثين سفينة بالمدافع والآلات الحربية واسرع في عمل ذلك واقلع بها من السويس ومرَّ بعدن وقتل اميرها عامر بن داود وستة نفر من

اصحابه ونصّب عليها احد ضباطه المسمى بهرام بك وزوّده بالمدافع والجنود ثم اقلع الى الهند ومع ما بذله من المجهود بجهات ديو فانهُ لم يتمكن من طرد البرتقال عن تلك الجهات فعاد الى عدن ثم الى مُخَا واقلع من بلاد اليمن الى مصر

***

ومما يحسن ذكره ان الاخشاب اللازمة لبناء هاته السفن كانت تجلب من اضاليا (بلاد الاناضول) وتنقل بواسطة السفن ثم تنقل على النيل الى القاهرة وتحمل من القاهرة على الجمال الى السويس حيث تبنى منها السفن المطلوبة

ومع ان سليمان باشا هذا لم يقض الوطر من حملته الى بلاد الهند الاَّ انهُ طرد امير عدن وكان موالياً للبرتقال كما امكن ان ينشيء حكومة جديدة في بلاد اليمن وقد عادت تلك الحملة البحرية ببعض الفوائد لرائدي البحار

وقد بنيت بعد ذلك سفن عديدة وجهزت بالمعدات اللازمة وسارت الى البحر الاحمر وبحار الهند وخليج العجم وكانت تقاتل اساطيل البرتقال في تلك البحار واستمرَّ ولاة الدولة يصنعون السفن لتشارك اساطيل الدولة ولتحمي البلاد من عدوان الغير ولتجعل طريق المواصلات آمنة بينها وبين البلاد الحجازية وسواحل اليمن وثغور الدولة بالبحر الاحمر واستمرت هذه العناية بصناعة السفن حتى النصف الاخير من القرن الثاني عشر الهجري فأخذت القوة البحرية في مصر تتضاءل وتنحط لضعف الولاة ولضعف الدولة نفسها ولما كان بمصر من الاضطرابات والفتن والثورات واستمرت الثورات حتى اضطرت الدولة ان ترسل امير البحر (القبوذان) حسن باشا الجزائري ببعض سفن حربية ونقالات للجند ليوقع الرعب في قلوب الامراء المتمردين (مراد بك وابرهيم بك) وكان ذلك سنة ١٢٠٠ هـ . وقد جاء بسفنه وعساكره الى مصر صاعداً في النيل عن طريق فوة وغيرها رغم ما اظهره الامراء من الطاعة والخضوع لاوامر الخليفة واضطر العصاة ان يفروا الى الصعيد وتم اخيراً الصلح بينهم وبين امير البحر حسن باشا المذكور وهدأت الاحوال وأقام حسن باشا بالصعيد اربع سنوات ثم عاد الى القاهرة وشرع في انشاء دار صناعة بالجيزة وصنعت فيها السفن وجعل بحارتها ورئيسهم من نصارى الاروام واصبح لرئيسهم نيقولا من النفوذ العظيم والسطوة ان اكثر من التعدي على سفن الاسلام والفرنج معاً.وقد ذكر العلامة جودت باشا في تاريخه انه كان من اسباب الحملة الفرنسية على مصر ما اتاه هذا الرئيس نيقولا من المظالم وما اوقعهُ بالتجار الفرنسيين وقد عاد حسن باشا امير البحر بأسطوله الى الاستانة وفي عهد سليم الثالث ازدادت اهمية البحرية العثمانية لما ادخل عليها من الاصلاحات وقد ارسل بعض السفن لحراسة البلاد المصرية

ثم جاء نابليون الى مصر وكانت معركة ابي قير الشهيرة وتمَّ اخيراً الامر لمحمد علي وسترى ذلك مفصلاً في مكانه في العدد التالي

الصناعة في العراق

لابن سعيد

زار كاتب هذا المقال العراق في الخريف الماضي
ودرس شؤونه واحواله وخص المقتطف بهذه المقالة

معمل الجوخ — معامل السكاير —
الصابون — المنسوجات الصوفية

كان العراق حتى نهضته الجديدة محروماً من الصناعات الحديثة قوام الحياة الاقتصادية وركنها الركين فلما انشئت الدولة الجديدة في ربوعه واستقرت اموره ظهر النشاط في كل فرع من فروع الحياة العامة وكان للصناعة من هذا النشاط الحظ الاوفى

ولعل معمل الجوخ العراقي في الكاظمية على شاطىء دجلة من اعظم دور الصناعة الحديثة في العراق واكبرها شأناً فقد بدأ الوجيه فتاح باشا وابنه نوري بك بانشائهِ في سنة ١٩٢٦ يساعدهما نسيب لهما درس فن الميكانيكا الصناعية واختص بها فتولى ادارة العمل الفني وفي سنة ١٩٢٧ تم انشاء هذا المعمل ويضم اليوم ٣٠٠ عامل عراقيّ حذقوا عملهم واتقنوه . وهنالك خبير الماني يستخدمونه وقتيًّا ريثما يعود من اوربا الذين ارسلوا للتخصص في العلوم الصناعية

زرت هذا المعمل ابان رحلتي الاخيرة الى بغداد ، فأعجبني اتقانه ونظامه ، وسرني ان يكون في البلاد العربية امثال هذه المعاهد الصناعية التي يرجى ان تكون نواة نهضتنا الاقتصادية تتلو النهضتين السياسية والوطنية فما أخر الشرق سوى فقر شعوبه واهمالها الصناعات وأخذها بالسفاسف والقشور . وتمتاز هذه الدار الصناعية عن امثالها في الشرق العربي بكونها مستكملة لجميع ما تحتاج اليهِ من معدات وبكونها تغزل الصوف وتصبغه وتنسجه وتخرجه جوخاً للبس والاستعمال اي انها حاوية لجميع المعدات اللازمة لهذه الصناعة الراقية

ولقد شاهدت نفس هذه العملية في ادوارها ورأيت الصوف تعلوه طبقات من الغبار والاقذار حينما يؤتى بهِ من الارياف فتتسلمه نسوة يعملن في (عنبر) قرب الباب فيبدأن بنفشه واعداده وبعد الانتهاء من هذه العملية البسيطة ينقل الى احواض معدة لغسله ، فينقع بادىء بدء في حوض خاص

مملوء بالماء الحار الممزوج بالصودا والصابون مدة ساعتين ثم ينقل الى حوض آخر فثانٍ وثالث ورابع اي انهُ يسير بنفسه مضغوطاً بقوة البخار من حوض الى حوض حتى الرابع وهو اكبرها فيستقر فيه قليلاً ثم يخرج منه وهنا تنتهي عملية الغسيل وتبدأ عملية جديدة هي عملية التجفيف تتولاها ماكينة خاصة في عنبر (الغسيل) فتجففه وتقصره وبعد ان يعرض لنور الشمس ينقل الى المصبغة فيصبغ في احواض خاصة معدة لذلك . ومنها ينقل الى قسم (الحلج) ثم الى ماكينات التمشيط فيخرج منها خيوطاً صوفية وتتكرر «عملية» التمشيط مثنى وثلاث ورباع في ماكينات خاصة وفي كل مرة يزداد الصوف المحلوج الممشط نعومة ومن هنالك ينقل الى المغازل فتبدأ عملية الغزل وتتكرر ايضاً في ادوار مختلفة حتى يخرج الخيط او «الفتلة» طبقاً للحاجة المطلوبة ويبلغ طول الكيلوغرام الواحد من الصوف ٢٤ الف متراً اذا كان الخيط رفيعاً و ١٢ — ١٤ الفاً اذا كان ثخيناً

وبعد ان يصبح الصوف خيوطاً رفيعة ناعمة ينقل الى ماكينة «السدى» فتعده للانوال ثم ينقل الى المناسج ولها عنبر كبير وعددها عندهم ٨٤ نولاً او منسجاً وجميع آلات العمل تدار بالكهربائية وعندهم مولدان للقوة الكهربائية تديرها ماكينات بقوة ٢٥٠ حصاناً تقريباً

وينقل الجوخ بعد انتهاء نسجهِ الى الغسيل فتغسله ماكنات خاصة في احواض مملوءة بالماء الساخن الممزوج بالصودا والصابون وتدقه وتدعكه وتقصره ثم ينشف في ماكينة اخرى اي ان العملية التي عملت قبل النسج تتكرر ولكن بطرق واساليب غير تلك . ثم ينقل الى فرن فيوضع فيهِ مدة ثم يوضع في ماكينة خاصة تنظفه وتزيل ما يعلوه من وبر وتتكرر هذه العملية مثنى وثلاث ورباع على البخار ثم يرسل ثانية الى الفرن ثم يكوى بمكاوٍ خاصة ثم ينظف باليد ثم يكوى ثم يسلم الى ماكنة تطويه وتخرجه اثواباً جاهزة وتضع على كل ثوب رقمه وطول الثوب الواحد ١٠٠٠ متر ولما وقفت على العامل الذي يتولى هذه العملية كان يرقم بالعربية ٣٠١٣ على الثوب الموجود بيده

ويخرج المعمل يوميًّا ٧٠٠ متر من الجوخ وفي استطاعته ان يزيد هذه الكمية عند الحاجة وتباع مصنوعاته في العراق باثمان بخسة فثمن المتر الواحد من الجيد لا يزيد عن ٢٥ قرشاً صاغاً ويصدر كميات الى سورية وفلسطين والخليج الفارسي وايران ومصر وتلقى رواجاً لرخصها وجودة صنعها

ولقد ذكر لي مدير المصنع انهُ كان في نيتهم استحضار صوف من استراليا وهو انعم من الصوف العراقي واصلح للنسج وكانوا يعتمدون في اتمام هذه العملية على مساعدة المغفور له الملك فيصل فقد وعدهم بان يمدهم ماليًّا كما ساعدهم في جميع ادوار العمل وشجعهم بيد ان وفاته قضت على هذا المشروع او ارجأته الى وقت آخر على الاقل . ويقدم المعمل للجيش العراقي ما يحتاج اليهِ من البسة شتوية ومن «بطانيات» ويخرج من هذه كميات كبيرة تلقى رواجاً عظيماً في اسواق العراق والشام لرخصها وجودة صنعها كما يقدم للشرطة العراقية وطلاب المدارس ما يحتاجون اليهِ من البسة يصنعها طبقاً للتوصيات وفي المعمل ايضاً «مفاتل» لغزل الخيطان تخرج مقادير كبيرة منها وعندهم مغزل صغير لغزل

القطن او الحرير الصناعي ويحتاجون اليهِ في صناعاتهم . وكذلك فهم يخرجون مقادير كبيرة من خيطان الصوف يبيعونها للنساج في بادية العراق وفي مدنه فيحيكون منها العباءات ولا يزال عدد لابسيها غير قليل في بغداد نفسها وهم يكثرون في الارياف فلا بدَّ للابس الملابس العربية من عباءة يضعها فوق ثوبهِ في جميع فصول السنة وتختلف بحسب اختلاف الفصول

وفي العراق ايضاً صناعات جديدة نشأت مع النهضة الجديدة ونمت في ظلها ، وفي مقدمتها صناعة لفائف التبغ فقد كان العراقيين يعتمدون حتى الايام الاخيرة على ما يسمونه لفائف « الدك » وطريقة صنعها بسيطة جدًّا وهي انهم يأتون بالدخان فيكسرونه بايديهم حتى ينعم ثم يملأونه باليد في ورق خاص اعدَّ له ويبيعونه على هذه الطريقة بثمن بخس ، ومخازن باعة التبغ في الارياف مملوءة باللفائف الفارغة ولا تملأ الاَّ عند البيع . اما الخاصة فكانوا يعتمدون على التبغ التركي في عهد الترك ثم على التبغ الانكليزي في عهد الاحتلال

وفي بغداد اليوم ما لا يقل عن ١٠ معامل لفرم التبغ واعداده طبقاً للاساليب الحديثة يعمل فيها نحو ٣٠٠٠ عامل والتبغ الرائج عندهم هو التبغ العراقي وقد جاؤوا بتقاويهِ من تركيا وزرعوه في المناطق الشمالية الجبلية المجاورة للاناضول التركي وفي منطقة « السليمانية » فنجحوا نجاحاً كبيراً كما يقولون وولدوا تبغاً لذيذاً . والتبغ رخيص في العراق بالنسبة لما هو عليهِ في مصر والشام لعدم الاحتكار او رسوم جمركية باهظة كما يظهر فعندهم انواع عديدة منها غازي والرشيد وفيصل والملوكي وعبد المحسن السعدون وعلبه فاخرة وسمر العابة ذات العشرين لفافة من الصنف المتوسط ١٠ مليمات ومن الجيد ١٦ مليماً

وكذلك فقد بدأوا بادخال صناعة طبخ الصابون وقد كانوا حتى الحرب العظمى يستوردون مقادير كبيرة من سورية وفرنسا . وفي بغداد اليوم ٣ معامل لطبخه ويستحضرون موادهُ الاولية من الخارج لعدم وجودها في العراق . ولا تزال هذه الصناعة في دور التكوين ولم تلق من النجاح ما اصابته صناعتنا نسج الجوخ ولفائف التبغ

وكذلك عندهم معمل للدباغة . وقد انشأهُ احد اغنياء بغداد سنة ١٩٢٨ ويديره نجله وقد درس هذه الصناعة في انكلترا ، ويخرج هذا المعمل ولا يزال صغيراً للعراق ما يحتاج اليه من جلد ونعل وتباع الاحذية من مصنوعاته باثمان رخيصة جدًّا في اسواق بغداد ويقبل عليها الناس

وقد بدأوا حديثاً بانشاء معمل لغزل الصوف ونسج الاقمشة الصوفية ويرجى ان ينجز قريباً فيستغني العراق عما يستورده من الاقمشة الصوفية

هذا بعض ما عرفته عن حالة الصناعة الجديدة في العراق ولا تزال في دور النشوء والتكوين والمأمول ان تنمو وتتقدم في ظل الدولة العربية الجديدة وبتأييد العرب كافة ومساعدتهم . فالشرق في أشد الحاجة الى ترقية صناعاته حفظاً لثروته ولايجاد اعمال العاطلين من ابنائه وهم كثيرون

تشخيص النسا (١) :

وتعيين الجنس بالتفسرة (٢) وجس النبض والطرائق الحيوية

للدكتور شوكت موفق الشطي

الاستاذ في المعهد الطبي العربي بدمشق

ان ما يتمتع به الذكر من الحقوق في الارث والملك وما له من الاثر في حماية المنزل واستمرار سؤدده ومجده ورفع شأنه جعل الحوامل وبعولتهن وذوي قرباهم يسارعون الى التكهن بجنس (شق) الجنين فدفع ذلك العلماء والعرّافين (٣) الى التنقيب عن وسائل تشخيص الحمل منذ العصور الغابرة فكثر عدد العرافين كان لهم في تاريخ هذا البحث شأن خطير . وكان عرافو المصريين يلجأون الى طريقة غريبة لتشخيص الحمل وتعيين الجنس وقد ظهرت رسالة حديثة تطرقت الى هذا الموضوع واثبتت ان قدماء المصريين كانوا يعرفون منذ اربعة آلاف سنة واسطة تساعد على التكهن بالحمل وجنسه

تستند هذه الطريقة الى تأثير بول الحوامل في القمح والشعير فكانوا يكلفون الحامل أن تروي ببولها يوميًّا كيسين في احدهما قمح وفي الثاني شعير فان نمت الحبوب دل ذلك على الحمل وان لم تنم استدلّ على عدم وقوعه واذا كان نمو القمح اكثر من نمو الشعير دل على ان الجنين ذكر وان وقع العكس كان الجنين انثى . ولعل القول الشائع في الديار الشامية حتى الآن الذي يسترشد به الى جودة الامر او نقيضه وولادة الصبي او البنت « اقمح ام شعير » هي من تراث ذلك العهد

درس ليوليوس منجر Liolios Manger وزوندك Zondek درجة تأثير بول الحوامل في نمو النبات وأخذا يقابلان بين النتائج التي حصلا عليها وما هو مذكور في اوراق البردي . وقد تمكن شولر Schoeller وغوبل Gobel ان يعجلا نمو العيصلان « نبات زنبقي » والبصل العادي والذرة باروائها بالرسول (٤) الحرابي ثم كررا التجربة في نباتات اخرى فنجحت ولما كان بول الحوامل

---

(١) النسأ : مبدأ الحمل . نسئت المرأة تنسأ — بدأ حملها (المخصص) (٢) بول المريض يستدل به على حالته (٣) العراف : الذي يخبر عن الماضي والمستقبل (٤) رسول : ترجمة هرمون وهي كلمة اطلقت على افرازات داخلية تنبه افرازات اخرى ولها انواع كثيرة

محتوياً على هذه المادة وعلى رسول النمو المتولد في فص الغدة النخامية الامامي فلا غرابة في انباته الحب وانمائه . كرر ليوليوس طريقة المصريين القديمة فنجحت في تشخيص الجنس ولم تفد في اظهار الحمل لان البول يعيق نمو النبات ممدداً كان او صافياً ولعل سبب خيبة تجربته استعمال حبوب القمح العادي لا النوع الفارسي المذكور في اوراق البردي

وجاء في قانون ابن سينا ان بول الحوامل صاف وربما كان على لون ماء الحمص وماء الاكارع اصفر فيه زرقة وعلى رأسه ضباب وفي وسطه كقطن منفوش وكثيراً ما يكون مثل الحب ينزل ويصعد وان كانت الزرقة شديدة الظهور فهو اول الحمل وان كان بدلها حمرة فهو آخره وخصوصاً اذا كان يتكدر بالتحريك . وجاء في كتاب شفاء الاسقام ودواء الآلام لنور الدين الشهيد ان ابوال الحبالى صافية لاحتباس ما يغلظ البول ويكدره عليها ضباب في رأسها لطيف يطلب الاعالي من المائية ويقف هناك

وذكر اطباء العرب عن نبض الحوامل انهُ عظيم وسريع ومتواتر بسبب مشاركة الولد لأمه وكانوا يستطيعون تشخيص الحمل بجس النبض . ولا تزال هذه الفكرة سائدة في الاذهان حتى يومنا هذا وكثيراً ما تسأل النساء الاطباء ان يجسوا نبضهنَّ وينبئوهنَّ عن كونهنَّ حوامل وعن نوع الحمل

سعى العلماء لمعرفة الجنس فزعم ابقراط ان مدة اقامة الصبي في الرحم اقل من زمن اقامة الانثى ونقل ارسطاطاليس وجالينوس آراء وذكر اطباء العرب المجوسي والرازي وابن سينا ان المرأة اذا كانت حاملاً بذكر تبكر معها حركات الجنين واذا كان الحمل انثى تأخرت الحركات

قال الرازي الحبلى بذكر ابسط واصح نوماً وشهوة واسكن اعراضاً تحس بالنقلة في الجهة اليمنى ويعظم الثدي الايمن اولاً وتحمر حلمته ويكون اللبن غليظاً ابيض وتحرك الرجل اليمنى اذا مشت وتعتمد على اليد اليمنى اذا قامت وتكون عينها اليمنى اخف واسرع حركة والذكر يتحرك بعد ثلاثة اشهر والانثى بعد اربعة اشهر

وذكر غيره من اطباء العرب ان مما يدل على ذكورة الحمل كون النبض متوتراً قوياً والهضم سهلاً ووجود خط اسمر او اسود على الخط المتوسط للبطن وقالوا ان فحص البول قد يرشد الى معرفة جنس الحمل فجاء في كتاب شفاء الاسقام « ان طفا على البول غمامة تغطي جميع وجه الماء دل على ان الولد ذكر وان كانت الغمامة في جانبه فالولد انثى وان كانت كالحبات فليست المرأة حبلى بل كان ذلك دليلاً على الرياح »

***

ليس من الحكمة بعد ان اوردنا ما تقدم عن طريقة المصريين وما عرفه اطباء العرب ان نتهم القدماء بالغفلة لذكرهم اساطير كهذه ولا ان ننبذها قبل ان نبحث عنها بحثاً دقيقاً لان اكثرها وليد اختبارات جمة ومشاهدات عديدة . واكبر دليل على ذلك ما اثبته العلم في الوقت الحاضر وهو

امكان تشخيص الحمل منذ بدأه وتعيين الجنس بواسطة البول واننا نذكر فيما يلي احدث ما وصل اليه الاحيائيون biologists في السنين الاخيرة والطرق المستعملة اليوم

لم يتناول الاحيائيون سابقاً هذا البحث اعتقاداً منهم انه سرّ من اسرار الطبيعة الى ان كشف ابدرهالدن Abderhalden سنة ١٩١٢ القناع عن هذا السر وقال بتفاعله المثبت للحمل وقد أمّل الاحيائيون ان يتوصلوا الى تعيين الجنس بتعميق ابحاثهم بعد ان وفقوا الى تشخيص الحمل

بحث زوندك واشايم Asheim في ذلك وقالا بوقوع وجوه من التغير في الدم خلال الحمل تساعد على تشخيص النسأ والجنس اذ لا يخفى ان الحمل يؤثر في الغدد الصم فيضطرب توازن رسلها وتتبدل الاخلاط الدموية . نذكر فيما يلي نبذة عن تفاعل ابدرهالدن لما له من القيمة التاريخية فقط ثم نذكر التفاعلات المستعملة اليوم والمستندة الى بول الحوامل كما كان الامر قديماً

تفاعل ابدرهالدن ، يستند الى تبدل خواص الاخلاط بتأثير اسباب معينة فيظهر في دم الحوامل مثلاً عناصر آحينية (زلالية) خاصة تقابلها الاخلاط بخمرات تصنعها الكبد والكريات البيض

يستند التفاعل المذكور الى كشف هذه الخمائر في مصل دم الحوامل . ولم تنتشر هذه الطريقة لانها دقيقة صعبة وليست نتائجها مع ذلك صحيحة فقد يبدو التفاعل سلبيًّا في الحمل وايجابيًّا في غيره ثم عرفت في هذه السنوات الاخيرة طرائق متعددة اهمها طريقة اشايم وزوندك والتفاعلات المعدلة عنها

اثبت هذان المؤلفان ان بول الحامل يحتوي على رسل الفص النخامي الامامي الخاصة بالحمل فاذا حقنت به ادراص [1] نما مجراها التناسلي وضخمت رحمها واحتقنت ولتمّت الاباضة (تكون البيضة الناضجة) ونزف المبيض . وقد استعملت هذه الطريقة في المانيا فكانت نتائجها صحيحة في ٩٩ حادثة من مائة

يظهر رسول الفص الامامي في البول بعد الالقاح ببضعة ايام ولا يزول الا بعد الولادة ، تحقن الفأرة الصغيرة مرتين او ثلاث مرات بالبول في اليوم الواحد مدة ثلاثة ايام متتابعة ثم تقتل وتفتح جثتها ويفحص مبيضها فان بدت فيه بقع نزفية دلّ ذلك على الحمل

وقد استبدل بروها Brouha وسيمونه Simonet الحيوان المؤنث بذكر . يحقن البول مرة في اليوم مدة ٨ الى ١٠ ايام متعاقبة ثم يقتل الحيوان بعد يومين وتفتح جثته وتوزن خصيتاه ولا سيما الحويصلان المنويان فان ازداد حجمها بالنسبة الى حيوانٍ شاهد لم يحقن دلّ ذلك على الحمل والعكس بالعكس . وقد بدت نتائج هذه الطريقة مشابهة لسابقتها

وقد ارتأى بروها Brouha وفريدمن Friedman ان يُلجأ الى حيوانات كبيرة لان التفاعلات في الصغيرة منها قد لا تكون جلية فاتخذا الارانب في اختبارها ولا يشترط في الارنبة ان تكون دون

(١) ادراص : جمع درص وهو ولد الفأر

البلوغ بل يكفي ان تكون بعيدة عن الذكر لئلاّ تبيض (تكون البيضة الناضجة) بتأثير الجماع فيتشوش العمل

***

تبدو التبدلات الكاشفة لهذا التفاعل كالبقع النزفية في المبيض وتبيُّغ [1] الدم في المجاري واضحة وضوحاً كبيراً كما ان وريد الارنبة الهامشي كبير والحقن فيه سهل . فيحقن الوريد المذكور بـ ٥ — ١٠ سنتمترات مكعبة من البول . ولا بأس من تكرار الحقن مرة ثانية في اليوم الثاني ثم تقتل الارنبة في اليوم التالي للحقنة الثانية وتفتح جثتها ويشاهد ماوقع من التغير في مجراها التناسلي واعضائه

ينتخب بول الصبح عادة على ان يطهر بترشيحه من الشمعات وتكلف المرأة أن لا تتجرع دواء في اليوم السابق . وقد كانت نتائج هذه الطريقة صحيحة ايضاً في ٩٩ حادثة من مائة $\frac{٩٩}{١٠٠}$ لذلك كان من اللازم الاعتماد عليها في التشخيص والاسترشاد بها في بعض الامور الشرعية والقانونية

وقد عرفت حديثاً وسيلة لكشف الجنس تقوم بحقن وريد الارنب البالغ الهامشي ببول المرأة فاذا نمت خصيتاه دلّ على ان المرأة حامل بأنثى ولا يطرأ عليها اقل تبدل اذا كان الحمل ذكراً . توصل الى ذلك مؤلفان اميركيان وهما ج . هـ . دورن J. H. Doru وأدوار سوغرمان Edouard Sugarman بينما كانا يجرّبان طريقة زوندك واشايم في تشخيص الحمل . غير ان النتيجة لا تكون صحيحة الاّ اذا كان سن الحيوان مناسباً . ينتخب لذلك ارانب في دور البلوغ قد بدأت خصيتاها بالنزول . وقد لاحظ هذان المؤلفان ان مدة هبوط الخصية واجتيازها الحلقة المغبنية وبلوغها جدار الصفن تختلف من عشرة الى خمسة عشر يوماً . يراقب سير هبوط الخصية بالجس البسيط ولا يصلح الارنب للاختبار المذكور الاّ في هذه المدة فقط . وطريقة العمل : يؤخذ ١٠ سنتمترات مكعبة من بول الحامل الصبحي ويحقن احد اوردة الارنب واحسنها الهامشي بها ثم يقتل الحيوان بعد ٤٨ ساعة وتفحص خصيتاه عيناً ومجهراً فاذا كان التفاعل ايجابيًّا اي دالاً على كون الجنس انثى تتكاثر عروق الخصية ويبدأ تولد المني فيها واما اذا كان الجنين ذكراً فلا يظهر اقل تبدل في الخصية . وقد كانت نتائج هذا الاختبار صحيحة في ثمانين حادثة من ٨٥ حادثة $\frac{٨٠}{٨٥}$

يستنتج مما تقدم ان ابحاث القدماء واختباراتهم جديرة بالعناية والاهتمام وكثيراً ما اثبت العلم صحة ما دونوه وكما انهُ جاز للمؤرخين ان يقولوا بان التاريخ يعيد نفسه يجوز ان يقال ايضاً بان العلم يعيد نفسه في بعض الاحيان مع الاحتفاظ بالتناسب بين شتى العصور طبعاً ودليل ذلك تأييد مؤلفي الالمان صحة اختبارات المصريين التي مضى عليها اكثر من ٤٠٠٠ سنة . لذلك كان علينا نحن معشر الشرقيين ان نقتبس من علوم الغربيين فقد سبقونا اشواطاً بعيدة في مضمار الرقي وان لا نهمل الماضي بل علينا ان ننقب في بطون الكتب لنبحث عما عني به اجدادنا ونقتطف ثمار ابحاثهم وعلومهم

---

(١) تبيغ الدم تهيج وتوقد حتى يظهر في العروق

الخبراء الاجانب

وتقاريرهم عن التعليم في مصر (١)

في السنوات الخمس الاخيرة : انتدبت وزارة المعارف جماعة من الخبراء الاجانب ، لدراسة نظم التعليم العامة في مصر ، والنظر في السياسة التعليمية او لدراسة نظم مدارس معينة كمدرسة الهندسة الملكية . وما نلاحظه عما لهذه التقارير من الشأن ، ان النظر في السياسة التعليمية في بلادٍ ما ، لا بدّ ان يراعى فيه دراسة مستفيضة لتطور نظم التعليم والاسباب التي ادت الى هذا التطور ، ودراسة سيكلوجية لمستوى التلاميذ العقلي وبحث اقتصادي واجتماعي للبيئات المختلفة . لهذا وجب ان تؤخذ تقارير هؤلاء الخبراء ، والنتائج التي وصلوا اليها بشيء من التحفظ ، لاسيما ما يختص منها بسياسة التعليم العامة . ولـكن لا شك في ان آراء هؤلاء الخبراء فيها شيء كثير من الحقيقة . لاسيما ما كان منها خاصًّا بالشؤون التى لا تعتمد على الاستعداد السيكلوجي او اعتبارات البيئة وان كان غير واحد من المشتغلين بالتعليم في مصر قد ردد جانباً كبيراً من هذه الملاحظات في فترات مختلفة.

واهم هؤلاء الخبراء الذين درسوا نظم التعليم العامة ، كلاباريد السويسري ومان الانجليزي

﴿ مهمة كلاباريد ﴾ الدكتور كلاباريد ، مدير معهد البيداجوجيا (التربية) واستاذ علم النفس الخاص بالاطفال في جامعة جنيف في سويسرا وقد ندبته وزارة المعارف وعهدت اليه في وضع خطة عامة للاصلاح المدرسي تتناول النظام السائد حالاً في مصر وبوجه خاص مدرسة المعلمين . وقد جاء كلاباريد في اواخر شهر اكتوبر سنة ١٩٢٨ ، وبقي نحو ثمانية اشهر ، اصدر بعدها تقريراً عن آرائه ومباحثه ، طبعته وزارة المعارف فيما بعد . وقد اعتمد في دراسته على مصادر متعددة ، منها آراء المعلمين والمفتشين وخبراء الامتحانات ثم على الملاحظات التي عنّت له في خلال زياراتهِ للمدارس المختلفة ، كذلك على الاختبارات السيكلوجية التى اجراها على بعض تلاميذ المدارس في مختلف درجات الدراسة في المدن والارياف ، كما انه اعتمد على ملاحظات لفيف من طلاب مدرسة المعلمين العليا

واهم المباحث التي عهد الى الاستاذ كلاباريد في درسها ما يأتي :

(١) نظام مدارس المعلمين ، وهل تختلط فيها المواد العلمية البيداجوجية، وهل تنضم مدرستا المعلمين الى كليتي العلوم والآداب بالجامعة المصرية. وما الخطة التي تسير عليها الوزارة في تخريج المعلمين.

(٢) دراسة نظام التعليم العام : وهل النظام الدراسي في جميع مراحل التعليم يحتاج الى اصلاح او تغيير لا سيما من حيث مواد الدراسـة وعددها ومقدارها ومن حيث التوحيد بين الدراسة في مدارس

---

(١) فصل من « تقويم التعليم » صنفه احمد عطية الله ومنشه دار الهلال للطبع

البنين والبنات وعدد المدارس التي تخصص لكل مرحلة بالقياس الى عدد السكان. (٣) دراسة نظام التعليم الالزامي — وهل الخطة المتبعة تتفق مع الانتقال من حالة الامية الى حالة المعرفة من الوجهتين الاجتماعية والتعليمية (٤) دراسة ميزانية التعليم بالقياس الى الميزانية العامة (٥) علاقة المدارس العليا بالجامعة

يرى كلاپاريد ان المشتغلين بالتعليم يخلطون بين الغرض من التعليم والغرض من التربية وان كان لا يرى ان هـذا الخطأ خاص بمصر وحدها غير ان مصر باستمدادها النماذج المدرسية من اوربا انما نقلت منها اسوأ النماذج وزادتها سوءاً من عندها. واكبر ظاهرة في هذا الاضطراب، الغلو في التعليم وبناؤه على الفاظ يحفظها التلميذ دون فهم لمعانيها وهذا كلهُ نتيجة لتحميل المناهج الدراسية ما لا تطيق وخوف الامتحانات وجهل اساتذة كثيرين بطبيعة عقل التلميذ وضرب مثلاً لذلك بدروس الديانة. ورأى ايضاً ان التفاوت في اعمار تلاميذ الفرقة الواحدة كبير وعدَّد الاضرار الخلقية والفنية التي تنشأ عن هذا التفاوت. ثم انه لاحظ كثرة عدد التلاميذ في فرق مدارس الاطفال كثرة شاذة. وكذلك انتقد تخصيص المعلمين في المدارس الاولية والابتدائية. واخذ على نظار المدارس انصرافهم عن دراسة حالة تلاميذهم النفسية والصحية. ثم انه نقد الابنية المدرسية وقلة مدارس البنات

﴿ ماذا يقترح كلاپاريد ﴾ شخص كلاپاريد الداء ثم انه اقترح علاجاً لهُ واهم مقترحاته ما يلي :

نقص عدد التلاميذ في الفرق مع زيادة التجانس في السن والمستوى العقلي واختبار كل طفل على حدته اختباراً فردياً مع تعيين معلمي فرق في المدارس الاولية والابتدائية وجعل تعليم الاطفال الى التاسعة في ايدي المعلمات. ثم انه يرى تضييق نطاق المناهج وتعديل نظام الامتحانات وجعلها تعتمد على التفكر لا على الاستظهار. ثم انه يرى توسيع نطاق التعليم الابتدائي والثانوي للبنات والاتئاد في نشر التعليم الالزامي ريثما يتخرج المعلمون القادرون على القيام باعبائه. واقترح تعديل اسلوب اعداد المعلمين وانشاء فرق متنقلة لنشر الثقافة في الارياف والقاء محاضرات اسبوعية في التربية لتجويد المعلمين وتعيين مفتشين سيكولوجيين لمواصلة البحث في المدارس ولارشاد المعلمين. ثم انهُ ندَّد بنظام المركزية في التعليم واشار بوجوب منح مدى من الحرية للمعلمين ونظار المدارس

﴿ تقرير المستر مان ﴾ : ندبت وزارة المعارف المستر (مان) مفتش المدارس وكليات المعلمين بوزارة المعارف الانكليزية لدراسة سياسة التعليم في مصر فجاء في سبتمبر سنة ١٩٢٨ وامتدت زيارته الى ابريل سنة ١٩٢٩ واعدَّ تقريراً قدمه إلى وزارة المعارف. وأهم المسائل التي طاب اليه بحثها وابداء الرأي فيها نظام تخريج المعلمين ثم مناهج الدراسة المتبعة في مراحل التعليم العام والعلاقة بين مناهج مدارس البنات والبنين ثم دراسة نظام التعليم الاولي الالزامي وعدد المدارس اللازمة لكل مرحلة من مراحل التعليم ثم ابداء رأيه فيما يجب تخصيصه للتعليم من ميزانية الدولة العامة

يرى المستر مان أن ما أعد حتى الآن من وسائل التعليم الاولي ناقص نقصاً كبيراً كما ان تعليم الاطفال في المدارس بحسب الطرق الحديثة يكاد يكون معدوماً في جميع انحاء القطر حالة أن ما أعد للتعليم

العالي وما يتبعهُ من التعليم الابتدائي والثانوي يزيد زيادة فاحشة بالقياس الى ما أعد للتعليم الاولي. ثم ان ما إعد من الوسائل لتعليم البنات يسير اذا قيس بما أعد لتعليم البنين . أما فيما يختص بأجور التعليم وبنظام المجانية وبالمرتبات المدرسية فيرى انها غير منظمة وناقصة من بعض الوجوه

وهو يستهجن التغالي في تركيز السيطرة على التعليم في الادارة الرئيسية ، هذا الذي ادى الى طبع المدارس وطرق التدريس ومواد الدراسة بطابع واحد . لهذا يقترح ان يعدل نظـام اختصاص الموظفين في وزارة المعارف تعديلاً يمنع الخلط في الاعمال الادارية ، كما يرى ان يعهد في ادارة التعليم الاولي وما يتبعهُ من مدارس المعلمين والمعلمات الى سلطات محلية مع توزيع المفتشين على مناطق معينة ثم هو يقترح أن يخول نظار المدارس قسطاً من الحرية اوفر مما يخوَّلونه الآن في ادارة مدارسهم

وقد اهتم المستر مان بأمر الامتحانات اهتماماً كبيراً واقترح اقتراحات عديدة بشأن كل شهادة من الشهادات فهو يرى مثلاً الاَّ يمتحن الطلبة في الشهادة الابتدائية الا في الرياضة واللغة العربيـة ولغة اوربية واحدة . اما في التعليم الثانوي فاقترح ان يباح للتلاميذ التخصص في الدراسة العلمية او الادبية ابتداء من السنة الاولى مع انقاص عدد المواد المقررة للامتحان . وعنده ان يبطل اعطاء شهادات للطلبة الناجحين في امتحان شهادة اتمام الدراسة الابتدائية ، وإلغاء نظام الملاحق وعـدم اعتبار الشهادات الدراسية اساساً لتعيين موظفي الحكومة

وقد درس الخبير الانكليزي مسألة الحياة الاجتماعية الخاصة بالطلبة الغرباء فرأى ان تتولى المدرسة التي هم فيها امر سكناهم وتدبير شئون معيشتهم ورياضتهم واعداد فنادق مدرسية موافقة للطلبة الكبار وتنقيح جداول اوقات الدروس بقصد ايجاد فترات كافية لتمكين المدرسين والطلبة من الاستراحة وتناول الغذاء .وقد عني في تقريره بأمر المدارس الفنية المتوسطة فهو يرى ان يؤخذ التلاميذ لهذه المدارس من المدارس الاولية مباشرة ويراعى في الاختيار صغر السن . اما عن نظام التعليم فهو يرى وجوب مقاومة تغلب الدراسة النظرية والعلمية على الدراسة العملية في التعليم الفني وذلك بتأليف مجلس استشاري في كل مدرسة وزيادة عدد معلمي الصناعات ممن سبق لهم ان مارسوا العمل في ميدان الصناعة الحرة

ويتبين مما تقدم ان هذين التقريرين يشيران الى ضرر نظام المركزية في التعليم والاهتمام الشاذ بأمر الامتحانات العامة وتشجيع التعليم الابتدائي والثانوي على حساب التعليم القومي . اما اصلاح نظام التعليم فلا يكون الاَّ باعطاء حرية كافية للنظار والمعلمين وبصرف العناية عن التعليم التلقيني النظري . ومما نلاحظه عن تقرير الخبير السويسري عنايته بالدراسة السيكولوجية الفردية للتلاميذ ، الاَّ انه اخطأ في تطبيق الاختبارات الاوربية على التلاميذ المصريين لذلك كانت النتيجة التي وصل اليها غير صحيحة وهي انخفاض مستوى ذكاء الطفل المصري عن اي طفل اوربي . اما آراء الخبير الانكليزي فشبعة بنظام التعليم الانكليزي

واعظ المنصور

[من اهل الحق رجالٌ يجلوهم الحق كجلاء السيوف ، حتى يستوي عندهم هام الناس من الملوك بأذنابهم من السوقة والعامة ، فاذا وقفوا بين يدي الملوك ارسلوا عليهم من مواعظِهم شواظاً من نارٍ تحـرق ضعاف الملوك ، فهم فيها كيابس الحطب ، وتنقي كرامهم ، فهمْ فيها كالذهبِ ، لا يزدادُ على النارِ الاّ بهاءً وصفاءً . وهؤلاء الرجالُ من الحياة بمنزلة الملوك ، لانهم همْ ساسة الحقّ والقائمون بأمره في هذه الدنيا . وواعظ المنصور هو امامٌ من ائمة هؤلاءالافذاذ]

بينما المنصور يطوف ليلاً إذ سمع قائلاً يقول :

اللهمّ اني اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع

فخرج المنصور ناحية من المسجد وأرسل الى الرجل يدعوه ، فصلى الرجل ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليهِ بالخلافة

فقال المنصور : ما الذي سمعتك تذكر من ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوتَ مسامعي ما ارمضني

قال : يا امير المؤمنين ان أمّنتني على نفسي أنبأتك بالامور من اصولها ، والاّ احتجزت منك واقتصرت على نفسي ففيها لي شاغل، فقال :

أنت (آمِنٌ) على نفسك (فقل) ، فقال : إن الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغي والفساد لأنتَ

قال : ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي !

قال : وهل دخل احداً من الطمع ما دخلكَ ! إن الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالهم فأغفلت امورهم واهتممت بجمع اموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجصّ والآجرّ وأبواباً من الحديد وحجبةً معهم السلاحُ ثم سجنت نفسك فيها عنهم ، وبعثت عمالك في جباية الاموال وجمعها ، وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع ، وأمرت بألاّ يدخل عليك من الناس الاّ فلان وفلان نفرٌ سميتهم ، ولم تأمر بايصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العاري ولا الضعيف الفقير ولا احدٌ الاّ وله في هذا المال حقٌ

فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت الاّ يحجبوا عنك ، تجبي الاموال وتجمعها ولا تقسمها قالوا : هذا قد خان الله فما بالنا لا نخونه وقد سجن لنا نفسه ! فأتمروا بألاّ يصل اليك من علم اخبار الناس شيء الاّ ما ارادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف امرهم إلاّ قصبوه عندك ونفوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم ، اعظمهم الناس وهابوهم ، فكان اول من صانعهم عمالك بالهدايا والاموال ليقوَوْا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا بهِ ظلم من دونهم ، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً ، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل فان جاء متظلم حيل بينه وبين دخول مدينتك ، فان اراد رفع قصته اليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ، وأوقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم فان جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك (خبره) سألوا صاحب المظالم ألا يرفع مظلمتهُ اليك ، فان المتظلم منهُ له بهم حرمة ، فأجابهم خوفاً منهم فلا يزال المظلوم يختلف اليه ويلوذ بهِ ويشكو ويستغيث وهو يدفعهُ ويعتل عليه ، فاذا اجهد وأحرج وظهرت ، صرخ بين يديك ، فضرب ضرباً مبرحاً ، ليكون نكالاً لغيره ، وأنت تنظر فلا تنكر ، فما بقاء الاسلام على هذا !

وقد كنت يا امير المؤمنين (اسافر) الى الصين فقدمتها مرة وقد أصيب ملكها بسمعه ، فبكى يوماً بكاءً شديداً فحثهُ جلساؤه على الصبر فقال : أما اني لست ابكي للبلية النازلة بي ، ولكني ابكي لمظلوم بالباب يصرخ ولا اسمع صوته ثم قال : أما اذ ذهب سمعي فان بصري لم يذهب ، نادوا في الناس ألاّ يلبس ثوباً احمر إلاّ متظلم ، ثم كان يركب الفيل طرفي نهاره ، وينظر هل يرى مظلوماً

فهذا يا امير المؤمنين مشرك بالله غلبت رأفته بالمشركين شح نفسه وأنت مؤمن بالله ثم من اهل بيت نبيه لا تغلب رأفتك بالمسلمين على شح نفسك ، فان كنت انما تجمع المال لولدك ، فقد اراك الله عبراً في الطفل يسقط من بطن امه وما له على الارض مال ، وما من مال الاَّ ودونه يد شحيحة تحويه فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس اليهِ ، ولست بالذي تعطي بل الله يعطي من يشاء ما يشاء ، وان قلت انما اجمع المال لتشديد السلطان فقد اراك الله عبراً في بني امية : ما اغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وأعدوا من الرجال والسلاح والكراع حتى اراد الله بكم ما اراد ، وان قلت انما اجمع المال لطلب غاية هي اجسم من الغاية التي انا فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيهِ الاَّ منزلة لا تدرك الاَّ بخلاف ما انت عليه يا امير المؤمنين ، هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل

قال المنصور : لا ، قال : فكيف تصنع بالملك الذي خولك ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ! ولكن بالخلود في العذاب الاليم ، قد رأى ما قد عقد عليهِ قلبك وعملتهُ جوارحك ونظر اليهِ بصرك واجترحتهُ يداك ومشت اليهِ رجلاك ، هل يغني عنك ما شححت عليهِ من ملك الدنيا اذا انتزعهُ من يدك ودعاك الى الحساب

فبكى المنصور وقال : يا ليتني لم أخلق ! ويحك ! فكيف احتال لنفسي

قال . يا امير المؤمنين إن للناس اعلاماً يفزعون اليهم في دينهم ويرضون بهم فاجعلهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم في امرك يسددوك

قال : قد بعثت اليهم فهربوا مني

قال : خافوا ان تحملهم على طريقتك ولكن افتح بابك وسهّل حجابك وانصر المظلوم واقمع الظالم وخذ الفيء والصدقات مما حل وطاب واقسمهُ بالحق والعدل على اهله وأنا الضامن عنهم ان يأتوك ويسعدوك على صلاح الامة . وجاء المؤذنون فسلموا عليهِ فصلى وعاد الى مجلسهِ وطُلِبَ الرجل فلم يوجد



معاهدات الصلح

جو الحرب في المؤتمر

انقضى شهران على عقد الهدنة (١١ نوفمبر ١٩١٨) قبلما اجتمع مؤتمر الصلح في باريس . وكان بعضهم قد اقترح ان يعقد المؤتمر في مدينة جنيف ، حيث يكون بعيداً جهد الطاقة عن روح الحرب التي تسود جوّ العواصم الكبرى . ولكن الحكومة الفرنسية اصرّت على رغبتها في ان يوقع الالمان معاهدة الصلح في ردهة المرايا في قصر فرساي ، حيث اعترفت فرنسا بهزيمتها سنة ١٨٧٠ . فلما اجتمع المؤتمر كان خلواً من ممثلي الدول المركزية، لانّ القرار كان قد تمّ على ان تمنع المانيا وحلفاؤها من الاشتراك في وضع معاهدة الصلح ، وان تملى شروطهُ عليها إملاءً . ولكن المانيا كان قد وثقت بالرئيس ولسن ، وولسن كان قد جاء باريس ليحضر المؤتمر ويشترك في وضع المعاهدة. وليس ثمة شكٌّ في انهُ قابض على مفتاح الصلح بكلتي يديهِ . ذلك ان دول الحلفاء كانت مدينة للولايات المتحدة ومعظم دول اوربا المركزية كانت تعتمد على جمعيات الاغاثة الاميركية في انقاذها من الموت جوعاً . ولذلك توقعت المانيا صلحاً قائماً على النصفة والعدل ، وفصلاً سريعاً في المشكلات التي تحتاج الى فضٍّ . غير أن المانيا لم تحسب حساباً لجوّ باريس . ذلك ان كلّ دولة ودويلة من الدول المتحالفة والمشتركة في الحرب ، كانت قد بعثت بمندوبيها الى باريس ، وكان كل ممثل مصمّماً ألاَّ يغادر باريس الاّ وقد اصاب نصيباً من الغنائم والاسلاب . فكان الامل في سرعة الوصول الى اتفاق املاً خلّباً . اما من حيث النصفة والعدل ، فاين السبيل اليهما ، وباريس ما تزال تغلي بحمى الحرب واحقادها وضغائنها . كان زعيم الوفد الفرنسي المسيو جورج كلمنصو ، قد صرّح بان غرضه سحق المانيا . وكان زعيم الوفد البريطاني المستر لويد جورج ، قد فاز — قبيل ذلك — في انتخاب بريطاني عام وشعاره فيهِ «احملوا المانيا على الدفع» و«يجب ان نشنق القيصر» . ثم كيف تخبو الضغينة على المانيا في بضعة اسابيع او بضعة شهور وهي التي ولّدتها في النفوس دعاية قوية منظمة خلال اربع سنوات ? طغت هذه الضغينة على النفوس كأنها الاتيّ لا حيلة لك في صدهِ فوقف ازاءها الرئيس ولسن حائراً عاجزاً

وكذلك اجتمع في باريس ممثلو الارمن الذين نجوا من الذبح ، ووفود الفرس ، ومندوبو العرب

الذي وعدتهم بريطانيا وقطعت لهم عهداً بالاستقلال على يد الكولونل لورنس وزنوج من افريقية وصينيون ويابانيون وروسيون (لا يمثلون الحكومة القائمة حينئذٍ) وتشكيون وكرواتيون وسلوفينيون ولتفيون واستونيون واقرانيون، علاوة على ممثلي الدول الكبرى الظافرة . جاء جميع هؤلاء الى باريس، ولكلّ مطلب عزيز، يؤيده بالادلة التاريخية او التوزيع الجغرافي او حجة العدل الهابط من العُلى . وكان في كثير من هذه المطالب، جورٌ على العدل وتعدٍّ على التوزيع الجغرافي. ذلك ان كل امة كانت في الغالب ترمي الى ضمّ قطعة من بلاد مجاورة يقطنها شعب غير شعبها، ولكن المندوبين قامروا على جهل ولسن ولويد جورج بهذه الحقائق الجغرافية الدقيقة . ثم انهم حسبوا حساباً للمساومة فطلبوا اكثر مما يتوقعون الحصول عليه

مجلس الاربعة

كيف يستطيع مؤتمر مؤلف من ممثلي اثنتين وثلاثين دولة ان يقبل على معالجة هذه المشكلات من دون ان يسرف في الخطابة والجدل العقيم . لذلك تقرّر في بدء المؤتمر ان يعهد الى مجلس مؤلف من عشرة رجال في وضع معاهدة الصلح . ثم تبيّن ان العشرة عدد كبير ، اذا كانت الامم ترغب في الحصول على معاهدة صلح في بضعة شهور . لذلك عيّن مجلس ، مؤلف من ولسن وكلمنصو ولويد جورج واورلندو ، لوضع المعاهدة . وعرف هذا المجلس بمجلس الاربعة . وقد وصف المستر كاينز الكاتب والاقتصادي البريطاني هؤلاء الرجال وصفاً بديعاً في كتابه «نتائج الصلح الاقتصادية» :قال: جلس كلمنصو لابساً قفازيه الرماديين على كرسي مغطى بالحرير المطرّز وكأنهُ جالس على عرش . جافيَ الروح خالياً من الامل شيخاً متعباً — ... كان ينظر الى فرنسا ، نظر بركليس الى اثينا .... هي الخير الاعلى في الدنيا ، وليس ثمة غيرها شيء يؤبه لهُ .... اما مبدأهُ في معاهدة السلام فيمكن ان يلخّص في انهُ كان يعتقد ان الالماني لا يفهم الا البطش ، وفي المفاوضات لا يدرك معنى السخاء او تأنيب الضمير، وانهُ في سبيل مغنم ما لا يقف عن ايّة خسة ، فهو لاشرف لهُ ولا كرامة ولا رحمة». ويقابل كلمنصو الرئيس ولسن . قال فيهِ كاينز : «كان الرئيس اشبه بقسيس .... لم يكن عنده خطة يريد ان يجري عليها ، ولا مقترحات عملية تبعث الحياة، في الوصايا التي اذاعها من البيت الابيض ... كان في استطاعتهِ ان يلقي عظة بليغة او يرفع دعاء حارًّا الى العزة الالهية ، في كل موضوع من موضوعاتها .... ولكنهُ كان عاجزاً عن تطبيقها تطبيقاً عمليًّا ، على حالة اوربا الراهنة ... وعلاوة على ذلك كان ما يعرفهُ عن احوال اوربا خاطئاً في الغالب . ومع ذلك كان يسمح لنفسه ، ان ينفرد كل يوم ، برجال ابرع منهُ واوسع حيلةً .... فتأثر بالجوّ الذي يحيط به واصبح يتحدّث في شؤون الصلح ، على اساس الحقائق التي يقدمونها والخطط التي يقترحونها عليه ، وكذلك سار معهم في الطريق الذي اختاروهُ» . وكان لويد جورج في الغالب ، يوافق كلمنصو ، الذي ما برح طوال المؤتمر

يذكره بالعهد الذي قطعهُ امام الناخبين البريطانيين « احملوا المانيا على الدفع » . وقد قال كلمنصو في لويد جورج :— « اظن ان هذا الرجل يستطيع ان يقرأ ولكنني اشك في انهُ يفعل » وقال كذلك في لويد جورج وولسن : « الاول يحسب نفسه نبوليون بونابرت اما الثاني فيظن انه السيد المسيح » . وماذا تقول في اورلندو ؟ كان اورلندو لا يعرف الانكليزية وكان ولسن ولويد جورج يجهلان الفرنسية فالتخاطب بينهم كان متعذراً . اما كلمنصو فكان يجيد اللغتين ويعرف الهدف الذي يرمي اليهِ ، فكان الصلة بين الفريقين فسيطر على المؤتمر

وكذلك تبدّد كل امل بتحقيق حلم الرئيس ولسن . كان الثلاثة وبوجهٍ خاص كلمنصو ، ابرع منه في المناورات السياسية ، فتغلبوا عليه في معظم المسائل وهو لايدري انهم تغلبوا عليه . بيد ان كلمنصو ، كان داهية في استرضائهِ حيث لا يكلفه الاسترضاء شيئاً . خذ مثلا على ذلك موضوع « ميثاق جمعية الامم » فان ولسن اصرّ على جعلهِ في مستهَلّ كل معاهدة من معاهدات الصلح . فاعترض على ذلك لويد جورج واورلندو ، بحجة ان العالم لايستطيع ان ينتظر حتى يوضع دستور الجمعية وينقح ، ولكن كلمنصو انحاز الى ولسن ، ودافع عن رأيه ، حتى اقرَّهُ مجلس الاربعة وخرج ولسن من هذا الجدال باكليل الغار

عقاب المانيا

ولما همّ المؤتمر بعقد معاهدة الصلح مع المانيا ، عرضت لهُ ثلاث مشكلات

كانت المشكلة الاولى ما يعرف بدولة الرين . ذلك ان الوزارة الفرنسية كانت قد طلبت انشاء دولة مستقلة على نهر الرين ، تقوم بين المانيا وفرنسا مقام المجنّ بين الجندي وخصمه ، على ان تنشأ من ارض كانت المانية قبل الحرب ، وتكون خاضعة للنفوذ الفرنسي بعد الصلح . فاعترض ولسن على ذلك فتنازل كلمنصو ، بعد اخذٍ وردٍّ طويلين عن « دولة الرين » المقترحة ولكنهُ اشترط ان تحتفظ فرنسا بمقاطعتي الالزاس واللورين وان يعهد اليها في السيطرة على مناجم الفحم الغنية في وادي السار . اما ولسن فما كان ينوي قط ان يسلب المانيا وادي السار ، ولكن ما العمل وقد تنازل كلمنصو عن جانب كبير من مطالبهِ ؟ والواقع ان المطالبة « بدولة الرين » لم تكن من ناحية كلمنصو الاّ من قبيل المساومة

وكانت المشكلة الثانية خاصة بمال التعويض . ففي الشروط الاربعة عشرة التي اذاعها ولسن اساساً للصلح قبل عقد الهدنة ، ببضعة أشهر ، صرح انهُ يجب على المانيا . ان تدفع ثمن الدمار الذي احدثتهُ وتصلح الاراضي التي عبثت بها الجيوش في كرّها وفرّها وتقدمها وتأخرها . واصرّ كلمنصو على ان التعويض يجب ان يشمل التعويض الادبي وان المانيا يجب ان تدفع المعاشات التي تصرفها الحكومة الفرنسية وغيرها من حكومات الحلفاء ، للارامل ، اذ من السخرية ان تعوض الفلاحين

مما خسروه من الدجاج والماشية ، ولا تعوّض الامهات ما خسرنهُ من الابناءِ والازواج . ووافق لويد جورج على اقتراح كلمنصو واضطرَّ ولسن ان يسلم بما وافق عليهِ الاثنان

ولكن كيف يقدَّر الخراب الذي احدثتهُ الحرب ؟ عهد الى لجان مختلفة في ذلك فتضاربت آراؤها ، لان عمل هذا التقدير المظيم ، كان اكبر واعقد من ان يتمَّ في بضعة اسابيع . فاكتفى مجلس المؤتمر بفرض الف مليون جنيه على المانيا تسددها في خلال سنتين ، وعهد الى لجنة التعويضات في تقدير المبلغ النهائي الذي يُطلب منها . وقد نظن الآن ، ان هذا العمل ، كان من اختصاص جمعية الامم ، وكان يجب ان يعهد اليها فيه ، ولكن جمعية الامم لم تذكر حينئذٍ ، وانشئت لجنة التعويضات على ان تكون مستقلة عن اي مجلس او جمعية

وكانت المشكلة الثالثة خاصة بمصير بولونيا . ففي شروط ولسن قطع عهد لبولونيا باستقلال الأراضي التي يقطنها اقوام بولونيون وان يكون لها منفذ حرٌّ الى البحر . وكان كلمنصو يبغي ان يكون هذا المنفذ على بحر البلطيق ، فتنفصل بهِ وبالطريق اليهِ ، بروسيا الشرقية عن سائر الريخ الالماني ، وان يجعل ان دانتزغ مدينة بولونية . فاعترض لويد جورج ، على هذا التقطيع في اوصال المانيا ، قائلاً أنهُ ينطوي على حقد ورغبة في الاخذ بالثأر . ولكن اللجنة التي عينت للبحث في الموضوع قرّرت ما رجّح رأي كلمنصو ، فانشيء المجاز البولوني . على ان كلمنصو كان سخيًّا ! فسلم لولسن بجعل مدينة دانتزغ وما يجاورها مقاطعة دولية يحكمها مندوب او لجنة من قبل جمعية الامم ، بدلاً من ان يحتم جعلها بولونية على ما جاء في اقتراحهِ الاول

***

وبعد ما انقضت ثلاثة اشهر او نحوها ، على المناقشة والبحث والمساومة ، اعدّت المعاهدة وقدمت لالمانيا . فكانت اكثر المعاهدات التي عقدت في العصر الحديث ، تضييقاً على امة مغلوبة . كانت المانيا امة صناعية ، تعتمد في معيشتها على مصادر ثروتها المعدنية ، وعلى تجارتها الخارجية في اسواق مستعمراتها والاسواق العالمية بوجهٍ عام . فحكم عليها في المعاهدة بان تفقد جانباً كبيراً من فحمها وحديدها ، فمنحت مناجم الالزاس لورين والسار لفرنسا ، ومناجم سيليزيا العليا لبولونيا . وصودر اسطولها التجاري (الاّ السفن التي يزيد محمول السفينة منها على الف طن) ونزعت منها مستعمراتها ، واخضعت انهارها — وهي بمثابة عروق التجارة الداخلية فيها — لسيطرة ادارة دولية ، ثم حكم عليها علاوة على غرامة الحرب ، وتقطيع اوصالها الاقتصادية ، بان تحمل تبعة نشوب الحرب . ففي المادة ٢٣١ من معاهدة فرساي النصُّ الآتي : —

« ان الحكومات المتحالفة والمشتركة ، تؤكد ، والمانيا تقبل ، تبعة المانيا وحلفائها في احداث كل الخسارة والدمار اللذين تعرضت لها الحكومات المتحالفة والمشتركة وابناؤها ، نتيجة للحرب ، التي فرضها عليهم تعدّي المانيا وحلفائها »

وفي اليوم السابع من شهر مايو جيء بالوفد الالماني يحيط بهِ حرس شاكي السلاح ، الى فندق ريانون، وقدّم نصّ المعاهدة اليهِ . وفي الثالث عشر من مايو ، ردّ الكونت بروكدورف رانتزو على المعاهدة مصرّحاً بانهُ مضطرٌ الى رفضها لانها تناقض الشروط الاربعة عشرة التي اذاعها ولسن ولان موادّها لا يمكن تطبيقها تطبيقاً عملياً . قال : اننا لسنا واهمين بل ندرك مدى خذلاننا وضعفنا .. ونحن لاننوي ان نبرىء المانيا من تبعة الحرب كلها ، وانما نبغي ان لاتتحمل المانيا — التي كان شعبها يعتقد انهُ يحارب حرباً دفاعية — كل التبعة دون غيرها » ثم قال : «ان من يوقع هذه المعاهدة ، كمن يوقع الامر بالاعدام لملايين من الرجال والنساء والاطفال الالمان » . ونحن اذا راجعنا تاريخ الفترة التي انقضت على توقيع معاهدة فرساي ندرك ان ما قاله الكونت بروكدورف رانتزو كان صحيحاً

***

اما المانيا ، فردّدت قول بروكدورف رانتزو من اقصاها الى اقصاها . ذلك ان المعاهدة انقضّت على الامة الالمانية كالصاعقة ، فجعلت تسأل « اين السلام الولسني ؟ اين الشروط الاربعة عشرة ؟ » ونحن الآن نسأل الاسئلة نفسها ؟

ذلك ان ولسن لم يدرك ان كلمنصو كان ابرع منهُ في الكرّ والفرّ ، وانهُ لبراعتهِ حقق ما يطلبهُ وولسن مقتنعٌ ان ما انطوت عليهِ المعاهدة هو الحق كل الحق . فلما قدّم بروكدورف رانتزو اعتراضات المانيا على المعاهدة ، ومقترحات جديدة ، أيّده لويد جورج بعض التأييد ، ولكن ولسن رفض ان يتزحزح قيد انملة عن نصّ المعاهدة الاصلي ، اذ لا سبيل عندهُ الى التنازل عما هو «حق» . فرفضت مقترحات الالمان ولم يسلم لهم الاّ بجعل مصير سيليزيا العليا ، رهن استفتاء يجري فيها بدلاً من ان تمنح لبولونيا بلا اي استفتاء . ثم انذرت المانيا بانها تمنح حتى الساعة السابعة من مساء ٢٣ يونيو لتقبل المعاهدة او ترفضها

وقعت المانيا في مأزق حرج ، لانها اذا قبلت المعاهدة ووقعتها ، ارهقت نفسها باعباءٍ لا قبل لها بها . واذا رفضت سارت جيوش الحلفاء الى برلين . ففضلت وزارة شيدمان ان تستقيل على ان توقع . ولكن المانيا اضطرت اضطراراً الى القبول فوصل جوابها الى المؤتمر ساعة ونصف ساعة قبل نفاد الميعاد المضروب . وفي يوم ٢٨ يونيو — اي بعد انقضاء خمسة اعوام على مصرع الارشيدوق النمسوي في سراييفو — وقعت المانيا معاهدة الصلح ، في ردهة المرايا بقصر فرساي حيث وضعت اركان الامبراطورية الالمانية سنة ١٨٧١ على يدي بسمارك

المعاهدات مع الدول الاخرى

على ان عمل المؤتمر لم ينتهِ بتوقيع معاهدة فرساي . ماذا يفعل بالامبراطورية النمسوية ؟

سوف نعود الى موضوع اوربا الوسطى في فصلٍ تالٍ ، فنكتفي الآن بأن نقول ان معاهدة الصلح مع النمسا ، حوّلتها من دولة في الطبقة الاولى بين دول اوربا الى دولة في الطبقة الخامسة . نزعت منها الولايات الشمالية — وهي الولايات الصناعية — وانشأت منها جمهورية تشكوسلوفاكيا . وضمّت ولاياتها الجنوبية وشواطىء دلماتيا الى مملكة سربيا فأصبحت بعد اتحادها بمملكة الجبل الاسود مملكة يوغوسلافيا ، واستقلّت بلاد المجر ، وضمّت مقاطعة الى بولونيا من ناحية ، ومقاطعة اخرى من ناحية اخرى — في التيرول — الى ايطاليا . وما بقي من الامبراطورية القديمة المترامية الاطراف وعاصمتهُ فينا ، جعِل جمهورية لها الحق في ان تدافع عن استقلالها بثلاثة مراكب بوليس على نهر الدانوب ، وجيش مؤلف من ٣٠ الف جندي ! ووقعت المعاهدة مع النمسا في سان جرمان في سبتمبر ، وتعرف بمعاهدة سان جرمان

وبعد انقضاء شهر على عقد معاهدة سان جرمان عقدت معاهدة نويي Neuilly مع بلغاريا ، فأصبحت من دول البلقان الصغيرة وفرضت عليها غرامة حربية قدرها ١٢٠ مليوناً من الجنيهات . اما عقد المعاهدة مع المجر فتأجل . ذلك ان بيلا كون ، كان قد اكتسح العاصمة بودابست ، بفريق من الشيوعيين ، ولم يغلب على امره الاَّ في يوليو ، فتأخر عقد معاهدة تريانون مع بلاد المجر حتى شهر يونيو سنة ١٩٢٠

وكان الحلفاء قد وضعوا معاهدة مع تركيا ، بنوا موادّها على الاركان التي بنوا عليها المعاهدات الاخرى مع المانيا وحلفائها ، ولكن قبل ان توقع تركيا هذه المعاهدة ، تحدى مصطفى كمال الحكومة العثمانية في الاستانة وحكومات الحلفاء جميعاً ، فتغلب على الارمن سنة ١٩٢٠ وطرد اليونان من آسيا الصغرى في سنة ١٩٢١ ولما سلمت تركيا الكمالية بعقد مؤتمر للصلح في لوزان سنة ١٩٢٣ اصرّت على تحقيق مطالبها القومية ، فخرجت من لوزان وقد غنمت مقدونيا والاستانة

***

اما الدول القائمة على الشاطىء الشرقي من بحر بلطيق — لتوانيا ولتفيا واستونيا وفنلندا — فاعترف باستقلالها . ووضعت الحكومات المتحالفة والمشتركة معاهدات لحماية الاقليات في بولونيا وتشكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ورومانيا واليونان ، معترفة للقوميات المختلفة بحق احتفاظها بشرائعها وعاداتها . وكذلك نرى ان مؤتمر الصلح لم يحافظ الاَّ على مبدإ حقوق الاقليات ، من مبادىء الرئيس ولسن ، ومع ذلك سلّم باخضاع نحو مليونين ونصف مليون من الالمان لبولونيا (في سيليزيا) ونحو ثلاثة ملايين ونصف مليون لتشكوسلوفاكيا ، وحكم بتوزيع نحو ثلث الشعب المجري في اوربا بين رومانيا وتشكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا

وقد صدّرت كل معاهدة من المعاهدات المذكورة بميثاق جمعية الامم ولهذا حديث تالٍ

اقطاب العالم

في العصر الحديث

بين محنة الازمة والامل بانفراجها يتطلّع العالم المتحير، إلى ما قد تسفرعنهُ المحادثات السياسية والمؤتمرات الدولية المختلفة. يسأل بعضنا بعضاً هل نشهد بأم العين ما تغنى بهِ الشاعر الانكليزي لورد تنيسون على أنهُ من الاحلام إذ قال: « ونفذت بنظري الى المستقبل، الى أبعد ما يصل اليه النظر البشري .. في برلمان الانسان واتحاد العالم » ؟ ولكن رجل الشارع، أيّاً كان هذا الشارع وأين كان يسأل: — « على من تلقى التبعة في خيبة هذه المؤتمرات. ان فيها ميداناً واسعاً للابداع، فكيف نعلل خيبة الآمال؟ كيف نفسر التردد وعدم الحزم حيث لا ينجينا إلاَّ الحزم والاقدام؟ »

وقد أعرب الدكتور بطلر، رئيس جامعة كولومبيا، عن رأي رجل الشارع اذ اسند هذا النقص في حياة العالم العامة الى عوزٍ في الزعماء وصفات الزعامة. فالمعرفة واسعة النطاق، والآمال والنيات تنطوي على الخير في الغالب والبواعث تستدعي العمل. ولكن يعوزنا الزعماء. ويؤيدهُ رجل الشارع فيقول: « فاذا أخفق الزعماء فلعلَّ لهم عذراً في ذلك. انهم غير الزعماء في العصور الماضية. أين تشتام وبرك ودانيال وبستر وتاليران وبسمارك ودزرائيلي؟ »

وليس الغرض من هذا المقال المقابلة بين زعماء هـذا العصر وزعماء العصر الماضي أو العصور الماضية، بقصد الحكم لهؤلاء او لهؤلاء. وانما القصد أن نبين ما طرأ من التغيير على احوال الزعامة والحكم في العصر الحديث مما جعل الزعماء في حال لا يحسدون عليها

فالتغيير الاول هو من الثبات والاستقرار الى التقلب في مناصب الحكم، فالزعماء اليوم، يتقلدون الحكم في الغالب بفعل المشيئة القومية المعبر عنها في المجالس النيابية، وهذه تتقاذفها الآراء والاهواء، فتنقلب وتنقلب غداً على زعيم اليوم، او بعد غد على زعيم الغد. والتغيير الثاني من البساطة في المشكلات التي يعالجها الزعماء الى التعقيد. ولو أن احد اقطاب الماضي، عاد اليوم الى مناصب الحكم، لوجد امامه طائفة منوعة معقدة من المشكلات الجنسية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، يتعذر علاجها وحلّها باللسان الذرب والنطق الخلاَّب. علينا ان نذكر هذين الوجهين من وجوه التغيير اذا شئنا أن نصل الى حكم منصف في مقام اقطاب العالم اليوم من مشكلات عصرهم

ففي القرن الثامن عشر والقرن التاسع كان الزعماء يحسون أنهم ليسوا باطياف عابرة على مسرح السياسة. فوشنطن وادمز وجفرسن وهملتن وفرنكلن وغيرهم من مؤسسي الجمهورية الاميركية ظلوا ذوي أثر عظيم في حياة أمتهم طوال حياتهم. وفي بريطانيا ظل بت Pitt الصغير حاكماً لبريطانيا خلال عشرين سنة من سني الحرب والسلم. ثم ان حياة ولنغتن وبامرستون وغلادستون العامة

انبسطت على نصف قرن من التاريخ البريطاني. ودزرائيلي ظلَّ زعيماً لحزب المحافظين البريطانيين بضعة عقود من السنين. كذلك كان شأن مترنيخ في فينا وتاليران في باريس وبسمارك في برلين

وقد انقضى حتى الآن، من القرن العشرين، ثلث حافل بأمهات الحوادث، ومع ذلك نستطيع ان نتبين فيه، اربعة ادوار من الزعامة، خلف احدها الآخر ولكل دور رجال وزعماء يختلفون في الغالب، عن رجال الدور الآخر وزعمائه. فالدور الاول يشتمل على ١٤ سنة سابقة لنشوب الحرب الكبرى. ثم تليها ست سنوات هي سنو الحرب وعقد معاهدات السلام. ثم ثماني سنوات كانت سنوات الرخاء الموهوم. وتلتها سنو الازمة التي ما زلنا نعانيها حتى الساعة

ان نشوب الحرب الكبرى، يجعل ما يعرَف عن زعماء الامم قبلها وكأنهُ خاص بعصر آخر. فالحرب كانت حدًّا فاصلاً في كيان بعض الامم كألمانيا وروسيا والدولة العثمانية وامبراطورية النمسا والمجر. بل اننا نتذكر بثمان هلفج الوزير الالماني صاحب القول بأن المعاهدة «قصاصة من الورق» وفيفياني بفصاحته الخلابة في باريس، واسكوث وجراي بأساليبهما السياسية المداوِرَة في انكلترا وكأننا نتذكر رجال عهد بائد. كانت الزعامة حينئذ خاصة بطبقة من الطبقات، فلما وقعت الحرب اصبحت الزعامة فوضى لا ضابط لها ولا رابط. فنشأ خلال الحرب وبعيدها، رجال امثال كرنسكي في روسيا، ونورثكليف في بريطانيا، ودانونزيو في ايطاليا، وبيلا كون في المجر، كأنهم نيازك ظهرت فجأة في الفضاء ثم توارت بعد حين قصير

وفي الدور الثاني طلع علينا رجال وكأنهم افرغوا في قوالب الابطال، نذكر منهم ولسن وكليمانصو واورلندو وقد ذهبوا جميعاً الى خالقهم. اما لويد جورج فقد انقضت عليه نحو عشر سنوات وهو منزوٍ، يظنهُ بعضهم امل الاحرار البريطانيين الوحيد، ويظنه البعض الآخر حجر الرحى في اعناقهم. وقلَّ من يذكر ملنر — الاَّ قليلاً في مصر — وبونارلو في انكلترا، وبوردن في كندا، وهيوز في استراليا فكأنهم كانوا اشباحاً عبرت ولم تترك وراءها اثراً. ثم اننا اذا نظرنا الى القواد وزعماء الحرب، رأينا انهم لم يتركوا وراءهم في الغالب الاَّ مذكرات يحاولون ان يسوغوا بها اعمالهم وينقدوا اعمال خصومهم. كان عهد وكانت كلمة من جوفر وفوش وملتكي الثاني ولودندورف وهيج وبرشنغ تهزُّ الدنيا، فأصبحنا اليوم واذا الحرب نفسها، صناعة هؤلاء الزعماء عمل غير شرعي في العرف الدولي — النظري على الاقل! وليس بين قواد الحرب، من كان له اثر بعدها، الاَّ بلسودسكي في بولونيا، ومصطفى كمال في تركيا، وهندنبرج في المانيا

وفي الدور الثالث، اتجهت العناية الى الترميم والاصلاح. فحاولت بعض الامم ان تحتفظ بزعمائها، فلم تتخلَّ بريطانيا عن لويد جورج بعد الحرب رأساً بل ظلَّ في الحكم حتى سنة ١٩٢٢ واصغت فرنسا الى بريان وبوانكاره، وظلت اليابان تقدس العرش والفئة الحاكمة من حوله

ولكن الشعور العالمي — وكان في الغالب شعوراً باطنيًّا ومن هنا قوته وعنفه — كان ينطوي

على ان « العصر الجديد يقتضي رجالاً جدداً » فنشأ في كل بلاد زعماء ، ما كان احد يحلم قبيل ذلك بانهُ يتاح لهم يوماً أن يصلوا الى مقدمة الصفوف ... من سمع بهاردنغ وكولدج في اميركا قبل سنة ١٩٢٠ وكيف تغلب ستانلي بلدوين ، على المركيز كرزون السياسي والمؤلف ، وأذكى من تولى منصب نائب الملك في الهند ، على ما يقولون ؟ كذلك منحت روسيا السلطة المطلقة لرجلين ، كانا مجهولين الاّ في دوائر الثورة ، هما لنين وتروتسكي ، وتقلد رآسة الجمهورية في بولونيا موسيقي عالمي الشهرة هو بادروسكي ، وفي تشكوسلوفاكيا استاذ جامعة هو ماساريك ، وفي المانيا سروجي هو إيبرت ، وعهد في مصير ايطاليا الى موسوليني وهو ابن حداد . كذلك اكتشفت الهند غاندي ، وارتفع الستار في مصر عن عظمة زغلول ، ولمع في سهول الجزيرة وفوق صحاريها نجم ابن سعود ، وخرج رضا خان من صفوف الجيش الى عرش الاكاسرة في ايران ، وتمخضت الامة الالمانية الكليمة النفس — لشدّ ما بلتها بهِ معاهدة فرساي — عن هتلر والحركة الاشتراكية الوطنية

ولقد احتفظ بعض هؤلاء بمكانتهم ولكن آية السياسة العالمية اليوم هي التقلُّب . فما تخلصت اسبانيا من قبضة بريمو ده ريفيرا ، حتى طردت الفونس وأنشأت جمهورية . ثم ان رومانيا استدعت ملكها المتنازل عن العرش — كارول — واقامته شبه دكتاتور

والغالب ان تتجه الامم الى الافعال دون الاقوال الآن . فما اخرج تروتسكي من روسيا حتى حوّل ستالين الحكم الروسي الى بيوروقراطية (طبقة حاكمة معينة) والمانيا بزعامة هتلر تقتفي خطوات ايطاليا الفاشستية ولكن على منوالها الخاصّ ، وبريطانيا أشركت زعيمها الاشتراكي مع المحافظين لانشاء حكومة فعّالة ، وانتخب الرئيس روزفلت لكي يخرج بأميركا من الوهدة التي سقطت فيها ، وقد عهد اليه الكنغرس بسلطان واسع النطاق لم يعهد بمثله لرئيس اميركي آخر من قبل في زمن السلم

والتحول من دور الحكم الطويل الى دور الحكم القصير ، كان له اثر في احكام الزعماء أنفسهم . فبسمارك اذ كان يفاوض ، لم يجُل في خاطره شبهة ما في انه معرَّض للسقوط ، وانه قد يطرد من منصبهِ باكثرية يسيرة او كبيرة . لذلك كان يوجه كل عنايته الى الخطة السياسية التي يتبعها . فكان يتكلم في مجامع الدول كمن له سلطان . ما أقل الزعماء في هذا العصر الذين يستطيعون ان يفعلوا هذا ! فما رجع ولسن من اوربا ، حتى رفضت أمته توقيع معاهدة فرساي والانتظام في جمعية الامم ، وكذلك في البلدان الاخرى . كانت الوزارات تؤلف وتحل في مدى نهار وليلة . فاضطر الزعماء وهم يفاوضون ان يحسبوا حساباً للمنازعات السياسية كل في بلاده فأفضى هذا الى العقم والتردد في السياسة الدولية

ثم اذا نظرنا الى المشكلات التي يعالجها الزعماء رأيناها معقدة كل التعقيد . فتعيين الحدود ، يرتبط بالتاريخ الجغرافي والسلالة . ولهُ كذلك صلة بالاقتصاد والتبادل والحواجز الجمركية . والشؤون الاقتصادية لا يمكن فصلها عن مسائل التسليح والحرب . والتسليح يتصل كل الصلة ، بأحوال

النفس والعقل، اتصاله بالمصلحة والتاريخ . كل هذه مشكلات ليست بالمشكلات السهلة . انها تلخص في قولنا « ترميم الحضارة واعادة بنائها بناءً جديداً » . فالذكاء والالمعية والشجاعة ليست الصفات الوحيدة التي يجب ان يتصف بها الزعماء ، وبعض زعماء العالم الآن متصف بها في سعيه ، وراء تحقيق هذه الاغراض العليا ، بل يجب ان تواتيهم احوال العصر المضطربة لكي يصيبوا شيئاً من النجاح. ونحن اذا صبرنا قليلاً فقد نرى او قد يرى ابناؤنا ان مساعيهم قد اسفرت عن شيء مما يبغون

مشكلة الساعة

المانيا ونزع السلاح

ان خروج المانيا المفاجيء من مؤتمر نزع السلاح في ١٤ اكتوبر (١٩٣٣) وجَّه الافكار الى الاخطار العظيمة التي تنطوي عليها الحالة الاوربية الآن . ففرنسا تظلُّ مسالمة راضية اذا هي استطاعت ان تحافظ على موقفها الراهن من ناحيتيهِ الجغرافية والسياسية . ولكن المانيا متبرمة وتبرّمها يغذي فيها نزعة الكفاح في سبيل ما تراه حقّاً لها . وهذه النزعة مكبوحة الآن لان المانيا تدرك عجزها عن تحقيق اغراضها بالقوة. فالحالة اليوم تقتضي اتفاقاً على خفض السلاح، اكثر مما كانت تقتضيهِ في اي دور سابق من ادوار مؤتمر نزع السلاح وخروج المانيا من المؤتمر اقنع ولاة الامر بان الاتفاق على المسائل الفنية وحدها لا يكفي بل يجب ان يشمل العوامل الاساسية التي تبعث على القلق السائد لبرّ اوربا

لما انفضَّ مؤتمر نزع السلاح في يوليو ١٩٣٣ ادرك المطلعون على سير الامور فيهِ انهُ لايستطيع المضيَّ في عمله الاَّ اذا وصل الى نتائج عملية قبل فوات الاوان . وكان قد انقضى عليهِ سنة ونصف سنة ، تخللتهما فترات من الراحة ، ما زالت تطول كلما قامت العقبات السياسية في وجههِ ، حتى أصبحت تحصى بالشهور . وها هوذا المؤتمر لم يجتمع بعد انفضاضهِ في الصيف الماضي

يقول بعضهم انَّ في الامكان المحافظة على السلم الاوربي بابقاء المفاوضات دائرة بين الدول في جنيف . وقد يكون في هذا القول نصيب من الصحة . والواقع انهُ ما زالت ، المسائل التي يدور عليها البحث مسائل فنية مجردة ، فالمضي في المفاوضة مستطاع ، لا يخشى معهُ اي اصطدام خطير في الخطط الاساسية . ولكن لما تحوَّلت المناقشة الى مسائل معينة ، مثل عدد المدافع والطيارات والدبابات الذي يسمح بهِ لاية دولة من الدول واطرزة هذه الاسلحة ، بلغ المتفاوضون مأزقاً ، لم يروا حتى الساعة سبيلاً الى الخروج منهُ . خذ مثلاً على ذلك الطيارات الحربية. فقد قضى الخبراء بضعة اسابيع يتناقشون في افضل السبل لتعيين درجات الطيارات . أيكون ذلك بقوة محركاتها ، او

بوزنها ، او بمساحة اجنحتها ، او بجميع هؤلاء معاً ؟ وبدت في الحال طلائع الخلاف بين الآراء المتقابلة ، ولكن المتباحثين اجتنبوا الخوض في الشؤون السياسية ، فجنى المؤتمر من مباحثاتهم حقائق فنية مفيدة . واذا كان الخبراء قد توصلوا الى شيء من الاتفاق على تعيين درجات الطيارات فالمتباحثون الذي فوّض اليهم تعيين عدد الطيارات لكل دولة من الدول لم يوفقوا مثل هذا التوفيق

وكذلك ترى ان الناحية الفنية من الموضوع نالت نصيباً وافياً من البحث . ولكن الحكومات يعوزها الحزم في تعيين الخطط الاساسية التي تبغي ان تختطها

***

ولما اجتمع المؤتمر الاقتصادي العالمي في لندن (يونيو ١٩٣٣) تنفس الناس الصعداء قليلاً ، لان الافكار انصرفت عن العقبات التي اصطدم بها مؤتمر نزع السلاح ، الى البحث في شؤون العالم الاقتصادية . فلما اخفق مؤتمر لندن ادرك الناس ، ان الوصول الى اتفاق على نزع السلاح او خفضه ، اصبح ابعد منالاً مما كان . فقضى المستر هندرسن رئيس مؤتمر نزع السلاح عطلة الصيف متجولاً بين عواصم الدول الاوربية ، يسبر غور اصحاب الرأي فيها ، من دون ان يتوصل الى قاعدة ، يصح ان تجعل اساساً للاتفاق . وكان يوم ١٦ اكتوبر المعيّن ، لعودة المؤتمر الى الاجتماع ، قد اصبح على الابواب ، وبرنامج الموضوعات التي يتناولها المؤتمر لم يرتّب بعد

في هذا الجوّ الملبّد ، بدأت المفاوضات تدور في اواخر سبتمبر واوائل اكتوبر (سنة ١٩٣٣) والحالة ما ذكرنا . دارت مباحثات في باريس وجنيف اشترك فيها الفرنسيون والبريطانيون والاميركيون اولاً ثم انضمّ اليهم الايطاليون والالمان ، واسفرت عن ان يعهد الى « لجنة تسيير المؤتمر » في وضع برنامج للعمل على اساس مشروع مكدونلد ، فكان همّ هذه اللجنة ، قبل كل شيء ، ان تحاول تقريب الشقة بين موقفي فرنسا والمانيا

وقد اشارت حكومة فرنسا ، بانها رغماً عن تطوُّر الحال في المانيا تطوُّراً يبعث على القلق ، مستعدّة لان تخفض سلاحها . ذلك ان المسيو دالادييه رئيس وزراء فرنسا حينئذٍ ، ادرك الخطر الذي يسفر عنهُ حبوط مؤتمر نزع السلاح ، فحاول ان يسهل لوزير خارجية بريطانيا ، مهمته ، بكل ما يملكهُ من الوسائل . وكأنهُ فهم حينئذٍ ، ان اقامة « ضمان السلامة » على الاساس الذي تطلبهُ فرنسا ، وهو انشاء جيش دولي ومعاهدات التعاون المتبادل متعذّر ، فوافق على ان ينصّ اتفاق نزع السلاح على تعيين لجان مهمتها ان تزور البلدان المختلفة وتشرف على مدى صنع الاسلحة فيها — وهذا يعرف الآن بمبدإ الرقابة الدولية — لانهُ اذا كانت فرنسا تستطيع ان تطمئن الى ان المانيا لا تتسلح وراء ستار ، فقد تجد الحكومة الفرنسية المسوّغ الذي يمكنها من نقص سلاحها نقصاً تدريجيًّا في خلال مدة معيّنة . اما ان يطلب منها ان تنقص سلاحها فوراً فذلك متعذّر . بل هي تشترط ان لا تبدأ نقص سلاحها ، الاَّ بعد انشاء لجان الرقابة والتثبت من حسن قيامها بعملها وتحويل الجيوش الاوربية ،

الى جيوش رديف Militia وهذا يعني ان جيش الريخسفهر الالماني — عدده ١٠٠٠٠٠ جندي — المدرّب تدريباً عسكريّاً يجعل كل جندي فيه بمثابة ضابط ، يجب ان يحوّل الى جيش مؤلف من ٢٠٠٠٠٠ جندي رديف تكون مدة خدمتهِ العسكرية قصيرة . وكذلك اتفق على انهُ يحق لالمانيا في خلال مدة الاتفاق ، ان تبني عدداً — يعيّن فيما بعد — من اطرزة الاسلحة المختلفة التي لا تتفق الدول على الغائها قبل انتهاء مدة الاتفاق . وذهب الفرنسيون الى انهُ لا يحق للالمان ان يشرعوا في صنع هذه الاسلحة ، الاَّ بعد فترة تجربة طولها اربع سنوات ، تقوم في خلالها لجان المراقبة بعملها ، وتحوّل الجيوش على الاساس المتقدم ذكرهُ

***

طلبت المانيا في بدء المفاوضات ان يعترف لها بحقها في ان تملك حالاً نماذج من اصناف الاسلحة التي لا تتفق الدول على الغائها ، ومن هذه الاسلحة ما كان محظوراً على المانيا بمقتضى معاهدة فرساي ، كالطيارات الحربية . فكان هذا الطلب عقبة خطيرة ، ولكن تخطيها بالمفاوضة لم يكن مستحيلاً لان الدول المتفاوضة كانت قد سلّمت بالاعتراف لالمانيا بمبدإ المساواة في اصناف الاسلحة المختلفة في خلال مدة «معاهدة السلاح» وعلى كل حال لا بدَّ ان يستغرق صنع هذه الاسلحة فترة من الزمن اذا كانت المانيا لم تتسلَّح سرّاً كما كان يقال

كان المندوبون البريطانيون والايطاليون معنيّين في اوائل اكتوبر بالبحث عن قاعدة تقرّب بين المانيا وفرنسا . فدفعوا الى الوفد الالماني بملخص بيانٍ كانوا يحاولون استيفاء تفصيلاتهِ ، ووجهوا الى الوفد الالماني ، بعض اسئلة شفهية ، فعاد البارون فون نويراث الى برلين ليرى رأي حكومتهِ في الامر ، وبعد بضعة ايام ارسل الالمان مذكرة مفصلة الى روما ولندن بسط فيها موقف المانيا . وهذه المذكرة لم تنشر ، ولكن جريدة « الايكو ده باري » نشرت ملخصاً للمذكرة ليس ثمة ما يدعو الى الشك في دقتهِ . واهم ما فيه ان الحكومة الالمانية ، ترفض ان تسلم بفترة التجربة وانها مستعدة لتحويل الريخسفهر الى جيش قصير الخدمة . ثم ان المذكرة تشير الى ان المشروع البريطاني يذكر ثلاثة اصناف من الاسلحة هي الاسلحة التي تمنع او تلغى في المستقبل . والاسلحة التي تقيَّد بقيود . والاسلحة التي لا تقيد بقيود ما . اما المانيا فتسلم بالغاء اي صنف من الاسلحة اذا كان الالغاء عامّاً شاملاً . بل هي تتنازل عن طلب التسلح باسلحة تملكها الدول الاخرى الآن اذا تعهدت تلك الدول بتدميرها في خلال فترة لا تتعدّى مدى المعاهدة ، وتشترط ان تمنع هذه الاسلحة في المستقبل . اما الصنف الثاني من الاسلحة ، وهو الصنف الذي ينتظر تقييده من حيث النوع والمقدار فطلبت المانيا في مذكرتها ان تعرف في اول فرصة المقترحات الخاصة بهذا التقييد ، ثم قالت انهُ يحق لها ان تملك الاسلحة التي تملكها الدول الاخرى ، وهي مستعدة ان تخضع للقيود التي يتفق عليها . اما الاسلحة التي لا تقيد بقيد ما ، فالمانيا ترى انهُ ما زالت الامم الاخرى غير خاضعة لقيود ما في هذا

الصنف من الاسلحة ، فالمانيا يجب ان تكون كذلك مطلقة من اي قيد . فاذا اريد في المستقبل نقص هذه الاسلحة المقيدة بقيود ، فالمانيا مستعدة لنقصها على اساس من المساواة مع الدول الاخرى

***

هذا الموقف الذي وقفتهُ المانيا لم يحز قبولاً من حكومتي فرنسا وانكلترا لاصرار المانيا فيهِ على زيادة سلاحها . ولهذا السبب عينهِ لم يحز قبولاً عند حكومة الولايات المتحدة الاميركية . ولكن باب المفاوضة لم يقفل ، فمضى المندوبون في بحثهم ومحاولتهم اعداد البرنامج لعرضهِ على جلسة المؤتمر العامَّة في ١٦ اكتوبر ، رغم سفر المندوب الالماني من جنيف بدعوةٍ من حكومتهِ للتفاوض معهُ . وبذل كلّ سعيٍ ، للوصول الى قاعدة سلمية ، لا يسلّم بها بطلب المانيا ان تزيد سلاحها ، ولكنها تمهّد السبيل لتحقيق مبدأ المساواة الذي تصرّ عليهِ المانيا ، مع ابقاء الباب مفتوحاً لمفاوضات تالية ، ينظر فيها في بعض النقاط الاخرى التي في البيان الالماني . هذا هو البرنامج الذي عرضهُ السرجون سيمون عليهِ « لجنة تسيير المؤتمر » يوم ١٤ اكتوبر . ولما كان المستر نورمن دايفس معارضاً من البدءِ ، في تسلّح المانيا (كان رأيهُ ان ينقص سلاح الدول الاخرى رويداً رويداً حتى تتحقق المساواة) وافق على البيان الذي قدّمهُ السرجون سيمون ، وكذلك وافق عليه پول بونكور — وزير خارجية فرنسا — ورئيس الوفد الايطالي

في الساعة التي كان السرجون سيمون يلقي بيانه هذا على « لجنة تسيير المؤتمر » في جنيف كانت المانيا ، تستعدُّ لاذاعة بيانها بخروجها من مؤتمر نزع السلاح وهجرها لجمعية الامم . والواقع ان الصحف العالمية التي صدرت يوم السبت في ١٤ اكتوبر ، نشرت في اعمدة متحاذية ، نبأ بيان السر جون سيمون ، ونبأ خروج المانيا من المؤتمر والجمعية

***

يتعذّر على من تتبع سير الحوادث ان يصدق ان بيان السرجون سيمون كان الباعث على خروج المانيا من المؤتمر فانهُ لم تمضِ الاَّ دقائق معدودات على وصول نبأ الاجتماع الذي القى فيه السر جون سيمون بيانه الى برلين ، حتى اذاعت حكومة الريخ قرار انسحابها من المؤتمر . واذن يضطرُّ الباحث ان يذهب الى ان المانيا ، كانت قد اقرّت الخطة التي جرت عليها ، قبل ذلك ، لانها رأت في المباحثات والمحادثات التمهيدية ، ان الدول لن تسلم بموقفها او بمطالبها جميعاً . والواقع ان البرقية الرسمية التي بعثت بها الحكومة الالمانية الى المؤتمر تعلنهُ بانسحابها ، مبنية على نظرة عامة لعمل المؤتمر ، وعجزهِ عن تحقيق غرضه وان الدول المسلحة ترفض ان تنزع سلاحها ، وان مطالبة المانيا بالمساواة لن يسلَّم بها

وليس لنا الآن ان نتخيل ما وقع في المانيا قبل اتخاذها هذا القرار . ذلك ان تغييراً كان قد طرأ على موقف المانيا ، في بضعة الاسابيع السابقة لانسحابها من المؤتمر : فتبدلت رغبتها في المفاوضة بمحاولتها ان تتلمس المعاذير التي تسوّغ لها الانسحاب منهُ . فما الباعث على ذلك ؟ لما ارسل الرئيس

روزفلت رسالتهُ المشهورة الى المؤتمر الاقتصادي العالمي ، في ٣ يوليو ١٩٣٣ ، وصدم بها المؤتمر ، قال بعضهم ان هذه الرسالة تنبئ بتحوُّل او انقلاب في سياسة الرئيس . والراجح انها لم تعن ذلك على الاطلاق . ذلك ان الرئيس ، عبر في رسالتهِ عن النتائج الدولية ، للخطط القومية التي يسير عليها في بلادهِ . وما فعله الرئيس ، هو ما فعلتهُ المانيا في اكتوبر ، على ما نظن ، او هما من قبيل واحد

كان الحزب الاشتراكي الوطني ، وحكومة هتلر ، قد بنوا نداءهم الى الشعب الالماني ، على وعدهم ببذل كل ما يبذل لانقاذ الشعب الالماني من اعباء معاهدة ڤرساي ، واستعادة مكانة المانيا بين الامم ، فتصير هي وغيرها سواءً بسواءٍ . وليس بعيداً عن المعقول ، ان هتلر رأى ، ان عقد اتفاق لنزع السلاح ، لا بدَّ ان يعني بقاء المانيا ، في حالتها الراهنة السياسية والجغرافية مدة ذلك الاتفاق ولو سلّم لالمانيا ببعض التبديل في جيشها وسلاحها . وعقد اتفاق من هذا القبيل يسلب المانيا السلاح الذي تكافح بهِ في سبيل احداث التغيير الذي تطلبه — وهو سلاح التهديد بالتسلح . وقد رأت المانيا انهُ ليس من الحكمة ، التخلي عن هذا السلاح القوي الذي بيدها، لقاء نقص يسير في سلاح الدول الاخرى وزيادة يسيرة في سلاحها . فاذا سلمنا بصحة هذا الرأي فالراجح ان ما قاله السر جون سيمون في جنيف يوم ١٤ اكتوبر لا قدَّم ولا أخَّر في موقف المانيا وقرارها

***

ان خروج المانيا من مؤتمر نزع السلاح وجمعية الامم يشير الى نقمتها على معاهدة فرساي ، ويعني رفضها ان تفاوض في جنيف مندوبي خمسين امة ، في مسائل ترى انها تهمها وتهم جاراتها بوجه خاص ، وهي مسائل لا يمكن حلّها الا بالمفاوضة في دائرة خاصة من الدول التي يعنيها هذا الامر

ومن العبث ان نحاول توزيع اللوم على هذه النتيجة التي وصلت اليها مفاوضات نزع السلاح . فلو ان البيان الذي اعدَّهُ السر جون سيمون بعد مفاوضات طويلة ، والقاه في جنيف في ١٤ اكتوبر سنة ١٩٣٣ اعدَّ قبل ذلك ، وقدم الى الحكومة الالمانية التي يرئسها الدكتور برويننغ ، لكانت المانيا قبلتهُ وحسبتهُ نصراً لها . ولو ان مؤتمر نزع السلاح وصل قبل سنتين الى النتائج التي وصل اليها في اكتوبر سنة ١٩٣٣ لكان تاريخ السنتين الاخيرتين في السياسة الاوربية غير ما هو . ولكن الذي وقع وقع ، ورجال السياسة ، في الغالب ، بطيئون متمهلون ، لا يماشون التحول السريع في سير الزمان

فاذا وقع المحذور ، دهش لهُ حتى اكثر الناس اتصالاً بسير الامور . ان معاهدة ڤرساي زرعت بزور الخصام والمرارة في اوربا المتوسطة . ثم جاء التضخيم الماليّ في المانيا ، فقضى على الطبقة المتوسطة من الشعب ، التي تؤيد في الغالب النهج المعتدل . ولكن الثورة في المانيا جمعت زخمها اذ كانت فرنسا ، لا تزال مترددة في الخطة التي تنهجها ، فلما اشتدت الازمة العالمية ، استفحل الميل الى

الانقلاب ، في نواحي الحياة السياسية والاقتصادية ، في المانيا وغيرها من الامم

كانت المانيا قد انتظرت اربع عشرة سنة ، لتحقيق العهد الذي قطع في معاهدة فرساي ، وهو ان نزع سلاح المانيا ليس الأ توطئةً لنزع سلاح الدول الظافرة . ومن العبث ان نبحث الآن ، في هل هذا العهد كان عهداً ادبيًّا او عهداً قانونيًّا يجب تنفيذه . حتى اذا سلمنا بان العهد كان ادبيًّا لا غير ، فليس ثمة ريب في ان احترامهُ كان واجباً . ومما يرتاب فيهِ ان خفض السلاح الذي تمّ بعد الحرب الكبرى حقّق هذا العهد . نعم ان الدول البحرية الكبرى قد خفضت اساطيلها ، وان فرنسا حوّلت مدة الخدمة في جيشها من ثلاث سنوات الى سنة واحدة ، وذلك من تلقاءِ نفسها . ومع ذلك فلا سبيل الى انكار ان جارات المانيا ، متفوقة عليها تفوقاً كبيراً في قواها الحربية . وقد قيل للشعب الالماني ، ان هذا التفوق ترك المانيا ، في حالة لا تستطيع معها الدفاع عن نفسها . فكان لهذا القول اقوى الاثر ، في احداث ثورة النفس الالمانية التي افضت الى سلسلة الحوادث التي بسطناها . والالمان الآن اذ يشيرون الى عدم مساواتهم بالدول الاخرى ، يعنون في الغالب ، تخلفهم عن تلك الامم في قوتهم الحربية

***

ضع نفسك ايها القارىء مكان الالماني او مكان الفرنسي ، تجد انك تستطيع ان تقيم الحجة لموقف الاثنين . فالفرنسي يرى ان نزعهُ لسلاحهِ ، وحالة المانيا النفسية ما هي الآن ، مخاطرة كبيرة. اما الالماني ، فلن يستقرّ ما زال يحسّ انهُ لا يملك القوة اللازمة للدفاع عن نفسهِ ، اذا هوجم . والموقفان سليمان من الناحية المنطقية ، مع ان كلتا فرنسا والمانيا ، تعترف بان المسائل المعلقة بين البلادين ، اذا استثنينا مسائل نزع السلاح ، لا تبعث على القلق ، اذا نظر الى العلاقة بينهما ، مجردة عن اشتباك المصالح الاوربية الاخرى . ولكن هذه النظرة المجرّدة غير مستطاعة ، لان لالمانيا حدوداً غير الحدود بينها وبين فرنسا ، وفرنسا وايطاليا تريان ان لهما عند هذه الحدود مصالح حيوية

استطاعت اوربا ان تحتفظ بمواد معاهدة فرساي حتى الآن ، لان الدول الظافرة التي املت هذه المعاهدة ، متفوقة تفوقاً حربيًّا كبيراً على الدول المغلوبة. والاحتفاظ بها يظلّ ممكناً اذا ظلت الدول الظافرة متفوقة من الناحية الحربية . فكل اتفاق على نزع السلاح ، يقضي على هذا التفوق ، يكون في نظر فرنسا ، خطوةً نحو الغاء معاهدة فرساي ، واذن يكون اتفاقاً لا تقبله فرنسا وحلفاؤها — ولعلَّ ايطاليا وانكلترا لا تقبلانهِ كذلك . وكل اتفاق على نزع السلاح ، يترك المانيا في مقام ثانوي من ناحية التسلح لا يقبلهُ الالمان . فاذا شاءت اوربا ان تحلّ مشكلاتها القائمة الآن فهي تحتاج الى مؤتمر سلام جديد تكون فيهِ مسألة نزع السلاح احد الموضوعات التي يعالجها. واذا كانت المانيا مقتنعة بان حلّ المشكلات السياسية والجغرافية القائمة بينها وبين جاراتها يجب ان يكون بالمفاوضة السلمية ، لا بالقوة ، وكانت الدول الظافرة مستعدة ان تلاقيها عند منتصف الطريق ،

فالوصول الى اتفاق على نزع السلاح لا يزال ممكناً .ولكن الاوان لم يئن بعد ، اذ تستطيع الدول التي تعنيها هذه الامور ، ان تواجه الحالة بحزم واخلاص . وقد لا تستطيع ان تواجهها كذلك الاَّ وقد سبق السيف العذل . فاذا لم تُحلَّ المشكلة قبل ان تتسلّح المانيا ، فاوربا سائرة لا ريب ، على الطريق المفضي الى حرب طاحنة ، الاَّ اذا قرَّرت جارات المانيا ، ان تحارب المانيا قبل تسلّحها ، وتبطش بها قبل ان تشتدَّ وعندئذٍ تكون قد أجّلت الحلَّ المعقول عشرين سنة الى ثلاثين

***

وقد كان لخروج المانيا من مؤتمر نزع السلاح ، أثر خطير ، في الخطة التي جرت عليها الحكومة الاميركية في نزع السلاح .كانت حكومة الولايات المتحدة ، حتى منتصف اكتوبر الماضي،قد تعاونت مع سائر الامم ، في البحث ، عن اساس فني technical للوصول الى قاعدة تصلح ان تكون اساساً لخفض السلاح وكذلك قدمت المسائل الفنية على المشكلات السياسية . فكان نزع السلاح ، غرضاً يطلب لذاتهِ . وكان المستر نورمن دايفس قد سار شوطاً بعيداً في تحقيق خطة المستر روزفلت والمستر هوفر من قبله ، وهي الخفض المتبادل في الاسلحة والجيوش ، وبوجهٍ خاص الغاء المدافع الضخمة والدبابات الثقيلة الوزن وما من قبيلها مما يطلق عليهِ اسم « اسلحة الهجوم » . وارتبط ذلك التقدم بابتداع ، مبدإ الرقابة الدولية . لكي تحس الامم المخلصة في تنفيذ عهودها ان الدول الاخرى لا تتسلح سرًّا . فكان لكل ذلك أثر في احداث تعديل يسير في موقف فرنسا ، التي كانت لا ترضى من قبل ان تخفض سلاحها ، الاَّ اذا ضمنت سلامتها ، بمحالفات دفاعية ، وهو ما لم ترضَ بهِ الولايات المتحدة ولا الامبراطورية البريطانية

وكان الامل كبيراً في الوصول الى اتفاق معقول على هذا الاساس ، ما زالت المانيا راضية ، بأن تحقق طلب المساواة تحقيقاً متدرجاً عن طريق خفض سلاح الدول المتسلحة رويداً رويداً . اما بعد انسحابها من المؤتمر لانها لا ترضى بفترة التجربة ، وتطالب بحيازتها في الحال نماذج من الاسلحة التي لا يتم الاتفاق على الغائها الغاء شاملاً (وهو مطلب منطقي معقول) — فقد تحول موضوع نزع السلاح ، وصار يتعين على جارات المانيا ان تنظر في النهج الذي تسير عليهِ ، لا من حيثٍ علاقته ، باتفاق عالمي على خفض السلاح او نزعه ، بل من حيث علاقته ، بموضوع تسلح المانيا خاصةً . وهذا ما لا تستطيع حكومة الولايات المتحدة الاميركية ان تشترك في بحثهِ ، لان على الدول الاوربية ان تقرر اولاً ، هل تترك موضوع التسلح للمقادير ، او تشهر على المانيا حرباً واقية ، او تقترح على المانيا مقترحات جديدة غرضها الوصول الى اتفاق . فاذا كان الامر الثالث ، فعندئذ تستطيع حكومة الولايات المتحدة الاميركية أن تستأنف اشتراكها مع حكومات الامم الاخرى في البحث عن افعل السبل إلى وضع الاتفاق المنشود

[بتصرف قليل عن مجلة الشؤون الخارجية للمستر دولس العضو الاميركي في اللجنة التمهيدية لمؤتمر نزع السلاح ١٩٢٦]

الانذار المثلث

لارثر شنتزلر الكاتب النسوي

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين »

سورة الانعام : ٥٩

خرج الفتى والضباب يحجب وجه النهار الا فتوقاً تنفذ معها اللمحات الى عنان السماء الزرقاء، وسار يطوي الارض الى الجبال وقد خُيّل اليه أنها تناديه ، وكان قلبه كأنما يرقص بين جنبيه على نغم الطبيعة المنسجم، فسار في السهول خلياً لا يكبو به همٌّ فيما مضى او فكر فيما يستقبل ، فلما اشرف على طرف الغابة ابتدر سمعه دويٌّ صوت فيه خفاء البعيد ومسُّ القريب فسمع نبأة خافتة توحي اليه

— لا تخترق الغابة ، يا فتى ، الا اذا سرّك ان تكون قاتلاً

فوقف الفتى ذاهلاً يتلفت ، فلما لم يجد حياً ولا ناطقاً ذهب به الظنُّ الى ان الجن كانت تحدثه وتهتف به ، ولكنهُ لم يعبأ بذلك لما جُبل عليه من الجرأة والثبات فمضى لا يلوي على شيء الا انهُ وضع من سرعة سيره — اذ استيقظت فيه غريزة الاحتراس فكان يستعدُّ للقاء ذلك العدو المجهول الذي انذره .... لم يلق الفتى احداً في سيره ،ولا سمع صوتاً يقذف في روعه بالريبة حتى نفذ من ظلال الاشجار الى الفضاء الرحب وهناك في برد الظلال ألقى العصا وجلس يستجمُّ ويستروح واستقرّ ببصره على المروج الفيحاء الممتدة الى سفوح الجبال ، وقد نهدت بين هذه السفوح قمة شامخة جرداء ناتئة الاضراس وكانت هي الهدف الذي يرمي باشواقه اليه

لبث هنالك ما شاء ، وما كاد ينهض حتى سمع نأمة صوت كأنهُ قريب بعيد معاً يوحي اليه في جدّ وحرارة

— لا تخترق المروج ، يا فتى : الا اذا سرّك ان تجلب الدمار على وطنك

وكأن ما بين جنبه من الكبرياء والتقحُّم أبى عليه ان يعبأ بهذا النذير، فابتسم لهذه الترّهات الباطلة التي يوحي اليه بها الهواء ، وكأنها تنطوي على أمر ذي بال ، واسرع

الفتى يتدفّق في سيره ، وما يدري أيستحثهُ القلق أم يستفزّه الجزع ، فلما بلغ مواطىء ذلك العملاق الصخري الذي رمى اليه بنفسه كان الليل قد ارخى ستوره على المرج . وما كاد الفتى يطأ الصخر حتى راعه ذلك الصوت القريب البعيد ، يقول في تهديد غامض

— على رسلك ايها الفتى والاَّ لقيت الحتف

فقهقه الفتى ثم مضى مسرعاً لا يتردد ، وكان كلما استوعرت مسالكه ومطالعه امتلأ صدره بهواء الجبل اللطيف ، فلما بلغ القمة كان نور الشفق يتلألأ على هامته ....

« ها أنذا » يرسلها بصوت الظافر « ان يكن هذا امتحاناً منك ايتها الروح الصالحة — او ايتها الروح الشريرة — فها أنا قد فزت وبلغت لم ارتكب جريمة قتل تلوث قلبي اوضميري ، وها هو وطني ينام في ظلال الامن والعزة ، واما انا ايتها الروح — فما زلت حيًّا ينبض قلبي بالحياة ... فكن لِمَن تشاء ايها الصوت فأنا اقوى ممن ارسلك اذ لم أومن بك ولقد احسنتُ » . واذا بصوت كقاصف الرعد يجلجل من جوانب السماء ، وكأن قصفه في اذنيه

— اخطأت يا فتى اخطأت

وقعت هذه الكلمات ثقيلة عليه فلم يطق حملها ، واستلقى على حافة الجبل ليجد مَسَّ الراحة واخذ يجمجم بهذه الكلمات ، وقد لوى شفته ساخراً

— أتراني قد اقترفت جريمة قتل ولا علم لي بما جنيت ! ! فدوى الصوت

— ان قدمك الغافلة قد ازهقت روح دودة من دود الارض

فأجاب الفتى مستخفًّا ساخراً — الآن فهمت ، فليس النذير من الارواح الصالحة او الشريرة وانما هي روح متهكمة ساخرة تستروح الهزل ، وما كنت اعلم ان مثلها ممن يطوف بنا نحن ابناء الموت فدوى الصوت اخرى على رزق الشفق المتهدّلة على الافق

— ألست انت ذلك الفتى الذي كان يطوي الارض هذا الصباح ؟ ألم يكن قلبك يرقص بين جنبيك على نغم الطبيعة المنسجم ؟ ، فالآن أرى قلبك استحجر فلم يعد يهزّه حزن شيء او فرحه . . ، وان كان دودة من دود الارض

— « أههنا غُررتَ ؟ » يقولها وقد تغضّن جبينه . « ان يكن ذلك فأنا مجرم بل مجرم يحمل اوزار الف جرم ، ومثلي في ذلك مثل سائر البشر أبناء الموت الذين يطؤون باقدامهم الغافلة احياء لا تعد فيزهقون بذلك ارواحها

— وأنت قد حُذِّرت عاقبة ما اجترحت من الخطيئة ، فهل تدري ماذا تقع هذه الدودة التي قتلت من نظام الكون . فحنى الفتى رأسه وقال

— لما كنت لا اعلم موقعها من نظام الكون ، ولا استطيع ان اعلم ذلك ، كانت

الجريمة واقعة ولا شك . فأنا في تجوالي قد اقترفت هذه الجريمة وهي واحدة من عدة جرائم اجترحتُها... كنتَ تستطيع ان تحذرني عاقبتها ، ولكن كيف يكون اجتيازي ذلك المرج ، كما تقول ، سبباً في جلب الدمار على وطني . هذا ما أريد ان تخبرني بأمره

فقال الهاتف — هل تذكر تلك الفراشة الزاهية الالوان التي رفرفت بأجنحتها من عن يمينك . فقال الفتى — رأيت فراشاً كثيراً غير التي ذكرت

— أجل ! فراشاً كثيراً ، ان أنفاسك حادت بهذا الفراش عن طريقه ، غير ان الفراشة التي أعني ، ذهبت ناحية الشرق ، وحملتها الريح حتى بلغت سياجاً ذهبيًّا يحيط بالحديقة الملكية في وطنك ، فستلد تلك الفراشة ويخرج من ولدها أُسْرُوع[1] ، ففي يوم من ايام الصيف المقبل ، يزحف هذا الاسروع حتى يقع على عنق الملكة البض فيوقظها من نومها مذعورة تنتفض حتى يسكت قلبها عن النبض ، وتموت وفي احشائها ثمرة الحياة من الولد . وكذلك يا فتى ، يرث اخو الملك العرش وقد فقد الوارث من الولد الذي ازهقت انت روحهُ قبل ان يولد ، وأخو الملك هذا ظالمٌ مستبدٌ جائرٌ . . فسيحكم بجوره حتى يحلَّ بشعبهِ البؤس والشقاء ، ثم يحاول بعد ذلك ان يخلّص نفسهُ فيخوض بالبلاد غمرة حرب آكلة تجلب على الوطن الدمار.... وما من ملوم غيرك ، أنت وحدك : يا من ذهبت انفاسهُ بالفراشة الى المشرق فطارت فوق المرج حتى اجتازت ذلك السياج الذهبي الى حديقة الملك

فهزَّ الفتى كتفيه استخفافاً وسخرية ثم قال :

— ايها الهاتف الخفيّ ، كيف لي ان أُنكر كل ما تتنبأ بهِ . لا ، ما زالت الاحداث يستتبع بعضها بعضاً في هذه الدنيا ، .. ومن إدنأ الاسباب تخرج أجلُّ الاحداث ، ومن اجلّ الاسباب تخرج اهون الاحداث !! كيف أصدق هذه النبوءة وما زالت ثالثة نبوءاتك لم تتحقق ، وهي التي توعدني بالموت إذا أنا ركبت هذا الجبل

فدوّى الهاتف النذير « ان من ركب الجبل وجب عليهِ ان يهبط منهُ من حيث صعّد فيهِ اذا ابتغى ان يعود الى الحياة الانسانية مرّة اخرى ، فهل فكرت في ذلك يا فتى ؟

فوقف الفتى ساعة وكاد يستقرُّ رأيهُ على ان يسلك السبيل الذي ينجيهِ الى سفح الجبل ولكنهُ خشي الليل المكفهرّ الذي يكتنفهُ وادرك ان الاخطار التي تحفُّ بهِ في التصويب من الجبل لا يكشفها عنهُ الا ضوء النهار وذلك لكي يحشد قوة فكره في تصويبه ولا يبعثرها في ظلام الليل... لم يجد الفتى بدًّا من ان يستلقي على الحافة الضيقة فاستلقى لا يهم بحراك ، يستجلب بذلك النوم الذي ينشىء في بدنهِ القوة ، الا ان الفكر فيما هو فيهِ كان

---

(١) واحد الاساريع وهي دود حمر الرؤوس بيض الاجساد تنسلخ فتصير فراشة

يطرد عنهُ النوم. ففتح الفتى جفونه المتعبة ، وأحس بقشعريرة تمشي في عروقهِ ورِعدةٍ تدبُّ في ظهرهِ . وكانت الهوّة مائلة بين عينيه ، وطريقها هو الطريق الفرد الى الحياة . كان هذا الفتى قبل هذه الساعة ، فتىً رابط الجأش راسخ القدم جريئاً ، اما الآن فقد انقلبت رباطة الجأش الى ريبة تنسلُّ الى قلبه فتفتتُ من جرأته وتزلزل من قدميه فكان ذلك سبباً في آلام لم يستطع تحملها ، فعزم لساعته ان يحاول ما لا بدَّ له منهُ ، فلا يبقى في عذاب من القلق والحيرة والاضطراب منتظراً اضواء النهار . نهض الفتى وهو يعدُّ نفسه للمغامرة غير منتظر نجدة ضوء النهار، نهض متحفزاً ليغلب خطر السبيل ويظهر عليه ،.. نهض ولكن كانت خطواته متزلزلة تتعثر ! ! فما كاد ينقل قدمه في ظلمة الليل حتى تَوَثَّق من ان حتفه حتم لا يرد ، وان منيته قضاء مبرم . فصاح مغيظاً محنقاً

— ايها الهاتف الخفي ، يا من انذرني ثلاثاً ولكنني كذبته وأبيت ان اسمع له ، ايها الهاتف الذي أخشع له كما يخشع الضَّرَع لمن هو اقوى منه ، حدثني قبل ان انكبَّ على موارد الهلاك ... وخبرني من انت ؟

فدوَّى الصوت وما يدري الفتى اهو يدوي في اذنيه ام في جنبات الفضاء المترامية

— لم يعرفني الى يومي هذا أحد من ابناء الموت ، والاسماء متعددة فمن آمن بالغيب سماني « القدر »، ومن آمن بحماقاته سماني « الحظ » ، والمؤمنون يقولون « هو الله » ، اما الحكماء فيقولون « هو القوة التي كانت في البَدْء وسوف تكون سرمداً بلا نهاية الى الابد »

فصاحَ الفتى وقد قذف الموت في قلبه جنون الحياة

اذاً فأنا ابرأ منك في ساعة النفس الاخير من الحياة ... اذا كنت كما يقولون — القوة التي كانت في البدء وسوف تكون سرمداً بلا نهاية الى الابد، فقد كان من قدَرِي ان يقع ما وقع .... أنْ اخترق الغابة فاجترم خطيئة القتل ، وان اجتاز المرج فأجلب الدمار على وطني ، وان أصعَد في هذا الجبل الشامخ لاستقبل الموت ، وكل هذا بعد تحذيرك اياي وانذارك . . . . فأمَّا كنت تعلم ان انذارك لن يردني عما كنت فيهِ ، فلماذا اسمعتني كلامك وكلمتني ثلاثاً .. لماذا لماذا ..!! يا للسخرية. ألا فأخبرني في هذه الساعة المُتَصَرِّمة الاخيرة وانا مضطر ان لا القي سؤالي الاَّ اليك ! لماذا .. لماذا .. ! !

فكان الجواب الساخر القاسي : قهقهة قاصفة تُطيف بمعانيها الاسرار، ودوّت اصداؤها في جنبات السموات التي لا ترى . وحاول الفتى ان يتلقف الكلمات في قصف الضحك الاَّ ان الارض غالت بهِ وكأنَّ قد انخسفت من تحت قدميه ، فهوى كما يهوي في اعماق لا غور لها الى ليل الزمان الذي كان وسوف يظل ابداً في مبدإ الاحداث ونهايتها

[افرغها في القالب العربي محمود محمد شاكر]

الايمان

قصيدة لالفونس دي لامرتين

ايها العَدَم ! ايتها الهاوية الصامتة التي خرجت منها ، وسأعود اليها ! لماذا تركتِ المرء يفلت منك ؟ فقد كنتُ انام في احضانكِ نوماً عميقاً ، لا تزعجه أحلام ، ولا تخيفه يقظة ، نوماً هنيئاً وانا ملتحفٌ بالنسيان الابدي في ازلية اللانهاية ، دون ان ترى عيناي هذا النهار الزائفِ الذي امقُتُه ، وهذه الحياة التي لا أجد فيها غير شقاء يتكدَّس فوق شقاء ، والتعاسة تزحم التعاسة

لقد شاءت الاقدار ان آتي الى هذا الوجود ، ولو خُيرتُ لآثرتُ البقاء في غياهب العَدَم ، ولكن أنّى للانسان أن يُؤبه لرأيه ، فقد حُكم عليه ان يرى الحياةُ ، ولا مردَّ لحكم القضاء

فما ذلك الشَفق البادي لاول مرة ؟ وتلك اليقظة المضطربة ، يقظة المخلوق الذي يجهل نفسه ، وهذا الفضاء الممتدُّ امامه ، وهذه النظرات العميقة ، التي يُلقيها الانسان مسائلاً السماوات ، وهذا الافتتان المُبهَم ، والأمل الذي يملأ الجوانح ؟ . . . . كل هذا يَبهرُ بصرهُ ، وهو لم يزلْ بعد على عتبة الوجود ، وفي فجر الحياة

سلاماً ايها المقرُّ الجديد حيث ألقاني الزمنُ ، سلاماً ايتها الكُرةَ الشاهدة ما يخبئه لي المقدورُ بين طيَّات الغيب ، سلاماً ايها المصباح المقدس المغذّي للطبيعة ، وايتها الشمس الحبيبة الاولى لكل كائنٍ حيٍّ ، سلاماً ايتها السماء الحاجبة وجه الخالق العظيم ، وانتِ ايتها الارض مهد الانسان، لأنتِ قصر مُنيف يقضي فيه الانسان حياته الفانية ثم ينحلُّ غلافه الى ذرّات تندمج في ذراتك

سلاماً ايها الانسان الآتي الى هذا العالم الفاني على كرهٍ منك، انك خدينني واخي وانتِ ايتها الكائنات ، يا اداة سعادتي وهنائي ، اذا كان ثمَّ هناك وسعادة في هذا الوجود سيري في الطريق الذي خُطَّ لك، غير عابئة بقلب يتألم، وآمال تتحطم ، فقد اضفتُ بمجيئي اليك ، فؤاداً الى تلك الافئدة الكسيرة ، وقلباً الى تلك القلوب المنسحقة

انه لحُلم لذيذ ، يستأثر اللب ، ويستهوي المشاعر . ولكنه وا اسفاه ! لم يخرج عن كونه حُلماً ، فقد بدأ قريباً وانتهى وشيكاً ، لان الآلام المُبرحة فتحت لي قبل الاوان ابوابَ القبر الذي يتطلع اليَّ ويدعوني ، فسلاماً يا يومي الاخير ، كُنْ لي أجمل يوم اكتحلتْ بهِ عيناي في رحلتي الارضية

لقد عشتُ ، لقد قطعتُ مفازةَ هذه الحياة، حيث تذبل دائماً تحت قدميَّ ، كل زهرةٍ من أزاهير الهناءة ، حيث دائماً الامل يخدع الاماني ، مظهراً لي السعادة في أفقٍ خافق مضطرب ، حيث انفاس الموت الحارّة تجفف تحت شفتيَّ ، كل الينابيع العذبة الباردة

أرى غيري يذوب حسرةً على ما ولّى من حياته، فيلتمس من الماضي عوداً ، باكياً على نجر ربيعهِ الآفل ، نادباً الأويقات التي اقتطعها الزمن من حياته ، كأن العيش بهجة وصفاء ، لا تعساً وشقاء . اما انا ، فلو ان القدَر بلغني منى النفس وامانيها ، وحباني بالثراء والسؤدد والمجد واعطاني كل مفاخر العالم، ومنحني الحكمة والجمال والصيت الخالد ، لاعرضت عن هذه المِنَح غير آسفٍ ، لاني لا أصبو الى العيش في دنيا زائلة فانية ، تذبل ذبول وردة عندلفح السموم ، دنيا كل ما فيها مشوّش مُبهم ، فالذكرى الخالدة تبلى فيها ويعفو أثرها ويوم الهناء لا تبزغ فيه شمس ، ولا يعقبه غد

ايها اللهيب الذي يفترسني ، ايها الروح ، اي شيء انت ؟ هل ستحيا بعدي ، هل ستتألم اذا تركتك ؟ ايها الضعيف الخفي ، ماذا سيحل بكَ بعد هجري ؟ هل ستنضم الى مشعَل النهار وتندغم فيه ؟ اذ قد تكون شرارة ضئيلة من ناره ، او شعاعاً تائهاً يرتد اليه ويعود الى مصدره ، او عصارة نقية كوّنتها الارض ، او طيناً نُفخَت فيه نسمة الحياة، او صلصالاً حيًّا مفكراً . ولكن ماذا أرى ؟ لِمَ ترتعد فرَقاً ؟ أتخشى العدَم وأنت تَعِب من الآلام ؟ أتخاف الحياة ثم ترتعد من الموت ؟

ايها اللغز الخفيُّ ، من يحلك ويفسّر أحاجيك ؟ عبثاً أصغي الى اصوات حكماء العالم فالشكّ قد تطرّق ايضاً الى هذه العقول الجبّارة ، اذ لم تخرج عن كونها مجبولة من صلصال كغيرها،فمنذ الفيْ سنة ونيّف أفنى سقراط عمره باحثاً منقباً،واحتذى افلاطون حذوَه ، ولكن دون جدْوَى ، وها أنذا اليوم ، أسعى وابحث ، ومع ذلك لن افوز بضالّتي ، وستمضي الوف السنين،وبنو آدم يتخبطون في الظلام الذي نحن فيه،والحقيقة الشاردة بمنجاة من قبضة ايدينا ، والله وحده يجمع كل اشعتها المتفرّقة

والآن وقد اوشكتُ ان أغمض عيني عن نور هذه الحياة، فلا اجد اقل أمَل يؤاسيني في ساعتي الاخيرة ، فستسير رُوحي دون دليل ولا ضياء ، من ليل هذه الحياة الداجي ، الى ليل القبر الحالك ، حاملة الى العالم المجهول ، فضائلي دون امل . وآلامي دون ثواب

أجِبْني ايها القضاء الظالم الغشوم ، اذا كان ثمَّ شيء يسمى قضاء ، اذ لي الحق المشؤوم ان ألعنَ شرائعك ، فبعد كدّ النهار وتعبه ، يحق للاجير ان يأوي الى ظلال الراحة والهدوء ويتناول كراءه لكني بعد ما أنوءُ تحت حِمْل القدَر ، لا يكون

جزائي ، بعد مشقة الحياة وآلامها ، سوى الموت

ولكن بينما في يتنفس نتن الشك والتجديف ، وعيناي تنظران الى قبري وتبكيان على نفسي ، استيقظ فيّ الايمان كأنهُ ذكرى لطيفة ، وألقى شعاعاً من الامل على مستقبلي الكالح ، فانعشني تحت ظل الموت ، وألهب قواي ، واعاد الى ايامي العتيقة ، شباب النفس وريعانها ، فصعدتُ تحت ضوء هذا المشعل المقدس ، من مغرب حياتي الى صباحها الضاحك ، وتجلى امامي حظ الانسانية جمعاء ، وتبدى لناظريّ نظام الكون البديع ، وتسلسلُ اشيائه المنسجم ، وقرأتُ في صفحة المستقبل صواب الحاضر ، فأغلق الاملُ ورائي ابواب العدم ، فانحا الأفق لروحي المتشوّق ، ومفسراً بالموت لغز الحياة

وهذا الايمان الذكي ينتظرني على حافة القبر ، .. وافرحتاه ! لقد تذكرته : فقد حام فوق مهدي ، وهو الإرث الخالد لارض المعاد ، يتركه الآباء للابناء من جيل الى جيل ، ويتقبله عقلنا منذ يقظته الاولى ، عطية إلهية ، كما يتقبل الحياة ونور الشمس ، فهو اللبن المغذي للروح ، ينسكب من فم الأم فيملأ جوانحنا ثقة ، وقلوبنا املاً ، يتغلغل الى الانسان في فصله الغض ، فيشع نبراسه في الفؤاد قبل ان يتفتق الذهن ويعي العقل ، والطفل في مهده لا يكاد يتلفظ بمخارج الكلام حتى يتمم قانونه السامي ، فينمو في قلبه تحت رعاية الام الحنون ، جنباً الى جنب مع الفضيلة ، ولا يشعر به حتى تتأصل جذوره فيورق ويثمر

حبذا لو جعلت الحقيقة لهذه الارض ، فقد عرضت على انظارنا منذ طفولتنا ، وتسللت الى نفوسنا من كل جهة عن طريق الحواس ، كما يتسلل الشعاع الطاهر من اللهيب السماوي ، فقد احاطت بنفوسنا منذ إنبثاق فجرها ، وانحدرت الى قلوبنا من مداركنا ، فانضمت الى تذكاراتنا ، وذابت في اخلاقنا ، كحبة مخصبة يدثرها الشتاء ، فتنبت في افئدتنا طويلاً قبل ان تظهر ، حتى اذا جاوز الانسان صيفهُ المملوء اعصاراً ، برزت اغصانها وتفتحت اكمامها ، وأينعت ثمارها الإلهية للخلود

ايتها الشمس السرية ، مصباح العالم الآخر أعيري عينيّ المطفأتين نورك الرمزي ، إنبعث من احضان العليّ ايها الشعاع المعزي ، أشرق في قلبي ايها الكوكب المحيي .. لهف نفسي ! ليس لي غيرك في ساعاتي العصيبة ، فهذا العقل الانساني سراج ضئيل ، يخبو كالحياة على اعتاب القبر ، فتعال لتحل محله ايها النور السماوي ، تعال لتفيض على جفوني يوماً لا سحاب فيه ، أعضني من الشمس التي لن اراها فيما بعد ، وأنر الأفق كما ينير كوكب المساء ، لأحظى بحياة سرمدية خالدة ، برهنتها آجال وهنيهتها اجيال

[نقلها جورج نيقولاوس]

عواصف

وليم هنري دايفز

في عقلي عواصف ، تثور ساعات متواصلة
فتظل افكاري، حتى تمطرني العواصف بالكلمات
ازهاراً ذابلة او طيوراً واجمة حردة
فاعصفي يا عواصف وانشري ظلالك القاتمة
لانك اذا امطرتني بالكلمات ، تصبح افكاري
ازهاراً رواقص وطيوراً غردة مرحة

المرآة والبركة

وله ايضاً

اذا نظرت في المرآة ، انحصر همي في نفسي
اما اذا نظرت الى البركة فلأجل ما فيها من العجائب
اذا نظرت الى المرآة رأيت رجلاً احمق
ولكنني ارى حكيماً اذ أنظر الى البركة

النار والجمد

روبرت فرست

يقول بعضهم ان العالم سوف ينتهي بالنار
ويقول البعض الآخر ، بالجمد
اما فيما عرفته من الشهوة
فأنا من مذهب القائلين بالنار
ولكن اذا فني العالم مرتين
فاظنني اعرف في البغضاء ما يكفي
للقول بان الجمد كافٍ لتدمير الارض

الدين

جمس رتهوس

دَيْني لك ايتها الحبيبة دين لا استطيع
ان اوفيَه بنقد اية مملكة في يوم الحساب
فمن ذا الذي يستطيع ان يقدر دَيْنك
لمن يجملك تحلم حين الاحلام كلها ذاوية
او يدفعك الى الانشاد اذ الاناشيد جميعها صامتة ؟

الشقاء في الزواج

اسبابه وتلافيها

انشئت في مدينة نيويورك جمعية ، جعلت غرضها البحث في شؤون الزواج في الولايات المتحدة الاميركية ، وتقصي خفاياها وتبويب ما تجمعهُ من الحقائق المتصلة بها ، واسداء النصيحة والمشورة للازواج الذين لا قبل لهم باستخدام محام يدافع عنهم او يهديهم سواء السبيل في المسائل القانونية. وقد كتب احد مديري هذه الجمعية مقالاً لخَّص فيهِ ، ما عرفه عن بواعث الشقاء بين المتزوجين كما استخلصها من حوادث الطلاق التي أخذ رأيهُ فيها

وعنده ان اهم اسباب الشقاء في الزواج تسعة وهي كما يلي : — تنافر الذوقين . تدخل الاقارب في شؤون الزوجين . الغيرة ويتلوها الاخلال بالشرف الزوجي . الاسراف والتقتير . وقلة ترتيب الزوجة . وفقد الشعور بالتبعة من احد الجانبين . والاختلاف في المعتقد الديني ... قال الكاتب

جاء مكتب شركتنا في احد الايام فتاة بهية الطلعة ، رشيقة حسنة الهندام ، وبعد تردد وتلعثم سردت لي حكايتها وطلبت مني ان اخبرها هل في امكانها الحصول على تصريح قانوني بالطلاق فسألتها ولكن لماذا تريدين ان تطلقي زوجك ؟ ألا يقوم بنفقاتك ؟

فقالت بل يقوم بنفقاتي ، ولكننا لا نستطيع ان نتفق في امرٍ من الامور . فهو لا يفهمني فيحسبني من المتظاهرين بالعلم لأني احب المطالعة والقراءة، وانا أراه كثير التردد على الملاهي ولذلك قلَّما نجتمع معاً . واذا اجتمعنا فلا نستطيع ان نتحدث لان ما يلذُّ لي لا يلذُّ لهُ وما يلذُّ لهُ لا يلذُّ لي . وعلمت بعد ذلك ان لزوجها دخلاً سنويًّا كبيراً فكان يعطيها منهُ ما يكفي نفقاتها ولا يعاملها معاملة فظة في حال من الاحوال وكان لهما ابن كان واسطة الاتصال بينهما الى زمن لكن حتى محبته لم تقوَ على ما بينهما من نفور فجاءت امه تطلب الطلاق

ان خير الوسائل لاجتناب الشقاء في الزواج ان يتأكد الزوجان انهما متلائمان في ذوقيهما وان هناك جامعة تجمع بينهما ويجب ان يعرفا ان الفرق كبير بين مقابلة الناس بعضهم لبعض في المجتمعات والاندية والحفلات وبين المعيشة البيتية الدائمة حيث يكشف عن حقيقة الاخلاق التي قد تسترها تقاليد الاجتماع وآداب السلوك

***

واذا كانت للمرأة عقيدة دينية تختلف عن عقيدة الرجل فالراجح انهما يختلفان يوماً ما وتتسع شقة الخلف بينهما اذا لم يتسع صدر احدهما ويحلّ التساهل فيهِ محل التعصب . فالغاية من الدين اسعاد

الناس ولكني عرفت اناساً بلغ منهم التعصب لعقائدهم مبلغاً استحلّوا معهُ هدم العائلة واشقاء اعضائها . وقد اتصلت بي قصة جرت حديثاً تبين العاقبة الوبيلة التي تنجم عن التعصب وتدخُّل الاقارب في شؤون الزوجين وذلك ان فتاة اسكتلندية تزوجت رجلا من مذهب ديني غير مذهبها فضت عليهما بضع سنوات وملاك السعادة يرفرف فوقهما وولد لهما ابنتان . لكن والدي الزوج كانا شديدي التعصب لمذهبهما وساءهما جداً ان يتزوج ابنهما فتاة من غير مذهبهما وما زالا ينقران على هذا الوتر امامه حتى استمالاهُ قليلاً عنها ثم جعلا يهزآن بها لانها لا تصلي كما يصليان وجريا على المقابلة امامها ، بينها وبين كنّاتهما الاخريات وبالطبع كانا يفضلان اولئك عليها وكان زوجها ضعيف الارادة فلم يحام عنها كما كان يجب عليه واخيراً تخاصمت عائلتها مع عائلة زوجها فاتسعت شقة الخلف بين الزوجين وتلا ذلك انفصالهما فاخذت الزوجة ابنتيها وجعلت تشتغل لكي تعولهما

***

اما الغيرة فمن اصعب ما يلاقيه الزوجان وهي لا تدخل بيتاً الاّ هدمتهُ لانهُ من اعسر الامور ان تتكلم كلاماً معقولاً مع من اوغرت صدره الغيرة وزد على ذلك فقد تدفع الغيرة الرجل او المرأة الى اعمال لا يتصورها العقل السليم

من ذلك اني كنت اعرف فتاتين من بيتين مشهورين كلفتا بحب شاب فخطب احداهما . وفي اليوم السابق ليوم العرس جاءت صديقات العروس الى بيتها يزرنها ويرين جهازها وكانت بينهن الفتاة مزاحمتها على خطيبها فجلسن يتحدثن ، ثم انصرفنا وبقيت هذه الفتاة مع الخطيبة واذا بالخادم يدعو الخطيبة من الغرفة فغابت عنها نحو ثلث ساعة ولما عادت اليها وجدت صديقتها قد مزقت كثيراً من اجمل اثوابها واغلاها وفي جملتها ثوب حفلة الاكليل غيرة منها . وقد بلغتني حادثة اخرى تدل على تأثير الغيرة وذلك ان امرأة كان لها زوج مصور كانت تقلقهُ بما يبدو عليها من مظاهر الغيرة لانهُ يصور فتيات ونساء بارعات الجمال وبلغت الغيرة منها انها ذهبت الى مكتبه فرأت فيهِ صورة بديعة لفتاة جميلة فأخذت دبوس قبعتها وجعلت تثقبها انتقاماً منها

وليس النساء وحدهنَّ اللواتي يقعن فريسة الغيرة بل الرجال مثلهن معرضون لذلك . ومن اسباب الشقاء في الزواج اختلاف العمر لان ذلك ينشأ عنه اختلاف في الاذواق والاميال . فمتى تزوج رجل طاعن في السن بفتاة لا تزال في ميعة الصبا فقل ان الشقاء على الغالب سائر في اثرهما ولكن قلما جاءنا شاب تزوج من امرأة كبيرة السن يشكو منها وذلك لانه في الغالب يكون قد تزوجها لانها غنية فيقبل كلَّ ما يقسم لهُ في سبيل ذلك

***

ولا شك في ان الاسراف من جانب الزوج او من جانب الزوجة اكبر اسباب الشقاء في العائلة . جاءني شاب في احد الايام وقال « امرأتي تنفق اكثر مما اكسب وفي كل يوم يزداد الدين عليَّ »

لجربنا ان نساعده وبحثنا عن نفقات امرأته فوجدنا ان لها معارف على جانب وافر من الثروة وانها كانت تخجل ان تقتصد في أثوابها ما زالت في دائرتهم الاجتماعية . فجمعنا بين الرجل وامرأته في مكتبنا كما نفعل في امثال هذه الحوادث وبحثنا في الموضوع بصراحة تامة فقال الشاب لامرأته « انت تعلمين انك تنفقين فوق طاقتي وان عندك من الاثواب ما يزيد على حاجتك ولكنك تمضين في شراء اثواب جديدة » فأنبها ضميرها وشعرت انها اذا استمرت على تلك الحال خسرت زوجاً فاضلاً فقبلت كلامهُ بسعة صدر وعادا الى بيتهما بعد ان عزمت ان تقتصد طاقتها

كذلك البخل والتقتير كالاسراف من اكبر اسباب الشقاء في العائلات . حدثتنا امرأة مسكينة لها سبعة اولاد ان لها زوجاً يتناول راتباً اسبوعيًّا قدرهُ ٣٠ ريالاً ويلزمها الاَّ تنفق اكثر من ريال واحد في اليوم على اعالة العائلة . وكان يعيرها اذناً صمّاء حينما كانت تجتهد ان تقنعهُ بان ريالاً لا يكفي ثمن الخبز لثمانية أنفار . فجمعنا بين الرجل وامرأته في مكتبنا واجتهدنا ان نقنعه بانهُ مخطيء في عمله فقال « ان النساء يطلبن نقوداً اكثر مما يلزم لهن . وقد عزمت عزماً قاطعاً ان لا أزيد قرشاً واحداً على ما اعطيها اياه فلا تراجعوني في ذلك » . لكننا رفعنا عليه قضية وحكمت عليه المحكمة بدفع معظم راتبه الاسبوعي الى امرأته لكي تعول تلك العائلة الكبيرة

***

لا شك ان الزواج من اعظم الامور شأناً في الحياة والذي يقدم عليه يجب ان يعرف ما يلقى عليه من تبعة في القيام بواجباته . مع هذا لا يندر ان ترى من ينظر اليه نظره الى وسيلة لهو او تسلية . عرفت امرأة قبل زواجها من أبهى الفتيات طلعة كثيرة الطلاب . ولكن ما لبثت بعد زواجها ان اخذ زوجها في طريق الكسل والخمول فعجز دخله عن القيام بنفقاتها وكانت ولدت ابناً فاضطرت امها ان تساعدها اولاً . لكن زوجها لم يهتم بها وبابنه على الاطلاق وفسدت اخلاقه من معاشرة الفاسدين . وفي احد الايام ترك بلده وسافر الى بلد آخر . ثم جاءت منه رسائل بانهُ بدأ عملاً هناك ولكنه لم يرسل نقوداً لامرأته ثم انقطعت اخباره فجعلت المرأة تشتغل لتعول ابنها وتكسوه وتعلمه ولا تزال تشتغل الى الآن. كل شاب كهذا يقدم على الزواج قبل ان يدرك ما فيه من التبعة والشأن الخطير يشقي امرأته وأولاده شقاءً مرًّا

ويجب على كل امرأة ان تكون لبقة مرتبة في لبسها وفي بيتها لأن الرجل الذي يعمل طول النهار يتوق ان يعود الى بيته في المساء فيراه نظيفاً مرتباً فيهِ وسائل الراحة فيلذ له البقاء فيه . واذا كانت المرأة عكس ذلك كره البقاء في البيت فيتولد النفور بينهما

قال الكاتب ولا اريد القارىء ان يفهم مما رويته ان الزواج كله شقاء بشقاء انما الغاية منهُ تمثيل العبرة من اختبار الناس بأمثال واضحة . واذا كانت امثال هذه الحوادث تعد بالالوف فالعائلات السعيدة تعد بالملايين

بناء الجسم وتغذيته

يحسُّ كل انسان انهُ يعرف الفرق بين الحيّ وغير الحيّ او الجماد . ولا ريب في اننا لا نلقى صعوبة ما في التفريق بين الكلاب والحجارة . او بين الطيور والورق الذي نكتب عليهِ من هذه الناحية . ولكن كيف نستطيع ان نعلم ان حبة الفول الجافة : حية او غير حية ؟ قد نعرف ذلك اذا زرعناها فاذا انتشت عرفنا انها كانت حية ، ولكننا لانستطيع ان نفصل في ذلك من مجرد النظر فيها

وفي الغالب نعتمد على تحليل الكيماوي لان الكيماويين ما برحوا يحاولون من اقدم الازمة ، ان يحلّوا المواد الى عناصرها الاولى . وقد وجدوا انها اثنان وتسعون عنصراً وان بعضها نادر جدًّا . اما العناصر التي تدخل في تركيب الاشياء المألوفة ، فقد لا تزيد على عشرين عنصراً

فالسكر الذي نذيبهُ في الشاي ، والكحول الذي نشربهُ في الوسكي ، والغليسيرين الذي نطرّي بهِ اليدين والنشا الذي نطبخهُ في النشوية (البالوظة) والدهن الذي نقلو بهِ البيض ، كل هذه مركبة من ثلاثة عناصر ، هي الكربون والايدروجين والاكسجين . اما البنزين وما اليهِ فمركب من الكربون والايدروجين . وهذه المواد، مركبة من اجزاء مختلفة من عناصر واحدة . أما من حيث العناصر التي تدخل في تركيب الاجسام فلست تجد فرقاً بين الحيّ والجماد او غير الحيّ . فجانب من العصارة المعدية الهاضمة حامض ايدروكلوريك . وهذا الحامض فيها هو مثل الحامض الذي يصنع في المعامل من حيث تركيبهُ . وفي الدم حديد يحمرُّ او يصبح قرمزيًّا اذ يتحد بالاكسجين . وكذلك الحديد في الطبيعة يحمرُّ اذ يتحد بالاكسجين ، وهو الصدأ . والملح الذي يفرز في الدموع والعرق المتصبب من الجسم ، هو مثل الملح الذي نذرُّه على الطعام

***

والمادة الحيّة ، مركبة من طائفة يسيرة من العناصر التي كشفها العلم وأهمها ، الكربون ، والايدروجين والاكسجين والنتروجين والكلسيوم والفصفور والكبريت والصوديوم والكلور والفلور والبوتاسيوم والحديد . وفي الجدول التالي نسبة ما في الجسم

من كل عنصر منها	النسبة
الاكسجين	٧٢ في المائة
الكربون	١٣ر٢ «

من كل عشر منها	النسبة	
الايدروجين	١ر٩	في المائة
النتروجين	٢ر٥	«
الكلسيوم	٠ر٢٥	«
الفصفور	٠ر١٥	«
الكبريت	٠ر٠٢	«
الصوديوم	٠ر٣٠	«
الكلور	٠ر٠٨	«
الفلور	٠ر٠٨	«
البوتاسيوم	٠ر٠٢٦	«
الحديد	٠ر٠١	«

أما المغنسيوم والسليكون والنحاس والرصاص والالومنيوم فمقاديرها اقل من ذلك كثيراً

***

وهذه هي نفس العناصر التي نجدها عند حل الهواء والماء والصخور وما شاكل . فالجسم الحيّ مبني من نفس العناصر التي تركب منها الجوامد . ولكن لا بدّ من فرق بين الفريقين ، فما هو ؟

المركبات الرئيسية فى الجسم

اذا حلّت المواد ، التي تبنى منها عمارة نخمة ، وجدنا عناصرها نفس العناصر التي في الجسم الحي. ولكننا اذا تكلمنا عن بناء عمارة ، لا نذكر العناصر ، بل المواد التي تركب من تلك العناصر ، كالحجارة والاخشاب ، وغيرها . كذلك اذا تكلمنا عن بناء الجسم ، فقلما نشير الى العناصر نفسها بل الى المواد او المركبات المبنية من تلك العناصر . وهذه المركبات الرئيسية اربعة هي الزلاليات (بروتينات) والنشويات (كربوهيدرات) والادهان والحيويات (فيتامينات) وعلاوة على ذلك لا بدّ من الماء والملح

الزلاليات مركبة من الكربون والاكسجين والايدروجين والنتروجين ، ويدخلها في الغالب مقادير يسيرة من الكبريت والفصفور ولا تخلو منها اجسام النباتات والحيوانات . في عدسة عين الانسان منها ٣٨ر٣ في المائة وزناً ، و١٦ في المائة من العضلات و١٢ في المائة من الكبد و٩ في المائة من الدم . وليست هذه المقادير باليسيرة كما يبدو لاول وهلة ، لان الجانب الاكبر من جسم الانسان ماء . فاذا اخذت جسم الانسان جملة واحدة ، كان الماء فيه ٦٧ في المائة

الزلاليات وبناء النسج

لا بدَّ للجسم منَ المواد الزلالية . فاما ان يبنيها بنفسهِ او ان يستمدَّها من الاطعمة التي يتغذَّى بها . والمعروف ان الاول ، اي بناءَها بنفسهِ متعذّر عليهِ ، واذن فلا بدَّ منها في غذائنا . وعليهِ لا بدَّ ان نتناول في طعامنا مقداراً كافياً من الزلاليات والاَّ متنا جوعاً بلغ ما بلغ مقدار ما نتناولهُ من الاصناف الاخرى . والجسم يحتاج الى الزلاليات في القيام بعملهِ ، وبوجهٍ خاص العضلات والدم . فالعضلات والدم تفقد في قيامهما بافعال الحياة ، جانباً كبيراً من المواد التي تتركب منها . فاذا لم نعوّضها ما تفقدهُ ضعفت وخارت . فالطعام المحتوي على المواد الزلالية ، لامندوحة عنهُ للجسم الحيّ

وقد نحصل على هذه المواد في اشكال مختلفة ، من الاغذية النباتية والحيوانية . فهي في اللحوم تدعى (ميوسين) وفي البيض (البومين : زلال البيض) وفي اللبن الحليب (كاسيين) وفي الحنطة (غلوتين) وفي الفول والعدس وما اشبه (لغيومين) ومع ان هذه المواد مختلفة الاسماء باختلاف مصادرها ، الاَّ انها متشابهة في تجهيزها الجسم بما يحتاج اليهِ من الزلاليات لبناء النسج وتعويضها مما تفقدهُ منها . وقد يُظَنُّ ان « الزلاليات » المستمدة من مصادر حيوانية اشبه بزلاليات الجسم ، التي تحلُّ محلها ، من زلاليات المصادر النباتية . وهذا صحيح الى حدٍّ بعيد

المرأة بين الغيرة والحب

وقف الرجل والمرأة في تاريخ الماضي وحوادث الحاضر والحكايات والروايات مواقف لا يشتهيها احد لعدوٍّ فضلاً عن صديق — وقفا بين عاملين قويين تنازعاها وتجاذباها كقطعة حديد بين مغنطيسين متساويين في القوة لا يقوى احدهما على جذبها اليهِ الاَّ اذا قلَّت قوة الآخر او صارت اقرب اليهِ منها الى الآخر

ففي تاريخ الماضي وقف بطرس الاكبر بين عاطفتين شديدتين حبّ بلادهِ وحبّ ولي عهدهِ فقدم الاول على الثاني لما رأى ان حبّ ولي عهدهِ على ما كان بهِ من السفه والطيش والعناد يجرُّ على البلاد الخراب والدمار فامر بقتلهِ برّاً بوطنهِ

وفي تاريخ الحاضر ذكروا ان امرأة يابانية كانت متزوجة بروسيّ فلما نشبت الحرب بين الروس واليابانيين باتت كمن بين نارين فاما حب الوطن واما حب الزوج فقدمت الاول قائلة الزوج والاولاد فداءُ البلاد وهجرت بيتها برّاً بشعبها

وفي الحكايات ان ملكاً حكم على ولي عهدهِ بقلع عينيه فاما ان يعفو عن ابنهِ فيسخط العدل

ويرضي الرحمة او ان ينفذ الحكم فيهِ فيرضي العدل ويسخط الرحمة ويحرم ابنهُ لذة بصرهِ فاختار الثاني ولكنهُ فقأَ عيناً من عيني ابنهِ وعيناً من عينيهِ فوقف بين العدل والرحمة بما يرضيهما كليهما

وفي الرواية المعروفة باسم « غرام وانتقام » وقف بطل الرواية بين حب معشوقتهِ والانتقام من ابيها قاتل ابيهِ فاختار الثاني دون الاول ولم يمنعهُ هوى حبيبتهِ عن الاخذ بالثار ازالة للعار

***

ومن اجمل ما ذكر من امثال هذه النوادر ما ورد في بعض المجلات من ان فتاة اوقفت موقفاً حرجاً بين حب حبيبها وبين الغيرة عليهِ من بنات جنسها . ومتى عرفت ان الغيرة اظهر صفات المرأة واقوى العواطف المتسلطة عليها ادركت حرج موقفها وشدة حيرتها . وتحرير الخبر ان اميرة حبشية احبت فتىً من رعايا ابيها فلما درى الملك بذلك استشاط غيظاً وحكم على محبوب ابنتهِ بان يقاد الى مشهد لهُ بابان مقفلان داخل احدهما وحش كاسر وداخل الآخر فتاة جميلة . ثم امره بان يفتح الباب الذي يختاره فاذا كان وراءه الوحش مزقهُ ارباً او كان وراءه الفتاة زوجهُ اياها حالاً واطلق سبيله وعفا عنهُ

فحار الفتى في امره وادار نظره في جمهور المشاهدين حوله فوقعت عينهُ على عين الاميرة حبيبتهِ وكانت هي وحدها تعلم ما في كلٍّ من الغرفتين فأشارت اليهِ ذات اليمين ففتح الباب الذي هناك وماذا لقي —

***

هذه هي الحكاية وقد طلبت المجلة من قرائها ان يكتبوا اليها آراءهم في المسألة — هل دلت الحبيبة على الباب الذي كان الوحش وراءه فلقي حتفهُ او دلتهُ على الباب الذي كانت الفتاة الجميلة وراءه فتزوج بها . وبعبارة اخرى هل تغلب حب الاميرة لحبيبها على غيرتها من الفتاة الجميلة التي اختارها ابوها ليزوجهُ اياها فدلتهُ على الغرفة التي كانت الفتاة فيها فتزوجها . او تغلبت غيرتها على حبها فدلته على الغرفة الاخرى حيث افترسهُ الوحش الضاري مفضلة موتهُ على تزوجهِ بفتاة اخرى غيرها

***

فلبي الكتَّاب دعوتها رجالاً ونساءً وتباروا في هذا الميدان فانقسموا فريقين فمن ذاهب الى ان الاميرة دلت حبيبها على باب نجاتهِ ومن ذاهب الى انها دلتهُ على باب حتفهِ . واكثر الكاتبات من الاول وحجتهن في ذلك انهُ وان تكن الاميرة حبشية وليست على درجة سامية من التمدن والحضارة فانهُ لا يهون عليها ان ترى حبيبها يمزق ارباً امام عينيها . وهاك بعض ما قيل دفاعاً عن المذهب الاول . قالت احدى السيدات : —

في رأيي ان الاميرة دلت حبيبها على الباب الذي خرجت الفتاة منهُ لانها اذا كانت مخلصة في حبها لهُ ضحت بكل شيء لتفتديهُ وتنقذه

وقالت اخرى انهُ وان كان اقتران حبيب الاميرة بغيرها مما يهيج كوامن غيرتها الى حد الجنون

الاَّ انها لا بدَّ ان تكون قد قالت في نفسها ما دمت على قيد الحياة ففسحة الامل واسعة امامي . ولا يبعد ان تفعل كلَّ ما في وسعها بعد ذلك للفصل بين حبيبها ومناظرتها اما بابعادها الى خارج البلاد او بواسطة اخرى

***

وقال كاتب ارى ان الاميرة عقدت نيتها على انقاذ حبيبها فلا تفقده بوقوعهِ بين براثن الوحش المفترس وان كان انقاذها لهُ يعد خسارة لها من جهة اخرى باقترانهِ بفتاة غيرها . والسبب في عقدها النية على انقاذهِ علمها انهُ وان تزوج غيرها لم يفتإِ العمر عن ان يحلها المحل الاول من قلبهِ وهـذا مما يعزيها لانهُ ما من شيءٍ تطمح المرأة اليهِ في هذا العالم الفاني اعظم من ان يكون لها المقام الاول في قلب رجل قوي الارادة كريم الاخلاق . وهي لا تخشى ان تفقد مكانتها عنده علماً منها بميل الرجل ميلاً فطريًّا الى الارتقاء في المناصب . ثم انها تؤمل ان تموت زوجتهُ فتتزوجه بعد موت ابيها وهذا الامل يوسع مجال العيش في عينها ويمكنها من احتمال المحنة بالصبر والسكينة

وقال آخر ان الغيرة قد تكون اشدَّ من الحب ثورة ولكن الحب يتغلب عليها اخيراً فلو كانت الفتاة قد اجتذبت حبيب الاميرة اليها بمحاسنها وفتنتهُ عنها بدهائها وحيلها لتغلبت الغيرة على الحب وهو لم يسيء اليها وانما اساء اليها ابوها بالحكم الذي حكم بهِ على الشاب

***

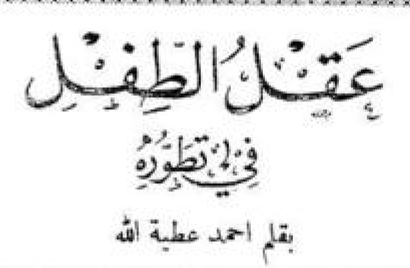
وهاك بعض ما قيل دفاعاً عن المذهب الثاني . قالت احدى السيدات

لا ريب عندي ان الاميرة دلَّت الشاب على باب الهلاك لانها حبشية نزقة الطبع فائرة الدم لا تطيق ان ترى ضرة لها شأن الاميرات غير المتمدنات ولو كانت متمدنة لكان الامر على خلاف ذلك

وقال كاتب لقد علمت باختبار احوال الناس وسبر قلوبهم وخصوصاً قلوب النساء ان الحب والغيرة اسمان لمسمًّى واحد . وكثيرات من النساء يفضلن ان يرين احباءهن امواتاً على ان يتزوجوا غيرهنَّ اذ لا بغض اشدَّ من بغض المرأة للمرأة فلا غرابة اذا سلَّمت الاميرة حبيبها الى الهلاك عفواً واعتباطاً . وقال آخر ان غيرة المرأة اشدُّ وطأة من حبها

***

ومن الكتَّاب من مزج المزح بالجد فقال ان الاميرة دعت مدير معرض الحيوانات اليها وطلبت منهُ ان يضع في احدى الغرفتين نمراً كان حبيبها قد رباهُ وعلمهُ الصراع وصارعهُ مراراً في الميدان امام ابيها وغيرهِ من المشاهدين . فلما أُطلق عليهِ لم يمسَّهُ بسوءٍ بل جعل يدور حولهُ متودداً اليهِ ثم انقلب على جنبهِ كأنهُ ميت . فلما رأى ابو الاميرة ذلك دهش فزوج الشاب ابنتهُ باحتفال حافل



عقل الطفل في تطوره

بقلم احمد عطية الله

— ٢ —

﴿ معنى الطفولة ﴾ يطلق لفظ الطفولة على الدور الذي يتراوح بين العام الثالث والثاني عشر من حياة الانسان . ولكن ليس هذا التحديد قاطعاً . لانهُ مبني على وجهة نظر خاصة ، واذا نظرنا اليهِ من ناحية اخرى اختلف مدى هذا التحديد . لهذا نرى البعض يجعل الولادة هي بدء عهد الطفولة . فالطفولة تبدأ من العام الاول وليس من العام الثالث في رأي بعضهم

والاختلاف اكثر وضوحاً في الحد الاخير . فالبعض يمد عهد الطفولة الى دور المراهقة او البلوغ وهذا يكون عادة في الرابعة عشرة . كما ان من الباحثين من يمد هذا الدور الى ما بعد السنوات الاربع التي تلي ذلك بما لها من علاقة نفسية وجسمية بعهد المراهقة

وتحديد دور الطفولة او مراحل حياة الانسان ، عملية اصطناعية مبنية على غير اساس طبيعي . لان حياة الانسان وحدة لا تنقسم الى اجزاء او ادوار مستقلة منفكة ، لكل منها مميزاتها وطبائعها ولكن هذه المميزات مختلطة متداخلة لا يمكن تحديد ابتداء ظهورها او انتهائها

فتحديد دور الطفولة قد يبنيه البعض على المميزات الجسمية التي تميز بها هذه الفترة من حياة الانسان ، كنمو بعض اجزاء الجسم (الاسنان مثلاً) او عدم ظهور البعض الآخر (شعر العارضين) وقد نبني هذا التحديد على اساس المميزات النفسية التي تشكل سلوك الانسان في هذه الفترة ، وهذا الاساس له شأن خاص في دراسة سيكولوجية الاطفال

ومن ناحية اخرى قد نجعل نهاية دور الطفولة ، استقلال الانسان بنفسه في الحياة ، استقلالاً اقتصاديًّا . ولكن هذا بطبيعته يختلف باختلاف بيئة كل طفل ونوع الحياة الاجتماعية التي يعيشها هذا من ناحية اقتصادية . اما من الناحية الاجتماعية ، فرجال الاجتماع والقانون يجعلون اساس هذا التحديد قدرة الطفل على حمل المسئولية الاجتماعية، كالمحافظة على القوانين او الانخراط في سلك الجندية

﴿ مميزات الطفولة النفسية ﴾ ومع وجود مثل هذه الاختلافات في تحديد نهاية دور الطفولة ، الاَّ ان هنالك من المميزات الجسمية والنفسية ما يجعل الرجل العادي يفرق بين سلوك الطفل وسلوك البالغ . ومعرفة هذه المميزات العامة ، والمميزات التي تنفرد بها كل سنة من سني الطفولة لازمة لمن يتصل بالاطفال ، اباً كان ام معلماً

سلوك الاطفال يتأثر تأثراً كبيراً باستعداداتهم الفطرية وأهمها الغرائز . فالطفل لا يستقر هنيهة في مكان لانه منساق الى ذلك بطبيعته للحركة ، والطفل اميل الناس الى الاستطلاع للاشياء المجهولة لتأثره بغريزة حب الاستطلاع . فالفرق بين سلوك الطفل والرجل ان هذا الاخير متأثر بتجاربه وبتفكيره ، وبالتقاليد الاجتماعية التي نشأ في وسطها ، فبذلك تهذبت لديهِ هذه الاستعدادات الفطرية التي نراها واضحة في الطفل

واستعدادات الطفل العقلية بوجه عام قاصرة محدودة . فانتباه الاطفال غير مستقر وملاحظتهُ للمؤثرات الخارجية غير دقيقة ، لذلك كان من الصعب على المعلم في الفصل ان يجذب انتباهه للدرس مدة طويلة . كما ان الادراك الحسي عند الاطفال قاصر ، وذلك لان الادراك يعتمد على تربية الحواس وهذه بطبيعتها تنمو بالمرانة

ومن مميزات الطفولة شدة الخيال ومرونته . حتى ان الخيال كثيراً ما يكون سبباً لكثير من الاستنتاجات الخاطئة التي يصل اليها بنفسه . او قد يجره الخيال الى ما نعتقد انهُ ذنوب واخطاء كالكذب والاختلاق . لان تحت تأثير خياله المرن لا يفرق بين ما تسترجعهُ ذاكرته وبين ما يتخيله

﴿ تفكير الطفل ﴾ والتفكير عند الطفل غير منعدم ولكنه قاصر . لان الاستنتاج او الحكم على الاشياء يحتاج الى مادة متسعة من تجارب الشخص وهذه بطبيعتها ضيقة عند الطفل . والطفل ليست له القدرة على تحليل الاشياء المركبة . او تصور الاشياء المعنوية التي يعتمد عليها البالغون كثيراً في حياتهم . كما ان شعور الطفل بانه غير مسئول اجتماعيًّا يقلل من اهتمامه بالتفكير المنظم

﴿ النزعة الدينية ﴾ ليس لنا ان نحكم عليه بانه دين تقي او انه شرير اباحي . لان جل هذه المعتقدات الدينية تثبت في نفس الطفل بالتلقين . ولكن من المشاهد ان الطفل يندفع بطبيعته الى كثير من الاعمال التي نقول عليها بانها (انسانية) كميله الى مساعدة الاطفال الآخرين او الاشتراك معهم في اعمال او كميله لاحترام ابويهِ ومن كان اكبر منه سنًّا ، او كميله للعطف على الحزين والفقير

وهذه النزعة الدينية تظهر واضحة جلية في حياة الطفل فيما بعد لا سيما وانها متصلة بالانفعالات التي تصاحب كل غريزة من غرائزه ، لذلك كان سلوك الطفل ليس فيه محلٌّ للمصانعة او المداهنة . فهو يبكي حين يشعر بالالم ، ويغضب اذا اعتدي عليه ، ويظهر الدهشة اذا رأى غريباً ويظهر الامتعاض اذا رأى قبيحاً

المقال الثالث

طرق دراسة الطفل

المقال الرابع

النمو الحسي عند الاطفال

المقال الخامس

تطور عقل الطفل في السنة الاولى

ضغط الدم والصحة

بحث صحي مفيد

يقاس ضغط الدم كما يقاس ضغط الهواء بأنبوب دقيق مفرغ من الهواء قائم في حوض من الزئبق فيرتفع مستوى الزئبق في الانبوب او ينخفض بزيادة الضغط او قلته . هذا هو المبدأ الذي بني عليهِ قياس ضغط الدم وقد استنبط المستنبطون آلة اقرب تناولاً واسهل استعمالاً من الانبوب الدقيق والزئبق يستعملها الاطباء في فحص مرضاهم

فارتفاع الزئبق في انبوب كهذا حينما يكون ضغط الدم طبيعياً ١٢٠ مليمتراً للرجال في العشرين من العمر و١١٠ ملمترات للنساء من العمر ذاته . وضغط الدم في النساء عشر ملمترات اقل منهُ في الرجال اذا تساوى العمر ، وكلما تقدم الانسان في العمر زاد ضغط دمهِ بمتوسط ملمتر واحد في سنتين . فاذا كان الضغط الطبيعي ١٢٠ ملمتراً في سن العشرين للرجال بلغ ١٣٠ ملمتراً في سن الاربعين و١٤٠ ملمتراً في سن الستين . وقد يختلف ضغط الدم عن المتوسط الطبيعي في احد الناس من غير ان يكون خارقاً للعادة فقد يزيد ١٥ ملمتراً عن المتوسط الطبيعي او ينقص عنهُ كذلك . وقد لاحظ كثيرون من الاطباء ان الذين يعيشون عيشة معتدلة غير معرضين للنوبات العصبية لا يزيد ضغط دمهم الزيادة الطبيعية بتقدم السن اي ملمتراً كل سنتين بل قد يبقى ضغط الدم في بعضهم مدة عشر سنين او اكثر في مستوى واحد لا يزيد الزيادة الطبيعية . وهناك عوامل اخرى غير السن والجنس تؤثر في ضغط الدم اهمها السمن والمزاج وحالة الهضم وقوة العضلات ومقدار التمرين الرياضي والتعب والنوم والخوف والتهيج العصبي والتغيرات الجوية . فكل هذه العوامل قد يكون لها اثر ظاهر في ضغط الدم ولكن هذا الاثر يزول في الغالب بزوال الباعث عليهِ

على ان الامر الذي يجب الانتباه لهُ هو ان ضغط الدم المزمن حالة غير مرضية من الوجه الصحي بل قد يكون منها خطر كبير على الحياة لانها مصدر لكثير من العلل فارتفاع ضغط الدم المزمن مرتبط كل الارتباط بالصداع المزمن وداء النقطة وضعف القلب ومرض بريط « التهاب نسيج الكليتين » والارق وسوء الهضم والاحتقان المزمن وبعض انواع الخلل العقلي

وعليهِ يجب ان ننظر في الاسباب التي تؤول الى ارتفاع ضغط الدم فنزيلها ومتى زالت زالت كل نتائجها السيئة او جلها

اسباب ارتفاع ضغط الدم

اختلف الاطباء في الاسباب التي يعزى اليها ارتفاع ضغط الدم ولذلك سنذكر فيما يلي كل العوامل التي يحسبها الثقات من الاطباء اسباباً في ارتفاع ضغط الدم وهي :

١ — الادوية والمخدرات ٢ — الاكثار من الطعام ٤ — التعرّض للبرد والمرض
٥ — الاجهاد ٣ — السموم ٦ — الحالة العقلية والنفسية

١ — اذا اعتاد احد استعمال دواءٍ من الادوية او مخدّر من المخدرات فعادتهُ هذه تؤدي بهِ مباشرة او غير مباشرة الى ارتفاع ضغط دمهِ . وبعض الثقات يرى ان عادة تناول المخدرات لا تقتصر على تناول مخدر واحد بل لا تلبث ان تحمل صاحبها على تناول مخدر ثانٍ فعلهُ عكس فعل الاول . فتناول الكوكايين مثلاً يرفع ضغط الدم ويحدث توتراً في الاعصاب فيلزم حينئذٍ تناول مخدر آخر كالمورفين الذي يخفف ضغط الدم ويزيل التوتر

ولهذه العقاقير آثار سيئة في الجهاز العصبي والجهاز الهضمي والكبد والكليتين وهذا وحدهُ كافٍ لصرف الناس عن تناولها . فاذا مرض احدهم وشعر بلزوم تناول دواءٍ من الادوية فخير لهُ ان يدعو طبيباً وحينئذٍ يتناول ذلك الدواء باشارة الطبيب اذا لزم الامر

والمشروبات الروحية في الغالب تحدث شعوراً مخالفاً للحقيقة فاذا شربت مشروباً الكحوليًّا شعرت بحرارة اذا كنت بارداً وبقوة اذا كنت ضعيفاً وبغنى اذا كنت معدماً ومن نتائجها المباشرة خفض ضغط الدم ولكن لا يلبث هذا الأثر ان يزول فتشعر بالبرد والضعف والفقر اكثر مما كنت تشعر بها قبلاً . على ان أهم النتائج التي تبقى آثارها في الجسم من ادمان المشروبات الروحية تصلب الشرايين وخصوصاً الشرايين الدقيقة في الدماغ والكليتين

٢ — الغذاء : للغذاء شأن كبير في زيادة ضغط الدم . قال احد الاطباء : كلما جاء اليَّ مريض يشكو من ارتفاع ضغط دمهِ احسب السبب « كثرة الاكل » الى ان يثبت لي ان السبب أمر آخر . فلقد وجدت في كثير من الحوادث ان مجرد الاكثار من أكل اللحم يزيد ضغط الدم

ولم اقتنع حتى الآن ان الاكتفاء بالخضراوات دون غيرها من مواد الغذاء خير من غذاء يحتوي على قليل من اللحم وكثير من الخضراوات والفواكه . ولكن يحسن في بعض الاحيان ان يتوقف الانسان عن اكل اللحم شهراً او شهرين . وان يقلل من اكل البيض والخبز . والقاعدة التي لا مناص من اتباعها هي ان المصاب بارتفاع ضغط الدم يجب ان لا يكون نهماً اي لا يأكل فوق حاجتهِ

شاعت منذ سنوات بين الناس « موضة » الاهتمام بمضغ الطعام مضغاً جيداً وهذا امر يجدر بمن ضغط دمهِ فوق المتوسط الطبيعي ان يجري عليهِ قبل كل احد لان مضغ الطعام يكفي القابلية بقليل من الطعام فلا يتعرض الآكل لتناول ما هو فوق حاجتهِ . ويعتقد بعض الاطباء ان التوابل والبهارات تزيد ضغط الدم وتسبب تصلب الشرايين وغير ذلك من الادواء . قد يكون ذلك صحيحاً وقد لا يكون انما الامر الذي لا ريب فيهِ هو ان اكل التوابل والبهارات يهيج القابلية فيأكل الانسان فوق الشبع والاكل فوق الشبع من أعمّ الاسباب الباعثة على زيادة ضغط الدم

٣ — التسمم : بعض الباحثين في اسباب زيادة ضغط الدم يقول ان من اسبابهِ التسمم الذاتي

الناجم عن خلل في نظام الهضم فتتجمع السموم في الجسم من جراء ذلك والاطباء فريقان في النظر الى هذا الامر . قال الدكتور سدلر الاميركي لو كنت مصاباً بزيادة ضغط الدم لكنت اهتم بجعل حركة الامعاء منتظمة مرتين في اليوم ولا اترك مجالاً لاختلال الهضم وتجمع السموم في الاعضاء

٤ و ٥ — التعرض والاجهاد : لا شك ان نظام الحياة العصرية بما فيها من السعي المتواصل ، والمزاحمة الشديدة والسرعة التي نتوخاها في كل عمل من الاعمال تؤثر في الجسم وتنهك قواه ، ومن نتائجها الظاهرة ازدياد ضغط الدم في كثير من الناس . اضف الى ذلك التعرض للبرد وعدم الاهتمام بالعلل البسيطة وهما يسيران عادة جنباً الى جنب مع الاجهاد

يذكر الاطباء كثيراً في كتاباتهم واقوالهم «العدوى المركزية» التي تكون في اللوزتين وجذور الاسنان . ولا شك ان المكروبات المضرة التي تقيم في مثل هذه المراكز تفرز سموماً تدور في الجسم مع الدم ، وهذه السموم هي في اكثر الاحيان سبب ارتفاع ضغط الدم في كثير من الحوادث وهذا ينطبق على العلل المزمنة كما ينطبق على الحادة كالزكام والانفلونزا وغيرها

***

خذ مثلاً احد التجار . يشعر في المساء بتكسر عام في اعضائهِ ويشكو من ارتفاع قليل في حرارته فهو رجل مريض وقد تكون هذه الاعراض اعراض الانفلونزا الاولى وعليهِ ان يبقى في بيته للمعالجة . على ان عمله يقتضي وجوده في مكتبه في اليوم التالي . فيغالب المرض وينهض الى المكتب فيبقى كذلك اسبوعين او ثلاثة لانهُ لم يرض ان ينام بضعة ايام يعالج في اثنائها معالجة قانونية ثم لا تلبث ان تظهر في بوله آثار الزلال ويشعر ان كليتيه لا تقومان بعملهما قياماً منتظماً . وقد عرفت كثيرين يقضون سنين غير عارفين آثار التعرض والاجهاد في صحتهم بعد اصابة بسيطة بالانفلونزا كالاصابة المتقدمة حتى يذهب احدهم الى شركة من شركات التأمين على الحياة فيرفض طلبه لان الفحص الطبي اثبت وجود ارتفاع كبير في ضغط الدم وضعف في الكليتين وغير ذلك مما يدهش له الرجل والسبب بسيط بيّنّاه فيما تقدم

فعلى كل احد ان يهتم اهتماماً جديًّا بكل الم يرافقه ارتفاع في حرارة جسمه . فاذا أُصبت بزكام من غير حرارة فقد لا يضرك ان تسير في عملك كالعادة ولكن اذا رافق الزكام ارتفاع في حرارتك ولو قليلا فاترك كل شيء والزم سريرك واستدع طبيباً وابقَ تحت المعالجة حتى تشفى كل الشفاء . واذكر ان تفحص بولك بعد كل زكام تصاب بهِ او كل اصابة انفلونزا مهما كانت بسيطة فان هذا الفحص يبين لك هل الكليتان تقومان بعملهما او لا

من المعروف ان الروماتزم وعرق النسا « شياتكا » والنيورالجيا تنشأ عن عدوى مكروبية تستقر في الاسنان واللوزتين وهي ما يعرف بالعدوى المركزية كما تقدم فاذا استمرت هذه العدوى

تجم عنها زيادة ضغط الدم وتصلب الشرايين بعد بضع سنوات . وعليهِ يجب فحص هذه الاعضاء عند الاطباء المختصين وابقاؤها نظيفة خالية من كل مكروب

٥ — الحالة العقلية والنفسية . قال سدلر : مضى عليَّ سنون كثيرة وأنا ابحث في العلاقة بين زيادة الدم والحالة العقلية والنفسية فوجدت ان الخوف والهم وما اليهما من الحالات النفسية تزيد ضغط الدم كثيراً حتى لقد يبلغ الضغط درجة يصير فيها خطراً على الصحة . وزد على ذلك انهُ متى ارتفع ضغط الدم كثيراً حمل صاحبهُ على تعاطي المخدرات . وعلى الضد من ذلك فقد يكون من اثر الحالة النفسية انها تخفض ضغط الدم تحت المتوسط الطبيعي ويرافق ذلك انحطاط وضعف عام في القوى

عرفت شابًّا ارتفع ضغط دمهِ الى ١٦٠ ملمتراً او فوق ذلك . وبعد البحث وجدت انهُ تخاصم مع خطيبتهِ فلما زالت اسباب الخصام وعادت المياه الى مجاريها هبط ضغط دمهِ الى ١٣٥ ملمتراً ولولا اكثاره التدخين لكان هبط الى دون ذلك ، الى المعدل الطبيعي . ويمنعنا ضيق المقام من تعديد الحوادث التي كانت فيها الحالات النفسية سبباً مباشراً في زيادة ضغط الدم

العلاج

العلاج الذي اصفهُ هو الراحة التامة والعناية الطبية بضعة اسابيع او اشهر بحسب ما تقتضي الحالة . فاذا كان احد مصاباً بزيادة ضغط الدم وبلغ هذا الضغط ٢٠٠ ملمتر فيجب ان يبقى في السرير بضعة اسابيع لا يتناول في اثنائها من الغذاء سوى اللبن (الحليب) واذا كان في امعائهِ ميل الى الامساك سمحت له باكل الفاكهة . ويشار على المصابين بزيادة ضغط الدم ان لا يتناولوا الطعام اكثر من مرتين في اليوم وان يقللوا من اكل اللحم والبيض والخبز وان لا يأكلوا فوق الشبع او فوق حاجتهم وهذه هي القاعدة الذهبية التي أشير باتباعها . ولا بدَّ لهؤلاء المصابين من اجتناب كل عمل متعب كالجري وراء سيارة اجرة للركوب فيها او ما الى ذلك مما يؤول الى اجهاد الجسم

وفيما يلي ابسط الوسائل وافعلها في تخفيف ضغط الدم اذا زاد عن المتوسط الطبيعي

١ — الرياضة اللطيفة الى ان يبدأ العرق بالتصبب من الجسم ويفضل ان تكون الرياضة في الهواء الطلق وبثياب متسعة لا تضغط على الاعضاء . ٢ — الدلك اذا كان المريض لا يستطيع ان يروّض جسمهُ في الخارج او كان قلبهُ ضعيفاً لا يتحمل آثار الرياضة فالدلك اللطيف خير ما يحلُّ محل الرياضة . ٣ — الحمامات تمدد جدران الشرايين فيخف ضغط الدم . ويجب ان تكون حرارة الماء بين ٩٦ درجة بميزان فارنهيت و٩٨ اي مثل حرارة الجسم . ويجب ان يبقى المستحم في الماء من ١٥ دقيقة الى ثلاثة ارباع الساعة . ٤ — الاستحمام بالشمس — يخفف ضغط الدم لانهُ يحول جانباً من الدم الى الجلد ، فالتلويح الناتج عن التعرض للشمس نوع من الالتهاب الذي يحوّل الدم من الشرايين في الاعضاء الداخلية الى الجلد . هذا وقد سبق الكلام على النوم والراحة وبساطة المأكل واراحة العقل من الهم والغم والقلق والخوف وما اليهما

باب المراسلة والمناظرة

صورة قلمية

سعيد طليمات بك

(جاءتنا هذه الرسالة في تقدير رجل من)
(رجالنا العاملين فننشرناها مع الشكر)

المصوّر الاستاذ يؤلف من الوان عدة لوناً واحداً يجعله عمدته في اخراج لوحة باهرة . والطبيعة تجمع مواهب الانسان في فضيلة واحدة تجعلها عماده وسر نجاحه في الحياة . ولقد كان « ديموستينوس » خطيباً فحسب ولكنهُ كان مرهوب الجانب من جميع الابطال الذين لا يدينون الاّ بالقوة . وكذلك تجتمع مواهب الانسان وقواه الطبيعية في فضيلة واحدة يرتفع بها حتى يبلغُ القمة

ولعلّ الكمال الحقيقي في التكوين لا يبدو في مظهر ابلغ ولا اجلّ من استخلاص فضيلة واحدة من مواهب مجتمعة . وغالباً ما تتمثل القدوة العليا في هذه الفضيلة ويظل العصر يرى فيها الصورة الكاملة للنبوغ ، كأن اجتماع المزايا والمواهب بهذه الطريقة قوة اخرى تضيفها الطبيعة الى سائر القوى المجتمعة لاظهار عبقرية الانسان وتخليد عمله . ونرى ان المواهب قد تنصرف بكليّاتها الى وجه ما من وجوه العمل كالدفاع عن الحق مثلاً ، وامامنا مثل صادق لهذه الحالة يمكن اي نتبينهُ في شخصية سعيد بك طليمات

هو رجل مثقف هادىء ، قوي الارادة ، واسع افق التخيل شديد الملاحظة ، متسعر الذكاء اوتي من رجاحة العقل وقوة النفس ما لم يرزق كثير . تقابلهُ فتلقى رجلاً من الطراز الاول ، وتصيب فيه نديماً ظريف المحاضرة له مشاركة في كثير من العلوم والآداب ، على وجهه الباسم الهدوء والرقة والحزم معاً ، تنظر اليه فلا تستطيع ان تقاوم ما فيه من قوة ، قوة الرجل الذكي الصلب النافذ البصر ، وهو دائم الابتسام يحدّثك في صوت هادىء وعبارات مفصلة متزنة دون ان يستفيض ، فاذا اعتلى منبر الخطابة انفجر وتعاظم ، وسيطر بقوة بيانه وعلمه الغزير المتدفق على اذهان سامعيه

وقد عرفتهُ محامياً فعرفت فيه كفاءة المحامي وقدرته ، ونبوغه ، وطهارة خلقه ونزاهته ، وسهولة طبعه ، ولين جانبه ، مع عذوبة في القول ، ووضوح في البيان ، وعرفت فيه لساناً حلواً ، سلساً ، متدفقاً يعفّ عن الهجر ، ولا يعرف الحشو . وعرفته وكيلاً للقومسيون البلدي فعرفت فيه رجاحة الحلم وحصافة الرأي وقوة العارضة ، يتكلم بلسان عربي فصيح في غير تعقيد ولا تكلف ، بل يسترسل استرسالاً كأنهُ يتحدث اليك ، فتتفتح له مغاليق القلوب والاذهان

وسعيد بك تغمره طبيعة الخير من جميع نواحيه ، فما رأيتهُ سئل المعروف من جاهه او ماله الاَّ بذله لمن يعرف ومن لا يعرف ، ولمن يحب ومن يكره ، ما دام قادراً على بذله ، وهو من ائمة القانون ، ومن المصريين القلائل الذين احترمهم رجال القضاء والقانون الاجانب لذكائهم وسعة اطلاعهم وقوة حججهم . والذين عرفوهُ لا يجدون اي فارق بين هدوئه وظرف حديثه وقوته وحماسته في مواقف الخطابة . فكلما ازدادت الصفات قوة ازدادت اتساقاً ولعل الظرف والهدوء اللذين امتاز بهما من مظاهر تلك النفس القوية في مواطن تحتاج فيها النفس الى الاستجمام وليس في ذلك ما يستغرب فان الشخصيات العظيمة لا تني تتطلب من الطبيعة الاستزادة في قواها دون ان تتخلى مع ذلك عن شيء من ظرفها وخلقها الاجتماعي

كلما حادثتهُ ازددت يقيناً بان شخصيتهُ القوية مرآة صادقة لما اوتي من مواهب ومزايا ، وانهُ الرجل الوطني النبيل الحائز لثقة الجميع واعجابهم. ونعتقد ان اجلَّ مظاهر الاحتفال التي تقام لشخصية كبيرة لا توازي قيمة الدقائق التي تشعر فيها هذه الشخصية برضاء ضميرها وانها ادت المهمة التي اخذتها على عاتقها نحو الوطن والناس خير اداء . من اجل ذلك يعجب جميع الذين يقتربون من الاستاذ طلعيات بتواضعه ولطفه وقوة نفسه . ومن اجل ذلك استطاع ان يحوز ثقة الوطنيين والاجانب على السواء

افتتح حياته العملية بالاشتغال بالمحاماة ثم كان مجاهداً سياسيًّا في صفوف المشتغلين بالدفاع عن القضية المصرية . وكان اول وكيل وطني لقومسيون بلدية الاسكندرية تولى الدفاع عن مصالح الوطنيين . وهو اليوم مستشار قضائي معترف بسعة علمه وقوة رأيه وكفايته . وقد تقدم الى الحياة في البدء بموهبة فذة مستخلصة من قوى مجتمعة فيه وهي موهبة البلاغة والذكاء والمقدرة على الدفاع عن الحق ، واعانته شخصيته الممتازة وصفاته الموروثة والمكتسبة على تولي الزعامة في تقرير حقوق البلاد ومصالحها السياسية والاجتماعية ، ولم يوله جهاده في ميدان السياسة ثقة أعظم ولا اعجاباً اكمل مما حازه في سبيل الدفاع عن مصالح الاهلين في حجرة القومسيون البلدي . وكان سر نجاح هذا المحامي الجليل بل سر استحواذه في وقت قصير على ثقة الجماعة انهُ يعمل دون اعلان عن نفسه ودون ان يطالب جزاء على عمله من اي نوع . فلم يكن في اي وقت ميالاً الى ان يستعمل نفوذه او الثقة التي احرزها لمصلحة احد او لحيازة مصلحة ما لنفسه وبقي قانعاً بمقدرته ونجاحه على انهما خير جزاء لارضاء ضميره

وقد ارتفع مقامه في نظر الجماهير عند ما تولى مهمته الدقيقة في القومسيون البلدي ووقف يدافع عن مصالح المدينة ويدل بسعة اطلاعه في المسائل الفنية ويطالب بتحقيق المقترحات التي تعيد الى مدينة عريقة في المدنية سالف مجدها وكان في هذه المهمة التي اخذها على عاتقه خطيباً ومشرعاً وانسانيًّا يحض على معونة معاهد العلم والبر بالبلاغة وقوة الاقناع التي دعا بها الى مساعدة المسرح . ولم يكن في هذه المسائل الجدية الدقيقة معاً يخلو من حب للفن والجمال يحض عليه ذوقه كرجل

مثقف وعظيم الدراية بفنون الحياة الاجتماعية . وكان استاذاً في المسائل الاجتماعية الكبيرة التي تلائم مواهبه وطبيعة تفكيره وجهاده . وكان في هذه المسائل ايضاً محامياً ومشرعاً

ونذكر ان عند ما وضع قانون نقابة عمال الترام في سبتمبر سنة ١٩١٩ وتولى الدفاع عن حقوق اولئك العمال كان كمن أتم رسالة انسانية كبيرة وحقق غاية تضمن له وللآخرين خلود الذكر . بل تكفل تحقيق ذلك المستقبل الباهر الذي تأمله الانسانية من جهاد النخبة المثقفة . وقد كان اول مستشار لنقابات العمال وهو الذي تولى وضع قانون نقابة عمال الترام المعمول به الى الآن واليه يرجع الفضل في تأليف لجنة التوفيق بين العمال واصحاب الاعمال التي عمل فيها مع جرانفل باشا

ونحن اذا شرحنا نشأة الاستاذ طلبات واتينا بتفاصيل حياته المفعمة بالمواقف الوطنية الجليلة لا نستطيع ان نميزها عن حياة سائر الاقطاب من حيث انها بسيطة وكاملة معاً . وقد انحدر من صلب اب فاضل كان من المقاولين ذوي اليسار وكان جده لابيه من التجار الذين اتسعت معاملاتهم بين مصر والسودان والشام ويتصل نسب اسرته الى الحسن بن علي بن ابي طالب . وكان طبيعيًّا ان تتهادى طفولته في افانين من التربية العالية حتى أضفى عليه الذكاء او الخلق الكريم حلة من نباهة الصيت في مطلع شبابه

وقد كانت المعارف الاولى التي اضاءت ذهن طلبات الفتى هي تلك المعارف نفسها التي تعنى جماعة القرير بيثها على اعتبار انها عنصر حضارة ومدنية . وكان في حفظ هذه المعارف وهضمها متفوقاً اذ لم يلبث الا بضع سنوات حتى نال شهادة البكالوريا وانتظم في مدرسة الحقوق وتخرج منها سنة ١٩٠٥ وكان طبيعيًّا ان يمتحن هذا الحقوقي الشاب معلوماته ومقدرته في تجارب للمحاماة قضاها بنجاح في مصر واسيوط الى سنة ١٩٠٧ حيث عاد الى الاسكندرية موطن اقامته الاصلي واتخذها ميداناً لمواهبه . وفي الحقيقة انهُ ما لبث ان اشتهر بهذه المواهب وكان اول اشتهاره في العمل مع جماعة الوطنيين المشتغلين بالسياسة وكان صاحب الزعامة وقتئذٍ هو المغفور له مصطفى كامل باشا . ولما شهد الجمهور آيات وطنيته وحماسته عين رئيساً للجنة الحزب الوطني بالاسكندرية وفي سنة ١٩٠٨ زار اوربا للقيام بدعاية واسعة للقضية المصرية والدفاع عن حقوق المصريين وما لبثت ان تقررت في القلوب تلك الثقة العظيمة التي يحرزها عادة المجاهد الذي يدافع عن القضايا العادلة . وفي سنة ١٩٢٢ صار عضواً في الوفد المنتدب عن الحزب الوطني في مؤتمر لوزان وكان الوفد مؤلفاً من رجال دفعتهم وقتئذٍ غيرتهم العظيمة على القضية المصرية الى السعي لتوحيد الجهود اتقاء لكل ما يمكن ان يمس هذه القضية . وهناك في روما تقابل هذا الوفد واتفق مع سائر الذين تولوا وقتئذٍ العمل لحل القضية المصرية على ميثاق وطني كان موضوع ايمان جميع الذين يحبون مصر وحريتها واستقلالها . واشترى طلبات بك بعد ذلك جريدة الامة من الصوفاني بك واخذ يكتب فيها مقالات سياسية بحماسة عظيمة حتى عطلت في عهد وزارة ثروت باشا

وفي سنة ١٩٢٢ اذ كانت شهرة ذلك المحامي الوطني قد اضحت موضوع إعجاب الذين يعرفونه والذين لا يعرفونه انتخب عضواً في القومسيون البلدي وكان انتخابه لهذه العضوية ايضاً متفقاً مع مزاجه وطبيعة المهمة التي خلق من اجلها وهي الدفاع عن المصالح والحقوق

ولما زار المغفور لهُ سعد باشا في «رويا ليبان» اثناء الحقبة القصيرة التي كان يستريح فيها سعد باشا بعد عودته من مالطه اقترنت وقتئذ تحيته للزعيم الخالد بتقدير الزعيم لعمله المجرد الذي يحقق من أجل تحرير الجماعات وخلاصها . وفي اثناء ذلك لم ينقطع طلميات عن تأليف المقالات الضافية في سبيل شرح المسائل الوطنية . وكان يعنى من جهة اخرى بمسائل المدينة التي يتناولها القومسيون البلدي . ولما كانت حركة الموظفين الاجانب بالبلدية وقاموا يطالبون بمنحهم فوق العلاوات التي يستحقونها مكافآت استثنائية كبيرة عارض في ذلك حتى حمل الاجانب على قبول فكرته ، وقررت الهيئة باجماع الآراء رفض مقترحات الحكومة وترتب على ذلك حل القومسيون . ولما كانت حركة مايو سنة ١٩٢٦ وصدر ذلك القرار الذي قضت فيه وزارة زيور باشا بتوسيع اختصاصات المأمورية البلدية على حساب القومسيون لم يتمالك العضو الخبير بقوانين البلدية واختصاصات دوائرها الاَّ المعارضة الشديدة وترتب على معارضته ان حلَّ القومسيون مرة ثانية

ولما تولى وكالة القومسيون وكان اول وكيل وطني تولى هـذه المهمة الدقيقة منذ اربعين سنة ودل على احرازه لثقة الوطنيين والاجانب معاً تمكن من بحث مسائل كبيرة لمصلحة المدينة والاهلين وبخاصة مسألة ترام الرمل التي دلَّ فيها على خبرة واسعة اذ لبث يسعى لانتزاع الخط من الشركة في عهد وزارة عدلي باشا فكللت مساعيه بالنجاح . واصدر عدلي باشا قراراً بتأليف لجنة خاصة تتولى درس المسألة قوامها احمد عبد الوهاب باشا والمسيو اوزوالد غره وطلميات بك بصفته وكيلاً للقومسيون والاستاذ الفريد ليان وقد اتصلت هذه اللجنة بالمسيو سلفاجو رئيس مجلس ادارة الشركة بغية الوصول الى حل ملائم فلم يأت ذلك بفائدة . ثم جاءت وزارة ثروت باشا فعهدت اليه بوضع تقرير مستفيض يتضمن تفصيلات وافية عن تاريخ انشاء الخط في سنة ١٨٩١ والاطوار التي مرَّ بها فاضطر طلميات بك ان يقيم في القاهرة مدة اربعة أشهر يتصل في خلالها بقلم القضايا ويراجع شتى الملفَّات المتعلقة بالخط في مختلف الوزارات كالاشغال والداخلية وسكرتيرية مجلس الوزراء واستعان بطائفة من المهندسين الفنيين وقد وضع تقريراً مستفيضاً يقع في مائتي صفحة وكانت النتيجة التي يرجع الفضل فيها الى الاستاذ طلميات ان الحكومة تولت تدبير الخط وادارته وكان فوزاً للمصلحة الوطنية يعترف فيه لجهاد الاستاذ طلميات وخبرته وكفايته . كذلك يرجع اليه الفضل في بحث مشكلة سعر النور الكهربائي في الاسكندرية فقد تولى رياسة مختلف اللجان التي الفت لدراستها وله فيها مواقف جليلة اثار فيها السبيل امام هيئة القومسيون

وصفوة القول ان طلميات بك كان قوة فعالة في القومسيون وكانت كلمته في المقام الاعلى في جميع

المسائل وكان يحكم عبارته احكاماً بديعاً عند ما تحتدّ مناقشات القومسيون غير انهُ كان يستعين بفطرته في الدفاع على مباراة اولئك الاعضاء. وكان كمحام متفوق تكاد تكون الخطابة في سليقته وطبيعته . وهو بعد كرجل اجتماعي واسع الشهرة لا يترك سبيلا لنصرة قضية دون ان يجعل لمزاياه وصفاته الكبيرة أثراً ظاهراً في ذلك حتى تعبيراته ومحاوراته باللغة الفرنسية فكانت هذه المزايا والصفات مطابقة للمهمة الجليلة التي اسندت اليه في القومسيون والفضل لهذه المزايا والصفات نفسها في ارتفاع ميزان التقدير الذي كان غير مألوفٍ في البلدية ازاء العنصر الوطني

وقد كان طول المدة التي أدى فيها مهمتهُ في وكالة القومسيون المثل العالي لكل ما يتمناه أولئك الذين وقفوا حياتهم لخدمة الحضارة عن طريق الاصلاح والعمران		نقولا شكري

في بحور الشعر

كتب صديقي الدكتور بشر فارس في مقتطف الشهر الماضي كلمة حول نقدي لصنّاجة الرياشي ردَّ بها عليَّ مُدافعاً عن الأبيات التي أحسستُ نشازاً في موسيقاها ، وقال إني واهمٌ في حسبانها ساقطة الوزن وان التحقيق يثبت غير ما ذهبتُ اليه حيث قد استعمل الشاعر إباحات عروضية استشهد صديقي على شيوعها وتواترها بأبيات للشريف الرضي ومهيار وأبي تمام وأبي العلاء والبحتري وغيرهم ، وأنا لا أتعرض لرأيه إلاَّ من ناحيتين ، الاولى انهُ كان يجدر بهِ أن يقطع أبيات الرياشي ، والثانية اني لاحظت ويلاحظ كل من يقرأ الابيات التي استشهد بها صديقي أن موسيقاها لم تفقد شيئاً من تسلسلها حتى يشعر بها الذوق مثلما يشعر عند تلاوة أبيات الرياشي التي أشرتُ اليها . وسواء أكان الحق في جانب صديقي أم كان في جانبي فان ما أراه أن الذوق هو الذي يحكم في كل شيء ولحكمه الكلمة المسموعة ، فكم من اشياء لا تختلف في ذاتها عن الحدود التي يجب أن تكون عليها والاصول التي يجب أن تنحصر في دائرتها ، حكم عليها الذوق بالمخالفة

والشعر اول ما يُطلب منهُ موسيقاه ليستهوي قارئهُ فيما يجوب من أودية ويهبط الى أغوار ويرتفع الى سماوات ، والموسيقى إن لم تراعِ حكم الذوق فلا يمكن لها ان تؤثر في السامع

انني أستسيغ من الشاعر استعماله بحوراً مختلفة في قصيدة واحدة على شريطة أن يراعي تقاربها في الروح الموسيقية فلا تكون متنافرة أما أن تكون القصيدة من بحر واحد ثم تحتلها الزحافات احتلالاً سيئاً يقف امامها الذوق وقفة المتمرد الساخط فهذا ما لا أستسيغه . ويرى بعض العروضيين ان من الخير ان يجتهد الشاعر في المحافظة على الوحدة الموسيقية فاذا استعمل شيئاً من الزحافات يجب ان يستعمله بعينهِ في كل الابيات او يلزم الاصل

واني لأنتهز هذه الفرصة فأشكر لصديقي رغبته في البحث عن الحقيقة من وراء المناقشات الهادئة والله يهدينا جميعاً الى ما فيهِ الصواب ؟		حسن كامل الصيرفي



ايفان بونين

الفائز بجائزة نوبل الادبية عن سنة ١٩٣٣

فرح الذين يرون في منح جائزة نوبل الادبية اكليلاً من الغار يكلل حياة مؤلف مجيد ، اذ اعلن انها مُنِحَت لايفان بونين المؤلف الروسي المقيم في باريس ، لانهُ في رأي كبار النقدة ، فنّان من الطبقة الاولى لا ريب فيهِ . وأثر بونين الادبي واسع النطاق . فهو شاعر ومترجم (ترجم الى الروسية قصيدة هياواثا للشاعر الاميركي لونغفلو وروايات بيرون التمثيلية) ومؤلف اقاصيص وروايات وكتب ورحلات تنطوي على شعر وفلسفة . والبلدان التي شملها بريشته الساحرة تختلف من روسيا الى غرب اوربا الى الجزائر وفلسطين والشرق الادنى . فهو من هذه الناحية يفوق كل كاتب روسي آخر . وقد خلّف آثاراً خالدة في مختلف ابواب الكتابة الادبية . ولكن النقدة يجمعون على انهُ تفوق في الاقصوصة والرواية او بالحري الرواية المتوسطة الطول

هو الآن في الثالثة والستين من عمرهِ . وقد مضى عليهِ زمن طويل منذ ذاعت شهرتهُ في روسيا ورسخت قدمهُ بين كبار ادبائها . فكان يحسب قبيل الحرب امام كتّاب النثر عند الروس ، والوريث الشرعي لعظماء مؤلفي الروايات عندهم في القرن التاسع عشر . وقد ايّدت الاكادمية في بتروغراد هذا الرأي اذ انتخبتهُ عضو شرف فيها سنة ١٩٠٩ وهو فخر لم ينلهُ من قبل الاّ تشيكوف وغوركي . ومع ذلك فبونين لم يرتفع الى ذروة عظمتهِ الفنية ، الاّ بعد الانقلاب الروسي ومعيشتهِ منفيًّا في باريس . وانت تجدهُ في روايتهِ المتوسطة الطول التي عنوانها « حب ميتيا » واقصوصتهِ « ضربة الشمس » وروايتهِ حياة ارسينيف (وفيها طرف من سيرتهِ ولم يظهر منها الاّ اجزاؤها الاولى في الفرنسية والروسية) اعلى مقاماً منهُ في جميع مؤلفاتهِ السابقة . ويقول الناقد الروسي الكسندر نازاروف انهُ بعد الاطلاع على هذه الكتب ، يبدو لك ان ما يدعيهِ المعجبون بهِ من أنهُ يفوق تشيكوف ، كلام ليس فيهِ مغالاة . وهو برهان حيٌّ يردُّ قول القائلين ، بان الكتّاب الروس اذا اقتلعت جذورهم من تربة بلادهم ، ذووا وجفّوا . ما اكثر الآيات الادبية التي كتبت في النفي من مهزلة دانتي الى اشعار هيني . اما مؤلفات بونين ، فمثل آخر في هذه السلسلة المتصلة الحلقات

ذاعت شهرة بونين في بلاده وهو ما يزال في مطلع حياتهِ الادبية ، ولكن الاعتراف العالمي بمكانتهِ ، تأخر حتى اكتهل . نعم ان مؤلفاته المشهورة ترجمت بعيد الحرب الى الانكليزية والفرنسية

والالمانية والسويدية . والنقاد في اوربا واميركا ، حكموا لهُ بالاجادة والتفوق . ولكن الجماهير الدولية لم تقبل على مطالعة كتبهِ ، ولعلَّ ذلك لانهُ لم يحاول قط ان يعالج فيها الموضوعات التي تسترعي النظر بل هو يعمد في الغالب الى معالجة الموضوعات الدهرية فيسبغ عليها فنًّا ونوراً من فنهِ وذكائهِ

وهو الآن اشمط الناصية ، حليق العارضين والشاربين متوسط القامة منتصبها ، لاتدل هيئته على انهُ تخطى الستين . في عينيهِ النافذتين معاني الصرامة التي يأخذ بها نفسهُ وفنَّهُ ، وقوة الارادة والجماح المكبوح . فاذا عرفهُ الرجل عرف فيهِ الدماثة واللطف والحديث الاخَّاذ . في حديثهِ المعية متوقدة ، ونكتة بارعة . بل هو مثل تشاليابين الممثل والمغني في مقدرتهِ على تقليد الاشخاص والاصوات ، حتى لتحسَّ انهم منك بملمس ومسمع . أما ان تسمعهُ يقرأ عليك قصصه بنفسهِ ، فلذة نادرة

ولد في طبقة من الروس ، اخرجت لروسيا ، انبغ نوابغها في الادب الموسيقي والثقافة بوجهٍ عام وهي الطبقة التي تنصبُّ عليها جامات الغضب من الحكومة المستأثرة بالحكم في البلاد ، والجماهير من اتباعها . بل هو متحدّر من اسرة نبيلة ، تسلسل فيها النبوغ اجيالاً متوالية . فن الافراد الذين انجبتهم اسرة بونين ، أنَّا بونين الشاعر الروسية الاولى (القرن الثامن عشر) وزخوفسكي الشاعر ، صديق بوشكين ومعلم الامبراطور اسكندر الثاني . فنشأ ايفان في املاك ابيهِ ، وهي في ناحية من روسيا ، اطلعت من قبل كوكبي تولستوي وترجنيف . هناك ينطق بالروسية على اصفاها واسلمها . فجذور بونين العقلية والروحية متصلة اقوى اتصال ، بالارض الروسية وثقافتها . ومن هنا فهمهُ الذي لا يسامَت لنفس الفلاح الروسي ، على ما صوَّره في قصتهِ «القرية» . وقد قال غوركي في هذه الرواية ما يأتي : — « كان بونين الكاتب الوحيد ، الذي تجرأ على ان يصف الفلاح الروسي كما هو . من دون ان يضفي عليهِ ثوباً لا يلبسهُ عادة ... » ومن هنا ايضاً عنايتهُ بموضوع آخر هو انحلال الاسر الروسية النبيلة ، وتداعي قصورها وانثلال مجدها القديم

وهو لا يخفي احتقاره لكتاب « التجربة السوفيتية العظيمة » ومع ان نقَّاد موسكو ينحنون امام فنهِ ، الاَّ انهم يتحدثون عنهُ وفي حديثهم مرارة الحقد ، ويصفونهُ بكونهِ « رجعيًّا في يده سوط » . بيد انك لا تستطيع ان تحسب نزعة بونين الفلسفية ، ناجمة عن شعوره بما اصاب الطبقة التي هو منها . الاَّ اذا كنت ممن لا يرى في عمل انسان ما غير الاثرة . ومن يعرف بونين يعرف انهُ يحب روسيا ، نبيلها وفلاَّحها على السواء . ولذلك لا يستطيع ان يعطف على تحويلها الى معمل تجرَّب فيها التجارب ، التي تفرح بعض اصحاب المذاهب الفلسفية والاقتصادية ، ولكنها تبسط على البلاد ظلال التعس والشقاء . فتحويل روسيا الى امة سوفيتية يعني في نظره موت ثقافة قديمة ، لا ولادة ثقافة جديدة . ويندر ان يتناول روسيا في كتابتهِ ، الاَّ اذا كتب مقالة لصحيفة ، ولكنه وصف نظره الى التجربة السوفيتية وصفاً فنيًّا بليغاً في قصتهِ «الربيع الابدي»

هدية الكروان

هـذا عنوان الجزء السادس من دواوين الكاتب الشهير والشاعر الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد وهو يقع في مائة وخمسين صحيفة ونيف من القطع الصغير ويحتوي على طائفة رائعة من جيد الشعر الحديث وعنوانه مقتبس من الجزء الاول منه خص الشاعر به هذا الطائر المعروف الذي يسمع في الاجواء المصرية من شمال وجنوب . وقد نعى على الشعراء المصريين قلة ما ينظمونه فيه وكثرة مايعنون بالبلبل الذي لانسمعه وعد ذلك بحق «محاكاة منقولة تصدر من الورق البالي وتؤذي النفس كما يؤذيها كل تصنع لا حقيقة فيه» لان العقاد شاعر صادق الشعور صحيح العاطفة مستقيم الفكر لا يتقيد بغيره ولا يهمه من تقدَّمه سواءٌ أمن شعراء الشرق كان ام من شعراءِ الغرب . واظهر ما تتضح فكرته تلك في حشرهِ ذاك الصنف من الشعراء في صنف الببغاء من الطير فيقول :

ما اشتغال بمورد لست منه بناهل
وانصراف عن الذي انت منه بساحل
أنت عندي بذا وذا جاهل اي جاهل

وليس العقاد حديث العهد بمناجاة الكروان فقد نظم فيه قصيدة نشرها في الجزء الاول من دواوينه ثم اعاد في هذا الجزء نشر بعض ابياتها واندفع بعد ذلك في قصائده الاخرى يخاطب الطائر ويصفه ويناجيه ويساهره ويسامره ويسائله لعوباً بمعانيه عميق التفكير في استخلاص عبر الحياة وشؤونها واسع الخيال في تحليقهِ وحوارهِ

ولا شك ان كروانيات العقاد فتح جديد للشعر الحديث تتدفق نغماً وتسيل روعة وعذوبة

وفي الديوان موضوعات شتى من رائق الشعر ورائعه لم يخرج فيها العقاد عن اسلوبه السابق ومنحاه الذي انتحاه في دواوينه السالفة . ولقد آخذه النقاد لما نشر ديوانه وحي الاربعين ، بان ذلك الشعر كان اكثره افكاراً مقتضبة في نظيم له وعليه اذا صحَّ ذلك النقد في بعض تلك المقطوعات فانهُ اسراف وجور في اخذ ديوانه وحي الاربعين بهِ جملة . غير ان ما من ناقد يمكنه اليوم ان ينسب ذلك الى هدية الكروان . والظاهرة العجيبة في نفسية العقاد انه على كثرة اشتغاله بالسياسة وانصرافه الى عمله الصحافي الذي يستغرق تفكيره وجهوده في حزبيته المعروفة نرى ناحيته الشعرية تزيد نضوجاً يوماً فيوماً وتسلك تطورها الطبيعي في هدوء وسكينة . كأن هذا الشاعر غير ذلك الصحافي المجاهد بينما غيره قد نضبت شاعريتهم واقلعوا عن القوافي والاوزان الى مشاغلهم ومرتزقهم . لان العقاد يجد صحيفة الطبيعة منشورة امامه يقرأ فيها مستريحاً ويستبطن اسرارها ويتغلغل في اعماق تضاعيفها

أما اذا ألممنا بمناحيه الشعرية جملة ودخلنا في تفاصيل خياله وعاطفته فاننا نجد شخصيته تتجلى في قوافيه بقوتها الجهيدة ولطفها العهيد وخشونتها العهيدة وتلك مزية الرجولة الحقة فليست العاطفة

مسيطرة على نفسيتهِ لان فكره يتغلب عليها في معظم الاحايين وليست الفكرة مسيطرة على نفسيته لان العاطفة تتخللها فتلطف من حدتها وتكبح من جماحها . ولعل فكره يثير عاطفته اكثر مما تثير عاطفته فكره . فهو كأنما ينقل قلبه الى رأسه أسرع مما ينزل رأسه الى قلبهُ

وما أحسن قوله يناجي ساعي البريد

يا طائفاً بالدور كالقدر المقدور
بالخير والثبور في ساعة البريد
في لمحة تنتشر منك المنى والعبر
وانت ماض تعبر كالكوكب البعيد
كن ابداً مريدي بالخبر السعيد
وبابتسام العيد يا ساعي البريد

ثم يقول له في قصيدة اخرى

الطريق الآن لا ارقبه لارى وجهك لكن لارى ...

ولسنا ندل على تلك الظاهرة النفسية حتى نقرر تبايناً فيها او مغايرة بينها . كلاًّ فللعقاد « شعر عاطفي » كما يتظرف المحدثون في هذه التسمية تعدهُ من الطراز الاول في هذا النوع . والمقطوعات « هبوط نفس » صفحة ٩١ و« فوق الحب » صفحة ١٠٠ و« مولد » صفحة ١٠٧ وغيرها كثير هي بلا ريب في الطليعة منهُ . ومن الشعر الذي تغلب الفكرة العاطفة فيه قصيدة « تسلم » صفحة ٦٩ و « صنوف الحب » صفحة ١١٢ على روعتها وغيرها فانها مسرح للخيال والعاطفة ولكن الفكر مسيطر على جملتها

واذا كانت شخصية الشاعر على ما هي عليهِ من القوة والجبروت فانها تقل عن نفسها اذا تناولت موضوعات لا تلائمها واظهر ظاهرة على ذلك قصيدة « كاس وضوء » صفحة ٧٢ فانها غير موفقة على الرغم من ندرة تفكيرها واستقامة اسلوبها ومثيلاتها في الديوان قليلة جداً بحمد الله

ولا شك ان الكلام عن اسلوب العقاد مفروغ منهُ لان جزالتهُ وفخامته واقراره الفاظه المنتقاة في امكنتها من البلاغة مشهورة معروفة فلا يتحذلقن احد بنقده مثلاً في قولهِ

هنا — ويا حسن ماضمت هنا — قدح تغوي قلوب العطاشى اي اغواء

فيقال له ان القدح هي التي لا شراب فيها والأ فهي كأس وان مهيار الديلمي لا يصح الاستشهاد بقوله

واذكروا حيًّا اذا غنى بكم شرب الدمع وعاف القدحا

نقول ان مثل هذا التضييق على اللغة ومثل هذه الحذلقة في النقد مما لا نفهمهُ ولا نريد ان نفهمهُ بقي ان نشير الى اروع قصيدة في الديوان وهي قصيدة « كلماتي » صفحة ٨٥ فان فيها من مبتكر التفكير وطريف الحسن وبالغ الشعر ما نود ان يتذوقه كل مطالعها واليك بعض ابيات تؤيد ما نقول :

هل معيني وحيك الصادق ام وحي اللغات
ما ضياء ثم في الافق وفي كل الجهات
لا من الارض ولا من دارة الافلاك آتٍ
لا تراهُ غير عيني وهو ملء الكائنات
رب عمر طال بالرفعة لا بالسنوات
رب آبادٍ تجلت من كوى مختلفات
وقطيرات زمانٍ ملأت كأس حياةٍ
ثروة انفق منها لحياتي ومماتي
ولبعثي يوم ان تبعث في الطرس وصاتي
لا يبوح الصمت الا درجاتٍ درجات

هذا شعر نظن ان الكثيرين لا ممن يقرءون بل ممن يعالجون الشعر الحديث لا يحسون بما فيه من روعة وجمال وبما يفتح على الحياة من آفاق جديدة وقد يقرأونهُ ويمرون بهِ ذلك ان الشعر كالجمال لا يمكن تحديده وتعريفه وتقسيمه لانهُ شعور يختلف قوة وضعفاً باختلاف القوة والضعف من النفوس . و الامر لله من قبل ومن بعد خ . ش

صوت الجيل

بقلم ابراهيم المصري — صفحاته ١٤٩ طبعت بمطبعة سابا بمصر

هذا كتاب بين الملتهب والمتئد . ولولا قوة في المؤلف ومقدرة على التعبير ما استطاع ان يردف البحث الرزين بالنظرات العنيفة

يلتهب ابراهيم المصري حين ينصرف الى وصف الاحوال المصرية ويندد بمناقصها ويصرخ في وجوه الشيب ان تنحوا وافسحوا المكان للشبان فقد افسدتم هذا البلد وقعدتم بهِ عند الجمود بل رجعتم بهِ القهقرى ، وحين يصف العناء الذي يصيب المثقفين اولئك الذين يعيشون في بيئة ليست لهم وليسوا لها من حيث انها جامدة راكدة يتغلب السأم عليها وتضطرب المادة بين جنباتها وحين يعلن انهُ يؤمن بالثقافة ولا يرضى سواها ، وحين يشدد النكير على ما في الحياة المصرية من استهتار وضعف ومسكنة.ثم يتئد ابراهيم المصري اذ ينصرف الى النقد الادبي . فله في ميدانهِ جولات المقدام الثبت . فان هو اخذ يتبصر في الادب المصري اجاد في التحليل والفحص . وله مقالان على جانب عظيم من النفاسة اولهما يبحث في النقد في مصر والثاني في القصة المصرية . ولا شك عندنا ان هذين المقالين بمنزلة الدراسات الغربية من حيث التأليف والبعد في النظر والصدق في القول . وبودنا

لو اطلع عليها نقاد هذا البلد لعلهم يرعوون وقصاصه لعلهم يقصون شيئاً من اجنحتهم المستطيلة —

هذا وان اخذ ابراهيم المصري يتحدث عن الادب الغربي ذهب في النقد الى الحد الذي لا يكاد يترك مطلباً وراءه . ومن امثلة بحثه ما قال في (اناتول فرانس) و(تاغور)

ثم انهُ يتئد فوق هذا حين يعمد الى البحث الفلسفي . ومما تنشرح له الصدور انهُ لا يبذل اقوالاً طالما رددناها او قرأناها ولا يخبط في تعبيره ولا يخلط . ومما ينوه بآرائه انها تثير النقاش والجدل . ومن ذلك اننا لا نذهب مذهبهُ في ان المصريين يسرفون في تغليب العقل على العاطفة فالواقع عندنا على خلاف هذا . ثم اننا لا نرى رأيه حين يقول ان ما من حب متبادل كامل عظيم تمكن من تغذية عبقري بعناصر انسانية جديدة وهيأه لفهم جوانب من الحياة كان يجهلها لأن الحب الكامل انما هو صفاء وسكون اقرب الى الجمود والاكتفاء بالواقع منهُ الى النشاط والتجدد وما اليهما — فهل غاب عن المؤلف ان (اوجست كونت) و (بودلير) و (موسيه) لولا النساء اللواتي احببوهنَّ الحب المنيع المطرد ما صنعوا شيئاً او ما كادوا يصنعون

وبعد فما يلاحظ من مقالات « صوت الجيل » ان صاحبها ترجع ثقافته الى الفرنسية . ففيها يكتب بعض مميزاتها الرائعة الخلابة مثل الوضوح والترتيب والتسلسل والاستشهاد

وأما اسلوبهُ فجبار عنيف حين يلتهب صاحبه ورصين متراصٌّ حين يتئد . الاَّ انهُ على قوته ودلالته على المعنى احسن دلالة لينقصه الوشي والحبك

ذلك « صوت الجيل » الاَّ انهُ بقي ان نقول ان هذا الكتاب لما يعوّل عليهِ الباحثون فيما يأتي من الزمان في سبيل تدبر الحياة المصرية وذهنيتها للعهد الذي نحن فيه .وعليهِ فان «صوت الجيل» لمن المتوقع ان يبقى ولو من هذا الجانب

حميات في الغرب

تأليف سليم خياطة — طبع في بيروت — صفحاته ٣٦٨ قطع صغير

مؤلف هذا الكتاب ، على ما يلوح لنا ، شابٌّ متوقد الذهن دقيق الملاحظة واسع الاطلاع زار الغرب حديثاً وتجوّل في انحائهِ عشرة اشهر او تزيد ، مستطلعاً انباءهُ معنيًّا بصراع الجماعات فيهِ ، مهتمًّا بتتبع التطوُّر في مُثُلهِ السياسية العليا من فاشستية على صورها المتباينة ، ودمقراطية تحتضر في المانيا (قبل قيام النازي) وتتأهب لتتحوّل في اميركا بزعامة روزفلت ، وشيوعيةٍ اخذها لنين عن ماركس ، وحوّل فيها هو واتباعهُ وفقاً لمقتضيات الحالة في روسيا ، وصهيونية تستعملها يد الاستعمار لمحاربة نهضة العرب — على مايقول المؤلف مفحة به — ولمكافحة اتحاد الجمهوريات السوفيتية . وهذا الجزء الذي بين يدينا يشمل مباحثهُ في الصهيونية والفاشستية ، وهو طافح بالملاحظات الطريفة والآراء التي قرأها لكتّاب الغرب ، ثم رأى ما يؤيدها او ينفيها فيما شاهدهُ من الاوضاع والنظم .

ولولا عجمة في اسلوبه ، لكان الكتاب جامعاً لالوان النفاسة في التأليف . ولكنك تتعثر بين جمله ، وانت في ريب من نفسك ، هل هذه آراؤه ، كما يدلُّ سياق الكلام وحرارة الشعور ، أو هو كلام مترجم ، كما يؤخذ من تركيب العبارة ؟ ونحن نرجّح الرأي الاول ، ونريد أن نتوقع استقراراً في الاسلوب في كتابه التالي ، يجعله خالياً من عجمة التركيب في العبارة ونشوز في بعض الالفاظ والمصطلحات . فنحن مثلا لا نستطيع ان نسيغ بحال من الاحوال قولاً كقوله (الدوتشه سلاطة تناقضات) او عبارة (نية جيمة تمانق ميول تفكيري ، تناغش فضولي ونهيجة) او عبارة (جميع هذه الطلاسم تحفر في الدماغ رهطاً من الافكار ...) . ونحن واثقون ان المؤلف سوف يكون لهُ شأن في عالم الكتابة اذا هو عني باسلوبه ، لانهُ يجمع في نفسه عناصر الكاتب الجيد من شدة في الاحساس وسعة في الاطلاع ودقة في الملاحظة واستقلال في الفكر ...

الحكيم وسلمى

تأليف توفيق حسن نادر الشرتوني في ١٣٤ صفحة طبع بيروت سنة ١٩٣٣

قصة موضوعها بديع وهي كما يقول المؤلف في المقدمة (قصة كل فتى وفتاة وكل رجل وامرأة لان الطبيعة البشرية واحدة لا تتبدل ولا تتغير يشعر بها كل الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم واجناسهم) . والقصة تعرض فتى وفتاة قد تحابا ولكنهما غير متكافئين اخلاقاً وطباعاً وميولاً الشاب يحبها حباً شهوانياً ويرى ان تكون الشرائع جميعها والتقاليد معبدة لطريقه الشهواني وان وقفت في طريقه ثار عليها وعدها من مخلفات العصور القديمة التي لا يصح ان تطبق على هذا العصر . والفتاة عفة شريفة تحافظ على شرفها كما تحافظ بجانب هذا على اخلاصها لحبيبها ومن هنا اصطدمت الرغبات الفتاة تحبه ليكون زوجاً شرعياً لها وهو يحبها لتكون خليلة له فالقصة تعرض حباً غير متكافىء ثم هي فوق ذلك تبين أثر الحكماء في كل عصر وانهم مصابيح هدى ، فلولا الحكيم الذي تولى الفتاة سلمى بنصحه وارشاده لسقطت بين احضان هذا الفتى الخليع . ثم تعرض القصة فوق كل ذلك لنقطة لها شأنها هي الثورة على الشرائع والميول الاباحية فنرى حبيب سلمى يقول لها ليدفعها عن طريق الزواج الشرعي وليغريها برأيه الاباحي (ما هي أهمية عقد الزواج الذي تريدين ان تتقيد به ان عقد الزواج الصحيح هو ما تعقده الطبيعة على جميع احيائها لا ما يعقده الكهان والقضاه فاذا كان يعوقنا الآن ان نتمم شرائع الزواج دينياً او مدنياً فلماذا لا نتمم شرائع الطبيعة تلك الشرائع الغريزية التي يوحي بها الوجدان وحفظ الكيان لماذا لا يتزاوج البشر كما تتزاوج الاشجار لماذا لا يتخالطون كما تتخالط الاسماك في البحار والمجموات في القفار لماذا نحافظ على هذه الشرائع العقيمة التي وضعها الاقدمون لعصورهم وهي لا تصلح لعصرنا . . . الخ) ولقد تناول المؤلف هذه النقطة والرد عليها بشيء من التوسع

فالقصة في الواقع موضوعها جميل غير انه تنقصهُ الصورة الفنية التي يبرز بها فتشتمل عليهِ النفس وتتأثر بهِ . لقد حرمنا المؤلف من الوصف الدقيق والتحليل النفسي العميق فالقصصي في الواقع كالرسام تماماً يجب ان يعطي القارىء صورة دقيقة ترتسم في ذهنهِ تامة الوضوح والتعبير والتناسق . وحظ القصة التي أنا بصددها من هذا قليل جداً فليس فيها وصف للاماكن ولا لاشخاص القصةِ وليس فيها تحليل لنفسيات اشخاصها ولا للحالات التي تلازم نفوسهم في حوادثها . فنرى مثلاً ان المؤلف أوقع الفتاة سلمى في حيرة فهي لا تدري أتسلم برأي حبيبها وتثور على الشرف والشرائع أم تترك هذا الحبيب وتتنكر لهُ ولحبهِ ولكنهُ لم يعرض علينا النضال الذي قام في نفسها بين الشهوة والشرف أو بين الحب العف والحب الدنس واكتفى بان عرض نتيجة هذه الحيرة وهي اما ان تسلم أو تنتحر . ثم هو فوق ذلك يجعل هذه الفتاة التي ترى الانتحار أو التسليم تسلم برأي الحكيم الذي يقضي عليها بترك حبيبها وانتظار شخص آخر يكون جديراً بحبها دون مناقشة أو استياء كأنها لم تكن تعتزم الانتحار وتفضله على ترك حبيبها . وامثال هذه المواقف التي يعرضها دون مقدمات كافية كثيرة في القصة فنراهُ مثلاً في اولها قد جعل الفتاة يستعر في قلبها نار الحب وتقضي الليل ساهرة تتوجع وتتألم كل ذلك لانها رأت في الطريق شاباً يلحظها ويبتسم لها وأظننا لم نسمع بهذا الحب العنيف الذي تسببهُ ابتسامة من شاب مجهول في الطريق العام . ثم نراه في نقطة اخرى قد جعل الفتاة تحدث الحكيم بحديث حبها وفي صراحة تامة حتى تقول عن حبيبها انهُ (لمس كل موضع من جسمي الاَّ موضع عفتي) مع ان الحكيم رجل مجهول عندها بل لم تعرف اسمه الاَّ بعد مقابلات كثيرة وذلك بمجرد ان سألها بفضول عن سبب حزنها . وقد فات المؤلف ان طبيعة الفتاة الشرقية تأبى ذلك بل ان حديث الحب من العسير جداً ان تتحدث بهِ فتاة ومع شخص مجهول عندها

اذا تجاوزنا عن امثال هذا القصور الفني كانت القصة بعد ذلك بديعة يرى فيها كل شاب وفتاة عبرة لهم وعظة

عطيه فهمي شاهين

مختار البيان والتبيين للجاحظ

تصنيف خليل بيدس وشريف النشاشيبي في ٢٤٨ صفحة من القطع المتوسط
وطبع بمطبعة بيت المقدس

الجاحظ امام من ائمة الادب والعلم نشأ عبقريًّا شأنهُ شأن اكثر الادباء في عصره فكان في مستهل حياته يبيع الخبز والسمك ولكنهُ لم يلبث حتى عاف هذه الحرفة وعكف على الادب وساعده استعداده ورغبته وذكاؤه لان يكون علماً من اعلام العلم والادب . وكتابهُ البيان والتبيين نال مكانة عظيمة في عالم الادب وشهرة واسعة وكان يعوق الشباب المثقف عن قراءته هو وغيره من كتب الادب العربي القديم رداءة طبعه وعدم تهذيبه وكثرة استطراداته الامر الذي يسبب الملل والسأم والذي يجعل الاستفادة منهُ قليلة والسير فيهِ عسيراً وهذا على ما اعتقد السبب في عزوف الشباب عن

الادب العربي واندفاعهم الى الادب الغربي الذي يبهرهم حسنه وسهولته .... ولقد احسن المصنفان خليل بيدس وشريف النشاشيبي باخراج كتاب البيان والتبيين في طبعه مبوبة تتفق وذوق المطالع الحديث ولقد قاما حقًا بمجهود عظيم فقد جاء في المقدمة (وقد اختصرناه على ما يوافق غرضنا من هذا العمل ونحن حرصون على ان نختار افضله واجوده وننتقي اعذبه واطيبه ليكون كتاباً مدرسيًّا قريب المنال صافي المورد وقد جاهدنا جهاداً غير قليل في ترتيبه وتنسيقه فجمعنا كل بحث من ابحاثه في باب على حدة ثم ضبطناه وشرحناه وطبعناه طبعاً متقناً انيقاً على اجود ورق واحسن هيئة ولم نتصرف في ابحاثه بين زيادة ونقصان الا حيث كانت تدعو الحاجة او يضطرنا السياق ولكنا تصرفنا تصرفاً تامًّا مطلقاً في ايراد الاخبار والاقوال على ما يوافق الابواب) ....

والكتاب مصدَّر بترجمة وافية للجاحظ ثم يتلو ذلك ابوابه واولها حسن البيان وعي اللسان فالبلاغة فالايجاز فالشعر فالخطابة وهكذا الى نهاية الكتاب وهو يطالعنا في كل باب من هذه الابواب باقوال الادباء وآثارهم لا يتقيد في ذلك بعصر من العصور. فالكتاب من هذه الناحية له قيمته الادبية لانه يطلعنا على آراء كبار رجال الادب قديماً في بعض موضوعاته ثم هو فوق ذلك يعرض علينا كثيراً من الخطب والوصايا والحكم والنوادر والشعر . واظهاره على تلك الصورة التي تلائم الطالب تجعله في الحقيقة كتاباً مدرسيًّا مفيداً . اما انه ككتاب ادبي يصح ان يعتبر وسيلة ادبية فهذا لا يتلاءم مع التغير الذي طرأ عليه ع . ف . ش .

محاولات في درس جبران

تأليف امين خالد يقع في ١٠٠ صفحة من الحجم الصغير

بين يدي كتاب صغير في درس جبران خليل جبران وهو في الحقيقة بحث جريء في موضوع جري فجبران كاتب حر التفكير جريء ولا بدَّ لمن يدرسه من ان يكون جريئاً . والمؤلف في هذه الرسالة عميق التفكير دقيق البحث قوي الملاحظة شديد الانتباه وهي صفات يجب توافرها فيمن يتصدى لدرس امثال جبران فلا يجب ان نأخذ اقواله بمدلولها السطحي بل يلزم ان نغوص معه ونتعمق في معانيهِ حتى نصل الى الفكرة التي قصدها والغرض الذي اراده . ولقد وفق امين خالد في الغالب واطلعنا على نواح من جبران لها خطرها ولكن كنا في بعض الاحيان لا نتفق معاً على النتيجة التي كان يستخلصها من مقدماته ولا على التعليل الذي يعلل بهِ بعض آرائه . . .

يبتدىء الكتاب بتوطئة قصيرة ثم دراسة العناصر المؤثرة في شخصية جبران ثم يعقبها نظرة جبران في الحب فنظرته في الاخلاق واللذة والواجب والتوبة ثم انشاء جبران وغير ذلك من الدراسات العميقة لفلسفة جبران وادبه فالكتاب مفيد لمن يريد ان يدرس هذا الفيلسوف الجريء - الذي اخذ الفلسفة من مدرسة الحياة — ويطلع على آرائهِ الحرة المتطرفة ع . ف . ش .



الاجنحة الفرنسية

بين النكبة والظفر

من عجائب الطبيعة ان يتحاذى فيها الجبل والوادي ومن آيات الحياة ان يتقابل فيها الظفر والخذلان والفرح والالم. كذلك فكرنا في ١٦ يناير اذ قرأنا في عمود واحد من احدى صحفنا نبأ عودة السرب الفرنسي من رحلته الجوية الافريقية يوم ١٥ يناير فاستقبل استقبالاً حافلاً في مطار لبورجه ونبأ النكبة التي حلَّت بالطيران الفرنسي بسقوط الطيارة «اميرود» واحتراق جميع ركابها في مساء ١٥ يناير نفسه

ففي يوم واحد بسمت الحياة لفرنسا وعبست. واذ كانت الطبيعة تحبو فرنسا بغبطة الظفر في ناحية كانت تهيء لها كذلك مرارة الخذلان والم النكبة في ناحية اخرى. غير ان فرنسا المجيدة تستطيع ان تتسامى بغبطتها وآلامها معاً الى امجاد اخرى

وقد اطلعنا في جريدة البوبولو ديطاليا على مقال نفيس للمرشال بالبو الايطالي — قائد السرب الذي طار من ايطاليا الى شيكاغو وعاد الى ايطاليا في السنة الماضية — عن رحلة السرب الفرنسي بقيادة الجنرال فويلمان فرأينا ان نثبت هنا طرفاً مما جاء فيها لمكانة رأيه في هذ الموضوع قال:

ان الطيران الايطالي قد تتبع بعناية كبيرة رحلة السرب الفرنسي بقيادة الجنرال فويلمان لأنها ولا ريب رحلة خطيرة حافلة بالفوائد

لم يهتم الرأي العام الدولي بهذه الرحلة الاهتمام الجديرة به لان الصحف لم تردد انباءها كما فعلت في حوادث اخرى من هذا القبيل. وخطر هذه الرحلة من وجهة تقدم الطيران انها الرحلة الاولى التي عنيت الحكومة الفرنسية بتنظيمها بعد محاولات الطيارين الافراد من ابطالها في مختلف نواحي الطيران واحرازهم اكليل الفوز في غير واحدة منها. فقد كنا نحن في ايطاليا اول من رأى ان عهد الجهد الفردي في الطيران قد انقضت فائدته وانه لا بد من تجربة التجارب برحلات الاسراب الجوية المنظمة لان ما يجنى من امثال هذه الرحلات اجدى نفعاً على ارتقاء الطيران. ورحلة سرب الجنرال فويلمان تدل على ان فرنسا اخذت بهذه الخطة ولا ريب انها سوف تصيب فيها من الامجاد مثل ما اصابته في عهد الرحلات الفردية

انها لن تقف عند هذه المحاولة. لان الطيارات هي الحضارة. وليس في هذا القول مبالغة رغم الحوائل النفسية وغيرها مما أخر تقدم

الطيران المنظم حتى الآن تأخيراً معيباً . وقد احسنت فرنسا في انها جعلت رحلتها الاولى مصبوغة بالصبغة الافريقية حيث تمتد امبراطوريتها العظيمة فترتبط بين شعوبها والشعب الفرنسي ولا ريب في ان هذه الرحلة ستفتح طرقاً جديدة للمواصلات الجوية في الصحراء الكبرى اذ لابد من دك هذا الحائل الكبير — اعني الصحراء الكبرى — التي يهواها طلاب المغامرة ولكنها تقف سدًّا في سبيل ترقية افريقية واستثمار مواردها الغنية لفائدة البشر

وقد افتتحت فرنسا خطتها الجديدة برحلة احسن تدبيرها من كل الوجوه التجارية والفنية . فهي لم تصنع لهذه الرحلة طائرات جديدة ولا محركات جديدة بل قد استعملت الطائرات الشائع استعمالها في السلاح الجوي الفرنسي . ثم ان رحلة يجتاز فيها سرب من الطائرات مسافة عشرين الف كيلو متر في ٣٢ مرحلة في اربعين يوماً تحتاج الى تنظيم دقيق في كل ما يتصل بطعام رجالها وبنزين الطائرات واماكن اصلاحها اذا احتاجت الى اصلاح ومواقع النزول والقيام بوجه خاص لان اكبر جانب من الرحلة كان فوق صحارٍ قاحلة

وقد اثبت الجنرال فويلمان انه رجل ممتاز وانهُ ادرك مقتضيات الطيران الحديث المنظم فسار في رحلته بعد شهر واحد من التمرين وهي رحلة تحتاج الى صفات نادرة في الرجال من قوة الارادة ورباطة الجأش وضبط النفس . ان اجتياز سرب كبير من الطيارات للصحراء الكبرى مفخرة عظيمة للطيران العالمي وقد اثبت السرب الفرنسي دقة متناهية في القيام في المواعيد والوصول في المواعيد المعينة للمراحل المختلفة ولم يحدث لهم حادث يستحق التدوين لان السرب سار بحسب النظام الذي وضع له

كانت الرحلة صعبة المراس وكانت الاقطار التي اجتازها السرب يختلف احدها عن الآخر فقد طار فوق جبال شاهقة وجبال متوسطة العلو وصحارٍ قاحلة شاسعة . فالنجاح تاج جدير بهذا الجهد العظيم

سم الاسنان وسم التعب

العناية بالاسنان من مستلزمات الصحة فاذا تركت الاسنان تفسد وتبلى ادى ذلك الى اضطراب الهضم . بل انهُ اذا كان في ميناء السن اصغر منفذ الى الداخل بات ذلك المنفذ الصغير بؤرة تتجمع فيها البكتيريا . وقد أبان الدكتور هيات من اساتذة مدرسة طب الاسنان في كلية جامعة نيويورك ان اصغر ثقب او شدخ في السن يسع ٩ آلاف مليون من البكتيريا . وفحص مليوني سن فوجد انهُ اذا اهملت السن فانها تفسد وتبلى على نسبة ٢٠٠٠ الى ١ . والعلاج الوحيد هو حشو الثقوب التي في الاسنان والانتباه للطعام

ولما كان عدد الذين يهملون اسنانهم ويفضلون احتمال الالم على استشارة طبيب الاسنان كثيراً جدًّا لا عجب اذا كثرت الاصابات بالامراض الخاصة بالجهاز الهضمي وحوادث «التسمم» العام

وهناك سم آخر لا ينتبه له كثيراً وهو سم التعب . وقد عرف ان التعب يولد سمًّا في الدم او « توكسيناً » سماه الدكتور فيخرت الالماني

« كينوتوكسين » . ودرس هو والبروفسور ازلر هذا الموضوع درساً وافياً . واليك خلاصة بحثهما : —

ان معظم الامراض الخطرة يسبقها شعور بالفتور والتراخي الشديدين وكل من اصيب بالانفلونزا او ذات الرئة (النومونيا) او القرمزية او التهاب اللوزتين وغيرها يعلم ذلك الشعور بالتعب الشديد عند هجوم المرض وبان الرجلان لا تكادان تحملان الجسم

فوجد الباحثان المذكوران ان سبب هذا الشعور هو امتصاص الجسم للجرثومة الخاصة بالمرض فاستدلاَّ من ذلك على ان التعب ناشيء كذلك عن «تسمم» الجسم بنوع من التوكسين. وحقن الدكتور ازلر عضلات ضفدع تعبة بمحلول الملح في الاوردة غاسلاً به التوكسين الذي سبب تعب العضلات فعاد الى العضلات نشاطها المعتاد

وتبين له ان حالة التعب ناشئة عن زيادة الحمض في الجسم . ولمقاومة هذه الحالة ندخر في اجسامنا مقادير من المادة القلوية. وهذه المادة تفرزها اجسامنا وتمتصها مدة اشتغالها بعمل شاق متعب . وكذلك تفرز اجسامنا العرق الغزير في الرياضة العنيفة . والعرق حمض مالح مشبع بتوكسين التعب . فاذا تعب الجسم تعباً عادياً فان النوم يزيل هذا التوكسين منه فاذا لم يسترح الاستراحة اللازمة في النوم شعر بالتعب والاعياء واذا دام الحال على هذا المنوال اي اذا تعبنا كثيراً ولم تنل اجسامنا القسط اللازم لها من الراحة والتعويض اما من قلة الغذاء او من قلة النوم فانها لا تلبث ان يدركها الضنى

تهشيم الذرة

اطلق الاستاذ لورنس من جامعة كاليفورنيا دوتونات سريعة جداً على بعض المواد فهشمت بعض ذراتها واطلقت قدراً كبيراً من الطاقة . ووجَّه كروكروفت وولطن من جامعة كمبردج الدوتونات الى عنصر البورون فهشمت بعض ذراته واطلقت قدراً كبيراً من الطاقة . وكذلك وجَّه عالمان من علماء جامعة شيكاغو الدوتونات الى عنصر النيون فوصلا الى النتيجة نفسها . وحولت ذرات الليثيوم في كيل بالمانيا باطلاق بروتونات بطيئة بطئاً نسبيًّا عليها

* ثبت امكان تحول الطاقة الى كتلة باطلاق نوى ذرات الهليوم على عنصر الليثيوم

الايدروجين الثقيل

ذكرنا في انباء الكيمياء صفحة ٢٥٠ ان احد العلماء اقترح اطلاق اسم بروتيوم على الايدروجين العادي (وزن ١) واسم دوتيريوم على نظيره الايدروجين الثقيل (وزن ٢) وقد قرأنا الآن ان اللورد رذرفورد اقترح اطلاق « دبلوجين » على الايدروجين الثقيل و « دبلون » على نواته

استدراك

جاء في مقال « الطبيعة رائد المخترعين — المنشور في هذا الجزء من المقتطف » البقباق المائي والصواب البق المائي

ونبَّهنا الاديب روح شخاشيري نجل الدكتور شخاشيري الى خطإ وقع في الصفحة ٤٤ من العدد الماضي سطري ٢٩ و ٣٠ والصواب بابدال لفظ «ماء» بلفظ «هواء» مرتين في السطر ٢٩

العلم في العام الماضي



الطبيعة

* كانت أدنى درجات الحرارة التي بلغها علماء جامعة ليدن بهولندا ٨٥/١٠٠٠ من الدرجة فوق الصفر المطلق ، وهي درجة البرد التي تقف عندها حركة الذرّات

* اثبت الدكتور بلاكت والباحث اوكياليني في جامعة كمبردج وجود البوزيترون (الكهرب الموجب) الذي اكتشفه الدكتور كارل اندرسن احد اساتذة جامعة كاليفورنيا

* اطلق اسم دوتون Deuton على نواة الايدروجين الثقيل الذي كشف سنة ١٩٣١ ودعي دوتيريوم Deuterium

* يرى الدكتور بلاكت مثبت وجود البوزيترون ان الفضاء بين المجرّات حافل ببوزيترونات عظيمة الطاقة . وان مجموع كتلتها جزء لا بأس به من كتلة الكون

* دلت المباحث التي قام بها كومطن وملكن في الاشعة الكونية على انها خليط من الدقائق والفوتونات (دقائق الضوء) وقد يكون في بعضها بوزيترونات (كهارب موجبة)

* اثبتت تجارب مركوني ان الامواج اللاسلكية القصيرة تخترق الجبال وتتحدب بتحدب الارض فتبلغ المحطات اللاقطة التي وراء الافق

* تبين من مباحث العلماء في سويسرا وانكلترا ان الاوزون يكثر في الجو على ارتفاع ثمانية اميال فوق سطح البحر

* يذهب الدكتور فرانز كوري Kurie احد اساتذة جامعة بايل الى ان النيوترون دقيقة اساسية من دقائق الكون وليس مركباً من كهرب وبروتون محشوكين معاً اي ان احدهما قريب من الآخر حتى يكادان يكونان متلاصقين

الكيمياء

* صنع الاستاذ لوس (جامعة كاليفورنيا) اثقل ماء عرف حتى الآن لان الماء الذي صنعه كان مركباً (٩٩٫٩ في المائة) من نظير الايدروجين الذي وزنه ٢ وهو المعروف بالدوتيريوم . وقد ثبت في جامعة برنستن ان الماء الثقيل (اذا كان ٩٢ في المائة من ايدروجينه ايدروجيناً ثقيلاً «دوتيريوم») يميت دعاميص الضفادع وبعض الاسماك والديدان

* اقترح ان يدعى الايدروجين (وزن ١) بروتيوم وان يدعى نظيره (وزن ٢) وهو الايدروجين الثقيل دوتيريوم

* كشف الاستاذ استن (جامعة كمبردج) وهو المعروف بابي النظائر نظيرين جديدين لعنصر الزئبق وزن احدهما ١٩٧ ووزن الآخر ٢٠٣

* تمكن الكيماوي المجري زنت جورجي من تحويل السكر والنشاء الى مواد ابسط تركيباً ، بتعريضها لفعل امواج الصوت التي لا تسمع لقصرها. واثبت عالمان من جامعة بنسلفانيا ان امواجاً صوتية مما يمكن سماعه ، تجمّد المواد الزلالية وتحل الادهان النباتية وتحول السكر الى غلوكوز



الطيران

* كان اعلى ما حلّق اليهِ الانسان ارتفاع ٦٢٣٤٠ قدماً بلغه الطيارون الروس في بلون ولم يعترف بهِ اعترافاً رسميًّا . اما الرقم القياسي فهو ٦١٢٤٣ قدماً فوق سطح البحر بلغهُ الكومندر ستل والماجور فوردني من البحرية الاميركية في خلال معرض شيكاغو في اواخر الصيف الماضي

* طار الطيار الاميركي وَيْلي بوست حول الارض في سبعة ايام وبضع ساعات . بدأ رحلته من نيويورك فعبر المحيط الاطلنطي ثم طار فوق اوربا الى روسيا فاجتاز سيبيريا الى الاسكا ومنها جنوباً الى الولايات المتحدة فقطعها من الغرب الى الشرق. وكان وحده في هذه الرحلة وهو أعور

* ضرب الملازم فرنشسكو آجلو الايطالي الرقم القياسي العالمي للسرعة بطيارة مائية اذ بلغت سرعتهُ في ١٠ ابريل ٤٢٣ر٨٢٢ الميل في الساعة (٦٨٢ر١٦٨ كيلو متر في الساعة) او اكثر قليلاً من سبعة اميال في الدقيقة

* اعلى ما بلغهُ الطيارون بطيارة ٤٤٨١٩ قدماً (١٣ر٦٦١ متراً) وهذا الرقم القياسي للطيار الفرنسي لوموان

* ضرب الطياران الفرنسيان رومي وكودوس الرقم القياسي العالمي في طول مدى الطيران اذ طارا من نيويورك الى الرياق في سهل البقاع في مرحلة واحدة والمسافة ٥٦٧٥ر٣٨٧ الميل أو ٩ر١٠٤ر٧٠٠ الكيلو متر — وطار الطياران الانكليزيان غايفورد ونيكولتس من انكلترا الى جنوب افريقية الغربية مسافة ٥٣٤١ ميلاً في ٥٧ ساعة و ٢٥ دقيقة — وطار الطيار تشارلس اولم من انكلترا الى استراليا في ستة ايام و ١٧ ساعة و ٥٧ دقيقة

* ظل الطيار الالماني كورت شمت محلقاً ٣٦ ساعة و ٣٥ دقيقة في الهواء بطيارة من الطيارات المعروفة بالسابحات في الهواء (اي بلا محرك)

* واجتاز الطيار الاميركي الكولونيل روسكو ترنر الولايات المتحدة الاميركية من لوس انجلوس الى نيويورك في ١٠ ساعات وخمس دقائق و ٣٠ ثانية . فكان متوسط سرعته نحو ٣٠٠ ميل في الساعة



الفلك

* في ١٩ اكتوبر تساقط في اوربا شؤبوب من الشهب لم يحسب الفلكيون لهُ حساباً

* في اغسطس ظهرت كلفة كبيرة على سطح السيار زحل

* حسب الاستاذ جوي Joy (استاذ علم الفلك سابقاً في جامعة بيروت الاميركية) ان المجرة تدور كعجلة العربة في مدة قدرها بـ ٢٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠ سنة

* حسب الدكتور مكملن احد أساتذة جامعة كاليفورنيا ان حرارة قلب الشمس تبلغ ١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درجة مئوية على الاكثر

* المرجَّح بحسب مباحث علماء الفلك في مرصد مشيغن بمدينة بلومنفلد (جنوب افريقية) ان نجماً من كل اربعة نجوم في الفضاء هو نجم مزدوج

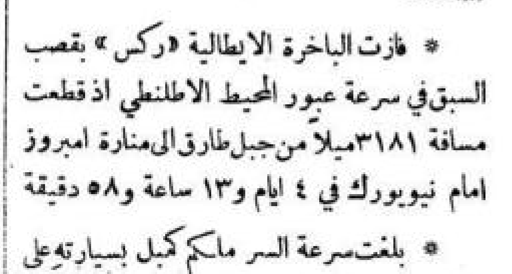
* اكتشف فرع مرصد هارفرد بمدينة جوهانسبرج (جنوب افريقية) نجماً متغيراً يتغير قدره (لمعانهُ) ١٦ مرة في اليوم

* يرى الاستاذ رسل فلكي جامعة برنستن ان بناء العناصر الثقيلة من الايدروجين هو مصدر الحرارة العالية داخل النجوم

* اثبت الدكتور وترفيلد الفلكي الانكليزي ان لمعان القمر المخسوف يبلغ $\frac{١}{٢٠٠٠}$ من لمعان البدر

* تبيَّن ان العنصر الذي ظنَّ انهُ كشف في الشمس ودعي كورونيوم (اي الاكليلي) هو وعنصر الاكسجين واحد. وذلك بحسب مباحث طائفة من العلماء في مرصد هارفرد ومعهد ماستشوستس الصناعي

* اكتشفت ثلاثة مذنبات، الاول في فبراير كشفهُ احد هواة الفلك والثاني في يوليو كشفه الاستاذ غاورينا احد علماء مرصد مدريد والثالث في اكتوبر كشفهُ الدكتور هوبل احد علماء مرصد هارفرد



الهندسة

* فازت الباخرة الايطالية «ركس» بقصب السبق في سرعة عبور المحيط الاطلنطي اذ قطعت مسافة ٣١٨١ ميلاً من جبل طارق الى منارة امبروز امام نيويورك في ٤ ايام و١٣ ساعة و٥٨ دقيقة

* بلغت سرعة السر مالكم كمبل بسيارته على شاطىء ديتونا باميركا ٢٧٢،١٠٨ الميل في الساعة

* صنع حوض جافّ في سوثمتن يتسع لاصلاح او ترميم باخرة حمولتها ١٠٠ الف طن

* اشرف النفق الذي يبنى تحت مرفأ بوسطن (وطولهُ ٥٧٠٠ قدم) على التمام وينتظر ان يفتتح في خلال سنة ١٩٣٤ لسير المركبات فيه فيصل مدينة بوسطن بما يعرف عندهم باسم بوسطن الشرقية

* صنع مصعد لاحدى بنايات مدينة روكفلر التي شيّدت في قلب نيويورك يقال ان سرعتهُ ١٤٠٠ قدم في الدقيقة

* تمَّ نقل التيار الكهربائي مباشرة بين نيويورك ومدينة دالاس بولاية تكساس، والمسافة ١٨٥٠ ميلاً

* بني في مدينة اشفيل تنيسي برج لاسلكي علوه ٨٧٨ قدماً هو اعلى الابراج اللاسلكية التي بنيت حتى الآن على ما يُعلم

الطب

* كان البحث في الغدة النخامية، في طليعة المباحث التي عالجها العلماء في السنة الماضية فأثبتوا انها تفرز هرمونات لها اثر في النموّ والحيوية التناسلية، واستعمال الجسم للسكر، وافراز اللبن في الاناث. وبيَّن الدكتور هكتور مورتيمر احد اطباء بوسطن، ان تاريخ فعل الغدَّة النخامية في صحة الانسان ونموه العقلي الجسماني يمكن ان يستخلص مما يصيب الجمجمة من وجوه التغير، على ما يُشاهد في صور الاشعة السينية

* بين الاستاذ ارثر كوكا، احد علماء كلية الطب بجامعة كورنل، ان التلقيح الواقي من

النزلة الصدرية قد يصبح مستطاعاً ، لانهُ اثبت ان الاصابة بها يمكن منعها بحقن تحت الجلد تحتوي على سم جراثيم النزلة . وبذلك يصبح منع هذا المرض ومنع الجدري من قبيل واحد

* اثبت الدكتور سيمون فلكسنر ، احد علماء معهد روكفلر الطبي ان الفيروس المسبب لداء شلل الاطفال ينتقل من الانف الى الدماغ عن طريق خلايا عصب الشم لان فروع هذا العصب معرضة على سطح الغشاء المخاطي داخل الانف

* من اعجب العمليات الجراحية التي تمت في خلال السنة الماضية ، نزع رئة كاملة من صدر طفل مصاب بسرطان الرئة والطفل الآن حي معافى . وقد اجرى هذه العملية الدكتور ريnhوف في مستشفى جونز هبكنز . وكان قد سبقهُ الى عملية نزع الرئة الدكتوران جراهام وسنجر في كلية الطب بجامعة جورج وشنطن (مدينة سانت لويس)

* يستعمل نزع الغدة الدرقة السوية الآن لازالة احتقان القلب وتخفيض وطأة الذبحة الفؤادية Engina Pectoris

* استخلص الطبيبان غرولمان وفيردر — بجامعة جونز هبكنز — مادة من قشرة الغدد الكلوية ، يظن انها لنقاوتها ، هي هرمون الغدة الصافي . ويقال ان البحث جار الآن ، والامل كبير في صنع هرمون الغدد الكلوية بالتركيب الكيماوي . وقد بيّن الدكتور زويمر — جامعة كولومبيا — ان هرمون قشرة الغدة الكلوية له اثر في تعديل مقدار الماء والملح والجسم ، شبيه بفعل هرمون الغدة الحلوة — الانسولين — في السكر

* عولجت سبع حوادث من تأخر النمو — حتى لكاد يكون اصحابها اقزاماً — بخلاصة هرمون الغدة النخامية الذي يزيد النمو . وعولجت نساء اصبن بالشيخوخة قبل زمانها على اثر ازالة الاعضاء التناسلية بمادة تعرف باسم ثيلين Theelin وهي هرمون الانثى الجنسي (الشقي)

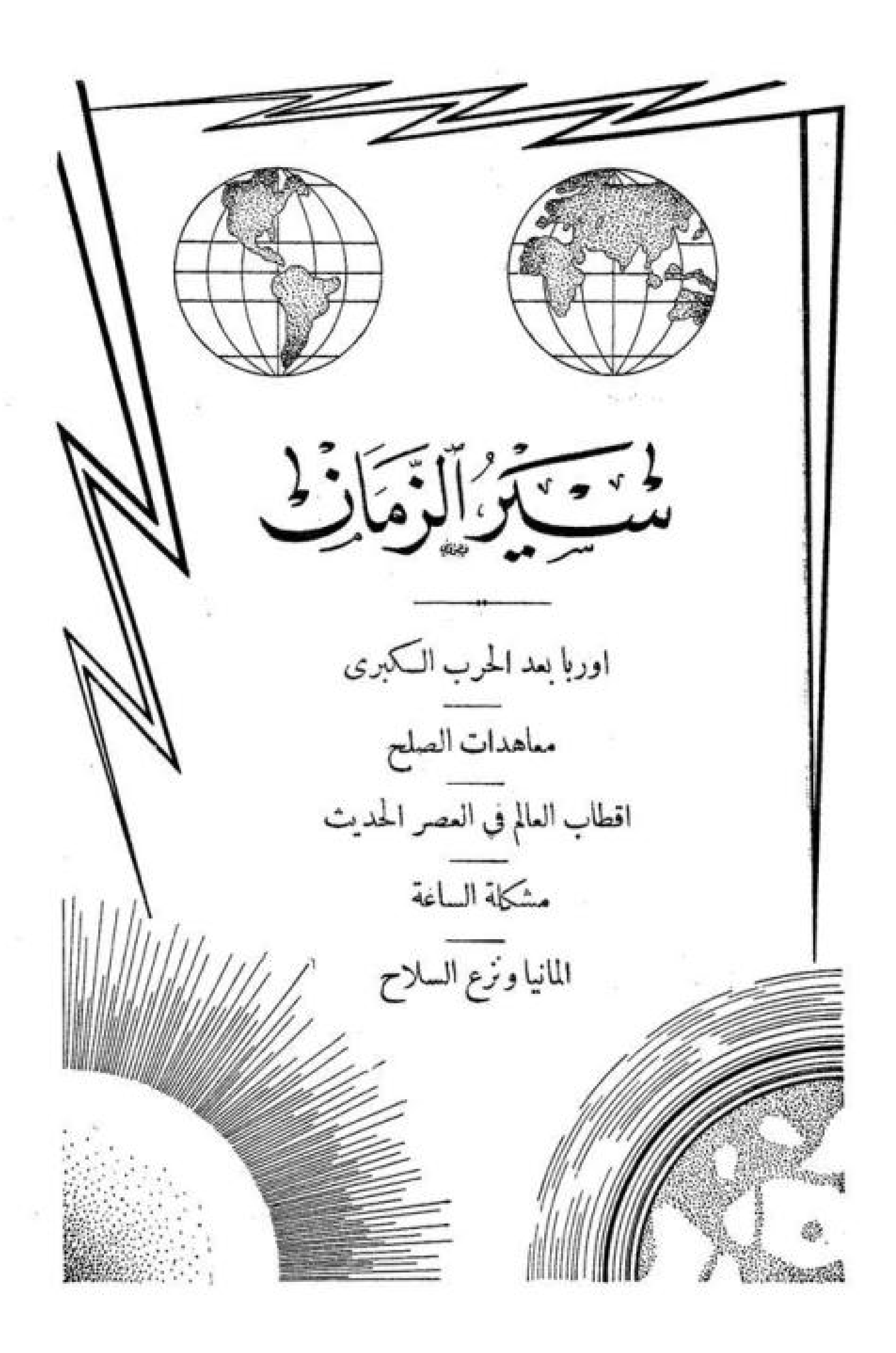
* هُيّجت غريزة بناء الاوكار في اناث الارانب بحقنها بعقار محتو على المادة الفعّالة من غدد امرأة حامل تدعى استر بوجن تيتز من مدينة سنسناتي الاميركية

* صنعت آلة كهربائية لمستشفى الرحمة في شيكاغو ضغطها الكهربائي ٨٠٠ الف فولط ، لتستعمل في معالجة السرطان

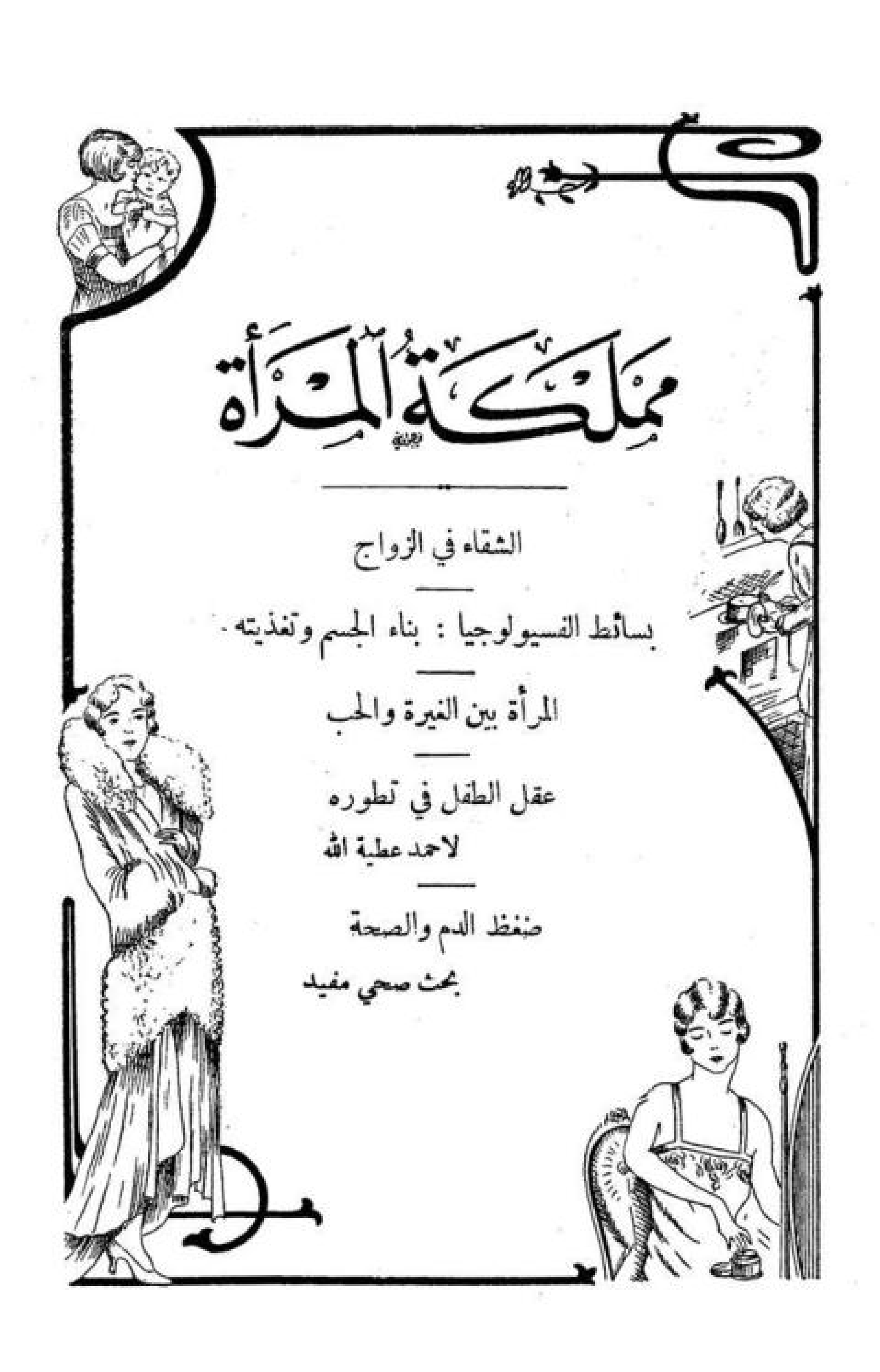
* صنع الفيتامين C المانع للاسكربوط بالتركيب الكيماوي في معهد زوريخ البوليتكنيك وقرر الدكتور ملر من اساتذة جامعة بال انهُ وجد علاقة بين الغذاء الذي فقد منهُ فيتامين C وكتاركتا العين وايّده في ذلك جماعة من اطباء اميركا

* ظهر من المباحث التي اجريت في معهد ركفلر الطبي ان الاستعداد للمرض صفة وراثية كلون العينين والشعر والجلد

* ادعى الدكتور مكنلي والدكتورة اليزابث فردر من كلية الطب بجامعة جورج وشنطن (سانت لويس) انهما فازا بزرع مستعمرات من باشلس الجذام في مزدرعات صناعية خارج الجسم



سَيرُ الزَّمَانِ
اوربا بعد الحرب الكبرى
معاهدات الصلح
اقطاب العالم في العصر الحديث
مشكلة الساعة
المانيا ونزع السلاح



مملكة المرأة

الشقاء في الزواج

بسائط الفسيولوجيا : بناء الجسم وتغذيته -

المرأة بين الغيرة والحب

عقل الطفل في تطوره

لاحمد عطية الله

ضغط الدم والصحة

بحث صحي مفيد



سعيد بك طليمات

الجزء الثاني من المجلد الرابع والثمانين

صفحة

١٢٩ علم الطبيعة بين عهدين . لفؤاد صرّوف

١٣٤ المصطلحات العلمية : للامير مصطفى الشهابي

١٤٢ وقفة في سلع (قصيدة) للشيخ فؤاد باشا الخطيب

١٤٤ غلاّب الموت

١٥١ كيف تولدت الطيور

١٥٣ عناية الحيوان بنسله : للدكتور كامل منصور

١٥٨ أثر الحضارة العربية : لمحمد كرد علي

١٦٤ جهاد الملك فيصل : لامين الريحاني

١٧٠ غيوم الخريف (قصيدة) : لخليل شيبوب

١٧١ آياتهُ في خلقهِ : الطبيعة رائد المخترعين

١٧٧ قلبي . . . يا قلبي (قصيدة) : لمصطفى صادق الرافعي

١٧٨ النيل في العهد الفرعوني : للدكتور حسن كمال

١٨٤ السفن والملاحة في مصر : للدكتور علي مظهر

١٨٨ الصناعة في العراق : لامين سعيد

١٩١ تشخيص النسأ : للدكتور شوكت موفق الشطي

١٩٥ الخبراء الاجانب : لاحمد عطية الله

١٩٨ واعظ المنصور

٢٠١ سير الزمان : معاهدات الصلح — اقطاب العالم — المانيا ونزع السلاح

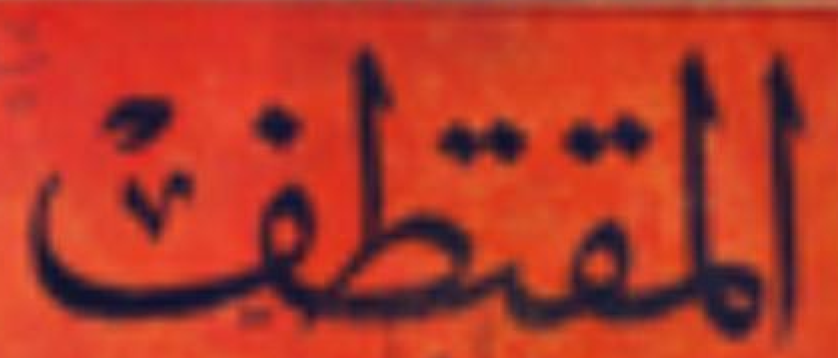
٢١٧ حديقة المقتطف : الانذار المثلث : لارثرشنتزلر — الايمان : لالفونس دي لامرتين — عواصف . المرآة والبركة : لوليم هنري دايفس — النار والجمد : لروبرت فرست — الدَّيْن : لجسي رتنهوس

٢٢٥ مملكة المرأة : الشقاء في الزواج — بناء الجسم وتغذيته — المرأة بين الغيرة والحب — عقل الطفل . لاحمد عطية الله — ضغط الدم والصحة

٢٣٢ باب المراسلة والمناظرة ٭ سعيد طليات بك : لنقولا شكري . في بحور الشعر العربي : لحسن كامل الصيرفي

٢٤٤ مكتبة المقتطف ٭ ايفان بونين . هدية الكروان . صوت الجيل . حياة في الغرب . الحكيم وسلمى . مختار البيان والتبيين . ومطبوعات اخرى

٢٥٧ باب الاخبار العلمية : العلم في العام الماضي : — الطبيعة . الكيمياء . الطيران . الفلك . الهندسة . الطب



December 1930 — ديسمبر ١٩٣٠

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثالث من المجلد الرابع والثمانين

١ مارس سنة ١٩٣٤ ١٥ ذي القعدة سنة ١٣٥٢

من السدم النارية

الى الانسان العاقل

النظام الكوني ومكان الحياة والعقل فيهِ

اي نظام يسود هذا الكون الفسيح ؟ سؤال يعرض لنا عند ما نرفع بصرنا الى رحاب الفضاء في ليلة صافية الاديم، وعند ما نحدق في المكرسكوب فنرى تلك الكائنات الحية الدقيقة التي تستتر عن بصرنا ولكنها مع ذلك تملك من قوى الخير والضر ما لا يتصوره العقل ، وعند ما نشهد افعال الجسم الحي في الصحة والمرض وما تملكه الاعضاء من عجائب التكوين ومعجزات الاتساق والدفاع والتجدد ، في كل هذه الحالات نسأل ما هو النظام السائد في هذا الكون العظيم ؟

وإذ نفكر في هذا السؤال ونتصور انفسنا واقفين على سطح هذا السيار — الارض — نعجب بالشمس وضوئها وحرارتها ، وبالسيارات تتأمل في اقدارها وابعادها وما يدور حولها من اقمار ، وبالنجوم وابعادها وعددها والرحاب الفسيحة بينها — نسأل : وما معنى كل ذلك ؟

كيف بدأ هذا النظام الكوني العجيب ؟ والى أين مصيره ؟ وما مقام الحياة فيهِ ؟ وما مستقبل العقل والذكاء وأثرهما في تسيير شؤونه او تصريف احواله ؟ هذه هي الاسئلة التي ما زالت الانسانية توجهها الى عباقرها من فجر الخليقة ، او من فجر العقل ، فلننظر الآن بصورة مجملة كيف يجيب عنها ابن السنة الرابعة والثلاثين من القرن العشرين

اننا نقسم الكائنات الى قسمين — عضوي ويشتمل على الكائنات الحية ، وجامد او غير عضوي

كالصخور والمعادن . واذا دققنا النظر في رحاب الكون وجدنا في الغالب ، على ما نستطيع ان نرى ونحقق ، عالماً او كوناً غير عضوي لاننا حتى الساعة لم نكشف عن دليل مباشر ، يثبت لنا ان في رحاب الفضاء او على سطوح اجرامه اثراً للحياة . أما على سطح الارض فالامر يختلف عما تقدم . ان يابستها واغوارها المائية حافلة بالاحياء ، صغيرها وكبيرها ، بسيطها ومعقدها ، نباتها وحيوانها. وكل نوع منها بل كل ضرب ، يستطيع ان يتناسل بطريقة من طرق التناسل العجيبة وأحد هذه الانواع من الاحياء قد تطوَّر في خلال عشرات القرون فأصبح ذا عقل وذكاء ، يجعلانه فذاً في الكون الرحب، الى حد ما بلغه علمنا اليقيني . ونحن البشر اصحاب هذا العقل وبه نستطيع ان نرود رحاب الفضاء دهشين متسائلين : ما معنى كل هذا ؟

ويجب ان نذكر، ان عقلنا هذا شيء جديد ، او صفة طارئة حديثة . فليس لاحد من الاحياء التي تعمر سطح الارض شيء من هذا ، بالمعنى الذي نقصده . ومع اننا نستطيع ان نعدّ الطرق ونبني السكك الحديدية ونصنع الطيارات والتلسكوبات وآلات الراديو العجيبة ، يجب ان نفهم اننا ما نزال في مستهل عصر العقل، في الشوط الاول من مضماره . قد نظن انه نفذنا بعلمنا الى اعمق اسرار الطبيعة وأحطنا بظواهرها ، والواقع اننا ما نزال من الطبيعة على شاطىء رحب وقد التقطنا من در حصبائه حجراً واحداً — وهو قول للفيلسوف العظيم اسحق نيوتن

اننا لا نعلم هل نحن صورة الحياة الفردة في هذا الكون الفسيح . ولا نعلم هل الارض بين الوف الوف الاجرام المنثورة في رحاب الفضاء هي المأوى الوحيد للعقل والذكاء . فنحن اشبه ما نكون بفريق من الحطابين او الصيادين ، وقد دخلوا دغلاً ملتفَّ الاشجار من الادغال في قلب افريقية ، وهم لا يدرون ، هل في الدغل غيرهم من الناس

مضت قرون ، والناس يسألون انفسهم هذه المسائل واشباهها . ففي عهد بطلميوس ، سأل الناس ما مكانة الانسان في الكون . فأجاب بطلميوس « انه من الكون في المركز . في الصميم » . ولكن غليليو ، من نحو ثلاثمائة سنة ، صرَّح ، بأن جواب بطلميوس لا يمكن ان يكون صحيحاً بل قال ، انه يظن ان الجواب يجب ان يكون كما يأتي : — « ان الانسان يعيش على احد السيارات الصغرى التي تدور حول شمس في المركز» . وانقضت مائتا سنة اثبت العلماء في خلالها ان قول غليليو، لم يكن صواباً كله ، وان الشمس التي تدور حولها ارضنا ، ليست في مركز الكون كما كان يظن ، وقالوا ان هناك الوفاً وملايين من الشموس تدور حول كل منها سيارات ، وقد تكون هذه السيارات مأهولة كالارض . اما فلكيُّ اليوم فيقول بلسان العالم البريطاني السر جيمز جينز : « كأني بالحياة نادرة في الكون ، لاننا لا نعرف نوعاً من الاجرام السموية ، تجتمع فيه العوامل المؤاتية للحياة إلاَّ السيارات التي كالسيارات الدائرة حول شمسنا ، وهذه السيارات نادرة »

مما تقدم نستطيع ان نتبين ، ان الاحياء العاقلة ، نادرة في الراجح ، في بحر خضم من الزمان

والمكان والطاقة . ونحن على الارض اذا اردنا ان نتكلم عن الحقب الطويلة قسمناها بالقرون — القرن مائة عام — ولكن مقاييسنا البشرية صغيرة ضئيلة ، ازاء رحاب الكون الزمانية . لذلك اذا فكرنا في نظام الكون وامتداده الزمني وجب ان نعمد الى ملايين القرون . فقد مضى مثلاً على ارضنا نحو عشرين مليون قرن (٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠ سنة) وهي تدور حول الشمس. والادلة الجيولوجية المنتزعة من الصخور المشعة تؤيد هذا التقدير . وقد مضى على الانسان رأس الخلائق على الارض نحو خمسة آلاف قرن (٥٠٠٠٠٠ سنة) وهو حيوان منتصب القامة . ثم ان الادلة تدل على ان الكائن الحي الذي تطوَّر الى الانسان ، انتقل من طور القردة من نحو خمسمائة الف قرن (٥٠٠٠٠٠٠٠ سنة) فانقضى عليهِ قرن يليه قرن ، اضطرَّ فيه بحكم الحاجة الى الغذاء والدفاع عن النفس ان يربي ملكات العقل وعلى ذلك يكون قد انقضى على الانسان نحو ٤٩٧٠ قرن بعد ما انتصبت قامتهُ (٤٩٧٠٠٠ سنة) قبل ان اصبح عقله ، قادراً ان يدرك انه سابح في خضم الفضاء ، على سيار يدور حول شمس . لان هذا الادراك لم يأته الاَّ من نحو ثلاثين قرناً اي ثلاثة آلاف سنة

اما كولمبوس فلم يكتشف اميركا الاَّ من ٤٤٢ سنة ، بعد ان عانى ما عانى في اقناع ابناء جيله بان الارض كروية . ومن نحو ٣٠٠ سنـة فقط سجن غليليو لانه ذهب الى ان الارض ليست مركز الكون . وكذلك يتبين لنا ، ان العقل او الذكاء شيء جديد ، في التكوين البشري

وهذه الارض ، التي نجدنا عليها ، ونحن نستيقظ استيقاظنا العقلي الذي يبعثنا على توجيه المسائل ومحاولة الاجابة عنها — هذه الارض ترافق امها الشمس في رحلة في خلال الفضاء ، نكاد لا نعلم عنها الاَّ اقل من القليل . الى اين نحن ذاهبون ؟ ولماذا ؟ سؤالان يبعثان في النفس الدهشة والعجب . وأمنا الشمس نجم متوسط بين النجوم . فليس فيها شيء غير عادي ، اذا قيست بالثلاثين الف مليون من النجوم التي تتكوَّن مجرَّتنا منها . وكوننا ابناء سيار ، من تسعة سيارات تدور حول شمس هي واحدة من ثلاثين الف مليون شمس ، يحملنا على التفكير في هل مقامنا في الكون حيث نظنه نحن خطراً وجلال شأن ؟

ومع ذلك فالمجرة ليست كل الكون . ذلك انهُ لما استطاع علماؤنا ، ان يستنبطوا وسائل جديدة فعالة لرِيادة الفضاء ، اكتشفوا وراء المجرة مجرات اخرى ، كل مجرة منها اشبه شيء بجزيرة كبيرة ، في خضم من الفراغ ، او ما يكاد يكون فراغاً ، لذلك دعيت هذه الاجسام الكونية الضخمة بالمجرات الخارجية (اي خارج مجرتنا) او بالعوالم الجزرية (نسبة الى جزيرة) . كنا الى ان اكتشف هـذا الاكتشاف ، نظن ان المجرة هي كل الكون . واذ نحن مشغولون في التفكير بخطر هذا الاكتشاف جاءت الانباء بأن هذه العوالم الجزرية قد صوِّرت بالفتوغراف . فالى اين تمتد ؟ او اين تنتهي ؟

ان اكبر التلسكوبات ، المستعملة الآن ، هو تلسكوب مرصد جبل ولسن ، وقطر مرآته العاكسة ١٠٠ بوصة او نحو ثماني اقدام وثلث قدم انكليزية . وقد ثبت من طرق تصوير الاكوان

الجزرية التي خارج المجرة بهذا التلسكوب ، ان عددها قد يبلغ الملايين ، وكل منها من طراز مجرتنا وقد لا تقل نجومها عن بضعة آلاف مليون من النجوم . بل يظن او يقدر انهُ اذا تم بناء التلسكوب الكبير ، الذي شرع في بنائه الآن ، وقطر مرآته العاكسة ١٦ قدماً وثلثا قدم او مائتا بوصة ، استطعنا ان نجد في الفضاء الذي يستكشفهُ هذا التلسكوب نحو ١٦ مليون مجرة من هذه المجرات . فالى اي مدى في اعماق الكون ، تمتد المجرات ؟ هذا ما يعنى بدرسه اينتشين ، وغيره من فطاحل العلماء

ونحن قد بدأنا ندرك معنى هذا الآن . اننا في الكون نشغل مكاناً لا يؤبه له . فالارض ازاء هذه الاجرام التي لا تحصى ، ولا تعد انواعها واشكالها ، كذرة من الغبار . ونحن الاحياء — الاجسام العضوية — نسكن كوناً لا يأبه للحياة ، او كأنهُ لا يأبه لها ، فكأننا نفاية من نفايات الكون . فاذا كانت الوداعة مما يهذب الخُلق فيجب ان نكون في الذروة من سمو الخلق ، بفعل الوداعة والضعة اللتين نحس بهما اذ نقلب الطرف ، في هذا الكون ونرى اين نحن فيهِ

***

كيف نشأت ارضنا اولاً ؟ هذا سؤال مهم ، وقد اتفق العلماء في الاجابة عنهُ وقتاً طويلاً وجهداً عظيماً وجاؤا بنظريات منوعة . ان الادلة المتجمعة الآن عند البحّاث تدل على ان الارض وسائر السيارات انطلقت من مادة الشمس في شكل ذراع غازية ، عند ما اقتربت منها في العصور الخوالي ، شمس اخرى فجذبتها اليها فانجذب من كتلة الشمس الغازية ، مقدار من المادة اتخذ شكل ذراع ، مستدقة الطرفين متضخمة في الوسط ، كانها « سيجار هافانا » . ثم ان هذه المادة التي انطلقت بهذا الشكل ، جرت على احكام الطبيعة ، فتلاصقت دقائقها وانفصلت الى كتل ، كل منها اتخذ شكلاً كرويًا ، وكذلك نشأت السيارات حول الشمس ، وهي تسعة اقربها عطارد وأبعدها بلوطو المكتشف حديثاً ولا نعلم هل وراءهُ سيار آخر وانما نعلم ان بينهما عطارد فالزهرة فالارض فالمريخ فالمشتري فزحل فاورانوس فنبتون

عرف عطارد في العصور القديمة وهو اصغر من الارض ، والراجح انه متجه دائماً بأحد وجهيهِ الى الشمس مشيح عنها بالوجه الآخر ، فهو على احد وجهيهِ شديد الحماوة حتى ليصهر الرصاص على سطحه ؛ وعلى الوجه الآخر شديد البرد . فالحياة على السطح الشديد الحماوة او على السطح الشديد البرد ، متعذرة ، اي الحياة كما نعرفها نحن . وقد توجد الحياة على سطحهِ ، في المنطقة المتوسطة بين الوجهين ، حيث لا الحماوة شديدة لا تطاق ولا البرد شديد لا يحتمل ، ولكن ليس عند العلماء الآن اقل دليل على ان هذا واقع

ويلي عطارد الزهرة ، وهي كوكب المساء احياناً وكوكب الصباح احياناً اخرى ، وتماثل الارض حجماً بوجه التقريب ، نهارها اسابيع وليلها أسابيع ، ونحن لا نعلم هل على سطحها احياء ، لاننا لا نرى من سطحها الاّ الغيوم التي تغشاها . اما ارضنا فالحرارة تتباين على سطحها الاّ عند القطبين

وفي جوارها ، من ١٢٥ بميزان فارنهيت (٥١٫٦ درجة مئوية) الى ٤٠ بميزان فارنهيت (وهي قريبة من درجة الصفر بميزان سنتغراد المئوي) ثم ان للارض جوًّا ، تتنفسهُ وتتنفس فيهِ ، وعلى سطحها ماءٌ كثير لا ينفد لا بد منهُ للحياة . في هـذه الاحوال الطبيعية ، والمؤاتية نشأت الحياة وترعرعت وتطورت والراجح اننا لا نجدها — اي هذه الاحوال — مجتمعة على سطح سيار آخر

هل المريخ مأهول ؟

المريخ سيار يلي الارض في بعده عن الشمس وهو اصغر منها ولكن يومهُ قريب من يومها في الطول ، إذ يومهُ ٢٤ ساعة و٣٧ دقيقة بمقاييسنا الارضية ، ولكن متوسط حرارته اقل من متوسط حرارتها لانهُ ابعد منها عن الشمس فحرارته عند خط استوائه ، ترتفع الى ما متوسطهُ ٥٠ درجة بميزان فارنهيت او ١٠ درجات مئوية (سنتغراد) وتهبط في الليل الى ما دون درجة الجمد ، وفي هوائه بقية رطوبة ، فالحياة كما نعرف خصائصها مستطاعة على سطحه . فاذا كان على سطحه نبـات كما قال الاستاذ لوِل ، فيمكن اقامة الحجة ، بان على سطحه حيوانًا كذلك

وكان الاستاذ لول يذهب الى ان الخطوط المستقيمة التي تظهر على سطحه ، ليست من صنع الطبيعة اعتباطاً بل من صنع احياء عاقلين ، ولكن بعض العلماء يظنون ان هذه الخطوط المستقيمة التي قال بها لوِل وغيره ، انما هي من الاوهام البصرية وقد عجز علمـاء الفلك عن تصويرها مباشرة حتى الآن ، ولكن عجزهم لا يمكن ان يؤخذ دليلاً على انتفاء وجودها لقصور التصوير الفتوغرافي من نواحٍ متعددة. وكان لول محتماً رأيهُ على ان هذه الخطوط تمثل أقنية ، او ترعاً صنعت للري ، وان النبات الذي ينمو في مساحة عرضها نحو عشرين ميـلاً على ضفتي كل قناة ، جعل رؤية الاقنيـة — كما يدعي — ممكناً . وهذا كل ما لدينا من الادلة على وجود الاحياء على سطح المريخ

ويلي المريخ في البعد عن الشمس طائفة من الاجرام الصغيرة تعرف بالنجيمات كبراها نجيمة تدعى (سيريس) قطرها ٤٨٠ ميلاً فقط وهي اي النجيمات على ما يظن نثار سيار كبير قد تهشم

وراء النجيمات نجد اكبر السيارات ونعني المشتري وقطره اكبر من قطر الارض ١١ مرة وكتلته تفوق كتلتها ١٤٠٠ مرة اي اذا اخذنا ١٤٠٠ جسم كالارض ودمجناها معاً تولد منها جسم حجمهُ حجم المشتري او اقل قليلاً غير ان كثافة جسم المشتري اكثر قليلاً من كثافة الماء ، ودورانه على محوره يقتضي ١٢ سنة بمقاييسنا الارضية . اما حرارته على ما يرى من سطحهِ فتبلغ نحو ١٥٠ درجة تحت درجة الجمد ، فاذا كان على سطحه احياء عاقلة فيجب ان يكون تكوينها غير تكوين الاحياء العاقلة على الارض ، لان هذه لا تطيق حرارة باردة كالحرارة التي على سطحه . اما ما يعرف عن الاحوال على سطح المشتري غير ما ذكرنا فيسير جدًّا لان الغيوم تحجبه

ويلي المشتري السيار زحـل وهو فذٌّ بين السيارات لان له حلقات تحيط به . وكثافته اقل من كثافة الماء ، ومدة دورانه حول محوره ٢٩ سنة ونصف سنة . ثم له علاوة على الحلقات التي

تحيط به تسعة اقمار . والمظنون ان الحلقات مكونة من اجسام صغيرة كالحصى وحبيبات الرمل . أما ما نعرفه عن الاحوال على سطحه فيسير لان سطحه لا يرى من خلال الغيوم التي تحجبه . والراجح ان الحرارة على سطحه اذا كان له سطح منفصل عن الغيوم التي تحيط به ، فنحو ١٨٥ درجة تحت درجة الجمد لشدة بعده عن الشمس ، والحياة على سطحه كما نعرفها على سطح الارض متعذرة كل التعذر . ثم يجيء السيار اورانوس وراء زحل وهو يفوق الارض اربعة اضعاف حجماً ، وكثافته اقل من كثافة الماء حتى ليظن انهُ غازي وسنته (اي دورانه على محوره) ٣٤ سنة من سني الارض ، ولما كان ابعد من زحل عن الشمس فحرارته في الراجح اقل من حرارتها . والحياة على سطحه مستحيلة

ويلي ذلك السياران نبتون وبلوطو المكتشف حديثاً (من نحو اربع سنوات) وحرارة الاول نحو ٢٤٠ درجة تحت درجة الجمد ، اما حرارة الثاني فأقل منهُ او اوطأ من ذلك والحياة لا يمكن تصوُّرها في مثل هذا البرد الشديد

***

هؤلاء هم ابناء الاسرة الشمسية ، وهي اقرب الشموس الينا في الفضاء . ومما تقدم نتبين ان الحياة كما نعرفها ونتصور خصائصها ، لا يمكن ان توجد الاَّ في منطقة ضيقة من الاسرة الشمسية نعني الارض ، وقد يجاريها في ذلك المريخ . فالسيارات القريبة من الشمس شديدة الحرارة ، والسيارات البعيدة شديدة البرودة ، والحياة لا تطيق الحرارة الشديدة ولا البرودة الشديدة

***

هل نستطيع التخاطب مع سكان الاجرام اذا كان ثمة سكان عاقلون ؟

لا ريب ان الوسيلة الوحيدة التي نستطيع ان نستعملها للتخاطب ، اذا كان ثمة من يتلقى رسائلنا ، هي امواج الراديو . فاذا كان بين الوف الالوف من النجوم ، نجم او اكثر لهُ اسرة من السيارات كأسرة الشمس ، وكان على بعض هذه السيارات احياء عاقلون كالاحياء على سطح الارض ، لتوافُر الاحوال المؤاتية للحياة من دفء ورطوبة وغيرها ، فمن المعقول ان ننتظر اكتشاف هؤلاء الاحياء يوماً ما — وان كان الاحتمال بعيداً — بواسطة التخاطب اللاسلكي ؟ واذا اكتشفنا هؤلاء الاحياء او هم اكتشفونا ، فكيف نتخاطب وبأية لغة نتفاهم ؟ ان ذلك اليوم اذا جاء كسف جميع ايام التاريخ المشهودة !

وثمة ثلاثة اعتبارات يجب ان لا تعزب عن البال اذ ننظر في هذا الموضوع . اذا كان الجرم الذي نحاول الاتصال به كالمريخ جارنا ، يجب ان نذكر ان اشاراتنا اللاسلكية قد تصل اليهِ في نحو دقيقتين من الزمان ، لان الامواج اللاسلكية تجتاز الفضاء بسرعة ١٨٦ الف ميل في الثانية ، وهي سرعة الضوء . فالمريخ من وجهة النظر الفلكية قريب منا كل القرب . ولكن اذا كان ذلك الكائن الذي

نخاطبهُ قاطناً سياراً يدور حول نجم في عنقود هرقل Hercules Cluster لا بدّ ان يمضي على الاشارات اللاسلكية ٤٠ الف سنة قبلما تصل اليه . ثم ان الاشارة التي يردّ بها علينا من هناك تستغرق كذلك ٤٠ الف سنة قبل ان تصل الينا — فالرسالة اللاسلكية تستغرق ٨٠ الف سنة ذهاباً واياباً ! وهذا زمن طويل اذا قيس بطول حياة الانسان التي تحصى بالستين او بالسبعين . وقد اردنا ان نذكر ما تقدم لنبين شيئاً من معنى المسافات الشاسعة التي تفصل بين الاجرام السماوية

والمسلم بهِ بين العلماء ان الحدث السموي ، الذي اسفر عن تكوُّن اسرة الشمس ، وقع من نحو الفي مليون سنة الى اربعة آلاف مليون سنة . فانقضت مئات الملايين من السنين قبلما اجتمعت الاحوال المؤاتية لظهور الحياة على الارض من نحو ١٥٠٠ مليون سنة . ولعل الكتلة الحية الاولى ، كانت خلية من البروتوبلاسما

هل ظهرت اولاً على الارض ، او في رحاب الفضاء ، ثم جاءت الارض بطريقة من الطرق على جناحي نيزك هابط من الفضاء ? يذهب بعضهم الى انها ظهرت اولاً نتيجة لتفاعل بعض المواد الكيمائية في بعض الاغوار المائية . وقد حاول العلماء في كل انحاء الارض وبمختلف الوسائل ، ان يحدثوا هذا التفاعل الكيمائي ليخلقوا الحياة فعجزوا وباؤوا بالخيبة . اما اذا كانت الحياة جاءت الارض اولاً محمولة على مادة من مواد الفضاء التي تسقط على سطح الارض كل يوم ، فهي اذن موجودة في اماكن اخرى في رحاب الكون . ولا تنسينّ ان بعض الاشكال الحية كالبزور تستطيع ان تتحمل درجات عالية من البرد من دون ان تقف قوة الانعاش اذا احيطت بأحوال مؤاتية من الحرارة والرطوبة

***

ولكن سواء اظهرت الحياة على الارض، أم أتتها من الفضاء فالراجح ان الخلية الحية الاولى ظهرت على الارض من نحو ١٥٠٠ مليون سنة . نعم اننا نختلف في اصلها . ولكنها ظهرت على كل حال ونحن — انا الكاتب وانت القارىء — الدليل المحسوس على ظهورها وتطورها . واذن تكون هذه الخلية قد استغرقت ٠٠٠ ٥٠٠ ١٤٩٩ سنة قبلما بلغت في تطورها وتحولها الشكل المعروف بالشكل الانساني . اي ان الانسان ظهر على الارض من نحو ٥٠٠ الف سنة . وهذا حديث اذا قيس بتاريخ ظهور الحياة نفسها . والادلة تدل على انهُ نشأ من حيوان شبيه بالقرد فأصبح منتصب القامة في بلاد مستوية تقل فيها الاشجار حيث كان يحتاج الى الاعتماد على سرعته وذكائهِ في الفرار من اعدائهِ وفي الحصول على غذائه

لما نزل هذا الكائن من الاشجار كان خشن المنظر والملمس . ولكن تطوره في خلال ٤٩٧٠٠٠ سنة انشأ منهُ الانسان الذي نشهده في فجر التاريخ المدوّن . ومن نحو ثلاثة آلاف سنة ، بلغ الانسان في تطوره العقلي مرتبة ظن فيها ، ان الارض تدور حول الشمس (هبارخس) ولكن انقضى عليهِ

بعد ذلك ٢٧٠٠ سنة قبلما تمكن من ان يصنع تلسكوباً (غليليو من نحو ٣٠٠ سنة) ثم انقضت ٢٩٨ سنة قبلما تمكن من ان يعرف ان للشمس سياراً تاسعاً يدور حولها (بلوطو الذي اكتشف سنة ١٩٣٠)

وكذلك تبين لنا، اننا نحن أسيادَ الارض، بمدننا العظيمة وسككنا الحديدية وطياراتنا وآلاتنا اللاسلكية وغيرها من ما في حضاراتنا المادية والمعنوية نكاد نكون حديثي الانفلات من قيود الحيوانية. فاذا كان الانسان الاول نزل من الاشجار، واتخذ القامة المنتصبة من نحو ٥٠٠ الف سنة، فالجزء من ذلك الزمن الذي احرز فيه تلسكوبات وشوكاً وسكاكين ومعرفة يقينية عن بعض الاشياء، لا يزيد على ستة اجزاء من مائة جزء من واحد في المائة — اي نحو ٣٠٠ سنة من ٥٠٠,٠٠٠ سنة!

فالانسان انما هو الآن في فجر يقظته العقلية بل هو على عتبة عصر العقل. وهذا هو التعليل الذي نستطيع ان نفسر به قلة معرفتنا عن وجود الحياة، في انحاء الكون ورحابه. ولا ريب في ان من يخلفنا على هذه الارض بعد قرون، سوف ينظر الينا نظرنا الآن الى طفل يتسكع قبل ان يمشي او الى رجل يتلمس في الظلام طريقه قبل انبثاق الفجر

***

ما هو مستقبل الحياة على الارض؟

هـذا المستقبل مرتبط بمستقبل الشمس ومصيرها. ولا بدَّ لبقاء الحياة على الارض، من ان تواصلها الشمس بالحرارة المواتية للحياة، وهي تتراوح بين ٥٥ — ٦٠ درجة مئوية حرارة، ونحو ٦٠ درجة تحت الجمد برودة. ولكن اذا نحن نظرنا حولنا، ورأينا درجات الحرارة تبلغ الملايين من الدرجات المئوية ودرجات البرودة تهبط عن درجة الجمد، مئات من الدرجات كذلك، تيقنا ان الشقة من درجات الحرارة والبرودة التي تؤاتي الحياة انما هي يسيرة جداً

ولكن الحرارة على الارض لم تتقلب تقلباً عظيماً في خـلال ملايين من السنين، والراجح انها لا تتقلب تقلباً عظيماً كذلك في ملايين آتية من السنين، رغم ما تفقده من كتلتها بالاشعـاع. فالشمس تفقد كل يوم ٣٦٠ الف مليون طن من كتلتها بالاشعاع، ومع ذلك فانها اليوم لا تختلف اختلافاً نسبيًّا كبيراً عما كانت عليه من نحو ٢٠٠٠ مليون سنة لما تولدت السيارات. بيد انها كانت من نحو خمسة ملايين مليون سنة، ضعف ما هي الآن وأشد حرارة وألمع ضوءًا

والامر الذي لا ريب فيه ان الشمس سائرة الى الفناء، بما تفقدهُ من كتلتها وحرارتها وقوة جذبها. فالمنتظر ان تبعد الارض رويداً رويداً عن الشمس كلما قلت قوة جذبها، بفقد ما تفقده من جرمها، وعندئذٍ تأخذ الحرارة على سطح الارض في الهبوط حتى يشتد البرد وتتعذر الحياة

ولكن ذلك لا يمكن ان يتم قبل انقضاء الف الف مليون من السنين

مستشفى المؤاساة

معهد قومي انساني(١)

قد تستغرب اجتماع القومية والانسانية في معهد واحد . ولكن اذا شئت ان ترى هاتين النزعتين ممثلتين في قالب خالص من الفن والعلم والخدمة العامة فعليك بزيارة مستشفى المؤاساة في الاسكندرية . بل اذا شئت ان ترضي ما يجول في صدرك من عزة قومية ، ورحمة وحنان ، فابذل في سبيل مستشفى المؤاساة ما تستطيع . فهو معهد صحي مصري ، يفاخر به في اي بلاد من بلدان الله . وهو منشأة قومية يصح ان تكون مدرسة ومثلاً للمنشآت القومية النافعة في الشرق ، القائمة على الرحمة والايثار والتعاون

كانت جمعية المؤاساة الاسلامية ، تعنى بجمع المال من المحسنين لتوزعهُ على الفقراءِ والمساكين فرأت بعد ممارسة هذا الغرض الشريف بضع سنين ان تنشيء مستشفى يكون ملاذاً وموئلاً للمرضى البائسين وعملاً قوميًّا ينهض امام مستشفيات الجاليات الاوربية دليلاً على تنبّه الامة المصرية الى المطالب الانسانية العليا وسخائها في سبيل تحقيقها ، ومثالاً للمشروعات العظيمة التي تقوم بها الجماعات الخيرية الاهلية . وقد احسنت الجمعية ، في قرارها ان لا يقتصر المستشفى على المصريين بل يرحب « بمعالجة من يدخل فيهِ من الاجانب على اختلاف اجناسهم ودياناتهم اذ ان الانسانية لا تعرف الفوارق ولا تميز بينها » — تقرير ١٩٣١ صفحة ٦ — فندب الدكتور احمد النقيب الجرّاح الاسكندري للذهاب الى اوربا وزيارة المستشفيات لاختيار اصح نموذج منها يصلح لمدينة مصرية كبيرة كالاسكندرية فزار انكلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا وعاد بتقرير فني مسهب اقرت الجمعية مبادئهُ وأقدمت على تحقيق غرضها ، وهي لا تملك الاّ الايمان بالله والاخلاص للوطن وللانسانية ، والثقة بأن جلالة مليك البلاد وحكومتهُ والشعب المصري والجاليات الاجنبية تؤيدها في هذا العمل النبيل

***

يرى الانكليز ان بناء المستشفيات ، يقتضي السخاء في الانفاق عليها ، فاذا كان المال المرصود لبناء مستشفى ما قليلاً يحتم عمل حساب لكل نفقة كبيرة وصغيرة ، نخير في نظرهم ان لا ينفق

(١) يشكر كاتب هذه السطور لصاحب العزة محمد فهمي عبد المجيد بك رئيس جمعية المؤاساة وسعيد جيمي افندي سكرتير الجمعية ان اتاحا له زيارة المستشفى ويخص بالشكر الدكتور احمد النقيب الذي رافقه في هذه الزيارة يومين متواليين باسطاً له كل ما جل ودق من شؤون المستشفى الهندسية والصحية

ذلك المال في بناء مستشفى . وذلك لان الاساس عندهم في بناء المستشفيات ، الهبات المالية الكبيرة والرخاء في اختيار المعدَّات ومواد البناء والاثاث . قيل ان احد الاغنياء الانكليز وهب مستشفى مدلسكس ثلاثمائة الف جنيه ، لبناء جناح خاص بالممرضات ، ورأيهُ في ذلك ان عمل الممرضة من اشق الاعمال وأدقها ، فاذا لم تكن مرحة النفس ، هادئة الاعصاب لم تستطع ان تقوم بعملها ، على خير وجهٍ . واشترط ذلك الواهب ، ان يكون لكلّ ممرضة حجرة خاصة للنوم وأخرى للاستقبال ، وان يحق لها ان تستقبل من تشاء في حجرتها الخاصة . فسلمت ادارة المستشفى بكل الشروط الأ الشرط الاخير ، واقترحت ان تمنح الممرضة حق استقبال من تشاء في بهو عام خاص بالاستقبال ، وقالت للواهب انهُ اذا رفض تعديل هذه الشروط اضطرت الى رفض الهبة . فقبل

والخلاصة ان الانكليز يحسبون ان نفقات بناءِ المستشفى تكون بوجهٍ عام بواقع ١٥٠٠ جنيه للسريرِ الواحد . اي ان انشاء مستشفى فيه ٥٠٠ سرير يكلف نحو ٧٥٠ الف جنيه . غير ان الالمان وجَّهوا عنايتهم بعد الحرب ، الى بناء مستشفيات تجمع مزايا المستشفيات الانكليزية ، ولكن لا تقتضي مثل نفقاتها . فبنوا مستشفى مارتن لوثر في برلين ، فبلغت نفقاته بواقع ٣٥٠ جنيهاً فقط للسريرِ الواحد . وهو آخر ما بلغهُ فن بناء المستشفيات الحديثة ، من الاتقان وتوافر الشروط التي يقتضيها العلم والفن وقلة النفقة . وعلى مثالهِ بني مستشفى المؤاساة في الاسكندرية . بل ان مهندس مستشفى مارتن لوثر نفسهُ — ارنست كوب — هو الذي وضع تصميم مستشفى المؤاساة وأشرف على بنائهِ

كان الرأي من قبل متجهاً الى جعل المستشفيات مباني متفرقة كل بناءٍ خاص بمرضٍ من الامراض ، او بطائفة متلائمة منها ، وذلك لكي يتوافر للمريض في البناء الصغير ، ما لا يتوافر لهُ عادة في البناء الكبير ، من نور الشمس والهواءِ الطلق . ولكن تقدم علوم الطب الحديث ، وأساليب المعالجة ، جعل حتماً ارتباط المباني بعضها ببعض ، اذ من المحتم على المريض الواحد ، في غالب الاحيان ان ينقل الى جهاز العلاج بالاشعة ، لتصوير عضو من اعضائهِ بالاشعة السينية ، او لتعريضهِ للاشعة التي فوق البنفسجي ، او لتحليل دمهِ او بولهِ ، او فحصهِ بآلات خاصة ثابتة لا يمكن تنقيلها . ومن الاسراف الذي لا مسوّغ لهُ ، ان يكون في كل بناء من مباني المستشفى المتفرّق ، جميع هذه الادوات ، والخبراء الذين يستعملونها . لذلك نشأت فكرة انشاء المستشفى الحديث في بناءٍ واحدٍ ، تكون اجزاؤهُ المختلفة ، كالاعضاء في الجسم مترابطة منتظمة في وحدة شاملة وعهدوا الى المهندسين ، في تحقيق هذه الغاية بلا تفريط في ما يحتاج اليهِ المريض من النور والهواءِ والراحة . فكان مستشفى مارتن لوثر في برلين ، ومستشفى المؤاساة في الاسكندرية ، مثالاً لهذا الاتجاه الجديد . ومما يدلك على خطورة هذا الاتجاه ، ان مستشفى « غرانش بلانش » في ليون — وهو من اكبر المستشفيات في فرنسا وقد بلغت نفقاتهُ نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات — كان قد بدىءَ انشاؤهُ قبل الحرب على اساس اجنحة متفرقة ، وفقاً للرأي القديم ، فلما بدت لمجلس

ادارته ، مزايا البناء الواحد كما اوجزناها ، وعزّ عليهم هدم مبانيه جميعاً ، وحددوا بينها ، بانفاق واسراب تحت الارض حتى ليستطاع ، نقل المريض في سريره ، بالمصعد آناً ودرجاً في الانفاق آونة ، من بناء الى آخر ، وفقاً لما تقتضيه اساليب العلاج الحديث

***

يقوم مستشفى المؤاساة على اكمة ، ترتفع نحو ١٨ متراً عن سطح البحر في بقعة تطل على بطيحة الحدراء وهي من اجمل بقاع الاسكندرية واصلحها لاقامة المستشفيات حيث الفضاء متسع والهواء نقيٌّ والراحة موفورة لبُعد البناء عن ضوضاء المدينة وجلبة شوارعها

يطالعك الصرح ، على كتف الاكمة فيروعك ما يتجلى في خطوطه من البساطة والجلال . طولهُ مائة وعشرة امتار ، وعلوهُ ٥٤ متراً ومساحة الارض المبنية ٣٠٠٠ متر مربع ، ومساحة حرمه ٣٠٠٠٠ متر مربع وينتظر ان يحوَّل الى حديقة غنّاء . فاذا اقتربت منهُ استقبلك مدخل فخم معمّد ، وابواب ثلاثة علوّ الباب منها ستة امتار مصاريعها من الحديد والبرونز المخرّم ، كأنها قطع من الدنتلاّ في دقة صنعها ، تدخل بها الى بهو ، فترى في الجدار الجنوبي الذي يقابلك عند الدخول مكاناً ينتظر ان يزيَّن بصورة زيتية لجلالة الملك وحواليها على الجدران الثلاثة اماكن لصور اخرى شخصية ورمزية ، منها صور امنحوتب وابن سينا وكلوت بك . والى يمين هذا البهو ردهة فخمة خاصة باستقبال جلالة الملك وتقابلها ردهة لاجتماع مجلس الادارة

والبناء ثمانية ادوار ، احدها تحت الارض وآخر على سطحها وستة فوقها . اما الدور الارضي ، فدَوْران في الواقع وفيهما الآلات والماكنات اللازمة لتوليد البخار ، وانابيب المجاري والاسلاك وما الى ذلك . ومما يدلك على عناية المهندس العظيمة ، جعلهُ المجاري والانابيب مكشوفة بدلاً من ان تكون مطمورة في الارض لكي تسهل مراقبتها والسيطرة عليها اذا وقع خلل فيها . ويوزَّع البخار بانابيب ومواسير على المطابخ والمغاسل او على مرجل ماء كبير يموّن المستشفى بما يحتاج اليه من الماء الساخن لتدفئة الغرف وللاستعمال في مرافق المستشفى العامة . وفي هذين الدورين كذلك ماكنات التبريد ، وهي لازمة للمستشفى لتبريد الثلاجات في المطابخ ، والغرف الخاصة بحفظ الجثث اذا لزم حفظها ، ولتبريد غرف المرضى متى اقتضى الجوّ او العلاج ذلك . وماكنات التبريد تصنع ثلجاً قد لا يحتاج المستشفى الاّ الى قدر يسير منهُ ، ولكن ادارته اتفقت مع بعض الشركات على شرائه منها ، وسوف يكون بيعهُ مصدر ايراد لا بأس به لادارة المستشفى

وفي المستشفى مولّدان (دينامو) للكهربائية احدهما قوتهُ ١٦٠ حصاناً والآخر ١٠٠ حصان فاذا تعطّل الواحد استعمل الآخر ، واذا تعطّل الاثنان — وهو مستبعدٌ — استطاع المستشفى ان يستمدّ القوة الكهربائية من شركة لبون او شركة سكة حديد الرمل . ولما كانت لجنة المستشفى تعنى عناية خاصة في اقتصاد كلّ ما يمكن اقتصادهُ من نفقات العمل ، ابتاعت مكثفات وبطاريات

خازنة للكهربائية ، حتى اذا كان التيار التجاري رخيصاً ، أُخذ وخزن واستعمل حين الحاجة اليهِ

وفي هذين الدورين كذلك آلة تجذب الهواء من الجو المطلق فوق المستشفى وتنقيهِ بمصفاة من الزيت وتصفيهِ من الغبار والرطوبة ، ثم تمنحه القدر المطلوب من الرطوبة والدرجة المعيّنة من الحرارة او البرودة التي يحتاج اليها المرضى ، وتدفعهُ في انابيب خاصة بذلك الى الغرف

ولما كان نقل المريض بسريرهِ من حجرتهِ الخاصة الى حيث يعالج او يفحص ، من ضرورات المستشفيات الحديثة ، كان كل باب من ابواب المستشفى على الاطلاق يتسع لكل سرير في المستشفى. فبدلاً من ان يرفع المريض على نقالة ويسار بهِ الى حيث يقتضي العلاج ، يدرج سريرهُ من غرفتهِ الى الممرّ او الى المصعد (الاسانسور) فيؤخذ الى غرف العلاج ، او يهبط بهِ الى الدور الارضي فينقل بسريرهِ الى الحديقة ، او يصعد بهِ الى السطح للمعالجة باشعة الشمس الطبيعية. ولكي تستتبّ للمريض جميع وسائل الراحة ، لا ترى غرفة من غرف المرضى ولها نافذة تطلّ على ممرات المستشفى ، بل لكلٍّ منها بابٌ كبير وشرفة تطلّ على الشمال الغربي او الشرق الشمالي . ومبالغة في الحرص على راحة المريض ، جعل كل باب يطل على الممرّات في حجر المرضى ، مزدوجاً وبين المصراعين نحو نصف متر من الفراغ فتتم للمريض الراحة التامة من الجلبة او الانين . اما الهواء فيدخل من ثقوب في أعلى جدار الغرفة ، ويفتح القسم الاعلى من باب الشرفة ، بطريقة تسهّل التهوية ، من دون ان يحدث تيّار من الهواء ، قد يصاب المريض منهُ بقشعريرة . بل اذا ضغط المريض على زرّ ، لا يقرع جرساً ، ولكنهُ ينير نوراً فتهبّ اليهِ الممرضة . ومن غريب ما رأيناهُ في هذا الباب في مستشفى المؤاساة ان في غرفة الممرضة مصباحاً ينبهها بنورهِ الى ان مريضاً يدعوها ، فتهبّ الى نجدتهِ . وعند دخولها تضغط زرّاً خاصاً بين بابيْ الغرفة فاذا دعاها مريض آخر وهي تعنى بالاول ، لم ينر المصباح في غرفتها ، بل في غرفة المريض الذي تعالجهُ ، فتعرف ان مريضاً آخر يدعوها . وأعجب من ذلك ، ان في غرفة القهرمانة لوحة تدوّن من تلقاء نفسها ، دعوة كل مريض ووقتها ، وتلبية كل ممرضة ووقتها ، فتستطيع ان تعلم في لمحة واحدة ، وبطريقة لا تقبل الخطأ ، المتوانية من الممرضات في القيام بما عليها

اسرَّة المرضى في المستشفى ٤٥٠ سريراً ، ٤٥ منها للدرجة الاولى و ٩٠ للدرجة الثانية و٣١٥ للدرجة الثالثة ، وهذه الاخيرة مجانية جميعاً . واذا اقتضت الضرورة امكن زيادة الاسرَّة الى ٦٠٠ سرير . ولهُ عيادة خارجية تتسع الآن لنحو ٤٠٠ او ٥٠٠ مريض كل يوم . وانما تنوي الجمعية ان تقيم في المستقبل عيادة خارجية تتسع لنحو ٤٠٠٠ مريض كل يوم . وكل غرفة من غرف المرضى مزدوجة السقف والجدران والارض والابواب . وتحتوي كل غرفة من غرف الدرجة الاولى على سرير واحد ، وكل غرفة من غرف الدرجة الثانية على سريرين ، وكل غرفة من غرف الدرجة الثالثة على ست اسرَّة او اقل . بيد ان اللجنة ادركت انهُ اذ ثقلت وطأة المرض على مريض ما واحتاج الى عناية خاصة ، استوى عند ذلك المريض الغنيّ والمريض الفقير ، فينقل مريض الدرجة الثالثة الى

غرفة خاصة فيها سرير واحد ، وينال من العناية الخاصة ما يناله المريض الغنيّ . وفي أجنحة الدرجة الثالثة خمسون غرفة في كل منها سرير واحد فقط

خمسة من ادوار المستشفى الثمانية مخصصة للمرضى فالدور الاول خاص بالامراض الباطنية للرجال والثاني بالامراض الباطنية للنساء والاطفال والدور الثالث بامراض النساء والولادة وجراحتها والرابع والخامس بجراحة الرجال . وفي الدور الأرضي صيدلية كبيرة ومعمل للتحليلات الكيمائية والبكتيريولوجية وكلاهما مجهّز بادق واحدث الاجهزة الكيمائية والبكتيريولوجية . وفيهِ كذلك ردهة واسعة للاجتماعات والمحاضرات العلمية . اما الدور السادس ففيهِ المطبخ والحمامات الشمسية وسكن الممرضات المبتدئات اللواتي يتلقين فن التمريض نظراً وعملاً ، ولكل منهنّ حجرة خاصة فيها سرير وخزانتان وماء جارٍ بارد وساخن . وكل دور من ادوار المرضى مؤلف من اربعة اجنحة ، جناح للدرجة الاولى وثانٍ للدرجة الثانية ، اما الثالثة والرابعة فللدرجة الثالثة . وحجر المرضى كلها في مقدمة البناء ، اما حجر المؤخرة فلسكن المرضى والعمليات الجراحية على اختلافها ، وقسم العلاج بالاشعة وقسم خاص بعزل المرضى المصابين بحميات معدية

وتشتمل مرافق المستشفى ، من مطابخ ومغاسل على احدث الوسائل واكثرها اتقاناً . المطبخ على السطح ، وجميع أدواتهِ كهربائية . ترفع اليهِ مواد الغذاء من لحم وخضار ولبن بمصعد كبير ، فيطبخ الطعام بحسب ما تطلبه الممرضة المختصة في كل دور من ادوار المستشفى ، وهو متصل بمصاعد خاصة بمطابخ صغيرة في كل دور ، وفيهِ غرفتان باردتان لحفظ مواد الغذاء وفي كل منها انابيب خاصة للتبريد وللتهوية وجميع ادواتهِ كهربائية . وكل مطبخ من المطابخ الصغيرة يحتوي على ثلاجة لحفظ الطعام فيها ، وجهاز آخر لحفظ الطعام الساخن ، وما تحتاج اليهِ الممرضة من ادوات المطبخ لاعداد ما يقتضيهِ بعض المرضى من طعام خاص يحتاجون اليهِ فجأة . اما المغاسل والمناشر والمكاوي ، حيث يغسل بياض المستشفى ويكوى فجامعة لاحدث الوسائل العلمية

***

اما اجنحة العمليات الجراحية فآية من آيات العلم الحديث . وهي في ثلاثة ادوار ، كل دور منها يحتوي على حجرتين للعمليات بينهما حجرة للتعقيم مجهزة باحدث الادوات ، ومنها معقم autoclave الماني جديد يفرغ من الهواء ، ثم ينفث فيهِ البخار من أعلى الى أسفل في حجر منفصلة احداها عن الاخرى ومتساوية جميعاً في ضغط البخار فيها ، فلا يبقى اي احتمال لانحصار كرة من الهواء الحامل للجراثيم داخل المعقم . ثم هناك حجرة للغسل مجاورة لكل حجرة من حجر العمليات ، بينهما نافذة واسعة ، يستطيع الجرّاح ان يراقب المريض منها وهو يطهر يديهِ بعد اتمام العملية . ومصباح حجرة العملية لا ظلّ لهُ واذا انطفأ لحادث مفاجيء في التيار ، والجرّاح يعمل العملية انار مصباح آخر — انارة اوتوماتيكية — يستمد تياره الكهربائي من بطارية كهربائية

خازنة تكفي لانارة المصباح ثلاث ساعات . وقد بنيت غرف العمليات ، حتى يستطاع عمل العمليات فيها على ضوء النهار — وهو في الغالب غير مستحسن ، لانهُ يجيء من ناحية واحدة ويلقي ظلالاً على جسم المريض — او على الضوء الكهربائي . فاذا تبين ان الضوء الكهربائي هنا مفضل على ضوء النهار ، لانهُ يقع وقوعاً عموديًّا على جسم المريض ، اقفلت النوافذ اقفالاً محكماً بستائر سود لا تنفذها شعاعة نور . ومن آيات قسم الجراحة غرفة للعمليات فيها جهاز للاشعة السينية . ذلك ان الطبيب اذا شرع في عملية لاستخراج مادة صلبة دخلت جسم المريض ، اهتدى الى مكانها بصورة الاشعة السينية . ولكنهُ احياناً قد يضلُّ مكانهُ ، ويتعذر عليهِ نقل المريض ثانية لتصويره بالاشعة السينية وهو تحت المشرط فتستعمل الاشعة السينية مباشرة لتهدي الجرّاح الى ضالتهِ . وقد قيل لنا ان في اوربا الوسطى لا توجد الاَّ حجرة واحدة من هذا القبيل وهي في مستشفى بهيدلبرج بجنوب المانيا . ويقابل غرف العمليات غرف التخدير وغيرها ما يحسب مكمّلاً لها

اما قسم العلاج بالاشعة — وقد تبرع بنفقاته البالغة ٤٠٠٠ جنيه المستر رينهارت التاجر الانكليزي بالاسكندرية — ففيهِ أحدث الاجهزة لهذا الغرض ، وهو حجرتان رئيسيتان بينهما حجرة صغيرة تجلس فيهِ الممرضة المختصة بهذا العمل ، بعد ما تضع في كل منهما مريضاً ، وتعين لهما قوة الاشعة التي يتعرّضان لها . وفي حجرة الممرضة وسائل دقيقة تمكنها من وقاية نفسها ، لانهُ اذا قويت الاشعة النافذة من بابي الحجرتين او احدهما ، الى حجرة الممرضة تعرضت للخطر ، وهذه الزيادة تستطيع ان تتبينها في الواح زجاجية خاصة بتغير لونها اذا زاد النافذ من الاشعة عن قوة معينة . وعندئذٍ تخفف التيار او توقفهُ بأزرارٍ . وجدران حجرتي العلاج بالاشعة ، وحجرة العمليات الجراحية التي فيها جهاز الاشعة السينية مبطنة بالرصاص والباريوم منعاً لاختراق الاشعة لها

***

جمعت جمعية المؤاساة معظم نفقات المستشفى من الاهلين عن طريق « الاوبريات والانصبة » التي نظمتها ، ومن هبات اهل الخير . ومما هو جدير بالذكر ان الاجانب كانوا كراماً أسخياء في تعضيدها فنفحها المستر رينهارت بأربعة آلاف من الجنيهات والمستر فني بألف والمسيو كوتسيكا بمصر بألف والمسيو دفسيو بألف . وقد بلغ ما تبرع بهِ الاجانب لها نحو عشرة آلاف جنيه . واننا لنأسف ان الوطنيين لم يجاروا الاجانب في ذلك حتى الآن . فان الجمعية لم تنل هبة من وطني تزيد على مائة جنيه ومجموع هباتهم قد لا تزيد على الف . ونحن نعلم ان ذلك ليس لتقصير اغنيائنا في السخاء على المشروعات الخيرية ، ولهم في ذلك آيات ، بل اننا نثق انهم اذا علموا ان مستشفى المؤاساة ، مفخرة علمية واجتماعية لمصر وللقومية المصرية ، بادروا الى تعضيده بكل ما يستطيعون ، فيرضون بذلك شعورهم الوطني ، ونزعتهم الانسانية السامية

فؤاد صروف

لعلي محمود طه

رجوع الهارب

اذا تمرَّد المحبّون على حكم الهوى، وضاق كيوبيد بصراخهم وبكائهم فتح لهم باب ديره فخلصوا منه ناجين بأنفسهم، وانطلقوا هاربين من أسره، ينشدون النسيان والسلو في حياة أصبحت تنكرهم وكأن لم يتصلوا بها من قبل. وهاموا في عالم يجهلهم ويجهلونه، تحوطهم الوحشة وتظلهم الكآبة. هنالك يرجع الهارب نادماً مأخوذاً بسحر تلك الايام التي كانت تشرق عليه من خلال ذلك الدير القديم

قرَّبتُ للنور المشعِّ عيوني ورفعتُ للّهبِ الأحمِّ جبيني

ومشيتُ في الوادي يمزّقُ صخرهُ قدمي وتدمي الشائكات يميني

وعدوتُ نحو الماء وهو مقاربي فنأى وردَّ الى السَّرابِ ظنوني

وَبدَتْ لعيني في السماء غمامةٌ فوقفتُ فارتدَّتْ هنالك دوني

وأصختُ للنسماتِ وهي هوازجٌ فسمعت قصفَ العاصفِ المجنون

يا صبح: ما للشمس غير مضيئةٍ؟ يا ليلُ: ما للنجم غيرَ مبين؟

يا نارُ: ما للنّارِ بين جوانحي؟ يا نور: أين النورُ ملءَ جفوني؟

ذهبَ النهارُ بحيرتي وكآبتي وأتى المساءُ بأدمعي وشجوني

حتى الطبيعةُ أعرضتْ وتصامتْ وتنكرتْ للهارب المسكين!!

***

إنْ لم يكنْ لي من حنانكَ موئلٌ فلمنْ أبثُّ ضراعتي وحنيني؟

آثرتَ لي عيش الأسير فلم أُطقْ صبراً ، وجُنَّ من الأسار جنوني
فأعدتني طلقَ الجناح وخلتَ بي للنور جِنَّةَ عاشقٍ مفتون
وأشرتَ لي نحو السماء فلم أطِرْ ورددتُ عينَ الطائر المسجون
نسيَ السماء وبات يجهلُ عالماً ألقى الحجابَ عليهِ أسرُ سنين
ولقد مضى عهدُ التنقلِ وانتهى زمني اليكَ بصبوتي وفتوني
لم ألقَ بعدك ما يشوقُ نواظري عند الرياضِ وليس ما يُصبيني
فهتفتُ أستوحي قديمَ ملاحني فتهدَّجتْ وتعثرتْ بأنيني
ونزلتُ استذري الظلال فعفتني حتى الغصونَ غدونَ غيرَ غصون
فرجعتُ للوكرِ القديم وبي أسىً يطغى عليَّ وذِلَّةٌ تعروني
لما رأيتهُ أغرورقتْ عيناي من ألمٍ وضجَّ القلبُ بعدَ سكون
ومضتْ بي الذكرى فرحتُ مكذباً عيني ، ومنهما لديهِ يقيني
وصحوتُ من خبَلٍ وبي مما أرى أطراقُ مكتئبٍ وصمتُ حزين
فافتحْ ليَ البابَ الذي أغلقتَهُ دوني ، وهاتِ القيدَ غيرَ ضنين
وامددْ ذراعيكَ الغداةَ وضمَّني وأحلَّني الصدرَ الذي يأويني
دعني اروِّ القلبَ من خمر الرِّضى وأنِمْ على نجر الحنان عيوني
وأعدْ إلى أسر الصبابة هارباً قد آبَ من سَفَرِ الليالي الجون
عافَ الحياةَ على نواك طليقةً وأتاكَ ينشدها بعينِ سجين !!

نظرات اجتماعية

في العلائق الجنسية

لامير بقطر

قيل ان الله خلق الرجل واطمأن الى ذلك ، ولم يخطر على باله أن يصنع له شريكة في الحياة ، حتى غافله الشيطان وخلق المرأة . وعلى هذا يكون الرجل من صنع الله والمرأة من صنع الشيطان

غير ان هنالك رواية اخرى صاغها احد علماء الاجتماع [1] في قالب من الدعابة والفكاهة ،ولكنهُ ضمّنها حقائق ملموسة ، وختمها بدروس ومسائل غاية في خطر الشأن وهي ان الاله « توشترى » عند ما وطّد العزم على صنع المرأة ، وجد ان المواد الصلبة ، والعناصر الاولية ، التي خلق منها الرجل ، قد استنفذت برمتها . وبعد صمت طويل وتفكير عميق ، خطر بباله حلٌ أخرجه من هذا المأزق ، وهو انهُ اتخذ من القمر استدارتهُ ، ومن الدّبابات ليونتها ، ومن النباتات المتعرّشة التصاقها ومن الحشائش الخُضر اهتزازها ، ومن عيدان القصب اعتدالها

واتخذ من اكمام الزهور تفتّحها، ومن اوراق الاشجار خفّتها، ومن اشعة الشمس ضياءها ، ومن نظرات الغزلان سحرها، ومن خلايا النحل تقاربها، ومن قطرات العسل حلاوتها ، ومن النار توهجها

واتخذ من خرطوم الفيل انخراطه ، ومن سحاب السماء بكاءه ومن هبوب النسيم علّته

واتخذ من الريح تقلّبه ، ومن الارنب جبنَه ، ومن الطاووس زهوه ومن صدر الببغاء نعومته، ومن الماس صلابته ، ومن النمر قسوته ، ومن الثلج برودته

واتخذ من ابي زريق (طائر) ثرثرته ، ومن الحمام هديله ، ومن الكركي ذبذبته ، ومن الشكرواكي وفاءه ، أخذ هذه كلها ودقها دقاً ، وطحنها طحناً ، وعجنها عجناً ، وصنع منها المرأة ، وأهداها الى الرجل

وعاد الرجل بعد اسبوع يشكو للاله امره وخرّ على ركبتيه ساجداً ، وهو يقول : أي ربّي !! ان هذه المخلوقة التي اهديتنيها قلبت نعيمي بؤساً ، وجعلت حياتي شقاء .وهي لا تكف ثرثرة لحظة

(١) F. W. Bain, "A Digit of the Moon"

واحدة ، ولا تدعني دقيقة أخلو فيها بنفسي ، وتستغرق كل اوقاتي . تضايقني فوق ما استطيع احتماله ، وتريد ان يوجَّه اليها كل انتباهي . تبكي من لاشيء ، وتلهو بغير انقطاع .... لهذا جئت بها اليك يا ربي ، لان العيش معها امر لا يطاق

فقال الاله : حسناً !! وأخذ مخلوقته الجديدة ...

وعاد الرجل بعد اسبوع آخر ، وخرَّ على ركبتيهِ ساجداً ، وهو يقول : ربي !! منذ ان فارقت المخلوقة الجديدة ، قد استحال أنسي وحشة ، وانقلب سروري حزناً ، وايناسي وحدة ، وليس لعيشي بغيرها من سبيل . فكم كانت ترقص لي وتنشد ، وتغرّد وتغني ، وترمقني من طرف عينيها الساحرتين ! وكم كانت تلعب معي ، وتعلق بي ! وكانت بسمتها ربيعاً اذا ابتسمت ، وكان ضحكها موسيقى اذا ضحكت ! ما اجملها كانت اذا نظرت اليها ، وانعمها اذا مسستها !! اي ربي ! ارددها اليَّ

فقال الاله : حسناً !! ها كها ...

ولم يغب الرجل سوى ثلاثة ايام وعاد ثانية الى الاله وخرَّ على ركبتيه ساجداً وهو يقول : اي ربي ! لست ادري... لقد عدت الى رشدي ، وايقنت ان هذه المخلوقة اشدّ وبالاً عليَّ ، منها اسعاداً لحياتي فخذها ....

فحنق الاله واشتدّ غضبه على الرجل واغلظ له الكلام قائلاً : — تبّاً لك .... اليك عني !! لكن هذا آخر ما اسمعهُ منك من الشكوى ...

صرّف امورك تصريفاً يناسب مقتضى الحال ...

فقال الرجل : ربي ! لستُ استطيع العيش معها

فأجابه الاله : ولستَ تستطيعه بغيرها . . . . وأدار ظهره الى الرجل ، ومضى في عمله . . . .

فذهب الرجل يضرب اخماساً على أسداس ، وهو يردد القول : لست استطيع العيش معها ولست استطيعه بغيرها . . . فما العمل ؟ . . .

***

يُعزى كثير من العادات والتقاليد ، التي تقدسها الشعوب والقبائل ، وتحافظ عليها بأرواح أبنائها ، الى وجوه الاختلاف بين الرجل والمرأة ، على تفاهتها . وقد كانت الفروق الجنسية منذ الخليقة الى يومنا هذا ، قوة فعالة في سن الشرائع ووضع القوانين ومراعاة العرف والتفريق بين مبادىء السلوك والآداب العامة واستهجان بعضها وتسميتهُ رذائل واستحسان البعض الآخر وتسميتهُ فضائل ، وكانت سبباً في وجود طائفة من الطقوس والتقاليد القومية والشعبية والطائفية والدينية

والمرأة لغز لم يستطع الرجل الى اليوم حلّ طلاسمه . وهي آخر ما يتسنى له فهمه في الحياة . والسعادة الزوجية لا تتطلب حتماً فهم الرجل عقلية زوجه، بل تفرض توافر الحلم والتسامح عندهما

ويقول علماء الاجتماع ان في تاريخ الجنسين يتمثل قانون من أهم القوانين الطبيعية وأعظمها شأناً . وهو قانون التجاذب والتنافر . ألا ترى الطبيعة الانسانية قد اودعت في الجنسين من قوة الجاذبية ما لا يستطاع الفرار منه ، كما انها اوجدت بينهما من اسباب العزلة والتنافر ، في احوال خاصة ، ما لا يتسنى اغفاله ؟ ألا ترى في الرجل والمرأة الحب والبغضاء والتجاذب والتنافر ، القرب والبعد الاباحة والمنع ؟ ألا ترى ان الصفة الواحدة متممة للاخرى ؟

وقبل ان نبدأ في تتبع بعض العادات المعروفة وندرس كيف نشأت ، وكيف ان العلاقات الجنسية كانت من أهم العوامل التي دعت الى توطيد دعائم هذه العادات — قبل هذا ينبغي ان نسارع لننفي عقيدة شائعة بخصوص الآداب الجنسية عند الامم الهمجية والقبائل الفطرية . ليس ثمة ما يستدل منهُ على ان الاباحية كانت تغلب على الشعوب القديمة في الازمان الغابرة . وليس ثمة ما يستدل منه على ان للاباحية اثراً في اي بلد من بلدان العالم اليوم ، حتى بين القبائل البربرية التي لا تزال تعيش عيشة الفطرة ، البريئة من شوائب المدنية ، وصقال التهذيب الذي يضفي على الناس عادة ثياباً من الرياء والتصنع . واذا كان هناك من شيء فان الامم المتأخرة والقبائل المستوحشة والبلدان نصف المتمدينة اكثر محافظة على حرمة مبادئها الجنسية ، واشد اباءً وأعف نفساً واكثر اعتدالاً ، في علاقاتها النسائية ، منهم بالشعوب المتمدينة المتحضرة

ومن اسباب الامتناع والاعتدال عند الشعوب الهمجية الخوف من الضعف ، لانهم يظنون ان الفتور الذي يعقب عملية الجماع ، الناشيء عن زيادة ضغط الدم ، ضعف مستديم . ولما كان فخر الشاب قوته ، فان رجالهم يحرصون على السائل المنوي كل الحرص لاعتقادهم انهُ اليفبوع الذي يستمد منه الجسم تلك القوة . ومع جهلهم بعلم وظائف الانسان فانهم يعتقدون ان قوة الرجل في خصيتيهِ . ولا غرابة في ذلك فان بعض المتأخرين من فلاحي اوربا الى اليوم يصفون السائل المنوي دواء لشفاء بعض الامراض ، وتقوية الاعصاب . ولا تزال القبائل الهمجية في كثير من انحاء العالم اليوم تحافظ على عاداتها القديمة في الحروب ، فتحرم على الجنود الاقتراب من النساء قبل الحرب بمدة معلومة وفي اثنائها وبعدها بزمن معلوم . وكان بنو اسرائيل يحتمون على الجند ان يطهروا انفسهم قبل النزول الى ميدان الحرب ، حتى بعد الاستحلام . ولا تزال القبائل الاسترالية تشرب ذكورها بول الاناث ، وتشرب اناثها بول الذكور شفاءً للامراض

ويتضح مما سبق ان من أهم أسباب العفّة والاعتدال في العلائق الجنسية ، وابتعاد الرجال عن النساء بقدر الامكان عند الامم الهمجية ، المحافظة على القوة والرجولة بكل معانيها فيما يتعلق بالرجال ، وصون الطراوة واللين والانوثة بكل معانيها فيما يختصّ بالنساء

ومن هذه الاسباب ايضاً الخرافات والاباطيل التي تحوم حول المرأة وكل ما يتعلق بالمسائل الجنسية كما تحوم الخرافات والخزعبلات حول الظاهرات الجوية والطبيعية كالرعد والبرق والنيازك

والكواكب . ولا يخفى ان الهمجيّ يفسّر هذه الظاهرات تفسيراً يتفق وعقليته . وما يقال في هذه يقال في اعضاء التناسل والمرأة وكل ما يتعلق بها وقد ذكر كرولي ان في متحف Für Völkerkunde يوجد حفر على لوح من الخشب من بريطانيا الجديدة يمثّل عصفوراً يجرّ شيئاً من عضو التناسل للمرأة ، دليلاً على اعتقاد سكان تلك البلاد من ان الحيض عند المرأة ينشأ من لدغ ثعبان او نقر عصفور . وفي المتحف عينه اثر آخر من غينيا الجديدة يمثّل تمساحاً يقبض بكفيه على رأس امرأة ، وتمساحاً آخر يحاول ايلاج خرطومه في فرجها . ويفسّر بعضهم الاستحلام عند الرجال بقولهم ان روحاً شريرة او « عفريتاً » انثى تضاجع المستحلم ليلاً ، كما انهم يفسرونهُ عند الاناث بقولهم ان عفريتاً ذكراً يضاجع المرأة فتستحلم

ويمتد هذا الاعتقاد الى امرٍ أبعد في حالة حمل الفتاة العذراء ، غير المتزوجة ، بكراً كانت أم ثيباً ، لانهم يزعمون في هذه الحالة ان زوجاً شريراً انقضّ عليها في الاجمة وقضى معها لبانته قسراً. ومتى « ثبت » ذلك نجت من طائلة العقاب

وتبلغ هذه الخرافات احياناً درجة الجنون . ففي بعض الجزر التي لا يزال اهلها على فطرة الانسان الاول لا تأكل المرأة مع زوجها ابداً باية حال من الاحوال منعاً للارواح الشريرة . ولا يبعد ان تكون هذه الارواح منشأ العادة المعروفة في بلادنا وما جاورها الى اليوم ، وهي عزل الرجال عن النساء عند تناول الطعام . وفي جزائر الكارولين لا تمنع المرأة من مجالسة الرجال اثناء تناول الطعام الأّ متى كانت حبلى . غير ان سكان جزائر فيجي يمنعون المرأة من خدمة زوجها على المائدة وهي حامل

والاصل في عادة اطلاق الرصاص من البنادق قبيل الزفاف ارهاب الارواح النجسة ، وابعاد الخطر الذي يتهدّد الرجل بقدوم المرأة . ويذكر القراء ان هذه العادة لا تزال متبعة في الريف المصري . وليس هذا بالامر الغريب فان آثارها لم تعفُ من اوربا . ومنذ عهد ليس ببعيد كان يطلق الرصاص على رأس المرأة الانكليزية اثر خروجها من الكنيسة عقب حفلة الزفاف المقدسة ، في مقاطعتي درهام وكليفلند في شمالي انكلترا

واذا استثنينا البلدان والاسر المتمدينة فان الزواج يعقد ليلاً عادة . وفي مصر لا يعقد الزواج نهاراً الاّ في الاوساط التي تميل الى التقاليد الاوربية ومنشأ هذه العادة السبب عينه ، وهو ما يساور الناس من المخاوف والاوهام التي تحوم حول المرأة . ولا يقتصر الهمجيون الى اليوم على التزوج ليلاً ، بل يحملون — في بعض البلدان — العروس الى منزل العريس في سلة حتى لا يراها الغير . وأشار المؤرخ فلوطرخس الى ان هذه العادة كانت معروفة عند قدماء الرومان . وتخفي بعض القبائل العروس ليلة الزفاف في منزل حالك الظلام ، ويبعث العريس وراءها يتلمس طريقهُ في الظلماء بحثاً عنها ، ولا تتم عملية الزواج حتى تقع يداه عليها . ومن ابدع ما يقوله علماء الاجتماع تعليقاً على هذه العادة الظريفة انها تتفق والطبيعة تمام الاتفاق ، لان التوالد في النبات يقع ليلاً ويظهر للملأ نهاراً

ومن اسباب الاعتدال في العلائق الجنسية عند الهمجيين التفاخر على الغير والتباهي بالحياء استدلالاً على الرجولة والمقدرة على اخضاع الشهوات، وعدم الاستسلام لها ومن عادات أهل فيجي انهُ لا يعدّ حسناً ان ينام الرجل وزوجه تحت سقف واحد. فاذا ما أرادا ذلك ضرب معها موعداً rendez—vous للقاء في اعماق الغابة في مكان لا يعرفه الاّ هما. ومن الغريب ان ما يقرب من هذه العادة معروف بين فئة قليلة جدًّا في اميركا اليوم حيث يتفق الزوجان ان يكون لكل منهما منزله الخاص، ويدعو احدهما الآخر لتناول العشاء، فيلبي الدعوة اذا كان غير مرتبط بموعد آخر، ويقوم الزوج الآخر بدوره بدعوة الاول، وهكذا تبلغ الحرية الزوجية هذا الحدّ المتطرف

ومن العيوب القبيحة عند الهنود الحمر في شمال اميركا ان يزور الرجل مضجع امرأته او ينظر الى سريرها نهاراً. وفي غربي افريقيا اذا عثر احدهم على رجل وزوجه في حالة الجماع يصبح الاثنان عبديه. وهذا يفسر لنا أصل الحذر والحشمة عند الهمجيين فيما يتعلق بالمسائل الجنسية. ومن المشاهد ان الصراحة في الكلام عن هذه المسائل من ثمار المدنية الحديثة، ففي بعض البلدان ينتحر الرجل او المرأة اذا علم احدهما ان آخر سمعهما يتلفظان باسماء اعضاء التناسل او ما يتعلق بها، في حين ان المرأة المتمدينة لا تستحي ان تنافس رجلاً في موضوع علمي او اجتماعي وان استدعى ذلك ذكر الفاظ يستحي منها غير المتمدين

وقد حكى لي نوبيٌّ ان الكثيرين من ابناء وطنه المشتغلين في القاهرة وغيرها من مدن القطر، يرحلون الى قراهم لزيارة زوجاتهم واولادهم، ولكنهم لا يخاطبون زوجاتهم او يسلمون عليهن قبل مرور اسبوع على وجودهم هناك، استدلالاً على الرجولة والعفة وضبط النفس، واتباعاً للتقاليد طبعاً. ولا يخفى على الملمين بالعادات الاوربية والاميركية ان سكان تلك البلدان اكثر اظهاراً لعواطفهم الزوجية امام الغير من سكان الشرق الادنى، وأمم الشمال في اوربا اكثر صراحة في اظهار هذه العواطف من أمم الجنوب. ففي اوربا يقبل الرجل زوجته امام الغير عند عودتها من سفر، او يضع يده على كتفها او يضمها اليه، وهكذا يفعل الصديق مع صديقته، في حين ان الرجل في مصر لا يظهر شيئاً من هذه العواطف أمام الآخرين، وقد لا يهز يده بيد امرأته ولو بعد غيبة طويلة، ألا ترى منشأ هذه العادات؟

من هذا يتبين ان الاباحية لا تتفق وهذه العادات التي نشأ عليها الانسان غير المتمدين. وربما نستطيع ان نضيف اليها حقيقة جلية، وهي انه لا يبعد ان يكون الانسان قد استكشف منذ ألوف من السنين ظاهرة بيولوجية في المرأة، وهي انها لا تتناسل اذا تركت عرضها متاعاً شائعاً لجميع الرجال، كما هو المشاهد في المرأة البغيّ التي قلما تخطىء الطبيعة في امرها فترزق ولداً. غاية ما في الامر ان المرأة تستطيع ان تتصل برجلين او ثلاثة او اربعة او اكثر قليلاً، ومع ذلك تحمل وتلد غير ان العدد اذا زاد قلّ احتمال حملها، ويشاهد في تاريخ الاسرة الى يومنا هذا ان الطبيعة قد

زودت الرجل بعاطفة الغيرة ابقاءً على النسل ، ولا يستثنى من ذلك الاَّ تعدد الازواج عند بعض القبائل التي تتزوج فيها المرأة بأ كثر من رجل — ما يسمونه باللغة الانكليزية polyandry وهو ما يقابل تعدد الزوجات للرجل الواحد او ما يسمونه polygamy غير ان كلاًّ من العادتين آخذ في الانقراض . ففي القطر المصري يبلغ المتزوجون اكثر من امرأة واحدة اقل من ٥ ./. من مجموع المتزوجين . أما المتزوجون من امرأتين فتبلغ النسبة فيهم ٣ و ./. . والمتزوجون من ثلاث نسوة ٠٣و./. . والمتزوجون من اربع نسوة ٠٠٠ ./. وفي بلاد الهند متوسط نسبة المتزوجين بأ كثر من واحدة ٥ ./. ، وفي بلاد الفرس ٢ ./. . أما زواج المرأة بأربعة رجال او اكثر فلا يوجد الاَّ في بعض الجزر ، وقد يكون مثل هذا الزواج في صورة اخرى وهي ان يتزوج خمسة رجال مثلاً خمس نساء ويكون كل رجل منهم زوجاً لكل من النساء الخمس ، وتكون كل امرأة زوجة لكل من الرجال الخمسة . ولا يخفى ان هذا لا يمكن تسميته أباحية ، لانه زواج مشروع جرى بهِ العرف

ومهما ذكرنا من التقاليد الغريبة غير المستحبة في مسائل الزواج عند الامم والقبائل المنحطة فاننا لا نستطيع ان نحكم عليها بالاباحية . نجد مثلاً بين أهالي الكنغو والزولو والكفرة عادة غريبة يلجأون اليها عند الاحتفال بالبنات initiation متى بلغن سن المراهقة . وذلك انهم يطلقون لهنَّ الحرية للاتصال بمن يشأنَ من الرجال . ويجمعون احياناً ١٥ او ٢٠ بنتاً في منزل واحد ، فيقبل المدعوون من شبان القرية للدخول عليهنَّ . وأعيد ما قلته ، وهو ان نية هؤلاء القوم لا تنصرف في هذه العادة الى الفسق او الفجور ، بل الى عادة تكاد تكون دينية ، الغرض منها تطهير البالغات من الارواح الشريرة التي تحلُّ بهنَّ ببلوغهنَّ سن المراهقة ، ولو انها تؤول في النهاية طبعاً الى استمتاع بين هؤلاء وأولئك

ومن هذه العادات الغريبة ان في بعض الجزر يتخذ العريس صديقاً (وهو كالشبين) او صديقين او اربعة اصدقاء قبيل عقد الزواج ، وتنحصر مهمة هؤلاء في فض بكارة الزوجة اولاً ، والاستمتاع بها ثانياً قبل ان تقدم للزوج ، تطهيراً لها . وفي أحيان اخرى يقوم احد رجال الدين بهذه الوظيفة فيقضي ليلة او اكثر مع العروس ، ويزفها بعد ذلك عروساً طاهراً . ولا يرى في هذه العادة اهل تلك الاصقاع عاراً او فضيحة . ولا يبعد ان تكون عادة «الدخلة» التي تعد وصمة في جبين مصر (لانها لا تزال باقية بين الطبقة السفلى وبعض افراد المتوسطة) من بقايا هذه العادة غير المعروفة في سوريا او فلسطين او العراق

غير ان في جزائر الهند الشرقية نوعاً من الاباحية ، وهي ان الصغار قبل سن البلوغ ، والشبان او الفتيات قبل الزواج يجوز لهم ان يتصل ذكورهم بأناثهم اتصالاً جنسيًّا الى ان يتزوجوا ، ولو كان بينهم قرابة تمنع التزوج . اي ان الزنا هنالك جائز شرعاً للاعزب ، فتىً كان او فتاة ، محرَّم على المتزوج

ومن انواع الاباحية ما هو شائع في بعض بلدان آسيا ، وهو ان يُعير رجل امرأته لصديق او ضيف : قياماً بواجب الصداقة او ردًّا لمعروف ، او اكراماً للضيف ، بشرط ألا تكون المرأة حرماً محرَّماً (كالاخت والعمة والخالة الخ) طبقاً لقوانين البلد

ومن هذه العادات تبادل الزوجات في الولائم والافراح وان كانت المرأة حرماً محرماً بالنسبة للرجل . ومن الغريب ان مثل هذه العادة معروفة في بعض البلاد المتمدينة بين طبقات شاذة من اولئك الذين يعيشون كما كان يعيش الرومان في زمانهم ، فلا يعبأون في حياتهم الا بمعاقرة بنت الحان والرقص والاستسلام لشهواتهم في شتى الطرق والاساليب الشيطانية

***

وقد كان للاعتقادات والاباطيل التي سادت على مدى الاجيال بخصوص المرأة السبب الاكبر في التضييق على حريتها ، ومطالبتها بأكثر ما يطالب بهِ الرجل من الحياء وصون العرض ، وعدم المساواة بينها وبينه . ويعتقد بعض الهنود الى اليوم ان الطفل يرث الجسم عن امه ويرث الروح عن ابيه ، والجسم عند الهنود على الاخص لا قيمة له في جانب الروح . وذكر العالم الاجتماعي وسترمرك Westermarck ان المغاربة في جبال الاطلس يحتّمون على نسائهم استعمال الاعداد المغربية القديمة ، ويحظرون عليهن الاعداد العربية الحديثة ، لانها ميزة يختص بها الرجال دون النساء . وفي بعض البلدان الوثنية يحرم على المرأة الصلاة الى الآلهة الذكور ، فتقنع بالآلهة الاناث والغرض من هذه العادة الاشارة الى علو منزلة الرجل على المرأة اولاً ، وغيرة الرجل على المرأة ، وخشية ان تطارح الآلهة الغرام فيما اذا كانوا ذكوراً

وفي مدينة سيول بكوريا يقرع ناقوس الساعة الثامنة مساء ، فيختفي الرجال من شوارعها وأزقتها وتظهر النساء ، فيمررن في المدينة الى الساعة الثالثة صباحاً حينما يقرع ناقوس آخر ، فتحتجب النساء ويفسح المجال للرجال

واذا نظرنا الى الخرافات والعادات السالفة الذكر : على غرابة بعضها ، وهمجية بعضها ، فانا نجد انها حافظت على الاسرة ومنعت شر الاباحية والعبث بالاعراض والزنا بالاقارب والتزاوج بين المحارم وساعدت على ان يكون احب ما لدى الرجل المرأة التي بلغت اقصى ما تكون من الانوثة ، وأحب ما لدى المرأة الرجل الذي بلغ اقصى ما يكون من الرجولة

ولا يغيب عن اذهاننا ان تحريم الزواج بالاقارب المقربين oxogamy امر حديث العهد ، وليس من طبيعة البشر ان يمتنعوا عن زواج اخواتهم او بناتهم كما يظن العامة . وما هذا الامتناع الا عادة مكتسبة . فقد كان قدماء المصريين يتزوجون من اخواتهم ، ولا تزال بعض الامم تحرّم على الرجل النظر الى بنته او رؤيتها بعد سن البلوغ ، ويحرّم على المرأة كذلك ان تكشف وجهها امام ابنها او تنظر اليه بعد بلوغ تلك السن كما هو الحال في جزيرة سيلان . وما نسمعه احياناً من اتصال

شاب بأخته او رجل بينته الحسناء اتصالاً جنسيًّا بغريب ، فان في اللغات الاوربية كلمة خاصة بهذه الحالة ويسمونها بالانكليزية incest

ومبدأ تحريم التزاوج بين الاقارب الاعتقاد بأن اولئك الذين يأكلون من طعام واحد يحل بهم النحس وسوء الطالع اذا ما تزاوجوا بعضهم من بعض ، ولعل هذا الاصل في تحريم الزواج بين الاخ والاخت في الرضاع . وبهذه المناسبة نقول ان عادة الصلاة القصيرة قبل تناول الطعام عند بعض المسيحيين ، او رسم علامة الصليب عند البعض الآخر او قولهم « بسم الله الرحمن الرحيم » عند المسلمين ، ترجع الى الاعتقاد القديم عند الهمجيين ، من ان هناك اقوالاً ينبغي تلاوتها قبل الاكل طرداً للارواح النجسة

ومن غريب الصدف ان يفكر الهمجيون في تحريم الزواج عند الاتحاد في الجسم communsality والدم consanguinity قبل ان تظهر النظرية البيولوجية المشهورة التي تقول ان الذرية تضعف اذا لم تتسع الدائرة التي يحدث فيها التزاوج ، لان وجوه الضعف في رجل وامرأة من اسرة واحدة تظهر بوضوح في ذريتهما فاذا ما تزوج ابناهما مثلاً من بنت من هذه الاسرة كانت وجوه الضعف اكثر وضوحاً . وهذا يعزز ما يقوله العلماء من ان خرافات الجهلاء والعامة قد تسبق مكتشفات العلماء

غير ان التزوج من الاقارب مختلف فيه . ففي مصر والبلدان الاسلامية يحرم على الرجل زواج اخواته وبنات الاخوة والاخوات ، ويجوز له التزوج من بنات العم القريب ، في حين ان الشريعة اليهودية تجيز التزوج من بنت الاخت . وفي اوربا واميركا لا يستحب مطلقاً ان يتزوج الرجل من بنت عمه القريب . ولا يجوز له ذلك الاَّ اذا اشتد الحب بينهما . ومن الغريب ان في بعض الجزر التزاوج بين اولاد الاعمام او الاخوال endogamy مقيد بهذا القيد ، وهو ان العم لا يجوز له ان يزوج ابنه من بنت اخيه ، ولا يجوز للخالة ان تزوج ابنها من بنت اختها ، ولكن يجوز ان يزوج الخال ابنه من بنت اخته ، او تزوج العمة ابنها من بنت اخيه . والحكمة في ذلك ألاَّ يكون الزوج والزوجة متسلسلين من جدٍ ابويٍ واحد

يقرأ الرجل العادي عن هذه العادات والتقاليد والشرائع والقوانين والخرافات ، حسنة كانت ام قبيحة ، ولا يهمه من امرها سوى انها طرائف يتفكه بها في اوقات الفراغ ، ولا يسترعي نظره فيها سوى انها أحاج تصلح حديثاً للمائدة وتسلية لقائلها وسامعيه غير ان الذين يراقبون حوادث المجتمع بمنظار هذه العادات وتاريخ نشأتها وكيفية تطورها لا يسعهم الاَّ سعة الصدر والتسامح واحترام التقاليد بين الامم الاخرى التي تخالفنا مبادئ وعقائد وآداب عامة . ولا يسعهم الاَّ نبذ التعصب ، وقبول الآراء الجديدة اذا ما اتضح صلاحها ، والقاء الآراء القديمة اذا ما اتضح بطلانها . ولا يسعهم الاَّ التنازل عن مبادئ طالما كانوا يقدسونها ، وعادات طالما كانوا يعبدونها ، وتقاليد طالما تمكنت من نفوسهم فلا يستطيعون الافلات منها ، ولا يسعهم الاَّ التأمل والتفكير في مشاهدات العادات

الاسلوب العلمي

لدى العرب والاسلام

للامير مصطفى الشهابي

ما برح الانسان منذ ما وجد على هذه الارض يتلمس بعقله وحواسه وأخيلته الواسعة مظاهر هذا الكون العجيب واسرار هذه الحياة الدنيا . وما برح يتساءل الى يومنا هذا عن احاجي الكون التي لاعداد لها وعلاقتها بذلك الانسان المسكين الذي يأتي الى العالم فيجالد في معترك الحياة ويكافح ويجد ويهزل ويفرح قليلاً ويتألم كثيراً ثم يدركه الفناء فيهلك مقهوراً مدحورا . ولكم ناجى هذه الطبيعة وتطلع الى العلة التي تسيرها وتأمل في الفضاء فلم يعثر لهُ على حد ولا بدء ولا نهاية وخص نفسه فاذا بهِ يجهل ماهيته ويجهل من اين أتى والى اين يذهب. وحول فكره الى العالم فاذا بهِ لا يستطيع ان يعرف هل هو مخير ام مسير بجبرية لا تتزحزح وهل امامهُ رقي عام شامل ام هو يدور ابديًّا على حاله . ونظر الى الكائنات فلم يفقه ماهية حركتها العامة ولا الحكمة في تلك الحركة

ولطالما شغلت هذه الامور الفلسفية الناس منذ فجر الخليقة الى يومنا هذا . ولشد ما تناقشوا فيها بل تشاحنوا بل تقاتلوا بل تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم . لكن هذه الاحاجي ما لبثت على حالها كما ان العقل البشري ما لبث اعجز عن ان يجيب لها جواباً محسوساً او معقولاً يرضي عنهُ العالم الحذر الذي لا يسلم بغير ما يقع تحت الحس او يدرك بدلائل راهنة . وظهر في كل الامم الكبيرة قديمة كانت او حديثة فلاسفة استرسلوا في هذه الموضوعات بحثاً وتعليلاً كما شاءوا وشاءت اهواؤهم الفلسفية وميولهم المذهبية وظهر ايضاً خياليون تجاوزوا في ابحاثهم حدود الحس والعقل فراحوا يتخبطون في اوهام لا نحسها ولا نعقلها وهم اصحاب الاخيلة الشعرية الذين لا يتقيدون بقيد ولا يقفون بتصوراتهم عند حد سواء اكان لتلك التصورات ظل من الحقيقة ام لا . والى جانب هذين الفريقين برز فريق ثالث رزين متواضع وهو فريق العلماء الذين رأوا اخيراً ان الانسان عاجز عن معرفة ماهية الحوادث الكونية فعليهِ اذن بان يقصر ابحاثه على تحري صلة الموجودات الثابتة بعضها ببعض بصرف النظر عن صلتها بمجموع العالم او بالشخص الذي يحس ويفكر . وهذا الاسلوب في التفكير هو الذي يسمونهُ الاسلوب العلمي . مثاله اننا اذا رأينا جسمين يسقطان نحو الارض بسرعة مختلفة تحرينا

أسباب هذا الاختلاف في السرعة حتى اذا عثرنا عليها وضعنا قاعدة لسقوط الاجسام دون ان نهتم بماهية الجاذبية واسبابها وعلاقتها بالعلة الاولى او بالانسان . واذا رأينا جسماً يتمدد بالحرارة قلنا ان الحرارة تمدد الاجسام والبرودة تقلصه فاثبتنا بذلك صلة الجسم المذكور بالحرارة والبرودة دون ان نشغل نفسنا باسباب حصول الانبساط او التقلص اي هل هنالك علة اولى او علة كامنة او ملاك او جني جعل ان الحرارة تزيد حجم الجسم والبرودة تنقصهُ . واذا مزجنا جسماً كيماويًّا بجسم آخر تحرينا الجسم الجديد الذي يحصل من هذا الامتزاج دون ان نعتقد قبل المزج اننا سنحصل على جسم معين كأن يكون ذهباً او فضة او اي جسم آخر ومعناه ان عملنا الكيماوي هذا يكون خالياً من كل وهم او اعتقاد سابق وبذلك نصل الى معرفة الحقيقة المجردة

واذا تحرينا التاريخ الذي أفلتَ فيهِ الانسان من الاوهام حتى صار لا يبحث عن العلوم الاَّ بمقتضى هذا الاسلوب العلمي وحده نجده لا يتعدى عهد باكون وديكارت في الفلسفة وكبلر وغاليليو في العلوم . اما قبل ذلك فالاسلوب الذي كان يتبعهُ معظم المفكرين في جميع الاقوام كان يسمى الاسلوب الغيبي وهو انهم كانوا يعللون حوادث الكون بجعلها خاضعة لارادة الاصنام اولاً فالآلهة فالاله الأحد فالعلل الكامنة بها المنفردة عنها الى ان انصرف العقل البشري اخيراً فيما يتعلق بالعلوم عن البحث عن اصل الكائنات وغايتها ومدبرها واقتصر على النظر في النواميس الطبيعية التي تسير حوادث الكون بموجبها . ومنذ ذلك الحين اخذت العلوم تتسع وتتقدم

قلت ان جميع الاقوام كانت سواسية في اتباع الاسلوب الغيبي لا نستثني منهم احداً حتى اليونانيين انفسهم . غير ان بعض الباحثين ، (ومنهم استاذ مصري كان ناقشني في هذا الموضوع على صفحات المقتطف منذ بضع سنين) لا يريدون الاعتراف بهذه الحقيقة بل يريدون ان يجعلوا العرب وحدهم منفردين باتباع الاسلوب الغيبي في ابحاثهم العلمية وان يجعلوا الاسلوب المذكور طابعاً لهم وحدهم . وهذا ما سأتوخى دحضه بايجاز في هذه المقالة . اقول بايجاز لانني اذا رحت اذكر جميع الدلائل والامثلة على خلط اليونانيين وغير اليونانيين في ابحاثهم العلمية والفلسفية ملأت بذلك سفراً برأسهِ . فأي تجربة او اي مشاهدة او اي استقراء جعل صاحب كتاب الفلاحة اليونانية مثلاً يقول في الصفحة ١٠٦ من كتابه المذكور المطبوع في مصر . « قال قسطوس اذا نصبت رأس حمار اهلي في وسط المبقلة اسرع نباتها وكثر نزلها واذا عمد الى الرصاص الاسود وصنع منهُ وزحل في برج الميزان تمثال امرأة في يدها ريحانة تشمها ونصب في المباقل اسرع نباتها وكثر ريعها .... واذا نقش على رأس حمار اهلي صورة امرأة بشمع اخضر والقمر في برج السنبلة ونصب في وسط المبقلة اسرع نباتها وكثر نزلها » وفي الصفحة ١٤٤ من الكتاب نفسه « قال قسطوس : اذا كتب اسم الراعف بدمهِ في جبهته ارتفع عنهُ الرعاف » وهذا صاحب المنطق اي ارسطو نفسه وهو من اكبر المفكرين في العالم يخلط في كتاب الحيوان في امور عدة كقوله انهُ ظهرت حية لها رأسان وان ثوراً سفد والتحم بعد

ان خصي وغير ذلك مما جعل الجاحظ يتحداه ويستهزىء به في كتابه المسمى بكتاب الحيوان . ومن المعلوم ان اليونانيين كانوا اغنى شعوب الارض بالآلهة وبخيالاتها الشعرية التي ينبو العقل السليم عنها وكذا كان الرومانيون . فقد اتخذوا لكل شيء الهاً او اكثر . وجعلوا لهذه الآلهة كل ما يمكن ان نتصوره من صفات بشرية ثم جعلوا العلوم ايضاً تابعة لارادتها الاّ ما لا يمكن تعليله بغير وجه علمي كالرياضيات مثلاً . وهكذا كانت الحال لدى الكلدانيين والبابليين والهنديين والمصريين القدماء وغيرهم من الامم القديمة

ومن البديهي ان لا يشذ العرب عن غيرهم في اتباع الاسلوب الغيبي في كثير من ابحاثهم لانهم تلامذة اليونان في العلوم والفلسفة . ولكن اما كان لدى الشعوب القديمة علماء يتبعون في ابحاثهم الاساليب العلمية المبنية على التجربة والاستقراء . والجواب عن ذلك سهل وهو انه لو خلت تلك الشعوب من أناس كهؤلاء لما كنا وجدنا أسس كثير من العلوم الحديثة متأصلة لدى اليونان ولدى غيرهم من الشعوب المتمدينة القديمة . فالاسلوب الغيبي وان كان طبع جميع الشعوب القديمة بطابعه في اوائل النهضة العلمية الحديثة فان تلك الشعوب لم تعدم عقولاً كبيرة كانت تتبع الاسلوب العلمي المحض في كثير من ابحاثها. ولا شك ان لليونان الفضل الاكبر في اظهار بعض حقائق هذا الكون لكن العرب والاسلام قاموا أيضاً بقسطهم ايام لم يكن غير نورهم الوضاء نبراساً تستنير به البشرية في ظلام الجهل الحالك . فن العلوم التي عكف عليها بعض علماء العرب ودرسوها درساً استقرائيًّا خالياً من الاوهام الرياضيات . ومن البديهي انهُ لا يمكن البحث في الرياضيات باسلوب غيبي . فاثنان واثنان تساوي اربعة ولا يسلم العقل بانها تساوي اكثر او أقل سواء ارضيت بذلك الآلهة او العلل الكامنة ام لم ترض . والعرب كانوا بادىء بدء تلامذة أرخميدس واقليدس في هذه العلوم . لكنهم ما عتموا ان بذُّوا اساتذتهم فأوجدوا او اوضحوا علماً برأسه هو الجبر . وبحثوا في المثلثات وزادوا في معادلات الهندسة مما لا يخفى على كل من تتبع هذه الشئون . واظهر أثر لهم في هذا الباب انهم نقلوا الارقام الهندية والحساب العشري عن الهند فاقتبسها الافرنج عنهم . ولا تزال اسماء الخوارزمي وابن الهيثم وشجاع ابن اسلم وابي جعفر الخازن والسرخسي وجابر بن افلح والقلصادي وغيرهم من الرياضيين الاعلام مفخرة من مفاخر الاسلام في الشرق والغرب

وعلى العكس من الرياضيات الفلسفة . فان ابحاثها لا يمكن ان تكون يقينية في كل نواحيها مهما توخى بعض الفلاسفة قصرها على المدركات وعلى المعقولات . لان هنالك اموراً لا يمكن ادراكها ولا بدَّ للفلسفة من ان تتناولها وان كان العقل البشري غير قادر على بتها . فالعرب والامم التي سبقتهم لم يضعوا الفلسفة المادية (يسمونها ايضاً الفلسفة الوضعية او اليقينية او الطبيعية) وواضعها هو أوغست كونت الفرنسي في القرن الماضي . وهي فلسفة علمية ترتكز على الاستقراء والاستنتاج الحسي والعقلي. لكنها لا تتناول سوى النظر في مختلف العلوم لرؤية صورة الكون بها . ولا تتعداها

الى التحليل العقلي والمنطقي للامور التي لا يمكن ادراكها كالعلة الاولى والكون والمبدأ والنهاية والازل والجبرية وغيرها . وهذا الضرب من الفلسفة المتعلقة باسس الديانات خاصة هو ما برز العرب به حتى ادهشوا عدداً كبيراً من فلاسفة اوربة لفرط الدقة في تحليلاتهم العقلية والمنطقية فراح اليسوعيون انفسهم يطبعون كتاب تهافت الفلاسفة للغزالي وتهافت التهافت لابن رشد لان فيهما اقوى جواب للملحدين واجمل استنتاج عقلي لوجود الخالق مبدع الاكوان

واشتطَّ غلاة المتعصبين من الافرنج فجعلوا الفلسفة الاسلامية صوفية ملأى بالأوهام . وفاتهم ان المسلمين ولا سيما المعتزلة منهم قد هضموا وتمثلوا الفلسفة اليونانية وزادوا عليها في ناحية الدين خاصة وحللوها تحليلاً ما سبقهم اليه احد . ومن ذا الذي ينكر ان نظرهم الى العلة الاولى كان اجل وأسمى من نظر اليونان الذين جعلوا لكل شيء إلهاً حتى صار مجموع الآلهة مهزلة من المهازل الكونية . ولا غضاضة على العرب اذا اضطهد بعض رجال الدولة قسماً من فلاسفتهم بتحريض غلاة الفقهاء المتعصبين فان لهذا الاضطهاد أمثلة لا تحصى في الشعوب القديمة ولدى الاوربيين قديماً وحديثاً وما عدم التناحر بين الناس في زمن من الازمان على الآراء الفلسفية والمذهبية كما ان الخيالات والاوهام ما برحت شائعة لدى جمهرة الاوربيين حتى في يومنا هذا . والعامة هي العامة سواء في الشرق أم في الغرب وليس كل رجل من سواد الشعوب الاوربية كغستاف لوبون في تفكيره او كدروين في تحليله . والملة التي فيها عقول كعقول ابن سينا والكندي والفارابي والغزالي وابن باجة وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون وابن الهيثم واخوان الصفاء وابن مسكويه وغيرهم من اعلام الفلاسفة لا يقوى احد على الادعاء بأنها لم تقم بواجبها في سبيل تقدم العقل البشري

واذا انتقلنا الى الزراعة نجد ان العرب حذقوا التجارب الزراعية واصطفاء الاصناف النباتية المفيدة فقد اوجدوا عشرات من اصناف المشمش والتين والعنب والتفاح وغيرها وربوا الخيل والانعام وخبروا اهم امراضها ومداواتها . ولهم في خلق الخيل ولا سيما في الوانها وشياتها ودوائرها ملاحظات فاتت الاوربيين أنفسهم حتى في ايامنا هذه . ففي كتب الزرطقة الفرنسية لا يجد القارىء اسماء لدائرة السمامة ودائرة المحيا ودائرة المعوذ مثلاً بل يجد تلك الدوائر وامثالها مسماة باسمائها العربية دون غيرها . وللعرب فضل في نقل كثير من النباتات المفيدة الى اوربة كالقطن وقصب السكر والبطيخ والمشمش ومعظم أشجار الفصيلة البرتقالية وعدد كبير من العقاقير الطبية والابازير والافاويه . وترجمت العرب عن اليونية والنبطية كتباً كثيرة في النبات والحيوان والزراعة والماشية وألَّف ابن العوام الاشبيلي في القرن السادس من الهجرة كتاب الفلاحة الاندلسية وقد ترجم الى الفرنسية والاسبانية . ومدحه العالمان الفرنسيان رنجلمان وباسي وقالا ان هذا الكتاب يدل على ما كان للعرب من نظرات دقيقة في الطبيعة والكيمياء وانه مجموعة لاجل الابحاث والقواعد الزراعية التي كتب فيها الانباط واليونان والرومان عدا ما كان يتبع في الاندلس . ويتضح من ذلك ان

اجدادنا كانوا حفظة العلوم الزراعية ايضاً وانهم اضافوا اليها تجاربهم وملحوظاتهم مما فيه بعض فوائد عملية وحقائق علمية تقرها عقولنا في ايامنا هذه . ويقتضينا الانصاف ان نقول ان ابحاثهم الزراعية لم تكن كلها علمية بل كثيراً ما يجد الانسان في كتبهم بعض الآراء السخيفة بجانب أجل القواعد المعقولة . وسبب هذا جهلهم حياة النباتات الداخلية في الغالب . وقد كان من المستحيل عليهم ان يتبعوا اسلوباً يقينيًّا محضاً في كل التجارب الزراعية قبل ان يعرفوا اسس النبات ووظائف اعضائه وبناء التراب والهواء كيماويًّا وما هي أغذية النبات وكيف يتناولها . وكل هذه الامور الدقيقة لم تعرف الا البارحة اي في القرن الماضي ، مثال ذلك اننا نقرأ في كتاب الحيوان للجاحظ (ج ٣ ص ١٠٤) وصفاً لجذور النبات وكيف تتغلغل بين اجزاء الصخور وفي الآجر والخزف حتى في الفلس البصري فتثقبه . ويقول الجاحظ ان ذلك ليس لشدة غزّ الجذور وحدة رأسها ولكنهُ يكون على قدر ملاقاة الطباع . فلاقاة الطباع هذه هي الجملة الغيبية التي لا يفهم كنهها وسبب ذكره لها انهم ما كانوا يعرفون في تلك الايام ان الجذور تفرز حوامض تحلل او تذيب الاجسام الصلبة المذكورة فيسهل عليها اختراقها

***

وللعرب على الطب فضل واي فضل فهم وان كانوا تلامذة ابقراط وسقراط وجالينوس فقد بذوا اساتذتهم في كثير من ابحاث العلوم الطبية ولهم في هذا الباب بحوث علمية ليس للغيب اليها سبيل . ولطالما نعى عليهم خصومهم قلة اهتمامهم بالتشريح وامراض النساء لاسباب دينية لكنه لا يسع اشد الناس خصومة لهم الا الاعتراف بانهم هم الذين درسوا ووصفوا الجدري والحصبة وهم الذين فتتوا الحصاة وقدحوا العين وأوجدوا الصيدلة وزادوا في المفردات الطبية والادوية المركبة . ولهم نظرات صادقة لم يسبقهم اليها احد في امراض الاطفال والحميات الخبيثة وامراض الجلد ومعاينة البول والفتق والورم الباسوري وغيرها وهي امراض كثيرة . ولا جرم ان كل الذين يراجعون تاريخ الطب ويقرأون ما دوّنه الاوربيون انفسهم في هذا الباب يجدون ان من امجد الصفحات المكتوبة بماء الذهب تلك التي تبحث عن اعمال الرازي وابن سينا وعلي بن عباس وابي القاسم الزهراوي وابن زهر والفارابي دع جابر بن حيان في الكيمياء ورشيد الدين الصوري وابن البيطار في النبات فهؤلاء علماء لم يكتفوا بنقل العلوم الطبية والنباتية عن اليونان بل مزجوها بعلوم الكلدانيين والهنديين والفرس واضافوا الى كل ذلك تجارب جربوها وادوية اوجدوها وامراضاً كشفوها كلها معقولة محسوسة تقرها عقولنا اليوم كما اقرتها عقولهم في تلك الايام البعيدة . ومن الغريب انني بينما اكتب هذه المقالة في الثامن من كانون اول «ديسمبر» سنة ١٩٣٣ دفع اليَّ موزع الصحف عدد اليوم السادس من الشهر المذكور من جريدة «الأهرام» واذا بي اقرأ فيه خبراً عن محاضرة للدكتور مايرهوف في المجمع العلمي المصري بحث فيها «في اكتشاف الدورة الدموية على يد الطبيب العربي ابن النفيس الذي كان

في القرن الثالث عشر من الميلاد» وحسب العرب فخراً ان كتبهم الطبية لبثت بضعة قرون تدرس في اوربة وحيدة لا منافس لها

ومن العرب الذين كان لهم في الفلسفة والعلوم نظرات يقينية صادقة جماعة اخوان الصفاء المشهورين فقد دوّنوا في مقالاتهم شيئاً لا يبعد عما قاله لافوازيه فيما بعد وهو ان لا شيء يتكوّن من العدم ولا شيء ينعدم بل كل شيء يتحوّل . وعللوا حصول المطر اصدق تعليل . وبينوا كيف يمتص النبات غذاءه من التراب بواسطة جذوره وما فيها من قوة جاذبة . وقالوا بمذهب النشوء والانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء وفوز الاصلح . ومن البديهي انهم لم يستطيعوا ان يأتوا ببراهين حاسمة على صحة هذا المذهب كالبراهين العديدة التي ادلى بها داروين لجعله مرجع المذهب المذكور بلا منازع، لان اثبات امور كهذه اثباتاً علميًّا مبنيًّا على الاستقراء وعلى تتبع حيوانات عدة في مختلف صفاتها الخلقية يحتاج الى تقدم العلوم البشرية في كثير من النواحي التي كانت لا تزال مجهولة في العصور التي سطعت فيها المدنية العربية . ومع هذا فقد كانت آراء اخوان الصفاء في هذا الباب صحيحة وان اعوزتها الادلة العلمية . ولهم آراء لا بأس بها في تكوّن الجبال والبراري وثبات حرارة الماء في العيون صيفاً وشتاء وحصول المدّ والجزر والبرق والصاعقة وغير ذلك من ابحاث الفيزياء «علم الطبيعة» التي كانت غامضة كل الغموض في تلك الايام سواء لدى العرب او لدى الامم التي درجت قبلهم . اما ابحاثهم في الفلسفة فكانت مستمدة من فلسفة أرسطو خاصة . واما ابحاثهم في الاخلاق والعلوم النفسية فكانت طريقة تدعو الى اكبار هؤلاء العلماء الذين شغفهم العلم فأولعوا به وعملوا في سبيله وهم لا يبتغون على عملهم جزاء ولا شكورا

وعلى ذكر الفيزياء لا يجوز ان نهمل ذكر ابن الهيثم ممن عاشوا في القرن الخامس من الهجرة فلقد كان عالماً بالهندسة والفلك وسائر الرياضيات ولهُ في البصريات ابحاث فاق بها بطلميوس اليوناني ولاسيما في انعكاس الضوء والعدسات وتشريح العين وغيرها . ولا بد لنا ايضاً من ذكر ابناء موسى اصحاب كتاب الحيل والبيروني الذي تمكن مع غيره من الوصول الى حساب الوزن النوعي لبعض الاجسام . لكن كل ذلك لا يعد تقدماً محسوساً في علم الفيزياء . والحقيقة ان دساتير هذا العلم المهمة كلها وليدة المدنية الحديثة منذ عهد غليليو ونيوتن في الميكانيكا الى ابحاث فولطا وفرنكلن وفرادي في الكهرباء . ولا يزال في هذا العلم المهم غوامض لم يتمكن العلماء من كشف القناع عنها بالرغم عما لديهم من الوسائل التي تسهل عليهم البحث والتنقيب

ومن المعلوم ان اصعب جزء من اجزاء الفلسفة الوضعية واكثرها تعقيداً ذاك الذي يبحث عن علم الاجتماع وقواعده لان علاقات البشر بعضهم ببعض تابعة لعوامل كثيرة ولان سنن الاجتماع لا تسير على وتيرة واحدة في كل الاحوال بسبب تأثير هذه العوامل فيها . ولذلك اعجب الشرق والغرب معاً بذلك الفكر المنقد الذي املى على ابن خلدون قواعده الاجتماعية والاقتصادية في مقدمة

تاريخه الشهيرة حتى عدّ بحق واضع أسس الاجتماع واصول الاقتصاد السياسي قبل مكيافلّي ومونتسكيو وسميث وغيرهم من علماء الغرب . وقد اخذ بعض العلماء في اوربا يدرسون منذ اواخر القرن الماضي آراء مؤرخنا الفيلسوف ويحللونها ويقارنونها بأمثالها من وضع علماء هذه الايام . وكلهم مجمعون على أن ابن خلدون هو أول من بحث عن أسس فلسفة التاريخ والاجتماع والاقتصاد وان بحثه لها كان على طريقة علمية معقولة لا على طريقة غيبية اي انهُ كان يعلل الحادثات الاجتماعية والاقتصادية تعليلاً مبنيًّا على المشاهدة والاستقراء والاستنتاج العقلي لا على اوهام وخيالات واعتقادات مذهبية قد لا يكون لها ارتباط بالحوادث التي كان يدرسها . وهذه التعليلات المجردة هي التي جعلت لابن خلدون شيئاً كبيراً ومنزلة ممتازة في تاريخ العلوم التي تناولها بأبحاثهِ الطريفة

وهذا الجاحظ اديبنا الاكبر الذي انقادت له اللغة واطاعهُ البيان حتى اتانا بالمرقص المسكر من آيات قلمه فلقد اعدت الكرة اخيراً على كتابه الشهير المسمى كتاب الحيوان فوجدت في تضاعيفه عدداً كبيراً من الآراء العلمية القويمة وتفنيداً لاقوال بعض علماء عصره الذين كانوا يخلطون في الكلام في الامور العلمية . ولم يستثن احداً ممن قرأ لهم كتابات غير معقولة فتناول بقلمه اليونانيين حتى صاحب كتاب المنطق نفسه . ومما علله تعليلاً حسناً ملوحة البحر وعذوبة الامطار والثلج واستحالة الحطب في الاحتراق والزيت في المصباح . لكنهم كانوا يرون في تلك الايام ان النار جوهر مستقل . وعلل صعود الهواء وانحدار الماء لا بالجاذبية والثقل النوعي بل بانجذاب الاجسام بعضها الى بعض . وقال عن بعض العرب ان الجسم يكون بارداً على قدر قلة الحرارة فيهِ والظلام انما هو فقدان الضياء . وهذه الامور نراها اليوم بسيطة وما كانت كذلك قبل عشرة قرون . ولاحظ انطفاء النار في الآبار والحفاير وفتوق الارض واتخذ ذلك دليلاً على عدم امكان الحياة فيها لكنهُ لم يذكر لهذا الحادث اسباباً . وذكر مقاومة الماء وطفو الاجسام ولاسيما المراكب وعلل ذلك تعليلاً لا بأس بهِ . ومما لاحظهُ تأثير البيئة في الوان الاحياء كاخضرار بعض الحشرات في المباقل واسوداد بعض الحيوانات في الحرَّة واغبرار بعضها في السهول . وآمن بحصول هذه التبدلات على كر الايام وعلى مقتضى المؤثرات الطبيعية المختلفة فكأنهُ قال بحصول التطور على كر الدهور . وهنالك مسألة اقضت مضجع شيخنا الكبير وهي كيف تحصل بعض الاحياء بلا بيض وبلا حمل كالحشرات التي تتولد في جمّار النخل وكسوس الحبوب والأرضة ودود الجيف ودود المعدة الذي يحصل من الطعام والطعام خلو منه . وياليته كان لدى شيخنا مجهر اذن لرأى بهِ الجراثيم العديدة وبيض الحشرات الدقيق ولظل على رأيه من ان الحي لا ينشأ الا من الحي . وقد وصف الجاحظ بعض الحيوانات كالخفاش والذر وغيرهما وصفاً دقيقاً يدل على شدة فراستهِ وقوة ملاحظته وفرط حذره ائلا يكون في كتابه صفة تخالف حقيقة الحيوان او فكرة لا يقرها العقل ولا توصل اليها التجارب . ولو اردت بيان كل ما ورد في الكتاب المذكور من الآراء العلمية والفلسفية السديدة لكتبت في ذلك عدة صفحات

هذه صورة صغيرة وبسيطة توخيت فيها ان اظهر لكم ان العرب الاقدمين لم يعدموا ابان مدنيتهم الزاهرة عقولاً أخذت بالاساليب العلمية في ابحاثها دون التأثر بآراء فلسفية سابقة . ولئن كان عدد الذين اتبعوا هذه الطريقة من البحث قليلاً او كانت الاساليب الغيبية شائعة في تلك الايام البعيدة فما ذلك الاّ لأن العقل البشري لا يتكامل واسرار الطبيعة لا تكشف في سنة او سنتين او قرن او قرنين . وليس من الانصاف ان نطعن برجال عاشوا في القرون الوسطى تكتنفهم اسرار الطبيعة وأحاجيها التي لا تحصى اذا هم لم يجدوا لكل باب مغلق مفتاحه . واذا عدلنا في حكمنا عذرناهم كما نعذر فطاحل علماء القرن التاسع عشر كداروين وهكل وبستور وامثالهم اذا هم جهلوا بعض دساتير الكهرباء ومخترعاته مما يقرأه الاولاد في المدارس في ايامنا هذه . ونحن الذين نفخر بسعة معلوماتنا ومخترعاتنا ربما لا يمر قرن او اثنان حتى يرى ابناء تلك الايام اننا كنا نجهل علوماً هي عندهم من بسائط العلوم . وربما رثوا لحالنا لانهم يتمتعون في الحياة بوسائل لا عهد لنا بها اليوم وذلك كما يتمتع اليوم سواد الشعب حتى من العامة بالضوء الكهربائي والسيارة والطيارة والقطار والسينما والتدفئة ببخار الماء وغيرها مما لم يحظ به الفراعنة والقياصرة والاكاسرة والخلفاء في ابهة الملك وعز السلطان . فحسب العرب فخراً انهم جدوا في سبيل العلم وانفقوا عن سعة ونقلوا علوم الاقدمين واحتفظوا بها وتدارسوها وهضموها وزادوا عليها ثم وقفوا مضطرين لا مخيرين على أثر غزوات المغول والتتر في الشرق والاسبانيين في الغرب . والمنصف لا يلوم أمة نامت عن طلاب العلم وهو يرى رجالها قد قتلوا وبلادها قد خربت وكتبها قد حرقت او القيت في الانهار الكبيرة ويراها كلما جمعت شملها ووقفت تريد العمل منيت بفاتح جديد من سفكة الدماء ومدمري العمران . وأكبر دليل على وجود القابلية التامة في هذه الامة للاخذ بالاساليب العلمية الحديثة انهُ ما كادت مصر والشام تحتكان بعلماء الغرب منذ بضع عشرات من السنين وما كادت مصر تفلت من حكم الأتراك والمماليك وتنعم بحكم الاسرة العلوية الرشيدة وعلى رأسها محمد علي اكبر حاكم مفكر انجبه الشرق في القرون الاخيرة ، حتى رأينا المدارس العلمية تفتح لتلقين العلوم على انواعها ورأينا المعامل والمصانع تؤسس على احدث الطرائق المعروفة

والنهضة الحديثة للاقطار العربية شيء محسوس لاسبيل الى نكرانه . لكن الاديب المصري الذي المعت اليه سابقاً لم يهتد الى حادث او عامل او نقطة ارتكاز كما يقول يصح تسميتها بالمحور الذي اجتمع حوله الاسلوب العلمي الحديث . وهو يرى في مقال نشره في المجلد الثامن والستين من المقتطف ان لا عهد نابليون في مصر ولا عهد محمد علي ولا تعاليم جمال الدين الافغاني ولا ثورة عرابي ولا ثورة ١٩١٩ تصح ان تعد مبدأ انقلاب الافكار في مصر ذلك الانقلاب الذي جعل جمهوراً كبيراً من الشعب يطرحون الاسلوب الغيبي ويتخذون الاسلوب العلمي في تفكيرهم . ومع هذا فهو لا ينكر وجود الانقلاب في التفكير او وجود النهضة نفسها . والحقيقة ان نهضتنا

الاخيرة لا ترتكز على عامل واحد بل على عوامل عدة توالت منذ ايام نابليون الى اليوم . واذا كان كل واحد من هذه العوامل لا يعد في ذاته المؤثر الاكبر الذي ادى الى انقلاب الاسلوب في تفكيرنا فمن خطل الرأي ان ننكر كونه حلقة من سلسلة المؤثرات التي نهضت بنا في هذا الصدد . ففي ايام حملة نابليون بدأ الناس يشعرون برجحان العلوم الحديثة وبالقوة المادية المنبعثة عنها وأخذ مفكروهم يتطلعون الى معرفة هذه العلوم . ثم اتى محمد علي الكبير فأدرك بفرط ذكائه وشدة عزيمته ان لا سبيل الى اتقاء استعمار الغرب الاَّ بنهوض الامة وان نهوضها يتوقف على تلقينها العلوم الحديثة بالاساليب التي اتخذها الاوربيون انفسهم فكان ما كان من فتح المدارس وتأسيس المعامل وارسال التلامذة الى اوربا وقيام المترجمين يترجمون زبدة العلوم الغربية حتى اشبهت ايام محمد علي في القاهرة ايام المأمون في بغداد . ومن البديهي ان الافكار اخذت تتبدل منذ ذلك الحين متأثرة بهذه المؤثرات حتى جاء جمال الدين الافغاني فمحمد عبده وتلامذته فأخذوا يقنعون الجمهور بأن الدين لا ينافي العلم وانه لا ضرر من تعلم العلوم الحديثة على انواعها سواء في المدارس الدينية ام في غيرها . وعندئذٍ صار النبهاء ينظرون الى العلوم غير نظرتهم الاولى وصاروا يرون الله سبحانه وتعالى فوق النواميس الطبيعية وفوق اعمال البشر الرفيعة منها والوضيعة . ولذلك لا يمكن ان يكون تعلم العلوم الحديثة الحاداً . ثم اتت الصحافة ولا سيما المجلات العلمية فكان لها في هذا الموضوع تأثير كبير . أما اليوم فقد رسخ التفكير على الاسلوب العلمي في رؤوس جمهرة كبيرة من الشعب . وصار لدينا في انحاء البلاد العربية جامعات ومختبرات لا تسير في اعمالها الاَّ بمقتضى هذا الاسلوب . وقد تعدلت مناهج الجامعات الدينية نفسها واضيف الى دروسها جملة صالحة من العلوم المادية . وأرى انهُ لن ينقضي زمن طويل حتى نرى بين شيوخنا المتعممين الاجلاء اختصاصيين بمختلف العلوم المادية . فكما ان النصرانية لا تحول دون تعلم الرهبان دقائق العلوم الحديثة كذلك الشريعة الاسلامية السمحة لا تحول دون ذلك بل تحث عليه . وكما اننا نرى قساوسة صاروا اطباء وعلماء اختصاصيين بالنبات والجيولوجية والهندسة واضرابها كذلك سنرى عما قريب متعممين قد اتقنوا تلك العلوم وصاروا اقدر على بث كلمة الله العليا . واعرف في دمشق دكتوراً في الطب متعمماً ما ترك عمامته اثناء الدرس ولا بعده وهو من اسرة فقهاء ذوي منزلة في الدين رفيعة . ولعله يعد نموذجاً لمن جمعوا بين علوم الدين وعلوم الدنيا فكانوا اصلح من غيرهم لبث فضائل الدين والحث على العمل في هذه الحياة الدنيا

ومما يتخذ دليلاً على رسوخ الاسلوب العلمي في تفكيرنا ان الانكليز عندما تركوا للمصريين امر المدارس في مصر منذ بضع سنين على اثر تبدل سلوكهم السياسي لم تتأخر شؤون التعليم بل تقدمت ففي مدرسة الجيزة الزراعية مثلاً اتسعت موضوعات الدروس التي تلقى وكثرت التجارب وازدادت أدوات المخابر . ثم انشئت الجامعة المصرية وزيد في عدد مدارس الاحداث زيادة لا يستهان بها . ومما

لاريب فيه ان جلالة الملك فؤاد يداً بيضاء فيما نحن بصدده . لكنه مما لا ريب فيه ايضاً ان صاحب التاج وحكومانه قد وجدوا في نفوس الشعب استعداد لتلقن العلوم الحديثة . وهذا الاستعداد ليس ابن يومه بل هو نتيجة تأثير العوامل التي سردتها والتي ما برحت تعمل عملها منذ أيام محمد علي على الاقل . وهذا العراق القطر العربي الشقيق فهو ما كاد ينفصل عن الترك حتى رأينا شعبه يتجه نحو العلوم الحديثة اتجاه النزيف الى الماء البارد فاسس دور المعلمين ومدارس التجهيز ومئات من المدارس الابتدائية ومدرسة للزراعة واخرى للطب وثالثة للحقوق وبعث مئات التلاميذ الى جامعات الشام ومصر واوربا حتى قطع في عشر سنين ما لم يقطعهُ خلال قرون من العهد السابق . وهنا ايضاً يجب ان نذكر سيدي فيصل طيب الله ثراه ونذكر زعماء العراق بالحمد والثناء لكنهُ يجب ان لا يغرب عن البال ان بوادر انقلاب التفكير كانت كامنة في الشعب العراقي ايضاً لانهُ ما برح متصلاً بحركة مصر والشام الفكرية

واتجاه الاقطار العربية نحو الاسلوب العلمي جعلنا نسيغ العلوم الحديثة ونهضمها لكننا لا نزال الى اليوم تلامذة نتلقن تلك العلوم دون ان يكون لنا اشتراك يذكر في تقدمها . ومن الامثلة على ذلك ان عدد الاطباء الاختصاصيين لدينا كبير لكن عدد الذين كشفوا عن شيءٍ من الامراض والجراثيم وطرائق المداواة قليل . ولدينا في الزراعة مختبرات وحقول للتجارب ندرس فيها امراض الزروع وحشراتها ونتوخى ايجاد اصناف زراعية مفيدة لكن معظم هذه الاعمال يتوفر لها اساتذة أجانب في الغالب . وهكذا حالنا في سائر العلوم على انواعها . ونحن مقصرون حتى في تعرف بلادنا واستقصاء امورها . وقد سابقنا الغربيون في هذا المضمار فسبقونا . مثال ذلك ان الشام مدين الى بلانكنهورن ولارته وزموفن في الكشف عن طبقات أرضهِ والى فرسكال وشوينفرث وبوست في درس نباتاته والى رو في بيان معادنهِ علميًّا واقتصاديًّا والى غريفل الفرنسي في درس حيواناته المائية ومصايد انهاره وبحاره والى بضعة علماء في وصف مصانعهِ وآثاره . وهكذا الحال في مصر والعراق والمغرب والاقطار العربية السائرة . ويجب ان لا يستنتج من ذلك اننا جمدنا على حالة رضينا بها دون ان نطمع الى تخطيها . فنحن اليوم وان كنا نغتذي بزاد الغرب من العلوم فليس ببعيد ان يأتي يوم نساهم فيه بايجاد ذلك الزاد وتجويده كما فعل اجدادنا بزاد علوم الاقدمين من قبل . ومجال العمل في سبيل تقدم العلوم والفنون واسع جدًّا . ولئن كان تناول بعض العلوم المهمة لا يتيسر الا للامم الكبيرة الغنية بالمال وبالمختبرات فأمامنا ما هو دونها من الابحاث العلمية وهو في متناول كل فرد منا اذا صحَّت عزيمته على العمل وكان متحلياً بصفات العلماء

والخلاصة ان مما يثلج الصدر ويبشر بحسن المصير كون الشعوب الناطقة بالضاد قد اخذت تطرح في تفكيرها الاساليب الغيبية القديمة وصارت تنهج نهج الاسلوب العلمي القويم . وليس بمستنكر على امة خطت بالعقل من دياجير الشرك وعبادة الاوثان الى التوحيد العالي وحفظت علوم الاقدمين وانمتها ان تهب اليوم الى العمل مع الشعوب المتمدينة في صلاح الانسانية وتقدم العقل البشري

خليل شيبوب

الزهرة السوداء

الزهرة السوداء واقفة   في الروض بين فروعها الخضر
نظرت بعين لا بياض بها   مطموسة في السمت والشزر
ترنو ولكن لا ترى احداً   فتحار بين بقية الزهر
فكأنها بعض النجوم خبا   واشتط بين الانجم الزهر
او منية للنفس خائبة   لبست حداد الذل والقهر
مبهوتة لم تبتسم ابداً   عن سافر طلق وعن ثغر
مشغولة في نفسها فلها   لا فرق بين الروض والقفر
فيها الوداعة واللبان وما   خُصَّت به الزهرات من طهر
وبها الاريج ومثلها لبست   نسجاً من الاضواء والقَطْر
لكنما تجري الحياة لها   حزناً وتُغذَى الليل في الفجر

***

يا حبة القلب التي نبتت   في الروض رمز اليأس والصبر
اني شقيقك في الحياة ولي   ماء الحياة مرارة يجري
وأروح مبهوت الفؤاد بلا   امل وأغدو حائر الامر
ويسيل لي هذا الضياء دجى   واظل في يأس من العمر
وأرى ولكن لا ارى احداً   يدري ومثل سواي لا ادري

النيل في العهد الفرعوني

ترعه ، مدنه ، سفنه ، خزّان الفيوم

للدكتور حسن كمال

اما طريقة تصريف مياه النيل على الاراضي فكانت بواسطة الترع وتقسيم الاراضي الى حياض بواسطة جسور . واعلم ان هذه الجسور كان يعهد في حراستها الى خفراء اكفاء لمنع قطعها في أي بقعة حتى لا يتسبب عن ذلك تلف الزراعة وغرق البهائم والقرى . وقد اهتم القوم كثيراً بهذه الحراسة حتى عهدوا في ادائها الى قوة كبيرة من الفرسان والمشاة واسسوا المكاتب العديدة للاشراف عليها وزوّدوها بالاعتمادات المالية الكبيرة للمحافظة عليها وجعلها دائماً في حالة جيدة . وفي العصر الروماني كان يعاقب كل من يتلف جسراً بالاشغال الشاقة في الاعمال العمومية او المناجم او يوسم ثم ينفى الى الواحات . قال استرابون ان مشاريع الترع والجسور كانت غاية في النظام والترتيب حتى تمكن القوم بذلك من ريّ الاراضي التي كان يتعذر ريّها لو تركت لطبيعتها وهكذا اصبحت الاراضي البعيدة تروى بالترع كالاراضي التي يغمرها فيضان النيل مباشرة.

وبديهي ان فيضان النيل اذا زاد عن الحدّ المعتاد هدّد القطر بالغرق لان القرى مشادة باللبن وهذا الاخير اذا تشبّع بالمياه تحوّل الى كتل طينية . ثم ان غمر القرى بالمياه يحول دون انقاذ اهلها وحيواناتها . قال بلنيوس ان الفيضان اذا زاد على ستة عشر ذراعاً حلّ القحط بالقطر كما يحلّ لو بلغ اثنى عشر ذراعاً او اقل . (راجع واكنسون)

وكانت عناية القوم بالترع لا تقلّ عن عنايتهم بالجسور . فكانوا يعهدون الى مديريهم في المحافظة على ترعهم التي كانت مركبة عليها المصارف اللازمة والفتحات التي تمكّن من ري الاراضي بانتظام بحسب الحاجة . وريّ الاراضي في تلك العصور كان مترتباً على ارتفاع سطحها ونوع النباتات المزروعة فيها . فاذا ما تمّ الحصاد وانتهت الزراعة اطلقت فيها المياه من اقرب الفتحات اليها . واذا هبط منسوب النيل وبدأ الفيضان في الزوال تقفل فتحات الريّ وتمنع المياه من الانصراف في النهر او الترع حتى تأخذ الارض ما يلزمها من المياه وتكتسب اكثر ما يمكن من الغرين . وبمجرّد ما يتم ذلك تفتح الفتحات فتتسرب المياه في النهر . وجفاف الجوّ وحرارة الشمس في القطر سرعان ما يجففان

الارض . لذلك حالما تتسرب المياه ووقتما تكون الارض رطبة يبدأ الفلاح في تهيئتها للزرع بالطرق المتباينة التي تتطلبها طبيعة الارض وجغرافيتها ونوع النبات المراد زرعه فيها

ولا ادلّ على اهتمام الفراعنة بحفر الترع اللازمة لريّ الاراضي من الاحتفالات الرسمية التي كانت تقام لذلك ويشترك فيها الملك بنفسه . فيأخذ بيده الفأس ويشقّ الارض لاول مرّة مسجلاً بذلك سروره بهذا العمل الجليل . ويجد القارىء في الشكل رقم ١ (المأخوذ عن الاستاذ برستد في كتابه تاريخ مصر القديم) احد ملوك الاسرة الاولى يشقّ الارض بفأس احتفالاً بحفر قناة جديدة لابساً رداء مثبتاً فوق الكتف ومنتهياً من الخلف بذيل أسد

وكانت للنيل عدة مدن يحتمل انها كانت موقوفة له منها (حات حمي) ، (نويت حمي) ، (نيلوبوليس)

اما سفن النيل فكانت على انواع متعددة . بعضها مصنوع للسياحة الخصوصية او للنزهة والبعض الآخر للشحن . وهذه السفن في مجموعها تختلف شكلاً عن سفن البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر وايضاً عن السفن الحربية النيلية التي كانت تستعمل للحراسة ولفتوحات السودان . اما النوتية فبعضهم كان معيّناً من قبل الحكومة كالذين يعهد اليهم في نقل الاحجار الى المعابد . والبعض الآخر أقلّ درجة من هؤلاء يقومون بشحن البضائع الصغيرة وهم اشبه بالبحارة الحاليين في سفن النيل والملاحظ دائماً ان عمل النوتي المكلّف ادارة الدفة كانت محل اعتبار وامتياز . ومثل هذا الشخص في السفن الحربية كان اعلى درجة من سائر النوتية . اما الشخص المكلف ملاحظة (الهلب) فكان يأتي بعد القبطان في المرتبة

وكثيراً ما تشاهد السفن النيلية منقوشة على المقابر المصرية القديمة . فمقبرة (باحرى) مثلاً التي في جهة الكاب والتي يرجع تاريخها الى الاسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م) تحوي رسمين لسفينتين نيليتين احداها مشدودة الشراع متجهة جنوباً (اي ضد التيار) . والثانية مطوية الشراع وسائرة شمالاً بواسطة التيار والمجاذيف . وكلتا السفينتين تشبهُ احداها الاخرى تماماً . وفي كل منهما حجرة صغيرة ذات نافذتين وبسطة بمقدم السفينة واخرى بمؤخرها . وتشاهد عربة على سطح الحجرة وخيل خلف النوتي . ويستنتج من كل هذا ومن الالوان الزاهية المزينة بها هاتان السفينتان انهما كانتا تستعملان لنزهة هذا الامير . وفي مقدم السفينة السائرة جنوباً يلاحظ نوتي قابض على مدراة يسبر بها غور البحر ليجتنب الاصطدام بقاعه . وفوق هذا النوتي كتبت كتابة هذه ترجمتها :—

« دعنا نعطي الاشارة لنذهب ونتجه الى بيت المال تلك البلدة الجميلة الزاهية ! فيردّ عليه القبطان لا تتكلم سدى ايها الشخص الواقف على مقدم السفينة » .

وبهذه الطريقة وامثالها يجد الباحث الكثير من السفن مرسومة على المقابر والمعابد . ومن هذه

الرسوم يتضح للانسان ان السفن كانت اهم واسطة للانتقال بين البلدان البعيدة ولشحن المحاصيل والحيوانات وللقيام بالغزوات والرقابة والنزهة والصيد وغير ذلك وليس هذا مقام الافاضة فيها لذلك سنكتفي الآن بما اوردناه

وقبل الفراغ من هذا البحث يجدر بنا ان نذكر شيئاً عن طرق الري التي انشأها الفراعنة باقليم الفيوم وما جناه القطر من هذه المشروعات العظيمة ومقدار ما امكن توفيره من مياه الفيضان السنوي لينتفع به الوجه البحري بعد زواله

معلوم ان اقليم الفيوم يقع في صحراء لوبيا على ارتفاع ٣٠٠ او ٤٠٠ قدم فوق سطح البحر . اما اسم الفيوم فأصله بالمصرية القديمة (بايوم) اي اليمّ او البحر . وهذا الاقليم هو في الحقيقة اقرب واحة لوادي النيل . وهو خصب التربة جيد المناخ بيضاوي المساحة تحيط به التلال . وقد استمرت شهرة هذا الاقليم عالية حتى العهد البطالسي والروماني . فقد قال عنه استرابون «ان مديرية الفيوم اغرب المديريات بالنسبة الى مناظرها الفتانة وخصبها وزراعتها . فهي الوحيدة التي تكثر فيها زراعة الزيتون بنجاح . ومعلوم ان كلما حسن الزيتون طاب زيته . وكلما اهملت زراعته ساءت رائحة زيته . ولا يوجد بالقطر المصري اقليم آخر يزرع فيه الزيتون كالفيوم الاَّ حدائق الاسكندرية . لكن في هذه الاخيرة يجد الانسان الزيتون دون الزيت . اما العنب والقمح والحبوب الاخرى وغيرها فتكثر في هذا الاقليم (اي الفيوم)

والى بحر يوسف يرجع الفضل الاكبر في خصب الفيوم. وهذا البحر يتفرع من ترعة الابراهيمية بالقرب من ديروط . ثم ينعطف عند اللاهون ويخترق سلسلة جبال لوبيا . ثم يتفرع هناك الى عدة افرع تتوزع بواسطتها المياه الى سائر جهات الاقليم . وبعد ما يدخل بحر يوسف مديرية الفيوم يأخذ سطح الارض هناك في الانخفاض تدريجاً نحو الغرب حتى الشاطىء الشرقي لبركة قارون (راجع انموذج مديرية الفيوم المجسم بمتحف الجيولوجيا بالقاهرة)

وكانت مديرية الفيوم تعرف قدماً باسم (تي شي) ومعناها (ارض البحيرة) نسبة الى البحيرة الكبرى الوارد ذكرها كثيراً في كتب المؤرخين والجغرافيين اليونانيين تحت اسم «بحيرة موريس» (واصله بالمصرية مو — ار ومعناه البحيرة الكبيرة) . ولم يبق منها الآن الاَّ بركة قارون. وفي اقدم العصور كانت البحيرة تشمل كل الاقليم لكنها جفت تدريجاً في الازمنة التاريخية الى ان اصبحت محصورة بين قصر الصاغة شمالاً وبياهمو وابشواي والعجميين جنوباً ويبلغ طول ساحلها ١٤٠ ميلاً ومساحتها حوالي ٧٧٠ ميلاً مربعاً . اما مسطح مياهها فكان أعلى من مسطح مياه البحر الابيض المتوسط بحوالي ٧٣ قدماً. وهو الآن اقل منه بحوالي ١٤٤ قدماً . وهكذا لما جفت بحيرة موريس القديمة خلفت جنوبها اقليماً خصباً تأسست عليه مدينة (شدت) المعروفة باسم كركوديلو بوليس والتي كانت محاطة بالجسور لحفظها من الفيضان النيلي . وكثير من حكام الاسرة الثانية عشرة

استوطنوا الساحل الشرقي لهذا الاقليم وعلى الاخص امنمحعت الثالث (١٨٢٠ قبل الميلاد) واختارت الملكة (تي) زوجة امنوفيس الثالث (١٤١١ — ١٣٧٥ ق. م) اللاهون مسكناً لها . وفي العهد اليوناني وعلى الاخص في عهد بطلميوس الثاني المعروف باسم فيلادلفاس صغرت البحيرة بواسطة الجسور الى ما يقرب من حجمها الحالي فاكتسبت بذلك عدة اراضي للزراعة كانت سبباً في عمار هذ الاقليم كما يستدل عليه من المدن اليانعة والقرى الغنية التي كانت مشادة عليها . وفي عامي ١٩٢٧ و١٩٢٨ ميلادية اكتشفت مشروعات الري الكبرى التي أسسها فيلادلفاس المذكور وقد وصف استرابون هذه البحيرة قائلاً : —

ان هذه البحيرة بالنسبة الى حجمها وعمقها كانت تخزن مياه النيل بسهولة بدون اغراق الاهالي والحبوب . فاذا ما انخفض النيل وزالت زيادة مياه البحيرة عن طريق القناة (بحر يوسف) اصبح مقدار المياه الذي فيها كافياً لري ذلك الاقليم . وهناك اهوسة عند طرفي القناة يشرف عليها مهندسون لمراقبة مقدار المياه الداخلة فيها والخارجة منها . ولا تزال بالقرب من اللاهون بقايا هويس قائمة حتى الآن

اما قول هيرودوتس ان هذه البحيرة اصطناعية فخطأ فضلاً عن مناقضته لرواية استرابون وشمال مدينة الفيوم توجد تلال قذرة تعرف باسم كيمان فارس مساحتها ٥٦٠ فداناً هي في الحقيقة بقايا كركوديلو بوليس او ارسينو . وهذه التلال هي اكبر آثار مصرية باقية لمدينة قديمة وقد استعمل كثير من اتربتها للسباخ وصنع الطوب . وهذه المدينة كانت تعرف قدماً باسم (شدت) كما المعنا سابقاً . وكانت مركز عبادة التمساح المعروف قدماً باسم (سبك) والى هذا الاخير كان يعهد في محافظة الاقليم . وهذا هو السبب في ان اليونان سموا البلدة كركوديلو بوليس اي مدينة التمساح . لكن هذه المدينة لم يكن لها شأن كبير في السياسة مدة وجودها . وفي عهد بطلميوس الثاني اصطبغت بالصبغة اليونانية وشيدت فيها احياء يونانية وكذا معابد يونانية ومدارس وغير ذلك . ولما رقيت بعد ذلك الملكة (ارسينو) الى درجة التقديس هناك سميت المدينة باسم مدينة ارسينو . وقد بلغ مقدار سكان هذه المدينة في ريعانها المائة الف نسمة

وفي مديرية الفيوم ترك امنمحعت الثالث اهم آثاره . لكن اول من تداخل في طبيعة هذا الاقليم هو امنمحعت الاول . ولا يزال تمثاله عند مدينة الفيوم يثبت ما اكتسب هذا الملك من مساحة عظيمة من البحيرة الاصلية لاستغلالها للزراعة . ولا يبعد ان يكون الجسر العظيم القريب من المعبد القديم هناك جزءاً من اول خزان شيد لكسب بعض الاقاليم من البحيرة . وهذا الخزان لا بد ان يكون ممتداً حتى إبجيج التي تبعد حوالي ثلاثة اميال او اربعة عن المعبد وذلك في عهد اوسرتسن الاول الذي لا تزال مسلته منصوبة هناك للآن

فلما حكم امنمحعت الثالث قامت حكومته بعمل مشروعات الري الكبرى في الفيوم فانشأت

خزاناً كبيراً (هو في الحقيقة جسر عظيم) طوله حوالي العشرين ميلاً في البحيرة مكتسباً بذلك ما مساحته عشرين الفاً من الافدنة. وهذه الاراضي المكتسبة هي اخصب الاراضي هناك وفي الطرف الشمالي لهذا الخزان (وهو المعروف الآن باسم بياهمو) شيد رصيفان كبيران بالاحجار ونصب عليها تمثالان شاهقان لهذا الملك كل منهما مصنوع من قطعة حجرية واحدة ارتفاعها حوالي ١٣ متراً . وفي المتحف الاشمولي باكسفورد بقايا هذين التمثالين . ولم يكن المقصود من اقامة هذا الخزان اكتساب اراض خصبة للزراعة فقط بل كان الغرض منه ايضاً التحكم في تصريف مياه النيل من البحيرة واليها . وقد استمرت هذه الرقابة حتى زمن هيرودوتوس . وبقيت هذه البحيرة آلاف السنين تستعمل خزاناً لمياه الفيضان للانتفاع به بعد زواله . وهكذا يرجع الى قدماء المصريين الفضل في انشاء الخزانات منذ اقدم العصور (راجع خريطة الفيوم)

ثم اهمل هذا المشروع لسببين اولهما رسوب غرين النيل بنسبة اكبر في الارض القريبة من النهر عنها في الارض البعيدة . فنجم عن ذلك ارتفاع منسوب الاراضي القريبة من شاطىء النيل وارتفاع منسوب قاع النهر نفسه عما كان عليه سابقاً فتعذر بذلك صرف المياه المخزونة في النيل ثانية . ثانيهما ان البطالسة كانوا مهتمين باكتساب اراضٍ واسعة باقليم الفيوم لانشاء مستعمرات للجنود المقدونيين (وخصوصاً في عهد بطلميوس سوتر) . لذلك اقتصر على ارسال مياه النيل في البحيرة بمقادير تكفي فقط لري الفيوم . وهكذا تركت البحيرة تجف تدريجاً . وهكذا تمكن الجنود المقدونيون من الاستيطان هناك هم وعائلاتهم فنشأت المدن وشيدت المعابد

واهتم امنمحعت الثالث بتجميل المعبد الذي اقامه اجداده بمدينة التمساح (كركوديلوبوليس ارسينوا) تلك المدينة التي كانت تعرف وقتئذ باسم (شِد) اي المدينة المنقذة او المكتسبة اشارة الى المجهودات العظيمة التي بذلها الفراعنة في انقاذ اراضي البحيرة الخصبة واكتسابها لاستعمالها في الفلاحة

وقدر المهندسون حديثاً مقدار المياه التي كانت تحجز في بحيرة الفيوم وقت الاسرة الثانية عشرة بضعف حجم مياه النيل اسفل اقليم الفيوم لمدة مائة يوم ابتداء من اول ابريل من كل عام

وحكم امنمحعت الثالث مصر مدة خمسين سنة حلَّ فيها النعيم والامن والسكينة فى البلاد حتى ترنم القوم بجلالته قائلين ما تعريبه :

هو (اي الملك) يكسو القطرين حلة خضراء اكثر من النيل العظيم
لقد زاد القطرين قوة ..... (كيف لا) وهو نفس الحياة المرطب للانوف . . . .
هو الذي يوزع الخيرات على تابعيه . هو المغذي لخلفائه
هو الغذاء وفي فمه الخير (راجع تاريخ مصر القديم تأليف برستد وترجمة حسن كمال)

مزالق التفكير

كتبت بعد تصفح كتاب « اميل » لجان جاك روسو

لحنا خباز

من البديهيات ان محاربة المرض لا تستلزم اعدام المريض . بل على الضد من ذلك ، ان الحرص على حياة المريض وسلامته هو الداعي الاول لمحاربة المرض والسعي في استئصال شأفته . وقد اخطأ كثيرون من المفكرين هذا الخطأ الواضح . ومنهم جان جاك روسو ، احد اساطين الادب في القرن الثامن عشر ، وكان ندًّا لفولتير وديدرو ولافري وهلفتيوس . وزاد عليهم تفكيره الخاص ، الذي يلخص في العبارة الشهيرة (عودوا الى الطبيعة)

هذا هو نداء روسو الذي هزّ به العالم هزًّا عنيفاً . رمى به الى محاربة المدنية والهيئة الاجتماعية والعلم والفن . زاعماً ان اضرار العلم تربي على فوائده . فهو يؤثر الجهل على العلم ، والفطرة على العقل ، والهمجية على الحضارة ، والحيوانية على الانسانية . على انهُ فات روسو ، ومن نحا نحو روسو ، ان الحضارة والعلم والفن والارتقاء هي من الطبيعة التي يدعونا اليها قائلاً (عودوا الى الطبيعة) زاعماً ان تلك الاشياء منافية للطبيعة فالحضارة والارتقاء والهيئة الاجتماعية والعلوم والفنون والسياسة والصحف والجمعيات والاندية وما شاكل ذلك ، هي فروع شجرة الطبيعة . كانت فيها ، اولاً ، بالقوة ، فصارت بعد ذلك بالفعل . فهي في الطبيعة كالنطق والتوليد في الطفل او في الجنين. فان الجنين ، بل والوليد ايضاً ، لا يرى ، ولا يعي ، ولا ينطق ، ولا يمشي ، ولا يلد . ولكن هذه القوى ، وغيرها من الاوضاع البيولوجية والانسانية ، هي فيه بالقوة ، متى كان جنيناً في ظلمات الارحام . فتبدو فيه بالفعل بعد ولادته ، متى حان زمانها ولاءمتها الاحوال . فليست صفة النطق مثلاً ، منافية للطبيعة ، بداعي ان الوليد لم يكن ينطق ثمَّ نطق . ولا يجوز لنا ان نقول للناطقين (عودوا الى الطبيعة) بمعنى (اوصدوا افواهكم ، وكفوا عن الكلام) لان النطق طبيعي في الانسان وان تأخر ظهوره . كذلك النسل طبيعي ، والامر بالتبتل مخالف للطبيعة . كذلك العلم والفن والابداع والحضارة والارتقاء ، وأمثال هذه المعاني ، هي طبيعية فينا ، اولاً بالقوة ثم بالفعل . فكانت اولاً

كامنة في الانسانية كمون الحرارة في اوراق النبات واخشابه . فبرزت الى حيّز الوجود لما تسنت لها الاحوال الملائمة المعروفة في العلم والصناعة.

فهل يجوز لنا ان نقول للاخشاب عودي اوراقاً خضراً ، وللرجال عودوا اطفالاً واجنّة ؟ كلاّ . ومحارب الطبيعة مغلوب . فلا ثمرة تعود زهرة ، ولا شجرة تعود بذرة ، ولا حيوان يعود جنيناً ، ولا نهر يرجع الى مصدره ، ولا ابن الخمسين يرجع الى سن العشرين او ما دون العشرين . تلك امور ضد الطبيعة

***

الفرد الانساني وليداً ، لايحسن النطق ولا الغناء ولا الرقص ولا الشعر ولا المقايسة ولا الادارة ولكن لانكير بان النطق والفن والمنطق والهندسة والسياسة والحب والابداع هي مكنونات صدره وكامنة في نفسه طبعاً . فلا يمكن انتزاعها منه الاّ باعدام حياته . وذلك ضد الطبع في خط مستقيم فالرجوع من العلم الى الجهل ، ومن الحضارة الى الهمجية ، ومن الفن والابداع الى الحيوانية والجمود ، ليست عوداً الى الطبيعة ، بل شذوذ عن الطبع . فلا امة راقية ترتدّ بحكم الطبع همجية او متوحشة لان التوحش والهمجية والبداوة في الامم اطوار ، كالطفولة والصبوة والشباب والكهولة في الافراد فهل يجرم الطفل اذا صار شابًا ؟ كلاّ . فلماذا تجرم الامة ؟

اذا ارتقت من طور البداوة الى طور الحضارة والارتقاء ؟ فنداء روسو « بالعود الى الطبيعة » هو من قبيل تهافت الفلاسفة

اذا كان العلم والمدنية والارتقاء قد اضرّت فهي ايضاً قد نفعت . ولا يجوز القول بالغائها بداعي اضرارها . فان النار تحرق وتدمر ، ولكنها ايضاً نافعة في الطهي والخبز والصناعة ، فلا يقول احد باخماد النيران . كذلك القطارات الحديدية والسيارات وغيرها من وسائل النقل الحديث قد تضر . ولكن ما قال احد باستئصالها بداعي الاضرار الاّ تولستوي الروسي ، فانه اقتفى اثر روسو فقال بان هذه الاشياء قسوة وتوحش ، فيلزم العدول عنها الى الحال الفطرية

ولكن قول تولستوي كقول روسو ، هو من قبيل تهافت الفلاسفة . ولا يلزم عن اضرار الآلات الحادة كالسيف والسكين ونحوها من مبضع ومشرط ، الغاءها بداعي اضرارها . كذلك لا يجوز العدول عن المدنية والعلم والفن والابداع بداعي انها تضرُّ احياناً

على ان الارتقاء يسير في خط لولبي . والخط اللولبي معروف . فيظهر كأنه التفَّ راجعاً الى حيث كان . على انه لم يعد في سطح واحد ، بل في سطح اعلى . ومن ظنَّ خلاف ذلك كان واهماً

كذلك النهر يجري على سطح الارض في خط كثير التعاريج . وقد يتحول في عكس مجراه الاجمالي كنهر الكنج مثلا . فانه يصدر من قلب حمالايا فيجري شمالاً ، ثم يعطف شرقاً ، فغرباً فجنوباً . على انه في كل من تلك الاقسام يتعرج كثيراً . وليس ثمة نهر يسير في خط هندسي مستقيم . افليس هذا

شأن الانسانية في مجراها كثيرة التعاريج ولكنها تسير الى الامام اجمالاً . واذا اعترض مجرى الماء حائل، كالهضبة مثلاً ، فانه لا يرتد الى الوراء ، بل يحاول الالتفاف بها ، واستئناف مجراه الاصلي . وكذلك الانسانية فانها تسير وجهة الحضارة والارتقاء ، فاذا اعترضتها ازمة او عرقل سيرها حائل ، حاولت الالتفاف واستئناف سيرها بما فيها من مرونة . هي سنة الطبع ، ولن تجد لسنة الطبع تبديلاً . وما لاح لك انه عود الى الطبيعة في مجرى الانسانية فهو من قبيل الخط اللولبي . خذ مثالاً لذلك المذاهب الشيوعية ، ومذاهب العراة ، في هذه الايام . فانها لا تعني العودة الى الطبيعة ، انما هي محاولة الطبيعة التغلب على العقبات الكأداء التي تعترض سيرها الاجمالي . ومن هذا القبيل تحديد النسل، وحل النظام العائلي ، والفوضوية والغاء النظم الادارية والجنائية . فهذه المذاهب او النزعات هي احد امرين ، اما انها امراض تنتاب الهيئة الاجتماعية ، او انها محاولات ترمي بها الطبيعة الى تطبيق احوالها على العوامل الجغرافية والتاريخية والاقتصادية . والتخلص من الازمات والعقبات . فالمطلوب من وراءها سلامة الحياة ، وادراك السعادة التي يحلم بها الانسان مذ كان في المهد طفلاً . فلا يعني البشر باعتناق هذه المذاهب الرجوع الى ماضيه ، كلاَّ . بل التقدم والارتقاء .فهي ذرائع يتذرَّع بها لبلوغ غاياته ومراميه ، التي يحقِّق تحسبها طبيعية

فان الطبيعة في الانسان ، وفي الحيوان ، وفي النبات ، وفي الجماد ، نزَّاعة الى الامام ، والى التطور . وليس فيها رجوع . فان الماضي ، بحسب فلسفة برغسن ، يستمر في الحاضر ويغزو المستقبل لكنهُ لا ينقلب راجعاً . فالكل في التيار ، بحسب تفكير هيرقليطس ، والتيار الى الامام . هذا هو مجرى الطبيعة . اما الانقلاب رجوعاً فتحدٍّ للطبيعة ومنافاة لنواميسها

فالتوليد طبيعي كالتقليد . يراد بالتقليد الاحتفاظ بالطبيعة ، وبالتوليد التقدم بحسب نزوع الطبيعة . فالتقليد هجوع كالنوم والاجازة . والتوليد سعي كالشغل والنمو .وباجتماع التوليد والتقليد بلوغ الغرض الطبيعي . رحم الله هيغل المفكر الالماني الشهير .فقد رأى ان النقائض تؤلف اليقينية. فاليقينية ، او الذاتية ، عنده هي التقاء النقيضين . كالتقاء المادة والحياة . والذكر والانثى ، والليل والنهار ، والسلب والايجاب في المجرى الكهربائي والمغنطيسي .فكما ان السكون طبيعي كذلك الحركة طبيعية . وكلاهما ضروري لاستكمال اغراض الحياة . وكما ان النوم طبيعي كذلك اليقظة طبيعية .وكما ان موت الخريف طبيعي كذلك احياء الربيع . فالفصل بين النقيضين ، واجازة احدهما مع انكار الآخر، كاجازة النوم دون اليقظة ، والجسد دون الحياة ، والقطب الايجابي دون السلبي ، فهو هدم للطبيعة وافتئات على ربها وعلى نواميسها

فمن التزم الجمود هلك هلاك من قبع على ذروة شاهق يغمرها الثلج والجليد . ومن التزم الاندفاع بكل تيار دون احتفاظ هلك هلاك من تدهور عن ذروة شاهق الى هوة عميقة فتحطم على الصخور . فنقطة اجتماع النقيضين هو مجلى حكمة الطبيعة واصابة من يفهمها

ما هو الموت

الحيوانات والنباتات الخالدة — الشيخوخة واسبابها — غريزة الموت

لنصيف المنقبادي المحامي

يظن معظم الناس ان الموت نتيجة طبيعية لازمة للحياة وان كل كائن حي لا بد ان يموت . ولاشك في ان الظواهر تؤيد هذه العقيدة ولكن من ينعم النظر ويحقق البحث على ضوء الحقائق العلمية الحديثة يتضح له انها عقيدة وهمية تخالف الواقع ولا تستند الى اي سند علمي

سنبين فيما يلي ما هو الموت وكيف ان الشيخوخة ما هي الأمرض كسائر الامراض ناتج من تسمم الجسم تسمماً تدريجياً بطيئاً من تخمر فضلات الطعام في الامعاء او في الاعضاء التي تقوم مقامها في الحيوانات السفلى ومن احتراق المواد الغذائية ولاسيما الزلالية مثل اللحم في داخل الانسجة الحية ونكتفي اليوم بان نقدم الدليل القاطع الذي يهدم تلك العقيدة الوهمية من اساسها ونعني به الحيوانات والنباتات الخالدة التي لا تعرف الشيخوخة ولا الموت وهي لا تهلك الا اذا طرأ عليها حادث يقضي عليها قضاء وقدراً كما يقال في لغة المحاكم

١ — الحيوانات والنباتات الخالدة

كل من يفحص بالميكروسكوب قطعة نسيج من نُسُج اي نبات او حيوان (وفي جملته الانسان) يتضح له انها مؤلفة من خلايا صغيرة متلاصقة لا ترى بالعين المجردة . وتتركب الخلية من مادة زلالية مخلوطة بمواد دهنية وسكرية او نشوية . وفي وسطها نواة من مواد زلالية من نوع آخر . ولمعظمها غلاف او غشاء يحيط بها من مادة زلالية اخرى في الحيوانات ومن مادة جامدة قريبة كيماوياً من السكر والنشاء وتسمى بالسيلوكوس (مادة القطن) في النباتات

واصل كل فرد من النباتات والحيوانات (ومنها الانسان) خلية واحدة تسمى « بالبيضة » تنتج من تلقيح بويضة من الانثى بخلية خاصة منشقة من الذكر . وتأخذ البيضة بعد التلقيح في النمو بطريق الانقسام فتنقسم الى قسمين متساويين ابتداء من النواة الى المادة الزلالية والغلاف ، يبقيان متلاصقين . وتنقسم كل واحدة منهما الى اثنتين اخريين وهكذا وعلى هذا النحو تتكاثر الخلايا وتتكون النُسُج وينمو الجنين ثم الفرد الكامل

غير انهُ توجد كائنات حية مكونة من خلية واحدة وهي النباتات الاولية مثل الميكروبات

والنبات الطحلبي المسمى « دياتومبه » وغيره ، والحيوانات الاولية مثل الاميبا التي يسبب نوع منها مرض الديسنطاريا ومثل جرثومة الملاريا وغيرها . وكيفية توالد هذه الكائنات وتكاثرها هي ان تنقسم الواحدة منها الى قسمين في بعض الانواع والى اقسام متعددة متساوية في انواع اخرى ابتداء من النواة ثم المادة الزلالية والغلاف او الغشاء كما يحدث لخلايا الحيوانات والنباتات الاخرى السفلى والعليا . الأ ان كل قسم وكل خلية او بالحري كل خلية جديدة تعيش هنا حياة مستقلة عن الاصل الذي انشقت منهُ وتنمو ثم تنقسم من جهتها الى قسمين جديدين منفصلين ومستقلين وهلمَّ جرًّا بحيث لا يموت ولا يتلاشى شيءٌ من هذه الافراد

ولكن يحدث انهُ بعد عدة انقسامات تصبح الافراد الاخيرة غير قابلة للانقسام كأنها شاخت أو هرمت وهذه هي اول صور الشيخوخة في عالم الاحياء ولا شك في ان هذا ناتج مما يتراكم داخل المادة الحية من بعض المواد الافرازية السامة التي لا تفرز باكملها انقص في تكوينَ الخلايا والكائنات الحية . ولو بقي الحال على ذلك لاشرفت تلك الافراد على الموت لا محالة . غير انهُ يكفي لاسترداد صباها ونشاطها الانقسامي ان يلتصق كل فردين من هؤلاء الافراد احدها بالآخر ويتبادلان نصف نواتيهما ثم ينفصلان فاذا بها شباب ناهض قابل للانقسام من جديد . وهذه هي اول صورة من صور التلقيح في عالم الاحياء . وليس في التلقيح سرٌّ من وراء الطبيعة بل انهُ يرجع الى تفاعلات كيماوية بين مواد كل خلية من الخليتين فهو ظاهرة طبيعية مثل باقي ظواهر الطبيعة . وهو ليس ضروريًّا لتوالد الاحياء فقد استعاض عنهُ العلماء ببعض مؤثرات طبيعية وكيماوية يسلطونها على الخلية الواحدة التي هرمت وأصبحت غير قابلة للانقسام كأن يضيفوا الى الماء الموجودة فيهِ قليلاً من بعض الاحماض او القلويات الخفيفة او يوصلون اليهِ تياراً كهربائيًّا ضعيفاً فتأخذ هذه الخلية في الانقسام من تلقاء نفسها من جديد كما يحدث عقب اتصالها بخلية اخرى مماثلة لها وتلقيحها منها على الوجه المتقدم . وقد تمكن العلماء من تسليط هذه المؤثرات على بويضات اناث بعض الحيوانات السفلى وبعض الحيوانات العليا مثل الضفادع وهي (اي البويضات) موضوعة في سائل مغذٍّ فكانت النتيجة ان اخذت هذه البويضات التي لم يلقحها ذكر في النمو بطريق الانقسام كما يحدث عادة على أثر التلقيح الى ان كوَّنت جنيناً ثم فرداً كاملاً لا يختلف عن افراد نوعه التي تولد بالتلقيح سوى أنها اصغر جسماً . وقد رأيت بعيني في جامعة السوربون بباريس ضفادع صغيرة من هذا القبيل

نعود الى الاحياء الاولية ذات الخلية الواحدة التي نحن بصددها فنلاحظ ان هذه الكائنات التي تتوالد في الاصل بطريق الانقسام اللاجنسي (اي بلا تلقيح) تلجأ الى التلقيح متى هرمت لكي تتقي الموت فتعود فعلاً الى صباها فكأنها تدافع عن نفسها ضد الفناء بالنزوع الى التلقيح . الامر الذي لا تستطيعه بطبيعة الحال خلايا الحيوانات والنباتات الاخرى نظراً لحياتها مجتمعة مع غيرها لانها من جهة ثابتة في مكانها ملتصقة بغيرها . ولانها من جهة اخرى قد تنوَّعت بحسب النسج التي تشترك

فيها فمن ذلك الخلايا العصبية وخلايا العضلات وخلايا الجلد وخلايا الغدد وغير ذلك طبقاً للوظائف التي تقوم بها هذه الانسجة . فهي لا تستطيع ان تتصرَّف في الحياة كما تتصرَّف الاحياء ذات الخلية الواحدة الطليقة الحرية التي يمكنها أن تؤدي جميع الوظائف الحيوية معاً دون ان تكون مختصة بعمل واحد . هذا هو السر في ان الحيوانات والنباتات المتعددة الخلايا تموت بالشيخوخة . ذلك لانهُ لا وسيلة لها للتخلص من هذه الشيخوخة والرجوع الى صباها كما تفعل الاحياء ذات الخلية الواحدة بالنزوع الى التلقيح . والمقصود هنا تلقيح الخلية ، اي كل خلية ، وليس تلقيح مجموع فرد الحيوان او النبات

وخلاصة القول ان الحيوانات والنباتات الاولية ذات الخلية الواحدة هي كائنات حية خالدة لا تموت . متى وصل الفرد منها الى تمام نموه ينقسم الى قسمين أو اكثر يصبح كل واحد منها فرداً جديداً ينمو ثم ينقسم وهلمَّ جرًّا دون ان يموت أو يتلاشى شيء منها . فأفراد هذه الاحياء السعيدة لا تهلك الاَّ اذا حدث لها حادث عارض من شأنه ان يقتلها كأن يجف الماء الذي تعيش فيه او يفسد ولكنها لا تقدر هذه النعمة التي خصتها بها الطبيعة لانه ليس لها جهاز عصبي فلا تدرك ولا تشعر وان كانت تتأثر فقط بالمؤثرات الخارجية شأن المادة الحية على العموم وشأن كثير من المواد المعدنية المحض كالمواد المفرقعة ومواد التصوير الشمسي وكثير من المواد الكيماوية

٢ — الشيخوخة وأسبابها

رأينا فيما تقدم اول مظهر من مظاهر الشيخوخة في الحيوانات والنباتات الاولية ذات الخلية الواحدة وهو عجزها عن الانقسام الى ان تتلاقح فتعود الى صباها . وبيّنا ان هذا ناتج من تراكم بعض المواد الافرازية في المادة الحية أثر التغذية مما لا يُفرز بأكمله لنقص في تكوين الكائنات الحية او تركيبها

وما يحدث للخلايا المنفردة (اي الحيوانات والنباتات الاولية ذات الخلية الواحدة) يحدث للخلايا المجتمعة في الحيوانات والنباتات الاخرى السفلى والعليا ذات الخلايا المتعددة . فان الدم في الحيوانات والسوائل المغذية في النباتات تنقل الى جميع خلاياها المواد الغذائيــة ، وهذه تحترق او تتأكسد داخل الخلايا لتولد القوة اصليًّا والحرارة ثانويًّا وهما اللازمتان لاعمال الحياة . ونقول اجمالاً ان تراكم بقايا المواد المحترقة او المتأكسدة وهي البقايا المسماة بالافرازات هو الذي يسمم الجسم تدرجيًّا فيسبب الشيخوخة فالموت . ويضاف الى هذا العامل عامل آخر وهو التسمُّم الناتج من تخمر فضلات الطعام في الامعاء

وتفصيلاً لهذا الاجمال نقول ان المواد الغذائية مهما تنوعت مظاهرها تنقسم الى ثلاثة اقسام المواد السكرية والمواد الدهنية والمواد الزلالية . ومعلوم ان المواد السكرية والدهنية كجميع المواد العضوية الثلاثية اي المكونة من الكربون والهدروجين والاكسجين تتحول بعد الاحتراق او التأكسد الى ماء وهو لا يضر الجسم في شيء والى الحامض الكربونيك وهو غاز تفرزه الرئتان

باكمله بعد ان ينقله اليها الدم . فيغلب على الظن ان هاتان الطائفتان من المواد الغذائية (السكر والمواد الدهنية) لا تعودان باحتراقهما في الجسم بضرر ما عليهِ وانهُ لا دخل لهما بالنتائج التي نتكلم عنها . غير انهُ يجدر بنا هنا ان لا نقول هذا الاَّ مع شيء من التحفظ . ذلك لانهُ اذا كانت المواد السكرية والدهنية تحترق وتتحوَّل في النهاية الى ماء وحامض كربونيك فاننا لا نعرف ان كانت تحترق وتتحوَّل رأساً الى هذين الجسمين ام انها تمر اثناء احتراقها او تأكسدها في صور متوسطة قبل ان تصل الى مرحلتها الاخيرة . فالسكر يتحوَّل مثلاً بفعل التخمر الكحولي الى الحامض الكربونيك والى الكحول والكحول يتحوَّل بفعل التخمر الخلي الى الحامض الخلي . والحامض الخلي يتحوَّل الى مواد اخرى اقل تركيباً وفي النهاية الى الحامض الكربونيك والى الماء . كما ان السكر نفسهُ يتحوَّل في ظروف اخرى بفعل التخمر اللبني الى الحامض اللبني . وهذا يتحوَّل الى مواد اخرى وفي النهاية ايضاً الى الحامض الكربونيك والى الماء . وما يقال عن السكر يقال على المواد الدهنية . فهل تحترق هذه المواد دفعة واحدة احتراقاً كاملاً فتنتقل رأساً من حالتها الاولى وهي المواد السكرية والدهنية الى حالتها الاخيرة وهي الماء والحامض الكربونيك ام انها تتحوَّل من مواد الى مواد الى ان تصل الى النتيجة النهائية كأن يتحوَّل السكر مثلاً الى الكحول والحامض الكربونيك ثم الى الحامض الخلي او الى مواد اخرى مجهولة الى ان يتحوَّل الى الماء والحامض الكربونيك اللذين نجدهما في النهاية ؟ هذا ما يجهله العلم الآن

نقول انهُ يُحتمل ان تتحوَّل المواد السكرية والدهنية اثناء احتراقها البطيء او تأكسدها داخل خلايا الكائنات الحية الى اجسام كيماوية متوسطة يجهلها العلم الآن وقد يكون بعضها ضارًّا بالحيوان او النبات فيترك أثرها السيء فيها قبل ان يحترق من جهته فيضاف الى عوامل التسمم التدريجي الذي يسبب الشيخوخة موضوع كلامنا الآن

وخلاصة القول ان المواد السكرية والدهنية لا تلحق في الظاهر ضرراً بالجسم ولكن قد تتولد منها وهي تحترق مواد كيماوية تشترك في تسميم الجسم بالتدريج في الفترة القصيرة التي تمكث فيهِ قبل ان تتأكسد هي ايضاً

اما المواد الزلالية فانها الفاعل الاصلي حقًّا — بحسب التعبير القضائي — في ذلك التسمم التدريجي الذي يسبب الشيخوخة . فهي اهم غذاء وفي الوقت نفسهِ اكبر عدو لنا ذلك لانها مواد رباعية يدخلها الازوت علاوة على الكربون والهدروجين والاوكسجين . ومن المعروف في علم الكيمياء العضوية ان المواد الرباعية المشتملة على الازوت يتخلف عنها عند احتراقها او تأكسدها مواد اخرى لا تحترق ولا تتأكسد تشمل الازوت . فضلاً عن الماء وغاز الحامض الكربونيك . وهذا ما يحدث للمواد الزلالية عند احتراقها او تأكسدها في اجسام الكائنات الحية فانه يتخلف عنها بعض مواد افرازية مثل المادة البولية ومثل الصفراء ومثل — وعلى الاخص — الحامض البوليك وهي

جميعها مواد ضارة بالجسم لا تفرز باكملها لنقص في تكوين اعضاء الافراز وبعضها مثل الحامض البوليكي يولّد املاحاً لا تفرز بالمرة فتترا كم داخل الخلايا وفي الانسجة وعلى جدران الشرايين فتصلبها وتقلل من حيويتها . وتؤثر تأثيراً سيئاً في الجهاز العصبي وفي جميع الاعضاء الاخرى وتضعفها فتنحط شيئاً فشيئاً ولا تقوى على القيام بوظائفها وهذه هي الشيخوخة بعينها

يضاف الى هذا السبب في تسميم الجسم سبب آخر وهو تخمر فضلات الطعام في الامعاء لانه تعيش في الامعاء على الدوام الملايين من جراثيم التخمر . ونتيجة هذا التخمر هو تولد اجسام عفنة سامة يمتصها الجسم مع المواد الغذائية النافعة خصوصاً وان الامعاء هي عضو ملائم للامتصاص اكثر من غيره من اعضاء الجسم وأنسجته

وبالجملة فان الشيخوخة هي مرض كسائر الامراض عبارة عن تسمم تدريجي بطيء ناتج (اولاً) من احتراق المواد الغذائية داخل أنسجة الجسم (ثانياً) من تخمر فضلات الطعام في الامعاء

والشيخوخة باعتبارها مرض قابلة للشفاء وقد اخذ العلماء يحاولون معالجتها ولكنهم ما زالوا مع شديد الاسف في دور النظريات . واهم من طرق هذا الموضوع العلامة متشنكوف الذي كان في حياته وكيل معهد باستور في باريس . ولكن متشنكوف اغفل العامل الاول — وعندي انه العامل الرئيسي — وتناول العامل الثاني وبحث في ما عساه يطهر الامعاء اولاً بأول . ومما تراءى له في هذا السبيل هو ان يكثر الانسان من تناول اللبن المختمر المسمى « باللبن الرائب — الزبادي » بحجة ان حموضته تطهر الى حد ما الامعاء غير ان هذا الرأي نظري اكثر مما هو عملي منتج

والذي يراه العلماء انه اذا توصل الطب في المستقبل الى تطهير النسج والشرايين من جهة والامعاء من جهة اخرى من تلك المواد السامة تطهيراً تامًّا اولاً باول فانهُ يتغلب على الشيخوخة فتطول حياة الانسان، وقد يقهرون الشيخوخة نهائيًّا فيمتنع الموت (الاَّ بحادث مهلك) ويخلد الناس على الارض الامر الذي لا يراه العلماء مستحيلاً من الوجهة النظرية بدليل الحيوانات والنباتات الاولية الخالدة التي تقدم لنا الكلام عليها . وقد رأينا فيما تقدم كيف ان العلماء قد تغلبوا على الشيخوخة التي تطرأ عليها بعد عدة انقسامات وتجعلها غير قابلة للانقسام بأن عالجوها بتسليط بعض مؤثرات كياوية وطبيعية اعادت اليها شبابها إعادة اصطناعية كما يحدث لها عقب تلاقحها ببعضها

٣ — غريزة الموت (؟)

لا يفزع الانسان شيء اكثر من الموت ، وهو في هذا اسوأ حالاً من الحيوانات لان الحيوانات لا تعرف انها تموت اما الانسان فان جميع لذاته وكل حياته تسمها فكرة الموت الذي سينتزعه حتماً يوماً من الايام من بين اهله ومصالحه وكل ما يربطه بهذه الدنيا كما قال الشاعر العربي : « هو العيش الاَّ انهُ فاني ». وسبب هذا الخوف من الموت هو غريزة الحياة او حب البقاء التي تجعل الانسان يفزع منهُ ولولا هذه الغريزة لما تعلق بالحياة ولا استطاع ان يطيق متاعبها وأمراضها وآلامها وهمومها وشقاءها

وليست هذه الغريزة هي الوحيدة بل ان جميع احوال الحياة وأعمالها — حياة الفرد وحياة النوع — تديرها غرائز اخرى هي التي تدعو الانسان او الحيوان اليها فيقوم بها مسروراً مغتبطاً كغريزة الاكل وغريزة الشرب وغريزة التناسل وغريزة حب النسل . وقد وجدت في النوع الانساني كما توجد في الانواع الاجتماعية الاخرى مثل النمل والنحل وبعض انواع الطيور الرحالة والقرود العليا ، غرائز اجتماعية وأخلاقية تحمل الافراد على حب الفضيلة ومقت الرذيلة والعمل على مساعدة الغير وخدمة المجموع ، وترى الفرد كلما قام بعمل من هذا القبيل يشعر بلذة داخلية هي راحة الضمير . الاّ الموت فان الانسان يموت وهو يعلم بذلك دون ان تكون لديهِ غريزة تسهل عليهِ استقباله وتمنع الخوف منهُ

غير ان بعض العلماء مثل متشنكوف يتوقع انهُ متى تغلب العلم على الشيخوخة وباقي الامراض وعاش الانسان حياةً طويلة لا تقل عن المائتي سنة او الثلاثماية عيشة سليمة من كل علة او ضعف فانه حينما يصل الى آخر هذا العمر الطويل وهو قوي الجسم ومعافىً من الامراض يشعر بحاجة الى الراحة النهائية ويستقبل الموت بهدوء وارتياح كما يشعر المرء في آخر النهار بحاجة الى النوم ويرتاح اليهِ . وهذا ما يسمونه بغريزة الموت . وليست هذه الغريزة التي يتنبأ بها بعض العلماء بدعة في عالم الحيوان فانهُ يوجد شيء من هذا القبيل لدى ذكور النحل الذين لا وظيفة لهم في الحياة ولا عمل لهم في مجموعة النحل سوى تلقيح الانثى فانه بمجرد ان يؤدوا عملهم هذا ويتم التلقيح تراهم لا يبالون بالموت ولا يخافون منهُ ولا يحاولون الهروب اذا اقترب منهم احد ، ولا شك في ان غريزة الموت تكون قد قامت فيهم حينئذٍ

وحينما تنشأ هذه الغريزة في البشر يكون العلم قد قهر آخر عدو للانسان وهو الموت حيث تكون قد حُلت من قبل المعضلة الاجتماعية الكبرى الخاصة بتحديد النسل وتوزيع العمل والثروة بين الناس توزيعاً عادلاً ، وتكون الغريزة الاجتماعية والغريزة الاخلاقية قد تأصلتا في الناس بمرور الزمن فتقل الجرائم وقد تمتنع وترتقي الاخلاق وتسود روح التضامن الى حد ان تزول الحكومات او ما يقرب من ذلك على ما يتنبأ هربرت سبنسر كما هو حال النمل وغيره من الحيوانات الاجتماعية . فيعيش البشر في سلام ونعيم دائمين

ولكن هل في قيام تلك الغريزة حلّ نهائي ناجع لمسألة الموت ؟ لا شك في انها متى وجدت فسوف تسهل على الشيخ ترك الحياة غير وجل ولا أسف ولكن — على ما يعترض استاذي المأسوف عليه دستر — هل هذا يمنع ألم الفراق وتمزيق القلب حزناً لدى اقارب المتوفي ومحبيه ؟ وبما ان غريزة الموت لن توجد الاّ قبيل حضوره في اواخر الحياة فهل تمنع هذه الغريزة الشاب والرجل القوي وهما متمتعان بكامل صحتهما ويعلمان بانهما سيموتان لا محالة ولم توجد فيهما بعد غريزة الموت من ان يتألما ويحزنا على مصيرهما

لعبد الحميد السنوسي

في مرقص

الشاعر والغاوية

رنا اليها فحيته فحادثها ودارت الـكأس يسقيها وتسقيه
توشجت مثل خطف البرق بينهما اواصر الود تدنيها وتدنيه
في مرقص عجب بالطيش مضطرب يكاد من طرب يمشي بمن فيه
عابت عليه عبوسا غير منسجم مع السرور الذي رقت حواشيه
فيم العبوس ؟ وهذا الحفل مبتهج انساه حاضره اوصاب ماضيه
فيم العبوس ؟ ألم تفتنك فاتنة من هؤلاء فتنسى ما تعانيه
انظر الى الرقص واسمع ما تخلله من الاغاني التي تنحو مناحيه
الرقص متسق بالعزف ،متصل والعزف للرقص مثل النار يذكيه
والغيد رافلة تزهى وعارية والحسن مستوره يغري وعاريه
والـكأس دائرة بالهم عابسة فاشرب بلا حرج حتى تداويه
وانفض غبار الاسى وامرح وغن فما يدري الفتى في غد ماذا يؤاتيه
فأشرقت عينه بالدمع وارتسمت مخاوف وشجون في مآقيه
فقابلت دمعه بالضحك ترسله مجلجلا معلناً عن شكها فيه
ظنت احاديثه لهواً وثرثرة من ماجن يتلهى في لياليه
وارحمتاه لها مما تعانيه في عالم الغدر والتضليل والتيه
تكاثر المعجبون الطامحون الى ما يشبع الجسم ساعات ويرويه
لا تطمئن الى قلب تشاطره وجداً بريئاً وحبًّا غير مشبوه
كم ضحكة ضحكت قسراً وكم مرحت كرهاً لترضي خلا جد مكروه
وكم دميم تعامت عن دمامته تبيت ليلتها نعمى تناجيه
ورب شيخ بغيض في تصابيه ظلت تصانعه طوراً وتطريه
تعلمت كيف تجزي المولعين بها ميناً بمين وتمويهاً بتمويه
لو تستطيع لصاحت في وجوههمو صيحات مقت وتحقير وتسفيه
وعلمتهم بأن الحب أبعد ما يكون عن ماجن بالمال يشريه
بالضحك تغرق ما تطويه من شجن وبالضجيج تواري ما تواريه
ولو بدا لك ما تخفي جوانحها ذهلت من ألم طاغ تداريه
يا لهف نفسي لا ماض يؤانسها بالذكريات ولا آت ترجيه
لم تلق والحسن يكسوها اخا ثقة فهل اذا عريت منه تلاقيه
يؤودها حاضر مخز ويزعجها ما يضمر الغيب من قبح وتشويه
لكل نفس رجاء تستعين به على الزمان اذا جارت عواديه
يا ويح من عاش في الدنيا بلا امل مشرداً مشمئزاً من امانيه

تشابه الحروف

دير في العراق

وآخر في الشام

تصحيح خطأ لم يتنبه له أحد من الناس منذ ألف سنة الى يومنا هذا

لمحمد عبد الجواد الاصمعي بدار الكتب المصرية

— ١ —

كان خلفاء الإسلام وأمراؤه ووزراؤه وأدباؤه وشعراؤه يقصدون الديارات، انتجاعاً للصحة وطلباً للراحة، بالبعد عن ضوضاء المدينة، ومتاعب الحياة في بعض الاحيان، لما كان بها وحولها من البساتين والمنتزهات. وكانوا يتمتعون بسماع الاغاني وأنواع الملاهي في البساتين والمنازه المحدقة بالأمصار والمدائن. وبلغ من عناية المسلمين بالثقافة العامة في جميع مظاهرها ومناظرها أن جماعة منهم أفردوا كتباً خاصة بتاريخ الديارات وأوصافها وسائر ضروب المعيشة فيها

— ٢ —

كان الخالديان وهما الاخوان المشهوران في الشعر والأدب ونسبتهما (الى الخالدية قرب الموصل) أول من أفرد هذا الموضوع بتصنيف خاص. وبعدهما ألف أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني كتاباً آخر في الديارات، وقد ضاع هذان الأثران في جملة ما أباده الزمان، ولم يبق لنا منهما الآ ما نقله المؤلفون عنهما او ما سطره أبو الفرج نفسه في كتابه الأغاني (وذلك شيء قليل). ثم جاء الشابشتي فألف كتاباً في الديارات. وتوجد منهُ نسخة مخطوطة بقلم الاستاذ الشيخ عبد الرحمن زغلول نقلها على نفقة دار الكتب المصرية من النسخة الخطية الوحيدة المحفوظة بالمكتبة الملكية ببرلين وهي ناقصة من أولها بمقدار الثلث (ومحفوظة بالدار تحت رقم ١٧٥٦ تاريخ)

وهنالك رجل رابع قصر بحثه على بقعة واحدة أعني به أبو صالح الارمني، وكتابه مطبوع بالعربي في اكسفورد سنة ١٨٩٤ ومعهُ مقدمة وترجمة باللغة الانكليزية، وهو كتاب في تاريخ الارمن بالقاهرة وغيرها من بلاد القطر المصري من وقت استيلاء الغز الاكراد على اقليم مصر سنة ٥٦٤ هـ وتاريخ كنائسهم ومعابدهم وقساوستهم. وفي ذكر من وفد الى كنائسهم واقام بها او رحل عنها، وذكر الإقطاعات المصرية في ذلك العهد للبيع والكنائس، فهو ديني تاريخي. أما الكتب الثلاثة السابقة فتضيف الى ذلك شيئاً كثيراً من الادب نظماً ونثراً مع الطرف التاريخية والملح الادبية

والنوادر والحكايات . وممن تكلم على ديارات القاهرة ايضاً العلامة المقريزي في خططه (ج ٢ ص ٥٠١—٥١٠ طبع بولاق) وابن دقاق في كتابه الانتصار (راجع الجزء الرابع والخامس المطبوعين بالمطبعة الاميرية ببولاق)

— ٣ —

ولقد عني أرباب التاريخ والجغرافيا بتدوين شيء عن هذه الديارات في مصنفاتهم نقلوه عن هذه الكتب الثلاثة ، نذكر منهم أبا عبيد البكري الاندلسي المتوفي سنة ٤٨٧ هـ في كتابه «معجم ما استعجم» ومؤلف كتاب التنبيه على اوهام ابي عليّ في أماليه المطبوع مع أمالي القالي في طبعته الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ . وقد عنينا بتحقيقه وتصحيحه وعمل فهارس وافيةله طبعت معهُ . ثم ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» . وآخرهم ابن فضل الله العمري المتوفي سنة ٧٤٩ هـ في الجزء الاول من كتابه « مسالك الابصار » الذي طبع بالمطبعة الاميرية ببولاق سنة ١٩٢٤ م بعناية وتحقيق العلامة المحقق استاذنا الجليل احمد زكي باشا

— ٤ —

إن الناظر الى هذه التآليف القيمة او ما بقي منها او ما وصل الينا عنها ، ليعجب أشدّ العجب لعناية العرب بهذا الموضوع الذي وفوه حقه من الدقة والعناية ، ففيها مباحث طريفة وروايات دقيقة ومشاهدات جميلة عن شؤون هذه الديارات وعن احوال رجالاتها ، الى غير ذلك من المعلومات التي يهتم بها الاديب والشاعر والباحث والمؤرخ ، ولولا تداول هـذه الكتب في ايدي الادباء لاخترنا شيئاً منها لما اشتملت عليه من الطرائف التاريخية والملح الادبية والنوادر الفائقة والاشعار الرائقة لذلك نقتصر على أمر واحد لم يتنبه له أحد من الناس منذ ألف سنة الى يومنا هذا

— ٥ —

ان تشابه الحروف العربية وإهمال نقط الاعجام في بعض الاحيان قد يكون من ورائهما خلط غريب ، وغلط ليس له مثيل ، فنحن نعذر الذين يقعون في هذه الهفوات مع ما لهم من الشهرة الذائعة بالنقد والتحقيق ، ولذلك كان من واجب العلم ان نتقدم بتصحيح ما وقفنا عليهِ وتنبهنا اليه في كلام اولئك العلماء عن دير مُرّان ودير مَرْيان[1] ، أولهما بالشام والآخر بالعراق

— ٦ —

من العجيب أن أول من وقع في هذه الاحبولة هو أبو الفرج الأصبهاني نفسه ، فقد ذكر في كتاب الاغاني أثناء ترجمته للحسين بن الضحاك هذا الخبر (ج ٦ ص ١٩٥ من طبعة بولاق، ص ١٨٨

(١) ورد هـذا الاسم في كتاب الديارات للشابشتي ومعجم البلدان لياقوت ومسالك الابصار لابن فضل الله العمري « مديان » بالميم والدال وهو غير صحيح ، لأن الديارات تسمى باسماء القديسين ولا يعرف قديس باسم « مديان » بالميم والدال ، وانما المشهور «مريان» بفتح الميم وسكون الراء « Marianus » ولذا صححناه هكذا في جميع المواضع التي ذكر فيها في هذا البحث نقلاعن هذه الكتب فتنبه

من طبعة الساسي) ونصه : روى بالسند عن عمرو بن بانه . قال : خرجنا مع المعتصم الى الشام لما غزا ، فنزلنا في طريقنا بدير مران ، وهو دير على قلعة (كذا) مشرفة عالية ، تحتها بروج (كذا) ومياه حسنة ، فنزل فيه المعتصم فأكل ونشط للشرب ودعا بنا . فلما شرب اقداحاً قال للحسين بن الضحاك : أين هذا المكان من ظهر بغداد ! فقال : لا أين يا أمير المؤمنين ! والله لبعض الغياض والآجام هناك أحسن من هنا ! قال : صدقت والله ! وعلى ذلك فقل أبياتاً يغنّ فيها عمرو ، فقال : اما أن أقول شيئاً في وصف هذه الناحية بخير فلا أحسب لساني ينطق به ، ولكني أقول متشوقاً الى بغداد ! فضحك وقال : قل ما شئت . فأنشد :

يادير مران (كذا) لاعريت من سقم (كذا) هيجت لي سقماً يا دير مرانا (كذا)
هل عند قسك من علم فيخبرنا أم كيف يسعف وجه الصبر من بانا
حث المدام فان الكأس مترعة مما يهيج دواعي الشوق أحيانا
سقيا ورعيا لكرخانا (كذا) وساكنها وللخنينة (كذا) بالروحاء من كانا

فاستحسنها المعتصم وأمرني ونحارقاً فغنينا فيها وشرب على ذلك حتى سكر وأمر للجماعة بجوائز » اهـ

— ٧ —

هذا الخبر ورد هكذا بحروفه وكلماته في طبعتي بولاق والساسي ، وقد قام بتصحيحه في ذلك العهد خيرة المصححين بمطبعة بولاق سنة ١٢٨٥ هـ ، وقام بتصحيح طبعة الساسي العالم الجليل المرحوم الشيخ احمد بن الامين الشنقيطي سنة ١٣٢٣ هـ ومع هذا لم يتنبهوا الى ما وقع في هـذا الخبر من اخطاء

فكلمة « قلعة » صوابها « تلعة » بالتاء المثناة في اوله . والتلعة : الربوة المرتفعة من الارض . و« بروج » صوابها « مروج » بالميم في اوله و«دير مران» صوابها « دير مريان » و«سقم» صوابها « سكن » و « لكرخانا » صوابها « لكرخايا » و « وللخنينة » صوابها « وللجنينة »

هذا في الكلمات أما في سياق الخبر فان الخليفة المعتصم طلب من ابن الضحاك نديمه وشاعره أن يقول شيئاً في الجهة التي نزلوا بها في الشام وهي « دير مران » فأجابه بقوله :

« اما أن أقول شيئاً في وصف هذه الناحية فلا أحسب لساني ينطق به ولكني أقول متشوقاً الى بغداد !! . . . الخ » فضحك الخليفة وأجابه بقوله : «قل ما شئت» فيتضح من هذا ان الشعر الذي أنشده ابن الضحاك أمام الخليفة لم يكن في دير مران كما ورد في هذا الخبر وتناقله الرواة وكتبه النساخ هكذا في كثير من نسخ الاغاني المخطوطة الى أن طبع ، وانما كان في دير مريان بالعراق وهو الذي يعرفه الشاعر ويهواه

— ٨ —

كتاب الاغاني من أمهات المصادر العربية التي يرجع اليها أهل البحث والتحقيق ، وأصبح في

أيدي الفضلاء الباحثين من عرب وعجم وافرنج ، ومع هذا لم يتنبه واحد منهم الى ما وقع في هذا الخبر من خلط ، ولا ندري أكان هذا من المؤلف نفسه كما قلنا ، أو من تحريف النساخ

— ٩ —

فقد نقل ابو عبيد البكري الاندلسي في كتابه معجم ما استعجم (ص ٣٦٢ طبع اوربا) عبارة أبي الفرج الاصبهاني بتصرف في كلامه على دير مران بدون اسناد اليه ، وأغفل الكلام على دير مريان . ويتبين من هذا انه جعل الديرين ديراً واحداً . وجاء بعده ابن فضل الله العمري فنقل ايضاً في الجزء الاول من كتابه مسالك الابصار (ص ٣٣٥ طبع بولاق) عبارة ابي الفرج باسناده اليه في كلامه على « دير مران » . ولا ندري ان كان نقلهما عن كتاب الاغاني نفسه أم عن كتاب الديارات لأبي الفرج

— ١٠ —

قال البكري وابن فضل الله : « إن الحسين بن الضحاك كان مع الرشيد حين نزوله بدير مران » وهذا خطأ ايضاً لان ابن الضحاك نفسه ينفي اتصاله بالرشيد ، فقد قال عن نشأته واتصاله بالخلفاء كما ورد في الاغاني (ج ٦ ص ١٧٩ طبع بولاق) ما نصه :

« كنت انا وأبو نواس تربين نشأنا في مكان واحد ، وتأدبنا بالبصرة ، وكنا نحضر مجالس الادباء متصاحبين ، ثم خرج قبلي عن البصرة وأقام مدة ، واتصل بي ما آل اليه امره ، وبلغني ايثار السلطان به وخاصته له ، فخرجت عن البصرة الى بغداد ، ولقيت الناس ومدحتهم وأخذت جوائزهم ، وعددت في الشعراء . وهذا كله في ايام الرشيد الاَّ اني لم أصل اليه واتصلت بابنه صالح فكنت في خدمته » اهـ

ويؤيد هذا ما ذكره ابو الفرج في اول ترجمة ابن الضحاك (ج٦ص١٧٠ طبع بولاق) انه « احد ندماء الخلفاء من بني هاشم ، ويقال انه اول من جالس منهم محمد الامين »

— ١١ —

اما مرور الخليفة المعتصم بالشام في بعض غزواته فقد كان في سنة ٢٢٣ هـ كما قال المسعودي في مروج الذهب (ج ٢ ص ١٧٦ طبع بولاق) . ولا ندري اذا كان ابن الضحاك كان مع الخليفة في هذه الغزوة ، او كان بصحبته في غزوة اخرى

— ١٢ —

وأول من ذكر شعر ابن الضحاك في دير مريان هو الشابشتي في كتابه الديارات ، ونقله عنهُ ياقوت في معجمه وقال : « وروى غير الشابشتي هذا الشعر في دير مران وانشده كذا والصواب ما كتب لتقارب هذه الامكنة المذكورة بعضها من بعض »

— ١٣ —

أما دير مريان فقد عرفه الشابشتي بقوله: « هذا الدير على نهر كرخايا ببغداد . وكرخايا نهر يشق من المحول الكبير ، ويمر على العباسية ، ويشق الكرخ ، ويصب في دجلة . وكان قديماً عامراً والماء فيه جارياً ، ثم انطم وانقطعت جريته بالبثوق (القنوات) التي انفتحت في الفرات . وهو دير حسن نزه ، حوله بساتين وعمارة ، ويقصد للتنزه والشرب ، ولا يخلو من قاصد وطارق . وهو من البقاع الحسنة النزهة وللحسين بن الضحاك فيه :

حُثَّ المدام فإن الكأس مُترعةٌ ... مما يهيج دواعي الشوق أحيانا
أني طربت لرهبان مجاوبةٍ ... بالقدس بعد هدوّ الليل رهبانا
فاستنفرت شجناً منّي ذكرت به ... كرخ العراق وإخواناً واشجانا
فقلت والدمع في عينيّ مطرد ... والشوق يقدح في الاحشاء نيرانا
يا دير مريان لا عرّيت من سكن ... ما هجتَ من سقم ! يا دير مريانا !
هل عند قسك من علم فيخبرني؟ ... أم كيف يسعد وجه الصبر من بانا؟
سقياً ورعياً لكرخايا وساكنه ... بين الجنينة والروحاء من كانا !

وكان أبو علي بن الرشيد يلازم هذا الدير ويشرب فيه ، وكان له قيان يحملهم اليه ويقيم به الايام ،لا تفترّ عزفاً وقصفاً ،وكان شديد التهتك ، وكان من يجاور الموضع يشكون ما يلقونهُ منهُ ، فانتهى الخبر الى اسحاق بن ابراهيم الطاهري ، وهو خليفة السلطان ببغداد ، فوجه اليه يقبح لهُ فعله ، وينهاه عن المعاودة لمثله ، فقال : وأيّ يدٍ لاسحاق عليّ ! وايّ امر له فيّ ! أتراه يمنعني من سماع جواري والشرب بحيث اشتهي ! ! فلما أتاه هذا القول منهُ احفظهُ وأمهل ، حتى اذا كان الليل ركب الى الموضع وأحاط بهِ من جميع جهاتهِ ، وأمر أن يفتح باب الدير وينزل بهِ على الحال التي هو عليها ، فأنزل بهِ ، وهو سكران ، في ثياب مصبغة وقد تضمخ بالخلوق ، فقال : سوءة لك ! رجل من ولد الخلافة على مثل هذه الحال . ثم امر ففرش بساط على باب الدير وبطح عليه وضربهُ عشرين درة وقال : ان أمير المؤمنين لم يولّني خلافتهُ حتى أضيع في الامور وأهملها ، ولا حتى أدعك وغيرك من أهله تعرونهُ وتفضحونهُ ، وتخرجون الى ما خرجت اليهِ من التبذل والشهرة ، وهتك الحرمة ، وإخراجهم الى الديارات والحانات . وفي تأديبك صيانة للخلافة ، وردع لك ولغيرك عن هذه الفضيحة . ثم امر بعماريات كانت معهُ فاركب فيها مع حرمه ، ورده الى داره . فبلغ ذلك المعتصم فكتب اليهِ يصوّب رأيهُ وفعله ، ويأمره الاّ يرخص لاحد من أهل بيته في مثله » اه

— ١٤ —

والشابشتي هو ابو الحسن علي بن محمد الشابشتي الكاتب . قال ابن خلكان في تاريخه (ج ١ ص ٤٨١ طبع بولاق) : « كان اديباً فاضلاً ، تعلق بخدمة العزيز بن المعز العبيدي صاحب مصر ،فولاه

امر خزانة كتبه ، وجعله دفترخوان يقرأ له الكتب ويجالسه وينادمه ، وكان حلو المحاورة لطيف المعاشرة . وله مصنفات حسنة ، منها كتاب الديارات ذكر فيه كل دير بالعراق والموصل والشام والجزيرة والديار المصرية ، وجميع الاشعار المقولة في كل دير . وما جرى فيه ، وهو على اسلوب الديارات للخالدين وابي الفرج الاصبهاني .... الخ » اه وكانت وفاته بمصر سنة ٣٩٠ هـ

— ١٥ —

اما دير مران فقد قال ياقوت في معجمه (ج ٢ ص ٦٩٦ طبع اوروبا) نقلاً عن الخالدي ما نصه: « قال الخالدي : هـذا الدير بالقرب من دمشق ، على تلّ مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة . وبناؤه بالجصّ ، واكثر فرشه بالبلاط الملوّن ، وهو دير كبير ، وفيه رهبان كثيرة ، وفي هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني ، والاشجار محيطة به . . . الخ» ثم ذكر اقوال الشعراء في وصفه ومدحه . وقد تكلم عليه ايضاً ابن فضل الله العمري في الجزء الاول من كتابه مسالك الابصار

— ١٦ —

والغريب المدهش ان ابن فضل الله تكلم على كل من الديرين وذكر شعر ابن الضحاك فيهما بوجهين ، ففي الجزء الاول من كتابه مسالك الابصار (ص ٢٧٧ — ٢٧٨) ذكر دير مريان ونقل ما قاله الشابشتي عنه وأورد الشعر « يا دير مريان » . وفي كلامه على دير مران صحيفة (٣٥٥) نقل ما قاله ابو الفرج الاصبهاني عنه وساق الشعر بنفس الرواية التي ذكرها ابو الفرج «يا دير مران» بدون تنبيه او اشارة الى الرواية الصحيحة

ومما يلاحظ ان هذا الجزء طبع كما ذكرنا بعناية وتحقيق استاذنا الجليل احمد زكي باشا، ولا يكاد القارىء يمرّ بصفحة منه الأ ويجد تحقيق استاذنا الجليل وتمحيصه بهامشها ، بما يشف عن دقة بحث وسعة اطلاع ، وغزارة علم ، وصبر وجلد ، وكيف لا وهو الذي — ادام الله حياته — علمنا كيف ندقق ونحقق وننبه عن كل صغيرة وكبيرة . ومع انه اشار في صفحة (٢٧٧) الى مراجعته لياقوت (ج ٢ ص ٦٩٥) والشابشتي (ورقة ١٢) زاه في صفحة (٣٥٥) اثناء كلام ابن فضل الله على « دير مران» وذكره لشعر ابن الضحاك مكرراً أغفل الاشارة الى ما قاله ياقوت عن هذه الابيات، وانها قيلت في « دير مريان » لا « دير مران» كما انهُ لم يذكر ان هذه الابيات مرت في صفحة (٢٧٨) على الأقل

ولعل لاستاذنا الجليل العذر في هـذا لان اتصالنا به ، وتشرفنا بالاشتغال معهُ سنين طويلة ، حتى بث فينا روح الجد والعمل والنشاط ، جعلنا نعتقد ان هذا ناشىء من طول الزمن بمضي الشهور بين طبع كل ملزمة واخرى . وانما الذي لا نلتمس له عذراً قوله في مناسباته التي وضعها لفهرس هذا الجزء ، فقد قال عن «دير مريان» صفحة (ر) ما نصه :« دير مريان (وشعر الحسين بن الضحاك) ٢٧٧» وذكر عن دير مران صفحة (ذ) ما نصه : « زيارة هارون الرشيد وما صنعه الضحاك فيه من الشعر الذي غناه لهُ عمرو بن بانه بلحن حنين ٣٥٦ »

— ١٧ —

والذين لا نلتمس لهم عذراً ايضاً اولئك الذين قرأوا كتاب الاغاني بفهم ليفهرسوه كالعلامة المستشرق جويدي الطلياني ومن معه من افاضل المستشرقين . والاستاذ العلامة محمد مسعود بك والاستاذ العلامة عبد اللطيف آل ثنيان البغدادي . وغيرهم ممن صححوا كتاب الاغاني ، او نقلوا عنه ومرّوا على هذا الخبر ولم يدركوا ما فيه من خلط وغلط

— ١٨ —

اما العلامة المستشرق جويدي ومن معه فقاموا بعمل فهارس هجائية وافية لكتاب الاغاني باللغة الفرنسية والعربية ورتبوه على اربعة فهارس وقالوا بفهرس الاماكن ما نصه : « دير مران ٦:١٩٥» ولم يتنبه لهذا الخطأ الاستاذ العلامة محمد مسعود بك عند ترجمته لهذه الفهارس لطبعة الساسي ،فقد ورد في الفهرس الرابع الخاص باسماء الامكنة والجبال والمياه وغيرها (ص ١٦) ما نصه : « دير مران ج ٦ : ١٨٨ » ، ويلاحظ ان فهرس الاعلام في طبعتي ليدن ومصر ذكرت فيهِ المناسبات الخاصة بالاعلام ، ومع هذا نجد ان المناسبات الخاصة باسم المعتصم وابن الضحاك بدخول الخليفة المعتصم الى الشام غازياً ونزوله بدير مران وطلبه من ابن الضحاك ان يقول شعراً في هـذه الناحية فلم يجبه وقال شعراً متشوّقاً الى بغداد لم ترد بالمرة واغفلت نهائيًّا مع ورود اسم « دير مران »فيهما بفهرس الاماكن كما ذكرنا . ولا يخفى ما في هذا من اهمال وعدم الدقة والعناية بالمناسبات الخاصة بالاعلام

— ١٩ —

ولم يتنبه لهذا الخلط ايضاً العلامة الجليل الاستاذ عبد اللطيف آل ثنيان من علمـاء بغداد في مناسباتهِ التي وضعها للاعلام بفهرس الاغاني الذي قام بتأليفهِ باشارة من شيخه العلامة الجليل السيد محمود شكري الآلوسي وهو في مجلد مخطوط ومحفوظ بدار الكتب المصرية وكان اهداه اليها بمناسبة إعادة طبعها لكتاب الاغاني للاستفادة منهُ عند القيام بوضع فهارسهِ . ويشتمل هذا المجلد على فهرس لاسماء الشعراء وآخر لاسماء الامكنة والجبال والمياه ونحوها وثالث لايام العرب ورابع للاعلام مع المناسبات الخاصة بها . وقد ابتدأ عمله فيهِ سنة ١٣٢١ هـ وانتهى من تبييضه سنة ١٣٣١ هـ ويقع في ٦٠٦ صفحة في حجم الربع

وقد اورد في المناسبات التي ذكرها للحسين بن الضحاك في هذا الموضع ما نصه : « مدح دير مران بالشام لما غزاه المعتصم ٦ : ١٩٥ » وذكر في المناسبات الخاصة بالخليفة المعتصم ما نصه :«كان في دير مران فأمر الحسين ان يقول فيهِ شعراً يغني بهِ عمرو بن بانه ٦ : ١٩٥ » مع أن الخبر الذي اورده ابو الفرج لا يدع مجالاً للشك بأن ابن الضحاك لم يجب أمر الخليفة المعتصم بان يقول شيئاً في الجهة التي نزلوا بها وهي دير مران وانما قال متشوّقاً الى بغداد ذاكراً دير مريان . واذا كان هذا

شأنه في المناسبات الظاهرة فكيف حاله في المناسبات التي لا تكتب الاَّ بعد إنعام النظر وكثرة التأمل وإجهاد الفكر . لعله يكتب « ذكر عرضاً » كما لاحظناه مراراً في هذا الفهرس يكررها

— ٢٠ —

ولم يتنبه لهذا الخلط ايضاً الامام اللغوي المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطي في تصحيحاته التي دوَّنها بنسختهِ الخاصة من طبعة بولاق وهي التي جردناها ورتبناها وطبعناها على حدة في رسالة خاصة سنة ١٩١٦ م وتقع في (٧٠ صفحة) من حجم الاغاني مع انهُ رحمهُ الله تعالى صحح في الجزء السادس الذي ورد فيهِ هذا الخبر نحو السبعين غلطة من الغلطات الغامضة التي لا تكاد تدركها الأفهام ، ولا يعلمها الاَّ الراسخون في العلم ، وقليل ما هم

— ٢١ —

ولم يتنبه لهذا الخلط ايضاً الاستاذ العلامة المحقق حبيب الزيات في كلمته عن الديارات الواردة في الجزء الاول من مسالك الابصار لابن فضل الله العمري وقد نشرها في مجلة لغة العرب في الجزء الخامس من السنة السادسة ص ٣٢٢ — ٣٤٢

— ٢٢ —

ولم يتنبه لهذا الخلط ايضاً الاستاذ الجليل والكاتب المجيد الدكتور طه حسين حين جمع أخبار ابي الفرج عن حسين بن الضحاك ليملي ترجمتـه التي نشرها بالسياسة بتاريخ ٢٣ ابريل سنة ١٩٢٤ م والتي ضمها في كتاب (حديث الاربعاء) ج ١ ص ٢١٣ — ٢٣١ ويقول فيها (ص ٢٢١) ما نصه : « وله (ابن الضحاك) مع هؤلاء الخلفاء (المعتصم والواثق والمتوكل) جميعاً أخبار حلوة تبسط في روايتها ابو الفرج » ومع اننا نعترف ان الاستـاذ الجليل الدكتور طه حسين في دقة فهمه ونقده لا يضارع ، ومقدرته ونبوغه في تحليله للشخصيات لا ينازعه فيها احد نرى ان هذا الخبر مرَّ عليه بدون تعليق او اشارة

٢٣

اما من كتبوا عن الحسين بن الضحاك من مؤلفي هذا العصر المعروفين ، ونقلوا اخباره وشعره من كتاب الاغاني وغيره ليضموها الى مؤلفاتهم في الادب العربي ، ولم يتنبهوا الى ما وقع فيه صاحب الاغاني من خلط ، فكثير ما هم

وفي ختام هذا البحث نذكر اننا اطلعنا استاذنا الجليل العلامة المحقق احمد زكي باشا على ما ورد في الجزء الاول من كتاب مسالك الابصار والكتب الاخرى التي ذكرناها آنفاً ، فهنأنا على هذا التوفيق ، وشكرنا على هذه الدقة في البحث والتحقيق ، وسمح لنا بنشر هذه الحقيقة تعميماً للنفع واتماماً للفائدة ، فلبينا طلبه . و (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله)



غرائب الصفات الجنسية

الاولية والثانوية

اذا خصي الحمل صغيراً كبر اجمَّ اي لم ينبت قرناه . ويقول اصحاب القطعان ان الحملان المخصية تنبت قرونها ولكنها لا تنمو بل تبقى صغيرة مع ان النعاج جُمٌّ . ويقال في تعليل ذلك ان القرون سلاح الحيوان . والحيوانات التي من جنس الغنم والمعزى والظباء والايائل تستعمل قرونها وقت المزاوجة فيتقاتل ذكورها بها والغالب منها يستبدُّ بالاناث فقويت العلاقة بين القرون والتناسل ، ولذلك تسقط قرون الايائل بعد فصل المزاوجة ، ولذلك ايضاً صارت اناث بعض انواع الغنم جمًّا لا قرون لها وعليه لا يبعد ان يتوقف نمو القرون في ذكور الغنم اذا خصيت صغيرة

يراد بالصفات الجنسية الصفات التي تكون في الذكور خاصة او في الاناث خاصة فيمتاز بها الذكر عن الانثى . وهي كثيرة كما لا يخفى بعضها اولي او جوهري يتعلق باخلاف النسل كالخصيتين في الذكر والمبيض في الانثى . وبعضها ثانوي او عرضي كطول الشعر في وجه الرجل وتزوُّق ريش الديك وكبر ثديي المرأة واغبرار لون الدجاجة وهلمَّ جرًّا

اما الصفات الاولية فما يختص منها بالذكور لا يظهر الاَّ فيهم . وما يختصُّ بالاناث لا يظهر الاَّ فيهنَّ . وقد تجتمع هذه الصفات في شخص واحد فيكون ذكراً وانثى معاً وهو الخنثى. وذلك نادر جدًّا في البشر والحيوانات العليا لكنهُ كثير في بعض انواع الحيوانات الدنيا كالبزَّاق ويكاد يكون عامًّا في انواع النبات لا يستثنى منهُ الاَّ ماكان مثل النخل والصنوبر اذ تكون ازهار الذكر في شجرة وازهار الانثى في اخرى. اما الصفات الثانوية فغير مرتبطة باخلاف النسل ارتباطاً جوهريًّا اي هي خارجة عن اعضاء التوليد ،ومع ذلك تظهر وتنمو حينما يصير الحيوان قادراً على التوليد ، فترَى جلية في البالغ منهُ ، ولو لم ترَ جلية في صغاره كما ترى في الفرق الظاهر بين الرجل والمرأة ، والديك والدجاجة ، والثور والبقرة ، والكبش والنعجة ، والتيس والعنزة ، ولو لم تظهر في صغار هذه الحيوانات . وتظهر ايضاً في الوان الطيور واشكال الاسماك فيراها مربُّو الطيور ، وصائدو السمك ، ولو لم ينتبه لها غيرهم

وليس لهذه الصفات الثانوية علاقة جوهرية بالتوليد ولكن لها علاقة ثانوية . فبعضها من الجواذب التي تقرّب بين الذكر والانثى ، لاخلاف النسل كألوان الطيور واصواتها . وبعضها من الاسلحة التي تمكن الذكور من الحصول على الاناث كقرون الكباش والايائل وبينها وبين الصفات الاولية صفات اخرى بين بين ، اي انها ليست ضرورية ، لاخلاف النسل حتى لا تقوم الولادة من دونها ، ولكنها متعلقة به كإدرار اللبن من اناث الحيوانات اللبونة او الثديية ، لتغذية اطفالها . ومنها وجود مثقب لاناث بعض الحشرات تثقب بهِ الثمرة او نحوها لتضع بيضها في الثقب ، حتى اذا ظهرت صغارها وجدت لها طعاماً كافياً ، ووجود اكياس لذكور بعض الاسماك والضفادع تحمل به بيض اناثها الى ان تولد صغارها منهُ

واذا انعمتَ النظر وجدتَ انَّ الصفات الجنسية كثيرة جدًّا مختلفة الدرجات مما هو لازم لزوماً لابدَّ منهُ لتوليد النسل ، كالمبيض في الانثى والخصيتين في الذكر الى ما هو عرضي تماماً كصياح الديك ونقيق الدجاجة ومع ذلك لاتنكر علاقة هذه الصفات الثانوية بالتوليد ولوكانت علاقة غير جوهرية

من الامور المشاهدة ان الصفات الثانوية يتوقف ظهورها ونموُّها غالباً على وجود الصفات الاولية ونموها فلا تظهر واضحة الاَّ متى بلغ الحيوان اشدَّهُ ذكراً كان او انثى ، اي متى نمت الصفات الاولية فيهِ وبلغت غايتها والحيوانات التي تتزاوج وتتوالد ، في فصل معلوم من السنة يظهر فيها بعض الصفات الثانوية ، في ذلك الفصل فقط ، كأنها وجدت لاجل التزاوج والتوالد واخلاف النسل لاغير ومن هذا القبيل نمو قرون الايائل ، في فصل المزاوجة وسقوطها بعدهُ . ومنهُ علاقة القرون بالخصي فاذا خصيت الحيوانات ذوات القرون وهي صغيرة قبلما تنبت قرونها بطل نموّ قرونها او نمت صغيرة فاذا خصي الايل صغيراً لم ينبت قرناهُ بعد ذلك . واذا خصي بعد ان كبر قرناهُ ثم وقعا في ميعاد وقوعهما لم ينبتا بعد ذلك او نبتا صغيرين في الفصل التالي . ومن الغنم صنف ذكورهُ قُرْنٌ واناثهُ جُمٌّ فاذا خصيت حملانهُ صغيرة قبلما تنبت قرونها لم تنبت بعد ذلك او نبتت صغيرة واذا خصيت بعد ان تنبت قرونها بقيت على حالها ولم تكبر ، ومنهُ صنف ذكورهُ واناثهُ قرنٌ ولكن قرون الذكور اكبر من قرون الاناث فاذا خصيت الذكور صغيرة نبتت لها قرون صغيرة كقرون الاناث اي صارت الذكور كالاناث في الحالين اذا خصيت صغيرة

يؤخذ مما تقدم ان هذه الصفة الثانوية ، في ذكور الغنم تابعة للصفة الاولية فيها ، التي تميز الذكور عن الاناث وهي وجود الخصيتين . ومن هذا القبيل كثير من الصفات الثانوية ، فانها لا تظهر اذا نزعت الخصيتان قبلما تظهر او تظهر ضعيفة . ولكن اذا نزعت الخصيتان بعد ما تظهر فان نموَّها يقل او يقف عن الحد الذي بلغته ، وذلك واضح في خصيان البشر ، وأشهر الظواهر شعر العارضين والصوت . واذا نزع المبيض من الانثى (وهو بمثابة الخصيتين في الذكر من حيث صلته بالتوليد) فان نزعهُ يؤثر في صفات الانثى الثانوية ولكن تأثيرهُ يكون اقل من تأثير نزع الخصيتين من الذكر ، فتصير الانثى ميالة الى الزهو والمرح كالذكر ولكنها لا تعدم بعض المزايا الظاهرة المميزة لها

تقدم ان هذه الصفات مرتبطة كلها باخلاف النسل ، وقد توالى ظهورها وثبتت بالانتخاب الطبيعي والجنسي . فقرنا الكبش نبتا وبلغا الحدّ الذي تراها فيهِ الآن لكثرة ما ناطح اقرانهُ لاحراز الاناث في فصل المزاوجة . فهما مرتبطان بخصيتيهِ ، فاذا نزعتا بطل الباعث على نموّ قرنيهِ . ولا ينتظر ان يكون بين الخصيتين والقرنين علاقة عقلية فيقول القرنان لم يبقَ داعٍ لنموّنا بعد سَلت الخصيتين ، فلا نتعب نفوسنا بالنموّ ولكن لا بدَّ من علاقة ما طبيعية وفسيولوجية ، اي لا بدَّ من وجود شيء في الخصيتين يؤثر في نمو القرنين او في البدن كلهِ فيربط نموّها بوجود الخصيتين

وقد عللوا ذلك بأنهُ يفرز من الخصيتين والمبيض مفرزات داخلية (هرمونات) تدور مع الدم وتؤثر في البدن وقد ابان الاستاذ شتيناخ الجرّاح النمسوي المشهور ذلك ، بأنهُ نزع المبيض والخصيتين من الجرذان وخنازير الهند ، وطعم بعض الذكور بخصي ذكور اخرى او بمبيض الاناث ، والاناث بمبيض اناث اخرى او بخصى الذكور . فالحيوانات التي اكتفى بنزع خصاها او مبيضاتها نمت مثل غيرها ولكن لم تظهر فيها الصفات الجنسية الثانوية او ظهرت ضعيفة . والذكور التي ابقى خصاها وطعمها بخصى ذكور اخرى قويت فيها الصفات الثانوية المميزة للذكور فكبر جسمها وزادت اقتحاماً وطلباً للاناث . والذكور التي طعمت بمبيض الاناث صارت كالاناث في طباعها وشكلها وكبر ثديها وصارت تفرز لبناً كثدي الاناث وترضع اجراء غيرها كأنها اناث . والاناث التي طعمها بخصى الذكور ظهرت صفات الذكور فيها . فانها كبرت وقويت وشرست وصارت كالذكور في طلبها للاناث . والديوك التي تخصى صغيرة لا يكبر عرفها ولكن ريشها لا يختلف عن ريش غيرها من الديوك . فاذا نزع المبيض من دجاجة بدت عليها صفات الديوك فيكبر عرفها كعرف الديك ويطول بعض ريشها ويتلوَّن . ويحدث مثل ذلك في البط . اي ان نزع الخصيتين اقل تأثيراً في هذه الطيور من نزع المبيض . ومعلوم ان اناث الطيور اذا جاوزت السن الذي تبيض فيهِ شابهت الذكور فاتصافها بصفات الذكر اقرب وقوعاً

ويمكن تعليل ذلك كلهِ بأنهُ يفرز من الخصيتين والمبيض مفرزات داخلية تؤثر في الحيوان الذي تكون فيهِ ، فمفرزات الخصيتين تولّد في جسم الحيوان صفات الذكور الثانوية ومفرزات المبيض تولد فيهِ صفات الاناث الثانوية سواءٌ اكان الحيوان ذكر او انثى في الحالين . ولكن يعترض على ذلك بوجود الخصيتين والمبيض في حيوان واحد وتظهر الصفات الواحدة في احد شقيه والاخرى في الآخر . فان بعضهم وجد عصفوراً من العصافير التي صدور ذكورها حمرٌ ، وكان الجانب الايمن من صدره احمر كصدر الذكر والجانب الايسر اصهب ، اي ان احد جانبي صدرهِ ذكر والآخر انثى فقال بعضهم ان هذا ينفي كون سبب الصفات الجنسية الثانوية مفرزات داخلية من المبيض والخصيتين لانهُ لو صحَّ ذلك لابطلت مفرزات الواحدة فعل الاخرى . ولكن ذلك قد لا ينفي فعل المفرزات الداخلية ، اذ يحتمل ان يكون فعلها في الجانب الذي هي فيهِ اشد من فعلها في الجانب البعيد عنها

الطاقة

من نيوتن الى اينشتين

لمحمد عاطف البرقوقي(١)

لعلَّ أهم الابحاث التي شغلت عقول العلماء في العهد القديم والعهد الحديث هو موضوع الطاقة فمن علم الميكانيكا الذي وضع اساسه العالم الانكليزي نيوتن نعلم ان الجسم المتحرك لهُ طاقة تسمى طاقة الحركة فالسهم اذ يترك القوس يتحرك بسرعة وتصبح لهُ طاقة يظهر اثرها اذا صدم جسم غزال فان السهم يلهب جسمه ويجرحهُ وكذلك الجسم المقذوف الى اعلى تحت تأثير الجاذبية تقل سرعته وبذلك تقل طاقة حركته ولكن هل تقل الطاقة هكذا دون ان يظهر لها اثر آخر ؟ بل لا بد من تعويض الطاقة المفقودة بطاقة اخرى تسمى طاقة الوضع في هذه الحالة لان هذا الجسم المقذوف الى اعلى تقل سرعته الى ان تتلاشى وعندئذٍ تنعدم طاقة حركته وتتحول جميعها الى طاقة وضع بحيث اذا لم يمنع الجسم عائق فانهُ يتحرك الى اسفل ثانية من تلقاء نفسه

وليست الطاقة مقصورة على هذين النوعين فقط بل هناك مثلاً الطاقة الكيميائية والطاقة الكهربائية والطاقة الحرارية . ويمكن للطاقة ان تتحوَّل من صورة الى اخرى فالطاقة الكيميائية تتحول الى طاقة حرارية كما لو وضعت بعض المواد في بعض الحوامض فانها تحترق وكذلك الطاقة الكيميائية تتحول الى طاقة كهربائية كما في البطاريات اذ البطارية ما هي الا لوحان من معدنين مختلفين بينهما مواد كيميائية فمن التفاعل الكيميائي يشحن كل لوح بجهد مختلف ومن فرق الجهد بين اللوحين يسري التيار اذا وصل اللوحان بسلك وكذلك الطاقة الكهربائية تتحول الى طاقة حرارية كما لو مرَّ التيار في المدفاة الكهربائية فيسخنها وتشع الحرارة في الغرفة

﴿ العلاقة بين الطاقة الميكانيكية والطاقة الحرارية ﴾ : كان العلماء يعتقدون منذ قرن ان ارتفاع درجة حرارة الجسم ناشيء من وجود سائل خفيف الوزن في الجسم وكلما زاد مقدار هذا السائل في الجسم ارتفعت درجة حرارته فاذا وصل بجسم آخر اقل منهُ في درجة الحرارة سرى هذا السائل من الجسم الساخن الى الآخر وتعرف هذه النظرية بنظرية « السيال الحراري » ولكن هذه النظرية بعد ان مكثت مدة تفسر بعض الظواهر ارتطمت امام التجارب الاخرى اذ أدي الاخذ بها الى نتائج لا تحققها التجارب . وكان اول معول بدأ في هدم هذه النظرية معول «كونت رمفورد» فبينما كان

---

(١) حائز درجة شرف في العلوم من جامعة برستول واستاذ الطبيعة في المدرسة السعيدية الثانوية بالجيزة

يقوم بملاحظة تقوير الانابيب لعمل المدافع عام ١٧٩٨ كانت برادة الحديد المتناثرة والناتجة من التقوير ساخنة جداً كما لو حككت قطعتي حجر احدهما بالاخرى فان حرارتهما ترتفع وتوقد الفتيل. وقد تبع هذا هادم آخر هو «السر همفري داڤي» اذ تمكن من صهر قطعتي جليد دون تسخين بل بالاحتكاك وهما متلاصقتان . فهل كان هناك «سيال حراري» في احدى القطعتين دون الاخرى وهما دون الصفر . فلا بد ان يكون هناك علة اخرى وهي العلاقة المتينة بين الطاقة الميكانيكية او الشغل الميكانيكي وتوليد الحرارة وهذا ما اثبته العالم الانكليزي «جول» اذ اجرى عدة تجارب اثبت فيها ان مقدار الحرارة الناتجة من الشغل الميكانيكي تتناسب مع هذا الشغل. وبذلك بطلت نظرية السيال الحراري نهائياً

﴿ طاقة موجات الضوء والحرارة ﴾ : كما ان للحرارة طاقة فكذلك لموجات الضوء طاقة فموجات الحرارة وموجات الضوء كلاهما موجات مستعرضة الاَّ ان طول الموجات الحرارية اكبر من طول الاخرى بل هي لكبرها لا تثير حاسة الابصار ويمكن ان تدرك ذلك بالرجوع الى حالة الصوت فنحن نعلم ان كل صوت لا بد ان يحدث من اهتزاز الجسم فالناقوس اذ يدق يهتز والكمان اذ تعطي اي نغمة فان وترها لا بدَّ ان يهتز ويقوي النغمة عمودها الهوائي وهكذا . ولكن هل كل جسم يهتز لا بدَّ ان يصدر صوتاً ؟ لا . وذلك لان الجسم المهتز والذي لا يصدر صوتاً يسبب موجة لا تثير حاسة السمع . رأيت ان اذكر هذا المثل للمقارنة بحالة يسهل ادراكها بسرعة لاننا نشاهدها يومياً في الحياة . ولكن هذه الحقيقة — الضوء والحرارة موجات من نوع واحد — يمكن اثباتها بتجارب كثيرة منها انك اذا أمررت اشعة الشمس من منشور فان الضوء الابيض يتحلل الى ألوان الطيف بحيث يبدأ الطيف باللون الاحمر وينتهي الى البنفسجي فاذا أمررت جهازاً حساساً لادراك الطاقة الحرارية الصغيرة — كالتي نحن بصددها — فان تأثر هذا الجهاز في حالة وجوده عند الجزء الاحمر اقوى منهُ عند الجزء البنفسجي فاذا حركت الجهاز الى ان يقع في الجزء الذي قبل الاحمر فانه يتأثر أيضاً ولو انه في الجزء الذي لا يثير حاسة الابصار. وقد وجد ان لكل لون — او لكل موجة — طاقة خاصة وقد حاول كثير من العلماء تفسير هذه العلاقة فلم يفلحوا حتى جاءهم بلانك Planck واخرج نظريته المسماة «نظرية الكم» Quantum theory التي يقول فيها ان طاقة الاشعاع اوطاقة موجات الضوء والحرارة ليست متصلة بل متقطعة — وكل جزء من الطاقة — ويسمى «كماً» — يساوي مقدار ثابت × تردد الموجة . ويسمى هذا المقدار الثابت بثابت بلانك لأهميته الرياضية وقد امكن تفسير ظواهر كثيرة بهذه النظرية وخصوصاً تلك الظواهر الخاصة بالالكترون واشعة اكس

﴿ الطاقة والمادة ﴾: والطاقة هنا يقصد بها طاقة موجات الضوء والحرارة . كان نيوتن يعتبر ان الشعاع الضوئي يتركب من دقائق تسير في خطوط مستقيمة في الوسط المتجانس وتمكن بنظريته هذه المسماة «نظرية الدقائق» Corpuscular Theory — اقول قد تمكن ان يفسر ظواهر كثيرة

مثل حدوث الظل والانعكاس ولكنهُ عند ما حاول تفسير الانكسار وصل الى نتائج خطأ اذ وجب ان تكون سرعة الضوء في الماء اكبر من سرعته في الهواء وهذا ما لم تثبته التجارب بل اثبتت عكسه لان سرعة الضوء في الماء اقل من سرعته في الهواء فبطلت هذه النظرية وتبعتها النظرية الموجية Wave Theory وهي تفرض ان الضوء لا يتكون من دقائق كما يقول نيوتن بل من موجات مستعرضة تنتشر في الاثير كما تنتشر موجات الماء على سطح البحر ولكن بسرعة هي اكبر سرعة معروفة للآن . وامكن بهذه النظرية تفسير الانكسار تفسيراً يتفق مع التجارب وكذلك تفسير التداخل Interference وتحليل الضوء والزيغ Diffraction وقد عاشت هذه النظرية الموجية الى الآن ولكن في السنين الاخيرة جدت تجارب وظواهر لا يمكن تفسيرها الأ اذا افترضنا ان الموجات بها دقائق اي لها بعض صفات المادة وكذلك المادة لها صفات الموجات وبالفعل حاول العلماء تحقيق هذه الفكرة فأطلقوا تياراً من الالكترونات — Stream of electrons — حتى تسقط عمودية على لوح رقيق من المعدن فبدلاً من ان تنفذ مع هبوط في سرعتها او هبوط في شدتها — بدلاً من ذلك نفذت وكوَّنت حلقات كما تفعل الموجات تماماً اي ان الالكترونات وهي مادة عملت عمل الموجات — كموجات اشعة اكس مثلاً — وعلى ذلك لم تكن هناك مندوحة من فرض ان الطاقة والمادة اسمان لمسمى واحد يمكن لاحدهما ان ينتج أثر الآخر

﴿ اينشتين ﴾ ذلك العالم الذائع الصيت وصاحب النظريات التي حيرت عقول اكبر اساتذة الطبيعة في الجامعات الاوربية ومع ذلك فالعالم مضطر لقبولها لانها تفسر عدداً غير قليل من المشاهدات الفلكية والتجارب العملية ولعلَّ ادهش وأظهر مافي نظريته النسبية Theory of Relativity افتراض ان كتلة الجسم تزداد بازدياد سرعته تبعاً للعلاقة المشهورة التي استنتجها اينشتين وهي :

$$\text{كتلة الجسم اثناء حركته} = \frac{\text{كتلة الجسم وهو ساكن}}{\sqrt{١ - \frac{\text{مربع سرعة الجسم}}{\text{مربع سرعة الضوء}}}}$$

أما بالرموز

$$\text{ك} = \frac{\text{ك.}}{\sqrt{١ - \frac{\text{ع}^{٢}}{\text{ه}^{٢}}}}$$

بحيث يدل كل رمز على ما يماثله في القانون السابق وباختصار هذه المعادلة نجد ان

$$\text{ك} = \text{ك.} \left(١ - \frac{\text{ع}^{٢}}{\text{ه}^{٢}}\right)^{\frac{١}{٢}}$$

$$= \text{ك.} \left(١ + \frac{\frac{١}{٢}\text{ع}^{٢}}{\text{ه}^{٢}} + \ldots\ldots\right)$$

$$= ك. + \frac{١}{ح^٢} \times \frac{١}{٢} ك.ع^٢ + ...)$$

اي ان كتلة الجسم وهو متحرك = كتلة الجسم وهو ساكن + $\frac{\text{طاقة الحركة للجسم}}{\text{مربع سرعة الضوء}}$

ومن هذه المعادلة نرى ان الجسم اذا تحرك زادت كتلته . وهي نتيجة يدهش لها القارىء المفكر — على ما اعتقد — لانه ربما يسأل وهل القطار المتحرك تزداد كتلته او الطيارة المتحركة تزداد كتلتها . والجواب عن مثل هذا السؤال هو بالايجاب بناء على نظرية اينشتين . ولكن لا تندهش ايها القارىء الكريم فسوف يقل عجبك اذا علمت ان الزيادة لا تكاد تذكر في حالة اسرع قطار او اسرع طيارة ولكن الزيادة كبيرة جداً اذا كانت سرعة الجسم تقرب من سرعة الضوء التي هي اكبر سرعة معلومة للآن كما ذكرت سابقاً . وسأثبت ذلك بمثال :

اكبر سرعة لطائرة في عالم الطيران هي حول ٤٨٠ ميل في الساعة اي حوالي ٢١١٢٠ سنتمتراً في الثانية تقريباً . ولنفرض انه كان يمكن ان نصل الى سرعة ٣٠٠٠٠ سنتمتر في الثانية فتكون نسبة سرعة الجسم الى سرعة الضوء تساوي $\frac{١}{\text{مليون}}$ وهي نسبة صغيرة فما بالك بمربعها

$$\frac{\text{مربع سرعة الطيارة}}{\text{مربع سرعة الضوء}} = \frac{ع^٢}{ح^٢} = \frac{١}{\text{مليون تربيع}} = ٠٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠١$$

وتكون الزيادة في كتلة الطيارة = $\frac{١}{٢} \times \frac{١}{\text{مليون تربيع}} \times$ كتلة الطيارة وهي ساكنة

فاذا كانت كتلة الطيارة وهي ساكنة تساوي ٠٠٠ر٥٠ كيلو جرام اي حول ٥٠ طناً

فتكون هذه الزيادة في كتلة الطيارة = $\frac{١}{٢} \times$ ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٠ × ٠٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠١

= ٠٠٠٠ر٠٠٠ر٠٢٥ جرام

فانظر الى هذه الزيادة الطفيفة جداً بل المهملة في كثير من عملياتنا الدقيقة مع هذه السرعة الزائدة في حياتنا العملية

ولعلّ القارىء الكريم يقول وما لنا اذن ولهذه النظرية التي لا تجدي ولا تؤثر — حقاً انها لا تؤثر في كتلة مثل هذه الاجسام وفي مثل هذه السرعة ولكن احسب لنفسك الزيادة في كتلة جسم يسير بسرعة تساوي عشر سرعة الضوء — وليس جزء من مليون — تجد ان الزيادة في الكتلة لا تبلغ جزءاً من الكتلة الاصلية بل اكثر من ضعفين — بل ٣ر٢ مرة من كتلتها وهي ساكنة وهذا ما يحصل في حالة دقائق بيتا B التي تقذف من الراديوم

ولهذه الزيادة قيمتها في عالم التجارب الدقيقة التي تعمل على الالكترون المتحرك بهذه السرعة الكبيرة وبهذه النظرية حققت كثير من التجارب وثبتت نهائياً قيمة الشحنة التي على الالكترون

عودة الروح

تأليف توفيق الحكيم

نقد وتحليل بقلم محمد علي حماد

— ١ —

اشخاص القصة

« عودة الروح » : هي ثاني الاعمال الادبية التي ظهرت للاستاذ توفيق الحكيم بعد « أهل الكهف » روايته البكر التي احدث ظهورها ضجة لا في مصر وحدها بل في العالم العربي بأسره ورفعته درجات في سماء الشهرة والمجد وتكاثرت عليه اكاليل المديح والثناء حتى ازدحمت بها صفحات الجرائد والمجلات وتبارى في تقريظها كبار الكتّاب والادباء . و «عودة الروح» هي القصة المصرية الاولى Novel التي يؤرخ ظهورها عهداً جديداً وفتحاً مبيناً في تاريخ الادب المصري . وهي مصرية بمؤلفها وناسج بردتها هذا النسيج المحكم الدقيق ، مصرية بأبطالها ، مصرية بوقائعها ، مصرية بدمها الذي يجري في شرايينها دماً مصريًّا خالصاً ، مصرية بهذا الوصف الذي يعرض لاشخاص واماكن وعواطف وميول كلها مصري صادق اصيل ، مصرية بهذه الصفحات الكريمة التي مجد فيها المؤلف الفلاّح المصري والثورة المصرية ، وهي اخيراً مصرية بلغتها التي أتحدث بها انا وانت وغيرنا من الاربعة عشر مليوناً من المصريين ، هــذه اللغة المحببة التي هي حديثنا في المنزل وفي الطريق ، في الجمع الحاشد وفي الصفوة المختارة من الاصدقاء ، حيثما كنا وايان اجتمعنا ، هذه اللغة المصرية التي نجد لها في النفس والقلب وقعاً خاصًّا ورنيناً خاصًّا لانجدهما في غيرها من اللغات حتى ولا في هذه اللغة العربية التي نتكلفها تكلفاً بين آونة واخرى لغرض معين او في ظرف معين ، فاذا ما انتهينا من هذا الغرض وقضينا منه وطراً ، واذا ما خرجنا من هذا الظرف الطارىء ، عدنا الى لغتنا نعب فيها ما نعب في سهولة ويسر ، وفي طبيعة غير متكلفة ولا مملولة ، ورجعنا بذلك الى احضان البيئة الاصيلة التي نحيا فيها حياتنا اليومية ، وخلعنا عنا رداء مستعاراً نبدو من بعده في لباسنا الحق ، فاذا نحن مصريون قبل كل شيء ، روحاً وجسداً ولغة

أبطال هــذه القصة قلائل ، او قل ان من يعنينا من اشخاصها قليل ، وعندنا محسن وعبده وسليم ومبروك وزنوبة وهم الذين جمعهم المؤلف تحت كلمة «الشعب» ثم مصطفى وسنية . وغير هؤلاء ثمة شخصيات تمر بها سريعاً ، وأخرى نتريث عندها برهة ثم تمضي . ولكن ما من شخصية من

كل هذه الشخصيات التي تطالعك في ثنايا القصة الآ ولها شأنها ولها خطرها ، ولها مكانتها في سياق الحديث والقول . وان المؤلف ليتأنق في عرض ابطاله وفي تصويرهم وابرازهم تأنق الغانية الفاتنة لا تهمل صغيراً من أمر زينتها الآ وتعنى به اكبر العناية ، لان من هذا المجموع تتكوّن في عينك الصورة التي تحبها والجمال الذي تعشقه ، ولو وجدت ثمة خدشاً او نقصاً هنا او هناك لنقص جمال الصورة بقدر هذا بل اضعافه لان الاحساس بالنقص يستوي عنده القليل والكثير ، وربّ ذرة من ملح أفسدت على المرء طعامه وشرابه . والمؤلف جدّ حريص على ان تستوي في ناظريك الصورة في اناقة لا تشوبها شائبة ، وفي اطار حلو بارع كل البراعة ، دقيق كل الدقة ، لا تجد فيه خدشاً ، ولا تحس فيه نقصاً

يروعك من هذه القصة لاول وهلة دقة تصوير شخصياتها على اختلاف كبير بين هؤلاء الابطال في النشأة والعلم والاستعداد الشخصي ، وانك لواجد في كل منهم شخصية تخالف الاخرى وتفترق عنها في الكثير والقليل ، تجمعهم احياناً وحدة الحادثة ولكن ما أشد تباينهم تجاهها في الشعور والحس والادراك الصحيح . وما أبلغ هذا التباين في الاندماج في الحياة والانفعال بمختلف ما تأتي به من خير او شر ، من رجاء او خيبة ، من أمل او يأس ، وتكاد تحس فيهم جميعاً طيبة القلب وسذاجة الفطرة ، والتبسط في الحياة ، وتقبل ما تأتي به صروفها من ألم او أمل ، في رضى واستسلام او في غضب هو بالرضى أشبه ، ولكن كلاً نسيج وحده ، وكلاً بعد ذلك له خلقه البارز وطبعه المغاير وشخصيته الفذة التي تترسمها ولا تكاد تخفى على ناظريك طوال القصة ، في معالمها الكبرى وأسطرها الواضحة وحادثاتها الجلّى ، بل في تفاصيلها الدقيقة وما بين هذه الاسطر والكلمات ، وما بين تضاعيف القصة من حوادث وصروف وتقلبات

وأظن ان من الخير ان نلم المامة عاجلة بهذه الشخصيات المحببة التي سرعان ما تألفها وتحبها حتى تشعر وكأنهم أحياء يتحدثون ويتحركون امام ناظريك ، لا أبطال قصة من صنع الخيال من ورائهم المؤلف يحركهم كالدمى الخشبية ويفتعل لهم المواقف والحديث والحركة

« محسن » وهذا « محسن » بطلنا الناشيء، الطالب في مستهل دراسته الثانوية، الشاب في غرارة الصبا واول خطى العمر الغض، ما اجدره بالحب واخلق بقلبه الفتي ايفتح مصراعيه لاول طارق وان يصيبه السهم الاول فيدميه ويجرحه جرح الابد . وذلك هو الجرح الذي لا يفتأ على الايام يؤلم ويدمي . و « محسن » يحب ولكن على استحياء وخجل ، وفي صمت وكتمان . فاذا لمح بادرة امل راح والدنيا لا تتسع لنشوته ، واذا داخله اليأس افعم قلبه وروحه وضاقت الدنيا في عينيه بما رحبت . لا يعرف مداخل الرجل الى قلب المرأة ، ولا يدري كيف يغزو الغزاة هذا الحصن المنيع ويحسنون الطرق على أبوابه حتى تنفتح لهم عن جنات ورياض زاهرة من الامل الباسم الحلو ، والسعادة العذبة التي تطغى على القلب والفؤاد وتفعمها حياة وقوة وأملا زاخراً

ويتعمد المؤلف ان يقدم لنا بطله في صورة الشاب الصغير السن ، القليل التجربة ، ولا يفتأ يذكرنا بهذه الصورة في مناسبات عدة وفي ظروف متباينة ليبني عليها ما يشاء فنه القصصي البارع الدقيق من ملابسات وأخيلة وتصرفات تناسب هذه الصورة وتلائمها كل الملاءمة ، وما تكاد تمضي في القصة صفحات حتى يحدد لك المؤلف عمر «محسن» تحديداً دقيقاً لا يترك مجالاً للبس والابهام فهو في الخامسة عشرة من عمره . ثم يتحدث عنه احياناً قائلاً « الفتى الصغير » او «الغلام» وهذه «سنية» عند ما تستدرج أمها لمقابلته تصفه بأنه طفل ... وتقول مخاطبة امها

— ياستي دا مش راجل ...

وهذه النظرة من سنية لمحسن لها شأنها الكبير في سياق الرواية ، بل لعلّ سنية لو تبدّلت نظرتها هذه لمحسن لتبدّلت القصة كلها . وسيجيء تفصيل هذا في سياق القول

ولا يقف المؤلف عند هذا . وها هو محسن نفسه يشعر في اعماق قلبه ويحس احساساً قويًّا انهُ صغير . . . لا يصلح لمنافسة الرجال في المرأة وفي محاولة الاستيلاء عليها . ويصف المؤلف هذا الاحساس في نفس «محسن» وصفاً صادقاً دقيقاً ، ويحلله تحليلاً نفسانيًّا بارعاً ، مرتين ، الاولى عند زيارة «عبده» لمنزل «سنية» لاصلاح سلك الكهرباء ، والثانية عند انتهاز «سليم» فرصة تلف بيانو «سنية» ودخوله منزلها مدعياً انه له خبرة بمثل هذه الشئون

ففي الاولى اوحت بعض تصرفات « سنية » لبطلنا الشاب هذا الوحي المرعب « ان النساء قبل كل شيء يهمنَ بالرجل القوي الممتلىء طولاً وعرضاً ذي الصوت الخشن مدفوعات بدوافع خارجة عن ارادتهنّ . لعلها الغريزة الجنسية . ولعله هو بالنسبة لعبده ما زال طفلاً او غلاماً لا يوحي الى المرأة تلك العاطفة »

ويحس «محسن» من اهمال «عبده» لشأنه وعدم اعتداده به كمنافس خطر يزاحمه على «سنية» يحس الشاب «انه صغير لا يصلح حتى ان يعد غريماً ومزاحماً »

وضرب المؤلف على هذه النغمة في المرة الثانية عقب ان رجع «سليم» من بيت الجيران — اعني بيت سنية كما يعبر عنه المؤلف احياناً — وراح يتحدّث بمحاسن الفتاة الجثمانية ، ويفصل القول في تقاطيع جسمها تفصيلاً تشمئز منه نفس «محسن» فيضمر لسليم شيئاً لا يدرك كنهه ، ثم

« أحس ذلك الاحساس المبهم مرة اخرى بصورة اوضح . احساس القصور والضعف المذل بالنسبة لسليم . وتصور سليم ذلك الرجل الذكر الذي يتغلب بسهولة على المرأة ولا قبل لها بمقاومته . . . او ان سليم رجل يعرف اشياء لا يعرفها هو . . . او ان . . . او ان . . . لا يدري الصغير محسن ... انها مجرد احساسات غامضة لا يستطيع تعليلها ، ولا يفهم منها الاَّ انهُ بات يكره سليم ويخشاه ويشعر نحوه بشبه اذلال نفسي »

وهنا كان احساس «محسن» بقصوره في « صورة اوضح » ولم يصف في دخيلة نفسه « سليم »

بلفظة « الرجل » فقط كما وصف « عبده » بل تخيله « الرجل الذكر » وذلك لان « سليم » تحدث عن « سنية » تحدث الرجل الذي يتنبه للمرأة بدافع الغريزة الجنسية ومن حيث هي — اي المرأة — جسد يشتهى ويثير في الرجل شهوة بهيمية

فالمؤلف كما ترى لم يترك لك خياراً في الصورة التي تتخيلها عن « محسن » . فقد بدأ وقدمه لك في عبارات صريحة تشعرك بصغره ، سناً وعاطفة ، ثم جعل « سنية » تتحدث عنهُ لامها بما رأيت من انهُ طفل ، ثم ابى اخيراً الاَّ ان يدفع بهذا الاحساس في قلب « محسن » نفسه ويغوص وراءهُ ليقدمهُ لك في صورة صريحة لا لبس فيها ولا غموض . وكأن كل هذا لم يرض المؤلف في رسم الصورة التي يريدها لبطله فجعل « محسن » يأتي من الاعمال ويتصور من الاخيلة والاحلام ما لا يليق الاَّ بعقل طفل ، او شاب حدث لما تكتمل له بعد قوى الرجولة والاعتزاز بالنفس من هذه الناحية . وقصة المنديل تنهض هنا دليلاً ناطقاً بصدق هذه الصورة التي رسمها المؤلف « لمحسن » . الرجل لا يسرق المنديل ولكن يسرق المرأة نفسها ويختطفها اختطافاً . والرجل لا ينتظر هذا الخطاب الذي انتظرهُ « محسن » اياماً كاملة ، فاذا ما وصل اليه لا يبني عليهِ كل هذه القصور والآمال ، ولا يستوحي اسطره وكلماته الجوفاء كل هذه الاحلام العريضة التي استنزلها « محسن » من رأسهِ الصغير وقلبه الصغير مدفوعاً بغرارة الصبا ، هذا القلب وتلك الرأس الخليقان بشاعر يعيش في دنيا من الوهم والخيال . والرجل لا يقلب الامور رأساً على عقب فيجعل الحقيقة دون الخيال ويأبى الاَّ ان يصر على احلامه التي تخيلها ساعة او بعض ساعة بعد ان ينكشف له الحق الصراح في جلاء ووضوح . وهذا « محسن » يعرف ان الخطاب الذي وصله في القرية لم تكتبه « سنية » ولكن كتبه عرضحالجي بامضاء « زنوبه » ومع ذلك يلذ له ان يكذب فيما بينهُ وبين نفسه هذا الذي اتصل بهِ ويمضي ممعناً في خياله واوهامه ، محتفظاً بهذا الخطاب يستروح في كلماته من حين لآخر املاً عذباً ورجاءً منشوداً

على ان المؤلف لا يمعن هذا الامعان كله في تحديد صورة بطله الشاب عبثاً ودون غاية معلومة او خطة مرسومة . ولا يلح هذا الالحاح كله في دقة التصوير وفي الوضوح فيهِ لغير شيءٍ ، بل له من وراء هذا كله اغراض وغايات . ودعك من انهُ يقيم العذر لسنية في تجاهلها « محسن » وفي انها لم تحس حياله بما تحسه المرأة حيال الرجل ، ودعك من ان المؤلف يهيء من هذا اللون الطريف لبطله طعاماً دسماً يقدمه لقرائه في شتى مواقف القصة ، دعك من هذا ومن غيره مما اليه بسبيل من هذه الغايات التي يتطلبها الفن القصصي ويستلزمها سياق القول والحديث وقل ان المؤلف عرض بين يدينا صورة رائعة كاملة في معالمها الكبرى وتفاصيلها الدقيقة عن هذا الحب الافلاطوني ، او هذا الهوى العذري بلغة الشعراء ، هذا الغرام الذي يفيض على النفس جمالاً قدسياً هو من السماء وليس من هذه الارض ، هو من ملأ اعلى حيث تسمو الروح فوق غرائز الجسد ، وتنمحي هذه

المادة من اللحم والدم ولا يبقى الاَّ معنى من الملائكية يشع نوراً وطهراً ، ويصبح هذا الحب اشبه ما يكون بالعبادة ، ويكون بين الحبيب وحبيبتهِ ما بين العبد والله . ويكون حديث الحب بينهما خليقاً بمحراب او صومعة . ومن هنا احس « محسن » عند حديث « سليم » عن « سنية » وعن تقاطيع جسمها وتفصيله القول في هذا المعنى ، شعر « محسن » « بما يشعر بهِ عابد ورع متنسك وقد رأى احداً يهين معبوده »

ولقد وفق المؤلف في ابراز المعنى الذي اراده في شخصية محسن توفيقاً عجيباً لاتخطئه النظرة العجلى بله النظرة الفاحصة الممعنة التي تزن وتتأمل وتقدر

ثم لنتمهل قليلاً قبل ان نجاوز « محسن » الى غيره من ابطال القصة ولنسأل المؤلف الكريم هل كانت محض مصادفة ان وضع بين يدي بطله رواية « مجدولين » ام لحكمة فعل ذلك ولمعنى خاص لم يرد ان يشير اليهِ بأكثر من هذا الرمز العارض ? ولعلَّ « مجدولين » اقرب القصص الى قلب « محسن » لان فيها هي الاخرى صورة من هذا الحب الافلاطوني الذي غمر قلب بطلنا

ومن يدريني . . . لعلَّ المؤلف اراد ان يسخر من « محسن » ومن « مجدولين » ومن هذا الشباب الذي يقبل على مطالعة مثل هذه القصص اقبالاً كبيراً فتعطيه عن الحياة صوراً هي بالاحلام اشبه ، وتجعله يتعلق بأوهام وخيالات تنسيه حقائق الوجود بعد ان تخفيها عنهُ في هذه الاطر الزاهية البرَّاقة الالوان من صور المثل العليا التي تفسد علينا في مستهل حياتنا كثيراً من نعيم الدنيا وتزيف امام ناظرينا الحقيقة وتدفعنا الى التعلق بآمال كذاب ، وان كنا نعيش بهذه الاحلام زمناً رغداً ، ولكنها حياة كحلم النائم ، والحلم جميل على أية حال ولكنه ليس اكثر من حلم ، والحقيقة مرَّة ولكنها الحقيقة لا مفر منها ولا محيص عنها . ومع هذا فما اظلم حياة المرء خلت دنياه من هذه الآمال الكاذبة ومن هذا الخيال العذب والامل الحلو

ولكن اين توفيق الحكيم وأين «عودة الروح»? كاد المؤلف ان يضيع في تضاعيف فلسفة الناقد ﴿ سليم ﴾ لعلنا تعمدنا الحديث عن شخصية « سليم » بعد « محسن » ليلمس القارىء معنا بعد ما بين الشخصيتين من التفاوت والتباين في الكل والجزء ، في المجموع وفي التفصيلات . وقد يغمض عليك احياناً مشهد من مشاهد القصة ، او حادثة من حوادثها ، وقد يرمي المؤلف بين الفينة والفينة بالغموض والابهام ، ولكن المؤلف على ما يلوح لي لا يغفر للقارىء ان يتخيل لاحدى شخصياته صورة غير التي يريدها لها او خلقها على مثالها ، ومن هنا كانت شخصيات « عودة الروح » صريحة كل الصراحة ، جلية واضحة كل الجلاء والوضوح

هذه الشخصية يغلب فيها جانب الفكاهة جانب الجد ، فهي ليست فكاهة خالصة ، وليست جدًّا خالصاً ، ثم هي ترسم الى مدى بعيد طائفة من الناس تزهو على الناس وتحاول ان ترفع من قدرها فوق اقدار الناس درجات . لست اسمي لك هذه الطائفة ولكنك في غنى عن هذا فانت تعرفها حق

المعرفة ، وانت بها جد عليم ، ولرب قد اختلطتَ ببعض افرادها ورأيت من بينهم من يذكرك « بسليم » ، وحيث تكفي الاشارة اللامحة من الخير ان نكفي أنفسنا مؤونة التصريح المؤلم الممض في غير داع ولا حاجة ملحة . وقد تكون هذه الطائفة من الناس خيراً مما نتوهمهُ عنها ولكن لا نزاع في ان لي ولك ولنا جميعاً فكرة — لست ادري كيف وجدت هذا المدى البعيد — ثابتة عن هذه الفئة ولست اتعرض لاثباتها ولا لنفيها الاَّ لأقول ان « سليم » هو صدى هذه الفكرة في نفوسنا جميعاً

لا تنتهي من الصفحات الاولى للقصة حتى تعلم ان « سليم » ضابط من البوليس اوقف عن عمله لتهوره الذي دفعهُ اليهِ ميله الغريزي لمعاكسة النساء ومحاولة الاتصال بهنَّ دون ان يتخير الطريقة المثلى المأمونة العاقبة . وله في ذلك سبيل أعوج شائك عثر فيهِ مرة ولكن ما يزال يرتجله كل مرة عفو الخاطر كأنهُ طبيعة في دمه او كأنهُ البديهة التي نلهمها ولا ندري من اين هبطت علينا فنساق بها مرغمين . وهو ينظر الى المرأة من ناحية الجسد والمتعة ويسعى وراءها ليشبع غريزة الجنس في الرجل . واذ يرى « سنية » لا يلمح الاَّ تقاطيع هذا الجسد الممتلىء فما يذكر حتى لون « الفستان » الذي كانت ترتديه . وهذا الصنف من الرجال جريء في قحة مبتذلة

دخل « سليم » بيت « سنية » بحجة اصلاح البيانو فما زال بالفتاة يستدرجها حتى عزفت لهُ قطعة موسيقية ، وقدم بين يديها من عبارات المديح والثناء ما أدخل الزهو على نفسها وجعلها تبادله بعض الفاظ الشكر وظفر منها بما لم يظفر به « عبده » وما لم يكن ليظفر به « محسن » لولا ظرفهُ الخاص . وهو لا يتورَّع ان يجري خلف امرأة في عرض الطريق ينثر حولها تلك الكلمات البذيئة التي لا يحسنها الاَّ لفيف من الرجال قد خلعوا عذار الحياء والخجل ، وقد فعلها « سليم » فأعطانا من خلقه وطينته ما يغنينا عن اطالة الشرح والتفصيل

قلت لك ان هذا الصنف من الرجال جريء ، وقد كان « سليم » من بين افراد « الشعب » الوحيد الذي خطرت له فكرة ارسال خطاب الى « سنية » يتحدث اليها فيهِ حديث الحب والغرام وما اسرع ما نفذ فكرته ، وان يكن قد استعان في كتابته بفقرات من « مجد ولين » فذلك لان نفسه لا تتمثل هذا الحب الذي يعينه على كتابة خطاب مثل هذا الخطاب

مرَّ بنا ان « سليم » يمثل صدى فكرتنا عن طائفة من الناس كأن زيهم الخاص سحراً وطلسماً وكأن ميزانه الامر والنهي والتفرد بالسلطان والقوة . والى ناحية الرجل في « سليم » نجد هذه الناحية الاخرى بارزة واضحة . وهذا البطل لا ينسى حتى في جلسته في قهوة « المعلم شحاته » البلدي ان يصرخ ويصيح كأنهُ امام الطابور يلقي اوامره على الانفار !

ولا ينسى « سليم » اذ يذهب لمنزل « سنية » بحجة البيانو ان يخرج بذلته الرسمية ليرتديها وان يعهد « بالضبابير » الى مبروك يجلوها ويلمعها . . . ولا ينسى ان يدهن شاربه بالكوزماتيك ويمشط شعره ويرسل في الهواء ضربات لاخات من كرباجه الجلد الضباطي . . . حتى ليقول له

« حنفي » هذه الكلمة التي تصف لك هذه الصورة المضحكة الفكهة ابلغ الوصف وأوجزه
— دهده ! انت لبست بدلة للتشريفة ؟

« سنية » بطلة قصتنا ومعبودة الشعب على حد تعبير المؤلف ، و « الهة الشرفة » عند مصطفى. وهي المحور الذي تدور حوله القصة من البداية للنهاية ، وكما تجدها في كل قلب تجدها في كل مشهد بل وفي كل جملة ، فهي تسيطر على القصة كلها ، كما تسيطر على ابطالها جميعاً . يحبها الجميع حتى « مبروك » الخادم او من هو في حكم الخادم ، وانهُ ليتأنق في لباسه اذ تؤاتيه الظروف لزيارة منزلها ، ويبتاع له نظارة يلبسها حتى يطابق الصورة التي تخيلتها فيه . ولتجدنّ لها في نفس « سليم » — وما ادراك ما « سليم » — هذا التأثير البعيد الذي يجعله يحس للمرة الاولى في حياته « عاطفة جديدة لم يكن يعرفها من قبل . عاطفة الاعجاب النبيل »

وهكذا بلغ من تأثيرها في نفس « سليم » ان احيت في قلبه ناحية كانت قد اندثرت أو كادت وبعثت منهُ شخصاً آخر وهو من عرفت خلقه وطبيعته !

فتاة في مقتبل العمر ونضارة الصبا لم تنفتح مغاليق قلبها بعد ، ساذجة بفطرتها وبحكم البيئة الطيبة التي وجدت فيها ، وهذه التربية التي درجت عليها ، فيها هذا الخفر الطبيعي الذي تلمسه في الفتيات من سنها وبيئتها ، وفيها جنوح الى هذا العبث البريء الذي هو اشبه بمداعبات الاطفال. لم تحب « محسن » وان كانت قد احست نحوه بعاطفة مثارها هذا الاختلاط اليومي ، وهذا التعلق المشترك بالموسيقى والغناء ، لمحت تأثره الشديد يوم جاء يودعها قبيل سفره بالاجازة الى اهله ، « وأدركت بعض ما به وارتاحت له » ، وكأنما لذَّ لها هذا الظرف الطارىء فاعتصرت ما فيه من هناءة عارضة واستبقت « محسن » الى جانبها قليلاً ، وطغى عليها التأثر فبكت ، ثم قبلته وأبت ان تسترد منهُ منديلها الضائع بعد ان اعترف لها انهُ كان عنده ، وإذ تفيض الكلمات على لسان الفتى بالالم والعتاب ، تمسك بيده المرتجفة وتقول له — ما لكش حق يا محسن ...! برده كده ؟ اخص عليك ! لو كنت مش مهم عندي ما كنتش أعلمك بيانو . . .

ومقياس مكانة « محسن » عندها انها تعلمه البيانو ! ! وهذه العبارة في سذاجتها تدل على ان فكرة الحب كانت ابعد ما تكون عن ذهن « سنية » ولكنها احست حياله في هذا المشهد عاطفة وقتية زادها التأثر شيئاً من الحدة والقوة ، ولكنها بعد كل شيء عاطفة لم تدم اكثر من الهنيهة التي استغرقتها ، ولو ان الفتاة في مثل هــذه اللحظة كانت اكثر ما تكون استعداداً لتلبية نداء الحب لو طرق سمعها هذا النداء . ولكن « محسن » ما يدريه بهذه الشئون وهو الطفل الصغير ! !

على ان « سنية » ما كادت تلمح الرجل في « مصطفى » . . حتى علقت بهِ وحتى اصبح لها شغلاً شاغلاً . والفصل الذي يقص علينا فيه المؤلف تدرج علاقة الاثنين وبدء تعارفهما من اروع فصول القصة ومن ادقها . وفيه هــذا التحليل الدقيق لعواطف الفتاة التي يختلج في قلبها شعور متباين

غامض ، بعضه من الرضا وبعضه من الغضب ، والبعض منه مزيج من الاثنين معاً ، واول ما يلفت نظر «سنية» في «مصطفى» انه على النقيض من «سليم» لا ينظر الى شرفتها على طول مكثه بالقهوة المقابلة ! ! كأن النظر الى الشرفة فرض محتوم وواجب لا بدَّ من أدائه !! ولماذا بالله ينظر اليها وليس كسليم ممن يتصيدون النساء من النوافذ او في عرض الطريق ؟ ولكن هذا الامر عند « سنية » خطير مهول فاهتمت له كل الاهتمام . ولكأني بها وقد غاظها اهمال « مصطفى » لشرفتها أرادت ان تجبره على الاهتمام بها قسراً وعنوة « فجعلت تلبس أبهر اثوابها الواناً وتذهب الى البيانو فتضرب عليه بعد ان تكون قد فتحت كل نوافذ الغرفة عسى ان يبلغ الصوت الطريق . فاذا ما انتهت وقفت بالنافذة وهي تتظاهر بمعالجة فتحها او غلقها في قوة وجلبة . بل بلغ بها الامر ان بات لا يحلو لها أن تنادي جاريتها بصوت عال ، او الحديث او الضحك المرتفع الا قرب النافذة». وكانت هذه الاعمال من الصراحة والوضوح بحيث تنبهت لها « زنوبة » فحدث بين الاثنتين ذلك العراك الذي انتهى بالقطيعة بينهما ، بل بين اهل المنزلين المتجاورين . او على الاصح بين « الشعب » ومعبوده ! !

وبلغ صوت الشجار الى مسامع « مصطفى » فرفع رأسه الى الغرفة والتقت العينان « فخفق قلب سنية بشيء من السرور الخفي » .لقد نجحت اخيراً : وانظر اليها الآن وقد اصبح قلبها موطن عواطف مختلفة متباينة تمر على صفحته في سرعة وعجلة كأنها ومضات البرق الخاطف . وهـذا احساس من الابتهاج يغمرها . . . ثم يمضي فيخلف اثراً من الخجل وراءه . . . وها هي تتصنع الحدة والغضب وتتساءل : لماذا ينظر هذا الرجل الى الشرفة ، وبأي حق ؟ كأنها لم تسع الى هذه الغاية جاهدة . ثم تتجه الى الشرفة « لا لشيء سوى ان تعلم اذا كان هذا الشاب الجسور ما زال ينظر اليها او الى الشرفة ؟» وتقترب من النافذة بعد ان تصلح من شعرها امام المرآة . .ولكن يا لخيبة الامل . .لقد انصرف الشاب !! وأحست الفتاة بالالم والغيظ «وذلت كبرياء الانثى فيها فشعرت كأن الدموع ستنحدر من مآقيها»

هذا الوصف لهذا التضارب فيما تحسه «سنية» في الموقف الذي اجملته لك من ابدع ما في القصة كلها من الصدق في التحليل والدقة في ابراز عواطف أبطال الرواية واضحة مجلوة في اجمل صورها على ما في هذه العواطف العارضة من التعقيد والتباين. وأحب لك ان تقرأ هذا الفصل كاملاً في مكانه من القصة

وتلتقي النظرتان مرة اخرى وترى « سنية » بسمة عذبة تحييها على شفتي «مصطفى» فتنعم بها ليلتها، وما تكاد تشرق عليها الشمس حتى تشرق على فتاة اخرى تفتحت امام عينيها مغاليق السعادة والهناء ، وانها لتحلم احلاماً هنية عذبة ، وتحس انها محبة محبوبة ، ويداخلها هـذا الزهو الذي يداخل قلب « حواء » اذ تشعر ان ثمة من رجل يترقبها ويهتم بها فتختال عجباً وتيهاً على بنات جنسها ، وللمرة الاولى ترى نفسها أجمل مما كانت

وتقف امام المرآة طويلاً لتكتشف جمالها الساحر الذي لم تفطن اليه الا اليوم ! !

ويخال اليك وانت تقرأ هذه العبارات التي يعرض فيها المؤلف لتحليل ما تحسه بطلته وما تشعر بهِ ، انك امام صورة رائعة من صور الحياة الحقة لا شخصية من شخصيات كتاب او بطلة من أبطال قصة . وهذه الدقة في التحليل تبلغ هنا حد المعجزة

﴿ زنوبة ﴾ فتاة عانس جاوزت الاربعين من عمرها ولما تجد بعد الزوج الذي تنشده والذي هو امل الفتاة ومنتهى ما تصبو اليهِ اطماعها ، تقدم اليها بعض الخطّاب ولكنهم ماكادوا يرونها وما هي عليهِ من القبح والدمامة حتى فروا هاربين ، وتقدم رجل يطلب يدها مباشرة من اخيها « حنفي » واراد هذا ان يطمئنهُ على جمال اخته فقال له انها تشبههُ تماماً ، ويصف لك المؤلف هنا قبح وجه « حنفي » وصفاً تشمئز منهُ ، كما يشمئز منهُ طالب الزواج فيمضي على غير عودة ، وبهذا الوصف يعطيك المؤلف صورة عن « زنوبة » لست ادري ان كان قد ظلمها فيها ولكن انصراف الخاطبين الذين رأوها يؤيد هذا الوصف ويؤكده

وفي شخصية « زنوبة » تجد هذه الصورة الدقيقة للنسوة الجاهلات اللواتي يلجأن الى السحر والسحرة لتحقيق اطماعهن تارة ، والكيد لاعدائهن تارة اخرى ، كما تجد فيها هذه المرأة البلدي.... التي لا تتورَّع عن ضروب كثيرة من الحيلة المكشوفة والوسيلة المستهجنة للفت نظر الرجل وما دام ان الزوج لم يأت اليها فلا بأس من ان تذهب هي اليهِ وتصيده ولو من عرض الطريق . وما أشبهها « بسليم » من هذه الناحية !! فاذا افلت الرجل مع كل هذا من يديها وفازت بهِ فتاة اخرى انقلبت لبؤة مفترسة وقد وقع الصيد في شراك الغير بعد ان ظنت انهُ من نصيبها وحدها ، ولا تجد هنا ايضاً غير السحر والسحرة تستعين بهم على الكيد لمنافستها بل وللرجل الذي لم يتنازل ويرضى بها حتى لتسحر له ليموت ، ثم تدس للاثنين معاً عند افراد « الشعب » وتتحدث عن « سنية » كما يتحدثون عن بغيٍّ تعرض نفسها عرض السلع على الرجال وتنسى انها لم تتورَّع عن هذا ، ويبلغ بها الحقد ان ترسل خطاباً غفلاً الى والد « سنية » تتهم فيهِ فتاته بما تتهمها بهِ من سوء السلوك وفساد الخلق . فلما لم تغن كل هذه الوسائل والحيل عمدت الى معاكسة العاشقين تلك المعاكسات الصبيانية التي لا تزيد عن قذفهما ، وهما في شرفتهما تحت نافذتها يتناجيان ساعات من الليل ، ببقايا الخضر والفاكهة وقد تسهر الليل طوله مكبة على عملها بنشاط تحسد عليهِ !

على ان « زنوبة » في كل هذا لا تخرج عن طبيعتها الساذجة ولا عن نداء الغريزة التي تضج بين جوانبها ، فالخيبة المرة اشعلت اتونها وصهرت في قلبها عواطف الرحمة والحنان وعادت الفتاة اشد ما تكون المًا ممضًا ويأساً قاتلاً ولم تجد عزاء الاَّ في السحر فهو معينها على تصيد « مصطفى » فلما أخفق افلا يكون عند حسن ظنها بهِ ويعينها على قتلهِ ؟ ! ولكن خاب أثر السحر في الاولى والثانية ولم ينفعها « الهدهد اليتيم » ولا « تراب المقبرة » فلم تجد غير « صفيحة الزبالة » تستعين بها وبمبروك وأمرها لله ! !

والمرأة في مثل حال «زنوبة» لا يؤلمها اكثر من ان تلوّح لها بمسألة السن ، وان كان النساء جميعاً في هذا سواسية ، فما كادت «سنية» تذكرها لها حتى شبت الحرب واعلنت «زنوبة» النفير العام ، واتخذت من «مبروك» اركان حرب ينفذ لها الخطط ويرسم معها طرق الدفاع والهجوم

على ان المؤلف يسخر من هذه المسكينة ، واني لأحس بكثير من الشفقة والعطف عليها ، سخرية مرّة ولكأنها سخرية القدر الشامت العاتي اذ يقول «لولا زنوبة لما اتجه التفات سنية الى قهوة الحاج شحاته .... ولما رأت مصطفى ... » ويعني ان حركات زنوبة في ادمان النظر الى القهوة وفي التطلع الى مصطفى كانت السبب في لفت نظر سنية . فهو يسخر من المسكينة ومن حركاتها التي كانت من الوضوح بحيث تنبهت لها غريمتها ، ثم يطعنها طعنة قاتلة اذ يضع يدها على سر هائل لعلها لم تدركه ، وانّى لها ان تعلم ان بسببها هي نظرت سنية الى القهوة ورأت مصطفى ثم كانت هذه العلاقة التي هدمت آمال «زنوبة» وذرتها مع الرياح !!

لو طالعت بطلتنا هذه الفقرة لكان للمؤلف الكريم نصيب وافر من كيدها وسحرها . . . . . ولأبقت له من صفيحتها المباركة نصيباً طيباً . . . .

«حنفي» هذه هي الشخصية التي لا شخصية لها ، واعني ان «حنفي» ليست له هذه «الذاتية» التي نحسها لباقي افراد الرواية ولو انه مات في مستهل القصة لمضت الحوادث في سيرها كما مضت ، غير اننا كنا نفقد بذلك هذه الروح الفكهة الطيبة التي نستروحها في «حنفي» وكنا بهذا نخسر خسارة جسيمة لا تعوّض و «حنفي» هو الابتسامة التي تشع في ثنايا القصة كلها وتملأها حياة ومرحاً ونفيء الى ظلها من حين لحين ، نضحك من سذاجتها ونستريح لدعاباتها الحلوة ، ونقف عندها هنيهة لنسخر منها مع الساخرين ثم نمضي

«حنفي» هو رب البيت واكبر الجميع سنّاً ولكن ليس له بينهم جميعاً سلطان ولا نفوذ ولا له أمر ولا نهي فهو رئيس ولكن رئيس شرف !! ولعلّ هذه التسمية من أبدع ماوفق اليه الاستاذ توفيق الحكيم في روايته وفي تحليله ووصفه لابطاله ، وقد اختصر لك فيها كل ما يمكن ان يقال عن هذه الشخصية وعن مكانها بين افراد القصة . و «حنفي» في المنزل لقبه «أبو لحاف» وكنيته في المدرسة وبين الطلبة «أبو زعيزع . . . » همه من الحياة ان ينام ، فما يكاد يدخل المنزل حتى يهرع الى السرير ، ولا يترك السرير — مكره اخاك لابطل — الا ليأكل ، وما ينتهي من الاكل ، وقد يختزله اختزالا ، حتى يسرع الى السرير مرة اخرى ، وعلى هذا النمط يعيش ، ويخيّل اليّ انه لو استطاع ان يتخذ له سريراً في المدرسة يلقي منه دروسه على الطلبة وهو تحت اللحاف ... لعاد أهنأ الناس بالاً وأسعدهم حالاً

ذهب مع «محسن» ليودعه عند سفره الى اهله وتطوّع لاحضار تذكرة السفر ، وعلى مقربة من شباك التذاكر وجد مقعداً جلس عليه ليستريح قليلاً فنام ... وفوّت على محسن القطار !!

وهذا المشهد على قصره يعطيك فيه المؤلف ، كما ترى ، صورة بارزة واضحة للناحية الغالبة على هذه الشخصية ويتخير لذلك انسب الفرص التي تؤدي الى الغاية التي يرمي اليها من تصوير أبطاله تصويراً دقيقاً حتى في مثل هذه اللمحة الخاطفة . وتلك بعض نواحي الاعجاز والمقدرة في هذا المؤلف

واذا اردت ان تجد مصداقاً لما قلته لك من ان «حنفي» ليست له «ذاتية» تحسها ولها شيء من الخطر او الشأن فاليك المشهد الذي يقف فيه بطلنا حكماً فصلاً بين «سليم» و «عبده» اذ يتخاصمان فلا يجد غير هذه الجملة

— معاك حق

ينقل بها القول تارة الى «سليم» وتارة الى «عبده» حتى يقلب الموقف كله هزلاً وعتباً «ويعلم الجميع ان حنفي هازل لا يرجى منه» ويغضب سليم قائلاً

— بيت هلس ! بيت مالوش كبير ! لكن الحق عليَّ اعتمد على سي «ابو زعيزع»

ويضحك الجميع حتى «محسن» من عمه ، وحتى مبروك من سيده . واحب لك ان تقرأ هذا المشهد الطريف في موضعه من القصة في الجزء الثاني ، فهو من أبدع مشاهد القصة كلها ومن أدقها تصويراً لا لشخصية «حنفي» وحده ، بل لناحية من حياة «الشعب» جميعاً

﴿ مصطفى ﴾ تقف شخصية «مصطفى» وسطاً بين شخصيتي «محسن» و «سليم» وتحفظ التوازن بينهما ، فليس هو بالطفل الساذج الغر ، ولا بالرجل الجريء القوي . طلب العلم حيناً في القاهرة كغيره من ابناء الريف وعاش هذه الحياة التي ليست جدًّا خالصاً ولا فراغاً ولا لهواً خالصاً ، حياة متزنة هادئة فيها هذا الانكباب على الدرس والتحصيل ، وهذا العبث الذي يتورَّط فيه الشباب من حين لحين ولا يجدون منه مفرًّا ارضاء لغريزة الجنس فيهم ، وهو عبث متكلف متصنع لا شبع فيه ولكنه اضطرار وحاجة

مات والد «مصطفى» وخلف له ثروة لا بأس بها ، فعاد الى القاهرة يستعيد فيها ذكرياته الخوالي وما أتفهها ، ولعله لهذا لم يجد غير القهوة المواجهة لمنزله يقضي فيها اغلب ساعات النهار يتتبع ما يعرض امامه من المشاهد المتتالية في اهتمام قليل ويضحك من «سليم» ومن حركاته ، ولست أدري لم اغفل المؤلف ان يقول «ولولا سليم لما تنبه مصطفى الى الشرفة والى سنية ...»

نظر «مصطفى» فتاتنا «سنية» فعلق بها من النظرة الاولى وأدرك بفطرته الصادقة ان «سليم» انما كان يجلس في القهوة من اجلها وأحسَّ ان انصرافه انما يرجع الى صدوف الفتاة عنه ، وخشي ان يكون له مثل هذا الحظ السيء لولا ان «سليم» ليس بالرجل الذي يعجب المرأة » وأخذ يستعرض صور سليم المضحكة ... ثم اخذ يقيس نفسه به الى ان خرج بنتيجة في صالحه ... انه ليس مثله ولا نظيره ، . ولو كان كذلك لألقى بنفسه في النيل من زمان ... »

« البقية في باب الاخبار العلمية »

اصلح اشكال الحكم

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

لقد عرضنا المذاهب السياسية بشيء من الافاضة ووضعنا اصحابها في الميزان لنزوّد جمهور القراء في العالم العربي بخبر الاطوار السياسية العظيمة التي طرأت على الدول والحكومات حتى اذا حانت ساعة العمل وجد الزعماء في الاوساط التي يشتغلون لها شيئاً في القابلية الفردية والتهيؤ العام ، لان البلاء كل البلاء ان يتجه الشعب الى الغاية التي ينشدها ويجهل الطريق الموصلة . وفي وسعنا الآن ان نتساءل ما هو اصلح شكل في الحكم يلائم العالم العربي ؟ اهو الشكل العصامي الديموقراطي ام العظامي الارستوقراطي ، الاستبدادي الاوتوقراطي ام الشوري النقابي ، الشيوعي اللاوطني ام الفاشستي المتطرف في الوطنية ؟ ولو كان العالم العربي على مستوى واحد في الثقافة والاجتماع وفيما يتمتع بهِ من حرية ويمارسه من استقلال لهان الجواب ولكن مستواه متعرج متضرس ، ففيهِ من سما في المدنية حتى كاد يسامت الغرب وفيهِ من لا يزال في الغور كأنهُ من اهل الاعصر الخالية ، وبعضه مستقل استقلالاً تامًّا ناجزاً وبعضه الآخر لا يزال في ربقة الاستعمار ، ولكن الخوف من وثبته وهو على علاته وعلى ما فيهِ من تنابذ وما يعانيه من نقص تنظيم لم يعد وهماً بل هو خوف من الشيء الواقع المحسوس حتى ان عالماً مشهوراً من علماء التاريخ وهو المستر (اوسكار برونينج) استاذ التاريخ في جامعة (كامبردج) يعد العرب واليابانيين الخصمين اللدودين للتوسع الاوربي [1] ولم تعد الدول الاوربية ذات المصالح السياسية والاقتصادية في الشرق الاوسط تخفي ما يساورها من الهموم من هذه النهضة العربية في حين تخطب الدول الاخرى ودّ هذه النهضة وتستميلها اليها تقوية لموقفها السياسي الشرقي وتأييداً لنفوذها العام

وفي وسعنا الآن ان نقول بصورة مجملة تنطبق على احوال هذا العالم الفسيح الاجتماعية وعلى الدرجة السياسية التي بلغها ان الشكل النيابي الصحيح القائم على الانتخاب الحرّ — جهد الطاقة — هو الشكل الذي يجب ان يصر عليهِ الاهلون حيث هم مستقلون استقلالاً مقيداً بالانتداب او الحماية او المعاهدة المصطنعة او غير ذلك من التدخل الاجنبي في شؤونهم ، والاستبدادي العادل

---

(١) A History of the Modern World, p 840

او النيّر حيث هم يتمتعون بالاستقلال التام . وقد حملنا على هذه النتيجة الاعتبارات الآتية وهي ان البلدان العربية التي للاجنبي عليها سيطرة متفاوتة لاسباب مختلفة والتي يحاول بطرق الدهاء والادارة والشدة والرخاء ان يستثمرها في آخر الامر لنفسه هي بلدان معرضة لزوال سلطانها القومي وما يجر اليهِ من تخلق اهلها بأخلاق اهل المستعمرات الصرفة ، وكل ذلك نذير الانقراض القومي، بيد انّ هذه البلدان لاسباب سياسية اجتماعية ودواع دولية اقتصادية تتمتع بشيء من حق التصرف الداخلي ولو ظاهراً ، ففي مثل هذه الامراض البدهية يتعذر كثيراً على الشعب ان يعمى عن الخطر المحدق به اللهم الاّ اذا كان من الانحلال وضعف الادراك بحيث لا يرتجي برؤه. لا جرم ان الادراك العام في الامة الراقية — بل فيما هو دونها — شديد التأثر بما له صلة وثيقة بحياتها او مماتها وهو الشعور الدال على درجة وعيها ويصح للزعماء ان يعتمدوا عليه ويتخذوا منهُ سلاحاً ماضياً يحاربون بهِ مرض الاحتلال ولو موقتاً ، وينطبق هذا الكلام خصوصاً على البلدان التي لا تسمح لها احوالها ، بانتهاج المسالك المؤدية الى الاستقلال مباشرة بل هي مضطرة الى التوسل «بالمناورات» السياسية وغير ذلك من الطرق البطيئة الى ان تحين ساعة العمل ، ونحن لم نصل الى هذه النتيجة بطريق النظر بل لدينا عدد من الحوادث التي جرت في السنين الاخيرة في بلدان الاحتلال والحماية والانتداب تحملنا على هذه النتيجة ايضاً، حتى ان قطراً مقموعاً كالقطر الجزائري شغرت فيهِ منذ سنوات بعض المقاعد البلدية التي يجلس عليها الاعضاء بالانتخاب الشعبي فرشحت له الحكومة بعض رجالها ولكن الاهلين على ما انتابهم من ارهاق يعانونهُ منذ قرن كامل اصروا على مرشحهم حتى فازوا بانتخابه فردته الحكومة بما تمحلته من اعذار وأمرت باعادة الانتخاب ولكن الاهلين نجحوا في المرة الثانية ايضاً . ولا يعد اخفاق الحكومة هذا شيئاً مذكوراً بجانب اخفاقها في الانتخابات المتكررة التي جرت في سورية ، وحينما اصرّ الشعب على اثبات ارادته كانت النتيجة نجاح مرشحيه الاّ اذا ارتكبت الحكومة الخطيئات الادارية البدهية فأغلقت المجلس مثلاً او اوقفت المرشحين او غير ذلك من الاعمال التي خبرها الشرق في ادوار مختلفة . ولا نخال حكومة حريصة على سمعتها تقدم على اعلان افلاس سياستها بهذه الصورة المزرية ، وقد تضطر اذا ما تورطت في التدخل الى عزل من ورطوها من عمالها او الى نقلهم تبرئة لنفسها كما حدث في انتخابات المجلس النيابي الاخيرة في سورية

ثم ان الاجنبي المحتل يدير شؤون البلاد عادة بواسطة نفر من ابنائها يضمن لهم منافعهم الخاصّة ويحقق لهم غاياتهم الشخصية وقد يطلق يدهم يتصرفون في الامور كما يشاؤون ضمن الحدود التي رسمتها مصالحه فيجعلهم سلاحاً يحارب بهم الصادقين المخلصين ، ولكن انى لهُ استغواء سائر الشعب واستجلاب بقية افرادهِ بالرشوة وعددهم يربي كثيراً على وسائل اغرائهِ ، فلا عجب ان يكون حكم المجموع والحالة هذه اقرب الى الصحة لانهُ ابعد عن المؤثرات النفعية الذاتية ويصدق فيه القول

المأثور « اصوات الخلق اقلام الحق » ، وتكون الطريقة النيابية اذن ترجمان الامة الصادق ومقياس شعورها المضبوط ، ويدفعها تدخل الاجنبي الى زيادة التمسك بمن اولتهم ثقتها . هكذا دلتنا التجارب في البلدان التي تتبعنا شؤونها في السنين الاخيرة ؛ ولا مفر للحاكم الوطني اذا كان مستبداً على عهد الاحتلال من الالتجاء الى المحتلين في آخر الامر مهما حاول الابتعاد عنهم لانه يجدهم عوناً لمصلحته الشخصية وسياجاً يحتمي بهِ لدفع هجمات الخصوم من ابناء البلاد

***

ومن اهم الحوادث التي حدثت اخيراً وفيها ما يؤيد الحكم النيابي في الاحوال التي ذكرناها ان المجلس النيابي الاخير الذي انتخب في سورية كان عدد الاعضاء الوطنيين فيهِ سبعة عشر فقط والباقون وعددهم يناهز الاثنين والخمسين هم ممن يدعون « معتدلين » وتظن السلطة المحتلة انهم لا يخالفون لها امراً وقد ايدت انتخابهم برؤوس الحراب واطلاق البنادق ، فلما عرضت عليهم في المجلس عقد معاهدة على اساس تجزئة سورية وتقطيع اوصالها لم يستطيعوا مجاراتها بل خيبوا آمالها وسودوا وجه من زعم من عمالها انهم سيكونون اداة عمياء في يدها ، والذي حملهم على هذا الموقف المفاجيء اختمار الرأي العام وشدة وطأته من جهة وخطر التجزئة القتال من جهة اخرى ، ولعلَّ التعديل الاخير الذي احدثهُ المفوض السامي الفرنسي فيما يدعى « دستور » لبنان من احتفاظهِ بتعيين نحو ثلث اعضاء المجلس النيابي مع تعيينهِ رئيساً للجمهورية ذا سلطة واسعة يستمدها من مستشار افرنسي كل ذلك ادراكاً من حكم اللبنانيين العام، وان ادعت السلطة انهم يهيمون بحبها

اما اذا كان القطر العربي متمتعاً باستقلاله التام فخير ما يناله ان تتاح له يد مستبدة عادلة تنقذه من الفوضى التي تتخبط فيها اكثر الامم الحاضرة خصوصاً من كان منها مثلنا حديث عهد بالشؤون الدستورية ولم يتجهز بعد ابناؤه بالتربية التي تؤهلهم لمثل هذا الحكم الدقيق ، واذا كانت المانيا وهي التي تقود الغرب في كثير من مقومات الثقافة والحضارة قد اخفقت في الديموقراطية اخفاقاً معيباً فلا جناح علينا ان نعترف بهذا القصور ونحن لم ندخل حلبة السياسة العربية الاَّ منذ اوائل القرن العشرين ، ولم نعاني الحكم النيابي الاَّ منذ الانقلاب العثماني في سنة ١٩٠٨ ، وفي الحق اننا في اقطارنا المستقلة لفي اشد الحاجة الى اليد الحازمة المدركة لتسير بنا الى الامام على رغم اهل الرجعى منا كما يسير موسوليني بالايطاليين . وانا اسأل في هذا المقام كل من عانى شؤون الادارة والحكم أيرى لمملكة الحجاز ونجد مجلس نواب من الغطغط ومطير والفقير وحرب ام ملكاً حازماً خبيراً بشؤون البدو كعبد العزيز بن سعود ؟ الا تقضي الديموقراطية في تلك الانحاء الابتدائية بتربع الغوغاء في دست الحكم وانهزام الاختبار والاخصاء والتمرين والحصافة انهزاماً شنيعاً لا يلوي على شيء ؟ ولو كان هذا الملك النابغة مسلحاً بسلاح التربية الحديثة ومشبعاً بروح النهضة التي تسير عليها الامم الحية ما اضاع

هذه الفرصة السانحة لالتفاف زعماء العرب حوله واتخاذهم الاستقلال الذي يتمتع بهِ مركزاً لبث الدعاية العربية في انحاء العالم. ومن ادعى دواعي الاسف ان جميع الجهود التي صرفت لاستنهاضه قد اخفقت

***

انني اذكر جيداً اننا لما كنا نعاني حشرجة الموت تحت كابوس السلطان عبد الحميد كنا نظن ان مجرد اعلان الدستور واطلاق حرية الانتخاب وترك المنابر للخطباء يتكلمون كما يشاءون ينعشنا ويعيدنا الى مهيع الحياة، وفي شهر تموز — يوليو — من سنة ١٩٠٨ اعلن هذا الدستور بقوة الجيش وبتأثير الاوهام التي تسلطت على السلطان فكان مبدأ انقلاب خطير في جميع بلدان الشرق المتوسط لما عقبه من الثورة في الافكار والاوضاع، ولا انكر ابداً ان بعض الانتخابات دلت على شيء من حسن الاختيار ولكنها ارسلت بالاجمال الى مجلس النواب اناساً لا يختلفون عن العوام كثيراً، واصعدت المنابر بعض الخطباء الذين حولوا قضية الدولة السياسية الخطيرة الى البحث في الحجاب وشكل الغطاء الذي يجب ان يسدل على المرأة، فبينما كانت الدول المعظمة تبحث في بناء الدردنوطات للحروب القادمة وكيف يجب ان يكون طولها وثخانة دروعها كان هؤلاء الخطباء يقيسون الاحزمة التي يجب ان تشد بها اوساط بنات المستقبل وكثافة البراقع التي يجب ان تغطي وجوهنَّ! والظاهر ان الوطنيين الزائفين في عصر التدجيل مثل العملة الزائفة في عصر التجارات المضطربة يحلون محل الصالحين من ابناء البلاد

***

وعلينا ان نعترف هنا اعترافاً صريحاً وان آلمنا ونبهنا الى ثقل اعبائنا وهو ان شدة التباين في تربيتنا السياسية الاجتماعية وعمق الهوة السحيقة بين افرادنا وعدم سيرنا على منهاج واحد في بيوتنا ومدارسنا ومكاتبنا وانقسامنا الى طبقتين اثنتين متطرفتين عامة وخاصة لا وسط بينهما كل ذلك يتطلب منا ان يكون امرنا بيد سلطة عادلة نيّرة منا وفينا والينا تحملنا على الاصلاح رغم انوفنا وتجرنا بالقوة في السبل المنتجة وتنحينا عن السبل العقيمة. وانني لأذكر مع الاسى اولئك « الدكتاتوريين » النفعيين من الشرقيين الذين اظهروا في بعض البلدان العربية المحتلة من الجرأة والاستبداد لتأييد مصلحتهم الخاصة ومصلحة الاجنبي من فوقهم ما لو اظهر جزءًا منه فقط زملاؤهم في البلدان العربية المستقلة لمصلحة الشعب لنالوا مرتبة المصلحين المنقذين

والارتقاء نوعان، نوع هادىء سلس يقوم بهِ مجموع الشعب ويكون للافراد عموماً سهم في احداثه، ونوع مضطرب جموح تجر الشعب الى مهيعه اقلية حازمة هي الطبقة المختارة. ففي النوع الاول تتوقف الخطط التي تختطها الحكومات في الادارة والسياسة على المرتبة النشوئية التي بلغها الشعب في حياته المشتركة. وتكون طبيعة القوانين التي تسنها مجالسها التشريعية متناسبة مع هذه المرتبة، وتكون الجماعة التي تؤلف الدولة متجانسة في قرابتها وثقافتها والمثل العليا التي تنشدها،

وفيها نزعة للتبدل والتكيف والتجدد بحسب الطوارىء في ناموس الارتقاء ، فتأتي الديمقراطية في مثل هـذه البيئة بأطيب الثمرات خصوصاً في أزمنة السلم العادية ، وعلى العكس من ذلك يكون الارتقاء الجموح الذي يجرّ اليه الشعب جرًّا ولا سيما متى كان افراده متباينين في تربيتهم ، لم يتعارفوا تعارفاً اجتماعيًّا سياسيًّا ولا اطلع الواحد منهم على عقيدة الآخر ولا امتزج بهِ امتزاجاً يمكنه من ألفته وألفة عاداته فالديمقراطية في مثل هذه الحال تصبح كما قال « الموجز في علم الاجتماع » وبالاً على اصحابها فلا تعدو ان تكون ادارة الضابط الصغير متحكماً في اتباعه من الجنود

والبلية كل البلية ان يكون الشعب وان تجانس سواد افراده وتشابهوا في عقيدتهم ومثلهم العليا الاّ ان الجمود هو صفتهم المتفوقة فالديمقراطية في مثل هذه الحال هي تحكيم الاكثرية العظمى الجاهلة من سواد الشعب في النخبة المنتخبة من ابنائه . هنا تسنح الفرصة للذي يجادل في نسيج الحجاب ان يتفوق على الذي يبحث في حديد المدرعة . ووحدة مثل هذه لن ينقذ الشعب منها غير يد الزعيم الحديدية الحازمة

***

فمن الخطل السياسي الاجتماعي العظيم اذن ان يتوهم احد من رجال النهضة في العالم العربي انه في حيز الامكان تأليف دولة عربية مركزية ديمقراطية تضم منذ الآن بين دفتي دستور واحد دمشق والكويت وعنيزة والعسير والمكلا فهذه بلدان وان جمعت بينها اللغة والعقيدة وتشاركت في كثير من اطوارها التاريخية الاّ ان العادات والتقاليد المحلية واختلاف درجة الثقافة العامة فيها وما الى ذلك من مقومات العقل الاجتماعي الذي لا بدّ منه لتأليف الوحدة السياسية جعلت شقة الخلاف فيما بينها أبعد من ان يضمها مجلس تشريعي واحد او يلم شتاتها ارادة سلطانية واحدة

وغير نكير ان الدولة العثمانية بسطت سلطانها على جزءٍ كبير من هذه الاقطار اجيالاً تملي عليها شيئاً من ارادتها من وراء البوسفور لكن الاختبارات المديدة علمتها ان تجعل الادارة فيها من الوجهة العملية على طريقة « اللامركزية » فكانت (صنعاء) كما كانت (حائل) متمتعة باستقلال عملي لاغبار عليه ، بل نحن في سورية والعراق على شدة امتزاجنا بالترك واختلاط سدانا بلحمتهم كانت ادارتنا عند التطبيق بعيدة عن المركزية وان ارتبطت بالاستانة مباشرة . وهذه دروس عملية ثمينة ستكون موضع عناية العاملين في القضية العربية في السنين القادمة

ثم من الجهة الاخرى يستطيع العراق وسورية مثلاً منذ الآن ان يؤلفا دولة مستقلة ذات حوزة سياسية واحدة بالنظر الى التشابه فيما بينهما واشتباك مصالحهما خصوصاً ان العراق من غير سورية قصر بلا باب وسورية من غير العراق باب بلا قصر . ومما يدعو الى التفاؤل ان كبار الرجال في هذين القطرين الشقيقين هم كما كانوا في عهد الملك فيصل على تفاهم واستعداد لتحقيق هذه الامنية الغالية وتقديم المثال العملي الصالح لتقتدي بهِ الاقطار العربية الاخرى

آلات التدمير الجديدة

او العلم والحرب المقبلة

العلم لا ينظر الى الحرب ولا الى السلم فهو يعطينا يد الاسمدة ويد اخرى المفرقعات . والمفرقعات تستعمل للهدم والقتل في الحرب ولكنها تستعمل لحفر الانفاق وفتح المحاجر وشق الترع في زمان السلم والفولاذ لا يحصر استعماله في صنع الاسلحة والاسنة والمدافع بل يستعمل كذلك في صنع المحاريث والسكك والسيارات والحصادات . فالعلم بحد نفسه لا يخدم اله الحرب دون اله السلم وانما يعود الفرق الى نفوسنا وشهواتها وتثقيفها ومثلها الادبية

صرّح المستر بولدوِن زعيم المحافظين ، في اواسط السنة الماضية ، ان العالم يستعد لحرب اخرى «يفتك فيها بالجمهور غير المقاتل فتكاً عامًّا» . ويرى المستر ولز الكاتب الانكليزي الشهير ، ان الحرب قد لا تتأخر عن سنة ١٩٤٠ اما جمهور المتنبئة ، فطائفتان طائفة ترى ان ولز بكَّر ميعاد الحرب القادمة واخرى أشد تشاؤماً تذهب الى ان الحرب واقعة قبل الميعاد الذي ذكر . اما السر فيليب جبز الصحافي الحربي والكاتب الانكليزي المعروف ، فيرى ان كواهل الامم مثقلة بالديون ، فلن تقدم على خوض غمار حرب جديدة ، ولكن الملتفت الى شؤون الدول العامة ، لا بد ان يقلقهُ ، ما هو ثائر بين الامم من العداوات الجنسية والعنصرية ، والنزعات القومية العنيفة

فلنفترض ان الحرب وقعت غداً ، الاربعاء ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٤ فماذا يجري ؟

اذا نشبت حرب غداً بين امتين من الامم الصناعية الكبيرة ، عبَّأت كل منها آلات الدمار تعبئة سريعة . نعم لابد من تعبئة الجيوش ، إذ لابد من الجنود والضباط لاستعمال آلات الدمار الحديثة، ولكن قلب التعبئة ، يكون تعبئة الآلات ، وفي مقدمة هذه الآلات ، الغواصات والدبابات المصفحة والطيارات . فكل آلة من هذه الآلات ، تستطيع اليوم أن تسير بسرعة لم تعهد في خلال الحرب الكبرى او بعيد انتهائها . وكل منها مجهز بوسائل للهجوم والدفاع ، تجعلها اقوى فعلاً مما كانت في الجبهة الغربية سنة ١٩١٨

ومما لاريب فيهِ انهُ رغم الازمات الخانقة لم يبل النبوغ والابداع الانساني بازمة ما ، اذ لست تجد فرعاً من فروع الخدمة العسكرية تمكن «مكنكته» Mechanization أي جعل الماكينات صاحبة المقام الاعلى والأثر الاقوى فيهِ — الاَّ وقد أضفى عليهِ الباحث العلمي والمستنبط سمة من نبوغهِ وابداعهِ

***

ان ما يتنبأ بهِ العلماء المحدثون في ميدان الاسلحة العلمية الجديدة والمتوقعة ، يفوق في حقيقتهِ خيال جول فرن الوثّاب . خذ مثلاً الجنرال فولر الانكليزي . فهو يتصور ان العهد المقبل في صناعة الحرب ، سوف يكون العهد الكهربائي ، ترسل في خلالهِ آلات الدمار ، على سطح الارض ،

وفي الماء والهواء ، خالية من الرجال ، ولكنها ترشد بواسطة الاشعة اللاسلكية ، فتطلق المدافع ، وترمى القنابل ، وتنشر المواد الكيمائية ، من دون ان تخطىء

ويقول الكولونل بريدي Brady وهو من اقدم وابرع الضباط في سلاح الطيران الاميركي ، ان كل بلدة تصنع فيها الذخائر الحربية وآلات الحرب سوف تكون هدفاً لقنابل الطيارات ، والقنابل ترسل ارسال الصاروخ من اماكن بعيدة . فاذا نحن تدبرنا ، ان الطيارات الحربية المستعملة الآن ، تستطيع ان تحمل خمسة مدافع رشاشة وتسير بسرعة تفوق ثلاثة اضعاف السرعة التي كانت تسير بها الطيارات المستعملة في الحرب الكبرى استطعنا أن نتصور الدمار الذي تحدثهُ هذه الطيارات في الجماعات الآمنة ، التي وراء خطوط القتال ... كان المدفع البعيد المدى الذي استعمل في الحرب الماضية غير واف من الناحية الاقتصادية ، لانهُ كان يذوب ويبرى ، لشدة الحرارة المتولدة في انبوبته ولكن الوسائل الحديثة ، تمكن ضباط المدفعية من تغيير بطانة الانبوبة بغيرها ، وكذلك تتجدد هذه المدافع التي تستطيع ان ترمي قنابل الى مدى مئات من الاميال . ثم ان الدبابة التي استعملت سنة ١٩١٧ تسير سيراً بطيئاً ازاء الدبابات الحديثة ، المبنية من صلب اقوى وأمتن من صلب تلك وتستطيع ان تحمل مدافع ضخمة — نسبيًّا — وتسير بها بسرعة ٤٥ ميلاً في الساعة او اكثر

وما تقدم نبوات يتنبأ بها رجال الفنون الحربية ، فلنلق نظرة على آلات الدمار المعروفة الآن . من عهد قريب رؤي منظار غواصة فوق سطح البحر كأنه كرة صغيرة على وجه الماء . ثم ما لبثت الكرة ان كبرت رويداً رويداً حتى اصبحت برجاً مثل الابراج التي ترى فوق دكّات الغواصات وبعد بضع ثوان ظهرت الغواصة على سطح الماء ثم فتح البرج وخرج منهُ بعض الضباط وأخرجوا طيارة مطوية الجناحين فنُشرَ جناحاها ووضعت على رأس سطح منحدر فجرت قليلاً واذا هي في الهواء في مكان قيادتها طائر ، ووراءه ضابط آخر المراقبة . حومت الطيارة مدة نصف ساعة في الجو ثم عادت ورست على الماء قرب الغواصة ، ثم رفعت الى الغواصة وطوي جناحاها المنشوران وأعيد الى مخبئها ، ثم غاصت الغواصة تحت الماء ، فغابت عن النظر بغتة ، كما بدت للنظر بغتة كذلك

وكذلك ترى ان الطيارة أضيفت الى الغواصة . فالغواصة التي تستطيع ان تطلق الطرابيد الفاتكة Torpedoes في الماء ، والطيارات الفتاكة في الهواء لهي سيف ذو حدين حقيقة ، ولا بدَّ ان يكون لها شأن وأي شأن في خطط الحرب المقبلة

ولكنها مع ذلك لا بدَّ لها من ان تكافح عدوًّا لها ، اخرجته معامل الطيارات . هذا العدو هو ما يعرف « بالقارب الطيار » وهو عبارة عن طائرة ضخمة ، المسافة بين طرفي جناحيها ٩٧ قدماً وتستطيع ان تقطع ١٥٠٠ ميل من دون ان تحط على سطح البحر ومجهزة ببطارية من المدافع الرشاشة احدها يطلق ١٠٠ طلقة في الدقيقة وفي استطاعة قنابلها ان تخرق درعاً سميكاً لان وزن القنبلة

التي يطلق منها مائة في الدقيقة رطل ونصف رطل فاذا حلّقت هذه الطيارات استطاعت ان تطلق قنابلها الخاصة على الغواصة فتمزق دروعها ولو كانت بضع اقدام تحت سطح الماء ولذلك دعيت هذه الطيارة المقاومة للغواصات « بالمعقل الطائر »

وكانت القنابل التي القيت من الجو في خلال الحرب الكبرى على لندن وباريس ، تزن الواحدة منها ٦٦٠ رطلاً أما قنابل اليوم ، فلا تقل زنة القنبلة منها عن الفي رطل ! وقد جربت التجارب بقنابل زنة القنبلة منها طنان

ومن القنابل الفتاكة التي صنعت قنبلة تعرف « بقنبلة التدمير » طولها ١٣ قدماً ونصف قدم وقطرها قدمان — اي انها طول رجلين طويلين إذ يندر ان يزيد طول الرجل عن ستة اقدام وثلاث بوصات — وزنتها ٤٣٠٠ رطل منها ٢٠٠٠ رطل من المادة المتفجرة . فنصف هذه القنبلة مادة متفجرة ، مع أن مقدار المادة المتفجرة في قنبلة ما ، لا تزيد عادة عن ١٥ في المائة . فاذا انفجرت هذه القنبلة فتحت هوة في الارض عمقها ١٩ قدماً وقطرها ٥٩ قدماً ، ويمتد اثرها ، علاوة على ذلك ، امتداداً افقيًّا الى مدى بعيد ذلك ان هذه القنابل — قنابل التدمير — تدمر بفعل الهزة العنيفة التي تحدثها في جوار النقطة التي تقع فيها وتحدث تلك الهوة العظيمة

ثم هناك « قنابل الاحتراق » وهي محشوة مادة كيمائية تولد حرارة عالية جدًّا ، اذ تصطدم بالارض . فهي تدمر بفعل الحرارة التي تولدها هذه المواد البالغة احياناً ثلاثة آلاف درجة مئوية

***

قلما استعملت الطيارة خلال الحرب الكبرى ، في حرب الغازات . ولكنها اليوم سلاح اساسي في هذه الناحية يعتمد عليه واضعو الخطط الحربية . فقد دلت التجارب ان الطيارات تستطيع ان تلقي الغاز او السوائل المولدة للغاز فوق خنادق الجنود ، او المدن الآمنة على السواء فتمطرها حتفاً من الجو ، ثم تضيف الى ذلك بعض القنابل الخاصة التي تحتوي على الغاز الخانق

أما الغازات نفسها فالامر الذي لا شك فيه ان وزارات الحرب ، في مختلف البلدان تجرب التجارب المتواصلة للكشف عن غازات ، اكثر تنوعاً وأشد سمًّا وفتكاً من الغازات التي استعملت في الحرب الكبرى وقد عزي الى احد الضباط الذين يشرفون على تجارب سم الغازات في احد الجيوش الحديثة : القول بأن الغازات الجديدة تفوق الغازات التي استعملت في الحرب الكبرى خمسين ضعفاً

وقد جاء في انباء فرنسا انهم اكتشفوا هناك سائلاً ، يتحوّل الى غازاً ، فاذا لمس الجلد لمساً فعل فيه فعل سم زعاف يولده الجسم في خلاياه فيميتها . ويتنبأ احد القواد الالمان — الجنرال منتسش Mentsych — ان في النزاع بين الغازات الخانقة والكمامات الواقية من الغاز ، لا بدّ للغاز من أن يفوز بأكليل الظفر !

واذ التنافس سائر على قدم وساق ، بين صانعي الغاز وصانعي الكمامة الواقية من الغاز ، نجد تنافساً آخر ، ما زال قائماً بين صنّاع رصاص البنادق ، وصنّاع الدروع الواقية منها . ففي خلال السنوات الثلاث الاخيرة ، صنع نوع من البنادق ، تستطيع البندقية منه ان تطلق رصاصها المصنوع من الصلب بسرعة ميل في الثانية ، وهي ضعف السرعة المعهودة في بنادق الجيوش من قبل . هذه الرصاصة المنطلقة بسرعة ميل في الثانية تخترق درعاً من الصلب سمكها نصف بوصة . وهذه هي السماكة العادية لدروع الدبابات وغيرها من السيارات المصفحة . وقد اعلن في السنة الماضية استنباط قنبلة جديدة ، تخترق درعاً سمكها قدم من الصلب ، على مسافة ثمانية أميال

ولكن صناع الدروع ، لا ينون عن استنباط الدروع التي لا تفعل فيها هذه الطلقات او القنابل ، فقد اعلنوا في السنة الماضية انهم توصلوا الى خليط جديد من الصلب لم يعهد له مثيل من قبل في قساوته . فهو يفوق دروع الصلب القديمة ٤٠ في المائة في صلابته ، فدرع سمكها نصف بوصة من الخليط الجديد ، تحل محل درع سمكها سبعة أعشار البوصة من الصلب القديم

والدبابات الجديدة تدرّع الآن بهذا الصلب الجديد ، وسمكه في بعض هذه الدروع بوصة كاملة بل قد اضيف الى الدبابات مدافع رشاشة أفعل من المدافع القديمة وأشدّ فتكاً . ثم ان الدبابات نفسها أسرع حركة لها عجلات تسير بها في الشوارع المرصوفة ثم تضاف اليها السلاسل او ما يشبه السلاسل لكي تسير في الحقول والجبال والاودية . ويقال ان سرعتها من دون السلاسل بلغت نحو ٤٥ ميلاً في الساعة وبالسلاسل بلغت ٢٣ ميلاً في الساعة

وبعض الدبابات يبنى الآن ، وله حجر لا يخترقها الماء ومحركات ، كمحركات السفن ، فاذا عرضت للدبابة بطيحة من البطائح ، او نهر ، اجتازتها عوماً كالسفينة ، فهي برية بحرية في آن واحد . وكانت دبابات الحرب الكبرى ، ثقيلة بطيئة ، فكان وزن الدبابة منها ٤٠ طناً ، اما الوزن المفضل الآن فخمسة عشر طناً . وهي مع ذلك امنع وأفتك

وكان أبعد مدى بلغتهُ القنابل البحرية في خلال الحرب ٢١ الف ذراع . ولكنها اليوم تستطيع ان تبلغ مدى ٣٥ الف ذراع . ومن المخترعات الحديثة ، مدافع قطر فوهتها ١٥ بوصة ، تقام على عربات النقل على سكة حديدية ، وتستطيع ان تقذف قنابلها الى مسافة ٤٠ الف ذراع او نحو ٢٣ ميلاً . ثم هناك مدفع آخر يستعمل للدفاع عن السواحل مداه ٣١ ميلاً ، ووزن قنبلته ٢٣٤٠ رطلاً فاذا بلغ نهاية مداه كانت سرعته كافية لاختراع درع من الصلب سماكتها ١٤ بوصة ، او قدم وسدس قدم

***

هذه بعض نواحي التقدم في صنع آلات التدمير ، فهل ساوقها التقدم في تأييد وسائل تنظيم السلام ؟!

القوى الروحية

في اليابان

من محاضرة لكلود فارير

قلت من مدة قصيرة إن الصين خلقت اشخاصاً ولم تخلق امة . وأتيت على السبب في ذلك . وأقول اليوم — في مستهل حديثي عن اليابان — ان هناك يابانيين وأمة يابانية كما ان هناك فرنسيين وأمة فرنسية . ويسهل عليّ شرح ذلك : فاليابان قد تطورت بتطور الايام كما تطورنا نحن على وجه التقريب وكما تطورت أية امة من الامم الاوربية . على ان اليابان ، وقد لا اشك في ذلك ، لم تكن في الاصل امة آسيَّة بل صارت الى ذلك فيما بعد ، ولهذا نرى أن الشعب الياباني — خلافاً لسائر الشعوب في آسيا القصوى — بدل ان يتطور على الطريقة التي تطورت عليها الشعوب الصفر جاراته ، عرف جميع المراحل المنظمة التي اجتزناها تباعاً فيما بعد

وهذا يتطلب شرحاً وافياً . فاليابانيون لم يعيشوا دائماً في اليابان فان سلالات أخرى حلت قبلهم في هذه الارض ، ونعرف الاخيرة من هذه السلالات وهي سلالة رجال ضخام الجثث ملتحين ذوي بشرة بيضاء يعرفون بالأينوس ولا يزال بعض افراد منهم يقيمون بجزيرة هوكائيدو من جزر الارخبيل . وهؤلاء الاينوس استولوا في الماضي على اليابان بأسرها الى أن أقبل يابانيو اليوم فطردوهم

ولكن من أين أقبل هؤلاء اليابانيون ؟ لا تزال هذه المسألة رهن البحث والاستقصاء ، ويذهب البعض الى أن قبيلة صغيرة نزحت من آسيا وقبيلة كبيرة نزحت من مليسيا (اوقيانوسيا) ، وكل هذا محتمل الوقوع . فنحن لا نجهل أن شعباً عاش في الماضي على حدود مغوليا وترانسبائيكاليا الحالية ، على شاطىء تلك الانهر المعروفة بالكرولين والارجون والامور ، وأن هذا الشعب كثيراً ما اطلق امواجاً هائلة من الغزو على اقطار العالم الاربعة . ولا يخفى أن أتيلا وجنكيز وتيمورلنك انطلقوا واحداً بعد الآخر من وكر النسور هذا . وغير مستبعد أن تكون طوائف منهم قد اتصلت الى البحر الياباني او الى البحر القوري mer coréenne ، ولكن أن يكون الفرسان الترك قد غامروا في المياه المالحة وجابهوا الرياح والانواء وعبروا البحار فذلك مستبعد جداً ، فلا الترك ولا التتار كانوا في عهد من العهود من الشعوب الملاّحة . إذن فالموجة التي غمرت الاينوس وشيدت مملكة الشمس الشارقة هذه ، تلك المملكة التي لا تزال متألقة منذ خمسة وعشرين قرناً الى اليوم ، إن تلك الموجة قد اقبلت من الجنوب من مليسيا او من الفليبين أو من

الكرولين أو من صاموي أو من جزر المركيز أو من تاهيتي. من يعلم فقد تكون اوقيانوسيا بأسرها جابت جيوب البحر سعياً وراء فردوس موعود بهِ . على أن ثمة أمراً لا شك فيهِ وهو أن اليابانيين عند ما وصلوا الى اليابان لم يكن لديهم يومية ولا طريقة من طرق الكتابة . ولدينا على ذلك حجة نستند اليها ، فالشعوب الآسية عرفت الكتابة قبل الشعوب الاوربية بزمنٍ بعيد ، وبقي الاوقيانوسيون دهراً طويلاً جداً يجهلون طريقة الاحتفاظ بالفكرة ونقلها من جيل الى جيل ، أما اليومية فلا تملكها الا الشعوب التي تحتاج اليها ، أعني الشعوب التي تعرف الفصول ، وهل ثمة فصول بين برج السرطان وبرج الجدي ؟

لذلك أؤكد أن اليابانيين لم يكونوا في البدء رجالاً صفراً متهدلي الخدود محافظين على التقاليد ، بل كانوا ذوي بشرة حمراء أو سمراء حادّي الاعصاب في مرونة ولباقة ، وينبغي ان يكونوا كذلك ليتاح لهم القيام في مراكب خشبية ذات اشرعة من القش ، بتلك الرحلات البحرية اللانهاية لها في وسط الزوابع والانواء والضباب حيث يموت الانسان من الجوع والعطش . ينبغي ان يكونوا ذوي نفوس مغلّفة بالنحاس السميك ليتاح لهم الطواف شهوراً إثر شهور ، رجالاً ونساء واولاداً متراكمين بعضهم على بعض ، قبل ان ينتهي بهم السير الى جبهة العدوّ حيث تنتظرهم الحرب الكبرى، التي لا مناص لهم منها

لقد قام اليابانيون بكل ذلك وربحوا الحرب . وهاهم البحريون منهم وها هم الجنود...وقصارى القول هاهم الرجال ! . هكذا كان اليابانيون في الماضي ، وهكذا هم اليوم ، فاليابانيون لم يتغيروا

﴿ هل اليابان شعب مقلّد منتحل؟ ﴾ ولم تكن تعوزهم البسالة ولا الذكاء . وتأدية البرهان على ذلك من السهولة بمكان، فهؤلاء الرجال الحمر أو السمر الذين عبروا الفاً او اثنتي عشرة مائة مرحلة من الاوقيانوس وبلغوا الى غايتهم على مراكب صغيرة عرفوا أن يلزموا السرعة في تنظيم صفوفهم ،وفي التحوّل من شرذمة الى جيش ، وسنّ نظام اجتماعي ، واختيار قوّاد ورؤساء لهم ، والتزام الطاعة لهؤلاء القواد والرؤساء ، وايجاد يومية ، واختراع كتابة إذ أن قيادة الجيش تقتضي مواصلات وبعثات لا يصحّ ان تقتصر على طرق شفهية . ولا شك في ان إيجاد يومية في مستطاع أيّ كان، واختراع احرف للكتابة في مقدور كثير من الناس ، على ان ذلك يقتضي وقتاً فالكلدانيون ظلّوا قروناً عديدة يتأملون دوران الكواكب ، ولقد اخترع المصريون أحرفاً كتابية ما لبثوا ان هجروها ويعلم الله وحده لماذا هجروا هذه الاحرف ، واخترع الفينيقيون بدورهم احرفاً حلقية ، وتصوّر الاغريق أحرفاً صوتية . وكان باستطاعة اليابانيين ان ينهجوا نهج الكلدانيين والمصريين والفينيقيين واليونان، سوى أنهم كانوا بحاجة الى الاسراع ، فآثروا ان يدوروا دورة الشفق ويبحثوا في جميع الجهات رجاء ان يهتدوا في ناحيةٍ من النواحي الى شيءٍ يوفر عليهم مشقة الاختراع . وما ان عبروا بحراً او بحرين حتى بدت لهم الصين ، الصين الواسعة المغمورة في عددها واعوامها، الصين التي

عرفت الكتابة منذ خمسة وعشرين قرناً وتعداد الفصول منذ اربعة آلاف سنة ، فاعتنق اليابانيون اليومية الصينية والكتابة الصينية ايضاً وهذا ما اعلق في أذهان البعض ان اليابانيين ليسوا سوى شعب مقلّد ، ناسخ ، منتحل ، ولكن ، يا للضلال الفظيع ، ضلال لا أجد صعوبة في هدمه وفي هدمه بسرعة

﴿ اللغة اليابانية ﴾ لنبدأ بمسألة اليومية : قد يكون اليابانيون نسخوا اليومية الصينية فهم لم يكن لديهم يومية في عهد من العهود ولا حرج على المرء ان يبني في ارض عذراء ، الاّ ان مسألة الكتابة تختلف عن هذه ، فاليابانيون وإن كانوا لا يحملون أحرفاً كتابية عند قدومهم من اوقيانوسيا الاّ انهم كانوا يحملون لغة ناطقة تطورت مع الزمن وبلغت حدّاً من الكمال . واللغة اليابانية الحالية المشتقة منها وغراماطيقها الذي يستلزم بعض الجهود ممن يدرسونهُ اكبر دليل على ما ذكرنا

ثم ان الكتابة الصينية لا تتضمن حروفاً ولا اصوات لها فهي تخاطب الاعين لا الآذان ، وترمي الى هدفٍ واحد وهو تصوير الفكرة تصويراً مباشراً . وهي الى ذلك تتضمن نحواً من ثمانين الف رسم صغير تحلّ محلّ الاحرف فتأملوا اية صعوبةٍ في التعبير بهذه الرسوم الهيروغليفية عن لغةٍ توازي اللغات الاوربية . وكأن اليابانيين شعروا بهذا الجهد العظيم فاحتفظوا بلغتهم الاوقيانوسية القديمة ولم يستعيروا من اللغة الصينية الاّ طريقة كتابتها

﴿ كيف نشأت الفروسية في اليابان ﴾ ولنتطرق الآن الى التاريخ وهو موضوع اقلّ جفافاً من هذا الاخير . فالتاريخ الياباني ربما كان شبيهاً بالتاريخ الصيني ، فالمراكب الخشبية التي اقلّت اليابانيين الى اليابان لم تكن مراكب كبيرة ، فالواحد منها لم يكن يسع اكثر من عشر عيال او من ثلاثين او اربعين محارباً مع أمتعتهم . وهذا التنظيم الاولي كثير الشبه بالتنظيم الصيني . إلاّ ان اليابانيين لما وصلوا الى اليابان ادركوا انهم لن يتمكنوا من التغلب على الاينوس إلاّ اذا جمعوا عصائبهم قبائل رحبة وكوّنوا من هذه القبائل مملكة واحدة فقاموا بهذا العمل وكوّنوا مملكتهم ، ولم يكن لهذه المملكة إلاّ رأس واحد ، فاليابان — منذ عهدها الاول الى يومنا هذا — لم تعرف إلا سلالة واحدة حكمت عليها حكماً مستمدّاً من الحق الالهي هي سلالة الميكادو الابناء الشرعيين للآلهة « اماتيراس نو أوهومي كامي » الذين يتخذون زهرة الاقحوان شعاراً لهم

ولقد أصبحت المملكة اليابانية مملكة إقطاعية منذ مدرجها . أما الاقطاعية هذه فقد افتتحت عهدها بالولاية الالهية كجميع الاقطاعيات ، فكان هناك زعيم كهنة وأمير سامٍ وحبر أعظم ولا مشاحة في أن القوة التي تأتي من الحق الالهي لا تقبل جدلاً ، فقد كان الميكادو في الاول امراء مطلقين تأتمر بأمرهم طائفة من الكهنة وأخرى من رجال الحرب . على أن المقاطعين من زمنيين وروحيين ما لبثوا أن اصبحوا امراء شديدي الشوكة كثيراً ما استولوا على السلطة العليا ، على الامبراطور ، فنبذ الشعب وتنوسي كما جرى في فرنسا وانكلترا وايطاليا وألمانيا . ولئن كان الحكم الاقطاعي ملائماً للبشر الاولين لانهُ يعجل تطورهم ويحضرهم بسرعة فهو شديد الوطأة على

كواهل المتحضرين المتطورين . فلما شعر اليابانيون بأثرة الامراء استيقظت في نفوسهم نخوة الشرف وهذه النخوة التي ولدت من الفروسية التي ولدت من الاقطاعية نفسها استمرت خمسة قرون أو ستة بعد ان تلاشى اي أثر لاية اقطاعية

﴿ الشرف الياباني ﴾ قلت ان الفروسية نشأت في اليابان على أثر المظالم التي الحقها الامراء بالشعب واطرح عليكم الآن هذا السؤال : من منكم يتراجع أمام أية معركة إذ كان الامر متعلقاً بغسل شرف مهان ؟ لا احد . ولكن عندما تقع المعركة في سبيل الشرف ينتهي كل شيء ويحتم على المغلوب ان يلقي سلاحه . اما في اليابان فالفروسية لا تجيز للمغلوب إلقاء سلاحه . فكل من تلحق بهِ اهانة ما يجب عليهِ ان يقتل المهين أو يقتل نفسه

ولا يخيَّل اليكم اني اجسّم الحقيقة ولا ابنيها الا على مستندات قديمة . فسأورد لكم قصّة رجل عاش في قرننا العشرين هذا ، قصة رجل يعرفهُ العالم بأمره ويحترم اسمه وذكراه . وهذا الرجل هو القائد «نوجي» الذي ربح معركة «بورت أرثر» وخلق «الربع الساعة الاخير» الربع الساعة الياباني للجنرال نوجي ... وما هي حكاية الربع الساعة هذا ؟ اسمعوا نصَّ الفقرة التي خلق بها القائد نوجي ربع ساعته : «سيكون النصر ، في أية معركة كانت ، حليف الجندي الذي يتيح له البأس ان يتجلد مدة ربع ساعة اكثر من خصمه» وفي هذه الفقرة امثولة بليغة في البأس والانتصار !

عندما بلغ الجنرال نوجي الى آخر ايامه بعد ان شبع من الانتصارات ونال قسطه الوافر من احترام الشعب ، اتصل بهِ في صباح يوم ان الامبراطور موتسوهيتو قد مات . والامبراطور موتسوهيتو الذي حكم من العام ١٨٦٧ الى العام ١٩١٢ والذي احدث الانقلاب الكبير في العام ١٨٦٨ كان أعظم امراء السلالة الآلهية المتحدرة من أماتيراس ، ربّة الشمس . فلما اتصل بالقائد نوجي هذا النبأ أسرع بقتل نفسه وأمرت زوجته بقتل نفسها أيضاً . وذكرت الصحف الرسمية وقتئذ ان القائد نوجي شاء ان يظهر تعلقه بالميكادو فتبعه الى الموت . القصة جميلة ، أليس كذلك ؟ على انها تنافي الحقيقة ، فالحقيقة هي خلاف ذلك ، وقد لا يستطيع ادراكها الاَّ من كان يابانيًّا

اسمعوا : كان نوجي الى خمسين سنة خلت تلميذاً بسيطاً في إحدى المدارس الحربية وكان قد اتحد بعرى صداقة متينة مع امير من امراء الدم الامبراطوري هو الامبراطور العتيد موتسوهيتو . وكان ان احد الاساتذة الضباط أهان نوجي التلميذ فصحّ عزمه على الانتحار إذ لم يكن بوسعه قتل من أهانهُ . فالنظام يحظر ذلك وقانون الفروسية يوجب احترام النظام ؛ على انه قبيل ان يبقر بطنه بالخنجر سأل صديقه الامير الامبراطوري ان يحضر بنفسه حفلة الانتحار ، فقبل الامير سؤال صديقه . الاَّ ان موتسوهيتو كان أميراً عظيما جدًّا وكان فوق جميع العادات والتقاليد وان تكن مقدسة فقال لنوجي

— لن تقتل نفسك لان الملك بحاجة الى رجال مثلك . لقد أهنت فكان عليك ان تموت ، على ان الاهانة التي لحقت بك قد غسلت لاني أنا ابن الآلهة ، ابن اماتيراس نو أوهومي كامي أحمل اهانتك

على رأسي وآمرك بأن تعيش ! . فانحنى نوجي مذعناً وعاش وأصبح فيما بعد ضابطاً فقائداً فعظيماً ، ربح مواقع عديدة واكتسب احترام الشعب . ولكن في اليوم الذي مات فيه الامبراطور موتسوهيتو واحتجبت الجلالة الامبراطورية التي كانت تحمل على رأسها الاهانة القديمة عادت هذه الاهانة بعد مرور ٤٠ سنة عليها فسقطت على رأس الجنرال نوجي فأسرع بقتل نفسه ليبقى شرفه سليماً ! ان شرفاً كهذا لن يموت !

﴿ الشعر والفن في اليابان ﴾ ولقد عرف هؤلاء الرجال القصار القامة الذين اعتنقوا الاحرف الصينية ان يخلقوا لنفسهم شاعرية نبيلة بين أنبل الشاعريات جميعاً وان يطبعوا هذه الشاعرية بطابعهم الخاص ، ولقد برهنت هذه الشاعرية اليابانية للعالم بأسره أنها موجودة وانها الابنة الشرعية للجمال الياباني . وفيمَ نتكلم عن الشعر ولا نتكلم عن الفن ? فلليابانيين فنٌ دقيق أوحي بعضه من الفن الصينيّ وبعضه من الفن الاغريقي اذ ان اغريقية فيدياس وأخيل قد اجتازت آسيا عقيب الملك اسكندر وعقيب الفلاسفة البوذيين ايضاً ، على ان هذا الفن بقي خاصاً لان اليابانيين سكبوا فيه روحهم ، وهذه الروح لم تكن بالروح الاغريقية ولا الهندية ولا الصينية . وان هياكل نيكو التي بنيت في عهد هنريكوس الرابع او عهد لويس الثالث لاكبر شاهد على ذلك

﴿ الاديان في اليابان ﴾ ولكني لم أتكلم بعد عن مختلف الديانات التي مارستها اليابان في منتصف القرن السادس عشر للمسيح

كان ثمة ديانة «الشينتو» وهي الديانة الوطنية القديمة التي تؤكد ان الامبراطور هو ابن الآلهة ، والديانة البوذية التي جيء بها من الهند في القرن السادس للمسيح . اما الشينتو ، وهي مزيج من تقاليد قديمة وتوقيرات ابوية ووفاء عائلي ومعتقدات باطلة ولكن شريفة ، فقد كانت ديانة وطنية اكثر منها ديانة ايمان . ولم تكن البوذية التي كانت تعدُّ تسع عشرة طائفة في اليابان معظمها ينكر وجود الله وخلود النفس ، سوى فلسفة ونظرية . على ان اليابانيين كانوا شينتويين لحجة انهم يابانيون وكانوا بوذيين ايضاً بحكم الضرورة لان مراسيم المآتم كانت في حوزة الكهنة البوذيين

وكان ثمة ديانة ثالثة لو اتيحت لها الظروف لسهل عليها التأصل في اليابان وهذه الديانة هي النصرانية . ولا يغرب عنا ان اليابان في القرن السادس عشر للمسيح كانت بحاجة الى تعاليم عذبة تطفح بالحلم والرأفة ، الى تعاليم المسيح ، فالياباني الذي يكد سحابة يومه ويشقى يحتاج الى الراحة وليس لهذه الراحة أعذب وأهنأ من المخدة المسيحية . على ان اليابان لم تحصل على هذه الديانة على شدة حاجتها اليها . ولماذا ? لانها كانت بعيدة عن روما ، بعيدة جداً عنها ، فالرسالة كانت تستغرق سبع سنوات ، او ثماني لتصل الى روما ويأتي جوابها . ولا مشاحة في ان فرانسوى كزافييه الجزويتي الذي ارسل الى اليابان ليبشر بالدين المسيحي قام في اليابان بأعمال عجيبة ، سوى انهُ لم يكد يموت حتى ضاعت جميع الجهود التي بذلها ، فخلفاؤهُ كانوا اقل نبوغاً منهُ وكان عليهم ان يقاوموا الشينتو والبوذية فلم يفعلوا لانهم كانوا يجهلون ان الشينتو ليست سوى وطنية وان البوذية ليست سوى فلسفة

وعلى اثر وفاة فرانسوى كزافييه هب اليابانيون لمحاربة الدين المسيحي ، وفي العام ١٧٣٧ صدر مرسوم ياباني يقضي بمنع اي اجنبي كان من النزول على الشواطىء اليابانية . وهكذا اغلقت اليابان ابوابها ونوافذها واعتزلت في الكرة الارضية

﴿ اليابان تتطور ﴾ ولكن ما لبثت الثورة ان انطلقت في اليابان ؛ ففي العام ١٨٦٨ شعر اليابانيون انهم بحاجة الى القوة وأنهم — وقد اوصدوا حدودهم منذ اكثر من مائتي سنة — يجهلون الطريق الصناعي والميكانيكي الذي مهدتهُ اوربا والذي اوصلها الى البخار والكهربائية والاشتراكية . ولم يجهل اليابانيون اي خطر سيواجهونه في تركهم طرق الاجداد وسلوكهم الطرق التي يسلكها الجنس الابيض ، على انهم لم يجهلوا كذلك انهم لن يستطيعوا المحافظة على حريتهم الاّ اذا كانوا اقوياء ، واليابانيون يعشقون الحرية ، فكان عليهم ان يقضوا دفعة واحدة على شرائع الجدود وعلى التقاليد المقدسة فقضوا عليها جميعاً بدون تردد واعتنقوا السلاح الاوربي والعادات الاوربية . وكان ان حالفهم النصر ، ولا يزال حليفهم منذ العام ١٨٦٨ الى يومنا هذا

﴿ اليابان في عشرين سنة ﴾ واننا لا نجد فائدة في أن نعرض للحرب الصينية اليابانية التي نشبت في العام ١٨٩٤ وللانتصار البحريّ العظيم الذي ناله اليابانيون في معركة يالو (Yalou) كما اننا لا نجد ايضاً فائدة في ذكر ملحمة العام ١٩٠٤ عند ما خيّل الى روسيا العظيمة انها تستطيع ان تسحق هؤلاء اليابانيين القصار القامة الذين سمحوا لانفسهم بالاعتداء على قوريا ومنشوريا وهما ارضٌ محظورٌ القنص فيها إلاّ على القياصرة ، فكان ان انهارت روسيا في لياويانغ وبورت ارثر ومكدن وسوشيا كما انهارت الصين من قبلها . ولكن قد نجد فائدة في ان نأتي على ذكر حادث خطير وقع في العام ١٨٩٤ ؛ ففي هذه السنة عندما احتلت الجيوش اليابانية مرفأ «وياوي » Wei—a—Wei الصينيّ استاءت المانيا واذنت لنفسها بأن توجه الى اليابان هذا الانذار الشديد

« تفضلي بالجلاء عن وياوي في مدة اربع وعشرين ساعة او اضطرّ الى التدخل في شؤونك »

كانت المانيا في العام ١٨٩٤ امة عظيمة هائلة ، وكانت اليابان في ذلك العهد لا تزال تختبر اجنحتها ومنقارها ، ففكرت قليلاً ثم ابتسمت وانحنت ، وعملت بموجب الانذار الالماني

ولكن بعد مرور عشرين سنة ، في العام ١٩١٤ ، عند ما هبت المانيا تشهر الحرب على العالم بأسره هبّت امة للوقوف في وجهها ، وهذه الامة هي اليابان ، في الوقت الذي أتاح لالمانيا أن تستولي على مرفإ تسنغ تاو القريب من مرفإ وياوي وجدت اليابان الإشعار الالماني القديم فمحت منهُ اسم « وياوي » وكتبت محله اسم « تسنغ تاو » ومن غير ان تبدل حتى ولو حرفاً واحداً طوت الإشعار القديم وبعثت بهِ الى المانيا

« تفضلي بالجلاء عن « تسنغ تاو » في مدة اربع وعشرين ساعة او اضطرّ الى التدخل في شؤونك »

وهكذا اتيح لليابان ان تثأر لنفسها

مشكلة النمسا

ان الذين يؤمنون بالسعد والنحس قد يجدون في النمسا ما يؤيد مذهبهم فما برحت تلك البلاد منبع مشكلات ومصدر متاعب . وليس بين قرّاء التاريخ من يجهل مصائب آل هبسبرج الذين تولوا حكمها وحكم هنغاريا كما انه ليس منهم من يجهل ان نزاعها الخفي مع صربيا وهو النزاع الذي افضى الى اغتيال ولي عهدها وقرينته اضرم الشرارة الاولى لنار الحرب وهذا علاوة على ما كان بين عناصرها من صراع يدلّ على ما انقسمت اليه بعد الحرب وعودة الجزء البولوني الى بولونيا ونشوء دولة تشكوسلوفاكيا وانفصال هنغاريا وضم العنصر الايطالي الى ايطاليا وما اخذته رومانيا . ثم ما منيت به البقية الباقية من النمسا من ازمات سياسية ومالية لولا توسط جامعة الامم لقضت على كيانها

ثم كانت المشكلة التي تلت هذه بالسعي لضم النمسا الى الريخ او الاتحاد الالماني ومعارضة فرنسا لهذا الضم واقدامها على اسعاف النمسا لتظل قادرة على صون استقلالها فلا تعظم المانيا ولا تقوى باضافة ثمانية ملايين من خير اهل اوربا اليها علاوة على ان النمسا من اجمل بلدان العالم وعاصمتها في مقدمة العواصم حسناً ونظاماً ان لم تكن أحسنها وأبهاها

ولم تكد النمسا تجتاز هذه المرحلة حتى اخذت الاقدار تهيء لها مشكلات جديدة بانقسام اهلها وتعرُّض النازية الالمانية لها وهياج خواطر الاشتراكيين فيها وقد كان لهم الكلمة العليا في فينا وسواها وظهور روح الفاشستية وما تلا هذا كله من صراع داخلي تجلى اخيراً في الفتنة التي نقلت الينا التلغرافات اخبارها وعواقبها وقد انتهت بخضد شوكة الاشتراكية وكبح جماح انصارها وفوز الوزير دلفوس

ولكن الازمة لم تنته بهذا فقد وقفت الدول تجاه هذا الحادث وقفة حائر ففرنسا تعارض انتشار الروح النازي في النمسا حذراً مما قد يفضي اليه من ضمها الى المانيا . وايطاليا ترى في حوادث النمسا وقوة الهيمفر مجالاً حسناً لانتشار المذهب الفاشستي فهي تعارض المانيا كذلك . أما بريطانيا فتجاري الدولتين ولكنها تخطىء حكومة النمسا كما يخطئها سواها فان اضعاف الاشتراكية يفضي حتماً الى مضاعفة جهود النازي وقد يوقع حكومة دلفوس في حرج لانحصار الصراع بين حزبين وهما النازي والفاشستي

ولا يخفى ان فوز الحكومة النمسوية وقهرها للاشتراكيين لا يكفل لها السلامة والبقاء بالضرورة اذ لا يدري احد كيف يكون التحوُّل الفكري والسياسي في البلاد بعد الازمة الاخيرة فقد تعلو كلمة النازي ويكون لهم الفوز الاخير وحينئذ يتفاقم الخطب لما قد يجر هذا اليه من نزاع فرنسا والمانيا

ولهذا عاد غير واحد الى اقتراح اعادة آل هبسبرج الى حكم النمسا ليكون من اعادتهم حائل يحول دون ضمها الى المانيا حرصاً على استقلالها القومي برعاية اسرتها المالكة السابقة

وهناك عامل آخر لا يسع الباحث اغفاله وهو ان الاحزاب الاشتراكية في سائر بلدان اوربا نقمت من الدكتور دلفوس انتقامه من اشتراكيي بلاده والاشتراكية في اوربا قوة لا يسع النمسا ازدراءها

رعاية القمر

لبودلير الشاعر الفرنسي

نظر إليكِ القمر — ذلك القلبُ الحوّلُ — من وراء النافذة وأنت راقدة في مهدك فهتف في أعماقه

« شدَّ ما اتسقت هذه الصبية على غرار سجيتي »

واستَرَقَ الخطى هابطاً درج السحاب متسللاً من زجاج النافذة في سكينة وصمت حيث حنا عليك في عطف الأم الرؤوم طابعاً ألوانه على قسمات وجهك

ومن ثمَّ شعشع السندس ملء عينيك ، وشاع الشحوب الرائع في أديم خديك

أجل فعند ما تطلعتِ اليهِ انداحت حدقتاك بدرجة غريبة فطوّق نحرك بذراعيه المترفقتين في حنانٍ بالغ أورثك الحنينَ الى الدموع

وما هي الاّ فورة من نشوة فيّاضة حتى غمر مخدعك بجوٍ مشعّ من ضوئه الوّهاف . ذلك الضوء الخالد الذي هتف من سُبُحات تفكيره قائلاً

« ألا فلترتسم عليك قبلتي إلى الابد

«وليكن لك مثل فتنتي وجمالي .ولتحبي كلَّ ما احب وكلَّ ما يحبُّني . من ماء وسحاب . وليل وسكون . من البحر الوجدي المترامي . من الماء المنطاق السيال والمتعدد الاوضاع والاشكال . من المكان الذي لن تطرقيه . من العاشق الذي لن تعرفيهِ . من الزهور التي لم تدنها الطبيعة . ومن العطور الفوّاحة المسكرة .ومن القطط المستلقية في تراخٍ على « البيان» ذات الاصوات الأجشة العذبة الحاكية لتنهدات النساء

«أجل ! ولتكوني فتنة عشاقي . وموضع الاجلال من سماري وندمائي .ولتستوي ملكة على عرش من افئدة الرجال ذوي العيون الخُضْر . الذين اعانقهم وتحويهم احضاني كل ليلة . هؤلاء الذين يفتنهم البحر ، البحر المتنائي الاطراف ذو اللجة المصطخبة الخضراء ، والمكان الذي لن يغشوهُ ، والمرأة التي لن يهتدوا إليها ، وازهار الشر المتوقدة كمجامر كاهن مجهول ، والعطور المثيرة المستبدة بالغرائز ، والوحوش الضارية التي ترمز شهواتها المشبوبة الى حماقة هؤلاء المساكين

«والآن . . ايتها الصبية اللعينة العزيزة المَشبوبة ذلك ما يدفعني لأن أجثو على قدميك متلمساً فيك صورة الالاهة المروعة . ربة الارباب القاضية . ظئر السموم لكل صرعى القمر من بني البشر

[اختارها وترجمها عن الترجمة الانكليزية علي محمود طه]

الينبوع

رواية لتشارلز مورغن الكاتب الانكليزي

قطعتان مقتطفتان منها

حياة التأمل

كان لوِس، في الاسابيع التي تلت سعيداً، سعادة لم يدركها منذ عهد الطفولة . وبدا لهُ كأن العالم، عاد لا يهمهُ . فكان يجلس الى خوان « جدول » يوماً بعد يوم، يطالع او يشاهد القلاع وقد اخذ الشتاء يرتدُّ عنها، مطلقاً لفكرة كتابهِ العنان حتى تنمو في نفسهِ من غير ان يستحثها . وما كان جزوعاً، لان «التاريخ» لم يكن في نظره، غاية تطلب لذاتها، وانما كان رمزاً لطريقة من طرائق الحياة، او سبيلاً الى تنظيمها وتنسيقها . ولاح لهُ ان الكتاب التام، ليس هدفاً يستحثهُ ويدفعهُ الى الجزع وانما رآه عمل رجل، لا بدَّ لهُ من الدرس كسبيل الى الصيرورة . وان الهدف نفسهُ لبُعده، ليس من هذا العالم

كان لا بدَّ للكتاب من ان يتخذ الشكل التاريخي، يتتبع فيه تحوُّل المثل الروحية في انكلترا من عهد الاحياء، ثم ربطها، بفلسفات الماضي السحيق . وانما العمل الذي بين يديهِ، لا يقتضي تلخيص بعض المفكرين الصوفيين فقط او تأليف تاريخي ديني . ذلك ان محاولة التوحيد، بين غرض التأمل وغرض التصوف في الحياة، كمحاولة التوحيد بين جبلٍ واحد الجداول التي تنبع منهُ . وانما كان موضع عنايتهِ ان يعرف، هل ثمة اية وحدة ملموسة، بين الجهود العليا للعقل البشري، هل يمكن ان يربط بين قصد افلاطون، ربطاً أتم مما يظنُّ عادة وقصد القديس توما الاكويني او فوغان او نيوتن ؟ فاذا كانت هناك وحدة من هذا القبيل، فما هي ؟ وهل تقتصر على العباقرة ؟ وما أثرها في حياة الرجال والنساء الذين لا يميلون بطبيعتهم الى حياة التأمل

وكان هنالك فكر يؤثر فيهِ، كأنها قوة خارجة عنهُ لا نتيجة جدال داخلي، مؤدّاهُ ان حياة التأمل نادرة ولكن الرغبة في التأمل عامة، وان الرغبة في التأمل هي للروح، كالشهوة الجنسية للجسد، المحرّك الاول في حياة الناس . قال ان سكينة التأمل، ليس الاَّ

اسمىً يضفى على حالة من المنعة ، والمنعة هي الغرض الذي يرمي اليهِ الناس . حتى الرغبة في الخلود لا يمكن ان تكون من دون موطن ضعف فيها ، لانهُ يخالطها ، عنصر التوق الى الراحة او الفناء ، او خوفٌ كخوف حملت من الاحلام الخالدة . ولكن الرغبة في المنعة لا يأتيها الضعف من اية ناحية فيها . فهي متسقة مع توق الانسان للراحة ومع اشتياقهِ وحماستهِ للحياة . بل هي الرغبة الوحيدة التي توفق بين الناحيتين . ثم هي تتضمن معنى السيطرة على الاحلام

***

فنيوتن في بحثهِ عن نظام نهائي للطبيعة الخارجية ، وقديسو الكنيسة الاولون في محاولتهم التوحيد بين ذواتهم وذات الله وفنائهم فيها ، والفلاسفة الذين وقفوا انفسهم على البحث عن الحق المطلق ، الذي لا يُلمس ، وليس لهُ زمان — الم يكن هؤلاء جميعاً يحاولون الوصول من طرق مختلفة الى غرض واحد هو غبطة المنعة لانها خارجة عن الحواس مع انهم لم يفكروا في الخلود . ان رجالاً من طبائع متباينة يبحثون البحث نفسهُ في نطاق الحواس — في ادراك السرعة التي يتلاشى فيها ما دامت ، ادراك الزمان — في الفنون وهي حسية بذاتها اذ ينطلق منها اصحاب النزعات الروحية الى صميم الروح — في الحب الذي يبني معقله في قلب المدينة — تلك هي نعمة التجرُّد التي تردُّ الظلام كما يردُّه المشعل في الليل وفي الوقت نفسهِ يعمي المشاهد عن كل شيءٍ الاَّ عن نفسه . ان وصول الانسان بطريقة ما ، الى حالة ، يستثنى منها كل شيءٍ الاَّهُ ، غرض كل احد . فهو يتعلق بأي وعدٍ فيهِ شبح من هذه الحالة . فسراتهُ ، ومحبتهُ على الارض ، وفنهُ ، وفلسفتهُ جميعاً لهـا من القيمة بقدر ما تحتوي عليهِ من ذلك الوعد . انهُ يضحي بالعالم من اجل حبهِ ، لانهُ في صميم قلبهِ يرغب ان يخسر العالم ، ان ينفض غباره عن قدميهِ ، ويدرّع هذه الغبطة التي تقيهِ منهُ . انهُ يرى الاشياء تتحرك من حولهِ ، ويشهد الوعي كالتيار بين مدٍّ وجزر . فيرغب في ان يكون كالآلهة ، ولو لحظة واحدة ، ساكناً منيعاً لا يقارب

***

وكذلك أحسَّ لورِس ، كالمسافر الذي اقبل على ارض بسيطة لا تحدّ ، بعد ما اعتقد انهُ محصور في مضيق ، فبـدأ يرى ان التأمل ، ليس منطقة خاصة لا تجوسها الاَّ العبقرية ، بل تاجاً تتوّج بهِ جميع آمال الناس ، هي حالة سلم حيةٍ ، تحمل «الابديّ» في ثناياها ، فارتدَّ الى أفلاطون امامهُ ، يسمع في عباراتهِ ، صوتَ الانسانية لا قول رجل فردٍ

رسالة

بعثت جولي محبوبة لوس بطل الرواية برسالة اليه طي كتاب عن الفيلسوف ديكارت ، فردّ بالرسالة التالية لما عثر عليها :—

لماذا بعثت بها في كتاب ؟ أكان يحتمل ان لا اجدها على الاطلاق . اكان هذا الباعث ؟ اكاد اظن ذلك

من ثلاثة اسابيع عدت من نزهة طويلة ، فوجدت على خواني ، رزمة كتب عليها العنوان بخط « رمزدل » وداخلها كتاب « درك » عن ديكارت ، ورسالة من رمزدل يقول فيها انهُ كان قد اتى بهِ من مكتبة القصر ، وعليَّ ان اعيده اليهِ ، متى قضيت منهُ وطري . وما كنت احسُّ حينئذٍ برغبة في مطالعة ديكارت ، فمدوتهُ الى كتب اخرى ، وأفكار اخرى منذ ما زارني رمزدل هنا ، ووضعت الكتاب على عتبة النافذة ، حيث اختفى تحت ركام الاوراق والكتب التي تتجمع بسرعة في مسكني الضيق . ولكنني اعمد الى ترتيب اوراقي وكتبي من آن الى آخر ، وقد بدأت ارتبها الليلة فعثرت على ديكارت . فكان ذلك آخر محاولتي . فجلست اقرأ فوقع كتابك في حضني

كتابتك ! انني لأذكر اول رسالة اتتني منك — في الحصن . وما كنت اعرفك ، ومع ذلك لم استطع الهروب مما احاط برسالتك من السر الخفي — رسالة من روح استطيع ان اراه ولكن لا اراه . يدك على الورق وريشتك ترسم الكلمات وعيناك ترعاها . والآن يا جولي ، اتيح لي ان ارى امامي ، على خواني وفي متناولي كتاباً منك ! فكأنك انت في الغرفة . بل اكثر من ذلك . كأن سرك او خلاصتك المصفّاة معي ، مع انها لا تلمس ، كعطر ازهار بعيدة يهبُّ فجأة من النافذة . كتبت من المكتبة وهي باردة في الليل . مع اني استطيع ان اتصوّر البرد والظلام ، فخيالي لا يستطيع ان يسلم بهما دون اي شيء آخر . اراك جالسة على ارض الغرفة ، والشمس مشرقة عليك ، اذ كنا نتحدث في القرن السابع عشر . اراك متحركة ، والشمعة في يدك من رفٍّ الى رفٍّ ، لمعانها في شعرك وأخيلتها تتحرك عند قدميك . اراك تحت الاشجار تراقبين التنس ، وعائدة من الملعب وجالسة الى جنبي في عودتنا من رنوك ، وسائرة امامي في الطريق المفضية الى الكوخ . كل هذه الصور ، التي تنبعثين منها ، انما هي صورة واحدة تتصفى فيها الوف التأملات ، بل هي حقيقة اعظم من حقيقة الشيء المرئي .

هنا ثغرة في كتابي ، مداها ثلاث ساعات او اكثر . لم استطع ان امضي في كتابته . فخرجت اتمشى في المرج ، حيث الاشجار تطقطق في هواء جليدي ، كأن حبالاً من الجمد

تتدلى من اغصانها . ثم جلست احدق في رسالتك ، وفي المصباح ، ومع ذلك لم اتمكن من المضي فيه . انني لا استطيع ان ادرك هدوء عقلك يا جولي . بل انني لا اعلم على مَا كنت طويت رسالتك لو انك كتبت اليَّ — لا الى ديكارت

سأقول لك لماذا غادرت جيرة القصر من خمسة اشهر . فمن ناحية انت امرأة والاختيار لك — سبب تقليدي . اما من ناحية اخرى ، فلسبب خاص بي . انني استطيع ان اكتب عنه الآن ، بهدوء ورباطة جأش . أما حينئذٍ فلم يكن لنا الاَّ الاستناد الى البديهة . فقضت بداهتك بأن اذهب . فكتبت كتابك في الحال ومن دون تردد . لم تفكري فيهِ بل جلست وكتبتِ . وبعد ساعة جاءني بهِ يعقوب الى الكوخ . فأيدت بديهتي بديهتك . علمت ان حبنا كان قد اصبح اعظم او اسخف مما نفقه — اما الكل او لا شيء . ولكنني لم استطع ان ارى ولا ان اميز . كنت احس ولكنني كنت عاجزاً عن الحكم

الحب الصداقة وكل صلة حميمة بين شخصين ، لها شخصية خاصة مميَّزة عن شخصية كل منهما المنفصلة ، مع انها نشأت من اندماج الشخصيتين . فخيانتها او افسادها او تشويهها او تحقيرها خطيئة لا تغتفر في رأيي . بيد انني لا اعتقد ان متعة الحب الجسدية خطيئة ، وانما هي تصبح خيانة مميتة ، حين يطغى على الصلة الانسانية ، التسليم بهذه المتعة او الرغبة فيها . فأنت وأنا ، باكتشاف احدنا الآخر ، اصبحنا اما ربّين يملكان في صلة احدهما بالآخر مقدرة على خلق جوهر لا يفنى ، اعلى منا كلينا ومستقلاً عن لذاتنا ، او حيوانين وقعا في شرك . فاما ان تنمو شخصيتانا ، متجهتين نحو السلام والسكينة عن طريق حبنا وبسببهِ ، او تتلاشيان في الشهوة السخيفة . فحبنا ، قوة من وراء القدر ، في مكنتها ان تخلق شخصية مندمجة اجمل واشد حيوية ، من كلينا ، او هو لذة عقيمة لا غير . وكنت اودُّ ان اعرف ، واحكم على انفسنا . اقول « وكنت اود ان اعرف واحكم » ثم اذا بي لا اريد شيئاً الاَّ ان اكون قربك ، وان اهجر الفكر ، في شهوتي لك . ولكن بديهتي كانت الى الذهاب ، كما كانت بديهتك الى امري بالذهاب . ومنذ ما ذهبت فهمت لماذا ذهبت

ثغرة اخرى . كنت في المرج ، حيث بدأ الصباح يتنفس . وقد قرأت ما كتبتُ — كتاباً من قطعتين . تقولين كتاب محبك ، وكتاب معلمك . ومهما يكن ، فلا بدَّ من ارساله كما هو ، فانني لا استطيع ان احدث تعديلاً في احد قسميهِ من دون ان اكذب عليك وعلى نفسي . حتى ما كتبهُ معلمك ، فكَّر فيهِ محبك . وفي هذه عذر عن جفافهِ . وكنت قد قلت مرَّة انني لن احاول ان ابلغك ما يجول في نفسي ، لانك لابدَّ ان تسخري مني . ولكنني افضل ان تسخري على ان اخدعك ، لانني اراني الآن اكثر مما كنت قبلاً محبك . . . لوس

اذا تحطم المصباح

— لشلي —

اذا تحطَّم المصباح خبا النور في التراب
اذا تفرّقت الغيمة زال جمال قوس قزح
اذا تكسر القيثار نسيت النغمات الاخاذة
اذا تكلمت الشفاه اودت اناشيد الحب

الموسيقى والجمال لا يبقيان بعد المصباح والقيثار
كذلك اصداء القلب لا توحي النشيد اذا كانت الروح صامتة
لا توحي نشيداً بل نغماً حزيناً كالريح في غرفة متهدمة
او كتلاطم الامواج الذي يشيّع بهِ بحّار الى القبر

بعد ما تمتزج القلوب يخرج الحبُّ من العش الذي احسن بناؤهُ
فينفرد الضعيف بحمل عبئهِ
ايها الحب الذي يأسى لضعف الاشياء على الارض
لماذا تختار الاضعف ليكون مهدك ودارك ونعشك

ان عواطفهُ تهزُّك كما تهزُّ العواصف الغربان في الفضاء
ويسخر منك الذكاء الالمعي كما تسخر الشمس من سماء الشتاء
في عشّك يندثر كل عود ، فاذا عاد عقابك
تركك معرّضاً للسخرية ، متى تساقطت الاوراق وهبّت الرياح الباردة

الملكة الممرضة

ملكة البلجيك على ذكر وفاة الملك البرت الاول

لكريم ثابت

لما بلغ الدوق شارل ثيودور فتلسباخ البافاري الخامسة والثلاثين من عمره اعتزل خدمة الجيش بعد ما أبلى فيه بلاءً حسناً وانتظم في سلك كلية الطب بالجامعة وأكبَّ على درس الطب بجد ومثابرة فلم يشجعه الاساتذة في بادىء الامر ظناً منهم ان الامير الطالب يريد تسلية وقتية حتى اذا سئمها كما سئم الجندية من قبلها لم يتردد في مغادرة الكلية وهجرها ، ولكنهم ما لبثوا بعد اشهر ان لاحظوا ان سموه اكثر زملائه اجتهاداً في دروسه وأشدهم مواظبة على تأدية فروضه فتحول ظنهم الاول فيه الى احترام لمواهبه وفي آخر سني الدراسة فاز سموه بدبلوم الدكتوراه في الطب وأراد ان يزاول صناعته اسوة بزملائه الذين نالوا الدبلوم معه فرأى من سداد الرأي ان لا يبدأ العمل في مدينة كبيرة كمدينة « مونيخ » فانتقل الى مدينة « تجرنسي » وفتح فيها عيادة جميلة ثم آثر التخصص فتخصص في امراض العيون وفتح عيادة جديدة في مدينة « ميرانو » ولما ذاع اسمه نقل عيادته الى « مونيخ » وكان قد اصبح من الثقات في الفرع الذي تخصص فيه

***

وكان للامير الطبيب كريمة اسمها « اليصابات » عرفت بالنشاط من حداثتها فطلبت منه ان يسمح لها بمساعدته في عيادته كممرضة فأجابها الى طلبها فاغتبطت اغتباطاً شديداً وأخذت تتردد على العيادة يومياً من اول ساعات النهار ولا تنصرف منها الا بعد ما يغادرها آخر المرضى وقسمت مهمتها في العيادة الى قسمين فكانت عند ما يدعوها والدها الى جانبه لتساعده في عمل يعمله تؤدي ما تؤديه الممرضة العادية وعند ما لا تكون معه تجلس مع المرضى ولا سيا الامهات وتواسيهم وتبحث معهم في احوال الشعب الى ان يدق والدها الجرس فتخف اليه مسرعة

ففي جانب من جوانب تلك العيادة درست الاميرة اليصابات البافارية احوال الشعب الحقيقية وتعلمت « فهم الحياة ومعرفتها » كما قالت هي نفسها بعد ذلك

***

وكرّت الاعوام واصبحت الاميرة الممرضة ملكة للبلجيك بزواجها من جلالة الملك البرت الاول ملك البلجيك المتوفّى حديثاً . ولا يسع الكاتب ان يتكلم عن جلالتهِ من دون ان يتكلم عن جلالتها

« لان كلاً منهما متمم للآخر » كما قال عنهما الكونت سفورزا الوزير الايطالي الكبير وقد عرفهما معرفة وثيقة ، فرأيت ان اصف لقارئات المقتطف جلالة الملكة اليصابات وكنت قد تشرفت بمعرفة جلالتها قبل زيارتي للبلجيك في الصيف الماضي فانهُ لما انتهت زيارتها وزيارة الملك البرت الرسمية لجلالة ملك مصر مكثت جلالتها اياماً اخرى في القاهرة زارت في خلالها جمعية الاسعاف وهناك تلطف سعادة وزير البلجيك المفوض السابق فقدمني لجلالتها ولما كنت في بروكسل في هذا الصيف رأيتها في بعض الحفلات التي اقيمت عند الاحتفال بعيد الدولة الوطني وشاهدت مبلغ تعلق الشعب الشديد بها

وفي اشتغال جلالتها كممرضة في عيادة والدها في صباها وعطفها على البائسين ما يفسر اهتمامها بزيارة جمعية الاسعاف في القاهرة

وفي خلال الحرب العظمى اشتغلت جلالتها كممرضة ايضاً في المستشفيات العسكرية فانهُ بينما كان زوجها الباسل يعيش مع جنوده في ميدان القتال كانت هي تطوف تلك المستشفيات لتضمد جروح الجنود بيديها الكريمتين ولتواسيهم وتبث روح الامل في نفوسهم بالفاظها العذبة وكثيراً ما كانت تقيم لهم حفلات اجتماعية لتسليهم وتنسيهم آلامهم وفي كل حفلة منها كانت جلالتها تعزف على كمنجتها بالبراعة التي اشتهرت بها ويقول العارفون انها من اقدر العازفات على الكمنجة وكان والدها الطبيب ماهراً في العزف على البيانو ويروي المتصلون باسرتهِ انهُ لما كان يجلس الى البيانو كانت كريمته الفتاة اليصابات تضطجع على الارض وتصغي الى عزفه بملء جوارحها

ولما انتهت الحرب وجهت جلالتها عنايتها الى انشاء المستوصفات والعيادات وكان بين الجمعيات التي انشأتها برآستها لهذا الغرض جمعية لمقاومة الامراض التناسلية ، وحدث يوماً ان عظيماً من عظماء البلجيك هنأها بالشجاعة التي ابدتها بتأسيس هذه الجمعية وقبول رآستها فقالت له: « ان معرفة احوال الشعب هي التي اوحت اليَّ بالواجب الملقى على عاتقي وكان هـذا الواجب ينطوي على الارشاد الى الطريق بينما كانت النساء الاخريات يترددن وما دامت احوالي تسمح لي بالارشاد الى الطريق الذي يتعين سلوكه كان يجب عليَّ ان افعل ذلك »

وكان بين الحفلات التي اقيمت في بروكسل احتفالاً بالعيد الوطني حفلة لتوزيع « مداليات الشجاعة والنخوة » على الذين عملوا في خلال السنة اعمالاً تدل على الشجاعة والمروءة والنجدة كأن ينقذ شاب زميلاً له أشرف على الغرق او كأن يجازف معلم بحياته فيقتحم حجرة اشتعلت فيها النار لينقذ صبيين حصرا فيها الخ ... وشهد هذه الحفلة جميع افراد الاسرة المالكة احتراماً لتقليد متبع في البلجيك وهو ان تشهد الاسرة المالكة كل الحفلات الشعبية التي تقام احتفالاً بالعيد الوطني

وكانت الملكة لابسة ثوباً بسيطاً كعادتها وتحادث الجالسين حولها ببساطتها العادية ولكن ملامحها وكل حركة من حركاتها ومشيتها كانت تنم على الدم الملكي الذي يسري في عروقها

وفي كل مرة كانت تقف جلالتها لتسلم مدالية لمستحقها كان الشعب يقابلها بعاصفة من التصفيق والهتاف . ومما تحسن الاشارة اليه هنا ان موظفاً كبيراً في وزارة الخارجية البلجيكية قال لي « ان عدد الاطفال الذين سموا البرت واليصابات في الشهر الاول وحده من شهور الحرب العظمى يزيد على عدد الاطفال الذين سموا بهذين الاسمين منذ ما اعتلى الملك البرت العرش الى ان نشبت الحرب وذلك لان ما اظهره الملك والملكة من اليوم الاول من ايام الحرب جعل الشعب يشعر بأن هناك رابطة جديدة تربطه بهما وهي رابطة التضحية المشتركة »

***

ولا اريد ان اختم هذه العجالة عن الملكة اليصابات من دون ان اشير الى زيارتها الاولى لمصر في سنة ١٩٢٣ فانها بعد ما تفرجت على مقبرة الملك توت عنخ آمون عادت الى بلادها وهي مفتونة بعظمة هذه الآثار وجمالها فما كادت تصل الى بروكسل حتى فكرت في تخليد ذكرى هذه الزيارة بانشاء معهد للعاديات المصرية فكاشفت بذلك الاستاذ كابار العالم البلجيكي الكبير فأيد الفكرة وتم انشاء المعهد باسم « معهد الملكة اليصابات للعاديات المصرية » وهو يشغل اليوم جناحاً كبيراً في البناء الاكبر للمتحف الوطني في بروكسل وقد اصدر المعهد حتى الآن مؤلفات شتى عن الآثار المصرية ومصر الفرعونية

وتلقى في المعهد من وقت الى آخر محاضرات نفيسة عن مصر القديمة وفي كل مرة تقريباً يرى المجتمعون لسماع المحاضرة سيدة طويلة القامة نحيلة الجسم تفتح باب القاعة بيدها ثم تسير الى اول كرسي تجده وتجلس عليه كأنها فرد من الافراد فيتهامس الحاضرون قائلين : الملكة

فوائد منزلية

* اذا صب الشاي على غطاء المائدة فذرّ عليه ملحاً ناعماً حالاً واتركه فمتى غسل لا يظهر فيه اثر الشاي
* اذا اضيفت ملعقة صغيرة الى الخرشوف (ارضي شوكي) حين طبخه بقي لونه اخضر ولم يسود
* صُبّ في بالوعة المطبخ كل يوم قليلاً من الماء الغالي والصودا فتأمن صعود الغازات الضارة منها
* يمكن حفظ السمك طرياً مدة يوم او يومين باضافة أوقية خل الى اربعة وعشرين اوقية من الماء واغلائه وتغطيس السمك فيه دقيقتين لا غير ، ثم يعلق في مكان بارد
* أفضل الطرق لتنظيف البسط وهي مفروشة اذا تعذر رفعها ونفضها ان تمسح بخرق مبلولة بالماء السخن والامونيا

اولادنا وتبعة الزواج

لكاتب اميركي

في صباح يوم جميل جاءني صديق عزيز وعلى وجهه أمارات الاسى والغضب. حييتهُ وابتسمت له فرد التحية وقال بصوت فيهِ آثار الانفعال

— نربيهم ونتعب عليهم ثم انظر ماذا يفعلون

عرفت الى ما يشير لان الصحف كانت قد ذكرت ان ابنهُ وعمره تسع عشرة سنة كان قد فر مع فتاةٍ ليقترن بها. وقصَّ عليَّ قصة ابنه وهي لا تخرج عما يقع عادة في مثل هذا الحادث من تبادل الحب، فالتعاهد على الزواج، فرفض والدي احد المتعاهدين او والديّ كل منهما، فالفرار. فما كاد ينتهي من سرد حكاية ابنهِ حتى بادرته بالسؤال: —

— هل حدَّثت ابنك هذا عن الزواج، وأفهمتَهُ ما ينطوي عليهِ من تبعات قبل ان طلب منك السماح له بالزواج؟ فقال

— كلاَّ لم احدثه بشيء من هذا. ولماذا يجب ان احدثهُ عن الزواج. انهُ لا يزال في التاسعة عشرة من العمر، ولم يخطر ببالنا انهُ يفعل ما فعل. ولما فاتحنا في الموضوع اخلصنا لهُ القول ومحضناه النصح ولكنه لم يصغ الينا

والحوادث التي على هذا النمط كثيرة فكم من فتاة لا تزال في مقتبل العمر وميعة الصبا، تزوجت وطلّقت لانها لم تفهم ما هي التبعات الخطيرة التي يلقيها الزواج على الزوجين، قبل اقدامها عليهِ. وكم من شاب هدمت سعادته لان والديه اهملا ذلك

> كل شيء في الطبيعة يرمز ويتكلم عن الامومة. فالشمس هي ام الارض ترضعها حرارتها وتحضنها بنورها ولا تغادرها عند المساء الا بعد ان تنومها على نغمة امواج البحر وترنيمة العصافير والسواقي. وهذه الارض هي ام للاشجار والازهار تلدها وترضعها ثم تفطمها. والاشجار والازهار تصير بدورها امهات حنونات للاثمار الشهية والبزور الحية. وام كل شيء في الكيان هي الروح الازلية الابدية المملوءة بالجمال والمحبة
>
> [جبران خليل جبران]

اما انا فلديَّ ابن وابنة، وقد عزمت بعد حكاية صديقي ان اعلمهما ما يتعلق بالزواج قبل ان يصلا الى شفا الجرف، وقد اغمض عينيهما الحب الذي يستولي على الشاب او الفتاة للمرة الاولى. سوف اعلمهما ما في الزواج من خطر الشأن، وما عليهما من واجب، وما يتوقع ان يلقى على عاتقيهما من تبعة، حتى اذا اختار احدهما ان يتزوج فعل ذلك وهو بصير بما اقدم عليه

اريد ان افهم ابني ما في الزواج من الخطورة والشرف. وان عقد الزواج الذي يعقده مع زوجه هو العقد الوحيد الذي يمتد طول الحياة. من السهل على الفتى ان يهوى فتاة جميلة، او فتاة ذكية او فتاة رشيقة، او فتاة «نغشة» ظريفة،

ولكن الصعوبة كل الصعوبة ، ان يستمرّ حبها له ، ومن الواضح ان الزواج لايكون هنيئاً الاّ اذا استمرّ الحب المتبادل بين الزوجين

وسوف اعلمه ان في كل من الزوجين نقائص وعيوب وهفوات . ولكن عين المحبة الصحيحة المستمرة ، يجب ان تغضي وتتجاوز عن جميع هذه الهفوات . يجب ان يعلم ان نضارة الوجه وغضارة الشباب ، لا يستمران مدى الحياة كما عهدهما اولاً ، ويجب ان يستعد لذلك متزوداً بالمحبة الصحيحة والفهم العطوف

***

كذلك سأفهم ابني ان البنات لسنَ ملائكةً كما يتراءى له بادىء ذي بدءٍ . وان لهنّ هفوات وزلاّت كسائر الناس . فالفتاة التي يرى في عينيها بريق العطف والكياسة ، قد تكون سريعة الغضب حادة الطبع ، والفتاة التي تغني بأعذب الاصوات فتطرب ، وتنطق بأليق الالفاظ فتسبي ، قد تنطق في ساعة غضب بما لا تفوه بهِ لو كانت مالكة عنانها . لذلك يجب ان يكون مستعدًّا لتلقي مثل هذه الصدمات ، حتى اذا وقعت عرف كيف يأخذها بصدر رحب وبشاشة تدل على انهُ يفهم ما في الطبع البشري ، من النقص ، وشعور عميق يدل على ان قوة المحبة فيهِ تستطيع التجاوز والتسامح . ثم هناك مسألة أخرى ، وهي ابداً ماثلة امام الشاب ، وهي هل يستطيع ان يقوم بنفقات بيتهِ العتيد ؟

على انني لن اشدّد كثيراً على ابني في هذا الموضوع : لانني اعرف كثيرين تزوجوا ولم يكن لديهم سوى دخل يسير ، فكان زواجهم سعيداً ، بل كان دخلهم اليسير ، باعثاً قويًّا على اجتهادهم ونجاحهم . وانما اريد ان اشدد على ابني في الاسئلة الآتية حين يقع اختياره على فتاة :

ماذا تعرف عن اسرة الفتاة ؟

أتحب والديها وتسر للقياها ؟

أينغص عيشك اذا اضطرًّا ان يقضيا باقي عمرهما في بيتك ؟

أتستطيع ان تعيش مع اخٍ لها او اخت لها ؟

هل في اسرتها احد لا تطيق سلوكه ؟

هل تتفق معها في المسائل الدينية ؟

هل تحب اهلها حتى ليدفعك حبك الى مساعدتهم اذا كانوا في حاجة الى مساعدتك ؟

***

هذه بعض مطاليب الزواج يا ابني . نعم انك تتزوج الفتاة دون اهلها . ولكن لا يمضي زمن قبل ان تدرك ان ما كان عزيزاً لديها يجب ان يكون عزيزاً لديك وموضع احترام منك . انك

لا تقدر ان تصرف النظر عن اهلها وتحافظ على محبتها لك . ولا ريب في انك سوف تقضي — في الغالب — جانباً من حياتك معهم وقد يتعين عليك ان تنفق عليهم

قد يظهر لك ان هذه امور سهلة ولكن اذكر ان هذه الامور سوف تستمرُّ مدى الحياة

أتستطيع ان تتجاوز عن هفوات زوجك ومطاليبها الخاصة !

أتستطيع ان تغضَّ النظر دائماً عما قد يشوب طبعها من الحدَّة !

أتستطيع ان تتجاوز عن ذلك وتحافظ على حبّك اياها ؟

قد يزيل المرض جمالها ، او قد يذوي الحزن زهرة شبابها ، او قد تسبب هموم البيت واعمالهُ ، غضوناً في وجهها ، وخشونة في يديها ، افتستطيع ان تحبَّها رغم ذلك ؟ أتستطيع ان تضحّي ببعض مطامحك من اجلها ، اذا كانت لا تقدر ان تسير معك او اذا عجزت عن اللحاق بك في تقدمك ؟

***

اما ابنتي فسوف اعلمها ان الزواج ، رهيب وطاهر . وسوف اعدّها لتكون زوجة امينة واماً صالحة . سوف اعلمها ان الزواج والواجب امران لا ينفصلان . بل سوف ادرّبها حتى لا يعمي الحبُّ عينيها ، عن رؤية الخلق الصالح المتين ، وانها اذا رأت شاباً يجيد الرقص ، او يحسن تزويق الكلام ، فيجب الاَّ تخدع وتحسب انهُ يستطيع الاجادة في اعمال الحياة الخطيرة

الملائكة بين الرجال قلائل يا ابنتي . والشاب الذي تهوينهُ لا يستمرُّ مدى الحياة على ما عرفتهُ فيهِ من اللطف والدعة والكرم والايثار . هموم الحياة كثيرة . ومقتضيات العيش مرهقة . وقد يجيئك الغد ، بما لم تعهديهِ في زوجك من قبل . فكوني حكيمة يا ابنتي لانك سوف تجدين في زوجك عيوباً لم تكتشفيها من قبل . فكوني ، مستعدة لمواجهتها بصدر رحبٍ ومحيّا طلق . واذا كنت تشعرين انك تحبين شاباً ، رغماً عما ترينهُ فيهِ من العيوب وعمّا قد يظهر فيهِ من الانانية والخشونة يوماً ما ، فعندئذٍ اقبليهِ زوجاً لك

***

الاحترام والفهم يجب ان يكونا اساس الحبّ . على المرأة ان تعجب بخلق زوجها ، اذا شاءت ان تمتحن حبَّها لهُ وهل يصلح هذا الحبُّ قاعدة للزواج . كذلك على الرجل ان يحمل اعباء الحياة بشجاعةٍ وثباتٍ ، اذا اراد ان يحتفظ بحب زوجتهِ واعجابها بهِ . فأنا اريدك يا ابنتي ان تدركي انك حين تخرجين من حفلة الزواج ، عليك ان تخوضي مع زوجك بحر الحياة الزاخر ، بما فيهِ من اتراح وهموم واخفاق ، وما فيهِ كذلك من بهجة وسرور وظفر . كذلك يجب ان تعاملي اهلهُ كما تنتظري منهُ ان يعامل اهلك . فقد اتحدت الاسرتان في الاسرة الجديدة

حديث عن الرحمة

(كُتبت في المستشفى)

لامين نخلة

هذا اول يوم تتلاقى قدماي فيه على الفراش بعد الفرقة . فاضمّ الواحدة الى اختها ، او القّيها عليها ، او ارسلها في ثنايا اللحاف . طلاقة يحسدني عليها مثلاً المسكين جاري في الغرفة المحاذية . وقد مرَّ عليهِ الشهر ، وهو مشدود الى سريرِ الحديد . وهكذا يقنع بالقليل من الشطر ، من لا يستطيع ان يصيب الشطر جميعاً ! او يقايس كما يقول (ديكنز) بين قليله وقليل الآخرين ، فيقنع بالقلة . وههنا وجدوا (الكنز الذي لا يفنى) ....

ففي فرحة هذا التلاقي تحت اللحاف احنّ الى القلم . فكأن الكتابة (صحة) الكاتب ، كما ان الايراق صحة العود ، والجري صحة الماء

ثم اني احنّ الى المداد لا الى قلم الرصاص . فكأنني لا اريد ان اصيح بالصوت الخافت ، بل بالمداد الازرق ، فأهتف في مسمع العيش عالياً : اني تعافيت !

اذن فهذا قلمي في يدي ، احركه في رفق كثير ، ليس له بهِ عهد . فتشمله الآن نعمة (المورفين) ، اسبغها عليهِ من اطراف اصابعي . و (المورفين) اخت رحمة الله ، في ليالي الارق والتبريح . او الاستغناء الضيق عن تلك الرحمة الواسعة . وهي من جهة شق النفس وذل الطلب كرحمة الله ايضاً . هيهات ان يفضّ الطبيب حقّيها ، الاّ بالضراعة وبالتوسل

فياقلمي . لقيتك بعد اليأس والبرح ، فكأني لقيت مفتاح السرور . اغرزك في كل باب من ابواب خواطري ، فيتفتّح على الانشراح والغبطة ، وأطلُّ منهُ كما اطل على مباهج الالواح الايطالية فمن خفق جناح على الربوة ، الى لمع شعاع في مرآة الصحو ، الى هبوبٍ حلوٍ ، يتهادى على كتف الشاطيء ، الى الف شيء آخر من افراح المريض ايام النقاهة !

يقول (نيتشه) : « العضو الواهن في الجسم الانساني عبء ، فاقطعوه »

قُطع لسانه ! أما والله لو كنت من جيل (نيتشه) ، لجمعتُ اليّ آلاف الخلائق من المرضى ، وخرجت اليهِ بهذا الجمع المتثاقل الخطوات اصيح في وجهه ، ويرددون من ورائي : نحن الواهنين يا نيتشه ، فاذا اطرحتنا نسخت الرحمة من الوجدان البشري وقضيت على اكرم الشيم وأفضل الطبائع

وفي الحقيقة ان دنيا عريضة تزخر باصناف البهجات وتمج باشكال اللذائذ ، ولكن ليس فيهـا على ذلك كله يدٌ تقبل على الجريح بكأس من الماء ، لهي دنيا يحق لجماعة « اليسوعيين » ان يولولوا عليهـا باسم (يسـوع) ، وان ينبري كتّابهم لسلقها بالاقلام وبالالسنة . ولعلّ هذه

اول مرة اتلاق فيها واليسوعيين على رأي !

***

كانت ليلتي الثانية في المستشفى « نابغيَّة » من اشدّ لياليَّ هولاً . فلما تحرّك الصبح حننت الى جرعة ماء . فدخلت عليَّ أليس(1) ملاكاً ابيض بلا جناحين . فتناولت الكأس من يدها، وكأنها تقدّم لي الدنيا على كفها ، فقلت لها : اظافرك هذه في عين « نيتشه »، ولتغرز غرزاً !

فلم تعرف الممرضة ما « نيتشه » هذا ، وما دخله في كاس ماء وارواء غليل . فقلت : نيتشه نقيض القديس « جان ده ديو » على خط مستقيم . القديس جان خلع حياته على المرضى المساكين . ونيتشه يراهم اعباء ثقيلة على ظهر المجمع الانساني يجب طرحها . ومن حسنات الحظ كان نيتشه لم يترك من بعده ذنباً . فلم يقم كاتب على خلافته . في حين ان جمعية Fate Bene Fratelle التي الّفها صاحبنا القديس الاسباني تضرب فروعها في كل صوب

قالت أليس : وحقك ان نيتشه هذا المعوعج الاسم ما انتابه وجع رأس في عمره ...

***

ان حكمة « أليس » المختصرة تقطر عقلاً ! وهي على اختصارها ، شرح مسهب في الصدد لقول حكيم العرب الاشهر « ابن اكثم » : يعرف الجنة في النار !

كان فقيد الادب الرفيع احمد شاكر الكرمي — فيّأ الريحان قبره على الجانبين — اتعس ما يكون في خريف ١٩١٩ . فقد ألحَّ عليه الداء وبراه الضنى ، وانقطع خيط الامل منه . وبيني وبين شاكر ما بين الماء والراح . وداد كالهوى ، وكاسم الهوى طيّب ! فكيف يحول « المكروب » بين شقيقيْ نفس وأدب وصي في اخريات لياليها . بخاصة وشاكر على عشية فرقة وازماع سفر طويل . فكنت اقرب الخلق الى فراشه احمل للحبيب المضنى الاحاديث او الذكريات والسلوان حتى يشهق الليل !

وكان (ليون دوده) لايزال بعد في (بلجيكا) ينشر في (الاكسيون فرانسيز) رسائله التي طبقت الفلك يومذاك . فسألني شاكر في احدى العشيات ان انقل له ، وهو يسمع ، مقالة من مقالات (دوده) تلك . فوقعنا على واحدة يأتي الكاتب فيها ، على ذكر الطب واهله ، فيشيد بذكر العباقرة الاطباء ، الذين نفحوا البشر بنوادر العلاج ، في طراز من المديح . يندلع لهُ حسداً لسان « أبي الطيب » نفسه !

فقلت — الرجل درس الطب وتوفر عليه ،

ليلة النابغة

يروى عن الاصمعي انه قال انصرفت ذات ليلة من دار الرشيد وانا اشكو علة ثم غدوت اليه فقال يا اصمعي كيف بت البارحة قلت بليلة النابغة فقال لعلك اردت قوله :

فبت كأني ساورتني ضئيلة
من الرقش في انيابها السم ناقع

فقلت انما اردت قوله :

كليني لهمّ يا اميمة ناصب
وليل اقاسيه بطيء الكواكب

(1) مديرة مستشفى ربيز في بيروت الآنسة أليس سلامه

قبل ان ينقطع الى القلم « وتدركه الحرفة . . . » فلا تعجب لهذه القصائد المزرّرة ينظمها حنيناً « لاول منزل » . . . فابتسم شاكر ابتسامته الملساء العذبة ، التي لم تستطع يد الغاسل في ما بعد ان تمحوها . ثم قال في جد كثير :

— قسوت على (دوده) — وتطلع الى رفرف في الزاوية ، مكتظ بالكتب — افتحسب انت « انت نفسك ! » ان ملايين الحروف هـذه تفيدني اليوم شيئاً ؟ ؟ هات سرولة واحدة من (الانجيولمف) ، وعلى تصانيف الادب والفلسفة العفاء . واذا قيل : الكاتب فلان لا فضّ فوه ، وجب ان يقال : الطبيب فلان قبلت يده ! وبين عالم الادب وعالم الطب هوّة من الفرق . عالم الطب يزخر رأفة ، وعالم الادب فقدان الرأفة فيه ، ضربة لازب . وما بالك اذا دبّت الرأفة الى اقلام النقدة ، فهادنوا الادعياء والفضوليين ، وتركوهم ينقرون على « مائدة افلاطون » شمالاً ويميناً . فالرأفة اذن سجيّة الطب . والمريض عتيق الرأفة ، يعيش على حواشيها ، ويفيء الى اكتافها !

فشجاني تلك العشية كلام شاكر ، الذي يقطّعهُ عدّان السعال ، وتحزّ فيهِ البحّة . وهو يعاودني اليوم وانا عتيق الطب ، فيهدر في مسمعي ، ويضج في ضميري !

فيا اطباء الكون قُبّلت اياديكم . وقد آمنت بحكمة « أليس » وادركتني من عبقري فيكم ، رأفة مسحت جراحي . اما « نيتشه » عدو المريض ، والجريح المؤرق في عتمة الليل ، فالله « يرحمهُ » بزهرة تؤنس الوحشة عند قبره ! !

— بيروت —

خزن ضوء الشمس

في الحلوى

ضوء الشمس المخزون في مختلف المواد الغذائية ، من احدث الوسائل لمعالجة امراض الدرن وفقر الدم والكساح . ويقال ان طبيبين من اطباء مدينة فينا كشفا عن طريقة لتعريض الشوكولاطة للاشعة التي فوق البنفسجي من غير ان يفقداها شيئاً من طعمها الاصلي او يغيرا رائحتها ، وقد جرب المخترعان نتائج طريقتهما اولاً في الفئران فأخذا يغذيانها بتلك الشوكولاطة ، المعالجة بالاشعة ، فسمنت كثيراً . ثم جرباه في تغذية النـاس فكانت فائدتهُ عظيمة ، اذ استعاد الناس الذين تناولوا هذه الشوكولاطة شهوتهم للطعام ، وقويت دماؤهم ، بمعنى زيادة كرياتها الحمر ومن المعروف ان العلامة ستينبوك الاستاذ بجامعة وسكنسن الاميركية ، اخترع طريقة لاشباع الحبوب الغذائية بضوء الشمس الصناعي فنال باختراعهِ امتيازاً من حكومة اميركا ثم نزل عنهُ الى الجامعة المشار اليها خدمة للانسانية ، فقدمتهُ الى مصانع الاغذية التي تصنع المأكولات الخاصة بطعام الافطار واشترطت عليها بيع الاغذية ، المشبعة بضوء الشمس الصناعي للجمهور ، على ألاّ تزيد أسعار هذه الاغذية ، لكي يقبل الناس على شرائها واستهلاكها ، فتعم فوائدها الصحية

عقل الطفل
في تطوره

بقلم احمد عطية الله

— ٣ —

﴿ طرق دراسة الطفل ﴾ لعلَّ العناية المتأخرة بدراسة الطفل ترجع الى حد كبير الى الصعوبة في طرق هذه الدراسة . فبينما من السهل ان نحكم على استعداد رجل بالمجهود الذي يبذله في عمل من الاعمال او بالقاء اسئلة اختيارية كما هي الحال في الامتحانات المدرسية ، او نحكم على سلوكه من معاملته للغير او بملاحظة العادات التي تكوَّنت فيه وصارت طبيعة ثابتة ، اذا بالطفل لا يساعدنا على اجراء مثل هذه الاختبارات

الصلة بيننا وبين الطفل صلة غير وثيقة ، فهو اما ان يكون عاجزاً عن استخدام اللغة كأداة للافصاح عن شعوره ، او ان يكون عاجزاً عن التحكم بألفاظه واختيار ما هو انسب وأدق . لهذا كانت النتائج التي قد يصل اليها بعض الباحثين في سيكولوجية الاطفال قابلة للنقد والتفنيد لتأثرها بعوامل مختلفة ، قد تغيب عن ملاحظة الباحث ، او قد يخطىء في تقديرها لنوع العلاقة بينه وبين الطفل . ودراسة الطفل تأخذ طريقين :

(١) مراقبة تقدم الطفل (٢) مقارنة مجموع من الاطفال في سن واحدة

والطريقة الاولى ايسر تطبيقاً اذا اخذنا بها ، لاننا لا نتطلب موضوعاً للدراسة Subject الاّ طفلاً واحداً او عدداً محدوداً منهم وتتلخص هذه الطريقة في مراقبة سلوك الطفل في كل دور من ادوار حياته ، وذلك بتدوين سجل لحياته العقلية في كل مظاهرها . فاذا جمعنا هذه المادة الاولية امكننا ان نقسمها الى مجموعات ، كل مجموعة تختص بدور معين ، او ان نأخذ اوضح طبائع الطفل في كل دور كمميزات لهذا الدور . وبهذه الطريقة يمكننا ان نراقب التطور الجسمي والعقلي والخلقي الذي يسير فيه الطفل

ولكن لهذه الطريقة مساوئها ، لان اعتمادنا على طفل معين ، او مجموعة محدودة من الاطفال تجر الباحث الاستقرائي الى استنتاجات خاطئة ، او الى قوانين لا يمكن تطبيقها تطبيقاً شاملاً . والآباء في البيت هم الذين يتسنى لهم ان يقوموا بهذه المهمة لا سيما في ادوار الطفولة الاولى حيث يقضي الطفل جماع وقته في البيت تحت رعاية امه وعناية والده . وهذا هو الخطر في قيمة هذه

الابحاث ، لان النتائج التي نصل اليها عن هذا الطريق تكون عادة متأثرة بميول هؤلاء الآباء مهما حاولوا التخلص من آثارها . ومما يجدر ذكره ان كثيراً ممن قاموا بمجهودات طيبة في هذا السبيل قد اجروا ملاحظاتهم على ابنائهم

والطريقة الثانية في دراسة الطفل تتلخص في مقابلة مجموع كبير من الاطفال في سن واحدة وجعل بعض طبائع الاطفال محوراً لهذه الدراسة المقابلة ، وكلما اتسعت دائرة البحث واختلفت البيئات التي يعيش فيها هؤلاء الاطفال ، كانت النتائج الاستقرائية التي نصل اليها اقرب الى الصحة لان البيئة وتقاليد البيئة تؤثر في صحة هذه النتائج وقيمتها . فباكتشاف الطبائع والاستعدادات العقلية المشتركة بين هؤلاء الاطفال يمكن ان يستخرج الباحث مميزات لهذا الدور من ادوار الطفولة او ذاك . والصعوبة في الاخذ بهذه الطريقة عدم وجود العدد الكبير من الاطفال الذين في سن واحدة ، الا لافراد قلائل ممن يتسنى لهم الاتصال بمجموع الاطفال الذين يضمهم مكان واحد كالمدارس

والصعوبة الثانية في نجاح هذه الطريقة ، هي ان القائمين بمثل هذه التجارب عادة غرباء عن هؤلاء الاطفال ، لذلك كان من المحال ان نثق باجابة الاطفال اذا كان البحث يحتاج الى سؤالهم . فاذا كان المختبر (السيكولوجي) من معلمي المدرسة التي يختبر تلاميذها ، فان الاطفال يعرفون بطبيعتهم الناحية التي يرون ميلا اليها من معلمهم فيجعلون اجابتهم محققة لرغبة المعلم . واذا كان المختبر غريباً عن الاطفال ، اكتشف بسهولة اصطناع الاطفال في الاجابة لا سيما اذا كانت اسئلته تدور حول الحياة المدرسية

ولكن مع كل ذلك فالاحصائيات التي تستخلص من مثل هذه التجارب تعتبر بلا شك اقرب صدقاً من الطريقة السابقة لهذا كانت دراسة الاطفال في الوقت الحاضر متجهة الى هذه الطريقة ولا سيما في اميركا

المقال الرابع

النمو الجسمي والحسي عند الاطفال

المقال الخامس

الطفل في عامه الاول

فعل اللبن فى النمو

بحث الدكتور مان من اعضاء مجلس البحث الطبي البريطاني ، في تأثير اللبن في نمو الاطفال ، فأخذ ٥٠٠ ولد من اللقطاء وغذى بعضهم بغذاء عادي مغذ حاو للبن والزبدة ، وغذى البعض الآخر ، بغذاء مثله تماماً ولكنه خالٍ من اللبن والزبدة فزاد وزن الولد من الفريق الاول على وزن الولد من الفريق الثاني في خلالِ اربع سنوات نحو اربعة ارطال الى نحو سبعة ارطال ، وزاد طوله من نحو بوصتين الى اكثر قليلا من بوصتين ونصف بوصة

مميزات الطفل النفسية

قبيل المراهقة

الحياة بين السنة التاسعة والسنة الثالثة عشرة فريدة بما يمازج حركاتها وسكناتها من العواطف والرغبات الجديدة والاميال والافكار والانفعالات التي لم تظهر قبلاً . فالولد الآن هو غير الطفل الذي كان او الشاب الذي سيصير والفتاة تختلف كل الاختلاف عما كانت عليهِ في سني حياتها الاولى وعما ستصير اليهِ في مستقبلها القريب

١

تبدأ في هذا الدور المميزات الجنسية بالظهور وتكون الصحة فيهِ على اقواها ومقاومة الداء على ارفعها والحركة على اشدها والنشاط على اوفرهِ وقوة التمييز والحافظة على احدّها ويكون النمو في القسم الاول بطيئاً وخصوصاً في الصبيان ثم يسرع قبيل الدخول في دور البلوغ (المراهقة)

وتلاحظ الامهات ان اكثر المميزات ظهوراً في هـذا الدور هو روح الاستقلال والاعتماد على النفس . فيبدأ الولد بانشاء علاقات شخصية خارج البيت مع اصدقائه العديدين ورفاقهِ في الدرس واللعب. فيؤلفون الجمعيات التي غايتها الذهاب معاً الى السينما او السباحة او صيد الاسماك او الطيور. والولد في هذا الدور تثيره روح الشجاعة ويدفعهُ حب الاقدام والمغامرة فيقدم على الهرب من المدرسة لكي يتابع ما يرى فيهِ لذة فائقة وبهجة لا غاية وراءها . واذا لاحظنا اعمالهُ وحركاتهِ بدقة وجدنا انهُ عاد لا يعنى بالالعاب الخيالية الوهمية التي كان يعنى بها قبلاً لانهُ في دور حياتهِ الجديد كما في الادوار السابقة يسعى وراء حسيات الحياة تاركاً معنوياتها جانباً وذلك طبيعي فيهِ . ولكن مع كل ما يظهر فيهِ من حب المغامرة والحركة والمخاطرة نرى ان روح احترام القانون قد شرع يؤثر في حياتهِ تأثيراً يدفعهُ الى اطاعة قوانين العصبة التي ينتمي اليها بفرح وسرور وفضلاً عن ذلك فهو يشعر ان طاعة القانون ضرورية له لكي يتمكن من المحافظة على مقامهِ الاجتماعي الجديد

وظهور المميزات الجنسية تقضي بانفصال الصبيان عن البنات بحكم الطبع لان البنات في هذا الدور يصبحنَ غير قادرات على الاشتراك مع الصبيان في اعمالهم العديدة المتنوعة التي تحتاج الى قوة وشجاعة واقدام والصبيان لا يميلون الى الالعاب التي تلعبها الفتيات ولا الى الجمعيات التي يؤلفنها فبينما نرى الصبيان يؤلفون العصابات التي غايتها القنص والسباحة واصطياد الطيور والاسماك . نرى الفتيات يؤلفنَ جمعيات الخياطة والاحسان وما شاكل

٢

وبظهور الغرائز الاجتماعية وباندماج الاولاد في الجمعيات السابق ذكرها ينمو فيهم وخصوصاً في الصبيان منهم روح احترام الرأي العام . رأينا الولد في ادوار حياتهِ السابقة يقتدي بوالديهِ ويقلد

معلميه . ولكنهُ في هذا الدور من الحياة يتمثل ببعض افراد عصبتهِ الذين حبتهم الطبيعة بالخلال والمزايا التي جعلتهم محترمين مكرّمين من جميع رفاقهم . انهُ لا يهتم برأي الكبار المحنكين مهما كان الرأي صالحاً والقول صواباً بل يفعل « ما قاله الرفاق » . ولا شك في ان الولد من هذا الامر في خطر عظيم لانهُ قد يعتاد اموراً تضرُّ بهِ وبمستقبله وخصوصاً لان جميع رفاقهِ احداث مثله لم يبلوا الحياة ولم يعركهم الدهر . على ان ما يناله من التمرين على احترام رأي الاكثرية ضروري لهُ حين خروجهِ الى مدرسة العالم الكبرى حيث يرى الدمقراطية سيدة في الجمعيات والمجالس والحكومات، تقضي باتباع حكم الاكثرية ولو كانت على شطط . وفي هذا الامر عبرة لنا ابناء الشرق لاننا لم نتعلم بعد احترام رأي الاكثرية بل يظن الواحد منا ان رأيهُ هو الرأي الصواب وقولهُ يجب ان يكون القول الفصل . وما دمنا كذلك فلسنا اهلاً للحكم النيابي الدموقراطي الذي ننشده ونسعى وراءه . جميع بلدان الشرق لم تزل طفلة من الوجهة الدموقراطية ولا تستطيع السير نحو غايتها الرفيعة الاَّ اذا تعلم فتيان اليوم وفتياتهُ الانحناء بخشوع واحترام امام الرأي العام — امام قرار الاكثرية

٣

زد على ذلك ان الولد يبدأ في هذا الدور من حياتهِ يتفهم معنى الشرف والامانة والمحافظة على وعوده والدفاع عن سمعتهِ وسمعة اخوانهِ ورفاقهِ وهذه الصفات من افضل فضائله . ولا يخفى ان آراءه قد لا تصيب محجة الصواب احياناً وقد تركب في الكثير من الاوقات متن الشطط ولكن في المحافظة على ما يعتقده حقّاً والامانة في تنفيذ وعوده ولو كانت ضارة بهِ فضيلتان يجب ان نحلهما محلهما من الاكرام والتنشيط . فاذا فعلنا ذلك تمكنا من احتلال معاقل نفسهِ والنفوذ الى مكامنها الخفية فنستطيع عندئذٍ ان نساعده على السير في معترك الحياة مرفوع الرأس باسم الثغر ناهجاً سويَّ السبيل متوسلاً بأفضل الوسائل وأصلحها

في الولايات المتحدة في مدينة دنفر قاضٍ في محاكم الاولاد يدعى لندسي . هذا القاضي استطاع ان يخلص اولاداً كثيرين من مسالك الشر ومهاوي التهلكة لانهُ وثق بهم وجعلهم يشعرون انهُ يحترمهم ويثق بقدرتهم على النهوض من حمأة الرذائل التي سقطوا فيها . واسمهُ اليوم معروف في انحاء العالم المتمدن وكثيرون يقتفون خطواتهِ وينسجون على منوالهِ . وفي ذلك دليل على اننا نستطيع الاعتماد على ما في الفتى من روح الشرف والتفاني في سبيله

٤

وتكثر في هذا الحين احلام الفتى الذهبية ومطامحه الرفيعة وآماله الكبار ولكنها احلام اقرب الى الحقيقة منها الى الوهم ومطامح وآمال يتثبت الولد من حقيقتها لانهُ يرى نتائجها في الرجال الذين يراهم ويقرأ عنهم . اولئك الذين رفعهم اجتهادهم الى أعلى ذرى الشهرة والعظمة . فهو من هذا القبيل كتلة من الامل تبحث عن هادٍ يضعها على طريق الحياة الصالح ونهجها القويم فتسير الى

المجد الذي تضمره الايام في ثنايا ليالبها للمجدّ المجتهد . ففي دور الطفولة الثالث تظهر عاطفة عبادة الابطال والنسج على منوالهم والسعي في اثرهم . والولد لا يفرق مطلقاً بين مثل أعلى مجرد والرجل الذي يتجسم فيهِ ذلك المثل او بين مبدإ سام والانسان الحائز عليه . فاذا فكر بالجرأة الادبية تمثل لهُ النائب الفلاني الذي دافع في المجلس النيابي دفاع الابطال مبيناً كل ما يتعلق بالقضية من الحقائق غير خائف في الحق لومة لائم . واذا قرأ عن البذل والتضحية يذكر ممن عرفهم او سمع عنهم شاباً سار مخترقاً اللهب او مقتحماً هول الامواج الطاغية ليخلص طفلاً يحترق او ينجي فتاة تغرق . واذ ذكر الشجاعة والاقدام ذكر القوّاد العظام ورواد القطبين ومكتشفي القارات وغيرهم . لذلك يصعب على المعلم في هذا الدور ان يفهم الولد مبدأً اخلاقيًّا جديداً او مثلاً نفسيًّا عالياً بتفسيره تفسيراً مجرداً بل عليهِ ان يسرد امامهُ اعمال الرجال الذين تمسكوا بتلك المبادىء وساروا وراء تلك المثل وسعوا لتحقيق تلك الغايات فكانت حياتهم نعمة من نعم الله على البشرية .

هو العمل يرفع الرجال الى مصاف العظام — اولئك العظام الذين يحسن بنا ان نقتدي بهم وان نسرد سيرهم في البيوت وعلى منابر المدارس . العمل هو الوسيلة المثلى والغاية القصوى في حياة الفرد وحياة الامم . لان مجرد القول والادعاء لا يجديان نفعاً . فالمعلم الذي يفعل ما يقول ويجب ألاَّ يقول الاَّ ما كان مطابقاً لسنن الحياة النافعة الشريفة يكون له اثر كبير في تكييف حياة تلاميذه لانهم ينظرون اليه كبطل ، بهِ يريدون ان يقتدوا وعلى اثره ان يسيروا

***

قلنا قبلاً ان حياة كلّ احد بوجه عام تاريخ مختصر للجنس البشري وارتقائه . لذلك نرى الولد في اول هذا الدور يعشق التلميذ او المعلم القوي العضل الخفيف الحركة القادر على تعاطي انواع اللعب بخفة ومهارة وما ذلك الاَّ لانهُ غير قادر ان يدرك منتجات العقل البشري في العلم والعمران . ولكن حينما تكتمل قواه العقلية يشرع بقدّر اعمال اديسن قدرها فينحني باجلال قوة عقله وينظر نظر المعجب المكبر لخلق المكان العالي . وكم في العالم من رجال ونساء لا تذكر اسماؤهم الاَّ ويرافقها الاجلال والوقار

النصح والارشاد قليلا التأثير اذا كان المربي لا يعيش بحسب الخطط التي يرسمها لتلميذه . قد يستطيع المعلم ان يستهوي تلاميذه لانهُ رياضي بدني قوي ولكن ليس ذلك بالامر اللازم ولا هو وحده بالكافي اذ لابدَّ ان يشب الولد عن طوقه فيتحوَّل احترامهُ واعجابه الى القوة العقلية والنفسية فعليك اذاً أيها المعلم ان تعلم بأمانة وتعيش بطهارة وعظمة . افعل ما تقول ولا تقول الاَّ كل ما هو حق وعدل وجمال تدركْ ضالتك المنشودة بل غاية التهذيب القصوى لان روح عبادة الابطال لا تنمو في الولد بالملاحظة والكلام بل بالتقليد والاقتداء

٥

في هـذا الدور يأخذ الولد ولعٌ شديد بالقراءة والمطالعة . فكم من ولد ينتظر بفارغ الصبر

صدور مجلة روائية اعتادها وكم من ولد يقضي الساعات الطوال مكبًّا على سيرة عنترة او روايات جاك ملتون وجون سنكلر وساكستن بلايك

فيا أيها المربي ! هذه فرصتك السانحة التي اذا فاتت فلن تعود . هـذا هو بدء مرحلة جديدة من مراحل الحياة اذ يجد الولد نفسهُ على عتبة عالم جديد حافل بالوجوه الغريبة والاقوال المتناقضة والآراء المتباينة . يري فيهِ التشاؤم والتفاؤل ، والظلام محاذياً للنور والسعادة ازاء الشقاء . ويشهد الفضيلة تسير مع الرذيلة جنباً الى جنب والمبادىء السافلة تنازع مُثُلَ الحياة العليا الحياة والبقاء . فابذل جهدك لتعوّد تلميذك انتخاب الافضل والاعلى والاصلح لان الولد ابداً معرّض للسير مع تيار المطابع الجارف فيشتري الروايات الرخيصة الثمن وفيها من الحوادث ما يكفي ميله الطبيعي للحركة والتهيج ولكنها خالية من دروس مطوية في حياة اشخاصها وعبر تتخلل تضاعيف سطورها . على ان هذا لا يوجب علينا ان نعطي التلميذ كتباً علمية فلسفية قد تحدث عكس الاثر الصالح الذي نتوخاه لان مطالعة كتب فوق مقدرة المطالع كالاكل الضخم لمريض ناقه او لطفل لا تزال معدتهُ ضعيفة فينجم عن ذلك ان الولد يفقد اللذة في المطالعة قبل ان تتمكن منهُ العادة ويكون الضرر بالغاً

***

وأرى ان خير الكتب التي يجب ان يطالعها الاولاد سواء الصبيان او البنات في هذا السن نوعان

١ — سير الابطال من رجال وسيدات الذين بلغوا ذرى الشهرة والمجد بجدهم واجتهادهم ومثابرتهم غير حافلين بما يقف في سبيلهم من المصاعب والمشاق بل تخطوها ناظرين ابداً الى المثل الاعلى الذي يلمع امامهم ويبغون الوصول اليهِ . فتكون مطالعة الولد للحوادث والاعمال التي سارت بهؤلاء على طريق النجاح عاملاً قويًّا يبعث فيه حب الاقدام ويدفعهُ الى الدأب والسعي في سبيل العلى والمجد

٢ — الروايات الادبية الشائقة — يحسب البعض الروايات مجموعة حوادث منسقة ومنمقة تستهوي القارىء بما فيها من الخفايا والالغاز وما توجدهُ من التشوق للاطلاع على اسرارها وخفاياها . والبعض الآخر يضمّن حوادثها وسير اشخاصها مبادىء خلقية رفيعة وعبراً عمرانيَّة ثمينة فتظهر للقارىء نتيجة السير في سبل الحق والتمسك بالفضيلة . والبعض يجمل فيها حقائق تاريخيـة يقبل عليها القارىء بلذة بين هو يعرض عن بعض التواريخ الجافة . وذلك كلهُ بلغة رشيقة تجمع بين المتانة والاناقة والسهولة فتفيد المطالع من حيث الاخلاق والآداب واللغة . ولا يبرح من الذهن ان غايتنا هنا ليست اطلاع الولد على فلسفة الحياة فقط بل تعويده محبة الجمال لان محبة الجمال نور فيّاض ينبعث من النفس فيرفعها الى الملأ الاعلى ويولجها الى هيكل السعادة الصحيحة . فالروايات الجميلة والقصائد الجميلة والصور الجميلة والتماثيل الجميلة كل هـذه ينبوع غبطة فائقة ومصدر فرح عظيم . فعوّد تلميذك التمتع بكل ما هو جميل سام تضع حجر الزاوية في بنائهِ الروحي الذي تنشده

زينة البيت

دخل عظيم من العظماء بيت رجل لا تهتمُّ زوجتهُ بغلاء اثاث بيتها كما تهتم بجمال منظرهِ وحسن وضعهِ ، فدهش مما رآهُ في ذلك البيت من حسن الزينة والانتظام فان الكراسي والمقاعد كانت متنوعة وموضوعة على اسلوب ترتاح العين الى رؤيتهِ لا كالاسلوب المتَّبع في اكثر البيوت الكبيرة، حيث توضع الكراسي والمقاعد بجوانب الجدران صفًّا واحداً ينبو عنهُ الطرف تعباً وملالاً بعد ان يراهُ مرة واحدة . والجدران كانت مغطَّاة بانواعٍ مختلفة من الصور والرفوف والمزاهر والمراوح منتظمة على اشكال بديعة لا تشبع العين من النظر اليها ولا تكلّ ، لانها ترى في كل جانب منها شيئاً جديداً ورسماً بديعاً بخلاف بعض البيوت الكبيرة التي تغطّى جدرانها بالمرايا ، والورق الكثير التزويق ، فلا يرى الداخل او الجالس الاَّ صورتهُ ، وغطاً واحداً من التزويق متكرراً الف مرة على الجدار الواحد . والوان الكراسي والمقاعد والبسط والستائر في الغرفة التي دخلها ذلك العظيم مختلفة ولكنها متسقة ومتوافقة ، فليس بينها تنافر ، كالتنافر الذي تحسّ بهِ العين اذا وقعت على اللون الاخضر محاذياً للون البنفسجي . ومسألة انسجام الوان المنسوجات والاخشاب التي يُصنع منها الاثاث سرٌّ من اسرار الذوق الحسن في فرش البيوت

اما زينة البيت فليست شيئاً محدوداً منقطع الاتصال كالاجسام الجامدة، بل هي شيء حيٌّ متصل ، يستدعي ان يعتنى بهِ ، ويتعهد بالتغيير والتبديل، كما يتعهد الجسم الحيُّ بالغذاء . فكم من مرة يبني احد الاغنياء بيتاً ويعهد بفرشهِ الى رجلٍ من مهرة الصناع فيزوق جدرانهُ بالذهب والمرايا ويعلق السجوف الحريرية على كواه وأبوابهِ ، ويبسط البسط الثمينة في ارضهِ ويضع عليها اثمن الموائد والمقاعد والكراسي . ثم لا تمضي ايام كثيرة حتى يتجمع الغبار على اطراف المرايا والسجوف ، وتقع الشمس على الاثاث فينفض لون بعضهِ ، وتلصق الاوساخ ببعض اطرافهِ ويلحس العث البعض الآخر ، فيذهب رونقهُ وتزول طلاوتهُ ، واذا كان في البيت خدم وحشم يتعهدونهُ بالكنس والنفض ، فهم غير مكلفين بتغييره وتبديلهِ . فيبقى على صورة واحدة تنقبض النفس من تكرر رؤيتها ، على العين . والميل الآن في زينة البيوت ، الى البساطة قبل كل شيء . ثم الى الراحة . فربَّ غرفة لا تجد فيها الا مقعداً وكرسيين ومائدة وصورة معلقة على الجدار فتراها مستكملة شروط الجمال والذوق . والمقاعد والكراسي تكون في الغالب مما يريح الجالس لا مما يبهره

والبيت الذي فيهِ ربَّة حسنة الذوق ، تجعل زينتهُ كالاجسام الحية النامية ، تتعهده وتغير من وضعهِ وتزيد فيهِ وتنقص منهُ بحسب مقتضى الحال . ولكنهُ يكون في كل حالٍ مرآة لشخصيتها . وذلك لا يقتضي نفقة كبيرة ولا عناء شديداً فربَّ وردة في محلها تشرح الصدر اكثر من مائدة ثمينة في غير محلها

باب المراسلة والمناظرة

في بحور الشعر — لبشر فارس

قرأت في « مقتطف » شهر ديسمبر المنصرم نقداً لديوان « صناجة الرياشي » بقلم الشاعر الاديب حسن كامل الصيرفي واتفق له ان اخذ على الرياشي افندي سقطات في الوزن فوهم فيما اخذ . وقد بينت ذلك في « مقتطف » يناير الماضي . فرد عليَّ يتعنت ويعاند في مقتطف « فبراير » في باب « المراسلة والمناظرة » . ومن غريب ما ذهب اليه في الاستدلال انه يرى في شعر الرياشي سقطات في الوزن بدليل ان هناك ابياتاً غير موسيقية . والتحقيق ان الموسيقى شيء والوزن شيء آخر فالوزن فن موضوعي قائم على قواعد مستقرة حالة ان الموسيقى ترجع الى الذوق والحس وكلاهما أمر ذاتي يختلف باختلاف الادراك السماعي . هذا واما قول الاديب الصيرفي في رده عليَّ اني « كان يجدر بي ان اقطع ابيات الرياشي » فما يدخل في باب المكابرة . وكان الاولى به ان ينقاد للحق فيعترف بخطائه ولو فعل لكفى نفسه شر اجابتي هذه . أيقول الشاعر الصيرفي للناس ليقطعوا ابيات الشعر وهو لا يقيم اوزانه . وحسبي ان أثبت هنا أبياتاً مكسورة له . قال في مجلة « أبولو » ص ٨٩ (اكتوبر ١٩٣٢)

انت من يا « عازفاً » فوق قلبي ... اغنيات تسيل من وجداني
انت من يا « ساكباً » فوق روحي ... ضوء حبٍّ يسيل كالطوفان
انت من يا « من يسرّ » الى النفس ... بنجوى الارواح من رضوان

وقال في « مقتطف » يناير ١٩٣٢ (ص ٩٢ ، ٧٣)

« فأتاحت لك الطبيعة عقلاً ... عبقريّ التفكير صلب المراس »
« فاذا انت لؤلؤة العصر وحق ... ان يسمى هذا بعصر (توماس) »
« جبت في الارض كالسلام نواحيها ... وجزت منها بحارها والجبالا »
« يخرس الموت منطق الشمع اغانيّ ... ويحيى ما أنت منهُ سناه »
« فوق جسر الحياة مرت خلائق ... شتى من عهد بدء الحياة »
« فتناساهم الذاكرون هواناً ... وتلاشت آثارهم في الغداة »
« كل ما تبتغي خلاص وهديٌ ... لبني الارض من مغاور الظلمات »

وقال في « مقتطف » يوليو ١٩٣١ (ص ٤٥)

« انا انت لكنْ خبريني ... خبريني هل اعود الى ربيعي »
« انا انت منتشر العصو ... ن مددت ظلي في الحياة »
« لكن يعود اليك يو ... م تورقين له فهل يأتي ربيعي »
« ويعود ماضيك الجميـــل ... ولا اعود الى ربيعي »
فلا ارتوى (كذا) فيض الدمو ... ع لعلّ تنفعني دموعي »

وقال في « مقتطف » اكتوبر ١٩٣٢ (ص ٣٣٢)

« فمضى خاشعاً وفي يده المنجل ... يهتزُّ اهتزازةً هي ذعر »

واني والله ليسوؤني ان اغمز بصاحبي الاديب الصيرفي هذه الغمزة ؟ ولكنه طرح نفسه ذلك المطرح وان بدا لي ان ازيد على ما ذكرت حمله على ان يراجع ما قلت في نقدي لديوان الرياشي والله الهادي الى سواء السبيل



كتاب هارون الرشيد

Harun al-Rashid by. H. St. John Philby (Peter Davis, 5 S.)

شيء عن مؤلفه سانت جون فيلبي

للغربيين ولع غريب في تفهم شؤون الشرق وتاريخه ، فسوادهم لا يعلم عن الشرق سوى انهُ مرتع خصب للمؤامرات والمشاجرات والمفاجآت ، وعندهم ان قصة (الف ليلة وليلة) فريدة الادب العربي ، يعدونها جوهرة براقة ، فينسجون من خيوطها التاريخية الوهمية الضعيفة قصصاً وكتباً وتراجم اوهى من خيوط العنكبوت . وتراهم اذا كتبوا عما له مساس بالشرق حلقوا في سماء الخيال والتصور . وظنوا انفسهم في عالم كعالم المريخ ، مغلق مستور ، تغطيه حجب كثيفة ، وتفوح منه روائح الند والعود والكافور ! ويظنون اهله يرفلون في حلل الخز والديباج والحرير . ولعلهم حين يكتبون تآليفهم هذه ، يحسبون الشرق ، كما يتخيل مرتادو دور السينما عندنا ، نجوم الشاشة البيضاء وأبطال هوليود او مدينة نيويورك في الليل ، او مسارح باريس المتلألئة بالانوار

على اننا ونحن نتناول الكتاب الحديث الذي الفه الشيخ عبد الله فيلبي ، الانكليزي الصميم الذي يعمل في جزيرة العرب لحساب دولته ، او تاجر السيارات في جدة اذا شئت ، لا بدَّ لنا من تعريف القراء بهذا المسلم الانكليزي ، صديق ابن السعود ، وذكر كلمة عنهُ وعن اعماله في جزيرة العرب وآثاره الادبية وتآليفه عنها . وهل اولى من فيلبي ان يؤلف كتاباً عن هارون الرشيد — الشخصية البارزة في قصص الليالي العربية — كما يسميها الانكليز

سانت جون ستوارت فيلبي من الرجال الانكليز الذين يتدخلون في كل شيء ، فتراه مسلماً بين المسلمين وانكليزيًّا في انكلترا ، وهو ضد لورنس الذي يعمل في الظاهر والخفاء ، وممن تعتمد عليهم بريطانيا في المهام الخطيرة لتوطيد نفوذها في الشرق

ولقد كان لبريطانيا ابان الحرب في بلاد العرب ممثلان سياسيان ، الاول (لورنس) C. E. Lawrence ملك العرب غير المتوج ! ومندوب انكلترا عند الهاشميين (شرفاء مكة) . والثاني شخص قوي الشكيمة والعزيمة ذو بشرة سمراء فاحمة وعينين شديدتي الزرقة ، صامت ضنين بالحركات قليل الكلام يشتغل سحابة يومه في مكتب على مقربة من مدينة البصرة ، ذلك هو الضابط والموظف السياسي سانت جون ستوارت فيلبي مندوب انكلترا لدى الوهابيين ، ولقد شغل قبلاً

مناصب هامة في حكومة الهند فكان من عمالها المعتبرين ولكن ما كادت تضع الحرب اوزارها حتى رأينا فيلبي ينسحب بانتظام وينزوي في مكان مجهول ، فيختفي عن العيان

ذهب في عام ١٩٣٠ احد الصحافيين الفرنسيين[١] الى شبه الجزيرة العربية فزار جدة ، وانيحت لهُ محادثة المستر فيلبي ، فقصّ عليهِ تاجر السيارات (المستر فيلبي) ما يلي :

« لقد مضى عليَّ خمس عشرة سنة وانا اعيش في الصحراء ، وانت تعرف انني كنت في اثناء الحرب العالمية موظفاً في العراق ، ولكنهم الحقوني بخدمة ابن السعود وارسلوا (لورنس) لمساعدة فيصل . وانا منذ سنة ١٩٠٨ اشتغل في خدمة حكومة الهند . فلما انتهت الحرب استقلت من عملي ، وكانت لي ثقة عظيمة بابن السعود ، الذي لم يكن له علاقة معنا (الانكليز) ، فربح المعركة واستولى على الحجاز ، ويمكنهُ الآن ان يؤلف من بلاد العرب دولة عظيمة ، غنية ، قوية ، وسيأخذ بيد البلاد في طريق المدنية شيئاً فشيئاً . وانك سترى في المستقبل مملكة عربية كبرى » !

للمستر فيلبي ولع خاص بالجغرافيا والاكتشاف ، فهو عضو في الجمعية الجغرافية الملوكية ، وهل ثمة فائدة أعظم من هذين العلمين لبريطانيا ؟ « ان قصة اكتشاف بقية بلاد نجد في القرن العشرين يعود الفضل فيه لسانت جون فيلبي ، الذي قاد في سنة ١٩١٧ — سنة ١٩١٨ بعثة سياسية الى زعيم الوهابيين في الرياض . . . فقد قطع فيلبي الجزيرة العربية من البحر الى البحر ؛ وهذا عمل لم يقم بهِ قبل فيلبي من الاوربيين سوى الكبتن سادلير Capt. Sadlier في ١٨١٩ . واما الطريق الذي سلكه فيلبي في رحلته هذه ، فن الهفوف فالرياض الى الطائف[٢] » ويعود الفضل في معرفتنا البلاد العربية وخصوصاً الواحات والمدن المحصنة (المحمية) في داخلية البلاد الى السير جون فيلبي الذي فصّل ذلك في كتابه (قلب البلاد العربية) في سنة ١٩٢٢ The Heart of Arabia . وقد جاء عمله هذا متمماً للكتاب الذي وضعه الرحالة المشهور (دوتي[٣]) عن الجزيرة العربية وسماه Arabia Deserta[٤]

وما عدا هذا ففيلبي كاتب له فيما يكتبه عن الشرق وخصوصاً عن البلاد العربية مقام كبير عند الغربيين . وله من المقالات في الطبعة الاخيرة من دائرة المعارف البريطانية المباحث الآتية : بلاد العرب ، شرقي الاردن ، جرترود بل (الرحالة الانكليزية) ابن سعود ، وغير ذلك . واما كتبه التي تبحث عن العرب وبلادهم فهي : قلب البلاد العربية The Heart of Arabia ، الانتدابات العربية Arabian Mandates الحقيقة عن بلاد العرب The Truth about Arabia . وله كتاب آخر ظهر في

(١) انظر في مجلة (Vu) الافرنسية مقال La Guerre en Masque Noir. II. — Diner Chez le "Faiseur Je Rois" par Xavier de Hantecloque. Vu No. 135 p 1060—1062, 15 Oct. 1930

(٢) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة ، المجلد الثاني ص (١٧٢) مادة (بلاد العرب) . لا تنس ايها القارىء ان كاتب هذا المقال في المعلمة البريطانية هو فيلبي نفسه !

(٣) Charles Montagu D. Doughty : كاتب ورحالة انكليزي مشهور (١٨٤٣ — ١٩٢٦)

(٤) دائرة المعارف البريطانية : Encyclpaedia Britannica 14 th ed. vol 2. p. (528)

السنة الماضية عن الربع الخالي The Empty Quarter ، عقب رحلته الاخيرة في صحراء دهنا

اما الكتاب الذي نحن بصدده[1] فقد وضعه المؤلف في شباط (فبراير) سنة ١٩٣٣ عن مكة المكرمة — عاصمة المسلمين المقدسة — بدىء بطبعه في حزيران (يونيو) وانتهى منه في آب (اغسطس) ١٩٣٣ . وقدمه مؤلفه الى ثاني بناته Dora المولودة في بغداد سنة ١٩٢١ بابيات (حطان ابن المعلى[2]) القائل : —

لَولا بُنَيَّاتٌ كَزُغْبِ القَطَا رُدِدْنَ مِنْ بَعْضٍ الى بَعْضِ
لَكانَ لي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ في الأَرْضِ ذاتِ الطُولِ والعَرْضِ

وترجمها فيلبي الى اللغة الانكليزية كما يأتي :

But for my little girls, like chicks
Of sand-grouse huddled side by side,
I would wander freely, roaming
Over the earth so far and wide.

وللكتاب مقدمة صغيرة تقع في ست صفحات يشير فيها المؤلف الى الكتب استعان بها من عربية وافرنجية ، ومن الكتب العربية الحديثة (عصر المأمون) للدكتور احمد فريد رفاعي ، ثم يشكر المؤلف زوجته مساعدتها اياه في عمل الفهرس واملائه عليها فصول الكتاب . والكتاب ستة فصول وفهرس ، وصفحاته (١٥٩) بقطع وسط

حلب : (سورية) فؤاد عينتابي

روبنصن كروزو

من سلسلة قصص الاطفال — وضع كامل الكيلاني — طبع بمطبعة المعارف بمصر

قال روسو في هذا الكتاب ، «هو عندي أثمن ذخر في التربية الاستقلالية الطبيعية ، وسيكون اول كتاب يقرؤهُ طفلي اميل» . وليس بعد هذه الشهادة شهادة في كتاب . وقصة روبنصن كروزو من اشهر القصص العالمية . وقلما تجد فتى او فتاة ممن يتكلمون الانكليزية لم يقرأها فهي قصة مغامرة اخاذة ، تنبهُ في الصغار حبَّ الاستطلاع ، وتعوّدهم الدأب وتنشئهم على الحياة الاستقلالية . فاخراج موجز لها ، بقلم كامل كيلاني السَّلِس السليم ، وطبعها ذلك الطبع النظيف الواضح المتقن الذي اشتهرت بهِ مطبعة المعارف ، وتحليتها بالصور الكثيرة ، ذخر جديد ، يُضَم الى مكتبة الاطفال العربية

(١) «هارون الرشيد» لسانت جون فيلبي (٢) (الحماسة) لابي تمام جزء ١ ص (١٠٢) طبعة سنة ١٩٢٧

المجموعة الطبية الصغرى

وضع عازر ارمانيوس الاجزاجي

لا ادري لاي سبب يطلب مني نقد مؤلفات اصدقائي القدماء ولا سيما اذا وضعوا صورتهم وعمرهم في اول الكتاب فهذه الدقة في الصدق ان وافقتهم فانها لا توافق غيرهم ولا ادري كيف اتخلص منها الآ في قولي انهُ عند ما اجتمعنا في الجيش المصري كان هو برتبة يوزباشي قديم وكنت ملازماً حدثاً جديداً ولنترك البحث في الاعمار ونثأر من المؤلف في نقد الكتاب فأقول

هو كتاب صغير الحجم كبير الفائدة اورد فيهِ مؤلفه نحو اربع مائة نوع من النبات شرحها شرحاً طبيًّا موجزاً لفائدة جمهور القراء ورتبها على حروف المعجم وذكر امام كل نبات اسمه اللاتيني والفرنسي والانكليزي وذكر فصيلته بالعربية او الافرنجية وتجنب الاكثار من ذكر المترادفات الكثيرة لكي يسهل على القارىء اختيار الاسم الصحيح

وانهُ يتعذر عليَّ نقد هذا الكتاب الجليل الفائدة ما لم اورد منهُ بعض الامثلة . قال في مادة اهليلج . هو من الفصيلة الآسية ثم ذكر اسماءه باللاتينية والفرنسية والانكليزية وقال هو لفظ هندي يطلق على عدة اثمار زيتونية الشكل ذات خواص قابضة ملينة معدية كما انها اشتهرت علاجاً في تقرحات اللثة وعلكاً وسنوناً . ثم ذكر انواعهُ وهي الاهليلج الاصفر والاهليلج الصيني ويعرف بالبليلج والاهليلج الكابلي والاهليلج الهندي وهو الهندي شعيري . وقال في الاملج انهُ ليس الاهليلج وليس من فصيلته

ولا يخفى ان الاهليلج خلاف الزقُّوم لان الزقوم من فصيلة غيره والعرب ظنوا الزقوم نوعاً من الاهليلج فينبغي التفريق بين الزقوم والاهليلج فالزقوم يعرف في السودان بالهليج والهجليج وهما تحريف اهليلج لكنه ليس بالاهليلج كما ظنَّ بعض الكتَّاب

وقال في الزمان هو من الفصيلة الآسية ثم ذكر اسمه اللاتيني والفرنسي والانكليزي وذكر خواصه وذكر ان جذره يعرف بالمغاث والحقيقة ان المغاث جذر نبات آخر على ما حققه اديب في مقتطف فبراير سنة ١٩٢٥

وذكر صحة اسماء السليخة والدراصيني والقرفة اي انه فرَّق بينها وذكر صحة الاسم العلمي والعربي للفاشرا كذلك صحة الاسم العلمي للخبازى والخطمي وغير ذلك من صحة الاسماء العلمية والعربية لكثير من انواع النبات وكنت اود لو فرَّق بين العامي والفصيح في بعض الاسماء فأشار الى العامي باشارة خاصة ولكن هذا الكتاب للجمهور والغاية منه ان تفهمه القرَّاء

ومما يؤخذ على المؤلف اغفالهُ فهرساً يذكر فيه الالفاظ الافرنجية لسهولة المراجعة

امين المعلوف

الينبوع

نظم الدكتور احمد زكي ابي شادي

في اواسط القرن الرابع بدأ الشعر العربي ينزل درجات ، وكان في سقوطه يتحسن بأثواب من جمال اللفظ يواري بها سوآته ويستر عُرَرَه وكان الشعراء يتعملون في استخراج انواع من البديع والاستعارة والمجاز والاشارة واستوفوا بذلك غاية بعيدة في تركيب الالفاظ وترتيب الكلام وبقي الشعر يسفل بعد ذلك حتى نجحت في القرن الماضي طائفة من الشعراء ردَّت اليهِ شبابه ، وأعادت عليهِ جدته . إلاَّ ان هذا الشعر لم يكن بالذي يرضي هذا الجيل الحاضر من الادباء ، فخرج عليه جماعة ممن تثقفوا بآداب الاعاجم من دول اوربا فبدأت هذه الجماعة تبتدع لنفسها طريقة في الشعر وذلك باجادة المعاني وتحسينها وتحقيقها والتوسع في النظر الى اوائلها وأواخرها وتابعها ومتبوعها وعلاقاتها بالنفس وآثارها في القلب الى غير ذلك من الاغراض. ثم ترى بعضهم قد اهمل اللفظ واستجادته واختياره ، ولم يلقوا بالاً الى الصيغ العربية التي لا يفهم الكلام الاَّ بها ، ولا ينعقد المعنى الاَّ عليها . وأغلب الظن انهم يظنون ان هذه العبارة التي ينشئونها تؤدي المعنى الذي ارادوه ، فيلقون بها دون روية او تثبت ، فاذا جاء القارىء ليفهم الكلام على عربيته لم يخرج بشيء ولا يجدي عليه الاَّ ان يتوهم مراد الشاعر توهماً . غير ان الحقيقة التي لا ينكرها احد ان كثيراً من هؤلاء الشعراء قد انطوت اشعارهم على كثير من جليل المعاني ولكنهم افسدوها بضعفهم في البيان وقلة عنايتهم بالاساليب العربية الجميلة التي يطابقون بها بين المعنى الذي ارادوه والصور التي تنشئها هذه الاساليب في ذهن القارىء البصير . ونحن لا نرى للشعر معنى الاَّ بهذه المطابقة بين المعنى المراد والاسلوب المتخذ اداةً للتعبير عنه ، وإلاَّ فان المعاني الشعرية لا تزال قائمة في انفس الشعراء من اول عهد الانسانية الى هذا اليوم ، ولا يتقدم شاعر على شاعر اذا تساويا في المعاني ، الاَّ بالبصيرة البيانية النافذة التي تقع بهِ على الالفاظ والاساليب التي تطابق المعاني القائمة في نفسهِ

هذه كلمة موجزة أردنا ان نقدم بها لذكر ديوان صديقنا (الدكتور احمد زكي ابي شادي) الذي سماه (الينبوع) ورأيي في شعر أبي شادي أنه جيد المعاني ، فربما أراد هذا الشاعر معنى جليلاً ولكنهُ لا يأخذ نفسهُ بالمطابقة بين المعنى الذي أراده والاسلوب الذي يعرضه فيه ، وهو يعلم ذلك في شعره فيحتج له ويدافع عنه ولعلَّ الرافعي اراد ذلك حين قال في كلمة سمعتها منهُ ان أبا شادي (مبتدع طريقة) . وذلك ان أبا شادي قد صار في شعره على وحي الخاطر (كما يقولون) دون التنقيح والتصفية والاختيار وجعل هذا مذهباً من المذاهب التي يسلكها الشعراء . وأنا لا أفتات على الرافعي في مراده من هذا الوصف . ولكن ذكرتهُ كما سمعته فان اخطأت في تأويلي فذلك من قبلي لا من قبله

هذا وقد قرأت ديوان ابي شادي الجديد فوجدت فيه نفسه بنشاطها ، وقلبه بشبابهِ ، وعقله

بتوثبهِ، وعلمه بتنوعهِ، فهو أكثر شعرائنا استخراجاً للمعاني ولاغراض المعاني . وانت اذا أخذت احد دواوينه أعجبك من شأنه هذا التنوع في الاغراض التي يرمي اليها بشعره، وهو في هذا كثير المعاني الجيدة وقد تقع له الالفاظ العالية والتراكيب القوية مما يدلنا على انه لو توفَّر على الاخذ بأساليب لغته لأخرج لنا في الادب العربي أدباً باقياً قويًّا ناضراً جيل الظاهر والباطن

ويجدر بنا هنا ان ننقل كلمة للجرجاني في الوساطة فهو يقول عن نظم الشعر ونقده « وملاك الامر في هذا الباب خاصة، ترك التكلف، ورفض التعمل، والاسترسال للطبع، وتجنب الحمل عليه، والعنف بهِ، ولست أعني بهذا كل طبع، بل المهذب الذي قد صقله الادب، وشحذته الرواية، وجلته الفطنة، وألهم الفصل بين الرديء والجيد، وتصور أمثلة الحسن والقبيح » . فهذه الكلمة نسوقها الى الشعراء فان الشعر اذا كان متكلفاً في استجادة اللفظ واختيار المعاني لم يكن شيئاً، وخير الشعر هو المرسل على سجيةٍ الآتي من طبع، ولكن شرط الطبع والسجية هو هذا الذي قاله الجرجاني في كلمتهِ، ولو اجتمع هذا لشعرائنا لكان لنا من شعرهم فن تستروح له القلوب وترف عليه الأرواح

***

تقويم التعليم

وضعه أحمد عطية الله — أخرجته دار الهلال

احسن المؤلف ايمّا احسان بوضعهِ هذا التقويم. واحسنت كذلك دار الهلال باخراجه في الشكل الانيق الذي اسبغتهُ عليهِ . كلُّ ما يهمّك من شؤون التعليم المصري، في درجاتهِ المتعددة من رياض الاطفال الى الجامعة، وفي نواحيه المختلفة من مدارس صناعية وفنية وبعوث للشبان وللشابات ترسل الى اوربا الى تعليم العميان وتقارير الخبراء الاجانب الذين جاؤوا مصر بدعوة وزارة المعارف لينظروا في خطتها التعليمية والمنهج المختار للدراسة، كل ذلك تجدهُ موجزاً ايجازاً حسناً في فصول التقويم ومزيناً بصور مختارة، لرجال التعليم وسيداتهِ وحفلاتهِ ومبانيه واعضاء البعوث وما اشبه

وقد احسن المؤلف بوضع يومية لشؤون التعليم المصري، عن سنة ١٩٣٣، فذكر اهم الحوادث التي حدثت خلال تلك السنة شهراً شهراً، بحسب تواريخها، ففي اول مارس سنة ١٩٣٣ مثلاً انتخب الدكتور منصور فهمي عميداً لكلية الآداب وفي ٧ ابريل قررت مصلحة سكة الحديد افتتاح مدرسة التلغراف فتقدَّم الى الانتظام فيها ٧٢٠ طالباً وفي ٢٤ اغسطس وصلت بعثة الكشافة المصرية الى بودابست وقوبلت بحفاوة بالغة وفي ١١ نوفمبر انشأت مصلحة التجارة والصناعة معهداً للزجاج الخ

فالكتاب يسدُّ فراغاً كبيراً في عالم التقاويم، وحبذا لو تمكن المؤلف من موالاة اصداره، مرة كلَّ سنة او مرة كل سنتين، مراعياً في فصوله ما جدَّ في نواحي التعليم المصري

مبادىء الزراعة العامة

تأليف جعفر خياط خريج جامعة كاليفورنيا ومدرس الزراعة في دار المعلمين ببغداد
طبع بمطبعة الكرخ البغدادية ٤٠٤ صفحة بالقطع الكامل

يحتوي هذا الكتاب على تسعة فصول في مبادىء النبات والاقتصاد الزراعي وابحاث في التربة واصنافها وخصوبتها والاسمدة بانواعها واجرآت فلاحة الارض ووسائلها . والدورة الزراعية أو نظام التعاقب الزراعي والفلاحة اليابسة او الزراعة البعلية على المطر، والري والصرف وملوحة الارض وغسلها وطرق تكثير النبات بالبزور والتطعيم والتجزئة وغيرها والمنتجات الزراعية من محاصيل الحقول (الغيطان) كانت او من ثمار البساتين وزهورها وخضرواتها والصناعات الزراعية كصناعة حفظ المأكولات والمربيات والمخللات وغيرها وصناعة الحرير بنوعيه الطبيعي والصناعي والآفات الزراعية من حشرات وامراض وعوارض جوية وتربية الحيوانات والدواجن — والمروج (ارض المراعي) واخيراً قائمة الاصطلاحات العلمية الواردة في الكتاب

وقد اعجبنا قول المؤلف في مقدمة مؤلفه ان الزراعي الحديث هو الرجل المتعلم الذي يستطيع العمل والاستفادة بمعارفهِ وتجاربهِ ومشاهداتهِ في ادارة المزارع وتكييفها بحسب ظروفه الخاصة ويذكرنا هذا القول بقول امير المؤمنين علي : من عمل بما علم اورثهُ الله علم ما لم يعلم

ان العراق قطر زراعي خصيب قامت بزراعتهِ دول اخرى سادت الدنيا حيناً من الدهر ولا يزال فلاحوه او ما ابقت المظالم منهم يستغلون ارضه او بعضها بما توارثوه عن اسلافهم من المعارف الزراعية فهذه المعارف او عرف هؤلاء الفلاحين يجب جمعهُ وتهذيبه وجعلهُ اساساً يبني عليهِ الزراعي الحديث ما يهتدي اليهِ بعلمهِ وتجاربهِ او بعبارة اخرى يجب البدء من الاساس وهو عمل الفلاح فنجمعهُ ونهذبهُ مما يغشيهِ من الابهام والاوهام ثم نزيد عليهِ ما نهتدي اليهِ بتجاربنا وابحاثنا وهذا ما اقترحه الآن على زعماء العراق واساتذته كما اقترحتهُ قبل في مصرنا على صفحات المقتطف والمقطم

ولا شبهة في ان نشر هذا الكتاب يساعد النهضة الزراعية العراقية بل لا بد لها من امثاله (لبناء صرح العراق الاقتصادي الذي لا يقوم الاَّ على الزراعة) كما يقول مؤلفه ونرجو معه ان يكون اول حلقة من سلسلة كتب اخرى زراعية باللغة العربية

ونود لخدمة هذه اللغة وتدوين الفلاحة تدويناً يسهل تناولها ان يستعمل اساتذتنا الزراعيون المعاصرون ما استعمله اسلافهم الاقدمون من الالفاظ والتعبيرات في مؤلفاتهم وان يعتنوا بجمع الالفاظ والتعبيرات الفنية التي يتداولونها في عرفهم الزراعي ويستعملونها فان علماء اوربا — الذين نقتدي بهم — يفتخرون بمثل ذلك كما قال لي المرحوم فقيد العلم في الشرق الدكتور صرّوف رحمهُ الله وكذلك كان مذهب الجاحظ عالم العربية واديبها الاكبر في ازهى عصورها

احمد الالفي

تاريخ الوزارات العراقية

سفر نفيس ممتع وضعهُ عبد الرزاق الحسني من ادباء العراق ومشاهير كتابهِ ضمَّ بين دفتيه التاريخ السياسي للدولة العراقية من ابتداء نشأتها حتى قيام الوزارة العسكرية الثانية في سنة ١٩٣٦ فهو يورد اسماء اعضاء كل وزارة وبرنامجها والظروف التي احاطت بتأليفها وبانسحابها واعمالها والمعاهدات التي عقدتها مع رسم شمسي لرجالها وذلك باسلوب سهل وبعبارات خالية من التحيز والتشيع

ويقع هذا الكتاب في ٢٣٠ صفحة بالقطع الكبير وهو مطبوع طبعاً متقناً على ورق صقيل في مطبعة العرفان بصيدا وقد اهداه مؤلفهُ الى جلالة الملك غازي كما وضع له الاستاذ الكبير محمد رضا الشبيبي وزير المعارف الاسبق في العراق مقدمة نفيسة اطرى فيها جهود المؤلف ونشاطه

والكتاب مفتتح بالكلام عن الوزارة النقيبية الاولى وقد تمَّ في عهدها انشاء الدولة العراقية وتتويج جلالة الملك فيصل ملكاً عليها وقد استوفى البحث على تاريخ هذه الحقبة الخطيرة من تاريخ العراق واورد الوثائق السياسية الخاصة بهِ ثم اتبعهُ بكلام عن الوزارة النقيبية الثانية فالثالثة فالوزارة السعدونية الاولى فالوزارة الهاشمية فالوزارة السعدونية الثانية فجاء كتابهُ مستوفياً من جميع الوجوه لا يستغنى عنهُ كل مشتغل بالسياسية العربية والشرقية

وقد وعد المؤلف باصدار مجلد آخر يحتوي على تاريخ الوزارات التي تألفت من الوزارة العسكرية الثانية حتى اليوم ولعلهُ يبرّ بوعدهِ قريباً فالحاجة شديدة الى مثل كتابه . وثمنهُ ٢٥ قرشاً صاغاً مصريًّا

ا . س.

حكيم البيت

الدكتور ابراهيم ناجي نطاسيٌّ بارع وشاعر منقف رقيق وهو من الادباء الذين يتلاقى فيهم جانب الفن وجانب العلم وان كان الشعر أظهر ما عرف بهِ عند الخاصّة . ومن محاسن الاتفاق ان يتفق ظهور غيره بالشاعرية مثله ممن يحترفون الطب او الهندسة او غيرها في جيل واحد وبلد واحد. والدكتور ناجي واسع الاطلاع في آداب الفرنجة وأديب جم النشاط حتى ليحملك ما تشاهدهُ فيهِ من الحركة المستمرة والدأب المتواصل على ان تفكر قليلاً في الوقت الذي يتسع لمثل هذا المجهود الموزَّع بين الطب والشعر

وقد أراد ان يجمع بينهما في صعيد واحد فأنشأ مجلة « حكيم البيت » وهي مجلة أدبية صحية لا تستغني عنها ربّة البيت المثقفة فمن ابوابها باب « اطباؤنا في المرآة » وهي صور قلمية بليغة لاطباء مصر الممتازين وباب صحة الطفل وباب « دائرة معارف العلاج » وباب « التغذية » وغير ذلك من شؤون الصحة والعلاج . وفي آخر كل عدد قصة ، تقرب بعض المباحث الطبية المفيدة بأسلوب يغري القرّاء بالمطالعة

البريد في مصر

وضعت مصلحة البريد المصرية ، كتاباً انيقاً كل الاناقة ، مفيداً كل الفائدة ، في تاريخ البريد في مصر ، وارتقائهِ من أقدم العصور الى العهد الحاضر . وطبع هذا الكتاب على ورق فاخر مصقول في المطبعة الاميرية ، وزين بصورة ملوّنة لحضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد وصور اخرى لكبار الاسرة العلوية ، ومديري مصلحة البريد المصرية ، وبعض مبانيها ، ثم رسوم بيانية ملوّنة تبين ارتقاء اعمال البريد في مصر كما استوضح من الاحصاءات الرسمية

وقد جاء في مقدمة الكتاب « البريد نظام يتصل اتصالاً وثيقاً بنظام الدولة ومدنية الشعوب فلا تكاد توجد هيئة اجتماعية وتقوم حكومة وتنظم وسائل المواصلات لنقل الذخيرة والمؤن وجباية الضرائب والهيمنة على شؤون الدولة ، حتى يصبح البريد ضرورياً لنقل اوامر الملك وتسهيل اعمال الحكومة ، وتمكين العلاقات بين الجماعات والافراد . ولقد يجوز ان نعتبر البريد من حيث انتظامهِ مقياساً لمدنية الشعوب ...»

ثم بيان موجز يحتوي على ما لصاحب الجلالة الملك من الفضل على ارتقاء مصلحة البريد المصرية في العهد الحديث كانشاء حساب الامانات ، ونظام البريد المستعجل ، والبريد الجوّي وما الى ذلك

***

اما الفصل الذي جعل عنوانهُ الكتابة والرسالة والورق فبحثٌ علمي تاريخي نفيس ، قد ننقله الى قرّاء « المقتطف » في عددٍ تالٍ

وتجيءُ بعد ذلك فصول موجزة ، ولكنها بليغة في تتبع ارتقاء البريد المصري من اقدم العصور الى الآن ، فثمة فصل لعصر الفراعنة وآخر للبطالسة ، فآخر للعصر الروماني وهكذا

وفي الصفحة ٦١ يبدأ فصل ممتع في طوابع البريد بوجهٍ عام وطوابع البريد المصري بوجهٍ خاص وكيف تصنع

وحبذا الحال لو كان الكلام على صنعها أوفى مما هو

مطبوعات جديدة

النثر الفني في القرن الرابع
للدكتور زكي مبارك

التجديد في الادب الانكليزي الحديث
لسلامه موسى

تاريخ الصحافة العربية
للفيكونت فيليب ده طرازي

رحلة الصيف
للاستاذ توفيق الحكيم

ابو علي عامل ارتست
لمحمود تيمور بك

حواء بلا آدم
لمحمود طاهر لاشين



ارنست هيكل

Ernst Haeckel

احتفل في ١٦ فبراير الماضي بانقضاء مائة سنة على ولادة أرنست هيكل العالم الالماني ، الذي كان يعدُّ في الطبقة الاولى من علماء البيولوجيا . ولد في بوتسدام في ١٦ فبراير سنة ١٨٣٤ ودرس العلوم الطبية في فرزبرج وبرلين وفينا على ملر وفركو وكوليكر وغيرهم من اكبر علماء المانيا ونال دبلوم الطب والجراحة سنة ١٨٥٧ وتعاطى صناعة الطب في برلين جرياً على رغبة أبيه لا على رغبته لانهُ كان يحب الانقطاع للعلم والتعليم . ثم اختير استاذاً لتشريح المقابلة في مدرسة يانا (Jena) الجامعة ومديراً لمدرسة علم الحيوان فيها . وانشئت له استاذية لتعليم علم الحيوان فأقام فيها استاذاً لهذا العلم ودعي لمناصب اعلى في ستراسبرج وفينا فلم ينتقل اليها وجعل يانا مقرَّه لم يخرج منها الاَّ للسياحة والبحث عن الامثلة الطبيعية . والَّف في وصف طوائف الحيوان على اختلاف اجناسها وانواعها كتباً شتى تعدُّ في الطبقة الاولى بين الكتب التي من نوعها . واكتشف انواعاً كثيرة من الحيوانات وبحث البحث المدقق في علم البيولوجيا . واتفق أن نشر داروِن كتابهُ اصل الانواع وهيكل مشتغل بالمواضيع البيولوجية فكان له أثر شديد في نفسهِ فاقتنع بصحته وصار اول أنصار مذهب النشوء في المانيا حتى قال داروِن ان مذهب النشوء انتشر فيها بهمة هيكل وغيرته وبحثه . ولما نشر هيكل كتابهُ في ابنية الاحياء Morphology سنة ١٨٦٦ قال الاستاذ هكسلي انهُ طبَّق مذهب النشوء على نتائجهِ وانهُ سيبقى أثراً في تاريخ علم البيولوجيا في القرن التاسع عشر . وكانت عبارة الكتاب علمية عويصة فبسطها حتى لا يبقى فهمهُ مقصوراً على الخاصة بل يتناول العامة وطبعهُ ثانية باسم تاريخ الخلق الطبيعي فراج اي رواج وقد بيَّن فيه ان الفرد يمرُّ في نموه على الاطوار التي مرَّ عليها نوعهُ في ادوار ارتقائهِ وقسم الحيوانات الى ذوات الخلية الواحدة (بروتوزوى) وذوات الخلايا الكثيرة (متازوى) فالاولى تبقى كما هي واما الثانية فتبتدئ بخلية واحدة ثم تتعدَّد خلاياها بالانقسام

وهو أول من حاول رسم سلسلة الحيوانات او شجرتها التي بيَّن فيها علاقة انواعها بعضها ببعض وردَّها كلها الى اصل واحد كما تردُّ افراد القبيلة الواحدة الى جد واحد . وجمع خلاصة بحثهِ في هذا الموضوع في المقالة التي تلاها في مؤتمر علم الحيوان الذي عقد بكمبردج سنة ١٨٩٨

واستقصى فيها تسلسل نوع الانسان الى ست وعشرين حلقة من المخلوقات من حيٍ لا بناء لهُ كالمونيرا الموجودة الآن الى حي ذي حويصلة واحدة كالبروتستا الى الاحياء الكثيرة التراكيب الى الانسان القديم الذي وجد بعض عظامهِ في جزيرة جاوى سنة ١٨٩٤ وهو في رأيهِ الحلقة المتوسطة بين الانسان الحالي وأعلى طوائف الحيوان

ولم يكتفِ بدرس مذهب النشوء وتطبيقه على كل انواع الحيوان بل حاول تطبيقه على القضايا الفلسفية والدينية ونشر كتاباً في ذلك سماه «أحجية الكون» لكنهُ تطرَّف فيهِ كثيراً وذهب الى وحدة الخلق الآلي وغير الآلي مدعياً ان خواص الكربون الكيماوية والطبيعية في مركباتهِ الشبيهة بالالبومين هي العلة الوحيدة للحركات التي تميز المواد الآلية من غير الآلية وان الحياة تولدت في المواد الكربونية النتروجينية بفعل ذاتي وان الافعال العقلية من نوع الافعال الفسيولوجية اي انها من خواص المادة الحية فهي موجودة بالقوة في كل خلية حية. وما الافعال العقلية سوى مجموع تلك الافعال المستقرة في الخلايا الاصلية وكما نشأت الحيوانات العليا من الحيوانات الدنيا نشأت اسمى القوى العقلية من القوة الموجودة في الخلايا الاصلية. وانكر خلود النفس وحرية الارادة ووجود الله مستقل بذاته عن المادة

ولا يخفى انهُ قلما لقي من وافقهُ على النتائج التي استنتجها من مذهبهِ الاخير بل قلما لقي من وافقه على المذهب نفسه. ولا ندري كيف كان اعتقاده حينما دنت ساعة الموت ولا كيف تكون آداب البشر اذا انكروا خلود النفس

التطور والحرارة

يتلخص مذهب التطور، في ان الاحياء تتحول وتتطور، فتنشأ من تحولها وتطورها انواع جديدة من الحيوان والنبات. حدث ذلك في الماضي. ولا يزال يحدث الآن ولو لم تسهل مشاهدته لان فعل التطور بطيء كل البطء. فهذا المذهب في عرف جميع علماء الحياة الذين توفروا على درس الموضوع ولهم آراء يؤبه لها فيه حقيقة لا مراء فيها، والادلة التي توجب عليهم هذا القول تستمد من علمي التشريح وتشريح المقابلة وعلم الآثار المتحجرة وعلم وظائف الاعضاء وعلوم النفس والكيمياء وغيرها

وركنا التطور، هما الوراثة والتحول الفجائي. فالاول يكفل استمرار النوع والصفات الخاصة التي يتصف بها، والثاني يحدث التغير الذي يكفل تنوع الاحياء وارتقاءها بظهور صفات جديدة فيها تجعل صاحبها اصلح للفوز في معترك الحياة

وقد كنا الى عهد قريب، نعتقد ان التحول الفجائي، في الكائن الحي، لا سيطرة لنا عليه فهو من الطبيعة، لا يسرعه ولا يعيقه برد شديد او حر شديد او ما اليهما من الفواعل الطبيعية. ولكن الاستاذ مُلر الاميركي، من جامعة تكساس، اكتشف من عهد قريب، ان الاشعة السينية، لها تأثير قوي، في مادة الخلية الحية، فتزيد ظهور التحولات الفجائية فيها، والحيوان الذي يفضّل لمثل هذه المباحث

حشرة تعرف بذبابة الدروسوفيلا ، او بذبابة الفاكهة . فانهُ لما عرِّض هذا الذباب للاشعة السينية زاد متوسط التحولات الفجائية التي تظهر فيه ، زيادة فاحشة . ثم ايد علماء آخرون مباحثه هذه ، فأثبتوا ان للاشعة السينية ، وما هو من قبيلها مما ينطلق من الصخور المشعة يؤثر في ذباب الفاكهة هذا التأثير العجيب

بيد اننا اطلعنا حديثاً في مجلة اميركية صادرة في اواخر يناير سنة ١٩٣٤ ان الاستاذ هارولد بلو وفيليب ايفس قدما تقريراً الى جمعية الوراثة الاميركية ، وصفا فيه عدة تجارب جرباها بذباب الفاكهة المذكورة فثبت لهما ان تعريضه لحرارة عالية ، مدداً قصيرة يزيد متوسط التحولات الفجائية التي تحدث فيه ، وهذا يؤيد النتائج التي وصل اليها الباحث الالماني الدكتور جولد شمت . ويقال ان نسبة ظهور التحولات الفجائية بعد تعريض هذه الحشرات للحرارة الى عدد ما كان يحدث فيها عادة كنسبة ٥ الى واحد

فاذا صحَّ هذا القول فقد كشف الانسان عن طريقة أخرى يتحكم بواسطتها في المادة الحية

القلب والغدة الدرقية

على السائر مع اخوانه في موكب العمران العظيم تبعات عقلية لا يستطيع ان يهملها من دون ان يتخلف عن اخوانه . ومن هذه التبعات العقلية فهمه لبعض الالفاظ الجديدة التي يصح ان يكون كل لفظ منها عنواناً لفصل قائم بذاته من تقدم العلم . وليس المراد ان يتعمق في كل ما ينطوي عليه مدلول هذه اللفظة ، بل ان يحيط بجانب من معانيه يمكنه من فهم المراد به حين ذكره

فمن الالفاظ الجديدة التي تعودناها الآن ، في عالم الصحة والتغذية لفظ « الفيتامين » . ولا حاجة بنا هنا الى تفسير معناهُ . ثم هناك لفظة اخرى يجب ان نفهم مدلولها ، ونتعوَّد استعمالها ، لانها ولا ريب ، سوف يكون لها اكبر مقام في علم وظائف الاعضاء ، وما ارتبط منهُ بعلم النفس — هذه هي لفظة الهرمون وجمعها هرمونات . اللفظة كما ذكرناها معربة ، ونفضل لها هذا التعريب ، لانها ليست ثقيلة على سمعنا ، ولانها تدل على شيء معين أصبح متحيزاً في عالم الفكر الغربي

والهرمون ، افراز داخلي تفرزه بعض الغدد ، مباشرة الى الدم ، من دون ان تفرزهُ عن طريق قناة . وهذه الغدد التي تفرز كذلك ، تعرف بالغدد الصم . ومن الغدد ما لهُ قناة ولكنهُ مع ذلك يفرز هرموناً او اكثر . ومن هذه الغدد التي تفرز هرمونات ولها اثر كبير في حالة الانسان العصبية والنفسية الغدة الدرقية وهي فصان على جانبي القصبة تحت الحنجرة . فالتصميم والاقدام والحزم في اشخاص كنابوليون ، صفات مردها الى هرمون هذه الغدة . وكذلك حالة التوتر العصبي الشديد ، في اشخاص كايفان الرهيب الملك الروسي البطاش . يقابل ذلك ان المصابين بالبلادة العقلية والروحية او بالبله ، يرتد سبب اصابتهم الى نقص في هرمون هذه الغدد . فالبُله الذين يحقنون بخلاصة هذه الغدة ، يشرق نور الذكاء في عيونهم

ولا يخفى ان الجسم ، في نظر علماء وظائف الاعضاء آلة . والظاهر ان الغدة الدرقية ، هي بمثابة الصمام ، الذي يعين سرعة سير الآلة او بطأهُ . في بعض الحوادث التي يصاب بها اصحابها باحتقان القلب ، او بالذبحة الفؤادية ، يرجح ان الصمام مفتوح على مداه ، والآلة سائرة باسرع ما تستطيع ، فاذا حدث مثل ذلك في مصنع من المصانع ، فالمهندس يخفف النار ، ليخفف سير الآلة حتى لا تتحطم . ولما كان الجسم الانساني لا يحتوي على جهاز اوتوماتيكي ليحول دون هذا الاسراع الزائد ، فان القلب يبقى يخفق خفقاناً زائداً حتى ينهك وينتهي الجسم بالموت .

تخطر على بال الدكتور هرمان بلومجارت من أطباء مدينة بوسطن ، انهُ اذا ازال في حالة كهذه ، جانباً من الغدة الدرقية ، يكون فعله كفعل المهندس الذي يخفف النار في موقد الآلة . وكذلك فقد يستطيع ان ينجي الحياة المهددة بالموت . وأُعين بمبلغ من المال ، مخصص لهذه المباحث او ما يقابلها في جامعة هارفرد ، فاجرى المباحث الاولية ، ووصل منها الى نتيجة عجيبة ، وهي انه يمكن ازالة الغدة الدرقية كاملة ، وكذلك تستطيع أفعال الجسم الذي ازيلت غدته الدرقية ان تسير سيراً بطيئاً ، وبعد المباحث الفسيولوجية الاولية التي قام بها بمساعدة طائفة من العلماء والاطباء ، أخذ هو والدكتور برلين ، مريضين مصابين بضعف القلب الناشيء عن الاحتقان ، وأزالا من كل منهما تسعة أعشار غدته الدرقية ، فتحسنت الحالتان تحسناً سريعاً ، ثم وقعت نكسة . فقرر الدكتور بلومجارت ان يزيل الغدة الدرقية كاملة وفي ديسمبر سنة ١٩٣٣ عمل الدكتور برلين مساعد بلومجارت اول عملية من هذا القبيل لرجل مصاب بعلة مزمنة من علل القلب ، وكان عاملاً قد قضى ثلاث سنوات أكثرها في الفراش ، فاصبح قادراً أن يرتزق

ولكننا قلنا ان الذين ينقص فيهم هرمون الغدة الدرقية عن المتوسط الطبيعي ينشأون بلداء او بلهاً ، أفلا يقع لهؤلاء المرضى ، الذين تزال غددهم الدرقية كاملة ضعف في عقولهم وبلادة ؟ والرد على ذلك ان الحقن بخلاصة الغدة الدرقية وبمقادير معينة ، يكفي للتنبيه العقلي من دون ان تنقل وطأة العمل على القلب . هذا هو المخرج الطبيعي من المأزق ، على ان الدكتور بلومجارت يحذر من اجراء هذه العملية الا بعد الفحص الدقيق والتثبت من وجوبها

تجفيف النبات وحفظ الفيتامين

يستحسن تجفيف النبات — من خضراوات وثمار وما اليها — لاسباب منوعة تتعلق بالحالة الاقتصادية من جهة وبالحالة الاقليمية او الجوية من جهة اخرى . بيد ان هذا التجفيف اصبح لا يرضي كثيراً من الناس ، لانهم يعتقدون ان الخضراوات اذا جفت فقدت ما فيها من الفيتامين . غير ان الاستاذ تشارلز توماس والمستر لبرتون فرون من جامعة كولومبيا الاميركية ، حلاَّ ، على ما يقال هذه المعضلة العلمية الصناعية ، اذ استنبطا طريقة لتجفيف الخضروات من دون ان تفقد ما فيها من الفيتامين . في الطرق القديمة

التي كانت تجفف بها الخضراوات كان الهواء الساخن يطلق على النبات الى ان يجف. فطول تعرض النبات للهواء الساخن يميت او يحل الفيتامين الذي فيه . اما النبات في الطريقة الجديدة ، فيدار دوراناً رحوياً من سرعة معينة في الوسط الساخن فيطرد ما فيه من الرطوبة ، بفعل القوة الصادرة من المركز ، وبفعل الحرارة ، وكذلك لا يطول تعرضه للحرارة فيجف وفيتامينه سليم على ما يقولون

ما هو المرض

المرض هو نشاط الجسم الى دفع عادية فسيولوجية تعرقل افعاله الحيوية بوسائل كيمائية او ميكانيكية

هذا التعريف يجعل المرض قائماً على ركنين هما طبيعة الجسم ، ونوع العادية التي تصيبه . وكثيراً ما يهمل النظر الى طبيعة المرض الثنائية التي اشرنا اليها،حتى لتسمع احياناً اطباء يؤكدون لك انَّ التدرن ، سببهُ باشلُس الدرن . ولكن قليلاً من انعام النظر يثبت ان باشلُس الدرن ليس الاَّ ركناً واحداً من الركنين اللذين تقوم عليها الاصابة بالتدرُّن . ففي استطاعة البكتريولوجي ان يستنبت هذا الباشلُس في مزدرع خاص من دون ان يصاب هذا المزدرع بأعراض التدرن . وقد يحقن الجواد بهِ من دون ان يصاب بأعراض التدرن التي نشهدها في الانسان المسلول

ونحن نعلم ان امراضاً مختلفة تنتاب الانسان ترتدُّ الى جراثيم مختلفة كالبكتيريا . فالباشلس الذي يسبب الحمى التيفودية ، جسم مستطيل ذو سوطٍ . والكائن الذي يسبب النزلة الصدرية اصغر كثيراً من باشلس التيفود وهو كروي الشكل ولا سوط له. هذان الصنفان من البكتيريا يحدث اولهما الحمى التيفودية والثاني النزلة الصدرية لانهما يعيشان في اعضاء مختلفة من الجسم الانساني ، ويتكاثران بأسلوبين مختلفين ،ويفتكان بالنسج الحية بطريقتين متباينتين

ولا يقتصر الاختلاف على الجراثيم التي تسبب الامراض المنوّعـة ، وانما يتعداها الى الاجسام . حتى اذا اخذت منطقة يكثر فيها مرض الجواتر (تضخم الغدة الدرقية) وجدت بعض الناس غير مصابين بهِ ، مع ان احوال المعيشة واحدة للمصابين والاصحاء على السواء . فالاجسام تختلف في تفاعلها مع المكروبات وغيرها من عوامل المرض. وهذه حقيقة كثيراً ما نغضي عنها ، فنظن ان النساء والرجال والاطفال سواء امام مرض من الامراض او مكروب من المكروبات

العين الكهربائية تخرق الضباب

اخترعت آلة بحرية جديدة تسمى « عين الضباب» ترى الاشياء الخفية في الظلماء والضباب والدخان الطبيعي والصناعي. وقد جربت في الباخرة (ملكة برمودا) فنجحت نجاحاً حمل كبار موظفي البحرية واصحاب بواخر نقل الركاب على الاعتقاد بأن تلك الآلة العجيبة ستحدث انقلاباً كبيراً في زمني الحرب والسلم

ومن فوائدها منع تصادم البواخر بعضها ببعض في الظلمة والضباب. فتراها في احلك الليالي تنبه ربان الباخرة المركبة فيها على دنوّ البواخر الاخرى منه وهي على بعد ١٥ ميلاً. وتدل على جبال الجليد عند اقترابها من الباخرة فتدرأ عنها غوائلها. واذا اشرف امرؤ على الغرق استطاع الباحثون الاستدلال عليه بها وهو يكافح الامواج فيوجهون نحوه المصابيح الكشافة فيتسنى للمنقذين الوصول اليه وانقاذه

***

وفي زمن الحرب اذا تسللت احدى سفن الاعداء في الظلام متخفية باطفاء مصابيحها استطاعت (عين الضباب) رؤيتها في الحال ويتاح ايضاً لتلك العين الحساسة، الشعور بدنوّ الطيارات والمناطيد المعادية فتنذر بقدومها. وسر قدرة (عين الضباب) على رؤية الاشياء في الظلمة، يعرف من قاعدة علمية مشهورة. وهي ان كل شيء أشد حرارة من جسم يجاوره في بيئته يشع اشعة من الحرارة تسير في خطوط مستقيمة تماثل الاشعة التي تصدر من الدفايات الكهربائية المنزلية فتخترق الضباب والدخان والظلمة بسهولة

ومع كون تلك الاشعة لا تراها العيون البشرية بيد ان رؤيتها ممكنة بالبصاصة الكهربائية. وهي الاداة التي جعلها المخترع القومندور بول مكنيل Commander Paul H. Mac Neil (قوام اعين الضباب). تخترق الاشعة الافق فاذا صادفها شيء حارٌ اثَّر فيها تأثيراً يحدث إشارة تتقوَّى فتنذر السامع بالخطر الذي يتهدده. وان كان ذلك الشيء اقل برودة من بيئته كجبال الجليد مثلاً اثَّر فيها ايضاً فتقوم بالانذار المرغوب. وذلك عدا كون عين الضباب تدل على الحرائق التي تحدث في الغابات قبل استفحالها. وقد ازمع المستر مكنيل تقديم مخترعه هذا الى بحرية الولايات المتحدة لكي تستخدمه في بوارجها بمثابة آلة دفاعية

***

ويجدر بنا في هذا المقام ان نصف مخترعاً آخر اساسه الضوء والبصاصة الكهربائية ايضاً — ونعني بهِ التليلوكس Telelux : —

اخترع العلماء منذ بضع سنين جهازاً سموه (تليفوكس) اي الخادم الصناعي ثم اخترعوا لهُ حديثاً اخاً صغيراً سموه تليلوكس مداره على النور بدلاً من الصوت الذي يتوقف عليهِ عمل التليفوكس لان لوكس Lux لفظ لاتيني معناه ضوء وفوكس Vox معناه صوت

وقد جرّب التليلوكس في معرض كهربائي بمدينة بتسبرج بولاية بنسلفانيا من اعمال الولايات المتحدة فقام بانارة النور الكهربائي واطفائه وأدى اعمالاً اخرى من هذا القبيل وذلك حين يتلقى الاوامر من سيده كاشارات نورية فينفذها توًّا. ويؤلف دماغ هذا (الخادم المصنوع) من بصاصتين كهربائيتين تحسان بذبذبات الضوء فتحولانها نبضات كهربائية مطابقة لها. فان صوّبت شعاعة نور الى تينك البصاصتين حركتا الآلات المقوية للدورة الكهربائية، وهذه تدير (في دورها) جهازاً ميكانيكيًّا ويتيسر للمخدوم ان يقف بعيداً عن ذلك (الخادم المصنوع) مسافة ٧٥ قدماً فيلقنهُ اوامره بضغط زر كهربائي متصل ببطارية تنير نوراً دوريًّا بحسب العمل المطلوب

الغازات السامة والفاسياء

لما أستخدمت الغازات السامة في الحرب الكونية كسلاح للهجوم والدفاع ، خالها جلّ الملأ من المخترعات الجديدة ، كلّ الجدة . وما دروا أن الطبيعة ، أول المعلمين، قد سبقت أن جهزت شتى مخلوقاتها بأمثال ذلك السلاح الذاتي وكان ذلك التجهيز سابقاً بألوف الاحقاب ، لاتخاذ الانسان آلاته من الظرّان

فان كنت تبغي استيقان ذلك ، فعليك ان تؤمّ الغياض منقباً عن بغيتك ، بين صخورها فلا تلبث انيطرق سمعك دويّ كدوي الغدارة عند انطلاقها ، وتغشاك غمامة صغيرة من دخان ضارب للزرقة ، ينبعثان من كنف خنفساءة ضئيلة . وذلك الدويّ هو ضراط الخنفساءة وتلك الغمامة هي فساؤها تطلقها من مفساها دفاعاً عن نفسها ، عند ما يثير حفيظتها أي خصم من خصومها . لكي تثبط عزيمته وقتيًا ريثما تلوذ بالفرار . وذانك الفساء والضراط هما سبب تسميتها بالفاسياء او الخنفسة الضراطة . وثمةضرب من النمل مجهز بجهاز لاطلاق الحامض النمليك ! فان هاجت نملة منهُ ، رفعت رأسها ، وبزقت من فيها وابلاً من الحامض النمليك الى بعد خمس بوصات

عوض جندي

رجال المال والأعمال

اخذ علينا الاستاذ العقاد . والدكتور زكي مبارك اننا لم ننشر في كتاب رجال المال والاعمال سير رجال شرقيين تصحّ أعمالهم وسيرهم ان تكون قدوة كسير الغربيين فرأينا ان نتدارك ذلك في لحق ننشره قريباً مع المقتطف

عودة الروح — تابع صفحة ٣٢٦

وكذلك رضي « مصطفى » عن نفسه ولم يجد ثمة ما يمنعه من ملاحقة « سنية » والامل رضاها ، فجرت له معها هذه الحوادث المثيرة للضحك والاشفاق معاً ، خصوصاً في حروجة مركزه في عيادة طبيب الاسنان وفي نومه في الشرفة. وتستطيع ان تتصوّر من هذا بعض نواحي هذه الشخصية التي غيرت مجرى حياتها نظرة عارضة وقعت محض صدفة واتفاق ، ولكنها ليست نظرة الرجل العابث بل الرجل الذي يترقب المرأة التي تسطع في سماء حياته نجماً يهديه ويملأ فراغ قلبه وتكون له نعم الزوج وشريك العمر

وأنت تحب « مصطفى » وقد تضحك منهُ، ولكنك لا تسخر من هذه الشخصية الحلوة ، تعجب بها وتتمنى لها حظًّا وافراً من السعادة والهناءة ، وتلمح في تضاعيفها هذا الخلق النبيل الذي يعمر قلب الرجل النبيل في سعيه وراء الزوجة الصالحة والمرأة الكريمة النبيلة . وتمر على « مصطفى » لحظات من يأس ، ولحظات من امل ، ويتأرجح قلبه بين هاتين العاطفتين طويلاً وبين الجزع والرجاء ، والاقبال والاحجام ، ولكنهُ لا يصمت صمت « محسن » ولا يقتحم اقتحام « سليم » فينتصر من حيث اخفقا ، ويتم التعارف بينه وبين « سنية » ويجد كل منهما في الآخر الشطر الناقص والجزء المتمم ، ولا يكون على « مصطفى » بعد ان خطا خطوته الاولى مع « سنية » وقد كللت بالنجاح ، الاّ ان يقفوهابالخطوة الثانية مع اهلهافيطلب يدها وتكلل الثانية كالاولى بالنجاح وبالتوفيق والحظ الهنيء

[في الجزء التالي تتمة البحث]

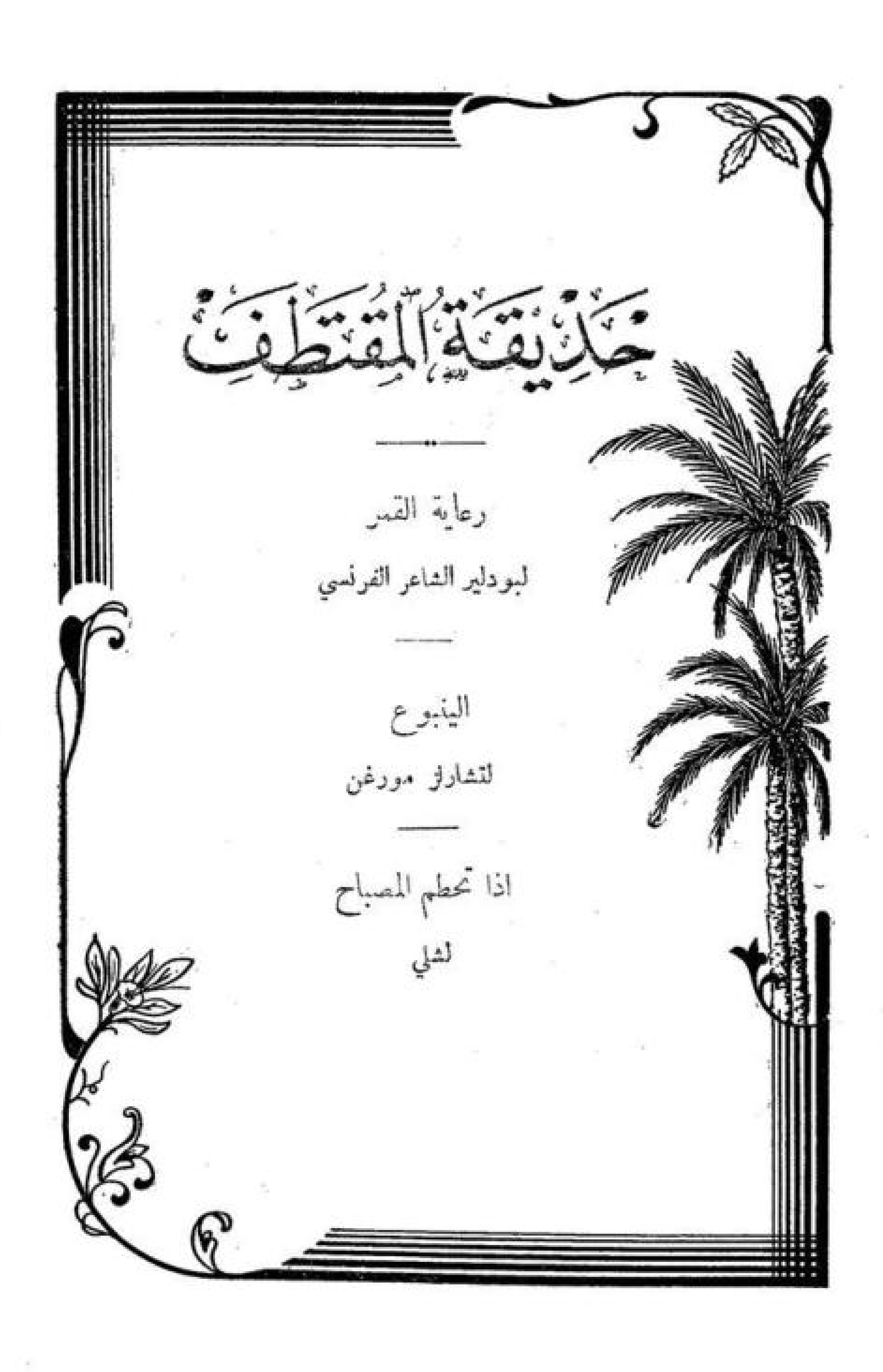


آخر صورة للمستشفى اخذت يوم ١٣ فبراير سنة ١٩٣٤



أحد ملوك الأسر الأولى يشق الارض احتفالاً بحفر قناة
جديدة (مأخوذة عن المستر كوبيل)


سير الزمان
اصلح اشكال الحكم في العالم العربي
للدكتور عبد الرحمن شهبندر
آلات التدمير الجديدة
القوى الروحية في اليابان
لكلود فارير
مشكلة النمسا



حديقة المقتطف

رعاية القمر

لبودلير الشاعر الفرنسي

الينبوع

لتشارلز مورغن

اذا تحطم المصباح

لشلي



مملكة المرأة

الملكة الممرّضة

لكريم ثابت

فوائد منزلية

اولادنا وتبعة الزواج

لكاتب اميركي

حديث عن الرحمة

لامين نخلة

عقل الطفل في تطوره

لاحمد عطية الله

مميزات الطفل النفسية

زينة البيت

الجزء الثالث من المجلد الرابع والثمانين

صفحة

٢٦١ من السدم النارية الى الانسان العاقل

٢٦٩ مستشفى المؤاساة . لفؤاد صرُوف

٢٧٥ رجوع الهارب (قصيدة) لعلي محمود طه

٢٧٧ نظرات اجتماعية . لامير بقطر

٢٨٥ الاسلوب العلمي . للامير مصطفى الشهابي

٢٩٥ الزهرة السوداء (قصيدة) لخليل شيبوب

٢٩٦ النيل في العهد الفرعوني : للدكتور حسن كمال

٣٠١ مزالق التفكير . لحنا خباز

٣٠٤ ما هو الموت . لنصيف المنقبادي المحامي

٣١٠ في مرقص (قصيدة) لعبد الحميد السنوسي

٣١١ دير في العراق . لمحمد عبد الجواد الاصمعي

٣١٩ آياتهُ في خلقهِ . الصفات الجنسية

٣٢٢ الطاقة . لمحمد عاطف البرقوقي

٣٢٦ عودة الروح : نقد وتحليل لمحمد علي حماد

٣٣٧ سير الزمان : اصلح أشكال الحكم للدكتور عبد الرحمن شهبندر : آلات التدمير الجديدة : القوى الروحية في اليابان : مشكلة النمسا

٣٥٣ حديقة المقتطف : رعاية القمر : لبودلير — الينبوع : لتشارلز مورغن — اذا تحطم المصباح : لشلي

٣٥٩ مملكة المرأة : الملكة المرضة : لكريم ثابت — فوائد منزلية — اولادنا وتبعة الزواج : لكاتب اميركي — حديث عن الرحمة : لامين نخله — خزن ضوء الشمس — عقل الطفل : لاحمد عطية الله — فعل اللبن في النمو — مميزات الطفل النفسية — زينة البيت

٣٧٥ باب المراسلة والمناظرة * في بحور الشعر . لبشر فارس

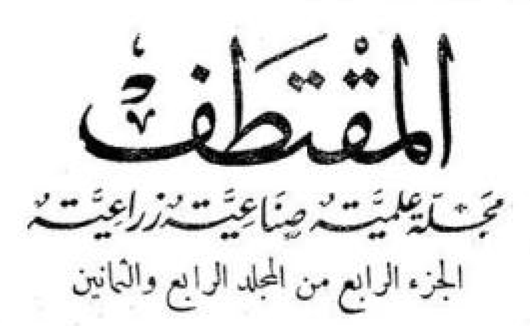
٣٧٦ مكتبة المقتطف * كتاب هارون الرشيد . روبنصن كروزو . المجموعة الطبية الكبرى . الينبوع . تقويم التعليم . مبادىء الزراعة العامة . تاريخ الوزارات العراقية . حكيم البيت . البريد في مصر

٣٨٥ باب الاخبار العلمية * ارنست هيكل . التطور والحرارة . القلب والغدة الدرقية . تجفيف النبات وحفظ الفيتامين . ما هو المرض . العين الكهربائية تخرق الضباب . الغازات السامة



December

ديسمبر



المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الرابع من المجلد الرابع والثمانين

١ ابريل سنة ١٩٣٤ — ١٦ ذي الحجة سنة ١٣٥٢

العلم والفلسفة

كان عهدٌ وكانت المعارف الانسانية قليلة التنوُّع . ففي عصر الاغريق الاقدمين ، كان حكماؤهم لا يفرقون بين الرياضة والمواليد والسيكولوجيا وأدب النفس فكانت طائفة كبيرة منهم فلاسفةً ومصلحين ورياضيين وطبيعيين في آنٍ واحدٍ . بل وكانوا ساسة وجنوداً ومهندسين وتجاراً كذلك ، وهذا يدلك على وحدة المعرفة في عصرهم ، بل على وحدة المعرفة والعمل . حتى التعليم في « الاكاديمية » و « الليسيوم » كان وفقاً للتقاليد الموروثة عن فيثاغورس تعليماً عامًّا يتناول المبادىء والاصول في الغالب دون التفصيلات . وهذا لا ينفي ان بعض المفكرين في تينك المدرستين حاولوا الانقطاع لفرع واحد من فروع المعرفة والتوفر عليهِ . ولم تنفصل العلوم بعضها عن بعض وتتحيَّز مباحثها الا في عهد مدرسة الاسكندرية وبعدها

وكان من الطبيعي ان تكون المعرفة وحدة غير مجزَّأة ، لما كانت العلوم في مهدها . بيد ان موقف الاغريق نحو وحدة المعرفة ، يعدو هذه الظاهرة السطحية . ذلك انهُ يقوم مثلاً واضحاً على الصلة الوثيقة بين ارتقاء الرياضة والعلم من جهة والفلسفة من جهة اخرى . وفي مكنتك ان تتبيَّن أثر هذه الصلة خلال العصور التي تلت عصر الاغريق الى عهد كوبرنيقوس وكبلر ونيوتن . ثم اننا نجد مكتشفات ديكارت الرياضية والعلمية أساساً لاسلوبهِ الفلسفي ، بل ان نظريتهُ الكونية والبيولوجية Cosmological اوحت الى الفيلسوف سبينوزا برهاناً هندسيًّا لنواهي الضمير . ثم انت تقع في فلسفة ليبنتز على فكرة « المتناهي في الصغر » فتجدها كسمط العقد تنظم رياضتهُ العالية (حساب التمام والتفاضل) ونظريتهُ في المادة وفلسفتهُ النفسية والادبية وفقههُ الديني

وكانت فلسفة كانْت باعثاً على فتح الهوَّة بين العلم والفلسفة في القرن التاسع عشر . فاصبح العلم متصلاً

اوثق اتصال بالعقل المجرَّد قائماً عليهِ . اما شؤون الحياة اليومية وما يلازمها من اقامة الاوزان الادبية فتركت لاحكام العقل العملي والخبرة ، وهذا أسبغ ظلاً من الريبة على مكانة المسائل الفلسفية من العلم . فلما تمَّ للعلم، القائم على العقل المجرَّد، سلسلة من الانتصارات الباهرة قامت مدرسة الوضعيين وهبطت مكانة الفلسفة . فتمهَّد السبيل حينئذٍ ، لتفسير الكون والحياة تفسيراً ميكانيكيًّا ماديًّا . وساد الرأي بأن الحقيقة متصلة بالمادة من حيث ان الشيء لا يكون حقيقيًّا الاَّ اذا كان كالمادة ، مما تدركه الحواسُّ ولو ادراكاً نظريًّا كادراك الذرَّات واما ما عدا ذلك ، فتخبطٌ في عالم من الاشباح . وغدا حتماً على كل باحث عن الحقيقة ان يحللها الى اجزائها ويصفها بما تتركب بهِ من الجزيئات والذرَّات

ومن العجيب ان التمادي في هذا التحليل قضى على « الحقيقة » كما نشدها هؤلاء المفكرون

أما وقد اصبحت المادة خليطاً من المكان والزمان والامواج ، فالاساس الذي قام عليه علم القرن التاسع عشر قد انهار . أما وقد زالت الضرورة القاضية بأن حقيقة الشيء يجب ان تنطبق على صفات الاشياء التي تدركها الحواس ، فليس ثمة حائلٌ الآن ، دون حسبان ، ما يوحي به الاختبار الديني او حسّ الجمال ، في عداد الحقائق. وكذلك تمهدت الطريق لاعادة النظر في تفسير الكون تفسيراً فلسفيًّا جديداً . وكانت النتيجة الاولى ، لهذا الاتجاه الجديد ، تقريب الشقة بين العلم والفلسفة . فعلماء الطبيعة اخذوا يبحثون عن حلول لمشكلاتهم الخاصة ، في المناطق التي وراء علم الطبيعة كما كنا نعهده . والفلاسفة في اهتمامهم بمباحث العلماء هذه استرعتهم اساليب العلوم ونتائجها ، وهبطوا ببحث « ما وراء الطبيعة » الى دور الامتحان . ثم ان فلكيين وطبيعيين من مقام ادنغتن وجينز وبلانك واينشتين ، اصبحوا لا يحسبون عالم المادة ذا كيان مستقلٍّ عن العقل. وموقفهم هذا نقيض موقف اسلافهم في اواخر القرن الماضي ، اذ كان اولئك يحسبون المادة وحدها حقيقة ، وكل ما عداهُ شبحاً من الاشباح . بل ان هذا الانقلاب يبدو لك ابعث على العجب ، اذ تعلم ان المادة كانت في نظر الاسلاف خاضعة خضوعاً اعمى للنواميس الميكانيكية . ولكنها في نظر المعاصرين متصفة بنوع من حرية الارادة ، وفقاً للمقتضيات التي ينطوي عليها مبدأ هيزنبرج في عدم التثبت . ويعلق الفيلسوفان الكبيران هويتهد ورسل ، بهذه الناحية من صفات المادة شأناً خطيراً

ومن نتائج هذا التعاون في علوم الحياة ، ان الحياة لا يمكن ان تكون نتيجة لافعال المادة الجامدة سائرة سيراً اعمى وفقاً للنواميس الميكانيكية . بل هي شيء اساسي مبدعٌ ولها قصدها الخاص . ومن هنا نشأت فلسفة تعرف بفلسفة التطور المبدع ، تخلق الحياة بمقتضاها ، اشياء جديدة خلقاً متصل الحلقات . حتى الذين لا يسلمون بالتفريق الاساسي بين المادة والحياة ، يعمدون الى فلسفة البزوغ (Emergence) كهويتهد والكسندر ومورغن او الفلسفة الكلية Holism كسمطس وانداده

فالتعاون بين العلم والفلسفة آية الحياة الفكرية في هذا العصر . ولا يسعنا الآن ان نحسب احدهما وحدة قائمة بذاتها منفصلة عن الاخرى . بل هما عضوان حيَّان في جسم حي هو جسم المعرفة الانسانية

اصلح اشكال الحكم

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

حاجتنا الى التجانس

ليس من مصلحة بلادنا في شيء ان نطلب لها الحكم الديموقراطي قبل ان نحصل على رحى اجتماعية نطحن بها الجماهير العربية فنجعلها متجانسة ونزيل من بينها هذه الفروق التي تجعل وحدة الرأي فيها بعيدة التحقيق ، ومن العبث ان نسوس البلاد بالتعاون والاشتراك والسواد منا يعتقد مثلاً ان الادارة الكاملة هي ادارة القرون الوسطى . والمخرج الوحيد من البلاء الذي نعانيه هو اتحاد كلمة النخبة المنتخبة منا ولم شعثها لتتمكن من جرّ الدهماء الى الامام بالقوة ، وحسبنا مثالاً نحتذي به الاقليات الفاشستية والنازية والكمالية في بادىء أمرها فهي هي التي انقذت ايطاليا والمانيا وتركيا من الانحلال ومن سلطة المجالس النيابية الجوفاء واضاعتها أثمن الاوقات في القال والقيل على غير جدوى

ولعلّ حكومة الاقليات او حكومة القاهرين ستمثل دور الانتقال من حكومة الغوغاء الى الحكومة الشعبية التي يتغنى بها منذ اجيال روّاد الحكم النيابي الصحيح ، لان الديموقراطية الحقة المشروحة في كتب السياسة والتي قلما احسنت استخدامها الامم هي في التحليل النهائي الحكم الذي ترتضيه العقول الراجحة وتقبله التربية العالية . فتكون حكومة القاهرين والحالة هذه هي الرحى الاجتماعية المنشودة التي تجعل اجماع كلمة الشعب على الشؤون الطارئة اقرب منالاً ووحدة الرأي اقرب الى التحقيق — حتى بين المذاهب الدينية المتشاكسة — وتصرف جهود الناس على انواعها في سبيل السعادة العامة والهناءة المشتركة . ثم ان الحرية الفردية التي تلازم الادارة الديموقراطية عادةً لا تقتضي في الشعوب الراقية الخبط والخلط والجموح والاشتغال بالسفاسف كما ذكرنا سابقاً بل تنمي التعاون يقدمه الفرد بحسب ملكاته ومزاياه . وقد تمثل لنا ذلك على اتمه في الادوار العصيبة التي جازتها انكلترا في الازمة العالمية الحاضرة ، فان حزب العمال لم يظهر كفاءة ولا انسجاماً ولا كان له من الزعماء من قبض على الشؤون بيدٍ من حديد فخسر الثقة التي تمتع بها ونزل عن دست الحكم من غير جلبة ولا ضوضاء ولا قعقعة . ذلك لان الامة الانكليزية اولت المحافظين تأييداً لم يسبق له مثيل حتى كاد يكون اجماعاً فتولوا الحكم والفوا الوزارة القومية الحاضرة على اهون سبيل

ولا مراء ان الوضع النيابي في البلدان التي استعدت له هو اداة تمكن اصحابها من تكوين الزعامة الفردية وهي زعامة لا تسير الشعوب عادة الاَّ وراءها، وعلى قوتها تتوقف صلابة البناء السياسي جميعاً ، بيد ان هذه الاداة نفسها تجعل الزعماء — على ما يجب ان يتحلوا بهِ من حرية واستقلال في الرأي — خاضعين للرأي العام

ثم ان الفرد من الدهماء عند ما تحجز حريته او يتخيل المظلمة نازلة بهِ يشعر بانحراف الحكومة وضرورة اصلاحها ، ولكنه يعرف في نفسه انه عاجز عن وصف العلاج الشافي ، فاذا لم يكن عائشاً في كنف حكومة نيابية ثار في وجه الاوضاع السياسية للخلاص منها او سقط في شرك الدجالين الاخصائيين في استجلاب العوام او اصبح العوبة بيد أرباب المذاهب السياسية المستحدثة التي تدعي ان لديها الطلسم الشافي من جميع الاوصاب. وبخلاف ذلك لو كانت الحكومة نيابية ديموقراطية فان لمثل هذا الفرد من حق الانتخاب ما يمكنه من استنابة الرجل الاقوى على ايجاد المخرج الذي ينقذه من الضيق . لا جرم ان الحكومة الديموقراطية الصحيحة بالشروط التي اشترطناها هي اقرب الحكومات الى الحيلولة دون الثورة ذلك لانها تجعل الاهلين اجمالاً على اتصال بالسياسة التي تسير عليها الدولة وتجعل لهم علاوة على ذلك شيئاً من السيطرة على هذه السياسة . فلا يجد الشعب نفسه في حالة من الغبن تحمله على الالتجاء الى العنف واستخدام الشدة ، ويكفي لاسقاط حكومة المستر مكدونالد مثلاً أن يقترع مجلس النواب عليها ، ولكن اسقاط موسوليني او هتلر او مصطفى كمال يحتاج الى ثورة ، ذلك ان ايطاليا والمانيا وتركيا ليس فيها مجلس نواب بالمعنى الديموقراطي الاصلي بل اعضاء يرقصون على النغمة التي يدندن بها الدكتاتور . وللديموقراطية شأن آخر خطير وهو ما تفسحه من المجال لارباب المذاهب السياسية والكفاءآت الادارية فقد دلَّ الاحصاء على ان الاكفاء يجدون الفرص السانحة لاظهار مواهبهم في الحكومات النيابية اكثر مما يجدونها في الحكومات الاستبدادية، ذلك لان طموح الدكتاتور مثل جمال الحسناء يأبى ان يرى له منافساً

على ان الباب اذا فتح للاكفاء في الديموقراطيات فهو ويا للأسف لا يوصد في وجه الدجالين ايضاً لما في مقدورهم من استجلاب طبقة من النواب لا تختلف عن العامة كثيراً الاَّ في جلوسها على مقاعد النيابة . يستجلبونهم بعزف الانغام المبتذلة التي يطربون لها عادة ، ولا نعرف وضعاً اجتماعيًّا اسيء استعماله في الشرق العربي لغايات سياسية حزبيـة مثل الدين وحجاب المرأة ، وتكاد تكون كل رجعى قائمة على التظاهر بما يدّعيه خصوم الانتقال من وجوب الدفاع عن العقائد والاعراض ومحاربة البدع التي يزعمون وجودها في الاوضاع المستحدثة . والعامة واشباه العامة من الناس اذا لم ترسخ في اذهانها القواعد الاولى التي يجب ان تتمشى عليها سياسة الدولة ، ولم تتعلم ان تفرق بين الدعايات الباطلة والصيحات الصادقة سارت على غير هدى وانقادت لكل ناعق ، وقد تفعل فيها الترهات فعل السحر في الاقوام الابتدائية

هذا بعض ما للديموقراطية وما عليها ذكرناه بشيء من التفصيل للشأن الكبير الذي له في التطور السياسي العالمي الحاضر ، وقد حاول الفاتحون بعد الحرب العظمى ان يحصروا قضية البلدان العربية المسلوخة عن الدولة العثمانية في تزويد الاهلين بالمجالس النيابية ظناً منهم ان « الديموقراطية » التي خاض الرئيس (ويلسن) غمار الحرب لانقاذها من ايدي (الهنس) العسكريين الاتوقراطيين كلمة تسحرنا وتبهر عقولنا ، ولكن لو كان لنا اختيار ولم نرغم على وضعنا السياسي الحاضر بقوة الحديد والنار و « هيام » المنتدبين بنا — لفضلنا الف مرة مجلساً نيابياً مؤلفاً من رقاصين يدندن لهم الزعيم الوطني القاهر على هذه المجالس النيابية الكريمة . ومع كل اعتراضنا على مثل هذه المجالس النيابية في البلدان العربية فنحن نعترف ان نتائج الانتخاب لم تكن لترضي المندوب السامي في كثير من الاحيان ، ولو زادت حرية هذا الانتخاب قليلاً لكان اول قرار يصدره المجلس النيابي الخلاص من المحتلين بقضهم وقضيضهم ، ولا يكون مثل هذا القرار مستغرباً لان دفع الموت الاكيد مقدم في البحث على سائر الاعتبارات ، ومهما بلغت الدهماء في شعوبنا من الغفلة عن الواجب والاسترسال في سخافات القرون الوسطى فهي شاعرة على التحقيق بالهلاك الذي يحيق بها من الاحتلال والاستعمار

وكيف كان الامر فيجوز للبلدان العربية التي لم تتجهز بعد بوسائل الانقاذ التي توسلت بها الامم الحية منذ ثورة اميركا في القرن الثامن عشر الى ثورة بولونيا في القرن العشرين ان تشتغل موقتاً بالوضع النيابي و « بالمناورات » البرلمانية الى ان تحين ساعة العمل ، وما من شيء يقرب هذه الساعة الخطيرة في تاريخ كل قطر من هذه الاقطار مثل تضافر النخبة المنتخبة من ابنائه لخدمة المصلحة العامة ، ثم على هذه النخبة المنتخبة ان تفهم الافراد ان قيمة الواحد منهم تقاس بنشاطه واشتراكه في تحمل التبعة وان من وقف موقفاً سلبياً من الامة وعاش كلاً على جهودها هو طفيلي اجتماعي بالمعنى الحيوي ، وقد انقضى الزمان الذي كان يجوز للفرد فيه ان يمدح على عزلته بل دلنا الاستقصاء العلمي على ان العزلة هذه عرض جوهري من الاعراض الدالة على بعض الامراض العصبية الوبيلة . وقد اجاد الاشتراكيون بقولهم « صوت واحد للعامل الواحد » ليستثنوا من هذا الحظ تلك الخشب المسندة التي لا قيمة لها في القسطاس البشري لانها ليس لها عمل ايجابي في المجتمع

ثم ان المصالح الاجنبية التي طرأت على البلدان العربية مزقتها وقسمتها على نفسها لتسهيل ابتلاعها ولم تحرم هذه المصالح من نفر من اهل البلاد ايدوها اما لما يضمنون لانفسهم من المنافع الخاصة بهذا التمزيق واما لما في ذهنيتهم من ترهات قروسطية بالية ورثوها ممن استغلوا العقيدة الدينية البريئة ، فعلى العاملين ان يسترشدوا بما زرعه (هيجل) في الامة الالمانية من الطموح الذي سهل بناء الامبراطورية الجرمانية وذلك بما بثه من تلك الروح السامية التي ذهبت بالفوارق العرضية بين اجزائها . وليس بالمتعذر على الباحث ان يبين المنافع التي تجنيها الاقطار العربية من تعاونها وتوحيد اتجاهها لبلوغ غاياتها المنشودة

ولا يفوتنا هنا ان نعتذر عن تأييدنا سياسية اليد القاهرة الحكيمة لادارة البلدان العربية المستقلة ، فهذا الاستبداد الذي نوافق عليه انما هو لاجل الحرية التي ننشدها ، ونحن نفادي بحرية بعض الافراد الممتازين الغالية مؤقتاً في سلامة مجموع الامة من التناحر والفوضى ، ولو كان مجتمعنا في المنزلة السامية التي يتمناها كل مخلص امين ما فضلنا على الديمقراطية شكلاً آخر من اشكال الحكم لادارته ، وقد جاهدنا في سبيل الدستور على العهد العثماني جهاداً يذكره ابناء وطننا ولكن الخيبة التي اصابت البلاد العثمانية من نقص تربيتها السياسية وعدم استعدادها ابدت هذه النتيجة التي وصلنا اليها . ونحن نعترف هنا والاسى آخذ منا مأخذه ان الحكم القاهر يقتضي الشدة ووضع الحواجز والقيود على الافراد ، وغني عن البيان ان الادارة المملوءة بالنواهي والمحرمات وسائر انواع « التابو » او « اللامساس » هي ادارة وضعت في الاصل لعصر غير عصرنا ، وتعني في التحليل النهائي ان المجتمع الذي تطبق عليه مؤلف من افراد لا يعرفون ما لهم وما عليهم ، وان الطبيعة الحيوانية فيهم متغلبة على سائر الطبائع فيجب ان يساقوا بالقوة ويقرعوا بالعصا ، وهذا لعمري اثر من اثر العقائد التي تحسب الانسان متمرداً قد افسدته وهدمت اخلاقه الخطيئة الاولى التي ارتكبها في الجنة فهو والحالة هذه شرير بالطبع . ولو جاز للوالد ان يحسب اهل بيته اشراراً بالفطرة وان تربيتهم يجب ان تبتدىء على هذا الاساس النظري لرجعنا القهقرى الى حالة الاسرة في الاعصر الغابرة

اننا نعترف بكل ذلك ولكن ما العمل وحكم القاهرين هذا هو السبيل الوحيد للنجاة من التفتت والتفسخ والانشقاق ؟ لقد ايدنا الحكم الاستبدادي العادل للقطر العربي المستقل لاننا اهتممنا بانقاذ مجموع الشعب اكثر مما اهتممنا بانقاذ الفرد ، وقد يتبادر الى الذهن ان هنالك تناقضاً لازماً بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ، حتى ان بعض ارباب المذاهب الفردية افرطوا في اظهار هذا التناقض ، ولكن التتبعات الاجتماعية دلَّت اهل البحث على ان الفرد في الحياة المجتمعة المؤلفة تأليفاً صحيحاً يحقق فرديته تحقيقاً اتمَّ وذلك بما يكتشف فيها من الفرص الملائمة التي تظهر ميزاته ، يعني ان الفرد الذي يعيش في عزلة لا يجد من المجال لبيان ما امتاز به ومن المشجعات على ملكاته الخاصة شيئاً يعادل الفرد الذي يعيش في المجتمع ، وكلما كانت الفرص سانحة ومتنوّعة في الحياة المشتركة وكان الطلب حثيثاً على بعض المزايا ظهرت هذه المزايا في شخص من يسمى « النابغة » او في شخص « رجل الساعة » ظهور البضائع المرغوب فيها في الاسواق التجارية . فلا عجب ان تأتينا الازمات والانقلابات وسائر انواع الشدائد بالنبغاء الجدد بل بأشباه النبغاء ومن هم دونهم وذلك للاسواق الجديدة التي فتحت في طلبهم . وقدماً عرف علماء التاريخ ان الثورات تخلق « رجال الساعة » وفي جميع ذلك ما يدلنا على وجوب فتح المجال للافراد في الدولة كي يظهر النبوغ المستتر فيهم . وهذا ما جعل التعليم الزامياً في البلدان الراقية وفتح الابواب على مصاريعها للطلاب ليكون للفرد الواحد من الحظ ما يتيح له الفرص التي تظهر مزاياه الكامنة . قال (كونكلين) انه

ليرتعش الواحد منا ان يفكر كيف نجا (اسحق نيوتن) بشق النفس من ان يكون فلاحاً بسيطاً او (فاراداي) من ان يكون مجلداً للكتب مجهولا او (باستور) من ان يكون دباغاً قروياً . ويجب ان يكون في التاريخ الكثيرون من امثالهم في النبوغ ممن فاتتهم الفرص السريعة التي سنحت لهؤلاء . ومن عادتنا ان نظن ان العلماء لم يظهروا الا في فترات متباعدة ولكننا مع ذلك نعلم ان الازمات الكبرى تكشف عن العظماء دائماً . افلا يعني هذا الكلام ان الرجال جاهزون وانما يحتاجون في الظهور على المسرح الى هذا المنبه الجديد ؟ والميزات التي نرثها من الآباء والجدود كافية لمعظمنا بل هي اكثر مما نتصور ، وكذلك القابليات الكامنة في صدورنا هي عظيمة ولكنها قلما نجد لها ميداناً تتجلى فيه[1] » . والعمل المهم الذي تقوم به الحياة الاجتماعية المشتركة لاجل تقوية الفردية هو انها تبحث عن الميزات الشخصية المطلوبة في الاحوال الطارئة على المجتمع كما تبحث الاسواق التجارية عن البضائع التي يكثر عليها طلب التجار ، فالرواج يكون معنوياً كما يكون مادياً ، وقد تتنوع تلك الميزات المرغوب فيها تنوع هذه البضائع ، لذلك يجد النبوغ مهما كان نادراً وغريباً هواة « يشترونه » ، والرواج يخلق البضاعة المطلوبة خلقاً ويأتي بها ولو من الصين

لا جرم ان اتساع المجتمع اليوم وتفرعه بالقياس الى ما كان عليه في الماضي والارتقاء الذي تم له في البناء الذي يقوم عليه والعلائق الدقيقة التي يتماسك بها كل ذلك لا يزيد فقط في طلب النبغاء بل يلحف كثيراً في تنويع النبوغ الذي يتجلى فيهم

وحسبنا من هذه التوطئة التي قدمناها ان نلفت الانظار الى خطأ الذين يحاربون الفكرة العربية العامة ويتطرفون في « اقليميتهم » ، ومن ادعى دواعي الاسف ان يكون اكبر عدد منهم — على قلته — في القطر المصري وهو القطر الذي يجني اطيب الثمرات من الفكرة العربية مادياً وادبياً ، وبديهي اننا كلما وسعنا مجتمعنا العربي ونوعنا اقاليمه فتحنا اسواقاً جديدة للنبغاء منا او لمن كانت فيهم قابلية النبوغ كامنة ، وشتان بين من يخدم قطراً فيه ثلاثة ملايين او اربعة ملايين من البشر كسورية او العراق وبين من يخدم عالماً عربياً يمتد من المحيط الى المحيط ، وكما ان القرية الصغيرة لا تنمي الخبراء من اهل الاخصاء لانهم لا يجدون فيها الزبائن الكافين « لشراء » فنونهم كذلك القطر الصغير يميت النبوغ لانهُ عاجز عن تحمل نبوغهم وتغذيته بالمال والاقبال . ولا هون على الاقاليم القطبية الجليدية ان تربي الطاووس من ان تنمي (بريدة) او (عنيزة) او (ينبع) المهندس او الكيموي

حكومة الزجر

لقد ايدنا حكومة القاهرين بالمعنى السياسي الاجتماعي الحديث لتسير بالناس الى الامام بالقوة وتحول دون تفتتهم وتطبع في نفوسهم احترام الدولة لكننا لا نرى شراً من اقتصار اعمال الحكومة على زجر الرعية فقط ، ولا يسعنا في الختام ان ننهي هذا المقال من غير ان نستنكر الخطط

(١) Major Social Problems, P. 145

العقيمة البالية التي تسير عليها بعض الحكومات في العالم العربي سواء كانت حكومات مستقلة او زائفة ، فهي من اساسها قائمة على نظرية الزجر فقط بحيث لا يتورع بعضها من ان يتدخل في شؤون الافراد الخاصة ، حتى ان زبانيتها ليكسرون صفائح المقول على رؤوس مستمعيه في زاوية الدار التي يسكنونها ، وفي نظرنا ان اعظم تحول طرأ على الحكومات الحديثة هو خروجها من هذا الموقف السلبي — موقف الزجر والحظر و « التابو » و « اللامساس » — الى الموقف الايجابي ، موقف تشجيع الافراد والاخذ بناصرهم ، ويتجلى ذلك حتى في اشد الحكومات الحديثة استعباداً كالفاشستية والنازية . والاكثار من الزجر والتثبيط بدلاً من الاكثار من الارشاد والتشجيع عمل يستند الى فكرة سخيفة فحواها ان تغيير طبائع الافراد محال فواجب الحكومة والحالة هذه ان تحول دون شر الرعية فقط واما السعي لتحسينها فهو عقيم ولا محل له في منهاجها ! ونحن وان اعترفنا بان المدنية لم تغير بعد تغييراً جوهريًّا في طبيعة السواد من الناس في العالم المتمدن ولاسيما في ساعة الغضب والانفعال الاَّ اننا من اشد انصار التربية الايجابية ، ولا شيء نسخر منهُ مثل الاعتراف بالعجز عن الاصلاح ، ولئن اعجبنا (ابو العلاء المعري) كثيراً برقة شعوره في التبرم من الخلق وتشاؤمه من فساد فطرتهم فقد اعجبنا الاستاذ (توماس هكسلي) اكثر بتفاؤله بالاصلاح وامله بالتغيير حين قال «يمكن عمل الشيء الكثير لتغيير طبيعة الانسان ، فالادراك الذي حوّل الكلب وهو اخو الذئب الى حارس القطعان الامين يجب ان يكون قادراً على عمل شيء لاخضاع الغرائز الوحشية في الانسان المتمدن»(١)

ومن المؤسف الممض ان نكون في شؤوننا الشرعية والاخلاقية والاجتماعية لا نزال متمسكين بالعتيق في حين ترانا في صناعتنا وعلومنا العملية كما قال الاستاذ (بايندر) على احدث طراز فاذا ما دخلت مصنعاً من المصانع الراقية او مخبراً من المخابر الفنية راعك ما فيهِ من المستحدثات لكنك لا تجد اصحابه يختلفون في عقائدهم اختلافاً جليًّا عن زملائهم في القرون الوسطى ، وكم رأينا عاملاً متفنناً او خبيراً من اهل الاخصاء لا تختلف نظريته في الخليقة وتاريخها عما خلفهُ البابليون في سفر التكوين ، وسخافات « العظماء » اشهر من ان تذكر . ومن المهم جداً ان يكون للعالم العربي حكوماته الوطنية تعمل بوحي من عندها لان الارتقاء الذي يحصل عليه الشعب بتطوره الداخلي هو الارتقاء الثابت الذي لا يكون عرضة للتقلب السريع . وليت المتندين في الشرق وغيرهم من المستعمرين الذين يتظاهرون بالافراط في خدمة المصلحة الشرقية فيتداخلون في كل شيء ينصتون الى قول الاستاذ بايندر حين قال « لقد دلَّ التاريخ على ان الانسان لا يمكن ان يدار من الخارج كائنة ما كانت القوة التي تحاول ذلك . بل هو يدير نفسه بيده وذلك حين يقوم امام عينه مثل اعلى للاحتذاء فيجده مناسباً له ومتصلاً به اتصالاً صحيحاً . وتجذبه الى اخوانه من بني الانسان حاجته الى التكامل بهم ، وتحمله هذه الحاجة على العمل بطريقة تربي فيه ذاتية يحتفظ بها سليمة غير منقوصة » (٢)

(١) Evolution & Ethis, p. 82 (٢) Major Social Problems, p. 156.

العلم والحياة الجنسية

مناظرة علمية اجتماعية

[هذه المقالة ملخص مقالتين نشرتا في مجلة السينتفك اميركان المعروفة عند قراء المقتطف بمقامها ورزانتها . وقد كتب محررها في تقديمهما ما مؤداه : هذه مجلة علمية وموضوع الجنس موضوع علمي نتناوله في الحين بعد الحين من دون تردد . فالمقال الاول للدكتور بارشلي الاستاذ في علم الحيوان ومؤلف كتاب : (علم التناسل الانساني — نواحي الجنس البيولوجية) وهو يحسب بين العلماء ثقة في موضوع تناسل الاحياء . ويتناول في مقاله موضوعاً خاصاً تدور حوله الاحاديث وقلما تكتب عنه كتابة علمية . اما المقال الثاني فللدكتور اغناطيوس كوكس وهو قسّ واستاذ لادب النفس في جامعة فوردهام الاميركية . وفي تقديم السينتفك اميركان غنى عن ايّ تقديم آخر من قبلنا]

— ١ —

لست أعرف موضوعاً أوثق صلة بحياة الانسان الخاصة من موضوع العلاقة الجنسية، ولا اجابة اصعب من الاجابة عن السؤال الذي وجههُ اليَّ محرر هذه المجلة وهو : هل الاتصال الجنسي ضرورة فسيولوجية ؟ فهو سؤال ، لا بدَّ ان يجيب عنهُ ، كلٌّ على منواله الخاص . لانهُ لا يحق لانسان ، كائناً ما كان — طبيباً او قسيساً او عالماً بالحياة او شرطيًّا يحافظ على الامن العام والآداب العامة — ان يملي رأيه على غيره في هذا الموضوع . لذلك كان الشعور الاول الذي احسستُ بهِ عند توجيه السؤال اليَّ ، ان اعتذر ، أو أن اعالج الموضوع ، من ناحية الحيوانات الدنيا دون غيرها . قلت لنفسي كيف يستطيع انسان ان يجيب عن هذا السؤال ، الخاص بحياة كل انسان الخاصة ، وهو في موضوعٍ تضاربت فيهِ الآراء ، ولم نظفر بعد ، بالحقائق الوافية التي تمكننا من الحكم فيهِ حكماً فاصلا . ولكن هذه الاعتراضات ، زالت قوتها لما تبيَّن لي ، اننا نستطيع اليوم أن نعالج هذا الموضوع معالجة مجردة من ناحية ما يقضي بهِ العقل ، لا من ناحية ما يلابسهُ من الخرافات والاوهام . ثم اننا لاول مرة في تاريخ الحضارة ، نملك الآن من الحقائق البيولوجية ما يمكننا من وزن الموضوع في ميزان علمي ، لا نقول انهُ الميزان النهائي ، وانما هو على الاقل السبيل الى حكم مستنير

فلننظر اولاً في الحقائق البيولوجية التي يقوم عليها البحث في هذا الموضوع الخطير

***

ان جسم الانسان ، بحكم مكانهِ في عالم الحيوان ، مجهز بوسائل التناسل واخلاف النسل . أي ان النوع الانساني مؤلف من جنسين او شقين يتمم احدهما الآخر ، هما الذكر والانثى . والبناء الفسيولوجي والنفسي ، في هذين الشقين ، يجعل عمل الشقين معاً ، عملاً لا بدَّ منهُ لاخلاف النسل

وحفظ كيان النوع . ففي الانساني بشقيهِ ، كما في جسم الحيوانات الثديية ، أجهزة عصبية وعضلية وغددية ، دقيقة التركيب مرهفة الحس ، تشترك جميعاً في هذا العمل الخطير . ومن السهل على من يدرس التشريح والفسيولوجيا من ناحية المقابلة أن يبين ، كيف يقابل كل جزء من هذه الاجهزة في جسم الانسان ، جزءٌ مثله في اجسام الثدييات العليا ، ولكننا لسنا بحاجة الى هذه المقابلة ، لان كل من له المام بالموضوع لا ينكر هذه الحقيقة

غير أن ما يهمنا بوجه خاص هو مسألة السلوك والتصرف . لانهُ اذا سلمنا بأن اجهزتنا التناسلية ، شبيهة بأجهزة الثدييات ، فهل تصرفنا او سلوكنا التناسلي ، شبيه بتصرفهم او سلوكهم ? الانسان يختلف عن سائر الثدييات ، في انهُ لا يعتمد طوال حياتهِ على فعل الغرائز ، بل هو يثقف عقله بالتعليم ويحيط حياته بألوان المؤثرات الثقافية . ولكن مع ذلك لا ينكر عالم فسيولوجي ، ان تصرفنا التناسلي لا يختلف في قليل ولا كثير عن تصرفها هي ، وهذا مما لا يعرف بوجه عام ، وان هو عرف فقد تتنكر لهُ التقاليد الاجتماعية

العوامل القوية التي تؤثر في تصرف الحيوان — ومنهُ الانسان — هي عوامل الجوع والجنس والخوف ، أو هي بكلمات اخرى ، الحاجة الى الطعام ، والمزاوجة ، والحماية . فالحيوان من دون الطعام ، يموت . ومن دون المزاوجة ينقرض . ومن دون الحماية لا يجد سبيلاً الى اكتفاء الباعثين الاولين . فهذه البواعث هي قوى تدفع بالحيوان الى تحقيقها ، لانها اساس الحياة ، ولا حياة له من دونها . وكذلك نرى ان الدافع الجنسي ، في النوع البشري ، كما هو في غيره دافع قوي ، ويستحيل قمعهُ او كبته في انسان سوي . واذكر ايها القارىء ، ان هذه القوة المكتسحة ، ليست غريزة غرضها التناسل ، او رغبة في الاولاد والنسل ، بل هي الرغبة في المزاوجة ، ليس الاَّ ، لان الحيوان اذا احس بهذه الرغبة لا يفكر في حفظ النوع ولا في النسل . وهذه الناحية من الموضوع نسلم بها حالاً ، اذا نظرنا الى الحقائق المشاهدة ، وصرفنا النظر عن التقاليد ، ولا بد من ان نحسب لها حساباً في كل نظر معقول الى الموضوع

ان البحث الحديث في الحيوانات الثديية يبين بوجه عام ، ان الباعث الجنسي او الحرض التناسلي ، يتخذ شكلين ، هما بحسب ما دعاهما بريفو Briffault الباعث التناسلي ، والباعث التزاوجي . ففي اكثر الحيوانات لا نرى أثراً للباعث الثاني ويقصد به ادمان ذكر واحد لانثى واحدة مدة طويلة . اما الباعث التناسلي الذي يظهر في المزاوجة بين ذكر وانثى ، ينفصلان بعدها ، فهو القوة الطبيعية العامة التي اشرنا اليها . فبعد ان يكفى هذا الباعث ينفصل الذكر عن الانثى ، حتى يحين فصل المزاوجة التالي ويشتد هذا الباعث من جديد . واذاً فالاسرة بين الحيوانات تتألف من الام واولادها . ومدى أسرة من هذا القبيل ليس طويلاً لان الاولاد ، لا يلبثون حتى يشتد ساعدهم ويروح الذكر يبحث عما يكفي الباعث التناسلي فيهِ ، والانثى كذلك

أما في رتبة الرئيسات (البريمات) — أي القردة والانسان — فتختلف الصلات بين الذكر والانثى عنها في الحيوانات التي دون ذلك في سلم التطور. ذلك ان الصلة بين الذكر والانثى في حيوانات هذه الرتبة، تتسم بسمة من الاستقرار الى حد ما. وتعليل ذلك بسيط، ذلك ان الحيوان في ارتقائه اضاف الى الباعث التناسلي الباعث التزاوجي، من دون ان يضعف الثاني، الاول

وصحيح ان الانثى في حيوانات هذه الرتبة، تحتاج الى حماية الذكر مدة اطول من مدة الحماية التي تحتاج اليها الانثى في الحيوانات التي دون ذلك، لان مدة الحمل اطول، وكذلك مدة الطفولة. ولكن من الخطإ ان نحسب، ان استقرار صلة الذكر بالانثى، الناشىء عن هذه الحقائق البيولوجية سببه نوع من الغيرية او المحبة الوالدية. والذي يربط الذكر بأنثاه في هذه الرتبة انما هو استعداد الانثى للمزاوجة في جميع الاوقات بوجه عام. ففي الحيوانات الدنيا، لا تكون الانثى مستعدة للمزاوجة إلاَّ في فصول معينة وأما في حيوانات هذه الرتبة فاستعدادها لذلك يكاد يكون دائماً

وكذلك ترى ان الباعث الثاني، من باعثي «بريفو» أي الباعث التزاوجي انما هو وسيلة اخترعتها الطبيعة لاكفاء الباعث الاول، بطريقة مستقرة. وهو قائم كما تقدم على خاصة فسيولوجية في الانثى، ويظهر في مظهر تمدد الاناث التي يتخذها الذكر لنفسه، ويدفع عنها رغائب ذكر غيره، ما استطاع الى ذلك سبيلا. والاقتناع بزوجة واحدة او اتخاذ اكثر من زوجة، لا علاقة له بالبيولوجيا، لانه يقوم على عوامل اجتماعية واقتصادية كالحرب والطعام والتوزيع الجغرافي وغير ذلك. والاسرة التي من هذا القبيل كائنة بين طوائف من القردة، كما درسها زوكرمان، وفي النوع الانساني. بل ان هذه الاسرة، هي الخطوة التي تقدمت نشوء الاسرة الانسانية بمعناها المعروف، التي تبدو فيها الظاهرات الانسانية، كالحب الابوي، والحب العائلي، والمحبة الخيالية، واشكال الزواج على اختلافها

وقبل ان نترك موضع الصلات الجنسية في الحيوانات التي دون الانسان، يجب ان نذكر، ان مظاهر الباعث التناسلي في الانسان، هي هي في القردة، الاَّ قليلاً منها، لا محل للتبسط فيه هنا. بل ان العالم ملر، قد أثبت وجود الشواذ التي تتصف بها العلاقة الجنسية الانسانية في القردة

واذن يتضح، ان جهاز الانسان التناسلي، وتصرفه او سلوكه التناسلي كذلك لهما أساس بيولوجي قديم يمكن الارتداد بِهِ الى الحيوانات التي دونه، فالحيوانات التي دونها في سلم التطور. وعليهِ لا يمكن ان تنظر في هذا الموضوع، على انهُ موضوع خاص بالانسان دون غيره من الحيوانات اذا شئت ان تنظر الى الموضوع نظراً علميًّا

فاذا التفتنا الآن الى موضوع مظاهر الباعث او المحرض الجنسي في الحضارة الغربية يجب ان نذكر، ان الانسان ليس مخلوقاً قائماً بذاته، منفصلاً عن سائر الاحياء، ومحرراً من القوى العنيفة التي تدفع تلك الاحياء الى عمل ما تعمل. وليس للانسان مصدر وحي لا يخطىء، يقول له ما يجب ان يفعل، او كيف يفعله، بل على الضد من ذلك أن تصرف الانسان في هذه الناحية، سببه قوى بيولوجية

يشترك فيها مع الحيوانات الاخرى حتى في التفصيلات ، واغضاء النظر عن هذه الحقائق أفضى الى اقامة الحواجز والقيود ،دون هذا الفعل الطبيعي ،وقد بلغت هذه الحواجز والقيود أشدها واعلاها في أوائل القرن الماضي ثم بدأت تنهار وتنحل بتقدم العلم وانتشاره

بعد كل ما تقدم نستطيع الآن ان نعود الى السؤال الاول فنحاول الاجابة عنه اجابة ترضى عنها الحقائق العلمية . كل الرجال والنساء ، الاّ القلائل الذين ليسوا أسوياء الاجسام ، يحتاجون الى التنفيس او الاعراب عن الباعث التناسلي ،كضرورة فسيولوجية . وليس ثمة أي جواب آخر ، يمكن ان نجيب بهِ ، اذا اعتبرنا حقائق التشريح والفسيولوجيا ، وطبيعة الانسان البيولوجية . ولا ريب في ان هذا التنفيس او الاعراب ، ليس بضرورة — لايستغنى عنها عاجلاً — لاجل حفظ الكيان الانساني ، كضرورة الطعام وحماية الجسم من أعدائهِ الخفية والظاهرة . ولكن لما كان الباعث الجنسي ، ذا شأن عظيم في فعل التطور ، ومتصلاً اتصالاً عميقاً بفسيولوجية الجسم وسيكولوجيته ، فقمعه او كبته، قمعاً او كبتاً مطلقاً متعذر ، ومحاولة قمعه او كبته مدة طويلة ، قد يفضي الى ضرر فسيولوجي او اضطراب سيكولوجي

أنا اعلم ان هذا القول قد يجد من يعترض عليه ويتحداه ، لانه ليس القول الذي تعودنا سماعه من الذين اتخذوا « ادب النفس » نبراساً لهم في الحياة ، ولكنني اعتقد انه يعرب عن الحقيقة — الحقيقة كما أثبتها البحث العلمي الحديث ، وكما تؤيدها الخبرة الانسانية على مدى العصور

ان التقاليد الاجتماعية والادبية الباسطة ظلها على اجتماعنا ، وتقضي على طوائف من الناس بالحرمان الطويل تناقض الاعتبارات العلمية التي بسطناها في هذا المقال ، وتقيم في وجوهنا مشكلة اجتماعية خطيرة . ولا أريد ان اتناول هنا بعض الجماعات التي يختار أفرادها رجالاً ونساء ، ان يكبتوا الباعث الجنسي فيهم بارادتهم . ولكننا اذا نظرنا الى الذين تعدوا سن المراهقة ممن عدا تلك الجماعات الخاصة ، وجدنا طائفة كبيرة من الذكور والاناث الاصحاء الذين لا يستطيعون الزواج لسبب من اسباب كثيرة متعددة ، ولسنا نرى في غير التسليم بالرأي الذي يقضي بهِ العلم مخرجاً لهم من مأزقهم . اذ ذاك تصبح العلاقة الجنسية — في ما خلا الاولاد — علاقة خاصة كلّ الخاصة

— ٢ —

حكم الاستاذ بارشلي في مقاله المذكور بأن « كل الرجال والنساء ، الاّ القلائل الذين ليسوا اسوياء الاجسام ، يحتاجون الى التنفيس او الاعراب عن الباعث التناسلي كضرورة فسيولوجية ، وليس ثمة اي جواب آخر يمكن ان نجيب به اذا اعتبرنا حقائق التشريح والفسيولوجيا وطبيعة الانسان البيولوجية ، ولا ريب ان هذا التنفيس او الاعراب ، ليس ضرورة عاجلة لاجل حفظ الكيان الانساني كضرورة الطعام وحماية الجسم من اعدائهِ الخفية والظاهرة ، ولكن لما كان الباعث الجنسي ، ذا شأن عظيم في فعل التطور ومتصلاً اتصالاً عميقاً بفسيولوجية الجسم وسيكولوجيته ،

فقمعه او كبته ، قمعاً او كبتاً مطلقاً متعذر ، ومحاولة قمعه او كبته مدة طويلة قد يفضي الى ضرر فسيولوجي او اضطراب سيكولوجي »

وقد بعث الدكتور كوكس بالاسئلة الى الاطباء البيولوجيين وعلماء النفس وأطباء العقل يستطلع آراءهم في الموضوع . ثم عمد هو ومعاونوه الى الكتب التي تعالجه يستنطقها ، والنتيجة التي وصل اليها ، مع ان الردود جميعها لم تصله حين كتابة مقاله ، هي ان معتقدات الاستاذ بارشلي ليست قائمة على العلم وان محاولته التوحيد بين هذه المعتقدات والعلم ، عمل صبياني او على الاقل غير علمي

***

حاول الاستاذ بارشلي ان يبين الشبه بين الحياة التناسلية في الحيوانات الثديية العليا وفي الانسان وعلى هذا الشبه بنى كثيراً من ادلته . ولكن القس كوكس عمد الى كتاب حديث اشترك في تأليفهِ جماعة من الثقات بعد ما بحثوا عشر سنين بحثاً دقيقاً في موضوع « الجنس والغدد الصم » وفيه يقول احد المؤلفين ان البحث في مقابلة حياة الانسان التناسلية بحياة الحيوان الثديي ، تحتاج الى دقة عظيمة في تحديد التجارب والسيطرة عليها حتى لا يتسرب اليها الخطأ لكثرة الفروق في بناء الاجسام والبيئة المحيطة بالفريقين ولقلة الحقائق المعروفة عن فعل التناسل نفسه في الانسان »

ثم يقول الدكتور كوكس : ومما يدل على ان الدكتور بارشلي لم يعن بجميع نواحي الموضوع قبل اخراج حكمه المشار اليه انهُ ناقض نفسه بنفسه ، ومهما تتعدد وجوه الشبه بين حياة الثدييات التناسلية ، وحياة الانسان التناسلية ، فلا ريب ان هناك فرقاً طبيعياً يقتضي التفكير ، وهو ان حياة الثدييات التناسلية ، ليست خاضعة لسيطرة الارادة الحرة . اما حياة الانسان التناسلية خاضعة لهذه السيطرة وحتى الاستاذ بارشلي نفسه لا ينكر ان الاعراب عن الباعث الجنسي خاضع بعض الخضوع للارادة . وانما هو يذهب الى ان اخضاع هذا الباعث اخضاعاً كاملاً (اي قمعه) للارادة الحرة يفضي الى اضرار فسيولوجية وسيكولوجية . بيد ان الطبيعة لا تخلق شيئاً سدى أو على غير هدى او لغير غرض . فهي لم تخضع دورة الدم وفعل القلب لارادة الانسان الحرة . فاذا هي اخضعت الفعل التناسلي لسيطرة الارادة الحرة ، فانما هي تقصد ان يتم الاعراب الجنسي بارشاد الارادة مستنيرة بالعقل . وهنا موضع التناقض في حجة الاستاذ بارشلي . فهو آناً يقول ان الانسان تحيط به عوامل ثقافية منوعة فيتأثر بها ويتحول طبقاً لفعلها ، وهذه العوامل تتوقف على الذكاء والعقل . وفي جملة ثانية يقول بوجوب الغاء العقل في الحياة التناسلية ، وتنسيق تلك الحياة على مثال الحياة التناسلية في الحيوانات التي لم يبلغ فيها العقل ما بلغه في الانسان من درجات الارتقاء

والغرض الاولي الذي رمت اليه الطبيعة ، من اخضاع الفعل التناسلي للارادة الحرة ، هو ان يستعمل ارادته ، في تدريب الباعث التناسلي وتنظيم فعله ، فيوفق بذلك بين التيارات النفسية المتعارضة . فتقصير الاستاذ بارشلي ، في اقامة وزن ما ، لمآرب الطبيعة في اخضاع الفعل الجنسي

للارادة ، حالة انها لم تفعل ذلك في الحيوان ، يزيل كل اساس لوجه الشبه ، الذي بينه وبين حياة الحيوان التناسلية وحياة الانسان

***

هذا شيء من الناحية البيولوجية . فالعلم في رأي الدكتور كوكس لا يؤيد وجهة النظر التي اوردها الدكتور بارشلي . فلننظر الى الموضوع من الناحيتين الفسيولوجية والسيكولوجية . يقول الدكتور بارشلي « ان الفعل الجنسي متصل اتصالاً عميقاً بفسيولوجية الجسم وسيكولوجيته ، فقمعه او كبته قمعاً او كبتاً مطلقاً متعذر ، ومحاولة قمعه اوكبته مدة طويلة قد يفضي الى ضرر فسيولوجي او اضطراب سيكولوجي »

أما الدكتور ارثر جاكوبسن وهو عالم ومحرر لمجلة التيمس الطبية — « مديكال تيمس » — فقد ردَّ على سؤال وجهه اليه الدكتور كوكس في هذا الصدد بما يأتي : « أنا واثق بأن كبار الثقات في هذا الميدان يترددون في الحكم او التحكم في موضوع هل الحرمان الجنسي مضر ؟ اننا اذا راجعنا كتاب كلبن في موضوع التقدم الحديث في الامراض العصبية السيكولوجية وجدنا اشارة الى فروييه فيقول اننا قبل ان نستطيع ان نسند حالة عصبية ما الى الباعث الجنسي : يجب ان نتأكد ان الحالة العصبية نفسها ليست معقدة ، لانها اذا كانت معقدة ، فأسبابها تكون متعددة ولا يمكن الجزم بأن الباعث الجنسي هو وحده سببها ، فاذا أضفت الى ذلك قول ستيكل — وهو ثقة في هذا الموضوع — ان الحالات العصبية النفسية لا تكون الاَّ معقدة ، فهمنا ان الحكم في اسناد احدى هذه الحالات الى بواعث جنسية فيه شيء كثير من التحكم

اما الاستاذ توماس بريانت ، وهو من جراحي بريطانيا الكبار ، ومؤلف كتاب « الجراحة » فيقول : ان الطالب يجب ان يتذكر ان وظيفة الخصية ، كوظيفة الثدي والرحم قد تتوقف عن العمل مدة طويلة ، او مدى الحياة ، ولكن بناءها الحيوي يبقى سليماً ، فتقوم بوظيفتها قياماً طبيعيًّا اذا اثيرت اثارة صحية . وهي تختلف عن سائر الغدد في انها لا تضعف ولا تحول بقلة الاستعمال

ثم ان الدكتور هنتر مؤلف كتاب « الاضطرابات في الوظيفة التناسلية » يقول صفحة ٢٦٢ ان « العفة لا تضعف الصحة ، لا من الناحية الفسيولوجية ولا من الناحية السيكولوجية » ذلك « ان اعضاء التناسل مبنية بناء يختلف عن بناء الاعضاء الاخرى في الجسم ، فهي مبنية لكي تقوم بوظائفها في فترات متقطعة ، وقد تتوقف عن عملها توقفاً لا حدَّ له ، من دون ان ينالها ضرر ، في تشريحها (اي بنائها) او فسيولوجيتها (اي قيامها بوظائفها)

ويقول الدكتور جيمس فشر سكوت في كتابه « الغريزة الجنسية » :— « وثمة فكرة خاطئة بأن القيام بالفعل الجنسي ضروري للاحتفاظ بالصحة » ثم يقول « ان الفسيولوجيا التي تعلم ان استعمال الاعضاء التناسلية ضروري للاحتفاظ بالنشاط العقلي والفسيولوجي هي فسيولوجيا خبيثة ونصف

علمية » . ويقول الدكتور ليونل بيل الاستاذ بكلية الملك في لندن ، في كتاب له موضوعه « ادبنا والمسألة الادبية من الناحية الطبية خاصة » ما يأتي :

ان القول بأنهُ اذا لم يكن الزواج ، فلا بد ، لاسباب فسيولوجية ، من شيء يحل محله ، قولٌ خاطىء ولا اساس له . ولا استطيع ان ابالغ في القول بأن أتم درجات الاعتدال والعفة ، تتفق والنواميس الفسيولوجية والشرائع الادبية في آن واحد ، وان الاستسلام للشهوة لا يمكن تسويغه بالنواميس الفسيولوجية كما لا يمكن تسويغهُ بالشرائع الادبية » . ويقول السر جيمس باجت ، وهو جراح بريطاني كبير « ان العفة لا تضر بالجسم ولا بالعقل ... والزواج يمكن ان يتأخر من دون اي ضرر »

ثم يقول الدكتور كوكس ، ان احد المؤلفين الذين اعتمد عليهم الدكتور بارشلي نفسه يقول القول الآتي : « ورغماً من هذا يؤكد بعضهم ان العفة قبل الزواج ، نوع من التقليد او الفرض الادبي ، وانها مخالفة لحقائق العلم ومقتضياته ، وانهُ يجب ان تلغى من المجتمع . وهؤلاء الذين يقولون هذا القول ، يبنون موقفهم على قراءة ما قيل عن مذهب فرويد . انهم قد تغاضوا عن الحقائق الاساسية .... فاذا اردنا ان نقول في الموضوع كلمة بسيطة ، قلنا ان الاضطرابات العقلية والعصبية ، الناشئة عن الحرمان الجنسي ، لا يمكن أن تشفى بالوصال .... »

وفي سنة ١٩٠٢ اجتمع مؤتمر دولي في بروكسل من الاطباء والعلماء للبحث في هذا الموضوع فأصدر بياناً وقعهُ ١٥٩ طبيباً ومما قالوه فيهِ : « ان الشبان يجب ان يتعلموا ان العفة لا تضر ، بل ان ممارستها اقوى حصن للصحة » ويؤيد ذلك اثنان من اساتذة باريس يدعى احدهما فيريه Féré والآخر هنسار Hensard في كتب لهما مطبوعة ومنشورة . وقد اورد الدكتور كوكس من هذا القبيل أقوال علماء وأطباء كثيرين ثم قال : « وانني لأعجب كيف يستطيع الاستاذ بارشلي بعد كل هذا ان يدعي ان كل العلماء الذين يحق لهم الحكم في هذا الموضوع سواء أكانت آراؤهم هي الآراء التي يبدونها في اجتماعاتهم الخاصة ام في كتبهم ورسائلهم المطبوعة يؤيدون النتائج التي وصل اليها هو

ثم ختم مقاله بقوله ، انه حاول ان يردَّ على الاستاذ بارشلي ، في الميدان الذي اختاره لبحثه أي الميدان العلمي ، فأثبت ان رأي العلم في الموضوع ليس كما يقول ، وانه اجتنب البحث في الموضوع من ناحية الفلسفة الادبية ، ومن ناحية تعاليم المسيح ؛ معتمداً على أقوال علماء ثقات ، ليس بينهم كاثوليكي واحد ، حتى يمكن ان يتهم بأن عقيدته الكاثوليكية لوّنت تفكيره في هذا الموضوع ، وان الانسانية في خلال سيرها الطويل من أيام الهمجية الاولى ، الى القرن العشرين ، قد أثبتت بالتجربة والامتحان ، ان التقاليد الخاصة بالعفة والزواج وما اليهما ، هي خير الوسائل للاعراب عن الباعث الجنسي ، وقد قبلتها ، لا لانها كانت وحياً هبط عليها من السماء ، بل لان فائدتها ثبتت لها بالتجربة ، ولولا ذلك لما ثبتت على كرّ القرون . والنتائج التي وصل اليها الاستاذ بارشلي ، اذا سار بها الشبان والشابات الى نهايتها المنطقية ، اي اذا نفذوها أضرت بهم ضرراً حسيًّا ونفسيًّا ، وبالمجتمع كذلك

السيكلوجية الحديثة

التحليل النفساني — مسمر وبرور

يعقوب فام

نبت التحليل النفساني في عالم الطب . وانتقل منه الى دائرة السيكلوجية الحديثة على يد فرويد أبي التحليل النفساني بلا منازع

في النصف الاخير من القرن التاسع عشر كانت مدرسة نانسي ومدرسة باريس تعالجان الامراض العصبية وفي حوالي ذلك الوقت (سنة ١٨٧٠) اكتشف مسمر Mesmer التنويم المغناطيسي ، فأخذته المدرستان واستعملتاه في معالجة بعض الامراض العصبية مثل الهستريا والملانخوليا ، وقد تمّ لهما بعض النجاح في هذا المضمار وذهب فرويد الى تينك المدرستين ليدرس وسائلهما في معالجة هذه الامراض

وفي ذلك الوقت أيضاً كان برور Breuer الطبيب النمسوي يطبق طرق نانسي وباريس على الحالات التي كان يعالجها ، وبالطبع لجأ الى التنويم المغناطيسي فيما لجأ اليهِ من الوسائل ، وذهب اليهِ فرويد ايضاً وأخذ يتلقّى عليه ويعينه في معالجة تلك الحالات ، ولكن برور اكتشف شيئين غاية في الغرابة أحدهما اصبح حجر الزاوية في التحليل النفساني والثاني غير وسائله وطرقه كل التغير وكان من شأنه ان برور نفسه أعفى نفسه من الموضوع كله وأقام حاجزاً متيناً بينه وبين هذا الضرب من العلاج

***

اكتشف برور اولاً ان المريض بمرض عصبي يشفى من تلقاء نفسه اذا ما تُرك ليقص ما يضايقه على الطبيب ، وبعبارة اخرى اترك المريض في حالة راحة وطمأنينة ، واطلق له العنان ليتحدّث فيقول كل ما يخطر بباله من الامور الخطيرة والتافهة ، العظيمة والسخيفة ، واغلب الظن انه يشفى مما هو مصاب بهِ من الامراض العصبية . قد يسرد المريض ما يحب ويكره من الاطعمة والملابس وما أشبه ، وقد يروي لك احلامه التي تلازمه بعض الليالي ، وقد يحدّثك عن بعض اختباراته في الطفولة ، وقد يشكو لك أخاه او امه او أباه ، وقد يمدحهم ويفرط في مدحهم او مدح بعضهم ، او قد يسرد عليك ما

يخالجه وهو يجلس أمامك ، او ما تثير زيارته لعيادتك من الخوالج والمشاعر النفسية . قد يفعل هذا او شيئاً يقرب او يبعد منه ، ولكنه سينطلق في الحديث على كل حال وسوف يقص عليك شيئاً ما وفي جميع هذه الحالات سوف يفيد المريض من هذا الكلام ، وقد يشفى مما هو فيه وقد لا يعود اليه المرض مطلقاً

اكتشف برور هذا ، وهو كما نفهم أساس التحليل النفساني ، او هو التحليل بذاته ، وهو بذاته ما يطلبه كل طبيب نفسي من مريضه الى الآن ، لا بل لا يطلب الطبيب من المريض شيئاً غير هذا في جميع الحالات ، وبالطبع فصّل فرويد هذه الطريقة تفصيلاً ووضع لها قواعد وحدوداً وغايات وأغراضاً ، ثم وضع لها نظريات ترتكز عليها وتحتمي فيها عند ما يناقشها العالم العلمي ، ومع كل ما عمله فرويد وأضافهُ اليها ما تزال في أساسها عين الطريقة التي اكتشفها برور

ولكن برور وجد شيئاً آخر كان من آثاره ان قطع الصلة بين هذا الطبيب وتلك الطريقة ، وبعبارة اخرى اكتشف شيئاً مزعجاً له مربكاً قضى على كل صلة بينهُ وبين مواصلة البحث في طريقة التحليل النفساني كأساس لمعالجة الامراض العصبية

***

كانت الطريقة التي اتبعها هو وفرويد انهما اذا ما عرضت لهما حالة تستدعي العلاج بالتحليل النفساني ، ان ينوّما المريض ، ويطلبا اليه وهو في حالة الذهول هذه ان يروي لهما ما يعنّ لهُ من الخواطر والاحساسات والمشاعر قبيحها وجميلها . يروي كل هذه من غير حرج او تفكير في الآداب الاجتماعية او في قواعد السلوك والعرف ، ولكنهما اكتشفا انهما لم يكونا يستطيعان تنويم جميع المرضى ، فان بعض الافراد لم يكن ليمكن تنويمه بأي حال من الاحوال . وبالطبع اذا استعصى التنويم على احد المرضى فقد استعصى العلاج على الطبيب ، لان من مستلزمات هذه الطريقة ان ينعدم كل نزوع او ارادة عند المريض في اثناء العلاج

كانت هذه صدمة كبيرة لبرور ولفرويد ، لانها لم تكن تعني الا الاخفاق المحقق الذريع يواجه الطبيبين ويسد عليهما المنافذ ويفسد عليهما عملهما ويضيع عليهما جهودهما ، ومع كل هذا لم تكن تلك هي الصدمة الوحيدة في هذه السبيل ، وانما تلتها اخرى واخرى بحيث قضت على برور ان ينسحب من هذا الميدان انسحاباً تاماً

***

كان المريض عند ما يستعصى عليه النوم يظل مالكاً لجميع حواسه متقيداً بالعرف والاوضاع الاجتماعية بعيداً عن ان يستسلم للخواطر يتلوها كما تتوارد في نفسه من غير بحث او غربلة . فكان ينتقي منها ما يصح ان يذكرهُ من غير حرج ومن غير ان تتقزز نفسه لذكره ، واما ما كان يخجل منهُ او ما اصطلح الناس بينهم وبين أنفسهم على ان لا يذكروهُ للغير ، فهذا بالطبع كان المريض

يخفيها على الطبيبين ويحاول ان يتملص او يهرب من ذكرها، وبالطبع كان من شأن هذا التصرف ان يعطل عمل الطبيبين ويشل منهما الحركة ويفوّت عليهما العلاج الذي كان يمكن ان يتقدما بهِ ، هذه هي الصعوبة الثانية التي اعترضت برور وفرويد في عملهما

واما الصعوبة الثالثة — ثالثة الاثافي — تلك التي قضت على برور ان يخرج من هذا الميدان خروجاً لا رجعة فيهِ فهي هذه — عند ما ينام المريض ويتحلل من قيود الشعور Consciousness يطلق لنفسهِ العنان فيذكر بعض الحوادث التي كانت السبب الاصلي في ظهور العقدة او المرض ، نقول بعد ان يسرد هذه الاسباب سرداً مستطيلاً ذاكراً بعض التفاصيل التي كان يتردَّد من غير شك في ذكرها فيما لو كان مالكاً لوعيه ، بعد ان يفعل كل هذا ويكشف عن العلة في مرضه وبعد ان يشفى او يكاد ، بعد هذا كله اكتشف برور انهُ في معظم الحالات تتركز عاطفة المريض في الطبيب نفسهِ ، ويصبح عاشقاً له معتمداً عليهِ ، ميالاً اليهِ ، او كارهاً لهُ مغيظاً منهُ — وبعبارة اخرى تتوجه عواطف المريض نحو الطبيب توجهاً غزيراً فياضاً متدفقاً يكاد يغرقهُ ويسد عليهِ منافذ العمل والحركة ، فكأن المريض قد شفي من مرض نفسي ليتردى في مرض آخر ، وكأنهُ تخلص من عقدة ليقع في غيرها ، فبعد ان كان موزَّع النفس، مشتتها ، او في حرب مع نفسه او مع الجماعة ، اصبحت كل قوى نفسه متجهة الى الطبيب ، واصبح الطبيب ذاته هو المرض

هذه الظاهرة الغريبة ، هي ظاهرة نفسية بالطبع ، هي فرع من المرض النفسي يستدعي ان يستقصيَه الباحث ، وينقب فيهِ علَّة يتوصل الى فهمه وادراك كنههِ ، فهذه ليست ظاهرة طبيعية يصح ان توجد في الانسان السليم العادي ، وانما هي في الواقع مظهر للمرض او هي نوع آخر من المرض اذا لم يتحلل منهُ المريض فكأنهُ لم يعالج ولم يشف — هذا من ناحية

***

واما من الناحية الاخرى فهي مربكة للطبيب محرجة له كل الاحراج ، متعبة لا يستطيع معها ان يلتفت لعمله كل الالتفات ، اذ ما هو شأن الطبيب في هذه المسألة حتى يصبح فيجد نفسه موضع حب ملتهب حار يتبعهُ كظله يسعى وراءهُ مصرّاً على تحقيق غايته ؟ امرأة متزوجة تذهب الى الطبيب لتعالج فتصبح محبة لهذا الطبيب مفتونة بهِ ، هذا كثير على الطبيب لا يستطيع ان يحتمله ، وهذا بالفعل ما حدث لبرور فاضطر ان يفرَّ من هذا الميدان لانهُ ميدان خطر حافلٌ بالمفاجآت التي لا يستطيع ان يحسب لها حسابها ، والتي تزمع ان تتصل باعماله فتفسدها ، فليس من مصلحة الطبيب ان يكون موضع افتتان النساء اللائي يعالجهنَّ

الى هنا وانتهت قصة برور ، فعند هذه النقطة انقطع برور عن ممارسة علاج الامراض العصبية بطريقة التحليل النفساني ، ومن هذه النقطة استأنف فرويد العمل بمفرده فاستقامت له الزعامة في

هذا الميدان وتتلمذ عليه كثيرون وأسس مدرسة التحليل النفساني كما هي معروفة في وقتنا الحاضر وهي مدرسة حديثة قوية لها اتباع اقوياء نشروا مبادئها في كل صقع ، ودخلوا بها الى معظم الجامعات الكبيرة في الدنيا ، فالفرويدية مذهب في التحليل النفساني يتمسك بهِ كثير من علماء النفس ويدرسهُ ويبحث فيهِ جميع علماء النفس منهم من يؤمن بها كل الايمان ، ومنهم من يقاومها كل المقاومة ، ومنهم ايضاً من يبحث فيها بهدوء وعقل من غير ان يقيم وزناً للعاطفة او للميول

وليس هذا فقط ولكن تفرع عن هذه المدرسة مدرستان اخريان ، اسمهما تلميذان لفرويد ، احداهما مدرسة ادلر والاخرى مدرسة يونج ، ولكل منهما قصة لذيذة يصح ان نسردها عند ما يأتي اوانها ، ولكل منهما نظرية اساسية ، يصح ان نشرحها في حينها ، ولكن من المستحسن هنا ان نقول ان التحليل النفساني Psychoanalysis عند بعض علماء النفس ، معناهُ فقط فرويد ومدرسته وعند البعض الآخر معناهُ فرويد وادلر ويونج ، هؤلاء الثلاثة مع ما بينهم من الفروقات الاساسية والاختلافات الجوهرية . فالسيكولوجية الاكاديمية تضع هؤلاء الثلاثة في موضع واحد وتحت باب واحد وهو التحليل النفساني ، واما الثلاثة انفسهم فلا يقبلون هذا الوضع لا بل يحاربونهُ ويثورون عليهِ ، ويريدون على الضد من ذلك ان يؤكدوا التباين في وجهات النظر بينهم

ويحسن بي هنا ان انبه الى اني شخصيًّا اتبع السيكولوجية الاكاديمية لاسباب مهمة سأذكرها في سياق الكلام ، ومن هذه الاسباب بالطبع ميلي الى وضع هذه المدارس الثلاث بعضها مع بعض لانها جميعاً تستعمل طريقة واحدة لا تتغير وان كانت لكل منها وجهات نظر خاصة بها في تفسير الظواهر النفسية التي تعرض لها

***

نستطيع ان ندعو التحليل النفساني سيكولوجية التصرف او السلوك ، وان كانت تختلف كل الاختلاف عن النظرية المسلكية التي شرحناها في عدة مقالات على صفحات هذه المجلة ، ولا ندعوها بهذا الاسم اعتباطاً او تعنتاً ولكننا رأيناه ينطبق عليها من وجوه كثيرة — ذلك لان التحليل النفساني يعنى العناية كلها بدراسة سلوك المريض وتصرفاته ، ويحاول في نفس الوقت ان يرد هذه التصرفات الى دوافعها الاصلية

ويدعونها هم سيكولوجية الشعور Feeling Psychology ، ذلك لانها — في رأيهم على اقل تقدير — تبحث في المشاعر التي كانت السبب في ظهور الامراض العصبية ، تتعقد هذه المشاعر وتختلط في بعضها ، فتعود لا تضع صاحبها في الوضع الصحيح فيما يختص بنفسه ، او تطغى بعضها على البعض وتتحكم بعضها في البعض فيفقد الانسان توازنه النفسي وتتسلط عليه بعض الامراض العصبية ، او قد تختلط نفسه وتتعقد مشاعره فلا يعود قادراً على وضع نفسه في وضعها الصحيح من هذا

النظام الاجتماعي الذي نعيش فيه فيصبح عاجزاً عن ان ينظر الى الناس كما ينبغي للانسان العادي ان ينظر ، او يضع نفسه بينهم بحيث لا يشعرون بخلاف جوهري بينهم وبينه ، ومن غير ان يكون هنالك شذوذ ظاهر وفرق في وجهات النظر الى الاشياء محسوس يجعلهم يتجنبونه لانه مغاير لجميع الناس العاديين

او يدعونها سيكلوجية الاعماق Depth Psychology لانها في رأيهم أيضاً تغوص في اعماق النفس البشرية ، وتندس في اغوارها الداخلية فتقلبها ظهراً لبطن ، وتنشر خباياها وتمزّق الحجب التي تحجبها عن اعين الناس وعن عيني المريض نفسه ، وهي تزعم بذلك ان تصرفات الانسان المريض او العادي منبعثة عن دوافع ونوازع تخفى في جميع الحالات عن الانسان نفسه ، فقد يظن الانسان انه يعرف الدوافع لتصرفاته ، والحال انه لا يمكنه ان يعرف ذلك ، لان واعيته اذا تولت الكشف عن تلك الدوافع لا تفعل شيئاً سوى أنها تبرر التصرفات بأسباب واهية مفتعلة لا اصل لها ولا وجود ، وكل ما تفعله الواعية انها تتطوّع بالتستر على اللاّشعور او العقل الباطن ذلك الذي يملك دون سواه الاسباب الحقيقية للتصرفات ، ان شاء كشفها للدنيا وان شاء حجبها واستخدم الواعية في انتحال الاعذار واختراع الاسباب ، من هذا اطلق اصحاب هذا المذهب النفسي هذه التسمية على مذهبهم ، وهم يحبون ان يعرفوا به

وما قصدنا ان نطيل الوقوف عند الاسماء الاّ لأنها من ناحية تساعدنا على فهم نظرية هذه المدرسة عند ما نتناولها بالشرح والتفصيل ومن ناحية اخرى اردنا ان نمهد لشرح النزاع القائم بين هذه المدرسة من علم النفس وبين المدارس الاخرى التي لا تتفق معها في وجهات النظر

***

ويحسن بنا في ختام هذا المقال ان نوجه نظر القارىء الى ان مدرسة التحليل النفساني لا ترى فائدة ولا نفعاً في السيكلوجية الاكاديمية التي تدرس في معظم جامعات الدنيا ، كما انها لا ترى نفعاً في دراسة سيكلوجية الحيوانات كما تفعل الجستالت Gestalt والنظرية السلوكية ، والسيكلوجية التجريبية على العموم ، ثم هي تحتقر المعامل السيكلوجية وترى انها عبث لاطائل تحته ولهو اطفال . وانما هي تعني بأعماق النفس وخباياها كما تزعم ، وترى ان معظم السيكلوجيات الاخرى لا تستطيع ان تلقي ضوءاً على هذه المسألة

***

هذه مقدمات نظرية التحليل النفساني ، اجملناها اجمالاً لضيق المجال ، وأما نظرية التحليل النفساني ذاتها ، وأما فرويد حجر الزاوية من هذه النظرية فسوف نعالجه مرة اخرى اذا سمحت الحال لنا بذلك

الحرير وتركيبه الذري

الاشعة السينية تنفذ الى أسراره

التعليل الجزيئي لتجعيد الشعر الدائم

رسم لنا علم الفلك الحديث كما تناولته اقلام ادنغتن وجينز وغيرهما من كبار الكتّاب صورة تبعث العجب والرهبة في النفوس ، قوامها كون رحيب مترامي الاطراف ، تقع فيه حوادث عظيمة من دوران المجرّات وتفرقها الى انبعاث الشموس وانحلالها الى انطلاق الطاقة في أرجاء الكون وتحوّلها. وفي الجهة المقابلة نرى رذرفورد وانداده قد اخترقوا الذرة الى صميمها واستنبطوا النواميس التي تجري عليها اجزاؤها . والذرّات كما تعلم متناهية في الصغر حتى اذا أخذتَ قطرة ماء وضخّمتها حتى تصير بحجم الكرة الارضية ، لم يفق حجم الذرّات التي تتكون منها على هذا القياس حجم كرات البلياردو. والعناية التي تثيرها فينا هذه المباحث الذرية ليس منشؤها ، صغر الوحدات التي تتناولها فحسب ، بل تثيرها فينا معرفتنا بأن كل الاشياء المادية من الماء الذي نشربه الى الكواكب المنيرة والمجرّات العظيمة مؤلفة من ذرّات . على ان الافتتان بدرس الطبيعة لا ينحصر ، في الاجسام المتناهية في الكبر كالشموس والسدم والمجرّات ، ولا في الاجسام المتناهية في الصغر كالذرّات والكهارب وما اليها ، بل هناك منطقة وحداتها اكبر من الذرّات واوثق صلة بحياتنا اليومية منها . الى هذه المنطقة انضى العلم الحديث ركائبهُ ووجّه مصابيحه فكشف فيها العجب العجاب

***

ما الفرق بين الذرّات atoms والجزيئات molecules ؟ الذرّات هي الوحدات او اللبنات الاساسية في بناء الاجسام المادية وثمة اثنان وتسعون نوعاً من الذرّات ، او قل اثنين وتسعين عنصراً . وذرّات كل عنصر متشابهة في خواصها . اما الجزيئات فطوائف مجتمعة من الذرّات ، كل طائفة منها تتصرف تصرف وحدة كاملة التركيب . وقد تقطّع اوصال الجزيئات ، فتتفرق الى الذرّات التي تركبت منها ثم تعيد تركيبها . والواقع ان تفريق الجزيئات الى ذراتها ثم اعادة جمعها في طوائف جديدة ، هو ما يمنح الطبيعة تلك القدرة العجيبة على تغيير الاشكال . فالذرات تشبه حروف الهجاء والجزيئات تشبهُ الكلمات التي تؤلف منها . فأنواع الجزيئات لا تحصى مع ان انواع الذرات لا تعدو اثنين وتسعين نوعاً . كذلك كلمات اللغة لا تحصر مع انها تتألف من حروف لا تزيد على ثلاثين على الاكثر ويغلب في بناء الكلمات من الحروف اننا نستعمل بضعة حروف اكثر من غيرها . كذلك الطبيعة

تستعمل ذرات بعض العناصر اكثر مما تستعمل ذرات غيرها . ان نصف الذرات الداخلة في تركيب الارض وما عليها ذرّات عنصر الاكسجين ، والربع ذرّات عنصر السلكون . فالبحار تكاد لا تحتوي الاّ على ذرات الاكسجين والايدروجين لان اتحادها يولّد الماء . اما الصخور فهي في الغالب مركّبة من ذرات الاكجسين والسلكون لان معظمها سِلِكات او اكاسيد

هذا في الجوامد . اما الاجسام الحية فركّبة في الغالب ، من ذرّات الاكسجين والايدروجين والكربون والنتروجين ، يضاف اليها مقادير يسيرة جدًّا من ذرات بعض العناصر الاخرى . ومن عجائب التركيب في الاجسام الحيّة ، كثرة استعمال الكربون ، لانهُ قلّما يدخل في تركيب الاجسام الجامدة . فالارض والهواء والماء لا تحتوي الاّ على قدر ضئيل من الكربون . اما اجسام الاحياء من نبات وحيوان فحافلة بهِ . وكذلك ترى ان جزيئات الاجسام الحية مؤلفة من ذرات هذه العناصر الاربعة ، يضاف اليها في احوال خاصة ، مقادير يسيرة من الحديد والكلسيوم والفصفور واليود وغيرها ، لتأدية اغراض معيّنة . وافعال الحياة من ناحية كيميائها حلٌّ متواصل للجزيئات او طوائف من الجزيئات ، ثم اعادة بنائها في اشكال جديدة

من اهم الجزيئات في جسم الحيوان ، جُزَيءُ البروتين . وهو جزيءٌ معقّد التركيب مختلف الاشكال . فالعضل والعصب والشعر والصوف والقرن ، جميع هذه نُسُجٌ حيوانية مركّبة من انواع متباينة من جزيئات البروتين . اما ان تكون جزيئات البروتين كثيرة الاشكال فليس بالامر الغريب لانها تدخل في تركيب نسج مختلفة كالعصب والقرن ، بل ان الفرق بين شعر سبط وشعر جعد يسند الى فرق طفيف في جزيئات البروتين التي يتركب منها كلُّ صنفٍ . حالة انَّ علماء الكيمياء ينبئوننا بأنَّ جزيئات البروتين متشابهة في بعض خواصها الاساسية ، رغم ما نجدهُ بينها من التباين حتى ليصحُّ ان نجمَل كلها في طائفة واحدة من الجزيئات ، يطلق عليها اسم واحد ، هو « جزيء البروتين »

***

ظلَّ الكيماوي عاجزاً عن معرفة ترتيب الذرّات في جزيء البروتين حتى جاء الطبيعي الى نجدتهِ . عرف الكيماوي ان الكربون والنتروجين من العناصر الاساسية في هذا الجزيء . وانهُ يحتوي على الاكسجين والنتروجين كذلك ، وبعض العناصر الاخرى احياناً . واثبت انهُ جزيءٌ معقد التركيب يحتوي على عشرات من الذرّات . غير ان الكشف عن ترتيب هذه الذرّات في بناء الجزيء كان متعذراً عليهِ او كان صعباً على الاقل . ويجب ان نذكر ان الكيماوي كان يحاول معرفة تركيب الجزيء ، بحلّهِ الى اجزائهِ او باضافة اجزاء جديدة اليهِ وهو لا يستطيع ان يرى الجزيء لصغرهِ ، فيضع الجزيئات جنباً الى جنب ، او يحلّها في الماء او اي سائل آخر ثم يراقب تجمعها ، فيحكم بذلك على التحوُّل في خواصّها . وكذلك توصل الى وصفها ، بل بلغ في وصف بعضها مبلغاً من الدقة حتى كأنهُ يراها . وقد كان من الطبيعي ان ينال جزيء البروتين جانباً عظيماً من عناية الباحثين لما لهُ من الشأن الكبير في بناء

الاجسام الحية، والافعال الفسيولوجية، كهضم الطعام وتمثيله ، ونمو الاجسام وفعلها في الصحة والمرض

على ان العلم لا يقرُّ بالعجز ، بالغة ما بلغت العقبات التي تقوم في وجهه ، وقد استنبطت في العهد الاخير ، وسيلة جديدة فعالة للبحث في بناء جزيء البروتين وما اليهِ . قلنا ان الكيماوي لا يستطيع رؤية الجزيء . وسبب ذلك ان الميكروسكوب لا يستطيع ان يجلو الجزيء للعين البشرية ، لان امواج النور التي نرى بها الاجسام ، بانعكاسها عنها ، اكبر من الجزيء ، فهي لذلك لا تبينها . ولكن الاشعة السينية اقصر امواجاً من اشعة الضوء التي نبصر بها . فقد نستطيع ان نرى بها ما لا نراهُ بامواج الضوء اذا كانت عيوننا تستطيع ان تتأثر بها . ولكننا لا نستطيع ان نرى الجزيء حتى ولو وجهنا اليهِ الاشعة السينية ، لان عيوننا لا تتأثر بها . بيد ان الاشعة السينية تؤثر في الالواح الفوتوغرافية

وليس بالامر اليسير وصف الطريقة التي تجلو بها الاشعة السينية ، شكل الجزيء ، في مثل هذا المقال الموجز . وانما نكتفي بالاشارة اليها . فنحن نريد مثلاً ان نتناول درس جزيء البروتين ، وهو عنصر اساسي في بناء الحرير الطبيعي — وعلى ذكر الحرير الطبيعي يجب ان ننبه القارىء الى ان الحرير الصناعي ، ليست مادة بروتينية ، بل هو مصنوع من السلولوس (المادة الخشبية) ويجب ان يوضع في صف المواد القطنية — فنأخذ قدراً معيناً من الحرير ، ونوجه اليه شعاعة من الاشعة السينية ونضع وراء الحرير ، لوحاً فوتوغرافيًّا يتلقى الاشعة السينية بعد اختراقها للحرير . فاذا حمضنا اللوح الفوتوغرافي وثبتناه ، وجدنا عليه رسوماً من شكلٍ معين ، كل رسم منها مؤلفٌ من نقط . فعلينا حينئذٍ ان نقرأ هذه الرسوم ، كما يقرأ العالم بالآثار المصرية ، حجراً نقشت عليهِ كتابة هيروغليفية . وليس هذا بالامر السهل ، وانما المرانة تأتي بالعجائب

لسنا هنا في مجال التفصيل وانما يجب ان نشير الى ناحيتين خطيرتين من نواحي العمل . (اولاً) ذلك اننا ما كنا لنجد رسوماً معينة على اللوحة الفوتغرافيـة ، لولا ميل الطبيعة الى تنظيم الجزيئات في اشكال هندسية نظيمة . حتى الاشعة السينية نفسها لا تستطيع ان «تريناه» جزيئاً واحداً . ولكنها تستطيع ان تجلو مجموعة نظيمة من الجزيئات . ومن حسنات الطبيعة انها تميل الى النظام التام . وقد يكون من آثار ميلها هذا نشوء تلك الكتل النظيمة التي تعرف بالبلورات وأشهرها بلورات الحجارة الكريمة . غير انها في ميلها هذا لا تبلغ دائماً مرتبة البلورات الكبيرة التي يمكن رؤيتها بالوسائل البصرية المختلفة . وهي كذلك في الحرير . فبلورات الحرير اصغر من ان ترى بالعين ولو اسعفت بالمكرسكوب ، ولكن الاشعة السينيه تبصرها وترسمها على اللوح الفوتوغرافي

(ثانياً) ان الرسم الذي طبع على اللوح الفوتغرافي مؤلف من نقط او بقع ، فقوة كل نقطة حيال النقط الاخرى ، بصرف النظر عن موقعها ، يمكن العالِم من فهم طريقة ترتيب الذرات داخل الجزيئات والوصول الى هذه المعرفة أعسر من الوصول الى فهم ترتيب الجزيئات في بناء البلورة

أمامي على المائدة مثال مجسّم لما عرفناه عن بناء جزيء البروتين في الحرير الطبيعي . وصفتهُ الاساسية تركيب متعرّج من ذرّات الكربون والنتروجين قد يمتدّ مسافة طويلة كما ترى في الرسم التالي:

ن ك ك ن ك ك
ك ك ن ك ك ن

وكذلك ترى ان هذه السلسلة مؤلفة من ذرات نتروجين (ن) وكربون (ك) بنسبة ذرتين من الكربون الى ذرة من النتروجين . والذرّات في المثال الذي أمامي ممثلة بكريّات صغيرة ملوّنة باللون الأسود لذرات الكربون وباللون الاخضر لذرّات النتروجين . والقصد من التلوين سهولة التمثيل لان الذرات في الواقع أصغر من ان تكون ملوّنة (اللون ينتج عن تكسر امواج الضوء على الجسم وامتصاصهِ لبعضها دون غيرها وتأثير ذلك في العين والذرّات لصغرها لا تكسر أمواج الضوء لأنها أصغر منها كثيراً) ولكن ليس هذا كل ما في الجزيء . فكل ذرّة نتروجين تتصل بها ذرّة ايدروجين (يد) . وفي كل زوج من ذرّات الكربون تتصل احدى ذرّتي الكربون بذرة ايدروجين والاخرى بذرة اكسجين (اك). فتصبح الصورة كما ترى

يد اك يد
ا ا ا
ن ك ك
ك ك ن
ا ا ا
اك يد يد

هذا هو البناء العام لجزيء البروتين . ولكن كيف يختلف جزيء بروتين الحرير ، عن جزيئات البروتين في الاجسام الاخرى ؟ قلنا انّ احدى ذرّتي الكربون تتصل بذرّة ايدروجين والاخرى بذرّة اكسجين . بيد ان ذرة الكربون المتصلة بذرّة الايدروجين ، لها صلة اخرى ، في جزيء الحرير ، وبهذه «الصلة الاخرى» يختلف جزيء بروتين الحرير ، عن جزيء البروتينات الاخرى . هذه الصلة الاخرى في بروتين الحرير هي كتلة من الذرّات او جزيء صورتهُ الكيماوية (— CH_3 — ك يد٣) فاذا اختلفت اختلف نوع جزيء البروتين

هذا اذن هو بناء الحرير الاساسي . صفوف من الذرّات وجماعات منها ، تربط بينها قوى ذرّية اضعف من القوى التي تربط بين الذرّات في جزيء صغير واحد . فاذا انقطع خيط حريريّ لم يتهشم جزيء بروتين الحرير بل انفصل جزيء عن آخر ، لان الجزيئات سلسلة متصلة ، وكل جزيء بمثابة حلقة . بيد ان الصوف والشعر يمكن مدّهما ، حتى ليتضاعف طول الشعرة احياناً . وهما مبنيّان كذلك من جزيئات البروتين . فما الفرق بين الحرير والصوف . الفرق قائم في تلك « الصلة الاخرى » . فقد قلنا ان أحد ذرّتي الكربون متصلة بذرة ايدروجين ، في الحرير ، لها « صلة اخرى » مؤلفة من كربون وايدروجين (CH_3) هذه « الصلة الاخرى » في الصوف هي غير ما هي في الحرير ، واكثر تنويعاً وتعقيداً ، وهي في الغالب ، تجذب احداها الاخرى ، جذباً قويًّا ، فتقترب احداها من الاخرى ، ومن هنا جَعَد الشعر والصوف وامكان مدّهما قبل انقطاعهما . والرطوبة ، تفعل في هذه « الصلات الاخرى » فتسهل مدّ الثوب الصوفي اذا بُلّ . واذا بلّ النسيج الصوفي او الخيط ، ثم عولج بالحرارة ، امكن الاحتفاظ بالخيط الصوفي سبطاً، اي يمنع حينئذٍ الجذب بين حلقات السلسلة . فاذا أخذتَ خصلة من الشعر وبلّلتها وكويتها من ناحية واحدة دون الاخرى ، حصلتَ على تجعُّدٍ دائم

الاستعمار والحضارة

بقلم الكاتب الانكليزي ليونارد ولف

تلخيص وتعليق: لمعاوية نور

ينتمي ليونارد ولف الى رهط كريم من كبار مفكري الانكليز الاحرار في العصر الحاضر، ذلك الرهط الذي ينتظم فيه ولز وشو وبرتران رسل وهارولد لاسلكي وسدني ويب وانداده من «الانتلجنسيا» ذات التفكير الحر. وانه لمن الدلائل الطيبة التي تذكر لهذا العصر ان بعض علمائه وفلاسفته ورجال الفنون فيه قد اهتموا بمسائله الاجتماعية وجعلوا لها نصيباً كبيراً من تفكيرهم وعنايتهم. فنرى ولز القصصي الاديب في عهده الاخير لا يكتب حرفاً واحداً الا رهدفه الاصلاح الاجتماعي، ونرى برتران رسل يهمه امر الثورة في الصين ويكتب في الشؤون الهندية مثل اهتمامه بالفلسفة الرياضية وسمات التفكير المجرد، وننظر الى صديقنا العالم البيولوجي الفذ جوليان هكسلي يشتغل بالشؤون الافريقية ويجد لها مكاناً رحيباً الى جانب الحديث عن التطور وخصائص الاحياء والوراثة وما اليها من الشؤون العلمية. فهذا عصر علماؤه ادباء، وأدباؤه علماء وفلاسفته يشتغلون بالصحافة، وصحافته لا يفوتها الاشتغال بالعلم والرياضة ودراسة الفلك. ولعلّ هذه النزعة الانسانية الجديدة «New Humanism» هي من ارق ما تمخضت عنه الحضارة الغربية في طورها الاخير. هذه النزعة التي ترى العلم والفلسفة والسياسة والادب والصحافة وحدة انسانية من اسمى اغراضها خدمة النوع الانساني «Homo sapiens» والعناية بروح الانسان وجسمه. واذا كان للانسانية أن تعلو وللحالة الراهنة ان تبقى فهي بلا شك مدينة لهذا الروح الجميل، الذي يذكيه في اميركا «بابت» و«ممفورد» وفي انكلترا «هكسلي» و«ولز» وفي فرنسا «رومان رولان» وفي الشرق امثال «طاغور». فهؤلاء الكتّاب يعنيهم شأن الانسان اكثر مما تعنيهم شؤون اوطانهم الضيقة، ويعنيهم مستقبل الحضارات الانسانية اكثر مما تعنيهم سيادة اوربا او اميركا، ويهمهم ان تكون علاقات الشعوب بعضها مع بعض طيبة الاواصر، خيرة الانتاج في احترام متبادل وعطف سام. فهم يخافون ويتوجسون شراً من بواعث المنافسة الرخيصة، والعداء الجنسي والبغض، وعوامل الظلم والجشع، والاستغلال المادي القصير النظر، وطغيان السياسات العمياء التي دفعت بالعالم

الى الحرب الكبرى وهي على وشك أن ترديه في حرب مثلها أو أهول وأخطر نتائج . فهؤلاء الكتّاب يكتبون الكتب، ويلقون المحاضرات، وينشرون المقالات في الصحف في هذا المعنى. وليس الآن مجال الحديث عن النزعة الانسانية الجديدة بالشرح والافاضة ، وانما نحن هنا بسبيل الحديث عن كتاب واحد كتبه مؤلفه حديثاً عن الاستعمار والحضارة ، عرض فيه لمشكلة الاستعمار الاوربي الحديث في قارتي افريقيا وآسيا ، وعلاقة ذلك الاستعمار بالحضارة الاوربية الراهنة وعلاقة تلك الحضارة في زيها الصناعي المادي بسكان افريقيا وآسيا ، وتناول أسباب ذلك الاستعمار الحديث ومصاحباته ، وأخيراً بحث في ما نتج عنهُ وما أتى به من مساوىء ومشكلات، وما سوف يخلفه من متاعب وصعاب وما سيقود اليه العالم من خراب محقق ان هو استمرّ على خططه وأساليبه المعهودة . وقد اخترت هذا الكتاب بعينه للتحدث عنه لقراء العربية لعلاقته الوثيقة بأهم ما يشغل بالهم من المشكلات والحركات القومية ولكي يروا كيف يعالج هذه المسائل ذهن عالم صافي التفكير ، ناصع الاسلوب مستقل الرأي غير متحيز لأمة أو ثقافة أو حضارة ، وانما همه الاكبر جلاء الحقيقة وعبادة الحق كما يبدو له

يقول الكاتب ان الحضارة الاوربية الحديثة هي شيء مختلف كلَّ الاختلاف عن كل الحضارات التي سبقت القرن التاسع عشر ، بعد أن تحطمت الحضارات التي كانت ترتكز اشد ما ترتكز على الملوكية والارستقراطية من جراء الغباء الذي صحبها ومن جراء الثورة الفرنسية ثم الثورة الصناعية التي قامت عليها الحضارة الراهنة حضارة الديمقراطية الحديثة والنظم البرلمانية ، والمعمل والآلة والقاطرة والطيارة والنور الكهربائي. فتضخمت الصناعة في اوربا ، واشتدَّ التنافس بين دولها لما ضاقت بهم سبل التوزيع والنجاح المادي . فاضطرت تلك الحضارة ان تبحث عن اسواق جديدة لصناعاتها وجلب المواد اللازمة للانتاج والعمل . ومن هنا شعرت اوربا بحاجتها الى سائر العالم اذا كان لها أن تنجح في نظمها الجديدة، فتنافست الدول الاوربية في الاستئثار بالاقطار الاسيوية والافريقية لتجعلها ملاحق لتجارتها وصناعاتها . وساعدها على ذلك سرعة المواصلات التي سهلت امر اختراق البلدان النائية وربط العالم كله بعضه ببعض . وهذا من اهم الاسباب التي اسبغت على الحضارة الراهنة اهم خصائصها . فقد كانت صعوبة المواصلات في الماضي تحول دون اي حضارة مهما كانت قوية ممتازة ان تجتاح بقية الحضارات او تجبرها على الاخذ بها فكانت العزلة تامة بين اسيا وأفريقيا من حيث اساليب العيش وسبل الحياة والتطور الذي وقع في اوربا بين عامي ١٧٥٠ و١٨٥٠ وهذا تطور عظيم هائل لم تشهد مثله البشرية في كل تاريخها المعروف . ولعله اعظم قفزة قفزها الانسان

ولما كانت الحضارة الراهنة حضارة صناعية في صميمها ، كذلك كان الاستعمار الحديث اقتصاديًّا صناعيًّا في دوافعه وموجباته ، ولم تستطع اسيا او افريقيا ردَّهُ لانهُ اتاهما فجأة بقوة ووسائل ليست في طاقتهما ولا هي تدخل في دائرة معرفتهما واختبارهما . فهي في الواقع حضارة استعمارية غازية

بمعداتها الحربية الجديدة وطرق مواصلاتها السريعة . وقد كانت الوسائل الاولى في ذلك الاستعمار عن طريق التجار واصحاب رؤوس المال والشركات المختلفة يعزز من مركز مقامها دول حربية قوية، ويقول المؤلف ان حادث الاستعمار هذا لعله اعظم حادث عرف في التاريخ من حيث السرعة والشمول . ففي خلال مائة عام اي من ١٨١٤ — ١٩١٤ استطاعت اوربا ان تخضع القارة الاسيوية والافريقية وجنوب امريكا لسلطانها الذي لا ينازع

***

وقد كان الاعتقاد السائد في اوربا ان هذا الاستعمار هو الشيء الطبيعي وانهُ في صالح الشعوب الاجنبية اكثر منهُ في صالح اوربا الى ان وقفت الحبشة امام الطليان في عام ١٨٩٦ فدافعت عن ارضها دفاع الابطال وهزمت الطليان شر هزيمة ثم تلا ذلك حادث تغلب اليابان على روسيا عام ١٩٠٥ ومن هنا ابتدأ التشكك في قيمة الحضارة الاوربية عند بعض الاوربيين . فان انتصار اليابان على روسيا يعد نقطة تطور كبير في تاريخ الاستعمار الحديث ، اذ فهمت اوربا لاول مرة ان فتحها وغزوها للعالم باجمعه قد تلاهُ رد فعل قوي من العالم باجمعه ، ثم جاء نجاح اليابان وارتفاعها الى مستوى الدول الاوربية الكبرى حافزاً ألهب حماسة العالم الاسيوي والافريقي ودفع بهِ الى التنقص من امر هذه الحضارة الجاحدة حقوقه التي فرضت عليهِ فرضاً واستعرت عوامل البغض والكراهية ضد الحضارة الاوربية وسبلها المختلفة . ويمكن ان يقال انهُ الى مستهل القرن العشرين لم تقُمْ حركة قوية تناهض الاستعمار الاوربي . غير اننا نرى الآن ان معظم البلدان الاسيوية قد تحررت او كادت تتحرّر من السلطان الاجنبي ، فتركيا والصين والعجم هي الآن في ثورة ناجحة ضد الاستغلال الاجنبي ، وفي الهند اضطراب قوي رغم كل الاصلاحات الدستورية والحركة الهندية الآن لا ترضى بأقل من الاستقلال التام

وقد رفض الوفد في مصر بأباء منحة استقلال زائف وما زال يطالب باستقلال البلاد استقلالاً تامًّا ، وفي فلسطين حركة عربية واسعة النطاق . وفرنسا تجد المصاعب الدائمة في تونس ، وسوريا تلتهب حماسة وثورة ضدها . وقصة عبد الكريم وقيامه ضد فرنسا واسبانيا في الريف ما زالت ماثلة للاذهان . وفي افريقيا نشأ شعور قوي ضد الاستقلال الاجنبي والسلطات الاوربية . والمؤلف يعتقد ان سبب كل ذلك هو تصادم الثقافات ، وعندهُ ان مشكلة الاستعمار الحديث انما هي مشكلة نزاع عنيف بين حضارة صناعية آلية لا بدَّ لها من الاستعمار في نجاحها وبين حضارات لا تريد الفناء فيها والشيء الجديد في هذا النزاع ان العالم لم يشهد نزاعاً في الحضارة بلغ من الشدة والطغيان مثل ما هو عليهِ الآن . وذلك لان من خصائص الحضارة الاوربية الراهنة انها تطغى على كل النظم والمؤسسات الاجتماعية في الحضارات الاخرى ولا تعرف التساهل او الهوادة في فرض امرها واتباع سبلها . وهي تقوم على القوة الحربية في اساليبها والتنافس الاقتصادي العنيف في نسيجها

ويعتقد ليونارد ولف ان الذين يقولون بأن النزاع الحالي بين اوربا وبقية العالم انما هو نزاع جنسي او ديني او وطني انما هم على خطأ واضح ، ذلك لان العوامل الجنسية والدينية والوطنية غالباً ما تظهر على انها عوامل هامة في هذا النزاع لظهورها ، والحقيقة ان ليس الجنس ولا الدين او الوطنية العامل الاول ولا العامل المهم في هذه الظاهرة . انما يقول طغيان الحضارة الاوربية واساليبها في الاستعمار والاستقلال هو الذي اذكى نار الثورة في الصين والقلاقل في الهند ومصر والتجديد في الدولة التركية وبعض العالم الاسلامي لدول اوربا جميعاً . والذين يخيل اليهم انهم يستطيعون تفسير تاريخ الشعوب والحروب والحركات الانقلابية وتفوّق بعض الشعوب على البعض الآخر بلون الجلد والبشرة يستحقون الاستخفاف والريبة ، فاليابان بعد ان اصبحت دولة مستقلة لا نراها تستقر عنل هذا العداء للرجل الابيض الذي يشعر بمثله الرجل الصيني . اليابانيون يكرهون الامريكيين لان بينهم خصومة استعمارية دائرة على توازن القوى الحربية في المحيط الباسفيكي . والنزاع الجنسي ما هو الا ظاهرة سطحية يوجدها الشعور بالغنى والسيطرة الاقتصادية وليست هي في نفسها بذات قيمة . وكل من يدقق النظر في الحوادث التي تقع الآن في الشرق الاقصى يرى ان السبب الجوهري فيها نزاع بين الحضارات

فالحضارة الاوربية الراهنة في مظهرها الاستعماري الحربي الاقتصادي قد هددت حياة تلك الشعوب ورخاءها وسبل عيشها وعلاقاتها الاجتماعية بالزوال . وليس عجيباً ان تدافع تلك الحضارات الهادئة التي لا تعتبر المادة ولا ترى رأينا في المنافسة الصناعية وقوة المال ضد المعتدين عليها . ومهما اتخذت تلك الثورة من ألوان الوطنية او زي الجنس والدين فان مصدرها بلا جدال هو اختلاف يسير في اسلوب الحياة ارادت الحضارة الراهنة القضاء عليه

***

يجب ان لا يعزب عن البال ان كيان الحضارة الاوربية الراهنة يقوم على التنافس الاقتصادي الصناعي ، والتنافس الاقتصادي لا يعرف سوى مبدإ الربح المادي للفرد سواء في اوربا او في أسيا وافريقيا . غير ان مثل ذلك الاستغلال غير ممكن في اوربا لقرب مستوى شعوبها في الوسائل والطرق بعضها من بعض . وأوروبا لا تحس بوطأة مساوىء حضارتها لانها متجانسة قريبة بعضها من بعض . ولكن أسيا او افريقيا تحسّان بها احساساً يهدد حياتهما ويكاد يفنيها . والحضارة الراهنة التي انجبت الاستعمار في أسيا وافريقيا وخلقت مصاحباته ومشكلاته هي بعينها التي خلقت مشكلات الحروب البشرية والاقتصادية بين الدول الاوربية نفسها

فساوىء الحضارة الاوربية قد ابتدأت اوروبا نفسها تحسّها في هذا مع ان سكان اوروبا لم يشهدوا جوانبها المبتذلة مثل ما شهد سكان أسيا وافريقيا . وهذا الفرق في الحضارة الصناعية الآلية قد يقود في اوروبا الى نزاع عنيف بين انجلترا وفرنسا مثلاً اذا كانت الاولى قوية جدًّا في وسائل

الصناعة ومعدات الحرب وكانت الاخرى لا حول لها ولا سلطان من كل ذلك . فالمشكلة اذاً ليست مشكلة جنسية ولادينية ولا قومية . وانما هي مشكلة من صميم الحضارة الراهنة وسبلها ووسائلها. وفكرة الوطنية نفسها هي من نتاج الحضارة الاوربية الحديثة فهي غير معروفة في أسيا وافريقيا بمعناها الحديث . فاذا كانت الشعوب الاسيوية والافريقية تستعملها فانما كان ذلك كذلك لانها تستعمل وسائل هذه الحضارة وسبلها للتحرر منها . كما وقع في اليابان وتركيا مثلاً

***

وقد عقد الكاتب فصلاً عن تصادم الثقافات فيما قبل القرن التاسع عشر وتكلم عن الحضارة الرومانية والاستعمار الروماني فابان الفرق الشاسع بين الاستعمار الروماني والاستعمار الحديث . ففي ذلك الاستعمار لم ترغم روما بقية العالم على أخذ حضارتها والعمل بمقتضاها، وانما كانت تترك لهم كامل الحرية في معظم طرق معيشتهم وحياتهم ذلك لان حاجة الرومان الى الفتح لم تكن اقتصادية صناعية وانما كان دافعها الاول هو حب الفتح ومطامع الملوك في السلطان والتوسع الحربي وليس معنى ذلك ان الحضارة الرومانية لم تمتزج بالحضارات الاخرى او تؤثر فيها ، وانما كان يأتي ذلك تدريجيًا وفي رفق وهوادة ، حتى ان الرومان أخذوا من الحضارة الاغريقية الشيء الكثير ، مع انهم كانوا الغزاة الفاتحين

والحضارة الاغريقية ايضاً مثل آخر نسوقه ، فقد بلغت تلك الحضارة في اوج مجدها مستوًى رفيعاً في الاجتماع والنظم السياسية والاقتصادية والفنون ، وفتحت معظم شعوب العالم ، فكان لها فارس في الشرق، ومصر في الجنوب والشعوب اللاتينية وفينيقيا في الغرب ، واتصلت بحضارات تلك البلدان وأثرت فيها غير أنهُ لم يقم نزاع عنيف بينها وبينهم ، ولم تتلاشَ أية حضارة في تلك الحضارات من جراء ذلك الاختلاط ، ذلك لان الاغريق لم يحاولوا توحيد امبراطوريتهم الواسعة المختلفة الاشكال والثقافات ، في شؤون السياسة الاقتصادية أو النظم الاجتماعية الاخرى . فقد كانت الحضارة الاغريقية متساهلة كثيرة التساهل مع الشعوب الاجنبية التي دانت لها. وكذلك كان استعمار عصر الإحياء اوالنهضة « الرينصانس » كل غايته التبادل التجاري في المحصولات وفتح الاسواق الاجنبية ، وأخذ المواد الخام ، وقد كانت تلك العلاقة الاقتصادية سلمية لم يعقبها أي فتح حربي ، فلم يقع نزاع بين الحضارات ، لان اوربا لم تكن في معداتها الحربية بأعظم شأناً من الهند أو الصين كثيراً

***

اما قصة الاستعمار الحديث في اسيا فهي معروفة مشهورة ، ابتدأت في اول الامر بالمعاهدات التجارية بين الدول الاوربية والامراء الآسيويين كما حصل في الهند

ويتضح تصادم الثقافات جليًا ناصعاً في الحركة الهندية الاخيرة التي ابتدأت تشتدُّ بعد اوائل

القرن العشرين ، فهي في الواقع ثورة واسعة ضد الحضارة الاوربية ونظمها الاستعمارية فغاندي ينفخ في امته تعاليمه الهندية لاكتشاف الروح الهندي الصميم والرجوع الى الحضارة الهندية واصلاحها والسمو بها الى اوج الحضارات الرفيعة . وقد استعمل الشباب الهندي المتعلم في نزاعه هذا كل أساليب الحضارة الاوربية في محاربتها والتخلص منها . ومن الغريب حقاً ان تحمل الحضارة الاوربية نفسها بذور حتفها وهلاكها

وقد ابتدأت الحركة التركية بالدعوة الدينية ، الاسلامية ، ثم قامت بحركة التجديد الغربية لكي تتحرر من العبء الاقتصادي والسياسي الذي لحقها من الحضارة الغربية . يقول المؤلف «ومن نتائج هذا النزاع ان آسيا اصبحت الآن تعبد فكرة الوطنية السياسية ، وهي فكرة غربية بلا جدال وقد دفعت هذه الفكرة باوروبا الى الحرب الماضية ، فاذا لم تعمل اوربا كل ما في وسعها لمساعدة هذه الشعوب الاسيوية للتخلص من طور الاستعمار الى الاستقلال التام من غير عنف ولا نزاع فان العالم سيشهد موجة وطنية كبرى تتلوها كارثة عظمى ، تصبح بجانبها كارثة الحرب الكبرى شيئاً تافهاً قليل الأثر »

***

اما استعمار افريقيا فقد ابتدأ عام ١٨٨٠ وكانت الدوافع اقتصادية من غير شك ، وكان الرحالة الاوربي او الوكيل التجاري لشركة من الشركات يذهب الى اواسط افريقيا ومعهُ الوان من الهدايا والمنح يقدمها للامير الافريقي ثم يطلب منهُ امضاء معاهدة لا يفهم لغتها ، مع الشركات التجارية ، ويفهمهُ ان هذه المعاهدة ستدرُّ على شخصه وبلاده الرخاء والثروة ، وقد تمَّ استعمار معظم بلدان افريقيا الوسطى على هذه الطريقة الخادعة ، فستانلي حينما قام بالنيابة عن ملك البلجيك بامضاء مثل تلك المعاهدة فاصبحت الكونجو مستعمرة بلجيكية وبهذه الطريقة استولت انكلترا وفرنسا على مستعمراتها في أواسط افريقيا وحينما نشب النزاع بين الدول الاوربية على تحديد اراضي مستعمراتها اتفقوا فيما بينهم على ان كل من امضى معاهدة مع امير من امراء افريقيا على جزء من الشاطىء الافريقي، فمن حقه الارض الموازية لذلك الشاطىء في داخل القارة الافريقية ، وهنا يقول المؤلف :

« ان الطريقة التي اتبعت في الاستيلاء على تلك الاراضي الافريقية كانت في معظم الحالات وحشية موغلة في الوحشية ، وان تلك الطرق المبتذلة ، قد تركت من غير شك أثرها السيء في العلاقة الراهنة بين سكان أفريقيا وأوربا ، فان تلك السبل الدنيئة ان دلت على شيء ، فهي تدل على ان الحضارة الاوربية تعامل الرجل الافريقي مثل معاملتها لاي حيوان ابكم ، ذلك لان الرجل الاوربي يعتقد انهُ لهُ الحق في الاستيلاء على ارض الافريقي بالقوة او بالخداع »

معجزات السفانة

او صناعة السفن

الباخرة نورمندي ومعداتها الكهربائية العجيبة

ينتظر ان تقلع الباخرة نورمندي الفرنسية البالغ تفريغها ٧٥٠٠٠ طن في الربيع القادم ، راحلة رحلتها الاولى من برّ فرنسا الى برّ امريكا ، مستخدمةً القوة الكهربائية لتحريك رفاساتها الضخمة ذات القوة التي تعادل مجموع القوى البخارية التي تستخدمها البواخر الكبرى الثلاث وهي: لفياثان، وماجستيك ، وايل ده فرانس . ومتى ازمعت نورمندي الاقلاع ، قامت آلاتها الكهربائية بجرحبالها ، ورفع مراسيها من ثغر الهافر الذي ينتظر ان تبحر منهُ . ثم توجيه سكانها الى الجهة المقصودة ، مقلةً ٣٥٠٠ راكب وملاح . يخدمهم الف خادم كهربائي تسهر على جميع وسائل راحتهم وطمأنينتهم

وستستوفي نورمندي المعدات الكهربائية ، مما لا نظير لهُ في اية باخرة حتى اليوم فتسيَّر بالقوة الكهربائية الضخمة ، معتزَّة بها على زميلاتها المسيرات مباشرة بقوة البخار ، قاطعة المحيط الاطلنطي، في اقل زمن فتفوز بالسبق وقد كان معقوداً لواؤهُ حتى سنة ١٩٠٧ لزمرة من المراكب التي تسير بالقاطرات ذوات الكبّاس الطردي العكسي الحركة Reciprocating engine

ثم طفق السفّانون — صانعو السفن — يزيدون قوة القاطرات شيئاً فشيئاً كلما مسّت حاجة الناس الى صنع بواخر اكبر واسرع من النوع المسيّر بذلك الضرب من القاطرات . فابدلوا القاطرة « البسيطة » ذات الاسطوانة الواحدة التي لا تزيد قوتها على بضع مئات من الاحصنة البخارية ، بقاطرات مركّبة من ذوات الاسطوانتين والثلاث الاسطوانات حتى بلغوا ذروة السرعة البخارية اذ صنعوا قاطرات قوتها ٤٠٠٠٠ حصان بخاري . وكان ذلك لتسيير الباخرة المسماة — ويلهلم الثاني

ودأب مهندسو البواخر في تحسينها ، وزيادة قوتها وسرعتها ، فاستخدموا لنيل غاياتهم التربينات البخارية

﴿ عصر التربينات البخارية ﴾ فبدأوا بالتربينات التي تبلغ قوتها ٧٠٠٠٠ حصان بخاري لتسيير الباخرة المسماة « موريتانيا » المشهورة وجعلوا تلك التربينات متصلة باعمدة الرفاسات اتصالاً مباشراً فتمكنت الموريتانيا من قطع المحيط الاطلنطي بين اوربا وامريكا بسرعة تفوق ٢٧ ميلاً بحريًا في

الساعة . فاسفر ذلك الاختراع عن احداث انقلاب في السفانة — صناعة السفن — كان حافزاً للسفانين من ذلك الحين على اتخاذ التربينات البخارية اساساً لصنع البواخر الكبرى

﴿ برمن واوربا ﴾ تُسيَّرُ كلٌّ من تينك الباخرتين المشهورتين بتربينات قوتها ١١٠٠٠٠ حصان وقد امتلكتا ناصية السرعة في المحيط الاطلنطي حتى فاقتهما الباخرة ريكس التي تسير بتربينات بخارية قوتها ١٢٠٠٠٠ حصان بخاري

وتربينات تلك البواخر الثلاث العظمى متصلة برفاساتها بتروس تتحكم فيها Reduction gears وتمثل هاتيك التربينات ارقى واعظم الآلات المسيّرة للبواخر التي اخترعت حتى اليوم

﴿ نورمندي ﴾ بلغت نفقات صنع نورمندي ٣٠ مليوناً من الريالات — وستكون وسائل الراحة فيها ، والحذق في قيادتها ، وتفوق سرعتها ، وسهولة تسييرها ، منقطعة النظير في البواخر قاطبة — وستصير باخرة فريدة في مياه شمال المحيط الاطلنطي تبزُّ كل ما سبقها . وتمتاز نورمندي بتربيناتها الاربع الضخمة التي تدير مولدات كهربائية بدلاً من ادارتها الرفاسات مباشرة او بواسطة التروس . ومتى دارت تلك المولدات ولَّدت كهربائية وهذه تدير اربعة محركات ضخمة متصلة باعمدة الرفاسات . وتتراوح قوة نورمندي بين ١٦٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠٠ حصان بخاري ، تنطلق من عقالها متى ضغط المهندسون البحريون الازرار الكهربائية المهيمنة عليها — وبهذه الوسيلة تستطيع نورمندي زعيمة السرعة في البحار قطع المسافة من ثغر الهافر الى ثغر نيويورك في زمن اقل مما تستغرقهُ اسرع البواخر التي تمخر عباب المحيط حتى الآن

ولا غرو فقد قضى مهندسو شركة ألستوم Alsthom الكهربائية بمدينة بلفور بفرنسا وشركة الكهرباء العامة في امريكا عدة سنين في وضع الرسوم الخاصة بنورمندي وفي صنعها فأضحت سيدة البواخر العصرية بلا جدال . وتستخدم فيها اخر وانفس الاجهزة الكهربائية التي اخترعت حتى اليوم لاستخدامها في البرّ والبحر

وتؤلف القوة المحركة لنورمندي من اربعة محركات صنعت لها خاصة — وقوة كل منها تفوق ضعفي قوة اي محرك صنع لاية آلة برية — وتزيد على سبعة اضعاف قوة اعظم قاطرة بخارية تمَّ تركيبها في اي زمن من الازمان . ولما كان تزويد تلك المحركات الضخمة بالتيار الكهربائي يقتضي عملاً هندسيًّا اعجب مما تقدم وصفه ، لان ادارة المحركات باقصى سرعتها ، يتطلب مولداً يولد قوة كهربائية عظيمة جدًّا ، أُنشئت لتلك الغاية اربعة مولدات كهربائية ذات تربينات ، بلغت قوة كلٍّ منها ٤٢٧٥ كيلو واط لسد حاجات تلك المحركات

وتقوم الكهربائية في نورمندي بالاضاءة والتدفئة والتبريد وتجديد الهواء والطهي وادارة المصعدات والآلات الرافعة للبضائع والمراسي وبتقديم التيار اللازم لمئات من شتَّى الاجهزة الكهربائية التي تمهد سبل الطمأنينة وتوفر وسائل الراحة في سيدة بواخر العالم العتيدة

فلا فندق من الفنادق العصرية ، ولا شركة من الشركات تستطيع مفاخرة سيدة البواخر فيما حوتهُ من المعدات الكهربائية الشاملة — التي تقوم بادارتها ستة مولدات كهربائية اضافية ذات تربينات عدا ما اشرنا اليها قبلاً — تولد قوة ١٨٠٠٠ حصان بخاري

ومتى تأهبت الباخرة نورمندي لرحلتها الاولى ، غدت أعجوبة البواخر الكهربائية ، بل نموذجاً كاملاً لجميع ما اخترع حتى اليوم من وسائل الانتفاع بالكهربائية في الخدمة البشرية

﴿ الباخرة ملكة برمودة ﴾ ويجدر بنا وقد وصفنا نورمندي ان نذكر بعض عجائب أختها التي سبقتها الى السيادة ونعني بها (ملكة برمودة)

وملكة برمودة احدث باخرة تجارية تمَّ صنعها في السنين الاخيرة . وهي تسير بالقوة الكهربائية ايضاً وتحتوي على آخر معدات الراحة واعظم المخترعات الكهربائية التي ابتدعها العلم حتى اليوم ومع ذلك فان نورمندي ستسبق ملكة برمودة بمراحل

قال الكاتب الاميركي منشىء هذا المقال : — قصدت مشاهدة الباخرة (ملكة برمودة) فآثرت ان استرشد عند زيارتها بمعلومات المهندسين والكهربائيين العليمين بصناعة البواخر الحديثة ، فاستصحبت فئة منهم . وما وصلنا الى ملكة برمودة عنـد مرساها ، حتى قادني مرشدي الى مكان تيسر لي فيه رؤية رفاساتها متحركة ، وبيوت ابرها الجيروسكوبية مدوّمة ، وابوابها المسيكة (١) تغلق باشارات لاسلكية تسيطر عليها من بعيد . حيث رأيت اوساقها ترفع والاطعمة تطبخ في افران ضخمة ، وسكانها العظيم يذعن لنبضات كهربائية تصدر اليه من مرقب أو مرقبة (٢) السفينة

وملكة برمودة خالية من مجموعات انابيب البخار التي يضلُّ المرء طريقه اذا شاء تقصيها وهي التي لا تخلو منها باخرة عصرية اذ حلَّت محلها اجهزة دقيقة للانارة والحرارة وغيرها من الاعمال التي تقتضيها سلامة الباخرة . وكلها تدار بالقوة الكهربائية الموصلة اليها باسلاك نحاسية

واتفق ان كانت زيارتي اياها في صباح اقلاعها من الفرضة الواقفة فيها اذ كان ضباط ظهرها والمهندسون المشرفون على تسيير آلاتها على وشك ادارة محركاتها استعداداً للرحلة المقصودة يومئذ فرأيتهم يجربون الآلات المسيرة لتلك الباخرة ليستوثقوا من تمام صلاحها لعملها قبيل المسير . ثم نزلت الى القاعة القاطرة وهي في جوف الباخرة حيث شاهدت لوحة كبرى نظيفة جداً مرصعة بالمفاتيح الكهربائية . وكان اذ ذاك كبير مهندسي الكهربائية ومساعد كبير المهندسين البحريين وفوج من مساعديهم مرتدين ميدعاتهم (٣) واقفين كلهم استعداداً لتلقي اوامر المسير

---

(١) المسيك — يقال سقاء مسيك ومسيك بتشديد السين اي يمسك الماء ولا ينضح (٢) اخطأ بعض مراسلي الصحف اليومية بقولهم كبري السفينة وهي ترجمة حرفية للفظ bridge الانكليزي لا معنى لها في هذا المقام

(٣) الميدع او الميدعة او الميداعة . ما يصان به الثوب وغيره — (المنجد) — والميدع — ثوب يجعل وقاية لغيره (فقه اللغة) . وهو عندي افضل ترجمة للفظ overalls الانكليزي

وما عتمنا ان جاءتنا برقية من مرقبة الباخرة احدثت لغطاً فاق حسيس التربينات الساكنة ، فحواها (وجوب اتجاه رفاس الباخرة الايسر الى الامام متئداً) فنفّذ احد المساعدين الفنيين ذلك الامر . وكان احد العمال الكهربائيين يدير احدى العجلتين (الضخمتين المطليتين بالنيكل) رويداً رويداً ، وهما المسيطرتان (بواسطة جهاز مجدد للتيار الكهربائي) على حركة التربينات بأجمعها وعلى الحركات التي تسيرها ايضاً وبعد هنيهة عجلت ادارة التربينات فأدير المحرك الايسر ببطء ثم ارسلت برقية الى مرقبة الباخرة بأن عملية اعداد الباخرة للابحار قد تمت . فوردت الارشادات التلغرافية تترى على كل رفاس من رفاسات الباخرة الاربعة فنفذت عاجلاً بسكينة

وحينئذ رأيت الرفاسات قد انعكست حركاتها بادارة عجلة صغيرة دورة ضئيلة . ولا عجب فان ادارة الآلات كلها في تلك الباخرة الكهربائية هينة لينة بحيث ان قوتها البالغة ١٩٠٠٠ حصان بخاري يتاح لعامل واحد فني ان يهيمن عليها برمتها اذا طرأ طارىء

وتقوم القوة الكهربائية في تلك الباخرة المدهشة بكل لوازمها ، فترى في غرفة القاطرة الالات الآتي بيانها تدار بالكهرباء وهي : — مضخات الزيت — مضخات الصابورة — مضخات المياه — وكلها مستعدة للعمل في اية لحظة — وتقوم الكهرباء ايضاً بفتح واغلاق الابواب المسيكة التي في الحواجز الفاصلة لكل قسم عن الآخر من اقسام الباخرة

وفي كل غرفة من غرف الباخرة مراوح كهربائية ضخمة تجعل جوّها مريحاً على الدوام . ويدير سكان الباخرة بمهارة جهاز « تتولد فيه الكهرباء بقوة الماء » وفي جوف الباخرة ايضاً جهاز كهربائي لتذويب جميع الفضلات والمواد البرازية وقذفها في قعر اليم ، محافظة على صحة ركابها

***

ويستدل على الزمن في جميع ارجاء الباخرة بالكهربائية — وبها تطبخ الاطعمة وتدفأ وترطب غرف الركاب ، وتثلج المأكولات والمشروبات القابلة للتلف وتغسل الملابس والبياضات ثم تكوى

وفي الباخرة آلة رافعة — ونشات كهربائية — ورافعات للمراسي والبضائع والحبال وقوارب النجاة حيث تلقيها في البحر وترفعها منهُ برافعات كهربائية . وتحتوي الباخرة على جهاز اوتوماتيكي منبه للحريق تبرز منهُ اشارات موقوتة تدل على اشتداد الحرارة في اية جهة من جهات المركب . وفيها ايضاً جهاز كهربائي لمكافحة الحريق توّاً متى شب في اي جانب من جوانبها

وملكة برمودة مجهزة بتلغراف وتليفون لاسلكيين وبيت ابرة لاسلكي وآخر جيروسكوبي وبجهاز تلغراف كهربائي في مرقبتها — وتشمل مقياساً كهربائيًّا لقياس الاعماق . وفيها ايضاً مقياس كهربائي آخر لقياس سرعة سير الباخرة . وبصاصة كهربائية من اختراع مكنيل — وهي العين الكهربائية التي تكشف الاشياء الخفية على بعد اميال في الضباب . (وقد وصفتها في باب الاخبار العلمية بمقتطف مارس الماضي)

﴿ امثال نورمندي في بحرية اميركا ﴾ ومن المستغربات ان الباخرة الكهربائية نورمندي الوشيكة الظهور في المحيط الاطلنطي كاملة المعدات وهي من صنع السفانين الاوربيين ، قد سبق المهندسون الاميركيون ان صنعوا امثلة لها في الاسطول الاميركي وفي مصلحة خفر السواحل بالولايات المتحدة حيث ثبت نجاحها وظهرت فوائدها .

وكان المستر (نيقولا تسلا) المخترع الكهربائي المشهور في طليعة المحبذين لها ومن اشد انصارها . وكان لمهندسي الشركة الكهربائية العامة في اميركا شأن يذكر في اتمام اختراع البواخر الكهربائية

وقد ادركوا ان تسيير البواخر بالقوة الكهربائية ذو مزايا لا شبيه لها في الوسائل الاخرى المستخدمة لتسيير البواخر ولا سيما سرعة عكس دوران الرفاسات بمجرد ادارة المفتاح الكهربائي

وكانت بحرية الولايات المتحدة قبل سنة ١٩٢٧ أسبق بحريات العالم جمعاء في صنع البواخر الكهربائية لانها انشأت قبل ذلك التاريخ باخرتين ضخمتين وهما Saratoga وليكسنتون Lexington واستخدمتهما لنقل الطيارات فكانتا اقوى واسرع جميع بواخر العالم في ذلك العهد

وكانت مصلحة خفر السواحل الاميركية المجلية في ابتداع تسيير البواخر بالقوة الكهربائية فأحدثت بعملها هذا انقلاباً عجيباً في صناعة السفن اكسب البحرية الاميركية خبرة عظيمة جعلتها تثق بجليل نفع البواخر الكهربائية وسهولة تسييرها وزيادة قوتها الى حد عظيم عند الحاجة

واستصوب كبير المهندسين في مصلحة خفر السواحل الاميركية كهربة زوارق تلك المصلحة لكي تستطيع الاضطلاع بوظائفها فرسم الخطة التي تتبع في ادارة الرفاسات بالمحركات ، فنفذت الحكومة الاميركية مقترحاته وذلك في ثلاث سفن ألحقت بالخدمة في خفر السواحل الاميركية سنة ١٩٢١ حيث كانت بمثابة نموذج احتذاه صانعو البواخر الكهربائية التجارية الحديثة

وكانت كليفورنيا الباخرة الكهربائية الاولى من حيث الفخامة اذ بلغ وسقها ٢٠٠٠٠ طن واستخدمت في خط پنما الباسفيكي في يناير سنة ١٩٢٨ ثم حذت حذوها قبيل اوائل السنة التالية باخرتان تسيران في ذلك الخط البحري نفسه بالقوة الكهربائية فكان نجاح هاتيك البواخر الكهربائية مشجعاً لبريطانيا العظمى على صنع الباخرة حاكم الهند Viceroy of India وغيرها من البواخر الكهربائية لقطع المسافات الشاسعة بين انكلترا والهند وبينها وبين اوستراليا

***

وقد صنعت في السنوات الخمس التالية سفن اخرى من هذا الطراز في اميركا وانكلترا ولكن نورمندي تفوقها جميعاً تفريغاً وقوة وابداعاً في طرقها ومعداتها الكهربائية ؟

(عن مجلة العلم العام بتصرف قليل) — عوض جندي

صور التجديد

في الاسكندرية

أمثلة عليا لبعث حضارة مدينة قديمة على الطراز الاول

لنقولا شكري

من الطبيعي ان يكون امام الهيئة البلدية برنامج مفعم بمواد التجديد والتعمير والتجميل لمدينة عريقة في الحضارة التاريخية مثل الاسكندرية التي شهدت عظمة الرومان وجلال القياصرة، في شباب الدنيا وصبا العالم، والصفحات الاولى من مجد الانسانية . وان يكون ذلك الثوب الاغريقي الملقى على ساحل البحر الابيض كما وصفها « إسطرابون » موضوع اهتمام جميع اولئك الذين يعلمون ان المدن لا تعيش في الشرق الا مع العناية الكبيرة بتهذيب الاشياء والناس

وقد كانت الاسكندرية لعهد قريب لا تكاد تملك المركز اللائق بها بين حواضر الشرق، كانت المدينة التاريخية التي تحترم اطلالها للذكريات الخالدة التي ترجع الى عهد تلك النهضة العلمية التي قام بها فلاسفة الاغريق ولا تزال آثار ذلك العهد باقية الى اليوم . اما حضارة الاسكندرية التي ينبغي ان تبعث لخير الاجيال القادمة فقد كانت في ذلك العهد القديم مزيجاً من التهذيب والعمران وكانت حضارة تمتاز بكثرة وسائل اللهو والسرور، ونعتقد ان القائمين بتحقيق برنامج التجديد المستحدث في الاسكندرية لم تغب عنهم هذه الظاهرة في تاريخ الاسكندرية . ولعلهم قد ادخروا في ذلك البرنامج امثلة جليلة يمكن ان يتحقق بها بعث تلك الحضارة القديمة

***

في ذلك العصر الذي ساوت فيه الاسكندرية مقام عاصمة العواصم في التاريخ القديم وصف احد الفلاسفة المثل الاعلى لمستقبل مدينة عظيمة جمعت كل عناصر المدنية بالمنارة التي ترسل اضواءها الى مسافات بعيدة وترشد اللاجئين الى الثغور . وتحت ذلك الجو الصافي الذي يحنو على امواج البحر الابيض وأصائل الشرق الحارة قدّر لهذه المدينة التاريخية ان تبعث بعثاً جديداً على طراز مستحدث لعله اجمل وأروع طراز عرف في تعمير المدن

أما امثلة ذلك العمران الذي تحقق بجهود البلدية في اوقات كان لا بدَّ فيها من الجهاد وبذل

الهمم في سبيل القضاء على القديم وانشاء صور جديدة للعمران وخطط مستحدثة بعضها على طراز الخطط القديمة ، ونظم من التجديد ، وأفانين من التجميل ، وأساليب من بعث حضارة جليلة ذات أثر خالد في التاريخ ، فانها تتمثل في صور شتى بعضها تحقق لخير الذريات الحاضرة والمستقبلة وهي تلك الامثلة التي سنعددها واحدة فواحدة ، ونحن اذا ذكرنا هذه الجهود التي بذلتها البلدية لتحقيق تلك الامثلة العليا فلا نستطيع ان ننسى مع ذلك مساعي الهيآت التي تشارك البلدية في سبيلها العظيم لبعث هذه المدينة التاريخية . وسيظل ازدهار هذه المدينة آية في تاريخ العصر الحديث يدين بها الاخلاف زمناً طويلاً تخليداً لذكرى الرجال الذين اشتركوا في تحقيق ذلك التجديد وعملوا على انشاء ذلك البعث الكبير لحضارة لا نظير لها في التاريخ

***

وأول ما نذكر من امثلة ذلك التجديد الذي عني المجلس البلدي بانشائه على احدث طراز تلك الطريق التي شقها على الساحل فوهبها تلك الصورة القديمة التي كانت اجل مظاهر الابهة والعظمة في ذلك العصر التاريخي ، وكان الاهالي من الاعيان والطبقة الوسطى يتروّضون على الساحل كما يتروّضون اليوم ولا يكاد ينقص المعاصرين غير بائعات الزهر اللواتي كنّ في ذلك العهد القديم من صور التظرف والتأنق وغير تلكم الزامرات والراقصات اللواتي كنّ ينتشرنَ بين المتروّضين والمتروّضات على الساحل . اذن في تنظيم هذا الشارع الذي اطلق عليهِ اسم طريق الكورنيش صورة جليلة من صور البعث لحضارة الاسكندرية واستحداث حياة اولئك البطارقة العظماء الذين عاصروا الفلاسفة وكبار العلماء في مدرسة الاسكندرية وكانت ميزة عصرهم انهُ كان مزيجاً من التهذيب واللهو بل الانغماس في اللهو . وقتئذٍ كان الذهب يجري على جانبي المدينة القديمة كما تجري الامواه

ومثل آخر من أجلّ صور ذلك النهوض العظيم باحياء مدينة مندثرة شارع ابي قير وقد اشبه مع شارع الكورنيش جناحي الطائر يحنو على المدينة بخوافيه وقوادمه ، او الوادي الذي يضم صورة فذة من صور العمران . وكذلك اريد ان يكون للاسكندرية الطريقان القديمان ، طريق العربات الذي يدعى اليوم شارع ابي قير ولا تكاد تنقطع منهُ السيارات والعربات كأنما قدّر له منذ تخطيطه ان يكون طريق حركة وضوضاء ، وقد احتضنته الاشجار الباسقة المخضلة حتى لا تفارقه الافياء والظلال مع تلك النسائم المنعشة العطرة التي يستنشقها المارة بلا انقطاع . وطريق التروّض القديم وهو شارع الكورنيش الذي لا تكاد تفارقه ايضاً جماعات المتروّضين ولا تكاد تغيب عنه تلك الشموس الحارة التي يلطفها هواء البحر ويهبها صوت الامواج وتكسرها على الشاطىء نغمة رقيقة لعلها أعذب لحن يتطلب ان يستمعهُ عابر سبيل

ولعلّ اجمل ظاهرات تلك الطريق الاخيرة التي تعانق البحر بقوة كأنها تخشى ان يتدفق وهي

بالفعل تحول دون تدفقه ، ان الناظر الى آخرها اثناء الليل يحسب ان البحر طريق معبدة تجتازها العربات اذ ان اختفاء الحاجز الحجري يبيح ذلك التصور الكاذب ، وكذلك شارع ابي قير الذي تشبه حركة السيارات فيه عند الهزيع الاخير من الليل غواصاً يقلد بيديه ماسات وأحجاراً كريمة متألقة اذ لا يكاد الانسان يلمح فيه غير مصابيح تلك العربات

***

ومن أجلّ الامثلة ايضاً التي يراد بها حماية عمران مدينة كأن الطبيعة نفسها تغار من ازدهارها وروائها حاجز الامواج الذي يظهر الفارق البعيد بين العصرين في طمأنينة حضارة المدينة ورقيها وسلامة الاهلين من اندفاق البحر قد يسلب بعض ذلك الرواء والرونق وينال منهُ ، وقديماً لم يكن يخشى على عمران المدينة من امواج البحر رغم ان امثلة ذلك العمران القديم كانت مجاورة للساحل. ولعلنا نذكر ما رواه المقريزي حين ذكر الاسكندرية عن تلك الآثار الرخامية التي طواها صدر البحر حيناً من الزمن ولعل تلك الآثار هي نفسها التي اشير اخيراً الى استكشافها في شاطىء ابي قير وقيل انها تشمل مقبرة الاسكندر

أما حاجز الامواج الذي تهتم البلدية بامتداده حتى يتحقق به الغرض فيما يختص بالحيلولة بين البحر وعمران المدينة فانهُ مثل مصغّر يتعلق بالسلامة وحدها الآن ولما يتم بالنظر الى تكاليفه والى المناسبات الدقيقة التي تحول عادة دون تحقيق المشروعات الواسعة فان ذلك التريث في مد الحاجز يرجع الى تفكير البلدية على ما نعلم في اقامة منشآت مستحدثة على صدر البحر تجاور ذلك الحاجز او يكون الحاجز جزءاً منها . ولقد كانت الاسكندرية القديمة مثلاً قريباً لذلك الحاجز . كانوا يخترقون بهِ صدر البحر زرافات ، اذن فهو ايضاً صورة جليلة من صور البعث لتلك الحضارة الخالدة في التاريخ القديم

ولو كانت الاسكندرية مثل تلك الثغور اليونانية التي ينبت فيها الرخام والمرمر كما تنبت الاشجار والازهار لكان من السهل تحقيق أثر لا بدَّ منه لاستكمال مدنية عاصمة من أجل ثغور البحر الابيض المتوسط وهو الملعب او كما يسمونه «ستاديوم» . وكان القدماء يعنون بهذه الكلمة المسرح ايضاً او مكان اجتماع الشعب والخطابة . وقد كانت عناية البلدية ببناء ذلك الملعب لا تقل عن عنايتها بتحقيق سائر وجوه التجديد والتجميل في المدينة وان لم يضاه ذلك الملعب الذي أقامه «افيروف» في أثينا على رسم الملعب الاغريقي القديم من المرمر تخليداً لاجلّ أثر في تاريخ بلاده . على ان انشاء الملعب قد سدَّ حاجة كبيرة من حاجات العصر ومستلزماته ، فالملعب البلدي ولو تصورناه بصورته الحاضرة لا يخرج عن كونه اسلوباً ظريفاً من اساليب بعث الحضارة القديمة في الاسكندرية

اما المنشآت الصحية المتعددة التي اهتمت البلدية اهتماماً جديًّا بتحقيقها للعناية بصحة الاهلين

وسلامة الذريات في المدينة التاريخية فانها من أجلّ ما تستحدثه البلديات في مدينة ذات موارد محدودة مثل الاسكندرية فان المنشآت الصحية تحتاج عادة عدا الجهود التي تبذل في سبيل تحقيقها الى نفقات مستمرة تناسب دوائر الاحتياج اليها . من هذه المنشآت الواسعة مساكن العمال . واذا قلنا مساكن العمال لايكون هذا القول بالطبع مقصوراً على حجرات خاصة بالعمال بل نعتقد ان معناه العناية بصحة العمال وذرياتهم وحياتهم المنزلية واقتصادهم وبالاختصار بمستقبلهم . ولقد كان تحقيق هذا المشروع من أمثلة العمل بالمبادىء العصرية التي لم تغب فوائدها عن رجال البلدية . وقد اصبحت هذه المساكن اليوم تضم المئات من العمال في الاسكندرية . ونقول ان النظر الى هذا المشروع من بعض وجوهه المحلية البحتة يبدي لنا الظاهرة نفسها التي يتمثل فيها بعث حضارة المدينة القديمة فقد كان للعمال في الاسكندرية التاريخية حي خاص لا يتجاوزونه يدعى باسمهم كما كان للاعيان حي آخر منسوب اليهم

ثم تلك الحلقات المنتظمة الصحية كمستشفى الحميات ومغاسل الفقراء والعيادات الطبية المتعددة ومستشفى الولادة ومطعم الفقراء وما الى ذلك مما يشمل الاختصاصات الواسعة المتعلقة بالبلدية في شأن العناية بصحة الاهلين واطفالهم . اما مغاسل الفقراء فقد كانت الى الآن مرآة صادقة لارادة البلدية النبيلة في تحسين حالة الفقراء نوعاً ما وهو مجهود يستحق دائماً الاعتراف بالجميل للبلدية من تلك الطبقات الفقيرة التي تحتاج الى عناية مستمرة بصحتها ونظافتها . ثم مستشفى الولادة الذي يعد نظاماً مستحدثاً في دائرة الاهتمام بالصحة العامة وهو يعطي صورة صادقة من اهتمام البلديات في العالم المتمدين بالمواليد والامومة ومستقبل الاطفال . وفي اعتقادنا ان هذا المشروع الجليل يكفل الحاجة القصوى الى مثل هذه العناية بصحة الطفل . اما العيادات الطبية المنتشرة في المدينة فكلها منسوب الى البلدية وعنايتها القصوى بصحة السكان فانها مثل صادق لجزء من المهام الواسعة الملقاة على عاتق البلدية فيما يختص بصحة المدينة والعناية بالاهلين وتخفيف اعباء الحياة وتيسير وسائل المعالجة والوقاية ، وهي من اجلّ ما ينبغي ان يسهل على السكان في مدينة متحضرة ذات حركة عملية مستمرة

***

وما يقال عن مغاسل الفقراء وفوائدها وأثرها في الصحة العامة يقال ايضاً عن مطعم الفقراء الذي لا نستطيع ان نعده مجرد صورة من صور الاحسان ومؤاساة الفقراء بل نعده وسيلة عملية تعين تلك الطبقة على العمل والاعتماد على النفس . ولعلّ عناية البلدية الموجهة الى هذا الغرض من نوع العناية بالصحة والوقاية اكثر منها مساعدة الفقراء . وكذلك يمكن ان يتألف من مجموع هذه التنظيمات المستحدثة طراز بديع من بعث حضارة تاريخية ذات أثر خالد وان هذه المنشآت اذا عرضناها جملة كوّنت اجمل صورة من صور العمران

والظاهر ان البلدية بمقدار ما عنيت بالمشروعات الجدية المتعلقة بالصحة والامومة والاطفال ومساعدة الفقراء ارادت ان يكون للمدينة العصرية مظهرها الخاص البارز الذي يذكر بالعظمة الماضية ويكون اشبه بمرآة صادقة تبدي ما احتوت عليه من ضروب العمران وصور التجديد والتجميل وافانين التظرف التي تظهرها بعض الاماكن العامة فعنيت عناية ذات شأن كبير في دائرة تجميل المدينة واستحداثها وجعلت هذه العناية وقفاً على ميدان المحطة الجديدة الذي تعمل في تنسيق الحدائق المنشأة امامه والتي تستقبل زوار المدينة وتودع الراحلين عنها

ولا يمكن ان يستجلي المرء صورة تلك الحدائق والواجهة الضخمة للمحطة الجديدة سوى ان ثمة فكرة عليا للبعث والتجديد. والعمران تحرك همم رجال البلدية . اولئك الذين يعوّل على جهودهم في بعث حضارة هذه المدينة ، والى هذا الميدان العظيم يمكن ان نضيف في نسق التوسع والتجميل ما يحكيه او يضاهيه من الميادين المستحدثة وبخاصة ذلك الميدان الذي يحيط بحي العمال بالقباري وتلك الحدائق المتعددة التي تتخلل الاحياء الوطنية لتغذيها بالهواء والضوء . هذا الى الوسائل المتعلقة بالصحة اكثر من تعلقها بمجرد التجميل وتلك المشروعات القيمة في دائرة تحسين صورة المدينة مثل توسيع حديقة النزهة ومضاعفة المساعي المبذولة في تنسيق حديقة انطونيادس . كذلك نلحظ ان البلدية قد شملت اهتمامها كل وجوه التنظيم والتجديد في المدينة وان موجة هذا التجديد قد فاضت حتى غمرت المدينة من اقصاها الى اقصاها وانها تشمل التأنق والتظرف في وجوه ذلك التجديد والاستحداث قدر ما تشمل التوسيع والانشاء وشق الطرقات الطويلة. وان البلدية قد آلت على نفسها ان تخرج من مجموعة هذه المشروعات امثلة عليا تؤلف في جملتها صورة للمدينة تحيي صورتها التي طواها التاريخ

على ان البرنامج الذي يشمل مجموعة تلك المنشآت الجديدة للبلدية لا يزال يشتمل على اشياء اخرى في مثل مكانة المنشآت التي تحققت . من ذلك انشاء متحف جديد ومكتبة جديدة على طراز مستحدث كامل يمكن ان يعيد ذكرى تلك المكتبة الكبيرة التي تعد من مفاخر تاريخ الاسكندرية القديم وقد سبق لنا ان تكلمنا عن هذا المشروع واشرنا الى تقاليد الاسكندرية القديمة فيما يتعلق باقتناء الكتب وكيف كان البطالسة يبذلون الاموال الطائلة في هذا السبيل

وتنوي البلدية أيضاً ان يستكمل في برنامج تلك المنشآت مواضع احياء الحضارة القديمة في تاريخ الاسكندرية وقد تقرر انشاء مسرح بلدي واسع على احدث طراز ولعل البلدية تنشىء الى جانب ذلك المسرح ايضاً معهداً للموسيقى مثلاً ما دام الاهتمام بتشجيع الفنون الجميلة من مهامها ونحن نلحظ ذلك في تبرعاتها لاصحاب المسارح ودور التهذيب العلمي والفني

ونذكر الى جانب ذلك الغرض الاسمى الذي تنظر اليه البلدية في توسيع بعض دوائر العمران في المدينة وتخطيط شوارع جديدة تزيد في رونق المدينة وازدهارها وبهائها . نذكر على سبيل

المثال شارع اسمعيل الذي يراد اختطاطهُ والعناية بنظامه واشكال بناياته وتجميلها لانهُ سيكون طريق السياح الى قلب المدينة وحتى لا يقع نظر الاجانب الذين يفدون على المدينة الاً على منظر يضاهي على الاقل ما الفوهُ في المدن التي عاشوا فيها . ولهذا المشروع شأن كبير من هذه الناحية فقد مضى عصر طويل على تلك الطرقات التي يخترقها السياح دون ان يطرأ عليها أي تجديد او استحداث وأغلبها ينبو عنهُ النظر لقدمه وقبح طرازه . اذن قد عملت البلدية حقباً على سلوك السبيل الى العناية الصادقة بمنظر المدينة وأثرها في نفوس زوارها وحتى لا يكون في دائرة ذلك الانشاء والتجديد نقص يلاحظ عليه . ولقد كان القدماء لا يتخلون عن منشآتهم في سبيل العمران وقصورهم الكبيرة دون ان يحيطوها بقرى واسعة من الحدائق والرياض كأن تلك القرى جزء ملازم للقصور الواسعة كما تلازم الامواج البحر أو كما يلازم بعض الخطوط الملونة اللوحات الجليلة التي يعنى بها أئمة التصوير فان في تلك الخطوط أثر الإمامة والعبقرية . كذلك قررت البلدية ان تحيط تلك الدوائر الكبيرة للتجديد والعمران في الاسكندرية بشبه حدائق منسقة اختارت ان تغرق فيها تلك المنشآت كما تغرق القصور في الخضرة المنبسطة او كما تطفو السفن الكبيرة في زرقة البحر . فأرادت ان يحتضن ذلك التعمير الجليل وتلك الصور الباهرة للتجديد سياج كبير من الخضرة المونقة والازهر وأفانين التنسيق للاشجار . وكان يقال في تاريخ الاندلس ان الوافد على قرطبه كان يجتاز اكثر من خمسين قرية كلها قصور بيض في حدائق خضر وهو ما تنوي البلدية انشاءهُ عن قريب على مثال «جاردن سيتي» في القاهرة حتى يكمل برنامج التجديد والتأنق في تجميل المدينة . وحسب هذا دليلاً على الذوق المهذب الذي يعنى كل هذه العناية بجمال الاسكندرية العصرية

ولعلنا اذا نسبنا فضل هذا التجديد الى الاستاذ احمد بك صديق المدير العام للبلدية فانما يعد ذلك اعترافاً بالمواهب الكبيرة والصفات التي اجتمعت في هذا المدير والظروف التي كانت موفقة كل التوفيق في تحقيق هذا التجديد لتخليد اسمه الذي سيظل مقروناً بها

***

ولا شك اننا نستطيع منذ الآن ان نتلمس المستقبل الباهر المدخر لهذه المدينة التاريخية من مجموعة تلك الاصلاحات والتجديدات وما لا يزال يشتمل عليهِ برنامج البلدية من مواد الانشاء والتجميل . ولاشك اننا على قدر ما نلحظ مظاهر هذا المستقبل ندرك قيمة التعجيل بتحقيق مواد هذا التجديد وأثره في استحداث عمران مدينة لا تخلو من سحر الشرق القديم الغامض وارجه المسكر الغريب. فقد كانت مهداً لاحلام رقيقة ينميها ذلك التصافح البديع المؤثر بين الشرق والغرب وتمدها الذكريات الخالدة بفيض من المشاعر اللطيفة . وكانت ثانية عواصم الدنيا بعد روما

الدكتاتورية والرجل العظيم

لاندره موروى

المؤلف الفرنسي المجيد

لما سئل صولون ، هل منح الاثينيين أفضل الشرائع ، أجاب :— «منحتهم اصلح الشرائع لهم وللعهد الحاضر» . وليس ثمة دستور كاملٌ في ذاته ، منفصولاً عن عصره والاحوال التي نشأ فيها . بل ليس ثمة رجل مفكر يستطيع ان يدعي بأن الدكتاتورية عدوٌ للامة في كل الاحوال على الاطلاق . ففي زمن الخطر المحدق والفوضى الشاملة اذ تقتضي المصلحة الوطنية اجتناب التفرقة والتشتت في القوى الوطنية ، وتوجيهها الى غرض واحد معين ، قد يكون من الصالح قيام زعيم فردٍ . فبونابرت في منصب القنصل الاول اصلح فرنسا التي كانت الجمعيات التأسيسية قد أنضبت دماءها . اما السماح لرئيس الدولة ان يكون في أيام الرخاء والسلام أقوى مما يجب ان يكون ، فقد يفضي الى الحمق والتهوّر . فهو كالآلة القوية التي تحتاج الى منفذٍ لطاقتها ، تراه مدفوعاً الى خلق الحاجات في قلوب شعبه لكي يحس بغبطة تلبيتها وتحقيقها . في هذه الحالة تصبح الدمقراطية رغماً عما تنطوي عليهِ من التحاسد والتجادل ، مرغوباً فيها ، ويصبح الوطني الصحيح ، الذي أيد الدكتاتورية قبل عشر سنوات ، محمولاً على مقاومتها

ومع ذلك ، تجيء على كل امة ازمات في تاريخها ، تحسُّ فيها مدفوعةً بأسباب معقولة ، الى اقامة رجل عظيم على رأسها . ولما كان وجود هذه الازمات في تاريخ الامم ، لا يحتاج الى دليل ، فعلينا ان نوجه الى أنفسنا الاسئلة التالية :— هل تستطيع الشعوب في احوال من هذا القبيل ان تجد الرجل العظيم ؟ هل ثمة عقول ونفوس ، متصفة بصفات تجعلها متفوقة على سواد الشعب ، حتى لتسلّم الجماهير بالخضوع لسلطتها المطلقة ؟ واذا كان وجود رجال من هذا القبيل مستطاعاً فما هي المزايا التي تعدّهم للدكتاتورية . ولنا على ذلك ثلاث ملاحظات اولية :

اولاً — ان عظمة الرجال كائنة ما كانت ، لتعجز عن الظهور اذا لم تسعفها الاحوال . وليس علينا الآ ان نفحص قائمة الرجال الذين حكموا بلدانهم حكماً مطلقاً ثم نسأل كيف ظفروا بالقبض على أعنة السلطان

لدينا في المقام الاول اولئك الذين ولدوا امراء او ملوكاً فتمكنوا تدريجاً من تحويل سلطتهم الموروثة الى سلطة مطلقة . ولعلَّ أفضل مثل على ذلك الملك لويس الرابع عشر . كان ابن ملكٍ ضعيف ذلك ان الملك لويس الثالث عشر كان اضعف شأناً من رئيس الولايات المتحدة ورئيس الوزارة البريطانية ! اما لويس الرابع عشر فلم يلبث ، وهو أذكى عقلاً وامضى ارادة من ابيهِ ، حتى أصبح دكتاتوراً متوَّجاً . ولكنهُ ما كان يستطيع تحقيق ذلك ، لو لم يكن ابن ملكٍ

ثم هناك رجال احرزوا ظفراً حربيًّا باهراً ، في فترة عصيبة من تاريخ بلادهم ، ثم أثبتوا مقدرة ادارية فتمكنوا من الاحتفاظ بسلطانهم الذي احرزوه في ميدان الحرب . والقائد المظفَّر ، الذي تحوَّل دكتاتوراً ليس بالنادر في التاريخ . فنبوليون وقيصر أشهر الامثلة على ذلك . وفي العصر الحديث نجد بلسودسكي في بولونيا ، ومصطفى كمال في تركيا . فمصطفى كمال في نظر الاتراك رئيس الدولة ، لانهُ القائد المظفَّر — الغازي — وفي عهد الدمقراطية الاثينية ، كان الظفر الحربي عاملاً من أقوى العوامل في قيام دكتاتور وسقوط آخر . ذلك انهُ اذا تطرَّق الخوف والجزع الى نفس الشعب ، استطاع الرجل الذي ينقذهم ويعيد الى نفوسهم طمأنينتها ، ان يحتفظ بهيبتهِ ومقامهِ زمناً طويلاً . ومنذ ما نشأت الامبراطوريات الاستعمارية رأينا قيام حكَّام كبارٍ في المستعمرات ، يعود قيامهم لشهرتهم الحربية . فالمرشال ليوتي ، الذي كان اسمياً ممثل الجمهورية الفرنسية وخادمها ، كان في الواقع مدى سنوات ، الحاكم المطلق في مرَّاكش ، وكان لهُ من الاثر في تنظيم البلاد ، اكثر من اي دكتاتور وطني . وما يقال عن ليوتي ، يقال كذلك عن بعض الحكام البريطانيين الاستعماريين

واخيراً يبلغ بعض الرجال الى مقام السلطان المطلق ، لانهم استطاعوا في ازمة نفسية من ازمات شعوبهم ، ان يتصرفوا ، كممثلين لرغبات الشعب وعقائده ، واقصد بذلك ان نجاحهم لا يعود في الغالب ، الى قيمة آرائهم الذاتية بقدر ما يعود الى ظهورهم في الوقت الذي يحتاج فيه الشعب الى من يرشده وينطق بلسانهِ . هؤلاء الحكام ، يكونون في الغالب ثوَّاراً ، اذا كانت آلام الامة التي يعربون عن شعورها ، ناشئة عن فساد الطبقات الحاكمة وانحطاطها . كذلك نودي بالرفيق لنين منقذاً لأمتهِ من حكومة القيصر ، وكذلك كان كرمويل الدكتاتور الديني الذي كفى ما يجول في صدور الشعب الانكليزي حينئذٍ من نزعة بورتانية . ولكن اذا خدعت الامة واصيبت بثوَّار قوَّالين فقد يكون الدكتاتور من الطراز الارستقراطي . فموسوليني افلح في زحفهِ على روما لأن الشيوعيين حاولوا ان يحكموا ايطاليا بعيد الحرب بالارهاب . واستقبل نبوليون استقبالاً عظيماً ، لان الدركتوار كانت قد اثبتت عجزها خلال السنوات العشر السابقة ، فتاق الشعب الى حكومة مستقرة . لا ريب ان نبوليون من العباقرة ، ولكنهُ لو انه حاول القبض على أعنة السلطة سنة ١٧٩٠ لما كان الشعب لا يزال عاجزاً عن ادراك نتائج الثورة ، لباء بالخيبة . ذلك ان الدكتاتورية تقوم على ركنين هما الاحوال المواتية وصفات الدكتاتور نفسهِ

ثانياً — لا بدَّ للدكتاتور من قوة يستعملها للبطش . فهو لا يستطيع الاحتفاظ بالسلطان اذا قاومهُ الجيش . ففي الثورتين الفرنسية (اواخر القرن الثامن عشر) والروسية (سنة ١٩١٧) انتقلت سلطة الجيش الى صفوف الشعب . وموسوليني فاز بتأييد المليشيا الفاشستية التي نظمها ، والجيش الايطالي الذي احفظهُ ما كان قد وُجّه اليهِ من عبارات التنديد والتقريع . ومصطفى كمال استطاع ان يحقق أعجب الاصلاحات الاجتماعية لان جنوده كانوا منبثين في كل مكان . اذا صحَّ هذا فهل يتعذَّر قيام دكتاتورية تستند الى قوة معنوية متفوقة ؟ من الصعب الردُّ على هذا السؤال . اذ لا بدَّ للرجل من خصوم بلغ ما بلغ من مراتب الكمال . فزعماءُ الاحزاب القديمة يتصدَّون لهُ والمتطلعون الى مناصب الحكم يناوئونهُ . فقد يعتمد على قوة العامة بعد تحوّلها الى قوة مسلّحة . ولكن لا بدَّ لهُ على اي حال ، من ان يكون قادراً على قيادة الفرق المسلّحة . وتذكُّر هذه الحقيقة لهُ شأن خطير ، لانهُ يدلّنا على ان مسألة الرجل العظيم تحتجب وراء اعتبارات منوّعة في بحث صفات الدكتاتور . فالدكتاتور يجب ان يتصف قبل كل شيءٍ ، بمقدرتهِ على خلق القوة المسلّحة وقيادتها . وهذا الشرط يزيل من قائمة الدكتاتورين معظم الرجال العظام ، فافلاطون ودانتي ونيوتن وجوته كانوا بلا شك اعظم عبقريةً من نبوليون بيد ان نبوليون كان يستطيع ان يقود الجيوش ، وكذلك كان سلاَّ وقيصر من قبلهِ

ثالثاً — الاخصائي العظيم ليس بالرجل العظيم ، وكثيراً ما نخلط بين الاثنين في حديثنا اليومي . فنقول مثلاً ان لامارتين وشاتوبريان ، كانا رجلين عظيمين . ولكن الاصح ان نقول انهما كانا كاتبين عظيمين . وبين القولين فرق شاسع . وقد ثبت ذلك لما حاول الجمهور ان يجعلهما رجلين من رجال السياسة . فقد كانا متصفين بأرفع الصفات العقلية ، ولكنهما اخفقا لانهما لم يخلقا للقيادة . ومن المتعذر ان نتصور اناتول فرانس او اينشتين او السر جوزف طمسن ، رئيساً لدولة . حتى الذين كتبوا في السياسة من الجهة النظرية ، اخفقوا في ميدان السياسة العملية ، مثل مكيافلّي ورتز . فلما اتجه الفكر في خلال الحرب ، الى اقامة رجال المال العظام على منصة الدكتاتورية باؤوا بالاخفاق . والجندي في الغالب رجل تعوَّد ، النظام ، لذلك يحسُّ قلقاً ان لم يكن فوقهُ ضابط اعلى منهُ او حكومة ، تصدر اليهِ الاوامر . فاذا وجّه الى غرض معين فالراجح انهُ يبلغهُ ، ولكن لا يهمّهُ ان يختار الغرض نفسهُ . خذ مثلاً على ذلك المارشال فوش . فقد كان يجزع من السياسة وقد احسن هندنبرج في رآسة الريخ ، لان نفسهُ ليست نفس دكتاتور . بيد ان الرجل العظيم من طراز نبوليون الذي يجمع بين قيادة الجيش ورآسة الحكومة يختلف عن الاخصائي . فلنحاول ان نجلو الصفات التي ميّزتهُ عن سائر الرجال

الصفة الاولى التي يجب ان يتصف بها الدكتاتور هي صفة الارادة القوية . وهي من اندر الصفات . فالرجال الذين يتصفون بقوة العقل كثرٌ ، ولكن المتصفين بقوة الخلق نوادر . اذ ما الفائدة من ان

تعرف ما يجب ان تفعل اذا كنت لا تملك الجرأة على تنفيذه. فاذا حاول رجل ضعيف الخلق القيام بابسط الاصلاحات واكثرها توقعاً، مُني بالخيبة. ذلك ان الانسانية كتلة جامدة في مجموعها. فاذا شئت ان تكرهها لحملها على الحركة، وجب تسليط الارادة الدائمة عليها، والتذرّع بالعزم لتذليل جميع العقبات وتخطيها. فالرجل المتصف بالخلق القوي، يفوز في النهاية بكل ما يريد. ولو ان مؤرخاً تنبأ من ١٥ سنة بان رجلاً في تركيا يحدث فيها من الانقلاب الاجتماعي والاداري ما احدثهُ مصطفى كمال لوصف بالحمق، ولكن مصطفى كمال حقّق كلّ هذا لان ارادتهُ كانت لا تعرف الرحمة، ولان الاتراك ادركوا انهُ لا يحجم عن هدم كل حائل في سبيل تحقيق اغراضه. والناس في الغالب، يغتبطون بمظاهر الارادة القوية، وقلّما يحجمون عن شيءٍ اذا احسّوا ان زعيمهم يحسن قيادتهم

والعقل يلي الارادة. وعقل الدكتاتور يجب ان يكون بسيطاً قادراً على ادراك المشكلات الكبيرة اذ تَعرُض لهُ. فاذا كان عقله دقيقاً يميل الى حلّ المسائل الى اولياتها، فقد يرى العقبات التي تعترض سبيلهُ جلية وهذا يشلُّ ارادتهُ. وتفصيلات كل خطّةٍ يرسمها الرجل العظيم معرّضة للنقد. بيد ان العقل الذي تشغلهُ الدقّة، تقهرهُ التفصيلات. فالزعيم العظيم لا يرى التفصيلات. ولا هو اخصائيٌّ في موضوع ما. يهتم بكل مسألةٍ ولكن اهتمامهُ متجهٌ الى ارشاد الجهد الذي ينفق في تلك المسألة. يحيط بهِ الاخصائيون وهم الذين يعنون بالتفصيلات. قيل انهُ لما سأل احد الوزراء المارشال ليوتي عن المدافع قال عندي رجالي الفنيّون. فسئل وماذا تفعل. فاجاب: انا؟ انا الرجل الفنيُّ المختص بالآراء العامة

غير ان الدكتاتور لا يستطيع ان يحرّر نفسهُ من الاستعباد للتفصيلات الاَّ على شرط واحد. يجب ان يثق ثقة عظيمة بمساعديهِ واعوانهِ. واذاً يجب ان يكون قادراً ان يحيط نفسهِ بجماعة من المؤيدين تتصف بالامانة والجدارة. فليس في التاريخ رجل عظيم من الرجال الفعّالين، الاَّ عرف كيف يختار معاونيهِ، رجالاً يخلصون لهُ ولآرائهِ ولا يخونون. فالارادة والمقدرة على اختيار الزملاء هما الصفتان الاساسيتان في خلق الدكتاتور. والثانية تنطوي على صفات عجيبة، مثل فهم الرجال وسبر غورهم بلحظة شاردة، والعطف الذي يجذب الناس اليهِ ويحببهُ اليهم، وسعة الصدر التي لا تسفُّ الى الحسد، وتسرع الى جزاءِ المحسن على احسانهِ. وكما افلح نبوليون في بث روح الاخلاص في قوّادهِ، كذلك اخضع ليوتي مراكش بمساعدة ضبّاطهِ. وموسوليني مدين، باستقرار نظامهِ الى نشاطهِ في ضمّ من يتوسم فيهِ الكفاءة الى بطانتهِ

اذا اجتمعت هذه الصفات في رجل فقد يجعلهُ اجتماعها فيهِ رجلاً عظيماً. ولكنهُ قد لا يكون رجلاً فعّالاً. اذ يلزم ان يكون الرجل الموهوب هذه الهبات العالية، قادراً على تطبيقها تطبيقاً فعّالاً. يجب ان تحرّكهُ شهوة السلطان. فالعمل في حياة الدكتاتور كالآية في حياة الفنّان أبداً يتجه الى خلقها

شمشون

لالياس ابو شبكة

ليس شمشون ، بطل هذه القصيدة ، ببطل التوراة ، نذير الله من بطن امه ، قاتل الف فلسطيني بلحى حمار والمدفون في ضريح ، منوح أبيه بين صرعة واشتأول ، فشمشون ، بطل هذه القصيدة ، هو الشاعر الجبار والقاضي الانساني الثائر الذي ينغمس في حمأة الحياة كما ينغمس فيها سائر المائتين الا انهُ يخرج من الرذيلة فضيلة كما اخرج شمشون التوراة عسلاً من رمّة السبع . إن شمشون ، بطل هذه القصيدة هو الشاعر الجبار الذي تتغلب عليه حيل العالم الشرير فتقص جناحيه وتفقأ عينيه الاّ ان جناحيه في روحه وعينيه في قلبه وليست قوة شمشون هذا في شعره بل في شعوره ، وبهذا الشعور القوي يقوّض دعائم الزور والضغينة والبهتان ويهدم هيكل الرياء المقنع بالارجوان »

ملّقيهِ بحسنك المأجور وادفعيه للانتقام الكبيرِ
إن في الحسن ، يا دليلة ، أفعى كم سمعنا فحيحها في سريرِ
أسكرت خدعة الجمال هرقلا قبل شمشون بالهوى الشريرِ
والبصيرُ البصيرُ يخدع بالحسن وينقاد كالضرير الضريرِ
ملّقيه فالليل سكرانُ واهٍ يتلوّى في خدره المسحورِ
ونسور الكهوف اوهنها الحبّ فهانت عليهِ كالشحرورِ
وعنا الليث للبوءة كالظبي فما فيه شهوة للزئيرِ

***

شَبِقَ الليث ليلة فتنزّى ثائراً في عرينه المهجور
تقطر الحِمّة المسعَّرة الشهّاء منهُ كأنه في هجير
يضرب الارض بالبراثن غضبانَ فيُصدي القنوطُ في الديجور
ووميض اللظى يغلّف عينيه فعيناه فوهتا تنّور
ونزا من عرينه تتشظّى حُمَمٌ من لظاه في الزمهرير

واللهاث المحموم من رئتيه يشعل الغاب في الدجى المقرور
فسرى الذعر في الذئاب ففرّت وترامى الى عشاش النسور
وإذا لبوة مخدرة الحسن تردّت من كهفها المخدور
تنضح اللذة الشهية منها: خمرة من جمالها المأثور
فتئنّ العبير في مخدع الليل فتشهى حتى عروق الصخور
فتلاشى اللهيب في سيد الغاب امير المغاور المنصور
والعظيم العظيم تضعفه أنثى فينقاد كالحقير الحقير
ملقيه ففي أشعة عينيك صباحُ الهوى وليلُ القبور
وعلى ثغرك الجميل غمارٌ حجبت شهوة الردى في العصير
ملقيه فبين نهديك غامت هوّة الموت في الفراش الوثير
هوّةٌ أطلعت جهنم منها شهوات تفجرت في الصدور
ملقيه ففي ملاغمك الحمر مساحيق معدن مصهور
يسرب السمّ من شفافتها الحرّى الى ملمس الردى في الثغور

***

خيّم الليل ، يا دليلة ، في الغاب واغفى حتى الشذى في الزهور
فانشقي فورة الحرارة من جسمي وغذّي قواك من اكسيري
أنت حسناء مثل حية عدن ، كورود الشارون ذات العطور
وكعفر الوعل الوديع وأن كنت تناجين عقرباً في الضمير
لست زوجي بل أنت أنثى عقاب شرس في فؤادي المسعور
فاشتهي كل ليلة مخلبي الدامي على خزّ جسمك المخمور

***

وأتى الصبح ضاحك الوجه يرغي زبدُ النور في ضحاه الغرير
أين شمشون يا صحاري يهوذا ؟ أين حامي ضعيفك المستجير ؟
أين قاضيك ، دافع الضيم ، طاغي المستبدين ، صائن الدستور ؟
أعورت شهوةٌ من الحب عينيه وكم اعور الهوى من بصير
إن قاضي المستعبدين لعبدٌ وقضاةٌ عورٌ قضاةُ العور

***

حفلت قاعة العقاب بجمهر من سراة المسوّدين غفير

هم رموز الشقاق والفتن الحمراء والغدر والزنى والغـرورِ
أقبلوا يشهدون مصرع شمشون على لذة الطلا والزمورِ
بؤرة تعبق القذارة منها سُتِّرت بالشفوفِ والبرفيرِ
أيدين الخاطي جناة صعاليك ويقضي الفجورُ ذنبَ الفجور ؟
وسرت خمرة الوليمة في الحفل لتقديسِ ساعة التكفيرِ
وكأنَّ النسيمَ شُوِّق للخمرة فانسلَّ من شقوق الخدورِ
ولنقر الدفوف صوت غريب يتحدَّى صوتَ العقاب الاخيرِ
واذا قينةٌ تخالجها السكرُ على مشهدٍ من الجمهورِ
فتثنَّت تضاجع الجوَّ نشوى من تلوّي قوامها المحرورِ
رقصةُ الموت يا دليلة ، هذي أم تراها اختلاجة في الخمورِ ؟
وصغا الجمعُ للاسير يناديه بشتى مطاعنٍ التحقيرِ
«هيه شمشون،أيها الفاجر الزنديق يا عبد يهوهَ المقهورِ»
« أحكيم من العتاةِ تذرّى شعرهُ قينة ، من الماخورِ ؟ »
فتلوّى شمشون في القيد حتى حلَّ فيه روح الاله القديرِ
فنزا ، نزوة الوميض ، من الغلّ ودوّى كنافخٍ في صورِ
بدّدي ، يا زوابع النار اعداءَ إلهي ، ويا جهنم ثوري
وتنفس يا موقد الثأر،في صدري وأغرق نسل الريا في سعيري
وامصصي يا دليلة الخبثِ،من قلبي فكم مرةٍ مصصتِ قشوري
وارقصي ، انما البرا كينُ تغلي تحت رجليكِ كالجحيم النذيرِ
وتغني بمصرعي فكثيراً ما سمعتُ الفحيح في المزمور !
اصبح الليث في يديك اسيراً فاطرحيه سخرية للحميرِ
واجعلي الغلَّ رمز كل صريح واليواقيت رمزَ كلِّ غدورِ
إن أكن سقتُ في غرامكِ شراً فالبرايا مطيةٌ للشرور
غير أني أجني من الجيفِ الجرداءِ — مهما قذرتُ — شهد قفيرِ
هيكل الاثم لم أبح لكَ ذلي شبحَ الرقِّ لم أسلّمك نيري
فاسقطي يا دعائم الكذب الجاني وكوني اسطورة للدهورِ
محقَ الله فيَّ شرَّ ظلامي فلتضئ في الحياةِ حكمةُ نوري
ان تكن جزّت الخيانة شعري في ضلالي فقوتي في شعوري

الحضارة الفرعونية

وتأثرها بالزراعة

للدكتور حسن كمال

لنهر النيل تأثير كبير في تاريخ الحضارة الفرعونية . فضرورة المحافظة على مجراه واستعمال مياهه علمت المصريين هندسة الانهر وما يتبعها من مساحة الاراضي . ولما تفقدوا السماء وجدوا في حركات نجومها واسطة للاستدلال بها على ميعاد فيضان ذلك النهر العظيم . ومن ثمَّ بدأ اهتمامهم بالفلك واتسعت دراستهم له . ولما كان الفيضان اذا طغى على الاراضي محا معالم الحقول تفنن القوم في ابداع المقاييس ومعرفة المساحة . ولما زاد اهتمامهم بالفلاحة اقنع الفراعنة رعاياهم بأن المحافظة على الحدود والاملاك الشخصية امر مقدس تجب مراعاته ويتحتم احترامه . وهذه العوامل بالذات احدثت نفس النتائج في بلاد بابل . وبديهي ان كل زوال للفيضان كانت تعقبه مشاحنات ومضاربات ، ومن هنا نشأت ضرورة سن القوانين وتوقيع العقوبات . وهكذا أجبر النيل سكان واديه أن يضعوا لانفسهم أسس الحضارة الاجتماعية والقوانين والنظم السياسية

ثم بدأ القوم يشيدون العمارات الضخمة لدور الحكومة او التعبد فعمدوا الى النيل لينقلوا بواسطته تلك الكتل الضخمة التي شادوا بها آثارهم الباذخة . وبهذه الطريقة وحدها تمكنوا من تشييد الاهرام ونقل الجرانيت من اصوان الى أنحاء القطر مثل منف وتنيس الواقعة بالقرب من البحر الابيض المتوسط . وهكذا أصبح النيل الشريان الرئيسي للتجارة الداخلية . ومن ثمَّ برع قدماء المصريين منذ أقدم العصور في صناعة السفن فابتكروا المجاذيف والقلاع و « القمرات » وغير ذلك من وسائل الراحة في السفر

ومساحة الاراضي وكيل المحاصيل وتوزيعها اضطرتهم لمعرفة اصول الحساب من جمع وطرح وضرب وقسمة . كذلك فن المعمار أجبرهم على معرفة الهندسة الفراغية . والى النيل أيضاً وتطوراته الطبيعية يرجع الفضل في معرفة المصريين لطريقة قياس الزمن . فقد تنبهوا في القرن الثالث والاربعين قبل الميلاد الى ان السنة الشمسية تتكوَّن من ٣٦٥ يوماً . ويعتبر هذا الاكتشاف الميقاتي واستعماله في الشؤون الدنيوية (وأهمها الزراعة وقتئذ) خطوة كبيرة نحو الرقي وشرفاً عظيماً للوطن الذى اكتشف

فيهِ . وقسّم المصريون سنتهم الى اثني عشر شهراً وجزأوا كل شهر ثلاثين يوماً حفظاً للنظام وتسهيلاً للمداولات . وهكذا أثبت سكان وادي النيل ان التوقيت شيء عرفي يصطلح عليه القوم

وللزراعة فضل كبير في ابتكار الكتابة لان هذا الخط مكوّن من عدة رسوم لنباتات وحيوانات وأشخاص وادوات زراعية ومنزلية وحربية وخلافها . فهو والحالة هذه دليل مادي على احوال القوم وقت استعماله من حيث الزراعة والصناعة وهو الموضوع الذي نحن بصدده الآن . لذا وجب التنويه عن تاريخ هذا الخط باختصار . ولا يخفى ان قدماء المصريين استعملوا الكتابة منذ نحو خمسة آلاف سنة . وان كتّاب الاسرة الخامسة الذين أتوا بعد ذلك بألف سنة دوّنوا طائفة كبيرة من أسماء ملوك الوجه البحري وبعض ملوك الوجه القبلي من الذين يرجع تاريخهم الى ما قبل حكم الاسر كما نسخوا أيضاً عدة نصوص دينية من كتاب الموتى يرجح انها نقلت سابقاً مراراً ومن هذه النصوص استنتجنا معلومات كثيرة عن حياتهم الزراعية وقتئذٍ . والخط الهيروغليفي الذي استعمل في الوجه البحري لاجراءات الملك والحكومة والخزانة لم يكتشف فجأة وقت اعتلاء الملك (مينا) العرش المصري بل كان مستعملاً قبل ذلك بمدة طويلة . ودليلنا على هذا ان الخط الهيراطيقي كان مستعملاً في مبدأ الاسرة الاولى وهو كما لا يخفى اختزال للخط الهيروغليفي . فلا بدَّ اذن ان يكون هذا الاخير قد استعمل قبل عهد الاسر بزمن طويل . لكن لم تصل الينا معلومات تاريخية عن مآثر ملوك الوجه البحري والقبلي الذين يرجع تاريخهم الى ما قبل القرن الرابع والثلاثين قبل الميلاد

﴿ تأصل الزراعة في الديانة المصرية القديمة ﴾ وقد استدلَّ من بساطة هيئة الآلهة المصرية ورموزها ان المعيشة في عهد الاسر الاولى كانت بسيطة أيضاً . فمن هذه الآلهة من يمثّل قابضاً على عصا كالتي يستعملها بدو الصحاري أو على نوع من الغاب (القصب) . وتزين رسومها احياناً بالغاب أو ريش النعام أو قرون الاغنام . ولما اعتبر المصريون حيواناتهم المحيطة بهم رموزاً للآلهة احترموها وثابروا على ذلك حتى في أرقى العصور مدنية وحضارة . وليلاحظ ان هذه الحيوانات لم تعبد كالآلهة الأ في آخر التاريخ المصري لمـّا دخل القطر في دور انحطاطه . فلم تكن عبادة الحيوانات معروفة في العصر الاول (الاسر الاولى) وغاية ما في الامر ان المصريين اعتبروا وقتئذٍ بعض الحيوانات كالنسر رمزاً لمعبوداتهم كالشمس مثلاً . ومن ثمَّ اعتبر القوم هذا الحيوان كثيراً واكرموا مثواهُ في المعابد لكنهم لم يعبدوه ولم يقدموا له قرابين كما حدث في الازمنة التالية

ثم ازداد المصري تخيلاً لصورة الحياة الاخروية فتوهم في الجهة الشمالية الشرقية في السماء حقولاً يانعة خُضْراً سماها « حقول يارو » او حقول الخيرات كثيرة العدس قمحها اطول من قمح النيل عميمة الرخاء والطمأنينة والسلام والسكون ينال فيها كل فرد نصيبه مما يقدم لمعبوده في الدنيا من خبز وجعة وملبس علاوة على ما ذكر . ثم استصعبوا الطريق الى حقول الخيرات هذه فتخيلوها يحيط بها الماء . لذلك ابتكروا طرقاً مختلفة للوصول اليها . فكان بعضهم يناجي النسر او الطائر ابي منجل

(إيبس) ليحمله فوق طرف جناحه الى تلك الحقول . ورجا البعض الآخر اولاد المعبود (حوريس) الاربعة ليحضروا له قارباً يستعين به على عبور المياه. وتوسل فريق ثالث بالمعبود (رع) لينقله في سفينته الى تلك الجهة . هكذا تشعبت عقائد المصريين في فهم الآخرة لكنها لم تتجاوز شؤون معيشتهم الزراعية

ومما يدلك على شدة تأثر القوم في عباداتهم بأحوالهم الزراعية انشودة « الشمس » التي وضعها الملك اخناطون والتي كانت تتلى في المعابد للتوسل بها في خلوة المعبود (آتون) — اي قرص الشمس — وسنذكرها هنا للقارىء لاشتمالها على كثير من الاحوال الزراعية . وقد جعل الاثريون لاجزاء هذه الانشودة كما ترى عناوين تتمشى مع معانيها وقابلوها في الوقت نفسه بما جاء في المزمور الرابع والمائة موضحين بذلك الشبه بين الاثنين من حيث الآراء وتسلسل المعاني

النهار والحيوان والنبات

البهائم كلها مستريحة في مراعيها . والاشجار والنباتات جميعها يانعة . والعصافير ترفرف فوق المياه ناشرة أجنحتها ابتهالاً اليك . والاغنام ترقص على ارجلها . والطيور تحلق في الجو تتنسم الحياة اذا ما اشرقت عليها

النهار والمياه

تسير السفن مع التيار وعلى عكسه
وكل طريق عمومي يصبح مسلوكاً
لانك ظهرت في الافق . اما السمك فيقفز
امامك في النهر هكذا تخترق اشعتك البحر الخضم
هذا البحر الكبير الواسع الاطراف
هناك دبابات بلا عدد . صغار حيوان مع كبار
هناك تجري السفن . لوياثا من هذا
خلقته ليلعب فيه (مزمور ١٠٤ آية ٢٥–٢٦)

خلق الانسان

انت خالق الجنين في امه . أنت خالق نطفة الانسان . انت واهب الحياة للجنين في رحم امه . وملطفه حتى لا يتكدر ويبكي . كيف لا وأنت المربي في الرحم . انت معطي نفس الحياة لكل مخلوقاتك . . . . انت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده امه

خلق الحيوان

انت الذي تهب الحياة للفرخ في البيضة فيصيح . فاذا اتممت خلقه ثقب بيضته وخرج منها صائحاً جهده واثباً بقدميه

الخلق عموماً

ما اكثر مخلوقاتك التي نجهلها . انت الاله الاحد . لا شريك لك في الملك . خلقت الارض بارادتك . ولما كنت وحيداً في هذا الكون خلقت الانسان والحيوان الكبير والصغير والمخلوقات التي تدب على الارض او تطير بأجنحتها انت الذي احللت كل انسان في سورية والنوبة ومصر في موضعه وأنعمت عليه بحاجاته فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش ايامه المعدودة . لقد اختلفت ألسنتهم وأجسامهم فسبحانك من مميز لخلقك

ما اعظم اعمالك يا رب . كلها بحكمة صنعت . ملآنة الارض من غناك (مزمور ١٠٤ آية ٢٤)

ري الاراضي

انت خالق النيل في الدار الآخرة . انت اوجدته برغبتك فيه لتحافظ على حياة الاهالي . انت سيد الجميع لانهم ضعاف . انت سيد كل اسرة لانك تشرق لاجلها . انت شمس النهار المهيب في الاراضي السحيقة كلها والواهب لها الحياة . خلقت لهم نيلاً في السماء ليسقط عليهم ماؤه فيسيل على الجبال كالبحر الزاخر يروي غيطانهم بين مدنهم . ما ابدع اعمالك ايها السيد الازلي ! فنيل السماء مخصص للغرباء وللدواب من كل البلاد . والنيل الذي يأتي مصر خاصة يأتيها من الدار الآخرة . اشعتك تغذي الجنان . فاذا ما اشرقت اينعت وأنبتت بتأثيرك

الفصول

جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك . فالشتاء يعطيهم البرودة . والصيف يهبهم الحرارة انت الذي رفعت السماء عالياً لتنظر ما خلقت في وحدتك شارقاً حياً كآتون ساطعاً متلألئاً ثم راجعاً ثانية الى حيث ابتدأت

* * *

وتغلغلت الزراعة في الديانة المصرية القديمة حتى اكتسحتها تقريباً فأضحى القوم يمثلون النعيم الاخروي او الجنة بالنعيم الزراعي او الفلاحة وكثر هذا التمثيل في المقابر والادراج البردية بشتى الصور ومختلف العبارات . وسنضرب للقارىء مثلاً درج الكاهن (آنى) فقد ورد في اللوحة الخامسة والثلاثين رسم الآخرة ويتكوّن من اربعة اسطر السطر الاول وفيه الكاهن (آنى) يقدم القرابين لمعبود له رأس الارنب وآخر رأس الثعبان وثالث له رأس الثور وخلفه يلاحظ المعبود (تحوت) قابضاً على اللوح والقلم . بعد ذلك يرى (آنى) راكباً سفينة صغيرة يدفعها الى الامام بواسطة مجذاف . ثم السطر الثاني فيه (آنى) وهو يخاطب الطير المعروف بالباشق والموضوع امامه مائدة القرابين ويشاهد بالقرب من ذلك رسم لشخص مقدس وثلاث بحيرات ونقوش هذه ترجمتها : « المعيشة في سلام في حقل السلام واستنشاق الهواء في الانوف » . بعد ذلك يشاهد الكاهن (آنى)

يحصد القمح ثم يدرسه بواسطة ثيران ثم يرى يبجّل الطائر المقدس (بنّو) . وبالقرب من ذلك تشاهَد كومة من القمح الاحمر واخرى من القمح الابيض وثلاث بحيرات وغير ذلك

بعد ذلك يأتي السطر الثالث من الرسم ويتلخص في طريقة الحرث بالقرب من غدير ماء لايحوي سمكاً ولا ثعابين . ثم السطر الرابع وتتلخص رسومه في مولد المعبود وفي جزيرة صغيرة عليها بعض درجات سلم ثم محل يقال (خوس) ينبت فيهِ القمح الى ان يبلغ طوله ثلاثة اذرع ثم مناظر لسفن وانهار وغير ذلك . (راجع ترجمة كتاب الموتى للاستاذ بدج ص ٣٢٢)

وتأثرت الفنون الجميلة عند قدماء المصريين بالزراعة بشكل واضح جليّ . ويشاهد ذلك على الاخص في النقوش الملوّنة التي استعملت كثيراً منذ عهد المملكة القديمة . من ذلك رسم سرب الاوز بمقبرة بميدوم تتجسم فيهِ براعة المصور المتفنن وطول باعه . فقد اتقن الرسّام انعطاف رأس هذا الطائر وبطء حركته وانثناء عنقه وقت التقاطه دود الارض بشكل يقرب جدًّا من الطبيعة . ولاشك في ان مثل هذا الرسم يشهد لصانعه بالقدرة وعظم الاعتماد على النفس وكثرة التمرن في هذا الفن الجميل

اما الاعمدة فصنعت على اشكال كثيرة منها ما يشابه النخيل وآخر يمثل طاقة البردي وثالث على شكل طاقة اللوطس . وساحة امنحوتب الثالث بمعبد الاقصر تحوي عمداً على شكل باقات براعم البردي وعمد صحن المعبد المذكور مصنوعة على شكل سيقان البردي المنتهية بزهرته اليانعة . وساحة الكرنك العظمى تحوي عمداً على هيئة زهرة البردي المفتوحة ايضاً

وهناك امثلة كثيرة اخرى للفنون الجميلة وعلاقتها بالزراعــة . فمنذ الامر الاول يجد الباحث ارجلاً لكرامي مصنوعة من العاج المنحوت على شكل ارجل الحيوان . ثم صاغ القوم اكاليلهم على شكل الازهار الزاهية اليانعة كما هو مشاهد في اكاليل دهشور الذهبية التي بدار تحف القاهرة

وفوق هذا وذاك فقد كانت حكومة القطر مصبوغة دائماً بالصبغة الزراعية من حيث النبات او الحيوان . فملوك مصر كانوا يلقبون منذ اقدم الامر بلقب « حوريس » نسبة الى ما ورثوه عن هذا المعبود في عرش مصر . وقد رسم الباز (رمز حوريس) فوق الآثار الملكية فوق شكل مستطيل يمثل باب القبر الوهمي (الذي تخرج وتدخل منهُ الروح) وبداخله اسم الملك الرسمي . اما اسم الملك الشخصي فيكتب مسبوقاً برسم الزنبور (رمز الوجه البحري) وفرع البردي (رمز الوجه القبلي) اشارة الى ان هذين القطرين قد خضعا له . ويصحب هذه الرموز غالباً رمزان آخران هما العقاب (وهو رمز نخبت معبودة الكاب عاصمة الوجه القبلي) والصلّ (رمز بوتو معبودة مدينة بوتو عاصمة الوجه البحري) . ويشاهد الباز على رؤوس التماثيل لملوك تلك الازمنة مرفرفاً بجناحيه ليحميهم من الاذى . ثم اخذت الملوك بمرور الزمن تضع فوق جباههم صلاً (معبود المملكة البحرية) مشيرين بذلك الى بسط نفوذهم على الدلتا

البصريات عند العرب*

عبقرية ابن الهيثم

لقدري حافظ طوقان

البصريات من البحوث التي تشغل فراغاً كبيراً في علم الطبيعة (Physics) والتي لها اتصال وثيق بكثير من المكتشفات والمخترعات، ولا اكون مبالغاً اذا قلت انه لولا تقدم البصريات (الضوء) لما تقدم علما الفلك والطبيعة تقدمهما العجيب ولما كان في الامكان ان يحلق الانسان في سماء الاختراع والاكتشاف تحليقه الحاضر، وقد يكون هذا من جملة العوامل التي حملتني على البدء بعلم الضوء دون غيره من فروع علم الطبيعة المتعددة، والذي ارجوه ان يتمكن القارىء الكريم بعد مطالعة هذا المقال ان يقف على تطوّر هذا العلم الجليل وسيره عند العرب

يقول الدكتور ماكس ماير هوف «ان العرب قدموا خدمات حقيقية جليلة جداً لعلم البصريات الذي فيه تتجلى لنا عظمة الابتكار الاسلامي». ولقد بقيت الكتب العربية في هذا العلم المنهل العام الذي نهل منه اكثر علماء القرون الوسطى كروجر باكن، وبووتيلو، وليوناردو ده فنشي، وكبلر وغيرهم. وتعترف دائرة المعارف البريطانية بأن كتابات العرب في الضوء اوحت اختراع النظارات. ويقول سيديو «لما اشتغل العرب بالفلك التفتوا الى العلوم الرياضية فأتوا بالعجب العجاب في الهندسة والحساب والجبر وعلم الضوء والنظر والميكانيكا [1]» وقد ظهر في أوائل القرن الخامس للهجرة رجل له فضل كبير في تقدم بحث الضوء ولا يخلو كتاب يبحث في تاريخ علم الطبيعة من اسمه فهو في مقدمة الذين اضافوا اليه ويدعى الحسن بن الحسن ابن الهيثم ابو علي المهندس نزيل مصر «وكان عالماً بهذا الشأن (اي بعلم الهندسة) متقناً له متفنناً فيه قيماً بغوامضه ومعانيه مشاركاً في علوم الاوائل أخذ الناس عنه واستفادوا منه [2]» ويقول عنه ابن أبي أصيبعة «وكان فاضل النفس قوي الذكاء متقناً في العلوم لم يماثله احد من أهل زمانه في العلم الرياضي ولا يقرب منه وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر التزهد» [3]. وقد ازدهر هذا البحث في عصر التمدن الاسلامي ازدهاراً جعل الاستاذ محمداً نظيفاً في مقدمة كتابه النفيس «البصريات» [4] يقول: «والذي جعلني ابدأ بعلم

* فصل من كتاب «الطبيعة عند العرب» يعنى بوضعه الآن كاتب هذا المقال النفيس

(1) سيديو خلاصة تاريخ العرب ص ٢٢١ (٢) ابن القفطي اخبار العلماء ص ١١٤ (٣) ابن أبي أصيبعة طبقات الاطباء ج ٢ ص ٩٠ (٤) «البصريات» هو عنوان لكتاب قيم يبحث في علم الضوء وضعه محمد نظيف الاستاذ بمدرسة المعلمين العليا العلمية ويقع في اكثر من ٧٠٠ صفحة، لا يقل مادة وترتيباً وتبويباً عن أحسن الكتب الاوربية التي تتناول هذا الموضوع وهو الكتاب الوحيد في اللغة العربية الذي يجد فيه الباحث كتاباً يرتفع فوق مستوى المبادىء الاولية التي يدرسها طلبة مدارسنا الثانوية في الوقت الحاضر في علم كانت اللغة العربية لغته حتى عصر النهضة في اوربا

الضوء دون فروع علم الطبيعة الاخرى ان علماً ازدهر في عصر التمدن الاسلامي وكان من اعظم مؤسسيه شأناً ورفعة وأثراً الحسن بن الهيثم ، الذي كانت مؤلفاته ومباحثه المرجع المعتمد عند اهل اوربا حتى القرن السادس عشر . . . . » وفوق ذلك تقول دائرة المعارف البريطانية « ان ابن الهيثم كان اول مكتشف ظهر بعد بطلميوس في علم البصريات » ويقول كتاب تراث الاسلام « ان علم المناظر وصل الى أعلى درجة من التقدم بفضل ابن الهيثم » واعترف العالم الافرنسي لويتر فياردو «بأن العلامة كبلر أخذ معلوماته في الضوء ولا سيما فيما يتعلق بانكسار الضوء في الجو بعد اطلاعه على ما ألفه ابن الهيثم وهو شهير بما الفه من الكتب في علم الضوء وما كتبه في الشفق» وكذلك اعترف سارطون بنبوغ ابن الهيثم وفضله فقال «ابن الهيثم اعظم عالم مسلم في علم الطبيعة واعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ومن علماء البصريات القليلين المشهورين في العالم كله [١] » ، له كتاب في الضوء اسمه (المناظر) وهو من اهم الكتب التي ظهرت في القرون الوسطى ومن اكثر الكتب استيفاء لبحوث الضوء . وقبل ان نذكر بعض محتوياته يجدر بنا ان نعرف معنى (المناظر) عند علماء العرب الاقدمين . قال الانصاري : « علم المناظر علم يعرف منهُ احوال المبصرات في كميتها وكيفيتها باعتبار قربها وبعدها عن المناظر واختلاف اشكالها وأوضاعها وما يتوسط بين الناظر والمبصرات وعلل ذلك ، ومنفعتهُ معرفة ما يغلط فيه البصر من احوال المبصرات ويستعان به على مساحة الاجرام البعيدة والمرايا المحرقة ايضاً . . . » [٢] وقال الصفدي وعلم المناظر « علم ظريف للغاية ولابن الهيثم فيه كتاب جليل رأيته في سبع مجلدات ولشهاب الدين القرافي كراريس اودعها خمسين مسألة من المناظر سماها الاستبصار فيما تدركه الابصار . . » . ومن كتاب علم المناظر تبين ان ابن الهيثم هو الذي اضاف القسم الثاني من قانون الانعكاس القائل بأن زاويتي السقوط والانعكاس واقعتان في مستوًى واحد . أما القسم الاول من هذا القانون (وقد وضعه اليونان فهو زاويتا السقوط والانعكاس متساويتان — وقد ادخل في كتابه هذا بعض المسائل المهمة عرف بعضها باسم « مسائل ابن الهيثم » فمثلاً اذا علم موضع نقطة مضيئة ووضع العين ، فكيف نجد على المرايا الكرية والاسطوانية والمخروطية النقطة التي تتجمع فيها الاشعة بعد انعكاسها . واشتهرت هذه المسألة كثيراً في اوربا نظراً الى الصعوبات الهندسية التي تنشأ عنها اذ ينشأ عن حلها معادلة من الدرجة الرابعة استطاع ان يحلها (ابن الهيثم) باستعمال القطع الزائد . وصنع مرآة مكونة من بعض حلقات كرية ولكل منها نصف قطر معلوم ومركز معلوم اختارها بحيث ان جميع الحلقات تعكس الاشعة الساقطة عليها في نقطة واحدة . وقاس كلاً من زاويتي السقوط والانكسار وبين ان بطلميوس كان مخطئاً في نظريته القائلة بأن النسبة بين زاوية السقوط وزاوية الانكسار ثابتة وقال بأن هذه النسبة لا تكون

(١) سارطون مقدمة لتاريخ العلم ج ١ ص ٦٩٨ — ٧٢١ (٢) شمس الدين الانصاري ارشاد القاصد ١٠٧ و ١٠٩

ثابتة بل تتغير [١] ولكنه مع ذلك لم يتوفق الى ايجاد القانون الحقيقي للانكسار [٢] واستعمل لقياس زاويتي الانكسار آلة تشبه الآلة المستعملة الآن في اصول تركيبها : وله جداول ادق من جداول بطلميوس في معاملات الانكسار لبعض المواد [٣] . وقد شرح ابن الهيثم في كتبه بعض الظواهر الجوية التي تنشأ عن الانكسار فكان اسبق العلماء الى ذلك ، ومن هذه الظواهر التي ذكرها وشرحها الانكسار الفلكي اي ان الضوء الذي يصل الينا من الاجرام السماوية يعاني انكساراً باختراقه الطبقة الهوائية المحيطة بالارض ومن ذلك ينتج انحراف في الاشعة ولا يخفى ما لهذا من شأنٍ في الرصد . فمثلاً يظهر النجم على الافق قبل ان يكون قد بلغه فعلاً وكذلك نرى الشمس او القمر على الافق عند الشروق والغروب وهما في الحقيقة يكونان تحته . ومن نتائج الانكسار ان قرص الشمس او قرص القمر لا يظهر بالقرب من الافق مستديراً بل بيضويًّا . هذه الظواهر وغيرها استطاع ابن الهيثم تعليلها تعليلاً صحيحاً واستطاع ايضاً الوقوف على اسبابها الحقيقية. ومن الحوادث الجوية التي عللها الهالة التي ترى حول الشمس (او القمر) وقال بأن ذلك ينتج عن الانكسار حينما يكون في الهواء بلورات صغيرة من الثلج او الجليد فالنور الذي يمرُّ فيها ينكسر وينحرف مع زاوية معلومة وحينئذ يصل النور الى عين الرائي كأنه صادر من نقط حول القمر او الشمس فتظهر الاشعة في دائرة حول الجرمين المذكورين او حول احدهما [٤] . وهو من الذين لم يأخذوا برأي اقليدس واتباع بطلميوس القائل بأن شعاع النور يخرج من العين الى الجسم المرئي بل أخذ برأي ديموقريطس وارسطوطاليس القائل بأن شعاع النور يأتي من الجسم المرئي الى العين [٥] وقد قال أيضاً بالرأي الاخير بعض علماء العرب المشهورين كابن سينا والبيروني [٦] . وبحث في كتابهِ ايضاً في قوى تكبير المدسات . وقد تكون كتاباته هذه هي التي اوحت اختراع النظارات . وكتب في الزيغ الكرى وفي تعليل الشفق وقال انهُ يظهر ويختفي عند ما تهبط الشمس ١٩ درجة تحت الافق وان بعض اشعة النور الصادرة من الشمس تنعكس عما في الهواء من ذرات عائمة وترتد الينا فنرى بها ما انعكست عنهُ ، وبيَّن ان الزيادة الظاهرة في قطري الشمس والقمر حينما يكونان قريبين من الافق وهمية [٨] وقد علل هذا الوهم تعليلاً علميًّا صحيحاً لم يسبق اليه [٧] فبناهُ على ان الانسان يحكم على كبر الجسم او صغره بشيئين الاول الزاوية التي يبصر منها Angle of vision او زاوية الرؤية والثاني قرب الجسم او بعده من العين . والغريب ان البعض ينسب هذا التعليل الى بطلميوس ولم يدر ان بطلميوس قال ان الزيادة حقيقية اي انها غير وهمية وهو مناقض لقول ابن الهيثم

(١) سارطون — مقدمة لتاريخ العلم — ج ١ ص ٧٢١ (٢) كاجوري — تاريخ علم الفيزياء — ص ٢٢
(٣) دائرة المعارف البريطانية مادة Light (٤) قد يطول بنا المطال اذا اردنا ان نبحث في تعليل العرب لحوادث جوية اخرى كقوس قزح . وقد ارجأت ذلك لكتاب أعنى الآن بتأليفه يبحث في مآثر العرب في علم الطبيعة
(٥) كاجوري تاريخ علم الفيزياء ص ٢٢ (٦) كتاب تراث الاسلام Legacy of Islam ص ٣٣٥
(٧) كاجوري تاريخ علم الفيزياء — ص ٢٣ (٨) سارطون — مقدمة لتاريخ العلم — ج ١ ص ٧٢١

وابن الهيثم اول من كتب عن اقسام العين واول من رسمها بوضوح تام وقد اعتمد في بحوثه هذه على كتب التشريح التي كانت في زمانه ووضع اسماء لبعض اقسام العين واخذها عنهُ الافرنج وترجموها الى لغاتهم[١] فمن الاسماء التي وضعها « الشبكية Retina » و« القرنية Cornea » و« السائل الزجاجي Vitreous Humour » و« السائل المائي Aqueous Humour » وتقول دائرة المعارف البريطانية ان ابن الهيثم كتب في تشريح العين وفي وظيفة كل قسم منها وانهُ بيّن كيف تنظر الى الاشياء بالعينين في آنٍ واحد وان الاشعة من النور تسير من الجسم المرئي الى العينين ومن ذلك تقع صورتان على الشبكية في محلين متماثلين بينما اليونان قالوا بان الاشعة تخرج من العينين الى الجسم المرئي . وفوق ذلك هو اول من بيّن بان الصور التي تنشأ من وقوع صورة المرئي على شبكية العين تتكوّن بنفس الطريقة التي تتكوّن بها صورة جسم مرئي تمر اشعته الضوئية من ثقب في محل مظلم ثم تقع على سطح يقابل الثقب الذي دخل منهُ النور والسطح يقابله في العين الشبكية الشديدة الاحساس بالضوء فاذا ما وقع الضوء حدث تأثير انتقل الى المخ ومن ذلك تتكوّن صورة الجسم المرئي في الدماغ . وله ايضاً معرفة بخاصيات العدسات اللامّة والمفرّقة والمرايا في تكوين الصور[٢]

وبحث العرب في ظاهرة قوس قزح . نجد ذلك في تآليف قطب الدين الشيرازي الفلكية[٣] وقد شرحها في كتابه نهاية الادراك شرحاً وافياً هو الاول من نوعه . وكتب ابن الهيثم في المرايا المحرقة ولهُ في ذلك كتاب كما لغيره من علماء المسلمين في القرون الوسطى . وعرّف العرب هذا العلم بما يأتي : « هو علم يتعرف منهُ احوال الخطوط الشعاعية المنعطفة والمنعكسة والمنكسرة ومواقعها وزواياها ومراجعها وكيفية عمل المرايا المحرقة بانعكاس اشعة الشمس عنها ونصبها ومحاذاتها ، ومنفعته بليغة في محاصرات المدن والقلاع .. » وكانت ابحاث ابن الهيثم في هذا العلم جليلة دقيقة دلّت على احاطته الكلية بمبدأ تجمع الاشعة التي تسقط على السطح موازية للمحور بعد انعكاسها عنهُ وكذلك بمبدإ تكبير الصور وانقلابها وتكوين الحلقات والالوان[٤] وقد فاقت كتاباته في هذه البحوث كتابات اليونان[٥] . ولم يقف العرب في البحث عند هذا الحد بل تعدوهُ الى البحث في سرعة النور فقال البيروني ان سرعة النور اذا قيست بسرعة الصوت كانت عظيمة جدًّا وقال ابن سينا ان سرعة النور يجب ان تكون محدودة وبيّن الاسباب لذلك — وجاء في كتاب عجائب المخلوقات للقزويني في سبب رؤية البرق قبل سماع الرعد ما نصهُ : « واعلم ان الرعد والبرق يحدثان معاً لكن يُرى البرق قبل ان يسمع الرعد لان الرؤية تحصل بمراءاة البصر واما السمع فيتوقف على وصول الصوت الى الصماخ وذلك يتوقف على تموّج الهواء ، وذهاب النظر (اي سير النور) اسرع من وصول الصوت .. »

نابلس — فلسطين

(١) و (٢) كاجوري — تاريخ علم الفيزياء — ص ٢٣ (٣) سارطون — مقدمة تاريخ العلم ج ٢ ص ٢٣
(٤) و(٥) كتاب تراث الاسلام ص ٣٣٥

مصطلحات علم النفس

ومشكلة ترجمتها الى العربية

لمحمد مظهر سعيد

ذكرنا في مقال سابق اهم المصطلحات الانجليزية المتداولة في موضوع الشعور والاحساس والادراك بمراتبه المختلفة واستعرضنا نماذج مختلفة للترجمات العربية اقتبسناها من اهم المؤلفات التي تعتبر الى الآن حجة في علم النفس عند طوائف مختلفة من الناس ليعلم القارىء مبلغ الصعوبات التي يعانيها المؤلفون والمترجمون في تحديد معاني هذه المصطلحات ومقدار تضاربهم في ترجمة اللفظ الواحد ووعدنا ان نستكمل البحث بذكر مصطلحات اهم موضوعات علم النفس التي تتناولها المؤلفات العربية وسنتناول في هذا المقال موضوعات الذاكرة والتصور والخيال

﴿ الذاكرة Memory ﴾ تطلق اللفظة الانكليزية الآن في عرف العلماء المحدثين على عملية التحصيل (او ادخال ما يراد حفظه الى الذهن) وقوة الحفظ او الوعي الطبيعية وعملية التذكر او ارجاع المعلومات السابقة المحفوظة في الواعية الى مستوى الشعور مرة اخرى بعد ان كانت تطلق قديماً على قوة الحفظ او عملية التذكر. وقد ترجمها كل المؤلفين باللغة الصحيحة الذاكرة (او ملكة الذاكرة) ما عدا امين بك واصف فقد ترجمها حافظة (راجع مادة Memory في القاموس الملحق بالجزء الاول من كتابه اصول الفلسفة) اما الدكتور شرف فقد وضع لها في قاموسه المعروف كل ما يمكن وضعه من المترادفات بدون تمييز او تفضيل (الذاكرة المفكرة. ذهن. أذكار. القوة الحافظة. الحفظ. الواعية)

اما العملية الاولى Memorizing و Committing to Memory — تحصيل . فقد ترجمها الشيخ شريف هكذا (صفحة ٧٠) وعبد الرازق استذكار (ص ٢٨) والابراشي استظهار او تعلم (ص ٢٢٠ ج ٢) والعملية الثانية — Remenbering, Recall, Recollection, Reproduction — التذكر ترجمها شريف (ص ٣) استحضاراً بعد الانعدام (مع انها لم تكن معدومة) وفي موضع آخر (ص ٢٤) المدارسة — تأخذ قوتك الذاكرة في ان تحضر لك ما القاه عليك استاذك وما ترتبط به مما اودعته في ذهنك يوماً من الايام وفي موضع ثالث (ص ١١٦) تذكر وذاكرة — الذاكرة هي قوة الاستحضار — والجارم (ص ٥٦) ترجمها بالذكر (ولكنه قصره على اعادة ما ادرك بالحواس الى دائرة الشعور في حين انهُ يشمل الافكار القديمة التي خطرت للانسان في وقت ما ولم يكن قد ادركها بحواسه) . وعبد الرازق (ص ٢٨) وكذلك الابراشي (ص ٢٣٣ ج ٢) استحضار او تذكر . اما شرف فقد ترجم Reproduction بالانتاج . او التقدمة الثانية (والثانية هي ترجمة

(representation) اما قوة الحفظ او الوعي الطبيعية Retentivity الواعية فقد ترجمها شريف (ص١١٦) بالحافظة (وهي قوة ابقاء المعلومات في الذهن) . أما عمل الواعية Retention فقد ترجمه قنديل (ص ٣ ج ٢) الوعي او حفظ الآثار في النفس والابراشي عن قنديل (ص ٢٢٦ ج ٢) الوعي او الحفظ وغيرها الحفظ . وفي رأينا ان ترجمة قنديل الواعية والوعي ادق من الحافظة والحفظ لولا انها تختلط بما جرى عليه بعض المترجمين من ترجمة الشعور Consciousness بالوعي

اما الفوارق العلمية الدقيقة بين Recall, Recollection, Repooduction فلم يتعرض لها احد

وهناك ظاهرة اخرى تعتبر نوعاً او مرتبة اولية منحطة من مراتب التذكر . وهي المعروفة بكلمة Recognition — التعرف اي مجرد شعور الانسان بأن شيئاً يمر عليه الآن قد مرَّ عليه من قبل من غير ان يذكر ظروفه الزمانية والمكانية على التحقيق — وقد ترجمها شرف وحده — بالمعرفة والعرفان والاقرار

﴿ التصور Imagery ﴾ التصور هو عملية عقلية وظيفتها مجرد استحضار صورة في الذهن لشيء او موقف او تجربة مرت على الانسان من قبل . وليس التصور تذكراً بحتاً لان العقل يستحضر الصورة وحدها منعزلة عن سائر ظروفها الزمانية والمكانية كأنهُ لم يكن هناك شيء غيرها في مجال الشعور عند ما ادركها الانسان بحواسه والتذكر البحت يكون لشيء مرتبط بغيره من الاشياء في ظروف زمانية ومكانية خاصة وليس التصور كذلك خيالاً او تخيلاً لان التخيل يكون لشيء جديد على العقل لم يدركه او يجربهُ من قبل

وقد خلط كثيرون من علماء النفس الافرنج بين هذه العمليات العقلية الثلاث ومنهم اعلام كبار مثل James, Baldwin, Sully . وانت تجد هذا الخلط بعينه في ترجمة الذين اخذوا عنهم . ومما يزيد المسألة تعقيداً في العربية ان كلمة تصور تفيد في المنطق منذ ان وضع فهم الحقائق وبخاصة المدركات الكلية او المعنوية ولذلك وضعها واصف بك ترجمة لكلمتي apprehension و concept

اما الخيال فهو كما قدمنا عملية احداث تراكيب جديدة من عناصر التجارب الماضية المألوفة بعد التغيير في نظامها وترتيبها وعلاقاتها وتعديلها تعديلاً قليلاً يجعلها قريبة الشبه بالقديمة اوكبيراً يجعلها كأنها مبتكرة . واللفظة الانكليزية imagination تطلق على القدرة العقلية او الوظيفة وعلى العملية ذاتها وقد ترجموا المعنى الاول خيالاً او مخيلة (جرياً وراء مذهب الملكات العقلية) واعطى لها شرف كل هذه المترادفات (التظني . الخيال . الواهمة . المتخيلة . المخالة . الخيلولة) وترجموا المعنى الثاني تخيلاً وقال شرف (تخييل . خيال . ظن) ولكنهم على الرغم من ترجمة اللفظة الانكليزية ترجمة عربية صحيحة فقد خلطوا في شرح معنى الوظيفة والعملية بين الخيال والتذكر من جهة والخيال والتصور من جهة اخرى . فيقول قنديل (ص ٧٤) التخيل بمعناه الواسع هو شعور المرء بأشياء غير حاضرة . فهو استعادة المرء في ذهنهِ ما حصل عليه بالحس من قبل (وهذا تذكر لا تخيل) . وقال الشيخ شريف (ص ٨٠) اذا كان الحفظ متعلقاً بأشياء لها صور تُحسّ سمي تخيُّلاً (وهذا ايضاً التذكر بعينه) وفي (ص ١٣٣) الخيال هو مستودع المحفوظات التي وصلت الى الادراك عن طريق الحس او الوجدان

(وهذه هي الواعيـة) فهو حافظة مصورة (كذا) والتخيل هو استحضارها . واقربهم الى المعنى العلمي الصحيح هو الجارم عند ما يقول (ص١٧٣) التخيل ان يرسم العقل صوراً مستعيناً في رسمها بأحساس او وجدان سابق من غير ان تساعده الحواس أثناء التصور وعلى الرغم من ان الاستاذ قنديل يعرّف التصور تعريفاً واضحاً بقوله (ص٧٤) هو استعادة ما تركته الاحساسات والمدركات الحسية السابقة في الجهاز العصبي فهو يقول في (ص٧٥) التخيل هو مجرد تكوين الصورة العقلية (أي انه تصور صرف)

وللتخيل أنواع أربعة رئيسية . أولهـا الاستحضاري Reproductive ويطلق على استرجاع الحوادث او المواقف الماضية وانما بصورة تخالف الصورة الاصلية التي حدث بها وان اتفق معها في الجوهر (والاّ كان تذكراً صرفاً) كمن يروي بالقول منظراً رآه بالنظر او يكتب حديثاً سمعه . وقد فات الكثيرين هـذا المعنى الدقيق فاعتبروه تذكراً صرفاً او تصوراً صرفاً فقنديل يقول (ص ٧٩) التخيل بأوسع معانيه نوعان تصور او تمثيل استحضاري . تكون فيه الصورة العقلية مطابقة للمدرك الحسي فتتصور بالعقل ما ادركته فعلاً بالحواس من قبل وتستحضره في نفسك من غير قصد التغيير فيه والتبديل وفي (ص ٨٠) فكأن المرء في هذا النوع من التخيل يذكر أموراً حدثت له من قبل بالحواس ولذلك يطلق عليه التصور او التخيل الاستحضاري

ويقول الشيخ شريف (ص ٨١) التذكر المتوجه لصورة يسمى تخيلاً حضوريًّا ويمثل لهذا بالجنة والنار (ولا نفهم كيف ينطبق هـذا المثال على أي معنى يذهب اليه) ويقول الجارم (ص ١٤٤) ما دامت المحسات في الذهن على الوجه الذي ادركتهُ عليه كان التخيل حضوريًّا . ويقول حامد عبد القادر (ص ٢٥٠ ج ٢) التذكر هو التخيل الاستحضاري او التكراري

والنوع الثاني وهو الخيال المترجم Interpretive يستحضر الانسان فيه صورة لشيء او موقف لم يره هو من قبل ولكنهُ يسترشد بوصف يقرؤه عنه او حديث يسمعه ويتقيد بما يلقي اليه ويكون الصورة قياساً على ما يماثل من تجاربه الماضية عناصر الموقف الجديد

والثالث وهو الابتكاري Creative أو originativo وقد ترجمه قنديل (ص ٧٩) بالابتكاري والشيخ شريف الاختراعي او الحصولي وترجمهُ غيرها الانشائي والتأليفي والخلق وهو خاص بابتكار تراكيب جديدة صرفة . ويطلق على النوعين السابقين الخيالي التركيبي Constrouctive لان الخيال فيه يكون مطابقاً للواقع او ما يمكن ان يطابق الواقع او نتائج مباشرة للواقع او يمكن ان يوصل اليها الواقع فالتفكير فيه منطقي معقول وهناك نوع رابع يكون الخيال فيه غير منتظم ولا منسجم ولا متسلسل . لا ترتبط عناصره ولا تتآلف ولذلك يكون مخالفاً للمنطق والمعقول من مثل ما يحدث للانسان أثناء التهيؤات او البرحان او أحلام العبث ويسمى Fancy Imagination ولم نجد له ترجمة ولذلك نرتاح الى ترجمته بالخيال المفكك

وبعض المترجين ادخلوا التهيؤات العصبية Hallucination من ضمن أنواع الخيال فسموها تخيلات

كيف تطوّر الانسان

للسر آرثر طمسن

ترجمة : بشير الياس اللوسي

ترمي جميع ابحاث داروِن الى نتيجة واحدة هي ان الانسان وبقية الكائنات الحية ترجع الى اصل واحد هي — الخلية الحية — واستطاع ان يبرهن بقدر ما سمحت له الاستنتاجات العلمية على انتساب الكائن البشري الى اصل شبيه بالقرود او «الانثروبود» Anthropoid . فالانسان ينتمي الى رتبة الرئيسيات Order Primates من قبيل الحيوانات الثديية او اللبونة لانه يشترك معها في تركيب جسمه العام والاعضاء الأثرية في بدنه وكيفية نشوئه الجنيني ومقاسمته اياها بعض الامراض والطفيليات واخيراً لما بينه وبين القرود العليا من تماثل في تركيب الدم

﴿ استنتاجات داروِن ﴾ يقول داروِن في نهاية كتابه : أصل الانسان Descent of Man « يخيّل اليّ اننا بحاجة الى العلم بأن الانسان الذي يسمو على بقية الاحياء بمزاياه الرفيعة وعواطفه السامية واحسانه لابناء جنسه ولكل نَفَس حي ، ذلك الذي وهبته الطبيعة عقلاً راجحاً اخترق الحجب الكونية وأماط اللثام عن حركات النظام الشمسي ونشوئهِ ، لا يزال يحتفظ في بدنه بطابع أصله الوضيع الذي لا يمحى أثره »

بيد ان هذه الاستنتاجات تدعو الى السؤال والاستغراب . فكيف يصح ان يكون الانسان ابن عم بعيد لاحد القرود ؟ وما الذي يدلُّ على قرابته الشديدة برجل الغابة Bushman ؟ [1] وكيف تنشأ الكائنات الحية وتتطوَّر من خلية مجهرية واحدة هي بداية الجنين ؟ ليس مما يضير سمعة شكسبير ان يكون في نعومة اظفاره بليداً ولا مما يحطُّ منزلة نيوتن ان يكون في شبابه بائساً . وهكذا ليس مما يشين الانسان ان يكون منتسباً الى أصل وضيع !

واذا كان من نقد يوجه الى مذهب داروِن فذلك النقد صادر عن اساءة فهم للنظرية الداروينية وعدم تريث النقّاد لفهم الحقيقة . فما من عالم تطوري يقول بنشوء الانسان من القرود الوحشية

---

(١) تدل بقايا رجل الغابة على انه كان من القرود العليا الكثيرة الشبه بالانسان

المعروفة في الوقت الحاضر والرأي العلمي السائد الآن هو ان الانسان سليل جد مشترك Simians بينه وبين القرود العليا Higher Apes وقد تفرعت العائلة البشرية Humanoid من الاصل الانثروبودي منذ اكثر من مليون سنة

﴿ ثورة فلسفية ﴾ عند ما نتكلم عن أصل الانسان يجيبنا محدثنا بابتسامة تنم على شيء من السخرية ذلك لانه اذ يرى الانسان في منزلته الرفيعة بين سائر الكائنات لا يروقهُ ان يجابه بفكرة تقال من تلك الرفعة او تحط من تلك الكرامة في نظره . وكأننا بهِ يقول : أليس من السخافة بمكان ان اعتقد بنشوء الانسان من نسل القرود ، ذلك الذي تغلغل بعقله الثاقب الى عوالم النجوم وبحث في تاريخه ووضع النظريات الفلسفية عن علاقته بالحياة وذلّل الطبيعة وجعلها طوع بنانه ؟ فالانسان كما يعتقد مثل هذا الشخص ، بعيد عن الحيوانات اللبونة بعداً يصعب معه التسليم باشتراكه معها في النشوء والارتقاء . على اننا اذا لم نسلم بنشوء الانسان من ارومة الرئيسيات فالخيار الوحيد ان نفتكر بأنه نشأ — باعتبار نفسه العليا على الاقل — بطريقة تعجز الاساليب العلمية عن تعليلها . ولكن التخلي عن الاساليب العلمية والاستعانة على تفسير الحادثات الطبيعية بالطرق اللاهوتية يعد هرباً من البحث وتنصلاً من واجب الانسان في البحث والتحليل العلميين . واذا كانت ثمة مشكلات قد استعصى حلها لحد الوقت الحاضر فذلك لان الوسائل العلمية ما زالت قاصرة ومحدودة ومن الواجب علينا ان نحرص على البحث العلمي ونتجنب خلط المسائل العلمية بالاعتبارات اللاهوتية

﴿ القرود العليا والانسان الشبيه بالقرود ﴾ تفرّعت القرود الانثروبودية العليا Anthropoid Apes من ارومة قرود العالم القديم في العصر القليل الحداثة Oligocene وربما في مصر وذهبت القرود الانثروبودية الاولى تجوب اقاصي افريقيا واوربا وآسيا كما فعلت اسلافها القرود القديمة . ومنذ نيف ومليون سنة وفي اواسط العصر المتوسط الحداثة Miocene Period — وربما في شمالي الهند — انتقلت العائلة البشرية من القرود الانثروبودية الجبارة التي ارتقت تدريجيًّا الى الانسان الوحشي (الاورانغ Orang والبعام والغورلّى المعروفة في الوقت الحاضر . ولكن العائلة البشرية تقدمت في الحياة زمناً طويلاً قبل ان نشأ الانسان ولدينا من الادلة ما يؤكد تعاقب « الانسان الوحشي المجرّب » Tentative Man الذي وجدت له آثار مؤلفة من قطع صغيرة هي كل ما عرفناه عن شكله الغامض . وأوطأ أنواع ذلك الانسان الشبيه بالقرود هو الذي سمي بـ Hesberepitheeus — وقد سكن العالم الغربي — لم يخلف لنا الا سنًّا واحداً من اوائل العصر الكثير الحداثة Pliocene في نبراسكا . فليس من الدقة العلمية في شيء ان نتخلص الى استنتاج عام من سن واحد . ولكن اذا كان انسان نبراسكا حقيقيًّا وجب ان نبحث عن كيفية وصوله الى هناك فهذا ما نجهله كل الجهل

﴿ الانسان المجرب Tentative Man ﴾ نقرأ في كتاب « قِدَم الانسان Antiquity of Man » لمؤلفه السر آرثر كيث حكايات طريفة عن بعض انواع الانسان المجرب الشبيه بالقرود وأهمها

البيثيكانثروبس المعتدل Pithicanthropus the Erect المكتشفة آثاره في جاوة Java والايوانثروبس Eoanthropus صاحب جمجمة « بلتدون Piltodwn »

ويجب ان نضيف اليهما الكنز الذي عثر عليه « البروفسور رايموند دارت » في « تونغز Taungs » — التي تبعد نحو ٨٠ ميلاً شمالي كمبرلي في بيجوانالاند — وكانت الآثار التي عثر عليها محفوظة بين متحجرات اخرى في صخرة كلسية على نحو ٥٠ قدماً تحت سطح الارض . وتتألف هذه الآثار من عظام الوجه وبقايا جمجمة اكتشفت فيها الاوصاف التالية بعد الدرس الدقيق : جبهة مرتفعة ، عدم وجود أخاديد نائتة في حجاجي العين ؛ القسم الاسفل من الوجه يحاكي الشكل البشري ، الاسنان التي يظن انها من النوع الحليبي تشبه الاسنان البشرية شبهاً واضحاً . ويرجح ان هذا المخلوق الذي سمي فيما بعد Australopithecus Africanus كان مرتفع الرأس لا يرخيه كثيراً كما تفعل القرود الحالية . وهناك ما يدل على وجود دماغ كبير نسبيًّا وقد ظهر نقص في هذه الناحية عندما قوبل بدماغ غورلّى . وربما يعزى هذا النقص الى ان هذا الكائن البشري الذي حفظته لنا الصخور صدفة لم يكن انساناً بالغاً

***

يستنتج من ذلك ان جمجمة « تونغز » تتوسط بين جمجمتي « الانثروبويد » و « الهومينيد Hominid » ولا يستبعد انها تنتسب الى سلف واحد يرجع هؤلاء الاثنان اليه . ولهذه الجمجمة ميزات بشرية اكثر مما لجمجمة اي انثروبويدٍ آخر

ويظن ان « الهومينيد » تفرَّع الى خطوط جانبية نشأ من احدها نوع الانسان الحديث . ويجب ان لا يعزب عن بالنا ان الانسانين المجريين (البيثكانثروبس والايونثروبس) هما على جانب عظيم من الشأن في تعيين خطوات التطور ولو انهما يقعان بعيداً عن خط التقدم الرئيسي . ان اكتشاف آثار بشرية عديدة في مدة قصيرة نسبة يقوي الامل باكتشاف آثار اخرى في المستقبل

﴿ الانسان اخيراً ﴾ ان اقدم نوع species عرف عن جنس الانسان genus Homo هو انسان هيدلبرغ Heidleberg man ثم عقب « انسان روديسيا Rhodesian man » وبعده بزمن طويل « انسان نياندرتال Neanderthal man » . على ان الانسان الحالي لا ينتسب مباشرةً الى اي واحد من هؤلاء وما هم في الواقع سوى فروع جانبية نشأت من اصل واحد ويطلق على مجموع هذه الانواع « جنس الانسان Homo » الذي ينتسب اليهِ « نوع الانسان العاقل species Homo Sapiens » وبالرغم عن اشتراك جميع هذه الانواع البشرية في معركة الحياة فانها لم تنل الظفر الذي حازه نوع الانسان العاقل لجعل منهُ سيداً على بقية الكائنات . وتشعبت من نوع الانسان العاقل جميع السلالات التي نعرفها الآن وهي السلالات الاسترالية والزنجية والمغولية والالبية وسلالة البحر الابيض المتوسط والشمالي وقد استمر اختزال السحنة السوداء التي تشترك فيها الطائفة البشرية Human family مع الغورلّى

والبعام من السلالات الشمالية اكثر من غيره وبذلك اصبحت هذه السلالة تتميز عن بقية السلالات ببياض سحنتها مع العلم بانها لا تخلو من سمات حياتها الابتدائية

قد لا يدرك الفلاسفة اللاهوتيون الذين ينظرون الى جهود الانتروبولوجيين نظرة هزء وسخرية سموّ عملية التطور العظيمة التي انشطر فيها جذع الرئيسيات Primates الى جملة فروع بالتتابع وهي :

(١) فرع قرود العالم الجديد
(٢) فرع قرود العالم القديم
(٣) فرع القرود العليا الصغيرة (الغبون Gibbons)
(٤) فرع القرود الانثروبودية العليا
(٥) فرع الهومينيد

ان القرود الدنيا المعروفة في الوقت الحاضر لم ترتق الى درجة القرود العليا apes ولكن جميعها ترجع الى اصل واحد كان قد انشطر في القديم الى خطين كبيرين (١) خط القرود الدنيا و(ب) خط القرود العليا . وكذلك لم تصل القرود العليا المعروفة في الوقت الحاضر الى درجة الانسان بل كان هناك جذع انثروبودي عام انشطر الى (١) القرود العليا الحديثة غير المتقدمة نسبة و(ب) الهومينيد المتقدمة نسبة . وقد رأينا ان اجناساً عديدة من الهومينيد نشأت قبل الانسان القديم «Homo» ولكنها لسوء الحظ لم تترك بقايا كافية لتنويرنا عن اشكالها واوصافها الحقيقية الاّ ما دلّ منها على الانسان المجرّب

***

ولكن الم تستمر عملية الانتقاء بعد نشوء جنس الانسان Homo ؟ اذ يظن ان انسان نياندرتال Neanderthal الذي كان انساناً حقيقيًّا يحسن استعمال النار ويدفن موتاه هو محاذٍ وليس بجدٍّ لنا . ان البحث لا يزال في طفولته والادلة ما زالت ناقصة ولعلّ الاستنتاج الوحيد الذي نستطيع ان نخلص اليه هو ان اجناساً بشرية متوحشة عاشت قبل نشوء الانسان الحالي بزمن طويل وكانت تلك الاجناس تفني حياتها في التجربة والاختبار وتعمل فيها الطبيعة انتقاءها وعلى أثر ذلك تفرعت الشجرة النسبية الى اغصان كبيرة وهذه الى اغصان اصغر فاصغر وهلمّ . ان جميع الذين يدركون حقيقة التطور يستنكرون التعبير الخاطىء بان الانسان وليد القرود

﴿ الحلقة المفقودة ﴾ لا نستطيع التصور ان الانسان الحالي نشأ فجأة في طائفة غير بشرية ولكن الذي يتفق ومعرفتنا الحاضرة هو ان نفترض ان نشوء الصفات الانسانية العليا كالعقل واللغة كان فجائيًّا ويبدو لنا في كثير من الحالات ان التطور كان بشكل وثبات كبيرة يحصل منها تقدم عظيم في خطوة واحدة

وطالما نعترف الآن بان النبوغ ذو مظهر فجائي كذلك يجوز علميًّا ان نفرض ان التحوُّلات الفجائية Mutations حصلت خلال ارتقاء الانسان في سلم التطور. على اننا في الواقع لا نفهم العوامل المؤدية الى حدوث مثل هذه التحوُّلات الفجائية بل نعلم بحدوثها وعما تنطوي عليهِ من قوة تخلدها للاجيال المقبلة

ولا بدَّ لنا من الاعتراف بان الحلقة المفقودة لا تزال مفقودة وبكلام آخر اننا لم نتوصل حتى الآن الى معرفة نوع منقرض يصح اعتباره جدًّا مشتركاً للطائفة البشرية Hominid والقرود الانثروبودية العليا. هذا من جهة، ومن جهة اخرى توجد كما رأينا كائنات منقرضة كالبيثكانثروبس التي يجب اعتبارها «هومينيدية» بالرغم من انها ليست من نوع الانسان الحديث. اذن فمن الخطإ ان يذهب البعض مع الذين لم يدركوا معنى التطور العضوي الى «ان القرد تحوَّل الى انسان»

***

نشأ من الاساس العام لفرع القرود الانثروبودية العليا فرع آخر هو «الهيومانويد» Humanoid وهي طائفة بشرية قديمة وتشعب من هذا الفرع الاخير غصنان صغيران كان الانسان «Homo» احدهما والانسان العاقل Homo sapiens ثانيهما. اذن لم يكن هناك انسان اول — كما يعتقد الكثيرون — كما لم يكن هناك حنطة اولى او حصان اول. ويظن ان نشوء الانسان من الهيومانويد كان بفعل التطور والارتقاء الطبيعي والى هذه العوامل نفسها يعزى تحوُّل بعض انواع الانسان القديم الى الانسان العاقل

﴿عوامل ارتقاء الانسان﴾ لعلَّ اوجه الاعتراضات على نظرية ارتقاء الانسان الداروينية هو انها اذ تدلنا على اصل الانسان البعيد تجعلنا في موقف مشوّش لا ندري فيه كيف حصلت تلك التطورات العظيمة. وبكلام آخر لا نعلم لحد الآن شيئاً كافياً عن العوامل التي كان لها النصيب الاكبر في نشوء الانسان وتطوره المستمر حتى بلغ حالته الراهنة. وكل آرائنا في هذا الباب لا تتعدى القول بأن الانسان الحالي ينتسب الى رتبة كانت تسير الى الامام من حيث تقدم الدماغ وتعدد الكلمات وازدياد العلاقات الاجتماعية. وعند ما تفرع الهيومانويد من الانثروبويد في العصر المتوسط الحداثة حدثت وجوه ارتقاء في الدماغ عظيمة ولكننا لا نعلم لماذا لم يحصل تقدم كهذا في رتب اخرى من اللبونات كرتبة ذوات الاظلاف Ungulates وغيرها. ومهما يكن الحافز لذلك التقدم فالحقيقة واحدة وهي ان تقدم الدماغ ميز الرئيسيات Primates عن سائر الحيوانات ومما لا ريب فيه ان الانسان غالب انسباءهُ في التقدم فغنم المعركة وغنم السيادة

***

قد يكون من الخطر بمكان ان نفترض أن اسلاف الانسان هجرت الاشجار بينما ظلَّت القرود الدنيا والقرود العليا ملازمة لها وقد نعلّق شأناً خطيراً على انتصاب الانسان وما عقبه من نمو قابلية

التكلم ، ولعلنا نجد مغزى جديراً بالاهتمام في طول المدة التي يقضيها الجنين البشري في رحم امه كما في طول مدة الطفولة التي من شأنها ان تقوي الحياة الاجتماعية وما يلازمها من عطف وحنو بين افراد البشر . ان جميع هذه العوامل تعمل في حقول صالحة فالعطف العائلي يوثق علاقات المجتمع ويسمو بها الى الحب والتعاون ، وارتقاء الدماغ يقوّي لغة الكلام ويزيد كفاءة الفرد والعناية الوالدية هي مبعث العطف والرقة والنبل والعامل في تخليدها في النسل . ان جميع المباحث الحائمة حول هذا الموضوع تؤول بنا الى الابتعاد عن تصور الانسان الابتدائي بحالة تنطوي على شيء كثير من القسوة والغباوة والدعارة وحب القتال وهناك من الادلة ما يسوّغ اعتبار ذلك الانسان القديم على جانب من المهارة والعطف والمجازفة والاقدام والابتكار

﴿ نظرية البروفسور إليوت سمث ﴾ للبروفسور إليوت سمث Prof. Elliot Smith احد علماء التشريح وزعماء فكرة التطور نظرية في نشوء الانسان يقول فيها « يمكننا ان نعتبر الانسان كنتيجة لارتقاء الدماغ في اتجاه خاص ترجع بدايته الى زمن السعادين المسماة Tree-shrews او Tarsioids فربما حدثت تحوّلات فجائية Mutations آلت الى نشوء الانسان Homo في العائلة البشرية القديمة الهيومانويد Humanoid او «الانسان العاقل» في الـ Hominids . ولكن حصل وراء هذا النشوء ارتقاء عظيم في الناحية العقلية ظهرت دلائله في مقدرة الدماغ على التخيل من جهة وعلى تنظيم الاعمال البشرية المعقدة من جهة اخرى »

﴿ البصر يتغلب على الشم ﴾ نجد في تاريخ تطور الانسال الحيوانية امثلة عديدة يتجلى فيها التقدم المستمر في ناحية معينة وربما كان هو الواقع في نشوء الانسان . فقد تطور في خط من النمو يتميز بارتقائه في قوى التخيل والمهارة اليدوية واتساع حجم الدماغ في مقدمة الجبهة الذي يرجع اليه الفضل في قوة الانتباه وتنظيم الاعمال الفكرية يضاف الى ذلك نمو الحب العائلي وما يلازمه من تقدم في الكلام وما يتضمنه من استعمال الكلمات كمعدات في تجارب التفكير وسواعد في الحياة الاجتماعية

***

وقد وضع البروفسور إليوت سمث رسماً تخطيطيّاً حريّاً بالذكر في هذا المقام يتضمن هذا الرسم مقابلة ادمغة بعض السعادين مثل Tree-shrews و Tarsiers و Marmosets اظهر فيها التناقص التدريجي لمنطقة الشم والنمو التدريجي لمناطق البصر والسمع واللمس والذكاء والانتباه وما يصدق على « المرموست » وهو أقدم القرود الحية ، يصدق اكثر من ذلك على القرود العليا والانسان بوجه خاص . فالمقابلة بين اوطأ دماغ بشري معروف وأرقى دماغ لغورلّى معروف يظهر البون شاسعاً بين الاثنين

الآثار الاسلامية القديمة

ببغداد

لمصطفى جواد

١ — ماذا بقي من مدينة أبي جعفر المنصور ؟

أصبحت بغداد مثالاً لتغير المدن وتحوّلها وتطوّرها ، فلقد تداولتها أيدي الطبيعة وأيدي البشر ، فعفّت على آثارها وطمست حضارتها وزخرفها ، وشوّهت محاسنها ، فهي ثكلى المدن وسجل المصائب ومدفن العسف والعبث ، ولذلك قلنا في رثاء الملك فيصل الاول :

ثبّت العرشَ في مهاوي عروش ‏ قد رماها الزمان رمياً وبيلا

كانت تحرق أو تهدم قصورها ودورها وتغير عليها دجلة حيناً بعد حين فتجعل عامرها كغامرها وآهلها كموحشها ، وتتكانف عليها الاحداث فتضع من مكانتها وتبعد الناس عنها ، وكانت يد العسف والانتقام تسطو على العمارة والحضارة ، حتى ان ابن بسّام الشاعر لما نعى على أحد الوزراء ما نعى قال له :

بجنبك داران مهدومتا ‏ ن ِ ودارك ثالثة تهدَمُ
فليت السلامة للمنصفيـــــنَ تدومُ فكيف لمن يظلمُ ؟

فعلمنا ان داري وزيرين قد هدمتا بجانب دار هذا الوزير ويخطر ببالي انه «ابن الجراح» واليوم لا ترى عمارة من مدينة المنصور المدوّرة ولا أثراً ، وآخر الحوادث الخاصة بالقبة الخضراء العظيمة التي بناها المنصور بجوار جامعه انجدرانها وقعت في سنة «٦٥٣» هـ أي قبل سقوط الدولة العباسية بثلاث سنوات ، وكانت عاليةً ينظر الجالس منها من يخرج من الأنبار [1] ، وكان المنصور يجلس فيها متنزهاً ، وما زال الخلفاء يجلسون فيها للفرجة الى أيام الرشيد ثم هجرت وصارت مأوى للبوم والغربان ، وكان بعض الفقراء مجاوراً في جامع المنصور ، فقال في القبة لما رأى ما آلت اليه حالها :

يا بومة القبة الخضراء قد أنست ‏ روحي بروحك اذ يستبشع البومُ
زهدت في زخرف الدنيا فاسكنك الـــربع الخراب فمن يذممك مذموم [2]

(١) الأنبار ذات حوادث عظيمة في تاريخ الاسلام، ولم يهتد أحد الى موضعها بعد . وجاء «في فوات الوفيات بترجمة السفاح « بنيت له الهاشمية الى جانب الأنبار وبها قبره وهي المعروفة الآن بالأنبار لان الاولى درست ١ : ٢٣٢»

(٢) الحوادث الجامعة لعبد الرزاق بن الفوطي (ص ٩٤ من نسختنا الخطية)

وجهل الناس موضع مدينة المنصور فلم نجد الاَّ دليلاً واحداً يعين لنا موضعها وهو المسجد المعروف بمسجد « المنطقة » وترى صورته الحاليَّة ذات الرقم « ١ » . قال صفي الدين عبد المؤمن ابن عبد الحق الحنبلي المتوفي سنة «٧٣٩» هـ « سونايا » : بضم أوله وبعد الواو الساكنة نون وبعد الالف ياء مثناة من تحت وألف مقصورة ، قرية قديمة كانت ببغداد ينسب اليها العنب الاسود الذي يتقدم ويبكر على سائر العنب . . . ولما عمرت بغداد دخلت في العمارة وصارت محلة من محالها وهي « العتيقة » وبها مسجد لعلي بن أبي طالب يعرَف بمشهد المنطقة »[1]

فهذا هو الموضع الوحيد المحافظ على اسمه من مدينة المنصور المدوَّرة . وحوادثه مفصلة في تاريخ الخطيب ومناقب بغداد لابن الجوزي الصغير قتيل هولاكو ، وكتب رجال الشيعة مثل «رجال النجاشي» ومسجد المنطقة اليوم في غرب بغداد وقد اتخذه الشيعة مقبرة وفيه حجرة بها اسطوانة سمَّاقية اللون من الرخام يزعم العوام ان الماء نبع منها لما احتاج الامام علي — عليه السلام — الى الماء

٢ — منارة مسجد قمريَّة

ومن الآثار الاسلامية العباسية « منارة مسجد قمرية » ببغداد الغربية اليوم ، وهي التي ترى صورتها مرقومة بـ « ٢ » فهذه المنارة متقنة البناء جميلة التنسيق ، حافظت لنا على طرز من البناء في عهد بني العباس ، قال عبد الرزاق ابن الفوطي في حوادث سنة «٦٢٦» من خلافة المستنصر بالله «وفي شعبان تكامل بناء المسجد المستجد [2] بالجانب الغربي على شاطىء دجلة المقابل للرباط البسطامي ونقل اليه الفرش والآلات وقناديل الذهب والفضة والشموع وغير ذلك ، وفتح في شهر رمضان ورتب فيه مصليًا الشيخ «عبد الصمد بن أبي الجيش» وأثبت فيه ثلاثون صبيًّا يتلقنون القرآن عليه ورتب فيه معيد يحفظهم التلاقين ورتب أيضاً فيه الشيخ حسن بن الزبيدي محدثاً يقرأ عليه الحديث النبوي في كل يوم اثنين وخميس ورتب ايضاً قارىء للحديث وجعل في المسجد خزانة للكتب حمل اليها كتب كثيرة [3] » وبقية أخبار هذا المسجد في الحوادث الجامعة وغيرها وانما نحن نذكر الضروري

٣ — المدرسة المرجانية

يسميها الناس اليوم «جامع مرجان» ويرى في الصورة الثالثة بابها ومنارتها والقبة التي دفن تحتها « مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن » والي بغداد في أواسط القرن الثامن للهجرة ، وهذه الصورة رسمت بعد ما هدم الأزج الذي كان أمام المدرسة ، أمر بهدمه «خليل باشا» القائد العام في العراق وفارس زمن الحرب العامة لاشتقاق الشارع المعروف اليوم بشارع الرشيد وسمي اذ ذاك « خليل

(١) مراصد الاطلاع على الامكنة والبقاع (ص ٢٢٩ من طبعة ايران)
(٢) وفي الحاشية زيادة « المعروف بقمرية » وهي بخط المؤلف كما في النسخة التيمورية
(٣) الحوادث الجامعة (ص ١ من نسختنا الخطية)

باشا جاده سي » وقد رمم باب المدرسة المرجانية في عهد الحكومة العربية فأصبح هو والطاق — على ما ترى — في الصورة الرابعة

وفوق باب المدرسة كتابة بديعة تمثل أحسن ما وصل اليه الخط العربي من التحسين في اواسط القرن الثامن للهجرة ويظهر من هذه الكتابة ان أم السلطان الشيخ الجلايري (من المغول) أمرت ببنائها ودونكها وان عفا الزمان بعض كلماتها :

« بسم الله الرحمن الرحيم انما يخشى الله من عباده العلماء ، أنشأ هذه المدرسة المباركة والمصلّى من صدقات . . . . السعيد . . . . أنار الله برهانها في دولة ولدها النويان (١) الأعظم الـ . . . السعيد شيخ حسن . . . الله وكملت في ايالة ولده النويان الاعظم ناشر العدل في العالم سلطان السلاطين غياث الدنيا والدين ومغيث الاسلام والمسلمين شيخ أويس نويان . . . الله دولتهُ بمولاهم الصاحب الاعظم ملجأ وملاذ الامم مربي الملوك وعضد السلاطين وكهف الضعفاء المخصوص بعناية الرحمن امين الدين مرجان أسبغ الله عليـهِ نعمه الجز [يلة] إنهُ هو الكريم المنّان ، ابتدأ عمارة هذا المكان في تاسع جمادى . . . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد نبي الرحمة وشفيع الامة ومجلّي الغمّة وعلى آله وصحبهِ الطيبين الطاهرين والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين ، كتبهُ العبد الضعيف المحتاج الى رحمة الله تعالى احمد شاه النقاش المعروف بزرين قلم التبريزي غفر الله ذنوبه وستر عيوبه »

وفي وجه هذه المدرسة من الريازة العجيبة والزخرف البنائي البديع والنقش الجميل ما يبهر الناظر ويدهش الالباب ويذكر بفنون دارسة يعجز عن تقليدها بناة القرن العشرين أبداً ، وفي داخل المدرسة كتابات متعدّدة ولاسيما المُصلّى ، فقد رقمت على جدرانه « وقفية المدرسة المرجانية » قال عبد الله بن فتح الله البغدادي الملقب بالغياث في تاريخ السلطان اويس بن الشيخ حسن ثاني سلاطين الدولة الجلايرية بالعراق « بويع بالسلطنة ببغداد سنة ستين وسبعمائة وكان محبّاً للخير والعدل شهماً شجاعاً عادلاً خيراً وكان له من العمر عشرون سنة حين بويع وخطب له بمكة وارسل الى مكة مالاً جليلاً وقناديل ذهب وفضة للكعبة تخطب باسمه في الحرم الشريف وكان والي مكة حينئذٍ « عجلان ابن رميثة » . . . واتفق في زمان السلطان اويس عمارة عظيمة لم يتفق في دور احد السلاطين مثلها منها المدرسة المرجانية ودار الشفاء (٢) واسواق وخانات عمّرها « مرجان » آغا وكان طواشيّاً (٣) رومي الاصل يلقّب امين الدين مرجان ، وكان اذا توجه السلطان الى تبريز تولّى مرجان على بغداد . . . وكان مرجان رجلاً خيّراً استأنف عمارات وجدّد عمارات دائرة من قديم ثم اوقف عليها العقار

(١) النوين بفتح النون واشمامها الضم وتسكين الواو وفتح الياء و «النويان» هو السلطان والامير عند المغول
(٢) دار الشفاء كانت على ضفة دجلة الشرقية وتعرف اليوم بقهوة الشط بل كانت اوسع كثيراً
(٣) الطواشي المملوك

والضياع — كما نطقت بهِ وقفيته — ونقر ذلك على جدران العمارات وكان لهُ خيرات على الفقراء والمساكين حتى اطعم السنانير والزراريق وحيتان الشط والطيور من اللحم والخبز والشيلم في صحن دار الشفاء وصحنها على جانب دجلة »[١]

٤ — خان مرجان

وهو الذي ترى بعض بابهِ وما فوقه من الكتابة في الصورة ذات الرقم « ٥ » والخط يمثل أحسن ما وصلت اليهِ قواعد الخط في اواسط القرن الثامن للهجرة في العالم الاسلامي كافة ، ويسمي الترك هذا الخان « اوروتمة » لظلامه ، وهو من العمارات المدهشة حقاً ، ودونك ما فوق بابهِ الغربي الشمالي من الكتابة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، امر بانشاء هذا النيم [٢] والمنازل والدكاكين المولى المخدوم الامير الصاحب الاعظم الاعدل ملك ملوك الامراء في العالم صاحب العدل الموفور عضد السلطنة والامارة حاوي مرتبة الامارة والوزارة افتخار شُهَّد الاوان المخصوص بعناية الرحمن أمين الدين مرجان الاولاقايتي ، وقفها على المدرسة المرجانية ودار الشفاء بباب الغربة ، كذلك عقرقوف والنصف من القائمية وتل رحيم ومزرعة بالصراة وبساتين بالمخرّمية وبساتين بقرية القرك والزادمان وخرماباد ورباط جلولا المعروف بقزلرباط وززين جوي ونصف دوري وبساتين بيعقوبا وبوهرز والبندنيجين وخان ودكاكين بالحلبة واربع خانات ودكاكين بالجوهريين وخان بالجانب الغربي ودكان كاغد بالحريم — كما هو محدود مشروح في الوقفية — وقفاً صحيحاً شرعيّاً تقبل الله منهُ الطاعات في الدارين وبلغهُ نهاية المراد ، وكان الفراغ منهُ سنة ستين وسبعمائة ، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي العربي الصادق وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه وسلم ، كتبهُ الفقير الى رحمة ربهِ احمد شاه النقاش المعروف بزرين قلم غفر الله ذنوبه »

٥ — باب كلواذى (البصلية)

والرسم السادس لباب كلواذى من ابواب بغداد الشرقية المسوّرة ويعرف ايضاً بباب البصلية وتظهر فيهِ مرامي السهام وصفتها انها كالكوّة الصغيرة من داخل سور الباب وكالشباك من خارجه ليجد الرماة متسعاً لتوجيه السهام وتصويبها إلى نواحٍ كثيرة ، ولهذا الباب ذكر كثير في التاريخ ، وقد رمم واتخذتهُ الناقلة الانكليزية البروتستانية كنيسة لها حتى هذه الايام

القاهرة مصطفى جواد

(١) التاريخ الغياثي عن نسختنا الخطية (٢) النيم هو النصف بالفارسية ، والظاهر انهم كانوا يريدون به « نصف سرداب » لقلة دركاته

القضاء في السودان

لخليل الخوري
القاضي بمحاكم السودان سابقاً

القضاء المدني

القضاء السوداني يختلف في شقيه المدني والجنائي اختلافاً جوهريّاً عن القضاء المصري او غيره في الاقطار العربية المجاورة ولقد رأيت ان اورد لمعة عن القضاء المدني السوداني في هذه المقالة اذكر فيها ما كان مختلفاً عما هو مألوف في مصر وغيرها

يمتاز القضاء المدني السوداني عن القضاء المدني في غير السودان في مسائل شتى منها :—

اولاً — وحدة المحاكم — المحاكم المدنية مختصة بالنظر والحكم في جميع المسائل المدنية فيتناول اختصاصها الاحوال الشخصية على الاطلاق عند غير المسلمين والمسائل المدنية والتجارية وغيرها وسبب هذه الوحدة هو عدم وجود الامتيازات الملية والقنصلية او المختلطة او غيرها من الامتيازات التي احدثت في مصر وغيرها بلبلة في القضاء وادّت الى تنازع الاختصاص الذي ضجّ منهُ الناس . . والمسلمون وحدهم لهم محاكمهم الشرعية للنظر والحكم في احوالهم الشخصية . فالمحاكم السودانية الاعتيادية لها سلطة على جميع الاشخاص وعلى جميع المسائل الاّ ما تعلق منها باحوال المسلمين الشخصية

ثانياً — القانون المدني الذي يطبق في المحاكم — ليس في السودان قانون موضوع في المسائل المدنية كالبيع والاجارة والاعارة والوديعة وامثالها من الموضوعات المدنية المعروفة ولكن الحكومة وضعت بعض قوانين للشركات والافلاس والكمبيالات والرهن العقاري وموضوعات اخرى وهذه يجب على المحاكم تطبيقها اما المسائل التي ليس لها قانون خاص فالمحاكم تعمل فيها بحسب مقتضى العدل والانصاف والضمير

ثالثاً — تشكيل المحاكم واختصاصها — في السودان قسمان من المحاكم : الاول المحكمة العليا والثاني محاكم المديريات

اما المحكمة العليا فمؤلفة من رئيس القضاء ومن قضاة آخرين . ومركز المحكمة العليا في الخرطوم ولها اختصاص ابتدائي واستئنافي — فتشكل المحكمة الابتدائية العليا من قاضٍ واحد من قضاة المحكمة العليا يجلس منفرداً للنظر والحكم في جميع المسائل التي ترفع اليهِ كائنة قيمتها ما كانت — واذا قلنا المحكمة العليا فلا يتبادر الى الذهن ان هنالك محكمة مؤلفة من عدد من هؤلاء القضاة للنظر في القضايا مشتركين بل المحكمة العليا كناية عن قاضٍ واحد يرأس المحكمة وينظر في جميع المسائل وحده واذا وجد اكثر من واحد من هؤلاء القضاة فيناط بكل منهم قضايا خاصة او اعمال تشريعية . فقد حدث في وقت من الاوقات ان كان في الخرطوم خمسة قضاة في المحكمة العليا — رئيس القضاء وعمله الاساسي الاشراف على المحاكم في السودان والنظر في استئنافات خاصة وحده والقيام باعمال محكمة نقض وابرام في المسائل الجنائية وحده ورآسة محكمة الاستئناف العليا المدنية — وقاضي محكمة الخرطوم العليا المنوط به النظر في القضايا الابتدائية المختلفة في مديرية الخرطوم كلها والنظر في تظلمات خاصة من احكام القضاة الجزئيين والانضمام في بعض الاحوال كعضو في محكمة الاستئناف العليا للنظر في الاستئنافات التي ترفع في احكام قضاة المحكمة العليا واحكام قضاة المديريات . وقاضي الافلاسات والتنفيذات المنوط بهِ اعمال الافلاس وتنفيذ الاحكام . وقاضي التشريع المنوط بهِ وضع القوانين واللوائح والمنشورات بالاتفاق مع السكرتير القضائي وسائر رجال القضاء لعرضها على مجلس الحاكم العام . ومسجل الاراضي العام الذي هو في الواقع مدير اعمال التسجيل في السودان وليس لهُ عمل قضائي وانما هو قاضٍ من قضاة المحاكم العليا . وجميع هؤلاء القضاة كلهم منهم مَن لهُ عمله الاساسي الذي يستغرق اوقاته وعلاوة على ذلك قد ينتدب لعمل قضائي آخر . وفوق هؤلاء السكرتير القضائي الذي يشغل منصب وزير الحقانية وهو قاضٍ ايضاً وفي بعض الاحايين يرأس محكمة الاستئناف العليا . وليس هنالك اذن محكمة استئناف دائمة او ثابتة كما هي الحال في مصر او غيرها ولكن رئيس القضاء هو الذي يشكل عند الاقتضاء محكمة الاستئناف من ثلاثة قضاة فيرأس المحكمة هو او يرأسها اقدم قاضٍ بعده على رأي رئيس القضاء وفي بعض الاحوال اذا لم يكن ثمة عدد كافٍ من قضاة المحكمة العليا لتشكيل محكمة الاستئناف العليا فقد ينضم السكرتير القضائي الى المحكمة ويرأسها في هذه الحالة

***

اما محاكم المديريات فتكون في المديريات التي لم تنشأ فيها محكمة عليا اي لم يعين فيها قاضٍ من قضاة المحكمة العليا وتتنوَّع محكمة المديرية الى محكمة قاضي المديرية ومحكمة قاضٍ جزئي من الدرجة الاولى ومحكمة قاضٍ جزئي من الدرجة الثانية ومحكمة قاضٍ جزئي من الدرجة الثالثة — وهؤلاء القضاة يحكم كل منهم منفرداً في القضايا المدنية واختصاص محاكمهم يختلف باختلاف درجاتهم فيحكم قاضي المديرية والقاضي الجزئي من الدرجة الاولى في جميع المسائل بلا قيد ولا شرط من جهة القيمة ويحكم القاضي الجزئي من الدرجة الثانية في القضايا التي لا تزيد قيمة الواحدة منها عن الخمسين جنيهاً

مصريًا ويحكم القاضي الجزئي من الدرجة الثالثة في القضايا التي لا تزيد الواحدة منها عن الخمسة جنيهات مصرية — ولا يصح استئناف الاحكام الا ما زاد قيمتها عن الخمسين جنيهاً مصريًا . اما سائر القضايا التي تنقص قيمتها عن الخمسين جنيهاً فيجوز التظلم من احكامها لا على سبيل الاستئناف بل على سبيل طلب مراجعة الاحكام . وهذه التظلمات ان كانت من احكام القضاة الجزئيين ترفع الى قاضي المديرية وان كانت من احكام قاضي المديرية او من احكام قاضي المحكمة العليا ترفع الى محكمة الاستئناف العليا وفي الواقع ان قبل الطلب فلقاضي الاستئناف ان ينظر فيه كأنهُ استئناف وله ان يسمع شهوداً وغير ذلك والفرق بين المراجعة والاستئناف انه في حالة طلب المراجعة يجوز لقاضي الاستئناف ان يرفض الطلب بعد استحضار الاوراق وقراءتها رفضاً ايجازيًا

***

مما تقدَّم يظهر ان القضاء المدني في السودان مبني على نظام الحاكم المنفرد فلا يجلس اكثر من قاضٍ واحد الاَّ في محكمة الاستئناف العليا ونظام القاضي المنفرد برغم ما عزوا اليه من المساوىء فاني اعتقد انه افضل من نظام القضاء المتعدّد فهو يوجد في نفس القاضي روح المسؤولية والاجتهاد وهو اضمن لتحقيق العدل والانصاف وانجاز الاعمال ولم نرَ فيه في الواقع شيئاً من العيوب التي يجسمها خصومه وقد جرب في عهد الحكم الفيصلي في سوريا ثم نبذ بعد ذلك لا لسبب سوى الرغبة في اكثار الوظائف والتمكن من تعيين الانصار والمحاسيب

رابعاً — في رفع الدعوى — توخَّى الشارع السوداني في رفع الدعوى واسماعها والحكم فيها البساطة المتناهية والسرعة في الاجراءات — تبدأ الدعوى بتقديم المدعي عريضة الى المحكمة المختصة وفي السودان لا يصعب على الخصم ان يعرف المحكمة المختصة لان تنازع الاختصاص بالشكل المعروف في مصر وغيرها غير مألوف في السودان واهم ما يجب معرفته من أجل ذلك اختصاص الحاكم بالنسبة الى قيمة القضية وبالنسبة الى المقر. اما الاختصاص بالنسبة الى نوع القضايا فليس له شأن في السودان واذا قدمت العريضة الى المحكمة نظر القاضي فيها في نفس اليوم الذي تقدم فيه فان رأى فيها نقصاً صححهُ في نفس الوقت واذا وجد وجهاً لرفع الدعوى قبلها وان رأى أن ليس هناك سبب يجيز رفعها او انه غير مختص بنظرها رفضها وافهم صاحبها في الحالة الثانية بوجوب تقديمها في محكمة اخرى وكل ذلك قبل ان يدفع صاحب العريضة الرسم ومتى قبل القاضي الدعوى عين لها جلسة واعلن الخصم المدَّعى عليه للحضور في اليوم المعين وفي اليوم المعين تنظر الدعوى بحسب الاصول

والاختلاف العظيم بين القضاء السوداني وغيره في رفع الدعوى واعلان الخصوم والشهود وغير ذلك هو ان القاضي في السودان هو الذي يحرّك الدعوى وهو الذي يعلن الخصوم والشهود وفي الغالب تنتهي مهمة المدعي بتقديم عريضته الى المحكمة ودفع الرسوم المقرَّرة وهي التي تباشر بعد

ذلك السير في جميع الاجراءات بناءً على طلب المدعي . اما في غير السودان فالدعوى في أيدي الخصوم اذا لم يحركوها بقيت نائمة الى ما شاء الله

خامساً — تنفيذ الاحكام — الطرق التي ينفذ بها حكم بدفع مبلغ من النقود خمس : — الاولى حجز منقولات المحكوم عليه ومبيعها . الثانية حجز ما للمدين لدى الغير . الثالثة بيع عقارات المدين . الرابعة القبض على المدين وحبسه . الخامسة الجمع بين طريقين او اكثر مما ذكر . فاذا طلب المحكوم له من المحكمة تنفيذ الحكم أمرت بحجز منقولات المحكوم عليه ثم بيعها فاذا ادعى احد ملكية المنقولات المحجوزة نظر القاضي الذي أجرى الحجز في تلك الدعوى بوجه السرعة اما في اثناء التنفيذ نفسه ومعه واما في دعوى منفردة يرفعها المستردّ وفي كلتا الحالتين ينظر في دعوى الاسترداد بصورة إجازية مستعجلة — اما التنفيذ بحجز ما للمدين لدى الغير فيكون باعلان مدين المدين وتكليفه دفع ما عليه بما يفي المبلغ المحكوم بهِ . اما التنفيذ ببيع العقارات فيلتجأ اليه اذا اخفقت الطريقتان المذكورتان واجراءاته سهلة في السودان وها هي : (١) بأمر القاضي المحكومَ له بأن يستحصل شهادة من مكتب تسجيل الاراضي تثبت ملكية المدين للعقار المراد بيعه وهذه الشهادة لا يستغرق الحصول عليها في السودان اكثر من بضع دقائق لانه أنشىء في السودان مكتب تسجيل واحد والمسجل يسجل العقارات لا الاشخاص والنظام المعمول بهِ في السودان هو نظام طورنز فاذا اردت معرفة من يملك العقار الفلاني فما عليك الاَّ ان تتوجه الى مكتب التسجيل وتدفع رسماً بسيطاً قدره ستة قروش لاستصدار شهادة عن العقار المطلوب ومتى اقنعت المسجل ان لك شأناً بتلك الشهادة كأنك تريد شراء العقار او ان لك حكماً على صاحبه او لاي سبب آخر معقول ودفعت ذلك الرسم اليسير أعطاك مكتبه الشهادة ولا يستغرق استصدارها اكثر من بضع دقائق ولا تتكلف اكثر من زيارة واحدة لمكتب التسجيل . والشهادة التي تأخذها تشمل تاريخ العقار وما جرى له منذ المسح والتسوية حتى ساعة اعطاء الشهادة — فمن تقرير ملكيته في اول الامر لزيد ثم رهنه لعمرو ثم فكّ الرهن ثم بيعه لبكر ثم رهنه لخالد ثم فك الرهن ثم رهنه لآخر ثم فك الرهن الاخير وصفاء الملك في آخر الامر لخالد — وهكذا فان الشهادة التي تعطى شهادة صحيحة ووافية وكافية وعلى ضوئها يمكنك ان تسير . واتقان اعمال التسجيل في السودان يسهل على المحاكم اعمالها ومتى حصل المحكومُ له على تلك الشهادة توجه بها الى القاضي وأول ما يعمله القاضي ان يصدر انذاراً الى المدين صاحب العقار ينهاه به عن التصرف في العقار المراد بيعه ويعلق نسخاً من الانذار في الاماكن اللازمة تدلُّ الناس على ان العقار محجوز وكذلك يخبرَ مسجل الاراضي بأن لا يسجل ايَّ عقود خاصة بذلك العقار . ثم يصدر اعلاناً آخر يذكر فيه اوصاف العقار ويحدد يوماً لبيعه فاذا جاء يوم البيع وبيع العقار تمّت اجراءات البيع والنقل بحسب الاصول المعروفة . اما الطريقة الرابعة للتنفيذ فهي بالقبض على المحكوم عليه وبحبسه وهذه تقع فيما لو اخفقت جميع الطرق الاخرى بأن لم يوجد عند

المدين مال منقول او عقار او دين في ذمة الغير واذا كان المدين صاحب عمل يأخذ عليه مرتباً شهرياً او صاحب حرفة ففي مثل هذه الاحوال تأمره المحكمة بأن يدفع المبلغ المحكوم به بأقساط شهرية على حسب استطاعته فاذا ماطل في الدفع وظهرت للمحكمة سوء نيته جاز لها ان تأمر بحبسه لتحصيل الديون في الاحوال التي لا يمكن تحصيلها بها بأية طريقة اخرى غير الحبس . وكثير من الاحكام التي تصدر على اشخاص ليس لهم اموال ظاهرة يمكن حجزها وبيعها تنفذ في السودان بطريقة الزام المحكوم عليه بدفع دينه بالاقساط — ومع ان القانون السوداني يجيز حجز رواتب الموظفين غير الحكوميين كموظفي الشركات والبنوك وغيرها من الدوائر والاعمال فيندر ان تلجأ المحاكم الى حجز المرتبات لما يحدثه ذلك من الارتباك والازعاج لرؤساء المحكوم عليهم بل تسير في الاكثر على تكليف المحكوم عليه دفع مبلغ كل شهر . ولكن خوف المحكوم عليه الحبس فيما لو ماطل في دفع الاقساط المحكوم بها يحمله على المسارعة الى الدفع من تلقاء نفسه فكأنه هو الذي يحجز من مرتبه جانباً معيناً ويدفعه — اما امر الحبس فيصدر عند ثبوت المماحكة وسوء النية بناء على طلب المحكوم له ولا ينفذ اذا دفع المحكوم عليه المبلغ واذا حبس ودفع بعد الحبس أفرج عنه . وثمة حالة واحدة يجوز فيها حجز رواتب مستخدمي الحكومة وموظفيها وهي لا تعرف في مصر وذلك اذا حكم على المستخدم بالافلاس — وفي السودان يجوز اشهار افلاس اي انسان — جاز للمحكمة ان تحجز لدى المصلحة التابع لها المستخدم المذكور جزءاً من راتبه وتوزعه على الدائنين

***

ومما تقدم تختلف اجراءات التنفيذ في السودان عنها في مصر وغيرها بأن الحبس من طرق التنفيذ المقررة في القانون المدني السوداني وهنالك اختلاف آخر في نظام التسجيل يجعل طريق التنفيذ بواسطة حجز العقار وبيعه سهلاً جداً وفي مصر وغيرها لا يلتجىء المحكوم له الى التنفيذ على العقار الا في النادر لصعوبة التنفيذ وتعقيد معاملات العقارات والتسجيلات العقارية . ولا اعلم متى تستطيع الحكومة المصرية ان تنفذ في بلادها نظام طورنز القيّم بحذافيره وتوحد مكاتب التسجيل بانشاء مصلحة خاصة لتسجيل الاراضي بعد مراجعة اعمال المسح والتسوية وتوليتها اعمال التسجيل كلها واستيداع السجلات واخراج ذلك من المحاكم المختلطة ومن المحاكم الشرعية ومن غيرها . فاذا اغتفرت فوضى التسجيل في غير مصر فلا تغتفر في مصر وهي ممتعة بحكومة مستقرة منذ اكثر من مائة سنة . ولقد يظن البعض ان حكومة السودان لم تتكبد مشقة كبيرة في سبيل تطبيق نظام طورنز لانها دخلت دخولاً جديداً في بلاد جديدة والحقيقة هي غير هذه وسل عنها الضباط المصريين الذين شاركوا الانكليز في اعمال المسح والتسوية والتحديد والتسجيل الشاقة ينبئوك ان النظام السهل القائم الآن في السودان لا يمكن اجراؤه الا بعد عمل شاق متواصل

يستغرق لا اقل من خمس عشرة سنة ولا اظن ان شيئاً من هذه المشاق قد حاولت الحكومة المصرية تكبده في سبيل تعديل نظام التسجيل في مصر ولو عمدت الى العمل لما وجدت ذلك متعذراً عليها — فقد عمدت حكومة السودان منذ بدء الفتح الثاني الى مباشرة ذلك العمل العظيم عمل تثبت ملكية العقار وكان الضباط المصريون على طول الخط يجاهدون ايما جهاد ويعود اليهم الفضل الكبير في ذلك العمل العظيم والذين تحضرني اسماؤهم من هؤلاء الضباط هم اللواء ابراهيم خيري باشا والامير الاي محمد بك عزت والامير الاي مصطفى فهمي بك هلوده والقائم مقام صابر بك طنطاوي والقائم مقام ابراهيم بك زكي وهبي والبكباشي احمد افندي حمدي واليوزباشي احمد افندي حموده والبكباشي ابراهيم افندي صادق واليوزباشي محمد افندي النقيطي واليوزباشي محمد افندي مرسي وكثيرون غير من تقدم ممن لا اذكرهم الآن

***

ومن المسائل التي يختلف فيها القضاء المدني السوداني عن القضاء في مصر وغيرها — مسألة توكيل المحامين ففي السودان يعفى المحامي من ابراز توكيل من موكله بل يقبل قوله انه وكيل عن فلان ولا يطالب بتقديم توكيل منه وهذا النظام يسهل عمل المحامي — ومن ذلك انه يجوز للمحكمة لاي سبب تراه كافياً وقت اصدار الحكم ان تأمر في نفس الحكم بتأجيل دفع المبلغ المحكوم به او بدفعه باقساط بفائدة او بدون فائدة على حسب ما ترى ولها ان تفعل ذلك بعد صدور الحكم ولكن برضاء المحكوم له وفي كلتا الحالتين اذا حصل تأخير من قبل المحكوم عليه في دفع الاقساط كان للمحكوم له ان يطلب تنفيذ الحكم بالمبلغ الباقي كله

ومن المسائل المهمة التي يختلف فيها القضاء السوداني مسألة غلق الرهن وغلق الرهن معناه نقل ملكية العين المرهونة من المدين المالك الى المدين بدينه وهذا الغلق يحصل اذا عرض العقار المرهون للبيع ولم يمكن بيعه بما يوازي المبلغ المحكوم به ومصاريفه بل عرض ما دون ذلك ففي هذه الحالة تقرر المحكمة غلق الرهن اي تقرر تملك الدائن للعقار بالدين الذي له فلو كان له الف جنيه والعقار لم يمكن بيعه بغير اربعمائة اخذه الدائن — بالالف جنيه وليس له ان يطالب المدين بشيء آخر فيما بعد — وفي اللغة غَلِقَ الرهن غلقاً في يد صاحبه على وزن سمع بفتح الغين وكسر اللام بقي ملكاً للدائن المرتهن عند عدم مقدرة المدين الراهن على الوفاء عند حلول الاجل وهذا نظام موفق في القضاء السوداني ويا حبذا لو امكن الاخذ به في غير السودان

ومنها امتزاج السلطة القضائية بالسلطة التنفيذية — خذ مثلاً السكرتير القضائي فهو قاضٍ من قضاة المحكمة العليا وله ان يباشر سلطات القاضي المذكور وله ان يرأس محكمة الاستئناف العليا وكذا مديرو المديريات ووكلاء المديريات ومفتشو المديريات ومساعدو مفتشي المديريات ومأمورو

المراكز فهؤلاء جميعهم لهم سلطات قضائية فالمدير او نائب المدير قاضي مديرية ووكيل المديرية والمفتش قاض من الدرجة الاولى ومساعد المفتش قاض من الدرجة الثانية والمأمور قاض من الدرجة الثالثة وهؤلاء لا يباشرون سلطاتهم القضائية الا في الجهات التي لم يعين فيها قضاة من قبل المصلحة القضائية — وهذا الامتزاج او الاختلاط ليس فيه ضرر من الاضرار التي يقولون عنها في جمع السلطات الثلاث. وفي السودان هذا الامتزاج نافع في الواقع فتدخل السكرتير القضائي وتدخل الجهات الادارية في الاعمال القضائية لا غبار عليه وهو تدخل موفق في حكومة مثل حكومة السودان مبنية على التضامن والتعاون. ومنها نظام محاكم المشائخ والمحاكم القروية ومحاكم المدن وهذه كلها أشبه بمحاكم الاخطاط التي انشئت في مصر في سنة ١٩١٢ ثم الغيت بعد ان جربت في مصر تجربة دامت بضع سنين. اما في السودان فالمحاكم المذكورة هي محاكم انشئت منذ سنة ١٩٢٨ على سبيل التجربة ومنتقدوها اكثر من محبذيها وسيظهر الاختبار بعد بضع سنين صواب هذا النظام او خطأه. ومنها انهُ يجوز للمحكمة في اية درجة من درجات القضية التي قيمتها عشرة جنيهات مصرية او اكثر ان تأمر بالقبض على المدعى عليه واحضاره امامها لتقديم ضمان لحضوره في الجلسة او لاثبات عدم ضرورة ذلك في اي الاحوال الآتية: اذا كان قد اختبأ او كان قد غادر دائرة اختصاص المحكمة او اذا ظهر انه يحاول ما تقدم او اذا كان تصرف بماله او ببعض ماله او اخرجه من دائرة اختصاص المحكمة او اذا ظهر انهُ ينوي مغادرة السودان في ظروف تحول بالمدعي دون تنفيذ الحكم الذي قد يصدر ضد المدعى عليه — هذا نص احتياطي يراد بهِ حفظ حقوق المدعي وصيانتها من احتيال المدعى عليه وتهربه من تنفيذ الحكم. ومنها ما هو متعلق بالاثبات والادلة — يجوز في السودان اثبات الدين او الحق بالبينة اي بشهادة الشهود مهما كان المبلغ كبيراً بخلاف الحال في مصر وسوريا وسائر الاقطار المجاورة حيث يقصرون قبول شهادة الشهود على اثبات الدين او الحق الذي لا يتجاوز مبلغاً معيناً او عشرة جنيهات مصرية على وجه التقريب. ونظام السودان هذا اقرب الى العدل والعقل لانهُ توجد احوال كثيرة تحول دون الاحتياط بالادلة الكتابية ولا اعلم لماذا وضع بعض المتشرعين مثل هذا النص وهم يعلمون ما فيهِ من العيب وفوق ذلك فالقاضي غير مرتبط بشهادة الشهود الا اذا اقتنع بصدقها ومطابقتها للواقع ولعل سبب هذا النص مسبب عن ضعف الايمان في القضاة اكثر مما هو مسبب عن ضعف الايمان في اقوال الشهود

***

وعلى العموم يمتاز القضاء المدني السوداني عن غيره ببساطة اجراءاتهِ وجلائها والاعتماد هناك على القضاة اكثر منهُ على القوانين وكلما تعقدت القوانين وتشعبت كان تطبيقها اصعب ودلَّ ذلك على نية تكبيل القضاة وقلة الثقة فيهم والعكس بالعكس

وسأذكر بعض الشيء في المقال الآتي عن القضاء الجنائي في السودان

نهضة التعليم في العراق

لامين سعيد

لعلّ اعظم ما في العراق هذه النهضة التعليمية العظيمة وهذا الاقبال الزائد على طلب العلم والارتشاف من مناهله العذبة

ولقد كان مؤسس دولة العراق عليهِ الرحمة والرضوان يعمل على تعميم التعليم ونشره بمختلف الوسائل والاساليب ويعنى بوجه خاص بتعليم البنت وكان تعليمها غير معروف تقريباً في العراق ابان العهد القديم لاعتقاده بانهُ لا يمكن انشاء اسرة عربية بالمعنى الاجتماعي المفهوم من هذه الكلمة الاَّ على يد المرأة المتعلمة ، فالمرأة الجاهلة الخاملة نكبة على نفسها وعلى اهلها وعلى اسرتها وعلى امتها . وكذلك كان يعنى بتحضير العشائر — ويؤلف ابناؤها ٥٥ في المئة من مجموع سكان العراق — ويعمل على نشر التعليم بينهم وتعويدهم الحياة المدنية واذاقتهم طعمها العذب لاعتقاده ايضاً انهُ لا يمكن اصلاح وطن يعيش نصف ابنائه عيشة البداوة ويسيرون على سننها وتقاليدها

ولقد سمعت كثيراً عن الاساليب التي كان يلجأ اليها في نشر تعليم البنات بوجه خاص ، ومما رووه لي ان سكان الكاظمية (وهي قرب بغداد وتعد من ضاحيتها وبينهما ترامواي يسير على الخيل والمسافة ٧ كيلو مترات) أبوا ان يرسلوا بناتهم الى مدرسة البنات التي انشأتها الحكومة في اوائل هذا العهد بامر الملك فلم يدخلها في سنتها الاولى سوى تلميذتين او ثلاث ، وظلَّ الامر على ذلك تقريباً في السنة التالية فاقترحت وزارة المعارف اغلاقها لعدم الاقبال عليها فقال انهُ لا يغلقها ولو ظلت المدرِّسة وحيدة في المدرسة ثم لجأ الى اساليبه الخاصة في حض الناس على التعليم فكان يخاطب الشيوخ والرؤساء والوجهاء الذين يزورونهُ داعياً اياهم الى ارسال بناتهم الى المدرسة ومظهراً فوائد التعليم ولا يدعهم الاَّ بعد ما ينال منهم وعداً باجابة طلبهِ ، على ان مهمتهُ ما كانت تنتهي عند هذا الحد بل كان يرقب تأثير سعيهِ عند الذين خاطبهم ومتى اتصل بهِ ان احدهم ارسل بناته الى المدرسة استدعاهُ اليهِ في الغداة وقرَّبهُ منهُ وقضى لهُ مصالحهُ ويسّر لهُ اموره ، فيسمع ذلك جيرانه فيقتدون بصاحبهم . وقد كانت هذه الطريقة من جملة الاساليب التي ادَّت الى رواج تعليم البنات

وانتشاره في انحاء العراق وحسبي ان اقول بان في مدرسة الكاظمية وحدها اليوم نحو ٢٥٠ تلميذة يتعلمن القراءة والكتابة وقد انشأت الحكومة داراً فخمة لها بعد ما اعتزمت الغاءها في السابق كما علمت

وخطا تعليم البنات في هذه السنوات خطوات واسعة وانتشر انتشاراً يذكر فاقيمت المدارس والمعاهد فاقبل عليها الناس اقبالاً يذكر فارتفعت ارقام التلميذات وزاد عدد المدارس كما ينطق بذلك الاحصاء الآتي :

كان عدد مدارس البنات في العراق سنة ١٩٢١ المدرسية اي حين انشاء الدولة الجديدة ٢٧ مدرسة ابتدائية تضم ٣٠٤٩ تلميذة فارتفع في سنة ١٩٣٢ — ١٩٣٣ المدرسية الى ٧٤ مدرسة ابتدائية تضم ١٠٦٨٧ تلميذة وتدرّس فيها ٣٧٨ مدرّسة

وهنالك ايضاً ٥ مدارس متوسطة ذات ثلاث صفوف لتعليم البنات : ٢ في بغداد وواحدة في الموصل ومثلها في كل من العمارة والحلة وبعقوبة والبصرة . وقد انشئت مدرسة ثانوية للبنات في بغداد خلال السنة الجديدة وبلغ عدد الطالبات في هذه المدارس خلال السنة الماضية ٤٤٠ طالبة وفي بغداد ايضاً دار معلمات لتخريج مدرسات عدد طالباتها ٣٠

وانشأت حديثاً دار معلمات ريفية في الديوانية لتخريج مدرّسات لمدارس البنات في الارياف وفتحت في هذه السنة ايضاً مدرسة « الفنون البيتية » لتعليم البنات الشؤون المنزلية من تربية الاطفال والعناية بهم والتمريض والخياطة والطبخ والكي ، ويشترط في اللواتي يقبلنَ فيها ان يكنَّ ممن نلنَ الشهادة الابتدائية . ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ويبلغ عدد تلامذتها ١٥٠ تلميذة في الوقت الحاضر . ولا بدَّ لنا من الاشارة الى بعثات البنات فقد سارت وزارة المعارف على خطة ارسال الطالبات اللواتي يتخرجنَ من المدارس المتوسطة الى مدارس بيروت العالية للبنات لاكمال تحصيلهنَّ . وقد جاء في احصاء رسمي ان عددهنَّ بلغ في سنة ١٩٣٣ الماضية ١٨ طالبة يتعلمنَ على نفقة الحكومة

***

ولقد سارت الحكومة في ترقية التعليم وتنظيمه على الأسس التي سارت عليها في العناية بالصحة وكما انشأت وزارة الداخلية لجنة من الاطباء الاخصائيين لوضع تقرير مفصل في الخطط التي يجب السير عليها لمكافحة الامراض ورفع المستوى الصحي فقد جاءت من الولايات المتحدة ببعثة من كبار رجال التعليم لدرس حالة المعارف ونظم التعليم والاشارة بما يجب عمله للاسترشاد بآرائها واختباراتها وقد زار هؤلاء العراق شتاء سنة ١٩٣٢ ووضعوا تقريراً مفصلاً مطولاً طبعتهُ الحكومة العراقية على حدة مترجماً وعدد صفحاته ١٧٦ بالقطع المتوسط . وتتألف هذه البعثة من الدكتور بول منرو مدير المعهد الأممي في كلية المعلمين (جامعة كولومبيا) في نيويورك والدكتور وليام تشاندلر والدكتور اذكار واليس نايت والاخيران من أعضاء المعهد الاممي بدار المعلمين ايضاً وانضم اليهم في بغداد الدكتور محمد فاضل الجمالي (المرشد العام لوزارة المعارف العراقية اليوم خبيراً) فقضت شهرين

وبضعة أيام باحثة دارسة . واليك ما قالته في صدد تعليم البنات : « لم تعجب اللجنة بشيء من امور معارف العراق اعجابها بالاهتمام الحقيقي الظاهر في كل مكان بتعليم البنات والنساء ، ومع قلة عدد المدارس فاستحسان الجمهور لها واضح بدليل كثرة اقبال الطالبات عليها وحسن دراستهنَّ في الصفوف المتيسرة وتبرع الجمهور لها . وهنالك ظاهرة اخرى تبعث على الارتياح الكبير وهي اهتمام الطالبات انفسهنَّ بما تهيئه لهنَّ المدرسة من فرص للقيام بأعمال مفيدة اجتماعية وقد ظهر للجنة من محادثتها عدداً من طالبات الصفوف المتقدمة في المدارس التي زارتها ان التلميذات مولعات بأن يتدربنَ في المستقبل ويخدمنَ كمعلمات او طبيبات او ممرضات واختصاصيات حتى ان بعضهنَّ طلبنَ ان يكنَّ محاميات وموظفات في المصالح العامة الخ »

وهنالك المدارس الطائفية الخاصة بالنصارى واليهود وتساعدها الحكومة وعددها ٤٧ مدرسة عدد تلاميذها ١٣٣١٢ الفاً منهم ١٢٢ تلميذة في المدرسة الاميركية للبنات في بغداد و ٩٦٦ في مدارس البنات للكرمليين و ١٥٧٦ في مدرسة يورا خضوري بنات . ومدرسة البنات الاسرائيليات في البصرة وفيها ٢٩٨ ومدرسة القديس عبد الاحد في الموصل وفيها ١٧٦ تلميذاً

***

وتقدَّم التعليم الابتدائي تقدماً عظيماً في خلال هذه المدة فبعد ما كان عدد المدارس في العراق خلال سنة ١٩٢٠ — ١٩٢١ المدرسية ٧٤ مدرسة تضم ٦٧٤٣ تلميذاً و ٣٦٣ مدرساً ارتفع تدريجاً حتى وصل عدد المدارس في سنة ١٩٣٢ — ١٩٣٣ الى ٣٩٠ مدرسة ابتدائية تضم ٤٣٦٤٣ تلميذاً و ١٦٠١ مدرساً وتسير وزارة المعارف على خطة جديدة ترمي الى مساواة الالوية في التعليم وفي عدد المدارس فلا تكثر في مكان ولا تقل في مكان آخر ولا يزاد لهذا ولا ينقص لذاك وهي ترجو ان يتم لها ذلك في سنة ١٩٤٠ فتعم المساواة وينتشر التعليم بنسبة واحدة في كل مكان . وقد انشئت حديثاً في البدعة (شطرة المنتفك) دار معلمين ريفية لتخريج مدرسين للعشائر والقرى

***

ويعنون ايضاً بالتعليم الثانوي ويبلغ عدد المدارس المتوسطة للبنين ١٩ مدرسة وذلك عدا المدارس المتوسطة للبنات وعددها سبع — وعدد طلاَّب المتوسطات ٢٧٣٤ طالباً . وعندهم أربع مدارس ثانوية في بغداد والموصل والبصرة والنجف تضم ٢٥٣ طالباً . وتسير الحكومة على سياسة تعميم المدارس الثانوية ليكون في عاصمة كل لواء واحدة منها ومدرسة للمعلمين في بغداد عدد طلابها ١٦٥

ويعنى ولاة امور وزارة المعارف بالبعثات العلمية ويرون الاكتفاء بها في الوقت الحاضر ومعنى ذلك انهُ لا توجد هنا فكرة ترمي الى انشاء جامعة للتعليم العالي لان الحالة لا تساعد على التوسع

فيه كما انهم يرون وجوب التريث في انشائها ريثما تتكامل النهضة العلمية الحديثة في بلاد العرب فتقوم في بغداد جامعة عربية كبيرة لنشر الثقافة القومية طبقاً للاساليب الحديثة ويرون ان المسألة مسألة زمان لا اكثر ولا اقل . وقد بلغ عدد اعضاء البعثات ١٩٠ في الوقت الحاضر (عدا البنات) فنهم ٤٠ في جامعة بيروت الاميركية و٢٣ في انكلترا و ٢٦ في مصر و ٤ في فرنسا و ٣ في تركيا و ٦ في المانيا وواحد في النمسا

ويجب ان لا يؤخذ من هذا ان الحكومة العراقية تهمل التعليم العالي ففي بغداد مدرسة للحقوق تخرج للبلاد ما تحتاج اليه من قضاة وموظفين اداريين ومحامين وأخرى للطب ومدرسة للحربية وكانت هنالك مدرسة زراعية اغلقت سنة ١٩٣٠ لان خريجيها انصرفوا الى طلب المناصب والتهافت عليها بدلاً من الاشتغال بالاعمال الزراعية الحرة ، والمدرسة الزراعية الوحيدة في العراق اليوم هي مدرسة الحلة الريفية وهي تعلم الزراعة تعليماً عملياً لشبان الفلاحين ويشترط في طلابها ان لا يقل سنهم عن ١٨ ولا يزيد عن ٢٥ وقد انشئت في السنة الماضية وعدد طلابها ٨٠

***

وتنفق الحكومة العراقية بسخاء على التعليم فبعد ما كانت ميزانية المعارف ضئيلة جداً لا تزيد على خمسين الف جنيه في العهد السابق بلغت ٣٦١ الف دينار في السنة الماضية زيد عليها ٨٤ الف دينار للسنة الجديدة فبلغت ٤٤٤ الف دينار ولا يدخل في هذا الحساب ما تدفعه وزارة المالية لبناء دور المدارس من ميزانية المشروعات الرئيسية وميزانية الاعمال العمرانية لخمس سنوات ، فقد دفعت في السنة الماضية ٢٥ الف دينار وينتظر ان تدفع مثله لهذا العام . وزيادة في البيان نقول ان الحكومة العراقية تنفق على التعليم بمعدل ٣٧ : ٨ في المائة من معدل دخلها والتعليم في جميع مدارس الحكومة مجاني

***

وفي العراق مدرستان صناعيتان الاولى في بغداد وعدد طلابها ١٩٢ والثانية في الموصل والتعليم فيها متوسط ومجاني وتنشىء الحكومة في العاصمة مدرستان ، للذكور والاناث على الطراز الحديث الاولى لتخريج طبقة راقية من الموظفين والثانية لتعليم بنات الطبقة الراقية تعليماً راقياً وستكون اجور التعليم فيها باهظة وربما افتتحتا في اوائل السنة الدراسية

وتعنى الحكومة بتعليم الاميين وقد فتحت صفوفاً خاصة لهم في المتوسطات والمدارس الابتدائية ويقدر عدد الذين يترددون على هذه الصفوف بعشرة آلاف في انحاء العراق وقد ادرك بعضهم نجاحاً وتسود وزارة المعارف العراقية روح نشاط مشهودة ويدأب رجالها ليل نهار على نشر التعليم وتوسيع نطاقه متخذين لذلك شتى الوسائل وعاملين على رفع المستوى العلمي والاخلاقي في البلاد وقد اثمرت جهودهم ثمرات طيبة تبشر بمستقبل زاهر وكل من سار على الدرب وصل

عودة الروح

تأليف توفيق الحكيم

٢ – نقد وتحليل بقلم محمد علي حماد

جانب الفكاهة في هذه القصة يغلب جانب الجدّ فيها، وان كانت الرواية جدّاً خالصاً في جوهرها ولبها، فالفكاهة هنا ليست اكثر من اطار ضمنهُ المؤلف لوحاته الثمينة، وعليك ان تنفذ من وراء هذا الرواء الخارجي الى ما هنالك من حقائق الوجود والحياة، و «عودة الروح» ككل اعمال توفيق الحكيم لها ظاهرها الملموس الذي لا تخطئه النظرة العجلى، والقراءة العابرة، ولها هذا الجانب الثاني الذي عليك ان تغوص وراءه لتصل الى حقيقته، ولتفهمه حق الفهم، والاّ فقد عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء، او انت في الحقيقة لم تفهم شيئاً، ولم تدرك من عمل المؤلف ما كان عليك ان تدركه بالامعان الطويل، والدرس الطويل. ومن هنا وقع بعض الكتّاب في نقدهم لاعمال هذا المؤلف النابه في اخطاء مضحكة تثير كثيراً من الاشفاق والسخرية، لانهم اكتفوا بهذا الظاهر البرّاق الذي لا يخطئه رجل الشارع، ولم ينفذوا الى ما ورائه، ضنّاً بالجهد وايثاراً للراحة والعافية، او قصراً في الفهم وعيّاً في الادراك لحقائق الاشياء.

وقد تمثل «عودة الروح» قوى الخلق والابداع في توفيق الحكيم، وتعدد هذه القوى واختلافها اكثر مما تمثلها أية قصة اخرى من قصصه المتعددة، والمجال الذي يتسع للمؤلف في حوالي خمسمائة صفحة لا يتسع له في ثنايا هذا او نحو ذلك. و «عودة الروح» هي القصة الوحيدة Novel التي كتبها توفيق الحكيم، بينما له مسرحيات كثيرة، وفي الفن القصصي تتسع دائرة العمل الى اوسع الرحاب، فمن طبيعة هذا الفن الاستطراد والتفصيل والشرح الوافي والاحاطة الكاملة، بيد ان المؤلف مقيد في مسرحياته بحدود ضيقة ثقيلة متعددة، ومن طبيعة الفن المسرحي الايجاز والتركيز. وبعد، فان الفوارق بين الفنين من الوضوح والبداهة بحيث لا تخفى على احد، ومن هنا كانت «عودة الروح» من ناحية تمثيلها لتوفيق الحكيم أتم واكمل من كل مسرحياته الاخرى، فاذا كانت في كل مسرحية ناحية من قوى الخلق والتفكير لهذا المؤلف، فانك تجد في هذه القصة كل هذه النواحي والجوانب مجتمعة محشودة في صعيد واحد، او هنا — اذا استعرنا تعبير المؤلف — الكل في واحد!!

رأيت جانباً من هذه الصور الفكهة التي برع المؤلف في خلقها وعرضها كل البراعة في شخصياته التي عرضنا لتحليلها، كما لمست جانباً آخر منها في بعض الحوادث التي جاء ذكرها عرضاً في سياق التحليل، واليك هذه الصورة الطريفة لوالدة «محسن» التركية الاصل التي لا تنسى في اشد

الاوقات حرجاً وضيقاً ان تتحدث عن حسبها ونسبها اذ تشتبك مع والد « محسن » الفلاح في عراك مضحك . ثم هذا الوصف الصادق الساخر للدكتور حلمي والد سنية في مجلسه اليومي على باب صيدلية مجاورة لمنزله مع لفيف من امثاله أرباب المعاشات يحدثهم عن السودان ، ولا ينسى هو الآخر اذ يغضب لشرفه وكرامته ان يذكر وقائع القتال التي حضرها وخاصة واقعة أم درمان . وعندك الى جانب هذا الحادثتان الطريفتان اللتان وقعتا للعالمة « شخلع» في حفلتي زفاف دعيت لاحيائهما . ثم اليك المشهد الخلاب الذي يتتبع فيه «مصطفى» خطى «سنية» لاول مرة ، فاذا به في عيادة طبيب لا يدري اي الامراض يعالج حتى يستطيع ان يستعد لمقابلته بمرض يناسب المقام . . . ويرتبك ويقع في حيرة شديدة ويتصرف تصرفاً يثير في نفسك الضحك والاشفاق معاً

والى جانب قوة الفكاهة والسخرية في المؤلف تجد ملكة التصوير والوصف قوية بارزة ، فالمؤلف يصف لك كثيراً من الشخصيات وكثيراً من الاماكن ، ويصور لك كثيراً من الحوادث والمشاهد فتلمس في كل هذا قوة الفنان المبدع ، ومن أبلغ المشاهد التي تتمثل فيها هذه القوة في اكمل صورها المشهد الذي يصف لك فيه منزل الساحر « الشيخ سمحان » الذي قصدته زنوبة ، وحال النساء الجالسات وما يخالجهن من شعور ومن فكر

ونجد هذه الصورة الدقيقة لكثير من المشاهد والعادات المصرية ، ففي وصف المؤلف لقهوة (المعلم شحاته) يعطيك للقهوة « البلدي » وصفاً بارعاً كاملاً ، كما ينقل اليك في اسطر قلائل وصفاً شاملاً محيطاً (للموسكي) . وفي حديثه عن « شخلع » العالمة تتمثل لك هذه الشخصية التي كانت في وقت من الاوقات اساساً في صميم حياة المجتمع المصري ، في افراحه ولياليه الساهرات

الى جانب هذا تلمس بين سطور القصة قوة المؤلف في التحليل والغوص وراء خبايا النفس وخلجات القلب ، وابرازها ابرازاً قوياً واضحاً على تعقدها واضطرابها ، وقد ذكرت لك عند ما حدثتك عن « سنية » هذا المشهد الذي تلتقي فيه نظرتها « بمصطفى » لاول مرة وقد حلله المؤلف تحليلاً رائعاً . ومن الآيات في هذا الباب مشهد الوداع بين « سنية » و « محسن » عند ما زارها قبيل سفره الى العزبة ، وهو يكاد يبوح لها بحبه فيمنعه الحياء وقلة التجربة ، وهي تكاد تلمح هذا الحب الذي يضج به قلب الشاب فتمر به عجلى ، وان كانت قد ارتاحت اليه . كذلك تقرأ في ثنايا القصة هذا التحليل الدقيق لما انتاب « محسن » من شتى العواطف عند ما وصله خطاب « سنية » او على الاصح الخطاب الذي توهم انه منها ، وتعرض لنا هنا قضية العقل والقلب كما عرضت لنا في « اهل الكهف » . و « محسن » مهيض الجناح بين هاتين القوتين الهائلتين ، فحيناً الغلبة للعقل فمحسن يأس كل اليأس ، وحيناً الغلبة للقلب فمحسن راج كل الرجاء . ويبلغ سلطان القلب عليه حيناً مبلغاً قوياً حتى ليغالط نفسه في الحقيقة المروعة التي صرحت له بها « زنوبة » اذ اطلعته على

حقيقة الخطاب وان الذي كتبه « عرضحالجي » فعلاً ... يغالط « محسن » نفسه في هذه الحقيقة التي لا شك فيها ويحتفظ بالخطاب كأثر مقدس من « سنية » ! ! بل ها هو يفزع ويمتقع لونه اذ يقرأ « سليم » الخطاب ولا يجد فيه هذه المعاني التي يفرضها « محسن » فرضاً على هذه الكلمات التافهة التي تضمنها الخطاب . و « سليم » لم يفعل اكثر مما فعله « محسن » نفسه في فترات كان العقل يسود فيها تفكيره . ويصل بمحسن الوهم الى ان يعتقد ان الامر جد ، وان « سنية » ارسلت له هذا الخطاب حقاً ، وانه هو الملوم لانه لم يزرها بعد عودته من السفر . وتحت تأثير هذا الوهم يذهب « محسن » فعلاً لزيارة « سنية »

« وكأنما الخيال واستمراره اعاره في نظره قوة الحقيقة . . . او ان الوهم انقلب عقيدة . وأنّى للحقيقة ان تهزم العقيدة ! الا ان يهزم العقل القلب ! ؟ » وهذه هي العقيدة في اسمى مظاهرها ، او قل ان هذا هو الايمان المطلق لا يحدّه شيء ، ولا يعوقه شيء عن ان يسمو فوق مدارك العقل وقوى التفكير . فاذا رجعنا الى ما كنا فيه من الحديث عن براعة المؤلف في تحليل نفوس ابطاله كان لزاماً عليّ ان اشير الى هذا التحليل الدقيق الذي نرى منه كيف ان « مصطفى » الذي ظلّ الاسابيع الطوال جالساً على القهوة ، عاطلاً لا همّ له الا تزجية الفراغ وقتل الوقت ، « مصطفى » هذا يكاد يقتله الملل والضيق لانهُ جلس ذات صباح زهاء ساعة ولم تفتح نافذة منزل « سنية » ويراها ! ! وييئس من رؤيتها فسأل نفسه فيما اذن جلوسه في القهوة ؟ ! « ونسي انهُ كان يجلس بالقهوة دائماً ... وانهُ كان ينفق الساعات الطوال فما تملل كما فعل اليوم ولم يمض على جلوسه ساعة »

« فان لم يكن قد فكر من قبل في القيام بهذه السرعة فلأنهُ لم يكن ينتظر شيئاً ، ومن لا ينتظر شيئاً يستطيع ان يقعد العمر حتى العفن وحتى يأكله الدود وهو في مكانه »

ونجد هنا وهناك في ثنايا القصة ومضات صغيرة ، من كلمة عارضة ، او اشارة خاطفة ، او جملة عابرة ، ينطوي تحتها الكثير الجمّ من المعاني والصور ، وإنها لتتم لك الصورة التي يريدها المؤلف حتى كأنما نفثت فيها الروح والحياة . فصورة العسكرية المازلة المضحكة في « سليم » لم تكن ليتم لها هذا الابداع في التصوير لولا « بدلة التشريفة » التي ارتداها عند زيارته بيت « سنية » ليصلح البيانو . وكان « محسن » يقرأ في ديوان « مهيار » فاذا تمثل في بعض حالاته ببيت من الشعر ، تمثل ببيت لمهيار ، وهذا طبيعي ، ولكن هذا هو الاعجاز في مقدرة المؤلف اذ يأتي لك بالصورة التي تحس فيها الطبيعة المألوفة في غير تكلف ولا تصنع ، حتى لتمر بها دون توقف او تمعن . وهذه هي الدقة في الفن ، ان تخفي الفن فلا يبدو الا اثره ، وكأنهُ من صنع الحياة نفسها لا من عمل الفنان المبدع . فاذا وقف « محسن » على ضريح السيدة وقد امتلأ قلبه باليأس من حب « سنية » امسك باهداب الضريح وتشبث بحديده ولم يقل اكثر من « ياسيدة زينب » وفي هاتين الكلمتين آلام وآمال ، بل حياة كاملة . وكلمة المحزون المتهدم اذ يهمس وقت ضيقه ويأسه « يا رب ... » فيها من الفجيعة والمرارة ، ومن الحزن والاسى ، ثم من التضرع والرجاء ، والامل والتطلع ، ومن عشرات بل مئات المعاني ما لا تشرحهُ المجلدات

الضخام. ومما يجيء على قياس هذا ويعتبر من آيات الدقة في تحليل عواطف ابطال القصة ، ان كل فرد من افراد الشعب لا يكاد يداخله حب « سنية » حتى يحس وكأنهُ خلق خلقاً جديداً ، ويعود الى المنزل ليرى ان الحياة التي يحياها وسط « الشعب » حياة لا تليق بهِ ، او انهم ليعجبون ، كل بدوره ، كيف استطاعوا عليها الى اليوم صبراً ! ! على اختلاف كبير بينهم في سبب هذا الضيق الذي احسوه

وشعور المرء بعد ان يداخله احساس قوي قاهر كالحب ، غير شعوره قبل ذلك . كذلك لم تنتبه « سنية » لما حباها الله من جمال وفتنة الأ بعد ان تيقظت فيها الانثى .... بعد ان لمحت « مصطفى ». ثم ما أصدق هذا التحليل للصلة بين محسن وسليم وعبده تجاه حبهم لسنية ، فأيًا منهم احسَّ الاثنان الآخران انهُ يحبها تحالفا عليه ، فاذا عرضت لهما الفرصة المناسبة سخرا منهُ وهزئا به

وكما يكتشف ابطالنا الثلاثة فجأة غرابة هذه الحياة التي عاشوها الى تلك الساعة ، الى ان احبّوا سنية ، كذلك تنبه « مصطفى » فجأة ، بعد ان احب سنية ، الى قذارة قهوة المعلم شحاته . . . . وهو الذي قضى فيها شهرين قبل ذلك ولم ينتبه لهذا . وتنبهت « سنية » ، بعد ان احبت « مصطفى » الى ان شرفتهُ تحاذي نافذة حجرتها ، فكل بطل في القصة يكتشف بدوره شيئاً له علاقة بالعاطفة الجديدة التي طرأت عليه ، وبالمخلوق الجديد الذي طلع في سماء حياته

ثم هذا « محسن » يلقي نظرة على منزل اسرته في دمنهور عند وصوله بالاجازة ، ونظرة اخرى على منزل اعمامه في القاهرة ، منزل « الشعب » ، عند عودتهِ ، ولكن شتان ما بين النظرتين ، فالاولى تحس فيها نظرة الغريب عن البيئة والوسط ، والثانية نظرة العائد الى ارض الوطن ، الآيب الى الاهل والاخوان ، وقد يبدو لك هذا غريباً ، ولكن المؤلف يحلل لك هذا تحليلاً دقيقاً يرد بهِ الامور الى حقائقها ، وخلجة النفس الى مبعثها وعلتها ، ويريك ان ام محسن نفسها تحس بهذا الفارق بينها وبين ابنها ، ولو استرسلنا لعرضنا لمشاهد القصة كلها واحداً واحداً ، ففيها كلها دون استثناء تبدو ملكة التحليل النفساني في المؤلف قوية بارزة ، كل القوة والبروز . قلنا ان من طبيعة الفن القصصي الاستطراد والاحاطة والسرد الطويل . والمؤلف ينتهز لهذا كله أنسب الفرص وأبرعها ، وانه لينحرف بك احياناً عن مجرى القصة فلا تحس بذلك لانه يخلق له الفرصة العارضة التي تلائمه كل الملاءمة ، وهذه قصة « شخلع » وحوادثها جاءت عرضاً على لسان « محسن » اذ يقصها بمناسبة ما أبدته « سنية » من الاعجاب بمهارته في الغناء ، فيذكر لها انهُ درسه على « شخلع » ثم يمضي محدثاً عن استاذه

ولننتهي من الحديث عن توفيق الحكيم القصصي بعد ان عرضنا لبعض قوى الخلق والابداع فيه ، لنفرغ قليلاً لتوفيق الحكيم الباحث المفكر ، ولما يعرض من قضايا في ثنايا القصة ، على اني اريد ان احذرك من هذا المؤلف فهو ماكر شديد المكر ، داهية كبير الدهاء ، يحلو له ان يسخر من القارىء والناقد ، فيسخر منهما ولكن في حذق كثير ومهارة يحسد عليها ، خلق الفرصة المناسبة لدخول « زنوبة » و « محسن » منزل « سنية » ثم « مبروك » وافسد سلك الكهرباء

ليجد « لعبده » عذراً في زيارة منزل الجيران ، وبقي لديه « سليم » من افراد الشعب وكان حتماً لسياق الحادثة ان يقتحم هو الآخر منزل «سنية»، وكان من الغريب حقاً ان يفسد البيانو هذه المرة لتخلق الفرصة المناسبة «لسليم» وأحسّ المؤلف ان الناقد يستطيع هنا ان يدخل أنفه كما يقولون ؛ ليبدي عجبه من هذه الفرص التي تتاح لافراد «الشعب» الواحد بعد الآخر ، فبدأ هذا المشهد قائلاً « لا أحد يدري ان كانت هي مداعبات القدر ام مداعبات شخص من البشر . . . . » وأحال على القدر خلق هذه الفرصة الجديدة لسليم ، وكأنه — اي المؤلف — لا عذر له في ذلك ولا حيلة !! واعترف معي بأن المؤلف يمكر بنا غاية المكر ، بل قل انه ماهر لبق ، وقل معي بأن نواحي القدرة والابداع في ملكاته فاقت كل حد ، ووسعت كل شيء

* * *

من أبرز الصور الوضاحة النيرة في هذه القصة روح التضامن والاجتماع التي يبثها المؤلف في كل سطر ، في اخلاق كل شخصية، وفي تضاعيف كل حادثة ، وفي علاقة الابطال والحادثات بعضها ببعض، وانها لتتمثل لك في حياة «الشعب» أبدع تمثيل، في هذا الارتباط الذي يجمعهم في الحسّ والشعور والعاطفة، في هذا التعلق الغريب كل فرد منهم بالآخرين ، حتى لنجد ان «محسن» اقرب روحاً وألفة الى اعمامه منه الى اهله ، ثم هذه الوحدة الرائعة في اجتماعهم حول «محسن» اذ يحسون بألمه، وغرقت شجونهم الفردية في عاطفة المجموع ، وكأنما أصبح «الكل في واحد» وهذا «عبده» اذ يعلم باتصال «سنية» بمصطفى يحس «انه كان احب اليه الف مرة ان تختار سنية سليماً او محسناً من ان تختار هذا الغريب ...»

«ولاحظ وهو يتكلم ويثور انما يتكلم باسمهم جميعاً لا باسمه وحده فقط» ثم هاهم جميعاً تأخذهم هزة جنونية من الفرح والسرور اذ يظنون ان خطاباً وصل لمحسن من سنية، وكأنما هو لهم جميعاً!! ويرتاح محسن « الى ان ما له أصبح ملكاً للجميع .... » « ورضي ان يذهب لمقابلة سنية عله يأتي بنتيجة يفرح بها الشعب » وليس ابعد من هذا انكاراً للذاتية في سبيل المجموع ، وليس اروع من هذا تمثيلاً لروح الاجتماع التي تسود القصة، وتتمثل في بعض صورها الفاتنة في حياة « الشعب » كما تتمثل في حياة القرية، وفي هذا التضامن القوي العجيب بين الفلاحين ... ، في تقاسم البلوى ومشاطرة المصائب، كما فعلوا مع الرجل الذي ماتت ماشيته. وتتمثل لك هذه الروح ايضاً في هذا الجمع بين المسافرين الذين سرعان ما يجلسون للحديث والسمر ، ولم تمض دقائق على اجتماعهم ، ومن هذه الصور ، ومن عشرات مثلها منثورة هنا وهناك في تضاعيف القصة ، يريد المؤلف ان يقول ان «اهل مصر شعب أصيل عريق . . . . » وان « الاجتماع في دمنا والحياة الاجتماعية طبيعة نشأت فينا من أجيال »

ويقابل المؤلف بين الفلاح — او المصري اذا شئت — وبين التركي والعربي ، فيرفعه فوقهما درجات ، ويجعلك تسخر من الاول في شخصية ام « محسن » بل انه ليملأك غضباً منه بما تأتيه هذه التركية المتعجرفة من الغلظة والفظاظة . وانظرها ترد عنها فلاحة قدمت ترحب بها

— بعيد ... بعيد ... حاسي توسخي فستاني ... وتجيبها الفلاحة في حلم وبشر ضاحكة الوجه

— يوه ! مش ستنا نبوس ايدها ! امال نبوس ايد مين ؟

وقابل بين الاثنتين ! او بين الاثنين، الفلاح بوداعته وحلمه وسعة صدره ، والتركي بما ترى منه في هذا المشهد ! . أما ما بين الفلاح والعربي فهذا شيخ العزبة — ولا اقول المؤلف — ينعت العرب بأنهم « جماعة خطافة جرابيع . . . » وقد احيلك اذا شئت ان تعرف رأي المؤلف صراحة في هذا على كلمة له نشرها في مجلة « الرسالة » الغراء كخطاب مفتوح للدكتور طه حسين . على ان المؤلف في القصة يمتدح الفلاح ويرجع هدوءه ووداعته الى كرم الاصل « فهو اصل الاصول » لا الى ذل العبودية، كما يرجعهما الى حياته الزراعية العريقة التي تتطلب السلام والاستقرار ، فهدوؤه ليس خنوعاً ولا ذلة ، وجموح العربي وحبه الحرب والثأر والدم ليس بالشرف الذي لا يطاول ، ولكنه بقايا الحياة الهمجية الاولى التي اساسها الغزو والسلب ونهب القبيلة القبيلة !. وكما سمح المؤلف للتركي على لسان ام محسن ان تسب الفلاح، سمح للفلاح على لسان شيخ العزبة ان يسب العربي ،وكأنهُ بذلك يرد الى الفلاح اعتباره، ويوسع له في المجال لينتقم لنفسه من هذه العناصر التي دخلت وطنه فاعتبرت نفسها ، وهي الدخيلة، ربة الدار ، واعتبرت الفلاح — او قل المصري — وهو الاصيل وأصل الاصول ، الدخيل المتطفل . وان المؤلف لجدير باكليل نضر من نبت ارض الوطن جزاءاً لهذا الكريم المعتز بالوطن

وان المؤلف يضفي على الريف المصري لوناً من القداسة حتى لكأنهُ محراب كاهن، ويجعله مناراً لقوة العقيدة الخالصة والايمان الخالص ، ويدفعنا في قوة وعنف الى الوراء ، الى مصر الفرعونية . ويبرز لنا من هذا الريف ومن ابنائه صورة صوفية في تآلفهم وكدهم وتحمسهم في سبيل المعبود ! المعبود المتمدد — على التاريخ — الاسماء والاشكال والرموز ، صورة فيها هذا الجوهر الباقي الخالد الذي يربط بين مصر اليوم ومصر الامس ، روح الجماعة ، او روح المعبد كما عبر عنها المؤلف على لسان الفرنسي في هذا الحوار — الذي هو مفتاح القصة — بينه وبين زميله الانكليزي . وكما وجدت هذه الروح في مصر الفرعونية « فتحول الشعب كله الى كتلة آدمية واحدة تستعذب الالم في سبيل واحد : خوفو ممثل المعبود ورمز الغاية . . . » وجدت مرة اخرى في مصر الحاضرة، ولم يكن ينقصها الآ المعبود « ذلك الرجل الذي تتمثل فيه كل عواطف الشعب وأمانيه ويكون له رمز الغاية . . . » وكما اتت هذه الروح في المرة الاولى بمعجزة الاهرام ، أتت « عودة الروح » في المرة الثانية بمعجزة الثورة ! عادت الروح ، روح المعبد ، روح الجماعة ، عادت وكنت تحت الرماد ، « كنت في البئر... في البئر التي خرجت منها الاهرامات ، في القلب ، القلب الذي لا قاع له وهو قوة مصر ، وهي بذلك تغاير قوة اوربا الكائنة في العقل تلك الآلة المحدودة التي يجب ان نملأها نحن بارادتنا »

وقد لمست عودة الروح ، روح المعبد ، روح الجماعة ، في ثنايا القصة ، في كل مشهد منها ، وكل حادثة فيها ، في صورتها الصغرى في حياة « الشعب » الذي يتألف من محسن وسليم وعبده ومبروك وحنفي وزنوبة ، وفي صورتها الكبرى في ثورة « الشعب » الذي يتألف من هذه الملايين ،

هذه الروح التي تجعل « الكل في واحد » ، كان المصري القديم يعبر عنها في ندبه موتاه قائلاً « عند ما يصير الوقت خلوداً سنراك من جديد ، لانك صائر الى هناك ... حيث الكل في واحد » ولعلك تدرك معي الآن لماذا سجل المؤلف هذه الجملة على صدر الجزء الاول من قصته . والمصري الحديث يحس هذه الروح في اعماق قلبه . وليست الثورة الا نتاجاً لها ، لهذه الروح ، روح الجماعة ، روح المعبد ، الثورة التي اندمجت فيها الملايين فأصبحت قلباً واحداً ، وعاطفة واحدة ، وفكرة واحدة ، عادت روح المعبود ، واجتمع الشعب حول رمز المعبود الذي تمثل في رجل خرج من صلب الفلاح ، والثورة لا تقوم الا على روح الجماعة ، فلما عادت الروح ، هبت الثورة ، الثورة التي جعلت « الكل في واحد » وعاد المصري يغترف من قلبه الذي لا ينضب ، قلبه الذي تجمعت فيه رواسب الف قرن !!

ولعلك تعود الى هذا الحوار بين الفرنسي والانكليزي تسمع تفاصيل هذه القضية التي يعرضها المؤلف عرضاً قوياً أخاذاً ، ولترى هذه المقارنة التي يعقدها بين مصر التي تؤمن بالقلب الذي لا قاع له ولا حد له ، وبين اوربا التي يسوقها العقل المحدود ، والآلة التي غلا ها نحن عما نريد !!

وفي هذا المشهد الذي يرى فيه محسن الطفل والعجل يرضعان معاً من ثدي بقرة ، يتحدث فيه المؤلف عن قلب مصر ، وعن شعور مصر ، وعن سر تأليه قدماء المصريين للحيوان بل الطير والحشرات . « وكما جعلوا الاله على صورة رجل ، جعلوه ايضاً على صورة الحيوان والطير والحشرات . أليست كل تلك المخلوقات من عمل الله ؟ فلم لا تمثل صورها الاله كما تمثله صورة الرجل !! » ويستدل المؤلف من هذا على ان قدماء المصريين كانوا « يعلمون تلك الوحدة الكونية وذلك الاتحاد العام بين حلقات المخلوقات المختلفة »

« والشعور بالاندماج في الكون ، اي بالاندماج في الله هو شعور ذلك الطفل وذلك العجل الرضيعين ، هو شعور الملائكة ، وهو ايضاً شعور ذلك الشعب العريق المصري القديم ... »

فروح مصر ، هي روح « الكل في واحد » وقلب مصر ، هو هذا القلب الذي يحس بالوحدة الكونية ، ويشعر شعور الملائكة ، ثم ها هو حوريس يصيح « انهض ، انهض يا اوزريس ! انا ولدك حوريس ... جئت اعيد اليك الحياة ... لم يزل لك قلبك الحقيقي ... قلبك الماضي » وليس اوزوريس وحوريس الا رمزاً لمصر القديمة ومصر الحديثة . وقد جاءت مصر اليوم توقظ مصر الامس ، وتبعثها من جديد ، وتعيد اليها الحياة ، بقلبها الحقيقي ، قلبها الماضي ، قلبها الذي يشع طهراً ونبلاً وملائكية

ولعلك ادركت لماذا سجل المؤلف هذه الجملة على صدر الجزء الثاني من قصته

وفي هاتين الجملتين اللتين صدر بهما المؤلف جزئي قصته مفتاح القصة كلها ، والسر الذي ان لمسته فقد استطعت ان تمسك المصباح الذي ينير امامك الطريق لتفهم « عودة الروح » فهماً صحيحاً ، فتنفذ من وراء ظواهرها البراقة الى لبها وجوهرها ، ولست ادعي اني خضت العباب واقتحمت اللجة ، ولكن لعلي وقفت بك على الشاطىء ، ووضعت في يدك المقذاف ، واذا كنت قد ارت لك قبساً ولو ضئيلاً ، قبساً تخلق منهُ شعاعاً ، ومن الشعاع نوراً يهديك وسط هذا العباب الخضم ، فاني سعيد مغتبط ، لم يذهب جهدي سدًى ولا قبض الريح . وهذا حسبي

مشكلة النمسا

نزاعها الداخلي والنزاع حول الاحتفاظ باستقلالها

لم تكن الحرب الاهلية التي شبّت نيرانها في النمسا في الاسبوع الثاني من شهر فبراير الماضي ، حرباً بين حكومة وطائفة من رعيتها فحسب ولا كانت دفاعاً من حزب كبير في امة جمهورية عن كيانه فحسب بل كانت معتركاً لقوى عالمية عظيمة : الفاشستية والدكتاتورية من ناحية والاشتراكية والدمقراطية من ناحية ، الرأسمالية في جانب والتعاون الاقتصادي او الاندماج الاقتصادي في الجانب الآخر . والنزاع الداخلي في جمهورية النمسا ، الذي ما زالت بواعثهُ تتهيأ من زمن في الخفاء ، كان مظهراً للنضال بين هذه القوى . فالاشتراكيون المسيطرون على عاصمة النمسا واكبر مدنها ، كانوا عازمين على الدفاع دون سيطرة الفاشستية على الامة ، ايًّا كان طابعها . والفاشستيون الذين قاوموهم كانوا منفصلين الى معسكرين ففي المعسكر الواحد اتباع هتلر ، وفي المعسكر الآخر انصار موسوليني . فوقفت اوربا ترقب نتيجة المعترك ، لانهُ ينطوي على الاجابة عن مسائل خطيرة — هل تتوسع المانيا في حوض نهر الطونة ؟ ما يكون مقام ايطاليا في قلب اوربا ؟ وما مصير الاتفاق الصغير ، اذ توسعت المانيا في اوربا الوسطى او بسطت ايطاليا عليها ظلّ نفوذها ؟ وما موقف فرنسا من هذا كلّهِ ؟ وكذلك استوقفت هذه الجمهورية الصغيرة انظار العالم ، كما استوقفتها امبراطورية آل هبسبرج في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ يوم مصرع الارشيدوق فرانز فرديناند في سراييفو

النزاع المثلث

النزاع الداخلي في النمسا ، الذي افضى الى الحرب الاهلية الدامية في فبراير ، نزاع ثلاثي ، بين الاشتراكيين وقوى الحكومة التي يؤيدها الهيمفهر والنازي النمسوي يؤيدهم النازي في المانيا

الاشتراكيون اقوياء في المدن مثل فينا ولنز ويمثلون نحو ٣٥ في المائة من الناخبين . ومع انهم كانوا مسيطرين على بلديات المدن ، كانوا عاجزين عن التأثير في شؤون الجمهورية العامة . ولما كان برنامجهم السياسي والاجتماعي تقع وقعاً حسناً في نفوس عمال المصانع على الغالب كان نفوذهم ضعيفاً في الولايات الريفية والزراعية . ولكنّ سكان العاصمة فينا نحو مليوني نفس — وهم ثلث سكان الجمهورية — وفيها معظم ثروة البلاد ، لذلك كانت حكومتها الاشتراكية ومشروعاتها هدفاً لتبرم الناس في الارياف

ويواجه الاشتراكيين الحزبَ الاشتراكي المسيحي (وهو ليس اشتراكيًّا) يؤيدهُ الفلاحون الكاثوليك والطبقة المتوسطة في الولايات ، وعدد الناخبين المنضوين تحت لوائهِ يعادل عدد الناخبين المؤيدين للاشتراكيين ومن اعضاء هذا الحزب رجال منتظمون في الهيمفهر وهو فرقة عسكرية

فاشستية النزعة ، تميل الى اعادة الملكية وتجريد الاشتراكيين من اي كلمة نفوذ في تصريف شؤون البلاد

اما الفريق الثالث فهو فريق النازي النمسوي يؤيدهم اخوانهم في المبدإ والعقيدة في الريخ الثالث (المانيا) . ولما كانت النمسا لم تحدث فيها انتخابات في السنتين الاخيرتين فمن المتعذر تقدير عدد أنصار النازي في الشعب النمسوي وانما يقول بعض المعروفين بصحة الحكم ان نحو نصف الامة النمسوي يرغب في قيام حكم نازي . ومع ان النازي والهيمفهر متفقان في كثير من أصول خطتيهما الأ ان النازي يرغب في انضمام النمسا الى المانيا حالة ان الهيمفهر يعلن ضرورة الاحتفاظ باستقلال النمسا

الاشتراكيون واعداؤهم

لما هوت أسرة هبسبرج عن عرش النمسا والمجر في سنة ١٩١٨ تعاون الاشتراكيون في النمسا مع الاشتراكيين المسيحيين على انقاذ ما تبقّى لهم من امبراطوريتهم التاريخية فتصدّوا لانتشار الشيوعية وصدّوها . فوقفوا في وجهِ دعاة المذهب الماركسي ، ومنعوا حدوث نضالٍ دموي بين العمّال والطبقات المتوسطة . ومن غرائب الاقدار ان طائفة من هؤلاء الذين انقذوا النمسا من الماركسية بعيد الحرب قتلوا في الاسبوع الثاني من فبراير الماضي بحجة أنهم من اتباع ماركس

والواقع انهُ منذ ما أنشئت جمهورية النمسا ، نشأت عداوة فيها بين الفلاحين والطبقات المتوسطة في الناحية الواحدة ، وبين الفلاحين والاشتراكيين في الناحية الاخرى . ولما كان الاشتراكيون المسيحيون يخشون سيطرة الاشتراكيين على ڤينا طلبوا انشاء حكومة اتحادية ، بدلاً من تركيز اعمال الحكومة التنفيذية والتشريعية في ڤينا على نحو ما طلب الاشتراكيون . بيد ان الفريقين تعاونا على اخراج دستور اتحادي بعد مساومة طويلة فاحتفظ الاشتراكيون بمقتضاه بالسلطة في العاصمة وقبض الاشتراكيون المسيحيون على اعنتها في الولايات . الأ ان المودّة بين الحزبين لم تدُم . ذلك ان التعاون الذي تقتضيه الصناعة يتنافر مع النزعة الفردية السائدة في الولايات الزراعية ، والشعور الديني الذي يسود الفلاح في الارياف مناقض للنزعة الدنيوية في العاصمة . وكثيراً ما هدّد الفلاحون بالانقضاض على العاصمة من اوجارهم في الجبال ، لابادة أبناء سدوم وعمورة ! فالحاجز بين سكان ڤينا وسكان جبال التيرول وكارنثيا وستيريا ليس الجبال فقط بل النظر الى الحياة ، وهو اهم

ووجد الفلاحون انصاراً لهم في المدن في جماعات الملاّك ، لان هؤلاء معادون للاشتراكيين ، لثقل الضرائب التي كانت تفرضها عليهم حكومة ڤينا الاشتراكية ، لكي تبني بها مساكن حديثة النظام للعمّال . لذلك لما شبّت نيران الحرب الاهلية في فبراير ، صوّبت مدافع اعداء الاشتراكيين الى « كارل ماركس هوف » وغيرهِ من المباني الحديثة التي أقامتها البلدية لسكنى العمال

بيد ان الاشتراكيين لم يعمدوا الى فرض الضرائب على الملاك بعامل الحسد من ثروتهم . ولكن البلدية الاشتراكية واجهت مشكلة خطيرة في ڤينا عند تقلدها أزمة الحكم هي مشكلة نقص المساكن

عما يحتاج اليه سكان المدينة . ففي عهد الامبراطورية كان عمال ڤينا يقطنون مساكن كحظائر القطعان ، بل ليقال ان ألوفاً من الاسر كانت لا تجد الاسرة منها الا غرفة قذرة صغيرة لسكناها وكانت مع ذلك غالية الاجر لان أصحابها من الملاك كانوا من أصحاب المكانة السياسية في البلاد . وهتلر يؤيد هذا في كتابه الموسوم « كفاحي » مع انهُ من أعداء الاشتراكية

سنَّ الاشتراكيون في ڤينا قوانين حددوا بها اجور المساكن في العاصمة وفرضوا ضرائب ثقيلة على العقارات ، وبما حصلوا عليه من مال الضرائب شرعوا يبنون مباني ضخمة حديثة ، قطنها نحو ستين الف اسرة من اسر العمال . وبلغ من نجاح الاشتراكيين في عملهم هذا ، ان اصبحت مبانيهم هذه مثالاً يحتذى في تشييد مساكن للعمال في اكبر مدن العالم . ولما كانت اجور السكن في هذه المباني رخيصة كل الرخص ، فقد كان من المعقول المتوقع ان تصبح هذه الصروح معاقل للاشتراكيين . وكذلك اصبح الملاك في عنف حنقهم على الاشتراكيين يحسبون هذه المباني نمواً غير طبيعي في العاصمة . ثم ان حكومة ڤينا الاشتراكية عمدت كذلك الى الاستيلاء على المرافق العامة وجعلت تنفق ما تحصل عليه من الربح والضرائب في تحسين الحال الاجتماعية من صحة وسكن وأجور ورفد في حال التعطل عن العمل — كل هذا دبَّرت لهُ حكومة ڤينا الاشتراكية ادق تدبير . اما اصحاب المصانع والمتاجر والمباني فكان عليهم ان يسددوا نفقة هذا الاصلاح

قيام الفاشستية

فلما امتدَّ ظل الكساد الناشىء عن الازمة العالمية ، فوق اوربا الوسطى ، اتسعت الهوَّة بين الملاك والاشتراكيين . وكان لتطور الحال في المانيا وايطاليا اثر كبير في النمسا . وجعل الفلاحون الجبليون يميلون الى القوى المعارضة لدعاة الماركسية . يضاف الى ذلك ان ما يصحب النزعة الفاشستية من جلال ومجد ملأ في صدور النمسويين ذلك الخواء النفسي الذي احدثه سقوط اسرة هبسبرج الامبراطورية . وما كان الفلاح ليهتم بالمباحث النظرية في اسباب الكساد العالمي وبواعثه بل كان لا يفهم الا ان الازمة آخذة بالخناق ولا يطلب من الحكومة الا مدداً للعيش . هنا توسط دعاة الفاشستية في النمسا فقالوا للفلاح ان السبيل الوحيد الى الخلاص انما هو ابادة الاشتراكيين

في هذا الجو نشأت فرقتان عسكريتان : الاولى « الشوتزبند » الاشتراكي وعدد افرادها مائة الف و« الهيمفهر » المقاوم للدمقراطية وعدد رجاله ستون الفاً . ومع ان الهيمفهر جمع معظم رجاله من الفلاحين وابناء الطبقات المتوسطة في الارياف ، الا ان مدده المالي كان مستمداً من اصحاب المصالح الصناعية والتجارية الذين كانوا يرغبون في القضاء على الاشتراكيين . ويقال ان الهيمفهر أصاب كذلك مدداً ماليًّا في المانيا وايطاليا . اما البرنس فون ستارمبرج فخلع على هذا الفريق ثروتهُ واسم أسرته التاريخي المجيد

فلما ارتفع كوكب الهر هتلر في سماء السياسة ، اخذت حركة النازي في النمسا تتسع وتقوى .

فأيدها اولاً رجال «حزب الجامعة الجرمانية» وانضمت اليهم طائفة من رجال الهيمفهر لانها معادية لليهود والاشتراكيين على السواء. واخذ الفلاح النمسوي يميل من هبسبرج الى هتلر. فلما اهلت سنة ١٩٣٣ كانت تلك الجمهورية الصغيرة معتركاً لجيوش خاصة مدربة ومنظمة ينادي بعضها بسقوط الجمهورية

فلما تمَّ النصر للنازي الالماني في ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣ بتعيين الهر هتلر مستشاراً للريخ، اخذ زعماء النازي في النمسا يتصورون زحف اصحاب القمصان السمر من المانيا الى ڤينَّا. ولكنهم حينئذٍ لم يحسبوا حساباً للدكتور دولفوس. ذلك انَّ دولفوس اصدر امراً في يونيو سنة ١٩٣٣ بحل الحزب النازي فكان في نظر بعض مواطنيه كالفتى داود يقاوم جليات الجبّار (طول دولفوس ٤ اقدام و١١ بوصة مع ان متوسط طول الرجل قريب من ٥ اقدام و٦ بوصات). وفي خلال ذلك كان النزاع بين الاشتراكيين والمسيحيين الاشتراكيين في البرلمان النمسوي، عنيفاً كل العنف، فحال نزاعهما دون العناية بالتشريع. ومع ان الهر دولفوس كان في حاجة شديدة الى مددٍ لمقاومة النازي خشي ان يتفق مع الاشتراكيين لان الهيمفهر وحزب المسيحيين الاشتراكيين يعارضان في ذلك. فجارى رغبتهما في تشديد الخناق على الاشتراكيين وسنَّ قوانين تضعفهم وحل جيشهم الخاص المعروف «بالشوتزبند»

فلما اقبل الخريف تبيَّن لمراقبي الحالة في النمسا ان الدكتور دولفوس يعتمد على الجيش النظامي والهيمفهر، ونزعة وطنية جديدة عمد الى خلقها في نفوس اتباعهِ، في مقاومة النازي والاشتراكيين. وفي سبتمبر وعد باحداث تعديل دستوري على نمط الدولة المندمجة الايطالية فتحلُّ النقابات والمتحدات الصناعية والزراعية محلَّ الاحزاب، ويتصافى العمال والفلاحون. ولكن هذا الوعد لم يكن قد أُنجز لما وقعت الحرب الاهلية في الاسبوع الثاني من فبراير

وفي خلال ذلك اشتدَّت حملة النازي في النمسا، وبدت في الهيمفهر دلائل الاستعداد على الاتفاق مع النازي النمسوي مع ان زعماءهُ اعلنوا انهم مقاومون لهتلر. وكذلك واجه الهر دولفوس مشكلة معقدة، وهو منها على مفترق الطرق. وزادت المسألة تعقيداً وارتباكاً لما ظهرت لجان من الهيمفهر امام حكام الولايات مطالبة بانشاء نظام فاشستيٍ وحلّ جميع الاحزاب بما فيها حزب المسيحيين الاشتراكيين مع ان هذا هو حزب الهيمفهر. فلما ذهب دولفوس في رحلة الى بودابست في اوائل فبراير، امر نائب المستشار الماجور فاي — وهو زعيم الهيمفهر — رجال البوليس بمهاجمة اشتراكيي ڤينَّا. فقام زعيم من حزب المسيحيين الاشتراكيين في مجلس ڤينَّا البلدي واقترح التعاون بين الاشتراكيين والمسيحيين الاشتراكيين. ولو ان اقتراحاً من هذا القبيل جاء قبل سنة ونصف سنة لامكن تعاون هذين الحزبين في مقاومة النزعة الفاشستية، من قِبَل النازي كانت او الهيمفهر. فرأى زعيم الهيمفهر في هذا الاقتراح خيانة وسلَّم دولفوس برأيهِ فضرب الاشتراكيون الضربة القاضية. ولكن الشوتزبند وهو جيش الاشتراكيين ظلَّ محتفظاً بنظامهِ واسلحتهِ، رغم صدور الامر بحلهِ في منتصف السنة السابقة فقاوم الحكومة وأتباعها مقاومة عنيفة اراقت الدماء في ڤينَّا وغيرها من المدن

وكان دولفوس يظن ان سير الامور في النمسا ، يتبع سيرها في المانيا ، حيث خضع الاشتراكيون الدمقراطيون لاوامر هتلر من دون كفاح ولكنهُ أخطأ التقدير

فأيدي الفاشستية في النمسا ملطخة بالدم ، ولا ريب في ان ملايين من النمسويين المؤمنين بالمبادىء الاشتراكية ، يكنون في قلوبهم كرهاً شديداً لدولفوس وفاي والبرنس ستارمبرج . وعند ذلك فقد يجد رجال الحزب النازي النمسوي ، مرتعاً خصباً لدعايتهم بين هؤلاء الاشتراكيين لان زعماء النازي النمسوي وقفوا بمعزل عن النزاع الدموي ينتظرون سنوح الفرصة

وقد كان الهيمفهر شديد الصخب عالي الضجة في شؤون النمسا في العهد الاخير ، الاَّ انهُ لا يمثل اكثرية من الشعب . ولكنهُ مع ذلك الحرس الشاكي الذي تعتمد عليهِ الحكومة القائمة . وقد يكون في نية الهيمفهر ، ان يتبع خطة التعاون مع موسوليني ، سواء رضي ان يجاريهُ دولفوس في ذلك او لم يرضَ ، وفي تلك الحالة قد يحاول زعماؤه القضاء على الاشتراكيين والنازي ، اذا جرَّب احد الحزبين ان يرفع رأسهُ . او قد يحاول زعماء الهيمفهر ان يتفقوا مع هتلر ، فيتمُّ بذلك الاتحاد المعنوي بين النمسا والمانيا ، وهم يطلبون في هذه الحالة ان تبقى مقاليد الامور في النمسا في أيديهم

النزاع الخارجي

لما هوت امبراطورية النمسا والمجر في آخر الحرب الكبرى ، ظلَّت جمهورية النمسا وحدة اقتصادية بتراء . لذلك سعت المانيا والنمسا الى توحيد البلادين من الناحية الاقتصادية على الاقل . وكان الاشتراكيون الدمقراطيون في كلا البلادين مؤيدين لهذا التوحيد ، رغم ما فرضتهُ الدول الظافرة دونهُ من الحوائل . لذلك حاول الدكتور برويننغ المستشار الالماني في مارس سنة ١٩٣١ ان يتفق مع الدكتور شوبر النمسوي على انشاء اتحاد جركي بين المانيا والنمسا . فأحدثت هذه المحاولة ازمة اوربية حينئذٍ ، وحكم على المانيا والنمسا بالتخلي عن هذا المشروع

فلما اتسع نطاق الدعوة التي نشرها هتلر ، تجددت العناية بمسألة الاتحاد . ذلك انهُ اذا اشتدَّ ساعد النازي النمسوي وقامت حكومة نازية في فينَّا ، أصبح ضمُّ النمسا الى المانيا مستطاعاً من دون خرق مواد معاهدات الصلح او قرارات مجلس السفراء التي تمنع ذلك ، على ان يكون هذا الضمُّ معنويًّا لان كل حكومة نازية تستمدُّ مبادئها وارشادها من هتلر . وكذلك تصبح اذا وقع انقلاب نازي في النمسا ، مدن فينَّا وانسبروك وسلزبرغ وكأنها سهام نازية مسدَّدة الى قلب اوربا . وهذا يقيم في وجهِ فرنسا وايطاليا وتشكوسلوفاكيا وبلاد شرق اوربا الجنوبي مشكلات دولية خطيرة تتصل بحياتها القومية اوثق اتصال

فلما زار السنيور سوفتش وكيل وزارة الخارجية الايطالية فينَّا من عهد قريب ، علق في تصريحاتهِ شأناً خطيراً بضرورة الاحتفاظ باستقلال النمسا . وقد ترامت الشائعات بأن موسوليني قد أيَّد الهيمفهر تأييداً ماليًّا وسياسيًّا اعتقاداً منهُ انهُ القوة الوحيدة التي تستطيع ان تصدَّ هتلر ، وتحوّل النمسا

الى اداة مطواعة تستعملها سياسة ايطاليا الخارجية في اوربا الوسطى وما يليها من جنوب اوربا الشرقي

ومن المتعذر الآن التكهُّن بالمستقبل ، وهل تنتهي الحالة في النمسا بفوز موسوليني او هتلر . ولكن في شمالي ايطاليا ، شعب الماني غير راضٍ عن حالتهِ ، فليس من المرجح ان يقنع موسوليني بالتفرُّج اذا حاولت المانيا تأييد النازي النمسوي حتى يفوز بتقلد ازمَّة الحكم في البلاد

أما فرنسا وتشكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا فقد كانت مصالحها ولا تزال مرتبطة بالمحافظة على استقلال النمسا وبقاء نظام الحكم دمقراطيًّا فيها . فالقضاء على الاشتراكيين في النمسا ، يزيل سندها الاخير في قلب القارة الاوربية . ثمَّ ان يوغوسلافيا تتتبع الشؤون النمسوية بعناية وقلق . فقد مضى عليها ردح من الزمن وهي تواجه ايطاليا حردةً على الضفة الاخرى من البحر الادرياتيك . فاذا استقلَّ الهيمفهر بالحكم في النمسا ، وكان مؤيداً من موسوليني ، اصبح صلة بين ايطاليا والمجر ومكَّن ايطاليا من اتمام الاحداق بيوغوسلافيا

وتشكوسلوفاكيا يهمها طبعاً مصير النمسا وقد اعلنت بلسان وزير خارجيتها انها تعارض في عودة آل هبسبرج الى عرش فينَّا وانها متفقة مع دول الاتفاق الصغير (تشكوسلوفاكيا ورومانيا ويوجوسلافيا) على سحب وزرائها المفوَّضين من فينَّا يوم دخول البرنس اوتو وانها قد لا تحجم عن استعمال القوة لمنع هذا . ويقال ان بنش والرئيس ماسارك ايَّدا اشتراكيي فينَّا تأييد مصلحة ومبدإ . أما المصلحة فخشيتهما من استفحال امر الفاشستية في النمسا — هتلرية كانت او موسولينية — وأما المبدأ فايمانهما بالنظم الدمقراطية . وشد ما يخشيانهِ على تشكوسلوفاكيا قيام حكومة نازية في النمسا لان ضمن حدود تشكوسلوفاكيا اقلية المانية كبيرة عددها ثلاثة ملايين ، لا بدَّ ان تضلع مع النازي بعد ما ترى سلسلة الانتصارات الباهرة التي فازت بها السلالة الالمانية في ظلّ النظام الهتلري

أما فرنسا ، المعنية الآن بشؤونها الداخلية ، فتدرك ما لمصير النمسا من الشأن الخطير ، في بناء السياسة الاوربية . ذلك ان القنابل التي وجهت الى مباني العمال في فينا ، كانت قنابل معنوية موجهة كذلك الى معاهدتي فرساي وسان جرمان . وفوز النازي في النمسا تحدٍّ خطر لفرنسا وحلفائها . بيد ان تفوُّق النفوذ الايطالي في فينَّا من الجهة الاخرى ، يعني تحديًا آخر لنظام المحالفات الذي انشأتهُ فرنسا — محالفتها مع دول الاتفاق الصغير — واليهِ تستند في تفوقها العسكري وضمان سلامتها . فاذا اصبحت النمسا اداة في يد السياسة الخارجية تعذَّر اتصال فرنسا بحلفائها في قلب اوربا وجنوبها الشرقي . وكذلك يمتد ميدان النزاع بين ايطاليا وفرنسا من افريقيا الى البلقان

يقابل ذلك ان مساعي النازي الالماني لتأييد اخوانهم في النمسا ، مهَّد السبيل الى شيءٍ من التفاهم والتقرُّب بين فرنسا وايطاليا . اما بريطانيا فقد ضمنت استقلال النمسا ولكنها لا ترغب في ان تزجَّ في معترك المشكلات الاوربية المعقدة ، وأملها ان تستطيع النمسا الاحتفاظ باستقلالها بطريقة ما وتكفيها مؤونة التدخل . واما خطة المجر فهي التأهب والانتظار لتميل الى الجانب الذي ترجَّح لهُ الفوز

هنري : يوبي

على عرش التنين في منشوكو

في الطرف الشرقي من قارة آسيا العظيمة يعيش شعب عدد نسماته اربعمائة مليون او يزيدون ، تناوبت عليه حالات اشبه بالحالات التي انتابت الدولة الرومانية قبيل سقوطها

كان امبراطرة الصين يعتقدون قديماً انهم ابناء السماء ، وكفى بذلك دليلاً على الارستوقراطية العريقة والمجد التالد. وكان الشعب الصيني يعتقد ان ابناء السماء اذا حكموا فانما هم بامر السماء يحكمون وان ما يصدر عن ابناء السماء وهم متربعون على عرش التنين ، تنزيل لا ينقض وامر لا يُردُّ ، فكنت ترى الشعب الصيني في يد ابناء السماء كأنهُ العجينة تكيفها الاهواء. ولكن ما زالوا يتداولون من الارض شيئاً فشيئاً وحالاً بعد حال حتى انقلب الحكم في بلادهم بين عشية وضحاها ، وتبخر عرش التنين واذا بهِ محل لحكم جمهوري فج لمعت في سمائهِ اسنة الحراب . وقضي الامر . وامر احد ابناء السماء في قصر من قصور اجداده القدامى ونزل عن سماويته العليا الى ارضيتنا المتواضعة

ولكن . . . نعم . ولكن ليخرج من قصر الاسر الى عرش التنين مرة اخرى . غير انهُ عرش لم يبقَ من قدمهِ الاّ الاسم ، لان دُسْرَهُ اخذت هذه المرة من الاسنة اليابانية ، لا من الجبروت السماوي . واذا الامبراطور « يوبي » ابن السماء في الامبراطورية الصينية العظيمة قد اصبح «هنري» ابن الارض في دولة « منشوكو » وهي منشوريا احدى مقاطعات الصين قبلاً ، في مصورات الجغرافية . وايُّ عجب في هذا ! . ان اجداد « هنري يوبي » خرجوا من منشوريا منذ قرون غزاة فاتحين ، فتبوؤا عرش التنين في عاصمة الصين ، وورثوا بنوة السماء . ولكن الظاهر ان السماء زهدت فيهم الآن فردّت وريثهم من غربته الطويلة الى حيث خرج آباؤه اول مرة غزاة تخفق على رؤوسهم درافس الحرب ، يزجون تحتها الصفوف الى المواقع المحجلة بالنصر والظفر

من سهول منشوريا الفسيحة خرج اجداد « هنري يوبي » . وهو الآن يعود الى منبته الاصلي . ففي القرن السابع عشر هبطت اسرة « المنشو » من سهول الشمال الفسيحة بجيوشهم الجرارة ميممين نحو الجنوب ، بعد ان اخضع جدهم الاول « نو — أوراشو » جميع القبائل القوية التي كانت تتصل بتخوم بلاده واذلها . وما زالوا يجتاحون في بلاد الصين السهول والحزون حتى واجههم سور الصين الاعظم فدكوا منه جزءاً لينفذوا الى «بكين» عاصمة الصين المحرّمة على غير ابناء السماء . ولكن من ذا الذي اعطى لاسرة « منج » وثيقة بأنها وحدها من ابناء السماء ؟ ولماذا لا تختار السماء من ابنائها من هو اصلح لحكم الصين من اسرة قديمة أكل عليها الدهر وشرب القدم ؟ وكذلك انتزع القدر عرش التنين من أسرة « منج » ليجلس عليها اسرة « شنج » اول امبراطرة «المنشو» ولكن ليبقيهم عليه ٢٦٦ سنة لاغير

لقد كانت تلك الاسرة من اعظم الاسر التي عرفها عرش الصين القديم . وعلى أيدي امبراطرتها العظام تسنمت الصين آخر عهدها بالمجد العالمي كأمة متحدة ووحدة سياسية عظيمة . فمن اجداد «پويي» ملكان من اعظم الملوك الذين يذكرهم التاريخ على مدى العصور وفي كل بقاع الارض . حكم كل منهما ستين سنة ، مع فاصل ضئيل من الزمان بين حكميهما ، فلم تفق الصين امة اخرى من أمم الارض قوة ونفوذاً ومدنية في عهدها

ولقد اخطأ المؤرخون اذ نعتوا لويس الرابع عشر بأنه اعظم ملوك الارض في القرن السابع عشر . اما الحقيقة فان الامبراطور «كانج هسي» في بكين كان اعظم ملوك الارض في ذلك الزمان . فقد حكم امبراطورية لا تعد فرنسا برمتها الا احدى مقاطعاتها ، وسعى الى توسيع ملكه كما سعى لويس الرابع عشر ، ولكنه امتاز على الملك الفرنسي بأنه لم يرضَ بأن يقوم ملكه على القوة وحدها فعززها بترقية الفنون والمعارف وكل ما يتعلق بمدنية الروح الى جانب كل ما يتعلق بمدنية المادة

وبعد ان مات هذا الامبراطور العظيم (سنة ١٧٢٢) بأربعة عشر سنة تسنم عرش التنين حفيده الامبراطور «شيان منج» فحكم الى سنة ١٧٩٦ ، فبرهن انهُ خليق بأن يكون من سلالة جده العظيم . فوسع في اطراف امبراطوريته ، وأمَّتهُ ملوك آسيا الشرقية اجمعين يحملون اليهِ الجزية او يتقرَّبون اليه زلفى . وكان في الصين كآل مديشي في ايطاليا . فكان شاعراً وكاتباً ومؤلفاً وحامياً للعلم ووليًّا للفنون وناصراً للثقافة ومحبًّا للعمران . ولا غرو ان يحتم «شيان منج» ان يسجد له سفراء الملك «جورج الثالث» عند ما ارسل بهم الى الصين في مهمة سياسية . ولقد عدَّ عليه كثير من مؤرخي اوربا هذا الامر ، ونسوا انه كان على عرش التنين يستمد القوة من السماء ليحكم امبراطورية عالمية هي اكبر امبراطورية في الارض لعهده ، ومن حوله بطانة من العلماء يملأُون طباق الارض علماً ، وحاشية من المثقفين على اخص قواعد التثقيف في بلاد لم يعرف اهلها من ارستوقراطية ، الا ارستوقراطية العلم والثقافة . فلما مات «شيان منج» آذنت شمس الصين بالمغيب ، ودقت ساعة الانحلال ، فتعاقب على عرش التنين خمسة امبراطرة خلال القرن التاسع عشر : كان اللاحق منهم اضعف من السابق ، والخلف اميع من السلف . على أنه من عجب ما يروي التاريخ ان هذه الأسرة لم يحمها على عرشها المزعزع خلال خمسة العقود الاخيرة في القرن التاسع عشر ، الا بسالة امرأة هي الامبراطورة «تسوهسي» التي عاصرت الملكة فكتوريا ، حتى قيل ان طرفي الارض اصبحا أشبه بكفتي ميزان في احداها «تسوهسي» تسوس الشرق وفي الاخرى «فكتوريا» تسوس الغرب

وكانت امرأة من الجبابرة جمعت بين رجاحة العقل وكبر القلب ، وعرفت قيمة القتل والاغتيال وسفك الدماء في سبيل الاحتفاظ بعرش آذنت ساعته ودبَّ فيه الفساد . فحكمت الصين حكماً فعليًّا برغم انها كانت زوج امبراطور سابق سقطت بموته عن اريكة الملك . ولكن من ذا الذي يقف في وجه القذبة الغبراء ؟ وهكذا حكمت هذه الامبراطورة الصين باسم من جلس على عرش التنين من الامبراطرة ، ومن ورائها رجال يخفون تحت دفوفهم مدى محدودة تطير من صفحاتها شرارة الموت تحت جنح الليل

وفي وضح النهار . ولكن الانحلال كان اقوى من ان تحول بينه وبين الصين مدية تتذرع بها « تسوهسي » الى قتل ثائر او اقصاء رجل ظهرت عليه بوادر التطلع الى الاصلاح . فان تحرش اوربا بالصين كان قد بدأ يهز عرش التنين من اساسه ، واجترأت سفن اوربا الحربية ان تدك بكرانها المتفجرة حصون الصين وتنزل الى الأرض الحرام اول فوج من جيوش اوربا . وكانت المبادىء والآراء الاوربية اخذت تتغلغل في الوحدة الصينية فتمزق منها ما رأبت السنون ، وبدت بوادر القلق الاجتماعي تظهر في صور مختلفة ، وكانت اول بادرة منهُ ظهور « صن يات سن » مزوداً بالمبادىء والتعاليم الاميركية ليرأس اول عصبة ثورية في ارض خضعت لابناء السماء حتى اصبح اندلاع ألسنة الثورة قاب قوسين او ادنى

وفي سنة واحدة مات الامبراطور « كوانج هسو » والامبراطورة « تسوهسي » . وعلى اثر موتهما سنة ١٩٠٨ تبوأ « بويي » وعمره ثلاث سنوات عرش التنين وهو احد ابناء عمومة الامبراطور المتوفي . فكان حكمه قصير المدى اذ شبت الثورة سنة ١٩١١ فتنازل عن العرش سنة ١٩١٢ وجاء في اعلان تنازله انهُ يترك العرش بعد ان ظهر له ان الشطر الاعظم من شعبهِ يفضل حكومة جمهورية على حكومة ملكية . ولكن شاء القدر ان ينزل « بويي » عن عرش لم يكن قد ذاق بعد حلوه ولم يعرف مرّه لصغر سنه ، فأذن لهُ رجال الجمهورية ان « يعيش » وان يعطى ٤٠٠٠٠٠٠ رطل من الفضة راتباً سنويّاً وان يبقى في احد قصور « بكين » اسيراً تؤدّى له كل المراسم الامبراطورية

على ان طالع زحل قد ادرك الجمهورية ايضاً ، فانها نبتت في ارض الصين كأنَّها نبات طفيلي من الفطريات ، فكانت سريعة النمو سريعة الزوال . ذلك لان الجمهورية لم تلبث غير قليل حتى تفجرت من حولها الثورات والحروب الاهلية . وبدأت بوادر هذه الحرب تظهر في سنة ١٩١٧ عند هبوط شخص يدعى (شانج سون) كان قاطع طريق ورئيس عصابة خارجة على القوانين جاهلاً مسفّاً ولكنهُ كان من انصار الملكية ، وعلى الرغم من ان الجهر بالنزعة الملكية كان عقابه الموت ، فانهُ رفض ان ينزع عن بزته الشارة الملكية ، ومضى يسير مختالاً بها في شوارع بكين

على ان هبوط هذا الرجل عاصمة الصين لم يكن « نذيراً » بالحرب الاهلية وحدها ، بل كان نذيراً كذلك بان الراحة التي استمتع بها « بويي » سوف تعصف بها اهواء ذلك اللص السفاح . غير ان ما حدث بالفعل ليس من المستطاع معرفته على وجه التدقيق ، بل الظاهر ان في احدى الليالي كان « شانج سون » يقصف مع رجاله عند باب من ابواب المدينة الجنوبية فاكل وشرب وذهب الى مسرح فشهد رواية تاريخية تقص طرفاً من عظمة الصين وجبروت امبراطرتها فلما لعبت الخمر برأسهِ يمم نحو المدينة « الحرام » واقتحم القصر الملكي ودخل الى الجناح الذي يشغله الامبراطور المعزول ، وايقظ الامبراطور الفتى الذي لا يتجاوز من العمر اثنتي عشرة سنة وجرّه الى ردهة التتويج والبسه الاردية الامبراطورية الصفر وحياهُ التحية التقليدية التي كان يحيّى بها الشعب ابناء السماء عند تبوئهم عرش التنين . ولكن ابن السماء كان مذعوراً . وكان يبكي بكاءً مرّاً

أما حاشية الامير فلم تكن اقلّ ذعراً منهُ ، لان رجالها كانوا يعرفون ما سوف يسفر عنه الغد القريب . ولم يطل انتظارهم ، ففي بكرة الصباح تحركت جيوش الحكومة وبعد معركة قصيرة انهزم « شانج سون » وتبددت قواته ، فالجأ هو الى السفارة الدنمركية ليحتمي بها . ولكن بقي بعد ذلك ما ينتظر من سخط الحكومة على الامبراطور الطفل . فلم يحدث شيء سوى ان ارجع الامبراطور الى الاجنحة المخصصة له في القصر وأغلقت عليه الابواب ، وعكف على عيشته الهادئة ، اللهمَّ الاَّ بعض ذكريات مؤلمة خلفتها تلك الليلة الرهيبة مرسومة على صفحات نفسه

وظلَّ الامبراطور يطوي العمر في هدوئه وبين جنبات قصره الفسيح ، والمدافع من حوله تدوي والثورات تتوالى والحروب تأكل الاخضر واليابس ، فلا يسمع لها دويّاً ولا يأبه لشيء منها . وكانت موجة التجديد قد اجتاحت كل نواحي الصين ، حتى لقد استطاعت ان تقتحم جدران القصر الملكي الضخمة ، فدخل لأول مرة الى ذلك القصر معلم انكليزي يثقفه في المعرفة الحديثة . ولكنه اراد ان يجرع التجديد جملة بدل ان يأخذه اجزاء ، فتعلم اللغة الانكليزية ومرن على ركوب الدراجة وخلع ملابس اجداده ولبس الاردية الاوربية ، وتنصر باسم « هنري »

يا للاقدار : أيصبح آخر سلالة ملوك الصين وامبراطورتها ، ابناء السماء وظلّ الله فوق الارض ، « هنري النصراني » ؟ اهذا الشاب هو سليل اولئك الجبابرة الذين كانوا لا يستقبلون سفراء الدول الاوربية منذ مائة عام، الاَّ والسفراء راكعون، ولا يتقدمون اليهم الاَّ جثواً على الركب ووجوههم نحو الارض ؟ غير ان الحوادث لم تترك هذا الشاب المجدد عاكفاً على عيش الهدوء والتأمل والتطلع الى العلياء من غير ان تعصف بهدوئه . ففي سنة ١٩٢٤ هبت على الصين عواصف حرب اهلية انتصر فيها « فنج يوسيانج » . وكان هذا الثائر الجديد مزيجاً من نزعات مختلفة فكان نصرانيّاً شيوعيّاً عالماً وقائداً مدرباً ودسّاساً من اقدر من انبتت ارض الصين . فلما قبض على ناصية الصين واحتلت جنوده عاصمتها فكر في ان يقضي على ذلك الوهم الذي يدعي الملكية الصينية . وعلى حين غفلة ومن غير ان يعرف احد ذلك السر نُقل « بوبي » من المدينة الحرام ومعه حاشيته الى « تنتسن » ولجأوا الى السفارة اليابانية ، وساءت حاله ونقص معاشه الى ٥٠٠ر٠٠٠ دولار كانت تعطى اليه كلما سمحت ظروف الخزانة ، واصبح يعيش سجيناً في بضعة امتار من ارض الصين وتحت ظل الراية اليابانية ، بعد ان كانت كلمة جدوده شريعة لاربعمائة مليون من النسمات البشرية

ومضى « بوبي » يعيش عيش الفقر والذل في ظل الحماية اليابانية حتى هيَّأ القدر له ان تغزو اليابان منشوريا سنة ١٩٣١ وتجعل منها دولة مستقلة وتأخذ وديعتها في سفارتها الى عرش التنين في الارض التي خرج منها آباؤه غزاة فاتحين قبل ثلاثة قرون . فهل يصدق عليه قول الشاعر

والقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عيناً بالاياب المسافر

ام ان القدر يخبأ له من مفاجآته ما لا يدور بخلد انسان ؟

الدمقراطية في فرنسا

هل تتجه الى الفاشستية

في السياسة أزياء، كما في الادب والملابس. فروما القياصرة أخرجت للعالم زي «الامبراطورية» فتبعهُ العالم ثمانية عشر قرناً. ثم انشأت انكلترا «الحكومة المسؤولة» فكانت مطلب الامم في القرن التاسع عشر. وكان الحكم بواسطة مجلسين يوافق مزاج اهلها. فلقيت في عهده إقبالاً ورخاء فظنت الامم الاخرى، ان هذا النوع من الحكم، يوافقها كذلك

وتلا ذلك النجاح الذي اصابتهُ الفاشستية، في ايطاليا، والقضاء على الحكم البرلماني في روسيا، فأصبح من زي العصر التنبؤ بزوال الديمقراطية. ففي المانيا نظام فاشستي وزعيم يملك سلطة دكتاتورية. وها هو ذا الدكتور دولفوس حاكم بامره في النمسا. ولا ينكر ان ما يغذي الواحد قد يسمُّ الآخر. ولما سئل صولون الحكيم، هل منح اثينا الدستور الكامل قال: انهُ منح تلك المدينة أحسن دستور يلائمها في ذلك الزمن. اي ان «الكمال» في الاشكال السياسية نسبي. ولا ريب في ان هناك تحولاً مشهوداً في نظام الحكم في هذا العصر، فهل هو يهدد الدمقراطية في فرنسا

اذا قلنا إن تيار الفكر، الذي قلب انظمة الحكم في البلدان المجاورة لفرنسا، لم يلق تربة صالحة في بعض الاذهان الفرنسية، كان الامر باعثاً على الدهشة والاستغراب. وقد مضت اشهر والفرنسيون يقرأون الدعوة الى تأليف حكومة فاشستية وكانت الدعوة صادرة من ناحيتين من اليمين — تحس فيها احياناً بنزعة بونابرتية واحياناً بنزعة ملكية، ولكنها لا تعدو كونها خطباً تبين ما للسلطة الحازمة من الشأن في تسيير سفينة الدولة — ومن اليسار تدعو الى فاشستية اشتراكية راديكالية على مثال من دكتاتورية الشيوعيين في روسيا والفاشستيين في ايطاليا في آن واحد

فما هو امل هاتين الدولتين في النجاح؟ لا ريب في ان التنبؤ كثير المزالق. لانهُ قد تقع حوادث لا يستطيع العقل أن يتصورها، فتقلب التيار، وتجعل النتائج المبنية على مقدمات معينة ناقصة، مشوَّهة. فلننظر في اهم العوامل التي يمكن ان يبنى عليها حكم في هذه الناحية من الحياة الفرنسية الآن

اولاً — ان قلب النظام الدمقراطي في فرنسا يحتاج الى زعيم والى حزب يستند الى جيش فاشستي. فقد كان لموسوليني او لهتلر، الوف من الاتباع. وكانوا يطوفون بفرق اتباعهم المنظمة يعرضونها في كل مدينة. وكانت قوتهم معروفة. وكانت الحكومات الضعيفة في بلاديهما لا تستطيع ان تقف في وجوههم، لصد تيارهم الجارف. ولسنا نجد في فرنسا شيئاً من هذا فليس في فرنسا حزب له جيش منظم على ما نعلم. فاذا حاول بعضهم تأليف ذلك الحزب، وتنظيم ذلك الجيش، فالراجح ان الحكومة مؤيدة بالرأي العام وقوة البوليس السياسي لا تعجز عن كبحه وقمعه

ثانياً — ان انشاء هذا النوع من الجيش يجب ان ينبع من وجود تبرم شديد او شكوى صادقة

يشكو منها الشعب .في البولشفية ، كان ذلك التبرم تبرم العمال والفلاحين. ولكن الحركة الفاشستية تنشأ في الغالب من الطبقات الوسطى الفقيرة والباعث عليها في نفوسهم ، اما فقرهم المدقع الذي لا يحتمل ، او خوفهم من ثورة العمال . وفي المانيا تحقق الامران بل تحقق امر ثالث كذلك هو الحنق على معاهدة فرساي . اما في ايطاليا فان عنف الشيوعيين ومحاولتهم قلب الحكم واحداث الثورة ، كان الباعث الاول على انشاء الفاشزم ومحاربتهم كانت سبيلها الى النصر . أما في فرنسا ، فلسنا نجد أحد هذين الشرطين ، اللذين نكاد نجزم بأنهُ لا بدَّ منهما لتلقى الدعوة الفاشستية آذاناً صاغية

ومع ذلك لن ينكر ان الديمقراطية في فرنسا معرضة لاخطار كبيرة . ففي العاصمة وفي الارياف تألفت جماعات من دافعي الضرائب للاحتجاج على فداحة نفقات الدولة ، وعلى عبء الضرائب الذي يكاد يحني ظهورهم . وأصل هذه الحركة ، متغلغل في طبيعة الفرنسي وخلقهِ لانهُ يميل الى الاقتصاد . ولا بدَّ لحكومات فرنسا من اعارتهم كل انتباهها وعنايتها . فهل يمكن ان تصبح هذه الحركة نواة لتنظيم فاشستي ؟ ليس من السهل ذلك . لانها تلقى مقاومة شديدة من جميع موظفي الحكومة. وهذا يعني ان تبعة كبيرة تقع على عاتق هؤلاء . نخير لهم ان يتخذوا الحذر رائداً . فهم أول من ينتفع بالنظام القائم ، والحكمة واجب عليهم تقتضيهِ مصلحة الوطن من ناحية والمصلحة الخاصة من ناحية اخرى

ثم هناك تبرم الشبان . فحالة الشبان ، الذين اجتازوا امتحانات الطب ، او القانون ، او الهندسة تبعث على الاسى ، وباب الامل موصد في وجوههم . ففي عهد الوزير شيرون امتنعت الحكومة عن اتخاذ موظفين جدد . فالى م يتطلع الشباب المسلح بالشهادات العالية ، الخالي الوفاض ؟ ان في صفوف الشباب تبرماً وبعضهم يقترح نقص السن التي عندها يحال الموظف الى المعاش، لكي تفتح امام طائفة كبيرة من الشباب أبواب العمل . ولخيرٌ للموظف الذي قضى عمره في خدمة الدولة ، ان تزيد مدة معاشه بضع سنوات على ان يترك الشبان يقودهم القنوط الى الثورة

يضاف الى ذلك الخوف من التضخم. فالفرنسيون الذين جمعوا بجدهم واقتصادهم، ثروة مايعتمدون عليها ، في الشيخوخة او أيام الضيق ، خسروا اربعة اخماسها لما وقع التضخم الاول ، وهوى الفرنك حتى جاء بوانكاره وثبته سنة ١٩٢٦ ومجرد التفكير في احتمال وقوع تضخيم آخر يدفعهم الى الجنون. صحيح ان افراد هذه الطبقة مسالمون ، وليسوا في سن الشباب ، ولكن ما يمنع الدعاة البارعين من ان يستمدوا من صفوفهم قوة كبيرة ؟ فاذا عجزت الحكومات المتتالية عن حلّ هذه المشكلات التي تواجهها فرنسا، فلا يبعد ان يشتد التبرم بالحال شدة تجعل انتشار الفكرة الفاشستية أمراً طبيعياً. والحال في باريس أوفق لنشوء الفاشستية منها في سائر المدن والمقاطعات الريفية حيث الدمقراطية فيها راسخة الاصول وفرنسا كبريطانيا تعوّدت الحرية وهي عادة يصعب الاقلاع عنها

على ان هذا لا يمنع اقامة زعيم ومنحه السلطة اللازمة لمدة معينة حتى يعالج مشكلات خاصة لان كل الاعمال الصعبة تقتضي سرعة لا يستطيعها رئيس الوزارة في بلاد دمقراطية كثيرة الاحزاب كفرنسا واقامة دومرج على رأس وزارة قومية تضم ستة من رؤساء الوزراء السابقين من هذا القبيل

ينبوع دم

للشاعر الفرنسي بُدْلير

كأني بدمي يسيل الحين بعد الحين مدرارا
مثل ينبوع له زفرات موزونة .
اني لاسمعه يسيل في جَرْسٍ مديد
ولكني ان تحسّست الجرح لا أظفر به

ينطلق الدم في نواحي المدينة او حقلٍ مسوَّر
فيحوّل الحجار التي تفرش الارض الى جُزُر صغيرة
وينقع غلّة الخلق واحداً واحداً
ويردُّ الطبيعة حمراء ، حيث يمرّ

طالما رغبت الى خمورٍ خدّاعة
ان تكشف عني — مدى يومٍ واحدٍ — الهولَ الذي يُضنيني
الاّ ان الخمر تزيد في صفاء العين ولطف الاذن !

تلمست في الحب نوماً غير ذَكور
ولكنْ ليس الحب عندي الاّ فراشاً من إبَر
صُنِعَ ليَستقي اولياء البغايا القاسيات !

[اختارها ونقلها الدكتور بشر فارس]

صاحب المسحاة

كتبها الشاعر الاميركي ادون ماركهام
على اثر رؤيته صورة لميليه المصور الفرنسي تمثل عاملاً اثناء العمل

« خلقَ اللهُ آدمَ على صورته » حديث نبويّ

أرأيتموهُ !! متوكئاً على نصاب مسحاته ، قد قوَّست — ما سوّى الله من عوده — اثقالُ السنين ، فهو يُصوّب الى الارض من نظراته

أرأيتموه !! وفي محيّاه يتراءى خواءُ الاجيال المتصرمة ، وعلى ظهره اعباء الحياة الدنيا

ألا فمن ذا الذي ردّه ميتاً لا تنبعثُ منه عاطفة في طرب ، ولا تقشعرُّ فيه جارحة من يأس ؟ من ذا الذي صيره شيئاً لا تحزنهُ نائبة ، ولا يحركه امل . كأنما هو ثور أعجم في بلادته وحيرته ؟

من ذا الذي وطئا فكّه الوحشيّ حتى استرخى ؟ ولمن كفٌّ دكت هذا الجبين حتى انهزم ؟ ولمن نَفَسٌ عصف بشعلة هذا العقل حتى انطفأت

أهذا هو المخلوق الذي برأه الله وسوّاه وأخرجه ليكون له السلطان على البرّ والبحر ؟ وليتوسّمَ النجوم في افلاكها ؟ وليستنبط القدرة من بناء السماوات ، ولينتفض احساسه بنشوة الخلود ؟ سبحانك الله .... فما نظنُّ ان في جهنّم — ما بين خافيها وباديها — صورة هي ابعث للرعب والفزع من هذه الصورة . لا ولا صورةٌ هي افصح لساناً بخزي هذه الارض في حرصها الاعمى . او صورة هي اجمع للآيات والنُّذر المرسلة لهذه النفس الانسانية . او صورة هي احفل بأشراط الدمار الذي يأتي على هذا العالم

شتّان ما هذا الحيوان الذي يحمل اثقال الحياة ، وما حَمَلَةُ العرش من الملائكة المطهرين . ما لهذا العبد الذي يدير طاحونة الحياة ، ولافلاطون وفلسفته السامية ؟

ماله وللثريا وعنقودها الخافق في ارجاء السماء ؟ ماله ولسُبُحات الاغاني المترامية ؟ ما لهذا العبد وتَنَفُّس الفجر النديّ وانبلاجه ؟ ما له وللون الفاتن في الوردة الجميلة

من خلال هذا الشبح المفزع تطل علينا الاجيال المعذّبة ، وفي هذه القامة المقوّسة تتمثل مأساة الحياة . بل من خلال هذه الصورة شكت الانسانية بثّها الى القدرة العاليـة التي خلقت السموات والارض ، حين خدعت بالخيانة ، وسُلِبت بالمكر ، وأُذيلت باللؤم ، واستُصْفِيَت مواريثها بالمظالم . فكان بثّها وشكواها شُعْبَةً من الوحي والنبوّة

وأنتم ، أيها الارباب والامراء والحكام في جنبات الارض . . . أهذا ما تُقدّمهُ أيديكم من عمل الى ربكم سبحانه ؟ . . . هذا المسخ المشوّه ، . . وقد ذهبتم بنور النفس التي كانت تضيء في قلبهِ . . . ! ! تبًّا لكم . . . كيف تقومون مرة اخرى ما تقوّس من هذا العود المعوجّ ؟ انفثوا فيهِ — ان استطعتم — روح الخلود . . بل ردّوا عليهِ النظرة السامية التي كانت لهُ ، بل النور المبصر الذي كان في عينيهِ ، . . . ردّوا عليهِ نشوتهُ للطرب ، ولذته في الاحلام . ارفعوا عنهُ ما نزل بهِ من الفُضُوح الباقية ، وأصلحوا ما كان من الخطايا الشائنة وامسحوا عن قلبه هموماً لا طِبَّ لها

أيها الارباب والامراء والحكام في جنبات الارض

ألا خبرونا أين يضع الغيب المحجوب هـذا الانسان ؟ وكيف يجيبهُ عن سؤالهِ المُتَوَثِّب الضاري يوم تزلزل الارض، وتخرُّ الجبال ويتدافع الكون بعضهُ في بعض . . !

ألا وظنُّوا ما يفعل بهؤلاء الارباب الظالمين والملوك المتجبرين الذين نَكَّروا الصورة التي سوّاها الله ثم صوّروه في تجاليد هذا المسخ الهائل

ظُنُّوا . . . يوم تُبدّل الارض غير الارض والسموات

يوم يأتي القاهر الجبّار ليحاسب خلقه الجبارين

يوم ينطق الحقُّ الابديُّ، ويسكت الزمن الفاني

« يومَ يَقُومُ الروح والملائكةُ صفًّا لا يتكلمون الاّ من أذنَ لهُ الرحمنُ وقال صواباً »

« يومَ ينظُرُ المرء ما قدّمتْ يداهُ ويقولُ الكافِرُ يا ليتني كنتُ تراباً »

[نقلها بتصرف يسير محمود محمد شاكر]

ذئب البحتري

وليلٍ كأنَّ الصبحَ في أُخرياته ... حُشَاشةُ نصلٍ ضمَّ إفرنده غمدُ

تسر بلته والذئبُ وسنانُ هاجعٌ ... بعين ابن ليلٍ ما لهُ بالكرى عهدُ

أُثيرُ القطا الكدريَّ[1] عن جثماتِه ... وتألفني فيه الثعالبُ والربدُ[2]

وأطلسَ[3] ملءِ العين يحمل زَورَهُ ... وأضلاعه من جانبيه[4] شوًى نهدُ[5]

له ذَنَبٌ مثلُ الرشاءِ يجرُّهُ ... ومتنٌ كمتن القوس اعوجُ منآدُ[6]

طواه الطوى[7] حتى استمر مريرُهُ ... فما فيه الاَّ الروح والعظم والجلدُ

يقضقض عُصْلاً[8] في أسرّتها الردى ... كقضقضة المقرور أرعده البردُ

سما لي وبي من شدة الجوع ما به ... ببيداء لم تُعرَفْ بها عيشةٌ رغدُ

كلانا بها ذئبٌ يحدّث نفسه ... بصاحبه والجِدُّ يتعسه الجِدُّ

عوى ، ثم اقعى فارتجزت فهجته ... فأقبلَ مثل البرق يتبعه الرعدُ

فأوجرته[9] خرقاء تحسب ريشَها ... على كوكبٍ ينقضُّ والليلُ مسودُّ

فما ازداد الاَّ جرأةً وصرامة ... وأيقنت أنَّ الأمر منه هو الجدُّ

فاتبعتها أخرى فأضللتُ نصلها ... بحيث يكون اللبُّ والرعبُ والحقدُ

فخرَّ وقد أوردته منهل الردى ... على ظمأٍ لو أنَّهُ عَذُبَ الوِردُ

وقمتُ فجمَّعتُ الحصى فاشتويته ... عليه وللرمضاءِ من تحته وقدُ

ونلتُ خسيساً منهُ ثم تركته ... وأقلعتُ عنه وهو منعفرٌ فرد

(١) الكدريّ ضرب من القطا غبر الالوان (٢) السباع : (سميت هنا بلونها) (٣) الاطلس الذئب الامعط في لونه غبرة الى السواد (٤) الشوى اليدان والرجلان والاطراف . (٥) نهد مرتفعه (٦) المنآد المعوج والمنحني (٧) الطوى الجوع (٨) العصل الانياب السود (٩) أوجره الرمح طعنه به

فضل المرأة

على المدنية الحديثة

محاضرة الآنسة النابغة « مي »

في جامعة القاهرة الاميركية

جناب الرئيس المحترم ، أيها السادة والسيدات

للمرأة سمعة غير حسنة منذ زمن بعيد ، منذ عهد الفردوس الارضي حيث جرت المفاوضات الشهيرة في شأن التفاحة بين الشيطان المتنكر في زي حية ، وبين حواء الام الاولى . فالى تفاحة حواء تُعزى جميع الشرور المنتشرة في العالم ، وبسببها طرد الانسان الاول من جنة الفردوس فخرج الى هذه الحياة الراهنة بما فيها من نكد وعناء وبغض وعذاب ومرض وموت وحرمان . فلو لم تكن تفاحة حوّاء ، او الثمرة المحرّمة ، ما حكم علينا نحن بني آدم ، بكل ما نكابده من ألم وشقاء . وما كان لنا ان نتدرج في مراتب المدنية التي هي جهاد مستمر ضد الهمجية . فقضية مسلمة اذن ان المدنية كلها نجمت عن تفاحة حوّاء !

قلت المدنية كلّها . لانكم تعلمون اننا عند ما نتكلم عن مدنية الماضي ومدنية الحاضر ، او مدنية الشرق ومدنية الغرب ، انما نفعل بداعي المعاني الموقوتة ولتقسيم الازمان . اما في الواقع فالمدنية واحدة منذ بدء التاريخ تطورت واتسعت وانتشرت دهراً بعد دهر . اذ اخذ منها كل شعب ما يتفق وحاجته وطبيعته ، فزاد عليها أبان نهضته وازدهاره بما ابتكرته عبقريته وحققته حاجته . فاقتبست بعدئذ عنه وعن غيره شعوب اخرى ناسخة ومكتفية بالنسخ ، او ناسخة فمبدعة في الابتكار ونتاج الجهود . وهكذا يسير موكب المدنية رحيباً مترامياً ، تشترك فيه جميع الشعوب اشتراكاً سلبيًّا او ايجابيًّا ، وفقاً لذكائها واستعدادها ومواهبها قرناً بعد قرن . ليس هنا مجال البحث في هذا الموضوع الشائق الطريف ، ولكن الالماع السريع اليه كان ضروريًّا لحديثنا

يقول السادة الرجال — عفى الله عنهم وعن ذنوبهم العديدة — : هذه المدنية انما هي صروح وأنظمة وتشريع وزراعة وصناعة وأدوات وآلات وثقافة وعلوم وفنون وآداب . فأين يد المرأة في كل ذلك ؟ الرجل هو الذي ابتكر وانتج ؛ وما فتىء يبتكر وينتج . والمرأة تستغل ذلك الانتاج وتستهلكه . فأي فضل للمستغل المستهلك ؟

السادة والسيدات يقوم في كونه يمكّن العامل المنتج من المضي في العمل و... ...ابيه جديد ما يبتكر ، ويغذي حركة الصناعة والتجارة والعمران . فلو لم يكن للمرأة غير هذا الفضل على المدنية لكفى بهِ فضلاً ! ولكنني اظن ان للمرأة بعض الافضال الاخرى غير الاستهلاك !

ويقول الرجل الراقي حقّـاً : — المدنية في أسمى معانيها هي شهامة وخلق ودين . فأين فضل المرأة في عالم الشهامة والخلق والدين ؟

مثلٌ واحد لا غير ، في كل من الاديان الثلاثة الكبرى التي خرجت من شرقنا هـذا الصغير فأسبغت النور على العالم . وكل من هذه الامثلة الثلاثة كافٍ ليشرّف اسم المرأة على الدوام . فلولا ابنة فرعون ما خلص موسى من الغرق ، ولولا عناية ابنة فرعون ما شبَّ موسى فصار الكليم الذي يبصر وجه الله فيعود الى قومه بلوحيّ الوصايا . والسيد المسيح في ساعة الاهانة والغم والتفطر ، عند ما توارى من حوله الرجال الصناديد تلاميذه واصدقاؤه — لم يرَ عند قدميه الاَّ رجلاً واحداً هو تلميذه يوحنا ، وامرأتين اثنتين هما امه الوجيعة مريم ومريم اخرى هي المجدلية تلميذته . والنبي العربي ، فتى الصحراء الملهَم ، اول من آمن برسالته امرأة . وقد كافأ المرأة كريماً يوم قال كلمة تتجاوبها الاجيال : خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء !

وهذا هو الشرق ، شرق المرأة ، الذي انال العالم بأسره ديناً وشرفاً اخلاقيًّا والهاً

***

تذكرون ، أيها السادة والسيدات ، ان الكاتبة الفرنسية العظيمة مدام دي ستايل ، سألت نابليون يوماً اي النساء أحب اليه . فأجاب لفوره : أحبهنَّ اليَّ المرأة التي هي أم ابناء عديدين ، المرأة الولود . وتعلمون ان هذه الكلمة لم يقلها من نابليون الاَّ القائد والامبراطور الذي لم يكن له من وسيلة لتوطيد عرشه الاَّ التوسع في فتح البلدان وبسط نفوذه عليها . بالحرب اعتلى العرش وبالحرب وطد ذلك العرش . ولتغذية الحرب وضمان النصر لا بدَّ من عديد الجنود . فلا غرو اذا هو كان شديد الحاجة الى المرأة التي تعطيه رجالاً كثيرين يهلك منهم الهالك فريسة للسيف والنار ، ويحتلّ الباقون البلاد منبثين فيها نظام الفتح جاعلينها رقعة من الدولة النابوليونية . نابليون القائد والامبراطور هو الذي قال هذه الكلمة . اما نابليون الرجل فقد نقض هذه الكلمة لانه طول حياته أحب امرأة واحدة تغلب حبها عنده على كل حب ، وكان اسمها آخر كلمة تلفظ بها عند موته . وتلك المرأة هي جوزفين التي لم تعطه ولداً !

وهذا القائد والامبراطور العبقري حقّـاً ، الذي يودُّ ان يحصر عمل المرأة في اخراج الابناء ، هو الذي كان يحسب للمرأة حساباً في كل شأن فيقول . فتش عن المرأة !

الامومة هي اسمى قداسة في المرأة . فلولا امومة الام ما وجدت في العالم مدنية ولا همجية ، ولا كان للنوع الانساني اثر . بيد ان فضل المرأة لم يقف عند هذا الحد على جلاله . نحن نلبي دعوة نابليون نبحث عن المرأة في كل عمل وكل مسعى وكل زمن فنجدها ولا نخطئها . نبحث عنها في حين العالم كان فتيًا والنوع البشري كالنوع الحيواني يدب على اربع ، فنجد ما يفضي اليهِ بحث العلماء ، من ان ضعف المرأة عند الوضع ، وآلامها الجسدية ، والاوضاع التي تفرضها عليها حالتها الخاصة فتعمد اليها — كل ذلك كان الثمن الاليم الذي اديهُ المرأة الى الطبيعة لينتقل النوع البشري من الدب على اربع قوائم الى حالة الانتصاب على قدميه . ذلك الانتصاب النبيل الذي ينيل الحرية لليدين وهو اول ما يميز بين الانسان والحيوان فيجعل الانسانية على الحالة التي نود ان نراها فيها . وزاد في تركيز الانسان على قدميه مع اطلاق الحرية ليديه ، ان المرأة اضطرَّت الى حمل طفلها بين يديها لتسير على قدميها تجاه الغذاء له ولها ، كما اضطرت الى الفرار بهِ من العدو المهاجم او من الحيوان المفترس او من اي خطر آخر مداهم

وعند ما انبرى الرجل القديم يهاجم وحوش الغاب بغية الصيد والقنص ، ويقاتل الاعداء دفاعاً وهجوماً ، كانت المرأة تهيء له اسباب الراحة والرفاهية الميسورة في ذلك الزمن . فاذا عاد من الصيد بالغنيمة ، يد المرأة هي التي كانت تعد تلك الغنيمة طعاماً

وعند ما انقضى طور التشرد في الجبال والغابات واستقرَّ الانسان في مكان ثابت على الارض ، فانطلق الرجل اشد شكيمة وامضى عزيمة الى الصيد والحرب ، كانت المرأة تفلح الارض وتزرع الحبوب وتجني الحصاد ، وتضرب اوتاد الخيمة او تشيد جدران المسكن ، وتمهد السبل ، وتقطع الغصون والاخشاب لتضرم النار ، وتنظم الحجارة موقداً تطهي عليهِ الطعام ، وتكيف الادوات المنزلية من الفخار والخزف . افلا ترون في كل ذلك المحاولات الاولى لوضع مبادىء الزراعة والصناعة والتجارة والبناء وتخطيط المدن وغيرها من الصناعات والعلوم والفنون ؟ وعند ما بكى الطفل فحاولت المرأة ان تنغم نبرات صوتها ملاطفة مواسية ، ألم تكن في ذلك ممهدة للموسيقى والرقص والشعر ؟ وعند ما رجع البطل المغوار من مغامراتهِ ويداه ملوثتان بدم العدو وبدم الحيوان ، أليست هي التي قالت له « تعال يا اخي ، اغسل يديك ! » فكانت ممهدة لقوانين النظافة والصحة ؟ وعند ما مرض الطفل او عاد البطل المغوار جريحاً ، أليس انها اضطرت الى ان تدرس ، لا في الكتب ولكن بالتجربة والاختبار ، مفعول الحشائش والنباتات وطريقة استعمالها ، فكانت العجائز القهرمانات طليعة الاطباء دون ان يحملنَ لقب الدكتوراه ؟ افلا ترون في كل هذا مبادىء علوم الكيمياء والطب والصيدلة ؟

وبعدئذ عند ما اصبحت مهمة الصيد او الحرب لا تتطلب اكثر من واحد في الخمسة او في العشرين او في المائة ، فكثرت اوقات الفراغ عند الرجل وتولى بحكم ذلك الفراغ الاعمال التي كانت

المرأة تقوم بها من قبل ، الم يتحوَّل ذكاء المرأة داخل البيت الى ابتكار صناعات وفنون اخرى كالغزل والحياكة والنسج والتفصيل والخياطة وغيرها من الصناعات الضرورية والفنون الكمالية ؟ افلا ترون في كل هذا خدمة للصناعة والفن وفضلاً بيناً على تطور الحضارة ؟

المرأة التي غذَّت النوع البشري جنيناً قرب قلبها ، وحملتهُ طفلاً على منكبيها ، واوقفتهُ على قدميه انساناً ، وقدَّمت له الطعام يافعاً وكهلاً وشيخاً ، وداوتهُ مريضاً جريحاً ، وواستهُ حزيناً ، وزانت بيته بالادوات والمعدات ، هي التي وضعت وهي لا تدري ، اسس العلوم والفنون والصنائع . كل خطوة خطاها الرجل في سبيل التقدم والحضارة ، قابلتها المرأة بخطوتين وكان عملها اشق من عمل الرجل واطول . افتظنون مع ذلك انها صاحت او شكت ، او تذمرت من فداحة العمل ومن شدة وطأته على ضعفها ؟ كلاَّ ! هي تعتقد انها اذا هي القت عنها العبء الذي تحمله كانت جبانة خائنة لنوعها — شأنها شأن الرجل الذي يلقي السلاح من يده وهو في ساحة القتال . ان المرأة تحتمل عناءها كما يحتمل الجندي الباسل جراحه — في سكوت وتجلد !

فلا عجب ، والحالة هذه ، ان قيصر في غزواته وفتوحاته عند ما كان يفرض الرهينة على قبيلة او قوم ، كان يصر على ان تكون الرهينة نساء دون الرجال . لاعتقاده ان المرأة اوفر قيمة واغلى ثمناً . ومجرد وجودها في حدث اجتماعي يرجح الكفة الايجابية على الكفة السلبية . لقد كانت المرأة وسيلة فعَّالة في نجاح الفتوحات الاسلامية وتوطيد دعائمها من الناحية الاجتماعية . لان المسلمين زاوجوا الاهلين في كل بلد فتحوه فاصبحوا من ابنائه في اسرع ما يكون . بينما اليونان والرومان الذين كانوا قد سبقوا المسلمين الى فتح غربي آسيا وشمال افريقيا ، ظلوا بعد مئات الاعوام « الغاصبين » وظلت انظمتهم وعاداتهم بعيدة عن حياة الشعب ، لم يقتبس بعضها الاَّ نفر من سكان المدن الكبرى . كذلك ظفر المسلمون بواسطة المرأة بما لم يظفر ببعضه اليونان والرومان بوسيلة من الوسائل

***

ايها السادة والسيدات

عند ما يتكلم كاتب او خطيب عن أثر المرأة في العالم يسارع الى الكلام عنها امَّا وزوجة وسيدة بيت ومنقفة وممرضة ومدبرة وناشرة في جوّ المنزل وفي جو الوطن وسائل السعادة والهناء . وكل ذلك حق . فاذا تكلم عن ذكائها وحميتها ومواهبها ذكر ابلاء النساء جماعات وافراداً في ميادين الآداب والفنون والعلوم والتضحية والاستبسال والبطولة : ذكرَ مثلاً جان دارك في الفروسية الحربية ، والآنسة بوستافوتيوف البولونية في الحماسة القومية ، واسبازيا اليونانية في النفوذ الاجتماعي ، وهيباثيا المصرية في العلوم الرياضية والفلسفية ، وفلورنس نايتنجيل في بسالة الرحمة ، ومرغريتا كيرش وكارولينا هرشل في علم الفلك ، ومدام كوري في تفردها العلمي في عصرنا هذا ، وايمي جونسن في منافستها الظافرة

لابطال الهواء . وغيرهن ممن لا عداد لهن في مختلف ميادين العلم والبسالة ، والفن والاجتماع والوطنية . حتى في الاعمال المتواضعة التي تتولاها اليوم المرأة في جميع نواحي الحياة . وهذا حق ايضاً . ولو كان حديثي قاصراً على قطر واحد لاستطعت ان اشيد بذكر المرأة المصرية وبراعتها رغم حداثة عهدها بالحركة الثقافية والاجتماعية والقومية . بيد ان حديث هذا المساء هو عن المرأة عموماً ، يشمل الجنس النساني كله في ملايينه الغفيرة التي تخرج الى الوجود مجهولة وتمضي عن الوجود مجهولة . ولكنها لا تمضي الا وقد ادت في دائرتها جميع الخدم المنوعة المطلوبة منها ، والتي لا استطراد للمدنية او لحياة المجتمع من دونها . وهذا التعميم يجعل الموضوع عسيراً ويرغمني على الاختزال مكتفية بذكر تلك الخدم التي قل من يذكرها او يأبه لها . واذا ذكرها ذاكر فعل عرضاً وبغير كثير انتباه

ملايين القرون انقضت والمرأة تكد وتنتج رغم انحطاطها في جهلها وانخذالها . انقضت القرون وجماهير النساء كرطب الرمال على الشاطىء يسير فوقها الرجل فيطبع فيها أثر قدمه ! والمرأة في خدمتها وفي عملها الشاق وموقفها العسير ، تنسى اهميتها وتجهل نفسها فلا تجد ما تباهي به سوى المكانة الاجتماعية والثروة والجمال ! اما ما يمتز به الفرد الانساني من الشخصية المستقلة المكونة من الارادة والضمير والمجهود ، فذلك ما لم تكن تعبأ بهِ المرأة ، ولا هي استطاعت ان تتخيل وجوده الا في حقبات خاصة من التاريخ وفي احوال معينة

ورغم الانحطاط والازواء ، ظلت المرأة مسلحة بسلاح لا يفل ، ظلت مسلحة بالحب الذي هو حياة الاجيال ومغزى الحياة ! بالحب اخرجت النوع البشري كله ، بالحب انجبت اشبال الوطنية والعمران ، بالحب غذت الرجل وعطفت عليه ، بالحب عالجته وأوحت اليه ، وبالحب صانته من غوائل الايام . سواء اكانت المرأة سعيدة في حبها ام شقية ، سواء انصرها الحب ام خذلها ، هي دائماً مستودع الحب وكاهنة الحب والاهة الحب . وأيًّا كانت آلامها وغمومها في قومها فهي ، بالحب ، تحتمل في اباء وامتثال ما دامت تلك الغموم وتلك الآلام ضرورية لحياة القوم ولراحتهم . فاذا ما ثبتت من ناحية المرأة محاولة جادة في تعديل شؤونها فذلك الدليل القاطع على ان شؤون القوم آخذة في التبدل تبدلاً يفرض التغيير والتعديل في شؤون المرأة ، وان امتثالها القديم لم يعد ذا نتيجة حسنة في حياة القوم او الجماعة

رعدة جديدة سرت في العالم بأسره في هذه الاعوام الاخيرة . رعدة جديدة تناولت النساء والرجال والشيوخ والشبان كما تناولت عناصر الطبيعة على نوع ما ، وشؤون العمران جميعاً . رعدة جديدة قلبت ظروف المرأة بمقتضيات اقتصادية واجتماعية وروحية لم تعهدها من قبل . ولأن المرأة غالية رفيعة الشأن ، نرى الرجل وجلاً خائفاً من النتيجة يندد بشرور المرأة وبما قد ينجم عن تضعضعها من الويلات . ولكن هذا التضعضع هو من مستلزمات الانقلاب العنيف الذي نحن

فيه ، وهذا الانقلاب هو الخروج من الجمود . ستنتظم الشؤون شيئاً فشيئاً لتأخذ مجراها الطبيعي الذي يطمئن اليه الرجل، ولكننا لا ندري هل فيه سعادة المرأة وهناؤها . بيد أنَّ للانسانية الهاً يرعاها ، وعند ما يشتد الضيق يقرب الفرج . هذا ليس مثلاً سائراً فحسب ، بل هو حقيقة ثبتت دائماً . وستظل المرأة دائماً — كما قال اناتول فرانس الذي ينعتونه بالجاف — « مهذبة الرجل ، تعلمه الفضائل الجميلة من التأدب ، الى التحفظ ، الى الاباء الذي لا يتعرض متطفلاً . تعلم البعض فن الارضاء وتعلم الجميع فن عدم الاساءة . منها يتعلم الرجل ان المجتمع ادق وأعوص مما يظنه وهو في الحانات السياسية . وأخيراً يقتنع قربها ان اشباح العاطفة ورؤى الايمان لا تُقهَر ، وان علم المنطق ليس هو الذي يقود العالم . . . »

ستظل المرأة دائماً الوحي الاكبر والمنهل الذي تستقي من مياهه الآداب والفنون ومنهُ تتغذى . ولسنا هنا في حاجة الى ذكر تأثير المرأة في حياة عظماء الرجال . كل رجل عظيم في دائرته ، كل عامل في عمله عظيم ، والمرأة تحيط به من كل جانب أمّاً وزوجاً وأختاً وابنة وغريبة . لذلك لو لم يوجد في قوم سوى مدرسة واحدة لارتأيت ان تخصص تلك المدرسة للبنات دون الشبان . لان ما تعرفه المرأة يتعلمه الرجل بطبيعة الحال منذ الصغر . وأهم من كل شيء آخر هي العقلية التي يولد بها الطفل والنفسية التي يشب عليها ، وهي بالطبع عقلية امه ونفسية المرأة التي تحيط به . وانماء عقلية المرأة وتوسيع نفسيتها انما هو بيد الرجل دون سواه لان المرأة تهذب الرجل وهي التي تضمن استمرار المدنية ونموها وازدهارها بالرجال الذين تنجبهم مهذّبين بواسل رشيدين . اما الرجل فهو الذي يخلق المرأة خلقاً

***

وفي الختام ، لا يسعني الا ان اذكر تلك الاسطورة التي تجعل مصر تحت حماية المرأة وتحت نفوذ حبها وألمها . اذ تزعم الاساطير المصرية ان النيل الذي خلق الحضارة القديمة ومكنها من الارتفاع الى اعلى مراتب التقدم والمجد ، انما هو بعض نعم المرأة . ضاع الاله اوزيريس يوماً فجلست ايزيس تبكيه ، وتساقطت دموعها على الارض . فاهتزت احشاء الارض وارتعشت لدموع الالهة الحزينة ، فتفجرت منابع النهر وجرى النيل المقدّس مهرولاً الى البحر يرضع بمروره فسيح المروج ، ويثير على جانبيه روائع الهياكل والشخوص والآثار !

***

هذه المدنية التي غذتها دموع الوفاء ، هذه الارض التي احياها الحزن الخصيب ، هذا النيل الذي خلقه حب الالاهة المصرية — كل هذا سيكون خالداً في غده خلوده في امسه ، كل هذا سيمتز ابداً مجيداً بابنائه وبناته جميعاً !

أريد المرأة . . . .

بعيدة عن التصنع

اريد ان يكون جمالها طبيعياً لا مستعاراً . ففي كل فتاة وسيدة ما يستحسن وما يحترم لذاته اذا عرفت ماهو ، فتجري عند ذلك على مقتضى طبعها من دون كلفة او تصنع في حركاتها وسكناتها . ولست احسب من التصنع الثقيل على طبعي، مسح الوجه «ببودرة» ملائمة للون البشرة لتزيل تلمع الجلد الناتج عن مفرزات الغدد الدهنية، وبقليل من «الاحمر» على الخدين والشفتين يزيد الوجه نضرة واشراقاً ، لأنها اذا احسنت السيدة استعمالها ساعدت الطبيعة على اظهار ما تمتاز به . ولكنني امقت المغالاة في ذلك . بل امقت اكثر من المغالاة ، محاولة المرأة اخفاء بشرة سمراء جذابة ببودرة ناصعة البياض ، في حين ان لون بشرة العنق واليدين تنم عليها . ثم انني ارغب في ان توجه كل سيدة عنايتها الى ارتداء ثوب يناسبها لونه وتفصيله ويتفق مع قامتها ومقامها لانه من التصنع الممقوت ان ترتدي سيدة ثوباً لان سيدة جميلة او مشهورة سبقت الى ارتدائه . والمرآة ، بعد تثقيف الذوق بالاصول العامة ، اصدق صديق للمرأة العاقلة . وتعتقد بعض السيدات ان السمنة قبيحة فيلبسن ما يحسبنهُ يخفي السمنة بالتضييق على الاعضاء . ولكنني اعرف سيدة سمينة تعرف ان ترتدي الثوب الملائم فلا تعيبها السمنة . اما علاقة السمنة بالصحة فلها بحث آخر في العدد المقبل

ان تظهر بمظهر يتفق وسنها

ذلك اني احب الصدق في الجمال . ولا جمال حيث الغش والخداع وبوجه خاص بعد انفضاح السر وزوال الغشاء . كل امرأة تستطيع ان تكون جميلة في الستين على ان تظهر بمظهر يتفق وسنها فاذا حاولت ان تقلد ابنة العشرين او الثلاثين خرجت مسخاً يثير السخرية . فالتقدم في السن له رونق كرونق الشباب . والمرأة لا تتصف بنضارة الوجه فحسب ، او بسواد الشعر فحسب ، حتى تحسب الشيب او تغضن الوجه ، قاضياً عليها كامرأة . بل للمرأة صفات اخرى تهم الرجال وتسترعي احترامهم واعجابهم . تلك هي الصفات التي تنبع من العقل المثقف والرأي الحصيف والقلب الفياض بالحب والرحمة والحكمة التي ترسلها بداهتها وتصقلها تجارب الحياة

مثالاً للنظافة التامة

لا اريد ان احكم حكماً جائراً على المساحيق والمطريات واللواتي يستعملنها ، لانني اعلم كما قدمت انهُ اذا استعملتها المرأة بحكمة وذوق واعتدال زادتها بهاء . ولكن اذا خرجت في استعمالها عن حد الاعتدال كان ذلك منها خداعاً ظاهراً . ولكن بعض النساء يحاولن ان يعتضن بالمساحيق والاصباغ عن النظافة اذ قد تستسهل المرأة ان ترش على وجهها البودرة وعلى ثيابها قليلاً من الكولونيا بدلاً من الذهاب الى

الحمّام واغلاء الماء وتنظيف الجسم . ولا بدَّ من القول هنا، بأن عناية المرأة بنظافتها، ونظافة جسمها، وحسن ترتيبه وزينتها التي تلائمها يجب ان تكون وهي باقية في البيت بقدر ما تكون وهي مدعوة الى سهرة حافلة

ان تلائم المقام

الالماس امير الجواهر وغريزة المرأة تدفعها الى التزيّن والتحلي بهِ وبغيره كالياقوت والزمرّد واللؤلؤ ولكنني امقت ان ارى سيدة تتناول طعام الغداء وعقد الماس في عنقها وأصابعها مختَّمة بأغلى الجواهر البرّاقة . ذلك ان جمال بعض الجواهر يزداد اذ يكون النور صناعيًّا، فينعكس عنها ويزيدها سناء . ولذلك فالماس يجب ان يتقلد في الحفلات الساهرة . ويكتفى في حفلات النهار بعقدٍ بسيط، وخاتم من فصٍّ واحد، ويفضّل ان يكون من حجر ثمين ملوَّن كالياقوت الازرق او الزمرُّد او العقيق . وكثيرات من الفتيات الخادمات يستطعنَ ان يضاهين سيداتهنَّ جمالاً ورشاقة ولكنهنَّ يخطئنَ القصد اذا ارتدينَ ثياب السيدات وتزيّنَّ بزينتهنَّ حين قيامهنَّ بأعمال البيت . ثم ان بعض النساء يلبسنَ ثياب الرجال او ما هو شبيه بها في الصيد والقنص فيبدو منظر هذه الثياب جميلاً حينئذٍ لانها تناسب المقام . ولكن من يستحسنهنَّ اذا ذهبنَ بها الى حفلة ساهرة او الى كنيسة ؟ فجمال المرأة يزداد اذا لبست لكل حالة لبوسها

ان تبدو كأنها تبغي ان تسر الرجال

المرأة بغريزتها تميل الى استمالة الرجل واسترعاء انظاره ، والرجل يسرُّهُ هذا ، وانا اودُّ ان ارى كل امرأة اقابلها تهتمُّ باستمالتي اليها ، ولكن يجب ان تحذر كل فتاة وكل امرأة من التطرف في هذا الامر ، وعليهنَّ ان يقيّدنَ هذه الغريزة بما يقتضيه شرف النفس وآداب السلوك

ان تكون بشوشاً

نرى كثيرات من النساء على اوفى استعدادٍ لبذل كل شيء في سبيل ازواجهنَّ الاَّ بسمة لطيفة او كلمة عذبة او بشاشة في قسمات الوجهِ تخفف عنهُ اعباء الحياة . اتخافين ياسيدتي من مناظرة تناظرك في زوجك ؟ من هي ؟ . ليست مناظرتك المرأة الجميلة ولا المتعلمة ولا السريعة الخاطر ولا الحسنة الهندام فقط، بل مناظرتك فوق اولاء جميعاً، هي المرأة البشوش التي يحسُّ الرجل انهُ يستطيع ان يلقي باعبائهِ عند اقدامها

قد تتعجبين لماذا يهتمُّ زوجك بهذه الفتاة او بتلك اكثر من اهتمامه بك والتفاتهِ اليكِ . هل تذكرين انك لا تحدثينه الاَّ فيما يقلقك ويكربك ويثقل صدرك فاذا زاركم زائر هششت وبششت . انا لا أنكر ان على الزوجين ان يتشاطرا همومهما . وان الزوج هو سند المرأة تعتمد عليهِ في الملمات . ولكنَّ لكل أمرٍ وقتاً . وهنا يجب ان تحكمي عقلك ، في اختيار الوقت الملائم لبث الكروب . وانما يجب ان تتخذي البشاشة دستوراً لك . فاذا لم تفعلي شرع يبحث عن اخرى تبشُّ لهُ وتبتسم . هذه هي المناظرة التي يجب ان تخشيها . قد يوافقني بعض السيدات على ما أقول . وقد لا يوافقني . ولكنني أمثّل في قولي هذا طائفة كبيرة من الرجال يرون هذا الرأي وينظرون هذا النظر

التدخين والصحة

ضعف القابلية وقوتها — جفاف الفم — تقرح المعدة — عناصر الدخان وفعلها

يتعذَّر في الغالب على الباحث في مسألة التدخين ان يتجرَّد عن هواه ويتناول البحث من وجهٍ عليٍّ بحت. لانهُ اما ان يكون مدخّناً او غير مدخّن. فاذا كان مدخّناً حرَّكه عامل خفيّ الى القول بأن ما يلذُّ لهُ مفيد، او انهُ على الاقل غير ضارٍّ. واذا كان لا يدخن صعب عليهِ ان يمنع نفسهُ عن القضاء على عمل يكرههُ هو ويمارسهُ غيره. اما كاتب هذه المقالة، وهو طبيب مشهور ومن اعضاء الجمعية الطبية البريطانية، فمعتدل في التدخين، ومن الطبيعي انهُ لا يجد سبباً يحملهُ على التشهير بالاعتدال في التدخين، ولكنه مع ذلك يحاول ان يتناول الموضوع من وجهٍ عليٍّ مجرَّد

﴿ عناصر دخان التبغ ﴾ ما العناصر التي في دخان التبغ ولها اثرٌ في الجسم؟ يسهل قسمة هذه العناصر او المواد الى ثلاثة اقسام: الاول — غاز الامونيا ومعهُ مادة عضوية طيارة تدعى بيريدين ومواد اخرى تماثلها. هذه المواد تهيج الاغشية المخاطية وهي سبب الالتهاب المزمن في الحلق والفم واللسان الذي يصاب بهِ مدمنو التدخين وما يتبع ذلك من سعال شديد في الصباح، وبلغم ينفثونه حين السعال. على ان الامونيا والبيريدين لا تزيدان التدخين لذة ما ولا نعرف سبباً يمنع استنباط وسيلة علمية صناعية لاستخراج هذه المواد من التبغ من غير ان تغيّر طعمه ورائحة دخانهُ وفعلهُ

﴿ استنشاق الدخان وفعله ﴾ والعنصر الثاني في الدخان هو اكسيد الكربون الاول وهو غاز سام تجده في غاز الفحم كما تجده في الدخان الذي يخرج من انابيب السيارات الخلفية. وفعل هذا الغاز سببهُ انهُ يتحد بمادة الهيموغلوبين التي في كريات الدم الحمر، والتي وظيفتها الاتحاد بالاكسجين خلايا الرئتين ونقله الى كل اعضاء الجسم. ولما كان اتحاد غاز الكربون الاول بمادة الهيموغلوبين أسرع واقوى من اتحاده بالاكسجين فالنتيجة الاولى التي تنجم عن استنشاق غاز الكربون الاول مع دخان التبغ هي منع الهيموغلوبين من نقل الاكسجين الى اعضاء الجسم. فاذا حدث ما منع ١٥ في المائة من هيموغلوبين الدم عن الاتحاد بالاكسجين ونقله الى الاعضاء ظهرت على الجسم الطبيعي آثار التسمُّم. على ان هناك اناساً شديدو الانفعال بقلة الاكسجين حتى اذا امتنع ١٠ في المائة من هيموغلوبين دمهم او اكثر من ذلك عن الاتحاد بالاكسجين ظهرت عليهم آثار التسمم

أما مقدار هذا الغاز في دخان «السيجار» فيبلغ نحو ٨ في المائة، وفي دخان البيبة نحو ١ في المائة وفي دخان السجاير من نصف الى واحد في المائة. فاذا دخل دخان لفائف التبغ على اختلافها الفم اختلط بالهواء فقلَّ مقدار اكسيد الكربون الاول كثيراً، واذا كان المدخن لا يستنشق الدخان الممزج بالهواء لم يستطع هذا الغاز السام ان يتصل بكريات الدم الحمر ولا ان يتحد بمادة الهيموغلوبين.

فالتدخين من غير استنشاق الدخان ودخوله الرئتين لا يضر من هذا القبيل

ولكن اذا كان المدخن ممن يستنشق الدخان الى رئتيه فلا مندوحة حينئذٍ عن ان يتصل هذا الغاز بالكريات الحمر ، ويفعل فعله فيها ، وبعض مدمني التدخين يمنعون نحو عشرة في المائة من هيموغلوبين دمهم عن القيام بعمله الطبيعي (الاتحاد بالاكسجين ونقله الى الاعضاء والنسج) لكثرة ما يستنشقونه من دخان التبغ ، ولا يقوم دمهم حينئذ بعمله الطبيعي قياماً وافياً الا في فترة النوم

﴿ النيكوتين ﴾ والعنصر الثالث الذي يتكوَّن منهُ دخان التبغ هو مادة النيكوتين الذي سمي كذلك نسبة الى جان نيكو Nicot سفير فرنسا في اسبانيا (١٥٣٠ — ١٦٠٠) لانهُ كان يزرع التبغ في حديقة داره وكان شديد الاعتقاد بفائدة اوراقه في العلاج . ومادة النيكوتين هذه هي مصدر الفعل الذي يطلَب التدخين من اجله . ولا ريب في ان مادة النيكوتين سم مميت سريع الفعل ففي سيجار واحدٍ من النيكوتين ما يكفي لقتل رجلين . على ان جانباً من نيكوتين التبغ يتبخَّر بفعل النار حين اشعال السيجارة او السيجار او البيبة . وعليه فمقدار النيكوتين الذي يستنشقه المدخن اقل من المقدار الذي يوجد في التبغ حقيقة ثم ان هذا المقدار لا يتصل بالرئتين الأَّ اذا استنشق المدخن الدخان . وقد حسب احد الباحثين انهُ اذا دخن احد مدمني التدخين عشر سجاير الواحدة في اثر الاخرى ، استنشق مع دخانها مقداراً من النيكوتين يساوي عشر جرعة مميتة . ومتى اتصل النيكوتين بالرئتين وسرى فعله في الجسم ظهر له اثر مخدر في بعض الاجسام ومهيج في البعض الآخر . ويوضع النيكوتين ، في نظر بعضهم ، مع المخدرات كالمورفين والكوكايين ، في صف واحدٍ ويقولون ان ادمان التدخين وادمان المورفين او الكوكايين من قبيل واحد ، يضرَّان بالجسم ضرراً بالغاً

على ان مسألة الادمان مسألة نسبية ، وقلَّ بين الناس على كثرة من يدخن المصاب منهم بضرر كبير من جرَّاء التدخين . وعلى الضدّ من ذلك نجد ان مدمني المخدرات عبيد لها قلما يستطيعون التحرر من عبوديتها ، وهم في الغالب ضعاف الاجسام والاخلاق

﴿ النيكوتين والمعدة ﴾ وللنيكوتين اثر كبير في الجهاز الهضمي والغدد المتعلقة بها . ومن آثاره الظاهرة اثرهُ في غدد افراز اللعاب فاذا توقف المدخن عن التدخين ، توقفت هذه الغدد عن افراز مفرزاتها ، وبذلك يعلل جفاف فم المدخن في الصباح

ومن افعاله ايضاً التأثير في غدد المعدة فتفرز العصارة المعدية ، ولذلك يصاب الذين يتأَّرون كثيراً بفعل التدخين بحموضة المعدة لان تدخينهم يزيد افرازها للعصارة التي تحتوي على الحامض الايدروكلوريك . ويقول بعض الثقات انهُ اذا اتصلت بعض محتويات المعدة الحامضة بالامعاء الدقيقة ، كان ذلك مدعاة لتقرّح الامعاء ، ولذلك يحذر المصابون باي تقرّح في المعدة من التدخين . ويفعل النيكوتين ايضاً بالمعدة فيمنع عضلاتها من التقلّص فيقل الشعور بالجوع لان تقلص هذه العضلات يحدث الشعور بالجوع . لذلك تضعف قابلية مدمني التدخين ، ثم تقوى اذا انصرفوا عنهُ

العادة والتربية

ليس يقصد بالعادة ، كما تذكر في الخطب والمواعظ ، العادات الادبية فحسب بل ان ناموس العادة شامل لكل قوى الجسد والعقل يتناول أبسط الاعمال المعروفة بالفعل العصبي المعكوس واكثرها تعقيداً وتركيباً كالمشي والكتابة والعزف على الآلات الموسيقية وامثالها . وانما تذكر العادات الادبية على الغالب لان لها اكبر علاقة بشخصية الانسان ومقامهِ الاجتماعي

فاليد التي بها احمل قلمي لا كتب لا تستطيع ان تقوم بهذا العمل الاَّ باتباع ناموس العادة ، والعقل الذي يملي عليَّ المعاني والعبارات ما كان قادراً ان يفعل ذلك لو لم يدرس موضوع العادة قبلاً فاعتادت خلاياه العصبية فهم عباراته وادراك معاني مصطلحاتهِ والنفس التي تهتز لذكر المحامد والفضائل الآن لا تفعل ذلك الاَّ لانها اعتادتهُ منذ طفولة صاحبها — وكم في الناس من نفس لا تسرّ الاَّ بالشرّ ولا تفرح الاَّ بالرذيلة ! !

﴿ اساس العادة الفيزيولوجي ﴾ لا يلبث الماء المنحدر من اعالي الجبال ان يحتفر له مجرى يسير فيهِ المرة بعد الاخرى فيعمق ذلك المجرى ويتسع ويسهل على الماء الجري فيهِ

هذه هي الحال مع الرسالة العصبية التي نستطيع ان نشبهها بمجرى الماء . فحينما تسير الرسالة العصبية من اليد الى الدماغ تتخذ لها مجرى من الاعصاب تسير عليهِ . وحينما تنتقل هذه الرسالة ثانية من اليد الى الدماغ لا تبحث عن مجرى جديد تجري فيهِ بل — بالطبع — تسير في المجرى القديم ، ولما كانت حياتنا العقلية قائمة على نظامنا العصبي فناموس العادة اذاً هو : ميل كل اتصال عصبي الى التكرر ، وارجحية تكررهِ تتوقف على درجة تكرره قبلاً وعلى حداثة الوقت الذي كرر فيهِ اخيراً وعلى الاثر الاول الذي تركه حين حصوله المرة الاولى . ولنضرب لذلك مثلاً للايضاح

تتلفظ امام ولدٍ صغير بكلمة « كلب » فتسير تموجات الصوت في الهواء فتلتقطها الأذن الخارجية فتحرك الطبلة وما يليها من العظام فتسير على عصب السمع الى الدماغ . فالرسالة العصبية التي نتجت عن هزّ طبلة الاذن تسير من خلية عصبية الى اخرى حتى تصل الى الدماغ . والاتصال الذي يحصل بين هــذه الخلايا من سير الرسالة العصبية هو المراد بالاتصال العصبي المذكور في التحديد آنفاً

تفسر للولد معنى « كلب » دون ان نريه اياه بل نريه صورة ونكرر اللفظة على مسامعهِ مرات فاذا يفعل الولد حينما يرى كلباً ؟ انهُ لا شك يعرف الكلب اذا كان يشبه ما رآهُ في الصور وينطق باسمهِ والسبب في ذلك عائد الى تكرّر لفظة « كلب » على مسمعهِ

ولكن اذا علمناهُ عن حيوانات عدةٍ وكان الكلب آخر حيوان ذكر امامهُ فالراجح انهُ يذكر

الكلب قبل سواهُ اذا عرضت امامهُ جميع الحيوانات التي تعلم عنها بشرط ان تتساوى بقية الشروط. فالتذكر هنا عائد الى حداثة وقوع الامر (اي قرب الوقت الذي حصل فيهِ الاتصال العصبي)

ولكن اذا اتفق وجود الولد وحدهُ في حديقة وهجم عليهِ كلب هائج ففرَّ الولد من الخوف والرعب ودخل البيت . ثم سأل عن اسم ذلك الوحش الهائج فقيل له انهُ « كلب » فمن الراجح ايضاً ان يذكر الكلب بوضوح وجلاءٍ ولو لم يذكر اسمه امامه سوى مرة واحدة والسبب في ذلك شدة الأثر الذي تركهُ منظر الكلب الهائج في جهازه العصبي

﴿ فائدة العادة ﴾ للعادة فائدتان خطيرتان : ذلك انها تمكننا من ان نعمل اعمالنا العادية دون ان ننتبه الى تفاصيلها وهذا يساعد على اتمامها بسرعة ودقة فائقة

نضرب لذلك بعض الامثال . اخذت القلم في يدي لاكتب ما يمليهِ عليَّ فكري عن العادة . فلولا انني تعودت الكتابة ، اي تصوير الحروف العربية المعلقة لكان عليَّ ان انتبه الى كل حركة من حركات يدي واصابعي وكيفية تصوير الحروف حتى تأتي مشابهة للحروف المتعارفة بين الذين يقرأون العربية ويكتبونها — حتى يتمكن مصحح المسودات المسكين من حل رموزها ! ولو لم افعل ذلك لما تمكنت من كتابة صفحة واحدة في اقل من ساعتين او اكثر، والبرهان بسيط . لنأت بولد صغير لم يتعلم الكتابة العربية ونضع امامهُ صفحة من كتاب عربي ونطلب اليهِ ان ينسخها . فعليهِ اذاً ان يصوّر الحروف والكلمات تصويراً لان يدهُ لم تعتد كتابتها فيقضي وقتاً طويلاً قبل ان يبلغ ضالتهُ المنشودة . وما يقال عن السرعة يصدق على الدقة فاذا قابلنا بين خط ذلك الولد وخط احد الذين اعتادوا الكتابة وجدنا الفرق بين الاثنين عظيماً

وهكذا يقال عن المشي والتكلم والاعجاب بمناظر الطبيعة في آنٍ واحد . فلو اراد الانسان ان ينتبه الى عمل كل من العضلات التي تحرك الرجلين والعينين والرأس والظهر والايدي وسائر الاعضاء التي يستعملها الانسان خلال المشي لما تمكن من ان يتكلم مع صديق يرافقه ولا ان يعجب بمناظر الطبيعة بل لما تمكن من السير الَّا مسافة قصيرة جدًّا . والبرهان يتم بالمقابلة بين ولد صغير ورجل بالغ السن . فالولد الصغير الذي لا يزال في اول مشيهِ لا يقدر ان يوازن نفسهُ ولا ان ينقل رجليهِ بسرعة الرياضي الذي اعتاد العدو وسائر الالعاب

وما يقال عن الكتابة والمشي يقال عن الموسيقيين الذين برعوا في النقر على البيانو او الايقاع على سائر آلات الطرب . نرى الواحد منهم ينقل أصابعه بسرعة مدهشة ودقة فائقة ويأتي بعجائب الالحان والانغام . اما الذين لا يزالون في دور التمرين فلا يقدرون ان ينقلوا اصابعهم الَّا بتمهل وما اكثرما يخطئون توقيع اللحن الصحيح لان اصابعهم تخطىء النوتة الصحيحة. ولكنهم اذا قضوا الساعات الطوال في التمرين حتى تصبح عضلات اصابعهم رهن اوامر عقلهم وحواسهم اصبحوا من البارعين

فنرى ان اكثر العادات التي لها السلطة التامة على حركاتنا وسكناتنا ابتدأت كأعمال صعب

اعمالها ، اختارتها الارادة وبذلت الجهد بالتمرن عليها حتى اصبحنا نقوم بها دون انتباه الى تفصيلاتها ، وهذا يبين لنا شأن الارادة في اختيار كل ما هو حسن وجميل وصالح حتى اذا مرّناها على ذلك اصبح الحسن والجميل والصالح جزءاً من طبعنا

﴿قوة العادة وتأثيرها﴾ يقول المثل العادة خامس طبيعة وما اصدق هذا القول ! قيل ان جندياً متقاعداً كان في احد الايام حاملاً طعام الغذاء من التكنة الى بيته وفيما هو ماشٍ في الطريق سمع صوتاً يقول — Attention وهو الامر العسكري لكي يكون الجنود على تمام الاستعداد للقيام باحد الاعمال العسكرية — فللحال وقف منتصباً ويداهُ الى جانبيه بعد ان وقعت قصعة الطعام من يديه على غير انتباه منهُ . وكان الصوت الذي سمعهُ من بيغاءٍ يقلد صوت صاحبهِ الذي كان ضابطاً في الجيش

ألم تسأل في حياتك مدخناً قد ادمن التدخين « لماذا لا تعافهُ وانت تعرف انهُ يضرُّ بك » . وماذا كان جوابهُ يا ترى — « اني اعتدتهُ ولا اقدر ان احيا بدونهِ » . وقد يكون في هذا الجواب شيءٌ من ضعف الارادة ووهن العزم ولكن للعادة سلطان عظيم قلَّ من يقدر ان يسقطهُ عن عرشهِ بعد ان اجلسهُ عليهِ زمناً طويلاً ينقاد لامره انقياد العبد للسيد

***

يعزم السكير ان يعاف المسكرات ويعلن عزمه فيفرح بذلك اصدقاؤه ومحبوه وحينما يراه احدهم جالساً مع رفاقه الاول يعاقر بنت الحان يذكّره بعزمهِ ، فيجيبه — وانا فاعل ما عزمت عليه ولكني اشرب هذه المرة بملء ارادتي ، ولست مدفوعاً بعادة السكر ، وزد على ذلك هذه مرة ولا تحسب . قال وليم جيمس — هو لا يحسبها وقد يتناساها اصدقاؤه ومحبوه وقد يغفر لهُ الاله السماوي الرحيم زلتهُ اذا تاب ولكن خلاياه العصبية وجواهرها الفردة لا تغفر ولا ترحم ، لا تنسى ولا تتناسى ، بل هي تسجلها في ذلك السجل العظيم ، الجهاز العصبي

﴿القضاء على العادات القديمة﴾ كتب الفيلسوف الاميركي وليم جيمس فصلاً في العادة في كتابهِ مبادىء علم النفس ، جدير بأن ينقش بماء الذهب على جدران البيوت وفي الاماكن العمومية حتى يقرأه الرائح والغادي ويستفيد منهُ . وقد ذكر فيهِ اربعة قوانين للذين يريدون ان يتخلصوا من بعض عاداتهم المستهجنة وهي فيما يلي

١ — اعزم عزماً صادقاً على ترك العادة التي تود التخلّص منها واذا امكنك ان تعلن عزمك هذا امام عدد من اصدقائك اصبح للعزم عليك سلطان لا تقدر ان تقاومهُ لئلاّ يطالبك اصدقاؤك بوعدك ان خالفتهُ

٢ — ابدأ بتنفيذ عزمك في الحال ولا تؤجل

٣ — ابدأ بتأسيس عادة طيبة وتمرن عليها لتملأ الفراغ لئلاّ تعود الى العادة القديمة

٤ — لا تقوم بعمل ما يخالف عزمك قبل ان تتمكن منك العادة الجديدة الطيبة وتستأصل العادة القديمة

باب المراسلة والمناظرة

العاطفة والعقل في الشعر

حول «ديوان الكروان»

لبشر فارس

قرأت في «مقتطف» فبراير الماضي نقداً لديوان الكروان بقلم (خ . ش) . فاصبت فيهِ ما اريد التعليق عليهِ

قال : «ولعلَّ فكره (يعني فكر الاستاذ العقاد) يثير عاطفته اكثر مما تثير عاطفته فكره . فهو كأنما ينقل قلبهُ الى رأسه اكثر مما ينزل رأسه الى قلبه»

فمثل هذا التمييز بين العاطفة والعقل ثم رجع صنوف الشعر الى كل منهما مما لا اذهب اليهِ . وكأن (خ . ش) ينظر الى الشعر بعيني «الرومانتي» romantique الذي لا يرى العاطفة الاَّ حيث يصيب الوان الاحساس مبسوطة مستفيضة . وكأنهُ يرى العقل حيث يصيب هذه الالوان مردودة او مكبوحة او مستورة . والتحقيق ان العاطفة تبرز في اشكال شتى : فتارة في غلوٍ وجلبةٍ شأنها عند (هوغو) و(لامرتين) . واخرى في تحفظ ومغالطة ، شأنها عند (دي ليل) ، وثالثة في خفة ومداورة ، شأنها عند (فرلين) . والغالب في الظن أن العاطفة التي يعنيها (خ . ش) هي عاطفة (هوغو) و (لامرتين) . ولولا ان يكون الامر هكذا ما ميز بين القلب والرأس مثل ذلك التمييز

وسواء أحادَّة كانت العاطفة او متئدة فهي ملاك الشعر . فلا شعر حيث لا عاطفة . ولربما اتفق للعاطفة ان تفور ولربما اتفق لها ان تتزن . فان اتزنت كانت طوع امر العقل . لان العاطفة المتحفظة أو العاطفة المخففة لا تبلغ مبلغها من التحفظ أو الخفة الاَّ اذا نخلها العقل . فالعقل مهذب العاطفة لا مثيرها ، وبالتالي ليس للعقل ان يرسل الشعر . فمن الغريب اذن ان يقول (خ . ش) «ولعلَّ فكر العقاد يثير عاطفته اكثر مما تثير عاطفتهُ فكره»

بل اذا خُلّي القلب وشأنه زلَّ واورط صاحبه . والى هذا نظر أبو الطيب حين قال :

ولا بدَّ للقلب من آلةٍ ورأيٍ يصدع صُمَّ الصفا

على ان إعمال العقل في الشعر ليس بمستقبح . فالعقل يصفي الوان الاحساس ، اذ يخفف من فوران العاطفة ويرد من نزوان القلب . ولكنه يحق له ان يعتاض عن شدة الفوران وفرط النزوان تارة طلب الفن للفن والدقة في التعبير كما فعل اهل البرناس Parnassiens ، وتارة الوصف الصادق والكف عن الغلو كما صنع الواقعيونRéalistes وتارة الرمز والموسيقى والانفعال كما فعل الرمزيون Symbolistes والعقاديين اهل البرناس وبين الواقعيين



النثر الفني في القرن الرابع

تأليف الدكتور زكي مبارك : جزآن . مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٢ يطلب من المكتبة التجارية

مما ابتُلي بهِ النُقّاد في هذا العصر كثرةُ الكتب وضيق الوقت فما اظن ان ناقداً ينصف نفسه وقرّاء كلامهِ يدّعي انهُ حين يضع بين يديه كتاباً كالنثر الفني الذي نتكلم عنه بعدُ ، ويأخذ في قراءته وتتبّعهُ يستطيع ان يكتب عنهُ كلمة وافية في ساعة او ساعتين او يوم او يومين ، ثم هو بعد ذلك لا يستطيع ان يجعل كل ما يريد ان يقوله في صفحات ثلاث من مجلة كهذه المجلة ، فربما كانت كلمة واحدة مما عرض في الكتاب تستنفد في نقدها او نقضها كلمات تضيق بها عشر صفحات . هذا ما تردد في نفسي حين حملت القلم لاكتب عن كتاب النثر الفني في القرن الرابع

ولا يعنيني في هذه الكلمة ان اقول ان في الكتاب كيت وكيت من الابواب والفصول فان المطابع قد سهلت على كل احد ان يطلع على ما شاء من الكتب مبتذلها وعزيزها ، وانما يعنيني ان اقول كلمة عن أهم ما عرض في هذا الكتاب من الآراء التي ينبغي للقارىء ان يمحصها قبل ان يأخذ بها او يعتقد في نفسه امرها او صحتها

فمن اوّل ذلك قول المؤلف في ص ٣٣ من الجزء الاول « هل كان للعرب نثر فني في عصور الجاهلية ، وهل كانوا يفصحون عن اغراضهم بغير الشعر والخطب والامثال ؟

« لقد اتفق مؤرخو اللغة العربية وآدابها كما اتفق مؤرخو الاسلام على ان العرب لم يكن لهم وجود ادبي ولا سياسي قبل عصر النبوة ، وان الاسلام هو الذي احياهم بعد موت ونبههم بعد خمول . وهذا الاتفاق يرجع الى اصلين : فهو عند مؤرخي الاسلام والمسلمين تأييد لنزعة دينية يراد بها اثبات ان الاسلام هو الذي خلق العرب خلقاً وأنشأهم انشاء ، فنقلهم من الظلمات الى النور ، ومن العدم الى الوجود . وهو عند مؤرخي اللغة العربية ، وآدابها يرجع الى الشك في كثير من النصوص الادبية التي أُثرت عن العرب قبل الاسلام من خطب وسجع وأمثال »

ولا اريد في هذه الكلمة ان اعترض على صاحب الكتاب في وصفه النثر بقوله (الفني) ولا ان أطالبه بحكمة هذا الوصف وان كنت قد جهدت ان اجد لها معنى يقوم عذراً لهُ في وضعها فأعياني الطلب . والواقع اني قرأت الكتاب فلم اعثر فيهِ على حدٍ او تعريف لما سمّاه النثر الفني ، وكلما اردت ان اجمع له حدًّا او تعريفاً من معنى كلامهِ وجدت في غيره من معاني كلامه ما يتفاوط عنده

ما جعت لهُ من الرأي . وكان صواب التأليف غير ذلك ، لانهُ جعل هذه الكلمة (النثر الفني) موضع الجدَل بينه وبين خصومه في الرأي من المستشرقين ومن تابعهم في هذا الشرق العربي . وما يقوم الجدل عليه ويقصد القول فيه ، لا يصح ان يكون موضع شك او غموض او ابهام او اضطراب

يقول صاحب الكتاب « هل كان للعرب نثر فني ؟ » ونحن نجيب عن هذا السؤال بما نضمنه ما نوافقه فيه وما نخالفهُ عليه . فقد كان العرب امة امية لا تقرأ ولا تكتب الاَّ قليلاً من اهل المدن كمكة والمدينة (يثرب قديماً) واطراف اليمن ومشارف الشام ونواحي الحيرة ، وهؤلاء الكتاب لم يكن لهم تأثير بيّن في الامة العربية لان جماعة العرب لم تكن لذلك العهد (قبل الاسلام) تعرف الكتابة والخط ولا كان من همهم ذلك ، ولو افترضنا ان هذا العدد القليل الذي وصف بالكتابة كان يكتب وعنينا انهُ كان يؤلف ، بقي الأمر على ما هو عليهِ اذ كانوا — على ذلك — يؤلفون لمن لا يقرأ ولا يكتب . ومع هذا فقد كان العرب يتخذون الكتابة في بعض الاغراض كالعهود والرسائل العظيمة الخطر كالذي يروون مما كتبه لقيط بن يعمر الاياديّ الى قومه إيادٍ بالحيرة يحذرهم كسرى (سابور ذا الاكتاف) وكان قد اجمع على غزو ايادٍ فأرسل لهم لقيط — وكان كاتباً بديوان كسرى — قصيدتهُ المشهورة التي يقول فيها

يا قوم لا تأمنوا ان كنتم غُيُراً   على نسائكم كسرى وما جمعا
قوموا قياماً على امشاط ارجلكم   ثم افزعوا، قد ينال الامن من فزعا

ويقول في آخرها

هذا كتابي اليكم والنذير لكم   لمن رأى رأيهُ منكم ومن سمعا

وقد ورد في ذكر العهود المكتوبة شعر جاهلي كثير منه قول الحارث بن حِلزّة اليشكري في الحرب التي كانت بين بكر وتغلب

واذكروا حلفَ ذي المجاز وما قـدّم فيه العهود والكفلاء
حَذَرَ الجور والتعدي وهل ينـقُضُ ما في المهارق الاهواء

ويعني بالمهارق كتب العهود والمواثيق التي كانت بين بكر وتغلب ايام الهدنة والصلح

فنحن لا نستطيع ان ننكر ان العرب كانوا يكتبون ويتراسلون في بعض الاحايين ، ولكننا نستطيع ان ننكر انهم كانوا يصنفون الكتب ويؤلفون الرسائل في الاغراض الكثيرة . ويجب على المفكر في هذا الامر ان يعلم ان كلام العرب في محاوراتهم ومجالسهم وخطبهم كان هو الكلام المتخذ في الرسائل والعهود وغير ذلك اذ ان هذه اللغة العربية التي بين ايدينا والتي نزل بها القرآن والتي كان يتكلم بها الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم كانت الى القرن الثاني والثالث من الهجرة تؤخذ من افواه العرب البداة . فلا يعقل بعد ذلك ان يكون في الجزيرة العربية كتّاب قد

تفرغوا للكتابة حتى نسأل هل كان هناك (نثر فني) او لم يكن فان هذا السؤال يقتضي ان يكون في الجزيرة فئة قد تجردت للكتابة فعلت على غيرها من عامة الناس في الاسلوب البياني . هذا والرسول نفسهُ صلى الله عليهِ وسلم كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ، وكان يعد افصح العرب ، وكان من اصحابهِ من يجيد الكتابة كعُمَر وعليّ وزيد وعثمان رضي الله عنهم ومن يتدبر هذا يجد ان النثر على المعنى المعروف عندنا لم يكن مما تتطلبهُ العرب وتتفرغ له وتتفوق فيه وانما كان كلامهم كله مرسلاً على سجية واحدة الاَّ الشعر فان الذي ميزه هو الوزن والقافية

***

أما قول صاحب الكتاب ان مؤرخي الاسلام اتفقوا على ان العرب لم يكن لهم وجود سياسي او ادبي قبل النبوة فهذا قول مرسل لا حد له وهو كلام لم يقل بهِ احد من العلماء وانما كانوا يعنون بما يصفون بهِ العرب من الجهل والضلال ما يتصل بأمر الدين والتوحيد وإلاَّ فانهم قد استشهدوا في تفسير القرآن نفسه بنوع من كلام العرب وهو الشعر . أما المسألة السياسية والكتلة الدولية فانهم يعنون بذلك ان لم تكن امة متآزرة ذات حكم واحد وسيادة متصلة من أعلى الجزيرة الى اسفلها بل كانت قبائل متنازعة يأكل بعضها بعضاً حتى جاء أمر الله ونزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ليكون مبشراً ونذيراً وهادياً الى الله بأمره وسراجاً منيراً فألّف بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته اخواناً وقاتلوا في سبيل الله حتى فتحوا الارض واستولوا على ملك كسرى وقيصر . وليس في هذا موضع للجدال... ولا اتفاق — كما يقول صاحب الكتاب — يرجع الى ان مؤرخي الاسلام يقولون ذلك تأييداً لنزعة دينية يراد بها اثبات ان الاسلام هو الذي خلق العرب خلقاً وأنشأهم انشاءً فأخرجهم من الظلمات الى النور ، ومن العدم الى الوجود . . هذا على ان القرآن قد اخرج العرب حقيقة من الظلمات الى النور

ثم ان المؤلف اراد بعد ذلك ان يجعل القرآن أثراً جاهليًّا « فانه — نسأل الله المغفرة — من صور العصر الجاهلي ، اذ جاء بلغته وتصوراته وتقاليده وتعابيره » ص ٣٨ فلو كان ذلك كذلك فما فعل القرآن بالعرب حتى اخرجهم من الظلمات الى النور وكيف يجيء ما هو من عند الله مطابقاً لتصورات العرب وتقاليدهم على ما فيها من الطبيعة البشرية الضعيفة الهالكة الجاهلة وهذا القرآن الذي يعدُّهُ صاحب الكتاب أثراً جاهليًّا هو الكتاب نفسه الذي أعجز عرب الجاهلية جميعاً وتحداهم وطالبهم وسخر منهم ووضع من آلهتهم وحقّرها وأثار أحقادهم وأضغانهم . ولو كان هذا القرآن قريباً من كلامهم او شبيهاً بهِ لما عجز بعض بلغائهم عن الاتيان بمثل سورة من سوره كما طالبهم بذلك وتحداهم . ونحن لا ننكر ان كل ما في القرآن من لفظ انما هو من الفاظ العرب كما ان اكثر الفاظ كتّابنا الآن بل كتّاب القرن الرابع الذي يتكلم عنه صاحبهُ انما هي الفاظ عربية ، ونحن لا نعدُّ

أسلوبنا او اسلوب القرن الرابع في النثر مقارباً او شبيهاً بالنثر الجاهلي فكذلك القرآن من النثر الجاهلي بهذه المنزلة ، فألفاظ القرآن هي الالفاظ العربية ولكن نظمه وسياقه وبلاغته ومواقع كلماته المعجزة لا صلة بينها وبين اي كلام من كلام البشر في جاهليةٍ او اسلام

ولماذا يعدُّ صاحب الكتاب هذا القرآن من النثر الجاهلي ، ويتخذه دليلاً على وجود النثر في الجاهلية مع ان الحديث النبوي وكلام الصحابة المروي بالاسانيد الصحيحة الثابتة هو أقرب في الادلة وفيهِ بغية صاحب الكتاب . فأنت اذا قرأت السيرة وجدت كثيراً من كتب الرسول الى القبائل والامم وولاة جيوشهِ ووجدتَ اكثر من ذلك في كلام ابي بكر وعمر وعلي وعثمان وغيرهم من اهل الجاهلية الذي اسلموا واتبعوا الرسول النبي الامي صلى الله عليهِ وسلم

القرآن كتاب الله، فاذا أردنا ان نبحث عن الادلة عن النثر الجاهلي فهو في كلام الصحابة والرسول نفسه

هذا ونحن نعتذر الى القراء عن تقصيرنا في الكتابة عن كتاب النثر الفني فان لهذا موضعاً آخر إن شاء الله

محمود محمد شاكر

رحلة صيف

تأليف توفيق حبيب « الصحافي العجوز » — صفحاته ١٦٠ مزين بالصور
يطلب من مكتبة النجالة المصرية والثمن خمسة قروش

اصحُّ طريقة للحكم على كتابٍ من كتب الرحلات والاسفار هو ان ترحل الى بلاد وتشاهد آيات عمرانها واجتماعها ثمَّ تطلع على ما كتبه احد الكتاب فيها . وقد اتيح لكاتب هذه السطور زيارة تركيا في الصيف الماضي ، ومشاهدة بعض اعلامها التاريخية ومنشآتها الاجتماعية ، ثم اطلع على ما كتبه « الصحافي العجوز » في « رحلة صيف » فوجده فيها قد اجاد الوصف ، وبسط الحقائق التاريخية والاجتماعية ، في خفة روح لا تجارى ، وبساطة اسلوب يُحسد عليها . وعندي ان مقياس الكاتب البارع هو مقدرته على ان يعي التفصيلات المنوعة في ذهنه ، ثم يتناولها في كتابته تناولاً لطيفاً ، من دون ان يظهر على كتابته أثر للكدّ والاجهاد . والصحافي العجوز في فصوله اليومية التي ينشرها في الاهرام ، وفي « رحلة صيف » كاتب بارع حقًّا . وقد اجاد الاستاذ فكري اباظة في مقدمته اذ قال : « لذلك اقرر ان ذخيرة « توفيق حبيب » التاريخية ذخيرة ضاعت من ايدي زملائي جميعاً وتجمعت بكليتها في يديه . ولهذا سهل عليه ان يكون فيَّاضاً عند ما يعرض للتعليقات التاريخية »

والكتاب عدا كونه رحلة اخَّاذة يصف لك نواحي النهضة التركية الحديثة وصفاً ليس فيه افراط ولا تفريط يحف بهِ اطار لطيف من مشاهد اليونان ويوجوسلافيا وإيطاليا

فيصل الاول

لامين الريحاني — ص ٢٣٤ — طبع بيروت

صدر هذا الكتاب النفيس — وقد اطلع قرّاء « المقتطف » على نموذج من فصوله نشر في عددي يناير وفبراير ١٩٣٤ فرأوا ان الريحاني قد جمع فيه الى البحث التاريخي الدقيق ، الاسلوب الادبيّ اللألاء — في الشهر الماضي ، فكان درة من هذه الدرر الغوال التي يزين بها الريحاني جيد التاريخ العربي الجديد من وقت الى آخر. وقد اهداهُ الى جلالة الملك غازي « المتمم بعون الله الرسالة العربية العراقية ، رسالة ابيه وجده رحمهما الله». واستعرض بهِ سيرة فيصل في العراق، وقد ابتدأها في كتابهِ « ملوك العرب » فكان حلقة جديدة تضم الى الحلقة الاولى ، وبشرنا بان هنالك كتاباً ثالثاً يعد المعدات لاصداره وهو « الشعب العراقي » فنرجو ان لا يطول الزمن قبل ان يُجلى لقراء العربية فهم معجَبون بكل ما تنتجه يراعة الريحاني مرتاحون الى مباحثهِ واساليبهِ

***

كشف الريحاني في كتابه الجديد عن حقائق كانت مجهولة في تاريخ الدولة العراقية الفتاة واماط اللثام عن كثير من الاسرار فجاء آية في دقة البحث والاستقصاء ، كما جلا كثيراً من نواحي فيصل الاجتماعية والعلمية والخلقية مما لم يسبقه اليه سابق وقد لا يلحقه في هذا المضمار لاحق ، فقد افرد في بعض فصولهِ ابواباً خاصة حلل فيها شخصيته من كل النواحي تحليلاً فلسفيًّا وعلميًّا ومنطقيًّا ، تحليل الناقد الخبير ، الذي يزن الكلمة قبل ارسالها ويقلب الرأي قبل تدوينه فلا افراط ولا تفريط ولا غلو ولا اغراق

قال في الصفحة ١٦٥ بعنوان « مناقب » « كان فيصل مسلماً سنيًّا حنفيًّا صادقاً وكفى ، وكان بصورة ايمانه سطوح متعددة تنعكس فيها انوار المذاهب الاسلامية الاخرى انعكاساً صافياً ، وقد كنت اشعر في محادثته ان لعقيدته الدينية بطانة من التساهل الذي تخلله الاحترام لسائر الاديان في العالم . هو رجل من رجال العالم الكبار ، وهو مسلم يندر مثله بين حكام المسلمين ، فقد كان في تعقله واعتداله مثل الحكمة العالية ، وفي رحابة صدره وتساهله مثال الحب والاخلاص » ثم قال « يصح ان نقول انه ما كان من رجال الحرب الكبار ، بل كان اولاً وآخراً رجلاً مفكراً ، والفكر وليد السلم ووالده الاكبر ، وقد كان الملك فيصل في حبه للسلم وفي جهاده من اجل السلم شجاعاً غير هياب ، وشهماً لا يذكر الحساب ، شهماً كريماً ، ينسى ولا يلوم ، لقد كان فيصل بعيد عن الحماقة ، بعده عن العنجهية وكان حب الذات عنده رمزاً لحب أسمى ، رمزاً لحب قومي ، رمزاً لحب امته العربية . في سبيل هذا الحب ، وفي سبيل السلم المؤيد له، كان يتحمل فيصل ما لا يتحمله رجل آخر في منزلته ، كان يكظم الغيظ وينكر النفس ، توصلاً الى اغراضه »

وفي باب المناقب كثير من « مناقب » الملك فيصل الغر مما لا يتسع المجال لنشره هنا . وهنالك ابواب اخرى تناول فيها ايضاً شخصية الملك بالتحليل . منها « فوز الملك فيصل » و «شغل الملك فيصل» و« نحن وهارون الرشيد » وهي مكتوبة بأسلوب يستهوي النفس فيغري القارىء بالمطالعة فلا يكاد يبدأ فصلاً حتى يتمه وهكذا حتى يأتي على الكتاب برمته . فهو منسجم منسق في ابدع صورة وتكوين

وقد ختمه برسالة وجهها الى فيصل وضمنها آماله وآمانيه . ثم اثبت كلمته في «النسر العربي» وقد قالها فيصل حين وفاته وتليت في حفلات الاربعين ونشرها المقتطف وسجل تاريخ الحوادث البارزة في حياة الملك فيصل مسلسلة وبالاجمال فهو من الكتب النافعة المفيدة التي يجدر بكل عربي دراستها واقتناؤها

امين سعيد

مناجاة

بقلم حسين عفيفي المحامي — ١٥٢ صفحة من القطع الصغير — مصورة بصورة طبيعية فنية بالالوان بريشة شعبان زكي — طبع مطبعة سابا بمصر — الثمن ٥ قروش

« مناجاة » هي قطعٌ متخيلة تشبه في تسلسلها الرواية وتتضمن تحليلات عامة في قالب غرامي وأسلوب من النثر الشعري . مؤلفها شاعرٌ يستعمل النثر اداة في التعبير عن افكاره ولكنهُ النثر الذي جاهد في نشره جبران والريحاني واخوانهما في المهجر ، ذلك النثر الشعري الذي يحرص على الموسيقى . والاستاذ عفيفي يشبه في اسلوبه عند تأدية اغراضه شاعر الهند طاغور في كتابيه «هبة العاشق » و « وجيتنجالي» فهو يمزج الفلسفة بالعاطفة مزجاً موفقاً ، ولكنَّ للبيئة المصرية أثراً كبيراً في المؤلف يحسّه القارىء في نواحي الكتاب منبثاً ، فهو حائر قلق ، يبحث عن مثل أعلى... فيهِ حيرة المجتمع المصري وفيهِ قلقه ، وهذه الحيرة وهذا القلق هما اللذان يجعلانه ينظر الى الحب نظرة الحائر فكأن العالم لا يملأ قرارة نفسه حتى نسمعهُ يناجي حبيبهُ قائلاً « لك قلب يا حبيبتي ولي قلوب ، فأحبيني إن شئت وحدي ، اما انا فلا بد ان أشرك في قلبي غيرك » . ثم يخاطبها في ناحية اخرى قائلاً « دعيني اتقلب بين الحسان حتى لا يفوتني شيء من الجمال الذي من اجله احيا ، ولا تكليني الى عبث الفناء قبل ان احقق منهُ الاماني ، فان حياتي حلم لا يعود »

بهذا الاسلوب الشعري الجميل يتغلغل المؤلف الى صميم الحياة فيتناول موضوعات تحسبها بعيدة عن الشعر ولكنهُ يتركها تلبس رداءها مطرزاً بثوب الخيال ومعطراً بنفحات موسيقى عذبة ولعل حبهُ للحياة الشعرية هو ما يدعوه الى الرغبة في حياة الطبيعة حتى يكاد يرى ما رأى جان جاك روسّو ، وهو من اجل ذلك يهدي كتابه الى رعاة الغنم ، لانهم اكثر الناس تمتعاً بالأم الحنون....

حسن كامل الصيرفي

أبو علي : عامل ارتست

وقصص اخرى — تأليف محمود تيمور — صفحاته ١٦٢ — طبع بالمطبعة السلفية

بين دفتي هذا الكتاب صور حية لنماذج من الناس يعيشون في ريف القطر المصري وحواضره فثمة صورة الشيخ رأى شيطاناً في ابنتهِ لانهُ فاجأها مراراً « وهي تنظر الى عزازي نظرة كلها فجور واشتهاء » . وادرك ان هذا الشيطان لن يخرج من جسمها الاَّ بعذاب اليم فحبسها وقلل طعامها وبدأ يعذبها حتى ماتت وهو مقتنع انهُ في عملهِ هذا ليس الاَّ محارباً للشيطان . هذه الصورة نموذج لعقلية ما تزال في القرن العشرين «قطعة متلكئة من الزمن» على حد تعبير المازني . ثم هناك حلمي الاديب او المتأدب الذي يلوك الفاظ الحضارة والاشتراكية ويذكر العلوم ويهوّل بسهره للتبحّر فيها وجني ثمرات العقول من المؤلفات المشهورة ، وهو يموّه بذلك على نفسه ويكشفها لاخوانهِ ، وينغمس في الشهوة على حساب ذوي النجدة من أصحابهِ ، ويحاول ان يداري ما يفعل وراء ستار شفاف قوامهُ : « انني ادرس هذه الاوساط . ادرسها جيداً »

اما قصة « ابو علي عامل ارتست » فصورة بديعة لنموذج آخر من الناس . وقد ابدع المؤلف في تحليل نفسية الرجل . وتطوّرها وعمدَ الى السخرية آناً في رسم بعض خطوطها ، فوضع على لسان الرجل وهو يودّع بيت عمهِ عبارات جُوفاً ولكنها رنّانة — كقولهِ يودّع حجرتهُ « وداعاً يا حجرتي المحبوبة . يا مستودع اسراري ومهبط وحيي . يا مرتع احلامي ومنبع عبقريتي» او كقوله متعالياً على مدير فرقة تمثيلية عند طردهِ منها . « اذن انت تخشى منافستي لك . يا للضعف . . . » او « صرّح لي يا سيدي بكل شيء فما زلت مستعداً للتفاهم معك »

والقصص تبدو كما قال المستشرق السويسري ويدمار ، بسيطة « ولكن هذه البساطة هي السر في قوتها وتأثيرها . . . فالمؤلف يتغلغل في اعماق نفس الشخص الموصوف لكي يبرز عقليتهُ الحقيقية »

أما اسلوب المؤلف الكتابي ، فيكاد يكون قنطرة بين اللغة الدارجة واللغة الصحافية الفصيحة وهذا لا بدَّ منهُ في بعض نواحي الكتابة القصصية . لانك لا تستطيع ان تنطق العامل العامي بلغة الجاحظ . فتفسد بذلك الجوّ الذي تحاول ان تخلقه في القصة باستعمال الفاظ العمال وعباراتهم. أما العبارات التي ترد على لسان المؤلف ، كوصف مشهد او تحليل شعور او سوق حكمة ، فيجب في رأينا ، ان يكون بأسلوب لا غبار عليه . ونحن واثقون من ان جوّ القصص التي في هذا الكتاب لا ينقصه شيء اذا جاء في عباراتها «حماسة» بدلاً من «حماس» و «قابض للنفس» بدلاً من « مقبض للنفس » و « في تراخٍ » بدلاً من « في تراخي » . فهذه هنات هينات ونفضل ان نحسبها من قبيل الخطإِ المطبعي وما اكثره في مطبوعاتنا

جولة في ربوع الشرق الادنى

بين مصر وافغانستان

تأليف محمد ثابت — طبع بمطبعة سعد مصر — صفحاته ٢٩٤ بالقطع الوسط

لمحمد ثابت مدرّس الآداب بمدرسة الأمير فاروق الثانوية عناية عظيمة بالسياحة وكتابة ما يشاهده في البلدان التي يزورها في كتب جامعة للذة والفائدة. وكتابه هذا هو الكتاب الرابع في هذا الباب وصف فيه فلسطين وسورية وتركيا والعراق وافغانستان وايران وخص اليزيدية او عبدة الشيطان والشيعة والصابئة والمشاهد المقدسة بفصول . فهو يصف كل بلد يمرُّ بهِ كما يشاهده فيرسم للقارىء صورة مجملة لحالة البلاد وشكلها ويصف اهلها وحالة بؤسها أو نعيمها وعزها أو شقائها ثم هو يتبع ذلك بفصل يجمل فيه تاريخ البلد والادوار التي مرّت بهِ والاحداث التي انتابته وهو بارع في هذه الابواب لانه خبرها عمليًّا في تدريس مواد التاريخ والجغرافيا ثم هو كثير الاطلاع يطبق الامور على حقائقها ويعنى بنشر صور كثيرة في كتبه تصف للعين حالة البلاد فترسخ الصور الذهنية على الصور الفتوغرافية وتزيد القارىء اقبالاً على القراءة . وجملة القول ان المؤلف أفاد القرّاء بكتبه هذه وسهّل عليهم المباحث التاريخية القديمة بما اضاف اليها من الوصف الحاضر فهو يجمع بين حالة البلدان قديماً وحديثاً وينتقل بالقارىء من أوصاف السكان ولهجاتهم واحوالهم الى وصف ما طرأ على المدن من حوادث واحداث مستخلصاً العبر وبذلك جعل لرحلاته منزلة ممتازة في نفوس القرّاء . وكم كان يود كاتب هذه السطور ان يكتب لنا المؤلف الفاضل رحلة في مصر على نسق رحلاته هذه فنحن في شوق لمعرفة قطرنا عواصمه وقراه واحواله قديماً وحديثاً م . ر

جداول تحويل النقود

أهدى الينا حضرة الفاضل سليم أمين حداد استاذ الرياضيات التجارية بمدرسة التجارة العليا كتابين الاول ويحتوي على جداول تحويل النقود المصرية والانكليزية والفرنسية باللغة الفرنسية والثاني دليل باللغة العربية يشرح فيه المؤلف كيفية استعمال هذه الجداول والغرض من عمله هذا هو تسهيل عمليات تحويل النقود وضبط الحساب . وقد اطلع على الجداول مديرو الهيئات المالية في مصر فارسلوا اليهِ كتباً يثنون فيها على عمله العظيم ومجهوده الشاق وفائدة جداوله العملية والمؤلف في غنى عن الشهرة وهو صاحب المؤلفات الرياضية والتجارية والمالية الراقية المقرّرة رسميًّا من قبل وزارة المعارف بمدرسة التجارة العليا فنكرر لحضرته الثناء ونوجه الأنظار الى هذه الجداول المفيدة

مطبوعات جديدة

﴿تاريخ نابليون بونابرت ١٧٦٩—١٨٢١﴾ كتاب نفيس بقلم الاديب الياس ابو شبكة افرغهُ في قالب يحبب الى القارىء مطالعته وذكر فيه تاريخ حداثه البطل والاعمال المجيدة التي عملها والحروب العظيمة التي قام بها وحسبه ان قال عنه شاتو بريان عقب رسالة حمل بها على نابليون ما يلي «ليس بونابرت كبيراً بكلماته وخطبه وكتاباته وشغفه بالحرية التي لم يوطىء لها السبيل يوماً، بل هو كبير بخلقه حكومة منظمة قوية ومجموعة قوانين درجت عليها ممالك كثيرة ودور عدل ومدارس وادارة حازمة ما زلنا نعيش في كنفها» والكتاب مطبوع بمطبعة صادر ببيروت ويطلب من مكتبتها

﴿الجغرافية العامة الحديثة﴾ الجزء الاول تأليف سعيد الصباغ «يحتوي على مباحث اوربا وآسيا وأفريقيا وفصول مطولة من جميع الاقطار العربية

وللفائدة ذكر المؤلف مع المباحث الجغرافية لمحات عن حياة الشعوب النائية الموطن الغريبة الهيئات والاطوار ونبذاً تاريخية عن هجرة القبائل العربية الى افريقيا وانتشارهم فيها والكتاب محلى بكثير من الرسوم والخرائط التي تعين الطالب على تفهم مادته وتقربها الى ذهنه وهو مطبوع بمطبعة العرفان وثمنه ١٠ قروش مصرية عدا اجرة البريد

﴿الجغرافية الطبيعية﴾ تأليف ابرهيم شوكت مدرس الجغرافيا بدار المعلمين ببغداد — وهو كتاب مدرسي يهم طلبة المدارس العراقية يشرح فيه المؤلف حالات الجو والارض وجيولوجية العراق ومعادنه ومنابعه المعدنية وأردفه بمعجم للاسماء العربية وبترجمتها بالانكليزية. طبع بمطبعة الاهالي ببغداد

﴿سلاطين بني عثمان الخمسة﴾ تأليف الدكتوره ماري ملز باتريك وترجمة حنا غصن وكامل مروه وكامل صموئيل مسيحه — وهو كتاب تلذ مطالعته ويحتوي على خلاصة تاريخ السلاطين العثمانيين الخمسة الذين حكموا تركيا اخيراً وشرحت حياتهم شرحاً دقيقاً وتحدثت عن الذين كانوا يخشون منهم النور ويريدون ان يظلموا دائماً في الظلام وذكرت حوادث تطور حركة الاصلاح وكيف تنهض الشعوب وكيف انتقلت تركيا من حالة التأخر والاتضاع الى مركز تحسدها الدول عليه . طبع بمطبعة صادر ببيرت

﴿قاموس لبنان﴾ جمعهُ الاديب وديع نقولا حنا صاحب مجلة المعارف وهو يحتوي على اسماء مدن جمهورية لبنان وقراها مع تفصيل واف عن عدد سكان كل واحدة منها ولاية ومديرية ومحافظة مع وصف معاهدها وتجارتها وحاصلاتها ومن اشهر منها رجالاً ونساء — ثمنهُ ليرة سورية ويطلب من جامعة بيروت

﴿موجز الاغاني العراقية﴾ وضعهُ محمد القبنجي — كتاب تاريخي فني موسيقي مصور يبحث عن المقامات التي هي غناء مدينة بغداد والعتابة والنائل وهي غناء المدن التي في غرب دجلة والابوذية والتوشيح وهو غناء مدن شرقي الفرات وفيه لمحة من تاريخ الغناء العربي. طبع بمطبعة الايتام ببغداد

باب الأخبار العلمية

الاشعة الكونية وانفجار النجوم

يرى العالمان زوكي Zwicky وباد Baade من معهد باسادينا العلمي بكليفورنيا ان انفجار النجوم، حين تولد « النجوم الجديدة »، قد يكون مصدراً للاشعة الكونية التي تفرّغ العلماء للبحث فيها في العهد الاخير

ويقصد بالنجم الجديد، نجم يتحوّل فجأة من قدر صغير الى قدر كبير، لانفجار يحدث فيه. فيزداد لمعانهُ حتى لقد يفوق اسطع الكواكب وأبهاها. ولكن ذلك لا يدوم طويلاً فلا يلبث ان يخفّ بهاؤهُ ويقلّ اشراقهُ ويعود الى ما كان عليه او اخفى قليلاً. والنجوم الجديدة تسترعي الانظار لانها تظهر اما في مكان من السماء لم يكن فيه نجم من قبل او كان فيه نجم لم يرَ قبل اشراقه لا بالعين ولا بالصور الفوتغرافية. مثال ذلك ان النجم الجديد الذي رآه الدكتور توماس اندرسن اللاهوتي في اواخر يناير سنة ١٨٩٢ في صورة ممسك الاعنة لم يظهر في الصور الفوتغرافية التي صوّرها الدكتور مكس ولف في ٨ دسمبر سنة ١٨٩١ اي قبل اشراقه بشهر او شهرين، وبعد شهرين من اكتشافه ظهر في صورة فتوغرافية صوّرها الاستاذ بكرنج فكان من القدر الخامس اي زاد اشراقهُ نحو مائتين وخمسين ضعفاً في يومين.

وكذلك النجم الجديد الذي اكتشفهُ اندرسن في صورة فرساوس فانهُ لم يظهر في صورة فوتغرافية صوّرت في ٢ فبراير سنة ١٩٠١، مع انهُ ظهر فيها نجوم من القدر الحادي عشر، وبعد يومين صار نورهُ اسطع من نور النجوم التي من القدر الاول دلالة على ان اشراقهُ زاد ستين الف ضعف. والنجم الجديد الذي ظهر في صورة الدجاجة سنة ١٩٢٠ كان تحت القدر السادس عشر قبل ١٦ اغسطس سنة ١٩٢٠ فأصبح في ٢٤ اغسطس في نحو القدر الاول او اقل قليلاً فزاد اشراقهُ نحو اربعمائة الف ضعف في اسبوع. وقد يزيد اشراق نجم من النجوم الجديدة نحو عشرين الف ضعف في بضعة أيام فتعرف حينئذٍ بالنجوم الجديدة الكبيرة Super—novae

فالدكتور زوكي يذهب الى ان نجماً جديداً كبيراً يطلق من الأشعة التي فوق البنفسجي عشرين مليون ضعف ما يطلقهُ من اشعة الضوء اي انهُ يطلق من الطاقة في ثانية ما تطلقهُ شمسنا في مائة مليون سنة. واذاً فهو لا يعجب ان يكون جانب كبير من هذا الاشعاع القصير الأمواج اشعة كونية

وهذا الرأي يقتضي ان يكون انطلاق الاشعة الكونية متقطعاً، لا متصلاً، لان ظهور

النجوم الجديدة الكبيرة نادر ، ويقول الاستاذ زوكي انهُ لا يزيد على واحد في المجرّة الواحدة في الف سنة من الزمان . وهذا يعلل عدم انطلاق اشعة كونية من مجرّتنا التي يندر ظهور النجوم الجديدة الكبيرة فيها

والنظرية الجديدة لا تزال قيد البحث بين العلماء

زيت كبد الحوت في الشكولاته

زيت كبد الحوت يحتوي على فيتامين يمنع الكساح في الاطفال . فاذا تعذّر على طفل تجرُّع هذا الزيت لانهُ لا يسيغ طعمه فالراجح انهُ لا يمتنع عن تناوله اذا كان مختلطاً بكاس من الشكولاتة او الدندرمة . وقد أبتدع المستر دنتورث احد موظفي مصلحة الاسماك في كندا ، طريقة لمزج خلاصة كبد الحوت بكأس من الشكولاتة الساخنة من دون ان يفقد خواصهُ الفيتامينية او يجعل للشكولاتة الساخنة طعماً زيتيًّا كريهاً

احدث الروايات الذرية

اذا اصطدم نيوترون ببروتون تولدت ذرّة من ذرّات الايدروجين الثقيل وبعض اشعة غمَّا . فالممثلون في هذه الرواية هم (اولاً) البروتون وهو نواة ذرّ الايدروجين العادي (ثانياً) الالكترون وهو وحدة الكهربائية السالبة وأحد اللبنات الاساسية في بناء الكون . (ثالثاً) النيوترون وهو دقيقة متعادلة الكهربائية يظن انهُ مركَّب من الكترون وبروتون محشوكين معاً في حيّز ضيق وقد كشف عنهُ في بريطانيا سنة ١٩٣٠ (رابعاً) الايدروجين الثقيل وهو صنف من الايدروجين وزن ذرتهِ ضعف وزن ذرة الايدروجين العادي . وقد كشف عنهُ في الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٣٢ ودعي باسماء مختلفة فتارة « نظير الايدروجين من كتلة ٢ » وتارة « دوتيريوم » وتارة « دبلوجين » وهو اسمهُ في بريطانيا

اما تمثيل الرواية فيبتدىء باطلاق النيوترونات من عنصري البولونيوم والبريليوم على البرافين فدهش العلماء الذي راقبوا هذا الاطلاق والاصطدام اذ شهدوا اشعاعاً من قبيل اشعة غمَّا وهي احد انواع الاشعة التي تنبعث من المواد المشعّة كالراديوم . وهم يعلّلون ذلك باصطدام النيوترون ببروتون الايدروجين (الذي في ذرّة البرافين) اولاً . ثم ان النيوترون والبروتون يتحدان لتوليد ذرّة من ذرّات الايدروجين الثقيل . وهذا الاتحاد لا بدَّ ان يسفر عنهُ انطلاق طاقة في شكل اشعة غمَّا تعدل مقدار الكتلة التي تفقدها الدقيقتان في اتحادهما . على ان التحوُّل من الكتلة الى الطاقة يجب ان يطلق اشعة غمَّا من قوة مليون فولط وهذا يقتضي ان تكون طاقة النيوترونات المنطلقة من رتبة ستة ملايين فولط وهو قريب من طاقتها الحقيقية فعلاً

الصودا وجنس المواليد

من غرائب ما ذاع في الولايات المتحدة الاميركية في العهد الاخير ، ان الام الحامل التي ترغب في ان يكون وليدها ذكراً ، عليها ان

تضيف الى غذائها بيكربونات الصودا ، وقد عني الاستاذ دامور D'Amour في جامعة دنفر بولاية كولورادو بامتحان هذا القول في الجرذان فوجد ان بيكربونات الصودا لا أثر لهُ على الاطلاق في جنس المولود على ما جاء في مجلة « العلم » الاميركية . فاخذ خمساً وثلاثين زوجاً من الفئران وغذَّاها بطعام يحتوي على بيكربونات الصودا . فلما ولَدت الاناث احصى مواليدها فاذا الاناث فيها ١١٥ والذكور ١١٠ . وكان في الوقت نفسهِ قد اخذ ٣٨ زوجاً من الفئران وغذَّاها بطعام يحتوي على اللبن الحامض فلما ولدت احصى مواليدها فاذا الاناث فيها ١١٣ والذكور مائة . وأخذ كذلك ١٤ زوجاً من الفئران وغذَّاها بطعام مألوف واحصى مواليدها فاذا الاناث ١٠٣ والذكور مائة . وكانت الصودا التي اضيفت الى غذاءِ الفريق الاول ٢ ½ في المائة وزناً واللبن الذي اضيف الى غذاءِ الفريق الثاني ٥ في المائة وزناً

وفاة هابر الكيماوي

فقدت الكيمياء بوفاة الاستاذ فرتز هابر Fritz Haber علماً من اكبر اعلامها في هذا العصر فقد كان من اعلام الكيمياء النظرية والصناعية في آنٍ واحدٍ . وظلَّ حتى آخر ايامهِ ابعد الناس عن الدعوى ومن ادمثهم خلقاً . ولد في برسلو في ٩ ديسمبر سنة ١٨٦٨ وحضر دروس الكيمياء في برلين وهيدلبرج وشارلو تنبرج وزوريخ وفينا وتتلمذ لعلماء كبار مثل هوفن وهلمهلتز وقضى في شبابهِ شهوراً في المصانع ولما كان في السادسة والعشرين من عمره عيّن في منصب مساعدٍ في المعهد الكيماوي الفني بكارلسروهي حيث بدأ عملهُ الكيماوي العظيم . وقضى هناك سبعة عشر عاماً . وفي سنة ١٩٠٦ عيّن مديراً لمعهد القيصر غليوم للطبيعة والكيمياء والكيمياء الكهربائية فنظَّمهُ وبلغ هذا المعهد بارشاده أعلى مرتبة بين معاهد البحث العلمي في العالم قاطبة

ولما نشبت الحرب الكبرى ادرك شدة حاجة المانيا الى التعاون بين منشآتها الصناعية ومعاهد البحث العلمي فيها فعرض خدماتهِ على وزارة الحربية فعيّن رئيساً لقسم « وسائل الحرب الكيمائية » وكان لآرائهِ وعلمهِ اكبر مقام في تلك الناحية من الحرب

فلما وقع الانقلاب السياسي في المانيا سنة ١٩٣٣ واضطهد اليهود فيها ومنهم علماء أعلام، استقال هابر من منصبهِ وذهب الى جامعة كمبردج حيث ظلَّ مقيماً حتى قبيل وفاتهِ . وكان قد سافر في اجازة الى سويسرا انتجاعاً للصحة فمات في مدينة بال في ٢٩ يناير سنة ١٩٣٤

ومباحث هابر الكيمائية خطيرة ومنوَّعة في آنٍ واحد، ولعلَّ اشهر ما يقترن باسمه اكتشافهُ طريقة صناعية تجارية مكّنته من تثبيت النتروجين فاستطاع ان يجهز المانيا بالمواد اللازمة لصنع الاسمدة الكيمائية والمواد المفرقعة في خلال الحرب . ومن مباحثهِ في الكيمياء الصناعية بحثهِ في كيمياء الغاز وطلي الحديد وتحليل الكهربائية التدريجي في النتروبنزول وعليهِ يتوقف تركيب الانيلين الى حدٍّ بعيد في صناعة الاصباغ . وقد زار مصر في اواخر سنة ١٩٢٨

الهليوم في ايطاليا

الهليوم يلي الايدروجين في خفة الوزن بين العناصر . على ان الايدروجين غاز يلتهب ولكن الهليوم لا يلتهب . ولذلك يفضل الهليوم في ملء اكياس البلونات. وقد كانت الولايات المتحدة الاميركية اكبر منتج لهذا الغاز الثمين فملأت جميع بلوناتها التابعة لجيشها وأسطولها به. ولكن جاءت الانباء في الشهر الماضي بأن الايطاليين عثروا على هذا الغاز في آبار الغاز البركاني في (لارداليرو) وهم يستخرجون منها الآن نحو اربعة آلاف متر مكعب كل سنة . وانما ينتظر ان يزداد ما يستخرج منها حتى يصبح كافياً لاستعماله في ملء اكياس البلونات الايطالية

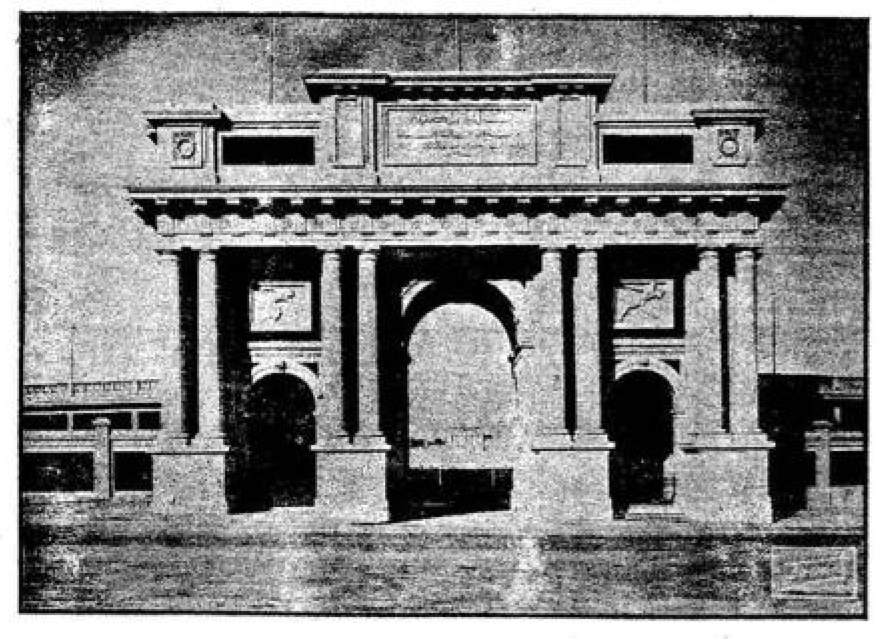
الايدروجين الثقيل والحياة

لما كشف الايدروجين الثقيل في اميركا ، بدأ العلماء يتكهنون بخواص الماء الذي يصنع منهُ . وقد قال الاستاذ يوري Urey احد مكتشفيهِ ان الماء يهمنا من الناحية الكيمائية لانهُ افضل المواد المذيبة المعروفة . وكثير من التفاعلات الكيمائية تحصل في الماء . ثم ان الايدروجين يلي الكربون في عدد المواد التي يدخل في تركيبها . فالمعروف ان الايدروجين يدخل في تركيب نحو ٣٠٠ الف مركَّب عضوي او اكثر علاوة على الكربون والنتروجين والاكسجين . ولما كانت المواد التي يدخل الايدروجين الثقيل في تركيبها تختلف في خواصها عن نفس المواد اذا كان ايدروجينها عاديًّا فاكتشاف هذا النظير لايدروجين يفتح امامنا باباً لتركيبات كيمائية جديدة

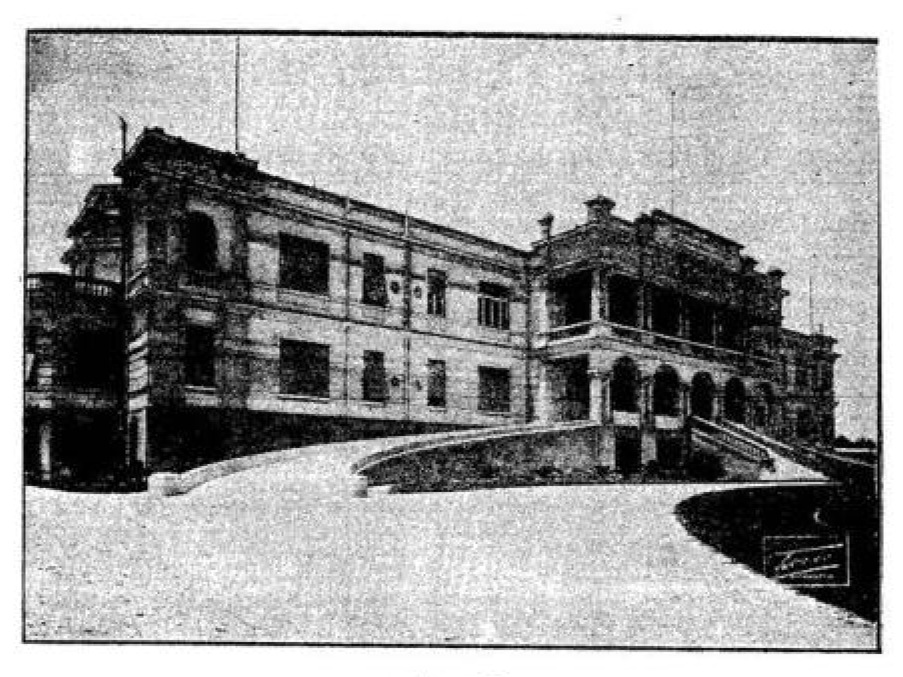
وقد ثبت من تجارب جرّبت في احدى كليّات اميركا ان الماء الثقيل (اي المركب من اكسجين وايدروجين ثقيل) يفتك بحياة بعض الحيوانات المائية . ثم ان الخمائر لا تنمو فيهِ بنفس السرعة التي تنمو بها في الماء العادي. ووجد الكيماوي الاميركي الكبير الاستاذ غلبرت لوِس ان بزور التبغ لا تنتش بعد نقعها في الماء الثقيل . ثم اذا نقعت في ماءٍ عادي ، تنتش انتاشاً ضعيفاً غير سويّ . اما الديدان المسطحة فتكاد تموت اذا نقلت ثلاث ساعات في ماءٍ ثقيل ثم تعود الى الحياة اذا نقلت الى ماءٍ عادي . وقد وجدت طائفة من اساتذة جامعة برنستن ان دعاميص الضفدع الخضراء لا تستطيع ان تعيش في الماء الثقيل اكثر من ساعة

وقد عاد الاستاذ لوس حديثاً الى تجربة اثر الماء الثقيل في حياة الفئران . فاخذ فأرة وسقاها الماء الثقيل بقطّارة لان ثمن الرطل منهُ يبلغ ١٥٠٠ جنيه لندرة الايدروجين الثقيل ولشدة العناء في تحضيره . وسقى فأرين آخرين ماءً عاديًّا . وكانت النتيجة ان الفأرين اللذين سقيا الماء العادي ظلاَّ يتصرفان تصرفاً سويًّا في اليقظة والمنام. اما الفأر الاول فتصرّف تصرّفاً غريباً . اذ جعل يقفز قفزاً عجيباً ويلحس الجدار الزجاجي في قفصهِ . وكان كلما سقي الماء الثقيل يزداد ظمأ . ولو لم ينفد الماء الثقيل عند الاستاذ لوس لمضى هذا الفأر يشرب وهو لا يرتوي

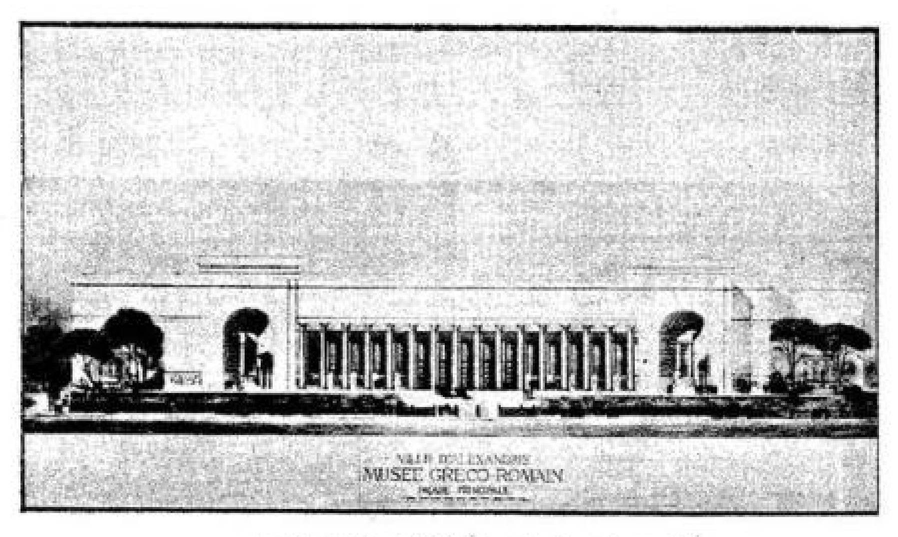
منظر من شارع أبي قير



الباب الكبير لميدان الالعاب الرياضية التابع للبلدية

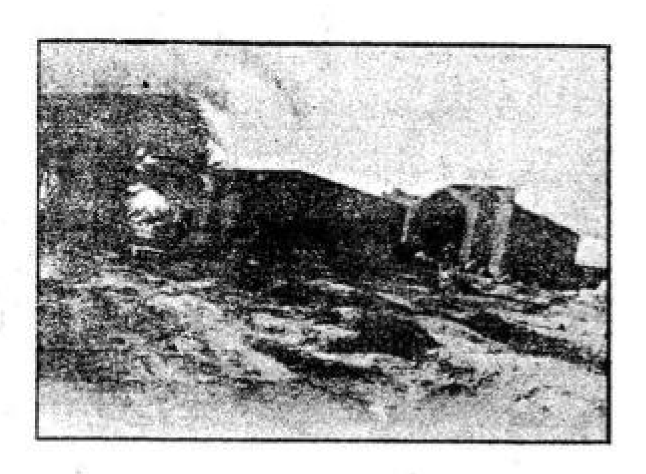


مستشفى الرمد

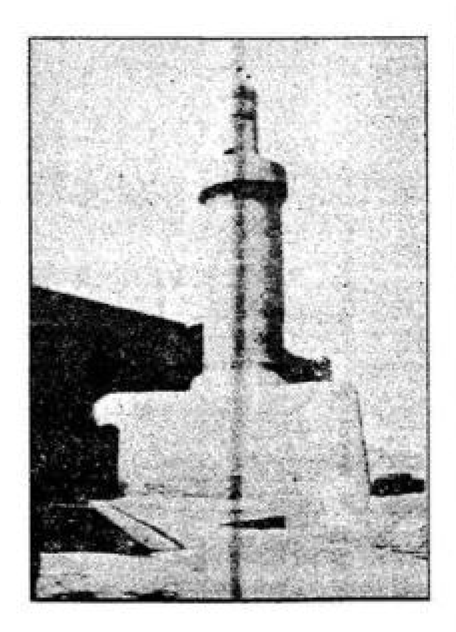


المتحف اليوناني الروماني كما تريد البلدية انشاءه

مقتطف ابريل ١٩٣٤



١ — مسجد العتيقة المعروف بالمنطقة قديماً وحديثاً

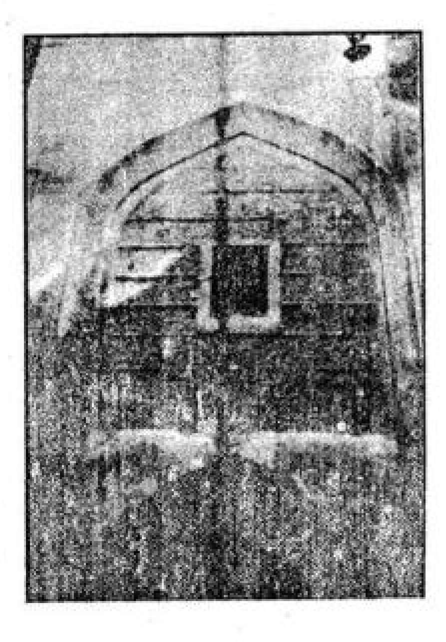


٢ — منارة مسجد قرية

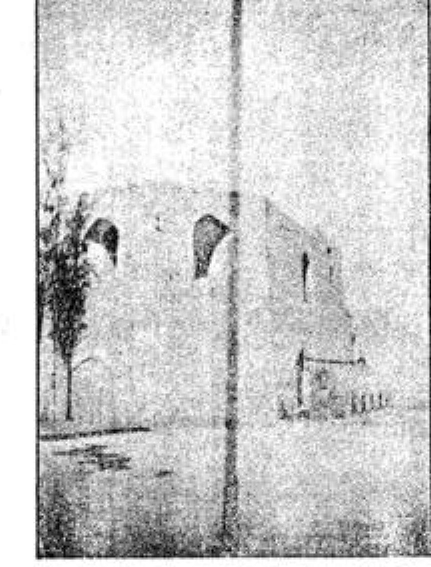


٣ — باب المدرسة المرجانية

مقتطف ابريل ١٩٣٤

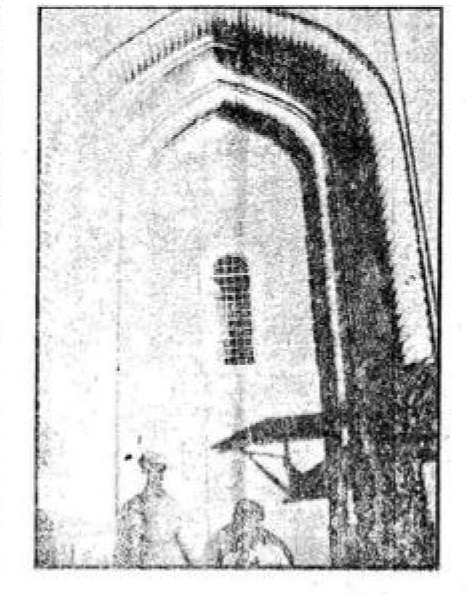


٤ — باب خان مرجان المعروف بأورتمه



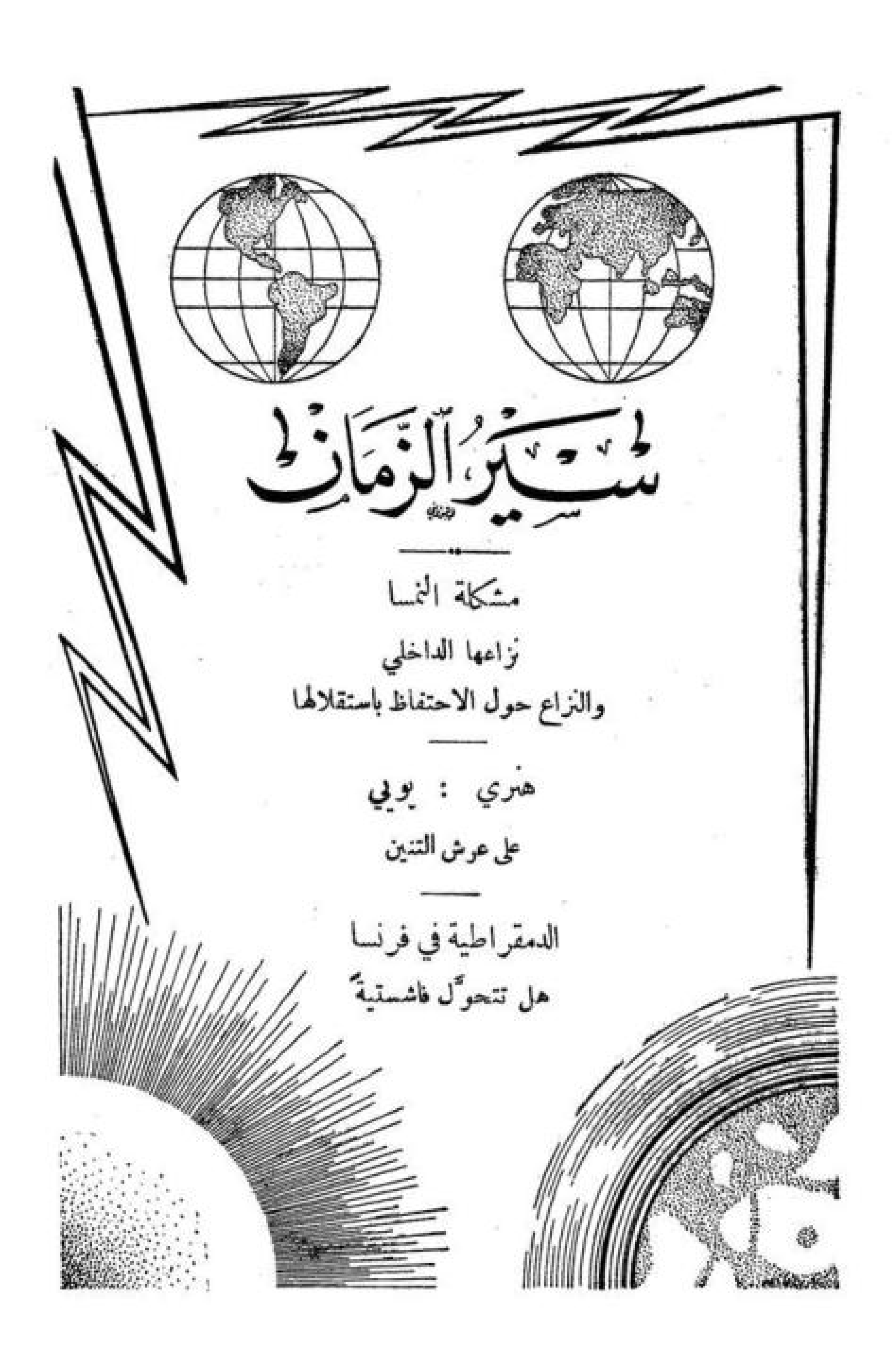


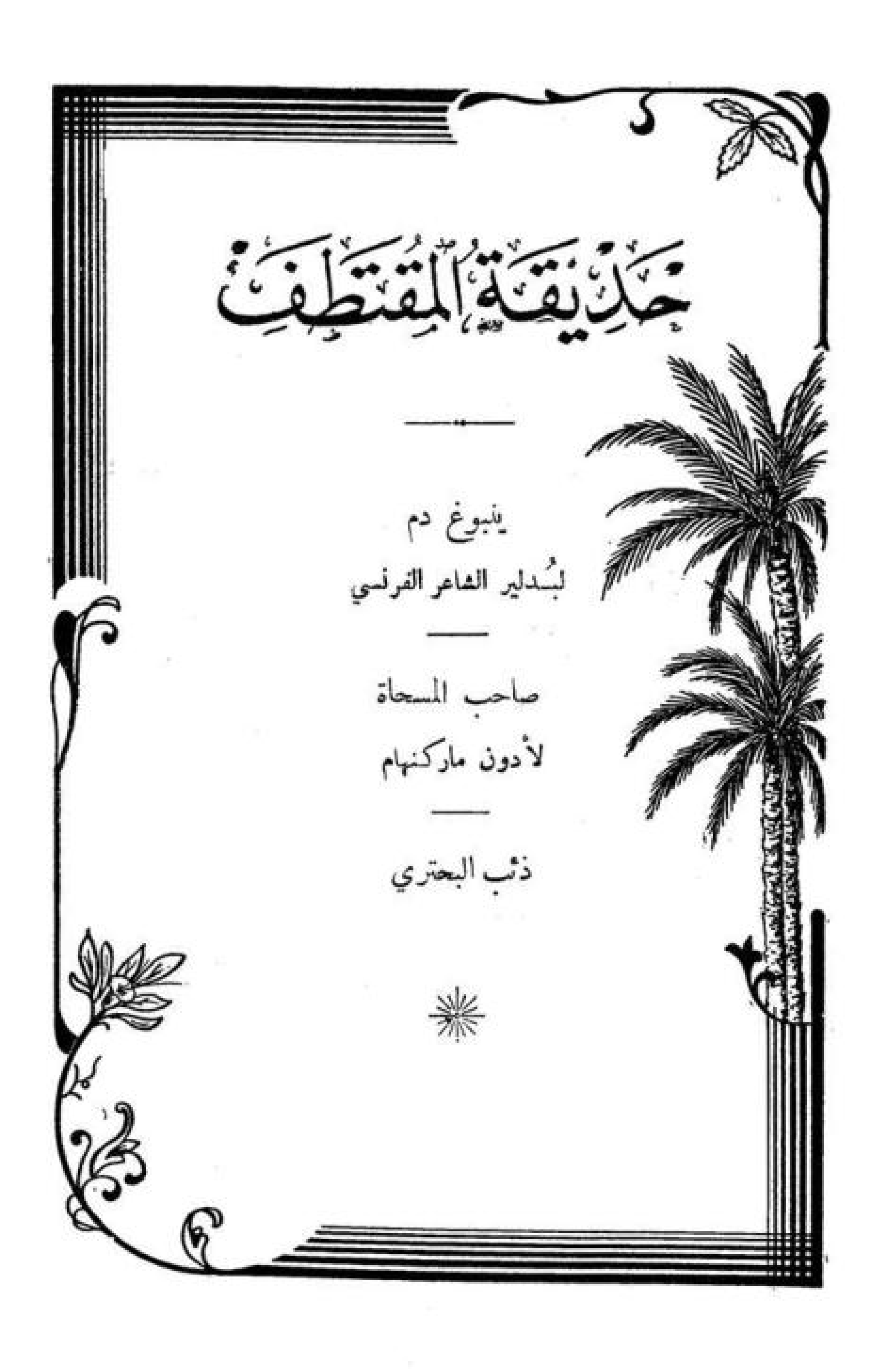
٥ —باب كلواذى احد أبواب بغداد الشرقية



٦ — صورة ثانية لباب المدرسة المرجانية

مقتطف ابريل ١٩٣٤


سير الزمان
مشكلة النمسا
نزاعها الداخلي
والنزاع حول الاحتفاظ باستقلالها
هنري : يوبي
على عرش التنين
الدمقراطية في فرنسا
هل تتحول فاشستية



حديقة المقتطف

ينبوع دم

لبُدلير الشاعر الفرنسي

صاحب المسحاة

لأدون ماركنهام

ذئب البحتري



مملكة المرأة

فضل المرأة على المدنية الحديثة

للآنسة « مي »

أريد المرأة بعيدة عن التصنع

التدخين والصحة

العادة والتربية

الجزء الرابع من المجلد الرابع والثمانين

صفحة

٣٩٣ العلم والفلسفة

٣٩٥ اصلح أشكال الحكم: حاجتنا الى التجانس: للدكتور عبد الرحمن شهبندر

٤٠١ العلم والحياة الجنسية: مناظرة

٤٠٨ السيكلوجية الحديثة. ليعقوب فام

٤١٣ الحرير وتركيبهُ الذري

٤١٧ الاستعمار والحضارة. لمعاوية نور

٤٢٣ معجزات السفانة. لعوض جندي

٤٢٨ صور التجديد. لنقولا شكوي (مصوَّرة)

٤٣٤ الدكتاتورية والرجل العظيم. لاندره موروى

٤٣٨ شمشون (قصيدة) لالياس ابو شبكة

٤٤١ الحضارة الفرعونية. للدكتور حسن كمال

٤٤٦ البصريات عند العرب. لقدري حافظ طوقان

٤٥٠ مصطلحات علم النفس. لمحمد مظهر سعيد

٤٥٣ كيف تطور الانسان. للسر ارثر طمسن

٤٥٩ الآثار الاسلامية القديمة ببغداد. لمصطفى جواد

٤٦٣ القضاء في السودان. لخليل الخوري

٤٧٠ نهضة التعليم في العراق. لامين سعيد

٤٧٤ عودة الروح: نقد وتحليل لمحمد علي حماد

٤٨١ سير الزمان: مشكلة النمسا: هنري بوبي: الدمقراطية في فرنسا

٤٩٣ حديقة المقتطف: ينبوع دم: لبودلير: صاحب المسحاة: لادون ماركهام: ذئب البحتري

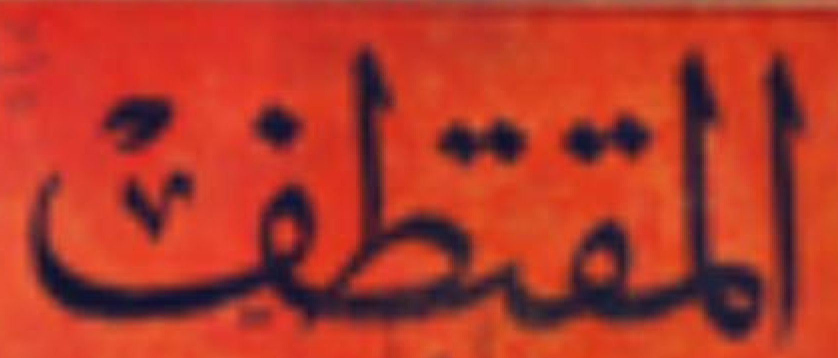
٤٩٧ مملكة المرأة: فضل المرأة: محاضرة للآنسة «مي»: اريد المرأة بعيدة عن التصنع: التدخين والصحة: العادة والتربية

---

٥١٠ باب المراسلة والمناظرة * العاطفة والعقل في الشعر. لبشر فارس

٥١١ مكتبة المقتطف * النثر الفني في القرن الرابع. رحلة صيف. فيصل الاول. مناجاة. ابو علي: عامل ارتست. جولة في ربوع الشرق الادنى. جداول تحويل النقود. مطبوعات جديدة

٥٢٠ باب الاخبار العلمية * وفيه ٧ نبذ



December 1930 ديسمبر ١٩٣٠

المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الخامس من المجلد الرابع والثمانين

١ مايو سنة ١٩٣٤ — ١٧ محرم سنة ١٣٥٣

لافوازييه
LAVOISIER

الجماهير في باريس هائجة مائجة ، والحفائظ منطلقة من الصدور كالقنابل ، والارهاب مخيّم فوق حياة المدينة ، كالضباب الثقيل ينعقد في الجوّ فيرهق النفوس ، فالناس تتهامس وتقفل المنعطفات وحلك الليل على الشوارع ووضح النهار . لقد أُخِذ الملك والملكة من القصر الى السِّجن ، وأقام زعماء الثوّار في قصر التويلري ، يصدرون الاوامر بالقبض على هذا وتنفيذ الاعدام في ذاك

في هذا الجوّ المرهق ، كان احد علماء باريس ، مكبّاً على انابيبه وأنابيقه في معمله الكيمائي . وكان هذا العالم رجلاً تحدجهُ العيون ، لان الملك كان قد ادناه وأعلاه . وكان هو قد انفق جانباً كبيراً من ثروته ونشاطه في خدمة فرنسا . ولكن الصدور كانت موغرة في تلك الايام . وكان اعداؤه كثراً لانهُ من طبقة الاشراف . ومع ان شوارع المدينة كانت تعجّ بالثوار ، والنفوس كظيمة تخشى همسة الريح لئلاَّ تكون اشارة لخطر محدق ، واعداء الرجل يعدّون المعدات ويدبرونَ الخطط للقضاء عليهِ ، ظلَّ هو ملازماً معمله يراقب في سكون وصفاء ذهن عجيب تجربة كان قد اعدَّها لسيجان معاونه ويملي على زوجته الغانية مذكراته العلمية

كان سيجان هذا جالساً في كرسي ، يحيط بهِ كيس من الحرير المطليّ ، لا يدخله الهواء ولا يخرج منهُ . وكان في الكيس قبالة فم الرجل شقٌّ للتنفس ، وكان يتصل بهذا الشق انبوب يفضي

الى انبيق من الزجاج . وكان اتصال الانبوب بالشق محكماً كل الاحكام بواسطة الزفت والتربنتينا . فكان كل ما يفرزه جسم سيجان من عرق او غيره ، يبقى في الكيس ، الاَّ ما يخرج من رئتيهِ عن طريق التنفس ، فكان الهواء الذي يزفره ينتقل في الانبوب الى الانبيق الزجاجي ، لكي يحلل تحليلاً دقيقاً

وكذلك نرى ان لافوازييه كان يبحث حينئذٍ في افعال التنفس والافراز . فكان يزن بأدق الموازين في فرنسا ، سيجان قبل دخوله الكيس وبعد خروجه منهُ ، والهواء الذي يزفره والكيس قبل التجربة وبعدها . وكان لافوازييه يثق بموازينهِ ثقة عمياء . ولكن لم يتح لهُ ان يتمَّ هذه التجارب . ذلك انهُ وهو يراقب زميله وعلى على زوجتهِ ، فتح الباب فجأة ، فتحاً عنيفاً ودخل رجل يرتدي على رأسهِ قبعة الثوار وتبعه جنود المحكمة الثورية ، ومن ورائهم جمهور صاخب . كان الرجل على رأس الداخلين مارا Marat « صديق الشعب » كما لذَّ له ان يدعو نفسهُ . فما وقعت عينهُ على لافوازييه حتى صاح بالعالم مشهّراً بهِ ، داعياً اياه صديق الملك عدوّ الشعب ، منادياً بالقوم ان الرجل جدير بأن يشنق على عمود مصباح

وكان لافوازييه قد غاظ هذا الرجل من قبل ، اذ حاول هذا ان ينتخب عضواً في اكادمية العلوم ،فأثبت لافوازييه ، ان الرجل ليس كفوءًا من الناحية العلمية لهذا الشرف العظيم

وتقدَّم مارا فقرأ على لافوازييه الوثيقة المشتملة على قرار القاء القبض عليهِ.فأصغى اليها العالم في طمأنينة ، وتقدَّم الى زوجه يودعها الوداع الاخير ، والى صديقهِ سيجان ، فالقى اليهِ بمذكراتهِ العلمية ليحتفظ بها . ثم سار مع الثوّار

وفي مايو سنة ١٧٩٤ دعي امام اللجنة المالية في محكمة الثورة فحوكم وحكم عليهِ ، وحاول بعض اصدقائهِ التوسط لاخلاءِ سبيله ، فذكّر احدهم رئيس المحكمة ، بان لافوازييه من اعاظم رجال العلم ، وانهُ انفق خير سني حياتهِ في خدمة بلادهِ ، فردّ عليهِ الرجل بلسانٍ من نارٍ : « ليست الجمهورية في حاجة الى العلماء »

وكان الحكم عليهِ بالاعدام وليس لذلك الحكم مَرَدٌّ . فنقل في عربة الى ميدان الثورة ، وحزّت عنقهُ مع ستة وعشرين آخرين فكان هو الثالث وكان حموه الرابع . فقال العالم لاجرانج الرياضي الشهير ،حينئذٍ «لقد استغرق حزُّ عنقهِ دقيقة من الزمان او بعض دقيقة ، ولكننا قد نحتاج الى قرن كامل قبل ان ننجب عالماً آخر مثلهُ » . وكذلك لقي لافوازييه — اعظم مجدّدٍ في علم الكيمياء — حتفهُ . وانت لو بحثت عن مدفنهِ اليوم ، لما عثرت عليهِ ، لان جثتهُ ضاعت ، في تلك الفترة المحمومة

قبل ذلك بشهرٍ واحد كان بريستلي ، الكيماوي البريطاني ، وندّ لافوازييه وصديقهُ قد فرّ من وجه الاضطهاد في بريطانيا . ولكن بريستلي ، كان قد اتمَّ عملهُ او كاد . اما لافوازييه ، فاعدم وهو لا يزال اكمل ما يكون عقلاً واخصب ما يكون انتاجاً علميًا . ونحن اذا تطلعنا الى مدى قرن

ونصف قرن من تطوُّر العالم ، حكمنا بان اعظم جريمة ارتكبت في خلال الثورة الفرنسية ، انما كانت اعدام لافوازييه ، لا اعدام الملك لويس السادس عشر

***

كان القرن الثامن عشر ميداناً لجهاد طائفة من الكيماويين يشتغلون بالبوتقة والانبيق والميزان ، فيجمعون الحقائق حتى كثرت كثرة تحتاج الى تنظيم وترتيب وادماج في صلب فلسفة كيمائية عامة . ولكن الضربة الكبرى التي صدّت تقدُّم الكيمياء نحو هذا الغرض ، هي ان نظرية «الفلوجستون» كانت المحكّ ، الذي تمتحن بهِ كل حقيقة كيمائية جديدة . فالفلوجستون ، كان في نظرهم « عنصر الاحتراق » وكل مادة كانت مركبة من هذا العنصر ، وعنصر آخر ماءً كان او تراباً او حامضاً . فدى الاحتراق في أية مادة من المواد ، مرهون بمقدار ما فيها من عنصر الفلوجستون . والاحتراق انما كان ، انطلاق الفلوجستون ، من المادة المحترقة . وقيِّض لهذه النظرية رجال وسّعوا نطاقها ، فأصبحت المبدأ الاساسيّ ، في نظر علماء القرن السابع عشر ، لكل تفاعلٍ كيمائي . ولما قيل لهم كيف يثقل الجسم المحترق مع ان شيئاً يخرج منهُ بحسب قولكم ، قالوا الفلوجستون يخفف وزن الجسم اذ يكون فيهِ فاذا خرج ثقل ذلك الجسم ! وهو من ابدع الامثلة على مدى ما يذهب اليهِ العقل البشري من العنت في سبيل تأييد فكرة سابقة

فلما ظهر لافوازييه كانت الكيمياء في حاجة الى تجديد ، لشدة ما أصابها من الركود بتمسكها بنظرية الفلوجستون فدوّى صوتهُ في المعامل والاندية العلمية ، وكان لكلامه وقع كبير ، لبراعتهِ كعالمٍ ، ومقامهِ في محافل السياسة . فكان بذلك اكبر داعية للكيمياء الجديدة ، ولم يذهب صوتهُ صرخةً في وادٍ . قال فيهِ ليبغ الكيماوي العظيم : « لم يكتشف لافوازيه جسماً جديداً ، ولا خاصةً جديدة ، ولا ظاهرة كانت من قبل مجهولة . ان مجده الخالد قائم على انهُ نفخ في جسم العلم روحاً جديدة »

***

كان عقله صافياً منظماً ، لانهُ نُشّىء تنشئة علمية ، في الرياضة والطبيعة . وكان والدهُ يرغبان في ان يدرس القانون ، ليبلغ في حكومة بلاده أعلى المناصب ، التي كادت تكون حينئذٍ وقفاً على الاشراف ومن اليهم . ولكنهُ انصرف الى العلم . ذلك ان رجلاً يدعى « غيوم رويل Rouelle » —وكان معيداً في حديقة النباتات— ترك في نفسهِ اثراً عظيماً . وكانت العادة قد جرت ، ان يحاضر استاذ الكيمياء في النظريات والمبادىء من دون ان يجرّب تجربة ما . وكان استاذ الكيمياء في ذلك المعهد رجلاً يدعى بوردليه ، فكان يلقي محاضراته ، ويختمها بقولهِ « يا سادة هذه هي المبادىء . واني اترك للمعيد ان يبرهن عليها بتجاربهِ » . فاذا خرج بوردليه ، دخل رويل ، فيستقبله

الطلاّب بالتصفيق . وكان كرام باريس يجيئون لسماعهِ . وعندئذٍ يشمّر عن ساعديهِ ، وينصرف الى تجربة التجارب البارعة ولكن التجارب كانت تنقض مبادىء الاستاذ بدلا من ان تؤيدها . كل هذا ولافوازييه جالس مع الجلاّس ، وهوَ مأخوذ ، كأنما برقية ساحرٍ . ولم ينس في حياتهِ قط ، كيف تحمّس رويل ذات يوم ، فنزع شعره العاري وعلّقهُ على اناء قربه ، ثم خلع صدرتهُ وخرج من الغرفة مسرعاً ، يبحث عن احدى الادوات التي نسيها ، ولكنهُ لم ينس ان يمضي في محاضرتهِ في خروجهِ من الغرفة وايابهِ اليها

وفي احدى الرحلات العلمية التي رحلها لافوازييه لقي لينيوس المواليديّ الاسوجيّ العظيم ، فقرَّر قراراً حاسماً ، ان يجعل العلم طلبتهُ في الحياة

***

وكذلك اكبَّ لافوازييه على البحث . فكان يقضي يوماً كاملاً كل اسبوع في معملهِ لا يخرج منهُ ، وعلاوة على ذلك كان يعمل في فرنهِ الكيماوي ، كل يوم من الساعة السادسة صباحاً الى التاسعة ثم من الساعة السابعة مساءً الى العاشرة . وما كان يبيح لنفسهِ مسرة الاكل الهنيء . فجعل قوام غذائهِ اللبن والخبز ، توفيراً للوقت . فكتب اليهِ احد اصدقائهِ حينئذٍ في استعلاءِ الحكيم المحذر قائلاً : « اني اتوسل اليك ان ترتّب دروسك على اساس ان سنة واحدة تزاد الى عمرك خير لك من مائة سنة في ذاكرة البشر »

ولكن لافوازييه كان يعمل مدفوعاً ، بحبّ الامتحان والكشف ، لا يفكر في الحاضر ولا في المستقبل . والتاريخ لا يهمل على الاطلاق ، طال الزمن ما طال ، رجلاً اخلص للحقيقة

ومن يجهل لافوازييه من طلاّب الكيمياء الآن !

ما أشرف لافوازييه على الخامسة والعشرين من عمره ، حتى كانت رسائلهُ العلمية ، قد بلغت اكادمية العلوم ، وكانت موضوعاتها متباينة من التنويم المغناطيسي الى صنع كراسٍ للمرضى واستنباط اساليب لانارة شوارع باريس . وما لبث ان نال ما هو جدير بهِ من المقام اذ انتخب عضواً في ذلك المجمع الجليل . وفي خلال ذلك تعرّف برجل يدعى بولز Paulze من الاشراف ، فكان يثوب الى داره حيث يجتمع بأكابر الرجال مثل لابلاس العالم الفلكي العظيم — صاحب النظرية السديمية — وفرنكلن العالم والسياسي الاميركي ، وكوندورسه الرياضي والاديب ، وترجو الاقتصادي الفرنسي المعروف . وما لبث ان تعرّف الى ابنة بولز فأحبها وأحبتهُ ، وشجع والدها تمكين الصلة بينهما ، لأن لافوازييه كان من اجدر الشبان الفرنسيين بالزواج من ابنته . فلما تزوجا اصابا في الزواج نعمة ، مكّنت لافوازييه من متابعة مباحثه العلمية

***

وكان اول بحث كيمائي قام بهِ لافوازييه تحليل الجبس . ثم حوّل براعتهُ في التجربة العلمية ،

الى مهاجمة تلك الفكرة القديمة القائلة ، بان المياه تتحول الى تراب وصخر . كان طاليس الفيلسوف اليوناني قد قال هذا القول ، وارجع جميع الكائنات الى مصدر واحد هو الماء . فجاراهُ الناس الى اواخر القرن الثامن عشر ، وقالوا ان التراب والحجارة تتولد من الماء بالتبخر . وكانوا قد أقاموا الحجة على ذلك ، باخذ الماء في اوعية ، وغليهِ حتى يتبخر ، فاذا هو يترك في قعر الوعاء مادة ترابية قائمة ، فقالوا لا شكَّ انها تولدت من الماء ! وادهى من ذلك تجربة رجل يدعى فون هلمونت . اخذ صعدة من الصفصاف تزن خمسة ارطال ، وغرسها في اناء يحتوي على مائتي رطل من التراب . وكان قد جفف التراب ووزنهُ قبل غرس الصعدة فيهِ . وترك الصعدة في الاناء خمس عشرة سنة ، لا يغذيها الاَّ بالماء . فاصبحت الصعدة شجرة ، وزاد وزنها من خمسة ارطال الى ١٦٩ رطلاً . ولكن وزن التراب في الاناء لم ينقص الاَّ اوقيتين . أليس هذا برهان على ان الماء قد تحوَّل الى مادة جامدة في الشجرة تزن ١٦٤ رطلاً !

***

لكن لافوازيه ادرك وجه الخطاء في هذا الكلام . فقال ما زالت فائدة الكيمياء ودقتها تتوقفان على الوزن الدقيق لجميع المواد الكيمائية المستعملة في التجارب ، فاننا لا نغلو مهما بالغنا في التدقيق حين وزن هذه المواد

فاستعار من دار ضرب النقود الفرنسية ، ادق موازينها واخذ وعاء زجاجيًّا ودقق في تنظيفهِ كل التدقيق ثم صبَّ فيهِ قدراً معيناً من الماء قطَّرهُ في وعاء آخر كان قد نظف كذلك ووزن . وكذلك وجد كما كان يتوقع ، مادة ترابية قائمة في قعر الوعاء الزجاجي الاول . ثم وزن الوعاء الاول بما فيهِ التراب ، وطرح منهُ وزن الوعاء نفسه فعرف وزن التراب . ثم وزن الوعاء الثاني بما فيهِ الماء وطرح منهُ وزن الوعاء نفسه فعرف وزن الماء . ثم قابل وزن الماء المقطر ووزن المادة الترابية بوزن الماء قبل تقطيرهِ ، فوجد الوزنين متعادلين . واذاً فالمادة الترابية جاءت من الماء — لا ريب في ذلك

ولكن . . . هل كانت هذه المادة الترابية محلولة في الماء ، او هي ماءٌ تحوَّل الى مادة ترابية !

أخذ انبيقاً زجاجيًّا معقوف العنق . ووضع فيهِ قدراً معيناً من ماء المطر المقطَّر وسدَّ فتحتهُ . ووضع الانبيق على النار ، وترك الماء المقطَّر يغلي فيهِ مائة يوم متواصلة وبعد مائة يوم ، رأى في الماء بضع دقائق جامدة لم تكن هناك قبلاً . ثم وزن الانبيق وما فيهِ . فلم يجد انهُ نقص وزناً . ثم وزن الماء المقطر ، من دون الدقائق التي رآها فيهِ . فوجد ان وزنهُ لم يتغير . ثم وزن الانبيق وحده من دون الماء او الدقائق المذكورة ، فوجد ان وزنهُ نقص نقصاً يسيراً . ثم وزن الدقائق الجامدة ، فوجد وزنها ، يعادل النقص في وزن الانبيق

ليس لهذه الحقائق الاَّ تعليل واحد . الدقائق ترجع الى زجاج الانبيق . اما الماء فلن يتحوَّل الى تراب . وكذلك قضى لافوازيه بميزانهِ ، على فكرة خاطئة طال عليها القدم

ولكن فكرة الفلوجستون ظلَّت تقلق باله . فحللها وشرَّحها ووجدها لا تستقيم ، ولكنه في تسرعه اقترح فكرة اخرى تحلُّ محلها ،اذ أخذ بفكرة «الحرَّة» Caloric مجارياً قول من قال ان الحرة سيَّال خفي . بيد ان القول «بالحرَّة» لم يقنعهُ وانما هو قال بها لينقذ الكيمياء من سخف الفلوجستون فوقع في سخفٍ آخر . وظلَّت ظاهرة «الاحتراق» تسترعي عنايتهُ، وهو لا يرى في الحرَّة تعليلاً لها. فصمم ان يصرف جهده الى البحث في الاحتراق وتعليلهِ . فقال : «يجب ان لا نثق بشيء الاَّ بالحقائق . فالطبيعة ، تقدمها لنا وهي لا تخدع .وعلينا ان نخضع تفكيرنا في كل حال لامتحان التجربة . ففي حال الاشياء التي لا ترى ولا تحسُّ يجب ان نحذر من قفزات الخيال الى ما وراء حدود الحقيقة» ولما كان غنيًّا ، لا يرهقه الانفاق لم يضن بمالٍ او بجهد على توفير اسباب البحث

وبعد سنوات من البحث وصل الى نتيجة . فقام الى مكتبه وكتب مذكرة بعث بها الى اكادمية العلوم ، وطلب ان تظلَّ مطوية الى ان يتم التجارب التي بين يديهِ . في هذه المذكرة قال : —

اكتشفت من اسبوع ان الكبريت يزداد وزناً عند احمائهِ . وكذلك الفصفور . فهذه الزيادة في الوزن صادرة من مقدار كبير من الهواء . واني لمقتنعٌ ان الزيادة في وزن الاكاسيد (كان لهذه المركبات اسم خاص حينئذٍ لان الاكسجين لم يكن قد كشف) يرجع الى السبب نفسه . ولما كان هذا الاكتشاف من اهم ما كشف بعد بخر Becher رأيت من الواجب عليَّ ان اضع هذه الرسالة بين يدي سكرتير الاكادمية على ان تبقى سرًّا حتى انشر نتائج تجاربي »

***

وكذلك استطاع لافوازييه ، ان يثبت لنفسهِ حق التقدُّم في هذا الاكتشاف الخطير

كان ذلك في اول نوفمبر سنة ١٧٧٢ . لم يكن بريستلي ، حينئذٍ . قد وجَّه أشعة الشمس الى الزئبق الاحمر (اكسيد الزئبق) وكان الاكسجين ما يزال من مكنونات المستقبل . ومضى لافوازييه ثلاث سنوات يبحث عن سرّ النار او عن حقيقة الاحتراق

وفي اكتوبر سنة ١٧٧٤ ، جاء بريستلي الى باريس ، وزار لافوازييه في معمله ، وبسط لهُ نتائج مباحثهِ ، وكان ماكيه Macquer يقوّم ما اعوجَّ من رطانة بريستلي الفرنسية . فلما اطلع لافوازييه على تجارب بريستلي ، واكتشافهِ «للهواء الخالي من الفلوجستون» ، قام في الحال الى معملهِ ، وبدأ تجربتهُ الشهيرة التي دامت اثني عشر يوماً . قال في وصفها : —

«اخذت حوجلة زجاج سعتها ثلاث اقدام مكعَّبة ، وعقفت عنقها ، حتى اتمكن حين وضعها على النار ،من ان اجعل عنقها في حوضٍ من الزئبق ، ووضعت في الحوجلة اربع اوقيات من الزئبق النقي . ثم اشعلت النار وحفظتها مشتعلة مدة اثني عشر يوماً . فلم يحدث شيء يستدعي النظر في اليوم الاول . وفي اليوم الثاني ، ظهرت حبيبات حمر على سطح الزئبق في الحوجلة . وزاد عدد

الحبيبات وحجمها في الاربعة الايام التالية ، ووقفت هذه الزيادة بعد ذلك . وفي اليوم الثاني عشر اطفأتُ النار »

ثم فحص الهواء الذي خرج من الحوجلة فاذا حجمهُ خمسة اسداس ما كان عليهِ قبل الاحماء ولا يصلح للتنفس ولا للاحتراق . فاذا وضعت فيهِ الحيوانات بضع ثوانٍ اختنقت . واذا وضع فيهِ عود مشتعل انطفأ . ونحن نعلم الآن ان الخمسة الاسداس الباقية من الهواء كانت نتروجيناً . ثم اخذ جميع الحبيبات التي تكوّنت وأحماها في أتون ، فتحوّلت الى حبيبات من الزئبق الصافي وثماني بوصات مكعبة من الغاز . وجرّب هـذا الغاز ، فاذا هو من افعل ما يكون في صلاحهِ للتنفس وللاحتراق . ذلك الغاز كان الاكسجين فدعاهُ كذلك — ومعناهُ مولد الحموضة — لانهُ ظنّ خطأً انهُ يدخل في تركيب جميع الاحماض

وكذلك تقدّم لافوازييه بتفسير جديد للاحتراق من دون « الفلوجستون » او « الحرّة » . نعم كان ليوناردو دَه فنشي قد ذهب في القرن الخامس عشر الى ان « النار تدمّر الهواء الذي يغذيها » وكان براسلسس قد كتب في القرن السادس عشر « ان الانسان يموت اذا حجب عنهُ الهواء » ثم قال روبرت بويل الانكليزي انهُ يظن ان في الهواء « مادة غريبة تجعل الهواء ضرورياً للاشتعال »

***

ولكن اي شأن للهواء في الاحتراق والتنفُّس ؟ كان رجل يدعى راي Rey قد قال ان الزيادة في وزن جسم يحترق تأتي من الهواء وفسر ذلك بحسب مبدإ الفلوجستون فقال ان الحرارة تجعل الهواء لصوقاً فيختلط بالمواد كما يمتزج الماء بالمواد المحلولة فيهِ

ثم جاء لافوازييه . فبسط التجربة للاكادمية في باريس . ولكنهُ لم يذكر بريستلي في ذلك البسط ، وهو مما يؤخذ عليهِ ، مع انهُ اعترف بدينهِ لبريستلي في مواطن اخرى

قال لافوازييه ، ان الاحتراق هو اتحاد الشيء المحترق بالاكسجين — والاكسجين هو الاسم الذي اطلقهُ لافوازييه على الغاز الذي اكتشفهُ بريستلي كما قدّمنا . وان وزن الجسم المحترق وما ينتج عن الاحتراق ، يزداد بمقدار ما يتحد به من الاكسجين. تعليل بسيط . لا فلوجستون ولا حرّة ولا شيئاً مما يزعمون . وها هي ذي شهادة ادق الموازين في اوربا تؤيد ما يقول !

***

من النافل ان اقول ان لافوازييه لقي خصومة شديدة من علماء عصره حتى ان بعض زملائه اشترك في التآمر على حياتهِ ، فراح ضحية النطع ، ولكن رأيه الجديد احرز النصر ، وتأيّد بالابحاث التي تلت . فاسمه خالد على مرّ العصور ، تحيط بهِ هالة من المجد ، تستمد لمعانها من انهُ نفخ في « الكيمياء روحاً جديداً » على حد قول ليبغ

البرق والارض

للشيخ فؤاد باشا الخطيب

أيها البرقُ إن بلغتَ الشآما حيِّ عني قصورَها والخياما
أنت نعمَ الرسولُ يحملُ شجوي حين لا يأمنُ الانامُ الأناما
نفختْ فيكَ آيةُ العلمِ رُوحاً خوَّلتكَ البيانَ والالهاما
وأفاضت عليكَ سِحراً حلالاً كان في الغابرينَ سحراً حراما
تركبُ السلكَ تارةً ، وأوانا تَسطا الريحَ واثباً والغماما

***

قُل لمن يوجفُ الركاب خفافاً ولمنْ ناءَ بالخطوبِ جِساما
ويحَ أمسي إن كنتُ أهبطُ رمسي نازحَ الدارِ مُوجَعاً مُستهاما
يوم يَرمي القضاءُ بالنفسِ رمياً مثلما (الارضُ) تجذبُ الاجساما

***

كرةٌ تنهبُ الفضاءَ وتطوي في مداهُ القرونَ والأعواما
تترامى (والشمسُ) دونَ مُناها دَوَراناً مِنْ حولها وهياما
كفراشٍ يحومُ حولَ لهيبٍ أجلٌ ساقهُ اليهِ لحِاما
ذاتُ وجهينِ يشهدانِ عليها كلَّ يومٍ نهارَها والظلاما
فهي من جانبٍ تكونُ ضياءً وهيَ من جانبٍ تكونُ قَتاما
كوجوهِ المنافقينَ وأشقى من جِوارِ المنافقين مُقاما

***

نسجتْ من غلائلِ النَّبتِ بُرداً واستعارتْ من السحابِ لِثاما
وتراءت في ظاهرٍ مطمئنٍّ تحتهُ النارُ تستشيطُ ضِراما
كبنيها أو أن حقدَ بنيها فوقَ ما أضمرت جوًى وانتقاما

***

تنفثُ الغيظَ مارجاً ودخاناً فتشقُّ الوِهادَ والآكاما
وتبثُّ الذي انطوى من لظاها سُحُباً نزَّةً وسيلاً رُكاما

ضجَّ منها صعيدُها وقديماً خدَّدتهُ السيولُ عاماً فعاما
لخدودِ الباكين سحَّ عليها مهرقُ الدمعِ صيّباً وسِجاما
ولكم سدَّدَ القضاءُ إليها من خلالِ (المذنّباتِ) سِهاما
نُذُرٌ كلَّ فترةٍ وعظاتٌ أذنَ اللهُ أن تمرَّ لِماما

***

إيهِ (يا أرضُ) يومَ كنتِ خلاءً هل أحسَّ الحطامُ فيكِ الحطاما
فتململتِ وحشةً وانفراداً وتغلغلتِ في الوجودِ اقتحاما
فتمخَّضتِ بالزواحفِ لهواً لكِ تنسابُ في العراءِ سواما
طلعةٌ غثّةٌ وجسمٌ دميمٌ يصفُ القبحَ هامةً وسناما
لخطوطِ الوليدِ اولَ عهدٍ عرف الخطَّ فيهِ والأقلاما

***

نشأتْ ثمَّ اعقبت ثمَّ بادت وقطعتِ الصلاتِ والأرحاما
وولدتِ الأنامَ بعد ليالٍ ثقلتْ وطأةً وشطّتْ مراما
فشهدتِ الحياةَ يومَ استهلتْ فيكِ واستقتلت عليكِ زحاما
جئتِ سقطاً بهمْ وطالَ عليهمْ أمدٌ ينشدونَ فيهِ التماما
أقضاءٌ ولدتهم واضطراراً بعد لأيٍ أم شهوةً ووحاما
لستُ ادري وليتني كنتُ أدري كيفَ ذقتِ المخاضَ والآلاما
فسلِ الحيَّ كيفَ يطمعُ منها بسلامٍ ؟ وأين يبغي السلاما
راضَ هوجَ الرياحِ حتى امتطاها ذُللاً أسلستْ اليهِ الزِّماما
واستباحَ البحارَ فوقَ جوارٍ منشآتٍ تُطاولُ الأعلاما
خضعَ العلمُ في يديهِ ولكنْ مسخَ العلمَ فتنةً وأثاما

***

فانفري ما استطعتِ ايتها الأرْ ضُ فهيهاتَ ترغمينَ النظاما
فانقصي منهُ ذرَّةً أو فزيدي وانظري كيف ينسفُ الاجراما
يمسكُ بالوجودِ عُلواً وسفلاً قدرةُ اللهِ سخرتهُ خِطاما
كنتِ بالأمسِ شعلةً أو سديماً فاحذري البدءَ أن يكونَ خِتاما

نظرية الكونتم

The Quantum Theory

وما لها من الشأن في تفسير بعض خواص الجاذبية

لنقولا الحداد

تُعَد نظرية « الكونتم »[1] من اهم مكتشفات النظريات العلمية الحديثة . وربما عدّت قبل نظرية النسبية في الرتبة . وانشطين مكتشف ناموس النسبية يعترف بمقام اكتشاف الكونتم ويبجل مكس بلانك مكتشف هذه النظرية . على ان نظرية الكونتم ليست بغريبة عن محيط التصور العقلي كنظرية النسبية . فاعتقد ان هذا المقال على بساطته كافٍ لبسطها للقارىء ، حتى متى فهمها جيداً سهل عليهِ ان يفهم علاقتها بناموس الجاذبية — العلاقة التي سافرد لها مقالاً خاصاً في جزء تالٍ . والجاذبية بالرغم من اكتشاف ناموسها الرياضي لا تزال اهم اسرار الوجود ولا تزال فيها قضايا غير محلولة . وربما كان بعضها مستحيلاً حلهُ . وسافرد لهذه القضايا مقالاً آخر ايضاً مستأذناً محرر المقتطف ان يسمح ببرهنة بعض القضايا بالمعادلات الرياضية البسيطة . لانهُ مهما قلّ عدد الذين يستلذّون المباحث الطبيعية الرياضية بين قراء المقتطف فهم في عهد نهضتنا العلمية الحالية عدد وافر يجب ان تراعى اميالهم وان تعرض لهم النظريات العلمية الحديثة عسى ان يكون لهم فيها آراء

***

اذا راقبت ساعة من الساعات الكبرى المنصوبة في ميادين القاهرة لكي يراها الناس عن بعد ترى ان عقرب الدقائق ثابت لا يتحرك ، كانهُ معطّل . ولكن لا تمر دقيقة حتى تراه قد وثب بمثل لمح البصر من خط الى خط آخر . وتمر الدقيقة وهو ثابت في مكانهِ ، ثم يثب فجاءة الى خطٍ آخر . وهكذا دواليك . وحاصل القول ان هذا العقرب لا يتحرك باستمرار على وتيرة واحدة بل ينتظر الدقيقة ثم يثب وثبة تسجل دقيقة . كذلك اذا لاحظت عقرب الثواني في ساعتك الصغيرة تراهُ لا يسير باستمرار بل يقف مدة ثانية ثم يثب وهلمّ جرّا

على هذا النحو تتعاقب الصور المتحركة في السينما فهي لا تتحرك حركة استمرارية بل كل صورة منها تقف هنيهة قصيرة جدّا تجاه « الشاشة البيضاء » ثم تنتقل بسرعة فائقة وتحل محلها الصورة

---

(١) نترك للمجمع اللغوي العلمي ان يبحث لنا لفظاً يرادف الكونتم الذي سيتضح ماذا يراد به في مضمون هذا المقال

التي تليها وتقف هذه بدورها الهنيهة نفسها ثم تنتقل لتحل اخرى محلها — هكذا على نحو انتقال عقرب الساعة كما شرحناهُ آنفاً. وانما الصورة المتحركة تنتقل بسرعة في هنيهات قصيرة جداً هي اجزاء صغيرة من الثانية . ولذلك لا نلاحظها كما نلاحظ عقرب الساعة

اية حركة في الكون على الاطلاق كائناً نوعها ما كان لا تكون حركة استمرارية كما تتراءى لنا بل هي حركة متقطعة قطعات متساوية يمكن تحقيقها بالوسائل الامتحانية. وبين كل قطعة واخرى فترة . فهي بعبارة اخرى سلسلة وثبات تتخللها فترات سكون متساوية المدة

وهو معلوم ان الحركة نتيجة فعل القوة في المادة . او بعبارة اصح : القوة تتجلى لنا في مادة متحركة . فاذا كانت الحركة متقطعة الى وحدات معينة كما رأيت فلا بد ان تكون القوة نفسها (التي هي سبب الحركة) صادرة في نبضات متوالية، اي انها ليست كما تتراءى لنا تياراً مستمراً . وكل نبضة من القوة تحدث في الجسم المتحرك بها وثبة . وبين كل نبضة واخرى هدنة — هذا هو المراد بالكونتم Quantum اي هو وحدة القوة الصغرى كما ان الجوهر الفرد Atom (او الذرة كما اصطلح على تسميته حديثاً في مصر) هو الوحدة الكيماوية الصغرى، وكما ان الكهرب هو الوحدة الكهربائية. والمراد بالوحدة الجزء الاصغر الذي لا يتجزأ . والمركبات تتألف من عدد صحيح من الوحدات كاملة بلا كسور

خذ مثلاً دقيقة الماء فهي مؤلفة من ثلاث ذرّات احداها ذرّة اوكسجين والاخريان ذرّتا هيدروجين . ولا يمكن ان تتألف من ذرّتين ونصف ولا من ثلاث ذرّات ونصف اي ان كسور الذرّة لا يمكن ان يدخل في حساب الجزيء Molecule الواحد . كذلك ذرّة الهيدروجين تؤلف من بروتون واحد Proton وكهرب واحد Electron كاملين . ولا يمكن ان تتألف من صحيح وكسر

على هذا النمط تصدر القوة في وحدات كاملة . ولا يمكن ان تصدر وحدات وكسور الوحدات. فوحدة القوة او الطاقة (كما اصْطُلِح على تسمية Energy) هي الكونتم — جزء الطاقة الاصغر الذي لا يتجزأ . ولكي نعرف كيف تحدث الحركة (اية حركة بلا تخصيص) متقطعة بشكل وثبات متساوية المدة (كوثبات عقرب الساعة) يجب ان نتعرّف كيف تنبض القوة نبضات متوالية تباعاً في فترات متساوية

مثال ذلك حركة الترام الكهربائي : — يسير الترام بقوة دوران المحرك Motor الكهربائي الذي فيه . وهذا يدور بقوة التيار الكهربائي السائر في اللفافة السلكية التي حوله . وهذا التيار سائر بقوة المحرك الاول الذي في معمل توليد الكهرباء . وهذا المحرك الاول يدور بقوة المحرك البخاري Steam engine . وهذا يدور بقوة البخار المتمدد المنحصر في مرجله . والبخار يتمدد بقوة الحرارة الصادرة من اعتناق ذرّات اوكسجين الهواء لذرّات الكربون والهيدروجين في اثناء احتراق الوقيد تحت المرجل ... وهلم جرّا

واذا شئنا ان نتتبع القوة الى مصدرها الاصلي عجزنا عن الاهتداء الى ذلك المصدر اذ نبلغ الى حركة لا نعرف سببها. اي لا نعرف المحرك فيها فنقف عندها حيارى . ولكن مهما ظهرت لنا الحركة

في صور مختلفة فاذا تتبعنا سلسلة القوات المؤدية اليها وجدناها فروعاً تلتقي كلها في سلسلة اصلية واحدة — رأينا في التمثيل الآنف ان بخار الماء يتمدد بقوة الحرارة الصادرة من احتراق الوقيد. وهنا يسأل القارىء: اين كانت هذه القوة الحرارية التي صدرت في اثناء الاحتراق؟ والجواب ان هذه القوة الحرارية كانت كامنة في مركبات الوقيد الكيماوية المسماة اسماً اجمالياً كاربوهيدرات Carbohydrates ففي اثناء الاحتراق انحلَّت هذه المركبات الى مركبات أبسط وبانحلالها انطلقت هذه القوة الحرارية التي مدَّدت بخار الماء .... ومن أين جاءت هذه القوة الى المركبات الكاربوهيدراتية؟ — جاءت في اثناء نمو النبات بقوة التشعع الضوئي Radiation (كأشعة نور الشمس). هنا اقتربنا الى أقصى مصدر للقوة وصار في امكاننا ان نبين كيفية ورود كل قوة من سلسلة التشعع وتحرك كل حركة في الكون بالقوة الصادرة من هذه السلسلة

القوة العضلية نتيجة احتراق تلك المواد الكاربوهيدراتية في الجسم الحي. قوة المياه المنحدرة نتيجة فعل الجاذبية الارضية. ولكن الذي رفع تلك المياه الى الاعالي مقاوماً فعل الجاذبية هو التشعع الحراري الصادر من الشمس فانه بخَّر المياه ومدَّد بخارها فصار أخفَّ من الهواء فارتفع. ولما برد هبط فأصدر قوة تساوي قوة التشعع التي مدَّدتهُ. فيما تقدم رأينا في استقصاء مصادر القوى الميكانيكية والعضلية وقوة المياه المنحدرة سلاسل هذه القوات تلتقي في سلسلة واحدة هي سلسلة التشعع Radiation. فلنرَ، قبل ان نخطو خطوة اخرى في الاستقصاء هل هذا التشعع الذي هو شكل من اشكال الحركة حاصل صورة من صور القوة — هل هذا التشعع حادث بحسب سنة الكونتم

* * *

لكي نفهم الشيء اللازم لموضوعنا من خواص التشعع ندرس شيئاً عن النور، لانه ضرب من ضروب التشعع، وهو دائماً مقترن بحرارة، والحرارة ضرب آخر من ضروبهِ. يصدر النور من اي جسم حام اضعاف درجة الغليان كنور الشمس ونور اللهيب ونور المعدن الحامي الى درجة الاحمرار (وأحياناً يصدر من الاجسام المفصفرة ونحوها من غير ان تكون درجة الحرارة عالية) وإبَّان بحثنا عن مصدر النور وجدناه في الذرَّة Atom. والذرَّة مؤلفة من نواة يدور حولها كهرب او كهارب معبأة كهرباء سلبية. والنواة اما ان تكون بروتوناً واحداً معبأً كهرباء ايجابية او مؤلفة من اكثر من بروتون وبعض كهارب. ولكن شحنتها الكهربائية موجبة دائماً

وفيما تكون الذرَّة تحت عوامل التفاعل الكيماوي او عوامل التكهرب المختلفة يكون كهربها تارةً مطلقاً قوة (او طاقة حسب الاصطلاح الحديث في ترجمة Energy) واخرى مستردّاً ما فقده من الطاقة تبعاً لتلك العوامل. يطلق الكهرب قدراً من الطاقة لكهرب آخر ويسترد مثله من كهرب آخر كما سيتضح فيما يلي. واذا قضت الحال ان يطلق الكهرب طاقة ولم يوجد كهرب آخر محتاج اليها لكي يقتبسها منه مضت هذه الطاقة تشعماً في الفضاء. واذا اطلق الكهرب طاقة ولم يتيسر له ان يسترد مثلها من غيره لكي يكمل نقصه كان محكوماً عليهِ بالاندثار فتنطلق الطاقة منهُ دفقات متتابعة.

وكل دفقة تسمى فوتوناً Photon . وكل كهرب يصدر عشرة آلاف فوتون تقريباً قبل ان يفنى

كل موجة من امواج الطاقة المتشععة تشتمل على عدد عديد من الفوتونات . فطول الموجة وسرعة تموجها تتوقفان على العوامل التي شظَّت الكهرب الى شظاياه (الفوتونات) . وبالتالي تختلف التشعُّعات وتتنوَّع من حيث عدد موجاتها الصادرة في ثانية ، ومن حيث طول موجاتها باختلاف تلك العوامل التي لا محل لشرحها هنا . وبين طول الامواج وعددها في الثانية من جهة وسرعتها من جهة اخرى نسبة ثابتة لا تتغير بحيث ان الامواج مهما اختلف طولها وتواترت موجاتها في الثانية تسير بسرعة واحدة . وسرعتها في الفراغ المطلق Vacuum ٣٠٠ الف كيلو متر في الثانية . وقد اصطلح العلماء على حرف C. رمزاً عن سرعة النور ونحن نرمز عنه بحرف ن (من نور) فاذا رمزنا عن عدد الموجات بالثانية بحرف ع وعن طول الموجة بحرف ط كان لنا ن = ع ط . وبناءً على هذه المعادلة او النسبة كان اطول الموجات اقلها عدداً في الثانية واقصرها اكثرها عدداً

وقد أحصى العلماء العمليون نحو ٦٠ جماعة من جماعات التشعع تسمى كل جماعة منها سلماً Octave . (لما بينها وبين السلم الموسيقية من الشبه في بعض الخواص). وجماعة التشععات النورية التي نميزها بألوانها السبعة هي احدى الستين جماعة التي نحن بصددها . ولكن الـ ٥٩ جماعة الاخرى لا نحس بها لانها خارجة عن دائرة قدرة بصرنا

كل هذه التشععات التي تصدر من الشمس وغيرها من الاجرام والاجسام ترد الينا جماعات وكل جماعة منها مشتملة على شعاعات مختلفة الموجات بالطول والتواتر Frequency اي بعدد الموجات في الثانية — كل هذه التشععات انما هي حاملة قوات (طاقات) صادرة من كهارب منفعلة او مندثرة. ولكن هذه الطاقات ليست واردة بشكل تيار او مجرى جارٍ باستمرار. بل هي صادرة بشكل دفقات متتابعة اي فوتونات Photons فاذا صادفت الدفقة الواحدة في طريقها كهرباً محتاجاً الى طاقة ليكمل بها نقصه انضمت اليهِ — كما يحدث في التقاط ذرّات المواد النباتية الارضية فوتونات نور الشمس في اثناء النمو . وعلى هذا النحو يدّخر النبات القوة او الطاقة لكي يأخذها الحيوان المغتذي بها ويصرفها في استعمال عضلهِ او في آلاته

* * *

بعد هذا البيان صار سهلاً على القارىء ان يفهم كيف ان القوة او الطاقة هي (وحدات Quanta) منفصلة بعضها عن بعض ، غير متصلة بعضها ببعض . تصدر بشكل دفقات كل دفقة هي وحدة غير قابلة التجزؤ بتاتاً — هي اصغر مقدار للطاقة . ولذلك سماها مكتشفها بلانك Quantum ومعناه «الكم الواحد» او المقدار الواحد . فاذا اصدرت الذرّة Atom تحت اي فعل من الفواعل طاقة اصدرتها « وحدات » كاملة معدودة . واذا تلقت طاقة من الخارج تحت اي الفواعل تلقتها « وحدات » كاملة معدودة ايضاً . فالذرّات من هذا القبيل كالاشخاص المتعاملين تجاريّاً . فهم يدفعون النقود ويقبضونها صحيحة على حساب اصغر نقد كالمليم المصري او السنتيم الفرنسي . فلا تجد في اكياسهم كسور الملاليم او السنتيات اذ لا وجود لها البتة . كذلك الذرّة تصدر او تقبل « وحدة » من

الطاقة او عدة « وحدات » صحيحة . ولا يمكن ان تصدر او تقبل كسور الوحدة . مثل ذلك لو اشتريت من بائع ورقة دبابيس ، تجدها تحتوي على عدد معين من الدبابيس ولا جزء دبوس فيها اذ لا فائدة منه . فالجزء وعدمه سيان

ولزيادة الايضاح ايضاً نمثل تمثيلاً آخر : الطاقة المتشععة اي الصادرة بشكل امواج متوزعة الى جميع الجهات لا تصدر كسيال يصب من ميزاب باستمرار او كنهر جارٍ بل تصدر دفقات مستقلة بعضها عن بعض كدفقات دلاء الناعورة « الساقية » . او بعبارة اخرى لا ترد الينا الطاقة من الشمس او من اي جسم آخر بأي قدر غير محدود كما يرد الينا الماء من الحنفية . بل ترد الينا بكيل محدود كما تقدم الينا كؤوس البيرا في الحانة كؤوس مترعة ، وكما يُقدم الينا التبغ لفافاتٍ (سكاير) ذات حجم ووزن محدودين . فلا نطلب في الحانة نصف كأس ولا نشتري نصف سيكارة او نصف رغيف

وهنا يجب توجيه نظر القارىء الى حقيقة ذات شأن وهي ان وحدة الطاقة (الكونتم) ليست ذات قدر واحد في جميع اصناف التشععات بل يختلف قدرها في صنف واحد عنه في صنف آخر . اي لكل ضرب من ضروب التشعع « وحدة » من الطاقة خاصة بهِ تتوقف على طول موجته وتواتر امواجه . يعني ان وحدات التشععات تختلف باختلاف امواجها في الطول او باختلاف عدد امواجها في الثانية (كما ان لكل عنصر من العناصر المادية ذرّة خاصة بهِ تختلف عن اي ذرّة غيرها بالوزن وبقدر ما لها من خاصية الالفة الكيماوية)

بعبارة اخرى : ان وحدة الطاقة في اي صنف من اصناف التشعع تتوقف على طول موجة ذلك الصنف . وربما كانت هذه القضية تتضح جيداً اذا نظر القارىء الى مسألة تواتر الموجات Frequency اي العدد الصادر منها او المتتابع في كل ثانية . لان بين طول الموجة وتواتر الموجات نسبة ثابتة لا تتغير كما تقدم القول . ولما كانت كل انواع الموجات التشععية تسير بسرعة واحدة في الفراغ المطلق (٣٠٠ الف كيلو متر بالثانية) كان ولا بدَّ انهُ كلما كانت الموجات طويلة كان عددها في الثانية اقل . والعكس بالعكس ، اي كلما كانت قصيرة كان عددها اكثر . فاذا كان طول موجة نوع من انواع الراديو او اللاسلكي ١٠٠ متر مثلاً كان عدد موجاته في الثانية = $\frac{٣٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠}{١٠٠}$ = ٣ ملايين موجة في الثانية . واذا كان طول موجة النور البنفسجي جزءاً من ٦ ملايين من السنتيمتر كان عدد امواجه = $\frac{٣٠٠٠٠٠٠٠٠}{٠٫٠٠٠٠٠٠٠٦}$ = ٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ موجة في الثانية . ان عدد موجات الاشعة السينية اكثر من هذا الرقم بكثير . وهناك ضروب من الاشعة السينية اكثر من هذا الرقم بكثير وهناك ضروب من الاشعة اكثر امواجاً منها ايضاً

والآن فاذا كانت وحدة الطاقة المتشععة تتوقف على طول الموجة فبالتالي تتوقف على عدد الموجات ايضاً لما بين الطول و « التواتر » من النسبة كما تقدم . اي ان طول الموجة يشتمل على

عدد معين من الوحدات — عدد صحيح بلا كسور — فاذاً بناء على هذه النظرية ، التشعع الذي يتموّج (ع) عدد كذا في الثانية يصدر في وحدات كاملة من الطاقة بلا كسور . فاذا رمزنا عن هذه الوحدة الثابتة بحرف ط كانت قيمة الطاقة الصادرة من ذلك النوع من التشعع تساوي ط ع . وقد اصطلح العلماء على تسمية الوحدة الثابتة المذكورة باسم « ثابت بلانك » ويعبرون عنه بلغتهم بحرف h وعن عدد الموجات بحرف v فتكون قيمة الطاقة في اي نوع من انواع التشعع في ثانية واحدة = h v

وأما قيمة هذا الثابت ط كما حسبها بلانك فهي ٦٥٥٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٫٠ ثانية × ارغ . والارغ (Erg لفظ يوناني الأصل معناه عمل) هو عمل القوة المساوي لرفع ما وزنهُ جرام الى علو سنتيمتر في ثانية — فانظر ما اصغر قيمة الكونتم

بناء على ما تقدم يشتمل النور البنفسجي على وحدات Quanta كبيرة من الطاقة لان عدد موجاته في الثانية اكثر من عدد موجات النور الاحمر الذي يشتمل على وحدات اصغر لهذا السبب. وكلما كانت طاقة الوحدات اعظم كانت اكثر مقدرة على احداث تغير في الذرّة المصدرتها او الآخذتها . ولهذا السبب يضعف النور الازرق الوانَ الاصباغ ويؤثر في اللوحات الفوتوغرافية ، في حين ان النور الاحمر لا يؤثر فيها

***

ابتدأنا في البحث في نظرية الكونتم بالحركة ثم انتقلنا الى القوة او الطاقة التي هي علة الحركة وبسطنا كيف ان الطاقة مهما كان مقدارها هي مجموعة وحدات متماثلة ، كما ان البحر هو مجموعة جزيئات من الماء متشابهة ، وكل جزيء مؤلف من ذرّة اوكسجين وذرتي هيدروجين ، وكما ان مكيال القمح يشتمل على مجموعة من الحبوب متساوية متماثلة . والآن نعود الى « وحدة » الحركة — والحركة ناشئة من القوة كما تقدم شرحه — فقد رأيناها فيما تقدم تبدو في شكل امواج وكل موجة تمثل وحدة من وحدات القوة او الطاقة . واذا درسنا كل حركات الاجسام صغيرة كانت او كبيرة ظهر لنا انها متمشية على نظرية « الكونتم » ايضاً . اي انها ليست حركة استمرارية ، بل هي وثبات متماثلة ومتساوية في المسافة ، بينها هدنات متساوية في المدة . فالزمن الذي تستغرقهُ وحدة الحركة يحسب للهدنة بين وثبة ووثبة اي فترة السكون بين وحدة ووحدة . واما الوثبة بين نقطة الى اخرى لا يحسب لها زمان ، فكأنها حدثت بسرعة لا يتصورها العقل — سرعة لا تستغرق زمناً البتة — وقد رأيت فيما سبق مقدار هذه الفترة من الثانية

ان اصغر حركة في الوجود هي حركة الكهرب في دورانهِ حول النواة . فهو لا يسير في مداره (اي فلكه) سيراً مستمراً بل يسير متوثباً اي انهُ يثب من نقطة الى اخرى في فلكه الشاسع حول نواته كأنَّ فلكهُ هذا مؤلف من محطات متباعدة مرتبة في شكل دائرة حول النواة وهو يثب من محطة الى اخرى وثباً . وبناء على ذلك لا يكون فلك الكهرب (اي مداره حول نواته) دائرة بكل

معنى الكلمة، ولا تكون كل مسافة بين محطة ومحطة من محطات الوثبات قوساً بل هو شكل متعدد الاضلاع Polygon والمسافات بين المحطات هي اوتار في دائرة موهومة لا اقواس

ثم ان الكهرب يسير في فلك معين حول نواته بحسب سنة الجاذبية . فاذا قضت عليه بعض العوامل ان يتغير فلكه اي ان يصير اقرب الى النواة او ابعد فلا يقترب او يبتعد تدريجيًّا بل يثب وثباً من فلك الى آخر لان الافلاك مقررة حول النواة على ابعاد محدودة (وفي رأي بعضهم ان الافلاك المترامية اقرب بعضها الى بعض من الافلاك القريبة الى النواة) . فكأن هذه الافلاك اثلام او اخاديد مستديرة حول النواة . والكهرب يسير في قعر الثلم ولا يستطيع ان يسير على حرفه الاعلى . فاذا وجب ان ينتقل من فلك الى آخر اضطر ان يثب وثباً من اخدود الى اخدود . فترى مما تقدم ان افلاك الكهارب حول النواة وحدات كمية (نسبة الى كم) ايضاً كدرجات السلم . فاذا رام الكهرب ان ينتقل فعليه ان ينتقل درجة كاملة اذ لا يستطيع ان يثب الى نصف درجة كما انك لا تستطيع ان تصعد على السلم الاَّ درجة فدرجة . ولا تستطيع ان تخطو جزءًا من الدرجة

فاذا كانت نظرية الكونتم في دوران الكهرب حول النواة صحيحة فلا بدَّ ان يكون سببها ان قوة الجاذبية (الجاذبة الكهرب الى النواة) تصدر دفقات متوالية . واعتقد انها كذلك . فقد ثبت بالفعل Practically كما ثبت بالراديو مثلاً ان الجوَّ الجاذبي Gravitational field انما هو امواج من نوع الامواج الكهرطيسية كأمواج النور والراديو واللاسلكي . واذن فلا بدَّ ان يكون تأثيرها في الكهرب متقطعاً متتابعاً كتتابع الامواج . اي ان كل موجة تدفع الكهرب في مسيره دفعة

واذا كان الامر كذلك فلا بدَّ ان يكون حكم الجاذبية في الاجرام كحكمها في الكهارب اي ان السيارات تسير في افلاكها حول الشمس وثباً حسب قانون « الكونتم » . واذا كان الامر في السيارات هكذا فلا يمكن ان يكون فلك السيار دائرة متصلة مستمرة يمكن تقطيعها الى اقواس منحنية ، بل هي شكل متعدد الاضلاع Polygon وكل ضلع يمثل وثبة من وثبات السيار في فلكه

واذا كان الامر كذلك — ولا بدَّ ان يكون هكذا اذا كانت نظرية الكونتم صحيحة — فاذن ليس في الوجود حركة دائرية بكل معنى الدائرة . اي لا وجود للدائرة على الاطلاق الاَّ في تخيلاتنا وفروضنا ورسومنا الهندسية على الورق . بل ان ما نسميه دائرة ليس الاَّ شكلاً متعدد الاضلاع عديدها

واذا صحَّ هذا الاستنتاج ، واني لاخاله صحيحاً للسبب التالي — يتصحح به عيب في برهان « قانون المسارعة » اي قانون ابتعاد فعل القوة عن المركز Force {Centrifugal / Centripetal} مع ان هذا القانون هو الركن الاساسي لناموس الجاذبية . يتصحح هذا العيب عن يد نظرية الكونتم . وبتصححه تنجلي علاقة كبيرة بين الكونتم والجاذبية . وسأفرد لهذا الموضوع مقالاً خاصًّا الفت اليه أنظار أهل العلم ولا سيما الذين تلذ لهم القضايا العلمية المسندة الى البراهين الرياضية . وسيرون ان هذا الموضوع ذو شأن كبير . ولا ادري ان كان أساطين علماء الغرب السابقينا بمراحل قد فطنوا اليه

الصحف البريطانية الكبرى

ومواقفها السياسية

في لندن تسع صحف صباحية توزّع كل صباح نحو عشرة ملايين من النسخ . أما صحفها المسائية فثلاث ولا يزيد مجموع ما يوزّع منها على مليون وثلاثة ارباع المليون من النسخ . ولكن صحف الصباح تنتشر في طول البلاد وعرضها . وعلى الضد منها ينحصر انتشار صحف المساء في العاصمة في الغالب . ويصدر في مدن بريطانيا الاخرى كيورك وبرمنغهام صحف على جانب عظيم من الرقي ، ولكن انتشارها محصور في المدينة التي تصدر فيها وما يجاورها تُستثنى من ذلك جريدة المنشستر غارديان . فاذا قلت صحف بريطانيا عنيت صحف لندن . وليس في هذا اي غضاضة على صحف الاقاليم . فثلاثة ارباع سكان انكلترا يعيشون في اماكن لا تبعد اكثر من خمس ساعات بالسكة الحديدية عن عاصمتهم العظيمة . حتى غلاسغو وادنبره وهما من مدن اسكتلندا في الشمال لا تبعدان عن لندن اكثر من ثماني ساعات بالقطار . وعلاوة على ذلك تطبع الديلي ميل في لندن ومنشستر نسختين متماثلتين توفيراً للوقت في نقل النسخ من لندن الى المقاطعات الشمالية ، وتجاريها الديلي اكسبرس بل وتفوقها لانها تطبع ثلاث نسخ متماثلة — على اختلاف محلي بسيط — في لندن ومنشستر وغلاسغو . فاجتماع هذه العوامل المواتية لتفوق الصحافة اللندنية ، يمكن كل انكليزي ان يكون امامهُ على مائدة الفطور كلّ صباح نسخة من الصحيفة اللندنية التي يؤثرها

***

يمكن تقسيم صحف لندن بوجه عام الى طائفتين . فطائفة تلذُّ للسواد من الجمهور ، وطائفة تلذُّ للاقلين . وتقدير مكانة كلّ من الطائفتين ليس بالامر اليسير ، ودونهُ صعابٌ لا يستهان بها ، ولعلَّ الاتفاق على تحديد معنى « مكانة » و« نفوذ » ليس اقلّ هذا الصعاب شأناً . ولكن مما لا ريب فيه ان الطائفتين من الصحف ، قادرتان على التأثير في الرأي العام البريطاني ، في احوال مختلفة وبوسائل واساليب متباينة . ومع ذلك قد يكون من اصعب الامور الاتفاق بين كتّاب هذه الصحف وقرّائها ، على مدى تأثيرها في نفوس الجماهير

من صحف لندن الصباحية ، ثلاث يمكن نعتها بقولنا « رزينة » و« ستٌّ » يمكن وصفها بقولنا «شعبية» Popular . فصحف الطائفة الاولى هي التيمس والديلي تلغراف والمورننج بوست ، وعدد ما يوزَّع من هذه الصحف الثلاث معاً قد لا يزيد على ٧٠٠ الف نسخة . (يقدَّر ما يوزَّع من التيمس بنحو ٢٠٠ الف نسخة وما يوزَّع من التلغراف بنحو ٣٠٠ الف نسخة وما يوزَّع من البوست بنحو ١٥٠ الى ٢٠٠ الف نسخة) اما صحف الطائفة الثانية فهي الديلي ميل والديلي اكسبرس والديلي هرالد ويقدرما يوزع من كلٍّ منهما بنحو مليوني نسخة. ثم تليها« النيوز — كرونكل» ويقدَّر ما يوزَّع منها بنحو مليون ونصف مليون من النسخ ، ثم صحيفتان صغيرتا القطع مصورتان هما السكتش والميرور ولكل منهما انتشار واسع ولكن لم تحاول احداها ان تفوز بمكانة سياسية ما. اما صحف المساء فهي « الايفننج نيوز » او « انباء المساء » ويقال ان انتشارها يبلغ نحو ٨٠٠ الف نسخة في اليوم وجريدة الستار Star او الكوكب وانتشارها يبلغ نحو ٦٠٠ الف نسخة وجريدة الستاندرد او العَلَم وانتشارها قد لا يقلُّ عن نصف مليون من النسخ

اما اللون السياسي الغالب على هذه الصحف فهو اللون المحافظ . فصحف لندن جميعها محافظة الاَّ الهرالد فهي جريدة العمال و« النيوز كرونكل » وهي جريدة الاحرار . اما الصحف التي تصدر خارج لندن فيغلب عليها اللون المحافظ وليس بينها جريدة واحدة للعمال . واما المنشستر جارديان فلونها السياسي حرٌّ وانما تميل الى قضية العمال وهي من صحف الاقاليم الوحيدة التي تباع جنباً الى جنب مع كبريات صحف لندن في جميع انحاء البلاد

***

ونحن نستطيع ان نقول بوجهٍ عام ان الصحف الثلاث التي وسمناها « بالرزينة » تحكماً بقصد التفريق في النزعة الاساسية بينها وبين الصحف الاخرى ، تؤثر في الرأي العام بواسطة مقالاتها الرئيسية التي تعرب فيها عن آرائها السياسية والاجتماعية . اما الصحف الشعبية فتعتمد في الغالب على ما تختاره من الانباء وتقدمهُ على غيره بواسطة عنوانات ضخمة تمتدُّ احياناً على عرض الصفحة فيسترعي البصر ويصبح حديث القوم . ولنا في الصحف نفسها ما يؤيد هذا الفرق . فكل صحيفة من صحف الطائفة الاولى ، تنشر كل يوم ما يملأ نحو ثلاثة اعمدة من المقالات الرئيسية ، مكتوبة بأقلام أبرع الكتَّاب واعلمهم بموضوعاتها . حالة ان الصحيفة من الطائفة الثانية تكتفي بما يملأ عموداً واحداً وتعتمد فيهِ على المقالات القصيرة فقد لا تعدو المقالة الافتتاحية في موضوع واحد في الميل او الاكسبرس بضعة أسطر

***

تحاول الصحف الرزينة — ونعني التيمس والتلغراف والبوست والغارديان — ان تعرض لقرَّائها خلاصة عامة لحوادث اليوم داخل البلاد البريطانية وخارجها مع تعليق محرّريها عليها ورأيهم

فيها . وهي تدعم انباء الشركات العامة ببرقيات مكاتبيها الخصوصيين ورسائلهم . والصحف الشعبية تحذو حذوها ولكن الصورة اليومية التي تعرضها هذه الصحف ليست كاملة من حيث اتساق عناصرها كصورة الصحف الرزينة . فقد تعنى الميل او الاكسبرس او غيرها بحادث من الحوادث يوماً او يومين ، ثم تهمله اذ تنقص ما تنشره عنهُ فلا يزيد عن بضعة أسطر ، لأنها وهي تحاول ان تستثير الرغبة العامة بانباء حوادث جديدة ، ترى ان الحادث الذي مضى عليهِ يومان قد أصبح مبتذلاً لا يستحق عناية كبيرة . والصحف البريطانية بوجهٍ عام اقلُّ عناية بالانباء الخارجية من جريدة اميركية كالنيويورك تيمس مثلاً ، ولعلَّ سبب ذلك ان اتساع نطاق الامبراطورية البريطانية وترامي اطرافها يحمّان على الصحف البريطانية تعيين مكاتبين خصوصيين لها في كل جزء من أجزائها وهذا يحول دون تعيين مكاتبين خصوصيين في كل مركز من مراكز السياسة العالمية خارج الامبراطورية البريطانية كما تفعل جريدة النيويورك تيمس فتعتمد على ما يبعث بهِ مكاتبو شركات الانباء العامة

يضاف الى ذلك ان بريطانيا ، لم تجرِ كاميركا على عادة تعرف بـ syndication اي الاشتراك في الانباء الخاصة . وهذا مما يقلل نفقات المكاتبين الخصوصيين . فأميركا بلاد مترامية الاطراف ، والنيويورك تيمس قلما تقرأ خارج مدينة نيويورك وما يجاورها . لذلك تتفق النيويورك تيمس مثلاً مع صحيفة في انديانا بوليس واخرى في دنفر وثالثةٍ في ملووكي ورابعة في نيو اورلينس وخامسة في سان فرنسسكو ، على ان تبيعها البرقيات التي يبعث بها مكاتبو التيمس الخصوصيين من روسيا واليابان ومصر وغيرها من البلدان . وكذلك تصيب الصحافة الاميركية عصفورين بحجر واحد . الاول نوعاً من الاشتراك والتعاون على تسديد نفقات المكاتبين وبرقياتهم . وثانياً سنوح الفرصة لصحف اميركا التي ليست من مقام النيويورك تيمس او الشيكاغو نيوز ان تنشر انباء العالم كما يرويها مكاتبون مشهود لهم بدقة الاطلاع وصدق النظر

ومن غرائب الاتفاق ان اصحاب الصحف اللندنية الرزينة التي ذكرناها ، ليسوا من الرجال الذين لهم مطامع واغراض سياسية كلورد روذرمير ولورد بيفر بروك . بل ان الرجال الذين يديرون هذه الصحف يشتغلون وراء ستار في صحفهم وقلما يعلم الجمهور عنهم شيئاً ولذلك لا يوحّد القرّاء بين هذه الصحف واصحابها او رجال معينين يملون عليهم خطة خاصة بعينها بل يحسبونها معاهد عامة لا تخصُّ فرداً دون آخر

***

لقد اجمع اصحاب الرأي ان «التيمس» في طليعة الصحف البريطانية ، فمن المسلم بهِ ان الجمهور في بريطانيا وخارجها يحسبها لسان حال الحكومة البريطانية ، بقدر ما تستطيع جريدة مستقلة ان تكون لسان حكومة . ولكن هذا ليس السرّ الوحيد في مقامها العظيم . بل الانكليز يحسبونها معهداً بريطانياً ، وينظرون اليها ، من صفحة انباء السوق المالية الى احوال الجوّ الى برقيات المكاتبين

ورسائلهم الى المقالات الافتتاحية نظرهم الى التاج او البرلمان . والواقع ان صاحبي التيمس (الميجر آستر والمستر جون ولتر قد ادركا هذه الحقيقة ، فقطعا من تلقاء نفسيهما عهداً بأن لا يبيعا حصتيهما في التيمس : الأ بعد ان توافق على المشتري لجنة مؤلفة من خمسة من كبار رجال الدولة

والتيمس — كسائر الصحف الرزينة — لا تزال جارية على عادة نشر الاعلانات الصغيرة على صفحاتها الخارجية وجعل الصفحتين الرئيسيتين المحتويتين على أهم الانباء والمقالات الافتتاحية في صفحتين متقابلتين من الطية الوسطى في الجريدة . وهي مقسمة تقسيماً تجري عليه سنة بعد سنة . فاذا اردت انباء ناحية من نواحي الحياة عرفتَ ان تجدها فيها لانها قلما تغير مكانها . وهي تنشر في الغالب على صفحتيها الرئيسيتين الانباء التي يبعث بها اليها مكاتبوها الخصوصيون الاكفاء من نواحي الامبراطورية او سائر بلدان العالم . وقلما تنشر عنواناً لنبإ يمتدُّ على اكثر من سطر واحد . ولمحرّريها الحقُّ في مطابقة رسائل مكاتبيها وفقاً لنزعة الجريدة . ونحن لا نقول هذا بقصد ان نرمي محرّري التيمس بتعديل الانباء وتشويهها وفقاً لرغائبهم ، ولكنك قلما ترى رسالة لمكاتبها في برلين ، اولمكاتبها في وشنطن من دون ان تتبين من خلال السطور ، رغم سرد دقيق للحوادث ، شكّاً في فوائد الحكم الهتلري او نجاح خطط الرئيس روزفلت

***

اما الخطة الاساسية التي تجري عليها « التيمس » فهي تأييد الحكومة البريطانية القائمة . وهذه الحقيقة وحدها ، علاوة على ما للجريدة من المكانة الصحافية العالية ، كافية لاقناع الجمهور بان صوت « التيمس » انما هو صوت الوزارة البريطانية . وهذا هو الواقع في الغالب في ما يخصُّ السياسة الخارجية . ولكنهُ لا يصدق كلَّ الصدق على ما يرتبط بالشؤون الداخلية ومواقف الحكومة القائمة منها . ففي السنة الماضية كان الاتجاهُ في خطة التيمس الى نقد خطط الحكومة القومية المتصلة بالضرائب والمسائل المالية والنقدية

وانت اذا استقريت الصحف اللندنية ، وجدتها جميعاً تتكلم بصوت واحد في بعض المسائل الدولية المعيّنة ، فجميع صحف لندن مثلاً تؤيد نزع السلاح ، واعادة التجارة الدولية الى مجاريها القديمة . وتوثيق اواصر الصداقة مع الولايات المتحدة الاميركية ، وازالة الحواجز الجمركية ، ومقاومة النزعات الجديدة في نظم الحكم كالفاشستية والشيوعية والنازية . وانما انت تقع على الاختلاف بين الصحف اللندنية في نظرها الى هذه المسائل ، عند ما تفحص عن الوسائل التي تقترحها كل جريدة لتحقيق هذه الاغراض التي تتفق عليها جميعاً . عندئذ يصحُّ عليها المثل الفرنجي القائل ما معناه : «الرأي المستقيم يا الهي هو رأيي انا» . فالمورننغ بوست ترى مثلاً انهُ اذا غالت بريطانيا في رفع الحواجز الجمركية ، كان ذلك افعل الوسائل واسرعها الى الاتفاق على الغائها جميعاً . اما المنشستر

غارديان فترى ان احتفاظ بريطانيا بحرية التجارة — ولا تنسَ ان اركان حرية التجارة البريطانية خرجوا من منشستر — كان افضى الى الغاية المطلوبة

وموقف التيمس من هذه المشكلة — اي مشكلة الحواجز الجمركية — هو موقف الوزارة اي القول بأن بريطانيا جرت في ميدان التجارة الحرة الى اقصى المدى ، فلم تجارها دولة من الدول المنافسة لها ، بل اغرقت اسواقها الداخلية ومنعت بضائعها من اسواق الدول التي تنافسها ، فعمدت الى اقل ما يمكن رفعه من الحواجز ، وهي مستعدة للاتفاق — أيّاً كان — القائم على التبادل . وكذلك في ما يختص بمشكلة نزع السلاح . فالتيمس وتجاريها الصحف البريطانية تنزع الى وجوب خفض السلاح ، ولكنها ترى ان بريطانيا قد ذهبت في خفض السلاح الى مدى ابعد مما ذهبت اليه الدول الاخرى . وهذا هو رأي الوزارة البريطانية بالاجمال . ولا يبعد ان تجاري التيمس الحكومة البريطانية غداً اذا رأت الحكومة ان زيادة سلاحها هي افعل الوسائل للوصول الى اتفاق على خفض السلاح

ثم ان التيمس تستمد مكانتها في الحياة البريطانية العامة من كونها منبراً عامّاً لكبار القوم . فاذا شاء رئيس الوزراء ، او رئيس اساقفة كنتربري او اي عين من اعيان الدولة ان يعرب عن رأي خاص في رسالة عامة ، فالغالب انهُ يبعث بهذه الرسالة الى التيمس اولاً

***

الى يمين التيمس — من الناحية السياسية — تجد صحيفه المورننغ بوست . وأصحاب الكثرة من اسهمها هم دوق نورذمبرلند والسر بري بايتس والكبتن هورُد . وهي جريدة مضت عليها مائة وستون سنة ، وهي تخشى ان تعرب عما تعتقد . لذلك تلمس فيما تكتبهُ احياناً نغمة من التحكم وهو ما ينتظر من صحيفة تعد لسان المحافظين المتطرفين . ومع ان مقالاتها الاخبارية تكتب بأقلام كتّاب بارعين وتعرض عرضاً يسترعي النظر ، الاّ انها دون « التيمس » في كمال الصورة التي ترسمها للحوادث العالمية . وانما هي تستمد قيمتها في رأي اصحاب الرأي ، من مقالاتها الافتتاحية الصريحة . فكتّابها في هذه الاعمدة لا يعرفون المواربة . وقد يندر ان ترى في المورننغ بوست نفاقاً في التهليل والتكبير للمبادىء او المنشآت الدمقراطية ، كما ترى احياناً في غيرها . وهذه الصراحة لا تترك مجالاً للشك في موقف المورننغ بوست من أية مشكلة من مشكلات الساعة، فهي لذلك مفضلة في دوائر المحافظين المستميتين Die hards او المغالين في محافظتهم . ولما كان ذلك كذلك فمن المتوقع ان تراها معارضة للحكومة القومية في سياستها الهندية ، داعية الى ان خير دعامات السلامة اسطولٌ بريطاني متفوق في قوته ، مؤيدة لزيادة الحواجز الجمركية ورفعها ، منددة بالنزعتين الاشتراكية والدولية على السواء ، موافقة بتحفظ على فاشستية ايطاليا وهتلرية المانيا ، محبذة توثيق الروابط بين فرنسا وبريطانيا في معالجة شؤون البر الاوروبي

اما جريدة الديلي تلغراف فهي ثالثة الصحف اللندنية الرزينة . والرجل المسيطر عليها هو لورد كمروز (كان اسمهُ السر وليم بري Barry قبل منحه لقب لورد) . ثم هو يملك مع اخيهِ السر غومر بري حصة كبيرة في جريدتي الصندي تيمسْ والفيننشال تيمس وطائفة من جرائد الارياف وفي الشركة المعروفة باسم شركة الصحافة المندمجة (أَملجميتِد برس) . ولورد كمروز يُعنى عناية خاصة بالديلي تلغراف ولكنهُ لا يطلب الشهرة ، ولذلك قلما يعرف الجمهور شيئاً عما يدور وراء ستار في ادارة «التلغراف» فيحسبونها جريدة مستقلة لا لسان رجل غني

والديلي تلغراف مشهورة بانها صحيفة الطبقة المتوسطة البريطانية ، تتصف بالدقة وحسن التبويب وبراعة الاخراج . ابتاعها لورد كمروز وشقيقهُ من لورد برنهام (كان والده هذا قد انشأ الجريدة) من بضع سنوات فبذلا مالاً طائلاً في توسيعها وتقويتها . فلما خفضا ثمنها من بنسين (اقل قليلاً من قرش صاغ) الى بنس واحد (اقل قليلا من نصف قرش صاغ) زاد ما يوزع منها من النسخ ثلاثة اضعاف . وهي جريدة محافظة ، ولكنها اكثر اعتدالاً في محافظتها من الديلي تلغراف ، ولعلها اقل اعراباً عن آراء الحكومة الرسمية من التيمس . وقد تحولت من عهد قريب الى الدعاية الى انشاء اسطول بريطاني كبير . ولكنها في الوقت نفسه تؤيد بوجهٍ عام خطة الحكومة البريطانية في نزع السلاح . ثم هي كالتيمس تحاول ان تنهج نهجاً متوسطاً بين عزلة بريطانيا واشتباكها في شؤون اوربا السياسية . وتجاري معظم صحف لندن في مقاومتها لطراز الحكم الفاشستي كائنة صبغتهُ ما كانت وتعارض في القضاءِ على النظام البرلماني البريطاني واقامة نظام آخر محلّهُ

***

هذا من حيث ما يتعلق بالصحف « الرزينة »

فاذا انتقلنا الى النظر في الصحف « الشعبية » انتقلنا الى عالم آخر . هنا نجد لكواكب الصور المتحركة مقاماً اعلى من مقام رجال السياسة . هنا « جرائم الغرام » تستأثر بالصفحات الاولى دون انباء مجاعة في الصين . ان جانباً كبيراً من قراء هذه الصحف يبتاعونها لما تمنحهُ من الجوائز المالية الضخمة . او لان المشترك فيها يؤمَّن باشتراكه فيها على حياتهِ ضدَّ المرض او الموت بالحوادث الطارئة او العارضة . ونذكر اننا كنا في انكلترا سنة ١٩٢٨ لما حدث اصطدام في سكة الحديد بين لندن وبريطن على ما نظنّ — فكلّف هذا الحادث الديلي اكسبرس يومها نحو مائة الف جنيه ، دفعتها لاهل الذين قتلوا في هذا الاصطدام من مشتركيها . والديلي اكسبرس تندّد بكل هذا ، ولكنها مضطرة الى مجاراة الصحف الاخرى ، لكي تحافظ على سعة انتشارها رغبة في ما تجنيه من الاعلانات التي تبنى على سعة انتشار الجريدة في المقام الاول . وقد كانت الديلي ميل من نحو ١٢ سنة اوسع الجرائد اللندنية انتشاراً اذ بلغ ما يوزع منها نحو مليون نسخة وكان لها حينئذ نظام معتدل من التأمين للمشتركين فيها . فلما زادت المبالغ التي تدفعها لمن يتمتعون بالتأمين بحسب هذا النظام زاد انتشارها

تجارتها الصحف الاخرى . وكذلك اصبحت كل من الدايلي ميل والديلي اكسبرس والدايلي هرالد توزّع كل يوم نحو مليوني نسخة . ثم ان لكل من الصحف «الميل» و«الهرالد» و«النيوز كرونكل» طبعتين واحدة في لندن واخرى في منشستر وأما الاكسبرس فلها ثلاث طبعات واحدة في لندن والثانية في منشستر والثالثة في غلاسغو

وأصحاب هذه الجرائد لهم مصالح مشتركة من الناحية المالية ، لأن بعضهم يملك حصصاً في صحف البعض الآخر . وانما يصح ان نقول ان لورد روذرمير مسيطر على الدايلي ميل وما يتبعها (الايفننج نيوز وهي جريدة مسائية والصنداي سباتش وهي جريدة أحدية) ولورد بيفربروك مسيطر على مقدّرات الاكسبرس وما يتبعها (الايفننج ستاندرد : جريدة مسائية والصندي اكسبرس : جريدة أحَدية)

***

وتحسب جريدة الديلي ميل الاولى من نوعها . انشأها الفرد هارمزورث (لورد نورثكليف وشقيق لورد روذرمير) في اواخر القرن الماضي . ولكنها مع ذلك — وهذا عجيب — هي الصحيفة الوحيدة من الطراز الجديد التي لا تزال محافظةً على وقف صحيفتها الاولى على الاعلانات كالتيمس والتلغراف وغيرها . اما الاكسبرس والهرالد فتنشران اهم الانباء على الصفحة الاولى . اما ترتيبها فأحدث ما عرف في الصحافة الاوربية والاميركية ، اي انها تعمد الى العنوانات الضخمة التي تمتد على عرض الصفحة احياناً وتزين مقالاتها بصور تتخلل الكلام . وهي محافظة اسماً ، ورجعية بلا ريب . ولكنها تنهج احياناً مناهج خاصة بها ، فقد تراها في فترة ما موالية لفرنسا في انبائها ومقالاتها الرئيسية . ثم تراها في فترة اخرى تنزع الى عزلة بريطانيا عن الاشتباك في شؤون البر الاوربي . وهي الآن تضرب على وتر خاص بها ، قلما توافقها عليه صحيفة اخرى في بريطانيا وهو ان اعظم ضمان للسلام الاوربي هو عقد محالفة دفاعية بين بريطانيا وفرنسا . او قد تراها يوماً من الايام تندّد بالحكومة لانها لا تقتصد في نفقاتها ولا تخفض الضرائب . وفي اليوم التالي ، قد تندّد بخطة اللين التي تجري عليها الحكومة في الهند وتدعو الى الاحتفاظ بالهند كائنة النفقة او فداحة الضرائب ما كانت . وهي في الغالب تلخّص نهجها السياسي في مسألة من المسائل ، بعبارة قصيرة تسترعي النظر وترسخ في الاذهان

ومع ذلك فلجريدة الديلي ميل نفوذ . فغناها يمكّنها من استكتاب كبار الكتّاب ، والوسيلة التي تعتمد عليها في تثبيت فكرة معينة في نفوس الناس ، بتكرارها ، تمنحها نفوذاً سيكولوجيًّا عظيماً . يضاف الى كل ذلك ان قرّاءها كثرٌ . وقلما يقرأون غيرها ، لانهم من الطبقة المتوسطة غير المتعلمة تعليماً وافياً ، فيعرضون عن الصحف الرزينة لانها ثقيلة على طباعهم . ولعلَّ اشهر مثل على مدى نفوذها ما نشرتهُ عن رسالة قيل ان زينوفيف بعث بها الى العمال البريطانيين ليلة الانتخاب

البريطاني العام سنة ١٩٢٤ فتشى الذعر في الناس وخشوا انتصار الشيوعية في بريطانيا ، فنال المحافظون اكثرية عظيمة في الانتخاب

والديلي اكسبرس محافظة كذلك ، ولكن منهجها المحافظ خاص بصاحبها لورد بيفربروك . وصاحبها رجل المعي الذكاء ، جم النشاط كان كنديًّا (اسمهُ ماكس ايتكن) فأثرى ثم أمَّ بريطانيا فارتقى فيها الى مناصب الاشراف وشغل منصب وزير في وقت ما ، وكان لهُ شأن كبير ، لعلاقتهِ ببونارلو الزعيم المحافظ ، في أزمات السياسة البريطانية في اواسط الحرب الكبرى وبعيدها . ثم ابتاع الاكسبرس فجعلها في مقدمة الصحف «الشعبية» البريطانية . ألجيلهُ الذي يكرز بهِ « امبراطورية بريطانية تكفي نفسها بنفسها» ولذلك ترى صحيفةً تندّد بكل ما شأنهِ ان يشبك بريطانيا بشؤون البرّ الاوربي ، وتنقد العهد الذي قطعتهُ بريطانيا في معاهدة لوكارنو وتسخر من ضعف سياسة الحكومة الجمركية

تصدر جريدة الديلي هرالد شركة « الاودهام برس » ولكن الصحيفة لسان حال العمّال ، وخطتها السياسية خاضعة لمجلس نقابات العمال . وقد كانت هذه الصحيفة على شفا الافلاس لما اتفقت الاودهام برس على الانفاق عليها ، فأحدثت انقلاباً عظيماً في ترتيبها وسياق نشرها للاخبار وجارت بها الميل والاكسبرس فجعلت توزّع الهبات على المشتركين ، ونظمت لها مشروع تأمين لمشتركيها حتى اصبحت اليوم وهي تفوق جرائد بريطانيا قاطبة في عدد ما يباع منها كل يوم . تحاول الديلي ميل ان تنشر الاخبار كما يراها كتّابها المحافظون . اما الهرالد فتنشرها كما يراها كتّابها الاشتراكيون . وهي في خطتها السياسية تنزع الى التعاون الدولي وحرية التجارة وتؤمن بنزع السلاح وتقاوم مقاومة عنيفة الفاشستية والنازية . ولما كان في بريطانيا نحو سبعة ملايين ناخب من العمال ، فالمجال متسع لجريدة تكون صحيفة عصريةً ولساناً للعمال في آنٍ واحدٍ . والديلي هرالد تحقق هذين الشرطين خير تحقيق

***

بقي علينا من صحف لندن الشعبية جريدة «النيوز كرونكل» وهي لسان الاحرار — وقد قال فيها احد اصحاب النكتة : هي لسان الاحرار الرسميين عندما تدرك مَن هم . وهذه اشارة منهُ الى انقسامهم فرقاً فثمة فريق سيمون وفريق هربرت صموئيل وفريق لويد جورج . تسيطر عليها اسرة كادبوري المشهورة بصنع الشكولاتة المسماة باسمهم . هي دولية النزعة ولكنها ليست اشتراكية وهي تعارض النظم الفاشستية كالهرالد والشيوعية كصحف المحافظين . ولما كانت تؤيد السعي لنزع السلاح ، فقد احدثت هزة في دوائر بريطانيا السياسية ، لما طالبت من عهد قريب بوجوب محافظة بريطانيا على العهود التي قطعتها في لوكارنو . فهي بوجه عام صحيفة اليسار المعتدل

أما المنشستر غارديان فتصدر في منشستر وأصحابها اسرة سكُت وهي في رأينا في مقدمة الصحف العالمية التي تدرك ان الصحافة كالتعليم عمل كبير التبعة . ولعلَّ خير شهادة لها ان اتباعها وخصومها يقرأونها على السواء

وحدة الكون

للشاعر السكندناوي بويزن

قرابة مقدّسة لا اتخلّى عنها
تربطني بكل ما يتنفّس .
انا ابن الارض والبحر والهواء
انشدَتْ العواصف « السلورية »[1] الجشّاء هدهدتي[2]
وفي اشكال دائمة التغيُّر
من شجر وطير ووحش
كوّنت الاعصر الجاهدة شكلي

ان هذه الاسلاف الضخمة قد تركت
من نفوسها العظيمة في نفسي ، نفحةً
تتحدى الموت . انمو وأزهر كالشجر
شاعراً بجذور ارضية ذاهبة في الاعماق
تربطني بالتراب . ولكن مع فروعها الذاهبة في الفضاء
ترتفع نفسي الى ملك النور والنهار

(١) العصر السلوري احد العصور الجولوجية في الحقبة الاولى (القديمة الحياة) يليه العصر الديفوني (الحجر الرملي) فالعصر الكربوني (٢) هدهدت الام الصبي حركته او غنت له لينام

عجائب الحل الطيفي

السبكترسكوب في معرفة بناء النجوم

وحركة الاجرام السموية

كان الفيلسوف الفرنسي اوغست كونت من اعلم اهل زمانهِ ، ولكنهُ مع ذلك قال ان العقل البشري لا بدَّ ان يبقى جاهلاً بعض الاشياء . وضرب على ذلك مثلاً ببناءِ الاجرام السموية من الناحية الكيمائية . فهذه المسألة كانت في نظر كونت وغيرهِ من علماءِ ذلك العصر، من وراءِ مقدرة العقل البشري، لانهم كانوا يجهلون حينئذٍ الوسيلة التي تفتح أمامهم ابواب هذا السرّ المغلق

ونحن اليوم ندرس بناء النجوم ، كما ندرس بناء الاجسام المادية في المعمل الكيماوي . والمفتاح الذي فتح امامنا الابواب، هو علم الحلّ الطيفي وآلتهُ ، مبيّنة الطيوف (السبكترسكوب)

فما كاد العلماء يكتشفون السبكترسكوب ، حتى اصبح بناء الاجرام السموية امامهم كالكتاب المفتوح فيهِ عرفوا العناصر التي تدخل في بنائها ، وقد كشفوا حتى العهد الأخير ، نحو ستين عنصراً من العناصر الارضية في كتل النجوم ، ثم انهم اثبتوا بالحلّ الطيفي ان جوّ المريخ يحتوي على الاكسجين وان لا اثر لهُ في جوّ الزهرة . وبيّنوا بواسطة الخطوط المختلفة التي تظهر في طيوف النجوم والسدم ، ان الذرّات التي على الارض ، كائنة كذلك في بعد السدم وفي اذناب المذنبات وعلى سطوح النجوم البيض التي بلغت حماوتها درجة البياض وبذلك منحنا السبكترسكوب اقوى الادلة على وحدة الطبيعة

من نحو مائة سنة أمرّ العلّامة اسحق نيوتن شعاعةً من الضوءِ في موشور من الزجاج في غرفة مظلمة ، فرأى على الجدار المقابل الوان قوس قزح . فأفضى بهِ ذلك الى الاعتقاد بأن نور الشمس مركّب من أشعة مختلفة ، ولكن نيوتن ادخل شعاعة النور الى الغرفة المظلمة من ثقبٍ مستديرٍ ، فكان شبح الشعاعة بعد اختراقها الموشور ونفوذها منهُ رقعة مستديرة من الضوءِ . ولو اتفق لهُ ان يدخل شعاعة النور من شقّ مستطيل ، لكان اكتشف علمَ الحل الطيفي حينئذٍ . وهذا ما فعله كرشوف وبنصن الالمانيان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

الى جوزف فرانهوفر يعود الفضل في اكتشاف اهمّ حقيقة علمية تتعلق بحلّ الطيف بعد اكتشاف نيوتن وهو ان نور الشمس مركّب من طوائف من الاشعة لكلّ لونها الخاص . ذلك ان فرانهوفر اكتشف ما يعرف بظاهرة «الخطوط السود او القاتمة» في الطيف . ومع انهُ توفي سنة ١٨٢٦ وهو في التاسعة والثلاثين من عمرهِ ترك في هذا الاكتشاف اثراً في علمي الطبيعة والفلك لا يزول . كان ابن

خزّاف بافاريّ ، فتلقى عليهِ اصول الخزافة ثم تعلمّ فن صقل الزجاج فأتقنهُ واشتهر فيهِ فاختير لمنصب في معهد بصري optical بمدينة مونيخ ، حيث انتخب عضواً في اكادمية العلوم وعيّن اميناً لمكتبتها في العلوم الطبيعية . هناك استنبط اساليب جديدة لصقل العدسات وقياسها ، وصنع زجاجاً خاصًّا يصلح للعدسات ، وتعلّم كيف يحسب اشكال العدسات المختلفة حساباً رياضيًّا دقيقاً

ولكن همّهُ الاعظم كان متجهاً الى صنع عدسات (اكروماتيكية) اي لا يظهر في الاشعة التي تخترقها بقع ملوّنة ، وهذه البقع تنشأ اذا كان سطح العدسة غير محدّب تحديباً تامًّا فتتكسر الامواج وتتفرّق فتنشأ ظاهرة البقع الملوّنة . ولكي يتمكن من تحقيق غرضهِ هـذا ، درس طيوف انوار مختلفة . وكان ذات يوم يدرس طيف نور صادر من مصباح ، فاكتشف في الجزء الاصفر من الطيف خطًّا مزدوجاً . هذا الخط يعرف الآن بخطّ الصوديوم . وهو من اشهر خطوط الطيف لان رؤيتهُ سهلة . ولعلك ايها القارىء اذا زرت معملاً علميًّا في مدرسة وطلبت ان ترى سبكترسكوباً ، كان خط الصوديوم هذا اول ما ترى من خطوط الطيف . وامتدّ بهِ البحث ، فاكتشف هذا الخط في طيوف انوار اخرى ، ولكن الخط كان دائماً في محل واحد من منطقة اللون الاصفر . ثم حلّ نور الشمس ، فرأى مكان الخطين الاسودين في طيوف انوار المصابيح طائفة من الخطوط المتلازّة وبعضها اكثر قتاماً من البعض الآخر ، بل ان بعضها اسود . ثم فحص فرانهوفر نور النجوم فرأى في طيفهِ خطوطاً تشبه الخطوط التي رآها في طيف الشمس

فدعيت هذه الخطوط خطوط فرانهوفر . ولـكن فرنهوفر مات قبل ان يدرك تعليلها ، وما لها من الشأن في ريادة السماء ومعرفة بناء النجوم والسدم وحركات الاجرام السموية

وتلا فرنهوفر في هذا الميدان عالمان المانيان هما روبرت وليم بنصن الكيماوي وغوستاف كرشوف الطبيعي . كانا حينئذٍ استاذين في جامعة هيدلبرج . وكان بنصن قد استنبط المصباح المعروف باسمهِ وكان هذان العالمان يبخران في لهيب هذا المصباح بعض العناصر الكيمائية ثم ينظران الى الوانها بالسبكترسكوب . وكانت هذه الآلة مركبة حينئذٍ من ثلاثة اجهزة اولها طريقة لجمع اشعة الضوء على موشور زجاجي ، ثم الموشور نفسهُ الذي يفرق النور الى الالوان المؤلف منها ثم تلسكوب صغير يجسّم الطيف حتى تستطاع رؤيته . وما لبثا حتى وفقا الى اكتشاف اساسيّ في هـذا الميدان ، وهو ان لـكل عنصر خطوطاً لامعة في الطيف خاصة به

وفي يومٍ من ايام سنة ١٨٥٩ ، اكتشفا سرّ الفرق بين خطوط فرنهوفر — وهي خطوط قاتمة في الطيف — والخطوط التي كشفاها وهي خطوط لامعة . ذلك ان اشعلا مصباح بنصن ، وبخّرا في لهيبهِ عنصراً من العناصر ، وراقبا الطيف فوجدا الخطوط اللامعة الخاصة بهذا العنصر . ثم جاءا بنور قوي من مصدر آخر وامرّاه في لهيب المصباح الذي يُبخّر فيهِ ذلك العنصر ، قبل جمعه وتوجيهه الى الموشور . فلما راقبا الطيف وجدا ان الخطوط فيه قد اصبحت قاتمة . فأدرك

كرشوف في الحال تعليل ذلك وكان تعليله صحيحاً ايدته المباحث التالية : قال : — اللون الخاص الذي يولده العنصر في لهيب المصباح يعدّل في النور الوارد من مصدر آخر ، الامواج التي من طوله تماماً ، وكذلك يلغي الواحد الآخر ، فيزول اللون الذي كان يولّد في الطيف خطوطاً لامعة ، وكذلك تشهد خطوطاً قاتمة وقد حلّت محلّها

هذا الاكتشاف مهّد السبيل لتعليل خطوط فرنهوفر . كان العلماء قد عينوا مواقع مئات من الخطوط القاتمة — خطوط فرنهوفر — في طيف الشمس . ولكنهم لم يدركوا معنى هذه الخطوط الاّ بعد اكتشاف بنصن وكرشوف الاخير ، وتعليل كرشوف له التعليل الصحيح . ذلك ان طبقة الشمس الخارجية Photosphere تطلق امواجاً مختلفة تقابل امواج الطيف المرئي ، ولكن هذه الامواج قبل ان تصل الى تلسكوباتنا وسبكترسكوباتنا يجب ان تمرّ في جوّ الشمس حيث توجد معظم العناصر في حالة غازية متألقة . وكما عدّل النور الصادر من جسم آخر لون اللهيب الخاص بعنصر معيّن في مصباح بنصن ، كذلك تفعل هذه العناصر المتألقة في جوّ الشمس ، بالامواج الصادرة من سطحها . فلذلك نرى خطوط سوداً او قاتمة في طيف الشمس . فاذا اتفق موضع خط من هذه الخطوط او موقع طائفة منها ، مع موقع خطّ (او طائفة) خاص بعنصر من العناصر عرفنا ان هذا العنصر موجود في جوّ الشمس . وكذلك نستطيع ان نعرف تركيب الشمس الكيماوي وهي على ٩٣ مليون ميل منا

***

وما كاد كرشوف وبنصن يكتشفان هذه الحقيقة حتى استعملت اداتهما في الكشف عن عنصري الكيزيوم والروبيديوم في المياه المعدنية التي تنبع في دوركيم . وتروى في هذا الصدد قصة كان كرشوف يحبُّ ان يرويها قال : كانت المسألة المطروحة على بساط البحث ، هل تكشف خطوط فرنهوفر عن وجود الذهب في الشمس ؟ وكان صرّاف كرشوف يقول له وماذا يهمني ان كان الذهب موجوداً في الشمس ما زلتُ لا استطيع ان آتي به الى هنا . وبعيد ذلك نال كرشوف من احدى الجمعيات العلمية في انكلترا مدالية ذهبية ومبلغاً من المال . فذهب بها كرشوف الى صرّافه وقال له لقد افلحت في ان آتي لك بالذهب من الشمس

وتلا ذلك استنباط وسيلة ادق من الموشور للحلّ الطيفي . فكان استنباطها من نصيب رولند العالم الاميركي والاستاذ في جامعة جُنز هبكنز في العقد الاخير من القرن التاسع عشر . ذلك انهُ صنع آلة لتخطيط قطعة من الزجاج خطوطاً عديدة متلازّة ويقال ان البوصة المربعة في النادر منها قد تحتوي على ٣٠ الفاً من هذه الخطوط (الانسكلوبيذيا البريطانية) . ومن يملك قطعة منها يحسب انهُ يملك كنزاً علمياً لانها افضل ما عرف من وسائل العلم لحلّ نور الشمس الى الالوان التي يتركب منها . ثم قضى رولند بعد ذلك سنين عديدة في درس طيف الشمس ، فقال انهُ وجد في مناطق الالوان المختلفة نحو عشرين الف خط ، وان كل خط او كل طائفة منها تشير الى مادة معينة في كتلة

الشمس . فلما اتمَّ رولند مباحثهُ ، كان قد كشف في الشمس عن ٣٦ عنصراً من العناصر الكيمائية المعروفة على الارض . وقد كشفت بعد وفاته عناصر اخرى ، لان العلماء صنعوا الواحاً فتوغرافية شديدة الاحساس ، تتأثر بالنور الذي تحت الاحمر ، وكذلك كشف العلماء عن نحو ستين عنصراً من العناصر الكيمائية في مادة الشمس

أما في النجوم فاننا لا نستطيع ان نشهد في طيف نورها التفصيلات التي نشهدها في طيف الشمس . ولكن السبكترسكوبات الكبيرة التي بنيت في العهد الاخير وألحقت بالمراصد الكبيرة كمرصد جبل ولسن ، قد كشفت عن عشرات من العناصر الكيميائية في مواد النجوم

ثم ان الخطوط التي تبدو في الطيف لا تكون مستقرة في مكانها ، اذا كان مصدر النور متحركاً بل هي تحيد الى الاحمر اذا كان الجسم مبتعداً عن المراقب ، او تحيد نحو البنفسجي اذا كان الجسم مقترباً منهُ . وعلى هذا الاساس استطاع الباحثون ان يكشفوا عن دور الشمس على محورها وسرعة هذا الدوران وكذلك دوران السيارات وسرعتهُ . وعرفوا ايضاً ان حلقات زحل ليست مادة جامدة بل مؤلفة من كريات صغيرة كل منها بمثابة سيَّار صغير . وعليهِ بنيت ادق الحسابات لبعد الشمس عن الارض . ولما طبّق هذا المبدأ على النجوم ، عرفت حركة الشمس بالقياس اليها ، وقيست ابعاد مئات منها ، وكشف عن مئات من النجوم المزدوجة ، وعرفت كتل واقطار بعضها . ثم درست نتائج هذا الحيود ، فيما يرتبط بنور السدم التي خارج المجرّة ، فتبين ان معظمها يبتعد عنا بسرعة عظيمة — قدّرت سرعة ابتعاد احد هذه السدم بـ ١٥ الف ميل في الثانية — وعلى هذا بنيت نظرية الكون الآخذ في التمدُّد او الاتساع Expanding universe ثم ان المباحث السبكترسكوبية بينت ان السدم نوعان او طائفتان . فطائفة مكوّنة من كتل من الغاز المضيء او المتألق واما الطائفة الثانية فتطلق نوراً كنور النجوم فيرجح انها مجموعات من النجوم بعيدة عنا بعداً لا يمكننا من رؤية بعض نجومها الفردة

***

واذا كان هذا شأن السبكترسكوب في علم الفلك الحديث . فما هو اثره في ميادين العلم الاخرى؟ الكيماوي مدين للسبكترسكوب بالكشف عن عشرة من العناصر ، ولعلَّ اشهرها عنصر الهليوم الذي كشفه لكير في جوّ الشمس قبلما كشفه رمزي على الارض بنحو عشرين سنة . وانت تعلم مقام الهليوم في المباحث العلمية النظرية ، كتركيب الذرّة وتحويل العناصر ، كما تدرك مقامهُ في الشؤون العلمية ، فهو الغاز الذي لا يصلح غاز مثله ، لملء اكياس البلونات ، لانهُ خفيف وغير قابل للالتهاب.

ثم ان للسبكترسكوب شأناً ايَّ شأنٍ في علم الطبيعة النظري الذي يتناول الذرّة : وبناءها وتحويلها وكشف العناصر التي توجد منها مقادير ضئيلة في ركازاتها

ولأن السبكترسكوب في علمي الطبيعة والكيمياء حديث طويل نرجئهُ الى فرصة اخرى

استدراك على معجم الحيوان

— ٣ —

بقلم الدكتور معلوف باشا

قلت في المقتطف ٣٩ : ٣٤١ ما يأتي

الجلكى . الجلكا Petromyzum. E. Lamprey. F. Lamproie.

نوع من الاشلاق شبيه بالانكليس ذكره القزويني والدميري وصاحب محيط المحيط . قال الدميري: « الجلكى كرطى نوع متولد بين الحية والسمك اذا ذبح لا يخرج منه دم وعظمه رخو يؤكل مع لحمه يسمّن النساء اذا أكل » . وزاد القزويني على ذلك في قوله انه نوع من الجرّي يشبه المارماهي . فهذا الوصف ينطبق على هذا النوع من السمك لا سيما قوله ان عظمه رخو اي غضروفي ولا اعرف سمكاً كالانكليس فيه هذه الصفة الاّ هذا السمك والاسماك الاخرى التي من طائفة المواص (Cyclostomes) انتهى . وقد نقلت ذلك في معجم الحيوان ص ١٤٥ ببعض تصرف اي غيرت الاسم العلمي وما جاء في معجم الحيوان هو الصواب . ثم ذكرت في مقتطف نوفبر الماضي ص ٤٠٧ ان الاب انستاس سمى هذا النوع من السمك شِلقاً وقد خطر لي الآن ان الاب العلامة وكاتب هذه السطور بحثا في نوع واحد من السمك فسماه الاب المحترم الشلق وسميته الجلكى او الجلكا كما تقدم والاسمان واحد لفظاً ومعنىً اي ان ما ورد في محيط الفيروزابادي وشرحه في مادة شلق ليس الاّ ما ذكره القزويني والدميري في مادة جلكى او جلكا اي انهما ذكرا في هذه المادة الشلق عينه وانما بصورة اخرى فقد كتب العرب الفاظاً كثيرة بالجيم التي يضع لها العرب والفرس ثلاث نقط تحتها ويلفظونها كالشين او قريبة من الشين كما في شَوْل (چول وشَرْشَف چارشب وشوبق او شَوبك چُوْبه وشِيشَم چِشْم وشاي چاي وشلبي چلبي . على ان هذا غير مطرد . فقد ورد في چنار جنار وصنار وفي چين صين وفي دارچيني وخارچيني دارصيني وخارصيني وهو بحث طويل لا محل له هنا . وانا اجهل الفارسية ولكنها الفاظ التقطها من كتب القوم وما اوردته يكفي لان نقول ان جلكا كما كتبها القزويني او جلكى كما كتبها الدميري هو الشلق عينه بجعل حرف الجيم شيناً اي اننا لو لفظنا جلكا او جلكى شلكا او شلكى اتضح لنا الامر

لا سيما ان القزويني والدميري لم يذكرا كلمة الشلق بل اكتفيا بكلمة جلكا او جلكى عوضاً عنها . بقي عليَّ ان اقول ان فريتغ قرأ كلمة جُلْكا بالضم وتابعهُ في ذلك الدكتور هرتمن اثاي مترجم عجائب المخلوقات وصاحب محيط المحيط والكاونل جاياكار مترجم الدميري والكلونل اسطيفنصن مترجم نزهة القلوب على ان الدميري جعل اللفظة جلكى وضبطها كَمَرَطَى كما تقدم ولا اعلم صحة ضبطها اهي جُلْكا بالضم او جَلَكى بالفتح لكنني اعلم ان الجلكا او الجلكى هو الشلق عينه مكتوباً على صورة اخرى . ثم ان فريتغ والذين تقدم ذكرهم لم يترجموا الجلكا او الجلكى بل رسموها بحروف لاتينية ولم يتعرضوا لتحقيق امرها او ترجمتها ترجمة صحيحة . ولا اعلم هل لفظة شلق او جلكا يونانية الاصل او انها نشأت في سواحل بحر فارس فأخذها العرب والفرس وسموا بها هـذا الحيوان عن اليونانية فقد اوردها ارسطو في كتاب النعوت غير مرة واللفظة اليونانية التي اوردها هي Selache بقي علينا ان نذكر ما جاء في شرح القاموس قال صاحب التاج ما نصه : الشِلْق بالكسر او ككتف سمكة صغيرة او على خلقة السمكة لها رجلات عند الذنب كرجلي الضفدع لا يدان لهـا تكون في انهار البصرة وقيل هي من سمك البحرين وليست بعربية او هي الانكليس من السمك وهو الجِرّي والجريث عن ابن الاعرابي . انتهى

وعلى ذلك تكون صحة ترجمة Lamprey, Lamproie شِلق وشَلِق وجَلَكى وجُلكا او الاستغناء عن الكلمتين الاخيرتين فكلمة واحدة صواب خير من عشر كلمات خطأ . فالمرجو اصلاح ذلك في المعاجم المقبلة . وذكر الأب انستاس لمن شاء ذلك وحذف الدميري والقزويني لانهما لم يخبرانا اسم هذا الحيوان العلمي ولم يخبرنا بهِ احد من الذين ترجموا القزويني والدميري ولا اخبرنا بهِ شازي فانهُ لم يترجم القزويني بل ترجم بضع عشرة صفحة منه بطلب ده ساسي ونشرت هـذه الصفحات التي ترجمها في الطبعة الثانية من كتاب الانيس المفيد فتحقيق الجلكى لكاتب هذه السطور دون غيره

وقلت في معجم الحيوان ص ٢٣٨ وما بعدها ما يأتي :—

دَوْلع الواحدة دَوْلعة . دُلاَّع الواحدة دُلاَّعة Strombidae

فصيلة من الحلزون الكبار لها اغطية عطرية تسمى الاظفار واظفار الطيب وفي السودان الظفر او ظفر العفريت تتبخر بهِ النساء .والدُلاَّع انواع كثيرة ثم ذكرت بعضها وهي من جنس يعرف عند العلماء باسم Strombus ونقلت عن فورسكال ان اسمهُ السرنباق بالعربية سمعها في البحر الاحمر وقلت ان الدمشقي ذكر السرنباق في بحر القلزم اي ان لفظة السرنباق قديمة بالعربية ولا بأس من ايراد عبارة فورسكال بتمامها وهي ما يأتي

سرنباق Strombus gallus. Strompak. Arab, Strombak

فالاسمان الاول والثاني هما الاسمان الجنسي والنوعي وقد اعتمدها استاذه ليناوس واضع التسمية

المثنوية . ولا يزال الاسمان المعتمدان في ايامنا . والثالث الاسم اليوناني وقد كتبهُ فورسكال باليونانية محولتهُ الى احرف لاتينية لسهولة قراءتها . اما الاسم الرابع فكتبه بحروف لاتينية فابقيته على حاله واما الخامس فعربي وقد كتبه بحروف عربية . ولما كان الدمشقي قد ذكر السرنباق وهو اقدم من فورسكال كثيراً فلا شبهة في صحة اللفظة كما اوردها فورسكال ولاسيما ان كثيرين ذكروها بعده مما لا حاجة الى ذكره . ثم اليس من الغريب ان لفظة يونانية قديمة تكون شائعة في البحر الاحمر في زمن الدمشقي وفورسكال وتكون لفظة عربية مثلها شائعة كذلك وهل هذه اللفظة يونانية او نشأت في البحر الاحمر فنقلها اليونان عن العرب وعن سائر اهل سواحل البحر الاحمر كما نقلوا الفرخ واللاطيس والشلبا والبياض عن المصريين حقًّا انها مسألة تستحق النظر وعندي انهُ يتعذر ان يقال ان كلمة عربية هي يونانية الاصل فالقرش مثلاً سمك معروف في البحر الاحمر فهل تقدر ان تقول انهُ يوناني فلماذا لا نقول عكس ذلك اي ان اليونان اخذوه عن اهل البحر في الاماكن التي يكثر فيها هذا السمك وامثلة ذلك كثيرة . ثم انهُ ليس كل حيوان له اسم عند قدماء اليونان هو الحيوان الذي يسمى بالاسم عينه في ايامنا

وقلت في معجم الحيوان ص ٢١ ما يأتي : —

عنقريط (فورسكال) Argonauta argo. Paper nautilus

حيوان هلامي رأسي الارجل اي من طائفة الاخطبوط له صدفة رقيقة جدًّا

هي في نسخة فورسكال المطبوعة عنقريظ بالظاء المعجمة ولعلها خطأ مطبعي والصواب بالمهملة . ولا يخفى ان فورسكال توفي قبل نشر كتابه . وقد اخذها عنه فريتغ كما هي بالمعجمة ونقلها عنهُ البستاني في محيط المحيط وقال ضرب من السمك وصوابه ما ذكر . ولعل اللفظة تعريب الاصل اليوناني . انتهى

وما يأتي عبارة فورسكال بنصها

عنقريظ Argonauta argo. Arab Ankarit

اما الاسمان الاول والثاني فهما الاسم الجنسي والنوعي الذي يعرف به هذا الحيوان عند العلماء في ايامنا ولعلهما من اوضاع فورسكال او استاذه ليناوس كما تقدم لانهُ لا اسماء مثنوية قبل ليناوس وقد يكون الاول اي الاسم الجنسي معروفاً قبل ليناوس وهو اسم منحوت او تركيب مزجي من كلمتين معناها ملاح السفينة كان يسمى به احد الملاحين الذين صحبوا ياسون في سفره المشهور فلا شبهة ان هذه اللفظة يونانية قديمة جدًّا فهل اللفظة العربية التي سمعها فورسكال تعريب اللفظة اليونانية فان كانت تعريباً اليس ذلك غريباً جدًّا اي يعرب اسم يوناني منحوت على هذه الصورة وان لم يكن تعريب الاسم اليوناني فهو اتفاق اغرب جدًّا

الحشمة والعري (١)

مقال يتضمن آراء اشهر الباحثين

للدكتور صبري جرجس

تدل المباحث التي قام بها العلماء في العهد الاخير على ان عاطفة الخجل ليست أصلية في الإنسان، ولكنها ثمرة من ثمار الحضارة، او بعبارة اخرى ظاهرة عقلية نشأت خلال التطور التدريجي للحياة الإنسانية. وهي موجودة إلى حد ما في الإنسان الذي يمارس العُرْي، ولكنها قوية ومميزة للانسان الذي يستعمل الملابس. وقد نمت عادة ارتداء الملابس وعاطفة الخجل جنباً الى جنب وكانتا ترميان الى غرض واحد دائماً. وقد قام علماء علم الأجناس بمباحث انتقادية عدة في هذا الموضوع، وأهمها المباحث التي قام بها هفلوك إليس وستراتز وكارل فون ستاين

ويذكر هفلوك إليس عاملين للخجل: عاملاً حيوانيًّا وآخر اجتماعيًّا. والعامل الاول تناسلي بطبيعته وهو اقوى نمواً في المرأة منهُ في الرجل، بل انهُ كان في بدء الامر مقتصراً عليها فقط وكان الغرض منهُ حماية أعضائها الخاصة من هجمات الرجل غير المرغوب فيها. وقد نستطيع ان نلاحظ عاطفة الخجل على هذه الصورة في بعض انواع الحيوان ايضاً

وهو يقول بان عاطفة الخجل التناسلي في انثى الحيوان ناشئة من انها تقصر علاقاتها التناسلية على اوقات خاصة فقط، وهي ايضاً علامة على عدم استعدادها لقبول الحب الا في زمن بعينه. ونحن نرى ان الانثى من الكلاب حين تهيج فيها العاطفة الجنسية تلتمس الذكر وتسعى اليهِ، ولكنها لا تسمح له بالتزاوج الا بعد شيء من الدلال والتظاهر بالامتناع والنفور. وبذلك نرى ان عاطفة الحشمة التناسلية في الانثى هي نتيجة لازمة لنشاط الرجل في العلاقات الجنسية وهدوئها واستسلامها فيها. وهذا بدوره ناشىء من ان العاطفة الجنسية للانثى في الانسان وكل الانواع القريبة منهُ دورية اما هو فلا يحتاج الى اي رعاية خاصة من هذا القبيل

ويوجّه جروس النظر الى ان تلك الظاهرة البيولوجية والنفسية الهامة — الدلال — تتوقف الى حد كبير على عاطفة الخجل. بل هي تنشأ من النزاع الداخلي بين الغريزة الجنسية وعاطفة الخجل

(١) معظم الحقائق المذكورة في هذا الفصل مقتبسة عن كتاب ايفان بلوخ «الحياة التناسلية في الزمن الحاضر وعلاقتها بالمدنية الحديثة» وكتاب اوجست فورل «المسألة الجنسية»

كما ان هناك عاملاً اجتماعيًّا هامًّا في الشعور بالخجل هو الخوف من اثارة الاشمئزاز . ويجدر ان نذكر هنا نظرية لومبروزو (١) عن الاصل في عاطفة الخجل . فقد لاحظ لومبروزو على كثيرات من البغايا امتناعهنَّ عن الكشف الطبي اثناء الحيض وهو يقول بان هذا هو الاصل في عاطفة الخجل عند المرأة البدائية الاولى : أي خوفها من اثارة الاشمئزاز في نفس الرجل

وقد قام ريشه بدراسات واسعة عن الاصل في هذا الاشمئزاز فوجد انهُ انطلاق رائحة خاصة تسبب الاشمئزاز والنفور عند كثير من الشعوب البدائية ، وهذا سبب تستُّر النساء عن غيرهنَّ وخصوصاً عن افراد الجنس الثاني

على ان لعاطفة الخجل علاقة وثيقة بعادة ارتداء الملابس وخصوصاً في الاطوار المتأخرة للحضارة . وذكر كارل فون دن ستاينن في مشاهداته الخاصة عن قبائل البقارى التي تقطن في البرازيل الوسطى ما يأتي :

«لا يمكن ان اعتقد أن عاطفة الحياء التي لا تنعدم تماماً بين هؤلاء الهنود العراة عاطفة أولية في الانسان . وأنا مضطر الى الايمان بأن هذه العاطفة لم تبدأ في الظهور إلاَّ بعد ان اعتاد الانسان ستر بعض اجزاء جسده بالملابس ، وأن عُرْي المرأة بدأ يسترعي أنظار الغير حين عمد تعقيد الحياة الاجتماعية والاقتصادية على الزيادة من قيمة الفتاة القابلة للزواج . كما أني اعتقد أننا نزيد من صعوبة هذا التعليل كلما عزونا الى أنفسنا عاطفة من الحياة أقوى مما نملك فعلاً »

وفي مجتمع يحيا فيه كل انسان عارياً لا يكون العري الاَّ امراً طبيعيًّا لا يدعو الى الخجل ولا يثير الشهوة . بل إن الملابس القصيرة الشفافة التي ترتديها الراقصات في اوربا أقل تحشماً من عري المرأة الهمجية . وقد قال احد العلماء الطبيعيين في هذا الصدد ان الجسم الذي تستره الملابس أشد اثارة للعاطفة الجنسية من العري المطلق . وقال سنو إن مصاحبة المرأة الهمجية العارية اقل تنبيهاً للعاطفة الجنسية من مصاحبة المرأة الانيقة في « الصالونات » الحديثة . وقال ريد « ليس هناك ما هو اكثر تحشماً ولا اقل اثارة للشهوات من العري » . ومن البديهي ان هذه الحالة لا تكون صحيحة الاَّ اذا أصبح العُرْي عادة يمارسها الجميع . وقد حاول بعضهم ان يروض المتوحشين على استعمال الملابس بقصد الاحتشام فكانت النتيجة عكس ما أرادوا

والانسان يتعود سريعاً حالة العري كما لو كانت امراً طبيعيًّا . أما قبائل البقارى التي تمارس العُرْي المطلق فانها لا تولي «الاعضاء التناسلية» أي اهتمام خاص . وهي تتحدث عنها بعدم الاكتراث التام . ومن السخف أن نعدهم لجُرأة هذا السبب . اما الكيس الذي يستعملهُ الرجل والفوطة مثلثة الاركان التي تستعملها المرأة فليس الغرض منهما ستر الاعضاء التناسلية ولكن يقصد بهما حماية هذه الاعضاء من عوامل الاذى الخارجية بقدر الامكان

ومن الهزل ان نعد هذه القطع الصغيرة ملابس بالمعنى الصحيح لانها لا تستطيع ان تخفي شيئاً.

---

(١) كتاب لومبروزو وفريرو « المرأة كمجرمة وبغي »

وهي في الواقع وسيلة من وسائل التزين والفتنة ولا علاقة لها بالحشمة مطلقاً

وكذلك نستطيع أن نلاحظ بين بعض قبائل البرازيل الوسطى التي تتبع في حياتها نظام العصر الحجري، كل نتائج العُري المطلق، كما نستطيع أن ندرك أن العُري لا علاقة له بالشهوة كما نفهمها نحن فان العوامل الفسيولوجية لعاطفة الحياء ليست من القوة بحيث تؤدي الى ظهور هذه الظاهرة النفسية في هذه الصورة الواضحة

وقد قام ستراتز بدراسة ملابس المرأة في الاجناس المختلفة دراسة دقيقة، وكان مما ذكرهُ عنها « ان الغرض الاول والوحيد من استعمال الملابس عند الانسان البدائي هو الزينة لاستر الجسد ». لان الرجل العاري لا يعرف الخجل بعكس الرجل الذي يستعمل الملابس. وهذا ينطبق على الانسان المتوحش والمتمدن سواء بسواء. بل ان الانسان لا يشعر بالخجل من اي مظهر من مظاهر العُري التي تقتضيها منهُ « الموضة » والدليل على ذلك موقفهُ من ملابس السهرة (الديكولتيه)

وتعدّ دراسة تاريخ الملابس والموضة بالعوامل الهامة لفهم الاصل في عاطفة الحياء عند الانسان الحديث ولتقدير حدودها الطبيعية. هذا فضلاً عن ان للملابس علاقة مباشرة بالحب كظاهرة نفسية. وقد قال هرمان في هذا المعنى « ما اعظم الاثر الذي يحدثهُ الحب في جميع درجاتهِ في الملابس! وما اقوى ما تفصح الملابس عن الحب!»

وقد اثبت وسترمارك وغيره من علماء الاجتماع أن الوشم وصبغ الجسم وغيرهما ليستا الاَّ رموزاً للملابس لجأ اليها الانسان البدائي الاول. وقد قال بلوس بارتل في هذا الصدد « لا يمكن أن اشك في ان الوشم عند الانسان الاول كان يرمي الى غرض آخر غير ستر عريهِ ». وكذلك قال جوزيت وهو اكبر الثقاة في الوشم: «كلما قلّل الرجل من ملابسه زاد في وشم جسده وكلما زاد منها قلل من وشمه»

وللوشم غرض آخر هو التزين والفتنة وتنبيه العاطفة الجنسية. وقد استعمل الوشم في اغراض اخرى طبية او سياسية او اجتماعية (للتفريق بين الطبقات مثلاً) ولكنهُ كان مع ذلك عاملاً من عوامل الفتنة التناسلية. وليس أدل على هذه الناحية من ان فتيات بعض الاقوام الهمجية يعتدنَ وشم الاعضاء الخاصة. وقد يحسب الناظر لاول وهلة انهنَّ يسترنها بفوطة خاصة وذلك لقرب الشبه بينها وبين الوشم. كما ان بعض هذه الاقوام تقوم بعملية الوشم عند بدء ظهور الحيض. ولا يصح ان نغفل أثر اللون في الوشم. فان العلاقة بين اللون والعاطفة الجنسية وثيقة (لانج)

ويظهر ان الوشم كنبه تناسلي بدأ ينتشر انتشاراً واسعاً بين الطبقات العالية في المجتمع الباريسي رجالاً ونساءً على السواء. ويرسم الوشم على اشكال مختلفة ولكن يضيق بنا المقام عن احصائها

نرى من ذلك ان الغرض الاول من الملابس لم يكن ستر الجسد وانما كان التزين. اما استعمال الملابس بغرض الستر فقد نشأ فيما بعد، حين اكتسبت منطقة الاعضاء التناسلية شيئاً من الرهبة والاحترام... حينئذٍ فقط بدأ الانسان يخفيها حتى يقي غيره شرّها او حتى يقيها شرّ نظرات الناس

وقد تقدم بعض الباحثين بنظرية جديدة يقولون فيها ان استعمال الملابس انما نشأ عن غيرة الرجل الاول . ويستدلون على ذلك بأن المرأة المتزوجة عند بعض الاقوام الهمجية يحتم عليها ارتداء الملابس بينما تمضي الفتاة غير المتزوجة عارية تماماً . وذلك لان المرأة بعد زواجها تصبح جزءاً من متاع الرجل . فلما امتدت فكرة الامتلاك حتى شملت العلاقة بين الاب وابنته غير المتزوجة اضطرت الاخيرة الى استعمال الملابس أيضاً . ومن هنا نشأت فكرة العفاف وعاطفة الحشمة التناسلية

والامثلة كثيرة على ان ستر الاعضاء التناسلية في اول الامر لم يكن ناشئاً عن الشعور بالخجل او الحشمة ، وانما كان — الى جانب اعتباره من وسائل التزين — منبهاً تناسلياً هاماً . وقد استعملت كل انواع التزين للفت النظر الى منطقة الاعضاء التناسلية والعجزين . وكانت محاولة سترها تنبه الشهوة اكثر من العري التام . وهذه ظاهرة نشاهدها كل يوم في حياتنا المتحضرة اليوم

ويقول فاري ان وسائل الانسان في الاستمتاع تفوق وسائل الحيوان كثيراً ، لأن الحيوان لا يعرف التزين المتصنع ، اما في الانسان فان هذا الستر الشفاف الناقص الذي تدعي به المرأة اخفاء محاسنها انما يعمل في الواقع على كشفها وعلى اثارة الشهوة في نفس الرجل الى غير حد « فكلما قلّ ما يراه الرجل من جسم المرأة زاد ما يصوره له خياله عنه » وليس العُري التام المطلق هو الذى ينبه العواطف التناسلية عند الانسان ولكنه « العُري الناقص » الذي يمارسه في حياته الآن . ويقول وستر مارك في هذا الصدد ما يأتي « لدينا أمثلة كثيرة على الشعوب التي تمارس العُري التام ولكنها تستعمل بعض الملابس احياناً . وهذه الملابس لا تُرتدى الا لغرض التزين والفتنة فقط ، حتى ان في بعض هذه الشعوب يقتصر استعمال الملابس على العاهرات اللواتي يقصدنَ بها تنبيه العاطفة الجنسية عند الرجال . ونحن نعلم انه في بعض شعوب افريقيا الوسطى تمضي النساء المتزوجات عاريات تماماً بينما تستر الفتيات غير المتزوجات انفسهنّ بالملابس (تنبيهاً للرجل الى الزواج) »

ولعلّ في دلالة الملابس كمنبه تناسلي عند الاقوام البدائية ما يظهر ما لها من الشأن في « الموضة » عند الشعوب المتمدنة . لانهم يتوسلون بها الى تنبيه الشعور الجنسي عند الرجل تنبيهاً قوياً وذلك بالاستعانة بها على اظهار بعض المحاسن واخفاء بعض العيوب . وقد استغلّ موسى هذا التأثير النفسي للملابس في زيادة الانسال بين قومه ، فأمرهم باستعمال الملابس لاخفاء محاسن المرأة « حتى تنتبه عواطف الرجال وزيد الانسال » وقد اعترض على العُري بحجة انه أمر غير لائق ، ثم جاءت المسيحية فحرّمته بحجة خروجه على الآداب العامة . ونحن نستطيع ان نجد شبيهاً لهذا التغيير في الرأي في مئات الامثلة التي تزخر بها حياتنا العامة الآن

اما أقوى المنبهات الحسية فهي حالة « الاخفاء الجزئي » أو « العري الناقص » : اي فن اظهار محاسن الجسد مع محاسن الثياب . ولعلّ هذا ايضاً من الأسباب الهامة في ظهور ما يسمى « التعشق الخيالي للثياب » وهو احد الامراض التناسلية النفسية

وأثر الملابس من هذا القبيل مزدوج : فهو اولاً اظهار بعض اجزاء الجسم بصورة قوية واضحة في شكل الملابس ومن قطعها ومن بعض ادوات التزين فيها . والثاني اخفاء بعض الاجزاء الاخرى

ثم ان تقسيم الملابس الى داخلية وخارجية له دلالة تناسلية هامة أيضاً . وقد كانت الزيادة في عدد قطع الملابس هي التي صبغت بالشهوة فكرة « ارتداء الملابس او خلعها » اي فكرة التجمل « والتواليت » . وقد اصطحبت هذه الفكرة بأخرى هي ان الخصر — وخصوصاً في المرأة — يفصل الجسم الى منطقتين: منطقة عليا مختصة بالقوى الذهنية ومنطقة سفلى مختصة بامور الجسد

وقد مهّد هذا التمييز والتقسيم في الملابس ميداناً خصباً تنشط فيه « الموضة » التي يرجع عهدها بالظهور الى القرون الوسطى . فالموضة اذن هي ثمرة من ثمار القرون الوسطى وأهم عواملها المميزة في ذلك الحين هو المشد «الكورسيه »

وقد ذكر ستراتز بهذا الصدد في كتابه الشائق «ملابس المرأة» ما يأتي : —

« قد يبدو غريباً ان يكون الاصل في ظهور الكورسيه عند المسيحيين هو عبادتهم لله ، ولكن هذه حقيقة لا سبيل الى الشك فيها . فان رجال الدين في ذلك العهد كانوا يتمتعون — على الاقل في الحياة العامة — بنفوذ واسع النطاق ؛ وكانت النظرة الادبية السائدة اذ ذاك تقضي بستر كل ما يمكن ستره من جسم المرأة وبقمع شهوات الجسد. وكانت تقضي على اي حال بتغطية الاعضاء المميزة للمرأة عن انظار الرجل الخاطئة . وكان الناس يعتقدون ان المرأة وقد ادخلت الخطيئة الى العالم يتعين عليها ان تخفي من أعضاء جسدها كل ما يمكن ان يدعو الى الخطيئة . وبينما نرى ان الرجل كان يحاول جهده في انماء صدره وفي الظهور بمظهر القوة والفتوة ، اذ نرى ان المرأة فيما بين القرن الثاني عشر والسادس عشر كانت تعمل على ان يكون صدرها منبسطاً وضيقاً بقدر الامكان . وكانت تستعمل لهذا الغرض نوعاً اوليًا من الكورسيه »

ومن الغريب ان الموضة استخدمت الكورسيه فيما بعد لعكس هذا الغرض تماماً : أي لاظهار الثديين وابرازها بقدر الامكان . وقد كانت الموضة منتصرة دائماً على طول الخط في النزاع الذي قام بينها وبين النظرة الادبية في القرون الوسطى

وقد ذكرنا ان الكورسيه باظهاره الفرق واضحاً بين بروز النهدين ورشاقة الخصر قد عمل على زيادة ظهورها . ثم جاء «الديكولتيه» فكشف عن الجزء الاعلى من الثديين . وهذا امر مشاهد في المراقص والحفلات ولكنه يدعو الى كثير من النقد . حتى ان رجلاً واسع الصدر كثير التسامح في نواح اخرى مثل هيرث اضطر ان يهاجمه بكثير من الشدة والعنف . علاوة على ان تلك الحفلات لا تخلو من الخمر عادة . والرجل تحت تأثير الخمر عرضة لان ينظر الى تلك المحاسن المكشوفة امامهُ نظرة ليست ادبية كلها

على ان للكورسيه — علاوة على الناحية الادبية — عيوباً اخرى تتصل بالصحة . فهو يعوق

التنفس الصحيح ويسبب فقر الدم ويضغط على الاعضاء الداخلية في التجويف البطني ضغطاً مؤذياً (وخصوصاً المعدة والكبد) ويسبب هبوط الكليتين والكبد وارتخاء البطن وقد يؤذي الثديين بالضغط عليهما فينتج عن ذلك ضمورهما واصابة الارضاع بعطل كبير . وهو فضلاً عن ذلك يفسد قوام المرأة افساداً كبيراً ويشوّه العمود الفقري وعظمتي الفخذ وهلمَّ جرًّا . اما فوائده المزعومة فكلها اوهام باطلة . ولن تعرف المرأة القوام الرشيق حتى تتحرر منه . وقد هاجمهُ عدد كبير من الاطباء المعروفين نذكر منهم فون كرافت ايبنج الذي قال عنهُ «انهُ اشد الاخطاء نكراً في ملابس المرأة» ومنج Menge الذي درس آثاره السيئة في المرأة دراسة عميقة وافية

وقد ظهر اثر الفوارق الجسدية بين الرجل والمرأة من ملابسهما . ولعل هذا الفرق اوضح ما يكون في طول ساق الرجل عن المرأة مما يجعله اسرع عدواً منها . ولما كانت ملابس الرجل تظهر سيقانه بشكل جلي فانها لا توافق المرأة وخصوصاً عند وقوفها . وهذا سبب هام من اسباب الخلاف بين ملابس الرجل والمرأة

كما ان ملابس الرجل تتميز عن ملابس المرأة ببساطتها وميلها الى التشابه . وهذا فيما اعتقد راجع الى تفوقه من الناحية الذهنية مما يغنيه عن الاستعانة بالملابس لاظهار شخصيته . وقد كانت المرأة في الزمن الماضي مخلوقاً تناسليًّا فحسب فاضطرت ان تستغلَّ الملابس لعدة اغراض : كوسيلة للفتنة والاستعاضة بها عن حياة النشاط التي كانت تنكرها عليها الطبيعة والتقاليد . أما الرجل فلم يفكر في استعمال الملابس كشيء من هذا القبيل الاَّ في القليل النادر

ثم ان بين الملابس والحياة التناسلية علاقة اخرى مباشرة : هي اثر بعض مواد الثياب في الجلد . فان الملابس الصوفية والفراء مثلاً من المنبهات التناسلية . وقد شبه ريان اثرها في الجلد بالسياط . وللقطيفة اثر مماثل لهذا ايضاً . كما ان المنبهات الناتجة عن الشم لها أثرها في هذه الناحية . وقد كتب احدهم الى زوجته خطاباً يصف فيه شعور اللذة الذي ينبعث الى نفسه من دفن رأسه في فرائها واستنشاق رائحته . وهو يعزو سحر المرأة وسيادتها الى اثر الفراء فيها !

واذا كنا قد ذكرنا ان ملابس الرجل اقل خضوعاً لرق الموضة من ملابس المرأة فاننا نذكر الآن ان المرأة قد بدأت تنحو نحو البساطة وبدأت تتحرر من اغلال الموضة وتشاد على اساس الصحة والفائدة . ومما يستحق الذكر ان المرأة نفسها هي التي تقود هذه الحركة . وهذا دليل جديد على العلاقة الوثيقة بين الشخصية والملابس ، لاننا اذ نطبق هذه النظرية لا نرى في ميل المرأة نحو بساطة الملابس الاَّ اثراً منطقيًّا لتحررها . ونحن لن نجد مثالاً افضل لحرية الملابس ومطابقتها للبساطة وقواعد الصحة من ملابس المرأة اليابانية . على ان الموضة لا تزال كما كانت في الماضي هي صاحبة السلطان على الملابس النسائية ونحن نرى اثر ذلك كل عام في الاكتشافات الجديدة وفي وسائل التحسين والتجميل وفي طرق الاظهار والاخفاء وفي غيرها من الوان التحايل التي تدخلها عليها .

ولم يظهر لنهضة المرأة بعد سوى أثر واهٍ ضعيف في سبيل تحرير ملابسها من رق الموضة

العلاقة بين عاطفة الحشمة والعري في الحضارة الحديثة : — رأينا كيف ان الموضة في مظاهرها المختلفة تعمل على اضعاف الشعور بالخجل . ولكن الملابس من ناحية أخرى هي السبب الوحيد في ظهور عاطفة الحشمة . فالحشمة لا تعرف الاّ الانسان الذي يستر جسده بالملابس وتنكر الانسان العاري كل الانكار . وهي ترفض الاعتراف بالآثار الخلقية والادبية للعري الطبيعي : فان هذه الحالة من وجهة نظرها نابية على الآداب باعثة على النفور والاشمئزاز . ونحن — الفريق المتحضر من الانسانية — يجب ان نعزو الى الحشمة السبب في ضياع مزاج العري الطبيعي من اذواقنا وكذلك السبب في ضياع عاطفة الخجل الطبيعية

فالعري الطبيعي — وهو الحالة التي يأتي بها الانسان الى هذا العالم — يخرج عن ان يكون موضعاً لتأمل الرجل ذي التفكير السليم الذي لا يرى في الجسم العاري شيئاً يخالف ما يراه في الجسم المغطى بالثياب . والناس المحتشمون يصرحون بهذا حين تتاح لهم الفرصة لرؤية مناظر العري في حالة طبيعية اثناء الاستحمام . ولا يصبح للعري اثر منبه للشهوة الاّ حين تدخله عمداً تلك العوامل الصناعية التي تؤثر في العاطفة الجنسية . فالحشمة اذن ليست الاّ نظرة خاصة ازاء العري تختبيء في طياتها الشهوة

ان اخفاء الامور الطبيعية هو الذي يبعث رغبة الانسان فيها ويهيج شوقه اليها . وقد بالغ الناس في هذا العصر في عاطفة الخجل الطبيعية وتشددوا في كبت نواحٍ طبيعية من الاحساس والنشاط فأدى ذلك الى زيادة الرغبات الخبيثة زيادة كبيرة . وليس هذا في الواقع الاّ وقوداً جديداً يضاف الى نار الشهوات الجسدية أما شعور الخجل الطبيعي الاول فانهُ يضعف من الشهوة . واليهِ يرجع الفضل في السمو بالعاطفة الجنسية . وهو وثيق الارتباط بالامتناع الاختياري المؤقت الذي لا ينكر شأنهُ في حياة الانسان كما انهُ هذب الغريزة الجنسية دون ان ينكر مطالبها

والثقافة الكاملة تقتضي البراءة التامة . وهي تنكر كل الانكار عملاً كالذي اتاه ذلك القسيس المصاب « بمرض الشمة » حين هشم الاعضاء التناسلية لبعض التماثيل القائمة في متحف درسدن ، كما انها لا تجرد الروح الانسانية من الشعور الجنسي ولكنها ترى في العاطفة الجنسية امراً نبيلاً طبيعيًّا

ان الشعور بالخجل حادث مكتسب من الحضارة ولا يمكن تحويله : هو احترام الذات . ولكن هفلوك إليس يقول بحق ان احترام الذات في الانسان المثقف الراقي يقف حائلاً دون الغلوّ في شعور الخجل . لان المعرفة والثقافة تكبح الحشمة الزائفة . والانسان المثقف يحاول ان يكون طبيعيًّا في كل شيءٍ ، وهو يرى في الحياة التناسلية جزءاً هامًّا لا يتجزأ من الحياة العامة : يرى شيئاً معقولاً لا ضرر منهُ ولا يجوز الاستخفاف بهِ كما لا يجوز الغلو في تقديره كما يفعل المنافقون في تقديرهم للحشمة

السيكلوجية الحديثة

التحليل النفساني

ليعقوب فام

فرويد

عقل فرويد خصب جداً في ابتداع النظريات ، يرسلها ارسالاً كلما وجد حاجة ماسة اليها ، وكلما وجد انها تتفق مع ما يقابله في علاجه من العقبات . انهُ لا يعنى كثيراً بتحقيق هذه النظريات وجمع الادلة عليها من الواقع او من التجارب في المعامل النفسية ، لا يفعل هذا لانهُ لا يؤمن بالسيكلوجية التجريبية كما قدمنا في مقال سابق ، ولا يفعله ايضاً لانهُ معنيٌّ بمعالجة الحالات التي تعرض له دون ان يهتم بالسيكلوجية نفسها كعلم قد ينفع وقد لا ينفع في شفاء الامراض ، وكل ما يهتم بهِ هو هل تنطبق النظرية على تلك الحالة المعينة بذاتها التي يعالجها في وقت معين او لا تنطبق ؟

قلنا في المقال السابق ان برور وفرويد وجدا صعوبات في تنويم المرضى منها انهُ يستعصي على بعضهم ومنها ان بعض من ينام منهم يصبح مفتوناً بالطبيب ، فحلَّ برور هذه المعضلة بان ترك هذا الضرب من العلاج تركاً باتاً ، واما فرويد فقد حلها بأن اغفل التنويم من طريقته في العلاج واستعاض عنهُ بشيءٍ يشبههُ قليلاً ويفضي الى النتيجة نفسها ، وهو ان يضع المريض في حالة بين بين ، يجلسهُ على مقعد مريح ، ويوحي اليهِ بالطمأنينة والثقة ، وانهُ حرٌّ في ان يقول ما يشاء من غير حاجة الى التردد او محاولة كبت بعض الخوالج النفسية ، وبعبارة اخرى استعمل فرويد طريقة تداعي الخواطر بدلاً من التنويم ، فوجد انها تنفع في الحالات التي كانت تستدعي التنويم

ونظريته في تداعي الخواطر «Association» هي انهُ لا بدَّ من ان تقود المريض الى الكشف عن علتهِ الاصلية وعمل الطبيب الذي يكون قد أَلمَّ بعوارض المرض وعرف تاريخهُ وملازماته هو ان يترقب الخواطر التي تكون لها صلة مباشرة او غير مباشرة بالمرض ، وان يبحث فيما يقصُّهُ المريض علهُ يجد علاقة بينهُ وبين مرضه ، فيدله على هذه العلاقة ويفتح ذهنه ، ويعينه على ان يضع الاشياء في مواضعها الاصلية من غير مبالغة او مغالاة او اغراق ، والمرض النفسي هو في الواقع نوع من الاغراق والمبالغة في الاهتمام ببعض المشاعر والرغبات

ولكنهُ وجد ان بعض المرضى يغربل تلك الخواطر والمشاعر ويختار منها ما يصرح بهِ وما لا يصرح بهِ ، فيحكم عقله فيما يقول وفيما لا يقول ، فما كان من فرويد الاَّ انهُ سارع ووضع نظرية المقاومة Resistance ليحل هذا الاشكال ، زاعماً ان في المريض شيئاً او قوة او ملكة او سمهِ كما شئت وهذا الشيء يدفعه لان يداري عن بعض المشاعر النفسية ويحتجزها في قرارة النفس كأنهُ يبقي عليها ليوم اخر او لظرف آخر ، او كأنهُ لا يملك افشاءها لسبب من الاسباب يجهله هو نفسه في معظم الحالات

***

اخذ فرويد يبحث في هذا الشيء الذي يبقي على بعض الحقائق ويضن بها ان تعلن فيما بين الناس او فيما بين المريض ونفسه ، اخذ يتساءل عن السر في هذه المقاومة ، ولماذا يقاوم المريض اصلاً اذا كان الافشاء لا يقصد بهِ شيئاً سوى شفاء المريض ورده الى حالة الصحة والسلامة . ما الباعث على هذا ؟ وكل الامور تدل على انهُ من حق الطبيب ان يعلم ومن حق المريض لا بل من واجبه ان يتكلم

ثم اخذ فرويد يجادل مرضاه ويقنعهم ان يذكروا له كل ما يعنّ لهم من غير ان يتخيروا شيئاً للكلام فيه وشيئاً للضن بهِ ، فكان من المرضى من يقول ان ما يحتجزه هو في الواقع شيء سخيف وتافه لا شأن له في الموضوع ، ومنهم من يقول صراحة انهُ لا يفضل ان يتحدث فيما توارد على خاطره في تلك اللحظة لانهُ لا يقدم ولا يؤخر في العلاج ، ومنهم من كان لا يقول شيئاً ولكنهُ يتردد في الحديث ويبدو عليه هذا التردد وانهُ يجاهد نفسه في اخفاء شيء بذاته

ولكن ما هذا الذي يصر على التضليل بفرويد ؟ ليس هو المريض بالطبع لان المريض قد حضر ليتعالج وليس ليقاوم الطبيب ويسد عليهِ المنافذ ، لم يأتِ ليجاهد ويناهض ويرتأي الآراء فيما له شأن في العلاج وفيما ليس له ذلك الشأن . وانما اتى طائعاً مختاراً ليسلم نفسه للطبيب ويخضع لنصحهِ ومشورته ، حار فرويد في هذه الظاهرة زمناً ، واجترَّها زمناً آخر ، واذا هو يتقدم للعالم ، ذات يوم ، بنظرية طريفة ، وهل يفعل فرويد شيئاً سوى ان يقدم للعالم نظرية لأية حالة معينة قد تقع بين يديهِ

ومحصل هذه النظرية انهُ قسم العقل الانساني ، او النفس الانسانية ، او الشخصية ، او سمها كما شئت الى قسمين قسم واعٍ شاعر بما يعمل ، وهو ما يحسه الانسان ويعمل بناءً على مشورته ، عارفاً في الوقت نفسهِ انهُ ينشط ويتصرف اجابة لداعي هذا القسم ، ثم سمى هذا القسم بالواعية Conscious ، وقسم آخر يشعر ايضاً بما يفعل ويريد ، ويعرف الدواعي لهذا الفعل وهذه الارادة ولكنه يخفي جميع هذه عن الانسان نفسه ، ويخفيها ايضاً عن الواعية نفسها ويضن بها ان تعرف في اي حال من الاحوال . ومع ان هذا القسم مستور خفي ، لا يحسه احد ولا يشعر بوجوده

احد الاَّ انهُ يملك من الوسائل ما يجعله يستطيع ان يستخدم الواعية كيف يشاء ومتى اراد ، وهذا القسم اسماه العقل الباطن Unconscions ، والعقل الباطن هذا له اغراضه وغاياته التي يسعى الى تحقيقها ، وهو يحققها بجميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة ثم يطلب الى الواعية لا بل يأمرها ان تسوّغ هذا التصرف امام الناس وأمام نفسها بأية طريقة تراها منتحلة له من الاعذار ما يرضيها ويرضي الناس ، هذا شأنها الذي لا يتدخل فيه العقل الباطن ولا يعنى بهِ بحال من الاحوال

ولكن هل حقق فرويد نظريته هذه ؟ هل اجرى عليها التجارب العلمية المطلوبة ؟ هل اختبرها بشكل يقطع كل شك في صحتها ؟ هل يستطيع ان يجزم ان العقل الانساني ينقسم الى واعية ولا واعية ؟ لا بل هل يستطيع ان يجزم بأن العقل الانساني ينقسم اصلاً ، واذا انقسم فهلاّ يفعل الاَّ بهذه الطريقة وبهذا الوضع ؟ وما هي التجارب العلمية التي اجراها حتى يتحقق من هذا الزعم ؟ اما فرويد فانهُ لم يجرِ تجارب اصلاً ، ولم يحاول ان يتحقق بوجه من الوجوه من صحة هذه النظرية لا بل نزعم انهُ لا يستطاع التحقق من صحتها بالوسائل السيكلوجية المعروفة لدينا في الوقت الحاضر ، وكل ما نعرفه عنها الآن انها قد تصدق وقد لا تصدق . وكل ما يقوله فرويد هو ان هذا هو الاساس الذي أسير عليه في علاجي ، وأرى انه يفيد ، وأرى انه معقول ، ثم ارى انهُ ينطبق على الحالات التي تعرض لي ، وتستطيع ان ترى صحة هــذه النظرية اذا ما دققت النظر في الحالات التي تعرض عليك

ولنسلّم جدلاً بأن هذه النظرية صائبة ، وانها هي الواقع والحق ، فاذا بعد ذلك ؟ ما هو السبب الذي يدعو الى المرض العصبي في هذه الحالة ؟ العقل الباطن يريد شيئاً فيفعله ، يسعى الى الشيء فيحصل عليهِ ، ويطابق الواعية على الناس وعلى الانسان نفسه لتسوّغ هــذا التصرف او هذه الشهوة ، فأين العقدة في هذا اذن ؟ ولماذا تنشأ العقدة Psychoses or Complex اصلاً في هذا النظام ؟

***

عرضت هذه الاسئلة لفرويد كما عرضت لنا الآن . نحن نقف عندها حائرين ، واما هو فلا يحار لانه يحل هذه المعضلة بنظرية اخرى او بتعديل في نظريته الأصلية ، فقد قلنا ان عقل فرويد خصب في اختراع النظريات فبعد ان قسم العقل هذا التقسيم ، عاد فقسم النفس الى ثلاثة أقسام حتى يستطيع ان يوجد مجالاً للعقدة في المرض النفسي او العصبي ، لان العقدة في المرض العصبي كما لا يخفى هي معضلة لم يجد الانسان لها حلاً معقولاً يريح النفس ويجعلها تتفرغ لشئونها ، وانما هي موضع للنزاع العنيف بين بعض عناصر النفس

زعم فرويد ان العقدة تنشأ من ان النفس تنقسم الى ثلاثة أقسام ، اولها هو النفس النزوعة Id. او هي مكمن الرغبات والميول والشهوات ، هذا القسم أناني لا يسعى الاَّ لتحقيق شهواته واهوائه

انه شهوة مستعرة مستديمة ، تطلب شيئاً في كل حين ، وتنزع الى اطفاء غلتها في كل آن ، ليس عليها الاَّ ان تطلب وتلحف في الطلب . لا تفكر الاَّ في نفسها ، وفيما تستطيع ان تحققه لنفسها من المنافع واللذات ، هذا القسم هو في جوهره الرغبة والطلب والشهوة والهوى

وهنالك قسم آخر وهو الشخصية Ego ووظيفة هذا ان يصل فيما بين الانسان وبين الدنيا الخارجة عن ذاته objective التي تحيط بهِ ، بهذا القسم نتصل عن طريق الحواس بالاشياء والاشخاص والآراء ، وبهِ نتفاعل مع هذه الاشياء والاشخاص والآراء ، بهِ نقوم بوظيفتنا في المجتمع ، يأخذنا الى الديوان ، ويقابلنا بالرئيس ويجعلنا نفهم ما يطلبه منا الرئيس ، ويحرص على ان لا نغضب هذا الرئيس ، او نغضب غيره من ذوي النفوذ والسلطان ، ثم بهِ نؤدي ما يطالب منا في الديوان وفي غيره ، ثم يعود بنا الى المنزل حيث نستريح ونستمتع بالحياة

***

لو سكت فرويد عند هذين القسمين لما استطاع ان يحل المعضلة التي اعترضتنا ، لاننا لو سلمنا جدلاً بصحة هذا التقسيم لما استطعنا ان نرى سبباً للامراض العصبية تنشأ في النفس وتصيبها فتعطلها عن ان تؤدي وظيفتها ، فاننا نستطيع ان نرى انه من الميسور جداً ان يكون في النفس قسمان مثل هذين ومع ذلك تعيش بمنجاة عن الامراض العصبية ، تستطيع الشهوة ان تتحقق وتنال ما تريد من اللذات المحللة والمحرمة ، وتستطيع الشخصية ان تقوم بوظيفتها من ايصال الانسان بالعالم الذي يحيط بهِ في نفس الوقت ، يستطيع كل من هذين القسمين ان يقوم بوظيفته من دون ان يعطل الآخر ومن دون ان يكون ثمة حاجة الى عقدة تنشأ في نفس الانسان ، وبعبارة اخرى لا يستطيع هذا التقسيم انِ يعطي سبباً معقولاً للمرض النفسي

وهنا يأتي القسم الثالث من النفس الانسانية حسبما يراها فرويد ، ذلك القسم عجيب حقاً لانه لا يمكن التحقق من وجوده بأي طريقة علمية فيما نرى . لقد اقترحه فرويد وعلى العالم العلمي ان يقبله او يرفضهُ من غير سؤال او جواب شأننا في معظم ما يتقدم بهِ فرويد . هذا القسم يحل الاشكال في رأي مدرسة التحليل النفساني ، ثم ان هذه المدرسة تزعم ان له وجوداً فعلياً في الواقع ، اما كيف نتثبت من صحة هذه المزاعم ، كيف نثبت وجوده من غير ان يتسرب الى منطقتنا الشك فهذا لا يعني تلك المدرسة على الاطلاق . لقد قالت انه موجود ، وقالت ايضاً انهُ ينطبق على جميع الحالات التي تعرض لاطباء هذه المدرسة وكفى ، ليس لهم شأن بالشكوك التي تساورنا من جميع النواحي ، ذلك لان السيكولوجية الاكاديمية سيكلوجية ترتاب وتشك في كل شيء ما لم تصدمها الحقائق صدماً عنيفاً ، وما لم يتعذَّر عليها الشك بوجه من الوجوه، ثم يجب ان لا ننسى ان فرويد ومدرسته لا تقيم وزناً للسيكلوجية الاكاديمية اصلا ، فاذا عليها ان تشك هذه المدرسة او تنكر !

سار فرويد ومدرسته لايلويان على شيء ، ولا يقيمان وزناً لتلك الاعتبارات، فرضا وجود هذا القسم فرضاً ، وسمياه النفس العليا Super—ego ، وهو شيء اشبه بالضمير في اللغة السائدة ، له مثله العليا وهي النفس الانسانية في اعلى مراتبها ، او هو الانسان كما يجب ان يكون ، ليس كما هو الآن في الواقع ، هذا الشيء خاص بالانسان دون جميع الخلائق ، هو عبارة عن المثل الاعلى ، وأقرب تشبيه له هو نظام الاشكال عند افلاطون او كانط Kant's Cotegorical Imperative ، وهذا نرثهُ فيما نرث من آبائنا وجدودنا ، ولكنه ينمو فينا من الطفولة على ممرّ الزمن بشكل من الاشكال ولكن مبادئه والمقاييس الاخلاقية عنده لا تتغير كثيراً ولا قليلاً

* * *

ولنعد الآن الى العقدة او المرض العصبي كيف ينشأ فنقول ان العقدة تنشأ من نشاط هذه الثلاثة الاقسام في النفس الانسانية ، بشرط ان يكون نشاطها في وجهات متضادة ، ويزعم فرويد ان هذا هو الحال مع كل انسان في الوجود عاقلاً كان او مجنوناً ، مريضاً او سليماً ، فهو يقول في هذا الصدد « مرضاي هم الانسانية كلها » فلكل منا في رأيه عقدة نفسية ، او كل انسان مريض في جانب من جوانب النفس ، والانسان العادي السليم خرافة من الخرافات لا وجود له ولا أثر . بالطبع تختلف درجات الصحة والمرض باختلاف افراد الناس ، ولكن كل الناس مرضى على اي حال

وينشأ المرض بهذه الطريقة : — يريد الجزء النزوع منا Id امراً وليكن كبيرة من الكبائر ويلحف في هذه النزعة وتلك الارادة الحافاً شديداً حتى لا تجد راحة او هناءة الا في اجابته الى مطلبه، فتحاول الشخصية الواعية Ego اجابتها الى هذا المطلب فلا بد وان تصطدم باحدى عقبتين ، قد تصطدم اولاً بالاوضاع الانسانية ، او بالشخصيات الانسانية الاخرى ، فترى ان تحقيق هذه الشهوة متعذر لسبب من الاسباب ، فتعود عليها (على ال Id) فتخاصمها وتقاومها ، وتستعر بينهما الحرب الى درجة تصيب الانسان بالمرض العصبي

او قد لا تجد من الدنيا الموضوعية Objective World مقاومة في تحقيق نزعة النفس هذه ولكنها تجد هذه المقاومة من النفس العليا فيشتجر الخلاف بينهما وتمرض النفس ، فكان المرض ينشأ من ان النزعة والنفس العليا تغفلان الواقع كل الاغفال ولا تهتمان الا بنفسيهما ، احداهما تريد الشر والاخرى تريد الخير بغض النظر عما تستطيع الشخصية تحقيقه من هذا او من ذاك . ان مطلب هاتين النفسين مطلب خيالي لايمت الى الحياة الواقعية بسبب، وما على الجزء العملي فينا او Ego الا ان يشقى بهذه المطالب الخيالية

والنتيجة ان بكل انسان في الدنيا مسًّا من الجنون . اما فرويد فيقبل هذا الحكم واما نحن فنرفضه

وحدة العمر

لحسن كامل الصيرفي

تعالَ فقد عرفتُ حدودَ نفسي ... وأدركتُ السعادةَ ملءَ كأسي
تعالَ إليَّ واملأ رحبَ حِسّي ... فإني اليومَ لستُ خيالَ أمسِ !

***

تعالَ فهذهِ الدنيا حيالي ... رسومٌ لم تجمَّلْ بالظلالِ
وأنتَ ملاذُ أطيارِ الخيالِ ... وأنتَ لريشتي اسمى مِثالِ !

***

تعالَ فقد تحطَّمت الكؤوسُ ... ومالت من تفاعُلِها الرؤوسُ
وتاهت في ضلالتها النفوسُ ... تعالَ إليَّ تتبعكَ الشموسُ !

***

تعالَ إليَّ يتبعكَ الشروقُ ... وتلمعُ من خواطركَ البروقُ
فقد سكرَ الظلامُ فما يفيقُ ... وطال على مناجيكَ الطريقُ !

***

تعالَ ، تعالَ أسمِعني غناءكْ ! ... تعالَ ، تعالَ صوِّرْ لي سماءكْ !
تعالَ ، تعالَ أشربني ضياءكْ ... فإني اليومَ ظمآنٌ ازاءكْ !

***

تعالَ لحيرتي اخذتْ تُوَلّي ! ... تعالَ فرغبتي بدأت تصلّي
وتنزعُ عن تساميها التدلّي ! ... تعالَ فأنت اسرارُ التجلّي !

***

تعالَ ، تعالَ طهِّرْني بناركَ ... وأهلني لأمزجَ في سوارِكْ
تعالَ إليَّ طهِّرني وباركْ ... فؤاداً ظلَّ يفنى في جوارِكْ

***

تعالَ فأنقذِ الإيمانَ ممّا ... يحاول أن يحيلَ الطهرَ إثما
ويمعنُ في اجتذاب النفس رغما ... فما أقسى الحياة تفيض لؤما !

تعالَ فهذهِ كأسُ الليالي بجومُ على حفافيها خيالي
وتلمسها يدٌ تدري ما لي فتُقصيني ، وأيُّ يدٍ أبالي !

***

تعالَ فهذهِ اليدُ كم أشارتْ وحامت في الظلام وما توارتْ
وأزعجتِ النفوسَ وما استثارتْ يداً أقوى تحطمها ، لجارت ... !

***

يدُ الأقدار تزعجني دَواما وتشهرُ في سكينتي السهاما
وتعلاُ رحْبَ إحساسي زِحاما تعالَ نحوّل الدنيا سلاما !

***

سألزمُ كُوّتي وأظلُّ أرنو الى الأفُق البعيدِ وأنتَ تدنو
ونورُ الفجرِ يغمرني ويحنو عليَّ صباحهُ وسَناكَ يدنو

***

ستسمع أنت أمواج الاغاني تردّدها مزاميرُ الزمانِ
وتخلدُ في الصدَى والصوت فانِ فهل لك ان تخلّد لي كياني ؟ !

***

ستختلف الحياةُ امام عيني تمرُّ طيوفُها وتغيب عني
وتفنى في محيطٍ من تمني وأحلامٍ تلوحُ بكل لَوْنِ

***

وما أنا غير طيفٍ من رُؤاها تأخرَ حينُهُ حتى يراها
ويعرفُ ضعفها ومَدى قُواها وتفرحهُ وتبكيه مُناها

***

تعالَ فربما جاوزتُ داري فتجذبني الحياةُ الى قراري
فأمشي بين أضواء النهار الى ليلي ويهزأ بي انتظاري

***

تعالَ وفيَّ أحلامٌ ورُوحُ ! تعال وفيَّ أطيافٌ تروحُ !
تعالَ وفيَّ أضواءٌ تلوحُ ! تعال وفيَّ أعطارٌ تفوحُ !

***

تعالَ فقد بلغتُ حدودَ نفسي وأطمعُ أن أحقق طيفَ حدْسي
فهل لك أن تذيب ثلوج يأسي وتمزجَ حاضري بغدي وأمسي ؟

الالتزام العلاجي القروي

اجمال وتعليق

للدكتور كامل هلال

شاهد الطبيب النابه الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك — استاذ علم الطفيليات في كلية الطب المصرية ومدير معهد الابحاث ومستشفى الامراض المتوطنة بمصلحة الصحة العمومية وسكرتير الجمعية الطبية المصرية — بؤس السواد الاعظم من سكان الريف المصري وتفشي الامراض المتوطنة والوافدة بينهم وعجزهم عن اسعاف انفسهم بالتداوي الفني الصحيح لشدة إعسارهم مع ان الاطباء القانونيين متوفرون في البلاد وكثيرٌ منهم في أشد الحاجة الى مرضى يؤاسونهم ويكسبون عيشهم من مهنتهم التي توفروا على دراستها فوضع مشروعاً تقوم الحكومة بمقتضاه بعمل الوسيط بين هذا الجمهور المحتاج من المرضى واولئك الاطباء المستعدين لخدمته فتستفيد الجهتان وتُسعد البلاد

وهذا العمل لا يعَدُّ بدعة في الحكومة المصرية . اليست هي التي تقوم بجميع شؤون الري والصرف في جميع جهات القطر ، وكذلك بتوفير سبل المواصلات على انواعها . اليست الحكومة هي التي تقوم بالتعليم العام على مختلف درجاته . اليس لها في الاعمال الصحية القدح المعلى فيها مستشفياتها العديدة من ثابتة ومتنقلة يتوفر فيها العلاج لمئات الالوف من المرضى . ومشروع الدكتور عبد الخالق بك هذا الذي دعاه « الالتزام العلاجي القروي » ليس الاَّ صفحة جديدة تضاف الى سجل كبير من الاعمال المجيدة من الخدم الصحية العامة وتكون متممة له

ويلخص هذا المشروع بأن تعين الحكومة لكل عشرة آلاف من القرويين الذين يملك احدهم اقل من عشرين فداناً من الارض او يدفع ضريبة اقل من عشرين جنيهاً في السنة طبيباً واحداً يعيش في وسطهم ويقوم بتطبيبهم واسعافهم وصرف العلاج مجاناً لهم ويحفظ في عيادته سجلاً لكل مريض منهم ويبلغ عن امراضهم السارية ويحرر شهادة الوفاة للمتوفين منهم . وتمهيداً لتنفيذ المشروع يوضع احصاء للاشخاص الذين سوف يشملهم ويعطى كل فرد منهم وثيقة تضَع في شكل قرص نحاسي ينقش عليهِ رقم خاص للشخص ولبلدته ومركزه يعلق في عنقهِ حرصاً عليه من الضياع والتلف

فيبرزه عند كل زيارة للطبيب الذي عليه ان يرجع اليه عند تحرير شهادة وفاة صاحبه . ويحفظ الطبيب بطاقة خاصة لكل فرد من سكان منطقته الذين يلتزم علاجهم يثبت عليها ارقام ذلك الفرد الخاصة وفقاً لوثيقته ويدوّن فيها الطبيب تاريخ الفرد المرضي . وقد ترك على سبيل الاحتياط الحرية لكل فرد ان يختار طبيبه لمدة أربعة أشهر على الاقل من بين الاطباء المجاورين لمنطقته مراعياً أن لا يزيد عدد زُبُن كل طبيب عن ١٥٠٠٠ نفس حتى لا يرهق ولا ينقص عن ٥٠٠٠ حتى لا يزهد

***

والحكمة في هذا الاختيار هي اولاً الاستدلال من جانب اولياء الامر على حسن قيام الطبيب بواجبه من شدة اقبال المرضى عليه وبالعكس في حالة انصراف المرضى عنهُ وثانياً لترك المنبه الطبيعي وهو حب الكسب والفائدة يعمل عمله لانه كلما كثر عدد المرضى زادت فائدة الطبيب المادية كما سترى بعدئذٍ

وقد قدّر صاحب المشروع عدد الاشخاص الذين يشملهم هذا المشروع بنحو ١١ر٥٠٠ر٠٠٠ يحتاجون الى ١١٥٠ طبيباً وهو عدد متوافر في البلاد . وان عدد المرضى الجدد الذين سيتولى كل طبيب فحصهم يوميًّا ما بين ٣٠ و ٦٠ مريضاً

ويرى المقترح ان ايراداً شهريًّا في نحو الخمسة والعشرين جنيهاً مصريًّا لكل طبيب وخصوصاً للاطباء المبتدئين يكون مكافأة عادلة وبالطبع سيدفع من اصلها اجر سكنه وعيادته واجرة خادمه ووسائل انتقاله التي لا ينتظر ان تبلغ اكثر من ربع المبلغ . وهذه المكافأة تدفع للطبيب من جانب الحكومة بمعدل قرش ونصف عن كل فرد يحفظ بطاقته في عيادته مرض او لم يمرض . ومن جانب الافراد بمعدل خمسة مليمات عن كل استشارة طبية وعشرة غروش عن كل زيارة بيتية نهاراً وضعفها ليلاً . والحكمة في فرض جعل على المريض عن كل مراجعة هو كي لا يرهق الافراد الطبيب ويسرفون في العلاج سواء اكانوا في حاجة اليهِ ام لم يكونوا . فجعل هذا الرسم التافه الذي لا يعسر اي فرد عن تداركه تأميناً لعدم سوء استعمال المرضى لهذا الحق

وقد نصّ المشروع على ان الحكومة تجهز عيادة كل طبيب بلوازمها الضرورية وتلفون حكومي وتمده بما يلزم من الادوية الجاهزة للصرف كما هي الحال في العيادات الخارجية في المستشفيات تصرف للمريض باناءٍ يتداركه هو من عنده

وقد ترك المشروع الحرية للطبيب في أن يعالج من يشاء من غير افراد العلاج الالتزامي مقابل اجر يتقاضاه منهم باختياره . وهو كذلك مخيرٌ في تحويل اي مريض من زُبُنهِ الى اقرب مستشفى اذا وجد ان تداويه في عيادته غير ممكن على الوجه الاكمل اما لنقص في ادويته او لحاجة المريض الى عملية جراحية او خدمة خاصة غير متوفرة لديهِ

ولضمان حسن سير العمل يرى حضرته ان اطباء الصحة يجب ان يقصروا همهم وكل وقتهم على اعمالهم الصحية حتى لا يكونوا مزاحمين لاطباء الالتزام وانما يكونون مراقبين لهم كما وانه يرى لزوم تعيين نحو ٢٣ طبيباً مفتشاً يقومون بالتفتيش الدقيق على اعمال اطباء الالتزام . كما ان المشروع هذا لايتعرض لاعمال المستشفيات المركزية التي أنشئت او التي ستنشأ تكميلاً للبرنامج الموضوع بل يرى انها لازمة لتكون الملجأ الاخير للمريض الذي لم يمكن تداويه عند طبيب الالتزام كما بيّنا أعلاه

اما نفقات هذا المشروع فيقدرها كما يلي :

مكافأة اطباء الالتزام وعددهم ١١٥٠	١٧٢ ٥٠٠	جنيه سنويًّا
قيمة ادوية ومرتب عشرة صيادلة لتحضيرها	١٠٠ ٠٠٠	»
مكافأة اطباء صحة المراكز نظير انقطاعهم عن العمل لحسابهم	٠١٧ ٠٨٨	»
مفتشون للمشروع عددهم ٢٣ مفتشاً	٠١١ ٥٤٠	»
تجهيز عيادات الاطباء بالادوات الكتابية ولوازم التبريد والتليفون	٠٣٤ ٥٠٠	»
الادارة المركزية من مدير ووكيل وكتبة اداريون	٠٠٣ ٠٠٠	»
ادوات واحتياطي ونفقات انتقال وبدل سفر الخ	٠٠٩ ٣٧٢	»
	٣٤٧ ٥٠٠	

وهذا المبلغ يوازي نحو سبعة بالمائة من المال المربوط على عموم الاطيان في القطر المصري يجوز توزيعها بين مصلحة الصحة ومجالس المديريات وضريبة اضافية على الاطيان لا تزيد عن ثلثة بالمائة التي ينتظر ان يدفعها المموّلون عن طيبة خاطر لما سينالون من الفائدة من هذا المشروع . نعم ان صاحب الثروة التي تزيد عن العشرين فداناً سيدفع الضريبة للمشروع من غير ان يستفيد منهُ بنفسهِ ولكن عماله ومستخدميه سيستفيدون فيزداد انتاجهم فيعوّض هو ما دفعه اضعافاً

ومع ان هذا المشروع جميل المبنى واضح المعالم قريب التناول ينم على ما تحلت بهِ نفس واضعه من مزية الانشاء والابتكار وما اتصف به من التدقيق والبحث العلمي فقد قامت ضده اعتراضات عديدة نلخصها بما يلي

(١) — ان هذا المشروع هو بمثابة وضع سقف البناء الصحي قبل اساسه والمقصود بالاساس هو اصلاح القرية وتوفير مياه الشرب النقية والتخلص من الفضلات بصورة فنية

(٢) — ان برنامج الحكومة لتعميم المستشفيات الحكومية المركزية عند اكماله يغني عن مشروع الالتزام هذا ولذلك فما ينتظر اتفاقه على هذا يجب ان ينفق في تتميم انشاء المستشفيات

(٣) — ان اطباء الالتزام سوف لا يجدون منازل في وسط كثير من القرى تناسب اقامتهم فيها

(٤)—ان مشروع الالتزام سيفرض الطبيب فرضاً على مرضاه ويحد من حريتهم بينما مشروع التأمين الطبي التعاوني المعمول بهِ في بعض الاوساط يفضل عليهِ فيجدر بالحكومة تعميم هذا التدبير الاخير واراحة نفسها من فرض ضرائب جديدة

(٥) — ان احتياج المشروع الى عدد كبير من الاطباء ١١٥٠ دفعة واحدة سوف لا يخلو من صعوبة باختيارهم من بين الاكفاء وربما يؤول ذلك الى تسرب عدد من غير الاكفاء اليهم ، وفرض الاعتماد عليهم على اناس قلما يستطيعون تمييز كفاءتهم

(٦) — ان دفع الخمسة المليمات عند كل استشارة سوف يمنع كثيرين من المرضى من الاستفادة من المشروع فتضيع الغاية التي وضع لاجلها

(٧) — ان قبول الطبيب خمسة مليمات ثمناً لاستشارتهِ فيهِ تحقير للطب والطبيب

ولا يخفى عن القارىء اللبيب ان هذه الاعتراضات بجملتها لا تمنع من تنفيذ المشروع ولو تدريجيًّا ولا تحوي بينها سبباً جوهريًّا يوجب تأخيره او تأجيله فالسبب الاول لا يثبت عدم فائدة المشروع وانما يدل على ما يمكن ان يكون افضل او اكمل منهُ ولكن اذا تعذر الحصول على الافضل فلا بأس من الاكتفاء بما يليهِ فضلاً حتى ولو قدر لنا ان حصلنا على جميع الاصلاحات المذكورة وهي بلا جدال تعد كالمثل العليا في الانقاذ الصحي، فمشروع الالتزام هذا اذا وجد الى جانبها لا يحط من قيمتها بل يزيدها فائدة ويملأ فراغاً خاصًّا يبقى موجوداً . عدا عن ان ظواهر الاحوال تدل على ان اتمام هذه الاصلاحات العظيمة سيحتاج الى سنين عديدة وملايين كثيرة لا يوجد دليل على توفرها في امد قريب

***

اما تعميم المستشفيات الذي بني عليهِ الاعتراض الثاني فلا يغني عن الطبيب الذي يداوي الفرد في منزله ويجعل له به صلة مستمرة يرجع اليهِ للتداوي والوقاية فهو الصديق النصوح لزبائنه ودليل الحكومة على مواطن الخطر كما هو الحارس الصحي لمنطقته . واذا كنا سننشىء مستشفيات عديدة تكفي لمداواة كل المرضى مهما كانت حالتهم بسيطة فنكون مسرفين اسرافاً لا مسوّغ له . فطبيب الالتزام هو مساعد ومغذٍ للمستشفى وليس مزاحماً له عدا عن ان مشروع الالتزام قريب النضوج داني القطوف بينما تعميم المستشفيات سيستغرق كغيره من المشروعات الضخمة اعواماً عديدة واموالاً طائلة

***

اما السبب الذي بني عليهِ الاعتراض الثالث فلا يتفق مع المشاهد الواقع . لانهُ في كل مكان تظهر فيهِ حاجة الى منازل متقنة تنشأ حالاً من جانب اصحاب الاملاك طمعاً بتأجيرها والاستفادة منها وهو عمل رابح دائماً . وحتى اذا اقتضى الامر في بعض الحالات الشاذة يستطيع الطبيب ان يتخذ محل سكنه في اقرب مركز ويكتفي بعيادة في وسط القرى

اما عن الاعتراض الرابع فاذا صحّ في بعض البلدان الاجنبية وبين بعض الهيئات الخاصة المصرية فلا يصح على الاطلاق بين الفلاحين والقرويين عموماً لان روح التعاون الصحيح لم يشع بعد في مصر التي تكاد تبدأ التدرب عليه وربما تمضي عدة سنوات قبل انتشاره وتأصله في النفوس ولا يصح ان ينتظر المرضى الى ذلك العهد بل كل عاقل يرى ضرورة قيام الحكومة بهذا الواجب العام وقد تعوّد الاهالي ان ينتظروا كل شيء من الحكومة

اما الاعتراض الخامس فلا يبدو جديراً بالبحث فسهر مصلحة الصحة وعلى رأسها زعيمها الهمام صاحب السعادة محمد شاهين باشا ونظامها الدقيق وخبرتها تكفل حسن اختيار الاطباء كما ان المراقبة المنتظمة تضمن اخراج الطبيب غير الكفء الذي يكون قد تسرّب خطأً الى الوظيفة وزيادة الحذر يجوز تنفيذ المشروع تدريجيًّا

والاعتراض السادس هو فرض بعيد عن الواقع فمبلغ الخمسة مليمات زهيد لا يعجز اي فرد في الديار المصرية عن تداركه في اي وقت كان وخصوصاً عند ما تكون هنالك حاجة به للتداوي ودفع هذه الخمسة مليمات يبدو ضروريًّا لمنع سوء استعمال الغير المرضى وللحيلولة دون ارهاقهم الطبيب من دون حاجة او اسرافهم بالعلاج

اما الاعتراض السابع فلا يتفق مع الواقع فانهُ يوجد الآن في ذات القاهرة عيادات مشتركة خاصة يتقاضى الطبيب فيها من المريض اجراً لا يزيد كثيراً عن الخمسة مليمات

***

اما اذا توخينا الحقيقة المجردة المنزهة عن كل تحيز ، فيجب علينا ان نعترف بأن هذا المشروع مع كل ما ينطوي عليه من الفوائد العاجلة والآجلة ليس سوى حلقة صغيرة في سلسلة الانقاذ الصحي . فالحالة الصحية في القطر المصري تحتاج الى جهود جبارة وتعاون جميع القوى لاجل اصلاحها الاصلاح المرغوب وانتشال الفلاح المصري وبالتالي الامة المصرية من الادواء التي تنخر في كيانها وكانت منذ اقدم العصور السبب الرئيسي في تأخرها في ميادين الانتاج المادية والعقلية والخلقية

فهذا المشروع مع ضخامة مظهره يرمي الى تلطيف الاعراض ولا يؤثر كثيراً في اصل العلة . اما اذا اردنا ان نجتث الداء من جذوره فعلينا

اولاً — نشر التعاليم الصحية بكل وسائل النشر من محاضرات واعلانات ومواعظ ونستخدم المطبعة والسينما والراديو والمنبر والصحافة وكل وسيلة بالامكان استخدامها

ثانياً — جعل التعليم الصحي الزاميًّا في المدارس على اختلاف طبقاتها من روضة الاطفال الى آخر سني البكالوريا ولكل درجة ما يناسبها . وخصوصاً في مدارس التعليم الالزامي الذي شرعت الحكومة في تطبيقه يجب ان يكون لدرس حفظ الصحة منزلة ممتازة

ثالثاً — نشر الامن الحقيقي في الريف المصري فالفلاح لم يختر منزله بشكله الحاضر غرفة واحدة قليلة النوافذ او معدومتها يترك مواشيه فيها ويلاصقها منزل جاره الا لكي يستطيع ان يدافع فيه عن حياته وماله من المعتدين واللصوص . ومهما نصحته بتغيير هذا الطراز لعدم ملاءمته الاصول الصحية فلا تجد منه مجيباً فلسان حاله يقول التعرض للامراض من الجراثيم الخفية افضل من التعرض لاعتداء اللصوص من بني البشر . فمتى شعر بالامن والطمأنينة على حياته وماله فعندئذ فقط يغير طراز منزله من تلقاء نفسه ويجعل اقامته في وسط حقله في منزل منفرد كثير النوافذ محاط بأشجاره المثمرة وبالقرب منه زريبة مواشيه . اما اصلاح القرية المنشود قبل نشر الامن التام فغير ممكن قطعاً . اما الطريقة او الطرق المؤدية الى نشر الامن الحقيقي فليست من اختصاصنا وعند اهل الذكر الخبر اليقين

رابعاً — اجبار اصحاب الاملاك الواسعة والتفاتيش الكبيرة على اقامة منازل صحية لعمالهم وفلاحيهم تتوفر فيها المياه النقية والنور ولا بأس من تضحية هؤلاء بجانب من ايراداتهم في سبيل من هم مصدر ثروتهم ويُسرهم . وعندئذ تكون هذه العزب نماذج ينسج على منوالها من هم في جوارهم وتربي في ساكنيها الذوق الصحي حتى اذا انتقلوا منها ينقلون معهم فكرة التجديد فتنتشر تدريجيًّا ويكون الفضل لاسيادهم الاولين

خامساً — تعيين الاماكن الذي يجوز اخذ التراب منها ومقدار التراب المأخوذ حتى لا تتكوّن حفر تصبح بركاً بعد الري والاَّ فلا فائدة من ردم البرك الموجودة وحفر غيرها بأسرع من ردمها

سادساً — اقامة مسابقة عالمية لحل مشكلة مياه الشرب في القرى حلاًّ عمليًّا قابل التنفيذ في الحال وفي متناول الحكومة والاهالي والاَّ فلا فائدة من الحلول غير القابلة للتنفيذ ولا فائدة من الارجاء والتسويف فالضرورة ماسة والداء فتَّاك ولا بدَّ من تدارك الحالة بالعلاج الفعَّال . ولا اظن ان العلم يعجز عن ايجاد ماء شرب نقي يتمتع به الفلاح المصري كما يفعل امثاله في كل بلاد العالم المتمدن

سابعاً — حل مشكلة المراحيض بما يتفق مع طبيعة الارض وعادات السكان حلاًّ سريعاً

***

هذه هي الحلقات السبع التي تكوّن الجزء الاول من سلسلة الانقاذ التي يتطلع اليها الفلاح المصري منتظراً من حكومته الرشيدة ان تمدها لتنقذه ونسله من لجة بؤسه وشقائه . ومع كل ذلك ومع انتشار المستشفيات في الاقاليم فمشروع الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك (التزام العلاج القروي) اذا نفذ بأيدٍ رشيدة سيكون بلا شك جزيل الفائدة

عناق الادب والعلم

مثال من الادب الانكليزي الجديد

لاسماعيل مظهر

يحدث كثيراً ان نتناول في حلقات الادب والعلم ذكر الاساليب ، ونفرق بين الاساليب العلمية والاساليب الادبية ، ونفصل بين الناحيتين فنقول لغة الادب ولغة العلم ، وهذا اصطلاح ادبي وذاك اصطلاح علمي ، كأننا قد فصلنا بين الناحيتين بفواصل من اللبنات المدرعة بالفولاذ . ويخيل الينا فوق ذلك ان اصطلاحات كل من الناحيتين يجب ان تظل محبوسة بين تلك الجدران التي نظنها ابدية سرمدية ، ونشعر عند ما نحاول ان ندخل اصطلاحاً علمياً في موضوع ادبي ان ذلك الاصطلاح لابدَّ من ان يستوحش في موضعهِ الجديد وانهُ لا بدَّ من ان يظهر فيهِ نابياً غير مساغ . والحقيقة اننا امعنا في هذه السبيل الى حد ان لغة الادب قد تنفر من لغة العلم وقد تنفر اصطلاحات العلم من ان تدخل في اساليب الادب ، حتى أن كلمة علمية إن دخلت في موضوع ادبي أُخذ ذلك على الكاتب وكان موضعاً لنقده او سبباً للفرار من قراءة بحثهِ اولاً وآخراً لان لغة العلم تفسد الادب . وكذلك الحال مع كاتب آخر يحاول ان يكتب في العلم باسلوب ادبي مختار الانماط حسن التراكيب، فان ذلك قد يصرف العلماء عن قراءة ما يكتب ان لم يرم بانهُ اديب وليس عالماً، وذلك لان لغة الادب تفسد العلم

وقد تجلس في دوائر الادباء فتسمع احدهم يقول ان فلاناً تغلب عليهِ النزعة العلمية ، وما يقصد بذلك الاَّ انهُ يغلب عليهِ جفاف العلم ومعنى هذا انهُ قليل الاحساس غير مشبوب الخيال . وقد يضمك المقام مع العلماء فتسمعهم يقولون ان فلاناً اديب ، وتتبع كلمة « اديب » ابتسامات لا تنفرج لها الشفاه عن الثنايا الاَّ بقدر ما تعبر عن حقارة ذلك الشيء الذي يسمى الادب . وما السبب في هذا الاَّ حقيقة مرَّة ، ومحصلها ان ادباءنا لم يتذوَّقوا العلم ، وعلماءنا لم يتذوَّقوا الادب في الغالب . اما الذي ينزع نزعة فلسفية فهو بين الجماعتين كالحبة بين شقي الرحى ، ان افلتت من الثفال لحقتها اللهوة، واهون ما يصدر ضده من احكام الادباء والعلماء انه ممسوس اخلق بهِ ان يتفلسف في مستشفى المجاذيب . وسبب هذا حقيقة امرُّ من الحقيقة الاولى ، ومحصلها ان ادباءنا وعلماءنا سواء في البعد عن تذوق الفلسفة

خطرت لي هذه الخواطر وانا اقرأ رواية لاديب لاشك في اني احار أأسمهُ بالعلم ام بالادب ام بالفلسفة واحار كذلك أأسمي كتابه قصة ام كتاباً في علم النفس أم فلسفة عالية في حقائق هذا الوجود الانساني

اما ذلك المؤلف — وادعوه مؤلفاً لاخلص من حيرتي الاولى — فهو الدوس هكسلي . واما الكتاب — واسمِه كتاباً لاخلص من حيرتي الثانية — فعنوانهُ « الدنيا الجديدة الجسورة » — Brave New World — ولقد تعجب كيف استطاع ذلك المؤلف الفذ ان يجمع بين روائع الادب

في اسلوب سهل بعيد عن التكلف مختار الالفاظ متسق الجمل ، وبين افكار علمية في علم الحياة والنفس هي آخر ما جادت بهِ قرائح العلماء ، وتأملات في نظام الاشياء الانسانية هي من اعمق ما يفكر فيهِ الفلاسفة . ولا شك انك في النهاية تقرأ قصة رائعة الخيال . ولكنها قصة يستعصي عليك ان تفهم منها شيئاً اذا أنت لم تحط بحقائق ثابتة في علوم الحياة والاجنة والوراثة وعلم النفس ومذهب بافلوف فيهِ ، او بفلسفة الاجتماع الاوروبي في هذا العصر . فكأن الدوس هكسلي قد استطاع ان يجمع في روايتهِ هذه بين الاضداد التي لا تجمع في رأينا وفي أدبنا الحاضر الاَّ اذا اجتمعت الثريا بسهيل ، والثريا شامية وسهيل يماني

وأعجب من هذا كله ان يستدرجك هكسلي الى هذه الاغوار البعيدة فلا تشعر الاَّ وانت في معمل عظيم تفرخ فيه الاجنة البشرية داخل زجاجات كسيت من داخلها بمادة بريتونية وملئت بسائل دموي تسبح فيهِ الاجنة ، والزجاجات تدور على رفوف متحركة فاذا ادركت الاجنة التي تفرخ فيها استخرجت لترى ضوء النهار لاول مرة . فلا ارحام اذن ولا أبوَّة ولا امومة ، ولا عمومة ولا خؤولة ولكنها البشرية المفرَّخة في معامل يصنعها مفرخها كيف يشاء ويدسّ فيها من الصفات ما يريد ويخرج منها الطبقات التي تكوّن المجتمع الانساني

وقد يرمز لكل طبقة برمز . فالطبقات خمس . اولها طبقة «الفا» والثانية «بتا» والثالثة «غما» والرابعة «دلتا» والخامسة «ابسلون» على خمسة الحروف الاولى من الابجدية اليونانية ، وعلى الطريقة التي يرمز بها العلماء للاشعة المنبعثة من معدن مشع مثلاً . ولكن كل طبقة من هذه الطبقات تنقسم الى نوعين زائد وناقص . فهناك «الفا» زائد ، وهؤلاء انبغ من تخرج معامل التفريخ البشرية ثم «الفا» ويتبعها الفا ناقص وهكذا الى ان تبلغ الى «ابسلون» ناقص وهؤلاء هم أحط افراد البشرية الذين ينتجهم عالم المستقبل

ولكن اين المساواة التي ينشدها البلاشفة في هذا العصر ؟ هذه لا وجود لها في عالم المستقبل فكأن هكسلي يريد ان يقول ان هذه الاوهام سوف لا تستولي على انسان العصر المقبل . وأين الحرية ؟ ان الانسانية المفرخة في معامل المستقبل سوف تخرج من المعامل حاملة لكل الصفات الفزيولوجية والنفسية التي تجعلها بعيدة عن التفكير في مثل هذا الخيال الفارغ . فكلٌّ سيخرج مهيئاً لما سخر له . اما الحرية واما الحقوق المدنية . واما قانون العقوبات فعلى كل هذه العفاء . ولماذا يلجأ انسان المستقبل الى تلقيح المجرمين كما يفعل هتلر اليوم في المانيا ؟ يكفيه ان يختار الحييوينات التي تلقح البويضات من ذكر وانثى ليس فيهما عنصر الاجرام ولا اللجاج ولا المشاحنة ، ويكفي ان يزيد في قارورة هذا المخلوق قليلاً من مادة الكحول ليخرج حاد الذهن ، وفي قرورة ذاك قليلاً من مادة اخرى ليخرج بليداً من «ماركة» ابسلون ناقص . وكيف يستقوى مفرخو المستقبل ومربو ابنائهِ على الصفات التي لا يمكن ان يتغلبوا عليها في الاجنة وهي في القوارير . صفات التطلع والشهوة الى معرفة الاشياء وامتحان كل شيء يقع تحت الحس ؟ ان هذه الصفات لدى الواقع صفات يشارك فيها

الانسان الحيوان، واذا قتلت في الاجنة خرجت انسانية ادنى من الحيوانات . واذن يلجأ مربو المستقبل الى طريقة تحويل الغرائز بالوسائل العملية . وأية وسيلة اقرب من وسائل بافلوف ؟

* * *

والى هنا اشعر بعجزي عن متابعة الشرح من غير ان افصح للقارىء عما هي طريقة بافلوف هذه وعلى الرغم من ان الدوس هكسلي يشير اليها اشارة ، فاني واثق من اني اذا اتبعت طريقته اكون كمن يتكلم بالالغاز . ولتطور هذه النظرية تاريخ طويل يرجع الى أبعد عصور الفلسفة اليونانية وفي المذهب الفورييني احد اصولها الرائعة . لهذا اكتفي بشرحها على الصورة الاخيرة التي صبها فيها بافلوف الروسي ، وهو من معاصرينا الاحياء

ولقد حصر هذا العالم تجاربهُ في الكلاب . ومن المعروف ان الكلب ، ككل الاحياء المدركة ، اذا رأى قطعة من الحلوى سال لعابه ، فاستغلّ بافلوف هذه الظاهرة ، وهي ظاهرة من الظواهر التي تسمى « أفعالاً عكسية » اي انه من الافعال التي يؤديها الجسم بقاسر ذاتي ، ومن غير ان يكون لتجاريب الحياة فيها أقل أثر . وهنالك كثير من الافعال العكسية بعضها اصيل وبعضها مؤصل . ومنها ما يمكننا مشاهدته في الاطفال ، ومنها ما يتأصل على قدر من العمر ومرور من الايام . فالطفل يعطس ويتثاءب ويتمطّى ويحوّل عينيه نحو النور ، ويأتي غير ذلك من الافعال في مختلف اطوار عمره وظروفه ، من غير ان يكون في حاجة الى ان يتلقنها او يتلقاها عن غيره . وكل هذه الافعال تدعى الافعال العكسية او بالاحرى ، كما دعاها بافلوف أفعال عكسية أصيلة Unconditioned Reflex actions وهي بذاتها التي كانت تدعى من قبل الغرائز Instincts والغرائز المركبة لغريزة بناء الاعشاش في الطيور ، تلوح كأنها جملة مندمجة من افعال عكسية . والأفعال العكسية في الحيوانات الدنيا قلما تؤثر فيها تجاريب الحياة . فان البعوضة تستمر تحوم حول الضوء حتى بعد ان يحترق جناحاها . وعلى الضد من ذلك تجد الحال في الحيوانات العليا . فان تجاريب الحياة لها من هذه الافعال العكسية الاصيلة ، تأثير بالغ فيها ، ولا يخرج الانسان عن حكم هذه القاعدة . ولقد قصر بافلوف تجاربه كما قلنا من قبل على سيل اللعاب في فم الكلاب . تخلص من تجاربيه بالقاعدة الآتية التي استخلصها من تحول الافعال العكسية الاصيلة ، قال :

« عند ما يقترن بالمنبه الذي يبعث اي فعل عكسي اصيل او يتقدم عليه مرات عديدة الى منبه ثان ، فان هذا المنبه الثاني يحدث مع الزمن نفس الاستجابة Response التي كان يبعثها المنبه الاول في احداث فعل عكسي متحول » . — Conditioned Reflex action

فان سيل اللعاب فعل عكسي أصيل ، لا يحدث اصلاً الا عند وجود الطعام في الفم . ومن ثمّ يحصل عند مرآى الطعام او شم رائحته ، او عند حدوث اية علاقة او اشارة تسبق مباشرة الاكل . وكل هذه الافعال يدعوها بافلوف الافعال العكسية الاصيلة . على انك تجد ان نفس الاستجابة (سيل اللعاب) واحدة في الفعل العكسي الاصيل والفعل العكسي المتحول وانهُ لم

يستحدث في الامر من شيء الآ « المنبه » Stimulus الذي يشترك او يتحد مع المنبه الاصلي من طريق التجربة. وهذه القاعدة هي اساس كل تعليم او استيعاب للمعلومات، واساس الظاهرة النفسية التي كانت تدعى من قبل « تداعي او اشتراك الافكار » ، واساس تعلم اللغات ، واستحكام العادات واستبدادها بالافراد والجماعات ، وعلى الجملة هي الاساس العملي لكل مناحي السلوك الانساني الخاضع للتجربة

وبعد ان استرشد بافلوف بهذه القاعدة مضى يطبقها ما على يخطر بباله من ممكنات التطبيق . فانه لم يقتصر على امتحان منبهات الطعام الشهي . بل عمد الى الاحماض المكروهة ، يأخذ منها منبهات يستعملها في تجاريبه ، حتى يستطيع ان يؤصل في كلابه استجابات « التوقي » ، كما يؤصل فيهم استجابات « التشهي » فبعد ان ينبه فعلاً عكسيًا اصيلاً ، يعمد الى قمعه بفعل آخر . فاذا كانت العلامة او الاشارة التي يعمد اليها يعقبها نتيجة مرغوب فيها طوراً ، ونتيجة مكروهة طوراً آخر ، فان الكلب يصاب باضطراب عصبي مثل الهستريا أو النورستانيا ، وتظهر عليه كل العلامات المميزة لاحد المرضين

* * *

وبعد . فافرض انك استعضت عن الكلاب في تجاريب بافلوف بأطفال تريد ان تقمع فيهم غرائز التطلع الى معرفة المجهولات واردت ان تحول غرائزهم تحويلاً لتصبح مجرد شهوات مقموعة بأفعال عكسية محولة فماذا تفعل ? تخيل معي الصورة التي رسمها قلم الدوس هكسلي

في مستعمرة التفريخ — ولا تنس انها مستعمرة تفريخ بشرية — قسم للتربية ، يعهد فيه بالاطفال الى مربيات لا يعرفن حنو الامومة ولا مشاق الحمل والولادة ، فيسرن في تربية الاطفال على قواعد مرسومة لكل طبقة من الطبقات . اما الاطفال الذين يراد ان تقمع فيهم شهوة التطلع فمن الطبقة الدنيا . ولكن العناية بهم من حيث تكوين اجسامهم وكفاياتهم العضلية وافية . لهذا يجب ان يعرضوا كل يوم لاشعة فيها كل خصائص الاشعة الحيوية الطبيعية في مكان يتخذونه ممرحاً لهم وملعباً ، وفيما هم يلعبون ويمرحون يلقى اليهم بنسخ من الكتب المصورة التي تثير في الاطفال شهوة التطلع فاذا امتدت الايدي الصغيرة الى هذه الكتب وامتدت الانظار تلتهم ما فيها من الصور والالوان ، قذف الاولاد بشحنة كهربائية ، فتلقى الكتب الى الارض ، ويسارع الاطفال الى الاستلقاء كأفراخ ازعجهم صوت داوٍ شديد . وبتكرار هذا الفعل تقمع فيهم شهوة التطلع وتغرس فيهم استجابة التوقي من الكتب والتطلع وحب معرفة الاشياء فيخرجون آلات حسنة للتنفيذ دون التفكير

* * *

في نظام اجتماعي كهذا النظام سوف تستولي على العقول افكار نراها متطرفة وان بدت لاهل ذلك العهد المنتظر حقائق عادية لا تثير عجباً ولا تفكيراً . فان هؤلاء سوف يتبدلون من كل العقائد القديمة عقائد جديدة ، وسوف لا يكون لآله الفضيلة كما نتصورها الآن من محل يشغله في نظام الاشياء التي سوف تقوم في المستقبل ، ولن يكون لآله من محل اللهمَّ الاَّ آله العمل والانتاج . فان اقسم احدهم بقسم أو قطع عهداً قال « بحق فورد » او عاهد على ذكرى « ركفلر » او اقسم باسم « اديسون » . وسوف تصبح الكاتدرائيات العظيمة والاديرة والبيع آثاراً ان دلت على شيء

فعلى الاوهام التي سيطرت على الانسانية خلال اجيال متطاولة واستعبدت العقول على مدى التاريخ الذي سطّره الانسان بدمه ليقوم دليلاً واضحاً عند اهل المستقبل على توحشنا وبربريتنا. أما معابدهم، فالمعامل الضخمة العظيمة والآلات الداوية التي يستمعون لدويها نغماً اشبه بنغم الارغن الجميل او التراتيل الهادئة التي تُسلين بفتنتها اقسى القلوب في اماكن العبادة. ولسوف يسقط الايمان عن عرش الغيب، ليعلق بعرش الشهادة. فلا ايمان الا من طريق الحواس ولا حقيقة الا بعد اختبار. اما منطق العقل وحده فذلك سوف يكون اداة ناقصة للعلم، وخادماً للمجهر والمنظار المقرب والسسموغراف ولقوائم الاحصاء، الى غير ذلك من ادوات التجربة والاختبار

ولا شك في ان اول ما سيتقوض من بناء الاجتماع الحالي هو نظام الاسرة. لان المرأة ستشغل مقاماً اقتصادياً في المجتمع يكفيها مؤونة العبودية والاسر الذي يفرضهُ عليها الرجال لا لشيء الا لانهم العنصر المسيطر في النظام الاقتصادي. ففي ايديهم المعامل والمصارف والجامعات والحكومات وعلى الجملة كل ما من شأنهِ ان يمنحهم السيطرة الاقتصادية على الجنس اللطيف. ولكن نظاماً اجتماعياً يرزق فيهِ كل شخص على قدر عمله وانتاجه، لابدَّ من ان يفسح للمرأة فيهِ مجال للعمل لتكسب رزقها الحلال من كدح يديها وبعرق جبينها. واذن فلا تصبح للنساء من حاجة الى سيطرة الرجال واستعبادهم وتسلطهم على نصف البشرية اللطيف. ولسوف تتغير العواطف الانسانية بهذا الانقلاب الكبير فلا غيرة ولا حبًّا أبويًّا ولا شعوراً بامومة ولا قرابة، وستمحى من القواميس كل الالفاظ التي كانت تدل من قبل على علاقات الاسرة ونظامها، وتصبح في القواميس القديمة كالآثار المتحجرة في باطن الارض، ما تذكر الا للفكاهة وما تدور الا على ألسنة بعض الباحثين في تاريخ البشرية في ناحية منبوذة من جامعة كجامعة اكسفورد مثلاً، التي من قواعدها الموروثة المحافظة على التقاليد

اما الحب الذي يتغنى بهِ الشعراء، فسوف يصبح مجرداً عن كل المعاني التي تلصقها بهِ الآن. فلا غزل ولا تغزل، ولا هيام ولا غرام، لان القاعدة الاساسية في نظام المستقبل سوف تكون قائمة على حكمة الاباحة، وان كل فرد ملك لكل فرد آخر، والجميع للهيأة الاجتماعية. فلا اختصاص اذن، ولا ارتباط برباط الزوجية (المقدس) ولا غيرة ولا شهوة ولا تطلع الى ما في يد الغير، لان الرغبات، ستكفيها الاباحة المطلقة، فما في يدك اليوم يكون من قسمة زميلك غداً، وانت بعيد عن كل تبعة، اللهمَّ الا تأدية عمل خاص في وقت محدود، تكون بعدهُ حرًّا في ارضاء شهواتك واكفاء رغباتك بالطريقة التي تراها ارضى لنفسك واشهى لميولك

* * *

ولا يقف بك الدوس هكسلي عند هذا الحد، بل يسوقك الى صورة متخيلة يصور لك فيها الفرق بين مشاعر الانسان في عصره الحاضر، ومشاعره في عصره المقبل. ولا أريد ان اصور لك نفس الصورة التي رسمها قلمه، بل أريد ان أعدّل لك فيها بعض الشيء لعلي استطيع ان ابلغ من الوصف ما أريد. فان الدوس هكسلي يصور لك فتىً وفتاة من أهل دنياه المستقبلة فكرا في

ان يزورا بقعة من بقاع الارض لا يزال اهلها يجرون على قواعد مدنيتنا الحاضرة . ولكنني اريد ان اجعل هذه الفتاة ترافقني او ترافقك فتزور بيتي او بيتك او بيت لورد من ارستوقراطيي الانكليز واصور لك ما تشعر بهِ وما يقوم في نفسها من العوامل المثيرة

فصوّر لنفسك انك بعثت سنة ٤٠٠٠ بعد الميلاد واخذت تتسكع فوق الاسطح — لان الشوارع ستكون ممرّات للهواء لا غير — فالتقيت بفتاة على سطح ناطحة من ناطحات السحاب في لندن ، وانك توسلت اليها في ان ترشدك الى بيتك في جاردن ستي بمدينة القاهرة . اذا حدث هذا حقيقة فلا تعجب اذا ضحكت منك الفتاة الماكرة ، لان السياحة من لندن الى مصر لا تحتاج الى رفقة ، لانك تستطيع ان تحضر من لندن الى القاهرة وتعود اليها في بضعة ساعات . وكذلك لا تعجب اذا رغبت الفتاة في مرأى القاهرة لانها لا تزال تسمع ان اهلها يأكلون القواقع بالخبز المشوي في افران توقد فيها النار بوقود الخشب او القمامة . وماهي الأ اشارة حتى تهبط على سطح الناطحة طائرة صغيرة الحجم ويخرج منها نصف انسان من « ماركة » ابسلون ناقص وقبعته في يده ، فتستقلاّنها لتطوي بكما الجوّ الى القاهرة فتبلغانها عند تمام الساعة الثانية عشرة من صباح يوم الجمعة ٢٤ مايو سنة ٤٠٠٠ بعد الميلاد . ويبحث سائق الطائرة عن مكان ليهبط فيه بطائرته فلا يجد الأ متنزهاً صغيراً يسع الطائرة فيهبط بها ثم يقفز منها ليفتح لكما الباب

ولا تكاد رفيقتك تنزل من الطائرة حتى تتعلق بعنقك رهبة وفزعاً لانها رأت قطيعاً من الماعز يهوي عليهِ ولد صغير بسوط طويل في يده والمعز تلتقط في جريها اوراق الاشجار وبقايا المأكولات الملقاة بجوار الارصفة مثلاً . فقد يستولي عليها نفس الشعور الذي يستولي عليك اذا هبطت بك طائرة الآن في أواسط افريقية ورأيت انك في وسط غابة من الغابات تمرح فيها السباع والوحوش الضارية . فاذا ذهبتَ بها الى بيتك ورأت ابنك يأكل الخبز القديد واسنانه تقضقض فيه وشاهدت زوجك وعلى صدرها رضيع ترضعه ، عرّت عن ساقيهـا فضل ردائها واطلقتهما للريح واستقلت الطائرة لتبلغ لندن عند تمام الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم نفسه . اما سبب الفزع والهرب فلان ابنك يأكل ويطحن الاكل بأسنانه ولا يبتلعه في حبوب تغذيهِ ، ولأن زوجك ترضع الطفل . فأنت وهي وأهل مصر اجمعين برابرة ما تزالون في الطور الذي قطعت الانسانية المتمدينة شوطه منذ قرون اي انكم في الطور الذي كانت فيه الانسانية من الحيوانات الولودة

* * *

وبعد فاني اتساءل : اتبلغ الانسانية في المستقبل هذا المبلغ من التطور ؟ وهل يكون من نصيب النظامات المقدسة القائمة فيهِ حولنا ان تنهار وتندك الى الحضيض حقيقة ؟ وهل لنا ونحن في عصر ندعوه عصر التجديد أن نفرق بين لغة العلم ولغة الأدب، ويظل علماؤنا بعيدَين عن الادب وادباؤنا بعيدَين عن العلم : ليكون مصيرنا جميعاً كمصيري مع الفتاة الانكليزية التي اقترضتها من مخيلة الدوس هكسلي لاستعين بذلك على رسم هذه الصورة العجيبة من مستقبل الانسانية

الاسنان والعمران

بحث علمي تاريخي

يرى بعض العلماء ان اسنان الناس في اوربا وأميركا صارت الآن اضعف مما كانت من قرن ونصف قرن وقد نتج عن ضعفها أنَّ ضعف الهضم لان المضغ الجيد لازم له . واذا ضعف الهضم كثرت الامراض وقصر العمر ، وأثَّر ذلك في نمو الامم وارتقائها لانه يقلل النسل ويمنع الانسان عن اعمال كثيرة . وهذه الآفة اي ضعف الاسنان آخذة في الازدياد حتى اذا لم تتخذ الوسائل الفعالة لتلافيها فالعاقبة وبيلة جداً كما يقول أطباء الاسنان . وقد عني احد علماء انكلترا بفحص جماجم شعوب مختلفة لكي يرى ما بين اسنان تلك الشعوب وأحوالها المعاشية من الارتباط لعله يعلم اسباب الحفر الذي أصاب اسنانها حتى اذا تلافيناها نجونا نحن منها . وبيَّن في اوائل هذا القرن أن الحفر ليس تغيراً كيميائياً مجرداً كما كان الرأي الشائع قبل اربعين سنة بل هو يرتبط بفعل انواع من الميكروبات فاذا أميتت توقف الحفر عند الحد الذي وصل اليه . وقد اثبت ذلك بالامتحان . فربى هذا العالم تلك الميكروبات ووضعها على الاسنان فسببت فيها الحفر أي نخرتها وأكلتها . فلم يوافقه اطباء الاسنان على ذلك اولاً ثم وافقه احدهم ثم رأى كوخ العالم البكتريولوجي المشهور تجارب هذا العالم فاقتنع بصحة اكتشافه وعاد الى برلين وهو مقتنع به وهذا هو الرأي المتفق عليه عموماً الآن . فاذا كان سبب الحفر ان انواعاً من الميكروبات تسطو على الاسنان وتنخرها فدفعه يقوم اولاً بمقاومة هذه الميكروبات وثانياً بتقوية الاسنان حتى تقاومها

والميكروبات كثيرة جداً ، كما لا يخفى ، وتتوالد وتتكاثر بسرعة فائقة ، فاذا نظفنا افواهنا منها الآن لا تمضي ساعات كثيرة حتى تدخلها وتتكاثر فيها فلا سبيل الى منعها من دخول افواهنا . ولكن الاسنان في حالتها الطبيعية مغشاة بقشرة بيضاء صلبة جداً وهي المسماة بالمينا ، فاذا كانت هذه القشرة صقيلة كما هي في حالتها الطبيعية لم تستطع هذه الميكروبات ان تنخرها مهما كثرت ، ولكن اذا بقيت فضلات الطعام بين الاسنان وفي المنخفضات وعلى تيجانها اختمرت وتولدت منها حوامض تأكل شيئاً من المينا ، فيخشن سطحها وحينئذ يصير للميكروبات سبيل اليها فتأكلها وتنخرها . ولذلك كان تنظيف الاسنان من فضلات الطعام ضرورياً لوقايتها . ومن الاطعمة ما يزيل فضلات غيرها ولا يبقى منها هي فضلات . فهي اذن تساعد على وقاية الاسنان من الميكروبات

هذا من حيث الامر الاول اي مقاومة الميكروبات

اما الامر الثاني وهو تقوية الاسنان نفسها حتى تقاومها فأهم من الامر الاول والراجح انه اذا بلغت المينا حدها من التكون تعذر على الميكروبات ان تنخرها ولو حاولت فضلات الطعام ان تمهد لها السبيل الى ذلك لان هذه الفضلات لا تستطيع تمهيد السبيل الاَّ اذا كانت المينا غير تامة التركيب والنمو فاذا تم نموها وبلغ حده لم يعد للميكروبات ولا لفضلات الطعام سبيل اليها وهي تتكوَّن على الاسنان قبلما تشق اللثة وتظهر . فكونها قوية او ضعيفة يتوقف على احوال الولد في طفولته

ويظهر من البحث في اسنان أمم مختلفة ، في أزمنة مختلفة ان الحفر كان يزيد بازدياد العمران اي بازدياد العيشة غير الطبيعية . فالشعوب المتوحشة سليمة الاسنان مهما كان عصرها ومهما كان اقليم بلادها ، والذين ساروا في طريق العمران ظهر الحفر في اسنانهم والذين اوغلوا فيه تمكن الحفر من أسنانهم حتى أفسدها . فقد اجلى البحث في جماجم الشعوب الافريقية ان اسنانها خالية من الحفر ، وفي جماجم الهنود انها لا توجد الاَّ سن واحدة مصابة بالحفر في كل جمجمتين ، فتكاد أسنانهم تكون سليمة منهُ تماماً ، وفي اسنان الصيفيين انه لا توجد سن مصابة بالحفر الاَّ في كل ثلاثين جمجمة ، وهذه الشعوب مشهورة كلها بتنظيف أسنانها بالمساويك والغسل المتكرر وببعض المساحيق التي تنظف الاسنان ، وهم يغسلون أفواههم واسنانهم بعد كل طعام . فلما ثبت ذلك من درس الجماجم ثبتت علاقة سببية تاريخية بين تنظيف الاسنان وحفظها من الحفر

ولكن الغريب أنه لما فحصت جماجم الاسكيمو الذين يسكنون في المناطق الباردة الشمالية وهم لا ينظفون اسنانهم مطلقاً ولا يغسلون افواههم ، ظهر ان الحفر لا يوجد الاَّ بمتوسط سن واحدة في كل ٧٢ جمجمة ، وكان الظن ان الحفر يكون شائعاً فيها ، لما ثبت منه وجود العلاقة بين حفظ الاسنان ونظافتها في الجماجم السابقة . ثم فحصت جماجم الاستراليين الذين لم يصل اليهم العمران فثبت ان الحفر لا يقع الاَّ في سن واحدة من كل مائة جمجمة . ويستدل من هذا البحث ان أسنان بعض الناس سليمة من نشأتها لا تقوى الميكروبات عليها ولو كان للنظافة شأن كبير في حفظ الضعيف منها

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام ان اسنان الاوربيين والاميركيين وأسنان نسلهم في مستعمراتهم يزداد الحفر فيها سنة بعد سنة . فمن مائة عام كان الحفر يرى في سن واحدة من كل ثلاثين سناً ، اما الآن فيرى الحفر في سن من كل ثلاث اسنان والنظافة لم تزد ولم تقل في خلال هذه المدة بل هي على حالها واذا رجعنا الى جماجم الشعوب القديمة التي بسط العمران رواقه عليها رأينا الحفر كثيراً في اسنانها

فقد فحص احد العلماء ١٤٣ جمجمة من جماجم الرومانيين القدماء فوجد الحفر في ٤١ جمجمة منها . وفحص ٣٦ جمجمة من جماجم المصريين الاقدمين فوجد الحفر في ١٦ جمجمة منها . وفحص عالم آخر الجماجم التي وجدها الاستاذ بتري الاثري الكبير ، في المدافن المصرية القديمة فوجد الحفر نادراً في السابقة منها لعصر التاريخ ، وكثيراً في الحديثة منها . وفحص اليوت سمث الذي كان استاذاً للتشريح في كلية الطب المصرية خمسين الف جمجمة من الجماجم المصرية فوجد ان السابق منها لعصر

التاريخ خال من الحفر ، والذي من عهد الدول الاولى يكاد يكون خالياً منهُ ، ولكن ابتدأ الحفر يظهر في عهد الدول التي بنت الاهرام ولا سيما في اسنان الطبقة العليا من السكان . فانه فحص ٥٠٠ جمجمة من جماجم عظمائهم فلم يجد الاَّ خمسين جمجمة منها خالية من الحفر

وقد قلنا سابقاً إن اسنان الهنود الآن تكاد تكون سليمة من الحفر ولكن يظهر من بحث الدكتور مونو ان الحفر آخذ في الازدياد فيها باقتباس اصحابها أسباب العمران الاوربي . ويستدل من ذلك كله ان العمران يدعو الى حفر الاسنان ولو كان للنظافة وانواع الطعام شأن كبير في حفظها منهُ

***

ان المينا التي تغطي اسنان الانسان تتكوَّن في صبوتهِ — ما عدا الاضراس الاربعة الاخيرة اي اضراس الحكمة فان ميناها تتكوَّن بعد ذلك — فكل ما فيها من كمال ونقص راجع بنوع خاص الى طعام الولد في السنين الاولى من عمره

ففي العصور الاولى حين كان الانسان يعيش بالصيد والقنص ويأكل الاثمار والحبوب من غير طبخ كان يضطر ان يستعمل اسنانه كثيراً وكان ضعيف المضغ ينقرض من أمام غيره . وكان النساء يرضعن اطفالهنَّ والطفل الذي لايجد لبناً في ثدي امه يموت جوعاً . ثم تحضَّر الناس وتركوا البداوة واكثروا من استعمال ألبان الماشية وطبخ الطعام وصارت المرأة التي لا يكتفي ابنها بلبنها تسقيه من لبن البقر وفائدة لبن البقر تتوقف على مقدار ما يهضم منهُ . ولبن المرأة اسهل هضماً على معدة الطفل من لبن البقر فيغتذي الطفل من لبن امهِ اكثر مما يغتذي من لبن البقر ثم ان احوال الام الصحية والمرضية تؤثر في ابنها ونموه ، فلما كان الناس على البداوة ، كانت الام الضعيفة تموت ويموت طفلها بعدها . والطفل الضعيف يموت ايضاً فلا يعيش من الاطفال الاَّ الذين يغتذون جيداً من لبن امهاتهم فتنبت أسنانهم قوية

وكان الناس وهم على البداوة ، يأكلون طعامهم من غير طبخ ، فيضطرون الى الاكثار من مضغه ، فتكبر أحناكهم وتقوى لكثرة استعمالها فلما شاع الطبخ وصار اكثر الطعام يؤكل مطبوخاً قلت الحاجة الى المضغ ، فضعفت الاحناك وصغرت وبقي عدد الاسنان على حالهِ ، فازدحمت وضاقت الفسحات التي بينها ، فصار الطعام يتخللها ويبقى فيها فيحمض ويفعل بالاسنان فعلاً كيمائيًّا

يضاف الى ذلك ان الابحاث الحديثة التي قام بها الدكتور ملنبي وزوجته أثبتت ان نقص بعض أنواع الفيتامين في غذاء الطفل يضعف مينا اسنانهِ ، وقد جربت التجارب في الجرذان وجراء الكلاب ، فتأيدت هذه النتيجة . ولعلَّ تأثير الطبخ في اضعاف الاسنان ، لهُ من هذه الناحية فعل لم يكن معلوماً من قبل اكتشاف الفيتامين

فاذا غذي الاطفال التغذية الكافية الوافية وهم في سن الرضاع وما بعدها ، واكثروا من مضغ الطعام ، نبتت اسنانهم في الغالب مستكملة بناءها ، وحينئذٍ اذا اعتاد المرء تخليل اسنانه بعد الطعام وتنظيفها جيداً قويت على مقاومة الميكروبات ، ولم تصب بالحفر ولا بغيره من آفات الاسنان

الفلاح المصري القديم

مقامهُ . اعماله . حياته . منزله . مقاييسه . مكاييله

للدكتور حسن كمال

نشوء المدنية المصرية وتقدمها ثم انتشارها في انحاء العالم، كل ذلك نتيجة لخصب التربة في وادي النيل ووفرة محاصيله . وبهذه الوسيلة فقط تمكنت مصر على ضيق مساحتها من تغيير نظام العالم القديم تغييراً يفوق كثيراً ما قامت بهِ سائر الاقطار الاخرى مجتمعة . ومهما قلب الباحث في الحضارة المصرية القديمة واستقصى اصولها وازداد في ذلك امعاناً ودقة فانه لا يهتدي في النهاية الاّ الى الزراعة ، وكلما تعمقنا في اقدم العصور المصرية المعروفة وجدنا الفلاحة قد بلغت شأواً كبيراً ومكانة عظمى قبل تلك العصور بزمن طويل . والمعروف ان ازالة الغابات الكثيفة التي كانت مكتنفة وادي النيل وتهيئة الاراضي لزراعة الحبوب والفواكه ومراقبة فيضان النيل ساعد على جمع كلمة القبائل التي كانت تقطن الوادي فتكوّنت من ذلك مملكة واحدة متينة الاساس قوية البنيان . وكذلك انقلب الوادي الى مزرعة في منتهى الخصب . لكن القيام بهذا العمل الجسيم تطلب مجهوداً مماثلاً لجسامتهِ . فمنعاً للقحط والموت حفر القوم الترع فامتدّت في انحاء القطر وحافظوا عليها بكل عناية ودقة . ولما كان من الصعب ريّ بعض الاراضي لارتفاع مستواها عمد الفلاح المصري في اقدم العصور الى استعمال الشادوف كي يثابر بهِ على ريّ زراعته حتى الحصاد

وكانت الاراضي منذ اقدم العصور تزرع بواسطة فلاحين مأجورين يقومون بهذه المهمة نيابة عن الملاّك . وهؤلاء الاخيرون هم الملوك او المديرون او الاعيان او كهنة الاديرة او الاضرحة . وكان الملك يعتبر إسميًّا صاحب الاراضي كلها لكنه لم يتمكن من اثبات ذلك اثباتاً عمليًّا حتى في أوج سلطته

ولا بدّ ان يلمّ القارىء بعظم الانتاج الزراعي التي كانت مصر تخرجه قدماً . فثمّة في قصة سيدنا يوسف عليهِ السلام من البراهين على صدق ذلك اقواها وأدمها . فقد جاء عنها في الذكر الحكيم «تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله الاّ قليلاً مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهنّ الاّ قليلاً مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » (آية ٤٦ — ٤٨) . وهكذا تمكن الصديق بكفاءته من تغذية سكان مصر وما جاورها من البلدان مدة أربعة عشر عاماً بمحصول سبعة أعوام فقط

واحتكرت الحكومة بيع المحاصيل المصرية الى البلدان الاجنبية كما يستدل على ذلك بطريقة بيع القمح الى اهل فلسطين الواردة في القصة نفسها «مسّنا واهلنا الضرّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا ان الله يجزي المتصدقين» (آية ٨٧) . والمكيال الذي اكتالوا بهِ هو «صواع الملك» (آية ٧١) — اي المكيال الملكي او الرسمي . ولا يبعد ان كبار الملاّك كانوا يبيعون ما يتبقى لديهم من المحاصيل الى الحكومة رأساً . خصوصاً اذا لاحظنا ان الفلاح قديماً كما هو حالاً يقنع دائماً بالقليل من القمح او الشعير مما يسدّ بهِ رمقه . قال ديودوروس الصقلي ان البالغين والاطفال كانوا كثيراً ما يعيشون على جذور النباتات والاعشاب المائية كالبردي واللوطس وغيرهما وكانوا يتناولونها نيئة او مشوية او مسلوقة

ولم تتدخل الحكومة في المزروعات التي يرغب الفلاح في زراعتها بل تركت له كامل الحرية بخلاف الحال في عصرنا من حيث تحديد مساحة زراعة القطن والارز . ولا غرابة في ذلك فان الفلاحين وقتئذٍ كانوا بحسب قول ديودوروس الصقلي متمرنين منذ نعومة اظفارهم على الحياة الزراعية . فأتقنوا الفلاحة وتفوقوا فيها على البلدان الاخرى . ودرسوا طبيعة ارضهم وسبل ريها والمواعيد المناسبة للبذر والحصاد وما هو اهم من ذلك من اسرار طرق الحصاد التي توارثوها عن اجدادهم واتقنوها باختباراتهم . وقد اعتاد الفلاحون ان يستأجروا اراضي ملوكهم او ضباطهم او قسوسهم بقيمة يسيرة وان يتفرغوا لفلاحتها تفرغاً تامًّا . اما العمال الذين كانوا يستأجرون للقيام بزراعة اراضي الاغنياء او الامراء فكانوا يعملون تحت رقابة ناظر زراعة يشرف على اشغالهم ويكتب التقارير عنهم بل ويقدمهم الى المحكمة لعقابهم اذا ما لاحظ عليهم اهمالاً او تقصيراً في القيام باعمالهم . وما اكثر ذكر هذه المحاكمات في الآثار المصرية . فالباحث يجدها مرسومة في المقابر كمقبرة (تي) بسقارة وغيرها بل ويجدها مجسّمة بشكل انموذجي كالانموذج الذي في دار تحف القاهرة وقد عثرت عليه بعثة متحف المتروبوليتان الامريكي . وبعد زوال الفيضان وابطال الشادوف يبدأ الفلاح في فلاحة أرضه

في هذا الوقت تكون الارض رطبة لان المياه تكون قد انحسرت عنها حديثاً . فيعمد الى حرثها حالاً الاَّ في بعض المناطق التي تتجمع فيها المياه الراكدة . والمعروف ان الزراعة المثلى هي التي يبدأ بها في آخر فصل الصيف كما يستدل على ذلك من النقوش الواردة في أعلى المناظر الزراعية بالآثار المصرية مما يشير الى حسن الطقس وتأثيره الحسن في نفوس الفلاحين حينذاك (راجع كتاب مصر للاستاذ ارمان ورانكه فصل ١٧ ص ٥١٧) . خذ مثلاً ما ورد بمقبرة (باحرى) بمدينة الكاب خاصًّا بهذا العمل فقد جاء ما ترجمتهُ : —

«هـذا يوم جميل ! الهواء رطب والثيران تؤدي اعمالها (على ما يرام) ! والجوّ صاف كما نشتهيه !» (راجع مقبرة باحرى لجريفث لوحة ٣) . وهناك عبارات اخرى مماثلة لها مثل «النيل مرتفع هذا العام» مما يدلُّ على شأن ذلك عند هؤلاء القوم لانه بحسب قولهم «سوف لا تحصل

مجاعة في العام القادم بل بالعكس سيكون عام رخاء غزير المحصول ! » وأيضاً « ان الحبوب في العام القادم ستكون وافرة والثيران سمينة (راجع مقبرة باحري) » وبديهي ان اول عمل يقوم به الفلاح شق الارض بالفأس ثم حرثها ثم بذرها الخ . وكان الفلاح يلتحف احياناً جلود الحيوانات فوق كتفيه ويصنع منها البسة صغيرة وكان يلبس تارة مآزر كتانية بيضاء قصيرة . اما نسوة الفلاحين فكنَّ يلبسن الملابس الطويلة المنسوجة غالباً من الكتان مبتدئة من الكتفين وواصلة الى القدمين . واستعمل الفلاحون النعال احياناً . وشادوا مساكنهم بالعساليج (جمع عسلوج وهو ما لان واخضرَّ من قضبان الشجر) الممزوجة احياناً بالطين . وشاد البعض الآخر مأواهُ باللبن

ومما يشير الى شهرة مصر في تلك العصور الغابرة بالزراعة ما تحمله اسماؤها من معانٍ . فمن هذه الاسماء « بق » ومعناه بلدة الزيتون وسميت كذلك لكثرته فيها. ثم اسم (تمرا) ومعناه الارض المشبعة بالترع وسميت كذلك لتخللها اياها . ثم اسم (قم) ومعناه السوداء اشارة الى شدّة سواد طينها . ثم (ناهى) ومعناه بلد الجميز وسميت كذلك لكثرته فيها

وكان يطلق على الفلاح قدماً اسم (سختي) و (حِنْتويو) و (انوتي) و (مِرْ)

﴿ منزل الفلاح ﴾ لم يبق لنا التاريخ من آثار منازل الفلاحين الاَّ ما ندر . ولم يبق من المدن الأثرية الاَّ القليل جداً . والمنازل القديمة مطموسة وقد شيّد عليها منازل حديثة مما يزيد في صعوبة البحث . وتتلخص المباني القديمة التي بقيت للآن في معبد ابي الهول ومنازل اللاهون وتل العمارنة . واهم المراجع لمعرفة منازل الفلاحين وكيفية تنسيقها هي النماذج الصغيرة العديدة التي دفنها القوم مع موتاهم ومنها نماذج كبيرة في دار تحف القاهرة . وبالتأمل في هذه المنازل يتضح للناظر انها صورة طبق الاصل لمنازل فلاحينا . فمنازل الفلاحين الاقدمين كانت غاية في البساطة كما هي الآن . وهي تتركب من حوش سماوي تمضي فيهِ افراد العائلة يومها (وتنام فيهِ ليلاً) وبهذا الحوش تتصل عدة حجرات مظلمة صغيرة وزريبة للحيوانات . وهناك سلم يوصل الى السطح . وقد تشاد فوق الاخير عدة حجرات . والصورة المرفقة بهذه المقالة هي لانموذج منزل فلاح محفوظ الآن بمتحف فؤاد الاول الزراعي . والاصل بدار تحف القاهرة . وفيهِ تتجسم البساطة بكل معانيها وهو يكاد يتفق تماماً مع كثير من منازل فلاحينا الحاليين فحجرتا السطح للنوم والسلم بسيطة الشكل والوضع . وهناك حجرة كبيرة كالردهة تتصل بالحوش . ويشاهد عمودان يحملان السقف من الامام . وفي الركن الايمن تشاهد دائرة لوضع غذاء الحيوان فيها . ولا يبعد ان الحيوانات كانت توثق بالاعمدة

اما منازل كبار المزارعين وعلى الاخص في عهد الامبراطورية الوسطى (٢١٠٠ — ١٧٠٠ ق.م فكانت تتكوّن من حوش ينتهي من الخلف بمصطبة ذات عمد او بدهليز يتجه عادة الى الشمال لالتقاط النسيم البحري ولتجنب حرارة الشمس المحرقة وفي هذه المصطبة او الدهليز يجد الداخل باباً يؤدي الى صالة فسيحة مقدمها محمول على عمد . وبعد ان يخترق الانسان هذه الصالة يجد نفسه في

حجرة اخرى ذات عمد ايضاً كانت تستعمل على الارجح للغذاء . ومن ثمّ يتصل الانسان بحجرات النوم المتعددة الخاصة بصاحب المنزل وافراد عائلته من الذكور . اما قسم الحريم فكان يتصل باحد اقسام المنزل الاربعة المذكورة (وهي « الحوش » والمصطبة والصالة وحجرة الاكل) وذلك بواسطة حوش صغير . وفي مقابل قسم الحريم مساكن العبيد والمخازن والمطبخ والاسطبلات والزرابي . ولا يبعد ان هذا التقسيم روعي باستمرار على طول العصور . واتبعت سرايات الملوك النظام نفسه كما يشاهد ذلك في تل العمارنة ومدينة هابو

والمادة الاساسية التي كانت تستعمل في بناء المنازل والسرايات هي اللبن المصنوع من طمي النيل وعرّش القوم اسقفهم بالخشب وغطّوه بالقش او الغاب الممزوج من الداخل والخارج بالطين . اما العمد فكانت تصنع عادة من الحجر او الخشب وكانت تحلّى في السرايات بالاحجار الزاهية او الزجاج الملوّن . واعتاد سراة القوم ان يموهوا جدر منازلهم بالالوان البديعة وان يطلوها بالجير . وتجفيف اللبن كان بتعرضه للشمس . وبهذه المادة شاد المصريون ربوع عمالهم وقصور اغنيائهم ومستودعاتهم ومخازنهم وقلاعهم واسوار مدنهم . وذلك لرخص مادته وسهولة استعماله . وكان للبن مصانع خاصة . والمصانع الملكية كانت تختم كل طوبة من صنعها بالختم الملكي تذكاراً للعصر واثباتاً للمصنع . ولما كان المعمار يحتاج دائماً الى الاخشاب وكانت هذه الاخيرة قليلة في وادي النيل اضطرّ القوم بحكم الضرورة ان يستعملوا اخشاب النخيل والجميز والاثل والسنط بالرغم من رداءة مادتها . ولندرة الخشب الجيد بالقطر كان ثمنهُ باهظاً . لذلك كان السراة يجلبون من سورية ما يلزمهم من خشب الارز . ومن هذا الاخير صنع النجّارون ما ادهش الناظر واخذ بلبّه

﴿ المقاييس الزراعية ﴾ — الفدان المصري القديم يقرب من اربعة اخماس الفدان الحالي ويعرف باسم (ساتا) وهو المعروف ايضاً باسم (أرورا) ويعادل عشرة آلاف ذراعاً مربعة . وقد جزأ القوم هذا الفدان الى نصف ارورا ويقال له (إرمن) وربع ارورا ويقال له (حسب) وثمن ارورا ويقال له (سا) وجزء من ستة عشر جزءاً من الارورا ويقال له (سو) وجزء من اثنين وثلاثين جزءاً من الارورا ويقال له (إرما)

أما مقاييس الطول فهي (١) الذراع الاعتيادي ويقرب من ٥٤ سنتمتراً ، (٢) الذراع الملكي (٧ اشبار او ٢٠ اصبعاً) ، (٣) الذراع الصغير (٦ اشبار او ٢٤ اصبعاً) ، (٤) الساعد (٢٠ اصبعاً) ، (٥) مقياس يقال له تشستر (١٦ اصبعاً) ، (٦) الشبر الكبير (١٤ اصبعاً) ، (٧) الشبر الصغير (١٢ اصبعاً) ، (٨) مقياس يقال له شپوي (٨ اصابع) ، (٩) المقبض (٦ اصابع) ، (١٠) اليد (٥ اصابع) ، (١١) راحة اليد (اربعة اصابع) ، (١٢) الاصبع

أما مقاييس الكيل فتتلخص في (١) الهنّ = $\frac{1}{2}$ من اللتر ، (٢) التنات = ٢٠ هنّاً ، (٣) ابت = ٤٠ هنّاً ، (٤) حتب = ١٦٠ هنّاً

تحوّل الآراء الفلسفية

كما تبدو في قصائد

ملتن وپوپ ووردسورث وتنسن وشلي

اذا كان للافكار مرآة فالادب مرآتها . فيهِ تتجلّى نفسية الامة وآراؤها . ويتطوّر الادب بتطوّر التفكير في كل امة في كل عصر . والتعمق في درس ادب الامة، ولا سيما شعرها، يبدي للباحث حقيقة حالها . على هذا الاساس اورد الفيلسوف هوينتهد، استاذ الفلسفة في جامعة هرڤرد الامريكية ،في كتابهِ : (العلم والعالم الحديث) بحثاً ضافياً تناول فيهِ الرجعة عن العلم الطبيعي ، تحت عنوان : الردّة الرومنتيكية فاستخلصت منهُ هذه المقالة وتكاد تكون طبق الاصل، مع حذف ما يمكن الاستغناء عنهُ من الاقتباسات والتعليق عليها [هنا خباز]

***

لدينا اشعار ملتن وپوپ وشلي ووردسورث وتنسن . فنموذج ملتن كتاب : الفردوس المفقود والفردوس المستردّ(1) وهما مسبوكان في قالب لاهوتي، امتاز بهِ الشطر الاول من القرن الثامن عشر، من دون ان يتأثر بالعلم المادي . ونموذج پوپ كتاب : تلخيص في الانسان(2): وفيهِ تتبين الحركة العلمية التي لاح فجرُها في خلال الستين عاماً بين ملتن وپوپ . ونموذج وردسورث كتاب : النزهة : Excursion وفيهِ ردّة واضحة عن عقلية القرن الثامن عشر. والمقصود بهذه العقلية هنا التسليم بالآراء العلمية الى اقصى مقتضياتها . لم يزعج وردسورث ايُّ تناقض ذهني انما حفزهُ نفور اخلاقي ، فقد شعر ان ذهنية القرن الثامن عشر قد اهملت شيئاً وهذا الشيء الذي اهملت ينطوي في رأيهِ على كل ما هو خطير . اما تنسن ونموذجه الذكرى(3) فلسان حال الرومنتيكية الآخذة في التقلّص وهي تحاول ان توفّق بينها وبين العلم الطبيعي . ففي الشطر الثاني من القرن التاسع عشر،كان اصحاب الفكر الحديث قد انقسموا الى فريقين متمايزين في فهمهم وتعليلهم « الطبيعة وحياة الانسان » . فوقف تنسن بين الفريقين موقف الحائر . وجد نفسهُ امام مذهبين متناقضين ، لكلٍّ منهما مرجع بديهي لا مندحة له عنهُ . اما المذهب الميكانيكي فهو الذي يزعجهُ . قال :

وهمست : النجوم سائرة على غير هدى

---

(1) Paradise Lost and Paradise Regained (2) Essay on man (3) In Memoriam

في هذا البيت تلخيص القضية الفلسفية التي انطوت عليها اشعاره . واليك البيان : —

تسير كل ذرَّة (في الكون) على غير هدى . وفي الاصل الانكليزي — سيراً اعمى — الجسم الانساني ، وهو مجموعة ذرّات ، اذاً يسير على غير هدى . وهذا ينفي التبعة الادبية في افعال الجسم. فانك ، وقد سلّمت بان الذرّة تسير سيراً جبريّا ، مستقلاً عن حكم العقل ، خاضعاً لنواميس ميكانيكا عامة — اذا سلّمت بذلك ، فلا مناص لك من انكار التبعة . ولكن الاختبار الذهني يستمَدُّ من حركة الجسد وعليهِ فتنحصر وظيفة العقل في قبول الاختبارات التي تقرَّر له ثم يضيف اليها اختبارات مستقلة تستمَدُّ من حركات الجسد . فلنا في شأن العقل نظريتان هما انكار الاختبارات المستقلة عن الجسد ، والتسليم بها . فبانكارها يسقط التكليف الادبي ، وبالتسليم بها يثبت . فيكون الانسان مسؤولاً عن افعاله العقلية ، ولو لم يسأل عن حركات الجسد الطبيعية . والصورة التي بها يتجنب تنسن هذه النتيجة هي مظهر ضعف الفكر في العصر الحديث

كانت هذه القضية على بساط البحث في عصر تنسن . وكان الفيلسوف جون ستوارت مِل يقول بالجبرية في هذا الصدد وقوله هذا كان يقتضي ان يكون النزوع البشري مسيّراً لا مخيّراً . وليس في هذا المذهب مخرج من المأزق الذي تحتّمهُ الميكانيكا . لانهُ اذا كانت الارادة متحكمة في الجسد فلا يكون سير ذراته على غير هدى . واذا لم تكن الارادة حاكمةً فالعقل في حال من الاضطراب تستوجب اليأس

راج رأي مِلّ ، ولاسيما بين الطبيعيين ، لانهُ يؤذن بميكانيكا مادّية متطرفة . على انهُ لا يحل المشكلة لانهُ اما ان تكون الافعال البشرية حركات «على غير هدى» او لا . فان كان الاول فلا علاقة للعقل بحركات الجسد . والمخرج التقليدي من هذا المشكل ، — اذا صدفنا عن تجاهله — هو في ما يدعى المذهب الحيوي : Vitalism : لانهُ يأذن بسير الجوامد وفقاً لقواعد الميكانيكا ثم يضعف فعلها في الاحياء . على ان الثغرة بين الجوامد والاحياء غير جلية . فلا وزن لرأي عرفي كهذا

الاشياء قسمان . عضوية وغير عضوية . تمتاز الاولى بمبدإٍ كلي يتوزع في الفروع الداخلة تحت الكلّ ، دخول الانواع تحت الجنس ، والافراد تحت النوع . فتنشأ بهذا الاعتبار في الحيوان الاحوال العقلية . وللاحوال العقلية أثر في تعديل حركات الذرّات في الجسم العضوي . حتى ان الكهارب وهي تسير على غير هدى في الجسم العضوي وفي الاشياء سواسية . ومع ذلك فسيرها في العضوي منطبق على خطة الجسم العامة ، بما فيه العلاقة العقلية

على ان التناقض بين ميكانيكا العلم المادّي والبدائه الاخلاقية اللازمة لمصالح الحياة ، اخذ يتجسم مع مرّ العصور . وموقف كل عصر من هذا التناقض يبدو لك في مستهلّ القصائد التي ذكرناها . فقد جاء في خاتمة مقدمة الفردوس المفقود لملتن هذه الطلبة : —

ليتني اسمو بالعناية الى اعالي هذا البحث العظيم فأزكّي طرائق الله للانسان

غرض ملتن في قصيدتيهِ الفردوس المفقود والفردوس المسترد: تزكية طرق الله في معاملته الانسان وقد كرّر ذلك في قصة شمشون

عدلٌ هي افعال الله ومزكّاة في نظر الانسان

نتبين في ذلك ثقة راهنة لا تزعزعها جرف الشكوك التي قذفها العلم. فالفردوس المفقود نشيد وداعي لليقين الراسخ. والموازنة بين «الفردوس المفقود» واشعار بوب في الانسان: ترينا التطور الذي وسم الفكر الانكليزي في خلال الفترة بين ملتن وبوب. فقد خاطب ملتن العزة الالهية، اما بوب فخاطب اللورد بولينبروك قائلاً:

اترك السخافات للمطامع السافلة وكبرياء الملوك. ودعنا (مازالت الحياة لا تمكننا الاّ من نظرة حوالينا يعقبها الموت) نستطلع احرار اً مشهد الانسان — تيه عظيم! ولكن لا يخلو من منوال (نظام)

قابل هذا البيت الاخير «تيه عظيم: ولكنهُ لا يخلو من منوال» بقول ملتن «عدلٌ افعال الله». والامر الذي يجب ان نقف عنده في القولين هو رباطة الجأش في وسط عالم مصطخب. هي ثقة لا تساورها الحيرة التي ملكت مشاعر ابناء العصور الحديثة. كان رائد ملتن الاستسلام «لطرق الله» في معاملة الناس. وبعد جيلين نرى الثقة نفسها في شعر بوب اذ يجد في اساليب العلم الحديث نظاماً كأنهُ خريطة لذلك التيه العظيم

ننتقل الآن الى «نزهة» وردسورث. وهي في الموضوع ذاته. جاء في مقدمتها النثرية انها جزء من مؤلف شعري فلسفي كبير، يشتمل على آراء في الانسان والطبيعة والهيئة الاجتماعية: قال في مطلعها

كان يوماً من أيام الصيف والشمس رأد الضحى

وكذلك نرى ان الردّة الرومنتيكية لا تبدأ بالله كما في ملتن ولا باللورد بولينبروك كما في بوب بل بالطبيعة. وفي ذلك رجعة محسوسة عن سمة القرن الثامن عشر. ادرك ذلك القرن الطبيعة بواسطة التحليل العلمي التجريدي. على اننا نرى وردسورث يستعيض من التجريد العلمي باختباره الحسيّ

بين «نزهة» وردسورث، وذكرى تنسن جيل من الاحياء الديني والتقدم العلمي. وكان الشعراء الذين سبقوهما يحلون المشكل بتجاهله، فلم يقسْ ذلك لتنسن. فبدأ شعره بما يأتي: —

ايها الحب الخالد. ابن الاله القدير. اننا ونحن لا نرى وجهك نعتقد وبالاعتقاد وحده نؤمن حيث نعجز عن البرهان

وكذلك نرى ان تنسن تقر في مستهلّ قصيدته على وتر الحيرة، اذ اشار الى الايمان القائم على الاعتقاد حيث نعجز عن البرهان

كان القرن التاسع عشر قرن حيرة لم يسبق لها نظير. ففي العصور السابقة كنت تجد فريقين متمايزين او نظريتين متناقضتين ولكن كلاً منهما كانت جلية واضحة. وكان اتباع كل نظرة لا تساورهم اية ريبة في صوابها وتقوم مكانة شعر تنسن بكونه مرآة عصره الخاصة. فقد كان كل فرد في عصره منقسماً على

ذاته . بخلاف المفكرين قبل ، اذ كانوا غاية في الوضوح ، كديكارت وسبينوزا ولوك وليبنتز . ولكن في القرن التاسع عشر كان اقدر اللاهوتيين والمفكرين محيراً مضطرب الذهن . فكانت تتنازعهم تعاليم متناقضة ، انتجت بلبالاً لا محيص منهُ . بل ان متيو ارنولد ، كان اشدّ جلاءً لهذه الحيرة من تنسن . قابل ذكرى تنسن بختام قصيدة ارنولد التي عنوانها : شط دوفر : حيث يقول

نحن هنا في ساحة قاتمة تجرفنا مخاوف مضطربة من النزاع والفرار حيث تصطدم جيوش جاهلة في الظلام

وقد ذكر الكردينال نيومن في كتابه : الابولوجيا : ان من أهم مزايا بوسي الاكليركي الانجليكاني العظيم انهُ : لم تقلقهُ حيرة عقلية : فيعيد بوسي بذلك ذكرى ملتن وبوب ووردسورث . فهؤلاء على الضد من تنسن وكلو وارنولد ونيومن نفسه لا تعلقهم حيرة فكرية ما . وقد اورد زعماء الرجعة الرومنتيكية اهم انتقادات الافكار العلمية في الشعر الانكليزي المعاصر للثورة الفرنسية والذي تلاها . وأعمق مفكري هـذه النزعة كولردج ووردسورث وشلي . أما كيتس فهو مثال الادب الذي لم يمسّـه العلم الطبيعي

كان وردسورث هيّاماً بالطبيعة هيام سبينوزا بالله . وكان ايضاً مفكراً واسع الاطلاع ، فلسفي النزعة . وعلاوة على ذلك كان عبقريًا . لـكنه اوهن حجته بكراهيته العلم . فقد قال : نقتل لكي نشرح الجثث . يبين ذلك نقده العلم . وهو يأخذ على العلم غلوه في التجريد . ورأيه المتردد في اشعاره هو : ان حقائق الطبيعة الكبرى تفلت من المنهج العلمي . فلنا ان نسأل ماذا وجد في الطبيعة مما لا يعنو للبيان العلمي ؟ لا ريب في انهُ عرف ما لا ينكره احد وهو اختلاف الاحياء عن الجوامد . على ان ذلك لم يكن نقطته الرئيسية . بل فتنه مشهد الهضاب الباعث على الابتكار وهو يتعمق في نقد ما يحيط بنا من الغوامض التي تساور كل عصر . وأهم اشعاره الكتاب الاول من الديباجة : المشحون بفتنة الطبيعة . جاء فيه قوله : —

يا مجالي الطبيعة العلوية . والارضية . يا مرائي الهضاب . والهامات المواطن الخالية ! ايمكنني الظن . ان لك املاً ساذجاً باستخدامك . رسالة كهذه يوم فتنتني في خلال السنين . ابان لهوي بتسليات الصبا . في الكهوف والاشجار ، في الحراج والهضاب . ترسمين على كل شكل صفات الخطر او الشهوة ، فجعلتِ وجه الارض قاطبة . بفوزٍ وحبور وأملٍ وخوف . يضطرب اضطراب وجه البحر ؟ . . . . .

ارى في هذا الاقتباس من وردسورث شدة التقيّد والتناقض في مشهد الطبيعة الذي يوحيه الينا العلم العصري . ويوضح وردسورث ، الى حدود العبقرية ، حقائق ادراكنا التي شوهها التحليل العلمي

ولكن موقف شلي ضد موقف وردسورث من حيث صبغته العلمية . فقد أحب شلي العلم ، وهو لا ينِي يوضح افكاره العلمية بأسلوب شعري . والعلم عنده رمز الفرح والسلام والبهاء . وكانت الهضاب عنده مختبرات كيميائية لا ملاهي كما كانت في نظر وردسورث . ومما يؤسف له ان نقّاد

شلي الاوربيين لم يدركوا حقيقته ، لبعد ما بين ذهنهم وذهنه فحسبوا معالجته للطبيعة ، شذوذاً مع انهُ السمط الذي يتخلَّل اشعاره وينظمها . ولو ان شلي ولد مائة سنة بعد ولادته لكان نيوتن الكيماويين . فلكي تتمكن من قدر شلي قدره يجب ان ندرك افتتانه بالفِكَر العلمية والامثلة على ذلك في شعره لا تحصى فنكتفي بقصيدة : بروماتيوس المطلق : قال بلسان الارض : —

ادور تحت هرم من الليل — متجهة الى السماء — حالمة بالنشوة ، متمتمة بالفرح المظفر في نومي المسحور

وهي صورة شعرية ما كان شلي يستطيع بيانها لولا مثال هندسي مرسوم في ذهنهِ

وللطبيعة عنده روعتها وجمالها . وهي في نظره كائن عضوي . فلو اتيح لرجل وصف مضمون العلم الاختباري لكان شلي ذلك الرجل . قال في قصيدة « مون بلان » :

الاكوان المادية الخالدة . تجري في العقل متتالية الامواج . آونة قاتمة — وأخرى باهرة . حيناً تسوء وحيناً تسرّ . حيث يستمد الفكر الانساني مددهُ . من نبوع سرّية لها نصف ضوضائه . كجدول لطيف في قلب الجبال . تنبجس مياهه على الدوام . وشلالاته دائمة الهبوط . فيتفجر ويزمجر

نظم هـذه الاشعار استناداً الى المذهب التصوري ، كنتيًّا كان او باركليًّا او افلاطونيًّا . وكيفما اوّلته فهو شاهد على الوحدة التي تؤلف الطبيعة . فشلي وباركلي ووردسورث يمثلون البديهة نابذة العلم المادى الصرف . وهنالك تباين بين نظرتي شلي ووردسورث في الطبيعة . يراها شلي تغيراً وانتقالاً ، كريشة في مهب الريح قال :

كأشباح فارّة من ساحر

او كقولهِ في قصيدة الغيمة على لسانها « اتحوَّل ولكن لا اتلاشى » . وهذا التغيُّر في الطبيعة ليس تغيُّر انتقال بل تحوُّلاً في طبيعة الشيء . فتغير الاشياء التي لا تتلاشى هو ما علق عليهِ شلي اعظم الشأن . اما وردسورث فنشأ في جبال جردٍ ، لا يؤثر فيها تقلب الفصول . فاستهواه ثبوتها فهو يرى تغيرها عرضاً : كسهم في نسيج الثبوت قاطعاً عرض البحار الهادئة الى أقاصي جزر الهبريدس . ففي كل جهدٍ في تحليل الطبيعة فعلان ، التغير والثبوت . يضاف اليهما ثالث هو : الابدية

فالادب الانكليزي القرن التاسع عشر هو مظهر التباين بين بدائهِ الفن ومقتضيات الميكانيكا العلمية . يصوّر شلي تغيُّر الاشياء تغيُّراً صوريًّا . اما وردسورث فشاعر الطبيعة ذات الجمال الرائع . وهنالك الموضوعات الابدية ، وهي عنده : النور الذي لم يحصره برّ ولا بحر :

ويشهد الشاعران ان الطبيعة غير منفكة عن القيم الفنية . وتنشأ القيم عن إنبثاث الكل في اجزائهِ . ونستخلص من اولئك الشعراء انهُ على الفلسفة ان تعنى بالاشياء الخمسة التالية : —

التغير : القيمة : الاشياء الخالدة : العضويات : الاصطحاب

فالحركة الرجعية الاوربية في مطلع القرن التاسع عشر هي كفلسفة باركلي قبلها بقرن كامل ، تأبى الحصر في ادراكات العلم الصرف

مشكلة الشرق الاقصى

وخطط الدول العظمى نحوها

من نكد الدنيا على العاقل في هذا العصر انهُ يستطيع ان يتكلم عن حرب بين اليابان وروسيا ، وذكرى الحرب العالمية ما تزال حيّة في الاذهان . ولكن ذلك لا يمنع ان حرباً من هذا القبيل ، خرجت عن كونها نظرية تحتاج الى تأييد ، واصبحت احتمالاً لا ينقصه الاّ تعيين ميعادهِ . فبعضهم يذهب الى ان هذه الحرب واقعة في هذه السنة ، والبعض الآخر يذهب الى انها قد تتأخر سنة اخرى او سنتين . ولكن لا بدّ من نشوبها على أية حالٍ . ولسنا نفشي سرّاً لا يعلمهُ أحد ، اذا قلنا ، نقلاً عن اوثق المصادر ان وزارات الخارجية ، واركان حرب الجيوش ، تعدّ معداتها على اساس ان هذه الحرب ناشبة بعد بضعة شهور . وقد نتجاهل ما تفعلهُ وزارات الخارجية او أركان حرب الجيوش من هذا القبيل ، لانّ اقلّ باعث من الخطر يحملها على اعداد المعدّات للحرب . ولكننا مع ذلك نظلّ مالكين لطائفة من الأدلة تشير الى ان الحرب واقعة لا بدّ منها . خذ مثلاً على ذلك عنف العبارة في البلاغات الروسية الى اليابان ، وهو لا يتسرّب عادة الى لهجة المذكرات بين امتين الاّ اذا كان الجوّ مضطرباً بينهما والصلة متوترة . واجماع الروس ، سواءٌ في ذلك صحافتهم وزعماؤهم ، على استعمال هذه العبارات العنيفة في مخاطبة اليابان ، يدلُّ على ان الامر جدٌّ كلّ الجدّ . ثم ان هناك أدلة اقوى من الادلة المبنية على الكلام وتصريحات الرجال المسؤولين . هناك عناية روسيا بحشد جيوشها في شرق سيبيريا وجمع كلّ ما تستطيع جمعهُ من مواد الحرب وذخيرتها في النقط الرئيسية وتعبئة اسطول جويّ كبير في مدينة ڤلاديڤستوك وهي اقرب المرافىء الروسية في الشرق الاقصى الى اليابان . ومنذ ما فتحت اليابان مقاطعة منشوريا سنة ١٩٣١ عمدت روسيا الى تعزيز مكانتها العسكرية في سيبيريا ، مع ان هذا التعزيز اقتضى منها ان تهمل قليلاً مشروعها الصناعي الكبير ، العزيز على قلبها

وكانت نتيجة كل هذا ان قوى روسيا واليابان متواجهة الآن في سيبيريا وكوريا ومنشوريا . لا ريب ان الصحف هولت بكثير من الحوادث ولكن لا ينكر احد ان حوادث وقعت بين الفريقين

والاسباب التي تحملنا على الاعتقاد بأن النزاع قد يتأخر قليلاً بين هاتين الدولتين في الشرق الاقصى هو (اولاً) ان روسيا سوف تجتنبه بكل الوسائل المستطاعة ، الاّ اذا اطلقت اليابان العنان ، وغزت بعض الممتلكات الروسية و (ثانياً) ان اليابان قد تحاول في الغالب ان تضبط نفسها الآن ، او بالحري ان تضبط دعاة الحرب من ابنائها

وليس القول الاول مبنيّاً على محاولة تصوير روسيا بصورة المحبّ للسلام على اطلاق القول . لان

ذلك ليس صحيحاً بوجهٍ عام . وروسيا ما زالت من سنة ١٩١٩ مستعدَّة للحرب في سبيل المحافظة على كيان الجمهورية السوفيتية . ولكننا نقوله لان الحرب ، اذا خاضتها روسيا الآن ، تبطئ عمل التعمير الداخلي ، الذي وجَّهت روسيا اليه كلَّ عنايتها في العهد الاخير . ونحن لا نعتقد ان روسيا واهمة ، في امكان الافلات من حربٍ مع اليابان ، بل هي ولا شكَّ تدرك ان يوم الحساب معها قادم لا ريبة فيه . ومع ذلك ظلت روسيا لا تحرّك ساكناً رغم فقدها لمكانتها الاولى في سيبيريا ، وتهديدها بفقد مكانتها في مغوليا الخارجية . وسوف تظلُّ كذلك ، حتى تتمّ استعدادها — الاَّ اذا هُتِكت حرمة اراضيها في سيبيريا

اما اليابان فاما ان تنفّذ خطتها بسرعة او قد يتعذَّر عليها تنفيذها على الاطلاق . فكرُّ الزمان ضدُّ اليابان في مغامرتها مع روسيا . ذلك ان كل سنة تمرُّ ، تجعل روسيا ، وهي اقوى من اليابان من جميع الوجوه العسكرية والصناعية . فاذا تمَّ ازدواج سكة حديد سيبيريا ، وانشاء المراكز الصناعية في سيبيريا ، فقدت اليابان ما تمتاز به على روسيا الآن ، من الوجهة العسكرية . والراجح في نظر الثقات انهُ اذا كانت اليابان تنوي ان تغزو شواطئ سيبيريا ، لتجعل كلَّ الاراضي التي تحيط ببحر اليابان ، شواطئ يابانية ، فعليها ان تفعل ذلك الآن ، او على الاقل عليها ان تحاوله الآن ، قبل ان تعزَّز قوى روسيا في الشرق الاقصى . ولكن يقابل ذلك (اولاً) النفقات الهائلة التي تقتضيها الحرب ، مع ان حالة اليابان المالية الآن ، لا تسمح بهذا . (وثانياً) اضعاف اليابان ازاء الولايات المتحدة الاميركية . فعسكريو اليابان يرون العقبة الاولى التي تحول بينهم وبين تحقيق حلمهم في التوسع العالمي ، هي الولايات المتحدة الاميركية لا روسيا . وليست ولايات سيبيريا البحرية ، الاَّ شيئاً صغيراً ، ازاء السيطرة على الصين . وخصمهم الاول في السيطرة على الصين ، هو اميركا لا روسيا . حتى اذا خضعت لهم روسيا في الشرق الاقصى ، تبقى الولايات المتحدة في حرز حريز ، تناوئهم وتؤلب عليهم العالم ولذلك يجب ان لا يفعلوا ما يضعفهم ازاءها

***

من ذلك نستطيع ان نستنتج ان الحرب بين روسيا واليابان ، قد لا تنشب هذه السنة . ولكن ذلك لا يهمُّ . وسواء انشبت هذه السنة او السنة القادمة او السنة التي تليها فالشرق الأقصى في حالة حرب الآن . ذلك انهُ لما كانت منشوريا بلاداً مستقلة استقلالاً ذاتيًّا ، كانت كالمجنّ بين روسيا واليابان . فلما زال المجنّ تقابلت القوى الروسية واليابانية وجهاً لوجه . بل هناك ما هو انكى من ذلك

لليابان في شرق آسيا جناح معرّض لروسيا الاسيوية . ولروسيا هناك جناح معرّض لليابان كما يبدو لك من مراجعة الخريطة . وموقع كل من هذين الجناحين يقلق صاحبهُ ، اذا بدا من خصمهِ ايُّ ميل لاقلاق الحالة الراهنة . وكلتا الدولتين لها مطامع اسيوية حيوية . أما اليابان فطامعها استعمارية . وأما روسيا فطامعها من قبيل ما تقتضيه النزعة الشيوعية وفلسفة الثورة العالمية من تشجيع الانقلاب

الشيوعي حيث تستطيع . ففي اليابان قوى خفية تدفعها غرباً . وفي روسيا قوى خفية تدفعها شرقاً . ولا بدَّ يوماً ما ، من ان تلتقي الدولتان ، لانهما سائرتان في وجهتين متقابلتين في خط مستقيم . فاليابان تهاجم الآن . وروسيا ساكنة تستعدّ . وهذه حالة دولية لا يمكن ان تبقى مستقرة زمناً طويلاً . وما لم تحدث ثورة عالمية ، او انهيار اقتصادي عام او انحلال اليابان او روسيا من الداخل ، او انتصار الولايات المتحدة الاميركية على اليابان اولاً ، فلا بدَّ من وقوع الاصطدام — قد يكون ذلك قبل نهاية هذه السنة وقد يتأخر سنة او سنتين

فاذا جاء هذا الاصطدام انتقل مركز القوى السياسية العالمية الى آسيا . بل ان الغرب ، قد بدأ يحس بهزَّات الزلزال قبل وقوعهِ ، على ما رأينا من أثر فتح اليابان لمنشوريا في جمعية الامم وعهدة كلوج والآمال الذاوية بخفض السلاح . فاذا نشبت الحرب ، اضطربت آسيا ، كأنها بحر هبَّ عليهِ إعصار ، وتعيَّن على الدول الغربية ، ان تجيب عن مسائل خطيرة ، ترتبط بمستقبلها ومصير العالم . قد يجد القارئ في هذه الكلمات ، نوعاً من التشاؤم الذي لا مسوّغ له ، ولكننا نذكر ما كتب في المجلات البريطانية عن البلقان سنة ١٩١٣ ، وكيف ملَّ الناس تشاؤم اولئك الكتاب ، وكيف حققت الحوادث كلَّ ما انذروا به

ومما لا ريب فيه ان الحرب في آسيا لا بدَّ ان تشمل الصين ، شمولاً مباشراً او غير مباشر . اذ لا يمكن ان تنشب حرب في شرق آسيا من دون ان تشمل الصين . ثم ان الصين لا ترغب في الغالب ان تظل بمعزل عن تلك الحرب . اذ لا بدَّ من ان تدور رحى القتال في منشوريا ، ولا بدَّ كذلك من ان تتصل بالصين الشمالية . وعندئذ لا بدَّ للعصابات الصينية من ان تشنَّ الغارات على القوى اليابانية فتحاول ان تنسف الجسور ومحطات السكك الحديد ومخازن الذخيرة . فتردُّ اليابان على ذلك ، بالانذار اولاً ثم بالتهديد ثم بأخذ الثأر . ولا بدَّ للصين من ان تحاول جهدها ان تعرقل اعمال اليابان الحربية اقتصاصاً منها . ذلك ان صدور الصينيين تغلي فيها مراجل الحقد على اليابان ، منذ ما اطلق هؤلاء قنابلهم على شنغهاي . ومما يزيد في مرارة الصينيين انهم يشعرون بهذا الحقد وبعجزهم عن اخذ الثأر . فاذا سنحت لهم الفرصة فلن يدعوها تفلت . فاذا نشبت الحرب بين روسيا واليابان سرت في الصين موجة من الامل باسترداد ما انتزعته اليابان منهم ولذلك فالراجح انهم يقفون في المعترك الى جانب الروس

يضاف الى ذلك ان الشيوعية — او ما يعرف بالشيوعية في الصين — قد اصبحت راسخة القدم في غير ولاية واحدة من ولاياتها . وهي آخذة في الانتشار ، لما منيت بهِ البلاد من الحروب الاهلية وفساد الحكم . وقد يتاح لها الفوز فيها . فاذا خاضت روسيا غمار حرب مع اليابان ، فالراجح ان دعاة الشيوعية يصوّرون روسيا في هذه الحرب ، بصورة « المنقذ » للصين من براثن اليابان . وهذا يساعد على انتشار الشيوعية في الصين . ومما لا ريب فيهِ انهُ اذا كان النصر حليف روسيا ، فالصين باسرها تنقلب شيوعية ، وقد تقتصر شيوعيتها على شكل الحكم ، دون

فلسفته ، ولكنها تنقلب شيوعية على كل حال ، وتنضوي تحت ظلّ الشيوعية الروسية . وعند ذلك ينبثُّ الضباط الروس والممثلون المدنيون الروس في ولايات الصين يحكمون البلاد جنباً الى جنب مع الحكام الصينيين . ولما كانت خطة روسيا واضحة جلية ، والصين تتلمس طريقها تلمُّساً ، فالراجح في حالة من هذا القبيل ، ان كل القرارات الخطيرة الخاصة بالصين ، توضع لها حينئذٍ في موسكو

قد يسهل ان نتصوَّر النتائج ، ويعسر ان نغالي فيها . اذا انضوت الصين تحت لواء روسيا ، عنى ذلك ان الجانب الاعظم من آسيا قد اصبح شيوعيًّا . وكذلك يصبح ثلث البشر منضوياً تحت العلم الاحمر ، وتكون الثورة الاجتماعية ، قد بلغت حدود الهند من ناحية والهند الصينية من ناحية اخرى ، وجزائر الفيلبين وجزائر الهند الشرقية الهولندية . وفي معظم هذه البلدان نتبين الآن حركات قوية تطالب بالاستقلال عن حكم الدول الغربية . عند ذلك تعود المنافسة القديمة بين روسيا وبريطانيا للسيطرة على آسيا ، كما كانت في العقد الاخير من القرن الماضي . ولكن الدبّ الذي يسير كرجل — كما وصف كبلنج روسيا — يكون الآن على جبال حملايا يطلُّ من اعاليها على سهول الهند

واننا لا نستطيع ان نتصوَّر ان الحكومة البريطانية تقف ازاء تطوُّر الحوادث على هذا المنوال مكتوفة اليدين . ولما كان الجانب الاكبر من سياسة بريطانيا لا يرتجل ارتجالاً ، فالراجح انها لا تنتظر حتى تواجَه بالحالة الراهنة ، قبل ان تعيّن النهج الذي تسير عليهِ . فهي لن تقف وقفة المتفرج على اليابان وقد ادركها الخذلان . فلا بدَّ لها من ان تبتدع طريقة للتدخُّل . كيف تتدخل ؟ وهل تتدخل وحدها او بالاشتراك مع الدول الاخرى ؟ هذه هي المسائل التي تفرض اجابتها على حكومة بريطانيا في حالة انتصار روسيا . ولا هي تستطيع ان تتجاهل هذه الاسئلة . فانها اذا مرّت بها مرَّ الكرام ، كان عملها اول خطوة في التسليم بحل الامبراطورية . فبريطانيا لا تستطيع ان تسمح لروسيا باحراز نصر تام ، اذا شاءت ان تبقى لها المكانة العالمية التي لها الآن

ولا فرنسا تستطيع ان تقف من ظفر روسيا وقفة المتفرج . لان روسيا عندئذٍ تستطيع ان تواجه قارة اوربا المنقسمة على نفسها ، علاوة على تهديدها امبراطورية فرنسا الاستعمارية في الهند الصينية . فهي كبريطانيا محتوم عليها ان تقرّر خطتها ازاء بطش روسيا باليابان . والواقع ان الدول الأوربية التي بنت امبراطوريات استعمارية — كبريطانيا وفرنسا وهولندا — لا تستطيع ان تتخذ خطة سلبية ازاء ظفر روسيا ، لان في ذلك قضاء على امبراطورياتها

ولكن ما يكون موقف بريطانيا وفرنسا ازاء بطش اليابان بروسيا او احرازها نصراً تامًّا عليها ؟ فن المرجح الذي في حكم اليقين ، ان ظفر اليابان يتلوه ابتلاعها لشمال الصين وتحويلها جنوب الصين الى «حماية يابانية» . ذلك ان الصينيين يكونون بتصرفهم ضدّ اليابان — كما قدَّمنا — قد منحوا اليابانيين الاعذار الكافية لاتباع خطتي « الابتلاع » و «الحماية» . حتى اذا وقف الصينيون بمعزل عن الحرب الدائرة ، وفاز اليابانيون ، فانهم لا تعوزهم البراعة في اختلاق الاعذار ، لابتلاع الشمال واخضاع

الجنوب لنظام الحماية . واليابانيون لا يعرفون ضبط النفس في ساعة الظفر . خذ مثلاً على ذلك موقفهم سنة ١٩٣١ اذ تحدّوا العالم ، وحملوه على مواجهة احتلالهم لمنشوريا كحقيقة واقعة . فهم لذلك يشعرون بأنهم لا يقهرون . ومثل هذا الاعتقاد ليس غريباً عن العسكريين اليابانيين . بل ان جميع الطبقات العسكرية في التاريخ ، كانت تحس بأن لها رسالة سماوية يجب تأديتها بالفتح ، واليابان الحديثة خليط من النظام الحديث والعقائد الصوفية . فقد قال احد خبرائهم الحربيين ان الاوربيين عند ما يقدرون قوة اسطولنا الجويّ يقصرون في التقدير . ذلك لان الاوربي عند ما يعمل حساباً للمسافة التي تستطيع الطيارة ان تقطعها يحسب حساباً للذهاب وللاياب . اما طيارونا اليابانيون فلا يحسبون حساباً للاياب . ولذلك فالمسافات التي تقطعها طياراتنا الحربية هي ضعف المسافة التي تقطعها الطيارات الحربية الاوربية . فسياسة اليابان الخارجية قائمة على مزيج من العوامل منها الحاجة الاقتصادية واضطراب الحالة الداخلية وحبُّ العظمة والبسطة الاستعمارية والشعور بأن لليابان رسالة آلهية تؤديها . وجميع هذه العوامل تتألب في حالة النصر الياباني على تنبيه شهوة الفتح . عند ذلك تتحوّل دعوى اليابان بأنها القيّمة على شؤون الشرق الاقصى ، الى رغبة في الامتلاك . وعند ذلك تصبح سيدة آسيا من بحيرة بيقال الى نجد التبّت . فاذا تمّ ذلك كان النصر الياباني ، موازياً في خطره لخطر النصر الروسي ، في عيون دول اوربا . قد يكون نصر اليابان اقلّ من خطر النصر الروسي في نظر الامبراطورية البريطانية . ووجه ذلك ان خطر بسطة اليابان الظافرة ، لا يقترن بدعاية ثورية اجتماعية كالدعاية الشيوعية . فاليابان اذا فتحت يجب ان تفتح بالسلاح . واما روسيا فتضيف الى السلاح فكرةً واملاً برّاقاً ودعاية منظمة تغوي بها الشعوب الاسيوية لكي تهرع الى لوائها

ولكنهُ خطر عظيم على كل حال . لان بسط ظلها فوق جنوب الصين يجعلها على أبواب هنكنغ وسنغافورة والهند الصينية والفيلبين . وها هي ذي من دون جلالة الفتح تنافس المصانع البريطانية في الامبراطورية البريطانية بل في قلب بريطانيا نفسها . وقد ذاق البريطانيون الامرّين من منافستها هذه في السنتين الماضيتين . فكيف بها وقد فازت في الحرب مع روسيا ، وابتلعت شمال الصين وبسطت حمايتها على جنوبها ، وبدأت تتغلغل بأساليبها التجارية في سومطره وجاوى والهند الصينية والفيلبين ؟ ان أمم الغرب حينئذٍ يجب ان تستسلم لفقد كل املٍ بالاتجار مع هذه البلدان

ونحن لا نعرف امة غربية واحدة ترضى ان تسلم بهذه الخسارة، تسليماً هيّناً بل لسنا نعرف امة صناعية واحدة في الغرب ، تستطيع ان تحتفظ بمكانتها اذا هي سلّمت هذا التسليم . فالحالة الاقتصادية العالمية تقتضي من الامم الصناعية ، الاحتفاظ بأسواقها المالية ، بل والسعي الى إضافة اسواق جديدة اليها . وهذه ضرورة لا مناص منها وفوز اليابان على روسيا فوزاً حاسماً يجعل هذا التسليم امراً لا مندحة عنهُ

السياسة الاميركية الخارجية تقوم على ركنين الاول قاعدة مونرو وليس هذا مجال البحث فيها والثاني يتعلق بالشرق الاقصى ، وهو انها لا تسمح لدولة من الدول بان تحول دون حق الدول

الاخرى في استغلال الصين كسوق عالميّة للتجارة ، سواء أتمّ ذلك بالضمّ الصريح ، او ببسط السيطرة الفعلية دون الاسمية . وقد دعي هذا الركن ، في سياسة اميركا الخارجية باسماء مختلفة واشهر اسمائهِ « سياسة الباب المفتوح » وقد حاولت اميركا ان تضمنهُ جميع المعاهدات والاتفاقات الدولية التي دخلتها ، آناً يذكر صراحة وآناً لا يذكر . ولكن اميركا كانت تعني في كل حال مبدأ « الباب المفتوح » . والباعث لها على نهج هذا النهج هو باعث المصلحة الاقتصادية . فقد فكّر الاميركيون في البلدان التي تصحّ ان تكون سوقاً لتوسعهم التجاري . فلم يجدوا من البلدان الكبيرة ، التي لم تبسط عليها راية الاستعمار الأ الصين . ولذلك وضعوا هذه الخطة ، ورفضوا ان يسلموا لايّ كان بأن يوصدَ بابها في وجوههم . وكذلك تراهم وهم ينشئون خطة للابتعاد عن الاشتباك في شؤون البرّ الاوربي ، قد انشأوا خطة تزيد من اشتباكهم في شؤون البرّ الاسيوي

ففي سنة ١٩٠٤ كانت روسيا على وشك ان تصبح الحائل الذي يحول دون هذه الخطة او بالحري كانت روسيا على وشك ان توصد باب الصين في وجه اميركا ، بما اتسع لها من نفوذ ، وانبسط لها من سلطان في تلك الارجاء ، فقاومت الولايات المتحدة روسيا . ولما نشبت الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ — ١٩٠٥) وقفت اميركا في جانب اليابان قلباً وقالباً

ولما اصبحت اليابان اليوم وموقفها كموقف روسيا سنة ١٩٠٤ بدأت اميركا تقاوم اليابان . وما زالت تقاومها . بل ان مقاومة الولايات المتحدة لليابان ، اخذت تزداد بازدياد الخطر الذي يهدّد اميركا في هذه القاعدة الاساسية من قواعد سياستها الخارجية . بل ان الولايات المتحدة وقفت في سبيل اندفاع السيل الياباني العسكري فوق سهول الصين . وقد زاد احتجاج الولايات المتحدة على اليابان في هذا الصدد عنفاً وقوة لهجة من سنة ١٩٠٧ الى سنة ١٩٣١ لما احتلت اليابان مقاطعة منشوريا . وما تزال الولايات المتحدة ، ترفض ان تعترف بانفصال منشوريا عن الصين مع ان منشوكو (الاسم الجديد لمنشوريا) اصبحت امبراطورية ولها امبراطور متوّج . وما نزال نذكر السعي الذي سعاهُ الكولونل ستمسن وزير خارجية اميركا في عهد الرئيس هوفر ، وكيف ألّب مندوبي الدول في جنيف على المعارضة في احتلال منشوريا او الاعتراف بهِ

فاذا تذكرنا كلّ هذا فمن المتعذر ان نصدّق ان الولايات المتحدة الاميركية تقف مكتوفة اليدين امام انتصار اليابان على روسيا . وقد رأينا ان بريطانيا لا تستطيع ان تسلّم بنصر روسي كامل في الشرق الاقصى . وكذلك الولايات المتحدة الاميركية لا تستطيع تسلّم بنصر ياباني تام . قد تسلّم بنصر روسي في الشرق الاقصى ، مع ان مصالحها الاقتصادية تتعرض — بعد زمن — للخطر نفسهِ . ولكنها لا بدّ ان تحاول منع اليابان من الظفر . فماذا تفعل اتتدخل ام لا تتدخل ؟ واذا شاءت التدخل فما وسائله ؟ وهل تعقد له المحالفات ؟ ومع مَن ؟ وما نفقاته ؟ لا ريب في ان الجواب عن هذه الاسئلة ، يقرر مقام اميركا في السياسة العالمية خلال قرن او اكثر من الزمان

دولة اليمن ودولة آل السعود

بحث تاريخي في نشأتهما وتطورهما

لامين سعيد

جلا الترك عن بلاد العرب في ختام الحرب العظمى عملاً باتفاق مُنْدروس المعقود بينهم وبين الحلفاء يوم ٣٠ اكتوبر سنة ١٩١٨ ثم تنازلوا في مؤتمر لوزان (دسمبر — يوليو سنة ١٩٢٣) عن سيادتهم عليها الى اهلها انفسهم لا الى دول الحلفاء وكانت تحتل الجزء العامر منها

وكان في جزيرة العرب يومئذٍ خمس امارات او حكومات تتنازع السيادة والفوز : امارتا الرياض وحايل في الشمال ودولة الحجاز في الوسط وصبيا وصنعاء في الجنوب . وكان العداء مستحكماً بين امرائها فابن السعود صاحب الرياض يناصب ابن الرشيد صاحب حايل العداء ويشن عليه الغارات وكان الحسين صاحب الحجاز ينفر من وجود الامارة الادريسية على حدوده الجنوبية ويعد صاحبها مغتصباً ويرى ان تهامة عسير جزء لا يتجزأ من الحجاز فيجب ان تعاد اليه وان يطرد ابن ادريس لانهُ دخيل مغتصب . وكان في نفس الامام يحيي بن حميد الدين من ناحية الامارة الادريسية ما كان في نفس الحسين فقد ساءه نجاح السيد محمد علي الادريسي في توطيد دعائم امارته وكان طامعاً فيها راغباً في الاستيلاء عليها لانهُ يعدها جزءاً من اجزاء اليمن . وزاد في نقمته عليه تسليم الانكليز للحديدة بعد الحرب الى السيد الادريسي وهي ميناء صنعاء الكبير وباب العربية السعيدة . ومعنى ذلك ان ابن ادريس كان بين عدوين قويين في الشمال وفي الجنوب يتربصان بامارته دوائر السوء ويكيدان لها المكائد ويترقبان الفرص للانقضاض عليها

ولم تكن العلاقات بين الحسين صاحب الحجاز وابن السعود صاحب الرياض على ما يرام مع ما كان الانكليز يبذلونهُ من مساعٍ للتوفيق والاصلاح بين حليفهم الحسين وصديقهم ابن السعود وقد كان الاول يعمل لاخضاع امارة الرياض لاشراف مكة كما كانت في عهد جده محمد بن عبد المعين اي بعد الغارة المصرية على الحجاز سنة ١٨١١ — ١٨٣٠ فقد خضعت لهم فترة غير قليلة

الانكليز والامارات العربية

وكان بين الانكليز وبين ثلاث من هذه الامارات اتفاقات تنظم علاقاتها بهم وربما كان السيد الادريسي صاحب عسير هو اول امير في جنوبي الجزيرة تعاقد مع الانكليز فقد اغتنم فرصة الحرب العظمى فعقد معهم في سنة ١٩١٥ اتفاقاً اعترفوا فيه باستقلال امارته وأمدُّوه بالمال والسلاح وأوفدوا في سنة ١٩١٥ بعثة الى ابن السعود لاستمالته واقناعه بدخول الحرب في جانبهم فعقدت

معه معاهدة العقير يوم ٢٦ دسمبر سنة ١٩١٥ وقد اعترفت فيها انكلترا بأن نجداً والحسا والقطيف وجبيلا وتوابعها هي بلاد ابن السعود كما اعترفت به حاكماً عليها وتعهد (ابن سعود) بأن لا يسلم ولا يبيع ولا يرهن ولا يؤجر الاقطار المذكورة ولا قسماً منها ولا يتنازل عنها بطريقة ما ولا يمنح امتيازاً ضمنها لدولة اجنبية او لرعايا دول اجنبية من دون موافقة الحكومة البريطانية وبأن يتبع مشورتها دائماً بلا استثناء على شرط ان لايكون ذلك مجحفاً بمصالحه (مادة ٤) وتعهدت الحكومة البريطانية في المادة الثانية بمساعدة ابن السعود — بعد استشارته — اذا اعتدت دولة اجنبية على اراضيه

ونظمت العلاقات بين الانكليز والحسين على قاعدة غير هذه القاعدة فقد اعترفوا بالاستقلال التام للحجاز بدون قيد ولا شرط واعترفوا بدولته كما اعترفوا بالحسين ملكاً عليه . وعاملوه معاملة الند للند . نعم انهم لم يعقدوا معه اتفاقاً رسمياً كالاتفاق الذي عقدوه مع ابن السعود بيد ان العهود التي قطعوها له في ابان الحرب العظمى لا تدع شكاً في صحة ما ذهبنا اليه وقد ايدها الواقع فقد مثل الملك فيصل الدولة الحجازية في مؤتمر الصلح حين افتتاحه واعتبرت الدولة الحجازية من الدول المؤسسة لجمعية الامم ودعيت الى الاشتراك في اعمالها والجلوس بين اعضائها فحال دون ذلك رفض الحسين للتوقيع على معاهدة فرسايل فقد ابى ان يوقعها لاعتبارين جوهريين : ١ — لانها نصت على مبدأ الانتداب وهو لا يقره ٢ — لانها لم تعترف للعرب بالاستقلال التام وفقاً للعهود المقطوعة له[1]

فالخلاف بين الانكليز والحسين لم يكن على استقلال الحجاز وقد كان هذا مفروغاً منه وانما كان على مصير الاقطار العربية المحررة وهي العراق وسورية وفلسطين فقد كان يطالب بمنحها الاستقلال التام وفقاً للعهود المقطوعة له . على اننا نذكر ان الانكليز سعوا بعد الحرب لتصفية هذه العهود بمشروعين عرضوهما عليه وقد حمل الاول الكولونيل لورانس الى جدة في سنة ١٩٢٠ وحمل الثاني الدكتور ناجي الاصيل سنة ١٩٢٣ فلم يقبلهما الحسين ولم يقرهما[2]

ولم تكن العلاقات بين الانكليز وابن حميد الدين في ذاك العهد على ما يرام فقد سعوا في ابتداء الحرب الى استمالته والتعاقد معه ، كما فعلوا مع الامراء الآخرين واستعانوا على ذلك بسلطان لحج حليفهم وصديقهم فأبى وأقام على ولائه للدولة العثمانية يرعى جنودها المحصورين في اليمن وقد جلوا بعد الهدنة فتسلمها وأنشأ هذه الحكومة في ربوعها

وكان الى جانب هذه الامارة والحكومات الخمس المتنافسة المتناحرة المتعادية امارتان صغيرتان الاولى في الجوف شرقي الشام يسيطر عليها آل الشعلان وكانت في الاصل خاضعة لآل الرشيد في حايل فلما ضعف شأنهم جاهرت بالانفصال عنهم وامارة آل عايض في ابها (شرقي نجد) وغرب امارة صبيا فقد استقل هؤلاء في ابها (عسير السراة) وتسلموها من الترك حين جلاهم في سنة ١٩١٨

(١) عالجنا هذا الموضوع وتوسعنا في بحثه ونشرنا النص الكامل لهذه العهود وتبلغ نحو ١٥ عهداً في كتابنا الثورة العربية الكبرى وهو يطبع الآن في مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ويقع في ثلاث مجلدات ويصدر في شهر يوليو المقبل

(٢) نشرناهما بنصهما الكامل في الكتاب ايضاً

انتصار ابن السعود في نجد والحجاز

تلك كانت حالة جزيرة العرب من سنة ١٩١٨ حتى سنة ١٩٢١ : ثلاث امارات في الشمال : آل الشعلان وآل الرشيد وآل السعود ، وثلاث في الجنوب : ابن حميد الدين وابن عايض وابن ادريس وفي الوسط الحجاز صاحب الدولة المستقلة وحليف الحلفاء وصاحب الجيش المنظم والمطالب بالسيادة على هذه الاقطار كلها والساعي ليحل محل الدولة العثمانية في السيطرة عليها

والواقع ان مطامع الحسين ما كانت تقف عند اخضاع الامارات العربية لسلطانه بل كان يسعى لانشاء دولة عربية كبيرة تضم الاقطار العربية المحررة ونعني بها العراق والشام وفلسطين وقد خاض الحرب لاجلها ، وكانت مسألة الامارات العربية في داخل الجزيرة ثانوية في نظره ولا نشك في انه لو فاز في تنفيذ هذه الخطة وانشأ الامبراطورية العربية الكبرى — وقد رسم حدودها في مكاتباته مع الانكليز وهي تمتدُّ حتى خليج فارس وحدود ايران شرقاً وسلسلة جبال طوروس شمالاً والبحر الأحمر غرباً وعدن جنوباً — لساد العرب كلهم في داخل الجزيرة وفي خارجها ولساد هذه الامارات وسيطر عليها واصبح سيد العرب غير مدافع

واول اخفاق سياسي اصيب به الحسين هو تملص الحلفاء من عهودهم الصريحة ومنعهم اياه من التدخل في شؤون العراق وانشائهم ادارة بريطانية في فلسطين واصدارهم وعد بلفور لليهود ونزول الفرنسيين في الساحل الشامي ثم تقويضهم الدولة الفيصلية في دمشق . اما خيبتهُ العسكرية فقد تمت يوم تربه فقد مزّق السعوديون الجيش الكبير الذي اعدَّه وسيره الى الرياض في ربيع سنة ١٩١٩ لفتحها والقضاء على الامارة السعودية فكان ذلك اليوم مبدأ تألق كوكب ابن السعود كما كان مبدأ افول نجم الدولة الهاشمية الجديدة ولم تلبث ان هوت في سنة ١٩٢٤ تحت اقدام الغزاة السعوديين

وشجع ابن السعود ما لقيَهُ انصاره من نصر في تربه(١) وما غنموه من معدات وذخائر واموال — وكان يرقب سير المعركة عن بعد ولم يشترك فيها بالذات — فزحف على حايل عاصمة آل الرشيد ولم يزل يطاولها وينازلها حتى استسلمت اليه يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩٢١ وقاد أميرها محمد بن متعب ابن الرشيد أسيراً الى الرياض ولا يزال فيها حتى الآن . ثم اتبع امارة آل الشعلان في الجوف بامارة آل الرشيد فاستولى عليها وضمها الى املاكه واتجه في سنة ١٩٢٢ نحو عسير فدك امارة آل عايض ثم زحف على الحجاز في سنة ١٩٢٤ فاستولى عليه ايضاً وفي سنة ١٩٢٦ دخلت امارة الادارسة في تهامة عسير تحت حمايته وأشرقت شمس سنة ١٩٢٧ على بلاد العرب وابن السعود يسيطر على شمالها وشرقها وجنوبها وغربها ووقفت جيوشه في الجنوب عند حدود ابن حميد الدين صاحب اليمن الذي اصبح وجهاً الى وجه امام ابن السعود مكتسح الامارات ومبيدها

(١) وقعت معركة تربه ليلة ١٧ مايو سنة ١٩١٩ فقد بيت النجديون الجيش الهاشمي عند الفجر فأفنوه ومزقوه . ولم تدر غير هذه المعركة بينهم وبينه

اول صدام بين اليمانيين والسعوديين

واول مرة وقف فيها زعيما الجزيرة وجهاً الى وجه كانت في سنة ١٩٢٦ فقد حمل ابن حميد الدين في سنة ١٩٢٤ على الادارسة في تهامة فاستولى على مدنهم الشمالية وتقدم حتى ميدي . نخاف هؤلاء العاقبة فلجأوا الى ابن السعود وعقدوا معه معاهدة مكة يوم ١٩ اكتوبر سنة ١٩٢٦ ودخلوا بمقتضاها في حمايته فارسلها على الفور بنصها الكامل مع كتاب الى ابن حميد الدين يرجوه ان يصدر الامر الى قواده بالكف عن مهاجمة امارة الادارسة لانها في حماه . وقد كانت مفاجأة عنيفة فوجيء بها الامام فاما ان يقر المعاهدة ويعترف بها وبذلك تفلت الامارة من يده وقد كان طامعاً باستصفائها والقضاء عليها . واما ان يرفضها ويأمر عبد الله بن الوزير قائد جنده في تهامة بمواصلة الزحف فيصطدم بابن السعود ويدور القتال بين سيد الشمال وسيد الجنوب وتقع الوقعة الكبرى

وجنح الامام الى السلام واقرّ الامر الواقع وابلغ قائده بأن يوقف رحى الحرب ولبي دعوة ابن السعود الى المؤتمر الاسلامي في مكة سنة ١٩٢٦ واشترك فيه فأرسل اليهِ هذا الرسل مع الهدايا في سنة ١٩٢٧ فقابله بالمثل وارسل اليهِ في شهر ابريل سنة ١٩٢٨ وفداً من السيد قاسم بن حسين والسيد محمد بن زبارة والسيدعباس بن احمد ومعهم حاشية فشهدوا الحج سنة ١٣٤٦ وكانت مهمة الوفد مفاوضة ابن السعود في تحديد الحدود بين البلادين وفي عقد معاهدة تنظم علاقاتهما . وعاد يحمل الى الامام مقترحات للاتفاق لم تنل من جانبه قبولاً

معاهدة العرو

وتعددت الرسل والوفود في خلال الفترة المنقضية بين سنة ١٩٢٨ — ١٩٣١ بين صنعاء والرياض للاتفاق على تحديد الحدود وسافر مندوبو الفريقين الى عسير ليبدأوا بالعمل «فاجتمعوا يوم ٢٥ جمادي الثانية سنة ١٣٥٠ (سبتمبر سنة ١٩٣١) في مكان يسمى النظير واقترح السعوديون ان يجلوا اليمانيون عن جبل العرو الذي احتلوه ، الى خط الحدود الاصلي فأبى مندوبو هؤلاء واصروا على الاحتفاظ بالجبل ورفع كل مندوب الى حكومته الامر طالباً تعليماتها فاتصل الملك بالامام اتصالاً برقياً فاجابه انهُ يحكمه في الخلاف فأبرق اليهِ قائلاً بأنهُ يتنازل عن الجبل لليمن حلاً للاشكال

وعقد المندوبون على الاثر معاهدة وقع عليها يوم ١٥ شعبان ١٣٥٠ جاء في المادة الاولى منها ما نصهُ « يكون على الدولتين المحافظة على الصداقة وحسن الجوار وتوثيق عرى المحبة وعدم ادخال الضرر ببلاد كل منهما على الآخر وجاء في المادة الثانية يكون على كل من الدولتين تسليم المجرمين السياسيين وغير السياسيين المحدثين بعد هذه الاتفاقية كل لحكومته عند طلب حكومة له وجاء في المادة الثالثة يكون على كل من الدولتين معاملة رعايا الدولة الاخرى في بلادها في جميع الحقوق طبق الاحكام الشرعية

ثورة الادارسة

ولقد كنا نظن ان العلاقات السياسية استقرت بينهما على اثر عقد هذه المعاهدة . بيد ان ثورة

الادارسة على ابن السعود في سنتي ١٩٣١ — ١٩٣٢ اثبتت ان الامر على الضد من ذلك فقد لجأ امراء العائلة الادريسية وانصارهم الى اراضي الامام في تهامة حينما تغلب عليهم السعوديون فاواهم اليمنيون عملاً بسنن العرب واجزلوا قراهم . ولما كانت معاهدة العرو تقضي على الامام بتسليم هؤلاء وكان تسليمهم يلبس اليمن لباس الخزي والعار فقد عجل الامام يحيى فارسل في اواخر شهر فبراير سنة ١٩٣٣ برقية الى ابن السعود يعلنهُ بوصول السيد الحسن الادريسي ومعهُ جملة من اصحابه وحاشيتهِ الى ميدي ويرجوه منحهم الامان الكامل المطلق والعفو عن كل ما حدث فاجابهُ ببرقية قال فيها ان جميع من التجأ اليكم له امان الله على ماله ودمه وانهُ عفو تام شامل عن جميع ما مضى وحدث في هذه الفتنة الشيطانية سواء حقوق الحكومة او حقوق الاهلين وان جميع من اعطيتموه الامان والمكان فهو تام على وجهه ما يحذرون شيئاً سواء في ذلك الحسن (السيد الحسن) وآله وغيره من الرعية

فاجاب الامام ببرقية قال فيها انهُ كتب الى جميع العمال بارجاع كل من لديهم على وجه السرعة وطرد من تأخر وطلب منهُ بان يحرر للسيد الحسن ومن اليهِ « بتحرير عفو وامان له خاص » فرد عليهِ شاكراً له سعيه للاصلاح وقال انهُ يعطي امان الله وعهده للحسن ومن تبعه على دمه وشرفهِ وان جميع ما فات منهُ لا يعاقب عليهِ وانهُ سيكون اخاً عزيزاً له. ومع كل ما جرى فقد ظل الادارسة ومن معهم في ميدي ولم يعودوا الى عسير كما وعدوا وتوسط الامام ثانية فتقرر عقد مؤتمر في ميدي يحضره السيد الحسن ورجاله ومندوب لابن السعود ومندوب للامام. وقد عقد هذا المؤتمر في اواخر شهر شوال سنة ١٣٥١ واستمر شهرين وانفضَّ من دون نتيجة فقد طلب الادارسة اعادة الحالة في عسير الى ما كانت عليهِ قبل الثورة واصرَّ مندوب ابن السعود على تقديم الخضوع بلا قيد ولا شرط

مفاوضات صنعاء

وقبل ان تحل مشكلة الادارسة ارسل الملك عبد العزيز رسولاً الى الامام يحيى محمد بن ضاوي يحمل اليهِ اقتراحات لعقد معاهدة دفاعية بين البلادين لمدة عشرين سنة وانشاء اتحاد جمركي وبريدي وقبول مبدأ التحكيم في ما يحدث من خلاف على ان يكون الحكم طبق احكام الشريعة الاسلامية فاجاب الامام بالموافقة مبدئيًّا وطلب تعديل الحدود من جهة عسير ومعنى ذلك ان يتنازل له عنها

وفي شهر ابريل سنة ١٩٣٣ ارسلت حكومة مكة وفداً تألف من خالد بك القرقني وحمد السليمان الى صنعاء لمفاوضة الامام في دائرة تلك المقترحات ، ولم يكد يحط رحاله فيها حتى مرض الامام فانتظره نحو شهرين تقريباً لم يعمل في خلالها عملاً يستحق الذكر

وبينما كان العالم العربي ينتظر ورود الاخبار من صنعاء حاملة بشرى الاتفاق فوجئ يوم ١٠ اغسطس بنبأ اذاعتهُ المصادر السعودية في مصر وخلاصته ان الامام طلب في اثناء المفاوضات تخلي ابن السعود له عن مقاطعة الادارسة في تهامة او عن قسم منها وادخال منطقة نجران في داخل الحدود اليمانية وانهُ ارسل القوات فاحتلَّت نجران كما منع الوفد السعودي عن السفر

ولما وصلت هذه الاخبار الى صنعاء كذبها الامام تكذيباً قاطعاً وقال انها من صنع دعاة السوء وكذبتها حكومة مكة ايضاً واستؤنفت المفاوضات البرقية بين الملك والامام واذيع في اواخر شهر يناير الماضي ان الاخير قبل مبدئيًّا مقترحات الحكومة السعودية لتنظيم العلاقات بينهما وهي :

١ — الاعتراف بالحالة الحاضرة في عسير ٢ — عقد معاهدة دفاعية ترمي الى المحافظة على سلامة الجزيرة وتعزيز القضية العربية ٣ — تنظيم العلاقات التجارية والاقتصادية وعلاقات القبائل وطرق معاملاتها في اثناء تنقلاتها ٤ — تأجيل البت في مصير مقاطعة نجران الى فرصة اخرى

ووافق الامام ايضاً على عقد مؤتمر في ابها يشترك فيهِ مندوبو الحكومتين للبت في هذه الشؤون والتوقيع على الاتفاقات الخاصة بها

مؤتمر ابها

عقد هذا المؤتمر في اواخر شهر فبراير الماضي ومثل الحكومة اليمانية فيهِ السيد عبد الله بن الوزير ومثل الحكومة السعودية وكيل خارجيتها وبدأ عمله في جوّ صافٍ اعتقدنا معهُ ان التوقيع على المعاهدة لا يلبث ان يتم ولكننا فوجئنا يوم ٢٢ مارس ١٩٣٤ ببلاغ رسمي اذاعته الحكومة السعودية بانقطاع العلاقات بينها وبين اليمن وهذا نصهُ : « بالرغم من استنفاد جميع الوسائل السلمية بقي الامام يحيي ماضياً في خطته العدائية نحونا كاحتلاله جبالنا في تهامة واستعماله القسوة مع اهلها ، فضاعت بذلك الجهود التي بذلت في خلال سبعة اشهر وقد اصدر جلالة الملك امراً الى سموّ ولي العهد بالزحف الى الحدود واسترداد المناطق التي احتلها جنود الامام يحيي منتظرين فرصة المفاوضات »

بهذا البلاغ وبما تلاه اعلنت حكومة مكة وجود حالة الحرب بينها وبين حكومة الامام يحيي فاضطرب العالم العربي ووجل خوفاً مما قد تُسفِر عنهُ من نتائج سيئة وارسل البرقيات والرسائل الى الملكين يرجوهما الكف عن القتال فردّ الامام يحيي يوم ٧ ابريل على برقية لسموّ الامير عمر طوسن ببرقية هذا نصها « بعد انتهاء المراجعات بيننا وبين حضرة الملك عبد العزيز والوفاق على امهات مواد المعاهدة كان منا ارسال المندوبين لعقد المعاهدة مضمرين كل صداقة واخوة للمشار اليه مستبشرين بصلاح الشأن وحقن الدماء حريصين على جمع كلمة المسلمين غير مجوزين شقاقاً . وفي خلال هذا وحضرة المشار اليه يحشد الجيوش في كل جهة حتى اذا اتم استعداده أفاد الينا انه موجه جيوشه علينا فاجبناه بكل لطف وصداقة وكنا افدنا الى حضرتكم في جوابنا انهُ سيكون اعتماد ارشادكم وثباتنا عند حد الدفاع فلم نشعر الاَّ بالتجمع الفعلي بالجنود المجندة للعدوان على اطراف بلادنا ومع هذا فلا ندري حتى الآن ما عليه مندوبنا في ابها . وقد رأينا من واجب الاخوة الدينية اعلامكم بالحقيقة »

واذيع في ١١ منه ان الامام يحيي طلب من ابن السعود وقف القتال وان هذا اجابه مشترط بعض شروط ومع انهُ مضى على ارسال الجواب اكثر من عشرة ايام فلم يرد ما يشعر بقبوله الشروط كما لم يرد ما يدل على ان الحرب اوقفت ولا يزال كل شيء من هذه الناحية مجهولاً حتى كتابة هذه السطور

الملك لير : لشكسبير

ترجمة الاستاذ سامي الجريديني المحامي

المشهد الرابع من الفصل الثاني

امام قصر جلوستر والدوق كنت امين الملك مطروحاً ارضاً ورجلاه في مقطرة
يدخل الملك والمجنون وأمين من الامناء

الملك لير — غريب امرهم . يرحلون عن ديارهم سراعاً ولا يردّون اليّ رسولي

الامين — لم يكن الرحيل في نيتهم حتى ليل البارحة

كنت — السلام عليك ايها السيد النبيل

الملك لير — ما هذا ? أتعبث بنفسك فتلبس هذا العار ماجناً

كنت — لا يا مولاي

المجنون — ها . ها . انهُ متمنطق بجوارب قاسية . ان الخيل تربط من رؤوسها والكلاب والدببة من اعناقها والقردة من احقائها اما الرجال فمن ارجلهم. فاذا ما أصيب رجل باسمٌ في رجله الهسوه جوارب خشبية

الملك لير — ومن الذي تجاهل مقامك فوضعك هذا الموضع

كنت — هو وهي — ابنك وابنتك

لير — لا: كنت — نعم. لير — قلت لك.لا . كنت — وأنا اقول نعم.

لير — لا. لا.ما فعلوها . كنت — فعلوها. لير — والله لا . كنت — والله نعم.

لير — انهم لا يجسرون على هذه الفعلة . لا يقدرون . بل ولن يقدموا عليها — انها افظع من القتل اذ يتعمدون اهانتي . اخبرني واتئد فيما تقول . كيف استأهلت هذا القصاص وكيف اقدموا هم عليه وانت رسولي اليهم

كنت — عند ما جئت اليهم يا مولاي برسالتك اذا برسولٍ مسرع يلهث نصباً جاء وأنا بعد لم انهض من تأدية السلام والاحترام بكتبٍ من مولاته ابنتك جونريل فقرأوها بالحال ولم يعبأوا برسالتي ثم امروا اتباعهم وشدوا الخيل وقالوا الحقْ بنا نعطك الجواب وتناقلوا بي فنظرت فاذا الرسول الذي افسد عليّ رسالتي هو ذاك الذي تطاول بقحته عليكم فغلبتْ اذ ذاك شجاعتي حسن رأيي . فهممت بهِ بسيفي فملأ الفضاء بصراخ الجبن فجاء ابنك وابنتك وعاقباني بالعار الذي ترى

المجنون — اذا رأيت القطا يطير من هذه الناحية فاعلم ان الشتاء لم ينته بعد .
اذا تدثر الآباء برث الثياب عميت عيون الابناء عنهم اما اذا حملوا الاكياس مثقلة بالذهب فقلوب الابناء تلين وتشفق . وسوف ترى من آيات بناتك الزنانة ما لا تستطيع له عداً

لير — ما لهذا الداء العياء يصعد الى قلبي . ازل . خفف عني . فليس مكانك ههنا — اين هذه البنية

كنت — مع الدوق في الداخل

لير — ابقوا هنا لا يتبعني احد . (يخرج)

الامين — اما تعدنَّ اساآتك ما رويته لنا ؟

كنت — لا . وما الداعي ان يأتي الملك يحرسه هذا العدد القليل من الحراس ؟

المجنون — ان سؤالك هذا جدير بما انت فيه من العقاب

كنت — لماذا يا مجنون

المجنون — سأبعث بك الى النملة تعلمك ان لا عمل في الشتاء . الناس منهم من تقوده عيناه فيبصر ومنهم من يعمى فيقوده انفهُ فيشم الرائحة . وكلا الفريقين يهجر الملك . اذا رأيت عجلة تنحدر مسرعة من قمة الاكمة فابعد عنها لا تمسها يدك لئلاَّ تقع وتدق عنقك اما اذا كانت تتسلق صاعدة فاردف نفسك وراءها
ان رأيت حكيماً ينصحك بأحسن مني فارجع لي نصيحتي فليس للمجنون ان ينصح غير الادنياء . ان الرجل الذي يلحق بك للكسب ويتظاهر بالود لا يلبث اذا امطرت السماء ان يفرَّ ويتركك فريسة للعاصفة ، اما انا فلن ابرح الارض . دع العاقل يهرب اما المجنون فيبقى

كنت — اين تعلمت هذا يا مجنون

المجنون — ليس في المقطرة يا مجنون (يعود الملك مع جلوستر)

لير — ايمتنعون عني ويحتجون بالمرض والتعب وانهم لبثوا ليلهم كله سارين . انها لاعذار فارغة ودليل المعصية والتبرم . هات جواباً خيراً من هذا

جلوستر — انك تعلم يا مولاي حدة الدوق وتصلبه في ما اعتزم

لير — يا للنقمة . يا لعون الموت . يا للارتباك . ماذا تقول ؟ تصلبه وحدة مزاجه ؟

اي جلوستر اي جلوستر اني اريد ان اكلم دوق كورنوال وامرأته

جلوستر — هذا ما نقلته اليهما يا مولاي

لير — نقلتَ اليهما ؟ الا تفهم ايها الرجل. جلوستر — نعم يا مولاي

لير — ان الملك يرغب في ان يرى كورنوال . ان الاب العزيز يريد ان يكلم ابنته ويأمرها ان تجيء . هل نقلتَ اليهما هذا ؟ قسماً بحياتي اني لا افهم . الدوق صعب المراس ! يا لك من دوق صعب المراس . قل لهذا الدوق الحامي. . . . . لا . لا . مهلاً فقد يكون مريضاً والمرض خادم لا يكرم العافية . وقد تضغط الطبيعة علينا فنذهل عن انفسنا ونمرض العقل بمرض الجسد . ساصبر واكبح جماح غضبي

المشهد الثاني : الفصل الثالث

يدخل الملك لير والمجنون

الملك لير — اخفقي ايتها الارواح . مزّقي خدودك واغضبي وانفخي

وانتِ ايتها الاعاصير اقذفي بمائك حتى يطغى فيغرق المنائر المرتفعة

وانتِ ايتها النيران المحرقة المارة مرَّ الفكر المنذرة بصواعق تقدّ السنديان قدًّا اشعلي بياض رأسي

وانتَ ايها الرعد القاصف اصعق هـذا العالم في دورانه واهدم بنيانه واسحق نطفةً جاءت بابن آدم العقوق

المجنون — يا عماه ان مياهاً مقدسةً ملكية في دار جافةٍ خير من ماء المطر في خارجها . ادخل ادخل يا عماه واطلب بركةَ بناتك فهذا ليل لا يرحم العاقل ولا المجنون

لير — اهدر حتى تشبع . ابصقي ايتها النيران واقذفي بمائك ايتها الامطار فليس المطر والريح والرعد والنار بناتٍ لي

اني لا اتهمك ايتها العناصر بالعقوق فلم اهب لكم ملكاً قط ولم اناديكم يا بنيَّ ولم تفرض لي عليكم الطاعة

اسكبوا عليَّ جام غضبكم فهانذا عبدكم . رجل فقير ضعيف كسيح وشيخ حقير .

ولكنني لااعالك عن ان ادعوكم عبيداً مملقين تواطأتم مع ابنتين شريرتين .

وأثرتم في السماء حرباً عواناً على رأسٍ شاخ واشتعل شيباً . يا للعار يا للعار

الجنون — من له بيت يأوي اليهِ يضمن لرأسهِ غطاء وافياً . الرجل الذي يؤثر كعبه على رأسه يتألم من العقر ويأرق ليله . ابغني امرأة حسناء لا تقلب وجهها امام المرآة

لير — ساكون قدوة للصابرين واسكت

***

دع الآلهة التي صبّت هذه الكارثة على رؤوسنا تبحث عساها ان تجد غريمها ارجف جزعاً ايها الشقيُّ الذي خبأ جريمته فلم ينله سوط العدل . اختبئي ايتها اليد الدامية وايها الحانث بيمينه وايها المرائي المدعي العفة وهو فاسق : لترجف عظامك جزعاً ايها البائس المتظاهر بالود والمتآمر على حياة الناس

وانتِ ايتها الذنوب المطوية في الصدور اسلمي نفسكِ واستغفري لذنبك من حكم هذه الصواعق

الجنون — (يغني) ان الجوّ يمطرنا كل يوم فمن كان يملك مسكةً من العقل استطاع ان يجمع بين حاجته ودهره في السرّاء والضرّاء والريح والمطر

لير — صحيح هذا يا غلام — تعالى نذهب الى الكوخ

الجنون — سأتنبأ قبل ان اذهب

اذا اهتمَّ الكهنة بالعرض دون الجوهر
واذا خلط الخمارون النبيذ بالماء
واذا اخذ النبلاء يعلمون خياطيهم اتقان الزيّ
واذا عدل عن حرق الكفار الى حرق الفسقة
واذا كانت كل دعوى صواباً في نظر القضاء
واذا لم يبق الشريف مديناً والكريم مفلساً
واذا هجرت النميمة ألسنة الناس
واذا ابتعد النشالون عن الجماهير
واذا بنى القوّادون والعواهر الكنائس

ففي ذلك الزمن تسوء حال انكلترا ويكون وقت تمشي فيهِ الناس على اقدامها . ومن يعش يرَ . هذه نبوءة سيتنبأ بها مرلن نبي بريطانيا الذي سوف يجيء بعدي

فتاة الجبل الاسود

استخرجنا هذه الابيات الروائع من قصيدة للشاعر الكبير خليل مطران

وكان من الترك جمعٌ قليل — على رأس منحدرٍ أصلد
كثير الثلوم كأنَّ الفتى — اذا زلَّ يهوي على مبرَد
وقد نصبوا فوقه مدفعاً — يهزُّ الرواسخَ ان يرعدِ
وحفّوا كاشبال ليثٍ بهِ — يداعبهُ بعضهم باليد
ففاجأهم هابطٌ كالقضاء — في شكل غضّ الصبي أمرد
فتىً كالصباح باشراقهِ — له لفتة الرشإِ الأغيد
يدلُّ سناهُ وسيماؤه — على شرف الجاه والمحتد
تردُّ سواطعُ أنواره — سليمَ النواظر كالأرمد
أقبُّ الترائب غضّ الروادف — يختال عن غُصُن أميدِ
لهيبُ الحروب على وجنتيهِ — والنقع في شعره الاسود
وفي عينهِ مثل برق السيوفِ — وظلُّ المنية في الأثمد
فأكبرَ كلهمُ أنهُ — رآه تجلّى ولم يسجد
وظنّوه مستنفراً هارباً — أتاهمُ بذلة مستنجد
ولم يحسبوا ان ذا جرأة — يهاجم جمعاً بلا مُسعد
ولكنَّ كثرتهم لم ترُعهُ — فأقدم اقدام مستأسد

وما لبثوا ان أحاطوا بهِ — فدانَ لهم صاغراً عن يد
ولولا اتقاء الخيانةِ فيهِ — لكان الالهُ لهُ يفتدي

* * *

فسيق الى حيث كان الامير — في نفرٍ منهم مُوفدِ
فأوقع امراً بأن يقتلوهُ — بمرأى الجنود غداة الغد
فاقصى الفتى عنهُ حرَّاسهُ — وشقَّ عن الصدر ما يرتدي
وابرز نهدَي فتاةٍ كَعابٍ — بطرف حييٍّ ووجه ندي
كحقَّي لجين بقفلي عقيقٍ — وكنزين في رصد مرصد
فكبّر مما رآهُ الامير — وهلّل كلٌّ من الشُّهد
وراعهم ذانك التوأمان — وطوقاها من دم الأكبد
ووثبهما عند ما اطلقا — الى ظاهر الدرع والمجسد
كوثب صغار المها الظامئات — نفرنَ خفافاً الى مورد

صلاة

للشاعر الاميركي ادون مارکهام

علمني ايها الأب ان اسير متئداً كما تنمو الاعشاب
انزل السكينة على قلبي حتى يصمد ، لصدمات العالم المفتون ، كالصخر الاصمّ
وليكن له في احتدام قوته ، رقة الزهرة .
ودع هذا القلب الظامىء يترع كأسهُ
ليستقبل السماء في بشر الشقيق الريّان .
واذا ما افعم القلب ريّاً ، ودبّت الحياة الجديدة فيه
فليحمل تاجهُ في وداعة الشقيقة الموقرة بالندى

***

علمني ايها الأب ان امنح عطفي دون مللٍ
كما تمنح الشجرة ظلّها للعابرين
هذا الظلّ الذي يشيع روح الطرب في الجنادب الغردة تحته عند الظهيرة
وتستروح بنسماته العليلة هذه الحشرات الدؤوبة في رحلة الحياة .
فدعني اذاً انشر البهجة والهناءة على ما حولي
من مراعٍ سحيقة وشعاب نائية كظلال تلك الشجرة الحانية .
فتنيء اليها الارواح العابرة المتعبة لحظاتٍ افرغت فيها الحياة كلَّ صفوها وجمالها

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ سقاه مضاعف الغيث العميمِ
نزلنا دوحة فحنا علينا حنوَّ المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظمإٍ زلالاً ألذَّ من المدامة للنديم
يردُّ الشمس أنّى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

مصير المرأة العصرية

الى البيت والمطبخ في المانيا

حريّات جديدة في البلدان المحافظة

ما كادت المرأة الالمانية تفوز بمساواتها للرجل في المانيا بحسب دستور ڤيمار ، حتى جاء هتلر وأعادها ثانية الى البيت والمطبخ . فردّت على ذلك جمهوريات اميركا الجنوبية بمنحها النساء حقوق الرعوية جميعاً أسوة بالرجال . اما في اسبانيا فقد اشترك النساء في الانتخاب الاخير ، وكان لاشتراكهنّ أثر في فوز أحزاب اليمين . واما في روسيا السوفيتية ، فللمرأة من الحرية ، وعلى عاتقها من التبعة ، ما لم يؤثر عن عصر سابق ، حتى في عهد النساء المترجّلات (امازون)

وهذا كلهُ يشوّش على الناس افكارهم في مصيرها ، من أنصار حرية المرأة كانوا او من غير انصارها . فاننا لم نعهد في العصر الحديث عهداً ، انقسمت فيهِ الآراء في مصير المرأة ، كما انقسمت في عهدنا هذا . وليس الغرض من هـذا المقال البحث في الادلة التي تسرد لتؤيد حرية المرأة او تنقضها . فهذا في رأينا قد فرغ منهُ ، في ناحية تأييد حريتها . وانما غرضنا ان نجول خلال بلدان العالم مستطلعين مكانة المرأة فيها ومدى ما حققتهُ من الاغراض التي بدأت تطالب بها من نحو قرنٍ من الزمان ، وما رأي العالم فيها الآن

فلست تجـد مثلاً قارّة من القارات ، ليس للنساء فيها حقّ الاعراب عن آرائهنّ في الشؤون العامة بطريقة من الطرق . حتى اميركا الجنوبية ، التي كانت حتى عهدٍ قريب ممتنعة عن منح النساء حق الانتخاب ، منحتهنّ اياه كاملاً غير منقوص في مؤتمر الجامعة الاميركية الذي عقد في منتيفيديو هذه السنة . ففي سنة ١٩٠٢ لما انشىء الاتحاد الدوليّ للانتخاب النسائي ، لم يكن للمرأة حق الانتخاب الاّ في الولايات المتحدة الاميركية . حتى في تلك البلاد ، كان حقّ النساء الانتخابيّ محصوراً في بعض الولايات الغربية فقط . اما الآن فالنساء يملكنَ حقّ الانتخاب في ما لا يقل عن اربعين بلداً من بلدان الله

ويجب ان نسلّم في هذا المقام ، بأن حقّ الانتخاب ، انما هو ناحية واحدة من المسألة . وان هذا الحقّ منح للنساء في بعض البـلدان منحاً نظريًّا فقط . ففي بلاد اكوادور منح نساؤها حق الانتخاب سنة ١٩٠٩ ولكنهنّ لم يستعملنهُ الاّ في بضع السنوات الاخيرة في نطاق ضيق وفي كثير

من التردد والاحجام ، واما في ايطاليا فللنساء حق الاقتراع في الانتخابات البلدية لملء بعض المناصب. ولكن الانتخاب لهذه المناصب ، قد الغي لانَّ موسوليني يعيّن فيها من يشاء ، من دون ان يقترع لهُ رجل او امرأة

***

ويصحب حق الاقتراع عادة حق الانتخاب لملء المناصب العامة . فانت تجد نساء قد انتخبنَ اعضاء في المجالس النيابية في انكلترا والدنمارك والنروج والسويد واسبانيا والولايات المتحدة الاميركية. وقد سبق ان اختيرت سيدة لتكون عضواً في وزارة بريطانية سابقة ، واخرى في وزارة دنماركية سابقة . ووزارة العمل في حكومة الرئيس روزفلت تشغلها سيدة الآن . ثم ان نساء مثّلن اممهنَّ في جمعية الامم غير مرة . وقد بعثت البرازيل من قبلها بسيدة تمثلها في مؤتمر دولي للطرق . وسفير الولايات المتحدة الاميركية في الدنمارك سيدة .. اما في تركيا فقد ابيحت لهنَّ المناصب العامة . وقد رأى كاتب هذه السطور ، سيدة تركية في ازمير تشغل منصب مستشار بلدي ، واخرى جالسة في محكمة الجنايات . ويقال ان منصب المحافظ في احدى مدن الاناضول تشغله سيدة

ولا يقلُّ النجاح الذي اصابتهُ النساء في ميادين الاحكام الشخصية عن النجاح الذي اصبنهُ في ميدان السياسة . فالاتجاه في كل الشؤون الخاصة بالمُلْك والزواج والطلاق وحفظ الاولاد ، نحو مساواة المرأة بالرجل

اما في ناحية التعليم فقد تفتحت الابواب في وجوههنَّ في خلال الثمانين السنة الاخيرة . ثم تمهّدت لهنَّ سبل الصناعات والحرف المختلفة وقد اصبنَ فيها نجاحاً يشجعهنَّ على المضيّ . نعم انهنَّ لايدعينَ ان ابرع المحاميات بلغنَ مرتبة اعظم المحامين . ولا ان المهندسات المعماريات يستطعنَ ان يبارينَ المهندسين المعماريين في تشييد نواطح السحاب، او المباني الفخمة . ولكن الزمن الذي انقضى عليهنَّ وهنَّ يمارسنَ هذه الحرف اقصر من ان يتيح لهنَّ ازدهار الملكات الكامنة في نفوسهنَّ

***

واعجب ما تمَّ من وجوه الانقلاب ، تمَّ في اشدّ البلدان محافظة . فقد كانت اسبانيا في مسألة النساء محافظة اشدَّ المحافظة . ولكن الدستور الجمهوريَّ الجديد يمنحهنَّ جميع الحقوق اسوةً بالرجال الاَّ حق الخدمة في الجيش . اما في تركيا ، فقد الغى مصطفى كمال تعدُّد الزوجات ، وشجّع النساء على طرح الحجاب ، وبعث بالبنات الى المدارس والكليات ومنحهنَّ نفس الحقوق التي تمنح للرجل في شؤون الزواج والطلاق . بل تجد من النساء التركيات ، ضباطاً في البوليس ، وقد قيل انهنَّ الآن يطالبنَ بحق الخدمة في الجيش

اما المرأة الاميركية فكانت اكثر بطئاً في تطوُّرها من اختها الاسبانية او التركية . فانت اذا نظرت في شؤون المرأة الاميركية الآن ، رأيت ما يدهش جدَّها لو رآهُ . فهي تعنى ببيتها واولادها ،

ولكنها مع ذلك تشتغل في المكاتب او المعامل او المدارس ، وتلعب الالعاب وتحضر المسارح وتنتخِب وتنتخَب . والمرأة الاميركية ، تجاري الشاب الاميركيّ في حسن التعلم وهي ولا شك الحاكمة بامرها في الاجتماع الاميركي . اما في ميدان الحرف ، فلا تزال ماضية بصبرها المعهود تشق طريقها فيهِ الى المقدّمة

وما يصح على النساء الاميركيات الآن ، يصح بوجهٍ عام على النساء الانكليزيات . فقد فازت النساء الانكليزيات سنة ١٩١٨ بحق الانتخاب — ضمن حدود معينة — ثم منحنَ حق الانتخاب المطلق سنة ١٩٢٨ اسوةً بالرجال ، فدخلنَ ميدان السياسة واصبنَ فيهِ نجاحاً لا بأس بهِ . وفي البرلمان الحالي خمس عشر سيدة بين اعضائهِ

ولكن .... ولكنّ النساء الانكليزيات لم يتقدمنَ كثيراً في تحقيق مطالبهنّ بعد سنة ١٩٢٨ نعم ان عددهنّ في المدارس والصناعات قد زاد ، ولكن هيئة موظفي الحكومة متشدّدة معهنّ . فلا ينلنَ نفس الاجر الذي يناله الرجل ولو كان العمل واحداً . والاتجاه الآن الى اخراج النساء المتزوجات من اعمالهنّ لاحلال الرجال محلهنّ

***

بدأت الحركة النسوية العصرية في اميركا وبريطانيا في القرن الماضي فازدادت قوة لما انضمت اليها نساء البلدان السكنديناوية بزعامة الن كاي Ellen Key ونساء الالمان والهولنديين وغيرهم من الامم. فلما نشبت الحرب ، وخرجت النساء من بيوتهنّ ، الى ميادين العمل في البلدان المحاربة ، اصبحت الحركة النسوية وكأنها موجة تكوّنت في عرض البحر ، وسارت تجمع قوة وعزماً في سيرها ، حتى وضعت الحرب اوزارها ، ونال النساء في كثير من البلدان حق الانتخاب ، مع انهنّ لم يكن لهنّ في بعضها اي حق من الحقوق من قبل

ومضت الحركة من ظفر الى ظفر حتى بلغت مداها في روسيا . ثم بدأ موسوليني حياتهُ الدكتاتورية ، فنح حق الانتخاب لطوائف معينة من النساء اولاً ، ولكن ذلك لم يكن الاّ اشارة وقتية من ناحيتهِ ، لانهُ ما لبث حتى صرّح برأيهِ في المرأة ، اذ قال ان مكانها انما هو حيث تنجب جنوداً ووطنيين لايطاليا الفاشستية . وبعد ذلك جاء هتلر . فأزال بجرّة قلم ما كان النساء الالمانيات قد غنمنهُ في دستور فيمار (راجع مقتطف مارس ١٩٣٢ ص ٣٤٧) ووضعهنّ في مكان دون مكان الرجل ، وجعل ميادينهنّ الخاصة بهنّ المطبخ والمدرسة والكنيسة . وكذلك بدأت حركة الرجعة

فمن بضعة اسابيع وقفت السيدة « كاري تشبمان كات » — وهي سيدة بلغت الخامسة والسبعين قضت معظمها في خدمة نهضة المرأة — تحذرت النساء من موجة الرجعة هذه التي اخذت تكتسح العالم . نعم ان ما فعله هتلر ، هو تمادٍ في التطرّف من ناحية الرجعية . ولكن يظهر ان الاتجاهات

السائدة الآن في البلدان الاخرى هي في ناحية الرجعية في الغالب وان كانت اقل تطرفاً من عمل هتلر فالهمة فاترة في معظم الجمعيات النسائية في اميركا والسويد . واما المرأة الفرنسية ، وهي المرأة الوحيدة التي لم تتسع دائرة حقوقها بعد الحرب فيظهر انها قد اخذت تفقد كل عناية بالمطالبة بحق الانتخاب

والظاهر مما تقوله الكاتبة الاميركية ملدرِدْ ادمز ان القضية النسوية لم تتقدم في العهد الاخير الاَّ في جمهوريات اميركا الجنوبية (كما نتبين من قرارات مؤتمر منتيفيديو) واسبانيا وروسيا . والتقدم في اسبانيا ، كان في نواحي التعليم والعمل والاعمال الاجتماعية اولاً ثم في ناحية السياسة . ولكن النساء الاسبانيات — راهبات كنَّ او نبيلات — اشتركنَ في الانتخاب الاسباني الاخير ، فاقترعنَ ضدَّ الاحزاب التي منحتهنَّ هذا الحق ، وفي هذا دليل على ان الافكار في اسبانيا ليست مجمعة على ما هي حقيقة التقدم

اما روسيا السوفييتية فهي البلاد الوحيدة التي منحت النساء ، جميع ما تطالب بهِ زعيمات الحركة النسوية ، فهي مساوية للرجل في الحقوق والتبعات . لها الحق ان تنتخِب وان تتوظف وان تشتغل بأية صناعة ، وان تنتظم في الجيش . بل ان الدعاية الى وجوب استقلال المرأة من الناحية الاقتصادية ، قد تغلغلت في نفوس الروسيات ، حتى لا تستطيع ان تجد امرأة روسية تسلّم بان ليس امامها الاَّ اللَّبث في البيت . فيجب عليها ان تقوم بنصيبها لتسديد نفقات زوجها اذا مرض . ونفقات اولادها اذا انفصلت هي عن ابيهم . ثم لها الحق ان تملك ما تكسب ، وان تتعاقد ، وان تطلب الطلاق

***

هذان هما الاتجاهان . المانيا تطلب عودة المرأة الى البيت ، لانها كنبوليون تعتقد ان الواجب الاول على المرأة هو انجاب الجنود . اما الفلسفة التي من وراء النظام الروسي فتميل الى السلم دون الحرب ، ولكن مع ذلك يجب على نساء البلاد ان يستطعنَ السير بصناعة البلاد اذا نشبت حربٌ . ثم هناك عامل آخر وهو عامل الرياضة . ففرنسا حيث المرأة لم تنل شيئاً من الحقوق التي تتمتع بها نساء البلدان الاخرى ، وفي اسبانيا حيث كانت الفتاة تحجب عن خطيبها ويفصل بينهما بحاجز من القضبان الحديدية المشبكة — في هاتين الامتين خرجت الفتيات الى ملاعب التنس واحواض السباحة ومباريات الدرَّاجات . وفي تركيا تجد الفتيات التركيات يسقنَ طياراتهنَّ وينتظمنَ في مباريات الجمال العالمية . ثم ان النساء في كل البلدان ، تعنينَ الآن بكل ما من شأنهِ ان يساويهنَّ بالرجال في الشؤون الجنسية فضبط النسل موضوع تهتمُّ بهِ نساء الجمهوريات في اميركا الجنوبية ، وتحليل الاجهاض تهتمُّ بهِ نساء البلدان السكنديناوية كالدنمارك وغيرها . وتعليم الصحة الجنسية في مدارس انكلترا ، كان من المطالب التي تقدَّمت بها النساء الانكليزيات الى اولي الامر . ولا ريب بعد هذا ان دائرة المرأة قد اتسعت اتساعاً عظيماً في العمران الحديث سواء أرضي بذلك هتلر وموسوليني ام لم يرضيا



عقل الطفل في تطوره

لاحمد عطية الله

— ٤ —

«النمو الجسمي للطفل» لدراسة نمو الطفل من الناحية الجسمية شأن كبير في التربية للعلاقة الوثيقة بين « التغيرات الفسيولوجية » التي تحدث في الجسم وبين تطوره العقلي مع ان الخطين البيانيين اللذين يوضحان التغير الفسيولوجي والتطور العقلي لا ينطبقان تماماً . ومع ذلك نرى ان النمو الجسمي في الطفل يلازم تطور النمو العقلي اذ أن كثيراً من استعدادات الطفل العقلية تعتمد على نمو الاجهزة التي تؤدي هذه المهمة

ان جميع أجهزة الجسم واعضائه لا تفتأ في تغير وتطور اثناء الحياة وهذا التغير يشمل تكوينها ووظائفها فالطفل بعد ولادته لا تكون جميع اعضائه كاملة النمو بل هي تختلف في نموها من حيث السرعة او ميعاد الاكمال. فبعض الاعضاء كالرأس يكاد يكون كاملاً بينما أجهزة اخرى كالاسنان لا تظهر الا في اواخر السنة الاولى عادة : ولا يتم هذا التغير الفسيولوجي الذي يطرأ على الجسم بنسبة واحدة عند جميع الاشخاص بل ان نسبة هذا النمو تختلف باختلاف الاشخاص . لذلك نرى أنهم لا يصلون الى درجة واحدة من النمو الجسمي اذا ما بلغوا سناً معينة

فاذا قابلنا بين اطفال في سن واحدة نجد فروقاً من حيث درجة نموهم الجسمي . ولو ان هذه الفروق تزداد وضوحاً بالتدرج كلما تقدم الطفل في السن

والقياسات التي اخذت عن النمو الجسمي تبين ان النمو في سني الطفل الاولى يكون في بادىء الامر سريعاً . ثم يبطىء هذا النمو فجأة قبل التاسعة عند الفتيات والحادية عشرة عند الصبية ثم يسرع مرة اخرى في دور المراهقة ويصل الى أقصاه في الثانية عشرة عند الفتيات وفي الرابعة عشرة عند الصبيان ، ويأخذ في الهبوط بعد المراهقة حتى يكاد الجسم ان يكون في حكم الوقوف اذا ما وصلت الفتاة الى السابعة عشر والصبي الى العشرين. الا ان العضلات تستمر في النمو وكذلك المجموع العصبي لا يفتأ نامياً بعد ذلك بسنين عدة وبعض الأعضاء كما سلف ذكره اكثر نمواً من الاعضاء الاخرى : فالاطراف مثلاً أثناء الطفولة تكون اسرع نمواً من الجذع حالة ان نمو الرأس لا يكاد يذكر لانه يكاد يتم قبل الولادة

﴿التطور الحسي﴾ لا يمكنا ان نستخلص نوع الحياة العقلية التي يعيشها الطفل بعد الولادة مباشرة ولكن كل مايمكن ان نصل اليه نستخلصهُ من شعور المولود بالراحة او الألم . ومن هذا يمكننا ان نقول ان المولود يشعر شعوراً غامضاً بالضوء وعند اقترابه من الماء والهواء والملابس

اما الحركات التي يقوم بها فحركات انعكاسية بسيطة لا يستطيع ضبطها . واذا لم يوجد ما يستثير هذه الحركات فالوليد يكون في حالة نوم ، والدور الاول من حياتهِ هو دور حسي محض ومعنى ذلك ان الطفل لا يدرك ما يراهُ وما يسمعهُ ولكنهُ يحس بشيء مما هنالك لان ادراك الطفل للاشياء يعتمد على نمو اعضاء الحس وعلى كمال نمو المجموع العصبي

وأعضاء الحس بعد الولادة مباشرة لا تقوم بعملها على الوجه الاكمل ولا شك ان في ذلك شأناً كبيراً من حيث ان المولود لا يصطدم دفعة واحدة بفعل المؤثرات الحسية من اصوات او اضواء

(١) الذوق الشمي : اثبت بعض العلماء ان الاحساس الذوقي كالتمييز بين الحلو والمر والحامض في استطاعة الطفل بعد الولادة مباشرة وكذلك الحال مع الاحساس الشمي ، فالمولود يبدي رضا او اشمئزازاً من وضع أشياء حلوة او حامضة على لسانه او بتقريب رائحة قويَّة من أنفه

والشم يقترن دائماً بالذوق لذلك كثيراً ما نجد المولود يخلط بين ما يشم وما يذاق فيضع الوردة ذات الرائحة العطرة في فمه اذا قرّبت اليهِ ولكن رائحة الطعام أسهل تمييزاً على الطفل من غيرها ولسرعة تقدم هاتين الحاستين عند الطفل كان من العسير ان نجبر حتى المولود على تناول طعام لا يستسيغه او يأنف من رائحتهِ

(٢) اللمس : للوليد قدرة على الشعور بالاشياء التي تلامسه غير أنه يكون عاجزاً في بادىء الامر عن تحديد موضع اللمس ومع ذلك فبعض أجزاء الجسم تكون بطبيعتها أشد احساساً من الاجزاء الاخرى كراحة الكف

وحاسة اللمس تكون على اشدها عند الطفل الذي لا تزيد سنه عن بضعة اسابيع في الشفاه وفي اللسان لذلك تراهُ يستحلب كل ما يقع تحت يده

وهو يستطيع ان يفرق بين الحرارة والبرودة ففي الحالة الاولى تراه يظهر شيئاً من الحركات التي تدل على التراخي . وفي الحالة الثانية تراه يقوم

كان في قديم الزمان تاجر غني ، وكان يملك في ردهته العظيمه علاوة على كنوزه ، ثلاثه كراسي كرسي من فضة ، وآخر من ذهب ، وثالث من الماس . ولكن كنزه الاعظم ، كان ابنته الوحيدة ليلى

وكانت ليلى ، جالسة ذات يوم في غرفتها ، فاذا باب الغرفة يفتح فجأة فتدخل منه سيدة رائعة الجمال تحمل في يدها دولاباً وقالت :

يا ليلى ، ماذا تفضلين أشباباً هنياً ، ام شيخوخة هنية ؟

فدهشت ليلى ولم تدر بما تجيب . فأعادت السيدة سؤالها قائلة « ماذا تؤثرين . اشباباً هنياً ام شيخوخة هنية »

وتأملت ليلى في السؤال فناجت نفسها : اذا فضلت الشباب الهني تعين علي ان اشقى طوال ما يتبقى لي من حياتي . لا . اني افضل ان احمل الشقاء الآن ، وان اتطلع الى شيخوختي الهنية . ثم نظرت الى السيدة وقالت : هبيني شيخوخة هنية

فقالت السيدة : فليكن ما تريدين . وأدارت دولابها ، فاختفت فجأة كما ظهرت . وكانت تلك السيدة الرائعة الجمال مثالا لما صارت اليه ليلى في شيخوختها .

بيعض حركات انعكاسية كالعطاس ولكن هذه الحاسة كالتي سبقتها تكون غامضة غير محدودة عند الوليد وتأخذ في الدقة بالمرانة

(٣) البصر : بعد الولادة مباشرة يكون الطفل في حكم الاعمى ولما كان غير قادر على الاحساس بالالوان او بالاشكال فهو لا يميز المرئيات اطلاقاً ففي اليوم الثاني من حياته لا يفتح عينيه الا في الظلام ويفضله على الضوء

وفي خلال الاسبوعين الاولين يبدي لامه عدم راحة لمقابلة الضوء فلذلك نراه يغمض عينيه اذا عرض امامه جسم شديد اللمعان او ضوء قوي

ولكن بعد الاسبوع الثالث يبدأ يعوّد نفسه مواجهة الضوء بل ويظهر سروراً عند وجوده في مكان مضيء. وفي بادىء الامر لايوجه الطفل بصره الى شيء خاص . حتى اذا بلغ الاسبوع الثامن بدأ يوجّه انتباهه الى الاشياء الجذابة القوية . ومن الصعب ان نعين قدرة الطفل على تمييز الالوان في الاسابيع الثلاثة الاولى من حياته ولكنهُ بعد الاسبوع الثامن يظهر سروراً عند رؤية الالوان الزاهية مثل اللون الاحمر ثم الاصفر

والمولود لا يوجه نظره الى الاشياء التي تقع أمامه مباشرة اذ ان من الصعب عليه ان يحول رأسه يمنة او يسرة . ومدى إبصار المولود الذي لا يزيد عمره على ثلاثة اسابيع لا يتعدى ثلاث ياردات الا ان مدى ابصاره يتسع اتساعاً كبيراً لا سيما بين العام الاول والخامس من حياته

لذلك كان من الضرر ان نجبر الطفل في هذا الدور على ملاحظة الاشياء الدقيقة القريبة منه . حتى اذا بلغ الطفل بضعة اسابيع من العمر ابتدأ يدرك هيكل المرئيات اذا كانت واضحة قوية : كما ان عينيه في بادىء الامر لا تستطيعان الحركات التوافقية الا ان اهتمامه بملاحظة الاشياء ذات الشأن عنده كالام او التي تسترعي انتباهه استرعاء كالالوان الزاهية تساعد على التغلب على هذا النقص فتتقدم قدرته على الملاحظة البصرية عند ما يمكنه تحريك جسمه لمساعدة عينيه في عملهما

(٤) السمع : عند الولادة يكون الطفل اصمّ وذلك لخلو طبلة الاذن من الهواء ولكن بعد بضع ساعات يستطيع المولود ان يتأثر بالاصوات العالية باظهار شيء من الجزع . وفي خلال الاسابيع الاولى لا يستطيع الطفل تمييز الاصوات اذ انها تصل اليه مشوّشة متداخلة ولكن بعد الشهر الاول او بعد الاسابيع الستة الاولى يبدأ الطفل في التفريق بين الاصوات (بسماع النغمات الموسيقية) فيبدي فزعاً من الاصوات المتنافرة كما يبدي غبطة وسروراً بسماع الاصوات الموسيقية المؤتلفة . ولعلّ اول ما يميزه الطفل هو صوت والدته . وميل المولود للموسيقى نشاهده في ميل الاطفال الذين يتراوح عمرهم بين شهرين او ثلاثة لسماع الاغاني . الا ان قدرة الطفل على تمييز الاصوات لا تأتي الا متأخرة بل انها تبقى كذلك اذا لم نعمل على تنميتها فيه

الجمال والعمل البيتي

كتبت سيدة انكليزية في احدى المجلات النسائية مقالاً عن عناية المرأة بجمالها كائنة اشغالها ما كانت قالت :

زرت امس صديقة لي متزوجة وعندها ولدان . ولكنها ليست غنية . اي انها مضطرة ان تقوم بمعظم اعمال بيتها بنفسها . وكانت ، لما وصلتُ قد انتهت من اعمال البيت ، وبدت عليها امارات الاعياء فنظرت اليَّ وقالت : الفرق كبير بيننا . انت تظهرين كأنك صورة من احدى مجلات الازياء أما انا . . . ولكن ما العمل لست اجد متسعاً من الوقت للعناية بنفسي . ان ذلك لا يهمني . فقلت : ولكن يجب ان يهمك . فدهشت لجوابي وقالت اتلقين عليَّ عظة ؟ اذاً افضل ان اسمعها جالسة لفرط تعبي . فقلتُ : عظة وأية عظة . تقولين ان العناية بمظهرك لا تهمك لكثرة عملك . أتظنين اني البث في البيت طول النهار لا ادري ما اعمل ، فاوجّه كل عنايتي الى وجهي وعينيَّ ويديَّ . انا اعمل مثلك طول النهار ، ولكن في مكتب ، يقتضي مني كل دقيقة من ساعات العمل . ومع ذلك اجد من الوقت متسعاً للعناية بنفسي . المسألة مسألة نظام . واذا كنت انا احتاج الى ان اظهر بمظهر لائق امام الرجال الذين اشتغل معهم ، افلا تظنين ان زوجك جدير بمثل هذا ؟ انا ادرك انك متعبة . ولكن لو كان منظرك ابهج مما هو لكان شعورك بالتعب اقل

قلت لي من اسبوع مثلاً ان بشرتك جافة . فانت تستطيعين ان تتغلبي على هذا الجفاف بدلكه بقليل من « الكولدكريم » كلَّ ليلة قبلما تبدأين حمام الولدين . وعندئذٍ يفتح بخار الماء الساخن مسامّ جلدك فيتخللها « الكولدكريم » فاذا حان ميعاد نومك ترين الجلد وقد اصبح طريًّا ناعماً . عندئذٍ ازيلي « الكولدكريم » وامسحي وجهك بقليل من الماء البارد ، فتحسّين بنشاطهِ بعد عمل النهار المضني ، ثم امسحيه بقليل من القطن المغموس باحد المستحلبات الخاصة بذلك

او خذي مسألة الشعر . فاذا كان جافًا افركي جذوره بقليل من زيت الزيتون ثم اعصبيهِ في خلال العمل فترينهُ لمّاعاً متى انتهيت من عملك واردت ان تستقبلي زوجك او زوّارك . اما اذا كان شعرك كثير الدهن فذرّي قليلاً من النشاء المسحوق حتى يتغلغل الى جلدة الرأس واعصبيهِ فاذا انتهيت من عملكِ ازيلي المسحوق بالفرشة فترين ان كثيراً من الدهن قد زال

او خذي يديك . امسحيهما بعد العمل ، بعصير ليمونةٍ حامضة . ثم ادلكيهما بمعجون مطرّ ، فتحتفظين ببشرتهما غضة وتمنعين القشب . وما زلنا نتكلم عن اليدين يجب ان تستعملي قفّازين في اثناء قيامك بعمل البيت . تعوّدي استعمالهما ، ولا تنسيْ ان في شؤون الجمال يصدق القول المأثور « درهم وقاية خير من قنطار علاج » . والقفازان في هذه الحالة يقيان يديك من كثير من الآفات

هذا بعض ما اقترحهُ عليك واذا شئت المزيد فاني رهن امرك

المرأة في البادية

خلاصة المحاضرة التي القاها في النادي الكاثوليكي للشبيبة السورية حضرة الارشمندريت ميشل عساف رئيس المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك في القاهرة

المقدمة

لقد حار الكتّاب في أمر المرأة وذهبوا في وصفها وتحليل نفسيتها وادراك كنه قلبها وتصوير عواطفها مذاهب عديدة متباينة متناقضة . فنهم من صوّب اليها سهام سخطهِ وصبّ على رأسها جام غضبه ونسب الى عينيها والى لسانها والى خبث طبيعتها شرور هذا الكون

ومنهم من تغنى بطيب عنصرها وجمال فضائلها فقال : هي ملاك أرضي ، وهي شمس تبعث النور والحياة ، وقال أحدهم « ان للمرأة سلطة في نظراتها اكثر نفوذاً من القوانين ودموعها اقوى حجة من الشرع » وقال آخر «تبدأ الاعمال العظيمة اولاً بالمرأة»

ولا تزال الآراء متضاربة في تحليل تلك النفسية العميقة كالبحر ، الصافية كالسماء ، القاتمة كالغيوم ، المنفجرة كالرعود القواصف ، المشرقة كالصباح الوضاح

لكن المرأة هي مرآة الرجل اذا صَلُحَ صلحت واذا فسد فسدت . والرجل هو كل فرد وهو المجتمع وهو كل الشعوب . ولما كانت هي في هذه الحياة أمّاً لذلك الرجل ومربيته ورفيقته ومتعته ومحط آماله وقبلة حياتهِ فهي لذلك وان كانت الثانية طبيعة وشرعاً فهي الاولى في المجتمع البشري فعلاً وأثراً واقتداراً . فاذا ساواها الرجل بنفسه واحترم ضعفها وهذّب اخلاقها وكان لها معيناً ولشدائدها نصيراً أضحت هي بدورها لعقله نوراً ولارادتهِ قوة ولقلبهِ سعادة

اما اذا عمل الرجل على امتهان كرامتها وافسادها كان انتقامها ذريعاً فأفسدته ضعف ما هي عليهِ

فهي شيطان اذا أفسدتها   واذا اصلحتها فهي ملك

وربَّ معترض يقول : من هي المرأة البدوية حتى نتكلم عنها في هذا النادي الادبي الكبير أليست ذلك المخلوق الحقير الجاهل الدفين في بطون الفيافي وغياهب الصحاري . هل كانت شيطاناً في قومها او ملاكاً في عشيرتها حتى يكون لها شأن كاخواتها ربات الخدور في العواصم والقصور

فيجيب المؤرخ والبحاثة جرجي زيدان : ان المرأة البدوية كانت مساوية للرجل . ونبغ من مضارب البادية نساء اشتهرنَ بالشجاعة والاقدام والحزم والرأي والتجارة والادب والشعر وغيرها

المرأة البدوية في بيتها

الابنة عند العرب حين تولد فهي المخلوقة الحقيرة . وحين تبلغ فهي المسكينة الاجيرة . وحين ينضج شبابها فهي اللؤلؤة الكبيرة . وحين تتزوج فهي الاميرة الخطيرة

— قلنا حين تولد فهي الحقيرة لأن العرب يكرهون ولادة البنات ويؤثرون عليهنَّ البنين .

والسبب في ذلك ان البدوي يعيش في ظلال سيوفهِ فاذا كثرت رجاله عظم امره وان قلَّت رجاله صغر شأنه . ويقول المثل البدوي : عد رجالك ورِد الماء

ومن العرب من كان يئد البنات خوفاً من ان يخرج منهنَّ من يلحق العار بالعشيرة

— ثم حين تبلغ فهي الاجيرة خادمة البيت للكنس والغسيل والحياكة وحمل الماء وخدمة الضيف

هو الضيف يا ليلى هاتِ الرُطب وهاتي الشواء وهاتي الحَلَب
وهاتي من الشهدِ ما يُشتهى ومن سمنة الحي ما يُطلب

— ثم حين تبلغ سن الزواج فهي اللؤلؤة الكبيرة وسنتكلم عنها في باب الزواج

— وتصبح الاميرة الخطيرة اذ تصير زوجة فلان وام فلان وفلان . فالمرأة كبيرة المنزلة عند العرب يحترمها الكبير والصغير والصديق والعدو على السواء . ولقد تمرّ بين صفوف الرجال فلا يجرؤ احد ان يكلمها ولا ان يسلم عليها احتراماً ووقاراً حتى ولا زوجها

والعار الاكبر عند العرب ان يعتدي الرجل على امرأة ولا سيما في شرف وقداسة عرضها . ولذلك فان التاريخ لا يذكر ان الفحشاء او البغي قد تفشيا عند العرب . وبذلك يتباهى عنترة بقوله :

لئن أكُ أسوداً فالمسك لوني وما لسواد جلدي من دواء
ولكن تبعدُ الفحشاء عني كبعد الأرض من جوّ السماء

والعفاف عند نسائهم هو اظهر زينة لهنَّ واكرم فضيلة . وكان الحب العذري مألوفاً عندهم أعني ذلك الحب الذي لا تشعر به الريبة . ولقد نقل الينا التاريخ اخبار قيس وليلى ، وجميل وبثينة ، وتوبة وليلى الاخيلية ، وذهبت حكايتهم مذهب الامثال مدى الاجيال

— ان المرأة البدوية لا تخالط الرجال لا في الاكل ولا في المجالس العامة ولا في الافراح ولا في المآتم . ولكن ليس في ذلك امتهان لكرامتها بل حرمة لها وصيانة لسمعتها من ان تنالها العين بسوء . ولا تعتبره المرأة اذلالاً لها بل رفعة لشأنها

فما البيد الاَّ ديار الكرام ومنزلة الذمم الوافية

والمرأة البدوية تحب بيتها وباديتها وحالها رغم ما هي عليهِ من شظف العيش . وترى ان الحياة لذيذة في بيوت الشعر

وبيتٍ تخفق الارياح فيهِ احب اليَّ من قصر منيف

فبيتها هو لها معقل الشرف والامانة والانفة ، معقل الحرية اللذيذة المقيدة بقيود العز والاجلال ، معقل الفضائل الشرقية العالية من قرى الضيف وخدمة الزوج وتربية البنين والانتصار لقومها والصبر على الشدائد والتعقل والرصانة . وهي الفضائل الاجتماعية الحقة

— اما الرقص فلقد اعتاده العرب لاسيما في الافراح . ولكن لا ترقص نساؤهم ورجالهم معاً . بل يجتمع الرجال حلقة وينشدون الرجز ويرقصون ويصفقون . وتقوم احدى الشابات في وسطهم

ترقص بالسيف . الا ان رقصهم بعيد عن جمال الكياسة ولو كان حليف الحشمة واللياقة

وتلبس المرأة البدوية ثوباً بسيطاً عريض الاردان ، طويل الاذيال

هل رأيتم كغادتي اذ اتت تسحب الردا
تدخل اليوم واذ يالها تدخل غدا

والمرأة البدوية تمشي سافرة وتستعمل الحناء والكحل والعطور وانواع الطيب

المرأة البدوية والحكم

لقد قام بين نساء العرب من اشتهرن بالحكم ولبس التاج وحمل الصولجان : خلد وشقيلة وجيلة في سلع (وادي موسى) عاصمة الانباط . وبلقيس في سبا — ولاسيما زينوبيا في تدمر فان سيرتها اقرب الى سير الابطال منها الى سير النساء ، فضلاً عن جمالها وهيبتها

المرأة البدوية والعقل والحزم

المرأة البدوية هي عموماً عاقلة حكيمة لما تمتاز به من عزة النفس وما هي عليه من شظف العيش في البادية . ولقد وصلت الينا اخبار بعضهن في ذلك

اولهن خديجة بنت خويلد التي يرجع الى حزمها وحكمتها الفضل الكبير في نشر الدعوة الاسلامية بين رجال قريش . ثم عائشة بنت ابي بكر زوج محمد . واختها اسماء ام عبد الله بن الزبير الشهيرة في تاريخ حصار مكة . والخنساء وسفانة بنت حاتم طي وسلمى بنت عمر

المرأة البدوية والزواج

لقد درج العرب على ان لا ينظروا في الزواج الى رغبات بناتهم . فليس للابنة ان ترغب في فلان وتريده بعلاً لها . بل الامر كل الامر بيد الاب او الاخ او العم او اقرب الرجال اليها في عشيرتها وهي تعتبر ذلك سنة بل شرفاً لها

سألت يوماً احدى البنات البدويات معترضاً — وكانت مسيحية — أليس امرك في يدك . فاجابت على الفور : معاذ الله ان يكون امري في يدي . لان امري لا يكون في يدي الا يوم يموت كل رجال عشيرتي

والرأي عندي ان ذلك ليس اجحافاً بحق الابنة كما هو الحال في المدن اولاً لان الاب لا يغصب ابنته بمن يختاره عريساً لها . ثانياً لانها لما كانت لا تعاشر الشبان فلا يكون قلبها قد علق بفلان دون فلان . ثالثاً لانها شبت على ذلك الاعتقاد فلا تراه قسراً وظلماً . وربما كانت البوادي من هذا القبيل هي البلاد اقل تحطيماً لقلوب الفتيات واخف فجيعة في حياة الشابات

— ثم ان صاحب الحق الاول في الزواج من الابنة هو ابن عمها . والمثل البدوي يقول : « ان ابن العم له الحق ان ينزل من على الفرس » حتى في حفلة زفافها وهي راكبة الفرس

ولا اذكر زواجاً في مدة السنوات الخمسة التي قضيتها في الشرق العربي جرى بلا « دف » كما يقولون

أعني بلا مشاكل . وكثيراً ما صار الضرب وجرت الدماء . وكلما حميت المعركة بسبب عروس ولعبت العصي بالرؤوس كلما فرحت تلك العروس وترنحت لدلالة ذلك على قيمتها ورغبة الشبان فيها . حتى في البادية فالمرأة هي هي : تيه وعجب ودلال

واذا اشتهر الحب بين اثنين منعوا زواجهما لئلاّ تثور الاقاويل عليهما كما جرى لقيس وليلى وجميل وبثينة

والمرأة عند العرب لا ترث والسبب في ذلك عادات الضيافة عند العرب واعتزاز القبيلة برجالها ورغبة العرب الاولى في الزواج هي ولادة الاولاد والاكثار منهم . ورغبتهم في الذكور دون الاناث لان العشيرة برجالها يذودون عنها ويحمون ذمارها ويأتونها بالغنائم واسلاب الغزو، ويرفعون من شأنها في غمار الحروب . واذا رغب رجل في عروس ثم اعرض عنها يقول بلهجة المستخف : لا آخذها ولو كانت تلد لي الصبح ولداً والمساء ولداً

المرأة البدوية والحرب

للمرأة البدوية شأن عظيم في حروب البادية فهي المثيرة للهمم وهي المداوية للجروح وهي الواقفة صفاً منيعاً وراء الصفوف تحمل الماء وتنشد الاغاني الحماسية وترد الخائف وتخزي المنهزم واذا ما رأت الابطال وقعوا صرعى كثيراً ما تركب الخيل وتشن الغارة وتبلي البلاء الحسن

المرأة البدوية والشعر

الشعر نغمة سماوية لا تهب الاَّ في ربوع الحرية . فكلما ساد الاستبداد في بلاد سكتت بلابل الشعر . وأينما رفرفت اعلام الحرية تفتحت القرائح الشعرية . ولقد نبغ في صناعة الشعر غير واحدة من نساء البادية وهي بلاد الحرية . ولكن النساء اللواتي خلدنَ اسماً مجيداً في رياض الشعر فهنَّ :

في القرن الخامس الميلاد ليلى العفيفة ٤٨٣ . وفي القرن السادس الخرنق ٥٧٠ وجليلة بنت مرة ٥٣٨ . وفي القرن السابع الخنساء ٦٤٦ وليلى الاخيلية ٦٤٠

ولم يقم بين شعراء البادية من صاغ شعراً متهتكاً او وصفاً بذيئاً او كلاماً وحشاً في التحدث عن المرأة او التغني بها ، كما نرى عند بعض كتّاب الغرب . بل كانت البيادي ولا تزال رمالاً نظيفة وفيافي شريفة ومياهاً صافية وهناك طبقة من النساء شغفنَ بالشعر وحفظنه للمذاكرة فيه في المجالس. ويرجع الفضل ايضاً للمرأة البدوية في تفوق بعض المعلقات

الخاتمة

هذه هي المرأة في البادية رسمتها رسماً موجزاً رسماً مجملاً فبدت كوكباً متلألئاً تكتنفه هالة من الجمال والجلال والوقار والاثر البعيد في حياة تلك البوادي التي يخالها الناظر اليها صامتة ساكنة وهي ملأى حياة وعاطفة فياضة تنبعث من نواظر المرأة البدوية ومن لسانها ومن قلبها



في المصطلحات الطبية

للدكتور داود بك الجلبي

بعث الي صاحب المقال الآتي كتاباً قال فيه « اني أود ان تنشروا ما كتبته في احدى المجلات لينتقده من اراد » فعرضته على رئيس تحرير المقتطف وطلبت نشره بنصه فتفضل بذلك . أما الحواشي فهي لي

امين المعلوف

حضرة الفريق الدكتور امين باشا المعلوف المحترم

وصلني كتابكم وطيه نسخة من مقالكم للجمعية الطبية المصرية حول المصطلحات الطبية وسألتموني رأيي فيه . اقول اني متفق معكم تمام الاتفاق في لزوم توحيد المصطلحات وفي العلاج الذي اقترحتموه لهذه الغاية وهو تكليف طبيب واحد من المشتغلين بالمصطلحات الطبية في كل من مصر والشام والعراق بوضع مصطلح واحد لكل مرض وعَرَض مثلاً وبعد اتمام عملهم يجتمعون في احدى العواصم يقابلون الالفاظ التي وضعها كل منهم ويتفقون على مصطلح واحد منها ، وما لا يتفقون عليه يعرضونه على الاطباء للمناقشة على صفحات المجلات . ثم يكلفون وضع مصطلحات للتشريح والفسيولوجيا مثلاً ثم غيرها وغيرها على النمط المذكور . ولا ارى من الصواب ترك هذا الامر لغير الاطباء ، للمجمع اللغوي الملكي مثلاً ، فما حك جلدك مثل ظفرك ونحن ادرى بلساننا الفني . ولا بأس باستشارة المجمع وغيره عند الاقتضاء ، او ان يؤلف المجمع لجنة رسمية من الاطباء كما ذكرنا تقوم بهذا الامر

والاقتصار على مصطلح واحد مهم جداً . ولذا اراكم مصيبين جداً بقولكم : « وانما ينبغي ان لا يكون تناقض في معجم واحد او ان يكون فيه مترادفات كثيرة لا يدري الواحد ايها يختار » . وانا استثني من ذلك اسماء الحيوان والنبات فانهُ يستحسن بل يجب ذكر جميع مترادفاتها بشرط ان يعتمد على الاسم الافصح والاكثر استعمالاً عند المؤلفين القدماء وتكتب المترادفات بين قوسين مع الاشارة الى البلد الذي يستعمل فيه ذلك الاسم ان امكن

أما مبدأي في انتخاب المصطلحات فانكم تعلمونهُ من مكالماتنا ومخاطباتنا الكثيرة في العراق .

وهو اني ابدأ بتحري مصطلح لما اريد في كتب الطب العربية القديمة . فان وجدت فيه والاَّ راجعت كتب اللغة . فاذا لم اجد فيها ما اطمئن اليه عمدت الى الترجمة او الاشتقاق . وأنا اتوسع في الاشتقاق فلا اقول ان الاشتقاق ينحصر في ما سمع من العرب كما يقول بعض الجامدين الذين يسدون بقولهم هذا باب التوسع على اللغة . واذا لم يمكن الاشتقاق اضطررت الى التعريب . ولا اغفل ما كتبه الاطباء المحدثون على أمل ان اجد فيه مصطلحات موافقة . غير اني ارجح تعريب الكلمات التي هي واحدة عند جميع الامم المتمدنة كلما وجدت ان تلك الكلمة غير نافرة عن العربية

ولما كان دأبي اخذ ما في الكتب العربية القديمة اولاً فاني اكره اشد الكره المصطلحات التي يضعها بعضهم حديثاً في حين ان في كتب اسلافنا مصطلحات لعين هذه المسميات . من ذلك كلمة زحار حين ان اسلافنا قالوا دوسنطاريا . وما الزحير وما الزحار الاَّ الـ Ténesme ولو كسروها على صيغ شتى . ولما كانت لفظة الزحير قديمة في الطب فلا حاجة للزحار وقد اعتبرها صاحب المخصص مترادفين لجمعهما بقوله والزحير والزحار داء يصيب المبطون « المخصص ٥ — ٧٨ » وهل يظنون انهم اذا جعلوها على وزن فُعال ينتقل المعنى من العرض الى المرض ؟ اذا كان هذا ظنهم فهم مخطئون . لان فعال للعرض كما العرض ، كالسعال والصداع وهما عرضان لا مرضان . او ربما ارادوا تجنب الدوسنطاريا المعربة ووضع كلمة عربية صرف مكانها غيرة منهم بحسب زعمهم

ان هذه الغيرة المفرطة لا محل لها لانهم لا يستطيعون نبذ جميع المعربات . وأي لغة خلت من كلمات غريبة عنها . وهذا القرآن فيه عشرات من الكلمات المعربة . غير ان هذه الغيرة المفرطة مضرة لانها تقطع الصلة بيننا وبين ما كتبه اسلافنا . وكل كلمة عربت ودرجت في لساننا تعد منه لا غريبة . وأخذ المصطلحات عن اسلافنا يوفر علينا تعب تحري مصطلحات جديدة . واني لا اعدل عن مصطلحاتهم الاَّ نادراً جداً . مثال ذلك لا احب تسمية الهستريا باختناق الرحم[1] . فلا اقول للرجل انت مصاب باختناق الرحم . بل اسميها « الهُرَع » (انظر تاج العروس) . ولا عبرة بكون كلمة هستريا مشتقة من هستيرا اليونانية وهي الرحم . فانك ان كلمت فرنسيًّا وقلت له ان مرضه الهستريا لا يذهب فكره الى الرحم بخلاف ما اذا قلت للعربي انهُ مصاب باختناق الرحم فان كلمة رحم تقرع اذنه وهو يعرف ما الرحم وانه رجل لا رحم له . وكذلك اكره تسمية الديدان الشريطية بالحيات . فلا اقول لمن كان مصاباً بها ان في بطنه حية . بل اعدل الى تسميتها بالـ (صَفَر)

وبعد فاني اتفق معكم في اغلب المصطلحات التي اتيتم بها في مقالكم المذكور بعد ان محصتم ما جاء به غيركم . ويبقى هناك بعضها اورد عليه بعض ملاحظات علها تعجبكم

لا اقول للـ Interstice الاَّ (خلل) تجنباً للمترادفات ولأن بعض اللغويين قالوا ان خلال جمع خلل كجبال وجبل (تاج) . وكذلك اقول خللي في النسبة ولا اقول خلالي

(١) هذا يذكرني بجندي أصيب بهذا الداء فشخص الطبيب مرضه اختناق الرحم وكتبه كذلك في ورقة التشخيص المعلوف

قلتم: «ولا اظن ان ابن سينا ذكر الدوسنطاريا[1] في قانونه». اقول ذكرها في الجزء الثاني في المقالة الاولى من الفن السادس عشر من الكتاب الثالث في فصل في كلام في استطلاق البطن.. الخ. ص ٤٢٤ س ١٩، و ص ٤٢٥ س ١٠ و ٧، و ص ٤٢٨ س ١٥ . وفي المقالة الثانية من الفن السادس عشر في معالجات اصناف الاستطلاقات ص ٢٣٥ س ٢٣ «طبعة المطبعة العامرة في مصر سنة ١٢٩٤) أما (سحج الامعاء) فعرض من اعراض الدوسنطاريا وهو بالفرنسية الـ Abrasion « انظر معجم ليتره Littré الطبي »

والآن نأتي الى وضع مصطلحات لمتعلقات الجنين وما يخرج معه عند الولادة . وهذا صعب جدًّا اتعبني كثيراً واظنني وفقت الى نتيجة حسنة . اني جمعت ما عثرت عليه من الكلمات التي من هذا القبيل في التاج والمخصص فكانت: (السخد، السلى، الحضير والحضيرة، المشيمة، النُخط، الشاهد والشهود، الفَقْء والفُقأة والفاقياء، السبي والسابياء، المسكة والماسكة، الصاءة، النَفْس، الرَهَل، السِقْي، الغِرْس، السكبة، الحولاء، الضواة، القُضاة، الرَدْن، مِدْرع الردن، المُلْجة، المِخذفة، المِنتجة، المكْوة، القنبُعة، السمحاء، السمارى، الفَقْجة، النُكْزة) . فهذه ٢٩ كلمة . نطرح منها التسع الاخيرة، الملجة وما بعدها ذكرها صاحب المخصص ولم يذكرها التاج . وقال ابن سيدة عنها نقلا عن ابن دريد انها واحد وهو الغرس الذي يكون فيه الولد . وقال عن الغرس انهُ الذي يخرج مع الولد كأنهُ مخاط . ونطرح كذلك الردن ومدرع الردن فهي في المعنى عينه . وقيل عن القضاة انها جلدة رقيقة على وجه الصبي حين يولد وعندنا المسكة تغني عنها والضواة كانها الفاقياء للناقة فلنهملها . والحولاء ماء يكون في السلى او جلدة تخرج مع الولد . ولنا غنى عنها في الكلمات الباقية . والسكبة الغرس فلا لزوم لها . ولنترك الغرس نفسه لنستعمله مقابل Glaire وهو مخاط لزج ذو قوام يخرج من الامعاء في نزلاتها . وقد استعمل الاطباء (الغرس) بهذا المعنى قديماً فقالوا: قيام الاغراس . يريدون بالقيام الاسهال . ولنترك (السقْي) لماء الحبن Liquide ascitique . ونترك الرهل لنقابل به الـ Sérosité . فقد استعملتهُ اطباء العرب بهذا المعنى وبمعنى المائية التي تجتمع في خلال الانسجة فتكوّن الاوذيما . اعلمُ انكم كنتم تريدون تسمية الـ Sérosité بالغسّاق وقد وردت هذه الكلمة في القرآن وفسروها بما يسيل من جلود اهل النار . فلو قلتم لقسيس يسيل من جرحه مائية هذا غساق لربما هان الامر ولكن هل يمكنكم ان تقولوا ذلك لاحد الشيوخ؟ وجاء في التاج « رهل لحمه بالكسر اضطرب واسترخى وانتفخ » ورهله كثرة النوم ترهيلا هبّج وجهه وانتفخت محاجره .. واصبح مرهلا اذا تهبج وجهه من كثرة النوم »

اما الكلمات الباقية فقد اعطى اللغويون كلا منها معاني شتى فتداخلت واشتبكت . ولكنا نتمكن بالتمحيص ان نخصصها كما يلي :

(١) قوله ان الدوسنطاريا وردت في ابن سينا صواب وكان قولي هذا سهواً مني المعلوف

لا شك في ان (السُخْد) هو الـ Placenta . فقد عرّف في مستدرك التاج خير تعريف حيث قيل : « هنة كالكبد او الطحال مجتمعة تكون في السلى » فهذا التحديد لا يترك مجالاً للتردد . واني اظن السخت معرباً عن كلمة (سَخْت) الفارسية ومعناها صلب شديد متين . والبلاسنتا هي اشد واثخن قسم في متعلقات الجنين

ولاشك ايضاً في ان (السلى) هو الـ Chorion . فقد جاء في المخصص « السلى الجلدة التي يكون فيها الولد » . وفي القاموس « السلى الجلدة يكون فيها الولد من الناس والمواشي » . ولقد تحققت ان هذا الاسم معروف ومستعمل بهذا المعنى عند اهل البادية اليوم . فلنخصص السلى للخوريون . اما اذا قلتم : ولكن كيف سموا الطبقة من طبقات العين بالمشيمية وهي بالافرنجية Choroïde قلت اما كان ذلك غلطاً درجوا عليهِ او انهم ارادوا الكل بدل الجزء كما سنرى في كلمة مشيمة

ونخصص (الحضيرة) للـ Amnios فقد جاء في التاج عن ابي عبيدة انها « لفافة الولد » . والامنيوس هو الغشاء المحيط بالجنين والخوريون فوقه

اما (المشِيمة) فلم تستعملها اطباء العرب الاَّ بمعنى Arrière--faix (Délivre) اي مجموع ما يخرج بعد الولد عادةً من سخد واغشية . فقالوا خروج المشيمة والقاء المشيمة Délivrance [الخلاص حديثة اتى بها ضعفاء المترجين] وقالوا احتباس المشيمة ودواء مخرج للمشيمة . فلنتابعهم في هذه التسمية

واما (النُخْط) فهو الـ Liquide amniotique . جاء في القاموس : « الماء الذي في المشيمة »

واما (الشاهد) فهو Bouchon gélatineux . جاء في التاج : « والشاهد شبه مخاط يخرج مع الولد جمعه شهود .. وقال ابن سيدة الشهود الاغراس التي تكون على الحوار »

واما (الفاقياء) فهي الـ Poche des eaux اي القسم الذي يكون امام رأس الجنين من الغشاء وبينهُ وبين الرأس قسم من النخط ، ثم انهُ ينفقيء عن رأس الجنين فيسيل ذلك النخط . جاء في القاموس : « الفاقياء السابياء وهي التي تنفقأ عن رأس الولد . ومثله في المخصص

لكني ارى ان الفاقياء شيء (والسابياء) شيء آخر . وهي وان وردت في كتب اللغة في مادة سبي فليس لها صلة او معنى يجمعها مع هذه المادة . وعندي انها محرفة ومعربة عن (سَر آبه) بالفارسية سر هو الرأس وآبه ماءة اي طائفة من الماء من آب ماء . وهو الماء الذي ينسكب عند انشقاق الفاقياء ويعرف في الموصل بماء الرأس . اذاً هو Eaux de la poche . جاء في التاج : « وقال الازهري في تفسير الحديث السابياء هو الماء الخارج على رأس الولد اذا ولد » وهذا عندي اصوب معنى اعطي للسابياء . وفي المخصص ايضاً عن ابي عبيدة « السابياء الماء الذي يكون على رأس الولد »

واما (الماسكة) فهي قشرة تكون على وجه الصبي [المخصص والتاج] فهي اذاً الفاقياء اذا انفصلت وبقيت على وجه الوليد ان لم تكشف عنهُ مات مختنقاً . واظن ان الفرنسيين يسمونها Masque او voile

واما (الصاهة) فيجدر بها ان تخصص لما يعبرون عنهُ بالـ Sérotine (راجع معجم ليتره) وهذه مشتقة من serotinus ومعناه المتأخر . جاء في التاج عند الكلام على الحِوَلاء : «... ثم يخرج بعد ذلك بيوم او يومين الصاهة ... »

واما (النَّفس) فهو الـ Lochie (المخصص ١ — ٢١)

واسمي الـ Allantoïde (الغشاء الَقَانِقي [1]) او (القانقي) باختصار . واللقانق وهو الطعام المعروف اليوم بالمنبار والمبار عُرِّب قديماً من الفارسية (لقانه) ووردت في الكتب القديمة منها بحر الجواهر بخلاف السجق والمنبار فانهما لم يجيئا في الكتب المعتبرة . ولا أدري من اين أتتنا كلمة منبار

وليس لنا الآن ان نترجم Caduque ترجمة فنقول (الغشاء الساقط) او (الساقط) فقط

ولنجمل أدناه ما ذكرناه :

ساقط	Caduque
لَقانِقي	Allantoïde
حضيرة	Amnios
نُخط	Liquide amniotique
سلى	Chorion
سُخد	Placenta
مشيمة	Arrière-faix (Délivre)
شاهد	Bouchon gélatineux
فاقياء	Poche des eaux

(١) جاء في بحر الجواهر ما نصه : لقانق بالضم لقانه وهي الحوايا المحشوة من اللحم والبصل والشحم المشوية في الادهان . قلت ويقال نقانق ولقالق ومقانق والاخيرة شائعة في بيروت . قال دوزي في مادة نقانق : هي لقانقا باللاتينية ويراد بها امعاء الضأن محشوة باللحم المهروم (المفروم) مع الفلفل الاسود والملح واللبن الحامض وعصير الرمان تشوى في التنور . ونقل عن ابن البيطار في مادة امعاء عن الرازي ما نصه : اما الامعاء فلا تصلح لطابخ الاسفيذباجات بل للنقانق فاذا اتخذت نقانق فليكثر فيه من الابازير والتوابل . وقال لكلير مترجم ابن البيطار في حاشية له لا يعلم ما هو النقانق واظنه السجق . فتجد ان صاحب بحر الجواهر لم يقل انها معرب لقانه بل فسر اللقانق باللقانه ولعل هذه فارسية كذلك دوزي فانه لم يقل انها لاتينية معربة بل قال انها لقانقا باللاتينية ولم اعثر على هذه اللفظة في المعجم اللاتيني الذي عندي ولعلها لاتينية حديثة او نسبة الى لقانيا كورة في جنوب ايطالية ولا ادري اهي فارسية معربة ام لاتينية الاصل ولا يحل هذا المشكل الا احد اثنين هما من دعاميص الرمل او دعاميص الجن وقد تتبعا لفظة فوتس واخواتها ومرادفاتها في مجلة المشرق ومجلة المجمع العلمي العربي ومجلة لغة العرب مدة خمس وعشرين سنة الى ان قبضا عليها في أسادير الاولين وقاداها ذليلة صاغرة الى حظيرة اللغة العربية اما السجق او اللقانق فيتخذ من الحوايا اي الامعاء الدقيقة واما المنبار فيتخذ من القولون اي المعى الغليظ لذلك يسمونه في بيروت بالفارغ لانه يكون عادة خالياً من البراز . والله اعلم المعلوف

سابياء	Eau de la poche
ماسكة	Masque ? voile ?
صاءة	Sérotine
نَفْس	Lochie

الـ Orgelet هي (الشعيرة) لا غير في الاصطلاح الطبي . ولغة هي الجدجد والقمع والكدكد (بحر الجواهر) والظبظاب ايضاً . ولنعلم ان اللغويين والعوام لا يفرقون بين البردة والشعيرة

لا اقول لـ Blépharite التهاب جفني ولا رمد جفني ، بل اقول (التهاب الجفن) او (التهاب الاجفان) واحسن منها (السُّلاق) كما قلتم . اما الرمد فيقابل الـ Ophtalmie . وللسلاق عند اطباء العرب اسماء ودرجات كثيرة نظراً لاعراضه ومظاهره ، منها جسأ الاجفان Sclérosis وسعفة الأجفان Teigne des paupières وجرب الأجفان Galle des paupières او Pseurophtalmie اوحكة الاجفان Gratelle des paupières و(السلاق) التيني او التينة Sycosis وانتثار الاهداب Madarosis

واقول لـ Blépharite ciliaire (السلاق الهدبي) ولـ Blépharo-adénite التهاب الغدد الجفنية وربما كان هذا المرض هو المقصود بتسميتهم بالـ (توتة) توتة الاجفان . اما تسميتكم هذا المرض بالشرناق فغير مصيبة . فالشرناق هو الورم الشحمي اذا كان على الجفن العلوي خاصةً Lipome . جاء في كامل الصناعة الطبية (٢ — ٢٨٧) :

« فأما علل الاجفان فأولها علة الشرناق وتسمى اوراطيس ومداواتها باستفراغ البدن الى ان يقول : ثم من بعد ذلك يشق الجفن عرضاً ويخرج منه الجسم الشحمي » . وصاحب بحر الجواهر ايضاً يصرح بكونها تحتوي على شحم ويميزها عن السلعة . وفي تذكرة داود ان السلعة انواع منها عسلية ومنها اردهالجية ومنها شيرازية ومنها شحمية . اذن يكون عنده الشرناق سلعة شحمية . وتعلمون ان الشيراز هو اللبن المُمَصَّل . ولم اهتد لكلمة اوراطيس اليونانية واظنها محرفة[1]

Caroncule lacrymale هو (لحم الموق) . (انظر المخصص ١ — ١٠٨ وكامل الصناعة ٢ — ٢٩٠) اما اللخصة والبخصة فهما انتفاخ وغلظ اصول الاجفان خلقةً . واجدر ان يسمى بهما الشحم الذي وراء المقلة . وليستا لحم الموق

(١) لعل اوراطيس تحريف اوداطيس او هوداطيس ذكرها كذلك في المقالات العشر ص ١٣١ واوردها مايرهوف في مادة شرناق ص ١٩٠ و١٩١ (المقالات العشر طبعة مايرهوف) . ثم اني عثرت على لفظة شرناق في معجم انكليزي قال في تفسير مادة Axirnach هي كلمة عربية قال أبو القاسم الزهراوي انها ورم شحمي في الجفن الاعلى اكثر ما يصيب الاطفال وعليه يكون الشرناق ورم في الجفن الاعلى اي سلعة Cyst اما عسلية او اردهالجية او شيرازية او شحمية اي كما قال داود الانطاكي معلوف

Acromégalie (عدة) الاحسن ان نسمي الـ Acné (العُدّ) ونسمي البثرة الواحدة من العد (الفتَتَخ) جاء في التاج «الفتخ عرض الكف والقدم وطولها. وذكره المخصص ايضاً (٢—١٢و٦٠)

Angiome (ورم عروقي) ولا اقول وعائي . والنسبة للجمع هنا أنسب . واقول للـ Vaisseau عرق ولا أقول وعاء[1]

Cancroïde (شبه السرطان) . اما (الأُكلة) فهي ترجمة Noma حرفيًّا . فان nomein هو القضم والقرض والاكل باليونانية . جاء في بحر الجواهر : « الأُكلة في الفم علة صورتها صورة القروح غير انها تسعى في زمان يسير الى مواضع كثيرة من الفم ولها رائحة كريهة » . وهذا التعريف يقطع جهيزة كل خطيب

لابأس بتسمية الـ Cachexie بالدنف او الضنى او الحَرَض. ولكن اسلافنا قالوا (سوء القِنْية) والقنية هي الكسب فكأن ما يملكه البدن من الاخلاط قد ساء في هذه الحالة المرضية . وقد جاء في بحر الجواهر « القنية عند الحكماء هي الملك وهو كون الشيء بحيث يحيط به وينتقل بانتقاله كالتعمم والتلبس . وجلد الانسان محيط به فينتقل بانتقاله وهو في هذا المرض يسوء حاله ولذلك يقال لهذا المرض سوء القنية ، وان كان الاستسقاء اولى بذلك الاسم . لكن لما اختص هو باسم خاص فبقي هذا الاسم خاصًّا بهذه الحالة وهو مقدمة الاستسقاء »

Cansanguinité (وحدة الدم) في البشر والخيل وسائر الحيوان . اما الاضواء فقد يكون نتيجة لوحدة الدم بعضاً . فقد يتعالى النسل بوحدة الدم وقد ينحط « انظر معجم ليتره »

تسمية الـ Fomentation بالـ (كماد) صحيحة . اما النطول فهو ان يصب الدواء السائل الفاتر على العضو صبًّا

اسمي الـ Astigmatisme بالـ (لا محراقية) . فان هذه الكلمة الافرنجية مركبة من حرف النفي a ومن stigma وهي النقطة اريد بها المحراق

اما Centrifuge و Centripède فلا احسن من مقابلتهما بكلمتي (الصادر) (والوارد) لابد انكم شاهدتم عين ماء او بئراً او خريجة في الصحراء ورأيتم طرقاً تتجه اليها من جميع النواحي وقد غدت هي مركزاً لهذه الخطوط المطروقة . فالآتي على هذه الخطوط للمورد اي المتجه للمركز يسمى الوارد والراجع عليها اي المتباعد عن المركز يسمى الصادر . وهذا يطابق تماماً

Diurétique (المدر للبول ، يدر البول)

لقد طال الكلام فلا اريد ان ابحث عما ذكرتموه من مصطلحات النبات . ولا اخالكم الا مصيبين في ما ذكرتموه منها في مقالكم

الموصل الدكتور داود الجلبي

(1) قلت هذا مخالف لرأي الاب انستاس في مجلة معهد الطب العربي السنة الاولى ٤٢٦ معلوف

كتاب فيصل الاول

تأليف امين الريحاني

تفضل رئيس تحرير المقتطف فسلمني كتاب فيصل الاول في الشهر الماضي فألقيت عليه نظرة عجلى وكتبت عنهُ كلمة مجملة نشرت في الجزء الماضي فطلب اليَّ ان ادرسه درساً وافياً جديراً بكتاب مثله فعدت اليه فقرأته قراءة الناقد المدقق ، لا قراءة المتصفح السائر

ويمتاز الكتاب كما وصفته في كلمتي الاولى بأسلوبه القصصي الاخّاذ وانسجام ابحاثه وتسلسلها وتنوع مواضيعه وتعددها ، وتلك من خصائص استاذنا الريحاني فلا يبارى فيها ولا يشق له غبار ولذلك سأتكلم عن الناحية التاريخية فيه ، والظاهر انها لم تنل من عناية المؤلف ما نالته النواحي الاخرى فأخذ بالشائع المتداول من الروايات من دون ان يكلف نفسه مؤونة التدقيق في البحث فوقعت هفوات رأيت ان انبه اليها وان كانت مما لا ينقص قيمة الكتاب ورائدي خدمة التاريخ الخدمة الحقة الواجبة على المشتغلين به

قال في الصفحة ٢٢ : وكان الشريف فيصل في النصف الاول من العقد الثالث عند ما عاد الى الحجاز مع ابيه الذي تقلد منصب الامارة في مكة فعينه مديراً لشؤون البدو فكانت وظيفته تستوجب الحملات التأديبية من حين الى آخر .هذا ما قاله . والصواب انه لم تكن في امارة مكة وظيفة اسمها (مديرية شؤون البدو) يتقلدها او يختص بها بل كانت هنالك اعمال مشتركة يعملها بالتعاون مع اخويه (علي وعبد الله) وكان والدهم ينتدبهم للمهام بحسب الحاجة

وقال في الصفحة ٢٤ وهو يتكلم عن الشريف فيصل في مجلس النواب « بيد انهُ انتمى الى الحزب العربي » والصواب انهُ لم ينتمِ الى هذا الحزب — والذي انتمى اليهِ هو الامير عبد الله اما فيصل فكان موالياً للاتحاديين يرى ان السلامة كل السلامة في التعاون معهم

وقال في الصفحة نفسها « وقعت الحرب العظمى ودخلت تركيا الحرب وكان الشريف فيصل في سورية » والصواب انهُ كان عند دخول الدولة الحرب وذلك في شهر نوفمبر سنة ١٩١٤ يقيم في مكة بقرب والده ، فقد غادر الاستانة في شهر اغسطس مع شقيقه الامير عبد الله على أثر وقف جلسات مجلس النواب العثماني فجاءا القاهرة ومنها سافرا الى مكة .وقضى الشريف فيصل السنة الاولى من الحرب في الحجاز وفي شهر سبتمبر سنة ١٩١٥ غادر مكة الى الاستانة ليشكو وهيب باشا والي الحجاز يومئذٍ ويطالب باقالته ، وليسعى لتكون امارة مكة ارثاً في بيتهم (بيت الحسين) ومرَّ بدمشق وكان الطريق البحري مغلقاً — وتلك هي المرة الاولى يزورها فيها فحل ضيفاً على آل البكري وعرف بما اقترفهُ جمال باشا من فظائع [1] فابلغها الى الصدر الاعظم سعيد حليم باشا وشكا منها وسلمهُ مذكرة وصف

(١) أعدم جمال باشا رجال الرعيل الاول في بيروت صباح ٢١ اغسطس سنة ١٩١٥ اي قبل وصول الشريف فيصل الى دمشق بزمن قليل

فيها حالة العرب وقال ان والده على استعداد لتأييد الدولة اذا اعترفت باستقلال الحجاز على اساس اللامركزية وبالشريف حسين اميراً على ان تكون الامارة ارثاً في اولاده من بعده[1]

وعاد الى دمشق في شهر نوفمبر سنة ١٩١٥ وقد سبقته برقية من انور باشا الى جمال باشا يوصيه فيها بالحفاوة بالامير وان يتخذه مستشاراً له يساعده على تهدئة الحالة في البلاد العربية وان يحل آراءه المكان اللائق بها. ولم يطل الاقامة في دمشق بل غادرها الى مكة لاطلاع والده على ما وقع له ولابلاغه اماني الجمعيات العربية وقد اتصل بها للمرة الاولى مدة اقامته في دمشق وعرف باستعدادها لاضرام الثورة في البلاد السورية. وجاء دمشق ثالثة في يناير سنة ١٩١٦ ليقيم قرب جمال باشا، طبقاً لاشارة انور باشا ظاهراً، وكانت مهمته السرية مراقبة الحالة عن كثب والاتفاق مع زعماء العرب على العمل، واغتنم الفرصة في شهر مايو سنة ١٩١٦ فسافر الى المدينة لاستقبال المجاهدين القادمين من مكة باسم جمال باشا والعودة على رأسهم الى فلسطين فتخلص من الترك بحجة انهُ ذاهب لوداع اخيه الامير علي وهاجم في اليوم الذي افلت فيه وهو ٢ يونيو سنة ١٩١٦ مواقع الترك حول المدينة

وقال في الصفحة نفسها: «وفي شهر حزيران (يونيو) شنَّ الشريف حسين الثورة على الاتراك وعين فيصلاً لقيادة الجيش الشمالي» وحقيقة ما وقع هو انهُ لم يكن لدى الشريف حين اعلان الثورة جيوش منظمة ليولي ابناءه او غيرهم قيادتها وانما اختص كل واحد منهم بالعمل في ناحية فعمل عبد الله حول الطائف وعمل فيصل على طريق المدينة — ينبع وظل هنالك حتى شهر يناير ١٩١٧ ففي يوم ١٦ منه غادر ينبع الى الوجه بعد ما توطدت اركان الثورة في الحجاز وفازت وانتفى كل خطر عنها. وفي الوجه بدأ بانشاء الجيش الشمالي ثم انتقل مقره بعد ذلك الى العقبة ودمشق

وقال في الصفحة نفسها: وما كاد يدق الاوتاد على شاطئ الحجاز بين العلا والعقبة حتى ظهر على المسرح الكولونيل لورانس الانكليزي رسول الحكومة البريطانية» والصواب ان لورانس ظهر على المسرح في ينبع لا في العلا والوجه، فقد زار جده في شهر اكتوبر سنة ١٩١٦ لدرس حالة الثورة العربية عن كثب ثم قصد ينبع فالتقى فيها للمرة الاولى بالشريف فيصل في وادي الصفرا على طريق المدينة. ويقول لورانس نفسه في الصفحة ١٨ من كتابهِ «ثورة في الصحراء» عن هذه المقابلة ما ترجمته «وعلى الجانب الابعد من ساحة الدار الداخلية وقف شبح ابيض ينتظرني بلهفة وشوق ولما وقعت عيني عليهِ شعرت بأنهُ الرجل الذي قدمت الجزيرة العربية في طلبه الخ»

واثار في الصفحة ٢٥ قضية ما كان لمثلهُ ان يثيرها واصدر على العرب حكماً قاسياً فزعم ان سبعين من الفضل في نجاح الثورة العربية او اكثر او اقل هي للخيال الانكليزي (الجنيه). ويلوح لنا ان تسرع استاذنا الريحاني في اصداره هذا الحكم وغمطه حق العرب ناشيء عن عدم دراسته الثورة العربية الدراسة الكافية واعتماده على ما كتبه بعض المؤلفين الانكليز في موضوعها

ويجب ان لا يؤخذ من هذا اننا ننكر ما اسداه الانكليز للثورة من تأييد وامدادهم اياها

(١) من مذكرات علي فؤاد باشا رئيس اركان حرب الجيش الرابع اثناء الحرب

بالسلاح والمال فنحن نعرف ذلك ونعرف ايضاً ان لهذه المساعدة شأناً كبيراً في نمو الثورة واتساع نطاقها ولكننا نعرف الى جانب هذا ان فائدة الانكليز من الثورة كانت اعظم من فائدة العرب انفسهم وان ما دفعوه وبذلوه لا يعادل الثمرات التي جنوها منها فقد مكنتهم من عبور قناة السويس وسهلت لهم فتح بلاد الشام والانتصار على الترك وهم الذين قضوا السنوات الاولى من الحرب مخندقين وراء حصونهم في القناة لايجرؤون على مغادرتها . ويقول جمال باشا في مذكراته ان اول مرة عبر فيها الانكليز القناة كانت بعد ثورة العرب . يضاف الى هذا ان العرب كانوا ينازلون ٣٠ الف جندي للترك في الحجاز و الشام . ولولاهم لاشتركوا في قتال الانكليز ولصدوهم عن البلاد او على الأقل لشغلوا ٥٠ الف جندي انكليزي . وما لنا نذهب بعيداً في الاستنتاج وهذا هو الكولونيل لورانس وقد رافق الثورة العربية وعرف ما أسدتهُ للحلفاء من خدم يقول عنها في كتابهِ « كلنا يعرف ان فيصلاً بذل جهداً كبيراً في نشر الوية الثورة التي اعلنت في مكة وفي توسيع نطاقها فتمّ له ما اراد وبفضل بسالتهِ وحكمته اسدت هذه الثورة اعظم خدمة للحلفاء في ميدان فلسطين

« وكلنا يعرف ايضاً ان الجيش العربي الذي اعدّ وانشىء في ساحة القتال بين نيران المدافع صار جيشاً منظماً كامل العدة والعدد بعد ما كان في ابتداء أمره شراذم من البدو وقد تم له أسر ٣٥ الف جندي من الترك كما اخرج عدداً لا يقل عن هذا من صفوف القتال وغنم نحو ١٥٠ مدفعاً واستولى على ما مساحتهُ مائة الف ميل مربع من الاراضي ولقد أدّى هذه الخدمة في زمن كنا في أشد الحاجة اليهم فنحن مدينون لهم »

وقال في الصفحة ٢٦ « وعند ما انتدب الملك حسين ابنه الامير فيصلاً ليمثل العرب في مؤتمر فرساي كانت حاشيته الكبيرة امة مصغرة وقد تباينت فيها النزعات» والصواب ان الذين رافقوا الامير يومئذ هم نوري السعيد رئيس اركان حربه ورستم حيدر رئيس ديوانه والدكتور احمد قدري طبيبه الخاص وتحسين قدري مرافقه العسكري وفائز الغصين سكرتيره الخاص . هؤلاء الذين رافقوه في المرة الاولى وما هم بالحاشية الكبيرة المختلفة النزعات . ولو اطلق هذا الوصف على الذين رافقوه في الرحلة الثانية[1] لما عدا الصواب فقد سافر معه يومئذ الجنرال حداد باشا والشيخ فؤاد الخطيب والامير امين ارسلان والدكتور سامح الفاخوري والخوري يوسف اسطفان وأمين التميمي ومحمد اسماعيل والدكتور احمد قدري وتحسين قدري

وقال في الصفحة ٢٧ ان الامير والمسيو كلمنصو وقعا الاتفاق بالحرف الاول من اسميهما والصواب ان الامير وعد الفرنسويين بأن يسعى لحمل السوريين على قبول الاتفاق ولم يوقعه

هذا ما رأيت ان انبه اليه في الفصل الاول . وسأعود الى الفصول الاخرى في الشهر المقبل ان شاء الله

أمين سعيد

(١) كانت الرحلة الاولى في شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ وكانت الثانية في شهر سبتمبر سنة ١٩١٩

في بحور الشعر

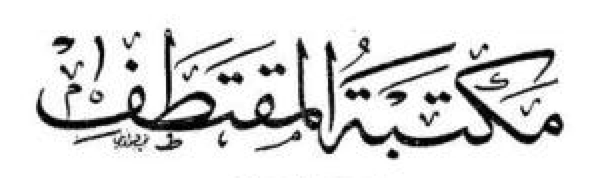
لما تناولت بالنقد « صناجة الرياشي » وأشرت الى ما في ابيات الشاعر من خلل الوزن او من عجز الموسيقى لم يكن غرضي بداهة سوى النقد الفني الصرف ، وكذلك كان شأني في التعليق على رد صديقي الدكتور بشر فارس ، ولذلك اعتب عليه لمحاولته تصويري بصورة المتعنت المكابر المعاند ولا احب بدوري ان اصفه بهذا الوصف ، كما اني لا اعدُّ ما كتبه عني من باب الغمز ، فاني احترم النقد الادبي وافترض دائماً حسن النية وأرحب بما كتبه الصديق الكريم

فأما ما عابه على شعري فليس هذا مقامه ، وانما مقامه حين يصدر احد دواويني الشعرية وله حينئذ ان يؤاخذني بما يشاء وأطالبه بأقسى مما كتب وأنا اتحمل نقده بكل ارتياح ، ولكنني اذكره الآن بأننا في معرض شعر الرياشي لا شعر الصيرفي . كما اني اعتب عليه لمحاولته الاستشهاد ببيت يتفق مع ما يليه ولكنه يجذبه فيلصقه ببيت آخر اتفق مع ما يليه ايضاً وحاولت أنا تغيير النغم في مقطع عنه في غيره ، فمحاولة الدكتور بشر في جذب مثل هذين البيتين من مكانيهما ليفهم القارىء انني مخطىء لا اراها من باب الانصاف ، كذلك لا ارى من الاعتزاز الادبي التهكم على زميل يقوم بتجاريب نظمية جديدة

غير انني اعود الى موضوعنا فأدعوه مرة اخرى للفائدة الادبية — لا للمكابرة — ان يقطّع ابيات الرياشي ولمثل هذه الغاية ادعو الاستاذ البشبيشي والدكتور زكي مبارك للمساهمة في هذا التحقيق العروضي ما دام صديقي الفاضل يريد ان يستبعد من المناقشة الذوق الموسيقي الشائع ، وأملي ان لا يعد هذه الدعوة من باب التحامل عليه ما دام غرضه كغرضي الخدمة الادبية الخالصة وإظهار الحق ، وأكرر له اخيراً شكري على هذه المساجلة المفيدة

حسن كامل الصيرفي

[المقتطف] لا ريب في ان الابيات التي اوردها الصيرفي من صناجة الرياشي (مقتطف دسمبر ١٩٣٣ صفحة ٦٣٠) مستقيمة عروضاً ، الاَّ ان ثالثها فيهِ ضعف . واما الابيات التي اوردها بشر فارس من شعر الصيرفي (مقتطف مارس ٣٧٥) فاليك الرأي فيها : الابيات الثلاثة الاولى صدورها من المديد واعجازها من الخفيف. والبيت الرابع مستقيم ، والخامس والسادس لا يستقيمان والسابع مستقيم على ضعفٍ . وأما ما بقي منها الى السادس عشر فخطأ الاَّ البيتان الثاني عشر والرابع عشر وهما مستقيمان . وبهذا نختم هذه المناظرة



كتاب مؤتمر الموسيقى العربية

يعلم قراء « المقتطف » ان مؤتمراً للموسيقى العربية انعقد في مصر في ربيع سنة ١٩٣٢ . وقد نشرنا في شهر ابريل من تلك السنة رسالة مسهبة في اغراض هذا المؤتمر وطرق الوصول اليها لبشر فارس الدكتور في الآداب من جامعة باريس . وقال فيما قال : انهُ من الخطأ ان يخلط الناس بمصر الموسيقى العربية بالموسيقى الشرقية لان الموسيقى الشرقية شيء والعربية شيء آخر . وهذا مرسوم ملكي قد صدر بتسمية معهد الموسيقى في مصر « معهد الموسيقى العربية » بدلاً من الشرقية

انعقد ذلك المؤتمر وكان في اعضائه مصريون وشرقيون وافرنجة . فبذل جهده في ضبط بعض نواحي الموسيقى العربية وتحديدها . وقد برز الآن تقرير ضخم عن اعمال هذا المؤتمر . وهذا التقرير في ما يزيد على ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير . وهو منقسم ثلاثة اقسام . الاول يبحث في الشؤون الادارية من مكاتبات ادارية واوامر ملكية وبيانات تنظيمية وبرامج عملية ولوائح اسماء الاعضاء الى غير ذلك . والقسم الثاني يبحث في الامور الفنية وفي هذه الامور طرق تنظيم الموسيقى العربية وترقيتها ، ثم حصر المقامات الموسيقية وترتيبها وتحليلها الى اجناس ومقابلتها بما هو مستعمل في غير مصر ، ثم في بيان انواع الايقاعات المستعملة في مصر وغيرها من البلاد العربية وتحليل هذه الايقاعات ، ثم بسط انواع التاليف الغنائي والصامت المستعملين في مصر وغيرها والبحث عن انواع اخرى ، ثم بحث التجارب التي اجريت لاثبات مقادير الابعاد السبعة للسلم واثبات قيمة الاربعة وعشرين صوتاً والتوصل الى طريقة تدوين الالحان ، ثمَّ حصر الآلات العربية وبحث مقدار ادائها وطلب تحسينها والنظر في اضافة الآلات الاوربية الى الآلات العربية ، ثم تسجيل الالحان بالنظر الى مقامها والبحث في كيفية دراسة الاسطوانات ثم النظر في الجماعات الموسيقية بين شرقية وغربية بمصر واحصاء من يتعلم الموسيقى العربية والغربية والمشاورة في تعميم التثقيف الموسيقي في مصر وكيف يكون والى اي غرض يرمي واي نحوٍ ينحو، ثم احصاء المؤلفات الغربية والشرقية التي تبحث في تاريخ الموسيقى العربية والنظر في تشجيع نشر المؤلفات واعداد تقرير يشمل تاريخ سلم الموسيقى العربية وتطوراتهِ في العصور المختلفة والتنقيب عن مخطوطات في الموسيقى العربية. واما القسم الثالث فمجموعة من صور الموسيقيين والآلات الموسيقية وصور من العرض المدرسي غاية في الاتقان

هذا وان في نهاية ذلك التقرير فصلاً طويلاً عن جلسة المؤتمر السابعة التي بحثت في « خير

الطرق التي تتبع لامكان تنظيم الموسيقى العربية وترقيتها لتؤدي كل الاغراض المطلوبة من الموسيقى على العالم مع الاحتفاظ بطابعها ». وفي هذا الفصل سرد الاساليب التي بها تتقدم الموسيقى وتتدرج الى الكمال : وفي هذه الاساليب بعض ما اشار اليه الدكتور بشر فارس في المقال الذي اشرنا اليه في مقدمة الكلام مثل تأليف كتب النماذج Methods وتثقيف من يطلب الموسيقى تثقيفاً رفيعاً يتراوح بين اسلوب الموسيقى العربية والموسيقى الافرنجية وغير ذلك

تاريخ الصحافة العربية (الجزء الرابع)

تأليف الفيكنت فيليب دي طرازي — المطبعة الاميركانية في بيروت ١٩٣٣ — ٥٤٥ صفحة من الحجم المتوسط

ان الفيكنت فيليب دي طرازي من أعلام اهل لبنان ومن مفاخر الشرق العربي . وانه على شرف بيته وكرم خلقه ، لمن اولئك الرجال الذين وقفوا حياتهم على خدمة اللغة العربية فبذلوا في سبيلها مالهم وهناءتهم. بل انهُ من اولئك الرجال الذين بهم نساجل الفرنجة في ميدان العلم والاستشراق

عني الفيكنت منذ فتوتهِ بالصحافة العربية . فراح يجمع الصحف والمجلات في اي بلد برزت حتى استقامت له مجموعة لا مثيل لها في العالم تحسدهُ عليها دور التحف وخزانات الكتب. وقد عرض الفيكنت مجموعته في بيروت لبضع سنوات خلت. فأصاب العلماء هنالك ما لم يدر لهم ببال . وخرجوا من المعرض مذهوباً بهم

على ان الفيكنت دي طرازي لم يقصر همه على الجمع والعرض ، بل صنَّف في تاريخ الصحافة العربية كتباً نفيسة ما تزال المرجع الوحيد بل الوثيق في بابها . وقد وقعت من المستشرقين أحسن وقع حتى لانهم نقلوها الى لغاتهم . فالجزءان الاولان ترجمها الالمان واما الجزء الرابع فقد ترجمه الاميركيون

وهذا الجزء الرابع اخرجه الفيكنت اليوم وطيه جميع فهارس الجرائد والمجلات العربية في انحاء العالم منذ نشوء الصحافة العربية حتى سنة تسع وعشرين وتسعمائة والف

وقد رتب الفيكنت هذه الفهارس احسن ترتيب حتى يصيب فيها المطلع غرضهُ في اسرع من ارتداد الطرف . وقد جاء هذا الترتيب على ضربين متسايرين فترتيب جغرافي تنقسم فيهِ الفهارس خمسة اقسام تتناول مدن كل من القارات الخمس على حسب وضعها السياسي المشهور الآن . ثم ترتيب تاريخي ناهض على تسلسل الصحف في الزمان . ثم ان لهذه الفهارس شروحاً علق بها الفيكنت على بعض الحوادث النادرة اللطيفة اللاحقة بالصحف

ذلك هو الجزء الذي ابرزه الفيكنت اليوم فرحباً بهِ ولعل الفيكنت لا يقعد عن اخراج ما بقي لديهِ من الاجزاء ، فان العلم نفسه يطلبها اشد الطلب

بشر فارس

التجديد في الادب الانكليزي الحديث

تأليف سلامه موسى

الادب الانكليزي أدب فائدة وليس ادب لفظ وصنعة . والادب الانكليزي ينظر الى حياته الخاصة ووسطه العام فيتأثر بهما ويؤثر فيهما . يدرس الحياة على أنها موضوعة يستدعي إرشاد ما فيها من معانٍ غامضة . والحياة عند المجددين من الادباء الانكليز تُنقد وتُعرف على حقائقها الاجتماعية والفكرية والمادية . فيظفر القارىء من الكاتب بفائدة جديدة كان يجهلها أو يعرفها معرفة سطحية . فليست غاية الاديب الانكليزي ان يكتب ويجيد الكتابة على النحو الذي يفعلهُ مثلاً بعض الادباء الشرقيين بل ان يعيش المعيشة الادبية أي ان تكون القاعدة في الادب عندهُ تصوير الحياة بما فيها من مثل عليا على أدق الصور الحديثة في التحليلات النفسية . والادب الانكليزي لذلك يدرس كل يوم شيئاً جديداً . فهو يدرس الانظمة الاجتماعية . والتطور الفكري . والمخترعات الحديثة . والوان العلوم . وشؤون الحكم . وبعض الادباء يتخيل انسب وسائل الحكم للجيل الحاضر او المقبل كما تحدث « ولز » في كتابه « الطوبى الجديدة » . فقد رسم لنا طريقة موفقة في شأن المعاملات المادية والاجتماعية . وفيها ايضاً ينزع من نفوسنا النزعة الدموية التي تطغى على عواطفنا فتجنح بنا الى الثورات والحروب . فالحياة في هذه « الطوبى » بعيدة عن الحياة الواقعة ولكنهُ خيال العلم الذي لا يبعد ان يكون حقيقة الغد . وكذلك يؤلف « ولز » الكتب العلمية المحضة وهذا كتابه في « علم الحياة » بالاشتراك مع جوليان هكسلي يعد في طليعة المؤلفات الخاصة بنظرية التطور ونشوء الحياة . ونجده يؤلف القصص يبحث فيها العلل الاجتماعية الخاصة بالعائلة ونظام النسل وتأخذها شركات السيما ودور التمثيل ليشهدها الجمهور ويتمتع بما فيها من معان جليلة عالية . فالادب الانكليزي يتجدد بمرور الايام ولا يقف وان كان يحوي في ثناياهُ بعض الاساليب الرجعية في الفكر واللفظ ولكن حتى الرجعيين من اصحاب هذا الادب كانوا يمجدون الفن ويؤثرونهُ على الصنعة وكانوا يكرهون الآلات ويؤثرون عليها الجمال الذي نلمسهُ في الصناعة اليدوية .. والادب الانكليزي ادب علم وفن واختراع لا أدب حسن وبيان وصنعة ويضطلع باعبائهِ الكتاب والشعراء على السواء وإن اختلفت عندهم الوسيلة فالغاية التي ينشدونها واحدة ولا يهتم الكاتب الانكليزي الاَّ بالمعنى دون اللفظ فالاسلوب عنده شيء ثانوي ولذلك نجد انهُ ليس في انكلترا « اكادمية » للغة كما هي الحال في فرنسا .. وقد تحدث مؤلف هـذا الكتاب في كتابه عن منحى الادب الانكليزي في الاربعين السنة الماضية في مختلف نواحيه في دراسة تحليلية قوية لا تظفر بامثالهـا الاَّ في كتب النقدة الكبار . وهو من اصحاب المذاهب الحديثة في الاسلوب والتفكير . فيكتب بعقل العـالم وباسلوب مختصر مفيد .. فهو مجدد في الناحيتين الفكرية والقلمية يدعو الى شؤون عديدة في حياتنا الاجتماعية من

ادب وعلم وخُلق ورياضة . وهو متأثر الى حدٍّ بعيد بالادب السكسوني واري انهُ الاديب المجدد لحياتنا قبل ان يكون صحفيًّا او كاتباً بالمعنى العام من هذه الكلمة .. وادبهُ يصدر عن نفس تشعر بوجوب معالجة النقص في مناحي الحياة المصرية ولعل كتابه هذا أبلغ رسالة كتبها لادبائنا الجامدين وهي وإن كانت مقتضبة اقتضاباً شديداً وتحتاج الى كثير من الشرح والاسهاب الّا انها قوية موفقة ترضي القارىء من وجهتي العقل والشعور

حليم متري

تقويم الحكومة المصرية

عن سنة ١٩٣٤

اهدت الينا المطبعة الاميرية نسخة من التقويم الجديد الذي تصدره كل سنة وغرضها منهُ على ما جاء في كلمة التقويم مساعدة « الجمهور على ايجاد فكرة عامة عن وزارات الحكومة المصرية ومصالحها وما تتولاهُ كلٌّ منها من الاعمال وعن أهمّ ما يوجد في القطر من الجمعيات العلمية والشركات والبنوك وما يؤديه كلٌّ منها من عمل » . وناشرو التقويم يعترفون انهُ رغماً عما بذل من العناية في جمعهِ فانهُ لا يزال يحتاج الى معونة كل من يطلع عليهِ فيرشد الى نقص او خطإ وقع فيهِ او اقتراح يزيد في فائدتهِ . والكتاب يقع في ٧٦٠ صفحة من القطع الوسط ، تقع فيها على كل ما يهمك ان تعرفهُ من شؤون الادارة المصرية مبوّباً أحسن تبويب مسوقاً اليك في ايجاز بليغ . فتحنا الكتاب عند الصفحتين ٢٩٨و٢٩٩ فاذا هما يحتويان على ملخص تجارة مصر الخارجية مع انكلترا ومستعمراتها وفرنسا وايطاليا والمانيا والولايات المتحدة الاميركية وبلجيكا ولكسمبرج وشيلي . وفتحناه عند الصفحة ٢٤٩ فرأينا في منتصفها الاسفل وصفاً موجزاً دقيقاً لقناطر نجع حمادي اليكهُ : « تقع هذه القناطر على النيل عند الكيلو ٥٨٨ قبلي القاهرة واربعة عشر كيلو متراً بحري كوبري السكة الحديد بنجع حمادي ، وتتكون القنطرة التي بدىء في بنائها في أواخر سنة ١٩٢٧ وانتهت في اكتوبر سنة ١٩٣٠ من مائة فتحة سعة كل فتحة منها ستة امتار ، وفي الجانب الغربي للقناطر هويس عرضهُ ١٦ متراً وطولهُ ٨٠ متراً وهـذا الهويس في مقاساتهِ كهويس قناطر اسنا وقناطر اسيوط . وتختلف هذه القناطر عن قناطر اسنا واسيوط في ان سعة فتحاتها ستة امتار بدلاً من خمسة أمتار . وببناء هذه القناطر قد تمّ ريّ جميع حياض الوجه القبلي اذ ان بوجودها بين قناطر اسنا واسيوط سيكون ري مديرية جرجا ومركز نجع حمادي من مديرية قنا مضموناً بقطع النظر عن انخفاض الفيضان . والمساحة التي تحكمها هذه القناطر نيليًّا حوالي نصف مليون فدان وستكون في المستقبل اداة لتحويل ٤٥٠ الف فدان من ري نيليّ الى ري مستديم . . . . » الخ

ويلي ذلك وصف التعلية الثانية لسدّ خزان اسوان . فالكتاب من حيث ما يشتمل عليهِ من الحقائق المبوّبة سجلٌّ لا يستغني عنهُ احدٌ من المشتغلين بشؤون مصر العامة

ديوان الماحي

نظم محمد مصطفى الماحي — صفحاته ٢٥٦ قطع صغير

قال الشاعر في ما دفعهُ الى الشعر : « . . . . فكان لي — في الفينة بعد الفينة — خاطرة توحي بها مناسبة او فكرة يتفتح عنها الذهن ويصوّرها الخيال ، او ذكرى تتمثل للخاطر فتجيش بها العاطفة ، او حادث يثير كوامن الاشجان . وكنت اذا اكملت شيئاً من ذلك آثرت ان اطويه قانعاً بارضاء جانب الادب من نفسي كالمثّال المتواضع ما يزال يعصر ذهنهُ ويستوحي ملهمهُ حتى يحسن ويبدع ثم يرى ان يحجب ما الهمه ليستجمَّ مؤثراً ان يرضي جانب الفن من نفسه . . . واشهد الله اني رجل لا ازلق الى الاغترار بمدحٍ ولا الى الاعتداد بشعرٍ . . . بل كنت انطق جاهداً عن الشعور الصادق وعن همسات النفس وخلجات القلب ووحي الضمير ، وما خطر لي يوماً اني سأواجه عالم الادب العربي بنشر هذا الديوان»

وقال خليل مطران في الديوان « بجملته مرآة عصرِكْ »

وقال عبد الله عفيفي : ... وانك لتقرأ شعره فتجد صورته وصورة ما يحيط به واضحة جلية لا يعتورها نقص ولا يشوبها كلف ولا يزيدها زخرف او تمويه ، ففي الديوان الذي بين يديك تجد صولة الحب وثورة العاطفة وسورة الشباب وزهوة الامل ولوعة الحزن وشكوى الزمان ومساجلة الاخوان وفيه ذكر الحوادث العامة ونقدٌ لحالات الاجتماع

***

اما محمود عماد فيشير في ما يشير اليه ، الى مكانة بين فريق المتشيعين للادب القديم وفريق النازعين الى التجديد فيقول : ولسنا الآن في سبيل تفضيل فريق على فريق . ولكن بسبيل ان نتعرف موقف « الماحي » الشاعر منها . والذي نراه انهُ لم يتحيّز الى فريق بعينهِ ولكنهُ وقف في منتصف الطريق واتخذ له بين الادبين خطة وسطاً قال :

كم في القديم جديد الحسن مؤتلقٌ ... يوليك من قسمات الحسن الوانا
إما بعثنا — على الايام — جدّتهُ ... اوفى على جدد الآداب ميزانا
وكم جديد نعمنا من نضارتهِ ... في ابهج الروض اطياراً وأفنانا
كلاهما تملأ الدنيا محاسنه ... وتستجدُّ بهِ الآداب إحسانا

ولم يجد توسطهُ بين الادبين عن عمدٍ ولكنه جاء من وحي الطبع والغريزة وذلك لان الصفة الغالبة في طبعه هي « الاعتدال »

وبعد اطلاعك على هذه الآراء المحكمة يجدر بك ان تطالع ديوان الماحي لتحكم بنفسك

حوّاء بلا آدم

بقلم محمود طاهر لاشين — قصة — صفحاتها ١٦٠ قطع وسط

القصة مصرية في روحها واشخاصها . فالشيخ مصطفى والحاج إمام والجدّة والباشا والشاب رمزي والشابة حوّاء ، اشخاصٌ تحيا . وهي بحديثها وتصرّفها في هذه القصة كأنها قطع من بعض نواحي المجتمع المصري الذي يريد المؤلف ان يرسمهُ وينقدهُ في آنٍ واحد

الحياة التي تحياها الجدّة « قوامها العاطفة . العقل فيها راكدٌ . والعقل يأبى الركود . فاذا حاول ان يرضي الفطرة لم يستطع الاّ العمل التافه من التشبُّث بالتفاؤل والتشاؤم واقامة الوزن للاحلام ، ومن ثمّ الاتصال بالجن والشياطين ، تتخذ لهم الاسماء ، وتسبغ عليهم المِلَل والنحل والاشكال والالقاب ، ويبايَعون بالسيادة ، فيخضع العقل السليم لهؤلاء « الاسياد » الذين اخترعهم

ومن هؤلاء الاسياد عفريت يدعى سرور وصفهُ المؤلف وصفاً لطيفاً صفحة ٣٤

اما حوّاء فنشأت في هذا الجوّ . نشأت فيهِ فألِفتهُ ثم أنِفت منهُ . . . واصابها في صغرها ما يعرف الآن في علم النفس الحديث بعقدة الضِعة فنزعت الى التفوّق في طلب العلم فتفوقت وارسلت في بعثة الى انكلترا وعادت منها مدرّسة « تعلم الرياضة فاقتصدت في الاختلاط بزميلاتها المدرسات . وتكوّنت لها حيالهنَّ شخصية فيها تعالٍ ولكن ليس فيها حماقة . فكن يحترمنها ولا يكرهنها . بل كانت الحكمَ اذا اختلفنَ جميعاً ... » ثم انضمّت الى احدى الجماعات النسائية فراحت تعمل بنفس تريد العمل ... وكذلك اضافت حياتها الجديدة الى نفسها ما طغى على انوثتها ، حتى ايقظها فيها الشاب رمزي وهو نجل باشا كانت تختلف حواء الى دارهِ لتدرّس اولاده . فكانت هذه اليقظة الانثوية في نفس حوّاء بعد ٣٠ سنة قضتها في طلب التفوّق ، عنيفة كالنار ، لا بدَّ ان تأكل صاحبتها اذا هي اصيبت بالاخفاق . وكذلك كان

فالحكاية الغرامية ليست الاّ سمطاً واهياً ينظم الصور العديدة التي يريد المؤلف ان يرسمها لنواحٍ من المجتمع المصريّ ، ولكنهُ مع ذلك يجعل القصة كلاًّ مندمجاً لا يتجزأ . ولغة الكتاب فصيحة في الغالب ، تتطرق اليها الالفاظ والعبارات العامية احياناً كقوله « ومضى يحدث بانفهِ شوشرة كبرى » او يغلب عليهِ التعبير الفرنجي احياناً كقولهِ « احتلّتهُ امتعاض مَنْ رأى شيئاً كريهاً »

وللمؤلف نكتة بارعة مشربة بألوانٍ من السخرية كقولهِ « ... على شرط ان يطلق زوجه الاولى فطلّقها بحجة انها لم تلد له الاّ إناثاً . وانهُ يريد « النسر الصغير » . وكقولهِ « فالحاج امام وحدهُ هو الذي لا يؤمن بالجرس الكهربائي ويرى عصاتهُ للباب اقرب للتقوى »

وله كذلك نقدات اجتماعية يسوقها اليك منسجمة مع حوادث القصة كوصفهِ رمزي اذ قال : « ولم يتعمّد رمزي ان يثقف نفسهُ ثقافة خاصة . وانما كان يشتري الكتب غثّها وسمينها على السواء ،

اذا تساوت في اناقة الشكل وجمال الطبع . فمكتبتهُ اذاً عامرة باهرة . وانهُ ليمضي الساعات في ترتيبها واعادة ترتيبها . ويداخله من عرفان اسماء المؤلفين شعور بانهُ يتمشى مع الحركة الادبية ، بيد انهُ يقرأ اهم الصحف اليومية ، وكافة المجلات الاسبوعية وللاخيرة عنده مجموعات ينفق على تجليدها بسخاءٍ . . . . . الخ »

الاعشاب

ديوان لمحمود ابو الوفا — صفحاته ١٢٧ قطع صغير

الفرق بين شعر محمود ابو الوفا في ديوانه هذا وشعره في ديوانه الاول كالفرق بين «الاعشاب» و «انفاس محترقة» . فمحور شعره في الديوان الاول بثّ نفسهِ الكايمة فاذا هو يقذف شواظ نارٍ حيث يقول « سر الحياة اليمّ » او حيث يقول :

اريد وما عسى تجدي اريد على من ليس يملك ما يريد

او حيث يقول :

لغة البلابل اين تذ هب بين هدهدة الهداهد

او حيث يقول :

ابي وفي النار مثوى كل والدة ووالدٍ انجبا للبؤس امثالي

او حيث يقول :

لعجيب ان يطرب الناس عودٌ شبَّ يسقى السموم من احزانهِ !

أما « الاعشاب » فميدانه اعمُّ . وأغراضهُ اكثر تنوعاً . فقد خرج فيهِ الشاعر من حرم نفسه الى رحاب بيئتهِ . فهو آناً يسجل ، وآناً ينتقد . يسجل زيارة جلالة الملك الى اوربا في قصيدة حسنة . ويحتفل وحده بتكريم شوقي ، بقصيدة من خير ما قيل في ذلك المهرجان :

مزهرٌ غنَّت الطبيعة فيهِ مرسلاتٍ اوحَت بهنَّ السماءُ
في بيانٍ تنافس الصبح فيهِ حين يروي قصيدَهُ والمساءُ
في معانٍ سرين من كل حيٍّ موضع الحس فهي فيهِ الدماءُ
كلمات كأنهنَّ نجومٌ وقوافٍ كأنهنَّ الماءُ

وكذلك سجَّل وفاة فيصل ومأساة الطيارين المصريين اللذين سقطا واحترقا في طريقهما من انكلترا الى مصر ووفاة عدلي باشا وداود بركات وما توحيه هذه الحوادث من الوان الشعور

أما نقده فوجَّه في الغالب الى عيوب المجتمع المصري :

الخاطئون بها هموا نجباؤها فهمو الذين تفرقوا اهواءَ
شقيت بأحزاب وهم فيها شقوا فغدوا جميعاً في الشقاء سواءَ

والله ما كان العدوّ ببالغ لو لم يجد من اهلها نصراء

او حيث يقول :

سلوا «الوساطات» في مصر وما اصطنعت سلوا « الادارات » من دونٍ ومن عال
كم من كريم كبت فيهِ مطامحهُ وكم لئيمٍ بها طلاع آمال

او قولهِ : كل شعبٍ صلحت اطفالهُ كان هذا الشعب مرجوّ المآل

على ان قصائد « تكريم شوقي » و« حديقة الجار » و« يوم اللقاء » و« الجسر والنهر » « وحلم العذارى » فيها نفحة شعرية تحب ان يعنى الشاعر بتوجيه اكبر جانب من عنايته اليها فهي للكلام النظيم كالأجنحة السحرية نرتفع عليها الى ابعد الاجواء

مجلة كلية الآداب

الجزء الثاني . دسمبر ١٩٣٣

نهضت كلية الآداب وذاع صيتها وحسن عملها ولا نشرة لها تعزز مكانتها حتى قام نفر من الاساتذة وتعاقدوا على اخراج مجلة لها

ان الجزء الثاني من هذه المجلة بين يدينا الآن . ففيه من المباحث الطريف والمحكم بعضه مكتوب باللغة العربية والآخر بالانجليزية او الفرنسية . ومما يؤسف له ان بعض الاساتذة المصريين عدل عن العربية الى الانجليزية كأن ليس في لغتهم متسع لكلامهم . وشدّ ما يُخشى ان يصير اساتذنا مصير كتّاب المغرب والهند : هؤلاء يؤلفون في الانجليزية واولئك في الفرنسية . وان كان للقوم عذر نجهله او نعرفه فما عذر اساتذة كلية الآداب بالجامعة المصرية

موضوعات هذا العدد

القسم العربي

ابو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي (لمصطفى عبد الرازق)
اوزان الشعر وقوافيه في العربية والفرنسية والتركية (لعبد الوهاب عزام)

القسم الاوربي

مقطوعة للشاعر مينيس (لفلادمير فيكنتيف)
وصف مصر لديودور الصقلي ، المقالة الثانية (ترجمة وادل)
ملاحظة على ترجمة كتاب النبات لارسطو (لآربري)
تأسيس القاهرة (لكرزويل)
الايضاح العقلي الانكليزي للسحر (لايفانز بريتشارد)

العناصر المصرية وغير المصرية في تدرج الحضارات في افريقية الغربية (للشرقاوي)
حفائر الجامعة المصرية بالمعادي (لمصطفى عامر)
اسماء بعض النجوم المختلف فيها (لتيلور)
الادب القديم (الكلاسيك) : رأي في تحديده (لبير)

خزانة مخطوطات القس بولس سباط

مطبعة فردريخ بمصر

القس بولس سباط من المولعين بجمع المخطوطات وقد انقطع لذلك خمس عشرة سنة حتى استقامت له خزانة جليلة فيها خمس وعشرون ومائة الف مخطوطة في فنون شتى ، منها الدين فيدخل فيها ، الاسفار المقدسة بين صميمة وموضوعة ، وتفاسير وتآليف آباء الكنيسة وتصانيف الهية فلسفية ومنطقية واخلاقية ومناظرات ، وتعاليم دينية ، وسير الانبياء وآباء الكنيسة ، وطقوس على حسب المذاهب والطوائف ، وكتب في التقشف والزهد والرهبنة والعبادات والصلوات . ومنها اللغة العربية فيندرج فيها : القواعد والادب والشعر والمراسلات والخطابة والعروض والمعجمات والقصص والسياحات . ومنها التاريخ — ومنها العلوم ، فينطوي تحتها : الطب والعقاقير والهندسة والجبر والحساب والقانون وعلم الحيوان والجغرافية والفلك والتنجيم والفراسة والكهانة والعرافة والسحر والطلاسم والكيمياء والمعادن — ومنها الدين الاسلامي على اختلاف فنونه

ثم ان هنالك مخطوطات سريانية وارمنية ويونانية وقبطية ولاتينية وتركية وفارسية

والخلاصة ان مثل هـذه المجموعة لمما يعتدُّ بهِ ، وحسناً فعل القس المحترم في نشر فهارس تحليلية مسهبة لتلك المخطوطات . وعسى ان يبقى على جمعه فانَّا لفي حاجة الى امثاله

الشرق والغرب

اسم الكتاب الماعُ الى فحواه . فان نفساً حية ، سرى فيها الاخلاص للانسانية ، ووازنت بين الشرق والغرب ، فتبينت البون الشاسع بينهما ، رمت بهذا التأليف الى حث قومها على المساهمة في تراث الانسانية «العلم والارتقاء» . والمؤلف شاب لم تتسنَّ لهُ الوسائط العلمية في جامعات اوربا ، ولا في جامعات الشرق حتى ، فكانت عزيمته هذه ، وثقتهُ من نفسه ، فريدة في بابها

هذا هو رشيد سرحان شكور كاتب «الشرق والغرب» في نحو ٤٠٠ صفحة حسنة الطبع ، واضحة البيان ، نزيهة النزعة ، انسانية المرمى ، عربية الاختصاص

يتلخص الكتاب في احدى وعشرين مقالة ، حافلة بالفوائد التاريخية والاجتماعية ، في الهند والصين والعرب والترك واوربا واميركا ، اورد فيها خلاصات في زعماء الدنيا ، وقد وضعهم فوق الاديان التي نشأت عن حياتهم وتعاليمهم . وهو يروم ان يتبع ابناء العربية مثالَ الاوربيين من

حيث التعويل على العلوم الاختبارية الطبيعية ، وصرف النظر عن النظريات الروحية مع احترام واضعيها . ومع اني لا اوافقه في كل آرائه ارى من واجبي ان اشجعهُ ، لانهُ ثائر على القيود ، والشرق يحتاج الى مثل هذه الثورة . الاَّ ان المسعى الذي يتوخاه طويل شاق ، ودونهُ قدُّ برد يمانية . وان الذين يروم انتشالهم من لجج الاوهام والخرافات ينظرون اليهِ نظرة عدوٍّ لدود ، دفاعاً عمَّا ألفوهُ وذوداً عن سبلٍ نشأوا عليها . فعلى امثاله بالصبر وانكار النفس ، لان النتائج المنتظرة من امثال هذا المسعى لا تتاح قبل عشرات القرون

احصر كلامي بهذا الالماع لان المؤلَّف لا يحتمل اكثر من ذلك . كما اني احجم عن نقد الكتاب للسبب نفسه راجياً ان يكون من الذرائع لتحرير الشرق ورفعة اقوامهِ

حنا خباز

التربية بالقصص

وضع الاديب المهندس حامد القصبي حلقةً اخرى من حلقات « التربية بالقصص » لمطالعات المدرسة والمنزل . وهذه الحلقة تشتمل على قصص سهلة المأخذ قريبة التناول ذات مغاز ادبية عالية وكل صفحة من صفحات الكلام يحيط بها اطار من الرسوم ، وبعض هذه الرسوم ملوَّن . فنشكر للمؤلف عنايته بالاشتراك في اعداد مكتبة عربية للاطفال نحن في اشد الحاجة اليها

زردشت باستاني وفلسفته

ظهر هذا التاريخ النفيس من تأليف المؤرخ الحاج ميرزا عبد المحمد خان ايراني صاحب جريدة جهرنما الفارسية بمصر وهو يبحث في الديانة القديمة الزردشتية التي كانت سائدة في ايران قبل الاسلام والتي تشغل من تاريخ ايران شطراً مجيداً والنبي زردشت كان في مقدمة المعلمين الدينيين ولا يزال يتبع تعاليمه طائفة كبيرة من اشياخ هذا الدين في الهند وفي ايران . وقد اورد المؤرخ كل ما يتصل بتاريخ زردشت منذ نشأتهِ وقيامهِ ودعوتهِ ونشره لمذهبه وما كان بينه وبين الملوك المعاصرين وتناول وفاته ومن خَلَفهُ وكيف انتقل الكثيرون من اشياخ هذا الدين من ايران الى الهند وما كان من أثر ذلك في ايران وما عداها وكان اعتمادهُ في تصنيف كتابه على المصادر الموثوق بها من التواريخ الايرانية واليونانية والرومانية والتركية والعربية وعلى ما جمعهُ كبار المستشرقين من الانكليز والاميركيين وسواهم والكتاب باللغة الفارسية

مطبوعات جديدة

شهرزاد
مسرحية تأليف توفيق الحكيم

لندن
تأليف احمد عطية الله

اركان التدريس
تأليف احمد سامح الخالدي

الصحة الريفية في سوريا
تأليف ستيورت دد (انكليزي)

التعريفة الجمركية في سوريا
تأليف نورمن برنز (انكليزي)

تاجر البندقية : للاطفال
تصنيف كامل كيلاني



تعاون هواة اللاسلكي العالميين
على حلّ احدى معضلاته

اتحفنا الاستاذ محمد سعيد لطفي رئيس قسم الاذاعة العربية ، في محطة الاذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية، بعدد من مجلة «ورلد راديو» وأشار فيه الى اذاعة علمية احبَّ ان يكون للمقتطف نصيب في نشر مؤداها حتى يتاح لهواة اللاسلكي من قرائه في الشرق العربي التضافر مع اخوانهم في انحاء العالم على جمع الحقائق الخاصة بموضوع يعنى بهِ علماء اللاسلكية الآن . واليك ملخص المقال :

عني الاستاذ ابلتن، الطائر الصيت في الدوائر اللاسلكية العلميـة في السنوات الاخيرة بدرس ظاهرة الاصـداء اللاسلكية التي ترد الينا من الفضاء . واشتركت معهُ في ذلك طائفـة من العلماء. وانت تعلم ان الهوائي يذيع امواجاً لاسلكية تنتشر في جميع الجهات ، الا اذا كان موجَّهاً توجيهاً خاصًّا . هذه الامواج الحاملة لرسائل معينة تنطلق من سطح الارض الى الفضاء ولكن قلما يتاح لها ان تفلت من جو الارض الى الفضاء الكائن بين الاجرام السماوية. ذلك ان في اعالي الجو ثلاث طبقات من الذرات المكهربة وقد سُميت بثلاثة احرف من الابجدية الانجليزية هي D و E و F تردُّ الامواج من اعالي الجو الى سطح الارض ، فتجعـل التخـاطب اللاسلكي البعيد المدى مستطاعاً. فطبـقة D تعلو ٣٠ ميلاً عن سطح الارض وترد الامواج اللاسلكية الطويلة

اما طبقة E (وهي المعروفة بطبقة كنلي هيفيسيد) فترتفع نحو ٦٥ ميلاً عن سطح الارض وتردُّ الامواج اللاسلكية الطويلة والمتوسطة . و اما طبقة F (وهي المعروفة بطبقة ابلتن) فعلوها ١٥٠ ميلاً وترد معظم الامواج القصيرة . ولكن بعض

في مقتطف يونيو

الريُّ ومشروعاتهُ الكبرى
في القطر المصري
لحسين بك سري وكيل وزارة الاشغال

البحث عن الثروة المعدنية في مصر
للدكتور حسن صادق بك
مراقب ادارة المناجم والمحاجر

من محاضرات المجمع المصري للثقافة العلمية

الامواج اللاسلكية يستطيع ان يخترق جميع هذه الطبقات وينطلق الى الفضاء وراءها

انما يظهر ان هذه الامواج التي يبدو لنا انها تنفذ الطبقات الثلاث الى الفضاء ، لا تنطلق فعلاً الى الفضاء الخارجي ، بل هناك فوق الطبقات المذكورة ما يردُّها الينا

ففي سنة ١٩٢٧ لاحظ احد هواة اللاسلكي الهولنديين ، في خلال التقاط اشارات لاسلكية مرسلة من أيندهافن ، انهُ يسمع احياناً الاشارة الواحدة ثلاث مرات فبعد ما سمع الاشارة الاصلية ، لبث سُبْع ثانية فسمعها ثانية كأنها واردة من جهة مقابلة ، وبعد ثلاث ثوانٍ سمعها ثالثة . اما الصدى الاول (اي الذي يسمع بعد انقضاء سبع ثانيـة على الاشارة الاولى) فيمكن تعليله بأنهُ تم بعد ما دارت الاشارة الاصلية حول الارض . وهذا يقتضي سُبْع ثانية من الزمان لان المسافة حول الارض تبلغ سبع سرعة الامواج اللاسلكية في الثانية (نسبة ٢٤٨٠٠ ميل محيط الارض : ١٨٦٠٠٠ سرعة الضوء والامواج اللاسلكية في الثانية) ولكن من اين جاء الصدى الثالث ? فان مجيئه بعد ثلاث ثوانٍ يقتضي ان يكون قد قطع ٥٤٨٠٠٠ ميل قبل رجوعهِ الى الارض . فاذا كانت الامواج اللاسلكية تسير بسرعة واحدة في انطلاقها من سطح الارض وارتدادها اليها ، فالطبقة التي ردّت الصدى الاخير ، يجب ان تكون على ٢٧٩ الفاً من الاميال فوق سطح الارض . وفي سنة ١٩٢٨ سمعت اصداء لاسلكية بعد انقضاء ١٥ ثانية على سماع الاشارة الاصلية ، وهذا يقتضي نظريًّا وجود ما ردَّها الى الارض على بعد ٢٣٢٥٠٠٠ ميل من سطحها

فماذا يمكن ان يكون على هذه المسافة فوق سطح الارض ? هل هناك طبقة من الذَّرات المكهربة ، او تيار من الدقائق منطلق من الشمس او غيمة منبسطة من الغبار الكونيّ ? وهل هذه الطبقة ، كائنةً ما كانت ، تدور مع النظام الشمسي او لها حركة ذاتية خاصة بها ? ولماذا تتأثر هذه الاصداء المرتدة الينا من ابعادٍ سحيقة بالنور القطبي وكلف الشمس ? وفي كم موقع على سطح الارض يمكن التقاط الصدى اللاسلكي الواحد في وقت واحد ? النظريات كثيرة ولكن الحقائق التجريبية يسيرة وكلّ ذلك ما يزال لغزاً غامضاً

ولما كان العلماء يحتاجون الى جمع المشاهدات الخاصة بهذا الموضوع التي يشاهدها اكبر عدد من الهواة اللاسلكيين تقرر انشاء عصبة سماع اللاسلكي التجريبيين والغرض من هذه العصبة ارسال اشارات لاسلكية معينة في اوقات معينة ، ثم على كل عضو في العصبة ان يدوّن ميعاد سماع الاشارة الاصلية والاصداء التي تليها وفترات الوقت بين الاشارة واصدائها . وقد وافق الاستاذ ابلتن على انشاء هذه العصبة ووعد بالتعاون معها بل هو الذي اقترح جعل تجربتها الاولى خاصة « بالاصداء اللاسلكية المتأخرة » . وتعرف هذه العصبة بالحروف الافرنجية الاولى من اسمها . وهي W. R. R. L ومن شاء من القرّاء الانتظام فيها فعليه بالكتابة الى العنوان الآتي :

Ralph Stranger c/o Editior World—Radio B. B. C. Broad Casting House. Portland Place, London, England.

ويقول له انه يودُّ الانتظام في هذه العصبة W. R. R. L. وما هي مؤهلاته العلمية ونوع اللاقط اللاسلكي الذي يستعمله

الهمُّ والصحة

ذكر الدكتور كالب وليمز صليبي في كتابهِ : الهمّ داء العصر : ان فتاة خطبت ثم اضطربت أحوال خطيبها وتعسرت اموره فاضطر ان يؤخر زواجه . فقلقت لما اصابهُ . وأثر قلقها في صحتها فزالت البهجة من وجهها وتولاها الارق . ففي اول الامر صار نومها خفيفاً كما ظهر من كثرة احلامها ثم قلَّ نومها وطال ارقها وانتابها الكابوس الدال على سوء الهضم ثم اصبحت لاتنام مطلقاً. وصلحت احوال خطيبها بعد ذلك فتزوجا وزال ما يدعو الى قلقها وأرقها ، ولكن الارق لم يزُل . اي ان همها السابق بقي تأثيرهُ فيها . وصارت سريعة الشعور بالتعب

***

وكان هضمها قبل ذلك غاية في الانتظام فلما قلقت اصابتها تخمة شديدة لغير سبب ظاهر ، مصحوبة بنوب من الالم الشديد حتى اذا كانت ماشية واعترتها احدى هذه النوب عادت رجلاها لا تحملانها . وقد مضى عليها بعد زواجها اربع سنوات وسوء الهضم لم يفارقها يوماً واحداً مع ان طعامها لم يتغير عما كان عليهِ قبلما اصابها القلق . وكل ظواهر سوء هضمها تدلُّ على انهُ عصبيٌّ لاطبيعي ايْ انهُ حادث من تأثر اعصابها المتسلطة على الهضم

ونحف جسمها جدًّا ، وقد يعلل هذا بانهُ نتيجة سوء الهضم ، ولكن اصابها من نحافة جسمها ان ضعف شعرها وسقط اكثره،وهذا لا يعلل بسوء الهضم ومعلوم ان الهمّ والقلق يضعفان الشعر اي يقلِّلان تغذيتهُ فيسقط او يشيب باكراً وفي ذلك قال المتنبي

والهمُّ يخترم الجسيم نحافة
ويشيب ناصية الصبيّ ويهرم

واذا كانت الشيخوخة سبب الصلع ابتدأ في مكان واحد . ثم يتسع نطاقه رويداً رويداً ويبقى شعر القذال غالباً . ولكن اذا حدث الشيب والصلع من الهمّ والقلق اصابا شعر الرأس كلهِ في الغالب اي انتشرا فيهِ انتشاراً. وقد سقط ثلثا شعر هذه المرأة وبقي ثلثه فلم يصبها الصلع في بقعة واحدةٍ من رأسها بل قلّ شعرها كله بوجهٍ عام

***

ويمتاز صلع الهم عن صلع الشيخوخة بأن الاول لا يلزم ان يستمرّ لانهُ حادث من سبب عارض وهو قلة التغذية الناتجة من ضعف الاعصاب المتسلطة على توزيع الغذاء في الجسم فاذا زال سببهُ اي اذا زال الهم واستردَّت الاعصاب المغذية قوتها وانتظامها عاد الشعر الى نموه لان بصلاتهِ تكون باقية في الجلد حيّة ولا ينقصها للنموّ الاَّ الغذاء الكافي ، فمتى زال الهم وصلحت تغذية الجسم كلهِ تغذَّت بصلات الشعر معهُ . وقد حدث ذلك في هذه المرأة فان شعرها نما ثانيةً وعاد الى اصلهِ

حول الهرم الرابع

في المنطقة المجاورة لهرم خوفو وابي الهول كشف الاستاذ سليم حسن ، عن الهرم الرابع الذي كان مطموراً بالرمال ، ومدينة الاحياء التابعة له ، ومدينة الاموات الخاصة باهرام الجيزة جميعاً . في هاتين المدينتين ، عثر الباحث المصري على آثار تملأ بعض الفجوات في التاريخ المصري القديم ، وآيات فذة ، ما زال علماء التاريخ المصري يقرأون عنها في الكتب القديمة ولا يرون لها في الآثار التي كشفت ما يؤيدها

مدينة الاحياء مبنية بالطوب الاخضر واما مدينة الاموات فمنحوتة في الصخر الاصم لان الحياة في اعتقاد قدماء المصريين زائلة ، وأما «ما بعد الموت» فهو الباقي . ففي مدينة الاحياء بقايا جدران يختلف ارتفاعها من قدم فوق سطح الارض الى متر ومما يسترعي النظر فيها ان الطوب كبير الحجم حتى لقد يبلغ طول الطوبة الواحدة احياناً خمسة واربعين سنتمتراً . وفي بعض المباني قواعد لاعمدة من الالبستر ، قطر القاعدة منها نحو متر . وقد استوقف نظرنا قيام اعمدة من الالبستر في مبان من الطوب فقال الاستاذ سليم حسن هذا ما جرى عليه المصريون ، وتعليل ذلك ان الالبستر بلورات من سلفات الكلسيوم ، والتبلور يقتضي وجود الماء فاذا عرضت البلورات لما يزيل بعض مائها تفتتت . وهذا من عجائب ما كشفه المصريون من العلاقات العلمية في ذلك العهد السحيق . ولا يزال في بعض الدور آثار الاجران المستديرة التي كانت تستعمل لخزن الحبوب والحنطة

وزرنا في مدينة الأموات مدفناً لمدير سراي الملك فيه حجرة مستطيلة رسمت على احد جدرانها رسوم بديعة لصاحب المدفن وهو يسلم وصيته لابنه . والجديد في هذه الوصية انها موقعة من خمسة عشر رجلاً ، كل رجل منهم يمثل حرفة او صناعة . ويلي ذلك لوحة نقشت عليها رسوم بارزة تمثل الصناعات في ذلك العهد مع تفسير للصناعة التي تمثلها بالكتابة الهيروغليفية . ففي احد الرسوم قزمان يصنعان عقداً وترى مراتب صنع العقد وعند اتمامه يقول احدهما للآخر ما معناه : «لا بدّ ان تسر السيدة التي صنع لها هذا العقد» . اما الرسوم الاخرى فتمثل صهر المعادن واستقطار الجعة وعمل الخبز وطرق المعادن وحفر التماثيل وصنع التوابيت والصناديق وما شابه

وقد رأينا كذلك حوضاً لا يقل طوله عن ثلاثة أمتار وعرضه عن مترين ونصف متر وعمقه عن متر ونصف متر ينزل اليه بسلم وقد كان يستعمل لاستحمام الملكة . وتطل عليه سلسلة من المقابر اقربها اليها خاصة بالكاهن الذي كان يشرف على استحمام الملكة . وفي ناحية اخرى وجدوا حديثاً البئر التي كانوا يستمدون منها الماء في ذلك العهد

ومن ابدع ما شاهدناه قبر رجل يدعى عنخ تف تدخل اليه بباب واطيء ثم تنحرف الى اليسار فتدخل حجرة ضيقة ، ثم تنحني وتضع عينك على ثقب في الجدار الايمن قد لا يزيد ارتفاعه على متر وربع متر ، فيقع بصرك على

تمثالين ناصعي البياض من الحجر الجيري السلطاني يصدق فيهما قول شوقي حيث قال :

ونقوش كأنما نفض الصا
نع منها اليدين بالامس نفضا

احدهما يمثل صاحب المقبرة بحجم يقارب ثلث الحجم الطبيعي والآخر وهو اصغر من الاول تمثال فتاة عارية راكعة على ركبتيها ومنحنية الى الامام وهي تعجن وهذان التمثالان لم تمسهما يد ولا وقعت عليهما عين انسان بعد ما اقفلت تلك المقبرة الى ان عثر عليها الاستاذ سليم حسن في هذه السنة

وقد عثر غربي الهرم الرابع على قارب كبير طوله نحو ٣٠ متراً محفوراً في الصخر الاصم والمسافة بين قعره وسطح الصخر الذي حفر فيه نحو عشرة امتار او تزيد وهو فذ في تاريخ الآثار المصرية . ذلك ان مراكب من هذا القبيل كشفت من قبل، منها المركب الذي كشفهُ (ألان رو) من نحو عشر سنوات شرق الهرم الكبير . ولكن لم يكشف من قبل مركب منها غرب هرم من الاهرام . ووجه الخطر في هذا الفرق ان المراكب كانت في عقيدة المصريين القدماء تعدُّ لنقل النفس مع الآله رع من الشرق الى الغرب ، ثم تحت الارض من الغرب الى الشرق فالمراكب التي كشفت شرق الاهرام كانت سطحية ومعدة لنقل النفس في النهار من الشرق الى الغرب . واما التي تنقل النفس في الليل وتحت الارض من الغرب الى الشرق فلم يكتشف منها مركب قبل هذا المركب الكبير . وليس هذا كل ما رأيناه . ولكنهُ أهم ما بقي في الذاكرة

الكهارب في الصناعة

من الصفات التي يتصف بها كبار العلماء قوة الملاحظة ، ولولا هذه القوة ، في احد ائمة المستنبطين لظلَّ الالكترون موضوعاً للبحث النظري ، ولما اصبح ، كما اصبح الآن ، ركناً من اركان الصناعة والثروة

منذ نحو خمسين سنة اكتشف مستنبط عظيم ، اكتشافاً لا شأن له — وخاصة حينئذٍ — اذا أُخِذ بظواهر الامور . كان ذلك المستنبط توماس اديصن ، الذي رغم حصوله على امتياز بصنع المصباح الكهربائي ، ظلَّ مكبًّا عليهِ يحاول البلوغ بهِ الى مرتبة الكمال . وما كان يرمي اليهِ من هذه الناحية ، انما كان اطالة عمر المصباح باطالة عمر السلك الدقيق الذي يتألق فيهِ ، وفي اثناء البحث لاحظ اديصن امراً غريباً وهو ان السلك يضعف وينقصم في نقطة معينة

ولو ان مستنبطاً آخر لم يؤت زكن اديصن ونفوذ بصيرته ، شاهد هذه الظاهرة ، لمرَّ بها مرَّ الكرام ، ولكن ارتقاء العلم والصناعة في العصور الحديثة يقوم في الغالب على العناية بأمثال هذه التفصيلات ، وقد كانت مشاهدة اديصن ، الحلقة الاولى في سلسلة محكمة الحلقات أفضت الى استخدام الالكترون — احد اجزاء الذرَّة — في الصناعة

درس اديصن هذه الظاهرة التي تقصر عمر السلك في مصباحه الكهربائي ووصفها وصفاً دقيقاً في الدفاتر التي كان يدوّن فيها مشاهداته وملاحظاتهِ في تلك الآونة ، ثم تركها وشأنها ،

لانهُ كان معنيًّا حينئذٍ بحل مسائل اخرى تتطلب سرعة الحل لشدة الحاجة اليها

هذه الظاهرة التي اكتشفها اديصن ووصفها تعرف الآن لدى علماء الطبيعة باسم «فعل اديصن» Edison's Effect وهي التي افضت بالباحثين الى استنباط الانبوب المفرغ واتقانه، والأنبوب المفرغ كما لا يخفى اساس التليفون اللاسلكي والتلفزة والصور المتحركة الناطقة وغيرها من غرائب المستنبطات الحديثة

وقد اشترك العالم النظري، والمستنبط في اتقان الانبوب المفرغ. الا ان بحث العالم تقدم تطبيق المستنبط. والعالم في خلال بحثه، لم يكن مهتمًّا بما يستخدم له الانبوب المفرغ قدر اهتمامه بمعرفة ما الانبوب المفرغ وما تعليل ما يقع فيه لان العلماء يبحثون عن العلل. وكان الالكترون (الكهرب) قد اكتشف فساعد العلماء الباحثين في الكشف عن حقيقة الانبوب المفرغ وما يتصل بهِ من الظاهرات

وقلما يستطيع الانسان ان يتصور ان هذا الكهرب الدقيق، الذي بدأ يتسرب الى معجمات اللغة من عهد قريب فقط (كان اكتشافهُ في اواخر القرن الماضي) ويبلغ في صغر حجمه دون ما تكشف عنهُ عيون المجاهر ولو قوّي إبصارها الف الف ضعف، قد اصبح في العقد من السنين الذي تلا الحرب الكبرى، مداراً لصناعات واسعة النطاق، تقدّر الاموال المثمرة فيها بعشرات الملايين من الجنيهات

ولكن دعنا نرجع الى منشأ كل هذا — ففي اوائل هذا القرن، عني عالم انكليزي شاب يدعى رتشردسن (O. W. Richardson) وهو احد الاساتذة الذين تلقى عليهم الدكتور مشرفة العلم فيما نذكر وقد قدم رسالة مشرفة التي عنوانها «ثنائية المادة» الى الجمعية الملكية البريطانية) بدرس القواعد الرياضية التي يقوم عليها فعل اديصن فمنح لبحثه هذا جائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩٢٨

فلما أتم رتشردسن بحثه صار في امكان العلماء ان يفهموا لماذا يحترق السلك في مصباح اديصن، وينقصم في نقطة معينة ثم انهُ اثبت ايضاً ان ثمة علاقة محدودة بين حرارة السلك وعدد الكهارب الذي يتطاير منهُ، كما تجد علاقة معينة بين حرارة الوقيد تحت ابريق من الماء ومقدار البخار المائي الذي يطير منهُ. فلما قرأ رسالته التي تنطوي على هذه المباحث في الجمعية الملكية البريطانية كان بين الحضور مهندس يدعى الآن السر جون امبروز فلمنغ فجعل هذا المهندس يدون على ظرف في يديه ما يستفيده من رسالة رتشردسن هذه

على هذا الظرف ارتسمت الفكرة الأولى التي بني عليها الانبوب المفرغ. كان انبوباً ناقصاً من جميع الوجوه اذا قيس بأنابيب اليوم المتقنة التي نجدها في أجهزة الالتقاط اللاسلكي ولكنهُ كان مع ذلك خطوة حاسمة خطيرة، في ترقية المخاطبات اللاسلكية. فهذا الانبوب أصبح الباحثون قادرين على التقاط الأشعة اللاسلكية من مسافات كانت ممتنعة عليهم من قبل. ودعا فلمنغ أنبوبه هذا الصمام الترميوني وهو الصمام الذي قلب التلغراف اللاسلكي

رأساً على عقب وجعل التليفون اللاسلكي مستطاعاً ولكنهُ لم يبلغ ما بلغهُ من شدة الاحساس ودقته وتعدد نواحي استعماله، الاَّ بعد ماتناوله الدكتور لي ده فرست الاميركي وأدخل عليهِ تعديلات جمة جعلتهُ صالحاً للاغراض التي يستعمل لها الآن وهو الآن حجر الزاوية في صناعة الادوات اللاسلكية على اختلافها — وما اوسع نطاقها !

العمل وقياس الضوء

ليس قياس قوة الضوء بالامر الجديد. فقد تعلمنا في كتب الطبيعة ان الآلة المستعملة لذلك تدعى «فوتوميتر» اي «مقياس الضوء» وبها يقاس الضوء بالنسبة الى ضوء الشمعة الواحدة. ولكن مقياس الضوء هذا أداة علمية، لا تصلح للتناول العملي اليومي. لذلك استنبطت في اميركا آلة عملية جديدة، مبنية في مبدئها على «الفوتوميتر» ولكن خارجها مدرّج، كمقياس الحرارة «الترموميتر» فتستطيع ان تعلم قوة الضوء بها كما تعلم درجة الحرارة بعد وضع مقياس الحرارة في فم المريض. وعلاوة على ذلك كتب على خارج هذه الآلة، الاعمال المختلفة التي يصلح لها الضوء من قوة معينة. فثمة علامة لقوة الضوء الذي يصلح لانارة سلالم البيت، وعلامة لقوة الضوء التي تصلح للقراءة او للخياطة على اختلاف درجاتهما من الدقة. فلمحة واحدة الى خارج الآلة تنبئك هل المصباح الذي تقرأ على ضوئهِ هذه الكلمات كافٍ لقراءتها او لا. فالعمل العادي الذي لا يقتضي دقة استعمال النظر، كترتيب الكتب على رف، او العزف على البيانو، يحتاج الى ضوء تكون قوته قوة عشر شمعات على القدم المربعة، وأما القراءة في كتاب دقيق الحروف فيحتاج الى ضوء قوته تبلغ ثلاثين شمعة على القدم المربعة. أما ترتيب هذه الآلة فبسيط. ذلك ان قطعتها الوسطى عبارة عن قرص من النحاس مغشى بغشاء من اكسيد النحاس. واكسيد النحاس هذا شديد الاحساس بالضوء. فاذا وقع عليه الضوء ولَّد فيه تياراً كهربائيًّا ضعيفاً. وهذا التيار الذي يتولد في الغشاء المذكور بفعل الضوء يسري في الآلة فيحرك ابرة معينة. فاذا زاد الضوء زادت قوة التيار. واذا ضعف الضوء ضعفت قوة التيار، وكذلك تتحرك الابرة لتدل على الاعمال التي يصلح لها الضوء المولّد للتيار الجاري فيها

الكهرباء والزرع

في بلدة جليزدورف على مقربة من مدينة غراتز بالنمسا، يقيم رجل يدعى رتشارد هيس يملك مزرعة لتجربة التجارب العلمية فيها وقد عني في السنتين الاخيرتين بامتحان اثر الكهربائية في تفريخ البذور وانتاشها ونمو النباتات بعد ذلك. فأخذ في مايو سنة ١٩٣٣ قدرين متساويين من بذور معينة وزرع القدر الاول في اول مايو ثم زرع القدر الثاني في اواسط يونيو، ولكن بعد ان عرض البذور للكهرباء. ومع ان الفرق بين ميعادي الزرع يبلغ نحو ستة اسابيع، كانت النباتات التي انتشت من البذور جميعاً في حالة واحدة من النمو. وكذلك اخذ قدرين من بذور البنجر، وزرعهما في وقت واحد، ولكنهُ عالج احد القدرين بالكهرباء قبل زرعه فاستطاع ان يجنيه قبل القدر الآخر بمدة ليست يسيرة

هل افرست اعلى القمم

تعلمنا في كتب الجغرافية ان قنة افرست في سلسلة جبال حمالايا هي اعلى قنن الجبال فوق سطح الارض . ولكن ماذا تعني (بأعلى جبل) وما هو «مقياس العلو» . مقياس العلو هو ارتفاع قنة الجبل عن مستوى سطح البحر . وعلى ذلك يكون أفرست اعلى الجبال على ما جاء في كتب الجغرافية . ولكن اذا حسبنا مقياس العلو بُعد القنة عن مركز كرة الارض، كان جبل شمبوزازو وهو احد قنن سلسلة جبال الاندس في جنوب اميركا أعلى الجبال ، بل لفاق هذا الجبل ، قنة أفرست بنحو ألفي متر وعند التدقيق (بسبعة آلاف ومائتي وسبعة عشر قدماً وثمانية أعشار القدم ٧٢١٧ر٨ قدم)

لذة التدخين : تفسير جديد

نشر عالمان من علماء جامعة ييل الاميركية — وهما الدكتور هورد هنجرد والدكتور ليون جرينبرج — ان لذة التدخين ناشئة ، من ان التدخين وخاصة عند ما تكون متعباً، يزيد مقدار السكر في الدم . ذلك ان نيكوتين التبغ يفعل في الغدد الكاوية (الادرينالية) فيحفزها على زيادة ما تفرزه من الادرينالين . فينجم من ذلك ان السكر المخزون في الكبد والعضلات في شكل غليكوجين ، يتحول الى سكر عادي وكذلك يكثر مقدار السكر في الدم . وزيادة مقدار السكر في الدم تزيل عوارض الاعياء و«توتُّر الاعصاب» لان هذين العرضين ينشئان عن قلة السكر في الدم فاذا أُكلت أو دخنت زاد مقدار هذا السكر فيزول هذان العرضان . وهـذا يعلل ان المدخن يعمد الى التدخين اذ يحس بالجوع او التعب فالنيكوتين يزيل الشعور بالتعب او بالجوع ، ازالة مؤقتة لانهُ يزيد مقدار السكر في الدم

نور الحباحب

يقول الاستاذ نيوتن هارفي ، من جامعة برنستن الاميركية ، ان النور الذي يظهر من الحباحب ، ونحوها من الحشرات ، المضيئة ، حادث من اكسدة مادة فيها تدعى لوسفرين Lucifrin اذا وجد معها مادة خميرية تدعى لوسفراس

والفرق بين هذا النور والنور المتولد من احتراق الزيت والشمع وما أشبه هو ان المادة الناتجة من أكسدة اللوسفرين ، يفارقها اوكسجينها حالاً فتعود لوسفريناً بسيطاً اي ان دقائق اللوسفرين تتحد بالاكسجين فتنير . ثم يفارقها الاكسجين فتعود الى حالتها الاولى، مستعدة للاتحاد بالاكسجين من جديد ، وهذا على الضد من دقائق الكربون . فانها اذا اتحدت بالاكسجين صارت ثاني اكسيد الكربون وطارت في الهواء . واذاً فأسلوب الانارة في الحباحب اقل الاساليب نفقة ، لان اللوسفرين ينير أولاً ثم بعد ما يفارقه الاكسجين ينير ثانية وهكذا

نور الحباحب الكهربائي

لعوض جندي

الحباحب — ذباب يطير بالليل له شعاع كالسراج . ومنهُ نور الحباحب او هي ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة — الفيروزابادي

قلت في كتابي «مشاهد اليابان» : «وطالما حار العلماء في تعليل نور الحباحب فأصبحوا يرجحون تولده من مواد كيماوية غريبة كامنة في النسيج الشحمي ، تضيء اذا اتحدت بعنصر الاوكسجين الذي يصل اليها من انابيب التنفس التي في جانبي الحشرة . وقد حملهم هذا الظن على محاولة توليد نور صناعي فصفوري مثله فخابت آمالهم . وذهبت مساعيهم هباء منثوراً . ولا غرو فماهية ذلك الضوء لا تزال سرًّا محجوباً عن مداركهم . وحسب تلك الحشرات شهرة ان رجالات العلوم ، على كل ما أوتوه من سعة المعارف الكيماوية كما تقدم القول لم يسعهم تقليد ذلك « النور البارد » اي الضوء الذي يشعُّ من أجسامها من دون حرارة . فيالها من آيات بينات تدل على خطير صنع الاله القدير »

ويسرنا الآن ان نزف الى قرّاء المقتطف بشرى جاءتنا بها حديثاً مجلة العلم العام الاميركية اذ قالت : —

ليتصور القارىء النور البارد الخفي الذي يشع من أجسام الحباحب مضاعفاً الوف المرات ، مودعاً في أنبوب زجاجي ! ! وهو الاختراع المدهش لعالم اميركي شاب من بروكلين تمكن من صنع مصباح كهربائي متألق ينير بلا حرارة فعبَّد بهِ السبيل لايجاد نوع جديد من النور الكهربائي المنزلي . حقًّا ان هذا المصباح الحديث لم يتم استعماله الاَّ في المختبرات العلمية ولكن قد صنعت منه نماذج لانارة المساكن . وستجرب في القريب العاجل ، وهي تشبه في شكلها المصابيح الكهربائية الحالية (وارى ان افضل تسمية لهاء المصابيح الدرية «Incadescent») وبكونها يمكن انارتها بوصلها باي تجويف كهربائي منزلي بلا تغيير في الاسلاك المركبة في الحيطان . وتختلف عنها بان نورها لا يتولد من سلك كهربائي دقيق يحمى حتى يبيضَّ من الحرارة فيضيء ضوءاً دريًّا ، بل من غشاء معدني متألق يغشَّى بهِ باطن الانبوب المحتوي على المصباح فلا يسخنهُ عند الاضاءة . وذلك الغشاء يضيء بأنطلاق مجرى من الاشعة السلبية اي الالكترونات عليهِ . وهذه تنبعث من كرة في وسط زجاجة المصباح . ومتى ركبت الزجاجة على تيار كهربائي منزلي خفيف ، قام سلك معدني دقيق في باطن الكرة بتسخينها لكي يساعد على توليد تلك الاشعة غير المنظورة ومتى استعملت لاجل تيار عالٍ كما هي الحال في انارة المصانع والاعلومات التجارية — اليفط — تيسر الاستغناء عن ذلك السلك الدقيق . ويتسنى الحصول منها على اي لون من الانوار ومنها الابيض وذلك طبقاً للغشاء المعدني الذي يستعمل

والذي يهتم له العلماء في هذه المصابيح الطريفة انها تولّد النور البارد المماثل لنور

الحباحب الذي طالما غبطوها من اجله وطمحوا الى محاكاته ، فأخفقوا كما ذكرنا آنفاً . وقد اجمع الخبراء على ان اجود المصابيح الكهربائية الحالية مضيعة للمال وليست طبق المرام ، لانها تحوّل جلّ التيار الكهربائي الذي تستنفده الى حرارة الى ضرر محقق لا فائدة منها للمستهلك وربما تتحول

وقد اخترع الباحثون اخيراً مصابيح مختلفة الاشكال بأن استعملوا فيها اعمدة من الغاز المنير لكي يزيدوا قوتها . ولكن استعمال الفلزات المتألقة التي تتأثر بالقذائف الكهربائية فتضيء بغير حرارة ، حلّ جديد من كل الوجوه لتلك المعضلة العلمية

ويرى مستر جلبرت شميدلنج مخترع هذه المصابيح الحديثة ان قوامها مزيج جديد متألق شديد البهاء . والمواد المتألقة نفسها ليست شيئاً جديداً لان المعروف من مركباتها يبلغ ١١٠٠٠ نوع وكلها لها خاصة التألق الغريبة عند انطلاق الاشعة الكهربائية الخفية المختلفة الانواع عليها . ومنها دهان الراديوم الذي تدهن به موانئ الساعات . ومنها اهداف اشعة رنتجن التي يستعملها الجراحون ، واهداف انابيب الاشعة السلبية التي تستعمل في لوحات التلفزة . وقد كان مستر شميدلنج يفحص الوفاً من هاتيك المواد ابتغاء الوقوف على مبلغ صلاحها للوحات التلفزة ، فعثر عرضاً على مزيج منها ولّد نوراً يكفي تألقهُ او لمعانهُ للشغل والقراءة . وثبت له بالتجارب امكان استعماله في مصباح كهربائي ينير كالمصباح المألوف ولا يستنفد اكثر من سدس التيار الذي يستهلكه

تكريم العقاد وزكي مبارك

اقام ادباء مصر وكرامها في آخر ابريل حفلتين فخمتين لتكريم الاستاذ عباس محمود العقاد والدكتور زكي مبارك . وأقيم الاحتفال بالأستاذ العقاد في مساء الجمعة ٢٧ ابريل في مسرح حديقة الازبكية . وشهده حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا وجمهور كبير من رجال الوفد المصري وكرائم السيدات والكتّاب والصحافيين والشبان . وكان الجوّ ينبض وطنيةً صادقة . وكان من خطباء الحفلة الشيخ عباس الجمل والاستاذ محمد توفيق دياب صاحب جريدة الجهاد (العقّاد الصحافي) والدكتور طه حسين (العقّاد الشاعر) والاستاذ ابراهيم عبد الهادي المحامي

اما حفلة الدكتور زكي مبارك فاقيمت في مسرح الحمراء في مساء الاحد ٢٩ ابريل برآسة الشاعر الكبير خليل مطران وكان من خطبائها وشعرائها الدكتور ابرهيم ناجي والدكتور ابو شادي والاستاذ محمد خالد والاستاذ محمود رمزي نظيم والاستاذ عبد الباقي ابرهيم عوض . وغنّى فيها الاستاذ محمد عبدالوهاب

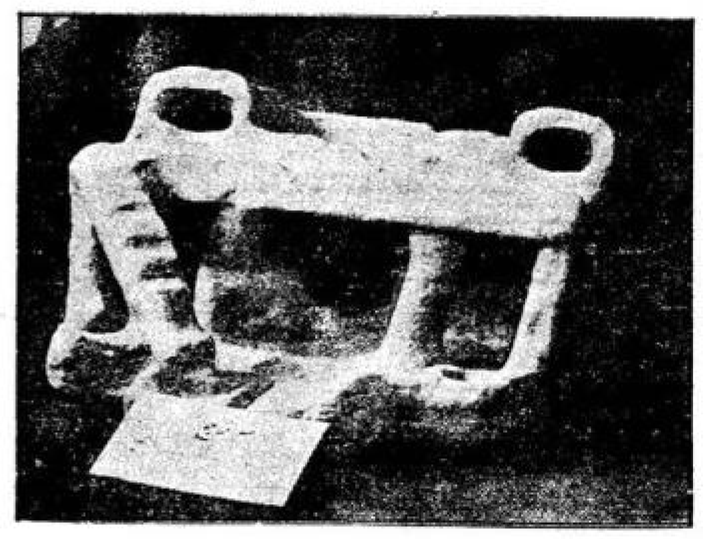
فكانت الحفلتان دليلاً على نزعة كريمة في المجتمع المصري لتقدير الادب والعلم

تصحيح خطاء

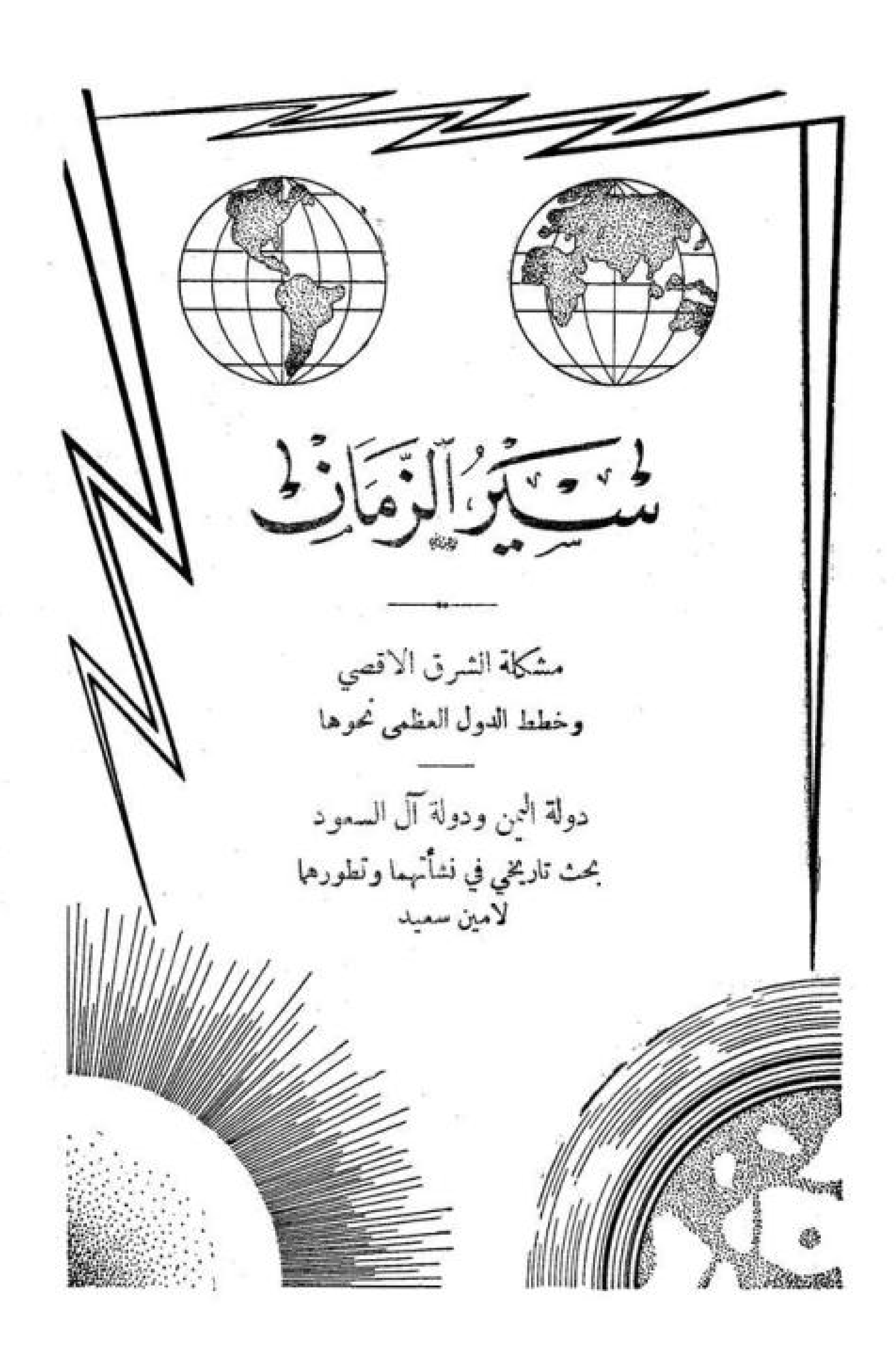
في اول السطر الثالث عشر من الصفحة ٥٥٠ — مقالة عجائب الحل الطبقي — قلنا «من نحو مائة سنة أمرَّ العلامة نيوتن . . . » الخ وصوابها « من نحو مائتي سنة امرَّ العلامة نيوتن . . . » الخ

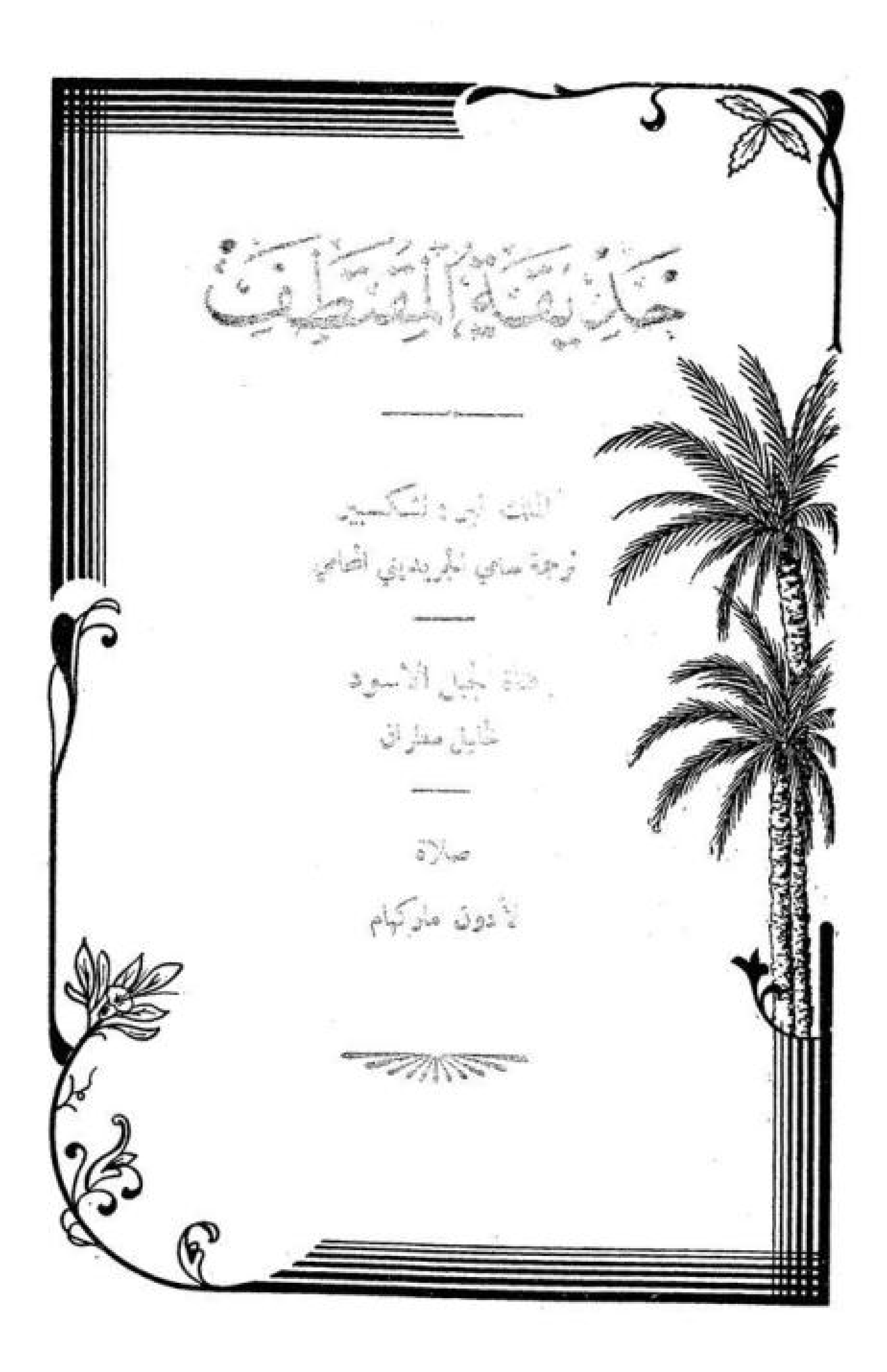


انموذج لتمثال خشبي لفلاح مصري من عهد الامبراطورية الوسطى محفوظ بمتحف فؤاد الاول الزراعي والأصل بدار تحف القاهرة وهو يمثل الفلاح وقدماه غائرتان في الطين وقابضاً بيديه على فأس من طراز تلك العصور



انموذج لمنزل الفلاح المصري القديم والاصل بدار تحف القاهرة
تصوير الدكتور حسن كمال


سير الزمان
مشكلة الشرق الاقصى
وخطط الدول العظمى نحوها
دولة اليمن ودولة آل السعود
بحث تاريخي في نشأتهما وتطورهما
لامين سعيد



حديقة المعارف

الملك لير لشكسبير

ترجمة سامي الجريديني المحامي

نشيد الجبل الأسود

خليل مطران

صلاة

لأدون ماركهام



مملكة المرأة

ماضي المرأة المصرية

عقل الطفل في تطوره

لأحمد عطية الله

الجمال والعمل البيتي

المرأة في البادية

للأرشمندريت ميخيل عساف

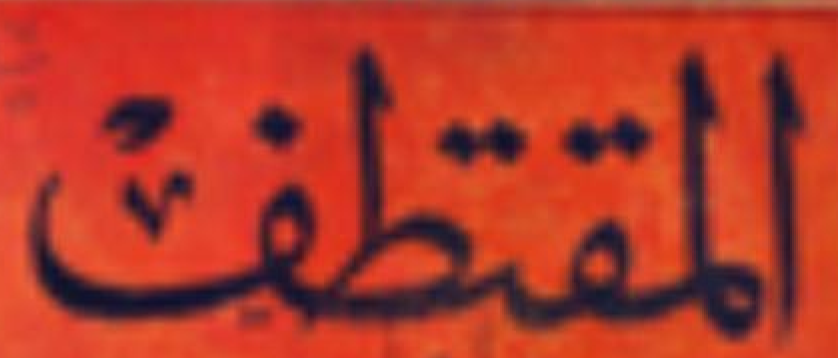
الجزء الخامس من المجلد الرابع والثمانين

صفحة

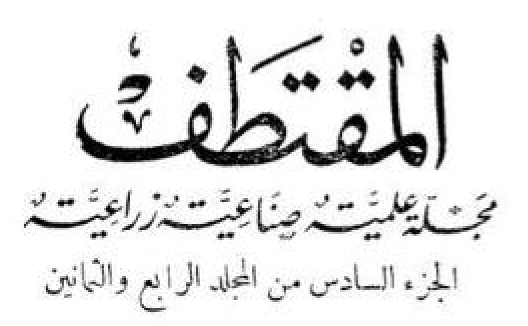
٥٢٥ لافوازيه (مصورة)
٥٣٢ البرق والارض (قصيدة) . للشيخ فؤاد باشا الخطيب
٥٣٤ نظرية الكونتم . لنقولا الحداد
٥٤١ الصحف البريطانية الكبرى
٥٤٩ وحدة الكون . للشاعر السكنديناوي بويزن
٥٥٠ عجائب الحل الطيفي
٥٥٤ استدراك على معجم الحيوان . للدكتور معلوف باشا
٥٥٧ الحشمة والعري . للدكتور صبري جرجس
٥٦٤ السيكلوجية الحديثة . ليعقوب فام
٥٦٩ وحدة العمر (قصيدة) . لحسن كامل الصيرفي
٥٧١ الالتزام العلاجي القروي . للدكتور كامل هلال
٥٧٧ عناق الادب والعلم . لاسماعيل مظهر
٥٨٣ الاسنان والعمران
٥٨٦ الفلاح المصري القديم . للدكتور حسن كمال (مصوّرة)
٥٩٠ تحوُّل الآراء الفلسفية . لحنا خباز
٥٩٥ سير الزمان : مشكلة الشرق الاقصى . دولة اليمن ودولة آل السعود : لامين سعيد
٦٠٧ حديقة المقتطف : الملك لير : لشكسبير : فتاة الجبل الاسود . لخليل مطران
صلاة . للشاعر الاميركي ادوِن ماركهام
٦١٣ مملكة المرأة : مصير المرأة المصرية . عقل الطفل : لاحمد عطية الله . الجمال والعمل البيتي . المرأة في البادية : للارشمندريت ميشل عساف

---

٦٢٥ باب المراسلة والمناظرة * في المصطلحات الطبية . للدكتور داود الجلبي . كتاب فيصل الاول . لامين سعيد . في بحور الشعر . لحسن كامل الصيرفي
٦٣٥ مكتبة المقتطف * كتاب مؤتمر الموسيقى العربية . تاريخ الصحافة العربية (الجزء الرابع) . التجديد في الادب الانكليزي الحديث . تقويم الحكومة المصرية . ديوان الماحي . حوّاء بلا آدم . الاعشاب . مجلة كلية الآداب . خزانة مخطوطات القس بولس سباط . الشرق والغرب . التربية بالقصص . زردشت باستاني وفلسفته . مطبوعات جديدة
٦٤٦ باب الاخبار العلمية * وفيه ١٢ نبذة



December 1930 ديسمبر ١٩٣٠



المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء السادس من المجلد الرابع والثمانين

١ يونيو سنة ١٩٣٤ — ١٧ صفر سنة ١٣٥٣

أيام الخليقة

في بدء الكون كان فضاء كروي اصغر نطاقاً من فضاء اليوم . وكانت المادة في هذا الفضاء منتشرة انتشاراً متسقاً ، بمعدل بروتون واحد ، والكترون واحد ، في كل لترمنة . وقد يبدو لك أيها القارىء ان تسأل ، لماذا وصفنا الفضاء بالكروي . ونعتناه بالصغر اذا قيس بفضاء اليوم . ولماذا وزعنا المادة فيه توزيعاً متساوياً . والردّ على جميع هذه الاسئلة عند علماء العصر . اما أنَّ الكون كروي ، فلأنَّ الحقائق المشاهدة والمعادلات الرياضية اثبتت لهم ان هندسة الكون تعلل افضل تعليل اذا هم افترضوا ان الكون محدودبٌ في شكل كرة . ولكن لماذا قلنا انهُ كان اصغر مما هو الآن ? لأن الدلائل تدلُّ على ان الكون في مرحلة من مراحله بدأ يتسع وما يزال آخذاً في الاتساع . ولماذا حكمنا بأن المادة فيه كانت موزّعة توزيعاً متساوياً ? ليس لهذا سند علميٌّ . بل هو في الغالب يستند الى سند من الفلسفة وحس الجمال . فالعقل الانساني يفضل ان يتصوَّر الاشياء على ابسط ما يمكن ان تكون . فاذا افترض ان المادة في ناحية من الفضاء البدائي ، كانت اكثف منها في ناحية اخرى ، اضطرَّ العقل ان يرجع بهذه الحالة الى حالة ابسط منها سبقتها ، لما كانت المادة موزعة توزيعاً متساوياً في انحاء الكون . ولذلك نفترض التوزيع المتساوي للمادة ، قبل ان اختلف التوزيع ، واصبحت المادة في نواحٍ اكثف منها في نواحٍ اخرى . ثم ان الاستاذ ادنغتن قد قال ان لا فرق اساسي بين العدم والاتساق الكوني العام في جميع الصفات . فالخليقة الكونية اذن بدأت يوم سرى التنوُّع الى هذا الاتساق او الى هذا العدم

فماذا حدث ?

لا يعلم احدٌ ما حدث او كيف حدث او لماذا حدث ? ولكن ذلك التشابه الكوني الشامل ،

دبَّ اليه دبيب التنوُّع . كان في كل لتر من الفضاء بروتون واحد والكترون واحد . فاذا بعض النواحي قد احتشدت فيها البروتونات والالكترونات ، واذا النواحي الاخرى قد اصبحت فراغاً . ولو ان فعل التجاذب أطاق في تلك الساعة العصيبة ، لتهاوت مادة الكون بعضها على بعض ، ولتقلص الكون بتجمع مادته واحتشادها ولما نشأت الاحوال المواتية لنشوء الشموس والسيارات وظهور الحياة على بعضها . ولكن ذلك لم يحدث . لان قوة اخرى اطلقت من عقالها . ونحن لانعلم عن هذه القوة الاَّ النزر اليسير ولكننا ندعوها قوة التنافر او قوة التنابذ الكوني . فما شرعت المادة تتكتل ، حتى اخذت دقائق تلك الكتل تتنابذ ، فانفجر الكون وتشتت ، بدلاً من ان يتكتل ويتقلص

وليست هذه الصور من بنات الخيال الوثاب . بل ثمة من الادلة ما يؤيدها . انها نتيجة للارصاد التي يقوم بها العلماء بآلات التقريب والتصوير والحل الطبقي .فنحن نعلم ان الكون آخذ في الانفجار والتشتت لاننا نراه الآن كذلك

فخارج المجرة التي منها نظامنا الشمسي ، عدد لا يحصى من المجرات . واذا حلل ضوء هذه المجرات بالمطياف (آلة حل الطيف) دلَّ التحليل على انها آخذة في الابتعاد عنا ، وفي ابتعادها بعضها عن بعض على عجل . وسرعة ابتعادها بعضها عن بعض تتزايد بتزايد بُعدها عنا . ولقد قيست سرعة احد السدم البعيدة ، في ابتعادها عنا فاذا هي نحو ١٢ الف ميل في الثانية . فاذا انقضت بضعة ملايين من السنين ، غابت في ابتعادها ، عن انظارنا ، الاَّ اذا استطعنا ان نستنبط آلات احدّ بصراً من الآلات التي بين ايدينا الآن . والدليل على ابتعاد هذه السدم عنا ، يترك أثره في نورها ، الذي نلتقطهُ بآلاتنا ونحلهُ بمطايفنا (جمع مطياف) . فالقطار الصافر اذا كان مقترباً منا علا صفيره . واذا كان مبتعداً عنا انخفض صفيره . ذلك ان امواج الصوت في الحالة الاولى تتلاحق في مدى يقصر باقتراب القطار ، فتقصر اذا قصر ، فيرتفع الصفير . اما اذا كان القطار مبتعداً فان امواج صفيره تتلاحق في مدى آخذ في الاستطالة بابتعاد القطار عن السامع ، فتطول الامواج ، فاذا طالت انخفض الصفير . وكذلك في الضوء . فلاضواء النجوم خطوط ممتزة تظهر في طيوفها . فاذا كانت هذه الخطوط متحركة في الطيف دلّت حركتها على حركة مصادرها . فاذا كانت هذه الخطوط متجهة في حركتها الى اللون البنفسجي ، دلّت على ان امواج الضوء آخذة في القصر . فمصدر ذلك الضوء آخذٌ في الاقتراب الينا . واذا كانت حركة تلك الخطوط متجهة الى اللون الاحمر دلت على ان امواج الضوء آخذة في الاستطالة واذاً فمصدر ذلك الضوء آخذ في الابتعاد عنا . وقد دلّت ارصاد السدم على ان معظمها آخذ في الابتعاد عنا ، وقدّرت سرعة ذلك الابتعاد . وما عرف من سرعة الابتعاد ومواقع تلك السدم ، يمكننا من عمل حساب لليوم الذي انطلقت فيهِ اولاً ، مبتعدة بعضها عن بعض — وهو يوم الخليقة الكونية

فاليوم الاول في الخليقة الكونية ، هو ذلك اليوم الذي انفجر فيهِ الكون فأخذ يتسع .

اما اليوم الثاني فهو يوم ولادة المجرّة ، ونظامنا الشمسي جزء منها . فبعد اليوم الاول انتشرت في الكون قطع من السحاب الكوني — وهي ما نطلق عليها اسم سديم — في كل الجهات . وكل منها يدور على نفسه ، فأخذ يتقلص بفعل التجاذب . واحدى هذه القطع تجلت على مدى الزمان جميع النجوم التي منها شمسنا

كانت هذه القطعة في البدء كروية كالكون الذي تجلّلها . ولكنها بفعل دورانها على محورها اخذت تتسطح عند قطبيها ، كما تسطحت الارض عند القطبين بفعل دورانها على محورها . ولكن لما كانت تلك القطعة غازية ، كان أثر الدوران في تسطيحها ابعد مدى من أثر دوران الارض في تسطيحها عند قطبيها . ومضت في ذلك السبيل حتى اصبحت كالقرص . والمراصد تمكننا من رؤية السدم في مختلف ادوار نشوئها منذ كان كروية تامة الكروية الى ان تسطحت قليلاً عند قطبيها الى ان زاد تسطيحها عند القطبين الى ان اصبحت كالقرص . غير ان دوران السديم وتقلصه ، جعلا من المتعذر عليهِ الاحتفاظ بكل مادتهِ . ففي مرحلة من مراحل نشوئهِ تكونت حوله حلقات من مادة ، ما لبثت حتى انفصلت عنهُ ، وتكونت منها النجوم

وبعد انقضاء ملايين السنين على تكوُّن النجوم في المجرّة تكوّن نظامنا الشمسي . ولكنهُ احتاج الى صدفةٍ لكي يتكوّن . وهذا هو اليوم الثالث من الخليقة الكونية

في القرن الثامن عشر تصوّر سويدنبرغ وكانط قطعة سديمية عظيمة في دور التقلّص وقالا بان السيارات نشأت منها بالانفصال فبقيت كتلتها المركزية وهي الشمس . على ان بوفون الفرنسي رأى ان النظام الشمسيّ نشأ من اصطدام حدث اتفاقاً بين كتلة الشمس ومذنب كبير . فخالفهُ لابلاس ذاهباً الى ان حدوث اصطدام من هذا القبيل بعيد الاحتمال . ومن البحث في الخلاف بين الرأيين خرج لابلاس بالنظرية السديمية في نشوء النظام الشمسي وملخصها ان قطعة سديمية تسطحت في اثناء دورانها على محورها ثم اخذت تتقلص ، وتقلصها زاد سرعة دورانها ، فلما بلغت سرعة دورانها حدًّا معيناً ، تعذّر التماسك بين اجزائها ، فانطلقت منها حلقات وهذه الحلقات تقلّصت فنشأت منها السيارات . فاقبل العلماء على هذا الرأي اولاً . ثم ظهرت الاعتراضات عليهِ ، وتوالت المذاهب ، الى أن استتبّ الامر الآن لرأي جينز ومن نحا نحوهُ وهو ان شمساً ، اقتربت في خلال سيرها في الفضاء ، من شمسنا فأحدثت مدًّا في سطحها ما زال يعلو حتى انطلق في شكل ذراع كالطوربيد ثم تقلصت دقائقها كتلاً كتلاً فنشأت السيارات . وكان جفريز من اتباع جينز اولاً ثم تحوّل الى القول بوجوب تماسّ الشمسين . اما فيما خلا ذلك فرأيهُ ورأي جينز واحد . على ان النجوم بعيدة بعضها عن بعض . وتوزيعها في الفضاء من قبيل توزيع عشرين كرة صغيرة في باطن كرة قطرها ثمانية آلاف ميل . فاحتمال اقتراب احدى هذه الكرات من كرة اخرى حتى تصير على بضعة امتار منها كنسبة واحد الى مائة مليون ولذلك قلنا ان اليوم الثالث من ايام الخليقة احتاج الى صدفة لكي يكون

في ربيع اليأس

لامين الريحاني

اليأس ، مثل كلّ حسٍّ بشري ، يتنوّع ويتفاوت في الناس . فقد ييأس الفلاّح مثلاً من جفاف في الطقس حرق زرعه ، او من وباءٍ ذهب بمواشيه . وقد ييأس الفيلسوف من نظرية يعالجها لاستئصال الوباء ، او من آلة يخترعها للسيطرة على الجو والمطر . وكذلك يختلف يأس الشاعر عن يأس البقال . وكذلك قل في يأس المجرمين ويأس الانبياء ، اي في ما تحت وما فوق يأس جميع الناس

اعود بك الى امثلة من اليأس الاعلى الذي لا يزال نوره يشعّ في العالم ، الى المسيح في الجثمانية ، والنبي محمد في الكهف ، والرسول بولس في مركب تتقاذفه الامواج ، والشاعر دانته في المنفى شريداً طريداً ، وابي العلاء المعري في محبسيه — فهل كان يأس هؤلاء ، يا ترى ، مثل يأس جيرانهم الفلاّحين والنوتيين والعشارين او مثل يأس زملائهم الادباء والشعراء ؟

وهل يأس الاديب الشاعر الذي ينتهي في قصيدة ينظمها ، او تنتهي اشواقه اليوم بتقريظ في جريدة ، او بعشاءٍ على مائدة امير ، او بظفر في حفلة راقصة ، مثل يأس مَن له سلّم لولبيٌّ من الاشواق والآمال ؟

قد يكون الجوهر واحداً . ولكن الكمية ، واللون ، والبيئة ، وما يتصل بالبيئة من سابق ولاحق في الحياة ، تختلف كلها اختلاف الآمال والاشواق في الناس ، واختلاف الثروة الروحية في الافذاذ من الناس

***

كان ليأسي شتاءٌ ، وكنت فيهِ الاديب المجاهد في سبيل — المجد !

ألا في سبيل المجد ما انا فاعلُ ...

وكنت بين كتبي واوراقي وصوري وتحفي الفنية كالقائد لجيش عاصٍ متمرد . وما الفائدة من السلاح والذخيرة — من القلم والافكار ، ومن العلوم كلها ؟

ماذا تفيدك الرياضيات وانت لا تدري في اية دورة من الفلك تصل النجدة؟ ولا حرب بلا مال. وماذا تنفعك الفيزيولوجيا وانت لا تستطيع ان تصلح قلبك المكسور او قلب المحبوب القاسي؟ وماذا تفيدك معرفة البلدان وانت عاجز عن السفر الى حيث تخف تكاليف الحياة وتنعم جنباتها؟ وماذا تنفع الفلسفة وانت في لجج الاحزان من اضعف الناس؟ وما الفائدة في الطب وشرايين قلبك تزداد تصلباً يوماً فيوماً، او المكروب يفتك برئتيك؟ وما نفع الفنون الجميلة كلها والعالم كله في نظرك هو لوحة تلميذ في مدرسة الفنون العليا؟

كان ليأسي شتاء، وكنت فيه الاديب العالم المجاهد في سبيل — المجد والشهرة! ولكن ذلك اليأس فتح امامي باباً من ابواب الحياة كنت اجهلها

خرجت ذات يوم من بيتي، من غرفتي التي كفنت فيها اعز عزيز لديَّ. بل خرجت من الغرفة ليلاً لاني لم أُطق ان ارى ما كنت اتخيله امامي: تابوت احلامي، ففررت منهُ في ليلة عاصفة. وكان الثلج يتساقط عليَّ، ويتراكم تحت قدميَّ، ويتجمد ألماً بين جنبيَّ. وكنت، لستاره الكثيف وللرياح التي انحنت تحتها رقبتي، لا ارى غير موطىء قدمي. فتصادمتُ في تلك الساعة وشخصاً آخر حاله في العاصفة مثل حالي، فاعتذرت. وكان الصوت الآخر المعتذر صوتاً ناعماً رقيقاً، انقطع مرتين في كلمتين: «لا تؤاخذني». هو صوت فتاة بائسة شريدة... جمع الثلج والليل بيننا، وربطت العاصفة قلبينا...

سرت بها الى بيتي، الى غرفتي التي تركت فيها تابوت احلامي. واجلستها بين كتبي وادواتي وصوري الفنية والذكرية. فقالت فوراً. ليتها تؤكل! فاخرجت كل ما في الخزانة الصغيرة، فأكلتْ وهي لا تزال ترتعش من البرد. فشببتُ النار، ولم يكن عندي ما يكفي من الفحم فأشعلت سفراً من الاسفار

وانساني لهيب تلك الصفحات احلامي. وانستني البائسة الشريدة الضالة المنشودة. لله من الحياة! أَعلى هذا البؤس وهذه الآلام تكون، وانا وامثالي، بين الكتب والاوراق والالاعيب الفنية، ننشد الشهرة والمجد، ونود ان نحرق المدينة، ونعزف بالناي مثل نيرون فوق طلولها، لانها لا توالينا ولا تفتح لنا ابواب قصورها؟

كنت والبائسة تلك الليلة كآدم وحواء — آدم وحواء لا في الفردوس، بل في الجحيم. وفي تلك الليلة تحول يأسي، وتضاعفت احزاني. لم افكر بعد ذلك بضالتي المنشودة، وامحى من مخيلتي رسم تابوتها. بيد اني انتقلت الى الحياة الكبرى التي تتبارى فيها المحاسن والمآثم، واللذات والآلام. لله من نير الحياة الذي يقرن العقم بالفضيلة والبؤس بالجمال

تحوَّل يأسي كما تتحوَّل الدودة فتصير فراشة. فوددت لو كان في امكاني ان أُخرج حواء وآدمها — كلَّ امرأة وكلَّ رجل — من جحيم هذا الزمان، وأعود بهما الى الفردوس الاول. هيهات

هيهات ! وكان هذا اليأس في قلبي احرّ من نار الجحيم ، وآلم من كل ما قاسيته من الآلام . فلا عجب اذا فررت منهُ . فررت هارباً من آدم وحواء في الجحيم . هربت من المدنية ، ومن المدنية — جحيمهما

***

هربت الى البادية ، فنسيت آدم ، ونسيت حواء ، ونسيت الجحيم . وكانت سنة من السياحة فيها من الابتهاج مثلما فيها من الحرمان ومن المشقات . وكيف يكون ابتهاجٌ مع مشقة ، وكيف يلتئم الحبور والحرمان ؟ !

ليس من شأني التلاعب بالكلام والافكار . وانهُ ليؤلمني ان اترك القارىء مخدوعاً بكلمة واحدة من كلماتي ، كما اني لا اطيق مخادعة النفس

كنت قبل الفرار الى البادية في شتاء اليأس ، بل في باب الربيع منهُ . ولكني لضعفٍ روحيٍ او ادبي ، او اجتماعي — وقد يكون الضعف في الثلاثة — لم اثبت في الجهاد . فتقهقرت ، ثم عدت ادراجي الى الشرق ، الى البادية العربية . فكنت فيها مغتبطاً على ما قاسيت ، محبوراً على ما حُرمت

وكيف ذلك ؟ رأيتني في البادية امشي في ظل الشهرة التي طاردتها في المدينة ، ورأيتني محفوفاً بالنجلة والاكرام ، ورأيتني مستمتعاً بما كنت اتوق اليه — بالمجد — قبل ان امتحى من مخيلتي تابوته ، وقبل ان اجتمعت بحواء في الجحيم

اذاً ، في فراري الى البادية عدت الى الوراء ؟ اذا ما نظرنا في الامر نظرة سطحية اقول : نعم . عدت الى الوراء سنة واحدة . وكان من العلم ، ومن الخدمة لقومي ، ومن معرفة الله في تلك الدهناء وتلكم النفود ، ما يبرر هذه السنة التي تتخلل اليأسين ، يأس الشتاء ، ويأس الربيع

***

ايها القارىء العزيز — وما انت بعزيز اذا كنت لا تتفهم كل كلمة اقولها ، وما انا برسول الحقيقة والخير اليك اذا كنتُ لا اتحرى الصراحة والصدق دائماً في كل ما اقول . تراني لذلك افتح كتاب النفس لاطلعك على صفحة من صفحاته الشخصية الخصوصية . وقد ادركتَ السر في ابتهاجي في البادية ، وستدرك المعنى كله في عنوان مقالي هذا ، فلا تتهمني بعد ذلك بالتلاعب بالاحساسات والالفاظ

سنة في البادية انتهت بعزلة في الجبل ، ولكنها عزلة جثمانية فقط . فهناك الكتب والاوراق والالاعيب الفنية تشاركني في هذه العزلة . وهناك الجرائد والمجلات تحمل اليّ اخبار العالم وأنباء الحياة في العالم

العالم الذي فررت منهُ هارباً والحياة التي نبذتها ! ترى الاول يجالسني كلما جلست استريح ، فيحدثني وهو يبسم بسمة جنية فظيعة . وترى الثانية تجيئني سامرة ، فتثرثر وهي تقهقه قهقهة الفاجرة

العالم يقطع عليَّ العزلة ليقول : وما الحق لغير القوة . وما الرجال بغير المال . وما الانتداب غير نوع جديد من الاستعمار . وما الالف والباء والجيم منه غير درجات في الظلم والاستبداد . وهذا حقٌ ما زال الحق للقوة . خلق الضعيف لخدمة القوي . والضعيف من الامم والشعوب ، مثل الضعيف في الناس قسطه النير

وها كم قويًا في العالم الجديد يسيطر على اقوياء العالم القديم . يسيطر بالمال ، بالذهب . وها كم في الشرق الاقصى دولة تقلد دول الغرب بما يودّ مصلحو هذا الزمان تطهير الغرب منه — بالقوة المادية والشره الاستعماري . وها كم الشرق الصيني يئن بين براثن الحرب الاهلية التي تغذّيها سرًا دول الغرب . وها كم الشرق الهندي وفيه الاسد والفيل يتنازعان الملك ويتصارعان . والى شمال ذلك الشرق دولة تشرئب بعنقها الى الغرب وتود ان يكون لها في جوار الهند ما لليابان في جوار الصين

وها كم في الشرق الادنى طرَفي الحقيقة « ان الحق للقوة » : ففي انقرة نخط الحقيقة بأحرفها الكاملة ونلفظها : جمهورية كمالية . وفي طهران نخطها بماء الذهب بالحرف الفارسي ونلفظها : مملكة رضوية . وفي نجد والحجاز نخطها على الرمال بالاحدب البتار فتسفيها الرياح وهي تردد اسم ابن سعود . وفي الشرق العربي لا نكاد نخطها حتى يمحوها ببصره الخنوع ويكتب مكانها : لتحي بريطانية العظمى ! وهذه بريطانية العظمى بعد ان استعادت شيئاً من الصولة التي فقدتها في الحرب الكونية ، تقلد الطائع في الشرق العربي نيشاناً ، وتهدد بالمدرعات والطيارات ، السيادة الوطنية ، والحرية القومية في وادي النيل وفي فلسطين

وفي هذه البلاد السورية كُتبت الحقيقة بعشر لغات — لغات الطوائف — فكان للدولة المنتدبة فيها عشر قراءات مختلفات بعضها عن بعض ، وكلها تعود الى مصدر واحد : الحقّ للقوة

***

بذا يحدثني العالم وهو يبتسم بسمته الخبيثة المؤلمة . والحياة تقطع عليَّ عزلتي فتجيء سامرة وتقول : انما الحق لمن يحسن الرئاء ، والقوة لمن يبرع في المداجاة . الحق والقوة والوجاهة والثروة والسيادة كلها للأمَّعيين . لاولئك الذين يقفون مطأطئي الرؤوس امام كل كبير من السادة الزعماء ، وأمام كل من وقف حولهم في ظلال السلطات الثلاث ، المدنية والدينية والمالية

الحق والقوة والوجاهة والثروة والسيادة لمن يقول ! نعم ، نعم ، على الدوام . ذلك ان القوة الايجابية في الحياة هي القوة الغالبة . ولا يقول لا ، لا ، غير المصابين بعسر الهضم ، والمجانين ، والانبياء . اتبغي المال والرفاه ، والترف والجاه ؟ نعم ، نعم . أتبغي السيادة والقوة والمجد ؟ نعم ،

نعم . سيّارة تتصدر فيها ؟ نعم . عصاً من الذهب وثوباً من الارجوان ؟ نعم ، نعم . عضوية في المجمع العلمي ، او رآسة في البلدية ، او في الرابطة الادبية ؟ نعم ، سيدي نعم . . . وفساطين يا سيدتي من باريس ؟ نعم ، نعم . وأميراً صاحب كيس ؟ كيف لا . والحب لابليس ؟ نعم ، لابليس ... هي ذي الحياة ، حياة كل يوم ، تجيئني في الجرائد ، وهي تثرثر وتقهقه ، ثم تختفي وهي ترقص الرقصة الجديدة

فاخرج من المنزل لأستنشق الهواء النقي ولأحدث النجوم . وكأني بها ، وهي تدور في افلاكها تذكّر بمن وقف تحتها في غابر الزمان من الانبياء والعلماء ، وهي تقول : نعم ، نعم ، لكل ما قالوه

***

وهل من حاجة الى ان اردد على مسمع القارىء ما قاله الانبياء ؟ فقد بدأ احدهم وصاياه ب « لا ، لا » . ووقف احدهم امام عروش الظلم وقال : « لا ! » لاربابها . ومشى الآخر مع الفقراء وذوي القلب الوديع فقال لهم مراراً : انا هو خبز الحياة . ومن اضاع حياته من اجلي يجدها . واوصى الآخر بالامر بالمعروف وبالنهي عن المنكر . وقالوا كلهم بالحب ، والسلام ، والاخاء الانساني . وجميعهم يئسوا من الانسان

— ووقف الانبياء في ربيع اليأس فصرخوا من اعماق قلوبهم قائلين : سمع الانسان كلمة الله وظلّ عتيًّا . وآمن الانسان وظلّ ضالاً . ومشى الانسان على الاثنتين وهو لا يزال في كثير من صفاته مثل ذوي الاربع . وعلمناه التوحيد وهو لا يزال يقول : موسى وعيسى ومحمد وبوذا وازدرشت . وعلمناه المحبة وهو لا يزال يصنع القنابل والمدافع والبارود . وعلمناه الرحمة والعدل وهو لا يزال في سبيل شهواته ، يمشي على القلوب البشرية الدامية ، ولا يزال ، في سبيل مطامعه ، اما ضبعاً او ثعلباً

ونفض الانبياء ايديهم من الانسان . ولكن صرخات اليأس ، يأسهم ، سمعتها القرون ، ورددتها الاجيال . رددها في كل جيل افراد من الناس ، من اولئك الذين يعطون حياتهم ليجدوها ، وكان لترددهم فترات من تجديد الصلاح في الناس . وكان لتجديد الصلاح ، ازدياد في صفوف من يقولون : « لا ! » ومن يؤمنون في قلوبهم ، وفي اعمالهم . ولذلك ترى الواحة في بيداء الحياة تزداد اخضراراً وتتسع كل مائة من السنين

***

كذلك يزهر يأس الانبياء وانا المقيم في هذا الوادي ، في هذا الزمان ، زهرة من يأس الانبياء

زهرة نوّرت ، فذوت ، فتناثرت اوراقها ثم انتثرت من قلبها بذور الحياة ، فحملتها الرياح في النواحي الاربع من الارض

***

زهرة من يأس الانبياء غدت بستاناً ، واضحى البستان ربيعاً ، وكان للربيع صوت ، هو الذي تسمع الآن ! هو صوت صاعد من ربيع اليأس

— لله من ظلم يتجدد في حكومات العالم الحرة . لله من شعوب تنفر الى الماضي لتمتص من عظام الاموات شيئاً من الحياة . لله من حياة تزداد اعباؤها كلما ازداد الانسان علماً ونوراً . لله من شعوب في هذا الشرق يرددون كلمات التوحيد وهم في الشرك يعمهون ، وفي الشقاق يهلكون

ان في السماء آلهاً واحداً وان تعددت اسماؤه . وان على الارض لناموسه ، مظاهر ، تتجسم كل جيل في افراد من الناس ، فينيرون جادة من جادات الروح ، ويفتحون باباً من ابواب الخلاص — الرقي — للامم

هم ازهار ذلك الربيع ، ربيع يأس الانبياء . ولهم يومهم ، ولهم عملهم ، ولهم يأسهم المزهر المنير . لولا ذلك ليئسنا حتى من الله . ولكننا من المؤمنين الذين لا يؤمنون بسواه

***

ان يأسي لفي ربيعه ، وان في هذا الربيع لكل امة من الامم ، ولكل شعب من الشعوب ، زهرة طيبة الأريج

ولكني وان قالت أمي : العذراء ، اقول : الله
وان قال اخواني في الغرب : المسيح ، اقول : الله
وان قال اخواني في الشرق : بوذا ، اقول : الله
وان قال اخواني العرب : محمد ، اقول : الله
وان قال اخي الفارسي : آهورا ، اقول : الله
وان قال اخي الصيني : كنفوشيوس ، اقول : الله
وان صوتي ، وان كان من اصوات اليأس ، لمن أصوات الله
ولولا هذه الاصوات ، المرسلة من اليأس أشعة وحياة لتجديد الامل والجهاد ، لما مشت الاجيال الى المحجة العليا ، ولما اتسع اخضرار الواحة في البادية ، كل مائة من السنين

الفريكة — لبنان

الري في مصر

وثيقة فنيّة خطيرة

لحسين بك سري وكيل وزارة الاشغال

خطبة الرآسة في المجمع المصري للثقافة العلمية



نظرة تاريخية

لي الشرف ان أتحدث اليكم في موضوع من اهم الموضوعات التي تعني بها مصر لعلاقتهِ الوثيقة بالزراعة اهم مرافق هذا القطر وعماد ثروتهِ وينبوع رخائهِ وأقصد بهِ « الري في مصر »

وأود قبل ان اتكلم عن الري في الوقت الحاضر أن ارجع بذاكرتكم الى العصور الغابرة لنستعرض معاً ما كانت عليهِ اراضي وادي النيل في ذلك الوقت ثم الادوار التي مرت قبل ان وصلت نظم الري الى حالتها الحاضرة من التقدم وقبل ان يتمكن سكان مصر من التحكم في مياه النيل يطلقونها بقدر معلوم ويستخدمونها وفقاً لرغباتهم . يحبسون ما فاض عن الحاجة منها ليعودوا فيصرفوهُ في الوقت الذي يقف فيهِ ايراد النيل عاجزاً عن أن يفي بحاجة الاراضي الزراعية

لو اننا القينا بنظرتنا على هذا الماضي البعيد وتخيلنا ما تنطق بهِ سطور التاريخ عنهُ لامكننا ان نتصور اراضي مصر في ذلك الوقت مكوّنة من سهول مجدبة لا زرع فيها وكثبان من الرمال وأدغال تملؤها المستنقعات ، ولتصورنا مياه النيل تفيض على هذه السهول من عام لآخر فتغمرها فترة من الزمن ثم تعود فتنحسر عنها بعد ان يمر الفيضان ولا تتركها الاّ وتكون قد خلّفت وراءها طبقة من الطمي كان لها الأثر كله في تكوين اراضي مصر الزراعية وفي تجديد خصبها وقوتها عاماً بعد عام . ثم لتصورنا ساكن مصر الاول ينظر فيجد امامهُ ارضاً رواها النيل بمائهِ من دون ان يقوم هو في سبيل ذلك بمجهود او يتكبد نفقات فيرمي ببذوره فيها ولا يلبث ان يراها زرعاً يجني ثمرهُ بعد زمن قصير . واذ كان لنا ان نسمي هذه العملية طريقة ري فانها تكون اقدم ما عرفهُ الانسان من طرق الري

مرت القرون بعد ذلك الى ان فطن قدماء المصريين الى هذه المزايا التي حبت بها الطبيعة واديهم ورأوا امامهم قوًى تضيع دون ان يفكروا في الانتفاع بها فأخذوا ينظمون جهودهم . وتقدم ملكهم « مينا » فرأى ان يقيم للنيل جسرين على طول مجراه ليمنع مياههُ من ان تطغى على شواطئهِ فتكتسح امامها البلاد . الاّ انهُ وجد هذا العمل شاقاً لا يقوى على تنفيذه ففكر في ان يقصر جهوده على احد الجسرين فقط وبدأ بالجسر الايسر حيث العمار والمدن الكثيرة وترك الضفة اليمنى يطغى عليها النيل ما سمحت مناسيبهُ بذلك . وقامت أمامهُ بعد هذه الخطوة صعوبة توصيل مياه

الفيضانات الواطئة الى الاراضي المنخفضة البعيدة عن مجرى النيل فشقّ الترع خلال اراضي الشواطىء العالية لتوصيل المياه الى تلك الاراضي المنخفضة وأقام جسوراً عمودية على جسر النيل ليمنع بها فيضان المياه على مواطىء الاراضي الشمالية وكانت هذه اول خطوة لتنظيم الري الحوضي

وقف مجهود القدماء بعد ذلك عند هذا الحد الى ان كان عصر الاسرة الثانية عشرة فأقاموا جسر النيل الايمن الاَّ انهم خشوا بعد اتمام الجسرين ان تمزقهما الفيضانات العالية وتغرق البلاد او تكتسح اراضي الدلتا الواطئة فرغبوا في الاحتياط لذلك وقاموا بتوصيل مجرى النيل بالمنخفض الذي كان معروفاً ببحيرة موريس ليصرفوا فيهِ ما زاد من مياه الفيضانات العالية . وما لبثوا بعد ذلك ان فكروا في العمل على اعادة هذه المياه الى مجرى النيل حتى يمكن الاستفادة بها في الفترة التي يقل فيها ايراد النهر ولعلَّ في ذلك ما يقوم دليلاً على أن فكرة تخزين المياه كانت وليدة العصور الماضية

استمرَّ نظام الري في مصر على هذه الحال الى ان غزا العرب مصر ورغب ولاتهم في زيادة ثروتها فلم يجدوا امامهم الاَّ الزراعة مورداً يتعهدونهُ بعنايتهم حتى تؤتي ثمارها وورث كل والٍ منهم عن سلفه العناية بالشؤون الزراعية حتى نمت وترعرعت وجنت البلاد من ورائها الربح الوفير فزادت مساحة الاراضي المزروعة من مليون ونصف في اوائل حكمهم الى ثلاثة ملايين في آخر مدتهم . ولم يتغير نظام الري في عهدهم عنهُ في العهد السابق بل ظلت اراضي مصر العليا والوسطى تروى بنظام الحياض تغمرها مياه النيل وقت الفيضان وتبقى عليها زمناً ثم تصرف في مجرى النهر وتبذر البذور في الاراضي بعد ذلك وتترك حتى يتم نضج المحاصيل ثم حصادها . واستمرت اراضي الدلتا تروى بهذه الطريقة ايضاً وتخترقها فروع النيل العديدة تمدها بالمياه اللازمة لها وقت الفيضان

وكان للبلاد ان تلمس هذا المغنم الذي لقيتهُ من وراء عنايتها بالشؤون الزراعية وان تعمل على الاحتفاظ بهِ الاَّ انها منيت بحكم المماليك الذين استولوا على الاراضي الزراعية وخصوا بها انفسهم وتابعيهم وبقي الاهلون يعملون في اراضٍ لا يملكونها مما دعاهم الى هجرها وعدم العناية بها فأجدبت وقلَّ محصولها

ولما ان وَلِيَ محمد علي باشا حكم مصر وجد الاراضي تروى بنفس الطريقة التي كانت متبعة مدة حكم العرب . وانها لا تنتج تحت هذا النظام الاَّ محصولاً واحداً في السنة مما لا يتفق مع التوسع الزراعي الذي ينشده والذي يرى انهُ الوسيلة الوحيدة لزيادة ثروة البلاد . فبدأ بأراضي الدلتا وأدخل فيها زراعة بعض محاصيل جديدة أهمها القطن وكان قد استحضره من البرازيل والهند عام ١٨٢٠ — ودعت زراعة القطن الى تغيير نظام الري المتبع وذلك لان هذا المحصول يحتاج الى ريات متتابعة ولا يتفق وقتُ زرعهِ مع الفترة التي ترتفع فيها مياه النيل فاضطرَّ ساكن الجنان أمام هذه الحال الى اكمال جسور فرعي النيل حتى لا تطغى المياه وقت الفيضان على الاراضي المزروعة قطناً . وعمَّق الترع لدرجة تسمح بدخول مياه الصيف الواطئة فيها وبنى عليها القناطر المتعددة ليتمكن بذلك من رفع المياه امامها الى منسوب تقل معهُ نفقات رفعها الى الاراضي . وكانت اراضي الدلتا بعد

هذه الخطوة تزرع فيها الحبوب بعد صرف المياه التي تغمرها وقت الفيضان وبعد ان يتم حصاد الحبوب تطهر الترع مما يكون قد رسب فيها من الطمي لتسمح بأمداد الاراضي المزرعة قطناً بالمياه مدة الصيف وفي شهر اغسطس كانت تعمل قطوع في جسور الترع لري مواطيء الحياض حتى اذا ما تم حصاد القطن في شهر سبتمبر تغمر الاراضي بمياه الفيضان وبعد صرف المياه تبذر فيها بذور الحبوب وهكذا. أي ان اراضي الدلتا كانت تروى بطريقتي الري الحوضية والمستديمة. وهذا اول العهد بأدخال نظام الري المستديم في مصر

الا ان الجمع بين نظامي الري على الوجه السابق اقتضى نفقات كثيرة كانت تصرف في حفر الترع الى منسوب واطيء ثم صيانتها على هذا المنسوب بتطهير مقادير الطمي الكبيرة التي كانت ترسب مدة الفيضان مما دعا محمد علي باشا أمام هذه النفقات وكثرة الايدي التي يتطلبها هذا العمل الى التفكير في تحسين الطريقة المتبعة فكلف مهندسيه البحث عن وسيلة يمكن بها رفع مياه الصيف بحيث تدخل الترع من غير حاجة الى تعميقها فعرض عليهِ مهندسوه مشروع اقامة قنطرتين على فرعي النيل عند قمة الدلتا . ولما صادفت هذه الفكرة قبولاً لديه امر بأعداد ما يلزم لذلك ثم اعتمد المشروع وبدأ العمل في تنفيذه عام ١٨٤٣ واستمر بناء القناطر بعد ذلك تعترضهُ الصعوبات فتوهن من عزيمة القائمين بهِ وتفل ثقتهم بنجاحه ثم يرجعون فيواصلون العمل فيه حتى تم بناء القناطر سنة ١٨٦١

وقبل استعمال القناطر في الموازنات رأى القائمون بالامر في ذلك الوقت اختبارها فعجزت عن تأدية ماطلب منها ولم تتمكن من رفع منسوب المياه امامها الى الدرجة المطلوبة وكان ذلك داعياً لاعادة البحث فيما يمكن تنفيذه لمقابلة احتياجات نظام الري الجديد وبدت لهذا الغرض فكرتان احداهما تقضي باقامة آلات لرفع المياه اللازمة والاخرى بترميم القناطر الا ان الآراء عادت فاقرت الفكرة الثانية وبديء بترميم القناطر ولما فرغوا من ذلك لم يكن الحجز عليها الى المنسوب المطلوب فأعيد ترميمها مرات انتهت باقامة سدود غاطسة خلفها سنة ١٩٠١ وبعد ذلك امكن للقناطر ان تقوم بالغرض الذي بنيت من اجله

وباتمام القناطر تم وضع الحجر الاساسي في نظام الري المستديم في الدلتا وامكن بواسطتها امداد هذه الاراضي بما يلزمها من المياه مدة الصيف مما ساعد على تحويل المساحات الحوضية لتروى بطريقة الري المستديم وكانت مساحة الاراضي التي تزرع فيها بعض المحاصيل الصيفية لا تتعدى المليوني فدان وقت البدء في بناء القناطر زادت بعد ذلك الى ثلاثة ملايين تتمتع بنظام كامل من الري المستديم ولا يخفى ما كان لهذا التوسع من أثر في زيادة مقدار المحاصيل وما ترتب عليهِ من ازدياد موارد القطر وازدياد ثروته بارتفاع ثمن اراضيهِ . وبذلك تكون الجهود المتواصلة التي بذلها المغفور له محمد علي باشا قد أثمرت وتحقق الامل الذي طالما تطلع اليهِ

وفي اثناء بناء القناطر تمَّ حفر ثلاث ترع كبيرة تأخذ من النيل أمامها وهي الرياح التوفيقي والرياح المنوفي ورياح البحيرة ليروي الاول شرق الدلتا والثاني وسطها والثالث غربيها

ولما تولى الخديو اسماعيل باشا حكم مصر ورأى ثمرة جهود جدهِ التي بذلها في العناية بالشؤون الزراعية

اراد ان يتتبع خطواته فأمر في سنة ١٨٧٣ بحفر الترعة الابراهيمية التي تعد من اكبر الترع في العالم وكان الغرض من انشائها في بادىء الامر امداد مزارع القصب الخديوية بالمياه مدة الصيف واستعملت بعد حفرها في ري مساحة صيفية قدرها حوالي نصف مليون فدان واخرى حوضية مساحتها نحو ٥٠٠٠٠٠ فدان ولقد كان انشاء هذه الترعة الخطوة الاولى لادخال نظام الري المستديم في مصر الوسطى

ولما لمس سكان مصر الوسطى أثر محصول القطن في الثروة الزراعية عملوا على زراعته في بعض مساحاتهم الحوضية وكانوا يحيطون هذه المساحات بجسور تقيها من طغيان المياه عليها مدة الفيضان ويرفعون اليها ما يلزمها من المياه بالآلات من النيل او من الآبار الارتوازية — ولما ازداد عدد السكان وتطلبت هذه الزيادة حاجتها من المزروعات اتجهت الانظار الى اراضي مصر الوسطى بغية تحويلها الى الري المستديم الا ان زراعة الاراضي مدة الصيف تقتضي ريها في هذا الوقت الذي تقل فيه تصرفات النيل ويعجز ايراده عن ان يمدها بحاجتها من المياه . لذلك كان على القائمين بأعمال التوسع في كل مرحلة أن يفكروا في توفير المياه اللازمة للمساحات الصيفية ومن هنا عادت فتجددت فكرة التخزين وحجز بعض مياه الفيضان الزائدة عن الحاجة ليمكن الاستفادة بها مدة الصيف . وسبق ان قلنا ان اول من فكر في تخزين المياه هم ملوك الاسرة الثانية عشرة الفرعونية وبدت هذه الفكرة من بعدهم لمحمد علي باشا فامر مهندسه لينان باشا بدراسة هذا المشروع وفكر هذا في منخفض بحيرة موريس القديم ولما رأى ان النفقات التي تلزم لتنفيذ فكرته باهظة عدل عنها وفكر في اقامة قناطر عند جبل السلسلة لتخزين المياه امامها الا ان تصدع القناطر الخيرية بعد بنائها لم يشجعهُ على المضي في تنفيذ فكرته . وفي سنة ١٨٨٠ تجددت فكرة التخزين عند جبل السلسلة وكانت سعة الخزان المقترح انشاؤه عند هذا الموقع سبعة مليارات من الامتار المكعبة . وتقدم اقتراح آخر باستعمال منخفض وادي الريان خزاناً تحجز فيه بعض مياه الفيضان الا ان الحكومة لم تأخذ بأحد الاقتراحين بل نبذت فكرة التخزين ولعلَّ السبب في ذلك ما شاهدتهُ من ضعف القناطر الخيرية

ولما اسفرت اعمال الترميم في هذه القناطر عن بعض النجاح واصبح من الممكن الحجز عليها شجع ذلك الحكومة على المضي في تنفيذ فكرة التخزين واخذت هذه الفكرة تتطور فتتجه احياناً الى جبل السلسلة ثم تنحرف عن هذا الاتجاه لتعود الى منخفض وادي الريان وهكذا الى ان بدت في سنة ١٨٨٩ فكرة استخدام مجرى النيل نفسه للتخزين واخذت الحكومة بعد ذلك في بحث هـذا الاقتراح وعهدت الى لجنة من المهندسين الاخصائيين باختيار الموقع المناسب لهذا الخزان فقررت اللجنة بعد دراسة مجرى النيل بين حلفا والقاهرة ان أنسب موقع يبنى عنده السد هو شلال النيل الاول عند اسوان شمال أنس الوجود وتم تحضير المشروع بعد ذلك . وكان تصميم السد في بادىء الامر يسمح بالحجز عليه الى منسوب ١١٢ متراً وتبلغ سعة الخزان عند هذا المنسوب ما يربي على المليارين من الامتار المكعبة . الا ان الرغبة في المحافظة على المعبد الذي

يقع في حوض الخزان حالت دون تنفيذ هذا المشروع واقتصر في بناء السد الذي بدأ في سنة ١٨٩٨ وتم سنة ١٩٠٢ على جعل منسوب التخزين ١٠٦ امتار بدلاً من ١١٢ متراً وبذلك لم ينشأ الخزان الا ليسع ملياراً واحداً فقط من الامتار المكعبة

وللانتفاع بمياه التخزين رأى رجال الري في ذلك الوقت ان يعملوا على رفع منسوب مياه النيل عند فم ترعة الابراهيمية ليتمكنوا بذلك من اعطاء مصر الوسطى نصيبها من هذه المياه مدة الصيف . وكانت ترعة الابراهيمية تتغذى من النيل بدون قنطرة تساعد على رفع المياه امامها الى الدرجة التي تكفي لامداد الزمام المترتب ريهُ على هذه الترعة بالمياه اللازمة له . ولمعالجة هذه الحال استقر الرأي على اقامة قناطر على النيل عند اسيوط وتم بناء هذه القناطر سنة ١٩٠٢ وبذلك امكن لترعة الابراهيمية ان تأخذ نصيبها من المياه مدة الفيضان والصيف من دون ان يكون لمناسيب النيل أثر كبير عليها . وبعد اقامة هذه القناطر امكن تحويل ٤٥٠ الف فدان من حياض مصر الوسطى الى الري المستديم

وفي سنة ١٩٠٣ تمت اقامة قناطر زفتى على فرع دمياط وكان الغرض من بناء هذه القناطر رفع المياه امامها في اوائل الفيضان لتغذية اراضي شمال مديرية الدقهلية والجانب الشرقي من مديرية الغربية في الوقت الذي لا تقوى فيه القناطر الخيرية على امداد الترع التي تأخذ من امامها بالمياه اللازمة

وامتدت الجهود بعد هذه المرحلة الى العناية بتحسين وسائل الري في اراضي مصر العليا التي تروى بطريقة الري الحوضية ولما رؤي ان اراضي مديرية قنا تحتاج الى تحسين حالة الري فيها فكر في اقامة قناطر اسنا على النيل لترفع امامها مياه الفيضان بحيث تكفي لغمر هذه الحياض وبدىء في اقامة هذه القناطر سنة ١٩٠٦ وتم بناؤها سنة ١٩٠٨

ولم يكن للقائمين بأمر التوسع ان تقف جهودهم عند هذا الحد بعد ان تمَّ انشاء هذه الاعمال الكبيرة في مجرى النيل بل دعتهم قلة الايراد الذي اتت به السنين الشحيحة بعد ذلك الى اعادة التفكير في تخزين مقادير اخرى من المياه غير التي تحجز كل سنة في خزان اسوان واتجهت انظارهم الى هذا الخزان يفكرون في العمل على رفع منسوب التخزين به لعلهم بذلك يسدون النقص في الايراد الطبيعي للنهر مدة الصيف عن احتياجات الاراضي الزراعية التي زادت مساحاتها . وانتهى تفكيرهم الى البدء في تعلية خزان اسوان للمرة الاولى وتمت هذه التعلية سنة ١٩١٢ وأصبحت سعة الخزان بعدها مليارين ونصف من الامتار المكعبة واستخدم مقدار المياه الاضافية في تحسين حالة الري وفي التوسع في جانب من الاراضي البور في الوجه البحري . ولما تمَّ الانتفاع بهذه الزيادة كانت مساحة الاراضي المنزرعة بالدلتا ٣٫٣٥٠٫٠٠٠ فدان ومساحة الاراضي التي تروى رياً مستديماً في مصر الوسطى ١٫٠٥٠٫٠٠٠ فدان وبذلك يكون قد امكن الانتفاع بمياه التخزين كلها عند اسوان في استصلاح ٣٠٠٫٠٠٠ فدان من اراضي الدلتا وفي تحويل حوالي ٤٥٠٫٠٠٠ فدان من حياض مصر الوسطى

التوسع في الاراضي الزراعية

والآن انتقل بعد الكلام عن تاريخ الري في مصر الى التوسع المقترح في اراضيها الزراعية ثم الاحتياجات التي يتطلبها هذا التوسع والخطوات التي يقترح اتباعها لزيادة الايراد حتى يمكن مقابلة التوسع الجديد في كل مرحلة من مراحله المستقبلة

تبلغ مساحة الاراضي التي تروى ريًّا مستديمًا في الوجهين البحري والقبلي حوالي ٤٫٤٠٠٫٠٠٠ فدان وتحتاج هذه المساحة لكي تأتي بالفائدة التي ترجى من زراعتها الى امدادها بكفايتها من المياه مدة الصيف . وفي هذه الفترة من السنة يقل ايراد النهر بحيث لا يفي مع ما يضاف اليه من المخزون عند اسوان باحتياجات الاراضي الزراعية ، ويضطر رجال الري أمام قلة الايراد ان يقسموا مدة اطلاق المياه في الترع الى فترات تخصص كل واحدة منها لري جزء من زمام كل ترعة ثم يمنع هذا الجزء من الري طيلة الفترات الباقية . وهم في ذلك يبغون توزيع المياه ما امكنهم على الاراضي الزراعية توزيعاً نسبيًّا بل تضطرهم قلة الايراد في السنين الشحيحة جدًّا الى اطالة الفترات التي تحرم فيها الاراضي من الري . ولهذا من الاثر في الزراعة ما يقل معهُ مقدار المحاصيل وخصوصاً محصول القطن مطمح انظار المزارعين وأملهم الذي يترقبونهُ طول عامهم . وهناك ايضاً من نتائج قلة الايراد ما يتصل بمحصول الذرة عماد غذاء الفلاح المصري وذلك أن شحَّ الايراد يمنع التبكير بطفي الشراقي اعداداً لزراعتها بهذا المحصول . وفي تأخير زرعها الاثر السيء في مقدار ما يجنونهُ منها

يضاف الى هذا — الازديادُ المستمر في عدد سكان مصر وما تتطلبهُ هذه الزيادة من المزروعات ولو اننا رجعنا الى الاحصاءات التي عملت لسكان مصر في السنين الماضية لوجدنا ان عددهم يتكاثر بمعدل ١٤٠٫٠٠٠ نسمة سنويًّا ومع هذا المعدل نرى ان أهالي مصر ينتظر ان يصل عددهم الى ١٨ مليوناً في سنة ١٩٤٨ والى ٣٠ مليوناً في سنة ٢٠٠٠ ولا شك ان هذه الزيادة سوف تتطلع الى الاراضي الزراعية ترجو الحصول منها على ما يقوم باحتياجاتها

ومن الضروري ازاء هذه الحال ان تتجه الانظار الى التوسع في الاراضي الزراعية باستصلاح البور منها وبتحويل الحياض الى الري المستديم حتى تزيد مقادير المحاصيل التي تأتي بها . ولا سبيل لمقابلة هذا التوسع الاَّ الرجوعَ الى ايراد النيل الذي ظلَّ قبلة المصريين في كل عصر يولون وجوههم شطره ويلتمسون من ورائهِ رزقهم وما يتمتعون بهِ من ثروة . وما شجع دائماً على التفكير في ايراد النيل في كل خطوة من خطوات التوسع أن مجموع ايراده طول العام يزيد عن احتياجات الزراعة في مجموع فصول السنة الاَّ انهُ يأتي بايراد يزيد كثيراً عن حاجة الزراعة مدة طويلة من السنة ويعجز عن الوفاء بها مدة الصيف . وهذا ما اوحى الى الاولين فكرة التخزين وما عاد فدعا وزارة الاشغال الى أن تعمل على زيادة المخزون من المياه لتمد الزراعة المستقبلة بمطالبها

ولو انهُ امكن تخزين جميع المياه التي تفيض عن الحاجة من مجموع ايراد النيل في السنوات

المتوفرة الايراد للانتفاع بها في السنين الشحيحة وفي الفترات التي يعجز فيها ايراد النهر الطبيعي عن الوفاء بحاجة الاراضي الزراعية لامكن بذلك ضمان زراعة ما لا يقل عن ٢٠ مليون فدان أي ما يعادل تقريباً ثلاثة أمثال أقصى مساحة تصل اليها الاراضي الزراعية في الوادي بالقطر المصري في المستقبل اذا لم نعر الصحارى التفاتاً ما

وسارت وزارة الاشغال في سبيل زيادة المخزون وفكرت في تعلية خزان اسوان للمرة الثانية. ولما تأكدت من امكان هذه التعلية شرعت فيها واتمتها اخيراً . وبدأت في بناء خزان جبل الاولياء . وباتمام هذين العملين سيزيد المخزون من المياه بمقدار ٤٨٠٠ مليون متراً مكعباً منها و٢٨٠٠ مليون من خزان اسوان و٢٠٠٠ مليون من خزان جبل الاولياء سينتفع بها :—

اولاً — في تحسين حالة المناوبات والتبكير بطفي الشراقي في الوجهين البحري والقبلي وضمان زراعة ٢٠٠٠٠٠ فدان ارزاً

ثانياً — في استصلاح حوالي ٤٠٠٠٠٠ فدان من الاراضي البور في الوجه البحري

ثالثاً — في التوسع في الوجه القبلي بتحويل حياض مساحتها حوالي ٤٥٠٠٠٠ فدان واعطاء مياه لمساحة قدرها حوالي ٥٠٠٠٠ فدان من الاراضي البور والسواحل

ولقد بدأ التوسع في هذه المساحات من السنة الحالية وسيستمر حتى يتم استنفاد المخزون الاضافي بخزان اسوان لمنسوب ١٢١ م وذلك في سنة ١٩٣٨ وفي هذا التاريخ يكون قد تمَّ بناء خزان جبل الاولياء وأمكن الحجز عليهِ فيبدأ باستخدام مياههِ الى ان يتم الانتفاع بها حوالي سنة ١٩٤٦ — ويتبقى بعد ذلك مقدار آخر من المخزون يمكن الحصول عليهِ برفع منسوب التخزين بأسوان متراً فيخصص لاستصلاح بعض المساحات البور في الوجه البحري ابتداءً من سنة ١٩٤٦ الى سنة ١٩٥٣ وبذلك يكون قد تمَّ الانتفاع بمياه الخزانين حوالي سنة ١٩٥٣

ويستلزم الانتفاع بهذه المقادير أن ترجع الوزارة أولاً الى القناطر الرئيسية المقامة على النيل لتدرس حالتها وتتأكد من انها تقوى على الحجز عليها الى المنسوب الجديد الذي يمكن معهُ اعطاء الترع الآخذة من امامها نصيبها من هذه المياه . ولقد انتهت الوزارة الى ضرورة تقوية قناطر اسيوط حتى تسمح برفع منسوب المياه أمامها بحيث يكفي لتحسين حالة المناوبات على الترعة الابراهيمية وتحويل بعض المساحات الحوضية بمصر الوسطى الى الري المستديم ولامكان التوسع في بعض المساحات البور بمديرية الفيوم. ويحتاج التوسع في الوجه البحري الى زيادة الحجز على القناطر الخيرية وهذه القناطر لا تقوى بحالتها الحاضرة على تحمل الحجز الجديد لذلك رؤي ضرورة تقويتها او بناء قناطر جديدة بدلاً منها ولم يستقر الرأي بعد على احد الحلين

وهناك قناطر اخرى يتجه التفكير نحو اقامتها على فرع رشيد بدل السد الترابي الذي يقام كل عام لمنع بهِ دخول المياه المالحة في الوقت الذي تنخفض فيهِ مناسيب النيل ولتتجمع امامه مياه الرشح

التي يمكن الانتفاع بها في ري جزء من الاراضي الشمالية بمديريتي الغربية والبحيرة . وتستلزم اقامة هذا السد كل عام صرف مقادير من المياه لطرد المياه المالحة قبل قفل السد . وسيكون لهذه المقادير أثر في ملء خزان أسوان في مراحل التوسع المستقبلة وهذا ما دعا الى التفكير في اقامة هذه القناطر

ويجدر بي ان اشير الى القناطر التي تم بناؤها على النيل سنة ١٩٣٠ في وسط المسافة تقريباً بين قناطر اسنا وقناطر اسيوط واقصد بها قناطر نجع حمادي وقد اقيمت لضمان الري الحوضي في مديرية جرجا ولامكان تحويل الاراضي الحوضية بمديريتي اسيوط وجرجا الى الري المستديم بعد اتمام اعمال التخزين . وتم حفر ترعتين تأخذان من امام هذه القناطر وهما الترعة الفؤادية بالبر الايسر للنيل والترعة الفاروقية بالبر الايمن . وستحوّل المساحات التي تتحكم فيها هاتان الترعتان الى الري المستديم لتنتفع من مياه خزاني اسوان وجبل الاولياء

وبعد هذه المرحلة لا تكون مصر قد اتمت كامل التوسع في اراضيها الزراعية بل يبقى هناك حوالي ٧٠٠٫٠٠٠ فدان من اراضي الوجه القبلي باقية تحت نظام الري الحوضي وحوالي ٩٥٠٫٠٠٠ فدان بور بالوجه البحري عدا ما في ذلك ما يستجد منها بعد تجفيف الجانب الاكبر من البحيرات الشمالية. وحين يتم هذا التوسع تصل مساحة الاراضي الزراعية في مصر ٧٫١٠٠٫٠٠٠ فدان وتحتاج هذه المساحات زيادة على ايراد النهر الطبيعي الى حوالي ٨٠٠٠ مليون من الامتار المكعبة مدة الصيف وذلك بخلاف المخزون بخزان اسوان بعد تعليته الثانية وقدره ٥٣٠٠ مليون متر مكعباً — وما سيخزن في جبل الاولياء وقدره ٢٠٠٠ مليون متر مكعباً

ويمكن الحصول على هذه المقادير من الوجوه الآتية : —

١٤٠٠	مليون من خزان بحيرة تسانا
٥٦٠٠	« « « البرت بعد انشاء قناة السدود
١٠٠٠	« « « كيوجا
٨٠٠٠	المجموع

ويستلزم الانتفاع بالمقادير التي ستحجز بخزانات تسانا والبرت وكيوجا غير الاعمال العادية تقوية قناطر اسنا . وينتظر ان تبنى هذه الاعمال في التواريخ الآتية : —

العمل	تاريخ البدء	تاريخ الانتهاء
تقوية قناطر اسنا	١٩٥٠	١٩٥٤
انشاء خزان تسانا	١٩٥٠	١٩٥٤
انشاء قناة السدود	١٩٥٥	١٩٦٥
انشاء خزان البرت	١٩٦١	١٩٦٥
انشاء خزان كيوجا	١٩٧٥	١٩٧٩

ويتم الانتفاع بهذه المقادير حوالي آخر القرن الحالي . واذا كان لأولي الامر بعد ذلك ان

يتطلعوا الى زيادة التوسع فاذ عليهم ان يتجهوا الى الصحراء ليصلحوا بعض المساحات فيها . ويمكنهم الحصول على المياه اللازمة لها عن طريق انشاء خزان آخر على بحيرة فكتوريا ويجدون من المياه الغزيرة التي تسقط على هذه البحيرة وحوضها ما يوفر لهم مقادير كبيرة من المياه ويكون الانتفاع بهذه المقادير آخر مدى تقف عنده الجهود في التوسع . والآن انتقل لا تحدث اليكم عن موضوع الصرف والخطوات التي اتبعت لتحسين وسائله وتعميمها في الاراضي الزراعية

الصرف

للصرف ما للري من خطر الشأن اذ يتوقف انتاج الاراضي الزراعية عليهما معاً فلا تجود الارض بمحصولها ولا يبقى لها خصبها الا اذا توفرت لها المياه وتم امدادها بوسائل الصرف اللازمة والاراضي اذا ما رويت تخللت المياه طبقاتها الى اسفل حتى تصل الى منسوب المياه الجوفية فتأخذ هذه المياه في الارتفاع . واذا ما استمر ري الاراضي على فترات متقاربة زاد ارتفاع مستوى المياه الجوفية الى الحد الذي لا يجد النبات معهُ طبقة من الارض يستطيع ان يرسل بجذوره فيها من دون ان تخنقها المياه . كذلك في الفترات التي يوقف فيها ري الاراضي تعلو المياه التي تتخلل طبقاتها الى السطح بفعل الجاذبية الشعرية ثم تعود فتهبط الى اسفل ثانية في فترات الري وهكذا تستمر المياه في الهبوط والصعود فتذيب معها كمية من الاملاح المختلطة بطبقات الارض وتسير معها في حركاتها المختلفة . فاذا ما وصلت المياه المحملة بالاملاح اثناء هبوطها الى مستوى منخفض فان كمية الاملاح التي في الطبقة العليا تقل تدريجيًّا . أما اذا كان مستوى المياه الجوفية عالياً فان هذه الاملاح تعلو الى سطح الارض مع المياه اثناء صعودها بفعل الجاذبية الشعرية حتى اذا ما تبخرت المياه بقيت الاملاح في الطبقة التي تتخللها جذور النباتات فتؤثر فيها وتكون بذلك مهلكة لحياة الزرع ويقل معها خصب الارض ويضعف انتاجها . وترون من ذلك ألاَّ فائدة من توفير المياه للاراضي الاَّ إذا كانت المصارف تخترقها وتعمل دائماً على تخفيض منسوب المياه الجوفية

ولقد دلت الابحاث التي عملت سنة ١٩٠٨ لمعرفة الباعث على نقص محصول القطن ان ذلك راجع الى فساد الارض لاستمرار ريها وعدم امدادها بالمصارف وكان أثر ذلك اوضح في اراضي الدلتا لطول عهدها بنظام الري المستديم

ودعت هذه الحال إلى توجيه العناية الى شؤون الصرف واستمرت العناية بها الى أن شبت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ وحال ذلك دون مواصلة تنفيذ مشروعات الصرف إلى أن وضعت الحرب أوزارها فعادت الايدي وتناولت هذه الاعمال واتجهت أولاً الى اراضي الدلتا فبدت مقترحات متعددة في شأن أفضل الوسائل التي تتبع لصرف هذه الاراضي الى ان تم تفضيل احداها وتتلخص فيما يأتي:—

قسمت أراضي الدلتا الى الاقسام الثلاثة الآتية : —

(١) القسم الاول — ويشمل أراضي شمال الدلتا وتبلغ مساحتها حوالي مليون فدان . وهذه

الاراضي ذات منسوب واطيء ولا يمكن صرفها الا بالآلات لذلك تقرر انشاء ثماني عشرة محطة طلمبات فرعية لصرفها على أن تستمد هذه المحطات التيار الكهربائي اللازم لادارتها من ثلاث محطات رئيسية بالمطف وبلقاس والسرو . ولقد تمت اقامة المحطات الرئيسية وأغلب المحطات الفرعية

(٢) القسم الثاني — ويشمل الاراضي التي تلي المنطقة السابقة جنوباً وتبلغ مساحتها حوالي المليون فدان أيضاً. ومناسيب هذه الاراضي أعلى من الاراضي الشمالية وتخترقها شبكة من المصارف الفرعية تصرف مياهها في أخرى رئيسية وهذه تصب بالراحة أما في البحيرات الشمالية أو في البحر . وينبغي لتحسين صرف أراضي هذا القسم زيادة عدد المصارف الفرعية لتتمتع جميع الاراضي بطرق صرف وافية

(٣) القسم الثالث — ويشمل أراضي صدر الدلتا العالية . وكان المتفق عليه فيما سبق انها سوف لا تحتاج الى وسائل الصرف . الا ان استمرار ريها بالراحة أثر فيها وبدأ الفساد يتطرق اليها كما بدأت الاملاح تظهر فوق سطحها . وأظهر الادلة على ذلك ما شوهد من فساد أراضي مديريتي المنوفية والقليوبية وقد كانت حتى سني الحرب أغنى أراضي مصر الى أن عمها نظام الري بالراحة تخفيفاً للعبء الذي كان ملقى على عاتق الاهلين في ري أراضيهم بسبب ارتفاع ثمن الوقود اللازم لادارة طلمباتهم في فترة الحرب . ودعا ري هذه الاراضي بالراحة وعدم وجود المصارف اللازمة لها الى فساد تربتها وقلة غلتها حتى اضطر رجال الري أخيراً الى توجيه جهودهم الى العمل على امداد هذه المناطق بوسائل الصرف اللازمة . ولقد سار تنفيذ مشروع صرف اراضي المنوفية مرحلة طويلة . ولا تلبث ان تتم دراسة مشروع صرف أراضي القليوبية ويبدأ في تنفيذه . ولو أنني أعتقد ان الحل الحقيقي لتحسين حالة اراضي هذا القسم هو ارجاع طريقة الري بالآلة التي كانت متبعة في ري هذه الاراضي حتى سني الحرب

اما اراضي مصر الوسطى فيخترقها مصرف واحد تطلق عليه أسماء متعددة في أحباسه المختلفة وتصب فيه المصارف الفرعية التي تشق هذه الاراضي ويصرف هو مياهه في رياح البحيرة وتصله في بعض طوله وصلات بالنيل ليصب فيه مياهه اذا سمحت مناسب النيل بذلك . كما تصله وصلات أخرى ببحر يوسف لنفس الغرض السابق . وتحتاج أراضي مصر الوسطى الى تحسين وسائل الصرف فيها وهو ما يقوم رجال الري في الوقت الحاضر بدراسته والمأمول أن يبدأ تنفيذه في القريب العاجل

يتبقى بعد ذلك أراضي الحياض في الوجه القبلي وهي التي ستتحول الى نظام الري المستديم وهذه الاراضي سيراعى في تنفيذ المشروعات بها أن تسير أعمال الصرف جنباً الى جنب مع اعمال الري حتى لا يأتي ذلك الوقت الذي تبدو عليها فيه آثار الفساد نتيجة استمرار ريها وعدم امدادها بوسائل الصرف

نفقات الاعمال

وأود في هذا الجزء الاخير من محاضرتي أن أذكر لكم المبالغ التي يجب على مصر ان تنفقها حتى تكمل هذا التوسع المقترح في أراضيها الزراعية

تبلغ نفقات الاعمال التي يستلزمها الانتفاع بماء خزاني أسوان وجبل الاولياء ما يأتي : —

التعلية الثانية لخزان اسوان	٤٫٨٠٠٫٠٠٠	جنيه
انشاء خزان جبل الاولياء	٤٫٣٠٠٫٠٠٠	»
تقويه قناطر اسيوط	١٫١٠٠٫٠٠٠	»
تقوية القناطر الخيرية او انشاء قناطر جديدة	٣٫٢٠٠٫٠٠	»
انشاء قناطر على فرع رشيد بدل السد الترابي	٧٠٠٫٠٠٠	»
تعديل الري والصرف في الوجه البحري	١٣٫٠٠٠٫٠٠٠	»
استصلاح اراضي بور في الوجه البحري	٣٫٢٠٠٫٠٠٠	»
تحويل الحياض بالوجه القبلي	٦٫٥٠٠٫٠٠٠	»
اقامة المحطات الرئيسية والفرعية لصرف شمال الدلتا والخطوط الكهربائية اللازمة	٢٫٤٠٠٫٠٠٠	»
اقامة محطات الصرف الاخرى بالدلتا	٨٠٠٫٠٠٠	»
الصرف في مصر الوسطى	٢٫٣٠٠٫٠٠٠	»
الملاحة	٧٠٠٫٠٠٠	
	٤٣٫٠٠٠٫٠٠٠	»

أي ان مجموع نفقات هذه الاعمال يبلغ ٤٣٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ينتظر ان تصل قيمة ما يصرف منها لغاية السنة المالية الحالية حوالي ١٣ مليون جنيهاً والباقي هو ما يلزم صرفه في مدى العشرين السنة القادمة بمعدل سنوي متوسطه حوالي ثلاثة ملايين جنيه في الثلاث السنوات الاولى ومليونان في التسع السنوات التالية ثم يهبط هذا المتوسط الى حوالي ٣٠٠٫٠٠٠ جنيه في السنوات الباقية

وتقدر قيمة الاعمال التي يستلزمها التوسع في المرحلة الثانية.أي بعد سنة ١٩٥٣ ما يأتي : —

انشاء خزان تسانا	٢٫٧٠٠٫٠٠٠	جنيه
» قناة السدود	١٠٫٠٠٠٫٠٠٠	»
» خزان بحيرة البرت	٣٫٠٠٠٫٠٠٠	»
» » » كيوجا	٢٫٠٠٠٫٠٠٠	»
تقوية قناطر اسنا	٨٠٠٫٠٠٠	»
استصلاح اراضي بوز شمال الدلتا	١١٫٠٠٠٫٠٠٠	»
تحويل باقي الحياض بالوجه القبلي	٩٫٠٠٠٫٠٠٠	»
	٣٨٫٥٠٠٫٠٠٠	»

أي ان مجموع ما ستصرفهُ الحكومة على اعمال التوسع حتى آخر القرن الحالي تربي على ٨٠ مليون من الجنيهات . ولا شك ان البلاد ستجني من وراء تنفيذ هذه الاعمال أضعاف ما تنفقهُ عليها . ولو اننا رجعنا الى ما صرف على خزان أسوان منذ انشائهِ الى تعليته الاولى وقدرنا الفائدة منهُ لوجدنا أنهُ عاد على البلاد بالربح الوفير . واني أضع أمامكم فيما يلي موازنة بين النفقات التي صرفت على هذا الخزان والفوائد التي جنتها البلاد منهُ : —

بلغت نفقات انشاء الخزان	٣٫٠٥٠٫٠٠٠	جنيه
» » تعليته الاولى	١٫٥٠٠٫٥٠٠	»
	٤٫٥٥٠٫٥٠٠	»

واستخدمت مياهه لاستصلاح حوالي ٣٠٠ر٠٠٠ فدان من الاراضي البور في الوجه البحري وتحويل نحو ٤٥٠ر٠٠٠ فدان من حياض الوجه القبلي الى الري المستديم . فاذا قدرنا ان ما انفقتهُ الحكومة في عملية تحويلِ الاراضي الحوضية كان بمعدل ١٢ جنيهاً للفدان . وفي شق الترع والمصارف للاراضي البور خمسة جنيهات للفدان . وان ما صرفهُ الاهالي في الاراضي الحوضية كان بمعدل ٤ جنيهات للفدان وفي الاراضي البور ١٢ جنيهاً للفدان فان جملة النفقات تكون : —

(١) — ما أنفقتهُ الحكومة

نفقات انشاء الخزان وتعليته الاولى	٤و٥٥٠ر٠٠٠	جنيه
تحويل الحياض ٤٥٠ر٠٠٠ × ١٢	٥ر٤٠٠ر٠٠٠	»
استصلاح البور ٣٠٠ر٠٠٠ × ٥	١ر٥٠٠ر٠٠٠	»
	١١ر٤٥٠ر٠٠٠	»

(٢) — ما أنفقهُ الاهالي

تحويل الحياض ٤٥٠ر٠٠٠ × ٤	=	١ر٨٠٠ر٠٠٠	جنيه
استصلاح البور ٣٠٠ر٠٠٠ × ١٢	=	٣ر٦٠٠ر٠٠٠	»
		٥ر٤٠٠ر٠٠٠	»
فيكون مجموع النفقات	=	١٦ر٨٥٠ر٠٠٠	»

وقد زادت قيمة الاراضي البور بعد استصلاحها بمعدل ٧٠ جنيهاً للفدان وارتفعت اثمان الاراضي الحوضية بعد ان تم تحويلها بمعدل ٥٠ جنيهاً للفدان وبذلك تكون الفائدة التي عادت على ثروة البلاد من التوسع في المساحات المذكورة : —

(١) تحويل الحياض ٤٥٠ر٠٠٠ × ٥٠	=	٢٢ر٥٠٠ر٠٠٠	جنيه
(٢) استصلاح الاراضي البور ٣٠٠ر٠٠٠ × ٧٠	=	٢١ر٠٠٠ر٠٠٠	»
		٤٣ر٥٠٠ر٠٠٠	»

وهناك فائدة أخرى عادت على هذا التوسع بزيادة الايراد السنوي الذي تأتي بهِ الاراضي الجديدة التي استصلحت والتي حولت لتروى بنظام الري المستديم فاذا قدرنا الزيادة في ايراد اراضي الحياض التي تم تحويلها بمعدل ٣ جنيهات للفدان سنويًا وان قيمة ايراد الفدان البور بعد استصلاحهِ بمعدل ٥ جنيهات للفدان سنويًا وهي أرقام متواضعة كما ترون لكانت الزيادة في الايراد كما يأتي : —

(١) تحويل الحياض ٤٥٠ر٠٠٠ × ٣	=	١ر٣٥٠ر٠٠٠	جنيه
(٢) استصلاح الاراضي البور ٣٠٠ر٠٠٠ × ٥	=	١ر٥٠٠ر٠٠٠	»
المجموع		٢ر٨٥٠ر٠٠٠	»

ومن هذه الارقام ترون ما لقيته البلاد من الربح بعد خزان اسوان وتستنتجون ما ستلقاه من وراء انفاقها على اعمال التوسع المستقبلة

مصطلحات علم النفس

ومشكلة ترجمتها وتعريبها

لمحمد مظهر سعيد
استاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية اصول الدين

٣ — الفكر والتفكير

يجد المتتبع لترجمة مصطلحات هذا الموضوع الهام في علم النفس نوعاً جديداً من التخبّط في المؤلفات العربية . فقد اتفق الكتّاب والادباء والمؤلفون والمترجمون على اتخاذ كلمة فكر او تفكير ترجمة لكلمتي Thought و Thinking الانكليزيتين ولكنهم تخبطوا في تحديد معنى العمليات العقلية التي يصح إن يطلق عليها كلمة تفكير ، تخبطاً يستحيل معهُ على الباحث ان يعرف بالضبط حدود هذه العملية ووظيفتها والفوارق الجوهرية التي تميزها عن غيرها من وظائف العقل . فالادباء والكتّاب من ناحية اطلقوا كلمة التفكير من غير قيد او تحديد ، على كل عملية يقوم بها العقل سواء أكانت مجرد تذكر حادثة قديمة او استحضار صورة ذهنية لشيء معروف او التأمل في امر يتمناه الانسان ويشتهيه او يشعر نحوه شعوراً خاصًّا او تدبُّر مستقبله وكيف يرجو ان يكون من غير ادنى تفريق بين ما هو حاضر امامهُ يدركه بحواسه وما هو غائب عنهُ يعرفهُ بصورتهِ او ذكراه . فأصبح المعنى الدارج يتضمن كل سانحة شاردة وكل ذكرى تافهة . وكل حلم من احلام النهار واليقظة . وكل ما يترى في الذهن من حلقات متنافرة متناثرة غير منسجمة ولا متصلة ليست من التفكير الصحيح في شيء

وخطا رجال التربية وعلم النفس خطوة قصيرة فأطلقوه من ناحية اخرى على الفكرة التي تخطر في الذهن عن شيء او شخص لا يكون موجوداً ولا يدركه العقل عن طريق الحس كالذكريات والصور والخيالات — ونحا بعضهم نحو قدماء علماء النفس في الغرب فاعتبروا التفكير مرادفاً لمراتب الادراك المختلفة من ادراك المحسوسات الى العلاقات بين المواقف المحسوسة الى الاستقراء والملاحظة فالتجريد والتعميم والقياس الى التعليل في حين ان لكل من هذه العمليات العقلية شخصيتها التي تحتفظ بها وان اندمجت معاً في المواقف العقلية المعقدة . وسيجد القارىء من هذه المقتطفات أنهم الى جانب هذا اطلقوا الفكر (او التفكير) على هذه العمليات التي لا تمت للتفكير بصلة كالتحصيل والحفظ والاستظهار والانتباه والتصور والارادة . وهذه الامور التي تتصل

بالفكر اتصالاً وثيقاً ولكنها ليست منهُ كالفهم وادراك المعنى والعلاقات وادراك الكليات

١ — يقول المرحوم الشيخ شريف (ص ٣٥) الفكر هو قوة للنفس تتمكن بها مع استخدام العقل من الحصول على المعارف وحفظها واستحضارها (وهذا يقصد بهِ الذاكرة . وغريب جداً ان يفرق بين العقل والفكر)

٢ — ويقول الجارم (ص ٩٧) توجيه النفس وحصر « الفكر » في الحادث (وفي ص ٩٨) الانتباه توجيه « الفكر » وحصره فيما يعرض عليهِ من الاشياء (فهو في الاولى يقصد الانتباه وفي الثانية الشعور جملة)

٣ — ويقول قنديل (ص ٧٥) عند المقارنة بالتخيل : التفكير هو تكوين رأي في الصورة . فهو يشمل الصورة وما تدل عليهِ من حيث معناها وقيمتها (وأفهم من هذا انهُ يقصد التصور ولكني لست افهم معنى الحكم على الصورة الا اذا قصد بها المشكلة او الموقف الذي يفكر فيهِ الانسان وهذا ليس صورة . لأن الصورة الذهنية لا تتطلب حكماً)

٤ — ويقول الجارم (ص ١٠٧) وهو يمثل لضعف الارادة : كأن يظل الطفل مشتت الفكر (ومعنى الفكر هنا غير واضح على الاطلاق وكذلك العلاقة بين الفكر والارادة)

٥ — ويقول الشيخ شريف (ص ٩) — حركة النفس في فهم حقائق الاشياء ونسبها تسمى فكراً (وهذا يتضمن المعنى الصحيح للتفكير لولا انهُ استخدم كلمة الفكر بدون توضيح)

وفي (ص ٧٣) : أن القوة الفكرية في تدبر المعاني (ومعنى تدبر هنا غير واضح على الاطلاق) وزاد الامر تعقيداً بقوله (ص ٧٧) اسناد الاشياء بعضها لبعض يسمى حكماً وتعقلاً او تفكراً او تصرفاً الخ

٦ — ويقول قنديل (ص ١٥٨) التفكير هو موازنة شيء بغيره لادراك ما بينهما من علاقات قريبة او بعيدة . او ادراك ما بين الاشياء بعضها وبعض من اوجه الشبه (وقصر التفكير على خطوة واحدة من خطواته وهي ادراك العلاقات والاقتصار في العلاقات المدركة على مجرد الشبه والتشابه نقص كبير)

٧ — وحدد (في ص ١٥٨) انهُ عملية ادراك الكلي نفسها وهذا تحديد غريب في بابهِ لان ادراك الكلي هو مجرد خطوة من خطوات التفكير وليس التفكير كله

اما التعليل Reasoning وهو نوع من انواع التفكير يقصد بهِ البحث عن علة الاشياء او اسباب المواقف فلم يحددها واحد منهم غير واصف بك فقد ترجمها في قاموسه بالقياس الفكري او النظر ولكنهُ قصر التعليل بهذه الترجمة على القياس واخرج الاستقراء الذي هو خطوة هامة من خطوات التعليل . فهل يستطيع القارىء الذي لم ينل قسطاً كبيراً من دراسة علم النفس الحديث في المراجع الغربية بلغاتها الاجنبية ان يعرف بالتحديد معنى التفكير والفوارق الجوهرية بين هذه العملية الهامة وغيرها من العمليات العقلية

ولكننا مع هذا نلتمس العذر كل العذر للمؤلفين والمترجين . فقد وقع علماء الغرب الذين نقلوا

عنهم في نفس هذا الخطأ حتى ادرك المحدثون ان التفكير الصحيح لا يتعين فيهِ ان تتوالى الوحدات بعضها وراء بعض وتتعاقب وترتبط مجرد ارتباط فحسب . بل لابد لها ان ترتبط ارتباطاً محكماً بحيث تستند كل خطوة الى سابقتها . وتحدد التي تأتي بعدها فتكون حلقة متصلة في سلسلة الافكار . وكذلك لا يكون مجرد التأمل في شيءٍ غير حاضر للحس تفكيراً . فقد يتخيل المرء حادثة منسجمة الاتصال . مترابطة الاجزاء كما يفعل القصصيون والروائيون من غير قصد اثبات شيء او نفيه او الاعتقاد في حقائق او نظريات او التصرف في موقف «عن طريق ايجاد العلاقات الصحيحة بين اجزائهِ حتى نستطيع الحكم عليهِ جملة في حدود هذه العلاقات التي يصبح الموقف بدونها عديم المعنى »[١]

فالتفكير بمعناه الحديث — الذي حدده الفيلسوف الامريكي جون ديوي وعنهُ اخذت المدارس الحديثة — « هو العملية العقلية التي يقوم بها العقل عند شعوره بأنهُ يواجه موقفاً معقداً غير مألوف لديه او مشكلة جديدة تتطلب منهُ ان يتصرف تصرفاً خاصًّا مقيداً بالظروف والعلاقات القائمة فعلاً — او التي يستنبطها العقل — بين اجزاء هذا الموقف . او بين هذا الموقف وموقف آخر يتصل بهِ او يماثله »[٢] . وبعبارة اخرى «هو عملية عقلية يكيف بها الانسان نفسه حتى يتصرف في الموقف الذي يجدّ لهُ ويشعر المفكر ذاته بهذه الملاءمة ولو كان الموقف حسيًّا بحتاً »

فالاصل في التفكير اذن وجود مشكلة متشعبة الاطراف لها حل واحد او جملة[٣] حلول يجدها العقل او يفضل واحداً منها على البقية — او حالة ارتباك وشك تدفع العقل الى محاولة ايجاد مخرج منها او الوصول الى نظرية او رأي او مشروع نحل بهِ عن طريق البحث وكشف الحقائق التي تساعد على الوصول الى الحل

وعلى وجه العموم لا يصح لنا أن نسمي العملية العقلية تفكيراً الاّ اذا تضمنت العناصر الآتية :

(١) — الشعور بضرورة التصرف في المشكلة القائمة (٢) — تقدير القيم النسبية للموقف واجزائه وادراك ما بينها من علاقات وتعليل الموقف لاستخلاص نتيجة معينة (٣) — الحكم على الموقف او الموضوع بالصحة او البطلان

وفي ضوء هذا الرأي يصح ان نعتبر ان التفكير يتم في كل مستويات الادراك وليس هو بقاصر على مستوى ادراك الكليات كما كان يقول قدماء علماء النفس والمنطق . ففي مرتبة الادراك الحسي يكون موضوع التفكير خاصًّا محدوداً مميزاً وفي الادراك الكلي يكون معقداً متناولاً لمجموعات كاملة او كليات مجردة عن الحس وهو كذلك يتضمن كل عمليات المقابلة وفرض الفروض والتجربة والتعليل والحكم التي كانت ولا تزال تعتبر في المنطق عمليات قائمة بذاتها

فاطلاق ترجمة التفكير على الاحساس والتذكر والتصور والخيال خروج عن الموضوع — وعلى مجرد ادراك العلاقات او الكلي او الحكم والتعليل تقييد مخل لا معنى له — وعلى الفهم والتأمل توسع غير مقبول . ومن شاء المزيد فليقرأ كتابي في الادراك والتفكير « علم النفس النظري والتعليمي »

(١) Betts : Mind & its Education (٢) Dewey : How We Think
(٣) Collins & Drever : Exp.Psychology

بماذا تتفوق السلالات

أبالدم تفوقها ام بالبيئة

على ذكر القول بتفوُّق السلالة النوردية

قلما يختلف اثنان في ان السلالة النوردية — السلالة التي تنطوي تحتها شعوب اوربا الشمالية — سلالة عظيمة ولها مكانة خطيرة في تاريخ الحضارة ولكن اذا ادَّعى احد بأن السلالة النوردية هي اعظم السلالات البشرية على الاطلاق ، وان جميع الحضارات الراقية من بنائها ، هبَّ غير واحد من العلماء لتحدّي هذا القول وردّه

مثل هذه الاقوال المتطرفة ، وخاصة اذا ارسلت باسم العلم ، دليل على ان شؤون الحياة العاطفية ، تميل بالعقل عن ميزانهِ العادل . فاذا كنا نورديين وقيل لنا القول المتقدم عن تفوق السلالة النوردية ، آمنَّا بصحتهِ ، لانهُ يرضي في نفوسنا ، عزتها وكرامتها ، فاذا نحن اقتنعنا بتفوق سلالتنا الخاصة ، او عقيدتنا الخاصة ، او بلادنا الخاصة ، صار من السهل علينا ان نستنبط الادلة ، التي تؤيد هذا الاقتناع . حتى العلماء ، يتعرضون لمثل هذا المزلق الخطير . فنهم من يرى رأياً علميًّا ، ويقتنع بهِ ، فيروح يبحث عن الادلة التي تؤيدهُ ، ولو كان يحتاج الى كثير من العنت في سبيل ذلك

وليس في الدعوى القائمة على تفوق السلالة النوردية شيء جديد ، بل هي ناحية جديدة من مذهب سرى في خلال القرن التاسع عشر مؤداه ان بعض طوائف من الناس لها حق منزل في ان تسود الطوائف الاخرى . ومن قبل ذلك احسَّ المؤلف الانكليزي دانيال ديفو مؤلف رواية روبنصن كروزو بانهُ مطالب من قبل نفسه ، بل ومن قبل الحق والعدل ، بأن يهبَّ الى السخرية من مثل هذا الرأي الذي يرمي الى تبويء سلالة معينة المكانة العليا في تاريخ الانسانية كأن هذه المكانة خاصة بها من طريق الوضع الالهي . ولكن العواطف الانسانية قوية لتأصلها في الطبيعة البشرية ، فتطغى على صوت العقل ونوازع المنطق ، فتبدو نظرية « التفوق العنصري » او « تفوُّق سلالة خاصة » مرة بعد اخرى في خلال عصور التاريخ مع ان العقل والعلم لا يؤيدان الاركان الواهية التي تقوم عليها

ونحن الآن نشهد انبثاق هذه الفكرة او هذه النزعة من جديد بعد ما كنا قد ظننا انهُ قُضي عليها في اواخر القرن التاسع عشر

ونظرية « التفوق النوردي » هي فرع من نظرية التفوق الآري (اي تفوق الشعوب الآرية) التي كان زعيمها ذلك الارستقراطي الفرنسي كونت جوزيف أرثر ده جوبينو الذي توفي سنة ١٨٨٢ . فده جوبينو هذا ، ذهب الى ان الشعوب الآرية وحدها دون غيرها هي التي خلقت كل ما له قيمة في الحضارة ، وحافظت عليهِ . وفكرة وجود سلالة آرية ، نشأت من تشابه اللغات الهندية الاوربية ، مما حدا الى القول ، بانها جميعها ترتد الى اصل واحد ، هو اللغة الآرية . والقول بتفرع اللغات الهندية الاوربية من اللغة الآرية ، قول له سند علمي صحيح . اما ما ذهب اليهِ جوبينو من ان وجود لغة آرية اصلية — تفرعت منها اللغات الهندية الاوربية — يقتضي كذلك وجود سلالة آرية فقد كان وهماً من الاوهام

فلما خلقت هذه السلالة الموهومة على الطريق المتقدم ، أُسندت اليها جميع الفضائل ، وقيل انها منبع جميع الحضارات العالية ، من قديم الزمان الى حديثه ، . وقيل ان النورديين ، هم سلالة الآريين الذين توطنوا شمال اوربا في القِدَم ، ومنهم الشعوب التوتونية والانجلوسكسونية .ومع ذلك لم يستطع احد من العلماء ان يأتي بسند علمي واحد ، على ان السلالة الآرية كانت موجودة حقيقة ، إذ ليس ثمة علاقة حتمية ، بين اللغة والسلالة . « فالآرية » لغة ، واستعمالها للدلالة على سلالة معينة — كما يستعملها الالمان اليوم — ليس له مسوّغ علمي واحد

اما الشعوب النوردية فلا يعلم اصلهم على وجه التحقيق ، بل ليس من المؤكد انهم ينتمون الى سلالة صريحة النسب

ومهما يكن من اصل الشعوب النوردية ، فلا ريب في انهم كانوا شعوباً جمة النشاط . ثم لا ريب كذلك في ان دماءهم التي اختلطت في فترات مختلفة من التاريخ بدماء بعض الشعوب في اوربا الجنوبية ، كان لها أثر كبير في ارتقاء جنوب اوربا . ولكن هذا القول يمكن أن يطلق على شعوب مختلفة . فان اختلاط شعبين ، من سلالتين مختلفتين ، اذا كان الشعبان نشيطين متفوقين في استعدادهما الحيوي والذهني ، لا بدَّ ان يسفر عن شعب جديد متفوق في الغالب على الشعبين اللذين نشأ منهما

وليس في امكان العلماء ، والعلم في حالته الراهنة ، ان يقولوا ، بان سلالة بعينها من السلالات ، ـ او طائفة من سلالات ـ متفوقة بطبيعة تركيبها ونشأتها على السلالات الاخرى . بل انهم لا يعلمون هل بين السلالات هذه الفروق التي تجعل السلالة الواحدة متفوقة على الاخرى ، لانهم لم يستنبطوا حتى الآن مقاييس لقياسها . نعم لقد ابتدعت مقاييس الذكاء ، ولكن هذه المقاييس ، لا تقيس الأثر البيئة والثقافة في الذكاء ، وقلما تستطيع ان تقيس الذكاء الاصلي ، الذي لم تؤثر فيهِ عوامل البيئة والثقافة

ومع ذلك تستمرُّ خرافة تفوُّق السلالة النوردية فيقول اصحابها ان مجد اليونان عائد الى الشعوب النوردية التي غزت بلاد اليونان ، وان روما استطاعت ان تحافظ على عظمتها طوال ما احتفظت بدمها الآري نقيًّا غير مدخول ، وان قيام الحضارة الاسبانية يعود الى دماء القوط الذين غزوها ، وان انحطاطها بدأ لما اختلط هذا الدم بدماء الشعوب الاخرى ، وان عصر الاحياء في القرون المتوسطة وما بعدها كان ظاهرة نوردية بحتة

***

فلننظر الآن في المبادىء التي تقوم عليها هذه الدعوى . اي صحة في قول القائل بان اليونان والرومان والاسبان كانوا نورديين صراح النسب لما كانوا في اوج عظمتهم ؟ من الصعب ان تعين العناصر المختلفة التي تدخل في بناء امة من الامم في فترة ما من فترات تاريخها ولكننا نستطيع ان نتيقن من شيء واحد ، وهو ان الحروب والغزوات والفتوحات المختلفة قبل عهد التاريخ المدوَّن ، وفي فجر التاريخ ، كانت من بواعث اختلاط الشعوب بعضها ببعض وان دماء سكان اوربا في عهد اليونان ثم في عهد الرومان لم تكن صريحة من ناحية السلالة على الاطلاق . والقول بان الشعوب الرومانية واليونانية كانت صريحة السلالة لا تقوم الاَّ على الرغبة في تصديق هذا القول . وليس لها اي سند من المباحث الانثربولوجية . فالعلامة دكسون يقول ان الاسبرطيين — وهم في نظر دعاة النوردية شعب نوردي حر — من الشعوب الالبينية . وكذلك الاوترسكانيون كانوا يحسبون نورديين ولكن هرتز يقول في كتابه « السلالة والحضارة » ما يأتي : « وثمة حقيقة واحدة ثبت ان لا ريب فيها وهي ان هؤلاء القوم لم يكونوا من النورديين ولا من الهنديين الجرمانيين Indo—Germans »

ومجرد التناقض بين دعاة « النوردية » يكفي للقضاء على مكانتها من الوجهة العلمية . فبعضهم يحسب ان النهضة او الاحياء في ايطاليا ، نتيجة لاختلاط الدماء التوتونية بدماء الايطاليين في عصر انحلالهم . أما ده جوبينو ، وهو منشيء هذه الفكرة في القرن التاسع عشر ، فيؤكد ان النهضة (الرينيسانس) من آثار قوًى غير توتونية . وليس هذا بالمثل الوحيد على تناقضهم

***

قد يكون من الحمق ان تنكر أثر السلالة في نشوء الامم وارتقاء الحضارة ولكن من الصعب ان تفرق بين أثر السلالة وأثر العوامل الاخرى المتعددة في نشوء الامم وارتقاء الحضارة . على ان الذين يقولون بتفوق بعض السلالات على غيرها ، يتجاهلون هذه العوامل الاخرى ، كل التجاهل . فمن يقول بأن حضارة اسبانيا ترتد الى الدم النوردي ، وان انحلالها يرتدُّ الى ضعف هذا الدم باختلاطه بدماء الشعوب الاخرى ، يغضي او يتغاضى ، عن أثر العوامل الاخرى في تقدم الحضارة الاسبانية كالعوامل الجغرافية والاقتصادية على اختلافها . واذ جارينا اولئك على ما يقولون — وهو ان النورديين هم سبب حضارة اسبانيا — فكيف نستطيع ان نعلل ان حضارة المغاربة في اسبانيا ،

كانت مدى عهد طويل ، ارق الحضارات الاوربية ؟ او هل نستطيع ان نقول ان المغاربة من اصل نوردي ؟ !

قد يكون من السهل ان تفند مزاعم « النورديين » . ولكن ليس من السهل ان نعلل ، تعليلاً وافياً ، قيام الحضارات وانحطاطها . فالمسألة معقدة كل التعقيد . وقد لا يمكن حلها على الاطلاق . وانما نستطيع ان نشير الى امر واحد ، يحملنا على الحذر في اصدار مثل هذه الاحكام . فشمال اوربا مضى عليه قرون عديدة ، وهو مباءة شعوب نوردية ، صريحة في نورديتها الى حد بعيد ، ولكن شمال اوربا هذا ظل غير متمدن ، بمعنى التمدن الحديث الى عهد قريب في التاريخ . بل انك لا تستطيع ان تدعي ان حضارة ابتدعت في شمال اوربا . وان النورديين لم ينشئوا قط حضارة خاصة بهم مميزة لهم ، في موطنهم هذا . فهل كانوا عاجزين عن ذلك ؟

اننا نعلم ان الحضارة بدأت اولاً في اقاليم جنوبية ، تقطنها سلالات غير السلالة النوردية — في الهند والعراق ومصر وكريت — هذه البلدان كانت مواقع الحضارات الاولى . ثم انتقلت الحضارة رويداً رويداً من شرق بحر الروم الى اواسطه الى غربه ، ثم الى البلدان الشمالية . وكذلك لم يكن للشعوب النوردية اي شأن في ترقية الحضارة او ابتداع اصولها وأركانها ، قبل ان انتهت اليهم حضارات البلدان التي ذكرنا ، بعد مطافها الطويل من شرق بحر الروم الى غربه خلال العصور

واذا كانت السلالة هي العامل الوحيد ، او العامل الرئيسي في قيام الحضارة ، فلماذا ظل اولئك النورديون الشقر في شمال اوربا ، في حال الهمجية ، بينما كانت الشعوب الاخرى غير النوردية تخترع حروف الهجاء ، وتبني الامبراطوريات ، وتستكشف سطح الكرة ، وتربط بين اجزائها بروابط التجارة ؟ ثم كيف نعلل تقلدهم — اي النورديين — زعامة الحضارة بعد همجية طويلة ، لم يتغير في خلالها تركيبهم العنصري ، تغييراً كبيراً ؟

***

كل هذه الامثلة تبين ما للعوامل الجغرافية والتاريخية من أثر في توجيه مصير الامم . فالجزر البريطانية بموقعها الجغرافي كانت بعيدة عن تيارات التجارة والثقافة ، اذكانت هذه التيارات محصورة في بحر الروم . فحال ذلك دون بلوغها مكانة عالية في شؤون العالم — قبل القرن الخامس عشر . فلما كشف كولمبوس اميركا وبدأ « العهد الاتلنتيكي » في تاريخ العالم اصبحت بريطانيا فجأة ، وكأنها على خشبة المسرح العالمي

فوقعها في الطرف الشمال الشرقي من المحيط الاتلنتيكي ، مواجهة للعالم الجديد ، خصها بامتيازات مكنت اهلها من تقلد الزعامة العالمية . وعلى الضد من ذلك كانت ايطاليا ، في مركز العالم لما كانت الحضارة محصورة في بحر الروم ، فلما انتقلت الى المحيط الاتلنتيكي ، فقدت مكانتها ، ذلك أنهُ لما

كشفت الطريق البحرية الى الهند ، حول جنوب افريقيا ، فقد بحر الروم مكانته كسبيل للتجارة العالمية ، وانحطت المدن الايطالية ونقصت ثروتها

فاذا نحن تدبرنا كل هذا ، لم نستطع بحال من الاحوال ان نسند انحطاط ايطاليا ، الى عوامل السلالة والدم دون غيرها

***

ثم توالت المكتشفات والمخترعات ، فأضيف الى العامل الجغرافي في قيام الحضارات ، وارتقاء الامم ، عامل جديد . فالآلة البخارية والعصر الصناعي الذي تلاها ، احدثا انقلاباً سياسيًّا وتحولاً اقتصاديًّا . ففي خلال القرنين الماضيين كان تفوُّق الامم ، يكتسب في الغالب بمقدار ما تملكه من الطاقة المحركة (عدد الاحصنة البخارية) والقوة البخارية المحركة تعني حديداً وفحماً . فمن الحمق ان نتجاهل الحديد والفحم في درس تفوق السلالة النوردية ، وان نتكلم عن الدم فقط . وقد يكون من الصعب ، ان نعين مدى أثر الفحم والحديد ، في تاريخ بريطانيا والولايات المتحدة ، ازاء العوامل الاخرى ، ولكن الراجح انهُ لولا وجود مناجم الفحم الغنية في بريطانيا والولايات المتحدة ، لكان تاريخ القرنين الاخيرين غير ما كان

***

فتاريخ كل حضارة ، كحياة كل انسان ، تفاعل دائم بين الوراثة والبيئة . فالجغرافي يقدم عوامل البيئة ، وقد اشرنا الى بعضها . وليس الغرض من هذا المقال ان نقابل بينها ، وبين العوامل الاخرى ، وانما الغرض ان نثبت ان عوامل البيئة تعين حدوداً ، قد لا تستطيع الامة ان تتعداها . فشعوب المايا في اميركا المتوسطة انشأت حضارة عالية . ولكن القول بأنها شعوب منحطة لانها لم تعادل في حضارتها حضارة اليونان ، جهل وحمق . ذلك ان هؤلاء الناس انشأوا حضارة وهم لا يملكون حديداً ولا حيوانات لحمل الاعباء فبيئتهم لم تمكنهم من هذين العاملين المهمين

اننا لا ندري ما كان اليونان يستطيعون ان يفعلوا لولا الخيل والماشية والحديد . وهذا كلهُ ورثوه من شعوب اخرى . أما بيئة شعوب المايا فلم تتح لها هذه المزايا . ومع ذلك فبعض العلماء يقول ان شعوب المايا فاقت اليونان في بعض النواحي

وليس ثمة اية فائدة تجنى من هذه المقابلات . لانها لا تفيدنا شيئاً عن القوى الذهنية مجرَّدة عن عوامل البيئة . فنحن لا نعلم البواعث على انحطاط حضارة المايا ولكن لا يحق لنا ان نسندها تحكماً الى ضعف اصيل في السلالة . والعلماء مختلفون في ذلك . فالاستاذ هنتنغتن مثلاً يسندها الى تغيُّر الاقليم . وأدلته في هذه الناحية مقنعة . فالسلالة عامل واحد من عوامل الحضارة ، كالموقع الجغرافي والاقليم والتربة والحيوانات والنباتات والمعادن [عن السينتفك اميركان بتصرف يسير]

البحث عن الثروة المعدنية

بالقطر المصري

للدكتور حسن بك صادق [1]
مراقب مصلحة المناجم والمحاجر

سادتي : في البلاد رغبة ملحة تظهر واضحة عند كل مناسبة في اجتماعات مجالسنا النيابية وعلى صفحات جرائدنا ومجلاتنا وفي الاسئلة التي توجه الينا بين آونة واخرى من كل من يهتمون بشؤون البلاد الاقتصادية للوقوف على ثروة مصر المعدنية والمدى الذي يمكن الاعتماد عليها عند تقدير الثروة الأهلية العامة. وللبلاد في هذه الرغبة خير قدوة في شخص مليكها العظيم فؤاد الأول الذي يحبو بعطفه الكريم جميع القائمين بشؤون التعدين في مصر ، وقد أولاهم عام ١٩٢٧ شرف زيارتهم في اماكنهم النائية والوقوف بنفسه الغالية على ما يبذلونه من جهود . وقد سنّ حفظه الله بتلك الزيارة سنّة اتبعها من بعده الكثيرون من اولي الامر فكانت لزياراتهم خير الثمرات

وليست هذه الرغبة للوقوف على ما قد يكون للبلاد من ثروة معدنية كمينة فحسب ، بل هو مظهر من المظاهر التي تجلت في السنين الاخيرة نتيجة ما نشعر به جميعاً من ان الزراعة وان كانت هي العماد الاكبر لثروتنا الاهلية والتي تتجه نحو انمائها اعظم جهودنا لا يجب ان تنفرد دون غيرها باهتمامنا بل يجب ان تتجه جهود بعض ابنائنا وجهة الصناعة والتجارة حتى تقوم مدنيتنا الحديثة على أساس استقلالنا في كل ما يمكن ان نستقلّ فيه من المرافق عن البلاد الاخرى

وللثروة المعدنية من خامات ووقود علاقة وثيقة بمختلف الصناعات فلا تقوم لهذه قائمة الا اذا توافرت لها بعض ما يلزمها من خامات في داخل البلاد او كلّهُ

تلبيةً لهذه الرغبة وتطميناً لجميع من يهتمون بمرافق الدولة الاقتصادية ، رأينا ان نعرض على حضراتكم بياناً مختصراً للجهود التي بذلت فيما مضى وما يبذل في الوقت الحاضر وما يجب ان يبذل في المستقبل للوقوف على كنه الدفين من هذه الثروة في الاراضي المصرية وما يجب ان يتخذ من الاجراءات نحو استثمارها والاستفادة منها في اقامة صناعات مصرية لسد حاجة البلاد وللتصدير

ولكي تقدروا تقديراً صحيحاً عظم هـذه الجهود التي يجب ان تبذل في البحث نذكركم بأنّ مساحة القطر المصري تبلغ نحو ٢٤٠ مليون فدان منها ٧ ملايين فقط هي الاراضي المزروعة او

(١) محاضرة القيت في المؤتمر السنوي الذي عقده المجمع المصري للثقافة العلمية في الاسبوع الثاني من شهر ابريل الماضي

القابلة للزراعة في وادي النيل والدلتا اي ما لا يزيد عن ٢ في المائة من مجموع المساحة . اما السبعة والتسعين الباقية فهي أراض صحراوية يعوزها الماء صعبة المواصلات غير مأهولة الا بالنذر اليسير من البدو الرحل الذين لا يفقهون من أمور الحياة سوى رعي الابل والاغنام . فهذه المناطق الشاسعة لا أمل لها في الحياة الا بقدر ما قد يوجد في بطون صخورها من ثروة معدنية دفينة

ولا شك أنكم تقدرون ان المجهود الذي يجب ان يبذل في فحص هذه القفار الشاسعة تحت هذه العوامل القاسية يجب ان يكون مجهوداً جباراً منظماً متصلاً يستمر بغير كلل او ملل مدى سنين كثيرة وبغير ان يكون لما يناله في أي مرحلة من مراحله من نجاح او اخفاق اي أثر في استمراره

هذا المجهود يتطلب من القائمين به أن يكونوا شديدي الثقة والايمان في المهمة التي القيت على عواتقهم وأن يكونوا قد تزودوا من علوم التعدين والجيولوجيا احدثها . وان يكونوا ذوي أناة وصبر على الشدائد ، ورضى بشظف العيش ، راضين بما قسم لهم قانعين بما ينال عملهم من نجاح وان لم يعد عليهم شخصيًا بربح مادي فعلى الاقل بالشعور أنهم يقومون نحو وطنهم بخدمة من أجل الخدمات وأشرفها

ولا تقف صعوبة ظروف الصحراء عند حد عمليات البحث بل تلازم ايضاً عمليات الاستغلال فوسائل العمل والنقل وتدبير الماء والوقود والعناية بالعمال وتغذيتهم بحاجتهم من ماء ومأكل ، كل ذلك يتطلب ممن يقومون بتدبير شؤون العمل في المناجم المصرية حيلة واسعة لاستنباط وسائل تجمع بين القصد في النفقات والكفاية للعمل . وقد يكون من ألذ الدراسات الاحاطة بما يبتدعه مهندسو المناجم المشتغلون في الصحاري المصرية من وسائل لمقابلة ما يصادفهم من عقبات ومغالبتها والتغلب عليها

امام هذه الظروف القاسية وما يتطلبه التغلب عليها من نفقات احياناً ما تكون طائلة قد يتعذر على الفرد وحده ان يقوم بمجهود موفق في البحث بل يجب ان يضطلع باعبائه جماعة او شركة او الحكومة المصرية نفسها . والاخيرة بحكم ملكيتها للاراضي التي تستكن في بطونها الخامات المعدنية وبحكم ما لها من الهيمنة على اغاء الشؤون الصناعية في البلاد يقع عليها قبل غيرها واجب البحث عن المعادن وتشجيع استثمارها

وقد كانت هذه الحال منذ أقدم عصور التاريخ المصري فكان فرعون مصر هو الذي يوفد البعثات للبحث عن الذهب والنحاس والاحجار الكريمة في مجاهل الصحاري

وفي خزائنه كانت تودع المعادن التي تعود بها هذه البعثات . وكان هو الذي يتولى توزيعها على اتباعه وحتى على من يدينون له بالولاء من ملوك البلاد الاخرى . وفي الخطابات التي تبادلها بعض الملوك الفراعنة مع ملوك الشام وآسيا الصغرى أصدق دليل على ما نقول

وانا لنطأطىء الرؤوس اجلالاً للدقة التي كانت للمصريين القدماء في البحث عن المعادن . فلسنا

مبالغين اذا قررنا انهُ فيما يختص بالذهب على الاقل لم يعثر الباحثون بعد على عرق واحد لم يقم المصريون القدماء بفحصه واستغلاله . ولا يختلف الحال عن ذلك كثيراً في شأن المعادن الاخرى التي كانت لها قيمة عندهم كالمغرة (اوكسيد الحديد) والاحجار الكريمة (الزمرد والزبرجد) والنحاس

كذلك كان هناك نشاط في استغلال مناجم الذهب والاحجار الكريمة كالزمرد والزبرجد والفيروز ابان الحكم العربي الاسلامي ، وكتب المقريزي والمسعودي وغيرهما تفيض بالشرح عن اخبار هذه المناجم وما كان يستخرج منها من كنوز . ولا شك ان استغلالها كان على يد بعثات حكومية كما كان في عهد الفراعنة

تولت مصر بعد ذلك عصور ضعف واضمحلال اضطرب فيها الحال في الصحاري واستوحش البدو القاطنون بها فحالوا دون اي توغل فيها او استغلال لمعادنها فأسدل ستار كثيف عليها وأضحت الصحاري المصرية محوطة بظلام حالك من الاوهام الباطلة ومضى عليها في ذلك بضعة قرون

على انهُ في القرن الثامن عشر كان يفد على مصر من وقت لآخر بعض الرحالة من علماء الفرنسيين والطليان والانكليز نذكر من بينهم Sicard عام ١٧١٧ و Donate ١٧٥٩ — ١٧٦٢ و D'anville عام ١٧٦٦ و Bruce عام ١٧٩٠ وغيرهم

فكان من بين ما زاروه ووصفوه وادي النطرون وبعض جهات الصحراء الشرقية وخاصة جبل الزيت ومناجم الزمرد والزبرجد ومحاجر الالباستر قرب بني سويف ، ولو ان اوصافهم كانت تعوزها الدقة العلمية التي امتاز بها من جاء بعدهم

وفي اوائل القرن التاسع عشر غزا مصر نابليون بونابرت واصطحب معهُ اليها جماعة من كبار العلماء الفرنسيين فكلفهم القيام بدراسة علمية مستفيضة لمختلف الموضوعات الخاصة بمصر فقام من بينهم Valentia عام ١٨٠٩ بفحص مناجم الذهب بوادي العلاقي بالصحراء الشرقية بين اسوان والدر وكذلك Quatremere عام ١٨١١ فتحص مناجم الزمرد بسكيت وزبارا على مقربة من شواطىء البحر الاحمر جنوب القصير

وامتاز من بينهم جميعاً de Roziere بدقة ملاحظاته وواسع اطلاعه وله في كتاب وصف مصر Description de l'Egypte عام ١٨١٣ كتابات قيمة عن الجيولوجيا المصرية ووصف بعض الاحجار التي كانت قد استغلها القدماء واستعملوها في معابدهم وهيا كلهم

ولما استعاد ساكن الجنان محمد علي باشا الكبير مؤسس الاسرة العلوية الكريمة لمصر وحدتها القومية واراد ان يجعل منها بلاداً حية قوية ، رأى انهُ لتحقيق ما كان يصبو اليهِ من اقامة مختلف الصناعات لا بدَّ لهُ من الوقوف على ما في البلاد من ثروة معدنية فاستعان بعدد كبير من علماء الاوربيين جهزهم في بعثات الى مختلف نواحي الصحراء ، وكان يشرف بنفسه على تنفيذ خطته ويتتبع عن كثب النتائج التي وصلوا اليها تباعاً وبهذا بدأت المرحلة الاولى في البحث المنظم عن المعادن المصرية

وقد كان اظهر هؤلاء العلماء واكثرهم اتصالاً بالموضوع الذي نحن بصدده : —

Caillaud ‏١٨١٥ — ١٨١٨ الذي قام بفحص مناجم الزمرد فحصاً دقيقاً و Ruppel ‏١٨٢٩ وكانت جهوده موجهة نحو شبه جزيرة سينا حيث استكشف خامات النحاس والحديد و Sir J. Wilkinson ‏١٨٣٥ الذي زار جبل الزيت وفحص البترول الذي ينضح على مقربة منهُ . ومواطن الكبريت في جمسا ومحاجر الالباستر قرب تل العمارنة واسيوط ومناجم الزمرد والرصاص وغيرها

و Brocchi ‏١٨٤١ — ٤٣ أعاد فحص مناجم الرصاص والزمرد والذهب وزار محاجر الحجر السماقي الامبراطوري بجبل الدخان

على ان Russeger ‏١٨٤١ — ٤٨ كان اظهرهم جميعاً اذ كان اول من وضع خريطة جيولوجية للقطر المصري مع تدوين اوصاف دقيقة عن بعض المناطق التي تحتوي رواسب معدنية مما سبقت الاشارة اليها

اما Figari Bey ‏١٨٤٤ فكان من اكثرهم تنقلاً في الصحاري المصرية وطبع خريطة جيولوجية كبيرة الاَّ انهُ كانت تعوزه الدقة العلمية فقد اظهر البحث فساد الكثير من نظرياته . وكان يعتقد اعتقاداً راسخاً في وجود الفحم الحجري وقام بابحاث كثيرة عنهُ بينما كان لا يتفاءل كثيراً في وجود البترول وقد ظهر ان الحال على الضدّ من ذلك فيما بعد

ومن الطليان ايضاً Forni الذي قام بابحاث بأمر والي مصر عام ١٨١٩ ولم تطبع ابحاثه الاَّ عام ١٨٥٩ وقد تناول فيها وصفاً دقيقاً لاغلب المواطن المعدنية المعروفة

ومن اشهر هؤلاء العلماء Linant de Bellefond الذي بعثه محمد علي باشا في بعثة نيلية الى ما فوق اسوان فلما ان وصل الى بلدة العلاقي عاق سير سفينته تيار شديد من جراء انحدار مياه السيول من وادي العلاقي فرسا بمركبهِ وفحص الحصى الذي قذفت بهِ السيول فوجد بينها حصيات من الكوارتز الحامل للذهب فدعاه ذلك الى ترك السفينة والقيام برحلة الى اعالي وادي العلاقي فزار مناجم الذهب القديمة في سيجع ودرهيب ووصفها جميعاً عام ١٨٦٨ وصف خبير دقيق . على انهُ لم يصحب وصفه بخريطة تحدد مواضع المناجم التي زارها

هذا قدر مختصر يدل على المجهود الكبير الذي بذله محمد علي باشا للكشف عن ثروة مصر المعدنية واذا لم توفق هذه البحوث الى استغلال المناجم فكان لها على الاقل الفضل الاول في اماطة اللثام عن لغز الصحاري المصرية . وكانت المعلومات التي جمعها هؤلاء العلماء والنتائج التي حصلوا عليها نوراً استضاء بهِ من جاء بعدهم

ولم يكن المغفور له اسماعيل باشا أقل اهتماماً بالمباحث المعدنية او اقل تشجيعاً للقائمين بها من جده المعظم فساعد فيجارى ولينان دي بلفون على الاستمرار في بحوثهما التي شرعا بها قبل توليه حكم مصر كما انه فتح الباب على مصراعيه لغيرهما من الرواد وقد امتاز من بينهم Oscar Fars الالماني عام ١٨٦٧ بمباحثه في سينا وعلى الطريق بين قنا والقصير التي بلغت مبلغاً كبيراً من الدقة

و Banermann عام ١٨٦٩ الذي كان اول من لاحظ وجود خامات الحديد والمنجنيز بشبه جزيرة سينا وLartet ١٨٦٩ الذي كان اول من اعطى بياناً ضافياً عن الصخور المصرية من الناحية البتروجرافية

وكان من اشهر من جابوا الصحارى في عصر اسماعيل Schweinfurth ١٨٧٥ — ٧٨ الذي ضمن بحوثه في الصحراء الشرقية خرائط دقيقة وكانت لكتاباته أهمية في مباحث البترول بجبل الزيت . وكذلك Karl Von Zittel الذي كان له الفضل عام ١٨٨٠ في تبويب وتهذيب النتائج العلمية التي وصلت اليها بعثة Rholfs الشهير

الى هنا انتهت المرحلة الاولى من مراحل البحث وهي التي قام بها الروّاد بزيارات واسعة المدى لمختلف المناطق . فاذا لم تؤد مباشرة الى استغلال مناجم معينة فكان لها فضل تعبيد الطريق الى البحوث المنظمة فيما بعد . وبدأت المرحلة الثانية بانشاء قسم المساحة الجيولوجية عام ١٨٩٦ وكان انشاؤه على اساس مذكرة قدمها الكابتن (كولونيل) ليونز Lyons مدير المساحة اذ ذاك وكانت عبارة عن مجموعة الادارات الفنية في الحكومة المصرية . والمقدمة التي وضعها الكابتن ليونز لمذكرته توضح الغرض الذي من اجله أنشىء ذلك القسم وقد جاء فيها ما ترجمته :—

« إن الغرض من انشاء قسم المساحة الجيولوجية هو قبل كل شيء لفحص الموارد المعدنية للبلاد ولتدوين المعلومات عن مختلف الرواسب وبخاصة من بينها تلك التي لها قيمة اقتصادية كالفحم والعروق المعدنية ورواسب الاملاح وغيرها . يأتي بعد ذلك في المقام تدوين هذه المعلومات بطريقة سهلة التناول كوضعها على خرائط وفي مذكرات وتقارير تفسيرية الخ . وبمجرد الوقوف على حقيقة التركيب الجيولوجي لاي منطقة تسهل معرفة الطبقات الصخرية التي يجب اختراقها في اي نقطة وتقدير سمك كل منها بتقريب دقيق »

وقد عقّب الكابتن ليونز على هذه المقدمة بتفصيل الخطة التي اتبعت فيما بعد وعادت بأحسن النتائج كما سنبينه . وقد استعان في تنفيذ خطته الموضوعة بشبان من الانكليز الذين تخصصوا في العلوم الجيولوجية قاموا بأجل الخدمات للجيولوجيا المصرية والبحث عن المعادن في هذه البلاد نذكر من بينهم الدكتور هيوم Hume المستشار الجيولوجي للحكومة المصرية والدكتور بول Ball مدير قسم مساحة الصحارى والذي جعل من مساحة الصحارى فناً دقيقاً ذا قواعد علمية ثابتة وبيدنل Beadnell وبارون Barron وغيرهم

فاختصّ كل واحد منهم بناحية من نواحي الصحراء الشاسعة استكشفوها استكشافاً جيولوجيّاً عامّاً ودوّنوا مشاهداتهم في تقارير مستفيضة هي عمدة معلوماتنا الجيولوجية المصرية . ثم قورنت النتائج التي وصلوا اليها جميعاً وبوّبت ووضعت في خريطة جيولوجية مقياس ١ في المليون نشرتها مصلحة المساحة عام ١٩١٠ . ويمكننا ان نقرر ان هؤلاء العلماء قد وضعوا بعملهم هذا الاساس العلمي الذي يجب ان يقوم عليه البحث المنظم للكشف عن الثروة المعدنية المصرية

ولم تكن بطبيعة الحال خريطة عام ١٩١٠ كاملة في كل النواحي على ان العمل المستمر بعد ذلك والذي اشترك فيه جميع من انتظموا بالقسم الجيولوجي قد مكن من سد الفراغ وتصحيح بعض المعلومات حتى ظهرت عام ١٩٢٨ الخريطة الجيولوجية الكاملة التي لا تقل دقة عن مثلها في البلاد الاوربية وقد اعتبرها المؤتمر الجيولوجي خليقة بادماجها في الخريطه الجيولوجية للعالم . وقد اثمرت هذه البحوث الجيولوجية ثمراتها المباشرة فأدت الى اكتشاف الفوسفات عام ١٨٩٧ ولو ان الاجراءات الخاصة بفحصه فحصاً تعدينيـاً تطلب وقتاً طويلاً فلم يبدأ استغلاله فعلاً الاّ عام ١٩٠٨ بالمناطق القريبة من سفاجه على البحر الاحمر . كذلك استكشف معدن المنجنيز عام ١٨٩٨ ثم بدأ استغلاله بعد ذلك عام ١٩١١ . وهكذا كانت النتائج التي وصل اليها الجيولوجيون في هذه المرحلة سبباً مباشراً في بدء استغلال الكثير من المناجم المصرية الحالية

أما البترول فقد قدمنا ان وجوده كان معروفاً منذ القدم ثم زار مواطنه بعض المستكشفين الذين اتينا على ذكرهم كما ان الاعمال التي قامت بها احدى الشركات التي كانت تستغل معدن الكبريت بجمسا اثبتت عام ١٨٦٣ على وجود مقادير منهُ خليقة بأن تشجع الاعتقاد في امكان انتاجه انتاجاً رابحاً

وقد اتخذت الحكومة المصرية خطة ايجابية في شأن البحث عن البترول منذ عام ١٨٨٥ عند ما كلفت احد المهندسين الاخصائيين في حفر الآبار بحفر بئرين في جمسا وأخرى في جبل الزيت . فأسفرت آبار جمسا عن نتيجة ايجابية اذ وجد في احداها زيت البترول على عمق ١٠٦ قدم بقوة ٣ر٥ طن في اليوم وفي الثانية على عمق ١٣٧ قدم وقوة ١٥٠ طن يومياً على انها رغم ذلك وبحجة انها تكبدت نفقات طائلة في بحثها قررت عام ١٨٨٨ تعطيل العمل وسدّ الآبار وهكذا قضي على مشروع استغلالي حكومي ان يقبر على ان يستأنف مرة اخرى فيما بعد وبنشاط اكبر على يد احدى الشركات الاجنبية التي تقدمت لاستغلال منطقة جمسا عام ١٩٠٨ وبذلك بدأت مصر تتبوأ مركزها بين البلاد المنتجة للبترول

وكان النجاح الذي صادفته هذه الشركة في جمسا مشجعاً لشركات اخرى وللحكومة نفسها على العناية الجدية بالبحث . فقامت شركات عديدة بفحص مواقع متفرقة على مقربة من شواطىء خليج السويس وفي الجزائر الواقعة عند ملتقى ذلك الخليج بالبحر الاحمر . واذا كانت قد اخفقت اغلبها الاّ ان واحدة من بينها وفقت في النهاية الى استكشاف حقل الغردقة الذي يُربي مجموع انتاجه في العشرين السنة الاخيرة على ثلاثة ملايين طن من البترول

كذلك قامت الحكومة بنصيبها من البحث واستعانت على ذلك بآراء الاخصائيين في شؤون البترول . واذا كانت بحوثها اوقفت ابان الحرب العالمية الكبرى الاّ ان هذه الحرب نفسها قد علمتها ما لمواد الوقود من الشأن الخطير في حياة الامم فأعادت البحث النشيط بمجرد زوال ضرورات الحرب ولم تقف عند حد البحث العلمي بل تعدته الى عملية دق الآبار فوفقت الى انتاج صغير

من حقل ابي دربة على شاطىء سينا قرب بلدة الطور وهو الحقل الذي اعطى امتيازه فيما بعد الى زكي ويصا بك الذي يستغله حتى الآن

كذلك حفرت بئراً في ابي شعر قرب حقل الغردقة ولكنها لم تصادف فيه نجاحاً

وللاخفاق في البحث عن المعادن قيمته لمن يعلم كيف يستفيد منهُ . ذلك ان اخفاق الحكومة واخفاق الشركات كان نتيجة حالات جيولوجية خاصة يتطلب حلها الاستعانة في البحث بوسائل علمية جديدة هذه الوسائل هي المعروفة بالوسائل الجيوفيزكية اي التي تعتمد على خواص الارض والصخور والمعادن وهي التي افردنا لها محاضرة في المؤتمر الاول من مؤتمرات هذا المجمع

ومع ان هذه الوسائل هي حديثة الابتكار وتطبيقها في البحث هو وليد الحرب العالمية نفسها الاَّ ان الحكومة المصرية لم تتوان في الاخذ بها وقد استوردت للقيام بها في مناطق البترول المصرية بعض الاخصائيين من الالمان وكان للنتائج التي وصلنا اليها قيمة خاصة ولو انها لا تزال في حاجة الى مباحث تكميلية نرجو ان تزول قريباً الظروف المالية التي ادت الى العدول عنها

الى هنا قام البحث على اكتاف اجنبية وبأموال جلها اجنبيٌ على ان النهضة القومية التي عمت البلاد في عهدها الحالي تحتم علينا ان بقاء هذا الحال من المحال وان عزتنا وكرامتنا القومية تقضيان بأن نقوم بأنفسنا بهذا الواجب . وقد تلمست الحكومة افتقار البلاد الى الاخصائيين في الجيولوجيا وعلوم التعدين فأوفدت بعثات عديدة من الشبان النابهين الى اميركا للبترول وانجلترا للجيولوجيا والتعدين والمانيا للعلوم الجيوفيزيكية وقد عاد اغلب هؤلاء بعد ان استكملوا عدتهم من العلم واشترك بعضهم فعلاً في البحوث التي قامت بها الحكومة في السنين الاخيرة وهم جميعاً متحفزون لتسلم شعلة العلم والبحث ورفعها والنهوض بها لخير البلاد

وهنا ستبتدىء المرحلة الثالثة من مراحل البحث وهي مرحلة البحث التفصيلي الذي يقوم على أساس المعلومات التي وصلت الينا نتيجة المرحلتين السابقتين

هذه المرحلة هي اشقها جميعاً لانها تقتضي منا صبراً وأناة وتتطلب من القائمين بها دقة وعناية ومن المشرفين عليها ان لا يصرفهم الاخفاق مرة اخرى عن الاستمرار بها

وسيكون اساس البحث في هذه المرحلة الاخيرة تقسيم الصحاري المصرية الى مناطق يقوم كل باحث بفحص منطقة معينة فحصاً يتناول كل دقيق في التركيب الصخري والمعدني للمنطقة . وبودنا جميعاً ان يمتاز عصر فؤاد الاول باتمام هذه المرحلة والوصول بها الى نتيجتها الموفقة وان تبز المراحل الاخرى جميعاً في ان تقوم على اكتاف ابناء البلاد . ومن دواعي اغتباطنا أن حضرة صاحب المعالي وزير المالية قد لمس هذه الحاجة لاستعادة نشاط البحث في رحلتهِ الاخيرة لمناطق البحر الاحمر فلم يتأخر لحظة عن مد يده باعتماد مبلغ من المال يخصص لهُ — نرجو ان يكون اول الغيث كما اننا نرجو ان نوفق في فرصة قادمة الى ايقاف حضراتكم على مدى ما سيصيبه شباننا الباحثون من النجاح

عتاب واستصراخ

خليل مطران

{ من قصيدة طويلة قيلت في الحرب الاولى بين الترك
والطليان حين حاول هؤلاء فتح طرابلس سنة ١٩١١ }

صدقتُ في عتبكم او يصدق الشممُ   لا المجد دعوى ولا آياته كَلِمُ
يا أمتي حسبنا بالله سخرية   منّا وبما تقاضى اهلها القِدمُ
هل مثلما نتباكى عندنا حزنٌ   وهل كما نتشاكى عندنا ألمُ
ان كان من نجدةٍ فينا تفجّعُنا   فليكفنا ذلنا وليشفنا السقمُ
تمتعوا وتملّوا ما يطيب لكم   ولا تزعكم محاظيرٌ ولا حُرَمُ
او اعلموا مرةً في الدهر صالحة   علماً تؤيده الافعال والهممُ
بأيّ جهل غدونا امة همَلاً   وأيّ عقلٍ تولت رعينا الامم

* * *

لا تُنكروا عذَلي هذا فمعذرتي   جرح بقلبيَ دامٍ ليس يلتئمُ
نحن الذين أبحنا الراصدين لنا   حمًى به كانت العقبان تعتصم
لولا تغافلنا لولا تخاذلنا   لولا تواكلنا تالله ما اقتحموا
هي الحقيقة عن نصحٍ صدعتُ بها   وما النصيحة الاّ البرّ والرحمُ
لم أبغِ من ذكرها ان تيأسوا جزعاً   خيرٌ من اليأس ان يُستقدم العدمُ
اليأس مهلكة للقوم موبقة   في حمأةٍ تتلاشى عندها الشيم
ما مطلب الفخر من أيدٍ منعّمةٍ   رطيبةٍ ونفوسٍ ليس تحتدمُ
يأس الجماعات داءٌ ان تملّكها   فهو التحلل يتلوه الردى العممُ
كالشمس يأكل منها ظلُّ سُفْعتها   متى يبيد شعاع الشمس والضرَمُ
لا تقنطوا كَرِهَ الله الالى قنطوا   اليوم يعتزم الأبرار فاعتزموا
اليوم ان تبخلوا اعماركم سَفَهٌ   والجاه فقرٌ ومقصوراتكم رُجَمُ

* * *

اني لأسمع من (حزب الحياة) بكم   « نصراً لامتنا سحقاً لمن ظلموا »
نعم لتُنصر على الباغين أمتنا   لا بالدعاء ولكن نصرها بكمُ
لتبق يقظى على الادهار نابهةً   لا الا من يهفو بها سكرى ولا النَّهِم
لتحيَ وليَمُتِ الموت المحيط بها   من حيث يدفعهُ اعداؤنا الغُشُمُ

الكريم والفتى والسيد

What is a Gentleman ?

للدكتور امين باشا المعلوف

دعاني الى البحث الآتي مقال « الصحافي العجوز » في جريدة الاهرام قال فيه ما نصُّهُ :

شيعت بالامس جثة « الجنتلمان » عدلي يكن . وجنتلة عدلي يكن مثل جنتلة مصطفى فهمي ، شهد بها الانكليز لكل منهما . واولئك الاشراف المعقولون ، قوم عمليون لكل كلمة عندهم معناها ودلالتها العملية . الترجمة الحرفية لكلمة جنتلمان هي الرجل اللطيف او الرجل الظريف . اطلقها الانكليز اولاً على أرباب المال والعقار من الناس الطيبين الذين يحسنون معاملة عملائهم عامة ومستأجري عقارهم خاصة . والكلام انما يوضع للتعبير عن المعاني والمعاني تختلف بتطور الاخلاق والعادات واختلاف المقاصد وتنوع الحاجات . وكلمة جنتلمان أصبحت بالتواتر تشمل معاني كثيرة . ولا يزال الناس يذهبون مذاهب جديدة في تحديد المناحي المختلفة التي ترمي اليها

قال كاتب اميركي ان المعنى العام لكلمة جنتلمان هو « عدم الاساءة الى احد » و « وجوب الاحسان عند المقدرة »

وقد تناول الموضوع أديب سوري في صحيفة « الهدى » العربية التي تطبع في نيويورك فقال :

« ليس جنتلمان الرجل الذي يقبل متبختراً على رصيف الشارع . يحسب الدنيا قد خلقت كلها له . وحين يمرّ بك يدفعك بمنكبه ليوقعك في اوحال الشارع . ولكن الجنتلمان هو الذي اذا زلت بك قدم اندفع بعامل المروءة لنصرتك وانتشالك من ورطتك

« ليس جنتلمان الرجل الذي رعى فؤاده الحسد، وتضيق في عينهِ الدنيا عند ما يراك سائراً الى الامام مجداً ومجوداً في عملك ، وحين لا يقدر على مجاراتك يعمل على مقاومتك

« ليس جنتلمان الرجل الذي يسخر وظيفته لغير غاياتها الشريفة

« ليس جنتلمان الرجل الذي يبطن غير ما يظهر »

وكما يحار الانكليز الآن في تحديد كلمة « جنتلمان » فان كتّابنا وادباءنا لا يزالون حائرين في ترجمتها باحدى الكلمات الآتية : نبيل ، سري ، حصيف ، غطريف ، كيّس . ويؤكد أخونا كامل كيلاني : ان كل هذه النعوت لا تؤدي المعنى المقصود من « الجنتلمان » والكلمة العربية الحقيقية هي (زول)

عبثاً حاولت ان اقنعهُ ان الكلمة سودانية معناها (ابن آدم) رجلاً كان او امرأة . وان هناك قبيلة تعيش في جوف افريقية اسمها (الزولوس) وتعرف بلادهم باسم «ازولولاند» وراجعت القاموس فوجدت فيه : ازول الظريف الخفيف يعجب من ظرفه . والجمع ازوال والانثى زولة. ووصيفة زولة نافذة في الرسائل ، وتزوَّل ، تناهى في ظرفه ، والزول (بتشديد الزاي) الشجاع الذي يتزايل الناس من شجاعته . والزَّوْل « بتشديد فسكون الجواد . والزولة ، المرأة الفطنة الداهية، وقيل الظريفة

ومن هذا القدر اليسير يدرك القارىء خطأ الاديب الكيلاني وبعد كلمة زول عن المقصود من « الجنتلمان » وان اقرب المعاني اليها الحصيف والكيِّس ولو أبى استاذنا خليل مطران الذي استخدم كلمة (غطريف) في رواية عطيل ترجمة لجنتلمان

ومهما يكن في أمر الكلمة وتحديدها وتكييفها وترجمتها فان الجنتلمان الانكليزي وكل من ينعته الانكليز بالجنتلة هو جنتلمان على طول الخط

اما نحن فالجنتلة عندنا منحة وقتية . تكون صفة لشخص عند ما يكون في وظيفته ، وعند ما يكون صديقاً لنا ، وعند ما يسدي الينا يداً ، وعند ما يوافقنا على رأي سياسي معين . بل قد تكون جنتلمان عند ما تركب الدرجة الاولى في عربات ثورنيكروفت وتفضلت بالقيام لسيدة . لا لأنها امرأة بل لانها حسناء انيقة الثياب . ثم تكون انت بذاتك (طورمان) عند ما تقف في عربة الدرجة الثانية لثورنيكروفت او الاتوبيس نمرة ١٧ « مثلاً » متشعلقاً في الجادة

قد تكون الجنتلة كلها . ولكن لا يدركها فيك احد لانك فقير

وقد تكون جنتلمان . وليس في يدك ما تبرهن بهِ على هذه الجنتلة

والجنتلمان عندي صاحب المروءة والاخلاق العالية والآداب الراقية

ولكن ليس للناس كلهم أعين ترى وعقول تدرك

ورحمة الله على عدلي يكن الجنتلمان « صحافي عجوز »

***

انتهى كلام الصحافي العجوز والصواب الصحافي الفتى الكريم وسيرى بعد قراءة ما يلي انهُ الفتى وانهُ الكريم ولا اريد بالفتى الشاب الحَدَث ولا بالكريم السخيّ فقد يكون الصحافي العجوز سخيًّا معطاءً وهّاباً لكنهُ ليس شابًّا في ريعان الشباب ونزارته بل فتىً وكريماً . وهكذا شيخه فهو سيد كريم وفتىً بيّن الفتوَّة ولو انهُ راسخ في الشيخوخة والمشيخة اي انهُ شيخ مثلّث . فالصحافي العجوز فتىً من فتيان الفجالة والدرب الواسع وشيخه فتىً وسيد كريم من فتيان كسروان وساداته ولو انهُ انهزم في الايام الاخيرة شرّ هزيمة . اما الآن وبعد هذه المداعبة الوجيزة فاني لست ذاكراً احداً من الاحياء فالبحث دقيق فيهِ كرم ولؤم فاذا وجدت كرماً ذكرته في الاموات اما الاحياء فلست ذاكرهم لا في كرم ولا في لؤم

ولنبحث الآن في كلمة جنتلمان الانكليزية ونتتبع اصلها واصل بعض الفاظ لها علاقة بها عن امهات اللغة الانكليزية . اما في الفرنسية وان كانت هذه الالفاظ شبيهة بالالفاظ الانكليزية ومن اصل لاتيني مثلها لكن الاستعمال جعل لها معاني اخرى تختلف عن المعاني الانكليزية اختلافاً بيناً فالاعتماد في بحثنا على المعاني الانكليزية دون غيرها. وفي ما يلي بعض هذه الالفاظ عن معجم وبستر المطوّل طبعة سنة ١٩٢٤

Noble. a. (French noble from latin nobilis that can be or is known, well known, famous, highborn, noble akin to noscere to know)

يقول وبستر في اصل الكلمة انها عينها بالفرنسية وهي لاتينية الاصل ومعناها معروف ومشتهر وعالي الحسب وانها تمتّ الى فعل معناهُ عَرَف . ثم ان هذه اللفظة قد ترجمت في كثير من المعجمات ترجمة صحيحة منها نبيل وشريف ونبيه واثيل واصيل وحُرّ ونجيب وحسيب وكريم ورفيع وماجد وغير ذلك مما نجده في كتب القوم . فما جاء في مادة شرف في كتب اللغة العربية ما يأتي عن التاج قال : والشرف المجد يقال رجل شريف اي ماجد او لا يكون المجد والشرف الاَّ بالآباء يقال رجل شريف ورجل ماجد لهُ آباء مقدَّمون في الشرف واما الحسب والكرم فيكونان في الرجل وان لم يكن له آباء قاله ابن السكّيت او الشرف علوّ الحسب قاله ابن دريد . انتهى ما اريد نقله . واننا اذا رجعنا الى هذه المادة وجدناها تدل على العلوّ في كثير من معانيها اي ان الكلمة العربية والكلمة اللاتينية اصلها واحد في المعنى . ومثل ذلك مادة نبه فاننا نجد انها تدل على الشهرة والشرف فمن معاني النبيه المشهور والشريف اي ان الشريف والنبيه بالعربية مثل اللاتينية اصلاً ومعنىً . اما الكريم فيختلف عن الشريف كما تقدم وله لفظة أخرى لاتينية غير هذه واصلها يختلف عن اصل ما يقابل الشريف كما سيجيء في الالفاظ الآتية

Gens. n. Plural gentes (Latin, see gentle.) Roman History. A clan or family connection, embracing the families of the same stock in the male line; a subdivision of the Roman Curio

هي كلمة لاتينية يقابلها لفظاً جانس باليونانية وجنس بالعربية ويقابلها معنىً الأُسرة والعِترة والعشيرة بالعربية . وكان الرومانيون يسمون باسم الأُسرة او العِترة او العشيرة ابناء العشيرة جميعاً ومثلهم العرب فيقال زيد الهاشمي او زيد من آل هاشم او بني هاشم او الهاشميين والمأمون العباسي ومن آل العباس وبني العباس والعباسيين وجَبَلة بن الايهم وابن جفنة ومن آل جفنة ومن الجفنيين كذلك في ايامنا فيقال فلان الشهابي لكل من الشهابيين وقد يضيف بعضهم اسم الاب فيقال الامير بشير قاسم الشهابي ومثل ذلك عبد المحسن الفهد السعدون واصلها عبد المحسن آل فهد آل سعدون وما اشبه وهذا كثير جداً عند العرب في جزيرتهم وفي الشام والعراق وقليل في مصر وانما يحسن تعميمه لاسباب يطول شرحها

Genus. n. (Latin, birth, race; akin to Greek genos)

هي كلمة لاتينية يقابلها جنس بالعربية لفظاً ومعنىً وسواء كانت الكلمة اصلية في العربية او معرّب جانس باليونانية كما في محيط المحيط فلا شبهة ان بين الكلمتين تجانساً في اللفظ والمعنى

Gentle. a. (Middle English gentil. French gentil noble, pretty, graceful, from latin gentilis of the same clan or race, from gens, gentis, tribe, clan, race, originlly that which belongs together by birth from the root genere, gignere, to beget; gentle, property, of birth or family, that is of good or noble birth)

يقول وبستر هنا ان هذه اللفظة هي عينها بالانكليزية المتوسطة والفرنسية ومعناها بالفرنسية شريف وظريف وكيّس وهي لاتينية الاصل ومعناها من العشيرة او من النسل عينه من مادة جنس اي قبيلة او عشيرة او نسل واصلها ما كان متولداً معاً في العشيرة من مادة معناها وَلَد او انشأ . كريم نسباً اي طيب الاصل او شريفه

هذا ما اورده وبستر في اصل هذه المادة وليس معناه انها بالانكليزية كما في الفرنسية تماماً لان لها معاني اخرى بالانكليزية كما سيأتي وهذا سرّ المسألة في ترجمة لفظة جنتلمان الانكليزية فهي ليست بمعنى نظيرتها بالفرنسية فالفرنسيون يعبرون عنها بالفاظ اخرى . ثم ان وبستر بعد ايراده اصل المادة ذكر لها ثمانية معانٍ هي ما يأتي

1. Well-born; of a good family position, although not noble. British society is divided into nobility, gentry and yeomanry, and families are either noble, gentle or simple.

2. Excellent; of fine quality; of animals of fine breed—Obs. except in gentle falcon.

3. Honourable; of, or approporiate to good birth or distinguished position; as a gentle occupation; manifesting the qualities of one of gentle birth, chivalrous, knightly

4. Hence, refined in manners; not rough, hard or stern, mild, kind; aimiable; as a gentle nature, temper or disposition; a gentle manner; a gentle voice.

5. An appelation of respect, kindness or conciliation, as gentle reader, gentle airs, gentle Jew.

6. Tamed; quiet, tractable, and docile; as a gentle horse; also of fruit etc. cultivated

7. Soft; not violent or rough; not strong, loud or disturbing; not stormy; easy, soothing; as gentle touch; a gentle rule; a gentle medicine.

8. Moderate; as a gentle warmth; a gentle declivity

فترجمة المعنى الاول كريم لا الكريم بمعنى السخي بل بمعنى الطيب الاصل فان للكريم معاني كثيرة كما سيجيء . وقد يقال بهذا المعنى حرّ ونجيب وكريم النسب ولكن كلمة كريم تغني عن ذلك ولا يخفى ان الكريم غير الشريف كما تقدم . ولما كان الغرض ترجمة الكلمة الانكليزية دون غيرها فلا ارى اصلح من الكريم لهذا المعنى . ثم ان وبستر قسم الاجتماع البريطاني الى ثلاثة أقسام

النبلاء او الاشراف والكرام او علية القوم وعامة الناس . ولما كانت كلمة جنتلمان بمعناها الاول كما سيجيء مركبة من هذه اللفظة مع لفظة رجل فلا أرى أصلح من قولنا رجل كريم لهـذا المعنى الانكليزي لا الفرنسي . ثم ان لفظة كريم تصلح للمعاني الاخرى من ترجمة جنتل هذه او ما جاء بمعنى الكريم في كتب اللغة كما سيجيء . فترجمة المعنى الثاني من معاني هذه الكلمة كريم وحرّ وعتيق ونفيس وجميعها وارد بمعنى كريم فيقال طائر حرّ وصقر حرّ وفرس كريم وعتاق الطير . وترجمة المعنى الثالث كريم وفتى وشهم .وترجمة المعنى الرابع كريم ولين وظريف وكيّس ولطيف ورخيم . وترجمة المعنى الخامس كريم فيقال قارىء كريم ونحوه . وترجمة المعنى السادس في شقه الاول كريم وسهل القياد وفي شقه الثاني اي اذا كان ثمراً او شجراً كريم وحرّ وعتيق كما في قولنا حرّ البقل وعتيق الشجر وحرّه وكريمه . وترجمة المعنى السابع كريم ولين وهادىء ورخاء ولطيف وسهل . وترجمة المعنى الثامن كريم ومعتدل وسهل . وصفوة القول ان جميع المعاني يصلح لها الكريم فالكريم من كل شيء احسنه كما سيجيء في مادة كرم

See etymology and derivation of gender, genealogy, generate, generosity, genesis gentile, gentility etc.

انظر اصل الالفاظ المتقدمة واشتقاقها فتجد ان جميع هذه الالفاظ المتجانسة من اصل واحد اي من مادة جنس او عشيرة المتقدمة الذكر ومثل ذلك كثير من هذه الالفاظ اللاتينية الاصل ان بالانكليزية وان بالفرنسية لكن الاستعمال جعل لها بعض الاختلاف في هذين اللغتين كما لا يخفى . وفي ما يلي بحث في كلمة جنتلمان وهي عقدة العقد

Gentleman. a. (Middle English gentilman, nobleman)

1. A man well born; one of good family though not noble
2. One of gentle or refined manners. A well bred man of fine feelings, espiciall one of good character raised above the vulgar by education, habits, and social esteem
3. A servant; especially a valet of a man of rank.
4. A man, irrespective of condition; used especially in plural in addressing men in popular assemblies etc.
5. A respectable man who engages in no occupation
6. An amateur as gentleman jockey

ولما كانت ترجمة هذه الكلمة دقيقة جداً فاني أراني مضطراً الى ايراد بعض الامثلة وانما من غير الاحياء . فترجمة المعنى الاول رجل كريم لا الكريم بمعنى السخيّ بل الكريم نسباً وربما كان أحسن منها السيد الكريم كما قال رئيس تحرير المقطم في عدلي باشا يكن . فقد جاء في أخبار عمر ابن ابي ربيعة ان اخاه الحارث كان شريفاً كريماً وسيداً من سادات قريش وعدلي باشا كان شريفاً كريماً وسيداً من سادات مصر . هذا هو المعنى الاول والاصلي لهذه الكلمة . وانما الاستعمال الانكليزي

يختلف بعض الاختلاف عن الاستعمال الفرنسي فالفرنسيون لا يسمون بهذا الاسم الاَّ من كان من بيت نبل وشرف والانكليز يسمون بهِ غيرهم ايضاً فترجمة هذا المعنى الاول عند الفرنسيين رجل نبيل وترجمته عند الانكليز رجل كريم هذا في اصطلاح القوم في النبل والكرم عندهم فالنبيل Nobilis والكريم Gentilis وقد تقدم ذكرها فالنبيل واحد عند الفرنسيين والانكليز اما الكريم عند الفرنسيين فمعناه النبيل والظريف وهو ليس كذلك عند الانكليز . وأحسن مثل للتمييز بين النبل والكرم عند الافرنج هو ما كانت الحالة عليه في العراق ولبنان عند ما كان نظام الاقطاع شائعاً فيهما فكل رجل مثلاً من السعدونيين او غيرهم من ابناء البيوت القديمة في العراق يطلق عليه اسم Gentilhomme بالفرنسية وترجمته Nobleman بالانكليزية وكل رجل من الشهابيين او غيرهم من اصحاب الاقطاع في لبنان يطلق عليه احد هذين الاسمين وكل واحد من ابناء البيوت الكريمة الاخرى في العراق ولبنان يطلق عليهِ كلمة Gentleman بالانكليزية في معناها الاول اما الفرنسيون فلا يقولون Gentilhomme بهذا المعنى بل يقولون

Homme bien-né ou de famille honorable

هذه مسألة دقيقة جدًّا وانما ضربت الامثلة المتقدمة لأُبين الفرق في استعمال هذه الكلمة عند الفرنسيين وعند الانكليز وسببه نظام الاقطاع والعرف عند كلٍّ من الفريقين لذلك ارى ان الرجل الكريم او السيد الكريم اصلح تعبير لهـذا المعنى الانكليزي الاول وان شئت فقل الكريم فقط كما في الحديث الذي اورده صاحب التاج عن يوسف بن يعقوب وسيأتي ذكره

واذا اتصف السيد الكريم بصفات الفتوَّة يقال فتىً فعبد المحسن السعدون كان فتىً بيّن الفتوَّة A thorough gentleman قال عنه ذلك احد كبار الانكليز في العراق فانه عند ما نُعي اليه كتب كتاب تعزية قال فيه ذلك (١) . وفيصل الاول كان فتى فتيان العرب غير مدافع . قال المتنبي في رثاء اخت سيف الدولة وكان المتنبي يومئذٍ في العراق

ارى العراق طويل الليل مذ نعيت فكيف ليلُ فتى الفتيان في حلب

فاذا قلت ان فيصلاً كان فتى فتيان العرب فاني است مبالغاً وقد قيل في جده «لا فتى الاَّ علي» وملك البلجيك السابق كان فتىً وربما فتى فتيان اوربة كلها. وهو ما يقوله الانكليز عن ملكهم او ولي عهده The first gentleman in England اي فتى فتيان انكلترة . وشيخ الصحافة داود بركات كان فتىً وكريماً وشهماً . هذا هو الفتى والكريم والشهم ولا يقال كذلك الاَّ لمن اتصف بالمناقب الكريمة مهما علت منزلته

---

(١) ترجم الكتاب صديقي عبد المسيح وزير رئيس المترجمين في وزارة الدفاع وترجم اللفظة الانكليزية بالفتى وهي ترجمة في غاية الجودة والكتاب الاصلي وترجمته في محفوظات وزارة الدفاع على ما اذكر

اما ترجمة المعنى الثاني فكذلك اي رجل كريم وفتىً وشهم ويراد بالكريم كل رجل كريم في نفسهِ وفي تربيته وخلقهِ وان لم يكن كريماً في نسبهِ والعامة في الشام تقول آدمي وفي مصر بني آدم اي من بني آدم كأنَّ العامة ترى ان يتخلق جميع البشر بخلق الكرام منهم وحبذا الامر لو كانوا كذلك. وبعضهم يقول شريف لسمو اخلاقه. وبعضهم يقول هو شهم ويريدون بذلك صاحب نجدة ومروءة وهي واردة بهذا المعنى فقد جاء في التاج ما نصهُ: والشهم السيد النجد النافذ الحكم في الامور. وقال الفراء الشهم في كلام العرب الحمول الجيد القيام بما حمل الذي لا تلقاهُ الاَّ حمولاً طيب النفس بما حمل وكذلك هو في غير الناس. وقالوا في ترجمة هذا المعنى الظريف والكيّس والشلبي لكن الفتى اصلح كثيراً فالكيس والظريف لا يؤديان المعنى الانكليزي لكن الفتى يؤديهِ بل ربما فاقه. وان اقرب كلمة للظريف والكيّس كلمة جلبي (شلبي) ولعلها تركية او من اصل آخر اعجمي وكانت لقباً لبعض ابناء السلاطين من آل عثمان وهي شائعة بهذا المعنى اي بمعنى الكيّس في الشام والعراق ولكن كلمة الفتى تفوقها بمعنى جنتلمان. ولا يخفى ان كلمة جلبي او شلبي لقب في العراق يلقب بهِ بعض التجار واصحاب الاملاك وهو لقب كبير المولوية ولعلهُ سمي بذلك لكياسته هو وجماعتهُ او ان اللفظة منقولة في الاصل عن معنى الفتى بالعربية اي انهم ترجموا الفتى بكلمة جلبي لان بعض المتصوفة كانوا فتياناً من الفتوَّة لا الفتاء والمولوية منهم وسيأتي ذكر الفتى والفتوة. وهذا لا يمنع ان لفظة جلبي تركية او فارسية او غير ذلك كقولهم انها من صليبي اي افرنجي او نحو ذلك. اما الكيّس فقد ظن بعضهم ان كلمة جنتلمان الانكليزية معناها الكيّس لان من معاني جانتيل الفرنسية الكيّس فالكياسة والظرف واللطف من الصفات المحمودة في الانسان ولكن جنتلمان ليس الظريف ولا الكيس ولا اللطيف فقد يكون الانسان ظريفاً وكيّساً ولطيفاً ومن ابعد الناس عن الكرم ومن اقربهم الى اللؤم لذلك لا ارى اصلح من الكريم والفتى والشهم لهذا المعنى. فالكرم والشهامة غريزتان يكونان في نفس الانسان ويولدان معهُ ولا يأتيان بالعلم والتربية او بالتكلف او التصنع او حسن الهندام او مغازلة الحسان بطريقة سمجة تأباها النفس او بالتبجح بطرق شتى مكروهة عند الكرام

***

واما ترجمة المعنى الثالث ففتى وهو وارد في القرآن الكريم وفي كلام العرب بهذا المعنى كما سيجيء ومن الغريب ان العرب والانكليز قد اتفقوا في كلمة واحدة لمعنيين مختلفين تمام الاختلاف

واما ترجمة المعنى الرابع فسيّد كقولنا ايها السادة ومثله المعنى الخامس اي سيّد كقولنا سيد من ارباب الاملاك. كذلك المعنى السادس فيقال سباق السادة اي اصحاب الخيل اي ان كلمة جنتلمان يقابلها بالعربية كريم وفتى وسيّد وشهم منها كلمتان من الاضداد هما السيد والفتى. وفي الجزء التالي تتمة البحث في الفتى والكريم

امين المعلوف

توريث الصفات المكتسبة

للدكتور شريف عسيران

الصفات في اصطلاح علم الوراثة نوعان : الوراثية التي تنتقل من الآباء الى الابناء او من السلف الى الخلف بواسطة العوامل الوراثية التي في الكرموسومات وهي تخلق من الفرد او تكون كامنة فيه منتقلة اليه من آبائه تمييزاً لها عن الصفات الاكتسابية وهي التي لا تخلق مع المرء بل يكتسبها من المحيط ومتى ظهرت فيه تنتقل منهُ الى نسله بحسب رأي طائفة كبيرة من العلماء الافذاذ لهم منزلتهم في العلم والبحث . وقد احتدم الجدال حول قضية توريث الصفات المكتسبة احتداماً شديداً فهم من ينكرها ومنهم من يثبتها ومنهم من يتردد بين النفي والاثبات ولعلك لا ترى اختلافاً في مختلف فروع العلم اكثر من الاختلاف في هذه النظرية وسنقص عليك احسن القصص ونأتيك باصدق الانباء عن هذا الموضوع اللذيذ

﴿ تحديد الصفات المكتسبة ﴾ : يجدر بنا قبل الخوض في الموضوع ان نحدد الصفات المكتسبة لكي يكون بحثنا فيها واضحاً . الصفة المكتسبة هي التي تنشأ في خلايا الجسم في دور من ادوار حياة الفرد بتأثير عامل خارجي من عوامل البيئة يؤثر فيها مباشرة وتبقى تلك الصفة ظاهرة في الفرد بعد انفصاله عن المحيط الذي ولّدها ثم تنتقل منهُ الى نسله بحسب رأي بعضهم دون تعريض النسل للبيئة الذي ولّدت تلك الصفة في سلفه

زعيم هذه النظرية هو العالم الفرنسي الاشهر لامارك (١٧٤٤ – ١٨٢٩) ويعرف هذا المذهب باسمه لامارکزم او اللاماركية . وُلد هذا العلامة في بازنتين من اعمال فرنسا في اول اغسطس سنة ١٧٤٤ ومات في ١٨ دسمبر سنة ١٨٢٩ . وبين حياته وحياة مندل العالم النمسوي شبه كبير فكلاهما اكتشف اكتشافاً عظيماً في عالم الوراثة ولكنَّ مندل كان اوفر حظاً في ثبوت نظريته . وجهل الناس قدريهما في حياتهما ورفعوا اسميهما بعد مماتهما وكلاهما عاش فقيراً خامل الذكر بيد ان مندل كان اكثر تقديراً لان جثة لامارك طرحت بعد موته في الحفرة العامة مع الكلاب . وكلاهما انتظم في سلك الرهبنة فان والد لامارك حمله على دخول الدير ولما توفي والده انتظم في الجيش وكان شديد الميل اليه . ومال الى علم الفلك والكيمياء . ولكن مواهبه تجلت في علم النبات فألّف فيه كتباً عديدة اشهرها نباتات فرنسا في ثلاثة مجلدات . وقد قدر العالم نظرية مندل بعد انقضاء ١٥ سنة على موته ولم تقدر فرنسا لامارك الاَّ بعد انقضاء مائة سنة على وفاته وعاش فقيراً معدماً واصيب بالعمى قبيل وفاته

ان للامارك مع ما هو عليهِ من العلم آراء غريبة في الوراثة فهو يزعم ان تغير البيئة يدعو الى نشوء حاجات جديدة في الحيوان فتحملهُ على ان يسلك مسلكاً جديداً يقتضي استعمال اعضاء كانت كامنة فيزيد حجم تلك الاعضاء بالاستعمال او تنشأ لها وظائف جديدة . وعلى الضد من ذلك يؤول اهمال غيرها من الاعضاء التي عادت غير صالحة للاستعمال الى تلاشيها . فلو نقلنا بزور نبات تعوَّد ان يعيش في ارض رطبة الى ارض جافة فان ذلك النبات يلائم نفسه للمحيط الجديد ويتحول الى نوع جديد يختلف عن الاول في صفاته بسبب تغير المحيط وتنتقل الصفة المتغيرة الى نسله . ويحدث مثل ذلك في الحيوانات . فالمحيط الجديد يتطلب حاجات جديدة تتولد منها عادات جديدة فينشيء صفات جديدة تنتقل بالوراثة الى النسل . فالزرافة (معجم الحيوان) Giraffe مثلاً التي تقتات اوراق الشجرِ وتضطر الى مد عنقها طلباً للقوت كلما علا الشجر اضطرت الى زيادة مد عنقها فصار عنقهـا طويلاً لهذا السبب واستطالت قوائمها الامامية والخلفية للسبب عينه وانتقلت هذه الصفة الى نسلها . هذا بحسب رأي لامارك . وتضطر الطيور التي تتطلب قوتها في الماء الى بسط اقدامها لتتمكن من السباحة فيتمدد جلد الرجلين ويتولد نسيج الاباهم . وقد اورد امثلة عديدة من هذا القبيل لا حاجة الى التوسع فيها اذ لم تثبت لها قيمة علمية . وقد ايد العلامة داروين هذا المذهب ونوه بفضل لامارك وتصدى له كثيرون من العلماء الحديثين فادعى بروان سيكار الفرنسي انهُ اذا اتلفنا عضواً من اعضاء الآباء في الخنازير الهندية سواء اكان الاتلاف موضعيًّا او عامًّا فان تأثيره يظهر في النسل فيصاب بالصرع او بتر طرف من اطرافه او ابهام من اباهمهِ الى غير ذلك

وزعم غيره ان تعريض الجسم للشمس يصيّرهُ اسود وان هذا هو سبب سواد جلد الزنوج فاذا نقلنا رجلاً ابيض الى منطقة حارة اسودَّ جلده بسبب حرارة الشمس . والحقيقة ان لون الجلد ناشيء عن وجود اصباغ في طياته يتلون بلونها والحرارة الزائدة تؤذي الجلد وبوجهٍ خاص طبقاته الداخلية فيحصل ردٌّ فعل غريزيٌ فيتنبه الجلد ويفرز مقداراً زائداً من الاصباغ التي تمتص حرارة النور وتمنع اذاها عن الجلد

وقالوا ان صنعة الحداد تسبب تضخم عضلاته وتنتقل هذه الصفة الى نسله . واهمال عضو من الاعضاء كعدم استعمال العين مثلاً يسبب ضررها وهذا الضرر ينتقل الى الابناء . والامثلة على ذلك كثيرة ولا حاجة الى الاطالة فيها

ومن اهم المعارضين لهذا المذهب والضاربين به عرض الحائط العلامة الاشهر فيسمن صاحب النظرية الصحيحة في الوراثة وهي نظرية استمرار تأثير الخلايا التناسلية وقد مرَّ ذكرها في الفصول التي ابتنناها عن الوراثة . واشتهر فيسمن بمعارضته لاصحاب مذهب توريث الصفات المكتسبة اكثر مما اشتهر بنظريته في الوراثة لان في الاخيرة نقصاً واما معارضته فلا عيب فيها . وجاء انصار مذهب انتقال الصفات المكتسبة بشواهد عديدة تأييداً لنظريتهم دحضها فيسمن بالادلة العلمية المقنعة منها

طريقة البتر فاذا بتر عضو من الاعضاء يصير البتر صفة في الفرد تنتقل منه الى نسله . فالهرة التي يقطع ذنبها صدفة او عمداً تلد هرة لا ذنب لها ومثلها الكلاب والابقار التي يتلف قرنها تلد عجلاً ذا قرن واحد وقد بين فيسمن ان الهررة التي تلد هررة لا ذنب لها متولدة من نوع خاص خال من الذنب خلقة ويعرف بهررة مانكس[1] Manxcats وان ولادة العجل بقرن واحد ناشيء عن عيب خلقي واستشهد ايضاً باليهود والمسلمين الذين يمارسون الختان من قرون عديدة ومع ذلك لا يولد ابناؤهم مختونين خلقة بل يخلق بعضهم وفيهم ما يشبه الختان بسبب شواذ جنينية وهو يظهر في غيرهم ممن لا يختتنون . وقد مضى على البشر الوف السنين وهم يتكلمون اللغات ومع ذلك يولد الطفل ولا يستطيع ان يتكلم لغة بعينها ومتى بلغ العمر الذي يتكلم فيه ينطق باللغة التي يتدرب عليها فاذا كان عربياً ونشأ في بيئة افرنسية تكلم الافرنسية والعكس بالعكس . هذه خلاصة مختصرة لهذا المذهب وسنتبسط فيه الآن بصورة اوضح ونذكر مختلف الابحاث والتجارب التي ترشدنا الى الحقيقة.

ظهر من ناموس التباين والتحول ان الاشعاع يؤثر في العوامل فيولد صفات جديدة وان النبذ الاختياري Selective elimination يختار انواعاً ويستغني عن اخرى وزعم انصار توريث الصفات المكتسبة ان المحيط عامل ثالث في خلق صفات جديدة. وقد ثبتت نظرية الاشعاع الذي يحدث تحولاً في الانواع . ومع ان اكثر التحولات مضرة بالنوع فلم يقم دليل على عدم وجود تحولات نافعة وقد جرّب العالمان Babcock و Collins تجارب بذباب الفواكه فناسلوا عدة انواع منه بعضها في محيط قليل الاشعاع واخرى في محيط اشعاعه الطبيعي ضعف الاول فكان التحول في الاقليم الكثير الاشعاع اكثر منهُ في الاقليم الذي قلّ اشعاعه

غير ان تأثير الاشعاع ضئيل جدًّا فقد يؤثر في عامل ويعف عن جاره . وزعم بعض العلماء ان هناك مؤثرات اشد فعلاً منه ولها تأثير كلي في تغيير الصفات كالحرارة العالية والواطئة والمواد الكيماوية والغذاء. ووجد ملر H. J. Muller ان تحولات ذباب الفواكه اكثر في الحرارة العالية منهُ في المنخفضة واطعم هلسُپ J. W. Helsop بعض انواع الفراش طعاماً فيه مواد معدنية فاخذ هذا الفراش يتعاقب الايام يتلون بلون قاتم مائل الى السواد . ثم صار نسله يتلون بهذا اللون دون اطعامه الطعام المحتوي على المواد المعدنية بل انتقلت اليه صفة اللون بالارث وفقاً لمذهب مندل ولم يظهر هذا اللون في النسل الذي لم يتغذَّ اسلافهُ بالغذاء المذكور . فمن البديهي ان تكون المواد المعدنية هي التي سببت هذا التحول والتبدل

يكثر الدخان في انحاء انكلترا الشمالية حيث مركز الحركة الصناعية فيحمل مختلف املاح المعادن الصاعدة من المصانع وقد سبب دخان تلك المصانع تغيراً في انواع الفراش الذي كان لونه فاتحاً فصار اسود قاتماً. ويعتقد هرِيسُن Harrison ان منشأ هذا التلون اقتيات الفراش المذكور بورق الشجر المغشى

(١) نسبة الى جزيرة مان Isle of Man في البحر الارلندي

بالدخان الحامل املاح المعادن وزعم آخرون ان الغذاء الرديء يضر العوامل الوراثية وينشيء نسلاً معتلاً وان هذا هو سبب منشأ عاهات البشر. ولكن اذا تذكرنا إن في الخلية مادتين مغذية ومولدة تمكنَّا من دحض هذا القول فاذا كان في الاب مادة مضرة فمن الممكن ان تؤثر في السيتوبلازم من دون ان تصيب العوامل الوراثية بأذى فينشأ النسل معتلّ الجسم ويخلق النسل الذي بعده صحيحاً اذا تغذى تغذية جيدة . وقد رأينا ان كثيراً من العوامل تنشأ معتلة دون ان يعيش الابوان في بيئة ملائمة او غير ملائمة وظهر في ذباب الفواكه الذي عاش في ظروف ملائمة مئات العيوب الوراثية التي انتقلت وولدت نسلاً عليلاً فالعيوب تظهر في بيئة غير ملائمة ونفس العيوب تظهر في البيئة الملائمة كذلك. فالعيوب تتوقف على العوامل الوراثية لا على الغذاء. فهل العيوب التي تظهر في النسل المتولد من سلف عاش في بيئة غير صالحة اكثر من عيوب نسل تحدر من سلف عاش في بيئة صالحة ؟ هذا ما سنجيب عنهُ الآن

لنبدأ بالحيوانات الوحيدة الخلية Protozoa ان المحيط الرديء يسبب انحطاطاً وراثيًّا في البروتوزى فقد عرّض A. R. Middleton الستيلونيكيا Stylonychia لتأثير حرارة عالية فجاء نسلها ضعيف الحيوية وقلّ معدل تناسلها مقدار الربع. فاذا اعدنا النسل المتولد من سلف عاش في الحرارة العالية الى الحرارة الطبيعية تضعف حيويته بالقياس الى غيره ممن لم يخضع لهذا العامل مما يدلّ على انه السبب في توريث ضعف الحيوية بتأثير الحرارة العالية . وتوصل الى نفس النتيجة V. Tollos الذي عرّض بعض الحيوانات النقاعية عدة اجيال متعاقبة لتأثير نترات الكاس ، فانخفض معدل تناسلها ولما فصل نسلها عن ذلك المحيط بقي معدل تناسله منخفضاً بتأثير الوراثة عن النوع الذي لم يتعرض لنترات الكاس . واجرى غيرهم تجارب عديدة من هذا القبيل توصلوا فيها الى نفس النتائج

يجري التناسل في الحيوانات ذات الخلية الواحدة بانقسام الخلية الواحدة الى اثنتين وتنقسم في التي اعلى منها الوف الخلايا فينشأ الفرد ويحملنا هذا الفرق على ان نتوقع اختلافاً في نشوء وتوريث العيوب التي تتولد من المحيط ولدينا تقارير تبين ان بعض العيوب الخلقية والوراثية تتولد من المحيط حتى في الحيوانات التي اعلى من البروتزوا . ولقد وجد Little and Bagg بعض العيوب في نسل فئران عرضت لاشعة اكس ولم تظهر تلك العيوب في الفئران التي لم تعرّض . ومما يسترعي النظر ان العيب ظهر في عدد قليل جدًّا من الفئران التي عرّضت لتأثير الاشعة فمن الممكن ان تكون تلك العيوب كامنة وظهرت . وقد مرّ بنا ان الاشعة سبب من اسباب التحولات الفجائية فما يدرينا ان تلك العيوب ليست وليدة التحول . ووجد M. F. Guyer ان عيباً وراثيًّا ينشأ في عيون الارانب اذا ادخلنا مصلاً غريباً الى اجسامها ولكن هذا العيب ظهر في عدد قليل من الارانب التي اجريت عليها التجارب . ولم يتوصل غيره الى نفس النتيجة فمن الممكن ان منشأ العيب في العوامل الوراثية لا في المصل وعيوب كهذه تظهر دائماً في عيون الارانب

« للبحث تتمة »

هل البربر عرب ؟

وهل لغتهم لغة ضاد اخرى ؟

لمحمد سعيد الزاهري*

قال الشيخ ابو القاسم : زارني ذات يوم مستشرق فرنسي كان ضابطاً في الجيش ثم احيل على المعاش ، ولم يكد يستوي جالساً حتى قال : لقد أتيتك اليوم مستفهماً سائلاً . فقلت : حبًّا وكرامة ، ولكني ارجو من فضلك ان لا تسألني عمـا ليس لي بهِ علم . قال : سأسألك عن مسألة من مسائل التاريخ . قال فقلت : ومن قال لك انني من المؤرخين ؟ . قال : انا سائلك عما تعلم ، وما اريد ان اشقّ عليك . قلت : سلْ . قال : ان المؤرخين العرب الذين بحثوا عن اصل البربر قد ذكروا كل مذهب ، ونقلوا كل قول في هذا الموضوع ، ثم عطفوا على ذلك كله بالنقد والتمحيص فنفوا ما نفوا وأثبتوا ما أثبتوا . ولكن مذهباً واحداً قد أهملوه ، فـا تكلموا عنهُ ولا اشاروا اليهِ ، وهو مذهب الذين يرونَ ان البربر هم من اصل « لاتيني » .فهل تعلم لماذا اهملوهُ ؟ وهل اهملوهُ متواطئين ؟ قلت : لعلَّ ذلك لانهُ لا يزال حديث العهد ، وليس المؤرخون العرب هم الذين اهملوهُ وحدهم فقد اهملهُ من قبلهم المؤرخون من اليونان بل والمؤرخون من الرومان . قال : نعم ، هو مذهب — كما قلتَ — لا يزال حديث العهد ، لا يَعُدُّ من العمر الا بضعَ سنوات . واذا كان هذا هو عذر المؤرخين القدماء من اليونان والرومان والعرب ، فما بال هؤلاء المؤرخين من العرب المعاصرين ؟ . قلتُ : هذا الرأي اقل ما يقال فيهِ انهُ ما زال رأياً مفروضاً لم يقم عليهِ ادنى دليل يؤبهُ لهُ من العلم والتاريخ . فكل ما فعل اصحاب هذا الرأي هو انهم عمدوا الى النقوش والصور التي لا يزال بعض البربر الى الآن يضعونها على الاواني التي يتخذونها من الطين وهي صور ونقوش مصرية لايشك في مصريتها احدٌ من اهل العلم — فقالوا عنها انها تشبه من بعض الوجوه نقوشاً وصوراً وجدت في ايطاليـا . واذاً فهي « لاتينية » لا « مصرية » واذاً فهي دليل على ان البربر هم من اصل « لاتيني »

ويُمعنون في اثبات هذه الدعوى ، فيزعمون ان البربر حينما كانوا « لاتيناً » وكانوا نصارى نبغ منهم رجال في السياسة والادب والدّين مثل سانت اوغست البربري ، وانهم بعد ما صاروا عرباً مسلمين انحطّـوا وتأخّروا . ثم يقولون انهُ من الخير للبربر أن يعودوا « لاتيناً ونصـارى ، ومن الخير لهم ان لايبقوا عرباً ولا مسلمين ... وكذلك بمثل هذا المنطق يحثّون البربر على ان يقطعوا كلّ ما لهم بالعرب من صلة القربى ، ويطلبون اليهم ان يخلعوا « جنسيتهم » كما يخلع الناس الملابس

---

* من مراجع هذا البحث : تاريخ الجزائر في القديم والحديث للاستاذ مبارك الميلي . الاستقصاء في اخبار المغرب الاقصى للناصري السلاوي . تاريخ آداب العرب للاستاذ مصطفى صادق الرافعي . ديوان العبر لابن خلدون

والثياب ! وهذا كلام (كما ترى) هو ترويج لاهواء السياسة، ودعاية ضد الاسلام، وليس مذهباً من مذاهب التاريخ. فمن الحقّ الواجب على كلّ مؤرخ يتوخّى الحقيقة والانصاف ان يهمل مثل هذا الكلام، وان لا يورّط نفسه، ولا قرّاءه في خصومة سياسية او في جدل ديني. فقال الضابط: انهم جاؤوا بدليل آخر على هذه الدعوى، وهو كلمات والفاظ بربرية وجدوا لها في « اللاتينية » ما يشابهها في اللفظ والمعنى. قال الشيخ فقلت: لقد سلك رِنّ Rinn المؤرخ الفرنسي نفس هذه الفلسفة اللفظية واعتمدها وحدها في معرفة اصول البربر، فجعلهم اوزاعاً بين الامم والشعوب، وانتهى الى انّ اكثرهم هنود وآريون، حتى زعم ان عرب بني هلال الذين جاؤوا هذه البلاد هم ايضاً « طورانيون وآريون » !! فقال الضابط ان هذه المشابهات اللفظية بين لغةٍ ولغةٍ لا يمكن ان توجد عفواً من غير ان تدلّ على شيء. فكلمة « آرّوس » التي تعني في « البربرية » جبلاً معيّناً قريبة من كلمة « الروس » التي هي اسم روسيا، وهذا التقارب بين اللفظتين يمكن ان يدلّ على ان بين البلدين نوعاً ما من التقارب المعنوي. قلت: الكلمة البربرية هي « آوْراس » وليست « آرّوسْ »، ومع ذلك فانّ بين « آوْراسْ » و« روسيا » صلة اخرى. قال: وما هي ؟ قلتُ ان العشائر البربرية التي تسكن هذا الجبل هي عشائر زراعية تعيش من زراعة الذرة. ومن العجيب ان مزارعها واراضيها لا تزال مشاعة بين رجالها وابنائها يقسمونها بين من يحملون المساحي، و« يتبعون المحاريث » وهم يتبعون في ذلك نظاماً قديماً توارثوه خلفاً عن سلف يشبه ان يكون نظاماً « شيوعيّاً » لانهُ لا يعترف بحق التملك لاحدٍ كائناً من كان. ومع ان هذا « الوضع » يرجع الى عهد بعيد جداً، ومع انهُ آخذ في الزوال، فانهُ لا يبعد ان يكون مقتبساً من الاوضاع الشيوعية الحاضرة التي تقوم اليوم في بلاد السوفييت ! ثم هو لا يبعد ايضاً ان يكون دليلاً على ان البربر هم من « الروس » وليسوا من « اللاتين » !! فضحك الضابط، وقال: دعنا من الهزل، غير انهُ دهش لهذا الاتفاق الغريب ! قال الشيخ: ومضيت احدثهُ، واقول: الرُّمان هم اوّل من اطلق كلمة « البربر » على هذا الجيل، يذمونهم بهذا الاسم، ويعنون بهِ انهم همج متوحشون، وما كانوا ليذموهم بهذا، لو انهم كانوا يمتون اليهم بقرابة او نسب. فقال: والعرب ايضاً يذمونهم بهذا الاسم الذميم. قلت: كان ذلك بعد ما اشتهروا به وصار لهم علماً يعرفون بهِ بين الشعوب، على ان عامة هؤلاء العرب الذين لم يتأثروا بهذا الاسم الروماني لا يسمونهم « البربر » بل يسمونهم « الشّلح » يمدحونهم بذلك، ويعنون انهم اهل نجدة وشجاعة، وانهم اولو قوة، واولو بأس شديد. وما كانوا ليمدحوهم بمثل هذا المدح لو لم يكونوا لهم ذوي رحم واولي قربى. قال: أفتعتقد انّ البربر عرب ؟ قلتُ: يكاد يجمع المؤرخون على ان البربر يجمعهم جِذمان عظيمان: البُتر والبرانس، ويكادون يجمعون على ان البتر من ابناء برّ بن قيس بن عيلان بن مضر، وانّ قبيلتي كتامة وصنهاجة (من قبائل البرانس) هما من عرب اليمن تركهما افريقش (احد تبابعة اليمن) هنا في ليبيا هذه التي سميت

باسمه « افريقية » فيما بعد . وذلك حينما رجع من غزوها . وروى ابن عبد البر عن بعض النسابة من البربر ان البتر والبرانس هما جميعاً لاب واحد هو النعمان بن حمير بن سبإ . ويرى المسعودي وغيره انهم اوزاع من اليمن وغسان ولخم وجذام وغيرها من قبائل العرب . وقيل هم من العماليق . وقيل من العبر والفينيقيين وقيل من المصريين الا ان ابن خلدون يرى ان البربر كلهم من ولد مازيغ ابن كنعان بن حام بن نوح ، ولا يستثني الا قبيلتي كتامة وصنهاجة الحميريتين . على ان ابن خلدون ليس له دليل على دعواه هذه الا ما حكاه من ان البربر لا يزالون يتسمّون « الامازيغ » . وهذا لا يكفي في اثبات هذه الدعوى ، فقد تكون فئة « مازيغية » اندمجت في البربر فغلب عليهم اسمها . وقد انقرض اليوم هذا الاسم بالمرة . الا ان قبيلة بربرية صغيرة لا تزال الى الآن تسمي لغتها « تماز يغت » اي المازيغية » وليس من الحق ان نترك ما يراه جمهور المؤرخين من عروبة البربر ، وما يقوله نسّابة البربر انفسهم عن اصلهم العربي ، لكي نعتمد هذا القول الذي لا نجد عليه دليلا ، وان رآه ابن خلدون . وها انت ترى ان كثيراً من المؤرخين يرون ان البربر عرب ، وانهم ينزلون من العروبة في صميمها ولست انا وحدي ارى هذا . قال الشيخ : فقال لي الضابط : الآن انحل المشكل . فقلت : وأي مشكل ؟ قال الذي حار فيه اكثر الفرنجة الغربيين الذي كتبوا في تاريخ البربر . قلت : وما الذي حاروا فيه ؟ قال : امتزاج العرب والبربر امتزاجاً شديداً ، حتى صاروا في مدة قليلة امة واحدة متجانسة الاخلاق والعادات ، وهذا امر عجب له كتّاب الفرنجة اشد العجب ، وحاروا في تعليله ومعرفة اسبابه ، وقالوا انه لم يوجد له مثيل في التاريخ . وها انت قد حللت المشكل ، وقلت ان العرب والبربر هما من عنصر واحد يجري في عروقهما دم واحد . قال الشيخ فقلت : نعم ، والعرب حينما توغلوا في هذه البلاد يفتحونها لم يضطر احد منهم ان يتخذ لنفسه ترجماناً بينه وبين البربر وهذا معناه ان اللغة البربرية لم تكن يومئذ تزيد على انها لهجة عربية محرّفة يفهمها العربي دون مشقة او عناء وكان يومئذ اكثر اسماء الاعلام عند البربر عربيّاً . وهذا « طارق بن زياد » القائد المشهور ، وفاتح الاندلس قد قال عنه التاريخ انهُ بربري ، وانهُ هو صاحب الخطبة المشهورة ، ولئن سمي « طارق » باسم عربي في اوائل الفتح الاسلامي ، فقد سمّى ابوهُ قبل ذلك « زياداً » ! وأنا لا اشك في نسب طارق ، ولا في نسبة الخطبة اليه . ولكن هذه الخطبة التي هي آية خالدة من آيات البيان العربي ، هي ايضاً تمثل « النفسية » العربية في اكرم صورها وأسمى معانيها . ومعنى ذلك ان « طارقاً » عربي بطبعه ومزاجه ، وعربية تلك النفس التي بين جنبيه ، وعرب قومه : هؤلاء الذين يسمونهم « البربر » او « الامازيغ »

على ان كل ما قيل في اصل البربر انما ينطبق على البربر قبل الاسلام ، أما هؤلاء البربر المسلمون فهم اصرح في العروبة من بربر الجاهلية الاولى ، وهذه ناحية من نسب البربر غفل عنها المؤرخون فما عنوا بها ، ولا بحثوها . وأنا اريد ان اعرض لها في هذا المقال . فقد ذكر بعض المؤرخين

الفرنجة ان البربر في منتصف القرن السادس للميلاد قد خسروا خمسة ملايين من الانفس في حروبهم مع الروم البيزنطيين وذكر المؤرخون العرب ان البربر خسروا في حروبهم مع العرب — ايام الفتح الاسلامي — خلقاً كثيراً . واذا انت اضفت الى ذلك ما خسروه من قبل ومن بعد في الفتن والثورات ايقنت ان اكثرهم قد تلاشى . ولم يبقَ منهم الاّ فلول وبقايا قد اعتصموا بقنن الجبال ، ولاذوا بالصحاري . ثم حدَّثنا التاريخ ان موجات عظيمة من العرب قد غمرت بلاد البربر هذه في اوقات مختلفة . وقد احصيت موجة واحدة من هذه الموجات العربية فاذا هي تربي على مليون نسمة ، وهي موجة بني هلال وحلفائهم الذين نقلهم الفاطميون في القرن الخامس الهجري من صعيد مصر ، وأرسلوهم نقمة على دولة الصنهاجيين الذين كانوا يومئذٍ ينصرون مذهب اهل السنَّة في هذه البلاد ، ويضطهدون مذهب الشيعة فيها . وكانت المذاهب الدينية الاسلامية يومئذٍ بمنزلة الاحزاب السياسية اليوم ، يصطنعها اولو الامر لتمكين نفوذهم وتأييد مُلكهم ويتخذها المتطلعون الى العروش والتيجان وسائل ومطايا الى انتزاع الحكم والسلطان

وكان النزاع بين هذه المذاهب قاسياً عنيفاً في منتهى القسوة والعنف لا يتورَّع فيه المتنازعون عن الاغتيال وسفك الدماء . وكان لكل مذهب دعاة وزعماء قد انبثّوا بين قبائل البربر ينشرون دعوتهُ ، ويستعملون كل وسيلة من وسائل الاغراء والارهاب ليحملوا الناس على ان يعتنقوه طوعاً وكرهاً . وكان العرب من هؤلاء الدعاة والزعماء « يتبربرون » استمالةً للبربر ، واخفاءً لانفسهم ولغاياتهم عن « الخلافة » القائمة يومئذٍ ، وتضليلاً لعيونها وارصادها وكانوا يكثرون التزوّج من النساء البربريات ، استكثاراً للحماة والخؤول والانصار . وقد اصبح ابناؤهم بعد ذلك « بربراً » أقحاحاً . وهؤلاء اهالي وادي مزاب في جنوب الجزائر يتكلمون اليوم اللهجة البربرية كلغة منزلية ، ولكنك اذا اطّلعت على انسابهم واصولهم وجدتهم كلهم من العرب الذين « تبربروا » لسبب من مثل ما اقول . ويحدّثنا التاريخ ان الادارسة الطالبيين قد فرُّوا الى البربر واندسُّوا بينهم هم ومن كانوا حولهم من الاشياع والاتباع والمريدين ، ثم صاروا بالفعل « بربراً » ، وذلك فراراً بانفسهم من سيف هادم دولتهم موسى بن ابي عافية ومن سيوف رجاله الذين امعنوا فيهم تشريداً وقتلاً . وكذلك ما دالت دولة الاّ و « تبربر » اكثر اشياعها وانصارها ، وكلما قامت دولة الاّ واندسَّ خصومها بين البربر ، واختفوا من الميدان . و « عملية التبربر » هذه هي عملية بسيطة جدًّا فما هي الاّ ان يقيم العربي بين البربر مدة من الزمن حتى يصبح منهم . وقد شاهدنا عرباً خلَّصاً افراداً وجماعات قد اضطرّتهم مصالحهم الحيوية او الحروب الاهلية الى الاقامة بين البربر فلم يكد يمضي عليهم زمن قليل حتى « تبربروا » عن بكرة ابيهم واخرى تدلُّ على عروبة البربر ، وهي انهم يحبون العروبة ويميلون اليها كل الميل . وقد قرأنا تاريخ البربر ، ودرسنا حياتهم الحاضرة فما وجدنا في خاصتهم ولا في عامتهم ادنى اثر لهذه « الشعوبية » التي لم تكد تنجو من شرّها امة من امم الاسلام الاخرى

ولقد اسس البربر دولة كبرى في هذه البلاد ، وأسسوا في بعض انحائها امارات صغرى ، ولكن لم تقم ولا واحدة منها على العصبية البربرية ، بل قامت كلها على دعوات دينية محضة لا أثر « للبربرية » فيها . وأكثر الاسر البربرية التي اسست هذه الدول والامارات ، قد ادّعت لنفسها العروبة وادعت ان نسبها يتصل بآل البيت . فبنو عبد الواد ، وبنو زيّان ، وبنو مرين ، والموحدون كلهم قد ادعوا انهم عرب ، وانهم من السلالة الهاشمية . أما محمد بن تومرت البربري فلم يكتف بادعاء العروبة وبالانتساب الى آل البيت النبوي الكريم ، بل زعم انهُ هو « المهدي المنتظر » . والّفوا كتباً كثيرة في اثبات « شرف » هذه الاسرة البربرية مثل « قلائد العقيان في شرف بني زيّان » وغيره . وهذا ان لم يدلّ على ان هذه الاسر البربرية هي من السلالة الهاشمية فهو يدل على منزلة البربر في العروبة وعلى مكانة العروبة في انفسهم . وأنا لا استبعد ان يكون هؤلاء عرباً ، ولا ان يكونوا « هاشميين »

ولو ان ابن خلدون نظر الى اللغة البربرية لكان له رأي آخر في اصل البربر ، واذن لوجد فيها ما يدله على عروبة البربر ، او ما يدله في الاقل على اصلهم السامي . فهذه اللغة البربرية هي عربية لا في الفاظها ومفرداتها فقط ، بل ايضاً من حيث تراكيبها وحروف المعاني فيها . ولا تزال تلازمها بعض خصائص اللغة السامية الاولى ، فضمير الغائب فيها مثلاً هو حرف السين فهم يقولون « كتابسْ » اي كتابه او كتابها ، ويقولون « مَعَسْ » اي معه او معها ونحو ذلك . وحرف العين لا يوجد في كلمة بربرية ، وكل كلمة فيها عين فهي عربية « مبربرة » او ان هذا الحرف لا يوجد في كلمة بربرية الاّ في النادر القليل . ولقد قالوا ان اللغة السامية الاولى يعبّر فيها عن ضمير الغائب بحرف السين ، وانها لا « عين » في كلمة من كلماتها . ومخارج الحروف في البربرية هي عربية خالصة حتى انك لا تجد فيها حرفاً غير عربي . ومن العجب ان هذه اللغة هي ذات ضاد كالضاد العربية تماماً . فالفعل المضارع المسند الى المخاطب يختم فيها دائماً بحرف ينطقهُ كثير من البربر ضاداً عربية فصيحة . وهنالك اسماء بربرية فيها هذه الضاد ، منها : « آضِيلْ » : العنب . « آحبْشوض » : التمر في لغة « تيحبْشوض » : البطن في لغة اخرى . « آفرضالْ » : العظيم او الكبير . « آمتشيض » : التين . « إيضارنْ » : الارجل او الاقدام . قال الشيخ : وادليت الى الضابط بالنتائج التي كنت انتهيت اليها في هذا الموضوع بعد الدراسة المستفيضة والاستقراء الشاق الطويل ، وهي ان هذه البربرية ليست لغة مستقلة بنفسها ، وانما هي عربية في اصلها ، قد تحرفت بطول الزمن حتى اصبحت اكثر بعداً عن العربية الفصيحة من هذه اللهجات العامية المختلفة التي تتكلمها الشعوب الناطقة بالضاد . ويجوز مع ذلك ان تكون العربية قد غزت البربرية وامعنت فيها حتى نسفت كيانها وافقدتها كل الخصائص والمميزات

ثم قال الشيخ : وما كنت اظن ان هذا الضابط الفرنسي سيعلن في احد المؤتمرات هذه المعلومات ويقرّر انّ هذه البربرية انما هي عربية من غير ان يشير بكلمة واحدة الى انهُ اخذ ذلك كله عن هذا الشيخ العربي . وهنا قام الشيخ غضبان أسفاً ، ثم ودّعنا ومضى

وهران (الجزائر)

هل الانسان آلة

الجدال يتسع نطاقه ويتشعب

هل شكسبير وأديصن واينشتين والآلة من قبيل واحد؟

في اللغة العربية ثمانية وعشرون حرفاً، تجدها في مؤلفات الجاحظ والرازي وابن سينا كما تجدها في اشعار البحتري والمتنبي والمعري وشوقي. وفي الطبيعة اثنان وتسعون عنصراً تتركب منها الجمادات على اختلافها والاحياء على تنوّع مراتبها من الاميبا الى الانسان. فالمواد الاساسية واحدة في الانسان وحجارة الاهرام واليواقيت الكريمة وخراطين الارض وزواهي الازهار. فاذا نزلت مراتب السلّم الحيوي رأيت الخلايا قد قربت في شكلها وتصرُّفها من بعض الجوامد. بل كلما اقتربت من الاميبا وهي ادنى الاحياء، رأيت الجسم الحيّ وقد اصبح اوثق ارتباطاً ببيئته وأشد اعتماداً عليها، من الاحياء العليا التي تستطيع ان تستقلّ عن بيئتها بعض الاستقلال، او ان تعدّل فيها وفقاً لحاجتها. فالخلية الواحدة في هذه الاحياء الدنيا تصبح في عرف علم الحياة «تكويناً كيمائيّاً طبيعيّاً» Physico-chemical-system خذ مثلاً على ذلك قطرة من الكلوروفورم وصبّها على قطعةٍ من اللكّ Shellac فتتحرك القطرة عليها حركة شبيهة بحركة الاميبا. فيسند الطبيعي حركتها هذه الى قوة الجاذبية السطحية، التي تمكّن الحشرات من المشي على الماء، وتجعل قطرات المطر تتجمع كريّات صغيرة على سطحٍ لا يخترقهُ الماء. او خذ قطرة من الكلوروفورم وضعها على خرزةٍ مغطّاة باللكّ، فتنتشر حول الخرزة المغطاة وتأكل اللك وتهضمهُ ثم تقذف الخرزة نفسها. ولو كانت الاميبا محلها لما استطاعت ان تفوقها في تصرُّفها هذا

كل ظاهرة من ظاهرات الحياة تمكن اعادتها في المختبر، حتى ظاهرة التكاثر، على ما ترى في بلورات الشبّ او كبريتات النحاس. ومع ذلك يظلُّ الفرق كبيراً جدّاً، بين كتلة من البروتوبلاسمة، وقطرة من الكلوروفورم تبتلع اللك وتهضمهُ. ولكن اذا صعدت سُلّم الاحياء، وجدت الفرق بين الحي وغير الحي واضحاً لا شبهة فيهِ. الانسان مستقل عن بيئتهِ الى حدّ بعيد، ولكن الاميبا ليست مستقلة. ومع ذلك فالانسان ليس الاَّ نظاماً معقداً من البروتوبلاسمة لا فرق في تركيبهِ الاساسي، بينهُ وبين مادة الخلية البدائية

وقد نشأت في خلال العصور مدرستان من مدارس الفلسفة، الاولى وهي المدرسة الحيوية

يقول اصحابها ان الانسان مخلوق مميز بالروح والشعور والارادة الحرة . أما اصحاب المدرسة الثانية — المدرسة الآلية — فيردُّون على اولئك بأن الانسان كالاميبا، « تكوين طبيعي كيماوي » انما هو اشدُّ تعقيداً منها في تركيبهِ . ليس ثمة روح ولا ارادة حرَّة . واذا كان يبدو لكم ان الانسان حرّ الارادة فذلك لان سَبْر استجابتهِ لمنبهات او الحوافز المختلفة الناشئة عن بيئتهِ معقَّد وصعب، لم تجدوا اليهِ السبيل بعد . وكلما اتسع نطاق معرفتنا ببيولوجية الانسان وسيكولوجيتهِ ، نزداد اعتقاداً بأنهُ اقرب الى ان يكون « آلة معقدة التركيب »

ومن المتعذر ان تخضع هذه المذاهب والآراء للامتحان . لان الجسم البشري ما يزال متسماً بسمة مقدسة تجعل تجربة التجارب الحيوية فيهِ امراً متعذراً . فالعالم فساليوس اضطهد في عصره لانهُ شرَّح جثة . ولست تجد الآن طبيباً او بيولوجيًّا يجرؤ على اجراء تجربة ما على طفل قبل ان يمتحنها امتحاناً دقيقاً بتجربتها اولاً في الحيوانات . بل ان استعمال الحيوانات في بعض هذه التجارب ، مقيَّد في بعض البلدان بقيود ثقيلة . والمذهب الآليّ يمكن امتحانه باحدى طريقتين . إما بدراسة التوائم وإمَّا باستنباط الآلات التي تتصرف تصرفاً يشبه السلوك الانساني في نواحيهِ العامة

فلنبدإ بالتوائم . فالتئمان اولاً يجب ان يكونا من بيضة واحدة (Identical) لان الشبه التام بين تئمين من هذا القبيل يجعل التفريق بينهما متعذراً حتى على الام

خذ مثلاً على ذلك تئمين من هذا القبيل يدعيان « جمي » و « جوني » . امهما عاملة تلفون ووالدهما سائق سيارة . فمنذ ما بلغ هذان التئمان عشرين يوماً من العمر ، عنيت بهما الباحثة مرتل ماكرور من علماء معهد الامراض العصبية بنيويورك . فجعلت تستقدمهما اليها في كل صباح . كان « جوني » اضعف بنيةً عند ولادتهِ من تئمهِ « جمي » . وقد بلغا من العمر عشرين شهراً الآن . أما « جوني » الضعيف عند الولادة فقد درِّب ومرِّن ، حتى أصبح يستطيع ان يتزحلق على القباقيب وان يغوص في الماء ويسبح فيهِ وان يتسلق سلَّماً . أما تئمهُ فلم يدرَّب بل ترك وشأنهُ . فهل يستطيع ان يجاري « جمي » تئمهُ في شيءٍ ؟ كلاّ . بل اذا وضع على رفٍ مرتفع قليلا بدأ يعول خوفاً واستنجاداً وعند المقابلة الآن ترى كأنَّ « جوني » ، يفوق « جمي » ذكاءً ومقدرة

فنحن هنا امام طفلين بلغا في تشابههما عند الولادة اقصى ما يمكن ان يبلغ التشابه بين كائنين ، ولكنهما يختلفان الآن اختلافاً كبيراً ، بعد سنةٍ واحدةٍ من المرانة والتدريب

ولكننا نشكُّ كثيراً في اننا نستطيع بلوغ الحقيقة في هذا الموضوع عن طريق دراسة التوائم . واذا كان الانسان آلة فيجب ان يكون في وسع البيولوجي ان يستنبط آلة خالية من الروح ، ولكنها تتصرَّف كما يتصرَّف الكائن الحيّ . والعلماء لم يغفلوا ذلك ، بل انَّ طائفة منهم قد حاولتهُ

ففي اوائل هذه السنة ، وقف طالب من طلاّب معهد ماستشوستس الفني الصناعي Techonology ويدعى نورمن كرِم Krim امام قسمٍ من اقسام معهد المهندسين الكهربائيين في اميركا، وقرأ رسالة

عنوانها « الفعل العكسي المحوَّل ومقابلهُ الكهربائي الميكانيكي » . وفي هذه الرسالة وصف آلة كهربائية يَمض فيها احياناً وميض العقل الانساني ، ثم تكتنفها غياهب الجمود . واشار كرم في مقالتهِ الى انهُ تتبع مباحث الاستاذ كلارك هل وصحبهِ في جامعة يايل الاميركية ، حيث بنوا آلات مختلفة ، تستطيع ان تتذكر وتنسى . وهؤلاء المستنبطون ليسوا واهمين في نظرهم الى الآلات التي استنبطوها . فانهم لا يتوهمون ولا يريدون ان يوهموا انهم صنعوا الانسان الميكانيكي (Robot) الذي تصوَّرهُ الكاتب التشكوسلوفاكي كابك في مسرحيتهِ ، ولا ان يصنعوا آلات للاعمال التجارية والمالية تحصي وتعيدُ وتجمع وتطرح من تلقاء نفسها . بل هم من اصحاب المذهب الآلي في طبيعة الحياة ويحاولون بما يقومون بهِ من المباحث واستنباط ما يستنبطونهُ من الآلات ، ان يكشفوا السر الغامض اذا امكن من هذه السبيل

فهم يعتقدون ان كلمات « العقل » و« الروح » و« النفس » الفاظ لا معنى لها ، ورثناها من مخلفات الماضي الغيبية ، وان الانسان سواء أكان عبقريًّا كاينشتين او ابله ، لا يعدو ان يكون نظاماً معقدًا من المادة يتفق ان تكون في حالة ندعوها حالة الحياة ، وانهُ لا بدَّ في النهاية من تفسيرها بقواعد الطبيعة والكيمياء والكهربائية . والواقع ان الغرض من الآلات التي بناها كرم وهل وصحبهما ، انما هو اقامة الدليل على ان الانسان آلة Automaton — مخلوق تعلَّم ان يستجيب لقوى داخلية وخارجية استجابة طلقة Spontaneous عند ما تفعل هذه القوى في الحواس وما وراءها من الجهاز العصبي . ففي جميع المحاولات التي حاولوها صنعوا آلات ميكانيكية وكهربائية وكيمائية كهربائية ، تستطيع ان تفعل فعل « التأثير العكسي المحوَّل » الذي اشتهر بهِ العلامة الروسي ايفان بافلوف . ولسنا في حاجة الى الافاضة في موضوع بافلوف فقد سبق لنا وصف المباحث الاساسية التي اشتهر بها

فقد حصر [١] هذا العالم تجاربهُ في الكلاب . ومن المعروف ان الكلب ، ككل الاحياء المدركة ، اذا رأى قطعة من الحلوى سال لعابه . فاستغل بافلوف هذه الظاهرة ، وهي ظاهرة من الظواهر التي تسمى « افعالاً عكسية » اي انهُ من الافعال التي يؤديها الجسم بقاسر ذاتي ، ومن غير ان يكون لتجاريب الحياة فيها أقل أثر . وهنالك كثير من الافعال العكسية بعضها اصيل وبعضها مؤصل . ومنها ما يمكننا مشاهدتهُ في الاطفال ، ومنها ما يتأصل على قدر من العمر ومرور من الايام . فالطفل يعطس ويتثاءب ويتمطى ويحوّل عينيهِ نحو النور ، ويأتي غير ذلك من الافعال في مختلف اطوار عمره ، من غير ان يكون في حاجة الى ان يتلقنها او يتلقاها عن غيره . وكل هذه الافعال تدعى الافعال العكسية او بالاحرى ، كما دعاها بافلوف افعال عكسية أصيلة Unconditioned Reflex actions وهي بذاتها التي كانت تدعى من قبل الغرائز Instincts والغرائز المركبة كغريزة بناء الاعشاش في الطيور ، تلوح كأنها جملة مندمجة من افعال عكسية . والافعال

(١) راجع مقال « عناق العلم والادب » مقتطف مايو ١٩٤٣ صفحة ٥٧٩

العكسية في الحيوانات الدنيا قلما تؤثر فيها تجاريب الحياة . فان الفراشة تستمرُّ تحوم حول الضوء حتى بعد ان يحترق جناحاها . وعلى الضد من ذلك تجد الحال في الحيوانات العليا . فان تجاريب الحياة لها في هذه الافعال العكسية الاصيلة ، تأثير بالغ فيها . ولا يخرج الانسان عن حكم هذه القاعدة . ولقد قصر بافلوف تجاربهُ كما قلنا من قبل على سيل اللعاب في فم الكلاب . نخلص منها بالقاعدة الآتية قال :

« عند ما يقترن بالمنبه الذي يبعث اي فعل عكسي اصيل او يتقدم عليهِ ، مرات عديدة منبه ثانٍ ، فان هذا المنبه الثاني يحدث مع الزمن نفس الاستجابة Response التي كان يبعثها المنبه الاول في احداث فعل عكسي متحول » . — Conditioned Reflex action

فان سيل اللعاب فعل عكسي أصيل ، لا يحدث اصلاً الاَّ عند وجود الطعام في الفم . ومن ثمَّ يحصل عند مرآى الطعام او شم رائحته ، او عند حدوث اية علاقة او اشارة تسبق مباشرة الاكل . وكل هذه الافعال يدعوها بافلوف الافعال العكسية الاصيلة . ثم قرن تقديم الطعام بقرع جرس وكرَّر ذلك مراراً . ثم استغنى عن تقديم الطعام فاصبح قرع الجرس يسيل اللعاب في فم الكلاب فالاستجابة (سيل اللعاب) واحدة في الفعل العكسي الاصيل والفعل العكسي المتحول ولم يستحدث في الامر من شيء الاَّ « المنبه » Stimulus الذي يشترك او يتحد مع المنبه الاصلي من طريق التجربة . وهذه القاعدة هي اساس كل تعليم او استيعاب للمعلومات ، واساس الظاهرة النفسية التي كانت تدعى من قبل « تداعي او اشتراك الافكار » ، واساس تعلم اللغات ، واستحكام العادات واستبدادها بالافراد والجماعات ، وعلى الجملة هي الاساس العملي لكل مناحي السلوك الانساني الخاضع للتجربة

وبعد ان استرشد بافلوف بهذه القاعدة مضى يطبقها على ما يخطر بباله من ممكنات التطبيق . فانهُ لم يقتصر على امتحان منبهات الطعام الشهي . بل عمد الى الاحماض المكروهة ، يأخذ منها منبهات يستعملها في تجاريبه ، حتى يستطيع ان يؤصل في كلابهِ استجابات « التوقي » ، كما يؤصل فيهم استجابات « التشهي » فبعد ان ينبه فعلاً عكسيًّا اصيلاً ، يعمد الى قمعه بفعل آخر . فاذا كانت العلامة او الاشارة التي يعمد اليها يعقبها نتيجة مرغوب فيها طوراً ، ونتيجة مكروهة طوراً آخر ، فان الكلب يصاب باضطراب عصبي مثل الهستريا او النورستانيا ، وتظهر عليهِ كل العلامات المميزة لاحد المرضين

ففي كل فعل عكسي عنصران . الاول هو الحافز او المنبّه وهو بمثابة الضغط على زناد البندقية . والثاني الاستجابة ، وهو ما يقع بعد الضغط على الزناد اي انطلاق البندقية

فهل الجسم آلة تسيطر عليها قوى من قبيل ما يعرف بالحوافز او المنبّهات Stimuli ؟ اما بافلوف واتباعهُ فيرون ذلك . ثم ان الدكتور وطسن الاميركي قد بنى فلسفة نفسية كاملة على هذا الاساس ، تعرف بالسيكولوجية السلوكية Behaviouristic فاذا صحَّ هذا ، فمن العبث ان نبحث عن سرّ عظمة اديصن وايتشتين ولنكن ونيوتن في اندماج خاص من الخلايا الحية تلقوها وراثة من اسلافهم . انهم على ذلك يصبحون آلات حية ، تطبّعت — والتطبُّع قائم على قاعدة الفعل العكسي المحوّل —

بحوافز بيئتها لتخرج خططاً اجتماعية خطيرة كأرئيس لنكن ، او مصابيح كهربائية وغراموفونات كاديصن ، او نظريات في الكون كنيوتن واينشتين

واصحاب هذه النزعة لا ينكرون الحب والبغض والبطولة . وانما يقولون ارونا السلوك الذي تطلقون عليهِ صفة الحب او صفة البغض او صفة البطولة ونحن نشرع في تجربة تجارب تمكننا من الانباء بدقة عن الوان هذا السلوك . فاذا قبلت هذه النظرية ، اصبحت الخطوة التالية ، جلية بل محتومة ، وهي بناء شيءٍ يتصرف كالحيوان ولو كان في ابسط عناصر تصرُّفهِ

كيف يفسر اصحاب المذهب الآلي الفعل العكسي البسيط والمحوَّل ? كيف يفسرون سيل اللعاب عند رؤية الطعام ? يقولون ان العين تبعث رسالة الى الدماغ . فيصدر الدماغ الاوامر الى الغدد اللعابية واللسان والفكين والفخذين وغيرها من الاعضاء . فتنشأ كذلك صلة بين مراكز الحس ومراكز الحركة ، التي تسيطر على الغدد والفكين وغيرها . ثم ان مباحث السر تشارلز شرنغتن الانكليزي قد اثبتت ان رسالة العصبية من قبيل التيار الكهربائي

فلنعد الآن الى احدى الآلات التي استنبطها هَلْ وكرمْ وصحبهما . فهي عبارة عن دورة كهربائية تحتوي على بطارية وزرٍّ للكبس ومصباح . اضغط على الزر . فهذا الضغط في الآلة هو المنبه ويقابل مشاهدة الكلب للطعام . فينير المصباح وهذه الانارة هي الاستجابة وتقابل سيل اللعاب في فم الكلب

اما الفعل العكسي في الكلب — اي سيل اللعاب عند رؤية الطعام — فقد تحوَّل . فأصبح يسيل عند قرع جرس بعد مرانةٍ . فكيف نعلّل ذلك ? ليس ثمة صلة مباشرة بين العين والاذن . ولكن وراء العين والاذن نجد الدماغ وهو اشبه شيء بمركز كهربائي . بل هو يفوقهُ ، في انهُ مركز تنسَّق فيهِ الرسائل العصبية حتى لا يتعارض بعضها مع بعض . فكلما قرع الجرس استثيرت العين والاذن ، استثارة غير مباشرة ، عن طريق الدماغ (اي الجزء من الدماغ المعروف بالمخيخ) . بل لتستطيع ان تستغني عن المخ في حياة الكلب وتظل قادراً ان تحدث في الكلب فعلاً عكسيًّا محوَّلاً كاسالة اللعاب لدى قرع الجرس بدلاً من اسالتهِ عند رؤية الطعام

ثم لننتقل من الفعل العكسي المحوَّل الى الآلة . فنضيف اليها بطارية ثانية وزرًّا ثانياً ومصباحاً ثانياً . اضغط على الزر الثاني ، فلا ينير المصباح الاول . فكأنك قرعت الجرس امام الكلب لاول مرَّة فلم تتأثر بصوتهِ غدده اللعابية . ثم اضغط على الزرَّين معاً فيضيء المصباحان معاً . فكأنك قدمت الى الكلب الطعام وقرعت الجرس معاً فسال لعابهُ . وامضِ في ضغط الزرَّين . فكأنك تعلم هذه الآلة نوعاً من تداعي الافكار . او كأنك تدرّبها على تحويل فعلٍ عكسيّ اصيل . وبعد ان تفعل ذلك عشر مرات او عشرين مرةً ، اضغط على الزر الثاني وحده — هو الزر المقابل لقرع الجرس — فيضيء المصباح الاول وهو المقابل لسيل اللعاب !

ولكن امض في ضغط الزر الثاني ، فينير المصباح الاول عدة مرات . ثم يتوقف عن الانارة . وهذا يقابل ما يقع تماماً للكلاب . فانك بعد ان تعوّده الاستجابة لقرع الجرس بسيل اللعاب يمضي يسيل لعابهُ عدة مرات كلما قرع الجرس . ثم كأنَّ كيانهُ يستيقظ الى ان الغرض من سيل اللعاب هضم الطعام ، وقرع الجرس هذا لا يقدم لهُ طعاماً ، فيرفض كيانهُ بعد ذلك ان يُسيل اللعاب في الفم عند قرع الجرس اي ان الفعل العكسي المحوّل يرتدّ فعلاً عكسيًّا اصيلاً

او خُذْ آلة أخرى مبنية من عيون كهربائية تتأثر باللونين الاحمر والاخضر وادوات كهربائية اخرى لا يهمّنا التوسع في وصفها . فقد وضع المستنبط هذه الآلة في صندوق يشبهُ في شكلهِ رأس الانسان واقامهُ على عجلات تسير على قضبان ، فتستمدُّ الآلة الطاقة من طريق هذه القضبان

اقرع الجرس . فتتجاهل الآلة قرعك او امسك بالجزَر او الاسبانخ امامها . فلا تستجيب . ولكن جرَّ هذه الآلة على القضبان عبر الغرفة عشر مرّات ثم اقرع الجرس ، فترى الآلة وقد سارت على القضبان من تلقاء نفسها . او امسك بالاسبانخ امام عيونها الكهربائية ، وفي الوقت نفسهِ شُدَّ اذني الرأس . فبعد ان تفعل ذلك عشر مرّات ، تهزُّ الآلة رأسها من تلقاء نفسها عند مجرّد رؤية الاسبانخ . واذا لوّحت بالجزر امامها وربّتَ على قفا الرأس في الوقت نفسهِ عشر مرّات كذلك، هزّت الآلة رأسها عند رؤية الجزر من دون ان تربتها . والآلة تتصرف التصرف نفسهُ اذا ابدلت الاسبانخ بلوحة خضراء والجزر بلوحة برتقالية ، لان اللون هو العامل الفعّال في هذه التجربة

***

ان ما تفعلهُ هذه الآلة ، يكاد يكون لا شيء ازاء ما يستطيعهُ جسم حيٌّ بسيط التركيب كالاميبا مع ان الاميبا ابسط الاحياء على الاطلاق . وقد يكون في متناول العلماء ان يصنعوا جهازاً يتصرف تصرّف الاميبا . ولكن بناء جهازٍ يستطيع ان يتصرف تصرف الدماغ الانساني فمستحيل على ما نعلم الآن . ذلك ان المادة السنجابية في الدماغ تحتوي على نحو عشرة آلاف مليون خلية عصبية . وهذه الخلايا مترابطة وعدد الصلات بينها يبلغ الوف الملايين وكل عملٍ من اعمال الانسان العكسية والشعورية يقتضي عمل طائفة كبيرة مترابطة من الخلايا

***

اما الحيويون فيقولون بلسان هولدين : يحسن بنا ان نزن الانسان ونحلّل نُسُجَهُ والمواد التي تدخل في تركيبها ولكن ذلك لا يمكننا بوجهٍ من الوجوه من ادراك كُنهِ الصفات التي يتصف بها سلوكهُ الشعوري او الواعي Conscious اي ان هولدين يعترض على هذه الآلات ، لانها اذ تتصرف تصرُّفاً شبيهاً ببعض نواحٍ من تصرّف الجسم ، لا يكون تصرُّفها هذا واعياً او شعوريًّا . فيردُّ الآليون عليهِ ، مستندين الى بافلوف قائلين : ونحن غرضنا ان نبين ان الشعور او الوعي ليس الاَّ مجموعة من الافعال العكسية المنفصلة بعضها عن بعض

فاجـــنر

WAGNER

وتلخيص أوبرة « لونجرين »

أتاح لنا شاعر الفرنسية الموهوب ، المصري المثقف « خيري بك » فرصة ثمينة مرّت كما تمرّ على المرء اسعد اوقات حياته ، ساعة ان تحدّث الى سامعيه وطارفي قدر أدبه عن موسيقى فاجنر في معهد الموسيقى الملكي . تحدث عن موسيقى هذا الفنان في نواحٍ متعددة تدل على انهُ جهد جهداً موفقاً في دراسة ادب فاجنر وفنهِ الموسيقي واوبراتهِ . وما ظنك بشاعر يصرف من زهرة عمره اكثر من عشرين ربيعاً يدرس فيها حياة هذا العبقري العظيم ... فانت اذا سمعته وهو يتحدث عن فاجنر لا تنصرف عنهُ الأولك ثقة تامة تحت تأثير العاطفة والشعور الموسيقيين بأن هذا المصري طُبع بروح فاجنر نفسه فتحدث الينا عن موسيقاهُ وفنه وعن أدبه وأُبراتهِ في ليلة من الليالي المعدودة في العمر

ولد ولهلم رتشرد فاجنر المؤلف الموسيقي العظيم في مدينة ليبزج عام ١٨١٣ ومات عام ١٨٨٣ رجلاً تمثلت فيه العصامية والاعتماد على النفس . درس الموسيقى في الملم وإسهاب هيئا له كرسي الاستاذية في مسرح فرزبرج حيث كان مشرفاً على الموسيقى وما يتصل بها . ولقد ذهب الى باريس عام (١٨٣٩) حيث قضى فترة من عمره الى سنة (١٨٤٢) ومن ثمَّ رحل الى درسدن حيث عين استاذاً ايضاً للموسيقى . ولقد حدث ان نفي من المانيا عقب ذلك للاحوال السياسية الخاصة بثورة (١٨٤٩) فنزح الى سويسرا وصرف فيها اثني عشر عاماً متنقلاً منها الى انكلترا وايطاليا وفرنسا . ولقد مضى من سنة (١٨٦١) الى سنة (١٨٦٤) فيما بين فينا وميتز مجداً في سبيل رزقه الى ان ظفر بمرتب مستديم نفحهُ بهِ « لدفيج الثاني » ملك بافريا

> «جميع بواعث النغم دانت لارادته . فكان أميراً للألحان الصاخبة وقد انصت من موج البحار بايقاعه العجيب . بها يأمر السماوات ان ارعدي او اخلدي الى السكون . كان يحس بالموسيقى الكامنة في أكمة من الجرانيت ، ويسمع كل همسة من همسات النسيم في الاشجار . بالحبة والبغض ، بالفرح والحزن والنشوة ، كان يجعلها في القلوب ناراً او يجعلها جمداً . فاذا جاء يوم في المستقبل البعيد ، واستشرف الناس الماضي الغابر المجيد ، للبحث عن امارات الخلود قالوا : «انه كان نسيج وحده . ان سمفونياته الحية تتردد الليلة اصداؤها في درب التبان فتدخل الطمأنينة على السكان في عنقود الثريا »
>
> [الشاعر فتزهيو مينجرود]

وظلَّ مقيماً في سويسرا الى عام ١٨٧٢ وبعدها نقل الى « بايرويت » Baireuth حيث امضى الشطر الاخير من حياته وقضى نحبه في مدينة البندقية في ١٣ فبراير سنة ١٨٨٣. ولقد تزوج فاجنر في حياته مرتين . الاولى من « مينابلانر » والثانية من « كوزما فون بيلو » ابنة الموسيقار لِسْت

***

اشتهر فاجنر «بأوبراته» الموسيقية فألف منها ما يُعَدُّ الى الآن في اوربا نوعاً فريداً من الانواع الحية الفتانة . « اوبراته » فيها عبقرية موسيقية يقبل عليها عشاق فاجنر من الجمهور المستمع فضلاً عن أئمة الفن والنقد . . يكفي ان يقال فيها انها موسيقى رجل نبت عصامياً وعاش لفنه وفي سبيله هائماً من بلد الى بلد كالطائر الطريد الصدَّاح !! ومن سوء حظه ان استعدى عليهِ خصومه اصحاب القوة فنفي من وطنهِ وظلَّ مشرَّداً الى ان ضمهُ مليك بافريا فتمرَّد ايضاً على الحياة لانها عنده لاشيء . . ولان الجمال الروحي في عاطفته فطري يغذيه

تلك هي الشاعرية الطريدة التي تعيش لنفسها وتعمل للناس تسمو بالحياة الى المعاني العالية الرفيعة . . تلك الشخصية الفذة العظيمة لا ترفعها الحياة بل تنازلها . تصارعها الشدائد فتخرج اصلب عوداً . وتعجمها الحوادث والمحن لتعود اكبر نفساً واقوى مراساً

استطاع فاجنر في حياته الفنية ان يهذّب من فن الاوبرا فأودع فيها من التجديد ووسائله ومن السبك والوانه ما جعل لها قيمة جدية في عالم البقاء . فقد ضمن للاوبرا القوة التي نلمسها في القصة التمثيلية التي لا يستطيع الانسان هضمها واساغتها بغير الموسيقى . والروح الموسيقي الذي يكوّن الاوبرا في مذهب فاجنر وتدور عليهِ الحوادث نفسها مبعث القوة والنهوض فيستثير كوامن النفس ويلهب منها العواطف والاحاسيس . ويفسر فاجنر مذهبه الموسيقي باكساب الحركات والحوادث لباس الروح العاطفي الذي لا يستطيع الكاتب او الشاعر ان يبرزه في شيء من التأثير كما يوفق الى ذلك الموسيقي الملهم . الموسيقي الشاعر بفطرته . الموسيقي الروحي الذي تلهمهُ الانسانية المعذبة رسالة الألم وعبارة الرجاء . .

واشهر اوبرات فاجنر التي اعدَّت للتمثيل وشهدتها معظم مسارح اوربا هي « داي فين » سنة ١٨٣٣ و « داي ليبسفربوت » ولم يمثلا حتى وفاته . ولقد مثل في حياته الأوبرات « طان هوسر » سنة ١٨٤٥ و « خاتمة النبلنجين » و « داي رينجولد » و « ڤلكيري » و « سيجفريد » و « غسق الآلهة » و « الهولندي الطائر » ولقد بدأ تأليفها حوالي عام ١٨٥٠ وراجعها كلها عام ١٨٦٩ واتمها سنة ١٨٧٥ . وشهدت دار الاوبرا العظيمة في مدينة « بايرويت » « خاتمة النبلنجين » واوبراته الاخيرة ومنها « لونجرين » و « بارسيفال » التي تعد من اقوى ما ألفه فاجنر في الادب والموسيقى

واني اقدم هنا تلخيص «اوبرته » لونجرين التي أحرزت نجاحاً كبيراً قلما يعدلهُ نجاح آخر والتي بهرت كبار رجال الفن واعجب بها كثير من النقاد

أوبرة « لونجرين »

تعتبر لونجرين من اقوى ابرات فاجنر التمثيلية . ويكفي ان يكون واضعها ممثلاً وموسيقي فاجنر فقد لا يوجد صبي في المانيـا لا يعرف اغنية « كوكب الدجاجة » عند ما يدفع لونجرين الاوزة . . . وقد استقى فاجنر اوبرته من النصوص القديمة التي تحدثنا عن مصير لونجرين البطل الغامض وحارس « السر الاعظم »

في هذه القصة صراع عنيف بين الحق والباطل وبين القوة والقانون وفيها صراع عنيف ايضاً بين حب الخطيبة وشهوة الزوجة . فيها اتهام يلقى على النفس الشريفة كأقوى ما يكون الاتهام . وفيها من الألم ما يمس صميم النفوس الكبيرة فيكاد يقضي على موضع العزة فيها والشرف . . . فيها صراع قوي بين الزوج والزوجة . . . وما رأيك في زوج نبيل يذهب ضحية زوجة مفتونة بسحرها تتحمل السحر للايذاء والشر فتتغير من الصور الانسانية في سبيل شهوتها وإرتها . . . كثير على زوج ان يتحمل المـاً وتضحية في سبيل امرأة تسخر من الزوجية في سبيل ثأر تناله ومأرب وضيع تصبو اليه نفسها ولكن هي المرأة وكفى . . .

***

نحن بجوار « أنتورب » حيث يستعرض هنريك فوجلر ملك المانيا جيوشه الجرارة امام سكان مقاطعة « برابانت » ليدرأ اعداءه الغزاة الهنجاريين . فيجد الملك الناس في هرج ومرج فيتفهم هذا فيعلم ان الكونت فريدرك تيلرامند يتهم إلزا صاحبة برابانت بقتل اخيها الصغير « جود فري » وارث دوق برابانت الذي توفي قبل امد قصير تاركاً اطفاله لعناية « تيلرامند » ولقد كانت إلزا خطيبة تيلرامند ولكنهُ تزوج « اورترد » صاحبة فريزلند . وكان يطالب بحقه في وراثة دوقية برابانت

تعلن إلزا براءتها من قتل اخيها لانها لا تعلم عن امره شيئاً . فكل ما تذكره انهُ اختطف اثنا نومها فاذا عرض الامر على الملك اصدر قراراً فحواه ان يترك شأن هذا الحادث للعناية الالهية دون غيرها لتصدر فيه ما تراه . ولكن تيلرامند لوثوقه من حقه يرى ان يعلن استعداده لمبارزة من يرى الدفاع عن إلزا . فأما ابطال برابانت وعظماؤها فيرفضون طلبه ولا يقبلون عليه حتى الملك نفسه الذي يعتقد في براءة إلزا . ولكن ابطال برابانت والمليك ايضاً يعتقدون ايضاً أن الحق يبدو في جانب هذا الرجل الممدود في طليعة الابطال

تلتزم إلزا الهدوء وتتضرَّع الى السماء حتى اذا اقبل الليل واستلقت في مخدعها تخيلت ذلك البطل الالـهي المرسل من السماء يحملها رسالة الدفاع والذود عنها . وأما هي فقد تتحدث الى نفسها في الصباح عن تلك الرؤيا الجميلة . وتعلن في غير ما تردد أو تهيب بأنه اذا تحقق لها هذا

الخيال فهي لا تتوانى ان تمنحه يدها وأملاكها . فأما هي فتكثر من هذا الحديث وتبتهج لروعة هذا المنظر وان هي الآن لحظة حتى ترى فارساً يتمنطق بالدرع ويرتدي لباساً فضياً لامعاً لا تكاد العين تنصرف عن رؤيته لجماله وتأثيره . يركبُ قارباً مسطحاً تسيره في الماء « اوزة » جميلة اللون شائقة المنظر .. حتى اذا انتهى الى الساحل ودّع القارب والاوزة واتجه الى قصر إلزا فتقبل عليه تحييه . وتعلم فيما بينها وبين نفسها ان هذا هو البطل الذي تخيلته في حلمها . أما هو فيسر اليها انه سيذود عنها ما امكنه الذود . على ان تكون له زوجة وان لا تفكر من اين هبط عليها او ان تفكر في اصله . . تقبل إلزا هذا في غير عسر او مشقة . ويبدأ الصراع بين الفارس وتيلرامند فيفوز الفارس على خصمه فوزاً مبيناً ولا يفكر في قتل تيلرامند بل يهبه حياته التي في متناول يده والتي كانت ستطوح بآمال زوجته « اورترد »

***

أما « أورترد » فكانت ساحرة وفقت الى ان تخدع زوجها الذي يؤمن الايمان كله بقتل « جود فري » بينما هي اختطفت الطفل ولم يدر بها احد . بل استطاعت ان تهزأ بعقل زوجها بما لم يكن يتوقعه احد

فاذا كان الفصل الثاني فنحن في قصر « ديكال » حيث تعد معدات الزواج الذي اغتبط له قوم واستاء منه آخرون . أما إلزا فسعيدة بهذا الزواج يحدوها فيه الامل ويدفعها اليه الرجاء . وأما « اورترد » فتبرمة به يدفعها الغيظ لتقف في طريقه . وأما زوجها فحانق عليها لانها كانت الباعث في امر هزيمته . وهو هذا العظيم القوي امام قومه ! يتحدث اليها في شيء من الألم والتأثر وتجيبه في شيء من الهدوء وفي غير مبالاة حتى يتهمها بأنها سبب هزيمته وانها لا تأبه لشرفه المثلوم فتجيبه في شيء من الهدوء وقلة الاكتراث عما تصنع وما حيلتها في الجبناء ! يتحرج الموقف بينهما فتسرع الى ابتسامة متكلفة وتعلمه بأنها ستعمل على فض الزواج بأية سبيل . . . فتلجأ الى إلزا لتقول لها كيف يتم لها زواجها بشخص لا تعلم شيئاً من امره بل ولا تعلم اسمه . حتى اذا قنعت إلزا بهذا أخفق الزواج وهي كساحرة تعلم العلم كله بأن قوة هذا الفارس ستفنى اذا اصطدم بهذا الحديث الذي تحمله اليه إلزا

تقف إلزا في نافذة قصرها الفخم تستعرض جمال الطبيعة . . وتشكر الله القدير . . . وتنصت فتسمع الى نداء حزين هو نداء منكوب او خائر القوى . . لا يكاد يقوى على الحديث ... إلزا ... إلزا . . . فتجيب بعد ان يخفق قلبها تأثراً وألماً . . وتبحث عن المنادي فاذا به « اورترد » تبكي بين يديها . تستعطف إلزا في شيء من الرفق والاخلاص . هي ترى ان إلزا ستكون ضحية لطيبة قلبها وتسليمها امرها لهذا المستقبل المجهول . . واذن فالزا متأثرة بهذا الشعور . . وهنا يتناول الشك موضعه في قلب إلزا . . والآن فقد احتشد الناس في الكنيسة في الصباح المبكر ليشهدوا

عرس إلزا العظيم وقد اقبلت إلزا لتأخذ مكانها بجانب زوجها . . فتندفع اورترد بين الصفوف لتذكر إلزا بما سبق ان امرت به اليها . ويتسابق تيلرامند الى الفارس الغريب ليتهمهُ . . . ولا يتظاهر بهذا حتى يندفع الى الوراء بتدفق الجماهير . . وإلزا تصرح « لأورترد » بأن رسالتها في النصح جاءت متأخرة . ولكن الشك يزداد والامل في مستقبلها السعيد يصبح ضعيفاً . هي مستسلمة اذن لحديث « اورترد » ولكنها تدفع عن زوجها ما يكاد يلم بهِ من امر تيلرامند وتلجأ اليهِ ان يحمي نفسه ويحميها . . ولكنهُ يصر على ان يتركها وشأنها . . . ويتقدم تيلرامند الى الملك يستعطفه في ان يعلم اسم هذا الغريب ويسأل عن شأنه . . ولكن لوهنجرين — الفارس — يرفض ذلك الا اذا صدر السؤال عن زوجته . . ولكن إلزا تمتنع مع ما بها من شك ان تسأله

⁂

نحن الآن في الفصل الثالث حيث يقيم الزوجان في قصر إلزا . . يرفرف عليهما طائر الفرح . . ولكن قلب إلزا لم يزل كما هو . . . فيه شك وفيه ألم . . . بل فيه خوف وفيه اضطراب . . . الم تودع فيه «أورترد» هذه العواطف كلها ... تصرح إلزا في غير تردد بأن مصيرها مجهول . والواجب يدعو زوجها ان يخفف من غلوائه فيذكر لها موقفها اذا تركها وذهب الى طريقه بل وعاد الى سمائه . وبينما هما في هذا الحديث يشعر بأن تيلرامند مقبل لقتله غيلة . فيفات منهُ ويطعنهُ طعنة نجلاء . . ترديه قتيلاً . . . وأما هو فيأخذ زوجته الى ساحة المليك ليطلعهُ على حقيقة أمره . . . وعن رسالته . . . ومن هو . . أما السر فهو انهُ حارس السر الاعظم وخليفة « پارسيفال » . والسر الاعظم هو « دم المسيح المحفوظ » الذي يحرسه الفرسان بالوراثة في القصر الاعظم . . على الجبل الاعلى ... والآن لا يسعهُ اذ قد باح بهذا السر الخطير ان يقيم وزوجتهُ بل يعود من حيث اتى . . وانظر اليهِ فقد تلفت الى امامه فوجد الأوزة قد اقبلت نحوه فيأخذ من عنقها سواراً صغيراً ذهبيًّا يمنحه الى الزا ويعطيها كذلك درعه وسيفه . . لكي تدفع بهما كل عداء وكفاها ما فيهما من سر . . .

يهم الفارس بأن يذهب فيستمع الى اورترد بأنها هي التي سحرت الطفل فصنعت منهُ اوزة وانهُ كان في مقدوره ان يعيد الطفل الى كيانه الاول لو لم تسرع إلزا بسؤاله عن حقيقة امره ... يستمع لوهنجرين هذا في ألم . فيرفع وجههُ الى السماء ويصلي بقوة طالباً نجدة الطفل ... ويتقدم اليهِ واضعاً الذهب في عنق الاوزة .. فيختفي الطائر الى حيث الماء لحظة ثم يعود فاذا به « جودفري » نفسه قد رجع ... واذا وارث عرش برابانت قد اقبل ... واذا الفارس يذهب الى قاربهِ في الماء وقد أقبلت حمامة من السماء تدفع القارب ... واذا لوهنجرين قد ابتعد عن الشاطىء وغاب عن الانظار .. واما إلزا فقد قامت تضم اخاها لها ... وخرجت اورترد حسيرة النفس يائسة »

حليم متري

السيكولوجية الحديثة

التحليل النفساني

يعقوب فام

فرويد

قلنا في مقالنا السابق ان فرويد قسم النفس الى ثلاثة اقسام وأسماها (Id, Ego and Super Ego) وبلغتنا: الشخصية والنفس العليا والشهوة، او الضمير والعقل والنفس باللغة القديمة، او نستطيع ان نستعمل مؤقتاً الاصطلاحات التي كانت تستعملها السيكولوجية من خمسين سنة وهي العقل والشعور والارادة — هذه الثلاثة هي الاركان التي تقوم عليها النفس الانسانية

ثم قلنا ان مدرسة التحليل النفساني تزعم ان الامراض العصبية تنشأ في الاصل من ان الشهوة تلحف على الشخصية بالمطالب التي لا تستطيع هذه ان تؤديها فتتولد عن هذا العجز ازمة نفسية حادة او خفيفة، وهذه الازمة هي المرض بذاته، هي محاربة اجزاء النفس بعضها لبعض، وقيامها بعضها على البعض الآخر، اما ان الازمة تنشأ من خلاف بين الشخصية والشهوة، او تنشأ بينها وبين المثل الاعلى للانسان

هذا ما يذهب اليهِ فرويد، وهذا ما بيناه بالتفصيل في المقال السابق، ولكننا نعود الآن فنقول انهُ في الواقع ليس هنالك ما يسوّغ وجود هذه العقدة في النفس على الاطلاق حتى ولو قبلنا هذا التقسيم على علاته من غير بحث او مناقشة. لنذهب مع فرويد الى آخر الشوط، ولننس كل الشكوك التي تساورنا في صحة هذا التقسيم، ومع كل هذا فاننا بمستطيعين ان نرى بشكل من الاشكال كيف تقوم هذه الصعوبة اصلاً، او كيف تخلق العقدة، وكيف توجد الامراض العصبية في الانسان، ولكي نوضح وجهة نظرنا في هذه المسألة نضرب لذلك مثلاً، ولزيادة التبسط في الموضوع دعنا نحصر النزاع بين الشهوة والشخصية

تريد الشهوة امراً من الامور، وتركز كل نشاطها وقواها في هذا الامر، ولنفرض انها تلحف في طلبها هذا وتصر عليهِ، وتصر ايضاً على ان لا تنساه، وتظل تذكر الشخصية في كل حين ان لها قبلها مطلباً لم يتحقق بعد، وانها لن تستريح او ترتاح الا اذا اجابتها الشخصية الى مطلبها وقضت لها حاجتها، ثم لنفرض ان الشخصية ترى ان تحقيق هذا المطلب عسيرٌ او مستحيلٌ، ترى ان الحالة الاجتماعية او القوانين الوضعية لا تسمح بهذا، ويجب ان نذكر القارىء عند هذه النقطة ان

الشخصية او (Ego) هي التي تصل فيما بين العالم الداخلي والعالم الخارجي ، او هي الصلة بين النفس الداخلية وبين الدنيا حواليها ، فهي بطبيعة وظيفتها اقدر من جميع قوى النفس على تفهم ما يستطيعهُ الانسان وما لا يستطيعهُ ، ما يمكن تحقيقهُ في الواقع وما لا يمكن تحقيقهُ ، ذلك لان احدى الناحيتين الاخريين عمياء والاخرى خيالية ، وأما هذه فواقعية محضة (Realistic)

فرضنا ان هذا ما قد وقع بين الشهوة والعقل (آسف جدًّا للخلط في اسماء هذه النواحي لاني لا اعرف لها اوضاعاً صحيحة في اللغة العربية) . فرضنا ان هذه تطلب امراً وذاك يعجز عن تحقيقهِ ، وفرضنا ان هذه تظل متمسكة بمطلبها وذاك متردياً في عجزه ، وبعد هذا ماذا يكون ؟ وماذا يحدث ؟ هل تحدث ازمة نفسية تؤدي الى المرض

اما ان ازمة نفسية تحدث فنعم ، واما ان هذه الازمة تؤدي الى المرض فلا ، ذلك لان الازمات تحدث كل يوم وكل ساعة ، فلست اظن ان انساناً عاش من غير تلك الازمات في لحظة من اللحظات ويستطيع كل انسان ان يذكر منها الشيء الكثير من طفولته الى وقتهِ الحاضر ، وما على من ينكر هذه الحقيقة الاَّ ان يراقب اطفاله بضع دقائق ، وانا واثق انهُ سوف تمر عليهِ بعض ازمات نفسية عند هؤلاءِ الاطفال ، وان هذه الازمات ستمضي الى حال سبيلها من غير ان تترك اثراً في نفسيتهم ، او يستطيع ان يراقب نفسهُ في يوم بذاته ليرى كيف ان نفسه تتوق في كثير من الاحيان الى اشياء بذاتها وانها تشعر ان سعادتها لا تتحقق الاَّ بتحقيق هذه الرغبات ، ثم ان نفسه تطلب الى قواهُ الواعية ان تعمل على تحقيق هذه الرغبات ، والايام تمر والرغبات لا تحقق ، والنفس غير راضية ، والعقل منهمك في شؤونهِ العادية من غير التفات الى هذه المطالب ، ومع كل هذا فلا يقع الانسان فريسة لامراض عصبية او غير عصبية

كم من الامور كنت اريدها ؟ وكم من الامور كنت اظن اني لا استطيع العيش من دونها ؟ وكم من الرغبات عندي الآن ؟ وكم يشق عقلي وبدني في العمل على تحقيقها ؟ ومع هذا كله فلا زلت سليماً معافىً ولا زلت اقوم بعملي واؤدي واجبي وانشط في كل ما تنشط فيهِ بيئتي التي اعيش فيها ، واظنني خالياً من العوارض الفرويدية بقدر ما اظن ان معظم اصدقائي خالين منها

لست متجنياً على فرويد ، ولست ظالماً لهُ ، لانهُ هو نفسهُ شعر فيما يظهر بأن المشكلة التي اضطلع بحلها لم تحل بعد ، كما اشعر انا الآن ، والفرق بيننا اني تشككت في صحة ما ذهب اليهِ بعض الشيء ، أما هو فقد لجأ الى حيلتهِ القديمة — تلك الحيلة التي كان يلجأ اليها علماء الطبيعة في القرن التاسع عشر في مسألة الاثير ، لقد فرضوه فرضاً ، ثم فرضوا لهُ الخصائص التي كان يجب ان تكون لهُ فيما لو كان موجوداً حقًّا ، وكانوا كلما اعوزتهم الحيل فرضوا لهُ خاصية اخرى مناقضة تمام المناقضة لسابقاتها الى أن اصبح وجوده مستحيلاً في الواقع

هكذا يفعل فرويد ، وجد ان تقسيم النفس الى هذه الاقسام لا يكفي في ذاته لتفسير الظواهر

النفسية التي يطلق عليها الامراض العصبية ، فلجأ الى فرض شيء آخر في النفس حتى يزداد التعقيد فيها فيستطيع هو أن يصف الداء ، وجد أن العقل يستطيع ان يغفل الشهوة ويدعها وشأنها ، ثم يسير في شؤونهِ كأن الشهوة لم توجد اصلاً ، وكأنها لم تطلب شيئاً ، وماذا عليهِ منها ومن مطالبها من الصواب أن يغفلها كل الاغفال

ولكن لا ، فرويد يريد أن يحل الاشكال في وجود الامراض العصبية وفي معالجتها بالتحليل النفساني ، فاذا كانت جميع نظرياته السالفة لا تكفي لهذا الغرض فما عليهِ الاَّ أن يمعن في فرض النظريات السيكولوجية واحدة تلو الاخرى الى أن يستقيم له وصف الداء والدواء ، لهذا فرض للنفس رقيباً Censor يختبيء في زاوية من زواياها يستطيع أن يستدعيه فرويد فينشط ويجيء نشاطه مصداقاً لنظريات فرويد

هذا الرقيب موجود اذن في نفس الانسان ، ولكي تتم النظرية وتستقيم يجب أن لا ينشط الاَّ بناء على اشارة النفس العليا Super Ego تأمره فيفعل ، وتومىء اليهِ فيتحرك ، ويجب أن يكون نشاطه موجهاً الى الشخصية ، يأمرها أن تنسى ما تطلبهُ الشهوة ويجب أن يكبت الشهوة نفسها كبتاً ويضغطها ضغطاً حتى لا تعود تظهر في النور . وحتى لا تبرح الخفاء ، يجب على هذا الرقيب أن يكتم أنفاس الشهوة ويحرم عليها الظهور في وضح النهار بحال من الاحوال

فصارت النفس عندما تريد شيئاً تخشى الرقيب وترتعد فرائصها منهُ فتبقيه مكتوماً في خباياها الداخلية مندسَّا في ثناياها ، ويصير العقل الواعي عاجزاً عن أن يحس لها وجوداً على الاطلاق ، وهناك في مداخل النفس الداخلية تفعل الشهوة فعلها وتربك النفس وتقض منها المضاجع وتقلبها على الشوك والقتاد من غير أن تحس الواعية بأن هنالك شيئاً على الاطلاق ، وبأن نفسه الداخلية غير مستريحة الى شيء ، كل هذا يحدث والواعية منهمكة في شؤونها اليومية العادية من الاتصال بالناس وبالاشياء ومن توفير وسائل الطعام والشراب والامور المادية الصرف

وبينما الانسان يسعى لشؤونهِ المعاشية وبينما عقله منهمك في ترتيب الدنيا التي تحيط بالانسان ، وبينما هو مأخوذ باتقاء الحر والبرد والظواهر الطبيعية والاهتمام بمطالب الجسد المادية ، بينما يحصل كل هذا يكون الرقيب مهموماً بالشهوة يتكفل بكتمها وكبتها ، والانسان بخير مادام هذا هو الحاصل وما دام الرقيب يقظاً ساهراً قائماً بوظيفتهِ خير قيام

ولكن الرقيب ينام ، او يغفل او يغفو ، ولكن الامور تخرج عن طوق الرقيب في بعض الاحيان ، وهنا الطامة الكبرى والداهية العظمى ، لان الواعية لا تشعر الاَّ وهي محوطة بظواهر نفسية غريبة لم تألفها ولم يكن لها بها عهد ، يرى العقل الواعي نفسهُ امام احساسات ومشاعر غريبة عنهُ ليست منهُ وليس هو منها ، او كأنهُ يرى نفسهُ يدير شخصية اخرى غير تلك الشخصية التي كان يديرها ويرعاها ويسهر على رضاها وشؤونها

يحار العقل الواعي في هذا ويشكل عليه الامر فلا يعود مستطيعاً ان يميز هذه الشخصية من غيرها ، يعجز عن ان يعرف هل هذا هو الانسان بعينهِ الذي كان يخدمه فيما سلف ، ام هو انسان غيره ، هل هذه الميول والاتجاهات الفكرية كانت له من قبل ، ام هي شيء جديد طارىء ، واذا كانت شيئاً جديداً طارئاً فما اصلها وما سببها ؟ ما الدافع لها ؟ وما الغرض منها ؟ ليس هذا فقط ولكنهُ ايضاً يحار في طرق حلها وتسوية تلك المشكلة الجديدة التي هبطت عليهِ من الجحيم

ترتبك الواعية وتفقد توازنها من هذه الضربة التي انقضت عليها على غرة ، تختلط قيم الاشياء عندها ، وتنقلب معاييرها رأساً على عقب فلا تعود مستطيعة ان تضع الاشياء في مواضعها ، وان تحفظ للانسان مكانته في هذا النظام الاجتماعي الذي يعيش فيهِ . و لما كانت الواعية هي القوة النفسية التي نيطت بها الصلة بين الانسان وما يحيط بهِ ، ولما كانت هي دون غيرها التي تتعامل مع الدنيا الخارجية ، فأول ما يختلط عليها هو تلك العلاقات بين الانسان والدنيا الخارجية ، تفسد هذه العلاقات فيبدأ الناس يشعرون بالتحول في هذا الانسان، وان عقله مدخول، مغاير لعقول الناس ، وان نظرته للاشياء معيبة غير سليمة ، ولو ملكت الناس امورها لاخذوه من يده ووضعوه في مستشفى المجاذيب

ومحصل القول في هذا ان اغفال الرقيب عن تأدية وظيفتهِ كان سبباً في ظهور الخبايا التي كانت النفس العليا Super Ego تصر على ان تكبتها وتداريها من الواعية حتى لا ترتبك هذه فيما لا طائل تحتهُ وتعجزها عن مقابلة الدنيا الخارجية وجهاً لوجه من غير ان تميد الارض من تحتها ، كانت النفس العليا تود اخفاء هذه المشاعر اولاً لانها لا تتفق والمثل الاعلى الذي تطلبهُ هذه النفس وتود اخفاءها ثانياً لان الواعية تعجز عن تحقيق تلك الرغبات لان الحالة الاجتماعية التي يعيش فيها الفرد تحول دون ذلك

ولا يخفى أن وجود الرقيب وعمله هما في الواقع اصل الداء والسبب المباشر في الامراض العصبية التي تنتاب الانسان ، لانهُ أولاً يكبت الشهوات والرغبات غير الاجتماعية في الانسان ، أو يكبت منها ما لا يستطيع النظام الاجتماعي ان يسيغهُ ، ولانهُ ثانياً يلقي ستاراً كثيفاً على عيني الواعية حتى لا تعود ترى ما يحيط بها في داخلية النفس ، فكأن وظيفتهُ بعبارة اخرى هي أن يضلل بالواعية ويتغفلها حتى تصبح عاجزة عن مواجهة حقائق النفس ، ومعالجتها بالحكمة والقصد حتى تمر هذه الازمات بسلام من دون ان تثير ما تثيره من المشاكل والصعوبات النفسية

ولسنا متجنين على الفرويدية في هذا الزعم لانها في الواقع لا تسير في علاجها للمشاكل النفسية الاَّ عليه ، فهي تزعم أن العلاج لا يكون الاَّ باعانة الواعية على فهم الدوافع النفسية لهذه الخوالج والمشاعر ، ووظيفة الطبيب في التحليل النفساني اعادة التوازن للقوى الواعية حتى تستطيع أن ترى لنفسها اصل الداء ، وظيفته ان يدل العقل الواعي على وجود هذه الرغبات المكبوتة ، ويفهمه انها مشروعة من وجهة النفس البشرية ولا غبار عليها بغض النظر عن العرف والتقاليد الاجتماعية . يعين الطبيب الواعية على ان تواجه هذه الحقائق مواجهة وتفهمها على علاتها وتجيب منها ما تستطيع

اجابته ، وتعترف بشرعية ما تعجز عن تحقيقه منها ، وتعترف ايضاً بوجود الازمة ، ثم تسير في شؤونها اليومية وهي شاعرة بأن هنالك في زوايا النفس مطلباً لم يتحقق بعد ، واغلب الظن انهُ لن يتحقق . ولكنهُ موجود على كل حال ، ويجدر بالواعية ان تعترف فيما بينها وبين نفسها بوجوده ، ثم تنشط في شؤونها العادية . لقد نجح فرويد — من وجهة نظره فقط — في التعليل عن السبب في وجود العقدة النفسية ولكن لنا سؤالاً واحداً نريد ان نسأله ثم نترك الموضوع عند هذه النقطة وهو هذا :

ماهي هذه الرغبة او الشهوة التي تستطيع ان تقيم الدنيا وتقعدها ؟ ما هي هذه الامنية التي ان لم تتحقق لا يمكن ان يبقى في النفس ركن قائم او حجر على حجر ؟ لماذا كل هذه المبالغة والتهويل في مطالب النفس ؟

اما من جهة المبالغة والتهويل فهما ضروريان جداً في نظام فرويد والاَّ لن تستقيم نظريته ولن يستطيع ان يدل على اصل الداء ، اما هذه الشهوة التي تقوم لها النفس وتقعد والتي تستطيع ان تدك كل القوى النفسية دكّاً فيقول فرويد انها الغريزة الجنسية

الحق انك تستطيع ان تفسر كل الظواهر الاجتماعية والنفسية من الدين الى الادب الى السياسة الى الجنون الى العقل بالغريزة الجنسية ، ولن يقول فرويد الاَّ انك اصبت الاصابة كلها

زهد الخلفاء الراشدين

لست تقرأ في كتب الادب اجمل مما قيل عن زهد الخلفاء الراشدين : « روي عن ابي بكر الصديق انهُ لما حضرتهُ الوفاة قال لعائشة « انَّا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم ولبسنا من خشن ثيابهم وليس عندنا من فيء المسلمين الاَّ هذا العبد وهذا البعير وهذه القطيفة . فاذا متُّ فابعثي بالجميع الى عمر . فلما مات بعثتهُ الى عمر . فلما رآهُ بكى حتى سالت دموعهُ الى الارض وجعل يقول رحم الله ابا بكر لقد أتعب من بعدهُ ويكرر ذلك وأمر برفعهِ . فقال عبد الرحمن بن عوف سبحان الله تسلب عيال ابي بكر عبداً وناضحاً وسحق قطيفة ثمنها خمسة دراهم فلو أمرت بردها عليهم فقال لا والذي بعث محمداً صلى الله عليهِ وسلم لا يكون هذا في ولايتي ولا يخرج ابو بكر منهُ وأتقلدهُ انا »

وقيل ان زوجتهُ اشتهت حلواً فقال ليس لنا ما نشتري بهِ فقالت أنا أستفضل من نفقتنا في عدة ايام ما نشتري بهِ . قال افعلي ففعلت ذلك . فاجتمع لها في ايام كثيرة شيءٌ يسير . فلما عرَّفتهُ ذلك ليشتري بهِ حلواً اخذهُ فردَّهُ الى بيت المال وقال هذا يفضل عن قوتنا وأسقط من نفقتهِ بمقدار ما نقصت كل يوم وغرَّمهُ لبيت المال من ملك كان لهُ . وكان يحلب للحيّ أغنامهم . فلما بويع بالخلافة قالت جارية منهم الآن لا يحلب لنا منائح دارنا . فسمعها فقال بلى لعمري لأحلبنها لكم واني لأرجو ان لا يغيّرني ما دخلت فيهِ . فكان يحلب لهم . ثم تحوَّل الى المدينة بعد ستة اشهر من خلافتهِ

العناصر المشعة وتركيب الذرة

لمحمد عاطف البرقوقي
مدرس الطبيعة في المدرسة السعيدية الثانوية

﴿ منديليف والجدول الدوري ﴾ قبل ان نحاول معرفة تركيب الذرة من الوجهة الحديثة يجب ان نلم بعض الالمام بالعناصر المختلفة او بالذرات المختلفة في الكيمياء . ولعلني لا اكون مبالغاً اذا قلت ان اساس اكتشاف العناصر الجديدة بل ومعرفة تركيب الذرة ذلك التركيب الحديث انما يرجع جُلّ فضله الى العالم الروسي « منديليف »

ولد منديليف في فبراير سنة ١٨٣٤ وأصبح له شأن يذكر في علم الكيمياء حتى اختير استاذاً لعلم الكيمياء في احدى جامعات روسيا . وأهم عملٍ ينسب اليه هو اكتشافه « للجدول الدوري » عام ١٨٧٠ وقد دار لهذا الجدول اثر كبير في تحديد عدد العناصر التي يجب ان تكتشف . بل ومعرفة صفات هذه العناصر قبل كشفها . ولشد ما كانت دهشة العالم اذ رأى ان العناصر الجديدة التي اكتشفت بعد الجدول الدوري كانت تثبت التجارب ان صفاتها تتفق مع ما عرف عنها قبل كشفها

وكذلك لهذا الجدول فضل كبير في الابحاث الحديثة التي يجريها كثير من العلماء لمعرفة تركيب الذرة . والجدول الدوري هو نتيجة لمحاولات عدة وتركيبات مختلفة وحقائق جمعت عن جميع العناصر التي كانت معروفة في عهد منديليف — التي بلغت ٦٣ عنصراً في زمنه وأصبحت الآن ٩٢ عنصراً . وفي هذا الجدول نجد ان العنصر لا يشابه العنصر الذي يليه اذا رتبت العناصر بحسب اوزانها الذرّية بل ان العنصر يشابه عناصر اخرى تقع في ترتيب دوري فالصوديوم لا يشابه المغنسيوم كيميائيًّا بل يشابه البوتاسيوم ولذلك نجد الصوديوم والبوتاسيوم والروبيديوم والكيزيوم كلها تقع في عمود رأسي واحد ولذا فهي تتشابه كيميائيًّا وتسمى Alkalis اي القلويات . وكذلك الهيليوم والنيون والارجون تقع في عمود رأسي آخر وهذه العناصر تتشابه كيميائيًّا وتسمى Inert gases اي الغازات غير الفعالة . ولاهمية هذا الجدول وترتيب العناصر بهذه الكيفية وجد ان تطلق كلمة العدد الذري Atomic Number على ذلك العدد الذي يدل على مكان العنصر في الجدول . والعدد الذري للايدروجين واحد وللهليوم ٢ وللليثيوم ٣ وللكربون ٦ وللاكسجين ٨ ولليورانيوم ٩٢ وسنعرف فيما بعد العلاقة المتينة بين العدد الذري وعدد الالكترونات في الذرة

﴿ تركيب الذرة ﴾ يرجع الفضل في معرفة تركيب الذرة الى كثير من الابحاث الحديثة

والتجارب الدقيقة في اشعة اكس فهذه الاشعة بجانب فضلها على الطب لها فضل كبير في اهدائنا الى معرفة تركيب الذرة . وكذلك دراسة (Radio - activity) او دراسة العناصر التي تخرج اشعة ، لها فضل كبير في ذلك الموضوع . ويشتغل بهذه الابحاث علماء قديرون مثل العالم الانجليزي رذرفورد Rutherford واعوانه في كمبردج والعالم الدانماركي Bohr وملكن وكمطن وطمسن الصغير وشرويدنغر وغيرهم

والذرة هي الجزء الذي لا يتجزأ من العنصر او هي تشبه حرف الهجاء في لغة من اللغات وكما ان هناك ٢٨ حرفاً في اللغة العربية فكذلك يوجد حول ٩٢ عنصراً وكما تنتج الكلمات من اتحاد الحروف كذلك تنتج الجزيئات من اتحاد الذرات . فمثلا ذرتان من الايدروجين وذرة واحدة من الاكسجين تتحد كيميائيًّا فتكوّن جزيء الماء . وقد كان يظن ان الذرة هي آخر ما يمكن ان نصل اليه من التجزيء ، ولكن لعلماء الطبيعة — لا لعلماء الكيمياء — الفضل كل الفضل في تكسير الذرّة ومعرفة ان الذرة ليست وحدة بل ان كل ذرة مركبة من الكترون او عدد من الالكترونات تدور[1] حول نواة بها بروتون Proton او عدد من البروتونات والالكترونات اي ان الذرة تتركب من وحدتين الالكترون والبروتون . فاذا رجعنا الى مثل الحروف الهجائية وجدنا ان تلك الحروف ليست هي الوحدات التي لا تتجزأ والتي تتكوّن منها اللغة بل ان تلك الحروف يمكن ان تتكوّن جميعاً من نقطة وشرطة — واظنني وفقت في هذا التشبيه — لان العلاقة بين الالكترون والبروتون من جهة الوزن كالعلاقة بين النقطة والشرطة . فكما ان النقطة صغيرة جدًّا بالقياس الى الشرطة فكذلك كتلة الالكترون يمكن اهمالها بجانب كتلة البروتون او بمعنى آخر ترجع كتلة الذرة الى مجموع كتل البروتونات التي فيها . ومن جهة اخرى الالكترون به شحنة كهربائية سالبة تعتبر اصغر شحنة يمكن ان توجد على حدتها والبروتون به شحنة كهربائية مساوية لشحنة الالكترون الاّ انها مضادة لها اي ان شحنة البروتون موجبة ولما كنا نعلم ان هناك قوة تجاذب بين الشحنات المتضادة فلو ان الالكترون بقي ساكناً بالقرب من البروتون لانجذب الاول الى الثاني. الاّ ان هذا لا يحصل في الذرة لان هناك قوة اخرى طاردة تضاد قوة التجاذب وهذه القوة الطاردة هي القوة الناشئة من دوران الالكترون في مدار دائري — او حول قطع ناقص — كما تدور الارض حول الشمس. فلولا دوران الارض حول الشمس لهبطت الارض منجذبة نحو الشمس. ولذلك يسمى هذا النظام في تركيب الذرة النظام الشمسي للذرة . فمثلاً ذرة الايدروجين وهو اخف العناصر تتركب من بروتون واحد وحوله يدور الكترون واحد في مدار دائري . وذرة الهيليوم — ووزنه الذري اربعة — تتركب من اربعة بروتونات والكترونين في النواة وحول النواة الكترونان آخران . او باعتبار الشحنة النهائية (Net Charge) فان ذرة الهليوم تتركب من شحنتين

(١) . الكلام منصب في هذا المقال على ذرة رذرفورد وبور المشبهة بالنظام الشمسي

موجبتين في النواة وحولها شحنتان سالبتان . والالكترونات التي في نواة اي عنصر تزيد في عاسك الشحنات الموجبة

وكلما زاد وزن العنصر زاد معهُ عدد البروتونات في النواة وعدد الالكترونات المتحركة في المدارات . ومن غرائب الصدف ان العدد الذري — لا الوزن الذري -- وهو العدد الدال على ترتيب العنصر في الجدول الدوري يبين عدد الالكترونات المتحركة حول النواة . فالايدروجين عدده الذري واحد وعدد الالكترونات المتحركة في ذرتهِ واحد . والهيليوم عدده الذري اثنان والالكترونات المتحركة في ذرتهِ اثنان.والليثيوم عدده الذري ثلاثة وعدد الالكترونات ثلاثة حتى نصل الى أثقل العناصر وهو اليورانيوم وترتيبه في الجدول الدوري ٩٢ فنجد عدد الالكترونات المتحركة حول نواتهِ ٩٢ وكذلك ترى ان للعدد الذري شأناً كبيراً في تركيب الذرَّة

***

ومن دراسة الطيف لكل عنصر وجد انهُ من الضروري افتراض ان للالكترونات المتحركة عدة افلاك متغيرة لا فلك واحد كما للارض . فالالكترون المتحرك يصح ان يدور في فلك قريب من النواة او في فلك بعيد عنها . وليس ضرورياً ان تتحرك جميع الالكترونات في فلك واحد في الوقت الواحد بل هناك في الذرَّة الواحدة عدة افلاك وفي كل فلك يدور عدد من الالكترونات. ومن الغريب انهُ قد لوحظ ان الصفات الكيميائية للذرَّة لها علاقة وثيقة بعدد الالكترونات في الفلك الخارجي فاذا كان الفلك الخارجي في اي ذرَّة كامل العدد كان عنصر هذه الذرَّة لا يميل للاتحاد الكيميائي مع اي عنصر آخر . وهذا ما يحدث في جميع الغازات غير الفعَّالة (Inert gases) مثل النيون والارجون وغيرها.اما الذرَّات التي فيها المدارات الخارجية ناقصة فتميل الى ان تكملها. فمثلاً ذرَّة البوتاسيوم تميل الى ان تتحد بذرَّة الكلور . وقد فسّر ذلك بان الالكترون من البوتاسيوم يمر الى المدار الخارجي في ذرة الكلور فيتممهُ وهذا سبب الالفة الكيميائية بين العنصرين. وبالاختصار فان جميع العناصر المتشابهة كيمائياً لها عدد واحد من الالكترونات في المدار الخارجي

ومن ذلك ترى ان الذرة تبنى من الالكترون والبروتون[1] بنظام خاص بحيث يكون هناك نواة بها عدد من الالكترونات والبروتونات وحول النواة افلاك تدور فيها الالكترونات . فاذا كان الامر كذلك فلماذا لا يمكن تكسير الذرة الى وحدتيها الاساسيتين — الالكترون والبروتون؟ هذا ما فكر فيه العالم الانجليزي رذرفرد — تسنَّت لي مقابلته في حفلة افتتاح احدث بناء لدراسة الطبيعة في جامعة برستل عام ١٩٢٧ — وقد افلح رذرفورد هذا في تكسير ذرة النتروجين وعدده الذرّي ١٧ الى دقائق كل دقيقة عبارة عن نواة الايدروجين . وكسر كذلك غيره من الذرات . وقد لاحظ رذرفورد أن العناصر التي يمكن تكسير ذراتها هي العناصر التي عددها الذري هو عدد فردي كالعدد ١٧ و١٩

(١) المباحث الحديثة تثبت دخول البوزيترون والنيوترون في بناء نوى بعض الذرات ولهذا بحث آخر

وان العنصر الذي عدده الذري زوجي لا يمكن تكسيره بل لاحظ ايضاً وجود نواة الهليوم تخرج او تقذف من بعض العناصر مما يدل على ان نواة الهليوم متماسكة جداً ولا يمكن تفتيتها

وهنا يجدر بي ان اقدم للقارىء بحثاً من الابحاث التي افادت كثيراً في تنوير الاذهان في موضوعنا هذا — تركيب الذرة — واهم هذه الابحاث هو بحث العناصر المشعة

﴿ العناصر المشعة ﴾ اكتشف هذه الظاهرة العالم الفرنسي بكرل Antoine Henri Becquerel عام ١٨٩٦ بعد ان اكتشفت اشعة اكس X—Rays عام ١٨٩٥ وقامت بقسط وافر في اتمام البحث مدام كوري . وهذه الظاهرة خاصة ببعض العناصر ذات الوزن الذري الكبير مثل اليورانيوم والثوريوم والراديوم . وهذه العناصر لها القدرة على الاشعاع او اخراج مقذوفات والاشعة التي تخرج منها لها صفات كثيرة منها انها تؤثر في اللوحة الفوتوغرافية وهذه الصفة هي السبب في اكتشافها اولاً . ذلك ان بكرل كان قد وضع في درج مظلم لوحة فوتوغرافية وقطعة يورانيوم فوجد ان اللوحة صورت قطعة اليورانيوم رغم الظلام ولذلك لم يجد هذا العالم بدّاً من تعليل هذه الظاهرة بان اليورانيوم يصدر اشعة لها هذا الاثر في اللوحات الفوتوغرافية . اما مدام كوري فقد وجدت ان حجارة البتشبلند الذي يستخرج منهُ اليورانيوم اقوى في الاشعاع من اليورانيوم نفسه وعزت ذلك الى وجود عنصر آخر اقوى في الاشعاع من اليورانيوم وبذلك اكتشفت العنصر المسمى الراديوم وهو ذلك العنصر الثمين الذي يستعمل في الطب الحديث . والراديوم اقوى في الاشعاع من اليورانيوم مليون مرة وجرام الراديوم يقدر ثمنهُ بعشرات الالوف من الجنيهات ولذلك تجد الحكومات تساعد المستشفيات الكبيرة في شراء جرام الراديوم او جزء منهُ لما لهُ من الفائدة الكبيرة في الطب . واذكر ان الامة الاميركية اهدت الى مدام كوري جراماً واحداً من الراديوم بواسطة الرئيس هاردنج تقديراً لخدماتها في هذا المضمار عند زيارتها لاميركا سنة ١٩٢١

والاشعة التي تخرج من العناصر المشعة مثل الراديوم واليورانيوم وغيرهما على ثلاثة انواع سميت بالحروف الاولى من الحروف الهجائية اليونانية فسميت اشعة الفا ، وبيتا ، وجاما ويمكننا في الواقع ان نسميها او نصطلح على تسميتها باشعة الف واشعة باء واشعة جيم على الترتيب . واشعة الف واشعة باء قد أمكن البرهنة على أنها دقائق لها كتلة وشحنة الا ان اشعة باء هي في الواقع الكترونات تخرج من الجسم بسرعة تقرب من سرعة الضوء وعلى ذلك تكون كتلتها مثل كتلة الالكترون اي صغيرة جداً وهي تساوي $\frac{1}{1850}$ من كتلة ذرة الايدروجين . اما اشعة الف فشحنتها موجبة وكتلتها اكبر كثيراً من كتلة اشعة باء بل ان كتلتها تساوي ٧٤٠٠ مرة كتلة الالكترون أو تبلغ اربعة امثال كتلة الايدروجين . اما اشعة جيم فليس لها كتلة ولا يصحبها شحنة بل هي في الواقع مثل اشعة اكس أي انها موجات مستعرضة الا ان طول موجتها اقصر من طول موجة اشعة اكس

والآن فلنتكلم عن اشعة الف واشعة باء اللتين افادتا في فهم تركيب الذرة . وقد برهن رذرفورد على أن الدقيقة من اشعة الف هي نواة ذرة الهليوم وقد اثبت ذلك بتجارب كثيرة . وهذه النواة كما ذكرنا من قبل كتلتها اربعة امثال كتلة ذرة الايدروجين وبها اربعة بروتونات والكترونان اي ان عليها وحدتين من الشحنات الموجبة وقد وجد انها تخرج من العنصر بسرعة تقرب من $\frac{1}{10}$ سرعة الضوء واذا ما خرجت من الذرة فان الذرة يقل وزنها طبعاً وبذلك تصبح ذرة عنصر جديد وله مكان جديد في الجدول الدوري . وقد وجد أن هذا المكان يبعد عن المكان الاصلي خانتين في الاتجاه المتناقص . اي ان الذرة اذا فقدت شحنتين موجبتين — ولا يكون هذا الا من النواة — فان العنصر يتزحزح خانتين اي يتخذ مكان عنصر آخر اي يتحول اليه

اما اذا فقدت النواة دقيقة من اشعة باء فان عدد الشحنات السالبة في النواة ينقص . ومعنى هذا ان الشحنات الموجبة في النواة يزيد اثرها بمقدار الوحدة فتتغير الصفات الكيميائية للعنصر مع عدم تغير كتلة الذرة ويحتل العنصر مكاناً جديداً في الجدول الدوري . ولكن في هذه المرة في الاتجاه المتزايد . اي ان الذرة اذا فقدت دقيقة من اشعة الف فان الذرة تنقص خانتين في الجدول الدوري . واذا فقدت دقيقتين من اشعة باء فان الذرة تزيد الخانتين ثانية اي ترجع الى مكانها الاصلي في الجدول الدوري وبهذا يصبح عندنا في الجدول الدوري عنصران يحتلان مكاناً واحداً في الجدول الدوري وهذان العنصران يختلفان في الوزن ويتفقان في الصفات الكيميائية . ومثل هذين العنصرين يسميان نظائر Isotopes وهذا الموضوع — وهو موضوع دراسة النظائر — قد اهتم به العالم الانكليزي استون Aston وبرهن على ان جميع العناصر لابد ان يكون وزنها الذري عدداً صحيحاً فان لم يكن كذلك فلا بد ان يتكون من مزيج من نظائر اي ان الكيميائيين لا يستطيعون فصل هذه النظائر كيميائياً ولكن يمكن فصلها طبيعياً . فمثلاً إذا كان الوزن الذري للكلور — وهو الغاز السام — ٣٥٫٥ فقد برهن استون على انهُ يتركب من نظيرين وزنهما الذري ٣٥ و ٣٧ بنسبة خاصة على الترتيب . وكذلك برهن على ان النيكل Nickel ووزنهُ الذري ٥٨٫٧ يتركب من نظيرين وزنهما الذري ٥٨ و ٦٠ على الترتيب. وقد يتساءل البعض وكيف يمكننا فصل هذه النظائر بعضها عن بعض . والجواب انهُ يمكن فصلها بطريقة القوة الطاردة Centrifugal Force كما تفصل القشدة عن اللبن او كما تفصل الحجارة الكبيرة عن الاخرى الصغيرة بتحريكها حركة رحوية

وقد حاول قدماء الكيميائيين تحويل مادة الى اخرى فلم يفلحوا ولكن قد افلح علماء الطبيعة الحديثون بفضل مباحثهم في العناصر المشعة وتركيب الذرة . ولكن بدلاً من ان يحولوا العناصر البخسة الى الذهب — وهو بغية قدماء الكيميائيين — اقول بدلاً من ذلك اكتشفوا انهُ يمكن أن يتحول الراديوم وهو أغلى بكثير من الذهب الى نوع من الرصاص . ولكن اذا هم اخفقوا في الحصول على الذهب من العناصر البخسة فقد فازوا بتوسيع نطاق المعرفة وهو اهمّ

اسبانيا ومشكلاتها

بين الملكية والجمهورية

كانت اسبانيا بعد انشاء امبراطوريتها الاستعمارية في القرن الخامس عشر وما يليه ، أقامت بمعزل عن اوربا . فالمُثُل الدمقراطية التي ذاعت في اوربا بعد الثورة الفرنسية ظلّت لا تلقى الا صدى ضعيفاً في اسبانيا . وظلّ ملوكها مستبدّين بامرهم حتى سنة ١٨٧٦ ، اذ سلّموا بوضع دستور والاصغاء الى مشورة مجلس نيابي . ومع ذلك ظلّت اسبانيا بعد الدستور بلاداً رجعية يسيطر عليها اصحاب المصالح من رجال الكنيسة ورجال الجيش . ولكنها اليوم جمهورية تميل الى الاشتراكية بعد ثورة غير دامية ثلّت عرش آل بوربون . ونحن لا نستطيع ان نفهم الانقلاب الاسباني الذي وقع سنة ١٩٣١ على حقيقته ، الا اذا طوينا السنين الى مطلع القرن الحالي . ففي سنة ١٩٠٢ لبس الفونسو الثالث عشر — وكان قد وُلد ملكاً اي ولد بعد وفاة ابيه — التاج والارجوان وتقلّد الصولجان واقسم بالقسم التالي : «اقسم بالله العظيم والاناجيل المقدسة بان ارعى الدستور والقوانين. فاذا فعلت ذلك فليجزني الله والا فليدعني الى الحساب »

وكانت مهمّة الملك الشاب مهمة صعبة . فحركة العمال في اسبانيا لم تكن قد نظّمت بعد ، ولكن الفقر كان ضارباً اطنابهُ بين جماهيرهم ولاسيا في ولاية الاندلس ، حيث اتجهُ العمال في اطيان الملاك الكبار الى الشيوعية ، وفي مدريد حيث شرع عمال الصناعات ينظمون صفوفهم وفقاً لآراء سورل الاشتراكي الفرنسي ، وفي برشلونة حيث فزع القطالونيون من استبداد القشتاليين الى الفوضوية . اما الفونسو فلم يواجه المشكلات مواجهة الرجل . وكان يميل بطبعهِ ونشأتهِ وتربيتهِ الى تأييد الكنيسة والجيش وكبار الملاك واصحاب المصانع . اما القطالونيون فكان يكرههم فاضاف الحنق الى الكره ، لما رمى احد فوضوييهم قنبلة على مركبة عرسهِ ، ثم لما قتلوا كاناليهاس اعلى وزرائه مقاماً في نفسهِ

فلما نشبت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ رغب زعماء الحياة الفكرية في اسبانيا في الانضمام الى الحلفاء وكان في مقدمة هؤلاء الفيلسوفان اونامونو Unamono واورتيجا ايكاست Ortega y Casset حتى انهم اوفدوا وفداً (وكان من اعضائهِ السنيور ازانا رئيس الوزارة الاسبانية في عهد الجمهورية) الى باريس . ولكنّ الملك الفونسو ومؤيديهِ من الاحزاب المحافظة قضوا بوجوب بقاء اسبانيا على الحياد . فلما وضعت الحرب اوزارها رأت اسبانيا ان ثروتها قد زادت . ولكن حكومتها ظلت في معزل عن رغبات الشعب ، تعوزها الكفاءة في تدبير شؤون البلاد . وكان الفونسو ادرى الناس

بمواطن الضعف في حكومته ، فظن ان خير علاج انما هو تدخُّلهُ الشخصي . فكانت محاولته الاولى خائبة . ذلك أنهُ بعث ، من دون معرفة الحكومة او قيادة الجيش ، بقائد يدعى سلفستر لتنظيم هجوم على الريف في مراكش ، فهزم شر هزيمة . وليس ثمة ريب في ان تبعة هذه الهزيمة واقعة على كتفي الملك . فاغتاظ الملك لهذه الهزيمة ، ودبَّر انقلاباً يحرره من قيود الدستور . وكانت الوزارة قد طلبت استرجاع الجنرال بريمو ده ريفيرا من قيادة الجيش في قطالونيا ، فرفض الملك ان يوقع الامر ، وأجبر وزير الحربية — الكالا زامورا وهو رئيس الجمهورية الآن — على الاستقالة . ثم سمح للجنرال ده ريفيرا ان يحمل وزير الخارجية على مغادرة اسبانيا ، ورفض ان يسمح للكورتس (المجلس النيابي) بالاجتماع

من بريمو ده ريفيرا الى الثورة

كان ذلك في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٣ ، فكان هذا العمل ايذاناً بأن الدستور الاسباني قد اصبح حرفاً مماتاً . وظن الفونسو ، ان ذلك اليوم هو بدء حكمه المطلق . ولكنه اخطأ الظن ، لانهُ كان بدء حكم مطلق يمارسهُ بريمو ده ريفيرا . وده ريفيرا رجل دكتاتوري الطبع من ولادته . وصفهُ السنيور مادرايافا فقال : شديد الوطنية ، قوي الخيال ، لا يصبر على البطء والاناة ، سريع الانفعال ، قليل العلم ، يعتمد على البداهة ، ويحاول ان يعالج اعوص المشكلات بأبسط الاساليب كأنهُ الاسكندر ، يقطع العقدة بالسيف بدلاً من ان يفكّها . ثم هو متصف بالجرأة الادبية والشجاعة . كريم الطبع لم يحقد في خلال حكمهِ المطلق على معارضيهِ . كان اندلسيًّا واذن كان داهية يحسن تصريف الامور . . . . » . وقد لبث ده ريفيرا في منصّة الدكتاتور ، سبع سنوات ، فأصلح من خلل الحكومة وأصاب بعض وجوه من النجاح في ادارة شؤون البلاد . فكانت القطارات تقوم وتصل في مواعيدها . ومنع الاعتداء عليها . وأقبلت التجارة والصناعة في عهده . فانهُ خفض سعر العملة لكي يشجع تجارة الصادر . وأزهرت الزراعة . وأنشىء بنك زراعي . وخفت سورة العمال بالسماح لهم بانشاء نقابات على مثال النقابات الايطالية

ولكن ثمن ذلك كان باهظاً . ذلك ان الدكتاتورية لا تعيش الا اذا كُمّت الافواه والاقلام ، وقلما يرضى شعب بذلك طويلاً . فقد مارس ده ريفيرا رقابة شديدة صارمة على الصحافة . فتوقف عن الصدور عدد من الصحف الاسبانية التي كان يكتبها اعلام المفكرين والاحرار وكانت من امجاد الصحافة الاسبانية . ونفى زعماء الفكر الاسباني كالفيلسوفين اونانومو وجراست ، وقضى على النزعة الحرة في الدين ، كما قضى على النزعة الحرة في السياسة ، وأصبح التعليم احتكاراً للكاثوليك وكان نصف اطفال اسبانيا — بنين وبنات — لا ينالون من التعليم الا مبادئه الاولى ، وسمح للكنائس بوضع كتب الدراسة وفرضها على مدارس الحكومة لاستعمالها

ولذلك ما لبثت الاركان التي تقوم عليها الدكتاتورية حتى تصدعت . فالزعماء في عالم التجارة اخذوا يخشون نتيجة الوسائل الحديثة المبتكرة التي يعمد اليها ده ريفيرا في ميادين المال والاعمال. وكان تخفيض سعر العملة ذا فائدة اولاً ، ولكن التخفيض افلتت السيطرة عليهِ من يد الحكومة وبدأت العملة تتدهور وليس هناك ما يكبحها او من يكبحها . ثم ان عدم التوازن في الميزانيات المتوالية احدث قلقاً في النفوس ، فاستفحلت الريبة في اعمال الدكتاتور وفائدتها . حتى الجيش اخذ يتردد في تأييد الحكم القائم . فكان فيهِ فريقان فريق يبغي الاصلاح ويرمي اليهِ ، وفريق يؤيده ويدفع عنهُ . ومن وراء ذلك كان الفونسو يبحث عن وسائل يتخلص بها من ده ريفيرا نفسهِ. ذلك ان الدكتاتورية كانت دكتاتورية الجنرال لا دكتاتورية الملك ، ومع ان الدكتاتور كان يتظاهر دائماً باحترامهِ وولائهِ للعرش الا ان رغبات العرش كانت لا تلقى منهُ العناية الوافية

فلما احسَّ الملك في سنة ١٩٢٩ ان عبء الحكم مدى سبع سنوات قد ناء بكلكله على الدكتاتور الجنرال ، ظن ان الفرصة قد سنحت ، لانشاء دكتاتوريته الخاصة . وكان المعروف حينئذٍ ان ثورة ذات اغراض جمهورية تتحفز للثوران في حامية الجنوب ، فاقترح ده ريفيرا ان يقيم استفتاء عسكريًّا ليعرف ميل الجيش بوجه عام . وكان هذا الاقتراح غريباً في بابهِ ، فاتخذ الملك منهُ عذراً ليطلب من الدكتاتور استقالتهُ ، فاستقال من دون اية مقاومة او اعتراض

وكان همّ الفونسو حينئذٍ ان يقنع الامة بأنهُ كان غير موافق على الدكتاتورية ، ولا يرغب فيها فألف وزارة جديدة أقام على رأسها الجنرال برانجر . وأعلن أن المحافظة على الدستور سوف تكون دقيقة كل الدقة في المستقبل. ولكن الامة رفضت ان تصدق ، ان الفونسو ما كان يرغب في الانقلاب الذي احدثه ده ريفيرا . وعلى كل حال رأت الامة ان دكتاتورية ده ريفيرا تفضل ديكتاتورية الملك او الجنرال برانجر اذا كان لا بدَّ من التفضيل بين الديكتاتوريتين لانها في ظل الاول كانت اكفأ منها في ظل الثاني. ووعدت الحكومة الجديدة باجراء انتخاب عام في مارس سنة ١٩٣١ لاقامة بناء الدولة على اساس نصف دستوري . ولكن الاحرار والجمهوريين ادركوا ان الانتخابات سوف تكون مهزلة فأعلنوا قرارهم على مقاطعتها . عند ذلك اضطر الملك في فبراير ١٩٣١ ان يعيد الضمانات الدستورية فاقتنع الاحرار بالرجوع عن قرار المقاطعة ولكن زعيمهم كونت رومانوز اعلن انهُ سوف يطلب انشاء جمعية تأسيسية لوضع دستور جديد. فلما عرفت نية رومانوز ألغت الحكومة الانتخابات العتيدة ، ولكنها عجزت عن البقاء في مناصبها فاضطرت ان تستقيل ، فحاول الملك ان ينشيء وزارة تنهض باعباء الحكم الدكتاتوري فلم يجد الا الاميرال ازنار

ولكن الميل الى الجمهورية في اسبانيا كان قد بدأ ينتشر ويذيع . وارتفع في مدن كثيرة ، صياح الجماهير « ليسقط الملك الفونسو » . وبدأ اهل قطالونيا ينادون ويطالبون باستقلالهم . فلما سمح للفيلسوف اونانومو ان يعود من المنفى استقبله الشعب ، وطوائف الشباب بوجه خاص ،

استقبالاً حافلاً ، فكان في هذا الاستقبال ريح من العاصفة التي تتحفز عند الافق للانطلاق

ولما انقضت سنة على سقوط ده ريفيرا بدا لمراقبي تطور الحالة في اسبانيا ، ان الملكية مقضيٌّ عليها . وكان الفونسو ذكيّاً ، فتبين هذا التحول قبل غيره . وفي ابريل سنة ١٩٣١ أجريت الانتخابات البلدية فكان الفوز فيها للجمهوريين ساحقاً ، فلم يبقَ امام الملك الاّ ان ينسحب . فغادر البلاد وحدهُ من دون ان يتنازل عن العرش . وانشئت حكومة وقتية ثم وضع الدستور لاسبانيا الجمهورية وانتخب زامورا رئيساً

الدستور الجمهوري والاصلاح الاجتماعي

في نوفمبر سنة ١٩٣١ أُقرَّ الدستور في الكورتس باجماع ٣٦٨ عضواً من اعضائهِ (وامتنع ٩٨ عضواً عن الاقتراع) . وكان منشئوهُ من اصحاب النزعة الحرّة ، الذين تصوّروا السبيل الى علاج مشكلات اسبانيا سبيلاً خالياً من التطرُّف والعنف . بهذا الدستور اصبحت اسبانيا جمهورية دمقراطية لها مجلس نيابي واحد (في فرنسا مجلسان احدهما للنواب وآخر للشيوخ ، وكذلك في الولايات المتحدة الاميركية) ينتخبهُ الرجال والنساء على السواء . ومنح الناخبون حقَّ المراقبة على المجلس ، بمنحهم حق طلب الاستفتاء . فاذا وافق ١٥ في المائة من الناخبين على وجوب استفتاء الشعب في مسألة ما وجب استفتاؤُهُ فيها

وحلَّ الدستور مشكلتي اسبانيا القديمتين . اما الاولى فمشكلة المكانة الممتازة التي تتمتع بها الكنيسة في اسبانيا وقد حلّها بمصادرة جميع املاك الكنيسة . ذلك ان الثورة كانت ضدَّ الاكليروس ولكنها لم تكن ضدَّ المذهب الكاثوليكي . فالاسبان ما زالون كاثوليكاً مستقيمي الرأي ولكن الدستور قضى على سيطرة اليسوعيين على التعليم في اسبانيا ، وعلى تمتع رجال الرهبنات والاديرة المختلفة بالريّ والشبع والشعب حولهم يتضوَّر جوعاً ويتحرَّق ظمأً . ومنع رجال الاكليروس بواسطة الدستور من الاشتراك في عمل التعليم

واما المشكلة الثانية فمشكلة العمال ، وقد خطا الدستور نحو حلّها خطوة اولى ، اذ منح العمال في كل منشأة صناعية او تجارية — اذا زاد عددهم على خمسين — حق تأليف لجان يحق لها ان تطالب بتنفيذ عقود العمل ، وفحص حسابات الشركة ، وحضور اجتماعات المديرين . ولكنهم لم يمنحوا حق الاقتراع في جلسات المديرين ، وهذا ما اعترض عليهِ الشيوعيون في اسبانيا ، وعلى اساس اعتراضهم هذا لم يعترفوا بالدستور الجمهوري . وفي سبتمبر سنة ١٩٣٢ وافق الكورتس على القانون الزراعي او قانون الفلاحين Agrarian Law وبمقتضاه منحت الحكومة السلطة ان توزع على الفلاحين افراداً او جماعات ، ما صادرتهُ من املاك الفونسو واراضي اليسوعيين وبعض الملاّك والملكيين منهم بوجهٍ خاص ممن اشترك في فتنة الجنرال سان خورخو . بل ومنحت كبار الحكومة كذلك حق مصادرة

الأملاك البور او التي لم تحسن زراعتها على ان تعوّض اصحابها قدراً من المال على اساس اثمان تلك الاراضي كما دوّنها اصحابها في دفاتر الحكومة لفرض الضرائب عليها . وكان غرض وزير الزراعة ان يكون توزيع الاراضي للجماعات دون الافراد في الغالب تنشيطاً للروح التعاونية

١١ مقاطعة قطالونيا فتعرف في دوائر السياسة باسم «ارلندة» اسبانيا . اي ان موقفها من اسبانيا كموقف ارلندا من بريطانيا . فالشعب القطالوني يختلف عن القشتاليين سلالة ولغة وتقاليد . ولكنهم مع ذلك يعتمدون في حياتهم الاقتصادية على القشتاليين ، والقشتاليون يعتمدون عليهم . ظلمتهم الحكومة الاسبانية في القرن التاسع عشر فحظر عليهم استعمال لغتهم وأُلغيت محاكمهم وعملتهم . وفي اواخر القرن التاسع عشر ، ظهرت بينهم بوادر نهضة قوية ، انتهت في سنة ١٩٣١ — لما وقعت الثورة الاسبانية — الى اعلان استقلالهم وانشاء جمهورية قطالونية مستقلة . فواجهت الحكومة الجمهورية الوليدة في مدريد ، مشكلة الاعتراف باستقلال قطالونيا من دون ان تنفصل عن الجمهورية الاسبانية . وفي سبتمبر سنة ١٩٣٢ اقرَّ الكورتس مشروع استقلال قطالونيا الذاتي Antonony فاصبح لها برلمانها الخاص ومجلس تنفيذي — اي وزارة — ورئيس . ولما اقيم الاحتفال الرسمي بهذا الاستقلال شهدهُ السنيور ازانا رئيس الوزارة الاسبانية حينئذٍ وخطب فيهِ فقال موجّهاً الكلام الى الكولونيل مارسيا رئيس قطالونيا : « حريتكم والجمهورية متصلتان لا تنفصم عقدتهما »

أما في الناحية الاجتماعية فقد منحت النساء حق الاقتراع في الانتخابات ، واعترف بشرعية الطلاق ، والقضاء على الوصمة التي يوصم بها الاطفال المولودون خارج النطاق الزوجي . وهذا كلهُ من شأنهِ ان يبدل العلاقة الكائنة بين الرجل والمرأة ويغير من شكل الاسرة . ففي بلاد كانت فيها المرأة مستعبدة لا حقوق لها ، وموقف الرجل نحوها موقف سيطرة وامتلاك لجسمها وروحها ، لابدَّ ان تسفر هذه القوانين عن تحوُّل كبير في مقامها الاجتماعي

وكانت الحكومة الجمهورية قد اعدّت مشروع خمس سنوات تنشيء بموجبه في خلالها ٢٧ الف مدرسة وأُنشيء منها في اواخر السنة الماضية (١٩٣٣) نحو سبعة آلاف مدرسة . ولكن ثمة مشكلة خطيرة نشأت عن الغاء مدارس الاديرة ذلك أن نحو ٦٠٠ الف تلميذ وتلميذة لا يجدون مدارس يتعلمون فيها غير ان وزارة المعارف تقدر العدد بنحو ٣٠٠ الف ، وهو على كل حالٍ عددٌ لا يستهان بهِ

اما الموقف الآن فحفوف بالشك . احزاب اليمين لا تجاهر بنزعتها الملكية ، وانما تطلب الغاء قوانين الاصلاح الاجتماعي التي اقرّها الكورتس الجمهوري الاول ، كقوانين العمال والفلاحين والرهبنات . واما احزاب اليسار فبعضها يرى الجمهورية في خطر ، والمتطرف منها غير راضٍ عن الجمهورية كما انشئت لانها اقرب الى البورجوزية منها الى الاشتراكية او الشيوعية . فالطريق الآن ممهّد لاسبانيا لتتخذ احد سبيلين . اما الرجعية ونقض ما تمَّ على أيدي الجمهوريين او المضي في الثورة الى نتائجها المنطقية . والموقف الآن موقف حيرة وتردُّد فكل تنبؤ في هذا الصدد كثير المزالق

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

الوطنية

الوطنية شعور عميق يحدو صاحبه الى مؤاخاة عدد عظيم من الناس (هم الامة) يعتقد انهم يشاركونهُ في مثل عليا يقدسها في نفسه وهي تستلزم حقوقاً وواجبات ، وتختلف هذه المثل العليا باختلاف المقاييس الاخلاقية الزمنية والنظرات المعنوية الاعتبارية ولكنها بالاجمال تجمعها كلمة عامة هي الثقافة

وتزداد سرعة الامم التي فيها عروق الحياة نابضة الى الاعتصام بحبل الوطنية المتين على قدر هبوطها في هوّة المصاعب وتعرّضها لعوامل التفتت والاستغلال

فالامة تتألف اذن من افراد يشعرون كما قال الاستاذ (مكدوجال)[1] بانهم متماسكون تماسكاً طبيعيًّا بروابط لها عندهم من القوة والصدق بحيث يكون في ميسورهم ان يعيشوا بالسعادة والهناءة اذا كانوا معاً ولكنهم يصابون بالضيم اذا ما تفرقوا . وهم يرفضون كل خضوع وانقياد للشعوب التي لا تشاركهم في هذه الروابط . فما هي هذه الروابط يا ترى ؟

هي في نظري قائمة على أساس جوهري مبناهُ التجانس والاتصال وما الى ذلك من اسباب التشابه ، فهي تتطلب التماثل في الاوضاع والعادات والانساب ، والاتصال الزمني واتحاد المصلحة ، هي في عالم الانسان مصداق للمثل الذي يطلق على ذوات الاجنحة « ان الطيور على اشكالها تقع » بل هي مصداق للحديث « الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »
ومع كل ما يقف في سبيل الوطنية الصادقة من العقبات وما يعتور زعماءها من المقاومات الداخلية والخارجية فهي كما تنبأت دائرة المعارف البريطانية في احدى طبعاتها الاولى « تتقدم بسرعة والمرجح ان تكون عاملاً قويًّا في اوربا لمدة اجيال قادمة فتؤدي الى انشاء وحدات سياسية وتعيد الى سالف العهد لغات قد انحطت وتستولد ادبيات مستحدثة »

ولما انتشرت الافكار الاشتراكية المتطرفة واشتدت شوكة الشيوعية عقب الحرب العالمية خيف

---

(١) The Group Mind, p. 136

على الوطنية وظن الناس ان عهد كافور وغاريبالدي وماتسيني وبسمارك ومن حذا حذوهم من اعلام القوميات لم تعد له صلة بزماننا لان الجامعة الوطنية عند اصحاب هذا الظن هي كالجامعة الدينية اصبحت من مخلّفات القرون الوسطى، ولكن نهضة الطليان والترك والالمان الحديثة وما تبعها من انتشار الافكار الفاشستية الوطنية بصورة فعّالة حتى في بلاد الديمقراطيات العريقة كل ذلك خيّب آمال اللاوطنيين الاندثاريين وقضى—ولو مؤقتاً— على فكرة الذين يزعمون ان الانسان يستطيع ان يتخلى عن تراثه القومي وثقافته الوطنية. ومالم تشترك جميع الامم الراقية اشتراكاً اقتصادياً وسياسياً في هذا الاندثار والتخلي فمن المستحيل ان تتحقق فكرة الاشتراكية الدولية او الاخوة العالمية، لانهُ من انكر النكر ان تبثّ في سورية او في مصر مثلاً فكرة الاخوة الانسانية وفي فرنسا او انكلترة فكرة تنازع البقاء في آن واحد. ولعلّ اخفاق عصبة الامم يرجع سببه في الدرجة الاولى الى ان المسيطرين عليها قد اصرّوا على ان تبقى جميع القوة في ايديهم وان يتنازل غيرهم عن جميع اسباب دفاعه، وهكذا نسوا ان يبدأوا بأنفسهم فينهوها عن غيها، ويعلموها ما يحاولون ان يعلموهُ غيرها

ونرى روّاد الوطنية الحديثة قد قاوموا بكل ما اوتوه من قوة النظريات الانسانية العالمية التي بثّتها الثورة الفرنسية لان مثل هذه النظريات تفتت الشعب فتحوله الى افراد لكي تؤلف منهم فيما بعد خليطاً من الغوغاء. فلا عجب ان يعلن (ماتسيني) حرباً عواناً على اللاوطنيين الارضيين الذين يدعون الناس ان يحب بعضهم بعضاً من غير تفريق في الجنسية، لانهُ يعد مثل هذه الدعوة عبثاً وقائماً من الاساس على المستحيل عقلاً

وعند (ماتسيني)(١) ان الامة مرتبة وسط بين الفرد من جهة وبين مجموعة الجنس البشري من جهة اخرى، وفي طاقة المرء ان يفهم امته ويحبها لانها مؤلفة من مخلوقات تشبههُ، وهي تنطق اللغة التي ينطق بها وتتحلى بالميول الطبيعية التي يتحلى بها، وقد أدبتها التقاليد التاريخية المشتركة، وفي الامكان تصويرها في الذهن وحدة وطنية مستقلة فالامة والحالة هذه مرتبة وسط بين البشرية وبين الفرد. (ترجمة حياة ماتسيني ص ٢٧٣). وفي وسع المرء ان يحيط بالبشرية وذلك بان يتصورها فسيفساء من أمم كل منها يتألف من افراد متجانسين، والامم هي رعايا البشرية كما ان الافراد هم رعايا الامة. اما عهد الانسانية فلا يجوز ان يمضيه الافراد بل تمضيه الشعوب الحرة المتساوية ذات الاسماء والاعلام الخاصة والتي تحس بحوزتها المستقلة

وقد مثلت الوطنية كما فهمها بسمارك وماتسيني في القرن التاسع عشر دوراً خطيراً في نشوء الوعي السياسي في اوربا، ولكن الكتّاب زعموا عقب الحرب العالمية انها لا تصلح لحلّ المعضلات التي استجدت، فما قولهم دام فضلهم في مساعي الهتلريين في يومنا الحاضر لضم النمسا متجاوزين في ذلك

(١) Human Nature in Politics p. 276.

حدود النظرية البسماركية وذاهبين في التطرف الى ابعد منها ؟ اليس التجانس اللغوي والثقافي واتصال البلاد ومصلحتها وتنظيمها السياسي كل ذلك من القواعد الوطنية التي ساقت النازي الى هذا العمل ؟ ألم تدلنا الوطنية الفرنسية في الغرب وفي الشرق، في فرساي وفي عصبة الامم، في المؤتمر الاقتصادي العالمي وفي مؤتمر نزع السلاح، في بلاد الحماية وفي بلاد الانتداب، على ان قاعدة بسمارك التي تلاها في خطابه سنة ١٨٥٠ لا تزال محترمة تحز مفاصل الامم في سنة ١٩٣٤ وفحواها «ان المبدأ الصحيح الوحيد للخطة التي تسلكها الدولة المعظمة انما هو الانانية السياسية » ألم يدخل الجنرال غورو دمشق الشام في سنة ١٩٢٠ مفتخراً بسحق سورية التي يرأسها حليفه، والتي نالت قبل ذلك ببضعة عشر شهراً تصريحاً مشتركاً من فرنسا وانكلترا بحقها في الاستقلال، والتي قال عنها الحلفاء انفسهم في عهد عصبة الامم انها اهل له ؟ وأما جميع تلك التفاسير التي فسرت بها هذه الوعود والعهود الشفهية والخطية، الرسمية وغير الرسمية، لدخول المستعمرين البلاد فاتحين مغتصبين فهي تفاسير اهل الحيل الشرعية الذين يؤولون اصرح النصوص وأقدس العقود لمصلحتهم الشخصية او مصلحة وكلائهم المادية. وقد سمعت في احد الايام شيخاً اشترته فرنسا بالوظيفة يدعو الناس الى طاعتها في سورية بما تلاه عليهم من نص القرآن «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الامر منكم» ثم ان القوي يتمتع منذ القدم بحق تفسير الشرائع السماوية والارضية لمصلحته وأما الضعيف فيرفع يديه الى السماء طالباً الرحمة، ولو انهُ بدلاً من ان يرفعها الى السماء لطم بها وجه المنافقين لكان اقرب الى استنزال الرحمة واستدرار البركة

***

كذلك نحن اذا حللنا خطة فرنسا في شمال افريقيا تحليلاً دقيقاً وجدناها قائمة على الفكرة البسماركية ايضاً، وبدلاً من ان يكون النموذج البروسي في هذه القضية هو الذي يجب ان يهضم غيره ويمثله نرى النموذج الفرنسي اللاتيني هو الذي يحاول « بالدم والحديد » كما قال بسمارك ان يمتص غيره من عناصر العالم العربي. وهذه لعمري وطنية التوسعيين من اهل البسطة السياسية، وان نجحت طريقتهم في البلدان المتجانسة ذات الثقافة المماثلة فهي محكوم عليها بالاخفاق في البلدان الاخرى، وحسبنا ان نشير هنا الى ايرلندا والصراع العنيف الذي دام حقباً لكلترتها الى ان سنحت فرصة الحرب العالمية فأعلنت استقلالها المعلوم وهي تقطع اليوم عرى اتصالها ببريطانيا ولا تقبل مع انكلترا غير معاملة الند للند

وقاعدتنا في تحديد الحلف العربي القادم هي قاعدة ليس فيها دم ولا حديد كقواعد المتغلبين هذه بل قائمة على تجاذب روحي يناسب المستوى العقلي الذي بلغناه ويجمعها قولنا « طاقة الثقافة العربية بأوسع معانيها ان تضم تحت جناحيها جميع العناصر التي اكتسبت التماثل والتجانس بفعلها واما ما لا تتسع لهُ معدتها فيكون خارجاً عن حوزتها »

وقد يعترض علينا معاشر السوريين معترض فيقول : ما بالنا نبحث في الحلف العربي الاكبر ونحن في عقر دارنا مقسمون ممزقون الى دويلات ؟ وهل من الحصافة في شيء ان نحبر المقالات الطوال في وصف (الشوكولاته) وطبخها للذين يموتون من الحاجة الى الخبز على قارعة الطريق ؟ والجواب ليس عسيراً متى عرفنا ان الوعي القومي اذا دبّ في الافراد اصبح خالداً وان الامم الحية واصلة الى غرضها ولو لاقت في سبيل ذلك اضعاف ما لاقى الصربيون واليونانيون والبولنديون

﴿ شأن الوطنية عند المعاصرين ﴾ ومما يدلنا على المقام الرفيع الذي تتمتع به الوطنية الصادقة في الشعوب الحية المعاصرة المسألة الآتية التي لم نعهد لها مثيلاً في الشرق على اقل تقدير وهي ان المحافظة على العقائد الدينية في الاقطار عامة — ولا سيما التي فيها نزعة روحية ظاهرة — امرٌ مرغوب فيه يتطلب عناية الذين يقودون الشعب في نهضته السياسية ، وذلك لحاجتهم الى الاستعانة بالرأي العام والتأثير في الدهماء، لان الخروج على العقائد هو مثل امتهان حرمة التقاليد المقدسة يدعو الى النفرة في سواد الشعب، والقائد هو في حاجة دائماً الى استرضاء الجنود واستمالتهم والاّ ما حاربوا تحت لوائه، ولكن زعيماً سياسيًّا حربيًّا مثل مصطفى كمال باشا لم يهمل قضية الدين فقط بل حاربها محاربة جبارة قد لا تقل من بعض الوجوه عن محاربة (لنين) لها وضربها في الصميم ، ولم يدخر وسعاً في قلبها من الاساس من غير ان يفقد شيئاً عظيماً من هيبته ، وهو وان احدث لهُ خصومة لا يستهان بها في العالم الاسلامي ، الاّ ان المعجبين بهِ من المسلمين انفسهم الذين يحلونه المحلّ اللائق بهِ من الاعتبار — مع احتفاظهم بعقائدهم الدينية — هم لا يستهان بهم ايضاً ، فكأن عمله الباهر في ميدان الحرب والسياسة قد طغى في نظرهم على سائر الاعتبارات فغفر لهُ ما تقدم من ذنبهِ وما تأخر ، وكأن انقاذ الشعب المستعبد من ربقة الذل ولعنة الاستعمار حدث يجبُّ ما قبله ويمحو ما بعده ، ومما يسترعي الانظار ان الحملة عليهِ في العالم الاسلامي لم تبلغ جزءاً من شأو الحملة على الالحاد البولشفي في العالم النصراني . ولعلّ للدعاية الرأسمالية الواسعة شأناً في هذا المضمار

***

﴿ تتمة ﴾ : وقصارى القول اننا لا نخطىء اذا قلنا ان الوطنية مثل الاشتراكية — ومثل سائر المذاهب السياسية التي تتناول سعادة الافراد ورفاهيتهم — هي دين له كتبه المقدسة وانبياؤه وشهداؤه وحروبه ، وتزداد الحماسة التي تحفز اهله الى الاقدام وتحملهم على البذل بقدر الخطر الذي يهدد حوزتهم من الدول حولهم . ولا جرم ان تسمو الوطنية في اعين الشرقيين خاصة ويعلو كعبها ، ذلك ان بلدانهم اصبحت هدفاً يرمى وغنيمة تقتسم ، وما لم يهبوا للدفاع عنها كما هبت الشعوب في القرون الوسطى للدفاع عن العقائد الدينية المقدسة كانت النتيجة كفراً بنعمة الوطن وخلوداً في جحيم الاستعمار

سياسة بريطانيا الخارجية

قواعدها الاساسية وصلتها بنزع السلاح (١)

كثيراً ما يقال ان سياسة بريطانيا الخارجية غير جلية ، وان البلدان المتصلة بها بصلة السياسة والاقتصاد قلما تدري ما تستطيع ان تتوقعهُ من موقف بريطانيا في المسائل المختلفة . بل يقال انهُ لو حددت بريطانيا موقفها في مطلع سنة ١٩١٤ او قبل ذلك لاجتنب وقوع الحرب ، ويقال كذلك انه لو وقفت بريطانيا موقفاً حازماً من مشكلات منشوريا ومسألة النزاع بين المانيا وفرنسا ، ومعضلة تنقيح معاهده فرساي ، وهي المسائل التي تقلق بال العالم اليوم ، لحلت هذه المشكلات حلاً نهائياً . واذن يعزى استمرار القلق العالمي ، الى تردد بريطانيا وغموض سياستها . والمسألة التي يثيرها هذا الكلام مسألة اساسية . فلننظر في تفصيلاتها

لننظر اولاً اليها من الوجهة التاريخية . في الفترة بين سنة ١٦٨٩ ومعركة واترلو ، كانت بريطانيا مشتبكة في حرب ما ، في كل سنة من سنتين من سني هذه الفترة — فسنو الحرب خلالها كانت ٦٣ سنة وسنو السلم كانت ٦٣ سنة كذلك . فنشأ عن ذلك ان الامة البريطانية احسَّت انها سئمت هذه الحال . فلما انشئت الحكومة الديمقراطية الصميمة في بريطانيا ، بعد اصلاح سنة ١٨٣٢ جرت بريطانيا على مبدأ الامتناع عن الاشتباك في حروب البر الاوربي كطريق نحو السلام . فانقضت عليها نحو مائة سنة بعد ذلك — لولا حمق الانزعاج في حرب القريم — وهي متمتعة بالسلام ، صادفة عن نزاعات البرّ الاوربي . وكانت نتيجة ذلك انها اصابت اقبالاً مادياً ، وكان نجاحها المادي ذا فائدة لها ولجيرتها ، بل وللعالم قاطبة ، كـكل نجاح مادي على الاطلاق

فالمسألة التي واجهها رجالها في مطلع القرن العشرين ، كانت هذه : هل ثمة باعث كاف يبعثهم على تغيير خطتهم التي جروا عليها

***

من السهل ان نلتفت الى الحوادث بعد وقوعها ونقول كان يجب ان نفعل كذا او كذلك ، وقد يسهل الآن ان نقول انهُ لو فعلت بريطانيا كذا او كذلك قبل سنة ١٩١٤ لاجتنب وقوع الحرب الكبرى . ولكن الذين كانوا يعيشون في غمار الحوادث المتتابعة حينئذٍ ما كانوا يرون ما نراهُ الآن او يحسون بما نحسُّ بهِ

قال السر هربرت صموئيل : ولما كنت وزيراً في الوزارة البريطانية التي سبقت الحرب مدة خمس

---

(١) عن بحث السر هربرت صموئيل احد زعماء الاحرار البريطانيين ووزير الداخلية سابقاً

سنوات وأشرفت على اعلانها اظن اني اعرف كيف سارت الامور حينئذ . وانني اذا التفت الى الوراء، الآن ، على ضوء ما حدث بعد ذلك ، اجدني غير متفق مع الذين يقولون انهُ لو اعلنت بريطانيا في جلاء ووضوح انضمامها ، الى فريق فرنسا او الى فريق المانيا ، لاجتنب وقوع الحرب . بل اني لاعتقد ، انهُ ما كان في وسع اية وزارة بريطانية ، ولا اي حزب بريطاني ، ان يسلك هذا المسلك. ذلك انهُ لو فعلنا ، لكنا عدنا مرة اخرى ، الى الاشتباك في مشكلات توازن القوى الاوربية . وهذا النظام من توازن القوى لم يكن في وقت ما ، ضماناً من ضمانات السلام . بل على الضد من ذلك كان دائماً باعثاً من بواعث الاحتكاك المفضي الى الحرب . ولو ان بريطانيا تحالفت مع احد هذين الفريقين لتحتم عليها ان تتحمل تبعة الاعمال التي يعملها حلفاؤها . وكيف نعلم ان حلفاءها لا يندفعون في سبيل المطامح المنطوية على خطر على السلام اعتماداً على مساعدتها وتأييدها ؟

وعلى الضد من ذلك ، ان موقف بريطانيا المنعزل او المنفصل كان يمكنها من ان تستعمل نفوذها في سبيل السلام . كذلك فعلت في حروب البلقان سنتي ١٩١٢ و ١٩١٣ اذ استعملت نفوذها ، لمنع تلك الحروب المحلية من الامتداد كالنار في الهشيم . وليس ثمة ما يدل على انهُ لو وقعت حينئذ حروب اخرى لتعذر عليها ان تستعمل مكانتها في سبيل تأييد السلام ، كما استعملتها في حروب البلقان. بل ان السر ادورد جراي ، استعمل نفوذه ومكانته باخلاص تام ، في صيف سنة ١٩١٤ لهذا الغرض العظيم ، ومرَّت بنا لمحة من الزمان ظننا فيها انهُ قد يفوز

يقال احياناً ، انهُ لو اعلنت بريطانيا المانيا ، اعلاناً رسمياً ، بانهُ اذا اخترق حياد البلجيك ، حمل ذلك الاختراق بريطانيا على خوض المعترك اي لو اعلنت بريطانيا المانيا بهذا ، لما كانت الحرب . هذا ما يقال . ولكن اعلاناً من هذا القبيل كان يعني ضمناً ان بريطانيا تبقى على الحياد اذ كان زحف المانيا على فرنسا من غير طريق البلجيك

نعم لا بدَّ ان تعنى حينئذ قيادة الجيش الالماني بتغيير خطتها . ولكن الحرب بعد ذلك تصبح اقرب وقوعاً بدلاً من اجتنابها بمثل هذا التصريح . اما اذا كان تصريح بريطانيا لا يعني وقوفها على الحياد اذا هوجمت فرنسا على الاطلاق ، فهو يعني انها اصبحت في صف فرنسا مهما يكن من امر المانيا . وهذا عود منها الى موقف ما زالت تريد ان تتجنبهُ . أما اذا رفضت المانيا ان تقيم وزناً لتصريح بريطانيا كائناً ما كان فالحالة تبقى على ما كانت عليهِ بل وتزيد تعقداً وخطراً

***

هذا من الناحية الخارجية وملابساتها . اما من الناحية الداخلية فان انضمام بريطانيا الى احد الفريقين ، او تصريحها التصريح الذي كان ينتظر منها على قول بعضهم ، من شأنه ان يقسم الامة البريطانية الى فريقين . ذلك ان الديمقراطية البريطانية شيء متأصل في النفوس ، والاعراب عن حرية الرأي حق لا نتنازل عنهُ . والوقوف قبل سنة ١٩١٤ الموقف الذي يقال الآن انهُ كان يجب علينا

ان نفقه كان لا بد ان يلقى حينئذٍ ، معارضين ومؤيدين وكذلك تنقسم البلاد وتنتابها ازمة خطيرة

ثم ان الشعب البريطاني، لكي يقتنع بوجوب التضحيات العظيمة التي تقتضيها الحرب، يجب ان يقتنع اولاً بان الحرب تشهر في سبيل غرض صالح وانهُ كان من المتعذر اجتناب تلك الحرب بوسيلة شريفة . ولو ان حكومة بريطانية ، كائنة ما كانت ، حاولت في مطلع القرن العشرين ان تنضم الى احد الفريقين الاوربيين الكبيرين — فرنسا وفريقها أو المانيا وفريقها — او لو أنها صرحت تصريحاً يعني ضمناً انضمامها الى احد الفريقين في حالة نشوب حرب بينهما ، لكان نشأ في بريطانيا حينئذٍ جدال سياسي خطير ، لا بد ان يفضي في النهاية الى انقسام الامة بعضها على بعض . ذلك انهُ من المتعذر في حالة كهذه الحالة ، ان تقنع الجمهور بان الغرض من هذا الانضمام او من هذا التصريح ، هو منع الحرب ، كما يقال . بل لهاجم الكتّاب الاحرار الوزارة مسندين انضمامها او تصريحها ، الى اغراض امبريالستية ، او الى رغبة منها في القضاء على خصم قبل ان يشتدَّ ساعدهُ . واذا اضطرت الحكومة حينئذٍ ان تزيد الانفاق على اسطولها — كما اضطرت حكومة بريطانيا بين سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩١٤ — لما صدق الشعب ان الغرض من هذه الزيادة انما هو الدفاع عن كيان البلاد ، بل لعَزَا هذه الزيادة ، الى غرض الاستعداد للحرب التي اعترف بها ضمناً في انضمام الحكومة الى أحد الفريقين . ثم اذا كان لا بد من وقوع الحرب حسبت الامة نشوبها نتيجة للسياسة التي جرت عليها الحكومة وعندئذٍ فقد تلقى الحكومة معارضة فتكون النتيجة اللازمة لخطة كهذه ، خيبتين ، خيبة في السلم واخرى في الحرب !

ثم ان خطة بريطانيا الخارجية مرتبطة من ناحية اخرى ببلدان الدومنيون المستقلة استقلالاً ذاتيًّا — اي كندا واستراليا وزيلندا الجديدة وجنوب افريقية (لم تكن ارلندا حينئذٍ في عدادها) — وهذه البلدان تصر على ان تكون مقدَّراتها في ايديها . وبريطانيا تسلم بذلك . بيد أن حكومة لندن مضطرة ، اضطراراً مستمرًّا الى اتخاذ قرارات عامة ، لها صلة بشؤون كل جزء من الامبراطورية البريطانية . لذلك تحيط حكومة لندن حكومات الدومنيون والهند ، علماً بتفصيلات كل مشكلة دقيقة تعرض لها او كل قرار خطير تتخذهُ . وهذه بحكم الطبع لا تميل الى الاشتباك في شؤون اوربا المعقدة

***

تكلمنا عن الاركان التي تقوم عليها السياسة الخارجية البريطانية بوجه عام وأثرها في موقف بريطانيا من الحرب الكبرى قبيل اعلانها . ويقول السر هربرت صموئيل ان الحالة اليوم تشبه بوجه عام الحالة قبيل الحرب . فالشعب البريطاني الآن يتردد كل التردد قبل الاقدام على الاشتراك في اي حرب لأي غرض . فهو يمقت الحرب ويحسبها على ما قاله فيها احد كبار قواده «سخفاً مكروهاً» . ولكنه — اي الشعب البريطاني — يقدر التبعة الملقاة على عاتقه في وجوب التعاون للمحافظة على السلام . وقد مضى في ناحية النهوض بهذه التبعة ، الى مدى عقد معاهدة ضمان عسكري في غرب اوربا (المقصود معاهدة لوكارنو سنة ١٩٢٥) وهذه المعاهدة تنطوي على

مخاطرة عظيمة . فاذا اقتضت الحال وجوب تدخل بريطانيا في غرب اوربا فان الشعب البريطاني ، مع شدة مقته للحرب ، لا يتأخر عن تنفيذ العهود التي قطعها . غير ان الرأي العام البريطاني ، معارض الآن معارضة صريحة في توسيع نطاق هذه المعاهدة

وبلاد الدمنيون توافق بريطانيا على هذا الموقف بوجه عام . ولكن خشيتها من الاشتباك في الشؤون الاوربية عظيمة جداً ، حتى انك لا تجد بلاداً واحدة منها ، قد ابرمت معاهدة لوكارنو . فهي تحتفظ بحقها في الحكم ، اذا اقتضت الحال خوض بريطانيا غمار حرب اوربية تنفيذاً لعهدة لوكارنو . وحينئذ فاما ان تعاونها وتشترك معها ، واما ان تعرض عن ذلك .

ويرى السر هربرت صموئيل ان الرأي العام البريطاني يفضل الانسحاب من الشؤون الاوربية لو كان ذلك في نطاق السياسة العملية ، ولكنه يدرك في الوقت نفسه ، ان هذا الانسحاب غير عملي . وهو الى ذلك معارض اشد المعارضة في انتهاج خطة تقوم على عقد المحالفات . واذن لم يبقَ أمامه الاّ احد سبيلين — أما السبيل الاول فهو استعمال الاساليب التي كانت مستعملة قبل الحرب الكبرى ، اي الاساليب الدبلوماسية والنفوذ الدبلوماسي والتدخل الدبلوماسي بين حين وآخر . اما السبيل الثاني ، فهو السبيل القائم على الاشتراك في المفاوضات واستعمال وسائل جمعية الامم . والكثرة الغالبة في بريطانيا تفضل الاسلوب الثاني على الاول . فسياسة بريطانيا قائمة على اساس جمعية الامم وفي هذا تؤيدها بلدان الدمنيون وحكومة الهند

ولكن الطريقة الثانية ، لا يرغب فيها الشعب البريطاني ، الاّ اذا كانت امية بالمعنى الصحيح ، لان بريطانيا لا ترغب ان تقوم وحدها ، في الشؤون العالمية ، مقام البوليس ، فهي لا ترغب ان تتعهد بان تبعث بالجنود البريطانيين والبحارة البريطانيين معرضة حياتهم للخطر ، الى مكان بعيد ، حيث يقوم نزاع بين دولتين او اكثر ، مع ان مصالحها في ذلك المكان لا تفوق مصالح غيرها من الدول الاخرى . ولما كانت الضرائب التي يؤديها الشعب البريطاني اكبر من الضرائب في اية امة اخرى ، فانه يرفض ان يتخذ على عاتقه تبعات جديدة تزيد نفقاته والضرائب المفروضة عليه

اما اذا اشتركت جميع الامم في عمل دولي ما ، فان الشعب البريطاني حينئذٍ لا يحجم عن القيام بنصيبه التجاري والمالي وما اليهما ، للاقتصاص من دولة خرقت عهدة كلوج (عهدة تحريم الحرب سنة ١٩٢٨) او عمدت الى الاعتداء على غيرها ، وهذا العمل في حد نفسه ، ينطوي على مغامرة عسكرية لا يرغب فيها الشعب البريطاني بوجه عام . ولكنَّ السر هربرت صموئيل يعتقد انهُ لا يحجم عنها اذا اشتركت الامم الاخرى معهُ في ذلك

***

خذ مثلاً على ذلك مشكلة المحيط الهادي — والمحيط الهادي كما تعلم منطقة من مناطق الخطر في السياسة العالمية الآن . ان الامم التي تهمها هذه المشكلة في المقام الاول ، هي روسيا واليابان

والولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا . ولكن واحدة فقط من هذه الدول عضو في جمعية الامم . فبأي حق تدعي احدى هذه الدول وحدها — المقصود بريطانيا لانها الوحيدة بينها المنتظمة في الجمعية — من قبل الجمعية للنهوض بتبعات كبيرة كان يجب ان تشترك الدول الاربع جميعاً في حمل عبئها

في هذه المسائل الدولية الخطيرة تنظر بريطانيا بعين العناية العظيمة الى موقف الولايات المتحدة الاميركية . قال السر هربرت : قال لي احد الاميركيين مرة ، لو ان بريطانيا واميركا تتفقان على العمل معاً لكانتا تحكمان العالم . فأجبتهُ الجواب المنتظر ، ولماذا تريدهما ، او لماذا تريدان هما ان تحكما العالم ؟ خير للعالم، ان يحكم نفسهُ . ولكن الواقع انهُ اذا اتفقت الولايات المتحدة الاميركية والامبراطورية البريطانية على العمل معاً ، كان لهذا الاتفاق اثر عظيم في السياسة الدولية على شريطة ان توجها نفوذهما الى الخير العام لا إلى اغراض ضيقة خاصة . واذا شاءتا ان تكون خطتاهما مشتركتين او متحاذيتين وجب زيادة التشاور والتعاون بينهما

اذا تبصَّر القارىء في هذه القواعد التي عرض لها السر هربرت في بحثهِ ، استطاع ان يدرك تلكؤ بريطانيا في قبول فكرة « الضمانات » التي تطلبها فرنسا ، شرطاً لعقد اتفاق نزع السلاح . فبمقتضى المشروع البريطاني ، الخاص بهذا الموضوع ، والمذكرة البريطانية التي عدلت فيها بعض مواد المشروع الاصلي ، تقترح بريطانيا على فرنسا ان توافق على تسلُّح المانيا باسلحة دفاعية معيَّنة . وان تنقص فرنسا سلاحها في بعض النواحي . فأعربت فرنسا في ردّها عن قبولها ذلك اذا ضمن تنفيذ الاتفاق . وحجتها في ذلك ان المانيا قد تخلُّ بمواد الاتفاق وتصنع اسلحة ممنوعة فيهِ ، وان لجنة الرقابة الدولية قد تثبت ذلك . فماذا تفعل الدول حينئذٍ وما هي الوسائل التي تتخذها لقسر المانيا على المحافظة على العهود التي قطعتها في الاتفاق الذي وقعتهُ . اما بريطانيا ، فتقول ، استناداً الى خطتها التقليدية ، انها تعِد في حالةٍ كهذهِ بالتشاور في الوسائل التي يمكن اتخاذها لتنفيذ الاتفاق المعقود . اما فرنسا فتقول ان الوعد بالتشاور لا يكفي وانها تطلب وعداً بالعمل . فلما وجهت حكومة بريطانيا الى حكومة فرنسا ، سؤالاً عن الضمانات التي تطلبها فرنسا ، بعثت فرنسا بمذكرتها الاخيرة وفيها رفض ان تسلّم بشرعية تسلّح المانيا وباجراء مفاوضات نزع السلاح في غير حَرَم مؤتمره بجنيف

ولكن اذا امتنعت بريطانيا جرياً على خطتها المعروفة عن توسيع نطاق معاهدة لوكارنو ، اي اذا امتنعت عن قطع عهود حربية اخرى على البرّ الاوربي ، فما حجتها في الامتناع عن قبول الضمانات الاقتصادية ، كقطع الصلات المالية بالبلاد المعتدية ومنع التصدير اليها او الاستيراد منها ؟ حجتها في ذلك انهُ اذا لم تشترك الولايات المتحدة الاميركية في هذه الضمانات ، فقد تصطدم بريطانيا ، وهي تنفذ الضمانات الاقتصادية بالولايات المتحدة الاميركية الباقية على الحياد . وهذا ما تتحاشاهُ . ولكن اقتراح الرئيس روزفلت بان تمتنع الحكومة الاميركية في احوال معيَّنة عن اي عمل من شأنهِ عرقلة القرار الدولي لمعاقبة امة معتدية قد يكون فيهِ مخرج من هذا المأزق

مجد الروّاد

الفرد نويز Alfred Noyes شاعر انكليزي في الطبقة الاولى بين شعراء انكلترا المعاصرين . استشرف بنظره تاريخ ارتقاء المعرفة فاختار من سير روادها الحوادث التي كانت معارك فاصلة بين جيوش النور وجيوش الظلام ونسج من ذلك ملحمة شعرية عظيمة سماها « حملة المشعل » . وفي ما يلي قطعة اجراها على لسان تيخوبراهي — وهو فلكي دنماركي من علماء القرن السادس عشر قضى ٢١ سنة يرصد الافلاك في مرصد اورانينبرج ثم اضطر ان يغادر بلاده ويلجأ الى رودلف الثاني في براغ وكان جلّ همه ان يعين مواقع الف نجم قبل ان يموت ولكنه لم يعين الا مواقع سبعمائة منها قبل طرده من بلاده — مخاطباً مريديه قبل مبارحته وطنه

ما اقلّ ما اعلم — عملتُ عمل قزمٍ ! ان الرجال الذين سوف يتبعونني
قد يزيدون ، بفنّ ادقّ من فنّي ، عشرات الالوف . ولكن مجموعتي تنقذهم
من عناء خمس وعشرين سنة ، وتقربهم الى هدفهم ، الى ملك النواميس
الذي لن ارى . اننا على عتبة عصر من المكتشفات العظيمة . فأنا احسّ
كما يحس الحالم ، بالفجر ، قبل ان يفتح عينيه . كثيرون منكم سوف يشاهدون
تلك المكتشفات . وفي ذلك اليوم تذكرون اجتماعنا الاخير في اورانيبرج
وكيف قلت لكم ان عملنا هذا لا بدّ ان يفضي الى انتصارات العصر المقبل .
قد ينسانا المنتصرون . وماذا يهمنا ذلك ؟ سوف يظفرون بسعف النخل
واهازيج الثناء . اما مجدنا فمجد الآباء في ابنائهم ، غبطتنا غبطة
المانح ، غبطة العامل على صفحة الصخر الصلد طوال الليل ، يحفر
فيه مواقع الاقدام ، ليرتفع عليها من يجيء بعده ، الى الاعالي
فيطيل التحديق في العوالم المكتشفة حديثاً .
عندئذ لا تجدونني على القمة ، فاذا هبطتم ، إبحثوا عني في الظلام
عند سفح الاكمة ، تحت الاوراق المتناثرة . هناك نختبيء نحن
الروّاد ! لان فينا كِبْراً ، وعلى العالم ان يبحث عنا
قبل ان يكتشف قبورنا !

ترجمة شيطان

رأي الدكتور طه حسين في قصيدة الاستاذ العقاد (١)

«... لست اخفي عليكم اني قرأت له قصيدة لن ينقضي اعجابي بها وقد اقرؤها عشرين مرة او ثلاثين والسبب في ذلك اني اجد فيها كلما قرأتها معنى جديداً ، او معاني جديدة. ثم هذه الطرافة المدهشة وتستطيعون ان تبحثوا عن مثلها في الشعر القديم فلن تجدوا لها شبهاً . هي طويلة ، ولكنها على طولها قصيرة تبلغ مائتي بيت وعشرين

«أما موضوعها فشيطان . اراد العقاد ان يترجم لشيطان ، ويظهر ان العقاد سئم ترجمة الناس ، وسئم نقد الناس وما يكتبون وما ينظمون فأبى الاّ ان يبحث فوفق الى شيطان خلقه خلقاً ومشى معهُ فأبعد في المشي . انهُ خلقهُ في اول القصيدة وصعد معهُ السماء وهبط بهِ الى الجحيم ومن حسن الحظ انهُ قتله في آخر القصيدة . هذا الشيطان غريب ، خلقهُ واذن له كما اذن للشياطين ان يغوي الناس ما استطاع فهبط الى بلاد الزنج ولكنهُ لم يكد يرى هذه البلاد وأهلها حتى ضاق بالارض وسكانها ورأى انهُ ارفع من اغواء الزنوج فارتحل عنهم وطوف الارض وما زال يطوف حتى بلغ بحر الروم او بحر العجم حيث البلاد المتحضرة ، وهناك استطاع ان يخدع الناس فأخرج لهم شيئاً يسمى الحق ، ولكنهُ الاعتداء الشنيع المنكر الذي افسد الحياة الانسانية افساداً ، ثم كلفه ان ينوب عنهُ في فتنة الناس . نظر الى الناس وقد وقعوا جميعاً في شركه وخضعوا لفتنته فاحتقرهم ، وكفر الشيطان بالشر ، ارأيتم شيطاناً يكفر بالشر الاّ عند العقاد ؟ والطريف ان هذا الشيطان خالف طبيعته وظفر بما لن يظفر بهِ شيطان ، ظفر بالعفو ، واذن الله له في ان يصعد الى الجنة ويعيش بين الملائكة عيشة راضية في مكان لا سبيل الى تصويره في الشعر بأجمل من تصوير العقاد . ولكنهُ شيطان لا يرضيه شيء ولا يقنع بشيء ، وما اسرع ما ضاق بالجنة ورفاقه الملائكة ، حتى خيل الى الذين يرافقونهُ انهم ينظرون الى الجحيم وقد تجسد في وجههِ ، ثم يوحي الله الى الجنة فاذا هدوء شامل ، وسلام كامل ، وأمن وسكينة واذا الشيطان المتمرد قائم أمام جلال الله . أترون انهُ خضع او اضطرب او احسَّ شيئاً مما تحسهُ النفس وهي في مثل هذا الموقف ؟ كلاَّ ، ظلَّ مرفوع الرأس شامخ الأنف متحدياً ، ينكر على الله آياته ، ويتحدى الله ان ينزل بهِ المكروه ، ثم ينزل المكروه بهِ فاذا النار قد استحالت

---

(١) من خطبته في حفلة التكريم التي اقيمت يوم ٢٧ ابريل الماضي وأشير اليها في مقتطف مايو

حجراً . ومع ذلك فطبيعته لم تتغير حتى بعد المسخ بعد ان اصبح حجراً هامداً : طبيعته مفسدة دائماً . أليست تتخذ الصور الخلابة من هذا الصخر؟ هذا الشيطان الذي احياه العقاد وأماتهُ وصوَّر لنا حياته هذا التصوير البديع ، هـذا الشيطان اسمحوا لي وليسمح لي العقاد وأنا أعترف بأني متأسف جداً ، هذا الشيطان هو شيطان العقاد وشعره ، وهذه النفس الطامحة التي لا حدَّ لآمالها ، هذه النفس التي لا يرضيها شيء ولا تستريح ولا تطمئن الى شيء ، ولا ترضى الاَّ لتسخط ، ولا تستقر الاَّ لتتحرك حركة لا حدَّ لها حتى اذ خرجت من الحياة وانتهى عهدها بالوجود فان آثارها ما تزال قائمة تعمل في النفوس وتغريها وتبعث فيها الحركة ، وان كان الشيطان قد استحال الى رماد في القبر هذا الشيطان هو سحر صاحب الفن والذي نلاحظه في كل أثر من آثار العقاد او الشعراء النابهين أمثال العقاد (انظر ديوان العقاد ج ٣ ص ٣٣٨)

« أعترف اني عند ما قرأت القصيدة وقرأتها وقرأتها ، فكرت في شعراء آخرين ليسوا عندنا ولا هم بين شعرائنا ولكنهم يعيشون في اوربا ، يعيشون في اوربا القديمة والحديثة ، فكرت في جوت حين يصور ابليس وهو يتحدى خالقهُ ، فكرت في بول فاليري وهو يصور الحية حين أغوت حواء ، وفكرت في ملتون حين يصور الجنة الضائعة . ومع ذلك فهل كان العقاد مقلداً لهؤلاء الشعراء ، هل أخذ عنهم ، أو هل أخذ العقاد عن شعراء العرب القدماء

«كلاَّ أيها السادة ، لم يأخـذ العقاد عنهم بل قرأ هؤلاء ، وهو لا يقرأ الاَّ فهم ، ولا يفهم الاَّ دقق وهو بهذه القراءة وبهذا الدرس المتصل الذي لا يعرف العقاد له حدًّا ، والذي فرضهُ العقاد على نفسه فرضاً ، بهذا الدرس المستمر الطويل قد خلق لنفسه قوة لم يعرفها غيره من شعرائنا ، قوة خاصة خارقة لا يعرفها شعراء العرب لأنهم من أقل الناس قراءة في هذا العصر ، خلق العقاد لنفسه قوة شاعرة لا نجد لها نظيراً الاَّ في اوربا حيث يلتمس الشعراء الفن لا في الادب وحده بل في العلم وفي كل شيء آخر . من هـذا كله استطاع العقاد ان يكون هذا المارد المتمرد هـذا الشيطان الذي لا حدَّ لهُ »

تعليق الشاعر

« ترجمة شيطان » هي احد أثرين من آثاري الادبية انتجتهما الحرب العظمى فأما الاول فمنثور وهو رسالة « مجمع الاحياء » وقد كتبتها في اوائل الحرب

وشرحت فيها فلسفة القوة ورجحت عليها جانب الحق وانتهيت منها الى ان الطبيعة توحي الى الاحياء ان تتصارع وان الصراع يمحصها وينشىء بينها ميزات القوي وهو الحق في النهاية

فلما قاربت الحرب العظمى ان تضع اوزارها ولم نرَ لها نتيجة حاضرة ولا متوقعة تكافىء اهوالها واخطارها غامت على النفس غيمة حزن يأس وبدا لي كأن حوادث التاريخ لا تعدو ان تكون اضطراباً متقلباً كاضطراب العناصر الطبيعية التي لا تحفل شيئاً بمقاييس الاخلاق والمثل العليا ، وان الامم العاقلة المتحضرة تثور الى الحرب كما يثور بركان او يثور اعصار ، فلا فرق بين غوص حضارة في اعماق التاريخ الانساني وغوص جزيرة في اعماق الاوقيانوس ، وهذه هي الحالة التي عبرت عنها في « ترجمة شيطان » . وجعلته من اجلها يقول وهو يحتقر ان يفسد الناس لان غاية الصالح والفاسد منهم سواء :

ما له يفسد قوماً عدموا آية الرشد ، وهبهم رشدوا !

وعلام السلب مما غنموا وهمُ لو غنموا لم يُحسدوا

***

كلهم طالب قوت والثرى ذلُّ قوم او تعالوا مخصب

وقصارى الامر في هذا الورى راسب يطفو وطاف يرسب

ومما يحسن ان اسجله في هذا الصدد ان الجزء الثالث من ديواني كان وشيكاً ان يظهر دون ان تظهر فيه هذه القصيدة ، لان الغيمة اليائسة التي اوحتها اليَّ تغيرت شيئاً فشيئاً واصبحتُ انظر الى الحياة واطوار التاريخ بغير تلك النظرة . وانما نُشرتْ مصادفة لانني كنت اتحدث الى بعض الاخوان ومنهم الاستاذ عبد الرحمن صدقي — اثناء طبع الجزء الثالث — عن القصائد التي انوي حذفها ومنها هذه القصيدة . فسألوني عنها وعن موضوعها وأصرُّوا اصراراً شديداً على وجوب نشرها ، ثم انتهيت بعد مراجعة نفسي الى أن أضمنها الديوان واقدم لها بتمهيد قلت فيه : « ولما شرعت في طبع الشعر المجتمع لديَّ خطر لي ان احذف القصائد التي اشرت اليها لتغير الباعث على نظمها وعدولي عن محور الرأي فيها ، ولكني عدت الى نفسي فقلت : ولماذا احذفها ؟ ان الضرر الذي امنعه بحذفها أقل من الضرر الذي انا مانعه بنشرها ، وحسبها انها لم تكن الاَّ طوراً طبيعياً من اطوار فكرة وفترة معقولة من حياة قلب ، فلم ارتضِ حذفها لاجل ذلك وليعلم الذين تعرض لهم هذه الاطوار انهُ ما من حالة يبلغ اليها الشك واليأس الاَّ ومن بعدها للاطمئنان سبيل »

الشيطان امام الله

فاذا الجنة أمن وسكون كسكون الليل في ضوء القمر
خشعت حتى الشوادي في الغصون وصغت حتى وريقات الشجر

ساعة ثم انجلى موقفها عن جلال الله فرداً في علاه
غابت الأملاك لا تعرفها وبدا الشيطان معروفاً تراه

وبدا الشيطان معروفاً ترى كبرياء الكفر في وقفته
عالي الجبهة يأبى القهقرى وتوّجُ النار من نظرته

وتنحى كلُّ مشهود فما ثمَّ الاّ الله والطاغي المريد
ويكاد الكون ما بينهما يغلب الشك عليه فيبيد

ساعةٌ اخرى وقد حُتّم القضاء وانقضى العفو وحق الغضبُ
ساعة للنحس حلّت والبلاء ومتى حلت فأين المهربُ ؟

حاقت اللعنة . حاقت كلها وقضاها المنعم المنتقم
وجناها وهو لا يجهلها ذلك الجاني الذي لا يندم

***

هاتف في الخلد لما هتفا نفذ السهم فمن ذا الهاتف
أهو الرحمن ؟ لا وا أسفا بل هو الروح العصيّ العاصف

هو روح يجحد الله وما أعجب الحاسد لله الصمد
كلما أبصرهُ محتكما أصغر الكون وازرى بالأبد

هو ناع سمجت في عينه نعمُ الله فأمسى يجتويها
حبة يزرعها في كونه تلكم النعمى،فأين الجود فيها ؟

هو طاغ يأنف الصفو الى سائل يسأله عما جنى
يحسب الصفو عقاباً قد غلا كيف لو أعذر او لو أذعنا ؟

فرمى بالهُجر لا يحفله حيث لا يبدأ خلق بالكلام
ويجدُّ القول او يهزله ولعينيه وميض وابتسام

مختارات من بيرون

﴿البحر﴾ ختم لورد بيرون «تشيلد هارولد» — وهو عنوان قصيدة من ابلغ قصائده الطويلة — بما تواضع النقاد على تسميته «نشيد البحر». في الدور الاول من هذا النشيد يتجلى نفوره من الاجتماع واستئناسه بالوحدة والانفراد «لا لانهُ يبغض الانسان بل لان حبهُ للطبيعة اشد» ثم تمر في مخيلته صور الدول التي نشأت ودالت وما تعاقب على العمران من آيات التغير والانقلاب فخاطب البحر قائلاً

« والعالم في تغيُّر مستمرّ الاّك يا بحر! لا يقدر الزمن ان يخط على جبهتك الزرقاء اسارير الهرم ولا ان يرسم على محيّاك آثار الضعف والشيخوخة». ثم «انها المرآة الصقيلة التي نرى فيها صورة الخالق في كل زمان، سواء اكنت ساكناً او كنت ثائراً، في النسيم العليل او في العاصفة المجتاحة، حول القطب ثلجاً وجليداً او عند خط الاستواء خضمًّا زاخراً عظيماً»

﴿مشهد طبيعي﴾ «هذه هي الساعة حين تسمع من الاغصان نغمات العندليب الشجية. هذه هي الساعة حينما تبدو عهود المحبين حلوة في كل كلمة يهمسونها. والنسيم العليل، والماء الصافي يطربان الاذن بموسيقاهما. الندى رطّب كل زهرة وفي الفضاء انبثقت الزُهُر. وقد زاد ازرقاق البحر. وقد قتم لون الاوراق. وفي السماء ذلك الابهام الواضح الذي يعقب انخذال النهار. والشفق اخذ يذوب امام القمر ...»

﴿الجبل الابيض﴾ «الجبل الابيض ملك الجبال. توّجتهُ (يتكلم الشاعر بلسان روح المكان) عليها من زمن بعيد. على عرش الصخور في حُلل الغيوم. التاج من الثلج. وحول وسطه الحراج. وفي يده جرف الثلج المنهارة. لكن قبل ان ينهار الجرف قاصفاً كالرعد يجب ان يلبث هنيهة ليتلقى الاوامر مني. والنهر الجليدي البارد الذي لا استقرار لهُ، يتقدم يوماً فيوماً. لكن أنا الذي آذن لهُ في المسير او في البقاء مع سائر الجليد. انا روح المكان. اخضع الجبل لي او ازعزع اركانهُ ...»

﴿تشاؤم﴾ وا اسفاه! ما الحياة الاّ حلم لا يوقظنا منهُ غير الموت. وما عدا ذلك اوهام تتغير بتغيرنا. كلٌّ منها يخدعنا بدوره. حتى يسدل الموت ستاره فنرى الحقيقة الرهيبة. أليس من الغريب انهُ كلما ازداد شعورنا بأن الحياة عبء، ازداد تعلقنا

باهدابها ، بكل ما نملك من قوة ؟ هذا دليل آخر على ما فينا من طبيعة الحيوان . لانهُ لو كان الروح العالي الذي نفخهُ فينا الخالق ، متسلطاً على الطبيعة الحيوانية ، لكنَّا نسرُّ بطرح العبء الذي يثقلنا ونئنُّ منهُ ، باحثين عن وجود آخر يتغلب فيهِ النور على الظلام . مَنْ بلغ الخامسة والثلاثين ولم يشعر بالسأم يسمُّ الجذل اليسير الذي يكون نصيبهُ في بعض الاحيان . نبدأُ الحياة برجاءِ الحصول على السعادة ثم ينكشف لنا ان ذلك محال ، فنطلب الملذات،ولكن حتى الملذات تتملص من قبضتنا،فننتهي الى التوق الى الراحة ، ولا ننال الراحة الاَّ بالموت »

﴿ رجاء ﴾ «ايها الالم .. انت تلين الانسان كما يلين اللهيب الحديد .. فمن لم يعرفك ايها المعلم ، لم يعرف من الحياة الاَّ اسمها الاجوف . بل هو يطفو على وجهِ الحياة كما لو كان طافياً على غيمة من غيوم الصيف ، ليس لهُ أثر يتركهُ وراءه ... لا قطرة عرقٍ من جبينهِ . ولا دمعة تذرف من عينيهِ . وقدمهُ لم تدمّها الحجارة المبثوثة في طريقك .. »

لماذا تحبني

للشاعرة مسز براوننغ زوجة الشاعر روبرت براوننغ

اذا كان لك ان تحبني ، فليكن لاجل الحب فقط .
لا تقُلْ انا احبُّها لبسمتها ، لنظرتها ، لحديثها اللطيف
للفتةٍ في فكرها تتسق مع فكري وتنشىء شعوراً
بالراحة والطمأنينة كل يوم من ايام الحياة .
لان هذه الاشياء بحد ذاتها ، يا حبيبي ، قد تتغير
او قد تتغير في نظرك ، والحب الذي نُسيج منها
ينحلُّ كما نُسج . ولا تحبني لما تشعر بهِ من الاشفاق
اذ تمسح الدموع على خديَّ . فقد ينسى الكائن الذي
تطول نعماه في عطفك ، ان يبكي ، فيفقد حبك كذلك .
ولكن احبني للحب ، لكي يمضي حبنا ، حيًّا الى الازل

قبرة شلي

لتوماس هاردي

نظمت على مقربة من ليجهورن — حيث نظم شلي قصيدته في القبرة

هنا في مكان ما ، من هذه المرجة ، يرقد في حمى الارض المتساءة
لمهدها العمياء عن وفاتها ، شيء لا بعث النبوءة في روح شاعر .
انه حفنة من تراب تجاوزتها العيون وأهملها الناس

هو التراب — تراب القبرة التي سمعها شلي
وبعثها روحاً خالداً في ثنايا الزمان ، مع انها عاشت ككل طائر
غيرها ولم يدر بخلدها معنى خلودها ! !

لقد نعمت بحياة هانئة ووديعة ثم هوت يوماً ما كومة من الريش
والعظام . . لا يُعرف كيف ماتت .. ولا متى غنت اغنية الوداع ..
ولا أيان حلل الفناء عناصر حياتها ! !

ومن يدري ! ربما تستقر هذه الروح في صعيد هذه المخضرة التي
تضطرب في مسارح عيني ! او ربما تخفق في خضرة آسة متزاهرة !
او تغفو في صبغة عنبة على منحدرات هذه الارباض

فاسلي يا بنات عبقر . . . اسلي وابحثي عنها . . .
عن هذه الحفنة الصغيرة من التراب الذي لا يقوم بمال
وهاتي حُقّة مبطنة بالفضة مغلفة بالذهب مرصعة بالجواهر !

ولنضجعها فيها بسلام مقدسة على الزمن، جزاء
ما اوحت به الى شاعر ، فسما الى عليا طبقات
الافتنان والسحر في سماء الفكر والالحان ! !

[ترجمة م . ع . الهمشري]

المرأة الفرنسية

حقوقها وآدابها ومكانتها الاجتماعية

قيل ان وفداً ذهب الى الامبراطور لويس فيليب لينبئهُ بأن فرنسا عادت لا تحتاج الى خدماتهِ على العرش فقال « لست اميل الى اجابة طلبكم . ولكنني على كل حال لا اتحرك من هنا قبل ان اسأل زوجتي » ! وقد كان لويس فيليب من طبقة فرنسية متوسطة وموقفهُ نحو زوجتهِ انما كان موقف طبقتهِ نحو المرأة الفرنسية . وليس من يستطيع ان ينكر ، ان للمرأة في فرنسا سلطاناً على رجالها تحسدها عليهِ نساء البلدان الاخرى . فقد تفاخر نساء تلك البلدان بما فزن بهِ من الحقوق التي لا تتمتع بها المرأة الفرنسية وقد يشفقن عليها لانها متى تزوجت تعامل معاملة القاصر ، ولكنهن على كل حال يحسدنها على المكانة العالية التي نالتها بحكمتها وحسن تدبيرها

وليس في العالم امرأة أسيء فهمها كما اسيء فهم المرأة الفرنسية . فالمذكرات التي نشرت عن حياة المرأة في بلاط الملوك تصوّرها بالصورة التي اجملها ڤولتير بقولهِ « كل امرأة متزوجة في البلاط يحق لها ان يكون لها عشيق واحد على الاقل » . اما كتّاب العصر الحديث ، وبوجه خاص كتّاب الروايات ، من جوتيه الى فرانس الى موپاسان وكوليت وبروست ، فقد شرّحوا عواطفها ورسموها في صورة المرأة التي لا عمل لها الاّ الاستسلام لشهواتها . ولكن من تتتح لهُ فرصة النفوذ الى حقيقة المرأة الفرنسية ، كما اتيح للمسز بروملي احدى زعيمات الكواتب الاميركيات ، يقل معها ، ان المرأة الفرنسية هي رأس البيت ومدار الأسرة

نعم ان القانون الفرنسي يعاملها معاملة القاصر الذي يحتاج الى وصيّ . وهذا القانون يرتدّ الى عهد نبوليون ولم يصب من التحوُّل بعد ذلك الاّ شيئاً قليلاً . وفيهِ ان الزوجة الفرنسية لا تستطيع ان تغادر بلادها الاّ اذا اذن لها زوجها في ذلك . ولا تستطيع ان تفتح حساباً في بنك من دون سماحهِ ، الاّ اذا كانت تمارس صناعة او تجارة . ولا تستطيع ان تزور اصدقاءها او تختلف الى محلات عمومية اذا رفض زوجها الموافقة . وللزوج الحق في السيطرة على الاولاد ، والتصرف بملكها كيف يشاء الاّ اذا ضمّن عقد الزواج شرطاً خاصّاً بانفصال عقار الرجل عن عقار المرأة . بل واغرب من هذا كلهِ ان رجلاً مطلّقاً يستطيع ان يسحب مالاً من مال زوجتهِ اودعتهُ في البنك باسم ابنهما ، ولا قبل لها بمعارضة ذلك او منعهِ ، ما زال المال باسم الولد

و لازواج الانذال كثيراً ما يستغلّون هذه القوانين التي تستعبد المرأة الفرنسية لزوجها . ولكن الزوج الفرنسيّ بوجه عام ، لا يفكر في نهب زوجتهِ لان الزوجين في رأيهِ متحدان لا ينفصل احدهما عن الآخر . وهو شديد الوداعة ، فلا يفتح رسائلها الخاصة ، ولا يملي عليها

ما يجب ان تفعله في زيارتها ولو كان القانون يبيح له ذلك . نعم نجد في بعض المناطق الريفية حيث العقيدة الكاثوليكية ما تزال متسلطة على النفوس ان سيطرة الرجل معترف بها، ولا بدَّ للمرأة من التظاهر بخضوعها لزوجها . ولكن الزوجة الفرنسية في الريف ليست مظلومة ، كما يتصور الغريب عن فرنسا عند مطالعة القانون الخاص بحقوق النساء

واذا تحدثتَ الى المرأة الفرنسية قالت لك ان الحرب اطلقت حريتها في كثير من النواحي . فقبل سنة ١٩١٤ كانت المرأة الفرنسية الكريمة من سكان العاصمة كانت اومن سكان غيرها من المدن لا تجرؤ على ان تظهر في مقهى من المقاهي او مسرح من المسارح الآ مع زوجها . ومجرَّد الاقتراح على السيدة ان تسوق سيارتها بنفسها او ان تشترك في العاب رياضية عامة او ان تنتظم في سلك حرفة من الحرف ، كان يحدث صدمة اجتماعية . وكانت الفتاة الفرنسية خاضعة لمراقبة دقيقة حتى زواجها . فكل ما تقرأه كان يراقب . وكان تعليمها اما خاصًّا في دار والديها او في مدرسة من مدارس البنات

فلما جاءت الحرب وولَّت كانت جميع هذه الحواجز قد اندكَّت . فلا يندر الآن ان تجد فتيات الطبقة المتوسطة الراقية او الطبقة الارستقراطية ، يذهبنَ الى مدرسة عالية اوكلية ، يذهب اليها اشقاؤهنَّ . ولا ريب في ان اتساع افق الحياة امام الفتاة الفرنسية والمرأة الفرنسية ، قد كان باعثاً على نمو قواها في نواحٍ مختلفة . ولكن ذلك لا يمنع ان المرأة الفرنسية كانت حتى قبل ايام الحرية الجديدة ، مخلوقاً له مكانة عظيمة في المجتمع الفرنسي

في استطاعة المرأة الفرنسية ان تهزَّ كتفيها استخفافاً بالقيود التي يقيدها بها القانون الفرنسي . لانها تستطيع ان تسيطر بذكائها وحكمتها على زوجها فينقاد لرأيها . فهي تقول في ذات نفسها « عليَّ ان اضمن سروره وراحته ورفاهته في كل ساعة من ساعات النهار » وهذه هي القاعدة الاولى في دستور حياتها . فاذا علمت ان زوجها أكولٌ اعدَّت لهُ من الوان الطعام ما يشتهي ، واعدَّت بيديها الاطباق التي يفضلها على غيرها . واذا درَت ان يومهُ في عمله كان شاقًّا ، كانت اول من يقترح البقاء في البيت في ذلك المساء . واذا عرفت انهُ يكرهُ الانتظار ، بذلت ما تستطيعهُ لتكون دقيقة في جميع المواعيد . واذا رأت من الحكمة قضاء اجازة الصيف في الريف في سبيل صحة الاولاد ، ولم يستطع زوجها ان يقضي اكثر من اسبوع او اسبوعين معهم ، تركت في دارها في المدينة الخادم الذي جمع كلَّ ثقتها للعناية بزوجها

ثم ان الزوجة الفرنسية تفعل كل ما تستطيع لكي يصبح زوجها وهو لا يستطيع الاستغناء عنها . وليس عن عبثٍ تقلدها زمام الانفاق على الاسرة . وانما ذلك لحكمة وهي انها تدبر مالية الاسرة خيراً مما يدبرها هو . ثم انهُ يبيح لها ان تشرف على نفقاته لان له ثقة بتدبيرها . فهي تستطيع مثلاً ان تصنع من فستانين قديمين فستاناً جديداً . واذا وجب ان تقيم في بيتها مأدبة صغيرة لبعض اصدقاء الاسرة ، فهي في الغالب تستطيع ان تعدَّ المعدَّات من دون اية نفقة كبيرة . ومن المشاهد في فرنسا بعد الحرب ،

ان ارتفاع نفقات المعيشة وهبوط الدخل قد حتم على الفرنسيين ، وعلى الفرنسيات بوجه خاص ، مواجهة صعاب كثيرة . ولكن المرأة الفرنسية نهضت بهذا العبء على خير وجه . فقد تستغني عن بعض خدمها ، وتتخذ في دارها نزلاء لزيادة دخل الاسرة ، وهذا يقتضي منها زيادة عملها ولكنها تفضل ذلك ، كما قالت كونتسة فرنسية ، على ما تواجهه من الهم في آخر كل شهر عند ما يستحق عليها دفع النفقات الرتيبية

وتروي مسز بروملي ، انها تعرف سيدة فرنسية بارعة الجمال ، رشيقة الملابس ، قد تظن اذا حادثتها لاول مرة ان كل ما يهمها في الحياة شؤون الادب والفن . ولكن هذه السيدة تنفق كل يوم احد من صباحه الى ظهره مع زوجها في مكتبه ، تراجع معه دفاتره . وهو من ناحية يستشيرها في كل صغيرة وكبيرة من شؤون عمله . ولكنها ، بحكمتها ، لا تقف منه موقف المشير المتعالي ، بل تعرض الرأي كأنه رأيه فيحس هو ان زوجته لا تتعدى على حقوق الرجل وامتيازاته

ثم ان المرأة الفرنسية بارعة كل البراعة في توجيه زوجها او اقناعه . فهي تقول في ذات نفسها «ان القانون الفرنسي ينص على ان الزوجة يجب ان تتبع زوجها . ولكنني سوف اقوده في السبيل الذي يجب ان يسير فيه لانه لا يستطيع ان يصمد لقوة ارادتي ، وتخفى عليه اساليب دهائي » . فهي اذا ارادت ان تقنعه بشيء عمدت الى ترديد حجتها اولاً وثانياً وثالثاً حتى يسلم اعياء . وتروى ان جوريس الاشتراكي الكبير — وقد كان ملحداً — كان يختلف وزوجته في موضوع تعليم اولادهما تعليماً دينيًّا . وان زوجته تغلبت عليه في آخر الامر فسلم بتعليم اولاده التعليم الديني الذي ترتضيه زوجته . ذلك انه كان محبًّا للسلام والسكينة علاوة على كونه ملحداً فآثر السلام والسكينة في بيته على مخالفة زوجته في هذا الموضوع

ولكن المرأة الفرنسية تعمد في الغالب الى اساليب الاطراء والتملق في سبيل رأي تراه . قيل ان زوجة ارادت ان تبعث بأولادها الى مدرسة دينية فعارض زوجها في ذلك . فقالت : « اني اراك متفوقاً على سائر الرجال في قوة الخلق ، واحترم فيك اعجابك بالصفات المعنوية العالية ، وهذه الصفات الممتازة رسخت في نفسك بواسطة تعاليم الكنيسة في حداثتك فلماذا تريد ان تحرم اولادك منها ؟ » وكان ذلك الرجل معجباً بصفاته وخلقه ، فاقر ذهاب اولاده الى مدرسة دينية

وقلما تصرح المرأة الفرنسية برأيها كاملاً في موضوع ما . فاذا اختار زوجها شقة للسكن تبعد عن حي صواحبها قالت ان الشقة ليس فيها غرفة مريحة للتدخين — اذا كان زوجها من مدمنيه — او قالت هي بعيدة عن مكتبه . وتروى حكاية عن رجل مثقف يحسن الغناء ويميل الى انشاد قطعة معينة وهو يحلق في الصباح او في مناسبات اخرى . والراجح ان زوجته سمعته يردد هذه الاغنية مئات المرات . ولكن قلما اعربت تلك الزوجة بخلجة واحدة من خلجات وجهها عن تبرمها بها ، بل كانت تقول دائماً « ما أعجب ذاكرتك يا فرنسوى » او ما هو من قبيل ذلك . وروت مسز بروملي

كذلك ان صديقة مثقفة من صديقاتها كانت قد تزوجت رجلاً لا يمتاز بشيء الاّ باسمهِ الضخم. وكان من الشائع المعروف ان هذه الزوجة تسيّر هذا الزوج كما تشاء او « تقوده من انفهِ » كما يقول الفرنسيون. في ذات ليلة، كان هذا الرجل يحض شاباً على وشك الزواج النصح على مسمع من الضيوف في مأدبة بداره، واطال في وجوب كون الرجل سيّد الاسرة. ثم التفت الى زوجتهِ وقال « المرأة تريد ان تحكم أليس كذلك »؟ فأجابت « ميه وي فيليب » وعلى ثغرها بسمة لطيفة وليس في صوتها أثرٌ للنكد او الاستنكار

والمرأة الفرنسية تقوم بوظيفتها كأمٍ، خير قيام. فهي حريصة كل الحرص على الوديعة الثمينة التي القتها الحياة بين ايديها، حتى لقد تمتنع احياناً عن اطلاق هذه الوديعة من قيود عنايتها بعد بلوغ السن القانونية. وهي تربي اولادها تربية طبيعية، لا تفسح فيها مجالاً للنظريات المتضاربة في علم النفس الحديث، فتطبعهم بطابع الصدق والحرص وحسن السلوك. وقد تكون الام طبّاخة تشتغل اثنتي عشرة ساعة في النهار، ولكن ذلك لا يحول بينها وبين الاشراف على تعليم ابنائها وتثقيفهم. او قد تكون محامية، فلا يمنعها ذلك عن السهر لصنع ملابس طفلها. او قد تكون من سيدات الطبقة الراقية تحضر السهرات والمآدب. على ان واحدة من اولاء السيدات ربّت سبعة اولادٍ، كان اربعة منهم اولادها وثلاثة اولاد شقيقتها، وما كانت تهمل ان تشرف بنفسها كل صباح على شؤون نظافتهم ولبسهم قبل ذهابهم الى المدارس، او مساعدتهم بعض الظهر في اعداد دروسهم

والوالدان الفرنسيّان يحسّان بتبعة كبيرة قِبَل اولادهما. فهما لا يقنعان بتعليمهم وتثقيفهم، بل قد يقتّران على نفسيهما شديد التقتير، لكي يبتاعا داراً او مزرعة او اي عقار، يورثانهِ لهم

وكثيراً ما يظلُّ الوالدان الفرنسيّان — والام بوجهٍ خاص — باسطين جناحيهما على اولادهما، حتى بعد تزوّج الاولاد واستقلالهم في الحياة

ولما وضعت الحرب اوزارها تمهد امام المرأة الفرنسية كثير من السبل التي كانت وعرة، قبلها. فابواب المهن الحرّة مفتوحة امامهنَّ الآن، وكذلك الجامعات. وقد اصابت بعض النساء نجاحاً عظيماً في الاعمال التي مارسنها، ولكنّ حكمة المرأة حفظتهنَّ من غضب الرجل المهدَّد في ميدان عمله لان المرأة الفرنسية احتفظت في ميدان الاعمال برشاقتها وانوثتها، وامتنعت عن جرح الرجل في كبريائهِ

وقد ظلّت بعض النساء الفرنسيات تمارسن الاعمال بعد الزواج. ولكن هؤلاء لسنَ القاعدة. والمرأة الفرنسية تدرك، او تعتقد ان « البيت » هو اهم ما في الحياة. فهي لذلك تفضل « البيت » على « العمل » اذا كانا متعارضين او لا يمكن الجمع بينهما

لا ريب في ان الفرنسي يؤخذ عليهِ عدم انصاف المرأة من ناحية التشريع. ولكن المرأة الفرنسية ببراعتها وحكمتها قد نالت مكانة اعلى من المكانة التي يمنحها اياها القانون. والفرنسي يعلم ذلك. وليس عبثاً ان يكون الرمز الذي تتمثل فيهِ فرنسا في طوابعها واوراقها الرسمية — صورة امرأةٍ

الزوجة أم الولد؟ [١]

— ١ —

تفشى بين قوم آمنين وباء جارف
وتلاه جوع عاث في الارض فساداً
فمات جمهور كبير بالوباء
وبقي الآخرون يتضورون من آلام الجوع
وهب الجميع يصرخون ويولولون
«ان الاله انزل بنا المصائب لذنب أتيناه»
وهرول الكهنة الى المذبح يسجدون ويضرعون
«انقذنا من المرض ، نجنا من الجوع
خذ منا ما تريد ومن تشاء
اطلب أعز شخص علينا واقرب انسان الينا
فنحن لك من الطائعين»

— ٢ —

ولكن ازدادت مصائبهم وتعددت ضرباتهم
وجاءهم جيش العدو ينهب ويقتل ويستبيح
جرت الدماء انهاراً ، وتكدست اشلاء القتلى تلالاً
فجعل الناس يصعدون زفرات حرى ويبعثون انيناً ملأ الفضاء
حاسبين الطبيعة ثارت عليهم بكل قواها وحملت عليهم بجيوش عناصرها
فصلوا للاله وتضرعوا ، حتى سمعوا الجواب
«ان ملككم سعيد بزوجته وولده
أعطوني أعزهما عليه واقربهما الى قلبه»

— ٣ —

ذهب الكاهن يطوي الفيافي ويتوقل الجبال
والملك لاه عنه بالصيد والقنص
لا يهتم بأمور العرش ولا يعبأ بمهام الملك.
وجد الكاهن الملكة ومعها ولدها الوحيد

(١) ترجمة فيها تصرف يسير لقصيدة نظمها الشاعر تنيسون وعرض فيه لهذا السؤال

جميل الوجه ، طلق المحيا ، باسم الثغر ، ذهبي الشعر
نظر اليه الكاهن فحسبه الضحية المطلوبة
فصرخ وقد هزه الفرح واستخفه السرور
« ان الآله اجابنا فلنقدم له الولد »

— ٤ —

رجع الملك ولم يصب من الصيد نصيباً وافراً
واقبلت عليه الملكة تذرف دموعاً تزري بالجمان
« لقد أخذوا ولدنا ليهدروا دمه انقاذاً للبلاد »
فالحالة تاعسة والوباء والجوع ملأ الارض جيفاً منتنة
والآلهة يجب ان تعطى شيئاً يرضيها
لتكف عن تعذيب هذا الشعب المنكود
بربك قل لي وقد اخذوا ولدنا للتضحية
أهل هو أعز شيء عليك ام أنا زوجتك ؟

— ٥ —

اطرق الملك ملياً وقد ارتجت عليه أبواب الكلام
وخفق قلبه وجلاً واضطراباً لذلك السؤال المفاجىء
« ما نفع الجواب ايتها الحبيبة وقد حكم الكاهن والحكم نافذ »
ثم أخذ يناجي نفسه ويسأل ضميره وكلاهما لا يحير جواباً
« ايهما اعز عليّ ؟ لا اقدر ان احكم — لا اقدر ان احكم »
لكن الكاهن فرح لاستجابة صلاته فأخذ الولد وهو يقول
« قد حصلنا على أعز شخص عليه ، ولده الوحيد »

— ٦ —

شحذوا المقصلة وعرّوا الولد من الثياب
وقف الكاهن على المذبح وقد رفع السكين
وما أوشك ان يهوي على عنق الولد حتى رأى الام تحول بينهما وهي تقول
« اذبحوني أنا »
عبثاً حاول الملك ان يرجعها ، وعن قصدها يثنيها
لكنها تملصت من قبضته وصرخت من صميم الفؤاد
« انا اعز شخص عليه ، انا اقرب انسان الى قلبه »

وارتمت على المذبح وهي تقول « اذبحوني انا »

فرح الكاهن بذلك لانه علم ان البلاد لا شك خالصة فرفع رأسه نحو السماء وقال :

ايها الآله ، ها نحن نقدم لك حياة بشرية

أيهما اعز عليه ، ايهما اقرب الى قلبه — لا نعلم

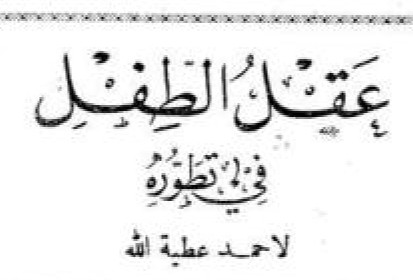
الجمال والصوت

الاكنة او حب الصبا

تظهر الاكنة او حب الصبا في الجبهة والانف والذقن والصدر والظهر والكتفين وأماكن اخرى من البدن ولكن اكثر ظهورها في الوجه . ويكون ظهورها غالباً بين السنة الرابعة عشرة والسنة العشرين من العمر ، ولا سيما في الذين يكثر برد ايديهم وافواههم او الذين تكون دورتهم الدموية ضعيفة . وتزيد بالامساك وقد يرافقها سوء الهضم . وتشتد اذا قلت الرياضة البدنية ، وقلّ غسل الوجه ، لضعف فعل الغدد الجلدية . ومن اعراضها العامة القبض وسوء الهضم وضعف الدورة الدموية ، وهي تفعل كاسباب لها . وحب الصبا نفسهُ نقط سود صغيرة تدلُّ على ان افواه القنوات الدهنية قد سدَّت بالغبار والوسخ ، واذا عصرت خرجت منها مادة دهنية كالدودة الدقيقة . اوكثيراً ما يكون هناك انتفاخ محمرٌ والنقطة السوداء في رأسهِ ، وقد يكون صغيراً اصغر من حبة العدس ، ويزول سريعاً ، او كبيراً اكبر من الفولة ، ويبقى اسابيع او اشهراً ، ويقيح ثم يشفى ويبقى مكانهُ ندبة او تصلب دائم

ومن اشدِّ الهموم التي تعرو الفتاة في الصبا ، هو عند ما تبدأ هذه الاكنة بالظهور . فالفتاة تخشى ان يتحول بعضها كبيراً ويتقيح ويترك مكانهُ ندبة تشوه صفاء الوجه

﴿ العلاج ﴾ يجب الالتفات الى الصحة العامة . ومداواة سوء الهضم والقبض ونحوها ، بالرياضة وحسن اختيار الاطعمة التي تترك فضلات تسهل حركة الامعاء . واذا كان الجسم ضعيفاً وجبت تقويته بشرب زيت السمك ، مثلاً ، او غيره من المقويّات ، وبالرياضة في الهواء الطلق ونور الشمس على حسب ما يحتمل الجسم من ضروب الرياضة . واذا كان مصاباً بفقر الدم وجبت معالجتهُ ، واذا كان قليل الحركة والرياضة وجب ترويض الجسم في الخلاء ، وتعهده بالغسل بالماء البارد ، وتنشيطه بالمناشف الخشنة . وتقوى غدد الجلد على افرازها بدهنها بدهون خاصة قبل النوم يصفها الطبيب ثم غسلها صباحاً ومساء ، بمذوب خفيف جداً من السليماني جزء منهُ في عشرين الف جزء من الماء او قمحة منه في اقة من الماء ، او بماء كولونيا . ولا بدَّ من عصر امكنة النقط السود مراراً كل يوم بعد غسلها حتى يخرج ما فيها . اما البثور التي يظهر فيها القيح ، فتلمس بعود دقيق غمس في الحامض الكربوليك النقي فيساعد على شفائها وزوالها



﴿ الدور الاول : من الولادة الى الثالثة ﴾ ان جسم الطفل بعد الولادة يكون غير متناسق الاعضاء . لان بعض هذه الاعضاء يكون متقدماً في نموه على الاجزاء الاخرى . ويأخذ نمو الجسم في التكامل والتناسق بسرعة فتتعادل الاطراف وتقوى العضلات فلا ينتهي هذا الدور إلاّ ويكون للطفل القدرة على الحركة والمشي والكلام

كما أن حواس الوليد لا تقوم بوظيفها على وجهها الاكمل في باديء الامر . وتأخذ في الدقة والتطور بكثرة استعمالها «راجع المقال السابق» واغلب الحركات التي يقوم بها الطفل في هذا الدور أعمال منعكسة لا يمكن أن يُسيطر عليها . وعندما يتم نمو عظامه وعضلاته يظهر ميل الطفل للحركة . وتبدو الغرائز المختلفة المتصلة بهذه الغريزة كالميل للاستطلاع والتقليد والحل والتركيب واللعب والتطور الجسمي والعقلي الذي يحدث في هذا الدور نلخصهُ فيما يلي

﴿ الاسبوع الاول ﴾ يميز الطفل الفرق بين الاشياء المضيئة والمظلمة . يراقب الاشياء التي تمر ببطءٍ أمام عينيهِ . يبدأ في استعمال الاذن في اليوم الرابع

﴿ بعد الشهر الاول ﴾ يمكن للطفل ان يميز بين الاصوات . يفرق بين الاشياء الحلوة والمرة . يدرك الروائح النفاذة . يظهر اشمئزازه أو ألمهُ وذلك بتحويل رأسه بعيداً عما يضايقه. أو ببكائه

﴿ بعد ست أسابيع ﴾ ترتقي قدرتهُ على الانتباه . بمعنى أنهُ يستطيع أن يدير وجههُ الى المكان الذي يصدر منهُ الصوت او يندفع إلى اتجاه شيءٍ يريد أن يبلغهُ يميز صوت الانسان عن غيره من الاصوات

﴿ بعد الاسبوع السابع ﴾ يمكن للطفل ان يظهر استحسانهُ بالابتسام ويقدر على تمييز والدته . كما انهُ تسكن هائجته بسماع الاغاني

﴿ بعد الاسبوع التاسع ﴾ يكون للطفل القدرة على الحركة ولكن بلا قصد ولا غاية . تظهر غريزته لتقليد الاصوات . وكذلك تظهر عليهِ معالم الانفعالات لا سيما الغضب والاستغراب والخوف . وعلى الاخص الخوف من التغيير الفجائي كما اذا حملناه فجأة من مجلسه

﴿بعد الشهر الثالث﴾ يظهر الطفل استعداده للمزح ومقدار قدرته على الضحك

﴿بعد الشهر الخامس﴾ يمكن للطفل ان يجلس منفرداً دون مساعدة ، ويحمل الأشياء بيده ويضعها في فمه كما انهُ يبسط ذراعيه طالباً لحمله ويستطيع ان يميز بين شخص وآخر

﴿بعد الشهر السادس﴾ يراقب الاشياء التي تسقط من يده على الارض . يدرك صورته في المرآة ويراقبها بشغف . كما انهُ يشير الى الصورة بأصبعه

﴿بعد الشهر الثامن﴾ يظهر الطفل سروراً للاصوات يحدثها ويرمي الاشياء الى الارض بقصد

﴿بعد الشهر التاسع﴾ يبدأ الطفل ينطق بعض الالفاظ البسيطة لا سيما الاسماء التي يطلقها على ابويه . مثل بابا . ماما . نينا . دادا وان كان هذا الاستعداد يظهر في بعض حالات قبيل هذه السن

﴿بعد الشهر العاشر﴾ تظهر غريزة الميل للحركة كما انه يبدي لذة وارتياحاً الى الاكل الذي يتناوله ويميز والديه بعد غياب بضعة ايام

﴿بعد الشهر الحادي عشر﴾ يحاول الوقوف على قدميه

﴿بعد الشهر الثاني عشر﴾ تبدو في الطفل علامات الغيرة ، كما تظهر فيه بعض الميول الاخلاقية فهو يشعر بالخطأ والصواب

﴿الشهر السادس عشر﴾ تبدأ قدرته على نطق بعض الكلمات الاختيارية مثل لا نم . آ . نعم . ويبكي اذا نهرناه

﴿الشهر الثامن عشر﴾ يمكن للطفل في هذا السن ان ينطق ببعض جمل صغيرة عن والده ويميز بعض الاشياء الغريبة كالحصان او القطار

﴿الشهر التاسع عشر﴾ يقدر الطفل على استعمال ذاكرته . يظهر ميله للاقتناء . ويأخذ مظهر الانانية والأثرة بأن يخطف اللعب التي في يد غيره من الاطفال ويبحث عن المكان الذي يريده بنفسه

﴿الشهر العشرون﴾ يظهر ميل الطفل للاجتماع والاختلاط

﴿بعد عامين﴾ تظهر عناية الطفل بنظافة نفسه فلا يميل مثلاً الى بل ملابسه او جسمه بالماء او الى اللعب في الطين والوحل

﴿الطفل في عامه الثالث﴾ ظهور غريزة اللعب باستعمال الادوات التي يجد انها وسائل للعب . فيتخيل العصا قطاراً ، والصناديق الفارغة جنداً . تظهر قدرته على تقدير الزمن الماضي المستقبل . يميل والى الاعتداد بنفسه والى العناد ، يبدأ في الشعور بأنهُ له شخصية مستقلة عمن هم حوله . يقدر الطفل على التمييز بين الكذب والحقيقة . يفرق بين ما يقوم بقصد المزاح او بقصد الجد . يمكنه اذا أمر ان يعين اذنه او فمه او انفه تعييناً صحيحاً او في صورة تعرض عليه . يمكنهُ ان يكرر جملة لا تزيد على ست كلمات بلا خطأ . يمكنهُ ان يكرر رقماً مكوناً من عددين . يمكنهُ ان يعدد الاشياء المعروفة لديه على صورة معروضة امامهُ . يمكنهُ ان يعدد أسماء بعض افراد عائلته

الامراض النفسية

الهستيريا (الهرع : الجلبي)

للدكتور شكري جرجس

عرف هذا الداء منذ القدم وكانوا في العصور الوسطى ينسبونهُ الى الشياطين والجن او السحرة او غضب الآلهة . ولم يزل هذا الاعتقاد سارياً عند عامة الشعب المصري حيث يستعملون الزار لاخراجهِ . ثم اعتبر من الامراض التي تنتاب النساء فقط وزعموا انهُ ناتج من «بخار بيت الرحم الحار»

ولقد ظهر هذا المرض بشكل وباء من وقت لآخر ولم يزل يظهر حتى الآن في بعض الاوساط المدرسية

واول من شرع يدرس هذا المرض درساً علميًّا هو العلاّمة الدكتور الفرنسي (شاركو) فكان يظن ان الفكر اهمُّ باعث من بواعثهِ . ولذا ابتدأ بحثه من هذه الوجهة فاسفر عن نتائج باهرة وخصوصاً على يد تلميذه البرفسور (جانيت) بباريس الذي اعتقد ان اصل الداء هو اضطرابات في العقل ولقد ادَّى هذا الاكتشاف الى تغييرات هامة في الطب ثم جاء الاستاذ (فرويد) النمسوي فاخرج نظرياته الهامة في التحليل النفسي

***

هذا المرض لا ينحصر في مملكة واحدة او جهة واحدة بل هو عام في كل زمان ومكان غير انهُ يقال ان بعض الشعوب كاللاتين والصقالبة واليهود اكثر تعرضاً له من غيرهم . ويكثر ظهوره حوالي سن المراهقة ويندر بعد الخامسة والعشرين ولا يعرف قط بعد سن الخامسة والاربعين . وهو كثير الانتشار في الاطفال وخصوصاً البنات . ولقد يكون للوراثة أثر خطير فيهِ نظراً للوسط والحالات التي يوجد فيها الطفل في اول نشأتهِ . اما العنصر المهم الداعي لظهور هذا الداء فهو الذعر والخوف الشديد . ولكن في بعض الاحيان تكون العوامل المسببة له هي عدم الرضى عن الحياة باجمعها او عن المعيشة التي وجدت في وسطها المريضة مثل عدم الارتياح الى الحياة الزوجية او قد ينشأ عن ان المريض لا يرتاح الى وظيفته او مهنته او عن حمله تبعة كبيرة فوق طاقته . او قد يكون سببه في بعض الاحيان موت بعض الاقارب فجأة او ضياع محبة عزيز على النفس . وقد ينتشر هذا الداء فجأة في شكل وباء في المدارس وخصوصاً الداخلية منها وكذلك في الاوساط الدينية كالاديرة وغيرها

﴿ اجتناب هذا الداء ﴾ اما عوارض هذا الداء فكثيرة ومتنوّعة حتى انهُ غالباً ما يشتبه فيها بعوارض اي مرض آخر ويمكننا تقسيمها الى : —

(١) عوارض عصبية
(٢) عوارض نفسية
(٣) عوارض حسية
(٤) عوارض تختص باعضاء الانسان

فالعوارض العصبية تظهر في شكل نوبات تشنجية تنتاب المريضة من وقت الى آخر وغالباً تكون بعد تغير نفساني شديد وهـذا اما يعقبه رأساً او بعد مضي وقت قصير او يتخلله بكاء وضحك على التوالي . وفي هذه الحالة تشكو المريضة من احتقان في العنق مع بعض آلام شديدة في بعض اجزاء الجسم وبعد ذلك تتشنج المريضة وتصير في شبه غيبوبة فتقع على الارض. وقد تستمر هذه الحالة بضع دقائق وبعدها تعود المريضة الى رشدها . هذه النوبات تختلف عن حالات اخرى تعرف بنوبات الصرع Epilepsy ففي هذه الحالة تفقد المريضة وعيها فقداً تامًّا وفجأة تقع على الارض وتجرح نفسها جروحاً خطرة وتعض لسانها وتتنفس بسرعة وتغمض عينيها بشدة حتى لا يمكن فتحها بالقوة ويعقب كل ذلك غيبوبة طويلة

***

اما العوارض النفسية فأولها ضعف الارادة والتشوق الى الحب والحنان والتأثر باقل فكرة عارضة. ولقد ينتهر المريض اقاربهُ واصحابهُ نظراً لسوء فهم حالاتهِ النفسية وهذا مما يزيد الطين بلة. ولربما كانت حالتهم العقلية من حيث الذكاء جيدة ، ولو انهم بعض الاحيان يصابون بفقدان الذاكرة نظراً لتضارب العوامل النفسية فيهم . فاذا كانت شديدة تكوّنت تلك العوارض التي يسير فيها المريض مسافات بعيدة على غير وعي ولا هدى ويفقد الشخصية بأجمعها

﴿ الهرع والحزن المستمر ﴾ يصف الطب الحديث نوعاً مخصوصاً من هذا الداء يسمى (هستريا الزعل) وهي تختلف عن الهستريا الجسدية . ولو ان لكليهما سبباً واحداً نفسانيًّا . ففيها كما يدل اسمها يصبح المريض عبداً لتأثيرات حزن عميق واوهام خيالية Phobia وهذا النوع كثير الانتشار حتى انهُ ليندر ان تجد شخصاً لا تنتابه هذه العوارض . فمثلاً الخوف من الظلام . وعلى ذلك لا يمكن المريضة ان تدخل او تجلس في غرفة مظلمة . كذلك الخوف من بعض الحيوانات كالفيران والهررة وغيرها او الخوف من السكاكين او اي شيء مدبب والخوف من المكروبات او من علوّ شاهق او من السير في الصحارى . فالمريض يمتلىء رعباً اذا حاول السير في ميدان فسيح لا يوجد به انسان وكذلك الخوف من اماكن ضيقة كالسفر في القطارات او عبور نفق او الخوف من الامراض او اخذ العدوى او غير ذلك من انواع الخوف المختلفة التي لا يمكن حصرها . ولقد تتركز هـذه

العوارض في بعض اجزاء الجسم وفي هذه الحالة يجب على الطبيب الحاذق ان يفرق بين الحالات الحقيقية والحالات الناشئة من الهستريا التي غالباً ما تكون مصحوبة بأرق وانقباض النفس . ولقد تزداد هذه العوارض ويستهدف المريض الى نوع من الجنون

ومن ضمن العوارض التي ربما لا يلاحظها المريض هي فقد الحس في بعض اجزاء الجسم وغالباً تكون في جهة واحدة منهُ على ان المريض لا يجد غضاضة من ذلك . ولكن في بعض الاحيان تزداد حساسة بعض الاعضاء كالعين مثلاً ولذا يتألم من الضوء البسيط ويحب الحجر المظلمة

﴿ الشلل الناتج من الهستريا ﴾ اما الشلل الناتج من الهستريا فلا يؤثر في عضل واحد بل في مجموعة بذاتها كاليد او الرجل ولكن لا تضعف هذه العضلات وتضمحل كما في الشلل العادي وفي بعض الاحيان تظهر حالات عجيبة اخرى بدلاً من وقوع الشلل فمثلاً ينتفخ البطن وتظهر المرأة كأنها حامل . كذلك في بعض الاحيان توجد رعشات متوالية اما في اليد او في العنق او ان القلب ينبض نبضاً سريعاً ويقل التنفس مع سعال شديد

ولقد تظهر الهستريا بشكل عوارض في القناة الهضمية او آلام في المعدة او سوء هضم او صعوبة في البلع او بشكل قيء يستمر بضع سنوات ونفور من الاكل مما يفضي الى هزال المريضة وضعفها . وفي بعض الاحيان يظهر انتفاخ في الجسم كله (Oedema) واسهال شديد وغير ذلك من العوارض الكثيرة

***

ومن الحالات العجيبة التي رأيتها ان اصابع اليد التي يمسك بها الانسان القلم تأخذها حركة ميكانيكية وتتقلص كلما وضع قلمها وهو ما يعرف برعشة الكاتب

اما كيفية تشخيص هذا الداء فاتركه للطبيب الحاذق لانه ليس من السهل التفريق بين العوارض الحقيقية والعوارض الناشئة من الهستريا فعلى الطبيب ان يتعرّف الحالات النفسية التي تختلج في ضمير المريض والوسط الذي يعيش فيهِ حتى يمكن تشخيصه بدقة

وهذا الداء ليس بخطر على حياة المريضة ولكنهُ ينغص عيشتها وعيشة من حولها من الاقرباء ولقد تعمد المريضة في بعض الاحيان الى الانتحار بعد ان تيأس من شفائها وخصوصاً بعد ذهابها عبثاً الى عدة اطباء وكثرة المصاريف التي صرفتها

﴿ منشأ الداء ونظرية التحليل النفسي ﴾ ان اول من درس هذا الداء درساً علمياً هو (جانيت) بباريس ولقد برهن ان سببه هو انفعالات نفسية في العقل الباطن تظهر بشكل هذه العوارض ثم اتى بعد ذلك الدكتور (بابنسكي) واثبت ان الهستريا عبارة عن تأثير الايحاء الذاتي (Autosuggestion) لان اغلب هؤلاء المرضى ضعاف الارادة وعلى ذلك يسهل الاستهواء النفسي. واستمرت تلك النظرية حتى اتى العلامة (فرويد) وتقدم خطوة اخرى وبين ان الافكار المتعارضة

للرغبات في الصغر تحفظ في العقل الباطن لما يصحبها من آلام او حزن او غير ذلك وتلك الافكار تحاول ان تظهر بشكل هذه العوارض الهسترية وهو يقول ان تلك الرغبات او الاحلام اللذيذة تتعارض مع ما يجده الانسان من الحالات الحقيقية المرة وعلى ذلك يحب المريض ان يعيش في عالم آخر ويفضل احلامه اللذيذة عن مواجهة الحقيقة ويؤكد الاستاذ (فرويد) ان اكثر تلك الرغبات تتعلق باللذة التناسلية بأكبر معانيها وخصوصاً في عهد الطفولة . وحيث ان هذه الرغبات قد اودعت في العقل الباطن (Sub-Conscious) ومنعت من الظهور في العقل الواعي (Conscious Mind) فتجتهد ان تجد لها منفذاً وغالباً ما تظهر بشكل مستتر نظراً الى المقاومة التي تجدها في العقل الواعي . واذا حللنا معظم هذه العوارض نجد ان اغلبها ينطبق على هذه النظرية لان معظمها عبارة عن ارضاء لتلك الرغبات فالقوة الكامنة في العقل الباطن من تأثير هذه الرغبات تتحوّل الى عوارض جسدية

﴿ كيف يمكن علاج الداء ﴾ ان اهم نقطة يجب ملاحظتها هي الاجتهاد في منع ظهور هذا الداء قبل وقوعه . فلقد تبين لنا انهُ يجب تربية الاطفال تربية حقة وتثقيف مداركهم وخصوصاً بما يتعلق بحالاتهم النفسية . ومع انهُ يوجد في بعض العائلات استعداد لهذا المرض غير انهُ يمكن اجتنابه بتعليم ماهية الغرائز وخصوصاً غريزة التناسل التي يعتبر الاستاذ (فرويد) Freud انها تبتدىء من عهد الطفولة . ويجب الاحتراس من قمع تلك الغرائز بالقوة ويجب ان يدرك جميع الآباء خطر هذا الموضوع ويدرسوه بدقة من كل الوجوه لانهُ ربما يكونون هم السبب في تعريض مستقبل الطفل لذلك الداء بجهلهم تلك الحقائق

***

اما العلاج الذي كان يصفهُ بعض الاطباء كالتدليك او الكهرباء بنوعيها او غير ذلك من العلاجات الطبيعية فلا فائدة منها لان اصل الداء ليس جسمانيّاً بل هو عقليّ . ولو ان هذه العلاجات تفيد في بعض الاحيان اذا كانت لها تأثير نفسي بالايحاء الى المريض . اما المسكنات كاملاح البروميد وغيرها فلا تفلح بل غالباً ما تضر الشخص . واحسن علاج اكتشف في العصر الحاضر هو العلاج النفسي Psycho-therapy فهو العلاج الوحيد للشفاء فالاستهواء يفيد في اكثر الحالات ولكن اضمن علاج هو التحليل النفسي Psychonalysis انما هناك بعض عقبات لهذا العلاج منها طول المدة التي يضحيها الطبيب ومجهوده الذي يبذله لاظهار الافكار الكامنة في العقل الباطن المسببة لهذا الداء ثم وضعها امام العقل الواعي وبهذه الطريقة امكن شفاء عدة اشخاص بالقطر المصري كانوا قد يئسوا من رجوعهم الى حالاتهم الطبيعية الاصلية

باب المراسلة والمناظرة

العرض عند عرب الجاهلية

بين الاب لامنس المستشرق وصاحب الكتاب

بقلم بشر فارس

يعلم قرّاء المقتطف انني اخرجت كتاباً باللغة الفرنسية عنوانه « العرض عند عرب الجاهلية »* (ارجع الى «مكتبة المقتطف» يونيو ١٩٣٣) وبه نلت شهادة الدكتوراه في الآداب من جامعة باريس وقد أراد الله لهذا الكتاب ان يظفر برضى المستشرقين فضلاً عن نقاد الصحف والمجلات في الشرق العربي وفي اوربا . الاّ ان الاب لامنس المستشرق المقيم ببيروت والكاتب في مجلة المشرق بدا له ان يعيب كتابي . فعقد في «المشرق» (يوليو ١٩٣٣ صفحة ٥٤٨) فصلاً ذهب فيه الى ان في كتابي مواضع للنكير والغمز . فرددت عليه من فوري . فأبى ان ينشر ردي ، بل عاق عليه تعليقاً مضطرباً . فادركته برد آخر كان حظه حظ الاول . وكأني بالاب لامنس يعيب كتابي ثم يأبى ان ينشر اجابتي لأني تتبعت تآليفه عن العرب تتبع من لا يعرف المهوادة ولا التواني . وبيان ذلك انني اخذت عليه تحامله على الاسلام واستخفافه بالعرب ، ثم اشرت الى سقطاته في الترجمة وأوهامه في التعليل ونبهت الى اضطراب مصادره . هذا ، ثم اني لما رأيت مجلة المشرق قد سُدَّت دوني ، خروجاً على سنة المناظرة فزعت الى المقتطف الرحب وهاءنذا انقل ما دار بيني وبين الاب لامنس

اولا — نقد الاب لامنس الاول

الشرف (العرض) عند العرب قبل الاسلام

لقد كان من السهل لخمسين سنة خلت ، ان يؤلف كتاب كهذا . وذلك ان الناس كانوا يقرّون اجمالاً بصحة نسبة الشعر الجاهلي بكامله وبصحة نسبة الاحاديث المتعددة وما اليها من نوادر وشروح وتعاليق اما اليوم فقد اصبح العلم ينظر نظر الشاك الى الكثير من هذه المواد . على ان المؤلف لا يجهل ذلك ، بل يعرف خاصة نظريات طه حسين في الموضوع ، ويحاول تفنيدها بطريقة تضطرب بين النجاح والفشل هذا والكتاب حسن الطبع ، مقبول المظهر ، لا بأس في انشائه الفرنساوي (كذا) على الغالب ، ولا بأس كذلك في اسلوب البحث فيه وهو الاسلوب الذي استفاده المؤلف من اساتذة علم العمران في فرنسا . اما مواد البحث فتظهر كافية على الغالب . الاّ ان المؤلف لا يستند في اكثر قياساته الاّ

* L'Honneur chez les Arabes avant l'Islam

الى كتاب او اثنين من مؤلفات العرب . فضلاً عن ان كثيراً من الاستنتاجات لا تركز على اس متين ، حتى يسهل (كذا) على الناقد ان ينقضها بعشرات الشواهد تفيد عكس ما يرمي اليهِ الكاتب . وفوق ذلك تراهُ يستند ، في ما خص حادثة جاهلية ، الى الدكتور غوستاف لوبون . وهذا لعمري غاية الغايات ، اذ لا يخفى على احد ان ذاك الطبيب لم يكن ليحسن كتابة اسمه بالحروف العربية

ثانياً — ردي على هذا النقد

حضرة رئيس تحرير مجلة « المشرق الغراء »

أما بعد فقد اطلعت في « المشرق » على نقد للكتاب الذي ألفتهُ وعنوانهُ « العرض عند عرب الجاهلية » ، ولي في ذاك النقد آراء ، وفي مأمولي ان يفسح لها مكان في « المشرق »

ان ناقد كتابي يأخذ عليَّ معالجة موضوع عولت فيهِ على الشعر الجاهلي على حين هذا الشعر مشكوك في صحته . والحقيقة انني لم اعتمد عليهِ اعتماد من يريد ان يفحص عن الادب الجاهلي ولكني استندت اليهِ لأتدبر العقلية الجاهلية ذهاباً مني الى ان ذلك الشعر يدل عليها ويشفُّ عنها وان كان غير صحيح ، ذلك بأن الذين وضعوه كله او بعضهُ حملوه على شعراء الجاهلية فاضطروا الى ان يعارضوا الشعر الجاهلي المعارضة كلها فجاءت قصائدهم على نحو قصائد الجاهليين مبنىً ومعنىً ، ولقد بينت ذلك في مكانهِ (ارجع الى ص ٩ وما يليها) . ثم ان الناقد يأخذ عليَّ رجوعي الى الحديث النبوي ، فانهُ يعده موضع نظر بل محل شك . والتحقيق انني رجعت اليهِ على غير اندفاع ولا تهوُّر . هذا واني اقمت ميزاناً موزعاً بين فقه اللغة والقرآن في سبيل تمحيص الاحاديث التي عولت عليها (ارجع الى ص ٦ و ٧ الحاشية) . وبعد فما لا مساغ فيهِ للشك ولا مجال للجدل انهُ لا منصرف عن الشعر الجاهلي والحديث لمن يريد ان يتدبر الجاهلية

ثم ان الناقد يحكم في بعض فصول كتابي متنقصاً اياها طاعناً فيها دون ان يقيم الادلة على حكمه . مثال ذلك قوله « ان طريقة تفنيدي لآراء الدكتور طه حسين تضطرب بين النجاح والفشل » ، وقوله « لا بأس في اسلوب بحثي » ، وقوله « ان مواد البحث تظهر كافية على الغالب » ، وقوله « ان استنتاجاتي لا تركز على اس متين ، حتى (كذا) يسهل على الناقد ان ينقضها بعشرات الشواهد تفيد عكس ما ارمي اليه »

وهنالك مطاعن لا تثبت عند النظر . منها قوله انني استشهد بالدكتور (غوستاف لوبون) . والحقيقة انني لم اعتمد على تصانيف الرجل الاَّ في تحفظ وحذر . (وقد صرحت بذلك في ص XXII) والدليل على قولي هذا انني ذكرت كلامه ثلاث مرات : مرة حين تحدثت عن الحياة الصحراوية الشاقة (ص ١٢٠) ولا يختلف اثنان في هذا . وأما المرتان الاخريان (ص ٢٤ ، ١٧٦) فلم اذكر (غوستاف لوبون) الاَّ في تحفظ ما بعده تحفظ ، وشاهد ذلك انني نقلت كلامه في صيغة الشك والاحتمال التي يفطن اليها كل من له اطلاع على النحو الفرنسي . ومن تلك المطاعن أيضاً قوله « انني لا استند في اكثر قياساتي الاَّ الى كتاب او اثنين من مؤلفات العرب » . والواقع انني عولت في تصنيف كتابي على ما يزيد على سبعين مصنفاً عربيًّا قحًّا (ارجع الى جدول المصادر)

على انني اذكر الآن من تلك المصادر «القرآن والحديث والسيرة وكتب التاريخ التي ترجع الى الجاهلية وصدر الاسلام وامّات كتب الادب والاخبار كمثل كتاب الاغاني والبيان والتبيين للجاحظ وكتاب الحيوان له وكتاب البخلاء له والعقد الفريد لابن عبد ربه والاشتقاق لابن دريد والاصنام لابن الكلبي والمعارف لابن قتيبه وعيون الاخبار له والميسر والقداح له وطبقات الشعراء لابن سلاّم ومجمع الامثال للميداني والكامل للمبرد والامالي للقالي والعمدة لابن رشيق والمزهر للسيوطي ثم الحماستين وديوان حسان وديوان السموأل والمفضليات وشعراء النصرانية، فضلاً عن المعجمات وكتب اللغة»

ثالثاً — تعليق الاب لامنس على ردي (المشرق ، ٢ نوفمبر ١٩٣٣)

لقد أثار وصفنا لكتاب الأديب بشر فارس (في مشرق هذه السنة ، ص ٥٤٨ — ٥٤٩) حماسة المؤلف فأتحفنا بكتاب طويل ، نسي فيه ان يشكر لنا التقريظ (كذا)، ولكن لم ينسَ ان يحتج شديداً على النقد . اما نحن فليس علينا الاَّ ايضاح واحد ، وهو اننا لم نقل ان المؤلف يجهل موضوعه ، بل اشرنا الى انهُ يكتفي غالباً بشاهد او شاهدين في تأييد أمر يسهل على الناقض نقضه بعشرة شواهد تفيد عكس ما يرمي اليهِ الكاتب

رابعاً — تعليق على ايضاحه

نقدت مجلة «المشرق» الغراء في عددها الصادر في يوليو هذه السنة كتابي «العرض عند عرب الجاهلية» الذي الفته باللغة الفرنسية فرأيت في ذلك النقد ما لا يجدر بكتابي فبعثت الى «المشرق» برد على ذلك النقد ولكنهُ لم ينشر «لشدة اسلوبه» ؟ الاَّ ان صاحب النقد عاد الى الموضوع في شهر نوفمبر الماضي فصرح بأنهُ لم يأخذ عليَّ الاَّ شيئاً واحداً هو اكتفائي غالباً بشاهد او شاهدين في تأييد أمر يسهل على الناقد نقضه بعشرة شواهد تفيد عكس ما يرمي اليهِ الكاتب

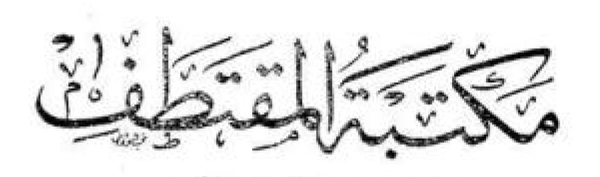
والذي عندي ان النقد لا يثبت على هذا النحو . ولقد كان يحق لمن نقد كتابي ان يضرب الامثال فيما يذهب اليهِ . هذا ثم ان صاحب النقد رأى انني لم اشكر له ثناءه على كتابي فاني اعتذر اليهِ من فعلتي . على انني لم افطن البتّة انه وصف كتابي الوصف الحسن

* * *

ذلك ما دار بيني وبين الاب لامنس ثبّت الله قدمه

والذي استخلصه من هذا كله ان الرجل نقم عليَّ دفعي بعض نظرياته وأقواله في العرب والاسلام. وعندي ان الاولى بالاب لامنس ان ينازلني في الميدان الذي جلت فيه فيصرعني والحجج المواضي بين يديه . فان العلم لا يدفع الاَّ بالعلم . وان بدا للاب لامنس ان يجادلني بعد هذه فليبادر — بادىء بدء — الى التنصل مما رميته بهِ وليسع سعيه في رد الاوهام المختلفة التي نسبتها اليهِ من طريق علمي

والله ثم الله لولا اني رأيت واحداً ممن يلحق بالمستشرقين قد عاب ناحية من نواحي كتابي مستنداً الى نقد لامنس لما شغلت باب المراسلة والمناظرة الى هذا الحد . واما ذلك الذي عاب كتابي فلقد ارسلت الى المجلة التي نشر فيها نقده («دير اسلام» الالمانية ، العدد الاخير) ما يدفع قوله دفعاً



الملاح التائه

ديوان علي محمود طه — ١٦٠ صفحة قطع وسط — ثمنه ٨ قروش

اذا أردت ان اكتب عن شعر فقرأته كان من دأبي ان اقرأه متثبتاً اتصفح عليهِ في الحرف والكلمة الى البيت والقصيدة الى الطريقة والنهج الى ما وراء الكلام من بواعث النفس الشاعرة ودوافع الحياة فيها وعن اي احوال هذه النفس يصدر هذا الشاعر وبأيها يتسبب الى الالهام وفي ايها يتصل الالهام بهِ وكيف يتصرف بمعانيه وكيف يسترسل الى طبعه ومن اين المأتى في رديئه وسقطه وبماذا يسلك الى تجويده وابداعه

ثم كيف حدة قريحته وذكاء فكره والملكة النفسية البيانية فيه وهل هي جبارة متعسفة تملك البيان من حدود اللغة في اللفظ الى حدود الالهام في المعنى ملكة استقلال تنفذ بالامر والنهي جميعاً او هي ضعيفة رخوة ليس معها الاّ الاختلال والاضطراب وليس لها الاّ ما يحمل الضعيف على طبعه المكدود كلما عنف بهِ سقط بهِ ؟

اتبين كل هذا فيما اقرأ من الشعر ثم ازيد عليه انتقاده بما كنت اصنعه انا لو اني عالجت هذا الغرض او تناولت هذا المعنى ثم اضيف الى ذلك كله ما اثبته من انواع الاهتزاز التي يحدثها الشعر في نفسي فاني لاطرب للشعر الجيد الوثيق انواعاً من الطرب لا نوعاً واحداً وهي تشبه في التفاوت ما بين قطرة الندى الصافية في ورق الزنبقة وقطرة الشعاعة المتألقة في جوهر الماسة وموجة النور المتألهة في كوكب الزهرة

وأكثر الشعر الذي ينظم في ايامنا هذه لا يتصل بنفسي ولا يخف على طبعي ولا اراه يقع من الشعر الصحيح الاّ من بعد وهو مني انا كالرجل يمر بي في الطريق لا اعرفه فلا ينظر اليَّ ولا انظر اليه فما ابصر منهُ رجلاً وانسانية وحياة اكثر مما اراه ثوباً وحذاء وطربوشاً . والعجيب انهُ كلما ضعف الشاعر من هؤلاء قوي على مقدار ذلك في الاحتجاج لضعفه وأُلهم من الشواهد والحجج ما لو أُلهم بعدده من المعاني والخواطر لكان عسى

فاذا نافرت المعاني الفاظها واختلفت الالفاظ على معانيها -- قال : ان هذا في الفن . . . هو الاستواء والاطراد والملاءمة وقوة الحبك . واذا عوص وخانه اللفظ والمعنى جميعاً وأساء ليتكلف وتساقط ليتحذلق وجاءك بشعره وتفسير شعره والطريقة لفهم شعره — قال : انهُ اعلى من ادراك معاصريه وان معرفة معانيه هذه آتية من ان شعره من وراء اللغة ، من وراء الحالة النفسية

من وراء العصر . من وراء الغيب . كأن الموجود في الدنيا بين الناس هو ظل شخصه لا شخصه والظل بطبيعته مطموس مبهم لا يبين ابانة الشخص . واذا اهلك الشاعر الاستعارة وأمرض التشبيه وخنق المجاز بحبل — قال لك : انهُ على الطريقة العصرية وانما سدد وقارب وأصاب وأحكم . واذا سمى المقالة قصيدة .... وخلط فيها خلطه وجاء بها في اسوأ معرض وأقبحه وخرج الى ما لا يطاق من الركاكة والغثاثة — قال لك : هذه هي وحدة القصيدة فهي كلٌّ واحد افرغ افراغ الجسم الحي رأسه لا يكون الاَّ في موضع رأسه ورجلاه لا تكون الاَّ في موضع رجليه ...

تلك طبقات من الضعف تظاهرت الحجج من اصحابها على انها طبقات من القوة غير ان مصداق الشهادة للاقوياء عظامهم المشبوحة وعضلاتهم المفتولة وقلوبهم الجريئة أما الالسنة فهي شهود الزور في هذه القضية خاصة

***

هناك ميزان للشاعر الصحيح وللآخر المتشاعر فالاول تأخذ من طريقته ومجموع شعره انهُ ما نظم الاَّ ليثبت انهُ قد وضع شعراً والثاني تأخذ من شعره وطريقته انهُ انما نظم ليثبت انهُ قرأ شعراً ... وهذا الثاني يشعرك بضعفه وتلفيقه انهُ يخدم الشعر ليكون شاعراً ولكن الاول يريك بقوته وعبقريته ان الشعر نفسه يخدمه ليكون هو شاعره

اما فريق المتشاعرين فليمثل له القارىء بمن شاء وهو في سعة ... واما فريق الشعراء ففي اوائل امثلته عندي الشاعر المهندس علي محمود طه . اشهد : اني اكتب عنهُ الآن بنوع من الاعجاب الذي كتبت بهِ في المقتطف عن اصدقائي القدماء : محمود باشا البارودي واسماعيل باشا صبري وحافظ وشوقي . رحمهم الله واطال بقاء صاحبنا . فهذا المهندس الشاب اوتي من هندسة البناء قوة التمييز ودقة المحاسبة ووهب ملكة الفصل بين الحسن والقبح في الاشكال مما علمته من العلم وما علمته من الذوق وهذا الى جلاء الفطنة وصقال الطبع وتموج الخيال وانفساح الذاكرة وانتظام الاشياء فيها وبهذا كله استعان في شعره وقد خلق مهندساً شاعراً ومعنى هذا انهُ خلق شاعراً مهندساً وكأن الله تعالى لم يقدر لهذا الشاعر الكريم تعلم الهندسة ومزاولتها والمهارة فيها الاَّ لما سبق في علمه انهُ سينبغ نبوغه للعربية في زمن الفوضى وعهد التقلقل وحين فساد الطريقة وتخلف الاذواق وتراجع الطبع ووقوع الغلط في هذا المنطق لانعكاس القضية فيكون البرهان على ان هـذا شاعر وذاك نابغة وذلك عبقري — هو عينه البرهان على ان لا شعر ولا نبوغ ولا عبقرية . وهذه فوضى تحتاج في تنظيمها الى (مصلحة تنظيم) بالهندسة وآلاتها والرياضة واصولها والاشكال والرسوم وفنونها فجاء شاعرنا هذا وفيه الطب لما وصفنا فهو ينظم شعره بقريحة بيانية هندسية أساسها الاتزان والضبط ، وصواب الحسبة فيما يقدر للمعنى ، وابداع الشكل فيما ينشىء من اللفظ ، والاَّ يترك البناء الشعري قائماً ليقع ، اذ يكون واهناً في اساسه من الصناعة ، بل ليثبت ، اذ يكون اساسه من الصناعة في رسوخ وعلى قدر

وديوان «الملاح التائه» الذي أخرجه هذا الشاعر لا ينزل بصاحبه من شعر العصر دون الموضع الذي اومأنا اليه ، فما هو الاَّ ان تقرأه وتمتبر ما فيه بشعر الآخرين حتى تجد الشاعر المهندس كأنه قادم للعصر محملاً بذهنهِ وعواطفه وآلاته ومقاييسه ليصلح ما فسد ، ويقيم ما تداعى ، ويرمم ما تخرَّب ، ويهدم ويبني

***

ديوان الشاعر الحق هو اثبات شخصيته ببراهين من روحه . وها هنا في «الملاح التائه» روح قوية فلسفية بيانية ، تؤتيك الشعر الجيد الذي تقرؤه بالقلب والعقل والذوق ، وتراه كفاء اغراضه التي ينظم فيها ، فهو مكثر حين يكون الاكثار شعراً ، مقل حين يكون الشعر هو الاقلال ، ثم هو على ذلك متين رصين ، بارع الخيال ، واسع الاحاطة ، تراه كالدائرة يصعد بك محيطها ويهبط ، لا من انهُ نازل او عال ، ولكن من انهُ ملتف مندمج ، موزون مقدر ، وضع وضعه ذلك ليطوح بك

وهو شعر تعرف فيهِ فنية الحياة ، وليس بشاعر من لا ينقل لك عن الحياة نقلاً فنيًّا شعريًّا ، فترى الشيء في الطبيعة كأنهُ موجود بظاهرهِ فقط ، وتراه في الشعر بظاهره وباطنه معاً ، وليس بشعر ما اذا قرأتهُ ، واسترسلت اليهِ لم يكن عندك وجهاً من وجوه الفهم والتصوير للحياة والطبيعة في نفس ممتازة مدركة مصورة

ولهذا فليس من الشرط عندي ان يكون عصر الشاعر وبيئته في شعره ، وانما الشرط ان تكون هناك نفسه الشاعرة ، على طريقتها في الفهم والتصوير وانت تثبت هذه النفس بهذه الطريقة ان لها ان تقول كلمتها الجديدة ، وانها مخولة له الحق في ان تقولها ، اذ هي للعقول والارواح اخت الكلمة القديمة — كلمة الشريعة التي جاءت بها النبوة من قبل

وليس في شعر علي طه من عصرياتنا غير القليل ، ولكن العجيب انهُ لا ينظم في هذا القليل الاَّ حين يخرج المعنى من عصره ويلتحق بالتاريخ ، كرثاه شوقي ، وحافظ ، وعدلي باشا ، وفوزي المعلوف ، والطيارين : دوس وحجاج ، والملك العظيم فيصل . فان يكن هذا التدبير عن قصد وارادة فهو عجيب ، وان كان اتفاقاً ومصادفة : فهو اعجب ، على انهُ في كل ذلك انما يرمي الى تمجيد الفن والبطولة في مظاهرها ، متكلمة ، وسياسية ، ومغامرة ، ومالكة

اما سائر اغراضه فانسانية عامة ، تتغنى النفس في بعضها ، وتمرح في بعضها وتسلي في بعضها ، وليس فيها طيش ولا فجور ولا زندقة الاَّ ... ظلالاً من الحيرة او الشك ، كتلك التي في قصيدة «الله والشاعر» واظنهُ يتابع فيها المعري ولست ادري كم ينخدع الناس بالمعري هذا ، وهو في رأيي شاعر عظيم غير ان له بضاعة من التلفيق تعدل ما تخرجهُ «لا نكشير» من بضائعها الى اسواق الدنيا

ومما يعجبني في شعر علي طه انهُ في مناحي فلسفتهِ وجهات تفكيره يوافق رأيي الذي اراه دائماً ،

وهو ان ثورة الروح الانسانية ومعركتها الكبرى مع الوجود — ليستا في ظاهر الثورة ولا في العراك مع الله كما صنع المعري وأضرابه في طيشهم وحماقتهم ، ولكنهما في الهدوء الشعري للروح المتأملة ، ذلك الهدوء الذي يجعل الطبيعة نفسها تبتسم بكلام الشاعر كما تبتسم بازهارها ونجومها ويجعل الشاعر اداة طبيعية متخذة لكشف الحكمة وتغطيتها معاً ، فان العجيب الذي ليس اعجب منهُ في التدبير الالهي للنفوس الحساسة — ان زخرفة الشعر وما يجري مجراه في الفن إنما هي ضربٌ من زخرف الطبيعة حين تبدع الشكل الجميل لتتمم اغراضها من ورائهِ ولو ثارت الازهار — مثلاً — على الوجود وخالقه ثورة اولئك الشعراء لما صنعت شيئاً غير افساد حكمتها هي ، وما يتصل بهذه الحكمة من المصالح والمنافع ، ولن تنتصر الاَّ بيقائها أزهاراً ، فذلك حربها وسلمها معاً

***

وأسلوب شاعرنا أسلوب جزل ، أو الى الجزالة ، تبدو اللغة فيهِ وعليها لون خاص من الوان النفس الجميلة يزهو زهوه فيكثر منهُ في النفس تأثيرها وجمالها وهذه هي لغة الشعر بخاصته . ولا بد أن ننبه هنا الى معنى غريب ، وذلك انك تجد بعض النظامين يحسنون من اللغة وفنون الادب ، فاذا نظموا وخلا نظمهم من روح الشعر — ظهرت الالفاظ في اوزانهم وكأنها فقدت شيئاً من قيمتها كان موضعها في هذا النظم غير موضعها في اللغة ، وما اختلف اللفظ ولا تغير ، ولكن موضعه ثمَّ هو الذي اعلن افلاسه ، اذ اقامه مقام الذي يريد ان يعطي ثم هو اذا وقف لا يصنع شيئاً الاَّ ان يعتذر بأنهُ لم يجد ما يعطيه .... فهذا كان رجلاً من الناس ، وكان في ستر وعافية ، فلما وقف موقفه انقلب مدلساً كاذباً مدّعياً فاختلفت بهِ الحال وهو هو لم يتغير

وما الاسلوب البياني الاَّ وسيلة فنية لمضاعفة التعبير ، فان لم يكن هذا ما يعطيه كان وسيلة فنية اخرى لمضاعفة الخيبة وهذا ما تحسه في كثير من شعر النظامين او البديعيين في العصور الميتة وتحسه في الشعر الميت الذي لا يزال ينشر بيننا

وعلي طه اذا حرص على اسلوبه ، وبالغ في اتقانه واستمرَّ يجريه على طريقته الجيدة متقدماً فيها ، متعمقاً في اسرار الالفاظ وما وراء الالفاظ ، وهي تلك الروعة البيانية التي تكون وراء التعبير وليس لها اسم في التعبير ، معتبراً اللغة الشعرية — كما هي في الحقيقة — تأليفاً موسيقيًّا لا تأليفاً لغويًّا — فانهُ ولا ريب سيجد من اسعاف طبعه القوي وعون فكره المشبوب ، والهام قريحته المولدة — ما يجمع له النبوغ من اطرافه ، بحيث يعده الوجود من كبار مصوريه ، وتتخذه الحياة من بلغاء المعبرين عنها في العربية ، ومن ثم تنظمه العربية في سمط جواهرها التاريخية الثمينة ويصله السلك بشوقي وحافظ والبارودي وصبري الى المتنبي والبحتري وابن الرومي وابي تمام ، الى ما وراء ذلك ، الى الجوهرة الكبرى المسماة جبل النور البياني ، الى امرىء القيس

وليس هذا ببعيد على من يقول في صفة القلب :

يا قلب عندك اي اسرار ما زلن في نشر وفي طي
يا ثورة مشبوبة النار اقلقت جسم الكائن الحي
حملته العبء الذي فرقت منهُ الجبال واشفقت رهبا
وأثرت منهُ الروح فانطلقت تحسو الجحيم وتأكل اللهبا
وعجبت منك ومن ابائك في اسر الجمال وربقة الحب
وتلفُّت المتكبر الصلف عن ذلة المقهور في الحرب
ووهمت ناراً ذات ايماض فبسطت كفك نحوها فزعا
مرت بعينك لمحة الماضي فوثبت تمسك بارقاً لمعا
والارض ضاق فضاؤها الرحب وخلت فلا أهل ولا سكن
حال الهوى وتفرق الصحب وبقيت وحدك انت والزمن

ولو ذهبنا نختار من هذا الديوان لاخترنا اكثره ، فقصائده ومقاطيعه تتعاقب ، ولكن تعاقب الشمس على أيامها تظهر جديدة الجمال في كل صباح ، لان وراء الصباح مادة الفجر ، وكذلك تأتي القصائد من نفس شاعرها

مصطفى صادق الرافعي

شهرزاد

تأليف توفيق الحكيم . طبعة دار الكتب ١٦٢ ص ، من القطع الكبير

هذا الكتاب الثالث الذي اخرجهُ الاستاذ توفيق الحكيم في مدة سنة واحدة . وهذا الكتاب منسوج على منوال الكتابين الاولين من حيث انهُ يعمد الى اسلوب بعض الروائيين الفرنسيين وغيرهم الحاليين امثال جيرودو Giraudoux ولنورمان Lenormand ومترلنك Maeterlinck وهذا الاسلوب معروف بالرمزي Symbolisme وميزتهُ انهُ يرمي وراء تحريك الاشخاص الموهومة الى فكرة فلسفية او خلقية بعيدة

والواقع انك لا تصيب فكرة بعيدة الغور عند الاستاذ توفيق الحكيم في رواية شهرزاد فمحورها أن الانسان ربما سئم الماديات وتاق الى الروحانيات فلا يستقر على حال لانهُ متصل بالحياة اتصالاً عنيفاً حتى انهُ يظل كالمعلق بين السماء والارض . وهذه الفكرة تدور لكل ذهن

الاّ ان براعة الاستاذ توفيق الحكيم انما هي في السياقة . فهو يحكم سرد الرواية ويحكم الحوار ويحكم تهيئة البيئة . وكأني بهِ قد حذق فن الروايات التمثيلية . ومن هذه الناحية فهو صاحب فن حقاً

واما لغة الرواية فتتراوح بين الفصاحة والاضطراب . فانك تراها تصعد الى البلاغة ثم تنحدر الى الضعف . ولكن الاسلوب حيٌّ وهّاج

وبالجملة ، ان شهرزاد لقطعة من قطع الفن المسرحي بمعناهُ المحدود ، ثم انها لطليعة الفن الرمزي في المسرح العربي

بشر فارس

استشارات الطبيب الممارس

الجزء الاول في امراض الاطفال لمؤلفيه الاطباء

ترابو استاذ السريريات الطبية والعصبية في المعهد الطبي العربي والمجاز في اللغة العربية من المفوضية الافرنسية وعضو مراسل وطني لجمعيتي المستشفيات الطبية والامراض العصبية في باريز. ومحمد محرم الاستاذ في المعهد الطبي العربي وعزة مريدان مساعد المخابر في المعهد الطبي العربي
طبع بمطبعة الجامعة السورية سنة ١٩٣٣

هو كتاب في عشرة مجلدات صدر الجزء الاول منه في امراض الاطفال وطلب مني نقده فقرأته واني أبدي فيه الملاحظات الآتية

اهداء الكتاب :— قلما يصدر كتاب في الشرق الأ ويهديه مؤلفه الى ذي منصب كبير او شهرة واسعة او سريّ او ثريّ او ما اشبه ومما لفت نظري في هذا الكتاب انهُ لم يهدَ الى المفوض السامي او رئيس الجمهورية او الى احد الوزراء او السراة او الاغنياء او الى رئيس من رؤساء المؤلفين مما يدل على انهم رجال علم وعمل يعلمون كيف يحفظون كرامة انفسهم ولو انني رأيت ان الكتاب اهدي الى رجل كبير من رجال الدولة كنت القيته من يدي كما وقع لي قبلاً وقرظته مرضاة لصاحب المقتطف او حياء من مؤلفه) ولكن هذا الكتاب مصنّف عليّ انقده عن رضى وسرور بلا حكم سابق على مؤلفيه او لهم

مقدمة الكتاب :— وجيزة جداً وخالية من التبجح شأن العلماء الحقيقيين فأخذ الكتاب يرتفع في نظري ووضعت علامة حسنة جداً لمؤلفيه ولا سيما الدكتور ترابو مع انهُ اخرجني من الشام برؤوس الحراب فما كاد يختفي ذيلي سنة ١٩٢٠ حتى ظهر رأسه فخرجت من دمشق قائمقاماً طريداً شريداً وعدت ودخلتها بعد عشر سنوات من الباب الشرقي فريقاً رافع الرأس . فانا وزميلي الدكتور ترابو على صلح دائم الى ان يقضي الله امراً كان مفعولاً

طبع الكتاب :— حسن جداً وهو مطبوع على ورق صقيل وبحرف جميل ومعتنىً بتصحيحه أشد العناية فلم أرَ فيه من الخطإ المطبعي الأ النادر جداً مما لا يعتد به

لغة الكتاب :— لغته عربية علمية فصيحة خالية من التعقيد واني اذكر مثالاً منها وهو ما ورد في الصفحة الاولى حتى لا يقال انني انتخبت المثال فقد جاء فيها ما نصه : لا يعطى الوليد في اليوم الاول من الولادة شيئاً من الحليب واما في الايام التالية فيعطى ثمانين غراماً في اليوم الثاني ثم يضرب هذا المقدار في عدد الايام كلما تقدم عمر الوليد حتى اليوم السادس وهذا المقدار من الغذاء يقسم الى ثماني رضعات على ان تكون الفاصلة بينها ساعتين ونصفاً وعليه يمكن تلخيص ارضاع الوليد الذي تتراوح سنه بين يومين وستة أيام على الوجه الآتي . ثم يلي ذلك جدول فيه رضعات الايام الستة الاول ثم جدول آخر فيه تغذيته في السنة الاولى . فقوله الوليد خير من قوله الطفل الحديث الولادة وقوله الحليب خير من قوله اللبن لان اللبن قد يكون حليباً وقد يكون خاثراً او حامضاً والمراد هنا اللبن الحليب دون غيره فالعبارة فصيحة وخالية من الحشو والتعقيد ويتعذر ان

يزاد عليها حرف او ينقص منها حرف بلا تغيير المعنى وهي عبارة علمية موجزة صريحة المعنى

وهاك مثالاً آخر وهو ما جاء في ص ٣٣٩ في علاج التهاب الشغاف قال : توضع المنفطات على الناحية القلبية كصبغة اليود او القطن اليودي او المنفطات الطيارة والافضل وضع كيس من الجليد الخ . وجاء في ص ٣٤١ في علاج التهاب التامور قال : اذا كان التهاب التامور حاداً يحمى المريض الا عن اللبن ويستريح راحة مطلقة ويوضع على قلبه كيس من الجليد وهو في الاضطجاع الظهري ويوضع في وضعة نصف الجلوس متى لم يحتمل الاضطجاع ويجتنب الجهد والحركة الخ

ثم ان رؤوس الفقرات مكتوبة بالعربية والفرنسية واذا وردت كلمة اصطلاحية كتبت بالعربية والفرنسية والكتاب كلهُ على هذه الصورة يفهمهُ العامة ولا تنبو عنهُ الخاصة اي ان الكتاب علمي دقيق الشرح فصيح العبارة موجزها فهو في جلائهِ ودقتهِ وايجازهِ شبيه بالمؤلفات الفرنسية وهي تفوق المؤلفات الاخرى في ذلك على ما اعلم اي الايجاز في الوضوح ولعل ذلك من خصائص هذه اللغة . وهذا الكتاب يدل دلالة واضحة على ان اللغة العربية لا تقل عن غيرها في الايضاح العلمي ودقة التعبير فالذنب ليس ذنبها

المصطلحات الطبية . — لا ريب انها عربية فصيحة معتنىً في انتقائها اشد العناية وهو ما جرى عليهِ اساتذة هذا المعهد في استعمال المصطلحات العربية فما لم يعثروا له على اسم عربي قديم وضعوا لهُ مصطلحاً عربياً . اما بالترجمة او بالاستعارة او بالتعريب ولو احببت ان اذكر المصطلحات التي جروا عليها لذكرت لهُ شيئاً كثيراً منها وقد اصابوا في معظمها تمام الاصابة واني اضرب بعض الامثلة فقط منها الخديج والوليد والرضيع والطفل وهي الفاظ عربية معروفة ومشهورة ولكن هؤلاء الاساتذة احسنوا اختيارها وساروا على وتيرة واحدة في استعمالها ولم يخلطوا فيها ولا مرة واحدة بل استعملوا كلاً منها ومن امثالها في المكان الذي يجب فيهِ استعماله وهي كثيرة جداً ولولا ضيق المقام لاوردت بعضها . ثم ان جميع هذه المصطلحات العربية قد كتبت وكتب ما يقابلها بالفرنسية . واني اعيد ما قلته قبلاً في توحيد المصطلحات الطبية في مقالٍ تلي في المؤتمر الطبي في الاقصر ان من رأيي في توحيد هذه المصطلحات ان يمثل اهل سورية طبيب من اطباء الجامعة السورية والا فمن العبث ان ينفرد اطباء مصر على كفاءتهم بهذا الامر الجوهري

وانهُ يتعذَّر عليَّ ان أُفي هذا الكتاب حقهُ من التقريظ فهو مثل جميع المؤلفات التي تصدر من الجامعة السورية جدير بالعلماء ان يطالعوه وان يقتبسوا منهُ ولما كان هذا الكتاب خاصاً بتلامذة الطب والاطباء فاني اشير على كل تلميذ وطبيب عربي اللغة ان يقتنيه ويقتني سائر مؤلفات هذا المعهد ففوائدها العلمية واللغوية كثيرة جداً

يطلب هذا الكتاب من احد مؤلفيهِ الدكتور ترابو من اساتذة المعهد الطبي العربي بدمشق والثمن اربعون فرنكاً فرنسياً يضاف اليهِ اجرة البريد وهو ثمن زهيد بالنسبة الى فوائد الكتاب

فعسى ان يتحفنا اساتذة المعهد الافاضل ببقية الكتب التي وعدونا بها أمين المعلوف

هوامش الصحفي العجوز

برسوم العريان وآخرون

لا أعرف في هذا العصر كاتباً للتراجم والسير والشخصيات أقدر من هذا الصحفي العجوز — انهُ يعمد الى الشخصية ملأت الدنيا وشغلت الناس يقص سيرتها عليك فاذا بهذه الشخصية الطويلة العريضة لا تشغل اكثر من هامش واحد في صحيفة الاهرام على أنك قد تقرأ عشرات الكتب في تلك السيرة بعد ولكنك لن تجد شيئاً واحداً يستحق الذكر لم يأتك بهِ هذا الهامش السحري العجيب

وعندي ان مقدرة الصحفي العجوز في هذا الضرب من الكتابة راجعة الى ما في الرجل من ألمعية وفن موهوب — ويقولون في تعريف الالمعي بأنهُ هو الذي يظن بك الظن كمن رأى وقد سمع — فاذا كان هذا صحيحاً فالصحفي العجوز من اكثر الناس ألمعية لانهُ من أقدرهم على استخلاص الحقائق مما يحيط بها من الزيف فهو اذا نفذ الى قضية من القضايا التي تقع في دائرة ابحاث المؤرخين فليس حكمه عليها الاَّ توقيع الزمن وخاتمه على سجل تلك الحقيقة. بل ليس هو الاَّ الرسوم الذي تصدر بهِ تلك الحقيقة للأجيال — أما الفن فلا أظن لهذا الرجل فيه ميزة اكثر من قدرته على الاستهواء وانا أتحدَّاك ان تأتيني في كل ما تقرأ للصحفي العجوز باستعارة او تشبيه او شيء من هذا الذي يصطنع توشية للكلام في عرف البيانيين. وانما انت في كل لفظة واجد حقيقة وفي كل حقيقة واجد فائدة وفي كل فائدة واجد لذة . وهكذا يقبض الرجل على قرائهِ فلا يتركهم حتى يعطيهم كل ما عنده من المعلومات وهو في نفس الوقت لا يشعرهم انهُ يعطيهم شيئاً. ولعله حقيقة لا يحس بأنهُ يعطي اي شيء — هو يعطي من على (الهامش) فكأنهُ يقول خذوا هذا الشيء السهل البسيط — وهنا يسمح لنا السيد توفيق حبيب بالقبض عليهِ بتهمة التلبس بالفلسفة أجل اني أتهم السيد توفيق بالفلسفة وبالشعر ايضاً . ولا اظنه مهما تبرأ من الشعر وتنكر للفلسفة يستطيع ان ينجو من هذا الاتهام الاهمّ الاَّ ان يغير عنوانه « على الهامش » ويكتب بدله «في صميم الحياة» ، فالحياة لا هامش لها وكل ما يقع فيها منها ومن صميمها كما يقول الدكتور هيكل وكما هو رأي الصحفي العجوز ذاته غير ان صاحبنا العجوز يريد ان يجعل من عنوانه « على الهامش» اشعاراً لقرائه بأن اختبارات العلماء من امثاله — وتحقيقاتهم وتدقيقاتهم كل اولئك في نسبتهِ للحياة لا يزيد عن الهامش في نسبته للكتاب العظيم او في نسبته لجريدة الاهرام — واذن هل الشعر والفلسفة شيء غير هذا يا سيد توفيق وليت شعري اي صميم للحياة وراء ما جئت بهِ في الهوامش ألست في هامش تتكلم عن برسوم العريان او القديسة كاترينه. وفي هامش آخر تتكلم عن فورد اليس هذان هما الجانبان — المادي والروحي، اللذان يتكوَّن منهما هيكل هذه الحياة وهل تتألف الحياة الاَّ من المادة والروح او من الاشخاص والآثار

أشهد اني قرأت في هوامش الصحفي العجوز تراجم سير وشخصيات فحسبتني أولاً اقرأ كتاباً في الحياة وعدت ثانياً فحسبتني اقرأ الحياة في كتاب. وهكذا ظلَّ يستهويني الرجل ويفتنني ويصبيني حتى وددتُ لو أملك أن اقيم كتابه في معرض ثم اطلق عليهِ متحف الصحفي العجوز محمود أبو الوفا

لندن

تأليف احمد عطية الله — صفحاته ٣٦٨ قطع المقتطف — مطبعة عيسى البابي الحلبي

السفر مدرسة الحياة . والارض كتاب لا يقرأ منهُ المقيم في بلدٍ واحدٍ ، الاَّ فصلاً واحداً . لان السفر يصقل الطبع ، ويثقف العقل ، ويقيد الخيال بقيود الحقيقة ، ويطلق الفكر من اغلال التحزُّب الاجتماعي والتاريخي ، ويوسع افق النظر الى الحياة والعمران

فاذا كان كاتب الرحلة راوياً لحوادث التاريخ وعبره ، ملمًّا بآداب الامم وطبائعها ، استطاع ان يجعل وصفه لرحلة ما ، قطعة من الادب العالي ومن هنا اقبال الناس على مطالعة الرحلات او ما كان من قبيلها

وكاتب هذه السطور يعجبه في كتب الرحلات ، استيفاء كل موضوع في فصل على حدة . كعقد فصل مثلاً لاسباب المواصلات في مدينة من المدن ، وآخر لمنشآتها الصحية ، وآخر لمعاهدها العلمية العامة . لانهُ يعتقد ان الكتابة على هذه النحو ترسم صورة اوضح في ذهن القارىء من تجزيء الموضوعات وتفريقها في صفحات الكتاب فلا يستطيع القارىء ان يلمَّها الاَّ بعد جهد جهيد . ولكنه يعترف كذلك ان الرحلة نفسها لا تماشي هذه الجمع والاجمال . فالمسافر يتعرَّف الى الاشياء والاعمال والمنشآت والطبائع كما تتوالى على حسهِ . وترتيب المادة في كتاب من كتب الاسفار وفقاً لهذا التوالي يحمل القارىء على الاحساس ، بانهُ مصاحب للكاتب في مراحلهِ المختلفة ، فهو افضل في اغراء المطالع بمواصلة المطالعة من طريقة الاستيفاء على الاسلوب الاول

ولعلَّ هذا الاعتبار هو الذي حمل مؤلف « لندن » على تجزئتهِ فصولاً قصيرة ، تتوالى عليك كما تتوالى مشاهد بلاد جديدة رحلت اليها ، ففي كل فصلٍ طرافة الشيء الجديد ، وخفة اللمحة الاولى خذ وصفه « لحمام ترافلجار » ترى فيهِ هذه اللمحة العابرة . فان هذه القطعة على ايجازها صورة كاملة لمظهر من المظاهر التي تنفرد بها لندن ثم تعليق اجتماعي حسن للمؤلف قال :

في ميدان ترافلجار الفسيح ، وهو الميدان الفريد في لندن ، وتحت ظل عمود نلسن الهائل وتحت اقدام الكثير من تماثيل الاسود الفرسان والقوَّاد التي تحيط به ، تجد مئات من الحمام الاسمر ، يطير ويحط على ارض الميدان وعلى حنايا هذه التماثيل ، ثم على اكتاف السائرين

حمام اليف ، لم يعد يخاف الانسان ، ولا يهرب منهُ — بل يهرع الى كل سائر يرمي له بالحب وبفتات الخبز . وما اشبه هذا الميدان الفسيح بتماثيله ، وما اشبه هذا الحمام الوديع بميدان سان مارك في البندقية وهذا الحمام رسول السلام ، ورمز الحب . ولكنهُ لم يجد مكاناً يرفرف فيهِ الاَّ ميدان ترافلجار ميدان اخذ اسمه من الحرب ومن القتال . ولست ادري ماذا كان يصنع هذا الحمام لو درى بهذه الحقيقة؟

ولكن لعله يريد ان يكون رسول السلام في ميدان بني لتخليد رجال الحرب ، ويعلّم الانسان كيف الخلاص من نير الحروب

ما ارق قلب هذا الشعب الذي لا يرضى بحبس الحمام ، بل يتركه طليقاً ، ولكن بين تماثيل الفرسان والقواد الذين خلدتهم الحرب والنيران

وتمر السيدة الريفية بميدان ترافلجار ومعها اطفالها ، وتشير بأصبعها من نافذة عربة الامنيبوس الى عمود نلسن الهائل ، تذكر أبناءها بموقعة الطرف الاغر التي احالت مياه المحيط الى حمرة قانية تذكرهم بنلسن العظيم : لتذكي في دمائهم حرارة الفروسية وتنسى تلك المئات من الحمام الاسمر الذي يطير ويحط على حنايا هذه التماثيل ، وعلى اكتاف السائرين ، تنسى ان هـذا الحمام رسول السلام ورمز الأخاء على الارض ...

وكذلك تنتقل مع المؤلف من ميدان ترافلجار الى دار البرلمان الى الـتي حي الاعمال الى معرض الشمع (معرض مدام توسو) الى سراديب لندن التي تسير فيها قطارات الانفاق الى عالم المسارح الى مقبرة العظماء في دير وستمنستر الى مدرسة اللغات الشرقية الخ ... الخ ...

وكل فصل يحتوي على الحقيقة البارزة في الموضوع الذي يعالجهُ المؤلف ، فتخرج من قراءة الكتاب وفي ذهنك صورة عامة للندن كما هي الآن ، وصورة لأهم منشآتها وأساليب معيشتها وطبائع سكانها وآدابهم ، ولو تعذر عليك ان تقول انك تملك صورة واضحة لناحية بعينها من حياة هذه المدينة العظيمة لان عناصر الصورة التامة قد تكون موزعة في فصول متفرقة

وقد تخلل الفصول الكثيرة التي وضعها المؤلف ، فصول قليلة ولكنها مختارة مترجمة عن طائفة من ابرع كتاب الانكليز في وصف نواح من حياة لندن فثمة فصول لروبرت لند والكاتب اديسن وجيمس ملن ورنيير وغيرهم

والكتاب في ٣٧٠ صفحة من قطع المقتطف وفيه طائفتان من الصور مبثوثة في صفحاته ، الواحدة فوتوغرافية والاخرى كاريكاتورية مرحة . اما وقد طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر فشهادة له بجودة الطبع

رسائل في النقد

تأليف رمزي مفتاح

لو برز هذا الكتاب في عهد صفت فيه الانفس لنبذ . الاَّ ان مصر قد اصبحت اليوم ميدان سباب وقدح ، ومن اسوإ ما يترتب على هذا ان السباب يقابل بمثله والقدح بما هو اشد منهُ ، فتضطرب المقاييس ويصيب مصر وادباءها ما يجرّس بها وبهم في الخارج

اما هذا الكتاب فالاعتساف في سطوره مستفيض والتحامل فيما بينها مستكنٌّ . وفيه اخطاء تاريخية لا ندري وروحه ما ذكرنا اعفواً جاءت ام عمداً . وجل ما يقال فيه انهُ لولا هذا التحامل وذلك الاعتساف لأخذ الناقد بهِ واستخرج منه آراء ربما كان لها شأن في نقد الادب العربي الحديث

ليالي باريس

بقلم تريم مسعد — صفحاته ٢٠٠ مصورة — ثمنه ١٥ قرشاً

يختلف هذا الكتاب عن سائر الكتب التي وضعت حديثاً باللغة العربية عن بعض العواصم الاوربية في ان مؤلف هذا الكتاب، يروي مغامراته الصحافية، في باريس وجنيف فتتخلل روايته الخلابة، صفحاتٌ يصف فيها من مشاهد باريس ومظاهر حياتها ما لهُ صلة بتلك المغامرات

والمؤلف شابٌ متوقد الذهن، ذهب الى باريس طالباً للعلم، فانشأ مكتباً لتزويد الصحافة العربية في الشرق والغرب، بالانباء البرقية والمقالات الدولية، ودعي لحضور اجتماع جمعية الامم، ممثلاً لهذا المكتب، فسافر في القطار الذي أقلَّ بريان وهندرسن وغيرهما من اقطاب السياسة ومراسلي الصحف العالمية : تخصّهُ البوليس الفرنسي والبوليس السويسري بعناية خاصة لاشتباههم فيهِ. وحادثَ زوجتي كوست وبيلونت الطيارين الفرنسيين اللذين عبرا المحيط الاتلانتيكي طيراناً من باريس الى نيويورك. وفي حديثهِ مع مدام كوست عرف انها من جمهورية جورجيا الواقعة على حدود القوقاس، وهي البلاد التي انجبت ستالين طاغية روسيا الآن. ومن أحاديثهِ مع مشهوري باريس حديث مع موريس شفاليه وآخر مع جوزفين بيكر. والجانب الاخير من الكتاب موقوف على مباريات الجمال واحاديث مع بعض ملكاتها. وفيهِ فصول كثيرة تتناول نواحي من حياة الطلب وحياة اللهو في عاصمة الدنيا. فالكتاب تلذُّ مطالعتهُ، لانهُ يأخذ كالرواية. ولو تداركه والد المؤلف — الشيخ بولس مسعد — بشيءٍ من التنقيح اللغوي لكان قطعة جيدة من الادب الصحافي العربيّ

تاجر البندقية

تأليف شكسبير — تلخيص كامل كيلاني — صفحاته ٦٨ قطع وسط — مطبعة المعارف بمصر

هذه هي القصة الثانية من قصص شكسبير، التي يلخصها الاستاذ كيلاني، ليضيفها الى مكتبة الاطفال العربية. اما القصة، واما مؤلفها، فاشهر من ان يذكرا. وانما يهمّنا ان نقول في هذا الصدد، ان الاستاذ كيلاني، قد اجاد كلَّ الاجادة في التلخيص، وافراغهِ في قالب، يغري الطفل ويستهويه، بحسن سردهِ لملخص القصة، وسهولة التعبير واستقرارهِ في آنٍ واحد

خذ مثلاً على ذلك وصف شيلوك صفحة ١٤ قال: — «عرفت ايها القارئ الصغير ان باسانيو وانطونيو كانا مثالين من مُثُل الوفاءِ والحبّ والاخلاص. واحبُّ ان اعرض عليك رجلاً آخر هو على العكس من صاحبينا هذين، في اخلاقهِ وصفاتهِ، فقد عرفهُ الناس شحيحاً بخيلاً قاسي القلب شريراً، اجتمعت لهُ كل اسباب الخبث واللؤم والشرهِ حتى اصبح مثالاً من امثلة النذالة والخسة والضعة. الا ترى صورته وهي تمثلهُ في ثوبهِ الذي اكسبَهُ القِدمُ بريقهُ. الا ترى ظهرهُ المقوَّس واصابعهُ اليابسة النحيفة التي تشبه المخالب، وابتسامتهُ الخبيثة التي تنمُّ على مكرٍ ودهاءٍ، ونظرتهُ الحادّة الساخرة التي لا تفكر الاَّ في المال .... الخ» ومما وفق في ترجمتهِ قولهُ صفحة ٤٦ في شطر

واحد من الشعر « ما كلّ ما يبرق لمّاعاً : ذهب » وهو ترجمة All that glitters is not gold وكذلك يقدم المصنف اشخاص الرواية الى قرائهِ الصغار ثم يعرض لهم مشاهدها مشهداً مشهداً بايجاز ووضوح. اما طبع الكتاب فهو من الجودة والاتقان بحيث يتمنى كاتب هذه السطور مثلهما لاحد مؤلفاتهِ !

القاهرة

الجزء الاول — تأليف الملازم عبد الرحمن زكي — ثمنه ٨ قروش

القاهرة هو الكتاب الاول — فيما نعتقد — من نوعه . وقد احسن الملازم الاول عبد الرحمن زكي كل الاحسان في اختيار موضوع هذا الكتاب ميداناً لاستغلال مواهبهِ العلمية الادبية وترويض قلمه المدقق الاديب. ولقد كان من حق المكتبات العربية ان لا تحرم كل هذا الزمن من كتاب يوضع عن القاهرة خصيصاً ولاسيما بعد ان ازدانت تلك المكتبات بالمؤلفات عن بعض عواصم الغرب. فالقاهرة في معالمها وفي عظمتها التاريخية لا يمكن ان تكون اقل من تلك العواصم التي حظيت من ناحية كتابنا بعناية كبيرة ، علاوة على ما في الكتابة عن مصر وتاريخ عاصمتها التاريخية من استلفات تدعو له النهضة القومية المصرية . والحق انهُ فرض كان يجب على الكتاب المصريين ان يقوموا به ولكنهم اهملوه ليقوم بهِ هذا الضابط المصري الكريم فكان له فضل السبق في هذه الناحية من خدمة وطنهِ

اما طريقة المؤلف فهو يجري على اسلوب المؤرخين الاقدمين في رسم الصور للحوادث كما وصلت الى علمهِ من مطالعته الواسعة النطاق من غير ان يضيف اليها الوانه الخاصة بترجيحاته او بتحقيقاته اللهم الاَّ في مواضع قليلة جدًّا فانهُ يعمد الى ترجيح بعض ما قيل . لذلك رأيناه يرجح قصة الغراب الذي هز الاجراس فبنيت القاهرة في غير ساعة سعيدة. على ان الكتاب في اسلوبه وفي معروضاته ممتع شائق حتى ليكاد يحبس قارئهُ على استيعابه حبساً . وناهيك بكتاب تطلع فيهِ على قاهرة المعز لدين الله الفاطمي وقاهرة صلاح الدين وقاهرة المماليك البحرية والجراكسة اجل تطلع فيهِ على القاهرة في كل هذه العصور كما تطلع فيهِ على مصر في فسطاط عمرو وقطائع ابن طولون فلا ترى شيئاً يهمّك الاطلاع عليهِ كمؤرخ او كسائح الاَّ وفي هذا الكتاب منهُ المامة تغنيك عن الرجوع الى عشرات من كتب التاريخ

وكأننا بالمؤلف قد طالع كل ما وصلت اليهِ يداه من المؤلفات عن معالم القاهرة ومعيشة سكانها في كل دور من ادوارها ثم رسم لنا في كل فصل من فصول كتابهِ صورة حية ناطقة لذلك الدور ، حتى لكأنك وانت تقرأ ، ترتدّ على جناح الذاكرة والخيال والحقيقة التاريخية المدونة فترى المباني والجوامع والمنشآت العامة والخاصة والناس يروحون ويجيئون ، ويحبون ويبغضون ، ويتصافون ويتنازعون

فالمقتطف يهنيء المؤلف ويتمنى لهُ الاقبال على مؤلفهِ لكي ينفح قرَّاء العربية — والمصريين بوجهٍ خاص — بالجزئين الباقيين من كتابهِ « القاهرة »

اركان التدريس

وضع احمد سامح الخالدي

للمرة الثانية تتاح لي الفرصة لأعرض على قراء المقتطف مؤلفاً جديداً من مؤلفات الاستاذ احمد سامح الخالدي مدير الكلية العربية بالقدس واستاذ التربية بها

وربما كان عنوان الكتاب لا يرسم صورة صحيحة لموضوعه ، فالمقصود باركان التدريس ، القواعد والمبادىء التي يبنى عليها التدريس كفن ، وهذا ما يعبر عنهُ بقولنا Fundamentals of Teaching ، ولكن هذا الكتاب لا يقتصر على دراسة هذه المبادىء بل يتعداها الى طريقة التدريس العامة ، ثم يخصص اكثر من نصف الكتاب لبحث طرق تدريس اللغة والجغرافيا والتاريخ والحساب ودروس الطبيعة

لذلك كان لزاماً علينا ان نعرض الكتاب على قسمين (الاول) ويشمل اركان التدريس ، (والثاني) طرق التدريس العامة والخاصة

مهد الاستاذ لكتابهِ بمقدمة عن فن التدريس وعن مهمة المعلم وواجباته والشروط التي تتوافر في المعلم الذي يصح ان يكون مثلاً اعلى للمعلمين . ثم انتقل الى دراسة عوامل التدريس ، فذكر طرق اختيار مادة الدرس ، وطرق كتابة المذكرات الخ

وفي هذا الفصل ذكر المؤلف شيئاً من تجاربه الخاصة عن الطرق الاصطناعية التي يسير عليها المعلمون الناشئون في اعداد دروسهم وكتابة مذكرات هذه الدروس ، لاسيما في اختيار المقدمات الملفقة للتمهيد لكل درس دون اعتبار لمادة الدروس من حيث بساطتها او تشويقها الطبيعي للاطفال

هذه الملاحظات الشخصية ، ضرورية في مثل الكتب الخاصة بالتربية حتى لا يشعر المعلم الناشئ ان قضايا التعليم ومبادئهُ نظريات ليس الا . وذكر مثالاً طريفاً لمدرس للحساب مهد لدرسهِ بالاسئلة عن اسماء الشوارع لكي يقود التلميذ الى ذكر تاجر الاقمشة الذي يستعمل الاطوال والمقاييس

ومثل هذه الملاحظات هامة جداً للمفتشين في مدارس المعلمين لدينا في مصر كذلك ، وسبب هذا كله يرجع الى عدم تفهم المعلم فيها ان نظريات التربية والتعليم قابلة للتشكيل بحسب ظروف الطالب والدرس . ثم انتقل المؤلف الى دراسة عوامل التدريس الاخرى الخاصة بطبيعة الطفولة فعدد انواع الغرائز التي لها أثر في استعداد الطفل للتعلم : الا ان بعض المصطلحات التي استخدمها المؤلف فيها شيء من الغرابة ومثال ذلك قوله فعالية الانسان ص ٤٣ بدلاً من قوله الميل للحركة

كما ان المؤلف قد تصرف بعض التصرف في ترجمة بعض مصطلحات علم النفس فترجم Curiosity غريزة الاستغراب لاغريزة حب الاستطلاع ، اذ ان الاستغراب هو الانفعال النفساني المصاحب لهذه الغريزة ، واسماء الغرائز تطلق عادة على المظهر النزوعي لا الوجداني للغريزة ، فندعو gregarious

Instinct غريزة حب الاجتماع لا غريزة الحنين . كما انهُ ترجم Awe بـ «دهشة» مع ان الدهشة Wonder انفعال نفساني بسيط يصاحب غريزة حب الاستطلاع ، اما Awe فهو انفعال مركب خليط من الخوف والدهشة والشعور بالانقياد . كما ان المؤلف دعى هذا الانفعال غريزة ، فالانفعالات كما رأينا ليست غريزة بل هي مظهر الغرائز ، كما ان الانفعالات البسيطة هي وحدها التي تصاحب الغرائز أما الانفعالات المركبة فهي مظهر لسلوكنا الارادي

ثم ان المؤلف ذكر في ص ٩٤ ما دعاه دروس الارتياح وهذا ولا شك اصطلاح مبهم ، واقرب الى التدقيق ان يدعوها بدروس تربية الوجدان او الذوق

ومن المباحث التي لم ينظر المؤلف الى دراستها بعين شرقية محلية مسألة الغذاء في المدارس . اذ ان عوامل شتى تجعل مسألة الغذاء في بلاد كمصر او فلسطين من الخطورة بمكان . خذ مثلاً نوع الطهي الشرقي الذي يحتاج الى وقت طويل لهضمه اطول من الفترة المقررة في المدارس لهذا الغرض . او خذ ثانياً حرارة الصيف التي تجعل العمل بعد تناول هذا الغذاء عسيراً ، فالمؤلف كان عليهِ ان يتناول في بحثه هذه العوامل معتمداً على مشاهدات خاصة او احصائيات ويقترح في نهاية بحثه حلاً موفقاً ، كتجديد في اساليب الطهي ولو في غذاء المدارس ، او السماح للتلاميذ بانهاء العمل المدرسي قبل الغذاء (الساعة الواحدة مثلاً) كما هي الحال في المدارس الالمانية ، على ان تخصص مدة بعد الغذاء لاعمال التلاميذ الحرة

اما دراسة المؤلف لموضوع المناهج ووضعها ، فكان يستلزم الشيء الكثير من الاطالة لا سيما في نقط هامة صار لها اليوم شأن خاص ، لاهتمام كثير من البلدان الشرقية باصلاح مناهج مدارسها مع استقائها عن الغرب الاصول في وضع هذه المناهج . فكان على المؤلف ان يذكر لنا علاقة المناهج الدراسية العامة بالبيئات الاجتماعية ، وما لتطور المناهج من الشأن ، ولجان وضع المناهج وكيف تشكل ، واتصال المناهج الدراسية المختلفة الخ الخ

***

(ثانياً) وينتقل المؤلف من هذا الجزء الى الجزء الخاص بطرق التدريس ، وافتتحه بمقدمة متفرعة عن اهمية دراسة اللغة القومية ووجوب اهتمام المعلمين بها اهتماماً شاملاً ، ثم عن النطق وكيفية اجادته . وكل هذا كتبه المؤلف بطريقة شائقة تسترعي الانظار

هنا يجوز لي ان اذكر نقداً عاماً لهذا الجزء من الكتاب ، وذلك اعتماد المؤلف اعتماداً كبيراً على كتاب « ارشادات للمعلمين » Handbook of Suggestion to Teachers ولست ادري ضرورة واضحة تحدو المؤلف الفاضل لمثل هذا الاعتماد المطلق ، على ان هنالك من عشرات الكتب الحديثة في طرق التدريس ، يستطيع المؤلف ان يراجعها لكي يوفق بين وجهات النظر . هذا من ناحية ومن ناحية اخرى ، فاننا نعلم ان طرق التدريس يجب ان يعتمد الكاتب فيها على تجاربه الشخصية

كمعلم او كمشرف على التعليم ، لا على النظريات العامة التي لا يمكن تطبيقها مباشرة في كل بيئة . فلو ان الاستاذ قد عدد لنا من ملاحظاته الخاصة او ضرب لنا الامثلة من مشاهداته ، لكان هذا القسم من الكتاب اكثر تشويقاً واعظم فائدة

وكان من ضرر التمشي مع كتاب ارشادات للمعلمين ان تناسى المؤلف او نسي نواحي هامة في المواضيع التي بحثها ، كانت جديرة بالدراسة والبحث ، بل انها جعلت الكثير من الطرق التي بحثها المؤلف بعيدة التطبيق على النظم المدرسية التي نسير عليها في الشرق العربي . فمثال ذلك انهُ قسّم طريقة تدريس المادة الواحدة الى قسمين صفوف دنيا وصفوف عليا تمشياً مع النظام الانكليزي Senior and Junior مع انهُ كان من الاجدر ان تتمشى طرق التدريس اما مع نوع المدرسة (اولية او ابتدائية او ثانوية مثلاً) وإما بحسب سن الاطفال

ونتيجة اخرى لذلك انهُ ترك في بحث تدريس اللغة العربية نقطاً لها شأن كبير جداً لم يتعرض لها تعرضاً ما ، مع انها موضع اختلاف المشتغلين بالتعليم في الوقت الحاضر ومثال ذلك انهُ لم يذكر متى وكيف يدرس التشكيل او ربط الحروف او قواعد اللغة وانواع الخط العربي وطرق المحادثة والأناشيد الخ . .

كما اننا نشاهد نتيجة الاعتماد على كتاب « ارشادات المعلمين » واضحاً كثيراً عند الكلام على تدريس التاريخ ، اذ المؤلف لم يجد امثلة لتوضيح نظرياته غير الامثلة الانجليزية فذكر اسماء الشوارع الانجليزية التي لها اساس تاريخي ولم يحاول ان يساير الفكرة فيذكر شيئاً من الامثلة المحلية فبدلاً من ذكر Wailing St. يذكر المبكى مثلاً ، وبدلاً من ذكر Grey Friars يذكر باب الخليل ، والاستاذ اعرف مني بذلك

كما انهُ في تدريس الحساب لم يذكر ولو تلميحاً طريقة منتسوري في تدريس الحساب (وهو لم يذكر هذه الطريقة في تدريس اللغة للاطفال) مع ان هذه الطريقة من انسب الطرق الحديثة لتدريس الصغار ، وهي منتشرة انتشاراً واسع المدى في جميع رياض الاطفال حتى تلك التي لا تسير على طريقة منتسوري . وبعد كل ذلك اراني عاجزاً عن تقدير هذا الكتاب القيم ، الذي ولا شك اننا في كبير حاجة الى امثاله في اللغة العربية . وانني اهنىء الاستاذ الخالدي بمجهوداته المشكورة في سبيل تزويد المكتبة العربية من حين الى حين بمثل هذه المؤلفات الجديدة بكل تقدير واعجاب

القاهرة احمد عطية الله

المحفوظات

الجزء الاول لمدارس البنات تأليف مهدي احمد خليل

هو مجموعة وافية من الحكم والنصائح والحكايات الادبية مما يلذ مطالعته لمدارس البنات الابتدائية فنثني على مؤلفه النشيط . طبع بمطبعة مصر

﴿ سعادة الاسرة ﴾ قصة ادبية تأليف الفيلسوف الروسي ليو تولستوي ترجمها الى العربية الاديب مختار الوكيل وهذه القصة جامعة ما بين الترجمة الشخصية والرغبة الفنية الى درجة ما وفيها تصوير لاحلامه وامانيهِ الزوجية . وقد كتبها قبل زواجه بثلاث سنوات فهي ذات صبغة خاصة تستحق عنايتنا لانها تتناول موضوعاً يشغل في الوقت الحاضر جميع الاذهان . وعنيت بنشرها المطبعة السلفية ومكتبتها

﴿ فن طبع الاصابع ﴾ تأليف عبد الجبار فهمي — وهو كتاب مفيد نافع لكل من ينتسب لاسرة القانون حاوياً كل ما يتعلق بهذا الفن من النظريات والتطبيقات فلا يستغني عنهُ كل من قام بمبهِ التحقيق كبيراً كان او صغيراً ، وادارة البوليس في حاجة ماسة اليهِ كما يحتاج اليهِ كبار المحامين واساطين القضاء ففيه تاريخ طبع الاصابع وشرح واف في فن طبعها . طبع بمطبعة النجاح في بغداد

﴿ القاتلة ﴾ رواية محزنة حيث يقضي الحبيب ضحية لغرامهِ وتنهض المرأة لتنتقم لحبها الضائع فتكون المعركة واذا بالحب يصيب قلبها من جديد وتقع بين حبين وتتصارع بين عاطفتين ولكنها تمضي في طريقها اذ لا بد من الانتقام — ترجمها الاديب عبد المنعم حسن ونشرها فهمي يوسف في مجلدين وتطلب من مطبعة التقدم التجارية ومكتبتها وثمنها ٤ غروش

مطبوعات جديدة

وراء الغمام
نظم الدكتور ابراهيم ناجي

ملوك الطوائف
تأليف دوزي — ترجمة كامل كيلاني

ديوان عبد المطلب

غاندي والحركة الهندية
لسلامه موسى

دراسة القانون
للاستاذين مصطفى رضا بك والدكتور محمود احمد الحفني

الحموضة والقلوية
للدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي

حياة وحياة
للدكتور محمد كامل الصي

﴿ طريقة منسي ﴾ جريدة فرنسية نصف شهرية لصاحبها ومحررها الاستاذ احمد ابو الخضر منسي وهي خاصة بتعليم المبتدئين اللغة الفرنسوية باسلوب بسيط سهل اخاذ . وفيها من الحكايات الطريفة والمحادثات والمصطلحات مما يساعد طلبة الكفاءة والبكالوريا (اضافي)

﴿ الذئاب ﴾ رواية ادبية ترجمها الاديب عبد المنعم حسن نشرت تباعاً بجريدة الاهرام . ونشرها فهمي يوسف في مجلدين وتطلب من مطبعة التقدم التجارية ومكتبتها وثمنها ٤ قروش

﴿ تقويم الاتحاد الفلكي المصري لسنة ١٣٥٣ هـ ﴾

يشمل الاوقات الشرعية لجميع الاقطار الاسلامية واحوال الكواكب والتوقيعات ومواقيت الزراعة وغير ذلك طبع بمطبعة الوفاق ببلقاس

باب الأخبار العلمية

علاج خطرٌ للصداع

من العقاقير المستعملة في معالجة الصداع ، عُقّار يدعى «بيراميدون Pyramidon » وهو يستعمل احياناً لازالة الالم بالتخدير في حالات عرق النسا والالتهاب المفصلي . والمرجّح الآن ان هذا العقار وما هو من قبيله يضرُّ بنخاع العظم حيث تتولد بعض كريات الدم . وهذه حالة مرضية تعرف باسماءٍ مختلفة في عالم الطب ، وتبدأ عادة بحرارةٍ والتهاب الحلق فيُظَنُّ ان البرد سببهما . ثم تظهر قرح على اللوزتين واللسان واللثة ، وتنتشر انتشاراً سريعاً . ولعل اهمّ اعراضها نقص كبير في عدد كريات الدم البيض . ففي الملمتر المربّع من الدم نحو ٦٠٠٠ الى ٧٠٠٠ كرية بيضاء فينقص هذا العدد الى الفين . اما عدد الكريات الحمر ومقدار الهيموغلوبين في الدم فيظلاَّن على حالتهما السوية ، ويلي ذلك ان المصاب بهذه الحالة يلقى حتفهُ في الغالب رغم العلاج

اكتشف هـذا الداء سنة ١٩٢٢ اذ راقبهُ طائفة من الاطباء الالمان ولكن العلاقة بينهُ وبين البيراميدون لم تكشف الاَّ هذه السنة . فقد لاحظ الطبيبان مادسن وسكوير من اطباء مدينة ملووكي الاميركية ، ان اعراض هذا الداء تشتدُّ بزيادة ما يتناول من البيراميدون وعقاقير اخرى تحتوي على مادة Barbiturate فدرسا ثلاث عشرة حالة من هذا القبيل توالت توالياً يدعو الى الاستغراب فوجدا ان جميع هؤلاء المصابين تناولوا احد هذه العقاقير ، مدداً مختلفة الطول ، قبل ظهور اعراض الداء عليهم . فحاولا حينئذٍ تجربة هذه العقاقير في غذاء الارانب فلم تلبث حتى ظهرت في احدها اهمّ اعراض هـذا الداء وهو نقص عدد الكريّات البيض وظهر في ثلاثة ارانب اخرى حؤول في نخاع العظم

وكان الدكتور كراك Kracke من جامعة اموري Emory قد اشار سنة ١٩٣١ الى امكان وجود علاقة بين العقاقير المستخرجة من قطران

الفحم الحجري واحد الاشكال التي يظهر فيها هذا الداء . وقرّر في سنة ١٩٣٢ ان ثمانية من تسعة مصابين بهِ كانوا يتناولون عقاقير تحتوي على المواد الكيماوية القائمة في تركيبها على ما يعرف « بحلقة البنزين » . والبيراميدون احد هذه المواد

فاستعمال البيراميدون وحدهُ او مختلطاً بعقاقير اخرى ، يجب ان يكون باشراف الطبيب ولا بدَّ لهذا ، من احصاء كريات الدم البيض في الجسم مراراً كل اسبوع لكي يتمكن من معرفة اثر هذا العقار في الدم ونخاع العظم

الذهب في ماء البحر

في ماء البحر ذهبٌ ، ولكن ما مقدارهُ ؟ كان العلماء قد قدّروا انَّ كلَّ طنٍ من ماء البحر يحتوي على قمحة من الذهب . فلما وضعت الحرب اوزارها ، وفرضت على المانيا تلك الغرامة الباهظة : ظنَّ العالم الكيماوي فرتز هابر ، انهُ يستطيع ان يغنم لوطنهِ من ماء البحر قدراً من الذهب ، يساعدهُ في تسديد مال التعويض المفروض عليهِ . فجرّب التجارب الكيمائية ووجد انهُ يستطيع ان يستخرج الذهب من ماء البحر اذا استعمل وسائل معيّنة للترسيب والتصفية والتكتيل . وكان العلماء من قبل قد حاولوا ذلك فآبوا بالخيبة ولكنهُ ظن انهُ قد يفلح حيث اخفقوا هم . فسافر في سفينة خاصة اعدّ لهُ فيها معملٌ كيمائيٌ تامّ الاجهزة ، وجعل في خلال سفرهِ ، يتناول نماذج من مياه البحار التي يجتازها ، ويحللها ليعلم مقدار ما فيها من الذهب فثبت لهُ ان تقدير العلماء مبالغ فيهِ وان الطن من ماء البحر لا يحتوي على اكثر من $\frac{٢٤}{١٠٠٠٠٠}$ من القمحة ذهباً ، فكتب بعد ذلك ما مؤداه انهُ يرجح استحالة استخراج الذهب من ماء البحر

تبغ خالٍ من النيكوتين

في انباء المانيا انَّ معهد فور شهيْمر للبحث في التبغ بمدينة فرانكفورت قد توصَّل الى تأصيل اصناف جديدة من التبغ بعضها خالٍ من النيكوتين خلوًّا تامًّا وبعضها مقدار النيكوتين الذي فيهِ قليل . وقد شرع الدكتور بول كوينج مدير المعهد يوزّع فسائل التبغ الجديد على طائفة من الفلاحين لزرعهِ وجنيهِ

الطيارات وابادة الجراد

جاء من دربان في جنوب افريقية ان الحكومة تعد حملة جوية على الجراد ، فأعدت طائرتين تحمل احداها طنًّا من « زرنيخات الصوديوم » وسوف لا يهاجم الجراد وهو في الجو اذ يحتمل ان يعرقل آلات الطيارة ويسبب سقوطها ، بل سيفاجأ الجراد عند هجوعه وقت الفجر فتطير الطائرات على ارتفاع منخفض فوق حقول البنجر ثم ترش المادة السامة من مضخات فيها فوق المناطق التي حطت فيها اسراب الجراد وهذه المناطق تميز بواسطة رايات تنصب قبل العملية . ويلبس الطيارون كمامات واقية اثناء قيامهم بمهمتهم هذه . وفي الاستطاعة ان تعمل الطائرات عملها خلال الليل وفي هذه الحالة توقد مشاعل لارشادها الى مواقع الجراد . والمعتقد ان هذه الطريقة الجديدة ستقلب الطريقة المتبعة في جنوب افريقيا رأساً على عقب وهي استخدام المواد الملتهبة في ابادة الجراد

الاشعة المستحدثة وبناء الذرة

اقوى الاشعة التي تنطلق من المادة اشعة غمَّا التي تنطلق من الراديوم والثوريوم. وطاقتها من رتبة ٢٥٠٠٫٠٠٠ فولط . ولكن العالمين الاميركيين لورنزن وكراين من معهد كاليفورنيا الذي يرأسهُ العلاَّمة ملكن قد صنعا اشعة غمَّا اقوى من اشعة غمَّا الطبيعية التي تنطلق من العناصر المشعة لان طاقة الاشعة التي استحدثاها من رتبة ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ فولط . وكان قد سبقهما الى عمل من هذا القبيل الاستاذ جوليو وقرينتهُ (وهي ابنة مدام كوري) والدكتور لورنس من اساتذة جامعة كاليفورنيا . فالاستاذ جوليو ومدامتهُ وجَّها دقائق الفا المنطلقة من الراديوم بسرعة ١٢ الف ميل في الثانية الى المادة غير المشعة فأصبحت مشعة . اما لورنزن وكراين فوجَّها نوى الايدروجين الثقيل (وتعرف في اميركا باسم دوتونات) الى الكربون والبورون والليثيوم او البريليوم . فخرج منها نوع من النتروجين يطلق اشعة غما . ولكن هذه المقدرة على الاشعاع المستحدث بوسائل صناعية لا يطول اكثر من عشر دقائق ثم يتحول النتروجين بعد عشر دقائق اخرى الى كربون . وقد يكون لهذه الاشعة المستحدثة — اشعة غما — فائدة في معالجة السرطان مع قصر حياتها ، لان طاقتها اقوى من طاقة اشعة غما الطبيعية . واهم من ذلك ان هذه الاشعة حملت العلماء على اقتراح آراء جديدة مؤداها ان بناء الذرَّة قد يكون ابسط جداً مما يُظَنّ الآن

اشعة اكس والمواليد

في الاجتماع الذي عقدتهُ الجمعية الفلسفية الاميركية في اواسط ابريل تلا الدكتور جون غورن Gowen احد علماء معهد ركفلر الطبي في برنستن ، رسالة بيَّن فيها ان التجارب التي اجراها بتعريض الخلايا التناسلية في ذباب الفاكهة لاشعة اكس اسفرت عن زيادة المواليد الذكر في نسلها

مدور مرصد حلوان

قرأنا في مجلة نايتشر ان الدكتور محمد رضا مدوَّر الفلكي المقيم بمرصد حلوان قد عين مديراً خلفاً لمستر كري . والدكتور مدور من علماء الفلك المتفوقين ، وهو عضوٌ في الجمعية الفلكية الملكية والمجمع المصري للثقافة العلمية . ونشْر نبإِ تعيينهِ في مجلة نايتشر دليل على ما يتمتع بهِ من المقام في الدوائر العلمية الاجنبية

مجمع تقدم العلوم البريطاني

يلتئم مجمع تقدم العلوم البريطاني هذه السنة في مدينة ابردين باسكتلندا في الاسبوع الواقع بين ٥ سبتمبر و ١٢ منهُ ، برآسة السر جيمز جينز الفلكي الرياضي المعروف وصاحب المؤلفات العلمية الدقيقة والمبسَّطة في الآراء الكونية الحديثة ومن اشهرها « الكون الذي حولنا » و« النجوم في مسالكها » و« الكون المحجَّب بالاسرار» . وينتظر ان تدور خطبتهُ على نظريات علم الطبيعة الحديث

الجزء السادس من المجلد الرابع والثمانين .

صفحة

٦٥٧ أيام الخليقة
٦٦٠ في ربيع اليأس : لامين الريحاني
٦٦٦ الري في مصر : لحسين بك سري وكيل وزارة الاشغال
٦٧٨ مصطلحات علم النفس : لمحمد مظهر سعيد
٦٨١ بماذا تتفوق السلالات
٦٨٦ البحث عن الثروة المعدنية : للدكتور حسن بك صادق
٦٩٣ عتاب واستصراخ (قصيدة) لخليل مطران
٦٩٤ الكريم والفتى والسيد : للدكتور امين باشا المعلوف
٧٠١ توريث الصفات المكتسبة : للدكتور شريف عسيران
٧٠٥ هل العرب بربر : لمحمد سعيد الزاهري
٧١٠ هل الانسان آلة
٧١٦ فاجنر واوبرة لونجرين : لحليم متري
٧٢١ السيكلوجية الحديثة . ليعقوب فام
٧٢٥ زهد الخلفاء الراشدين
٧٢٦ العناصر المشعة وتركيب الذرة : لمحمد عاطف البرقوقي
٧٣١ سير الزمان : اسبانيا ومشكلاتها . الوطنية في الشرق الادنى : للدكتور عبد الرحمن شهبندر . سياسة بريطانيا الخارجية
٧٤٥ حديقة المقتطف : مجد الروّاد : لالفرد نوير . ترجمة شيطان : رأي الدكتور طه حسين . الشيطان امام الله : للاستاذ العقاد . مختارات من بيرون : لماذا تحبني . لمسز براوننغ . قبرة شلي : لتوماس هاردي
٧٥٣ مملكة المرأة : المرأة الفرنسية . الزوجة ام الولد . الاكنة او حب الصبا . عقل الطفل : لاحمد عطية الله . الامراض النفسية : للدكتور شكري جرجس

---

٧٧٦ باب المراسلة والمناظرة * المرض عند عرب الجاهلية : لبشر فارس
٧٦٩ مكتبة المقتطف * الملاح التائه . شهر زاد . استشارات الطبيب المهارس . هوامش الصحفي العجوز . لندن . رسائل النقد . ليالي باريس . تاجر البندقية . القاهرة . اركان التدريس
٧٨٥ باب الاخبار العلمية * وفيه ٨ نبذ

فهرس المجلد الرابع والثمانين

وجه

(ا)

الآراء الفلسفية تحولها ٥٩٠
* الآثار الاسلامية ببغداد ٤٥٩
آياته في خلقه ٣٩،١٧١و٣١٩
الاجنحة الفرنسية ٢٥٣
اجنحة المدافع المصرية ٨
الادب والعلم عناقهما ٥٧٧
اسبانيا ومشكلاتها ٧٣١
الاستعمار والحضارة ٤١٧
الاسلوب العلمي عند
العرب والاسلام ٢٨٥
* الاسكندرية تجديدها ٤٢٨
الاسنان سمها وسم التعب ٢٥٥
الاسنان والعمران ٥٨٣
الاشعة الكونية
وانفجار النجوم ٥٢٠
اقطاب العالم في السياسة ٢٠٧
الاكسجين وحياة الحيوان ٤١
المانيا ونزع السلاح ٢١٠
امير الصعيد ١٢٢
الالتزام العلاجي القروي ٥٧١
الانسان كيف تطور ٤٥٢
الانسان هل هو آلة ٧١٠

وجه

الايدروجين الثقيل ٢٥٥
الايدروجين الثقيل والحياة ٥٢٣

(ب)

بانتنغ قصته ١٤٤
البرق والارض (قصيدة) ٥٣٢
بريطانيا وسياستها الخارجية ٧٤٠
البصريات عند العرب ٤٤٦
* بغداد آثارها الاسلامية ٤٥٩
بونين ايفان ٢٤٤

(ت)

الثروة المعدنية في مصر ٦٨٦
التدخين لذته ٦٥٣
التطور والحرارة ٣٨٦
التعليم في العراق ٤٧٠
التفكير مزالقه ٣٠١
التلفزة عجائبها ٥٨
توراة سينا ١٢٢

(ث)

الثروة المعدنية في مصر ٦٨٦
الثورة الالمانية ٧٠
الثورة الروسية ٦٥

(ج)

الجوع والتاريخ ٤٦

وجه

(ح)

الحباحب نورها ٦٥٣،٦٥٤
حديقة المقتطف ٨٣ — ٨٨
و٢١٧ — ٢٢٤ و٣٥٣ — ٣٥٨
و٤٩٣ — ٤٩٦ و٦٠٧ — ٦١٢
و٧٤٥ — ٧٥٢
الحرب آلاتها المدمرة ٣٤٢
الحرير وتركيبه الذري ٤١٣
الحشمة والعري ٥٥٧
الحضارة العربية أثرها في
الاندلس ٣٣و١٥٨
الحضارة الفرعونية والزراعة ٤٤١
الحكم اشكاله في العالم
العربي ٣٣٧،٣٩٥
الحل الطيفي عجائبه ٥٥٠
الحوادث الدولية ٨٢
الحيوان عنايته بنسله ١٥٣

(خ)

الخبراء الاجانب والتعليم
في مصر ١٨٥
الخريف غيومه (قصيدة) ١٧٠
الخلفاء الراشدون . زهدهم ٧٢٥
الخليقة ايامها ٦٥٧

وجه

(د)

الدكتاتورية والرجل العظيم ٤٣٤
دير في العراق وآخر في الشام ٣١١

(ذ)

الذرة احدث رواياتها ٥٢١
الذرة تهشيمها ٢٥٥
الذكرى (قصيدة) ٢٥

(ر)

روزفلت خططهُ ٧٨
الريُّ في مصر ٦٦٦

(ز)

الزهرة السوداء (قصيدة) ٢٩٥

(س)

السفانة معجزاتها ٤٢٣
* السفن والملاحة
بمصر ٦٢، ١٨٤
السلالات سرُّ تفوقها ٦٨١
سلع وقفة فيها (قصيدة) ١٤٢
سير الزمان ٦٥_٨٢ و٢٠١_٢١٦
و٣٣٧_٣٥٢ و٤٨١_٤٩٢
و٥٩٥_٦٠٦ و٧٣١_٧٤٤
السيكولوجية الحديثة
٤٠٨، ٥٦٤، ٧٢١

(ش)

الشرق الاقصى مشكلتهُ ٥٩٥
الشعر بحوره ١٠٦، ٢٤٣،
٣٧٥، ٦٣٥
شمشون (قصيدة) ٤٣٨

وجه

الشكولاته وزيت كبد
الحوت ٥٢٠

(ص)

الصحف البريطانية الكبرى ٥٤١
الصفات الجنسية الثانوية ٣١٩
الصفات المكتسبة توريثها ٧٠١
الصناعة في العراق ١٨١

(ض)

الضوء قياس قوته ٦٥٣

(ط)

الطاقة من نيوتن الى اينشتين ٣٢٢
الطبيعة رائد المخترعين ١٧١
* طليات سعيد بك ٢٣٩
الطيران في مصر ١٢٣
الطيور كيف تولدت ١٥١

(ع)

العاطفة والعقل والشعر ٥١٠
عتاب واستصراخ (قصيدة) ٦٩٣
العرب هل هم بربر ٧٠٥
العرض عند العرب ٧٦٦
العلاقات الجنسية نظرات
اجتماعية ٢٧٧
العلم والحياة الجنسية ٤٠١
العلم وحياتنا اليومية ١١
علم الطبيعة بين عهدين ١٢٩
العلم في العام الماضي ٢٥٦
العلم والفلسفة ٣٩٣

وجه

العمر وحدتهُ (قصيدة) ٥٦٩
العناصر تحويلها ١
العناصر المشعة ٧٢٧
عودة الروح ٣٢٦ و٤٧٤
العين الكهربائية عجائبها ١٢٦
و٣٨٩

(ف)

فاجنر ٧١٦
الفتى والكريم والسيد ٦٩٤
* الفلاح المصري القديم ٥٨٦
الفيتامين وتجفيف النبات ٣٨٨
في ربيع اليأس ٦٦٠
فيصل الملك جهاده ٢٦ و١٦٤
في مرقص (قصيدة) ٣١٠
الفينكس قصة طائر ١٧

(ق)

القضاء في السودان ٤٦٣
القلب والغدة الدرقية ٣٨٧
قلبي .. يا قلبي (قصيدة) ١٧٧
القمم اعلاها ٦٥٣

(ك)

الكهارب في الصناعة ٦٥٠
الكهرباء وجودة الزرع ٦٥٢
الكون وحدته (قصيدة) ٥٤٩
الكونتم نظريتهُ ٥٣٤

(م)

المرض ما هو ٣٨٩
* مستشفى المؤاساة ٢٦٩

وجه

المصطلحات الطبية ٦٢٥
المصطلحات العلمية والفاظها
العربية ١٣٤
المصطلحات النفسية ٤٥٠،٦٧٨
معاهدات الصلح ٢٠١
معجم الحيوان استدراك ٥٥٤
مكتبة المقتطف ١٠٨ — ١٢١
و٢٤٤_٢٥٢ و٣٧٦_٣٨٤
و٥١١_٥١٩ و٦٣٦_٦٤٥
و٧٦٩ _ ٧٨٤
مملكة المرأة ٩٩_١٠٥ و٢٢٥_
٢٣٨ و٣٥٩_٣٧٤ و٤٩٧_
٥٠٩ و٦١٣_٦٢٤ و٧٥٣_٧٦٥
من السدم النارية الى
الانسان العاقل ٢٦١

وجه

منشوكو امبراطورها ٤٨٧
المنصور واعظةً ١٩٨
الموت ما هو ٣٠٤
المولود جنسهُ والصودا ٥٢١

(ن)

النَسَأ تشخيصهُ ١٩٦
النمسا مشكلاتها ٤٨١
النهضة الكمالية ٧٣
* النيل في العهد الفرعوني ٥١
و١٧٨ و٢٩٦

(ه)

هابر الكيماوي وفاته ٥٢٢
الهارب رجوعهُ (قصيدة) ٢٧٥
الهرم الرابع حوله ٤٤٩

هكسلي الدوس تلخيص وجه
روايتهِ ٥٧٧
الهليوم في ايطاليا ٥٢٣
الهم والصحة ٦٤٨
هنري بوبي امبراطور
منشوكو ٤٨٧
هيكل ارنست ٣٨٥

(و)

الوطنية في الشرق الادنى ٧٣٦

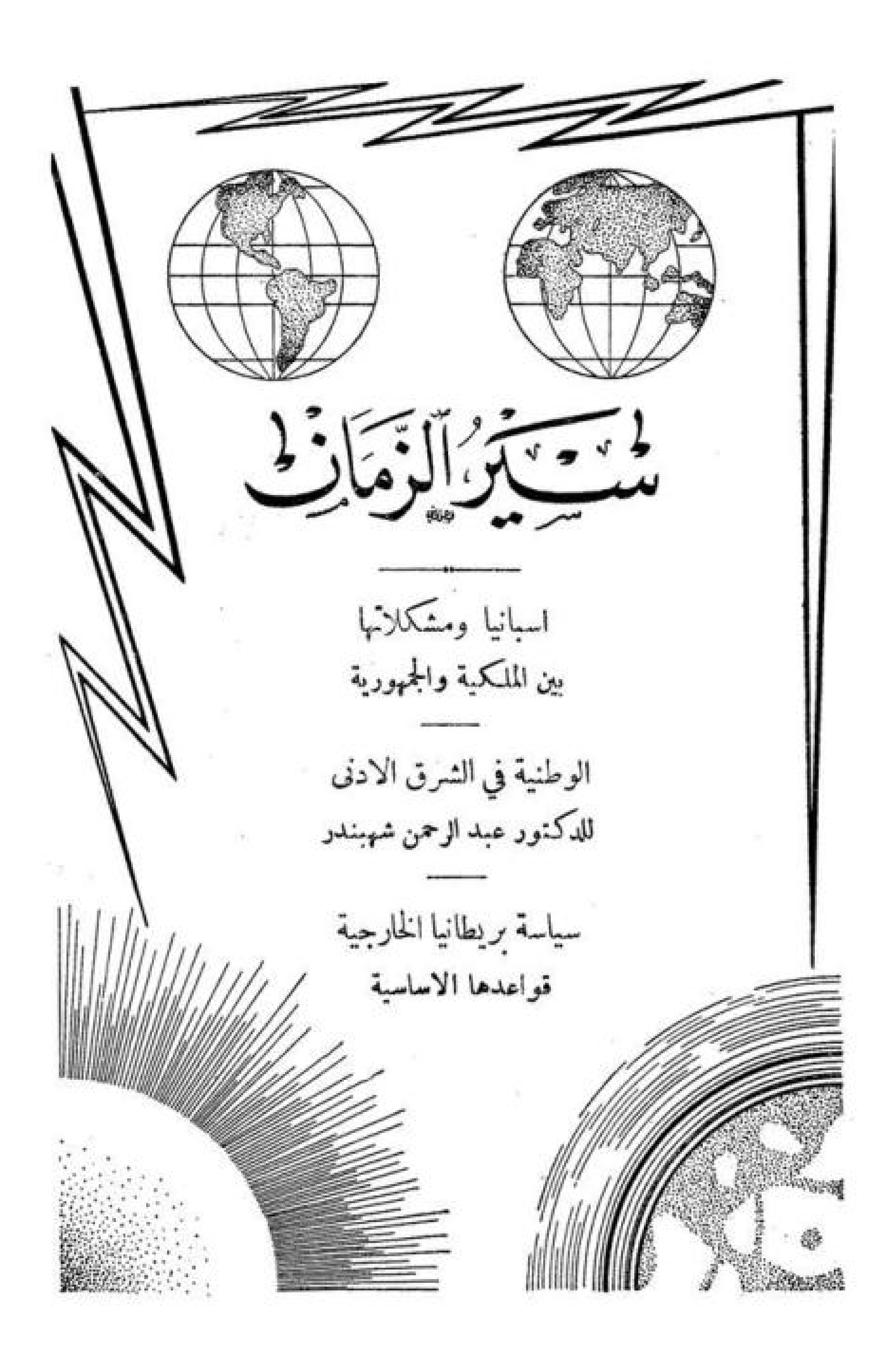
(لا)

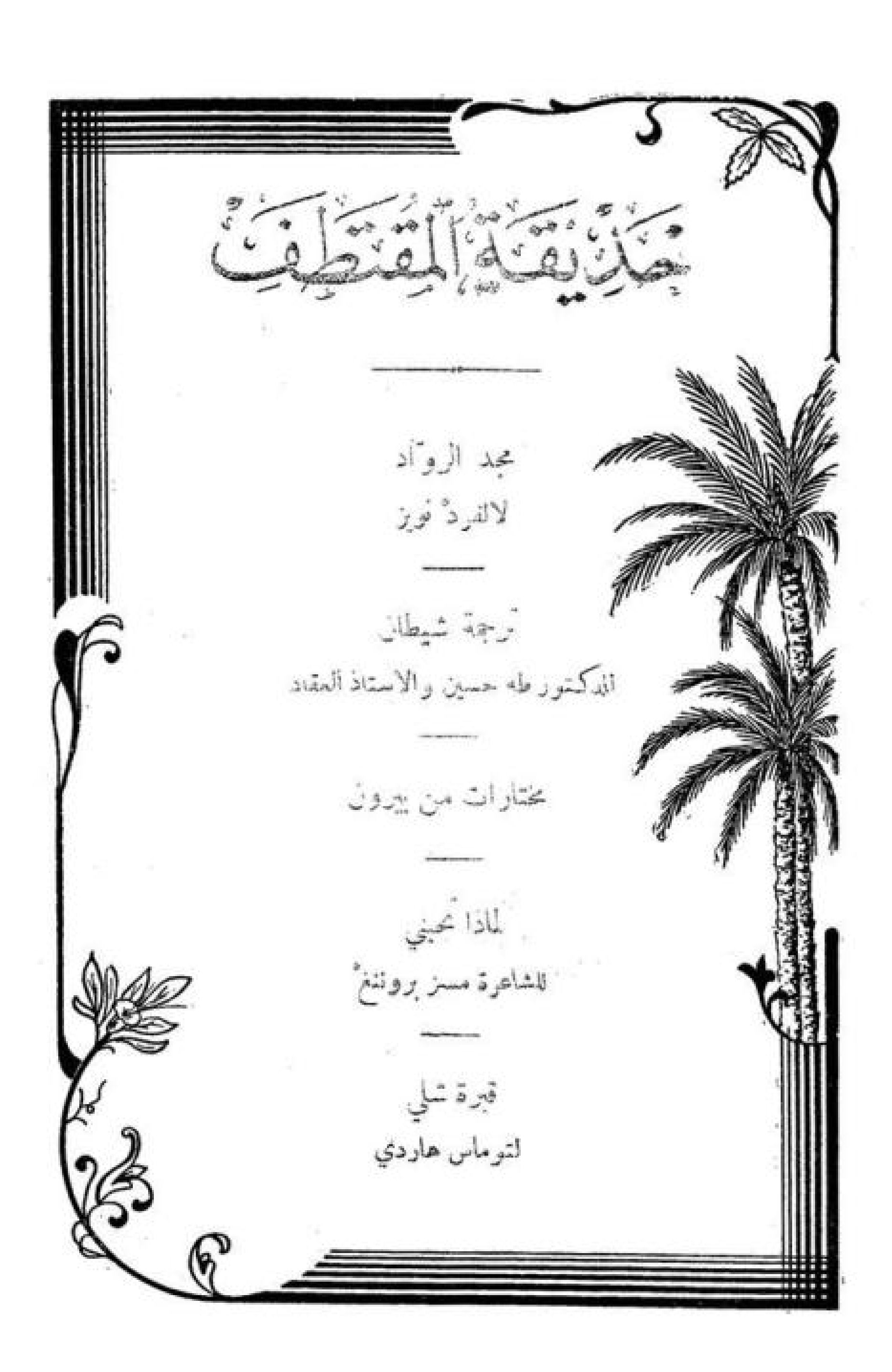
اللاسلكي اصداؤه وتعاون
هواتهِ ٦٤٨
* لافوازييه ٥٢٥

(ي)

اليابان القوى الروحية فيها ٣٤٦
اليمن وآل سعود ٦٠٠




سير الزمان
اسبانيا ومشكلاتها
بين الملكية والجمهورية
الوطنية في الشرق الادنى
للدكتور عبد الرحمن شهبندر
سياسة بريطانيا الخارجية
قواعدها الاساسية



حديقة المقتطف

مجد الرواد

لالفرد نويز

ترجمة شيطان

الدكتور طه حسين والاستاذ العقاد

مختارات من بيرون

لماذا تحبني

للشاعرة مسز براوننغ

قبرة شلي

لتوماس هاردي


مملكة المرأة
المرأة الفرنسية
حقوقها وآدابها ومكانتها الاجتماعية
الزوجة ام الولد
للشاعر تنيسون
الجمال والصحة
الاكنة او حب الصبا
عقل الطفل
لاحمد عطية الله
الامراض النفسية
للدكتور شكري جرجس



مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

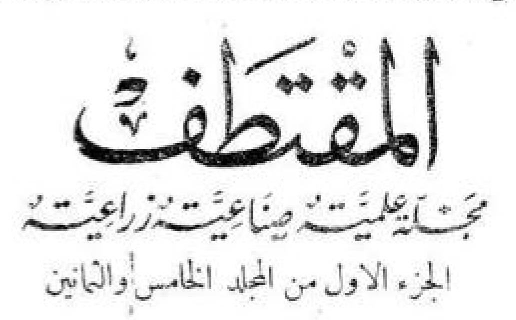
AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

EDITED BY DR. Y. SARRUF

VOL LXX No 5

FOUNDED 1876 BY DRS. Y. SARRUF & F. NIMR



١ يوليو سنة ١٩٣٤ — ١٩ ربيع الاول سنة ١٣٥٣

لبنات الكون

الدقائق الاساسية في بناء الاجسام

الالكترون والبروتون والنوترون والبوزيترون (١)

من الاقوال المعزوّة الى السر جيمز جينز العالم البريطاني الكبير ان الرياضي فقط ، يستطيع الاجابة عن مسائل تتعلق ببناء الكون المادي . وانه اذا اجاب فلا يفهمهُ الاَّ رياضي مثله . وقد يكون هذا القول صحيحاً . ولكن الطبيعة الانسانية لا تحتاج الى تثبت من الرياضة العالية لكي تستثيرها انباء المكتشفات الحديثة في عالم الذرّ . خذ مثلاً على ذلك رجلاً يدعى ديراك . فهو استاذ من اساتيذ جامعة كمبردج . عمد في سنة ١٩٣١ الى المرقم والورق والمعادلات الرياضية العالية ، فأنبأ بوجود دقيقة غير معروفة من الدقائق التي تتركب منها الاجسام . وفي سنة ١٩٣٢ كان الاستاذ كارل اندرسن الاستاذ بمعهد كاليفورنيا التكنولوجي يراقب صوراً لاصطدام الاشعة الكونية بذرّات الهواء وجزيئاته ، فرأى شيئاً يتصرف تصرف الدقيقة التي انبأ بها ديراك . هذا هو البوزيترون ندّ الالكترون الحقيقي وصنوهُ واحدث اللبنات في البناء الكوني . بل قبيل اكتشاف البوزيترون اكتشافاً تجريبيًّا كان الاستاذ شدك — من جامعة كمبردج كذلك — قد اكتشف النوترون . فأضيف هذان الاكتشافان اذ كانت الآراء متعددة متباينة في تعليل الاشعة الكونية وأصلها ، والكون الآخذ في الاتساع وطبائعه ، فقال الفلكي الاميركي الاستاذ شابلي « الفروض العلمية اكثر

(١) فصل من كتاب « فتوحات العلم الحديث » الذي صنفه رئيس تحرير المقتطف ليكون هديته السنوية ١٩٣٤

مما نحتاج اليهِ» . وشبَّههُ ولز العلم الحديث بمجدّ غنيّ جاء الى ملعب احفاده بطائفة كبيرة من اللعب فأصبح الاطفال وهم لا يدرون ما يفعلون بها جميعاً

ولكن هل هذه الفروض العلمية الكثيرة ألاعيب حقيقةً نتسلى بها ثم ننبذها ? ألا نستطيع ان نتذكر عبرة التاريخ في هذا الصدد ? ألم ينبيء كلارك مكسول بمعادلاتهِ الرياضية من ستين سنة بوجود الاشعة اللاسلكية ? فهل يصحُّ — ونحن نعلم من عجائب الراديو ما نعلم — ان نقول ان ذلك الاكتشاف الرياضي كان ألهية او العوبة علمية فقط ?

بناء الذرة

كانت الذرة في نظر العلماء ، حتى اكتشاف ظاهرة الاشعاع في اواخر القرن التاسع عشر ، دقيقة لا تتجزأ . فلما تبين ان الراديوم وغيره من العناصر المشعة ، تنفجر ، وتنطلق منها مقذوفات متباينة ، كان حتماً على الباحثين ان يسألوا انفسهم : وكيف يمكن ان تكون الذرّة ، تلك الكرّة الصغيرة الصلبة التي لا تتجزأ ?

وما لبث الباحثون ، حتى اثبتوا ان الاشياء التي تتقذف من عنصر الراديوم على ثلاثة أصناف

(١) دقائق لها وزن نسبيٌّ كبير وتحمل شحنة كهربائية موجبة دعيت « دقائق الفا »

(٢) دقائق خفيفة (اخفُّ من دقائق الفا نحو الفي مرة) وتحمل شحنة كهربائية سالبة . دعيت « دقائق بيتا » وهي الالكترونات

(٣) اشعة شديدة النفوذ لا تحمل شحنة كهربائية ، فدعيت « أشعة غمّا » ثم ثبت انها من قبيل الضوء قصير الامواج اي من قبيل أشعة اكس

وخطر لأحد اساتذة الطبيعة في جامعة « مجيل » الكندية — الاستاذ ارنست رذرفورد وهو لورد رذرفورد الآن — ان يستعمل هذه المقذوفات الراديومية كالقنابل يطلقها على الذّرة ، لعلَّهُ يستطيع ان يحطمها ، فتبيحهُ اسرارها . ووالى تجاربهُ حين عاد الى انكلترا ، الى الجامعة التي تخرّج منها — جامعة كمبردج — فأثبت بالتجربة والبرهان العملي ان الذرة ليست كما ظنَّ من قبل كرة صلبة لا تتجزأ [١] ، بل هي كما تقتضي ظاهرة الاشعاع ، مؤلفة من اجزاء . وكان في خلال تجاربهِ يطلق دقائق الفا على ذرّات الذهب ، فتتخلل الدقائق الذرّات ، وانما كان يتفق احياناً ان ترتدّ احدى الدقائق التي اطلقها ، كأنها صدمت في الذرة كتلة راسية ، فارتدّت عنها بعد اصطدامها بها

فجعل رذرفورد همّهُ ان يبلغ تلك الكتلة : ومضى يطلق القنابل على المعقل ، ويحسب حساباً

(١) السر جوزف طمسن هو اول من اكتشف الالكترون في اواخر القرن الماضي عند بحثه في سير الكهربائية في الغازات

لعدد القذائف التي ترتدّ، وقوة ارتدادها، ومن هذا كله رسم رسماً عجيباً، هو التصميم الاول لبناء الذرّة. فجعل في وسط الذرّة كتلة صغيرة دعاها النواة، وعلى ابعاد متباينة منها — تزيد الوف المرّات على قطر النواة — اقام الالكترونات وهي اجسام صغيرة جدًّا تحمل شحنات كهربائية مضادة ومعادلة لشحنة النواة. وهذه الالكترونات في رسمه كانت تدور حول النواة دوراناً طبيعيًّا كدوران السيّارات حول الشمس

وكذلك تلمّس رذرفورد قلب الذرّة في الظلام

ولكن هل النواة، دقيقة فردة، او مجموعة مندمجة من الدقائق؟ هذا سؤال تصدّى له مارزدن Marsden احد اعوان رذرفورد باطلاق دقائق الفا على ذرة الايدروجين. ودقيقة الفا هذه تفوق ذرة الايدروجين اربعة اضعاف وزناً، فلما اطلقت دقائق الفا على ذرات الايدروجين بسرعة ١٢ الف ميل في الثانية مزّقت الالكترون الذي حولها، فانطلقت نواة الذرّة بسرعة ١٩ الف ميل في الثانية. ولكن مارزدن عجز عن الحصول على جزء من نواة الايدروجين، وفي جميع التجارب التي جرّبها، كانت نواة الايدروجين تتصرف كأنها دقيقة لا تتجزأ

وتلاه رذرفورد فوجّه دقائق الفا الى ذرّات النتروجين. ووزن النتروجين كما لا يخفى يفوق وزن الايدروجين نحو ١٤ ضعفاً. وكانت الدقائق التي اطلقها رذرفورد كذلك قلما تصيب، بل ان معدّل اصابتها كانت بنسبة واحد الى مائة الف. ولكن كلما اصابت احدى دقائقه هدفهُ — اي نواة ذرّة النتروجين — كان ينطلق منها نواة ايدروجين. ثم وجّه قنابله الى ذرّات الصوديوم، تخرج من ذرّات الصوديوم نوى ايدروجين كذلك. ثم وجّهها الى ذرّات الالومنيوم والفصفور، فكان في جميع هذه الحالات، يحصل على نوى الايدروجين

فهل الايدروجين هو المادة التي تبنى منها نوى الذرّات؟ قبل ذلك بقرنٍ من الزمان كان الدكتور بروت Prout احد اطباء ادنبره قد اقترح رأياً مؤداهُ ان جميع العناصر الكيمائية مبنية من الايدروجين. وكان هذا الرأي وليد الخيال في الغالب. ذلك ان بروت نظر في الاوزان الذرية في بعض العناصر فوجدها ارقاماً صحيحة، فقال والخيال رائده، ان الكون اذا كان منسجماً، وجب ان تكون فيه العناصر مركبة من اخف العناصر الذي وزن ذرته واحد اي الايدروجين. واذن فقد يكون الايدروجين، هو الهيولى التي قال بها القدماء. ولكن علماء الكيمياء في ذلك العصر اعرضوا عن رأي بروت واهملوهُ. على ان التاريخ كثيراً ما ينقض اقوال الثقات ويثلّم عروشهم. وكذلك ما انقضى قرن من الزمان على بروت ومعارضي رأيه، حتى تبين لرذرفورد ان نواة الايدروجين تنطلق من كل ذرة يطلق عليها دقائق الفا، واذاً فهي لبنة من لبنات الكون الاساسية فأطلق عليها اسم بروتون او «الاوّل»

وكتلة البروتون تفوق كتلة الالكترون ١٨٥٠ ضعفاً. فكأن كتلة الذرة كلها في بروتونها

خذ بروتوناً واحداً والكتروناً واحداً يدور حواليه ، فأنت امام ذرة من الايدروجين . وهي ابسط الذرات بناءً . وتليها ذرة الهليوم . ووزنها يفوق وزن ذرة الايدروجين اربعة اضعاف . واذاً فذرة الهليوم يجب ان تحتوي على اربعة بروتونات . وانما البحث اثبت ان هذه الذرة الكترونين فقط يدوران حول نواتها . فكيف تستطيع كهربائية الكترونين ان تعدّل كهربائية اربعة بروتونات لان المفروض ان الشحنة الكهربائية الموجبة على البروتون تعادل الشحنة الكهربائية السالبة على الالكترون . وفي سبيل التغلب على هذه العقبة وتخطيها فرض بناة الذرات ان في نواة ذرّة الهليوم الكترونين محبوسين يعدلان بروتونين من البروتونات الاربعة . وكذلك يعدّل الالكترونان الدائران حول النواة البروتونين الباقيين

ثم بسط العلماء صورة بناء الذرة من عنصر الهليوم وأطلقوها على ذرّات سائر العناصر ، لانهم وجدوا ان في كل ذرة منها ، يزيد عدد البروتونات على عدد الالكترونات الدائرة حولها

وكذلك ترى ان نواة الذرة منطقة محشوكة بالبروتونات والالكترونات . ونوى الذرات على ذلك تحتوي على جميع البروتونات في الكون المادي ، ومعظم الالكترونات ، وجلّ ما له وزن، حتى ليكاد الكاتب ان يُغرى بأن يقول « ان الذرة انما هي النواة »

معقل الذرة وفتحه

من النواميس الكهربائية ان الدقائق التي تحمل نوعاً واحداً من الشحنة الكهربائية تتنافر . وقد حسب الاستاذ صدي الانكليزي قوة هذا التنافر . وضرب المثل الآتي عليها لتقريبها الى الافهام. قال اذا اخذنا غراماً من البروتونات ووضعناه عند القطب الشمالي . واخذنا جراماً آخر ووضعناه عند القطب الجنوبي . فالتنافر بين الجرامين ، يقلّ طبعاً ، كمربع المسافة بينهما . ومع ذلك تبقى قوة هذا التنافر تعدل ٢٦ طنّاً . والغريب في كل هذا ان البروتونات التي تتنافر هذا التنافر العظيم ، محشوكة معاً في النواة حتى ليصعب تفريقها ، لعظم الطاقة التي تربطها

والعلماء لا يستطيعون انّ يحلّوا هذا السرّ ، الاّ اذا مزّقوا النواة واستباحوا اسرارها

فالذرّة في نظر العلماء كالمعقل قلبه حصن النواة ، والكهارب بمثابة القلاع الخارجية التي تحيط به . وقد حملوا على القلاع فحطموها وعرفوا على وجه من الدقة جلّ ما يهمهم معرفته عن الجوّ الالكتروني الذي يحيط بالنواة وبنائه وخواصه . ولكن النواة تنطوي على اسرار يريدون استباحتها فهم لذلك يعدّون المدافع الضخمة والقنابل المدمّرة لتحطيم هذا الحصن . لقد احدثوا ثغرات فيه ولكنهم لا ينون عن الاستنجاد بمدافع جديدة ووسائل مبتكرة حتى يبلغوا غايتهم ، اذا كان بلوغها في متناول الانسان

والقذائف التي يستعملها العلماء لدكّ حصون النواة نوعان . فثمّة اولاً دقائق الفا التي تنطلق

من تلقاء ذاتها من ذرّة الراديوم ، وهي من اسرع المقذوفات التي يستطيع العالم الطبيعي استعمالها ومن اعظمها طاقة ، لذلك قيل انهُ اذا اطلق تيّار من دقائق الفا على مادة من المواد ، فيحتمل ان تصيب دقيقة منها نواة ذرّة من الذرات او تصيب على قرب عظيم منها ، وفي الحالين لا بدَّ ان تؤثر في القوى التي تربط بين اجزاء النواة ، فتفقد النواة استقرارها وتنقسم الى دقيقتين

ومن قبيل دقائق الفا دقائق اكتشفت من عهد قريب تعرف باسم «النوترونات» . ذلك ان عنصر البريليوم اذا قذف بدقائق الفا ، لم تنطلق منهُ بروتونات كما يحدث في النتروجين وغيره . بل ينطلق منهُ اشعاع قوي النفوذ . فأثبت الدكتور شدك الانكليزي ان هذا الاشعاع انما هو تيّار من دقائق لم تمهد من قبل دعاها نوترونات وهي تماثل البروتونات في ان وزن النوترون كوزن البروتون اي واحد (١) ولكن النوترون متعادل الكهربائية حالة ان البروتون موجبها . وهذه النوترونات قذائف عجيبة يمكن استعمالها باطلاقها على نوى ذرات اخرى وهي لتعادل كهربائيتها تخترق ذرات المادة من دون ان تفقد شيئاً كثيراً من طاقتها ، ولا تتمّ على نفسها الاّ اذا اصطدمت بنواة ذرّة من الذرّات . وقد أثبت باحث يدعى « فذر » ان اطلاق النوترونات على الاكسجين يحوّلهُ بقذف دقائق الفا من نوى ذرّاته . وهذه حقيقة لها شأن خاص لان اطلاق دقائق الفا على الاكسجين لم تؤثر فيهِ على الاطلاق

هذا عن النوع الاول من القذائف وهي القذائف التي تنطلق من تلقاء ذاتها من انحلال العناصر المشعة اوما هو من قبيلها ولكن العلماء ادركوا ان توسيع نطاق معرفتهم يقتضي انواعاً جديدة من القذائف لتحطيم نواة الذرة واستباحة اسرارها . وكان معروفاً ان اطلاق تيار كهربائي في غاز لطيف يخرج منهُ مقذوفات منوّعة من ذرّات وجزيئات مكهربة (ايونات) سريعة الانطلاق . فاذا زادت سرعة هذه الذرّات المنطلقة بامرارها في فراغ معرّض لفعل الجذب المغناطيسي ، فقد تصبح سرعتها كافية لاطلاقها على نوى الذرّات بغية تحطيمها

فاذا أطلق مثلاً تيّار كهربائيٌّ في غاز الايدروجين في احوالٍ معيّنة انقذف وابل من القنابل الصغيرة لا ينقذف مثلها من مائة الف غرام من الراديوم في الوقت نفسهِ. ثم ظُنَّ انهُ اذا استعملت تيارات كهربائية عالية الضغط — من رتبة مليون فولط — تمكن العلماء من الحصول على مقذوفات سريعة يستطيعون استعمالها كما استعملوا دقائق الفا من قبل

ومعلوم ان للايدروجين نظيراً وزن ذرتهِ ضعف وزن الايدروجين العادي وهو ما يعرف بالدوتيريوم في اميركا وبالدبلوجين في انكلترا . وقد عمد الاستاذ لورنس الاميركي الى اطلاق نوى الايدروجين الثقيل وهي تعرف باسم دوتونات ثم زاد سرعة انطلاقها بطريقة خاصة استنبطها ، فوجدها افعل في تحطيم الذرّات من البروتونات العادية

والآلات التي بنيت لقذف هذه القنابل آية من آيات الصناعة الكهربائية الحديثة . فآلة الاستاذ

لورنس الاميركي تشتمل مثلاً على مغناطيس وزنهُ ٨٥ طناً من شأنهِ ان يزيد سرعة البروتونات المنطلقة من الغاز حتى تبلغ طاقتها نحو خمسة ملايين فولط . واما الآلة التي بنيت في معهد ماستشوستس الصناعي باشراف الاستاذ فان ده جراف فتطلق مقذوفات بسرعة ٢٦ الف ميل في الثانية

النظائر وسرّ النواة

كان العلماء يعتقدون ان ذرّات كل عنصر تشتمل على عدد ثابت من البروتونات والالكترونات . فذرّة الاكسجين مثلاً تشتمل على ١٦ بروتوناً و١٦ الكتروناً . ومن قبل كان الكيماويون قد عيّنوا وزن الاكسجين الذرّي فجعلوهُ ١٦ وقاسوا عليهِ الاوزان الذرية لسائر العناصر . فلما اكتشف طمسن طريقتهُ المغناطيسية العجيبة[١] لمعرفة اوزان العناصر ثبت ان معظم ذرّات الاكسجين وزنها ١٦ ولكن بعضها وزنهُ ١٧ او ١٨ ومتوسط نسبة هذه الذرّات التي وزنها ١٧ او ١٨ الى الذرّات التي وزنها ١٦ كنسبة ١ الى ٥٠٠ ثم ظهر ان عنصر الرصاص لهُ ثمانية اصناف من الذرّات مختلفة الوزن . واما عنصر الزئبق فلهُ تسعة اصناف وكذلك عنصر القصدير لهُ احد عشر صنفاً

هذه الاصناف من العنصر الواحد تعرف باسم « النظائر » isotopes اطلقهُ عليها الاستاذ صدي الانكليزي . وقد ثبت حتى الآن ان ٧٢ عنصراً من العناصر الكيمائية لكل منها نظيران او اكثر بل قد ظهر ان للعناصر التي درست نحو ٢٧٠ نظيراً ، وهذا يعني ان نواة كل نظير تختلف وزناً عن نواة النظير الآخر ، لان كتلة الذرّة في نواتها

وفهم النظائر أمر لا ندحة عنهُ لفهم الحملة التي يوجهها العلماء الى نواة الذرّة . فهي اولاً قد تمكنهم من ان يلمحوا شيئاً من بنائها . وثانياً لانها تبين لهم عظم القوى التي تربط بين اجزائها . ذلك ان وزن النواة اقلّ من مجموع اوزان اجزائها . خذ مثلاً دقيقة الفا . فهي في الواقع نواة ذرّة الهليوم . ووزنها ٤٫٠٠٢ ولكن دقيقة الفا مكونة من اربعة بروتونات والكترونين ومجموع اوزان هذه الاجزاء ٤٫٠٣٢ فنواة الهليوم تزن ٠٫٠٣٠ اقل من وزن اجزائها . هذا الفرق في الوزن يمثل المادة التي تحوّلت الى طاقة عند تكوين دقيقة الفا من اربعة بروتونات والكترونين . والطاقة التي تنشأ عن تحوّل هذا القدر من المادة الى طاقة تعدل ٢٧ مليون الكترون فولط[٢] . ولذلك يعد العلماء نواة الهليوم — او دقيقة الفا — من أعسر الدقائق على التحطيم . بيد ان نواة الاكسجين تنقص (٠٫١٣٣٨) عن مجموع اوزان اجزائها . وهذا يعني ان هذا القدر من المادة قد تحوّل الى ١١٥ مليون الكترون فولط وهي الطاقة التي تربط بين اجزاء نواة الاكسجين

(١) تشتمل هذه الطريقة على قطبي مغنطيس احدهما ازاء الآخر . ثم يطلق في الفسحة بين القطبين وابل من الذرّات التي أيّنت ionized اي فقدت جزءاً منها حتى اصبحت لها شحنة كهربائية . فيجذب المغناطيس هذه الايونات ومقدار الجذب يختلف باختلاف كتلة الذرة

(٢) اي طاقة الكترون سائر بضغط كهربائي قدره ٢٧٠٠٠٠٠٠ فولط

فلما اكتشفت نظائر الاكسجين اخذ بعض العلماء المدققين يحسبون . قالوا ان وزن نواة الايدروجين يعدل $\frac{1}{16}$ من نواة الاكسجين بعد حساب ما يتحول من المادة الى طاقة كما تقدم . وعلى هذا يفهم كون وزن الاكسجين الذرّي ١٦ وان ذرّتهُ مؤلفة من ١٦ بروتوناً وانّ نواة الايدروجين مؤلفة من بروتون واحد . ولكن ما القول في ذرّات نظيري الاكسجين اللذين يزنان ١٧ و ١٨ . ان ١٦ بروتوناً لا يمكن بحالٍ من الاحوال ان تكوّن نواة وزنها ١٧ او ١٨ فكيف يعلل ذلك ؟ هل يمكن ان يكون عنصر الايدروجين عنصراً غير نقيّ ، وهل لهُ نظيرٌ عائله ، في خواصهِ الكيمائية والطبيعية ويختلف عنهُ وزناً ؟

الايدروجين الثقيل

هذا الاعتبار النظري الصرف حمل طائفة من علماء اميركا على البحث. فأتى الاستاذ اليسن (معهد الاباما الصناعي) بأدلة على وجود نوع من الايدروجين تختلف ذرّاتهُ عن ذرات الايدروجين العادي . وعمد الاستاذ يوري (جامعة كولومبيا) والاستاذ بركويد (مكتب المقاييس بوشنجطن) الى تقطير الايدروجين السائل على بردٍ قريبٍ من درجة الصفر المطلق فاستفردا ذرات ايدروجين وزن كل ذرة منها ضعف وزن ذرة الايدروجين العادي . فأطلق على هذا النوع من الايدروجين اسم «دوتيريوم» وفي انكلترا دعي « دبلوجين » . وأطلق على نواته اسم « دوتون» في اميركا و «دبلون» في انكلترا . وقد كان لاكتشاف هذا النظير شأن خطير في دوائر العلم ، يفوق ما كان لاكتشاف النظائر الاخرى من خطورة الشأن . ذلك ان نواة هذا النظير نوع جديد من النوى يجب استكشافه ومعرفة بنائهِ . ثم ان الدوتونات نفسها تستعمل الآن كقذائف تطلق على نوى العناصر والنظائر المختلفة بغية تحطيمها[1]

النوترون وبناء النواة

في اوائل سنة ١٩٣٢ اذيع من انكلترا ان الاستاذ شدك اكتشف دقيقة جديدة اطلق عليها اسم « النوترون » . هذا الاكتشاف يمكن ان يؤخذ دليلاً على اسلوب العلم وعلى شيوعيته . ذلك ان طوائف من العلماء ، في بلدان مختلفة ، مهدوا بمباحثهم الطريفة ، الطريق لاكتشاف النوترون على يد الاستاذ شدك

ففي سنة ١٩٣٠ كان العالمان الالمانيان بوث Bothe وبكر Becker يطلقان دقائق الفا على لوحة من معدن البريليوم . فكانت الدقائق المسدّدة ، تصيب بعض نوى البريليوم فتطلق هذه من تلقاء نفسها اشعة غريبة شديدة النفوذ . فظن بوث وبكر ان هذا الاشعاع من قبيل اشعة غمّا التي تخرج

(١) راجع آخر الصفحة الخامسة من هذا المقال

من الراديوم وانما تفوقها طاقة وقوة اختراق . وفي سنة ١٩٣١ قام الاستاذ جوليو الفرنسي وزوجته (كريمة مدام كوري) بتجارب من قبيل تجارب الالمانيين

فوضعا حوائل من مواد مختلفة بين البريليوم الذي يطلق هذه الاشعة وغرفة التأيين ionization chamber [١] فوجدا انهُ اذا كان الحائل من مادة فيها غاز الايدروجين كمادة البرافين ، زاد عدد الايونات المتولدة في غرفة التأيين وهو غير منتظر ، بل المنتظر حجب بعض الاشعة الصادرة من البريليوم بواسطة هذا الحائل . ويعلل ذلك بأن هذه الاشعة الصادرة من البريليوم تصيب بعض ذرات الايدروجين في البرافين فتطلق بروتوناتها بسرعة ١٨ الف ميل في الثانية . فقالا اذا كانت اشعة البريليوم امواجاً فطاقتها يجب ان تكون ٥٠ مليون الكترون فولط

واذن فهذه الظاهرة عجيبة تثير الدهشة لان المواد المشعة لا تطلق دقائق لها طاقة تزيد على ٦ ملايين الكترون فولط مثل دقائق الفا المنطلقة من عنصر البولونيوم . واذن فالبريليوم يطلق اشعة تفوق طاقتها عشرة اضعاف طاقة الاشعة المسدَّدة اليهِ وهذا غريب

ففرض جوليو وزوجتهُ ان هذه الاشعة المنطلقة من البريليوم امواج ، وانها في قصرها وقوة نفوذها تقع بين اشعة غما التي تخرج من الراديوم والاشعة الكونية التي كشفها ودرسها ملكن ورهط من اكبر علماء العصر

قرأ شدك عن هذه التجارب العجيبة ، فعمد الى أنابيب قديمة من الراديوم كانت قد اهديت اليهِ ، بعد ما فقد الراديوم فيها خواصه العلاجية ، فاستخرج منها عنصر البولونيوم وهو يختلف عن الراديوم في انهُ لا يطلق الاَّ دقائق الفا حالة ان الراديوم يطلق دقائق الفا وبيتا واشعة غما . وكان يعلم ان طاقة دقائق الفا ٦ ملايين الكترون فولط . فاذا كانت تستطيع هذه الدقائق ان تقذف من البريليوم اشعة طاقتها ٥٠ مليون الكترون فولط فهو اما امام ظاهرة غريبة جديرة بالبحث حرية بالتفسير

اطلق شدك دقائق الفا من عنصر البولونيوم على البريليوم ووضع بين البريليوم وبين غرفة التأيين حائلاً من النتروجين ، فكانت الاشعة المنطلقة من الراديوم على النتروجين عنيفة كل العنف حتى انها احدثت في غرفة التأيين ٣٠ الف ايون . هنا توقف شدك وقال : لو كانت اشعة البريليوم التي اصابت النتروجين من طاقة ٥٠ مليون الكترون ڤولط ، لما استطاعت — بحسب النواميس المسلَّم بها — ان تحدث مثل هذا العدد من الايونات . بل لما استطاعت ان تحدث اكثر من ١٠ آلاف ايون

ولكن اذا فرض ان الاشعة المنطلقة من البريليوم هي دقائق مادية كتلتها ككتلة البروتون وتسير بسرعة تعدل عُشر سرعة النور فاحداثها ٣٠ الف ايون في غرفة التأيين يصبح امراً معقولاً

---

(١) اداة تستعمل لقياس قوة الاشعة وهي غرفة تحتوي على غاز . فاذا مرت فيها تيار نزع بعض الالكترونات من الذرات فتصبح ايونات (اي دقائق مكهربة او شوارد كما دعاها بعضهم) وتحصى هذه الايونات فيقاس بعددها قوة التيار

ثم اذا فرض ان هذه الدقائق لا تحمل شحنة كهربائية — وهي لذلك لا تتأثر بالجذب المغناطيسي — فعندئذٍ يمكن تعليل قوة اختراقها للمواد على اوفى وجه

وكذلك كشف عن «النوترون» . وقد اثبتت التجارب ان النوترونات يمكن اطلاقها من مواد اخرى عدا البريليوم . والرأي الآن على ان النوترون لبنة اساسية في بناء نواة الذرّة

ولكن بناء النوترون نفسه مثار للجدل . فبعضهم يحسبه دقيقة فردة لا تتجزأ . وبعضهم يذهب الى انهُ مؤلف من بروتون والكترون وقد حشكا معاً فلا ينفصل احدهما عن الآخر . وهذا الرأي يعلّل لنا مشابهة النوترون للبروتون وزناً . ويعلل كذلك تعادل كهربائيته لان شحنة البروتون فيه تعدّل شحنة الالكترون . فهو بحسب هذا الرأي ذرّة ايدروجين ولكن المسافة فيها بين البروتون والالكترون قريبة جداً حتى تكاد تكون معدومة

ان بناء النوترون على هذه الصورة يغيّر الرأي في بناء نواة الذرة . كنا من قبل ، نفرض ان النواة مؤلفة من بروتونات والكترونات كل الكترون منها يعدّل بروتوناً ولما كان عدد البروتونات يزيد على عدد الالكترونات فالعدد الزائد من البروتونات تعدله الالكترونات التي حول النواة . فأصبحنا اليوم نقول ان النواة مؤلفة من بروتونات ونوترونات . وكذلك نستطيع ان نفهم بناء الدوتون (ذرة الدوتيريوم او الايدروجين الثقيل) فنواة الايدروجين الثقيل مؤلفة من نوترون (بروتون والكترون متلاصقين او يكادان فيعدّل احدهما الآخر) وبروتون . وخارج النواة الكترون واحد يعدل البروتون الذي داخلها . اما نوى الذرات في العناصر الثقيلة فقد تكون مبنية من مجموعات من البروتونات والنوترونات والدوتونات والهليومات (heliums اي نوى ذرات الهليوم وكل منها مؤلف من اربعة بروتونات) فنواة الاكسجين تتصرف كأنها مؤلفة من اربعة هليومات (١٦ بروتوناً) . اما البريليوم فعنصر اقل استقراراً والمرجح ان نواته مؤلفة من هليومين (الهليوم اربعة بروتونات) ونوترون وهذا هو النوترون الذي ينطلق منها عند توجيه دقائق الفا الى البريليوم كما حدث في تجارب بوث وبكر وجوليو وشدك . وقد جاء في الصحف العلمية من عهد قريب ان اطلاق الدوتونات على عنصر الليثيوم كان افعل في قذف تيارات النوترون من اطلاق دقائق الفا على البريليوم

البوزيترون صنو الالكترون

واذ كانت الدوائر العلمية دهشة متحمسة ، لكشف النوترون وامكان استعماله في تصحيح بعض الآراء العلمية السائدة عن بناء نواة الذرّة ، جاءت الانباء بكشف دقيقة اخرى يرجّح انها كذلك من لبنات الكون الاساسية

جاء هذا الكشف بطريق العَرَض . ذلك ان الاستاذ لورنس كان يبحث في الاشعة الكونية . والاشعة الكونية شديدة النفوذ تخترق لوحاً سمكهُ بضع اقدام من الرصاص . ولكنها تعيي الباحثين فلا يستطيعون درسها مباشرة . ولذلك يعمدون الى فعلها في دقائق الهواء . ذلك ان هذه الاشعة تصيب بعض دقائق الهواء فتؤينها (اي تزيل جانباً منها فيصبح الباقي ولهُ شحنة كهربائية) وفي سنة ١٩٢٩ حاول العالم الروسي سكوبلزن Skobelzyn ان يصوّر مسارات الاشعة في غرفة غائمة[1] وتبعهُ ملكن واندرسن فحسّنا الطريقة واتقناها وصوّرا بها مسارات الاشعة الكونية كما يدل عليها اصطدامها بدقائق الهواء في غرفة غائمة . في هذه الصور لاحظ اندرسن عدا مسارات الاشعة الكونية خطوطاً مزدوجة ومنحنية فاسترعى نظرهُ اولاً ان هذه الخطوط المنحنية لا تكون الاَّ ازواجاً . وثانياً ان احدها منحرف الى اليمين والآخر الى اليسار . اي ان احدها سالب والآخر موجب . وتبيّن عند البحث ان الخط السالب المنحني انما هو الالكترون . ولكن لم يستطع احد ان يعلل الخط الموجب . ذلك ان اصغر وحدة للكهربائية الموجبة عرفت حتى ذلك الوقت كانت وحدة البروتون . وكتلة البروتون تفوق كتلة الالكترون ١٨٥٠ ضعفاً . فاذا كان الخط الموجب يمثل البروتون فيجب ان يكون انحرافهُ اعظم جداً من هذا الخط البادي في الصورة

فقال اندرسن في ذاته ، ان البروتون ليس صنو الالكترون بل صنوه دقيقة اخرى اصغر من البروتون كتلتها مثل كتلة الالكترون وشحنتها موجبة بدلاً من ان تكون سالبة . ودعا هذه الدقيقة البوزيترون . ثم توالت التجارب فأيدت اكتشاف اندرسن واشهرها التجارب التي قام بها بلاكِتْ واوكياليني في كمبردج

***

وقد اختلف العلماء في تسمية هذه الدقيقة فقال بعضهم ان لفظ بوزيترون قد يخدع الاَّ اذا تخلّينا عن لفظ الكترون وسميناهُ نغاترون . ونحن نستطيع ان نتغلب على هذه الصعوبة فنسميهما الكهرب الموجب (البوزيترون) والكهرب السالب (الالكترون)

***

وكذلك يرى القارىء ان لبنات الكون ، ونحن نكتب هذه الكلمات في منتصف سنة ١٩٣٤ هي اربع : الالكترون (الكهرب السالب) والبروتون (الاوّيل) والنوترون (المحايد اي لاسالب الشحنة ولا موجبها) والبوزيترون (الكهرب الموجب) . وكل دقيقة من هذه الدقائق لا تزال لغزاً من الالغاز ، ومن يدري فقد تسفر المباحث الجارية الآن عن نتائج تجعل لبنات الكون الاساسية اكثر من اربع ، او قد تحوّلها الى اثنتين فقط هما الكهربان الموجب والسالب

(١) الغرفة الغائمة طريقة تتبين بها مسارات الدقائق التي تمكن رؤيتها بما تتركه من الاثر في الطريق الذي تسلكه

روح القصة في الأدب الحديث

لحسن محمود

كنت في احدى الليالي جالساً في مقهى مع جماعة من الادباء وتثار الحديث فاصطفى كل واحد منا واحداً من الجماعة يتحدث اليه في صوت رفيق ومال اليّ احد افراد الجماعة يسألني ما هي الكتب التي قرأتها في السنوات الاخيرة فوجدت فيها اكبر مثال للنزعة الحديثة في الادب القصصي فجذبت ورقة امامي وانتضيت القلم واخذت ارسم خطوطاً ورموزاً في غير قصد كي يكون لديّ مجال للتفكير فاني والحق اقول حرت في الاجابة ولكنني رأيت ان اترك الامر للعاطفة بدلاً من الفكر فاذا هي تملي عليّ اسماء لكتب اربعة ظهر بعضها منذ سنوات وظهر البعض في السنتين الاخيرتين وهذه الكتب بحسب ظهورها رواية توماس مان الالماني التي اسمها « الموت في البندقية » ورواية اندريه جيد الكاتب الفرنسي التي اسمها « المزيفين » ورواية « الامواج » لفرجينيا وولف الكاتبة الانجليزية ورواية « عالم جديد جريء » لالدس هكسلي

وما ان كتبت هذه الاسماء الاربعة حتى عجبت لنفسي لانني لم اضع بين هذه القصص قصصاً كنت ولا ازال اعجب بها واتخذها مثالاً للادب الحديث : فماذا لم اختر كتاباً من كتب د. ه. لورنس مثلاً ؟ ولماذا لم استشهد بفن جيمس جويس في رواية « عوليس » ؟ لست بمستطيع ان اقول ان توماس مان كسر في قصة « الموت في البندقية » قيود القصة القديمة كما فعل مؤلف « عوليس » الذي حاول ان يصور حياة مدينة بأسرها في اقصر من يوم وليلة ويرسم كل ما يمر بخلد رجل في اثناء تفكيره ، عجبت لنفسي اذ وضعت قصة نشرت في سنة ١٩١٢ مثل قصة « الموت في البندقية » الى جانب قصة نشرت في سنة ١٩٢٥ مثل قصة « المزيفين » الى جانب قصتين ظهرتا في السنتين الاخيرتين وعجبت لنفسي اذ لم اميز بين قصة قصيرة مثل « الموت في البندقية » وبين قصص طويلة من النوع الذي اصطلحوا على تسميته بالرواية

كل ذلك اخذته على نفسي ورأيت انني ربما تسرعت في الحكم وآثرت مجرد الميل على الوصول الى الحقيقة . ولكنني كلما اطلت التفكير وجدت ان اختياري لم يكن عبثاً واني اذا كنت قد اغفلت روايات فيها مثال حي للنزعة الحديثة فبعدت عن لورنس وادبه واغفلت جيمس جويس وتعقيداته

واهملت مارسيل بروست ودقائقه النفسية فاني لم اكن في اختياري غير موفق ولم اكن عن الصواب بعيداً

وربما كنت اجد في لورنس ما يتخذ مثالاً للنزعة الحديثة : في « قوس المطر » وفي « عصا هارون » بل اكثر من ذلك في « الثعبان ذي الريش » ، ففي لورنس نجد نزعات حديثة بادية في اكثر صفحاته — وان مباحثهُ ودورانه حول اللذة الجسدية وتمجيده لها وحرقه البخور دائماً امام آلهة الحب واللذة نزعة حديثة من نزعات هذا العصر وانهُ لمن المستطاع ان نقرأ ما شئنا من ادب عصر الملكة فيكتوريا دون ان نجد اثراً لتلك النزعة ، قد نجد تيارات قليلة دائمة في جميع عصور الادب ولكنها تيارات خفية وربما قيل ان النزعة الواقعية تصف نقائص الناس ومثالبهم وتصور الامور بحيث لا ترحم سرًّا ولا تكتم تفصيلاً ولكن النزعة الواقعية تغفل ذلك ابداً عن غرض هو تصوير الحياة الواقعية فحسب ، فليس في ادب القرن التاسع عشر — فيما عدا الطلائع التي تسبق العصر بزمن مديد — ما يشبه دعوة لورنس وليس لورنس وحده بل البعض من معاصريه ايضاً ، فتمجيد اللذة الجسدية واتخاذها قاعدة للحياة هي نزعة حديثة بلا ريب ولكن ما اخطأ فيهِ لورنس هو اعتباره ان اللذة الجسدية هي القاعدة الوحيدة للحياة انما نعيش من اجلها او يجب ان نعيش من اجلها ، وانما نموت من أجلها او يجب من أجلها ان نموت. وفي ذلك كان لورنس يعارض أدب العصر السابق له الذي تجرد من اللذة الجسدية او لم يذكرها الاَّ في معرض الذم ولكن لورنس ذهب الى أبعد من ذلك فقد اتخذها ديناً ونصب نفسهُ لهذا الدين كاهناً ومبشراً وتكلم عن هذا الدين بتعصب الدعاة الاول عن عقيدة ثابتة فيما يبشر بهِ ويدعو اليهِ وربما كان مبلغ هذا التعصب ومداه ناجماً عن علة نفسية كما يقول البعض ليست هي الاغراق في معرفة اللذة وانما هي الحرمان من معرفة اللذة وربما كان لعلة نفسية اخرى ولكن مهما يكن الاسر فان دعوة لورنس لاقت نجاحاً وصار لدين اللذة مكان معترف بهِ في العالم الادبي الحديث ولكن لحسن الحظ لم يأخذ العالم بمقاييسه فقد قبل التعاليم على أن يضمها الى عقائده الاخرى ، فليست اللذة الجسدية إذن — وهي الطابع الغالب على مؤلفات لورنس — هي ما نريد ان نعتبره نزعة حديثة فقد يكون الاهتمام باللذة الجسدية احدى النزعات ولكننا نبحث عن روح الادب الحديث ونزعته في تياره الاكبر

وفي مارسيل بروست اين نجد النزعة الحديثة؟ نحن نعلم ان بروست اختطَّ في قصصه خطة تكاد تكون فريدة وعرض لنا صوراً في طريقة غريبة ابتدعها فقد رسم لنا حياة مارسيل وبطل قصته وهو طفل يفكر تفكير البطولة المبكر وفي منزل سوان ذلك السيد البسيط الذي كان صديقاً لأمير من اكبر الامراء وصوَّر لنا حياة ذلك السيد يتقلب بين الشك والغيرة وصوَّر حب مارسيل لجلبرت وخيبته ثم رغبته في التخلص من شبح هذا الحب ثم تقلبه في شمس الدوقة جرمانت وما يحوطها من جوٍّ ارستقراطي يعرفهُ بروست حق المعرفة وما فيهِ من ديدان مزخرفة وحشرات مذهبة ووصف

لنا حياة شارليس العجيبة وميوله الزائغة يحمل سراً خائفاً مضطرباً مهدم الاعصاب

هذا الفن قائم على التحليل الدقيق المسهب الى درجة الاملال وان كان شديد الجاذبية فذلك الفحص المستمر وتقطيع الجسد وما داخل الجسد وفحص كل جزء بمنظار — ذلك العزف على وتر واحد وتكرار نغمة واحدة ، وتلك الصور المتتابعة في اسلوب متصل معقد ان هو الا نزعة حديثة في الادب . ولكن هل هي روح العصر الحديث ؟

ثم جيمس جويس الذي يشبه بروست في طريقته بعض الشيء وان كان يختلف عنهُ في نواح متعددة ماذا يظهر لنا من عناصر جديدة ؟ انهُ يروي لنا قصة يوم واحد او اقل من يوم من حياة رجل عادي من اهل دبلن هو المستر بلوم اليهودي الاصل الذي جاوز الاربعين من العمر وهو رجل مرهق بعمله اذ هو منظم اعلانات وبحكم هذا العمل يدخل هذا المتجر وذاك وبحكم هذا العمل يكون مع الناس رفيقاً ولهم مداهناً ، ثم يصوّر لنا الكاتب امرأته الحسناء التي تخونه وتتخذ خليلاً بعد خليل وهو حزين لذلك مهموم ولكنهُ لا يجرؤ على اتخاذ خطوة حاسمة لانهُ لا يجد في نفسه من علائم الرجولة ما يساعدهُ على ذلك ونرى صورة ستيفن ديدالوس الذي عرفناه في صباه في رواية سابقة لجويس وصف فيها حياة هذا الصبي وهو يتعلم في المدارس ورأينا نموه الذهني والجسدي ، وهو في رواية «عوليس» فتىً يستعد لاتمام دراسته في فرنسا ونتتبع في هذه الرواية حركات بلوم في يومه وزراه ينتقل من مكان الى مكان ويقوم بأعمال عدة اكثرها بعيد عن عمله حتى ينصرف الى ستيفن اي حتى يعثر تليماك على عوليس كما في «الاوديسة»

***

اراد جويس ان يصوّر لنا حياة رجل في اقل من يوم وليلة داخل المدينة ولكنهُ اراد اكثر من ذلك ان يعكس لنا حياة مدينة عظيمة صاخبة بحسناتها ورذائلها . ثم اراد ابعد من ذلك ان ينقل الصور التي تمر في مخيلة العقل الانساني وهو في غمرات الحياة . وهذا ما دعا جويس الى ان يخلق لنفسه اسلوباً جديداً مليئاً بالاستعارات والتشابيه والاشارات الى حوادث ماضية وهو اسلوب يصعب تتبعه ولكنهُ ابتدع ليؤدي الغرض المقصود منهُ وليس أدلّ على صحة هذا القول من المقابلة بين اسلوبه في مجموعة القصص المساة « أهل دبلن » وبين أسلوبه في « عوليس » ثم بين اسلوبه في «حياة الفنان في صباه» واسلوبه كذلك في «عوليس»

ولا ريب في ان تعقد الاسلوب ظاهرة من ظواهر الادب الحديث وهي نتيجة للتعمق في التحليل النفسي ونجد هذه الظاهرة واضحة في كل من بروست وجويس وقد بنيت على فكرة جديدة في فن القصة . فالكتّاب المحللون يزعمون ان القصة كما نراها في الكتّاب الذين يسيرون على المبدأ القديم ان هي الا نتيجة الانتخاب والاختيار فالروائي يختار ما يريد ان يقوله عن شخصيات روايته ويكتم ما يريد ان يقول ويصف جوانب منهم ويسكت عن جوانب ويتكلم عن مواقف ويهمل

مواقف فيوفق احياناً ويخطىء احياناً وهو في الحالين عابث بجزء كبير بل بالجزء الاكبر من الحقيقة يخفيه . فصور الكاتب في روايته ان هي الا صور مبتورة واذا بدت للقارىء صوراً كاملة ، واذا بدت له في ثوب الحقيقة فانما ذلك نتيجة عمل ذهني كان من الاولى ان لا يحدث

وهذه النظرية هي بلا ريب خطوة نحو الطريق الصحيح وبها اخذ الكتّاب في الادب الحديث بوجه عام غير ان البعض تطرّف فيها والبعض لم يتطرّف ونجد عناصر هذا المذهب في لورنس ونجد استعمالاً مستمرّاً له في جويس وفرجينيا وولف وبروست على اختلاف في كل منهم ونجد تطرفاً في استعماله في رواية كرواية « الحج » لمسز ريتشاردسن التي سجلت فيها حياة بطلة روايتها « مريم هندرسن » فأخرجت عشرة اجزاء من هذه الرواية ولما تبلغ بطلة الرواية سن الاربعين . وقد يكون لنا ان نتساءل هل وفقت مسز ريتشاردسن حقيقة في تسجيل هذه الحياة تسجيلاً دقيقاً وهل يمكن لكاتب مهما أُغرق في هذه الطريقة ان يصل الى ان يثبت كل شيء ؟ عقيدتي ان ذلك ليس مستطاعاً

فالاختيار اذن قائم دائماً ومسز ريتشاردسن نفسها لا تستطيع الا ان تكون كغيرها من الروائيين يتبين لنا الآن في وضوح مدى العلاقة بين هذه الطريقة وبين ما يفعله اطباء النفس على طريقة فرويد فالمسلك في الحالين واحد والغرض متشابه : الاطباء يتطلعون الى الوقوف على خفايا نفس العليل فيطرحون عليه في جلساتهم اسئلة عدة يحاولون بها ان يستطلعوا سره الكمين فيقتربون من موضوع هذا السر احياناً ثم يبتعدون بقدر ما يجدون فيه من استعداد الى ان يوفقوا في معرفة سرّ الداء وسبب العلة والكتّاب الحديثون يسجلون الدقائق والتفصيلات باسهاب للوقوف على علة الحوادث

***

كل هذه النزعات المختلفة تؤثر بلا ريب في سير الادب الحديث ولكنني لم ارد ان ارى فيها ما يدل على الروح الحقيقية للادب فان هذه الروح في خلاصتها هي شيء ابعد من ذلك ، لقد اردت نزعة خفية تتمثل فيها نفسية العصر وهذه النزعة وجدتها في القصص الاربع التي اشرت اليها

فقصة توماس مان عن « الموت في البندقية » هي بلا ريب من خير القصص التي الفت في هذا القرن حتى لتكاد تبلغ حدّ الكمال وقلما نجد لها مثيلاً في روعة الاسلوب على بساطته وموضوعها رحلة رجل مكدود جاوز الستين مدير لمصرف الماني اضنى العمل جسمه وحطّم اعصابه نال الثروة والجاه ولكنهُ في سبيل ذلك كاد يفقد الحياة فهو يرحل الى البندقية لعلّ شمس ايطاليا وسماءها يعيدان اليهِ شيئاً من الصحة التي يلتمسها وقد وجد الراحة الجسدية ولكنه وجد تعباً نفسيًّا فان عاطفة غريبة غير معقولة تولدت فيهِ هي اهتمامه بغلام في نحو الحادية عشرة من عمره اهتماماً لا يدري هو سببه وازدياد هذا الاهتمام الى ان صار شاغلاً لتفكيره فلا يطيب له شيء غير مراقبة

الغلام مراقبة دائماً ، وانتشرت الكوليرا في اثناء ذلك بمدينة البندقية فأسرع الاجانب الى الرحيل عنها ويزمع اهل الغلام الرحيل فيذهب الرجل المحطم ليرقب الغلام في سفره ويودعه بآخر نظرة فيجلس على مقعد وعينه لا تتحول عن غلامه الذي لم يتصل به قط ولو بكلمة واحدة ويتحرك القطار فاذا الرجل يرتمي على المقعد ميتاً

***

لم يخرج توماس مان في وضع هذه القصة عما هو مألوف ولكن فيها الروح الحديثة التي نشير اليها لا نعني ذلك الحب غير الطبيعي الذي شعر به رجل جاوز الستين لغلام في الحادية عشرة من عمره ، حب لا يمكن ان ينشأ عنه شيء وليس له غاية وانما الذي نعنيه هو تصوير ذلك القلق والاضطراب النفسي الملازم للحياة الحديثة فهذا الرجل كان يريد الراحة في سن يستحق فيها هذه الراحة ويريد ان يخلد الى السكون في وقت يجب فيه السكون ولكنه بدلاً من ذلك لا يجد غير التعب الذي خلقه لنفسه كأن الحياة في ضجتها وصخبها وسرعتها تأبى ان تعرف الراحة فاذا كان العالم قد فقد البساطة وتعقدت وسائله المادية فان النفس تأبى الاّ ان تصير معقدة شأن الحياة المادية فالانسان لا يستطيع ان يحول دون خلق المتاعب والمشاكل لنفسه والادباء الحديثون لا يستطيعون الاّ ان يصوروا هذه الحيرة وهذا الاضطراب النفسي

أما رواية « المزيفين » لاندريه جيد فهي جديدة في كل شيء سواء في ذلك موضوعها او اسلوبها الفني وهي ليست كالروايات العادية اذ لا نجد لها موضوعاً او نظاماً متتابعاً او فكرة ظاهرة محددة ويعالج المؤلف كثيراً من الموضوعات في الحوار الذي يدور بين اشخاص وأهم شخص في الرواية هو ادوار الروائي الذي يؤلف رواية باسم « المزيفين » ومن ذلك نرى ان المؤلف انما اراد ان يصور نفسه في صورة بطل روايته ونراه يروي لنا حوادث هذا البطل احياناً وأحياناً ينقل مذكراته ، واشخاص الرواية مجرّدون تجريداً تامّاً من الرادع الخلقي ولكنهم يمثلون فكرة أكثر مما يمثلون احياء ومع ذلك نرى هذه الرواية تمثل الحياة العصرية حق التمثيل بصخبها وضجتها ، باضطرابها وحيرتها

واذا رجعنا الى رواية «عالم جديد جريء» نجد لوناً آخر من الوان الفن الحديث هو الفكاهة الممزوجة بالسخرية فقد اراد منا الدس هكسلي ان نرى العالم كما يبدو في المستقبل اذا تطورت الامور تطوراً منطقيّاً وفاقاً لبعض الآراء التي يقول بها بعض العلماء اليوم ولا ريب في أن هذه الرواية العجيبة بعالمها العجيب إن هي الاّ نقد لاذع في قالب روائي للنزعة المادية التي ينزع اليها العلماء ويتطرّف فيها بعضهم وميل بعض هؤلاء العلماء الى الاغراق في الاستنتاج ونسيانهم الواجب الاول في البحث العلمي وهو ان يحتاطوا اشد الاحتياط في ابداء آرائهم وان لا يسلموا

برأي الاّ بعد ان تثبت لهم صحته بالتجربة العلمية الصحيحة . لقد تمكن العلم من هدم اركان الاوهام وازال دولة الآراء والمعتقدات التي لا تقوم على اساس ونال العلم نصراً كبيراً ولكن كيف كان ذلك ؟ لم يكن العلم لينجح نجاحاً يذكر لو لم يقم على طرق البحث النزيه المجرد من اية غاية الاّ الوصول الى الحقيقة او الاقتراب منها فاذا حاد العلم عن هذه الخطوة وأخذ يندفع في طرق الحدس والتخمين فانه لا بدّ فاقد مكانته بين الناس

ففي هذه الرواية كما في سائر روايات الدس هكسلي نزعة دائمة الى السخرية القاسية المرة ومما يؤخذ عليه دائماً جفاؤه نحو شخصيات رواياته على ان موضوع هذه الرواية بطبيعته مما يلائم الدس هكسلي ويظهر بجلاء جوانب عبقريته

ان الدس هكسلي اتى في هذه الرواية بشخصية فذة هي شخصية الشاب المتوحش الذي نشأ بين القبائل الهمجية يتكلم لغة انجليزية غير لغة الناس الذين نشأوا في « العالم الجديد الجريء » فولدوا في المصانع ودبت فيهم نسمة الحياة نتيجة لتفاعل كيميائي فهو يتكلم لغة تعلمها من كتاب مجهول عثر عليه لشاعر اندثر ذكره وعفا أثره لان المدنية التي يصفها هكسلي تأبى الاتصال بالقديم وهذا الشاعر هو وليم شكسبير

في هذه الشخصية نرى أثر الروح الحديثة التي رأيناها في المؤلفات السابقة ، نرى التردد والحيرة القريبة من اليأس على ان الكاتب ابتدع لها سبباً معقولاً وعلة مقبولة وكيف لا يكون الشاب المتوحش في حيرة من امره وهو يرى كل ما يحوطه عجيباً بحيث يصعب عليه فهم الامور كيف تجري وفهم الناس كيف تفكر : ان عالمنا لم يبلغ بعد مبلغ هذه الحياة العجيبة التي وصفها هكسلي في روايته والتي ينتظر ان يصل اليها لو صحت احلام بعض العلماء ولكن عالمنا الآن بما هو فيه جدير بأن يكون موضع الحيرة

***

وفي رواية « الامواج » لفرجينا وولف ماذا نرى ؟ هل نرى شيئاً غير هذه الحيرة في فهم الحياة ؟ وغير هذا القلق الذي استولى على النفوس ؟ تصف الرواية حياة اشخاص وتتبعهم وهم اطفال وهم صبية وهم فتيان ثم وهم رجال ثم شيوخ تتلقفهم الحياة وتطوح بهم الى هذا الشاطىء أو ذاك كما تفعل الامواج وهم قد يناضلون حيناً ويقاومون ولكن بحر الحياة المترجرج أقوى منهم وأعز سلطاناً

إن هذا الكتاب ان هو الاّ نشيد موسيقي يعزف على آلات عديدة متنوعة الاصوات صاخبة احياناً وهادئة احياناً وقد يكون في آخر نغماته روح الاستسلام ولكنه استسلام الحائر الذي اراد ان يعرف الحقيقة فعجز عن استجلاء السر

الاصداء

حكاية مؤلف وكتاب

كنا خمسة في الحديقة الغناء التي تحيط بفندق «مينا هوس» عند سفح الهرم الكبير، والوقت وقت الغسق والحديث يتنقل من الادب الى الفلسفة الى السياسة . وكان احدنا اميركياً طويل القامة عريض المنكبين قيل لنا انهُ روائيٌ مشهور ، يجني من مؤلفاتهِ نحو عشرة آلاف جنيه في السنة . وكانت ترافقهُ زوجتهُ ، وهي ربعة نحيفة القوام ، في عينيها ألتمعة الذكاء والاحساس المرهف ، ويبدو على وجهها انها من اصلٍ الماني . وكان ثالثنا انكليزياً تقلب في الاعمال الصحافية والادبية في بلادهِ حتى استقرَّ اخيراً في منصب الناقد الادبي الاول لجريدة « الترانسكربت » وهو من اكبر المناصب الادبية مقاماً في بلادهِ . اما الرابع فكان صحافياً مصرياً درس في فرنسا وبريطانيا وحذق لغتي البلادين ، واكبَّ على الفلسفة في السوربون ، ولكنَّ السياسة زجّتهُ في معتركها فاقتحمهُ اقتحام فارس مغوار

جلسنا نتجاذب اطراف الحديث حول مائدة الشاي . فانتقلنا من حديث الجوّ والآثار القديمة ، الى حديث نزع السلاح وعصبة الامم واكتساح القومية الجامحة لمعظم بلدان اوربا . ثم تطرقنا الى سياسات الدول الغربية في الشرق الادنى ، في مصر وسوريا والعراق . وما لبثنا ان سررنا جميعاً بخروجنا من معمعة السياسة الى حلبة الادب ، واذا الحديث يدور ، ونحن لا ندري على مقام «الحظ» في ميدان التأليف . فذكر بعضنا اسماء نفر من المؤلفين ، ليس لمؤلفاتهم قيمة من الناحية الادبية رغم ما اصابوهُ من صيت ذائع وثروة طائلة . وذكر البعض الآخر اسماء نفر آخرين من المؤلفين اوفوا على الغاية من إجادة التأليف ولكن مؤلفاتهم لا يقرؤها الاَّ قليل من المتقفين

وكان الاميركي صامتاً يصغي ، فاذا هو عند هذا الحدّ ، قد استوى في مكانهِ وقال بلهجة القطع « انا لا اصدق ان للحظ ايَّ أثر في نجاح المؤلف »

فملأت الدهشة وجوه الصحب لهذا التصريح الحاسم ، ولحظ هو ذلك ، فاذا التصريح البسيط ، ينقلب خطبة بليغة تدور على الاجتهاد والسعي وشق المرائر وعدم الاعتراف بالخيبة وختمها ، ويدهُ في صدرتهِ كأنهُ نبوليون التأليف بقوله « ان كلمة الحظ لا توجد الاَّ في معجم الكسالى »

فنظر اليهِ الانكليزي ، نظرة هدوءٍ وطمأنينة وقال : لا اظنك تصدق كلَّ ما تقول . فاذا شئت سردتُ لك عشرات الحوادث كلٌّ واحدة منها تدحض حكمك المطلق فقلنا معاً : نكتفي بواحدة منها فوقف قليلاً ريثما اشعل لفافتهُ . ثم قال : اذا شئتم — رويت قصة وقعت وهي غريبة في بابها

الاَّ انها تمثل نصيب « الحظ » في الحياة بوجهٍ خاص ، اكثر من اية قصة تناهى اليَّ خبرها

نقرأ في هذه الايام عن قصص اصابت رواجاً عظيماً فطبعت منها مئات الالوف من النسخ . وحكايتي تدور على احداها

كان في لندن دار للنشر تعرف بدار « ريد وروجر » قوامها جون روجر وابنهُ وليم ، لان اسرة ريد كانت قد انقرضت قبل حوادث حكايتنا بنحو عشرين سنة . وكان روجر وابنهُ يفتخران بانهما لا ينشران من الكتب الاَّ ماكان في رأيهما من الادب العالي . على انهما كان يجهلان اساليب النشر الحديثة كاعلان مطبوعاتهما ، اعلاناً يشوّق اكثر مما يصدُق ، وحثّ النقّاد على افتنانها[1] لكي يسير ذكرها في الناس . وكان الاب روجر لا يستطيع ان يمسك عن طبع كتابٍ اعجب بهِ ، غير حاسب لرواجه حساباً . وكان علاوة على ذلك يدهش ويتململ من نوع الكتب التي تخرجها المطابع ويكثر اقبال الجمهور عليها . وكانت هذه الدار قد اصابت مكانة في ميدان النشر ونجاحاً ماليًّا . فاصبحت في العقد الاول من القرن العشرين ولا قبل لها بمجاراة بيوت النشر الجديدة فقلَّ عليها الاقبال ، وهدّدها الافلاس . فعرض على صاحبيها رجل يدعى بَجْسْت — هذا اسم مستعار لهُ — ان يشتري الدار محتفظاً باسمها ، وبالشاب وليم روجر وكيلاً لهُ وقارئاً[2]

وما كاد بَجْسْت يتسلّم مقاليد الامور ، حتى نقل الدار من شارع ذريِن الى شارع نخم ، واخذ ينشر من الروايات ما يقبل عليهِ الجمهور ، وكان ذا قدرة عجيبة على تبين تيارات الرأي الادبي العام ، من دون ان يفهم او يقيم للادب وزناً صحيحاً . وساعدهُ في عملهِ ، صيت الدار التي اشتراها ، فاقبلت الدنيا عليهِ ايمَّا إقبال

وبقي روجر الاب متصلاً اتصالاً اسميًّا بالدار الى ان ادركتهُ الوفاة . وكان ابنهُ وليم وكيلاً لا حقَّ لهُ في الادارة ، وقارئاً لا يقام لآرائهِ وزن ما . ذلك ان بَجْسْت كان يخشى ان يعتمد على آراء الفتى الادبية ، خشية ان يقتفي خطوات والده وينصرف عن الخطة الجديدة التي رسمها

وفي سنة ١٩١٠ ذهب بَجْسْت الى نيويورك ، وبقي وليم في منصب المدير ، خلال غيبتهِ

وفي احد الايام اذ كان جالساً في مكتبهِ ، دخل عليهِ شاب اصفر الوجه غائر العينين اقنى الانف يتأبط اصول كتاب ، فارتمى على كرسيّ هناك وقذف باصول الكتاب على المائدة

قال : انني لا استطيع ان امنّي نفسي بفخر قبولك هذا الكتاب فهو رواية لا تشبه الروايات السيّارة ولا تعالج موضوعاً يستفزُّ الشعور الضعيف بل تدور على فكرة قلما يشار اليها في المجتمعات الراقية . وقد شرفني كل ناشر في لندن برفضها على اني أرغب في اطلاعك عليها ان لم يكن لديك مانع

وتبين وليم في الشاب شيئاً غامضاً استرعى نظره ورأى وما كذبهُ فؤاده ان هذا الجفاء

(١) الافتنان مدح شيء وذمه اي المحاسن والاضداد

(٢) القارىء في دور النشر الاعجمية رجل يقرأ اصول الروايات التي تعرض للنشر قبل قبولها او رفضها

وهذا الاستخفاف كانا حجاباً لنفس دقيقة الحس . واحس بدافع قوي يدفعه الى الظهور بمظهر الصداقة لهذا الشاب فاتر العينين . فجملا يتحدثان . وكلما تقدم الحديث زال الجفاء في كلام الروائي . ثم ما لبث ان صارح الناشر ، بأنهُ لا يملك شروى نقير ، وان روايتهُ « الاصداء » . — وهذا ليس اسمها الحقيقي — كانت مناط امله الاخير . ثم قال ثق ان الرواية ممتازة . فقد بذلت فيها نفسي . واني لواثق من جودتها ، ثقة الملاح بييت الابرة (البوصلة) . ولكنني لا آمل في الحصول على مبلغ كبير لقاء نشرها . فليس فيها موازبة ولا نفاق . بل انها ترسم الحياة كما هي ، لا كما ندعيها او نتظاهر بها . وانك لتقلدني منة اذا قرأتها ، واسرعت في ردك عليَّ

فوعد وليم بالشروع في قراءتها حالاً

قال : ليس لديَّ ما يشغلني الآن . فاذا جئت غداً بعيد الظهر فقد استطيع ان افضي اليك بقراري في شأنها

وكأن شيئاً في الفتى الروائي اثار كوامن النفس في وليم الاديب ، فسرعان ان اقبل على الرواية يقرؤها . ولم يكد يقرأ بضع صفحات حتى ادرك بميزان ادبه الحساس انهُ قد فاز بلقية . فلما انجز قراءتها في الهزيع الاخير من الليل ، اقتنع بأنهُ قد عثر على آية من الآيات . كان اسلوبها قويًّا متزناً ألمعيًّا ، وكانت من سطرها الاول الى الاخير ، تنبض نبضاً شعريًّا متدفقاً من نفس سداها الاخلاص ولحمتها دقة الاحساس . ولكنها من حيث النشر كانت لا تتفق هي وسُبُل ذلك العهد . لانها تعالج موضوعات نفسية بعيدة عن نفوس الجماهير ، بعد مبادىء الذهبية او الراديو حينئذٍ عن افهامهم . كان الجمهور لا يزال متأثراً بتعاليم العصر الفكتوري . وقلَّ منهم من سمع باسم فرويد والتحليل النفسي . وكانت الحياة تميل الى النزعة الخيالية ، لان الحرب ، التي غيرت النظم الاجتماعية وازاحت لثام الاوهام الشعرية عن حقائق الحياة ، كانت ما تزال في طيات الغيب . ولو نشرت رواية « الاصداء » في سنة ١٩١٠ لاستقبلت استقبال فتاة تسير حينئذٍ في شوارع لندن مجزومة الشعر قصيرة الحلة الى حد الركبتين وفي فمها لفافة من التبغ

احسَّ وليم عند ما اتمَّ قراءة الرواية ، انهُ قلب في القفر صخراً فعثر بماسة . ثم تذكر رئيسهُ بجت فخبا ذلك البريق في عينيه . ايقبل بجت ان ينشر الرواية ؟ ايجرؤ هو على المغامرة بقبولها للنشر ؟ ولو كانت المسألة رهن قراره لما تردد . ولكنهُ ادرك ان بجتْ لن يقبلها . وبجتْ عائد من اميركا بعد بضعة اسابيع . وكان وليم لا يزال متحيراً في ما يفعل ، لما دخل عليهِ دان كارتر — لندل على المؤلف بهذا الاسم — فلما اقبل عليهِ ، احسَّ وليم ، برابطة عطف خفية تربطه بهذا الفتى ، فأعرب عن اعجابه العظيم بروايتهِ العجيبة ، ثم بسط لهُ الحالة كما هي ، والبواعث التي تحول دون اتخاذه قراراً حاسماً في موضوعها . وختم بقولهِ : اذا اردت ان تصبر حتى يعود المستر بجتْ من نيويورك ، فقد استطيع ان أقنعهُ . ولكنني لا اريد ان يؤخذ قولي هذا على انهُ تعهد بـ . . . . . .

فعبس وجه الفتى بعدما استبشر عندما اعرب لهُ وليم عن اعجابهِ بروايتهِ وقال :

لما كنت قد صارحتني بموقفك اودُّ ان اصارحك انا كذلك بحالتي . فانني لست املك فلساً واحداً . ولا استطيع بوجهٍ من الوجوه ان اصبر بضعة اسابيع . بل لا استطيع ان اصبر بضعة ايام. لم اتناول بعد مقابلتك امس الاَّ فنجاناً من القهوة ، ولا اتذكر آخر مرة اكلت فيها حتى الشبع . وضحك ضحكة استهتار رنَّ صداها في الغرفة ثم قال : وارجو ألاَّ تحسب انني احاول التأثير في مشاعرك بقولي هذا . انما ابسط لك لماذا لا استطيع الصبر بضعة اسابيع . وما يزال امامي دار او داران للنشر !

انقبضت نفس وليم ، وامتدت يدهُ الى جيبهِ من تلقاء نفسها وهو يقول « اذا سمحت بقرض صغيرٍ . . . » ولكن الفتى قاطعهُ مخاطباً : انني لا استعطي . انا لا اطلب احساناً . ثم ضرب بقبضة يدهِ على اصول الكتاب وقال أتظنني مغفَّلاً لا ادرك قيمة كتابي ؟ ان في هذا الكتاب ثروة لمن يجرؤ على نشره

فقال وليم : ولكنني بسطت لك عذري . ولو ان كتابك كان رواية عاديةً لكان . . . .

فوقف الفتى ، وتأبط اصول كتابهِ واتجه الى الباب قائلاً : « انكم معشر الناشرين تثيرون غضبي وشفقتي في آن . أنتم اناسٌ لا تملكون ذرّة من الخيال . اعرض عليكم كتاباً ذا قيمة خاصة ، ولكنهُ يختلف عن الروايات العادية التي تنشرونها ، فلا تجرؤون على نشره ! انكم لأجبن من الارانب »

وما كاد يصل الى الباب حتى استوقفه وليم قائلاً :

« قِفْ . أقبلُ ان أخاطرَ حتى ولو طردتُ لاجلها . انني اؤمن بهذا الكتاب . انا اعلم انهُ آية من الآيات . ولا استطيع ان افرّط فيها »

فالتفت اليهِ دان كارتر وهو لا يكاد يصدق . وكأنَّ وليم كان يناجي نفسه ... لا بدَّ من المغامرة وقد تصيب هذه الرواية نجاحاً عظيما ... ثم جلسا يتحدثان في شروط الاتفاق . عندئذٍ انبأ المؤلف صاحبهُ ان اسمهُ الحقيقي ليو فرجوسن . فلما عرض عليهِ نصيباً من الربح يوزع بعد طبع الكتاب وبيعه فرغ صبرهُ وقال : « الم اقل لك انني احتاج الى المبلغ نقداً . ألا تستطيع ان تدفع ثمن الرواية فوراً » . وبعد تردد كثير عرض وليم على فرجوسن خمسين جنيهاً ثمناً مطلقاً للرواية وحقوق طبعها جميعاً . وقال انا اعلم ان المبلغ يسير ولكنني لا اجرؤ ان اعرض عليك مبلغاً اكبر من هذا

فقال فرجوسن « ولو كنت مكاني لادركت ان مبلغ الخمسين جنيهاً هبة سموية »

وكذلك تناول وليم دفتر التحويلات المالية وشرع يكتب التحويل بعد توقيع العقد الذي نقلت بموجبه جميع الحقوق في رواية « الاصداء » من مؤلفها الى دار « ريد وروجر » بلا قيد ولا شرط

وما كاد المؤلف يخرج حتى استسلم وليم للهم . فآنا يحسب نفسهُ رجلاً احمق لانهُ غامر هذه المغامرة وآناً آخر يهنىء نفسه لانهُ كشف عن آية من آيات الفن الروائي فيدركه الخجل للمبلغ اليسير

التي بذلها في ابتياعها . ولكنه كان يطمئن نفسه بأنهُ اذا نشرَ الكتاب وأصاب رواجاً فانهُ يكون مقدمة لبلوغ المؤلف ما يتمنى في عالم الادب

وكذلك لبث وليم، والآراء تتنازعه ، ينتظر عودة بجُتْ من نيويورك . ولما عاد هذا حاملاً في جعبته الروايات مضمونة الرواج ، وقرأ « الاصداء » تحققت مخاوف وليم . فان بجت ارغى وأزبد ورمى بأصول الكتاب ، جاحظ العينين منتفخ الاوداج ، محقراً وليم بما نثره عليه من صفات الحمق والتهور . ووليم صابر يتوقع سكون العاصفة يحاول هنا وهناك ان يقول كلمة دفاعاً عن الرواية ومؤلفها . فلما عرض بجت بواله وليم جنّ جنون الشاب وأخذ قبعته وعصاه ومضى

هنا ترقف الانكليزي هنيهة عن سرد قصته ، وحدّق في الفضاء البنفسجي يحيط بالهرم الكبير بعيد الغروب ثم انتبه الى ان الصحب ينتظر نهاية القصة فرمى بعقب لفافته واستأنف حديثه فقال :

كان ذلك سنة ١٩١٠ وانقضت اثنتا عشرة سنة ظلّت فيها رواية « الاصداء » مطوية في قمطر يكسوها الغبار . واستحالت نفسية الجماهير في بريطانيا في خلال هذه السنين . كانت السنوات الاربع الاولى منها سنوات رخاء واقبال وسلام ، وكان الناس في خلالها يأبون كل حافز للتفكير ، ويعرضون عن كلّ من يقول حقيقة تمزق عن عيونهم ذلك الغشاء الورديّ . ثم تلتها سنوات الحرب ، وهي سنوات حافلة بالآلام والفظائع والعنف ، فتمزق الحجاب عن كل عمل مصطنع ، أو شعور مقلد ، وتعرت نفوس البرايا امام شبح الحرب . وجاءت بعدها اربع سنوات من الفوضى ، فانقلبت النظم الاجتماعية وتغيرت الآراء والآداب ، وقام جيل من الناس لا صبر له على المخالطة والمواربة يريد الحقيقة غير مقنّعة ويرفض ان يسير في طريق الحياة وعلى أبصارهم غشاوة

وكان أثر هذا الانقلاب في ادب الرواية عظيماً فبارت الروايات التي كانت رائجة قبل الحرب ونشأت طائفة جديدة من الكتّاب تعالج شؤون الحياة معالجة صريحة ، وكان بجُتْ كما قلت رجلاً يعرف مهابّ الرياح في ميدان النشر ، فكان ينشر الكتب التي تشغل موضوعاتها اذهان الناس ، سواء أكانت علماً ام تاريخاً ام سياسةً ام ادباً على آخر طراز . وكذلك لما اقبلت سنة ١٩٢٢ كانت داره في مقدمة دور النشر في لندن

ووقعت جناية ما اروعها في لندن حينئذٍ . ذلك ان سيدة جميلة من كرائم البيوت اغرت رجلاً بقتل زوجها ، لكي تستطيع ان تفرّ مع عشيق لها ، في عروقه آثار واضحة من دماء الزنوج . وكانت محاكمتها من اشهر المحاكمات الغرامية في العصر الحديث . ورسائل الغرام التي تليت في المحكمة ، والحوادث الغريبة التي كشف اللثام عنها ، والعوامل النفسانية التي حلّلت وبسطت على مسمع من الناس ، ثم نشرت جميع تفصيلاتها في بعض الصحف ، كل ذلك كان توطئة لاعظم نجاح ادبي احرزتهُ رواية بعد الحرب

كانت شفتا الانكليزي وهو يقول هذه الكلمات تنقبض ثم تنبسط . وكانت غنة صوته تتقلب

تقلباً يسترعي الانتباه ، كانهُ كان ينبش من قلبه ذكريات طال عليها الامد ثم قال :—

وطالما فكَّرت كيف خطر على بال بجت ، ذكر تلك الرواية المنسية ، المطوية في قمطرٍ قديم تعلوها طبقة من الغبار ، وانني لاستطيع ان اتصوره ، وقد خطرت بباله ، كيف راح يفتح القماطر ويقفلها ، باحثاً عن اصول الرواية التي اشترتها داره رغماً عنهُ بخمسين جنيهاً قبل اثنتي عشرة سنة . بل استطيع ان اتصورهُ وقد عثر بالاصول وجلس يقرؤها ، واجداً فيها من تحليل النفوس ما يشبه كل الشبه ، العجائب التي اسفرت عنها المحاكمة في تلك الجريمة . عند ذلك لا بدَّ ان يكون قد قفز فرحاً لان هذا الكتاب ملكه الخاص بلا قيدٍ او شرط . فأسرع في طبع الرواية . وكانت النتيجة فوق ما توقع . ذلك ان موجة الاقبال عليها ، ظلت ترتفع اسبوعاً بعد اسبوع حتى اصبح الطابعون عاجزين عن مجاراة ما يطلبهُ الجمهور منها . وكانت مثاراً لمناقشة حادة بين النقَّاد على صفحات الجرائد وترجمت الى عشرات اللغات . ثم حولت الى رواية مسرحية ومثلت فالى شريط سيمي

ولما اراد بجُت ان يخرج روايات اخرى من قلم هذا المؤلف بحث عنهُ فلم يجده . فظن ان الرجل لا بدَّ ان يرى كتابهُ ، وقد حاز هذا الاقبال فيجيء من تلقاء نفسه طالباً نصيباً من الربح . ولكن المؤلف لم يقبل . فبحث عن اسمه الحقيقي ، فعثر عليهِ بعد تفتيش دقيق على كعب التحويل الذي اعطيهِ قبل اثنتي عشرة سنة فاذا هو « ليو فرجوسن » . فذهب الى مكتب من الجواسيس وطلب اليهم ان يبحثوا لهُ عن هذا الرجل . . . . .

هنا توقَّف الانكليزي عن الحديث . وكلنا شوق الى معرفة النتيجة . فقلنا معاً : وهل وجدوهُ ؟

قال : الجواب بالايجاب والنفي معاً . بعد انقضاء بضعة اسابيع ابلغ مكتب الجواسيس صاحبنا بجُت ان رجلاً يدعى ليو فرجوسن توفي قبل تسعة اشهر في ملجإٍ من ملاجئ المعوزين ، وكان سبب موتهِ داء السلّ وقد ثقَّل الجوعُ وطأتهُ

وتوقف ثانية والتفت الى صديقنا الاميركي ، وقال : ماذا تقول في هذه الحادثة ، عن علاقة الجدارة بالنجاح . الرجل الذي وضع اروج كتاب عرف بعد الحرب ، مات في ملجإ . والرجل الآخر الذي عرف قيمة الكتاب طرد من عمله . والرجل ... بجُت ... اثرى منهُ . كيف تعلّل كل هذا ؟

فتململ الاميركي في كرسيهِ ورفع يديهِ ، يشير بهما اشارة مبهمة ، وقال متردداً « و.. ول.. لكن.. كيف تعلم ان الرجل الذي مات مسلولاً في الملجأ كان مؤلف الاصداء »

فهزَّ الانكليزي كتفيهِ وقال اولاً لان الاسم « ليو فرجوسن » ليس اسماً مألوفاً ، ثم انهُ وجدت صورة في مخلفات الرجل الذي مات في الملجأ ، وانني لا استطيع ان اعرف تينك العينين اين رأيتهما

فقلنا جميعاً انت . . . انت . . . ؟

فقال . . : نعم . لقد اتفق انني كنت في هذه الحادثة . . . احد ابطالها الثلاثة — ولم !

[مقتبسة]

الطب المصري القديم

معارفهم الطبية ووصفاتهم وأمراضهم

للدكتور حسن كمال

﴿ تمهيد ﴾ كان الاعتقاد السائد بين نفر كبير من الأثريين الى عهد قريب ان الطب المصري القديم اكثر اتصالاً بالسحر منهُ بالعلم. لان الادراج البردية الخمسة او الستة التي كانت معروفة الى ذلك العهد لم تحو الكثير من العقاقير الهامة (وان كان بعضها لا يزال مستعملاً الى الآن في كثير من الامراض) ولكنها حافلة بالتعازيم والدعوات التي كانت تتلى على المرضى وقت تعاطي الدواء. وهذا القول قريب من الحقيقة الى حدّ ما. خصوصاً اذا لاحظنا ان بعض الوصفات كانت تعازيم سحرية او دعوات قدسية. وفي درج منها لم يهتم الكاتب بذكر مقادير العقاقير اللازمة للعلاج مع اهتمامه بذكر الدعاء الخاص للحالة. ثم اننا اذا فحصنا محتويات كل درج على حدة وجدنا انها لم ترتب بعناية تامة. كذلك العقاقير المذكورة في الوصفات كانت تختار احياناً من مواد ذات فعل سحري مثل لبن امرأة حملت ذكراً او مواد غاية في القذارة على اعتبار ان اقذر العقاقير انجعها مثل براز الذباب أو دم الفأر

هذا باختصار كان رأي معظم الأثريين الى عهد قريب. لكننا كلما تعمقنا في الموضوع وزدناه فحصاً وتمحيصاً اتضح لنا ان علم الطب كان منتشراً في القطر بانتظام وعناية. وان وصفاته المذكورة تحوي آلاف من اسماء النباتات والعقاقير المجهولة المعنى. وان البعض من العقاقير المعروفة قد ثبت فعلهُ وعمّ استعماله وأضحى الآن بين العقاقير التي نصفها في تذاكرنا الطبية اليومية لمرضانا. ثم ان الباحث النزيه في الادراج البردية المذكورة يجد فيها بيانات هي في الحقيقة اساس الطب الحديث. فالقلب فيها معتبر مركز الاوعية. وهذه موصوفة بأنها منتشرة في سائر اجزاء الجسم. وان نبضها دليل عليها لان النبض هو « كلام القلب الداخلي ». هذا التعريف كافٍ لان يظهر انهُ كان لدى اسلافنا فكرة عن دورة دموية وان كانت غير تامة وعن ماهيّة النبض وعلاقته بضربات القلب لان وصفه بأنهُ « كلام القلب الداخلي » دليل قاطع على اتصاله بحركات العضلة القلبية. لكننا بجانب ذلك نجدهم يظنون احياناً ان هذه الاوعية تحمل دماً او ماءً او مواد اخرى. وهذه الظنون توارثها الخلف مدى الدهور من شرقيين وغربيين حتى ظهرت مبادىء الطب الحديث. ويأبى التاريخ المصري الاّ ان يكون مثال العجب. وتأبى المدنية المصرية الاّ ان تكون انموذج العبر. لذلك نجد انهم

في الوقت الذي نراهم يتكلمون عن وجود مياه ومواد اخرى بالاوعية يفسرون بعض الامراض بأسباب اقل ما يقال عنها انها مطابقة لاحدث الآراء عندنا . فانهم يقولون ان كثيراً من العلل ناجم من مرض الاوعية وعدم قيامها بوظائفها الطبيعية . وان العلاج حينئذٍ يجب ان يوجه الى تبريد الاوعية او تسكينها او تجديدها او إبطاء دورتها بالعقاقير الخاصة . وهذا من العجب العجاب

هكذا كان موقف العلماء الاثريين من الطب المصري القديم الى عهد قريب . لكن حدث منذ عشر سنوات تقريباً ان اكتشف درج بردي يعرف باسم صاحبه (ادوين سميث) أثار القلم الحالك الذي كان مخيماً على هذا الموضوع . ورفع منزلة الطب المصري القديم الى ذروة المجد والفخار . فتغيرت به آراء الباحثين . وانزوى من اجله كل منتقد وراء الستار . وخرس كل همّاز مشّاءٍ بنميم . وظهر وقتئذٍ ان الادراج البردية السابقة هي في الحقيقة ادراج كانت تتداولها العامة وانها مزيج من الرأي العلمي والجهل العامي . اما قرطاس (ادوين سميث) المذكور فوجد انهُ مثال الكتاب الطبي من حيث ترتيب مواده التي تبدأ بأمراض الرأس اولاً ثم اعضاء الجسم التي تليه حتى القدمين ، واحتواؤه ايضاً على كثير من اصول الجراحة وبالاخص جراحة العظام والاجزاء السطحية . اما شرح حالاته فهي غاية من الدقة والنظام . فكاتبه يبدأ بذكر اسم الداء ثم طريقة فحصه ثم تشخيصه ثم علاجه وانذاره . وهو الاسلوب الذي يدرس الآن في كلياتنا الحديثة . وكثيراً ما يذكر الكاتب اسفل كل حالة ملاحظات تفسيرية تظهر مهارة عجيبة في معرفة المرض وطريقة فحصه والسبب الذي احدثه . واغرب من هذا وذاك ان الاساتذة الذين راعهم هذا المستوى العلمي العالي في هذا الدرج استرعت نظرهم عبارة واردة في ظهره خاصة بطريقة ارجاع الشيخ الى صباه [1] . فقال بعضهم هذا دليل قاطع على مزج الطب بالشعوذة . لكن هل محاولة الرجوع الى الشباب ضرب من الشعوذة . ان ابحاث الاستاذ فرنوف كفيلة بالاجابة على هذه التخرصات . والغريب ان معظم المعلومات الطبية يرجع تاريخها الى عهد الاهرام (٢٦٠٠ — ٢٢٠٠ ق.م.) ذلك العصر الذي ابتكر تشييد المباني بالاحجار وابتدع الهندسة الفراغية وهندسة الانهر والحساب والقانون والسياسة والفنون الجميلة وغير ذلك

ان الالمام بهذا الموضوع في فصل واحد أمرٌ محال . محال لكثرة مباحثه وغزارة مادته . لكنني سأجتهد ما امكن في ايضاح هيكله . ليتمكن القارىء من تكوين فكرة عامة عنهُ لان البحث في الطب الفرعوني يتطلب اولاً دراسة الكتب المصرية القديمة البردية المسماة ادراجاً او قراطيس . ثانياً البحث فيما وصلت اليه معارفهم في فن التحنيط خاصاً باجزاء جسم الانسان . ثالثاً البحث في الآثار من تماثيل ونقوش ومومياءات مما له علاقة بالامراض وطرق العلاج والجراحة . هذه باختصار النواحي الثلاثة المهمة التي اريد ان اعرض لها الآن

(١) الغرض من هذه الوصفة هو ازالة التجعدات الجلدية وتغيرات كبر السن بالوجه . وتتلخص في اغلاء نبات يقال له هابت مجهول النوع عدة دفعات ثم دهن الوجه بالعجين الناجم من هذا الاغلاء . وهذا النبات قريب في فعله من « حسن يوسف » الذي لا يزال مستعملاً عند العامة للآن لنفس الغرض

﴿ القسم الاول ﴾

١ — ﴿ الكتب الطبية القديمة او الادراج او القراطيس ﴾ قرطاس ايبرس : هو أضخم هذه الكتب . عثر عليه بمقبرة الاقصر مع قرطاس ادوين سميث عام ١٨٦٢ م . واشتراه الاثري الالماني ايبرس حينذاك . وهو الآن محفوظ بمتحف ليبزج بألمانيا وفي حالة جيدة جداً . وعلى ظهر هذا القرطاس دوّنت تواريخ هامة ساعدتنا كثيراً على معرفة عدة ازمنة مجهولة . والمعروف ان هذا القرطاس دوّن حوالي عام ١٥٠٠ ق . م . لكن لغته واعتبارات اخرى فيه تدل على انهُ منسوخ من كتب اخرى اقدم منهُ بقرون عديدة . خذ مثلاً ما ورد في احدى عباراته من انها مأخوذة من وصفة من الاسرة الاولى (٣٤٠٠ ق . م .) وفي اخرى أنها من زمن احدى ملكات الاسرة السادسة . لكن ذلك لا يعني ان نأخذه قضية مسلمة . لان المصريين كانوا كثيراً ما ينسبون معلوماتهم الى اجدادهم اعلاء لشأنها وزيادة في فائدتها . لذلك تجدوننا لا نعتمد كثيراً على مثل هذه العبارات بل على نوع الخط والقواعد النحوية واساليب التعبير مما يتغير بالتدريج مع الزمن . وعلى ذلك فلا يبعد ان يرجع تاريخ الكتب التي نسخ منها كتاب ايبرس الى الاسرة الثانية عشرة او الثالثة عشرة (حوالي القرن العشرين ق . م .) . ولو ان به بعض عبارات من المحتمل ارجاعها الى عهد اقدم من هذا بكثير

وكتاب ايبرس يحوي وصفات عديدة لامراض كثيرة متباينة . وكل وصفة مكوّنة من عدة جواهر . وامام كل جوهر مقداره اللازم . وآخر كل وصفة طريقة تعاطي الدواء . وهناك اجزاء لا تشمل العلاج فقط بل اعراض المرض وطريقة تشخيصه . وقد تضاف الى ذلك ايضاً بعض عبارات ايضاحية . ولا يسع الباحث في هذا القرطاس الاّ ان يستنتج بانهُ مجموعة كتب صغيرة بعضها طبي والبعض الآخر روحاني . وكتابة هذا القرطاس في شكل أعمدة أشبه بجرائدنا اليومية . ويبلغ عددها المائة وعشرة أعمدة . وعدد وصفاته ٨٧٧ وصفة

٢ — ﴿ قرطاس هيرست ﴾ اكتشف عام ١٨٩٩ بدير البلاص بالصعيد . وفي عام ١٩٠١ اشتراهُ الدكتور ريزنر الاثري واهداهُ الى جامعة كاليفورنيا بامريكا . واوائل هذا الكتاب قد تلفت نوعاً . والباقي في حالة جيدة جداً . وهو يحوي خمسة عشر عموداً من النصوص الطبية . ويرجع تاريخه الى حوالي ١٥٠٠ ق . م . وفيه شبه كبير بقرطاس ايبرس السابق . حتى ان بعض عباراته مطابقة في كلياتها وجزئياتها لبعض عبارات قرطاس ايبرس . ويبلغ عدد وصفاته ٢٦٠ وصفة

٣ — ﴿ قرطاس برلين الطبي ﴾ احدث عهداً من القرطاسين السابقين . لكنهُ يحوي عبارات قديمة العهد . وعباراته مكتوبة باهمال ومحشوّة بالاخطاء . ويحوي ٢٤٠ وصفة . بما في ذلك العبارة المذكورة على ظهره الخاصة بمعرفة العقم ونوع الجنين في الرحم . وكان العثور عليه في القرن التاسع عشر

بواسطة بسالاكا بمقبرة في سقارة يرجع تاريخها الى عهد رمسيس الثاني (١٢٩٢ — ١٢٢٥ ق. م.)

٤ — ﴿ قرطاس كاهون الطبي ﴾ اكتشفهُ السير فلندرز بتري عام ١٨٨٩ اثناء القيام بحفائرهِ في جهة الفيوم. وهو اقدم من القراطيس المذكورة أعلاه. ويرجع تاريخه الى عهد الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠—١٧٩٠ ق. م.). وهو ممزق. لكن نصوصهُ واضحة. وهي خاصة بفن الولادة وامراض النساء. ويحوي ٣٤ وصفة

٥ — ﴿ قرطاس لندن الطبي ﴾ اغلبهُ روحاني ويرجع الى زمن الاسرة التاسعة عشرة (١٣٥٠—١٢٠٠ ق. م.) ولو ان عباراته اقدم بكثير من ذلك. وهو محفوظ في متحف لندن تحت رقم ١٠٠٥٩

٦ و ٧ — ﴿ قرطاسا متحف ليدن وتورين ﴾ هما قرطاسان طبيان روحانيان يحويان قليلاً من الوصفات الطبية

٨ — ﴿ قرطاس (ادوين سميث) الطبي ﴾ هو اهمها كان العثور عليهِ بمقبرة بالاقصر عام ١٨٦٢ م. وفي تلك المدة اشتراه المستر (ادوين سميث) وقد اعتراه بعض التلف وفقدت بعض نصوصه. لكنهُ اهتدى اليها واشتراها بعد ذلك على دفعتين. ثم توفي وانتقل القرطاس بعد ذلك الى ابنته (ليونورا سميث) التي اهدتهُ الى الجمعية التاريخية بنيويورك. ويبلغ طول القرطاس الآن ٤٫٦٨ متراً. انما يظن انهُ كان يبلغ خمسة امتار طولاً. ويتراوح عرضه بين ٣٢½ و٣٣ سنتيمتراً وهو يقرب من عرض القراطيس القديمة التي يرجع تاريخها الى ما بين المملكة الوسطى (٢١٠٠ — ١٧٠٠ ق. م.) وعهد الامبراطورية (١٥٥٥ — ٧١٢ ق. م.) وفي هذا القرطاس اثنا عشر لوحة متعاقبة وتحوي ٢٢ عموداً من النصوص المصرية القديمة منها ١٧ رأسية و ٥ أفقية. ويظن ان هذه النصوص المصرية القديمة كتبها عدة اشخاص لاختلاف واضح في الخط

وبمقارنة الخطوط المصرية القديمة التي في هذا القرطاس بالخطوط المستعملة ايام ملوك الرعاة لوحظت بينهما مشابهة كبيرة. وعليه فلا يبعد ان تاريخ هذا القرطاس يرجع الى القرن السابع عشر قبل الميلاد. ويلاحظ ايضاً ان كاتب هذا القرطاس كان يجيد الخط لكنهُ لم يكن طبيباً. وانهُ ترك بعض الاحرف بدون ذكرها. وراجع كتابته وصححها بالمداد الاحمر فوق الاسود وبالمداد الاسود فوق الاحمر. وتشتمل السبعة عشر اعمدة الرأسية على شرح ٤٨ حالة مرضية لم يذكر لها شيءٌ من الادوية. وهذه الحالات تبدأ بالرأس وتنتهي بالقدمين وهي موصوفة وصفاً دقيقاً كما يشاهد ذلك في الحالة المرقوم لها بالرقم ١٨ وتعريبها: —

تعريف عن جرح عظمة الوجه zygoma

الفحص اذا فحصت مريضاً بجرح غير مشقوق (اي وخزي) واصل الى العظم أدخل المسبر فيهِ فان وجدت عظمة الوجه سليمة شخّص الحالة بانها جرح فوق عظمة الوجه وهي حالة قابلة للعلاج

العلاج : ضع على الجرح لحماً صابحاً في اليوم الاول . بعد ذلك ضع عليه زيتاً وعسلاً يومياً الى ان يتحسن

ملاحظة : اذا كان الجرح غير متسع الفتحة وواصلاً الى العظم فهو جرح صغير واصل للعظم ليس فيه شقّ بل هو ضيق ولا توجد شفتان له (وهذا منتهى الدقة في وصف الجرح الوخزي) اما من خصوص مكان الوجه المصاب فهو الموضع الكائن بين تجويف العين وفتحة الاذن خلف الفك

وعلى هذا المثال وردت في القرطاس احوال كثيرة من الامراض . وقد ذكر الكاتب المصري ان بعض الحالات عسرة العلاج . وهذه ملاحظة جديدة لم تستعمل سابقاً في الادراج الطبية . ويبلغ عدد الامراض التي يعرف علاجها وفتنفذ اربعة عشر مرضاً . وبذلك امتاز قرطاس ادوين سميث عن غيره بشرح الحالات الممكن علاجها والعسرة الشفاء . وصرف النظر عن ذكر الوصفات الكثيرة التي تشاهد في باقي القراطيس الطبية

***

وتشاهد في هذا القرطاس ملاحظات كثيرة واردة بعد شرح كل حالة . بخلاف ما هو متبع في القراطيس الطبية الاخرى . وهذه الملاحظات تظهر لنا ما وصل اليه اطباء المصريين من علم التشريح فتزيد معلوماتنا الحالية في هذا الموضوع . وورد في هذا القرطاس عدة كلمات طبية لم يرد ذكرها في عبارات القراطيس الاخرى من ذلك لفظ (جا) الذي ظهر من الوصف انهُ يعني عظمة الوجه zygoma وكذلك كلمة (امعت) التي وصفها الكاتب بانها تعني الجزء الخلفي للفك السفلي (وهو المعروف باسم Ramus) وقد شبههُ الطبيب القديم بمخلب الطائر . ولا يزال التشبيه مستعملاً عندنا في احوال طبية متباينة مثل لسان التوت Rasberry tongue ولسان الشليك Strawberry tongue والورم الشبيه بالكمثرى Pyriform tumour . وورد في الحالة المرقومة بالرقم ٨ ان الطبيب كان يميز في احوال جروح الجمجمة بين كسور العظام وتلف الانسجة التي فوقها

***

ومما يدل على مهارة الطبيب تحرّيه للوقوف على سبب المرض حيث اورد لنا ما تعريبه : « آخر حالة من امراض العمود الفقري بالعنق هي اصابتهُ بمرض (سحم) وفيه يفقد المريض سمعه وكلامه ويصاب بشلل بذراعيه ورجليه . ويقول الطبيب حينذاك ان الحالة خطرة . وان الاصابة عبارة عن تدخل احدى حلقات العمود الفقري في حلقة اخرى نتيجة سقوط المصاب على رأسه من اعلى الى اسفل . وان ذلك يمنعهُ من رفع رأسهِ وحمل ثقلها على عنقه »

ومنهُ يتضح ان المقصود بمرض (سحم) هو تدخل حلقات العمود الفقري بعضها في بعض . (حالة رقم ٣٣ بالقرطاس)

القسم الثاني

الى هنا انتهى ما اردنا ايراده عن القراطيس الطبية الخاصة . وسنبحث الآن في المعلومات التي اكتسبها قدماء المصريين من مزاولة فن التحنيط آلاف السنين العديدة . فنقول ان الاجراءات الكثيرة التي اتبعها قدماء المصريين في التحنيط هيأت لهم الوسائل لمعرفة احشاء الجسم الداخلية من حيث شكلها ونوعها وعلاقتها بعضها ببعض مما لم يتيسر لاي شعب بشري آخر . وبديهي ان التحنيط له تأثير كبير على تاريخ الطب لانهُ عوَّد اذهان الشعب على احتمال تطع الجثث الميتة واخراج احشائها وذلك لمدة طويلة من الزمن تُربي على العشرين قرناً . وهكذا تمكن اطباء اليونان في عهد البطالسة ان يشرّحوا الجثث تشريحاً علميًّا في الوقت الذي كان مثل هذا العمل محرَّماً في سائر انحاء العالم (راجع مقال الاستاذ اليوت سميث في مجلة العاديات المصرية ج ١ ص ١٩٠)

ومعلوم ان التحنيط يستوجب استخراج الاحشاء الباطنية والصدرية والتأثير فيها بالعقاقير . لذلك كانت هذه العملية درساً تشريحيًّا قيماً لمن يقوم بها . وجميع الاحشاء (ما عدا القلب الذي كان يترك غالباً في موضعه) كانت تفصل اولا من الجسم ثم تغسل على حدة ثم تحنط بالطريقة المختارة واعتاد القوم بعد تحنيط هذه الاحشاء ان يضعوها في اربعة اوانٍ تحت حماية اولاد حوريس الاربعة ومنذ عهد الاسرة التاسعة عشرة (١٣٥٠—١٢٠٠ ق. م.) بدأ القوم يصنعون اغطية لهذه الاواني بهيئة رؤوس اولاد حوريس المذكورة وهي (رأس آدمي ورأس نسر ورأس ابن آوى ورأس قرد) . لكن في عهد الاسرة الحادية والعشرين (١٠٠٠ — ٩٤٥ ق . م .) اندثرت هذه العادة الدينية واكتفى القوم بلف تلك الاحشاء في اغلفة كتانية مع تماثيل صغيرة لاولاد حوريس المذكورة ثم رضعها بالتالي داخل الجسم المحنط . وبديهي ان طرق التحنيط التي اتبعها المصريون افهمتهم كثيراً عن مظاهر الاحشاء واشكالها وعلاقتها بعضها ببعض داخل الجسم الى مقابلتها باحشاء الحيوانات الاخرى التي كانت منذ اقدم العصور المعروفة تذبح وتقطع وتقدم قرباناً للآلهة او غذاء لاصحابها . ومما هو جدير بالذكر ان الخط الهيروغليفي (الذي يرجع ابتكاره الى ما قبل حكم الاسر بمدة طويلة) لا يحوي من الاشارات الخاصة باجزاء الجسم او الاحشاء الداخلية الا ما له علاقة بالحيوانات فقط مما يدل على ان معرفة المصريين الاقدمين لتشريح الحيوانات كانت اقدم عهداً من معرفتهم لجسم الانسان . من ذلك اشارة القلب وتلفظ (اب) فانها تمثل قلب الثور لا قلب الانسان . كذلك اشارة الحلق والعنق فانها تمثل رأس الثور وحنجرته وقصبته . ثم ان اشارة الرحم تمثل رحم البقرة ذا القرنين . كذلك «الاذن» فهي تشبه اذن حيوان من ذوات الاربع . وعلى هذا النمط رسمت الاشارات التي تمثل الاضلاع والعمود الفقري والساق والاسنان . اما اشارات الخط الهيروغليفي التي تعني اجزاء جسم الانسان فتمثل الاجزاء الخارجية التي تعنيها من جسم الانسان فقط . وهذا دليل قوي على عدم معرفة القوم لاحشاء الانسان الداخلية وقت ابتكار الخط الهيروغليفي

ومن الادلة على معرفة القوم لاي علم من العلوم كثرة تعداد الالفاظ التي يستعملونها في تعبيراتهم في هذا العلم . واللغة المصرية القديمة تحوي ما ينوف على مائة اسم تشريحي لاجزاء الجسم مما يشير الى امكانهم التمييز بين اجزاء الجسم في الوقت الذي كان يتعذر ذلك على غيرهم من الامم . نعم ان تقسيم الجسم بواسطة قدماء المصريين الى اعضائه المتباينة لم يشمل الاّ الاعضاء الكبيرة والمتوسطة الحجم ولم يحزم التمييز بين الاعصاب والعضلات والشرايين والاوردة . ولكن اساس علم التشريح على اي حال فضله راجع اليهم دون سواهم

اما فيما يختص بعلم وظائف الاعضاء فقد سبق ان ذكرت ما جاء بقرطاس ايبرس الطبي بخصوص القلب والاوعية من ان القلب هو مركز اوعية الجسم وان هذه الاوعية تتفرع منه الى سائر انحاء الجسم وان النبض هو كلام القلب الداخلي وانهُ دليل هذه الاوعية حيث كانت . وهذه العبارة مأخوذة من كتاب اقدم عهداً من قرطاس ايبرس كما هو واضح من عنوان العبارة وتعريبه «مبدأ معرفة فن الطب . طريقة تفهم حركة القلب وسرّ القلب » . يلي ذلك بيان بسائر اوعية الجسم الدموية كل عضو بما يخصه . وبعض هذه الاوعية مطابق للحقيقة والآخر خيالي . لكن لم يذكر الكاتب شيئاً معيناً عن دورة الدم في الجسم بالرغم من ان البعض يرى ان ما ورد في العبارة المذكورة كافٍ لاثبات ان قدماء المصريين كانت لديهم فكرة عن هذه الدورة والثابت على كل حال ان هؤلاء القوم اعتبروا القلب اهم عضو بالجسم ومركز الفهم والانفعالات النفسية . فكان ذلك باعثاً على عدم نزع القلب من الجسم وقت التحنيط فكان القوم يتركونهُ محله متصلاً باوعيته الكبرى بالرغم من نزعهم لجميع الاحشاء الصدرية الاخرى حوله . وسوف نذكر عن معلوماتهم لوظائف الاوعية ما يطابق معلوماتنا الحديثة بصرف النظر عن البعيد منها عن الصواب . فقد روى هؤلاء القوم ان الانف يغذيه وعاءان دمويان وكل اقليم جداري بالرأس يغذيه شريانان وهاذان يغذيان ايضاً مؤخر العينين القريب منهما واعتُبرت الدموع من افرازات الجفون . ونسبت تغذية الشعر الى وعائين دمويين بمؤخر الرأس . وورد في القرطاس ان الهواء يدخل الجسم عن طريق الانف ثم الى الرئتين والقلب

وبخلاف ذلك نجد انفسنا امام معلومات وهمية بعيدة من الطب الحديث . ولا غرابة في ذلك فالطب حينذاك كان في مبدئهِ . والخزعبلات والتخرصات لا تقلل من اهمية جزئه السليم . والثابت ان تعدد المباحث والنظريات وقتئذٍ دليل قاطع على شدة حرصهم على الحقيقة وولعهم بالفن واهتمامهم بجزئياته وكلياتهِ . وهو سعيٌ مشكور وجهدٌ مبرور

اما علم الامراض وطبائعها المعروف بالباثولوجيا فليس من السهل تفهمهُ من مخطوطات هؤلاء القوم لعدة اسباب . اهمها عدم معرفتنا لمدلول الالفاظ العديدة . ثم اننا لو فرض وعلمنا المدلول بوجه عام فهناك عدة اسماء لامراض متشابهة المعنى متباينة التخصص . خذ مثلاً ما ورد بقرطاس ايبرس عن الاورام فانهُ يحوي حوالي الستة اسماء لهذه الحالة المرضية . ولا نزال نجهل نوع المرض

الضغط الذي يعنيه الكاتب في هاته الاحوال . فمدلول اللفظ الحقيقي لا يزال غامضاً . ومن الجائز جداً ان هذه الاورام تخزم لخراجات بالرئة واورام البلهارسيا وغير ذلك . والمعتقد ان معظم الامراض التي كانت منذ القدم ولا تزال هي نفس الحالات المتفشية اليوم بين الفلاحين كالديدان المعوية والرمد الحبيبي والبلهارسيا والخراجات المختلفة وتسمم الحشرات ولدغها والتهاب المهبل والاذن الوسطى

واقدم العمليات الجراحية التي قام بها قدماء المصريين خلاف التحنيط هي عملية الختان التي كان ينظر اليها من وجهة دينية اكثر من الوجهة الطبية . وقد كانت معلوماتنا الى عهد قريب عن جراحة قدماء المصريين محصورة فيما هو وارد بالجزء الاخير من قرطاس ايبرس لكن لما اكتشف قرطاس ادوين سميث وجدت فيه معلومات كثيرة من هذه الناحية . وقد سبق ان المحنا الى ان هذا القرطاس ينقسم بحسب الحالات لا بحسب العلاج . وهو خاص بجروح سائر اجزاء الجسم من الرأس حتى الصدر . وما عدا ذلك فلا يزال مفقوداً . وهذا الترتيب دليل على اتقان التقسيم ومراعاة النظام العلمي

القسم الثالث

والآن ننتقل الى القسم الثالث وهو الخاص بامراض قدماء المصريين التي وجدت بمقابرهم وجثثهم . فنقول ان الحصوات البولية بالمثانة وجدت في جثث قبل عهد الفراعنة وحصوات الكلى في جثث من عهد الاسرة الثانية (٣٠٠٠ ق . م .) وحصى الكيس الصفراوي في موميا من عهد الاسرة الحادية والعشرين (١٠٠٠ — ٩٤٥ ق . م .) وعثر الدكتور روفر على بويضات البلهارسيا في كلى موميات من عهد الاسرة الحادية والعشرين

وذكر الاستاذ شاتوك وصفاً لمرض الاورطي بجثة الملك منفتاح وذلك بمجلة Lancet ١/٣٠ ١٩٠٩ وايضاً الدكتور روفر فانه اورد كثيراً من امراض هذه الاوعية في مجلة Jour of Path. & Bact ج ١٥ سنة ١٩١١ . وعثر الاستاذ اليوت سميث اثناء فحص موميات من الاسرة الحادية والعشرين على حالة واضحة لداء بوت وخراج بارد بالظهر وتقوسات عديدة بالعمود الفقري ودرن بمفصل الفخذ . وعثر على ورم خبيث من نوع osteo-sarcoma ورم (لحمي) في رأس عظمة الذراع بموميا من عهد الاسرة الخامسة بالجيزة (٢٥٦٠ — ٢٤٢٠ . ق . م .) . ولم يعثر على حالات carcinoma (سرطان) حتى العهد اليوناني حيث وجدت في الانف والحلق والمستقيم

وهناك حالتان لمرض الحنف talipes وجدت احداهما في موميا الملك سبتاح (١٢١٠ ق.م.)[1] والثانية بجثة قسيس من عهد الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق . م) . ووجد النقرس gout في جثة رجل هرم بجزيرة الفيلة من اوائل العهد المسيحي حيث لوحظت رسوب املاح بيض كثيرة فوق العظام المشطية لابهامي القدمين واخرى حول عظام باقي اصابع القدمين وايضاً فوق عظمتي الساقين والشظيتين والجهة الخلفية للردفتين والاوتار الخلفية للساقين . وايضاً بعظام اليدين

(1) Elliot Smith Royal Mummies Cairo 1912 p 71.

والذراعين . وهذه الجثة محفوظة الآن في متحف كلية الجراحين الملكية بلوندرة

اما تلف الاسنان فنادر في الجثث التي يرجع تاريخها الى ما قبل عهد الاسر . كذا في موميات الفقراء الذين كانوا يقتاتون بالاغذية الصلبة كالخضراوات الغير مطبوخة . اما الموميات التي وجدت في عهد الاهرام وبعده (لما دخل البذخ على معيشة المصريين وعمت الرفاهية منازلهم) فانها وجدت مصابة بتلف الاسنان وخراجات الفكين مع رسوب الطرطير بشكل واضح

وكثيراً ما عثر على التهاب المفاصل الشبيه بالروماتزم Rheumatoid arthritis في موميات مصر والنوبة حتى ليندر وجود جثة من تلك الازمنة العتيقة سليمة من هـذا الداء [١] ووجدت عدة حالات لالتهاب العظام في جثث العهد القديم وهذه تشمل التهاب الانف المزمن والتهاب النتوء الحلمي للاذن وتقيحات عظام الجمجمة وعدة حالات لخلع المفاصل وكسور العظام مصحوبة بنتائج متباينة من التحام جيد الى مضاعفات غاية في الخطورة

وموميا رمسيس الخامس مصابة بطفح الجدري . وفي نفس الجثة آثار لقيلة مائية بالصفن

وشوهدت اعراض التهاب الزائدة الدودية في موميا سيدة من العهد البيزنطي واخرى مصابة بالتصاقات بلوراوية بالرئة اليسرى حيث وجدت الرئة المذكورة في حالة انكماش . وحالات لسقوط الامعاء وسقوط المهبل . وعثر الدكتور جرنفل على أثر لمرض برحم موميا في العهد الفارسي [٢]

وعدا الامراض التي وجدت بالموميات المصرية توجد عدة تماثيل ورسوم على جدران المقابر تظهر لنا حالات مرضية خلاف المذكورة اعلاه . فشاهد قبر الكاهن روما السوري الاصل المحفوظ الآن بمتحف كوبنهاجن بالدانمارك يحوي رسماً للكاهن المذكور مصاباً بشلل طفلي بالرجل اليمنى . اما رسوم وتماثيل الاقزام في العهد الفرعوني فكثيرة للغاية وهي تمثل مرض Achondroplasia اوضح تمثيل . وهناك رسوم على الآثار لمرض الكساح ومرض درن العمود الفقري (بوت) . ويلاحظ على تمثال الملك اخناطون (اسرة ١٨) اعراض مرض Dystrophia Adiposo Genitalia التي تتلخص في تأنيث الشفتين وبروز البطن واطالة الجمجمة وكبر الفك السفلي واستسقاء خفيف بالدماغ [٣] .

بقي علينا الآن ان نذكر شيئاً عن عقاقير قدماء المصريين وما بقي منها محافظاً على مركزه بين الادوية الحديثة . والبحث في هذا الموضوع ليس بالهين . لاننا لا نزال نجهل مدلول معظم اسماء هذه العقاقير . نعم ان هناك مئات من الجواهر ذات الاصل الحيواني والنباتي والمعدني مذكورة ضمن الوصفات لكننا لانزال نجهل معظم هذه الحيوانات . وكل ما يمكننا معرفته هو الجزء الخاص من الحيوان مثل شحمه او لحمه او دمه . اما الحيوانات المعروفة التي كانت احزاؤها تستعمل في التطبيب فهي الثور والحمار والماعز والغزال والوعل والخنزير وفرس البحر والأسد والفأر والوطواط

(1) Arch. Survey of Nubia Report-1907-8 (2) Philosophical Transactions 1825
(3) El. Smith. Camb. Unv. Med. Soc. Mag. Vol IV No. 1.

والقنفذ والاوز والخطاف والنسر والهدهد والضفدع والثعبان والسلحفاة وعدة أنواع من السمك واما النباتات التي كانت تدخل ضمن الوصفات فلا نزال نجهل اغلبها . وكان القوم يستعملون كل النبات او ورقه او بذوره او فاكهته او عصيره او جذوره او رائحته

وقد كان استعمال الاجزاء الحيوانية كالسابق ذكرها معتبراً في القرن التاسع عشر مثال الجهل بالعلم والخلط بالشعوذة . لكن المباحث الحديثة اظهرت لنا العجب العجاب

فأصبحنا الآن نعلم ان بعض الامراض ناجم عن قصور غدد الجسم وهذه تعالج بتعاطي ما يقابلها من غدد الحيوانات . فرض المكسيديما ناجم عن فشل الغدة الدرقية ويعالج بتعاطي هذه الغدة المأخوذة من الثور . كذلك مرض ادرار البول الغير سكري (ديابيطس انسبيدس) فهو ناجم عن فشل الغدة النخامية Pituitry ويعالج بتعاطي خلاصة هذه الغدة المعروفة باسم بتروترين Pitruitria والانيميا الخبيثة التي هي نتيجة قصور الكبد تعالج الآن بتعاطي هذا العضو نيئاً من اي حيوان . ويرى البعض ان تعاطي المعدة النيئة كاف ايضاً لشفاء هـذا الداء القتّال . كذلك مرض التكزز totany فيعالج بخلاصة الغدة المتاخمة للدرقية . وهكذا . . . . . هـذا من جهة الامراض الناجمة من فشل الغدد . لكن هناك امراض اخرى ناجمة من قلة الفيتامين بالجسم مثل الكساح والبلاجرا وهي امراض مصرية قديمة تعالج الآن بالفيتامين (د ــ D) في حالة الكساح المستخرج من كبد السمك . والفيتامين G في حالة البلاجرا وهو كثير في اللحوم والخميرة والحبوب . وبعد كل هذا يحق لنا ان نتسأل هل كان أجدادنا عالمين بخواص الاعضاء الحيوانية وانواع النباتات حتى اكثروا من وصفها لا مراضهم كما نصفها نحن الآن

وما اوردناه عن صعوبة معرفة الحيوانات والنباتات الطبية ينطبق تماماً على الجواهر المعدنية المذكورة ضمن الوصفات العديدة

والسائل الذي تتعاطى العقاقير معه هو عادة الماء او اللبن او الشهد او النبيذ او الجعة . اما الدهان والمروخ فأغلب وصفاتهما تحوي الشهد او الصمغ او الراتنج او شحوم حيوانات متعددة . وكانوا احياناً يتعاطون العقاقير جافة بشكل مسحوق . وأحياناً ينقعونها او يغلونها او بين بين . وجرت العادة ان الادوية الظاهرية كانت تستعمل بالدعك او بالدهان او بشكل لبخ . وكثيراً ما وصف القوم الحبوب والاقراص المستحلبة والاقماع . ويذكرون آخر كل وصفة طريقة الاستعمال كما نفعل الآن تماماً . فكانوا يقولون مثلاً يؤخذ هذا الدواء ليلاً او نهاراً ، قبل الغذاء او بعده ، وهكذا . وأمام كل جوهر مقدارهُ اللازم مما يشير الى عنايتهم بعلم الاقرباذين

والى قدماء المصريين يرجع كثير من الفضل في ابتكار عدة عقاقير لا نزال نستعملها للآن . منها النشادر (وكانوا يستخرجونه بسحق او حرق قرون الحيوانات او اظفارها او حوافرها او عظامها) وذلك بشكل بخور او علاج موضعي . وهذه الطرق المبدئية في استخراج النشادر

واستعماله هي الاصل في بقاء هذا الدواء في الطب اليوناني والسوري والعربي والاوربي في عهد القرون الوسطى . وكان يطلق عليه في القرون الوسطى اسم « hartshorn » ومعناه قرن الايّل . ومحلول النشادر المائي لا يزال يعرف في وقتنا هذا باسم Liq. Ammoniae او "Spirits of Hartshorn"

ومن اهم عقاقير النبات قشر الرمان . وهذا النبات قديم العهد في مصر . وكثيراً ما عثر على فاكهته بالمقابر الفرعونية . ووردت بقرطاس ايبرس وصفة لطرد الديدان من الامعاء تتلخص في سحق قشر الرمان ومزج ذلك بالماء ثم تعاطيه (ايبرس لوحة ١٦ سطر ١٥—١٨) . واستمرت هذه الوصفة متبعة عدة قرون في بلاد متنوعة كآشور واليونان والعرب . وهناك وصفات مصرية قديمة تحوي الشبث (Dill) والكزبرة (Coriander) والكمون (Cumin) والكراوية (Caraway) والحلبة (Funigreek) وكان الاثريون يقولون باستعمال اليبروح او الماندراغورا (ويقال له Podophyllum) في الطب الفرعوني لكن ذلك لم يثبت للآن . نعم انهُ عثر على فاكهة هذا النبات بمقبرة توت عنخ آمون . لكن ذلك كان بقصد الزينة فقط . والرأي السائد ان هذا النبات ليس مصريًّا بل استجلب من الخارج للزينة . وان النبات المسمى بالمصرية (ديدي) لا يعني اليبروح

***

قال هيرودوتوس وديودوروس واسترابون وغيرهم ان المصريين زرعوا نبات الخروع واستخرجوا من بذوره زيتاً استعملوه للاضاءة . وقالوا ان هذا النبات كان يعرف وقتئذ باسم (كيكي) لكن هذا ليس صواباً . والثابت ان زيت الخروع بالمصرية اسمه (دجام) . وهناك نص مصري في متحف اللوفر بفرنسا من الاسرة السادسة والعشرين يقول باستعمال هذا الزيت للاضاءة اما اسم الشجرة النباتي المعروفة به الآن فهو Ricinus وورد بقرطاس (ايبرس) علاج لاطلاق البطن يتلخص في مضغ حبوب الخروع وتعاطيها مع الجعة . ووصفة اخرى لاسكان الألم تتلخص في التدليك بزيت الخروع . . وكان القوم يتعاطون بذور الخروع للامساك والضعف العام والصداع وغير ذلك

واهم العقاقير المعدنية التي كانوا اول من استعملها في الطب هي السلقون (red lead oxide) والشبّة وملح الطعام وكربونات الصودا والنطرون . واليكم مثال لوصفة لطرد الديدان المعوية (ايبرس لوحة ١٣ سطر ١٢ — ١٥) : —

حبوب شجرة (نوزم)	١	سخن . امزج معاً . تجرعه على اربعة أيام . هذا الدواء يطلق البطن
لبن	١	
عسل نحل	١	
حبوب الحلبة	١	
نبيذ	١	

وذكر قدماء المصريين امراضاً عديدة تصيب العيون وبالاخص اجفانها . ويظهر ان الشعرة كانت كثيرة عندهم . وانهم كانوا يستأصلونها بالنتف . والقراطيس البردية تحوي عدداً وفيراً من وصفات العيون يمنعنا ضيق المقام عن ذكرها . واهتم القوم بأمراض الاذن وعالجوها بالعلاجات الموضعية . واستعملوا لذلك الشبة وصفراء الثور والمرّ . وحقنوها بالنبيذ وغيره [1]

اما الطب المصري في اواخر عهد الفراعنة فوردت عنهُ بعض قراطيس تحوي وصفات عجيبة تطابق كثيراً من وصفاتنا . خذ مثلاً ما جاء منها في احد القراطيس [2] (١٠٠ ب . م .)

﴿ المرهم الاصفر للجروح المتقيحة ﴾ كالمين (كربونات الزنك الخام او حجر التوتية) ٤ درهم ابيض الرصاص ٨ درهم دقيق ناعم ٤ درهم اكسيد الحديد ferric oxide ١ درهم زعفران ١ درهم افيون ٣ اوقيات صمغ ٤ درهم ماء

﴿ لايقاف النزف ﴾ مسحوق الشبّة يبطل النزف حالاً

﴿ للارق ﴾ سيكران Henbane او Hyoscyamus ... ينسون ١ درهم افيون ٤ اوقيات تمزج معاً . وتتعاطى بطريق الفم

وهناك قرطاس بردى قبطي (٨٠٠ — ٩٠٠ ب . م) يقال له قرطاس المشايخ [3] يحوي حوالي ٢٣٧ وصفة . منها الوصفة الآتية لالتهاب الاذن الحاد . افيون . دهن عجل . لبن . امزجها معاً . ثم دفئ المزيج وضعه في الاذن . فان الالم يسكن حالاً . لكن حذار ان تصف هذا الدواء قبل ان تأخذ أجرك . وتفسرون ان السرّ في ذلك راجع الى الافيون الذي يسكن الالم لوقته . وان زوال هذا الالم وراحة المريض قد يقنعانه في عدم الحاجة الى الطبيب فيبخل عليهِ باتعابهِ وهكذا بدأنا نشعر بالغبن الذي كان يقع على زملائنا الاقدمين اذا ما صادف علاجهم نتيجة ناجعة

ما كان تأثير الطب المصري القديم على الحديث ؟ وكيف حصل هذا التأثير ؟ والى متى استمر ؟ . والجواب على ذلك ما اورده الاستاذ (وارن دوسن) [4] من ان جانباً كبيراً من معلومات ديوسقوريدس (٥٠ ب . م) وجالينوس (١٣٠ — ٢٠٠ ب . م) وبلينوس (٢٣—٧٩ ب . م) وغيرهم مأخوذة بطريقة مباشرة من القراطيس المصرية . وهذه المعلومات لقنت بواسطة هؤلاء الفطاحل الى اطباء القرون الوسطى باوربا وصارت اهم اركان الطب العشبي herbalist وتعاليم الطب القيّمة في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وقد استمر الطب المصري محافظاً على جوهره بعد دخول المسيحية مصر الى ان ظهر الطب اليوناني الذي اخذ يمتزج تدريجاً باصول الطب الفرعوني [5]

(1) Oxyrhynchus Pap. Grenvel & Hunt vol II No 234 p. 134-136
(2) Oxyrhynchus Pap. Hunt Vol VIII No 1088 p. 110—115
(3) E. Chassinat, Un Pap. Méd. Copte (Cairo 1921) No 114 line 242-3.
(4) Science Progress 1927 p. 283
(5) Proc. of the Roy .Soc. of Med. vol XVII pp 5—7, Warren Dawson

تجارب الانسان والنبات

للامير مصطفى الشهابي

يتجبر الانسان على الارض ويستكبر ، ويتيه على المخلوقات السائرة بادراكه وعقله ، ويسخر النبات والحيوان لأغراضه ، ويعمد الى النباتات في تربتها فيستأصلها من جذورها ويدفنها حية او يطعمها ماشيته او يحرقها تحريقاً ويذرو رمادها في الريح والهبوب ، ثم يدك تلك التربة او يبسطها ويشيد عليها شاهقات القصور بمقاصيرها الهادئة وأفنيتها الواسعة وبلاطها المجزّع وفسيفسائها الآخذة بمجامع القلوب . ومتى انتهى من عمله هذا شمخ بأنفه وتصلف في قوته وأيّده ونظر الى الطبيعة المغلوبة على امرها نظرة القائد المعتز بالنصر وراح يتباهى بأعماله الباهرة وبمدنيته الزاهرة وهي تجتاح كل عقبة تقف في سبيلها سواء اكانت تلك العقبة راسخة متمكنة ام رجراجة مضطربة

ويظن الانسان في غروره انه قد غلب النبات على امره وأنهُ قد ازاحه عن منابته واستولى على بلاده وجعلها مستعمرة يتصرف بها تصرف المالك في ملكه . لكن هذا النبات الذي يبدو ضعيفاً لأعين البسطاء من الناس لا يبيت على ضيم ولا يغمض له جفن على قذى ، فهو يظل ينبت ويتكاثر حوالي القصر القائم على تربته حتى اذا لاحت له غرة من صاحب ذلك القصر قذف ببزوره داخله فانتشت ونمت فيه . اما اذا غدر الزمان الخؤون بأهل القصر وسكانه فطاح بحضارتهم الحائلة ومدنيتهم الزائلة فهنالك تشاهد النبات قد ثارت ثوائره وتباشرت بالخير أزاهره فما بين البلاط وفي شقوق الجدران وعلى السطوح وفي كل مكان ضيق او واسع يستطيع فيه الحياة بعناء او برخاء وتراه ينشب جذوره في ضيق من سم الخياط فيقلق البلاط ويفرج ما بينه ويصدع حجارة الجدران ويزيحها عن مواضعها حتى يدك بنيانها دكّاً . ولا ينفكُّ يعمل في هذا السبيل اناء الليل وأطراف النهار الى ان تتفتت حجارة القصر وتستحيل تراباً فيكون النبات قد عاد الى وطنه المحبوب وطهره من بقايا الانسان الغاشم الظلوم وعاش بأمان وصفا له الزمان ولسان حاله يقول « ان عادت العقرب عدنا لها ... »

وربما ظنَّ القارىء ولا سيما اذا كان مصريّاً انني ابالغ فيما اقول ، لان المصري يعيش في بلاد ترتوي بماء النيل لا بماء المطر فلا تتكاثر الأعشاب في صحاريها ولا تلتفّ ولا تستأسد ولا يزحم

بعضها بعضاً . لكن الامر على خلاف ذلك في الارض القريبة من خط الاستواء حيث وفرة الامطار وارتفاع الحرارة تمدان النباتات بغذاء وماء وقوة فيسمو قدها ويكبر جرمها ويعظم خطرها حتى اذا تركت وشأنها نشأت منها حراج غبياء الشجر وادغال يتسابق فيها العشب والجنبة وجميعها متشبثة بالارض تتزاحم على الشبر منها وتتقاتل في امتلاك كل ذرة من ذراتها . وليست البلاد الشمالية اي اوربا وما على سمتها من البلاد بأقل إنباتاً لمختلف النباتات البرية ، بسبب غزارة امطارها وان كانت حرارة الجو فيها ادنى منها في البلاد القريبة من خط الاستواء

ولهذا اذا نظر المصري الى اهرام الجيزة مثلاً وجدها موطدة الاسس ثابتة الاركان سليمة السطوح لم يعبث بها عابث من مملكة النباتات لأن هذه لا حياة لها في ارض جف ترابها وتلاعبت في اجرائها اشعة الشمس المحرقة ، ويجد ابا الهول جاثياً أمام مدينة المعز يهزأ بتعاقب الايام وتتالي السنين والقرون وهو اجرد امرد تطوف العين في هيكله الضخم فلا تقع على نبتة واحدة تسبّح خالقها في الغدوّ والآصال . لكننا اذا ركبنا البحر الى سيام مثلاً وطوّفنا في بعض مصانعها ومعابدها القديمة ألفيناها غرقى في غابات من الاشجار الملتفة . فهذا صنم عظيم للآلهة بوذا قد طوقت عنقه النباتات المعترشة حتى همت بخنقه ، والبسته في رأسه قلنسوة من اوراقها المتشابكة ونسجت على منكبيه ابرادها السندسية ، وحلّت زنديه باسورتها الزمردية ، ولم تتورّع في هجومها وانحائها عليه فغطت اذنيه لكي يصم وفرّخت في عينيه لكي يكف ويعمى وانبتت بزورها في فيه حتى تخمد منه الانفاس ، ثم صاحت بالناس تعالوا فانظروا ماذا صنعت بربكم الاعلى واعبدوه ان كنتم لمثله عابدين ولكن لا تنسوا انني سأحيله بعد حين الى تراب وطين

وما لنا وللبلاد البعيدة نتمثل بها ما دام في بلادنا امثال كثيرة لما ذكرت . فلقد مررت في السنة الماضية بخرائب افامية الشهيرة شماليّ الشام فوجدت بعض النباتات قد مدّت جذورها في شقوق العُمُد والتماثيل وكأنها تهزأ بها وبناحتيها . ومررت بقرية حقيرة من قرى حلب بعض ارضها مكسو بفسيفساء رومانية قديمة فاسترعت نظري ازهار عات بجسم غادة حسناء من فوات الفسيفساء . وحدث ان مرّت في تلك الفترة قافلة من الابل وكان في رفقتي عالم فرنسي فقال لي ان بلادكم مفتاح الجزيرة وهي مهما تعاقبت فيها المدنيات ومهما عشقها الفاتحون فانه لا يدوم فيها غير هذه الازهار وغير اصحاب هذه الابل

والخلاصة ان صاحب الارض الحقيقي هي نباتاتها فهي التي استولت على سطح الكرة الارضية في طولها والعرض . وما مدنية الانسان بقصورها ومدنها ومصانعها ومعابدها وهياكلها سوى بقع صغيرة تتلطخ بها بشرة هذه الارض . وهي كلها صائرة الى الزوال لان النباتات اذا غذتنا بحبوبها وأثمارها وكستنا بنسيج أليافها وكانت اكبر دعامة في بناء حضارتنا المتتالية فهي لا تجيز لنا ان نتجاوز على حرمها الاقدس فنلوّثه بهذه المدنيات الزائفة

الكريم والفتى والسيد

What is a Gentleman ?

للدكتور امين باشا المعلوف

٢

اما مؤنث جنتلمان لفظاً فهو جنتلموُمَن ومعناهُ المرأة الكريمة اي الطيبة الاصل والشائع في الاستعمال كلمة ليدي يقابلها بالعربية كريمة وسيدة وست وخاتون ولا يقال فتاة بهذا المعنى . اما الكريمة فقد وردت في كتب اللغة وسيأتي ذكرها في مادة كرم قال الطغرائي في لامية العجم

تؤمُّ ناشئة بالجزع قد سقيت   لحاظها بمياه الغنج والكحل

قد زاد طيب احاديث الكرام بها   ما بالكرائم من جبن ومن بخل

واما السيدة فمعروفة عند الخاصة والعامة يلقبون بها نساء الاشراف من القرشيين . واذكر ان صاحب نشوار المحاضرة كان اذا قال السيدة اراد بها والدة الخليفة دون غيرها واما لفظة ستّ فكان يستعملها اذا خاطبت جارية احدى نساء القصر فانها كانت تقول لها يا ستي والكلمة مولدة وهي واردة في شعر البهاء زهير كثيراً وفي نشوار المحاضرة كما تقدم وشائعة في الشام ومصر وكانت في لبنان لقباً لنساء الامراء ، والمشايخ ، واما في العراق فلم اسمعها الاَّ في مخاطبة الراقصات والمغنيات الاجنبيات او عند ذكر قبر في جانب الكرخ يسمونهُ قبر الست زبيدة وهو ليس قبر السيدة زبيدة زوجة الرشيد بل قبر اميرة سلجوقية بهذا الاسم . واما الخاتون فقد ذكرها صاحب القاموس قال : الخاتون للمرأة الشريفة كلمة اعجمية وزاد صاحب التاج استعملها الفرس والترك والجمع الخواتين ، وقال محيط المحيط: الخاتون كلمة اعجمية للمرأة الشريفة وهي من لغة التتر تلقب بهِ نساء الملوك عند العرب . واذكر ان ابن جبير كان لا يقول الخواتين الاَّ لنساء الملوك ومثله ابن بطوطة فانهُ سافر في ركب اميرة رومية هي زوجة خان التتر او الخزر في ذلك العهد فكان اذا ذكرها قال الخاتون والكلمة شائعة في العراق فاذا ذكروا احدى الكرائم قالوا الخاتون مثل فاطمة خاتون واميليا خاتون وصورما خاتون وهذه عمة بطريرك النساطرة الحالي ويسميها الانكليز ليدي صورما وكانت المس بل رحمها الله تستحسن هذا اللقب كثيراً وقد زرتها مرة وكنت لا اعرف بيتها فركبت عربة وقلت للسائق خذني الى دار الخاتون فاخذني تواً الى منزلها وكان في اطراف المدينة فقالت كيف عرفت الدار فقلت على اهون سبيل فاني ركبت عربة وقلت للسائق خذني الى دار الخاتون واظنها ابتسمت لذلك واذكر انهُ جرى ذكر سيدة في بغداد فقالت احدى السامعات ان فلانة حقيقة خاتون اي انها ارادت بخاتون ما يريده الانكليز بكلمة ليدي

قلت ان كلمة خاتون شائعة كثيراً في العراق ويتلوها لقب خان فيقولون مثلاً ربيعة خان وحسيبة خان واصلها ترخيم خانم على انهم يقولون ايضاً خانم وهانم وجميعه مؤنث خان اي ان خانم وهانم مؤنث خان ومعناها ملكة ولفظة خان تمت الى ما معناه ملك بالانكليزية واللهجات الجرمانية واصلها خاتنم بالالغة الجغتائية اي التركية القديمة وخانم اصلها خانغم ومثل ذلك بكُم مؤنث بك سمعت جميع ما تقدم من الاديب التركي المشهور يوسف سامح بك نزيل مصر في ايامنا وكثيراً ما كنا نجتمع للسمر في صيف سنة ١٩١١ والسنة التي تلتها . ولما كان البحث الآن في كرم الاخلاق والمروءة وكنت آليت على نفسي الاَّ اذكر احداً من الاحياء ولكنني وجدت الفرصة سانحة والواجب يقضي عليَّ ان اذكر بعض الذين كنا نجتمع واياهم في هذه المجالس من كرام القوم ممن تجلى فيهم الكرم في احسن معانيهِ فمنهم الدكتور شبلي شميل فتى لبنان الحرّ الشهم ورفيق بك العظم من فتيان العرب وساداتهم وحسني بك يكن واخوهُ رضا بك من فتيان مصر وساداتها . وربما عدت الى هذا البحث في فرصة اخرى وضربت امثلة على اعمالهم مما اختبرتهُ بنفسي رحمهم الله جميعاً . واني لم اذكر اسماءهم لادبهم الجمّ او لعلمهم الواسع او لسخائهم او كياستهم بل لما كانوا عليهِ من مكارم الاخلاق اي ان كل واحد منهم كان فتى اي جنتلمان

ومن القاب الكرائم في العراق « بكُم » وهي شائعة في الهند وايران وفي الكرخ والكاظمية في بغداد وربما في كربلاء والنجف واللفظة كما تقدم مؤنث بك ومما يحسن ذكره ان اهل العراق ولاسيما في الموصل يلفظون كلمة بك كما كان يلفظها الترك قديماً ومثلها كلمة بكُم اي بفتح الباء وهي شبيهة بلفظ الانكليز للكلمتين الآتيتين اي Beg & Begum فخان معناها في الاصل ملك او سلطان او امير ومثلها بك وكلنا نعرف اسم ارطغرل بك فاتح بغداد وكان من السلاطين السلجوقيين

ولنبحث الآن في ماجاء عن الكريم والفتى في كتب اللغة وكلام العرب فقد جاء في التاج ما نصهُ : الكَرَم محركةً ضد اللؤم يكون في الرجل بنفسهِ وان لم يكن لهُ آباء ويستعمل في الخيل والابل والشجر وغيرها من الجواهر اذا عنوا العتق واصلهُ في الناس . قال ابن الاعرابي كرُم الفرس ان يرق جلده ويلين شعره وتطيب رائحتهُ . وقال بعضهم الكرم مثل الحرية الاَّ ان الحرية قد تقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة والكرم لا يقال الاَّ في المحاسن الكبيرة كانفاق مال في تجهيز غزاة وتحمُّل حمالة يوقى بها دم قوم . وقيل الكرم افادة ما ينبغي لا لغرض فمن وهب المال لجلب نفع او دفع ضرر او خلاص من ذمّ فليس بكريم . وقد كرُم الرجل وغيره بضم الراء كرامة على القياس والسماع وكَرَماً وكَرَمة محركتين فهو كريم وكريمة وكِرمة بالكسر ومُكرم ومَكرمة بضمهما وكُرام كغُراب واذا افرط في الكرم قيل كُرّام مثل رُمّان . الى ان قال اي صاحب التاج والكريم الواسع الخلق والصدر الصفوح عن الذنب . الى أن قال وقوله تعالى « واعتدنا لها رزقاً كريماً » أي كثيراً وقولهُ تعالى « وقل لهما قولاً كريماً » اي سهلاً ليناً وقوله تعالى « ويدخلكم مدخلاً كريماً » أي حسناً وهو

الجنة . الى أن قال ومما يستدرك عليه الكريم من صفات الله تعالى واسمائهِ وهو الكثير الخير وقيل الجوّاد وقيل المعطي الذي لا ينفد عطاؤهُ وقيل هو الجامع لانواع الخير والفضائل والشرف وقيل حميد الفعال وقيل العظيم وقيل المنزه عما لا يليق . الى ان قال واذا وصف بهِ الانسان فهو اسم للاخلاق والافعال المحمودة التي تظهر منهُ ولا يقال كريم حتى يظهر منهُ ذلك والكريم ايضاً الحرّ والنجيب والسخيّ والطيب الرائحة والطيب الاصل والذي كرّم نفسه عن التدنس بشيءٍ من مخالفة ربهِ . وايضاً الرقيق الطبع والحسن الاخلاق والواسع الصدر والحسيب والمختار المزيّن المحسّن والعزيز عندك والحج وايضاً الجهاد وفرس يغزى عليهِ والبعير يستق بهِ . وكتاب كريم اي مختوم او حسن ما فيهِ وقرآن كريم محمد ما فيهِ من الهدى والبيان والعلم والحكمة . وقول كريم سهل ليّن ورزق كريم اي كثير ومدخل كريم حسن

والكريم ايضاً الرئيس والعفيف والجميل والعجيب الغريب والعالم والنفيس والمطر والجود والمعجز والدليل على التهكم فهذه نيّف وثلاثون قولاً في معنى الكريم ولم اره مجموعاً في كتاب الى أن قال والكريمة الاهل وقيل شقيقة الرجل والجمع الكرائم . قلت والكريمة بمعنى الشقيقة شائعة في الحجاز سمعتها غير مرة بهذا المعنى والكريمة في الشام ومصر ابنة الرجل الكريم وهي شائعة بهذا المعنى . الى ان قال صاحب التاج وفي الحديث ان الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن ابراهيم لانهُ اجتمع له شرف النبوة والعلم والجمال والعفة وكرم الاخلاق ورياسة الدنيا والدين . انتهى ما اريد نقله عن التاج . وفي سائر كتب اللغة ما لا يخرج عن ذلك والمآل واحد ولا بأس بايراد ما جاء في محيط المحيط مما لم اعثر عليه في التاج . قال صاحب محيط المحيط ما نصه : قيل الكريم قد يطلق على الجوّاد الكثير النفع وقد يطلق من كل شيء على احسنه كما قيل الكريم صفة ما يرضي ويحمد في بابه . يقال رزق كريم اي كثير وقول كريم اي سهل ليّن ووجه كريم اي مرضٍ في حسنه وجماله وكتاب كريم اي مرضٍ في معانيه وفي جزالة الفاظه وفرائده ونبات كريم اي مرضٍ فيما يتعلق به من المنافع . والكريم من كل قوم ما يجمع فضائله . كليّات . انتهى ما اريد نقله

ثم انهم ميزوا بين الكرم والشرف فالشرف يقتضي له آباء اشراف اما الكرم فقد يكون في الرجل بنفسه كما جاء في تعريف الشرف في ص ٦٧٣ من مقتطف الشهر الماضي . فالكرم خُلق يكون في الرجل بنفسه يرثه عن آباء كرام او لا يرثه . اما اللؤم فكتب اللغة مجمعة على انهُ ضد الكرم . قال صاحب التاج اللؤم بالضم ضد العتق والكرم وصرّح له في الكرم انهُ ضد اللؤم وعاب جماعة عليهِ (أي على الفيروزابادي تفسيره الكرم في قوله انهُ ضد اللؤم وتفسيره اللؤم في قوله انهُ ضد الكرم) ووقع في شرح الشواهد للعيني ان اللؤم ان يجتمع في الانسان الشح ومهانة النفس ودناءة الآباء وهو من اذم ما يهجى به وقد لؤم لؤماً بالضم فهو لئيم وفي الاصل شحيح النفس

فالكلام صريح على ان الكرم ضد اللؤم وعندي ان الكرم خلق في الانسان كذلك اللؤم

يكونان عن الآباء وهو الغالب وقد لا يكونان وهو نادر والكرم صفة ما يحمد واللؤم صفة ما يذم لذلك وصفوا الكريم اي الطيب الخلق والاصل بالجود والسخاء ووصفوا اللئيم اي الدنيء الاصل بعكس ذلك اي ان الكريم ليس معناه في الاصل السخيّ المعطاء الوهّاب بل الكريم في خلقه وفي نفسه ولما كان من فطرة العرب السخاء غلب معنى الكريم على السخي الجوّاد المعطاء وهو ليس كذلك في الاصل . اما الانكليز فمعنى الكريم عندهم الطيب الاصل كما تقدم في ص ٦٧٤ وما يليها من مقتطف الشهر الماضي ثم اشتقّ من هذه المادة الاصلية الفاظ اخرى تدل على الجود والسخاء وغير ذلك من المعاني فكلمة جنتل يقابلها الكريم بالعربية ثم تفرَّعت منها المعاني الاخرى بالعربية والانكليزية . اما الكلمة الانكليزية فقد بينت اصلها عن معجم وبستر في الشهر الماضي وأما مادة كرم العربية وعلاقتها اللغوية بالكرْم اي شجر العنب فلا محل للبحث فيه الآن ولعل اصلهما واحد ومن شاء زيادة البحث فليراجع مادة كرم في الامهات

اما الفتى فقد جاء في تاج العروس ما نصه : الفتى الشاب يكون اسماً وصفة . وفي المصباح الفتى في الاصل يقال للشاب الحدث ثم استعير للعبد وان كان شيخاً مجازاً لتسميته باسم ما كان عليهِ قبلاً وقوله تعالى « واذ قال موسى لفتاه » جاء في التفسير انهُ يوشع بن نون سماه بذلك لانهُ كان يخدمه في سفره ودليله قوله « آتنا غداءنا » وقال الراغب ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والامة ومنه قوله تعالى « تراود فتاها عن نفسه » . الى ان قال صاحب التاج والفتى ايضاً السخيّ الكريم وهو من الفتوَّة يقال فتىً بين الفتوَّة نقله الجوهري وهما فتَيان بالتحريك ومنه قوله تعالى « ودخل معهُ السجن فتيان » جاز كونهما حدثين او شيخين لانهم كانوا يسمون المملوك فتىً . الى ان قال والفُتُوَّة بالضم والتشديد الكرم والسخاء هذا لغة وفي عرف اهل التحقيق ان يؤْثِر الخلق على نفسهِ بالدنيا والآخرة وصاحب الفتوة يقال له الفتى ومنهُ لا فتى الاَّ علي . وقول الشاعر

فانَّ فتى الفتيان من راح واغتدى لضرّ عدوّ او لنفع صديق

وعبروا عنها في الشريعة بمكارم الاخلاق ولم يجيء لفظ الفتوَّة في الكتاب والسنَّة وانما جاء في كلام السلف واقدم من تكلم فيهِ جعفر الصادق ثم الفضيل ثم الامام احمد وسهل والجنيد ولهم في التعبير عنها الفاظ مختلفة والمآل واحد . انتهى ما اريد نقله عن التاج . وفي لسان العرب مما لم اعثر عليهِ في التاج : قال المتنبي ليس الفتى بمعنى الشاب والحدَث وانما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال يدلك على ذاك قول الشاعر

ان الفتى حمَّال كل ملمَّة ليس الفتى بمنعَّم الشبان

وفي اساس البلاغة : هذا فتى بيّن الفتوة وهي الحرية والكرم قال عبد الرحمن بن حسَّان

ان الفتى لفتى المكارم والعلى ليس الفتى بمملج الصبيان

وقال آخر : يا عز هل لك في شيخ فتىً ابداً وقد يكون شباب غير فتيان

انتهى ما اريد نقله عن كتب اللغة . وللاديب العراقي الكبير مصطفى جواد نزيل القاهرة مقالة نفيسة في الفتوة في لغة العرب ص ٢٤١ وما يليها من المجلد الثامن قال فيها ما يأتي : الفتوَّة مذهب حيوي ديني سلك بعد ظهور الاسلام لتهذيب الاخلاق ونعش النفوس وبث العبقرية وتوكيد المؤاخاة بين الناس والدعوة الى الفضائل والشجاعة والتجافي عن الرذائل والجبن فالفتوة عند الفتيان هي استجماع النعوت الكريمة والاخلاق القويمة والطباع السليمة والجرأة والاقدام ولا سيما السخاء والكرم . وقال في مبعثها : ان الفتيان ينسبون طريقتهم هذه الى الامام علي عليه السلام فهو قدوتهم وفيه اسوتهم ويؤمنون بأنهُ اول الفتيان وأقدمهم لورود « لا فتى الاَّ علي ولا سيف الاَّ ذو الفقار » في فتوته المقدسة وشجاعته الفذة . ثم ذكر الاديب الكبير شيئاً كثيراً عن الفتوة وتطوراتها فقال ما يأتي : حكم التطور جار على كل امور الدنيا ولذلك تطورت الفتوة اطواراً شتى فدخل فيها الغناء ورمي البندق وتطيير الحمام للمسابقة . قلت وقد كتب ذلك قبل مجيئه الى مصر ومروره بالشام فما قوله الآن في فتوَّات مصر وزملائهم قبضايات الشام . وقد لقيته بالامس فسألته هل تعرف العامة في بغداد كلمة فتوَّة فاني لا اذكر اني سمعتها منهم بمعنى الفتوة عند عامة اهل مصر قال لا وانما يقولون اشقياء اي انهم يستعملون الجمع مكان المفرد قلت اذكر انهُ يقال في بغداد ابو جاسم اي ابو قاسم قال نعم يقولون ذلك . اقول ان أبا قاسم لا تزال شائعة في الشام بهذا المعنى فيقال أبو قاسم وابو حمد وابو علي ولا يزال بعض البيوت المعروفة في الشام يكنى بهذه الاسماء ولعلَّ اجدادهم كانوا فتياناً ومن اهل المكارم وهم يفخرون بهذه الكنى . ثم ان كلمة فتوة في مصر وزميلتها كلمة قبضاي في الشام ليستا بالمعنى الذي تفهمه العامة بل لا يزال وراء ذلك شيء من النجدة والمروءة . اما كلمة قبضاي فهي على ما قيل لي تركية الاصل ومعناها الخال الضخم او الخشن ولا يزال أثرها في بيروت حتى الآن في قولهم مرحباً يا خال . والجواب يعزك يا روح

وان اول عهدي بكلمة فتىً بمعنى جنتلمان كان في الثورة العربية فقد رأيت في دمشق امراً عسكريًّا بتعيين ضابط لا اذكر اسمه الآن وانما كتب في الامر ان الفتى فلان ابن فلان منح رتبة الملازم الثاني وهو ما يفعله الانكليز اذا ذكروا ضابطاً بلا رتبة سابقة ولا يزالون يفعلون ذلك حتى الآن كما اذا عين تلميذ بهذه الرتبة او طبيب لاول مرة فانهم اذا ذكروا اسمه قالوا جنتلمان ولا اعلم من ادخل كلمة الفتى بهذا المعنى ولعلَّ ضباط الثورة اخذوها عن سليم بك الجزائري شهيد العرب . وكان رحمه الله اديباً وعالماً مشهوراً وفتىً من فتيانهم وان كثيرين من ضباط الجيش العثماني السابق هم من تلامذته ولا يزالون يذكرون ما كان عليه من كرم الاخلاق

فما ورد عن الفتى في كتب اللغة يدل على انهُ الشاب الحديث والعبد والكامل الجزل من الرجال والسخي والكريم اي الحرّ لان السخاء غير الكرم فاستعار العرب كلمة فتىً للمعاني المتقدمة كما استعارت العامة كلمة آدمي للرجل الكريم الاخلاق وكما اشتقوا كلمة مروءة من المرء اي الرجل

ولا اريد الآن ان ابحث في الفتوّة ولا في صحة ترجمتها وقد ترجمها الاديب العراقي مصطفى جواد او صاحب مجلة « لغة العرب » كما يأتي La Chevalerie arabe واظنها ترجمة صحيحة لا غبار عليها . وانما البحث الآن في كلمة جنتلمان . ولنذكر الآن بعض ما ورد في الكريم والفتى في كلام العرب وهو كثير وانما نجتزىء بالقديم منه . قال طرفة بن العبد البكري في معلقته

فلولا ثلاث هنَّ من لذة الفتى وجدِّك لم احفل متى قام عوّدي

قال الزوزني في الشرح لولا حبي لثلاث خلال هنَّ من لذة الفتى الكريم لم ابالِ متى قام عوّدي من عندي آيسين من حياتي اي لم ابالِ متى مت . ثم ذكر طرفة في الابيات التالية هذه الخلال اي خلال الفتى الكريم في ذلك العهد اي عهد الجاهلية فالاولى شربة من الكميت والثانية اغاثة الخائف المذعور والثالثة مغازلة حسناء في يوم الدجن وكان طرفة غفر الله لنا وله يحسب لذة الفتى في هذه الخلال الثلاث قلت ولا يزال البعض على رأيه فطرفة كان جاهليًّا يشرب الخمر وكان يغازل حسناءه في خدرها وفي يوم دجن ماطر لايراه فيه احد او يفاجئه فيه مفاجىء فلم يغازلها على قارعة الطريق او يضايقها في غدوّها ورواحها . وان قيل ان الفتى الشاب الحدث لأن طرفة قتل في شبابه نجده قبله يقول :

فالحرب لا يبقى لجا حمها التخيل والمراح
الاَّ الفتى الصبَّار في الـــنجدات والفرس الوقاح

فهو لا يريد بالفتى هنا الشاب الحديث بل الرجل المجرّب في الحروب . وقال طرفة في قصيدة يفتخر بقومه

اجدر الناس برأس صلدمٍ حازم الأمر شجاع في الوغم
كامل يحمل آلاء الفتى نبه سيِّد سادات خِضَمّ

فقد وصف الفتى هنا احسن وصف ثم قال

وتفرَّعنا من ابنيْ وائل هامة المجد وخرطوم الكرَم

فالكرم هنا معناه طيب الاصل كما تقدم في مادة كرم . وقالت قتيلة بنت النضر بن الحارث

امحمدٌ ولانت ضِنء نجيبة من قومها والفحل فحل معرِق
ما كان ضرّك لو مننت وربما منَّ الفتى وهو المغيظ المحنَق
والنضر اقرب من اصبت وسيلة واحقهم ان كان عِتق يعتق

قال شارح ديوان الحماسة وقد نقلت عنه هذه الأبيات : الضنء الولد والنجيبة الكريمة والمعرق من كان له عرق في الكرم والمعنى يا محمد ان التي ولدتك كريمة قومها والذي ولدك سيد عريق في الكرم فانت خلاصة شريفين والمعنى اذا كنت كذلك فما كان يضرّك لو مننت على ابي واطلقتهُ وليس هذا عيباً عليك اذ قد يعفو الفتى مع انطوائه على الغيظ والحنق. قلت وقد وردت هذه الأبيات في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة ولكنه قال الحارث بن كلدة الثقفي والصواب القرشي لا الثقفي

ولعلَّ احسن ما قيل بهذا المعنى ما وقع لابي الاسود الدؤلي مع عمر بن ابي ربيعة على ما جاء في

الجزء الاول من الاغاني قال : حج أبو الاسود الدؤلي ومعهُ امرأتهُ وكانت جميلة فبينا هي تطوف بالبيت اذ عرض لها عمر بن ابي ربيعة فأتت ابا الاسود فأخبرتهُ فأتاه ابو الاسود فعاتبه فقال له عمر ما فعلت شيئاً فلما عادت الى المسجد عاد فكلمها فأخبرت أبا الاسود فأتاه في المسجد وهو مع قوم جالس فقال له

وانّي ليثنيني عن الجهل والخَنَا — وعن شتم اقوام خلائق اربع
حياءٌ واسلامٌ وبُقيا وانني — كريمٌ ومثلي قد يضرّ وينفع
فشتّان ما بيني وبينك انني — على كل حال استقيم وتظلع

فقال عمر لست اعود يا عمّ لكلامها بعد هذا اليوم ثم عاد فكلمها فأتت أبا الاسود فأخبرتهُ فجاء اليه فقال له

انت الفتى وابن الفتى واخو الفتى — وسيدنا لولا خلائق أربع
نكولٌ عن الجُلّى وقربٌ من الخنا — وبخلٌ عن الجدوى وانك تبّع

ثم خرجت وخرج معها ابو الاسود مشتملاً على سيف فلما رآها عمر اعرض عنها فتمثل ابو الاسود

تعدو الذئاب على من لا كلاب لهُ — وتتقي صولة المستأسد الحامي

قلت الكريم في البيتين الاولين معناها الكريم في طبيعته اي الواسع الخلق والصدر كما تقدم في مادة كرم يريد ابو الاسود ان يقول يمنعني عن الجهل والخنا وشتم الناس اربع خلائق اي طبائع هي حيائي واسلامي واشفاقي وكوني كريماً ولكن الفرق بيني وبينك اني مستقيم وأنت تظلع اي تميل في مشيك . ولا ادري كيف يكون معنى الفتى في البيتين التاليين الاّ بقولنا كريم اي جنتلمان فتجد ان هذه الابيات حوت معاني جنتلمان في ثلاث كلمات هي الكريم والفتى والسيد

وقال سلمة الجعفي يرثي اخاه لامه :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه — اذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

قلت هذا لعمري من احسن صفات الجنتلمان اي الرجل الكريم وفي ديوان الحماسة شيء كثير من هذا : وقال آخر معرّضاً بحديثي النعمة

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا — من كان يألفهم في الموطن الخشن

وقال المتنبي : ولكن الفتى العربي فيها — غريب الوجه واليد واللسان

وهذا مثل قول شكسبير « فتيان من فيرونا » وهو ما يقوله القائد الانكليزي عند مخاطبة ضباطه وما كان يقوله الانكليز في كثير من كتاباتهم وما كان يقوله سيبويه في مخاطبة تلاميذه وما يقوله الأساتذة من الانكليز والاميركيين في مخاطبة تلاميذهم وهذا يوافق المعنى الرابع من معاني جنتلمان بالانكليزية على ما جاء في ص ٦٩٨ من الجزء الماضي ويدل على أن العرب وشعراءهم كانوا على أدب كبير . وعليهِ أرى ان المعنى الاول من كلمة جنتلمان هي الفتى والكريم والسيد كذلك المعنى الثاني والرابع والخامس والسادس . أما المعنى الثالث فلا يقال غير الفتى أي ان جميع المعاني يصلح لها كلمة فتى وكريم وسيد . أما المعنى الثالث فانه لا يصلح لهُ الاّ الفتى

الدكتور رضا توفيق

آراؤه في السلالة، وشكل الحكومة ، والحرية ، والديمقراطية ، والاريستوقراطية ، والفن والشعر ، والفن والطبيعة ، والفلسفة

لالياس ابو شبكة

ليس من السهولة في شيء أن آتي — في هذه الصفحات القليلة من المقتطف — على جميع المراحل التي جازها صديقي الكبير الفيلسوف الشاعر الدكتور رضا توفيق بك في حياة طويلة طافحة بجلائل الاعمال وألوان الاضطراب ، فالإقدام على عمل كهذا يستغرق وقتاً طويلاً ومجلدات ضخمة لان حياة هذا الرجل إنما هي ملحمة كثيرة الوقائع ، متعددة الصور ، تبدأ عند اعلان الحرب بين تركيا وروسيا ، تلك الحرب الطاحنة التي كانت تتأجّجها وخيمة على مسقط رأس الشاعر ، وتنتهي — وقد لا يجوز لنا ان ننهيها — في مطلع الثلث الثاني من هذا القرن العشرين

ولد الدكتور رضا توفيق من أب تحدّر من سلالة ألبانية فكان آخر عقبٍ من اولئك الفرسان الاشداء الذين نشأوا في الجبال فاستمدوا الصلابة من الصخور والصراحة من الطبيعة التي لا تتصنّع ولا مشاحة في أن الشاعر ورث عن أجداده المتحمسين بعض خلال لا يزال يحترمها وبعض هفوات كانت شؤماً عليه في حياته السياسية ، على أن هذه الهفوات المزعومة تقوم على فضائل جبلية كتعشق الاستقلال المطلق ، والتمرّد على كل سلطة لا تدعمها عاطفة احترام للرتب الانسانية . وكانت أمّه شركسية تمتّ الى قبيلة « شابسيج » المتحدرة من القفقاس ، وقد يكون الدمُ التركيّ المتمشي في عروق الشاعر متصلاً به من جدته لابيه ، وهي تركية من مكدونيا

فهذا الخليط في الدم يجعلنا نجاري الشاعر في إنكاره النظرية القائلة بنقاوة النسل ، وهي ضلال فظيع تكاد عدواهُ تغمر هذا القرن العشرين الذاهل المضطرب ! ... فهو يذهب الى ان نقاوة النسل إنما هي نظرية خلقت لدعم جنسية مصطنعة لتبرير سلطان ممهّد هو ينبوع جميع الفتن التي تهدّد السلام العالمي . فثمة طائفة من العلوم كالتاريخ والاثنولوجيا والانطروبولوجيا وغيرها تبرهن على أن البشر الحاليين قد جبلتهم حروبٌ متواصلة منذ عشرات من القرون ، وأن العوامل التي تجعل من شعبٍ أمةً متفوقة انما هي عديدة ؛ ولا يخفى أن تمازج الشعوب إنما هو اهمّ هذه العوامل واشدها تأثيراً . فالشعب اليوناني القديم ؛ وهو أنبغ الامم التي درجت على سطح هذه الكرة واكثرها تفوقاً من ناحيتي الثقافة والخلق ، كان مزيجاً من شعوب مختلفة ، وفي هذا برهان واضح على خطإ النظرية القائلة بنقاوة السلالة

ولنعد الى الدكتور رضا توفيق فنقول انهُ ولد في « جسر مصطفى باشا » وهو مدينة صغيرة تقوم على ضفاف مريج — وقد اصبحت اليوم مدينة بلغارية معروفة باسم « ساريبرود » — في ٢٣ رمضان ١٢٨٣ الموافق للعام ١٨٦٨ ، ولما بلغ السابعة من عمره جاء بهِ والده الى اسطنبول ، وكانت الحرب بين تركيا وروسيا على وشك الانطلاق ، فأتيح له ان يشهد تلك الحوادث المشؤومة التي كانت وبالاً على تركيا ، ولا يزال يذكر خلع السلطان عبد العزيز والسلطان مراد الخامس وجلوس عبد الحميد على العرش وغير ذلك من الحوادث الخطيرة

وفي أثناء تلك الحوادث كان الشاعر منصرفاً الى الدرس في قلب الطبيعة التي اوحت اليهِ تعشقها ولا مشاحة في ان للطبيعة يداً على شاعريته التي ارتفع بها الى مستوى كبار الشعراء في تركيا . وفي العام ١٨٨٢ انتظم في المكتب السلطاني ، الاَّ ان طبيعته الميالة الى الاستقلال ، المتمردة على كلّ نظام دقيق ، وعلى كلّ سلطة لا تستطيع أن توحي اليهِ بالثقة والاحترام جعلت حياتهُ في تلك الجامعة صعبة لا تطاق . واخيراً في العام ١٨٩٠ اتهم بالائتمار على الحكومة فألقي القبض عليهِ وسجن اربعين يوماً . ومنذ ذلك الحين بدأت حياته السياسية التي دامت ثلاثين سنة . على اننا نضرب صفحاً عن ذلك العهد المضطرب من حياته ، ونكتفي بأن نقول ان الدكتور رضا توفيق يعيش في البلاد العربية منذ احدى عشرة سنة مغموراً بعطف صاحب السموّ الامير عبدالله . وهو يقيم اليوم على ضفاف الشاطئ الوردي المضطجع عند اقدام مدينة جونية في تلك البقعة الرمادية من لبنان، المتوّجة بالاكمات السبع الممتدة من جبل حريصا الى طرف خليج جونية والشاخصة شخوصاً ازليًّا الى الشفق البعيد المتموّج بجميع ألوان الشمس الصريحة

والدكتور رضا توفيق شيخ يدلف الى العقد السابع من العمر ، على ان الطبيعة خلعت على هيكله الجبار كلّ ما في وسعها فلم تستطع الايام أن تزيل عن جسده بريق الشباب . ففي عضلاتهِ القوية ، تلك العضلات المفتولة الشبيهة بعضلات المصارعين ، وفي قامته المستطيلة كالاسطوانة ، واندلاق صدره الى الامام ، واسترسال كتفيه الى الوراء ، وفي اتزان مشيته العصبية ، ولفتاته السريعة المتيقظة ، في ذلك كله عناصر من الشباب الجبار تخونها شعور بيضٌ هي اكاليل السبعين

جبهة نافرة عالية تشطر الوجه الى شطرين متساويين أغدقت قمتها على الرأس شعراً غزيراً ترامت أمواجه الى سفح الرقبة ونفرت منها موجتان فانتشرتا مشعثتين كلٌّ منهما على اذن . وفي سفح هذه الجبهة المنحدرة يعبّس حاجبان متسقان جميلان تطمئنّ تحتهما مقلتان ساذجتان على ما فيهما من البريق الذكيّ هما مقلتا الفيلسوف الشاعر ، وانك لترتاح الى تلك الاشعة الغريبة المنبعثة من وراء نظارتيه الذهبيتين والمنتشرة شعاعاً على تينك الوجنتين المشرّبتين بألوان خمرية كألوان الشفق قبيل الغروب ، انك لترتاح الى ما يطفو عليها من الوجدان النيّر المغمور بأعذب ما في القلب البشري من زبد الرحمة والحب . وأول ما يقف نظرك عليه في ذلك الرأس المردود الى السلالة العبرانية القديمة ،

او اذا شئت الى فلاسفة اليونان في عهد سقراط وافلاطون لحية كثيفة تنحدر كالشلال الى مغرس الثندوتين ثم يتجمع بعضها على بعض فتعير الوجه هيئة نبي خرج من التوراة ، وفي حنجرة هذا الرجل لا أعلم أية كنارة أم أي أوتار ساحرة يهزك منها في الكلام صوت ، عذب تشدّ به غنة كالتي تصدر عن رجع النحاس ، فهو اذا كلمك أطربك بحديثه وصوته معاً . والفيلسوف الشاعر رضا توفيق مبسوط العلم باللغات الفرنسية والانكليزية والفارسية واليونانية والعربية

ولننتقل الآن الى آراء الدكتور رضا توفيق في الادب والاجتماع ، ولا سيما المسائل المتعلقة منهما بالحرية والواجبات والحقوق والدين والحكومات وغيرها من المسائل التي يعبر عنها البعض بصيغ مبهمة لا يستقيم لها وزن والتي كثيراً ما تنجم عنها مجادلات عقيمة مزعجة

﴿ شكل الحكومة ﴾ لا يزال كثيرون ، منذ نحو من قرن الى اليوم ، يعلقون شأناً كبيراً بشكل الحكومة حتى ان جميع الانقلابات الثورية تكاد تكون وليدة تلك العقيدة الذاهبة الى ان الحكومات تتوقف على اشكالها . غير ان الدكتور رضا توفيق يخالف هذا المذهب قائلاً انه وهم محض ، وان الاختبار اظهر له في مواقف متعددة ان كل شيء يتوقف على الحرب او على السلم فثمة علاقة دقيقة بين الادارة المطلقة او المحافظة او الديكتاتورية والحروب العامة او المحلية . اما الشكل فليس سوى بطاقة او اعلان او صورة لا طائل تحتها ، ولقد قال احد الشعراء الفرنسيين ان شكل الحكومة يشغل افكار المجانين ، ولكن افضل الحكومات هي افضلها ادارة (١)

وكان كانت وسبنسر يقولان : « ان افضل الحكومات هي اقلها ادارة »

﴿ الحرية ﴾ ان كلمة « حرية » تدعو الى الالتباس كجميع الالفاظ المبهمة او كمعظمها . ثم ان هناك اصطلاحين للحرية ، الاول هو الاصطلاح النفساني وآخر الاصطلاح السياسي الاجتماعي . ولما كانت النفسانية psychologie نوعاً من العلم الطبيعي فانها لتضطرّ الى انكار الحرية ، اذ ان كل نوع من انواع العلوم يجتهد في شرح جميع العوامل التي يدرسها بأسباب من شأنها ان تحدد هذه العوامل ، اذن فجميع العلوم مجبرة بحكم المنطق على الاقتناع بأن كلّ حادث انما هو نتيجة اسباب عديدة لا نعرف الآ بعضها

ولقد اتيح للبعض ان يزعم ان الذي اصطلح على تسميته بـ « الارادة البشرية » او « الارادة المطلقة » انما هو السبب الاهم الذي يحدد اعمالنا ، على ان النفسانية العلمية تبرهن لنا على ان الارادة نفسها ليست سوى عامل محصّل من عدة اسباب نفسية فيزيولوجية تشترك بدون علم منا في عمل دماغنا ، ولما كان العمل الدماغي هو الذي يتيح لنا فرض تعديلات على الافعال المنعكسة التي تسببها العوامل الخارجية فمن البديهي ان يخيل الينا اننا احرار

ولقد تناقش العلماء المسلمون طويلاً حول هذه المسألة العسيرة لاجل تقرير المسؤولية البشرية

(1) La forme de l'etat préoccupe les fous, Le mieux administré est le meilleur de tous

من الوجهتين الدينية والحقوقية ، وظلوا يتناقشون حولها قروناً طوالاً . ثم انقسموا الى ثلاث فئات او مدارس : (المعتزلة) وهي القائلة بالارادة المطلقة ، واصطلاحها (ان شاء ترك) و (الجبرية) او اتباع مذاهب القدر الذين كانوا يذهبون الى ان المقدَّر لا يستطيع النزول على سنة التعديل . و (اهل السنّة) الذين كانوا يعتقدون ان للانسان « ارادة جزئية » يستطيع معها الاختيار بين مقدورين لا مناص منهما كالخير والشر مثلاً . وهـذا المذهب الاخير هو المعروف اليوم بمذهب «الحرية في الاختيار» وهو الذي يعتنقه الدكتور رضا توفيق بحجة ان العلم يوافق اهل السنّة في مذهبهم لان الارادة المركزية هي في الدماغ

اما الحرية السياسية فهي احترام الشريعة الوضعية مع التمتع الممكن بالافعال التي لم يستدركها التشريع المستبد . وخلاصة القول هي خضوع اختياري لقانون يرمز الى ارادة شعب مثقف ، وليس خضوعاً جبريّاً لارادة سلطان او حاكم فرد اريسطوقراطيّاً كان او ديموقراطيّاً ، او لارادة وصوليّ او ديكتاتور . واما الحرية الاجتماعية فهي حقّ الفرد في ان لا يخضع لتقاليد بلد بشرط ان لا يكون تمرّده مخالفاً للشريعة الوضعية او للاصطلاح الاخلاقي الادبي المقرر في العالم

﴿ الديموقراطية ﴾ ذلك هو رأي الفيلسوف رضا توفيق في الحرية ، اما رأيه في الديموقراطية فيلخص بما يلي :

يراد بالديموقراطية حكومة الشعب . ولكن أيستحيل ذلك ؟ لقد حصر الفيلسوف العظيم شوبنهور هذه المسألة في برهان ذي حدّين ، فقال: « انه لمن الظلم المحرّم ان يحكم شعب بالرغم منه » وهذا حقّ على أنهُ أضاف إلى ذلك قوله: « وان الشعب ولدٌ ويظل ولداً ويحكم بالرغم منه » . وهذا يبعث على القنوط . الآن القرآن — لحسن الحظ — أعطى أفضل حلّ لهذه المسألة العسيرة، فقد جاء فيه قول الآية : « ولقد كرّمنا بني آدم . . . » إذن فالانسان مكرّم أيّاً كان ، وينبغي ان تحترم قيمته الانسانية التي لم يستمدها لا من ملك ولا من رئيس جمهورية بل من نعمة الله نفسه الذي خلقه على صورته . ولقد اضاف النبيّ قوله : (سيّد القوم خادمهم) وإذن فأول شرط من شروط السيادة ان يكون السيد خادم الشعب الذي اولاه السيادة عليه

﴿ الاريسطوقراطية ﴾ يراد بالاريسطوقراطية ، حكم الشعب بأفضل شخص بشري . على ان الاريسطوقراطية هي اليوم نوع من الامتياز الاقطاعي الوراثي يقوم على (حق الفتح) الذي لا يوفر لمدّعيه جميع الخلال والفضائل التي تجعل من الرجل شخصاً متفوقاً تفوقاً حقيقيّاً يرفعهُ الى مستوى أفضل انسان في الامة . ومثل هؤلاء الاشخاص لا يستطيعون ان يحكموا بألقابهم وأنسابهم ورقوقهم أمة بأسرها جديرة بانجاب طائفة من النوابغ كما هي الحال اليوم في الامم الراقية . اذن فالاريسطوقراطية التاريخية لن يحقّ لها التمتع بالسلطة الوراثية في ادارة بلد ما لم تخلق نوابغ . على ان ثمّة اريسطوقراطية طبيعية لا تتعدّى كونها فردية اي اريسطوقراطية نبوغ موهوب ،

كاريسطوقراطية سقراط وكانت وابن رشد في الفلسفة ، وغليليو وباستور وانيشتين في العلوم ، وشكسبير وجوته وهيجو في الشعر ، وبيتهوفن وجونود وفردي في الموسيقى ، وهلمّ جرًّا . ولقد جاء في القرآن الكريم (وفضّلنا بعضهم على بعض)

﴿ الفن والشعر ﴾ يراد بالشعر الصحيح الذي يعبر ، بلغة سليمة مألوفة وانشاء موسيقي وجيه وأسلوب ذي عصمة في الصياغة ، عن بعض شواعر حارة تهز الروح البشرية هزًّا عميقاً . وهذه الشواعر — ينبوع الهاماتنا البديعية التي لا تنضب — لا تأتي الاّ في اوقات العوارض النفسانية التي لا علاقة لها قط بأغراض الحياة الحيوانية المادية ويرجع ذلك الى ان هزة نفسانية شديدة تنير دخيلة الرجل على حين غرة فترحّب آفاقها المظلمة المتحيرة وتوقظ فيها جميع الخصائص الفعلية . وفي هذه الحالة من الاستنارة الداخلية يستطيع الرجل ان يرى ويميز بوضوح وجلاء عوامل العاصفة العاطفية التي تحرك روحه . عند هذا يتراءى العالم الخارجي نفسه لعينيه المنذهلتين في اجمل صورة من تآلفه ويكشف له في جميع تبدلاته المؤثرة العلاقات الحميمة التي تربطه بالوجود الكلّي ربطاً لا انحلال له . فالفني الحقيقي ، وهو خالق في الصيغ ، يتناول جميع مجازاته ورموزه وكناياته من تلك العلاقات الحميمة نفسها التي تجعله دائماً يتحد في حياته والطبيعة الجميلة

وهذا الاتحاد المكين يضيء في روح الشاعر الحقيقي كما تضيء اشعة الشمس اذ يشمل الوجود بأسره ، فهو مقرُّ التفاؤل الذي يحوّل الحياة الاكثر دعة الى سعادة كلية فالجمال الذي يوحي الحب ليس سوى التأثير الهادىء الهنيء يعالجه ذلك التآلف الكلّي العجيب في روحنا المسحورة . والتعريف البياني للمزاج الفني انما هو بالتدقيق تلك الحاسة المتطرفة ولكن السليمة ، التي يتاح لها عند اقل داعٍ ان تحدث في النفس تأثيرات شديدة خصبة ، فالعمل الفني شعراً كان او موسيقى او نقشاً ما هو في التحليل الاخير سوى المادة التي تنجم عن مثل تلك الحاسات البديعية بشكل من التعبير يمتّ الى الموضوع بصلب شديد . اما البصيرة ، ويراد بها النظر الصائب المحكم للعوامل الداخلية . فهي اظهر حالات نفسية الفن . وهذا النظر الصائب يوفّر للشاعر عُدّة عمله كلها ، كالشعور والفكرة والصور الاستعارية والرموز وأخيراً جميع هذه الاشياء التي تؤلف عملا فنيًّا والتي لا توجد كما هي في العالم الخارجي . فالفني النابغ لا يسأل العالم الخارجي الاّ الاشياء الجامدة ليستعملها وسائل للتعبير فقط

تلك هي — في خطوطها العريضة — نظرية الدكتور رضا توفيق في الفن ، وهي نظرية خطيرة تجعل من الصدق قاعدة الفن الاساسية وشرطه اللازم ، وتبرهن على ان طبيعة الفن انما هي الحياة وان الفن الحقيقي متحد مع الحياة الكلية ، الينبوع الذي لا ينضب لاي إلهام بديعي ، وترينا اخيراً بجلاء ووضوح أن الفن انما هو غير الصناعة ، وانهُ ليس ثمّة شعر قديم وحديث ، بل هناك شعرٌ حقيقي ومزيّف ، فالشعر الحقيقي لا يتصل بالزمان ولا بالمكان فهو خالد كالنفس ودائم كالحياة الشاملة

﴿ الفن والطبيعة ﴾ الطبيعة هي مجموعة الوجود بما فيهِ من الشرائع المعروفة او غير المعروفة

والحوادث المدركة او غير المدركة . وقد قيل ان الطبيعة هي أمهرُ الصنّاع . صحيح ، ولكنها تعالج صناعتها او فنّها على ما تشاء ، وجميع اعمالها حيّة . وقيل ان الطبيعة هي ينبوع الفن الذي لا ينضب . وهذا صحيح ، على ان الفنّ هو انسانيٌّ قبل كل شيء ، فهو عمل النبوغ البشري ، ومن المدهش أن يزعم البعض ان تمثال الزهرة ، أو تائية ابن الفارض ، او الحمراء في غرناطة ، أوصورة من صور رفائيل ، او نغمة من نغمات بيتهوفن هي طبيعية كالشجرة او كالزهرة

يزعم الطبيعيون أن الطبيعة هي أكمل مثال ينبغي للفني ان يقلّدهُ ، ويزعم الخياليون انهُ ينبغي للمرء ان يتصوّر الاشياء تصوّراً أو أن يكتشف من وراء هذه الاشياء الفكرة الجوهرية المختبئة فيها ، ويسعى الرمزيون أن يهتدوا الى الصيغة الرمزية الاكثر بلاغة وتبياناً ليتاح لهم معها التعبير عما يرونهُ في الطبيعة ، إن بالريشة وإن بالقلم او بالقطعة الموسيقية . وهلمّ جرّاً

كل هذا حسن ، على ان الشاعر رضا توفيق لا يرى في هذا كله سوى تعبير عن شواعر بديعية ليس لها أقل علاقة بالنفس او بالحياة الداخلية . وقد قال : « إني لأُؤثر أن اعبّر بأبيات من الشعر وبانشاء سليم ليس عن طلوع الشمس او مغيبها مثلاً بل عن الشعور القويّ الذي يوحيه اليَّ مشهد الشمس الجميل . فبهذا التعبير اكون قد أتيت على تبيان حالتي النفسية وليس على تبيان حالة الشفق و المناظر عند طلوع الشمس او مغيبها » إذن فالطبيعة النفسية هي التي تمثل دور الفني وليس الطبيعة الافقية التي ليست سوى عامل او سبب من اسباب التهييج

﴿ الفلسفة ﴾ يذهب الدكتور رضا توفيق هذا المذهب الشائع وهو ان الفلسفة علم يبحث في ايجاد نظريات حول المسائل التي تطرحها معميات الحياة على ذكائنا المذهول . وهي ايضاً فنٌّ يستعمل لبناء مذهب عقليٍّ على نظريات مختلفة . اذن ليست الفلسفة علماً دقيقاً بل هي تاريخ الافتراضات البشرية حول اسرار الوجود . واذن فهي محاولة خاسرة او نوع من انواع التسلية العقلية

ولكن عند ما نشعر بحاجة ملحّة الى تقرير تصرفاتنا في الحياة بمبدإ عقلي تصبح الفلسفة وهي أخت المنطق وترتفع الى مستوى الجدّ

كان الاغريق يفصلون الفلسفة عن الدين ويذهبون الى انها علم معرفة السعادة ، على انهم لم يستطيعوا الاتفاق على طبيعة السعادة . ويقول الدكتور رضا توفيق ان السعادة انما هي عقيدة او حالة نفسية لا علاقة لها بالفلسفة ، وما عدا ذلك فهو يعتنق مذاهب كبار الفلاسفة وعلى الخصوص مذهبي اريسطو وزرْدشْت ، النبي الفارسي القديم

تلك خلاصة الآراء التي استطعت ان اكشفها في الشاعر التركي المنفي خلال الاحاديث المتباينة التي نتداولها في كل سانحة . وهي في معظمها آراء وجيهة لها وزنها الادبي وقيمتها ، فضلاً عن انها تشير اشارة واضحة الى عقلية وروحانية ناضجتين لا نلمس مثلهما بين ادبائنا ومفكرينا الاّ نادراً

بيروت

فضل « الصفر » على المدنية

لقدري حافظ طوقان

﴿ مقدمة ﴾ قد يعجب القارىء من هذا العنوان .. وقد يتبادر الى ذهنه اسئلة كثيرة : ما علاقة « الصفر » بالمدنية ؟ وهل للصفر قيمة فيكون له أثر في تقدم المدنية ؟ أليس الصفر صفراً فيعني الفراغ والعدم اذن . . . . فكيف تسند اليه هذه القيمة الكبيرة وتخصص بضع صفحات من مجلة علمية لها مقامها العلمي كالمقتطف للكتابة عنهُ ؟ ولكن مهلاً . . . لنفكر قليلاً ، ولنرجع الى الكتب الرياضية وغيرها فقد يظهر لنا اشياء لم نكن نعرفها وقد نتبين للصفر مميزات وخصائص ما وقفنا عليها ، وما كان لنا ان نجرؤ فنضع هذا العنوان لولا اعتقادنا صحة ما نقول ولولا ان التمحيص والتعمق افضيا بنا الى ذلك . وغرضنا ان نبين للقارىء الفوائد التي تجنيها البشرية من « الصفر » والتسهيلات التي قدَّمها للبحوث الرياضية وغير الرياضية والتي لولاها لما تقدَّمت العلوم الرياضية تقدمها الحاضر ولما استطاع علم الجبر ان يخطو خطواته الواسعة المعروفة وبالتالي لما تقدمت العلوم التي تعتمد على الرياضيات في كثير من مباحثها كالفيزياء والفلك والكيمياء .....

﴿ نبذة تاريخية ﴾ وقبل ذكر شيء عن « الصفر » وخصائصه وفوائده نرى ان نذكر اولاً نبذة عن تاريخ الترقيم واستعمال اشارة الصفر . ان النظام الذي نتبعه الآن في الترقيم يبنى على اساس القيم الوضعية ، وبواسطته يمكن ترقيم جميع الاعداد واجراء الاعمال الحسابية بسهولة كبيرة . ولقد بقيت الامم في القرون الخالية كالمصريين والبابليين واليونانيين وغيرهم محرومة من هذا النظام وكانوا يجدون صعوبة في اجراء الاعمال الحسابية حتى ان عمليتي الضرب والقسمة كانتا تقتضيان جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً . ولو قدّر لاحد علماء اليونان من الرياضيين ان يُبعث فقد يعجب من كل شيء ولكن عجبهُ يكون على اشده اذ يرى ان اكثر سكان الاقطار في اوربا واميركا يتقنون عمليتي الضرب والقسمة ويجرونهما بسرعة ومن دون عناء

ولما نهض العرب نهضتهم العجيبة ودوّخوا اكثر اقطار المعمورة اتصلوا بالهند فاقتبسوا فيما اقتبسوهُ منها الارقام الهندية ، وقد قدروا النظام الترقيمي عندهم (عند الهنود) ففضلوه على حساب الجُمَّل الذي كانوا يستعملونهُ قبلاً . ومن الغريب ان في بلاد الهند اشكالاً متنوعة ومختلفة للارقام ،

ولكن العرب بعد ان اطلعوا على اكثر هذه الاشكال كوّنوا منها سلسلتين عرفت احداها باسم (الارقام الهندية) وعرفت الثانية باسم (الارقام الغبارية) . ففي بغداد والجانب الشرقي من العالم الاسلامي عمّ استعمال الاولى اي الارقام الهندية وهي التي لا تزال شائعة ومستعملة في بلادنا . وشاع استعمال الثانية اي الارقام الغبارية في القسم الغربي — في الاندلس وافريقية والمغرب الاقصى — وهذه الارقام هي المستعملة الآن في اوربا وهي المعروفة باسم الارقام العربية (Arabic Numerals) ولم يتمكن الاوربيون من استعمال هذه الارقام في الاعمال الحسابية الاّ بعد انقضاء قرون عديدة من اطلاعهم عليها اي انهُ لم يعم استعمالها في اوربا والعالم الاّ بعد انتهاء القرن السادس عشر للميلاد

ولم يفطن احد قبل الهنود لاستعمال « الصفر » في المنازل الخالية من الارقام ، وقد اطلقوا عليهِ لفظة « سونيا » ومعناها « فراغ » . واستعملوا النقطة (.) كعلامة للصفر وقد اخذها العرب عنهم واستعملوها في معاملاتهم . ويقال ان الهنود لم يلبثوا ان عدلوا عن استعمال النقطة واخذوا يكتبون الصفر بصورة دائرة

﴿ فوائد الصفر ﴾ مما لا جدال فيهِ ان نظام الترقيم الذي نعرفه الآن والمنتشر بين اكثر امم الارض هو من المخترعات الاساسية القيمة ذات الفوائد الجلّى التي توصل اليها العقل البشري، وهذه الطريقة لم تنحصر (كما لا يخفى في تسهيل) الترقيم وحده بل تعدّتهُ الى تسهيل جميع اعمال الحساب . ولولا هذا النظام لما رأينا سهولة في الاعمال الحسابية ولاحتاج المرء الى استعمال طرق عويصة وملتوية لاجراء الضرب والقسمة . ومما لا شك فيهِ ايضاً انه لولا الصفر واستعماله في الترقيم لما فاقت الارقام العربية والهندية غيرها من الارقام ولما كان لها اية ميزة ، بل لما فضلتهما الامم المختلفة على الانظمة الاخرى المستعملة في الترقيم . والنظام المستعمل والشائع الآن يقضي بجعل قيمة الرقم تتغير بتغير منزلته اي انهم اوجدوا منازلَ للارقام تكسب الرقم الواحد قيماً مختلفة اذا نقل من منزلة الى اخرى ، فالرقم الذي على اليمين يدلّ على الآحاد والذي يليه على العشرات والذي يليه على المئات وهكذا . . . واذا اردنا ان نكتب العدد (ثلاثة واربعين) فاننا نضع الثلاثة في المنزلة الاولى اي منزلة الآحاد والاربعة في المنزلة الثانية اي منزلة العشرات ونكتب هكذا (٤٣) وهنا نجد ان الثلاثة دفعت الاربعة الى المنزلة الثانية الى اليسار واعطتها قيمة اربعين . ولكن اذا اردنا ان نكتب بالرقم العدد (اربعين) فمعنى ذلك انهُ علينا ان نجد رقماً يدفع الاربعة الى المنزلة الثانية الى اليسار وبذات الوقت لا يزيد في المجموع شيئاً ومن هنا استعمل الصفر ووضع علماء الهند علامة لهُ لتملأ المرتبة الخالية فجاءت مكملة لطريقة كتابة الأعداد بالارقام

وللصفر فوائد اخرى هي من عظم الشأن في مكان عظيم لا يقل خطرها عن التي ألمحنا اليها ، فلولاها لما استطعنا ان نحل كثيراً من المعادلات الرياضية من مختلف الدرجات بالسهولة التي نحلها بها الآن ، ويمكن القول بأن الرسم البياني لم يتقدم خطواته الواسعة الاّ باستعمال الصفر ، والرسم

البياني من أهم بحوث الرياضيات وعليه ترتكز الهندسة التحليلية وحلول كثير من المعادلات الصعبة بل هو الركن الاساسي للموضوعات التي تحتاج الى استعمال علم الاحصاء . وهل تقدمت المثلثات تقدمها المعروف الاَّ بمعادلاتها ؟ وهل يستطيع الرياضي ان يتقدم خطوة في حلها الاَّ اذا استعمل اشارة « الصفر » ؟

قد يدهش القارىء اذا قلنا ان حساب التمام والتفاضل لا يستغني في بحوثهِ عن استعمال الصفر ، بل ان الصفر عامل مهم جدًّا في تسهيل حلّ كثير من مسائله العويصة الصعبة . وعلى كل يمكن القول بأن « الصفر » ضروري ولازم في البحوث الرياضية الحديثة والعالية اذ جعل كثيراً من الاوضاع والمعادلات قابلة للحل غير ملتوية المسالك يمكن الاخذ بها والاستفادة منها واستعمالها في فروع المعرفة من فلك وطبيعة وكيمياء وهندسة وما يتعلق بهذه من صناعة وفن

﴿ علاقة (الصفر) بالمدنية ﴾ ألا تشاركني أيها القارىء في الاعجاب بالارقام التي نستعملها ويستعملها الاوربيون وبالنظام الذي يستولي عليها ؟ أليس عجيباً ومثيراً للدهشة ان لا تجد اقل صعوبة في كتابة اي عدد شئت (مهما كان كبيراً) من ارقام لا يتجاوز عددها عدد الاصابع ؟ ألا ترى معي ان هذه الارقام العجيبة قد سهلت الاعمال الحسابية كثيراً ؟ ألا تعتقد انهُ لولاها لما تقدمت المعاملات التجارية تقدمها الحاضر ؟ ولولاها ايضاً لوجدنا صعوبة كبيرة جدًّا في اجراء أبسط الاعمال في الضرب والقسمة ؟

ارجح ان كل هذا معروف لديك وتوافقني عليه ولكن قد يزيد عجبك اذا علمت ان اشارة « الصفر » هي التي اوجدت اكثر التسهيلات التي تراها في الترقيم وهي التي اعطت بعض الخصائص الممتازة للارقام . لقد ظهر لك من هذا المقال المقام العالي الذي يشغله (الصفر) في البحوث الرياضية وانهُ عامل مهمٌّ في ترقيتها وفي تسهيل الصعب منها ، ولا نكون مبالغين اذا قلنا انهُ لولا الصفر لما تقدم العلماء تقدمهم الغريب في العلوم الرياضية . وهنا قد يحلو للبعض ان يسأل ويقول : قد يكون للصفر هذا المقام في الرياضيات وقد يكون له هذا الأثر الكبير في ارتقائها ، ولكن ما علاقة ذلك بالمدنية؟ وهل المدنية تقوم على الرياضيات ؟

وجواباً عن هذا السؤال ليسمح لنا القارىء ان نعطي الجواب اولاً فنقول : نعم . ان المدنية في أساسها وجوهرها ترتكز على العلوم الرياضية . ونسأله الآن ان يتمهل وان لا يرمينا بالتسرع قبل قراءة بقية المقال فالامل وطيد بأنهُ سيجد فيه ما يحقق قولنا وقد يوافقنا عليه ويشاطرنا الرأي فيه ، ونرجو ان نخرج واياه من هذا الحوار متفقين راضين بالنتائج التي توصلنا اليها

ان كل فرع من فروع المعرفة يتقدم ويتناول التغيير والتبديل وكلما اقترب هذا الفرع من الارقام زاد دقة في التعبير ونما نحو الكمال ونحو الذروة من الحقيقة . قال كانت Kant « يكون العلم دقيقاً اذا استعمل العلوم الرياضية في بحوثه » ولم يستطع العلماء ان يستفيدوا من بحوث الضوء

ومن انكسار النور الا بعد ان افرغوا قوانين الانكسار في قالب رياضي وبذلك استطاعوا ان يستفيدوا بالمعادلات والارقام في العدسات التي تستعمل لاصلاح عيوب العين . ان علمي الفلك والفيزياء وصلا الى درجة كبيرة من الدقة والكمال ، وما ذلك الا بفضل الارقام والمعادلات . جرّد هذين العلمين من رياضياتهما بل جرّد الكيمياء الحديثة من معادلاتها وقوانينها وحينئذٍ لا يبقى الا تعريفات ومبادىء لا يمكنك ولا بحال من الاحوال ان تستفيد منها او ان تطبقها فيما يعود على البشرية بالنفع والخير . ولن يستطيع العالم مهما كان قوي العقل خصب الفكر ان يقف على اسرار الطبيعة والكون ولن يستطيع الغوص في بحارها ليقف على كنوزها وعجائبهما ، الا اذا الم بالرياضيات وكانت عنده خبرة بها ، وان الكيمياء الحديثة لفي حاجة الى الرياضيات حاجتها الى التجربة والاختبار وناهيك بالكيمياء فهي الاساس الذي شيّد عليه صرح الصناعة في هذا القرن وازدهرت هذا الازدهار العجيب . ان هذا العصر لهو عصر الهندسة وعصر الآلة وكل هذه في حاجة الى الرياضيات ، ولا يمكن الاستفادة منها او تطبيقها على مقتضيات العمران الا بذلك . قال البروفسور فوس Voss « ان مدنيتنا التي ترتكز على الاستفادة من الطبيعة والسيطرة على عناصرها مبنية على اسس العلوم الرياضية » . فالهندسة وأنواعها والملاحة والصناعة كل هذه تحتاج الى الرياضيات ولا يمكنها ان تستغني عنها ، بل ان اسس انشائها تقوم على الارقام والمعادلات . وما يقال عن هذه العلوم يمكن ان يقال عن علوم اخرى الى حد ما ، فان هذه كلما تقدمت وكلما استطاعت ان تدخل الارقام في بحوثها تقترب من الدقة والكمال . فالعلوم على اختلافها اذا اقتربت من الكمال فانها لا بدّ محلقة في سماء العلوم الرياضية وفي جوّ من الارقام والمعادلات

من هنا تظهر لنا الفوائد التي تجنيها المدنية من العلوم الرياضية ومن استعمالها في العلوم والفنون الاخرى ، وقد ظهر ايضاً كيف ان الحضارة الصناعية مبنية على اسس من الارقام والمعادلات وقد سبق ان ابنا مكانة الصفر في العلوم الرياضية وفضله في تسهيل المسائل والاعمال ، ومن هذه النقطة يتبين للباحث فضل الصفر على المدنية والصناعة

***

وقبل الختام اود ان اوجّه نظر القارىء الى اني اخشى ان يساء فهم هذا المقال فيظن ان الصفر هو الكل في العلوم الرياضية وبالتالي في المدنية ، ومع استبعادي لذلك ارغب في القول بأن الصفر (ولا شك) عامل مهم في البحوث الرياضية لا يستغنى عنه وهو لازم وضروري لها ولتسهيل المعاملات والاعمال الحسابية ، وينتج من ذلك الى انهُ عامل مهمّ في الصناعة والاعمال الانشائية التي تحتاج الى استعمال الارقام والمعادلات . فأعجب لصفر يشغل هذا المقام السامي وتجني منه الحضارة فوائد هي على اعظم جانب من خطر الشأن

معجزات الكهارب

مستنبطات جديدة في الدقائق الكهربائية

تبين مبلغ سيطرة القوة الكهربائية على المعيشة الانسانية

لعوض جندي

يستفاد من احدث الانباء التي وردت على الدوائر العلمية في اوربا وأمريكا ان روّاد العلم القائمين بالمباحث في احد ميادينه العجيبة قد استنبطوا حقائق جليلة مدهشة اذ تبينوا اسباب وقوف السيارات في طرقها، وتعطلها بلا علة ظاهرة . وعرفوا كنه استنبات البذور في تربتها، وادركوا طريقة تنف البيض، وفهموا سرّ الراديو وغيره من الظواهر الطبيعية المحيطة بنا حتى اسباب ما يشعر به الانسان من سرّاء وضرّاء عند قيامه من نومه . فصاروا يعزون تلك الحوادث الى المقذوفات الكهربائية الخفية التي تسدّد الينا من ارجاء الكون . وقد اضافت حديثاً المختبرات العلمية في شتى البلدان، معارف جديدة الى الحقائق المعروفة الخاصة بالعمل السحري الذي تعمله القوة الكهربائية التي في الاجواء

ففي ايطاليا مثلاً، قام احد العلماء باطلاق امواج كهربائية في الجوّ فغيّر بها نظام الوراثة في النباتات . ونبغ في هولندا عالم آخر بقتل البكتيريا بالامواج الكهربائية فاستطاع درء الفساد عن الاغذية البشرية . وتمكن عالم غيرهما في المانيا من الفوز بنتائج مدهشة بكهربة الهواء في حجر المستشفيات . واتيح في الولايات المتحدة لجراحيّن من نطاسيّيها كشف حقيقة علمية جديدة، وهي ان القذائف الكهربائية الدقيقة ضرورية لادمغة الناس وأبدانهم

ولعلّهم يهتدون بمباحثهم في الارياح الكهربائية والعواصف المغناطيسية والدخان الشمسي والغبار الكهربائي، الى حل الغاز الطبيعة التي التبست عليهم من قديم الازمان . وغدا كثيرون من العلماء يعتقدون ان تفسير الالغاز الطبيعية التي بين ظهرانينا، والوقوف على اسرار الحياة والوراثة والموت، كلها كامنة في الدقائق المشحونة بالكهربائية . وانه ليس في ميادين المباحث العصرية ما يماثلها في اسرارها العجيبة وفيما ينتظر ان تأتينا به من الخيرات العميمة

سر وقوف السيارات وتعطل الطيارات

كان رتل من السيارات مؤلف من مائة سيارة ونيف سائراً منذ عهد قريب بين مدينتين في امريكا فهبّت عليه ريح هوجاء اثارت الرمال فملأت الجو حول السيارات غباراً . فأخذت محركاتها

تقف بغتة بلا سبب جليّ . فكنت ترى حينئذٍ السيارات كلها معطلة وجميع سائقيها منهمكين في ادارة مقوّماتها عبثاً ، وهم لا يدركون علة تعطل المحركات . وظلوا على تلك الحال حتى سكنت الريح فجملت المحركات تدور فاستأنفت السيارات سيرها ففطن السائقون الى ان قوة خفية كانت العاصفة مثارها ، عطلت اجهزة اشعال البنزين في محركات السيارات تعطيلاً وقتيًّا

فكان ذلك الحادث الغامض مدعاة لتذكر الباحثين ما اشيع في خلال الحرب العالمية بشأن شعاعة مبهمة كانت تستعمل وقتئذٍ لوقف محركات الطيارات واسقاطها . فاعلن عالم نمسوي منذ بضعة اسابيع انهُ اخترع جهازاً من هذا الطراز تنطلق منهُ في الجو امواج كهربائية قصيرة جدًّا فتعطل اجهزة اشتعال البنزين في محركات الطيارات وهي طائرة

اذن يتسنى للباحث ان يفقه سرّ تعطل السيارات في ذلك الرتل الاميركي من استنباط جديد استنبطه العلماء في كثير من انحاء العالم . وهو ان عواصف الرمال تولد دائماً قوة كهربائية . وقد تكون تلك الدقائق الكهربائية (الايونات) إما موجبة واما سالبة . ويتوقف ذلك على نوع التركيب الكيماوي للرمل والغبار في الجهة التي يقع فيها الحادث . ففي جنوب افريقية حيث يكثر البلور الصخري ، تكون الدقائق الكهربائية دائماً موجبة . وفي انكلترا حيث يجزل حجر البلاط تتشبع الارياح الهوج التي تثور على الطرق المطروقة جدًّا بالسيارات، بمقذوفات من الكهربائية السلبية

وفي كليفورنيا عالم شاب هو (ريتشارد فولرات) اخترع جهازاً بديعاً لتوليد زوابع الرمال مطبقاً العلم على العمل ، فصار في وسعه اثارة رياح مشبعة بالغبار في انابيب من النحاس الاحمر تولد قوة كهربائية تدخر في كرة معدنية ضخمة قد تبلغ ٢٦٠٠٠٠ فولط كما ثبت في احدي التجارب

وفي فصل الربيع الماضي قامت دائرة المقاييس في وشنطون بتجارب تبينت بها مبلغ تأثير القوة الكهربائية الجوية في محركات السيارات اذ شحن الهواء الذي ادخل في منفذ جهاز (مزج الهواء بالبنزين) بعدة دقائق مكهربة مختلفة محشودة بعضها مع بعض ، فكانت قوة محرك السيارة تختلف باختلاف عدد تلك الدقائق المكهربة

الكلف الشمسية والراديو

ويرى الخبيرون ان السنة الحالية اصلح ما يكون لسماع الراديو منذ سنة ١٩٢٣ لاننا نستطيع سماع الاشارات من ابعد المسافات اشد وضوحاً وانتظاماً منها في السنين العشر الماضية . وسبب ذلك ان التقلبات الحاصلة في الكهربائية الجوية طفيفة لضؤولة الكلف الشمسية . والمعروف ان الكلف بمثابة براكين من الغاز الناري على وجه الشمس ، يزيد عددها او ينقص في ادوار زمنية منتظمة يبلغ كل منها احدى عشرة سنة . وهي الآن في احط دركاتها . اما في السنوات الخمس المقبلة فسيحتشد على وجه الشمس عدد من الكلف يزيد شيئاً فشيئاً حتى يبلغ غايته نحو سنة ١٩٣٩ ثم

يأخذ في التناقص حتى يختفي بتة سنة ١٩٤٥ وحينئذٍ ينتهي دور آخر من ادوار الكلف الشمسية

وفي السنين السبع الغابرة قام عالم فلكي ومهندس من المشهورين بمباحث توخيا بها التبحر في درس علاقة الكلف الشمسية بالراديو . وهما الدكتور هارلان . ت . ستتسون مدير مرصد بركنز والدكتور جرينليف بكرد الذي يعد من اقطاب اميركا الذين اشتغلوا بنقل الحديث بالامواج الكهربائية . فكان الدكتور ستتسون يرصد ويصور الكلف الشمسية يوماً فيوماً ، بينما كان زميله يرقب التقلبات التي كانت تحدث في ذلك الحين في قوة امواج الراديو التي كانت تجيء من محطات الاذاعة القاصية

ولما تضاعف عدد الكلف الشمسية في سنوات ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ كانت اشارات الراديو تضعف شيئاً فشيئاً . ولكن من سنة ١٩٢٩ فصاعداً حينما نقص عدد الكلف الشمسية ، اشتدت اشارات الراديو . فعلل العلماء ذلك بأن الغلاف الضخم المؤلف من الدقائق المكهربة الذي يحفُّ بالارض (وهو المعروف بطبقة كينلي وهيفسيد — نسبة الى العالمين اللذين استنبطاهُ) يتأثر بالتقلبات التي تحدث في الشمس . لأن الشمس تقذف الارض بفيض من الدقائق الكهربائية كالذي ينبعث من انابيب الاشعة السلبية الضخمة . ومتى صدمت تلك الدقائق الغلاف الجوي ، مزقت دقائقه وجعلتها ذات كهربائية ايجابية او سلبية ، فيقوم (ذلك الغلاف المكوَّن من الدقائق المكهربة والذي يعلو عن سطح الارض نحو ٧٠ ميلاً) مقام مرآة ضخمة تعكس او تردُّ امواج الراديو المتجهة نحو الجو الى الارض ثانية . ومتى انعكست الامواج او ارتدَّت بفعل ذلك الغلاف المكون من الذريرات الكهربائية ، استطاعت قطع المسافات البعيدة والدوران حول الارض . وتتوقف درجة تكهرب ذلك الغلاف على مبلغ قوة الشمس . فان كانت شديدة جدًّا ، اي حينما تكون ذات كلف كثيرة جدًّا ، انطلق منها اكبر عدد من الكهارب فيزداد تكهرب تلك الطبقة ودنوها من الارض فتردّ امواج الراديو بعنف اشد من ردّها الاول وتقصر المسافة التي تقطعها. ومن جهة اخرى فان اي نقص في قوة الشمس يقلل من تكهرب الطبقة الهيفسيدية ويفككها ويرفعها فيكون ردُّها للامواج اضعف من ردّها السابق وتضطرها الى قطع مسافات ابعد على سطح الارض.وبهذه الوسيلة يكون عدد وتقلص ذلك العاكس الممثل في الغلاف المحيط بالارض مسيطراً على المسافة التي تقطعها امواج الراديو

وقد قرر الدكتور ستتسون ان القمر (كالشمس) يؤثر تأثيراً محدوداً في تلقي الراديو ، فقد اتضح له بتحليل اشارات اذيعت بالراديو بين مدينتي شيكاغو وبوسطن ، ان قوتها زادت حينما غار القمر تحت الافق،ونقصت عند ارتفاعه الى السمت ، وهو يعتقد ان هذا ينشأ من اشعة الراديوم التي تشع من القمر فتميل الى دفع الغلاف السابق الذكر الى اسفل حينما يرتفع القمر ارتفاعاً عمودياً فتقلل بذلك المسافة التي تستطيع امواج الراديو قطعها

﴿ مصادر القذائف الكهربائية ﴾

والواقع ان في كل جانب من جوانب الكون قذائف كهربائية دقيقة — بعضها سابح في الهواء وبعضها منبثق من الشمس مخترق اجسامنا، والبعض كمين في المواد التي تتغذّى بها . ولكننا لم نعرف كثيراً بشأن تلك الدقائق الكهربائية الخفية الاّ منذ بضع سنين

والمعروف انها تكون اولاً ذرات ثمّ ينزع منها كهرب من كهاربها . في الايام المصحيَة يكون الهواء مشبعاً بالدقائق الكهربائية اكثر منها في الايام الغائمة . وكذلك في الايام الدفيئة اكثر منها في الباردة . وايضاً في الايام الصافية اكثر منها في الايام التي يكدر جوّها الدخان . ويختلف عدد الدقائق الكهربائية الجوية (الايونات) من ساعة الى اخرى بل من دقيقة الى دقيقة . ويحدث التغير طبقاً للجزر والمدّ في الحرب العوان الخفية الدائرة حولنا على الدوام . ونعني بها النزاع الحاصل بين القوات التي تخلق الدقائق الكهربائية والقوات التي تبيدها . فالقوى التي تولّد الايونات هي الاشعة الكونية التي تصل الينا من الفضاء الخارجي، والاشعاع الصادر من الشمس، وتأثير المواد المشعة مثل الراديوم فوق سطح الارض وتحت سطحها

ينبعث من الشمس مقادير جزيلة من الدقائق المتناهية في الصغر المشحونة بالقوة الكهربائية . وبعض العلماء يسمي تلك الكتلة المتحركة ، « الدخان الشمسي » . فاذا دنا منّا ذلك المجرى المؤلف من الدقائق المشحونة بالكهربائية أصبح تحت سيطرة المجال المغنطيسي الارضي ، وانشطر شطران يتجه كل منهما نحو قطب من قطبي المغناطيس. ومتى وصل الى الجو الخارجي للاقطار القطبية فكثيراً ما تصطدم الدقائق بجزيئات الهواء فتتمزّق فيتولد منها ظاهرة جميلة تعرف باسم نور الشفق . وتظل الدقائق المتمزقة معلقة في طبقات الهواء العليا فتقوم مقام نواة لتكوين السحب الرقيقة المرتفعة وتسمّى بالعربية الفصيحة القَزَعُ

ثم ان الشلالات مصانع تصنع فيها الايونات ، ومنها شلال نياجرا الذي تشبع مياهه بكهربائية ايجابية والهواء المحيط به بكهربائية سلبية. حيث تتولد من رشاش الماء دقائق كهربائية ايضاً . والغريب في هذا الموضوع ان رشاش الماء الملح يشبع الهواء المحدق به بدقائق ايجابية على حين ان المياه العذبة تشبعه بدقائق سلبية . وقطرات المطر الكبيرة تصير مشبعة بكهربائية ايجابية متى تفرطحت وتفرقت بمقاومة الهواء . وفي السحب الشاهقة جداً تتكوّن دقائق اخرى بتأثير كهربائية الضوء في ابر الثلج . ويزداد عدد الدقائق بقرب الارض من الرياح التي تهب على سطوح الفلزات ونحوها

وقد بحث حديثاً المستر س . د . فلورا العالم المتيرولوجي الاميركي تلك الرياح المكهربة فأدرك انها تلحق بالحقول في الفصول الجافة ، اضراراً شديدة في القمح وغيره من الحبوب . وتمّ عليها آثارها التي تخلفها كمناطق دكن مستطيلة في حقول الحبوب

ولكن اشد العوامل في توليد الدقائق هي المواد المشعة التي في الارض لان عليها يتوقف نحو نصف كهربة الهواء . وتلك المواد كثيرة في الارض . اما القوى التي تقاوم تولد الايونات او تتلفها فأولاها اتحاد الدقائق الايجابية بالسلبية فتصير ذرات او جزيئات . والثانية تعلق الدقائق بسطوح الفلزات او السوائل حيث تلتصق بها التصاق الذباب بالورق اللزج

ونتيجة هذه المعركة الكونية لها مقام خاص اكبر مما كنا نظن الى عهد قريب . فقد دلّت احدث المباحث على ان للقوة الكهربائية الجوية علاقة وثيقة بأحوالنا الصحية وامزجتنا . ومثال ذلك اننا نستيقظ من النوم في بعض الايام جذلين ، بينما نصحو في غيرها مغمومين ، ويعلل الخبيرون في الكهربائية الجوية معظم ذلك التباين بالاختلاف في مقدار الدقائق المشبع بها الهواء

﴿ تأثير الدقائق الكهربائية في حالتي الصحة والمرض ﴾

وبينما نحن نكتب هذه السطور تجرب تجربة علمية في هذا الموضوع في دار مؤلفة من عشر قاعات في مدينة شنيكتادي قد يكون لها نتائج بعيدة المدى ، حيث يقوم مهندسو الشركة الكهربائية العامة باختبار جهاز يدل على احوال الهواء ، من طراز جديد يسيطر على الكهربائية الجوية والحرارة والرطوبة ، مؤلف من آلات خاصة اخترعها الدكتور لويس ، كِلْبَر الموظف في معمل المباحث التابع للشركة المشار اليها ، تحصي الدقائق الكهربائية التي في الهواء وتتحكم فيها وتسجل في الحين نفسه تسجيلاً مدققاً مبلغ تأثير الكهربائية في سكان ذلك المختبر العلمي

وينتظر ان تلقي تلك التجارب ضوءاً على اللغز الذي حيّر مهندسي الاقاليم الشرقية في الولايات المتحدة الذين عنوا من زمن غير بعيد بمسألة تجديد الهواء في البيوت . وبيان ذلك ان مدرسة من مدارس تلك الجهات جهزت بجهاز متقن يقوم بغسل حجرها وتدفئتها ، وترطيب هوائها فترتب على استخدامه استهداف التلاميذ للنوازل ، اكثر من قبل !! والجواب عن تلك الاحجية كما يرى بعض الخبراء ، اختلاف عدد الدقائق الكهربائية المشبع بها الهواء . وقد أثبت ذلك بتجارب قاطعة مدهشة العلامة ف . دسويه F. Dessauer الاستاذ بجامعة فرنكفورت بألمانيا اذ برهن على ان للاختلاف السابق تأثيراً بليغاً في ابدان الناس

وشوهدت حوادث عجيبة في جبال الألب بسويسرا وهي ان قنن بعض هاتيك الجبال الشامخة يتفشى فيها مرض جبلي يتولد منهُ حمى وصداع وغثيان تستمر بضعة أيام ، على حين ان قمماً اخرى معادلة لها في ارتفاعها ، يندر فيها ذلك المرض . ويعلل العلماء اختلاف تينك الحالتين بتغاير مقدار الكهربائية الجوية في ذينك المكانين

ولقد كانت تلك المباحث مشجعة للاستاذ على مواصلة مباحثه في مبلغ تأثير الكهربائية الجوية في الاجسام البشرية فاخترع جهازاً لتوليد الدقائق الكهربائية يملأ بها أية غرفة او اسطوانة بهواء

مشبع بأي مقدار يبغيه من الدقائق الكهربائية . فاستنتج من هذه التجربة ان الدقائق الايجابية هي مثار التعب والدوار والصداع وطنين الآذان دائماً ، والغثيان احياناً . اما الدقائق السلبية فهي مصدر الانشراح

وطبق الاستاذ دسويه تلك النتائج على علاج امراض مختلفة فنجح نجاحاً باهراً . فقرر انها تنجع في مداواة الربو (ضيق التنفس) والروماتيزم وضغط الدم والتهاب شعب الرئة وامراض الشرايين . وتبين من فحص ٢٠٠ اصابة من اصابات ضغط الدم ان ٨٠ ٪ من المرضى قد استفادوا كثيراً من استنشاق الهواء المشبع بالدقائق الكهربائية بعد انقضاء عدة اسابيع. وظهر من بحث سجلات المصابين بالروماتزم ان صحتهم تحسنت تحسناً محدوداً باستنشاق الهواء المكهرب ايضاً

واسفرت المباحث عرضاً عن تعليل لما كان معروفاً عن ان وخز الروماتيزم دليل على دنو عاصفة ! كما تبين للعلماء انهُ قبل انهمار المطر المصحوب برعد يكون الهواء القريب من الارض غاصاً بمقدار خارق للمادة من الكهربائية الايجابية . وجهاز دسويه آنف الذكر يقذف ٢٠ مليوناً من الدقائق الكهربائية في كل سنتيمتر مكعب من الهواء . وهذا يفوق كثيراً ما تحشده الطبيعة في أية بقعة من بقاع العالم . وقد رُكّب أحد اجهزة دسويه في مستشفى بنيويورك وجهاز آخر في جامعة وسكنسن فأسفر استعمالها عن نتائج تعزّز الامل الذي عقد عليهما

وفي جامعة هارفرد يقوم الدكتور ت . ب باجلو المعلم في مدرسة الصحة العمومية بسلسلة مباحث في الموضوع عينه ، وقد دلته مباحثه القيمة في هذا الباب على ان الدقائق السلبية ترطب الجسم في فصل الصيف . ثم عثر على لغز علمي آخر لم يتوصل الى حله للآن . اذ تحقق ان الدقائق الكهربائية في الغرف الخالية تكاد تكون مثلها في الخلاء . بيد انهُ حين يدخل الناس غرفة خالية ، يقل عدد الدقائق الكهربائية فيها ويظل قليلاً حتى يخرجوا منها فيصعد الى حالته الاصلية . ولكن لا يمكن تعليل ذلك بالقول ان الدقائق الكهربائية تمتص بالتنفس لان مقدار الهواء الذي يدخل الرئتين طفيف بالنسبة لما تشتمل عليهِ الغرفة

وربَّ سائل يقول : أين تذهب الدقائق الكهربائية ؟؟ وما سبب اختفائها . وما سبب عودتها ؟؟ والجواب عن تلك الاسئلة : ان العلماء في الكهربائية ما زالوا يبحثون عن تلك الاسباب ومسبباتها التي استعجمت عليهم حتى اليوم

الدقائق الكهربائية ينبوع الحياة

وكلما تعمق العلماء في البحث أيقنوا بوجود علاقة وثيقة بين الحياة البشرية والطاقة الكهربائية. وهذا هو الموضوع الجليل الذي اجله الجرّاح الكليفلندي المشهور، الدكتور جورج هـ. كريل فقال « القوة الكهربائية تجعل شعلة الحياة البشرية تتلظى في الخلية »

ثم زاد الدكتور تشارلز هـ . مايو (وهو من أشهر الجراحين في مدينة روتشستر باقليم منيسوتا) على ذلك الرأي قوله « ان القذائف الكهربائية الدقيقة من الضروريات التي يستعين بها المخ على القيام بوظيفته » وأيّد قوله الدكتور واشبرن الاستاذ بجامعة سيراكيوز اذ ذكر من زمن قريب في خطاب القاه في جماعة تقدم العلوم الامريكية ان المباحث الحديثة ارشدتهُ الى الاعتقاد بان التعلّم « انما هو تنسيق الدقائق الكهربائية التي في أَلياف اعصاب المخ في نماذج مختلفة »

***

وجاء من روسيا نبأ عظيم يدل على استخدام الدقائق الكهربائية في صنع الاطعمة . فقد منحت حكومة السوڤييت احد العلماء ٥٠٠٠ ريال وهو الدكتور تشيزڤيتزكي Chizevitsky لاستنباطه طريقة استخدام الدقائق الكهربائية في تعجيل نمو الدواجن . إذ ثبت له ان الدقائق الكهربائية السلبية اذا اضيفت الى الهواء في اكنان الدجاج افلحت الدواجن فلاحاً عجيباً وزاد ثقلها سريعاً وتحسنت صحتها واشتد نشاطها — وقد جرَّب ذلك في ١٠٠٠ دجاجة ثم تدرَّج منها الى كهربة هواء زرائب المواشي حيث تبرعت له الحكومة بمعمل كيماوي خاص لاجراء مباحثه العلمية

واتضح من مباحث أُخرى ان النباتات تتأثر تأثر الحيوانات بالهواء المكهرب . فقد تحقق العالم الايطالي الدكتور . م ميزادرولي الذي يقوم بتجاربه بالتيارات الكهربائية السريعة التموج في مدينة بولونيا ، ان بعض البصل الذي يُعرَّض لتلك الموجة ثلاثين دقيقة كل يوم ، ينضج قبل غيره الذي ينمو نمواً طبيعيًّا بعشرة ايام . وان البذور التي تطلق عليها الامواج الكهربائية كثيراً ما تتغير مزاياها الوراثية عند استنباتها . وثبت له بتجارب كهربائية اخرى ان دود القز يمكن تنشيطهُ في عمله اذا وضع في مجرى امواج لاسلكية طول الموجة منها متران

ولما كان دأب العلماء تلمس طرقهم ، اذا قصدوا البحث في مجاهل تلك الامواج الكهربائية السريعة التموج فانهم كثيراً ما يكتسبون ، اتفاقاً ، معلومات طريفة لم تكن تخطر على بالهم . والدليل على ذلك ان الدكتور ويليس هويتني الاميركي حينما كان يمتحن بعض الامتحانات الحديثة رأى الفئران تفقد ، أذنابها ، والذباب النائم في فصل الشتاء ينتعش اذا وقع تحت تأثير الامواج القصيرة السحرية . فوضع فأراً في مجال كهربائي حاد تشتد قوته شيئاً فشيئاً فارتفعت درجة حرارة جسمه حتى تجعد ذنبهُ وسقط دون ظهور اي ازعاج على الفأر . واسفرت تجربة اخرى عن كون ذباب الفاكهة الذي كان محبوساً في انبوب زجاجي ، حينما تعرض لمقذوفات باردة في درجة الصفر ، اخذ ينام كأنهُ في سبات فصل الشتاء . وحدث في اثناء توجيه الهواء البارد عليهِ ان سلطت عليهِ ايضاً الامواج الكهربائية اللاسلكية القصيرة فانتعش لأن الامواج دفَّأته داخل جسمهِ رغم ما كان يحيط بهِ من البرد الشديد ! !

وقام العالم روبرت بيب Robert Pape في مدينة سوست بهولندا بكهربة الاغذية، فوضع بيضة مكهربة مكسورة في طبق وتركها في الهواء الطلق شهراً كاملاً فلم تمذر ولم تنتن. وذلك انها وضعت في مجال مغناطيس كهربائي بكيفية خاصة فوقاها الفساد على ذلك المنوال. وفي كلية التربية بمدينة اونتاريو من اعمال كندا قام العلماء بمباحث اخرى مدهشة في البيض فجاؤوا بمفرخ ذي اسلاك وصفّوا فيه البيض صفوفاً مختلفة بين الواح معدنية بعضها مكهرب كهربائية سلبية والبعض مكهرب كهربائية ايجابية، فنقف البيض نقفاً عجيباً وكانت هناك طائفة من البيض لم تتعرض للتأثير الكهربائي فسبقت في التفريخ، وبعد ست وثلاثين ساعة نفقت جماعة اخرى كانت مصفوفة صفوفاً، في زوايا قائمة مع الالواح الكهربائية. ثم تلتها، جماعة اخرى ففقست بعد خمسة ايام (وهي التي كانت مصفوفة صفوفاً موازية للالواح المعدنية المكهربة) فتساءل الباحثون عن سبب تأخر التفريخ تبعاً لاختلاف وضع صفوف البيض ازاء الالواح المكهربة فلم يستطع احدهم الاجابة. وهم يحاولون ذلك الآن

﴿علاقة المغناطيسية والكهربائية والبراكين والزلازل بعضها ببعض﴾

والمعروف ان خطوطاً من القوة المغناطيسية تخترق الارض دون ان يشعر بها احد غير الآلات الدقيقة، منبعثة من القطب المغناطيسي الشمالي الى القطب المغناطيسي الجنوبي وتلك الخطوط ذات القوة، مارة في الهواء والارض وتتقلب تقلبات مختلفة طبقاً لقواعد قلّ من يفهمها. وكل ما يعرف بشأنها انهُ من عشرين سنة قامت باخرة اسمها كارنيجي لا تقل شيئاً على الاطلاق من الفولاذ ولو مسماراً، فأخذت تجوب البحار لكي تجمع المعلومات الخاصة بهاتيك الخطوط المرتبطة بالكهربائية الجوية ارتباطاً وثيقاً واستمرت تلك الباخرة الفذة قائمة بمهمتها حتى دمرتها النيران التي شبت من انفجار مستودع بنزين في غرب جزيرة ساموى في سنة ١٩٢٩ فأيقن العلماء ان المغناطيسية والكهربائية والبراكين والزلازل، مرتبطة بعضها ببعض، بروابط مافتئت مستغلقة عليهم جميعاً فاذا انفجر بركان مثلاً رأيت ابر الملاحة والبوصل في اجهزتها تهتز اهتزازات مغناطيسية، ولو كانت تبعد عن مجال الهزات الارضية التي يحدثها وعدا ذلك فانهُ متى أُخذت الحمم في البرودة تمغنطت ايجابيًّا او سلبيًّا بحسب اتجاه مجال الارض المغناطيسي في ذلك الحين

***

ويرى الدكتور ا. ج. فلمنج الموظف بمعهد كارنيجي أن البحث في طبقات الحمم القديمة يمكن العلماء من الوقوف على حقائق جديدة في تاريخ مغناطيسية الارض. واحدث جهاز يدل على دنو وقوع الزلازل هو الذي يجرب الآن في جمهورية شيلي بامريكا الجنوبية حيث تكاد تحدث زلازل صغيرة كل اسبوع. ومداره على اضطراب مغناطيسية الارض فيتخذها دليلاً على قرب وقوع الزلازل وفي مرصد الاحوال الجوية بمدينة سلتو في ذلك الاقليم شوهد ان الزلازل العنيفة كانت تسبقها

دائماً عواصف مغناطيسية في ذلك السقع . وقد وضعت في المرصد آلات حساسة تسجل دقيقة فدقيقة تقلبات المغناطيسية الارضية ثم يذاع ما تسجله الآلات من الانذارات الخاصة بالزلازل ، مشفوعاً بتقارير الاحوال الجوية اليومية

﴿ كيف يستفيد الزراع بالعواصف الكهربائية ﴾

في الجهة الشرقية من الولايات المتحدة ينتفع الاهالي بالقوة الكهربائية الجوية انتفاعاً غريباً جداً وهو ان مربي الفطر تحققوا كون العاصفة الكهربائية يعقبها دائماً تعجيل نمو الفطر . ويظن ان الاوزون في الهواء ، وهو الذي يتولد في الجو عقب تألق البرق ، مصدر ذلك التأثير — فغدوا حينما يريدون انضاج منتجاتهم ، قبل اوانها لكي يبيعوها لمستهلكيها ، يديرون الآلات التي تطلق كهربائية احتكاكية في الهواء فيولدون بها حالات شبيهة بالاحوال التي تعقب وميض البرق

***

ويرى العلامة الطبيعي الاسوجي تادبرج ان البرق قد ينزل من السماء الى الارض سالكاً طريقاً عبّدته له الاشعة الكونية . وبناء على هذا الرأي تكهرب الاشعة الكونية الهواء في طريقها غير المعتاد فتقوم تلك الدقائق الكهربائية التي يتشبع بها الهواء مقام معابر تعبر عليها الصاعقة . ويقول احد مهندسي الشركة الكهربائية العامة في امريكا وهو المتخصص في مباحث البرق ان الصواعق التي تنقضّ من الجو تضيف كل سنة الى التربة ما يقدر بنحو ١٠٠ مليون طن من النيتروجين

***

ومتى اخترقت تلك الكمية طبقات الهواء هذه، واربعة اخماسها نيتروجين، واستقرت على الارض ادمجت في تربتها مقادير كبيرة من تلك المواد الكيماوية الحيوية لنمو النباتات . وطالما خالج العلماء الشك في حوادث البرق الذي ينقضّ من السماء على شكل كرات ، حتى تمكن عالمان في نبراسكا منذ بضعة اسابيع من مشاهدة تلك الظاهرة الطبيعية العجيبة حيث صوراها بالفوتوغرافيا صوراً بديعة اذ شاهدا الكرات البرقية في اثناء عواصف حادة تكاد تكون أرياحاً هوجاً . وقد وصفها احدهما المستر جورج رافانج الموظف بالمرصد الجوي في اقليم لينكون بالولايات المتحدة ، فقال انها بمثابة مجرى ناري يسيل من جوانب سحابة ساخنة لدرجة الغليان مشبعة بالغبار كأنها مياه تسيل من مصفاة فتتفرّق بعد نزولها كرات شاذة الاشكال . اذن القوة الكهربائية بأشكالها المختلفة سواء كانت مسوقة بالرياح او عاملة في الهواء حولنا ، ستتبوأ سريعاً مكاناً رفيعاً خليقاً بها في علم الطبيعة . ومع ما بلغه العلماء في الزمن الاخير من التقدم في المباحث النظرية الخاصة بها ما برحت عالماً لا حدّ له في اعماله وغوامضه

[عن مجلة العلم العام بتصرف يسير]

مرض الجماد وتلقيحه ونحوه

جرت العادة من قديم الزمان ان تقسم الاجسام الارضية الى حيوان ونبات وجماد . ومميزات كل قسم من هذه الاقسام الثلاثة واضحة جدًّا الاَّ عند الحدّ الذي يدنو فيهِ القسم الواحد من الآخر فان انواع الحيوان الدنيا تلتبس بأنواع النبات العليا وانواع النبات الدنيا تلتبس بأنواع الجماد العليا حتى لقد يتحذر عد بعض الموجودات من الحيوان او من النبات او من الجماد .

وزد على ذلك ان بعض الانواع العليا من الحيوان تظهر فيها خواص النبات كما ترى في تشعُّب المرجان والاسفنج وكثير غيرهما من الحيوانات البحرية التي تماثل النبات في نموها وتشعبها وكما ترى في الاشكال التي تتشكل بها بعض انواع الفراش والديدان حتى تماثل الازهار والاوراق والاغصان وكما ترى في النبات الحسَّاس والنبات المفترس اللذين يتمثلان بالحيوان . وقد يظن لاول وهلة ان الجماد لايماثل الحيوان والنبات في شيء ولكن هذا غير الواقع فان بعضهُ يتبلور باشكال تشبه اشكال النبات واغرب من ذلك ان بعضهُ يمرض او تظهر فيهِ ظواهر مثل ظواهر المرض في الحيوان وبعضهُ يتغير من حالٍ الى اخرى اذا تلقَّح وبعضه ينمو نموًّا محسوساً . واليك بيان ذلك :

﴿ مرض الجماد ﴾ ذكر ارسطوطاليس ان القصدير الذي يؤتى بهِ من بلاد السلت اسهل ذوباناً من الرصاص العادي بدليل انهُ يذوب في الماء ويذوب ايضاً اذا اشتدَّ البرد وجلدت الارض . وقد أبان الاستاذ كوهن حديثاً انهُ اشتدَّ البرد مرة في مدينة من مدن المانيا الشمالية وكان في كنيستها ارغن أنابيبهُ من القصدير فتخرفت من نفسها وصار قصديرها قصماً حول الخروق تفركه بيدك فيتحول الى مسحوق ناعم . وقيل ان البرد اشتدَّ مرة في بطرسبرج وكان في دار جمركها قطع كبيرة من القصدير فتفتتت من نفسها

واذا اشتدَّ البرد على القصدير ظهرت على وجههِ كلف كالحبوب والثآليل ثم جعلت تنتشر حتى تغطي وجههُ كلهُ ولذلك سميت بمرض القصدير او بوباء القصدير . ويستحيل القصدير بعد ذلك الى مسحوق وهذا المسحوق قصدير صرف اي انهُ ليس مثل صدإ الحديد وزنجار النحاس مركباً من المعدن وعنصر آخر بل هو قصدير صرف ويستحيل الواحد الى الآخر عند الدرجة ١٨ بميزان الحرارة وذلك ليس شرطاً لازماً لان القصدير المعدني قد يبرد الى هذه الدرجة او ما تحتها ولا يمرض ولا يسحق . ولكن اذا ظهر فيهِ المرض ولو في بقعة صغيرة جدًّا امتدَّ حالاً وشمله كلهُ فهو كالمرض الذي يصيب الحيوان والنبات

﴿ تلقيح الجماد ﴾ المعروف ان الماء اذا برد الى درجة الصفر بميزان سنتغراد او ٣٢ بميزان فارنهيت جمد واستحال جليداً . ولكن يحدث كثيراً ان الماء يبرد الى الدرجة الرابعة او الخامسة تحت الصفر ولا يجمد وقد يمكن تبريده الى الدرجة العاشرة او العشرين تحت الصفر ولا يجمد بل يبقى سائلاً وذلك اذا كان موضوعاً في اناء زجاجي نظيف وكان سطحهُ مغطى بقليل من الزيت حتى لا يصل اليهِ الغبار من الهواء . ولكن اذا طرحت فيهِ حينئذٍ قطعة صغيرة من الجليد جمد كلهُ حالاً كأن تلك القطعة لقحته كما يلقح اللقاح البيضة في الحيوان والثمرة في النبات . ويحدث مثل ذلك في كثير من الجمادات كالفصفور والحامض الكربوليك والثيمول . فاذا برد الثيمول الى الدرجة التي يجمد فيها ولم يحرَّك اناؤه ولا وقع فيهِ غبار بقي سائلاً واذا طرح فيهِ حينئذٍ بلورة صغيرة من الثيمول الجامد جمد كلهُ حالاً وتبلور . وكذلك خلات محلول الصوديوم يبرَّد الى ما تحت الدرجة التي تتبلور ثم تطرح فيهِ بلورة صغيرة من خلات الصوديوم فيتبلور كلهُ حالاً . اي ان القطعة الصغيرة التي تطرح في السائل المبرد تفعل فعل اللقاح في الحيوان والنبات

واغرب من ذلك ان تلقيح بيضة الحيوان قد يتم بفعل كيماوي مثل هذا كما ثبت حديثاً في بيوض بعض الحيوانات البحرية . ثم ان خلات الصوديوم الذي برّد كثيراً ولم يتبلور حالاً اذا وضع في غرفة سحق فيها شيءٌ قليل من بلوراتهِ بهاون كأن الذرات الدقيقة التي تطير في الغرفة من خلات الصوديوم حين سحقهِ تكفي لتلقيح السائل المبرد كما ان لقاح السمك الذي يكون منتشراً في ماء البحر يكفي احياناً لتلقيح بيضهِ . واللقاح الذي تحمله الرياح اللواقح يكفي احياناً كثيرة لتلقيح النخل والصنوبر

وكما ان القليل من لقاح الحيوان والنبات يكفي لتلقيح ما كان من نوعهِ كذلك القليل جداً من لقاح الجماد يكفي لتلقيح ما كان من نوعهِ . فاذا لمست بلورة من بلورات الثيمول بشعرة من شعر رأسك ثم لمست بتلك الشعرة سائلاً مبرداً من الثيمول كفت لتلقيحهِ وبلوَرته مهما كان ما علق بها قليلاً

﴿ نمو الجماد ﴾ اما النمو فشامل لكل الاجسام التي تتبلور . ولكل نوع من البلورات درجة خاصة من النمو وشكل خاص . اذب ملح الطعام في قليل من الماء حتى يشبع منهُ ثم صبَّ من الماء على لوح من الزجاج وانظر اليهِ بعدسة مكبرة فتراه يتبلور بلورات مربعة قائمة الزوايا مجوفة في وسطها كأنها مركبة من طبقات متراكزة وتراها تنمو وتكبر امام عينيك . وقد حسبوا ان بلورات الفصفور تنمو بسرعة مائتي قدم في الدقيقة وبلورات الجليد عند الدرجة ٢ تحت الصفر تنمو بسرعة ثماني عقد في الدقيقة . والغالب ان يكون نمو البلورات في الطبيعة بطيئاً جداً مثل نمو الحيوان بل ابطأ منهُ

وقد يتغير شكل البلورات من وقت الى آخر . مثال ذلك : ان بلورات الكبريت المصهور اذا برد رويداً رويداً تكون في اول الامر ابرية لامعة ثم يزول لمعانها وتستحيل الى اشكال معينة مما يدل على ان الجماد يتغير احياناً كما يتغير النبات والحيوان

كتاب الشيطان

تأليف امين الريحاني

يعنى الكاتب الكبير امين الريحاني ، بوضع كتاب يضمنه على لسان « الشيطان » لباب ما خبره من شؤون الافراد والامم ، مفرغاً في قالب من النقد والتهكم يغري بالقراءة ويحمل على التفكير والتأمل . والريحاني رجل مستقل التفكير ، ينشد الاصلاح وقد وعى من اخبار الامم وعبر التاريخ وحكمة المتقدمين والمتأخرين وآيات الادب القديم والحديث ، ما يجعل كلامه جديراً بكل عناية واحترام ، تشهد بذلك كتبه السائرة في اللغتين العربية والانكليزية . و« المقتطف » يسره ان يقدم الى قرائه هذا الفصل وهو الاول من « كتاب الشيطان »

كانت المدينة ملتحفةً بلحافٍ كثيف من الليل . وكانت ال « بُصَّات[1] » التي لا تنام تسير الهوينا في تلك الساعة ، كأنها تمشي في حلم ، وتهدر ثم تئن كأنها الشبح في رواية هَمْلِت .

ورأيت من نافذتي نوراً ضئيلاً متحركاً في المتحف البريطاني الذي كنت اسكن في جواره . رأيته ينتقل من دار الى دار في ذلك المتحف ، ورأيته يخرج من احدى نوافذه ، ويطفو بين البيوت وفوقها ، وهو يترجرج ويزداد ضياء

رجعت تلك الليلة متأخراً من وليمة في النادي ، وكنت لا ازال افكر ، وأنا انظر الى المصباح الكهربائي خارجاً ، في كلمة قالها احد الاعضاء في ما للشيطان من الاثر الفعَّال في تعقيد مشاكل العالم الحاضرة ، وخصوصاً منها المشاكل الجنسية بين الرجل والمرأة

ولكن ذلك النور شغلني وقطع عليَّ فكري . رأيته يدنو من البيت الذي اقيم بهِ . فركت عيني وأنا اظنني في خدعة من خدعات البصر ، فكذَّب النور ظني ، وهو يدنو مني . ها كهُ امام النافذة . ها كهُ في الغرفة . ها كهُ على الكرسي — يتجسم ويخيف

لست ممن تتراءى لهم الاشباح ، ولست ممن يخدعون بالخيالات . وما كان ما رأيت شبحاً او خيالاً . رأيت امامي رجلاً في ثوبٍ « لندنيّ » انيق ، يجلس في ذلك الكرسي جلسة الزائر الكريم ، ويحيي ، ويده على رأسه ، تحيةً طيبة

---

(١) وأحدها بص اي سيارة كبيرة للنقل auto-bus

حاولت ان اخفي ما عراني من اضطراب ، وحاولت ان اجاريه في تأدبه فقلت : « وهل يتفضل سيدي فيزيدني علماً بشخصه الكريم »

فقال وهو يبتسم ابتسامة مؤنسة مغرية : « قد التقينا صدفة بضع مرات . انا الشيطان خادمك المطيع المخلص »

— « عجيب . وما الذي تبتغيه الآن مني ؟ »

— « سمعتك تناديني وتدعوني اليك »

— « ما دعوتك دعوة رسمية . انما كنت افكر فيك . وكنا في النادي ، هذه الليلة ، نتحدث بشأنك »

— « جميل منكم ذلك . فقد حان للناس وخصوصاً منهم المفكرين ، ان ينظروا اليّ والى اعمالي نظرة عقلية صادقة حرة »

فقلت بشيء من العطف : « اظن ان اشغالك وهمومك كثيرة في هذه الايام »

فقال وهو يمكّن جلسته : « الهموم لا تهم . اما الاشغال فهي كما قلت . اننا نجتاز في هذا الزمان دوراً سريعاً خطيراً في التطور البشري . وترى الانسان لذلك مضطرب البال ، حائراً جزعاً . تراه ، وقد فقد الفطنة والشجاعة ، يعود الى الخرافات ، الدينية منها والسياسية ، ويعتصم بها . بل تراه يتخبط في الدجى وهو لا يدري بما دخل عليه من وهن وفساد . ان الله نفسه مضطرب البال من اجله . فهو يود ان يظل الانسان جريئاً نشيطاً مقداماً ، فيماشي سنن الكون وسنن الحياة ، ولا يتقهقر ، ولا يهلع ، ولا يتكل كل الاتكال على القوى الالهية . وها هنا فسحة العمل ، عملي انا . إن عليّ واجب التشجيع ، والتذكير ، والتحريض . وعليّ ان اشعل في صدر الانسان نور الطموح كلما انطفأ ذلك النور . عليّ انا ان اكمّل عمل الله فازيّن للانسان سبيل النشوء الدائم ، والارتقاء المستمر . عليّ ان انبهه ، واستفزّه ، واحرضه ، واستغويه . وماذا يهم اذا خسر في طاعته لي معمل صابون ، او معمل اسلحة ؟ ماذا يهم اذا ذهبت في سبيلي الثروات والاساطيل والدول ؟ وما سبيلي غير سبيل رقيه وسعادته . فيجب عليّ ان اساعده ليفهم ذلك ، وان استحثه على العمل ، على السير ، على التصعيد في السبيل الاعلى . هذا هو شغلي . وما هو ، وحياتك ، بالشغل الهيّن الليّن »

***

عندئذٍ اخرج من جيبه كيساً وغليوناً ، فعبأ الغليون واشعله ، ثم قدم الكيس اليّ قائلاً : « أتريد ان تجرب هذا التبغ ؟ » فملأت غليوني منهُ ، شاكراً لطف زائري ، وسألته ان يستأنف الحديث ، فقال وهو يدخن :

« ان خصمي عالمٌ من الجمود والخرافات . وعليّ ان اتغلب عليه . عليّ ان احرّك كل جامد في نفس

الانسان ، وفي روح الامم ، وان امحق كل اسباب السخافة ، وكل عوامل الفساد ، في حياة الافراد ، وحياة الامم . واني في عملي لجادٌ ، واني فيه لَمنتصر . فقد انتصرت حتى الآن في بضعة اماكن من هذا العالم المتألب عليّ : في الصين ، في روسيا ، في تركيا قد انتصرت انتصاراً باهراً . وكان لي بعض النصر في اميركا التي بدأت تدرك شيئاً من اغراضي . اما النصر الاكبر فسيكون ها هنا في هذه الجزائر البريطانية . اقول — ولا عار — الحقيقة كلها . فقد انهزمتُ في هذه الجزائر مراراً في الماضي وسأفوز لذلك فوزاً باهراً في المستقبل — المستقبل القريب

« قد يُظن ان قوتي هي دون قوى الشعب الانكليزي . وقد يصدق الظن ظاهراً . ولكني في الحقيقة مستحوذ على المصادر الاولى لقواه : ان عقله وروحه في يدي . وهو يعلم ذلك ولا يجهر به . واعجب من هذا انهُ يجاريني ظاهراً ، ويستعين سراً بي في حروبه الاخرى ... ان في مؤسسات الانكليز العقبة الكؤود . فلا طبيعية هي ، ولا قانونية . هي على ما يظهر مما وراء الطبيعة ، ومما دون القانون . تكاد تكون « متافيزيكية » لا جسم لها ، ولا روح ، مثل الشركات المالية والاحتكارية . تقاليد ونظم واصطلاحات ، وافانين في الاصطلاحات والنظم والتقاليد . وكلها لا ترى ، ولا تدرك في غير نتائجها — مثل الكهرباء . ولكنها لا تقوى عليّ . اقول ، لا تقوى عليَّ . فقد يكون ركنها ، او احد اركانها ، في هذا البرلمان برلمانهم ، الشبيهة اعماله واقواله باعمال الرُسُل واقوالهم . تذكرني مناقشات البرلمان الانكليزي برسائل بولس الرسول . عقلٌ دقيق ، على حبل رقيق ، فوق وهدة عميقة تلذُّ لي مراقبته . وعندما يقع — وسيقع عاجلاً او آجلاً — اكون انا هناك للتأسية والنجاة »

***

وكان قد انطفأ غليونه ، فاشعلهُ ثانياً ، ثم قال : « وماذا تفعل انت في لندن ؟ » فقلت : « اني طالب علم . انشد المعرفة والحقيقة . ولا اكتمك اني مفتون بالانكليز . هم قوم انبياء قديسون . او ان وجوههم ، في الاقل ، هي كوجوه القديسين ، كما قال شاعرهم الاكبر . واني اراهم في كل حال يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . بل اراهم ينصرون المظلومين من الشعوب ، ويدافعون عن المغبونات من الامم »

— « لا تزال مخيلتك شرقية »

— « ولكنني روّضتها في روضتين : روضة العلم لدروين ، وروضة الشك لهكسلي »

— « جميل ، جميل . انما استأذنك بكلمة . ارى ان الشك فيك دون العلم قوةً وسيراً . شكّك كديش (١) — لا تؤاخذني — وعلمك جواد أصيل . ما لنا وهذا . وما لنا ورأيك بالانكليز . انما اقول لك — مستأذناً مستغفراً — انك تضيّع في لندن شيئاً كثيراً من وقتك ومن عواطفك . اراك تمشي في شارع بيكادلّي ، والسبحة بيدك ، كأنك في رواق من اروقة الازهر . اراك تهيم على

(١) الكديش من الخيل غير الجواد الاصيل يمتهن بالركوب والحمل (محيط المحيط)

وجهك في هَيْدْپَرْك ، وانت تنشد استعارة جديدة ، او قافية شريدة ، كأنك في بستان من بساتين دمشق . اراك تقف مأخوذاً في قلب المدينة ، بين البورص والبنك والمراي ، وتدون في مذكراتك ما تراه من قوة الامبراطورية البريطانية وعظمتها واراك معجباً حتى بالمهرجانات الصبيانية التي يقيمونها باسم محافظ المدينة ، او باسم من حاول يوماً ان ينسف البرلمان . بل اراك ترد موارد المؤتمرات السياسية والاقتصادية والسلمية وتتمشى في ظلال التعريفات الجمركية والاعتزالات القومية ، فتردد صدى السفسطات السائرة ، والاضاليل الشائعة ، وتود أن تحمل منها الى الشرق رحمة وبر . ولكني رحمة بك ، انبهك ، واحذرك . فانك مثل كل القوميين المفكرين تفكر نصف تفكير . بل تقف في التفكير عند الجانب الذي يفيدك او يفيد قومك ويضر الآخرين . واراك مأخوذاً بما يسمونه النجاح المادي ، فتقيم له تمثالاً . وما النجاح برب يُعبد »

— « انهُ ليدهشني هذا القول منك . انت الشيطان تحمل على النجاح المادي ، بل على المدنية نفسها ، هذه المدنية التي كنت اظن انها من صنع يدك »

— « انك في بعض ظنك مصيب . انا لست ضد النجاح المادي . ولست خصماً للرفاه الاجتماعي انما انا خصم اولئك الذين يحملون من ثمار المدنية إرثاً عائلياً او وطنياً . اني خصم الرفاه المحصور ، والبؤس المشاع . اني ارى بعيني الاثنتين . والناس لا يرون بغير العين الواحدة . وانت في هذا — لا تؤاخذني — من الناس . قد فقدت يا صديقي ، عيناً من عينيك ، وانا الآن اجيئك بها . انا الشيطان اعيد اليك عينك الاخرى . فهل تقبلها مني رقتيعني . هيابنا . سأفتح لك ابواباً من الآبنوس المرصع بالذهب ، فتدخل بها الى عالم قصي شقي ، يدمي القارب ويذيبها . البؤر — البؤر — بؤر الحياة — بؤر الوجود ، هذا ما يهمني الآن ويشغل بالي وقواي . بُؤر تُرى ، وبؤر لا ترى . بُؤر تُذكر وبؤر يُمنَد ذكرها عيباً . بؤر روائحها من المجارير ، وبُؤر أريجها من القوارير ، وبُؤر عنوانها اليود والسالفرسان . لا تخف . انما سائرون الى حي الاشقياء ، او الى حي الاغنياء ، او الى مستوصف المدينة العام . انما نحن سائرون الى عالم آخر ، محبوسة فيه ارواح من يقيمون في مقاذر هذه الحياة : ارواح المخدوعين ، والمنبوذين ، والمتسورين ، والمصابين بالامراض الظاهرة والخفية . سأريك ضحايا السيارات البشرية كلها . سأريك الضحايا لما في العالم من القيود السياسية والدينية والاجتماعية ، فقد مررتَ امس ببعض آثارها في المتحف البريطاني ، ولكنك ما رأيتَ غير ما كان امامك في صناديق الزجاج »

— « وهل كنت أنت في المتحف ؟ »

— « نعم . كنت هناك . اني أتردد على المتحف لاغراض شتى — لأنعش ذاكرتي ، لاستوحي آثار اعمالي ، ولأستريح في بعض الاحايين من عناء الاشغال . وقد رأيتك في دير وستمينستر ، نعم ، اني ازور ايضاً ذلك الدير وازور كذلك بعض الكنائس ، ككنيسة مار بولس العظيمة مثلاً ،

وكنيسة مار بطرس العظمى . انما غرضي من هذه الزيارات غير اغراض الناس . غرضي في اللاهوت القديم الذي ينبغي ان يمحق ، ان يستأصل تماماً . وقد باشرنا العمل ، وتقدمنا فيه . أفما سمعت الواعظ المصري يعظ ويحدث ؟ ان في لندن اسقفاً محبوباً محترماً من المفكرين والمفكرات ، المحررين والمحررات . فهل تعلم من اين تجيئه الآراء الجديدة ؟ هو نفسه لا يعلم . هيا بنا »

ما ترددت في مصاحبته . ولكني ، وانا ألبس معطفي ، رغبت في قليل من ذلك الذي ينشط القلوب وينعشها . ورأيت من الواجب عليَّ ان اكرم زائري كما اكرمني ، فقلت . « وهل لك قبل ان نخرج من البيت ، بكأس من الوسكي ؟ » فقال : « لا بأس بالوسكي » وبين نحن نشرب الكأس الثانية قلت : « وهلاّ تفضلت بالجواب عن سؤالك الاخير ، أنا لا اعلم . والاسقف نفسه ، كما قلتَ ، لا يعلم . فمن أين يا ترى تجيئه الآراء الجديدة ؟ »

***

فابتسم ابتسامته اللطيفة وقال : « اني ازوره عند ما يكتب فاجلس الى جانبه . وازوره عند ما يخطب فأقف وراءه في المنبر . لا اقول انهُ يبي كل ما اوحي به اليه ، ولا اقول انهُ ينطق بكل ما أهمسه في قلبه . ولكنهُ باذلٌ جهده ، وجاهدٌ طاقته . فلا يلام في ما يفوته ، ولا في ما يتقيه . ان قلبه لي المكان السليم . وهو مثل قلبي يذوب شفقةً وحناناً لدى مشاهدته الشقاء البشري . انما لا يمعن ، ولا يجرؤ ان يمعن في البحث عن الاسباب الاولية لذلك الشقاء . . . . ولا يزال الواعظ المصري مقيداً ببعض التقاليد في ما يتعلق بي او بعيداً عن الحقيقة في ما يعتقده روح الزمان . فأما انهُ ينكر وجودي بتاتاً ، واما انهُ يتمسك بظنه اني عدو الانسان ، بل عدو العالم . هو لا يدرك ان حقيقة النشوء والارتقاء تشمل كل حي يُرى ولا يُرى في ذا الوجود بل هي تشمل الكون ، وأنا وأنت والواعظ والضفدع من الكون وفيه . الوعاظ ، وان ادركوا هذه الحقيقة فانهم لا يجرؤون اليوم ان يجهروا بها من منابر كنائسهم

« أطلت الحديث . ولكني أقول لك — واسألك وانا اشرب هذه الكأس على صحتك ان تذكر كلامي — اقول لك ان البؤس والاحزان والآلام تخف رويداً رويداً لو كان الناس اعلم بي ، وادرك لحقيقة حالي . بل اقول اكثر من هذا . ان البؤس والاحزان والآلام تزول لو اعترف الناس بوجودي الاعلى ، وكانت لهم الجرأة ان ينصروني ويطيعوني . ولو فعل السياسيون ذلك لأفلحت مؤتمراتهم كلها . ولكن هذه المؤتمرات — مؤتمرات نزع السلاح ، ومؤتمرات السلام ، ومؤتمرات التعاون الاممي كلها لا تفيد اذا كان اربابها لا يصغون اليَّ . فيكتفرون بتقاليدهم القديمة وقوانينهم السقيمة ، بل ينبذونها كلها . هي لديهم مقدسة . وهي في نظري وعلى رأس الشرور وسبب الحروب ، ومصدر الآلام والاحزان . انا الشيطان اقول هذا وأنا الشيطان عامل عملي .

تلك الشرائع والتقاليد ، وتلك الانانيات الدولية ، اني ساعٍ الى هدمها ومحقها لاستئصالها ولو تبعني واطاعني الناس لكنت اسرع عملي ؛ ولكانت الشعوب تفرض السلم فرضاً على الدول والحكومات اقول لو تبعني الناس لساد السلم ولساد العدل في العالم . خذ البرهان . انت شرقي وأنت عالم بالعراق . وقد رأيت هناك طائفة من الاقدمين الصالحين ، وهم في الوداعة وكرم الاخلاق والمسالمة المثل الاعلى . هم من اتباعي . هم يعبدونني ، اجل يعبدون الشيطان . ولكنهم متقهقرون في أحوالهم الاجتماعية لأنهم اخطأوا الفهم والتفسير لوحيي . فقد اغرق اليزيديون في التعبّد ، فحال ذلك دون تصعيدهم في سلم الارتقاء . انا لا اطلب العبادة ، ولا استحب التمجيد . اني انفر من الانين . ولا ارى في الهياكل والمعابد غير القيود التي تؤخر نمو الروح البشرية . ان رقي الانسان وسعادته لفي علمه وحريته . وأنا لا اطلب منهُ غير ان يعلم الحقيقة الشاملة المزدوجة ، ويعمل بعملها . هذا ما اريده منهُ ، وهذا ما يريده الله . انا والله . العفو ، العفو . أللهُ وأنا . ولا تعجبنَّ لهذا القران . اظنك تعلم اني كنت مرة في خدمته تعالى . هي قصة قديمة لا فائدة من ترْدادها . انما اقول ان تعاوننا في الزمان الاول قد يجدد في هذا الزمان . عفوك . قد اطلت الحديث »

***

كنا قد وصلنا الى المتحف البريطاني ، فدخلنا من مكان لا يفتح كما علمت لغير رفيقي وصحبه وبينما كنا نجتاز ردهة الاواني الخزفية في القسم الاغريقي ، ورواق الآثار الاشورية ، حدثني الرفيق الدليل في موضوع فني اجتماعي جليل ، فتطرق الى الرموز ومقامها في حياة الانسان ، فأشار الى الصفة البارزة في الاناء الذي يدعى أمفورا — جرّة — وفي الصفة السائدة في الاسد الاشوري المجنح . ثم قال : « الجمال والقوة ، لا قيمة للحياة تذكر بدونهما »

وسرنا بعد ذلك الى ردهة القراءة ، تلك الردهة المستديرة ، تحت القبة الكبيرة . فأومأ الرفيق الى القبة ، فاذا هي تنشق ، فتنشق ، حتى بدت السماء من الفرجة فيها . فقال وهو يبتسم ابتسامة مؤنسة مطمئنة : « هات يدك ، ولا تخف » ، ما خفت . وما دهشت ، ويده تضم يدي ، مما كان حتى من جرأتي . انما خيل اليَّ في البدء اني في سفح جبل . وكان الرفيق نفسه ذلك الجبل . بل كنت امامه ، وقد تعلى فلامس رأسه القبة ، كالقزم امام مارد من الجن . وظللت كذلك وأنا تارة على ركبته ، وطوراً على صدره ، حتى بلغت الكتف منهُ ، وأطللت على الفضاء — على النجوم

فشجعني بقوله ثانياً : « لا تخف » وكانت القبة قد انسدت تحتنا ، فمراني ، اذ قبض ثانياً على يدي ، شيء من الخوف . ثم احسست ان قلبي سقط في لحظة من بين جنبي ، وان جسمي قذف كالقنبلة في الفضاء

الفريكة لبنان

تناظر اللغة الصينية والعربية

للاب أنستاس ماري الكرملي

١ — ﴿ تمهيد ﴾ يقول اللغويون: نظرت الكلمة الفلانية الى الكلمة الفلانية. اذا اشبهتها او قابلتها. وتناظرت الكلمات: نظرت بعضها بعضاً. ونحن نريد ان نبين في المقال الآتي، ان في اللغة الصينية الفاظاً تشبه الحروف العربية. ولعلّ ذلك كان منذ عهد الناس بوضع الكلم، ولا سيما القليلة الاحرف. وفي ما يلي بيان هذه الحقيقة

٢ — ﴿ كتاب حديث في تناظر اللغة الصينية لغيرها من اللغات ﴾ في نحو اواخر السنة الماضية، ألّف احد الادباء الفرنسيين، وهو المسيو ميشيل هونوراة كتاباً بقطع الربع. قليل الصفحات سماه: «ايضاح قرابة اللغة الصينية مع اللغات اليافثية والسامية والحامية» وبالفرنسية:(1)

وقد قال المؤلف في صدر مقدمته ما معناه: «تتصل اللغة الصينية كل الاتصال بلغات شعوب الغرب. تلك هي الحقيقة المدهشة

«وكيف ان الناس لم يلاحظوا ذلك قبل هذا الحين؟ فهذا ما لا أصل الى فهمه ابداً. والواقع بيّن وادعهُ ينطق بنفسه. وشواهده واضحة بنفسها بنوع كافٍ» ثم قال في نحو اواخر مقدمته المذكورة

«وانا ابحث في هذه الكراسة — وقد اختصرتها لغاية في النفس — عن ١٠٠ر١ كلمة صينية. واما ما بقي من الالفاظ الصينية فستكون موضوع كتاب آخر يظهر بعد هذا»

ومن بعد ان أتمّ مقدمتهُ بما لا حاجة لنا الى استيعابه هنا، شرع في بحثه، وقد صوّر كل كلمة صينية، بحرف افرنجي كبير يمتاز عن بقية اوضاع سائر اللغى. ورقّمنا كل كلمة برقم. والظاهر من انعام النظر في ما سرده من الكلم، ان الرجل لا يحسن العربية احساناً يمكنهُ من مقابلة ما في لساننا المدناني، بما وجده في سائر الالسنة، ولو عرفها لذكر لكل كلمة صينية كلمة عربية. بخلاف ما ورد في باقي اللغات فانهُ ذكر للكلمة الصينية ما وجد منها في سائر الالسنة، من غير ان يكون هذا السرد متتابعاً في جميع الالفاظ. اما في لساننا فيكاد يجد القارىء لكل كلمة صينية حرفاً عربيًّا وانا اعالج الآن هذا الامر مبتدئاً بأول كلمة الى العاشرة، وهي كل ما جاء في الصفحة الاولى، ولا اريد ان امضي فيها قدُماً الى آخر ما ورد في المصنف المذكور، لكي لا يمتدّ بي النفس الى ما يحرج الصدور، ويدفعها الى السأم والملال

(1) Michel Honorat Démonstration de la parenté de la langue chinoise avec les langues Yaphétiques, Sémitiques et Chamitiques.—Paris—Librairie Orientaliste Paul Guthner 1933

٣ — ﴿ كلمات صينية يقابلها الفاظ عربية ﴾ قبل ان ابدأ بالمقابلة اقول: لا حاجة لنا ان نرى الكلمة الصينية كما هي في العربية ، بل ما يقاربها بالصوت والمعنى . وقد يقع في الكلمة العربية « قلب » اي ان تكون احرف الكلمة الواحدة موجودة في الكلمة الثانية لكن بترتيب آخر غير الترتيب الاول . وابتدأ المؤلف بالكلمة الصينية

١ — Mi, Mie قال : هي قريبة من الفرنسية Miel التي معناها العسل ولو صورت الفرنسية بأحرف عربية لقلنا : « ملء » بكسر الميم فاذا قلبت صارت « لِثم » «بكسر اللام . واللِّثم : العسل . وذكر من الالفاظ المقاربة ما جاء في الالمانية بمعنى العسل ، فقال Medu, Mido, Miod, Met وهذه تقرب من لفظتنا : « الماذيّ » وهو العسل الابيض . واقول : ان الذي اراهُ ان الماذي وما يقاربهُ في الجرمانية والصقلبية والجربة مأخوذ من ماذية اي بلاد الماذيين La Médie وعسل هذه الديار الى يومنا هذا هو عسل ابيض بديع اللون . وقد رأيتهُ واكلت منهُ مراراً والمسيو هونوراة صاحب كتاب « الايضاح » لم يذكر من العربيتين كلمة واحدة . ولا ذكر لنا رأيهُ في اصل كلمة « الماذيّ » عند بعض ابناء الغرب

٢ — Yen أي آلة البصر والبصر نفسهُ . وذكر مقارباً لها في الفرنسية Œil ولو كان يعرف العربية لذكرها حالاً قبل سائر الكلم اي « عَيْن » فهي اقرب الى الصينية من جميع الالفاظ التي سردها

٣ — Mien ومعناها الوجه والهيئة والصورة وذكر لها في الفرنسية Mine ولم يذكر لها العربية « مِيثَلة » بكسر الميم . وهي الهيئة

٤ — Tien ومعناها السماء والضوء . وذكر قريباً منها الجرمانية Ti, Tio ولم يعرف العربية « ضوء »

٤ مكررة — Tsien, Tsin, Tsing اي الاسمانجوني او الازرق السماويّ . والحرفان المزدوجان الصينيان TS كثيراً ما يقابلهما بالعربية حرف واحد . إذ قد يكون سيناً مهملة او شيناً معجمة او صاداً . وذكر المؤلف من الالفاظ المقاربة للصينية Tinte الجرمانية وقال معناها : حبر بنفسجي أسود — قلنا : فاذا كان الامر كذلك فما اقرب كلمة « الشامة » العربية من الصينية ومعناها : أثر سواد او زرقة غامقة في البدن

٥ — Lang, Long, Loh بمعنى الذئب . واهمّ حرف في مادة الكلمة الصينية هي اللام وتكاد ترى في جميع اللغات الفرنسية والبريطونية والغالية والجرمانية واليونانية . وذكر المؤلف من نظائر الصينية الفرنسية Allan وقال معناها الكلب . وقال : Lain هو الشيطان في العربية . وفكرت طويلاً لاعرف هذه الكلمة العدنانية وما عسى ان تكون ، فاهتديت اليها في الآخر وانها « اللعين » — ولم يذكر من لغتنا غير هذه الكلمة . وكان في امكانهِ ان يقول مثلاً : اللعوة واللعاة وهي الكلبة — واللعْوس (كجعفر) : الذئب واللأى بالتحريك الثور الوحشي . او البقرة الوحشية . ومؤنثها اللآة كفتاة وعندنا ايضاً الأمغا وهي الشاة لا يعتدّ بها في المعاملة

على ان الكلمة الحقيقية في لساننا للدلالة على الذئب والمجانسة لما في الالسنة غير السامية هي

العوس التي ذكرناها — واما «العين» التي ذكرها المؤلف بمعنى الشيطان فهي من المجاز لا من الوضع الحقيقي . ومع ذلك تراه ذكرها في معنى الذئب لانهُ يفترس النفوس — في نظره — لا لأنهُ ملعون ، فانظر الى هذا التحكم في الاشتقاق وتقريب الالفاظ بعضها من بعض والتلاعب بها

٦ً — Hen, Han هو البغضة وذكر المؤلف من متقابلاتها في سائر اللغات الفرنسية والانكليزية والبريطونية والعبرية ، ولم يذكر العربية وهي «العين» العَيْب والاصابة في العين

٧ً — Siw اي خاط وطرّز والابرة (اذا نقل الفعل نفسهُ وبصورته الى الاسمية) وذكر لها المؤلف متناظرات في الهندية الفصحى والجرمانية واللاتينية اليونانية والثوانية والصقلبية ولم يذكر لها مقابلاً في لغة من اللغات السامية ، مع انك تجد في العربية قولهم : جأى الثوب جأواً : خاطه وأصلحه . والفعل واويّ ويائي معاً

٨ً — Ye : الليل وامس الدابر . وذكر لها الكاتب من النظائر في اللغات الكارلية والجرية والفنسوية والماناوية والارلندية والفرنسية قال: ومنها في الفرنسية Jé, Jeais وقال : معدن غير لامع او Jé, Geai طائر اسود الى آخر ما قال . — قلنا : وفي لغتنا الهَيْهُر (بكسر الهاء والهيتر بتاء مثناة بعد الهاء في مكان المثناة التحتية) من الليل : النصف الاول منهُ — والهِيناء : القطران . والهينة : الطائفة من الليل ، الى غير ما هناك من الالفاظ

٩ً — Je وهي الشمس والنهار . وذكر لها اشباهاً ونظائر في اللغات الماناوية والرومية والبلغارية والفرنسية والكمرية . ولم يذكر كلمة واحدة من لغة سامية . فلا نعرف كيف يحاول ان يجد حروفاً سامية ليصحح او يوجه عنوان كتابه — وفي اللغة العدنانية : الجَوى ، ويراد به الهوى الباطن ، والحزن ، والحُرقة . والجُوَّة والجُؤْوَة : غبرة في حُمرة . والجؤوة :أرض غليظة في سواد

١٠ً — Pang : الضخم الغليظ السمين . وذكر لها مقابلات في البريطونية والفرنسية واللاتينية ولم يذكر لها مشابهاً من اللغات السامية شيئاً . وفي لغتنا الفَخْم والضَخْم ومعناها معروف . وعندنا ايضاً فعل « فقَم » . يقال : فقَم الاناء : امتلأ . وفقم مال فلان : نفد . وقيل : كثر ، ضد . وفقم الامر : فَقَماً (بالتحريك) ، وفَقْماً ، وفقوماً (كجلوس) لم يجر على استوائه و « عظم » . وأكل الرجل حتى فقيم (بكسر العين) اي حتى بَشِم . وفقُم (بضم العين) الامر : اي عظُم . فكل هذا مضارع لما ورد في الاصل الصيني وفي اصول بعض اللغات الغربية . ومع ذلك لا نجد ادنى أثر لما ذكرناه لك في كتاب المسيو هونوراة فلا جرم ان الرجل غير متضلع من لغتنا ولا من اي لغة سامية . فالعنوان الذي اتخذه لكتابه اعظم من فحواه . ولعله اذا وقف على ما بيّناهُ هنا من الامثال يحدو به الى التحقيق اكثر مما فعل الى الآن . هذا ما اردنا اثباته هنا ، اظهاراً لعلوّ كعب لغتنا وانها تطلعنا على خفايا اللغات على اختلاف انواعها وعلى اختلاف الاقوام الذين ينطقون بها وهذا كاف لان نحافظ على كنوزنا اللغوية ونفاخر بها سائر الالسنة وعلمهُ فوق كل ذي علم

القضاء في السودان

لخليل الخوري

القاضي بمحاكم السودان سابقاً

القضاء الجنائي

منذ اواخر القرن الثامن عشر سادت في اوربا فكرة جمع الشرائع وتأليفها بشكل قوانين فوضع في اول الامر القانون المدني في فرنسا في سنة ١٧٩٣ قبل ظهور نابليون ولكن هذا القانون لم ينظم وينشر وينفذ حتى سنة ١٨٠٤ وفي ذلك الحين كانت تلك الحركة شاملة القارة كلها ففي انكلترا كان الفقيه العظيم جرمي بنتام يسعى الى تأليف الشرع الانكليزي وجمعه بشكل قوانين ولم تختلف في الحقيقة نظرياته عن نظريات الفقهاء الفرنسيين الا انهُ كان مسوقاً ومسيراً بأصل المنفعة الذي جعله ركن الشرائع وركن جميع الاشياء . والفقهاء الفرنسيون جعلوا القانون الطبيعي الخيالي اصل الشرائع — اما بنتام فكان هدفهُ الاسمى اصلاح الشرائع وتسهيل فهمها على الناس ورأى في توحيدها وجمعها بشكل قوانين وسيلة لبلوغ ذلك الهدف — وعلى سبيل الذكر اقول ان بنتام هو صاحب كتاب اصول الشرائع المشهور الذي ترجمه الى اللغة العربية المرحوم فتحي باشا زغلول — ثم حذا حذو بنتام الفقيه الانكليزي الكبير اوستن على ان الانكليز كانوا ولا يزالون يعافون جمع اصول الشرع المدني بشكل قانون لانهم يرون دون ذلك عقبات لا يستطاع تذليلها ويعتقدون ان في جمعه على تلك الصورة مساوي تربي على المنافع . على انهم لم يروا مناصاً من جمع اصول الشرائع الاخرى وقد اصبحت الآن جميع اصول الشرائع عندهم ما عدا الشريعة المدنية وعند غيرهم على اختلاف انواعها مجموعة بقوانين — واذا صحّ ان يبقى الشرع المدني مبعثراً مشتتاً في كتب الفقهاء وفي احكام المحاكم وفي العادات والسوابق فلا يصح ذلك في الشرع الجنائي لان باب الاجتهاد والقياس والتأويل في الاول مفتوح على مصراعيه حتى في البلدان التي وضعت فيها القوانين ولكن في الثاني لا بدّ من حصر الجرائم والعقوبات

وقد وضع في السودان على أثر الفتح الثاني في سنة ١٨٩٩ قانون للعقوبات وآخر لتحقيق الجنايات وبني القضاء الجنائي السوداني على القضاء الهندي وهذا بني على القضاء الانكليزي ثم عدل قانون العقوبات وقانون تحقيق الجنايات في السودان في سنة ١٩٢٥

والذي اتوخاه في هذا المقال ايراد بعض الاصول المتعلقة بالقضاء الجنائي في السودان مما يسترعي النظر ويختلف عن مثيله في مصر وفي غيرها من الاقطار التي انسلخت عن السلطنة العثمانية والتي اكثر قضائها الجنائي مبني على القضاء الجنائي الفرنسي ومشتق من مصادره

***

﴿ تقسيم الجرائم ﴾ — قسمت الجرائم في القوانين المبنية على القانون الفرنسي الى جنايات وجنح ومخالفات والاساس الذي بني عليه هذا التقسيم هو جسامة الجريمة واختلاف العقوبة بسبب ذلك — وفي الواقع ليس هذا التقسيم علمياً او منطقياً لانه لا ينص على فرق جوهري بين قسم وقسم . ومع ان هذا التقسيم يخلو من المنطق فانه ضروري في فرنسا وغيرها لان نظام القضاء الجنائي برمته عندهم مبني على ذلك التقسيم فقد اخطأ في الاصل واضعو القانون الجنائي وقانون تحقيق الجنايات الفرنسيون وغيره اخطاء شتى لانهم استعجلوا وضع جميع القوانين في بضع سنوات على اثر ظهور نابليون وقيدوا البلاد بنصوص ثابتة ليس من السهل تعديلها ثم نظمت المحاكم والدوائر والهيئات بناء على تلك القوانين . اما في انكلترا فانهم لم يستعجلوا بل تريثوا كثيراً فلم يضعوا قانوناً الا بعد ان اختمرت الحاجة اليه ومن هذا ترى التعقيد والارتباك في النظم التي اخذت عن فرنسا لما يحول فيها دون الاصلاح والتعديل من العقبات — وهذا شأن كل عمل يباشر بسرعة وبدون تروّ تكون عواقبه غير محمودة

لم يكترث المشترع السوداني لهذا التقسيم بل عمد رأساً الى مهمته فقرر جميع الافعال التي يعدها جرائم فسردها واحدة فواحدة وقرر لكل جريمة عقوبتها الخاصة وهو اسهل جداً واكثر انطباقاً على المنطق والعقل من التقسيم المرتبك وكم من مرة وقع الاختلاف في مصر وغيرها على اختصاص المحاكم بسبب وصف الجريمة هل هي جنحة او جناية وكم من مرة حار قضاة الاحالة في اعمالهم — وشيء من هذا يستحيل ان يقع في السودان . وقد كان الخيال الدافع الاعظم لفقهاء الثورة الفرنسية فربطوا الاجيال التي بعدهم بسلاسل من الاوضاع والنظريات التي تحاشاها المشترع الانكليزي بما فطر عليه من بعد النظر والتجرد عن الخيال والتصرف بحسب الحالة الطارئة

***

﴿ بيان مدلول الالفاظ والعبارات ﴾ — امتاز قانون العقوبات السوداني بتعريف بعض الالفاظ والعبارات وبيان ما تدل عليه غير معناها الاصلي وهذا التعريف ضروري لازالة ما قد يقع من الالتباس في معاني الالفاظ الواردة في القانون . واليك بعض الامثلة على ذلك ففي المادة ٣٧ ورد تعريف لكلمتي « حسن النية » كما يلي : « لا يقال بان الشيء عمل او اعتقد به بحسن النية متى عمل او اعتقد به بدون العناية والانتباه اللازمين »

وفي المادة ٣٨ عرّف كلمات التهييج الفجائي الشديد كما يلي : — التهييج الفجائي الشديد الذي

يترتب عليهِ تغيير ماهية الجريمة او تخفيف العقوبة التي يمكن الحكم بها بمقتضى اية مادة من هذا القانون لا يشمل الحالات الآتية : —

(١) التهييج الذي ينتحله المجرم او الذي ينتج من تهييجهِ العمد اتبرير ارتكاب الجريمة او

(٢) التهييج الناشيء عن عمل اطاعة للقانون او الذي يسببهُ موظف في اثناء مباشرته اعماله قانوناً او

(٣) التهييج الناشيء عن عمل شيء في اثناء استعمال حق الدفاع الشخصي قانوناً

ثم عرف كلمة الرضاء كما يلي بالمادة ٣٩ :

لا يعتبر الرضاء رضاء بمقتضى اية مادة من هذا القانون اذا صدر من شخص خشية من وقوع ضرر او عن خطأ في الواقع وكان يعلم الذي اجرى العمل او كان لديهِ سبب للاعتقاد بان ذلك الرضاء صدر بسبب الخوف او الخطأ او اذا كان الرضاء صادراً من شخص لا يقدر بسبب اختلال عقله او سكره على فهم ماهية الشيء الذي رضي بهِ ونتيجتهِ او اذا صدر الرضاء من شخص يقل عمرهُ عن اثنتي عشرة سنة

وهنالك تعريفات اخرى لالفاظ شتى لا يعرف الحكمة من ايرادها وتقريرها ولا يقدرها الاَّ من اشتغل بالقضاء

***

« الافعال التي يظهر لاول وهلة انها جرائم ولكن القانون لا يعدُّها جرائم » — هذه سنة اخذ بها المشترع السوداني ولم يأخذ بها غيره فقد نصَّ في اوائل قانون العقوبات على افعال خاصة اخرجها من عداد الجرائم وبذلك سهَّل على الحاكم وعلى المحققين معالجة تلك الافعال وهي افعال تبدو لاول وهلة انها من الجرائم المقررة في القانون ولكن المشترع بسبب الظروف التي لابستها رأى اخراجها من سلسلة الجرائم وعلى سبيل التمثيل اذكر بعض تلك الحوادث

المادة ٤٤ — لا يعتبر الفعل جريمة اذا فعله شخص يجبره القانون على فعله او يبرره في فعله او فَعَلهُ وهو يعتقد بحسن نية بسبب جهل الوقائع لا لجهل القانون انهُ مجبور قانوناً على فعله او يبرره القانون في فعله

المادة ٤٥ — لا يكون الفعل جريمة متى وقع من شخص وهو يباشر القضاء كمحكمة او كعضو محكمة بالسلطة المخولة لهُ او التي يعتقد بحسن نية انها مخولة له قانوناً

وقد ادخل المشترع في هذه المواد افعال الانسان في اثناء دفاعه عن شخصه او عن غيره او عن ماله او مال غيره او عن شرفهِ او شرف غيره وافعال الطفل الذي عمره دون السبع سنين وافعال الطفل البالغ من العمر سبع سنين ودون الاثنتي عشرة سنة اذا لم يبلغ من الرشد تمييزاً كافياً لادراك ماهية الفعل او نتيجتهِ وافعال المجنون جنوناً دائماً او مؤقتاً او مختل العقل وافعال السكران الذي نجم سكره عن اعطائه اية مادة رغم ارادتهِ او بدون علمه والافعال التي الجيء الى ارتكابها الفاعل

بالتهديد والافعال التي تنطوي على اضرار طفيفة والافعال التي تحدث ضرراً ولكنها اجريت لمنع ضرر آخر اريد الحاقه بالاشخاص او الاموال وغير ذلك :—

﴿ العقوبات المقررة ﴾ من العقوبات المقررة في القانون السوداني عقوبتا الجلد بالسوط ذي الفروع التسعة والجلد بالمقرعة — والعقوبة الاولى يحكم بها القاضي من الدرجة الاولى او الثانية على المجرم الذكر البالغ والعقوبة الثانية يحكم بها القاضي من الدرجة الاولى او الثانية على المجرم الذي عمره دون ست عشرة سنة

وهاتان العقوبتان لا يوقعهما القاضي في جميع الجرائم بل في جرائم معينة وليس هو مجبوراً على الحكم بهما بل هو مطلق الرأي اذا شاء حكم بالجلد وان شاء حكم بعقوبات اخرى مقررة للجرم لان الجلد ليس من العقوبات الاساسية المفروضة للجرائم وانما اعطي القاضي الحق في الحكم به في بعض الاحوال بدلاً من الحكم بالعقوبات الاخرى — وقد ظهر بالاختبار ان الجلد عقوبة فعّالة ذات اثر عاجل في الاقتصاص والردع وقد يعترض عليه البعض انهُ اثر من آثار الشدة التي كانت تسود القضاء في الماضي ولكن منفعة الجلد في بعض الأحوال وبالنسبة لبعض الاشخاص لا يمكن انكارها —

***

﴿ التحريض على ارتكاب الجرائم والشروع في ارتكاب الجرائم ﴾ — يمتاز القانون السوداني في هذين البابين بأنهُ — بالنسبة الى التحريض — يعاقب المحرض على ارتكاب الجريمة ولو لم ترتكب الجريمة ويعاقب المحرض على التحريض كما اذا اغرى عمرو بكراً ليغري كاملاً على قتل زيد قتلاً عمداً فأغرى بناء على ذلك بكر كاملاً على قتل زيد قتلاً عمداً فارتكب كامل تلك الجريمة بناء على اغراء بكر فيعاقب بكر من اجل جريمته بعقوبة القتل العمد وبما ان عمراً اغرى بكراً على ارتكاب الجريمة فيعاقب بنفس العقوبة . ومن حرّض على ارتكاب جريمة عقوبتها الاعدام او الحبس المؤبد يعاقب بالحبس مدة يجوز ان تمتد الى سبع سنين وبالغرامة ايضاً اذا لم ترتكب الجريمة بناء على ذلك التحريض — ومن حرّض على جريمة عقوبتها الحبس يعاقب بالحبس مدة يجوز ان تمتد الى ربع اقصى المدة المقررة لتلك الجريمة او بالغرامة المقررة لها او بالعقوبتين معاً ان لم ترتكب الجريمة ويعاقب المحرّض كالفاعل اذا ارتكبت الجريمة

اما الشروع في ارتكاب الجرائم فان القانون السوداني لم يذكر في صدده سوى مادة واحدة أراها وافية بالمرام وهي على غاية البساطة والسهولة وهي المادة ٩٣ — كل من شرع في ارتكاب جريمة عقوبتها الحبس او شرع في تسبيب ارتكابها وارتكب في ذلك الشروع اي فعل في سبيل ارتكاب تلك الجريمة يعاقب بالحبس مدة يجوز ان تمتد الى نصف اقصى المدة المقررة لتلك الجريمة او بالغرامة المقررة لها او بالعقوبتين معاً ان لم يوجد نص صريح في هذا القانون او في اي قانون آخر

معمول به على عقوبة لذلك الشروع — ولا صعوبة في تطبيق هذه المادة في الشروع بالجرائم التي يعاقب فاعلها بالاعدام لان القانون السوداني في جميع امثال الجرائم ينص على عقوبة الاعدام او بالحبس المؤبد والغرامة والحبس المؤبد معناه عشرون سنة فقط . فالشارع في ارتكابها يعاقب الحبس لغاية عشر سنين ولو قارنا مادة الشروع هذه بمواد الشروع في القانون المصري او قانون الجزاء العثماني لتبين لنا الفرق الكبير بين التشريعين فان الاول سهل واضح والثاني معقد مرتبك

***

﴿ الاسباب المخففة والاسباب المشددة والعود ﴾ — اذا راجعنا المواد الواردة في القانون المصري في هذا الصدد رأينا مشقة جسيمة في تفهمها وفي مراميها وفي تطبيقها وتعقيداً كبيراً في نصوصها كأنها الغاز في الغاز وقد خلا القانون السوداني كل الخلو من مثل هذه النصوص . والسبب الظاهر الذي حدا بالشارع السوداني الى تحاشي مثل هذه النصوص ليس فقط لغرض الخلوّ من التعقيد ورغبته في الوضوح والبساطة بل لانهُ يرى فيها تكبيلاً للقاضي . ومثل هذه النصوص غير ضرورية في القضاء السوداني لان الشارع لم يفرض حدًّا أدنى لعقوبة الحبس ولا لعقوبة الغرامة فالقاضي مخير في المدة والمبلغ وفي جميع المواد يفرض الشارع الحد الاقصى لمدة الحبس التي لا يصح للقاضي تجاوزها وهو في ما خلا الجرائم التي يعاقب فاعلها بالاعدام او الحبس المؤبد حرٌ في تعيين مدة الحبس . خذ مثلاً مسألة العذر في من قتل زوجته حال تلبسها بالزنا الوارد لها مادة خاصة في القانون المصري وهي التي تقضي بالحكم على الزوج في هذه الحالة بالحبس بدلاً من الاشغال الشاقة الخ — وقد حاول بعضهم في مصر توسيع نطاق هذه المادة حتى تشمل قاتل المحارم على العموم ولكنهم لم ينجحوا في هذا —

ولا حاجة في القضاء السوداني الى مثل هذه النصوص لان القتل في السودان نوعان القتل العمد والقتل الجنائي الذي لا يبلغ القتل العمد . وفي القانون السوداني مواد وافية للتمييز بين النوعين فالاول عقوبته الاعدام او الحبس المؤبد والغرامة والثاني عقوبته الحبس المؤبد او الحبس مدة اقل من المؤبد او الغرامة او العقوبتان فجريمة الزوج الذي يقتل زوجتهُ في حالة الزنا تدخل تحت النوع الثاني وللقاضي أن يحكم على الزوج بالغرامة فقط اذا رآها وافية وليس ملزماً بالحكم بالحبس واذا حكم بالحبس فهو غير مقيد بمدة وله ان يحكم بيوم واحد فقط — وله ذلك ليس فقط في مسألة الزوج بل في كل مسألة لا يبلغ فيها القتل درجة العمد فقتل المحارم في الحالة المذكورة يدخل في هذا وكل قتل حصل اثر التهييج الفجائي الشديد يدخل في هذا وكل هذا بمثابة الظروف المخففة أو الاعذار او دواعي الشفقة او مهما شئت فسمه — فالقاضي السوداني لديه مجال واسع جدًّا لاستعمال مثل هذه الاسباب — وكذا قيل عن العود وهو الذي معناهُ في غير السودان عود المجرم الى الاجرام فيشددون عليهِ العقوبة بمقتضى سلسلة من المواد معقدة اما في السودان فلا حاجة الى هذا ما دام

المجال للقاضي كما ذكر واسع النطاق فاذا أحضر امامهُ مجرم قديم عريق في الاجرام عالجهُ بما لديه من السلطة التي خولهُ القانون مباشرتها بحسب الظروف في كل مسألة. فالقاضي السوداني يصعد بالعقوبة من الحبس يوماً واحداً أو الغرامة ببضعة قروش إلى الحبس عشرين سنة أو الغرامة مائتي جنيه وهو حرٌ بين الحدين

***

﴿ جرائم الموظفين او الجرائم التي تتعلق بالموظفين ﴾ — في هذا الباب نصوص قاسية شديدة وقد توخى الشارع السوداني الشدة فيها لضمان نزاهة الموظفين في أعمالهم وانصافهم في معاملة الناس فالرشوة مثلاً تشمل غير معناها المفهوم المألوف كل ما يعطى او يوعد باعطائه نقداً او غير نقد وتشمل ما يعطى على سبيل المكافأة من اجل عمل اجراه الموظف ولا تسري الرشوة على الموظفين فقط بل على من كان يتوقع ان يصبح موظفاً وقبل الرشوة. ومما ادمج في سلسلة الجرائم احالة الموظف اشخاصاً للمحاكمة او للحبس مع علمه بأنهُ يفعل ذلك مخالفة للقانون — واهمال الموظف القبض على الشخص. وترك الموظف عمداً القيام بواجبه حيث يسبب ذلك الترك خطراً وترك الموظف عمله بدون حق لعرقلة الاعمال العامة واشتغال الموظف بالتجارة وشراء الموظف مالاً او مزايدته فيه على خلاف القانون — والاختفاء للهرب من تبلُّغ ورقة حضور او اعلان

وقد خصص الشارع السوداني باباً في قانون العقوبات للقسوة على الحيوانات فعدَّ ضرب الحيوان بقسوة او تعذيبه او الاساءة اليه بطرق اخرى والافراط المقرون بالطيش في ركوب الحيوان او في سوقه او تحميله واستخدام الحيوان العاجز عن العمل بسبب عمره او مرضه او جراحه او اعتلاله واهمال الحيوان جرائم مقررة —

وعقد فصلاً خاصًّا لجرائم الاذى وهي تشمل جميع الافعال التي تؤذي الانسان لما دون القتل وهو مفصَّل وافٍ واضح لا مثيل له في غير السودان ومن الفصول الجلية الواضحة ما تعلق بالاعاقة والاعتقال بدون حق وبالقوة الجنائية والتهجم وبالخطف وبالتشغيل الجبري — وبالاغتصاب والجرائم المخالفة للطبيعة وهتك العرض — والاخلال الجنائي بعقود الخدمة والجرائم المتعلقة بالزواج والزنا بالمحارم والجريمة الاخيرة إي الزنا بالمحارم جريمة جديدة قررت في القانون الجديد الذي صدر في سنة ١٩٢٥ على اثر ظهور جماعة في السودان دعت الى اباحة التزوج بالمحارم فوضعت المادة ٤٣٥ خصيصاً لمنع مثل ذلك المبدإ الفاسد من الانتشار فعدَّت الزنا بالمحارم جريمة عقوبتها الحبس لغاية سبع سنين وبالغرامة ايضاً والمحارم من جهة الرجل هنَّ ابنته وحفيدته وامه وأية أنثى اخرى من اصوله او فروعه الاناث واخته وابنة أخيه وابنة اخته وعمته وخالته . ومن جهة المرأة ابنها وحفيدها وأبوها وأي واحد من اصولها او فروعها الذكور وأخوها وابن اخيها وابن اختها وعمها وخالها — فيعاقب الرجل الزاني والمرأة الزانية كلاهما. وهذه الجريمة لا مثيل لها في غير السودان

« لها تتمة »

القمر عاشر للمشتري

في انباء الدوائر الفلكية ان الدكتور جفرز Jeffers احد علماء مرصد ليك كشف عن جسم على مقربة من المشتري قد يثبت انهُ قمر عاشر لاكبر السيارات . ذلك ان الدكتور جفرز كان يصوّر قمر المشتري الثامن فشاهد في صوره جرماً يتحرك حركةً يومية تشبه حركة القمر الثامن . وهو صغير خافي النور من القدر التاسع عشر لا يرى الاَّ باكبر النظارات الفلكية . وقد اذيع هذا النبأ من مرصد هارفرد الى مراصد العالم لكي يتعاون الفلكيون على تحقيقهِ ، ومعرفة هل هذا الجرم قمر عاشر للمشتري او نجيمة

فاذا صحَّ ان هذا الجرم قمر عاشر للمشتري ، كان هو والقمران الثامن والتاسع ، من اعجب الاجرام في النظام الشمسي . ذلك ان الاقمار السبعة الاولى التي تدور حول المشتري تدور من الغرب الى الشرق في جهة دوران السيار نفسهِ حول الشمس وجهة دوران القمر حول الارض واما الاقمار الباقية اي الثامن والتاسع والعاشر ، فتدور من الشرق الى الغرب في جهة مضادَّة لجهة دوران الاقمار الاخرى وجهة دوران السيار حول الشمس وهو « نكوص » في عرف الفلكيين

والمشهور ان غاليليو هو اول من كشف عن اقمار المشتري الاربعة الاولى ، يوم وجّه نظارتهُ الى المشتري في يناير سنة ١٦١٠ . ولكن يقال ان فلكيًّا المانيًّا يدعى سيمون ماريوس شاهدها في السنة السابقة والعالم يدرك ما هي هذه الاجرام ، حتى أذاع غاليليو ما كشف

وظلّت اقمار المشتري المعروفة اربعة ، حتى كشف الاستاذ ادورد بارنرد في مرصد ليك الاميركي القمر الخامس سنة ١٨٩٢ وتلاهُ علماء هذا المرصد نفسهِ فكشف الدكتور برين القمر السادس والسابع سنتي ١٩٠٤ و ١٩٠٥ . اما القمر الثامن فكشفهُ الدكتور ميلوت احد علماء المرصد الملكي بمدينة غرينتش سنة ١٩٠٨ ثم كشف العالم نيكلصن من علماء مرصد ليك كذلك ، القمر التاسع سنة ١٩١٤ . وهذا هو العاشر على ما يُظن

ومن غريب ما يعرف عن هذه الاقمار التفاوت في اقطارها . فالاقمار الاربعة الاولى يكاد كلٌّ منها يكون من حجم قمر الارض . على ان ثانيها (قطرهُ ٢٠٠٠ ميل) اصغر قليلاً من الثلاثة الباقية (قطر اكبرها ٣٥٠٠ ميل) ولولا قربها للسيار لاستطعنا رؤيتها بالعين المجرّدة . ولكن ضياء السيار يغمرها ويطغى على ضيائها . اما القمر الخامس فقد لا يزيد قطرهُ مائة ميل ويدور حول السيار في ١٢ ساعة وهو اسرع الاقمار دوراناً حول المشتري على ما نعلم . واما الاقمار الباقية فتتباين اقطارها من مائة ميل الى ١٥ ميلاً وهو قطر القمر التاسع

بريطانيا واليابان

تقلّص تجارة بريطانيا وبواعثها

تكهّن غلادستن في اواخر القرن التاسع عشر بمستقبل بريطانيا التجاري فقال : « اميركا وحدها ، تستطيع اذا آن الاوان ، ان تنتزع منا سيادتنا التجارية ، والراجح انها تفعل » . كانت اليابان في ذلك العهد بقعة لا شأن لها على الخريطة الجغرافية . دع عنك خريطة العالم الاقتصادية . وكانت بلادها ما تزال في عرف المثقفين بلادَ الشمس الطالعة والربيع الزاهي والفنون اللطيفة والبنات الرواقص . فما كان سياسيٌّ بريطانيٌّ يستطيع حينئذٍ ان يتصوّرها ، وقد أصبحت بعد نصف قرن من الزمان ، الامة التي تلي الامة الاميركية في شدة منافستها لسيادة بريطانيا التجارية . ونحن اذا قابلنا بين اميركا واليابان ، وجدنا الأولى تفوق الثانية في مصادر الثروة الطبيعية واسباب القوة المالية . بل ان اليابان ازاءَ اميركا من هذه الناحية كالقزم امام الجبّار . على ان ذلك لا يمنع ان تكون اليابان مصدر قلق لبريطانيا من حيث منافستها لها في بعض ميادين الصناعة

واذا نحن نظرنا الى الموضوع نظرة عامة ، وجدنا ان اميركا قد تفوّقت على بريطانيا في صناعات الحديد وما اليها وهي ما يعرف «بالصناعات الثقيلة» Heavy Industries . ففي هذا الميدان لا تخشى بريطانيا من اليابان شرّاً . على ان ما تخشاه بريطانيا من اليابان ، انما هو منافستها لها في بعض الصناعات الخفيفة كصناعة نسيج القطن والصوف ، وهي من الصناعات الاساسية التي بنيت عليها عظمة بريطانيا التجارية ،وكانت حتى عهد قريب لا ينافسها في ميدانها منافس

***

كانت مصانع القطن البريطانية قبل الحرب الكبرى تحتوي على ٥٥ مليون مغزل ، اي ثلث مغازل القطن في العالم . وفي سنة ١٩١٣ صدّرت انكلترا ٧٨٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٦ ياردة مربعة من المنسوجات القطنية وكانت مسيطرة على تجارة الاقطان في الاسواق العالمية . وكان عدد المغازل في مصانعها في سنة ١٩٣٢ خمسين مليوناً ، اي ان العدد الاول نقص خمسة ملايين مغزل ، وهو ليس نقصاً كبيراً . ولكن الصادر من المنسوجات القطنية الانكليزية في سنة ١٩٣٢ بلغ ٢٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٢ ياردة مربعة اي ان مقدار الصادر في سنة ١٩٣٢ نقص ٥٨٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٤ ياردة مربعة عنهُ سنة ١٩١٣ وهو نقص كبير

وهذا يبيّن لك ان المغازل الباقية في مصانع الاقطان الانكليزية كانت عاطلة خلال جانب كبير من سنة ١٩٣٢ لقلة الطلب على منتجاتها

وماذا تمّ لليابان في خلال هذه الفترة ؟ زاد عدد مصانعها القطنية من ٠٠٠ر٣٠٠ر٢ مغزل قبيل الحرب ، الى ٠٠٠ر٠٠٠ر٨ مغزل في سنة ١٩٣٢ ومع ان عدد مغازلها في سنة ١٩٣٢ كان لا يبلغ الاّ ١٦ في المائة من عدد مغازل بريطانيا ، الاّ ان هذه المغازل انتجت في سنة ١٩٣٢ من المنسوجات القطنية ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٣٠ر٢ يردة مربعة ، وهو لا ينقص عما صدّرتهُ بريطانيا في تلك السنة الاّ ١٧٠ مليون يردة مربعة . وفي الشهور الستة الاولى من سنة ١٩٣٣ بلغ ما صدّرتهُ اليابان من المنسوجات القطنية ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٣٥ر١ يردة مربعة حالة ان ما صدّرتهُ بريطانيا بلغ ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٨٣ر١ فكان الفرق بين بريطانيا واليابان ٤٨ مليون يردة مربعة فقط

ويمكن ان يقال بوجه عام ان تجارة الصادر العالمية في المنسوجات القطنية تبلغ في السنة نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٠٠ر٥ يردة مربعة ، تصدر منها بريطانيا واليابان ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٣٠ر٤ ذراع مربعة في حصتين متساويتين او تكادان . اما الباقي وقدره ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٠٠ر١ يردة مربعة فتصدره الولايات المتحدة الاميركية وغيرها من البلدان الصناعية

هنا مجال للتأمل . ثمانية ملايين مغزل في اليابان تنتج من المنسوجات القطنية قدر ما تنتجهُ خمسون مليون مغزل في بريطانيا . هل سبب ذلك ان معظم المغازل في بريطانيا عاطلة عن العمل ؟ او لانَّ صناعة المنسوجات القطنية في اليابان ، يشملها نظام أدق وأتم من نظام الصناعة البريطانية ؟

***

ان بلاد الهند هي اوسع الميادين التي تنافس فيها التجارةُ اليابانية والتجارةَ البريطانية . فبعد الحرب الكبرى اخذت التجارة اليابانية تغزو الاسواق الهندية التي كادت تكون من قبل احتكاراً لمصانع لانكشير وتجار منشستر . ففي سنة ١٩٢٩ استوردت الهند البريطانية ٦٦ في المائة من وارداتها القطنية من بريطانيا و٣٠ في المائة من اليابان . وفي سنة ١٩٣٠ نقصت حصة بريطانيا الى ٥٩ في المائة وزادت حصة اليابان الى ٣٥ في المائة. وفي سنة ١٩٣١ نقصت حصة بريطانيا الى ٥٠ في المائة وزادت حصة اليابان الى ٤٥ في المائة . وفي سنة ١٩٣٣ نقصت حصة بريطانيا الى ٤٨ في المائة وزادت حصة اليابان الى ٥٠ في المائة ، اي ان ما استوردتهُ الهند في سنة ١٩٣٣ من بريطانيا بلغ ٦٠٠ مليون يردة مربعة من المنسوجات القطنية واما ما استوردتهُ من اليابان فبلغ ٦٤٥ مليوناً

فكان تفوُّق اليابان على بريطانيا في سوق الهند ، باعثاً على القلق العظيم ، وحمل حكومة الهند في اغسطس سنة ١٩٣٢ على رفع الضريبة الجمركية على البضائع غير البريطانية (اي على البضائع اليابانية) من ٣١ في المائة الى ٥٠ في المائة ، حالة ان الضريبة الجمركية على الواردات القطنية البريطانية ظلّت ٢٥ في المائة

ومع فداحة هذه الزيادة رأت حكومة الهند ان تعلن حكومة اليابان عن طريق لندن ، في ١٠ ابريل سنة ١٩٣٣ عن عزمها على انهاء المعاهدة اليابانية الهندية التجارية بعد انقضاء ستة أشهر ، وفي هذه المعاهدة بندٌ يمنح اليابان حق معاملتها في الهند على قدم المساواة بالامم الاخرى . وكذلك مهّدت الطريق لزيادة الضريبة الجركية على الواردات القطنية اليابانية الى الهند

وكان ميعاد انتهاء هذه المعاهدة في ١٠ اكتوبر سنة ١٩٣٣

ولكن قبل انتهائها اصدرت حكومة الهند قانوناً يخوّل نائب الملك رفع الضرائب الجركية على الواردات الاجنبية ، عند الاقتضاء ، حماية للصناعة الوطنية وفي ٦ يونيو ١٩٣٣ زيدت الضريبة الجركية على الواردات اليابانية القطنية الى الهند حتى اصبحت ٧٥ في المائة تقابلها ضريبة جركية على الواردات القطنية من منشستر قدرها ٢٥ في المائة

ولم تكتفِ بريطانيا باستنهاض الهند بل حركت اصبعها في بلدان مختلفة لمكافحة البضائع اليابانية ففرضت مصر في ١٤ مايو ١٩٣٣ على الواردات ضريبة اضافية قدرها ٢٥ في المائة . وفي ١٥ مايو اعلنت حكومة لندن انتهاء المعاهدة التجارية بين اليابان وغرب افريقية البريطانية بعد سنة من ذلك الاعلان . وفي ١٦ يونيو رفعت مستعمرة المضائق Straits Settlements الضريبة الجركية على الواردات اليابانية . وفي ٢٦ يونيو اقتفت مقاطعة شرق افريقية البريطانية أثرها . وفي ٢٩ يونيو أقرت استراليا قانوناً لمقاومة غمر الاسواق Anti dumping على ان يبدأ تنفيذه في ٥ دسمبر سنة ١٩٣٣

***

ومع ذلك فمقام بريطانيا في اكبر هذه الاسواق ، اي السوق الهندية والسوق الاسترالية ــ ليس من المنعة بحيث يتصوّر المتصوّرون

خذ مثلاً على ذلك السوق الهندية :

في السنوات العشر التي انقضت بين سنة ١٩٢١ وسنة ١٩٣١ ابتاعت اليابان من الهند ما متوسطهُ ١٦٠٠ مليون بالة قطن كلّ سنة ثمنها ٢٤٠ مليون ين . فاذا ردّت اليابان على محاولات بريطانيا بمقاطعة القطن الهندي ، بار القطن الهندي وخرب زرّاعه . فينجم عن ذلك ان مقدرة الهند على شراء بضائع لنكشير تضعف . وكذلك تخسر بريطانيا بحيلولتها بين اليابان والسوق الهندية . ولا حلّ لذلك الاّ ان تقبل منشستر على القطن الهندي فتحلُّ محلّ اليابان في ابتياعه . ولكن لنكشير لن تبتاع القطن الهندي في الغالب . ذلك ان لنكشير كانت تستورد مقادير كبيرة من قطن الهند في القرن الماضي فشجع ذلك الزرّاع الهنود على توسيع نطاق زراعته . فلما اقبلت الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة الاميركية على زراعة القطن تحوّلت لنكشير من استعمال قطن الهند الى استعمال القطن الاميركي . ولولا أن تنجد المصانع اليابانية الزرّاع الهنود بشراء قطنهم لحلّ الخراب بهؤلاء . وقد تعنى بريطانيا

الآن بالعودة الى استعمال القطن الهندي رغبةً في استعادة مقامها في السوق الهندية . ولكن ذلك غير مرجَّح . لان عمال المصانع الانكليزية وقد تعوَّدوا غزل القطن الاميركي ونسجه — وهو ادق اليافاً من القطن الهندي — يرفضون استعمال القطن الهندي مدَّعين انهُ غير صحي . ثم ان مصانع لنكشير مجهَّزة بالآلات اللازمة للنسج الدقيق ولا تصلح لاستعمال القطن الهندي الا اذا طرأ عليها تغيير كبير

فالحيلولة بين البضائع اليابانية والسوق الهندية ، يصدق عليه مثَل الرجل الذي قتل اوزة تبيض بيضةً من ذهب . ففي العشرين السنة الاخيرة ابتاعت اليابان من الهند خامات يفوق ثمنها ثمن ما ابتاعتهُ الهند من اليابان بنحو ٢٦٠٠ مليون ين . وفي الفترة نفسها باعت انكلترا للهند بضائع تزيد قيمتها على قيمة ما اشترتهُ انكلترا من الهند بنحو ٢٣٠٠ مليون ين . اي ان اليابان كانت تفرغ في الهند في كل سنة من سنوات تلك الفترة ما متوسطه ١٣٠ مليون ين ، حالة ان بريطانيا كانت تأخذ من الهند في كل سنة من سنوات هذه الفترة ، ما قيمته ١٦٠ مليون ين . واذاً نستطيع ان نقول ان الهند بوجه عام ، تسدد لانكلترا بما تأخذه من اليابان . اي ان ميزان التجارة بين الهند واليابان في الفترة المذكورة كانت في جانب الهند ، وأما ميزانها بين الهند وبريطانيا فكان في جانب بريطانيا . فاذا توقفت اليابان عن ابتياع خامات الهند ، نقصت تجارة بريطانيا في السوق الهندية ، لنقص قوة الشراء في الشعب الهندي

ولا ريب في ان هذه الحقيقة حملت حكومتي الهند ولندن على الاتفاق مع اليابان في ٨ يناير سنة ١٩٣٤ ، بعد مفاوضات دامت اربعة اشهر على ما يأتي : يسمح لليابان بتصدير ٤٠٠ مليون يردة مربعة الى الهند كل سنة — وهذا الرقم ينقص عما صدرته اليابان الى الهند في سنة ١٩٣٢ بنحو ١٠٠ مليون ذراع مربعة — على ان تشتري اليابان من الهند ما لا يقل عن ١٥٠٠ مليون بالة قطن — وهو اقل مما اشترته سنة ١٩٣٢ بمائة الف بالة — وقدتمَّ الاتفاق كذلك على ان تفرض حكومة الهند ضريبة جمركية على واردات اليابان قدرها ٥٠ في المائة وتبقى الضريبة الجمركية على الواردات الانكليزية الى الهند ٢٥ في المائة . ومدة هذا الاتفاق ثلاث سنوات

والراجح انهُ لو لم يتم الاتفاق لقاطع اليابانيون القطن الهندي ، وفقاً لقرارٍ اتخذته جماعة غزالي القطن اليابانيين في ١٣ يونيوسنة ١٩٣٣ والانكليز يعتقدون ان اليابانيين لا يستغنون عن القطن الهندي ، الا ان اليابانيين يرون غير ذلك . وفي رأيهم ان القطن الاميركي يحل محل القطن الهندي ، على ان يخلط بقطن قصير الشعرة يستصدر من ايران والصين وتركيا وغينيا الجديدة . والطرق التي يستعملونها لخلط الاقطان سرٌّ من اسرار الصناعة اليابانية وقد برع فيهِ اليابانيون براعة عظيمة . والعقبة الوحيدة في سبيل ذلك غلاء سعر القطن الاميركي بالمقابلة مع سعر القطن الهندي

هذا عن الهند . أما استراليا فوقفها شبيه بموقف الهند من هذه الناحية

ان تربية الغنم في استراليا كزراعة القطن في الهند . واليابان تستورد من الصوف الاسترالي كل سنة مقداراً تزيد قيمته بنحو ١٠٠ مليون ين على ما تصدره اليابان الى استراليا ففي سنة ١٩٣٢ بلغ ما ابتاعته اليابان من خامات استراليا ١٣٤ مليون ين

وبلغ ما باعته من بضائعها في السوق الاسترالية ٣٦ مليون ين . والصوف كما لا يخفى هو مادة التصدير المقدَّمة في استراليا . ومع ذلك اضطرت استراليا ، ان ترفع الضريبة الجركية على الورادات اليابانية اليها ، وفقاً لاتفاق اوتوى الامبراطوري . فهي كذلك تقتل بعملها هذا الاوزة التي تبيض بيضاً من ذهب . اذ ما يكون مصير صناعة تربية الغنم في استراليا ، اذا اعرضت اليابان عن الصوف الاسترالي وأقبلت على الصوف الارجنتيني ؟ وأصحاب المصانع اليابانية واثقون كل الثقة من أنهم يستطيعون ان يفعلوا ذلك ، وان ما يقوم في وجوههم من الصعاب يستطيعون التغلب عليه

ولعلَّ خشية استراليا من مقاطعة اليابان لصوفها ، حملها على تعيين ممثل دبلوماسي في طوكيو مثل ممثل كندا في وشنطن . وفي الانباء الاخيرة ان استراليا قد زادت ما تستورده من اليابان . وفي اوائل هذه السنة ذهب وزير خارجية استراليا الى اليابان لمفاوضة حكومته في الشؤون التجارية

***

هذا هو التحدي الذي يوجهه الشرق الى الغرب . ففي بريطانيا نظام صناعي قديم . حالة ان نظام اليابان لا يرتدُّ الى اكثر من خمسين سنة على الاكثر . فالمصنع الكبير الاول الذي بني في اليابان لصناعة نسج القطن بني سنة ١٨٦٢ وكان فيه خمسة آلاف مغزل . وفي سنة ١٨٦٨ كان في اليابان ٣٠٠ مصنع أما في سنة ١٩٣٠ فقد كان فيها ستون الف (٦٠٠٠٠) مصنع

والفرق الكبير بين النظامين ان مستوى المعيشة في بريطانيا أعلى منه في اليابان . فنفقات الصناعة أعلى . خذ مثلاً العمال البريطانيين الذين يشتغلون في مصانع الجوارب . فالرجل منهم يأخذ اجراً قدره اربعة جنيهات في الاسبوع . والسيدة تأخذ أجراً قدره يختلف من جنيهين الى جنيهين و ٢٥ قرشاً . يقابل ذلك في اليابان ان الرجل يتناول أجراً قدره ١٢ شلناً في الاسبوع والسيدة ستة شلنات . ولكن من الخطإ ان تحسب ان العامل الياباني ، يرهق في العمل لقاء اجر قليل . فالعامل الياباني يكتفي بالاجر الذي يتناوله ويعيش به عيشة ترضيه . فمسألة الاجور مسألة نسبية

واذاً لا يكفي ان نعتمد في تفسير تفوق اليابان على بريطانيا ، الى القول بأنها تغرق الاسواق وتقلد الماركات المسجلة . قد يكون شيء من هذا قد وقع في بعض النواحي ، ولكنهُ لا يفسر الاكتساح الذي اكتسحت به تجارتها تجارة بريطانيا في الاسواق العالمية

ونحن اذا تغلغلنا الى صميم الموضوع ، في تقصينا ، وجدنا ان الاسباب التي منحت اليابان هذا التفوق تقسم الى قسمين . اسباب وقتية ، واسباب دائمة

فمن الاسباب الوقتية الازمة العالمية ، وتأثيرها في هذه الناحية عجيب . ذلك أن الازمة العالمية قد نقصت مقدرة الناس الشرائية ، فأصبح اكثر الطلب في انحاء العالم على البضائع الرخيصة . ولما كان معظم ما تخرجه المصانع اليابانية من هذا الصنف كثر الطلب عليه واتسع نطاق تجارتها به ، ويظن احد كتاب السبكتاتور ، ان مقدرة الناس الشرائية في بعض البلدان قد تقلصت ، حتى ليتعذر على الناس فيها ان يشتروا البضائع البريطانية الغالية ، ولو انسحبت اليابان من ميدان المنافسة . يضاف الى ذلك أن هبوط سعر « الين » قد مكن اليابانيين من ترخيص بضائعهم وخصوصاً في البدء ، لما كانت مخازنهم لا تزال مكظوظة بمواد خام ابتيعت بالذهب

***

اما الاسباب الدائمة ، ففي مقدمتها ان اليابانيين ، عنوا من بدء سنة ١٩٢٩ باتباع خطة Rationalisation في صناعتهم ، أي اعادة تنظيمها ، بصرف النظر عن التقاليد ، وفقاً لاحكام العقل ، حتى تقل نفقات الانتاج الى أدنى حد مستطاع . وهناك عامل آخر . فالمشهور ان اليابان كانجلترا تحتاج الى ان تبتاع كل غذائها من الخارج . وهذا على ما يظهر خطأ واذاً فسقوط سعر الين ، من حيث مقدرته على ابتياع الاغذية اللازمة لها من الخارج لا يهمها على الاطلاق . وعليه ، تستطيع ان تستعمل كل الاموال التي تبتاع بها صادراتها في الخارج ، لشراء المواد الخام لمصانعها . أما في انكلترا فاكبر جانب من ثمن بضائعها الصادرة يستعمل لابتياع الطعام . وما دامت الاطعمة التي تنتجها بلاد اليابان نفسها ، مماشية لزيادة السكان فيها ، فقامها الاقتصادي ، كصانعة ومصدرة ، يظل قويًّا كل القوة

صحيح انهُ من المتعذر الآن ، التنبؤ بما تكون عليهِ نقود الامم بعد سنة او بعد خمس سنوات . وهل تبقى لليابان هذه الميزة التي يمنحها اياها هبوط « الين » ولكن الامر الذي لا ريب فيهِ انهُ اذا استقرَّت العالم ، ظلَّ في نظام الصناعة اليابانية ، عناصر تجعل لليابان ميزة على بريطانيا ، وعلى الدول الصناعية في الغرب بوجه الاجمال

يضاف الى ذلك عامل نفسي له شأن كبير . فالعامل البريطاني ، لا يحسب الصناعة همه الاول والتاجر البريطاني كذلك . بل ينصرفان الى مطالب الحياة الاخرى ، في الرياضة او الفن أو العلم او المطالعة او غيرها . ولكن العامل الياباني ، يحسب الصناعة او التجارة همه الاول ، لان لا حياة لامتهِ من دونهما فينصرف اليهِ بعزم يفل الحديد . وقد يفضل الغرب الشرق من هذه الناحية لان للحياة مطالب أعلى من مطالب النجاح المادي ، ولكن هذه الصفة على كل حال ، مهما يحسن الظن بها ، لا تساعد الغربي في ميدان المنافسة الدولية ؟

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

عوامل التجانس

الذي تبنى عليه وحدة الأمم

لقد جعلنا التجانس المحور الذي تدور عليه الوحدة السياسية في الامم ، فلا امة حيث لا يرتبط الافراد برابطة التشابه والتماثل ، ولا نعرف سياسيًّا عبّر عن هذا التجانس بقاعدة قريبة من قواعد العلوم الحسية الرياضية مثل بسمارك داهية الالمان فقد جعل القاعدة التي تقوم عليها الامبراطورية الجرمانية ما يأتي وهي : « طاقة النموذج البروسي على اهتضام العناصر الجرمانية الاخرى وتمثيلها » لما بينهُ وبينها من اسباب التشابه والاتصال

وتبوَّب هذه العوامل على الطريقة الآتية :

(اولاً) احتلال بقعة جغرافية منضمة ، لان شأن القطر الواحد في سبك سكانه امةً هو مثل شأن البيت في سبك اهله اسرةً . فنزول قوم بارض يستنشقون هواءها ويشربون ماءها ويتدفأون بشمسها ويتمتعون بمناظرها ويتعاونون على استخراج خيراتها يقرب شقة الخلاف فيما بينهم ويساعدهم على التجانس في الافكار والاوضاع ؛ ذلك ان اتصال الجمعية البشرية بمحيطها الطبيعي واعتمادها عليهِ هو اتصال مباشر ، وقدماً عرف الناس ان المرء ابن الارض التي ينبت فيها ، واهتمام الامة بان تكون الارض التي تعيش عليها منضمة معروفة الحدود غير متداخلة في غيرها يفسر لنا احتجاج الالمان الصميم على ما احدثتهُ معاهدة (فرساي) من اقامة (المجاز البولوني) بين بروسيا الشرقية وبروسيا الغربية . ومثل هذا الباعث يحمل الارلنديين على مقاومة كل جهود لاقرار دولة (ألستر) في شمال جزيرتهم مع كل ما قيل من تلك الفروق الواهية بين اهل الشمال والجنوب ، ونحن اعرف الناس بمن لا يرضى ان يتحد البروتستانت والكاثوليك هناك ، بل ان يبقى الخلاف بينهم على سلطة البابوية الروحية الى الابد ، لاننا خبرنا في سورية من لا يرضى ان يتحد السني والشيعي فضلاً عن المسلم والنصراني . وما تلك الدويلات الخرافية التي احدثتها يد الاستعمار في الوطن الغالي الا محاولة لتمزيق شمله بتمزيق وحدة ارضه ، بل ان انشاء الوطن القومي الصهيوني في فلسطين يبغي في جملة ما يبغيهِ من الغايات السياسية اقامة حاجز اجنبي بين اجزاء البلدان العربية لاضعاف صلتها الجغرافية

وكما لا تعيش اسرة من غير بيت تنضم تحت سقفه كذلك لا تعيش امة من غير وطن تأتلف فوق

ارضه . وان قواعد الحقوق الدولية الحاضرة كما قال (لورنس) تتخللها فكرة السيادة الارضية الى درجة ان كل هيأة سياسية لم تستقر على بقعة من سطح الارض تمتلكها وتتصرف فيها تصرفاً مشتركاً لا تستطيع الانتفاع بالقانون الدولي[1] وقد كان اغتصاب الاراضي من اصحابها في ازمنة التاريخ باعثاً من أقوى البواعث على الحرب والانتقام ، ونرى أثر ذلك في البوادي التي لا يظن انها ملك احد عادة اذ يقع العراك فيها لاجل الآبار والمراعي . وكلما استقرّت الامم واستبطر عمرانها ارتبط تاريخها بالارض التي نبتت فيها بحيث تصير سواقيها وانهارها وجبالها واغوارها حتى كثبان رمالها رمزاً لكل عزيز ومقدس ومبجل

(ثانياً) العامل الثاني (القرابة) او (وحدة النسب) :

ان علائق النسب بين الام وابنائها وهي اقدم قرابة عرقية كانت الاساس الذي قامت عليه الرابطة الاجتماعية منذ انبثاق فجر البشر ، ولا تزال العامل الاكبر في تعيين الاخوة في الجماعات الابتدائية . وتنقسم قبائل البدو في ايامنا الى بطون وافخاذ جرياً على هذه القرابة الطبيعية الحيوية بيد ان البحوث المقابلة في الحيوان لا تمنح هذا الاتصال في الاصلاب والابدان غير شأن مؤقت ، فالاشبال مثلاً تتعامل فيما بينها تعامل الاخوة ما دامت تعيش في عرين واحد وترضع من طبي واحد ، ولكن متى اضطرتها مصالحها الفردية الى البحث عن طعامها وما تتطلبهُ اجسامها من المطالب الحيوية بطريقتها الخاصة انقطعت عن الاسرة وغادرت المكان الذي ولدت فيهِ ولم تعد تعرف امها ولا اخوتها بالامس بل اذا صادفت احداً منها عرضاً في الطريق عاملته معاملة العدو المزاحم . ولو بقي هذا المخلوق الذي ندعوه بشراً خلواً من الميزات التي جعلتهُ انساناً — من اللغة والعقيدة والعاطفة والفكرة وسائر الملكات الاجتماعية التي اكتسبها في حجر ابويه وبين اخوته — ما اختلفت هذه القرابة فيه عن الحيوان اختلافاً بيّناً ، ولكن الذي اكسبها هذا الشأن في الاقوام على اختلافها — حتى في الاقوام الراقية المعاصرة — كما هو الحال في المانيا النازية اليوم وما صنعتهُ من تمييز الجنس الآري للخلاص من اليهود الساميين — هو ان مهد القرابة في حجر الآباء والامهات هو مهد الاتحاد السياسي والاقتصادي والاجتماعي أيضاً ، ففي هذا المهد يتلقن الانسان اللغة ويمارس شؤون الحياة العملية وتترقى فيه الملكات الاجتماعية مما يحمله على الظن ان هذه التحف المعنوية الثمينة التي زانت نفسه هي العرض ، وان القرابة الرحمية هي الجوهر ، مع ان الحال على عكس ذلك الى مدى بعيد ، ولا يعني هذا الكلام اننا ننكر بتاتاً شأن الوراثة السلالية القومية ولاسيما في السلالات المتباينة في الوانها بل نريد ان نقول ان البيض — خصوصاً الآريين منهم — افرطوا في تقويم هذه القرابة بالثمن الغالي كما افرط الانسان في تقويم الماس والياقوت والفيروز وسائر الاحجار الكريمة وان كانت هذه «الجوهرات» عند التحليل نهائي وفي الميزان العقلي المجرد لا تعدو ان تكون احجاراً فقط

(1) The Principles of International Law p. 58.

على ان الثمن الذي يضعهُ المجتمع للاشياء والاعيان اصطلاحاً هو ثمن شئنا ام أبينا ، ومعرفتنا ان الماس من الوجهة الكيموية مثلاً فحم لا تمكننا من شرائهِ بالارطال بل لا يزال يباع بالقراريط وانصافها وارباعها على رغم الصيغة التي تدوّن بها مادته في كتب الكيمياء

لا غرو ان الاقوام الناشئة تبحث عند سعيها لتأليف وحدتها عن عنصر القرابة ايضاً ، وهذا ما يشاهد في شعوب العالم العربي اليوم ، فما نسمعهُ من الضجة حول اصل السوريين والمصريين وسائر سكان افريقيا الشمالية هو ظاهرة من ظواهر هذا السعي الموفق ، فهذه المجموعة لا تكتفي بما بينها من عناصر الاتحاد الاجتماعي الوثيق من لغة وعقيدة وعادة وتاريخ ومصلحة بل تبحث عن تلك الرابطة البيولوجية ايضاً — رابطة الاعراق — فتجدها في الموجات السامية التي طغت من الجزيرة العربية على الانحاء في القرون الخالية وربما كان آخرها الفتح الاسلامي ، وهي ترى كيف انتقلت هذه الدماء الى الاقطار القريبة والبعيدة في آسيا وأفريقيا ، وهذا مما يساعد على تقوية الائتلاف الحاضر وتأييد الرابطة المنشودة وان لم يكن جوهرياً كما يدل تأليف الولايات المتحدة من عناصر متباينة

وغير نكير ان العرب الاقحاح حاولوا بعد الاسلام الاحتفاظ بأنسابهم ولكن دخولهم الامصار واختلاطهم باخوانهم في الدين من العرب والعجم وتزاوجهم كل ذلك ادّى بهم الى اطراح اكثر هذه الأنساب — الاّ ما بقي منها متعلقاً ببعض البيوت المقدسة وأشباهها كالبيت الهاشمي والبكري والعمري والعلوي الخ — ذلك ان الدين الاسلامي لا يفرق بين اتباعه الاّ بالتقوى ، لاجرم اننا نجد القبائل العربية التي دوّخت فارس والروم اندمجت في البلدان التي فتحتها ، فما كان متيسراً لها من حفظ انسابها وهي نازلة بالبقاع المنقطعة في الجزيرة تعاني شظف العيش وتعجز عن تحمل فرد واحد آخر تزيد اعالته على ما عندها من الموارد الضيقة المحدودة ، اصبح متعذراً بعد نزولها الامصار وامتزاجها بمن اعتنق دينها وقبل ثقافتها . وفي عقيدتي ان كل محاولة لاتخاذ اية قرابة اقليمية خاصة في العالم العربي لتقف دون الروابط الوثيقة التي ذكرناها هي محاولة عقيمة محكوم عليها بالاخفاق في عصر الامم الكبيرة الذي نعيش فيه ولا تستند الى شيء من العلم ، وقد يكون الباعث عليها احقاداً خلفتها القرون الوسطى او اغراضاً استعمارية لا يطمئن بالها ما لم تر سكان الشرق العربي ممزقين الى فينيقيين وأشوريين وفرعونيين وبربر وعرب علاوة على تمزيقهم الى ملل ونحل لا يتسع لذكرها هذا المقام . وان تعجب لشيء فعجب ان تستعين قوى التاريخ الاجتماعية بالثقافة العربية منذ اربعة عشر قرناً لتجعل منا وحدة صحيحة فيأبى المرتزقون من مستعمرين او متعصبين الاّ ان يستعينوا بقوى البسطة الاوربية السياسية في القرن العشرين ليبلبلونا

لقد اتفق المستثمرون على آلة الهجوم فما بالنا ونحن الذين تنزف دماؤنا نختلف على آلة الدفاع؟

ومما هو حري بالتدوين اننا احصينا الاعضاء النافذين في بعض البلدان التي قام من ابنائها نفر يصيح

عاليًا ببنده الدعوة الاقليمية « الجاهلية » فوجدنا معظمهم من العرب الاقحاح الذين لا يختلف في نسبهم مؤرخان ولا ينتطح في عروبتهم عنزان — ناهيك بتلك العرى الوثيقة التي لم تغادر كبيراً او صغيراً الا ضمته الى هذه الوحدة المقدسة

ثالثاً : ﴿ وحدة اللغة ﴾ نعتقد ان اللغة عامل من اقوى العوامل للتشابه بين الناس ، فقد دلت التتبعات الدقيقة في التدرج الاجتماعي على ان الثقافة العامة هي الاساس المتين الذي يشترك الافراد — كلٌّ بحسب قابليته — في بناء صرح الامة عليه ، ففي حجر القرابة الرحمية يتوارث الخلف عن السلف ثقافة معنعنة واحدة ، وفي رابطة الدين تنتقل العقائد من الواحد الى الآخر وينتقل معها الكثير من مقوّمات الثقافة ، ولكن في الاشتراك اللغوي المبني على التفاهم المباشر توحد هذه الثقافة ويكون الشبه القائم عليها شبهاً روحيًّا وفكريًّا واجتماعيًّا في آن واحد ، ولم يعد المجتمع اسرة ولا فخذاً او بطناً او قبيلة بل اصبح يضم العناصر على انواعها تحت لواء واحد من الثقافة هي ثقافة اللغة في الدرجة الاولى . وقد وجد اهل البحث في الولايات المتحدة حيث يكثر المهاجرون ان اهل اللغة الواحدة هم اقرب الى التفاهم والتضامن على اختلاف الدين والمذهب من اهل العقيدة الدينية الواحدة المختلفين في لغتهم الا اذا كان المهاجرون لا يزالون في ثقافتهم على طريقة القرون الوسطى . ومن المسائل التي اتعبت الحكومة الاميركية ما اشار اليه « الموجز في علم الاجتماع » بقوله « والصعوبة في اقرار النظام الاجتماعي بين الجماعات المختلفة ذات اللغات المتنوعة والافكار المتنافرة والمشاعر المتباينة هي صعوبة كبيرة جدًّا حتى انها لتلاحظ اليوم في المدن الاميركية الكبرى وما فيها من اهلين غير متجانسين .... واللغة هي وليدة السعي للافصاح عما يخالج النفس من الافكار ، ومن ينقب عن منشأ المجتمع البشري يجد في فعل اللغة وفي ردّ فعلها سبباً من الاسباب الداعية الى تكوين هذا المجتمع ونتيجة من النتائج الناجمة عنه »

ونحن باللغة نصور حالات النفس ، ونرسل على سلكها ادق مشاعرنا الى اعماق قلوب غيرنا وبها نقنع الخصم ونهذب الطبع ونستفز الحمية وننشر العلم ونهدي الضال وننير الطريق ، واللغة رحى اجتماعية تطحن العناصر وتمزج بعضها ببعض ولولاها ما كان اتساق ولا انسجم رأي عام ، فهي هي اساس التشابه الاجتماعي الذي تبنى عليه الوحدة الوطنية وهي هي اداة التنظيم العقلي الذي يكسب الامة ارادة عامة ، وقد احسن ارسطو كل الاحسان بتعريفه الانسان انه حيوان ناطق . قال الاستاذ بايندر « وطاقة الناس على التكلم بلغة واحدة تعني اشتراكهم في اعمال أخرى على نمط متشابه وطريقة واحدة ، وتنتقل الملاحظات من الواحد الى الآخر بسبيل الكلام فكان متحتماً ان يعمل التلميذ مثل استاذه على اساس المحاكاة والارشاد . وهكذا يكون اتجاه عقلي متماثل يتجلى في الاعمال المتماثلة في كل دائرة من دوائر الحياة ، فتكون عروة الاتصال في الواقع عروة تطبع لا عروة طبع ، ولكن هذه الحقيقة لبثت مجهولة زمناً مديداً . فاهتمّ الناس خطأ بالانساب وصلة الارحام

بدلاً من ان يوجهوا عنايتهم شطر العنصر التهذيبي المتجلي في العلائق القائمة بين الناس على الادراك. ولا تزيد قيمة الانساب والاصلاب في الانسان عن قيمتها في الحيوان، ولكن الباسها حلة من القدر والقيمة جعلها رابطة من الروابط الاجتماعية (١)

رابعاً : ﴿ الوحدة الدينية ﴾ الاخوة الدينية جزء من الثقافة العامة ولها أثر فعال في جمع العناصر المتباينة ، وكان ذلك خصوصاً قبلما ظهرت الوطنية الحديثة بشكلها الزمني الشامل ، ولما كان الدين في القرون الوسطى الفارق الاعظم بين الناس ، وكان المجتمع قائماً من الاساس على انواع المعبودات التي يسجدون لها بحيث ينظر الى دين المرء أكثر مما ينظر الى لغته وعاداته وجنسه والاقليم الذي ولد فيه ، فكانت الحروب الخارجية تعان بين الجماعات لاسباب دينية كما هي الحال في الحروب التي أثارتها النصرانية لتحطيم الوثنية والثورة العالمية التي قام بها الاسلام للتوحيد والتنزيه عن الشرك ، والحروب الصليبية التي شنتها اوربا على بلاد الاسلام بحجة انقاذ القبر المقدس ، وهي ما فتئت تشنها حتى في القرن العشرين كما يستدل من قول اللورد اللنبي عن فتح فلسطين انه آخر حرب صليبية — لما كان ذلك كله قائماً على اعتبارات يتعلق معظمها بالايمان وبالعبادة وبالموقف الخاص الذي يقفه المؤمن تجاه معبوده فلا غرو ان يقسم الخلق اجمالاً الى قسمين اثنين لا ثالث لهما قسم المؤمنين وقسم الكفار وان تعتبر ملة الكفر واحدة مهما اختلفت العقائد التي تدين بها ، وان يعامل « المؤمنون » معاملة فيها كل انواع التفضيل ، في حين يحرم الكفار من كثير من الحقوق حتى ما كان منها في بعض الاحيان جوهرياً ، ويبدو الاثر الذي تحدثه هذه النظرية الى عصر متأخر في الكتب التي وضعها بعض المشترعين الاوربيين المتأخرين عن « حقوق الدول » وفيها حصروا التمتع بمزايا هذه الحقوق ومنافعها في العالم النصراني — دون العالم الاسلامي مثلاً — يعني ان الذي يقول « باسم الاب والابن وروح القدس » يحق له ان يجلس في قاعة الامم واما الذي يقول « باسم الله الرحمن الرحيم » فيبقى خارجاً !

وفي العلوم الاجتماعية الحديثة ان الدين هو احد الروابط التي تربط الناس بعضها ببعض من غير زيادة ولا نقصان — فالرأيان المتطرفان وهما رأي من يقول ان الدين لا شأن له اليوم في جمع الناس من جهة ، ورأي من يقول ان الدين هو العامل الوحيد في تأليف الجماعات من جهة اخرى ، كلاهما بعيد عن محجة الصواب ولا يؤيده العلم ، وحسبنا في تأييد ما للرابطة الدينية من قوة في دهماء الناس ان نبين هنا كيف تستغلها السياسية التوسعية لمصلحتها وتستعين بها على الجماعات كما تعمل فرنسا في سورية فاننا نراها هنالك احرص على المذهب النصيري والدرزي من النصيريين والدروز أنفسهم . وليس في الاحداث السياسية بعد الحرب العظمى حدث بني على الرابطة الدينية — في الظاهر — مثل الوطن القومي الصهيوني في فلسطين ، فمثل هذه التجربة الجريئة في بلاد لا يدين

(1) Major Social Problems, p. 207

أهلها باليهودية لا تليق بدولة تعيش في القرن العشرين ، ولو قامت مثل هذه الدعوة في بلاد شرقية متعددة الاديان لرماها اهل اوربا بكل منقصة ولادعوا بأننا لا نزال على وضعة القرون المظلمة ، وليس في جميع الشرق اليوم دين حرماني ينصب الحواجز حوله عاليًا كالصهيونية لأنها انضافت الى الوطنية المتطرفة تعصبًا دينيًا متطرفًا

وهل يوجد في جميع العالم سخيف واحد في طاقته ان يدعي ان مجرد هيام فرنسا بالدروزية وانكلترا باليهودية أدّى الى تأليف دولة الدروز في سورية والوطن القومي الصهيوني في فلسطين ؟

وكنا نحسب ان إرلندة في نهضتها الحديثة افهمت الانكليز خطر العبث بالاديان واتخاذها وسيلة للاغراض السياسية المادية ، فزرع البغضاء على هذا النحو لا ينبت غير القلاقل في الاحوال العادية ، واما عند سنوح الفرص — في الحرب العامة واشتغال كل فريق بما يضمن له اسباب الحياة — فالخطر يتجاوز حدود الشرائع وقواعد الايمان

***

ونحن وان لم يخامرنا شك في قوة الدين الروحية وانها على جانب عظيم من الخطورة الا ان نهضة الشعوب الحديثة في القرن الماضي وفي هذا القرن — نهضة الترك انفسهم وهم من صميم الشرق — حملتنا على لفت انظار القرّاء الى قول الاستاذ (بايندر) وما فيه من الحق الصريح حين وصفها بأنها «تفقد سلطانها حتى بين الشعوب الاكثر جهلاً في آسيا ، لانه لما اريد جمع المسلمين تحت لواء الجهاد المقدس لمقاتلة النصارى لم يطع اتباع النبي تلك الدعوة بل ان الكثيرين منهم قاتلوا خليفتهم على اساس وطنية استفاقت من غفلتها حديثًا . فالعرب مثل المسلمين الهنود اشتبكوا في حرب يقاتلون الترك باعتبارهم طورانيين . وفي يومنا هذا تفوق الوطنية بمداها البعيد وشأنها الخطير سائر روابط الاتصال بين الجماعات » (١)

(خامسًا) خضوع مشترك حقبة من الزمن لحكومة نظامية ثابتة !

مهما قيل في الامبراطوريات العظيمة التي تتألف من عناصر متنافرة فان خضوع هذه العناصر لحكومة واحدة مدة من الزمن مديدة يقرّب شقة الخلاف الطبيعي فيما بينها من بعض الوجوه ويجعلها في كثير من امورها على نسق واحد . وقد كانت الامبراطورية النمسوية مثلاً على ذلك في الغرب الى ان مزقتها الحرب العالمية ، وكذلك كان حال الامبراطورية العثمانية ، فان حكومة الترك العثمانيين بعد استقرارها اجيالاً في الاستانة استطاعت ان تخلق من الترك والعرب والكرد والارمن واليونان والالبان على اختلاف الملل والنحل شيئًا من التشابه والاتساق على الرغم من دواعي التنافر

(1) Major Social Problems, p. 209

وبواعث الاحتكاك . فاذا كان هذا سلطان الادارة المستبدة في سبك العناصر المتنافرة فليت شعري ماذا يكون سلطانها في العناصر المتجانسة في طبعها وطبيعتها وثقافتها ؟ ولا مراء ان ذلك الوضع الديني السياسي الذي خلقته القرون الوسطى وهو وضع البابوية في النصرانية والخلافة في الاسلام كان له الاثر الفعّال في سبك (المؤمنين) وطبعهم على غرار واحد . وغير نكير ان البابا كان في بعض الاحيان في وكر كما كان الخليفة في قفص ولكن الوضع الذي مثلاه كان ممتدًّا الى اقاصي المعمور ، ولئن تجلى هذا الامر الروحي السياسي بأتم مظاهره في القرون الوسطى فذلك لان العقيدة الدينية تناولت حياة البشر في تلك الاجيال من جميع الوجوه فقد عاش الناس يومئذٍ في الدين واكلوا في الدين وشربوا في الدين وماتوا في الدين وعملوا سائر اعمالهم في الدين كما يتضح من التلاوات والاوراد والشعائر التي كان يقوم بها الفرد منذ ما يصبح في فراشه الى ان يعود اليه في الهزيع الاول من الليل. ويعجز القلم عن تبيان الخدمات الجلّى التي أدتها العقيدة الدينية لتنظيم اكثرية عظمى من الناطقين بالعربية تنظيماً روحيًّا عقليًّا اجتماعيًّا واعدادهم للتفاهم ، لان الشرط الاول في تأسيس الدولة الثابتة هو احداث نواة من التجانس صالحة للارتكاز والتجمع ، ولولا هذه النواة المؤلفة من الاكثرية لأدّى التنافر والتشاكس بين العناصر المتكافئة الى الفوضى والتفتت . ومن بعد ما تألفت هذه النواة صار في الميسور الانتقال الى الطور الاجتماعي التالي وهو طور الوحدة السياسية ، ففي هذا الطور تتسع اسباب التشابه بحيث تصير الثقافة العامة ـ بصرف النظر عن العقيدة الدينية والمذهبية ـ اساس اجتماع الكلمة ، فيكون للوضع الديني السياسي المزدوج في القرون الوسطى والحالة هذه التدرج المعلّى في اعداد الشعب على اختلاف ملله ونحله للانتظام الحديث والمضي في طريقة سياسية تضمن للجميع اخوة ومساواة من غير تفريق ، لان وحدة من غير اكثرية أساسية سابقة يقوم عليها البناء السياسي وتلتف حولها الاقليات مع احتفاظها بخصائصها هي وحدة الاحلام ، ويمثل القبط اليوم وهم من صميم النصارى مع اخوانهم المسلمين رفعة شأن مصر اعمالاً تسجل بمداد الفخر وهي درس بليغ يجب ان يتلى على مسمع من شغلتهم السفاسف القروسطية والتعصبات البالية عن انقاذ بلادهم من مراشف المستنزفين ودوائر المستعمرين

(سادساً) : اشتراك في المصلحة الاقتصادية وتماثل في المهن والحرف وما ينتظر لها من ثمرات

(سابعاً) : « اشتراك في تقاليد عامة وفي ذكريات من آلام مرّت وانتصارات تمت وهي تبدو في الاغاني والاساطير والاسماء الغالية لشخصيات عظيمة تتجلى فيها ميزات الامة ومثلها العليا وكذلك في اسماء الامكنة المقدسة حيث الذكرى الوطنية العامة مدفونة في كعبة يحج اليها القوم » وقد قال الاستاذ (رمزي ميور) عن هذا العامل انهُ اقوى العوامل التي تسبك الافراد امة وانهُ لا يمكن الاستغناء عنهُ ، مما يدلّ على انهُ يرى الوطنية كما يراها سائر الكتّاب المحققين شعوراً داخليًّا وفيضاً معنويًّا وهذا ما سنزيده ايضاحاً في المقال الآتي

نكبة الاقتصاد الزراعي المصري

ازمة وسائل النقل

لتوفيق اليازجي

اجمع الاقتصاديون في العالم كله على ان الازمة التي تعانيها جميع الامم هي ازمة شبع لا ازمة جوع وقد جمعت من المتناقضات ما تشمئزّ منهُ النفس البشرية . فالقمح يتلف في استراليا وكندا واميركا الشمالية . ومع ذلك يقدر عدد العاطلين والاسر المرتبطة بهم بنحو خمس الجنس البشري على الأقل وجميع هؤلاء العاطلين في حاجة الى القوت الضروري . وتهلك اميركا وبلاد السكندناف الخنازير وغيرها من حيوانات اللحوم لكي تصون سعر اللحم في السوق مع ان عشرات الملايين من الفقراء والعاطلين لا يجدون الخبز فضلاً عن اللحم . وتبادر جميع البلاد الزراعية الى تحديد الانتاج من القمح والسكر والقطن ولو تركت الاراضي بوراً مع ان ابناء الانسانية الفقراء الذين يعدون بمئات الملايين يحتاجون الى الطعام والملابس ولكنهم لا يجدون سبيلاً الى الحصول عليها

على ان هذه الخدمة العظمى التي تؤديها الدول المنظمة القوية لارباب رؤوس الاموال لا يمكن ان تدوم طويلاً لان ناموس الاقتصاد الطبيعي لا بدّ ان يفعل فعله فيتطور الزمن وتتبدل الاحوال والآراء ويسير الاصلاح سيره شيئاً فشيئاً . ونحن نشهد هذا السير الآن وان كان بطيئاً . فالامم التي تنتبه لهُ وتبادر الى تكييف حياتها الاقتصادية تكييفاً منطبقاً عليهِ تستطيع ان تنجو بنفسها من حكم الطبيعة القاسي وتجاري الامم الاخرى في مضمارها الجديد

***

وفي طليعة الحقائق التي ينبئنا بها سير العالم الاقتصادي الحالي هبوط اثمان الحاصلات الزراعية ونزول اثمان المصنوعات في اثرها . فقد ارتقى العلم في هذا العصر ارتقاء شمل الانتاج الزراعي من جميع نواحيه كما شمل كل شيء آخر . فأصبحت آلة صغيرة لا يزيد ثمنها على بضع مئات من الجنيهات قادرة على انتاج محصول لم يكن ينتجه من قبل سوى مئات من الايدي العاملة . وتقدمت وسائل النقل وتنوعت فهبطت الاجور وترتب على ذلك كثرة الانتاج وترتب على كثرة الانتاج هبوط الاسعار فضعفت قوة الشراء في البلدان الزراعية . ولما كانت هذه البلدان تستهلك الجانب الاعظم من مصنوعات المعامل فانَّ هذه المصنوعات لم تجد اسواقاً لاستهلاكها لان ثمنها اعلى من القدرة العامة

على الشراء ولم يكن في وسع المعامل تخفيض الاجور تخفيضاً يذكر لان العمال منظمون ومستعدون للاضراب عند تخفيض اجورهم . ومن هنا نشأت الازمة الصناعية واستفحلت البطالة واستطاع بلد كاليابان رخصت فيه أجرة العامل ان ينتهز هذه الفرصة ويغمر اسواق العالم بمصنوعاته . ويضيف الى رخص اجرة العامل اتقان التنظيم الصناعي وتخفيض سعر العملة

فاليابان في مقدمة الدول التي استطاعت تكييف الانتاج وفاقاً لحاجة الزمن ولذلك لا نرى فيها من الازمة ما نراه في غيرها . فالازمة تعظم او تضعف بقدر ما تنتبه الامة الى تكييف احوالها ومراعاة التطور الاقتصادي الجديد في العالم

***

اما مصر فقد تكون في مؤخرة الامم المنتجة التي تنتبه الى هذه الحقائق اذ ما زالت تكاليف الانتاج فيها كما كانت قبل الازمة . ولو لم تخفف الحكومة وطأة هذه التكاليف بتخفيض ضريبة القطن وبمنح الاعانات لتصدير القمح والفول والارز وبتسهيل التسليف الزراعي وبتخفيف بعض الضرائب لاصيب هذا القطر بكارثة كبرى

ولكن جميع هذه التدابير ليست علاجاً بل مسكناً وقتياً من ألم الازمة . اذ ما زالت تكاليف الانتاج موازية لثمن المحصول . فالقطن لا يباع الآن بربح يذكر . والقمح لا يمكن ان يبلغ سعره الحالي لولا الرسوم الجمركية الفادحة المفروضة على القمح الاجنبي . فالربح منهُ ليس ربحاً اقتصادياً بل عبارة عن مبلغ تأخذه الحكومة قسراً من جيوب جميع السكان في مصر وتمنحهُ لزراع القمح الذين لا يستطيعون ان ينتجوه ويبيعوه بالسعر الذي يباع به قمح البلدان الاخرى . ولولا اعانات التصدير الكبيرة التي انفقت على الفول والارز لما كان من الممكن اصدار شيء منهما ولهبط سعرهما الى اقلّ من تكاليف انتاجه الحالية كما رأيناه ذلك فعلاً في وقت من الاوقات

فالخطة الوحيدة التي يجب اتباعها لجعل الاقتصاد الزراعي المصري عملاً منتجاً رابحاً بذاته هي تخفيض تكاليف الانتاج وزيادة غلة الفدان . واود ان اقصر كلامي في هذا المقال على الشق الاول لانهُ في نظري من المهام التي يسهل الاضطلاع بها في الحال بدون حاجة الى عناء كبير او نفقات كثيرة

***

وفي مقدمة تكاليف الانتاج اجرة اليد العاملة واثمان البذور والسماد والضرائب واجور النقل . اما الاولى والثانية فلا سبيل الى تخفيضهما تخفيضاً يذكر لانهما بالغتان ادنى الحدود . واما الضرائب فقد خفض جانب منها واستعاض الزراع عن جانب آخر باعانات التصدير وببعض المنح السنوية . على

انها ما زالت اعظم من الحد الذي تتحمله حالة الانتاج الزراعي الحاضرة فلا بد للحكومة عاجلاً او آجلاً من ان تفكر في تخفيضها الى المستوى الذي تقتضيه سلامة الاقتصاد الاهلي . وأما اجور النقل فهي التي تستحق العناية العظمى الآن ويتوقف عليها جانب كبير من التدبير الذي يسمح للاقتصاد الزراعي بأن يكون رابحاً

واعظم وسائط النقل في مصر هي السكك الحديدية فلو رجعنا الى تعريفاتها المختلفة وجدنا انها اغلى السكك الحديدية اجوراً في العالم مع انها لا تدفع ضريبة ايراد ولا رسوماً محلية ولا شيئاً مما يحد من ارباحها . ويتقاضى موظفوها على اختلاف درجاتهم مرتبات تزيد اضعافاً على امثالها في السكك الحديدية الاخرى في العالم . على ان اجور النقل عدلت فيها قليلاً في العهد الاخير ولكنه لم يكن التعديل الكافي الذي تقتضيه مصلحة الانتاج الزراعي . ويكفي ان نعلم الآن ان اجرة نقل قنطار من البصل من الوجه القبلي الى الاسكندرية تزيد كثيراً على ثمنه . وأجرة نقل شحنة كاملة من البطيخ من مكان يبعد ثلاث ساعات عن القاهرة الى اسواق هذه المدينة تزيد على ثمن الشحنة زيادة كبيرة فكأن الزارع يزرع وينتج ويعمل طول السنة لكي يدفع ضعف ثمن محصوله اجرة نقل

***

ومن الغريب ان لدينا في مصر وسائل نقل رخيصة جداً ولكننا نهمل امرها ونحاربها بكل قوانا . فالنيل يتخلل بفروعه وترعه انحاء القطر جميعها . وفي الامكان تعزيز الملاحة النهرية تعزيزاً يسمح بنقل الحاصيل المصرية بين المدن المختلفة وبين الحقول والموانئ بأجور تقل عن ربع الاجور الحالية بالسكك الحديدية ومع ذلك تضع الحكومة جميع العقبات الممكنة في سبيل النقل النهري ورائدها في ذلك منعه من منافسة السكك الحديدية مع ان الخطة المثلى هي ان تعمل على انزال تكاليف النقل بالسكك الحديدية الى مستوى اجور النقل المائي او ما يقرب من مستواها لا على رفع هذه الى مستوى تلك

وما يلاقيه النقل المائي من العراقيل تلاقيه السيارات . فالقطر المصري محروم من الطرق المعبدة التي لم تعد اقل المستعمرات شأناً في العالم خالية منها . ومن العار ان يوجد في بلد ناهض كمصر طريق سيىء بين مدينتين كبيرتين كطريق القاهرة والسويس . ومتى خرج المرء من المدن الكبيرة فانه لا يكاد يجد طريقاً عصرية للسيارات . ولا نظن ان قلة المال هي التي تدفع الحكومة الى اهمال الطرق . ولا نجد تعليلاً لهذا الاهمال سوى الحرص على ان لا تنافس السيارات السكك الحديدية

ومن جملة التدابير التي اتخذتها الحكومة لحماية السكك الحديدية من المنافسة زيادة الرسوم الجمركية على السيارات اضعافاً ورفع الرسم الجمركي المفروض على البنزين من نحو ١٤٠ قرشاً في سنة

١٩٣٠ الى ١٢ جنيهاً في سنة ١٩٣٢ . وما زال هذا الرسم كما هو حتى الآن . وأصدرت الحكومة اخيراً ضريبة السيارات . فكان نصيب السيارات الخاصة بالنقل منها فاحشاً جداً اذ قد حصرت استعمال سيارة النقل الكبيرة في مديرية او محافظة واحدة وكلما امتدت الى مديرية او محافظة اخرى زاد عليها الرسم . ثم ان الرسم جعل وفاقاً للوزن فهو ١٥ مليماً عن كل كيلو من الوزن الاجمالي لسيارة النقل على ان لا يقل مجموع الرسم عن ١٥ جنيهاً ولا تستعمل السيارة الا في مديرية او محافظة واحدة . فاذا استعملت في مديريتين زاد الرسم الى ٢٠ مليماً على الكيلو الواحد . والحد الادنى الى ١٥ جنيهاً . واذا استعملت في جميع انحاء القطر زاد الرسم الى ٢٥ مليماً على الكيلو الواحد . وقد احتفظت الحكومة لنفسها في قانون هذه الضريبة بالحق في زيادتها حتى ٣٥ في المائة ومعنى ذلك انها اذا لم تجد الضريبة كافية لمنع السيارات من منافسة السكك الحديدية فانها تظل تزيد الضريبة الى ان تقضي على المنافسة

***

قد يقال ان الحكومات الاوربية تجري على مثل هذه الخطة لمنع السيارات من منافسة السكك الحديدية في النقل ولكن الفرق بين ما تفعله نحن وما يفعلونه ثم هو انهم يتوخون الانصاف في الفرص وفي المعاملة لا حماية احد الفريقين على حساب الآخر . فالسكك الحديدية في انكلترا مثلاً تدفع ضريبة ايراد فاحشة وتدفع رسوماً محلية عديدة فلا تستطيع وهي تتحمل هذه الاعباء ان تقوى على المنافسة ولذلك تضع الحكومة من الاعباء على السيارات ما يقيم ميزان العدالة بين الفريقين فتتساوى الفرص وتكون الغلبة لمن يقيم الدليل على انه اقدر من الآخر على خدمة الجمهور . اما في مصر فالسكك الحديدية تتمتع بجميع المزايا ولا تدفع للحكومة شيئاً سوى فائدة قدرها ٤ في المائة عن رأس المال ومع ذلك لم تزد ارباحها في السنة الماضية على ٢ في المائة بعد دفع فائدة رأس المال . فلو انها كانت تدفع ضريبة ايراد لاصيبت بخسائر فاحشة . ثم لو انها كانت تجدد خطوطها وأدواتها المحركة والمتحركة لقلنا انها تنفق جانباً من دخلها على تحسين حالها . ولكن السكك الحديدية المصرية كما يؤخذ من التقارير الرسمية اسوأ حالاً من جميع السكك الحديدية في العالم . فالمدير العام يقول في مذكرة كتبها في يناير الماضي ان جميع الخطوط تحتاج الى تقوية وان كثيراً من المحطات ليس فيها ارصفة البضاعة وليست مربوطة بعضها ببعض باشارات . وكثير من ارصفة التخزين قصيرة لا تستوعب العدد اللازم من عربات البضاعة ويتطاير الغبار على الركاب على جميع الخطوط . ويخشى من الحالة التي وصلت اليها القاطرات والمركبات على سلامة الجمهور

فالسكك الحديدية المصرية في حاجة الى اصلاح جوهري يقلب نظامها الاساسي رأساً على عقب وينزل اجور النقل الى المستوى الذي يتفق مع مصلحة الانتاج وقدرة الجمهور على الشراء وهذه

هي الوسيلة الوحيدة التي تسمح للاقتصاد الزراعي الى حد كبير بان يكون رابحاً وتكفل منع منافسة السيارات للسكك الحديدية

***

وقد لا نجد مناصاً من التفكير في توحيد وسائط النقل في القطر المصري فيكون مشتركاً بين السفن النهرية والسيارات والسكك الحديدية لكي يمكن تخفيض الاجور الى اقل حد يتفق مع مصلحة الانتاج . وقد وجدت وسائط النقل في العالم لخدمة الانتاج ولاسيما متى كانت ملكاً للحكومة ونحن نثق بان المدير العام للسكك الحديدية المصرية يعرف هذه الحقائق حق المعرفة فان لم نره يعمل بها الا ضمن حدود ليست بذات شأن كبير فقد تكون يده مغلولة عن العمل

***

بقي الشطر الآخر من وسائط النقل وهو النقل البحري اي ايصال المحصولات المصرية الى اسواق الاستهلاك الخارجية . وهو لا يقل ارهاقاً للمحاصيل عن النقل بالسكك الحديدية . ومن اهم المحصولات المصرية التي تنقل الى الخارج القطن والبصل والبيض والارز . وجميع السفن التي تنقلها اجنبية . والاجور فاحشة في جميع الحالات تزيد على ضعف اجور نقل البضائع التي ترد الى مصر من الخارج في السفن ذاتها . ويحدث عند ابتداء كل موسم ان يتآمر ارباب السفن على المحصول المصري ويحددوا سعراً فاحشاً لنقله فلا يجد التجار مناصاً عن دفع هذه الاجرة . ومن المقرر انهم يضيفونها الى التكاليف ويحسبون حساب السعر في سوق الاستهلاك ويحددون الثمن الذي يشترون به المحصول على هذا الاساس فلا يبقى للزارع المصري من ثمن محصوله ما يكفي لتسديد نفقات انتاجه . ولولا اعانة التصدير لاصيب بخسارة محققة . ويرهق القطن طائفة كبيرة من التكاليف والنفقات الاضافية بعد خروجه من الحقل . وقد حسب صاحب السعادة احمد عبد الوهاب باشا وكيل وزارة المالية هذه التكاليف في مذكرته عن السياسة القطنية وتتبعها واحدة فواحدة فوجد ان القنطار الواحد من القطن يصيبهُ ١١٠ قروش ابتداء من خروجه من الحقل حتى يصل الى ليفربول ، فهل يربح الزارع نصف هذا المبلغ من قنطار من القطن ؟

***

والحل الوحيد لمشكلة النقل البحري هو ان يكون لمصر اسطول تجاري ينقل محاصيله الى الخارج باجور معقولة . وقد بدأنا نرى نواة هذا الاسطول تتكوَّن . فعسى ان تحقق آمال مصر وتؤدي للاقتصاد الزراعي المصري الخدمة التي يحتاج اليها الآن كل الاحتياج المحافظة على سلامته وجعله قادراً على المنافسة في اسواق العالم

قصيدتان

للشاعر المصري خيري : نقلها عن الفرنسية : جورجي نيقولاوس

صفصافتي

أيتها الصفصافة ! ياصفصافة دموعنا ، ذات الاوراق العيية التعبة ، انك لتنحنين دون وجعة ، على ثرى الاموات ، وتتهدلين فوق باقات الزهور الداكنة المبعثرة ، ذات الاكمام الثلجية ، التي هي ازهار آلامنا وأحزاننا

بينما أشجار الغابات ، التي يعطرها الندى ، واقفة كالمردة ، وقد انتصبت اغصانها فأشبهت قننها سهام القباب الذاهبة صُعُداً ، في الفضاء الورديّ ، وهي تكاد تمسّ السماء

ورياح العواصف الهوجاء ، وهي الجبارة التي لا يسلس لها قياد ، تنثر أوراق هذه الاشجار ، عابثة بها ، فتتحمل الاشجار آلامها بصبر وجلد ، وهي تضطرب تحت وابل الامطار ، وقد ادركتها حشرجة الموت ، لكن ذلك لايحني هامتها ، ولا يثني من عزتها

ومع ذلك نجد هذه الاشجار القائمة العابسة ، ضحية الصقيع القارض ، في اكثر الاحيان ، الغبطةَ والبهجةَ ، اذا ما انطلق ، في رابعة النهار ، وتحت ظلالها الوارفة تغريد الطيور الصداحة البهج ، المختلف الالحان ، الذي يشبه نشيد جوقة ، ذا ترديد طويلة المدى ، شجية التواقيع

. . او اذا ما جذبتْ اليها من بعيد ، زمرة من العشاق الجذلين ، فتظلل تحت اغصانها الحب ومباهجه العديدة ، ولذة كلماته العذبة المسكرة ، المملوءة سحراً وشجراً فتمتزج أحاديث الهوى وتباريح الغرام ، بحفيف اوراق هاتيك الاشجار الحريرية ، فتتكوّن من ذلك الحانٌ وأغانٍ ، تملأ القلوب لذة وحبوراً

اما انتِ ، ايتها الصفصافة الساكنة ، الكئيبة ، المنعزلة ، البعيدة عن مباهج الحياة ، المنزوية في ركن الوحدة ، فلا يطرق أذنيكِ ، سوى تنهدات وأنات اولئك الاحياء الباقين ، وزفراتهم المؤلمة ، المتساقطة من اعماق نفوسهم المتفجرة

وهذا النشيد المميت ، الذي سيُودي بكِ ، يحني بحزنٍ اغصانك المنتحبة الباكية ، فكأنها بهذا التدلي الابدي ، تتقبّل الآلام المنبعثة من قلوب الاحياء المتفطرة

يا صفصافة دموعنا ، يا صديقة متوسدي الثرى ، قد يكون انحناؤكِ على اجداث الموتى ، فوق زهور الراحلين ، ذات الاكمام الثلجية ، حناناً منكِ ورأفةً ، فتميلين لتسكبي على تلك الارض الغامرة ، شآبيب السلوى ، وتُفيضي عليها حنانكِ ورحمتكِ

الارواح العائدة

أجَلْ ! في جَوْف الليل الهادئ ، تمسُّنا ارواحُ موتانا ، فتتدفّق في قلوبنا الوسيعة ، المُمْدَّة لاحتوائها ، كأنّها ازاهير الليل ، المتفتّحة الاوراق والاكمام ، التي يكتمل رواؤها ، عند ما تقع عليها اعين المحبين

قد تكون هذه الارواح ، ارواح ابناء تدفعها المحبة البنوية ، او ارواح امهات تحملها عاطفة الامومة ، فتتنسّم نزَعات قلوبنا النسيبيّة ، حيث تحترق اميالنا ، وتذوب نزَواتنا ، فتتجدّد في افئدتنا الايمان ، الذي يشرّف احلامنا ، ذات المنازع المدائنية

وانت ايتها الشقيقة الساهرة ، الحارسة ، المنبئة بما يُخبّئ لنا المقدور ، وانت أيتها الحبيبة الوفيّة ، ذات النزَعات الحبّية الخالصة ، وانت ايتها الاشباح ، اراكِ تحسدين ذخائركِ الحيّة ، اي نحن الباقين ، نحن الاصدقاء البعيدين ، المحتلين لمقامك الارضي الذي رحلت عنه

عندما يتملّكنا الكلال عقب الاوقات الصخّابة ، نشعر في قرارة نفوسنا ، بانجذاب الى الوحْدة والانفراد ، لننعم بالهدوء والسكينة ، في تلك الجنان الجليلة الحافلة بالاشباح المؤلمة ، السارية في تلك المفازة الغريبة ، ذات المناظر الخفية الجذابة

وأنتِ يا ارواح الموتى ، الأمينة الحبيبة الينا ، تحركين بنفسك ، ذكرياتنا الماضية ، في احلامنا الهادئة ، فتمدين الينا يدكِ الخفية ، وتقودينا بتؤدة ، نحو اشجار السرو ، التي هي أشجار التنهدات والزَفرات

ايتها الاشباح المحزنة ، يا اخوات الوَحْدة القاتلة ، انك تسحريننا بهذا التسكين الشعري ، المؤلف من سيّال لا نهاية له ، يسكرنا ويُضرم عواطفنا ، ليتسنى لك دون عائق ، ان تُغدقي على افئدتنا ، حنوكِ الكلي ، ورقتك السماوية

ايتها الرُوح الحائر ، يا روح الام المتبختر عطفاً ، السعيد بهذا العطف ، ليسهر بواسطة بكائه ، على ابنه العزيز ، ويحوطه بالحب الأموي المتناهي ، الذي لا ينضب معينُه : انك الروح المحب ، الذي يمدنه ابداً ، ذلك العطف الذي تتساقط اوراقه ، في قلب نقي ، لا يعتريه ندم ، ولا وخز ضمير

اجل ! ان الارواح تمسُّنا في جوف الليل الهادئ ، ولكن في نهارنا الذي يملأه الهسيان الجنوني الكثير الصخب ، تتطاير في اكثر الاحيان ، اعز ذكرى لها ، تطاير الرماد تذروه الرياح ، فتمحو آثارها ، متغلغلة في طيات القدر المحتوم

صاح ! عند ما تتفجّر في قلوبنا هذه الاصوات العزيزة علينا ، لنكرم بمسرة وارتياح عودتها المعطوف ، ولنقدّم بهذه المحبة العميقة ، التي تحنو على آلامنا وارجاعنا ، ازَ ذابق الطاهرة ، لأسمى واشرف حب ، تضطرم به حشى ، وتختلج به فؤاد

المرأة التركية الجديدة

نهضتها وآمالها

شهدت تركيا في العقد الاخير ، انقلاباً اي انقلاب في مقام المرأة التركية ومكانتها الاجتماعية فالسيدات اللواتي كنّ منعزلات في الحريم ، ولا يخرجن الى الشوارع الا وعلى وجوههن احجبة كثيفة ، وملاءات تغطيهن من قمة الرأس الى اخمص القدم ، تراهن الآن في شوارع استانبول وازمير وانقره ، مرتديات احدث الازياء ، او على شواطىء جزائر الامراء وتوابيا لابسات آخر ما يعهد من ملابس الاستحمام . ثم ان المرأة التركية قد شقّت طريقها في حياة تركيا العامة ، تراها تشترك في الانتخاب ، وتدرّس في المدارس وتنتخَب في مجالس البلديات وتجلس الى جانب القضاة في المحاكم وتشترك مع ارباب الاقلام والاعمال في انشاء الصحف على انواعها وادارة المصارف

***

صباحت فتاة في التاسعة عشرة من العمر تخرجت من الليسيه هذا الصيف ، وينتظر ان تنتظم في الجامعة في اوائل الخريف المقبل . نشأت في بلدة بالاناضول سكانها خمسون الفاً . فكانت اولى فتيات تلك البلدة في تلقي العلوم بمدرسة من درجة « ليسيه » . ولكي تدرك مقام هذا العمل من جانبها يجب ان تعلم ان الفتيات المسلمات في بلدتها ، كان يحظر عليهن الانتظام في مدرسة اجنبية فيها فكادت تلك المدرسة ان تكون وقفاً على الفتيات الارمنيات . ولكن صباحت ، كانت ترغب في العلم رغبة ملحة وكان ابوها ارمل وهي وحيدتهُ . فعطف على رغبتها ولكنهُ تردّد ، ذلك ان اعمامها واخوالها وعماتها وخالاتها وسائر اقاربها اعترضوا اشد اعتراض على هذه الفكرة النكراء . وظلت هي تقاوم مقاومتهم ثلاث سنوات متوالية ، وصبرها لا ينفد ، وعزمها لا تُفلُّ . واخيراً سلّم لها ابوها بما تريد ، وسمح لها بان تنتظم في سلك مدرسة اميركية للبنات في مدينة مجاورة . فلما اقفلت المدرسة الاميركية انتظمت صباحت في مدرسة « ليسيه » تركية في مدينة بعيدة عن مسقط رأسها

وكانت صباحت فتاة ذكية ، مجتهدة ، فتعلمت لغتها قراءة وكتابة — بنوعين من الحروف — العربية واللاتينية — وتمكنت من اللغة الانكليزية ، وهي كما تدرين يا سيدتي تختلف عن اللغة التركية اصولاً وقواعد . وبني خُلُقها على قواعد من الاعتماد على النفس ، وقوة التمحيص والنقد ، وحسن تدبير الامور ، ونظرة فلسفية الى الحياة ، اتمتها فيها انواع المقاومة التي لقيتها وتغلبت عليها . وهي فتاة نحيفة القوام ، فاحمة الشعر مجعدتهُ ، بيضاء البشرة ناعمتها ، سمراء العينين دعجاواها ، يسترعي منظرها الانظار . وقد رحب افق نظرها الى الحياة فلا تحصر عنايتها في اتقان الدروس التي تتعلمها ، بل تحب المطالعة المسلية المثقفة ، والرياضة والموسيقى وما اليها من الفنون

ولو انّ صباحت وُلدت قبل بضع سنوات ، لكان تعذّر عليها تحقيق امنيتها هذه . ذلك ان القانون

التركي ، كان يحظر على البنات التركيات ، قبل سنة ١٩٠٨ ان ينتظمنَ في سلك المدارس الاجنبية . والمدرسة التركية الوحيدة في استانبول ، حينئذٍ ، كانت دار المعلمات وهي قريبة من رتبة مدرسة ليسيه ، وكانت دروسها الرئيسية محصورة في الفقه الاسلامي واللغتين العربية والفارسية او تكاد . وكانت بعض الاسر السرية تستقدم الشيوخ لتدريس بناتها في منازلهنَّ

وتذكر صباحت ان امها قالت لها مرَّة « يجب الاَّ تقلّمي اظافرك في الليل . ان ذلك خطيئة » فقالت الفتاة ولماذا

فقالت الام : اننا نساء . فنحن لا نسأل . انما نطيع » . تلك كانت النفسية النسائية السائدة في العهد السابق لمولد صباحت

ولو ان مولدها تأخر بضع سنوات ، لكانت رأت سبيلها سهلاً . فعشرون فتاة من فتيات بلاتها يذهبن الى مدرسة الليسيه الآن ، والارجح ان مدرسة ثانوية للبنات سوف تنشأ قريباً في تلك البلدة ايضاً

بل ان حماسة الامة التركية لتعليم البنات بلغ مبلغاً عظيماً ، حتى ترى المدارس مزدحمة بهنَّ ، فتجلس ثلاث فتيات على مقعد اعدَّ لفتاتين فقط . وابلغ مثل على ذلك عدد الطالبات التركيات في المدارس الثانوية وازدياده . في سنة ١٩١٣ كان عددهنَّ ٦٧ فتاة وفي ١٩٢٣ كان عددهنَّ ٧٧٣ فتاة وفي سنة ١٩٣٢ — ١٩٣٣ كان عددهنَّ يربي على ثمانية آلاف . اما جامعة استانبول فتنتظم فيها الشابات على قدم المساواة مع الشبان . والتعليم المشترك سائد في المدارس الاولية والمتوسطة ، ولكنهُ يكاد يكون غير مألوف في مدارس الليسيه . والمشرفون على شؤون التعليم في تركيا ، يعتقدون ان شيوعهُ في مدارس الليسيه ينطوي على خطر

وتلبس الفتاة التركية في المدرسة ثوباً رماديًّا او ازرق غامقاً او اسود . وهي تقف باحترام عند دخول المعلمة او عند ما تقترب منها في حديقة المدرسة . تتكلم عندما تخاطب . وتقوم بما يطلب اليها ان تقوم بهِ . وانما يلاحظ فرق بين الفتيات صغيرات السنّ والفتيات المتقدمات في السن . فصغيرات السن قد أصبحن اقلّ كلفة في سلوكهنَّ . وقد قيل لاحد الكواتب الاميركيات ان فتاة منهن اعطيت مجموعة من قصائد انكليزية كتبت في عهد الملكة اليصابات وطلب اليها ان تختار منها قصيدة تفضلها على الباقي ، فاختارت قصيدة مطلعها ما معناهُ « من المتعذر على حداثة السن ان تساكن تقدم السن » . وترجمت القصيدة ووزعتها على صويحباتها في المدرسة فأعجبنَ بها كلَّ الاعجاب . وقد تحدثت المعلمات التركيات في احدى المدارس مع هذه الكاتبة في حكمة اطلاع الفتيات على قصص الغرام من قبيل ما كتبهُ شكسبير وجاين اوستن . وهنَّ يرين ان مطالعة الفتيات لقصص تحتوي على كثير من حوادث الغرام والزواج يضرّ بهنَّ . ثم سألت الكاتبة من لقيتهُ من الفتيات فرأت انهن مطلعات اطلاعاً واسعاً على قصص الغرام . وعددت لها الفتاة صباحت ما قرأتهُ من هذه الروايات ولكنها اضافت ان مطالعة القصص لا تهمها بوجهٍ خاص

كانت الفتاة في العهد القديم تلبس الملاءة في السنة الثانية عشر من عمرها . وكانت قبل ان تلبسها ، حرة في الذهاب الى المدرسة واللعب مع الاحداث من جيرتها ، فاذا لبستها حُظِر عليها كل ذلك واصبح هم والديها البحث لها عن زوج

ولكن الملاءة اصبحت في تركيا الآن من مخلفات الماضي . فاذا اردت ان تعرف مقام نزع الملاءة في حياة المرأة التركية اقرأ الحادثة التالية : — كانت طائفة من المرشدات التركيات يسرنَ في شارع من شوارع استانبول ، وكانت امرأة متقدمة في السن لابسة الملاءة القديمة تراقبهنّ وهي تذرف الدموع فقالت « اني لا افهم . انني لا افهم . لم اتصوّر انني اعيش حتى ارى هؤلاء الفتيات وهنّ في سنّ الزواج ، وقد طرحنَ الملاءة وخرجنَ عاريات الاعناق والاذرع . ألا يخجلنَ » . وكانت هذه السيدة تعتقد ان هذا الاثم لا يمكن ان يستمرّ من دون عقاب رادع من السماء !

ان رجال الغرب ونساءهُ الذين تعودوا ان ينظروا الى تقدم المرأة من ناحية الحقوق السياسية وخوضها ميدان الاعمال لا يدركون الشأن الكبير الذي تعلقهُ المرأة التركية بالملابس كمظهر من مظاهر حريتها الجديدة . وتقول الكاتبة لوكي باركر انها عرضت على بعض صديقاتها التركيات صورة في مجلة اميركية لامرأة لابسة ملاءة وتطلّ على البوسفور وقد كتب تحتها « سيدة في تركيا الجديدة » فغضبنَ غضباً شديداً

ثم قالت : نعم لقد منحت المرأة التركية امتيازات سياسية حتى أصبحنَ اسوة بالرجال ، ولكن هذه الامتيازات في نظر المرأة التركية المتوسطة اقل شأناً من الحقوق التي فتحت امامها ميادين السينما والمسرح والالعاب الرياضية والكتب والملابس الغربية وما الى ذلك . وليست الملابس اقل هذه شأناً . فقد رأيت طائفة من خريجات الجامعة التركية يقضينَ ساعة حافلة بالسرور امام صورة ثوب جديد من الاثواب الباريسية . والانسان مغرًى بأنهُ يقلب شفتهُ استخفافاً عند ما يرى هذه العناية بالملابس فيقول « أهذا هو مقياس عقولهنّ » ؟ ولكن يجب ان نذكر انهُ انقضت قرون والمرأة التركية محرومة من حق اظهار شخصيتها بملابسها خارج دارها . فلهذه العناية بالملابس من جانبهنّ مغزًى اجتماعيٌ وتاريخيٌ كبير

***

وتروي هذه الكاتبة انها سافرت من انقره الى استانبول في القطار الذي يسير بين المدينتين فشاركتها سيدة تركية تدعى جولتن هانم مخدعَ النوم بالسكة الحديدية . وكانت جولتن هانم ربعة تميل الى السمنة وفي الاربعين من السن . ولكنها تامة الانوثة

جلست هنيهة في مقعدها وهي تنظر بسرور الى ما حولها ، المقاعد الوثيرة والمصابيح الكهربائية والحقائب ورفيقتها الاميركية ، وبعد ما رتبت أمتعتها التفتت اليها بعد ما حاولت مخاطبتها بالتركية وسألتها هل تتكلم الفرنسية ، فأجابت انها تتكلمها متعثرة

فسرّها ذلك وقالت : ان ابنتي قالت لي بأني لن استطيع التحدث معك ولكننا نتحدث الآن وهذا يبعث في نفسي غبطة عظيمة

مضت في حديثها كالجدول السلسال ساعة فاخرى فاخرى . قالت ان من بواعث غبطتها ان يتاح لها السفر وحدها . ففي العهد القديم كان احد افراد اسرتها من الرجال يصحبها دائماً ليعتني بها — اما والدها او شقيقها او زوجها . وكان يتعذر عليها ان تحدّث احداً مع انها تحب ان تتحدث مع الناس . وسردت لي انباء ثلاث اجيال من اسرتها ووصفت الملابس التي لبستها السيدات في الحفلة الراقصة الكبرى التي اقيمت تلك السنة في انقره

واذ هي ماضية في حديثها قامت الى حقيبة صغيرة وفتحتها واخرجت منها طعامها ، وطلبت اليّ ان اشاركها فيه . وقبل ان استطيع الجواب كانت قد وضعت امامي صحفة عليها قطعاً من دجاجة مقلوّة . ولاحظتها وهي تأكل فاذا آدابها في تناول الطعام ومضغه لا يُعلى عليها . وبعد ما انتهينا من الاكل اخرجت منشفة مبلولة وأعطتني اياها لامسح بها اصابعي . وانني لاعجز عن تعداد وجوه عنايتها . بل لاعجز عن ذكر امرأة غربية تفوقها في ادبها

وكانت جولتن هانم قد ذهبت الى انقره في زيارة لشقيقة لها اصغر منها سنّاً . قالت وهي تحرق الارّم ان شقيقتها هذه تجيد الانكليزية . اما هي فنسيت القليل الذي تعلمته في المدرسة لانها تزوجت وهي في السادسة عشرة رجلاً طيباً ولكنه كان متقدماً في السن ، وانها في الواقع لم تتعلم الاّ الخياطة والعناية بالاطفال

فقلت ان تدبير امور البيت والعناية بالاطفال من اهم ما تجيده المرأة

فقالت لا شك في انهما من اهم ما تتعلمه المرأة . ولكن التثقيف الحقيقي والمقدرة على مخاطبة الاغراب ... وقالت ان لها ابنة شقيق التقت في حفلة راقصة بشاب انكليزي فاستطاعت ان تخاطبه بلغته ! وقد تزوجته الآن رغم مقاومة اهلها وهم عائشان الآن في ازمير معيشة كلها رغد وهناءة

وكذلك انقضت الساعات بين انقره واستانبول . كانت جولتن هانم من اشد مؤيدات النظام الجديد حماسة ، مع انها لم تمارس حقوقها السياسية الجديدة . ولم تكن تنوي ان تنتظم في سلك صناعة من الصناعات او حرفة من الحرف . ولا كان يهمها ان تتولى هي تدبير ملكها الخاص

وهذا لا يعني ان جميع نساء تركيا تهمهن هذه الناحية السخيفة — في نظر البعض — من نواحي حريتهن الجديدة . فثمة طائفة صغيرة من النساء اللواتي بلغن مقاماً عالياً في حياة تركيا العامة . فثمة طبيبات ومحاميات وقاضيات ومؤلفات وكاتبات في المحال التجارية وصحافيات ومعلمات يزداد عددهن سنةً فسنةً . والنساء التركيات يشغلن مناصب ذات شأن في مجالس المدن البلدية وفي مصالح الحكومة . وقد بعث ببعضهن مندوبات عن الحكومة الى مؤتمر البلقان

ثم ان اقتحام ميادين الحياة العامة ليس مقتصراً على نساء المدن . فقد انتخبت سيدة حديثاً

لمنصب محضر وهو يقابل منصب « عمدة » في مصر ، في قرية على مقربة من ازمير . ومن مهام هذا المنصب تدوين المواليد والوفيات وتوقيع كل الاوراق الرسمية الخاصة بالملك والبيع والارث وما اشبه . وكثيراً ما يحتكم الى المحضر في النزاعات المحلية . وعن طريقه تبعث الحكومة بأوامرها الى الاهلين . واذن فانتخاب امرأة لتشغل هذا المنصب حدث ذو خطر خاص

وقد سهلت الاحوال طريق المرأة لبلوغ مناصب كبيرة في ميدان الاعمال . فقد مُنِيَت تركيا بفقد نصف رجالها في حرب البلقان والحرب الكبرى وحرب الاستقلال التي تلتها . فاقتضى الواجب من النساء التركيات ان يتقدمنَ لسد الثغرة التي احدثتها الحروب في صفوف الرجال . فتقدمنَ غير هيابات وقمنَ بكل نوع من العمل من حرث الارض الى ادارة البنوك — خذ مثلاً سيدة في بيرا باستانبول تدعى خديجة هانم . فهي مديرة فرع بنك الاعمال في بيرا وهي اول امرأة تركية حازت حق التوقيع باسم البنك . غير ان خديجة هانم ليست مديرة بنك فقط بل هي والدة ستة اولاد كذلك ، وتعاون زوجها في ادارة مزرعة ؛ وهي تقول ان عملها الحقيقي التعليم : وهو في نظرها ، اوسع نطاقاً من الاشتغال بأعمال البنوك . ولكنها تحسب عمل البنوك ميداناً يوافق موافقة خاصة مزاج السيدات لانهنّ اقدر من الرجال على التدبير . وأكثر منهم لطفاً في معاملة الموظفين والمتصلين بالبنك بصلة العمل

وثمة سيدة تدعى سعاد هانم كتبت كتاباً عرضت فيه لقضية المرأة في تركيا الجديدة ، من ناحيتي تأييدها ونقدها . وهي من اوليات الفتيات التركيات اللواتي انتظمنَ في كلية البنات الاميركية باستانبول بعد دستور سنة ١٩٠٨ . ثم وسعت نطاق تعليمها بالدراسة في المانيا . وقد ندبتها الحكومة التركية غير مرة لتمثلها في مؤتمر البلقان ، وأرسلت الى اميركا لحضور اجتماع عقدته «عصبة النساء الدولية للسلام والحرية»

وقد طالبت المتطرفات من زعيمات الحركة النسوية في تركية في الشتاء الماضي بحق المرأة التركية في الانتظام في صفوف ضباط الجيش . ومنصب ضابط الجيش ذو مكانة كبيرة في تركيا ولكن الشبان يقولون انهم ما زالوا قادرين على الدفاع عن الوطن ، فمنح النساء حق بلوغ مراتب الضباط من غير ان يعملنَ اولاً عمل الجنود ، غير معقول والراجح ان هذه المطالبة لن تسفر الآن ، عن قرار عملي ما

والراجح ان ميادين العمل النسائي في تركيا ، اذا استثنينا دائرة البيت ، سوف تنحصر في التعليم والطب والصحافة والتجارة والعمل الاجتماعي وشغل بعض المناصب الحكومية

كانت المرأة في السلطنة العثمانية اشبه شيء بالاسيرة في البيت يمنعها الحجاب وسوء التعليم او عدمه من الاشتراك في حياة الامة وتأدية نصيبها في ترقيتها . اما الجمهورية التركية فتقول ان الواجب يقضي على المرأة بالاشتراك في تكوين حياتها المثلى . فهي معلمة وطبيبة ومحامية وقاضية وصحافية ولا يمنعها كل ذلك من ان تكون زوجة فاضلة وأمّاً رؤوماً

حرارة الصيف

وعاداتنا الصحية في الملبس والمأكل والمشرب

اذا اشتدت حرارة الجو كما اشتدت في اواسط يونيو الماضي عمد الناس الى كثير من الامور التي لا تخفف وطأة الحر وقد تضر بهم اضراراً بالغة

وأول مايجب ان يشار به في هذا المقام وجوب الانصراف عن التفكير باشتداد الحر او الاهتمام به لان ذلك من افعل الوسائل لتخفيف وطأته. وقد روى الدكتور سدلر الاميركي في هذا الصدد انه كان ماشياً في شوارع شيكاغو في يوم اشتد حره حتى بلغت درجة الحرارة نحو ٣٧ بميزان سنتغراد وهي حرارة عالية جداً اذا قيست بحرارة الجو العادية في شيكاغو فرأى فتاتين تبدو عليهما دلائل الحبور والنشاط فلما اقتربتا من صيدلية امامهما دخلت احداهما الصيدلية في شأن لها ولبثت الاخرى تنتظرها خارجاً فوقع نظرها اتفاقاً على ميزان الحرارة فرأت ان درجتها بلغت ٣٧ بميزان سنتغراد فهرولت الى الداخل تنادي صديقتها قائلة « لاشأن لنا نجول في الشوارع الآن وقد بلغت الحرارة هذه الدرجة من الارتفاع اننا في خطر من الاصابة بالرعن » (ضربة الشمس فهلما بنا الى البيت) ان شعور هذه الفتاة باشتداد الحرارة لم يكن طبيعياً لانها قبل رؤية ميزان الحرارة كانت تسير في الشوارع كأن حرارة الجو عادية او تكاد. ومن هذا القبيل حوادث كثيرة تجري في القطر المصري

لحر الصيف لا مندوحة عنهُ وفي قدرة كل انسان ان يحتمله اذا لم يصرف كل همهِ الى قياس الفرق بين حرارة يومهِ وحرارة امسهِ والتكهن بما تكون عليهِ حرارة غده وفيما يلي ارشادات صحية لا بدَّ من الجري عليها في الصيف لتخفيف وطأة حرهِ

﴿ الطعام والشراب ﴾ — معظم الطعام الذي نأكلهُ ونهضمهُ يتحد بالاكسجين الذي يصل الى الدم عن طريق الرئتين ويتحول الى حرارة . فاذا اكلنا اطعمة من شأنها توليد مقدار كبير من الحرارة لدى اتحادها بالاكسجين كالزبدة والسكر والنشاء زدنا مقدار الحرارة التي تتولد في الجسم وزاد بذلك شعورنا بحرارة الجو ولو لم تكن شديدة . فيجدر بنا ان نكثر من تناول هذه الاطعمة في الشتاء حين تكون حرارة الجو اقل كثيراً من حرارة الجسم فنحتفظ بحرارتنا الطبيعية ولكن حرارة الجو في الصيف تقرب من حرارة الجسم فيجب ان نقلل من هذه الاطعمة ونكثر من تناول الاطعمة التي لا تولد مقداراً كبيراً من الحرارة كالفاكهة والخضراوات على انواعها وعلينا ان نكثر من شرب الاشربة الباردة لانها تكثر افراز العرق والعرق لدى تبخره يبرد الجسم

على ان كثيراً من الناس يكثرون من وضع السكر في اشربتهم الباردة وهذا وهم صحي يجب الاقلاع عنهُ لان السكر كما ذكرنا يولد مقداراً كبيراً من الحرارة حين اتحادهِ بالاكسجين . ومن هذا القبيل اشير بالاكثار من شرب الماء البارد لان الاشربة الاخرى وخصوصاً ما كان من نوع « الدندرمة » يبرّد من يتناولهُ حين تناولهِ ولكن لا يلبث ان يتحوّل الى حرارة في جسمهِ فيعكس فعلهُ الاول

جاءَ اليّ احد المرضى الذين اعالجهم يتبرّم بتأثير الحرّ في جسمهِ مع انهُ يشرب نحو ٢٠ كأساً من الاشربة الباردة في النهار . ولدى الفحص وجدت ان هذه الكؤوس العشرين التي يشربها كل يوم تحتوي على مقدار من السكر يكفي وحدهُ لتوليد ما يحتاج اليهِ الجسم من الحرارة في يوم كامل ومع ذلك فقد كان يتناول طعامهُ ثلاث مرات في اليوم ومعظم ما يتناولهُ كان يتحول الى حرارة ايضاً

يتصوَّر بعض الناس خطأً ان الاكثار من اكل الخضراوات والفاكهة الفجّة يضرّ بالمعدة والصواب ان الخطر الذي قد يصيب المعدة من تناول الخضراوات والفاكهة انما ينجم عن تناولها غير نظيفة اذ قد تكون مكروبات الدوسنطاريا او التيفوئيد عالقة بها وعليهِ فيجب غسلها قبل تناولها

فالمآكل التي يحسن اكلها في الصيف هي : الفاكهة . التفاح . الكرز . العنب . البرتقال . الخوخ . الكمثرى . الاناناس . الكبوش . البطيخ . عصير الفاكهة على اختلافها الخ

الخضراوات — الطماطم . الخرشوف (ارضي شوكي) . الهليون . الفاصوليا الخضراء . الاسبانخ . الكرنب . الكرّاث . الخيار . الباذنجان . الخس . الكوسى الخ

مآكل اخرى — البيض باعتدال . اللبن . السلطة على انواعها

والمآكل التي يجب اجتنابها او الاقلال منها هي : الحبوب والخبز وكل المواد النشائية . انواع الكعك . المكروني . الرز والارغيل . الزيتون وزيتهُ . الجوز واللوز وما اليها . البلح . التين . الموز . البطاطس . اللحوم على انواعها . الفاصوليا المجففة والحمص . الزبدة وكل الادهان . العسل . الدبس . الحلويات . السكر

ولا بدَّ من الانتباه الى المآكل التي قد يتطرق اليها شيء من الفساد لشدة الحرّ وخصوصاً المآكل التي يدخل اللبن في تركيبها او يكون فيها مادة بروتينية كاللحم والجبن . قد تتقيأ او تمرض حين تأكل قطعة من فاكهة تطرق اليها الفساد ولكن مرضك لا يكون مميتاً واما اذا تناولت طعاماً فاسداً وكان من قبيل اللحم او اللبن اي من الاطعمة التي فيها مواد بروتينية فان تناولهُ قد يكون مميتاً

***

﴿ الاستحمام ﴾ — يمكن تخفيف وطأة الحرّ في الليالي بمسح الجسم باسفنجة رطبة وعدم تنشيفهِ فيتبخر الماء وفي اثناء تبخره يتناول من الجسم جانباً من الحرارة اللازمة لتبخيرهِ

كذلك يستحسن ان يعلق في غرفة النوم مثلاً ملاءة رطبة فتبرد جو الغرفة وتخفف وطأة الحر. على ان الملاآت يجب ان تكون تقطر ماء. واذا طال التعرض للشمس وخيف من الاصابة بضربتها (الرعن) فيحسن لف الجسم بملاءة مبلولة ماء

ولا شك ان الحمام البارد كبير الفائدة في انعاش الجسم حين اشتداد الحر على ان الجسم يفرز افرازاته الجلدية في الصيف كما يفرزها في الشتاء ويبقى من هذا الافراز طبقة اقذار يلزم لازالتها حمام فاتر بالصابون او حمام سخن فيجب ان لا يكتفى بالحمام البارد يوماً بعد يوم

والاستحمام في البرك العامة وعلى شواطىء البحر مفيد اذا كان معتدلاً . على ان كثيرين من ضعاف البنية يتعرضون لاضرار صحية خطيرة اذ يطيلون مدة اقامتهم في الماء وغيرهم يتعرض لمثل هذه الاضرار بكثرة تعرضهم لنور الشمس بعد استحمامهم في ماء البحر او ماء بركة عامة . وليس من الحكمة في شيء ان يستحم احد بعد تناول طعام ثقيل

***

﴿ الرياضة ﴾ — يتوهم البعض ان البقاء على شاطىء البحر والتعرض لنور الشمس حتى تدبغ البشرة بلون النحاس مفيد كل الافادة . وعندي ان المكوث على الشاطىء كذلك من غير رياضة او تمرين لا يفيد الجسم كثيراً . ولا بدَّ ان ينتبه كل الذين يصطافون على شواطىء البحر الى ان الخروج عن حدّ الاعتدال في التعرض لنور الشمس قد يكون ضاراً اذ للاشعة التي فوق البنفسجي اذا طال التعرض لها فعلاً قوياً يتلف خلايا الجسم

ولا يخفى ان التعرض لنور الشمس يقوي الجسم على مقاومة امراض الانيميا والكساح وغيرها ولكن يجب تغطية العينين والرأس والسلسلة الفقارية حين التعرّض لها . ويجب التدرج في تمريض الجسم للشمس فيبدأ بتعريضه ثلاث دقائق او اربع دقائق مرتين او ثلاث مرات في اليوم ثم يزاد الى عشر دقائق

ويجب ان تذكر ربات البيوت ان الواح الزجاج التي تصنع منها نوافذنا تحجب الاشعة التي فوق البنفسجي فلا تدخل الغرف . فاذا ارادت أمٌّ ان تضع طفلها في نور الشمس في غرفة من الغرف فلا بدَّ من فتح النوافذ لانهُ اذا اقفلتها حجبت الاشعة التي تفيد الطفل

أما الاصابة « بضربة الحرّ » فلها في الغالب سبب غير شدة الحرّ ومن أسبابها

١ — ادمان المشروبات الروحية والمخدرات

٢ — التعب

٣ — اقفال الغرف وعدم تهويتها

٤ — ازدياد الرطوبة في الهواء

٥ — لبس ملابس ضيقة تضغط على الاعضاء

٦ — الاكثار من اكل اللحوم والاكل فوق الشبع بوجه عام
٧ — الشيخوخة او حداثة السن فالشيوخ والاطفال اكثر الناس تعرضاً لها
٨ — الهم والغم
٩ — الاكثار من تناول الاشربة المثلوجة

ان الرياضة المعتدلة حين اشتداد الحر مفيدة لانها تعد الجسم لافراز العرق وافراز العرق ينعشهُ لدى تبخره . على اني بوجه عام اشير بعدم الرياضة العنيفة في الشمس حين اشتداد الحر

***

﴿ الملابس ﴾ — يجب ان لا نلبس في الصيف ما يمنع الجسم من اشعاع الحرارة التي تتولد فيهِ باتحاد الطعام باكسجين الدم . ولكن يجب ان نلبس ما يكفينا لحفظهِ من التعرض لاشعة الشمس من غير قيد او رابط

فعندي ان لبس البرانيط في الصيف لازم اذ قد ثبت لي ان كثيراً من اصابات الصداع التي عالجتها سببها التجوال في الشمس من غير برنيطة تغطي الرأس . فحين يشتدُّ الحر يجب ان يحفظ الرأس بارداً بقدر الامكان ويجب ايضاً حفظ العينين من وهج النور . واعتقد ان تعريض الرأس لنور الشمس يساعد سقوط الشعر اكثر مما يساعد نموه

واهم ما يجب ان تنظر فيهِ حين اعداد ملابس الصيف هو شراء اقمشة كثيرة الثقوب حتى يسهل اشعاع الحرارة التي تتولد في الجسم . وتفضل الالوان البيضاء او القريبة من البياض لانها لا تمتصُّ الحرارة . كذلك يجب اجتناب كل القمصان والياقات التي غمست بالنشا وكويت فأصبحت كالدرع

ولا شك ان ملابس السيدات في هذا العصر توافقهنَّ كل الموافقة في فصل الصيف لدى اشتداد الحرارة . وفي ذلك قد تغلبنَ على الرجال فقد كان الرجال منذ سنوات ينظرون شزراً الى السيدات ولقد لبسنَ المشدَّات وغيرها مما يعيق النمو والحركة فما قول أسيادي الرجال الآن وقد طرحت السيدات كل ما يعيق نموهنَّ واقبلنَ على ما يطلق الحرية للجسم ولا نزال نحن مقيدين بقيود الياقة المكوية والقميص المكوي الخ

اما برانيط الرجال التي يجب لبسها في الصيف فيجب ان تكون من نوع البرانيط المصنوعة من قش بناما لانها خفيفة الوزن لا تضغط على الرأس فيبقى مهويًّا وتردُّ عنهُ الشمس لانها بيضاء ولها دائر غير ضيق . اما برانيط القش الجامد فلا ارى لبسها مفيداً لانها تضغط على الرأس وتعيق دورة الدم في جلده وبذلك تمهد السبيل للصلع

وما يقال عن ملابس النساء عامة يقال عن احذيتهنَّ التي من نوع الصندال وقد اخذنَ يلبسنها في أثناء النهار ، فهي مرنة لا تتعب الرجل وكثيرة الثقوب يتخللها الهواء فتبقى الرجل مهوية . وليست كذلك أحذية الرجال

الحب والزواج

بحث استقرائي

في مدينة نيويورك مكتب يعرف بمكتب الصحة الاجتماعية ، وجّه طائفة من الاسئلة تتعلق بالحب والزواج الى مائة رجل متزوج والى مائة امرأة متزوجة . والغرض من هذه الاسئلة جمع اكبر قدر من الحقائق من الزواج والحياة الجنسية بالاستقراء . وكان جميع الرجال والنساء الذين وجّهت اليهم هذه الاسئلة من درجة خريجي الجامعات او ما دونها قليلاً ، وكانت اعمالهم متباينة فيهم المهندس والطبيب والمحامي والتاجر . وكان متوسط الدخل السنوي لنصف الرجال اقل من الف جنيه في السنة . وكانت اعمار النساء تختلف من ٢٣ سنة الى ٥٩ سنة وانما سوادهنّ كان بين الثلاثين والاربعين . وقد تبين ان هؤلاء الرجال والنساء حدثت لهم في خلال حياتهم ١٣٥٨ حادثة حبّ قبل الزواج وفي خلاله . والمقال التالي تلخيص لبعض الحقائق العامة التي خلص اليها الباحثون من النظر في هذه الحوادث والاجابة عن المسائل المتعلقة بها

وفيما يلي مثال من الاسئلة التي وجّهت الى النساء

اذكري الشبان الذين أحبَبْتِهم قبل الزواج او بعده وأجيبي عن المسائل الآتية الخاصة بهم :

١ — ما كان عمرك عند بدء كل حبٍّ جديدٍ

٢ — أكان اكبر منك سنًّا او اصغر سنًّا

٣ — ما كان لون عينيه وشعره وبشرته

٤ — أكان طويل القامة او قصيرها او ربعة

٥ — أكان سميناً او دقيق القوام او متوسطاً

٦ — أكان يشبه والدك او احد اشقائك في خلقه ومزاجه ؟

٧ — أكان يشبه والدك او احد اشقائك في مظهره الخارجي ؟

٨ — اي حدّ بلغت مكاشفة الحب بينكما

٩ — كيف انتهى حبكما ؟ واسئلة أخرى من هذا القبيل

وغنيٌّ عن البيان ان الاجابة عن هذه المسائل كانت تتخذ احياناً شكلاً من الحديث فكانت السيدة مثلاً تبسط ما تريد بسطه — بعد تدوين اجابتها — ومندوب المكتب يصغي ويدوّن الحقائق المهمة من دون ان يقول كلمة توجه تيار الحديث في وجهة خاصة . وكان معظم الرجال الذين سئلوا متزوجين نساء غير النساء اللواتي سئلن . وكان معظم النساء اللواتي سئلن متزوجات غير الرجال الذين سئلوا . وقد تبين من دراسة هذه الاجابات وتبويبها ان ثلاث نساء من مائة امرأة، لم يحببنَ في حياتهنّ رجلاً قط وانهنّ غير قادرات على حب من هذا القبيل . أما الباقيات —

وعددهن ٩٧ — فقد حدثت لهن ٦٧٧ حادثة حب بمتوسط ٧ حوادث للمرأة الواحدة . اما الرجال المائة فحدثت لهم ٦٨١ حادثة حب . فمتوسطهم اقل قليلاً من متوسط النساء في هذه الناحية

* * *

كان الحب قبل الزواج توطئة للزواج في حياة هؤلاء الرجال والنساء اذا استثنينا رجلاً واحداً والنساء الثلاث اللواتي قلن انهن لم يحببن رجلاً في حياتهن وامرأتين أخريين . ومن غريب ما تبينه الباحثون ان معظم الرجال والنساء الذين سئلوا عن النساء او الرجال الذين احبوهم في حياتهم لم يذكروا ازواجهم الاّ بعد تذكيرهم . فكانت تقول المرأة مثلاً « آه نسيت ان اذكر زوجي »

في اجوبة هؤلاء الناس تبين الباحثون نواحي من مآسي الزواج . فهنا رجل متزوج يلتقي بسيدة متزوجة فيرى كلٌّ منهما في الآخر عطفاً وتقديراً لا يراها الرجل في زوجته ولا السيدة في زوجها . فيحسان عندئذٍ بأن الزواج كان نوعاً من الوحدة الاليمة ، خفّف وقعها ولادة الاولاد والانصراف الى العناية بشؤونهم . وفي اكثر هذه الحوادث كان الحائل دون تبادل الحب ، احساس المرأة بالواجب عليها نحو اولادها ، واحساس الرجل بالشفقة على زوجته

هذه المآسي تملأ حياة نحو نصف النساء اللواتي سئلن وثلث الرجال الذين سئلوا . ويؤخذ من هذا الاحصاء ان واحدة واربعين امرأة من مائة كنّ يحببن رجالاً غير ازواجهن وتسعة وعشرين رجلاً من مائة كانوا يحبون نساء غير زوجاتهن . ولكن هذه الحالة النفسية في هؤلاء النساء والرجال لم تكن من القوة في الغالب بحيث تحمل على الطلاق والزواج من الشخص المحبوب . وكان لكلّ من هؤلاء النساء والرجال في الغالب عناية خاصة بمطلب من مطالب الحياة يهوّن عليهم ألم الوحدة الذي يحسّون به

ولا يخفى ان من الآراء الحديثة ان الطلاق او الانفصال او انشاء صلات حبية خارج نطاق الزواج يجب ان يعقب هذا الاحساس بفقد الحب بين رجل وزوجته ، او بين امرأة وزوجها . وان الطلاق او الانفصال او اتخاذ خليلة دليل على اثبات حرية الانسان وتعزيز لاستقلاله . فهل دلّت احصاءات هؤلاء الباحثين على ان الذين يفعلون ذلك يفوزون بنصيب اكبر من الرضا ؟

يؤخذ من تبويب الاجابات ، ان ٥١ في المائة من الرجال و ٤٥ في المائة من النساء كانوا راضين عن حالتهم الزوجية . اما الرجال والنساء الذين كانوا غير راضين عن حالتهم الزوجية ففريقان . فريق حافظ على عهود الزوجية . وفريق لم يحافظ عليها

فمن الرجال ٢٨ رجلاً اقرّوا بعدم محافظتهم على عهود الزواج ولكن ثمانية فقط منهم — او ٢٩ في المائة — اعترفوا بأنهم ما يزالون راضين بحالتهم الزوجية . ومنهم ٧٢ رجلاً انكروا خيانتهم لعهود الزواج ومنهم ٤٣ رجلاً منهم — اي ٦٠ في المائة — اقرّوا برضائهم بحالتهم الزوجية

ومن النساء ٢٤ امرأة اقررن بخيانتهن لعهود الزواج — واربع منهن فقط اي ١٧ في المائة — راضيات عن حالتهن الزوجية

ومنهن ٧٦ امرأة حافظن على عهود الزواج . وقد اقرّت ٤١ امرأة منهن — اي ٥٤ في المائة — انهن راضيات عن حالتهن الزوجية

فهذا الاحصاء يتجه الى اثبات ان انشاء علاقات الحب خارج نطاق الزوجية ؛ لا يزيد الرضا بالحالة الزوجية بل على الضد من ذلك يزيد التبرّم بها

***

اذا انتقلنا من هذه الناحية الى ناحية صلة العمر بحوادث الحب ظهر لنا ما يمكن تلخيصه في الجدول التالي

العمر	عدد حوادث الحب للرجل — متوسط	عدد حوادث الحب للمرأة — متوسط
٦ — ١٢	٠٫٦٣	٠٫٥٧
١٢ — ١٥	١٫٥٠	١٫٤٤
١٦ — ٢٠	١٫٥٦	٢٫٣٢
٢١ — ٢٥	١٫٦٨	١٫٣٣
٢٦ — ٢٩	١٫٠٣	٠٫٧٦
٣٠ — ٣٤	٠٫٧٩	٠٫٥٦
٣٥ — ٣٩	٠٫٣٤	٠٫٣٥
٤٠ وما فوقها	٠٫٤٣	٠٫٦٤

فالرجل بحسب هذا الجدول يسبق المرأة في العهد الاول ، أو هي في الواقع تتخلّف عنهُ . ولكن النساء اسرع نموًّا من الرجال شعوراً وجسداً ولذلك يبلغن اقصى مدى في حوادثهما الحبية في ما بين السادسة عشرة والعشرين (المتوسط لهن حينئذٍ ٢٫٣٢) واما الرجال فلا يبلغون اقصى مداهم الاّ بين الحادية والعشرين والخامسة والعشرين ومع ذلك فتوسطهم في هذه الفترة (١٫٦٨) هو دون متوسط النساء في الفترة السابقة . وبعد ذلك ينحدر متوسط الجنسين ولكن انحدار متوسط الرجال ابطأ من انحدار متوسط النساء كما كان ارتفاع متوسطهم ابطأ من ارتفاع متوسطهن

وعند ما يبلغ الفريقان سنّ الاربعين تستيقظ فيهم صبوة جديدة بحسب هذه الاحصاءات فيزيد متوسط حوادث الحب في حياة الرجال من ٠٫٣٤ الى ٠٫٤٣ ولكن الزيادة في حياة النساء اكبر جدًّا لان المتوسط ينتقل من ٠٫٣٥ (وهو مثل متوسط الرجال في تلك الفترة) الى ٠٫٦٤ اي زيادة نحو ٣٠ في المائة في الفترة نفسها. ولعلّنا نجد تعليلاً لذلك في ان المرأة اذا بلغت هذه السن ، تكون قد انهت في الغالب من العناية الدائمة بشؤون اطفالها ؛ فتتسع حياتها حينئذٍ لبواعث الحب والخيال

ما العلاقة بين سن المحب وسن المحبوب ؟

الاعتقاد الشائع يقضي بأن يكون الزوج اكبر قليلاً من الزوجة . ولهذا سبب فسيولوجي

وأكثر تأسياً. فالمرأة تسبق الرجل نمواً، جسماً وانفعالاً. فيجب عليها ان تتزوج من هو اكبر منها حتى تتزوج كفؤاً. والرأي السائد يقول ان الفتيات في الغالب يهمن برجال تخطوا الشباب الى الكهولة. والشبان يهيمون بنساء اكتملت فيهن صفات الانوثة. وان الكهول ينعطفون الى الصبايا. والكهلات الى الشبان. وهذا كله تؤيده الاحصاءات التالية:

	رجال احبوا نساء اكبر منهم سناً	نساء احببن رجالاً اكبر منهن سناً	رجال احبوا نساء اصغر منهم سناً	نساء احببن رجالاً اصغر منهن سناً
١٠—١٩	١٧ ٪	٣٥ ٪	٤ر٠ ٪	٠ ٪
٢٠—٢٩	١١ ٪	٤١ ٪	١٣ ٪	١
٣٠—٣٩	٦ ٪	٣٧ ٪	٥٦ ٪	١٩ ٪
٤٠ وما فوقها	١ ٪	١٩ ٪	٨٠ ٪	٣٨ ٪

فالقارىء يتبين من هذا الجدول ان الفتيان والفتيات يحبون رجالاً ونساء اكبر منهم في ما بين السنة العاشرة والسنة التاسعة عشرة وان هذه الصفة في الفتيات ابرز وأعم منها في الفتيان. ولكن قلما تجد في هذه السن احداثاً يحبون من كان اصغر منهم من الجنس المقابل. فالاحصاء يبين انهُ لم توجد فتاة واحدة احبت فتى اصغر منها سناً. وان نسبة الفتيان الذين احبوا فتيات اصغر منهم سناً ٤ في المائة فقط. أما في السطر الاخير من هذا الجدول فترى الآية وقد عكست. فلست تجد الاَّ ١ في المائة من الرجال فوق الاربعين أحبّوا امرأة أكبر منهم سناً. ونسبة النساء في هذه الناحية (١٩) ولكنها أقل في هذه السن منها في الادوار السابقة. ولكن ثمانين في المائة من الرجال — في سن الاربعين أو فوقه — يميلون الى من كان أصغر منهم سناً من النساء، وكذلك النساء في هذا الدور من الحياة يملن الى من كان اصغر منهن سناً من الرجال

وقد بيّنت في الاحصاءات ان الرجال او النساء الذين حدثت لهم خمس حوادث حب او دون ذلك اكثر سعادة في الزواج من الرجال او النساء الذين أربت حوادث حبهم على ذلك. ومن غرائب ما جاء ان احد الرجال حدثت لهُ ٢٧ حادثة حب ولكن « وقع » على حد التعبير العربي السائر، فكان شقياً في زواجهِ. واليك البيان:

﴿ من الرجال ﴾ — ٦٦ رجلاً وقعت لكلّ منهم خمس حوادث حب او اقل — ٥٩ في المائة منهم سعيد في زواجهِ. و ٥٤ رجلاً وقعت لكلّ منهم اكثر من خمس حوادث حب — ٢٤ في المائة منهم سعيد في زواجه

﴿ من النساء ﴾ — ٣٩ امرأة وقعت لكل منهن خمس حوادث حب او اقل — ٥٩ في المائة منهن سعيدات في زواجهن و٨٥ امرأة وقت لكلّ منهنّ خمس حوادث حب — ٢٨ في المائة سعيدة في زواجهن

وفي الحالين نسبة السعداء من الفريق الاول في الجنسين اعلى من نسبتهم في الفريق الثاني



تقدير الكتب

١ — ديوان عبد المطلب

قامت بطبعه ونشره مطبعة الاعتماد سنة ١٩٣٤

وقف على طبعه الاستاذ محمد الهراوي وشرحه وصححه الاستاذان (ابراهيم الابياري) و (عبد الحفيظ شلبي)

كان عبد المطلب رحمه الله — على كثرة ما يطارده من الامراض — فتيًّا تسمع لحديثه رنات مجلجلات كأنما يتكلم وحده في بيداء تتداعى اصداؤها ، وكانت الكلمات العربية الخالصة تتحدّر من لسانه ومن بين شفتيه وعليها ميسم العرب الخُلَّص الا في قليل من الحروف ، وذلك القليل هو حرف (الضاد) فاني كنت اسمعهُ ينطقه على لهجتنا (اعني اهل مصر) كأنهُ دال مفخمة (١) ، وكان الرجل في احساسه بوداد اصدقائه كأنما خلقت اعصابه كلها من المادة التي يُخلق منها القلب الرقيق الوفيّ ، ولذلك كان اهون الناس عداوة على الرغم مما ترى من شدته وجفائه في الخصومة ، ولذلك ايضاً كان أحسن الناس تقديراً لمعاصريه من الادباء لا يداخله في ذلك حسد . هذا الاحساس الرقيق وحده كان هو موضع الشعر في عبد المطلب ، فاذا صعب على اصحابنا من الادباء ان يعدّوا شعر عبد المطلب كله من عالي الشعر في هذا العصر ، فليس منهم من يستطيع ان ينسى ان رجلاً من الرجال اسمهُ عبد المطلب رحمة الله عليه كان كما خلق انسانية من الشعر لا انساناً من الشعراء

وأنا حين اقرأ شعر عبد المطلب لا اشك ساعة في أمرين . اما احدهما : فكون هذا الشعر ليس من النمط العالي الذي تقوم بهِ البلاغة العربية في هذا العصر وان كان هو من حيث العربية وعلومها من جيد الكلام وجزلهِ ورصينهِ ومحكمهِ . فان اتساع الفكرة في هذا الزمن ثم بساطتها ثم خفاء موضع الفلسفة العالية فيها ، ثم تغلغل النظرة الفلسفية الى أعماق الحقيقة الحية في الكون هو رأس ما يمتاز بهِ كبار الافذاذ والبلغاء في عصرنا هذا . وهو النوع الذي لم تعرفهُ العربية الا في القليل من شعرائها ، وفي القليل من شعر هؤلاء الشعراء . وليس في العربية من هذا النوع الا معجزتان :

---

(١) اما النطق العربي الصحيح (للضاد) فهو قريب الشبه بالظاء ، مع اختلاف المخارج فان مخرج الضاد من اول حافة وما يليه من الاضراس من الجانب الايسر وهذا الحرف يستطيل في النطق به حتى يتصل بمخرج اللام وهو الحرف الوحيد الذي يسمى (المستطيل) لما فيه من القوة بالجهر والاطباق والاستعلاء

احداها القرآن ، والاخرى ما صحَّ من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فتبهما وحدهما تبلغ الفكرة في نفسها ، ثم بتعبيرها والفاظها، ثم بشمول معانيها لجميع الحقائق الواشجة بها ، ثم بسريانها من الفاظها وكلماتها مسرى الرَّوْح المعطر في جوّ السَّحَر ؛ ثم فوق ذلك كله البساطة واللين والتقارب والتعاطف بين هذه المعاني كلها — تقول يبلغ هـذا كلهُ مبلغاً يكون منه ما هو كنسيم الجنة في طيبه ونعمته ، ويكون منه ما هو كَزّ المواسي في علائق القلوب ، ويكون منهُ ما هو كالنار تستعر وتتلذع ، ويكون منهُ ما ينتظم البنيان الانساني البليغ المتفهم فيهزه هزّ الزلزلة أعصاب الأرض وبهذا كان القرآن معجزاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبمثله كان حديث الرسول صلى الله عليه وسلم هو ذروة البلاغة البشرية التي تنقطع دونها أعناق الرجال . . . . .

***

اما الامر الآخر الذي لا اشك فيه حين اقرأ شعر عبد المطلب ، فهو هذه الحياة التي تترقرق في شعره وان كان هذا الشعر تبعةُ على الخط الذي يسمونه (التقليدي) ، فهو يصف الابل ويتغزل لافتتاح القصيدة ثم يتخلص من غزله الى المدح او اي كان من اغراض الشعر الى غير ذلك من الملامح التي يحفظها هذا الشعر الحديث لشعر آبائنا رحمهم الله في عصورهم الماضية . فالعجب ان يكون عبد المطلب وهو الرجل العربي الذي احتفظ بعربيته في القرن العشرين يحاكي شعر اجدادنا واجداده ولا يخرج الشعر من فكره قاراً ميتاً بل يخرج وهو يتحرك وينبض وكأنهُ شعر عصره الذي كان يمكن ان يقال فيه هـذا هو العجب . وهو عندي الدليل الوحيد على ما كان في نفس عبد المطلب رحمة الله عليه من اسباب الشعر ومادته الحية .

فكانت مقدرة هذا الرجل الشاعر في نقله صورة من القرون الماضية وحياتها الى القرن العشرين ... نقل هذه الصورة ولم يدعها كما أتته بل ارسل فيها من شاعريته ، ما احياها ونفخ فيها الرُّوح حتى لا يشك المرء في انها لا تزال حية بين يديه مع اختلاف الازمان عليها وتطاول العصور بها . ومن هنا كان يسمي نفسه بالشاعر البدويّ لانهُ هو الذي استطاع في شعره ان يعطينا صورة حيـة من انسانية قد مضت ونفذ بها الاجل في ثوب من العربية الفصيحة التي لا عجمة فيها ولا فساد

***

هذا هو الشاعر البدوي كما بدا لنا قبل ان نقرأ ديوانهُ مجموعاً وبعد ان قرأناه ديوانهُ مطبوعاً فمن شاء ان يختار لدراسة الشعر القديم استاذاً يهديه فليرجع الى ديوان عبد المطلب فسيسهل عليه بعد ذلك ان يحس بجمال الشعر البدويّ حين يقرؤه لامرىء القيس وغيره من شعراء الجاهلية ومن جاء على آثارهم . وليعذرنا القارىء اذا بدا له اننا لم نختر لعبد المطلب ما نثبته في هذه الكلمة ، فان باب الكتب في هذا الشهر لا يحتمل اكثر مما كتبنا ، وليرجع الى الديوان نفسه وليقس على ما قلناه فسيجد ذلك صواباً — ان شاء الله

٢ — مرشد المتعلم

تأليف السر (جون ادمز) استاذ التربية بجامعة لندن سابقاً — وترجمة الاستاذ (محمد احمد الغمراوي) خريج المعلمين العليا وجامعة لندن والمدرس بكلية الطب — من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر بدار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤

الاستاذ الغمراوي كما عرفتهُ من سنين رجل موفق فيما يتعمده من الامور . مرتّب الحديث كأنما يحدثك عن كتاب ، واسع الفكرة بسيطها حتى ليخيل اليك احياناً انهُ يتكلّم بكلام يتداولهُ الناس لا اثر للفكر الدقيق فيهِ . ولكنك اذا راجعت نفسك فيما تسمع رأيت التوفيق معانقاً بالترتيب، مقدَّراً بالفكرة ، محفوفاً بالبساطة والحرية والجمال . واذا اردت ان تتبيَّن ما وصفنا لك فاقرأ كتاباً يؤلفهُ رجلٌ يدرّس الكيمياء وربق عليها من شبابه ، في باب يتباعدُ ما بينهُ وبين الكيمياء وهو الادب . اقرأ كتابهُ الذي ألّفهُ في ردّ الرأي الذي اذاعهُ الدكتور طه حسين عن الشعر الجاهلي فسترى كيف (يحلل) هذا الكيميائي كتاب الدكتور طه ويصنف لك في (تحليله) انواع الجراثيم الفكرية التي وتمت فيهِ ، ويقيدها لك بسلاسل من العلم ، ويضع لك الدواء الذي يذهب بها ويميتها ونحن لا نقول هذه الكلمة لننتصر برجل على رجل ، بل نقولها لأن الحقيقة تفرض علينا أن نقول ذلك وان ندعو — ما تعرَّضت الفرصة — الى قراءة هذا الكتاب الذي لا غنى لاحد من الادباء عنهُ لانهُ هو الكتاب الذي ادخل في الادب دقة التحليل الكيميائي ومزج بين الفكرة العلمية المتلبّثة المتثبّتة ، وبين الفكرة الادبية الخيالية الجامحة واخرج منهما (مزيجاً) شافياً لما انتشر عندنا من الامراض الادبية الكثيرة

قلنا ان الغمراوي رجلٌ موفّق فمما رأينا من توفيقه اختياره كتاب (مرشد المتعلم) للترجمة . فان المتعلمين في مصر وغيرها من بلاد العربية بل الذين يعدُّون انفسهم من شيوخ المثقفين وكبار النابغين ! ! هم احوجُ الناس في الارشاد الى مثل هذا الكتاب . ولعلّ كثيراً من الذين يسمعون قولنا هذا او يقرأونه يكبر عليهم ان يكون ذلك كذلك . ولكن هذه هي الحقيقة لا تحجبها عنا الآنَ كبرياء النفس المتعالية . لقد كان القدماء من آبائنا رضوان الله عليهم يتخذون من شيوخهم امثلة يسترشدون بها ، وكانوا اقدر منا على ذلك لشدة تعلق الطالب منهم بشيخه من العلماء فهو يتشبه به ما استطاع ، ويسأله عن اشياء من صغائر العلم وأدب طلبه، يستحي احد طلبتنا الآن ان يسأل عنها اباه او اخاه او استاذه . ثم ان العلماء من المتقدمين كانوا يعمدون الى طريقة بارعة في التدريس وهي التي يسمونها (التوقيف) ومعناها ان يدلّ الشيخ ولده او مريدهُ من الطلبة على اصول الشيء الذي يتلقاه عنه ويبسطها له ويدربه عليها ، ثم يتركه يقيس عليها ثم يصحح له قياسه ان اخطأ . ولا يذهبنَّ بأحد ان هذا يشبه ما يسمونه الآن (بالتطبيق) فان الفرق بينهما بيّن وليس هنا موضع تفصيل ذلك

فهذا التوقيف الذي كان يقال في الايام الماضية ولا يقيد بالكتاب قد جاء في كتاب المرجون ادمن طرف بارع منه حاو لاكثر ما يحتاج اليه المتعلم صغيراً وكبيراً او كما يقولون (من المهد الى اللحد) ، فهذا هو الباب الاول من التوفيق في ترجمة هذا الكتاب

ثم يلي ذلك الباب الثاني من التوفيق وهو في طريقة الترجمة ، فان المترجم حين تعرض لها لم ينسَ ما ينساه جمهرة المترجمين في هذا العصر ، وهو مقدار التخالف بين الامة التي الف لها ثم فيها الكتاب . وبين الامة التي يترجم لها وفي بلادها هذا الكتاب بعينه . وهذا امر حتم على كل من يتصدّر للترجمة ، فربَّ مضرة استجلبها المترجم على قارىء كتابه بنسيان مقدار هذا التخالف بين الامتين . ولكن الغمراوي امسك المفتاح بيده وأداره في الكتاب كله فتفتحت له وللقراء من بعده مغالق الرأي ، وكانت الفائدة اجل وأعظم وأوفى . وسيرى قارىء الكتاب حين يتمشى في صفحاته المثمرة كيف وفق الغمراوي كل التوفيق حين ترجم هذا الكتاب

اما التوفيق الثالث فهو اسلوب المترجم في كتابه وهذا امر يفرغ من الاقتناع به كل من يقابل صفحات من الاصل الانكليزي بأخواتها من الترجمة

أما خير ما وفق اليه المترجم فهو الفصل الاخير وهو الملحق بالفصل السابع من اصل المؤلف وفيه ذكر كتب المراجع في العربية . وذلك ان الفصل السابع عند مؤلف الكتاب كان في كتب المراجع الانجليزية فاستدرك الغمراوي ما يفوت غيره واستوفى باباً هو اول ما رأيته مما كتب عن المراجع التي يحتاج اليها طالب العلم العربي . لم يترك مؤلف هذا الفصل باباً من ابواب العلم العربي المتداول بين الناس الاّ ذكر لك فيه طرفاً من الكتب الاول التي لا يستغني عنها متعلم او متخصص في علم بعينه

ونحن لو ذهبنا نستقصي توفيق هذا الرجل في ترجمة كتابه اولاً ثم في الفصل الملحق ، وذكرنا من الحوادث والاخبار التي تذكرناها حين قرأنا في فصوله ، مما يدل على حاجة كبار المثقفين منا الى الاسترشاد به لادخلنا الضيم على صفحات نقد الكتب من هذه المجلة . فقصارى ما نعمل هنا ان نحمل شكر الامة العربية الى هذا المترجم البارع ثم نسأل الله ان يزيده فيما هو بسبيله توفيقاً وهدًى ، وان يهدي قراءنا وادباءنا الى الاستفادة من (كتاب مرشد المتعلم) فان فيه — ان شاء الله — ري النفس ، وهدى العقل ، واطمئنان القلب الى طريقة محكمة في التحصيل والتفكير

٣ — مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام

تأليف الاستاذ محمد عبد الله عنان . طبعة ثانية بدار الكتب المصرية سنة ١٣٥٢ ، سنة ١٩٣٤

ظهر هذا الكتاب من عدة سنوات فلقي من الانتشار وأُلقي عليه من المحبة ما لا تبلغه كثير من الكتب العربية التي تطبع في بلادنا . وسبب ذلك على الارجح ما لهذا الغرض بعينه من الشوق في قلوب الناس من أهل الشرق . فطغيان الحياة الاوربية التي تنتقل الينا على ظهور البواخر كل يوم

وعلى ظهور الآدميين وعقولهم وشهواتهم بما فيها من الفساد والضعف والانحلال ، وبما فيها من العلم والقوة والنبوغ ايضاً . فهو من أتم ما يحفز اكثر المثقفين المفكرين الى درس المواقف التي كانت سبب التحاجز بين أمم الغرب والامة العربية المسلمة . تلك المواقف التي جعلت التاريخ الاسلامي صورة يلمسها ابناء الاسلام ، ويحقق النظر فيها علماء الامم المسيحية ليأخذوا منها العبرة الباقية على مدى العصور واضحة جلية مفسوحة مبينة

المواقف الحاسمة التي وقفت من سيل المسلمين بدينهم ومرّنت الامم المسيحية على خُلُق المسلمين وآدابهم وعاداتهم وشيء من دينهم : كانت ولا تزال مادة للتاريخ الحي الذي يجب على كل شرقي ان يوجد العناية به في نفسه ان كان لا يجدها ، وذلك لما فيها من مفاخر السلف العاملين ، وفي هذه المفاخر اصول للقدوة والاتباع فيها إنقاذ الحياة الشرقية من الفوضى والجهل ، واستخلاصها من براثن الاستعمار الذي لا يدع للقوي قوة يفزع اليها ، ولا للضعيف عدة يستنصر بها

ولعلَّ أول من اعتنى من كتّاب العصر الحديث بهذا هو الاستاذ محمد عبدالله عنان فقد كتب كتابه هذا باذلاً اقصى الجهد في تحقيق ما هو بسبيله من التاريخ على قدر ما يكون في طاقته مخلصاً في ذلك كل الاخلاص . ولهذا الاخلاص يغتفر له من يقرأ كتابه بعض الزلات . ولهذا نفسه كان هو اول من رجع على فصول كتابه بالتعقيب فنقح منها وزاد فيها ما صحّ له من العلم . وهذا وحده فخر عظيم للاستاذ يجعله دائماً في طليعة من يريد العلم للعلم . لا للشهرة والاسم

ولا نزيد قراءنا تعريفاً بالكتاب وكاتبه ، فالكتاب قد أخذ قسطاً وافراً من الشهرة في الامم الشرقية والغربية ، والكاتب له في قلوب الشرقيين مكانة ومودة . ويبقى علينا ان ننبه الى شيء جديد وهو ان هذا الكتاب يكاد يختلف اختلافاً كبيراً عن الطبعة الاولى منه ، لما فيه من الفصول التي اضيفت له ، وما دخله من التغيير والتنقيح حتى اصبح كتاباً مستقلاً يضارع الطبعة الاولى منه . فلا غنى لمن عنده الطبعة الاولى عن اقتناء الطبعة الثانية ، ونرجو ان يوفق الاستاذ في طبعته الثالثة الى اضافة فصول جديدة وادخال تنقيح جديد في ابواب كتابه فان من كلمة يكتبها أحدنا اليوم والاّ ويصبح وقد بدا له فيها . وهذا هو السر في تجدد العلم . وهو سرّ العقول النابغة التي لا تفتر ولا تمل

محمود محمد شاكر

وراء الغمام

اشعار الدكتور ابراهيم ناجي — صفحاته ٢٠٢ قطع صغير — طبع بمطبعة التعاون

اختلف النقاد في الحكم على شعر الدكتور ناجي . فهبط به جانبهم الى الحضيض ورفعه بعضهم الى السماك . والنقد فنٌّ او هو ضرب من الفن . والفن نظرة الى الحياة ومعانيها والكون واسراره من خلال المزاج الخاص . لذلك كان كلُّ نقد حكماً خاصاً لا يمكن ان يسري سريان الحكم العلمي . لان هذا اذا أيدته التجارب وجب التسليم به سواءٌ ارضيت عنهُ أم لم ترضَ . وقد ينظر شاعران

الى مشهد واحد ، فيراه احدهما على وجه يختلف عن الوجه الذي يراه عليه الآخر . او قد ينظر ناقدان الى صورة واحدة لرجل معين ، فيهملها الواحد لانها اعلى من شأن صفة في الرجل لا يهمهُ شأنها ويكبرها الآخر لان تلك الصفة نفسها في نظره من اعلى مناقب الرجال . وليس في مستطاعك ان تقول ان هذا اخطأ او ان ذاك اصاب ، وجلُّ ما تستطيعهُ ان النظرتين اختلفتا

ولا يمكنك ان تعلل الاختلاف في حكم النقاد على شعر ناجي الاَّ اذا ادركت هذه الحقيقة الاساسية في فلسفة النقد

فأَنت مثلاً رجلٌ ظلمتك الحياة فبددت حقائقُها القاسية احلامك بعد ما اسبغت عليها من الوانها كلَّ زاهٍ وطروب ، فيعجبك قول هذا الشاعر

اشتري الاحلام في سوق المنى وابيع العمر في سوق الهموم

وتتأمل في نفسك وتراه يعبر في بيته اصدق تعبير عن الحياة : فاذا كنت من الذين اصابوا النجاح على الطريقة الاميركية ، احتقرت الاحلام والمنى والهموم ، وقلت ما هذا الهذيان

او قد تكون رجلاً تعوَّد الشعور بالتبعة ، ادبية كانت او غير ادبية ، فيتعذر عليك ان تطلق نفسك في مجلس شعارهُ المرح والمزاح . فتحسُّ بانقباض لذلك في بعض الاحيان، لانك اذا استطعت ان تمرح وتمزح خففت عما يساورك وأحسست انك وصحبك كالراح والماء، تتجاوب نفوسكم ، وفي هذا التجاوب اعلى معاني الصحبة والصداقة . فاذا كان هذا التجاوب متعذراً عليك اعليت من شأن شاعرنا حيث يقول

لِمَ لا تذوق كؤوسهم شفتي ؟ ان الحيا سمي وتدميري
في ذمة الشيطان فلسفتي ورزانتي ووقار تفكيري

فاذا كنت ممن يغشون المجالس ويستسلمون الى المزاح ، والتنادر السخيف ، قلت ما هذا الرجل المتعالي لانهُ وعى بعض حقائق ونظريات ، تفوقه فيها كتب قليلة

او قد تكون من الذين تشوقهم معاني الحب ، وذكرياته في عهد الصبا فتطرب اذ تقرأ له :

هل رأى الحب سكارى قبلنا كم بقينا من خيال حولنا
ومشينا في طريق مقمرٍ تثب الفرحة فيه قبلنا
وتطلعنا الى انجمهِ فتهاوين وأصبحنا لنا
وضحكنا ضحك طفلين معاً وعدونا فسبقنا ظلنا

او اذا كنت ممن يتأمل في حقائق الحياة ، فتثقل على طبعك منها الرياء والزور والضمار ، وطلبت العزلة لعل فيها بره النفس عن طريق الانصال بحقيقة الوجود الكبرى رأيت في قصيدة «الليالي» قوله

مكاني الهادىء البعيدْ كن لي مجيراً من الانام
قد أمسك الهارب الطريد فآره أنت والظلام

قد صار حب الحياة منا يقنع بالجيفة السباع
وعلّم السفح ان ينثنا وثبّت الجبن في الطباع

تألقت في حياة العوالم مهزلة الموت والحياه
وصورة القيد في المعاصم ووصمة الذل في الجباه

فالشاعر الذي يستطيع ان يعرب عن هذه الحالات النفسية ، وغيرها ، هذا الاعراب الناصع ، جدير منا بالاكبار

والواقع ان رجلاً كناجي ، واسع الاطلاع على الادب الاوربي بوجه عام والادب الانكليزي بوجه خاص ، مجرّب لانهُ خبر الحياة كطبيب ممارس ، مرهف الاحساس دقيق الشعور ، لا يمكن ان يكون كلُّ ما يقولهُ من سقط المتاع . فالعقل لا يقبل مثل هذا الحكم الحاسم . ونحن لا ننصب انفسنا للدفاع عنهُ ، وانما للدفاع عن سجية الانصاف في تقدير الادب والادباء

قد يسفُّ الشاعر احياناً ، واي شاعر سلم من ذلك . وقد يكون طبيباً وعالماً واديباً واسع الاطلاع ولا يكون شاعراً . ولكن من عرف ناجي عرف ان تركيبهُ العصبي تركيب شاعر . اسمعتهُ يتغنى ببيت من الشعر لهُ او لغيره ؟ ارأيت الَقة عينيه وهو يصغي الى الشعر الجيد ؟ اشهدتهُ ينفعل لمشهد يُرى او لحكاية تُروى او لذكرى تستعاد ؟ اتبينت في شعره رجع الحوادث في نفسه ؟ قد تكون اداتهُ اللغوية غير كاملة لتأدية اغراضه . او قد يختار هو عمداً بعض التعبيرات التي تجري على السنة العامة لحكمة خاصة . ومثل هذه التعبيرات لم تنتقص من قيمة روبرت برنز كشاعر كبير . وقد تكون موضوعاتهُ محدودة محصورة في ناحية واحدة او بضع نواحٍ من الحياة ، ولكن اذا كان الحصر لا يمنع الترداد ، ويقي من التقليد ، فانعم به . فالعبرة في الشعر بصدق الشعور وصدق البيان ، وناجي اصاب من هذين قسطاً وافراً

مجلة العرفان

اصدرت زميلتنا مجلة العرفان بصيدا العدد الخامس والسادس لسنة ١٣٥٢ في جزء واحد تكلم عن العراق . وهو رحلة الى العراق قد طالت زمناً حتى استطاع الاستاذ احمد عارف الزين صاحب المجلة ان يستوفي الدقائق التي تخفى على الكثيرين واثبتها في هذا العدد وقد زاد هذا العدد خطراً على خطره ما اثبته الرحالة من تاريخ البلدان التي مرَّ بها او مكث فيها ، وتنبه الى دقائق في تاريخ تلك البلاد وفق فيها كل التوفيق ولم يخل مع ذلك من كثير من النظرات في الحالة الاجتماعية فوصفها أدق وصف ، وزاد على ذلك ما فيه من ذكر وجهاء البلاد التي مرَّ بها وعلمائها وشعرائها وساستها الى غيرهم من طبقات الناس فهذا العدد هو احفل من اي كتاب آخر فيما يتعلق ببلاد العرب المذكورة فيه . ومجلتنا تهنىء مجلة العرفان بما وفقت اليه وتعتذر عن تأخير الكتابة عن عددها هذا لما كان حدث من اختلاط بعض الكتب وشتاتها

شخصيات شرقية

مهاتما غاندي — غاندي والحركة الهندية — مصطفى كمال — ابن سعود — عصمت باشا

— ١ —

مهاتما غاندي ترجمة على لسانه . نقله اسماعيل مظهر . طبع بمطبعة عيسى الحلبي بمصر عدد صفحاته ٢٨٦ (ترجمة)

وضع المؤرخون والمؤلفون في شتى اللغات فوق الاربعة آلاف مؤلف عن نابليون وما زال المؤلفون والمؤرخون يجدون مجال القول فسيحاً في نابغة الحروب وعبقريها . ففي كل حقبة من الزمن يطلع علينا نابليون جديد على قلم كاتب جديد . ولا بدع فكل سيرة من هذه السيَر تاريخ عصر بأسره. وشخصية العبقري بأعمالها العظيمة فسحة من الدهر ممدودة الرواق على الغد موصولة الملائق بالامس هدمت الماضي وبنت للمستقبل مما ليس في وسع كاتب واحد ان يحصر اشعة لمعانها ويحصي أنجم اشراقها ويطوق نواحيها الكثيرة . اذاً ما على الاستاذين الكبيرين اسماعيل مظهر وسلامه موسى ان يعتذرا للقارئين على اصدارهما كتابين اثنين في زمن واحد عن رجل واحد بل لهما ان يغتبطا فكلٌّ من كتابيهما مكمل للآخر ولكلٍّ منهما شخصية ممتازة

ان بعض الرجال العظام يدوّن مذكراته بيده ومنهم من يستكتب سواه ومنهم من لا يكتب ولا يستكتب فيسلم شخصيته بعد موته لاقلام المترجمين يتصرفون بها كما يوحي اليهم تفهمهم وعلمهم وتجردهم ووجدانهم . والكتاب الذي عنوانه : « مهاتما غاندي » مكتوب بقلم غاندي ومنشور بعناية المستر اندروز ومترجم بيراعة اسماعيل مظهر فهو يحتوي على ثلاثة رموز للاخلاص فغاندي أنصف نفسه واندروز صديق غاندي أنصف الصداقة واسماعيل مظهر أنصف امانة النقل والترجمة

يستهويك في هذا الكتاب اسلوبه المغري فأنت تطالع سيرة غاندي بشكل روائي لا ملل فيه ولا سأم . وتعبيرهُ جميل لا كلفة فيه ولا تثاقل . ويستهويك فيه موضوعه ألا وهو غاندي ، وانشاؤه ألا وهو لاسماعيل مظهر

ان الهند مكمن الاسرار وغاندي سر المكمن ومن الصعب دراسة شخصيته ومنشأه ومنحاه ونفسيته وتطورها وهو بعيد عن عين الدارس واذنه لذلك نعلق بكتاب اسماعيل مظهر شأناً خاصاً لانهُ مكتوب بقلم صاحب السيرة نفسه افرغ فيه غاندي كل ما يعلم عن نفسه وما يشعر بهِ فقد تكلم عما حدث لهُ وعما كاد ان يحدث لهُ وعما يجب ان يكون فظهرت في مذكراته الحوادث الواقعية والعوامل الداخلية والخفايا السياسية . ولولا حديث غاندي عن نفسه لما عرفنا انهُ يكره النصرانية (صفحة ٣٨) ولما سمعنا بالفتاة المستخدمة في مكتبه التي كانت تستشيره في أمر زواجها فينصحها ويعنى بأمرها عناية الاب بالابن وهي ناحية جديدة جديرة بالدرس لملاقتها بشعور زعيم مفروض فيه

الحنان على ابناء وطنه . نعم ان غاندي كان يكره النصرانية في حداثته ولكنهُ — كما يقول — يدين بدين : « قابل الاساءة بالاحسان » وهو مبدأ مسيحي . وغاندي يكره سياسة الاسلام في الهند ولم يقل انهُ يكره المسلمين كما انهُ لا يكره من النصرانية سوى بعض اساليبها ومظاهرها والحقيقة ان غاندي وان راض نفسه على ان يكون متسامحاً نحو الاديان الاخرى اي غير النصرانية فان ذلك لم يكن معناه انهُ يعتقد في وجود الله (صفحة ٣٩)

يحدّثك غاندي عن مولده ومسكنه وأيام المدرسة والحداثة وعن باكورة شبابه ورحلته الى لندن والعودة الى الهند ويعرض عليك اخبار حرب البوير وثورة الزولو ويقص اخبار السجن وحياته فيه ثم ينتهي بك الى لذة الانتصار ولكنهُ لا يفصّل تشعُّب المفاوضات ولا يدخل في صميم المشكلة السياسة القائمة بين انكلترا والهند ولا يصف لك حلولها وعلاجها لان الكتاب ينتهي عند مرحلة معيّنة في حياتهِ خُتِيمت قبل ان تصبح مشكلة الهند من المشكلات الكبرى التي تعانيها الامبراطورية البريطانية والهند بعد ما وضعت الحرب اوزارها

وفي الكتاب مقدمة بليغة من قلم المترجم جمعت في سطورها القليلة ابلغ ما كتب عن غاندي فاسمع : « امبراطورية لا تغيب الشمس عن املاكها فكُرة الارض تحدل من الوانها الجغرافية زناراً يحوطها مع خطوط الطول وخطوط العرض ولسلطانها يخضع الابيض والاسمر والاصفر والنحاسي والاسود من سلالات البشر وفي داخل املاكها تدين اقوام بصور من الاديان والوان من العقائد لايحصرها العد هذه الامبراطورية يقيمها ويقعدها هيكل بشري من الدم واللحم والعظام لا يزيد وزنهُ على وزن كرة مدفع من اصغر مدافع بريطانيا العظمى . واما هذا الهيكل البشري الذُّبل فغاندي العظيم »

— ٢ —

غاندي والحركة الهندية . تأليف سلامه موسى مطبوع بمطبعة المجلة الجديدة بمصر وعدد صفحاته ١٠٤

يقول المؤلف في المقدمة : « هذا الكتاب ثلاثة اجزاء . يعالج الجزء الاول منه الاحوال العامة في الهند مع اشارات تاريخية موجزة . اما الثاني فيعالج سياسة غاندي وفلسفته . وفي الجزء الثالث نقلنا بعض مقالات كتبها غاندي ونشرت في المجلات الهندية »

لا اعلم اذا كان الاستاذ سلامه موسى يحسن الهندية ولكني اعرف انهُ احسن الكتابة عن غاندي وعن الهند فكتابه عن امبراطور الهند غير المتوج دراسة ثمينة ملمة بنواحي الموضوع من غير تطويل ممل ولا اقتضاب سقيم . وقد كتبه بشغف وحماسة واندفاع ولكن من دون هوى وتعصب ويقصد به الى غاية . فبتمجيده بطل الهند يرمي الى غرض ليست مصر بغريبة عنه

وقد لا نشاطر الاستاذ سلامه موسى رأيه في تشبيه الحركة الهندية بالحركة المصرية فهو ذاته يعترف بأن احوال البلادين مختلفة وليس على مصر ان تأخذ بالحركة الهندية الا استئناساً وعلى مقدار حاجتها الى المثل العليا والى الامثلة . لان مبادىء السياسة في مصر غيرها في الهند . فالهند

للانجليز غاية ومصر للانجليز طريق الهند . ولكن قد تتشابه اسباب الكفاح ووسائله في المكانين مع بعض اختلاف . ثم انهُ لا يجب ان ننسى ان ما بلغته مصر من المقام الدولي هو فوق ما بلغته الهند. فالجهود التي تبذلها مصر في هذه الناحية يجب بطبيعة الحال ان تكون دون الجهود التي تبذلها الهند . وعلى كل فان مصر دانت بمبادىء زغلول وآرائهِ في جهادها السياسي ونضالها للاستقلال فمن اصالة الرأي ان تعمد دائماً الى تعاليم زغلول وخططه لتجد فيها وسائل الكفاح وطرق النضال لا الى تعاليم سواه من زعماء البلدان الاجنبية وان كان لا يضير مصر ان تستلهم مواقف الآخرين الذين صهرهم الظلم فأخرجت ادمغتهم عصيراً قاتلاً في بعض المرات لمكروب الاستعمار

قال المؤلف ان غاندي قام بدعوة الى الاستقلال النفسي فالاعتماد على القوة الروحية وما يتبعها من تقشف ونسك . وقام ايضاً بدعوة الى الاستقلال الاقتصادي باتخاذ المغزل وايثار القماش الهندي على جميع الاقمشة الواردة الى الهند . وقد فطن الاستاذ سلامه موسى الى ان مصر ابعد الناس عن التقشف فالتنسك هو النظر السلبي للحياة ومزاج مصر هو المزاج الايجابي . على ان مصر تستطيع ان تأخذ عن غاندي الاستقلال الاقتصادي مع بعض تعديل في الاسلوب كأن تجعل النول بدل المغزل رمزاً للكفاح الاقتصادي

ومما لا شك فيه ان الكفاح الاقتصادي في مصر غير معدوم فالصناعة الوطنية تجتاز شوطاً بعيداً وليس من حاجة الى تنشيطها عن طريق النعرة القومية الوطنية . بل هي تنشط ذاتها بعوامل من جنسها اي اقتصادية فالمنافسة والمزاحمة خير كفاح اقتصادي

وفي كتاب الاستاذ سلامه موسى بحث جغرافي واحصائي وسياسي عن الهند بما لا غنى عنه لكل من يعنى بشؤون هذه البلاد العريضة الطويلة فقد تكلم المؤلف عن الاستعمار البريطاني والسكان والاديان وعن الثقافة الانجليزية في الهند والفقر والنجاسة والمرأة الهندية — وغاندي اعتمد كثيراً على المرأة في جهاده — وأخيراً عرض المؤلف الى شرح الدستور الجديد

ويتلاقى كتاب سلامه موسى بكتاب اسماعيل مظهر في الموضوع وفي الجزء الثالث من الكتاب الاول وهو الجزء الذي يحتوي ترجمة المقالات التي كتبها غاندي بقلمه وفي هذه المقالات تطالع آراء زعيم الهند في الانجليز وفي نساء الهند والتعليم وفي مذهب السيف والخوف من الموت الخ فغاندي في هذا الجزء يخاطبك مباشرة كما خاطبك في كتاب اسماعيل مظهر

ولا نغالي اذا قلنا ان كتاب غاندي والحركة الهندية أعم كتاب في موضوعه باللغة العربية ولم يكتف المؤلف بمعالجة موضوع الهند فقط بل قابل بينها وبين مصر مقابلة سهلها له انضواء الهند ومصر تحت لواء الامبراطورية الانجليزية انضواءً ارغامياً ولكنه انضواء على كلّ حال

ولا خفاء ان هذا المؤلَّف — بالتمحيص — نتيجة دروس وبحوث وتنقيب ومراجعة ومطالعة واستقصاء بل هو نتيجة متاعب يعرفها المنصرفون الى التأليف والوضع

— ٣ —

مصطفى كمال او الذئب الاغبر . تأليف الكاتب الالماني داجوبرت فون مكرش
وتعريب الاستاذ كامل صموئيل مسيحه مطبوع بمطبعة الوفاء ببيروت وعدد صفحاته ٣٦٠

تطالع في هذا الكتاب سيرة مصطفى كمال من عهد المدرسة الى عهد الحكم ويتخلل ذلك صفحة من تاريخ تركيا الحديث وهو تاريخ مشحون بالانقلابات والدسائس والمفاجآت ولا نرانا بحاجة الى ذكر موضوعه بالتفصيل فقد عرف الناس كيف قضى مصطفى كمال على عرش الخلافة وهزم آخر سلاطين بني عثمان وكيف تسنم ذروة الحكم ونهض بامته ونفض عنها وشاح التقاليد القديمة وقد وصف كل هذا الكاتب الالماني باسهاب واحسن المترجم نقله الى العربية . يقول المترجم عن المؤلف :

« اعتمد المؤلف الالماني على وثائق عديدة انكليزية وفرنسية وايطالية وتركية وترجم مذكرات الغازي ذاتها وراجع معلومات جمعها له اصدقاؤه الاتراك فجاء كتابهُ تحفة تاريخية نادرة ومثلاً اعلى للكتابة بامانة واخلاص عن سير الرجال العظماء »

فبعد هذا لانجد تقريظاً آخر للمؤلّف . ان عظمة مصطفى كمال وعبقريته وفضله على تركيا فوق كل شبهة . وقرّاء هذه المجلة يذكرون مقالات محرّرها على أثر زيارته لتركيا في الصيف الماضي

— ٤ —

ابن سعود . تأليف الرحالة الانكليزي الشهير كنث وليمز وتعريب الاستاذ كامل صموئيل مسيحه

وهذا ايضاً كتاب عن امير العرب ورجل الساعة في الجزيرة يضعهُ انكليزي ويترجمهُ عربي وانت ترى ان الكتب الموضوعة عن الشخصيات الشرقية في المدة الاخيرة كثيرة جداً وترى ايضاً ان معظم هذه الكتب العربية والتركية الموضوعة مكتوبة باقلام غربية فمن الخير المحمود ان نطالع كتاباً عن سعد زغلول بقلم مصري يتناول فيهِ ناحية جديدة من حياة رئيس الوفد فما لا شك فيهِ ان زغلول لم يدرس دراسة تفصيلية ولا يزال جانب عظيم من حياتهِ الخاصة السياسية مطويّاً

— ٥ —

عصمت باشا . خطبه واقواله السياسية والاجتماعية نشرتها جريدة الحادثة باللغة التركية
نقلها الاستاذ عبد العزيز امين الخانجي . والكتاب مطبوع في مطبعة السعادة بمصر وهو يقع في ٣١٥ صفحة

ولا شك ان نشر هذه الوثائق وجمعها للمشتغلين بالقضايا السياسية الداخلية والمالية ذو شأن كبير فان عصمت باشا لعب دوراً كبيراً في سياسة بلاده من حيث الاصلاح الداخلي وفي سياستها الخارجية بصفتهِ ممثلاً لتركيا في المؤتمرات السياسية

وقد جمع عصمت باشا الى المرونة في السياسة العبقرية في الحرب وفنونها وشهد له الالمان بنبوغهِ العسكري ومنحوه الاوسمة العالية وقد انضم الى الحركة الوطنية وعمل بجانب مصطفى كمال وزميله

هذا فيه خير معوان واكبر عضد . وجدير بالسياسيين المصريين اقتناء هذه المجموعة لعلاقة موضوعاتها ببلادهم علاقة غير مباشرة اذ ان عصمت باشا عرض اكثر من مرة الى الروابط التي تربط بلاده بالبلدان الاجنبية وعلى الاخص بتلك التي كانت ذات علاقة وثيقة بالسلطنة العثمانية . والذي يزيد في شأن الكتاب انهُ صادر عن رجل مسؤول لا يرسل القول على عواهنهِ ولا يعقل ان يشحن خطبه واقواله بغير الحقائق . فكل ما في الكتاب اقوال فاه بها عصمت باشا في جلسات البرلمان والمفروض فيها الحقيقة والصدق

توفيق وهبه

تحضير الميزانية المصرية

تأليف الدكتور محمد توفيق يونس — رسالة قدمت الى كلية الحقوق المصرية — حازت رتبة « جيد جداً » — صفحاتها ١٩٩ — طبعت بمطبعة الرغائب

عالج المؤلف هذا الموضوع الجديد في اثني عشر باباً الَمّ في اول كل منها بالنظرية العامة التي تتصل بهِ ، وبمختلف الطرق التي تتبعها الدول ، توضيحاً للحال السائدة في مصر ، وتحديداً لأنظمتها من بين هذه الطرق . ثم اتبع هذه الالمامة في كل باب بكلمة تاريخية وصف فيها الحال التي كانت سائدة بمصر في الماضي ومختلف ضروب الاصلاح التي أخذ بها ، حتى اذا وصل الى النظام الحالي حدّده وحللهُ مبدياً ما يقترحه من وسائل العلاج . وقد صدّر الكتاب بتمهيد تاريخي عام تناول فيهِ المراحل الرئيسية التي قطعتها الميزانية المصرية وسلسلة الادوار المختلفة التي مرت عليها في طريقها الى السهولة والوضوح ومطابقة الواقع ، تاركاً التفاصيل للكلمة التاريخية الواردة في كل باب

ولقد خصّ المؤلف البابين الاول والثاني ببحث عدة مسائل اولية عامة ، فتكلم في الباب الاول عن المدة التي توضع لها الميزانية ، ثم تناول التاريخ المحدد لابتداء هذه المدة اي السنة المالية باحثاً في التعديلات المختلفة التي ادخلت على هذا التاريخ شارحاً شرحاً مستفيضاً الاسباب التي ادّت الى كل منها والاجراءات التي اتخذت لتحقيقها . وتكلم في الباب الثاني عن موضوع يتصل بالسنة المالية اتصالاً وثيقاً وهو طريقة وضع الحساب النهائي لها

وبعد ان انتهى المؤلف من بحث هذه المسائل الاولية ، تناول التحضير الفعلي للميزانية في الابواب التالية ، فتكلم اولاً عن محضري الميزانية ، وهو موضوع وقف عليهِ ثلاثة ابواب : وهي الثالث والرابع والخامس ، فتناول في الباب الثالث نصيب السلطة التنفيذية من تحضير الميزانية مفصلاً دور الوزراء في تحضير تقديراتهم ، فالدور الهام الذي يقوم بهِ وزير المالية في اعداد الميزانية ، دون ان يغفل عمل السكرتيرين العاليين الذين يعتبرون اداة اتصال بين وزير المالية وبين زملائه الوزراء الآخرين . ولقد بيّن المؤلف كيف ان وزارة المالية في مصر لا تملك قانوناً ان تعدل اقتراحات الوزارات الاخرى دون موافقتها ، وكيف انها في الواقع تعدل فعلاً في هذه

الاقتراحات على الرغم من ذلك ويوضع مشروع الميزانية على اساس هذه التعديلات التي تراها وزارة المالية « او بالتدقيق لجنتها المالية » بعد ان يقرها مجلس الوزراء

اما الباب الرابع فقد خصصهُ للكلام عن المال الاحتياطي لما لهُ من المقام الخاص وعلاقته بعمل وزير المالية في تحضير الميزانية وموازنتها . ثم تكلم في الباب الخامس عن نصيب السلطة التشريعية هذا التحضير باحثاً في التغييرات التي ادخلها دستور سنة ١٩٣٠ في هذا الصدد. بعد ان انتهى من الكلام عن محضري تقديرات الميزانية ، تناول كيفية وضع هذه التقديرات فتكلم في الباب السادس عن الطريقة المتبعة في مصر في تقدير الايرادات ، وفي الباب السابع عن الطريقة المتبعة في تقدير المصروفات

وفي البابين التاسع والعاشر والحادي عشر تناول المؤلف بعض المميزات التي تنفرد بها الميزانية المصرية مثل الايرادات المخصصة للدين العمومي والميزانيات الخاصة والملحقة مثل ميزانية الاوقاف وميزانية الازهر وميزانيات الجامعة المصرية ودار الكتب المصرية والسكة الحديدية والتلغرافات والتلفونات والحسابات الخاصة بالسلف التي تقدمها الحكومة في العهد الاخير الى الملاك والزراع والصناع . وقد حلل في الباب الثاني عشر والاخير مجلد الميزانية في شكله الحالي نظراً لاحتواء هذا المجلد على النتيجة النهائية لجميع هذه الخطوات التي تمر بها الميزانية . وقد ختم هذا الباب باقتراحات جمة تتعلق بمجلد الميزانية حتى يمكن لمن يرجع اليه ان يلم بمركز الدولة المالي دون صعوبة

وعلى الجملة فقد بحث المؤلف بحثاً وافياً دقيقاً المراحل المختلفة التي تجتازها الميزانية المصرية والمبادىء والقواعد التي تخضع لها ، والاساليب التي تنفذ بها هذه المبادىء والقواعد ، مبيناً ما لكل منها من مزايا ومساوىء ، معقباً عليها بمقترحاته

حرب نيقوبوليس الصليبية [1]

تأليف الدكتور عزيز سوريال عطية — بالانكليزية نشره بيت متوين بلندن — الثمن عشر شلنات ونصف

اهدى الينا الدكتور عزيز سوريال عطية نسخة من كتابهِ التاريخي النفيس الذي رقع احسن وقع في دوائر انكلترا التاريخية لما اشتمل عليه من العلم الواسع والتدقيق في حقبة من تاريخ اتصال الشرق بالغرب ، لم تنل من المؤرخين ما هي جديرة بهِ من العناية . وقد اطلعنا في جريدة التيمس في ملحقها الادبي على مقال في هذا الكتاب فرأينا ان ننقلهُ الى القرّاء ، فنصيب بهِ عصفورين بحجر واحد . ذلك ان المقال المذكور وصف دقيق للكتاب ودليل على مكانتهِ في آن واحد

قالت التيمس :

ان الاعتقاد السائد بان الحملة الصليبية الاولى كانت وجهتها الى فلسطين جعل الكثيرين يظنون انهُ بخروج الصليبيين من تلك البلاد وطرد سلطان المماليك لهم انتهت تلك الحروب الصليبية . هذا

(1) The Crusade of Nicopolis by Dr. Aziz Suryal Atiya Published by Methuen and Co. Ltd London 10/6

بينما يعتبر الآخرون موقعة ليبانتو من ذيول تلك الحروب ويرى غيرهم في موقعة نوارين والحصارات الفرنسية في الجزائر ومراكش وفي تحرير الجنرال اللنبي لفلسطين دلائل على الروح الصليبية

ولكن قليلين من امثال الدكتور عزيز سوريال عطيه قد اتجهوا وجهة اخرى في اعتبار الحملة التي ارسلت الى نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ آخر الحملات الصليبية التي حدثت خلال القرون الثلاثة التي سبقت ايام بطرس الناسك

وقد اتبعت الحملة الى نيقوبوليس نفس الطريق التي سلكتهُ الحملات السابقة ممن كانت اسعد حظاً من هذه ، وكان النظام في حملة نيقوبوليس نظيره في الحملات السابقة اذ كان معدوماً انعداماً تاماً وطغت الحزازات والمنازعات على الصليبيين هذه المرة كما طغت عليهم وحطمتهم في المرات السابقة

وقد دلت التجارب الحالية على ان التحالف لا يؤدي دائماً الى الكفاءة والقوة الحربية حتى ولو توفر النظام وتيسرت الادارة الحازمة في كل من المتحالفين على حدة ... ويوضح لنا الدكتور عطيه كيف كانت حالة الصليبيين يرثى لها فبعض الجماعات الصليبية ثائر وبعضها خائر العزم يسعى الى هجر الحرب بينما كان البعض خرافياً ممن تعلق بالخرافات وحتى القواد انفسهم كانوا متنازعين متخاصمين علا الحسد قلوبهم ، لا يعملون الا لمجد انفسهم الفردي جاهلين ما يؤدي اليهِ التعاون من النتائج

***

اما في نيقوبوليس فلم يكن اي اثر للنظام اعني تكوين الفرق بشكل نظامي ، ويصف الدكتور عطيه بدقة كبيرة ما كان عليهِ كل من الجيشين المسيحي والتركي وكيف كان الاتراك يعتمدون كل الاعتماد على السرعة وخفة حركة جيادهم بعكس الصليبيين ، وعلاوة على ذلك ان الاتراك كانوا يحاربون تحت قيادة حربية مطلقة استبدادية فكانت اوامر القائد مطاعة اطاعة عمياء بينما الصليبيون لم يكونوا ليطيعوا شخصاً معيناً بالذات وكان جلُّ هم الفرنسيين مثلاً احراز اكاليل الظفر لانفسهم حتى انهم لم يمهدوا الطريق لشخص مثل سجسمند في اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمحاربة الاتراك كانتخاب الجنود ممن تعودوا اساليب الاتراك في الحرب

وكانت نتيجة هذا النظام الفاسد والسياسة الخاطئة انهُ بالرغم من الشجاعة النادرة والتفوق المدهش الذي اظهره الصليبيون في القتال وجهاً لوجه فان القائد الفرنسي قتل وولي عهد دوق برجندي اسر بينما افلت ملك المجر بغاية الصعوبة هارباً خلال بلاد الدانوب الى البحر الاسود حيث آوته احدى السفن وحملتهُ سالماً الى مملكتهِ ، وكم كان سرور الاشراف حين عاد اليهم ملكهم مهزوماً حتى لا تزيد سطوته فيهم !

وقد كان من الممكن للاتراك ان يتقدموا في الفتح بعد هذا النصر ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ويمكن تعليل ذلك بمرض السلطان او برغبتهِ في عدم التوغل في الفتح بعيداً عن قاعدة ملكه ويعتقد الدكتور عطية انهُ لم يكن هناك ما يمنع السلطان من غزو المجر

وقد كانت النتائج الحربية لانتصار السلطان جلية في زيادة نفوذه في البلقان حيث انتقل الارثوذكس السلطان التركي وآثروه على بابا روما لان اللاتين اشتهروا بعدم تساهلهم في الامور والاختلافات الدينية

وقد خصص الدكتور عطية جانباً كبيراً من عنايته لدراسة الامور المالية في تلك الحرب الصليبية اذ انهُ كان لا بدَّ من دفع مبالغ كبيرة للسلطان التركي فدية عن الاسرى من الصليبيين ، وانهُ لمن المتتبع حقاً ذكر طريقة دفع هذه المبالغ والمفاوضة في شأنها

ان قصة حرب نيقوبوليس الصليبية ليست طويلة ولكن الدكتور عزيز سوريال عطيه قد دعمها بالبيانات الاضافية حتى ان القارىء ليشعر انهُ قد ألمَّ بوصف دقيق للحالة السياسية والمالية في اواخر عهد الفروسية في اوربا وبين الملحقات الاضافية للكتاب ما هو خاص بتواريخ موقعة نيقوبوليس المتضاربة ويستدل المؤلف بالبرهان الكافي على انها حدثت في ٢٥ سبتمبر سنة ١٣٩٦

***

ويعتقد المؤلف ان بازيد كان اول من لقب بالسلطان العثماني اذ تسمى وتلقب بهذا اللقب بعد انتصاره على الصليبيين في نيقوبوليس كما لقب السلطان محمد بالفاتح بعد سقوط القسطنطينية بيده

صحيفة دار العلوم

لدار العلوم فضل كبير على الناطقين بالعربية في هذا القطر فهم — كانوا ولا يزالون — مادة العربية التي تقوّم الالسنة في مدارس مصر . ولا ينكر احد فضل هذه المدرسة في تقويم الاخلاق والآداب في مدارسنا . ولقد عمدت دار العلوم في سنة ١٩٠٦ ان تضم الى ما تقوم بهِ من الاعمال عملاً يكون اكثر فائدة واوسع مدى في تثقيف الناس فأخرجوا صحيفة باسمهم « تنشر بحوثهم بين جميع طبقات الامة ، ثم عصفت — لسوء الحظ — بأبناء دار العلوم عواصف هوجاء اجتاحت فيما اجتاحت ناديهم وصحيفتهم . فلما كانت النهضة القومية سنة ١٩١٩ اخرجوا باتحادهم مع زملائهم من خريجي (المعلمين العليا) صحيفة اخرى بقيت عدة سنوات ، فكانت من خير ما اخرج للامة في بابها . ثم قضى عليها ماقضى على كثير من مظاهر النهضة المصرية»

ثم اجتمعت « جماعة دار العلوم » في ١٤ دسمبر سنة ١٩٣٣ وقررت اصدار هذه الصحيفة فأصدروا العدد الاول منها في اول ربيع الاول سنة ١٣٥٣ حافلاً بالكلمات الجيدة لكبار اساتذة دار العلوم في اللغة والادب والتربية والفلسفة . ونرجو ان تسير المجلة على خطتها مالئة فراغاً كنا في حاجة الى من يقوم بهِ ونسأل الله ان يوفق الى خير ما يكون من خدمة العربية في انحاء العالم العربي



التحكم في الجنس بالتيار الكهربائي

استنباط مدهش يمكن مربّي المواشي من نتج ذكورها وأناثها بحسب مرامهم

جاء في انباء الدوائر العلمية الروسية ، أن الاستاذ نيقولا . ك . كولتزوف Nicholas K. Koltzoff العلامة الروسيُّ المشهور في علم الحياة قد نجح في توليد الحيوان ، إمّا ذكوراً ، وإما أناثاً ، وفق رغبته . ومنها السنانير والبقر والثيران والنعاج والكباش . وذلك في التجارب التي جربها في مختبره العلمي

فأسفرت التجارب التي جرّبتْ في أرانب المختبر عن كون ٩٠ ٪ من الخرانق يتسنّى التحكم في شقها بالطريقة الكهربائية التي يستخدمها الاستاذ كولتزوف . ويجرّب الآن هذا الاستنباط تجارب متقنة في ضياع حكومة روسيا ، فاذا نجحت تجربتهُ في الغنم والخنازير والمواشي والخيول ، كنجاحها في الارانب ، تيسّر لارباب الضياع التي فيها مصانع للزبدة والجبنة ، توليد البقر الحلوب ، دون الثيران ، واستطاع أرباب المزارع التي تربّى فيها المواشي والدواب ، انتاج عجول البقر ، دون اناثها وامكنهم تقليل الخسائر التي يكابدونها من تصرفات الطبيعة العرضية في نتج الذكور والاناث اعتباطاً

وقوام عمل الاستاذ كولتزوف على الخلايا التي تتألف منها جميع اجسام الحيوان اذ من المعروف الآن انها تتأثر بالقوة الكهربائية

ولما كانت كريات الدم في جسم القرش (كلب البحر) تنجذب نحو القطب السلبي للبطارية ، على حين ان كريات دماء جُلّ الحيوان ، تنجذب نحو القطب الايجابي —

فلمَ لا تتأثر بالكهربائية كذلك خلية منيّ الذكر التي تلقح خلية بيضة الانثى ، فتسيطر على الشق ؟؟ هذا ما خالج العلاّمة كولتزوف من سنة ونيف ، فجعل يجرب تجاربهُ الابتدائية حتى يتبيّن الحقيقة

والمعروف الآن عند علماء البيولوجيا على بكرة أبيهم ، ان خلية البيضة وخلية المنيّ كلتيهما تحتوي على دقائق ، مستقيمة الشكل ، متناهية في الصغر ، تسمى كروموسومات . وهذه تكوّن نوى الخلايا وتنقل الصفات الوراثية . والبيضة أي خلية البيضة ، للانثى البشرية صغيرة جداً بحيث اذا وضعت بعضها بجانب بعض فان ٥٠٠٠٠ بيضة منها تكاد تبلغ مساحة طابع بريد ، وتشتمل البيضة الواحدة على ٢٤ كروموسومة . اما خلية المني اي خلية الذكر وهي التي تلقح بيضة الانثى

مع كون حجمها اكبر منها — غير ان خلية الذكر ذات ذنب مثل السوط تجعله بمثابة رقاص تدفع به نفسها دفعاً حثيثاً اسوة بفرخ الضفدع — فتشمل اما ٢٤ كروموسوماً او ٢٣ كروموسوماً

وزعم الاستاذ كولتزوف ان فريقاً من خلايا الكروموسومات ينجذب نحو القطب السلبي . وفريقاً آخر ينجذب نحو القطب الايجابي . وانه اذا ثبت هذا الرأي ، صار ذا فائدة خطيرة لا نظير لها في تاريخ البيولوجيا . وأثبت ذلك بالتجربة ، فجاء بأنبوب زجاجي معقوف هكذا (١) ذي صمامين فاصلين كلٌّ منهما ، قريب من قاعدة كل من المستقيمين ، وركَّب صماماً آخر للصرف في منتصف الجزء الافقي من الانبوب . ثم ثبَّت في كل من المستقيمين أسلاكاً ذات توصيلات من المسامير الوتلية أوصلها ببطارية تخزين ، وذلك بعد ان ملأ الانبوب المعقوف السابق وصفه ، ملأً جزئيًّا بمحلول يشتمل على خلايا ذكور الارانب . واخذ الاستاذ كولتزوف وأعوانه يتأملون في ذلك السائل العديم اللون الذي كان في الانبوب ، فاذا به يتحرك حركة وئيدة تولدت من ملايين من السبرماتوزوى — الجراثيم المنوية — (التي لا يمكن رؤيتها بالعيون المجردة) وهذه جعلت تسبح مثل فراخ الضفادع . وبعضها يتجه نحو احد قطبي البطارية اتجاهاً سريعاً جداً ، والآخر يتجه نحو القطب الثاني من البطارية . وكان السائل في اثناء ذلك يرتفع رويداً رويداً رغم جاذبية ثقله في ضلعي الانبوب المعقوف العموديين ، الايمن والايسر

وما انقضت ساعتان حتى اختفى السائل من القسم الافقي وتسلق ، كأنه مسحور ، في الانبوبين الرأسيين وكاد ينقسم قسمة متساوية بينهما . فأغلق الاستاذ كولتزوف الصمامين مانعاً السائل من الهبوط الى قعر الانبوب ، ثم قطع التيار الكهربائي . وعند ذلك أخذ الاستاذ كولتزوف يناجي نفسه قائلاً « هل قسم التيار الكهربائي الخلايا الخفية اقساماً مختلفة ، بعضها يولد ذكوراً والآخر يولد أناثاً ؟ ؟ ؟ »

وكان الاستاذ كولتزوف يفترض ذلك . ومع ذلك فانه حينما تفرَّس في المادة التي كانت في الانبوبين ، بوساطة مجهر قوي جدًّا رأى الخلايا المكبرة جميعها من مثال واحد . وانما بتلقيح اناث الارانب تلقيحاً صناعيًّا بالحيوان المنوي من الانبوبين السابقي الذكر ، وبتدوين الملاحظات تدويناً محكماً ، قُيِّض للاستاذ كولتزوف اثبات نظريته . فما انقضت ستة اسابيع حتى بدأ مولد السلالات ، فنتجت اولاً سلالة مكونة من ست خرانق كلها أناث لان أمها كانت ملقحة من الانبوب المحتوي على القطب الايجابي . وجاءت السلالة الثانية مؤلفة من خمس خرانق كلها ذكور الاّ واحداً لان أمها كانت ملقحة من الانبوب المحتوي على القطب السلبي ، ثم ظهرت السلالة الثالثة وكانت مولدة بوساطة مزج الخلايا المأخوذة من الانبوبين ، فاذا هي مؤلفة من اربع خرانق ، وهي ذكران وأنثيان ، فدلَّ ذلك على ان القطب السلبيّ كان يجذب خلايا الذكور والقطب الايجابي يجذب خلايا الاناث . بيد ان الاستاذ كولتزوف ، وهو مدير معهد المباحث البيولوجية

---

(١) الخرنق ولد الارنب والجمع خرانق

في مدينة موسكو من خمس عشرة سنة ، لم يقتنع بتلك النتيجة ، فاتفق مع العلماء في مختبر آخر لكي يلقحوا طائفة من اناث الارانب بمادة يقوم هو بتحضيرها . ثم قسم الارانب قسمين ، فلقح القسم الاول بخلايا الذكور ولقح القسم الثاني بخلايا الاناث . وتوفر العمال على مراقبة النتائج من غير ان يعرفوا انواع الخلايا فأيدت الارقام ذلك الرأي العلمي . وقد دلَّ المجهر على سبب عدم توليد ١٠٠ في المائة ذكوراً او اناثاً ، إذ ظهر ان الحيوان المنوي قد يكون ذا اذناب ملتوية ، وربما يتفق عند الاضطراب المصاحب لعملية الانفصال التي تقع في الانبوب المعقوف ان تشتبك تلك الخلايا بأضدادها فتجذب نحو القطب الكهربائي غير المقصود

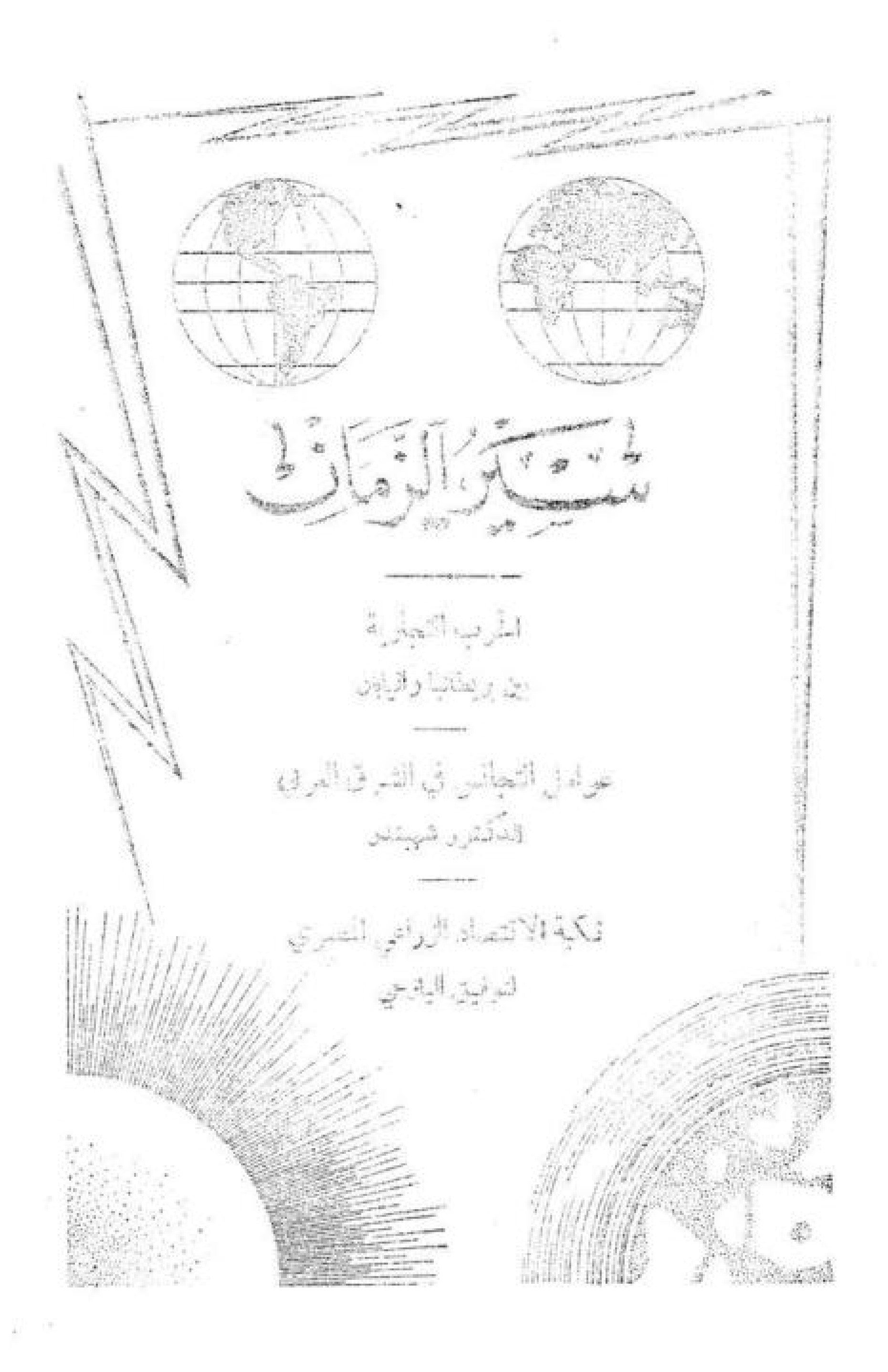
واثبتت مباحث اخرى ان وسائل كولتزوف يمكن التوسل بها الى توليد الاجناس المبتغاة من الحيوانات الكبيرة اذ اتيح تبحيض خلايا التلقيح للثيران وخيول الطلوقة بسهولة اسوة بالارانب . والحكومة الروسية ضياع يربّى فيها ما ينوف على مليونين من الحيوانات حيث تلقح تلقيحاً صناعياً وتجرب فيها التجارب الجديدة المشار اليها لتكييف جنس النتاج بحسب المرام

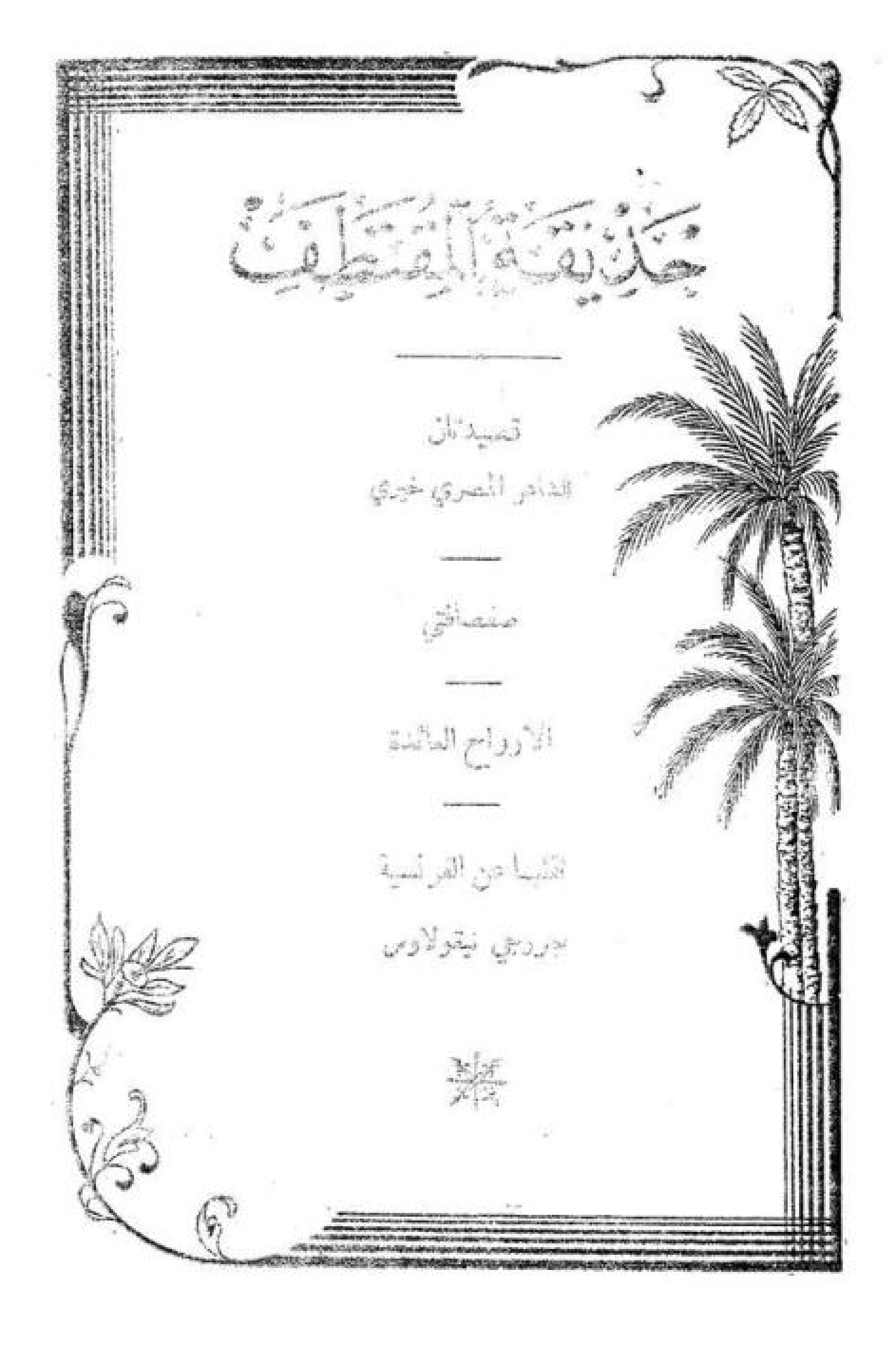
والمعروف ان في اسلوب التناسل الطبيعي خسائر دائمة من تفوق انتاج الذكور على الاناث فاذا اتيحت السيطرة على شق الحيوان قبل ولادته ، تيسر جعل الاناث من المواليد ٩٠ ٪ او اكثر ، وأمكن زيادة عدد المواشي سريعاً . أما مسألة التحكم في اجناس سلالات الدواجن بالطريقة السابقة الذكر ، فما برحت على بساط البحث . غير انهُ قد تبين اخيراً (على عكس القاعدة المعروفة للحيوانات اللبونة) ان خلية البيضة ، لا خلية المني تتسلط على الشق في الدواجن . وتجرب التجارب في مختبر موسكو للتحقق من تأثير الوسائط الكهربائية التي ثبت نجاحها في الخلايا التذكيرية للحيوانات اللبونة في الدواجن ايضاً . ومن اربع سنوات قام كولتزوف ورفيق له باستنباط الجرافيدان gravidan وهي خلاصة من مفرزات النتُج[1] ، أفادت في علاج أمراض عديدة ولاسيما الجنون المسمى « السرسام » وثبت ايضاً نجحها في تجديد الشباب . وقد استعملها لتلك الغاية بعض علماء اميركا وألمانيا . وكان استنباط طريقة الاستاذ كولتزوف في روسيا مفضياً الى تأسيس معهد لعلاج الامراض البولية . ويلخص تاريخ الاستاذ كولتزوف انهُ ولد سنة ١٨٧٢ ثم تعلم في جامعة موسكو وقضى سنوات باحثاً في المختبرات العلمية في المانيا وفرنسا وايطاليا . فكان نجاحه في وقاية السلالات النقية من ديدان القز بواسطة التلقيح الذاتي للبيضة باستعمال اليود ، سبباً في ذيوع صيته ، فاستعملت طريقته استعمالاً تجاريًّا منذ عهد قريب . وقد ألَّف كتباً في التناسل فأصبح يعد من أقطاب البيولوجيا في اوربا لانهُ استطاع حل اللغز الذي طال عليه الدهر وهو التحكم في اجناس الحيوان فاهتم به العلماء في الخافقين اهتماماً عظيماً

[عن مجلة العلم العام] — عوض جندي

---

(١) انتجت الفرس والناقة حان نتاجها وقيل استبان حملها فهي نتوج


سير الزمان
الحرب التجارية
بين بريطانيا واليابان
عوامل التجارة في الشرق العربي
مكتبة الاقتصاد الزراعي المصري



حديقة العواطف

قصيدتان

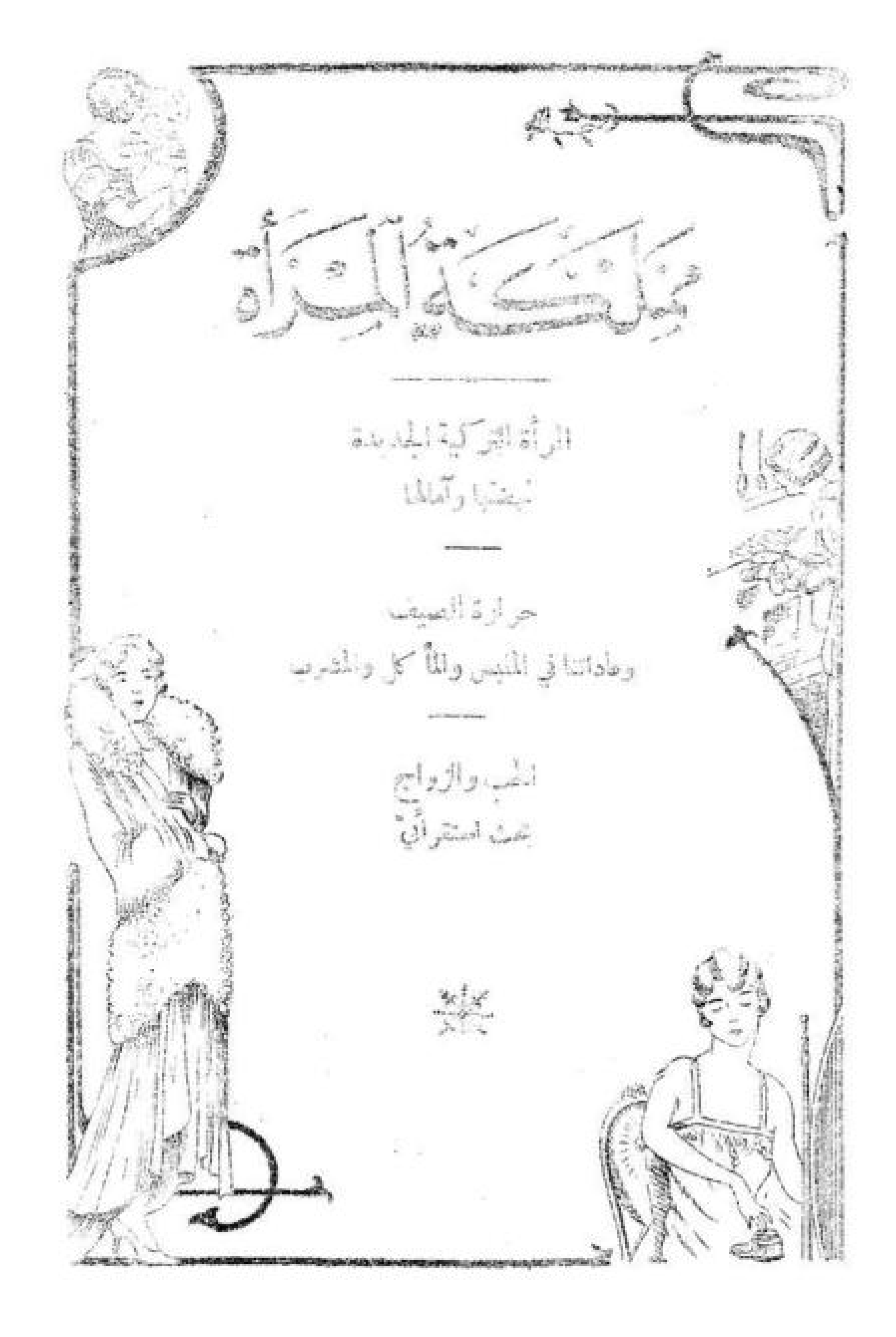
للشاعر المصري خيري

صفصافتي

الأرواح الهائمة

نقلها عن الفرنسية

جورجي نيقولاوس


مملكة المرأة
المرأة التركية الجديدة
نهضتها وآمالها
حرارة الصيف
وعاداتنا في الملبس والمأكل والمشرب
الحب والزواج
بحث استقرائي

الجزء الاول من المجلد الخامس والثمانين

صفحة

١ لبنات الكون
١١ روح القصة في الادب الحديث : لحسن محمود
١٧ الاصداء : حكاية مؤلف وكتاب
٣٣ الطب المصري القديم : للدكتور حسن كمال
٣٥ تجارب الانسان والنبات : للامير مصطفى الشهابي
٣٧ الكريم والفتى والسيد : للدكتور امين باشا المعلوف
٤٤ الدكتور رضا توفيق : لالياس ابو شبكه
٥٠ فضل « الصفر » على المدنية : لقدري حافظ طوقان
٥٤ معجزات الكهارب : لعوض جندي
٦٣ مرض الجماد وتلقيحه ونموه
٦٥ كتاب الشيطان : لامين الريحاني
٧١ تناظر اللغة الصينية والعربية : للاب أنستاس ماري الكرملي
٧٤ القضاء في السودان : للقاضي خليل الخوري
٨٠ أقمرٌ عاشرٌ للمشتري ؟
٨١ ﴿ سير الزمان ﴾ بريطانيا واليابان . عوامل التجانس : للدكتور عبد الرحمن شهبندر .
نكبة الاقتصاد الزراعي المصري : لتوفيق اليازجي
٩٩ ﴿ حديقة المقتطف ﴾ قصيدتان : صفصافتي . الارواح العائدة : للشاعر المصري خيري
نقلهما عن الفرنسية جورجي نيقولاوس
١٠١ ﴿ مملكة المرأة ﴾ المرأة التركية الجديدة . حرارة الصيف والصحة . الحب والزواج

١١٤ مكتبة المقتطف : تشتمل على مباحث ودراسات في طائفة من المطبوعات الجديدة
١٢١ باب الاخبار العلمية : التحكم في الجنس بالتيار الكهربائي



مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

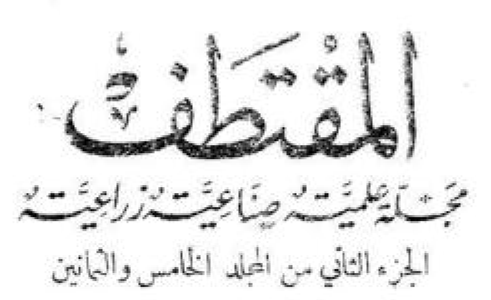
AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

EDITED BY DR. Y. SARRUF

VOL. LXX. No 5

FOUNDED 1876 BY DRS. Y. ṢARRUF & F. NIMR



١ اكتوبر سنة ١٩٣٤ — ٢٢ جمادي الثانية سنة ١٣٥٣

مدام كوري

في خريف سنة ١٩٢٠ ذهب الى ولاية كولورادو الاميركية جيش من العمال وقصدوا الى منطقة قاحلة في جنوبها لينقبوا فيها عن تبرٍ معين . كانوا قد بحثوا في مختلف الولايات الاميركية عن هذا التبر النفيس ولم يظفروا بهِ لذلك اضطر زعيمهم الى الاكتفاء بنوع من الرمل يكثر في صحارى كولورادو القاحلة يدعى كارنوتيت . فأخذ رجاله — وكانوا اكثر من ثلاثمائة — يشتغلون ليل نهار في جمع اطنان منهُ ثم نقلوها في صحارٍ لا تخترقها طرقٌ ما ، مسافة ١٨ ميلاً الى اقرب مكان فيهِ ماء حيث عنوا بتشييد معمل خاص لغسل هذا الرمل وتنقيته . هنا عولجت خمسمائة طن منهُ معالجة كيمائية حتى بقي منها مائة طن فقط . وما بقي سحق حتى صار مسحوقاً دقيقاً ثم وضع في اكياس نقلت بسكة الحديد الى بلدة تدعى بلايسرڤيل . ثم شحنت الاكياس في مركبات شحن خاصة مسافة ٢٥٠٠ ميل الى بلدة تدعى كانونزبرغ بولاية بنسلڤانيا في الشمال الشرقي المتوسط من الولايات المتحدة الاميركية

وفي كانونزبرغ عُهد الى مائتي رجل في تحويل هذه الاطنان من المسحوق الناعم الى بضع مئات من الارطال فقط مستعملين مقادير كبيرة من الماء في غسل المسحوق ثم معالجتهِ بمواد كيمائية واحماض لاستخراج كنز ثمين منهُ . لم يضيع الرجال ذرة واحدة منهُ على رغم تعدد عمليات الغلي والتصفية والبلورة . وانقضت اشهر فاذا ما بقي من ٥٠٠ طن من رمل كولورادو مقدار يسير جداً ارسل الى معامل البحث في شركة بتسبرغ الكيمائية بحراسة حرس خاص . هنا في المعامل الكيمائية أجريت العمليات الاخيرة في استخراج بضع بلورات من ملح معين . فلما تمَّ استخراجها كانت زنة

كاملة قد انقضت على جمع الرمل من صحاري كولورادو وانفق عشرون الف جنيه فكانت تلك البلورات اثمن مادة معروفة على سطح الارض — مائة الف ضعف اثمن من الذهب . ثم وضعت هذه في انابيب صغيرة من الرصاص والانابيب حفظت في صندوق فولاذي كثيف الجدران مبطن بألواح كثيفة من الرصاص . ثم وضع الصندوق الفولاذي في صندوق آخر من خشب المغنة المصقول وهذا حفظ في خزنة متينة انتظاراً لقدوم زائر كريم من فرنسا

وفي ٢٠ مايو سنة ١٩٢١ وقف رئيس الولايات المتحدة الاميركية في ردهة الاستقبال في البيت الابيض يحفُّ بهِ سفير فرنسا ووزير بولونيا المفوض واعضاء وزارتهِ ورجال القضاء واكبر المشتغلين بالعلم ، ووقفت امامهُ سيدة نحيفة البنية وديعة المنظر مرتدية ثوباً اسود ثم خاطبها الرئيس فقال : « كان من حظك انك قمت بخدمة خالدة للانسانية . ولقد عهد اليَّ ان اقدم لك هذا القدر الضئيل من الراديوم . فنحن مدينون لك بمعرفتنا لهُ وملكنا اياه . لذلك نرفعهُ اليك واثقين انهُ وهو في حيازتك لا بدَّ ان يكون وسيلة لتوسيع نطاق العلم وتخفيف آلام الناس »

تلك السيدة كانت مدام كوري

﴿ نشأتها ﴾ وُلدت ماري كوري في بولونيا في ٧ نوفمبر سنة ١٨٦٧ وفقدت أمها وهي لا تزال في طفولتها . وكان والدها الاستاذ سكلودفسكا مدرساً للرياضيات والطبيعة في مدرسة فرسوفيا العالية . وكان يقضي مساء كل سبت امام مصباحهِ يقرأ آيات الادب البولوني نثراً وشعراً . فكانت ابنته ماري تحفظ فقرات طويلة منها وتعيدها امامهُ عن ظهر قلب ورآها العالم الروسي منديليف في حداثتها تخلط المواد الكيمائية في مختبر كيمائي لابن عمتها في فرسوفيا فتنبأ لها بمستقبل علمي مجيد

كانت بولونيا في تلك الايام مقاطعة من روسيا وحكومة روسيا تفرض اعباء ثقيلة على الشعب البولوني المحكوم . فاستعمال اللغة البولونية كان محظوراً في الصحف والكنائس والمدارس . والبوليس السري الروسي كان ألحق بالناس من ظلهم لا تخفى عليهِ خافية مما يفعلون . فلما كانت ماري في حداثتها اجتمع بعض تلاميذ والدها وألفوا جمعية سرية غرضها قلب الحكومة وطرد المعتدين على وطنهم وكانوا يجتمعون كل ليلة ليدرسوا اللغة البولونية وليدرّسوها لجماعات من الطلاب فانتظمت ماري في احداها وتمادت فكتبت في احد الايام نشرة ثورية شديدة اللهجة

ولكن البوليس الروسي نمت اليهِ اخبار الشبان الثائرين فقبض على بعضهم . ونجت ماري من الشرك ولكنها اضطرت ان تغادر فرسوفيا لكي لا تشهد على اخوانها عند المحاكمة . فجاءت باريس في شتاء سنة ١٨٩١ وهي لا تزال في الرابعة والعشرين من عمرها . هنا استأجرت غرفة صغيرة في مكان حقير . فكان البرد يقرسها في الشتاء والحر يكاد يخنقها في الصيف . وكانت معيشتها شديدة البؤس لانها كانت مضطرة ان تحمل الماء والفحم الى غرفتها الكائنة على سطح المنزل فوق الدور الرابع . وكانت فقيرة لا تجرؤ ان تنفق اكثر من نصف فرنك في يومها . وكثيراً ما كان طعامها ظهراً ومساء

لا يزيد على كسرة من الخبز وقطعة من الشوكولاته . ولكن هذه المصاعب لم تتعدها عن تحقيق رغبتها لانها جاءت باريس لتدرس في السوربون . ولكي تتمكن من تسديد اجور التعليم اضطرت ان تغسل الزجاجات في معمل البحث في كلية العلوم وتعنى بنظافة الموقد

في سنة ١٨٩٤ التقت ببيير كوري في دار احدى صديقاتها . وكان هو يشتغل حينئذٍ في معمل شوتزنبرجر مؤسس مدرسة البلدية للطبيعة والكيمياء بباريس ومديرها . وكان قد تخرَّج من السوربون وانشأ يبحث مع اخيه جاك في موضوع « المكثفات الكهربائية » . فلما تعرف اليها اخذا يتحدثان في ما يهمهما من موضوعات العلم . ثم انتقلا الى بعض الموضوعات الاجتماعية والادبية. فكان ذلك مبعث سرور خاص للفتاة البولونية الشريدة لانها وجدت على قولها : « اتفاقاً غريباً بين آرائه وآرائي رغم اختلاف وطنينا» . اما بيير فدهش لما رآه في هذه الفتاة من توقد الذهن وسعة العلم ولما اعرب لها عن دهشته ردت عليه «ترى يا استاذ من اين اتيت بآرائك الغريبة في حدود عقل المرأة»

كان بيير قد كتب لما كان في الثانية والعشرين : « النابغات بين النساء نادرات . اما المرأة المتوسطة الذكاء فلا ريب في انها عائق كبير لعالم جادّ في عمله » . كتب ذلك في الثانية والعشرين. وها هو ذا في الخامسة والثلاثين ، واتصاله بالحياة قد غيَّر آراءه . ولما تحولت معرفته بماري الى صداقة متينة انقلبت آراؤه في النساء رأساً على عقب . وكانت هي قد فتنت بما عرفته في العالم كوري من صفات الشاعر والحالم علاوة على علمه الغزير . فلم تلبث حتى استأذنت الاستاذ شوتزنبرجر فأذن لها في ان تصبح مساعدة للمسيو كوري في معمله

﴿ الزواج العلمي ﴾ تزوجا في يوليو سنة ١٨٩٥ ولم تكن مسألة فرش البيت مسألة خطيرة في نظر كائنين لا تهمهما التقاليد المرعية . فاستأجرا ثلاث غرف تشرف على حديقة وابتاعا قليلاً من الاثاث لقضاء الحاجات الضرورية . وفي ذلك الاثناء عين بيير كوري استاذاً للطبيعيات في مدرسة البلدية المذكورة وكان مرتبه ستة آلاف فرنك في السنة فتمكنت زوجه من مواصلة دروسها . ولكن دخلهما لم يسمح لهما بشيء من الكماليات الاَّ دراجتين ابتاعاها لقضاء رحلاتهما الاسبوعية الى الريف

وفي اواخر سنة ١٨٩٥ — اي بعيد زواج بيير وماري — كشف الاستاذ وليم كونراد رنتجن الالماني عن الاشعة السينية. ولم تكد تصل انباء هذه الاشعة الغريبة التي تخترق الاجسام الصلدة وتبين عظام الجسم ، الى دوائر العالم العلمي حتى حدثت حادثة غريبة اتفاقاً في غرفة مظلمة بمعمل الاستاذ هنري بكرل بباريس . لم تكن من الحوادث التي تعنى بها الصحف وتنشرها بأحرف عريضة في صفحاتها الاولى كحوادث القتل وفضائح الغرام ، مع ان اثرها كان اثراً عالميًا عظيماً لان سلسلة من الحوادث العلمية الخطيرة جاءت في اثرها وتوِّجت اخيراً بانتصار مدام كوري الباهر في كشف عنصر الراديوم فكانت حدًّا فاصلاً في تاريخ العلم ، انتهى عندهُ عصر وبدأ عصر جديد

فقد كان معروفاً ان المواد الفصفورية بعد تعرضها لنور الشمس تتألق في الظلام . وكان بكرل

يحاول ان يعرف هل هذه الاجسام تطلق اشعة كالاشعة التي كشفها رنتجن . فوضع اتفاقاً قطعة من الاورانيوم على لوح فوتغرافي حساس كان ملقى على مائدة في غرفته المظلمة . فلما رفع اللوح في يده في اليوم التالي لاحظ انهُ كان قد تأثر تأثراً خاصاً حيث كان الحجر ملقى عليهِ . فلم يفهم لذلك علة وظن ان احدهم لعب لعبة عليه . فحاول ان يعيد التجربة ليرى هل يحصل على النتيجة نفسها فأعادها مستعملاً صخوراً مختلفة تحتوي على الاورانيوم وفي كل مرة كان يجد البقعة على اللوح حيث يضع الحجر . فحلل الصخور ووجد ان فعلها في اللوح الفتوغرافي سببهُ عنصر الاورانيوم الذي فيها

فصرح بكرل ان عنصر الاورانيوم كان وحده سبب الفعل الغريب الذي يقع في اللوح الفوتوغرافي . ولكنه لم يلذ بتصريحه هذا طويلاً . لانهُ جرب البتشبلند وهو اهم الصخور التي تحتوي على الاورانيوم — معدن يستخرج من شمال بوهيميا — فوجد فعله في اللوح الفتوغرافي اقوى جداً مما كان منتظراً من الاورانيوم مهما يعظم قدرهُ في هـذا الصخر . فاستنتج من ذلك استنتاجاً بسيطاً وهو ان عنصراً آخر يستطيع ان يؤثر في الالواح الفوتغرافية اضعاف تأثير الاورانيوم

وكان بكرل يعرف ماري كوري وقد راقبها تعمل في المعمل ولاحظ رشاقتها وخفتها في تناول الادوات الكيمائية واستنباط الحيل لمعالجة مشكلة تجدُّ في خلال البحث وكان معجباً بصفاتها الممتازة كعالمة مجرّبة فأفضى اليها باستنتاجه الثاني وعهد اليها في البحث عن هذا العنصر المجهول. فأخبرت زوجها بما حدث والفرح يستخفها ففتن بحماستها . وكان هو يبحث في البلورات وهي في صفات المعادن المنطيسية . فتركا بحثيهما الخاصين ليشتركا في مغامرة فكرية شاقة ولكنها اخاذة ، وهي البحث عن العنصر المجهول في البتشبلند

ولم يكونا على شيء من الثروة للقيام بنفقات البحث فاقترضا مبلغاً من المال لذلك . ولم يكونا يدريان اين يبدآن البحث ولا كيف يواصلانه والى اين يتجهان فيه . فكتبا الى حكومة النمسا فردت عليهما باستعدادها لمعاونتهما وارسلت اليهما طناً من البتشبلند من مناجم جوا كيمستال ، فلما وصل البتشبلند الى باريس اخذا يشتغلان بلا انقطاع ، يغليان هذا الطن من التراب بعد سحنهِ وينقيانهِ لكي يستخلصا منهُ المادة الثمينة . وكثيراً ما كانت ماري تقف ساعات متوالية تحرك المزيج وهو يغلي على النار بعصا حديدية تكاد تماثلها وزناً

وقد وصفت مدام كوري معيشتها حينئذ فقالت : « كنا في انصرافنا الى بحثنا كأننا في حلم » ولما اقبل شتاء سنة ١٨٩٦ كانا لايزالان يعالجان بحثهما في معمل خشبي يشبهُ طنب البدوي « تخفق فيه الارواح » . كان البرد والفاقة والاعياء والحمل قد انهكت جسم مدام كوري فأصيبت بالتهاب الرئة ولزمت فراشها ثلاثة اشهر قبلما استطاعت ان تستأنف بحثها العلمي . وكان التعب قد حطَّ من قوة زوجها كذلك فكان يعود الى بيته معيىً في كل مساءٍ ولكنهما لم يتوقفا عن العمل فكأنما كانا مدفوعين اليه بارادة خفية

وفي سبتمبر من سنة ١٨٩٦ ولدت مدام كوري فتاة[1] ، ولكنها كانت وهي ملازمة سريرها على أثر الوضع دائمة التفكير بعملها العلمي الذي ملك عليها قلبها وعقلها . وبعد الولادة باسبوع واحد فقط غادرت بيتها الى معملها واستأنفت البحث هناك . ولكن ما السبيل الى العناية بالطفلة ومتابعة البحث العلمي من جهة اخرى ؟ واتفق حينئذٍ ان والدة زوجها توفيت فدعوا والده وهو طبيب اعتزل الصناعة للسكن معهما وعهدا اليه في العناية بالطفلة

وبعد الاغلاء والتصفية والتنقية التي دامت اكثر من سنة تحوّل طن البتشبلند الى نحو مائة رطل من مادة غريبة ثم تلا ذلك سنة اخرى من العمل المتواصل مرضت في اثنائها ماري ثانية واخذ القنوط يتطرق الى نفس زوجها ، ولكنها كانت مقدامة صلبة العود فلم تلن للمصائب . وقد وصفت ايامها في تينك السنتين بقولها الشعري : « في ذلك المعمل البائس قضيت اسعد ايام حياتي »

﴿ الراديوم ﴾ اخيراً استخرجا من طن البتشبلند قدراً ضئيلاً جداً من املاح البزموت فثبت ان فيها مادةً فعالة جداً تفوق فعل الاورانيوم ثلاثمائة ضعف . واستفردت منها مدام كوري مادة تشبهُ النكل وبعد ما امتحنتها بكل وسائل الامتحان الممكنة اعلنت في يوليو سنة ١٨٩٨ انها كشفت عن عنصر جديد دعتهُ « بولونيوم » نسبة الى بلادها . واختلف العلماء اولاً في صحة اكتشافها ثم ثبتت صحتهُ ثبوتاً لا ريب فيهِ

على ان مدام كوري وزوجها لم يقنعا بفخر الكشف عن عنصر جديد . وظلاَّ يواصلان البحث والامتحان حتى استخرجا قدراً ضئيلاً من مادة ثبت انها افعل جداً حتى من عنصر البولونيوم ولما بلغا هذه الدرجة من البحث كان محتوماً عليهما ان يشددا العناية بكل ذرة من ذرات هذه المادة التي استخلصاها بجهد يكاد يكون من فوق طاقة البشر فكانت ماري تمتحن كل قطرة ماء تخرج من المرشح وكل ذرة تعلق بهِ

وكان المعمل الذي يشتغلان فيهِ غرفة لتشريح جثث الموتى من قبل . فكانا اذا دخلاه ليلاً يستولي عليهما رعبٌ لغرابة ما يشاهدان . وذلك انهما بدلاً من ان يشاهدا ارواح الجثث المشرحة ترفُّ في فضائه كانا يشاهدان الانابيب المحتوية على هذه المواد تشع في الظلام كأنها بسحر ساحر . فعلما من ذلك انهما على قاب قوسين من تحقيق غرضهما او أدنى . واخيراً استخلصت مدام كوري من هذه المادة بضع بلورات فكانت أول انسان القى بصره على املاح الراديوم واثبتت انهُ عنصر جديد واطلقت عليهِ اسم « الراديوم » اي « المشع » فكان كشفهُ منشأً لانقلابات من اعظم الانقلابات التي وقعت في ميدان الكيمياء والطبيعيات

فعين الاستاذ كوري استاذاً في السوربون وعهد الى زوجته بالمحاضرات العلمية في مدرسة

---

(١) هي ايرين المعروفة الآن في ميدان العلوم باسم مدام كوري جوليو وقد كان لها اكبر اثر في الكشف عن النوترون (راجع المقالة الاولى في مقتطف يوليو ١٩٣٢ او فصل « لبنات الكون » في كتابنا : فتوحات العلم الحديث : صفحة ١٤٤)

المعلمات العليا في بلدة سيفر على مقربة من باريس . فكانت تعلم وتدرس وتبحث في معملها وتعني بابنتها . ولكي تنال منصباً عالياً في ميدان التعليم كان لا بدَّ لها من ان تنال لقب «دكتورة في العلوم» فأعدت رسالتها وقدمتها باسطة فيها جميع مباحثها في موضوع الاشعاع فدهش العلماء الكبار الذي عينوا لفحص هذه الرسالة لما وجدوا فيها من الحقائق الجديدة والمباحث الطريفة ، ولما وقفت امامهم للاجابة عن اسئلتهم كانوا بمثابة اطفال امام معلمهم لا يدرون اي اسئلة يوجهون اليها. وقرروا ان هذه الرسالة اعظم بحث علمي قدم لنيل « دكتوراه العلم » في تاريخ جامعة باريس

وذاعت الانباء! انباء عنصر جديد تكشف عنهُ سيدة . املاحهُ تتألق وتضيء في الظلام كمصابيح كهربائية صغيرة . وتنطلق منهُ مقادير دقيقة من الحرارة انطلاقاً دائماً . ان حرارة طن من هذا العنصر كافية لاغلاء الف طن من الماء مدة سنة كاملة . ثم ان هذا العنصر اقوى سم معروف يفعل عن بعدٍ فاذا وضع انبوب يحتوي ذرة منهُ بحجم رأس الدبوس على ظهر فأرة اصيبت بالشلل في ثلاث ساعات . واذا وضع قرب الجلد قرَّحهُ . بل ان اصابع الاستاذ كوري نفسه كادت تشلُّ من لمسهِ . وذاع ان بكرل قال يوماً لمدام كوري « أحب الراديوم ولكني محنق عليهِ » ذلك أنهُ اصيب بحرق مؤلم في صدره بعد حملِهِ انبوباً فيهِ ذرة من ملح الراديوم في جيب صدرتهِ . بهذا العنصر كانت المكروبات تقتل والنوامي السرطانية السطحية تشفى وحجارة الماس تلوَّن والهواء المحيط بهِ يكهرب حتى يصبح موصلاً جيداً للكهربائية

﴿ نصر وخيبة ﴾ وبين ليلة وضحاها ذاع اسم الاستاذ كوري وقرينتهُ . فأخذ السيَّاح يتوافدون الى دارها ومصورو الصحف ومخبروها يغزون حياتهما الخاصة بالاسئلة والصور والرسائل والبرقيات وجعلت الدعوات تنهال عليهما . فدعاهما لورد كلفن ليأتيا الى لندن ليتسلما مدالية دايفي من الجمعية الملكية فكانت هذه المدالية اول اوسمة الشرف الكثيرة التي رفضها الاستاذ كوري . ويقال انهُ لما عرض عليه وسام اللجيون دونور رفضهُ قائلاً اني افضل ان اوهب معملاً على ان امنح اوسمة. وفي سنة ١٩٠٣ وهبت لهما جائزة نوبل الطبيعية بالاشتراك مع الاستاذ بكرل فأنفقا المال في توفية الدين الذي استداناه للشروع في عملهما وللانفاق على مواصلة البحث . وقد كان بامكانهما ان يستغلا مكتشفاتهما استغلالاً تجاريًّا ولكن الثروة لم تكن الغرض الذي يتطلعان اليهِ . فبحثهما كان بحثاً علميًّا للعلم وحده وغرضهما انما كان خدمة الانسانية . وكل ذرة كانا يستخرجانها من املاح الراديوم كانا يقدمانها للمستشفيات ودور البحث بلا مقابل

فطفح كأس مدام كوري عندئذ غبطة وهناءة . ها هو ذا زوجها يفقد قليل من كآبته واحوالهما المعاشية اسهل من قبل وها طفلة ثانية تولد لهما فينعمان بمحبتها وتربيتها

ولكن مخبراً نقر على باب مدام كوري في مساء ١٩ ابريل سنة ١٩٠٦ واخبرها ان الأستاذ كوري كان قبل بضع دقائق يتكلم مع الاستاذ پران فلما غادر كلية العلوم محاولاً ان يجتاز احد

الشوارع صدمتهُ عربة فوقع في عرض الشارع فمرّت عجلات عربة نقل ثقيلة كانت قادمة من الجهة الاخرى على رأسهِ فمات في الحال

أصغت ماري الى القصة ولم تذرف دمعاً ولم تولول ولم ترفع يديها الى السماء . بل جعلت تردد كأنها في حلم « بيير مات بيير مات » . وكادت الصدمة التي اصابتها بموتهِ تقوى عليها . فلبثت ظلت مدة لا تستطيع ان تجمع قواها لمواصلة عملها . ولكن بعد انقضاء بضعة اسابيع قويت على حزنها وعادت الى معملها اكثر صمتاً وهدوءاً من قبل

وحينئذٍ تصرفت فرنسا ذلك التصرف النبيل الذي اشتهرت بهِ في الملمّات . ذلك انها دعت ماري كوري لتشغل كرسي استاذ الطبيعيات في السوربون الذي خلا بموت زوجها . وكانت هذه الدعوة مغايرة لجميع التقاليد . لم يعلم ان امرأة قبلها تقلدت منصب استاذ في السوربون فلما تمّ تعيينها واُعلن كان باعثاً على كثير القال والقيل وجعل بعض الاساتذة يهمسون في آذان اصفيائهم مستنكرين خطأً كهذا . واخذ بعضهم يشيع بأن الفضل في نجاحها في كشف عنصري البولونيوم والراديوم عائد الى اشتغالها تحت مراقبة زوجها . قالوا : « انتظروا بضع سنوات لتعرفوا حقيقتها فتجدوا انها قد مرّت على منبر العلم مرور شبح لا يترك أثراً »

﴿ ماري تقوم بالعمل ﴾ ثم شاع انها ستلقي محاضرتها الأولى في السوربون . فهرع الى باريس رجال ونساء يشغلون اكبر المناصب العلمية والتعليمية في البلاد — اعضاء الاكاديميات وأساتيذ كلية العلوم وكبار رجال السياسة ونبيلات السيدات . رئيس جمهورية فرنسا كان هناك يصحبهُ الملك كارلوس ملك البرتغال وزوجهُ الملكة امبليا . ولما قرعت الساعة الثالثة دخلت من باب جانبي سيدة نحيلة مرتدية ثوباً اسود . . . . واذا الردهة تدوي بالتصفيق . وكأن ذلك أزعجها فرفعت يداً نحيفة مرتجفة تطلب السكون . فخمدت العاصفة حتى لكدت تسمع رنة إبرة تقع على الارض

وبدأت محاضرتها بصوت خافت واضح . ففتن سامعوها بقولها . لم تُشر بكلمة واحدة الى فجيعتها بل هي استأنفت موضوع البحث في عنصر البولونيوم حيث تركه زوجها . فلما ختمت كلامها دوت الردهة ثانية بعاصفة من التصفيق . ولكن بعض المشككين ظلوا يشككون بمقدرة امرأة على ملء منصب استاذ بالسوربون ! سمعت هي بذلك ولكنها ظلت صامتة كأبي الهول

على انّ عنصر الراديوم لم يكن قد استفرد بعد . ولم تحضر منهُ الاّ املاحهُ . فأكبّت مدام كوري على تحقيق هذا الغرض الصعب لندرة الاملاح التي يمكن تجربة التجارب بها . فجربت طرقاً مختلفة لفصل العنصر من املاحه ، على غير جدوى . وكان ماري لم تكن تعيش حينئذٍ الاّ في معملها . فلم تخرج الى المسرح ولا الى الاوبرا . ورفضت ان تلبي الدعوات الاجتماعية التي وجهت اليها . وأخيراً سنة ١٩١٠ امرّت تياراً كهربائيًّا في كلوريد الراديوم المصهور . فلاحظت تغييراً يحدث عند القطب السالب (المهبط) حيث رأت ملغماً يتكوّن . فجمعت هذا الملغم وأحمته في انبوب من السلكا مع

تتروجين تحت ضغط مخفف . فيخر الزئبق الذي في المائم تاركاً وراءه كريات بيضاً لامعة لم تلبث حتى اكدَّت في الهواء . تلك كانت كريات الراديوم النقي

فكان عملها هذا في استفراد الراديوم النقي وتعيين وزنه الذري تاجاً لجميع مباحثها السابقة . هذا بحث علمي دقيق قامت به المرأة — ماري كوري — بعد وفاة زوجها . ايرتاب المرتابون بعد هذا ؟ فلتخرس الالسنة الطويلة ! ومنحت مدام كوري جائزة نوبل للكيمياء اعترافاً بعملها هذا فكانت العالم الوحيد الذي فاز بشرف جائزتين من جوائز نوبل

وأقنعها بعضهم بتقديم اسمها للعضوية في اكاديمية العلوم . ولكن مانع الجنس حال دون انضمامها لهذه الجماعة الممتازة من ابناء العلم . لم يعرف من قبل ان امرأة انتخبت عضواً في اكاديمية العلوم فلماذا التنكب عن هذه الطريق ؟ انت ترى مظاهر الحماسة والانفعال في الجدال المحتدم بادية على اكثر العلماء رزانة ووقاراً ! واخذت الاصوات في ٢٣ يناير ١٩١١ فاخفقت مدام كوري بصوتين. وحتى وفاتها لم تكفِّر الاكاديمية عن تعصبها هذا !

ولما نشبت الحرب وأصبحت جيوش الالمان على أبواب باريس عمدت مدام كوري الى الانبوب الذي يحتوي على ما عندها من الراديوم واسرعت به الى بوردو خشية ان يقع في أيديهم . فلما وضعته في بوردو في حرز حريز ، عادت الى باريس لايقلقها فيها خطر الغزاة على أبوابها ولا طياراتهم في فضائها. واكبَّت على جمع ما تستطيع جمعه من آلات المعالجة بالراديوم والاشعة ، واستنفرت بنات باريس للتمرُّن على استعمال هذه الآلات في معالجة الجرحى ، فلبَّت نداءها مائة وخمسون فتاة ، كانت بينهن ابنتها ايرين Irene وهي في السابعة عشرة من عمرها ؛ فانفقت شهرين تخطب فيهنَّ وتعلمهنَّ استعمال هذه الآلات ، ثم تعلمت هي قيادة السيارة وجعلت تنقل هذه الآلات الى مستشفيات الجيش وتقيمها فيها . وتقدمت ابنتها الى صفوف النار بل الى منطقة ايبرس حيث كان غاز الكلورين السام يفتك بالجنود فتكاً . فلما ارتدَّ الجيش الالماني ، عادت مدام كوري مطمئنةً الى بوردو واخرجت أنبوبها الثمين من مخبئه الامين وعادت به الى باريس . وما كادت تنتهي السنة الاولى من الحرب الكبرى حتى كان قد تمَّ في باريس انشاء معهد الراديوم وجعلت مدام كوري مديرة لهُ ، وانصرفت بعدها الى البحث والعلاج . ولكنها كانت تحب نظرية وعقت الحرب فقالت لما عقد الصلح : « غمرني الصلح بموجة من الغبطة نتيجة للنصر الذي احرزناه بعد بذل عظيم . وقد عشت لارى بلادي ينتصف لها من قرن حافل بالجور والتفرقة » ولما سئلت في سنة ١٩٢٠ عما تتمنى قالت فوراً : «غرام من الراديوم اتصرف فيه كما اشاء» . ذلك ان هذه المرأة التي منحت العلم والانسانية عنصر الراديوم بكشفها عنه كانت لا تملك شيئاً منهُ ، مع ان مائة وخمسين غراماً منهُ كانت موزعة في مختلف المستشفيات ومعامل البحث . فكان قولها هذا باعثاً على سخاء الاميركيات في تقديم الغرام الذي ذكرناه في مطلع المقال

تمخضت الفأرة
فولدت جبلاً

بقلم ميخائيل نعيمه

في سنة ١٦٢٦ لميلاد القائل « مجاناً أخذتم، مجاناً أعطوا » جلس الفاس على عرشه ونادى بأعوانه ثم خطب فيهم هكذا :

« منذ سلمني الناس مقاليدهم وانا أدأب النهار والليل في سبيل اسعادهم . واجترح العجيبة بعد العجيبة لاتقدم من بؤسهم وشقائهم

« سمعتهم يشكون تبلبل ألسنتهم . فابتدعت لهم لساناً واحداً . وذلك اللسان أنا . أنا هو الحرف والمقطع والكلمة . وحيثما اجتمع اثنان باسمي تفاهما في الحال وان يكن الواحد لا يفقه حرفاً من لغة الآخر .

تلك هي العجيبة الاولى

« ورأيتهم تتنازعهم ارباب كثيرة . فخلقت لهم رباً واحداً . وذلك الرب أنا . أنا هو الوزن والميزان والدين والديان ، وأنا يعبدني الناس بكل قلوبهم وكل افكارهم وكل نياتهم . اما اربابهم الآخرون فيعبدونهم بشفاههم لا غير . تلك هي العجيبة الثانية

هذا المقال فصل من كتاب « جبران خليل جبران — حياته موته ، ادبه ، فنه » الذي وضعه ميخائيل نعيمه وينتظر صدوره قريباً

« ووجدتهم يسلكون الى السعادة شتى المسالك . ويطرقون شتى الابواب . فهديتهم الى مسلك واحد هو أنا . والى باب واحد هو أنا . أنا هو الطريق والمحجة . أنا هو المدخل والمخرج . تلك هي العجيبة الثالثة

« وساكنت الناس وآكلتهم وشاربتهم فوجدت سلطانهم لا يساكن راعي اغنامهم . وابن اميرتهم لا يؤاكل ابن جاريتهم . وقسهم لا يشارب زانيتهم . وسمعتهم يتبرمون بذلك ويطلبون المساواة . فوضعت على اعناقهم نيراً واحداً ، وذلك النير أنا . أنا هو النير والمحراث والحارث . تحت نيري يمشي السلطان بجانب الراعي . وابن الاميرة بجانب ابن الجارية . والقس بجانب الزانية . تلك هي العجيبة الرابعة

« ودخلت قلوب الناس فألفيتها مرصوفة بالشهوات ولا رصف الحب في الرمانة . والفيت الناس قد قسموا شهواتهم الى صالحة وطالحة . فأطلقوا الحرية للاولى واقاموا على الثانية الحراس

والحجّاب وظلت قلوبهم تصرخ اليَّ باسم الحرية . اذ ذاك جعلت لكل شهوة ثمناً . وجعلت ثمن الشهوة الطالحة أضعاف ثمن الصالحة . فاختلط حابل الناس بنابلهم . وهكذا حرّرت قلوبهم من قلوبهم . وتلك هي العجيبة الخامسة

« ومشيت في الأرض فوجدت ان الناس قد تقاسموها بالفتر والقيراط . واقاموا لقسماتهم حدوداً . واقاموا السيف حارساً لحدودهم . فلا يتعدى جارٌ حدود جاره . ولا تعبر جنود مملكة تخوم مملكة اخرى الاَّ بقصد الغزو . فألقت للناس عبارة تصل الحدود بالحدود وتهزأ بالسيوف والجنود . وتلك العبّارة أنا . أنا هو العابر والعبّارة . أمرُّ حيث السيف لا يجسر ان يلمع . واعبر حيث الجيوش ترتد من وجه المدفع . تلك هي العجيبة السادسة

« اما العجيبة العجيبة فهي اني قد مزجت الناس في بوتقة واحدة . فجعلتهم جنساً واحداً وكانوا اجناساً . وامة واحدة وكانوا أمماً . بل قد جعلتهم لحماً واحداً وعظماً واحداً ودماً واحداً . لاني جعلت طعامهم واحداً وشرابهم واحداً وكذلك كساءهم ومأواهم

« انا هو الطعام والشراب والكساء والمأوى . ومثلما يشرب الناس قطرة من الماء جاهلين انهم بشربها يشربون كل اصناف التراب والمعادن والنبات والحيوان والاقذار التي مرّت بها . كذلك يقبضون الفلس ويبتاعون به طعاماً وشراباً وكساء ومأوى وهم لا يعلمون ماذا يأكلون ويشربون ويلبسون والى أين يأوون . اليكم هذا المثل :

« في الليلة البارحة باعت امرأة اشواق قلبها التائه واهتزازات دمها المحموم بكمية من الفلوس . والمرأة تلك تدعى في قاموس الناس بغيًّا ، وفي شرعهم آفة ، وفي ناموس شرفهم قاذورة يتجنبها الشرفاء والاتقياء . وفي هذا الصباح انطلقت المرأة الى الكنيسة فابتاعت ببعض فلوسها بخوراً للكنيسة وقدّمت البعض تزكية الى الكاهن . اما البخور فأحرقه الكاهن تسبيحاً لربه . واما التزكية فابتاع بها لحم ضأن واكل منهُ واطعم عياله . او تحسبون ان ذلك الكاهن ، عند ما احرق البخور لربه ، احرق نزيز جرح في قلب شجرة عطرة ? الحق اقول لكم انهُ لم يحرق لربه سوى نزيز جرح في قلب بغيّ . أم تظنون انهُ اكل وعياله لحم ضأن ? الحق اقول لكم انهُ لم يأكل وعياله سوى لحم بغيّ ولم يشرب سوى دم بغيّ . واي الامرين اصعب : ان يؤاكل الكاهن البغيّ ويشاربها ام ان يأكلها ويشربها فيصبح الاثنان لحماً واحداً ودماً واحداً ?

« اليكم مثلاً آخر : امس دخل لص على ارملة عجوز كان قد سمع انها تحمل في عنقها كيساً من الفلوس . فارداها بطعنة مدية وانتشل الكيس من عنقها مغموساً بدمها . وراح ليلته فقامر بالمال وخسره . والذي ربحه منه ابتاع به ثوباً من عند تاجر . والتاجر دفعه ضريبة للخزينة . والخزينة دفعته راتباً للقاضي . والقاضي حكم على اللص بالشنق . أو تحسبون القاضي اكثر براءة من اللص ? الحق اقول لكم انه لص مثله . اللص اراق دماً بريئاً . اما القاضي فشربه

« اجل . لقد مزجت الناس في بوتقة واحدة فجعلتهم انساناً واحداً من حيث لا يدرون . وقد اجترحت في سبيل إسعادهم سبع عجائب كبار ما عدا الصغار . وهم ، مع ذلك ، ما يزالون بؤساء اشقياء واصواتهم ما تزال تصرخ اليّ — اعطنا السعادة اعطنا السعادة ! فها انا عازم ان آتيهم بعجيبة جديدة

« لقد بنيت لهم في سالف الاحقاب مدناً كثيرة . اما الآن فبخاطري ان ابني لهم مدينة تفوق كل ما بنيت . وسأعطي هذه المدينة آذاناً تسمع بها كل لغات الناس . وعيوناً تبصر بها كل اشكالهم واجناسهم . وسأجعل احشاءها اوسع من احشاء الجو . تسوق لها اليابسة خير خيراتها فلا تشبع . وتحمل اليها البحار انفس انفاسها فلا ترتوي . وسيكون فيها لكل شهوة مأوى . ولكل فكر مجال . ولكل خيال مسرح . فيمشي فيها الله الناس وشيطانهم جنباً الى جنب . وتنبت اغراس فردوسهم في مجاري جحيمهم . ويجاور المعبد الخمارة وبيت الدعارة . ويتعانق المتحف والمقصف . وتتكيء المدرسة والسجن على بساط واحد

وسأحقن سكان هذه المدينة بمصل جديد . هو مصل الحركة الدائمة . فيصلون النهار بالليل ولا يهدأون . وهكذا يكون لهم في كل ساعة مايتلهون به عن التفكير في بواعث الحزن والالم وسيكونون لي أطوع من بناني وألصق بي من ظلي . يكفرون بأربابهم اما بي فلا يكفرون . ويهربون من ارواحهم اما مني فلا يهربون . بل اليّ في كل امر يفزعون . اذا حمّلتهم من نفسي فوق طاقتهم لا يقولون : خفف من احمالنا . بل يقولون : زدنا من احمالك وسيضيق بهم سطح الارض فيتخذون في جوفها انفاقاً . ويشيدون في الجو حصوناً عالية وابراجاً شامخة . وسأجعل اذنابهم طعاماً لرؤوسهم . ورؤوسهم طعاماً لاذنابهم . فيأكل بعضهم بعضاً من حيث لا يعلمون

« ها انا قد بحت لكم بما في خاطري . وعليكم ان تخلقوه . وقد اخترت للمدينة العتيدة جزيرة في العالم الجديد واقعة بين مصب نهرين . واسمها مانهاتان . وهي اليوم ملك عشيرة من العشائر الحمر . فبادروا اليها في الحال وباشروا بالعمل وليقسم كل منكم يمين الطاعة قبل ان يبرح هذا المكان . وانا معكم حتى نهاية الازمان »

ما ختم الفلس خطابه حتى قام من بين الحضور كائن مجنّح في عنقه غلّ من الذهب . وعلى عينيه برقع من الذهب . ومشى بكبرياء نحو العرش . ومشى خلفه ابناؤه العشرون — توأمين فتوأمين — وفي عنق كل منهم غلّ من ذهب . وعلى عينيه برقع من ذهب . واذ مثلوا امام العرش خرّوا ساجدين ، وعفّروا جباههم قائلين :

« نقسم بوجه الفلس وقفاه اننا سنطيعه في كل ما يأمره وينهاه »

فقال الجالس على العرش :

« ايها الخيال ! لقد احسنتَ النطق والنية . لكن في مدينتي العتيدة لكل فنّ من فنونك أثر »

ثم تقدّم شيخ جللته ميئة جبال كثيرة . ويداه في اصفاد من الفضة . وعلى عينيه قناع من الفضة . وتقدم وراءه اولاده التسعون توأمين توأمين وبدا كل منهم في اصفاد من الفضة وعلى عينيه قناع من فضة فنعلوا وقالوا ما فعله الخيال واولاده . فقال الجالس على العرش :

« ايها الفكر ! لقد احسنت النطق والنية . لكن في مدينتي العتيدة لكل فتح من فتوحاتك خبر »

ثم نهض كهل على عينيه نظارتان كبيرتان ورجلاه مكبلتان بسلسلة من نحاس . وحبا نحو العرش على عكازتين . وحبا وراءهُ على عكازاتهم اولاده الثمانية والتسعون — توأمين فتوأمين . وعلى عيني كل منهم نظارتان كبيرتان . ورجلاهُ مكبلتان بسلسلة من نحاس . ففعلوا وقالوا ما فعله من سبقهم . فقال الجالس على العرش :

« ايها العقل ! لقد احسنت النطق والنية . لكن على كل باب من ابواب مدينتي العتيدة نظارتان كالتي على عينيك وعيون اولادك »

واخيراً تقدمت كتلة من اللحم قد نشبت فيها مسلاَّت كثيرة فبانت كأنها القنفذ . وقالت ما قاله الذين سبقوها . فاجابها الجالس على العرش

« ايها القلب ! لقد احسنت النطق والنية . قرَّ عيناً وانعم بالاً . في مدينتي العتيدة ستجد منفذاً لكل مسلَّة من مسلاَّتك »

وعندها التفت الفلس الى الوزير الجالس عن يمينه واسمه « الطمع » والوزير الجالس عن يساره واسمهُ « المكر » وقال لهما :

« اليوم يومكما . انطلقا الى العالم الجديد حيث القبيلة الحمراء التي تملك الجزيرة المدعوة مانهاتان وابتاعاها منها بابخس ما يمكنكما »

وكاد الفلس يحل مجلسهُ عند ما انتصبت فجأة امامه فتاة عريانة تقلّب في يديها كرة كبيرة من النور الصافي المتبلور . ففرك الفلس عينيه وقد ادهشتهُ الفتاة وبهره جمال الكرة في يديها . وقال متلعثماً من شدة دهشته

« من اين جئتِ ايتها الفتاة ؟ »

« كنت هنا من قبل ان تكونوا »

« هذا مستحيل . ومن تكونين ؟ »

« انا الحياة »

« وهذا مستحيل والحياة في قبضتي . وماذا تبغين ؟ »

« سمعتكم تطلبون السعادة فجئت اهديكم اليها »

« وهذا ابعد من المستحيل . فليس يعرف بيتَ السعادة والسبيلَ اليه الاّ انا . انا هو السبيل والهادي . انا هو المدخل والمخرج . وما تلك التي في يدك ؟ »

« السعادة »

« وهذا مستحيل المستحيل فالسعادة في مدينتي العتيدة التي شرعت اليوم في بنائها . ام انتِ تمزحين ؟ »

« بل انا في جدّ »

« ان في جدك مزحاً يستفز ضحكي . لكن الكرة التي تقلبينها في يديك جميلة فهل تبيعينها ؟ »

« السعادة لا تباع ولا تشرى »

« هذا ضربٌ من الجنون . اذ ليس في مملكتي ما ليس يباع ويشرى . واذا سلّمنا بجنونك وقلنا ان السعادة لا تباع ولا تشرى . فكيف لمن يطلبها ان يحصل عليها ؟ »

« مَن قبِلَني كما انا نال الجوهرة التي في يدي . مجاناً آخذ ومجاناً اعطي »

« يا لك من داهية . افلا تفضلت اذن وعلمتنا كيف نقبلك لننال السعادة من يدك ؟ »

« ازل عن عرشك وانزع نيرك عن اعناق الناس ودعهم يعطون مجاناً ما يأخذونه مجاناً »

« يا لك من عاهرة وقحة . لا تخجلين حتى من ان تقفي امامي ولا كساء عليك غير جلدك . استروا عورة هذه العاهرة . واسكبوا في فمها رصاصاً . وشدوا رجليها بالحديد . واطرحوها في الدركة السابعة من دركات الجحيم . وآتوني بالجوهرة من يديها الاثيمتين »

فبادر الحراس الى الفتاة وانتزعوا الجوهرة من يدها وقدموها الى الجالس على العرش . وما كادوا يسترون الفتاة برداء من ارديتهم حتى التفت الفلس الى الجوهرة في يده واذا بها حجر اسود . والى الفتاة فاذا بها حية رقطاء . فصاح مقهقهاً

« انها لمشعوذة كبيرة . اسحقوا رأسها ثم دعونا منها . وانصرفوا كل الى عمله . واياكم ان تؤجلوا الى الغد ما يمكنكم فعله اليوم . انطلقوا بسلام »

وكان كما امر الفلس . فابتاع اعوانهُ جزيرة مانهاتان بثمن يوازي الاربعة والعشرين دولاراً . وراحوا يبنون نيويورك مدينتهم العتيدة . وما يزالون حتى الساعة يحفرون ويؤسسون . ويهدمون ويشيدون . وبين انقاض ما يهدمون وجدران ما يشيدون ملايين من الناس يأتون ويروحون وهم عن السعادة يفتشون

***

في خريف سنة ١٩١٢ لميلاد القائل « ملكوت الله في قلوبكم » ازجّ بين تلك الملايين جبران خليل جبران

الزراعة والحضارة

كيف نشأت زراعة الذرة وأين

وسائل البحث الزراعي التاريخي

﴿ طرائق التحقيق والبحث ﴾ لتاريخ الذرة ، ونشوء زراعتها ، شأن خطير في نظر المؤرخ الفيلسوف لا يقل عن شأنهما في نظر علماء الزراعة والنبات ، وذلك لان الذرة من الحبوب الزراعية التي مكنت الانسان من التحضر . وطريق العالم في تحقيق أصل النبات هي ان يجمع ما يستطيع جمعهُ من الحقائق المعروفة . فيوفق بينها ثم يبني حكمه عليها . واذا اعوزته الادلة الصريحة فكثيراً ما يلجأُ الى ما يلجأُ اليه القضاة احياناً فينظر في القرائن . واذا كثرت القرائن التي تدل على صحة الحكم زاد ثبوته ، اذ يبعد ان تتفق قرائن كثيرة في دلالتها على صحة شيء ما لم يكن ذلك الشيء صحيحاً او قريباً كل القرب من الصحة . واذا بدا له — اي للعالم — من القرائن ما لا يلتئم مع غيره وجّه عنايته اليه وتعمق في البحث فيه حتى يتبين سبب هذا الاختلاف ، وغالباً ما يكون حل السر ، مرتبطاً بمعرفة اسباب التناقض بين الحقائق المعروفة

واذا اراد نباتي ان يعرف الموطن الاصلي لجنس من النبات التفت اولاً الى النوع البرّي منه وبحث عن الاماكن التي ينمو فيها ، وقلما تخطىء طريقته هذه ، ولكن من اجناس النبات ما لا ينمو بريًّا ، فيُسَدُّ هذا الباب في وجهه ، فيعمد عندئذٍ الى طريقة اخرى وهي ان يراقب النبات في نموه ونشوء اعضائه ، ويقابل بينه وبين غيره ، لعله يعثر على جنس يقرب منه ولو كان حبل القرابة طويلاً . او قد يطرق في بحثهِ ، طريقة المقابلة بين بقاياه المتحجرة والنظر فيما يطلق عليه من الاسماء في اللغات المختلفة لان من ينقل نباتاً من بلاد الى اخرى لم يعرف فيها من قبل ، ينقل اسمه كذلك ، ولا يعتدُّ بهذا الامر ولا يبنى عليه حكم الاَّ اذا امكن تأييده بقرائن اخرى

هذه هي السبل التي سوف نشير اليها في البحث عن أصل الذرة

﴿ اختلاف الاسماء ﴾ يرجح ان الذرة لا تنمو برية ولو وجد منها نوع بري لما خفي عن عيون الباحثين ، لاسيما وانها من اجناس النبات المشهورة . وهذا مما جعل تعيين موطنها الاصلي صعباً . وقد ذهب كثيرون الى انها نقلت من اميركا الى سائر البلدان وخالفهم آخرون فقالوا انها كانت تزرع في العالم القديم قبل الكشف عن العالم الجديد ، مستندين في ذلك الى بعض الادلة التاريخية . واسم الذرة الشائع في الولايات المتحدة الاميركية مايز Maize وهو مأخوذ عن اصل هندي ، الاَّ انه

لم يشع الا بعد سنة ١٥٧٠ وتعرف الذرة في اوربا بأسماء تشعر بأن اصلها من البلدان الشرقية . فالانكليز يسمونها القمح الهندي Indian Corn والفرنسيون يسمونها القمح التركي blé de Turquie وتعرف في مصر بالذرة الشامية . لكن الذرة ليست قمحاً ولا هي هندية او تركية او شامية، والنسبة الى البلدان لا تكون صحيحة دائماً . فالديك الذي يسمى في مصر بالديك الرومي يسمى في لبنان الديك الحبشي وفي انكلترا بالتركي وفي فرنسا بالهندي . وقد قال احد العلماء — واسمه دم كنتول — ان الذرة كانت تعرف بالقمح الروماني في مقاطعتي اللورين والفوج وبالقمح الصقلي في مقاطعة تسكانا بايطاليا وبالقمح الهندي في صقلية وبالقمح الاسباني في مقاطعة البيرنيه والترك ينسبونها الى مصر

﴿ هل الاصل شرقي ﴾ ولم يرد للذرة اسم في السنسكريتية ولا في العبرانية ولم يعثر لها على أثر في النقوش والكتابات المصرية ، على ما يعلم . وقد وجد أحدهم سنبلة منها في طيبة ولكن لاشك في انها وصلت الى تلك المقبرة في الازمنة المتأخرة إذ لا يعقل ان يكون المصريون استعملوا الذرة وعرفوها ثم اغفلوها في نقوشهم . ومن الثابت انها لم تعرف في اوربا قديماً ، ولكن البعض كان يظن انه أتي بها من الشرق في القرون الوسطى ومن القائلين بذلك عالم يدعى بونافوس وهو من اكبر من كتب في هذا الموضوع في اوائل القرن التاسع عشر ثم تابعه نفر كبير وكانوا قد اعتمدوا على وثيقة تؤيد رأيهم ولكن ظهر بعدئذ أن الوثيقة ملفقة في العصور الحديثة . فلم يبق للقائلين بالاصل الشرقي ، من دليل يعتمدون عليه ، إلاَّ صورة في مخطوط صيني خط ما بين سنتي ١٥٧٨ و ١٥٩٧ وتمثل تلك الصورة نباتاً يقرب من الذرة وقد كتب في أسفلها اسم الذرة في الصينية لكن البرتغاليين أتوا الصين سنة ١٥١٦ أي قبل كتابة هذا الكتاب بنحو نصف قرن ولا يبعد أن يكونوا هم الذين أوصلوا الذرة اليها ، ومما يؤيد ذلك انه لم يرد لها ذكر في كتابات الصينيين الذين لم يغفلوا ذكر شيء فيها

﴿ أصلها اميركي ﴾ فسكوت الشرقيين عن ذكر الذرة في كتاباتهم القديمة ، دليل واضح على انها من اصل غير شرقي وقد انتشرت زراعتها بعد اكتشاف أميركا بسرعة غريبة ولو كانت في الشرق قبل أن يؤتى بها من اميركا لوجب ان يعرف نفعها ويعتنى بزراعتها قبل ذلك التاريخ بزمن طويل.

وليس من ينكر ان الذرة كانت تزرع في اميركا زرعاً واسع النطاق عند ما كشف الاوربيون تلك البلاد وكانت اهم المحاصيل التي يعتمد عليها هنود اميركا ولها اسماء في كل لغاتهم ويستدل على قدمها وشأنها العظيم عندهم من ادخالها في اكثر شعائرهم الدينية . وقد وجد شيء كثير منها في قبور الهنود الاميركيين ، وفي هيا كل المعبودات في المكسيك ، كما وجدت الحنطة (القمح) والشعير في القبور المصرية القديمة . ويجب ان لا يفهم مما تقدم ان الاميركيين بدأوا بزراعتها لما بدأ المصريون بزراعة الحنطة والشعير ، فان عصر التمدن في المكسيك وبيرو متأخر عن عصر التمدن المصري القديم . الاَّ ان انتشار زراعتها في نواحٍ كثيرة من اميركا وكثرة انواعها المستعملة في الزراعة تبعث على الظن انها عرفت منذ زمن طويل ، وقد عثر داروين على متحجرات منها ممتزجة بالصدف على شاطىء من

شواطئ بيرو بأميركا الجنوبية وقد ارتفع ذلك الشاطئ الآن ٨٥ قدماً عن شط البحر

﴿ اين موطنها في اميركا ﴾ يظهر مما تقدم ان موطن الذرة الاصلي هو اميركا. ولكن اي اقسام اميركا هو ذلك الموطن ؟

يعرف من طبائع هذا النبات انهُ يجود في البلدان الحارة فيجب ان نبحث عنهُ في حالته البرية في سهول الاقسام الحارة ونلتمسهُ في السهول لان النبات الذي لا يعمر الاَّ سنة واحدة لا ينمو في الحراج والغابات. وقد كفانا علماء النبات عناء البحث الكثير إذ قد مضى عليهم اكثر من ٣٠٠ سنة رادوا فيها السهول جميعاً ولم يدعوا نباتاً الاَّ وصفوه وشرحوا طبائعهُ ولم يعثروا على نبات بري من الذرة الاَّ انهم عثروا على نبات يقرب منها في المكسيك وغواتيمالا (اميركا المتوسطة) وهو النبات المعروف باسم (تيوزنت teosinte) فترجح ان سهول المكسيك وغواتيمالا هي موطن الذرة الاول

والذرة انواع كثيرة تعد بالمئات والبعض منها يختلف عن البعض الآخر ، اكثر مما يختلف التيوزنت عن انواعها القريبة منهُ ، وعلماء النبات يجعلون التيوزنت من جنس نباتي مستقل عن جنس الذرة ، ولكن ذلك لا يمنع ان يكون الجنسان نبتا من اصل واحد ، لا يختلف عنهما او عن كل منهما، الاَّ اختلافاً يسيراً . واكثر انواع الذرة تكون الحبوب فيه عارية من الغلاف والاستغناء عن الغلاف درجة من درجات ارتقائها ، فاذا لقحت الانواع الخالية من الغلاف من بعض انواع الحبوب ذوات الغلاف أتى النسل مغلَّف الحبوب ، قريباً من التيوزنت ، لا يفرق عنه إلاَّ في وجوه قليلة . ويمكن تلقيح الذرة بالتيوزنت، والتيوزنت بالذرة فيأتي النسل قويًّا منتجاً ، وهو من الدلائل على صلة النسب بين الجنسين . وثمة وجوه شبه اخرى بين الذرة والتيوزنت لا مكان للتبسط فيها هنا وكلها تثبت وتؤيد صلة القرابة بين الذرة والتيوزنت

﴿ صورة التطور العامة ﴾ فاذا جمعت كل هذه الحقائق وغيرها وضمت بعضها الى بعض ، امكننا الرجوع بتصورنا ، نطوي الوف السنين ، الى الزمن الذي كانت فيه الذرة تنمو في سهول المكسيك وغواتيمالا وغيرها من بلدان اميركا الوسطى. وكانت سوقها اذ ذاك طويلة يزيد ارتفاعها على ارتفاع اكثر انواع الفصيلة النجيلية ، وتحمل حبوباً صغيرة في رؤوس اغصانها

ثم تكيفت ، ازهارها بمرور العصور ، فأصبح بعضها يحمل البيوض ، وبعضها يحمل اللقاح ثم ظهر نوع قصرت اغصانه كثيراً ونمت اوراقه وتكيفت حتى احاطت بالحبوب ، ووقتها من الطيور وبعض الحيوانات . فراق منظر هذا النبات بعض هنود اميركا ، وثبت لهم نفعه فاعتنوا بهِ، ومن ذلك الوقت بدأت زراعة الذرة واخذت انواعها تتكاثر حتى اصبحت تعد بالمئات . ولا شك ان الاميركيين الاصليين اظهروا من العقل والفطنة ، في انتخاب انواع الذرة ، اكثر مما اظهروا في تجارتهم بها مع الاوربيين الذين نزلوا بلادهم اولاً ، اذ كانوا يبيعونها اكداساً مقابل ما لا قيمة له من الخرز والودع وقطع الزجاج

[تلخيص بحث للاستاذ ايست بجامعة هارفرد]

بين الحيوان والنبات

للامير مصطفى الشهابي

لي صديق عكف على الحيوانات فتوغل في مدارسة خَلْقها وطبائعها ومنافعها ومضارها حتى اذا هضم منها ما لا يستهان به من المعلومات صار صديقاً لها يكثر من ذكرها ويشيد بفوائدها في كل المجالس . وكان يعلم انني اميل الى النباتات وانني لا اعدل بها شيئاً من الاحياء السائرة فكان يتعمد ذمها امامي ليستفزني الى مناظرتهِ . لكنني كنت اتجنب منازلتهُ واتحاشى مقارعته ، حتى كان يوم من الايام واذا بي اراه في المخبر وقد دخل عليَّ دامراً لا مستأذناً فوجدني حانياً على بعض الازهار اتفحص عن مواقع أجزائها واتقصاها . وحانت منهُ التفاتة الى احدى زوايا المخبر فرأى على الارض جماجم بعض الخيل والانعام وعظامها وقد علاها الغبار لفرط اهمالها ، فما كان منهُ الاَّ ان انفجر بحديث طويل يدل على ما يكنُّهُ صدره من الحفيظة والموجدة قال :

ان امرك مع دوحة النباتات عجب . اراك تُعنى بأشجارها وتشغف بأزهارها وتستلذ اثمارها وتستخفك خيارها لكنك تتناسى شرارها . هلاَّ ذكرت ان جميع الجراثيم القتالة التي يسمونها مكروبات تنتسب الى رتبة الأشنة الزرقاء فهي اذن من النبات لا من الحيوان ، وان معظم امراض الزرع والشجر مصدرها فطور دقاق مجهرية تستولي على مزروعاتك ومغروساتك فتفسدها وتبيدها وهذه الفطور هي ايضاً من النبات لا من الحيوان . وربما كان عملها هذا اي فتكها بابناء جلدتها اشد واضر من فتك الحيوان بالحيوان . ثم انظر الى الاعشاب السامة ما اضرها كالشوكران واليبروح والعنصل والطيّان والزؤان وغيرها ، واضر منهــا تلك المخدرات المذهلات الذاهبات بحسك والطائحات بلبك كالافيون والحشيش والكوكائين والنكوتين ، دع التي لا يدخل منها ذرة في جوفك حتى تبعث بك حثيثاً الى حيث استقر اجدادك في العالم الثاني كسم الاستركنين واضرابه من المواد النباتية المخيفة .

واذا لانت ملامس بعض النباتات أليس لبعضها شوك طالما آذى الناس في عيونهم وايديهم وارجلهم ؟ واذا فتكت بعض الحيوانات ببعض افننسى بعض الطفيليات من النباتات التي لا تعيش الاَّ من طلِّ مضيفها اي نسغه كالكَشُوث والذؤنون والدبق واشباهها ؟

وبعد ان بلع الصديق ريقه قال :

لا سبيل الى الموازنة بين فوائد الحيوان وفوائد النبات . وهاك الحمار مثلاً : يتهمه النـاس بالغباوة مع انه خير للمرء من بعض ابناء جنسه المتشحين بالذكاء . اتدري اننا نركبه ونحمله اثقالنا

من ايام حقبة الحجر المصقول في فجر الانسانية الى يومنا هذا وهو على جورنا صابر يقنع بالقليل من الطعام ويقوم بواجبه خير قيام لقاء قليل العلف الذي يُعلفه . وهذه الصافنات الجياد من الخيل العراب شدَّ ما يبدو على محياها من سيماء النبل وجلال العتق . وما احتل السيارة امام عربة يقودها زوج من الجياد عليهما الاعنة المذهبة وهما يختالان كعروسين او يشتدَّان عدواً رافعي الرأس شائلي الذنب ضاربي الارض بقوائم كمقامع من حديد . والعز على متون الخيل . وما ظفر الظافرون في الفتوحات الاَّ بالجياد السريعة في جريها المروَّضة على الكرّ والفرّ في عجاج الحروب ورهج الملاحم

وما عيشة الناس في الفلوات بغير الابل . ولولاها زالت البداوة وفقد الانتفاع بالصحاري والمفاوز . لحمها لذيذ ووبرها ناعم ولبنها حلو ملين للمعدة مطهر للمعى وجلدها صالح لصنع النعال والقُرَب العظام وظهورها تحمل الاحمال الثقال ، وهي آية الصحراء التي لا تعد مناقبها ولا تذكر مثالبها . ومن ذا الذي لا يعجب بالعنز التي يقتات بلبنها الفقير المعدم دون ان يطمع من مال الغني بفلس ، وبالنعجة التي نجزُّ صوفها ونشرب حليبها ونأكل لحمها طعاماً شهيًّا . وبالبقر الذي نحرث به الارض ونأكل منهُ اللحم ونصنع من لبنه الزبدة والجبن

واراك تملأ الدنيا صياحاً من اضرار الحشرات . لكنك لا تذكر بخير دودة القز عندما تقع طرفك بأثواب الحرير التي ترفل بها فوانن النساء وانت تردد بيت ابي الطيب المتنبي

بأبي الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلاببا

او بيت المنخل اليشكري

الكاعب الحسناء ترفل في الدمقس وفي الحرير

ولقد سهيت عن فوائد النحل وشهده وحشرة القرمز واصباغها والحشرات الناقلات اللقاح الى سمات الازهار

ولماذا لا تتحدث عن الفراش وتزاويقها والطير وتغاريدها وصيد البر والبحر وما في اقتناصه من لذة . وهل عاش اجدادك الاقدمون الاَّ من الصيد قبل ان يعدوا الى النباتات بدأ

ولما رأيت صاحبنا قد استرسل في حديثه ورأيتهُ مندفعاً فيه اندفاع الودق الهطال او السيل الجرار وربما انقضت الساعات دون ان يقف أسكتّه صائحاً : على رسلك يا أخي . هوّن عليك الامر قليلاً ودع مجالاً لغيرك يتكلم . لقد آمنت ببعض ما ذكرته وكفرت ببعض . فالمكروبات هي من النباتات كما قلت . لكن دقائق الدود وغلاظها كلها من الحيوان وفتكها بأعضاء الانسان كبير . والذي يسمعك تتكلم عن الحشرات وعن منافع بعضها يظن انك قد محيت بذلك اضرارها العظيمة وفظائعها الجسيمة حتى كدت تنسينا ارجل الجراد وغاراتها ودودة القطن وويلاتها وحشرات المنّ وآفاتها وذبابة الفواكه وضرباتها وقشع الاشجار وفتكاتها وعثة الالبسة ولحساتها وسوسة الخشب ونخراتها . وكأني بك اذا ما تركتك وشأنك ستشهيني منظر القملة وتحبب اليّ رائحة البقة وتذهلني

عن لسعة البعوضة وتنسيني إلحاح الذباب على الناس وتجملني أسر لسروره وأقول مع عنترة العبسي «هزجاً يحك ذراعه بذراعه» الى آخر البيت المشهور. ولعلك لا يؤثر فيك لدغ الثعابين ولسع أم اربع واربعين. وستقول عما قريب ان الزنابير والعقارب لا حمات لها وان جميع هذه المخلوقات الخفيفة هي آية الله في ارضه رونقاً وبهاء وبهجة واشراقاً . . . .

ومن العجيب انك تذكر بعض النباتات الطفيلية وعددها حقير لا يؤبه له وتنسى ان معظم الحيوانات لا تعيش الا من لحم الحيوان. فكبار السمك تلتهم صغارها، والجوارح من الطير تفتك ببغاثها، وسباع الحيوان يفترس بعضها بعضاً، والدنيئة منها تسطو على خشاش الارض، ومن الحشرات ما هو مسلط على حشرات اخرى وهكذا تتقاتل الحيوانات وتتفانى وهي في ذلك كالانسان بحروبه الهمجية واعماله البربرية. اما النباتات فمنها الحنطة والارز والذرة وسائر الحبوب التي تقتات بها منذ آلاف من السنين. ومنها البقول التي لا يضاهيها شيء بخفتها في المعدة. ومنها الفواكه اللذيذة والتوابل والافاويه وما يستخرج منه السكر والنشاء وما تعصر منهُ الزيوت المختلفة. وماذا يعدل العنب وابنة العنب التي قال فيها الشاعر الكافر «هات التي هي يوم الحشر اوزار». ولولاها أكان يكرز ابو نواس وخمرياته. وما هو قوت أهم الحيوانات الدواجن التي تباهي بها. أليس هو الكلأ وسائر ما تنبته الطبيعة في المروج الطبيعية او يستنبته الفلاح في المروج الصنعية. ثم انظر الى الحراج واخشابها وتخيل فوائدها التي لا حدَّ لها في معظم الصناعات البشرية حتى قال احدهم انه لم يهتد الى صناعة من الصناعات الا وهي في حاجة الى الخشب. ومن المعلوم ان الاخشاب تستعمل في صناعة الورق وعود الثقاب والفحم وفي بناء البيوت وفي تدفئة الغرف وفي رصف الشوارع وفي صنع الأعمدة والعوارض والعربات واقلام الرصاص والعصي وقبضات المظلات والخزانات والمنصات والكراسي والسلال الخ. ويستعمل لحاء بعض الشجر لاستخراج الدباغ منها كما يستخرج الفلين من احد انواع البلوط

وأي شيء اجمل في العين من زهرة ندية يروقك منظرها او ريحانة عطرة تنعشك رائحتها. واي بيت من البيوت الكبيرة او الحقيرة يخلو من حديقة للزهر او من حوض او من زهرة في أصيص. ولا شك انك عليم بضروب العطور وبالمياه العطرة. ولا تجهل ان ادقها في الانف واغلاها ثمناً تلك التي تقطر من بعض الازهار والرياحين كالورد والبنفسج والياسمين والليلك والعنبر وخيري البر والبميثران وزهر الفصيلة البرتقالية وغيرها كثير، دع ما يأتينا من البلاد الحارة كالبخور والجاوى واللبنى وامثالها من المنعشات

واذا انتقلنا الى النباتات الطبية ألسنا نرى فيها المسكّنات والمعرّقات والمسهّلات والقابضات والمشهّيات والهضومات والمنبّهات والمقيّئات وطاردات الدود من البطن. واذا ما اعترتك الحمى فجعات جسمك يرتعد واسنانك تصطك فهل من دواء سوى خشب الكينا وما يهيأ منهُ. وقد

أسرفت يا صاح بذكر مثالب المكروبات الضارة ونسيت ان هنالك الخمائر التي لا غنى عنها في صنع الخبز والجبن والخمر وامثالها . ونسيت ايضاً ان من المكروبات ما يستعمل مصلاً يحقن به الاصحاء اتقاء للامراض . وذكرت حشرة القرمز ولم تذكر نباتات الصباغ كالفوة والنيلة والحناء والعصفر . واطنبت بالصوف والوبر ولم تطنب بالقطن والكتان وهو لباس سواد الشعوب . وهذه سيارتك واقفة امام داري فهل من سبيل الى سيرها الاَّ بالمطاط في دواليبها والاَّ بالبنزين يدفعها وهو من النفط والنفط من بقايا اشجار جيولوجية قديمة

وعبثاً حاول صاحبي ان يسكتني فلم اسكت حتى قرع الباب علينا زائر . واذا به صديقنا العلامة الدكتور امين باشا المعلوف صاحب معجم الحيوان فاحتكمنا اليهِ لان علمه بالنبات كعلمه بالحيوان . فلم يشأ ان يحكم بيننا بل قال لا اروم الى المفاضلة . فللنبات منافع ومضار وللحيوان منافع ومضار والامر جلي لا يحتاج الى مهذار . . . .

زهر يتفتح ليلا

يذهب بعضهم الى ان ما في الطبيعة من جمال الازهار وشذا عطرها ، انما أبدعتهُ الطبيعة لتكفي حسَّ الجمال في الانسان . وهو قول شعريٌّ اكثر منهُ علمي ، لان بدائع الالوان وروائع العطور في أزهار النبات واوراقهِ ، متصلة صلة وثيقة بنشوئهِ وتطورهِ وتلقيحهِ واخلاف النسل فيهِ . فاذا أصرَّ اصحابنا على رأيهم الشعري فلنذكر لهم نباتاً من فصيلة الصبير ، لا يتفتح زهرهُ ولا يعبق نشرهُ الاَّ في الليل . فزهر هذا الضرب من الصبير ، يبدأ في التفتح عند المساء ، ولا يأتي عليهِ الصباح الاَّ وقد انطبقت اكمامه ، وتهدَّلت تيجانها ، لا حيوية فيها ولا عطر ولا جمال . ولكنها تكون في خلال ذلك قد حققت الغرض الذي انشأَتها الحياة لتحقيقهِ . ذلك ان بعض اصناف الفراش يكون قد زارها في الليل ، منجذباً بعطرها ، فينتقل من زهرة الى اخرى ، فيكون في خلال تنقله وسيلة الطبيعة لاحداث التلقيح . ويعرف هذا النبات باسم Cereus اي الليّن ، لان لهُ سوقاً طويلة دقيقة سهلة الالتواء يمتد فيها من أعلى الى اسفل اضلاع مقعّرة ، فيها على فترات متساوية شوك قاسٍ . وهذا النبات اما معترش يتسلق الأشجار او يمتدُّ على سطح الارض . اما قطر الزهرة من أزهاره فقدم وقد يبلغ اربع عشرة بوصة . ولكنك اذا رأيت البرعم في النهار لم تستطع ان تتصوَّر ، ما ينطوي عليهِ من الجمال عند تفتحهِ في الليل . فلون اوراق الكأس بني قاتم من الخارج ولكنهُ اصفر زاهٍ من الداخل . وكأن الطبيعة اختارت هذا اللون الاصفر ، لكي تزيد البهاء في بياض التاج . ويصحب هذا البهاء المذريَّ ، عطر لطيف يفوح ليلاً فيجذب الفراش الى الازهار من مكان بعيد . والنبات متوطن في جزائر الهند الغربية ، ويرى في مستنبتات الازهار في انكلترا

احمد زكي باشا

في ذمة الله أبي وشيخي

بقلم بشر فارس

— العالم —

قدمت من باريس الى مصر — في فصل الصيف سنة ١٩٣٠ — أُطلب طائفة من المستندات إتماماً لرسالتي « العرض عند عرب الجاهلية » . فسرعان ما كتبت الى احمد زكي استضيء بمشكاته . ولما مثلت بين يديهِ قرأت عليهِ خطة رسالتي فناقشني في بعض نواحيها . والغريب انهُ ناظرني في مسائل فلسفية محضة لا ترجع الى العرب في شيء

خرجت من عند احمد زكي منشرح الصدر ، ذلك اني ادركت اني ظفرت بأستاذ ثقة . ومما زاد في انشراح صدري ان الرجل — رحمه الله — مال إليّ وأنس بي وحملني على ان أسير في عملي اذ جعلني اطمئن اليهِ بل أثق بنفسي

منذ ذلك اليوم حتى عودتي الى باريس — أي زهاء شهر — ظللت اختلف الى احمد زكي اقرأ في داره كتباً مطبوعة ومنسوخات كان يجلبها اليّ من خزانته او من دار الكتب المصرية . وكان يعلمني كيف اطالع هذه المنسوخات واتصفح تلك الكتب . ثم اني لما قفلت الى مصر في السنة الماضية ما فتئت اعتمد على احمد زكي وارجع اليهِ فيما اقرأ واكتب

كان احمد زكي راسخ القدم في الفنون العربية : عالماً بفقه اللغة وقواعدها ، بالتفسير ومذاهبه ، بالفقه ودقائقه ، بالتاريخ ونوادره ، بالجغرافيا وشواردها ، بتراجم الرجال المبرزين . وكان — فوق هذا — متضلعاً من اللغة الفرنسية ، مطلعاً على أدبها القديم والجديد ، وكان يقرأ الاسبانية والانكليزية ، وكان يأسف على جهله الألمانية ، وطالما قال لي : تعلم الالمانية ان اردت ان تتمكن من فن الاستشراق

ولم يكن علم احمد زكي مقصوراً على شؤون العرب واللغات ، بل كان ينبسط على الفلسفة والتاريخ العام والجغرافيا العامة والقانون والاقتصاد السياسي

هذا ، وقد يظن الناس ان سعة الاطلاع كانت خاصية احمد زكي . والذي عندي أن خاصيته كانت بين البصيرة الخطافة والذاكرة الممكينة . ثم انهُ كان يفضل سائر العلماء باستعمال الجزازات fiches ، وهي طريقة علمية اخذها عن الفرنجة : فكنت ترى في داره خزانات يملأها جزازات مرتبة على حروف المعجم ، كل طائفة منها على حسب الفن او الباب الذي ترجع اليهِ . وهذا ما يبين لنا كيف كان يأتي احمد زكي بالحجج القاطعة والاستشهادات الصحيحة في اسرع من ارتداد الطرف . وكيفما كانت الحال فان احمد زكي كان قوي الحجة ، طلق البديهة . وقد رأيته — غير مرة — يكتب مقالاً كاملاً في جلسة واحدة . وكان يؤثر الكتابة عند الفجر

واظن المناظرة الفن الذي مهر فيهِ احمد زكي . وانه لا يخفى عليّ ان خصومه في العلم كانوا يخافونه لثباته ومعارضته ، ولربما خافوه للذعه . والحق ان قلم احمد زكي كان ينحرف الحين بعد الحين عن الهدوء فيهيج ، الاّ ان هيجانه لم يشذّ قط عن ادب المناظرة ، وجلّ ما يقال فيهِ — اذن — انهُ كان متهزلاً ساخراً . واني أشهد ان احمد زكي لم يعمد الى التهزل والسخرية الاّ ليدفع سقطة خصومه ويشلّ مكابرتهم

***

ومن فضائل احمد زكي العلمية انهُ كان حرّ الفكر ، كثير التحري والتثبت ، منقاداً للحق . وكل هذه صفات العالم الحق

أما حرية فكره فانهُ لم يقل ولم يكتب الاّ ما رسخ في ذهنه . ثم انهُ ما تملّق احداً من الناس . والمعلوم انهُ كان كثير الخصوم والاعداء لصراحته وصدقهِ . (ووالله لو صانع لحلّ في مقدمة المجمع العربي المصري !) واكبر دليل على حرية فكره انهُ فسّر طائفة من الآيات الكريمة مستنداً الى عقله فأقبل عليه العلماء والفقهاء يحاجّونه ولم يظفروا منهُ بشيء

واما تحريه وتثبته فقد عرف المقرّبون اليهِ كيف كان يطيل النظر في الكتب العُمَد ويوازن بينها ابتغاء الوصول الى الحقيقة ، وكثيراً ما كان يثبت المظانّ فلا يرسل الكلام ارسالاً كمثل غيره من علمائنا

واما انقياده للحق فقد اجتمع ذات مساء عندي بالاستاذ زكي المهندس المدرس بدار العلوم . فدارت بينهما مناظرة حول استعمال « لا » مع « كاد » . فقال احمد زكي : تقول العرب « يكاد لا يفعل » وقال الاستاذ المهندس : بل تقول « لا يكاد يفعل » . فثبت احمد زكي عند رأيه ، وبقي الاستاذ المهندس على قوله ، حتى انصرفا جميعاً . ولما كانت الساعة الخامسة صباحاً ايقظني جرس (التلفون) ، واذا احمد زكي يصيح : ان الاستاذ على صواب ، ولكن أجهل عنوانه ، فأخبره لساعتك اني قضيت ليلتي في التنقيب والتصفح حتى أصبت الدليل على قولهِ — في القرآن — « أم انا خيرٌ من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين — سورة الزخرف »

ومما يؤسف عليه ان احمد زكي باشا بذل حياته العلمية في كتابة المقالات . فاذا نظرنا الى تآليفه لم نصب الا كتباً ضئيلة او محاضرات او رحلات او ترجمات وكم قلت له يا باشا توّج حياتك بمؤلف ضخم لا يقدر على اخراجه الا انت . فما زلت به وما زال بهِ خلصاؤه ومريدوه حتى دعاني يوماً فقال لي : يا بنيّ اني نويت ان اؤلف معجماً مختصراً سهل المتناول على شاكلة معجم Larousse الفرنسي مع لحق ادرج فيهِ اسماء الاعيان والبلدان . فصفقت لتلك النية . فقال لي الباشا : اني ارغب اليك ان تعاونني على تأليف ذلك المعجم ، وليكن عملك موقوفاً على تهذيب المعاجم العربية بحيث تطرح الزوائد والشواهد وتقصر الشرح على الالفاظ الحية التي بنا حاجة اليها سواء كانت علمية او عملية ، ثم اراني بعض جزازات كان قد هيأها على سبيل المثال . فاتفقنا على ان نشرع في تأليف المعجم بعد اشهر معدودات ، وقد اوصاني احمد زكي ان اجعل الامر بيني وبينه . وهأنذا اذيعه اليوم

***

ومن مباحث احمد زكي الاخيرة انهُ كان يشتغل باثبات خارطة الجزيرة ولا سيما اليمن . وقد اطلعني على رسم اولي لهذه الخارطة ، واخبرني انهُ بعث الى الحكومة اليمنية يسألها عن اشياء وانهُ راحل الى تلك البلاد ليحقق مولد النبي

ومن اعماله الاخيرة انهُ صحح طائفة من تجارب كتاب « موافقات الحديث » ، ذلك الكتاب الذي يطبعه الآن البروفسور (فنسنك) في (هولندا) . وكان احمد زكي يرسل تلك التجارب بالبريد الجوي على الغالب

ومن آثاره في خزاناتنا تلك الكتب النفيسة التي صححها وطبعها وعلّق عليها ، واليك مثلاً « كتاب التاج » . ولربما ظفر بكتاب فريد يحلم العلماء بهِ فلم يدخر وسعاً في اقتنائه وطبعه الطبع الذي لا يترك غاية وراءه (دونك « كتاب الاصنام » لابن الكلبي) او تصويره تصويراً محكماً (اليك « كتاب الامتاع والمؤانسة »)

ومن آثاره على السنتنا واقلامنا الفاظ ولدها واسماء رجال وبلدان احياها احياء . اما هذه الاسماء فقد ظلّ يجاهد في سبيلها في الصحف ولا سيما « الاهرام » . واما تلك الالفاظ فقد يرى لها قلمه . ومنها لفظة « السيارة » . واني اقف عندها لان « الباشا » حدثني عما عانى من اجلها قال : كتبت فيما مضى من الزمان اعرض لفظة « السيارة » بدلاً من لفظة « اوتوموبيل » . فسفّهني لفيف من الادباء ، على رأسهم المويلحي وظهروا عليّ . الا اني كنت في ذلك العهد صاحب السر في مجلس الوزراء ، فوقعت لائحة « النقل » ذات يوم بين يدي ، فجعلت لفظة « السيارة » مكان لفظة « اتوموبيل » حيث اصبتها ، ثم دخلت على رئيس الوزراء ، فوقّعها على وجهها ، وهكذا شاعت لفظة « السيارة »

وعلى الجملة ، ان احمد زكي كان العالم الذي يقف حياته على العلم ويتلف ماله في سبيله : ترجم وألف وكتب وخرّج التلاميذ وعاون العلماء وجمع الكتب ثم بذلها للخلق . وما أظن احداً من الشرقيين لهذا العهد ظفر بالصيت الذي ظفر به احمد زكي . ولعلَّ بعض خصومه يذهبون الى ان صيته انما رفع على حبهِ للعرب ودعايته لهم ودفاعه عنهم ، فاعلموا ان الرجل كان ابعد صيتاً عند الافرنج على تحديهِ لهم وتشيعه للعرب وتعصبه للشرق والدليل على ذلك ان مكانته عند المستشرقين رفيعة جداً ، ولقد اتفق لي وأنا اطلب العلم في « السوربون » ان اسمع غير واحد من اولئك القوم يثني على احمد زكي ويعترف له بالعلم الغزير ، ولولا ان يكون الامر هكذا ما قصده البروفسور (فنسنك) ولما قال فيهِ استاذي البروفسور (دومامبين) ما قال في المقدمة التي عملها لكتابي المذكور في مستهل هذا المقال .

— الرجل —

لازمت احمد زكي سنة ونصف سنة . فكان رحمه الله اباً لي وشيخاً وصديقاً في آن .

ان خلق احمد زكي [١] خلق عربي كريم حتى الائتلاف أبيّ (لا يطأطيء ولا يلتمس شيئاً) — سمح النفس (لا ينصب عداوة لمن يخالفهُ في عقيدة) — وفيّ (لم يخفر ذمة ولم يخن صديقاً) — عصبي المزاج (سريع الغضب ، سريع الرضى) — مقدام (وانما كانت شجاعته في الرأي) — ميال الى النضال (وانما كان يبارز بالقلم واللسان) — ثابت الرأي (لا ينقاد لامرٍ عن هوى) — لطيف المحاضرة ، ظريف البادرة ، حلو الحديث

بيد ان هزَّة الشباب ابرز ما في خلق احمد زكي

كان — رحمه الله — وثاباً متحركاً ، لا يقعد عن الكتابة والقراءة ، ولا عن الجولان ، فتارةً تراه في داره ممسكاً بكتاب او قابضاً على قلم ، واخرى في سيارتهِ ، واخرى عند صديق لهُ ، واخرى في دار علم او محفل قومي

الاَّ انهُ لم يتخلف عن داره بعد العشاء . وكان يفد اليهِ خلصاؤهُ في تلك الساعة ، فيتمشون معه ويلاعبونهُ « الدومينو » او يساقطونهُ الوان الحديث . وكم مرة قلت لصديقي الفاضل الشيخ محمد الغنيمي التفتازاني: هذا الظلام قد خيَّم على مصر ، اين نمضي ؟ فينظر كلانا الى الآخر : واذا نحن نسير الى « شيخ العروبة » اندفاعاً وهل تنبسط النفس الاَّ بين يدي صديق يصافيك الود ويخالصه الاجلال !

---

(١) اني في هذا المقال ما ازال اقول احمد زكي من دون ان اضيف الى هذين الاسمين لقب «الباشا» أو «شيخ العروبة» لان الرجل — رحمه الله — كان يقول لي اذا رام الي يفخر بنفسه او يتوعد خصماً : انظر الى احمد زكي — او : سترى ما يصنع احمد زكي

خليل شيبوب

الغريبة

مكحولة العينين ذات لمى ... احوى وثغر رائق الشنب
البدر يطلع من ترائبها ... والشمس صفحة خدها الذهبي
ويزين لبتها بجوهره ... نوط كنظم السبعة الشهب
فكأن نور الدر زاد سنا ... وجه بنور الحسن منتقب
وكأن زنديها بياضهما ... عاجٌ زها في قالب عجب
جلست الى رجلٍ يحدثها ... في محفلٍ بجموعهِ لجب
تصغي اليهِ وهو منشغل ... معها ببعض الاكل والشرب
وجلست في سهوي حيالهما ... لاهي النواظر غير مرتقب
متفرداً بين الجموع بما ... عندي من الحسرات والكرب
لكنها اخذت تخالسني ... نظراتها عفواً بلا سبب
فتدير نحوي الوجه في لهفٍ ... وتدير عني الوجه في ادب
تصغي له وتكاد تبسم لي ... في جرأة طوراً وفي رهب
وتمدُّ الحاظاً قد اخترقت ... بالسحر ما في القلب من حجب
ماذا تريد ولست اعرفها ... حتى اسلم — وهو لم يجب
ان الذي جلست تحدثهُ ... يبدو محبًّا والحب ابي
نجني عليهِ اذ تخالسني ... نظراتها فأراه وهو غبي
فعلى مَ تدنيه لتبعده ... وعلى مَ ترضيه على غضب
وعلى مَ تغريني وما عرفت ... اصلي ولا فصلي ولا حسبي
ما راقني ان يستباح لها ... حلمي وان يُلهى ويُعبث بي
لكنها بقيت تخالسني ... نظراتها وتجدُّ في لعب
وصديقها عن ذاك في شغل ... يصغي لما في الحفل من صخب
فشعرت اني قد فقدت هدى ... نفسي واني جد مضطرب
وتزيد في غزلي ومشغلتي ... سيان في صدق وفي كذب
حتى تركت لها المكان ومن ... فيه ورحت ولم ارح تعبي

يا بنت سامحك الالـه على ما هجت في صدري من اللهب
ايقظت في قلبي لواعجه ودعوته عرضاً فلم يجب
عجباً لصبر القلب عنك ولي قلب على حب الجمال ربي
حوّاء ما انتسبت لآدم في عدنٍ بغير الحسن من نسب
فأقرَّه دون الخلود لنا وكذا ورثناه على الحقب
ما كنت اجهل ناظريك وقد متّنا اليَّ بكل ما سبب
لـكن تعارضت الطريق بنا حتى تباعد كل مقترب
فاذا الحياة مضلة واذا معنى الخيانة جدُّ منقلب

***

كم عدتُ مرتقباً هناك وكم حاولت لقياها فلم اصب
هي طفرة عفو الحياة انت منهوبة لشقاء منتهب
بل نظرة كالبرق قد ومضت آب الدجى والبرق لم يؤب
يا من جهلت ومن عرفت ومن ودّت تفرّج همّ مكتئب
ذنبي مراعاة الحقوق وان هي اوردتني مورد العطب
وأمانة للناس توجبني اغفال حقٍ غير مكتسب
لـكن حسنك انت ربتهُ والحسن فوق العرض والطلب
خالفتهُ جهلاً فأوقفني في العمر بين الويل والحرب
ان كنت غبتِ الدهر عن نظري فجمال ذاك الوجه لم يغب
وأظل اذكر ناظريك وما غزلاه من سحر ومن عجب
والـكحل في عينيك مبتسماً والثغر احوى رائق الشنب
والنوط والدرّ النظيم به والمعصمين وخدّك الذهبي
فيقيم اشجاني ويقعدها يوم لقيتك فيه عن كثب
اني تعذبني وتسلبني رشدي فرشدي اي مستلب
ذكرى فتاة حاولت صـلةً بفتى نخاب بها ولم تخب
جهل لعمرك لا يسوّغهُ دفع الخيانة عن اذل غبي
هذي الغريبة ربما شعرت في العمر اني جدّ مغترب

صلة الكندي بعصره

تمهيد — بيئة الكندي — الفلسفة والكلام — الحركة العلمية بوجه عام

لمحمد متولي

تمهيد

أما أن الصلة وثيقة بين الشخص وبين العصر الذي يعيش فيه ، فهذا ما لن نحاول أن نحصّنهُ بالدليل ، لانهُ ، أولاً ، شديد الظهور فلا يحتاج الى تفصيلٍ وتدليلٍ ، ولأنك ، ثانياً ، سوف ترى أن الكندي ، فيلسوف العرب كما يسمونهُ ، كان صورة واضحة لزمانهِ ، بحيث لو تقدم وجوده قرنين ، أو لو تأخر ، إذن لكان شيئاً آخر غير الذي سنعرفه

بلى ! ينفخ الزمان في الشخص من روحه ، ويفيض عليهِ من نوره ، فتكون شخصيته مشعة مع ما لهُ من استعداد وكفاية ، ومع ما لزمانه من قوة وإشراق

وإذ نريد دراسة عصر الكندي لنتعرّف الصلة بينهما ، فقد لزم أن نتغلغل في الماضي حتى نشرف على العراق في الفترة الممتدة من منتصف القرن الثاني الهجري الى ما حول منتصف القرن الثالث ، فنرى كيف كانت بيئة فيلسوفنا ، ثم نحاول أن نقف على شيءٍ من حال الفلسفة والكلام هناك ، ونحاول أن نتقصّى مدى الحركة العلمية بوجه عام

— ١ —

ونحن اذا كنا في العراق ، كان علينا ان نتنقل بين الكوفة والبصرة وبغداد . فالرواة يحدّثوننا ان الكندي قضى حياته في البصرة وبغداد . وأنا سأبين لك أنهُ ، كذلك ، عاش في الكوفة زمناً ما

والكوفة والبصرة مدينتان أنشأهما العرب في صدر الاسلام لتكونا قاعدتين حربيتين . وبغداد بناها المنصور وكانت مقرًّا للخلافة . فأنت ترى ان هذه المدن الثلاث قامت على أنقاض الحضارات البابلية والأشورية والفارسية واليونانية ، وغيرها من الحضارات التي تناوبت الازدهار على ضفاف دجلة والفرات . فلما سكن العرب العراق على هذا النحو ، وخالطوا اهله من الاعاجم ، كان لهم حظهم من غناه . وكان لهم حظهم من ثقافة أهله الذين قاموا بأكبر نصيب في الحركات الفكرية مع من استقدمهم الخلفاء من علماء الامصار (١)

(١) فجر الاسلام ج ١ ص ٢١٨ — ٢١٩

والكوفة والبصرة كانتا الى هذا ميداناً لتطاحن المسلمين على الامامة ومثاراً لخلافاتهم الكلامية منذ حروب علي ومعاوية . وبغداد ما كان أعلى مكانهـا وهي حاضرة المسلمين يختلف اليها العلماء ليس من الكوفة والبصرة فقط ، بل ، أيضاً ، من الشام وفارس والهند وغيرها

واذن فقد تعددت العوامل التي تجمل في هذه البيئة تطوراً فكريًّا . والتطور الفكري يكون في جوّ ملائم لطبيعته كي يستطيع ان يعيش وينمو ، فكيف كانت نزعة القوم ؟

لقد يبدو انهُ كانت هناك نزعة ترمي الى اصطناع العقل في بعض المسائل . فالخليفة المنصور كان يدعو الى الرأي في شـدة فأمر فضرب مالك بن أنس ، ثم استقدم أبا حنيفة من الكوفة الى بغداد إعلاءً لشأن فقهاء العراق واعزازاً لقوله بالرأي [١] . والخليفة المنصور أيضاً هو الذي كان يبكي لموت عمرو بن عبيد المعتزلي فيقول « كلكم طالب صعيد غير عمرو بن عبيد » [٢]

والمأمون والمعتصم كانا معتزلين يقولان بخلق القرآن ويتشددان في إذاعة رأيهما فينكلان بمن يعارضهما ، فلم يكن نصيب احمد بن حنبل عند المعتصم خيراً من نصيب مالك عند المنصور [٣]

وكان المتوكل من اهل السنة وقد وُشي لهُ بالكندي فصادر مكتبتهُ زمناً . ونحن لا نعلم هل كانت هذه الوشاية تتصل بكون الكندي معتزليًّا أم تتصل بشيءٍ آخر . وعلى اي حال فنحن نستطيع ان نقول ان فيلسوف العرب نعم بحريتهِ الفكرية طول حياتهِ ، لان غضبة المتوكل لم تكن طويلة بحيث تعطل عليهِ حريتهُ تعطيلاً مؤثراً

— ٢ —

ويحدّثنا صاحب « الملل والنحل » فيقول « ورونق علم الكلام ابتداؤه من الخلفاء العباسية هارون والمأمون والمعتصم والمتوكل » [٤] ونحن نحب ان نستبين ما دعا الى نشاط المتكلمين وبهاء الكلام فنجد ظاهرتين قويتين

اما الاولى فهي آثار أصحاب الاديان القديمة الذين كانوا يعيشون بين المسلمين ، سواءٌ من اعتنق الاسـلام ومن بقي على دينه منهم ، فهؤلاء أثاروا مسائل كانت مثارة في أديانهم من قبل ، وكانوا سبباً في ان تسربت الى المتكلمين تعاليم غريبة عن الاسـلام — والقول بالقدر من أمهات المسائل التي شغلت أصحاب الاديان جميعاً ، وفكرة التجسيم عند المجسمة من الشيعة قريبة منها عند الثنوية . وما يقول بهِ أبو عيسى الوراق الرافضي في استكراهه لقتل الحي هو بعينه ما نجده في مذهب ماني [٥]

وأما الظاهرة الثانية فهي ما حصلهُ العرب من حـكمة الاوائل عن طريق العقل فيذكرون أن عبد الله بن المقفع (١٤٣ هـ) ترجم بعض منطق أرسطو وفورفوريوس [٦] ويذكر ان يوحنا بن

(١) تاريخ التمدن الاسلامي جـ ٣ ص ٧١ — ٧٢ (٢) الملل والنحل ص ٣٤ (٣) مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده جـ ٢ ص ٣٨ (٤) الملل والنحل ص ٣٤ (٥) الانتصار للخياط (مقدمة الناشر) ص ٥٤ — ٥٦ (٦) تاريخ التمدن الاسلامي جـ ٣ ص ١٣٨

البطريق والحجاج بن مطر (عاش ٢١٤ هـ) وقسطا بن لوقا البعلبكي (عاش ٢٤٠ هـ) وعبد المسيح ابن ناعمه الحمصي (عاش ٢٢٠ هـ) وحنين بن اسحاق (٢٦٠ هـ) يذكرون ان هؤلاء تعاونوا مع غيرهم في نقل كتب ارسطو وأفلاطون وبعض الفلاسفة الآخرين [1]

وهاتان الظاهرتان قويتا فالتا بالعقول الى نحو جديد فاذا نحن أمام ما استجد في الكلام بما احدثه المعتزلة وبما حاربهم به اهل السنة وغيرهم ، مما نجده عند ابن قتيبه في « تأويل مختلف الحديث » وعند الاشعري في « مقالات الاسلاميين » وعند سواهما من اصحاب الفرق الاخرى

والكندي لم يكن بعيداً عن حركة النقل ولا كان بمعزل عن تلك الحرب الكلامية . فهو لم يأل جهداً في معرفة فيثاغورس وسقراط وافلاطون وارسطو [2] وهو قد اشترك في مناقشة المسائل التي تناولها معاصروه امثال العلاف (٢٢٦ هـ) والنظام وابن النجار وابن المعتمر وثمامة بن أشرس والجاحظ (٢٥٥ هـ) وهشام بن الحكم ومن اليهم

فأبو الهذيل العلاف ، كان يقول « ان الباري تعالى عالم بعلم وعلمه ذاته ، قادر بقدرة وقدرته ذاته ، حي بحياة وحياته ذاته » ويقول الشهرستاني ان ابا الهذيل « انما اقتبس هذا الرأي من الفلاسفة الذين اعتقدوا ان ذاته — اي ذات الله — واحدة لا كثرة فيها بوجه » [3]

وكان ابو الهذيل يقول ايضاً ان « الاستطاعة يحتاج اليها قبل الفعل فاذا وجد الفعل لم يكن بالانسان اليها حاجة بوجه من الوجوه وقد يجوز وقوع العجز في الوقت الثاني فيكون مجامعاً للفعل ويكون عجزاً عن فعل لان العجز — عنده — لا يكون عجزاً عن موجود فيكون الفعل وانما بقدرة معدومة » [4]

وقال ابراهيم بن سيار النظام « ان الانسان في الحقيقة هو النفس والروح والبدن آلتها وقالبها » وقال « ان الروح جسم لطيف مشابك للبدن مداخل للقالب بأجزائه مداخلة المائية في الورد والدهنية في السمسم والسمنية في اللبن ... والروح هي التي لها قوة واستطاعة وحياة ومشيئة وهي مستطيعة بنفسها والاستطاعة قبل الفعل » [5]

وقال النظام أيضاً « ان كل ما جاوز محل القدرة من الفعل فهو من فعل الله تعالى بايجاب الخلقة. اي ان الله تعالى طبع الحجر طبعاً وخلقه خلقة اذا دفعته اندفع واذا بلغت قوة الدفع مبلغها عاد الحجر الى مكانه طبعاً » [6] . ومن آثار النظام كذلك انه « وافق الفلاسفة في نفي الجزء الذي لا يتجزأ » [7] وأنه انبرى للمنانية فسفههم في قولهم في النور والظلمة وفي التناهي [8]

وقال أبو الحسين بن النجار « ان الاستطاعة لا يجوز ان تتقدم الفعل وان العون من الله يحدث في حال الفعل مع الفعل وهو الاستطاعة وان الاستطاعة الواحدة لا يفعل بها فعلان وان لكل فعل استطاعة

(١) عصر المأمون ج ١ ص ٣٧٩ — ٣٨٣ وتاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٤٢ — ١٤٨ (٢) راجع مؤلفات الكندي في الفصل الثالث (٣) الملل والنحل ص ٣٤ (٤) مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢٢٢ (٥) الملل والنحل ص ٣٨ (٦) الملل والنحل ص ٣٨ (٧) الملل والنحل ص ٣٨ (٨) الانتصار ص ٣٠ — ٣٤

تحدث معه اذا حدث وان الاستطاعة لا تبقى وان في وجودها وجود الفعل وفي عدمها عدم الفعل »[١]

وبشر بن المعتمر تكلم — كأصحابه — في الاستطاعة فقال إنها « سلامة البنية وصحة الجوارح وتخليها من الآفات . وقال لا أقول بها في الحالة الاولى ولا في الحالة الثانية . ولكني أقول الانسان يفعل والفعل لا يكون الاّ في الحالة الثانية »[٢]

وقال ثمامة بن أشرس ان الاستطاعة هي « السلامة وصحة الجوارح من الآفات » وهي قبل الفعل[٣]

وذهب الجاحظ — كالفلاسفة — الى نفي الصفات عن الله والى اثبات ان القدر خير وشره من العبد . وهو إذ يصف الله بالارادة فانه يعني « انهُ لا يصح عليه السهو في أفعاله ولا الجهل ولا يجوز ان يغلب ويقهر »[٤]

ويحدثنا ابو الحسين الخياط فيذكر ان الجاحظ أبلى في دفاعه المجيد عن النبوة بكتابته في تثبيتها[٥]

وقال هشام بن الحكم الشيعي « ان الله جسم محدود عريض عميق طويل . طوله مثل عرضهِ . وعرضه مثل عمقه . نور ساطع . له قدر من الاقدار بمعنى ان له مقداراً في طوله وعرضه وعمقه لا يتجاوزهُ »[٦] وقال « ان مكانه هو العرش وانهُ مماس للعرش وان العرش قد حواه وحده »[٧] وقال « ولكن لا يشبه شيئاً من المخلوقات ولا يشبههُ شيء » ويروى انهُ قال « هو سبعة اشبار بشبر نفسه وانهُ في مكان مخصوص وجهة مخصوصة وانهُ يتحرك وحركته فعله وليست من مكان الى مكان » ثم قال « هو متناه بالذات غير متناه بالقدرة »[٨]

وهشام يقول عن الاستطاعة انها « كل ما لا يكون الفعل الاّ به كالآلات والجوارح والوقت والمكان »[٩]

فاذا تأملنا الكندي في ضوء هذه الامثال التي ضربناها وجدنا انهُ قد كتب في الاستطاعة وزمان كونها وفي تثبيت النبوة وفي قول من زعم أن جزءًا لا يتجزأ وفي التجسيد وفي قول من ادعى أن الاشياء الطبيعية تفعل فعلاً واحداً بإيجاب الخلقة وفي الرد على المنانية والثنوية[١٠] وأنهُ كان يقول بمذهب المعتزلة في صفات الله[١١]

— ٣ —

على ان شخصية الكندي بلغت من التركيب انها تكاد تمثل كل ما كان في عصره تمثيلاً صادقاً فقد اهتمَّ العرب إذ ذاك بنقل علوم جديدة من لغات مختلفة وظهرت الوان من التطور في نواحٍ اخرى فكان للكندي أثر في كل هذا

والمنصور اول من اهتمَّ بالترجمة فنهض بعلوم النجوم نهضة واسعة لانهُ كان يستعين بها في قضاء أموره فقرَّب اليه نوبخت العالم باقترانات الكواكب والحوادث، وقرَّب ابنه أبا سهل . وكانت لابراهيم الفزاري وابنه محمد وعلي بن عيسى الاسطرلابي، كانت لهم جميعاً حظوة عند المنصور . وقد

(١) مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢٧٠ (٢) الملل والنحل ص ٤٥ (٣) الملل والنحل ص ٤٩ (٤) الملل والنحل ص ٥٢ (٥) الانتصار ص ٢٢ و ١٥٥ (٦) مقالات الاسلاميين ج ١ ص ١٩٧ (٧) مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢٠٠ (٨) الملل والنحل ص ١٤١ (٩) الملل والنحل ص ١٤١ (١٠) راجع مؤلفات الكندي في الفصل الثالث من هذه الرسالة (١١) راجع الفصل الرابع منها

ترجم له اوطم كتاب السند هند الكبير في حركات الكواكب وبقي هذا الكتاب عمدة للنجوم حتى ايام المأمون. ويذكرون ان كتاب اقليدس ترجم للمنصور وأيضاً بسبب حاجة النجوم الى العلم بالهندسة[١]

وسواء كان المنصور قد استدعى جورجيس بن بختيشوع لعلته او لسبب آخر ، فهو قد استدعاه فحضر مع بعض تلاميذه وكرّمهم الخليفة فكان لهم أثر كبير في النهضة الطبية بما ألفوهُ وبما ترجموهُ عن اللغة اليونانية من كتب الطب

واهتمّ الرشيد بالترجمة بعد المنصور غير انهُ وجّه اكثر عنايته الى نقل الكتب الطبية التي عثر عليها في انقره وعمورية . ويقولون ان يحيى بن خالد البرمكي عُني بترجمة المجسطي في ذلك الوقت[٢]

ولكن هذا الذي كان في ايام المنصور والرشيد لم يكن الاّ تدرّجاً معقولاً لتلك النهضة الشاملة التي اتسم بها عصر المأمون وما بعده فان الترجمة في هذا العصر قد تناولت امهات الكتب من لغات كثيرة وتناولت اكثر فروع المعرفة

ويروون ان المأمون كان يقوّم الكتاب المنقول بوزنه ذهباً . وهذا ان يكن بعيد الحصول من ناحية ، فهو يدل ، من ناحية اخرى ، على مقدار عنايته بنقل الكتب . ويدل على تهافت المترجين على النقل ثم تهافت الناس على القراءة والدرس — وهناك حنين بن اسحاق الذي كان يعرف اليونانية والسريانية والفارسية والعربية وقسطا بن لوقا البعلبكي وثابت بن قره الحرّاني (٢٢١ هـ — ٢٨٨) وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي ويحيي بن البطريق الذي كان يعرف اللاتينية ويوحنا بن البطريق ويوحنا ابن ماسويه الذي عُني بنقل الكتب الطبية . اولئك بعض الذين كانوا ينقلون الكتب عن اليونانية والسريانية واللاتينية بينما كان غيرهم ينقل عن الفارسية والهندية والنبطية[٣]

فاذا تلمسنا اثر هذه الحركة في الكندي فاننا نبلغ حقيقة كونه منجماً وفلكيّاً ورياضيّاً وطبيباً مما هو واضح في بيان مؤلفاته

وكان للحياة الادبية نصيبها من نشاط العرب في هذه الفترة من تاريخهم فكان من الشعراء بشار (حول ١٦٨ هـ) وابو نواس (حول ١٩٨ هـ) وابو العتاهية (حول ٢١٣ هـ) وابو تمام (حول ٢٣٠ هـ) وكان من الادباء الجاحظ والمبرد وابن قتيبة (حول ٢٧٠ هـ) والاصمعي (حول ٢١٧ هـ) وابو عبيدة (حول ٢٢٠ هـ) وغير هؤلاء واولئك من اعلام الادب والشعر

وهذه الناحية إلاّ تكن مستحدثة في حياة العرب فقد جدّ فيها لون من الكتابة لم يكن معهوداً فامتزاج العرب بغيرهم ونقل العلوم والفنون من اللغات الاخرى ونمو الفلسفة والكلام ، كل هذه كانت سبباً في ان كسبت اللغة العربية ثروة من الالفاظ الطبية والاصطلاحات الفلسفية ومن غيرها من الكلمات المعرّبة الكثيرة[٤]

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٣٨ (٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٣٩ — ١٤٠ (٣) عصر المأمون ج ١ ص ٣٧٩ — ٣٩٣ وتاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٤٢ — ١٤٨ (٤) عصر المأمون ج ١ ص ١٦٥

ثم ان معالجة الفنون والفلسفة كانت داعية الى اسلوب ضروري لها : هو الاسلوب العلمي السهل القائم على الحجة القوية والبرهان المبين

وصلة الكندي بهذه الحياة الأدبية ظاهرة في أسلوبه العلمي الذي عالج به ما عالج من العلوم والفنون والفلسفة وفيما يرويه لنا ابن خلكان من ان الكندي كان يسمع أبا تمام وهو يلقي إحدى قصائده في حضرة احمد بن المعتصم وكان آخر هذه القصيدة قوله :

اقدام عمرو في سماحة حاتم   في حلم احنف في ذكاء إياس

فلما سمعهُ قال « الامير فوق من وصفت » فقال أبو تمام على البديهة :

لا تنكروا ضربي لهُ من دونه   مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الاقلّ لنوره   مثلاً من المشكاة والنبراس[1]

فهل لا نجد في هذا ما يدل على ان الكندي كان على اتصال بالحياة الادبية بحيث يذوق آثارها وبحيث يستطيع ان يأخذ شيئاً على شاعر كبير كأبي تمام

ثم انهُ كان من دواعي البيئة ان نشأ علم النحو ونضج في العراق . وهذا لانهُ كان ملتقى الشعوب الاسلامية المختلفة حيث عاش الاعاجم بين العرب وتعلموا لغتهم ودرسوا الاسلام. وحسبك سيبويه (حول ١٨٨ ﻫ) وتلميذه الاخفش (٢١٥ﻫ) ثم الكسائي (حول ١٨٣ ﻫ) وتلميذاه المبرد والفراء (٢٠٧ ﻫ) حسبك سكان العراق هؤلاء لنقول به موطناً للنحو ولنقول ان النحو بلغ الغاية في اواخر القرن الثاني الهجري واوائل القرن الثالث[2]

وانت قد تعجب اذا قلت لك ان الكندي الفيلسوف كان يتصل بالنحو والنحويين ولكن هذا هو الواقع فالجرجاني يروي عن ابن الانباري انهُ قال « ركب الكندي المتفلسف الى ابي العباس وقال لهُ : اني لأجد في كلام العرب حشواً . فقال له ابو العباس : في أي موضع وجدت ذلك ؟ فقال : أجد العرب يقولون : عبد الله قائم . ثم يقولون : إن عبد الله قائم. ثم يقولون ان عبد الله لقائم. فالالفاظ متكررة والمعنى واحد» ويروي الجرجاني ردّ أبي العباس على هذا :[3]

***

والآن ، وقد عرضت عليك صلة الكندي بعصره بجملة ، فهل لا ترى أحدهما صورة واضحة للآخر ؟ لقد رأيت — إذن فقل : انهُ لكذلك

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ١٥٢

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٧٤ — ٧٦ وفجر الاسلام ج ١ ص ٢٢٠

(٣) دلائل الاعجاز ص ٢٢٦

الشباب والإشباب[1]

والتعمير[2] والشيخوخة

للدكتور شوكت موفق الشطي
الاستاذ بمعهد الطب العربي في دمشق

يبصر الوليد النور ويستهل[3] فتقام الافراح في دار أبويه ويهش ساكنوه وتكثر التهاني والزيارات فرحاً بقدومه ترضعهُ امه لبنها فتعطيه بذلك أعز ما لديها وهو دمها راضية هاشة ثم يدب[4] ويثغر[5] وهو ما زال طفلاً ساذجاً لا يميز بين الجمر والتمر ويأخذ بعد ذلك بالنمو والترعرع فيشتد ويسير مرحاً ثم يصير يافعاً فراهقاً حتى اذا ما اجتمعت قوته واحتلم عاد حزوراً فاذا صار ذا فتاء فهو فتى وشارخ ثم يصبح شاباً في شرخ الشباب وذلك في عشرين سنة ثم تستقر حالته وتكاد تكون ثابتة مدة عشرين سنة اخرى لولا ان بعض الوهن يعتريها

والانسان في هذا الدور قوي الجسم ، صحيح البنية ، نشيط ثم يأخذ بالتدني ويزداد ذلك شيئاً فشيئاً فيهن نشاط عضلاته وتسود مشيته بطيئة وتنحني قامته ويحدودب ظهره وتخور قواه ويبطىء عمل اجهزته وتصبح اعضاؤه كلى وينتزع الكلس من عظامه فتسقط اسنانه ويشتعل الشيب في رأسه ويتناثر شعره ويجف جلده ويتحسف ، لا يقوى على النهوض هذا ان لم يك مقعداً ، لايستطيع ان يمسك ريقه لانهُ ماج يسيل لعابه كبراً وهرماً اذا جاع، لا تقوى يداه المرتعشتان على ايصال الطعام أو الشراب الى فمه بسهولة بل ينصبُّ ما في الملعقة او الآنية على لحيته وثوبه، يضعف حسه وشعوره ويخبل عقله . صورة تهلع لها قلوب من داسوا عتبة العقد السابع من العمر وترتعد لها فرائص من استوفوا السبعين لانها تمثل الانسان بأجلى مظاهر الضعف واهن الجسد والعقل مستقفاً[6] في زاوية الغرفة معتزلاً العالم وحيداً حزيناً

فلو تبصرنا في حالة الانسان في اول عمره ومنتهاه لرأينا انهُ بدأ حياته مقعداً لا يستطيع الحركة وانتهى عمره وهو كذلك غير انَّ بعد سكونه في الصغر دبًّا وحركةً ومشياً ، وبعد قُعادِه[7] في

(١) تأويل rajeunissement من أشب يشب. لم يرد ذكر هذه الكلمة بهذا المعنى في كتب اللغة على ان الحريري صاحب المقامات قد ذكرها في المقامة البكرية فقال « والضجيع الذي يشب ولا يشيب » اي يجعلك شاباً ولا يشيبك
(٢) من عمره الله اي ابقاه زمنا طويلاً وقد جاء في القرآن الكريم — « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب » .. (٣) الاستهلال اول بكاء الصبي وفي الحديث « الصبي اذا ولد لم يورث ولم يرث حتى يستهل صارخاً »
(٤) الدب او مشي الطفل (٥) أثغر الصبي نبتت اسنانه (٦) استقف الشيخ اذا ضمر وانحنى وانضم ومنه قيل كبر حتى كأنه قفة (٧) القعاد : الداء الذي يقعد وأقعد الرجل لم يقدر على النهوض

الكبر وصماً وخماً ، ترافق السذاجة والبساطة كل عمل يأتي به وهو طفل وتصحب السماجة سكناته وحركاته وهو شيخ ، لا يميز في صغره الضار من النافع ولكنهُ مع ذلك وديع لطيف يُنْظَرُ بعين الرضى الى كل ما يبدو منه ، ولا يفرق في كبره بين الغث والسمين الاّ ان عين الغضب تظهر مساويه ، يخدَمُ في طفولته بحنو وأمل ويقوم افراد العيلة في قعاده بواجبها نحوه وكثيراً ما يشوب ذلك الضجر والملل فالامل مفقود عليه في صغره وليس الامر كذلك في كبره وقد نعتت هذا السن بأنها ارذل العمر وقد جاء في القرآن الكريم : « يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مُضْغَة مُخَلَّقَة وغير مخلقة لِنُبَيِّنَ لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشُدَّكُمْ ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العُمُر لكي لا يَعْلَمَ من بعد علمٍ شيئاً (١) »

ان هذه النتيجة المؤلمة التي يؤول اليها حال الانسان وهذه الحالة المحزنة التي يبلغها جعلت لهُ ذكرى الصبا سلوة وسيرة الشباب عزاء وعوده حلماً ولذلك اكثر شعراء العرب من وصف الشباب فبكوه وأوجسوا خيفة من الشيب نهجوه واليك بعض اقوالهم قال أبو تمام :

غدا الشيب مُخْتَطّاً بفودي خطةً سبيل الردى منها الى النفس مَهْيَعُ
هو الزَّور يُجْفى والمُعاشِر يُجْتَوى وذو الإلف يُقْلى والجديد يُرَقَّعُ
له منظر في العين أبيض ناصع ولكنهُ في القلب اسود اسْفَعُ

وقال محمود الورّاق :

بَكَيْتُ لقرب الاجل وبُعْد فوات الأَمَلْ
وافق لشيب طرا بعقب شباب رَحَلْ
شبابٌ كأن لم تكُنْ وشيب كأن لم يَزَلْ
طوى صاحب صاحباً كذاك اختلاف الدُّوَلْ

وكان ينشد ابو العتاهية شعره الآتي ودموعه تسيل على خديه

لهفي على وَرَقِ الشباب وغُصونهِ الخُضْرِ الرطابِ
ذهب الشباب وبانَ عني غيرَ مُنْتَظِر الإيابِ
فلأَبْكِيَنَّ على الشبا ب وطيب أيام التصابي
فلأبكينَّ من البلى ولأبكينَّ من الخضابِ
إني لآملُ ان أُخَلَّدَ والمنية في طلابي

ومن ابلغ الاقوال في التفجع على الشباب وفي ذم الشيب قول ابي حازم الباهلي :

لا تكذبنَّ فما الدنيا بأجمعها من الشباب بيوم واحد بَدَلُ

(١) سورة الحج آية ٥

شرخ الشباب لقد ابقيت لي اسفاً ماجدَّ ذكرك الاَّ جدَّ لي شكلُ

وأحسن منه على رأي اللغوي الاديب الامام ابي هلال العسكري قول منصور النمري

ماتنقضي حسرة مني ولا جزع اذا ذكرت شباباً ليس يرتجعُ
بان الشبابُ ففاتتني بشرّته (١) صروفُ دهر وأيام لنا خُدعُ
ما كنت اوفي شبابي كنه غرته حتى انقضى فاذا الدنيا له تبعُ

وقد سئل ابو العتاهية اي شعر قلتهُ اجود واعجب اليك قال قولي :

ان الشباب حجة التصابي روائح الجنة في الشباب

وفي قول أبي العتاهية « روائح الجنة في الشباب » على رأي الجاحظ معنى لمعنى الطرب الذي لا يقدر على معرفته الا القلوب وتعجز عن ترجمته الالسنة الا بعد التطويل وادامة الفكر الجليل والتفكر الجزيل وخير المعاني ما كان الى القلب اسرع من اللسان

وبكى شاعرنا ابو العتاهية الشباب بقوله المشهور

عريت من الشباب وكان غضّاً كما يعرى من الورق القضيب
ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

غير ان الحلم الذي تمنى به ابو العتاهية بقوله «ألا ليت الشباب يعود يوماً» صار حقيقة واصبح رد قوة الشباب ممكناً

جدَّ الانسان منذ خُلق في اجتناب الموت ولكنهُ رأى استحالة الوصول الى مطلبه ونظر في حالته التي ينقلب اليها فألفى الموت خيراً منها كما قال الشاعر زبّان بن سيّار الفزازي

اذا المرء قاسى الدهر وابيضَّ رأسهُ وثُلّمَ تثلمَ الاناء جوانبه
فللموت خير من حياة خسيسة تُباعده طوراً وطوراً تقاربه

بحث لذلك في اسباب العيّ وسعى الى تحاشيه بوسائل مختلفة كالتمائم والتعاويذ والاكسيرات والمستحضرات والوصفات المتنوعة وقد اشتهر امر كل منها وراج مدة من الزمن وما لبثت تلك الوسائل ان عادت نسياً منسياً لأنها لم تحقق الغاية ولم تنل الأرب

لجأ الانسان في الأعصر السابقة الى طريقة ما زلنا نشاهد اثرها اليوم وقد اوصى بها الطبيب الشهير « سيدنهام » في مذكراته اذ قال ما من وسيلة توقظ العافية في مريض منهك انجع من العناصر المتصاعدة من انفاس شاب قوي وسليم واشار بتنويم الشبان الأصحاء في غرف المرضى

ليس هذا الرأي من مبتكرات سيدنهام فقد قال به من قبل ابقراط وقد روي ايضاً ان الملك المقدس داوود لما أرقه العمر وبرد جسمه وضعف راعي امره نطس الاطباء تشاور خدمه فقرروا البحث عن فتاة عذراء تدفئ الملك فعثروا على الفتاة الجميلة ابيكايل فصرفت عنايتها لخدمته فاصطلح حاله

(١) شرة الشباب : نشاطه في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري وفي الاغاني (بلذته)

وقد شاعت هذه البدعة مدة من الزمن وهنالك من الاقوال الكثيرة ما يدل على ذيوعها حتى اليوم منها المثل الشامي «لا تقترن من عجوز فتمتص ماء الحياة منك ولا تزوج ابنتك شيخاً فيمتص مائيتها»

وروي عن امير المؤمنين علي بن طالب رضي الله تعالى عنه انه قال من اراد البقاء ولا بقاء فليجوّد الغذاء ويتمشى بعد العشاء ولا يبيت حتى يعرض نفسه على الخلاء ودخول الحمام على البطنة من شرّ الداء واكل القديد اليابس معين على الفناء ومجامعة العجوز تهدم اعمار الاحياء . واشار المتنبي الى الاستشفاء بروائح الفتيات في شعره فقال

وفتّانة العين قتّالة الهوى اذا نفحت شيخاً روائحها شبّا

وضع كوهاوزن (Cohausen) سنة ١٧٤٢ كتيباً تناول فيه تأثير انفاس الفتيان والفتيات في تحسين صحة الشيوخ فعمت هذه البدعة ووجد بعض الشيوخ في هذه السنة الطريقة ضالتهم المنشودة فاستنشوا بها . وروي لنا التاريخ بعض من اشتهروا بطول البقاء وربما كان لهذه البدعة شأن في إشبابهم منهم حيان بن قيس وقد تزوج ثلاثة اهلين فتيات ولا شك كما يستدل من شعره

لبست اناساً فأفنيتهم وأفنيت بعد اناس اناسا
ثلاثة اهلين افنيتهم وكان الاله هو المستاسا

ويدل قوله الآتي على عمره وانهُ ما زال قويًّا

ومن يك سائلاً عني فأني من الفتيان ايام الخُنان[1]
اتت مائة لعام ولدت فيه وعشرٌ بعد ذاك وحجتان
فقد ابقت خطوب الدهر مني كما ابقت من السيف اليماني

وقد بقيت أسنانه ترفُّ[2] حتى مات وفي النهاية وكأنَّ فاه البرَدُ وذكر ابن قتيبه انهُ عمّر مائتين وعشرين سنة ومات باصبهان وما ذلك بمنكر لانهُ قال لعمر رضي الله تعالى عنه انهُ افنى ثلاثة قرون وكل قرن ستون سنة فهذه مائة وثمانون سنة ثم عمر بعده فمكث بعد قتل عمر الى خلافة عثمان وعلي ومعاوية ويزيد

وروي لنا التاريخ ان غوته قد عشق في سنته الثانية والثمانين ماريان يونغ التي كانت في العقد الثاني من عمرها وان طوماس بار دعاه ملك الانكليز في سنته المائة والثانية والثلاثين وكان تزوج في السنة المائة والتاسعة عشرة وبتر البرخت الذي عاش مائة وثلاث وعشرين سنة تزوج في سنته الثمانين ورزق سبعة اولاد وجورج دوغلاس عاش مائة وعشرين سنة وسبعة اشهر وتزوج في الخامسة والثمانين ورزق ثمانية اولاد وولد ابنه الاخير اذ كان عمره مائة وثلاث سنوات وميريانوس وقد عاش مائة وخمس عشرة سنة . ومن منا لم يسمع باسم زارو اغا التركي الذي مات حديثاً عن عمر يزيد على المائة والعشرين سنة وقد اقترن من ست فتيات وكان يلاكم وهو شيخ حفيد حفيده الشاب

(١) زمن الخنان كان في عهد المنذر بن ماء السماء (٢) ترف اسنانه اي تبرق وتتلألأ

ومن غريب الصدف ان مامن شيخ ممن ذكرنا اسماءهم الا وقد تأهل مراراً عديدة وكانت عرائسه فتيات

ويزعم كوهاوزن ان الهواء يدخل رئة الفتاة فيتضرج فيها بعناصر نافعة فتزفره حاملاً خواص غريبة تهب الشيخ النشاط وان الشيخ اذا مكث في مكان حيث يحيط به عدد من الفتيان والفتيات استنشق هواء ممتلئاً فتوة منشطاً للشيخ

اننا لو بحثنا في هذه الوسيلة واستنرنا بنور العلم الحاضر لوجدناها مستندة الى اسس اوهى من خيط العنكبوت لان الهواء الذي يزفره الانسان اشيخاً كان ام شاباً وعجوزاً ام فتاة يحمل عناصر ضارة لا نافعة . غير ان الكشوف الحديثة تفاجئنا بين الفينة والفينة بكل ما هو غريب ولا يبعد ان ينبه منظر الفتوة والشباب غدد الشيخ الصم فيجعلها تفرز بعد ان نضب افرازها وقد ثبت ان للرسل (هرمون) شأناً كبيراً في الشيخوخة . وهل لا يغزر سيلان اللعاب في فمنا اذا شممنا رائحة طعم ذكي او نظرنا الى طعام شهي ؟ على ان من الوسائل المتخذة اليوم في تجديد الشباب ما يتناسب والطريقة المذكورة . وقد قلنا في مقال سابق نشر في هذه المجلة الغراء [1] ان العلم كالتاريخ يعيد في بعض الاحيان نفسه مع الاحتفاظ بالتناسب بين شتى العصور

ويزعم دعاة هذه الطرائق الحديثة ان حقن الشيوخ بخلاصة الاجنة وبدماء الفتيان خير وسيلة لمكافحة العجز الشيخي . وتستند الفكرتان القديمة والحديثة الى اساس واحد وهو الاستشفاء بالفتوة

خيل الى كوهاوزن وقد وضع كتابه قبل عهد لافوازيه ان الهواء عنصر مركب كالدم يفسد اذا خالطتهُ مواد ضارة ويصلح اذا امتزج بعناصر نافعة ومن العناصر النافعة فيه انفاس الفتيان والفتيات

ولا يخفى ان مستنبطي الطرائق يثبتون دعواهم بالاختبار والمشاهدات ولم يقصر كوهاوزن عنهم في ذلك فقد ابان ان معلمي الولدان اطول عمراً من غيرهم لانهم يتنفسون هواء مشبعاً بريح الفتوة والصبا . وقد عرف كوهاوزن نساء بلغن من الكبر عتياً عدن نشيطات اقوياء اثر اقترانهن من ازواج في شرخ الشباب وميعة الصبا وشاهد دوالف [2] اشبّوا اثر اقترانهم بفتيات منهم (ليتسيوس) وقد تزوج وهو ابن ثمانين سنة بفتاة لها من العمر خمسة وعشرون ربيعاً فمرض في باديء الأمر ثم عاد قوياً نشيطاً لذلك اقترح بعض المختبرين حينها ان يُستخرج من انفاس الفتيان والفتيات الكسير للحياة وذلك بأن يتنفس عدد كبير منهم في غرفة محكمة فيها ثقب متصل بوعاء فيه ماء فتتصاعد العناصر النافعة من الانفاس فتجري في الثقب وتنحل في الماء وقد سموا هذا الماء المضرج بريح الصبا وانفاس الفتيان ماء الحياة فباعوهُ بأثمان باهظة

قيل بهذه الآراء في عهد غابر لم تكن العلوم فيه متقدمة هذا التقدم المدهش الذي نرى اثره اليوم اما الآن فقد اعدت الدول مختبرات للعلماء يشتغل فيها عدد كبير من الباحثين وقد اخذ

(١) المقتطف عدد فبراير ١٩٣٤ صفحة ١٤٩ (٢) جمع دالف والدالف الشيخ البطيء المشية لثقله

هؤلاء بالبحث عن الشيخوخة تلك القضية المعقدة التي لم تنل قسطها من البحث والتي ما زالت غامضة لم يعرف كنهها ولم يسبر غورها تماماً مع ان الرغبة في الخلود والخشية من الموت رافقتا الانسان منذ الأزل واذا سئم الشيخ الحياة فليس ذلك طلباً للموت ولكن ضجراً من الضعف كما يقول شاعرنا الكبير المتنبي

واذا الشيخ قال أف فما مـــلّ حياة وانما الضعف ملاّ

آلة العيش صحـة وشباب فاذا ولّيا عن المرء ولّى

يسأل العلماء عن الاسباب الداعية الى اختلاف عمر المخلوقات فمنها ما كانت حياته قصيرة لا تزيد عن سنة كبعض انواع النبات ومنها ما يعيش زمناً طويلاً كالأرز الخالد ومن الحيوان ما يعمر ساعات محدودة ومنهُ ما يبقى حيًّا ثلاثة عصور . وما هذه الأسباب الأ اسرار استصعب العلماء البحث فيها لكشف القناع عنها على اختلافهم فاجتنب الحيويون التنقيب عنها زاعمين ان الشيخوخة حادثة خلقية وتركوا التقصي فيها للأطباء ولم يفحص عنها المختبرون من الاطباء لأنها حالة ليست مرضية وشغلهم معالجة المرض ولم يعرها الفسيولوجيون ما تستحقهُ من الاهتمام لأنهم يرون انها حالة طبيعية والتنقيب عنها معقد وامعن الفلاسفة فيها فكتبوا عنها ما سولت لهم انفسهم ولم تك ابحاثهم مثمرة فقد اعتادوا الاكتفاء باعطاء الرأي في الغالب ، على ان هذه القضية العويصة لا تحل بنظرية فلسفية وفرضية خيالية ولابدّ من الاختبار وليس ذلك رأيهم

ينسب علماء هذا العصر الشيخوخة الى اسباب عدة فيقول مشنيكوف انها انسمام بانقاض الاختمارات المعوية الذاتية وان للبلعمات الكبيرة نصيباً كبيراً في تكوين نسيج ضام يسيطر على الاعضاء فيشيخها ولا تنطبق هذه الفرضية على جميع المخلوقات لأن كثيراً منها محروم من الجهاز الهضمي والبلعمات مع انها تشيخ وتموت . ولو نقّبنا عن هذا الرأي في كتب اطباء العرب لرأينا له اثراً اذ يقول ابن سينا في قانونه حين البحث عن اسباب الشيخوخة وضرورة الموت : « اما الاسباب الخارجة فمثل الهواء المحلل والمعفن وأما الاسباب الباطنة فمثل الحرارة الغريزية التي فينا المحللة لرطوباتنا والحرارة الغريبة المتولدة فينا عن اغذيتنا وغيرها المتعفنة وهذه الاسباب كلها متعاونة على تجفيفنا » ثم يقول « وكلما اخذ التجفيف في الزيادة أخذت الحرارة في النقصان فعرض دائماً عجز مستمر الى الامعان وعجز عن استبدال الرطوبة » الى ان يقول فيزداد التجفيف من وجهين احدهما لتناقص لحوق المادة والآخر لتناقص الرطوبة في نفسها بتحليل الحرارة فيزداد ضعف الحرارة لاستيلاء اليبوسة على جوهر الاعضاء ونقصان الرطوبة الغريزية التي هي كالمادة وكالدهن للسراج لان السراج له رطوبتان ماء ودهن يقوم بأحدهما وينطفيء بالآخر كذلك الحرارة الغريزية تقوم بالرطوبة الغريزية وتختنق بالغريبة وازدياد الرطوبة الغريبة التي هي عن ضعف الهضم والتي هي كالرطوبة المائية للسراج فاذا تمّ الجفاف طفئت الحرارة وكان الموت الطبيعي »

يستنتج مما سبق ان ابن سينا يعتقد ان للحرارة الغريبة المتولدة فينا عن اغذيتنا ولضعف

الهضم تأثيراً كبيراً في الشيخوخة والموت الطبيعي ويرى ان خير وسيلة لمكافحة الشيخوخة هي منع العفونة وحماية الرطوبة الطبيعية واجتناب الرطوبة الغريبة التي هي عن ضعف الهضم

فينسب مشنيكوف الشيخوخة الى الانسمام الذاتي وضعف انبوب الهضم ويعزو ابن سينا ايضاً الموت والشيخوخة الى العفونة والمواد الغريبة الناتجة عن ضعف الهضم وهي ليست الا الاختمارات المعوية التي بحث عنها مشنيكوف

ويرى فورنوف ان الشيخوخة تنشأ من اختلال التوازن بين الخلايا الضامة والخلايا النبيلة فتى اشتملت هذه الفوضى في الجسد سار الانسان الى الموت لأن الخلايا الضامة تكوّن وسادة تضطجع عليها الخلايا الجوهرية او تضم بعضها الى بعض وتغذيها فلا ضرر منها البتة بل هي نافعة نفعاً كبيراً مازالت لاتتجاوز الحد الذي وضعته لها الطبيعة وهي شديدة الضرر متى تجاوزت حدها وطغت تخنقت الخلايا النبيلة لأنها لاتستطيع القيام بما تقوم به تلك . وقلما تبدو هذه الفوضى في الحداثة لأنها مظهر من مظاهر الشيخوخة بل هي الشيخوخة نفسها . ويزعم غيره ان تعب الخلايا وتفاد قواها الحيوية الكامنة وعدم توالدها او بطوءه من الأسباب الداعية الى الشيخوخة

ويعتقد الأزليون ومنهم اهل الكتاب ان الحياة والموت والشباب والشيخوخة حادثات كتبت منذ الأزل وان حفظ النوع يقضي بزوال الشيوخ ليحل محلهم الشبان

ويدعي بعضهم ومنهم لوميار وماراغليانو ان الشيخوخة والموت وغيرهما من مظاهر الحياة حادثات لها صلة كبيرة بالقانون العام الذي يرأس الحالات الغرائية . والواقع ان التدني الشيخوخي ولا سيما في الأنسان والحيوانات العليا ينتج من عوامل عديدة يمكن جمعها في زمرتين

١ — العوامل الباطنية : وهي عوامل ذات صلة بالأمم (١) تنظم الحد الأعظم من عمر كل منها فتجعل حياة بعض انواع النبات قصيرة لاتزيد عن فصل واحد وحياة بعضها مديدة كأنها خالدة ولم يتوصل العلم حتى الآن الى وسيلة تبدل مدة هذا الدور الحيوي الخاص بكل امة

٢ — العوامل الخارجية : وهي كثيرة ومختلفة تختلف باختلاف البيئة التي يعيش فيها الانسان وباختلاف عمله وطوره قد تقصر عمره وتقوده الى الشيخوخة المبتسرة وقد تعينه على بلوغ اعلى درجات التعمير . ويمكن تنظيمها باتباع القواعد الصحية وبجعل البيئة التي يعيش المرء فيها صالحة

واخيراً حذار ايها الشيخ القارىء لمقالتي ان تغتر بما مرّ فتلجأ الى طريقة الاستشفاء بالفتوة ولا يخدعنك فيها سهولتها واستحسانك لها وتذكر المثل الطبي القائل «الغادة الشابة والطعام النفيس معولان يحفران قبر الشيخ »

---

(١) جمع امة تأويل espèces بدلا من انواع والامة جنس كل حيوان وقد جاء في القرآن الكريم ما يؤيد هذا المعنى : « وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم امثالكم » سورة الانعام آية ٣٨

مصطلحات علم النفس

ومشكلة ترجمتها وتعريبها

لمحمد مظهر سعيد
الاستاذ بمعهد التربية وكلية اصول الدين

النزعات الموروثة

يطلق المصطلح الافرنجي Innate Tendencies على جميع نزعات الانسان وقواه التي تنتقل اليه من النوع الانساني عامة بطريق الوراثة فتدفعه الى القيام بأعمال معينة — تختلف ثبوتاً ومرونة بحسب مرتبة النزعة الخاصة من سلم التطوّر الانساني — من دون سابق خبرة او ارشاد او تعلم. وهي تتدرّج من الجمود التام والثبوت على حال واحدة لا تتبدل ولا تتغير كحركة اغماض الجفن فجأة عند تحرك شيء ما بسرعة نحو العين، الى القابلية للتغيير والتبديل والتهذيب نوعاً ما بالخبرة والذكاء كغرائز الهرب من الخطر وقتال العدو، وأخيراً الى اكبر قسط من المرونة والتعديل كاللعب والتقليد. وكان علماء النفس في اوربا وامريكا الى عهد قريب جدًّا يخلطون بين انواع هذه النزعات خلطاً لا حدّ له ويذهب كل منهم في تفسيرها وتسميتها ما شاء ان يذهب

أما الآن بعد ان دالت دولة التداعيين Associationists والمسلكيين Behaviourists والآليين Mechanistics وانتصرت مدرسة وليم ما كدوبل الهورمية Hormic او الغائية Purposive فقد تحددت المعاني وانتظم التقسيم وصارت النزعات الموروثة تنقسم الى ثلاث طوائف رئيسية — اولاها وأبسطها تركيباً طائفة الأفعال المنعكسة (او المعكوسة) Reflex actions وتتضمن الردود او التلبيات او الاستجابات reactions التي يقوم بها عضو واحد من اعضاء البدن لا البدن كلهُ بطريقة آلية ثابتة لا تتغير في جوهرها مع الزمن والخبرة كلما وجد مؤثر طبيعي خاص، وقد يشعر بها الانسان شعوراً واضحاً او غامضاً او لا يشعر بها على الاطلاق وقت حدوثها. ولكن لا يصحبها انفعال او لذة وجداني خاص بها ولا تخضع لارادة الانسان ولا لتفكيره ومنها تغير اتساع حدقة العين عند التعرض للنور والظلام، والعطس عند وجود جسم غريب يلامس غشاء الانف، واغماض الجفن عند وجود شيء يفاجيء العين. وكل ما يحصل فيها من التعديل هو مجرد ارتباط الفعل المنعكس بمؤثر آخر غير المؤثر الطبيعي يكون قد صحبه عدة مرات كسيلان لعاب الكلب عند سماعه

ورنين الجرس فاذا تكرر قرع هـذا الجرس كلما وجد الطعام امام الـكلب . أما الفعل ذاته او التلبية للمؤثر فلا تتغير في الحالتين وتسمى في هذه الحالة افعال منعكسة معدلة او محوّلة او شرطية Conditioned

والطائفة الثانية هي طائفة الغرائز Instincts وقد عرّفها ما كدوجل « بالنزعة البدنية النفسية (او السيكولوجية الفيزيقية Psycho-physical) الموروثة التي تدفع الكائن الحي الى ادراك موقف او مؤثر طبيعي معين (او مجرد الشعور بوجوده والانتباه له) . والشعور بانفعال نفساني خاص على اثر هذا الادراك . ثم النزوع او التصرف تصرفاً خاصاً للوصول الى غرض خاص او على الأقل الشعور بوجود دافع نفساني لهذا التصرف ولو لم يتم . وهذه النزعات يتعين ان تكون عامة مشتركة بين الانسان والحيوان وان اختلفت مظاهرها والوانها . فلا بد اذن من توافر هذه الشروط الاربعة في كل استعداد او نزعة موروثة حتى يصح اعتبارها غريزة . وعلى هـذا الاعتبار صارت الغرائز الاساسية هي مجموعة غرائز حفظ الذات كالبحث عن الطعام بصرف النظر عن طرق هذا البحث ، والمسكن والوقاية وغيرها من الغرائز الفردية كالهرب من المخاطر والمقاتلة والتفرد والجمع والغرائز الاجتماعية كالتناسل والخنوع والاستطلاع والتجمع وغيرها لان كلاً من هذه الغرائز له مؤثرات طبيعية محدودة وتحدث في النفس انفعالات محدودة واضحة كالخوف والغضب والحنو وغيرها وهي كذلك تدفع الانسان الى القيام بأعمال خاصة توصله الى غرض خاص محدود يختلف في كل غريزة عن الاخرى وفوق هذا كله فهي عامة عند الانسان والحيوان ومهما تبدلت المؤثرات الطبيعية بغيرها مما يتصل بها او يماثلها او يحل محلها ومهما تعددت أساليب التصرف وتغيرت مظاهر السلوك بالخبرة والذكاء والبيئة فالانفعال باق على ما هو عليه لا يتغير . ولا يتبدل والغرض الطبيعي الذي ترمي الغريزة الى تحقيقه عن طريق النزوع كذلك موجود في جوهره وان اختلف وارتقى وصعد في مظهره

والطائفة الثالثـة — تتناول النزعات الموروثة الراقية غير المحدودة المتنوعة الجوانب التي لا يثيرها مؤثر خاص بعينه ولا ترمي الى غرض خاص بعينه . واظهر ما فيها انهُ لا يصحب كلاً منها انفعال خاص يميزها عن غيرها كما هي الحال في الغرائز وان شعر معها الانسان بالارتياح عند تمام النزوع واشباعه او القلق والالم عند تعطيله والوقوف في سبيله او ثارت في نفسه عدة انفعالات . ولذلك تسمى بالنزعات الموروثة العامة او غير النوعية General or Non - specific Tendencies ومن اهمها الاستهواء Suggestion ومشاركة الغير في حالته الوجدانية Sympathy والتقليد Imitation والتعويض Compensation واللعب . وسنتحدث عن كل من هذه النزعات في شيء من التفصيل فيما بعد

***

هذا في المصطلحات الافرنجية اما في المؤلفات العربية فلا يزال الـكتّاب والمؤلفون يخلطون

بين هذه الطوائف الثلاث فضلاً عن الخلاف في تسمية النزعة الواحدة مع تحديد مداها واغراضها

فتجد المرحوم الشيخ شريف يقول (ص ٤٢) بواعث غريزية صرفة يندفع اليها الطفل بطبيعته من غير علم ولا شعور ولا يتأثر منهُ بالكلية . ويقصد هنا منع وجود الانفعال . وفي (ص ٤٣) حركات غريزية غير مشعور بالغرض منها البتة او الشعور بهِ خفي جداً كحركات الاجفان (وهذا فعل منعكس) واطلق على الغرائز في بعض المواقف بالقوة الطبيعية (ص ٣٤) الغرائز وغيرها مما ليست نفسية محضة ولا فكرية صرفة تدخل تحت القوة الطبيعية

***

ولا يزال الكثيرمن الكتاب والمؤلفين يخلطون بين انواع النزعات الموروثة فيسمرن الارتضاع (مص الثدي) غريزة وهو فعل منعكس معقد واللعب والتقليد غرائز ناهجين نهج القدماء من علماء النفس امثال باين وسلي وهي نزعات عامة غير نوعية كما بينا سابقاً وبعضهم يعتبر الحب والكراهية غرائز وهي عواطف

فتجد الاستاذ حامد عبد القادر في صفحة ٧٥ (في علم النفس الجزء الاول) يتكلم عن غرائز بناء الاعشاش او البيوت والغناء عند الطيور والدكتور علي عبد الواحد في مقاله عن الغرائز (العدد الاول من صحيفة دار العلوم) يذكر غريزة الجراحة عند بعض الطيور وغيرها من الاسماء الغريبة الذي تذكرنا بنزعة التقسيم والتبويب المتطرفة التي استولت على العلماء في اواخر القرن الماضي واوائل القرن الحاضر فجعلتهم يعتبرون كل مظهر من مظاهر السلوك الانساني غريزة كاملة مستقلة بذاتها ويعطونها اسماً خاصاً حتى بلغ عدد اسماء الغرائز التي وردت في مؤلفاتهم مائتين وخمسين وضع منها ثورندايك وحده اربعين . ولقد اراحنا مكدوجل من هذا الهوس فأصبحنا نعتبر هذه الغرائز الخاصة بجنس واحد من اجناس الكائنات الحية مظاهر والوان لغريزة واحدة عامة عند الانسان والحيوان فالهرب مثلاً هو اسم الغريزة او النزعة العامة عند الكائنات الحية اما التلون عند الحرباء والتماوت عند بعض الزحافات الصحراوية فألوان خاصة لغريزة الهرب وليست هي غرائز مستقلة تعطى لها اسماء خاصة بها

واعتبر الاستاذ حامد في صفحة ٧٦ التعبير عما في النفس وحب الجمال وكذلك حب الثناء (ص ٨٥) غرائز ولا نعرف واحداً من علماء النفس المحدثين المعتبرين قال بهذا وقال بأن التأثر الحالة الوجدانية للغير غريزة وهو نزعة عامة . ونسب الاستاذ الابراشي في الفصل الذي كتبه عن النزعات العامة في نفس الكتاب (ص ٨٩) الى العلامة ماكدوجل انه يعتبر نزعة التدين والمنافسة والتعبير عن النفس نزعات عامة تتمم مع الاستهواء والمشاركة الوجدانية واللعب والتعويض مجموعة النزعات العامة غير النوعية وهو لم يقل بغير الاربعة السابقة

اما الاستاذ قنديل فقد جمع في صفحة ١٦١ في الجزء الاول من كتابه اصول علم النفس عدة تعاريف متضاربة متناقضة للغرائز في نظر مدارس علم النفس المختلفة وعطفها جميعاً عطفاً يجعل القارىء يعتقد ان هذه التعاريف كلها مترادفة ومقبولة . ثم تتبع تقسيم ماكدوجل للغرائز ولكنهُ ذكر معها غريزة الاستغاثة ونحن لم نسمع بها عن ماكدوجل او غيره من العلماء

اسماء الغرائز الاساسية

سنذكر الآن الترجمة التي نرتاح اليها لاسماء الغرائز الاساسية بحسب تقسيم ماكدوجل : —

١ — Flight : غريزة الهرب (من الخطر او المخاطر او الاشياء الخطرة) اما الخوف فهو اسم انفعالها

٢ — Fighting, Combative : غريزة المقاتلة او القتال وانفعالها الغضب ـ Pugnacity المشاكسة (او حب الخصام : قنديل)

٣ — Repulsion النفور او النبذ وانفعالها الاشمئزاز او التقزز (للامور المادية كالمذوقات العفنة والروائح الكريهة)

٤ — Self-assertion اثبات الذات والتسلط والسيطرة جميعها ترجمات مقبولة اما الظهور او حب الظهور او الرآسة فلا نرتاح اليها لانها درجات او نواحي خاصة للغريزة

٥ — Self-abasement الخنوع لانها تعبر تماماً عن المصطلح الانجليزي وفيها معنى الشعور بضعة الشأن وتليها في الافضلية كلمة الخضوع اما غريزة الانقياد فلا نرضاها لانها تدخلها في النزعات العامة وخصوصاً الاستهواء

٦ — Gregarious غريزة التجمع ولا نرضى البتة بكلمة الاجتماع (قنديل) لان كل انسان كما يقول ماكدوجل يميل بغريزته الى مجرد التجمع والوجود مع بني جنسه او على مقربة منهم ولو لم تربطه بهم رابطة او مصلحة او حتى لغة للتفاهم اي انه Sociable ولكنه لا يتعين بالضرورة ان يكون عضواً في جماعة منتظمة لها مصالح او اغراض معينة society حتى يكون Social فالغريزة اذن تدفع الى مجرد التجمع لا الى الاجتماع الذي هو ارقى مراتب التجمع وأرفعها . خصوصاً وان هذه الغريزة موجودة ايضاً عند الحيوان وهو ليس اجتماعياً وان كان يتجمع مع غيره

٧ — Curiosity الاطلاع او الاستطلاع — اما محبة الاستطلاع (قنديل ص ٢١٠) وحب الاطلاع (حامد ص ٨٥) وحب الاستطلاع (عند غيرهما) وكذلك حب الاقتناء وحب الظهور الخ لا نرضاها مطلقاً لان كلمة حب ومحبة تنقلها من مرتبة الغرائز طفرة واحدة الى مرتبة العواطف وشتان بين مجرد النزعة او الغريزة وبين الحب والمحبة

عبقرية محيطة

ليوناردو دافنشي

لاديب عباسي

عصور الانتقال الحاسمة هي احفل عصور التاريخ بالمتناقضات وأملاها بالاضداد . في مثل هذه العصور يقترن الكفر العنيد بالايمان الوطيد ، ويجاور الاخلاص للعلم الدجل والتغرير ، ويواطن التعصب الذميم والحرج في التفكير الحرية المطلقة في النظر والتقدير . وعصر النهضة الذي يقع حوالي سنة ١٥٤٦ من ابرز العصور في هذه الخصائص وأقواها تمثيلاً لها . ففيه ابيحت حرية التفكير وفيه استبيحت هذه الحرية . كان فيه العلم الراجح وكان فيه الجهل الفاضح . ساد فيه الالحاد الجريء ، وساد فيه ايمان العجائز . كان فيه حمق الجمهور وجموده ، وكان فيه تساهل العلم وسعة المعرفة . وغالى فيه قوم في تمجيد القديم والجمود عليه والاشادة بذكره ، والغرق قوم آخرون في تحدي القدماء وقدمهم والزراية عليهم وعلى ارثهم الذي ورثوا . كان فيه الحب العذري والهوى الافلاطوني ، وكان فيه الحب الدنس والهوى الاثيم يتمثلان في قصص بوكاشيو وما يروى عن آل بورجيا من حب الاب لابنته والاخ لاخته

وتعليل ذلك — في رأينا — هو ان هذه العصور تجيء زاخرة مفعمة ، وتحمل دائماً حلولاً مفاجئاً دون تمهيد طويل او سبق انذار ، فتحدث ما لا بدّ ان تحدثه من زعزعة في العقائد واضطراب في الاخلاق واحتراب بين الافكار في الفئة اللينة المطاوعة ، وتحدث ما لا بدّ ان تحدث من صلف وعناد بين الفئة الجامدة المحافظة التي تزيد محافظة وجموداً كلما ازدادت موجة التجديد في الازدخار وامعن تيارها في الهجوم . وتظل هذه الفئة على موقفها من الجمود ريثما تعمل الموجة عملها ويفعل التيار فعله من زعزعة الاركان وتقويض البنيان في عقائد هذه الفئة واخلاقها

وليوناردو الذي نترجم له في هذه الصفحات يمثل لنا في شخصه معظم نواحي العصر الايجابية ابلغ تمثيل . ولا يمثلها بالوقوف منها موقف المرآة من المرئيات تنعكس عنهُ صور النهضة واشكالها وترتسم فيه دون ان يكون له اثر في ازجائها وازخار تيارها . انما هو يمثلها في انهُ كان رائداً من روّادها الاولين وعاملاً من اقوى العاملين على تقويض صرح القديم واقامة الجديد على انقاضه قوياً ثابت الاساس . وهذا لم يكن بالكثير على ليوناردو ، وهو في ذلك العقل الجبار والعبقرية النادرة والاكتمال الذهني المحيط . ولعلّ التاريخ لا يحفظ لنا اسماً كاسم ليوناردو من حيث الاحاطة

والشمول مع العمق في التفكير والاجادة في نواحي العلم والفن الى حدود العبقرية والاعجاز . يذكر لنا التاريخ اثنين غير اسم ليوناردو — ارسطو وغوته . ولكن يقيننا انهُ لا ارسطو ولا غوته بلغا مبلغ ليوناردو عمقاً واحاطة في ناحيتي العلم والفن . فالاول كانت اجادتهُ في ناحيتي العلم والفلسفة والثاني تركزت عبقريته في ناحية الفن ، وان كان له نظر صائب في بعض مسائل العلم . وهذا يفسر الى حدٍّ لماذا ظلَّ اسم ليوناردو عصوراً ادلَّ على الاستحالة منهُ على الامكان وألحق بالخرافة منهُ بالواقع ، ويفسر لنا ايضاً لماذا احيطت شخصية ليوناردو بالشكوك والظنون رغم نصوع هذه الشخصية ووضوحها . فقد اتهم بالسحر ، وهو عدو السحر الا كبر . ورُمي بالكفر ، وكانت آخر كلماته على فراش الموت في ذكر الله والفزع اليهِ . ورُوّج عنه انهُ يسمُّ الاشجار ويدس بأثمارها الى الناس ليرى هل انتقل فعل السم الى الثمر ، وهو الذي تدركه الرأفة بالطائر الحبيس ، فيبتاعهُ ليطلق جناحه ويهبه الحرية الغالية

وليس في هذه الخصومة بين الجمهور وليوناردو خروج على القاعدة العامة التي يجري عليها التاريخ في معاملة الممتازين والعباقرة . فالعبقري دائماً مثار للارتياب وهدف للوقيعة وغرض يرمى لحماقة الجمهور وانانيته . يشعر هذا الجمهور بالحطة والصغار وضآلة القدر اذ يقيسون اقدارهم الى قدره فيحاولون ان ينزلوه الى مستواهم الذي يضطربون فيهِ . ذلك لانهم لا يستطيعون الدنو من مستواه ليساووه ويشعروا معه بشيء من وحدة الحال والتقارب ويخفقون غالباً في محاولاتهم هذه فيلفونهُ في ضبابة من الريب ويجللونهُ بغمامة من الشكوك . ولمَ لا يحقد الجمهور على ليوناردو وهو القائل فيه وفي متعلميه :

« ديدان كتب وعبّاد لارسطو (لاحظ هذا !) ، غربان في اثواب طواويس واصداء تردد ما يقوله الغير ، ينتحلون لانفسهم زينة ليست لهم ، ثم لا يريدون ان يتركوا لي جنى يدي الذي جنيت . ان بين مستوحي الطبيعة ومقلدي القدماء فرق ما بين الجسم وصورته في المرآة . انني لا استطيع ان استشهد ، ولا احب ان استشهد بأقوال القدماء ، انما استشهد بما هو اصدق من الكتب والاقوال — استشهد بالاختبار والتجربة : « الاستاذ لكل استاذ »[1]

اضف الى ما تقدَّم من عوامل المباعدة بين ليوناردو وابناء عصره انهُ كان يقوم بتجارب واختبارات علمية كانت تظهره في نظر معاصريه بمظهر العابث الذي يقتل الوقت ويهدر الزمن في غير طائل . فقد رُوي انهُ كان ذات يوم يجرب تجربة كيماوية في مختبره . وفيما هو منهمك في عمله شاهد الخادم تهرول وبيدها « دلو » من الماء تهمُّ بسكبهِ على المنضدة . ولولا ان امتدَّت يد ليوناردو بسرعة البرق الى الفتاة ، لكانت افسدت عليهِ وعلى العالم عمل سنين واغرقت كل ما تكدَّس على المنضدة من رسوم واشكال وصور ومخطوطات لا تقوَّم بمال ولا تقدر بثمن . ولما سألها ليوناردو

(١) القطع المحصورة بين اقواس مترجمة عن كتاب « حياة ليوناردو » لمرجفسكي

فيما همّت ان تصنع اجابت : رأيت كأنَّ النار تلتهم المنضدة فبادرت اخمدها بدلو من الماء . فضحك عندها ليوناردو وصرف الفتاة صرفاً جميلاً بعد ان ابان لها ان ما رأت لم يكن بنار ، وانهُ انما كان يلهو ، وان ما شاهدتهُ وخالتهُ ناراً لم يكن الاَّ دخاناً متصاعداً لبعض المساحيق الخاصة

وزاد في المباعدة ما بين ليوناردو ومعاصريهِ ايضاً ان كانت لهُ صفات جسمانية مميّزة اشتركت مع صفاتهِ العقلية البارزة في إفرادهِ من بين هؤلاءِ المعاصرين إفراداً قويًّا واضحاً . فقد روي انهُ كان لفرط قواهُ الجسدية يعمد الى نعل الفرس ويلويهِ كما تلوى قطعة من الرصاص . ويروي التاريخ مؤكداً انهُ كان يرسم ويصوّر بكلتا يديهِ في اجادة متعادلة لليدين . ثم كان ليوناردو يكتب بيسراه وبشكل لا يستطيع امرؤٌ معهُ قراءة خطهِ الاَّ معكوساً في مرآة . وكان معاصروهُ يتخذون ذلك حجة يؤيدون بها ظنونهم في انعكاف ليوناردو على السحر والشعوذة اذ ما حاجته الى هذا الاسلوب من الكتابة لولا ان ثمَّ اموراً يودُّ ان يصعّب على الجمهور اكتشافها ومعرفة كنهها

هذا ما كان ليوناردو في نظر معاصريهِ ، ولكن مَن كان ليوناردو في نظر الحقيقة ؟ ليوناردو في نظر الحقيقة والانصاف رائد العصر الحديث وبشير التجديد والابداع في العلم والفن . درس مظاهر الحياة من الحياة ذاتها وليس من بطون الكتب . وكان دقيق الحس قوي الملاحظة في هذه الدراسة يقيم الدليل على آرائهِ ونظرياتهِ بالتجارب يقوم بها والاختبارات يجريها في مختبره الخاص بدل ان يعمد الى الخيال يستوحيه والقدماء يستلهمهم فيما يرى ويقدّر . وهو في رأي بعض العلماء مؤسس علم الجيولوجيا الحديث ، فكان بمكنتهِ ان يعيّن عمر المتحجرات من النظر الى عدد طبقاتها المتراكمة التي تدل كل طبقة منها على عدد من السنين . وبمثل هذا الاسلوب كان يقدّر اعمار الاشجار ايضاً . فكان يجذ جذع الشجرة جذًّا افقيًّا فيعرف من عدد حلقاتهِ المتراكزة عمر هذه الشجرة وليوناردو نباتي من الطراز الاول . وقد كانت لديهِ مجموعة نباتية جيدة . ولعلَّهُ كان اول من حاول ان يدرس فعل السموم في النباتات والاشجار . وهذا مصدر ما كان يشيعهُ الناس من انهُ كان يسمّم الناس باثمار تغذَّت بالسم وهي لا تزال على اشجارها . ودرس ليوناردو الجسم البشري دراسة العالم المحقق ، فشرَّح الاجسام ليعرف علاقة كل عضو بوظيفته وانتهى من هذا التشريح الى حقائق خطيرة . فكان مما انتهى اليهِ ان تصلّب الشرايين سبب من اسباب الشيخوخة والفناء وان درهم وقاية خير من قنطار علاج . ومن هنا كانت قلة ثقتهِ بالاطباء في عصره ، وقد قال ينصح صديقاً في مرضهِ : نصيحتي لك ان لا تفكر في كيف تنال الشفاء : انما انصحك ان تبتعد عن الاطباء ، وبقدر ما تبتعد عنهم تنال الشفاء

وهذا الاتجاه العلمي المحض من ليوناردو صيّرهُ حرباً على المشعوذين واصحاب الدجل . ادعى احد هؤلاءِ انهُ يستطيع ان يحوّل المعادن الخسيسة ذهباً فاستدعاه امير المدينة وطلب اليهِ ان يجري تجاربه امامه . وقام الدجال بتجربته وخرجت فعلاً قطعة من الذهب اثارت رؤيتها دهشة الجميع واطاعهم

الاّ ليوناردو الذي اخذ الدجال من يده وسار به ناحية وهمس في اذنه ان لا يُعيدها والاّ اضطرّ الى فضيحته . ولما كابر الدجال وابى الاعتراف بالتدجيل اضطرّ ليوناردو الى التفسير وابان له ان قطعة الذهب التي خرجت كانت موضوعة في تجويف في اسفل العصا التي كان يحرّك بها السائل المصهور على النار ، واراها للجمهور وانهُ حينما احترقت السدادة التي كانت تسدّ على قطعة الذهب سقطت هذه القطعة فتناولها على انها خرجت من السائل بعلمه وفنه . ولم يُحر الدجال عندها جواباً ووعد بان لا يُعيدها

وليوناردو واضع قانون متوازي القوى المعروف والذاهب الى ان المادة في ابسط حالاتها ذات خصائص متشابهة لجميع العناصر . وهو اول من فكر في الطيران على اسلوب علمي محض . وقد فحصت مخطوطاته التي تبلغ ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) صفحة فوجد قسم منها حافلاً برسوم لأجهزة معقدة أعدها ليوناردو ليحاول على أساسها الطيران . ولكن لم يكن يرضَ ولا عن واحدٍ من هذه الاجهزة والرسوم . وقد انشأ ليوناردو واحداً من هذه الاجهزة بشكل الخفّاش ، ولكنه لم يطمئن اليه وكان يشعر ان ثمة صعاباً علمية وفنية لم يتغلب عليها بعد . الاّ ان معاونه الملحاح أصرّ على تجريب الجهاز رغم معارضته الشديدة وتحذيره اياه من سوء العقبى . غير ان هذا المعاون أصرّ الاّ تجريباً للجهاز . ولم يسع ليوناردو ازاء فضوله والحاحه الشديد الاّ اجابته الى طلبه . فاعتلى صاحبنا بالجهاز ربوة عالية وهوى مع الجهاز الى اسفل . وكان ما قدّر ليوناردو وسقط صاحبه سقطة كادت تطير معها روحه . ولم يحاول ليوناردو بعدها ان يبني جهازاً آخر للطيران . الاّ أن هـذا لم يكن ليزحزحه عن اعتقاده الثابت بأن الانسان يستطيع ان يطير ، بل هو لا شكّ طائر يوماً من الايام نأى ذلك اليوم أم دنا ، وذلك حينما تكتمل معرفته بالطبيعيات والرياضيات . وهو يقول متنبئاً ، وقد وقف على شاهق يشاهد تحليق الطيور في إعجاب كالعبادة

« سوف توجد الجنحان . وليكن غيري موجدها اذا لم استطعها أنا . لا فرق عندي في ذلك . سوف يطير الانسان ! ان الروح لا يكذب ولا يعين . ان اولئك المجنحين سوف يكونون صنو الآلهة . سوف يُقلع ذلك الطائر الأول المظيم . وليتمجد الى الأبد العش الذي يدرج منهُ ذلك الطائر ! »

وليس ما أسلفنا ذكره من حقائق الاّ معبراً بعض التعبير عما حفلت به مخطوطات ليوناردو من علم صائب وابتكار صادق يضعه في مصاف رجالات العلم الحديث طريقة في البحث وجلداً في التتبع والتنقيب مما جعله أسبق لعصره بنحو اربعة قرون . وهذا ما حمل عالماً وفيلسوفاً رصيناً مثل هفلوك الس على القول ــ بعد ان درس مخطوطات ليوناردو ــ بأن ليوناردو مؤسس علم الهندسة الحديث وعلم الجيولوجيا والتشريح وأنهُ علم من أعلام البحث الصائب والعلم النافع

على أن شهرة ليوناردو المستفيضة واسمهُ الذائع لم يكونا من ناحية العلم انما جاءا عن طريق فنه الخالد ــ الفن الذي رفعهُ الى أعلى عليين وأحله أسمى ذرى المجد ومراتب الخلود . ويكفي المتحف من متاحف الفن شهرة واجتذاباً لحجاج الفن ان يضمّ لوحة من لوحات ليوناردو الخالدة .

اما صورة العشاء الرباني — اعظم اعمال ليوناردو الفنية — فهي في نظر ارباب الفن اعظم عمل فني لفنان قديم او حديث . . . . وليست شهرة ليوناردو منحصرة في الفن بالتصوير ، بل هو نحات في الطراز الاول من النحاتين وموسيقي بارع وكاتب مبدع في الفوج الاول من كتاب النهضة . والذي يدهش حقاً ان يبلغ ليوناردو حد الاعجاز وانقطاع النظير من الابداع في نواحي الفن وبعض نواحي العلم ، ثم لايتطرق الوهن الى عمل من اعماله الفنية . ولعلَّ هذا ان ليوناردو، رغم توزيع ميوله وبسط جهوده . ظلّ يقبل على جميع اعماله الفنية والعلمية دقيقها وجليلها اقبالاً يكاد يبلغ حد الذهول . فهو اذا ذهب احد الامسية الى الرواق الذي كان يخلّد على جدرانه صورة العشاء الرباني نسي العالم ونسي وجوده ولم يبق امامهُ الاّ صورة العشاء الرباني . وهو اذا اجرى في يوم آخر تجربة من تجاربه العديدة في النبات او الكيمياء كانت هذه التجربة كل ما يهمه من شؤون هذا العالم . واذا انصرف الى صنع درع تلبسها اكادمية المصورين (الخيالية ؟ !) في ميلان نسي ان في العالم شيئاً لهُ خطر وقيمة غير هذا العمل التافه . وهكذا كان ليوناردو يقبل على جميع اعماله اقبال العابد وينقطع اليها انقطاع العاشق . فكان هـذا مضافاً الى عبقريته النادرة سبباً في خروج اكثر آثاره في هذه الرتبة من السمو والابداع . هذا الى انهُ كان يقف من فنه وعلمه موقف المحاسبة الشديدة والنقد الصارم . فلم يكن يفتنه عمل من اعماله عن اجتلاء مواطن الضعف ونواحي النقص فيها ، فيعمل على ازالتها واستكمالها . ولعلَّ هذا كان في اول الاسباب في بقاء كثير من اعمال ليوناردو الفنية والعلمية مبتورة ناقصة

ولم يكن ليوناردو يسير في فنه بحسب الالهام والوحي فقط شأن كثير من الفنانين ، بل كان فضلاً عن استيحائه الالهام والعبقرية يسير على هدًى من العلم والمعرفة ويرصد للجانب النظري من فنه شطراً ليس باليسير من وقته وجهوده ؛ ولهذا الغرض درس دراسة جيدة علم التشريح وعلم الالوان والظلال فجاءت صوره وتماثيله من اصدق الصور والتماثيل في تقريب الفن من الحياة . وقد كان يقول :

« الالوان الواضحة تأسر الرعاع . ولـكن الفنان الذي اخلص لفنه لا يخضع لنزوات الرعاع ، انما هو يجب ان يرضخ لنخبته المختارة الممتازة فقط . والذي يفخر به الفنان ويصبو اليه ليس الالوان البراقة اللامعة انما هو ان يكوّن من الضوء ما يشبه المعجزة . ان الضوء والظل يجعلان السطوح المستوية مستديرة . فالذي يحتقر الظلال في التصوير يشبه الثرثار الذي يضحي بالمعنى في سبيل الكلمات الجوفاء الرنانة »

هذه صورة مصغرة لليوناردو العالم الفنان . وفي فصل آخر صورة اخرى لليوناردو الانسان

بعض المصادر التي رجعنا اليها في هذا الفصل :

1 — Men of Art : Thomas Craven
2 — LeonardoDa Vinci : Siren
3 — دائرة المعارف البريطانية
4 — Lives of the Painters : Vasari

التعقيم واصلاح النسل

في ١٩ يونيو الماضي بعث مراسل « الصحافة المشتركة » البرليني برقية الى نيويورك قال فيها ان محكمة التعقيم النازية بينت في تقريرها الاول الذي نشر في ذلك اليوم ان ٣٢٥ رجلا وامرأة من سكان برلين عملت لهم عمليات التعقيم خدمة للاجيال المقبلة . من هؤلاء ١٤٣ تقدموا بملء اختيارهم لعمل هذه العملية التي تحول دون اخلافهم نسلاً ، ولكن من دون ان تترك اي اثر آخر في حياتهم الجنسية . وان معظم الذين عملت لهم هذه العملية كانوا من الرجال

في ٢ يناير سنة ١٩٣٤ بدأ الالمان ينفذون القانون القاضي بتعقيم المصابين من الالمان بأمراض وراثية مثل ضعف العقل الخلقي [١] والسرسام [٢] والجنون التهيجي الانقباضي [٣] والصرع الوراثي [٤] ونقاز هنتنغتن [٥] (داء الرقص) والكمه (العمى) الوراثي والصمم الوراثي وادمان المسكرات . ويؤخذ من انباء المانيا انهُ ينتظر تعقيم ٤٠٠ الف الماني مصابين بهذه الامراض او ما هو من قبيلها والغرض من ذلك تطهير الآريين من الالمان من كل شائبة تشوبهم

وقد كان سن هـذا القـانون باعثاً على احتدام المناقشة في موضوع تحسين النسل بالتعقيم ، فسألنا القراء عن حقيقة التعقيم وكيف يختلف عن الخصي ، وما اثره في حياة الانسان المعقم بوجه عام ، وفي حياته الجنسية بوجه خاص ، واي الناس يجب ان تعمل لهم عملية التعقيم ، وفي اي البلدان تمارس هذه العملية ، وهل هي عملية الجة وتنطوي على خطر ام لا ؟

يقدر علماء الولايات المتحدة الاميركية، ان نحو ٢٥ مليوناً من الشعب الاميركي مصابون بأحد الامراض والعاهات المذكورة في صدر هذا المقال فلا يصلحون للقيام بما يفرضهُ عليهم المجتمع من تبعات ، او لا تواتيهم احوال البيئة الاقتصادية على ذلك . فمتوسط المرضى في مستشفيات الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٣١ كان ٣٩٦ر٧٧٥ اما عدد المرضى في مستشفيات الحكومة الخاصة بالامراض العقليـة فبلغ في آخر سنة ١٩٣٠ نحو ٧٢٤ الفاً فزاد هذا العدد في تلك السنة عن عدد السنة السابقة بنحو ١٢ الفاً . من هؤلاء ٦٤٢٥٣ مصابون بضعف العقل والصرع . وكان في سجون الولايات سنة ١٩٣٠ نحو ١١٧ الف سجين . وفي سجون الحكومة المتحـدة ١٤٤٧٣ سجيناً . وبلغ عدد الذين حوكموا وسجنوا في اميركا سنة ١٩٣١ نحو ٧١ الفاً . ثم ان الحكومة الاميركية تميل الى الاعتقاد بأن عدد مدمني المخدرات في بلادها سنة ١٩٣١ كان مائة الف مدمن . والاحصاء

(١) hereditary feeble-mindedness (٢) Schizophrenia (٣) manic-depressive insanity
(٤) hereditary epilepsy (٥) Huntington's chorea.

الاميركي العام لسنة ١٩٣٠ يدل على ان عدد البكم في اميركا سنة ١٩٣٠ كان ٦٣٤٨٩ ابكم وعدد الصم ٥٧٠٨٤ اصم . وفي البلاد علاوة على ما تقدم نحو عشرة ملايين متعطل عن العمل ، والراجح ان خمسة ملايين منهم لن يتسنى لهم وجود عمل في المستقبل كائناً تحسن الاحوال الاقتصادية ما كان . فالقول بأن في الولايات المتحدة الاميركية نحو ٢٥ مليوناً من الناس لا يصلحون للقيام بما يفرضه عليهم المجتمع من التبعات — او لا تواتيهم البيئة الاقتصادية على ذلك — ليس فيه غلوّ ولا اغراق

ويذهب بعض المتطرفين من دعاة تحسين النسل في اميركا امثال وجّم Wiggam وهنتنغتن Huntington وستودرد Stoddard الى ان الناس المصابين بأمراض او عاهات من هذا القبيل خطر على الجنس البشري . فهم يعتقدون ان هؤلاء الناس يورثون امراضهم وعاهاتهم ، وان الحضارة التي بنيت بأرواح الانبياء وعقول العباقرة ، انما تخلَّف ، لاقزام الجسم والعقل والروح . ويضيفون الى وجوب تعقيم اصحاب الامراض والعاهات الوراثية التي تقدم ذكرها ، وجوب الحيلولة بين بعض المجرمين واعقاب النسل

وهناك طائفة اخرى من دعاة تحسين النسل ، تذهب الى ان الخطر ليس من الشدَّة بحيث يصوره وجّم وهنتنغتن وستودرد . فهم يقولون ان اصحاب الامراض والعاهات المذكورة لا يزداد عددهم اكثر مما كان يزداد في الماضي ، وان زيادة عددهم في دفاتر الاحصاء ، ليست الاّ زيادة ظاهرة ، سببها شدة العناية الآن بفحصهم وتشخيص امراضهم وعاهاتهم والتبليغ عنها وتدوينها . ثم يتمادون فيقولون ان الحضارة الميكانيكية بحاجة الى امثال هؤلاء ليقوموا بالاعمال الآلية التي لا تحتاج الى قدح زناد الفكر

***

وقد كانت الولايات المتحدة الاميركية اسبق الامم الى سن قوانين تقضي بتعقيم المصابين بأمراض وراثية . ففي سنة ١٩٠٧ سنَّت ولاية انديانا اول قانون من هذا القبيل ، وكانت ولاية مشيغن قد حاولت سنّ مثل هذا القانون سنة ١٨٩٧ فرفض مشروعه في مجلسها النيابي . وفي اميركا الآن سبع وعشرون ولاية من ثمان واربعين ولاية سُنَّت فيها هذه القوانين ويبلغ عدد الذين عملت لهم عمليات التعقيم ودونت اسماؤهم ١٧٨٩٨ شخصاً وهناك مَن عملت لهم هذه العملية ورفضوا تدوين اسمائهم خشية بعض العقد القضائية

وتبعت الولايات المتحدة الاميركية في هذا ، ولاية البرتا — وهي احدى ولايات كندا — سنة ١٩٢٨ وبلادا الدنمارك وفنلندا ومقاطعة فو Vaud في سويسرا سنة ١٩٢٩ وولاية فيراكروز بالمكسيك سنة ١٩٣٢ والمانيا سنة ١٩٣٣

هذه هي الحكومات التي اصدرت تشريعاً بهذا المعنى . ولكن حكومات انكلترا والنروج والسويد وغرب استراليا ، تعنى الآن بدراسة الموضوع توطئة للتشريع فيه

وكانت بعض المحاكم الاميركية قد حكمت بأن هذه القوانين غير دستورية ، لما كانت طريقة التعقيم محصورة في الخصي في الرجل او في ما يقابله في المرأة . فلما استنبطت طريقة جذ الأسهر (القناة المنوية) Vasectomy في الرجل وجذ قرن الرحم في المرأة salpingectomy زال اعتراض المحاكم

وعملية جذ الاسهر عملية صغيرة بسيطة تقوم على جذ القناتين المنويتين وربطهما فيمتنع بذلك افراز النطف المنوية . اما عملية جذ قرن الرحم فأخطر من عملية جذ الاسهر ويحتاج فيها الى شق البطن وجذ قناتي المبيضين وربطهما حتى يمتنع وصول البيضة من المبيض الى الرحم . والعملية الاولى تتم في نحو ١٥ دقيقة وألمها قليل والنقه منها لا يستغرق الا بضعة أيام من دون ان يحول بين الرجل وقيامه بعمله اليومي . اما العملية الثانية فتقتضي استعمال مخدّر عام وشق البطن فهي من قبيل عملية استئصال الزائدة الدودية . ولا بدّ للمرأة من ان تبقى في المستشفى تحت اشراف الطبيب والممرضة مدة عشرة أيام . ولكنهما — اي العمليتان — على كل حال لا تؤثران اي تأثير غير طبيعي في حياة الرجل

والمرأة من الناحية الجنسية . فحيض المرأة مثلاً لا يتأثر بهما . ولكن اذا تقدم رجل وزوجته للتعقيم من تلقاء نفسيهما فالاطباء الاميركيون يفضلون ان تعمل العملية للرجل ، لأنها اسهل وتكفل تحقيق الغرض منها

***

يظهر من مقالات متتابعة في هذا الموضوع نشرتها مجلة السينتفك اميركان ، ان علماء تحسين النسل (اليوجنيين) مجمعون على ان المتوكلين — مثل المتعطلين عن العمل والصم والكمه — ومقترفي الآثام — امثال المتشردين والمجرمين — والمنحطين امثال العهّار الصاديين Sadist ومدمني المخدرات — والملوثين — امثال المصابين بالدرن والزهري — يجب ان لا يخضعوا لقانون التعقيم رغماً عنهم لان اصاباتهم هذه مكتسبة في الغالب لا متوارثة . ولكن هناك طائفتان من الناس اولاها طائفة المصابين بأمراض عقلية مثل المجانين ، والثانية طائفة ضعاف العقول مثل المعتوهين والبلهاء . وقد اختلف العلماء في اسباب اصاباتهم

ومما لا ريب فيه ان الوصول الى رأي قاطع في الموضوع لا مندحة عنهُ لكل مشروع غرضهُ تحسين النسل عن طريق التعقيم

رأي الدكتور ادولف لورنتز
الجرّاح النمسوي المشهور

أؤمن بالتعقيم لان الواجب على الطب ان يمنع المرض ، والتعقيم وسيلة من وسائل منع المرض العقلي وغيره . واعتقد ان التعقيم يجب ان يشمل جميع اصابات الامراض العقلية ، والاصابات الوراثية من مدمني السكر والمجرمين وضعاف الاخلاق . والامل ان تصيب هذه الطريقة في المانيا نجاحاً والراجح انها تصيبه . فتنتشر بعدئذ في جميع الامم كوسيلة للتخلص من حثالة الانسانية

فمعظم علماء تحسين النسل متفقون على ان الامراض العقلية مكتسبة اكثر منها متوارثة ولكن كثرتهم تذهب الى ان الضعف العقلي متوارث اكثر منهُ مكتسب . والامر الذي يجعل الحكم في هذا الموضوع متعذراً انك قد تجد أبله مولوداً من أب وأم سويين ولكنهما يحملان في عقود كروموسوماتهما عيوب الضعف العقلي . فالخطر على المجتمع في حالة كهذه ليس الأبله — لأن الابله لبلهِ قلما يخلف نسلاً لاعراض النساء عنهُ — بل الوالدان السليمان في الظاهر

اما احصاء العمليات في اميركا فيدل على ان عمليات التعقيم لا تماشي الرأي العلمي السائد في في هذا الموضوع . ففي ١٥ ولاية من الولايات المتحدة الاميركية ، عملت ٩٢٦٠ عملية تعقيم اجبارية منها ٦٢٤٦ عملية لاشخاص مصابين بالجنون Insanity و ٢٩٣٨ عملية لاشخاص مصابين بضعف العقل و ٥٥ عملية لاشخاص مصابين بالصرع و ١٦ عملية لمجرمين و ٥ عمليات لاشخاص مصابين باضطراب الاعصاب . فيبدو من هذا الإحصاء ان العمليات التي عملت لاناس مصابين بالجنون هي ضعف العمليات التي عملت لاناس مصابين بضعف العقل ، مع ان علماء تحسين النسل يجمعون او يكادون ، على ان ضعف العقل اكثر انتقالاً بالوراثة من الجنون

***

وقبل ان نختم هذا المقال نريد ان نذكر الطريقة التي تجري عليها حكومة ولاية كاليفورنيا في تطبيق قانون التعقيم . فقانون التعقيم الكاليفورني ، يجعل عملية التعقيم اجبارية للمجانين وضعاف العقول الذين في منشآت الحكومة مثل السجون ومستشفيات الامراض العقلية . فاذا ظهر لمدير القسم الطبي في أحد هذه المنشآت ان تعقيم احد هؤلاء مرغوب فيهِ ، حماية لهُ وللمجتمع وللذريات المقبلة ، قدَّم تقريراً في الموضوع الى القسم الصحي في حكومة الولاية ومدير قسم المنشآت كالسجون والملاجيء ، فاذا حكما بوجوب العملية وجب ذلك . ولكن في الواقع يستشار اقرب اقرباء المريض اولاً ويطلب اليهِ ان يعلن قبوله كتابةً . وقد اثبت الاختبار ان اقرباء المريض كانوا في الغالب يرحبون اشد الترحيب بالعملية ، بل كثيراً ما كانوا هم البادئين في الحث على عملها . فطريقة تنفيذ القانون الكاليفورني يجمع جمعاً عملياً بين عنصري الاجبار والاختيار

وعنصر الاجبار في هذه القوانين ، اصبح مبدأً قانونياً معترفاً بهِ في اميركا . ففي سنة ١٩٢٧ نظرت المحكمة الاميركية العليا في حكم محكمة بولاية فرجينيا فقررت ان للولاية ان تنص على مبدإ الاجبار في احوال معينة . وكتب الحكمَ القاضي الاميركيُّ المشهور اوليفر وندل هومز فقال « يكفينا ثلاثة اجيال من البله » ثم قال ان احداً لا ينازع في حق دولة من الدول ان تبذل حياة ابنائها الممتازين عقلاً وحيوية ، في الحرب ، فمن المستغرب ان ينازع في حقها ان تطلب في ايام السلم من ابنائها المنحطين تضحية صغيرة في سبيل حماية الذريات المقبلة

الادوات الزراعية الفرعونية

الشادوف — الفأس — المحراث — المنجل — المذراه

للدكتور حسن كمال

﴿ الشادوف ﴾ — كثيراً ما تشاهد بالمقابر رسوم لترع توزع مياه الفيضان على الحقول وذلك بحضور السيد الذي يركب وقتئذٍ قارباً صغيراً مصنوعاً من سوق البردى . وما اكثر النقوش التي تمثل السفن النيلية ناقلة محصول الاراضي وكذلك الحيوانات على اختلاف انواعها من الحقول واليها . وعند ما يزول الفيضان يعمد الفلاح الى حراثة ارضه الرخوة التربة بالمحراث الذي تجره ثيران كما هي العادة الآن . وتمتد الترع من اقاصي الاراضي جنوباً الى نهايتها شمالاً . ومن هذه الترع تتفرع قنوات صغيرة لتوزيع المياه على اجزاء الحقول بالتساوي وفقاً لما تتطلب جغرافية الارض وتربتها

ومعلوم ان فيضان النيل يبدأ عادة في نهاية شهر مايو او بعد ذلك بقليل . وفي منتصف شهر يونيو يكون الفيضان بلغ درجة محسوسة وحينئذٍ تشاهد مياه النيل ضاربة الى الاخضرار نتيجة مزجها بالغرين الآتي من بلاد الحبشة . وبعد زوال الفيضان يخضر لون المياه النيلية . واعتقد القوم وقتئذٍ في عدم صلاحيتها للشرب فكانوا يخزنون مياه الفيضان في الزلع الكبيرة لشربها زمن التحاريق . قال ارستيديس Aristides ان مصر هي الامة الفردة التي يخزن اهلها المياه ويحفظونها زمناً معيناً كما يفعل غيرها بالنبيذ

وفي اوائل شهر اغسطس تطلق المياه في الترع من النيل فتغمر الحياض . ولما كانت الاقاليم المجاورة للصحراء هي اوطأ الاقاليم منسوباً كانت المياه تغمرها اولاً بخلاف الاراضي القريبة من النيل فانها مرتفعة نسبياً ولذلك كانت تغمر اخيراً . وهذا الامر يشاهد فقط في الصعيد اما في الوجه البحري فان اراضيه تقع في مستوى واحد تقريباً . لذلك كانت الدلتا تغمر كلها وقت الفيضان بالمياه ما عدا المدن والقرى لان مستواها اعلى بكثير من مستوى الاراضي المجاورة . وكلما ارتفع منسوب الفيضان وغمرت المياه الاراضي زاد اهتمام القوم بنجاة بهائمهم التي في الاراضي المنخفضة كما هو مشاهد بمقابر بني‌حسن . وهذا المجهود وهذه العناية يتجسمان تماماً اذا ما انقطع جسر وفاضت مياه النهر فجأة واغرقت الاراضي المجاورة . وفي هذه الاحوال يشاهد القوم

واضعين ملابسهم على رؤوسهم وجاذبين اغنامهم وبهائمهم من المياه وواضعيها في السفن . وهناك مناظر اخرى يُرى فيها القوم يشدون الثيران وهي عائمة في المياه الى اقرب اكمة . واذا كان هناك زرع يمكن الانتفاع به بعد اقتلاعه عمد القوم الى ذلك وشحنوه في القوارب

والمعروف ان القطر المصري كان منذ عهد المملكة القديمة (٣٢٠٠—٢٢٧٠ ق.م.) يروى بالحياض . وهذه كان يصرف اليها ماء النيل بواسطة ترع كبيرة تحت اشراف المدير او الحاكم المحلي (راجع مقبرة رخمارا حائط A و B لوحة ١١ و ١٤ و ١٥) الذي لا يسمح بارسال الماء الا بعد ما يبلغ ارتفاعاً خاصاً . وكانت المياه تصرف الى الجهات بمنتهى الحكمة والعدل وفق ما تقتضيه طبيعة ارضها ونوع زراعتها . وعند ما يهبط مستوى مياه النيل تغلق الفتحات الرئيسية لمنع تسرب المياه الى النيل بسرعة حتى تكتسب الارض اكثر ما يمكن من الغرين

اما الاراضي المرتفعة التي لا تصلها مياه النيل وقت الفيضان او التي تصلها بصعوبة فكانت تروى بواسطة الشواديف التي تصب مياهها في ترع او قنوات صغيرة موصلة الى الجهات المذكورة ويرجع استعمال الشادوف في القطر المصري الى الزمن السابق لعهد الفراعنة . ويظن البعض انه وجد مرسوماً على جدار بمقبرة بمدينة الكاب (راجع جرين وكويبل في كتاب هيركونبوليس طبعة ١٩٠٢ ج ٢ لوحة ٧٤ و ٧٥) . وقدر بعضهم مقدار المياه الممكن رفعها بهذه الآلة في الساعة الواحدة بما يتباين من ١٦٥٠ الى ٣٤٠٠ لتر (راجع كتاب Barois و Ringelmann عن الزراعة الريفية Essai d'hist. du genie rural ج ١ ص ٢٠٤) وهناك عدة طرق لري الحدائق منها تخزين المياه في حوض كبير وسط الحديقة ثم ارسال المياه منه بواسطة ميازيب صغيرة الى اجزاء الحديقة المختلفة . ومنها ايضاً نقل المياه بواسطة آنيتين معلقتين في طرفي قضيب خشبي يحمل على الكتفين الى النبات المطلوب ريه (راجع كتاب البرشة للاستاذ نيوبري لوحة ٢٦)

ويشاهد استعمال الشادوف بوضوح في جدار مقبرة (ابوي) التي يرجع تاريخها الى زمن رمسيس الثاني (١٢٩٢ — ١٢٢٥ ق. م.) وقد ورد وصفها في المجلد الخامس من سلسلة كتب بعثة العاديات الفرنسية المطبوع عام ١٨٩٤ ص ٦٠٤—٦١٢ . اما صاحب هذه المقبرة فكان حفاراً في خدمة المعبود آمون بطيبة الغربية — وفي هذه المقبرة رسمٌ لمدخل منزل هذا الموظف ويتكوَّن من سلم ذي ست درجات يصل الى المدخل الرئيسي ذي العمد المتوَّجة بباقة براعيم اللوطس والبردي . وتحت الاشجار يشاهد شادوفان لري الحديقة . والاشجار المذكورة تحمل ثماراً متباينة كالجميز والبرتقال ؟ وغيرها . وكل شادوف مكوَّن من قضيب خشبي مثبت في ثلثه الاوسط على جدار وينتهي طرفهُ المؤخر بكتلة طينية . اما الطرف الامامي فينتهي بحبل طويل يحمل دلواً من الجلد له يدان . والفلاح في كل حالة يقبض على الحبل بيديه . وبذلك يمكنهُ ان يؤدي حركة الملء والتفريغ باستمرار وهو واقف من دون ان ينالهُ تعب . وذلك بحركة الموازنة بين الثقلين

بطرفي القضيب . وهناك شادوفان آخران متقابلان للسابقين . وعلى ذلك تكون حديقة ايوي المذكورة فسيحة لانها تطلبت شواديف اربعة أنفار للقيام بريها

وعلى أثر زوال الفيضان السنوي عن الاراضي نشاهد أعشاب نامية وأيضاً بعض النباتات الوحشية آخذة في الظهور في عدة جهات من الحقول . كذلك نلاحظ أحجار قذفتها مياه النيل وقت غمرها الاراضي . لذلك نجد الفلاح المصري من أقدم العصور يهتم باستئصال هذه الاعشاب والنباتات وازالة الاحجار من حقله قبل الشروع في زرعه . واذا لاحظنا ان تعداد القطر المصري كان يقرب في عهد الفراعنة من الستة ملايين نسمة وان القطر كان يورّد لممالك البحر الأبيض المتوسط القمح الكثير امكننا ان نستنتج شدة عناية المصريين بتحويل اراضي الوادي الى حقول زراعية

وتشاهد في مقبرة (نخت) بالاقصر مناظر لفلاح يستأصل بفأس خشبية النباتات النابتة على حافة النهر كما أورد (ابسيوس) في الدنكمار ج ٢ لوحة ١٠٧ من زاوية المتين رسماً لفلاح قديم يبعد الاحجار عن طريق المحراث بواسطة عصاة طويلة

﴿ الفأس ﴾ حافظ الخط الهيرغليفي على رسم الفأس القديمة كحرف هجائي مركب مدى التاريخ . واستعمل المصريون في عهد الاسر الاولى الفؤوس في الفلاحة والهدم . وكانوا اذا قرر أحد ملوكهم تشييد معبد قبض على فأس واشترك في العمل . ومنذ مبدأ التاريخ المصري القديم (٣٤٠٠ ق.م) حتى العهد الصاوي (٦٦٣—٥٢٥ ق. م) كانت الفأس تتركب من قطعتين خشبيتين غير متساويتي الطول . وكانت احدى هاتين القطعتين تستعمل يداً وهي مستقيمة واقصر من القطعة الاخرى المستعملة أداةً للحفر . ويختلف طول القطعتين طبعاً باختلاف طول صاحبهما . لكن متوسط طول اليد يبلغ خمسين سنتمتراً . ومتوسط طول الحد سبعين سنتمتراً . ويلاحظ في الحدّ انهُ مقوّس قليلا وانه تارة مدبّب واخرى مفرطح وطوراً مفرطح ومشعب في آن واحد

ويثبت الحد في اليد بالحفر الخشبي او بوثاق او قضبان خشبية . وقد اتضح ان الفؤوس صنعت من المعدن منذ عهد الاسرة الخامسة (٢٥٦٠ — ٢٤٢٠ ق . م) (راجع كتاب العدد والاسلحة للاستاذ بتري لوحة ١٩ رسم ١٣) . وفي عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م) وبالاخص بمقبرة (نخت) و (اوسركاسنب) و (شامته) يظهر ان الفؤوس كانت تصنع من المعدن واستمرّ القوم يستعملون الفأس الخشبية طول مدة التاريخ القديم وزودوا بها تماثيلهم الصغيرة التي كانوا يضعونها مع موتاهم لعمل الفلاحة اللازمة لهم في الدار الآخرة . وفي عهد الامبراطورية الحديثة (١٥٥٥ — ٧١٢ ق . م) غير البناؤون والنجارون شكل الفأس فجعلوا احياناً القطعتين متساويتين طولاً واحياناً جعلوا اليد اطول من السلاح . والفأس المدببة كانت تستعمل في حفر الاراضي الصلبة . اما المفرطحة فكانت تستعمل في حفر الارض الرطبة وتنظيف الترع

وقد سبق ان اوردنا رسماً لأحد ملوك مصر الاول يحتفل بحفر قناة مستعملاً الفأس الخشبية المدببة (عن كوبيل هيرا كونبوليس ج ١ لوحة ٢٦) . وهناك لوح اردوازي يرجع تاريخه الى اكثر من ٣٤٠٠ ق.م وقد نُقِش عليه ملك مصر مرموزاً له بحيوانات وألوية مختلفة قابضاً على فأس يهدم بها قلاع الاعداء . واورد الاستاذ بتري رسماً في كتابه عن المقابر الملكية للاسرة الاولى جزء أول لفأس يظهر منها انها خشبية ويشاهد فيها تساوي اليد والحد طولاً وتثبيتهما احدهما في الآخر بطريقة الحفر وبقضيب خشبي . وهذا القضيب كان يستبدل احياناً بوثاق . واورد ولكنسون في كتابه عن عادات قدماء المصريين واخلاقهم ج ٢ ص ٢٥٢ رسماً لفأسين خشبيتين تستعملان لحفر الأرض الرطبة سلاحهما مصنوع على شكل الجرفة وهو اطول من اليد ومثبت بالحفر الخشبي وبوثاق وهذا الاخير يطوّق احد الاسلحة ويخترق الآخر . والفؤوس الخشبية الواردة بالدنكارج ٣ لوحة ١٢٧ التي يرجع تاريخها الى الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق . م) يشاهد فيها قصر اليد وتقوس السلاح الواضح ودبدبة نهايته وتثبيته في اليد بوثاق . وورد بمقبرة تحت بالاقصر رسم لفأس كانت تستعمل لاستئصال الاعشاب وهي خشبية مقوّسة اليد في موضعين وهي اطول من السلاح . وقد اوردت للقارىء رسوماً لعدة فؤوس محفوظة بدار تحف القاهرة وعمل منها نماذج لمتحف فؤاد الاول الزراعي لما كنت قائماً بانشاء قسم الزراعة المصرية القديمة هناك . وعددها خمسة يشاهد فيها تباين طول اليد والسلاح وطرق تثبيت الاثنين في بعضهما واستعمال الحبل وثاقاً واحياناً القضيب الخشبي بدله . اما طريقة استعمال هذه الفؤوس فقد وردت في كثير من المقابر مرسومة بوضوح . وقد سبق ان اوردت رسماً لتمثال لفلاح مصري قديم قابضاً على فأسه ورجلاهُ غائرتان في الطين وهو قائم بعملية حفر الارض

﴿ المحراث ﴾ واصلاً فأس كبيرة . وقد نسب المصريون الى معبودهم (ازوريس) طريقة استعمال المحراث في الفلاحة . ولا يبعد ان المحراث كان يجرّ في باديء الامر بالعمال دون الثيران لبساطته وخفته وقذره . واول ما ظهر المحراث في شكله المعروف كان بجهة ميدوم (أسرة ثالثة ٢٧٨٠ — ٢٧٢٠ ق.م) (راجع كتاب بتري عن ميدوم لوحة ١٨) وهناك لوحظ أنهُ يجر بواسطة الثيران

اما كيفية اشتقاق المحراث من الفأس فتتلخص فيما يلي : زيد في طول يد الفأس حتى بلغت الثلاثة امتار تقريباً وصار (نافاً) واستعيض من الوثاق تدريجاً بوصلات خشبية في نفس الموضع . فنتج عن ذلك ان السلاح صار اقصر كثيراً من الناف

وللتمكن من ارسال سلاح المحراث في باطن الارض صنع لهُ يدان يضغط بهما الفلاح . وهاتان اليدان تتغيران باستمرار على مدى التاريخ في شكلهما وارتفاعهما ومقدار ميلهما وطريقة وصلهما مع الناف . وقد يستغنى عن احداهما ويكتفى بواحدة . وتقدمت صناعة المحاريث منذ عهد المملكة الوسطى (٢١٠٠ — ١٧٠٠ ق . م) فصار السلاح ضخماً وثقيلاً . ولا يبعد انهُ كان يصنع وقتئذ من حجر

الظرّ او المعدن لكن لم نتأكد للآن من تاريخ العهد الذي ظهرت فيه صناعة المحاريث المعدنية بالقطر المصري كما اننا لم نتأكد من نوع المعدن وهل كان حديداً او برنزاً

وفي عهد الامبراطورية الحديثة (١٥٥٥ — ٧١٢ ق . م) ازداد اليدان طولاً ووصلتا بعدة قضبان خشبية وزاد ثقل المحراث فصار قادراً على الغور الى مسافة أبعد في جوف الارض بسهولة

اما النـاف فينتهي اماماً بقضيب خشبي مستعرض يثبت في قرون الثيران بوثاق . وقد اوردت للقارىء هنا صورتين لمحراثين صغيرين محفوظين بدار تحف القاهرة . وقد عمل انموذجان لهما عندما انشأت قسم الزراعة المصرية القديمة بمتحف فؤاد الاول الزراعي وهما يمثلان نوعي المحراث الخفيف الذي يتولى استعماله رجل واحد والثقيل الذي يتطلب استعماله رجلين . والانموذجان يمثلان بوضوح عملية الحرث التي لم يعترها تبديل ولا تغيير منذ اقدم العصور التاريخية المعروفة الى الآن

واوردت ايضاً رسماً لمحراث وجد منقوشاً على آثار بسقارة يرجع تاريخهُ الى عهد الامبراطورية الحديثة وهو يمثل النوع الثقيل الطويل اليدين الصلب التركيب وقد بلغ اليدان خاصرة الفلاح القائم بعملية الحرث . وهذا النقش عمل منهُ ايضاً انموذج واودع متحف فؤاد الاول الزراعي بالدقي بالجيزة

واورد الاستاذ بتري في كتابه عن ميدوم رسماً لمحراث خشبي خفيف من الاسرة الثالثة (٢٧٨٠ — ٢٧٢٠ ق.م.) لهُ يدان يضغط بهما الفلاح لارسال السلاح في جوف الارض والسلاح مثبت بقضيب خشبي كي لاينفصل وقت الحرث . واورد الاستاذ نيوبري في كتابه عن البرشة ج ١ لوحة ٣١ رسماً لمحراث من الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠—١٧٩٠ ق.م) لهُ يدان تكوّنان مع السلاح زاوية تقرب من ٩٠° . واليدان مثبتتان احداهما في الاخرى بوثاق مستعرض. اما السلاح فثبت بحبل مع اليدين وباقي المحراث بوثاق وينتهي بحدّ مدبّب يظهر من شكله انه معدني المادة . واورد الاستاذ روزليني في مذكراته ج ٢ لوحة ٣٢ رسماً لمحراث طويل السلاح مرتفع اليدين تنتهيان بتقوّس افقي بهيئة مقبضين . ويظهر عليه انه معدني السلاح وان يديه ونافه مثبتان فيه . واورد الاستاذان تيلور وجريفث في كتابهما عن بقرة بإحرى لوحة ٣ رسوم لمحراث من الاسرة الثانية عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق.م.) من مدينة الكاب نافهُ مثبت في سلاحه بقضيب خشبي . ولهُ يد واحدة طويلة تستعمل للتوجيه والضغط عند اللزوم

﴿ المنجل ﴾ ذكر المسيو ده مرجان في (Recherches I ص ١٣٢) انه يستحيل التمييز بين مناجل العصر الحجري ومناشيره . والمعروف ان المناشير في العهد الاول كانت تستعمل في قطع الاخشاب والعظام ثم استعملت بعد ذلك في الحصاد . وقد عثر الاستاذ بتري (راجع كتابه عن كاهون وجوروب والهوارة لوحة ٧ شكل ٢٧ ولوحة ٩) على منجل من عهد الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠—١٧٩٠ ق م.) لهُ حدّ مسنّن مصنوع من الظرّ ومركّب في دائر خشبي

ويستعمل المنجل في الخط الهيرغليفي كحرف مركب ، لكن كتّاب العصور الاولى لا تميز في

كتابة لم اجزاءه بوضوح ولا حتى المواد المصنوعة منها. اما نقوش ميدوم الملونة (الاسرة الثالثة ٢٧٨٠ — ٢٧٢٠ ق . م.) فتظهر بوضوح اجزاء المنجل . فيلاحظ ان اليد وبعض السلاح ملونان بلون اخضر . اما السلاح المصنوع من الظرّ فلوّن بلون ابيض ويُرى بارزاً من الجزء الخشبي له واستمرت هذه الآلة ترسم بهذه الصفة في الخط الهيروغليفي في عهد الاسرة الخامسة (مقبرة تي) والاسرة الثانية عشر (مقابر بني حسن) . اما النقوش التي يرجع تاريخها الى العهود الاخيرة فلم يوضّح بها بالدقة اجزاء هذه الآلة حتى تعذر معرفة اليد من السلاح بالتأكيد (الدنكايلر ج ٢ — ٩) ولا يمكن الحكم بالضبط على العهد الذي ظهر فيه المنجل المعدني بمصر . وثمة في دار تحف اللوفر منجل بحد حديدي . اما المنجل المعدني المحفوظ الآن بدار تحف (جيميه) بباريس فقد عثر عليه بالدير البحري وهو مكوّن من حد حديدي ويد مصنوعة من خشب الجميز (راجع كتاب الزراعة المصرية القديمة لهارتمان ص ٨٣)

وتتلخص طريقة استعمال المنجل فيما يلي : يقبض الفلاح على جملة من سيقان القمح ويقطعها اسفل السنابل بمنجل بيده اليسرى . وهذه الطريقة بقيت مرعية على مدى تاريخ مصر القديم

ورسم المنجل الوارد في الخط الهيروغليفي من عهد الاسرة الاولى (حوالي ٣٠٠٠ ق . م .) غير واضح الاجزاء (راجع كتاب المقابر الملكية للاسرة الاولى للاستاذ بتري جزء ١ لوحة ٢٥ شكل ٥٣ — ٦٠ وج ٢ لوحة ٢٠ و ٢٤)

وتختلف رسوم المناجل القديمة على مدى العصور في اجزائها المتباينة . فالسلاح يكون احياناً ماضياً وطوراً مسنناً . ومرة مستقيماً واخرى مقوّساً . ودرجة الزاوية التي بين السلاح ويد المنجل غير ثابتة الانفراج

﴿ المدراة ﴾ — في دار تحف القاهرة قطعتان خشبيتان يقبض على كل منهما بيد وتقربان احداهما من الاخرى فينتج من ذلك مسطح تقذف بواسطته الحبوب الى اعلى ثم تفصل اليدان فتسقط الحبوب الى الارض ويقذف الهواء القش والقاذورات بعيداً كما هي الحال الآن . وهذه القطع الخشبية عمل مثلها لمتحف فؤاد الاول الزراعي لما قمت بانشاء قسم الزراعة القديمة فيه وهي مصورة في الشكل المرفق بهذه المقالة . وهناك مدراة طويلة اليد مشعبة النهاية كالمستعملة الآن كانت تستعمل ايضاً من عهد المملكة القديمة كما هو واضح في لوحة من قبر بدار تحف القاهرة

﴿ البلطة ﴾ — اخذت البلطة تتحسن تدريجاً في الزمن السابق للعهد الحجري وفي العهد الحجري ايضاً حتى عهد الاسر الاولى حيث ذكر المسيو ده مرجان رسماً لبلطة على اسطوانات المرابة سلاحها الحجري منزل في يد خشبية [1] . وكان السلاح حينذاك مثبتاً في اليد بواسطة ثقب صغير اسفل السلاح [2] . وهذه الثقوب تشاهد كثيراً في بلط وادي النيل والقصد منها تثبيت السلاح

(1) De Morgan Recherches t II p 144 fig: (2) Même Oeuvre. t II p 75

في اليد . ولتلافي هذا التثبيت ومنعاً لكسر اليد استعان القوم على تثبيت هذين الجزئين بواسطة اوتقة جلدية . والبلط في البلطة الحاملة لاسم الملك تحوتمس الثالث ان سلاحها مصنوع من البرنز على الشكل المتبع في الاسرتين الاوليين وكانت تستعمل في اوقات العبادة على دوح هذا الملك العظيم فقط[1]

وفي زمن الاسرة الثالثة ظهر رسم البلطة في الخط الهيرغليفي بشكل يتبين منه ان السلاح كان يصنع من المعدن (النحاس او البرنز) كما يستدل عليه من اللون الاصفر او الرمادي الضارب الى الخضرة[2]

وفي عهد الاسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة بلغت صناعة البلط حد الكمال من حيث تثبيت السلاح في اليد . فالبلط التي عثر عليها بجهة رفح[3] تتكون من سلاح مستدير تقريباً وطرفاه (أو طرف واحد احياناً) ينتهي بخطاف وبين هاتين الطرفين تشاهد عدة ثقوب (اربعة أو خمسة) لوضع اوتاد خشبية فيها لتثبيت اليد

ومنذ الاسر الاولى حتى العهد الصاوي استعمل الحطّاب البلطة ذات الحد المستدير (يتاح حوتب ج ١ لوحة ٣ . البرشة ج ١ لوحة ١٣) واليد المستقيمة او المقوّسة يسيراً وذلك وقت قطع الاشجار في اثناء تهيئة الحقول للفلاحة

﴿ المدية ﴾ — ان اقدم المدى المصرية هي المصنوعة من حجر الظرّ . وقد اعتنى القوم بصناعة هذه الآلة كثيراً . فكانوا بعد ما يقطعون من الحجر القطعة المراد صنعها مدية يبدأون في نحت حد القاطع على عدة دفعات حتى يصير ماضياً جهد الطاقة (راجع كتاب نقادة والبلاص للاستاذين بتري وكويبل ١٨٩٦ لوحة ٧٦) . ثم كسا القوم الجزء الآخر من المدية بالمعادن كالنحاس وجعلوا منه يداً لهذا السلاح[4] . والخط الهيرغليفي في مبدئه يظهر المدية كاملة التركيب . فعلى شاهد قبر (جابيرسوكري) رسم لاشارة هيرغليفية تمثل مدية ذات يد خشبية او معدنية[5] . وفي مقبرة يتاح حوتب (ج ١ لوحة ١٢ رقم ٢٧٣) يشاهد رسم للمدية المصرية القديمة ذات اليد الخشبية . واخيراً عثر على مدية من هذا النوع (راجع كتاب الآلات والاسلحة لبتري ١٩١٧ لوحة ٢٤ رقم ٣٥ ، ٣٦) . لكن بالرغم من كل هذه التحسينات بقيت المدية الحجرية مستعملة على الدوام في الحفلات الدينية

﴿ ادوات اخرى ﴾ وهناك ادوات اخرى كان يستعملها الفلاح في معيشته كالامشاط التي كان يفصل بها خيوط الكتان والمطارق والمدراة البسيطة والمشبة والمكنسة المصنوعة من القش والغربال والعصي وغير ذلك . (وجميع هذه الادوات ذكرتها Jane Ellen Harrison في مجلة The Journal of Hellenic Studies ج ٢٤ سنة ١٩٠٤ ص ٢٤١ — ٢٥٤)

(1) Maspero. Hist. Ancienne t I p. 60 fig. — Birch Cat. of Collect. of Egyp. Antiq. at Alnwick Castle London 1880 pl. B No 1482

(2) Meman pl. 10, 13, 14. (3) Petrie Gizeh & Rifeh 1907 pl. 3 No 108-113

(4) Capart Les debuts de l'art en Egypte p 68 fig.

(5) Weil, Les orig. de l'Egypte pharaon. p 247

استدراك على معجم الحيوان

وبحث علمي طريف

بقلم الفريق امين باشا المعلوف

— ٤ —

لما نشرت معجم الحيوان سنة ١٩٠٨ وما بعدها ثم في طبعته الأخيرة سنة ١٩٣٢ كنت اكتب للخاصة الذين يعرفون شيئاً من هـذا العلم . ثم رأيت الآن ان اشرح اموراً ظننتها واضحة في أول الامر فاذا هي غامضة على بعضهم منها ما يلي فقد قلت في الصفحة ٩٣ ما يأتي :

فصيلة السعالي Pongiidae

قرود شبيهة بالانسان منها الغورلّى اي الغول والبعّام والسعلاة والشِق . انظر ص ١٩ و ٢١ و ١١٥ من هذا المعجم . انتهى

وقولي هذا المعجم يراد بهِ معجم الحيوان . أما سبب تسميتي لهذه الفصيلة باسمها العلمي هذا فمن الكتاب الآتي وقد ذكرته بين أسانيدي وهو من أحدث الكتب وأوسعها في المقدّمات وهي الرتبة العليا من رتب الحيوان والكتاب هو

Elliot, A. Daniel. A Review of the Primates, New York 1912

فقد جاء ذكر هذه الفصيلة بهذا الاسم في المجلد الثالث ص ١٨١ وفي الحاشية ما ترجمته :

« لما كان نموذج القرود المعروفة باسم سيميا هو قرد المغرب فان سيميدا لا يمكن ان يتخذ اسماً لفصيلة القرود العظيمة . ولما كانت كلمة بُنجو اقدم اسم جنسي اقترح لهذا الحيوان فانهُ ينبغي اتخاذه اسماً للفصيلة لذلك كانت كلمة بنجييدا الاسم الصواب » . انتهى والترجمة حرفية

ثم بحث الدكتور اليوت في ص ١٧٢ في قرد المغرب وناقش العلماء في صحة هذه التسمية مما لا حاجة الى الاسهاب فيهِ . ولا يخفى ان اسم الفصيلة Family مأخوذ من اسم الجنس النموذجي لذلك يقال فصيلة البشر من « هومو » اللاتينية اي الانسان في آخرها لاحقة من أصل يوناني فتصير هومينيدا وترجمتها ابناء الناس اي البشر وهذه اللاحقة معناها في الاصل ابن كما قال اليونان جفنيد وعباسيد اي ابن جفنة وابن العباس وعند المحدثين فيليبذس وقسطنطينيذس ابن فيليب

وابن قسطنطين وعند العرب في اسماء الحيوان ابن كقولهم ابن آوى وابن عرس والجمع بنات على ما هو مشهور . وهذا الاستعمال اصطلاح حديث جرى عليه العلماء وهو في الاصل قديم في اليونانية كما تقدم في قولهم ابن جفنة وابن العباس فيجب ان يكون الاصطلاح العربي كما هو عند العلماء اي يؤخذ الاسم الجنسي وتصاغ الفصيلة منهُ فيقال فصيلة البشر وفصيلة السراعيب وفصيلة الابل وفصيلة الايائل وفصيلة الدعاسيق من اسم الجنس وهو الانسان والبعير والايّل والدعسوقة على الطيء والنشر ومثل ذلك فصيلة السنانير وفصيلة الكلاب وهلمَّ جرًّا . اي ان الفصيلة ينبغي ان تكون باسم الجنس النموذجي او اقدم جنس وضعه علماء الحيوان فان أقدم جنس من هذه الفصيلة اي بنجبيدا هو الجنس المعروف باسم بنجو فيكون من الطبيعي ان تسمى هذه الفصيلة باسم بنجبيدا كما اثبت الدكتور اليوت . ثم ان بعض العلماء منهم ليناوس سموا هذا القرد باسم سيميا ومعناه القرد وسموا هذا القرد عينه سيميا ساتيرس اي القرد ساتيرس ومعنى ساتيرس كما بينت في معجم الحيوان ص ١٥ وما بعدها السعير او السعلاة وكان الهاً عبده اسلافنا فتصلت السعلاة أي جريت على تسمية العلماء ومن شاء زيادة ايضاح في ذلك فليراجع ما كتبه بلنيرس وما جاء في اساطير اليونان عن ساتيرس وما كتبه علماء التوراة في كلمة ساتيرس لانهُ كان الهاً عبده الساميون . فلو كان اسم هذا القرد عفريتاً لكانت القاعدة ان تسمى الفصيلة فصيلة العفاريت ولو كان ملاكاً فصيلة الملائكة اي ان الفصيلة يجب ان تسمى باسم هذا القرد عينه لا باسم قرد آخر

***

هذا وقد ثبت اخيراً ان علماء الحيوان قد اخذوا برأي الدكتور اليوت اي بعد مضي عشرين سنة او اقل من ذلك فقد اطلعت على كتاب في اللبونات جمعه الميجر فلور لجمعية الحيوان البريطانية وهو عضو فيها والكتاب آخر كتاب تعتمد عليه الجمعية في اسماء الحيوان وهو مطبوع سنة ١٩٣٠ اي انهُ احدث من كل كتاب آخر في تصنيف الحيوان والأسماء المعتمدة في بريطانية واميركة وقد جاء فيه ذكر هذه الفصيلة بهذا الاسم العلمي اي بنجبيدا ونبذ الاسم القديم اي سيميدا مع الاشارة اليه بين قوسين في قوله ان بنجبيدا هو سيميدا عند بعض المؤلفين اي ان جمعية الحيوان البريطانية اتبعت في ذلك تسمية الدكتور اليوت الاميركي فالعلماء لا يبالون بصغار الامور كما يفعل بعض المشارقة في ايامنا فلا يقول الواحد منهم مثلاً هذه كلمة وضعها كوفي او بصري او عربي او فارسي او عراقي او سوري او مصري وينبغي ان ارفضها او اغير فيها بعض التغيير او التحذلق فيها بعض الحذلقة لان واضعها ليس من قومي بل يقولون كما قال النبي الكريم اطلبوا العلم ولو بالصين الى آخر الحديث . فالميجر فلور الانكليزي وعلى شدة تعصب الانكليز لقومهم قبل التسمية التي وضعها الدكتور اليوت الاميركي اللعين وقبلتها جمعيته البريطانية الانكليزية لانها صواب

ومما يسرني ان صديقي الاستاذ اسمعيل مظهر جرى على مذهب كبار العلماء فنبذ كلمة قسم لانها خطأ وكان يقولها قبلاً وقبل كلمة قبيلة وكان قبلاً يقول القبيل لان القبيلة اصلح او لعلهُ اصابه ما اصابني فجمع القبيل على قُبُل فانصرف ذهنه الى المفرد ونقيضه كما انصرف ذهن صفي الدين الحلي فنظم فيه شعراً اي صفي الدين يعده ارباب الفن من جيد الشعر . واملي كبير ان الصديق المحقق يقبل اصطلاحات اخرى متى وجدها صواباً فيكون عمله هذا قدوة نحتذيها

***

انتهت المداعبة الى اجل . قلت وقد اخطأت في الشقوق وجعلتها في معجم الحيوان من فصيلة السعالي وكان يجب اخراجها وجعلها فصيلة على حدة كما فعل الميجر فلور في كتاب اللبونات المشار اليه والميجر فلور كما لا يخفى كان مديراً لحدائق الحيوان في مصر وهو مراليدي مشهور كذلك ابوه قبله . اما الفصيلة التي وضع فيها الشقوق فهي الفصيلة الآتية

فصيلة الطافرات في الشجر وهي الشقوق او الجبابين Hylobatidae. The Gibbons.

والواحد جبّون

الطافرات في الشجر فصيلة من مرتبة اي ردف رتبة البشريات وهي اي الفصيلة تشمل الشقوق على أنواعها والكلمة يونانية الاصل في صيغة لاتينية ومعناها الماشيات في الشجر وربما كان قولنا الطافرات في الشجر اصلح منها لانها اكثر ما ترى في الشجر تطفر فيه من غصن الى آخر . اما قولي الشق بمعنى الجبّون فقد ذكرته في معجم الحيوان ص ١٥ وذكرت السبب الذي دفعني الى تسميته بهذا الاسم . وقد قلت البشريات ترجمة لكلمة انثروبويديا كما قال الاستاذ اسمعيل مظهر لا كما كنت اقول قبلاً لان البشريات اصلح

وايضاحاً لما تقدم أقول :

رتبة المقدّمات Primates

هي رتبة من طائفة اللبونات تشمل مرتبتين البشريات والشبحيات

مرتبة او ردف رتبة البشريات وهي تشمل البشر وجميع القرود Anthropoidea

مرتبة او ردف رتبة الشبحيات وهي تشمل الهوابر على أنواعها Lemuroidea .

اما أشباه البشر ففصيلتان وقد تقدم ذكرها فهاتان الفصيلتان يقال لها الاشباه او اشباه البشر فلو خصصنا الفصيلة الواحدة بالاشباه فماذا نسمي الفصيلة الثانية . هذه هي المسألة الدقيقة لذلك أرى ان خير الامور هو اتباع العلماء في تصنيف الحيوان لاننا اذا تصرفنا في التصنيف فان المسألة تصير فوضى او نزيدها عرقلة

العنصر الثالث والتسعون

كشف طبيعي خطير

تختلف العناصر في وزنها الذري (Atomic weight) من الايدروجين (وزنه الذري واحد) الى الاورانيوم (وزنهُ الذري ٢٣٨) وتختلف كذلك في خواصها الطبيعية والكيمائية . فبعضها غازي كالاكسجين والايدروجين والنتروجين والكلور وبعضها سائل في الاحوال العادية كالزئبق والبروم ، والباقي جامد كالذهب والفضة والكربون والفصفور . بعض المعادن صلب قاس كالبلاتين والاريديوم وبعضها لين كالصوديوم والبوتاسيوم . الليثيوم معدن خفيف يطفو على سطح الماء مع ان الاسميوم معدن يفوق وزنه النوعي specific gravity وزن الماء النوعي اثنين وعشرين ضعفاً ونصف ضعف . ثم ان هذه العناصر تختلف لوناً . فالنحاس احمر والذهب اصفر واليود رمادي قاتم والفصفور ابيض . وبعض الفلزات كالنيكل يصقل حتى يخطف البصر بلمعانه ، وبعضها يمكن صقله ولكنه يظل مكمداً فلا يلمع . الذهب لا يكمدُ عند تعريضه للهواء وأما الحديد فيصدأ وأما اليود فيتصعد . وبعض هذه العناصر يتحد بذرة واحدة من الاكسجين وبعضها بذرتين وبعضها بثلاث ذرات . ومنها طائفة قليلة كالبوتاسيوم والفلور شديدة الفعل يصعب تناولها بالانامل ومنها عناصر لا يطرأ عليها تغيير ما طال الزمن . تباينٌ في الصفات والخواص يحيّر اللب ! ولكن العناصر مع ذلك لا تخرج عن كونها اثنين وتسعين عنصراً ، من الايدروجين ورقمه الذري atomic number واحد الى الاورانيوم ورقمه الذري اثنان وتسعون

فما هو السرُّ في ترتيب العناصر ترتيباً عددياً صاعداً من ١ الى ٩٢ يتفق وتدرجها في الوزن ؟ ظل هذا السؤال من دون جواب ، حتى قام موزلي قبيل الحرب بمباحثه الخالدة ، فبيّن الصلة بين هذه الارقام الذرية وعدد الكهارب في كل ذرة من الذرات او بالحري بعدد الكهارب حول كل نواة منها

فقد كانت الذرة في نظر علماء عصره ، مبنية من نواة حولها كهارب . وكانت النواة في رأيهم مبنية من كهارب وبروتونات ، ولكن عدد البروتونات فيها يفوق عدد الكهارب اي ان عدد الشحنات الموجبة في النواة يفوق عدد الشحنات السالبة . واذن فلا بدّ ان يكون حول النواة عدد من الكهارب يقابل عدد البروتونات الفائض في النواة

وعلى ذلك كانت ذرة الايدروجين — وهو أبسط العناصر وأخفُّها — مبنية من نواة فيها بروتون واحد وحولها كهرب واحد . والهليوم يلي الايدروجين . ورقم الهليوم الذري ٢ فما الصلة بين هذا الرقم وبناء ذرته . ان النواة في ذرة الهليوم مبنية من اربعة بروتونات وكهربين . اي ان الشحنات الموجبة فيها تزيد شحنتين على الشحنات السالبة . واذن فالذرة تحتاج الى كهربين حول النواة لتعديل فعل البروتونين . واذن فرقم الهليوم الذري يتفق وعدد الكهارب التي حول النواة . اما الاورانيوم فهو أثقل العناصر وعددهُ بينها ٩٢ ورقمهُ الذري ٩٢ كذلك . فهل ثمة صلة بين رقمهِ الذرّي وعدد

الكهارب حول نواتهِ كالصلة بين رقم الهليوم الذري والكهربين اللذين حول نواتهِ ؟ ان نواة ذرة الاورانيوم مبنية من ٢٣٨ بروتوناً و ١٤٦ كهرباً فعدد البروتونات الذي يفيض على عدد الكهارب في نواة الاورانيوم ٩٢ بروتوناً فهي تحتاج الى ٩٢ كهرباً لتعديلها واذن فرقم الاورانيوم الذرّي متفق وعدد الكهارب حول نواتهِ . وقد تغيّر الآن النظر في بناء النواة ، ولكن ذلك لم يغيّر الصلة بين الرقم الذرّي وعدد الالكترونات التي حول النواة في كل ذرّة من كل عنصر

هذا البناء يملل فعل الاشعاع . ان ذرات العناصر الثقيلة غير مستقرّة البناء فتنحلّ الى ذرات عناصر أخف منها وفي خلال انحلالها تطلق نواها بعض الدقائق . فالاورانيوم يتحوّل مثلاً الى راديوم. والراديوم يتحوّل الى رصاص فتنطلق منهُ في خلال هذا التحول دقائق الفا (وهي نوى عنصر الهليوم) ودقائق بيتا (وهي كهارب) واشعة غما (وهي من قبيل الاشعة السينية) ولكنها أشدّ اختراقاً منها للمواد

أفلا يوجد عنصر أثقل من الاورانيوم ؟ أي ألا يمكن ان يكون عدد العناصر اكبر من ٩٢ عنصراً ؟ كان الرأي انهُ لا يمكن ان يوجد عنصر أثقل من الاورانيوم لانهُ اذا وجد انحلّ لساعتهِ ، إذ لا بدّ ان تكون ذرتهُ أقلّ استقراراً في بنائها من ذرة الاورانيوم . ولكن المباحث النظرية التي قام بها جينز وادنغتن وغيرهما حملتهم على القول بأنهُ اذا لم تكن الاحوال على الأرض مواتية لوجود عنصر أثقل من الاورانيوم فالراجح ان في قلب النجوم عناصر مشعة لا يقابل بها الاورانيوم والراديوم وقد ذهب ادنغتن الى ان عدد العناصر هو ١٣٦ عنصراً على الاكثر

وفي اوائل هذه السنة كشف الاستاذ جوليو الفرنسي وقرينتهُ (وهي ابنة مدام كوري) ان في الامكان احداث اشعاع وقتي في بعض العناصر غير المشعة باطلاق هليومات (اي نوى ذرات الهليوم) عليها فأطلقا هذه الهليومات على عناصر البور والمغنيسيوم والالومنيوم فنشأ منها اشكال مشعة — ولكن اشعاعها وقتيٌّ — من عناصر النتروجين والسلكون والفصفور . وما لبثت مباحث جوليو وقرينتهِ حتى تأيدت نتائجها بنتائج التجارب التي أجريت في جامعتي كمبردج وكاليفورنيا . ولكن الباحثين في انكلترا استعملوا البروتونات بدلاً من الهليومات وفي كاليفورنيا استعملوا الدوتونات (نوى الايدروجين الثقيل) وكان الغالب في تجارب هؤلاء العلماء ان اطلقوا مقذوفاتهم على بعض العناصر الخفيفة . ولكن فرمي — وهو عالم ايطالي شاب في الثانية والثلاثين من عمره — اطلق النوترونات على العناصر الثقيلة ومنها الاورانيوم أثقل العناصر على الاطلاق ، فتكوّن لديهِ عنصر اثقل من الاورانيوم دعاه بعضهم « سوبر اورانيوم » — اي فوق الاورانيوم — واطلق عليهِ غيرهم « العنصر الثالث والتسعين » والظاهر ان النوترون الذي يطلق على الاورانيوم ينقسم الى قسمين عند اصطدامهِ بالذرة فيندمج البروتون بنواة الذرّة فيزداد وزنها الى ٩٣ وينطلق كهربهُ ولكن هذا العنصر غير مستقر كما يتوقّع فلا يكاد يتكوّن حتى ينحلّ

اخونا سليم

لما توفي شاهين بك مكاريوس سنة ١٩١٠ نعاه الدكتور صرّوف — رحمة الله عليهما — في المقطم بعنوان «اخونا شاهين» فقال: — «اصبحنا نحن الثلثة اصحاب هذه الجريدة اشبه الناس في اعتبار الجمهور بالشخص الواحد، منا بثلاثة اشخاص. فكم من كتاب يأتينا كلّ يومٍ معنوناً باسم «الدكتور صرّوف نمر» او باسم «نمر مكاريوس» كأنْ لا فرق في اعتبار الكاتب بين يعقوب صرّوف، وفارس نمر، وشاهين مكاريوس. وكثيرون من الذين يفرقون بيننا ويعلمون اننا ثلثة لا واحد، يحسبوننا ثلثة اخوة ابناء اب واحد وام واحدة ويظهرون من العجب والدهشة ما لا يوصف، كلما علموا اننا ثلثة رفقاء لا قرابة بينهم ولا نسب . . . »

تآخى الآباء وتآزروا، فلا عجب في ان يمتدّ اثر تآخيهم وتآزرهم الى الابناء ومن يلي الابناء من الاهلين، مع ان الاسر الثلاث ما تزال حتى الساعة لا يربط بينها رابطة نسب. وكذلك نرى اليوم وقد قضى الموت علينا بنعيّ سليم مكاريوس الى قرّاء المقتطف، ان ادل كلام على مكانته في نفوسنا، وحسرتنا على فقده، هو قولنا: «اخونا سليم»

***

نشأ سليم مكاريوس في بيت علم وفضل واجتهاد فطمح من صباه الى التشبه بأساطين العلم وكان له من ذكائه النادر ونشاطه العجيب ما بعث فيه الرغبة وأحيا فيه الامل فطلب العلم في مدارس بيروت ومصر ونبغ بين اقرانه فكان أنجب طلبة جامعة بيروت الاميركية الى العام الذي أتمّ فيه دروسه فيها. وعلق الفلسفة وأحب بحوثها حباً جمّاً وأحاط بمذاهبها ولا سيما الحديث منها وآثر من هذه فلسفة هربرت سبنسر الفيلسوف الانكليزي فكان يعرف اصولها وفروعها معرفة تامة فلما زار صاحبها في داره في مدينة بريطن بانكلترا وحادثه ولم يكن قد جاوز الحادية والعشرين دهش الفيلسوف لسعة علمه وصحة مداركه وامتلاكه لناصية الانكليزية وأُعجب بهذا الشاب الشرقي الأسمر اللون فلما فارقه الفقيد ليذهب الى لندن وباريس اعطاه كتباً من كتب التعريف والتوصية الى جماعة من خيرة اعضاء نادي الاثينيوم وهو ندوة العلماء والكتّاب بلندن فتوصل من هناك الى معرفة طائفة من كبار رجال العلم والصحافة كالبرنس كروبتكين والمستر سدني وب (اللورد باسفلد الآن) وقرينته والسر راي لنكستر والطبيب السر لودر برنتن والسر ميخائيل فوستر الفسيولوجي وشارل جيد العالم الاقتصادي الفرنسي وغيرهم

ودرس الحقوق في مدرسة الحقوق الفرنسية واجتاز امتحاناتها السنوية في فرنسا بنجاح عظيم

فلما اراد اجتياز امتحان المعادلة كان بين ممتحنيه المرحوم رشدي باشا فطرح عليهِ سؤالاً عاديًّا فأجابه الفقيد عليه وقال لرشدي باشا لماذا لا تتفضل بأسئلة أصعب من هذا السؤال السهل فدهش رشدي باشا وابتدره بأسئلة عويصة فكانت اجوبته عليها في منتهى الاحكام ومن ذلك الحين اتخذه صديقاً وقدمه الى المرحومة قرينته الاولى . ولقي مثل هذه العناية من السر ملكُم مكلرايث المستشار القضائي في ذلك الحين ففتح له أبواب مكتبته يطالع فيها ما يشاء ويأخذ منها ما يشاء

وبعد ما اشتغل بالمحاماة مدة رغب عنها الى الصحافة وقد نشأ في وسط صحافي فانضم الى قلم تحرير المقطم ثم عين مكاتباً في مصر لجريدة الديلي مايل فظل يكاتبها نحو عشرين سنة ودعته ادارتها الى ان ينتظم في هيئة تحريرها بلندن فلبى الدعوة ، وقدر لورد نورثكلف صاحب الديلي مايل كفاءته واخلاقه فأنزله منزلة رفيعة من الاعتبار وبلغ من دالة الفقيد عليهِ انهُ كان يستعمل مكتب اللورد الخاص كأنهُ مكتبهُ بل فعل ما لم يتفق مثله في ادارة جريدة كبيرة فانهُ كتب مرة مقالة عن « كسوف الشمس » وبعد ما دارت آلات الطباعة مدة خطر له ان يبدل عبارة في المقالة وينقل توقيعه من اسفل المقالة الى اعلاها فنزل الى مكان المطابع وأمر بوقف الطبع وبدل العبارة واقتضى ذلك تبديل الصفحات التي هي فيها ونشأ عن العمل ان تأخر توزيع الجريدة في شمال انكلترا . ونمي الخبر الى اللورد نورثكليف فأرسل اوامر مشددة بمعاقبة من يعد مسؤولاً عن الحادث حتى ابلغه رئيس التحرير ان الآلات وقفت « بأمر مكاريوس » فعدل عن العقوبات ولكنهُ افهم الفقيد ان ما صنعه محظور لم يسبق له مثيل ولا يجوز ان يعاد . ولم يستقلْ من مكاتبة الديلي ميل الاَّ في مطلع الثورة المصرية لانهُ اختلف وهيئة تحريرها في الرأي

وعرف هناك اللورد روذرمير شقيق نورثكليف ثم اللورد بيفربروك صاحب الديلي اكسبرس وكانا يزورانه في منزله عند زيارتهما لمصر ويرحبان به في لندن ويعدانه من اصدقائهما

***

ولما كان في لندن حينئذٍ زارها الوفد البرلماني العثماني برئاسة طلعت باشا الصدر الاعظم الاسبق وكان حينئذٍ رئيساً لمجلس المبعوثان فطاف بهم الفقيد على ادارات الصحف وانشأ لهم اتصالاً بهيئات سياسية وعلمية وادبية واقتصادية واعجب طلعت باشا بمقدرته ونفوذه فعرض عليه ان يتقلد منصب مستشار السفارة العثمانية في لندن فاعتذر الفقيد عن القبول بحجة انهُ يؤثر العمل الصحافي على سواه. ثم زار استانبول بعد ذلك وكان طلعت باشا قد قلد وزارة الداخلية فاحسن استقباله وكان يأخذه معه الى الباب العالي وقد اشتبك ذراعاهما واعاد طلعت باشا في استانبول ما عرضه عليهِ في لندن فأبى قبوله معتذراً وشاكراً. ومن الزعماء الذين توطدت صلة الصداقة بينهُ وبينهم المستر مكدونلد عرفهُ في مطلع حياته السياسية ولقيهُ لما زار مصر سنة ١٩٢١ وشرب الشاي عنده ولما زار الفقيد لندن في صيف ١٩٢٩ دعاه المستر مكدونلد الى زيارتهِ في داره في ١٠ دوننج ستريت ! البقية في باب الاخبار العلمية ا

احدث معجزات الصوت

الاصوات الحادة النبرات تحلل السوائل وتقتل البكتيريا وتسلق البيض سلقاً خفيفاً وتهدم المباني الضخمة وتشل الافاعي بالانغام المنتظمة

نقلاً عن مجلة العلم العام الاميركية : ترجمها عوض جندي

جاء من امريكا انهُ قد تمَّ اطلاق مدفع ضخم من المدافع الحربية الساحلية ٧١ طلقة في ميدان من ميادين التجارب الحربية ، طوله اربعة اميال ، حيث نُصبت عدة ميكروفونات على ابعاد يسيرة بعضها عن بعض . وكان ذلك الميدان مجهزاً عند القيام بالتجربة ، بفلم متحرك ، يطبع عليه بطريقة اوتوماتيكية ، عند كل طلقة، خط متمعج يبيّن سرعة موجة صوت المدفع في الثانية الواحدة . وكانت الميكروفونات متصلة باجهزة مركزية دقيقة جداً تقدّر الزمن تقديراً صادقاً . وقد قسّمت فيها الثانية الواحدة الى ١٠٠٠ جزء . فاسفرت التجربة عن تمكن الدكتور ديتون ملر ، الاستاذ بمدرسة العلوم التطبيقية في كليفلند بولاية اوهيو ، من جمع المعلومات التي تذرّع بها الى تحديد سرعة الصوت في الثانية الواحدة تحديداً صحيحاً . وبعد ما حسب حساباً لعوامل الحرارة والرطوبة والضغط الجوي واتجاهات الارياح وسرعتها استدلَّ على ان سرعة الصوت المضبوطة في الهواء ١٠٨٧٫١٣ من القدم في الثانية وكانت قبل تختلف من ١٠٨٥ قدماً الى ١٠٨٩ قدماً في حساب العلماء

ويتوقع العليمون ان هذا المقياس الصحيح لسرعة الصوت سوف يفيد فوائد جليلة في كثير من ميادين العلم . ذلك لانهم اصبحوا يستخدمون الصوت خدمات شتى تبعث على الدهشة . فترى ربابنة السفن مثلاً يتلمسون طرق مراكبهم ، عند انتشار الضباب الكثيف ، بوساطة جهاز يسجل الاصداء الخافتة التي ترتد من اجسام في طريقهم ، يحجبها الضباب عن انظارهم وكذلك يتسنى للخبراء الحربيين معرفة مواقع الطيارات الخفية المحلقة في اجواء بلادهم ، وتعيين مواقع مدافع الاعداء القاصية بوساطة جهاز دقيق يسمى (محلل الصوت)

ثم ان الاجهزة المستعملة لسَبْر اعماق البحار تمكن السفن المستخدَمة لعملية المساحة البحرية من رسم خرائط الجبال والاودية الغائرة في اليم على عمق الوف من الاقدام . ويتضح من تجارب جريت في كاليفورنيا من عهد قريب ان امواج الصوت الوثابة قد ترشد الطيارين الذين يضلون طرقهم الى مبلغ ارتفاعهم الصحيح عن سطح الارض . وتقوم امواج الصوت في معامل الكيمياء بسلق البيض وكيّ الاصابع وتطهير اللبن مما يشوبهُ من الجراثيم وبتغيير المواد الكيميائية وغيرها من الغرائب

وقد عرض منذ عهد قريب الدكتور بيرس استاذ الطبيعة (كرسي رمفورد) في جامعة هرفرد

جهازاً يجعل « الاصوات الصامتة » مسموعة كأنها قصف الرعد . وهو جهاز حساس جدًّا يفخم صوت اشتعال ثقاب تفخيماً شديداً جدًّا فيصيره كأنهُ قعقعة عجلة في مركبة ثقيلة ، ويصير خشخشة قصاصة الورق كأنها دويّ مدفع رشاش ، ويجعل انفاس طائفة من الناس الصامتين تدوي كتطايع من الافيال الجفلة ، حتى خشخشة النسيج في ثوب قشيب ، يتاح تفخيمها فتسمع في اطراف الحجرة التي يجتازها اللابس . ويتسنى التذرع بكشاف من هذا النوع الى التقاط الاشارات الواردة على الملتقط من عمق عشرة اميال في الماء ، لان سرعة اختراق الصوت للماء تفوق سرعة اختراقه للهواء اربعة اضعاف . ويمكن استخدام هذا الجهاز ايضاً في اثناء الحرب لارسال الاشارات لانهُ يلتقط الامواج الصوتية الدقيقة جدًّا ولاسيما السريعة التذبذب التي لا تستطيع الآذان البشرية سماعها

اما خبراء مختبر « بل » التليفوني ، فقد عرضوا على مؤتمر المعهد الامريكي للمهندسين الكهربائيين ظواهر صوتية مدهشة » فركبوا طائفة من الميكروفونات ومفضيات الاصوات اللاسلكية ولكل منها دائرة كهربائية خاصة فاستطاعوا ان يولدوا موسيقى ذات « ثلاثة أبعاد » واذاعوا الاصوات المطبوعة على اسلوب المتكلم من بطنه . ذلك ان النظارة وهم جلوس في الغرفة سمعوا ازيز طيارة محلقة فوق رؤوسهم فأشرأبوا اليها وشاهدوا دهقين مبرقاً يتمشى على مسرح بينما كانت الحان بوقه تنبعث من الموضع الذي كان واقفاً فيه ، ثم رأوا راقصاً يرقص متجهاً الى جهة واحدة ووقع اقدامه يسمع في الجهة الاخرى

وعرض من بضع سنين في انكلترا طائفة من الجرذان المغنية فتحمس لرؤيتها فريق من الشاهدين واعتقد الفريق الآخر أنها تدجيل فلم يكترثوا لها . وأسفر البحث عن كون الفريق الذي اعتقد أن الامر خداع ، ان افراده لم يستطيعوا سماع الاصوات الحادة التي كانت تصدر من الجرذان وهي تشدو بعضها مع بعض . والواقع ان آذاننا تختلف بعضها عن بعض اختلافاً عظيماً في قدرتها على التقاط الالحان ، وان أخفت صوت نسمعه مؤلف من زهاء ٤٠ موجة في الثانية . وان أعلى صوت نسمعه مؤلف من ٤٠٠٠٠ موجة . وان طبقة الصوت تتوقف على عدد موجاته ، وارتفاعه يتوقف على اطوال موجاته . واما سبب سماعنا طنين النحلة الطنانة حينما تحرك أجنحتها ، وكوننا لا نسمع شيئاً عند ما يحرك امرؤ ذراعيه ، فلأن الانسان لا يستطيع تحريك ذراعيه بمثل السرعة التي تحرك بها النحلة اجنحتها فتتولد موجات في كل ثانية تحدث صوتاً مسموعاً

وقد أعلن السير « فرنسيس غالتون » العالم البيولوجي البريطاني المشهور (١٨٢٢ — ١٩١١) أن السنانير أحدُّ الحيوانات سمعاً لأخفت الاصوات ، وعزا ذلك الى أجيالها التي عركها الدهر في صيد الفئران في الدجى فأضطرتها الحياة الى ارهاف وسائل السمع . ومن ادوات التجارب التي اشتهر بها عصا كانت تعرف باسم « صفارة غالتون » وهي عصا ذات مقبض تُثَبَّتُ فيه مجرة من المطاط المرن تُركَّبُ في رأسها صفارة صغيرة . وجعل غالتون يطوف كل يوم في حديقة الحيوانات في لندن متوكئاً على تلك العصا وكان يقف هنيهة عند حظيرة كل طائفة من الحيوانات ثم يدني العصا من

الحيوانات ضاغطاً مقبضها ، مراقباً كل حيوان يرهف اذنيه لسماع اللحن الحاد النبرات . وكان فالترز اذا لقي كلباً في طريقه ، صفر خلفه بصفارة ، فكانت الكلاب الصغيرة تلتفت اليه ، واما الكبيرة فلم تحفل بالصفارة لعجزها عن سماعها

وفي احد المختبرات العلمية في كليفورنيا تذرّع العلماء بمصابيح غاز النيون الكشافة ، الى استنباط حقائق اخرى خاصة بتغريد الطيور البرية ، فيرى المرء هاتيك المصابيح الكهربائية « تصور بالنور » اغاريد تلك الطيور وما فيها من الامواج الصوتية . والجهاز المستعمل لتلك الغاية من صنع الدكتور ملتن ميتفسل رئيس دائرة السيكولوجيا في جامعة كليفورنيا . وبيان ذلك انهُ يمكن احداث تقلبات في شدة استضاءة غاز النيون بواسطة صدح الطيور المحبوسة في الاقفاص فتنطبع تلك التقلبات على قرص دوّار (كاسطوانة الجرامفون) بوساطة مجرى من النقط تمثل صورة الاغرودة ، فاستدل من تلك المباحث على مبلغ تفوق الطيور على الانسان في مدى الالحان

وجاء من جامعة جونز هوبكنز نبأ استنباط بديع خاص بالاصوات المرتفعة الطبقات اذ تحقق الدكتور هبرد Hubbard انهُ يستطيع تحليل السوائل المجهولة التركيب في معمل التحليل الكيميائي بامرار امواج صوتية سريعة التذبذب لان لكل مادة من المواد المعروفة ميزة في توصيل الامواج بسرعة خاصة تختلف عن سرعة غيرها كل الاختلاف . فاذا مرّت الامواج في محلول ما بسرعة معينة ، استطاع المحلل الكيميائي معرفة كنه ذلك السائل والوقوف على عناصر تركيبه وتحديد مقدار كل عنصر منها ، وادرك أنقي هو أم مزيج

وتجلت للباحثين حقيقة اخرى وهي استخدام امواج الصوت في تحليل اللبن اذ اعلن كل من الدكتور لزلي تشمبرز والاستاذ نيوتن جاينز من اساتذة جامعة تكساس المسيحية ، انه اذا صُبَّ الحليب في قمع مثبت فيه انبوب من النيكل يخترقهُ عند مرور الحليب فيه صوت حاد ، قتلت امواج ذلك الصوت ما قد يوجد فيه من البكتريا وذلك بنسبة تتراوح بين ٨٠ في المائة ربما في المائة حتى بعض الميكروبات التي لا تؤثر فيها البسترة (تطهير اللبن بطريقة باستير) تقتلها تلك الامواج

واعلن الدكتوران تشمبرز وفلوسدورف من اساتيذ جامعة بنسلفانيا انهما استطاعا تضهيب(١) بيضة دون رفع درجة حرارتها . لأن الصوت الحاد يولد تأثيرات كيميائية « تفاعلات » تجمد بروتين البيضة . ثم انهما تذرعا ببوق من ابواق الغواصات ، ذوات الامواج الصوتية الثاقبة التي تستعمل لتبادل الاشارات في اغوار البحر ، فتيسر لهما توليد غاز الاسيتلين من الزيوت النباتية واستخراج سكر العنب من سكر القصب وتحويل خلات الاتيل الى حامض خليك ، بتوجيه صوت ذلك البوق اليها . وتفسير ذلك اللغز العلمي ان الامواج الصوتية تعجل بطريقة خفية ، سير الجزيئات في المواد التي تعالج بتلك الوسيلة ، فتحدث فيها تفاعلات كيميائية ذاتية

(١) ضهب البيضة — سلقها سلقاً خفيفاً من ضهب الشيء تضهيباً شواه على حجارة محماة وشواء ولم يبالغ في نضجه — الفيروزبادي

وطالما اعلن العلماء ان امواج الصوت تدك الابنية المتينة وهذا حقيقي ، ولكنه عسير جداً. لانك اذا توخيت ذلك وجب عليك تسخير ٣٠ مليوناً من المبوّقين لينفخوا في الصور بأقصى جهدهم لكي يولدوا ما يعادل قوة حصان بخاري واحد من الصوت . وعلى هـذا الاساس يرى احد العلماء الامريكيين انه يتاح صدع صرح الامبيرستيت [1] ثم هدمه، متى استطعت توليد اللحن الصائب لذلك ، وواظبت عليه زمناً طويلاً موفور الضخامة . وهـذا هو التعليل الذي يعلل به العلماء دائماً حادث سقوط اسوار أريحا من تبويق رجال جدعون

ومن هذا القبيل ما حدث في مصنع من مصانع احدى الاقاليم الشرقية بالولايات المتحدة من عهد قريب . وذلك انه كان في المصنع مروحة كبيرة تمتص الهواء من داخله ثم تدفعه في مدخنة من الآجرّ لتجديده . وكانت المدخنة بمثابة جزء متمم للجهاز المتحكم في هواء المصنع . فاذا اديرت المروحة دوراناً سريعاً ، أثرت في المدخنة تأثيراً شديداً يعرضها للتداعي فالانهيار . تخيل الى المهندسين ان العيب في المحرك الكهربائي ، فوضعوه فوق قاعدة صلبة من البرقاء [2] فلم تنقطع الذبذبة بل ظلت على حالها . وحينئذ ضاق ارباب المصنع ذرعاً بالمدخنة فاستعانوا على تثبيتها بخبير من خبراء الصوت فجاء وفحص الجهاز ، فتبين له ان المروحة متى دارت ، دفعت كل ريشة من ريشها موجة من الهواء في المدخنة . فاذا دارت المروحة بأقصى سرعتها اصبحت تلك الامواج الهوائية بمثابة امواج صوتية تخفق خفقاناً مطرداً فتشتد ذبذبة المدخنة اكثر فأكثر حتى تكاد تتقاض . ثم استصوب معالجتها بتخفيف سرعة المروحة قليلاً فضؤل الخفقان وزال الخطر

ووقع في مدينة ديترويت حادث صناعي كان يلابسه لغز من الالغاز العلمية حلّه علم الصوت ، وذلك ان مصنعاً من مصانع السيارات ، عرض ذات يوم نموذجاً جديداً من مركباته ، فكانت تلك المركبة اذا سارت بسرعة معينة ، ولدت صوتاً اشبه بطنين شنيع . فظنهُ مهندسو المصنع ناشئاً من نوعها ، فقاموا بفحصها فلم يعثروا على اي عيب صناعي فيها واتفق ان كان احدهم من هواة علم الصوت ، فأدرك ان لذلك الطنين نبرة معينة تعادل ١٨٠ موجة في الثانية . وشاهد ايضاً ان السرعة التي تولد الطنين تجعل العجلتين الخلفيتين تدوران دورتين فقط في الثانية . فأحصى العقد المانعة الانزلاق فاذا هي تسعون عقدة في كل طوق من اطواق العجلات (المصنوعة من الصمغ المرن) فاذا دارت العجلة دورتين في الثانية ولّدت ١٨٠ هزة وهي التي يؤلف منها الطنين فاستبدلوا الاطواق بصنف آخر، فانقطع ذلك الصوت الشنيع

واسفر استخدام الصدى عن استنباط مقياس جديد لقياس ارتفاع الطيارات في الجو بوساطة

---

(١) اعلى مباني العالم (٢) الابرق والبرقاء — الخرسانة — غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة — الفيروزابادي — وقد أقرني على استعمال هذا اللفظ الدكتور معلوف باشا وقال انه مستعمل في العراق . انظر مقالنا (الطبيعة رائد المخترعين) في مقتطف فبراير الماضي

الصوت فيمكن الطيار معرفة مبلغ علوه عن الارض ، وهو مثل المقياس الصوتي الذي يدل الملاحين على بعدهم عن قعر اليم . ومخترع هذا الجهاز هو الدكتور (ليود لساسو) احد علماء جامعة كليفورنيا . وقد جرّبه من عهد قريب بقرب لوس انجليس حيث حلّق في بلون من بلونات الاستكشاف حتى بلغ ارتفاعه ٧٠٠ قدم عن سطح الارض وحينئذ ضغط زرّاً كهربائيّاً مسلطاً على بوق كهربائي فانبعث منهُ صوت مرتفع النبرة فاق دوي المحركات ووصل الى سطح الارض في هنيهة ثم عاد الى البلون حيث التقطه ميكروفون منتخب منظم لالتقاط الاصوات الفريدة النبرة ، فلم يلبث الجهاز حتى حول الزمن المستغرَق الى اقدام ، دلت الطيار على مقدار ارتفاعه عن الارض

وقد قوبلت مقاييس الارتفاعات التي قيست بهذا الجهاز ، بما قيس بغيره من الآلات المعروفة فاختلفت عنها اختلافاً يسيراً ، لا يعدو قدماً واحدة في كل ٧٠٠ قدم. ودلت التجارب التي جربت فيما بعد ، ان ذلك الجهاز يكاد يستطيع التقاط الصدى في اثناء نزول المطر وتخييم الضباب بسهولة كما يلتقطها في الجو الصحو . وبناء على ما تقدم تقوم هذه الآلة الجديدة بايضاح ارتفاع الطيار عن الارض التي يحلق فوقها ، لا عن نقطة قيامه فحسب ، بعكس المقاييس العادية . ومن ثم يرجى منهُ خير جزيل في الطيران الذي يحصل على غير هدى . ولم يبق أمام مخترعه الاّ عقبة واحدة يرجو تذليلها وهي تأثير الاشجار والغابات في اخفات الاصوات ومنع صداها . ويتوقع الخبراء لهذا المقياس الجديد وامثاله فوائد شتى ، ولكنهم يرون انها سوف تصبح بلا فائدة ، حينما تخترع الطيارات السريعة التي تسبق الصوت ! ! والمعروف ان طيارات السباق قد تمكنت من قطع ٤٢٠ ميلاً في الساعة ، فلا يبعد ان تزيد سرعتها ٣٠٠ ميل اخرى فتصل الى ٧٢٠ ميلاً في الساعة وهي المسافة المساوية لسرعة الصوت

وعرض المستر (تشستر ريس) احد مهندسي شركة الكهرباء العامة في اميركا في فصل الصيف الماضي جهازاً آخر ، مما تستخدم فيه امواج الصوت بمثابة مساعد للملاحة ، وهو كناية عن آلة تعين الموضع بوساطة الصوت اذ تلتقط اصداء الصوت من الزوارق والعوامات واحواض السفن وقد تمكن بها المخترع من ارشاد زورق موطري وسقه ١٧ طنّاً الى السير في الضباب الكثيف في بوغاز لونج ايلند . واتيح له ايضاً الاهتداء الى البواخر التي كانت تبعد عنه نصف ميل ، والكشف عن الزورقات التي كانت سائرة بالمقاذيف على بعد ٨٠٠ قدم منهُ في الضباب . ولذلك يؤتى بثلاثة ميجافونات[1] وتوضع على دعامة صغيرة فوق السطح الاعلى للمركب على شكل مثلث فيصدر من احد الميجافونات صفير حاد يتجه اتجاهاً مستقيماً ، فاذا صادف شيئاً في طريقهِ انعكس الصوت عنه ، وكان الوقت الذي يستغرقهُ الصوت في اثناء انعكاسهِ ، والجهة التي ينعكس منها الصدى ، دليلين على المسافة والموقع الذين فيهما نقطة الخطر . واعلى صوت سمعهُ العالم حتى اليوم ، هو انفجار بركان

(١) الميجافون ضرب من ابواق الكلام

« كراكاتوي » في جزائر الهند الشرقية الهولندية ، الذي حدث سنة ١٨٨٣ وسمع صداه كأنهُ قنبلة ضخمة صدمت الجو صدمة شديدة جعلت الامواج الهوائية تؤثر في الباروجرافات [١] تأثيراً دام مشاهداً طول الزمن الذي استغرقتهُ ثلاث سياحات متوالية حول الكرة الارضية

وقد اتيح للعلماء حديثاً اختراع اجهزة تدل على الصوت وتطبع ارتفاع الاصوات العادية بوحدات تسمى decibels فاستدلوا بها على ان هزيم محرك الطيارة اشد من ازيز مصنع المراجل واستعمل المستر رعوند ديتمارز المشرف على قسم الحيوانات الثديية والزواحف في حديقة الحيوانات في نيويورك ميكروفونات ومفخمات للصوت حساسة جدًّا واخذ يصغي للاصوات المنبعثة من تربة الارضة فتسنى له بجهازه الدقيق التقاط اللغط الناشيء من حركاتها في طرقاتها

وحدث مثل ذلك في تجربة اخرى في دار الافاعي بالحديقة نفسها حيث قام المستر ديتمارز بتجربة تحرّى بها تحقق تأثير الموسيقى في الثعابين فجاء بقيثارة شرقية من صنع الهند واخذ يعزف بها خلف حظيرة الصل المصري المعروف بالناشر (حية الحواة) وهو المعروف هناك بالملك الناشر لضخامته اذ يبلغ طوله ١٣ قدماً فجعل الصل يثب في الهواء عندما سمع النغمة الاولى من نغمات القيثارة . وما لبث عند سماعه لحناً حادًّا ان ترنح ترنحاً ضئيلاً وارتعد عنقه ثم سقط على الارض كأنهُ ميت وبقي على تلك الحال عدة ثوانٍ ثم استأنف الوثوب في الهواء

اما تأثير الموسيقى المسكنة والاصوات الجشة في انفعالات البشر ، فمشهورة . وقد اظهرت المباحث الحديثة مبلغ ما يحدث في الدماغ والمعدة عندما يطرق اذني المرء صوتٌ جشٌ . ودلت الآلات الصوتية الحساسة انهُ اذا انفجر كيس من الورق قريباً من اذن امرىء ، ارتفع الضغط في دماغه اربعة اضعاف الضغط الطبيعي . وثبت ايضاً في تجربة اخرى ان عمل المعدة الطبيعي يتعطل ثلثه من جراء اي صوت عنيف مزعج

اما الاصوات التي لا نستطيع سماعها على الاطلاق فقد تؤثر ايضاً تأثيراً ضارًّا في اجسامنا كما ثبت ذلك في تجربة مدهشة قام بها الباحثون اذ استخدموا تياراً كهربائيًّا قويًّا متناوباً لجعلوا طبقاً من البلور الصخري وضع في قعر باطية زجاجية كبيرة مملوءة ماء ، ينبض نبضات سريعة جدًّا بلغت تموجاتها ٦٠٠٠٠٠ في الثانية وحينئذٍ بدت للمشاهدين مناظر غريبة اذ اخذت الاعشاب العائمة في ذلك الماء تتفتت والسمك والضفادع [٢] تهلك كأنها اصيبت بآفة ذريعة خفية وهي متأهبة للسباحة . وكذلك شعر الناس الذين غمسوا اصابعهم في الماء نفسه بآلام حادة جعلتهم يرفعون اصابعهم حالاً . ثم جيء بخيط طويل من الزجاج فوضع طرفه بين الاصابع ووضع طرفه الآخر في الماء فاكتوى الجلد كما يكويه سلك محمى لدرجة الاحمرار

---

(١) الباروجراف : بارومتر تنطبع فيه انطباعاً اوتوماتيكيا تقلبات الضغط الجوي

(٢) راجع فصل « غرائب امواج الصوت » في كتاب « فتوحات العلم الحديث » صفحة ١٨٩

روسيا بعد القيصر

من لنين الى ستالين

لم يلق البلاشفة عناء كبيراً في تقلد ازمة السلطان . فكادت ثورتهم في نوفبر ١٩١٧ ان تكون ثورة بلا دم . وتسنى لهم ان يصدوا شبح الجوع ، صداً وقتياً بمصادرة الطعام . وعقدوا الصلح مع المانيا في برست ليتوفسك . ولكن المشكلات المعقدة كانت لا تزال امامهم ويجب ابداع حلول لها . كيف ينشئون نظاماً شيوعياً في بلاد سكانها نحو ١٥٠ مليوناً موزعين في مساحة تقدر بنحو ثمانية او تسعة ملايين من الاميال المربعة ويتكلمون اثنتين وستين لغة مختلفة ؟

كان سقوط القيصر ايذاناً بنشوب حرب اهلية . ولكن لو كان اعداء لنين وصحبه ، محصورين في الروس المقاومين للشيوعية لهان الامر قليلاً على اصحاب النظام الجديد . غير ان الحلفاء كانوا قد عزموا ان يبذلوا ما في وسعهم لنزع السلطان من الحزب الذي حمل روسيا على عقد الصلح مع المانيا فأيدوا الروس البيض (المقاومين للبلاشفة وهؤلاء يعرفون بالروس الحمر) بالمال وفي ربيع سنة ١٩١٨ تناهى الى لنين في بتروغراد ان فرقاً من جيوش الحلفاء والروس البيض كانت تجمع قواها على حدود روسيا لمناصبة البلاشفة العداء

كان الاميرال كولتشاك في الشرق يقود جيشاً من الروس البيض ويحاول ان ينشىء حكومة روسية معادية للبلاشفة في سيبيريا . وكان اليابانيون يؤيدونه ويشدُّون أزره . بل علاوة على ذلك كان ثمة جيش تشكوسلوفاكي مؤلف من ٤٠٠٠٠ الف جندي يحاول الاتصال به . وكان التشكوسلوفاكيون من ابناء امبراطورية النمسا والمجر ، فرأوا في الحرب الكبرى فرصة سانحة للفوز باستقلالهم . وكان بعض رجال هذا الجيش قد فرَّ الى روسيا ليحارب في صفوف جيشها . وبعضهم كان في صفوف الجيش النمسوي فأسرهم الروس بعلء اوادتهم . فلما وقع الانقلاب الروسي ، كان جميع التشكوسلوفاكيين المقيمين في روسيا ، قد نظموا فرقة كبيرة تعرف بالفرقة التشكوسلوفاكية ، وكان البلاشفة قد سمحوا بعادتهم الى بلادهم عن طريق سيبيريا وأميركا ولكنهم اشتبكوا على ما يقال بفريق من مسرَّحي الاسرى الالمان والنمسويين فصدرت الاوامر اليهم بالقاء اسلحتهم فرفضوا وتمردوا على الاوامر فحاول الروس تفريقهم . اما الذين كانوا منهم الى الشرق جبال الاورال فتمكنوا من الاجتماع والاتحاد . وأما الذين كانوا الى غرب الاورال فحاربوا حرب اليائس المستميت حتى تمكن معظمهم من الاجتماع

(١) راجع فصل الثورة « الروسية » في هذه السلسلة — مقتطف يناير سنة ١٩٣٤ صفحة ٦٥

رفاقهم . فاستبشر الاميرال كولشاك بفلول جيش مستميت يحارب به الروس الحمر

وكانت الحالة في الجنوب تبعث على اليأس ، في نفس غير راسخة العزم . ولكن لنين امتاز بعزمه الحديدي ، وارادته التي لا تقهر . ذلك ان قوزاق مقاطعة الدون كانوا قد اتحدوا وانشأوا حكومة ، غرضها مقاومة اية حكومة تحاول ان تنتزع منهم الاملاك التي ما زالوا يتوارثونها من مئات السنين . وفي غرب القوقاس ، قام قائد يدعى دنيكين فجمع جيشاً وحارب به البلاشفة في شتاء سنة ١٩١٨ الى صيف ١٩١٩ وكان في قبضة يده اهم مدن روسيا الجنوبية . وكان دنيكين كالاميرال كولشاك يتناول مدداً ماليًّا وعسكريًّا من الحلفاء . ففرنسا كانت قد بعثت بفرقة من جيشها الى مدينة اودسا ، والانكليز ارسلوا طائفة من سفنهم الحربية الى باطوم وباكو

اما في غرب روسيا ، فكان الالمان قد أيدوا فريقاً من شعب اوقرانيا ، فأنشأ حكومة مقاومة للشيوعية . وفي بولونيا ، كان الجنرال بلسودسكي ، على رأس حركة قومية عنيفة بلغت في فتوحاتها مدينة كيف . وفي الشمال كان الانكليز قد انزلوا شراذم عسكرية في مدينة أركنجل ، وكانت بوارجهم رابضة في خليج فنلندا . وكان الانكليز يؤيدون في عملهم هذا قائداً يدعى يودنتش أعدَّ خطة لمهاجمة بتروغراد ، في ربيع سنة ١٩١٩ بجيش من الروس البيض والاستونيين والبريطانيين . فلما عرفت في بتروغراد أنباء هذه الخطة ، حدث فيها ذعرٌ أو ما هو من قبيل الذعر . فسكان المدينة كانوا يعلمون انهم لا يستطيعون المقاومة فجعل الشعب يستعدُّ لاستقبال الفاتحين . حتى لنين نفسهُ كان قد ضيَّع كل أمل في الفوز . وكان في نيته ان يخلي بتروغراد وينقل الحكومة الى موسكو . ولكن تروتسكي اقنعهُ بالصبر ، وبعث بشاب شيوعي من سكان جورجيا — يدعى ستالين — ليجمع جيشاً من عمال المصانع ففاز بحشد مجموعة بائسة من الرجال . وقد وصفهم الجنرال كراسنوف ، وهم مسوقون الى الدفاع عن بتروغراد فقال : « صفر الوجوه ، يعلو جباههم تقطيب ، غائرو الخدود والعيون ، ضيقو الاكتاف ، مرتدون سراويلات طويلة ، وأحذية كبيرة . . . »

ولكن جيش ستالين وتروتسكي القى الرعب في قلب يودنتش ، فتراجع قليلاً ينتظر المدد الانكليزي . ولكن المدد الانكليزي لم يصل وكذلك انقذت بتروغراد الحمراء

هنا انقلب التيار . ففي الشرق تعذر على كولشاك ان يجمع بين فرق التشكوسلوفاكيين وجيشهِ فتمكن الشيوعيون من هزيمتهم ، كل فريق منهم على حدة . وفي الجنوب تلقى ستالين من لنين امراً بانشاء فرقة من الفرسان الحمر ، فأنشأها وردَّ بها الجنرال دنيكين الى البحر ، فلم يبق من جيش دنيكين الاَّ شرذمة في القريم بقيادة الجنرال فرنجل . ولكن الجيش البولوني ظلَّ خطراً يهدّد البولشفية . فرُدَّ الخطر في اكتوبر سنة ١٩٢٠ لما عقدت روسيا الصلح مع بولونيا ، وخرجت ظافرة ، بعد ثلاث سنوات من الحرب والنزاع

وقد يتعذر على الباحث ان يعلل ظفرها . والغالب ان الباعث الاول على ظفر البولشفيك انما

كان تفرّق الكلمة في صفوف أعدائهم . فقد قال المؤرخ الانكليزي ستيفن غراهم في كتابه عن ستالين ما معناه : كان لا بدّ من انتصار البيض ولكن رأيهم السياسي كان موزّعاً . فما كان يعلمون في سبيل من يحاربون ، أفي سبيل جمهورية دستورية او في سبيل القيصرية . . . . وزادت البلبلة في مجالسهم بوجود وكلاء انكليز وفرنسيين . وجلّ عناية هؤلاء كانت موجهة الى الاعمال المالية الكبيرة لا الى روسيا . اما اعمال الارتكاب والفساد في جيوشهم فكادت تكون علنية . والواقع ان حديث المقاومة للثورة البولشفية حديث يثير الإشفاق على القائمين بها»

وكان يقابل هذا في صفوف البلاشفة اتحاد كلّ الاتحاد ، وحماسة كلّ الحماسة ، في سبيل فكرة عظيمة ، وغاية يرنون اليها ، ألا وهي روسيا الشيوعية . فعوّضهم ذلك شيئاً مما كان يعوزهم من النظام والمؤونة والملابس . ان حكايات انتصاراتهم في هذه الحروب ، لمن أمجاد هـذا الجيل من الروسيين . وقصص بعض الابطال الذين استشهدوا في معاركها ، اصبحت أشبه بالاساطير التي تروى عن أبطال القدماء

ثم ان جانباً كبيراً من ظفر روسيا في هذه الحروب ، يرتدّ الى شخصية زعيم البلاشفة الحربي — ليون تروتسكي — فقد قضى تروتسكي سنوات هـذه الحروب (١٩١٨ — ١٩٢٠) في القطار متنقلاً من مكان الى مكان ، ومن ميدان الى آخر . كان تحت إمرته ، في ميادين الحروب المختلفة ستة عشر جيشاً روسيًّا ، وكان عليه ان يبقى على صلة بها جميعاً للاشراف على خططها واعمالها ، وليكون صلة بينها وبين الحكومة البلشفية الجـديدة . فكنت تراه يوماً في بتروغراد وآخر في سامراء ففي سمولنسك ففي كيف ففي كرونستاد . ولا تنسَ ان روسيا المترامية الاطراف كانت تحارب في الشرق وفي الغرب ، في الشمال وفي الجنوب فكان تروتسكي في ناحية يجهّز الجيشَ المحارب بضباط يتولون قيادته ، وفي ناحية اخرى يوزع الاحذية والمـلابس ، وفي ثالثة الخرائط والخطط ، وفي رابعة يحوّل الاسرى من الروس البيض الى فرق عسكرية في الجيش الاحمر بعد ان يلهب نفوسهم بخطبه النارية . وفي خلال كل ذلك كان على اتصـال تلفونيّ دائم بالعاصمة . وكذلك كان وصول قطاره الى أقصى الميادين ايذاناً باتصال الجيش في ذلك الميدان بالجيش الاحمر قاطبة في سائر الميادين . ويقال أنهُ قطع في خلال تلك السنوات مسافة لا تقل عن مائة الف ميل او قد تزيد

ولـكن العامل الأكبر في فوز روسيا ، كانت شخصية لنين لأن جميع اعمال الحكومة كان مرجعها اليه

وكان انتهاء الحرب ، ايذاناً للزعيم لنين بمواجهة أعقد المشكلات . ففي خلال الحرب ، كان حكمهُ قائماً على اساس من دكتاتورية عسكرية شيوعية ، فكل ما تحتاج اليه الدولة من المؤن والذخائر ، كانت تصادره . بل كانت الحكومة تتناول المواد الخام من المنتج وتوزع عليه — على قدر — الخبز والملابس والاحذية . فكان هذا النظام قريباً بعض القرب من المثال الذي بنيت عليه

جمهورية أفلاطون . ولكن الفلاحين لم يقتنعوا بأن يعملوا عملاً لا يجنون منهُ ربحاً ما . وكانوا علاوة على ذلك يلومون الحكومة ، كلما اضطرب أمرٌ من أمورهم او اختلَّ شأن من شؤون حياتهم . ففي السنتين اللتين تلتا الحرب الأهلية أصيبت روسيا بجفاف أضرَّ ضرراً بالغاً بمحصول سنة ١٩٢١ فمات ملايين من الفلاحين جوعاً . فرأى لنين ببصيرتهِ النافذة ، ان الفلاحين لا بدَّ ان يحجموا عن الزرع لمحصول السنة التالية ، الأ اذا أرضاهم ببعض الارضاء . وكانت الطريقة الفردة لحملهم على الزرع ، وعدم تجانب من الربح . ولكن ذلك يعني التخلي عن بعض المبادىء الشيوعية الاساسية ، والارتداد الى أصول الحكم الذي قضى عليهِ لنين وصحبهُ

وكذلك وجد لنين نفسهُ في مأزق . أيتخلى عن مبادىء حزبهِ ، او يتمسَّك بها وهو مقتنع بأن تمسكه يعني امتناع الزرَّاع عن الزرع ؟ ومما يدلُّك على جرأة لنين انهُ فضَّل الاول ، وهو يعلم ان ذلك الى حين ، فأعلن خطة اقتصادية جديدة تعرف بهذا الاسم عند الافرنج ويرمز اليها عادة عند الانكليز بالحروف اللاتينية الثلاثة .N. E. P أي New Economic Policy ويقتضي هذه الخطة اذن للفلاحين في ان يحتفظوا بمحصولهم ، وان يبيعوه في الاسواق بأنفسهم ، وفرض طبعاً على المحصول ضريبة تجنيها الحكومة . ولكنهُ سلَّم بمبدإ الملك الخاص ، وهو ما يتنافى مع مبادىء الشيوعية . اما الشيوعيون المستقيمو الرأي فرأوا في خطة لنين الجديدة قضاء على الشيوعية ، وكان تروتسكي في مقدمتهم . الأ ان لنين كان يعلم ان هذه الخطة هي الطريقة الفردة لاجتناب الموت جوعاً . فلما كانت سنة ١٩٢٤ وقد نسي الناس الجوع وشبحهُ ، شرع لنين يتراجع رويداً رويداً على الخطة الاقتصادية الجديدة ، واخذ ينشىء تدريجاً ، الشيوعية الخالصة من شوائب الملك الخاص . فشجع الفلاحين على ادماج حقولهم الصغيرة في حقول كبيرة ، يكون ملكها مشتركاً بينهم . وأغراهم بعد ذلك بتوزيع الارباح المشتركة في المزارع المندمجة على أصحابها . أما في المدن فكانت الدولة مسيطرة على المصانع ، لان أصحابها ما كانوا يستطيعون انشاءها او العمل فيها الأ باعتمادات تفتح لهم في البنوك . والبنوك كانت ملك الدولة . وكذلك تحوَّلت القوى الاقتصادية في روسيا رويداً رويداً الى الخضوع لسيطرة الحكومة ، فأصبح الدولة الروسية دولة اشتراكية ، نظراً وفعلاً

ولما فاز لنين بحلّ المشكلتين الحربية والاقتصادية ، واجه المشكلة السياسية . هنا أمة عدد ابنائها نحو ١٥٠ مليوناً يتكلمون نحو ٦٢ لغة ، فكيف ينشىء منها دولة اشتراكية مندمجة بالمعنى السياسي ! فكان ردُّ لنين : حكومات سوفيتية (مجالس عمال) مستقلة استقلالاً ذاتياً ، وللحزب الشيوعي الروسي ، الاشراف والسيطرة عليها

فعهد في كل قرية وكل مدينة ، الى مجلس سوفيتي في الاشراف على حكومتها المحلية . وفرض على كل مجلس سوفيتي في القرى والمدن أن يبعث بممثليهِ الى المجلس السوفيتي الخاص بالمقاطعة ، ومجالس المقاطعات تبعث بمندوبيها الى مجلس الولايات ، ومجالس الولايات تبعث بمندوبيها الى مجلس

السوفييت الأعلى للجمهورية. وقسم البلاد الى ست جمهوريات — هي جمهورية روسيا وجمهورية روسيا البيضاء، وجمهورية اوكرانيا، وجمهورية عبر القوقاس (وهي مؤلفة من جورجيا وارمينيا واذربيجان) وجمهورية أزبك وجمهورية التركمان. من هذه الجمهوريات الست يتتخب اتحاد الجمهوريات السوفييتية، وهو ما يعرف اليوم عادة باسم روسيا عند ما نقول مثلاً ان لتفينوف وزير خارجية روسيا — ويرمز لروسيا عادة بالحروف التالية U. S. S. R. فكل جمهورية من هذه الجمهوريات تبعث بممثليها الى مؤتمر اتحاد السوفييت الاعلى، والمؤتمر ينتخب لجنة لتصريف شؤون الاتحاد، تعرف باللجنة المركزية للقومساريين. ولتفينوف في هذه اللجنة قومسير الشؤون الخارجية

ولولا الحزب الشيوعي وسيطرته على المجالس السوفييتية من ادناها الى اعلاها، لتفرق شملها ولغلبت عليها الثرثرة. والحزب الشيوعي فريق مختار من الرجال والنساء قد لا يزيد عدد اعضائه على المليون كثيراً. وهم يتصفون بالحماسة لنظامهم الجديد وبمعرفة مبادئه وأساليبه، وخاضعون لنظام دقيق ازمته في ايدي لجنة الحزب المركزية. وكذلك يتاح للجنة الحزب المركزية ان تسيطر على اعمال كل مجلس سوفييتي في روسيا فتصدر المجالس قرارات في الشؤون المختلفة بحسب التعليمات الواردة اليها من هذه اللجنة. ولنين نفسه لم يكن رئيساً لاتحاد جمهوريات السوفييت بل سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعي، وهذا المنصب جعله دكتاتور روسيا، وقد خلفهُ ستالين فيه بعد موته

ثم وضع دستور اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية في سنة ١٩٢٣ ولكن الجهد الذي بذلهُ لنين في معالجة مشكلات روسيا الكبرى من ناحية الفلسفة الشيوعية، كان فوق طاقة الجسم البشري وكان في سنة ١٩٢٢ قد اصيب بشلل موضعي فلما اتم وضع الدستور الجديد، كان جسمه قد اقوى فتوفي في يناير سنة ١٩٢٤ ولكن روسيا كادت لا تصدق ان لنين قد مات. كان قد مضى عليه ست سنوات وهو حاكمها المطلق. بل هو الذي انشأها على المثال الجديد، وأفرغها في هذا القالب الفذ. انقذها من القيصر ومن الدول المركزية ومن دول الحلفاء، ومن الموت جوعاً ومن التفرقة والانحلال السياسي. كان الروسيون يصغون الى خطبه باجلال ويقرأون كتاباته باحترام. كان لنين بطل جيل بأسره من الروس. فكيف يموت هذا الرجل ؟!

***

نظر شيوعيو روسيا بعين الاحتقار والامتهان الى الدول الاوربية وهي تحاول ان ترمم حضارتها بعد ما كادت الحرب الكبرى ان تأتي عليها. فالنزعة الوطنية التي اكتسحت اوربا الوسطى لم تكن في رأيهم الآ عذراً لظلم الاقليات وتوطئة لحروب وطنية مقبلة. والنزعة الامبريالستية التي سادت بريطانيا وفرنسا كانت عندهم، وسيلة للاستبداد بالشعوب المتأخرة وتمهيداً لحروب امبريالستية قادمة. والنظام الاقتصادي القائم على المزاحمة والمنافسة لم يكن الآ اسلوباً من اساليب تجميع الثروة في ايدي الطبقة العليا من المجتمع الاوربي والاستبداد بالعمال. اما في اتحاد جمهوريات روسيا

السوفيتية فكانت جميع القوميات والطبقات متساوية في الحقوق . فليس ثمة طبقة تستبد بطبقة لان جميع الروس كانوا طبقة واحدة ، ذلك ان جميع الروس كانوا عمالاً

ولكن هذه النظرة لم تمن ان الشيوعيين حلوا جميع مشكلاتهم . بل الواقع انهم كانوا في مطلع الكفاح لحلها . وكان لنين قد عين الاغراض التي يتجه اليها الحزب الشيوعي الروسي ، وخص بالذكر منها غرضين : اما الاول فتنظيم اتحاد جمهوريات روسيا السوفيتية ، حتى يرتفع مستوى المعيشة فينعم كل واحد من السكان البالغين ١٦٠ مليوناً ، بالرغد والرخاء . وأما الآخر فهو نشر التعاليم الشيوعية حتى تعم الثورة الشيوعية انحاء العالم

فايُّ غرض من هذين الغرضين يقدَّم على الآخر ؟ هذا هو السؤال على قول هملت . فكان رأي تروتسكي ، ان الشيوعية ، دولية في نزعتها ، واذاً فالواجب على الشيوعيين الروس ان يبذلوا ما في وسعهم لاحداث الثورة العالمية . وكان شعاره شعار الاشتراكيين القديم : « يا عمال العالم اتحدوا » . غير ان لنين كان يعتقد ان الغرض المقدَّم ، انما هو تنظيم روسيا على اساس اشتراكي . فاذا تمَّ ذلك امكن الاهتمام بالغرض الآخر واصبح تحقيقه اهون منالاً . فاذا حاول الروس احداث الثورة العالمية قبل تنظيم بلادهم ، لم يكن من شأن الشيوعية الاَّ احداث فوضى عالمية . وكذلك قرر لنين ان ينصرف عن السعي لاحداث الثورة العالمية ، الى العناية بتحقيق سياستهِ الاقتصادية الجديدة فأعاد الى الحياة الاقتصادية الروسية ، شيئاً من نزعة المنافسة الرأسمالية في الصناعة والتجارة ، لئلاَّ ينفر منهُ جماعات الفلاحين المحافظين

فلما توفي لنين في سنة ١٩٢٤ اعيد النظر في السؤال نفسهِ : اتقدم الثورة العالمية على تنظيم روسيا الاقتصادي او تسير روسيا بحسب الخطة التي وضعها لنين قبيل وفاته ؟ وكان المرجح ان يخلف تروتسكي زعيمه لنين . ولكن زعماء الحزب الشيوعي الروسي ، كانوا قد اخذوا يشكون في صلاح تروتسكي لمنصب الزعيم ، لشدة معارضته في خطة لنين هذه ، ولقوة ايمانهم بها . وكان كمنيف وزينوفيف من اتباع لنين وأيدهم في ذلك سكرتير لنين المعروف باسم ستالين . فتمكن هؤلاء الثلاثة من اخراج تروتسكي من الحظيرة المختارة في الحزب الشيوعي . وتسلموا هم مقاليد الامور . ولكن حكم الثلاثة لم يدم طويلاً . فقد كان كمنيف وزينوفيف من رجال الثورة والشغب المتمرسين بأساليبهما . ولكن الحزب الشيوعي حينئذ كان لا يحتاج الى امثالهم من الرجال ، بل كان في حاجة اشد الى رجال يحسنون الادارة والتنظيم . فما لبث ستالين حتى اسقطهم من مكانتهم وأصبح هو وحده يحكم الحزب الشيوعي ، بل وروسيا كما فعل لنين حكماً دكتاتورياً

كان ستالين ، مجهولاً عند سواد الروسيين ، عند ما تسلم مقاليد الحكم ، بل وكان من قبل يعرف في صفوف الحزب الشيوعي باسم « سكرتير لنين الصامت » . ولكنه في الواقع كان قد بذل احسن سني حياته ، من مطلع القرن العشرين ، في سبيل الشيوعية

وهو ليس روسي المولد . بل مسقط رأسه ولاية جورجيا في القوقاس . ولد سنة ١٨٧٩ من صانع احذية يدعى دوجاشفيلي ، وكل جل رجاء والده ، ان يصبح ابنه قسيساً . ولكنهُ قبل ان يدرك العشرين من العمر ، ادركه كتاب ماركس فقرأه . وفي سنة ١٩٠٣ التقى بلنين فتم اعتناقه للمذهب الشيوعي . وبدلاً من ان يصبح قسيساً مسيحيًّا ، اصبح مبشراً بالشيوعية . فضت عليهِ سنوات ، وهو يعمل في هذه السبيل في مدينة تفليس ، في صمت وهدوءٍ . وقبض عليهِ ما لا يقل عن خمس عشر مرة فنفي او سجن . وكان في كل مرة يفر من السجن او من المنفى . فاطلق عليه لنين لقب « الرجل الصلب » — ومن هنا اللقب الذي اشتهر به اي « ستالين » . فلما كان شهر يونيو سنة ١٩١٧ سنحت له فرصة للظهور . وكان الحزب الشيوعي في حاجة ماسة الى المال . فعلم ستالين ان مبلغاً كبيراً من المال — مقداره ٢٤٠ الف روبل — على وشك ان ينقل الى بنك في تفليس . وان اوراق النقد سوف تكون في كيس يحمله الصراف وتحرس مركبته سيارة بوليس وزمرة من فرسان القوزاق . فلم تكد العربة تخرج من المحطة يحيط بها الحرس ، حتى انفجرت قنبلة تحتها ، فانقذف الصراف من العربة ، واطلقت الخيل العنان ، واضطرب الحرس واختلط الحابل بالنابل ، وفاز رجال ستالين بالمال

عند ذلك اصبح ستالين محل ثقة الزعيم لنين . وهو من ناحيته ايد زعيمه بوجوب الاعتماد على العنف في اغتصاب مقاليد الحكم . وسار وراءه في انقلاب اكتوبر سنة ١٩١٧ . وفي خلال الحرب الاهلية كان لنين يعهد اليهِ في ادق الامور . ولما هددت جنود الروس البيض مدينة تساريتسن ، نظم ستالين شؤون الدفاع عنها . فصمدت في وجوه المحاصرين . وظل فيها يثير روح الحماسة ويتولى اسباب النظام حتى استدعاه تروتسكي غيرة منه على ما يقال . وقد كان الدفاع عن هذه المدينة من عجائب افعال البولشفيك في الحرب الاهلية . لذلك اطلق عليها بعد انتهاء الحرب اسم ستالنغراد نسبة الى ستالين ، منظم الدفاع عنها . وفي سنة ١٩١٩ بعث بستالين لمقاومة الاميرال كولشاك في سيبيريا . فلما هدد يودنتش مدينة بتروغراد استدعاه لنين الى مركز القيادة العامة . ثم لما هاجم الجنرال دنيكين المنطقة الصناعية في حوض الدونتز ، ارسل ستالين للدفاع عنها ، فنظم فرقة من الفرسان الحمر ، واكتشف جنديًّا عبقريًّا لقيادتها يدعى بودني ، فطرد دنيكين من تلك المقاطعة ولكنهُ استشهد بعيد ذلك فأصبح اسمهُ علماً من أعلام الوطنية الجديدة ونسج حولهُ خرافات سداها ولحمتها أحاديث البطولة والشجاعة والاستشهاد

وفي سنة ١٩٢٢ خلا منصب السكرتير للحزب الشيوعي فعرضهُ لنين على تروتسكي فرفضهُ ولكن ستالين قبلهُ لانهُ ادرك ان هذا المنصب يقربهُ من لنين السكرتير العام ، ويمكنهُ من القبض على اعنة الحكم متى سقطت من يدي الزعيم . وقد كان ما توقع

تجار الحرب

اصحاب مصانع الاسلحة خطر على السلام

منذ ما وضعت الحرب اوزارها وانظار الشعوب ترنو الى ما وعدهم به رجال السياسة من ان الغرض من الحرب الكبرى انما هو القضاء على الحروب او بكلام الرئيس ولسن الغرض منها « ضمان سلامة العالم للحياة الدمقراطية » . لذلك توالت المحادثات في موضوع نزع السلاح وخفضه وتحديده من مؤتمر وشنطن البحري (سنة ١٩٢١ — ١٩٢٢) الى مؤتمر نزع السلاح الذي اصبح في عرف الناس جميعاً مؤتمراً للتسلح . في خلال هذه السنين ، اذ كان الوزراء ودعاة السلام يتحدثون في نزع السلاح في عواصم الدنيا الكبرى ، في وشنطن ولندن وباريس وروما وطوكيو ، كانت مصانع السلاح ، تصنع المدافع والدبابات والطيارات والدروع والقنابل والغازات الخانقة والكمامات الواقية منها ، بل ان اصحاب هذه المصانع ، كثيراً ما روّجوا اشاعات الحروب ، ونشروا الدعايات القائمة على أنباء مختلقة في صحف اشتروها بالمال ، لكي يثيروا المخاوف في صدور الناس ، ويحملوا الحكومات المتنافسة على شراء الاسلحة والذخائر واعدادها لليوم العصيب . هؤلاء هم تجار الحرب، الذين يثرون من تأجيج نيرانها ، فلا يتورعون عن أية وسيلة في سبيل تأجيجها

***

ولعلَّ المستر هندرسون رئيس مؤتمر نزع السلاح وهو الداعية الجوالة للسلام في عواصم اوربا، من أدرى الناس بما يصنعهُ هؤلاء التجار . فمن عهد قريب، اذ كان هندرسن يعد حقائبه ليسافر الى باريس فالى جنيف ، ليسعى مساعيه الصادقة في سبيل نزع السلاح ، والتوفيق بين وجهات النظر المختلفة ، وقف اثنان من مواطنيه في جماعة من حملة الاسهم في شركتيهما ، فألقيا خطبتين نزلتا كصاعقتين على رأس هندرسن فثبطتا من عزمه وفلّتا من نشاطه ، لانهُ ادرك حينئذٍ أن قوى عظيمة تعمل من وراء ستار على احباط المساعي العظيمة التي يبذلها . هذان الرجلان هما السر روبرت هدفيلدز رئيس شركة هدفيلدز لمتد والسر هربرت لورنس رئيس مجلس ادارة شركة فكرز وكلتا الشركتين من اكبر شركات صنع السلاح في بريطانيا

فالسر روبرت هيدفلدز، قال في التقرير الذي قدمهُ للمساهمين عن الارباح التي ينتظر توزيعها :

« ولحسن الحظ اتجهت الاحوال اتجاهاً طيباً بعد وقوع الازمة المالية ، واننا لشاكرون للنعم التي حبينا بها . بل ان شكرنا لأعظم ، للنعم التي نتوقعها » ثم قال : —

« من عهد قريب صنعت شركة هدفيلدز قنبلة قطرها ١٥ بوصة ووزنها طن ...... فلما اطلقت على درع معينة اخترقتها مزيلة في اختراقها ما وزنه ٧٣٥ رطلاً من الصلب القاسي . وظلت بعد

اختراقها الدرع حائزة لسرعة مكنتها من الانطلاق مسافة تسعة اميال . هذه القنبلة تضع في ايدي المهاجمين قوة عظيمة لا توصف » . اما زميله السر هربرت لورنس فقد اعلن في خطبته ان الشركة ربحت في السنة السابقة ما يزيد على نصف مليون من الجنيهات ، وان مجلس الادارة ينوي ان يوزع ارباحاً قدرها ٨ في المائة . ثم قال ان من بواعث سروره ورضاه ، ان الطلبات على الاسلحة من شركة فكرز التي يرأس مجلس ادارتها قد زادت زيادة كبيرة في تلك السنة

﴿ سوق السلاح ﴾ وقد اتسعت سوق الاسلحة والذخائر الحربية اتساعاً عظيماً ، بعد التقدم العظيم الذي طرأ على ادوات الحرب وأساليبها من الوجهة الصناعية والعلمية . فالجندي الكامل العدة في العصر الحديث ، ليس الاّ معملاً علميًّا متحركاً ، ورغماً عن خطب رجال السياسة ، في سنة ١٩١٩ على اثر انتهاء الحرب ، وتسليمهم جميعاً بان الاحتفاظ بالقوى المسلحة في المستوى الذي كانت فيه لا بدَّ ان يسفر عن نشوب حرب اخرى ، نرى جيوش اليوم وهي اوفر عدة ، وأشد بطشاً من جيوش سنة ١٩١٩ . ومع ان عدد الرجال في الجيوش ما يزال عنصراً خطيراً في تنظيم كل جيش ، الاّ اننا نرى ان التقدم العلمي والصناعي في صناعة الاسلحة الهجومية والدفاعية قد حوَّل مركز الثقل في تنظيم الجيوش من الرجال الى الاسلحة . ويقدر ما ينفق على جيوش الامم وأساطيلها الجوية والبحرية كل سنة بنحو الف مليون جنيه . من هذا المبلغ ١٥ في المائة من ميزانيات الجيوش و ٥٠ في المائة من ميزانيات الأساطيل، ينفق على الاسلحة والذخائر المختلفة

هذه الجيوش المجهزة باحدث وسائل الحرب ، هي الميدان الذي يتجه اليه أصحاب مصانع السلاح لترويج بضائعهم ومصنوعاتهم . واليك التقدير التقريبي التالي للجيوش الاوربية

	عدد الرجال		عدد الرجال
فرنسا	٧١٧٧٥٠	يوجوسلافيا	٢١١٥٩٢
بلجيكا	٨٠٣٨٤	رومانيا	٢٤٠٥٠١
بولونيا	٢٦٥٩٨٠	ايطاليا	٤١٤٨٥٩
تشكوسلوفاكيا	١٥١٤٣٥	روسيا	٥٦٢٠٠٠

أما المانيا فجيشها النظامي بحسب معاهدة فرساي يبلغ مائة الف جندي، ومن وراء هؤلاء الآن مليونان ونصف مليون من فرق الهجوم وفريق كبير منهم بحسب اعتراف قوَّادهم قد اتخذ رويداً رويداً شكلاً عسكريًّا . وهذه الارقام لا تشتمل على نحو ٣٥ مليون جندي من الجيوش الاحتياطية المدربة في بلدان اوربا المختلفة التي تقتضي اعداد المعدات لها وخزنها حتى يمكن استعمالها يوم تنشب الحرب . والمعدات تتباين من المدافع والقنابل الى الرشاشات والدبابات الى قنابل الغاز والكمامات الواقية منها . وهذه جميعها تصنعها مصانع الاسلحة وتبيعها للدول

﴿ النفقات البحرية ﴾ أما النفقات البحرية ، في الدول البحرية الكبرى ، فعظيمة جداً .

نفقات بريطانيا البحرية قد زادت من ٥١ مليوناً من الجنيهات في سنة ١٩٣١ الى ٥٥ مليوناً ونصف مليون في سنة ١٩٣٤ . وميزانية اليابان البحرية قد زادت من ٢٢٧ مليون ين في سنة ١٩٣١ — ١٩٣٢ الى نحو ٤٨٨ مليون في سنة ١٩٣٤ — ١٩٣٥ وينتظر ان تبلغ ٦٠٠ مليون ين في سنة ١٩٣٦ أما نفقات الولايات المتحدة البحرية فقد قدرت بنحو ٦٧ مليون جنيه لسنة ١٩٣٤ وبنحو ٩٥ مليون جنيه لسنة ١٩٣٥ ومائة مليون جنيه لسنة ١٩٣٦

ولما كانت هذه الاموال تنفق على ما يقال في سبيل الدفاع ، وحماية مصالح الدول التي تنفقها ، فمن المعقول ان تتوقع من الحكومات ان يكون لها مصانعها الخاصة لصنع الاسلحة المختلفة ، كما تحتفظ كل دولة بحقها في ضرب النقود . ولكن الواقع ان الحكومات المختلفة ، تعتمد في الغالب على مصانع الاسلحة التابعة لشركات خاصة ، وتسمح لهذه الشركات في ان تبحث عن أسواق لمصنوعاتها ، عند ما تستطيع ان تنتج منها علاوة على ما تحتاج اليه حكومتها ، حتى تبقى هذه المصانع مستعدة لتجهيز حكومة بلادها بما تحتاج اليه عند نشوب الحرب . وهنا نجد مفارقة عجيبة في صناعة السلاح . البوارج ، والطيارات ، والدبابات ، والرشاشات ، والقذائف ، والقنابل ، والغازات — جميع هذه الاسلحة رمز النزعة القومية الشديدة . ولكن أصحاب المعامل التي تصنعها لا يؤمنون الاّ بالنزعة الدولية ، لأنهم يريدون ان يبيعوا أسلحتهم الى اكبر عدد من الدول ، سواء أكانت صديقة لبلادهم ام خصماً لها . ومع ذلك نجد انّ لاصحاب هذه المصانع كلمة خفية ، ولكنها كلمة مسموعة، في المجامع التي تقرّر فيها الخطط المثلى التي تجري عليها دولهم في السياسة العالمية

﴿ مصانع الاسلحة الشهيرة ﴾ ليست أسماء هذه المصانع مشهورة شهرة وزراء الخارجية الذين يلقون الخطب الرنانة في وجوب خفض السلاح والتعاون لمنع الحرب والتضافر على رفع مستوى الحياة الانسانية بتعزيز السلام وتوفير اسباب العمل لبنيها ، ولكن اثر هذه الاسماء قد لا يقل عن اثر وزراء الخارجية اصحاب الخطب الرنانة !

والواقع ان عدد المصانع المسيطرة على تجارة الاسلحة قليل قد لا يعدو اصابع اليد الواحدة وفي مقدمتها جميعاً شركة فكرز البريطانية ، ولهذه الشركة فروع كثيرة واغلب ما تخرجه من الاسلحة تبيعه للحكومة البريطانية ولكنها لا تمتنع عن تلبية طلبات الحكومات الاجنبية وهي مثل جميع مصانع الاسلحة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحكومة البريطانية ورئيس مجلس ادارتها الآن كان ضابطاً كبيراً من ضباط الجيش البريطاني . ومن الشركات المتصلة بها او التي من قبيلها شركة «امبريال كميكلز» التي تخصصت في ادوات الحرب الكيمائية ، علاوة على صنع الاسمدة

أما في فرنسا،فثمة اتحاد لصناع الاسلحة يعرف باسم «كوميته ده فورج» ورئيس مجلس ادارته رجل يدعى فرنسوى وندل وهو من اصحاب النفوذ العظيم في دوائر السياسة الفرنسية . وأهم شركة داخلة في هذا الاتحاد شركة «شنيدر كروزو» التي تبيع اسلحتها لحكومة فرنسا وسائر بلدان العالم

وقد قضت معاهدة فرساي ان تفكك المانيا معامل الاسلحة فيها كمعامل كروب وسيمنز . ولكن يقال الآن — وقد اعترفت الحكومة الالمانية بذلك ضمناً في مذكرتها بتاريخ (١٦ ابريل سنة ١٩٣٤ للحكومة البريطانية) — بأنها ماضية في التسلح . والاحصائيات التجارية تدل على ان المانيا تصدر أسلحة وذخائر ، وتستورد المعادن المختلفة وبعض الادوات اللازمة في صناعة الاسلحة

وأهم معمل للاسلحة في اوربا الوسطى قائم في تشكوسلوفاكيا ويعرف باسم معمل سكوردا وله فروع مختلفة في مدن مختلفة في رومانيا وبولونيا ، وهو خاضع لمعمل شنيدر كروزو الفرنسي . وهذه الظاهرة اي ظاهرة اتحاد معامل الاسلحة الدولية من اغرب الظاهرات في هذه الصناعة التي يقال فيها ان غرضها الاول انما هو اعداد معدات الدفاع عن البلاد التي يكون المعمل فيها ، بل لقد قيل ان لشركة شنيدر كروزو حصة كبيرة في اتحاد الماني لصنع السلاح

هذا في اوربا — فكرز وشنيدر كروزو وسكودا في المقدمة — اما في الشرق الاقصى فمصانع متسوي في اليابان اهمها : وهذه المصانع مشتركة او متحدة بمصانع فكرز الانجليزية . ومع ان في ايطاليا وبلجيكا مصانع للاسلحة ، الاّ انها لا تبلغ في مقامها الدولي مقام المصانع التي ذكرناها

اما في الولايات المتحدة الاميركية فلست تجد كذلك شركات ضخمة لصنع الاسلحة من مقام فكرز ولكن ٩٥ في المائة من معدات الجيش الاميركي تصنع في مصانع شركة بيت لحم (اي مفارقة في اطلاق اسم بيت لحم حيث ولد عيسى على شركة لصنع السلاح !) وشركة دوبون . وهذه الاخيرة اختصت بالاسلحة الكيمائية

﴿ المصانع والعداوات القومية ﴾ من يطلع على البرقيات التي تنشرها الصحف العربية كل يوم ، يدرك مبلغ العنف والحدة في العداوات القومية في اوربا ، ولكن اصحاب مصانع الاسلحة لا يأبهون لذلك كثيراً ، فانهم يبيعون اصدقاء بلادهم كما يبيعون اعداءها . وثمة في تجارة الاسلحة شيء لا تراه في غيرها ، فزيادة الطلب على احدى الشركات ، لا يعني ان الشركات الاخرى تحرم منه ، بل ان الزيادة تشمل جميع الشركات على السواء ، بل تكون باعثاً على توسيع نطاق الطلب لان الدولة الواحدة التي توصي بصنع قدر من الاسلحة في احد المعامل ، لا تلبث ان ترى مزاحمتها وقد اوصت على قدر اكبر منها في معمل آخر . واذا استنبطت شركة من الشركات وسيلة حربية جديدة تسرع جميع الامم الى شرائها لكي لا تحرم من ميزاتها ، فلا تلبث ان تستنبط شركة اخرى ، وسيلة جديدة لمقاومتها ، فتقبل جميع الدول التي اشترت الاسلحة الاولى على شراء الاسلحة الجديدة . وهذه الحقيقة في تجارة الاسلحة ، افضت الى التعاون بين شركات الاسلحة في مختلف الاقطار ، ومن هذا التعاون تنشأ المخاطر التي تهدد السلام . ذلك ان مصانع السلاح يهمها ، ان تنشىء جواً من الريبة والخوف يحمل الدول على التسلح

وكانت جمعية الامم قد عينت لجنة سنة ١٩٢١ للبحث في هذا الموضوع فألحت على صناع

الاسلحة بالوم الشديد ، وقالت ان عنايها عمدوا الى خلق إشاعات الحرب ، ورشوا موظفي الحكومات، وأذاعوا بيانات مختلقة عن الاستعداد البحري والبري والجوي في دول مختلفة ، وحاولوا التأثير في الرأي العام بواسطة الصحف — كل ذلك لكي يحملوا الدول على التنافس في التسلح لأن هذا التنافس سبيلهم الى الثروة والسلطان . ولذلك يقول السر روبرت هد فيلدز ، ان شركته يجب ان تكون عظيمة الشكر لما حبيت به من النعم . والنعم في نظره طبعاً ، هي زيادة الطلب على المدافع والبنادق والقنابل وسائر الاسلحة التي تصنعها شركته

﴿ السلام ومندوبو مصانع السلاح ﴾ نشرت احدى الصحف في اوائل الصيف انهُ بينما كان جو الاستعداد لاستئناف مؤتمر نزع السلاح رائقاً راجت اشاعة ، أخذت جنيف بغتةً ، مؤداها ان الدول قررت فض المؤتمر من دون ان تحاول الخروج من المأزق الذي بلغتهُ المفاوضات ، فاضطربت جنيف لذلك ، واضطربت معها الدوائر الدولية العالمية ولكن الدول اسرعت الى تكذيب الاشاعة وكان المسيو بارتو وزير خارجية فرنسا من أصرحهم في تكذيبها

وليست هذه الاشاعة بالاشاعة الاولى التي تتلق مؤتمراً لنزع السلاح أو خفضهِ . ففي سنة ١٩٢٧ لما اجتمع المؤتمر البحري في جنيف استأجرت مصانع السلاح الاميركية رجلاً يدعى شيرر Scherrar ليذهب الى جنيف مراقباً بالنيابة عنها ، والواقع ان عمله كان محاولة احباط المؤتمر بكل ما يستطيعهُ من الوسائل ، كالتأثير في بعض المندوبين الذين يستطيع الاتصال بهم ، وخلق اشاعات تؤثر في الرأي العام الاميركي من جهة ، وفي الرأي العام الدولي من جهة اخرى . ولولا اختلاف شيرر بعدئذٍ مع الشركات التي تدينهُ على قيمة الاتعاب التي طلبها لما فضحت المسألة . وليست المصانع الاميركية الوحدة بين مصانع السلاح الكبرى التي تستخدم امثال شيرر ، فقد كتب المستر فيليب نويل بايكر ، سكرتير رئيس مؤتمر نزع السلاح في هذا الصدد ما مؤداه : —

« قضيت معظم ايامي في خلال الستة الشهور الاولى من سنة ١٩٣٢ في أروقة مؤتمر نزع السلاح وما مضى علينا اسبوع واحد في تلك الفترة ، حتى سمعنا باشاعة تتناقلها الالسن ، مؤداها ان الدول قد قررت حل المؤتمر او تأجيله ، وهؤلاء المروجون بارعون كل البراعة في خلق الاشاعات لانهم يحسنون ربطها بتطور المفاوضات ، حتى يحسبوا لها ظلاً من الحقيقة . وكانت كل اشاعة منها ، تذاع وفي عبارات اذاعتها ، اقوال خفية تشير الى ان ناقليها يملكون من الاخبار السرية ما لا تقتضي معرفتهُ لجميع الناس . فكان الناس — والمندوبون في المؤتمر ناس — يعتقدون حقاً ، ان الوقت لم يحن بعد للبحث في نقص السلاح او خفضه دع عنك نزعه ، وكانت هذه الاشاعات في الغالب على اقواها وا كثرها ، لما كانت المفاوضات سائرة سيراً حسناً

« كنت أسمع هذه الاشاعات في أروقة المجلس ، وأنا عالم حق العلم — (أليس هو سكرتير رئيس المؤتمر) — ان الدول لم تكن تفكر في حل المؤتمر أو تأجيله بوجه من الوجوه ، فخرجت الى النتيجة التالية

وهي ان هذه الاشاعات تختلق اختلاقاً ولست املك الدليل على رأيي هذا ، وقد لا أملكه حتى يطلع علينا حادث آخر من قبيل حادث شيرر ومصانع السلاح الاميركية. ولكنني اعتقدت حينئذ وما ازال أعتقد الآن ، ان لمصانع السلاح وكلاء يستأجرون خاصة لاضعاف الروح المعنوية في المؤتمر ، بخلق الاشاعات على المنوال المتقدم ، وابهام الناس والصحافة والمندوبين أنفسهم بأن نجاح المؤتمر متعذر

«بل انني أعرف أناساً في مقامات رسمية يذهبون الى ابعد من هذا فهم يعتقدون ان مغامرة اليابان في منشوريا وحربها مع الصين في سنة ١٩٣١ أقرّت في دوائر اليابان العسكرية بعد اتفاقها مع صناع الاسلحة في أوربا وان تاريخ تلك المغامرة العسكرية رتب خصيصاً حتى يجيء في وقت تكون فيه جمعية الامم قد صدمت صدمة عنيفة عند اجتماع مؤتمر نزع السلاح . ولا أريد ان أحمل تبعة هذا الاعتقاد ، وانما هناك من الحقائق ما يحول دون اهماله كل الاهمال . فان عداوة العسكريين اليابانيين ، وصناع الاسلحة الاوربيين للمؤتمر تشير من وجوه مختلفة الى هذه العلاقة وتوضحها . فعندنا اولاً الطلبات الكثيرة للسلاح التي طلبتها اليابان من مصانع السلاح الاوربية ، وثانياً السهولة التي دبر بها المال لتسديد ثمن هذه الطلبات بعقد قروض اوربية خاصة لها ، وثالثاً التأييد الذي تناله اليابان في الصحف المتصلة بمصانع السلاح حتى في البلدان التي تطلب صحافتها تأييد جمعية الامم وتعزيزها — ان الادلة متوافرة على ان ذلك الاعتقاد الغريب له ما يستند اليه »

بل هنالك ماهو أغرب من هذه الحكاية . زاد انتاج مصانع السلاح ، زيادة كبيرة بعد قيام هتلر في المانيا ، وتقلده لأزمة الحكم فيها . وليس هذا بالامر الغريب فهتلر قد نفخ في أمته روح الكرامة الغاضبة ، ونزوعاً الى المساواة في سبيل تلك الكرامة . فالناس في اوربا يحسون قلقاً ، مهد السبيل الى المضيّ في التسلح . وانما يهمنا في هذا المقام ، أن نذكر ، ان مديري شركة سكودا — وهو مصنع سلاح كبير في تشكوسلوفاكيا متصل بمصنع شنيدر كروزو بفرنسا — اكتتبوا بمبالغ من المال لتأييد حركة هتلر قبل تقلده الحكم ، مع ان هتلر كان حينئذ صريحاً في أنه يدعو الى تنقيح المعاهدات التي تدافع عنها فرنسا وتشكوسلوفاكيا بكل قواهما . والسر في موقف سكودا وشنيدر ، ان قيام هتلر يبعث القلق في أوربا على سلامة كل أمة فتعمد الى التسلح للدفاع عن كيانها . وهذا هو سبيل الربح لهذين المعملين . بل ان ملكي صناعة الحديد والصلب في المانيا — أي تسن Thyssen وكروب Kruppe — اكتتبا كذلك بمبالغ لتأييد الهر هتلر قبل تقلده لمنصب المستشار ، مع أن هتلر كان لا يخفي حينئذ أنه ينوي أن يجعل جميع الصناعات ملكاً للامة . أي أنه كان ينوي أن يجرد تسن وكروب من مصنعيهما

واذا أنت طالعت الصحافة الاوربية ، وهذه الحقائق الاساسية عالقة بذهنك ، تبينت كثيراً من الفضائح التي قد تند عنك في القراءة العادية . فانت تقرأ مثلاً في مجلة «هدري» الانكليزية عدد مايو سنة ١٩٣٤ العبارة التالية : — « والواقع أن واحداً على الاقل من أصحاب الصحف التي تعادي جمعية

الامم أعنف المناداة يملك ألوفاً من الاسهم في شركة من الشركات التي تصنع الطيارات الحربية »

اقرن هذه العبارة بما تراه مثبتاً في صحيفة الديلي ميل من الدعوة الى تقوية سلاح الطيران البريطاني او تقوية سلاح الطيران الفرنسي ، تدرك ان المقصود هو روذرمير نفسه . ففي ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٣ قالت الدايلي ميل ان بريطانيا تحتاج الى سلاح جوي اقوى عشرة اضعاف من سلاحها الحالي . وفي الشهر نفسه قالت بتوقيع روذرمير نفسه ان بريطانيا تحتاج الى خمسة آلاف طيارة اذا شاءت الاَّ تبقى تحت رحمة جاراتها . وفي ديسمبر قالت ان فرنسا القوية ضمان للسلام واذنفيجب ان يتألف سلاحها الجوي من ٢٠ الف طيارة . وبعد هذا يسهل على القارىء ان يصل الى النتيجة الصحيحة عن الصلة بين هذه الدعاية وما يملكه صاحبها من الوف الاسهم في شركة الطيران الحربي

بل هناك ما هو انكى من هذا كله ، لانه مصبوغ بصبغة رسمية . ذلك ان جمعية الامم كانت قد وجهت الى الحكومات اسئلة تتعلق بتنظيم صناعة السلاح في بلادها . فجاء في اجابة الحكومة البريطانية : « ان مصانع السلاح الكبيرة كشركة فكرز ارمسترونج ، تقف جانباً من وقتها فقط على صنع الاسلحة ، واما الباقي فموقوف على مصنوعات لا صلة لها بالسلاح » . هذا جواب رسمي من الحكومة البريطانية. ولكن رئيس تلك الشركة نفسه السر هربرت لورنس قال في خطبة له لحملة اسهم شركته : — « اننا نجتهد ان نوسع نطاق اعمالنا الاخرى . . الاَّ ان شركة فكرز ارمسترونج تعتمد في حياتها على صنع السلاح »

وقد جاءتنا ونحن نكتب هذا الفصل بعض نتائج التحقيق الذي تجريه لجنة عينها مجلس الشيوخ الاميركي، في فضائح صنّاع الاسلحة وتجارها ، فاذا كلُّ ما فيها مؤيد لمجمل ما تقدَّم . خذ مثلاً على ذلك شركة اميركية اسمها Electric Boat Co. متفقة مع شركة فكرز ، فقد دفعت هذه الشركة للسر باسيل زهاروف ١٥٠ الف جنيه من سنة ١٩١٩ الى ١٩٣٠ عمولة على طلبات السلاح التي جاءتها بها من حكومة اسبانيا . ولما كانت شركة رغز Riggs تحاول ان تبيع مدافعها للحكومة التركية ، بعثت وزارة البحرية الاميركية بالطراد راليه الى استانبول ، لكي يتاح للترك التفرُّج على مدافعهِ وهي من صنع شركة رغز. وسمح لضابط من الضباط العاملين في الجيش الاميركي ان يصبح مستشاراً فنيًّا لحكومة كولومبيا فوضع في مكتب شركة رغز تقريراً يشير فيه على حكومة كولومبيا بشراء مقدار كبير من الذخيرة التي تصنعها تلك الشركة. وفي سنة ١٩٢٩ لما كان الجفاء مستحكماً بين بيرو وشيلي اتفقت شركة فكرز وشركة Electric Boat الاميركية على ان تبيع الاولى الاسلحة لشيلي والثانية لبيرو ثم تتقاسمان الأرباح وكتب مندوب هذه الشركة في بيرو يقول انهُ يسعى لكي يعيَّن مندوباً لحكومتهِ في مؤتمر نزع السلاح وغرضهُ حماية مصالح صناع السلاح والذخيرة

هذه نواح من فضائح اصحاب المصالح في صناعة السلاح ، وهم يحاولون ان يحبطوا كل مؤتمر لنزع السلاح او خفضه ، ويعرقلوا كل مسعى

شعر ستيفن كراين

[القطع التالية مختارة من شعر اديب يدعى ستيفن كراين مرّ على مسرح الأدب الاميركي مرور الشهاب اذ ولد سنة ١٨٧٩ وتوفي سنة ١٩٠٠ ولكنه ترك في القصة والاقصوصة والشعر الغنائي آثاراً رائعة]

الاعشاب

وقفت طائفة من الاعشاب في السماء امام العزة

فقالت العزة لها : ماذا فعلت ؟

فتهافتت جميعاً — الا واحدة منها — على تعديد مآثرها في الحياة .

اما العشبة الصغيرة فانتحت مكاناً وراءهنّ وعليها آثار الحياء .

فالتفتت العزة اليها وقالت : وانت ماذا فعلت ؟

فقالت : رباه ان الذكرى اليمة .

واذا كان لي في حياتي حسنات فقد نسيتها .

عندئذ تجلت العزة في كل ابهتها ونهضت

عن العرش وقالت : يا افضل الاعشاب !

كتاب الحكمة

التقيت بسيد يَحمل في يديه كتاب الحكمة

فقلت يا سيدي ، دعني اطالع فيه

فقال : ايها الطفل — ولكنني قاطعته قائلاً :

يا سيدي : لا تظنن انني طفل ،

لانني اعي كثيراً مما تنطوي عليه صفحات الكتاب في يديك

نعم ، واعرف كثيراً منها . فابتسم الرجل وفتح

الكتاب ونشر صفحاته امامي . فاذا بي — فجأة — قد كُفِفتُ

الرجل الصريح

خرج الرجل الصريح وجعل يخاطب الرياح
ولما تلفّتَ حواليه وجد نفسهُ في بلاد غريبة

خرج الرجل الصريح وجعل يخاطب النجوم
فبهرهُ نورها الاصفر الساطع

فالتفت اليهِ سائرٌ حكيم وقال :
ايها الاحمق الصالح . ان جميع اعمالك حمق وجنون

فصاح فيهِ الرجل الصريح قائلاً « انك كثير الصراحة »
ولما هوت عصاته عن رأس محدثهِ كانت قطعتين

القلب

رأيت في الصحراء كائناً ، عارياً ، وحشيًّا
متربعاً على الارض ، وممسكاً قلبهُ بيديهِ
وهو ينهشهُ

قلت : اتفيدُ ايها الصديق . قال :
انهُ مرٌّ . مرٌّ . ولكنني استطيبهُ
لانهُ مرٌّ ، ولانهُ قلبي !

طريق الحق

لما شاهد المسافر الطريق الى الحق
اخذهُ العجب لانهُ رأى الاعشاب تغطيه
فقال : ارى ان احداً لم يسر عليه من زمن طويل !
ثم تبين ان كل عشبة سكين حادٌّ ، فتمتم :
« لا بدَّ ان يكون هنالك طرق اخرى » !

الشعر الغربي

في مصر

صح عزمنا بعد ما نقلنا طائفة مختارة من الشعر الغربي ان ننقل مختارات من قصائد الشعراء المصريين والاجانب الذين ينظمون الشعر الغربي في مصر . وقد بدأنا بقصيدتين بليغتين للشاعر المصري المجيد خيري نشرتا في العدد الماضي . وفي هذا العدد ترجمة قصيدتين فرنسيتين حامرتين للشاعر فاستون زنانيري

الشاعر

بيد ترعدها الحمى ، كان يخطُّ كلمات تدعمها كلمات ، وتليها كلمات ، وبينما هو يكدُّ ويدأب سمع في قرارة نفسه صوتاً يهتف به قائلاً :

انا الوهم فائق الوصف ، الذي لا يتسنى التعبير عنهُ ، غير العابىء بشرائع الحقيقة ، اسكب في القلوب جاذبيات نجواي ، واضع فيها سحر صفوي الخفي ، الذي لا تدركه عين ، انا مثيل موجة البحر ، الصخبة المضطربة ، التي تبتلع الغوَّاص ، الساعي دون كللٍ ولا تمهُّلٍ ، للحصول على ضياء الفضة النقية البراقة ، المشعة في مستقرِّ اللجج ، كأنها الأمل البعيد المدى ، الذي لا يتسنى ادراكه ، ولا الوصول اليه

افتح آفاقاً ذات ضوء ونورٍ ، يكادان يهزءان بحلول الليل ، ويتركان وراءها ، بعد تلاشيهما ، سراباً تكفي لحظةٌ واحدة ، لكي تعفو أثره ، وتلاشي معالمهُ

فالسمك في البحر ، والطير في الفضاء ، واللذة في الحبِّ ، والبريق في العيون ، والنظر التائهُ في لانهاية السماوات . . . جميع هذه الاشياء البديعة تضمحلُّ دون ان تترك أثراً

ولكن ذلك الهاتف ، قُوطِع في همسهِ بصوت السكوت ، وبحركةٍ خفيفةٍ في الظلام ، تُشبهُ النفنفة التي تمرُّ بقرب العقل ، فنهض الشاعر من مكانهِ

وكانت الغرفةُ قد سادها غبش المساءِ . ورأى الليل يتسلَّلُ الى غرفته . فأظلم كلُّ ما فيها ، وعاد لا يُبصر شيئاً

ملجأ الشيوخ

لا يَضيرهم ان تُغشي عيونَهم سحابةُ الكآبة والحزن ، وان يَجرّوا تحت اشعة الشمس الدافئة ، اعضاءهم المتخدّرة اليابسة . . لا يضيرهم ان تكون قبضات ايديهم خُلواً من كل حب وحنان ، وان تكون وجوههم منقبضة تحوطها الرزانة ، وجباههم معتّمة تغشاها الظلمةُ والحلوكة

لا يضيرهم ان تكون السماء مشعّةً بالانوار ، وان تكون اشجارُ الخمائل يانعةً مزهرةً . . لا يضيرهم ان تحنو قلوبهم على تذكارات الماضي ، وان يقبل الليل اليهم بذكرى ، تعيد لهم ما سلف من حياتهم الهانئة السعيدة

لا يضيرهم ان يصبح الاملُ حلماً لذيذاً ، وان يكون الليل المقبل غير ذي صباح . . لا يضيرهم ان تضحي حياتهم نهاراً ، ينقضي تاركاً في القلب أسفَ الصباح وغصّتهُ

لا يضيرهم كل هذا ، فقد عرَفوا نهايتهم ، وهم ينظرونها بهدوء وسكينة ، ينتظرون حلولَها بصمتٍ وسكونٍ ، دون ان يأتي اليهم من يزورهم في ملجأهم الاخير ، ولا من يقبل ليزوّدهم النظرةَ الاخيرة وهم على فراش الموت

[نقلهما جورج نيقولاوس]

لا تشفق عليَّ

للمس أدنا سانت فنسنت ميلاي — شاعرة أميركية معاصرة —

لا تشفق عليَّ لان نور النهار، عند الغروب، عاد لا يتماوج في الفضاء
لا تشفق عليَّ لزوال الوان الجمال من الحقل والغابة باختلاف الفصول
لا تشفق عليَّ لنقصان القمر ، ولا لجزر البحر
ولا لانَّ شهوة الانسان تخبو بسرعة
ولا لانك عدتَ لا تلقي عليَّ نظرة الحب.
لقد عرفت كلَّ هذا . ليس الحب اكثر من الزهرة التي تلفحها الريح
ولا اكثر من المدّ يغسل الشاطىء فينثر عليهِ صرعى العواصف .

بل اشفق عليَّ لان القلب بطيءٌ في ادراك ما يراهُ العقل في كل لفتةٍ

لودفيك آريوستو

[شاعر ايطالي تأثر بألف ليلة وليلة]

في اليوم السادس من شهر يونيه من العام الماضي احتفل الايطاليون في مشارق الارض ومغاربها بمرور اربعمائة عام على وفاة شاعرهم القصصي الكبير لودفيك آريوستو مؤلف قصة « اورلاندو فوريوزو » الخالدة . وكان اكبر هذه الاحتفالات واعظمها شأناً ذلك المهرجان العظيم النادر المثال الذى اقامته مدينة « فرارا » Ferrara مسقط رأس الشاعر وقد قام بتنظيمه نفر من كبار رجالات تلك المدينة وعلى رأسهم السنيور ايتالو بالبو وزير الطيران الايطالي سابقاً . ويهمنا نحن الشرقيين ان نعرف شيئاً عن هذا الشاعر الفذ وعن قصته الطريفة التي ادعى كثير من الكتّاب الافرنج ان قصة الف ليلة وليلة العربية انما هي مأخوذة منها لوجود شبه كبير بين القصتين مع ان هناك من الكتّاب الايطاليين انفسهم من يقول بغير هذا القول.فقد القى المستشرق الكبير الدكتور لويجي رينالدي في عام ١٩٢٠ محاضرة نفيسة عن المدنية العربية في الغرب بمدينة القاهرة كان لها وقع عظيم في نفوس الشرقيين عامة والمسلمين بنوع خاص ونشرتها مجلة المقتطف في حينها وقد جاء فيها ما يأتي بالحرف الواحد :

«انظر الى قصة « اورلاندو فوريوزو » تجد انها مأخوذة كلها من كتاب الف ليلة وليلة الشهير الذي احتوى على قصص عربية وفارسية وهندية غريبة وانك لتجد فيهما الاسلوب واحداً والمغزى واحداً ولا سيما تلك النقطة التي تدور حولها جميع هذه القصص وهي زعمهم بأنه ليس في العالم امرأة عفيفة

«وبيننا كثيرون يعتقدون ان العرب هم الذين عرّبوا كتاب«اورلاندو فوريوزو» ولكن هذا محض افتراء ولقد تكلم في هذه النقطة المؤرخ الشهير آماري Amari فقال «اقول ان سرقة وقعت لكتاب الف ليلة وليلة ذلك ان قصص اريوستو وحوادث استولفو وجوكوندا كلها مقلدة من اولها الى آخرها او بالاحرى منقولة من قصص الف ليلة وليلة ما عدا تغيير بسيط في بعض الاسماء وفي بعض الظروف القليلة الاهمية »

ولكن هذا على فرض التسليم بصحته لا ينقص من قيمة قصص آريوستو ولا يفقدها شيئاً من جمالها وسلاستها وروعتها لان هذه القصص انما هي من بدائع الشعر الايطالي التي خلدت وستخلد على كرّ الزمن ومرور الايام

اما لودفيك آريوستو فقد كانت ولادته في اليوم السادس من شهر سبتمبر سنة ١٤٧١ بمدينة ريجيو دعيليا Reggio d'Emilia وكان ابوه رجلاً من اشراف « فرارا وكان قائداً لقلعة « ريجيو » من لدن الدوق هرقل الاول واما امه « داريا مالاجوزي » فكانت احدى نبيلات مدينة ريجيو

تلقى آريوستو تعليمه الاول في مدينة فرارا حيث انتقلت اسرته ولم يبلغ الثانية عشرة من عمره ولم يكن كثير الميل الى التعلم على ان امياله جميعها كانت متجهة نحو التمثيل المسرحي الذي نبغ فيه الى حد كبير حتى انهُ في سنة ١٤٩٣ استدعاه هرقل الاول الى مدينة باڤيا Pavia للتمثيل في حضرة لودفيك المورو . وعلاوة على اشتغاله بالتمثيل كان يميل الى قرض الشعر ولقد نظم في ايام شبابه قصة « تسبي Tisbe » التي قام بتمثيلها هو واخوته واخواته وكان موضع اعجاب المتفرجين لمبتدعاته الشعرية التي زانت القصة اكمل زينة

ولقد تحدث آريوستو حديثاً مستفيضاً في قصيدته الهجائية السادسة التي وجهها الى « بيترو بمبو » عن تعليمه وعن غرامه بالشعر . فقد حاول والده عبثاً حملهُ على دراسة الكتب والتعليقات الشهيرة لانه كان حتى سن العشرين يكاد يجهل اللاتينية وكان يجد صعوبة كبيرة في مطالعة قصة فدرو Fedro ولكن اباه عاد واطلق له الحرية في ممارسة المهنة التي كان يهيم بها وكان من حسن حظه ان تتلمذ على عالم كبير من علماء اللاتينية واليونانية هو « جريجوريو دا سپوليتو » وكان ذلك لمدة قصيرة لان هذا الرجل الاديب سرعان ما استدعي الى ميلانو للتعليم في بلاط سفورزسكا Sforzesca لما ناله من الشهرة الواسعة

مضى آريوستو بعد ذلك في دراسة اللاتينية وحده دون معلم فقرأ مؤلفات فرجيل وهوراس وتيبولو وكاتولو واعجب بها كل الاعجاب ولقد بلغ من اتقانه اللغة اللاتينية ان نظم بها بعض اشعار لا تقل جودة ومتانة عن اشعار اشهر شعرائها الانسانيين المعروفين

ولقد كان فقده لاستاذه المحترم ثم فقده لوالده في سنة ١٥٠٠ في الوقت الذي فقد فيه ابن عمه العزيز باندولفو ، من بواعث حزنه الشديد فاضطر الى حمل عبء الاسرة وهي مؤلفة من الام واربعة اولاد وخمس بنات لان ما ورثهُ عن ابيه لم يكن ليسد حاجاتها وكان عليه ان يعلم اخوته واخواته ولكن هذا لم يكن لينسيهُ لحظة واحدة من قرض الشعر الذي كان يقبل عليه بحماسة لانهُ كان يرى فيه سلواهُ الوحيدة في غمار هذه الهموم والآلام

اضطرَّ اريوستو اذ ذاك ان يلتمس منصباً في بلاط آل دستي Desto فانتظم في خدمة الكردينال ايپوليتو ولم يكن عمله يحول دون نظم الشعر فكتب كثيراً من القصائد الرائعة

بقي في خدمة الكردينال اكثر من خمس عشرة سنة بمرتب لم يكن كبيراً مع انهُ كانت توكل اليهِ في بعض الاحيان مسائل غاية في الخطورة تدل على ما حازهُ من الثقة كما كان يرسل في سفارات لم تكن دائماً قليلة الخطر كان ينتقل من اجلها الى مانتوڤا وميلانو وبولونيا وفلورنسه وفي اغلب الاحيان الى مدينة روما وكان يطلب اليهِ ان يكتب بعض الروايات الهزلية فكانت اولاها قصة كاساريا Cassaria التي مثلت في سنة ١٥٠٨ وقصة الوكلاء Suppositi في سنة ١٥٠٩ ثم قصة الساحر Il Negromante والتنفس La Lena والطلبة وهي قصة التي بلغ فيها نصفها واكملها من بعده اخوه جبرائيل آريوستو ثم القصة المدرسية La Scolastica وكانت القصتان الاوليان مكتوبتين في مبدأ الامر بالنثر ولكنهُ عاد ووضعهما شعراً وكانتا اول الروايات الهزلية في الادب الايطالي وكانت جميع رواياته على نسق روايات Treuzio ترزيو و Plauto پلاوطر

وفي الفترة التي مضت بين سنة ١٥١٣ وسنة ١٥٣١ نظم اريوستو سبع قصائد هجائية تحدث فيها عن عصره وعمن عاصره من الرجال وعن بلاط روما وعن البابا ليون العاشر وعن مدينة جارافانيانا وبلاط فرّارا والدوق الفونسو والكردينال ايپوليتو وعن عادات النساء وعيوب الرجال وقبل كل شيء تحدث باسهاب عن نفسه وعن اميالهِ وعن سوء حظه وعن جملة حياته وكان حديثهُ حديث رجل مخلص مستقيم ولكنهُ ضعيف الارادة قد خلا من الاطماع لا يهتم بالانعامات ولا بالرتب ويقتنع بان يعيش حرًّا بين جدران داره بين كتبه واوراقه تحوطه عناية زوجته وحبها . ولقد روى لنا الشاعر في قصيدتهِ الهجائية الاولى التي وجهها في سنة ١٥١٧ الى السيد جالاسو آريوستو انهُ كان مريضاً وكان يشكو السعال ولذلك اعتذر عن الذهاب في سفارة الى مدينة بودا في هنغاريا في سنة ١٥١٧ وكان يكفي هذا الرفض الذي كان العذر فيهِ واضحاً لكي يحرم الشاعر من عطف الكردينال ويقال من خدمتهِ

بعد ذلك عطف عليهِ الدوق الفونسو الذي اراد ان يصلح من خطاءِ الكردينال والحقه بخدمته واعطاه مرتباً لا بأس بهِ وكان اريوستو يشكو دائماً حظهُ الذي كان يضطره لان يعيش على اكتاف الغير على انهُ كان مغتبطاً ببقائهِ في خدمة الدوق لانهُ كان يندر ان يبتعد عن موطنه وكان هذا يتيح له فرصة المطالعة والدرس وتصحيح

الشعر الذي لم يكن ينقطع يوماً واحداً عن العمل على تجويده

كانت علاقات الصداقة بين الشاعر وآل مدسيس قديمة ولذلك لم يكد يظهر كتاب « فوريوزو » حتى منح البابا حق الطبع للمؤلف وامتدح الكتاب وذكر صداقة آريوستو الثابتة والمستمرة لاسرته. ونستطيع ان نقرأ شيئاً عن ذلك في مرثية لجوليانو دي مدسيس الذي ذهب ضحية مؤامرة المهروسين في سنة ١٤٧٨

اوعز اليهِ اصدقاؤه ان يسافر الى روما لمقابلة البابا وبعد الحاح نفرٍ منهم سافر الى روما واستقبل فيها استقبال الغزاة والفاتحين قال فيهِ « ان البابا نزل عن كرسيه المقدس ومد اليَّ يديهِ مصافحاً » ثم بقي آريوستو في روما فترة من الزمن ضيفاً على الفاتيكان وكان يأمل الحصول على مرتب من بلاط البابا ولكن لما لم تتحقق هذه الامنية عاد ثانية الى (فرارا) حيث كتب قصيدته الهجائية الثالثة التي وجهها الى ابن خاله هانيبال مالاجوتزي واشار فيها الى رحلته الى روما قائلاً « انهُ رأى ثروة عظيمة تختفي من امام عينيه دون ان يأسف عليها »

ولما عاد الى بلاط الدوق الفونسو لم يكن لديهِ ما كان يتمتع بهِ من الطمأنينة فيما مضى ولم يكن عمله في البلاط ليساعده حتى من وجهة النظر الاقتصادية لانهُ بسبب الحرب التي كانت ناشبة بين الكردينال دستي والبابا اوقف صرف راتبه فجعله يشكو قائلاً انهُ اذا لم يُدفع اليهِ المتأخر له فانهُ سيضطر الى البحث عن طريقة اخرى لصرف هذا المتأخر

وفي سنة ١٥٢٢ ارسل الى مدينة جارفانيانا ليصلح بين احزابها المتخاصمة ولكي يلزم اهلها باحترام القانون فذهب اليها والحسرة تملأ فؤاده لفراق بيته ولكنه لما كان يأمل ان يصلح فيها من احواله الاقتصادية بقي حوالي ثلاث سنوات من سنة ١٥٢٢ الى سنة ١٥٢٥ نجح في خلالها في تهدئة المنطقة التي لم تكن تخضع لسلطان السلطات المدنية

بقي في هذه المدينة بضع سنوات اخرى ولي فيها القضاء بعيداً عن بلاده حتى سئمها ورغب في العودة الى حياة المنزل الهادئة فطلب ان ينقل الى منصبٍ آخر ولقد اقترح بعضهم على الدوق ان يرسله سفيراً لدى بلاط البابا الجديد لانهُ كان الشخص الوحيد الذي يصلح اكثر ممن عداه لمثل هذا المنصب نظراً لصداقته بآل مدسيس ولكنه لم يعرب عن رغبتهِ في قبولها — مع انهُ لم يرفضها — محتجاً بأنهُ لم ينل شيئاً من البابا السابق ولا ينتظر ان يحصل لآل دستي على شيء من هذه الاسرة. ولكنهُ لم يصرح بأن بقاءه بعيداً عن داره كان يسبب له كثيراً من المتاعب والآلام. وفي سنة ١٥٢٦

اشترى منزلاً صغيراً في مدينة فرارا يقع في شارع ميراسولي Mirasole واخذ في تجميله وادخال كثير من وجوه التحسين عليه ووضع لوحة على بابه كتب عليها باللغة اللاتينية «ان بيتي صغير ولكنه يكفيني وليس لاحد عليه سلطان وهو في نفس الوقت ليس قبيحاً واهم شيء عندي انني حصلت عليه بكدي وعرق جبيني»

وبعد وفاته اضاف ابنه فرجينيو الى اللوحة هذه العبارة : « ليبارك الآله بيت آل اريوستو كما باركتهُ آلهة الشعر »

ولقد اضيفت الى هذا المنزل الصغير حديقة لم تكن انيقة حتى لقد تجرأ احد اصحابه ان يقول له «ما بالك قد استطعت انشاء ابيات من الشعر غاية في الجمال دون ان تستطيع ان توجد عملياً واحداً منها» ولكنهُ اجاب بأنه لا يستطيع ان يوجد حديقة جميلة بنقود قليلة

قضى الشاعر سنين سعيدة في هذا المسكن الصغير مع صديقته الكسندرا ابنة السيد فرانشسكو بينوتشي التي كانت زوجة للشاعر الفراري النبيل تيتو ليوناردو ستروتسي Strozzi والتي تزوج منها في آخر سني حياته وربما كان ذلك في سنة ١٥٣٠ مع انها كانت تصرح له بأنها لا تريد ملاءة ولا خاتماً تقيد بهما حريتها

وفي سنة ١٥٣١ ربط له الدوق الفونسو دافالو مركيز فاستو مرتباً سنوياً قدره مائة دوقية غير المساعدات الاخرى التي كان يحصل عليها من الدوق اركولي دستي ولما حل الفونسو ولده محله قدم له مساعدات اخرى سهلت له اسباب الحياة

في هدوء تلك الدار التي تمتع فيها بالحب والعناية التي كانت تحوطه بهما امرأته بينوتشي Bennucci اشتغل بجد وبهمة لا تعرفان الكلل في نظم قصائده الهجائية وفي اعادة طبع قصته العظيمة بعد ان ادخل عليها كثيراً من التعديل والتنقيح في سنة ١٥٣٢. عند ذلك بدأت تظهر عليه علامات المرض والسقم والح عليه مرض السل الذي لا يرحم ثمانية اشهر كاملة فارق بعدها الحياة في ليلة ٦ يونيه سنة ١٥٣٣ ودفنت جثته في كنيسة القديس بنيدتو San Benedetto القديمة وبعد اربعين سنة من موته شيد له احد اشراف فرارا مقبرة اثرية فخمة وفي ١٦١٢ اقام له احد حفداده الذي كان يحمل اسمه ولقبه مقبرة اجل وافخم من الاولى ونقل اليها جثمانه في احتفال مهيب ثم في سنة ١٨٠١ نقل جثمانه مرة اخرى الى سراي المدارس بأمر الجنرال ميوليس Miollis

أعطي آريوستو بسطة في الجسم وكان متناسب الاعضاء قوي البنية ذا شكل حسن ومنظر نبيل مهيب وكان طيب الشمائل حلو الحديث حاضر البديهة مما جعل حديثه مقبولاً

لدى الطبقات العالية التي كانت تحب مجلسه والتي كان يبهرها بمواهبهِ النادرة وهي صفات قلما اجتمعت في شخص متعلم اعتاد مخالطة العظماء والكبراء. على انهُ كان يفضل الحياة المنزلية على حياة البلاط بما فيها من مسرات واحتفالات ومظاهر وافراح وكان يقول « اريد الهدوء فهو عندي خير من الحياة والغنى »

كان الدرس والشعر يفضلان لديه كل ماسواهما من الاعمال وفضلاً عما أُوتيه من دماثة في الخلق فقد كان طيب القلب ميالاً الى الحب احب بلدته كما احب بيته وزوجته كما احب اميره الذي كان يفخر بحبه ويتفانى في الاخلاص له

كان آريوستو دائماً مشغولاً بكتاباته الادبية وبمؤلفاته حتى في الساعات التي لا يكون فيها على مكتبه لدرجة انها كانت تصيّرهُ مذهولاً شتيت الفكر. وعلى ذكر هذا يروي ولده فرجينيو انَّ اباه خرج في صباح يوم من ايام الصيف من كابري Capri للتنزه فما زال سائراً يوماً كاملاً حتى وصل الى فرارا دون ان يشعر انه ينتعل خفين او انه كان يسير وقال عنه ايضاً انهُ كان يأكل بسرعةٍ دون ان يميز اصناف الطعام الذي يتناوله

كان آريوستو يحب اصدقاءه ويحترمهم ويعظمهم ويعترف بجميل من كانوا يساعدونهُ ويعاونونهُ كما كان يحب سادته الذين سرد لنا اسماءهم في آخر الشردة من اناشيد قصتهِ « فوريوزو » بعد ان تغنى في الانشودة الثالثة منها بنسب آل دستي

ولعل احب شيء لدى آريوستو كانت الحرية التي كان يهيم بها ويشيد بذكرها في قصائده ولو انهُ لم تتح له الفرص للتمتع بها يوماً من الايام فهو يضعها قبل كل شيء ويضحي في سبيلها بمنصبهِ وبصداقتهِ للعظماء وحتى بحبهِ لانه كان يخشى ان يتزوج من المرأة التي احبها لئلاَّ يقيد حريته بزواجهِ. وبعد الحرية كان كل غرامهِ متجهاً الى الشعر لانهُ كان يرى فيهِ اكبر عزاء لنفسهِ وكان يوحي اليهِ بانبل المشاعر والاحساسات

وفي مقال آخر سنتكلم عن قصة « اورلاندو فوريوزو » التي صادفت نجاحاً عجيباً والتي لا تزال الى يومنا هذا موضع اعجاب المتأدبين والتي بلغ من عظمتها وتعلق الناس بها ان كان لها كثير من المقلدين بينهم الكونت فنشترو بروسانتيني دا فرارا الذي كتب قصة « انجليكا العاشقة » ولودفيك دولتي الذي وضع قصة «سا كريبانتي » و« محاولات اورلاندو » ثم بيترو آرتيني في رسائله عن مارفيزا ودموع انجيليكا واستولفيدي وغيرهم ولم تكن جميع هذه الاَّ محاولات غير مجدية لان فن لودفيك اريوستو كان فنّاً لا يمكن تقليده ولا الاتيان بمثله

طه فوزي

مقام المرأة واتجاهها

في المانيا النازية

كتب الفرد روزنبرج ، في مؤلفه الكبير « روح القرن العشرين » العبارة التالية : — « الرجل المتأنث والمرأة المترجلة ، دليلان على الانحطاط السياسي والثقافي . فنتيجة السيطرة النسائية على حياة اميركا ظاهرة في انحطاط مستوى الثقافة في تلك الامة » . وعنده ان ادوار الانحلال في المانيا، وبوجه خاص في الفترة التي انقضت بين هزيمة المانيا سنة ١٩١٨ وبلوغ النهضة الوطنية الاشتراكية مقام الحكم سنة ١٩٣٣ اقتضت نشوء الرجل المتأنث والمرأة المترجلة فيها

والهر روزنبرج هو الرجل الذي عيّنهُ هتلر اميناً على التعليم الروحي والفلسفي في المانيا ، ورسالة المرأة في رأيهِ — وهو شبيه بالرسمي — أن تحتفظ بالسلالة نقية من اية شائبة تشوبها

ولما كانت الحركة الوطنية الاشتراكية تبغي انشاء سلالة نقية عديدة ، فهي تقتضي من المرأة الالمانية خضوعاً لمقتضيات الاسرة والدار ، وتأييداً لسياسة الحزب . وشعار هذه الحركة ، من ناحيتها النسوية ، « العودة الى البيت » . وثمة وسيلتان يتوسل بهما الزعماء لجعل هذا الشعار مما يحلو في عيون النساء . فهم يندّدون بالحركة النسوية ، التي انتشرت قبل الحرب وافضت بعيدها الى منح النساء جميع حقوق الرجل في دستور ڤيمار سنة ١٩١٩ ، ويقولون انها افضت بهنّ الى المناداة بالسلام كائناً ثمنهُ ما كان ، وجعلتهن لا يعبأنَ بالتقاليد . فالمحاولة التي قصد بها الى تمهيد طريق الاستقلال للمرأة ، فوّت فيهنّ حب الذات والايثار ، وقذفتهنّ الى الشوارع . ثم ان التحرر الصحيح في نظرهم ، هو تحرر المرأة من واجب الارتزاق ، فالزعيمة النسوية النازية الدكتورة صوفيا رابي Rabe تقول : « اننا نطلب تحرر المرأة من قيود الارتزاق ، لا تحرر المرأة من الرجل »

اما قول هتلر فلا يختلف عن قولها كثيراً . ففي توجيهه النداء الى كل الماني للدفاع عن حرية الامة قال : — ليس ثمة كفاح للرجل ، ليس هو كفاحاً للمرأة . وليس ثمة كفاح للمرأة ، ليس هو كفاحاً للرجل . اننا لا نعترف بحقوقٍ للرجل وبحقوق للمرأة . اننا لا نعترف الاّ بحقوق واحدة للجنسين . نعترف بحق هو في الوقت نفسهِ واجب ، حق الحياة والعمل والكفاح معاً في سبيل الامة »

ومع أن زعماء النازي يحاولون ان يقنوا المرأة عن اي عمل الاّ العمل البيتي ، ولا يشجعونها الاّ على الزواج واخلاف النسل ، لكنهم في الوقت عينهِ ، لايمنعونها رسمياً من الانتظام في الحرف والاعمال المختلفة ، الاّ القضاء والادارة الحكومية والجيش . وحجتهم في منعها من الانتظام في سلك القضاء والادارة الحكومية مبل المرأة الى اللين . ولذلك ترى ان النازي لم يبعثوا بنائبة واحدة الى الريخستاج مع ان النائبات في الريخستاج في العهود السابقة بلغنَ احياناً تسعاً وكان لهنَّ شأنٌ غير يسير في التشريع

وقد نظمت الآن جميع الجمعيات النسوية في المانيا في جمعية واحدة تدعى «دويتش فراو نوركشه» يقال ان عدد اعضائها يختلف من ثمانية ملايين الى عشرة ملايين . ورغبة في تنسيق اعمالهن ، اخضعت هذه الجمعية الى جمعية نسائية نازية عدد اعضائها من اربعة ملايين الى خمسة ملايين

وعلى رأس هذا النظام سيدة تدعى فرو شولتس كلنك . فهي زعيمة هاتين الجمعيتين ، وزعيمة قسم العمل النسائي وممثلة الجمعيات النسائية الالمانية في جمعية الصليب الاحمر الالماني . قالت كاتبة اميركية : ولما ذهبت الى احدى السيدات اللواتي تعاونها في عملها وسألتها هل سيرة الفرو كلنك سيرة حافلة قالت تلك السيدة « انها والدة اربعة اولاد . فما حاجتها بعد ذلك الى سيرة حافلة ؟ »

ان عمل المرأة في رأي النازي اخلاف جنود المستقبل . وقد ضمّ عدد حديث العهد من المجلة النازية الرسمية الخاصة بالنساء ، مقالاً يبيّن نواحي عمل المرأة . في ناحية واحدة من عملها عليها ان تربي الاولاد على اصول الثقافة العسكرية . يضاف الى ذلك تنشئتهم على فضيلة البساطة الاسبرطية ، وتنمية قوة المقاومة الروحية فيهم ، لانها تحميهم من الام الاجنبية . حتى النساء اللواتي واللواتي يمارسن عملاً فنيًّا يستطعن ان يؤدين نصيبهنّ التثقيفي ، بالعمل في الجمعيات الدينية والعسكرية

والمسلّم به في المانيا الآن ، ان اقل عدد من الاولاد يجب ان تنجبهُ المرأة النازية هو اربعة اولاد . وقد لاحظ بعض الكتّاب الاجانب في المانيا ، انهُ اذا زاد عدد الاولاد في الاسرة الواحدة الى خمسة او ستة، منح الوالد وساماً يرتديهِ ويباهي بهِ . لان الدولة النازية تشجع على الزواج بتمهيد العقبات المالية لمن يبغي الزواج ولا يستطيعهُ ، ثم انها تتبع ذلك بمنح امتيازات مالية وغيرها لمن يكون كثير الانجاب . ومع ان دستور فيمار نصّ على وجوب العناية بالامّ ، الاّ ان المانيا النازية تفاخر بان الام موضوع عناية خاصة منها . فعيادات الامومة في المانيا تحاول ان تتصل باكبر عدد من الامهات . وثمة معرض نقّال يعرف باسم معرض « الام والطفل » يتنقل في الريف ، ويسدي الى الامهات الارشاد الصحي والنصح الخاص بالتناسل

ثم ان النساء النازيّات ، يقاومنَ مذهب تعليم المرأة تعليماً عالياً . وعندهنّ ان جميع النساء اللواتي انتظمنَ في الجامعات في الفترة بين ١٩١٨ — ١٩٣٣ انما فعلنَ ذلك تقليداً ومجاراة . فكان عملهنّ هذا باعثاً من بواعث تعقيد مشكلة التعطل عن العمل التي يعانيها خريجو الجامعات . فاذا سألت : « ولكن الا يمكن ان يكون بين اولئك اللاتي انتظمنَ في الجامعات ، نساء على جانب عظيم من الذكاء » اتاك الجواب الغريب : لا ريب في ذلك ، ولكن مبدأ الزعامة عندنا يمكن الزعماء من تبيّن النساء المتفوقات واختيارهنّ ومنحهنّ امتيازات خاصة ، تفتح امامهنّ آفاق البحث والارتقاء العلمي

ان اذكى النساء ، في نظر المرأة النازية ، يجب ان توجه عنايتها الى اخلاف النسل ، اكثر مما توجهها الى ممارسة ذكائها . والظاهر ان عدد النساء في الجامعات الالمانية في المستقبل ، سوف لا يزيد عن نسبة ١٠ في المائة من مجموع الطلاب . لذلك يجب ان يكون اختيارهنّ دقيقاً كل الدقة

وطريقة الاختيار هي انتخاب المتفوقات عقلاً وذكاء من النساء اللواتي عرفن بامكان الاعتماد عليهن من الناحية السياسية ، فيسمح لهن بالانتظام في سلك الجامعات . وعلى الفتيات قبل بدء حياتهن الجامعيــة ان يشتغلن ستة اشهر في « معسكرات العمل » حيث تتعلم الفتيات اعمال البيت ، فيمدهن تمرينهن فيها ليتقلدن زعامة الحركة الالمانية التي شعارها « العودة الى الارض » . فاذا زاد المواليد في المانيــا كما يتوقع زعمــاؤها ، اقتضى ذلك توسعها ، اما شرقاً (على ما يرى هتلر في كتابه « كفاحي » ولكن هذا متعذر الآن بسبب معاهدة الصداقة وعدم الاعتداء التي عقدت بين المانيا وبولونيا لمدة عشر سنوات) او في المستعمرات الالمانية القديمة بعد استردادها او استرداد بعضها ، وعندئذ يكون لهؤلاء النساء الشأن الاكبر ، في استعمار الاراضي الجديدة .

وقد قل في المانيا شأن النساء اللواتي يبالغن في الانفاق على الملابس ووسائل التجمل ، حتى لتجد ممثلة مشهورة من ممثلات الصور المتحركة مثل « بريدجت هلم » تقول لمن يقابلها من رجال الصحافة ، مشيرة الى لباسها : لا يمكنك ان تعلم انني كوكب سينمي ! وقد عني رجال النازي في اول عهدهم بدعوة النساء الى الاستغناء عن وسائل النطرية والتجمل والتبرج فصار الوجه الذي لا تغطيه المساحيق ، موضعاً للاستحسان .

اما النساء اللواتي تلقين العلم العالي ، فقد سدت في وجوههن ابواب الرزق او كادت ، لان موقفهن نحو الزواج واخلاف النسل ، مما لا يروق زعماء النازي . فالمدرسات اللواتي كن يدرسن الفرق العالية في مدارس البنات ، قد حل محلها في الغالب مدرسون ، او عهد اليهن في تدريس فرق الصغيرات ، يدلك على ذلك ان مدرسة الرياضة في مدرسة بثورنجيا ، اضطرت الى التخلي عن تدريس المسائل الرياضية اللذيذة والاكتفاء بتدريس : (اثنين زائد اثنين يساوي اربعة)

ثم ان الطبيبات لا ينلن من اولي الامر اي تشجيع على المضي في ممارسة صناعتهن

اما موظفات الحكومة فكن قلائل في العهد السابق ، وكان جلهن من اليهود والاشتراكيين فهؤلاء فصلن من وظائفهن طبعاً ، وحل رجال محلهن

وكان الظن في بدء العهد الهتلري ان الكواتب على المكتاب (تيب ريتر) في الشركات والبنوك سوف يستغنى عنهن ليحل الرجال محلهن . ولكن اصحاب هذه الاعمال ومديريها رفضوا الاستغناء عنهن . وكذلك البائعات في المخازن الكبيرة . اما العاملات في المصانع فقد استغني عنهن بوجه عام ، بيد ان الدكتور لاي Ley زعيم « جبهة العمل » قال ان ذلك يجب الا يكون اطلاقاً لانه من العبث الاستغناء عن النساء في اعمال يجدنها اكثر من الرجال

فالاتجاه العام في المانيا النازية ، هو حصر عمل النساء في البيت وخدمته واخلاف النسل والاستعداد بالتمرين لاستعمار الاراضي الزراعية مع رجالهن ، والاعراض جهد الطاقة عن التعليم العالي والاعمال التي يستطيع الرجل ان يتولاها

الفروق الجنسية

بين الرجل والمرأة

فصل من كتاب « علم النفس » الجزء الثالث

تأليف محمد عطية الابراشي وحامد عبد القادر

ان الرجل لا يختلف عن المرأة من حيث كونه فرداً له مزاجه وطباعه وسجاياه الخاصة فحسب، ولكنهُ يختلف عنها أيضاً من حيث كونه رجلاً، كما انها تختلف عنه من حيث كونها امرأة، إذ ان الاختلافات الجنسية والجثمانية الهامة المشاهدة بين الرجل والمرأة تعد موازية لاختلافات عقلية ليست بأقل منها أهمية. والمعقول ان يكون لهذه الاختلافات الجنسية العقلية آثار في السلوك. وان التاريخ الانساني يبرهن لنا على ان وظائف المرأة لم تكن في يوم من الايام مثل وظائف الرجل في الحياة، وان قانون الرقي المستمر الذي يعمل عمله في الحياة الانسانية يبرهن لنا على ان الرقي لا يمكن ان يكون الاّ بتوزيع الاعمال، وتخصص كل من الجنسين لأعمال خاصة، وعلى ان التخصص في الاعمال والوظائف يتبعه على مرّ الزمن تغير ظاهر في التكوين الجثماني

وليس لنا ان ننتظر التقارب والتشابه الشديد بين الجنسين الاّ اذا كنا ننتظر ان نقترب من الحياة الساذجة الاولى، فمن المشاهد ان اختلاف الجنسين ليس من الظهور بين الامم المتوحشة التي هي بمعزل عن الحضارة كما هو بين الامم المتمدينة

ولا تزال الحوادث التاريخية تبرهن لنا على ان مساواة المرأة بالرجل في الاعمال والوظائف تؤدي الى انقلاب اجتماعي. وقد يؤدي هذا الانقلاب الى ثورة عنيفة ضد النظم والقوانين الاجتماعية لا يعلم الاّ الله تعالى مصيرها

وليس هنا موضع الكلام على هذه الثورة، ولا البحث فيما يكنه لنا المستقبل، ولكنا نريد ان نقول ان المشاهدات والتجارب قد برهنت على ان المرأة ليست كالرجل في الاستعدادات الجسمية، ولا في المواهب العقلية، ولا في النزعات الخلقية

وأهم ما بينهما من فروق : —

﴿ ١ — ان المرأة تنظر الى العالم متأثرة بوجدانها اكثر من الرجل ﴾ فمزاجها اقرب ما يكون الى المزاج الانفعالي، ويشتد تأثرها بجمال الاشياء وتناسبها مع بيئاتها، وتقل عنايتها بالافكار المجردة، واذا حاولت التعميم والوصول الى قواعد كلية فانها لا تعنى بالتحليل والتدقيق والبحث العميق، وهذا هو السبب في انها تميل الى التسرع في الحكم والخطأ في التطبيق

وكراهة التحليل المنطقي العميق الذي يصل به الرجل الى القوانين العلمية الصحيحة يعد من اهم ما تمتاز به المرأة عند الرجل

﴿ ٢ – ان المرأة عملية اكثر منها فلسفية ﴾ أما الرجل فيميل الى النظر ، ويجنح الى التفلسف والتدبر والتفكير في العواقب فاذا رأى خطراً محدقاً به فكر في طرق تجنبه وهو هادىء الفكر وربما اعتراه ألم او ضجر وقد يثور أو يغضب او يسب ويلعن اذا لم يصل الى نتيجة مرضية ؛ اما المرأة فانها تبكي وتسيح وتولول في وجه الخطر ، وقد يعتريها اضطراب يمنعها من التفكير والتروي

والرجل ينظر الى دواخل الاشياء وبواطنها ، ويعتد بقيمها الذاتية الحقيقية وحقائقها الواقعية ، ولا يغتر بظواهرها ، اما المرأة فتغرها الظواهر ، وتعجب بحسن المنظر وان ساء المخبر ، فالجواهر الرائقة ، الحسنة الشكل ، المنسجمة الصوغ تقع لديها موقعاً حسناً — وان كانت قليلة القيمة في ذاتها

﴿ ٣ – ان الرجل مستعد بطبيعته وقواه الجسمية الى الزعامة والقيادة ﴾ لقدرته على التصرف في المواقف الحرجة ، وعلى الابتكار للخروج من المآزق بسرعة ، اما المرأة فانها لا تبلغ منزلة الرجل في ذلك ، وان كانت تفوقه في الصبر والجلد ، والقدرة على المقاومة ، والسرعة في التنفيذ . ولذا يقال ان الرجل اكثر استعداداً للتشريع والابتداع ، اما المرأة فأكثر استعداداً للتنفيذ ، ومن ثمّ كانت الأغلبية الغالبة من القادة والمشرعين والمبتدعين من الرجال ، ولم يعرف عن امرأة انها برزت في عالم العلم،[1] او ابتكرت آلة قيمة ، وهي بصبرها ، وقوة وجدانها وحنوها ، وشفقتها ، مستعدة استعداداً طبيعياً لأن تكون أمّاً ، وطبيبة وممرضة ، وسلوة للرجل اذا حلت به النكبات ، او استولت عليه الهموم ، او تحكمت فيه الامراض

وان هذه الاختلافات والفروق التي بين الرجل والمرأة لتظهر واضحة جلية بعد النمو والكبر ، أما في عهد الطفولة فان هذه الفروق تكون يسيرة غامضة ؛ فالذكر والانثى لا يكادان يختلفان عند الولادة ، وبعد ذلك تأخذ فروق ما في الظهور ، فأنت اذا رأيت طفلة صغيرة سنها اربع سنوات لا تشك في أنها بنت صغيرة بمعنى الكلمة واذا رأيت طفلاً صغيراً في هذه السن علمت انه غلام صغير بمعنى الكلمة أيضاً . والبنت في العادة تسبق الغلام في القدرة على الكلام ، وقلما تصاب باضطراب في اعضاء التكلم ، ومعنى ذلك ان المراكز العصبية والخيوط العصبية الوصلية المرتبطة بالتكلم تنمو في الطفلة قبل نموها في الطفل

ويلاحظ ان لعبها يختلف في النوع والاسلوب عن لعب الطفل سواء ألعبت وحدها ام مع غيرها فلعبها ينقصهُ النشاط في الحركة ، وسعة النطاق التي تلاحظ في لعب الغلام . وهي تصل الى مرتبة اللعب التقليدي قبل الطفل ؛ وتبقى في هذه المرحلة مدة اطول منهُ . ومن المشاهد انها تولع حتى في عهد الطفولة الاولى باللعب بالدمى ومعاملتها معاملة الاطفال ، فتلبسها ملابسها ، وتحملها الى مراقدها

(١) المقتطف : ألا تستثنى مدام كوري على الاقل ؟

وتحاول إطعامها ، كما انها تحنو على الحيوانات الداجنة وتطعمها كلما سنحت لها الفرصة ، اي انها تحاكي امها في اداء وظيفتها ، كأن طبيعتها تملي عليها انها ستصير يوماً ما من الامهات

والبنت تفوق الغلام في إظهار شعورها بحدة ، فهي تضحك وتبكي بصوت مرتفع ، وتظهر تأثرها ببيئتها بسرعة وشدة ، ولكنها تميل الى الانكماش والازواء والمقاومة السلبية إذا أغضبها أحد ، في حين ان الطفل يحتد ويقاوم مقاومة ايجابية عند الغضب

والبنات لسن كالبنين عند حصول نزاع فيما بينهن ، فهنَّ يشكونَ ويبكينَ ويسببنَ ، في حين ان البنين يتقاتلون ويتضاربون ، ويهاجم بعضهم بعضاً مهاجمة فعلية ، كأنَّ طبيعتهم تملي عليهم انهم سيصيرون رجالاً مسئولين عن الدفاع عن انفسهم وعن ذويهم

والنزاع لا يحسم بين البنات بصفة نهائية ، ولكن آثاره تبقى مدة طويلة ، وقد يسعى بعضهنَّ في الكيد والدس لبعض . ولكن البنين كثيراً ما يتصالحون ويتصافون بعد انتهاء التشاجر

وفي الغالب يتلوَّن التنافس بين البنات بألوان سيئة ، وأخلاق مكروهة ، كالحقد والكراهة وحمل الضغينة ، لا سيما ضد من كانت منهنَّ موضع التفات وعناية من بعض الاقارب او الاصدقاء

وتظهر الفروق التي بين الجنسين من الناحية الادراكية في المواد التي تحتاج الى بحث فكري واستنباط وابتكار ، فالبنات يساوين البنين بل يفقنهم في السنين الاولى من سني الدراسة التي يكون التعليم فيها محصوراً في دائرة المحسوسات، إذ انهنَّ يستظهرنَ المعلومات بسهولة ، ويعتنينَ بالنظافة ، والنظام ، والدقة في عمل التمرينات التي يعملنها ، ويقدرنَ الجمال تقديراً تامًّا ، ولذا يولعنَ بالادب قبل ان يولع به البنون ، ويجدنَ الكتابة الانشائية في اول الامر ، لاعتمادهنَّ على محاكاة ما قرأنَ في كتب الادب ، او على ما كتبه لهنَّ الاساتذة . وهذا يظهر بنوع خاص في القصص ، فالحكاية التي ينشئها الغلام تكون في الغالب مفككة الاوصال ، أما الفتاة فتنسج حكايتها نسجاً محكماً مترابط الاجزاء كامل العناصر ، وتسير بالقارىء الى نقطة الموضوع الهامة سيراً منسجماً

ولذلك نرى ان الغلمان يكذبون ، ولكن كذبهم يظهر ، لانهم لا يجيدون التلفيق . اما البنات فيفقنهم على العموم في اجادة هذا الفن . وقد دلت التجارب على ان كذب البنات اكثر من كذب البنين ، وان كذبهنَّ يتأتى في الغالب بنزعات واغراض شخصية ، فقلما تكذب البنت لانقاذ غيرها ، أما الولد فكثيراً ما يفعل ذلك . والحق ان الغلام المربَّى تربية حسنة لا يكذب مطلقاً الاَّ لهذا الغرض ، فالأولاد تنقصهم المهارة ، والتظاهر بمظهر المتأكد عند الكذب ، اما كذب البنات فنمق ملطف ، مفرغٌ بصيغة توهم السامع ان ما قيل هو الحق الصراح . وهذا نوع من المهارة اللغوية ، وهو أساس الفرق بين الرجال والنساء في وصف الحوادث الخارجية ؛ وتقدير الأعمال ، فالحق عند الرجال ما كان مطابقاً للواقع — بصرف النظر عن شكله أو صيغته . اما النساء فالذي يظهر أنهنَّ يخدعنَ بالشكل الظاهري ، وبالصيغة ، والانسجام ، والزخارف

وقد اثبتت التجارب التي قام بها كثير من العلماء في ظروف مختلفة ان البنين يفوقون البنات — في ادوار التعليم الراقي — في العلوم والرياضيات ، وان البنات يفقن البنين في الفنون كالرسم والتصوير والموسيقى والادب وتعلم اللغات

وقد بحثت اللجنة الاستشارية بوزارة المعارف الانجليزية سنة ١٩٢٢ الفروق التي بين البنين والبنات من هذه الناحية ، مستندة في ذلك الى الدرجات التي حصل عليها كل منهما في امتحانات كيمبردج المحلية فتبين لها :

« ان الدرجات التي حصل عليها البنون كانت اعلى في الرياضة — ومنها الحساب ، وفي الطبيعة ، والكيمياء ، واللغة اللاتينية ، وكذلك في الجغرافية الطبيعية

وان البنات فقن البنين في اللغة الانجليزية ، والتاريخ الانجليزي ، وعلم النبات ، والجغرافية ، واللغة الفرنسية كتابة ومحادثة ، وكذلك في الرسم والتصوير »

وهذه الفروق راجعة الى الفرق الاساسي الذي لخصه مسيو لافت بقوله : « نستطيع ان نقول على وجه العموم : ان المرأة على ما يظهر تتأثر بالحقيقة الحسية الواقعية اكثر مما تتأثر وتعنى بالفكرة العامة ، واننا معشر الرجال نعني بالعلاقة بين الاشياء اكثر مما نعني بالاشياء ذاتها ، وان عقل المرأة يتعلق بالحسيات اكثر من عقل الرجال الذي يسبح في عالم المعقولات اكثر من عقل النساء »

وقد وجد تيرمان [1] ان الكتب التي يميل البنون الى قراءتها وهم في الحادية عشرة : هي كتب المغامرات ، والاقاصيص المشتملة على مفاجآت غريبة ، وكتب الميكانيكا والطيران والكهرباء ، وكتب الاختراع والكشف ، وكتب العلوم الطبيعية وغيرها

***

اما البنات فيملن في تلك السن الى القراءة في كتب العشق ، وفي كتب القصص المتعلقة بالحياة المنزلية والمدرسية ، وفي الكتب المتعلقة بحياة الحيوان والنبات والازهار او بفلاحة البساتين ، ولا تملن الى الكتب العلمية او الميكانيكية

وقد وجد تيرمان ايضاً ان البنين في الرابعة عشرة يميلون كثيراً الى قراءة المجلات ، ويحبون القراءة عن الرياضة البدنية وعشاقها ، ويزداد شغفهم بكتب الميكانيكا ، وبتراجم الرجال ، وكتب الاسفار ، وحكايات الغابات والادغال

ويميل البنات في هذا السن الى القراءة في المجلات ايضاً ، ويشتد ولعهن بالاقاصيص الغرامية والشعر ، ولا يحفلن كثيراً بحكايات المغامرات ، ولا بكتب الاطفال

وقد اختبر « جوردان » عدداً من البنين والبنات ليعرف انواع الكتب التي يحب مطالعتها كل فريق فوصل الى النتيجة المبينة في الجدول الآتي

(1) Terman. See. The Psychology of Adolescence, by F. D. Brooks P. 295—297

المادة	النسبة المئوية من ١٢ — ١٣ سنة		النسبة المئوية من ١٤ — ١٦ سنة		النسبة المئوية من ١٧ — ١٨ سنة	
	بنون	بنات	بنون	بنات	بنون	بنات
حكايات خرافية عن الكبار	١١ر٧	٣٤ر٦	١٣ر٩	٤٨ر٣	٢٤ر٦	٥٦ر٩
حكايات خرافية عن الصغار	٣ر١	٣٨ر٥	٢ر٥	١٧ر٣	١ر٩	٩ر٧
كتب المغامرات	٦٢ر١	١٩ر٧	٦٣ر٣	٢٥ر٤	٥٢ر٨	٢٧ر١
كتب التراجم	٣ر١	ر٦	٢ر٣	ر٨	١ر٣	١
كتب التاريخ	٢ر٣	—	ر٥	—	ر١	—
كتب الشعر	ر٥	—	١ر٢	١ر٦	٣	٢ر٦
كتب العلوم	—	—	ر١	ر١	ر١	١
كتب الاسفار	—	—	ر١	—	ر١	—
كتب المعلومات العامة	ر٥	ر٢	ر٦	—	ر٦	—
كتب المزاح	٩ر٩	٢ر٥	٧ر٣	٣ر٣	٨ر٥	١ر٩
كتب فنون مختلفة	ر٣	ر٤	ر٤	—	ر١	—
لا يولعون بشيء خاص	٦ر٥	٣ر٥	٨ر١	٣ر٢	٨ر٩	١ر٧
	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

ولا يجولنَّ بخاطر القارىء الكريم ان معنى هذه التفرقة استصغار شأن المرأة او الحط من كرامتها . اذ ان التفرقة لا تستدعي الحط من الكرامة وصفات المرأة الخاصة لم تنشأ عن تأخرها في سلم الترقي ، ولكنها نتائج طبيعية للاتجاه العام المستمر نحو التخصص وتوزيع الاعمال .

يقول فوييه : « ان المرأة لم تتأخر عن الرجل بل انها سارت معهُ جنباً لجنب ، ولكن تقدمها تماً الى الناحية التي ترغمها طبيعتها على السير نحوها »

ويقول جيمز ولتون :[1] « ان قياس قوة المرأة الفكرية بقوة الرجل قياس باطل ، وان استنباط ان الرجل اعلى منزلة من المرأة من عجزها عن التفكير الفلسفي استنباط كاذب . نعم ان تقدير الرجل للقوانين والاحكام العامة شيء ، وتقدير المرأة للامثلة والنماذج الحسية المادية شيء آخر ، ولكننا لا نستطيع ان نقول ان هذا اقل منزلة من ذلك ، فكل منهما ضروري في الحياة ، والمرأة باتجاهها الى ناحيتها الخاصة تكمل الرجل في اتجاهه الى ناحيته ، كما انهُ باتجاهه الخاص يكمل المرأة في اتجاهها فكل منهما مكمل للآخر »

« فليست المسألة مسألة تفضيل الرجل على المرأة ، ولكنها مسألة بيان اختلاف كل عن الآخر

(1) See : The Psychology of Education, P. 131—132

في الصفات الجسمية والعقلية ولذا نعد عبثاً كل محاولة عملية يقوم بهما المجتمع ، وكل منهج تسير عليه الامة يكون الغرض منهُ جعل المرأة مثل الرجل في قواه العقلية ، لانها تكون حينئذٍ محاولة ضالة ، ومنهجاً مبنيًّا على اساس سيكولوجي واهٍ لا يلبث ان ينهار »

ويهمنا كثيراً ان نلفت نظر القارىء الى ان هذا البحث يفضي بنا الى نتيجة عملية لا نزاع في صحتها هي : انهُ ليس من الحزم في شيء ان نرغم البنت على ان تسير مع الولد جنباً لجنب في ادوار التعليم ، او ان نجعل المناهج التي نسير عليها في تعليم البنين مثل التي نسير عليها في تعليم البنات ، فلكل ميول واستعدادات ، ولكل وظيفة خاصة في الحياة تنتظره . فلنعد كلا لوظيفته خير اعداد متبعين في ذلك ما تمليه علينا الطبيعة البشرية ، وما يرشدنا اليه القانون الالهي الاعلى ، الذي يأبى الا ان يكون الرجل رجلاً ، والمرأة امرأة

اننا ان خالفنا تلك الطبيعة البشرية ، وخرجنا على ذلك الناموس الالهي فاننا نعرض ابناءنا لاخطار اجتماعية ربما لا يستطيعون مقاومتها ، ونقع في اخطاء تعليمية قد لا نستطيع إصلاحها

سر النوم وقرب حله

علاج للارق والامراض العصبية

يعمل نفر من علماء مستشفى الامراض العقلية في هوايتشرتش بلندن ويبذلون همة عظيمة لحل لغز يعد من اهم الاسرار الطبيعية وهو لغز النوم لكشف الحجاب عن سره وهم يأملون انهُ لا يمضي طويل حتى يستطيع الطبيب جاب النوم الطبيعي الى المريض الذي يعالجه اذا برّح به الارق مع الداء ولا سيما اذا كان من المصابين بالنورستينيا فيخلص بذلك الوفاً من الذين يموتون كل سنة لان الارق ينهك قواهم او يساعد امراضهم على الفتك بهم

والمبدأ الذي اتخذوه اساساً لبحثهم هو ان الغدد النخامية التي في قاعدة الدماغ تفرز شكلاً من اشكال البرومين وان سبب النوم اطلاق البرومين لسريانه مع الدم

وقد وصف طبيب معروف في مستشفى تشارنغ كروس معنى هذا الاكتشاف لعالم الطب فقال : ان خلو النوم ثماني ساعات من الاحلام والتقطع المزعج يعود بأعظم فائدة على المرضى والمصابين بالارق . فلذلك يعد هذا الاكتشاف اعظم نعمة على البشرية لان المريض او المؤرق الذي ينام نوم العافية بلا تقطع ينسى كل شيء في نومه فيزول المه كما يفعل السحر فاذا صحا من نومه والألم على حاله في ساعات يقظته امل ان ينام نوماً هادئاً في الليلة التالية وهذا مما يساعده على التغلب على الداء لانه ينبهه تنبيهاً معنويًّا اذا صرفنا النظر عن التأثير الطبيعي ويسبغ عليه شجاعة لمحاربة الداء

ان النوم اعظم لغز في العالم ولا يعلم احد سببه الحقيقي فاذا تمكن اولئك الباحثون من ان يقولوا لنا ما هو كان لهم فضل عظيم على الطب وعلى النوع الانساني

مهام المرأة في الحياة

للمسز روزفلت

سيدة البيت الابيض

نشرت المسز فرنكلين روزفلت قرينة المستر روزفلت رئيس الولايات المتحدة هـذا المقال في احدى الصحف الاميركية وهو ينطوي على كثير من الاختبارات والآراء النافعة فلخصناه فيما يلي:

صرت جدة واريد الآن ان اذيع اني بلغت الخمسين من عمري من دون ان اشعر بذلك واذا قدر لي ان اعيش السنين السبعين التي تمنحنا اياها التوراة فاكون قد طويت الآن من عمري ثلثيه

اسمع كثيرين وكثيرات يلقون عليَّ السؤالين الآتيين :—

لماذا تظهرين يا مسز روزفلت بمظهر الشباب ولماذا لا تزالين تنهضين باعباء اعمالك كأنك في مقتبل العمر مع انك اصبحت جدة ؟

ان هذين السؤالين يثيران فيَّ عاطفة الاعجاب ولما كنت لا ازال اشعر انني في نضارة الشباب لم يخطر لي قط ان اسأل هل اخذ دبيب الشيخوخة يدب اليَّ او هل يهددني الوهن

لا اشعر باني شيخة وهذا لا يمنعني من النفور من الذين يصرون على التصرف تصرف الشبان مع ان شبيبتهم قد ولت من عهد بعيد ولذلك احاول غير مرة ان اتذكر باني ادركت سن الكهولة ولا اسمح لنفسي او لاولادي او لاصدقائي ان ينسوا هذا الامر. ومع كل ذلك فلا اشعر البتة باني «شيخة»

وقد صرت من عهد بعيد اشعر بوجوب تمتع الانسان بالحياة والتمرس بشتى الشؤون الخطيرة التي تعرض له في حياته فان اكتفاءه بالاهتمام بالامور التي يراها عند متناوله والتي قضت عليهِ الاحوال بالتأمل فيها يحكي بسخافته جلوسه على كرسي وتأمله في الورق الملصق على جدران الغرفة بدلاً من النافذة فيجب علينا ان نوسع دائرة افق حياتنا ونتذرع بما يتسنى لنا من الذرائع لفهم حياة قريبنا ونكثر من الاصدقاء في مختلف الاوساط ونطلع على ما يشغل خواطر الناس ويستهويهم

اعرف سيدة تجاوزت السبعين من عمرها وارتاح كثيراً الى محادثتها وتشعر ابنتي بمثل ما اشعر بهِ من الارتياح الى معاشرة تلك السيدة العجوز ففي صحبتها تزول فوارق السن بيننا ولا نضطر الى التحفظ من القاء الكلام على عواهنهِ فكأن تلك السيدة الكريمة قد اكتشفت سر الشبيبة الدائمة وما ذلك السر سوى شبيبة الفكر فكم من الذين يشيخون مع بقاء اعضائهم على مرونتها في الحركة ينفرون من معاشرة الشبيبة . لقد صدئت اداة التفكير عندهم واحاطت بها الاوهام فلا قيمة عندهم الا للمبادىء التي كانت شائعة في شبيبتهم واصبحت اذهانهم عاجزة عن تمثيل المبادىء الجديدة لانهم لم يعرفوا كيف يدربونها على معالجة الجديد فهؤلاء يشيخون قبل وصولهم الى سن الشيخوخة .

وهذا ما جعلني ادرك سبب عدم تفاهم الوالدين والاولاد . ولا تقضي علينا الحال بان نهتم بترويح خواطر الفتيان والفتيات العائشين معنا بمثل اهتمامنا بترويح خواطرنا

وما عرفت واسطة لبلوغ الشيخوخة قبل الآن كترك سوانا يعمل لنا كل شيء . فالناشئة الجديدة تعدنا — من دون اطالة التفكير في ذلك — في مصاف العجائز او الضعيفي البنية لتوهمهم اننا نعجز عن عمل ما يعملونه لنا . وما نقوله عن الجسم يمكننا ان نقوله عن الفكر وقد لا يتيسر لنا في شيخوختنا تجنب الامراض التي تلم بجسمنا ولكننا اذا فكرنا تفكيراً جديًّا في ذلك مشينا منتصبي القامة الى القبر وانا موقنة ان نشاط الفكر المنوع هو افضل علاج لادواء الجسم

كنت اعرف من سنوات سيدة طاعنة في السن نحيلة الجسم لطيفة المعاشرة فذهبتُ وسيدة في مقتبل الشباب لزيارتها ذات يوم وبعد ما قضينا زيارتنا ورجعنا قالت لي السيدة الشابة هنيئًا لك بمقامك في مدينة تستطيعين كلما شئت ان تزوري فيها مثل هذه السيدة الفاضلة التي يسري حديثها الهمّ عن الفؤاد

والحق يقال ان صديقتي العجوز كانت تنسى نفسها وتظهر بمظهر اللطف والرقة والعطف والجودة والذكاء والتساهل وقد اقتبست تلك الخلال من التجارب وكانت تتفنن في طرق ابواب الموضوعات فتلجها ذاهبة فيها كل مذهب . ويحسن بالنساء الآيسين ان بقاءهنّ على نضارتهنّ منوط بحسن صحتهنّ فيجب على كل منهنّ ان تنظم اسلوب معيشتها بتعيين ساعات النوم ومقدار الغذاء وانواعه ومواعيد التنزه وترويح الخاطر من دون اذاعة ذلك على رؤوس الاشهاد

وما اكثر النساء اللواتي يعنينَ بتربية اولادهنّ ويهملنَ العناية بانفسهنّ فالالعاب الرياضية تعد من خصائص المرأة العصرية وهي تشمل رياضة الجسم ورياضة الفكر . ولا ينبغي للمرأة ان تنبذ هذه الرياضة مع تقدمها في العمر فلعبة الجولف مثلاً تلائم المرأة التي هي في الستين من عمرها ملاءمتها للفتاة التي لا تزيد سنها على ثماني عشرة سنة . واذا كانت المرأة قد تعودت ركوب الخيل في العشرين من عمرها فلا مسوغ للعدول عن ذلك حينما تبلغ الثمانين ولكن لا بد لها حينئذ من الاعتدال

اما مهمة المرأة الجوهرية فهي ان تجعل حياتها وحياة الذين تحبهم والذين لها صلة بهم على جانب عظيم من الهناءة والراحة ومن الواجب عليها ان تجعل الحياة محبوبة وذات معنى

فالمرأة التي تعود بالفكر الى الذكريات الماضية تغتبط بان يكون لها الفضل على والديها وزوجها واولادها بجعل روض حياتهم خصباً وجعل شمس البهجة تشرق فيه

واذا شاءت المرأة ان تجعل الذين يحيطون بها راتعين في بحبوحة الهناءة كان امامها مجال واسع للعمل والتفكير ولا يبقى لها وقت لجمود جسمها وقلبها وفكرها . والمرأة الطاعنة في السن لا تخلو حياتها من الفائدة أبداً . أجل انه لا سبيل لها الى المجاهرة بمثل ما كانت تجاهر به من الحب في ابان شبيبتها ولكنها تشتد فيها قوة الفهم والادراك والشعور والحنان مما يساعد الذين تحبهم على المعيشة وفقاً لما تمليه عليهم عواطفهم من دون ان تضطرهم الى العمل بمشيئتها

باب المراسلة والمناظرة

صورة قلمية

ديمتري بك خلاط

بقلم نقولا شكري

كل ما هو خير وقوة في الطبيعة يستحيل في الغالب الى مزايا وصفات سامية في الانسان .
كذلك استحال اخلاف النورمانديين الذين انحدروا الى غرب اوربا من ملاّحين وغزاة الى تجار ومستعمرين بسطوا جناح سيطرتهم على جزء من العالم لا تغيب عنه الشمس

ومن الممكن ان يقال ايضاً عن طبيعة الشرقي انها بمقدار ما تختزن من الخير منذ القديم لا تزال تهب الشرقيين مزايا وصفات يندر ان توجد في غيرهم . ولم تكن رمال الصحراء في بوادي الحجاز تخلو من هذه المزية فان العرب قد استحالوا من رجال اكفاء الى فاتحين وحكّام

وكأنما يعد من تقاليد الشرق ان يكون الشرقي تاجراً وفي الوقت نفسه أديباً او عالماً واسع الاطلاع او بالعكس مشتغلاً بالعلم وفي مزاجه حب العمل والتوسع في الرزق بوسائل تنم على ذكائه واتصاله القوي بالطبيعة عن طريق المعاملات المادية

ولقد سبق ان كتبنا عن شرقي كبير من العصاميين الذين استحال فيهم خير الطبيعة الشرقية الى مزايا وصفات سامية ونعني بذلك كبير تجار الخشب الكاتب الباحث أسعد باسيلي

ونود ان نقوي هذا المثل في نفوس النشء بوصف شخصية اخرى من هذا الصنف من الرجال الذين كان اساس نجاحهم يرجع رأساً الى الفطرة . شاعر وتاجر من الطراز الاول لا تزال حياته واعماله مثلاً يستحق ان يقتدى به هو حضرة صاحب العزة العالم العامل ديمتري بك خلاط

قلنا ان خير ما في الطبيعة يستحيل بالعصاميين الى مزايا ومواهب سامية ولعلّ أصدق صورة لذلك تتمثل في ديمتري بك خلاط

بدأ حياته بالاشتغال بالادب والعلم وهي وظيفة لا نزال نعدها من الوظائف الكمالية ولكن يغيب عنا دائماً انها من تقاليد الفطرة الشرقية التي كأنها تأبى ان تقطع شوطاً في سبيل النبوغ والنجاح قبل ان تدل على مواهبها السامية أما في العلم او في الادب . وقد كان نبوغه في التجارة والاعمال المادية الصرفة بعد ان اشتهر اسمه كشاعر وكاديب . وكانت كبريات المجلات العربية قد

فتحت لكتاباته صفحاتها فانتج كثيراً من قبل ان يحقق بذكائه ذلك النجاح العظيم الذي وفق اليه في الاعمال التجارية . ولم يكن من الممكن لرجل دلّ على مواهبه السامية في الادب ان يؤدي مهمته الكبيرة في الاعمال المادية من دون ان يحقق معجزة تميزه وتشير الى فضله وقد كانت العادة المتبعة لعهده ان التجار يستوردون بضائعهم من الاسواق الكبيرة في اوربا ولكن ديمتري بك خلاط التاجر خالف هذه السنّة بذكائه وجعل يستورد هذه البضائع عينها من مواردها الاصلية فخلق لنفسه خطوطاً تجارية جديدة ساعدت كثيراً على نجاحه . ويجب ان نعترف بأن النجاح الكبير في التجارة ليس بالمهمة الميسورة ولكن ديمتري بك خلاط امتاز فضلاً عن مواهبه بالجرأة وهي رأس مال التاجر وربما كانت جرأته هي اساس اتساع معاملاته عند ما اختار ان يكون من رجال الاعمال . وهي تلك الجرأة نفسها التي جعلت منه في بادىء الامر أي قبل هجرته الى مصر كاتباً حرّ الفكر لا يطيق الصبر على الافتئات والازدراء بالحقوق . فقد يذكر لديمتري بك خلاط الاديب تلك المقالات الرنانة القوية التي ثار بها على رجال الحكومة في بيروت وطرابلس الشام وقت ان كان الشاعر الرقيق والاديب السليم الذوق والافكار . وقد استحال ذلك الشاعر عند ما بدت له وجوه النقص التي يكابدها الجمهور الى صحافي جريء لا يهاب تهديداً ولا وعيداً في سبيل نصرة الحق فأفضت حملاته الى قيام النزاع بينه وبعض أهله . بل لقد أفضت الى هجرته لموطنه وهبوطه مصر حيث صار من رجال الاعمال البارزين

ولم تكن هجرته سبباً في ظهور مواهبه وفطرته الشعرية فقد اشتهر بهذه المواهب وتلك الفطرة وهو بعد فتى في موطنه طرابلس الشام وكان يملأ بمقالاته وشعره اعمدة « الجنان » و« الجنة » اللتين كان يصدرها المرحوم المعلم سليم البستاني فقد خص الاول بالادب والثانية بالسياسة وربما كان من المستظرف ان نذكر لهذه المناسبة محاولة قامت بها الجنان وتتثذر في تعريب قصة « سرفانتس » المشهورة باسماء عربية . وهي محاولة تدل على اخلاص ذلك الجيل من الادباء في جهودهم . ولم يكن شاعرنا وقتئذ ينقصه ذلك الاخلاص في اعماله الادبية . بل لقد كان اخلاصه مقروناً بالجرأة وحرية الفكر فكان الى جانب شاعريته وأدبه خطيباً قوي النفس اتفق انه في سنة ١٨٨٩ القى خطاباً في تاريخ التمدن الانساني على غرار خطاب جان جاك روسو في الاختلاف بين حالات الناس « عدم مساواة الناس » ونشر الخطاب في صحيفة الاهرام فكان له أثره العظيم الذي ادى الى تعرفه بتلاميذ جمال الدين الافغاني ولاسيما امير بلغاء ذلك العصر وسيد خطبائهم ونعني به أديب بك اسحق وكان وقتئذ يدير جريدة مصر ويحررها . ونحن نعلم مقام اديب بك اسحق وفضله واثره العظيم الذي خلفه في ادباء العصر الاخير فجعل ديمتري بك — وكان لا يزال شاباً مملوءاً حماسة يعمر قلبه الاخلاص والوطنية والشعور القومي — يكتب المقالات والرسائل في جريدة مصر . ولاشك في ان الذين يحفظون ذكرى اديب بك اسحق يغبطون ديمتري بك خلاط على الحقبة التي نعم بها بصداقة خطيب عصره

صاحب جريدة مصر . ولاشك ان هذه العلاقة وغيرها لم تكن بلا تأثير في شاعر ناشيء قد ادّخر له الزمن القيام بجهود ادبية ومادية من الطراز الاول

وفي الحقيقة ان ديمتري بك خلاط جعل يباري بقلمه واتخذ من جريدتي مصر والاهرام ميداناً لاظهار مواهبه وبلاغته فنشر في الاخيرة رواية «عزة النفس» ضمنها افكاره الحرة عن دياجي الاستبداد التي كانت مخيمة ومنتشرة على افق الشرق وكان ذلك قبيل سنة ١٨٨٢ وكذلك شهد ديمتري بك خلاط خير عصر من عصور الادب في مصر ، هو ذلك العصر الذي اشتهر بالاسماء الخالدة التي تستحق تمجيدنا واعترافنا بالجميل، عصر جمال الدين الافغاني ومحمد عبده واديب اسحق وعبد الله نديم وابراهيم اليازجي وغيرهم من الذين اقاموا قواعد هذه النهضة وبنوا للاخلاف ذلك الهيكل العظيم الذي نمجده الى اليوم

وفي ذلك العصر الذي امتاز بتحرره من القيود عاش ديمتري بك خلاط . ولا شك ان ارتباطه بالعلاقات الادبية مع عظماء ذلك العصر قد وهب لتفكيره كثيراً من الحرية والروح العملي الذي هو اساس الانتاج . ولما كان ديمتري بك خلاط قد هبط مصر قبيل الثورة العرابية وشهد حريق الاسكندرية سنة ١٨٨٢ لم يكن من الممكن ان يشذ عن الحالة التي سادت مصر في ذاك الوقت ، فانهُ عقب خمود تلك الحركة استأنف الناس في مصر اعمالهم وكان ذلك بقوة وجهد عظيمين كما يكون عادة عقب الفترات التي تشل فيها حركة الاعمال فاختار ان يقف كل جهوده على توسيع دائرة اعماله التجارية وكان لا بد ان تعينهُ مواهبه وذكاؤه الفطري على النجاح فكان اول ما فكر فيه كما قلنا استيراد انواع من البضائع من مصادرها وعيونها على خلاف ما يفعل سائر التجار ولم يستنفد العمل التجاري مع ذلك جهوده فقد كان يسترق الوقت للاطلاع والتأليف ولم يترك وقتاً يفلت منهُ دون ان يقيد رسالة او ينظم قصيدة وكان من حظهِ وحظ الادب وقتئذٍ ان قدم استاذه وصديقه العلامة الدكتور يعقوب صرُّوف مع رفيقه الدكتور فارس نمر فنقلا الى القاهرة ادارة المقتطف وانشأا بالاشتراك مع المغفور له شاهين بك مكاريوس جريدة المقطم فظلَّ من ذلك الحين يوالي المقطم والمقتطف بمقالاته وقصائده . ونذكر انهُ في سنة ١٨٨٨ نشر في المقتطف قصيدة سماها « القصيدة الهندية » وهي من بدائع الشعر العصري ومن خير ما نظمه شاعرنا منها قوله : —

أراك في يقظة من لوعة الألم ... إني شبيهك مكلوم فمي كلمي

أصغي ولا تعجبي مما اصبت به ... اني سعيت الى حتفي على قدمي

وقد حصدت ثمار الوجد يانعة ... لما زرعت بذور الضر والنقم

وهكذا الذنب مشفوع بنقمته ... وصاحب البرّ لن يشقى ولم يلم

وقد نشرت هذه القصيدة في خير صحف العلم والادب في الشرق العربي وفي مصر حيث امتازت الاكثرية بتذوق الشعر الجيد وتقديره . نقول انه بلغ من استحسان القراء لهذه القصيدة ان المقتطف اعاد نشرها كاملةً بعد سنوات

ومثل ديمتري بك خلاط الرجل الذي كان حب الاطلاع قد استحوذ على ذهنه ، وكان شغفه بالجديد والطريف مزية لمواهبه كشاعر عصري وأديب ملم باللغات الحية ينقل عنها مختارات الرسائل بذوق سليم ومقدرة فائقة — كان من الطبيعي ان تحمله مهمته كتاجر الى القيام برحلة واسعة في انحاء اوربا فجعل زيارته لمعرض باريس الذي اقيم سنة ١٨٩٠ وسيلة لتحقيق هذه الرحلة التي اطلع فيها على مراكز الصناعة والتجارة في العالم المتمدن وقيد ملاحظاته كتاجر واسع المعاملات او كاديب دقيق الملاحظة ميال بفطرته الى الطريف من الاشياء فجاب اوربا غرباً وشرقاً وزار متاحفها والاوساط الكبيرة ورافقته في تلك الرحلة زوجته الفاضلة وهي من السيدات المستنيرات تجيد مع لغتها العربية الانجليزية والفرنسية وتحسن الكلام بالايطالية واليونانية والالمانية . ونعلم ان والدها المرحوم وهبة الله كرم عني بتثقيفها عناية كبيرة ونعتقد ان من النعم الكبرى ان تكون الزوجة مستنيرة تشارك زوجها افكاره وطباعه وتعينه في جهوده كذلك كانت مدام ديمتري بك خلاط وقد جمعت الى هذه الاستنارة اخلاقاً سامية وتواضعاً كبيراً ولا تزال تساعد زوجها في اعماله وتقيد ما يمليه عليها بعد ان حال الداء الذي اصابه في عينيه عن ادائه لهذه المهمة

ولما عاد من رحلته وضع كتابه النفيس الذي اسماه « السمير في السفر » وضمنه ملاحظاته ومشاهداته وظهرت في ذلك الكتاب مواهب الشاعر والاديب الاريب في تصوير المدن والناس ووصف العادات ولولا ان اصيب منذ سنوات بداء كان يوشك ان يودي بحياته وكتب له الشفاء منه لما انقطعت اعماله الادبية الجليلة التي كانت نواة مجده ونجاحه الكبيرين في ميدان الاعمال

ولقد زرت ديمتري بك اخيراً في منزله وسرني ما شاهدته في فردوسه الارضي كما يسميه وحسب هذه التسمية دليلاً كبيراً على حب الشاعر التاجر لمغناه الذي تتولاه سيدة من انبل العقيلات وافضلهن خلقاً فانشدني ابياتاً فكهة شكا بها الداء الذي اصابه في عينيه « كتراكت » وحجب النور عنهما ضمنها مصراعاً من شعر لبيد قال : —

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال اهلي ماذا تأكل في غد
اكبيبة ام سمكة مشوية ... ام لون أرز بالفراخ مزود
ام هل تروم السير في سيارة ... تطأ الثرى في خفة كالهدهد

ومنها : — كلا . فما من لذة مذ مقلتي ... حرمت قراءة كل سفر جيد
حسبي ضباب بالعيون مخيم ... في كل آن بالظلام مهددي

وانشدني قصيدة اخرى عن الحرية قال — :

جاءت مقنعة بالحلم زائرة ... تشق صدر الدجى في طلعة الفجر
فقلت يامهجتي طال البعاد فهل ... يبقى الحجاب على محياك والنحر
هلا تميطينه قالت أنضمن لي ... رؤيا الرقيب فيدري كامن السر

ومنها : — تورعت من هوى المحبوب في زرد | يرد سهم العدى بالذل والكسر
والحب ليس جميلاً الا صادقه | قولاً وفعلاً شريف القصد والفكر

ومنها : — بالله يا معشر العشاق فانشدوا | وقلبوا الرأي بين الحلم والصبر
فهل تظنون قلبي كرة صنعت | لعبة الناس بين الكر والفر

ومنها : — هل حالة القفص المصنوع من ذهب | لنفسنا فرج من خيفة الحصر

وبقي ديمتري بك خلاط ينهض باعماله التجارية خير نهوض من دون ان ينقطع عن الاشتغال بالكتابة والشعر. وفي سنة ١٩٢٠ نقلت جرائد سوريا قصيدته اللبنانية التي نشرها في المقطم يؤيد بها رأي اللبنانيين في ضم مدن صيدا وبيروت وطرابلس الى لبنان بعد انفصالها عنه سنة ١٨٦٠ وكانت منه بمنزلة القلب من الجسم فأفضى السعي الى ان رفعت الدولة المنتدبة ذلك الجور عن لبنان واعادته الى حدوده القديمة واطلقت عليه اسم لبنان الكبير

وكذلك كان شاعرنا الجليل موفقاً الى القيام بجهود مثمرة في دائرة السياسة كتوفيقه في الشعر والادب

وفي خضوع ذلك كان تقدير صفات ديمتري بك خلاط من جميع الذين عرفوه وعرفوا فضله ومواهبه فانعم عليه سنة ١٩١٧ برتبة البكوية تقديراً لمكانته وكان من قبل قد اشترك في عضوية بعض الشركات والجمعيات لاسيما مجلس ادارة البورصة ومجلس ادارة شركة الملح والصودا والجمعية الخيرية للسوريين الارثوذكس وهو الذي تولى تصفية البورصة من المساهمين وكان وقتئذ قد احرز مكانته العظيمة في الدائرة التجارية مقدار ما ذاعت شهرته كاديب وشاعر . وفي سنة ١٩٢٦ انعمت عليه الحكومة البلجيكية بنشان رفيع تقديراً لمكانته وجهوده في سبيل شركة ترام الاسكندرية والرمل

***

هذه الحياة الكبيرة الحافلة بالاعمال والانتاج القيم التي جعلت من ديمتري بك خلاط تاجراً عظيم المكانة تستحق ان نسوقها لشباب هذا العصر لكي يقتدوا بها فان الاعمال المادية لا تعوق ابداً الاشتغال بالتفكير المنتج ولا تحول دون الانتاج في الادب . لقد رأينا كيف ان شاعرنا كان يقوم بتوسيع علاقاته ومعاملاته التجارية دون ان يمنعه ذلك من الاشتهار في الادب والشعر . ولا بد من معرفة الصفات التي امتازت بها شخصية ديمتري بك خلاط فهو رغم اشتغاله بالاعمال التجارية التي رفعت مكانته قد اشتهر بميوله الانسانية وتواضعه وهدوء نفسه

وديمتري بك قد بلغ اليوم حدود السبعين ولا يزال على عهده من الصراحة والجرأة وتلك الدقة التي التمها في تنظيم حياته واعماله . ولعلَّ ذلك اظهر صفاته وهي الصفات التي كوَّنت عناصر نجاحه . وهو رغم الصبغة الاوربية التي استحوذت على حياته بداعي الضرورات الاجتماعية فان هذه الحياة في جوهرها تمثل الاحتفاظ بالتقاليد الشرقية



عصر التبسيط والتعميم (١)

فتوحات العلم الحديث

في هذا العصر حاجة دائمة الى تبسيط العلوم والمعارف وتعميمها ، لانهُ عصر الجمهور وعصر الاخصاء

فالجمهور لا يفهم التفصيلات العلمية والدقائق الفنية ، ولا طاقة له بدرس المشكلات وحل الغوامض ولكنهُ يعيش في عصر كثرت فيهِ المخترعات التي يستفيد منها ولا بدَّ له من السؤال عن سببها ، ولا بدَّ له من جواب سهل صحيح يغنيه ما استطاع ويتيح له ان يعيش في زمانه كما يعيش البصير المدرك لما حوله . فكتب التبسيط العلمي تسد هذه الحاجة وتحقق وجود الانسان في عصره ، لانهُ بغير المعرفة التي يستمدها من تلك الكتب يعاني غربة عن الزمن شرًّا من الغربة عن الوطن ، ونعم الكتاب الكتاب يضع الحياة في مستقرها ويرد العقل الانساني الى زمانهِ ومكانهِ

وهنالك من العلماء السبّاقين من يفهم الدقائق المفصلة في علمهِ ولا يتسع وقته لفهم المبادىء المجملة في العلوم الاخرى فقد يبلغ من اتساع الطب والهندسة وعلوم الطبيعة ان يكون الفرق بين طبيب في فرع من الطب وزميل له في فرع آخر كالفرق بين الطبيب عامة والمهندس عامة ، من حيث الاحاطة باجزاء العلم وأبوابه ، فليست الحاجة الى التبسيط والتعميم مقصورة على جمهرة العامة والسواد دون الخاصة من فطاحل العلماء ، بل هي حاجة يدعو اليها فرط العلم وقلة الحظ منهُ في آن واحد ، إذ ليس يجمل بالقانوني الضليع أن يصغي الى حديث عن « المذيع » الذي يسمعهُ باذنيه كأنهُ يصغي الى رطانة او طلاسم ، وليس يجمل بالعالم الزراعي ان يصغي الى حديث عن السماء وشموسها وسياراتها كأنهُ لا يرتفع بصره من الارض التي يزرعها ، وانما يجمل بكل عالم ان يستوفي علمه ولا يجهل الضروري من العلوم كافة ، وهو في هذا يلتقي بجمهرة السواد في الحاجة الى مراجع التبسيط والتعميم

---

(١) « فتوحات العلم الحديث » اسم الكتاب الذي اصدرته مجلة المقتطف في اوائل سبتمبر ليكون هدية الى مشتركيها بدلًا من عددي اغسطس وسبتمبر سنة ١٩٣٤ — صفحاته ٣٣٦ صفحة قطع المقتطف . وهذا هو المقال الذي تفضل فكتبه فيه الاستاذ عباس محمود العقاد ونشره في الصفحة الادبية من جريدة الجهاد وقد نقلناه باذن منه

وقد نشأت في اوربا شركات كبرى لنشر الاصول العلمية والفلسفية والادبية في قالب سهل التناول مفيد لجميع الطبقات ، فاصبح في مقدوركل قارىء ان يطلع على اغرب الحقائق العلمية والعقلية مفسرة ميسرة في رسائل صغيرة حسنة التمهيد والتقسيم تعطيه ما يغنيه وتريحه مما يشكل عليه . والى جانبي — وانا اكتب هذا — عشرات من المجالات تصدرها شركة ارنست بن في مختلف المعارف الانسانية وقد عهدت في كتابة كل مجالة منها الى حجة عليم بتلك المعرفة ، وهأنذا أتناول عشراً منها بغير ترتيب مقصود ، فاذا المجالة الثامنة عشرة في تاريخ الهند ، والتاسعة عشرة في الاسلام ، والعشرون في عهد الاصلاح ، والحادية والعشرون في الصحافة ، والثانية والعشرون في السكك الحديدية ، والثالثة والعشرون في المصورين الانجليز بالالوان المائية ، والرابعة والعشرون في فلاسفة العالم العظام ، والخامسة والعشرون في الحرب على اليابسة ، والسادسة والعشرون في رؤساء الوزارات الانجليز ، والسابعة والعشرون في علم الجريمة ، والثامنة والعشرون في القصة الفرنسية ، وقس على ذلك تنوع المعارف واتساع الافق وكثرة الموضوعات ، فاذا فرغت من قراءة الرسالة ولم تستوف كل ما تتوق اليه من شرح وتفصيل فأنت واجد في الصفحة الاخيرة منها سجلاً باسماء الكتب المتداولة يحصي لك اهم المراجع واحقها بالاعتماد ويدع لك ان تختار منها ما تشاء للتوسع والاستقصاء

ونحن احوج من الاوربيين الى امثال هذه المجالات او الى تبسيط المعارف وتعميمها وتشويق القراء اليها . ولهذا نرحب كل الترحيب بالسفر الجديد الذي اصدره الاستاذ الباحث فؤاد صرّوف محرر « المقتطف » ونعني به « فتوحات العلم الحديث » فانه سفر حافل بالبسائط الجليلة يدور البحث فيه على نحو ستين موضوعاً من المعارف الانسانية التي تدخل في علم الاجتماع والعمران او علم الفلك والسماوات او علم الطبيعة وألغازها او علم الطب او علم الحياة وما بين ذلك من مباحث يمتزج فيها العلم والفلسفة والتقرير بالتقدير ، وقد افتتحه الاستاذ بكلمة مقتبسة من « هربرت هوفر » رئيس الولايات المتحدة السابق يقول فيها : « ان علماءنا ومستنبطينا اغلى الممتلكات القومية التي نملكها . كل مبلغ من المال مهما يعظم ضئيل ازاء عمل هؤلاء الرجال الذين يملكون قوة الابداع والتفاني والمثابرة على ترقية الفكر العلمي خطوة خطوة حتى يصلوا به الى البيوت فينشروا فيها اسباب الصحة والراحة والرفاهة ، اننا لا نستطيع ان نقيس ما عملوه لترقية العمران بكل ارباح البنوك في جميع ارجاء المعمورة »

وهذه كلمة بديهية ولكنها ضرورية من رئيس جمهورية يخاطب الناس عامة ، فان الغريب في نظرنا ان توضع « ارباح البنوك » موضع المقابلة والموازنة لفتوح العقول ، ولكن ربما كان في الدنيا ملايين يستغربون ان توضع فتوح العقول موضع المقابلة والموازنة لارباح البنوك في جميع ارجاء المعمورة ، فهؤلاء يحتاجون الى تلك الكلمة من رئيس حكومة يعنى بالمعيشة قبل عنايته بالتفكير . وتحضرنا لهذه المناسبة كلمة الشاعر الالماني الاسرائيلي هنريك هيني التي يقول فيها على طريقته

في مزج التهكم بالجد : ان ابناء اسرائيل تركوا هيكل سليمان يحترق بما فيه من الحلى والجواهر والتحف النوادر ولم يستنقذوا منهُ الاَّ الكتاب . . . أليس هذا حجة على فضل الكتاب من « آل خبزة » بالاموال والنفائس ! !

وسيرى الذين يطلعون على «فتوحات العلم الحديث» انه امتع من قصة واولى بالقراءة من كتاب تسلية ، فهو اشبه بدليل الآثار الذي يتفقده السائح كل لحظة ولا يستمتع بسياحته أو يستفيد منها بغير الرجوع اليه ، وكذلك هذا الكتاب عند من يرى عجائب الكون وألغاز العلم في العصر الحاضر فهو دليل يريه واضحاً ممتعاً ما كان يراه غامضاً مغلقاً لا يتصل بالعقل ولا بالشعور ، وان انساناً يعيش في عصرنا ولا يشعر بالحاجة الى استطلاع هذه العجائب والالغاز لهو أغرب من سائح يزور الاهرام وابواب الملوك وقصر أنس الوجود ولا دليل معه ولا اطلاع على التاريخ

***

قال الاستاذ فؤاد صرّوف في مقدمته على مقام العلم في الحضارة : « كثيراً ما نسيء فهم الفرق بين البحث الصناعي العملي والبحث العلمي المجرد ، ان البحث الصناعي بطبيعته يتجه الى حل مسألة خاصة تعترض سبيل الصناع في عملهم ، فاذا توصل الباحث الى حل المشكل الذي امامه قضى لبانته من البحث وحول جهده الى غيره جاعلاً همه في كل عمله الوصول الى غاية معينة . اما البحث العلمي فغايته توسيع نطاق المعرفة بكشف نواميس الطبيعة والحياة ، وبعض هذه المباحث قد يعود — وكثيراً ما يعود — على الصناعات بفائدة اكبر واعم من المباحث الصناعية الضيقة النطاق التي يقصد منها حل مشكلة خاصة . فالبحث الصناعي قد يكون وسيلة لاتقان جزء خاص من المحرك الكهربائي او المصباح الكهربائي ولكن البحث العلمي المجرد الذي كشف لنا ناموساً واحداً من نواميس الكهربائية جعل كل المحركات وكل المولدات الكهربائية في حيز الامكان ، ولولا كشفه لما كانت هي على الاطلاق»

وقد صدق الاستاذ في ملاحظته العلمية الفلسفية . فان الواجب الاول على طلاب الخير للانسانية ان يغرسوا في النفوس حب الاستطلاع لانه يدل على سعة الحياة والشوق الى المزيد منها ، ثم تجيء الصناعات والفوائد المعيشية مما يكشفه المستطلعون ويبدعه المخترعون ، فحب الاستطلاع كفيل بأن يمتعنا بالحياة والشعور ، ويزوّدنا بالمنافع والصناعات ، وليس الفرق بين امة رفيعة وأمة وضيعة الاَّ الفرق في حب الاستطلاع الذي يؤدي الى اقتحام الجديد من الابواب وفتح المغالق من الاسرار ، وأول ما يبدو من علامات ارتفاع الامة ان تتصرف في معاشها تصرف المؤمنين بهذه الحقيقة . اما الامم التي لا يطمح فيها الانسان الى شرف المعرفة الاَّ اذا نقدوه الثمن سلفاً من الفوائد المحسوسة فبينها وبين التقدم والارتفاع شوط بعيد

عباس محمود العقاد

ما قلَّ ودلَّ

تأليف احمد الصاوي محمد — مجلدان صفحاتهما ٤٧٨ — قطع صغير — مطبعة دار الكتب

ينعم بعض الناس ، بموهبة النظرة السريعة الخاطفة ، يستجلون بها غامضاً من الغوامض ، او ينفذون بها الى كنه عمل من الاعمال او نفس من النفوس ، او يرون بها في حادث عبرة لا يراها الغير ، او يصيبون نكتة قد تجيء هي والعبرة سواء . والصاوي أحد هؤلاء . بل انهُ علاوة على ذلك كاتب رسَّام ، يرسم بالكلمات المشاهد والحوادث احياناً ، وخلجات النفس او همسات الضمير او العبرَ المستخرجة من كل ذلك احياناً اخرى ، وهو الغالب . فهو اذا رأى في الشارع فتاة تسير مرفوعة الرأس معتزَّة بجمالها مزهوَّة زهواً يكاد يبلغ حدَّ الصلف كأنها تتحدَّى النساء وتكيد للرجال لم يكتفِ بقوله انها مسرفة وانها معتدَّة بنفسها ، بل نظر اليها نظرة عاطفية فأسند اعتدادها بنفسها الى « ان قلبها لا يزال خالياً ، فهي تسير شاعرة باستقلالها ، تقطع الطريق رافعة الرأس لانها ترى من حولها القيود والاغلال . . . . أنا افهم هذا الجبين المرفوع . . . . انهُ رمز التحرُّر من عبودية الجيل ، ولكنهُ رمز لا يطول مداه ، فان الرجل يتربص بهِ . . . . » وفي هذا التعليل كثير من الشعر

او قد تأتيهِ رسالة يستفتى فيها في موضوع عاطفيّ خاص وهو في الوقت عينهِ اجتماعي عام . أين تضع قلبها ؟ فيردُّ وفي قوله حكمة خالصة : « نعم يا سيدتي لها حق الحبّ والحياة على شريطة ان تعرف اين تضع قلبها ، صحيح ان هذا القلب ملكها ولكن ليس للمالك ان يلقي برأس مالهِ كلهِ في البحر ويجلس بعد ذلك على الشاطيء يندب سوء المآل ، بل ان المال الضائع قد يعوَّض اما القلب المنكسر فهيهات ان يجبَّر . والفتاة المصرية يا سيدتي . قلما تعرف كيف تحب ، لانهُ لاسبيل لها الى اختبار النفوس ، فهي لا تكاد تحبُّ الاَّ الوجوه ، والوجوه كثيراً ما تكون خادعة »

واغلب ما يراه في شؤون المرأة المصرية ونهضتها ومكانتها الاجتماعية، متسم بسمة الجرأة والحكمة. وقد تكون اقوالهُ هذه في نظر الذين خبروا الحياة في الاوساط الاوربية او في اوربا نفسها ، كلاماً معاداً ، ولكن هؤلاء ينسون ، ان « نسبية » اينشتين ، ليست محصورة في الرياضة العليا والطبيعة

ولهُ كذلك في الاجتماع المصري نظرات ينقد بها ما يراه فيهِ من مواطن الضعف ، في بعض العادات والتقاليد ، ولكن ذلك لا يحول دون تمجيد ما يراه جديراً بالتمجيد ، مستعيناً عليهِ بأقوال الحكماء وعِبر التاريخ . بل انك لتقع احياناً على مقطعات في صفحاتهِ هذه ، تنم على شاعرية صاحبها مع اننا لا نعلم انهُ نظم او حاول نظم الشعر

ولقد أنصف الاستاذ انطون الجميِّل بك في تقديرهِ هذا الكتاب اذ قال في مقدمتهِ : « بعض مقالات « ما قلَّ ودلَّ » وليد الحوادث اليومية العابرة ، يذهب معها وينطوي بطيِّها ، والبعض الآخر يتناول موضوعات اجتماعية وخلقية وقومية ثابتة لا تضيع بهجتها ولا تبلى جدَّتها » . فالذين يطلبون

من الصاوي التعمق في كل موضوع يتناوله ، يفسرون انهُ صحافيٌّ ، يكتفيه في التعليق على حوادث يومهِ ، ما تمليهِ عليهِ البداهة التي صقلها الاختبار وحفزها حب الخير ، فيدل على مواضع للبحث والتنقيب والتبسط ، يعالجها المتفرغون لذلك . ولا يصح ان نختم هـذه العجالة في كتاب « ما قلَّ ودلَّ » من غير ان نشير ، الى ان الصاوي — مشتركاً مع مطبعة دار الكتب المصرية — جدير بأعظم الثناء ، على عنايته العظيمة بالناحية الفنية من طبع كتابهِ . فالحجم الذي اختاره ، والرسوم التي زان صفحاته بها ، والغلاف البسيط الرزين الفري الذي غلفهُ بهِ ، كل ذلك يجب ان يصبح مثلا للمؤلفين والناشرين يحتذونهُ . فانهُ اثبت انَّ في إمكان المطبعة العربية، اخراج كتب متقنة الطبع تبهج رؤيتها العين والنفس، وكم من كتاب نفيس كانت بليتهُ في سخف ورقهِ وسقم طبعهِ

تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني

حاكم لبنان من سنة ١٥٩٠ الى سنة ١٦٣٥

صفحاته ٤٠٠ بالقطع المتوسط وثمنه ١٣٥ قرشاً سورياً في الخارج

الف هذا الكتاب حضرة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف عضو مجمع اللغة العربية الملكي بمصر وعضو المجمعين العلميين في دمشق وبيروت فجاء حافلاً بالمعلومات التاريخية الطريفة والبيانات المفيدة التي كان اكثرها مجهولاً لدى المشتغلين بالتاريخ . ويحتوي هذا الكتاب على خلاصة وجيزة لتاريخ لبنـان في زمن الفتح العثماني استطرد منهُ المؤلف الى الكلام عن نسب الاسرة المعنية وعن نشأة فخر الدين الثاني المعني وعن توليه حكم لبنان وعن سفره الى ايطاليا لاجئاً الى حكومتها ثم رجوعه الى بلاده وعودته الى تسلم زمام الحكم وتوسيعه نطاق امارته حتى طرابلس وحلب وفلسطين ودمشق وما تلا ذلك من حرب الدولة العثمانية له والقبض عليهِ وعلى اسرتهِ وارسالهم الى الاستانة وقتله واولاده فيها

وفي الكتاب مباحث وافية عن اعمال المعني العمرانية وعن علاقاته بفرنسا وايطاليا ومعاهداته معهما وعن البعثات الدينية الاجنبية وتاريخها في الشام . وعن عادات الامير واخلاقه وعائلته مع رسوم شمسية نادرة . وقد رجع مؤلفهُ الفاضل الى كثير من المصادر التاريخية الايطالية والفرنسية والتركية والروسية والالمانية والمخطوطات العربية التي لم تنشر فجاء وافياً بالمقصود يمثل الحياة العامة في لبنان اصدق تمثيل في تلك الحقبة ولا يستغني عنهُ الذين يعنون بالعلوم التاريخية ويحرصون على دراسة حالة لبنان في تلك العصور وما بلغهُ من تقدم وعمران على يد اميره المعني

واعترافنا بفائدة الكتاب وتنويهنا بخطورة شأنه من الجهتين التاريخية والعلمية لا يمنعاننا من تذكير حضرة مؤلفهِ الفاضل بملاحظة بسيطة تختص « بالشكل » لا « بالموضوع » . وهي كثرة الحواشي وتعددها في ذيل صفحاته حتى يكاد القارىء يضل في تيهها الواسع فينصرف عن تلاوة المتن مع انهُ لو ادمج معظمها في متنهِ ما دامت متصلة بالموضوع او لو افرد لها صفحات خاصة وضعت كملاحق يرجع اليها القارىء المتبحر لخففت بعض العناء عنهُ ولعلهُ يأخذ بها في الطبعة الثانية ان شاء الله

مفتاح كنوز السنّة

وضعه بالانجليزية الاستاذ فنسنك وترجمه الاستاذ «محمد فؤاد عبد الباقي»
نشرته «لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية» مطبعة مصر سنة ١٣٥٣هـ سنة ١٩٣٤م

كتب الاستاذ العالم الجليل السيد محمد رشيد رضا المقدمة الاولى لهذا الكتاب ، والمقدمة الثانية كتبها المحدث البارع الاستاذ الشيخ احمد محمد شاكر ونحن ننشر هنا جزءًا من هذه المقدمة النفيسة لنفي بالغرض في تعريف القراء بهذا الكتاب : قال

هذا الكتاب جعله مؤلفه فهرساً لثلاثة عشر كتاباً من امهات كتب الحديث وهي : مسند الامام احمد بن حنبل ، صحيح البخاري ، صحيح مسلم ، سنن الدارمي ، سنن ابي داود السجستاني سنن الترمذي ، سنن النسائي ، سنن ابن ماجه ، وهذه الثمانية هي اصول السنّة ، ومصادرها الصحيحة الموثوق بها ، ويندر ان يكون حديث صحيح خارجاً عنها ليس موجوداً في احدها

ثم موطأ الامام مالك ومسند ابي داود الطيالسي ، وهما من اقدم الكتب المؤلفة في الحديث ، فان مالكاً والطيالسي من علماء القرن الثاني الهجري ، وان كان الطيالسيُّ تأخرت وفاته الى اول القرن الثالث (سنة ٢٠٤)

ثم سيرة ابن هشام المتوفي سنة ٢١٨ هجرية ، وهي اختصار وتهذيب لاول كتاب ألف في السيرة ، وهو كتاب محمد بن اسحق رئيس اهل المغازي المتوفي سنة ١٥١ هجرية

ثم كتاب المغازي للامام محمد بن عمر الواقدي المتوفي سنة ٢٠٧

ثم اعظم كتاب جمع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وتراجم الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، وهو كتاب (الطبقات الكبيرة) للامام الحافظ الثقة محمد ابن سعد المتوفي سنة ٢٣٠ وهو تلميذ الواقدي وكاتبه

والكتاب الرابع عشر : المسند المنسوب للامام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب المتوفي شهيداً سنة ١٢٢ . وهذا الكتاب عمدة في الفقه عند علماء الزيدية من الشيعة ، ولو صحت نسبته الى الامام زيد عليه السلام لكان اقدم كتاب موجود من كتب الائمة المتقدمين ، الا ان الراوي له عن زيد رجل لا يوثق بشيء من روايته عند ائمة الحديث ، وهو ابو خالد عمرو بن خالد الواسطي ، رماه العلماء بالكذب في الرواية ، قال الامام احمد بن حنبل في شأنه : «كذاب ، يروي عن زيد بن علي عن آبائه احاديث موضوعة»

وقد رتب الاستاذ ونسنك كتابه على المعاني والمسائل العلمية والاعلام التاريخية ، وقسم كل معنى او ترجمة الى الموضوعات التفصيلية المتعلقة بذلك . ثم رتب عناوين الكتاب على حروف المعجم . واجتهد في جمع ما يتعلق بكل مسألة من الاحاديث والآثار الواردة في هذه الكتب ، ولكني في مطالعتي وجدت انه لم يستقر كل الاستقراء ، وهذا مرجعه الى صعوبة العمل الذي قام به عن غير مثال يحتذى

واعتمد في مسند الطيالسي على طبعة حيدر آباد سنة ١٣٢١ هجرية ، وفي مسند زيد على طبعة ميلانو سنة ١٩١٩ ميلادية ، والاحاديث في الكتابين لها ارقام متتابعة ، فأشار الى ارقامها فيهما

واعتمد في مسند احمد على طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هجرية ، وفي طبقات ابن سعد على طبعة ليدن سنة ١٩٠٤ — ١٩٠٨ ميلادية ، وفي سيرة ابن هشام على طبعة غوتنغن سنة ١٨٥٩ — ١٨٦٠ ميلادية . وفي مغازي الواقدي على ترجمتها المطبوعة في برلين سنة ١٨٨٢ ميلادية . واشار الى ارقام الصحف في كل منها

ولكثرة الطبعات في سائر الكتب — وهي الكتب الستة والموطأ والدارمي — اعتمد على ارقام ابتدعها لكل واحد منها باصطلاح له أبان عنه في مقدمة كتابه ، وذلك انهُ قسم كلاً منها ما عدا صحيحي البخاري ومسلم وموطأ مالك — الى كتب (او مجموعات للابواب) وكل كتاب الى الابواب التي ذكرها مؤلفه فيه ، وجعل لكل كتاب منها رقماً متتابعاً ، ثم لكل باب من كتاب رقماً متتابعاً ايضاً ، واشار الى مواضع الاحاديث بأرقام الكتب والابواب ، الاّ في كتاب التفسير من صحيح البخاري وهو المرقوم برقم (٦٥) ومن صحيح مسلم ، وهو برقم (٥٤) ، ومن سنن الترمذي ، وهو برقم (٤٤) فاعتمد على عدد سور القرآن ، واشار الى كل سورة برقمها في موضعها من المصحف

واما صحيح البخاري فان طبعة ليدن فيها ارقام الكتب والابواب من عمل مصححها

واما صحيح مسلم فانه ليس فيه تراجم للابواب من عمل مؤلفه ، بل التراجم التي كتبت على حاشيته من وضع الشرّاح الذين جاءوا بعده ، واهمهم الامام النووي رحمه الله . ويوجد في صحيح مسلم كثير من المتابعات ، وهي الاسانيد التي يروي بها حديثاً تأكيداً للاسناد الاول الذي رواه به ، فالراوي الثاني يتابع الراوي الذي ذكر قبله في روايته ويؤيده . فرأى الاستاذ ونسنك ان يعتبر الاحاديث الاصول في الابواب ويدع الاشارة الى المتابعات ، ورقّم الاحاديث الاصول في كل كتاب من كتب صحيح مسلم بأرقام متتابعة يشير اليها في كتابه

واما موطأ مالك فان الاستاذ ونسنك قسمه الى كتب ، لانهُ لم يكن مقسماً تقسيماً واضحاً ، ثمَّ وضع ارقاماً متتابعة للكتب وللاحاديث فقط ، وترك ما لا يحتوي الاّ على آراء مالك وغيره من الائمة ، لانها ليست من مقاصد هذا الفهرس

والطبعات التي اعتمد عليها في تقسيم الكتب والابواب الثمانية هي : البخاري طبعة ليدن سنة ١٨٦٢—١٨٦٨ و ١٩٠٧—١٩٠٨ ، ومسلم طبعة بولاق سنة ١٢٩٠ ، وابو داود طبعة القاهرة سنة ١٢٨٠ ، والترمذي طبعة بولاق سنة ١٢٩٢ ، والنسائي طبعة القاهرة سنة ١٣١٢ ، وابن ماجه طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ ، والدارمي طبعة دهلي سنة ١٣٣٧ ، والموطأ طبعة القاهرة سنة ١٢٧٩

وقد وضع الاخ محمد فؤاد عبد الباقي افندي جداول مفصلة للكتب والابواب والاحاديث في كل كتاب من هذه الثمانية ، لتكون مرشداً للقارىء يستعين بها على البحث عما يريد من الاحاديث

« وانا انصح لكل من يقتني هذا الكتاب النفيس ان يعنى بدراسة اصطلاحه في تقسيم الكتب والابواب والاحاديث في الكتب الثمانية ، ثم يضع ارقام الكتب والابواب ، والاحاديث على النسخ التي لديه منها ، وبذلك يسهل عليه البحث عن اي حديث يحتاج اليه ، بأيسر الطرق واسرعها دلالة »

ولعلَّ نشرهذا الكتاب بلغتنا العربية الشريفة يكون سبباً في اقبال المتعلمين من جميع الطبقات على الاشتغال بالسنَّة النبوية ، وعلى الاستفادة من كتب الحديث ، وهي كنوز العلم والحكمة ، التي اعرض عنها اكثر الناس . اما جهلاً بفائدتها ، واما عجزاً عن المراجعة فيها عند الحاجة

هذا وقد عني الصديق فؤاد افندي بالدقة في الترجمة اتم عناية ، فانهُ لم يترجم معنىً من المعاني حتى رجع الى الاحاديث في مصادرها التي أشار اليها المؤلف ، وعبَّر عنها بالعبارة الصحيحة التي تدل عليها الاحاديث ، ولذلك مكث في ترجمته اربع سنين ، ثم لم يضن على طبعه بالمال ، فاختار له ارقى المطابع في القاهرة . وهي (مطبعة مصر) ، وانتقى اجود انواع الورق ، فأبرز الكتاب كاملاً

« ملوك الطوائف ، ونظرات في تاريخ الاسلام »

تأليف دوزي (المستشرق) وترجمه الاستاذ كامل كيلاني . نشرته مكتبة عيسى الحلبي وشركاه سنة ١٣٥١ و ١٩٣٤

دوزي — مستشرق معدود في الطبقة الاولى من الاعاجم الذين صرفوا قلوبهم الى دراسة العربية وما فيها من الكتب . و « بعد » فقد كتبنا في مقتطف مارس سنة ١٩٣٣ ان الأمة العربية ابتليت ببليتين : أولاهما ، انهُ لم ينتدب أحد من اهل هذه اللغة الى التنقيب عن آثار الامة العربية التي طويت في أرضها بين يمنها وشامها وحجازها وعراقها ومصرها ومغربها وما سوى ذلك . والاخرى : انهُ لم يخفَّ احد الى دراسة كتب العرب ولمّ شتاتها واستخراج ما خفي من أساليب العرب واحوالها وعاداتها في الاجتماع والادب واللغة حتى جاءنا في هذا العصر أصحاب الألسنة الاعجمية من دول اوربا بأقوالهم في تاريخنا وأدبنا وديننا بالكلام الجيد تارةً والفهم الملتوي والتعليل الفاسد تارةً اخرى

فهذا الكتاب الذي ترجمهُ الاستاذ كامل كيلاني وتنصَّل من الاثم فيه بقوله « اذا كان العلامة فخر الدين الرازي يقول في مقدمته لشرح «الاشارات» لابن سينا : «ان التقرير غير الردّ ، والتفسير غير النقد » فما أجدرنا ان نقول « والترجمة غير النقد » تناول هذا الكتاب قسمان الاول ما كتبهُ دوزي عن ملوك الطوائف والآخر فصول من كلام دوزي في تاريخ الاسلام . والاول أهونهما خطراً وأدناهما خطأً والآخر ما هو الا تركيب فاسد قد اجتمع لهذا المستشرق من (استخراج) فاسد من كتب التاريخ الاسلامي وغيرها وترق فيها بالخديعة الكتابية الى تأليف كلام يشبه التحقيق العلمي وما هو منه في شيء . وهذه عادة هذه الفئة من المستشرقين الذين يتعرضون لتاريخ الاسلام ورجاله ، لا يتورعون عن عرض آرائهم في اسواق الكتب ثم لا يبالون الا بالنسج الذي نسجوه غير ناظرين الى الحقيقة العلمية

ولقد قرأت هذا الكتاب ووقفت على ما فيه من مواضع الخطإ وأحصيت عليه الآراء التي ترفق في عرضها وأخذ يلوكها مرة ثم مرة مجمجماً غير مصرح ، وكنت على عزيمة تبيانها للقارىء ولكني رأيت ان ذلك مما يستنفد معنا في هذا الباب من المجلة صفحات كثيرة ، ثم وجدت أن الاستاذ « محمد امين هلال » قد سبقني وكتب في جريدة البلاغ مقالات دقيقة اطلعت على الرابعة والخامسة منها ، وقد وقف فيها عند ما وقفت عليه ودافع كلام هذا المستشرق بالحجة الصحيحة ، وأوثر ان انقل الى القارىء هنا جزءاً من كلمة الاستاذ « محمد امين هلال » التي نشرت في بلاغ (الثلاثاء ٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٣ — ١١ سبتمبر سنة ١٩٣٤) لما فيها من الفائدة

«يظهر ان اتهام رجال العرب الفاتحين — خصوصاً في الدولة الاموية — بالوثنية والحنين الى عهودها كان صدًى لما كان يشيعه اعداء الاسلام من انهُ دين وثني وان المسلمين جماعة من الوثنيين تغلبوا على الارض المقدسة ونفوا منها كل فضيلة واخلاص ولقد رأينا هذه الاقوال الكاذبة ينشرها دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة إبان الحروب الصليبية فلما قفل الغزاة الى ديارهم قصوا على قومهم ان اعداءهم كانوا أهل دين وتوحيد ومروءة ومجاملة

« ونحن اذا تخيرنا من بين خلفاء الامويين الذين يتهمهم العلامة دوزي ببغض الاسلام ابغض هؤلاء الخلفاء وابعدهم عن قلوب المسلمين وهو يزيد بن معاوية مثلاً نجده كان يعمل للاسلام ويأمر قواده بذلك فقد حدثنا التاريخ ان عقبة بن نافع عامل يزيد لما فتح بلاد البربر وسار الى السوس الاقصى حتى وصل الى بحر الظلمات (المحيط الاطلانطي) قال « يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك» وانه لما سار الى (تهوذا) ورآه الروم في قلة طمعوا فيه فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوهم الى الاسلام ثم تكاثروا عليه وقتلوه

«ورأينا قتيبة بن مسلم عامل الحجاج بن يوسف «المشهور بغطرسته وقسوته» يخطب في الناس ويقول لهم : ان الله قد أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد لكم المال استفاضة والعدو قمعاً ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال (هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ووعد المجاهدين في سبيله احسن الثواب واعظم الذخر عنده فقال « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً الاَّ كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الاَّ كتب لهم ليجزيهم الله احسن ما كانوا يعملون *) ثم اخبر عمن قتل في سبيله انه حي يرزق فقال (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون *) فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا انفسكم على اقصى اثر وأمض ألم وإياي والهوينا !

«وقتيبة هذا هو الذي تلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب ودعاه الى بلاده وكذلك

فعل ملك كفتان وأنصف له من ملك آخرون وشومان وكتب اليه الحجاج يقول : اذا غزوت فكن مقدم الناس واذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقتهم ، حتى فتح بلاداً واسعة نشر فيها الاسلام فأخرجت العظماء من كتاب المسلمين وفقهائهم ومحدثيهم وعلمائهم

« وهذا أشرس بن عبد الله السلمي عامل هشام بن عبد الملك على خراسان ارسل لاول عهده الى اهل سمرقند وما وراء النهر يدعوهم الى الاسلام على ان توضع عنهم الجزية فسارع الناس هناك الى الاسلام وحين كتب اليه امير سمرقند انهم لم يسلموا الا تعوذاً من الجزية قال له من اختتن واقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فأرفع خراجه . وقد روى عن يوسف بن عمر عامل هشام على العراق انهُ مع اسرافه في العقوبة كان طويل الصلاة ملازماً للمسجد ضابطاً لحشمه واهله — وكان يصلي الصبح ولا يكلم احداً حتى يصلي الضحى . ولقد كتب عمر بن عبد العزيز الى ملوك السند يدعوهم الى الاسلام وقد كانت سيرته بلغتهم فأسلموا وتسموا بأسماء العرب

« هذا قل من كثر من موقف خلفاء الامويين وعمالهم ازاء الاسلام وعملهم على نشره والترويج له في غير عنف ولا شطط ، أفبعد هذا يقول عنهم قائل « ان تلك الاقلية العربية التي اضطرت الى الاسلام اضطراراً واكرهت على الدخول في هذا الدين اكراهاً ، عرفت كيف تثأر لنفسها حين سنحت لها فرصة الانتقام فتقاضت ثمن ذلك الفوز مضاعفاً وشفت غلة صدورها المكتومة » اه

هذا وكنا نراه لزاماً على مترجم الكتاب الاستاذ كيلاني ان يتعرض لهذه المواضع ولا يتنصل منها ، نعم نحن نقول معه ان الترجمة غير النقد ، ولكن ذلك صحيح حين يترجم للعلماء دون غيرهم أما حين يظن في كتاب مترجم انهُ مما يقع في ايدي الناشئين ، فلا . . . . إن أبناءنا في المدارس المصرية من ثانوية وعالية لا يعرفون عن مثل عمرو بن العاص الا انهُ فتح مصر ، وعن عمر بن عبد العزيز انهُ كان خليفة وعن فلان وفلان مثل هذا او اقل فكيف نترك مثل هذه الآراء الفاسدة غذاء ألباب الذين يريدون من ابنائنا ان يقرأوا كتاباً سهلاً داني الثمرة . وهم لا يعلمون من التاريخ دقائقه ولا من الاسلام الا كلمات حفظوها لا تبلغ بهم درجة من العلم فيه . والمترجم الذي يقول في مقدمة كتابة للقراء اني قد آثرت نقل هذه الفصول من دوزي « لتبيان وجهة تفكير عالم اوربي كبير ، وهي — وان خالفت آراءنا احياناً في بعض مناحيها — جديرة ان تقرأ بعناية فائقة » الذي يقول هذا يجب عليه ان ينقد المغالطات والمفاسد بعناية فائقة كذلك في زمن قد اجتمعت فيه على التاريخ الاسلامي عناصر الفساد والافساد من كل ناحية . بل في زمن نحن نتهيأ فيه لاعادة المجد الضائع والحق المغتصب بفقه ما كان عليه اسلافنا فقهاً صحيحاً لا يميل الى الخرافة ولا يشط مع التقليد والتورط والفساد.

اقول هذا وانا اشكر المترجم على ما اضافهُ الى قليل علمنا عن آراء هذه الفئة المستشرقة التي نفعت العربية نفعاً كبيراً بحفظ كتبها ونشرها حين اضاعتها ابناؤها وعموا وصمُّوا ثم عموا وصموا ولولا رحمة الله عن نشأ فينا واحيا بعض مجد العربية لغمرتنا الموجة الطاغية التي وقانا الله بعض شرها ***

الروافد

نظم شكرالله الجر — صفحاته ٩٦ — مطبعة الاندلس الجديدة — ريو دي جانيرو برازيل

يقول الشاعر في مقدمة ديوانه « هذه مجموعة قصائد تمخضت بها النفس في حوادث مختلفة وهي كما يراها القارىء ليست بجملتها من الشعر الوطني المفرقع الذي يستشوق السامع فتنعقد له مجالس السمر عند القوم » ... ثم يقول في ختام كلمته « واني وان اصابت هذه المجموعة وشلاً مما نوهت به فلا يعني انني راضٍ عنها كل الرضا بل احب الي منها مجموعة اعدها الآن للنشر تحت اسم «الغمائم» ربما كانت أزكى وآنق من الوجهة المعنوية لدى جماعة المفكرين الاولى يعنون بالشعر من حيث عمقه وجدته وتمدد صوره واصباغه » . وقد تصفحنا هذه المجموعة الشائقة فوجدنا شاعراً جزل اللفظ حسن الاداء بارع التصوير ولولا بعض ألفاظ تنبو بها قوافي بعض القصائد مثل

واسكب رحيقك في النفو س مطيباً أنفاس كارع

لخلا الديوان من المآخذ . ولقد أبان الشاعر في مقدمته عن اتجاه شاعريته الى الناحية الانسانية واعتذر عن شعره الوطني ونحن وان كنا نوافق الشاعر على قيمة الشعر ونعتز بهذا الغرض الانساني النبيل الذي يرمي اليه الادب العربي الحديث فانا ايضاً نقدر الشعر الوطني ونقول اننا في حاجة اليه على الاقل لتخليد تاريخ نهضاتنا والاشادة بامجاد حاضرنا والتغني بالمستقبل المرموق وحفز ابنائنا الى المجد . وخلا هذا فاننا نوقن ان الشعب البريطاني مدين بمتانة جوانبه الاخلاقية ونبل اغراضه وقوته وعظمته الى ادب شكسبير . ولولا هذا الميراث الحي الذي يجري في دم الامبراطورية من ادبه الخالد لما وجدت صيحات كبلنج الوطنية مجيباً لصداها ولا محتفلاً بسماعها

وبعد فان «الروافد» ديوان لم يخل من شعر الطبيعة والانسان والوجدان وأنت تنهل من رحيق هذا الشعر في قصائده «على متون الامواج» و «شواطىء الاندلس» و «قطرة كأس» وغيرها . وفي الديوان قصائد حسان يجدر بكل اديب شرقي ان يقرأها فانها صدى لآلام هذا الشرق واحلامه ***

الثورة العربية الكبرى

أنجزت مطبعة عيسى الحلبي وشركائه بمصر طبع كتاب الثورة العربية الكبرى للباحث المحقق الاستاذ امين سعيد فصدر اليوم في ثلاثة مجلدات عدد صفحاتها ١٤٠٠ صفحة بالقطع الكبير فيها ثلاث خارطات و ١٥٠ صورة . والكتاب الجديد مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن اي من ١٩٠٨ الى ١٩٣٤ والجزء الاول منهُ خاص بأخبار النهضة العربية من ظهورها حتى دخول الجيش العربي الى سورية في ختام الحرب العظمى سنة ١٩١٨ وانشاء الدولة الفيصلية في الشام فهو تاريخ مسهب لنضال العرب والترك . اما الجزء الثاني منه فخاص بالنضال بين العرب من جهة والفرنسيين والانكليز من جهة اخرى وينطوي على اخبار الدولة الفيصلية في دمشق من قيامها حتى زوالها مقروناً بتاريخ الثورة العربية في العراق وما تلاها من قيام الدولة الجديدة في بغداد . والجزء الثالث خاص بتاريخ

أمارة شرقي الاردن وقضية فلسطين وقد بسطها المؤلف بسطاً وافياً وعززها بأخبار سقوط الدولة الهاشمية في الحجاز وما تقدمها من سعي الانكليز لتصفية ديونهم مع الحسين وما تلاها من حوادث ثم تاريخ الحركة الوطنية في سورية من سنة ١٩٢٠ حتى اليوم. وفي الكتاب ما لا يقل عن ٥٠٠ وثيقة سياسية وجانب كبير من معلوماته مما لم ينشر قبل فلا يستغني عنه باحث ولا كاتب ولا عربي يهمه الاطلاع على تاريخ قومه ونهضتهم فهو في الواقع تاريخ العرب القومي والسياسي في العصر الحديث

﴿ الاصلاح ﴾ مجلة ادبية اقتصادية سورية جامعة . لصاحبها الدكتور جورج صوايا وقد أصدرت عدداً فخماً ممتازاً يضم بين دفتيه كثيراً من المباحث العلمية والمقالات والأشعار البليغة منها قصيدة الخمر والحب والشباب للشاعر المبدع فرحات ووداع قنديل وهي قصيدة عصماء رائعة للشاعر القروي المعروف

﴿ الارلزيانة ﴾ مأساة تمثيلية ذات ثلاثة فصول تأليف الكاتب الافرنسي الشهير الفونس دوده وتعريب الدكتور جورج صوايا صاحب مجلة الاصلاح في بونس ايرس (الارجنتين)

﴿ في سبيل الحرية ﴾ بقلم الاستاذ الياس قنصل وهي خلاصة رواية تمثيلية للكاتب الشهير فرنسوى كوبيه جرت حوادثها في احدى مقاطعات ايطاليا في القرن الخامس عشر طبعت في المطبعة السورية اللبنانية في بونس ايرس (الارجنتين)

﴿ القراءة الفريدة ﴾ الجزء الرابع للمدارس الابتدائية للاستاذ شريف النشاشيبي وهي تضم رسائل بديعة وامثال لطيفة وقصص قصيرة جامعة وحكايات على ألسن الحيوانات ناطقة ونوادر يلذ سماعها — طبعت بمطبعة المعارف بمصر

﴿ مثلنا الأعلى ﴾ رواية تمثيلية وضعها عبد الحميد عباس وهذبها الاستاذ أكرم زعيتر وهي تشمل كثيراً من المبادىء القومية والخلقية التي يجب ان يدين بها الطالب العراقي طبعت بمطبعة الحكومة ببغداد

﴿ ايزيس ﴾ قصة تمثيلية يدور محورها حول رجوع الروح وضعها الاستاذ محمد زكي صالح ، طبعت بمطبعة النظام بمصر

﴿ هيام او في عاصمة الاحقاف ﴾ رواية شعرية تمثيلية للاديب علي احمد باكثير ويرجع ناظم هذه الدرامة جهل شعبه الحضرمي الى جهل المرأة فهو يريدها متعلمة كشقيقاتها الشرقيات طبعت في المطبعة السلفية بمصر

﴿ الحسناء العربية أرينب بنت اسحق ﴾ رواية تمثيلية تاريخية اخلاقية ذات ثلاثة فصول بقلم الاستاذ فريد شاهين ابي فاضل منشىء مجلة الرياض يتجلى فيها دهاء معاوية وشهامة الحسين ووفاء المرأة العربية طبعت في مطبعة الرياض بانطلياس — لبنان

﴿ دلال ﴾ رواية تاريخية في عهد الأمير بشير الكبير بقلم الاديب كميل قرألى تصف الامير وحاشيته ورجال لبنان في عصره وعادات أهله وفتح الجيش اللبناني لمدينة دمشق سنة ١٨١٠ وقلعة سانور في نابلس سنة ١٨٢٦ . طبعت في مطبعة « المجلة البطريركية » في بيت شباب — لبنان



كرة الاعماق وريادة الاغوار

نشرت الصحف في اواسط الصيف صورة الكرة العظيمة ، التي استعملها الدكتور بيب الاميركي والمستر اوتس بارتن ، ليغوصا بها الى اعماق لم يبلغها انسان من قبل . وتعرف هذه الكرة باسم باثيسفير Bathysphere اي « كرة الاعماق » ولعلَّ هذا افضل اسم يطلق عليها باللغة العربية

هذه الكرة مبنية من الصلب وزنتها نحو ٥٠٠٠ رطل ، وقطرها اربع اقدام وتسع بوصات وثخانة جدرانها بوصة ونصف بوصة ، ولها ثلاث فتحات قطر كلٍّ منها ثماني بوصات وقد وضع فيها وضعاً محكماً الواحٌ من زجاج البلور الصخري (الكوارتز) بعد صهره وتجميده ، وسماكة كلّ لوح اربع بوصات وقطرهُ خمس بوصات

الغرض من هذه الكرة ان تكون وسيلة للباحث العلمي ، تمكنهُ من بلوغ اعماقٍ لا يستطيع الانسان ان يبلغها لشدة ضغط الماء وبرده في الغالب وعجز الغائص عن ان يلبث وقتاً ما يمكنهُ من اجراء المشاهدات العلمية على الاسماك التي تقطن هناك . فهذه الكرة تتسع لرجلين ، يجلسان فيها ثم تقفل اقفالاً محكماً وتدلَّى رويداً رويداً ثم تستقرُّ عند عمق مطلوب ، فينظر الباحث من خلال الواح البلور الصخري ، وهي صافية كلَّ الصفاء ، ويشاهد اشكال الاسماك والوانها ، ويستطيع الآخر ، ان يصوّرها ، باليد او بآلة فتوغرافية يتصل بها مصباح كشاف

قلنا ان الكرة مقفلة اقفالاً محكماً ، حتى لا تنفذ اليها قطرة ماءٍ واحدة ، فكيف يتنفس الرجلان داخلها ؟ انها في الواقع تشتمل على جهاز للتنفس ، مؤلف من حوضين يحتويان على الاكسجين اللازم للتنفس ، وللجهاز صمام يخرج لترين من الاكسجين الى فضاء الكرة الداخلي كلَّ دقيقة . ومقدار الاكسجين الذي في الحوضين يكفي رجلين مدى ثماني ساعات وقبل الغوص يوضع فوق الحوضين طبقتان على احدهما مركب من الجير والصوديوم لامتصاص اكسيد الكربون الثاني الذي يزفرهُ الرجلان ، وعلى الآخر كلوريد الكلسيوم لامتصاص الرطوبة . وهناك مراوح لتحريك الهواء

فهذه الوسائل تكفل للغائصين اسباب الراحة الجسدية . وقد غاص « بيب » واحد اعوانه غير مرة فلم يستشعرا في خلال غوصهما اي ضيق ناجم عن قلة الاكسجين او كثرة الرطوبة وثاني اكسيد الكربون في الهواء

اما في محاولتهما الاخيرة فقد بلغا الى عمق ٢٥١٠ اقدام ، على مقربة من جزيرة نونسش

وهي احدى جزائر برمودا ، ففاق العمق الذي بلغاهُ في السنة الماضية وهو ٢٢٠٠ قدم

ولا يخفى ان الاقدام على الغوص بكرة من هذا القبيل مغامرة تنطوي على خطر عظيم. لذلك جربت كرة الاعماق قبل نزول بيب وبارتن بها لمعرفة مقدار الضغط عليها عند اعماق مختلفة وهل تستطيع ان تتحمل هذا الضغط فثبت ان الضغط على كل بوصة مربعة منها يبلغ ٦٥٢٦٧ الرطل عند عمق ربع ميل اي ان مجموع الضغط على الكرة كلها، كان عند هذا العمق ٣٦٣٦٦ طنّا . ولكنها تحمّلت هذا الضغط ، فلم تتحطم الواح الكوارتز في عيونها ولا نفذت اليها قطرة ماء

والكرة عند غوصها تظل متصلة بالسفينة التي تدلّى منها ، بسلك تلفوني ، وسلك للاضاءة الكهربائية . والحبل الذي تدلّى به طوله ٣٠٠٠ قدم وهو من الصلب وثخنهُ سبعة اثمان البوصة ويقوى على حمل ٢٩ طنّا . ومن ادواتها مصباح كشّاف يوجّه من احدى عيون الكرة لاستكشاف الاغوار القاتمة وما فيها من الاحياء

بلون كشاف

يحمل مذيعاً لاسلكيّاً

استنبط الدكتور ارثر كمتن استاذ الطبيعة في جامعة شيكاغو طريقة جديدة لاستكشاف احوال الجو في الطبقة الطخرورية stratosphere ذلك انهُ صنع بلونات صغيرة لا يزيد وزن البلون منها على ١٦ رطلاً وقطرها على ١٥ قدماً يطلقها في الجو صعُداً فترتفع الى اعالي الطبقة الطخرورية من تلقاء ذاتها . وجهزها بأداة لاسلكية عجيبة ، وصلها بمقياس للحرارة ومقياس لضغط الهواء ومقياس لقوة الاشعة الكونية . وهذا الاداة انبوب لاسلكي متذبذب يرسل اشارات لاسلكية بأمواج طول الموجة منها عشرون متراً . فاذا حدث تغيُّر في ضغط الهواء ، بحسب ما يدونه مقياس الضغط (البارومتر) أثر ذلك في طول الموجة التي يطلقها الانبوب اللاسلكي ، فيعرف بذلك علو البلون . ثم ان الانبوب متصل بأداة دقيقة هي متصلة بدورها بمقياس الحرارة . فاذا تغيرت حرارة الجو ، دُوّن ذلك في مقياس الحرارة وأثر في الاداة المتصلة بالانبوب اللاسلكي . وهذا الاداة فيها عجلة كعجلة الساعة تختلف سرعة دورانها باختلاف الحرارة . فاذا بطؤت سرعة العجلة او اذا اسرعت ، زادت المسافة بين فترات اطلاق الامواج من الانبوب اللاسلكي . وهذا يفسَّر في المحطة الارضية فيعرف منهُ حرارة الجو على ارتفاع معين . ثم ان قوة الاشعة الكونية تؤثر في مقياس خاص بها ، وهذا بدوره يؤثر تأثيراً خاصّاً في الامواج اللاسلكية يمكن فهمهُ على الارض

ولا يخفى ان نوعاً من هذه البلونات كان قد استعمل قبلاً في استكشاف طبقة الجو العليا ، وكان كل بلون منها يجهز بآلات تدوّن من تلقاء نفسها اعلى درجات الحرارة واخف درجات الضغط وقوة الاشعة الكونية . ثم اذا هبط البلون الى الارض اخذت هذه الآلات وقرىء ما كان مدوّناً فيها . وهي طريقة لا بأس بها وانما يؤخذ عليها انهُ لا يمكن استعمالها الاَّ

في البلدان المزدحمة بالسكان . لانهُ من المتعذر ان تعلم اين يقع البلون عند هبوطه . فالعلماء يعتمدون على معاونة الناس لهم ، في العثور عليه وارساله الى المحطة التي اطلقتهُ وفقاً لبيان ملصق عليهِ . فاذا كانت المنطقة قليلة السكان ، تعذّر وجود البلون اذا سقط في قفر . اما البلون الجديد فلا حاجة بالعالم اليهِ ، بعد تدوين الرسائل اللاسلكية التي يبعثها في عنان الفضاء ، وسواء اهبط في قفر ام في منطقة مأهولة . فانهُ يؤدي مهمتهُ وهو في الفضاء ، ونفقات بنائهِ واطلاقهِ يسيرة ، فلا يعبأ باسترداده او فقده

عجيبة في بيضة

اخذ العالم الفرنسي الاستاذ جلينك Jellinek بيضة نيئة ووضعها بين لوحي مكثف كهربائي Condenser ووصل اللوحين بمذيع لاسلكي قصير الامواج ، مستعملاً قوة كهربائية قدرها الف وط وموجة طولها ثلاثة امتار . فاخترقت الامواج البيضة . وبعد خمس دقائق اخذ البيضة وكسرها ، فوجد محّها (صفارها) قد تجمد ، واما زلالها فلم يتأثر بالامواج التي اخترقه لأن قوامه من قبيل قوام الهلام . ثم ثبت عند فحص حرارة المح والزلال ، ان حرارة الاول لا تعدو ١٤٠ درجة بميزان فارنهيت (اي ٦٠ درجة مئوية) حالة ان حرارة الثاني بلغت ١٧٦ درجة بميزان فارنهيت (اي ٨٠ درجة مئوية) . ولم يكن الغرض من هذه التجربة الكشف عن شيء يبعث الدهشة ، بل كانت تجربة من سلسلة من التجارب غرضها معرفة اثر الامواج اللاسلكية القصيرة في المواد العضوية المختلفة . وقد جربت تجربة من هذا القبيل بعين ثور فثبت ان عدسة العين البلورية لم تتأثر كثيراً بالامواج ، ولكن نسج العين الاخرى تأثرت بها تأثراً عظيماً . ويرى الاستاذ جلينك ان درس اثر الاشعة اللاسلكية القصيرة في النسج المختلفة وما تولدهُ فيها من الحرارة لا بدَّ منهُ لضبط استعمال هذه الاشعة في الطب

سياحة زجاجة

في عشرين ابريل سنة ١٩٢٧ كتب الضابط بارستو الاميركي في السفينة الاميركية هاميرا ورقة ووضعها في زجاجة وسدَّ الزجاجة سداً محكماً والقاها في البحر بين جزائر برمودا وشواطىء الولايات المتحدة الجنوبية . فتقاذفتها تيارات المحيط الاطلنطي سبع سنوات الى ان قذفتها من عهد قريب على شواطىء ولاية تكساس وتقدَّر المسافة التي قطعتها في خلال هذه المدة بنحو ٨٠٠٠ ميل

الاشعة التي فوق البنفسجي

يختلف اثر هذه الاشعة في قتل خلايا النبات باختلاف طول امواجها . ذلك ان الاستاذ فلورنس ماير Meier احد علماء المعهد السمثصوني الاميركي اخذ لوحة مستطيلة من الزجاج وغشاها بطبقة من القطر البحري سمكها سمك خلية واحدة ، ثم وضعها في تيار من الاشعة التي فوق البنفسجي ، بعد ما حلّلها بموشور الى مناطق كل منطقة منها تحتوي على اشعة يختلف طولها عن طول الاشعة في المنطقة التالية او

السابقة . وعدد هذه المناطق ثمانٍ . فوجدت ان الخلايا المعرّضة لاشعة منطقة منها اسرع تلفاً من الاخرى مع ان الخلايا واحدة . والأشعة من مختلف الاطوال تميت الخلايا ولكنها تختلف في سرعة العمل

النحاس المشع

نشرت مجلة نايتشر العلمية ان الدكتور وستكوت Westcot والدكتور بيرج Bjerge من علماء معهد كافندش بجامعة كمبردج اطلقا النوترونات على النحاس فأصبح عنصراً مشعّاً والنحاس المشع ينحلّ كما ينحلّ الراديوم وهو عنصر مشع بطبيعته ولكن الفرق بين النحاس المشع والراديوم ، ان الراديوم يفقد نصف وزنهِ بالاشعاع في مدة ١٦٠٠ سنة واما النحاس المشع فيفقد نصف قوتهِ على الاشعاع في ست ساعات . ولكنهُ على كل حال يفوق العناصر الاخرى التي حولت الى عناصر مشعة باطلاق قذائف عليها ، لان معظم هذه العناصر يفقد كل قوتهِ على الاشعاع في بضع دقائق

اشعة غما والايدروجين الثقيل

يعلم قرَّاء المقتطف ان للايدروجين نظيراً يدعى في الولايات المتحدة الاميركية دوتيريوم ونواة تدعى دوتوناً ، ويدعى في انكلترا دبلوجين ونواة تدعى دبلوناً ، وهو يختلف عن الايدروجين في خواصه الطبيعية وفي مقدمتها وزنة الذري فانهُ ضعف الوزن الذريّ للايدروجين المألوف . وقد عني الاستاذ شدِك (مكتشف النترون) والدكتور غولدهابر Goldhaber باطلاق اشعة غما من طاقة ٢٦٢٠٠٠٠ فولط على الدبلونات لحلّ كل دبلون منها الى ذرة ايدروجين مألوف ونوترون . فكان الدبلون مؤلفاً من بروتون ونوترون . والنوترون مركَّب في نظر العلماء من بروتون والكترون قريب احدهما من الآخر . وهذا القرب بين الالكترون والبروتون في النوترون هو الفارق بين النوترون وذرة الايدروجين المألوف ، لانها هي الاخرى مؤلفة كذلك من الكترون وبروتون ولكن احدهما بعيد عن الآخر بعداً نسبيًّا . ولما كانت الطاقة التي تربط بين الدقائق التي يتركب منهُ الدبلون كبيرة وجب استعمال اشعة غما وهي اسرع ما ينطلق من الراديوم من الاشعة واعظمها طاقة

شهاب يرى في النهار

في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والاربعين من يوم ١٤ سبتمبر ١٩٣٤ شوهد في انكلترا شهاب مرق في الفضاء كالسهم الناري . وقد وصفهُ المستر كلن من موظفي مرصد غرينتش فقال انهُ خرج بعد الظهر لتدوين قراءات الترمومترات وكان الجو ازرق صافياً فاسترعى نظره جسم لامع كالصاروخ ، له نواة لامعة ووراءه خط مضيء . وظلت رؤيتهُ مستطاعة مدة ثانيتين او ثلاث ثوانٍ . ثم اختفى كأنهُ انشق الى جسمين لامعين ، ولكن المستر كلن لم يسمع فرقعة الانشقاق وقد رآه غير واحد من سكان جنوب انكلترا

العنصر الثالث والتسعون

يرى عالمان من علماء جامعة شيكاغو ان العنصر الذي اطلق عليه اسم « العنصر الثالث والتسعين » (راجع مقال « العنصر الثالث والتسعون » في هذا الجزء صفحة ١٩٥) قد لا يكون عنصراً جديداً كما ظُنَّ اولاً بل يرجحان انهُ نظير للعنصر الحادي والتسعين

حرب المكروبات

ان التقدم العجيب الذي تمّ في ميدان الطيران، قد قلب قواعد الحرب التي جرى عليها كبار القوّاد والفاتحين من هنيبال الى الاسكندر الى نبوليون الى جوفر وفوش وهندنبرج . ذلك ان القيادات العليا في الجيوش الكبيرة اصبحت ترمي الى اضعاف الروح المعنوية في جيوش الاعداء بتدبير الخطط لالقاء القنابل من الجوّ على مراكز الصناعة التي تجهز الجيوش بما يلزمها من وسائل الكفاح ، وعلى المدن الآمنة الآهلة بالسكان وراء خطوط القتال . وقد لا تقتصر هذه القنابل ، على المواد المتفجرة ، تدمّر الدور وتحوّلها الى انقاض ، بل قد تحتوي على غازات كيمائية تفعل في الجلد او في العيون او في الاثاث فتعطل عن العمل ، او تسقي ناشقيها كأس الردى

وقد تفنن الكيمائيون في صنع الغازات المختلفة من هذا القبيل ، واستنباط الكمامات الواقية حتى اجمع الثقات ان امة من الامم لا تستطيع ان تتقي اغارة الاعداء عليها من الجوّ ، الاّ اذا مرّن شيبها وشبانها واطفالها ذكوراً واناثاً على استعمال هذه الكمامات، وجهز كلٌّ منهم بكمامة منها تفي بالغرض . ومما يدلُّ على احتمال حدوث ما هو من هذا القبيل، ان الخزائن الجديدة التي بنيت لبنك ده فرانس تحت الارض ، ابتدع لها المهندسون الفرنسيون طرزاً عجيبة لاتقاء الغاز الخانق الذي قد يتغلغل حتى يتصل بها . والراجح ان هذه الوسيلة طبقت على المعاقل التي بنتها فرنسا على حدودها الشرقية . لذلك اجمع الثقات على ان الطيران الحربي خطر يهدّد الحضارة بالانقراض ، واذا كان للطيارات الحربية ان تلقي قنابل تحتوي على الغازات المختلفة فما يمنعها ان تلقي قنابل تحتوي على مكروبات مميتة

هذا الاحتمال هز الدوائر العالمية في شهر يوليو الماضي ، على اثر مقالة نشرها المستر وكهام ستيد محرر التيمس سابقاً في مجلة القرن التاسع عشر . وستيد رجل متّزن رزين والمجلة التي نشرت مقالته ذات مكانة عالية لا تغامر بها في سبيل مقالة تستثير النفوس

قال المستر ستيد ، انه حصل من مصادر غير يهودية على وثائق خطيرة لا يرتاب في صحتها وهذه الوثائق صادرة على ما يقال من مصلحة في وزارة الحربية الالمانية تعرف باسم (لوفت—غاز — انجريف) اي « هجوم الهواء والغاز » وهي في شكل رسائل تبودلت بين المصلحة المذكورة وبعض خبرائها ووكلائها والمصانع المعنية بالطيران والحرب الكيمائية

بسطت في هذه الوثائق تجارب بدأت سنة ١٩٣١ — اي نحو سنة كاملة قبلما تقلد هتلر أزمة الحكم في بلاده — غرضها درس أفضل الوسائل لالقاء السوائل المحتوية على مواد كيميائية او مكروبات من الجو على مدائن الاعداء

ولكن أهم ما جاء في مقالة المستر ستيد ان رجال هذه المصلحة من وزارة الحربية الالمانية اختاروا مكروباً اسمه العلمي « ميكركوكس بروديجيوسس » لا يسبب مرضاً ما ويستعمل في دراسة الطب في التمثيل والاختبار . وانهم بعد ما اختاروا هذا المكروب ، جربوا تجارب به في لندن وباريس غرضها الوقوف على كيفية ازدراع هذا المكروب في مزدرعات خاصة لذلك توضع عند مداخل قطارات الانفاق ، حتى اذا اطلق في الجو ، وهبطت بعض عماره الى الارض لصق بعضها بهذه المزدرعات ، فتتكاثر وتنتشر في الهواء فيستنشقها الناس

طبعاً ان تجربة التجارب بهذا المكروب لا تسفر عن خطر يتعرض له سكان العاصمتين المذكورتين الآن ولكن اذا صحت هذه الوثائق فان التجارب المذكورة لا بدَّ ان تكشف للمجربين ، الوسائل التي يستطيعون الجري عليها اذا نشبت الحرب ، في اطلاق مكروبات ليست مثل هذا المكروب في عدم ضررها . وقد جربت تجارب في سنة ١٩٣٣ لالقاء السوائل المحتوية على هذا المكروب من طيارات على ارتفاعات مختلفة تتباين من ٥٠٠ متر الى الف متر ، لمعرفة أصلح ارتفاع لالقاء السوائل منه . وتقول الوثائق ان هذه التجارب اسفرت عن نتائج تبعث على الرضا

وقد جاء في وثيقة تاريخها يوليو سنة ١٩٣٢ ما مؤداه ان المعاقل العظيمة التي بنتها فرنسا على حدودها الشرقية تجعل كل هجوم عليها من المشاة او المدفعية عبثاً ، واذن لم يبق الا استعمال سلاح الجو لشن الحرب من دون رحمة او شفقة على المراكز العسكرية والصناعية بل على الآمنين في المدن الكبيرة

وثمة وثيقة اخرى تاريخها ١ اكتوبر ١٩٣٣ تحتوي على خطط الهجوم بالغاز على مدن مختلفة في فرنسا منها متز وستراسبورج وبلفور وفردون وضواحي باريس ومرسيليا وطولون وليون وهافر وغيرها . وليس الغرض من هذا المقال البحث في صحة هذه الوثائق . فقد انبأتنا البرقيات العامة ان الدوائر المسؤولة انكرت صحتها ولكن الامر الذي لا جدال فيه ان ليس ثمة ما يمنع القيام بهذه التجارب ، من جانب المانيا او جانب غيرها من الدول . ويقول كاتب في الابزرفر ان لا ريب في ان هذا الفرع في الاستعداد الحربي ، ينال الآن عناية خاصة مثل سائر الفروع . واطلاق الغاز والمكروبات على الطريقة المتقدمة يمكن ان يتم بواسطة الطيارات الحربية والمدنية على السواء

الهيموفيليا او النزف الوراثي

كانت الهيموفيليا او داء النزف الوراثي سبباً في وفاة الامير غونزالو نجل الفونسو الثالث عشر ملك اسبانيا سابقاً . والغريب في هذا الداء انهُ وراثي في الذكور دون الاناث ، لذلك لما حدثت حادثة الاصطدام اصيب الامير غونزالو وشقيقتهُ برضوض ، فتوفي هو متأثراً بها لانها احدثت فيه نزفاً داخليًّا لم يستطع وقفهُ ولكنها لم تصب هي بنزيف مثله ، فنجت . والعجب من هذا ان النساء تنقل هذا الداء دون الذكور . لذلك نهى الملك الفونسو ابنتيهِ في سنة ١٩٣١ عن الزواج لئلاَّ تنقلا هذا الداء الى اولادهما

وليست اسرة بوربون — التي منها الملك الفونسو — بالاسرة المالكة الوحيدة المصابة بهذا الداء الوبيل . بل اسرة رومانوف كانت مصابة بهِ كذلك . فالقيصر نقولا الثاني وولي عهده كانا مصابين بهِ ، ويقال انهُ نقل اليها من اسرة هبسبرج ، وكثيراً ما يعرف هــذا الداء
و « لعنة آل هبسبرج » . ولقد تعذَّر حتى
كشف عن طريقة لمنعهِ او علاجــهِ ،
كتور برتش Birch احد اساتذة كلية
يڤر
ة وسكنصن الاميركية، يظن ان حقن
جو الزهر
ت الانثى في الذكر قد يفيد في علاجهِ
كان الد
ارب الآن لامتحان هذا الرأي
Dunham من ء
قد اثبتا في سنـ جو الزهرة
على ثاني اكسيد المباحث الفلكية الحديثة ان في
ان يعينا مقدار كبيراً من ثاني اكسيد الكربون
مقدار النور تور ادمز والدكتور دنهام
ء مرصد جبل ولسن بكاليفورنيا
ة ١٩٣٢ ان جو الزهرة يحتوي
ـكربون ، ولكنهما لم يستطيعا
ه حينئذ ، لانهما ما كانا يعرفان
الذي يمتصهُ هذا الغاز عند مرور
النور فيهِ . بيد ان الدكتور ارثر آدل احد علماء جامعة مشيغن كتب الى المجلة الطبيعية يقول انهُ عني بدراسة موضوع امتصاص ثاني اكسيد الكربون للضوء فوصل الى نتائج مكنتهُ من تقدير ما يوجد من هذه المادة في جو الزهرة . فقدَّر ان الطبقات العليا من جو الزهرة فيها مقدار من ثاني اكسيد الكربون يفوق عشرة آلاف ضعف مقدار ما نجده منهُ في جو الارض بكامله . ولما كان الدكتور آدل عالماً طبيعيًّا فانهُ لم يتعدَّ حدود التقدير الى التكهن بعلاقة هذا المقدار الكبير من ثاني اكسيد الكربون بالحياة على سطح الزهرة

اخونا سليم

[تابع الصفحة ١٩٨]

وكان الفقيد محدثاً بارعاً قوي الحجة واسع الرواية ونذكر اننا ذهبنا في صحبتهِ يوماً لزيارة لورد بيفربروك، فجلسنا نتجاذب اطراف الحديث وبدأ الفقيد يقصُّ على بيفربروك قصة زيارتهِ للفيلسوف سبنسر ، وبيفربروك مأخوذ بطرافة الحديث . وتبيَّن سليم شغف مضيفهِ ، فجعل يتوقف في الحديث ، كأنهُ اتى عليــهِ ، فكان اللورد وصحبهُ يستزيدونهُ ولا يسلمون باي ايجاز في روايتهِ . اما زهدهُ في حطام الدنيا، ومروءتهُ، واقبالهُ على نجدة من يطلب نجدتهُ، فكانت مضرب الامثال . كان حرًّا يأبى الضيم ويمقت الجور ، فكان اذا عرف مظلوماً ، لا يقرُّ له قرار ، حتى يكشف غمتهُ . وعني بباعة المقطم فانشأ لهم مدرسةً علمهم فيها القراءة والكتابة ، وكان يعنى بصحتهم وصحة اهلهم ويدفع عنهم نفقات الاطباء والعلاج بماله الخاص، ولا يفتني عن تزويدهم بالنصائح وحثهم على البعد عن المنكرات

وكان الى ذلك اديباً ، نظم بالانكليزية شعراً حكميًّا بليغاً، ووعى من تاريخ الادب الانكليزي وآثار شكسبير بوجهٍ خاص شيئاً كثيراً ، حتى كان من النادر ان يخطيء امرؤٌ في سرد بيت شعر من روايات شكسبير المشهورة الاَّ وردَّهُ سليم الى الصواب . رحمهُ الله ومتعنا بذكر مناقبهِ



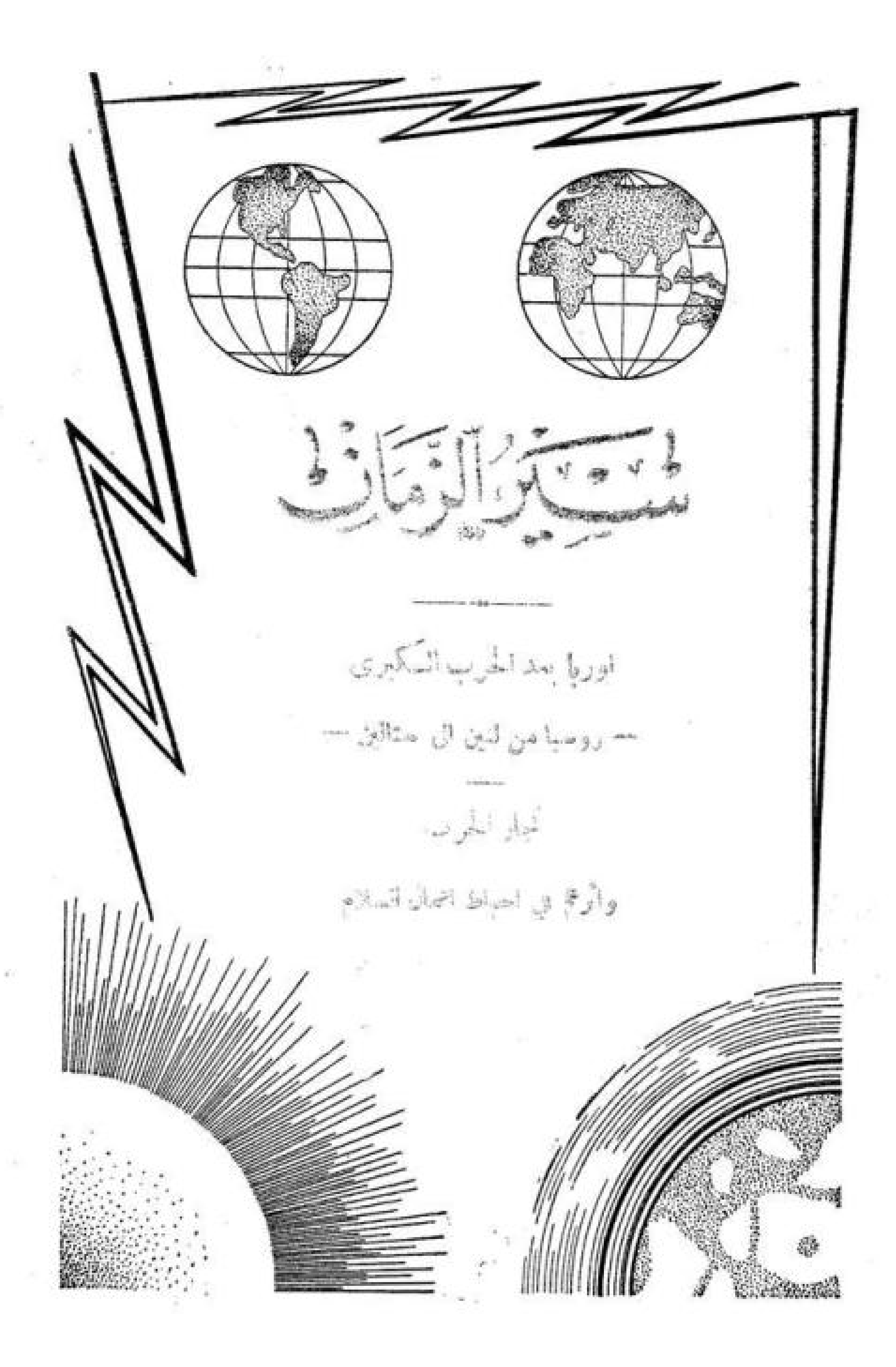
نماذج فأس ومحراثين في متحف فؤاد الأول الزراعي بالدقي . والأصل بدار تحف القاهرة
[تصوير الدكتور حسن كمال]



النصف العلوي : محراثان مصريان قديمان بمتحف فؤاد الأول الزراعي والأصل بدار تحف القاهرة وقد ورد وصفهما في المقالة
النصف السفلي : نموذج مصري قديم يستعمل فأساً في الحقل .
متحف فؤاد الأول الزراعي بالدقي — تصوير الدكتور حسن كمال



نماذج الفؤوس مصرية قديمة في متحف فؤاد الأول الزراعي والأصل بدار تحف القاهرة
[تصوير الدكتور حسن كمال]


سير الزمان
أوربا بعد الحرب الكبرى
روسيا من لنين الى ستالين
تطور الحرب
وأثرها في انحطاط اخوان الاسلام

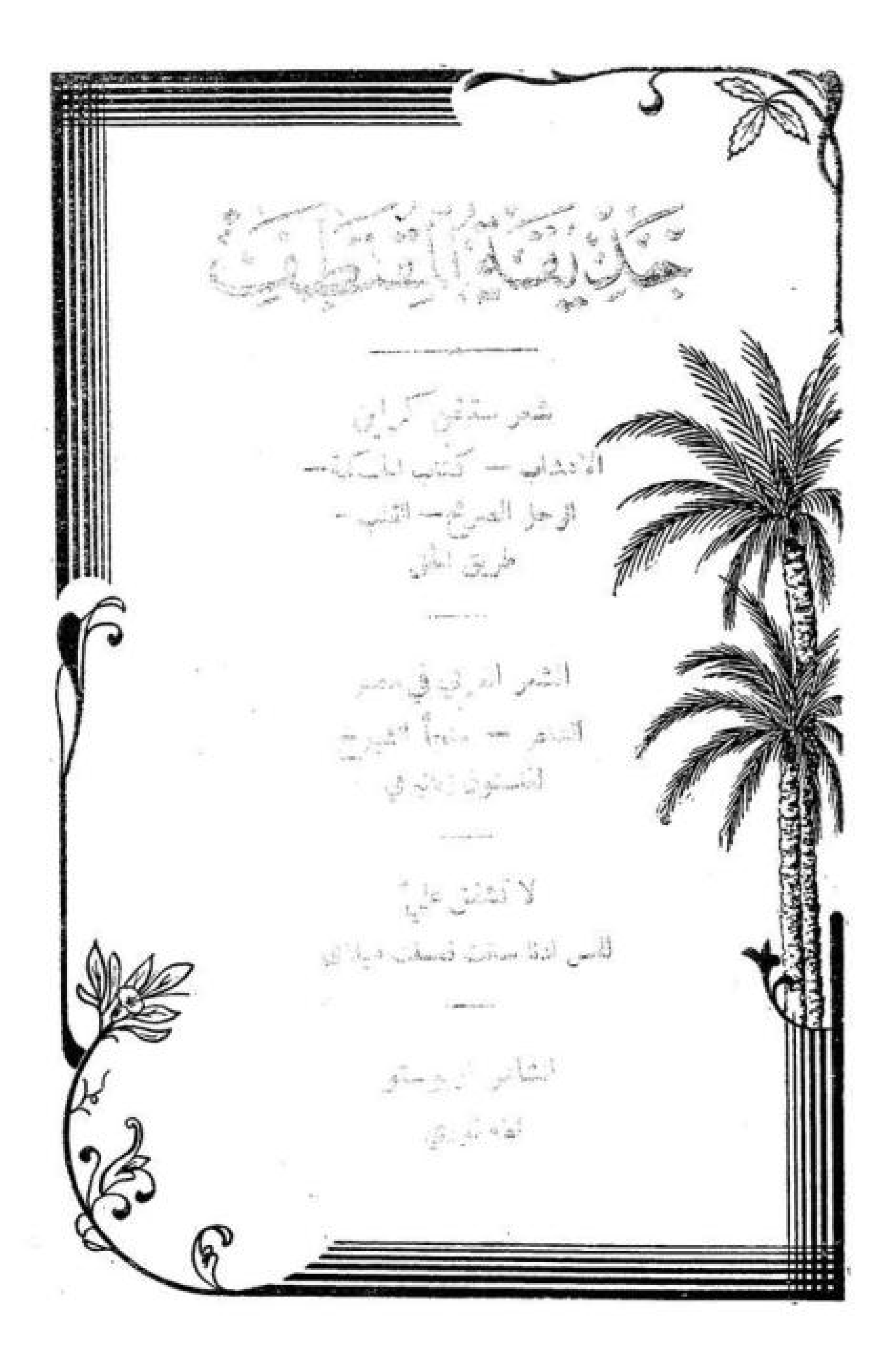


ستالين



تروتسكي

لتفينوف وزير خارجية روسيا (يسار القارئ) والمسيو موسوليني



حديقة العواطف

شعر منثور ...

الأدباء — كتاب الحب ...

الرجل الصريح — القلب —

طريق الحب

الشعر العربي في مصر

الشاعر — مرآة الغريب

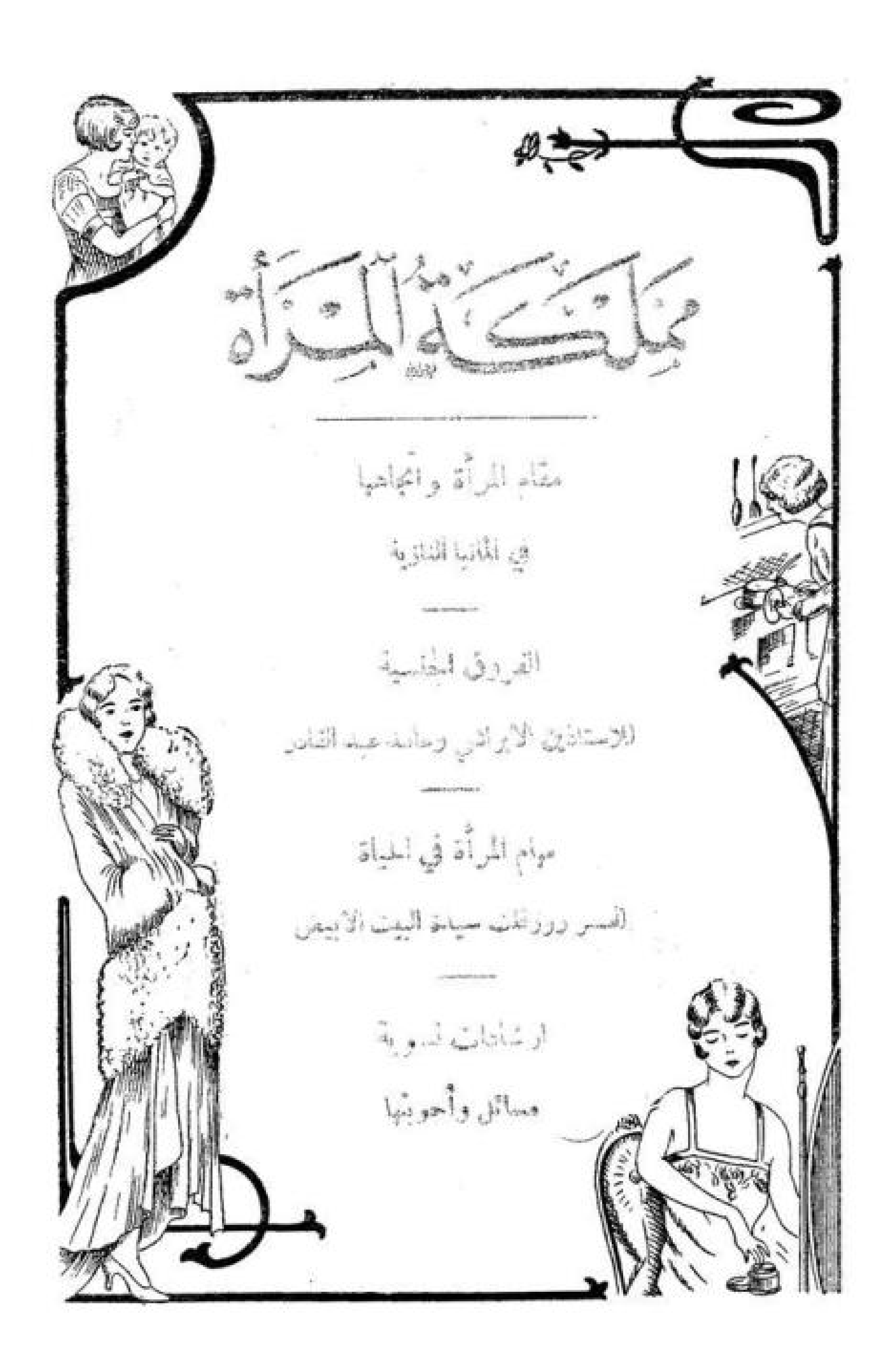
الفيلسوف ...

لا تنتقم مني

... ...

الناشر ...

...


مملكة المرأة
مقام المرأة وأعمالها
في ألمانيا النازية
الفروق الجنسية
للأستاذين الإبراشي وحامد عبد القادر
مهام المرأة في الحياة
لمسز روزفلت سيدة البيت الأبيض
إرشادات دورية
مسائل وأجوبتها

الجزء الثاني من المجلد الخامس والثمانين

١٣٣ مدام كوري (مصورة)

١٤١ تمخضت الفأرة فولدت جبلاً : لميخائيل نعيمه

١٤٦ الزراعة والحضارة

١٤٩ بين الحيوان والنبات : للامير مصطفى الشهابي

١٥٢ زهر يتفتح ليلا

١٥٣ احمد زكي باشا : للدكتور بشر فارس

١٥٧ الغريبة (قصيدة) : لخليل شيبوب

١٥٩ صلة الكندي بعصره : لمحمد متولي

١٦٥ الشباب والاشباب : للدكتور شوكت موفق الشطي

١٧٢ مصطلحات علم النفس : لمحمد مظهر سعيد

١٧٦ عبقرية محيطة : لاديب عباسي

١٨١ التعقيم واصلاح النسل

١٨٥ الادوات الزراعية الفرعونية : للدكتور حسن كمال (مصورة)

١٩٢ استدراك على معجم الحيوان : للفريق امين المعلوف باشا

١٩٥ العنصر الثالث والتسعون

١٩٧ اخونا سليم

١٩٩ احدث معجزات الصوت : لعوض جندي

٢٠٥ سير الزمان : روسيا بعد القيصر (مصورة). تجار الحرب

٢١٩ حديقة المقتطف : الاعشاب . كتاب الحكمة . الرجل الصريح . القلب . طريق الحق . الشاعر . ملجأ الشيوخ . لا تشفق عليّ . لودفيك آريوستو

٢٢٩ مملكة المرأة : مقام المرأة واتجاهها في المانيا النازية . الفروق الجنسية . سر النوم . مهام المرأة في الحياة

٢٤٠ باب المراسلة والمناظرة * ديمتري باك خلاط : لنقولا شكري

٢٤٥ مكتبة المقتطف * فتوحات العلم الحديث . ما قل ودل . تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني . مفتاح كنوز السنة . ملوك الطوائف . الروافد . الثورة العربية . وكتب اخرى

٢٥٧ باب الاخبار العلمية * وفيه ١١ نبذة



مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

EDITED BY DR. Y. SARRUF

VOL LXX. No 5

FOUNDED 1876 BY DRS. Y. ṢARRUF & F. NIMR

المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الثالث من المجلد الخامس والثمانين

١ نوفمبر سنة ١٩٣٤ ٢٣ رجب سنة ١٣٥٣

العمل وطول العمر

الصلة بين عمل الانسان ومدى حياته

تمهيد

العمل الذي يعملهُ الانسان والاحوال التي يعمل فيها والاجور التي يتقاضاها عليهِ ، تعيّن ظروف معيشتهِ ومعيشة اهلهِ الذين يعولهم ، كالبيت الذي يسكنونهُ والملابس التي يرتدونها والطعام الذي يغتذون بهِ واوقات الراحة وضروب الرياضة التي يتمتعون بها . فعمل الانسان يكاد يكون اهمّ العوامل في صحتهِ ومدى حياتهِ . خذ مثلاً على ذلك القسيس الانكليزي او الاميركيّ ، فانهُ يتوقّع بحسب ما دلّت عليهِ جداول الاحصاء ، ان يبلغ من العمر عتيًّا وهو ممتّع بصحة جيدة ونشاط ذهني ، ما كانا ليتاحا لهُ لو اختار عملاً آخر في الحياة . ويليهِ في ذلك المعلم واصحاب المهن الحرّة والكتابية بوجهٍ عام . ويقابلهم في الطرف الآخر من الجدول المعدّنون ومن اليهم من العمال . فمدى عمر هؤلاء قصير بوجهٍ عام ، ومتوسط الوفيات بينهم يفوق متوسطها العام ضعفين او ثلاثة اضعاف

على ان الصلة بين عمل الانسان ومدى حياتهِ ، ليست صلةً محدودةً كصلة العلّة بالمعلول . فالتعمير والتمتع بالصحة الجيدة في الشيخوخة او الاصابة بالحوادث العارضة قبل الوفاة ، تتوقف على عوامل مختلفة متفاوتة في تأثيرها ، علاوة على عامل العمل الذي نقوم بهِ . فثمة القوة الجسمية التي نرثها والبيئة التي ننشأ ونترعرع فيها واحوال الاسرة ونصيبها من الثروة . فاذا كان دخل الاسرة يسيراً وجب عليها ان تكتفي باليسير من الطعام ، والخفيف من الملابس ، وغير الصحي من المساكن .

والعمال من الطبقات الفقيرة يمضون في العمل ، بعد ان تصبح حالتهم الصحية تقتضي الراحة والعلاج وذلك خشية منهم ان ينقطع ايرادهم بانقطاعهم عن العمل . ولذلك نرى انهُ ليس بالامر اليسير على الباحث ان يعيّن مدى تأثير العمل نفسه في امراض الناس وطول اعمارهم ومعدل وفياتهم من ناحية ، ومدى تأثير احوالهم المعاشية في ذلك كلهِ من ناحية اخرى

ولكن لا ينكر احد ان احوال المعيشة ترتبط في الغالب بنوع العمل الذي يمارسهُ الانسان . انما يتعذر على الباحث ان يفرد كلاًّ من هذه العوامل العامة على حدة ويخصّهُ بنصيبهِ من الاثر في صحة الانسان ومدى عمرهِ . الاّ ان دراسة جداول الاحصاء في شركات التأمين على الحياة ، تثبت ان لهذهِ العوامل غير المباشرة اثراً لا يمارَى فيهِ

ففي احصاءات الشركات الاميركية يقسم حاملو عقود التأمين الى فريقين عامّين . الاول وجلّ افرادهِ من الذين يرتزقون بالعمل في المصانع والمناجم والنقل بالسكك الحديدية والسيارات العامة والترامواي وغير ذلك . واجورهم قليلة في الغالب واحوال معيشتهم ضيّقة . اما الفريق الثاني فاجورهم اكبر واعمالهم اقلُّ خطراً واحوال معيشتهم ميسّرة بوجهٍ عام او هي الى السعة والترف . وجلُّهم منصرف الى العمل في المهن الحرّة او التجارة وينتظم في سلكهم العمّال الزراعيون والميكانيكيون . فاذا قابلنا « توقّع الحياة » (Life expectancy) في الفريق الاول بما يقابلهُ في الفريق الثاني ، وجدنا ان افراد الفريق الثاني يتوقعون حياة اطول من حياة افراد الفريق الاول . فحامل عقد التأمين في الفريق الثاني ينتظر وهو في سن العشرين ان يعيش حتى يبلغ التاسعة والستين . اما حامل عقد التأمين من الفريق الاول فلا ينتظر ان يعيش بعد السنة الثانية والستين أي ان مدى حياتهِ يقلُّ سبع سنوات عند مدى حياة الآخر . وهذا سببهُ في الغالب الاحوال المعاشية الناشئة عن عملهِ وطبيعة العمل نفسهِ . والمقصود هنا بطول الحياة او « توقع الحياة » المتوسط لطائفة كبيرة من الناس

ودراسة الاحصاءات الرسمية الانكليزية تؤيد هذه النتائج

الاعمال الحرّة والكتابية

﴿ القسوس والمعلمون ﴾ — فالموضوع من اية الناحيتين نظرت اليهِ ، تخرج من بحثك فيهِ بنتيجة عامة هو ان الرجال والنساء الذين يمارسون المهن الحرّة او الاعمال التجارية والكتابية في المنشآت والشركات ، يفوق توقعهم للحياة ، توقّعَ عمال المناجم والمصانع ومن اليهم ، وذلك لان احوال معيشتهم اسهل ، ولان طبيعة الاعمال التي يمارسونها اخفُّ وطأة على صحة الانسان

فالاحصاءات التي تشمل مدى طويلاً من الزمان ، تثبت ان معدل الوفيات بين القسوس البروتستانت ، منخفض جدًّا ، لا يبلغ نصف متوسط الوفيات بين العمال بوجهٍ عام . ويزيد متوسط الوفيات بين القسوس الكاثوليك على متوسط اخوانهم البروتستانت ، ولكن الاحصاءات

البريطانية ، تدلُّ على ان متوسط وفياتهم ، يظلُّ مع ذلك ، اقلّ كثيراً من المتوسط العام. ويؤخذ من هذه الاحصاءات ان الانتحار يكاد يكون غير معروف في هذه الفئة من الناس كباعث من بواعث الوفاة — وهو المنتظر طبعاً — وان الوفيات بالسرطان اقلُّ بينهم منها في اية فئة اخرى من اصحاب المهن الاخرى التي تناولها البحث

ثم ان المعلمين فئة اخرى من فئات المشتغلين ، التي متوسط وفياتها قليل جداً . بل انهُ يكاد يكون اقل من متوسط الوفيات في اي فريق آخر من الناس ما عدا القسوس . وان نسبة الاصابة بينهم بالعوارض accidents اقلّ من نسبة هذه الاصابات في سائر مستخدمي الحكومة في مدينة نيويورك . وقد كان الظنُّ ان متوسط الوفيات بالسل بين المعلمين كبير اي انهُ فوق المتوسط العام . ولكنهُ على الضدّ من ذلك اقل من المتوسط قلة لا بأس بها، وان أهمّ الاسباب في تعطيلهم عن العمل كان الانفلونزا والتهاب الشعب الرئوية والامراض العصبية . على ان الباحث لم يتمكن من ان يثبت ان الاصابات الكثيرة بينهم بالنورستينيا ، ناجمةٌ مباشرة ، عن عمل التعليم . ومما لا ريب فيهِ ان عمل التعليم ، يرهق الاعصاب ، ولكن ذلك لا يكفي لعزو كثرة اصابات النورستينيا بين المعلمين الى عمل التعليم . يؤيد هذا ان طائفة كبيرة من المشتغلات بالاعمال الكتابية ، ظهرت بينهنّ اصابات النورستينيا بالقدر الذي ظهرت فيهِ في طائفة المعلمين — وجلُّ طائفة المعلمين من النساء كما لا يخفى .

والاحصاءات الانكليزية تبين ان معدّل الوفيات بين المعلمين اقلّ كثيراً من المتوسط العام

﴿ الاطباء والممرضات ﴾ — ويزيد متوسط الوفيات بين الاطباء على متوسطها بين القسوس والمعلمين . بل ان متوسط عمرهم لا يزيد على المتوسط العام ، اكثر من سنة واحدة . وهذا يبعث على الدهشة ، لان الاطباء كطائفة مختارة من الناس ، اقوى أجساماً وانفذ ذكاء وأعلى مقاماً اجتماعياً من سواد الناس . ولكن عدم الانتظام في ساعات عملهم ، ووجوب استعدادهم لتلبية ما يطلب منهم في الحوادث والعوارض ، في أية ساعة من ساعات الليل او النهار ، وتعرُّضهم لمختلف الاجواء من حرّ وبرد وجفاف ومطر — وخاصة اذا كانوا من اطباء الارياف — يعدل الميزات الاولى التي يمتازون بها. واكثر بواعث الوفيات بينهم، الانفلونزا والالتهاب الرئوي . بل يمكننا ان نحسب هذين المرضين مما يتصل خاصة بصناعة الطب ، لان الطبيب كثير التعرض لهما في خلال تأديتهِ عملهُ اليومي . ويلي هذين المرضين في اطباء اميركا مرض القلب وداء البول السكري . بل ان الاحصاءات الاميركية تبين كذلك ان معدّل حوادث الانتحار بينهم أعلى قليلاً من المتوسط العام . ولكن معدّل حوادث الانتحار بين اطباء انكلترا وويلس ، يبلغ ضعفي المعدل العام . اما وفيات اطباء الاسنان فأقلُّ من وفيات الاطباء واكثر من وفيات طائفة المشتغلين بالاعمال الحرة والاعمال الكتابية

يقابل ذلك ان وفيات الممرّضات قليلة . ولعلّ ذلك سببهُ ان الممرضات في الغالب عوانس ، والمعروف ان معدّل وفيات العوانس قليل . بل لقد يكون معدل وفيات الممرضات اقل من معدّل

وفيات العوانس بوجهٍ عام . وقد تناول الكتّاب الاوربيون موضوع وفيات الممرضات وتعرضهنّ للعدوى بالسل لتمريضهنّ المصابين بهِ . ولكن اصحاب الرأي في اميركا يختلفون في ذلك، لان طائفة من المنشآت التي يعالج فيها المسلولون تعتمد على ممرضات مسلولات . ولكن الرأي العام السائد ان صناعة التمريض لا تعرّض الممرضات للعدوى لتوفيرها وسائل الوقاية في المستشفيات والمصحات الكبيرة . وعلى كلٍّ، يؤخذ من بعض المباحث التي اجريت في هذا الصدد ، ان معدّل الوفيات بالسلّ بين الممرضات يزيد ٣٣ في المائة ، عن معدلهِ في جماعة عامة من النساء في العمر نفسهِ

العمال واخطار اعمالهم

من الجليّ ان اصحاب الاعمال الحرة والمشتغلين بالاعمال الكتابية لا يتعرضون لاخطار خاصة تتصل بطبيعة عملهم ، كالعوارض التي يتعرض لهم عمّال المصانع ، او استنشاق غبار يضرُّ بالرئتين ، اوغازات سامة ، او العمل في احوال مرهقة من البرد او الحر او الرطوبة او غير ذلك . فهناك طوائف كثيرة من العمال لا تنعم بما ينعم بهِ القسوس والمعلمون والاطباء والممرضات وموظفو الحكومات والشركات والمصارف ، لأنهم يتعرضون لأحد هذه العوامل او لطائفة منها ، فتضعف صحتهم وتقصر مدى حياتهم

﴿ العوارض الصناعية ﴾ — واهم المخاطر التي يتعرضون لها، هي العوارض accidents التي تحدث في المصانع . ففي الولايات المتحدة يموت كلّ سنة ٢٤ الفاً من الناس بهذه العوارض الآلية . وتحدث عوارض اخرى على درجات متفاوتة من الخطر ، بحيث تمنع المصابين عن القيام باعمالهم مدداً تقصر او تطول بحسب شدة الاصابة وخفتها . فاذا قدر عدد ايام العمل الذي تخسره المعامل في اميركا بسبب هذه الحوادث المختلفة بلغ نحو ٣٠٠ مليون يوم عمل فكأن هذه الحوادث تبقي مليون عامل عاجزين عن العمل ، على مدار السنة . وتقدر الخسارة الناجمة عن هذه الحوادث في اجور العمال ، بنحو مائتي مليون جنيه . ويضاف اليها ما ينفق على معالجة هؤلاء المصابين ، وما يستنزل من اجرة العامل بعد شفائهِ ، لنقص كفاءتهِ بعد الحادث عنها قبله . ويلي ذلك ان نحو ثلاثة آلاف عامل من كل مليون عامل يعملون في المناجم ، يموتون بعوارض تحدث لهم في خلال قيامهم بعمل التعدين . وحوادث السكك الحديدية المختلفة التي تقع لعمالها البالغين مليوناً وثلاثة ارباع المليون ، تقضي على ١٥٠٠ عامل كل سنة . وكذلك يموت كثيرون من الحطابين بما يقع عليهم من الانقاض الكبيرة ، ومن البنائين وسوّاقي السيارات وغيرهم بحوادث ناجمة عن طبيعة اعمالهم

وقد حاول اصحاب هذه الاعمال على حدةٍ وباشتراك مع الحكومة ، اصلاح الحال ومع ذلك لا تزال الحال تبعث على التبرم . فمتوسط الذين يقتلون في حوادث مناجم الفحم ، يفوق متوسط الوفيات بين الكتبة والموظفين عشرة اضعاف . وتوقّع الحياة بين معدني الفحم ، في سن العشرين ينقص عشر سنوات عن توقع الحياة عند عامة الناس . اي اذا توقعنا انا وأنت — ونحن في سن

العشرين — ان نعيش حتى نبلغ الخمسين ، فعدّ ن الفحم لا يتوقع ان يعيش بعد الاربعين . ومن قبيل عمل المعدنين ، اعمال اخرى يستهدف اصحابها للموت بما اطلق عليه اسم العوارض الصناعية Industrial accidents

﴿ الطيران ﴾ — وقد بلغ من شدة المخاطر التي يتعرض لها الطيارون ان رفضت شركات التأمين في البدء تأمينهم على حياتهم، او جعلت اقساط التأمين عالية ، اعلى جداً من الاقساط العادية في التأمين على الحياة . ولما كثر عدد الناس الذي اتخذوا الطيران صناعة لهم ، او وسيلة عادية للانتقال عنيت شركات التأمين بتحديد مدى الخطر على الحياة الذي يتعرض لهُ الانسان في خلال الطيران . فحسبت بعض الشركات حساباً على اساس وفاة عشرة طيارين في كل الف طيار ، وزادت القسط السنوي على تأمين قدره الف ريال ، عشرة ريالات ايضاً . ثم ثبت ان هذا المبلغ لا يكفي في تأمين سائقي الطيارات على حياتهم . والمقرَّر الآن ، ان سواقي الطيارات النظاميين يختلف متوسط وفياتهم في السنة من ٢٥ الى ٥٠ في الالف . حتى اذا كان الرقم الاول ، اقرب الى الصواب كان متوسط وفياتهم اربع اضعاف متوسط الوفيات في جماعة عامة من الرجال في عمرهم . وقد ثبت ايضاً ان الخطر الذي يتعرض له المسافر بالطيارة على خطوط نظامية معترف بها لا يذكر ، ولذلك لا يزاد القسط السنوي على تأمينه

وقد حاول اولو الامر في الولايات المتحدة الاميركية ، ابتداع وسائل كثيرة لتوقي هذه العوارض ونتائجها ، فنقص متوسط الذين يقتلون من موظفي سكك الحديد ، من ١ : ٣٥٧ سنة ١٨٨٩ الى ١ : ١١٣٦ في سنة ١٩٢٨ . ونقصت كذلك الحوادث في مصانع الحديد والصلب وخفت شدتها ، وقل ما تضيعه على العمال من ايام العمل . ولكن النتائج بوجه عام ليست مما يصح السكوت عليه ، بل انها لا تبعث على الرضا . وذلك في الغالب ، للتبدُّل الدائم في اساليب الصناعات المختلفة . فقد تستنبط اليوم طريقة لتوقي خطرٍ من الاخطار في احد الاعمال الصناعية فيتبدل اسلوب العمل في الغد ، ويأتيك بخطر جديد ، لا تجديك في اتقائه الطريقة القديمة

﴿ الغبار ﴾ — اما الغبار فيلي العوارض الصناعية ، خطراً على حياة العمال . فغبار الصخور يحتوي على قدر كبير من السلكا ، وهو كثير الضرر ، يقصر اعمار طائفة كبيرة من العمال في صناعات مختلفة كقطع الاحجار ، واستخراج تبر المعادن المختلفة من الصخور ، واستخراج صخري الاردواز والغرانيت من محاجرها ، وصقل الجرانيت وغير ذلك من الاعمال المماثلة لها . والواقع ان متوسط الوفيات بين هذه الطائفة من العمال ، هو اعلى متوسط عرف في شركات التأمين ، لان العمل يجمع في بعض الاحيان بين التعرُّض للعوارض ، واستنشاق هذا الغبار الضار في آنٍ واحد ، كما يقع في تعدين الذهب والفضة والنحاس ، وبوجه خاص في تعدين الرصاص والزنك . فمتوسط الوفيات بينهم يُربي ثلاثة اضعاف او اكثر على المتوسط العام . وتوقُّع الحياة لاحدهم وهو في العشرين ينقص من ١٣ الى ١٤ سنة عن «توقع الحياة» العام . اي اذا كان توقع الحياة لموظف بنك في العشرين من عمره ،

ثلاثين سنة ، فتوقع الحياة لاحد هؤلاء العمال لا يزيد على ١٧ او ١٨ سنة . وقد اثبتت الاحصاءات البريطانية ، ان أعلى معدل للوفيات ، هو معدل الوفيات بين معدني القصدير والنحاس ، المعرَّضين لغبار الصخور الصلدة التي يقطعونها . فمعدل الوفيات بين هؤلاء المعدنين يفوق اربعة أضعاف معدَّل الوفيات العام ، ومعدل الوفيات بالسلّ بينهم يفوق ١٢ ضعفاً المعدل العام للوفيات بالسلّ

والسلُّ الرئوي داءٌ كثير الانتشار بين هـذه الطائفة من العمال ، فكأن دقائق الغبار ، تنفذ الى نُسج الرئتين ، فتحدث احتكاكاً ميكانيكيًّا — او كيمائيًّا على ما يرجح الآن — يعقبهُ تحجّر في النسيج ، يجعل الرئة هدفاً صالحاً لعمل باشلُّس الدرن . وقد اثبت بحث اجري بين قاطعي الغرانيت في ولاية فرمونت الاميركية ، ان متوسط الوفيات بالسل بينهم ، يفوق عشرة اضعاف متوسط الوفيات بالسل في الولاية عامًّا . والظاهر ان الآلات التي تستعمل الهواء المضغوط التي يعتمد عليها الآن ،تثير الغبار الحافل بدقائق السلكا، أكثر من الآلات اليدوية القديمة ، وهذا يعلّل ما ظهر من زيادة في حوادث السلّ الرئوي . وقد ثبت ان هناك انواع اخرى من الغبار عدا غبار الصخور ، يصحب ما يرى في بعض طوائف الناس من ارتفاع متوسط الوفيات ، مثل الحلاّقين وصنّاع الاثاث والنجارين والخبازين وعمال مصانع الغزل والنسج ومصانع الاحذية او التبغ . ولكن متوسط الوفيات بين هؤلاء ، لا يبلغ في حالة من الاحوال ، ما يبلغهُ في عمال المحاجر وما اليها

وهنـاك نوع من الغبـار ، يظهر انهُ يقي من الخطر ، بدلاً من ان يعرّض الحيـاة لهُ . فن المشهور في جميع انحاء العالم ، ان متوسط الوفيات بالسل بين معدّني الفحم اقل من معدل الوفيات بهِ بين الذكور بوجهٍ عام . فتوسط الوفيات بالسل الرئوي في انكلترا ووبلس بين سنة ١٩٢١ — ١٩٢٣ كان ينقص ٢٥ في المائة في الذكور الذي يتباين عمرهم من ٢٠ سنة الى ٦٥ ، عن متوسط جميع الذكور بين هذين السنين . وما يصحُّ على معدني الفحم يكاد ينطبق كذلك على عمال مصانع الاسمنت . وقد ذهب بعضهم ، الى ان غبار الجير كغبار الفحم ، لهُ أثر في الرئتين ، يقي من السلّ . ولكن ذلك لم يثبت ثبوتاً علميًّا بعد . ولا ريب في ان البحث العلميّ الطبي على اساس المناعة التي يتمتع بها معدنو الفحم وعمال مصانع الاسمنت ، يسفر عن خير عظيم

﴿ السموم والغازات السامة ﴾ — ان امتصاص بعض المواد السامّة ، مثل الرصاص والزئبق والفصفور والنحاس والزرنيخ والبنزول واكسيد الكربون الاول وغيرها من المواد المستعملة في الصناعات المختلفة ، هو الباعث المباشر لمرض بعض عمال هـذه الصناعات وموت بعض آخر . ومن قبيل هذه السموم ، الاشعة السينية ، التي يتعرّض لها الاطباء والممرضات في بعض المصحات والمستشفيات ومعامل البحث العلمي . كذلك العمال الذين يشتغلون في صنع موانئ الساعات المضيئة ، يتعرضون للاصابة بما يعرف باسم « التسمُّم الراديومي » . ومن المتعذر الآن معرفة مدى الاصابة بالسموم المختلفة الناشئة عن طبيعة العمل ،لغموض الاعراض في هذه الاصابات من حيث صلتها بالعمل

نفسه ، حتى ليصعب على جمهور الممارسين من الاطباء تبينها وتشخيصها ولذلك يهمل التبليغ عن بعضها مع ان القوانين تقتضي بذلك . ولكن بعض الولايات انشأ من عهد قريب قوانين لتعويض العمال الذين يصابون بامراض ناشئة من عملهم ، فينتظر ان تفضي هذه القوانين الى معرفة اتم بهذه الناحية من علاقة العمل بالصحة وطول العمر

ومع قلة المعلومات التي تمكن الباحث من تعيين اثر السموم الصناعية في معدل الوفيات ، تقرر شركات التأمين الاميركية ، ان معدل وفيات الدهانين ، المعرّضين دائماً للرصاص — لانهُ يدخل في تركيب طائفة كبيرة من اصناف الدهان — أعلى من المعدل العام ، وان اثنين في المائة من وفياتهم سببها التسمم بالرصاص . اما في انكلترا ، فالتسمم بالرصاص ، يسبب وفاة كثيرين من البرّادين . والمشتغلون بصهر القصدير ، يتعرضون لدخان أكسيد الزنك (القصدير) فيصابون بداء يعرف «بداء صاهري القصدير» واليهِ يردُّ وفاة كثيرين منهم بامراض الجهاز الهضمي والسلّ والتهاب الرئة . ولا ريب في ان الغبار يشترك مع هذه الادخنة في الاصابات التي سبق ذكرها

﴿التعرُّض لاختلاف الحرارة﴾ — تقضي بعض الاعمال ، على القائمين بها ، ان ينتقلوا فجأة من مكان دافىء شديد الدفء الى مكان بارد شديد البرد . ومن هؤلاء المشتغلون بمصانع الحديد والصلب والخزف والزجاج ، وغرف الآلات البخارية في السفن . فهؤلاء العمال معرّضون لأمراض الجهاز التنفسي ، ومعدل الوفيات بينهم ، بالتهاب الرئة ، عالٍ جدًّا . والواقع ان الوفيات بهذا الداء بين العمال في مصانع صبّ الحديد ، اعلى منهُ في أية فئة اخرى من العمال . اما العمال في مصانع النسيج ، حيث يتعرضون للحرارة والرطوبة معاً ، فيصابون بعلل لا يمكن تحديدها وانما يبدو اثرها في ارتفاع معدل الوفيات بينهم . ومنهم من ينحصر عمله في اعمال يطلق فيها البخار من احواض وصناديق ، فيتعرضون للروماتزم المزمن او لالتهاب شعب الرئتين المزمن او لاضطراب في الدورة الدموية

﴿التعب والاجهاد﴾ — لقد اثبت الدكتور ريموند برل فساد القول بأن العمل لا يقتل احداً . فأثبت من درسهِ لتقرير مصلحة الاحصاء ، ان الاجهاد الجسماني ، يقصر حياة الرجل بعد الاربعين من العمر . قال : من المعروف ان حياة العبيد في السفن الحربية الرومانية والعمال في مصانع الصين ، وعمال مزارع الارز في جاوى ، قصيرة لكثرة ما ينفقونهُ من الطاقة في اعمالهم . فثمة صلة معينة في معدل وفيات الذين اربوا على الاربعين من العمر ، ومقدار الطاقة التي ينفقونها في اعمالهم . وقد ثبت من بحث ٢٢ الف عامل في مصانع الحديد بانكلترا ، ان الامراض اكثر تفشياً بين طوائف العمال الذين يقتضي عملهم منهم انفاق قدر كبير من الطاقة في جوّ حارّ ، منها بين الذين عملهم اسهل والجوّ الذي يعملون فيهِ اقل حرارة . وثبت من بحث آخر ان تعب القلب الناشىء عن الاجهاد في العمل كثير بين الجنود والحمّالين والمعدنين والحدادين . ولا يخفى ان الفتق من الاصابات التي تكثر بين رافعي الاحمال الثقيلة

صفحات من كتاب الارض

مراحل الحياة عبر الزمان (١)

للسر جيمز جينز

كشف علماء الطبيعة من عهد قريب عن طريقة تمكنهم من تبيّن الصفحات المتوالية في كتاب الارض وتعيين تواريخها تعييناً على جانب من الدقة يسترعي النظر ولا يمضْ

فقد رأى كل قارىء لهذه الكلمات ساعة من تلك الساعات التي تتألق في الظلام الحالك فيستدلُّ صاحبها بهذا التألق على مواقع عقاربها . ولكن البحث الوافي في هذه الآلات الدقيقة . يثبت لنا ان تألقها ليس فعلاً مستمرّاً، بل هو سلسلة من الانفجارات المتوالية توالياً سريعاً فيظهر التألق كأنهُ مستمر .وكل انفجار سببهُ تلاشي ذرة من ذرات الراديوم ، او بالحري تحوُّلها. لأن ذرة الراديوم لا تتلاشى فعلاً ، ولكنها تتحوَّل على مرّ الزمان الى صنف خاص من الرصاص، يدلُّ عليها

والغريب ان تحوُّل الراديوم الى رصاص ، يمضي على وتيرة واحدة وبسرعة واحدة ، ولذلك يستطيع العالم ان يقيسهُ في مخبرهِ . فاذا استطعنا ان نعرف مقدار ما على عقارب الساعة من الراديوم والرصاص الناشىء عن تحوُّل الراديوم مكنتنا معرفة سرعة التحوُّل في الراديوم الى رصاص ، من قياس عمر الساعة . وكذلك نستطيع ان نقيس عمر صخور الارض ، بالاسلوب نفسهِ

فأننا اذا اخذنا شرائح من صخري الميكا والتورمالين ، ونظرنا اليهما بالمكرسكوب ، رأينا فيهما احياناً نوعاً من الهالات هو عبارة عن حلقات متراكزة وفي مركز الهالة ذريرة من مادة مشعة، تنحلُّ او تتحوَّل ، بسرعة معيّنة ، على مثال تحوُّل الراديوم في ميناء الساعة . وقد تكون هذه المادة مبنية من عنصر الاورانيوم او عنصر الثوريوم او منهما معاً . فحلقات الهالة ناشئة عن انحلال هذه المادة المشعة

وفي مستطاع العلماء ان يحدثوا هالات من هذا القبيل في المخبر ، مؤلفة من حلقات متراكزة ، فيمكنهم ذلك من فهم اسرار حدوثها في الصخرين المذكورين اوغيرهما من الصخور

وقد ثبت من امثال هـذه التجارب ، ان لون الهالات ، يشتدُّ قتاماً ، بمضي الزمان ، ولذلك يستطيع العالم احياناً ان يقدّر عمر الصخر من لون الهالات التي يتبينها فيه

بيد ان هناك صخوراً ، تحتوي على عنصر الاورانيوم او الثوريوم ، ولكن لا تبدو فيها

(١) ملخص فصل من كتاب جديد للسر جيمز جينز العالم الانكليزي عنوانه : « عبر الزمان والمكان »

ظاهرات الحالات هذه ، فعند ذلك يعمد العالم الى التحليل الكيمائي ؟ ليعرف مبلغ ما طرأ عليها من التحوُّل . وهذا يمكنهُ من تقدير عمر الصخر ، كما يمكنهُ تقدير عمر الساعة من تحليل الراديوم الذي في ميناء أرقامها

فقد ثبت من تحليل بعض الصخور في كندا [١] انها تجمدت من نحو ١٢٣٠ مليون سنة . وثمة صخور في جهات اخرى اقدم من ذلك واطول عمراً ، ولكنها ليست اقدم كثيراً من صخور كندا ، ولا يمكن تعيين عمرها ، بمثل الدقة التي عُيِّن بها عمر تلك . ولذلك يصحُّ ان تقول ان صخور «البغمتيت» بكندا هي الصفحة الاولى في كتاب الارض التي يمكن تعيين تاريخ دقيق لها

في هذه الصحفة من الكتاب ، نقرأ ان الارض كان لها من ١٢٣٠ مليون سنة ، قشرة جامدة ، تجري عليها الانهار ، فتجرف في جريانها فتات الصخور الى البحار . بل ان الصفحات التي قبل هذه الصفحة — أو الطبقات التي تحت هذه الطبقة — تبين لنا ، فعلي التبرُّد والتجمد ، ولكننا لا نستطيع ان نعرف ما استغرقهُ هذان الفعلان من الزمن والمرجح انهما استغرقا ملايين من السنين. ولذلك يرجح علماء العصر ان عمر الارض قد لا يقلُّ كثيراً عن ١٥٠٠ مليون سنة . ولا يمكن ان يزيد على ١٥٠٠ مليون سنة كثيراً ، والاَّ لكانت المواد المشعة فيها ، قد خمدت بعد انقضاء اشعاعها ، ولما اتيح لنا نحن ان نرى ظاهرة الاشعاع الطبيعي . والراجح ان سكان الارض بعد ملايين الملايين من السنين لن يعرفوا ما هي. فاذا كانت المواد المشعة تمضي في اشعاعها وتحوُّلها على وتيرة واحدة فعمر الارض نفسها قد لا يزيد على ٣٤٠٠ مليون سنة ، والراجح انهُ أقل من ذلك كثيراً

فبين هذين الحدين — ٣٤٠٠ مليون سنة و ١٥٠٠ مليون — يقع عمر الارض [٢] . فاذا اقتصرنا في تقديرنا على الارقام « المدوَّرة » قلنا ان عمر الارض يبلغ نحو ٢٠٠٠ مليون سنة ، فهو مائة الف مرة اطول من مدى التاريخ المدوَّن ومليون مرة اطول من العهد المسيحي

وقد يتعذر على ذهن الانسان ، ادراك ما في هذه الارقام من المغازي . ولعلَّ ايسر طريقة لتصوُّر ذلك ان نأخذ كتاباً يشتمل على ٥٠٠ صفحة ، تحتوي كل صفحة منهُ على ٣٣٠ كلمة ، ومتوسط الحروف في كل كلمة ستة حروف . فاذا كان هذا الكتاب يمثل عمر الارض ، فالكلمة الاخيرة فيه تمثل عهد التاريخ المدوَّن ، والحرف الاخير فيها يمثل العصر المسيحي . في مدى هذا الحرف الاخير ، قامت الامبراطورية الرومانية ودالت وانتشرت المسيحية في مختلف بقاع الارض وتحوَّلت دول اوربا من البلدان الهمجية التي وصفها قيصر الى ما هي عليه الآن . (وبزغ في الحجاز نجم الدين الاسلامي وامتدت فتوحات المسلمين من الحجاز الى اوربا شمالا فغرباً ، ومن الحجاز الى

(١) تعرف هذه الصخور باسم Pagmatite (٢) بعيد كتابة هذا المقال قرأنا آخر تقدير لعمر الارض فاذا هو ١٧٢٥ مليون سنة

اوربا عن طريق شمال افريقيا). في مدى هذا الحرف الصغير ، ولد ومات ستون جيلاً من الناس . اما مدى حياتي وحياتك ايها القارىء ، فقد لا تفوز بمثلها في هذا الكتاب بأكثر من نقطة صغيرة

فاذا شئنا ان نقرأ في هذا الكتاب ما سبق الكلمة الاخيرة (اي ما سبق عهد التاريخ المدوّن) وجب ان تكون قشرة الارض كتابنا ، الذي نقرأ ، وما فيها من طبقات الصخور والتراب . وجانب كبير من الصفحات في كتاب القشرة الارضية قد جعّد وتكسر بمرور الزمن عليه ، ولكنّ الصفحات لا تزال في الغالب مرتبة بحسب تواليها الزمني ، وبعضها يحمل في طياته هناك وهنا ، ما ينبىء عن تاريخه

فلنتصوّر اننا بسطنا هذه الصفحات المجعّدة فماذا نقرأ فيها ؟

قبل الفي مليون سنة كانت الارض لا تزال خالية من الحياة ، آخذة في التبرّد والتجمد والاستقرار ، ومضت على ذلك نحو مائة مليون سنة . ثم نقلب صفحة اثر صفحة من الاحداث الجولوجية ، في ذلك العهد السحيق ، الى ان نقع في الصفحات التي تاريخها يرجع الى حوالي ١٢٣٠ مليون على طمي يحتوي على آثار الكربون . ويرى بعض الجولوجيين في ذلك بعض الدليل الاستنتاجي على ان البحار كانت تحتوي على طائفة من الاشكال الحية البسيطة . ثم نمضي في تقليب الصفحات فلا نقرأ فيها ، في الغالب الأ عن احداث جولوجية ، حتى نصل الى الصفحات الخاصة بالمدة التي بين ١٠٠٠ مليون سنة و ٥٠٠ مليون سنة فنجد بقايا حفريات في الصخور ، يرى فيها الجولوجي بقايا الاحياء في ابسط مظاهرها . ثم حوالي المدة التي تقع قبل ٤٠٠ مليون سنة ، نجد الحياة وقد كثرت اشكالها وتعقد بناء هذه الاشكال . بل اننا نجد بقايا ديدان وحيوانات بحرية هلامية تعرف بقناديل البحر ، وهي لا تختلف كبير اختلاف عن اشكالها المعهودة الآن

ثم تنقضي ملايين السنين ، فاذا فتحنا عندها صفحات في كتاب الارض وجدنا حفريات تشبه شبهاً كبيراً بعض نباتات العصر الحديث . نحسبها نباتات ولكنها لم تكن نباتات لانها كانت تعيش في اغوار البحر ، وكانت اشبه بما يعرف بشقائق البحر او نجوم البحر . ولكن بعد ذلك اخذت الحياة تغزو اليابسة وفي آثار هذا العصر نرى حفريات الاعشاب الاولى والنباتات الشبيهة بالسراخس

فلما كثر النبات على اليابسة اتخذت الارض تدريجاً شكلها الحالي . فجذور النبات تثبّت دقائق التراب ، وتنشىء تربة مستقرّة صالحة للزراعة . ثم ان بعض الحيوان يغتذي بالنبات ، والبعض الآخر يغتذي بطوائف الحيوان الاول

كان هذا مفتتح العصر الذي سيطرت فيه الزحافات الضخمة على الارض . ومن اشهر هذه الزحافات حيوان يدعى Dimetrodon Gigas وقد كان عظاءة لاحمة (Carnivorous) ضخمة الجثة ، عاشت قبل ٢٥٠ مليون من السنين . ومن العجيب ان بعض الاشكال البسيطة التي ظهرت في ذلك العهد ، او قبيله ، كالديدان وقناديل البحر واصناف الاسفنج ، ما تزال باقية الى عصرنا هذا لم يطرأ عليها تغيير كبير ، حالة ان الاشكال المعقدة التركيب التي ظهرت حينئذٍ تحوّلت تحوّلاً كبيراً

واذ نتقدم في تقليب صفحات الكتاب نجد صفحات كَتَبَ عليها الجولوجيون اسم «الدور البرمي» او «الدور الترياسي» وكتب عليها علماء الطبيعة «٢٠٠ مليون سنة». في هذه الصفحات نقرأ عن احداث جولوجية، جعّدت قشرة الارض وبدّلت من شكل سطحها. ففي نصف الكرة الشمالي نقرأ عن جفاف بعض البحار ومنها المحيط الاطلنطي والمحيط الهندي وتحوّلها الى يابسة، ونعلم ان جانباً فقط من المحيط الهادىء ظلّ مغموراً بالماء. اما في نصف الكرة الجنوبي، فيقول الجولوجيون ان الارض المعروفة باسم غوندوانا Gondwana برزت فوق سطح الارض وشغلت الفسحة الممتدة من شرق اميركا الجنوبية الى افريقية فاستراليا

ويرينا الجولوجيون كذلك شقوقاً في الصخور محشودة بحفريات السمك كأنها العَرَم (السردين) في العلب، فكأن هذه الاسماك قضت آخر ايامها حيث توجد قطرات الماء الاخيرة قبل تبخرها

***

فلما انحسرت المياه عن ساحات شاسعة على سطح الكرة الارضية، وضاق مسطح البحار الذي تتبخر المياه منهُ، وقلّت الامطار تحوّل جانب كبير من اليابسة الى صحراوات. في هذه الصفحة من كتاب الارض نقرأ أن بحار اوربا الشمالية ظلت تتقلص حتى أصبحت بحيرات ملحة، وازدادت ملوحتها بازدياد الجفاف، ثم جفت تاركة رواسب من الملح على نحو ما نجده الآن في مقاطعتي تششير وساتفوردوشير بانكلترا. فلما بدأ الجفاف في الزوال، لم تظهر اشكال كثيرة من الاحياء التي كانت معروفة قبله، فكأن الجفاف لاشاها، ولم يبق منها الا ما استطاع ان يلائم ملاءمة سريعة بينهُ وبين الاحوال الجديدة. ومن هذه الحيوانات زحّاف Cacops aspidophorus استطاع ان يعيش على اليابسة بعد جفاف البحار

ويلي ذلك صفحات خاصة بالدور الجوري Jurassic وتاريخها يرتدّ الى عهد يمتدّ من ١٥٠ مليون الى مائة مليون سنة قبل عصرنا. في هـذا العصر، عادت الرطوبة الى الهواء، وعاد المطر ينهمل على سطح الارض، واصبحت الارض من جديد صالحة للاحياء. في هـذا العصر، نشاهد الزحافات التي تخطّت عهد الجفاف، بعضها يعيش في البحر وبعضها على اليابسة، وبعضها قد غزا الهواء. لاننا في الحفريات الخاصة بهذا العصر نقع على آثار اول الحيوانات المجنحة وقد كان لها في بدء امرها أسنان في مناقيرها. ولكن معظم الحيوانات في هذا العهد كان غير صالح لتنازع البقاء في الغالب لضخامتهِ وعجزهِ عن الكرّ والفرّ

فمن الحيوانات التي عاشت في اميركا قبل حوالي الف مليون سنة حيوان يدعى Triceratops وهو نموذج للحيوانات التي كانت تعتمد على دروعها الدفاعية في الكفاح. فقد كان لهُ ثلاثة قرون طول كل منها بضع اقدام، فكان عليهِ اذا هوجم ان يقف «وظهره الى الجدار» منتظراً عدوه المهاجم ان يتمزق على قرونهِ. وكان حيواناً ضخماً طوله نحو عشرين قدماً وعلوه نحو تسع قدام.

وكان لا يزال زحافاً في بعض خصائصه وكانت اناثه تبيض بيوضاً . ولما كانت طرق الهجوم والدفاع لا تزال بدائية فان هذه الحيوانات لم تكن في حاجة الى كثير من الذكاء ولذلك نجد ان جمجمة هذا الحيوان كان طولها ست أقدام ولكن دماغه كان لا يفوق دماغ الهريرة في حجمهِ

ومن هذه الحيوانات العجيبة الزحاف المجنّح Pterodactyl وقد كانت المسافة بين اطراف جناحيهِ نحو ١٨ قدماً . ولكن اجنحته كانت اضعف من ان تشيل جسمهُ الضخم في الهواء ، وارجله اضعف من ان تحملهُ على الارض . ويصورهُ لنا العلماء جاثماً على رأس صخرة او اكمة ، ثم اذا بهِ فجأة يلقي بنفسهِ في الهواء ، فيسبح فيهِ بفعل تياراتهِ ، على نحو طيران السابحات في الهواء الآن gliders فينقضُّ على فريستهِ ثم يعود ادراجه ، متثاقلا الى رأس الصخرة . فكأن حياتهُ كانت محاولة مستمرة ان يتعلم الطيران من دون ان يصيب قسطاً كبيراً من النجاح

اما الحيوان المعروف باسم diplodocus فكان من اضخم الحيوانات التي ظهرت على الارض . كان علوه نحو ٣٠ قدماً فوق سطح الارض ، ولذلك يرجح ان وزنهُ كان يختلف من ٤٠ طناً الى ٥٠ طنًّا . وقد بلغ من ضخامة جثته ان ارجله كانت تعجز عن حمله ، لذلك فضّل ان يعيش في البطائح (المستنقعات) حيث كانت عنقهُ الطويلة المستدقة تمكنهُ من تناول غذائهِ . والواقع انهُ كان يحتاج الى قوة رفع الماء لكي يستطيع تحريك جثتهِ الضخمة

لذلك قلنا ان هذه الحيوانات واشباهها كانت غير صالحة لمعترك البقاء ، فأخلت مكانها لحيوانات اخف حركة وأملأ ذكاءً

فاذا قلبنا صفحة هذا العهد بعد انقراض هذه الحيوانات انفتحت امامنا صفحة الحيوانات الثديية (اللبونة) وهي في صفاتها العامة تشبه الثدييات المعاصرة . فالحيوان المعروف باسم Arsinoitherium كان يعيش في مصر من نحو ٣٥ مليون سنة . كان اصغر من جبابرة العهد السابق ، ولكنهُ كان مع ذلك في حجم الكركدن او الفيل الصغير . ومنهُ نشأ الفيل الحديث . وكان هناك نوع النمر ، وهو حيوان اصغر من سلف الفيل ، شرس الطباع ، حاد الناب كان يقطن آسيا واوربا من نحو عشرة ملايين سنة . وكان في حجمهِ مثل النمر الكبير او الاسد الكبير ، وكان له في فكيه نابان طويلان حادّان ولكنهما كانا يعوقانهِ عن اطباق فكيه ، والعلماء يعجبون كيف لم يمت هذا الحيوان جوعاً لعجزه عن اطباق فكيه ومضغ طعامه

***

وفي خلال المليون السنة الاخيرة ، نشأ الانسان من بعض الثدييات الشبيهة بالقردة . ان مدة مليون سنة ، تبدو طويلة جدًّا عند مقابلتها بمدى حياة احدنا على الارض ولكنها بالقياس الى عمر الارض ليست الاّ لحظة خاطفة . ومع ذلك ترقى الانسان في هذه اللحظة ، فسيطر رويداً رويداً على الحيوانات التي كان يصطادها وبوجه خاص لما تعلم الكلام من نحو ١٠٠ الف سنة

الفردوسي وشاهنامته

وعظيم تأثيره في التاريخ واللغة والأدب الفارسي

رأيت ان اتقدم بنصيبي الى قراء العربية وادبائها الكرام من الافضاء ببيان عن الشاعر الايراني العظيم الفردوسي وشاهنامته في الوقت الذي تقام فيه الحفلات وتعقد المؤتمرات الادبية ويحتفل العلم والادب والانسانية بمرور الف عام على ذكراه القدسية . وارى قبل الخوض في بيانٍ عن ذلك الشاعر الخالد وقبل مواجهتنا الموضوع ان أطوّف بالقارىء قليلاً في عوالم اللغة الفارسية وآدابها وتاريخها . ان اللغة الفارسية الحاضرة ناشئة الى حد ما عن اللغة البهلوية التي ترجع الى اللسان الفارسي القديم المسمى (آريا) او الفارسي الباستاني ، وقد انشعبت هذه من اللغة (الآرية) الأصلية ، ولذلك نجد الدولة الفارسية تعرف باسم (ايران) اشتقاقاً من الكلمة الاصلية (آريان) حيث ان لفظة « يان » هي علامة الجمع بمثابة الياء والنون في جموع اللغة العربية ، اما لفظ فارس فهو محرف في التعريب عن كلمة (بارس) الباقية بحالتها الراهنة في بعض اللغات الآرية الحاضرة . اما في اللغة الفرنسية فيسمونها (پرسان) وهي كلمة مخففة عن كلمة پارسيان وكذا يسمى پرس المخففة عن بارس

وقد ظلت اللغة البهلوية محافظة على صبغتها في الخط والقراءة الى ما بعد الاسلام بقرنين او ثلاثة قرون وعنها نقل ما بقي من تاريخ الايرانيين وآدابها الى اللغة العربية ثم اصبحت بعد ذلك الى القرن الخامس لغة دينية عند الزردشتيين مقصورة على جماعة الموبذ والموبذان كهنة زردشت وكذلك من تعلمها من علماء الاسلام كابن سينا والبيروني وابن المقفع وغيرهم وبذلك عاشت هذه اللغة بعيدة عن متناول العامة. اما اسلوب طريقة الخط في هذه اللغة فقد بقي الى اواخر القرن الأول بعد الاسلام وتشهد بذلك مسكوكات من النقود كان التعامل جارياً بها عند العرب منذ الجاهلية وقد نقلت كتابة الدواوين بها من الفارسية في عصر عبد الملك الى العربية واهمل الخط البهلوي وشغل مكانه الخط الفارسي الحاضر الآ ان اللغة الفارسية بوجهٍ عام بقيت في ميدان الخطابة والكلام الى ان عادت ثانياً ميداناً للعلم والادب بعد الاسلام

﴿ الشعر الفارسي ﴾ الشعر الفارسي قديم على ما يظهر حيث كانت الموسيقى فناً تلازم الحضارة الايرانية في سلمها وفي حروبها ومعلوم ان الموسيقى تلازم الشعر وتلازمها في سائر خطواتها فلا بد ان يكون لهم مقطوعات تساير انغامها وكلمات موزونة تجاري اوزانها وفي عهد الساسانيين كما ذكر في تاريخ الادب الايراني لبعض الادباء المعاصرين كان للموسيقى وزير خاص ووجد في ذلك العصر أعاظم المغنيين وفي مقدمتهم باربد نكيسا بامشاد فان اردشير مؤسس الدولة الساسانية قسم رجال الدولة الى ثلاث طبقات ممتازة كان الموسيقيون إحداها حتى بلغت عنايته بذلك مما حدثوا عن تقسيم النغمات الموسيقية

على ايام الاسابيع وعلى فصول السنة واواخر الشهور واختلاف الليل والنهار وبقيت بعض المصطلحات الموسيقية الى مابعد الاسلام في كتب الموسيقى والادب واللغة وجرت بذلك السنة الشعراء في الاسلام ومن قرأ رسالة الفارابي في الموسيقى والمحاسن والاضداد للجاحظ وجد بعض مصطلحات موسيقية فارسية قديمة مثل زيرا فكند نهفت زير كشيده نوروز ومن هذا الرقي الموسيقي على اختلاف العصور يتبين لنا ان الشعر كان ملازماً للموسيقى وان لم تكن له الاوزان الخاصة الجارية ولكن على كل حال كان يرتكز على اوزان اخرى يمكن تطبيقها على النغمات الموسيقية التي كان لها القدم الراسخة في مرافق الدولة الايرانية ومما يدل على ثبوت الشعر الفارسي ما نقل في شرح ادب الكاتب لبطليوسي ان طليحة الاسدي من اشراف العرب اتى الى بلاط كسرى خسرو پرويز في مهرجان العيد فرأى مغنياً ينشد اشعاراً عربية فلما ترجمت لكسرى لم ترقه واخذ مُغنٍ فارسي يرجّع غناءه فطرب الملك وتناول الراح . ومما يدل على علم الايرانيين بالشعر واهتمامهم به ماروى ابن قتيبة في كتاب الشعراء ان كسرى انوشروان سمع بأن الاعشى ينشد هذا البيت

ارقت وما هذا السهاد المؤرق وما لي من سقم وما لي معشق

فقال انوشروان ، ما يقول هذا العربي ؟ ورغب في ترجمة البيت فلما فهم قال اذا لم يكن عاشقاً ولا مريضاً مع سهاده فلا بد ان يكون لصًّا

وقد بيّن ابن المقفع في مقدمة كليلة ودمنة ان في اليوم الذي جاء فيه برزويه بكليلة ودمنة امر باقامة حفل احتفاء ببرزويه وكتابه وكلف الشعراء والخطباء ان يتحدثوا عن مزايا اليوم وفي هذا دلالة على ان الشعر كان ذائعاً بين الايرانيين قبل الاسلام . اما مبدأ حياة الشعر في العصر الاسلامي فقد اختلفت الآراء في اول شاعر فقيل انهُ أبو العباس المروزي وقيل انهُ ابو حفص احوص السعدي السمرقندي وقيل انهُ حنظله باد غيسي وليس في الوقت ولا موضوع المقال متسع لتحقيق ذلك

ومما لا خلاف عليه ان اول شاعر بكل معنى هذه الكلمة ، والذي رُويت وحفظت عنهُ اشعار جيدة بقيت في عيون القصائد هو الرودكي الذي نظم كليلة ودمنة وكان مغنياً بارعاً مكثراً من نظم الشعر وكان كفيف البصر ولم يمض على بدء الشعر الفارسي الا بضع قرون حتى نبغ شعراء ضربوا اعظم الامثال في مضمار التخيل والتفكير وفي براعة الاداء والتصوير وخلدوا في صحيفة الادب الفارسي قصائدهم ومقطوعاتهم التي شهد العالم بعظمتها وسمو مكانتها وفي مقدمتهم الشاعر العظيم حكيم ابو القاسم الفردوسي الذي كان من اكبر العوامل في نهضة اللغة الفارسية وآدابها الحديثة واسترداد مكانتها العالمية بين الآداب واللغات الحية

﴿ الشاهنامه وعظيم تأثيرها في اللغة والآداب الفارسية ﴾ الشاهنامه هي المرجع المهم في التاريخ والأدب الفارسي لجميع الأدباء والمؤرخين ، مرجعٌ سهّل على المتأخرين سبيل الشعر وهو كنز اللغة الفارسية وقاموسها الرحيب فليس هو كتاباً تاريخيًّا يشتمل على ذكر الملوك

والابطال وقضايا ايران وحوادثها الماضية فحسب بل هو محتوٍ على اغلب فنون الادب ففيه حكمة وغزل واخلاق، كما ان فيه قصص الحروب والابطال وجميع نواحي العواطف الانسانية من حب وهيام على ان ملحمة الشاهنامة لا تكتفي من الحوادث بسردها فقط ولكنها تربط العلل بمعلولاتها والآثار بمؤثراتها وتشير الى اسباب الطبيعة في سائر القضايا وتتحدث عن الخصائص الاجتماعية ولا تكاد تبدأ بقصة او تختمها حتى تتوجها بالعبرة وتحذر من الاغترار بالدنيا والركون اليها وتقرنها بما يلائمها من النصائح المناسبة لوقائعها المشاكلة لحوادثها وكل هذه القصص ذات الاحداث الرائعة والقضايا المتسلسلة والحقائق العالية والافكار الرحيبة يجليها في اوضح مجاريها ويخرجها في اصدق صورها فتجد القصة مكتوبة منظومة وتحس بها كأنها واقعة مشاهدة تراها رأي العين وتتحقق من مناظرها وابطالها كأنك تعيش معهم وتحيا بينهم في اسلوب قريب ايضاً تتحققه كل نفس ويستمرئه كل ذوق وهذا ما جعل الشاهنامة نشيد الخاصة والعامة على السواء واتخذ أنيس المحافل فهو يبعث كوامن العواطف والاحساسات ويحمل النفس على التحلي بالشجاعة وركوب الاخطار وقوة العزيمة والاصطبار على نوائب الايام

وقد اجمع علماء الشرق والغرب على رأي واحد تجاه الشاهنامه هو اعتبارها أدباً عالميًّا وشعراً في اسمى طبقة لم يتوجه اليه احد بنقد ينال من سمائها عدا البروفسور براون في مؤلفه فتذكر في مؤلفه في الادب الفارسي ان الشاهنامه ليست في المستوى العظيم من الشعر ثم انه لا يجحد مكانتها في اللغة والادب والتاريخ. على ان مستر براون هو الذي انفرد بهذا الشذوذ وهذا التفرد الغريب في نقده، ولكنَّ اجماع علماء الامم وادباء العالم مع تباين الاذواق والنزعات على تقديرها والحفاوة بها هو اعظم ردّ على نقد المستر براون واكبر برهان على القيمة التي حازها الفردوسي وليس بضائره بعد ذلك شذوذ فرد وانفراد رأي. على ان كل شعب اعلم بادبه وخصائص الشعر فيه واقدر على التمييز بين الغث والثمين فان ألحانه الفنية تقتضي امتزاجاً تامًّا بالبيئة التي صدر عنها ذلك الفن ونشأت فيها تلك الصور الادبية وليس من شك في ان مثل براون يعوزه الاتصال الكافي بالفرس من جهات عديدة. فمع احترام رأيهِ فان هذا الرأي خارج عن الصواب ولاسيما اذا لاحظنا ان شعراء عديدين حاولوا تقليد الفردوسي ونظموا الحوادث والملاحم فما بلغوا شأوه ولا ظفروا من محاكاته بطائل ونحن لا ندعي ان كل بيت في الشاهنامه هو بيت القصيد فان سفراً جامعاً مثل هذا الكتاب فيما حوى من حوادث وقصص واسعة الاطراف لا تخلو ان تكون بعض اشعاره خيراً من بعض واعتراف الشعراء انفسهم وهم اولى الناس بتقدير فنهم، فيهِ غناء عن الدفاع عن مقام حرمتها

وهذه ترجمة بعض نوابغ الشعراء في حق الفردوسي. يقول حكيم الانوري ما ترجمتهُ :

مرحباً بشاعر الفردوسي في مقامه النوراني الرفيع فما كان الفردوسي استاذاً ونحن تلاميذه بل كان اله الشعر ونحن عبيده . ثم يقول ابن يمين : ان الطابع الذي نقشهُ الفردوسي على دنانير الكلام لم يتح لشاعر فارسي انهُ كلام هبط من الثريا الى الثرى فصاعد الفردوسي ورفعهُ من الثرى الى الثريا

يقول النظامي : الفردوسي هو الشاعر التاريخي والعالم الطوسي هو الذي زين بالشعر وجه الكلام كما يزين بالحلى وجه العروس

ثم قال السعدي ما اجل اقوال الفردوسي الطاهر الاصل فلتهبط شآبيب الرحمة على ترابه الطاهر

﴿ ترجمة من الشاهنامه ﴾ لعلَّ اكثر ما يهتم له الاديب معرفة رأي هذا الرجل العظيم في الحياة وها هي ترجمة بعض كلماته الحكمية والاخلاقية التي تتضمن رأيهُ فيها ايضاً

ماذا تريد من الحياة الطويلة المدى وهي مقفلة الاسرار والغيوب فانها تربيك اولاً بشهد اللذات ولا تسمعك الأَّ ارق النغمات فتظنها قد بذلت لك كل حبها وهي لا تعبس في وجهك فأنت بها فرحٌ تبذل لها ودائع قلبك واسرار نفسك ثم تلعب معك دوراً بعد ذلك يترك قلبك دامياً هكذا هذه الحياة المنقضية فلا تبذر فيها الاَّ بذور الخير

تعال بنا ، لا نودع هذه الحياة بسوء ، ولنكن مجدين في ان ننال منها يد الخير ، لاشيء من الخير والشر يبقى ابديًّا ، فاجمل بنا ان يكون الخير هو الذكرى بعدنا ، ان كنز الدنانير وقصور الذهب لن تكون لك بنافعة ولكن الكلام هو الذكرى الباقية فلا تظنن الكلام امراً هيناً

ان افريدون فرّخ ماكان ملكاً ولا كان مخلوقاً من مسك وعنبر
ولكن بالعدل والجود وجد هذه الذكرى فكن جواداً عادلاً تكون انت افريدون

***

اني أحب من الحياة زاوية اجد واجتهد فيها لجمع زادي لا تؤذي نملة تجر الحبة الى قراها
فان لها روحاً والروح حلو لذيذ انه لحجري القلب اسوده من تكون نملة منه في ضيق

***

أيتها الحياة كلك وهم وانتفاخ لا يكون العاقل بافعالك طروباً اذا نظرت الى افعالك
لا أجد فيها الاَّ خيالاً وما أحسن الذي يجعل الذكر الجميل فيك اثراً سواء أعبداً كان أو ملكاً

***

لا تركن الى هذه الحياة ولا تأمن بسرائرك لها فان لها في كل حين طرازاً من اللعب جديداً
ترفع واحداً من مجرى الاسماك الى مسرى القمر وتخفض الآخر من السماء الى الهاوية

***

ان الحياة عبرة وحكمة فلماذا يكون نصيبك فيها الغفلة لقد أكثرت تشاغلك بالحياة وحرصك عليها
حتى مضى اصحابك عنك وبقيت وحدك في تشاغلك

***

انظر يميناً ويساراً ولا أعرف اول الدهر من آخره هذا يعمل سوءً فتأتيه الحياة عفواً ذلولاً
وآخر يعمل الخير محضاً فلا يلقى منها الاَّ كدراً لا تؤذِ روحاً ولا تغضب منك قلباً
فان هذا الدهر ليس ابديًّا كما انهُ ليس صالحاً كان كذلك وسيمضي هكذا
هكذا يصنع هذا الفلك الهرم يأخذ من الرضيع ثدي أمه

[بقلم مرتضى الحسيني الفاضلي الايراني] [البقية في باب الاخبار العلمية]

التطفل في الاحياء

للامير مصطفى الشهابي

رحم الله طفيلاً الكوفي فلقد خلد اسمهُ في كتب الادب ومعاجم اللغة بفرط نهمه وشدة حرصه على الزاد المأكول ، واستسهاله غشيان الولائم دون ان يدعى اليها ، حتى ظنّ بعضهم انهُ اول من اتى هذه الفعلة المعيبة ، وحتى نسي الناس الارش وهو التطفل والوارشين وهم الطفيليون . وطفيل هذا ليس بأول من دمّر على الولائم ليصيب من طعامها ، ولا بأول من دمق على المشارب ليوغل في شرابها . وكل حي على هذه الارض طفيلي ابن طفيلي شاء ام ابى الا اذا استطاع ان يعيش في عزلة عن الناس ومن الحيوان ومن النبات وهو ما لا تأذن بهِ عيشته على هذه الكرة الارضية .

وربّ طفيلي يفيد اكثر مما يستفيد كاسحق الموصلي الشهير اذ يحكون انهُ دخل بلا اذن على جمع فيهم قينة تضرب على عود فلم ترقهُ حالة اوتاره فاقترح اصلاحها فتبرّم الحضار وقالوا له طفيلي وتقترح وهو المثل المعروف ، لكن الموصلي اصلحه بعدما اقامهم واقعدهم حتى جنّ جنونهم فكانت صفقتهم هي الرابحة .

وقد يورد التطفل صاحبه موارد التلف كقصة ذاك الذي رأى جماعة يسيرون او يساق بهم في الطريق فظنهم ذاهبين الى وليمة فاندسّ بينهم فاذا بهم يقادون الى القتل ، ولم يفلت صاحبنا من السيف والندم الا بعد لأي

ولكن ليس جميع الطفيليين على هذا لأن الطفيلي في غالب الحالات يأخذ منك اكثر مما يعطيك وهو اذا قصر همه على اشباع بطنه او ارواء غليله من فضلات زادك او شرابك كان امره اهون من ان يعتدّ بهِ او ان يؤبه له . غير ان هنالك الوارشين على مالك كالمرابين وسماسرة السوء واللصوص من التجار ولا سيما بعض الاجانب منهم ، والوارشين على علمك وأدبك وآثار قلمك ينقلون خيارها وينتحلون منها ويتحلون بها وانفك راغم ، والوارشين على بلادك يتمتعون بخيراتها ويسعدون في جناتها ويسخرون السفلة من ابناء جلدتك في استنفاد دمائها وسرقة اعلاقها . ولا حد يا صاح لاعمال الوارشين من ابناء آدم فمنهم من لا يقل عملهم عن عمل التينيا وهي الدودة الشريطية اذ تستقر في امعائك تشاطرك كل ما تهوي بهِ على فمك ، او عمل الدودة التي تستولي على عضلك ، او عمل الديدان الاسطوانية او المعقوفة عند ما تتكاثر في دقاق امعائك وتمتص زادك ودمك ، او عمل الجراثيم التي لا عداد لها وهي تنمو في انحاء جسمك وتتكاثر بسرعة البرق لتولد فيك الامراض التي تعرفها ، وربما قضت عليك وقذفت بك الى العالم الثاني في ايام او في ساعات معدودات ما لم تكن جلداً منيع الجانب عليها بوسائل الكفاح ، ففي هذه الحال ربما افلتّ من براثنها كما تفلت من براثن الطفيليين من ابناء آدم اذا تحليت بالصفات التي ذكرتها وكنتَ جديراً بالبقاء

ولا يذهبنّ بك الظن الى ان الانسان والحيوان منفردان بهذه الاعمال الشائنة ، ففي دوحة النبات

انواع كثيرة تقوم افرادها بأعمال التطفل على مختلف اشكالها . فمن هذه الاعمال ما لا ضرر فيه كأن تطلب بعض النباتات المفترشة شجرة او سلكاً او حائطاً او عصى تصعد عليها لتقترب من اشعة الشمس ومن خالقها العلي الاعلى . وهذه النباتات كثيرة العدد يعرف القراء كثير منها كاللبلاب المفترش وصنوف من القرع واللوبياء والجلبان العطر وحشيشة الدينار وشب الليل والكرمة وغيرها ويكون لها اسلاك تسمى عطفات او حوالق تعتمد بها دعامتها وتسير لغايتها صُعُداً الى العلاء فلا هي تضر بمضيفها ولا هي تبخل على الانسان بأزهارها المدهشة او بأوراقها الجميلة او بأثمارها اللذيذة

وياليت كل الطفيليات كانت كهذه اذن لسهل امرها وهان شأنها ولما استحقت هذا الاسم القبيح . ولكن هنالك نباتات متسلقة ثقيلة الظل شديدة الوطأة على الشجرة المضيفة ، كاللبلاب مثلاً فهو اذا التفَّ على شجرة تشبث بكل شق دقيق من اغصانها وسوقها كأنهُ يخاف ان تفلت منهُ فيصبح مقعداً . وتراه ينمو على تلك الشجرة ويلتصق بها حبًّا وشغفاً دون ان يمتص شيئاً من نسغها ، بل يكسوها بأغصانه وأوراقه ويمنع عنها الشمس والهواء فتستجير من ثقالته بالفلاح صاحب الارض فان اجارها سلمت والاّ عاشت هزيلة او هلكت مع الهالكين . وكم في الناس من ثقلاء كاللبلاب اذا انت لم ترصد دارك دونهم قتلوا وقتك وضيقوا انفاسك وأثاروا اعصابك وقصروا اجلك

وليست هذه النباتات طفيليات حقيقية لانها وان نزلت بابناء جلدتها ضيوفاً ثقيلة الظل فهي لا تستطعمها ولا تستقي منها . وثمة ما هو اشد منها فظاعة كالكشوث الذي يسميه الشاميون والمصريون « الحامول » فهو ينمو على بعض البقول وعلى الورد ونبات السياج وغيرها ويلتف عليها بأغصانه الخيطية وينشب فيها مصاصات دقاقاً ولا ينفك يمتص نسغها ويغتذي به حتى تهزل وتبيد . وكالجعفيل والذؤنون اذ ينشبان اظفارهما في جذور ما يصادفانه من الزروع فيغتذيان من نسغها ويعيشان برغد من دم الغير بلا مشقة ولا عناء . وكنبات الهدالة او الدبق فلكم شاهدناه على اشجار اللوز زاهياً ينعم بظل (اسم) هذه الشجرة وهو اسعد خلق الله حالاً . فهل جال بخاطره انه يعيش من دم هذه الشجرة المباركة . وهب انهُ ادرك فظاعة عمله افتراهُ يرتدع عن الاضرار بها وهو لا يستطيع ان يعيش الاّ من زاد الآخرين وكل هذه الطفيليات لا تعد شيئاً مذكوراً اذا قيست ببعض فطور مجهرية تتكاثر في نسُج بعض الزروع والاشجار وتولد فيها امراضاً شديدة الوطأة لا تقل عن الامراض التي تحدثها الجراثيم بالانسان . ومن هذه الفطور تلك التي تولد صدأ الحبوب واسوداد الزروع وتعفن الكرمة وغيرها من الامراض التي تعتل بها النبات

وبعد ارأيت ان الحياة جلاد وجهاد ، وان كل حي طفيلي ابن طفيلي على اختلاف ومداه . وهل لك ان تفسر لنا لماذا جعلت الاحياء على هذا الشكل ولماذا لا تعيش بهناءة ما لم تتكالب على الرزق وما لم تتفانَ وراء متع الحياة وما لم يُبِدْ بعضها بعضاً في الدقيق والجليل من الشؤون ؟ هذه امور دقت عن متناول الفهم . ويقولون ان فيها حكمة لا يدركها الاّ الذين انقشعت الغشاوة عن بصائرهم . فهل انت من هؤلاء النفر الملهمين لتكشف لنا القناع عن احاجي هذا الوجود العجيب ؟

فكرة جديدة ولكنها قديمة

الحيوان في عصر الآلة

خطبة رجل من فجر التاريخ

الاختراع من الصفات التي يتميّز بها هذا العصر . ولكن العصر الذي اخترعت فيه الكتابة والعجلات والإبر ، واستنبط الصفر والقمح والنقد كان من اعظم العصور اثراً في التاريخ . لان تلك المخترعات والمستنبطات وغيرها كانت اوثق صلة باصول التحضر واركان العمران من المصابيح والسيارات ومناقب الحديد ومجمّدات الشمور ومطريات الجلود ومذيعات الانباء

خذ مثلاً على ذلك الرجل الذي «اخترع» البقرة . فقد يصعب علينا الآن ان نتصور بيتاً ليس فيه زجاجة لبن حليب . ولكن في العصور المتغلغلة في جوف القدم ، كان اصعب على الانسان ان يتصوّر بيتاً فيه لبن حليب ، دع عنك الزجاجة . فقد كان اسهل على الرجل ان يقدم الى زوجه باقة من الزنابق على ان يأتيها بدلو من اللبن . وليس ذلك لقلّة اللبن ولكن لتعذّر الحصول عليه . فقد كان عند ضروع طائفة من الحيوانات ولكنها كانت برية شرسة فلا يحاول رجل ان ينتزع منها لبنها الا واصاب باذى

عندئذ راد عبقري — عبقري جرّب التجارب بالحيوانات كما نجربها نحن بالمواد الكيمائية . وفي ذات مساء طرأ على فكره خاطر عجيب قوامهُ الحصول على اللبن الذي يطلبهُ عند بابه كل صباح

كان تحقيق هذا الخاطر من اعسر الامور . أيّ الحيوانات اصلح ما يكون لهذا العمل ؟ في بعض نواحي الارض كان بعض الناس قد جرّب الحيوان المعروف بالكسلان الذهبي . وهو حيوان قبيح الخلقة ، كانوا يحفظونهُ في الكهوف ويحلبونهُ عند الامكان . ولوانهم نجحوا في تجربتهم هذه لحلّ الكسلان في المراجع محل البقر في مروجنا وصور مصورينا وقصائد شعرائنا

غير ان الكسلان كان لا يصلح لهذا . فهو يصاب في الصيف بامراض جلدية ، وينتشر في الليل ، وفي لبنه طعم كريه كأن فيه اثراً من السمك . ولو انحصر الاعتراض عليه في الرجره المتقدمة لهان الامر . ولكن الكسلان كان غير مزواج بل كان يكتفي بزوج واحدة . والتقيّد بزوج واحدة في الحيوانات الزراعية ، ليس في مصلحة الفلاح . فلما تبيّن الاقدمون ان كلّ كسلانة لا بدّ لها من زوج خاص بها ، انصرفوا عن محاولة تربية هذه الحيوانات للفوز باللبن الذي تدرّه اثاثها

عند ذلك التفت العبقريّ الى حيوان نغل ، لا يبدو على ظاهره انهُ اصلح لهذا الغرض من الكسلان المنبوذ . كان شرساً ، صلب القرون ، يجفل لأحزن الاسباب ، بعيداً في شكله وطبائعه

عن البقرة كما هي الآن ؛ أنها تعد الحيوان من احدى المخترعات . ولكن ذلك العبقري رأى فيه بعين الخيال ، حيواناً يصلح ان يكون « الآلة » التي يقصدها لتجهيزه باللبن امام داره كل صباح

حتى رماه الناس ودعوه خيالياً لا يقيم للواقع وزناً . كيف يستطيع ان يصيد هذا الحيوان الشرس النافر ؟ ان البحث عن التبر في الارض ، معقول لان التبر لا ينتقل من مكان الى مكان . اما صيد هذا الحيوان حياً ثم تأنيسه واستدرار لبنه ، فعمل من وراء القدرة البشرية . انه يرفس وينطح ولا يستقر له قرار . ومع ذلك فجل اعتمادنا اليوم في اللبن الذي نشربه صغاراً وكباراً ، وما كله جبناً مختلف الالوان ، وندخله في صناعات لا حصر لها ، انما يستمد من البقرة التي « اخترعها » ذلك العبقري

وما لبث مفكر آخر حتى « اخترع » الدجاجة . ذلك انه لم يكتف بالبحث عن البيض الصغار في الحراج ، فاختار طائفة من الطير المقفر الجبان ، واقنعه بالتربية والعناية بهجر الحراج وسكنى القنان . و « اخترع » غيره في آسيا الجمل للنقل ، وآخر الحصان للعدو والانتقال السريع

قابل بين هذه المخترعات ومخترعاتنا نحن ! ان مخترعاتنا ولا ريب زادت في رفاهتنا ، ولكنها في الوقت نفسه زادت في متاعبنا . ولو انه اتيح لأحد هؤلاء المخترعين القدامى ، ان يزور الارض الآن لأخذ بالعجائب التي اجترحنا . ولأخذ كذلك بالجهد الفني المحتّم علينا الآن . فاذا علّق قليلاً من هذا المشهد الذي يدهشه ويحيّره التفت وقال : انني لا أستطيع ان افهم كيف تضجرون هكذا وامامكم مملكة الحيوان . فلماذا لا تختارون منها حيوانات متنوعة ، تروّضونها على القيام بأكثر جانب من العمل المحتوم عليكم ؟ انني لا أفهم لماذا تحصرون هذه الاعمال في الرجال . ومن الحيوان اصناف كثيرة يمكن ترويضها ان تقوم بها ؟

فتأمل قليلاً الى ملاحظة الرجل . ويأتي هو منك هذا الايناس فيمضي في قوله :

« ... ولست ادري ... بل لعلنا كنا في العصور السابقة ابرع منكم واوسع حيلة . خذ مثلاً على ذلك الضأن . فانها بعد اختراعنا لها عدّلت من الطرق في الطبائع المطلوبة منها وكثرة تناسلها وزيادة ما تعالجه من الخدمة منا . ولكننا لم نأذن لها ، ولا رضينا بها اسياداً ونحن عبيداً ، فاخترعنا كلب الرعاة لرعايتها ويحرسها

« ولكنني لا أفهمكم . تدّعون انكم احرار من قيود التحزّب لفكرة سابقة وتضحكون من اسلافكم الذين رفضوا ان يقبلوا البخار مسيّراً لعربات الانتقال بدلاً من الخيل . فأضحك من ضحككم هذه . لأنه اذا جاء رجل وقال لكم لماذا لا تستعملون الدببة بدلاً من الرجال في تعدين مناجمكم ضحكتم منه وهزأتم بما يقول . ولكن اذا كان لنا في تلك العصور القديمة ان نأخذ الخيل البرية الشرسة ، ونروّضها حتى تتخلّى عن بعض طبائعها الشرسة كالرفس والعض ، والنفار ، فنحوّلها الى حيوانات مطواعة تحمل اعباءنا وتطيع اشارتنا — اذا كان لنا ذلك في العصور القديمة فاحر بكم ان تحوّلوا الدب الى حيوان يعدّن الفحم من دون صعوبة كبيرة

« اني اسلّم بانكم لا تستطيعون ان تستعملوه في التعدين كما هو الآن . ولكن انظروا اليه نظركم الى المشال في يد الخزّاف . فهو حيوان في عقله ذكاء ، وفي عضلاته قوة . ويستطيع ان يستعمل مخالبه كما يستعمل الانسان يديه . انكم لتستطيعون ان تخلقوا منهُ بالتناسل حيواناً ارعى في استعمال يديه من انسان العصر الحاضر . وهذا اكثر مما وجدناه في الحيوان الذي خلقنا منهُ البقرة في عهدنا البعيد

« وانهُ يظهر ان آخر ما تتجه اليهِ انظاركم هو استعمال الحيوان . فاذا وجد احد روّادكم نوعاً جديداً من الحيوان عاد بنموذج منهُ الى حديقة من حدائق الحيوانات ، او جاء بجلده الى بيته او الى احدى المتحفات . ولو انكم جريتم في استعمال المعادن على هذه الخطة ، لاكتفيتم بتعليقها على الجدران او عرضها في المتحفات او تصويرها بالفوتغراف

« ومما يحيرني عنايتكم الشديدة بالجوامد ، وانصرافكم عن الاحياء

« للمخترعين ثلاثة ميادين — ميدان الجوامد — وميدان النبات — وميدان الحيوان . فلماذا لا « تخترعون » حيوانات جديدة . فأنتم بحاجة كبيرة الى ما تستطيعون اختراعهُ في هذا الميدان الثالث من ميادين الاختراع ؟

« بل مما يزيد حيرتي ، رضاكم عند القيام بالعمل المضني ، من دون ان يسعى احد لالغائهِ او الاستغناء عنه ، بالقائهِ على عواتق الحيوانات التي تخترع لهذا الغرض خاصة . ان مخترعيكم يتصدّون بالغاء العمل ، او تقليله . فما هو السبيل الذي يسلكونه الى تحقيق غرضهم ؟ يخترعون آلات جديدة ، تدور من تلقاء نفسها الآلات القديمة ، والآلات الجديدة يعهد في ادارتها الى الرجال او النساء . فلماذا يجب عليهم ان يخترعوا آلات لا يديرها الاَّ الناس ؟ لماذا لا يحاولون ان يخترعوا آلات يمكن ان تديرها الحيوانات ؟ او لماذا لا تحاولون ان تخترعوا حيوانات جديدة تصلح لادارة آلاتكم ؟ ولو انكم عشتم في العصر الذي استنبطت فيه العجلات ، لما خطر على بالكم — بناء على تصرفكم الآن — ان تستعملوا الخيل لجرّ العربات ، بل لجررتموها بأنفسكم ولظللتم تجرّونها قروناً حتى يستنبط البخار فيغنيكم عن جرّها على الاطلاق . ولكننا نحن اخترعنا الجياد قبل العربة ، وكذلك البغال والثيران والحمير . فحوّلنا العربة ذات العجلات نعمة للناس ، لا لعنة . ان مئات من انواع الحيوانات تصلح للاستعمال في آلاتكم ، بالتمرين والترويض والانتخاب التناسلي . ان تطبيع الجياد البرية يستغرق بضعة أسابيع ، ولكن تطبيع الأطفال يستغرق سنين طوالاً . وليس ثمة أي خوف ، من ان ينقلب الحيوان المطبّع فلا يقوم بالعمل الذي تعوّده وتمرّن عليه . ولا بدّ ان يجيء يوم يهزأ فيه حفدتكم من اسرافكم في اطلاق الحرية للحيوانات القوية الصبورة ، تنفق وقتها جزافاً في المراج والبطائح والسهول وانتم تعملون حتى كدتم ان تأتوا على نفوسكم بالعمل المضجر المضني ثم تتذمرون من مصيركم » !

كذلك ختم القادم من فجر التاريخ خطبتهُ في ابناء العصر الحاضر

اذا أخذنا باقتراح ذلك الخطيب البليغ ، رأينا انقلاباً كبيراً قد أتى على مناجمنا ومصانعنا . بل رأينا قبل هذا انقلاباً عظيماً في حروبنا . فالحروب اول ما تتأثر بالمخترعات الجديدة . فاذا تعلم الناس ان يستخدموا الحيوانات في إعداد الجيوش ، فقدت الحرب ، بعض فظائعها التي يأباها الانسان . كان امراء الهند في العهد السابق للانكليز هناك يستعملون الفيلة في الحرب . فلماذا لا ننشىء فرقاً من القرود ، تتخصص في الهجوم على الخنادق ، واسراباً من النسور لالقاء القنابل من الجو . فالمسألة مسألة تمرين ونحن لانستطيع ان نحكم الآ بعد ان نجرّب !

او خذ مثلاً آخر . فقد ألّف العالم الاقتصادي البلجيكي — لاسيليري La Sellerie — كتاباً قال فيه : ان ملايين من الأفدنة الصالحة لرعي الماشية في الاقطار الباردة الشمالية، لا تصلح لذلك من الوجهة الاقتصادية ، لأن الأبقار مثلاً تحتاج الى حظائر مدفأة ، وان ما يقتضيه بناء هذه الحظائر وتدفئتها من النفقة ، يجعل العمل من الناحية المالية عملاً خاسراً . ولكن هذا المؤلف لم يلتفت باله الى طريقة عمد اليها الانسان في فجر التاريخ . ذلك انهُ ليس من المحتوم علينا ان نربي الابقار في المناطق الشمالية الباردة لان الابقار من اصل استوائي ويتعذّر عليها تحمل البرد الشديد في تلك الاصقاع . ولكن لماذا لانبحث نوع آخر من الماشية يستطيع ان يتحمّل البرد . ولعلّ افضل هذه الحيوانات التي تصلح لمثل هذا الغرض هو ثور المسك . لا ريب في ان ثروة طائلة تدرُّ على الرجل او الجماعة التي تستطيع ان تلائم ثور المسك لاحوال المعيشة هناك فيسهل تكثيره فيها . ولحم ثور المسك لحم جيد ، لايفوقه لحم البقر ، وصوفهُ ناعم كالكشمير ولا يتقلص عند الغسل . ومع ذلك فانسان هذا العصر لا يفكر ، الاَّ في الصعوبات التي تقوم في وجههِ من هذه الناحية . فيقول ان ثور المسك لم يؤنس . وهو على كونهِ حيواناً بريًّا ليس على الاطلاق حيواناً شديد الشراسة

اننا نجرب التجارب بتبر المعادن والمركبات الكيمائية ، مع ان التجربة بحيوان ثور المسك ، تنطوي على لذة وفائدة انطواء التجارب الكيمائية على الاقل

وما قولك في بعض المراعي الافريقية . ففي هذه المراعي حيوان بريّ يعرف بالايلند . تأنيسه سهل وطعم لحمه لذيذ . ولكن الناس لم يروا فيه الاَّ حيواناً للصيد . فابادوه او كادوا من منطقة واسعة مساحتها تبلغ مئات الالوف من الافدنة . ثم جاؤوا بالابقار والثيران لتعيش هناك فباءت تجربتهم بالخيبة والخسارة . لأن هذه الحيوانات لم تستطع الثبوت في وجوه ذباب تسه تسه

واذا صحَّ ما توقعه منا سلفنا العظيم ، واستعملنا بعض الحيوانات لادارة بعض الآلات ، وجب علينا ان نستنبط وسيلة للتفاهم معها . وهـذا امر ميسور اذا عرفنا كيف نعالجهُ . فبدلاً من ان نحاول تعليم الحيوانات النطق يجب علينا — ونحن بارعون في أصول اللغات واساليبها — ان نفهم لغاتها هي ، فنحاكيها فيها ونفهمها ما نريد

هذه لمحة خاطفة من نواحي هـذا الموضوع الفتّان نسوقها للتفكهة والاعتبار في آنٍ واحد

القضاء في السودان

خليل الخوري
القاضي بمحاكم السودان سابقاً

القضاء الجنائي : تتمة[1]

مما يلاحظ ان ترتيب الجرائم في القانون السوداني قد توخيت فيه البساطة القصوى ففاز الشارع السوداني فوزاً باهراً بتوضيح ابواب القانون وترتيبها ترتيباً منطقياً جامعاً مانعاً خالياً من الارتباك والتعقيد والاغلاق . وابوابه ثمانية وعشرون باباً وهي — مقدمة تبحث في سريان القانون على الاشخاص والاماكن — ايضاحات عامة وتعريفات — والمسؤولية الجنائية وتشمل حق الدفاع عن الارواح والاموال والشرف — والعقوبات — والافعال المشتركة — والتحريض — والشروع في ارتكاب الجرائم — والمؤامرة الجنائية — والجرائم ضد الحكومة — والفتنة — والجرائم المتعلقة بالقوات العسكرية — والجرائم ضد الراحة العمومية — وجرائم الموظفين والجرائم بتقديم — والازدراء بسلطة الموظفين القانونية — وشهادة الزور والجرائم المتعلقة باقامة العدل العام — وجرائم النقود المسكوكة والنقد والورق — وجرائم الطوابع الرسمية — والجرائم المتعلقة بالاوزان والمقاييس والمكاييل — والجرائم الماسة بالصحة العمومية والامن والراحة والحشمة والآداب — وجرائم القسوة على الحيوانات والجرائم المتعلقة بالدين — والجرائم الماسة بالجسم الانساني وتشمل الجرائم الماسة بالحياة وبتسبيب اسقاط الحوامل واضرار الجنين وتعريض الاطفال للاخطار ومعاملتهم بالقسوة واخفاء الولادات والاذى والاعاقة والاعتقال بدون حق والقوة الجنائية والهجوم والخطف والتشغيل الجبري والاغتصاب والجرائم المخالفة للطبيعة الواقعة على الشخص وهتك العرض — والجرائم الواقعة على المال وتشمل السرقة والسلب والنهب والسطو والامتلاك الجنائي بدون حق وخيانة الامانة وتسلم المال المسروق والاحتيال اي النصب والاساءة اي اضرار الاموال والتعدي الجنائي — والجرائم المتعلقة بالمستندات وبعلامات الملكية وبعلامات اخرى — والاخلال الجنائي بعقود الخدمة — والجرائم المتعلقة بالزواج والزنا بالمحارم — والقذف — والارهاب والسب والتكدير الجنائي والسكر . ومما امتاز به قانون العقوبات السوداني الامثلة المحسوسة التي يضعها في آخر المواد الصعبة وهذه الامثلة بمثابة شرح عملي للمواد واليك مثالاً واحداً على هذا تستدل منهُ على قيمة هذا الشرح للمحاكم ولرجال القضاء

(١) راجع مقتطف يوليو ١٩٣٤ صفحة ٧٤

المادة ٧٠ — اذا اشترك جملة من الاشخاص في ارتكاب فعل جنائي فيجوز ان يكونوا مرتكبين جرائم مختلفة بواسطة ذلك الفعل

مثال — هجم عمرو على زيد في ظروف تهييج شديد تجعل قتله لزيد قتلاً جنائياً لا يبلغ القتل العمد فساعد بكر عمرواً على قتل زيد بدون تهييج وهو اي بكر في نفسه حقد على زيد ويقصد قتله ففي هذه الحالة يعتبر بكر مرتكباً القتل العمد وعمرو مرتكباً فقط القتل الجنائي الذي لا يبلغ القتل العمد وان كانا قد اشتركا كلاهما في تسبيب موت زيد

وينتج من هذا ان عمرواً قد يعاقب بالحبس سنة مثلاً فقط وان بكراً قد يعاقب بالاعدام

﴿ تشكيل المحاكم الجنائية ﴾ — المحاكم الجنائية السودانية خمس درجات — المحكمة الكبرى والمحكمة الصغرى ومحكمة القاضي من الدرجة الاولى ومحكمة القاضي من الدرجة الثانية ومحكمة القاضي من الدرجة الثالثة — وتشكل كل من المحكمتين الكبرى والصغرى من ثلاثة قضاة وهاتان المحكمتان لهما اختصاص بالحكم في الجرائم الكبرى كما سيبين . والمحاكم الثلاث الاخرى مؤسسة على نظام القاضي المنفرد والقضاة الجنائيون من ثلاث درجات كما هي الحال في القضاء المدني ويعتبر مدير المديرية ونائب المدير وقاضي المحكمة العليا المدنية وقاضي المديرية المدني والقاضي الجزئي المدني من الدرجة الاولى قضاة جنائيين من الدرجة الاولى بحكم وظائفهم وكذلك يعتبر المفتش ومساعد المفتش والقاضي الجزئي المدني من الدرجة الثانية قضاة جنائيين من الدرجة الثانية ويعتبر القاضي الجزئي المدني من الدرجة الثالثة والمأمور ووكيل المأمور قضاة جنائيين من الدرجة الثالثة . وقد يدهش القارىء اذا قلت له انهُ لا يوجد في السودان في الواقع محاكم جنائية متفرغة النظر في القضايا الجنائية فالموظفون الذين يمارسون القضاء الجنائي السوداني هم الحكام الاداريون او متولو السلطة التنفيذية اي المدير ونائبه ووكيله والمفتش ومساعده والمأمور ووكيله والقضاة المدنيون فهؤلاء فوق اعمالهم الادارية والقضائية المدنية وعلاوة عليها ينظرون في القضايا الجنائية ويحكمون فيها بحسب ما خولهم القانون . كما انهُ لا توجد محكمة كبرى او محكمة صغرى جنائية ثابتة بل تشكل هاتان المحكمتان عند الاقتضاء من ثلاثة قضاة من القضاة المدنيين ومن الحكام الاداريين الذين هم قضاة بحكم وظائفهم — والقضاء الجنائي هو في الواقع تحت اشراف مديري المديريات أي هم الذين يشكلون المحاكم وهم الذين يوزعون الاعمال والمدير يرأس بنفسه المحكمة الكبرى او يرأسها قاضٍ من الدرجة الاولى ينتدبهُ المدير ويشترط ان يكون واحد على الاقل من قضاة المحكمة الكبرى الثلاثة قاضياً من الدرجة الاولى اما المحكمة الصغرى فيشترط ان يكون احد قضاتها من الدرجة الثانية — وكما سبق لا توجد في السودان محكمة مخصوصة للقضاء الجنائي وحده الاَّ في مديرية الخرطوم حيث وجد ولا يزال يوجد حتى الآن محكمة جنائية منفردة للقضاء الجنائي يجلس فيها قاضٍ من الدرجة الاولى منفرد وهو الذي يرأس المحكمة الكبرى والمحكمة الصغرى عند الاقتضاء — اما اختصاص هذه المحاكم الخمس فمعرفته على غاية من السهولة

والبساطة فقد ذيل قانون التحقيق الجنائي بعدة جداول او قوائم او بيانات فالجدول الاول منها ذو ست خانات الخانة الاولى ذكرت تحتها نمرة المادة من قانون العقوبات والخانة الثانية ذكرت فيها خلاصة الجريمة المنصوص عنها بالمادة والخانة الثالثة عنوانها « هل يجوز للبوليس القبض بدون أمر أم لا » والخانة الرابعة عنوانها «هل يجوز في اول الامر اصدار امر قبض ام ورقة حضور» والخانة الخامسة ؛ عنوانها «العقوبة» والخانة السادسة عنوانها «المحكمة ذات الاختصاص الادنى التي تحكم في الجريمة» فمتى رفعت القضية كان من السهل جداً بمراجعة هذا الجدول معرفة المحكمة المختصة وقد ذكرت المحكمة ذات الاختصاص الادنى اي اصغر محكمة يجوز لها الحكم في الجريمة وهـذا لا يمنع محكمة اكبر من النظر والحكم في الجريمة

وكما انهُ لا يوجد في السودان محكمة جنائية مخصوصة فكذلك لا يوجد ما يسمونه في مصر محكمة نقض وابرام او ما يسمونه في سوريا ولبنان محكمة تمييز (ولفظة تمييز هـذه لفظة اخذها الاتراك عن اللغة العربية كما اخذوا كثيراً غيرها فعبثوا بها وبغيرها وأخرجوها عن معانيها الأصلية ثم عاد العرب واسترجعوها معبوثاً بها) — ولا محكمة استئناف خاصة وانما يستأنف بعض احكام القضاة المنفردين واحكام المحكمة الصغرى الى المدير وتستأنف احكام المحاكم الكبرى الى الحاكم العام وسواء استؤنفت احكام المحاكم الصغرى والكبرى ام لم تستأنف فينبغي رفعها الى المدير او الى الحاكم العام لنقضها او لابرامها او لتعديلها على ان للحاكم العام طلب اية قضية جنائية لمراجعتها ومستشار الحاكم العام في المسائل الجنائية هو رئيس القضاء فترسل الأحكام الى الحاكم العام عن طريق رئيس القضاء

ويتولى في السودان ضباط البوليس اعمال التحري في الجرائم ثم يحيلونها الى القضاة الذين يتولون التحقيق وبعد ذلك تحال الى المحكمة المختصة وليس في السودان نيابة كما في مصر والذي يقوم بأعمال النيابة هو المحامي العام الملحق بالمصلحة القضائية والذي هو بمثابة قلم القضايا العام للحكومة السودانية او هو في الواقع مستشار الحكومة القضائي ولا يشبه النائب العام في مصر او المدعي العام في غير مصر على ان المادة ٢١١ من قانون التحقيق الجنائي السوداني تنص على انهُ يجوز ان يتولى الادعاء المحامي العام او اي شخص يعينه المحامي العام لينوب عنهُ او اي شخص يعينه المدير او المفتش او المشتكي او محام معين من قبل المشتكي

ومما يلاحظ ان التقادم او سقوط العقوبة او سقوط الحق باقامة الدعوى العمومية لا وجود لهُ في السودان فليس في قانون التحقيق الجنائي نص على سقوط اية عقوبات ولا على سقوط الحق باقامة الدعوى العمومية وما دام لم يوضع نص كهذا تبقى العقوبات قائمة ويبقى الحق باقامة الدعوى قائماً

وفي القضاء السوداني توسع في الجرائم التي يجوز الصلح فيها وقد ذيل قانون التحقيق بجدول حصرت فيه الجرائم التي يجوز الصلح فيها وذكر الاشخاص الذين تجوز لهم المصالحة وعدد هذه

الجرائم تسعٌ وعشرون منها إحداث الاذى والتهجم والتعدي الجنائي والتعدي المنزلي والاخلال الجنائي بعقد الخدمة والزنا واغواء المرأة المتزوجة او خطفها او حجزها والقذف والسب وامتهان شرف المرأة بالاشارات او الالفاظ

وفي القضاء السوداني نظام العفو وهو غير العفو المنوط بالحاكم العام عن المحكوم عليهم وهذا العفو يعرضهُ المدير او المحكمة او قاضي التحقيق في الجرائم المختص بالحكم فيها المحكمة الكبرى او الصغرى او الجرائم التي عقوبتها الحبس الذي اقصى مدتهُ سبع سنين ، على المجرم بشرط ان يفشي افشاءً تامًّا وصحيحاً جميع الظروف التي يعلمها والتي تتعلق بالجريمة وارتباط كل شخص أضرَّ بها سواء اكان فاعلاً اصليًّا او محرّضاً فاذا قام بتعهدهِ بافشاء كل ما يعلم ولم يكذب ولم يخفِ امراً ذا شأن عفي عنهُ عفواً تامًّا . اما اذا لم يقم بتعهدهِ فاخفى عمداً أمراً جوهريًّا او أدى شهادة كاذبة جازت محاكمته عن الجريمة التي عرض عليهِ العفو من أجلها

وفي السودان نصوص خاصة للوقاية والحماية قبل وقوع الجرائم فيصح للقاضي اذا بلغهُ ان شخصاً ما يحتمل ان يرتكب اخلالاً بالامن او اقلاقاً بالراحة العمومية ان يستحضرهُ ويجبرهُ على تأدية تعهد بكفالة او بغير كفالة بحفظ الامن الخ . ولهُ ان يفعل مثل ذلك لمن عرف عنهُ انهُ معتاد ارتكاب الجرائم او هو خطر الى حدّ يجعل تركه طليقاً بدون ضمان تهديداً للهيئة العمومية . ولهُ في بعض الاحوال اذا رأى ان ثمة ما يدعو الى الخوف من ارتكاب اخلال بالامن الخ وانهُ لايمكن ان يمنع ذلك الاّ بالقبض العاجل على شخص ما ان يأمر بالقبض عليهِ ويطلب منه تعهداً بالمحافظة على الامن — والقاضي لا يحق لهُ طلب التعهد الاّ بعد التحقيق عن صحة ما بلغهُ

ومن الجرائم ما تحصل المحاكمة فيها بصورة ايجازية وهي مبينة في ذيل قانون التحقيق في جدول خاص . وفي المحاكمات الايجازية لا تدوَّن شهادة الشهود ولا تحرر ورقة اتهام وانما يدوَّن باختصار نمرة المحاكمة واسم المتهم واسم المشتكي والجريمة وتاريخ ارتكابها ومكانهُ وتاريخ الشكوى او التبليغ واسماء الشهود ورد المتهم نعم أم لا والحكم بأسباب موجزة . وهذه الاحكام لا تستأنف وانما يجوز التظلم منها الى المدير الذي لهُ ان يؤيدها اذا رآها موافقة للقانون او ينقضها اذا رآها مخالفة لهُ وهو في هذه الحالة يفعل ما تفعله محكمة النقض والابرام

هذا ما رأيت ذكره عن القضاء الجنائي في السودان وسواء من جهة الجرائم والعقوبات او من جهة نظام المحاكم فما لا شك فيهِ ان القضاء الجنائي السوداني يمتاز عن غيره مما هو قائم في سائر الاقطار المجاورة بوضوح مواده وترتيبها ترتيباً مبنيًّا على المنطق والعقل وببساطة تشكيل السلطات القائمة على تنفيذه وكل ذلك يؤدي في الجملة الى سرعة الفصل في القضايا الجنائية وكلما تشعبت مصالح العباد في السودان بالتطور تبينت مزايا هذا النظام السهل وقدّرت الحكمة الفائقة من وضعه بالطرق التي وضع فيها

فناء المادة بتشعع الطاقة

بقلم نقولا الحداد

فيما كنت اقرأ الكتاب القيم Astronomy and Cosmogony للعالم الكبير السير جايمز جينز رأيت رأيهُ في فناء المادة بتشعع الطاقة Radiation of Energy لا يتفق تمام الاتفاق مع نظرية تكوُّن (بناء) الذرة من بروتونات Protons ومن كهارب Electrons تدور حولها — هذه النظرية التي لا يزال علماء اليوم وهو من جملتهم مجمعين عليها. والسر جايمز جينز ممتاز بسعة علمهِ ودقة نظرهِ الفلسفي ووضوح افكارهِ في كتاباتهِ الرائقة بحيث لا يبهم فكر منها على القارىء المطّلع. ولهُ نظريات ومكتشفات علمية تجعلهُ في صف كبار علماء التاريخ وفلاسفتهِ

وهو في كتبهِ شارح نظرية البروتون والكهرب شرحاً وافياً لا يدع غموضاً ولا لبساً في فهمها وشروحهُ تتفق مع ما قرأتهُ لغيرهِ من العلماء في شرحها وتقرير الرأي الارجح فيها بعد غربلتها وتنقيحها واعتبار اي تنقيح آخر[1] مما ظهر ضعيفاً لا يعتمد عليهِ الى ان يظهر من الملاحظات والاختبارات العملية ما يؤيده. وقضيتا بناء الذرة Atom ومصير المادة تلوحان في بال كل دارس ومطالع في ايامنا هذه التي تتثقف فيها عدد كبير من الناشئة تثقيفاً علميًّا. ولذلك اعتقد ان بسطهما باسلوب واضح يلذ لقراء المقتطف وشرحهما يظهر ما لاحظته من الشك في التطابق بينهما

تكوُّن الذرة او بناؤُها

يجمل بيان هذه النظرية هكذا : — كانت الذرة Atom الكيماوية حتى اوائل هذا القرن تعد اصغر وحدة للمادة غير قابلة التجزئة. والجزيء Molecule يؤلف من ذرات مختلفة في الوزن الذري اصغرها واخفها ذرة الهيدروجين التي تعدُّ الوزنة الاولى اي ان وزنها واحد عدًّا واثقلها ذرة الاورانيوم ووزنها ٢٣٨ مرة كوزن الهيدروجين. والتفاعل الكيماوي يحدث بتبادل الجزيئات ذراتها او باتحاد جزيء بجزيء آخر او بجزيئات اخرى اتحاداً كيماويًّا. وهذه الذرات لا تختلف في الوزن فقط بل تختلف في خواصها الكيماوية ايضاً. والمعروف منها الى الآن ٩٢ صنفاً (عنصراً) وربما اكتشف في المستقبل غيرها ايضاً. وانما في الشمس والنجوم الاخرى ذرات ليست موجودة في ارضنا ومعظمها اثقل جدًّا من الاورانيوم الذي هو اثقل عناصرنا والذي اشتق راديوم مدام كوري منهُ ومن اسرته البولونيوم والثوريوم والاورانيوم. هذا كان معتقد العلماء حتى اواخر القرن الماضي وفي اوائل هذا القرن بعد ظهور الراديوم ودرسهِ جيداً ظهر ان الذرة وان كانت ابسط اجزاء المادة

(١) اشارة الى ما علم حديثاً عن دخول النوترون والبوزيترون في بناء نواة الذرة

او وحدتها التي لا تتجزأ كيماويًّا — ظهر انها تقبل التجزئة كهربائيًّا. فهي مؤلفة من صنفين من الدقائق: الصنف الاول البروتون وهو ذو شحنة كهربائية موجبة او ايجابية والثاني الكهرب (الالكترون) وهو ذو شحنة سالبة او سلبية. واصناف الذرات الاثنان والتسعون تختلف بعضها عن بعض بعدد ما يأتلف منها من البروتونات والكهارب. يفهم هذا جيداً اذا شرحنا كيفية وجود هذه البروتونات والكهارب في الذرة

ذرة الهيدروجين مؤلفة من بروتون واحد فقط وكهرب واحد فقط يدور حول البروتون.

وبعد الهيدروجين تكون الذرّة مؤلفة من اكثر من بروتون وكهرب. ووزنها الذري يدل على ما فيها من البروتونات. فالاكسجين مثلاً وزنهُ الذري ١٦ ففيهِ ١٦ بروتوناً والاورانيوم وزنهُ الذري ٢٣٨ ففيه ٢٣٨ بروتوناً. ولا اعتبار لوزن الكهرب لانهُ جزء من ١٨٤٠ من وزن البروتون مع انهما يكادان يتساويان في الحجم. وبروتونات الذرة متجمعة في وسطها ومجموعها تسمى نواة. والكهارب بعدد البروتونات في الذرة بعضها متحد ببروتوناتها وبعضها بعيد عنها يدور حول النواة. فحجم الذرة ليس حجم نواتها (مجموعة البروتونات) بل يشمل اقصى افلاك الكهارب التي تدور حول النواة والفراغ الذي بين الكهارب والنواة ليس بالحقيقة فراغاً مطلقاً بل يشغله جو كهرطيسي موجي.

ولزيادة الايضاح نقول بعبارة اخرى ان لكل بروتون كهرباً يقابله بالشحنة الكهربائية. فاذا كان الكهرب متحداً مع بروتونهِ اي داخلاً في بناء النواة، نعبر عن اتحادهما بالزواج. فنقول البروتون متزوج كهربهُ وحينئذٍ يكونان متنافيين كهربائيًّا Neutral اي ان سلبية هذا تفت ايجابية ذاك فلا شحنة هناك. وفي الكتب المدرسية العربية يعبرون عن هذا التنافي بلفظ « تعادل » neutrality.

وقد يكون البروتون اعزب خاطباً اي ان كهربه غير متحد بهِ بل هو بعيد يدور حول النواة (مجموعة البروتونات) كسيار يدور حول الشمس حسب سنة الجاذبية تماماً. ويستفاد مما تقدم ان بعض الكهارب متحدة ببروتوناتها (مزوجة) وبعضها بعيدة عنها (مخطوبة) وحينئذٍ تكون النواة وحدها ذات شحنات ايجابية بعدد ما فيها من البروتونات العزباء. وذات شحنات سلبية بعدد ما فيها من الكهارب السيارة المخطوبة. واما الذرة المشتملة على الجميع تعتبر متعادلة Neutral وفي احوال لا يسع المقام تفصيلها تكون الذرة ناقصة كهرباً او اكثر وتسمى Ion وسلخ الكهرب منها يسمى Ionization ففي هذه الحالة تعتبر الذرة ايجابية الشحنة لان ايجابيتها تزيد على سلبيتها. ولزيادة الايضاح نضرب الامثلة التالية:

ذرة الهليوم تحتوي على ٤ بروتونات اثنان منها متزوجان كهربيهما والاثنان الآخران اعزبان خاطبان لان كهربيهما بعيدان يدوران في فلك حول النواة (مجموعة البروتونات الاربعة). لذلك وزن الهليوم الذري ٤ ورقمه في جدول العناصر الذري ٢ لان كهاربه السيارة ٢ وذرة الصوديوم تشتمل على ٢٣ بروتوناً منها ١٢ مزوجة كهاربها و١١ عزباء كهاربها تدور حول النواة. لذلك وزنها الذري ٢٣ ورقمها في الجدول المذكور ١١. وذرة الاورانيوم تشتمل على ٢٣٨ بروتوناً (كعدد وزنها الذري) منها ١٤٦ متزوجة كهاربها والبقية ٩٢ عزباء كهاربها تدور حول النواة و٩٢ هو رقمها في الجدول والاورانيوم

آخر عنصر فيه(٢) . وهنا قد يسأل القارىء كيف تدور الكهارب العديدة حول النواة . والجواب انها تدور في أفلاك كما تدور السيارات في افلاك حول الشمس بعضها ضمن بعض كفلك عطارد ضمن فلك الزهرة . وهذا ضمن فلك الارض الخ ولكن الفرق بين النظام الشمسي والنظام الذري ان كل فلك في النظام الشمسي يشغله سيار واحد فقط . فلا ترى سيارين في فلك واحد حتى ولا في فلكين على بعد واحد من الشمس ولو متقاطعين . ولكن في النظام الذري ترى ان الكهربين الاولين الاقربين الى النواة يشغلان فلكاً واحداً متقابلين (وربما كانا يشغلان فلكين على بعد واحد متقاطعين) ثم تلي فلكيهما منطقة ذات ثمانية أفلاك على بعد واحد من المركز ولا بدّ من تقاطعها) ثم منطقة ثالثة فرابعة مثلها وبعد ذلك منطقة ذات ١٨ واخرى ذات ٢٨ فلكاً الخ . وتصور افلاك الكهارب على هذا النحو يفسر درجات الالفة الكيماوية Valency التي يفهمها الكيماويون جيداً . ومن رام التوسع في هذا البحث فليطالعه في الكتاب القيم Introduction to Modern Physics by F. K. Richtmyer الفصل الحادي عشر ولا سيما صفحات ٤١٨ وما بعدها . ولا محل هنا للتوسع في هذا الموضوع لانهُ خارج عن دائرة بحثنا . وانما لا بدّ من بيان نقطة ذات شأن وهي ان الكهارب غير مقيدة بالافلاك بل يمكن ان يثب الكهرب الواحد من فلك الى فلك اقرب للنواة او أبعد عنها بحسب حشر الطاقة فيها او اشعاعها لها . فاذا طرأ على الذرة ما حشر فيها كما (Quantum) من الطاقة تباعد الكهرب من فلك الى فلك وراءه . وكل كهرب سيار يسير على هذا النمط فتتعاقب الكهارب على الافلاك هكذا

واذا طرأ ما الزم الذرة ان تشع كمّاً من الطاقة وثب الكهرب الى فلك ضمن فلكه . وسائر الكهارب تحذو حذوه بالتتابع . فاضافة طاقة الى الذرة تضخم حجمها (اللهمَّ حيث لا ضغط) بحيث تتباعد الكهارب عن النواة الى افلاك قصية عنها . واذا قضي على النواة ان تشع كمّات من الطاقات تقلصت الذرة الى أن تعود الى حجمها الطبيعي . ولا محل هنا لبيان الطوارىء التي تطرأ على الذرة لحشر طاقة فيها او لاشعاعها اياها . لان هذا الموضوع متشعب الاطراف لا يمكن ان يشرح في مقال او بضع مقالات . فما ألمعنا اليه منهُ كافٍ لغرضنا في هذا المقال

كيفية اضمحلال الذرة

تقدم القول ان البروتون المزوج كهربهُ لا يحسب ذا شحنة كهربائية لا موجبة ولا سالبة لان شحنة كل من الزوجين نفت الاخرى فهما متعادلان Neutral . ولكن البروتون الذي لا يزال اعزب ولكنه خاطب كهرباً دائراً حول النواة (التي فيها البروتون المذكور نفسه) يعد موجب الكهربائية وكهربهُ الدائر حوله يعد سلبي الشحنة . وكلٌّ منهما يجذب الآخر . وانما الذرة برمتها تعد متعادلة الشحنتين . ولما كان البروتون اثقل مادة من الكهرب ١٨٤٠ مرة فلا يحسب حساب لجذب الكهرب له كما انهُ لا يحسب حساب لجذب الارض للشمس (الا نظرياً) لصغرها بالنسبة الى

(١) انظر كتاب السير جايمز جينز The Universe Around Us صفحة ١٤٧

عظمة الشمس . لذلك بقوة جاذبية البروتون للكهرب يدور الكهرب حول مركز الذرة الذي تمثله النواة بسرعة مطابقة لناموس المسارعة الجاذبي هكذا $\text{م} = \frac{\text{س}^{٢}}{\text{ش}}$ أي المسارعة $= \frac{\text{مربع السرعة}}{\text{البعد عن المركز}}$

فكلما انحشرت الطاقة في جو الذرة (الكهرطيسي) اي تخزنت فيهِ قلت مسارعة الكهرب فيبتعد بحسب هذا الناموس عن المركز . ولكن اذا جعلت الذرة تشع كمّات Quanta من الطاقة نشطت حركة الجوّ المذكور فيتسارع الكهرب . ولنفرض الآن ان ذرة كذرة الهيدروجين وجدت في ظرف طارىء يقضي عليها ان تشع طاقتها التي في جوها الى ان تفرغ منها كلها تماماً فبحسب هذا القانون يعجل الكهرب متسارعاً في دورانه الى ان يهبط الى بروتونه كما يهبط الحجر الى الارض وحينئذ يضمحلان معاً — البروتون والكهرب — يضمحلان اذ يتحولان الى طاقة متشععة

يقول السير جايمز جينز في صفحة ١٣٦ من كتابه الذي اشرت اليه في صدر هذا المقال . ولا يهمنا ان كان هذا الاضمحلال يحدث في الحال او بسلسلة تحوّلات (من حال الى حال) تستغرق وقتاً طويلاً او قصيراً . ويحتمل جدًّا انها لا تحدث بسرعة بل على التوالي كأنها تذوب ذوباناً لا كما يذوبُ الثلج بحرارة من الخارج بل كما يذوب الراديوم بتفككهِ في داخلهِ

وفيما ان هذا التشعُّع الناتج من اضمحلال البروتون والكهرب صادر من داخل النجم كالشمس مثلاً ينحشر في ذرات اخرى في سبيله ثم تشعه منها — ينحشر ويُشَعّ مراراً لا يحصى عددها ، تشعه الواحدة الى الاخرى الى ان يخرج من سطح النجم وينطلق في الفضاء . ويظن ان الاشعة الكونية Cosmic Rays التي لا تزال لغزاً للعلماء هي ذرات مندثرة من سُدُمٍ واجرام قصية يكثر فيها الاشعاع للسبب الآتي ذكرهُ : واضمحلال الذرات على هذا النحو هو اطلاق لمقادير عظيمة من الطاقة . وانما قلة الذرات المندثرة يكفل للنجم العمر الطويل . معدل هذا الاضمحلال في الشمس مثلاً ذرة واحدة في $١٠^{١٧}$ (اي واحد الى يساره ١٧ صفراً او ١٠ مضروبة بنفسها ١٧ مرة) من الذرات

مثل هذا الاضمحلال لا يحدث الاَّ في الذرات الثقيلة جدًّا كالراديوم والاورانيوم والثوريوم التي تكثر فيها البروتونات والكهارب فتكون اقل استقراراً من الخفيفة او اكثر تقلقلاً فتندثر منها بعض بروتوناتها وكهاربها على نحو ما تقدم وصفهُ . وفي اعماق الشمس من العناصر التي لا وجود لها في ارضنا ما يبلغ ثقلها اضعاف اضعاف ثقل الاورانيوم الذي هو أثقل عناصر ارضنا . وفي تلك العناصر يحدث اندثار البروتونات والكهارب على نحو الاندثار الذي يحدث في الراديوم واسرته . وفي اجرام اخرى من العناصر ما هو اثقل جدًّا من عناصر الشمس الثقيلة . وكلما كان العنصر ثقيلاً كانت ذرته عرضة للتفكك واندثار بعض بروتوناتها

تعارض النظريتين

هذا هو مجمل نظرية السير جايمز جينز في فناء الذرة او المادة . فالنقطة التي في هذه النظرية

تتعارض مع نظرية تكوُّن الذرة هكذا : — اذا كان سقوط الكهرب الى بروتونهِ (بحيث تفني شحنة الواحد شحنة الآخر) يفضي الى اضمحلال الاثنين معاً في لمعة او لمعات تشعُّع فلماذا لا يضمحل البروتون المتزوج كهربه في النواة (مجموعة البروتونات) ؟ ما الذي ابقى على حياته وحياة كهربهِ بعد فناء شحنتيهما او انطلاقها امواجاً في الجو الذري الكهرطيسي ؟ . لم اجد في شرح جينز ولا شرح غيره ممن تناولوا هـذا الموضوع بحثاً ما يستخرج منهُ بيان لهذا التناقض بين النظريتين . وبعد تفكيري في هذه المسألة لاحت لي فكرة تصالح بين النظريتين ولا تتعارض مع سلسلة بناء الذرة

مما زعمه اقطاب العلم بشأن بناء الذرة ان كل ذرة او نظام (مجموعة) ذرات او مجموعة مجموعات انما هي في حركة دورانية على الدوام بمقتضى سنة الجاذبية العامة . فالبروتون يدور على نفسهِ كما تدور الشمس على محورها والارض كذلك . والنواة (مجموعة البروتونات) تدور على نفسها ايضاً . والكهرب فيما هو يدور حول النواة يدور على نفسهِ ايضاً دورة محورية [1] . والفوتون [2] احد الوحدات الصغرى النهائية ، التي ينحل اليها الكهرب والبروتون تدور على نفسها وهي مندفعة في الفضاء تشععاً

وما دام البروتون يدور على نفسهِ فلا يمكن ان يكون كهربهُ المتحد بهِ (في رأيهم) متحداً بهِ حقيقة لأن دوران البروتون على نفسهِ يحدث جواً كهرطيسياً حوله ولو على بعد قليل بسرعة تتناسب مع سرعة البروتون فالكهرب الذي حسبوه متزوجاً بروتونه لا يزال يدور حوله كأنهُ وبروتونه نظام مستقل في داخليته . ولكنهُ مشترك بنظام عام هو نظام النواة كلهِ . وأما الكهرب المطلق الذي لم يتزوج بروتونه فلا يدور حول بروتونه وحده بل يدور حول النواة (مجموعة البروتونات كلها) . هذا هو الفرق بين الكهربين : (الكهرب الزوج والكهرب الحر المخطوب)

فكأن النواة ليست مجموعة بروتونات « مكبوسة » بعضها مع بعض كتلة واحدة بل هي مجموعة انظمة في اول درجة من النظام . وانما يقوم ضد هذه النظرية امر يتراءى انه مفسد لها وهو ان كهارب البروتونات المتزوجة كلها سلبية اي من جنس واحد في الشحنة الكهربائية فتتدافع بعضها مع بعض وهو امر ليس من مصلحة النواة اذ يجعلها مقلقلة عرضة للتفكك لاقل ضغط يكف عنها . على ان هذا الامر هو في الظاهر معارض للنظرية ولكنهُ بالحقيقة يؤيد كيفية اضمحلال البروتون وكهربه لان الذرات التي هي عرضة للاضمحلال هي الذرات الثقيلة المقلقلة لانها عديدة البروتونات المتزوجة — لأن كهاربها قريبة لها جداً والضغط يسبب بطء دورانها ، وبالتالي بطء دوران كهاربها حولها . فلأي طارىء من الطوارىء تقع هذه عليها ويحدث التنافي في الشحنة فالاضمحلال الذي شرحه السير جايمز جينز كما لخصته عنه . وسبب الضغط عليها وجودها في اعماق الجرم لثقلها . ناهيك عن ان تنافر كهاربها النواتية (التي مع بروتوناتها في النواة) يسبب تقلقلها ويسهل تفككها

(١) الكهرب ينحل الى ١٠٠٠٠ فوتون والبروتون=١٨٤٠ كهرباً اذن = ١٨٤٠٠٠٠٠ (٢) فوتون انظر صفحة ١٥٣ الى ١٦١ من كتاب جينز The New Background of Science

داعي الحياة

يخفق القلبان ، بل تهفو الشفاه — منذ أن ضمتك في شوق يداه
منذ أن رنّ صداها قبلة — نهلت منها وعلّت شفتاه
وارتوت روحاكما بل ظمئت — برحيق القبلات المشتهاه
بل رحيق الخلد قد طاب جناه — وسرى فيه حلاه وشذاه

***

يخفق القلبان ، بل تهفو الشفاه — حين يلقى ناظريك ناظراه
حينما يستعر الحبّ جوًى — يكتوي القلبان من حر لظاه
فيرجّى كل ثغر قُبلة — هي بردٌ للحنايا والشفاه
مثلما يطلب ريًّا ظامئٌ — ينظر الماء ولا يبلغ فاه

***

يخفق القلبان بل تهفو الشفاه — كلما بشّر بالحب الحُداه
كلما نادى المنادي حيّ هلاً — يتعاطى المحروم ما طاب جناه
ما لمحرومين لم يستمعا ؟ — ذلك الصوت الذي دوّى صداه
إيه هيّا ، فلنُجب داعي الشفاه — فهو داعي الحب أو داعي الحياه

سيد قطب

وراء كمامة الغاز

[هذا المقال ملخص فصل للكاتب الانكليزي بفرلي نكلز في كتابه « المشهور » « Cry Havoc » وهو الكتاب الذي عالج فيه موضوع الدعاية للحرب والسلام وصناعة الاسلحة ومؤتمرات نزع السلاح بأسلوب يقرب دقائق هذه المباحث من اذهان العامة]

كان الوقت بعيد الظهيرة ، والجو قاتم مربدّ ، لما سرتُ في طريقي الى زيارة شركة «أنتي غاز لمتد» وهو اسم مستعار لشركة حقيقية — ومعنى الاسم شركة مقاومة الغاز

سرت على قدمي لقتل الوقت لان الميعاد لم يأزف ، ولان مقر الشركة على ضفة التامز الاخرى ، وأنا أحب ان أجتاز جسور لندن على الاقدام. ولبثت قليلاً على جسر وستمنستر ، وحدقت في النهر ، فرأيت جريانه اليوم اسرع من جريانه العادي ، وكانت الطيور تحوم فوقه ، تشيل وتحط ، والزوارق البخارية تصفر وتنفخ وترسل دخانها في الفضاء . حتى هنا لست اجد سلاماً !

ثم تابعت سيري . . . وأخيراً وصلت الى نافذة شركة (انتي غاز لميتد) . فوقفت وحدقت . وانني لارتاب في هل فكر مئات الالوف من المارة بأن هذه النافذة تستحق التحديق فيها . لانها لا تسترعي النظر . . . بل لمن السهل ان تحسبها نافذة لمكتب قديم من مكاتب المحاماة . وكان زجاج الجانب الاسفل من النافذة غبشاً غير شفاف . والاشياء المعروضة فيه قليلة وتنبو عنها العين . هوذا اداة لاطفاء النار ، وجهاز للتنفس ، وشيء ثالث لم أتبينه . انك لا تجد في هذه النافذة ما يدلّ على ان في هذه الدار ، الوسائل الوحدة التي تستطيع لندن ان تستعملها لحمايتها ووقايتها من لعنة الغازات في الحرب المقبلة !

ماذا ... ماذا تقول ... الوسائل الوحدة للوقاية ..! ولكن اين الجيش ؟ اين سلاح الطيران ؟ انما اثبتنا لك ايها القارىء العزيز ، انهُ رغماً عن جيش حديث مستعد ، وسلاح طيران عزيز كفء ، لا تستطيع اية مدينة ان تدافع عن نفسها الدفاع الوافي في عصر الطيران ، واذن فهي معرضة ، لقنابل الغاز تنثر فوقها وتنشر غشاء من الغاز ، يخنق ويميت

سلمت بذلك ؟ ولكن ماذا تقول في كمامات الغاز ، الكمامات التي استنبطت لتقي من الغاز القتال؟

ان هذه الشركة على ما اعلم ، هي الشركة الانكليزية الوحدة التي تصنع كمامات الغازات ، صنعاً واسع النطاق . اذن يصح قولي السابق ، رغم اعتراضك ايها القارىء الكريم ، بأن في هذه الدار الوسائل الوحدة التي تستطيع لندن ان تستعملها لحمايتها ووقايتها من لعنة الغازات في الحرب المقبلة

فلندخل هذه الدار آمنين لنرى ما يصنع فيها لوقايتنا

قرعت نافذة مكتب الاستعلامات ففتحه شاب ... ، فأعربت له عن رغبتي فقال مرحباً — من هنا يا سيدي — فصعدنا سلماً ضيقة ، ضئيلة النور ، ودخل بي الى غرفة صغيرة ، تفتح نافذتها ، على صحن خلفي للدار ، فتحس اذا نظرت اليه بان الغرفة مكتب محام قديم محافظ . ولكنني رأيت بعد قليل شيئاً بدّد وهمي

ذلك اني رأيت في خزانة زجاجية لعباً ، وقد لبست جميعها كمامات الغاز ؟

فاعجبت بالفكرة . وقلت في نفسي ، ان افضل هدية لعيد الميلاد ، هي ان تشتري كل والدة لعبة لابسة كمامة غاز وتهديها الى ابنها ! وتصورت عندئذٍ الوفاً من اصابع الاطفال الغضة في بيوت انكلترا ، تتناول هذه الكمامات وتضعها على وجوه لعبها المحبوبة . وعند التحديق في الخزانة ، عرفت ان هذه الاشخاص ليست لعباً على الاطلاق ، وانما هي ، امثلة صنعت خاصة ، للتمثيل على استعمال الكمامة ، فبعضها للحرب ، وبعضها للمناجم

عند ذلك فتح الباب وسير بي الى مكتب الرجل الذي عهد اليه في ان يطوف بي في ارجاء المعمل . فلندعهُ « المستر اكس » وانا في نقلي ما رأيتهُ في هذا المعمل لا احس بتأنيب الضمير الذي احسست به عندما كتبت عن مصانع السلاح . ففي المرة الاولى كنت جاسوساً يريد ان يذيع للعالم اسرار هؤلاء الناس الذين يجنون الربح من الاتجار بوسائل الحرب ، ولكن هذه الشركة مقاومة للسلاح الذي يقصد به الى تقتيل الناس وإزهاق ارواحهم . بيد ان بين مصانع السلاح وبين هذا المصنع المقاوم لفعل السلاح ، شبهاً اساسياً . ذلك ان معامل السلاح تبيع سلاحها لابناء وطنها ولاعداء وطنها ، على السواء — فشعار اصحاب مصانع السلاح « اقتلوا من تشاؤون ما زلتم تشترون سلاحكم منا » . وشعار مصنع الكمامات هذا « خلصوا من تشاؤون ما زلتم تشترون كماماتكم منا »

واذ نحن مارون في دهليز قاتم رأيت كومة عالية من اقراص معدنية فقلت للمستر اكس ما هذا ؟

قال — اجزاء كمامات واقية من الغاز ؟

قلت — ولكن هذه الكومة كبيرة جداً

قال — عددها اربعون ألفاً

قلت — أصحيح ما تقول ؟ انهُ يسرّني ، ان يبقى في انكلترا اربعون الفاً بعد الحرب الكبرى ، لانهم استعملوا هذه الكمامات

قال — في انكلترا ؟ ولكن هذه الكمامات صادرة الى تركيا !

ما اعجب الجشع الانساني ! لنفرض ان انكلترا اضطرت ان تحارب في الشرق الادنى ، فيحاول طياروها ، ان يدمروا مدينة تركية ، فيتقي اهل المدينة فعل الغاز الانكليزي بكمامات انكليزية ، ويحاولون ان يسقطوا ، الطيارات الانكليزية بمدافع انكليزية !

واذ أنا أفكر ، في هذا ، توقف المستر اكس ، فاذا نحن امام الكمامات نفسها لا امام اجزائها ،

وهي من اشنع ما تقع عليه العين ، وابعدها شكلاً عن الطبيعة والحياة ... وكانت هذه الكمامات معلقة، صفاً فوق صف . ثم التفت اليّ وقال — وهذه الكمامات صادرة الى حكومة اجنبية اخرى !

قلت للمستر اكس : من الممكن ان تغطّى مدينة لندن ذات يوم بغشاء من الغاز

قال : ذلك ممكن ... على الاقل

قلت : وهل يمكن ان يجهز كل رجل وكل سيدة وكل طفل بكمامة واقية من الغاز ؟

فتوقف قليلاً ... وفي توقفه حسبت انهُ يفكر فيما كنت افكر فيه من ناحيتي ، لانك اذا وجهت هذا السؤال وانت تعني ما تقول ، كان الجواب عنهُ في طيات السؤال نفسه . تصور الاطفال والمجانين والمرضى في المستشفيات ، وعمال النقل — تصور مدينة كبيرة يحصى سكانها بالملايين ، وقد لبس جميع ابنائها هذه الكمامات ٢٤ ساعة ! والراجح ان الرجل كان يفكر في هذا فقال :

— نحن نستطيع ان نصنع اربعين مليون كمامة ، ونبيع الكمامة الواحدة بخمسة وعشرين قرشاً

قلت : أتستطيعون حقيقة ان تصنعوا اربعين مليوناً . قال : نستطيع ذلك ونجني منهُ ربحاً

قلت : وماذا تفعل بعائلتك . قال: اول شيء افعله ، هو ان ابني غرفة في داري لا ينفذ الغاز اليها

قلت : وكيف تصنع ذلك ؟ كيف تتنفس ؟

قال الرجل : اريد ان ترى كيف تمتحن كمامات الغازات التي نصنعها ؟ فقلت : يهمني ذلك

فنزلنا سلالم خشبية ضيقة ، ومضينا في ممر قاتم واجتزنا غرفة رمادية ، وخرجنا الى صحن خلفي على جانب من القذارة . شممت رائحة لاذعة حريفة متصاعدة من جوانب الصحن . وكان أمامنا ، غرفة سوداء ، تتسع لاثني عشر رجلاً ، وكان لها ثلاث نوافذ غام زجاجها ، بما تقلص عليه من رطوبة الهواء . وكان في أرضها ثلاثة ثقوب سُدَّت بالفلين . وشاع في جوانبها رائحة كريهة كأنها متصاعدة من جثة نتنة

واذ انا احدق في هذه الغرفة ، سمعت سعالاً ورائي ، فالتفت فرأيت ثلاثة رجال ، قد صفوا صفاً واحداً للتفتيش . كان اثنان منهم كهلين ، وقد لبسا حزامين عجيبي الشكل أظنهما كمامتي اكسجين من النوع الذي يستعمله المهندسون، عند حفر الانفاق . أما الثالث فكان فتى في التاسعة عشرة من العمر . وكان هو الذي سعل السعال الذي نبهني اليهم . وكان يحمل كمامة الغاز التي تورِّدها هذه الشركة الى وزارة الحربية

استرعى هذا الفتى نظري ، لانني رأيته يرتجف من رأسه الى أخمصيه . ولماذا يرتجف ؟ فالجو ليس بارداً ، بل هو معتدل كل الاعتدال . ما حكايته ؟ وكأنه كان على وشك أن يقول شيئاً ، ولكنه لم يستطع ان يقول ، لأن صاحبي المستر اكس صفق بيديه وأصدر الأمر بلبس الكمامات

فلبس الرجال الثلاثة كماماتهم . ان يدي الفتى لا تزالان ترتجفان ، حتى كاد يعجز عن ربط سيور الكمامة على قذاله

وعند ذلك فتح باب وخرج رجل مرتدياً معطفاً أبيض ، ودخل الغرفة القاتمة ، وادخل فيها دائرة كهربائية ، فقفزت بضع شرارات في الظلام بين قطبيها ، وخرج هو من الغرفة مهرولاً ، وبعد دقيقة ، رأينا غماماً من الغاز الاصفر ، قد بدأ يخرج من الباب ، بعد ما ملأ جو الغرفة

فقال المستر اكس ، هذا الغاز ليس من أشدّ الغازات سمّاً ، ولكن اذا استنشقت منهُ مقداراً كبيراً سقطت في الحال عاجزاً ، بيد ان تأثير الغاز الذي من هذا القبيل نفسيٌّ على الاكثر ، ويجب ان نعوّد الناس ان يستعملوا هذه الكمامات

وفكرت في التأثير النفسي ، فتذكرت الشاب المرتجف ، وكان قد دخل الغرفة التي يملأُ جوها هذا الغاز الاصفر

ثم تفتح الباب ، وخرج الرجال يتعثرون وأزالوا الكمامات عن وجوههم ، فاذا وجه الفتى ممتقع كأنهُ فاقد الحياة ، فتقدمت نحوه وقلت هل لي ان أرى كمامتك ؟

قال : أتريد ان تدخل الغرفة ؟

قلت : نعم ، لأرى ما هو هذا التأثير النفسي !

قال : طيب . ولكنني لم ار منهُ ما يشجع . قلت : ليس ثمة خطر ما من الدخول ؟ قال : لا . ليس ثمة أي خطر .. إنما كنت افكر في ثيابك ، فقد تتشبع بتلك الرائحة الكريهة

فقلت ان رائحة ملابسي لا تهمُّ .. اخذت الكمامة من الشاب وكان عليها من الداخل قطرات عرق تصببت من جبينهِ . فوضعتها على وجهي وربطت قيودها على وسطي وقذالي وعندئذٍ احسست اني بعيد عن العالم . يفصل بيني وبينهُ حجاب صفيق ... حتى التنفس كان عسراً ، كأنك تستنشق هواء من عالم آخر

دخلت الغرفة ، واذا العالم في نظري كالكابوس يتملكك ، في الليل يثقل تنفسك ، ولا تدري كيف الخلاص منهُ ولم يكن ذلك الاحساس ناشئاً عن الخوف ، لان الدخول الى هذه الغرفة ، والكمامة على وجهك لا يعرّضك لأي خطر ، وإنما كان ذلك فعل التأثير النفسي ، الذي أشار اليه صاحبنا المستر اكس ، ورأيت أثره على وجه صاحبنا الفتى المرتجف الممتقع . ذلك انك تحس انك فقدت كل حيلة ، فكأنك حيران تحيط به النيران ولا يدري اين المفر

***

والآن أغمض أيها القارىء عينيك وتصور سيدة جميلة تحبها ، وقد لبست احدى هذه الكمامات ، تصور ان والدتك او ابنتك او زوجك قد لبست إحداها ، فهي لا تستطيع ان تتكلم إذ تلبسها ، ولا تستطيع انت ان تخاطبها اذا لبس كلٌّ منكما كمامة ، بل لقد تنفر منها اذ تراها في هذا القناع المخيف

ثم قل بربك كيف تستطيع امة بأسرها ، ان تتقنع ، بهذه الكمامات وتمضي في حياتها تحت هذا التأثير النفسي ، منتظرة العدو يلقي عليها الغاز من الفضاء ؟ !

تأسيس القاهرة

بقلم الكابتن كرسويل استاذ الآثار الاسلامية بالجامعة المصرية

K. A. C. Creswell

ونقله الى العربية السيد محمد رجب بوزارة المعارف

منشأ الدولة الفاطمية — قيامها بالقيروان — الاسباب الفلكية لغزو مصر — جوهر قائد الخليفة الرابع المعز لدين الله الفاطمي بغزو مصر — سقوط الفسطاط — تأسيس القاهرة — اسوارها وأبوابها

﴿ منشأ الدولة الفاطمية ﴾ يرجع الفاطميون [1] نسبهم الى عبيد الله المهدي الذي يدّعون انهُ اخو الامام الثاني عشر الذي اختفى بسرّ من رأى . وهناك اقوال [2] اخرى في نسبهم يقرر احدها انهُ كان ابناً لاحد الأئمة المختفين الذين خلفوا الامام السابع بعد موته في رياسة المذهب الشيعي ، على انهُ بالرغم من الدراسة المستفيضة والاستقصاء الذي قام بهِ دي جويه De Goeje لتحقيق هذه المسألة الهامة فان بكر Becker وريتماير Reitmeyer يتفقان في أن منشأ هذه الدولة لا يزال يحوطه الغموض والخفاء

ويرجع اعداء الفاطميين نسبهم الى ميمون القداح وكان طبيباً للعيون ثم اسس فرقة من غلاة الشيعة وتوفي سنة ٨٧٥ م فخلفهُ ابنه عبدالله في نشر تعاليمه ، وجعل البيعة والانخراط في سلك هذا المذهب على سبع درجات ، وادعى انهُ امام من اسرة محمد بن جعفر الصادق . واشتهر امره في الاهواز فاصبح حتماً عليهِ ان يفر الى مكان آخر فذهب الى البصرة ومنها الى سلمية حيث ولد له ابنه احمد وخلف احمد اباه بعد موته فارسل احد دعاته [3] الى العراق فتقابل الداعي مع حمدان بن الاشعث

---

(١) سموا كذلك ! كما روى جامع التواريخ لانهم يعتمدون في سلطتهم الروحية والزمنية على شرف نسبهم وانهم من نسل فاطمة بنت الرسول انظر Browne

Literary History of Persia II, p 195

(٢) لمناقشة هذه المسألة انظر Quatremère

Mémoires Historiques sur la dynastie des Khalifes Fâtimides, Journal Asiatique, 3e série t II P. 97 ff

(٣) كانت رتبة الداعي في نظام البيعة عند الشيعة هي الخامسة حيث كان الانخراط في سلك هذا المذهب على سبع درجات ينتقل فيها المؤمن حتى يصل الى هذه الدرجة . انظر مقالة Carra de Vaux عن كلمة داع بدائرة المعارف الاسلامية المجلد الاول ص ٨٩٥

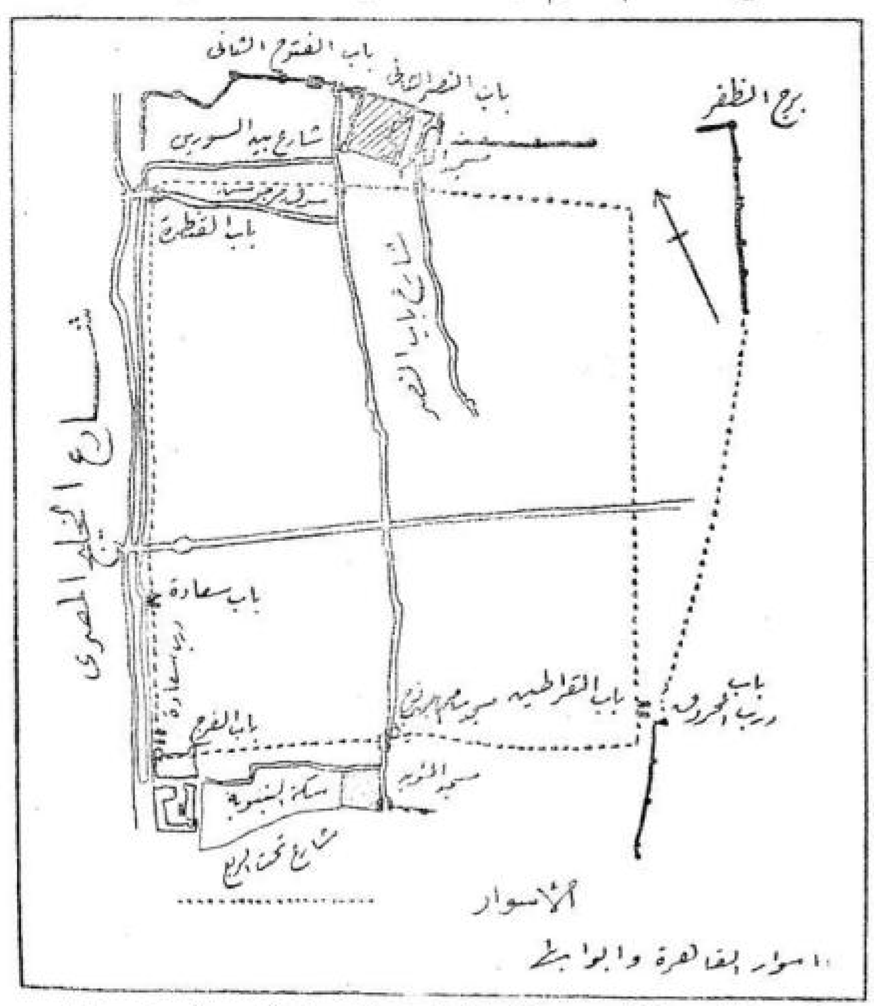
الذي كان معروفاً باسم قرمط فقبل دعوته رئيس دولة القرامطة الذين كان ظهورهم مقدمة لظهور الفاطميين . وكان لاحمد ولدان حسين ومحمد المعروف بابي الشلعلع . فخلف حسين اباه ، وبعد وفاته لم يخلفه ابنه سعيد بل اخوه ابو الشلعلع الذي ارسل اثنين من الدعاة الى المغرب . هما ابو عبدالله واخوه ابو العباس فاقاما بين البربر واستطاعا في فترة يسيرة ان يجمعا حولهما كثيراً من الاتباع والمريدين من رجال البربر المساحين وان يحرزا انتصارات باهرة على زيادة الله ، آخر امراء الاغالبة الذي طرد من ملكه في سنة ٩٠٩ م . وكان لحسين ولد يدعى سعيد رباه عمه ابو الشلعلع واشتهر امره في سلمية (على بعد ٤٠ ميلاً شرقي حماه) بعد وفاة عمه ولكنهُ اضطر بعد ذلك الى الفرار الى مراكش عن طريق مصر . وكاد يقبض عليهِ بها ولكنهُ بالرغم من نجاته في مصر ، فقد وقع في قبضة رجال الحكومة في سجلماسه ولم تنقذه من ايديهم الاّ قوات ابي عبدالله المظفرة . ولقد لقيه ابو عبدالله بكل خضوع معلناً طاعته وانهُ المهدي المنتظر وفي ربيع الثاني سنة ٢٩٧ هـ (يناير سنة ٩١٠) خطب باسمهِ في مسجد القيروان ولقب بأمير المؤمنين عبيدالله المهدي

الاّ ان اباعبدالله سرعان ما وجد ان الخليفة قد اهمل شأنه فداخله الحقد ، وبدأ يثير الشكوك في صحة امامة المهدي مدعياً انهُ لا بد لهُ ان يأتي بالمعجزات ليبرهن على صدق دعواه . ولكن المهدي ادرك الخطر الذي كان يحف بهِ فقضى عليهِ قبل ان يستفحل امره بان دسَّ على ابي عبد الله من قتله وبذلك خلا له الجو فحكم خمسة وعشرين عاماً امتدت فيها سلطته من فاس الى حدود مصر التي ارسل لغزوها ثلاث حملات في سنوات ٣٠١ هـ (٩١٣ م) و٣٠٢ هـ (٩١٤ م) و٣٠٦ هـ (٩١٨ م) . وفي ذي القعدة ٣٠٣ هـ (٧ مايو ٩١٦) اسس المهدية وتوفي بها في ربيع الاول سنة ٣٢٢ وكان يقيم في رقاده على بعد اربعة اميال من القيروان وقد توفي بها . فخلفهُ ابنهُ ابو القاسم ، ولقب بالقائم ، وارسل جيشاً الى مصر ففتح الجيش الاسكندرية الاّ انهُ اضطرَّ الى الارتداد امام قوات اخي الاخشيد وهزم هزيمة منكرة اثناء ارتداده

وتوفي ابو القاسم في ١٣ شوال ٣٣٤ هـ (١٨ مايو ٩٤٦ م) بعد ان حكم اثنتي عشرة سنة . فتولى بعده المنصور الذي اسس المنصورية في ٣٣٧ هـ (٩٤٨—٩٤٩ م) وهي الضاحية الملكية الرابعة التي بنيت بجوار القيروان

واستمرَّ في الحكم حتى وافتهُ المنية في شوال ٣٤١ هـ فخلفهُ ابنه المعز وهو في الرابعة والعشرين من عمره . وكان المعز على جانب كبير من العلم والتهذيب والنشاط . وقد استطاع بمؤازرة وزيره وكبير قواده ، جوهر الصقلي ، ان يعيد النظام والامن الى جميع انحاء مملكته وكان ذلك تمهيداً لفتح مصر ، وكانت الامنية الكبرى التي كان يصبو المعز لتحقيقها والتي من اجلها شرع يجمع الاموال حتى تجمع لديه منها اربعة وعشرون مليون دينار كما قضى سنتين في حفر الآبار واقامة المنازل في الطريق الى الاسكندرية لينزل فيها الجند في اثناء مسيرهم اليها

﴿ الاسباب الفلكية لغزو مصر ﴾ يرى دي جويه أن الذي دفع المعز الى التفكير في غزو مصر هو التقاء المشتري بزحل في برج الحمل في سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) وليدعم رأيه هذا أتى بكثير من الامثلة لايضاح ما كان لعلم التنجيم من الشأن الكبير في الحيـاة اليومية في الشرق في العصور



[نشر هذا البحث اولا في جريدة الاهرام الغراء وقد نقلناه عنها باذن من رئيس تحريرها]

الوسطى ، وخاصة بين الفاطميين وذكر كتب عبيدالله المهدي في التنجيم والعلوم الخفية [1] التي سرقت منهُ بالقرب من طاحونة حين كان فاراً في افريقية والتي استردها القائم في اثناء حملته على مصر التي باءت

(١) العلوم الخفية — هي الكيمياء والتنجيم والسحر.

هي الاخرى بالفشل ويقال ان هذه الكتب كانت تحتوي على النبوءة التي كانت ذائعة في ذلك الوقت وهي ان حكم العرب لبلاد المغرب سينتهي أمده بانتهاء القرن الثالث الهجري

ويقرر دي جويه ان هـذه النبوءة بلا شك ذات صلة بالتقـاء زحل بالمشتري في برج الحمـل سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) وهي السنة التي شهدت فعلاً سقوط الأغالبة وظهور أمر الفاطميين وبدء حكمهم في القيروان . ومن المعروف ان الفاطميين كانوا ينتظرون ان يبدأ عهد جديد هو عهد الدين الحق ، وان يكون ذلك مقترناً بتغيرات فلكية تحدث ٣١٦ هـ (٩٢٨ م)

ويرى دي جويه أيضاً ان قيام الدولة الفاطمية في ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) قد جعل المعز لتعلمه في التنجيم يختار سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) لاعداد حملته على مصر لاسباب فلكية أيضاً اذ يلتقي في هذا العام زحل بالمشتري في برج الحمل . وهذا يذكرنا بما فعله هولاكو خان اذ كان في أوج مجده ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ومع ذلك لم يجرؤ على غزو بغداد الا بعد أن أكد له النجاح والنصر منجمه الشهير الطوسي

* * *

﴿ غزو مصر ﴾ ونتيجة للاضطراب الداخلي والمجاعة التي حدثت بسبب انخفاض النيل والطاعون الذي أعقب ذلك ، أصبحت مصر عرضة للغزاة الفاتحين . وكان المعز يعلم تمام العلم حالة البلاد حيث أطلعه عليها يعقوب بن كلس اليهودي الذي هاجر منها وكان في اول أمره مقرَّباً من كافور الاخشيدي فأصدر المعز أوامره بحشد الجيوش . فتجمع له مائة الف رجل ، أمّر عليهم جوهر القائد ، وجهزهم بالمعدات الكافية وارسل معهم المؤونة والعدد وآلات القتال وكل ما يحتاج اليه هذا الجيش الجرار على ظهور الدواب وسار الجيش من القيروان في ١٤ ربيع الاول سنة ٣٥٨ (٥ فبراير سنة ٩٦٩ م) فوصل الى الجيزة في ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ (٦ يوليو ٩٦٩ م) وعبر النهر وسحق الجيوش التي أعدت لقتاله على الشاطىء الشرقي للنيل . فسلمت المدينة وسار الجيش الفاطمي المظفر في مدينة الفسطاط حاملاً لواء النصر ، وعسكر في السهل الرملي الواقع الى الشمال [١] وكان يحدّ هذا السهل من الشرق جبل المقطم ومن الغرب الخليج [٢] وكان الخليج عبارة عن قناة تخرج من النيل شمالي الفسطاط وتمرّ بمدينة هليوبوليس القديمة وتتصل في النهاية بالبحر الاحمر عند السويس . وكان هذا السهل خالياً من البناء الا بضعة مبان تتعلق بحدائق كافور وديراً مسيحيًّا يسمى دير العظام وكان يشغل مكان مسجد الأقمر وحصناً صغيراً يسمى قصر الشوك . ولا يزال اسم هذا القصر باقياً للآن يطلق على أحد احياء العاصمة

* * *

﴿ تأسيس القاهرة ﴾ وفي مساء ذلك اليوم اختط جوهر موقع القصر الذي قرر ان يستقبل

(١) هذه البقعة الآن مغطاة بالمنازل او باكوام من التراب ولا يرى بها الرمل حتى تصل الى العباسية . ومع ذلك فأن عمليات الحفر والكشف في منطقة برج الظافر (وهو يقع في الزاوية الشمالية الشرقية لسور صلاح الدين) قد اظهرت ان هناك نوعاً من الرمل الاصفر الناعم على عمق سبعة امتار تحت مستوى السطح الحالي للارض وعليها ترتكز اسس بناء برج الظافر (٢) يسير ترام الخليج الآن من مسجد السيدة زينب الى الظاهر في نفس المكان الذي كان يخترقه الخليج . وقد ردم هذا الجزء في اواخر القرن التاسع عشر ويسمى هذا الشارع الآن شارع الخليج المصري

فيه المعز . وحينما أتى اعيان الفسطاط في الصباح التالي لتهنئته وجدوا ان أسس البناء الجديد كانت قد حفرت . وبنى جوهر سوراً خارجياً من اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من اضلاعه ١٢٠٠ ياردة . وذكر المقريزي [١] انهُ كان لا يزال يوجد الى عصره قسم كبير من هذا السور كان يقع خلف سور صلاح الدين بنحو ٥٠ ذراعاً بين باب البرقية ودرب بطوط ثم هدم في سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) . وقد أبدى المقريزي دهشته من حجم الطوب المستعمل في هذا البناء وذكر ان طول الطوبة ذراع [٢] وعرضها ⅔ ذراع . وان هذا السور كان سمكه كافياً لان يمر فوقهُ فارسان جنباً الى جنب

ومن الغريب ان ياقوت ذكر ما يشبه ذلك في وصفه سمك جدران قصر المهدية وهي العاصمة الاولى للفاطميين . والسبب في جعل الاسوار والحصون سميكة بهذا الشكل هو تمكين الرجال الذين كلفوا الدفاع عنها من التجمع السريع عند أية نقطة معرضة لأن يتسورها الاعداء او يهاجموها بأية طريقة اخرى . وقد كان المتبع منذ عهد الرومان ان ينشيء المحاصرون أبراجاً من الخشب متحركة تزيد في ارتفاعها عن الاسوار المراد مهاجمتها

وكانت هذه الابراج اذا أتى بها قرب الاسوار استطاع المحاصرون أن يهددوا أعالي هذه الاسوار والاستحكامات وامكنهم باستخدام الكباري المتحركة انزال بعض رجال الجيش المحاصر للاشتراك في الهجوم والاستيلاء على الحصن فاذا لم تكن هذه الاستحكامات سميكة سمكاً كافياً لم يستطع المحاصرون ان يقاوموا صفاً واحداً من الرجال يهاجم الحصن هجمة موفقة . وكان الغرض من بناء هذا السور هو ان يحيط بقصري الخليفة ودواوين الحكومة ومساكن الحامية . وكانت هناك مبانٍ اخرى كثيرة كبيت المال ودار سك النقود والمكتبة وضريح الخليفة ودار الاسلحة والاصطبلات . . . . الخ . واوضح ابن دقاق الغرض الذي رمى اليه جوهر . فقال انهُ بنى القصور لمولاه حتى يكون هو واعوانه وجيوشه بمعزل عن عامة الشعب . كما كانت (فيما بعد) عادة الملوك من ابناء عبد المؤمن فقد فعلوا كذلك في مراكش وتلمسان وأماكن اخرى

وقد سميت هذه المدينة في اول الامر المنصورية تيمناً باسم مدينة المنصورية التي أنشأها خارج القيروان المنصور بالله والد المعز . وقد أثار هذا التوافق بين الاسمين دهشة العلامة كاي Kay

(١) جاء في المقريزي جزء ٢ صحيفة ٢٠٥ طبع مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ ما يأتي :—

« السور الاول كان من لبن وضعه جوهر القائد على مناخه الذي نزل به هو وعساكره حيث القاهرة الآن فأداره على القصر والجامع ... وقد ادركت من هذا السور اللبن قطعاً وآخر ما رأيت منه قطعة كبيرة كانت فيما بين باب البرقية ودرب بطوط هدمها شخص من الناس في سنة ٨٠٣ هـ فشاهدت من كبر لبنها ما يتعجب منه في زمننا حتى ان اللبنة تكون قدر ذراع في ثلثي ذراع . وعرض جدار السور عدة اذرع يسع ان يمر به فارسان . وكان بعيداً عن السور الحجر الموجود الآن وبينهما نحو خمسين ذراعاً وما احسب انه بقي الآن من هذا السور اللبن شيء »

(٢) يرى فان برشم Van Berchem ان الذراع الذي يذكره المقريزي في خططه هو الذراع البلدي وهو وحدة المقاييس المصرية وطوله ٥٧٫٨ سنتمتر . وبناء على ذلك يكون حجم اللبن المستعمل ٥٨ سم × ٣٨٫٥ سم للبنة الواحدة ونحن نؤيد فان برشم في ذلك لان المقريزي يقرر ان طول الضلع الجنوبي لجامع عمرو يبلغ ١٩٠ ذراعاً فعلى هذا الحساب نجد هذا الضلع يساوي ١٠٩٫٨٢ متراً . ولما كان طوله الحقيقي من الداخل يبلغ ١٠٩٫٢٠ متراً فيكون تقدير طول الذراع البلدي بـ ٥٧٫٨ سم تقديراً صحيحاً

الذي لحظ ان انشاء مدينة منعزلة ومحصنة بهذا الشكل كان خاضعاً للسنة التي استنتها البلاط الفاطمي من قبل وان المنصورية ولو انها لم تكن نواة لمدينة جديدة ولا حلت محل مدينة القيروان القديمة فان العاصمة القديمة كانت بلا شك النموذج الذي انشئت على مثاله مدينة القاهرة

ومن الجلي كما لحظ ذلك ريتمايو أن جوهر لا بدَّ كانت لديه أوامر من الخليفة بأن ينشيء مدينة تكون علاقتها بالفسطاط كعلاقة المنصورية بالقيروان . ويلاحظ لهذه المناسبة ما ذكره البكري من ان بابين من أبواب المنصورية كان يطلق على احدهما باب زويلة والثاني باب الفتوح وقد اطلق هذان الاسمان على بابين من ابواب سور مدينة القاهرة التي تذكرنا في كثير من مظاهرها بتنظيم المدينة الصينية والمدينة التترية والمدينة المحرمة في بكين التي أسسها قبلاي خان بعد ذلك بثلاثة قرون . ويرى كاي انهُ لايوجد ما يدل على انجوهراً او سيده كان في نيته ان يؤسس مدينة جديدة بالمعنى العادي المعروف لهذه الكلمة او كان يقدر ما حدث بعد ذلك بمعنى انهُ ما كان يخطر ببال احدهما انسكان تلك المدينة الثلاثية المكونة من الفسطاط والعسكر والقطائع سيجاورون بالتدريج بيت الخليفة وانهُ بعد انقضى صلاح الدين الايوبي على هذه الاسرة سنة ٥٦٧ هـ (سنة ١١٧١م) سيبلغون السور ويبنون المساجد والمباني الخاصة على انقاض قصورها التي سارع اليها الخراب . والى ذلك الوقت لم يكن يسمح لأي فرد باجتياز اسوار مدينة القاهرة الا اذا كان من جند الحامية او من كبار موظفي الدولة . اما عن اختيار موقعها فيقول المقريزي انجوهراً اراد ان تكون حصناً قائماً بين القرامطة وبين مدينة مصر لحمايتها من هجماتهم [١] . وفي عهد دولة كالدولة الفاطمية التي قامت على الدعاوى الدينية والروحانيات والتي يؤمن خلفاؤها بالعلوم الخفية فان عملاً هاماً مثل انشاء مدينة لا يمكن ان يتم الا بمساعدة المنجمين . ولذلك اصدر جوهر اوامره بجمعهم وطلب اليهم ان يختاروا طالعاً سعيداً لتأسيس المدينة حتى لا يتعرض الفاطميون لان يسلبها منهم متغلب

فحفرت الخنادق لبناء اسس الاسوار والجدران وثبتت فيها قوائم ربطت بحبال علقت عليها اجراس حتى اذا حانت الساعة المحددة ارسل المنجمون الاشارة الخاصة بالبدء في العمل . وامر العمال ان يقفوا على تمام الاهبة لالقاء الاحجار والمونة الموضوعة في متناول ايديهم في الخنادق المحفورة عند ما تصدر لهم الاشارة بذلك . ولكن قبل ان تحين الساعة المقررة وقع غراب على الحبال الممدودة فدقت الاجراس ، فظن العمال ان المنجمين قد اعطوا الاشارة وبدءوا في العمل

وكان في هذه اللحظة كوكب المريخ في الاوج وكانوا يسمون هذا الكوكب قاهر الفلك فاعتبروا هذا شؤماً ويظهر من رواية المقريزي المضطربة ان المدينة الجديدة اطلق عليها اولاً اسم

(١) (قدم القائد جوهر بعساكر مولاه الامام المعز لدين الله معد فبنى القاهرة حصناً ومعقلاً بين يدي المدينة وصارت القاهرة دار خلافة ينزلها الخليفة بحرمه وخواصه الى ان انقرضت الدولة الفاطمية الخ) مقريزي جزء ٢ ص١٥٧ (... وسكنها الملوك ... الى يومنا هذا فصارت القاهرة مدينة سكنى بعد ما كانت حصناً يعتقل به ودار خلافة يلجأ اليها) مقريزي جزء ٢ ص ١٥٧

المنصورية[١] وهو الاسم الذي كان يطلق على المدينة التي اسسها الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله خارج مدينة القيروان . ويقول المقريزي ان المدينة الجديدة لم تعرف باسم القاهرة الا بعد اربع سنوات حين حضر المعز الى مصر ورأى من قراءته الخاصة للطالع في هذه التسمية فألاً حسناً اذ ان اسمها مشتق من القهر والنصر ويقول ايضاً انهم بنوا السور من الطوب وسموا المدينة المنصورية حتى قدم المعز بعد ذلك بأربع سنوات (٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ ١١ يونيه ٩٧٣م) فغير اسمها وجعله القاهرة. الا ان المقريزي بعد ذلك بسبعة اسطر يروي قصة المنجمين بطريقة تجعلنا نظن ان اسم القاهرة اطلق على هذه المدينة منذ بدء تأسيسها[٢] . ويرجع الفضل للعلامة رافيس Ravaisse في جلاء هذه النقطة التي لم يفطن اليها «لين بول» Lane Poole في كتابه تاريخ مصر History of Egypt p. 103 وقد اخذ بيكر برأي رافيس في المقال الذي انشأه بدائرة المعارف الاسلامية عن القاهرة

وقد سلم جميع الكتاب الذين عالجوا موضوع انشاء القاهرة بقصة المنجمين والغراب ولم يشكوا في صحتها . ويظهر انهُ غاب عن ملاحظتهم ان هناك قصة شديدة الشبه بهذه ذكرها المسعودي المتوفى (٩٤٣ م) في روايته الخرافية عن انشاء الاسكندر مدينة الاسكندرية

فقد روى ان العمال وقفوا بأمر الاسكندر في الخطوط التي حددت لانشاء المدينة وان الاوتاد دقت في الارض على مسافات في هذه الخطوط وربط بها خيط ثبت آخره بعمود من الرخام امام خيمة الملك . وعلقت بهذا الخيط اجراس وانتظر العمال اعطاء الاشارة اليهم وحين سمع العمال الاشارة باشروا جميعاً العمل في وقت واحد في اقامة اسس المدينة وكان الاسكندر يؤمل بهذه الوسيلة ان يكون واثقاً من انشاء المدينة في ساعة يسودها حسن الطالع ولكن مع الاسف حين حان اليوم والساعة المحددة شعر بثقل في رأسه ونام فوقع غراب على الحبل فدقت الاجراس وبدأ العمال في العمل . فلما استيقظ الاسكندر وعرف ما حدث قال لقد اردت شيئاً واراد الله آخر . ومن ذلك يظهر ان القصة التي رواها المقريزي كانت شائعة ومعروفة قبل انشاء القاهرة بستة وعشرين عاماً . وذلك يحول دون قبولنا رواية المقريزي الا بكثير من التحفظ . واني ارى ان ما سبق يجعلنا على حق حين نعتبرها خرافة من الخرافات

[تنشر تتمة هذا البحث النفيس في مقتطف دسمبر القادم]

---

(١) — (... وقصد جوهر الى مناخه الذي رسمه له مولاه الامام المعز لدين الله ابي تميم معد واستقرت به الدار واختط القصر واصبح المصريون يهنئونه فوجدوه قد حفر الاساس في الليل فأدار السور اللبن وسماها المنصورية . الى ان قدم المعز لدين الله من بلاد المغرب الى مصر ونزل بها فسماها القاهرة) مقريزي جزء ٢ ص ٢٠٤

(٢) — (... ويقال في سبب تسميتها ان القائد جوهراً لما اراد بناءها احضر المنجمين وعرفهم انه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقيم بها الجند وامرهم باختيار طالع سعيد لوضع الاساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم ابداً فاختاروا طالعاً لوضع الاساس وطالعاً لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين حبل فيه اجراس وقالوا للعمال . اذا تحركت الاجراس فارموا ما بايديكم من الطين والحجارة . فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك فاتفق ان غراباً وقع على حبل من تلك الحبال التي فيها الاجراس فتحركت كلها فظن العمال ان المنجمين قد حركوها فالقوا ما بايديهم من الطين والحجارة وبنوا فصاح المنجمون القاهر في الطالع فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه ويقال ان المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الاساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة واقتضى نظرهم انها لا تزال تحت القهر) مقريزي جزء ٢ ص ٢٠٤

لباب النسبية مبسّطاً

تعريفها وقسماها — مقامها في العلوم الطبيعية

لحنا خباز

زيد في قطار سريع ، يقطع تسعين كيلو متراً في الساعة . رمى كرة الى الجو فصعدت الى علو ٦٤ قدماً ، ثم عادت راجعة الى اسفل . فأين تقع ؟ أوراءه ؟ ام امامهُ ؟ ام فوقه ؟

انها تقع فوقه ، لانها اكتسبت من سرعة القطار استمراراً ، لا تنزعه منها قوة الدفع السمتي من يد زيد . ولكن كيف رآها زيد ومن معه في القطار ؟ وكيف رآها عمرو ومن معه في الطريق ؟

رآها زيد ورفاقه قد صعدت وهبطت في خط سمتي . أما عمرو وصحبهُ فرأوها قد سارت في قوس دائرة كما ترى في شكل ١

ش ١

فأي الفريقين هو المصيب ؟ ازيد ام عمرو ؟ تقول النسبية ان كليهما مصيب . هذه الحالة تمثل لنا نظرتين . الاولى نظرة العلماني تبدو من زيد . والثانية نظرة النسبية تبدو من عمرو . هي صورة بسيطة ترينا موقفاً من مواقف النسبية ، التي تحسب الخط المستقيم محدباً . وبحق تفعل ذلك . فالنسبية خطوة الى الامام في تفسير ظاهرات الكون . بها حوّل اينشتين قواعد غليليو ونيوتن ، كما حوّل كوبرنيقوس قواعد بطلميوس . وكما حوّل دلتون ولافوازييه قواعد الكيمياء القديمة . وكما جدّد ليل في علم الجيولوجيا . ودارون في البيولوجيا

وجاءت نظرية اينشتين متممة مسعى ميكلصن ومورلي الرامي الى اثبات حركة الارض في الاثير

بواسطة سير النور . وبالرغم من تكراره مراراً بين سنة ١٨٨٢ — سنة ١٩٠٥ — ١٩٢٥ لم يمكن ظهور اي أثر لحركة الارض في الأثير . فهل الأرض ساكنة ؟ او ان الأثير لا وجود له ؟ لا هذا ولا ذاك . فما هو اذاً تعليل الأمر ؟ لماذا لم يمكن اثبات حركة الارض بهذا الامتحان ؟

ذهب العلماء في تعليله مذاهب شتى . منها ان الأثير الملامس سطح الكرة يشترك معها في حركتها في شكل تيار . فلا يمكن ادراك حركتها فيه . ومنها ان المادة تتقلص في اتجاه حركتها . قاله فتزجرالد الارلندي . وقد ابان لورنتز الهولاندي مقدار التقلص بالحسابات الرياضية وهو $\frac{1}{200\,000\,000}$ من قطر الارض

اما اينشتين فيقول ان التقلص ظاهري لا واقع . وخلاصة نظريته ان لا حركة مطلقة في الكون . ولا سكون مطلق كذلك

فالمادة بأجمعها من اكبر كتلة كابط الجوزاء ، الى الفوطون وهو جزء واحد من عشرة آلاف جزء من الكهرب ، اقول ان جميع هذه الاجسام متحركة حركة نسبية احدها الى الآخر

وقد قسم اينشتين النسبية الى قسمين : — ١ً النسبية الخاصة . وموضوعها الحركة القياسية غير الدورانية . وقد اعلن هذه النظرية سنة ١٩٠٥ :— ٢ً النسبية العامة وهي تبحث في جميع الحركات قياسية ومتفاوتة ودورانية . وقد اعلن هذه سنة ١٩١٥

النسبية الخاصة

اوضحها اينشتين في كتاب « نظرية النسبية الخاصة والعامة »[1] ويمكن تلخيص كلامه في ما يأتي :
زيد في قطار يسير سيراً قياسيًّا بالنسبة الى عمرو في المحطة . وهنالك غراب طائر في الجو فوق القطار . فطيران الغراب حادثة طبيعية ، شهدها اثنان ، احدهما ساكن ، والآخر متحرك بالنسبة اليه في خط مستقيم غير دوراني . قال اينشتين : نواميس الظاهرة الطبيعية هي هي سواء قيست بدليل (هيكل اسناد) م او مَ المتحرك حركة « نسبية » الى م قياسية :

وقد اوضح ذلك هري شمدت في كتابه النسبية والكون ٦٦ — ٨٥ Relativity & The Universe
وهذه صورة قاعدة النسبية الخاصة فيها : جميع الظاهرت ، ليس الميكانيكية فقط ، بل ايضاً الكهربائية والمغنطيسية والبصرية ، تحدث في نمط واحد سواء اعتبرت بدليلات ساكنة ، او بدليلات متحركة حركة نسبية الى الساكنة حركة قياسية غيردورانية :

فمن ذلك : ان سرعة النور في الفضاء ثابتة السرعة لكل مراقب ، ومستقلة عن حركة مصدرها وناظرها : اي لا فرق بين ان يكون مبعث النور متحركاً او ناظره او كلاهما . ولذلك لا يمكن اثبات حركة الارض في الاثير بواسطة سير النور ، او بغيره من الظاهرات الكهربائية والمغنطيسية والميكانيكية

(١) Relativity, The Specific & General Theory فصل خامس ص ١٢—١٥

وبعبارة اخرى ان العلم الطبيعي عاجز عن اثبات الحركة المطلقة . جاء في كتاب النسبية والكون ص ٧٠ — ٨٥ ذكر نتائج النسبية الخاصة

١ً : لا يمكن تأكيد التعاصر (التواقت) في حادثتين . فقد يراهما مراقب في وسط من الاوساط انهما قد حدثتا معاً في وقت واحد . ولكن مراقباً آخر في وسط متحرك يراهما متواليتين

٢ً : الفترة الزمانية بين حادثتين معلومتين ، قد يرد في طولها حكمان متباينان يعني ان الزمان نسبي لا مطلق

٣ً : الفترة المكانية بين حادثتين معلومتين يحكم على طولها احكام مختلفة باختلاف هيا كل الاسناد Co-ordinates : او الدليلات . يعني ان المسافة نسبية

٤ً : الحجم نسبي لا مطلق . وذلك يتعارض ومبدأ نيوتن القائل بثبوت المادة

٥ً : الشكل نسبي . فالدائرة في عين زيد مع هيكل اسناد واحد ، قد تكون اهليليجاً في عين عمرو مع هيكل اسناد آخر . والمربع في نظر هذا قد يكون مستطيلاً قائم الزوايا في عين ذاك

نسبية الزمان[1] : اذا كان هنالك ساعتان من معمل واحد ومن تركيب واحد ومزايا واحدة في كل شيء ولكن احداهما في جيب كاتب على كرسيه ، والاخرى في جيب طيار يقطع ٦٠٠ كيلو متر في الساعة. فان الاولى تسبق الثانية سرعة وكلما زادت سرعة الوسط بطؤت حركة الساعة ، وحركة المعدة ونبض القلب — وعلى ذلك قد يولد اثنان في ساعة واحدة ويموتان في ساعة واحدة . ومع ذلك يكون احدهما قد عاش سبعين سنة والآخر قد عاش سنة واحدة لان الاول عاش في ارضنا ، والآخر في جرم سريع الحركة جدًّا بالنسبة الى حركة ارضنا والمفروض ان سرعته ١٦١٠٠٠ ميل في الثانية . فسنة هنالك تعدل سبعين سنة في ارضنا

القطار متحرك ————————

متر على القطار

مكانه على الارض ثابت ————————

متر على الارض

كما يراه انسان على الارض ————————

متر على القطار

القطار ساكن ————————

متر على الارض

الارض متحركة ————————

متر على الارض

(ش ٢)

نسبية الحجم : انظر (ش ٢) فان المتر الواحد يظهر لك في حال اسراعه نصف متر

النسبية العامة

وموضوعها الحركة من حيث هي قياسية او دورانية او لولبية او غير ذلك

(١) انظر ٣٨ من كتاب ادنتن The Nature of the Physical World

بسط الكلام فيها الاستاذ اينشتين في كتابهِ المذكور آنفاً ص ٥٩ — ١٠٥ وتمهيداً لها اوجه نظر القارىء الى : « الابعاد الاربعة »

ان فضاء نيوتن هو فضاء اقليدسي ، ثلاثي الابعاد ، طول وعرض وعمق. على هذا جرى العلماء من ايام اقليدس الى ١٩٠٥ لما ابرز منكوفسكي رأيهُ في عالمنا . يقول اينشتين ان المادة ساكنة في جو اقليدسي ، لا تؤلف عالماً . لان ليس عالمنا عالم جمود واستقرار ، بل هو عالم حادثة ، فلا تكفي الابعاد الثلاثة لتعيين الحادثة ، بل تلزم اضافة بعد رابع اليها هو الزمان

فالجراف تسبلين وهو طائر من فريدركسهافن الى نيويورك بطريق روسيا فسيبيريا فاليابان فالباسيفيك ، لا يمكن تعيين موقعه دون ذكر الزمان ، فلا يفيد قولنا ان الجراف تسبلين هو في طول كذا وعرض كذا وارتفاع كذا ، ما لم نقل « في وقت كذا » . لانهُ في كل ثانية يشغل حيزاً يختلف عما قبله

قال منكوفسكي ان الزمان وحده ، او المكان وحده ، او المادة وحدها ، وهم وخيال ، ما لم تجتمع الثلاثة معاً . (كتاب النسبية والكون ص ٩٨)

ويقول اينشتين : عالمنا امتداد زماني مكاني . وفضاء اقليدس ليس عالماً لانهُ ثلاثي الابعاد . فالعالم في عرف منكوفسكي : مشهد الظاهرة : ولا تكون الظاهرة دون زمان ، كما انها لا تكون دون مكان . وكلام اينشتين هذا يوافق رأي « كنت » الفيلسوف الالماني العظيم ، الذي يرى ان المكان والزمان متلابستان لا يمكن فهم شيء في عالم المادة من دونهما فعالمنا زماني مكاني رباعي الابعاد (ط : ع : س : ز) وهي احرف ترمز الى الطول والعرض والسمك والزمان على الترتيب

بدأ اينشتين الكلام في النسبة العامة في الفصل الثامن عشر من كتابه . قال : لقد كان مبدأ النسبية الخاصة محور ابحاثنا السالفة . وفحواه انهُ « كل حركة هي نسبية » وسواء اتخذنا المحطة او القطار المتحرك حركة نسبية موقفاً لنا ، فالنواميس العامة هي هي بحكم الاختبار ، المبني على هيكل اسناد غليلي ، ساكناً او متحركاً حركة قياسية . ولا يشمل الاجسام المتحركة حركات منوعة . كما نعني بالنسبية العامة . وفي هذه نواميس الظاهرات الطبيعية هي هي سواء قيست بدليل اسناد م او مَ المتحرك نسبيًّا « ايَّة حركة ايما كان »

وبعبارة اخرى : جميع الاجسام ساكنة الدليلات (هيا كل الاسناد Co-ordinates) او متحركتها « اي نوع من الحركة » هي صالحة لوصف الظاهرات الطبيعية (اي لتأليف النواميس الطبيعية العامة مهما يكن نوع حركتها) وتلا ذلك كلامه في الفصل ١٩ في منطقة الجذب gravitational field وهنا يصدم نيوتن صدمة عنيفة . بأن الجاذبية والاستمرار سيَّان . قال : افلتنا حجراً من يدنا فسقط على الارض . ولماذا ؟ الجواب العادي عن هذه المسألة هو : ان الارض جذبته : ولكن الطبيعيات الحديثة تصوغ الجواب في صورة اخرى . لان درس الظاهرات الكهرطيسية درساً دقيقاً اثبت لنا

استحالة الفعل عن بعد دون واسطة توصل أثر الفاعل الى المفعول به . فاذا جذب الحديد مغنطيساً دون اتصاله به فلا نقول اذ ذاك بالفعل عن بعد . بل نرى مع فارادي ان المغنطيس ينشيء حوله شيئاً طبيعيًّا تدعوه المنطقة المغنطيسية : magnetic field : فيجذب الحديد ضمن حدود هذه المنطقة . على هذا النحو نحسب تأثيرات الجاذبية . فان الكرة الارضية تنشيء حولها منطقة جذب . وضمن حدود تلك المنطقة تفعل في الحجر ، الذي رأيناه يهبط الى سطح الارض . ونعلم بالاختبار ان ذلك الجذب ينقص كلما بعدت المادة عن الارض (بدليل خفة الوزن كلما علونا)

على ان فعل الجاذبية في منطقتها يخالف فعل الكهربائية في منطقتها ، ويخالف كذلك فعل المغنطيسية في منطقتها ، وذلك في انهُ يحدث حركة متسارعة — كما في الاجسام الساقطة . ولا يتوقف ذلك على حجم المادة الساقطة ولا على نوعها . فجميع الاجسام تسقط بسرعة واحدة على سطح الارض . كتلة الحديد كقصاصة الورق حيث لا هواء يؤثر في هبوط الورقة مثلاً

فالجاذبية والاستمرار سيان . وقد مثل على ذلك في الفصل العشرين بمثل الصندوق الهائل . قال ما خلاصته : —

لنفرض ان الفضاء خالٍ من الاجرام . فلا شموس ، ولا سيارات ، ولا اقمار ، ولا ولا . . . ليس هناك الاَّ صندوق هائل في عرض الفضاء ، في سقفه حلقة كبيرة معلقة بحبل ، لا يراها الذين هم في الصندوق . حيث لا اجرام هنالك فليس ثمة جذب يهبط بالمواد الى اسفل نحو المركز . فتبقى الاشياء في الصندوق حيث وضعناها في منتصفه او فوق ذلك . ولا تهبط الى ارضه ولا تميل الى احدى الجهات الاربع ضمن الصندوق

ولكن في ذات يوم جذبت قوة عالية الصندوق بواسطة الحبل المربوط بالحلقة . فارتفع الصندوق مقسوراً . اما الاشياء التي ضمنه فظلت حيث هي . فلما ارتفع الصندوق صدمت ارضه تلك الاشياء . فنقول انها قد هبطت ، لاننا لم نشعر بحركة ارتفاع الصندوق ، بل شعرنا بهبوط الاشياء على ارضه وقد نعلل تلك الظاهرة بتعليل مألوف عندنا وهو : ان قوة خافية تحت الصندوق جذبت الاشياء التي فيهِ الى اسفل

وسواء كان الصندوق قد جذب الى فوق بالحبل ، او ان الاشياء قد جذبت الى اسفل بقوة خافية ، على الحالين ان الاشياء لاذت بأرض الصندوق . ولا مزية لاحد التفسيرين على اخيهِ . فالاستمرار والجاذبية سيان : (طبيعيات عامة : ص ٦٨٥)

***

على هـذا النحو يمكن تجريد مبدأ النسبية فيشمل كل الحركات في الكون . وعليه فالمنطقة الجاذبية ظاهرة لا غير . يلي ذلك تبيان اينشتين عجز النسبية الميكانيكية والنسبية الخاصـة عن تفسير الكون ، واحتياجنا الى النسبية العامة . وهو موضوع الفصل ٢١ . قال : —

يتلخص ناموس الميكانيكا الكلاسيكية بهذا النص — تستمر الذرات المادية المتباعدة سائرة في خطوط مستقيمة، او تبقى ساكنة : وقد ابنا ان ذلك يصح في وسط ساكن، او سائر سيراً قياسياً. فاذا اختلفت الاقيسة باختلاف الاوساط تخلف هذا الحكم . فاذا راقبنا تلك الذرات من وسط سريع الحركة تشعر انهُ ساكن ؛ ظهرت لنا تلك الذرات متحركة لا ساكنة

وقد ذكر هنا مثال الحلل فيها ماء موضوعة على مصابيح الطبخ وهي اكفاء في كل شيء . الاّ ان الماء جعل يتبخر ويغلي في بعض الحلل دون البعض الآخر. ولدى التفحص وجدنا تحت الحلل الساخنة المياه ، شيئاً صاعداً من المصابيح ازرق اللون ، في صورة شعاع . فحسبناه علة غليان الماء . وان لم يسبق لنا مثل ذلك الاختبار . لذلك ارتأى ا . ماش انهُ يجب ان تبنى الميكانيكا على اسس جديدة . تنطبق على قواعد النسبية العامة

مستندات اينشتين في تأييد النسبية العامة ثلاثة :

الاول : انحراف اشعة النور لدى مرورها بجسم في عرض الفضاء وقد ابان بالمعادلات الرياضية ان ذلك الانحراف يجب ان يكون ١،٧٠ً وقد اثبت ذلك رصد كسوف الشمس سنة ١٩١٩ . (راجع الكون المتمدد ص ١) . الثاني: تعليل عقدة عطارد (الكون المتمدد ص ٢٥). افلاك السيارات حول الشمس اهليلجيات وتكون السيارات في اقرب موقع من الشمس في نقطة خاصة في فلكها لا تتجاوزها ، والشمس في محترقها الاقرب الى السيار . وهذا الحكم نافذ في كل السيارات الاّ عطارد. فان تلك النقطة تنحرف نحو ٤٣ً في كل قرن. هذه هي عقدة عطارد . وقد حار العلماء في امرها

فلما وضع اينشتين قواعد النسبية العامة ابان بالادلة الراهنة لزوم ذلك الانحراف لوجود شيء في الفضاء يوجبه . الاّ ان مقداره في غير عطارد زهيد جداً لا يشعر به . فعلل اينشتين بالنسبية ما كان يحسب عند العلماء من الشواذ

الثالث : حيود الفسحات المظلمة في خطوط فرنهوفر نحو الاحمر . وهذا من ادق مباحث النسبية واهمها . وهو يتناول الظاهرة البصرية والظاهرة المغنطيسية معاً

***

يصحب التيارَ الكهربائي حتماً فعلٌ مغنطيسيٌ فلو كان جسم مشحون كهربائية ساكناً فليس هنالك حقل مغنطيسي . ولكن لو راقب ذلك الجسم مراقب في جرم متحرك حركة سريعة جداً . وهو يشعر ان موطنه ساكن وان الارض الحاملة الجسم المكهرب هي المتحركة تلك الحركة السريعة جداً لشهد الحقل المغنطيسي وشهد معه حيود فسحات فرنهوفر المظلمة نحو الطيف الاحمر . وهذه المستندات الثلاثة اي انحراف الاشعة وتعليل عقدة عطارد وحيود الفسحات المظلمة في خطوط فرنهوفر نحو الاحمر ، جاءت مؤيدة لنظرية اينشتين . والذي اعلمه ان جمهرة العلماء الطبيعيين في كل الدنيا قد قبلوها كقضية راهنة

حمق دعاة التعقيم

[نشرنا في مقتطف اكتوبر الماضي مقالاً جمعنا فيه أهم ما يقال في تأييد فكرة « اصلاح النسل بالتعقيم » ووصف العملية الجراحية وآثارها والقوانين التي سنت لهذا الغرض في مختلف بلدان العالم وطريقة تطبيقها في ولاية كاليفورنيا الاميركية . وفي المقال التالي رد على دعاة التعقيم بقلم اغناطيوس كوكس استاذ ادب النفس في جامعة فوردهام الاميركية]

ليس لعاقل ان يعترض على الغرض الذي ترمي اليهِ «حركة اصلاح النسل» Eugenics وهو صحة الذريات المقبلة وهناءتها . ولكن محاولة تحقيق هذا الغرض بوسائل لا تستند الى أساس علمي او أدبي — واذن فهي لا تستند الى أساس شرعي — اي بالتعقيم ، تلقى مقاومة عنيفة من كل من يتدبر الموضوع ويتأمل فيهِ. قال الاستاذ جننغز[1]: لقد اصبح علم الحياة من الموضوعات التي يعنى بها الجمهور ، ولكن حماسة البيولوجي يضعفها ريبةٌ في صحة الاقوال والآراء التي تذاع باسم البيولوجيا . فالحالة تفسح المجال لمن لا ينقد آراءه ولا يمحصها ، ولا يساوره ريب ما في ان علمهُ قد حلّ مشكلات الانسانية »

فدعاة التعقيم يسعون الى ازالة الذين لا يصلحون للتناسل ، وتخفيف الاعباء التي يلقونها على كواهل المجتمع بتكاثرهم وعدم صلاحهم للنهوض بما يطلبهُ المجتمع منهم . والخطأ الذي يقع فيهِ بعض اليوجنيين انهم يقيسون سلامة السلالة بالمقام الاجتماعي او المقدرة الاقتصادية او درجة التعليم ، ناسين ان المقام الاجتماعي ليس فضيلة ، وان المقدرة الاقتصادية قد تنطوي على الاجرام ، وان التعليم النظامي قد يفضي الى انشاء صلات ليست في الطبقة العليا من النقاء النفسي او النفع العام . فكأن هؤلاء اليوجنيين يخلطون بين التعليم والذكاء . بين النظافة والمعيشة الصالحة . بين الجهل والاجرام. ويؤيدني في قولي هذا ، المستر ريمون برل Pearl مدير البحث البيولوجي في جامعة جنز هبكنز إذ يقول في رسالة لهُ ، ان ليس الغرض منها الحكم على طبقات بأسرها من الناس بعدم صلاحها للتناسل، لاسباب اجتماعية او اقتصادية ، ولا ان يبيّن تضميناً ان طبقة واحدة من الناس — أي طبقة متخرجي الكليات والجامعات — هي الطبقة التي يرغب فيها وفي تناسلها من الناحية اليوجنية

ولكن لا ريب ، في ان هناك أفراداً ، في الطبقات العليا والطبقات السفلى والطبقات المتوسطة من المجتمع ، مصابون بضعف جسماني او عقلي . ويمكن تقسيم هؤلاء الى ستة فُرَق (الاول) فريق المصابين بأمراض معدية كالمسلولين والمصابين بالزهري او بالجذام . (الثاني) فريق المنحطّين أمثال

(١) استاذ علم الحياة في جامعة جنز هبكنز في كتابه (الطبيعة البشرية واساسها البيولوجي)

المهوّسار السادين ومدمني المخدرات (الثالث) فريق المذنبين أمثال المتشردين والمجرمين (الرابع) فريق المتوكلين مثل الصمّ والبكم والكمه (الخامس) فريق المصابين بأمراض عقلية (السادس) فريق المصابين بضعف عقلي مثل البُله وضعاف العقول (morons)

فما هي الوسيلة العلمية لازالة هؤلاء المصابين من حيث هم آباء وأمهات يخلفون ذريات مصابة بعلة من العلل المذكورة ؟

علينا أولاً ان نتبين هل هذه العلة وراثية او مكتسبة . والمسلم بهِ عند جمهرة علماء الحياة ، ان الصفات المكتسبة لا تورّث . ولكن الناس الذين ينخرطون في سلك الفرق الاربعة الاولى هم أناس مصابون في الغالب بعلل مكتسبة . والطائفة الكبرى من هذه العلل تمكن معالجتها ، أما بوسائل الطب ، او باقامة أصحابها في منشآت خاصة بهم . أما فيما يتعلق بالاجرام فيرى الاستاذ دافنبورت مدير قسم التناسل في معهد كارنيجي بوشنطن العاصمة ، «ان القصاص العاجل المؤلم هو خير علاج للمجرم»

فلا يبقى لدينا الا فريقان هما الفريق الخامس وهو فريق المصابين بأمراض عقلية والفريق السادس وهو فريق المصابين بضعف عقلي

أما فيما يختص بالفريق الاول فيرى الاستاذ ميرسُن Myerson — وهو من الثقات في الموضوع — ان قليلاً من الامراض العقلية الكبرى يورّث ، وعند التخصيص يقول ان مرضين فقط من هذه الامراض تتوارثهُ أسر معينة وهما السرسام[1] والجنون التهيجي الانقباضي والثاني أعمهما . بيد ان هذا لا يمنع حدوث اصابات منعزلة بأحد هذين المرضين ، اي لا صلة لها البتة بما تتوارثه أسرة من الاسرة المصابة ، بل ان الاسر التي تتوارث احد هذين المرضين قليلة الذكر ، في تقارير الاطباء والمعاهد الطبية . . . فكأن المرض العقلي ، كالمرض الجسدي ، اما ان يبيد السلالة التي تصاب بهِ ، او تشفى منهُ شفاءً تامًّا[2]

ويرى لندمن Landman ان اسباب الامراض العقلية لا تزال لغزاً او سرًّا مكنوناً[3] . بل ان بول بوبينو — وهو من دعاة التعقيم — يصرّح بأن تناسل المصابين بالامراض العقلية قليل ، وان معدل زواجهم اقلّ من متوسط الزواج العام . وعلاوة على ذلك يحتاج المصابون بالامراض العقلية الى حفظهم في المستشفيات الخاصة بهم لينالوا العناية اللازمة ، وفي هذه الحالة لا فائدة تجنى من تعقيمهم او لا معنى لهُ على الاطلاق

اما افراد الفريق السادس ، اي المصابون بضعف العقل ، فهم الذين يسترعون عناية اليوجنيين

(١) كان يعرف باسم dementia praecox وصار الآن يعرف باسم schizophrenia (دائرة المعارف البريطانية ج ١٢ ص ٣٨٦ سطر ١٤ (٢) كتاب سيكولوجية الاضطراب العقلي لميرسن ص ١١٦ — ١١٧
(٣) كتاب « تعقيم الانسان » تأليف لندمن صفحة ١٤٦

بوجهٍ خاص ، واليهم يتَّجه التشريع الخاص بالتعقيم . ولكن ما نعلمهُ عن انتقال الضعف العقلي بالوراثة ، ليس اكثر مما نعلمهُ عن انتقال الامراض العقلية بالوراثة . فالاستاذ ميرسُن يرى « ان جانباً كبيراً من الضعف العقلي مردُّهُ الى البيئة . إن جانباً منهُ وراثي ولكن اصلهُ مجهول ، وقد يكون مثالاً على انحطاط الذكاء كما ان العبقرية مثال على تدرجهِ ارتقاءً » . ويقول ميرسن في جانب آخر من كتابهِ : « لقد كُتبت كتب كثيرة عن ضعف العقل ، ادَّعى فيها مؤلفوها ان ضعاف العقول هم المجرمون في البلاد والفاسقون ، وان كثرة تناسلهم تجعل كثرة السكان في المستقبل منهم اذا لم يعالجوا بطريقة او اخرى من الطرق المقترحة .... ولكن خبرتي الطويلة بالامراض الجسدية والعقلية ، اثبتت لي ان الاسر التي يضربون بها المثل على ضعف العقل ليست في الحقيقة ضعيفة العقل . حتى اذا سلمنا بانها ضعيفة العقل ، فانها ليست نموذجاً على ضعاف العقول . وقد بيَّنت في غير هذا المكان الخلط الذي يقع فيهِ بعض الكتَّاب بحسبانهم قلة الثقافة من قبيل ضعف العقل »

اما موضوع تناسل ضعاف العقول وكثرة ولدهم فلنرجع فيهِ الى تقرير لجنة التعقيم التي عينتها الحكومة البريطانية «وقد نشر في السنة الماضية» فقد جاء فيهِ : ان ما يدعى عن خصب المصابين بضعف العقول هو في رأينا من قبيل الاساطير ، ناتج من ان بعض الشواذ عن القاعدة ، تذاع انباؤها في الصحف لاتصالها بحوادث غريبة تنظر فيها المحاكم . وقد درس لندمن ٦٠٥ حادثة من المصابين بضعف العقل في كاليفورنيا فوجد ان ٣٤ في المائة من الرجال و٢٨ في المائة من النساء كانوا في مستشفيات خاصة بالامراض العقلية فتعقيم هؤلاء لا معنى له لانهم لن يخلفوا نسلاً الاَّ اذا كان للتعقيم فائدة في معالجة اصابتهم . فالخوف من ان ضعاف العقول ، يقذفون بعدد من النسل يزيد زيادة نسبية على مواليد الطبقات الاخرى ، لا يستند الى دليل ، ولا يثبت عند توجيه نور العلم الكشاف اليهِ

***

ولكن لنفرض اننا نعلم عن امراض العقل ، وضعف العقل اكثر مما نعرف ، ولنضرب صفحاً عن قول لندمن « .... ان التعقيم الانساني كبرنامج اجتماعي يحتاج الى العلم اكثر من حاجتهِ الى التخيل » . ولنمرَّ مرَّ الكرام بكلام هوملز حيث يقول : « يجب ان يعترف بان اكثر ما كتب في اليوجنية في طفولة هذا العلم ، متصف بالتعميم المجهول ، والمبالغة في غير احتراس »(١)

دعنا من كل هذا ، ولنفرض اننا نعرف على وجه التحقيق اي الصفات الانسانية مكتسب ، وايها وراثي . فلكي نزيل بعض الصفات الوراثية غير المرغوب فيها ، بالتعقيم ، يجب ان نعرف الاسلوب الذي تنتقل بهِ هذه الصفات بالوراثة

فبعض علماء الحياة يسلمون بنظرية عوامل الوراثة gene theory في تفسير توارث الصفات الانسانية

---

(١) س . ج . هولمز « عقدة اليوجنية » ص ١٣٤٠

ونظرية عوامل الوراثة ، درست درساً عملياً في غير الانسان ، وطبقت عليه بالقياس فقط تطبيقاً غير تام . والاستاذ جننغز ينبّه على هذا في كتابه (١)

يقول اصحاب نظرية العوامل الوراثية انهُ اذا اجتمعا عاملان وراثيان لصفة خاصة ، احدهما من الاب والآخر من الام ، وكانا سليمين ، او كان احدهما سليماً ومتفوقاً Dominant ، فالشخص الذي يجتمعان فيهِ يكون سليماً . وكثير من الناس من يحمل في مادته التناسلية ، عاملاً معيناً ، معيباً . ولكن العيب لايبدو عليهِ ، لان العامل الذي يقابلهُ او يزاوجه متفوّق وسليم . ولا يبدو العيب في المولود الاّ اذا اجتمع عامل معيب من الوالد بالعامل المعيب الذي يقابله من الوالدة . فالذين يحملون في اجسامهم العاملين الخاصين بصفةٍ ما وكان احدهما معيباً يدعون « الحوامل » على مثال من يحمل ميكروب التيفود، ولا يصاب بها . والمظنون ان في الولايات المتحدة نحو عشرة ملايين من هؤلاء الناس السليمين الاجسام، الذين يحملون في طيّاتها عوامل وراثية معيبة خاصة بضعف العقل . وليس ثمة وسيلة علمية على الاطلاق لمعرفة هؤلاء الناس وتعقيمهم خوفاً من ان تجتمع عواملهم الوراثية — او بعضها — بما يقابلها في ازواجهم فيلدون ضعاف العقول

ويقول جننغز ايضاً في الصفحة ٢٤٢ من كتابه : « اذا حسبنا ان نسبة ضعاف العقول في الامة كنسبة واحد الى الف ، فاننا نحتاج الى ٥٨ جيلاً او من الفين الى ثلاثة آلاف سنة ، لكي نجعلها ١ في ١٠٠٠٠ اذا نحن اعتمدنا في ذلك على منع تناسل ضعاف العقول » . وسبب ذلك ان ضعف العقل يظلُّ يتوارث عن طريق الذين يحملون احد عوامله الوراثية ، وهؤلاء لا نستطيع تبينهم لكي نمنعهم من التناسل بالتعقيم . ويختم جننغز قوله بأن التقدم في انقاذ البشر من ضعف العقل يحتاج الى امرين، الاول طريقة تتبين بها الذين يحملون عوامل ضعف العقل من سلام الاجسام والثاني تبين اي الصفات الانسانية المتوارثة تنشأ عن زوج واحد فقط من العوامل الوراثية. والصعوبة في هذا ان احوال المعيشة السيئة ، قد تحدث اثراً كأثر العوامل الوراثية المعيبة . فقد يصبح الناس مجانين او مجرمين او مسلولين لعيب في عواملهم الوراثية او لعيب في احوال معيشتهم او لعيب في الاثنين

ولكن اذا فرضنا اننا بلغنا كل هذا ، فان مشكلة القائلين بالتعقيم لا تحلّ . لأن سؤالاً خطيراً يواجههم، وهو كيف نشأت هذه العوامل المعيبة اولاً . وهل اجسام البشر ماضية في توليد عوامل وراثية معيبة ؟ فعلم الحياة قد اثبت ان اشعة اكس ، وبعض الاشعة تولد في الذبان تحولات في عوامل الوراثة . وليس جميع هذا التحوّل مما يجلب الخير . بل بعضهُ مما يضرّ . افلا يجوز ان تكون اجسام البشر ماضية في توليد عوامل معيبة ، بفعل طائفة من الاسباب والبواعث المعقدة التي لاندركها ؟ ليس عند علماء الحياة جواب عن هذا السؤال . واذا كانت اجسام البشر ماضية في توليد هذه العوامل، فتعقيم المصابين بها، والحاملين لها ، لا يجدي

(١) الطبيعة البشرية واساسها البيولوجي

التعريف بالكندي

اسمه واسرته — ولادته ونشأته — سيرته ووفاته

لمحمد متولي

١

الكندي هو ابو يوسف يعقوب بن اسحاق بن الصبّاح بن عمران بن اسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس وإلى قيس هذا يتوافق ابن النديم والقفطي وابن ابي اصيبعه [١] في ايراد نسب الكندي واليه ايضاً يمكن أن نطمئن الى روايات هؤلاء لانها ثابتة تاريخياً كما سترى

وابن النديم والقفطي وابن ابي اصيبعة يقولون عن قيس أنهُ ابن معدي كرب بن معاوية بن جبلة ابن عدي ولكن صاعداً يخالفهم فيقول ان معاوية ابن خالد بن علي [٢]

وصاعد والقفطي وابن أبي أصيبعة يقولون عدي بن ربيعة بن معاوية الاكبر فيذهب ابن النديم الى زيادة جيلين بين ربيعة ومعاوية الاكبر هما زيد بن الهميسع

ثم يقول صاعد وابن أبي اصيبعة ان معاوية الأكبر ابن الحارث الاصغر بن معاوية بن الحارث الأكبر

ويقولون ان الحارث الاكبر بن معاوية بن ثور بينما يذكر النويري [٣] ان كندة وهو ثور قد اعقب من نخذين هما ابناه معاوية وأشرس «والعقب من معاوية هذا من ابنيه مُرتّع وزيد» [٤] يذكر هذا النويري ولكننا لا نجدهم يقولون زيد حفيداً لثور ولا يقولون بمرتّع

ويروى ان ثور بن مرتع بن كندة بن عُفير بن عديّ بن الحارث بن مرة بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ولكن ابن النديم يهمل هذه الاجيال العديدة المذكورة بين معاوية الاكبر وزيد ابي أدد وابن خلدون [٥] يروي عن ابن

---

(١) راجع نسب الكندي في ترجمته في الفهرست ص ٢٥٥ وطبقات الامم ص ٥١ وأخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٤٠ وعيون الانباء في طبقات الاطباء ج ١ ص ٢٠٦ (٢) هناك شبه قوي بين رسم « جبلة بن عدى » ورسم « خالد بن علي » فلعل خطأ ناشر كتاب طبقات الامم أو خطأ ناسخه هو أصل هذا الاختلاف . (٣) نهاية الارب في فنون الادب ج ٢ ص ٣١٨ (٤) صاعد والقفطي يذكرانه « مرقع » بالقاف بينما من عداهما يقول « مرتع » بالتاء وتلاحظ ان القفطي نقل بعض رواية صاعد عن الكندي كلمة كلمة (٥) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ص ٢٧٦

سعيدفيهمل اجيالاً عديدة ايضاً ثم يحدثنا ان يشجب بن عبيدالله بن زيد بن كهلان فيزيد عبيدالله هذا كذلك النويري وابن سعيد الحميري [١] ويرويان ان مرتعاً ابن معاوية بن كنده فيزيدان معاوية واذا كان ثور هو اول من لقب بكندة وهو ما يكادون يتفقون في روايته [٢] فكيف يقولون ان مرتعاً ابن كندة مع انه اب لثور

ولو ذهبنا نتقصى نسب فيلسوفنا عند رواة آخرين لما وجدنا عندهم ما ينقع غلة وأحسب فيما قدمت من الروايات المتباينة وفيما رأيت من الفوضى الشائعة ما يجعلنا في حل من الشك في نسب الكندي قبل جده قيس وعلى الاخص ونحن نعلم ان كتب الانساب لا تعتمد على أسانيد تاريخية وانها كتبت في عصور متأخرة

***

على انهُ مهما يكن هذا النسب موضوعاً للروايات المختلفة ومهما يكن الشك فيهِ والحرص في الاخذ به واجبين فنحن نستطيع ان نخرج بقول بيّن من كل الروايات ذلك هو ان الكندي قد تنقل في اصلاب كندة القبيلة العربية الخالصة

واصل كندة في بلاد اليمن ولكن بطوناً منها نزحت في مناسبات الى امصار اخرى حيث نشأت فروع للقبيلة العريقة فيحدثوننا ان الكندي المصري ابا عمر محمداً بن يوسف بن يعقوب التجيبي المؤرخ ينتسب الى كندة [٣] وان كثيراً من المحدثين الكوفيين والبصريين ينتسبون الى كندة ايضاً [٤] ويحدثوننا كذلك ان بطوناً اخرى قد استقرت في الشام [٥] والاندلس [٦] ولكن يعنينا الآن ان نعرف شيئاً عن اسرة الكندي — كيف كانت وكيف نزحت عن مخاليفها في اليمن ، ثم كيف استقرت وكيف كان حالها بين ربوع العراق ؟

فاذا صدقت الروايات كانت الارستقراطية قوية واضحة في يعقوب الكندي وكان هو عريقاً في نسبه أصيلاً — ذكر الالوسي البغدادي عن ابن الكلبي [٧] ان كسرى سأل النعمان بن المنذر « هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة » ؟ فقال النعمان « نعم » قال « فبأي شيء » ؟ قال « من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ثم اتصل ذلك بكمال رابع — فالبيت من قبيلته فيهِ وتنسب اليهِ » وتقصوا هذا فلم يجدوه في غير آل حذيفة بن بدر وآل ذي الجدين وآل الاشعث بن قيس الكندي

(١) منتخبات في أخبار اليمن ص ٩٤ — ولعل ابن سعيد الحميري هذا غير ابن سعيد الذي يروي عنه ابن خلدون لان هناك خلافاً بين الروايتين (٢) العبر لابن خلدون ج ٢ ص ٢٧٦ ومنتخبات في أخبار اليمن لابن سعيد الحميري ص ٩٤ والمختصر في تاريخ البشر لابي الفدا ج ١ ص ١٠٣ ونهاية الارب للنويري ج ٢ ص ٣١٨ وصبح الاعشى للقلقشندي ج ١ ص ٣٢٨ (٣) كتاب الولاة والقضاة لابي عمر محمد بن يوسف الكندي ص ٦ (من مقدمته الانجليزية بقلم « روفن جست ») (٤) راجع طبقات ابن سعد ج ٢ وجزء ٦ وجزء ٧ (٥) راجع طبقات ابن سعد ج ٣ وجزء ٦ وجزء ٧ (٦) العبر لابن خلدون ج ٢ ص ٢٧٦ (٧) بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ج ١ ص ٢٨١

والأشعث بن قيس كان ملكاً على جميع كندة وكان ابوهُ من قبل ملكاً عليها ايضاً وكان معدي كرب بن معاوية جد قيس ملكاً على بني الحارث الاصغر في حضرموت وكذلك كان معاوية ابو معدي كرب ملكاً في حضرموت ثم معاوية بن الحارث الاكبر والحارث الاكبر هذا وابوه ثور كل هؤلاء وهم اجداد قيس كانوا ملوكاً على معد في المشقر واليمامة والبحرين (١)

وسطع نور الاسلام فتهافتت عليهِ القلوب ووفد الناس جماعات على النبي يطلبون عنده الحق والهدى وكان ممن توجه اليهِ وفد كندة يقدمه الاشعث بن قيس وحظي ابناء كندة بلقاء النبي في السنة الهجرية العاشرة واسلموا جميعاً وتزوج الاشعث من أم فروة اخت ابي بكر واخرها الى ان يعود ثم رجع واصحابه الى ديارهِ متزودين بدينهم الجديد

ولما مات النبي ارتدّ ناس عن الاسلام وكان الاشعث من المرتدين تخلصاً من فريضة الزكاة فسيّر ابو بكر الجنود اليهِ وغلبهُ على امره فجيء بهِ الى المدينة موثوق الكتاف وسأل ابو بكر هل يقتله فقال « يا ابا بكر احتسب فيّ واقلني واقبل اسلامي وردّ عليّ زوجتي » وهذا ما كان فقد قبل ابو بكر اسلامه واطلقه وردّ عليهِ زوجته (٢)

وبعد ذلك اصبح الأشعث جنديًّا في صفوف المسلمين فقاتل الروم على نهر اليرموك وقاتل الفرس في القادسية وكان عاملاً لعثمان على ارمينيا واذربيجان (٣) ثم كان تابعاً لعليّ واشترك في موقعة صفين ويقال ان الحسن بن علي تزوج من احدى بناته ولقد سكن الكوفة ومات هناك (٤) وخلف من أم فروة ولداً اسمهُ محمد ونجد محمداً بن الاشعث هذا رئيساً للشرطة في الكوفة يعمل مع واليها عبيد الله الذي انتصر ليزيد الاموي على الحسين بن علي مما يدل على انهُ قد خرج على ولاء ابيهِ لبيت علي ثم نجده ثائراً في وجه المختار في الكوفة ففارًّا الى البصرة وبعد هذا نجده قتيلاً في موقعة حروراء بالقرب من الكوفة سنة ٦٢ هـ (٥) وكان لمحمد بن الاشعث ولد اسمه عبد الرحمن بعثه الحجاج لقتال الثائرين في سجستان فسار اليهم على رأس جيش من الكوفيين والبصريين ولكنهُ صالح الثائرين فعزلهُ الحجاج فاتفق مع رؤساء جيشه وخرجوا عليهِ فجرد الحجاج جيشاً قاتله به فانتصر عبد الرحمن ونزل البصرة فبايعه اهلها سنة ٨١ هـ

ولكن الحجاج استعان بالامداد ورجع الى حرب ابن الاشعث ودام القتال بينهما حتى تغلب الحجاج سنة ٨٣ هـ ففر عبد الرحمن الى سجستان حيث مات فقيل مات بالسل وقيل منتحراً (٦)

ونحن وان كنا لا نعرف الصلة — على التحقيق — بين عبد الرحمن بن الاشعث وبين يعقوب

(١) صاعد والقفطي وابن أبي اصيبعة (٢) العبر لابن خلدون ج ٢ ص ٥٦ (٣) الامامة والسياسة لابن قتيبة ص ٧٠ ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ص ٢٩٤ (٤) طبقات ابن سعد ج ٦ ص ١٣

(٥) Abhandlungen fur die Kunde des Morgenlandes, Bd. I No. 2 (Al-Kindi, von Dr. G. Flugel, 3. 4.)

(٦) مختصر تاريخ البصرة لعلي ظريف الاعظمي ص ٥١ والعبر لابن خلدون ج ٣ ص ٥٢ وج ٤ ص ١٣٨

الكندي الا ان الغالب ان عبد الرحمن اخو اسماعيل بن محمد الاشعث الجد الثالث لفيلسوفنا واذا حاولنا ان نعرف شيئاً عن الجد الثالث او عن ابنهِ عمران فانهُ يخيل اليَّ بعد بحثي اننا لم نظفر بشيء ولكن لا يسعنا الا ان نسلم بوجودها لانهما يكملان سلسلة الاجيال فيوصلاننا الى الصباح الجد الاول للكندي ونحن لا نعلم ايضاً من امر الصباح اكثر من انهُ كان ولي الولايات لبني هاشم [(١)]

اما اسحاق ابو يعقوب الكندي فقد ولّي الكوفة للمهدي والرشيد وكانت ولايته منذ سنة ١٥٩ هـ ولا ندري هل بقي على الكوفة طيلة عهدي هذين الخليفتين ام انهُ كان يتركها في آن ثم يعود اليها في آنٍ آخر لان هذا موضوع خلاف في الروايات التي لدينا وبعض هذه الروايات غامضة [(٢)] وعلى اي حال فاكبر الظن ان ولايته كانت ولاية استكفاء [(٣)] لان الطبري يحدثنا انهُ ولّى النعمان بن جعفر الكندي شرطة الكوفة وولى بعده اخاه يزيد بن جعفر وهذا يدل على ان اسحاق كان موضع ثقة المهدي والرشيد او محل عنايتهما

— ٢ —

والآن وقد مررنا بهذه الاجيال السحيقة الطويلة حتى اشرفنا على يعقوب الكندي فلنحاول ان نعرف عنهُ شيئاً واذا كنا لا نجد ما يغني في اخباره القليلة المنثورة المشوّهة المتكررة فانهُ يمكن ان نستخلص له صورة لها حظ مرضي من جمال الحقيقة

ولقد يكون حسناً ان نتعرف بالكندي في ادوار حياتهِ فنسأل ما مولده وما ميلاده

اما مولده فنقرأ مرة انهُ الكوفة [(٤)] ونقرأ اخرى انهُ البصرة [(٥)] ويقول « كارا ده فو » هو الكوفة او البصرة [(٦)] ولست ادري كيف استطاع الرواة — وكلهم محدثون — ان يعينوا مكان ولادة الكندي ولا ادري كيف استباحوا ان يذكروه مطمئنين مع انا لانجد القدماء يحدّثوننا بشيء عنهُ يخيّل اليَّ ان « فنديك » قال ان الكندي ولد في البصرة لان ابن ابي اصيبعة والقفطي رويا — عن ابن جلجل — انهُ كان شريف الاصل بصريًّا . ويخيل اليَّ ان الزركلي [(٧)] لم يقل انهُ نشأ في البصرة الا لهذا السبب ايضاً. ولا اعرف كيف قدر « بوير » وغيره ان الكوفة كانت مولده ولكن في رواية ابن ابي اصيبعة والقفطي — عن ابن جلجل — شيئاً آخر يستحق التأمل قالا « وكان جده ولّي الولايات لبني هاشم ونزل البصرة وضيعته هناك وانتقل الى بغداد وهنالك تأدب وكان عالماً بالطب والفلسفة » . فهذه الرواية مهما تكن مبهمة فان لها منطقها الذي يدل على ان الكندي

(١) ترجمة الكندي في طبقات الاطباء ج ١ ص ٢٠٦ (٢) العبر لابن خلدون ج٣ ص ٣٠٧ و٣١٦ وتاريخ الطبري ج ١ في اخبار سنتي ١٥٩و١٦٠ وج١١ في ذكر ولاة الامصار ايام هارون الرشيد (٣) ولاية الاستكفاء هي التي يفوض الخليفة الامر فيها للوالي فيعين عماله كما يشاء ويكون عام النظر في شئونها (عن جرجي زيدان)
(٤) T. J. De Boer, The History of Philosophy in Islam p. 51 & The Encyc. Britannica, vol. 31 p. 385 (٥) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع لفنديك ص ١٨٢
(٦) Les Penseurs de L'Islam, Vol. 4, p. 3. (٧) قاموس الاعلام ج٣ ص١١٦٧

« نزل البصرة » والمرء لا يمكن ان يكون نزيلاً في مولده ومتى بطل انه ولد في البصرة فقد صح انهُ ولد في الكوفة . ويزيدنا ثقة بهذا الرأي ان أبا الكندي كان عاملاً في الكوفة ما يقرب من عشرين عاماً وهو بلا شك لم يُولَّ عملاً قبل ان يبلغ الرجولة فيحتمل كثيراً ان يكون قد رزق بالكندي هناك

وأما ميلاده فقد يزيد على مولده غموضاً فلا نعثر عليه عند أحد ولا نعثر حتى على تقديره ونحن بدورنا لا نستطيع ان نقول عنهُ الاَّ انهُ كان بين سنتي ١٥٩ هـ و ١٩٣ هـ وهي الفترة التي قدرنا ان اسحاق أباه كان فيها عاملاً ووالياً على الكوفة وانه كان حول سنة ١٧٠ هـ اذا صحَّ ان فيلسوف العرب كان من المعمرين كما سترى

***

وبعد ذلك كيف نشأ الكندي ؟

هناك مسألة كنت أحب ألاَّ أتعرَّض لها على الرغم من ان اكثر من واحد ذكرها فلو أنك قرأت بعد الذي قدمته ان الكندي كان يهوديًّا أو نصرانيًّا ألا يشدهك هذا الكلام ؟

زعم فنديك[1] ان الكندي كان نصرانيًّا وقال ظهير الدين البيهقي[2] ونقل عنه الشهزوري[3] أنهُ كان يهوديًّا او نصرانيًّا ثم أسلم وتشكك « سلفستر ده ساسي »[4] في كون دينه الاسلام وكثيرون غير هؤلاء شكوا — أيضاً — في انهُ كان مسلماً او ادَّعوا انهُ لم يكن كذلك

وفي زعم فنديك ان تناظراً جرى بين الكندي وعبد الله بن اسماعيل الهاشمي الامير المسلم فكتب عبد الله رسالة الى الكندي يدعوه بها الى الاسلام فردَّ عليه هذا يدافع عن المسيحية والواقع ان عبد الله قد ناظر كنديًّا آخر هو عبد المسيح بن اسحاق النصراني الذي كان في بلاط المأمون حول سنة ٢٠٤ هـ[5]

ورواية البيهقي التي نقلها الشهزوري ليس فيها ما يستحق العناية بل هي خبر أرسله صاحبه ارسالاً ولكن ده ساسي يقول اولاً انهُ ليس بين مؤلفات الكندي العديدة واحد يتصل بالاسلام ويقول ثانياً ان الكندي كان يعرف الاغريقية او السريانية وانهُ كان مترجماً معروفاً بينما كان اكثر المترجين اذ ذاك من المسيحيين ثم يشير ثالثاً الى مخطوط في المكتبة الامبراطورية ويقول ان في هذا المخطوط دفاعاً عن المسيحية وانه مكتوب باللغة العربية ولكن بخطٍّ سرياني واسم مؤلفه يعقوب الكندي

ويظهر ان ده ساسي يعتمد على عقله اكثر من اعتماده على علمه فللكندي رسالة « في ملك العرب وكميته » تدل قضاياها على دراسة صاحبها للقرآن ويدل كلامها على ان مؤلفها مسلم لانهُ يلتزم آداب المسلمين كما تحدثوا عن مقام نبيهم الرفيع

---

(١) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص ١٨٢ (٢) تاريخ الحكماء مخطوط بدار الكتب المصرية) ص ١٨

(٣) نزهة الارواح وروضة الافراح (مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية) ص ١٨٣

(٤) Relation de l'Egypte (Notes) p. 487 et 488

(٥) The Encycl. of Islam vol. II. p. 1021 ومعجم المطبوعات ليوسف سركيس ص ١٥٧١

وله رسالة « في اثبات النبوة » واخرى « في علة النوم والرؤيا » ولم يعالج هذين الموضوعين في ذلك الوقت غير المسلمين فيما اعلم . على انهُ ان لم يكن بين مؤلفاته ما يتصل بالاسلام مباشرة فليس فيها ايضاً ما يتصل بغيره من الاديان او بمعنى أدق ما يدل على انهُ لم يكن مسلماً واذا كانت كثرة المترجين في عهد الكندي مسيحية فما الذي يمنع ان يكون هو من القلة المسلمة وفي النهاية يرد ده سامي على اعتراضه الثالث فيقرر انهُ ربما كان صاحب مخطوط المكتبة الامبراطورية كنديًّا آخر لان في مقدمته ان مؤلفه من حاشية المأمون وانهُ مسيحي من كندة ولأن عنوان المخطوط هو « كتاب الكندي اليعقوبي » . وفي فهرست الكتاب السريانيين لعبد يسوع كاتب اسمه الكندي له مؤلف ديني وهذا الكندي عاش حول ٢٨٠ هـ ولا يحتمل ان يكون يعقوب الكندي قد عاش الى ذلك الوقت

ونحن لا يسعنا بعد الذي علمناه عن أسرة الكندي وبعد ان أظهرنا ان أصل الشبهة في أمر دينه كانت لمشابهة اسمه لاسم عبد المسيح بن اسحاق الكندي نحن لا يسعنا بعد هذا الاّ ان نترك قنديك وشأنه هو وأصحابه لنتعرف أين تعلم الكندي ? ومن هم أساتذته ? وما هي علومهم التي أخذها عنهم ?

فاذا اخذنا بأنهُ نشأ في البصرة وانتقل الى بغداد فانهُ يكون قد تعلم فيهما ونحن لا نعرف شيئاً عن نشأته او تعليمه ولكننا نقدر انهما لم يختلفا عن نشأة ابناء المسلمين في ذلك الزمان الذين كانوا يدرسون القرآن ويطلبون العلوم الدينية في صحون الدور وفي حلقات الجوامع فبعد ان حصل قسطاً من هذه الدراسة العادية قصد الى بغداد حيث كانت الحركة العلمية أبهر منها في البصرة عند ما اتسع نطاق الترجمة واشتد المعتزلة في أيام المأمون والمعتصم . ولقد ساهم الكندي في هذه الحركات الفكرية فترجم ولخّص وشرح وألّف رسائل في الفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والموسيقى وغيرها

ويمكن ان نقسم أساتذة الكندي الى طائفتين فالطائفة الاولى تتكوّن من اولئك الشيوخ الذين لقنوه القراءة والكتابة ودرس عليهم القرآن وعلوم الدين والكلام ونحن لا نجد سبيلاً الى معرفة أحد من هذه الطائفة اللهمَّ الاّ ان نرجح اتصاله بعلماء العراق الذين عاصروه ونذكرهم واحداً واحداً . والطائفة الثانية تتكوّن من اصحاب الكتب التي عرفها العرب حينئذ بعد ان ترجمت او لخصت عن اليونانية والسريانية والفارسية والهندية واللاتينية واصحاب هذه الكتب هم أساتذته الحقيقيون الذين كوّنوه وتميزت شخصيته بطابعهم اكثر من غيرهم واذن فلا بأس من ان نقول ان الكندي تلميذ أرسطو وافلاطون وفيثاغوروس وافلوطينوس وبطلميوس ومن اليهم بل نحن نقول هذا مهما يكن قد أساء فهم قراءتهم او قراءة ترجماتهم ومؤلفاته التي وصلنا خبرها ومؤلفاته التي بين أيدينا تدل جميعها على هذا في صراحة ووضوح

أما العلوم التي درسها فيلسوف العرب فقد أصبح لغواً ان نذكرها بعد الذي علمناه من أمر أساتذته وبعد ما ندريه من أنحاء البحث التي سعد هؤلاء بمعاناتها انما نذكر انهُ بلغ غايتهُ من الدرس في ظلال بيت الحكمة

— ٣ —

وفيما نجده من أخبار الكندي نجد انهُ كان حلو الحديث . فالجاحظ[١] يذكر ان سكان بيته كانوا ينفرون له مضايقاته لطيبته « وحسن حديثه » والبيهقي يذكر ايضاً انهُ قال « من لم يتبسط بحديثك فارفع عنه مؤونة الاستماع منك »

ونجد كذلك في أخباره انهُ كان ينزع نزعة الحكماء فيقول « ان النظر في كتب الحكمة اعتياد النفوس الناطقة » ويقول ان افلاطون قد شبّه الشهوة بالخنزير والقوة الغضبية بالكلب والقوة العقلية بالملك « فمن غلبت عليه الشهوة فهو خنزير ومن غلب عليه الغضب فهو كلب ومن غلب عليه العقل فهو ملك . . . » واذا كان ملكاً كان قريب النسبة الى الله تعالى . والحكمة والخير والقدرة والعدل والكرم والاحسان من صفات الله « والانسان لا يكون ذا فضل الاّ بأن تكون هذه الفضائل له وحلّى فيه وحاصلة لديه وغالبة عليه »[٢]

وأحسبه كان يعتد بعقله ويحرص عليه فيقول « لو أفسد احد أحسن اعضائه كان مذموماً وأشرف الاعضاء الدماغ ومنه الحس والحركة وسائر الافعال الشريفة ومستعملو السكر يدخلون الفساد على أدمغتهم ومتى توالى السكر على بدن مرض دماغه واشتد ضعفه وبعد عن القوة الممدّة للافعال الارادية والنفسانية[٣] » وأبو معشر يذكر ان استاذه الكندي لم يشرب الخمر الاّ أياماً ليداوي بها علة في ركبته ثم يذكر انهُ تركها واصطنع شراب العسل[٤]

وبينما نحن ننعم بهذه السيرة الحميدة يطالعنا القفطي[٥] بأنهُ كان للكندي جار من التجار وكانت الصلة بينهما متوترة ومرض ابن التاجر فطوّف البلدان يسترك الاطباء لولده فلم ينفعوه واخيراً قال له أحدهم « انت في جوار فيلسوف زمانه وأعلم الناس بعلاج هذه العلة فلو قصدته لوجدت عنده ما تحب » فاضطر التاجر ان يستشفع الى الكندي بصاحب له « فتقل عليه في الحضور فأجاب ». بهذا يطالعنا القفطي فيفسد انسجام تلك المعاني الجميلة في نفوسنا ويدعنا نفكر شاخصين... ولكن سرعان ما نستعيد رفاءنا بقول ابن ابي أصيبعة[٦] ان الكندي قال « وليتق الله تعالى المتطبب ولا يخاطر فليس عن الانفس عوض . وكما يحب ان يقال انهُ كان سبب عافية العليل وبرئه . كذلك فليحذر ان يقال انهُ كان سبب تلفه وموته »

---

(١) كتاب البخلاء ص ٨٤ (٢) نزهة الارواح للشهرزوري (٣) نزهة الارواح للشهرزوري
(٤) و (٥) راجع ترجمة الكندي في تاريخ الحكماء للقفطي ص ٢٤٦ (٦) راجع ترجمة الكندي في طبقات الاطباء ج ١ ص ٢٠٦

وهل يمكن ان نصدق حكاية القفطي بعد الذي رواه ابن ابي أصيبعة ؟ ! ان الكندي ليفهم واجب الطبيب في القرن التاسع على وجه لا يتسامى اليه طبيب القرن العشرين فلا يمكن الا ان ننكر ما حكاه القفطي عن استثقاله في عيادة ابن جاره

ولكن الجاحظ يحدثنا بأن الكندي كان « لا يزال يقول للساكن وربما قال للجار ان في الدار امرأة بها حمل والوحمى ربما أسقطت من ريح القدر الطيبة فاذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة او لعقة فان النفس يردها اليسير » ويقول انه كان في شرط الكندي على السكان « ان يكون له روث الدابة وبعر الشاة ونشوار العلوفة والا يخرجوا عظماً ولا يخرجوا كساحة وان يكون له نوى التمر وقشور الرمان ... » ويذهب الجاحظ يقص علينا اخباراً اخرى كثيرة عن بخل الكندي وأنا إذ اقرأ هذه الاخبار لا أجد فيها الا نوعاً من الأدب الانشائي الرائع فهذه الصورة العجيبة لا أظنها تمثل حقيقة من حقائق الحياة بل أخالها صورة رمزية صنعها الجاحظ الاديب واذا كنت قرأت عنده « قصة الكندي » كلها فأنت لا شك قد رأيت فيها صنعة القصاص ظاهرة

وقد تكون لحديث الجاحظ قيمة ما ، بعد ان وصف ابن النديم [1] الكندي بالبخل وبعد ما روى ابن ابي اصيبعة [2] — عن ابن بختويه — ان الكندي قال في وصية لابنه « . . . وقول لا يصرف البلا وقول نعم يزيل النعم وسماع الغناء برسام حاد لان الانسان يسمع فيطرب وينفق فيسرف فيفتقر فيغتم فيعتل فيموت والدينار محموم فان صرفته مات والدرهم محبوس فان أخرجته فر والناس سخرة فخذ شيأهم واحفظ شيأك ... » اقول قد تكون بعد هذا قيمة لحديث الجاحظ لانه يشف عن حرص على المال والرجل القوي الخلق قد يحرص على المال ليصون به كرامته في هذه الحياة الدنيا أما ذلك البخل المزري الذي يصفه فلا يمكن ان يصدق على الكندي الناشىء في حجر أبيه والي الكوفة وفي ظل أسرته البارزة في السياسة الاسلامية منذ صدر الاسلام والذي يروى عنه انه كان يترجم الكتب ولا يرتزق بالترجمة [3] والذى اتصل بالمأمون ثم بالمعتصم فاختاره هذا لتأديب ابنه الأمير احمد

***

على اننا لا نعرف متى انطفأ سراج الكندي فنحدد نصيب مدينة السلام من فضله لان الروايات في تاريخ وفاته لاتقل اضطراباً عنها في ميلاده فبينا يذكر « دهسامي ان « سيرجنل » يحدد وفاة الكندي سنة ٣٦٧ هـ نجد « أوليرى » [4] يقول بأنها كانت حول سنة ٢٦٠ هـ و « كارا ده فو » يرجح أنها

(١) راجع ترجمة الكندي في فهرست ابن النديم ص ٢٥٥ (٢) راجع ترجمة الكندي في طبقات الاطباء ج ١ ص ٢٠٦ (٣) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ص ٢١٢

(4) De Lacy O'Leary, Arabic Thought and its Place in History, The article on al-Kindi

حول هذه السنة ونجد « بور » يستنتج من احدى رسائل الكندي الفلكية أنهُ عاش حتى سنة ٢٥٧ ﻫ ثم نجد « ماسينيون » يقول انهُ توفى حول سنة ٢٤٦ ﻫ (١)

أما سيرجنل فليست لروايته قيمة عندنا لأنها لا تستند الى مصدر معين نستطيع ان نقدره ولا نعثر في روايتي اوليري وكارا ده فو على القياس الذي مهد لها فيهما من تقدير واستنتاج فلا يسعنا الاَّ ان نتركهما

وأما « بور » فيشير الى رسالة في الفلك للكندي ويذكر انهُ بنى عليها نتيجته واذا كان لم يعين هذه الرسالة فنحن نستطيع ان نقرر انها « في ملك العرب وكميته » اعتماداً على وصف « بور » لها واعتماداً على علمنا بما بقي للكندي من الرسائل الفلكية . وفي هذه الرسالة ما يدلُّ على ان الكندي كان يعيش حين فتنة الخليفة المستعين اي سنة ٢٥١ ﻫ بخلاف ما فهمه بور وهذا لان موضوع الرسالة هو الاستدلال على الحوادث باقترانات الكواكب فلما كان دور سنة ٢٤٢ ﻫ عين فيه الكندي فتنة المستعين ووصف حوادث اخرى لم يعينها ثم استمرَّ يذكر ادوار الاقترانات التالية ويصف حوادثها دون ان يعين شيئاً منها على غير عادته في الادوار التي سبقت دور سنة ٢٤٢ ﻫ مما يدلُّ على انهُ كتب رسالته بعد ان شاهد فتنة المستعين ويدل على ان هذه الفتنة هي آخر الحوادث الجسام التي وقعت في إبان حياته وبهذا ينهار قول ماسينيون بأن الكندي توفى حول سنة ٢٤٦ ﻫ ويزيده انهياراً ما نقرأه في ابن النديم عن كتاب في مذاهب اهل الهند نسخه الكندي بيده سنة ٢٤٩ ﻫ (٢)

ولكن كون الكندي قد عاش حتى سنة ٢٥١ ﻫ لا يحدد وفاته بل يتركنا للتقدير والترجيح فاذا كان حقًّا ان نفطويه النحوي المتوفى سنة ٣٢٣ ﻫ تلميذه فهو من المعمرين ورسالته في اعتذاره في موته دون كمال سني الطبيعة التي هي مائة وعشرون سنة التي يذكرها ابن ابي اصيبعة هذه الرسالة تكون صحيحة الدلالة على تعميره غير ان هذا بعيد لانهُ يمكن ان يكون كتب رسالته معتذراً وهو يموت في اية سن ولو كان قد عاش الى ما قبيل السنة المائة والعشرين من عمره لكان قد عاصر الفارابي مما لم يكن منهُ شيء

واذن فليس لنا ان نقول الاَّ ان الكندي مات بعد سنة ٢٥١ ﻫ ولو تذكر اننا رجَّحنا ان ميلاده كان حول سنة ١٧٠ ﻫ ونذكر انهُ كان يترجم للمأمون ويؤدب احمد بن المعتصم بين سنة ١٩٨ ﻫ و٢٢٧ ﻫ مما يثبت انهُ كان عالماً ناضجاً في هذه الفترة ولو نأخذ بأنهُ كان من المعمرين اقول لو نأخذ بهذا ونذكر ذاك ثم نتجاوز في التقدير فلن نستطيع ان نقول الاَّ انهُ كان يعيش سنة ٢٥١ ﻫ ومات بعدها بقليل

(1) Louis Massignon, Receuil de Textes Inédits concernant l'histoire de la Mystique en pays d'Islam. p. 175.

(٢) فهرست ابن النديم ص ٣٤٥

قدم القطن بوادي النيل

للدكتور حسن كمال

معلوم ان القطن هو اهم المحاصيل الزراعية في القطر المصري، والفضل في انتشار زراعته بالشكل الحالي يرجع الى والي مصر المغفور له محمد علي باشا مؤسس الاسرة الملكية ، اما مسألة قدمه في وادي النيل فلا تزال عقدة العقد : وقد نشرت مجلة العاديات المصرية اخيراً (مجلد ٢ ص ٥) مقالاً للمرحوم الاستاذ جريفث والمستر ج . م . كروفوت لخصا فيه الحقائق المتعلقة بتاريخ القطن القديم بوادي النيل وشفعا ذلك بنتائج المباحث الحديثة في المنسوجات القديمة التي كشفت في ذلك الوادي . ولما كان هذا الموضوع العلمي الخطير مما يهم مصر رأيت ان ألخصهُ فيما يلي : —

اخبرنا هيردوتوس ان ملابس قدماء المصريين كانت تصنع من الكتان الابيض . وهي حقيقة واضحة في رسوم هؤلاء القوم . اما الأغطية (كالشيلان والبطانيات) فكانت تصنع من الصوف الابيض . واعتاد القوم عدم ادخال الانسجة الصوفية في المعابد او استعمالها في الدفن . واول من ذكر اسم القطن مستعملاً بين كهنة مصر القديمة هو بلنيوس (جزء ١٨) حيث ذكرهُ باسم gossipion ثم قال : ان هذا النبات وقتئذٍ (القرن الاول ب . م .) كان يزرع في الصعيد بالقرب من بلاد العرب . اما هيردوتوس (ج ٣ — ٤٧) (في القرن الخامس ق . م .) فقد ذكر ان الملك أمازيس الذي توفي عام ٥٢٥ ق . م . اهدى لباسين مصنوعين من الكتان والقطن الى (ساموس) و (ليندوس) . وبالرغم من هذا كله فان الأثريين لم يتمكنوا قط من العثور على أقمشة قطنية فرعونية حتى العصور الاخيرة . ويقول البعض ان اللغة القبطية لا تحوي الفاظاً ثابتة لهذا النبات ولا لمصنوعاته . وفي السنين الاخيرة اكتشف الاستاذ ريزنر في جهة مروة بالسودان بعض منسوجات (يرجع تاريخها الى العهد المروي ويقابله العهد الروماني بمصر) فحصها بعض الخبراء وقرروا أنها مصنوعة من القطن . وهذا الاكتشاف شجّع الاستاذ جريفث ان يبحث في المادة المصنوعة منها بعض المنسوجات التي عثر عليها في جهة كارانوج (بالقرب من أبريم) وحفظت طائفة كبيرة منها بجامعة بنسلفانيا بفلادلفيا . ولما عُيّن المستر جان الذي كان امين المتحف بالقاهرة مديراً لمتحف بنسلفانيا المذكور ارسل بعض القطع من هذه المنسوجات القديمة (التي عثر فيها سابقاً على خيوط القطن) الى معهد القطن المسمى باسم شيرلي Shirley بالقرب من مانشستر حيث قام بفحصها الدكتور ترنر Turner وكان قد سبق لهُ فحص المنسوجات الهندية القديمة . وفي ٥ ابريل عام ١٩٣٣ اثبت هذا المعهد ان هذه المنسوجات مصنوعة من القطن البري كالمعروف باسم Gossipium arboreum Soudanensis . ثم ارسل المعهد المذكور بعد ذلك خطاباً بتاريخ ٩ مايو سنة ١٩٣٣ الى المستر جان قال له فيه ان النماذج المذكورة فحصت جميعها بالمكرسكوب وقيست اقطار خيوطها

والسير (جورج وط) صاحب الفضل في تقسيم شجيرات القطن الى عدة انواع (راجع مباحثهُ في سنة ١٩٠٧ و١٩٢٦ و١٩٢٧) وفي اظهار الفروق العديدة والدقيقة بين كل نوع وآخر مما يشهد لهُ بالصبر

والعلم والكفاءة. ولا يغيب عن البال ان تجارة البحر الاحمر كانت راقية في العهد الروماني وان القطن لا يبعد ان يكون قد وصل وادي النيل من الهند عن هذا الطريق. لكن المباحث والمكتشفات الحديثة تشير بما يقرب من التأكيد الى وجود نوع من القطن سوداني الموطن كان يستعمل للنسيج في مصر والنوبة

وهناك دليلان آخران على وجود القطن ومكانته في النوبة في الازمنة الغابرة. الاول خاص بالغارة التي شنها اهالي اكسوم على مروة واباوا فيها سلطة الاخيرة فقد جاء فيها ان الجيش المنتصر اتلف تماثيل معبودات مروة ومخازنهم القمحية والقطنية والقى بها في النهر. واكسوم في الحبشة. والقطن هناك لا يزال يطلق عليه اسم (دود) وهذا اللفظ بعينه هو الوارد في القصة التاريخية القديمة السالفة الذكر التي يرجع تاريخها الى سنة ٣٥٠ ب. م. اما الدليل التاريخي الثاني فخاص باغارة شمس الدولة أخي صلاح الدين الايوبي على قلعة ابريم عام ١١٧٣ ب. م. في عهد حكومة الغزّ والترك. وقد اسر كثيرين من النوبيين وقتئذٍ ووجد هناك مقداراً من القطن اخذه معهُ الى قوص (ابو صالح)

وهنا يحق لنا ان نسأل عن السبب في وجود القطن المذكور بتلك الحصون. هل كان هناك بقصد غزله ونسجه او لاستعماله في اعمال الوقاية او انهُ كان ضمن المواد التي استولى عليها جنود تلك الحصون اثناء اغاراتهم على بلاد النوبة المجاورة؟ وفي عام ١٩١١ ظنَّ المستر (كروفوت) ان من اسباب ثروة مملكة مروة تجارتها في القطن وفي عام ١٩٢٢ — ٢٣ قام الاستاذ ريزنر بحفائر في الجبانة الغربية لمروة وهناك وجد في القبور المتأخرة من العهد المروي (٣٠٠ ق.م — ٣٠٠ ب.م) شيئاً عظيم القدر عند الباحثين والمدققين في تقدم السودان الحديث ألا وهو كثرة استعمال القطن وقتئذٍ في منسوجات الاهالي» (راجع تقرير الدكتور ريزنر). وقد قامت المسز (كروفوت) بمباحث دقيقة في نسيج هذه المنسوجات وذلك لخبرتها الكبيرة بمصنوعات تلك الجهات. فقالت ما ترجمتهُ «زرت انا وزوجي حفائر تلك السنة بالسودان ورأينا المنسوجات المذكورة فوجدناها سوداء اللون متفحمة وهشَّة للغاية. فتبادر للذهن فحصها بالميكرسكوب وارسلت لذلك نموذجاً الى مدينة الخرطوم. وهناك قام بفحصها المستر (مامي) في مزرعة المباحث الواقعة في شمباط ووجدها مصنوعة من القطن. واستنتج من مباحثه ان القطن المذكور هو من النوع الذي ينمو في البلاد الحارة ذات الطقس الجاف مما يشير الى زراعته في السودان — لكن هذا لا يمنع امكان زراعته في مثل هذه البقاع في الهند والقطن المستعمل في السودان هو من النوع البري او تحت البري الذي يشبه في خواصه القطن الاسيوي اكثر من القطن الاميركي. وعلى ذلك فالقطن الذي نسجت منه المنسوجات المروية المذكورة يكون قد زرع اما في النوبة او استورد من الهند. والمنسوجات المذكورة بعضها املس والبعض الآخر بوبر (كالفوط والبشاكير) وهذه الاخيرة محلاة اطرافها «بالشراريب» كما هي العادة الآن. ويلي ذلك وصف مطول لكيفية نسيج هذه المنسوجات وتعداد خيوطها في السنتمتر المربع وطريقة جعل الوبر فيها، مما يهم اصحاب الغزل والنسج. والرأي الراجح للآن ان القطن المذكور انما زرع ونسج في السودان (مروة) وانهُ لم يستحضر من الهند

معجزات الاغذية الكيمائية

أحدث المباحث في انواع الفيتامين

بتصرف عن مجلة العلم العام : ترجمها عوض جندي

أتمّ حديثاً عالم نيويوركي بحثاً دام عشرين سنة في أصناف الفيتامين حتى ظفر ببغيته ، فشوهد رافعاً بيمناه كتلة من بلورات بيض هي احد اصناف الفيتامين الصناعي المبلورة . ونعني بهذا العالم المستر (روبرت ر . وليمز Robert R. Williams) قطب دائرة المباحث الكيمائية في شركة بل التليفونية . وبالبلورات الكيمائية التي فاز بها ، فيتاميناً غذائيًّا متجمداً ، ذا خصائص مدهشة . وقد جربت هذه البلورات في جامعة كولومبيا ، فأذيب جزء منها في الماء ثم شربت منهُ الجرذان البيض التي تمرح في حظائرها . فنمت نموًّا حثيثاً . ويرى المستنبط ان هذا الفيتامين اذا ما مزج بغذاء الاطفال المقرقين ، اصبحوا عمالقة طوال النجاد ! !

بل قد ثبت ان الفيتامين المكتشف المشار اليهِ غذاء مقوّ للاعصاب ، ناجع في علاج التهاباتها وآلامها شافٍ لداء (البري بري) الذي يدهم الاعصاب والقلب في الذين يغتذون بالارز المقشور . بدأ المستنبط بحثه من عشرين سنة ، كما تقدم القول ، في كوخ من الخيزران في احدى جزائر الفيليبين حيث شاهد طفلاً مشرفاً على الموت بداء البري بري فأنقذهُ من الهلاك بقطرات قليلة من خلاصة الارز . ومن ثمَّ لم يألُ جهداً في السنوات العشرين الماضية في استخلاص ذلك الفيتامين الحيي ، من قشور الارز ، ثم تجميده وصنع مقادير منهُ للعلاج . فجرَّب تجارب شتى في اثناء بحثهِ وجاب نصف الكرة الارضية باحثاً عن ضالتهِ

أضاف الطين الاصواني Fuller's earth [1] الى خلاصة استخلصها من قشور الارز . واطلق على الفيتامين الذي استخلصه بهذه الوسيلة فيتامين B ردف (١) Sub . ذلك ان جزيئات الفيتامين تلتصق بدقائق الطين الاصواني (كما يلتصق الذباب بالورق اللزج المستعمل لصيده) وتبقى لاصقة بهِ في المحلول . حتى كان استخلاصها منها أصعب معضلة عرضت له . فتوسل الى تنقيتها بمئات الوسائل . فأخفق حتى عثر على ضرب من الكينا فصبَّه على المزيج ، فما عتمت ان امتزجت بالسائل حتى طردت جزيئات الفيتامين من حبات الطين الاصواني وحلّت محلها ، فانطلقت وطفت على المحلول . وبعد ذلك سهل عليهِ تكثيفها وبلورتها

ويلزم لاستخلاص أوقية واحدة من الفيتامين المكثف ، استعمال مقدار كبير جداً من قشور الارز

(١) مادة غرفية يتذرع بها الى ترشيح الزيوت

يتفاوت من خمسة اطنان الى عشرة اطنان منها . ومن ست سنوات تمكن كيماويان هولنديان من استفراد الفيتامين B ردف (١) بيد ان وسائلهما لم تستخلص اكثر من نُتَدف قليلة من تلك المادة الثمينة . اما طريقة وليمز فيسهل بها صنع مقادير كبيرة منهُ قد يكون لها شأن جليل في نتج اطعمة طريفة في المستقبل

ان مطامح جمهور من البحّاث موجهة الى صنع اطعمة جديدة واغذية محسنة أنق واكثر تغذية من المأكولات المألوفة . وذلك الفريق بمثابة جيش علمي لا يدّخر وسعاً ، في استحداث الاغذية اللازمة للناس . وقد تمكن من صنع علب لحفظ الاغذية واختراع وسائل لزمها أصلح من الوسائل القديمة، واستنبط مقاييس بديعة تدل على مبلغ حداثتها وما تحويه من العناصر المغذية . بل اغرب من ذلك مسحوق يذرُّ على ماء ساخن فيصبح حساء . وندف بنّ تتسنى اذابتها في الماء البارد او السخن مثل الشاي . ولقد عرفنا معارف جمّة في الغذاء من ذلك اليوم الذي صاغ فيه الدكتور (كزيمر فنك) الكيماوي البولندي في سنة ١٩١٢ لفظ فيتامينات Vitamins للدلالة على العناصر الغريبة الخفية التي في الاغذية . فأصبحنا نسأل : كيف ان فيتامين (A) الذي في الخضراوات ومنتجات الالبان وزيوت السمك يقاوم عدوى الامراض . ولماذا فيتامين (B) الذي يستخرج من الفواكه والخميرة والشيرق[١] ينبه شهوة الطعام ويقوي الاعصاب . ولِمَ فيتامين (C) الجزيل في البرتقال والطماطم يمنع مرض الاسكربوط . وكيف يمنع الفيتامين (D) المستخرج من اللبن والزبد وزيت كبد السمك البكلاه كساح الاطفال (ضعف أو لين العظام الناشيء من سوء التغذية) وكيف ان فيتامين (E) الذي في القند[٢] والخس وأجنة الحنطة ، يحول دون العقم . ولماذا فيتامين (G) المضاد لمرض البلاجرا (البرص الايطالي) ومصدره الخميرة ومح البيض يقي حياة الوف من سكان الاقاليم الجنوبية بالولايات المتحدة . فيجيب العلماء عن تلك الاسئلة قائلين إن الوصول الى سرّ الفيتامين في صون الحياة ، مشكلة من مشكلات العلم . لانهُ ما من انسان ذاق او رأى او سمع او لمس او شمّ اي صنف من اصناف الفيتامين . وكل ما بلغهُ العلم منها الوقوف على تأثيرات الاغذية المختلفة في الجرذان البيض وغيرها من الحيوانات التي تستخدم للاختبارات في المعامل العلمية . غير اننا اصبحنا نستطيع تفسير ذلك اللغز العلميّ اي العمل الحيوي الذي يؤديه الفيتامين في الجسم وذلك بناء على ما اذاعهُ معمل المباحث العلمية في احدى الجامعات الاميركية . فقد دلت التجارب التي جربت هناك على وجود علاقة وثيقة بين الفيتامينات والغدد الصم

ومن عهد قريب تمكن الدكتور (أوتار ريغ) العلامة النرويجي ، من تكثيف فيتامين (C) تكثيفاً اشد نجعاً من ذي قبل لمكافحة داء الاسكربوط بأن يخمّر عصير البرتقال الفج في انبيق خال

(١) الشرق — اللحم الهبر — الاحمر — والشرق من اللحم الاحمر الذي لا دسم له Lean-meat (٢) القند — عسل قصب السكر — العسل الاسود

من الهواء خلوًّا جزئيًّا ثم عالجهُ بمواد كيمائيــة ، فنتج زيت ضارب للصفرة ، تتخلله بلورات شبيهة بالابر شكلاً . فكانت تلك البلورات هي ضالتهُ المنشودة اي الفيتامين الغذائي العلاجي

ولكن الدكتور ريغ نفسه لم يتيسر له تعليل تلك النتيجة . بل كل ما افصح عنهُ انهُ قد خطا خطوة كبيرة اذ عبَّد السبيل لجعل فيتامين (C) سهل المنال

ولما رحل بعث الاميرال بيرد الى الجنوب ليقيم حقبة طويلة في منطقة القطب الجنوبي ،كان مزوداً بعدة صناديق من عصير البرتقال المكثف حتى اذا طرأ طارىء على رجاله ، عوَّل الرئيس على تلك المادة ليدرأ بها عنهم عادية الاسكربوط

وحبس حديثاً الدكتور (روجر وليم تروسدايل) في حجرة صغيرة في معمله العلمي بلوس انجيليس (كليفورنيا) طائفة من الجرذان البيض فكانت دائماً تحاول جهد استطاعتها قرض الشبكة السلكية المحيطة بحظيرتها لـكي تفرَّ منها . لانها كانت تشتهي شيئاً ينقصها في اغذيتها الدسمة .وكانت تجاورها حظائر تضم حيوانات جميلة شباعي . وماكانت الجرذان الأولى محتاجة الى شيء سوى فيتامين (D) وهو العنصر الخفي الذي كان قبلاً يحضَّرُ غالباً من زيت كبد السمك البكلاه .فأثبت الدكتور (تروسدايل) ان تلك العصارة المكثفة المائلة الى الصفرة التي تنتج من العَرَم[1] والتونة ، وهي زيت شمسي فعَّال ايضاً في الصحة ، هي نفسها المادة التي يفتقر اليها الصغار والكبار والجرذان عند تألم عظامهم وحين يفقدون الشهوة للطعام الجيد . وقد أسفرت تجاربه عن اختراع جهاز خاص وضع في مصنع كبير من مصانع الاطرية[2] في كليفورنيا يقطر قطرات من الزيت الفيتاميني على الدقيق حين يمر تحته في خلال تحويله الى إطرية

ويستخرج من كل مائة جالون من زيت السمك اوقية واحدة فقط من خلاصة تروسدايل . ولهذا السبب فهي قوية جدًّا ، لا يستطيع امرؤٌ تناولها محضاً . فاذا مزجت باربعة عشر جالوناً من زيت السمسم (المعروف في القطر المصري باسم السيرج) او بزيت الحنطة، ظلت اغزر فيتاميناً ٦٠ ضعفاً من زيت كبد سمك البكلاه الجيد

وكان لحم التونة الاسمر قبلاً يجعل غذاء للدواجن ولا يحفظ في العلب الاَّ لحمها الابيض .فغدا زيت لحم التونةالاسمر وزيت العَرَم ، اللذان كانا يستعملان غالباً كعنصر لاذابة الطلاء (البوية) ، مصدراًمن المصادر الصحية . واذاعت وزارة الزراعة في الولايات المتحدة ايضاً نبأ استنباط آخر خاص بفيتامين (D) وهو انهُ بقدر ما يتعرض الدجاج البيوض لضياء الشمس ، يزداد مقدار فيتامين (D) في مح بيضهِ . وثبت انهُ اذا تعرضت بيضة او طائفة من البيض لضوء مصباح من مصابيح الاشعة التي فوق البنفسجي ، ربع ساعة زاد مقدار الفيتامين فيها كزيادته عند ما يخلط غذاء الدجاجة زيت

(١) العرم — قال ابن البيطار العرم هو السمك المعروف عند اهل المغرب بالسردين
(٢) الاطرية — المكرونة

كبد السمك بنسبة ٠/٠ . ثم ان الحرارة والهواء يتلفان الفيتامين . ويؤيد ذلك حادث مدهش وقع قريباً في احد المصانع الاميركية . وهو ان عصير الطماطم ، الذي كان ذلك المصنع يعصره ويعبئه في علب الصفيح ، كان اقل فيتامينياً منهُ في علب المصانع المنافسة له مع ان جميعها كانت تستعمل نوعاً واحداً من الطماطم . وكانت الطماطم عند جنيها مشتملة على انواع الفيتامين ، غير انها فقدت منها جزءاً عند نقلها من المزرعة الى مصنع التعبئة فلم يعرف اين وقع ذلك . فحل المشكلة احد علماء الكيمياء الصناعية اذ تحقق ان الآلة التي تخدق الطماطم تدفع الهواء في العصير فتشبع الفيتامينات الحساسة بالاكسجين فتتلف . فأحدث العالم تغييراً يسيراً في الآلة ازال به ذلك العيب

وثبت من التجارب التي جربت في احدى الجامعات الاميركية ان فيتامين B فضلاً عما له من الخصائص التي تتحكم في الاعصاب وقابلية الطعام، فهو ذو تأثير خفي غريب في ذكاء المرء . فالجرذان التي يشمل طعامها ذلك الفيتامين ، تستطيع تخليص نفسها من الورطات التي تقع فيها ، على حين ان الجرذان التي تحرم منها ، تكابد متاعب تعدل ضعفي التي تقاسيها الاولى . ولم يُتح للعلماء الجزم حتى الآن في هل ذلك الفيتامين يؤثر في المادة السنجابية التي في مخ البشر او لا يؤثر البتة

ولما كانت الحيوانات التي تستخدم للمباحث في المعامل الكيمائية مختلفة الاجرام ، وكانت الوسائل التي يتوسل بها الى اتمام تلك المباحث ، متباينة في تحديد مقادير الفيتامينات التي في الاغذية فقد عقد في لندن في شهر يوليه الماضي مؤتمر دولي لتوحيد الوحدات التي تقاس بها الفيتامينات وقوتها وتعميمها في جميع انحاء العالم

وما البحث في الفيتامينات الا فرع واحد من فروع اعمال كتائب مباحث الطعام . اما اعمالها الاخرى الجليلة فاختراع اغذية جديدة وابتداع تحسينات في الاطعمة العتيقة . مثال ذلك اللبن الذي لا يخثر وهو مفيد جداً في تغذية الاطفال. والطريقة التي استنبطت حديثاً تقوم بترشيح الحليب بالزيوليت ، وهو من طائفة السليكات التي تستعمل في صناعة الزجاج وبذلك يزول الكلسيوم الذي هو منشأ تجبُّن الحليب ويزداد مقدار الفيتامينات فيه

وقد اخترع الكيمائيون وسيلة جديدة لتحضير الطعام بالضغط تمكن الاطفال والمرضى من هضم حساء الخضراوات الثخينة purée [1] القوام اذ تحطم الخلايا النشوية التي في الحساء فتجعلها أسهل هضماً من المعتاد. ثم ندف القهوة التي يمكن غليها كأوراق الشاي او ترشيحها للتثليج بالماء البارد. وقد نجحت تجاربها في المعامل العلمية . وينتظر ظهورها في الاسواق الاميركية . ذلك لانهُ شوهد ان البن حين تحميصه وطحنه بالطرق المألوفة تطير منه غازات تذهب بكثير من رائحته العطرية . فاذا حول البن عند طحنه الى نُدف ملفوفة على هيئة ورق الشاي المبروم ، استطاع العلماء عصر ٩٠ ٠/٠

(١) شوربة من الخضراوات واللحم وغيرها تسلق حتى تصير عجينة ثم تصفى بالمصفاة

من الغازات دون ضياع شذا البن . ونقب القهوة المحفوظة في علب الصفيح التي تملأ بغاز الحامض الكربونيك لتنفي الهواء تظل سنتين حافظة لنكهتها كاملة . وقد اتبع معظم مصانع الاغذية الاميركية طريقة تجريد علب الصفيح من الاوكسيجين عند تعبئتها بما يحفظ فيها . واخترعوا لذلك اداة سموها (كشاف الاوكسيجين) توضع في العلب . وهي عبارة عن قصاصة ورق معالجة بمواد كيمائية ، يتغير لونها عند ما يتطرق اليها اقل هواء في باطن العلبة . وبهذه الذريعة يتسنى لمستهلك العلبة التحقق من نضارة الطعام المدّخر في العلبة التي يشتريها

ومن سنوات قلائل كانت تنهال على مصانع الاغذية (المدخرة في العلب) الشكاوى من كل حدب وصوب من عملائها متضررين من مسحوق الذرة الذي كان يفسد في العلب فيخرجونهُ منها مبقعاً بقعاً سوداً . فأسفر البحث عن كون دقائق الكبريت المخلوطة بالدقيق تتحد بحديد العلب بعيد اختراقها الطبقة القصديرية المغشاة بها فينجم عنها كبريتور الحديد . فاتبع ارباب المصانع طريقة دهن بواطن العلب بمادة الميناء ، فقضوا على تلك الآفة . اما الآن فتستعمل العلب المدهونة بواطنها بالاليومنيوم . واحدث الاساليب لحفظ الطعام،علب من الورق المقوى المشبع بالكبريت ، فالكبريت يقوي العلب ويمنع تولد الفطر في بواطنها عند ما تدخر فيها الثمار والخضراوات

وقد حُلَّ من عهد قريب في المعامل العلمية لغز من الالغاز الخاصة بالاطعمة المحضرة المغشاة بالسكر . فالمعروف ان التثليج السريع الكثير الاستعمال الآن في اميركا يحفظ طعم الفواكه المغشاة بالسكر وشكلها اكثر من التثليج البطيء . وسبب ذلك انهُ اتضح من التجارب ان التثليج البطيء يكوّن بلورات ثلجية كبيرة تقوّض بناء خلية الفاكهة فينشأ من ذلك ضياع طعمها ولونها عند ما يذوب الثلج . اما التثليج العاجل فانه ينتج بلورات صغيرة تترك الخلايا وشأنها

وقد كان اختراع المثلجات الطوافة التي تثلج الاشياء حتى درجة ٥٠ تحت الصفر بمقياس فرنهيت ، مسهلاً لارباب البساتين نقل تلك المثلجات السيارة الى بساتينهم وحقولهم لتعبئة الاثمار (في العلب) في أوج نضجها — وتستعمل هذه الوسيلة الآن لتعبئة السمك واللحم

ولما كان من الصعب تحديد الزمن الذي ينضج فيه القطاني [١] ويصلح للتعبئة فقد عرضت تلك المسألة على بساط البحث فجريت بعض تجارب في معمل علمي ترتب عليها وضع قاعدة لتحديده فيعرّض القطاني لحمّام سخن محتوٍ على ٨٠ ./. من الكحول . فيذيب الحمّام ما فيها من السكر . ونسبة السكر المذاب الى مقادير النشاء والبروتين والالياف تدل دلالة صحيحة على صلاحية القطاني للتعبئة . اما السمك فان درجة غضاضته تحقق بمقياس مقدار الحامض الضروري لصونهِ من الفساد . فاذا اضيف اليهِ حامض زيادة على ما فيهِ ، استدل على مبلغ انحطاط البروتين فيه . وكلما زادت غضاضة السمك ، اشتد امتصاصه للحامض بسهولة

(١) القطاني ـ الحبوب التي تطبخ كالعدس والحمص والفول واللوبيا والبسلة ومفردهُ قطنية وقطنية (بكسر القاف وضمها فيهما)

اما الفطر المغذي والبكتيريا ، وما يمتُّ اليها من الاحياء الدقيقة الكيمائية التي تهدد طعم الاغذية والوانها وفوائدها الصحية ، فانها اعظم ما تتجه اليه مجهودات الباحثين . فتراهم يستخلصون البرهان ويقتفون آثار الرموز كالعيون والارصاد العلمية التي تتبع آثار المجرمين حتى تمسك بتلابيبهم

ويؤيد قولنا ما يأتي : — حدث في كليفورنيا ان العفن الازرق اخذ يظهر على البرتقال الوارد من أحد مصانع التعبئة في جنوب ذلك الاقليم مع ان صاحب المصنع كان يتخذ جميع الاحتياطات الواجبة لصون برتقالهِ من العدوى . فلما يئس من الوقوف على كنه العدوى ، استعان بكيماوي صناعي ليحلّ لهُ لغز العفن . فما لبث ذلك الخبير ان اهتدى الى موضع الداء واذا بهِ اعتياد العمال المنوط بهم تعبئة البرتقال بلّ اصابعهم في برتقالة مشققة معلقة بعمود في المصنع ليتمكنوا بذلك من استفراد الورق الرقيق المستعمل للف البرتقال فانتقلت العدوى من تلك البرتقالة المؤوفة الى الوف من البرتقال السليم . وسرعان ما اقلع العمال عن تلك العادة حتى زالت العدوى

وشرُّ العدوى التي يخشاها خبراء الطعام ويناهضونها ، ما وسعت قواهم ، ينشأ من البكتيريا التي تولد التسمُّم المنباري (١) . وفي الجهات الموحشة بالولايات المتحدة حدثت من عهد قريب ثلاث اصابات بهذه الآفة ، أدَّت الى حتم مراعاة النظافة التامة في المصانع التي تصنع المآكل او تعبئها . واغلب الامراض التي من هذا القبيل تنشأ من الاطعمة المنزلية السيئة التعبئة ، لان ارباب المصانع لا يقصرون في اتخاذ الوسائل الواقية من تلوث الاغذية في مصانعهم . ولذلك يجب على ربات البيوت طبخ جميع الخضراوات التي تُكبَّس في البيوت قبل ذوقها او اكلها بنصف ساعة على الاقل . ثم اعداد الخضراوات التي من هذا النوع للتعبئة في مواقد طبخ ذات ضغط بخاري لكي يمنعنَ البكتيريا من الوصول اليها

وقد دلَّ انفجار بعض المسكَّرات والحلوى الذي حدث قريباً ، على مشكلة مدهشة استرعت انظار الباحثين المختصين للاطعمة . اذ استدلوا على ان الخميرة التي في الحلوى المغطاة بالشكولاتة كانت تولد ضغطاً داخليًّا في الطبقة الخارجية يخمر المواد كما يخمر العجين سواء بسواء فاذا خفضت الفاكهة المغشاة بالسكر في مكان منخفض الحرارة في المصنع زالت الآفة

وأما الفواكه غير المسكرة ، والدقيق الخالي من النشاء فهي مستحضرات متناقضة تتوخى بها المصانع توفية مطالب الناس الذين يحتاجون الى اطعمة خالية من السكر او النشاء

واغرب مما ذكرناه ، مقترح اقترحه احد اطباء نيويورك ما برح يختبر اختبارات يقصد بها استبدال الاغذية الجامدة بغازات مغذية !! معتقداً انهُ سوف يحل زمن يتغذى فيه الملأ بغذاء على شكل بخار يغنيهم عن المضغ !!

---

(١) تسمم منباري — البوتيلنيك — حمى يقال بوجوده في المنبار Botulism, botulismus المتعفن وهو سبب تسمم نوعي — (معجم شرف)

المانيا بعد غليوم

من الجمهورية الى الوطنية الاشتراكية

اجتمع ممثلو الحلفاء في فرساي واذ كانوا مكبّين على وضع المعاهدة التي تسحق المانيا وتصمها بوصمة الاجرام بتحميلها تبعة الحرب الكبرى وتجريدها من المستعمرات والسلاح ، كان الشعب الالماني ، او بالحري ممثلوهُ يشتغلون بوضع الاساس الذي تقوم عليهِ المانيا الجديدة . فالجمعية التأسيسية الالمانية ، اجتمعت في ڤيمار في ٦ فبراير سنة ١٩١٩ ، وڤيمار بلدة اقترنت باسم الشاعر الالماني العظيم غوته وامجاد الادب الالماني ، كما اقترنت بلدة ستراتفورد اون افون باسم شكسبير وامجاد الادب الانكليزي ومعرّة النعمان باسم شاعرنا الفيلسوف ابي العلاء . فلما اجتمعت الجمعية التأسيسية لقيت سبيلها حافلاً بالعقبات . كانت الحركة الشيوعية قد صدّت ولكن شأفتها لم تستأصل . وكان زعماء السبارتاكيين لا يزالون يطالبون بتحويل المانيا الى دولة شيوعية . اما دويلات الجنوب في المانيا ، فكانت تثيرها الغيرة من بروسيا ، ولذلك كانت قد وطّنت العزم على ان تحول في الدستور الجديد ، بين بروسيا ومقام السيادة والتفوق في بناء الريخ الثاني . اما حزب الحكومة القائمة فكان بزعامة الهر ايبرت ، وكان مقاوماً للشيوعية — اي للسبارتاكيين — راغباً في تعزيز مكانة بروسيا . ولولا نشر مواد معاهدة ڤرساي القاصمة للظهر ، لافضى الاختلاف في الرأي بين اعضاء الجمعية التأسيسية الى مأزق لا يعرف كيف الخروج منهُ ، ولكن لما نشرت معاهدة ڤرساي ، التفّت جميع الاحزاب على اختلاف نزعاتها حول الرئيس ايبرت ومنحتهُ تأييدها وثقتها

تمّ مشروع الدستور الالماني الجديد ، بعد اربعة اشهر من اجتماع الجمعية التأسيسية اي في يوليو سنة ١٩١٩ وصدر في ١١ اغسطس من السنة نفسها فنصّ على ان المانيا الجديدة يجب ان تكون جمهورية دمقراطية ، لا مكانة خاصة فيها للارستقراطية العسكرية التي بناها بسمارك وعزّزها غليوم الثاني . ولكن الجمهورية ظلّت على أساس اتحادي (فدرالي) اي انها ظلّت مؤلفة من الولايات المستقلة التي تألفت منها الامبراطورية . وانشىء للجمهورية برلمان دعي باسم البرلمان القديم اي الريخستاج على ان ينتخب اعضاؤه من الرجال والنساء بلا تمييز بين الفريقين ، على اساس من التمثيل النسبي . فبدلاً من ان ينتخب الناخبون مرشحين معيّنين لتمثيل دوائرهم الانتخابية الخاصة ، قسمت المانيا من الوجهة الانتخابية الى خمس عشرة دائرة ، ثم يعرض على الناخبين قوائم كاملة تحتوي على مرشحي كل حزب من الاحزاب ، في كلٍ من هذه الدوائر فيقترع الناخب للحزب — اي للقائمة — لا للمرشح

خاص . وكل حزب لهُ حقٌّ في ممثلٍ واحد في الريخستاج لقاءَ كل ٦٠ الف صوت ينالها في الانتخاب. وبعد الانتخاب يستدعي رئيس الجمهورية زعيم الحزب الذي فاز باكثرية المقاعد النيابية ويعيّنهُ مستشاراً — اي رئيس وزارة — وهذا بدورهِ يختار اعضاء وزارته . وهذا التمثيل النسبي اصلح لتمثيل الاقليات من نظام الانتخاب البريطاني . خذ مثلاً مائة دائرة انتخابية في انكلترا . وافرض ان مرشح المحافظين تغلّب في كلٍّ منها على مرشح العمّال بأكثرية يسيرة ، فعندئذٍ يكون ممثلو تلك الدوائر من المحافظين . ولكن الاقلية الكبيرة التي اقترعت للمرشحين العمال لا تمثل على الاطلاق . وهذا لا يقع في الانتخاب الالماني بحسب دستور ڤيمار . والشيء في الجمهورية مجلس آخر الى جنب الريخستاج ، يدعى الريخسترات ، لتمثيل الولايات التي يتألف منها الريخ ، فهو من قبيل مجلس الشيوخ الاميركي ، وغرضه شبيه بغرض مجلس اللوردات البريطاني ، اي ان يحول دون اي تعجل يبديهِ مجلس النواب في التشريع ، ولكن رأيهُ استشاريٌّ فقط

اما رئيس الريخ ، فنص المشروع على انتخابهِ لمدة سبع سنوات ، وعلى ان يكون رئيساً لا سلطة له في الاحوال العادية ، فاذا عرضت للريخ حال طارئة كفتنة او ثورة حقّ له ان يصبح بمثابة دكتاتور لانهُ منح حق الحكم بمراسيم ، ولكن للبرلمان عند اجتماعه ان ينقضها

اما الوزارة فيجب ان تستقيل عند ما يعرب الريخستاج عن عدم الثقة بها

وفيما عدا ذلك كان دستور ڤيمار مبنيًّا على مثل الثورة الفرنسية ، اي انهُ نصَّ على المساواة وحرية العبادة والرأي والصحافة والاجتماع

ولما تمَّ وضع الدستور ، جاءَ في مجموعهِ نتيجة مساومة وتوفيق بين آراء الاحزاب المختلفة ، فلا المتطرفون من اليمين رضوا عنهُ ولا المتطرفون من اليسار . فحاول الشيوعيين احداث ثورة في الرور سنة ١٩٢٠ وفي تورنجيا في مارس ١٩٢١ ولكن الحكومة خضدت شوكتهم ، بعد قتال شديد

وكان فريق من متطرفي اليمين ، بزعامة رجل يدعى كاب Kapp والجنرال فون لوتفتز ، قد حاول في مارس سنة ١٩٢٠ ان يقلب الحكومة في برلين ، فسار الزعيمان على رأس جيش من المتطوعين وفازا باحتلال برلين ، وفرَّ الرئيس ايبرت وكذلك الوزارة التي يرأسها بَوَر Bauer ، ولكن الحكومة دعت نقابات العمال الى اعلان اضراب عام على كاب وصحبهِ . فما لبثت الحكومة التي انشأوها في برلين ، حتى تقوّضت اركانها وعاد الرئيس والوزراء الى العاصمة واعنة الحكم في ايديهم . وحاول هتلر في نوفبر سنة ١٩٢٣ ان يقلب الحكومة في باڤاريا ويتسلّم هو وصحبهُ زمام السلطة في الجنوب وبعد ان يوطّد قدمهُ فيها يسير الى برلين فيحدث في المانيا انقلاباً عامًّا ولكنهُ اخفق في محاولتهِ هذه

نفذت مواد معاهدة فرساي تنفيذاً دقيقاً ، فنسف الاسطول الالماني في سكاپافلو ، وسلمت مقاطعة اوبن ملميدي للبلجيك بعد استفتاء مطبوخ ، ونزعت مقاطعة سيليزيا العليا الغنية بالمعادن والمناجم ، مع ان الاكثرية في الاستفتاء السيليزي كانت في جانب المانيا ، وفصلت بروسيا الشرقية عن

سائر الريخ ، بالمجاز البولوني الذي منح لبولونيا ليكون منفذاً لها الى بحر بلطيق عند مدينة دانتزغ التي اقيمت فيها حكومة دولية تحت اشراف جمعية الامم . على ان المعاهدة لم تنفذ تنفيذاً حرفياً في ناحية واحدة من نواحيها . ذلك ان المعاهدة قررت محاكمة القيصر غليوم الثاني ولكن غليوم كان قد فرَّ الى هولندا ، ولم يتمكن الحلفاء من اقناع حكومة هولندا بتسليمهِ

وفي خلال ذلك كانت اللجنة التي عينت لتقدير مال التعويض المطلوب من المانيا تقوم بمباحثها فكان تقديرها الاول باعثاً على الدهشة . ذلك انها قررت ان يكون مجموع المال الذي تدفعه المانيا على سبيل التعويض ستة آلاف مليون جنيه ، وان عليها ان تدفع منهُ الف مليون في سنة ١٩٢٠ فلقي هذا التقدير اعتراضاً عنيفاً في المانيا التي افقرتها الحرب والثورة ثم نزع منها اسطولها التجاري واغنى مقاطعاتها الصناعية . وقرر احد الكتّاب انهُ اذا دفعت المانيا هذا المبلغ بأوراق نقدية ، كل قطعة منها مارك واحد ، كفى هذا الورق لتغشية جسر يمتد من الارض الى القمر . ولكن روح الانتقام كانت لا تزال تملأ صدور الحلفاء . وتوالت المؤتمرات بيد أنَّ مال التعويض المفروض على المانيا لم ينقص في احدها عن مائتي الف مليون مارك ذهب ، فكأنَّ الحرب كانت لا تزال متسعرة النار بين المانيا وحلفائها

اعترضت المانيا واحتجّت وقال زعماؤها ان المانيا مستعدة ان توفّي ما عليها ولكن يجب ان تمنح فسحة من الوقت لتفعل ذلك. وكان لويد جورج اول سياسي من ساسة الحلفاء الذين أدركوا انهُ لا بدَّ من منح المانيا فسحة من الوقت، والا اصابها الخراب الاقتصادي، وعند ذلك ينقطع حبل التجارة بين بريطانيا وبينها . ولكن بوانكاره ، خالفهُ في الرأي وقال ان لا ندحة لالمانيا عن ان تدفع المبلغ كاملاً . ولا بدَّ من ان تدفعهُ في الحال او في مدى سنوات قلائل . ذلك ان تجارة فرنسا في المانيا كانت يسيرة لا يؤبه لها . بل ان فرنسا كانت تتوقع من المانيا ان تجهز المال اللازم لتعمير الولايات الفرنسية التي داستها سنابك الالمان وخرَّبتها مدافعهم. وفي سنة ١٩٢٢ بلغ الخلاف في الرأي بين بريطانيا وفرنسا مداه . وكانت المانيا قد توقفت عن دفع الاقساط المفروضة عليها — فأصدر بوانكاره أمره الى الجنود الفرنسية باحتلال مقاطعة الرور

واحتلال مقاطعة الرور، بين الافعال التي اتتها أية حكومة متمدنة في تاريخ السنوات التي تلت الحرب الكبرى، يحسب من اشدها استبداداً . فقد ظلَّ جيش فرنسيٌّ مؤلف من عشرة آلاف جندي محتلاً اغنى المقاطعات الالمانية الصناعية من يناير سنة ١٩٢٣ الى يوليو ١٩٢٤ ، وكان في الجيش الفرنسي جنود سود علاوة على الجنود الفرنسيين. وكانت ثكنات المقاطعة لا تتسع لجميع هذه الجنود . ففرض الضباط الفرنسيون على الاسر الالمانية في تلك المقاطعة ان يفتحوا ابواب بيوتهم للجنود السود. وكان هذا الاحتلال أشبه شيءٍ باستمرار الحرب . فقد قتل في خلال تلك المدة ستٌ وسبعون من الالمان وعشرون من الحلفاء . وأُبعد المعارضون من الالمان عن بلادهم . وطرد نحو ١٤٧ الفاً لا آثام

اقترفوها او ادّعيت عليهم . وظلّ نحو عشرة ملايين من السكان عاطلين عن العمل، فاضطرّت المانيا في خلال ذلك ان تستورد فحمها من بريطانيا بأسعار شركات الاحتكار

ولم يطل المطال حتى ظهر فساد هذه الخطة . كان هبوط المارك قبل احتلال الرور ينذر بالخطر ولكن تدهوره بعد الاحتلال تحوّل الى كارثة . فهبط سعر المارك من الف مارك للجنيه الى مليون الى الف مليون . وقد يكون من المتعذّر وصف الفوضى التي احدثتها هذه الكارثة في حياة الالمان. فالارامل والشيوخ الذين كانوا يعيشون على دخل مبالغ من المال وفّروها او ورثوها، اصبحوا وقد تبدّد رأس المال الذي يعتمدون عليه . والموظفون الذين يتناولون مرتبات ، من الحكومة او البيوت المالية والتجارية ، اصبحت مرتباتهم لا تكفي لشراء فنجان من القهوة واللبن ، اما العمال فكانوا يهرعون الى إنفاق اجورهم عند تسلمهم اياها ، لانهم اذا صبروا الى الصباح ، فقد تفقد كل قيمتها . ان ويلات الحرب والثورة كانت أقل من ويلات الالمان في فترة التضخم هذه . ذلك ان المعيشة في المانيا سنة ١٩٢٣ هبطت الى مستوى لم يعهد في اي بلاد اوربية اخرى

***

وفي اكتوبر ادركت الحكومة الالمانية ان البلاد لن تستطيع الصبر على هذه الحال . فبعثت بمذكرة الى رئيس لجنة التعويضات تعلن فيها استعدادها للرجوع عن موقف المقاومة السلبية الذي وقفته الامة والحكومة بعد احتلال الرور ، وتطلب تعيين لجنة من الحلفاء لفحص مالية المانيا ، والاشتراك في تنظيمها وتثبيت المارك، توطئة لتوفية مال التعويض. وكان المستشار الجديد رجلاً يدعى جوستاف شترزمن فأعرب بأفعاله عن رغبته في الفوز بمعاونة الحلفاء وصداقتهم . وكذلك فاز في نوفمبر سنة ١٩٢٣ بتثبيت المارك . وصرّح ان «الرنتمارك» هو وحدة العملة الالمانية الثابتة، وان الحكومة مستعدة ان تبتاع الماركات بمتوسط الف مليون مارك مقابل رنتمارك واحد. فكانت نتيجة هذا ان كل المال الذي وفرتهُ الطبقات الوسطى والعالية زال معظمهُ بزوال المارك. واصبحت جماعة «البورجوازي» من العمال . ولكن هذه التضحية افادت في تغيير موقف الحلفاء نحو المانيا . ذلك ان شترزمن اقنعهم بأن المانيا مستعدة لتحقيق العهود التي قطعتها والقيام بالتعهدات المالية التي فرضت عليها

فكان ذلك فاتحة عهد جديد في المانيا . كانت الفترة بين ١٩١٩ و ١٩٢٣ في المانيا، فترة مقاومة من ناحية الالمان ، وإصرار من ناحية الحلفاء . واما الفترة التي تلتها (اي ١٩٢٤ — ١٩٣٠) فكانت فترة نهوض المانيا بمعاونة الاموال الانكليزية والاميركية

ففي سنة ١٩٢٤ وضعت لجنة دولية يرأسها الجنرال دوز الاميركي (وتعرف باسمهِ) مشروعاً جديداً للتعويضات الالمانية ، فرض فيهِ على المانيا ان تدفع للحلفاء مقداراً نسبيًّا من دخلها القومي، جانب منهُ يدفع نقداً بالذهب والجانب الآخر عيناً بالبضائع . ولكي تتمكن من هذا وجب ان ترمّم صناعتها وتعمّرها بأموال تقرض لها في اسواق العالم المالية

وكذلك كان مشروع دوز فاتحة عصر انتعاش صناعي عظيم في المانيا . ورأى الالمان شعاعة أمل ، تبرق عند الافق البعيد فانصبّوا على عمل التعمير والانشاء ، بروح لم تعرف في امة مهزومة ، الاّ في فرنسا بعد هزيمتها في الحرب البروسية الفرنسية (١٨٧٠ — ١٨٧١) وفي روسيا عند عنايتها باتمام مشروع السنوات الخمس . فما جاءت سنة ١٩٢٦ حتى كان انتاجها الصناعي لا يقل كثيراً عن انتاجها قبيل الحرب ، ذلك انهُ لم ينقص عنهُ الاّ ٥ في المائة فقط

ولكن الثمن الذي دفعتهُ كان ثمناً فادحاً من الكدّ والنصب والاكتفاء باليسير من الطعام والراحة. فالطلاّب كان عليهم ان يتموا دروسهم الجامعية في الفترات التي تتخلل الاعمال اليدوية التي فرضت عليهم. والنساء كان عليهنّ ان يعنينَ بتربية اطفالهنّ في ساعات فراغهنّ من العمل في المصانع. وحتم على الشيوخ ان يتخلوا عن راحة الشيخوخة التي اشتروها عزيزة ، ليبدأُوا العمل من جديد كأنهم شبّان

***

بيد ان الشبيبة التي نشأت بعد الحرب كانت توجه الى نفسها هذا السؤال : وما الفائدة من كل هـذا الجهد والنصب والتقتير ؟ ولماذا يجب على المانيا ان تذلّ وتستعبد اجيالاً من ابنائها لتوفي غرامة حربٍ ، لا شأن للشبيبة في تبعتها ؟ ولماذا يجب ان يضيّعوا جهودهم في تعويضات فرضها عليهم قاهرو آبائهم ؟

وكذلك بذرت بذرة التبرم بمعاهدة فرساي في صدور الشبيبة الالمانية . فلما انتظمت المانيا في جمعية الامم سنة ١٩٢٥ لم يكن انتظامها ذا أثر فعّال في النفوس ، لان الحلفاء ما قبلوا ذلك واقرّوه الاّ بعد تردُّد طويل. ولان المادة ١٣١ من معاهدة فرساي كانت لا تزال قائمة ومؤادها ان تبعة الحرب واقعة على كاهل المانيا وحدها

هذا التبرّم في الروح الالمانية اتجه اتجاهين مختلفين . اما الاول فالاتجاهُ الشيوعي . فقد كان كارل ماركس نبيُّ الشيوعيين المانيّاً من اصل يهوديّ . ومبادىء ماركس كانت بمثابة انجيلٍ للشبان من عمّال المانيا . بل ان الحكومة الجمهورية في برلين ، كانت في قبضة طائفة من اليهود او من يلف لفهم . وبافاريا الكاثوليكية نفسها ، ظلّت في قبضة الشيوعيين ، مدة وجيزة في سنة ١٩١٩ ، الى ان قضى عليهم نوسكه . فتحوُّل المانيا الى الشيوعية لم يكن حينئذٍ امراً مستحيلاً

***

ولكن الشيوعية تعني نزعة دولية بأوسع معانيها ، ومحالفة مع روسيا السوفيتية . والالمان وطنيون لا دوليين في المقام الاول وروسيا خصمهم التاريخي . لذلك اتجهت روح التبرم في نواح من المانيا ، اتجاهاً آخر ، وافرغت في جمعية اخرى ، مبادؤها قومية صحيحة ، مقاومة لليهود وللروس في آنٍ واحد ، ومبنية على تمجيد السلالة الجرمانية وابطالها . هذه الجمعية او هذا الحزب هو صاحب الحركة الموسومة باسم « الحركة الوطنية الاشتراكية » التي زعيمها الهر ادولف هتلر

بارتو وبوانكاره

[رزئت فرنسا في خلال اسبوع واحد (٩ — ١٥ اكتوبر) بفقد رجلين من اكبر رجالها الذين تولوا دفة سياستها في اواخر القرن التاسع عشر وما انقضى من القرن العشرين ، ونقشوا اسماءهم في صفحات تاريخها بمداد من نور ، ورفعوا ذكرها في الخافقين بما جمعوا في شخصياتهم من الوطنية الصادقة والفصاحة الخلابة والالمعية الادبية والبراعة البرلمانية ونقاء الصفحة والجرأة في النضال السياسي . اما الاول فهو لويس بارتو ، لقي حتفه في فاجعة مرسيليا يوم ٩ اكتوبر ١٩٣٤، وأما الثاني فهنري بوانكاره توفي ظهر الاثنين في ١٥ اكتوبر]

لويس بارتو

لعلَّ اوربا لم تشهد في العهد الأخير نشاطاً في وزير خارجية كنشاط المسيو بارتو . فمن ساعة تقلده لمنصب وزير خارجية فرنسا في فبراير الماضي الى ساعة مصرعه في مرسيليا مساء الثلثاء ٩ اكتوبر ١٩٣٤ كان أشبه شيء بالحركة الدائمة . ها هوذا في جنيف ، في مؤتمر نزع السلاح ، يناضل عن خطة فرنسا على منبر المؤتمر وفي الاجتماعات الخاصة او في حجر اللجان ، آناً يهاجم وآناً يدافع ، وفي كلامه حدة ولين ، وبلاغة في الحالين . فلما عاد الى باريس استقبل فيها استقبال الأبطال . حتى بريان في اوج عزه كوزير لخارجية فرنسا ، لم يفز من الفرنسيين باستقبال أعظم من الاستقبال الذي فاز به بارتو . ثم ها هوذا يعود الى جنيف للنظر في مسألة استفتاء السار ، فيعقد في اللجنة الخاصة بذلك برآسة البارون الوازي ، اتفاقاً على ميعاد الاستفتاء والضمانات الخاصة بهِ . فإذا فرغ من اجتماعات اللجنة اختلى بلتفينوف قوميسير خارجية روسيا ، يتباحث معهُ في انتظام روسيا في جمعية الأُمم ، او بتوفيق رشدي بك وزير خارجية تركيا يحثه على توثيق الروابط التي تربط فرنسا بتركيا ، او بممثلي دول اوربا الوسطى يحاول ان يحل واياهم المشكلات الخاصة بوادي الدانوب . بل ها هوذا يزور في خلال الثمانية الاشهر التي انقضت عليه في الكاي دورساي عواصم ست دول هي بروكسل وفرسوفيا وبراغ وبوخارست وبلغراد ولندن . وينشيء مشروع ميثاق اوربا الشرقية . ويكتب المذكرات الضافية عن نزع السلاح واستفتاء السار . ويدير بمهارة عظيمة مسألة انضمام روسيا الى جمعية الامم رغم اعتراض طائفة من الدول عليها . وكان عند مصرعه في مرسيليا يستقبل الملك اسكندر اليوغوسلافي ، لتكون مباحثاته معه تمهيداً لزيارته لروما واجتماعه بالسنيور موسوليني في الشهر القادم

فعل كل ذلك وهو في الثانية والسبعين من العمر ؟

كان بارتو عضواً في الأكاديمية الفرنسية . احرز هذا الشرف العظيم بصفة كونه كاتباً ألمعيّاً

لا لأنهُ من كبار رجال السياسة . وفي مقدمة مؤلفاته سيرة ميرابو خطيب الثورة الفرنسية العظيم . وله كتاب آخر في لامارتين الشاعر والخطيب والسياسي والمؤرخ . وكتب اخرى في بودلير وفرلين الشاعرين ، وراشل الممثلة وغرام رتشرد فغنر الموسيقي ،ورسائل الغرام التي كتبها فكتور هوغو . بل كان علاوة على ذلك من كبار نقدة الفن ومن كبار الثقات في الطبعات الاولى النادرة التي صدرت من بعض الآثار الادبية المشهورة حتى لقد قيل عنه انهُ يوم اقترب الالمان من باريس ، وبدأت مدافعها تمطر قنابلها عليها ، وأخذ الباريسيون يجمعون اعلاقهم ليخفوها في حرز حريز ، تأبط بارتو بعض الكتب النفيسة النادرة وخرج يبحث على مكان امين يودعها فيه

او انظر اليهِ في مجلس النواب . فقد أثر عنه قوله ان « المنبر مذبح (بالمعنى الديني) الكلمة » واذ ينهض بارتو من مكانه في المجلس ، ويمشي الى المنبر ، تحس في خطواته المتزنة الهادئة ، انهُ يشعر بالتبعة العظيمة الملقاة على عاتق كل من ينوي ان يفوه بكلمة هناك . مضى عليه اربعون سنة وهو يلقي من ذلك المنبر كلمات لها شأن كبير في تقرير مسائل خطيرة . ان الكلمات على اطراف اصابعه ، لانه فصيح ، واللغة تنقاد اليه ،ولكنك تدرك من مشيته الى المنبر وكلماته الاولى التي ينطق بها نوعاً من الرهبة ، لا تستطيع ان تفسرها الا بقوله « يجب على الانسان ان يرهب المنبر لكي ينهض الى مستواه الرفيع » . فاذا زال أثر التردد من كلماته الاولى انطلق في خطابتهِ انطلاق السيل في انسجام وقوة . فهو معروف بين صحبهِ بانهُ من « سحرة » الكلام . صوته فخم رنان . وفي عبارته ايقاع شعري كانهُ استمدهُ من طول ملازمته لكبار شعراء فرنسا

وكان الى ذلك محدثاً بارعاً ، ذلق اللسان ، قوي الحجة ، واسع الرواية ، كثير النوادر يأسف لانقضاء العصر الذي كانت فيهِ صالونات السيدات تجمع اصحاب المواهب العقلية فيها فتصطدم العقول بالعقول ويقدح شرر الذكاء . انهُ يأسف لان الرجال اليوم يبيعون افكارهم للجمهور بكذا من السنتيمات لقاء كل كلمة بدلاً من ان يهبوها علناً لمن كان له اذنان للسمع فيسمع

ومع انهُ كان من اولئك الذين يمطونك في الحديث اكثر مما يأخذون منك كان يحسن الاصغاء وهذا من اهم صفات الكريم المثقف من الرجال

***

تقلب في المناصب السياسية فتقلد منصب الوزارة نحو عشر مرات بين الاشغال العامة والمعارف والحربية والحقانية والخارجية بل دعي في شهر مارس سنة ١٩١٣ الى انشاء وزارة فانشأها وصليل السيوف يدوي في الجو الاوربي وكان على فرنسا حينئذٍ ان تفصل في مسألة حيوية لها ، ذلك ان شبح الحرب في اوربا كان قد بدأ يخيم على دوائرها السياسية ويجثم فوق صدور رجالها ، فنادى المنادي في فرنسا ان تأهبوا للنضال القادم فوضع مشروع يقضي بزيادة الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي الى ثلاث سنوات وقدم لمجلس النواب فلقي معارضة شديدة من احزاب اليسار . ولكن بارتو تمكن

من اقرار القانون بلباقتهِ المشهورة فنقم عليهِ صحبةٌ من الاحزاب الراديكالية كيف يخونون مبادئهم وحللَ له غيرهم قائلين انهُ منقذ الوطن وان الوطن في اعتباره يسمو على الاحزاب . ولكن خصومه تربصوا لهُ حتى بدت في حكومته ثغرة فنفذوا منها الى اسقاطه فخلفهُ في رئاسة الوزارة المسيو دومرغ رئيس الوزارة الحالي الذي انتظم بارتو في وزارتهِ وزيراً للخارجية

فلما نشبت الحرب الكبرى تذكر الناس القانون الذي سنَّهُ بارتو وحمدوا لهُ بعد نظره لان نشوب الحرب الكبرى لقي فرنسا بفضل هذا القانون متأهبة لخوض معمعة النضال

واشترك بعد الحرب الكبرى في وزارات مختلفة بل تقلد عدا المناصب الوزارية مناصب سياسية في المقام الاول في حياة فرنسا العامة منها منصب رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب ورئيس لجنة التعويضات التي عينها مؤتمر السلام للنظر في مال التعويض الالماني ومثّل فرنسا مع المسيو بريان في مؤتمر جنوى الاقتصادي واشترك في وزارة بوانكاره التي انقذت الفرنك من التدهور

ان الكاتب ليأسف اشد الأسف عند ما يرى حياة كحياة بارتو الطويلة الحافلة بجلائل الآثار في السياسة والادب تنقضي برصاصة يطلقها مفتون من الفدائيين الذين يستحلون دماء الناس اذ لا ريب ان مصرع بارتو جاء في غير اوانه فانه رغماً عن كونه بلغ الثانية والسبعين من العمر كان لا يزال عنصراً فعالاً في سياسة اوربا بل كان ينتظر لها على يديه حل بعض المشكلات التي تقض مضجعها وتقلق خواطر رجالها

ريمون بوانكاره

كان الجيل الحاضر مظهراً للكفاءات العالمية بسبب الحرب العظمى وما تلاها من المشكلات فرأينا اقطاب الدول يحلقون في فضاء الشهرة فمنهم من استطاع الاحتفاظ بمقامهِ ومنهم من هوى ومنهم من نسي امره فلا يكاد يذكرهُ الناس . فغليوم وهندنبرج واسكويث ولويدجورج وكلمنصو وبوانكاره وودرو ولسن وجوفر وبيتي وهايج وفوش وفيجان واللنبي ومصطفى كمال ولنين وموسوليني وبهلوي شاه وغاندي وفيصل وغير هؤلاء برزوا الى الميدان العالمي وكانوا قبلة انظار البشر ثم اخذوا يتوارون عن العيون وقد مات معظمهم وقلَّ الذين صبرت شهرتهم على فعل الزمان

وقد امتاز ريمون بوانكاره بصفات وسجايا مكنتهُ من النهوض بعبء رآسة الجمهورية بما يقتضيه هذا النهوض من عناية بالحياد بين الاحزاب وعدم التعدي على سلطة الوزارات وهذا مع الاحتفاظ بهيبة المنصب وكرامة الرآسة فلما القيت اليهِ مقاليد الوزارة بعد الحرب ظهر بمظهر آخر وتذرع بحزم نادر النظير حتى انتشل بلاده من وهدة الخراب النقدي والبوار المالي ووقف من المانيا موقفاً كفيلا بصون سلامة فرنسا وعدم استهدافها في المستقبل القريب لمثل الخطر الذي واجهتهُ في سنة ١٩١٤

وقد اختلف الناس في الحكم على سياسته الالمانية هذه فرأى بعضهم فيها افراطاً في التشديد

لا بد أن يعقبهُ من النفور والامتعاض والاستياء ما يوغر الصدور ويبعث على تحين الفرص لاقتناص ما يسنح منها . وذهب آخرون الى ان بوانكاره كان مخلصاً في عقيدته وانهُ بعد ما اكتوى واكتوى قومه بنار الحرب صار ادرى من غيره بما يلزم للوقاية وحكم بان هذه الوقاية لا تستوفى الاَّ بتعزز قوة فرنسا العسكرية والمضي في كبح جماح المانيا . وانقسم ساسة الانكليز في هذا الامر فكانوا فريقين

اما الفرنسيون فمعظمهم أيد بوانكاره ولاسيما بعد ما تجلَّت لهم مواهبهُ هذه في رآسة الوزارة. فقد عرفوه رئيساً للجمهورية تقضي عليهِ فروض منصبه بان يلتزم سبلاً معينة ينص عليها دستور البلاد وتقاليد الحكم فيها فلما انطلقت يده في الوزارة بدا وهو في سن الشيخوخة بما دلَّ على ما كمن في نفسهِ من قوة وحزم . وسواء أكان ريمون بوانكاره مصيباً في سياستهِ الخارجية او مخطئاً فان فرنسا لا تنساه ولا تنسى ما بذل في خدمتها وما جنت شجاعته واقدامه وجرأته وشدة تمسكه بمبادئه ونظرياته ولو اتصف ساسة الدول بمثل جرأتهِ لاجتنب العالم كثيراً من مشكلاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية فان شر ما ابتلي بهِ اقطاب الدول في هذه الايام جنوح عن الصراحة واعراض عن صدق البيان اقتناصاً لاصوات الناخبين او مجاراة لتيارات الاحزاب

***

ولد في ٢٠ اغسطس سنة ١٨٦٠ وكان والده عالماً جليلاً ومتيورلوجيًّا شهيراً وتلقى علومه في جامعة باريس ودرس المحاماة وعين محرراً قضائيًّا لجريدة فولتير ثم استخدم في وزارة الزراعة وبعد سنة انتخب نائباً عن دائرة الموز واشتهر في مجلس النواب بسعة معارفه في الشؤون الاقتصادية وعين عضواً في لجان الميزانية فوزيراً للمعارف والفنون الجميلة في وزارة ديبوي الاولى في سنة ١٨٩٣ فوزيراً للمالية في وزارة ديبوي الثانية والثالثة سنة ١٨٩٤ الى سنة ١٨٩٥ وجدد تعيينه وزيراً للمعارف في وزارة ريبو ولكنه خرج من الوزارة في الوزارة الرديكالية التالية غير ان مشروع ضريبة الارث الذي اقترحته هذه الوزارة بني على اقتراحات سابقة لهُ . وانتخب وكيلاً لرآسة مجلس النواب في خريف سنة ١٨٩٥ وجدد انتخابه في السنتين التاليتين رغماً عن معارضة الرديكاليين الشديدة . ثم عين في سنة ١٩٠٦ وزيراً للمالية في وزارة ساريان ولكنه تخلى عن منصبه هذا الى المسيو كايو في السنة نفسها لما الف المسيو كليمنصو وزارته الاولى . وانصرف في خلال السنوات الخمس التالية الى ممارسة صناعة المحاماة علاوة على كونهِ عضواً فعالاً في مجلس الشيوخ. وفي سنة ١٩٠٩ انتخب عضواً في الاكاديمية الفرنسية . وفي اول سنة ١٩١٢ سقطت وزارة كايو وعهد اليه في تأليف الوزارة فتولى الرآسة ووزارة الخارجية وكانت وزارته ائتلافاً وطنيًّا وكان همه الاول اتباع سياسة خارجية مقررة. اما في الشؤون الداخلية فكان اصعب ما اعترضه مسألة الاصلاح الانتخابي . واما السياسة الخارجية فكانت الشغل الشاغل لبوانكاره في تلك الايام ففيها حدث حادث اغادير فكان هذا الحادث وسياسة

كايو السابقة مع المانيا من اهم الاسباب التي اقلقت خواطر الفرنسيين فبذل جهده لوضع سياسة خارجية مستقرة ومتصلة الحلقات. ومع انه حافظ على علاقات المجاملة مع المانيا انصرف جلُّ همهِ الى اثبات ان فرنسا لا تنفك عن الولاء والاخلاص لحلفائها وخصومها . وتمكن من عقد معاهدة مع المانيا في ٣ نوفمبر سنة ١٩١١ رسخت فرنسا بواسطتها قدمها في المغرب الاقصى

***

وحدث بعد ذلك حادثٌ كاد يوقع النفور بين فرنسا وايطاليا . فان ايطاليا كانت مشتبكة في سنة ١٩١٢ في الحرب مع تركيا فقبضت بعض البوارج الايطالية على باخرتين فرنسيتين كانتا في طريقهما الى تونس ولكن المسيو بوانكاره حال برزانته وحزمهِ دون وقوع هذا المحظور واعاد العلاقات بين البلادين الشقيقتين الى صفائها السابق . ومما يؤثر لهُ انهُ حاول جهده منع وقوع حرب البلقان الاولى وامتداد نارها الى اوربا ولكن موقف التهديد الذي وقفته المانيا والنمسا بعد ذلك دعاه لان يطلب من البرلمان زيادة الاسطول الفرنسي ثم عزز بمهارته وبعد نظرهِ الاتفاق مع بريطانيا العظمى فكانت نتيجة ذلك انه بات في وسع فرنسا ان تحشد اسطولها كله في البحر المتوسط

وانتخب في ١٧ يناير سنة ١٩١٤ رئيساً للجمهورية خلفاً للمسيو فاليير وكان اول ما سعى له توثيق علاقات فرنسا بحلفائها فانتقده خصومه في فرنسا والخارج على هذه السياسة ولكنهُ لم يبال بنقدهم بل واصل مساعيه من هذا القبيل ونجح فيها نجاحاً باهراً فقد كان يرى ان خير وسيلة لاتقاء الحرب ان تقف الدول المهددة صفّاً واحداً في وجه الدول التي تهدد سلم اوربا

وفي يوليو سنة ١٩١٤ زار بطرسبرج ووثق عرى المحالفة مع روسيا وبينما هو عائد منها الى فرنسا فوجىء في طريقه بخبر البلاغ النهائي الذي أرسلته النمسا الى سربيا فعجل بالعودة الى باريس وحين وصوله اليها ارسل كتاباً الى الملك جورج الخامس طلب فيه ان تذيع بريطانيا العظمى بياناً صريحاً بأن الاتفاق الودي سيبرهن على متانته في ساحة الحرب اذا اقتضى الامر ذلك. وحجته في مثل هذا البيان هو انهُ يكبح سياسة برلين وفينا ويرد ساستها الى الصواب

وخدم بلاده في اثناء الحرب بكل غيرة وحمية حتى انهُ تناسى احقاده السابقة وما زال يسعى حتى عهد الى المسيو كلمنصو خصمه في رآسة الوزارة وكانت ثقته تامة بالفوز النهائي ولم يخامره شك ما في جميع مراحل الحرب وتقلباتها . ولكن الخلاف عاد فدبَّ بينه وبين المسيو كليمنصو في اثناء عقد معاهدة السلم وتجددت خصومتهما القديمة حتى اصبحت اشبه بالعداوة

وانتهت رآسة المسيو بوانكاره للجمهورية في سنة ١٩٢٠ اي بعد سبع سنوات خدم فيها فرنسا اصدق خدمة وبعد اعتزاله للرآسة انتخب عضواً في مجلس الشيوخ عن مقاطعة الموز

وفي يناير سنة ١٩٢٢ سقطت وزارة بريان فألَّف صاحب الترجمة وزارته الاولى بعد الحرب وتقلد

رآسة الوزارة ووزارة الخارجية وكان من اهم ما سعى الى تحقيقه في هذه المرة اكراه المانيا على الوفاء بعهودها من جهة التعويض وانقضت السنة الاولى من وزارته من غير ان يوفق الى الاتفاق مع بريطانيا العظمى في هذا الصدد لتباين آراء رجال الحكومتين . وعقد مؤتمر الحلفاء في لندن في اغسطس ودسمبر سنة ١٩٢٢ ومن غير ان يصل الى نتيجة ما وعقد مؤتمر آخر في باريس في ٢ و ٥ يناير ولكن المسيو بوانكاره رفض الاقتراحات التي عرضها المسيو بونار لو

وفي خلال ذلك قررت لجنة التعويض ما عدا المندوب البريطاني ان المانيا قصرت في القيام بالتزاماتها فيما يتعلق بتسليم الفحم والكوك فاتفق المسيو بوانكاره مع البلجيك على احتلال الرور وكان الغرض الاول من هذا الاحتلال ان يكون وسيلة للمراقبة ولكن لما اشتدت مقاومة الالمان السلبية اقتضى الحال ان يضع الفرنسيون والباجيكيون يدهم على سكة الحديد ويشغلوها وجعلت مناجم الفحم والحديد ايضاً تحت اشراف فرنسي وبريطاني . وانتهت المقاومة السلبية في الخريف وانتظر بوانكاره ان يعرض الالمان اقتراحاتهم في مسألة التعويض فلم يفعلوا وحينئذ عمل بما اقترحته اميركا وهو ان يعهد الى جماعة من الخبراء في تدبير حل لمشكلة التعويض فأفضى بحثهم الى وضع مشروع داوز غير ان بوانكاره عقد العزم على ان لا يجلو عن الرور الا بعد ان يرتاح الى حسن سير هذا المشروع في مراحل تنفيذه الاولى على الاقل

وواجهته في الاشهر الثلاثة الاولى من سنة ١٩٢٤ ازمة مالية نشأت من اختلال الميزانية وسير سعر القطع ولقي صعاباً جمة في حمل البرلمان على الموافقة على فرض ضرائب جديدة فتمكن بهذه الوسيلة وبما ابداه من الحزم واصالة الرأي من اصلاح الحالة وتفريج الازمة ولكن المعارضة اشتدت عليه بعد ذلك من جانب الراديكاليين والاشتراكيين وجرت الانتخابات العمومية في مايو ١٩٢٤ ففاز هذان الحزبان بعد ائتلافهما بالاكثرية ولما اعلنت نتيجة الانتخاب قال بوانكاره انهُ يستقيل في اليوم الذي يجتمع فيه المجلس الجديد وقد استقال فعلاً في اول يونيو من تلك السنة

وعاد الى مجلس الشيوخ ولم يشترك بعد ذلك في المناقشات السياسية الا غراراً ولكن البلاد وقعت في صيف سنة ١٩٢٦ في ازمة مالية اقامت الشعب الفرنسي واقعدتهُ وعجزت الوزارات التي تعاقبت عن درء خطر هذه الازمة فزادت الحالة ارتباكاً وتعقداً والتفتت الامة الفرنسية حولها علها تجد من ينقذها من هذه الورطة فلم تر سوى بوانكاره وبعد سقوط وزارة بريان وكايو التي عاشت اسابيع معدودة وسقوط وزارة هريو التي لم تعمر سوى بضع ساعات دعا رئيس الجمهورية المسيو بوانكاره لتأليف الوزارة فألفها في يوليو من تلك السنة من الجمهوريين والراديكاليين والاشتراكيين وكان اهم اغراضها تثبيت المالية الفرنسية وتوطيد دعائمها بالسير على خطة وطنية موحدة فاطمأن الرأي العام الى هذه الخطة وخفّ ما استحوذ عليه من الذعر كثيراً . وفي اغسطس دعت الوزارة الجمعية العمومية الوطنية للانعقاد في فرسايل للموافقة على مواد بانشاء مال استهلاك يعمل من تلقاء

نفسه وتخصص له الايرادات من رسوم الارث واحتكار الدخان وغيرها من الايرادات وادماج تلك المواد في صلب الدستور حتى لا تكون عرضة للتغيرات السياسية وتضارب آراء الاحزاب

وفي أقل من ثلاثة أشهر وفق الى رفع سعر الفرنك من ٢٦٤ فرنكاً للجنيه الاسترليني الذهب الى ١٢٤ وقد تمكن من تقرير السعر الاخير في دسمبر سنة ١٩٢٦ وظل هذا السعر ثابتاً لم يتغير

وقضى بوانكاره سنة ونصف سنة وهو يواصل المساعي ويبذل الجهود حتى أعاد الموازنة الدقيقة الى الميزانية الفرنسية فتيسر للحكومة المحافظة على سعر الفرنك في حد الرقم الآنف الذكر (١٢٤ فرنكاً للجنيه) ان لم يكن رسميًّا فواقعيًّا

وجرت الانتخابات العمومية في ابريل سنة ١٩٢٨ فكانت اكثرية النواب راضية عن سياسته وفي يونيو من تلك السنة وافق المجلس الجديد ومجلس الشيوخ على قانون بتثبيت الفرنك رسميًّا بسعر ١٢٤ فرنكاً للجنيه الاسترليني فانتهت بذلك ازمة الفرنك وكان نجاح بوانكاره في انهائها أبهر عمل سجل في التاريخ عن سياسة النقد

غير ان الائتلاف بين الجمهوريين من جهة والراديكاليين والاشتراكيين من جهة اخرى لم يعمر طويلاً فانسحب الحزبان الاخيران بمساعي كايو من الصفوف المؤيدة للوزارة وانضما الى صفوف المعارضة لها فخذلت في ٧ نوفمبر سنة ١٩٢٨ ولكن بوانكاره عاد فألف وزارة جديدة في ١٢ منه ولكنها لم تعمر طويلاً . وفي سنة ١٩٣٢ وافق البرلمان الفرنسي على قانون « تقدير الوطن » وهو يقضي بمنح كل رئيس جمهورية سابق يرى مجلس النواب انهُ يستحق تقدير الوطن معاشاً سنويًّا قدره مائتا الف فرنك وقرر في الوقت عينه ان من الرؤساء السابقين الذين يستحقون هذا التقدير المسيو بوانكاره

واعتزل المسيو بوانكاره السياسة ولكنه لم يكن يقعد عما يراه مجحفاً بمصلحة فرنسا بل كان يفاوض رئيس الجمهورية ورجال الوزارة في مثل هذه الامور ويرشدهم الى مواطن الخطأ او الضعف ولاسيما في السياسة الخارجية . وأصيب في السنوات الاخيرة بمرض اقعده عن العمل الاَّ عن التأليف

وللمسيو بوانكاره غير مقالاته الكثيرة في الموضوعات القانونية والسياسية والادبية مؤلفات أخرى اشهرها كتابه « في خدمة فرنسا — مذكرات تسع سنوات » وهو يقع في عشرة مجلدات تضمنت وصف سير الحوادث التي كان له نصيب فيها بين سنة ١٩١١ وسنة ١٩٢٠

***

ومما يؤثر عن اسرة بوانكاره انها انجبت نخبة من رجال العلم والفضل كان في مقدمتهم المرحوم جول هنري بوانكاره ابن عم صاحب الترجمة فقد كان من اكبر علماء الرياضيات الذين عرفوا في جميع العصور ومعدوداً في منزلة نيوتن في بحوثه الرياضية والطبيعية

نفسية شعب اليابان

[ترقب اميركا شؤون الشرق الاقصى بشيء كثير من العناية والقلق ثم هي لا تني من تأكيد موقفها هناك وهو انها لا تعترف بمعاهدة او حالة راهنة تمت بوسائل مناقضة لروح معهدة كلوج بريان – عهدة باريس التي تحرم الحرب – وقد شرعت من عهد قريب في تجديد اسطولها ، حتى يصبح في المكانة التي تسمح لها به المعاهدات البحرية . فاليابان ازاء ذلك قلقة ، متحدية ، متحيرة ، فما هو موقف الشعب الياباني نحو اميركا ماذا يظنون فيها من الظنون وما يخشونه منها]

﴿ حياة مزدوجة ﴾ ان يابانيّ اليوم يعيش عيشة مزدوجة ، فقدمٌ في الحياة اليابانية القديمة الزاهية الالوان ، حياة الآباء والاجداد المنحصرة ضمن نطاق ضيق من المطامح والمصالح ، وقدم اخرى في حياة القرن العشرين ، حياة السياحة ، والانباء البرقية ، والصناعة الآلية ، والتجارة الدولية ، والاقتصاد الرأسمالي الذي ينزع الى البسطة والتوسع

خذ اية صورة في متناول يدك لوزارة يابانية ، تتبين فيها صحة ما نقول . انك ترى فيها طائفة من مديري شؤون الامبراطورية في ملابس على احدث الازياء الرسمية الشائعة في اوربا واميركا ، وترى طائفة اخرى في ملابس اجدادهم الاقدمين . فالجنرال اراكي وزير الحربية اليابانية سابقاً وزعيم اليابان العسكري او زعيم الروح العسكرية فيها ، يرتدي اللباس العسكري المصنوع من قماش « الكاكي » في مكتبه ، فاذا فاجأه احد الصحافيين او المصورين ، في داره ، رأوا ان اللباس العسكري قد زال ، وحلت محله الملابس الواسعة المتدلية ، الزاهية الالوان ، التي تراها في الصور المأثورة عن اليابان

وما يصح على رجال الدولة وزعماء الامبراطورية من هذا القبيل يصح كذلك ، على شؤون الحياة العادية الصغيرة والتافهة . ففي الدار اليابانية اليوم جناح من الغرف الاجنبية — قد يكون الجناح غرفة واحدة او بضع غرف — يحتوي على موائد وكراسي وطنافس ، كما تراها في نيويورك او باريس ، ولكن بقية البيت يابانية محضة فأرض الغرف مغطاة بحصر ذهبية اللون ، لا تحدث صوتاً ، اذ تمشي عليها ثم هي خالية من الاثاث ، الاّ من موقد وطبق وبضع وسائد

او خذ رجل المال والتجارة والعمل . فانهُ يقضي نهاره في مكتبه على كرسي دوّار ، بين الآلات الكاتبة والتليفونات ، والفتيات المختزلات ، وقد يتناول طعام الغداء في ناد فخم ، ويستريح قليلاً بعد الغداء بسماع خطبة لاسلكية في موضوع يهمه ، ولكن اذا انقضى عمل النهار عاد الى داره واستحمَّ في حمام خشبي فيه الماء الساخن ، والبخار يعقد فوقه غيوماً كالحمام التركي ، ثم هو يرتدي الملابس الحريرية الفضفاضة ، ويأكل طعاماً يابانياً وهو جالس على الارض الى مائدة لا تعلو اكثر من قدم واحدة عن سطحها . اما بناته اللواتي قضين النهار في مدارسهن او اعمالهنَّ مرتديات الملابس الرسمية

فيحطن به مساء في «كيموناتهن» الفضفاضة الزاهية، يهزجن ويضحكن وهن يفحن شذا الشباب

فالياباني عند ما يعود من مكتبهِ الى دارهِ ، كأنهُ ارجع عقرب الساعة التاريخية ، مائة سنة الى الوراء ، ارتد من الحضارة المادية التي اخذ بها — ولكنه لا يجد فيها راحته — الى حضارة لم يبقَ منها الاّ بعض هذه الآثار التي يتمتع بها . ولكنه مع ذلك يتمتع بكل ما يستطيع ان يتمتع بهِ ، فالصحيفة التي قرأ فيها صباحاً اسعار بورصات العالم، يقرأ فيها مساء قصة من عهد الفروسية اليابانية القديمة ، فاذا خرج بأفراد الاسرة الى دور السينما ، وجد أمامه في ناحية أفلام هوليوود أو أفلام اليابان الجديدة التي تقتفي أثر هوليوود ، وفي ناحية أخرى الروايات القديمة حيث لا تدخل البواعث الجنسية على حياة قائمة في صميمها على الاخلاص والامانة . ان الروايات التي من هذا القبيل في اليابان تفوق الروايات الاخرى جميعاً مرتين على الاقل

﴿ الجذب والدفع ﴾ هذه الثنائية او هذا الازدواج في حياة الياباني، حيث يمتزج تياران مختلفان كل الاختلاف، يتمشى في مختلف نواحي الحياة اليابانية ، وتستطيع ان تتبينه ، في موقف اليابان نحو اميركا . قال الكاتب — هيو بياس ونظنه يابانيًّا تعلم في اميركا ويكاتب الصحف الكبرى وعليهِ نعتمد — انهُ كان ماشياً في طوكيو في ليلة من ليالي الخريف ، فسمع اصوات شبان وشابات يتكلمون الانكليزية بغنة اميركية فالتفت دهشاً فألقى بنظره على المطعم المنير ، حيث الصوت الذي استرعاه ، فوجد نحو ستين او سبعين من الشبان والشابات ، جلوساً في غرفة ، وقد أزيل من وسطها كل أثاث توطئة للرقص وكانوا جميعهم يابانيين

كان هذا الجمع ، من اليابانيين المولودين في اميركا او الذين تلقوا علومهم هناك ، ثم عادوا الى وطنهم ، فلما حدَّثهم الكاتب ، قالوا له ان الآراء الشائعة في الاوساط اليابانية عن الحياة الاميركية مستمدة من مشاهدة الافلام الاميركية ، وهذه لا تمثل الحياة الاميركية الصحيحة ، او هي تمثلها تمثيلاً مشوَّهاً كل التشويه . والطريقة الوحدة لتصحيح هذه الآراء ، هو تدبير سهرة بريئة على الطريقة الاميركية لكي يفهم اليابنيون ما يقصد «باللهو» Good Time في اميركا ، فالذين يريدون ان يفهموا اميركا على صحتها ، ليشرفوا سهرتنا

والغريب الذي يبعث على الدهشة ، انهُ في المدة التي كان هؤلاء الشبان يسعون هذا السعي الصالح ، كان في اليابان توجّس شديد من اميركا ، بل ان السياح الاميركيين كانوا يرون عقبات كبيرة في سياحتهم في اليابان ، لان اليابانيين كانوا يظنون كل سائح اميركي جاسوساً يحمل في طيات أثوابهِ الوسائل التي تستبيح أسرار اليابان الحربية . ويقال ان جماعة من السياح ، كانوا يطوفون منطقة جبلية ، فكان البوليس يعترضهم ثم يفرج عنهم ، فطلبوا اخيراً من ادارة البوليس ، ان يرافقهم أحد رجال البوليس ، من منطقة الى المنطقة التي تليها فيسلمهم للشرطي التالي ويقول له انهُ لا غبار عليهم فلا يعترض سبيلهم بعد ذلك

أمر غريب في القرن العشرين ! كان السياح يطلبون عون البوليس ضد قطاع الطرق في البلدان التي فقد فيها الامن . اما في اليابان ، في تلك الفترة ، فاضطرَّت هذه الطائفة من السياح الاميركيين ان تطلب معونة البوليس ، للحماية من البوليس ! !

وأغرب من ذلك القصة التالية : ذلك ان لاحد بنوك نيويورك مكاتب في اليابان . وهـذا البنك طلب الى فرعه في اوساكا ان يجمع له بضع صور فتوغرافية لاهم مباني اوساكا يستعملها في مجموعة تبين سعة نطاق الاعمال المالية التي يقوم بها البنك . فاستدعى المدير مصوراً يابانيًّا وطلب منه ان يصور له بناية المحافظة والبورصة وغرفة التجارة وغيرها ، فرأى أحد رجال البوليس المصور وظنَّ ان هـذه الصور سوف يستعملها سلاح الجو الاميركي ، اذ يهاجم اليابان ويحاول ان يلقي القنابل على اوساكا فقبض عليهِ وحقق معهُ . ولما كان المصور في حدود القانون ، أُخلي سبيله ، ولكن القصة تسربت الى الصحف فهوِّل بها ، وهي بنفسها تبين لك ناحية من نفسية اليابان في موقفها نحو اميركا

***

ان التوجس من التجسس امر طبيعي في بلاد كاليابان . فموظفو الحكومة يراقبون للتثبت من انهم يقومون بأعباء مناصبهم ، والرعية تراقب للتثبت من ان افرادها لا يأتمرون بالحكومة . فاذا جاء اجنبي للسكن في اليابان ، زاره رجل من رجال البوليس فيدون اسمه وجنسه وعمره ومسقط رأسه ورعيته واسماء والديه ووالدي زوجتـه وفي كل شهر يعود رجل البوليس ولو أقام الاجنبي عشرين سنة في اليابان لـكي يتأكد من صحة المعلومات التي دونها، ولكنهُ في زياراته التالية لا يقلق الاجنبي بأسئلته بل يكتفي بسؤال الخادم

أما الذين تطول اقامتهم ، فيتعودون مجيء رجال الشرطة لسؤالهم عن اسمائهم واعمارهم ورعويتهم ومن أين قدموا والى أين هم ذاهبون ، فيردون عليهم بمثل الادب الذي توجه به الاسئلة اليهم ، ويمضون في طريقهم

واما الذين يكونون حديثي العهد بالاقامة في اليابان ، فيحنقهم مثل هـذا التصرُّف ، واذا كانوا اميركيين اعتبروه اهانة موجَّهة الى كرامة دولتهم . فاذا أساء احـد الموظفين الصغار ، لجهل بلغة الاميركيين ، جهلَ الاميركيين بلغة اليابان ، جعلت الحبة قبة ، وذهب الاميركي الذي يعتبر نفسه قد أهين ، لا يحمل لليابانيين الا الحفيظة والا الضغينة

وقد يكون توجس اليابانيين من التجسس ، واشتدادهم في الاقتصاص من الذي ثبتت عليهم التهمة ، او في معاملتهم المشبوهين حتى تثبت براءتهم باعثاً على جفاء الصلات بين اليابان واميركا . في مثل هذه الحال يخطر لبعض الموظفين او الزعماء ، ان اميركا تبغي التجسس على اليابان وهو لا يدري ان المرسل او السائح العادي المتجول للتفرج يندر ان يتمكَّن من جمع الحقائق الحربية في خلال تجواله

ولكن الظاهر ، انهُ اذا أصيبت أمة بداء « التوجس من التجسس » فقدت بوجهٍ عام نظرها السليم ، وحكمها الصائب

اما الاميركيون في اليابان فيصابون بداء مختلف عن داء « التوجس من التجسس » الذي يصاب بهِ اليابانيون . نخوف اليابانيين من تجسس الاميركيين عليهم دائم ، ولكن الاميركيين يفطنون اليه في بعض الاحيان فجأة كأنهم كشفوا شيئاً جديداً خطيراً ، فيروحون يروون الروايات عما أصابهم وأصاب أصدقاءهم منهُ ، ويتخذون من ذلك دليلاً على ان اليابانيين يمقتون الاميركيين. فاذا صدقوا ما يقولون ، فليس أسهل عليهم من ان يعتقدوا ان الحكومة اليابانية من وراء هـذا كله ، وانها هي التي تدفع رجال البوليس ليعترضوا سبيل السياح الاميركيين . فيحاولون ان يثيروا الرأي العام على موقف اليابان وسياسة اليابان وعلاقة الحكومة الاميركية باليابان

« لمحة تاريخية » ظلت علاقات اليابان بأميركا خلال ثلاثين سنة ، بعد ما دخلها الكومندر بيري الاميركي في اواسط القرن التاسع عشر ، متصلة بأميركا صلة يفوح منها عطر الصداقة والولاء . ان تلك السنوات تركت في نفوس شبان ذلك العصر — وقد اصبحوا كهولاً وشيوخاً الآن — اعتقاداً عميقاً بأن اميركا دولة تسعى الى الغايات والمثل العليا . لذلك كان الاخلاص قوي الصلة بين اليابانيين والاميركيين . وهذه الصورة الراسخة في أذهان الكهول والشيوخ عامل فعال في تسهيل الأمور اذ تتعقد بينهما ؛ في عصر خرجت فيهِ اليابان من طور الشباب والتلمذ لأميركا وأصبحت دولة قوية لها مطامع الدول القوية ومصالحها

وقد كتب الرئيس فرنكلن روزفلت ، من بضع سنوات مقالاً أثبت فيه ان تغير موقف اليابان نحو اميركا يرجع الى حين احتلت اميركا جزائر الفلبيين . عندئذ بدأت الدوائر الحربية والبحرية في اميركا تتحدث في موضوع الدفاع عن هذه الجزائر ، والوسائل لذلك الدفاع ، حالة ان اليابان ، لما رأت أمة غربية تقتحم جيرتها الجنوبية ، استعملت هذا الاقتحام في الدعاية لزيادة أسطولها

على ان الغرض من استعداد اليابان الحربي والبحري حينئذٍ لم يكن اميركا ، بل روسيا . ولما نشبت الحرب بينهما في مطلع هذا القرن كان موقف الرئيس تيودور روزفلت ، موقف عطف على اليابان حينئذٍ

فلما وقعت الحكومة الصينية ، معاهدة سنة ١٩١٥ [1] التي اجابت بها مطالب اليابان الصارمة ، اعلنت حكومة الرئيس ولسن ، انها لا تعترف بأي تغيير ، تحدثه المعاهدة يضر بمصالح اميركا . فلما حاول الرئيس ولسن ، في مؤتمر الصلح ، ان يخرج اليابان من شانتنغ (وهي منطقة في الصين كانت ملك المانيا قبل الحرب ، وانتزعتها منها اليابان خلال الحرب ، ولها شأن تجاري وحربي) ظن

(١) معاهدة عقدت بين اليابان والصين بعد انذار نهائي من جانب الاولى ، سلمت الصين بمطالبه مرغمة ، وهي ٢١ مطلبا من شأنها تثبيت قدم اليابان على البر الصيني

الاميركيون ان ما يفعلونه ، انما هو حب بالانسانية ومساعدة الصين على تحرير نفسها ولكنهُ كان في الواقع خدمة لمصالح التجارة الاميركية في الشرق الاقصى. اما اليابانيون فحسبوا ذلك تعدياً وتدخلاً في منطقة من الشؤون ترجح فيها مصالحهم على مصالح اميركا . فلما عقد مؤتمر وشنطن البحري ، وعاد المستر هيوز — وزير خارجية اميركا حينئذ — الى الموضوع واقنع اليابانيين بأخلاء شانتنغ والغاء معاهدتها مع انكلترا لقاء معاهدتين عقدتا بين الدول ذات الشأن على الاحتفاظ بوحدة الصين وسياسة الباب المفتوح ، ثبت لاميركا حق التدخل في شؤون الشرق الاقصى

***

اما في العهد الحديث فقد راقب اليابانيون ، باهتمام وحذر ، تدخل المستر ستمسن (وزير خارجية اميركا في عهد هوفر) في موضوع الخلاف على منشوريا . فالمستر ستمسن ، كان يدافع عن حرمة المعاهدات المعقودة ، والسلام العام . ولكن اليابانيين ، لشدة انشغالهم بمكافحة المظالم التي يشكون منها ، لم يروا الا اثبات حقوقهم ، في بلاد تجاورهم ولكنها عرضة للفوضى المستمرة ، من طبيعتهِ ان يقلق السلام العالمي . انهم لم يدركوا ، ان الاميركيين لا تهمهم منشوريا ، بقدر ما يهمهم تنظيم السلام العام في الشرق الاقصى حتى تبقى سبل التجارة ميسّرة فيهِ . فخطة وزارة الخارجية الاميركية ، كانت من قبيل التدخل في شؤون الشرق الاقصى ، الذي ابدء المستر هيوز ، بمعاهدات ١٩٢٢ اذ أقنع اليابان بالخروج من شانتنغ وإلغاء معاهدتها مع انكلترا وهذا ما يرفضهُ الياباني الآن

ان جماعة الشبان والشابات اليابانيين الذين كانوا يحاولون أن ينشئوا برفضهم حلقة بين اميركا واليابان ، والحوادث التي قبض فيها على اميركيين بتهمة التجسس ، يمثلان قوتي الجذب والدفع بين اميركا واليابان ، فحيث تتوافر المعرفة الشخصية تعقد اواصر الصداقة والثقة والعطف . اما حيث تقتصر العلاقة على الاعمال الرسمية وخطب رجال السياسة في المواقف العامة ، وجهل صغار الموظفين وتسرع الصحف نجد التوجس والحذر والريب

﴿ الحرب والاشاعات ﴾ في ظل هذا التوتر في الصلات الاميركية اليابانية ، بدأ الهمس بحرب تقع في المحيط الهادىء . ثم ارتفع الهمس اذ اقدمت اميركا على زيادة اسطولها حتى يصبح حيث تسمح لها به المعاهدات البحرية المعقودة . هنا يتمهد الميدان لاصحاب « العلم اليقين » من مروجي الاشاعات . قال المستر هيوبياس انهُ قبيل كتابة مقالهِ ، جاءهُ اميركي سأله هل صحيح ما يقال في هنولولو (عاصمة جزائر هواي وهي جزائر تابعة لاميركا في وسط المحيط الهادي) من ان اليابان تستعد لغزو هذه الجزائر . وان هذه الغزوة سوف تكون المرحلة الاولى في حرب اليابان مع اميركا . وقال كذلك انهُ قيل له ان اميركا محتفظة بأسطولها على قدم الاستعداد للنزال في المحيط الهادي استعداداً للطوارىء وان ٢٧ الفاً من الجيش سوف يضمون قريباً الى حامية الجزائر

وما يقال في الناحية الاميركية يقال في الناحية اليابانية ، فقد زار احد الاميركيين اليابان حديثاً وتعرّف الى اعلى طبقاتها الاجتماعية ، فلاحظ ان كل حديث مع كل ياباني كان يدور حول السؤال الآتي : « هل تقصد اميركا ان تحارب »

ان اليابانيين يسألون، لماذا تريد اميركا أن تتدخل في شأن منشوريا ، وهي التي فصلت في مشكلتي كوبا وبناما بالقوة المسلحة . فاذا اجيبوا بان حل المشكلتين الكوبية والبنامية بالقوة تمّ قبل عهدة كلوج ، وان حل مشكلة منشوريا بالقوة تمّ بعدها ، قلب الياباني شفته ولم يزد . ولسان حاله يقول : « لماذا لا تتركوننا وشأننا . اننا لا نتدخل في شؤونكم في اميركا . فلماذا تريدون أن تتدخلوا في شؤوننا في منشوريا »

﴿ حيرة الياباني ﴾ لذلك ترى الياباني متحيراً ، لان الامة التي كان لها اكبر وأوسع نفوذ ثقافي في ترقية بلاده ، هي البلاد التي تتصدى له وتقف في وجهه إذ يحاول ان يوسع ملكه الضيق . ان البلاد التي يعجب بها كل الاعجاب ، ويحسب وسائلها واساليبها آخر وأرقى ما أبدعهُ الانسان ، هي البلاد، التي يخشاها اكثر من جميع البلدان . ويزيد هذه الحيرة أثراً في النفس ان الامة التي تقف في سبيله ، هي اغنى امة على وجه الارض ، غنيٌّ فعليًّا ، وغنى كامناً ، وان بلاده ، هي بالنسبة الى كثرة سكانها ، وجفاء ارضها ، أفقر الامم

لذلك يجب ان تذكّر المصاعب التي تواجهها اليابان، إذ تعدّد اخطاؤها

ولكن اذا كانت اليابان قد اتخذت خطة خطيرة ولم تحسب حساباً لاحد — اي مغامرتها في منشوريا — فيجب ان نذكر ، ان اليابان كانت قد بلغت في حراجة موقفها الاقتصادي حد اليأس. ان حالة الصين — بلاد سكانها نحو ٤٠٠ مليون نسمة — المضطربة تثير المخاوف . ماذا تفعل اميركا ، لو كانت الصين مكان كندا ؟ او لو كانت كندا كالصين ، قلقة مضطربة ، فيها بذور الفوضى والثورة والانقلاب ، كالمارد لا تعرف ما تكون الخطوة التالية التي تتخذها

***

لا ريب ان في خطة اليابان خطراً على السلام في الشرق الاقصى ، ولكن اليابانيين يحيّرهم ، ان المصاعب التي يواجهونها، لم تدرس بعطف ، وان الاعمال الجليلة التي اتموها، لم تقدر التقدير الجدير بها . انهم يرون انفسهم بلاداً، تحترم الملك الخاص ، والامن العام ، وتنفيذ القانون ، وتحمي الحرية الفردية ، وتؤيد التعليم العام ، ودستورها مبني على اصول برلمانية ، أي انها تحترم المبادىء الاساسية التي تحترمها اميركا . ثم هي ترى نفسها العنصر الوحيد المستقر في قارة ضربت فيها الفوضى — فيدهشها ويؤسفها ان لا تحسبها أميركا الأ « الولد الشقي » الذي يجب ان ينهر او ان يؤدب

نقلها محمود محمد شاكر

١ — جنة العاملين

لرابندرانات طاغور

كان صاحبنا لا يدين ابداً بثمرات العمل ، فطفق ينغمس في بدوات من جنونه اذ لم ير عملاً نافعاً يعمله .... واخذ نفسه بعمل الدُّمى الصغيرة في صور رجال ونساء وقلاع ، واخرى من أواني الفخار مرصعة بأصداف البحر ، وكان حيناً يصوّر بألوانه ما شاء ، وبذلك اضاع ايامه فيما لا يجدي ولا ينفع . وقد أثار الناس حتى سخروا منه . فكان يعقد العزم وينذر على نفسه ان ينفضَ من رأسه هذه البدوات المخبولة ولكن هذه البدوات ما كانت لتدعهُ وما إن تزال متعلقة به

ان بعض الصغار لا يقرأ من كتبه شيئاً ولكنهُ مع ذلك يجتاز الامتحان وكذلك كان أمر صاحبنا فانهُ أنفق عمره على الارض فيما لا يجدي وحين فاضت روحهُ فتحت لهُ أبواب السموات . ولكن القدر يجري حتى في السموات ، فقد حدث ما حدث فان الروحَ الذي وُكِّل به اخطأ القصدَ وانزلهُ في « جنة العاملين »

وانك لتجد في هذه الجنة كلّ ما تتوهمهُ الا الفراغ ، فهناك يقول الرجال « ربّنا ما لنا من ساعة نستريح اليها » وثَمَّ النساء يقلنَ « الوحَى الوحى . يا أحبابنا — فان الزمن يطير » والجميع يقولون « الزمن غالٍ ثمين » « ان أيدينا لا تخلص ساعةً من اعمالها ، وإنا لنستفيد من كل دقيقة بالعمل » ثم يتنفسون الصعداء ، وقد كانت هذه الكلمات نفسها تشعرهم اللذّة والسعادة

ولكن هذا الواغل — الذي صرف كل حياته على الأرض خليًّا لا عمل لهُ — كان شذوذاً في اسلوب الحياة في « جنة العاملين » فتقاذفته الطرق هائماً مذهوباً بعقله يصطدم بالرجال الدائبين على عجل ، وكان حيناً يلقي ببدنه على نبات الارض فيسلقهُ الزارعون بألسنة حداد اذ كان أبداً لَقًى في طريق غيره

وثَمَّ كانت تمرُّ فتاة يجري بها الدؤوب ويستفزُّها النشاط — لتملأ ابريقها من مندفع سيل (وفور صامت) — سيل صامت وان السيل في «جنة العاملين» ليأبى ان تضيع اسباب نشاطه في التصويت والطرب

وكانت خطوات الفتاة على الطريق أشبه شيء بالحركة السريعة من بنانِ ماهر بارع على اوتار قيثار ، وكان شعرها مرسلاً في غير عناية وترى خصلات منه يفيئها النسيم على جبينها وكأنها تشرف على سحر نظرات عينيها

وكان هذا الفارغ الخليُّ واقفاً على النبع لا حراك به . وكما ترى الملكة من خلال

النافذة سائلاً منبوذاً فتأخذها الرحمة فكذلك رأت الفتاة الالهية هذا الخلي فأخذتها الرحمة . فسألتهُ : « ها . أما لك عملٌ بين يديك تعمله ! »

فأرسلها صاحبنا زفرة « عملٌ ..... ! ما اجد من ساعة افرغ فيها للعمل »

فحارت الفتاة في معنى ما يقول ثم قالت « لئن احببت لأُهيئنَّ لك عملاً تعمله »

قال « يا ابنة السيل الصامت . هل لك ان ترمي اليَّ بإبريق من اباريقك ؟ »

« ابريق ... ! اتودُّ ان تستقي من مجرى السيل »

« لا . . . . بل أودُّ ان اصوّر على ابريق بعض التهاويل »

فبرمت به الفتاة وقالت . « ما اجدُ لي ساعة أضيعها مع مثلك ، لأدعنَّك »

وتركته وسارت لطيتها . ولكن — كيف يعلو انسان عامل بالغلبة على من لا عمل له ؟!

وجرى الزمن وهما يلتقيان في كل يوم وفي كل يوم يقول لها « يا ابنة السيل الصامت ارمي اليَّ بابريق من اباريقك لأصور عليه بعض التهاويل » واخيراً لان له قلب الفتاة ، ورمت اليه بابريق

وبدأ صاحبنا يصوّر ، واخذ يمدُّ خطاً بعد خط ويضع لوناً الى لون فلما فرغ رفعت الفتاة بابريقها ومدت اليه عينين ملؤهما الحيرة والعجب وقوست الدهشة حاجبيها ثم سألتهُ : « اي معنى ترمي اليه هذه الخطوط الكثيرة وهذه الالوان العديدة ثم ما الغرض منها ؟ » ثم حملت اباريقها وولّت ، وفي دارها — وقد بعدت عن العيون المتجسسة — رفعت ابريقها الى الضوء وادارته يمنة ويسرة تنظر الى الصورة من كل ناحية . وحين ارخى الليل سدوله قامت من مضجعها ، واشعلت نبراسها وحدجتهُ بالنظرات في صمت وحيرة . ولاول مرة في حياتها ترى ما لا معنى له ولا غرض منهُ

وفي اليوم التالي نهضت الفتاة الى عملها والعجل الذي كان يمدُّ خطواتها قد بدأ ينقص اذ ثارت في ذهنها الافكار التي لا غرض لها ولا معنى فيها

فلما بلغت موضع مسيل وجدت هذا الفارغ الخليَّ هناك فسألتهُ مغيظة محنقة « ويلك ايها الرجل ... بل ماذا ... ماذا تبتغي مني » ؟

« ما ابتغي شيئاً الأَ عملاً اظفر به من يديك » « واي عمل تريد » !

« ذريني انسج لك عَصَباً ملوناً تعصبين بهِ شعرك ، ان بلغت بهذا رضاك »

« ولماذا ... !! » « لا لشيء »

وصنع لها العَصَبَ يَزْهَرُ بألوانه ... وهنا اخذت الفتاة الدائبة في جنة العاملين تنفق اوقاتها كل يوم في وضع هذا العَصَب على شعرها ، وفرّت الساعات ورامها الساعات ضائعة مضيّعة ، وبقي عمل على عمل لم يتمّ . وبقيت الاعمال في جنة العاملين ناقصة

من ذلك الوقت ، واصاب الفتورُ كثيراً ممّن كان قبل لا يمسّهُ نصبٌ ولا لغوب واضاعوا الساعات الغالية فيما لا ينفع كالتصوير وصنع التماثيل

فلق شيوخ الجنة ودعوا الناس اليهم وأجمعوا الرأي على ان هذا حدثٌ عجيبٌ لم يسبق له مثيل في تاريخ هذه الجنة . وبينا هم كذلك اذ اقبل الروح الذي وكّل بصاحبنا وانحنى للشيوخ اجلالاً وأقر بما فعل . «اني اتيتكم خطأ برجل تقع عليه وحده تبعات هذا الحدث»

فنودي به فدخل ورأى الشيوخ بزته العجيبة ، وآلات تصويره ، ولفائف صوره التي في يده ، فَقرَّ في أنفسهم ان ليس مثل هذا من رجال جنة العاملين فقال له الرئيس متجافياً مُغلِّظاً : «ليس هذا مكانك ايها الرجل ، فعليك ان ترحلَ عنا لساعتك »

فأرسلها صاحبنا زفرةً وجمع أَداته وآلته وهَمَّ وبينا هو على نوَى الرحيل اذ جاءت « ابنة السيل الصامت » من اقصى الجنة تسعى

« تَلبَّثْ قليلاً ، فأنا أيضاً راحلة معك». فأخذ العجب كل مأخذ من الشيوخ فما جرَى يوماً ما في جنة العاملين حدث كهذا لا غرض له ولا معنى فيه

---

٢ — القارىء يناجي شاعره

(تشرد لا غالين)

ويحكَ ، ايها الشاعر ، اما ينتفض بك الحسُّ اذ تجدني اضم الى قلبي اغاريدك ، وان انت الا رِمّة وتراب ، وحين آوي بها مع الليل الى وسادي اقبلها قبل ان يعقد الكرى اجفاني ثم اصبّحها بقبلة على وجه الفجر الندي حين يستشرق من وراء الليل

ويحكَ ، أما اني لادع الشمس تفيض على صفحاتها من ضوئها الطهور ، واهبها لنسمات الفجر ترتاح بين اوراقها كما ترتاح بين اوراق الورد

واني لأحمل ديوانك بين يدي فأدسُّ وجهي في صفحاته كما دفنته بالأمس في فؤاد زهرة ندية .... كلاَّ بل فيما هو اعزُّ منها ومن فؤادها مكاناً وأشهى

تعلَّمْ ايها الشاعر ، ان الوفاً من الورى يحبونك كحبي اياك

وان الحبيبات ليبلغ بك حبهنَّ الى مكان هو فتنة المتمني

اسعيد انت ايها الشاعر ؟ وان من امانيَّ حيناً بعد حين ان احيى في مثل ما تحيى فيه من المحبة والاحدوثة ، ومن افراح قلبي ان اتغنى بمثل اغانيك ثم اسلم الروح

نبِّئني ، ايها الشاعر ، اما تمنحني مجدك هذا وعليَّ ان اردَّ على بواليك ميعة شبابي؟ باذلاً لك حياتي وأيامي في ضوء الشمس لاظفر بواحدة من مثل اغاريدك الجميلة

الى طائر صداح

من « قبرة » الشاعر العبقري شلي

[نقل الشاعر علي محمود طه المهندس هذه القصيدة الخالدة مراعياً في النقل دقة التعبير عن معاني الاصل الانكليزي ومحافظاً على مقتضيات البيان الشعري العربي وجامعاً ما امكن بين الاثنين]

من أنتَ ؟! يا من يجوب الليل منفرداً ... ولم تقعْ لي عليهِ بعدُ عينان ؟
أيُّ الخليقة قل لي انت تشبهُ ؟؟ ... وايها منك في اوصافهِ داني ؟
وهذه السحب أصباغاً مشكلة ... في رائع من فريد اللون فتان
لا ينزل الغيثُ منها مثلما نزلتْ ... شتى اغانيك في سحريّ ألحان

كشاعر في سماء الفكر مختبيء ... دلَّ الوجودَ عليهِ لحنهُ العالي
ألحان اغنية امسى يرتلها ... كمرسل من نشيد الخلد سيال
أسلْنَ بالعالم السالي خوالجهُ ... حتى استحال شجوناً قلبهُ السالي
بمثلٍ من ألمٍ فيهِ ومن أمل ... ما لم يكن منهُ في يوم على بال

كأنهُ حوريةٌ في ظلِّ شاهقةٍ ... من البروج تقضي العيش في خلس
لم يُغمض النومُ عينيها ولا خمدَتْ ... نيرانُ قلب لها في خفية الغلسِ
باتتْ تلطف آلاماً تساورها ... في عزلةٍ — بنشيدٍ ساحر الجرسِ
تطوفُ ألحانُ موسيقاهُ مخدعها ... كأنهُ الحبُ في ايقاعهِ السّلسِ

كأنهُ بين الرُبا التفّتْ خمائلُها ... فراشةٌ من سبيكِ التبر مجلواة
يا حسنَ أجنحةٍ منها مذهبةٍ ... قد رقّشتها من الاسحارِ انداة
تُري السماء صفاء فهي ان خطرت ... فللسماء بهذا اللونِ اغراة
تجلو الازاهرَ والاعشابَ طلعتها ... اذا بدتْ ولها فيهن اخفاة

كزهرةِ الحقلِ في غيناء سرحتها ... لم يملأ النورُ من أجفانها حدَقا
حتى اذا لفحتْها الريحُ هاجرة ... زكتْ وأربتْ على املودها ورقا
وأرّجَ الحقلَ من انفاسها عبقٌ ... يشوقُ كلَّ جناحٍ نحوها خفقا
تهفو اليها من النسماتِ أجنحةٌ ... من كلِّ مُنطلقٍ من عطرِها سرقا

ووقع لحنك في الاسحار أرخم من   وقع الندى فوق أعشاب البساتين
قد نقّط العشب المنضور سلسلهُ   وجاد بالطلّ أفواف الرياحين
يا منْ على صوتهِ في الافق منسجماً   تصحو الازاهر في أفنانها الغينِ
كلُّ البدائع مهما افتنَّ مبدعها   لم تعدُ لحنك في صوغٍ وتلحينِ

قل لي أمن ملكوت الروح منطلق ؟!   ام طائرٌ انت في الآفاق هيمانُ ؟!
اي الخواطر من حسنٍ ومن بهج   يشيعها منك في الارواح وجدانُ ؟!
لم تشرئبَّ قلوبٌ من اضالعها   لغير صوتك او تنصبَّ آذانُ
حديث حب وخمر بات يسكبهُ   من جانب الله انغام والحانُ !!

من أينَ تلك الاغاني أنت ترسلها ؟!   من أي مطردِ الينبوع منسجم ؟!
من أي فائرة الامواج زاخرة ؟!   وأي تلك المروجِ العذبة النسم ؟!
من أي ضاحيةِ الآفاق صاحية ؟!   أي السهولة والاغوار والقممِ ؟!
وأي حبٍّ أليفٍ منك أو وطن !!   وأي جهلٍ لما نلقاهُ من ألمٍ ؟!

وفي منامك والآفاقُ ساهمةٌ   وفي انتباهك والظلماء إصغاءُ
لا بدَّ من نبإ للموت تعرفهُ   وفي ضميرك منهُ اليوم اشياءُ
لأنت اعمق رأياً في حقائقهِ   مما نراهُ ونحن اليوم احياءُ
او لا ؟ فكيف انسجام اللحن مضطرداً   بجريهِ من رائق البلور لألاء ؟!

انا نفكرُ في ماضٍ بلا اثرٍ   ومقبل من حياةٍ كلها غيبُ
ومستحيلٍ نرجّي برقَ ديمتهِ   وكلُّ ما نرتجيهِ منهُ مختلبُ
وكم لنا ضحكاتٌ غيرُ صادقةٍ   ما لم يشبْ صفوها التبريح والوصبُ
وإنَّ أشهى الأغاني في مسامعنا   ما سالَ وهو حزينُ اللحن مكتئبُ ؟!

هبنا على رغم هـذا ليس يجمعنا   بالحقد أو كبرياء النفس أوهاقُ
فلا القلوب لدى البأساء جازعةٌ   ولا بهنَّ اذا روّعنَ إشفاقُ
وانا قد درجنا في خليقتنا   بلا دموع تذرّيهنَّ آماقُ
فكيف كنا إذاً نلقاكَ في صلةٍ ؟!   او يغمر الروح لحنٌ منك رقراقُ ؟!

يا أعذبَ الطير موسيقي وأروعها من كلّ رائق أنغام وألحانِ
ويا أعزّ لنا من كلّ ما جمعت نفائسُ الكتب من دُرّيّ تبيانِ
ياما أحقّ إقتداراً منكَ قدرتهُ بشاعر لبقِ التصوير فنانِ
أنت المبرّأ في حبّ وعاطفةٍ يا من تعاليتَ عن أرضٍ وانسانِ

***

أما تُعلمني مما يفيضُ بهِ غناؤكَ العذبُ تطراباً وتحنانا ؟
ذاكَ الجنونُ الذي يهدي توافقهُ إليّ من صدحات الخلدِ ألحانا !
ألستَ تلهمني وحياً يفيض بهِ في فأملأ قلبَ الكون إيمانا ؟
أشدو فيلقي إليّ الكونُ مسمعهُ يصغي إليّ كما أُصغي لك الآنا ؟؟

ندامة بعد الموت

لبودلير : عن الترجمة الانكليزية

عند ما ترقد يا طيف جمالي القاتم ، تحت تمثال من الرخام الاسود ، في كهف مخدعك الرطب ، وتحت قبو مغارة ذلك المأوى ، وعند ما يعصر الحجر الكبير بثقله المروّع جوانب صدرك ، هنالك في خفة حالمة بهجة سيقف ذلك القلب عن ضرباته ورغائبه ؛ وهذه الاقدام المتقحّمة المغامرة عن عدوها

وهنا — هذا القبر — (يشير الشاعر الى قلبه) الذي ساهمني هواجسي وأنا مستغرق في شرودي الازلي ، طيلة تلك الليالي ، حيث لا نوم لك بعد الآن ، سيهمس قائلاً . . . . .

« لمن وقع هذا الخطى ! ؟ »

« من أنت أيتها الاقدام الفاجرة ! ؟ أنت التي لم تعرفي ما هي دموع الموتى ! ! »

وكوخزات تأنيب الضمير ستمضي الديدان في التهام جسدك . . . . . ***

نشيد الى الشرق

[نقله جورج نيقولاوس]

[الآنسة « مي » اشهر من ان تعرف . فكتاباتها منتشرة في كل صقع. واسمها ملء الافواه والاسماع . ولكن لا نظن ان كثيراً من قراء العربية يعرفون ان هذه النابغة شاعرة فرنسية وكاتبة بلغة ابناء السين لا يشق لها غبار . ولذلك ارتأينا ان ننقل لها هذه القطعة وهي من الشعر المنثور ليجتني القراء محاسن كتاباتها الفرنسية ، كما اجتلوا محاسن كتاباتها العربية]

ايها الشرق !

يا شرقي الفسيح الجموح الليّن العريكة !

ياشرق العظمة واللطف والشهامة والحماسة والشهوة العاصفة في شدة كسموم الصحراء!

ان تصوراتي تتمثلك كأنك ضمنَ إطار . وها هو فكري تتبيّن له نقائصك وشدائدك ، واحتياجاتك وتضاربُ نزعاتك . انت فقير بنظمك وترتيبك ومناهجك ، انت اعزل قد جردك قضاء الزمن . غير ان معائبك كان فعلها في تجريدك اكثر من فعل قضاء الدهر وقدره . ان العلومَ تنقصُك ، ومواردك العديدة المبعثرة متملصة منك . وانت مُنقسّمٌ لا مجموع لك

اعرف هذا كلّه . ولكن ثقتي بمستقبلك راسخةٌ لاتتزعزع، مثل ثقتي التامة بالحياة

فما هي اذن هذه القوة التي تربطني بك ؟ لماذا يحبّب اليّ من كلامك تلك النبرات الشجية المتناسقة ، التي تبعث في القلوب الحنينَ الى الوطن ، وتلك اللهجات الحلقية السريعة ، وتلك الصيحات الداوية بخيلاء الجنس ، التي تنشر إتقادَ مناطقك الحارة ؟

ما هي تلك المجانسات العديدة الفالتة غير الممسوكة ، التي تربطني بشعوبك المتراكمة في بلدانك الكبيرة ، وفي ظلِّ طلولك المجيدة وآثارك الخالدة ، كما تربطني بأعرابك الرُحّل الذين يتفيأون الخيامَ في صحاريك القاحلة المجدبة ، وبالقبائل المبعثرة على ضفاف انهارك او المتجمعة حول ينابيعك ، وبالقوافل التي تخذُ أنجادك وأغوارك وبجميع تلك الفصائل المنتشرة في جبالك ووديانك ؟

بأيَ سرٍ غريب أفضت اليّ هذه اللغة العربية في غابر الازمان ، حتى اني عند ما اسمع لهجة من لهجاتها اشعر وكأني وجدت تفسيراً لما لا يفسرُ في نفسي ؟ لماذا كلما وقعتْ عيني على فرد من افرادك استشعر عرفاناً للجميل يختلج في داخلي ،

وتحناناً لا يستشعره المرء الا في لقاء قد قطع منهُ الرجاء بعد فراقٍ طويل الأمد ؟

كلُ غريزةٍ فيك ملحة بعيدة الأغوار ، تتملكني وتسخرني لك ، أيها الشرق ، أنا الذرة الطفيفة بين مليارات المليارات من ذراتك ! ورغماً عن صغري ، لقد أودعتَ فيَّ صحاريك ومروجك ، وقُننك البعيدة المنال ، وأغوار اوديتك ، وسيئاتك وحسناتك ، وزعازع مناخيك المهول ، ونشيد مزاميرك النائح ، ولياليك المخملية العميقة ، ووطيس شمسك المحرق ، وقلوب بنيك المقدامة الشديدة الحمية ، وقواك الابتكارية المتلازمة التي لا ينضب لها معين !

أرى هذه السماء ، التي هي سماؤك ، تنبسط في لونها السمنجوني الزاهي الموشى بالذهب والفضة والأرجوان ، وقد تمازجت هذه الالوان وتداخل بعضها ببعض ؟

انها السماء التي أوحت باعظم الرسالات الى الانسانية ، وأظلت تفتح الحياة وسيول الوحي والنبوات . لانك عبقتَ ، ايها الشرق ، لتكون الوطن الاول للعبقريات الأولى وللأبطال والملهمين !

لقد كنتَ في حاجةٍ الى الراحة ثلاثة قرون اكتسبتها بعد كل تلك القرون المليئة كدًّا ومجداً ، وكان مشروعاً ان مد مدنياتك المحسن العظيم يرتد لزمن ما بجزرٍ محتوم ، تحت ضغط سنة التعاقب الظالمة التي لا تهادن ولا ترحم

ولكن ها تلك السنة نفسها ، التي تتحكم بمد البحر وجزره الجديدين وتضبطهما ، تقرع ساعة اليقظة والسير الى الامام . فنهوضاً اذن ، رغم قيودك ورزاياك ، وانكسار عزمك وخمود همتك !

نهوضاً !

حولك يناضل الاقوياء ويفوزون ممجدين نفوسهم في تأليه الغلبة ! فهلا سمعتهم مع ذلك يئنون في الظلام : « الى متى ننتظر الفجر الذي سيسطع ؟ »

مساكين انتم ايها الاشداء والاقوياء الضعفاء ! ايها العلماء العظام ، الذين يجهلون الابجدية !

أيمكن أن يتلألأ الفجر دون ان يغمر النورُ المشرقَ ؟

أنت برج الضياء ، ايها الشرق ! انت موزع اشعة الحياة !

فنهوضاً اذن ، والى العمل لتنقف نفسك ! وعندئذٍ يبزغ في أفقك مشعلُ الاضواء واللهب !

القوة والجمال

والاحتفاظ بهما

التحول لا بدّ منهُ

اذا استطاع الانسان ان يحتفظ بما اودعتهُ الطبيعة من الجمال [1] الى ما بعد الزمان الذي تزول نضارة الشباب فيهِ ويأخذ ذلك الجمال في الانحلال، فذلك مما لا يضيع فيهِ جهد الباحث ولا يذهب تعبهُ سدًى . ولا يؤخذ من هذا القول انهُ يمكن حفظ بضاضة الجلد ونعومتهِ ولونهِ ولون الشعر الى ما بعد الكهولة اذ تلك المزايا من مزايا الشباب ولا بدَّ ان تفارق الاجسام بمفارقتهِ. فكلُّ ما يبذل من الجهد في هذا السبيل لا يأتي بطائل . نعم ان عناية الانسان بجسمهِ واقتصاده في قواه واعتداله قد تؤخر تغضُّن جلده ولكن لا بدَّ ان يحول لونهُ متى حان الاوان . وليس ذلك بالامر المستنكر المستهجن اذ هو من قبيل وضع الشيء في محلهِ فان ما يليق بالشاب لا يليق بالكهل والحكمة تقضي على كلٍّ ان يجعل منظره ملائمًا لسنهِ

على انهُ يمكن تأخير الطوارىء والتغيرات التي تطرأ على شكل الجسم وموازنتهِ وحركاته في المشي والجلوس والنهوض وتناسب اعضائهِ وغيرها مما ينشأ عن اهمال التدابير الملائمة . فان التاريخ حافلٌ بذكر اناس أدركوا الحقائق المتقدمة فعرفوا وهم متقدمون في السن باعتدال قامتهم وخفة حركاتهم وانتظامها وتناسب اعضائهم . وما من احد الاَّ ويعرف رجالاً ونساء بلغوا من الكبر عتيًّا وصار لهم الاولاد والاحفاد ومع ذلك بقي لهم الشيء الكثير من محاسنهم الاولى

كان معظم الناس الى عهد قريب اذا بلغ احدهم او احداهنَّ سنَّ الخامسة والثلاثين او الاربعين رغب عن الملابس الباهية الزاهية فخلعها وارتدى الملابس البسيطة القاتمة بدلاً منها كأنهُ يحدُّ على شبابهِ وذلك لانهُ اذا انحصرت واجبات الزوجين في دائرة منزلها واصبح معظم همهما تربية اولادهما قلَّ تفكيرهما في المحافظة على الامور التي تكفل إدامة الشباب ومحاسنهِ لهما . ولكن الحالة تغيرت الآن فصار الناس فريقين فريق الشباب وفريق الشيوخ . اما الكهول فدرجوا ضمن الفريق الاول حتى صاروا يعدون منهُ . وبناء على ذلك انصرفت العناية الى إدامة الشباب والمحافظة على محاسنهِ ما استطاع الناس الى ذلك سبيلاً

(١) ان الجمال الذي يريده كاتب هذه المقالة هو نفس ما ورد في تعريف بعضهم للجمال تمييزاً له عن الحسن حيث قال ان الحسن يلاحظ لون الوجه والجمال يلاحظ صورة أعضائه . بل ان هذا الكاتب يذهب الى أبعد من ذلك ويريد بالجمال جمال اعضاء الجسم كله لا الوجه وحده

ولا ينكر على الزوج رغبتهُ في ان يرى زوجتهُ متمتعة زماناً طويلاً بالصفات والمزايا التي شوقتهُ الى اختيارها زوجة له . وحسن الوجه وجمال القدّ هما الصفتان اللتان عليهما مدار الزواج ولكنهما تختلفان باختلاف الاذواق . ومن المشاهد ان الزوج كثيراً ما ينتقي زوجتهُ لا لحسن حازتهُ ولا لجمال انفردت بهِ بل لتمازج بين الروحين وتلاؤم بين الطبعين ولكن الملاحة (١) هي المرجع الاخير في كلّ حال

جمال القد

والناس يختلفون في ماهية المليح والقبيح باختلاف اقاليمهم وعاداتهم وازيائهم . ولكننا اذ صرفنا النظر عن الفرق الشديد بين اذواق المتوحشين كاهالي اواسط افريقية ووادي الامازون والمتمدنين كاهالي نيويورك وباريس رأينا انهم متفقون على قواعد معلومة يجرون عليها الاَّ في احوال نادرة . ولو جئنا نبحث في الوجه وملامحهِ وتقاطيعهِ لضاق بنا المجال ولكننا نحصر كلامنا في القد وشكلهِ وحركاتهِ لان جمال القد هو الجمال الذي في طوقنا المحافظة عليهِ اكثر من غيره فنقول ان اعتدال القامة وسهولة حركة الجسم هما اساس جمالهِ ولا بدَّ لذلك من ان يكون الظهر عمودياً والبطن غير بارز ولا مترهل كما في السمان او الذين عضلاتهم مرتخية والكتفان غير مرتفعين والاضلاع على زوايا قائمة مع العمود الفقري والرأس قائماً على عنق مستقيمة مستديرة منحنية الى الامام قليلاً واذ مد خطٌّ عمودي من مؤخر الرأس وقع وسط الكتفين . فاذا اجتمعت هذه الصفات في انسان امكن تدقيق خصره من غير ان يلحق الجسم ضرر

واذا كان الحوض مستوياً والفقرات التي فيهِ مستقيمة كان عمل الجدار البطني صحيحاً فدعم الاعضاء المرتخية التي ضمنهُ وبقي الخصر دقيقاً . ولا يكون الخصر الدقيق جميلاً الاَّ اذا كان بروز الوركين مما يليهِ قليلاً . ولكن اذا كان بروزهما كثيراً ظهر الخصر مثل خصر النحلة وارتخت انسجة البطن والخاصرتين والظهر وضعفت اعضاء الهضم والاعضاء الرئيسية الاخرى وفقد القدُّ جمالهُ باكراً . ويجب ان يكون الصدر عريضاً ممتلئاً والترقوتان غير ظاهرتين والاَّ كان ظهورهما دليلاً على ارتخاء عضلات الصدر والكتفين والظهر وعلى ان قمتي الرئتين لم تتسعا الاتساع الكافي . ويجب ان تتدلى الذراعان بسهولة من الكتفين وتقع الكفان امام الوركين واقلُّ عسم (يبوسة) في الذراعين او الكتفين او الكوعين يذهب برشاقة القد . ويجب ان يكون الجذع عند المشي مستوياً والصدر بارزاً قليلاً فتتحرك الركبتان بسهولة ويقلُّ الضغط عن العقبين . واذا كان الماشي يضرب الارض بعقبيهِ فقد الجسم رشاقته . ويجب ان يكون خطران الذراعين عند المشي مائلاً الى الامام نحو خطٍّ عمودي يمرُّ

(١) يراد بالملاحة الحسن والجمال معاً

في وسط الجسم . وميلهما في خطرانهما الى وراء الظهر عيب قبيح يجب اجتنابهُ بارجاع الرأس الى الوراء بحيث يقع طرفا الاذنين فوق رأسي الكتفين

الاقتصاد في القوى

ومن أهم الامور للمحافظة على الجمال اعتياد الاقتصاد في جميع القوى الطبيعية واجتناب الاسراف فيها وقت الانهماك في مشاغل الحياة . وقد يعترض على ذلك بأنهُ يكاد يستحيل على المرء ان يترك اعماله واشغاله ويتفرغ للاهتمام بنفسه والمحافظة على قواه صوناً لها من الاسراف . وجواباً عن هذا الاعتراض نقول ان الاقتصاد في قوى الجسم لا يستلزم ترك الاعمال والاشغال كما يخيل للمعترض . بل يتوصل الى الاقتصاد المذكور ان يوجه المعلمون والوالدون عنايتهم الى الاولاد الذين يوكل أمر تربيتهم اليهم ويمرنوهم على رباطة الجأش وسكون البال في مصائب الدهر وغير الزمان . والحق يقال ان السلامة من الاحزان والكوارث لا تسمو بالنفس الى المراتب العليا ولا ترقي العقل في الفضيلة بل تربي في المرء خلقاً تنقصه الاوصاف الجوهرية التي تدني النفس من الكمال وتكسب الوجه حسناً رائقاً . والصبر والثبات وغيرهما من الصفات التي تكوّن الأخلاق كل هذه لا تنمو في المرء وهو ملازم الهدوء والسكينة في المعيشة . ثم ان الاشغال والاعمال ومصاعب الحياة لا تضرُّ الجسم ولا النفس الاّ اذا أثرت فيهما تأثيراً يورثهما الضجر والقلق ويفضي بهما الى النكد او اليأس

واعظم عوامل الاقتصاد في القوى الحيوية المحافظة على القوة العصبية . وانفاق هذه القوة على وعين اما مباشرة واما بواسطة. فالاول ابسط واقلُّ ضرراً وامثاله ان تجهد عضلات ذراعك عند رفع ثقل ما الى حد ان تنفق من القوة العصبية ضعف ما يقتضي رفع الثقل حقيقة . والثاني اعمُّ من الاول وهو ان تجهد من عضلاتك اكثر مما يلزم لعمل عمل ما فتنفق القوة العصبية سدًى . ولا بدّ ان يتخلل الاعمال العضلية فترات ترتخي العضلات فيها بعد طول إنقباضها فتسترد قوتها التي انفقتها والاّ كلّت عن العمل . مثال ذلك اذا شرع رجلان في عمل يقتضي تعباً واحداً وجرى احدهما على مبدإ الاقتصاد في القوى ولم يراعه الآخر فان الاول يتمهُ وهو لا يشعر بتعب والثاني يتمهُ وهو متعبٌ معيٍ . والانسان يدرّب جهازهُ العصبي من المهد الى اللحد نخيرٌ ان يكون عملهُ دقيقاً يراعى فيه جانب الاقتصاد من ان يفرط فيه. وشرٌ من الافراط التفريط. وكلاهما يفضيان الى اطفاء سراج الحياة وتقويض اركان الجمال

مرونة نسج الجسم

واول ما يجب الانتباه اليه لاطالة زمن الحسن والجمال المحافظة على مرونة نُسُج الجسم وعليه يمكن ان تعرّف الشيخوخة بأنها طور تصلّب الانسجة . ومنع ذلك او الشفاء منهُ يقومان باستعمال

حركات الجسم الطبيعية استعمالاً قانونيًّا . فاذا كانت اعمال الانسان تجري على وتيرة واحدة بلا تغير او كانت محدودة او غير ملائمة في نوعها وصفتها تصلَّبت النُّسُج قبل الاجل المعتاد. واذا كانت عضلات الجسم لم تتناسق ولم تتم النمو الكافي ظهرت تلك التغيرات باكراً وكانت اكثر وضوحاً

وكثيراً ما يعدُّ الشيوخ طور الشيخوخة شرًّا يخاف او آخرةً تبكى وتندب ولكن الفلسفة تناقض ذلك . ثم اننا نعرف اناساً كثيرين بلغوا طور الشيخوخة ولا تزال وجوههم تفيض بشراً وقلوبهم تطفح رضىً وسروراً . فان الشيخوخة في الانسان تاج اكرام واحترام ويبدو ان يزين ذلك التاج او يشينهُ . اما المرأة التي تتقدم في السنّ فانها ان كانت من اللواتي ينظرنَ الى ظواهر الاشياء دون بواطنها عدّت الشيخوخة مثل بئر خُتِم بابها فعاد الانسان لا يرى ما فيها فمالت الى اهمال جسمها ولباسها . فلتقاوم هذا الميل لانهُ ذنب الى الله ومواهبهِ الحسان . فان كثيرات من النساء اللواتي بلغنَ الستين والثمانين بقينَ ملكات في المحافل التي كنَّ يترددنَ عليها

والحسان بين النساء قلال واقل منهنَّ اللواتي يستطعنَ المحافظة على ما قسم لهنَّ من الملاحة الى ما بعد الزمان الذي تذوي فيهِ نضارتهنَّ عادةً . ومن الحقائق الفسيولوجية المقررة ان الملاحة يمكن ان تزاد لصاحبها ولكن لا بدَّ من التذرُّع بالفطنة والحكمة لبلوغ ذلك . وقد يتفق ان الطبيعة تخص فرداً بكثير من مقوّمات الملاحة ولكنهُ يسيء التصرف فيها . وربَّ سائل يسأل هل تزاد الملاحة بالوسائط الصناعية وهل تمكن المحافظة عليها الى ما بعد سن الكهولة . والجواب نعم وتمكن زيادتها كثيراً حتى في الذين لم يكن لهم حظٌّ وافر منها أيام الصبا والمحافظة عليها حتى الموت . وذلك يتمُّ بالمواظبة والصبر واحتمال بعض الاتعاب البدنية والالمام بقوانين الصحة والطعام والراحة والنوم والاستحمام والاعتناء بالجلد والاسنان والشعر والظواهر الخارجية من ملبس وما أشبه . وقد يخيل لكلٍ منا انهُ يعرف الشيء الكافي عن هذه الامور ولكنهُ اذا رام البحث فيها مفصلاً رأى انهُ يجهل كثيراً منها

***

واول ما نوجه الخواطر اليهِ في هذا الشأن ان جمال القد يتوقف على حسن اتصال العظام بعضها ببعض ومرونة النُّسُج . ولا بدَّ لحفظ موازنة الجسم من مرونة العضلات وسهولة حركة اربطتها وحركة الاوتار. وكلما تقدم الانسان في السن واخذت نتائج الامراض والملاذ تظهر عليهِ اشتدَّ العناء على بعض الاعضاء الحيوية مثل الاوعية الدموية والاعصاب فاضطرب سير الدم ومجرى الاعصاب في الجسم حتى اذا جاوز سنَّ الكهولة كان بعض اعضائهِ الحيوية معطلاً وكثير من انسجتهِ فاقداً بضاضتهُ وغضاضتهُ . فلا تعود العين والاذن والدماغ مثلاً تتناول ما يكفيها من الغذاء فيكفُّ البصر او يكل وينبو السمع ويبلد الذهن

الرياضة البدنية

والرياضة البدنية خير الوسائط لاتقاء ذلك ولكن الناس مختلفون في نوع الرياضة التي يحتاجون اليها فما يصلح منها لزيد قد لا يصلح لبكر . فانك اذا قلت لرجل طاعن في السن شوّهت الايام والاسقام اعضاءهُ وحدّبت ظهرهُ ويبست مفاصلهُ ان ينتصب امامك ويرجع كتفيهِ الى الوراء ويرفع رأسهُ فانك انما تنادي غير سامع وتأمر غير طائع . ولا بدّ لك قبل ذلك أن تبين عيوب بنيانهِ الخصوصية وتصلح النُسُج الضعيفة أو المنكمشة . والانكماش يصلح بالمطّ والدلك المتكررين . والمرونة تتأتى بتحريك أعضاء الجسم مثل الذراعين والكتفين والعنق والرجلين والظهر والحقوين وأعضاء البطن

ومما يجب ذكرهُ ان الرياضة لازمة غالباً لتطهير الدم وما يتبعهُ من تغيرات الخلايا ولابقاء اعضاء الجسم سائرة سيرها الطبيعي ولنومهِ نوماً هنيئاً . ومن الممكن ان تسير تغذية الجسم سيراً طبيعيًّا في بعض الناس مدة طويلة وفي احوال معلومة وهم لا يروّضون اجسامهم الاَّ قليلاً . ولكن اهمال الرياضة خطر عظيم . ومن الناس من يقول ان اجهاد القوى العقلية كافٍ لدفع اعضاء الجسم الى اتمام وظائفها مثل الرياضة البدنية وهذا صحيح . فأن بعضهم يكتفي بالحديث المسلّي والضحك وسماع الآلات الموسيقية وعليهِ فأن صحة هذا البعض تقوم بالاقتصار على الرياضة العقلية دون البدنية ولكن على شرط ان تكون احوال المعيشة صحية مطردة ووظائف الجسم منتظمة فلا تحمل فوق طوقها ولا يطرأ على الجسم خلل في تغذيتهِ يتطرق الفساد بهِ اليهِ

ولكن الرياضة المنتظمة مفيدة في الصغار والكبار لحفظ صحة العقل والجسد على أتمها . وكثيراً ما يعترض في سبيل الجسم عوارض توقع الخلل والاضطراب في نظام حركاتهِ وتحولها عن مجراها الطبيعي . واول تلك العوارض عيوب خلقية في بناء الجسم يكون بها بعض اعضائهِ اقوى من البعض الآخر فيتَّعب القوي منها الضعيف عند العمل معاً . وثانيها اللباس فكلما اشتدَّ ضغط الملابس لعضو من اعضاء الجسم تغيَّر تركيبهُ وقلَّ نموُّهُ . وهناك مؤثرات اخرى تؤثر في شكل الجسم وحركتهِ مثل العادات والازياء واجهاد القوى او عدم اجهادها والصنائع والحرف . خذ مثالاً للحرف التعدين فان المعدّن (اي العامل في المناجم لاستخراج المعادن من الارض) يضطرُّ ان يضطجع على الارض او ينحني الى الامام ساعات كثيرة وهو يعمل ويجهد قواه فيشوّه ذلك شكل جسمهِ كثيراً . غير ان تحركه المستمر يمنع الاعضاء ان تفقد مرونتها سريعاً كما في الحرف التي لا تدعو الى حركة كثيرة

الطعام والملاحة

اما الطعام فلما كان تأثيرهُ في الصحة عظيماً فان تأثيره في الملاحة اعظم . واول ما يجب الالتفات

اليهِ في هذا الصدد الاسنان فان على العناية بتنظيفها مدار الامر كلهِ غالباً . ومن الغريب ان امراض الاسنان بين المتمدنين كثيرة مع شدة عنايتهم باسنانهم وحرصهم على نظافتها. وكثير من هذه الامراض وخصوصاً امراض اللثة سببٌ لسوء الصحة حتى بين الطبقة العالية من الناس

واهمُّ شيءٍ في المحافظة على صحة اعضاء الهضم مقدار الطعام وكيفية تناولهِ لا نوعهُ وماهيتهُ وخير قاعدة لاختيار الطعام ان يأكل الانسان مما حضر برضى منقاداً بالقابلية الطبيعية . ولا بدَّ في اختيار نوع الطعام ومقدارهِ من مراعاة حالات الجسم المختلفة من تعب وانفعال ورياضة وقعود وما اشبه . ولا يجوز ان يأكل الانسان لقمة واحدة تزيد عما تشتهيه نفسهُ الاَّ في احوال مرضية خصوصية يأمر الطبيب بها . ويجب ايضاً مراعاة السنّ فان قليلاً من الطعام يكفي الكهل والشيخ لأن الطعام يؤكل في هذا السن لحفظ الحياة لا لبناء الجسم ما لم يطرأ على الجسم مرض طويل معي يقتضي اصلاح ما فسد وبنيان ما تقوّض. واول شرط في الطعام نظافتهُ ثم بساطتهُ . اما التأنق في علاجهِ واستكثار الاقوات واستجادة المطابخ فن الأمور العرضية الثانوية بل الوخيمة العاقبة لأن الاكثار من البهارات والتوابل ومطيبات الطعام يعطل قوة الهضم ويفسد حاسة الذوق

***

ولنا كلمة في المشد (الكورست) فأن كان الغرض من لبسهِ اظهار كسم الملابس حول الخصر جرياً على قواعد الزي الحديث فلا بأس بهِ ولكن ان كان الغرض منهُ دعم الانسجة البطنية فلا حاجة الاَّ اذا كان هناك عيب في بنائها . وان كان الغرض منهُ تحسين القد فالمرأة ذات البنية القوية والتركيب الحسن لا تحتاج الى وسائط صناعية لتحسين قدها والشاهد على ذلك ان البنت الجميلة القوام لا تلبس المشدّ اذ ترى انها ليست في حاجة اليهِ . وعليهِ فان اللواتي يصررنَ على لبسهِ يعترفنَ ضمناً ان قدودهن مشوَّهة . وتشويه القدّ اما طبيعيٌّ واما اكتسابيٌّ فان كان الاول فليلبسنَ المشدَّ اذا كان لا بدَّ لهنَّ من اتباع الازياء الحديثة وان كان الثاني فهو ناشئ عن عدم الاعتناء بهيئة الجسم في الجلوس والنهوض والانتقال او عن القعود او النهم او عن هذه الثلاثة معاً . وهذا مما يمكن الشفاء منهُ بالعزم والثبات كما يمكن الشفاء من الامراض العادية

ثم ان النساء صنفان صنف له ظهور قصيرة وصنف لهُ ظهور طويلة فالمرأة ذات الظهر الطويل بل والخصر الطويل او التي بين صدرها وجذعها فسحة واسعة لا يضرُّ المشدُّ بها مثلما يضر بالمرأة ذات الظهر القصير لان معظم ضرره ناتج عن ضغطهِ لاجزاء الرئتين السفلى واعاقتها عن عملها وذات الظهر الطويل لا يضغط المشد رئتيها لارتفاعهما عنهُ . والمرأة التي ظهرها قصير وخصرها طويل لا بأس اذا لبست مشدّاً واطئاً ضيقاً . اما التي ظهرها قصير وخصرها قصير ايضاً ولين فان المشد يضر برئتيها وكبدها وكليتيها ومعدتها بضغطه لها فتهبط نحو البطن وينشأ عن ذلك اسقام وامراض كثيرة في هذه الاعضاء وفي اعضاء الولادة أيضاً

أسئلة وأجوبتها

[الاسئلة خاصة بحياة طائفة من الفتيات الانكليزيات ، تتعلق بنواح من حياة الحب والزواج ، ولكن الاجوبة تحتوي على احكام عامة ، وأقوال حكيمة في هذه الموضوعات ، لا تقتصر حكمتها على الفتاة الانكليزية]

س : احبُّ احد الشبان حبّاً عظيماً . ولكن والدتهُ تكرهني . وهو يطلب ان تعقد خطوبتنا . ولكنني احسُّ انهُ يجب عليَّ الاَّ اخدع امهُ . فماذا أفعل ؟

ج : اظن انهُ خيرٌ لك ان تكوني صريحةً معها . اذهبي اليها وحدثيها واستطلعيها ما تأخذهُ عليك

س : مضى عليَّ عشرون سنة . متزوجة من رجل احبُّه واحترمهُ . وقد كانت سنو زواجنا حافلة بالسعادة والرغد . ولكنهُ افتتن اخيراً بصبيّة ، في الخامسة والعشرين من عمرها . وقد بلغ من اندفاعها ، ان صرحت انها سوف تبذل ما تستطيع لتسلبني اياهُ . وهو يقول انهُ لا يزال يحبني . ولكنهُ عاجز عن مقاومتها . فأرجوكِ ان تشيري عليَّ بما افعل

ج : هذا النوع من الفتنة معروف في الكهول او في من تخطى الكهولة منهم . وما هي الا محاولة من ناحيتهم — تثير الاشفاق — لاسترداد شبح شبابهم . والراجح ان الفتنة لا تدوم . بل لعلَّ الفتاة نفسها تكون السابقة الى التعب والانصراف عنها . وانما يشترط عليك ان تحتفظي برباطة جأشك ، امام زوجك وبيسمة على ثغرك . والغالب انها ليست فتاة ذات خلق متين ، والاَّ لما تصرفت هذا التصرف ، فدعيه يقابلها ماشاء ، وعندئذٍ لا بدَّ ان يكشف لهُ عن حقيقة امرها

س : مضى عليَّ ستة اشهر منذ عقدت خطبتي . ولكن خطيبي لم يذهب بي في خلالها مرة واحدة الى بيته . ولا قدمني الى والديه . مع انهُ لا ينفكُّ يزورنا ، وهذا اقلقني . لأن الالسنة بدأت تتقوَّل

ج : ارى ان تسأليه ، لماذا لا يذهب بك الى بيته ويقدمك الى والديه ثم سلمّي بما يقول . فلعل باعثهُ على ذلك يتعلق بخلق والديه ، وعليك ان تثقي بهِ وتطمئني اليهِ في هذا كما تثقين بهِ وتطمئنين اليهِ في امور اخرى اذا كنت قد قبلت بهِ عن حب ٍ وروية

س : ينتظر ان يعقد زواجنا بعد شهرين وبعد سنة ، يتوقع زوجي ان يذهب الى الصين ، ليعمل في احد فروع شركتهِ ثلاث سنوات ثم يعود الى منصب حسن في انكلترا ، وهو يريدني ان اذهب معهُ ولكننا لا نعلم ، هل من المستحسن ان يكون لنا ولد ، عقب الزواج او ننتظر حتى نعود من الصين . كلانا في الثالثة والعشرين من العمر

ج : الافضل ان تنتظرا . فأنتما لا تعلمان ما تكون عليهِ احوال الاقليم والمعيشة في البلدة الصينية التي تستقران فيها . وقد لا تلائم هذه الاحوال صحة الطفل . ولما كنتما في مقتبل الشباب ، فامامكما الوقت الكافي للبدء في انشاء اسرة بعد عودتكما

مقام المرأة اليابانية الحديثة

في ميدان الاعمال

اجتازت اليابان في ما انقضى من القرن العشرين من مراحل التقدم ، ما لا تضاهيها فيه شعوب اخرى في قرون . فاكتسحت البلاد من اقصاها الى اقصاها روح التقدم والنشاط فهب الجميع متناسين منازعاتهم الداخلية ، وتفرقوا في مختلف بقاع الارض يطلبون العلم والنور ثم عادوا الى بلادهم ، يشيعون في ارجائها النور الذي اقتبسوهُ مبددين الظلمات باعثين في مواطنيهم الحياة ، ونافضين عن البلاد ، رداء الفتور والجمود . فلما تم لهم ذلك راحوا يشيدون المصانع ، وينشئون المتاجر ويبنون دعائم عظمة بلادهم الاقتصادية حتى ذهلت البلاد التي تلقوا فيها اصول العلم ، للنصيب الذي احرزوه في ميدان الصناعة العظيم . وقد اشتركت المرأة اليابانية في كل ذلك فعاونت الرجل ونافسته فأذكت بمنافستها له عزيمته وأورت زناد تفكيره وارادته ، حتى صح القول بأن اليابان الحديثة قامت على اكتاف المرأة اليابانية النحيفة ، قيامها على اكتاف الرجل

فالمرأة اليابانية تتقلد عدداً كبيراً من اعمال الدولة ، ذلك ان كثيرات من اليابانيات يعملن امينات لسر رجال الدولة المسؤولين ، او كواتب على الآلات الكاتبة أو في بعض المناصب الكبيرة حيث لكل منصب تبعة عظيمة تلقى على عاتقي مديره

وقد غزت المرأة اليابانية المصالح التجارية المختلفة ، وكادت تستقلُّ بها جميعها دون الرجال ، فاذا دخلت متجراً كبيراً من متاجر طوكيو ، واجهتك حقيقة غير ملحوظة في عواصم البلاد الاوربية نفسها ، اذ ترى ان ٨٠ في المائة من الذين يشتغلون هناك ، فتيات لا فتيان ، هذه تستقبلك على الباب وتحدثك عن طلباتك بشتى اللغات ، واخرى ترشدك الى المكان الذي فيه حاجتك ، وأخرى تبيعك السلع ورابعة تحاسبك على ما ابتعت وهن في كل ذلك يعاملنك معاملة رزينة لبقة بحيث يجعلنك تشعر باحترام المتجر من جهة ، وبرغبتك في الشراء منهُ من جهة اخرى

اما الرجال فلا يتولون في المتاجر الا المناصب الفنية القليلة ، او الاعمال التي تقتضي قوة بدنية ، كالبوابين والفراشين

والعاملات في المصانع على اختلاف انواعها يتقاضين اجوراً اقل من اجور الرجال فيفضلن عليهم حين تحتاج المصانع الى زيادة عمالها او الى سد نقص في صفوفهم وهن نشيطات ذكيات يجدن ادارة الآلات ويحذقن الاعمال الصناعية التي تقتضي قوة ملاحظة ومهارة يدوية وهذه حقيقة ملموسة تشهد بصحتها الصناعات اليابانية

ومنهن نساء يعملن مرشدات ، يرشدن روّاد المكاتب الحكومية والمحال التجارية وغيرها

الى حيث يقصدون . وهذه الطائفة تنتقى من الفتيات الجميلات وهن يرتدين ملابس جميلة محتشمة على الطراز الاوربي ، ويتقن ادب السلوك ، واصول المعاملات ويجدن عدة لغات

ومما هو جدير بالذكر ان دور الملاهي في اليابان توظف النساء مرشدات للجمهور الى المقاعد على الضد مما هو معروف في مصر . اما في اوربا فجانب كبير من دور الملاهي يعتمد على الفتيات في القيام بهذا العمل . وهؤلاء المرشدات اليابانيات يرتدين سراويلات من قبيل سراويلات اللباس الاوربي ولكنها اوسع ، وجاكتات قصيرة عليها ازرار من النحاس اللامع ، ويضعن على رؤوسهن قبعات من نوع « البيريه » ويحتذين بأحذية من المطاط ، منعاً لاحداث الصوت عند السير بين المقاعد أو الاروقة ، وجميع ملابسهن مصنوعة من الحرير الفاخر الثمين

وشركات السيارات الكبيرة الخاصة بالركاب (اوتوبيس) تستخدم عاملات يلبسن لباساً خاصاً لقرض تذاكر الركاب ، فيقمن بهذه المهمة خير قيام ويشرن الى سائق السيارة بالتحرك او بالوقوف كلما دعت الحاجة الى ذلك . اما في مركبات الترام ففريق منهن يتولى بيع سلع دقيقة من مخزن صغير في مؤخر المركبة كما يبعن الجمهور الصحف والمجلات . وهذا الفريق يختار من الجميلات الحاذقات اللائي يجد الجمهور نفسه معهن امام الامر الواقع ، تناولك الجريدة او المجلة او السلعة ، وتصحبها بابتسامة حلوة يصعب على الرجل صدها او تجاهلها ، ولذلك كانت مهنتهن رابحة دائماً

والفتيات الصغيرات في كوريا ، يعودن الصبر والجلد على مزاولة الاعمال من نعومة اظفارهن وأول ما تتعوده البنت ان تحمل جرار ماء الشرب من النهر الى المنازل مدة التمرين بمحاولة حمل الجرة باتزان وانتظام

وقد انشئت شركات سينمائية في اليابان،وأقبلت اليابانيات اقبالاً عظيماً على الانتظام في المدارس المؤهلة للظهور على الستار الفضي ، لتتعلمن الاوضاع الفنية ودرس الملامح والحركات اللازمة . وقد نبغت منهن كثيرات ولولا مسألة اللغة لأصبحت الافلام اليابانية تكتسح الاسواق ، كما تكتسحها بضائعها الاخرى . ومن اليابانيات راقصات ماهرات ، وشركات السينما تسخو على اخراج مشاهد استعراضية تسترعي النظر وتفوز بالاعجاب . واليابان يمكنها ان تبز غيرها في هذا الميدان لرخص المنسوجات اليابانية اللازمة لمشاهدة الاستعراض

وفي طوكيو مدرسة جديدة لتعليم النساء الطيران تخرج منها عدد كبير من الطيارات الماهرات، ولم تكتف المرأة اليابانية بغزوها جميع مرافق الحياة بل تحولت ايضاً الى منافسة الرجل في مظهر رجولته الاكبر فكثيرات من اليابانيات متطوعات في الصليب الاحمر ، وفي مصانع الاسلحة وفي مكاتب الجيش ، وهن يطالبن اليوم بقانون يجبر المرأة على الخدمة العسكرية كالرجل

والمرأة اليابانية تضطلع بوجه عام ، بمهمة المنتج في المصانع ، أما الرجل فيتولى مهمة التصريف فيوزع البضاعة في جميع الاصقاع على جمهور المستهلكين

موت يحيي الحب

[في حياة كل امرأة حادثة تفوق سائر حوادث حياتها خطراً ، وأثراً في نفسها ، فما هي هذه الحادثة في حياتك يا ليلى ؟ وفي حياتك يا نادية ؟ وفي حياتك انت يا سلمى ؟ الا تقصيها على قراء المجلة ، فيجدون فيها عبرة ، او تسلية ، او تفكهة على الاقل ؟ هذا وقد شرعت احدى المجلات النسائية الانكليزية تنشر في اعداد متتابعة منها ، قصص الحياة كما وقعت لصاحباتها ، بلا تنميق او تعديل خلا تغيير الاسم الصحيح او حذفه ، فرأينا ان نختار لقراء المقتطف منها ما تحلو قراءته ، او تجل فائدته . ففي بعضها فوائد تستطيع نساؤنا ان تقتبسها ، وفي بعضها مهاو تستطيع نساؤنا ان تجتنبها ، وفيها على الحالين ، نواح من حياة المرأة الغربية ، يحسن بهن الاطلاع عليها]

قضت المصادفات الغريبة ، بأن يؤتى بطفل رالف الى المستشفى الذي كنت اشتغل ممرضةً فيه . ذلك ان سيارة اصطدمت بأخرى امام المستشفى ، فأصيب توني — ابن رالف — اصابة خطيرة، فحمل الى المستشفى بين الموت والحياة . فوضع في غرفة صغيرة خاصة ، وعهد اليّ في العناية به، فبقيت بضع ساعات وأنا لا اعرف من هو . ولكنني عرفت ذلك ، اذ خرجت من غرفته فواجهت والده رالف ، وعلى وجهه الشاحب ، امارات الالم والريبة في امكان انقاذ طفله

كنت قد رأيت رالف لآخر مرة ، قبل خمس سنوات ، لما واجهته في غرفة المحقق ، على أثر وفاة ابني «بوبي» بحادثة سيارة صدمته، وكان رالف صاحبَ السيارة وسائقها . كانت تلك الليلة ماطرة ، فزلقت سيارة رالف عند انعطافها وصدمت ابني الذي كان واقفاً على الرصيف يتفرج على واجهة أحد المخازن فقتلته في الحال بين سمعي وبصري . وكان من المتعذر ان تلوم رالف خاصة في الاحوال التي وقعت فيها الحادثة . ولكنني كنت اعلم ان رالف يدمن المشروبات الروحية، مما جعله في سوق السيارة متهوراً بعض التهور . اعلم ذلك لانه سار بي بعد الحادثة الى المستشفى فرأيت في عينيه بريقاً ، وفي يديه ارتجافاً ، وفي نفسه رائحة ، لا تخطئها

فكانت تلك الفاجعة نهاية صداقتي مع رالف او ما يصح ان يكون اكثر من صداقة . كان كلانا يحس بالوحدة الاليمة في حياته . فقد كان هو رجلاً طلقته زوجه ، ولا أحد له في الدنيا الا ابنه «توني» . وكنت انا ارملة ولا احد لي في الدنيا الا ابني «بوبي» . فمال اليّ وملت اليه، مع انه كان مشهوراً في حيه بأنه يدمن الخمر ويميل الى الصخب . ولكنني أحسست انه اصبح كذلك لشعوره الشديد بألم الوحدة وانه اذا تغيرت احوال معيشته، واتيح له من يحبه ويعنى به فلا بد ان يتغير

ولكن مقتل ابني على يده كان ختام صداقتنا . فبعد مقتله بنحو اسبوع من الزمان ، تركت الحي الذي كنت اقطنه ، ولم ارَ رالف بعد ذلك . وها هو ذا الآن ، وقد عهد اليّ بتمريض ابنه الذي اصيب في حادثة تشبه الحادثة التي اصيب بها ابني . فأشفقت عليه اذ رأيته ، يمزقه الالم ، لان

الحادثة كانت قد هزت اعصابهُ فاصبح وهو على وشك ان يسقط إعياءً . فبذلت ما في وسعي لتهدئة اعصابهِ ، واكدت لهُ ان لابنهِ املاً كبيراً في الشفاء

ولما سرت قليلاً مع رالف وانا احدثهُ برفقٍ وحنان ، عطفاً عليهِ ، مررنا بالممرضة « جين » فاحسستُ بان عينيها تراقباني . كانت هذه الممرضة تمقتني ، وتصرح بذلك . كانت فتاة مديدة القامة ممتلئة الاعطاف تدفعها الشهوة ولا غرض لها في الحياة الا ان تتزوج . ولما كنت قد وطدت صلة الصداقة بيني وبين طبيب المستشفى ، ولما كان كثيرون من المرضى يدعونني الى التنزه معهم في اوقات فراغي ، بعد خروجهم من المستشفى ، كانت هذه الممرضة تلتهب غيرةً مني. فبذلت وسعي لتجاهل موقفها هذا ، بل وللاحتفاظ بظواهر الصداقة معها ولكن على غير جدوى . فبعد ان مررنا امامها شعرت بداهةً انها تفكر فينا فتقول في نفسها ، لو انني عُيِّنت محلّها للعناية بذلك الطفل ، للقيت والده ، وعطفت عليهِ في مصابهِ بابنهِ ، ووثقت صلة الصداقة معهُ ، ولسنحت لي فرصة قد تفضي الى زواجنا

كان الكفاح مع الموت في سبيل حياة الطفل كفاحاً عنيفاً ، ولكننا جنينا ثمرة الكفاح ، لما اعلن الطبيب بعد انقضاء عشرة ايام على الحادث ان الطفل قد جاز منطقة الخطر . فاخبرت رالف بذلك . فقبض على كلتا يديّ ، وعيناه مغرورقتان بالدموع وقال : ليباركك الله يا ماري . انني لا استطيع ان اقول اكثر من هذا ، يا عزيزتي . فعلمت حينئذ اننا لا نزال حبيبين رغماً عن الفاجعة التي فقدت فيها ولدي وضربت بيننا حجاباً كثيفاً . فتركته وفي قلبي انشودة الفرح ، وفي عروقي حرارة الغبطة

في تلك الليلة مات توني متأثراً بسمٍ احتوت عليهِ خطأً جرعة دواءٍ وصفهُ لهُ الطبيب

انني لأعجز عن وصف الاضطراب الذي تلا وفاته والالم الذي كاد يمزقني . كنت انا قد جرّعت توني الدواء، الذي أرسل الى حجرتهِ من مستودع المستشفى الخاص. وكان قد كتب على الزجاجة اسم الدواء الصحيح ومقدار الجرعة . فليس ثمة خطأ في هذا . فحاولنا في المستشفى ان نكتشف من اخرج زجاجة الدواء من المستودع . وهنا واجهت حقيقة هالتني . ذلك ان مستودع الادوية كان في عهدة الممرضة «جين» وانها هي التي بعثت بزجاجة الدواء لتوني مع احد المستخدمين ولكنها اقسمت امام المحكمة ، انني نزلت الى المستودع ، في غيابها وجهزت الدواء بنفسي

كان كلامها كذباً فاضحاً ، خطف نفسي بجرأته وهولهِ ، ولكنني ما كنت املك حيلة ادفع بها هذا الكذب الصراح . فعشت الايام التالية ، يؤرقني الم الفاجعة ، ويجثم فوق صدري شبح الموت

كانت الممرضة « جين » عند مقدمي الى المستشفى ، قد تظاهرت بصداقتي ، فعلمت مني قصة رالف ومقتل ابني «بوبي» . فلما دعيت للتحقيق في قضية وفاة «توني» ، لمّحت للمحقق بأن وفاة توني قد لا تكون عرضاً على الاطلاق . وانهُ من العجيب ان يكون رالف قاتل ابني ، وان يموت ابن رالف وهو في عهدتي في المستشفى . فلما سمع رالف كلماتها ، صاح بأن قولها « كذب » . . . . ولست

أدري ما حدث بعد ذلك ، لانهُ أغمي عليَّ ، ولما افقت من اغمائي ، وجدتني في احدى حجرات المحكمة ، ورالف قربي يهدئ من روعي ويحنو عليَّ . وهو يقول «يا حبيبتي ، لا تهتمي ، ولا تهلعي ، فلا بدَّ من ظهور الحقيقة » . عند ذلك ازاحت كل الحواجز بيننا فتعانقنا

ولكن حبنا كان مهدداً ، بتهمة القتل العمد ، توجه اليَّ ، فما استطعت ان انام ولا ان اتناول شيئاً من الطعام المقدم اليَّ . وحاولت ان ارى الممرضة «جين» على حدة ، لاواجهها بما ادعته عليَّ كذباً ، ولكنها كانت ترفض مقابلتي ، لشدة خوفها . فلما اعيد فتح التحقيق في صباح تالٍ ، جاءتني ورقة منها ، تطلب اليَّ ان اوافيها على عجل الى غرفتها . فهرولت اليها ، وعند ما بلغت بابها رأيت الطبيب خارجاً فقال «لقد حاولت ان تسم نفسها . ولكنها نجت . وهي تريد ان تراك »

فدخلت ووجدتها وقد جردت من تلك القساوة في نظرتها ، ملقاة على سريرها ، شاحبة تثير الاشفاق ، وفي عينيها كسفة الخجل

قالت : اتغفرين لي ? فانني ما كنت ادرك معنى ما اقول . انا الذي اخطأت في وضع اسم الدواء على زجاجة لا تحتوي عليهِ .... كنت اكرهك .... حاولت ان اموت ....

مسكينة تلك الفتاة . طوقت عنقي بذراعيها وجعلت تنتحب ، فأحسست انها في اشد الحاجة حينئذ الى العطف والحنان

اما انا فتزوجت رالف بعيد ذلك ، ولنا الآن ولد ننعم بحبه . ففيه نحس ان روحَيْ ولدينا قد امتزجتا — ولدينا اللذين فقدناها في فاجعتين مؤلمتين ، فكان فقدانهما سبيلنا الى السعادة في ثالث من لحمنا ودمنا نحن الاثنين

طور الطفولة المبكرة [1]

وضرورة انشاء مربى (Nursery)

مما لا شك فيهِ ان الناموس الطبيعي للعالم لا يتغير برغم تشابه الاشياء وتباينها ، وتغير الحوادث ولكن الطفل لا يعرفها كذلك ، ذلك بانهُ لا يميزها حالاً ، حتى ولا يعرف نفسه من الاشياء المحيطة بهِ

كل شيء يظهر له في حالة همجية وخيال ضعيف ، ولكن وسط هذا الخلط وهذا الغموض ، هناك بعض ألفاظ وبعض اصوات كثيراً ما يعيدها الآباء دلالة على اشياء موجودة ، وتدريجيًا ترتبط الاسماء بمسمياتها والالفاظ بمعانيها والحركات بما اريدت من اجله ، ثم تستقر ، هذه النتائج الاولية حتى تعرف الاشياء الدنيوية ، وتسهل هذه المعرفة فيما بعد ، وببطء يعرف الطفل ان ما

(١) من يوم الميلاد الى السنة الثالثة وهو فصل للآنسة زينب الحكيم في كتاب الدكتور شخاشيري الذي عنوانه « تربية الطفل »

استجمعهُ عقل مختلف عن نفسه ، وانهُ منفرد عنها . هذا وبتقدم الطفل في السن يعيد العمل الذي يعين وجود قوة التعليل فيهِ مهما ظهرت بسيطة مطلقة

لما كان من ضمن اغراض حياة الطفل الهامة ، القيام بالاعمال الدنيوية التي توضح الجهاد الذاتي وبذلك تصقل نفسه ، ولما كانت جميع الاشياء الظاهرية التي تحيط بالطفل تضطره ان يحفظ طبيعتها ويميز رابطتها بعضها ببعض فقد امده الخالق بحواس متعددة، وقوى عقلية مختلفة واستعداد فطري يمكنه من اظهار كوامن نفسه وتعرّفه الاشياء الخارجية

ولما كان نموّ الحواس مشفوعاً بنمو قوة ضبط الجسم والعضلات ، وقوة الضبط هذه بدورها تتوقف على حالة الطفل الصحية ، وعلى قيمة الاشياء التي تحيط بهِ — وجب تنميتها بعناية ، ووجب ان تكون الاشياء التي تحيط بالطفل جاذبة له وموقظة فيهِ ما كمن . والاّ طالما كانت هذه الاشياء قريبة وثابتة فانها لا تلفت الطفل اليها ولا تسترعي انتباهه مطلقاً ، ولكنها اذا كانت متحركة او لامعة فانها تدعو الصغير الى الانتباه والمسك ، ولو كانت بعيدة عنهُ تدعوه للتقرب منها وبذلك تربي عنده قوة استعمال اعضائه للجلوس والنوم ، وللمسك والحمل وللمشي والجري ، وتربي قوة استعمال قواه العقلية للتفكير والتدبير

من هذا يمكننا القول، ان حياة الصغير وجدت بعد المشاهدات الدقيقة ممتلئة بالحركات الجسمية والحسية والعضلية غير المقصودة للعين المجردة والمقصودة الى حدّ بعيد للعين المدققة ، فتحريك الطفل لليدين والرجلين والاصابع ، والشفاه واللسان ، والعينين والوجه ، انما تدلُّ على اشياء قصدت منها طالما ان الطفل يولد وعنده احساسات وميول وغرائز ، الاّ اذا ظهرت هذه الحركات في غير موضعها اثناء اللعب او اشتغال الطفل بشيء معين مثلاً فكل هذه الحركات واشباهها من الحركات الجسمية المبكرة لا تعبر عن شيء عقلي خاص اذ ان ذلك يكون فيما بعد ، لهذا يلزم ملاحظة الطفل بدقة حتى يمكن توجيه هذه الحركات الى ما قصد منها والاّ شب الطفل على طباع حركية في غير موضعها وبالضرورة تكون لا معنى لها ، وخصوصاً حركات الوجه — ومعنى ذلك الفصل بين الشعور وطرق التعبير الطبيعي التي ربما ادت الى الخداع في المستقبل والى التواء سبل التربية تباعاً

اما ما نشير به لمنع اشباه هذه العادات ، هو انهُ يلزم عدم ترك الاطفال مدة طويلة في اسرّتهم او حجرهم دون وضع شيء خارجي يشغل نشاطهم ، والاّ تسبب ارتخاء الجسم وبلادة العقل ومن ثمّ فساد الاخلاق المبكر ، خصوصاً اذا قلد الطفل حركات الخدم الجهلاء والآباء عصبي الحركات وما اكثر هذه البيئات حوله واخطرها عليهِ . وعلى الام او المربية ان تصرف وقتاً كبيراً مع طفلها للعناية به دون ان تجعله المحور الوحيد امام ناظريها ، تحملهُ من انفعالات نفسها كل لون تتلون بهِ ، او تحرص على سلامته وراحته بشكل يأتي بنتائج عكس ما رغبت فيهِ من حرصها وبالغ عنايتها ، فانها ان جعلتهُ شغلها الشاغل دون حكمة فانها تنشئه طفلاً قلقاً يراع فجأة لاقل سبب وبذلك تضره بدل ان تنفعهُ

ولما كان يلزم كل طفل ان ينتفع بتجاربه الخاصة مبكراً وان يجد منفذاً صحيًّا لنشاطه الذاتي وجب وجود حجرة مربى Nursery في كل منزل اسرة تقصد ان تخرج رجالاً اصحاء للامة ، وهذه المربى ينبغي ان تحتوي على اكثر ما يمكن من انواع اللعب والوسائل التي تلائم الاطفال في مختلف اطوار نموهم بحيث يمكن اشغال حواسهم وعقولهم وتمرين اجسامهم في رفق وتدرج

فاذا انتقل الصغير من هذا الطور « طور الطفولة المبكر » الى طور الطفولة الثاني او «الصبوة» من ٣ — ٧ او ٨ فهناك مميزات توضح ذلك الانتقال ، فيسلم الطور الاول الى الثاني ، عند تغلب القدرة العقلية على القوة الحسية والجسمية والعضلية ، وعند ما تصبح احوال الحياة العقلية المختلفة في حالة قوية كائنة . فيبدأُ الصبي تحصيل اللغة ، وبذلك يبتدىء التمييز ، واستنباط الفروق لهذا الادراك الحسي القاصد، فيحفظ الصبي كيف يستعمل الحقائق العملية التي تحيط بهِ كوسائل لتحصيل الاغراض التي توعز بها اليهِ نفسيته الداخلية

من هذا نرى ان هذا الطور تبتدىء معهُ التربية الفعالة التي يجب الاَّ تكون مباشرة بحيث توقف نمو الطفل الطبيعي (أعني ان تكون التربية مباشرة دون ظهور) وعقل الطفل في هذا الوقت يتطلب ملاحظة وعناية اكثر مما يتطلب الجسم ، وينفرد لهذه التربية الام والاب والعائلة التي لا يزال الطفل معهم بحالة ارتباط طبيعي متواصل

لذلك كان الشطر الاول من طور الصبوة (او الطفولة المتأخرة) مهمًّا جدًّا لان الصبي اول ما يبتدىء ، يبتدىء بفهم طبيعة بيئتهِ التي هي الحياة الخارجية ، وسواء اظهرت له هذه الحياة في حالة نبيلة عالية او بالعكس او ظهرت له كمجرد وسيلة لنيل مطامع النفس او كشيء تزيه او العكس ، فان فهمهُ لها على اي صورة مهم دون ريب

ومن الواجب ان يكون كل ما يسمعه ويراه ويقلده ظاهراً صحيحاً منظماً بقدر ما يمكنه وان يتعوَّد تحمل المسئوليات طالما امكنه ابداء رغباته وتقدير العواقب ، خصوصاً وانهُ في هذا الطور يلاحظ على الطفل كثرة التكلم فيما يعنيه ، وهو يتابع ذلك اثناء اللعب وهذا دليل على انه لا يفرق بين نفسه وبين الكلام (اي انهُ هو المتكلم نفسه) ولا يميز بين الاسماء ومسمياتها ، فاللعب والكلام هما العنصران اللذان يعيش بينهما الصبي الآن ، ولذلك يظن ان كل شيء حوله متمتع بنفس عيشته — يظن ان دميته . ولعبه ، والحصى والازهار ، والحيوان افراداً وجماعات ، يمكنها السمع والحس والتكلم ، فيحكي لها الحكايات ويطالبها بالمثل ، ويخدمها ويطالبها بأن تخدمه . فمثلاً يغسل الطفل ثياب دميته ويحفظها ويلبسها غيرها ويطالبها بعمل ذلك له مستقبلاً عند ما تكبر .

وها هو ذا ابن شقيقتي « فريد » عمره ٧½ سنوات موجود بحجرته الخاصة قريباً من حجرتي اسمعه يداعب دبه الكبير ، ويقدم له الطعام واليك حديثهُ معهُ : — « كل يا فرفر الرز » — « ما تعزبنيش احسن اخليك تأكل لوحدك مش معانا على السفرة » — «ما عندناش اولاد وحشين مايكلوش

الرز » الى غير ذلك . بربك تصور (الدب المسمى فرفر) موضوعاً على مخدة ، ومستند الظهر الى الحائط ومطالباً جديًّا بالأكل بيده اليمنى : والطفل « فريد » لا يتنازل عن تناوله الطعام ، ثم بعد وقت ليس بقصير اسمعه يشكر الدب لأنهُ اكل الارز (كما يتصور بخياله) ويغسل له يديه ، ويضعهُ في سريره لينام . وغير ذلك كثير جدًّا مما يدور بينهُ وبين مختلف لعبه

فالواجب على الوالدين والعائلة اذن ان يعتبروا لعب الطفل ولعبهُ وعلاقتهُ الطبيعية بوالديه وعلاقته بما يحيط بهِ ، من اهم الوسائل الفعالة في نموه وتكوين حياتهِ التي يجب جعلها ممتازة وغزيرة بقدر الامكان وعليهم تنمية قواه الغريزية وتنبيهها كل عضو من اعضائهِ الجسمية وقواه العقلية بصحة ، ومراعاة تقوية شعوره الاجتماعي وتدريبهِ على معرفة الواجب

ولما كان اللعب هو احسن الطرق الموصلة لذلك ، لانهُ حياة الطفل الطبيعية من المبدأ ، وجب مراعاة انتظام اوقاته وترتيب وسائله وفق ما يطابق اطوار نموه ويناسبها . وان تراعى الاحوال الصحية فيتحرك الطفل بكل حرية واناقة ويعبر عن نفسه بطلاقة ولباقة ، وان يلعب بنظام كي ينمو بلا عائق جسمي او عقلي او خلقي ، وان توجه عناية كبيرة الى آداب اللعب وحدوده

فاذا عجزنا عن تكييف الطفل وارشاده بما يناسب مواقفه المختلفة ، فلنترك القيادة له فيظهر كوامن نفسه ، وبهذا نستطيع ارشاده ومساعدته وتوجيهه الوجهة الصالحة وهذا ما يجدر اتباعه من المبدأ

وهنا نجد ثانياً الحاجة ماسة الى انشاء مربى في بيوتنا لاطفالنا وافساح أماكن خاصة بهم في حدائقنا لا سيما وانهم قبل ان ينتظموا في المدرسة يقلدون أعمال من بالمنزل من شبان وكهول ، ومحال منعهم من ذلك وتلافي ما يتبعه من نتائج ، ما لم يكن في منازلنا المربى الذي يستطيعون فيهِ اشغال حواسهم وتشغيل قواهم جميعاً ، وليست مسألة انشاء مربى بالمنزل بالأمر المعضل ، ولا بالمشروع الذي يتطلب نفقات لا نقدر عليها كما نتوهم . فليس ضروريًّا ان نشتري كل شيء يجب ان يوجد فيهِ ، وانما يمكننا امداد الطفل بكثير من الاشياء المستغنى عنها في المنزل ، كبكرات الخيط بعد استعمال ما عليها وعلب السجاير والكبريت وقصاصات الاقمشة وعلب المشتريات ، وجانب من القش وفروع الشجر وكثير من انواع الحشرات النافعة (كدود القز والنحل الكرنيولي) والضفدع والنباتات الممكن انباتها بحجرة المربى ، ومقدار من الرمل والحصى ، ونماذج للفواكه الى غير ذلك مما يتوقف نجاح استعماله والانتفاع بهِ على حسن الترتيب وتنظيم اوقات استعماله وهذا الى جانب اللعب من دمى وقطارات وسيارات وسلال وعربات وطائرات الخ الخ . فاذا راعينا حالة الطفل الصحية وفق ما أوضح الدكتور شخاشيري في كتابه وسرنا عليها بنظام الى جانب ما ننشده من سبل تربية الطفل بيقظة ونظام على اساس علم النفس والتربية ساعدنا الطفل والبيت والمدرسة التي سيذهب اليها مساعدة كبيرة ، وحققنا أمنية طالما تمنيناها ، وهي اخراج اطفال أصحاء مثقفين ، يسيرون في طريقهم ليكونوا رجال غد يعرفون الواجب عليهم نحو انفسهم وبلادهم فيسعدون امتهم ويعزون اوطانهم

امثال لافونتين بالعربية

شرع الاب الوقور نقولا ابو هنا المخلصي في نقل امثال الشاعر الفرنسي المشهور لافونتين ، نظماً ، الى العربية ، وعلق على النقل شروحاً وتفسيرات تاريخية ولغوية وميثولوجية ، حتى تتم فائدتها . وقد جاءتنا الكراسة الاولى من هذه المجموعة ، فاذا ما اشتملت عليه يدل على ان الاب المحترم قد اجاد النقل والتعليق . والى القارىء القصيدة الاولى وهي تنطوي على مثل «الصرار (الجدجد) والنملة»

قد قضى الصرار صيفاً وهو لاهٍ يتغنّى
فأتى فصل شتاءٍ مزمهرٍّ فاستكنّا
ليس في مأواه شيءٌ شاغل ضرساً وسنّا
فنحا جارته النملة يشكو الجوع مضنى
قال : « يا جارة عطفاً وارحمي قلب المعنّى
اقرضيني بعض زادٍ وابسطي للجود يمنى
فترينى قبل آب حيثما اري واغنى
موفياً مالك أصلاً وربا كيلاً ووزنا
قسماً أُوفي فأبقي قسمي عندكِ رهنا »
انما النملة تأبى قرضها للقوت ضنا
فأجابت: «كيف قضّيت مدى الصيف؟ أفِدنا»
قال : «اني كنت اشدو وأغني مطمئنا
انشد الذاهب والآتي ما قد طاب لحنا
افلا يعجب هذا العمل المولاةَ حسنا ؟ »
فأجابت: «نِعْمَ هذا الفن في الاعمال فنا !
إن تكن غنّيت قدماً فارقص الآن مهنّا

وقد حذفنا التعليق والشرح لان هذا الباب لا يتسع لهما جميعاً . وعندنا ان اعتماد هذه الامثال في دروس الاحداث ، يفيد فائدتين اما الاولى خلقية لان حكم لافونتين غنية عن التعريف ، وأما الثانية فأدبية لغوية ، تؤخذ من حسن السبك في الترجمة ، وحسن الشرح في الحواشي



الحروف الشمسية والحروف القمرية

سيدي محرر المقتطف الاغر هدانا الله بعلمهِ

تحية وبعد قسّم اللغويون حروف الهجاء الى قمرية وشمسية وقالوا ان القمرية هي التي تظهر معها لام ال التعريف والشمسية هي التي تختفي معها هذه اللام ثم عددوا الحروف القمرية والحروف الشمسية وفرضوا على الدارسين استظهارها . . . ولم اجد في كل ما وقع تحت يدي من كتب الصرف القديمة والحديثة تعليلاً لهذا التقسيم او لماذا يجب اظهار اللام مع حروف وإخفاؤها مع اخرى حتى كشف لي ذلك « على زعمي » منذ نحو عشر سنوات وانا ادرس بعض المبتدئين في هذا المهجر السحيق فلقّنتهُ تلاميذي بكل اختصار هكذا

ان الحروف بدلاً من تسميتها شمسية وقمرية كان ينبغي ان تسمّى لسانية وغير لسانية وانهُ لما كانت اللام حرفاً لسانيًّا اسقطوها قبل الكلمات التي تبدأ بحرف لساني تلافياً لمشقة التلفظ بحرفين لسانيين متتابعين

وبناء على هذه القاعدة البسيطة يكون حرف الجيم اقرب الى الشمسي منهُ الى القمري اي هو حرف لساني لصعوبة التلفظ بهِ مع اللام وقد ادرك العامة في الشام هذا بالسليقة فقالوا « اجّبل » لا الجبل كما تعلمنا في كتب الصرف خطأً . اما المصريون فجيمهم اقرب الى الكاف والغين منها الى الشين ولذلك تدخل عندهم في عداد الحروف غير اللسانية . لقد عرضت هذا التعليل على بعض لغويينا هنا وفي مقدمتهم الاستاذ قربان فاستصوبوهُ . فهل لسائر علمائنا الافاضل في الاقطار العربية ان يتلطفوا بنفيهِ او اثباتهِ كما عودونا العناية بكل جليل ودقيق في لساننا الشريف ولاسيما في بدء نهضتنا هذه المبشرة بالخير العظيم ان شاء الله ؟ ! ولكم جميعاً الفضل والشكر سيدي

رشيد سليم خوري
[الشاعر القروي]

سان باولو برازيل

ذكريات وتصويبات

حضرة الاديب فؤاد افندي صروف المحترم

ورد في المثل المأثور الفرنسي « صديق اليّ صديق صديقي » يضارعه في اللغة العربية « حبيب الى قلبي حبيب حبيبي »

ربما لا تعلم مكانة الصداقة بين عمك المغفور له الخالد بذكره يعقوب صرّوف وبين تلميذه كاتب هذه الأسطر — أحببته منذ كنت يافعاً أتلقى العلم عليه في مدرسة الاميركان العليا بطرابلس (لبنان) High School of Tripoli وكانت زاهرة تحت ادارته في سني ١٨٧٢ — ١٨٧٤

ولما انتقل المرحوم عمك الى التدريس في كلية بيروت (جامعة الاميركان) ثم انشأ مع رفيقه وصديقه الحميم الدكتور فارس نمر (ورفيقهما النشيط الاديب المرحوم شاهين مكاريوس) مجلة المقتطف سنة ١٨٧٦ كنت بالغاً ١٧ عاماً فامتلأ قلبي حبوراً ونظمت مع حداثة عمري قصيدة تعبر عن شعوري وسروري وارسلتها الى استاذي وقد وجدت نسختها مبعثرة بين اوراقي القديمة التي انا مهتم بجمعها لاطبع منها كتاباً على حدة وعن قريب أنجز هذا المجموع من القصائد والمقالات

وحبذا لو مررتَ باسكندرية وآنستني بزيارة فترى بينها كتاباً من المرحوم عمك ارسله اليَّ بعد شفائي من العملية الجراحية الكبرى التي اجريت لي في باريس سنة ١٩٢٦ وكانت كما وصفتَها انت في المقتطف «سلسلة عجائب جراحية» وكان عمك متغيباً في عزبته — ما أرق شعوره وأصدق احساسه وقد ذكر لي بكتابه انهُ شاخ والقى عليك حمل المقتطف . وربما تروم ان تقرأ القصيدة الآنف ذكرها فأذيل كتابي هذا بأبيات تستنتج منها ان المقتطف كان رفيقي منذ ظهوره حتى سنة ١٩٣٠ لما أسدل على نظري غشاء «الكاتاركت» ومنعت عن القراءة ولبثت فاقداً هذه اللذة مدة عامين الى ان أنعم المولى علي برد جزء من بصري عقيب عملية جراحية في سويسرا سنة ١٩٣٢

والآن صار بامكاني العود الى قراءة المقتطف والعود احمد فأرجو ارساله لي ابتداء من الجزء الاول من المجلد الخامس والثمانين وهكذا احفظ مقالة الصحافي الاديب نقولا افندي شكري المطبوعة في الجزء الثاني من هذا المجلد — وحبذا لو اطلعني حضرة الكاتب على مقالته قبل نشرها حتى كنت ارجوه ان يحذف منها ما نظره من اوصافي بتلسكوب عين الرضى فبالغ في الثناء فوق ما انا اهل له ثم كنت اصحح بعض اغلوطات في تاريخ حياتي . اولاً لم اكن متزوجاً لما سافرت سفرتي الاولى سائحاً سنة ١٨٨٩ ثانياً المعرض اقيم بالسنة المذكورة وليس في سنة ١٨٩٠ ثالثاً اني سميت كتاب سياحتي «سفر السفر الى معرض الحضر» وليس السمير الى السفر» وقد نفدت طبعتهُ الاولى رابعاً انني بالغ من العمر ٧٥ عاماً وليس سبعين

واليك بعض ابيات القصيدة التي ارسلتها الى عمك لما لاح بدر «المقتطف» في شهر يونيو سنة ١٨٧٦

من كل فن مقتطف مجموع علم قد صدر
من روضه فاح الشذى من عرفه الطيب انتشر
آراؤه ورواؤهـــا أشهى فكاهات السمر
لـــا تبدى نورها أيقنت ان الليل مر
من جال في ارجائه نظر الكواكب والقمر (١)
يعقوب ذاك الفذ من عشق العلوم من الصغر
انبأنا كيف بحارنا بتبخر تلك المطر (٢)

ومنها : ورفيقه من مرصد يروي لنا احلى خبر
اسماه اهله فارساً صدقوا غدا بطل الحضر

اجتزىء بما ذكر — كتابي هذا مرسل اليك خاصٌّ بك ، لكن اذا رغبت في نشره بالمقتطف فأنت حرٌّ بذلك واهديك تحياتي الصادقة ديمتري خلاط

(١) اشارة الى مقالة بالعدد الاول بقلم الدكتور فارس نمر (٢) اشارة الى مقالة بذات العدد بقلم الدكتور يعقوب صروف



في علم النفس والتربية

١ — الطرق العملية لدراسة الحياة العقلية

تأليف نظله الحكيم ومحمد مظهر سعيد

يجمع هذا الكتاب بين دفتيه طائفة من التجارب النفسية التي ترمي الى قياس بعض النواحي العقلية كالذاكرة وسرعة الحفظ والنسيان الى آخره . يجمع هذه التجارب كما يجمع الانسان بعض الثمار من غير ان يبين شيئاً عنها ، لا بل من دون ان يسأل نفسه ما هذه وما تلك . او ما نفع هذه وما فائدة تلك . واليك مثلاً مما ورد في صفحة ٣٥ من الكتاب تحت عنوان «الصور الذهنية»

يطلب الى الموضوع Subject ان يضع امامه كتاباً مقفلاً ، وينظر اليهِ بضع ثوان ، ثم يغمض عينيه ويحاول ان يستحضر كل التفاصيل التي يذكرها عن هذا الكتاب ، ويدون هذه التفاصيل ويجيب عن بعض الاسئلة التي وجهها اليهِ المؤلفان في كتابهما ، وانتهينا من الموضوع . ثم نجدنا وقد اخذنا بسبيل موضوع آخر . من دون ان يدري القارىء العادي ماذا يراد منهُ وماذا يريد هو من هذه التجارب ولماذا يتعب نفسه فيها اصلاً

والواقع او على ما يظهر لنا ان القصد من الكتاب ان يستعمله المعلمون لجمع الحقائق الخاصة بهِ، اي ان الغرض منهُ استقرائيٌّ احصائي

نحن نعرف المؤلفين معرفة جيدة ، ونعرف مكانهما العالي بين اساتذة علم النفس في هذا البلد ، وكنا نتوقع منهما ان يقدما لنا دراسة تفصيلية لهذه الاختبارات مع بعض الامثلة التي تسهل لنا فهم هذا الموضوع ، فالاستاذ مظهر سعيد كفء لهذه الدراسة وله الاستعداد والمقدرة على الاضطلاع بهذا الامر — لا بل نظن انهُ من القلائل في هذا البلد الذين يستطيعون ان يكتبوا في هذا الموضوع عن دراية ومعرفة تامتين

وللاستاذين عذرهما فان هذا هو الكتاب الاول ، وهو بطبيعة الحال انما وضع تمهيداً لما سيتلوه فأرجو منهما ان يلاحظا هذا الامر في كتابهما التالي ، وهو ان الجمهور مقبل على علم النفس ، لم تُتَح له الفرصة الكافية ولا الكتب الكافية لهذا النوع من الثقافة فهو يريد ان يلم بالمبادىء الاولية التي تبنى عليها امثال هذه الاختبارات ، وبعبارة اخرى نريد دراسة تمهيدية لاختبارات الذكاء وجميع الاختبارات العقلية ، لماذا نستعمل هذا الاختبار او ذاك ، وماذا ينتج من اجرائهِ وكيف نستطيع ان نحكم

على قيمة نتائجه وما هي دلالة هذه النتائج. بعد هذا كله يصح ان نحاول اجراء هذه الاختبارات على انفسنا

اظن هذا الكتاب قد وضع لطلبة الاستاذين او لهم ولطائفة من المدرسين ، فاذا كان هذا هو الواقع فمن الواجب على الطلبة ان يدرسوه وعلى المعلمين الذين يهمهم الموضوع ان يجربوا التجارب ويجروا الاختبارات ويدونوا نتائجها ويبعثوا بها الى المؤلفين لتكون نواة لكتابهما المقبل يلخصان فيه النتائج الاحصائية

٢ — الجزء الثالث من علم النفس

تأليف محمد عطية الابراشي وحامد عبد القادر

هذا كتاب من خيرة الكتب في علم النفس في اللغة العربية يجمع ما يمكن جمعه بين دفتي كتاب واحد ، لا بل اظن انهُ يجمع اكثر مما ينبغي ان يجمع ، فعلم النفس علم واسع جدًّا ، وما كتب فيه لا يمكن تلخيصه مع حفظ قيمته ، فلا بدَّ من ان يقصر التلخيص فيه بمن يريد ان يطلع على شيء من هذا العلم الحديث

فاذا كان الغرض من وضع هذا الكتاب هو الالمام السريع بأبواب السيكلوجيا وموضوعاتها ، الماماً لا يسمن ولا يغني من جوع ، الـمامَ حصر لا المام تفصيل فقد حقق هذا الكتاب الغرض من تأليفهِ على خير وجهٍ وعرج على كل شيء ينسب للسيكلوجيا ، وانتطف من كل شجرة ثمرة ومن هذه الوجهة اظن ان هذا الكتاب من خير ما وضع في لغتنا في علم النفس ، ويصحُّ ان يعد من الكتب القلائل التي وضعت في اللغة العربية

ولكني كنت افضل شخصيًّا ان لا يحاول المؤلفان الاحاطة بالموضوع من جميع جهاته ، ذلك لان هذه المحاولة في رأيي كثيرة على استاذين اثنين ، وكثيرة ايضاً على كتابين او ثلاثة ، الاَّ اذا كان الغرض التعريج على المواضع والالماع اليها الماعة سريعة . كنا نفضل ان لا يحاول الاستاذان ، هذا ، وانما كنا نريد منهما ان يقصرا جهودهما على بعض موضوعات السيكلوجية ، ويدرساها دراسة تفصيلية مستطيلة تلم بها من جميع النواحي ، مع الافاضة والشرح وضرب الامثال مما يقع تحت حس القارىء العادي في منزله وديوانه وفي الطرقات العامة . وليس يخفى بالطبع ان السيكلوجية هي محاولة الكشف عن الدوافع النفسية للتصرفات المادية ، وهذه بالطبع دراسة يقوم بها كل انسان من يوم الى يوم بغض النظر عن مقدار حظه من الثقافة ، اما وان الاستاذين قد حاولا جمع شوارد هـذا العلم بين دفتي كتاب فقد اضطرا بحكم ذلك ان يقتصرا في كثير من الاحيان عن الشرح المستطيل بوضع تعريف لبعض النواحي النفسية ، والتعريف في جملة او جملتين بموضوع من موضوعات هذا العلم خطر كبير يجب ان نتجنبه بعد ان وصلنا الى هذه الدرجة من الثقافة

الحق اني معجب بهـذا الكتاب واظن انهُ من واجب جميع المشتغلين بالتربية ان يقرأوه .

خصوصاً اولئك الذين لا تتاح لهم دراسة هـذا العلم في احدى اللغات الاجنبية . ولكنني ارجو المؤلفين ان يزيدا التفصيل حتى وان تناولا موضوعاً محدوداً من السيكلوجية فقط

٣ — في التربية

تأليف الدكتور علي عبد الواحد وافي

هذه رسالة قيمة للدكتور علي عبد الواحد وافي وضعها للدكتوراه ، وهي كجميع ما يكتب للفوز بالدرجات العلمية ، دراسة اكاديمية لا موضع فيها للامور العملية ، او بالحري تأتي المسائل العملية فيها في المحل الثاني ، ولا يعاب المؤلف في هذا لأن الغرض الاصلي من الرسائل العلمية هو اشعار مراجع الجامعات بأن الفرد قد حصل على قسط لا بأس به من العلم يتناسب مع الدرجة التي يسعى اليها ، بغض النظر عن أثر هذا في الحياة العادية للافراد والجماعات

والرسالة نفيسة حقّـاً فذة في بابها لا اذكر ان احداً تناول موضوعها قبل الآن في اللغة العربية ، الفصل الاول فيها بحث قيم بديع في اللعب يجب ان لا يفوت المشتغلين بالتربية بحال من الاحوال ، وكم كنت اتمنى ان المؤلف قصر كتابه على هـذا الباب مع الاطالة في الشرح والتفصيل بحيث يرينا أثر اللعب في حياة الفرد الخلقية والاجتماعية ، وكيف ان اللعب يكوّن الافراد ويكوّن الامم ، كنت اريد ان هذا البحث يدور حول الاخلاق والاجتماع

وانا لا الوم الدكتور في شيء وقعت فيه انا ، وكنت اود لو لم اقع فيه ولكن ظروفنا التي نحن فيها تتطلب من امثال الدكتور ان يتقدم للجمهور برسالته العلمية اولاً ، ويجب على كل حال ان يتلوها برسالة عملية نستنير بها في حياتنا الاجتماعية الراهنة

وبحثهُ في ماهية اللعب ، والدوافع النفسية والبدنية له ، جمع كثيراً من الآراء والمذاهب المنوعة ثم اعطى لكل رأي قيمته وقدره ، وعقب على هذا برأيه الخاص ، وعقب على هذا كلهِ باظهار الفرق بين اللعب والعمل ، ورأيهُ في هذا الفرق يتقارب من رأي فنديل في احد كتبهِ ، ويستند الى كثير من علماء التربية ، وان كنت شخصيًّا لا ارى هذا الرأي من الوجهة النظرية وان كنا متفقين عمليًّا ، فاللعب والعمل من الوجهة النظرية لا يمكن التفريق بينهما بحال من الاحوال ، فهو في الواقع تفريق بين الغايات والوسائل ، وهذه في رأينا لا يمكن التفريق بينها من الوجهة النظرية

والكتاب ينتهي بقائمة كبيرة من المراجع التي لا يمكن ان تستغني عنها رسالة علمية ، ولكن هذه القائمة ينقصها ما كتب في اللغة العربية ، وكان من المستحسن ان يذكرها المؤلف او يشير الى انهُ اطلع عليها

الحق انهُ كتاب يجب على كل المشتغلين بالتربية وعلم النفس ان يدرسوه بامعان وتدقيق

يعقوب فام

الثورة العربية الكبرى

تأليف امين سعيد — نشرته مطبعة عيسى البابي الحلبي — ثلاثة مجلدات صفحاتها ١٤٠٠

ان من اجل الكتب التي ازدانت بها خزانة التاريخ السياسي في اللغة العربية في الفترة الاخيرة كتاب « الثورة العربية الكبرى » للاستاذ امين سعيد . ولو قدر للمستر (روبرت جرايفز) ان يقرأه ويرى الاخبار الواردة فيه والوثائق المسجلة بين طياته لاسترجع ما فرط منهُ من القول عن ان تاريخ (الكولونل لورنس) للثورة العربية لا يشق العرب غباره ولا يأتون بمثله[1]

والواقع ان هذا السفر النفيس الذي اتحفنا به كاتبنا العربي هو مرجع خصب للمتتبعين من اهل الاجيال القادمة وموسوعة في الموضوعات التي تناولها لا يمكن الاستغناء عنه بوجه من الوجوه . وقد ضم بين دفتيه من اخبار النهضة القومية العربية منذ فجرها عقب الانقلاب العثماني في سنة ١٩٠٨ الى اليوم ما لا يترك زيادة لمستزيد فاستعرض فيه الوقائع والحوادث ما ظهر منها بالصورة المكشوفة وما بطن وراء ستار الدسائس على طريقة حرية بالتدبر والاعجاب . فهنالك وصف مستفيض للجمعيات العربية التي تألفت من بعد ما كشر الاتحاديون الترك عن انيابهم وباشروا خططهم المحفوفة بالمهالك من تتريك العرب والقضاء على قوميتهم وثقافتهم تحت برقع من الاخاء الديني ثم جاءت الحرب العامة فاتخذ السفاحون الطورانيون اعلانها فرصة للقضاء على النابهين من رجالنا فنصبوا المشانق لافذاذ منا لو بقوا في قيد الحياة لتعذر على المستعمر الاوربي ان يدنس ارض الوطن المقدس بقدميه وساروا بمظالمهم ومغارمهم يجللونها بدعاية من الدين كاذبة حتى ارغموا العرب على امتشاق الحسام . ومن اقذر الهنات التي يزل بها زعيم هؤلاء الطغاة احمد جمال باشا ما ابرزه كتاب « الثورة العربية الكبرى » من الوثائق السرية التي نشرها البولشفيك في اواخر الحرب العامة وفيها ادانته بالخيانة الوطنية العظمى ضد الترك والخلافة العثمانية وذلك بمحاولتـه الانحياز الى جانب الروس والانكليز والفرنسيين لتأليف سلطنة يجلس على عرشها وتكون لخلفه من بعده ولكن من سوء حظه ان الحلفاء انفسهم ردوه ردًّا منكراً

اعلن الشيخ الوقور حفيد من اسس مجد العرب الثورة العربية في سنة ١٩١٦ وما زال النصر حليفها في حلها وترحالها حتى دخل فيصل بن الحسين دمشق في اواخر سنة ١٩١٨ من بعد ما لاقى العرب الاهوال في سبيل حريتهم فتأسست حكومة وطنية في عاصمة الامويين ترعاها الآمال وتحف بها الاماني ولكن الجنرال غورو ممثل الفتح العسكري الاوربي والبسطة الاستعمارية الغربية اكتسحها في شهر يوليو سنة ١٩٢٠ فداس تلك الوعود والعهود الشفهية والخطية التي قدمها الحلفاء للعرب وآخرها تصريح نوفمبر سنة ١٩١٨

وصف الاستاذ امين سعيد الحكومة الوطنية السورية واعمالها وصفاً دقيقاً ثم ذكر العراق

---

(١) ظهر هذا الكتاب بالانكليزية لاول مرة سنة ١٩٢٧ واسمه « لورانس والجازفة العربية » وطبع غير مرة

وانتقاضه على البريطانيين والادارة العسكرية الاجنبية في بلاد الرافدين ومبايعتهُ لملك فيصل ثم أشار الى امارة شرق الاردن والامير عبد الله وعرج على فلسطين وغليانها والانتخابات ومقاطعتها والجهود التي صرفت للخلاص من كابوس الاستعمار المزدوج حتى انتهى الى الثورة السورية الكبرى وخوارق الاعمال التي ظهرت فيها مما يعيد الى الخاطر ذكريات عصر الفروسية في الجاهلية فكانت هذه الاخبار عن الثورات التي نشبت في البلدان العربية المسلوخة عن الدولة العثمانية حجراً في فم المتخرصين الذين حاولوا ان يقدحوا في وطنية العرب ويقللوا من شغفهم بالحرية والاستقلال

والكتاب كله نفع ولكن في عقيدتي ان انفع ما فيه وصف نهضتنا القومية في مهدها وكيف صادمنا فتيان الاتحاديين عقيب الانقلاب العثماني ولم نستكن لهم والمظالم والمغارم التي حلت بالبلاد على ايديهم وذكر قوافل الشهداء التي ذهبت الى سدد المشانق في سنتي ١٩١٥ و١٩١٦ والاقوال التي قالوها قبل ان تعلق الحبال في رقابهم مما كان له كلهُ ابلغ الاثر في انتباه وعينا القومي

وفي الحق انني لا اعد شيئاً مستغرباً في جميع ما ذكره كتاب « الثورة العربية الكبرى » من اعمال البطولة الخالدة التي قام بها العرب لمحاربة الاستعمار وذلك لان نيات المستعمرين الغربيين واغراضهم المادية واضحة وبدهية الى درجة ان الذين كانوا يعدونهم قبل الحرب العامة منقذين اصبحوا بعد حين يعدون وجودهم نكبة على البلاد

ولكن ان تعجب أيها القارىء لشيء فعجب ان يرى رجالات العرب بفكرهم الثاقب ونظرهم البعيد دسائس الاتحاديين الترك وما كانوا يضمرونه للعرب من شر ويحاولونه من تتريك فيهبوا في وجوههم على قلتهم غير هيابين تلك الدعايات الدينية الباطلة التي أثاروها ولا مكترثين لتلك الخلافة المزوقة المموهة التي أحاطوها بأنواع الدبدبة والطنطنة ليحاربوا بها رجالنا ويسحقوهم من غير ان يعتقدوا بها ، وحسبنا ان يكون ابناء جلدتهم والذين انقذوا تركيا من الدمار هم الذين قوضوا اركانها وقضوا على معالمها

وهذا السفر النفيس وان وصف الثورة العربية خير وصف وبرر رجالها والقائمين بها خير تبرير الاّ انه لم يحجم عن ان يشير الى الخونة والمأجورين الذين اندسوا بينهم شأن سائر النهضات القومية الوطنية المقدسة التي لا تخلو من عباد المنافع وارباب المصالح الذاتية الحقيرة

وعلى كل حال فهذا الخبر الطويل الحافل بأدق الملاحظات عن الثورات التي هبت في العالم العربي لانقاذه من براثن الاستعمار على أنواعه هو التراث الثمين الذي سيفتخر به الابناء والاحفاد كما يفتخر الاميركيون اليوم بأعمال واشنطن وزملائه الامجاد وويل ثم ويل للامة التي تطمح ان تكون في مصاف الامم الحية وهي تبخل على حريتها بالمهجة والدينار لأن الذي يطلب عظيماً يجب ان يخاطر بالعظائم

وان الفراغ الذي ملأه الاستاذ امين سعيد في تاريخ تدرجنا السياسي الحديث فراغ عظيم

طالما شعرنا بوجوده لسببين اثنين (الاول) لان النشء الحديث من ابنائنا على ما فيه من وطنية تغلي كالمراجل لا يعرف الاَّ النزر اليسير من اعمال الذين اسسوا له الوطنية العربية الملتهبة فهو في حاجة الى مصادر يستوثق منها كمصادر (الثورة العربية الكبرى) و (الثاني) لان بعض الاقطار الشرقية بقيت في حيرة وارتباك بين ما سمعت بأذنها من الدعايات المأجورة التي انتشرت على العرب من جهة وما رأت بعينيها من اعمال البطولة الخالدة التي قاموا بها لمصارعة الاستعمار الغربي من جهة اخرى فهي والحالة هذه في حاجة الى من يدلها على اخبار النهضة العربية في مهدها والغايات النبيلة التي ذهب الى المشانق من اجلها شهداؤنا الغر الميامين ليكون ثمة تطابق بين السمع والبصر وهذا ما فعله كتاب (الثورة العربية الكبرى) وأقام الدليل عليه بالحجج الدامغة والاخبار الممتعة

الدكتور عبد الرحمن شهبندر

تاريخ الوزارات العراقية

صدر الجزء الثاني من تاريخ الوزارات العراقية بقلم الباحث المحقق السيد عبد الرزاق الحسني الكاتب العراقي المشهور . وهو في ٢٤٠ صفحة بالقطع المتوسط وقد طبع طبعاً متقناً على ورق جيد صقيل في مطبعة العرفان بصيدا

وهذا الجزء متمم للجزء الاول وقد صدر في السنة الماضية ووصفهُ المقتطف ويتضمن تاريخ العراق السياسي في الفترة الممتدة من قيام الوزارة العسكرية الثانية في اول نوفبر سنة ١٩٢٦ حتى استقالة وزارة ناجي باشا السويدي في شهر مارس سنة ١٩٣٠ مع ملحق يحتوي على صك الانتداب البريطاني للعراق والدستور العراقي الصادر يوم ٢٩ يوليو سنة ١٩٢٥ . والكتاب دائرة معارف في السياسة العراقية لا يستغني عنهُ كاتب ولا باحث فقد ضم في جزئيه الكبيرين تاريخ العراق السياسي من قيام دولته في سنة ١٩٢١ حتى سنة ١٩٣٠ . وانا لنرجو ان يوفق حضرة مؤلفه الى اخراج الجزء الثالث جامعاً لتاريخ العراق السياسي في الفترة الجديدة من سنة ١٩٣٠ حتى الآن فهو خير من يضطلع بهذه المهمة وافضل من يتصدى لها

ولقد اتبع المؤلف طريقة طريفة في تبويب مؤلفه الثمين فهو بعد ان يثبت نص المرسوم الصادر بتأليف الوزارة يذكر العوامل التي ادت الى تبوُّءها الحكم ثم ينشر برنامجها ويتبعه برسوم اعضائها الشمسية كل واحد على حدة ثم يورد تاريخها ويسرد الاعمال التي عملتها والعقود التي عقدتها ان كان هنالك عقود ، والمشروعات التي شرعت بها ، والقوانين التي سنتها والانظمة التي نظمتها وبالاجمال فهو لا يدع شاردة ولا واردة من تاريخها السياسي والاداري الاَّ اثبتها ودوَّنها

فنثني على حضرة مؤلفه الذي اختط خطة جديدة في كتابة التاريخ السياسي باللغة العربية راجين له التوفيق في اصدار الجزء الثالث وآملين لكتابه من الرواج والاقبال ما يستحقه

الألحان الضائعة

نظم حسن كامل الصيرفي — طبع بمطبعة التعاون بمصر — صفحاته ١٠٤

شعر هذا الديوان اكثره مما سبق نشره على صفحات المقتطف من اوائل عام ١٩٢٩ تقريباً وقد كانت مجلة العصور قبل ذلك بعام، أول ميدان ظهر فيه نشاط هذا الشاعر في نشأته الاولى. لذلك لا نظن أحداً من قرّاء المقتطف يجهل لون هذا الشعر أو فنّ هذا الشاعر

لحسن كامل الصيرفي في ديوانه الألحان الضائعة شاعر وادع النفس، رقيق القلب، متزن العقل ثم هو بعد ذلك رشيق الاسلوب، واضح البيان احياناً، قويُّ الخيال يصدر في شاعريته عن فكرات تلابس معظمها الروعة الفنية فتجد المعاني المبتكرة كفاءها من اللفظ المختار ويظهر ان الموسيقى التي تتجاوب بها قصائد الديوان مستمدة من نفس شاعرها فهي هادئة وادعة، قد تستدعي الانتباه أحياناً وقد تمر على اذن القارىء كما يمرُّ الحلم بالعيون الواسنة

ظهر هذا الديوان في عام حفل بظهور الدواوين الشعرية وأخصها (الملاَّح التائه) لعلي محمود طه و (وراء الغمام) لابراهيم ناجي فأثارا من الضجة في مصر والعالم العربي مما لم يكن ليدور في خلدنا فدل ذلك على يقظة الروح الفني وتحفز النزعات الادبية في الشرق العربي وان المادة عادت لا تشغل الناس كلَّ الشغل عن متعة الروح. لهذا حمدنا لحسن كامل الصيرفي اظهار ديوانه في العام نفسه بجانب الدواوين الاخرى ليتاح لنا ان نسمي هذا العام بعام الشعر

أظهر السمات في شاعرية الصيرفي هي التصوير — والتصوف — والطبيعة — والعاطفة أحياناً. فأما شعره التصويري فتتجلى لك براعته في قصيدتي «حياتي» و «موت عزرائيل» وغيرها. أما سمة التصوف فتتجلى لك في بعض قصائد «الشاعر» ومقطعات «اغاني الربيع» وغيرها. اما الطبيعة فله فيها قصائد «جفاء الطبيعة» و «موت البلبل» و «الشجرة العارية». واما العاطفة فتبدو في قصائد «دعيني» و «تحت ضوء القمر» وغيرها. والصيرفي في اكثر قصائده ذو نزعة تجديدية فهو يميل دائماً الى التحرر من القافية والى بعض الاخيلة الغامضة التي يسمونها بالفرنسية mance والتي يمكن ان تعتبرها في بعض الاحايين رمزية وهو في حبه لانطلاقه من وثاق القافية يقارب الروح الغالبة بين شعراء المهجر. كما انهُ يتلاقى في بعض قصائده الاخيرة مع بعض الشعراء المصريين

وقد جرت مناقشة على صفحات المقتطف من عهد قريب، بين الشاعر وأحد النقّاد، أخذ بها على الشاعر خروجه في بعض أبياته عن أحكام العروض. واننا لنرجو من صاحب الالحان الضائعة ان يستتمّ عدّتهُ من هذه الناحية، وان يعنى بالاستزادة من ثروته اللفظية، مبالغةً منهُ في إفراغ ظلال المعاني في قوالبها الأصيلة. وليس هذا عليه بعسير (٠٠٠)

تربية الطفل — اسرار المراهقة

تأليف الدكتور شخاشيري

مضى على الدكتور شخاشيري نحو عقدين من السنين وهو لا يألو جهداً ولا يدخر وسعاً في كتابة المقالات والقاء الخطب وتأليف الكتب، في موضوع صحة الاطفال والاحداث، وما يجب على الوالدات والوالدين حيالهم من العناية والارشاد، لانهُ يدرك ككل طبيب يهتم بالناحية الاجتماعية من عمله ان صحة الامة الجسدية فالعقلية رأسمالها في معترك الحياة . فاذا فرّطت فيهِ لم تغنها عنهُ ثروة مطمورة في الارض او هابطة من السماء

وقد اصدر في خلال الصيف الماضي كتابين نفيسين احدهما تربية الطفل (طبعتهُ مطبعة عيسى البابي الحلبي) والثاني الطبعة الثانية لكتاب اسرار المراهقة في الفتى، (اخرجتها المطبعة العصرية لصاحبها الياس انطون الياس) . وكلا الكتابين مما لا تستغني عنهُ اسرة شرقية، تطمح الى تنشئة ابنائها على احدث الاساليب الصحية واحكم القواعد

فالكتاب الاول (تربية الطفل) يشتمل على فصول، اجراها المؤلف حديثاً بين طبيب وام او بين طبيب وأبٍ، وعالج فيها باسهل اسلوب استحمام الطفل وتنظيف اعضائهِ وملابسهِ وحجرتهِ ونزهتهُ ووزنهُ واسنانهُ، وغذاءهُ في ادوار طفولتهِ المختلفة . وفي القسم الرابع من هذا الكتاب مباحث او احاديث تتعلق بصحة الطفل والامراض التي يتعرّض لها . والقسم الخامس يشتمل على المحاضرة النفيسة التي القاها في المجمع المصري للثقافة العلمية وعنوانها التأمين على صحة الطفل، وهي مما يصحُّ ان يكون دستوراً للعناية بالطفل الشرقي . والدكتور شخاشيري يكتب بقلم الطبيب والوالد الخبير الذي انشأ اسرة يفتخر بصحة ابنائها وخلقهم . فكتابهُ هذا يصحُّ ان يكون مرشداً للاسرة الشرقية في العناية باطفالها

اما الكتاب الثاني (اسرار المراهقة في الفتى) فيتناول ناحية اخرى من صحة العائلة، نعني حياة الاحداث اذا تتفتح غرائزهم عن تلك الاسرار التي لها صلة باخلاف النسل وبقاء الجنس . فالاحداث في هذه الفترة من حياتهم يتعرضون لاضطرابات نفسية وعصبية، او لامراض وبيلة، يمكن اجتنابها اذا ادرك الوالدان اسرار هذا الدور من حياة ابنائهما، والسبل الصالحة لارشادهما الى مواطن الصحة الجسدية والسلامة النفسية والعقلية . والكتاب كما يقول المؤلف: «صحي علمي اجتماعي، يشمل سلسلة من المحاورات بين اب طبيب وابنهِ، تبحث في شؤون دور البلوغ، ومكانة اعضاء التناسل، وكيفية الاحتفاظ بها سليمة ونصائح قيمة عليها تتوقف صحة الابدان ونضارة العمران»

وقد ضمّ المؤلف الى الكتاب الفصلين اللذين نشرناهما هذه السنة في المقتطف بعنوان «العلم والحياة الجنسية» والمحاضرة التي القاها في جامعة القاهرة الاميركية بعنوان «دور المراهقة وتبعة الوالدين» (وقد نشرناها في المقتطف عددي يونيو ويوليو ١٩٣٣) . ومما تحسن الاشارة اليهِ ان الدكتور

استفتي بعض قادة الفكر والتربية في مصر ، عقب محاضرته ، في موضوع التربية الجنسية ، فجاءته ردود حكيمة من الدكتور شاهين باشا والدكتور طه حسين والسيدة انصاف منصور فهمي وسلامه موسى وعبد القادر حمزه والدكتور زكي مبارك فننشر فيما يلي جواب الدكتور طه حسين قال :

أوافق كل الموافقة ان تكون التربية الجنسية شيئاً تعترف بهِ الاسرة في البيت والدولة في المدرسة في غير حرج ولا نفاق ، فهي كغيرها من انواع التربية الجسدية والعقلية ضرورة من ضرورات الحياة . وربما كان الشر الناشيء عن اهمالها اعظم جدًّا من الشر الذي ينشأ عن اهمال غيرها من اساليب التربية فهو يمس صحة الجسم وصحة العقل وصحة الخلق جميعاً ويجعل النفاق والفساد اصلين من أصول الحياة الاجتماعية

الحموضة والقلوية

في نظرية الشوارد Ions

دفع اليَّ رئيس تحرير المقتطف نسخة من هذا الكتاب النفيس — تأليف العالم محمد صلاح الدين الكواكبي الدكتور في الصيدلة والكيمياء ، والاستاذ المساعد في مخبر الكيمياء في المعهد الطبي العربي في دمشق — لكي اطالعهُ واكتب عنهُ المقتطف . ولكن الكتاب لا يطالع مطالعة بل يجب ان يُدرَّس درساً بانعام نظر لان مباحثه علمية بحتة في موضوع من اهم موضوعات العلم الحديث يرتكز عليهِ علم كيمياء الحياة Biochemistry وعلم الكيمياء المرضية Patho-Chemistry ايضاً . فصدور هذا الكتاب بلغتنا العربية يضيف قدراً كبيراً من الثروة العلمية اليها كسائر مؤلفات هذا العالم المنتج في حين ان العربية فقيرة جدًّا جدًّا بالعلوم الحديثة

وقد قرأت جانباً من هذا الكتاب القيم وادركت ما فيهِ من دقة البحث وعمقهِ وما للمؤلف من سعة المعرفة العلمية والاضطلاع بفروع العلم الحديث وشعرت بما عاناه في خلال تصنيفهِ في اختيار الالفاظ العربية الممكنة للاصطلاحات العلمية

الكتاب مدرسي محض والبحث فيهِ عويص جدًّا فيتعذر على الطالب ان يحصّل ما فيهِ من معرفة بلا استاذ يشرح له البحث أثر البحث ، اللهمَّ الاَّ اذا كان الطالب ملمًّا بشيءٍ من اطراف الموضوع من قبل . واظن ان غرض الدكتور الكواكبي ان يكون هذا الكتاب متناً بين ايدي تلامذتهِ يرجعون اليهِ للذكرى بعد ان يشبع اذهانهم بشروحهِ في محاضراته لهم . وكنت اتمنى ان يكون الغرض منهُ اعم بحيث يستفيد منهُ الطالب الهاوي غير المتتلمذ ايضاً . ولذلك تمنيت ان يكون قسم « المعلومات النظرية » الذي استهلَّ بهِ الكتاب مطولاً نحو ضعفيه ولا سيما في اوائله اي ان تشرح فيهِ النظريات الاساسية التي تمهد البحث للدارس الهاوي ، كشرح معنى الحموضة والقلوية ومعنى اختبارهما وشرح التأين Ionisation الكهربائي شرحاً وافياً ، وشرح المراد بالتعادل

والتكاثف ، والتبسط في شرح التحلل او التفكك الكهربائي Electrolysis الى غير ذلك من الامور التي تظهر خارجة عن موضوع الكتاب ولكنها بالحقيقة اساسية له وبدونها لا يفهم . ولزيادة تسهيل التناول على القارىء كان حسناً ان يضاف الى الكتاب معجم صغير في بضع صفحات تفسر فيه الاصطلاحات العلمية تفسيراً فنيًّا ملحقاً بالمرادفات لها في احدى اللغات الافرنجية لكي يعود القارىء الى هذا المعجم كلما تكررت لفظة امامه اذا كان قد نسي المراد منها

ولعل الدكتور الكواكبي شرح تلك المعلومات النظرية في مؤلفاته الاخرى شرحاً كافياً فاجتزأ بما شرحه هناك عن التطويل في هذا الكتاب . ولكنهُ لو اعاد في المقدمة الشروح التمهيدية اللازمة لكان الكتاب اتم فائدة للقارىء الذي لا تسمح له احوالهُ بالرجوع الى المطولات والمتون . وقد استدرك المؤلفون الافرنج هذا الامر اذ ترى مؤلفاتهم العلمية تتقدم للقراء بمقدمات تمهيدية خارجة عن الموضوع تسهيلاً لتفهم الموضوع نفسهِ . فمؤلف الكيمياء مثلاً يمهد بفصل طويل عن بعض المواضيع الفيزيائية اللازمة لابحاثه . ومؤلف الفلك يمهد بفصل او فصول عن الكهرباء والنور والحرارة لكي يسهل للقارىء فهم ما يراد منها في معرض مباحثه الفلكية

على ان الدكتور الكواكبي يقدم لطلاب العلم العرب لؤلؤة نفيسة جدًّا ، ولكنه نسي ان يقدم معها العلبة التي تودع فيها . او لعلّ العلبة في احد مؤلفاته الاخرى . فلا ادري . ليتهُ اشار اليها . بيد ان اللؤلؤة لامعة في كل حال . اعتقد ان القارىء يقدر مما تقدم القيمة الغالية لهذا الكتاب فيشكر معي للمؤلف عظيم الشكر نقولا الحداد

الدليل العام للقطر المصري والخارج

سنة ١٩٣٥ — يصدره اميل مكاريوس — صفحاته ١٩٨٢ من حجم اربعات — طبع بمطبعة المقطم بمصر

لقد اصبح اصدار دليل جامع كهذا الدليل عملاً شاقًّا بقدر ما هو عمل مفيد ، فجمع الحقائق والاسماء والعناوين وارقام التليفونات من قطر كالقطر المصري سكانه خمسة عشر مليوناً ثم تبويبها وترتيبها ووضع فهارس لها واخراجها في مجلد يضم الفي صفحة كبيرة عمل دونه خرط القتاد ولكنه عمل مفيد لان موظفي الحكومة على اختلاف اعمالهم والتجار والاطباء والصحافيين يحتاجون اشد الحاجة اليه . ماذا تطلب ؟ عنوان فلان في مكتبه او بيته ورقم تلفونه في كليهما ؟ لك ما تريد . افتح باب الصحف ان كنت تطلب صحافيًّا او باب التجار ان كنت تطلب تاجراً او باب الاطباء والصيادلة ان كنت تطلب طبيباً او صيدليًّا تر الاسم والعنوان ورقم التليفون . فوزارات الحكومة كلها مبوبة تبويباً متقناً وفيها اسماء الموظفين جميعهم واعمالهم واماكن سكنهم والمديريات كذلك

وقد صدر دليل هذا العام حافلاً بكل ما تقدم من المعلومات مبوبة احسن تبويب حتى يسهل تناولها والبحث عنها . وهو يحتوي على طائفة كبيرة من الصور ومقدمة طويلة في تاريخ مصر القديم والحديث . فنهنىء منشئه ومخرجه بهذا العمل الجليل ونتمنى لدليله ذيوعاً هو جدير به

مجلة الدهور

اذا صحّ القول بأن « الصحافة مرآة للامة » ففي سورية اليوم ظاهرة صحافية جديدة لا بدّ من الاشارة اليها لأنها تدل على تطور اجتماعي خليق بالدراسة والمتابعة . كانت الصحافة في سورية وما برح اكثرها الى اليوم يعالج السياسة المحلية بالمسكنات والمخدرات فما فكر رجالها قط ولا عنوا بتعرّف العلة التي اوجبت المرض السياسي الذي كاد يتأصل ويزمن في جسم المجتمع السوري

ليس لي الآن ان المح تلميحاً الى الناحية السياسية لارتباطها بما أهميته في الصحافة السورية تطوراً في الاجتماع ، ولولا الاضطرار الى الاكتفاء بالتلميح والاستغناء عن التوضيح لكنت وازنت بين اعمال الصحافة واعمال رجال السياسة ، واظهرت مدى الارتباط الواقع بينهما ، ومميار التطور الذي يحدثهُ هذا الارتباط الذي بهِ تعرف الامة من مرآة صحافتها ، ولكن ليس الآن مجال هذا البحث

انما غرضنا ان نشير الى التطور الاجتماعي في سورية لانهُ آت عن طريق شقتهُ الصحافة جديدةً وعبدتهُ بحيث اصبح جادة سلطانية توصل الى المحجة التي ينشدها الشباب المتطلعون الى غدهم الحريصون على سعادتهم بأن تكون مكفولة فيهِ

أما الظاهرة الصحفية الجديدة التي أحدثت التطور الاجتماعي الملموس في سورية فهي اولاً في انشاء مجلة الدهور بثوبها الحالي وثانياً في جعل هذه المجلة ميداناً يتبارى فيه جماعة من أدباء الشباب تسموا « بجماعة التحرير الفكري » وثالثاً في نهج هؤلاء الشباب نهجاً يختلف عن تفكير الشيوخ الذين ألفوا معالجة الادواء السياسية والاجتماعية بالمسكنات والمخدرات وحسبان هذه المعالجة الفاسدة حكمة واصالة رأي

من يتصفح مجلة الدهور التي يصدرها في بيروت « جماعة التحرير الفكري » وعلى رأسهم الاستاذ سليم خياطة يجد ان هؤلاء الشباب يرمون حقيقة الى تحرير الفكر قبل تطلعهم الى التحرر من ربقة المحتلين ، ويدعون الى الاخذ بالنظم الاجتماعية الحديثة واعتناق تعاليمها لانها — في نظرهم — أقطع وأمضى من اسلحة النار والحديد الذي ألف الاقوياء المولون قتال الضعفاء والمستضعفين بها ، وينادون بالمدنية الانسانية التي تجعل العالم بأسره وطناً للانسان المتمدين المتحضر ، ويهيبون بالناس الى الاقلاع بله التمرد على النظم الاجتماعية التي وضعت في الاصل على أسس من الفساد والفوضى ، ويجأرون في وجوه الرجعيين والمحافظين لانهم دعاة الخضوع للأمر الواقع

هذه لمحة من طرائف رسالة « جماعة التحرير الفكري » تقرأها صريحة في هذه المجلة الراقية التي لا يقتصر كتابها الافاضل على التأليف وحده بل يعتمدون على الترجمة عن جهابذة الكتاب العالميين والاقتباس من ناضج افكارهم ورائع انتاجهم العقلي ، وبذلك يجعلون مرآة امتهم ويجعلون من مجلة الدهور رجع صدى نفسها الطامحة الى التحرير الفكري والاجتماعي والسياسي

حبيب الرحلاوي

الفجر

مجلة نصف شهرية غرضها خدمة الآداب والفنون والثقافة العامة تصدر بالخرطوم — السودان — في ٥٠ صفحة تقريباً من القطع المتوسط ١٦ × ½ ٢١ سم لمنشئها ومحررها عرفات محمد عبد الله ثمن العدد قرشان صاغ واشتراكها السنوي عن مصر والسودان ٥٠ قرشاً صاغاً

هذه المجلة المفيدة يصدرها ويتولى تحريرها في القطر الشقيق فريق من ادباء الشباب الحر الطامح الى مجد الوطن واسعاده عن طريق نشر الثقافة العامة بين المواطنين والسير في الطريق الذي سلكتهُ الامم الشرقية الحاضرة من حيث يقظة الروح الادبيّ والاخذ باسباب الادب الجديد والمحدث من الفنون الرفيعة

ولقد تصفحنا الى الآن عشرة اعداد من هذه المجلة فرأينا كثيراً حفولها — على قلة صفحاتها — بالشائق الطريف من الموضوعات العصرية فآخر اعدادها مثلاً فيهِ مقال ممتع عن الفردوسي على ذكر عيده الالفي لمحرر المجلة . ثم مقال نفيس عن الحياة السودانية المقبلة ومثلها العليا للاديب الشاعر محمد احمد محجوب ثم خواطر متداعية للكاتب البارع محمد عشري الصديق ومقالات غيرها في علم الكلام وحفيد الملك من شؤون الادب وبحث طبي للدكتور محمد زكي مصطفى عن حمى التيفود وبعض القصص الوطني وباب المكتبة كما انها لم تخل من باب للشعر العصري الذي ينشره الشاعر المهندس يوسف مصطفى التني

ويسرنا عناية هذه المجلة بالحركة الادبية في مصر ولها في بعض المؤلفات الاخيرة آراء حكيمة سديدة فنرحب بها ونتمنى لها الذيوع والانتشار

طريقة منسي

جريدة فرنسية نصف شهرية تعليمية أدبية فكاهية جامعة عامة يصدرها الأستاذ احمد ابو الخضر منسي دخلت في عامها الثالث وهي فكرة مبتكرة لتعليم اللغة الفرنسية من غير معلم سواء المبتدئين او المتقدمين فيها . مفيدة للتعليم والمطالعة لجميع الناطقين بالضاد وخاصة طلبة المدارس الثانوية على اختلاف درجة معرفتهم باللغة الفرنسية بما حوت من ضروب المختارات من الجرائد والمجلات وكتب الادب الفرنسية مترجمة ترجمة حرفية

رحلات الصيف

رحلتان قام بهما الاستاذ عمر الركباني الاولى الى باريس والثانية الى فاس وقد وصف فيهما المؤلف ما شاهده من الجبال والانجاد والمروج والغابات وما عملته يد الانسان من القصور والمسارح والمتاحف ووصف مدينة فاس ومتاحفها وحماماتها المعدنية وجمعياتها الخيرية — طبعت في مطبعة الاتحاد بتونس ؟



الطيران العجيب

من لندن الى ملبورن

لما اجتاز بلريو الطيار الفرنسي بحر المانش الضيق بطائرته من شاطىء فرنسا الى شاطىء انكلترا سنة ١٩٠٩ عدّ الاعجاب الدنيا كلها واشتهر اسم الطيار وقبض جائزة مالية قدرها عشرة آلاف جنيه

واليوم وبعد انقضاء ربع قرن يطير طياران من انكلترا الى استراليا فيقطعان عشرة آلاف ميل في يومين وخمس يوم (مدة الطيران بين ملدنهول وبورت داروين باستراليا) هي مسافة يستغرق قطعها بالبواخر شهراً او اكثر

وقد قسم طريق الطيران في هذه المباراة العظيمة الى مراحل اولاها بين ملدنهول بانكلترا وبغداد عاصمة العراق وطول هذه المرحلة ٢٥٣٠ ميلاً . والثانية من بغداد الى اله آباد في شمال الهند وطولها ٢٣٠٠ ميل . والثالثة من اله آباد الى سنغافورة وطولها ٢٢١٠ اميال . والرابعة من سنغافورة الى بورت داروين في شمال قارة استراليا وطولها ٢٠٨٤ ميلاً منها نحو ٥٠٠ ميل فوق بحر تيمور الفاصل بين جزر آسيا وقارة استراليا وهو بحر تكثر فيه القرشان . والخامسة وهي في استراليا بين بورت داروين وملبورن وطولها ٢١٧٦ ميلاً

وبين هذه المحطات الرئيسية محطات ثانوية يجوز للطيارين النزول فيها اما لاخذ الوقود او لاصلاح خلل او نحو ذلك وهناك معدات لتسجيل هذه الوقائع وحسابها

وقد علم القراء مما طالعوا في التلغرافات ان الفوز في هذه المباراة كتب للطيارين سكوت وبلاك بطيارة انكليزية من طراز « كوميت » . وتبعتهما الطائرة الهولندية متأخرة عنهما في الوصول عشر ساعات . ومن الطف ما حدث ان ادارة الطيران الهولندية كتبت الى وكيلها في ملبورن بأن يهدي الى الطيارين الانكليزيين عند وصولهما اكليلاً من الغار كتب عليه « علامة الاعجاب العظيم والاقدام والمثابرة » وهو روح الرياضة الحقيقي ممثلاً هنا خير تمثيل

واضطرت إيمي موليسون (جونسون) وزوجها الى الكف عن الطيران بعد ما بلغا الهند وكان انصارهما يرجون لهما الفوز بعد ما تقدّما جميع المتبارين في الوصول الى بغداد وكراتشي

وغنيٌ عن البيان ان ما صنعهُ سكوت وبلاك لا يمكن ان يصنعهُ سائر الطيارين وان هذه السرعة تذكر المرء ببساط الريح كما قالت والدة سكوت ولكن الفوز بها يشير الى الاحتمالات العظيمة في المستقبل القريب فقد يصير في الامكان انشاء خط جوي بين بريطانيا واستراليا مثلاً تكون محطاته هذه التي ذكرنا فتطير طائرة من انكلترا

الى بغداد وتكون في انتظارها هناك طائرة اخرى مستعدة لنقل ركابها وبريدها في الحال والطيران منها وكذلك في اله آباد وسنغافورة فيقطع الراكب والبريد ما بين شمال اوربا وقارة استراليا في ثلاثة ايام وهو ما يشبه تحقيق الاحلام

المنصر الحادي والتسعون

يطلق الالمان على العنصر الحادي والتسعين اسم بروتكتينيوم Protactinium . واما علماء الانكليز فيطلقون عليهِ اسم بروتو اكتينيوم Proto-actinium . وهو من العناصر المشعة كالراديوم . وذرتهُ تنفجر تفجراً عنيفاً كتفجر ذرة الراديوم ولكنها اطول من ذرة الراديوم عمراً . فذرة الراديوم تستمر متصلة الاشعاع نحو ٢٥٠٠ سنة ثم تخمد بتحولها الى احد نظائر isotopes الرصاص . واما ذرة البروتكتينيوم فتعمر خمسين الفاً من السنين. ومقامه في الجدول الدوري بين عنصر الثوريوم وعنصر الاورانيوم وقد تنبأ منديليف بوجوده من ستين سنة ، وظلَّ وجودهُ موضع ريب الى ان اثبتت طائفة من علماء الالمان والانكليز ، ان نوعاً خاصًّا من أشعة او دقائق الفا ، صادرة من عنصر جديد لا بدَّ ان يكون العنصر الحادي والتسعين. وقد جاء في « رسالة العلم » الاسبوعية ان الدكتور ارستيد فون غروس أحد علماء قسم الكيمياء في جامعة شيكاغو خطب امام الجمعيه الكيمائية الاميركية باسطاً طريقته في استفراد هذا العنصر النادر . ويظهر ان طائفة من علماء الالمان في معهد القيصر ولهلم ببرلين استفردوا كذلك عنصر البروتكتينيوم من مقادير كبيرة من نفاية ركاز الراديوم المستخرج من مناجم جواكمستال بتشكوسلوفاكيا ، يقدر وزنها بنحو خمسة اطنان ونصف طن. وتقول جريدة نايتشر ان المركب الكيماني الذي استحضره العلماء الالمان هو (بروتكتينيوم — بوتاسيوم — كلوريد) وان هذا المركب يحتوي على نصف غرام من العنصر الصرف (راجع مقتطف فبراير ١٩٣٠ صفحة ١٥٢ — ١٣٥)

أُمٌّ في السابعة من عمرها

في انباء ولاية تنيسي الاميركية ان فتاة في الحادية عشرة من عمرها حملت وولدت طفلاً . ولكنها مع ذلك ليست اصغر أم عرفت في تقارير الاطباء. والراجح ان أصغر أمّ عرفت هي فتاة مسلمة من سكان دهلي عاصمة الهند، التي ولدت طفلاً كامل النموّ وهي في السابعة في عمرها . قالت الدكتورة كين Keane في مقالة عنها نشرتها في «الجورنال الطبي الهندي » انهُ أُتي بهذه الفتاة الى مستشفى فكتوريا زانانا بدهلي ، وهي تشكو شيئاً في معدتها ، وقال أبوها ان عمرها سبع سنوات ، فلما روجع عمرها في كشف المواليد تحقق قول أبيها . وبعد الفحص ثبت ان كل ما تشكوهُ هو الحمل وانها على وشك ان تلد . فعملت لها عملية (قيصرية : اي لاستخراج الطفل من الرحم بشق البطن) فأخرج الطفل حيًّا تام النمو وكان وزنه اربعة ارطال وثلاث اوقيات . وبعد ما خفَّ الذعر الذي استولى عليها في الايام الاولى التي عقبت العملية ، استطاعت ان ترضع طفلها تسعة اشهر ، فزاد وزن الطفل في خلالها نحو سبعة ارطال فأصبح وزنهُ نحـو ١١ رطلاً . اما

الفتيات التي يحملن ويلدن وهنَّ في العاشرة من اعمارهن ، فلسن نوادر في الهند

قياس حرارة النجوم

استنبط الدكتور جول ستبنز احد علماء جامعة وسكنسن خلية كهرنورية شديدة الاحساس ، تمكن الباحث من ان يقيس بها مختلف انواع الاشعاع او الضوء التي تشع من احد النجوم . فبدأ بها الدكتور أبت مستشر المعهد السمثصوني الاميركي بحثهُ في قياس نور النجوم . ذلك أنهُ اخذ ضوء احد النجوم وقسمه اقساماً هي الالوان المؤلف منها اي حلّهُ الى طيفهِ فاستطاع كذلك ان يقيس بهذه الخلية قوة الاشعة فوق البنفسجية فيه ، وقوة الاشعة البنفسجية ، فالاشعة الزرق الى الاشعة الحمر الى التي تحت الاحمر . فلما انتهى من قياسهِ على هذا النمط ، كان في امكانهِ ان يعرف اي جانب من نور النجم مما تمكن رؤيته ، واي جانب منهُ مما لا تمكن رؤيته

فضوء احد النجوم الزرق الكبيرة ، اثبت حله ان حرارته تفوق حرارة شمسنا ثلاثة اضعاف بيد ان معظم قوتهِ من الاشعة فوق البنفسجية وهذه الاشعة مما يسهل امتصاصهُ في خلال اختراقهِ لطبقات الهواء العليا حيث يكثر الاوزون

اما النور المنطلق من النجوم البيض فيخترق جوَّ الارض ويمتدُّ جانب من طاقتها الى منطقة الاشعة التي تحت الأحمر . ولكن الطاقة التي تطلقها شمس صفراء من قبيل شمسنا ، خاصة بالمنطقة الممتدة من الاصفر الى الاخضر في الطيف ثم هي تمتدُّ الى ما وراء اللون الأحمر . واما النجوم الحمر ، فأكثر اشعاعها تحت الاحمر ، اي في منطقة اشعة الحرارة . فاذا شبهنا النجم الازرق المبيض بأتون شديد الحماوة كان النجم الأحمر اقرب ما يكون الى موقد يوشك ان يخمد

ارخبيل من العوالم الجزرية

اطلق علماء الفلك لفظ « العوالم الجزرية » Island Universes على السدم اللولبية المنثورة في رحاب الكون خارج مجرتنا لان كلاًّ منها اشبه شيء بجزيرة كبيرة في محيط مترامي الاطراف . وقد صرح الدكتور كاربنتر مدير مرصد ستيوارت بجامعة ارزونا الاميركية في رسالة تلاها على الجمعية الفلكية الاميركية من عهد قريب ، انهُ كشف عن ارخبيل من هذه الجزائر ، اي انه كشف مجموعة من السدم اللولبية ، تشبه عنقوداً من النجوم Cluster او ارخبيلاً من الجزائر في البحر

وارخبيل الدكتور كاربنتر ، مؤلف فيما يرجح من ٢٥٠ سديماً ، كل منها يماثل المجرة وقطر بعضها يبلغ عشرة آلاف سنة من سني الضوء . ومع ان هذه السدم قريبة بعضها من بعض ، بالقياس الى المسافات الشاسعة التي تفصل بين السدم اللولبية ، الاَّ ان متوسط المسافة بينها لا يقل عن ١٦٠ الف سنة ضوئية . وعند الدكتور كاربنتر انهُ متى اعيد تصوير هذا الارخبيل الكوني بتلسكوب اكبر من تلسكوبهِ ، تبيَّن ان عدد الجزائر التي فيهِ قد يرتقي الى ٥٠٠ جزيرة

جائزة نوبل الطبية

جاء في الانباء البرقية في اواخر اكتوبر ان جائزة نوبل الطبية عن سنة ١٩٣٤ منحت لجماعة الاطباء الاميركيين الذين اكتشفوا طريقة علاج الانيميا الخبيثة بالكبد وما تبع الكبد من استعمال خلاصته ثم مسحوق معدة الخنزير المجففة ، وهم الدكاترة مينو Minot ومرفي Murphy وهوبل Whipple

القزَم والمقرقم

يخلط بعض الكتّاب بين طرازين من الناس لانهما يتشابهان في صغر الجثة ، وبوجه خاص عند الترجمة من اللغة الانكليزية . ففي هذه اللغة لفظان هما Pigmy و Dwarf ويترجمان عادة بالقزم مع ان في اللغة الانكليزية فرقاً كبيراً بين معنى اللفظين . فاللفظ الاول Pigmy — وترجمتهُ الصحيحة قزَم — يدل على قبيلة من الناس صغار الجثث ولكن في جثثهم تناسباً بين الاعضاء . واما اللفظ الثاني Dwarf فيدلُّ على فرد صغير الجثة في قبيلة او طائفة من الناس ، جثث رجالها ونسائها سويّة في طولها وعرضها ووزنها . واللفظ العربيُّ الذي يدلُّ على هذا هو لفظ المقرقم وتعريفهُ في محيط المحيط «الصبيّ الذي لم يشب» . واغرب من الخلط اللفظي بين الكلمتين الخلط العلمي . ذلك انك لا تجد قبيلة من قبائل الاقزام تدنو في صغر جثتها من جثث المقرقين المشهورين في التاريخ . فليس بين المقرقين المشهورين من زاد ارتفاع قامته على ٣٦ بوصة (ثلاث اقدام انكليزية او يردة انكليزية) وكثير منهم كان لا يبلغ ثلاثين بوصة . فالمقرقم قد يكون ابن اي سلالة من السلالات . حالة ان قبائل الاقزام نادرة الآن والراجح في رأي العلماء انها بقايا القبائل التي نفرت الى الجنوب من آسيا الوسطى لما اشتدَّ جفافها

وقد عرف الاقزام من قديم الزمان فالمؤرخ هيرودوتوس وغيره من الكتّاب الاقدمين يشيرون الى قبائل الاقزام في افريقية . وقد رسمهم المصريون الاقدمون على جدران المقابر المصرية من نحو اربعة آلاف سنة . وعلماء الانسان يفرقون بين ضربين من قبائل الاقزام ، فثمة القبائل الافريقية وثمة القبائل الاسيوية . وينطوي تحت الفريق الثاني اقزام جزيرة اندمان وشبه جزيرة ملايا . والراجح ان الفريقين نتجا من أصل عام يقيم في جنوب آسيا فلما افترقا مكاناً وزماناً اختلفت صفاتهما . فقبائل الفريق الثاني ، تتشابه في بعض الصفات سواء اكان مسكنهم في الفيلبين ام في غيرها

احصاءات التلفونات في العالم

نشرت مجلة « المخاطبات الكهربائية » في عدد يوليو الماضي احصاءات لآلات التلفون المستعملة في مختلف البلدان فاذا ٥٣ في المائة منها مستعمل في الولايات المتحدة الاميركية في يناير ١٩٣٣ ، و ٤ في المائة في كندا ، و ٩ في المائة في المانيا و٦٫٥ في المائة في بريطانيا العظمى و ٤ في المائة في فرنسا و ١٤ في المائة في سائر بلدان اوربا و ٩ في المائة في سائر بلدان العالم . اما من حيث احصاء التلفونات المستعملة في المدن ، فمدينة سان فرنسسكو تتقدم جميع مدن العالم ، حيث يوجد ما متوسطهُ ٣٦٫٥ تلفون لكل مائة من

السكان وتليها وشنطن العاصمة حيث المتوسط ٣و٢٣ لكل مائة من السكان ، ثم استوكهلم عاصمة السويد (٨و٣١)

اما لندن فتوسط عدد تلفوناتها لكل مائة من السكان ٨٫٨ وباريس ١٥ وبرلين ١١٫١. ولا يعني هذا ان عدد التلفونات المستعملة في هذه العواصم يقل عن العدد المستعمل في سان فرنسسكو او وشنطن وانما يقتصر على النسبة بين التلفونات وعدد السكان. ومن غريب ما اشتملت عليه هذه الاحصاءات ان سكان تشكوسلوفاكيا والولايات المتحدة الاميركية وزيلندا الجديدة يفوقون سائر سكان العالم في استعمال التلفونات. فتوسط المحادثات التلفونية في تشكوسلوفاكيا سنة ١٩٣٢ لكل فرد من السكان كان ٢٢٤٫٥ محادثة اما في زيلندا الجديدة فبلغ ٢٠٥٫٩ واما في الولايات المتحدة الاميركية فبلغ ٢٠٤٫٦

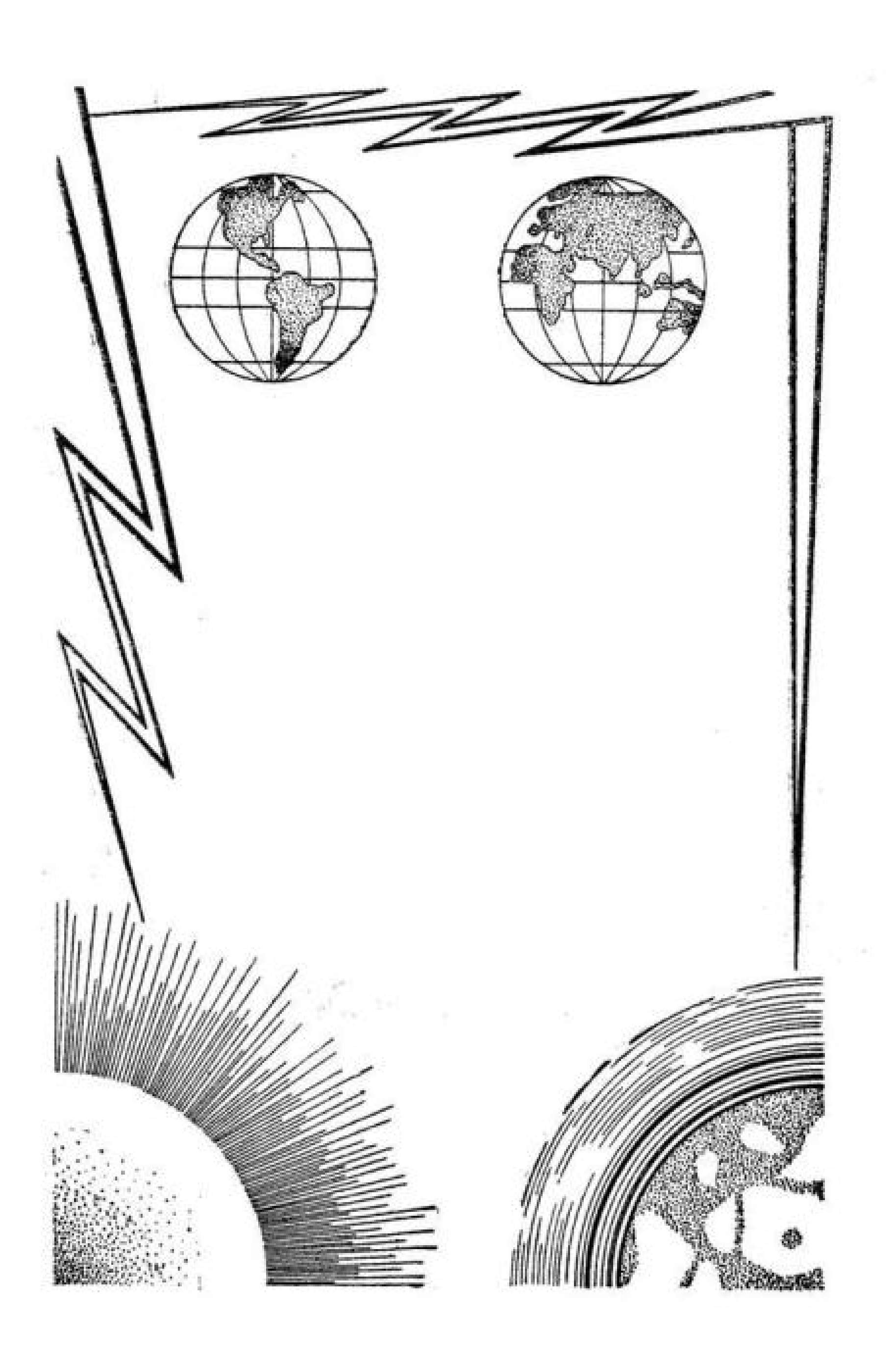
الفردوسي وشاهنامته

تابع المنشور على الصفحة ٢٨٠

﴿الفردوسي﴾ ولد في قرية بار اوشاداب او رزان من توابع طوس في سنة ١٣٢٣ او سنة ١٣٢٤ وكنيته ابو القاسم ولقبه الفردوسي وهو مشهور بهما واختلف في اسمه واسم ابيه فقيل اسمهُ حسن او احمد او منصور واسم ابيهِ علي او اسحق او احمد. وكذلك اختلف في تاريخ حياتهِ واحواله اختلافاً كبيراً

اشتغل بالعلم والأدب ولاسيما باللغة العربية والبهلوية فأراد تتميم الشاهنامة التي بدأها الدقيقي ونظم منها الف بيت والظاهر انه شرع في ذلك في عهد السامانيين ونظراً لان السلطان محمود كان محبّاً للعلم والادب توجه اليهِ لتتميم مقصده واتصل بالعنصري والفرخي والعسجدي الذين كانوا من اوائل الشعراء في عصره وخواص شعراء السلطان فبعد ما رآه وعلم بمقصده وهو تتميم الشاهنامة هيَّأ له محلاً خاصّاً وتكفل بمؤنته وعين لهُ خدماً وزين بيتهُ بصور الأبطال والملوك الايرانيين والاسلحة المتنوعة للحرب حسب طلبه حتى أتمّ الشاهنامه وعلى ما يظهر كان نظره من صلة السلطان محمود بالشاهنامة تجهيز بنته وسد خزان طوس وان تكون مدداً له في شيخوخته ووعده ان يكافئه بستين الف دينار ولكنهُ عملاً بمشورة بعض المغرضين بدل الدينار بالدرهم والذهب بالفضة فغضب من ذلك الفردوسي وقسم الاموال بين حمامي وبائع شراب وحامل الدراهم ثم هجا السلطان محمود هجاءً شديداً متضمناً التحذير من الايذاء والاغترار بالدنيا ثم ترك الغزنة وهرب الى الهرات وقيل رجع الى طوس ويقال ان الشاه محمود ندم على ما فعل بنصيحة ناصر لك احد الحكام في ذلك الوقت حيث بعث اليه خطاباً محتوياً على الوعظ والنصيحة وعدم وفاء الدنيا وبقاء الذكر الحسن ويذكره بتعب ثلاثين سنة للفردوسي وآماله في ذلك واسباب اخرى وندم السلطان محمود وامر بستين الف دينار للفردوسي ولكن حينما كانت الدنانير تدخل باب بيتهُ كانوا يخرجون جنازة الفردوسي من باب آخر وكم في هذه الحياة من عجائب ومدهشات وكأنما اراد الله بذلك ان يكون كل اجره معنويّاً لا ماديّاً واخرويّاً لا دنيويّاً

مرتضى الحسيني الفاضلي الايراني

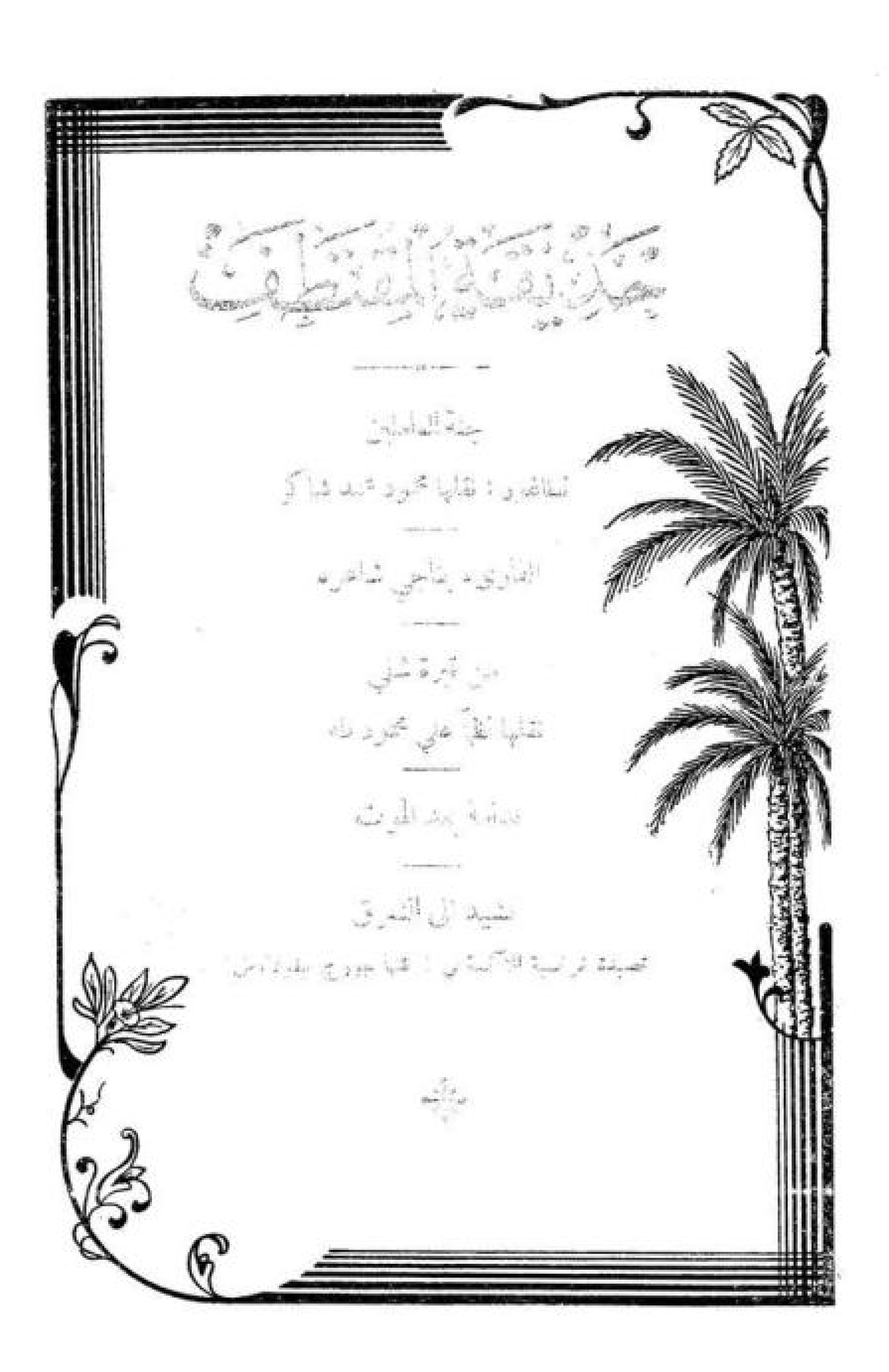




المسيو بارثو والملك اسكندر اليوغوسلافي قبيل مصرعهما



ريمون بوانكاره
Raymond Poincaré




مملكة المرأة
القوة والجمال : الاحتفاظ بهما
حياة الحب والزواج : أسئلة وأجوبتها
مقام المرأة اليابانية في ميدان الأعمال
قصص الحياة : موت يحيي حياً
طور الطفولة المبكرة
الأحداث وحكم لافونتين

الجزء الثالث من المجلد الخامس والثمانين

صفحة

٢٦٥ العمل وطول العمر
٢٧٢ مراحل الحياة عبر الزمان : للسر جيمز جينز
٢٧٧ الفردوسي وشاهنامته : لمرتضى الحسيني الفاضلي الايراني (مصورة)
٢٨١ التطفل في الاحياء : للامير مصطفى الشهابي
٢٨٣ الحيوان في عصر الآلة
٢٨٧ القضاء في السودان : لخليل الخوري
٢٩١ فناء المادة بتشعع الطاقة : لنقولا الحداد
٢٩٦ داعي الحياة (قصيدة) لسيد قطب
٢٩٧ وراء كلمة الغاز
٣٠١ تأسيس القاهرة : للكابتن كرسويل وترجمة سيد محمد رجب (مصورة)
٣٠٨ لباب النسبية مبسطاً : لحنا خباز
٣١٤ حمق دعاة التعقيم
٣١٨ التعريف بالكندي : لمحمد متولي
٣٢٧ قدم القطن بوادي النيل : للدكتور حسن كمال
٣٢٩ معجزات الاغذية الكيمائية : لعوض جندي
٣٣٥ سير الزمان : المانيا بعد غليوم : بارتو وبوانكاره (مصورة) : نفسية شعب اليابان
٣٥٣ حديقة المقتطف : جنة العاملين : لرابندرانات طاغور . القارىء يناجي شعره : لرتشرد لاغالين (نقلهما محمود محمد شاكر) . الى طائر صداح : لشلي (نقلها نظماً علي محمود طه) . ندامة بعد الموت : لبودلير . نشيد الى الشرق : للآنسة مي (ترجمة جورج نيقولاوس)
٣٦١ مملكة المرأة : القوة والجمال . أسئلة وأجوبة . مقام المرأة اليابانية الحديثة . موت يحيي الحب . طور الطفولة المبكرة . الاحداث وحكم لافونتين

---

٣٧٧ باب المراسلة والمناظرة * الحروف الشمسية والحروف القمرية : لرشيد سليم خوري : ذكريات وتصويبات لدمتري خلاط
٣٧٩ مكتبة المقتطف * الطرق العملية لدراسة الحياة العقلية . الجزء الثالث من علم النفس . في التربية . الثورة العربية الكبرى . تاريخ الوزارات العراقية . الالحان الضائعة . تربية الطفل — اسرار المراهقة . الحموضة والقلوية . الدليل العام للقطر المصري . مجلة الدهور . الفجر . طريقة منسي . رحلات الصف
٣٩١ باب الاخبار العلمية * وفيه ٨ نبذ



مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف   والدكتور فارس نمر

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

EDITED BY DR. Y. SARRUF

VOL. LXX. No 5

FOUNDED 1876 BY DRS. Y. ṢARRUF & F. NIMR

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الرابع من المجلد الخامس والثمانين

١ ديسمبر سنة ١٩٣٤ — ٢٣ شعبان سنة ١٣٥٣

اثر العلم الحديث

في خلق الفرد وخلق الجماعة [1]

— ١ —

موضوع حديثنا الليلة ، « اثر العلم الحديث في خلق الفرد وخلق الجماعة » . وهو موضوع مترامي الاطراف وبعيد الغور في آنٍ واحد . لا نستطيع ان نلمَّ اطرافهُ ولا ان نحيط بجوانبه في خطبةٍ واحدة ولا في كتاب واحد . وقد لا يكون ذلك في مستطاع رجل واحد . فالعلم الحديث يمتدُّ في الناحية النظرية من الذرَّة واقسامها الى الشموس الكبار والسدم العظيمة المنثورة في رحاب الكون المتباعدة بعضها عن بعض ، ومن دراسة الاحياء على اختلاف سُبُلها واقسامها وانواعها واسرار كفاحها واساليب توارثها الصفات على كرّ الدهور ، الى دراسة الانسان سيّد المخلوقات ، بل هو يسمو او يحاول ان يسمو الى دراسة العقل الانساني وخفايا التفكير واطوار النفس على نزعاتها المتباينة . اما من الناحية العملية فالعلم الحديث متغلغل في بناء الحضارة الحديثة ، لان الآلة اساس هذه الحضارة ، تسيطر على نواحي العمل فيها ، واحوال الاجتماع البشري ، فلا نكاد نعيش ساعة واحدة من دون ان نحتاج في خلالها الى الآلة او الى بعض منتجاتها

وخلق الانسان هو مجموعة الطبائع والتقاليد والمقاييس الادبية والاجتماعية التي يقيس بها اعماله كفردٍ ، او كعضوٍ في جماعة من حيث الضرر والنفع والخير والشرّ . فهو متصل باطوار اجتماعية

(١) المحاضرة التي القاها رئيس تحرير المقتطف في نادي جمعية الشبان المسيحية في القدس بدعوة منها

على سطح الارض، متأثر باحوال معاشهِ واقتصاده، وقواعد تفكيرهِ واصول علمهِ، متلوّن بوجهٍ عام بنظرتهِ العامة الى الكون والحياة

ولكنَّ هذا التشعُّب في الموضوع، وهذه العواصة المتبنِّة في ارجائهِ، المستمدَّة من اتصالهِ باصول الحياة الانسانية وادوار الاجتماع البشري، يجب ان لا تحول دون المامةٍ تجلى ببعض نواحيهِ. بل ان هذه الالمامة السريعة لا بدَّ لنا منها، لان الامر، غير مقتصرٍ على فكاهة عقلية، نتمتع بها ساعة وننساها، بل هو متغلغل في حياتنا اليومية، وتفكيرنا في كل ساعة من ساعات النهار والليل، وسلوكنا الاجتماعي بوجهٍ عام افراداً وجماعات

***

فنحن ايها السيدات والسادة، نعيش في عصر تسير امجاد العلم في ركابهِ، وتباري مواكب الامم في ظلّ لوائهِ الخفّاق، وتنبثُ حقائقهُ واصوله في كل ما جلّ وهان من شؤون حياتنا اليومية سواء أكانت عملية ام غير عملية

سرحوا الطرف في جنبات هذه الردهة الزاهية بحضوركم، فماذا ترون؟ انواراً متلألئة استنبط العلم طاقتها من قوى كامنة في ذرات المادة المتناهية في الصغر، وجدراناً أقامها العلم وسوّاها على اصول محكمة من الهندسة والكيمياء، وحريراً صنعهُ العلم من مادة الخشب فغلب دودة الحرير في ميدانها، وملابس اتقن العلم فتل الياقها وصبغها وغزلها ونسجها بآلات كأنها الاحياء ذكاء، ولكنها تفوق الاحياء قوة ودقة ومضاء

او زوروا حقلاً من حقولكم الزراعية، تروا فيها الاسمدة الكيمائية، وقد حبس فيها نتروجين الهواء الطلق، بقوة الكهرباء وحيلة التأليف الكيمائي، واصنافاً من النبات والحيوان، تبثّت فيها العلم الصفات والمميزات التي يرغب فيها الانسان، وأمراضاً قد دانت لصبر العلماء وذكائهم وشوقهم الى استطلاع المجهول

او تأملوا أجسادكم، كيف مكن العلم الاطباء من اسرار حياتها وقواعد صحتها وأسباب مرضها ووسائل علاجها. فمن سبعين سنة كان الانسان لا يعرف شيئاً عن الجراثيم التي تسبب الامراض فاذا الهواء في نظرنا الآن يعجُّ بهذه الأحياء الدقيقة، المفيدة احياناً في التخمير والتحليل والدباغة والتجبين، المضرّة احياناً اخرى عما تنفثه في اجسام الاحياء من بواعث السقَم. وقد أصبحت معرفتنا هذه سبيلنا الى استعمال المطهرات ومضادات الفساد واساليب التلقيح والحقن، فنتقي بها عوادي الاوبئة قبل وقوعها، او ندفع كوارث الامراض عن طوائف كبيرة من المصابين بها

أتيت مدينتكم التاريخية المجيدة أمس، على جناح طيارة، قطعت المسافة بين القاهرة واللدّ في بضع ساعات، مع ان بني اسرائيل قضوا في اجتياز صحراء سَيْناء اربعين سنة. او لم يأتكم نبأ الطيارين سكت وبلاك، كيف اجتازا المسافة بين لندن وبورت داروين باستراليا في يومين وخُمس يوم، مع ان

أسرع البواخر لا تقطع هذه المسافة في أقلّ من شهر أو اربعين يوماً ؟ ولو شاء مستمرٌ جاءتكم الهيام ، ان أخاطبكم وانا الى مكتبي في القاهرة ، لتمّ لهُ ذلك . فالامواج غير السلكية اطوع لنا الآن من خاتم البنصر ، انها تحيط بالأرض حاملة على أجنحتها السحرية ، الصور والأنباء : أنباء النجاح وانباء الخيبة ، انباء السرور وانباء الحزن ، انباء الحرب وانباء السلم ، انباء المكتشفات الخطيرة التي تنشىء في التاريخ الانساني حدوداً للزمان ، وانباء الصغائر والمكائد التي تدلنا على ان هذا الانسان الذي بلغ تلك القمة من الابداع العقلي ، لا يزال طفلاً في مهد الروح

او تصوروا الطاقة العظيمة التي هي رهن تصرفنا الآن . زرت من بضع سنوات معمل هيلند بارك في درويت ، حيث تصنع طائفة من سيارات فورد ، فدخلت الغرفة التي تولّد فيها الطاقة الكهربائية ، فاذا مولداتها الكهربائية تطلق اطلاقاً مستمرّاً طاقة قدرها ستون الف حصان او تزيد . وهي رهن اشارة مهندس فرد ، او نفر قليل من المهندسين ، يسيطرون عليها ويتصرفون بها كما يشاؤون . او خذوا سيارة من سيارات السباق التي استعملها السر ملكم كمبل على شاطىء ديتونا في اميركا . فالطاقة التي تنطلق بها السيارة كالسهم المارق تبلغ قوة الف حصان مجتمعين . او تأملوا الطيارة التي كسب بها الملازم الايطالي «اجلي» قصب السباق في السرعة اذ بلغت سرعتهُ نحو ٤٣٠ ميلاً في الساعة تجدوا طاقتها تحصى بأكثر من الف حصان . ولقد قدر احد علماء الاحصاء المحدثين ، ان الطاقة الميكانيكية المستعملة في الولايات المتحدة الاميركية المستمدة من الفحم ومساقط المياه وغير ذلك ، اذا وزعت على سكان تلك البلاد البالغين مائة وعشرين مليوناً او يزيدون ، بلغ متوسط ما يصيب الواحد منهم طاقة ثلاثين حصاناً !

او اخرجوا في ليلة صافية الاديم ، وارفعوا بصركم الى السماء ، واتخذوا من الفكر والتصور مطية ، ومن السر جيمز جينز دليلاً ومرشداً ، تروا الكواكب تعد بالملايين او عشراتها ، والمسافات بينها لا تقاس الاّ بملايين من سني الضوء ، ومع ذلك فأنتم لا ترون الاّ كتلة واحدة او مجموعة واحدة من النجوم تعرف بالمجرّة ، ووراءها مجرات لا تحصى ، كأنها الجزائر الكبيرة منثورة في رحاب هذا المحيط الزماني المكاني الذي ندعوه الكون

فاذا كلَّ البصر وزاغ العقل لعظمة ما تشهدون ، تحولوا مع رذرفورد او احد اعوانه ، الى الجهة المقابلة ، الى الذرة التي منها مبدأ الكون المادي واليها المصير ، تروا فيها عالماً معقد البناء ، مؤلفاً من الكترونات وبروتونات ونوترونات وبوزيترونات ، وكلها اصغر من ان يدركها اقوى ميكرسكوب يستطيع الانسان ان يصنعهُ ، بل ان رؤيتها معجزة وستبقى معجزة ، ما زال السبيل الى رؤيتها امواج الضوء الذي بهِ نرى الاشياء . من هذه الدقائق التي لا تُرى ، وانما تعرف بأثرها ، تتألف العناصر ، غازية وسائلة وجامدة ، لينة وقاسية ، بيضاً وصفراً وحمراً ، الى آخر ما هنالك من صفاتها المتباينة . فاذا قيل لكم ان هذه الدقائق المادية ليست الاّ كتلاً او مجموعات من الامواج ، وان

الخشب الذي تجلسون عليهِ والاحمر الذي تلوّنّ بهِ الشفاه ايها السيدات وهذه الاجسام الحية التي نعيش بها ونتطلع الى المثل العليا ، ليست الاَّ امواجاً ، قلتم حديث خرافة ، ولكنهُ الحقيقة على قدر ما يستطيع العلم ان يعرف ما هي الحقيقة في وقت ما

فاذا تأملنا انواع الاحياء من حيوان ونبات، على ضوء مذهب التطور، اضطررنا ان نرتدّ مئات الملايين من السنين الى الوراء ، الى العصر الذي كانت فيهِ صنوف الاحياء تقتصر على اصول قليلة العدد ، بسيطة التركيب ، فما زال بها التحول الفجائي ، والتنازع على البقاء ، واحداث الصخر والجو والماء ، حتى تطورت هذا التطور الرائع ، في تحوله وتعدد نواحيه

— ٢ —

ايها السيدات والسادة : ان جسم الانسان يغتذي بعناصر البيئة التي يعيش فيها . غيّروا عناصر غذائهِ تصيبوا تغييراً في بنائه ، وصفاته الجسمانية وما يقوم عليها من احوال العقل والروح ، بل لقد ذهب بعض العلماء الى ان قصر القامة في شعوب الصين واليابان عائد الى غذائهم الخاص . وان مرض الغواتر وما يتبعهُ احياناً من بلادة العقل في بعض المقاطعات السويسرية سببهُ قلة اليود في غذاء سكانها

كذلك العقل الانساني، يغتذي بعناصر البيئة العقلية التي تحيط بهِ ولا يستطيع ان يفلت منها . بدّلوا هذه البيئة ، ولابدّ من ان تحدثوا تبديلاً ، في صورهِ الذهنية ، واساليب نظره الى الاشياء ، والاغراض العليا التي يسمو اليها . وهذه الصورة المصغرة التي رسمناها ، للعلم الحديث ، امرٌ جديد في حياة البشر ، يعود تاريخهُ الى النصف الاخير من القرن الماضي . فقد لا استغرب ان يكون بيننا الليلة ، من يذكر المعارك العقلية التي حمي وطيسها في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر بين اشياع التطور وخصومهِ ، بين القس ولبرفورس والعلامة هكسلي . او من لا يزال يذكر الانباء الاولى عن التخاطب التلفوني وكيف قوبلت بالاعراض والريب . حتى السر وليم طمسن (لورد كلفن) امير علماء عصرهِ ، دهش واعجب حين رأى تلفون « بل » الاول فصاح : إنها تتكلم

فليس بالامر العجيب ، اننا ونحن نعيش في عصر ، يحصي النجوم والمجرات بالوف الملايين ، ويقيس المسافات بسراسك[1] الضوء ، وتاريخ الحياة على الارض بالوف القرون ، ويرجع الى الآلة في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الحياة — في الزراعة والصناعة ، في المأكل والملبس ، في التعليم والفن ، — اقول ليس من العجيب ان تتأثر بهذا الجو الفكري ، حياتنا العقلية وصورنا الروحية ، والمثل الخلقية التي نرمي اليها . بل العجيب كل العجيب ان تظلّ بمعزلٍ عنهُ غير متأثرة بهِ

***

ان أثر العلم في حياة الانسان ينبع من ثلاثة مصادر . الاول هو الانتفاع بفوائده التطبيقية وهي الفوائد التي نجمت عنها وسائل حفظ المدونات وتسهيل نشرها بطبع الوف من النسخ وتوزيعها في

مختلف الاقطار . وطرق المخاطبات والمواصلات السريعة ، التي قربت الامم والافراد ، بعضهم الى بعض وازالت الحواجز الجغرافية وتخطت الحدود السياسية . ونتائج العلوم الحيوية في اتقان طرق الزراعة وتحسين أنواع النباتات والحيوان وما انبثق منها من علوم الطب والصحة العامة التي مكنتنا من مكافحة الاوبئة واطالة متوسط العمر . واساليب الصناعة الواسعة النطاق ، التي تمكن رجلاً كفورد من اخراج ثلاثة آلاف سيارة في اليوم ، او مصنعاً كأحد مصانع لنكشير واليابان الكبرى التي تنسج الوف اليردات من القطن او الصوف او الحرير في الساعة ، والتي مكنت أحد المهندسين من بناء آلة تصنع ثلاثة آلاف زجاجة في الساعة من دون ان تمسَّها يد او ينفخ فيها نافخ

اما المصدر الآخر ، فهو الاسلوب العلمي في البحث ، الذي بنيت عليهِ جميع هذه المكتشفات والمخترعات. هذا الاسلوب الذي يتوخى الحقيقة في ميدان التجربة والمشاهدة، ولا يكتفي باستنباطها من التأمل في النفس او باستنتاجها من اقوال الائمة الاقدمين . قد يستعمل الاسلوب العلمي الاستنتاجَ في بعض مراتبهِ المتوسطة ، ولا هو يستغني عن انشاء النظريات لتفسير ما يجهله وتخطي ما يصدُّ سبيله . ولكن صفتهُ المميزة هي التجربة ، ومرجعهُ الاخير هو المشاهدة . فهو في قول العلاَّمة ويلز « محكمة الحقائق » . وقد أصبحنا بعد ان تغلغل هذا الاسلوب في طرق تفكيرنا لا نحاول ان نمتحن الاقوال التي تقال ، والآراء التي ترتأى ، بقياسها الى ما قالهُ ارسطوطاليس او افلاطون اوغيرهما. بل نبحث عنها بالرفش والمعول والنظارة المقربة والمجهر المكبّر والمطياف وانابيب الاغلاء والاحماء . فالحقائق التي كشف عنها هذا الاسلوب والآلات على اختلاف انواعها التي أفضى اليها تطبيقهُ ، بل والصفات التي يقتضيها من ممارسيهِ ، قلبت نظر الانسان ، الى الكون والحياة

أما المصدر الثالث فهو التحوُّل الدائم في مذاهب العلم والتنقيح المستمرّ في اصولهِ ومبادئهِ، والتعديل الذي لا ينفكُّ يدخلهُ العلماء على حقائقهِ متفرقة ومجموعة . فالحقيقة العلمية ابداً بنت البحث المستمر وقلّما يسري الظنُّ الى عالم بأن ما يكشفهُ هو الحقيقة المطلقة . والاّ فهو ليس بالعالم العامل. فنحن اذ نرى المذاهب العلمية المختلفة ، التي مكنتنا من حساب الخسوف والكسوف وبناء الآلات المختلفة بدقة متناهية ، تتبدَّل وتتغير وفقاً لما يكشفهُ البحث ، وتنهار ثم يقوم مكانها ما يقتضيه التنسيق العلمي، يصعب علينا ان نؤمن بأن قواعد السلوك الانساني مطلقة ، وانها افرغت في قوالب ووضعت لها حدود لا يمكن ان تتعدَّاها

— ٣ —

كان الانسان في عصور الحضارات البدائية ، يعتقد ان الطبيعة متقلبة الاطوار ، وكان يسند الحوادث المختلفة، التي تخيفهُ او تبهرهُ الى آلهة مختلفة ، فللغاب اله وللجبل اله وللنهر اله وللبحر اله. فكان الناس يعالجون خوف الجوع بالذبائح والقرابين البشرية ارضاءً لروح الحنطة ، وكانوا يتقربون بالضراعة الى روح النهر عند فيضان الانهر وطغيانها . وكانت صورة هذه الآلهة منتزعة في الغالب

من صور الناس انفسهم . فأنت تستطيع ان تداهنها وتتملقها بالعطايا والقرابين ، وتستثيرها بالآثام وتسترضيها بالدعاء . اما ان تجري هذه الآلهة ، في صلاتها بالناس وفقاً لنظام له سنن ونواميس ، يمكن الكشف عنها واستطلاع خفاياها بالبحث والدرس ، فظلَّ فكراً بعيداً عن عقل الانسان بوجهٍ عام، رغم الالماع اليهِ في اقوال بعض العلماء المتقدمين . فلما استخرج غليليو نواميس القوة والحركة واستنبط مبادىء الاتساق في بعض الافعال الطبيعية، وتمكن هو وغيره من التنبؤ بوقوع الحوادث الفلكية فوقعت في المواعيد التي ضربوها ، اقتضى نجاحهم احداث تغيير اساسي في تفكير الناس ونظرهم الى تلك القوة العجيبة القائمة من وراء ظاهرات الكون العجيب

وكان « يهوه » في نظر الآباء العبرانيين ، اله القبيلة او الامة ، يدافع عنها في الحروب ، ويقيها شرَّ اعدائها، ويوطد لها سلطانها على الارض . وصوَّر غيرهم الربَّ قاضياً جالساً في محكمتهِ العليا وامامهُ القسطاس يقضي في الناس بالعدل او اباً رحيماً يرحم بقدر ما يعدل

ولكن لما اثبت غليليو وكوبرنيكس وكبلر ، ان الارض ليست مركزَ الكون ، وانها ليست الَّا سياراً صغيراً يدور حول شمس متوسطة بين الوف الالوف من الشموس ، في مجرَّة هي احدى ملايين المجرَّات ، اصبحت صورة الله الجالس للدينونة على عرشهِ العلوي صعبة الاستحضار في ذهن رجل ، يرى في علم الفلك الحديث ، هذه الصورة الرهيبة ، في امتدادها الكونيّ والزمنيّ . فالصورة الشخصية للاله الديَّان الذي يرقبنا بعيني رحمتهِ وعدلهِ ، ويحصي علينا هفواتنا ، ويعاقبنا عليها او يصفح عنا اذا ابتهلنا اليهِ واستغفرنا ، لا تتسق وصورة الكون الجديدة ، التي تشمل ملايين المجرات والوف الملايين من النجوم ، دع عنك السيارات وتوابعها كارضنا وقمرها

فلما طلع علينا علماء التطوُّر ، بادلتهم المستخرجة من الصخور والطبقات المنضدة في قشرة الارض ، والعظام وما فيها من آثار ، والدماء وما تخضع له من تجارب ، وثبت ان الانسان ، انما هو رأس مملكة الحيوان ، ولكنهُ مع ذلك ليس الَّا حيواناً، سقطت تلك « القدسية » التي كنا نتَّسم بها ، اذ جعلنا ارضنا مركز الكون وجنسنا ابناء الله المختارين

فالمكتشفات الفلكية الحديثة من عهد غليليو الى الآن ثلَّت عرش الانسان في الفضاء ، والمكتشفات البيولوجية الحديثة من عهد داروين الى يومنا هذا قوَّضت اركان عرشهِ على الارض

وجاء في اثر هؤلاء وهؤلاء علماء النفس المحدثون ، فذهبوا الى ان نوازع الانسان ، ليست الَّا افعالاً عكسية ، تحولت بفعل البيئة التي نشأ فيها ، وان دوافعهُ النفسية الاساسية ، التي تلوّن سلوكهُ ، ليست الَّا دوافع جنسية ، غرضها اخلاف النسل وضمان بقائهِ او نوازع تبغي السيطرة والتفوق على الاقران ، فزال آخر حاجز يفصل بيننا وبين الحيوانات ، واصبح الفرق بيننا وبينهم فرق كمٍّ لا فرق كيف

كان اسلافنا يرون في الاحداث الطبيعية والامراض والاوبئة ، قصاصاً يستحقهُ الآثمون .

فالصرع والجنون والعمى ، والزوابع والزلازل والاعاصير والفيضانات وانفجار البراكين ، الوان من العقاب يوقعها العلي على من خرج من ابناء عليه . اما اليوم فاننا نبحث عن بواعث الامراض في عوالم الميكروبات ، لا في خفايا الذنوب . فاذا طلع على الناس واعظ — كما يفعل بعض الوعاظ الاميركيين — وقال لهم ان اعصاراً في فلوريدا او زلزلة في اليابان ، ليسا الا اعرابا من قبل الله جلّ جلاله ، عن غضبه وحنقه ، أشاح الجمهور عنهم ، في رأي القس الدكتور سوكمن الاميركي ، ووضع اصابعهُ في آذانهِ دونهم ، وارتاب في صحة تجلي الحقيقة الالهية لهم ، وخاصة اذ يرى نواطح السحاب النيويوركية ، حيث توارى آثام لا تحصى ، واقفة كالمردة ، لا ينالها زلزال ولا أعصار . كان عصر وكان تفشي وباءٍ بين الناس يبعث بهم الى كهنتهم لينوبوا عنهم في الاستغفار وطلب الخلاص ، فاذا تفشى بينهم وباءٌ من الحمى التيفودية ، اليوم ، او الطاعون ، هرعوا الى الكيماويين ، ليبحثوا في نقاء الماء الذي يشربونه والى البكتيريولوجيين في فحص الفئران التي تغادي البيوت وتراوحها والى الاطباء ورجال مصلحة الصحة بوجه عام ، ليعيّنوا وسائل الكفاح ويصفوا العلاج الناجع او العلاج الواقي في هذه الحالة او في تلك

— ٤ —

ان شريعة آداب النفس التي لا تتحول الا تحولاً بطيئاً كل البطء ، تتبدد اليوم بين سمعنا وبصرنا فكأنها ضباب الضحى او غيم الصيف ، والعادات المتصلة اصولها بنشأة الانسان على الارض ، الممتدة الى اغوار في التاريخ لا تبلغها الذاكرة الانسانية ، تتهاوى بين ايدينا كأنها بيوت من الورق هزّها اعصار ، او اساليب من السلوك تطفو على سطح الحياة ولا تتصل بجذورها

ففروسية القرون الوسطى ، التي بدت في عصرنا مفرغة في قالب الادب الخاص في معاملة النساء بلطف وكياسة واحترام ، لم تثبت على تحرر المرأة الاقتصادي . لقد قبل الرجل — مرغماً — تحدي المرأة اذ طلبت المساواة بهِ ، فصار يعسر عليهِ ان يعبد جنساً قسرتهُ الاحوال الجديدة على النزول من العرش الذي جلس عليهِ الى الميدان والشارع . ونحن ما نزال في الشرق متأثرين بذلك الادب القديم ، الرائع الجمال ، فننهض في المركبات العامة لنخلي مكاننا لسيدة واقفة ، ولكن من يعش في مدينة مثل نيويورك او لندن او باريس حيث بلغت المرأة كامل حريتها الاقتصادية ، لا يحفل بسيدة واقفة ، بل يعاملها على قدم المساواة بالرجل ، على انها احد طلاب الرزق ، احد المنافسين له في ميدان العمل . اما الزواج الذي كان سبيل الاجتماع ، الى حفظ النوع على اسلوب منظم ، ووسيلة الى افراغ الحياة الانسانية والسلوك الانساني في قالب مستقر ، فقد اخذ يفقد استهواءهُ واغراءهُ ، لان الانسان بعد اطلاعهِ على اساليب بعض العلوم الحديثة ، ادرك انهُ يستطيع ان يجني بعض مسرات الزواج من دون ان يتعرض لجميع تكاليفهِ ، ولان الاعباء التي يحملها الزوجان في عصر الصناعة هذا

تقضي بعد سن العزوبة وتأخير سن الزواج . والاسرة التي كانت مربي الاخلاق ، قد لانت للنزعة الفردية في حياة المدنية الصناعية فتفرقت بدداً ، والبيوت التي كانت تبنى بمكابدة الوالدين لتؤوي الابناء والبنات ، اصبحت مهجورة ، وافرادها متفرقين في مختلف المدن ، يأوون الى حجر في فنادق صغيرة ، او يشترك بعضهم مع بعض في استئجار شقق ضيقة الجوانب ، كفايتهم منها سرير يضطجعون عليه ، بعض ساعات الليل او بعض ساعات النهار

واننا لندهش ، عند قراءة التاريخ ، اذ نتبيّن مدى ما يصيب ، قواعد الاخلاق وآداب السلوك من التغيُّر والتحوُّل مع انها قد تبدو لنا ثابتة راسخة لا يأتيها التحوُّل اذا حصرنا النظر في فترة قصيرة من الزمن . فقد استنكر القديس اغسطينوس ، ان ابرهيم كان متعدّد الزوجات ولكنهُ اصاب حين بيّن ان ذلك لم يكن عملاً « غير ادبي » لانهُ كان من تقاليد ذلك العهد ، ولم يكن فيهِ اي ضرر على الجماعة . بل ان تعدُّد الزوجات في عصر تلهبهُ الحروب وتمزقهُ ، عملٌ اجتماعي مفيد لان متوسط الوفيات بين الرجال في حروب القبائل ، كان اكبر جداً من متوسط وفيات النساء . فتعدّد الزوجات كان النتيجة المنطقية لزيادة عدد النساء على عدد الرجال . فكانت المرأة تفضل ان تشاطر غيرها رجلاً من الرجال ، على ان لا يكون لها رجل على الاطلاق . وليس الاكتفاء بزوجة واحدة ، الا نتيجة من نتائج نشر السلام بين القبائل في مطلع الحضارة الزراعية

***

اننا لا نعلم ، في اي عصر من عصور التاريخ ، انتقل الانسان من طور الصيد والقنص الى طور الزراعة اي من دور الهيام الى دور الاستقرار . ولكننا نعلم ان هذا الانتقال ، اقتضى تحوُّلاً عظيماً في نظر الانسان الى الفضيلة والرذيلة . فبعض ما كان يحسب رذائل أصبح بفضل هذا الانتقال من قبيل الفضائل ، وامسى بعض الفضائل في عداد الرذائل . فالاجتهاد في عصر الزراعة كان مفضلاً على الشجاعة مع ان الشجاعة كانت على رأس الفضائل في عصر القنص . وفيهِ كان يؤثر الادّخار على السلب ، ويُرى السلام اجدى من الحرب . ثم ان الانتقال الى عهد الزراعة ، بدَّل من مقام المرأة فالمرأة اجدى على الجماعة في دور الزراعة منها في دور القنص ، لكثرة ما تستطيع عمله في الحقل وفي الدار . فكان خيراً للانسان في بدء عهد الزراعة ان يتزوج ، بدلاً من ان يستأجر امرأة للقيام بهذه الاعمال . ثم ان المرأة تلد اولاداً ، فلا يلبث ابناؤها ان يصبحوا عوناً لآبائهم في الحراثة والزراعة والحصاد . فالاجتماع الزراعي كان لا يقتضي من الآباء النفقات التي يتعرَّض لها آباء اليوم قبل ان يصبح ابناؤهم اهلاً لخوض معترك الحياة . لذلك كانت الامومة مقدسة ، وكان ضبط النسل لو ادركت وسائله عملاً غير أدبي لأنه يقلل الولد حيث تجب زيادتهم وكانت الأسر الكبيرة حسنة في نظر الشيوخ والكهان

في ذلك العهد ، نبتت اصول شريعة الآداب التي تأخذ اليوم بجانب كبير منها على الاقل ،

ففي المزرعة في ذلك العهد البعيد ، كان الفتى يبلغ باكراً في العقل وفي قدرته على الارتزاق . فكان اذا ادرك سن العشرين . قادراً ان يفهم اعمال الحياة ، كما يفهمها ابن الاربعين ، وكان كلُّ ما يحتاج اليه حينئذٍ ، محراثاً وذراعاً قوية ، وعيناً تتبيّن احوال الجوّ من تقلبات الهواء . فكان يبكر الى الزواج ، حالما تعدّهُ الطبيعة لهُ ، فلا يضطرُّ ان يعاني ما يعانيه ، الوف وعشرات الالوف من شبان اليوم ، في الفترة التي تنقضي عليهم بين المراهقة والزواج المتأخر . فاهل ذلك العصر لم يعانوا بطبيعة البيئة التي نشأوا فيها المشكلة الجنسية كالتي نتعرض لها اليوم ، لانهم كانوا يحلونها بحسب مقتضيات الطبيعة . اما فيما يتعلق بالنساء فقد كانت العفّة لا مندحة عنها لانها قد تجلب في اثر الاعتداء عليها ، امومة لا حامي يحميها

فلما افرغت المسيحية هذه الشريعة في قانونها الادبي الخاص ، وحتّمت على ان يكون الزواج عقداً بين رجل واحد وامرأة واحدة ، وان لا ينسخ العقد مدى الحياة ، كان ذلك مما يوافق البيئة التي تمّ فيها هذا الافراغ . فزوجة الفلاح تلد لهُ عدة اولاد ، ومن الحق والانصاف ان يحافظ الوالدان على عهد الامانة احدهما للآخر ، لكي يتاح لهما ان يوجّها عنايتهما الى اولادهما حتى يشبّ اصغرهم فاذا بلغ هذا دور الشباب ، والتفتّ الى الوالدين ، رأيت الرغبة في التنقل قد تبدّدت في اجهاد الجسد واندماج الروحين

فهذا النظام الصارم من الآداب ، كان على صرامته ، مما تمكن ممارستهُ في الحقل ، فانشأ في اميركا مثلاً عندما هاجرت اليها طوائف «البيورتان» قبيلاً من الناس ، يستطيع ان يتغلّب على قارة بفضائل يرتدُّ اساسها الى كبح جماح النفس واخذها بالشدة

مضى على هذا النظام بعد انشائهِ نحو الفين من السنين ، وهو قائم ، على العفّة والزواج الباكر والاكتفاء بزوج واحدة وولادة اولاد كثيرين ، وكان هذا ما تتطلبهُ حالة العصر ، لان الاسرة كانت وحدة الانتاج على الحقل . حتى لمّا اهلّت طلائع الصناعة على الحضارة ، كانت صناعة بيتية ، يقوم بها الناس في بيوتهم لا في المصنع ، فكان كلّ شيءٍ مما يوثق العلاقة بين الاب والام من ناحية ، وبينهما وبين اولادهما من ناحية اخرى

— ٥ —

ثم اخذت المصانع في الظهور ، وشرع الرجال والنساء والاولاد ، يهجرون البيوت ، لينتظموا في المصانع . فانحلّت بذلك وحدة الاسرة وضعفت سلطة الوالدين ، وصار كلٌّ من افراد الاسرة فرداً في جماعة غير جماعتهِ ، اذ اصبح المصنع وحدة الانتاج لا الاسرة . ونشأت المدن وازدحمت بهجرة سكان الريف اليها ، وفيها بدلاً من ان ينصرف الناس الى الحرث والبذر والحصاد ، كما كانوا يفعلون في الحقول ، خاضوا كفاحاً ، هو كفاح الحياة والموت ، في مخازن ضيقة قذرة قاتمة ، اومصانع تدوّي فيها اصوات الآلات ولا يرى فيها الا العجلات تدور والسيور تتحرك واذرع واسنان من الحديد

والفولاذ . وتوالت المستنبطات الميكانيكية آخذاً بعضها برقاب بعض ، فصار الاولاد يتأخرون في ادراك سن البلوغ العقلي ،حتى اذا نظرت الى الفتى في العشرين من العمر في احدى المدن الصناعية ، رأيته اشبه بالطفل القاصر ، ازاء تعقيد مشكلات الحياة وتواليها . فطال زمن المراهقة العقلية وامتدّت فترة التعليم اذ اصبح التعليم لا ندحة عنه لتوجيه العقل وملاءمته لمشكلات الحياة المتنوّعة

وما ان اتى هذا الانقلاب على حال البشر ، هذا الانتقال من الزراعة الى الصناعة ، حتى اخذ من تلقاء نفسه يؤثر في شريعة الآداب الموروثة من عصر سابق . فتأخر عهد البلوغ العقلي، رافقهُ تأخر السن التي يبلغ فيها الانسان استقلاله الاقتصادي . بل ان هذا الاستقلال لم يكن ليتاح الاّ لقلائل من الناس ، لان تعقـد الحياة الاقتصادية والتواء سُبُلها ، كانا ابداً كالسيف المصلت فوق رأس العامل ، يهدّدهُ بانتزاع عمله منهُ

في هذا المعترك العنيف ، رأى الرجل المرأة وقد جرّدت من نفعها الاول في حياة الحقل . فاذا تزوج وجب عليهِ وفقاً لشريعة الآداب التي ورثها من ذلك العصر ان يحفظ زوجهُ في بيتٍ جرّد الآن من معناهُ الاصليّ المتصل بالعمل في الحقل . ذلك ان جلّ العمل الذي كانت تعملهُ الاسرة في الحقل غدا يتمُّ في الغالب في مصانع المدن ، وكل ما تحتاج اليهِ الاسرة يجب ان يُوفّى بعمل الرَّجل في المصنع . فاذا اصبحت الزوج امّاً ، زادت المصاعب التي يواجهها الرجل . فالامومة في المدن الآن ، سلسلة محبوكة الحلقات من الاطباء والمستشفيات والممرضات والادوات والادوية ترهق الموسر دَعْ عنك العامل او متوسط الحال . وكلما زاد عدد الاولاد التي تلد ، زادت المصاعب التي يواجهها الرجل المتوسط. لان زمن التتلمذ والتعلم امتدّ الى ما بعد العشرين . يضاف الى ذلك ان نفقات التعليم بعد مراتبهِ الاولى كبيرة لا يقوى عليها . ثم ان كثرة الاولاد تقتضي توسيع المسكن وهذا يقتضي زيادة الاجرة وتحول دون السفر للنزهة ، او دون التفسيح عن الصدر في الملاهي والمراسح . والاولاد يقتضون خلع احدث الملابس عليهم ، كلٌّ وفقاً للبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها ، فاذا بلغوا السن التي تمكنهم من كسب رزقهم نفروا من البيت الى المصنع والمتجر ، في المدينة التي ولدوا فيها ، او في مدينة اخرى ، وفقاً للرياح التي تدفع تيارات الانتاج والتوزيع وتوجهها

لذلك بدا للناس ان الامومة في البيئات الصناعية ، أشبه ما يكون بضرب من الاستعباد ، او ضرب من التضحية السخيفة في سبيل النوع ، وان المرأة البارعة لا تقبل عليها الاَّ متأخرةً ، بعد ان تقضي الشطر الاكبر من شبابها في ظلّ لواء الحرية

فلما وضعت فلسفة ضبط النسل وكشفت وسائله العملية ، شاعت هذه الفلسفة الجديدة في الأوساط الصناعية ، وانتشرت وسائلها ، ثم تعدّتها رويداً رويداً الى غيرها

***

ولهذه الناحية من حياة الانسانية وجه آخر . ان الانسانية ، بفعل التقدم في علوم الطب والصحة

العامة ، اخذت تكشف عمّا في سلامة الجسد وصحته ، من الروعة والجمال ، فالعناية التي توجهها الانسانية الى الرياضة البدنية وتأليه ابطالها ، والثروات التي تنفق في البحث الطبي ووسائل الصحة العامة ، شاهد بليغ على ذلك . ولا تنحصر عناية الانسان الحديث ، بالصحة من وجهة روعتها وجمالها فقط ، بل تتعداها الى الشعور بأن الصحة واجب عليه ، لشخصه اولاً ، وللانسانية المقبلة متمثلة في ذريته ثانياً . فزعماء الحركة اليوجنية — اي حركة اصلاح النسل — لا ينون عن تذكيره ، بأن عليه تبعة عظيمة نحو اولاده تقضي عليه بأن يورثهم جسداً سليماً من الاوصاب ، وعقلاً سليماً من الآفات . ونزعة التضامن الاجتماعي ، تذكره كذلك ، بأن عليه نحو المجتمع تبعة ، تقضي عليه بأن يورثه جماعة من الذريات تتألق عافية جسدية ، وصحة عقلية . فهو الآن لا يبحث عن سر مرض من الامراض في غضب الله على سلف من اسلافه ، بل يبحث عنه بالمكرسكوب في عناقيد الكروموسومات ، وبكواشف الكيمياء في كريات الدم . ويحسب كل مرض يناوله الوالدان الى ابنائهما ، امتهاناً للمجتمع . ومن هنا الحركة التي ترمي الى تعقيم الرجال والنساء الذين لا يصلحون لاخلاف النسل ، بعمليات جراحية بسيطة في الغالب . ومع ان هذا الموضوع ، ما زال من ناحيته العلمية في مهده ، الا ان بعض البلدان قد سنت قوانين خاصة بتنفيذ التعقيم . فقد سُنّ في ٢٧ ولاية من الولايات المتحدة الاميركية مثل هذا القانون وكذلك في بعض ولايات كندا وفي المانيا والدنمارك وبعض مقاطعات سويسرا

فموضوع اخلاف النسل ، الذي كان حتى العهد الاخير ، من الاسرار المقدسة في حياة البشرية وعليه بني في الماضي أعظم جانب من شريعة الآداب ، قد مزقت عنهُ الحجب التي كانت تحيط به واخذ يخضع لتعاليم العلم الحديث . بل قد أصبح زعماء التعليم يقولون بوجوب التعليم الجنسي ذاهبين الى ان « الاسرة يجب ان تعترف به في البيت ، والدولة في المدرسة ، لانهُ كغيره من انواع التربية العقلية والجسمية ضرورة من ضرورات الحياة وربما كان الشر الناشيء عن اهماله أعظم جداً من الشر الناشيء عن اهمالها فهو يمسُّ صحة الجسم وصحة العقل وصحة الخلق جميعاً ويجعل النفاق والفساد أصلين من اصول الحياة الاجتماعية »(١)

— ٦ —

قلت في مطلع الحديث اننا نحاول عبثاً اذا حاولنا ان نحيط بالموضوع . وقد ذكرت لكم حتى الآن طرفاً من تأثير العلم الحديث في الصورة الذهنية التي يتمثلها الانسان الحديث للرب عزَّ وجلَّ ، وبينت لكم أثر العلم الحديث متمثلاً في قيام الصناعة ونشوء المدن وتحرر المرأة الاقتصادي وعلوم الطب والصحة ، في شريعة الآداب من ناحية النسل واخلافه والجنس والمحافظة عليه . ولكنني لا اريد ان اختم هذه الناحية من الموضوع قبل ان اشير الى ناحية ادبية اخرى يتجلى فيها او في ما يلابسها اعظم خطر تتعرض لهُ الحضارة الحديثة

(١) الدكتور طه حسين في كتاب اسرار المراهقة بالفن تأليف الدكتور شخاشيري

من الاركان التي قامت عليها شريعة الآداب ، التي ورثناها من العصور القديمة ، فكرة الزهد، كأساس للخلق النبيل . فالزهــد في حقيقته ، هو القول بأن حياة الانسان لا تعتمد على المأكل والمشرب والملبس ، وان الحياة الصالحة ، يمكننا ادراكها من دون المتع المنوعة التي نطلق عليها اسماء الرخاء والترف . وهــذه العقيدة طبيعية ومعقولة ، في كل جماعة تعيش على شفا الجوع ، ولا تكاد تنتزع من الأرض الا كفايتها لسد الموت . ففي بدء الحضارة الزراعية ، لما كانت وسائل الزراعة ضعيفة وقاصرة ، ادمج الزعماء الروحيون هــذه النزعة في تعاليمهم فقــالوا ان فقر الانسان لا يضيره ، وانهُ رغماً عن الفقر والقلة يستطيع ان يحيى الحياة النبيلة ، ويبلغ اسمى الاغراض. فبوذا ترك اسرتهُ ومملكتهُ وثروتهُ ليبحث عن الخلاص في مسالك الانسان العــادي . اي ان تلك الجماعات ، جعلت من الزهد فضيلة حيث قلّت الاشياء التي يستطيع ان يزهد فيها الانسان

وقد اتفق ان النهضات التاريخية التي كان لها اكبر اثر في شريعة الآداب التي توارثناها كانت في حالة مادية من هذا القبيل . ففي ايام السيد المسيح ، كان النزاع محصوراً بين فريق يسير ضعيف من الناس وسلطان روما الامبراطورية . فكانت رسالتهُ الى اتباعهِ ان لا يبحثوا عن ملكهم المرموق على الارض بل في السماء ، فقال «في بيت أبي منازل كثيرة» وحثهم على ممارسة الزهد والطهر والمحبة للمستبد

ثم تقلبت هذه النزعة في اشكال مختلفة في عهد الامبراطورية الرومانية ثم في القرون الوسطى لما أصبحت الصومعة والدير ملجأ لاصحاب النفوس التي تطلب الخلاص من محن العالم

ولكن في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، دبّ دبيب الحياة في عروق التجارة العالمية ، واخذ فريق من الناس في البلدان التي أمدّتها الجغرافية باسباب النجاح التجاري ، يجمع ثروة ، فجعل هذا الفريق يرى امكان الفوز بالخلاص على الارض . ولكن التاجر الاميركي من المتمسكين بشريعة الآداب المسيحية ، ظلّ الى اواخر القرن الماضي لا يرى امامهُ الا نضالاً عنيفاً اذ واجه قارة بكراً . والنضال العنيف يقتضي الحكمة والحرص والتوفير والعمل المستمر والامتناع عن تبديد النشاط في ساح الملاهي . فالعفة وتوجيه القصد الى العمل كان مناط الامل الوحيد ، في فلسفته العالمية . هذه الجماعة من الناس التي بدأت تخرج من قتام الماضي المهدد بالقلة والجوع ، وضعت امام عيونها ، مثل العمل والاكباب على العمل والتفاني في العمل ، هدفاً روحيًّا لها ، فالنتيجة في نظرها كانت لا تعنيها كثيراً ، وانما الجهاد قبل الوصول الى النتيجة هو كل شيء ، وهذا هو الخلاص على الارض

وما لبثت ان توالت المخترعات العلمية والصناعية على الحضارة ، فانقذت الناس من شبح الجوع الجاثم فوق الصدور . وما تمكن الانسان من السيطرة على مصادر الطاقة في اشكالها المختلفة ، حتى نمت الثروة العامة نموًّا ، لم يدرْ في احلام الاقدمين ، فأصبح في ميسور الناس — وخاصة طوائف كبيرة منهم — ان يتمتعوا بأسباب من الرخاء والرفاهة والترف ، لم يرنُ اليها القياصرة . ففي عصر توافرت فيهِ هذه الوسائل لتسهيل اسباب الحياة وتوفير الهناء ، ترى ماذا بقي من نزعة الزهد الصحيحة ،

والتسليم والدعة والاحتمال؟ واي انسان يرى نفسهُ غير محتوم عليهِ ان يلقي ببالهِ الى الغد، يستطيع بسهولة، ان يوجه سعيهُ فقط الى صفاء الروح ونقاء القلب. قال الاستاذ جون هول في كتابهِ «حضارتنا المتحولة» — «فما كاد الاميركيون يغزون براري بلادهم المترامية الاطراف، وينشئون فيها المدن والمصانع حتى رأيناهم في مجموعهم، يهزأون من الحرص والحريص، والعفة والعفيف، ويحسبون التسليم كخفريات المتحفات من بقايا العصور القديمة، واصبح مناهم اللهو والمتعة لا الطهر والصلاح. انهم يبحثون في حياتهم عن تلك المسرات، التي عجز عنها ابناء الحضارات السابقة فأسندوها الى الآلهة». فالمشكلة التي تواجه العصر هي ابتداع مثل روحية تفضي الى الحياة الصالحة النبيلة لا بالتخلي عن الثروة وما تيسره لنا من المتع بل بالرغم من ذلك

***

ونحن اليوم في الشرق، على رغم اختلاف كبير في الاحوال بين معيشتنا ومعيشتهم، وعلى الرغم من ان الاحوال الناشئة من انتشار الصناعة، لم تتوافر بعد بين ظهرانينا، حتى تفضي الى نفس النتائج التي افضت اليها في البلدان الاخرى فاننا مع ذلك نعاني المشكلة التي يعانونها بالتقليد والاقتباس. فالتحول في شريعة الآداب عندهم، له صدى في حياتنا، خافت اليوم ولكنهُ لا بدَّ ان يقوى غداً. لاننا نقرأ كتبهم ونرى افلامهم ونزور مدنهم ونخالط طوائفهم ونلوّن افكارنا وطباعنا بتعاليمهم ونعيش — اي المتعلمون منا — في جو كالجو الذي يعيشون فيهِ، وانما الفرق بيننا اننا نخلقه في الغالب تصوراً واما هم فيتنفسونهُ في غدواتهم وروحاتهم كل صباح وكل مساء

فالمشكلة التي نعانيها، هي هي المشكلة التي يعانونها هم. واساسها الحيرة، التي جهر بها طائفة من كبار كتابهم، وحاولوا ان يجدوا لها حلاً في ابتداع «المذهب البشري» Humanism. هي مشكلة ناشئة عن اننا واقفون بين عالمين — احدهما ذهب في سبيله الى جوف الماضي، والآخر لم يولد بعد، او هو لا يزال في المهد. فلا بدَّ من ان تكون الحيرة نصيبنا كما هي نصيبهم مدى جيل من الزمان على الاقل. اننا نبحث عن شريعة للآداب، تكون اكثر ملاءمة للاحوال الجديدة، من شريعة الآداب التي ورثناها من العصر الزراعي، شريعة تقوم على الذكاء بدلاً من الخوف، وعلى القوة وحسن استعمالها بدلاً من الزهد وتلمُّس العزاء عن فقدان العالم، فتقنع المتعلمين منا لشدة ما نراهُ فيها من الملاءمة بين نواحيها والاحوال التي تطبق فيها

هذه هي المشكلة الادبية التي يعانيها العالم. اين الحكمة واين الذكاء في استعمال قوة العلم والآلة، استعمالاً صحيحاً؟ ليس في تراثنا الادبي جواب على هذا. فكيف نستطيع ان نصدق ما نعلّم، اذ يقال لنا اصدفوا عن العالم، وانصرفوا عن المسرات

وفي هذه الهوَّة بين القوة العظيمة التي ابدعها العلم، وتقصير الحكمة البشرية عن تثقيف الرغبات والنوازع الانسانية اعظم مصدر لما يحيق بالحضارة من الخطر. وقد اشار الى ذلك الفيلسوف

برغسن في الخطبة التي القاها عند تسلمهِ جائزة نوبل الادبية من بضع سنوات . فاذا افلست الحكمة البشرية وعجزت عن النهوض بهذا العبء اتجهت هذه القوى العظيمة الى التدمير والتخريب والتقتيل بدلاً من ان تتجه الى الانتاج المجدي وتوفير الفراغ للانسان فينفقهُ في طِلاب المثل العليا

— ٧ —

ومن الغريب ايها السيدات والسادة : ان نظريات العلم التي قلبت نظرتنا الى الله والكون، وتطبيقات العلم التي احاطتنا بأحوال من المعيشة افضت الى انشاء هوة بين الحياة التي نعيش والقواعد الادبية التي تنظم هذه الحياة ، قد ينطوي في تطوراتهِ الحديثة ، على بذور الحل لهذه المشكلة

فالعلم الطبيعي ، الذي احرز انتصارات عظيمة في اواخر القرن الماضي ، افضى بالعلماء الى الاعتقاد ، بأن الكون آلة خاضعة خضوعاً اعمى للنواميس التي كشفت . فكان ذلك سنداً قويًّا لفلسفة الماديين . لانهُ اذا كان في الامكان تفسير كل دقيقة وصغيرة ، بنواميس الحركة والطاقة والجذب من اجرام السماء الى خلايا الجسم الحي ، فما الحاجة بنا الى فرض قوة من وراء العقل ، ومن وراء الطبيعة لتفسير ذلك . ولكن العلم الطبيعيّ نفسه ، كان وهو يصرح هذه التصريحات على عتبة انقلاب ، يتصل بصميمه ، وهو لا يدري . فما اثبت السر جوزف طمسن وجود الالكترون في آخر القرن الماضي ، وما تمادى العلماء في درس اللبنات الدقيقة التي تتركب منها الذرة — ومن الذرة تتركب جميع الاجسام — حتى بدأ الشك يتسرب الى عقول العلماء في كفاية النواميس الطبيعية لتعليل كل ما هنالك . لذلك نرى علماء الطبيعة الذين يعالجون نظرية «المقدار» (الكونتم) يقولون ان الاوليات العلمية ، ونواميس العلة والمعلول تتهاوى بين ايديهم اذ يحاولون تطبيقها على الدقائق الاولية كالكهرب والاويل . ولما كانت جميع الاشياء المادية مبنية من الالكترونات والبروتونات ، فمعنى قولهم هذا انهم لا يؤمنون الآن بالسببية او بالجبرية . والأثر النفسي الذي احدثه هذا الانقلاب ، هو ان النظريات العلمية لا تخرج عن كونها صوراً ذهنية لا تطابق الحقيقة. لذلك اصبح علماء هذا العصر فلاسفة تغلب عليهِ سمة جديدة من سمات التصوُّف والايمان امثال جينز وادنغتن وبرتران رسل وملكن واينشتين ، والامل معلق الآن باتحاد العلم والفلسفة في الوصول الى نظرة جديدة ، لا يرتاب العارفون ، في انها سوف تكون وافية الى حدٍ بعيد باشباع ذلك الشوق الى المجهول ، الذي يتردَّد في صدر الانسان

اما الاسلوب العلمي الذي مكَّن الناس من كل ما تمتاز بهِ حضارتنا الحديثة، من الآراء والنظريات والاساليب ، فهو في صميمهِ ، مدرسة للخلق العالي . فقواعدهُ التجرُّد عن الهوى ، والانصاف بين الآراء وبين اصحاب الآراء ، والصبر والمثابرة في التجربة والامتحان ونكران النفس في سبيل الحقيقة . وكل صفة من هذه الصفات اذا لم يتصف بها الباحث العلمي ، سقطت قيمة بحثهِ . وهي في الوقت نفسهِ ، الصفات التي نرى وجوب توافرها في الخلق العالي

بل ان العلم التطبيقي في ناحيتهِ الاجتماعية، مدرسة جديدة لخلق الجماعة . فالمواصلات والمخاطبات

الحديثة قد قرّبت بين الامم ومهّدت سبيل التعارف بين الشعوب . وكلما مضينا في تطبيق نتائج العلم الحديث تبيّن لنا انها تصدف عن الفوارق التي تفصل بيننا ، سواء اجغرافية كانت ام جنسية ام سياسية ام اجتماعية . فالانسولين الذي استنبطهُ الدكتور بانتنغ الكندي وصحبهُ في جامعة تورنتو لا يفرق في شفاء البول السكري . بين الكندي والمصري ولا بين المسيحي والمسلم ولا بين الشيوعي والفاشستي ولا بين العامل وصاحب المال . ثم ان تاريخ العلم تاريخ مشترك . ولكل امة من الامم ابطال ادّوا نصيبهم في اعلاء مناره او سقطوا في ميادين الجهاد . فامجاد العلم المشتركة تؤلف بين الامم كما تجمع المصائب بين بلدان الشرق . ولعلكم لم تنسوا قول شوقي رحمة الله عليه : قد قضى الله ان يؤلّفنا الجرحُ وان نلتقي على اشجانهِ

***

نعم ايها السادة ان العلم قد قلب اوضاعنا الفكرية ، ومثلنا الادبية ، ووضع في ايدينا قوة ، اذا اسأنا استعمالها افضى بنا ذلك الى التدهور . ولكن اتجاه العلم الحديث ، واسلوب العلم الحديث ، ينطويان على بذور فلسفة علمية ادبية جديدة ، قد نجد فيها خلاصاً من الحيرة التي تكاد تمزقنا .

كنت اقلب اوراقاً من أيام ، فوقعتُ على صورتين تمثلان غرق الباخرة تيتانيك . أما الصورة الاولى فتمثل الباخرة العظيمة وقد اصطدمت بجبل الجليد فشقّ جنبها ، واخذت تميل الى الغرق وقد كتب تحت الصورة : « ضعف الانسان — قوة الطبيعة » . اما الصورة الاخرى فتمثل قارباً مدلّى من جانب الباخرة التي تكاد تبتلعها الأمواج ، وامام القارب الحافل بالركاب ، رجل يهم بالنزول ليجلس او يقف في آخر محل فيهِ لينجو مع الناجين ، ثم تراهُ وقد ارتدّ ليخلي المكان الاخير في القارب لسيدة وراءه وهو يعلم انهُ شارب كأس الموت لا محالة . وقد كتب تحت هذه الصورة : « ضعف الطبيعة — قوة الانسان » .

ان عصر الآلة لم يسحق حتى الآن ، ولا هو فسر لنا النوازع الروحية في القلب البشري . انها لا تزال هناك ، مادة تصلح ان تبنى بها او تبنى عليها شريعة الآداب الجديدة

أما انا فلا يخامرني شكٌّ في حكمة البشر . فالذكاء الانسانيّ يرهفهُ التعليم وتصقلهُ المرانة ، والارث الثقافيّ يوسعهُ البحث ويمحصهُ الاختبار . ولا بدّ ان يجيء يوم — لن ندركه نحن وقد لا يدركه اولادنا — تلحق فيهِ عقولنا بالآلات التي استنبطتها . وترتفع حكمتنا الى مستوى المعارف التي انتزعناها من صدر الطبيعة . وتسمو اغراضنا سموّاً يمكننا من السيطرة على القوى الصناعية العظيمة رهينة اشارتنا وتوجيهنا

عند ذلك ندرك ان اعظم رجال الدولة كأعظم المعلمين ، من يرشد بالمعرفة والعطف ، لا من يستفزّ بالتحكّم والعنف ، وان اعظم الجماعات ، جماعة لا تخضع للقوة بل تعنو للحكمة . عند ذلك يكون العلم قد اندمج في اغراض الروح العليا تخرج لنا من البوتقة إكسير الحكمة المصفّاة

سر الحياة في الكربون

لنقولا الحداد

الحياة نشوء آخر يختلف في ظاهراته كل الاختلاف عن نشوء الاجسام المادية غير الحية . هو درجة ثانية من درجات الوجود اعلى من درجة المادة « الميتة » ، كأنهُ كون آخر مستقل في ذاتيته وطبيعتهِ كل الاستقلال عن الكون المادي . ولكنهُ بالحقيقة ماديُّ الجوهر والحركة ، بمعنى ان الجسم الحي مؤلف من ذرات المادة ، ولكن بنظام آخر يختلف عن نظام المادة . فهل هو متمشٍ على نفس سنن الطبيعة الاساسية كالجاذبية والالفة الكيماوية ؟ ام ان له سنناً اخرى خاصة بهِ ؟

الظاهر لنا ان الحياة لانها قائمة بالمادة هي خاضعة لنواميس حركة المادة . واذن حركتها مستمدة من نفس القوى الفاعلة في المادة — جاذبية وألفة كيماوية — وحركتها ذاتية بمعنى انها تختزن القوة المادية ثم تتصرف بها تصرفاً خاصًّا يلائم كيانها . وحركتها نتيجة هذا التصرف . وهذه الحركة نوعان . حركة في داخل الجسم الحي بين اجزائهِ ، شائعة في النبات والحيوان . وحركة تنقل الجسم الحي كله من حيز الى حيز . وهي خاصة بالحيوان على الغالب . فما هو سر الحياة الذي هو مستودع القوة الحيوية ؟ وما هو مصدر هذه القوة ؟

لا نعرف وجوداً للحياة كما نعرفها الاَّ على ارضنا . فلا شأن لنا بها اذا كانت موجودة في جرم آخر سواء اكانت هناك بنفس الخواص التي نعرفها هنا او كانت تختلف عما نعرفه

نعرف ان الجسم الحي مهما كان نوعه مؤلف من جزيئات Molecules عديدة الذرات جدًّا ليس لها مثيل بكثرة ذراتها في سائر جزيئات الغازات والسوائل والجوامد ، لا على الارض ولا فيما استُدِل عليهِ في الاجرام الحارة وفي الاجرام الباردة ، من انواع الذرات والجزيئات . فكأن سر الحياة مودع في الجزيء العديد الذرات . فلنبحث عنهُ في هذا الجزيء

الجسم الحي من ابسط انواعهِ : الاميبا ، الى اكثرها تركباً وتعقداً ، الانسان ، مؤلف من ثلاثة اصناف من المركبات الكيماوية وكل صنف منها عديد الانواع بتعدد انواع الخليات . وهي :

اولاً — الكربوهيدرات (النشائيات ونحوها وسلاسل البارافينات وسلاسل الكحل الخ) وجزيئاتها تحتوي على بضع ذرات الى بضع عشرة ذرة . وهي الوقيد الذي تصدر منهُ القوة لاصدار الحركة

ثانياً — الدهنيات ونحوها . وجزيئاتها مؤلفة من عشرات الذرات . وهي وقيد آخر مدخر ولا سيما في الاحياء المنوعة الاعضاء الوظيفية

ثالثاً — البروتايينيات (الزلاليات) . وجزيئاتها مؤلفة من مئات الذرات او الوفها في بعض الاحيان . وهي هيكل بنية البروتوبلاسم الذي هو جوهر الحياة الاول

يلحق بهذه الثلاثة الماء . وهو الوسط الذي تتنقل فيه جزيئات المركبات الحيوية ، فضلاً عن انها تتحد احياناً بجزيئات منهُ

ولا نعرف في الطبيعة جزيئات مؤلفة من ذلك العدد العظيم من الذرات الاَّ في الجسم الحي . وفي غيره لا يتجاوز عدد ذرات الجزيء البضع او البضع عشرة ذرة . اذن سرُّ الحياة في الجزيئات العديدة الذرات . فلنبحث عنهُ في ذرات هذه الجزيئات لكي نعلم في ايٍّ منها مقامه

***

التحليل الكيماوي يرينا ان اصناف هذه المركبات الثلاثة العديدة الانواع مؤلفة من اربعة عناصر رئيسية فقط ، اي من اربعة اصناف من الذرات وهي الهيدروجين والاوكسجين والنيتروجين والكربون . واما ما يرى فيها من العناصر الاخرى — الكلسيوم والصوديوم والبوتاسيوم والمغنيزيوم والحديد واملاحها الكلورات (كلوريد) والفصفات والسلفات والنترات والكربونات الخ فوظيفتها ثانوية وسيطة Catalysis : فلنر اي هذه العناصر الاربعة ذو الشأن الاهم في تأليف الجزيئات العديدة الذرات

اما الهيدروجين والاوكسجين وحدهما فلا يتألف منهما الاَّ بضعة انواع من الجزيئات لا يزيد الواحد منها على اربع ذرات . واذا دخل النتروجين معهما او مع احدهما فلا يتألف منها جزيئات تزيد على بضع ذرات ايضاً ، حتى لو دخلت عناصر اخرى ثانوية غير هذه الثلاثة فلا يناهز عدد الذرات في الجزيء الواحد البضع عشرة ذرة.ولكن اذا نزل الكربون الى الميدان رأيناه يؤلف مع العناصر الثلاثة التي نحن بصددها جزيئات تعدُّ ذراتها بالمئات واحياناً تتجاوز الالف.فاذاً في الكربون سر الحياة (هذه ملاحظة وردت عرضاً في كتاب « الكون المحجَّب بالاسرار » تأليف السير جيمز جينز . ولكنهُ لم يشرح هذه النظرية)

فاذا في هذا العنصر — الكربون — من الخواص او المزايا التي تخوله القدرة على تكوين البروتاينيات والكربوهيدرات والدهنيات التي تتألف منها الخلية الحية Cell ؟ . فلنبحث في كلٍّ من هذه العناصر الاربعة

هـ = الهيدروجين ذو بروتون وكهرب واحد حر

و = الاكسجين ذو ١٦ بروتوناً و٨ كهارب حرة ما عدا المتحدة ببروتوناتها

ن = النيتروجين « ١٤ » و٧ » » » » » »

ك = الكربون « ١٢ » و٦ » » » » » »

فلنضرب صفحاً عن البروتونات لان الالفة الكيماوية التي تؤلف الجزيئات لا تتوقف على عدد البروتونات في الذرة الواحدة بل على عدد الكهارب الحرة فيها فقط

ولقد علمت من مقال كاتب هذه السطور عن «فناء المادة» في العدد السابق من المقتطف ان الكهارب الحرة تدور حول النواة (مجموعة البروتونات) في مناطق : الاولى معدة لكهربين فقط . والمنطقة الثانية التي بعدها معدة لثمانية كهارب . ولا شأن لنا بالمنطقة الأولى ولا بالمناطق التي بعد الثانية . لانه ليس في ايٍّ من هذه العناصر الاربعة ما يشغل اكثر من المنطقة الثانية . ولان المناطق الاخرى التي بعدها خاصة بعناصر غير عناصر الحياة

اذن الكهارب التي تدور في المنطقة الثانية هي : —

في الاكسجين ٦ يبقى محل لكهربين (٢) في المنطقة الثانية (شفع اي زوج)
« النتروجين ٥ « « لثلاثة كهارب (٣) « « « (وتر)
« الكربون ٤ « « لاربعة « (٤) « « « (شفع)

فلعلَّ كون الكربون شفعي الكهارب الموجودة وشفعي الكهارب الناقصة لتتمة المنطقة، هو الامر المسهل له الاتحاد بالعناصر الاخرى مهما اختلف عدد الذرات في الجزيء . يساعده على ذلك الاكسجين الشفعي الكهارب ايضاً ويساعدهما الهيدروجين لاتمام ما ينقص المنطقة من الكهارب في تأليف الجزيء ولا سيما متى دخل النتروجين فيه وهو وِتريُّ الكهارب . وبهذا التسهيل يتضح تآلف الذرات الثلاث باستقرار ومن دون تقلقل . مثال ذلك في الحامض الكربوني (كربون داي اوكسيد = ك و ٢) الذي يدخل جزيئهُ كثيراً في المركبات الحيوية ، يأتلف الكربون مع الاكسجين فيشرك كلاًّ منهما بكهربين من كهاربه الاربعة وتصبح المنطقة الثانية لكل منهما تامة . والجزيء يستقرُّ بهذا الاختلاف متعادل الشحنة الكهربائية ، ولا يتفكك الاَّ اذا طرأ عليهِ جزيء آخر فيندمج الاثنان معاً في جزيء جديد

واذا انعمت النظر في مركبات الكربوهيدرات والدهنيات وجدت ان ائتلاف الكربون والاكسجين يحدث على هذا النحو . وفي حالة ان الجزيء ينقصه كهرب يدخل الهيدروجين بكهربهِ . والهيدروجين مطواع يدخل بكهربهِ من معظم الجزيئات لاتمام النقص . (هذا بحث دقيق جداً لا يكفي التوسع فيه وشرحه مقال او اكثر)

واما النتروجين فلأنه وِتري الكهارب (٣ في المنطقة الثانية) فغالب الظن ان ائتلافه مع الجماعة لا يسهل الاَّ بتعدد الذرات الكثيرة في الجزيء الواحد بحيث يستطاع تأليف جزيئات متعادلة الشحنة الكهربائية . ولذلك لا يدخل الاَّ في تآلف البروتاينيات التي تعد ذرات الجزيء الواحد فيها بالمئات . او ان اندماجه فيها هو سبب تعدد ذراتها . ولكنهُ لا يدخل في الكربوهيدرات والدهنيات لانهُ بدخوله يجعل الجزيء عديم الاستقرار كما يستدل من معظم مركباته اذ يظهر فيها قلقاً دائماً

لا يكاد يستقر في مركب منها ، فكأن قوة ألفته Affinity ضعيفة جداً (خلافاً للكربون) فلأقل طارىء يتنافر مع العناصر الاخرى ويتركها او تتركه . ومن أبسط الامثلة على ذلك النشادر Ammonia وهو مركب من نتروجين واحد وثلاثة هيدروجينات = ن هـ ٣ — ولكنه في هذه الحالة لا يمكن ان يوجد مستقلاً لان كهاربه في المنطقة الثانية ٣ وكهارب الهيدروجينات الثلاثة ٣ والمجموع ٦ فتبقى المنطقة ناقصة كهربين ويبقى الجزيء ايجابيًّا غير متعادل . لذلك لا يوجد النشادر مستقلاً البتة ، بل لا بدَّ من اتحاد جزيئه بجزيء آخر كجزيء الماء مثلاً ليكوّن منهما هيدروكسيد الامونيوم ذائباً في الماء (ن هـ ٣ + هـ ٢ و = ن هـ ٤ ٠ هـ و) ومجموع كهاربها جميعاً ١٦ تشغل منطقتي الاكسجين والنتروجين ، مع ذلك يبقى هذا النتروجين الشاذ المتمرد قلقاً لا يطيق التقيد باخويه ، فيتطاير بشكل ن هـ ٣ من الماء كما نعلم من رائحته التي لا تطاق ويفلت بانحلال الجزيء برمته . والنشادر موجود ايضاً كضلع Radical في البولينا Urea ولذلك يشعر برائحته في المباول التي طرأ عليها الاختمار المحلل له

ومن الادلة على قلق النتروجين وتمرده انهُ داخل في المواد المفرقعة كالنيتروجليسرين وغيره وهو سبب تفرقعها لان التفرقع ليس الاَّ تنافره مع الذرات الاخرى وافلاته منها فتنحل الجزيئات الى ذرات تتمدد بسرعة فائقة

يستدل مما تقدَّم : اولاً ، ان وظيفة الاكسجين والهيدروجين في الحياة ايجاد الوسط (الماء) الذي تنتقل بهِ الحركة ، ثم اشتراكهما مع الكربون في ايجاد الوقيد الذي هو مصدر القوة فالحركة

ثانياً ، ان وظيفة الكربون جمع العناصر الاخرى معهُ وربطها بالالفة الكيماوية لبنيان هيكل الجسم الحي على اختلاف انواع خلياته من الميكروبات المتنوعة ذات الخلية الواحدة Unicellular الى ما فوقها من الاحياء المتعددة الخليات Multicellular ولولاه لما تألف جزيء حيوي

ثالثاً ، فيما ان وظيفة الكربون البناء تكون وظيفة النتروجين الهدم (من غير اطلاق معنى الهدم) وهي وظيفة ذات شأن لازمة للحركة والنمو ولتطور حياة الخلية . فمعظم عملية دخول «الغذاء» الى الخلية وتمثيله فيها ثم خروجه منها بشكل مختلف عن شكل دخوله (اي عملية التحول Anabolism) يتم بتقلقل النتروجين في مركبات البروتايين المختلفة . فمنذ ولادة الخلية الى ان تزول تحدث تحولات كيماوية متنوعة عديدة متوالية تتجدد بها حياتها ، تحدث بواسطة الكربون وتقلقل النتروجين

في اثناء هذه التحولات التي تحدث بسبب تقلقل النتروجين يحدث تأكسد الكربوهيدرات واحياناً الدهنيات ، اي احراقها . والنتيجة حرارة والحرارة صورة من صور الطاقة كما تعلم . وليس ذلك فقط بل ان تقلقل النتروجين وتنقله من شكل جزيء الى شكل جزيء آخر يحدث التأين Ionisation اي انسلاخ بعض الكهارب من الجزيئات وحدوث شحنات كهربائية سلبية او ايجابية ،

ولا سيما في الجهاز العصبي اذ يمكن استكشافه هناك واثبات وجود تيار كهربائي ضعيف فيهِ . وحدوث هذا التيار هو من جملة مصادر القوة والحركة في الخلية وسائر اعضاء الجسم

بقي ان نبحث قليلاً في كيفية حدوث الحركة في الحي او على الاقل في خلية الحي

ابتدأ البروتوبلاسم ، اول اشكال الحياة ، هلاميَّ القوام (جلاتينيًّا) بسيطاً ذا نوع واحد من انواع البروتاينيات . وتألفت جزيئات هذه البروتاينيات بسيطة جدًّا ، ابسط ما يمكن ان يكون من هذا الصنف من المركبات الكيماوية الرباعية (ذات العناصر الاربعة) . تألفت تحت تأثير نور الشمس وحرارتها المعتدلة وتأثير الفوتونات المنتشرة منها وسائر انواع التشعع مما لا بد ان يُحدث التأين في هذه العناصر تارةً بعد تارة . فهذه العوامل المختلفة تؤدي الى سلسلة من التركبات الكيماوية المختلفة التي منها البروتايين

وابتدأت جزيئات البروتايين متصلة بعضها ببعض لما فيها من لزوجة وبواسطة جاذبية الملاصقة Cohesion . فلا تنحل في الماء ولا تذوب فيهِ وانما ينفذها الماء ويتخللها Osmosis بما فيهِ من مركبات كيماوية بسيطة كالحامض الكربوني مثلاً ، وبعبارة علمية « مضللة » ، تمتصه وتمتص معه ما يذوب فيه من المركبات والذرات اللازمة لها لكي تتمثل فيها وتنبذ منه ما لا حاجة لها به

ولا يخفى ان عملية الامتصاص والنبذ هذه تستلزم حركة انتفاخ وضمور متعاقبين في الجسم الهلامي . وبين هذه الحركة وما في البيئة المائية (الحياة ابتدأت في الماء) من الحركة الميكانيكية تفاعل لا بدَّ منهُ . اي لا بد من حدوث تفاعل بين الجسم الحي وبيئتهِ اخذاً وردًّا ، او امتصاصاً ونبذاً . وفي اثناء هذا التفاعل الطبيعي Physical يجري السائل في غضون الخلية او خلالها حاملاً مواد خارجية مختلفة كالحامض الكربوني والاملاح من كربونات ونترات الخ . وفيما هذا السائل يتسرب الى غضون الخلية تحدث تفاعلات كيماوية متوالية بين المواد التي يحملها وبين جزيئات الخلية . تحدث هذه التفاعلات باستمرار ما دامت مواد جديدة تدخل وما دام النتروجين ينشز من جزيء الى جزيء وما دام الكربون يتفنن في تجديد الجزيئات بحسب الذرات التي ترد اليه . وفيما يحدث هذا التفاعل الكيماوي يكون من نتائج التحولات انفلات بعض الذرات من المركبات بحالتها الغازية . وهذه الحالة تحدث الانتفاخ والضمور المتعاقبين اللذين اشرنا اليهما سابقاً . وبالتالي يحدث مجرى سائلي في غضون الخلية

فترى انهُ ما دام الامتصاص يدخل الى جسم البروتوبلاسم جزيئات جديدة واحياناً ذرات ايضاً فهذا التفاعل الكيماوي يحدث باستمرار على التوالي وبسرعة . ففي كل هنيهة يحدث حل وتركيب في الخلية مجددان لحياتها ونموها . فتخرج منها جزيئات وذرات قد استغنت عنها كما دخلت اليها جزيئات وذرات اندمجت في جزيئاتها اندماجاً كيماويًّا . فكأن البروتوبلاسم معمل كيماوي دائم العمل — الحل والتركيب — ما دامت الخلية تستطيع ان تمتص من البيئة وتنفث فيها

ولأنَّ سطح الخلية الكروي الخارجي ملابس للبيئة والتفاعل الاول يقع بينهُ وبينها ، فلا بد ان تكون جزيئاته مختلفة ولو بعض الاختلاف عن جزيئات داخل الخلية . وطبيعة هذا التفاعل تجعل ذلك السطح كغلاف امتن مما هو ضمنهُ واقبل للامتصاص . وهكذا تقضي سنّة التطور ان تكون وظيفة هذا الغلاف الامتصاص والنبذ ، وحماية الداخل من التفاعلات المنافية لمصلحة الخلية التي لا يستطيع داخلها ان يتوقاها كما يستطيع الغلاف اتقاءها . وهكذا يصير جسم الخلية ذا عضوين مختلفي الوظيفة . الغلاف الذي وصفناه . والنواة التي وظيفتها الرئيسية العمل الكيماوي المنمي بالتجديد والتحول Metabolism & Katabolism وبينهما مجرى السائل الذي يحمل المواد الداخلة والمواد المنبوذة

وما دامت البيئة المختلفة ذات عوامل مختلفة في احوالٍ مختلفة فلا بدَّ من تنوُّع مناطق الجسم او اجزائهِ بوظائف مختلفة لكي تقابل مفاعيل البيئة وتنتفع بها . وهذا التفاعل المنوع يسبب تنوعاً يضاهيهِ في العمليات الكيماوية . وكذلك تتنوع جزيئات الاجزاء المختلفة الوظائف . كذا نشأت اصناف البروتايينات والكربوهيدرات والدهنيات على تمادي الزمان بحكم قانون التطور . ففيما كانت الجزيئات تتجمع في هلام كانت تتنوع في بروتوبلاسم

***

ليس غرضنا من هذا المقال الاسترسال في وصف العمل الحيوي والتطورات التي تتعاقب على البروتوبلاسم وتنتج انواعاً . فان هذا البحث من خصائص البيولوجيا . وانما غرضنا ان نستقصي سرَّ الحياة الى اعمق ما يستطاع . وفيما استقصيناه من بيئة الذرات الاربع التي تتألف منها جزيئات البروتوبلاسم لم نجد الاَّ تفاعلات كيماوية متوالية متعاقبة خاصة بالعناصر الاربعة تحت تأثير حرارة معتدلة وتأثير تشعُّعات الشمس المختلفة . وقد رأينا ان الدور الاهم في هذه التفاعلات هو الدور الذي يلعبهُ الكربون لانهُ لولاه لما امكن تكون البروتايينيَّات . ويليهِ في خطر الشأن الدور الذي يلعبهُ النتروجين بنشوزه وشذوذه

فهل سر الحياة هو في الالفة الكيماوية التي تتلاعب بهذه العناصر الاربعة ، ام هو في هذه الالفة مع شيءٍ آخر يستخدمها ولا زلنا نجهلهُ ؟ ربما كان الكيماوي يقتنع بان الالفة الكيماوية هذه كافية لاصدار الحياة لانهُ لا يرى شيئاً آخر غيرها وراءها . وربما كان غير الكيماوي لا يرتاح الى هذا التعليل فتبقى الحياة سرًّا غامضاً لهُ . فاذا صحَّ ان الحياة الفة كيماوية بين ٤ عناصر خاصة تحت تأثير حرارة خاصة وتشععات خاصة ايضاً فتكون قد ظهرت على الارض صدفة اي غير مقصودة في الوجود المادي ولا هي مضمرة في الفوتونات التي تألفت منها البروتونات والكهارب . والله اعلم

شبرا . مصر نقولا الحداد

السيكلوجية الحديثة

الغريزة الجنسية في التحليل النفساني

بيعقوب فام

في سنة ١٨٥٥ كان فرويد في باريس يدرس تحت ارشاد شاركو ضروب العلاج بالتحليل النفساني وكان مما يقوله هـذا الأخير لفرويد ان « السبب الأصلي في كل عقدة نفسية هو المسألة الجنسية » فكان فرويد يعجب لماذا لا يضع الاستاذ نظريته هذه ويدافع عنها أمام الناس . وعلى كل حال لم يفعل شاركو شيئاً من هذا وترك هذا الميدان دون ان يزعم هذا الزعم بطريقة رسمية

ثم بدأ فرويد يعلن هـذه النظرية للناس وينضح عنها بكل ما اوتي من جهد وقوة ، ولم يقف عند هذا الحد بل تمادى في هذا الفرض تمادياً جعلنا نعتقد انهُ لا يرى في الانسان شيئاً او منزعاً الاّ من هذه الغريزة ، لا بل نستطيع ان ندعو هذه المدرسة بمدرسة السيكلوجية الجنسية من غير ان نكون متعنتين او مفترين بوجه من الوجوه

كنت أتحدث في هذا مع صديق لي من المشتغلين بالسيكلوجية في مصر . فكان مما قاله لي اني لا افهم فرويد كما يجب ان يفهم ، قلت قد يجوز ، فأنا لا أدعي اني معصوم من القصور في الفهم ، ولا ادعي اني افهم كل ما يمرّ بي في مطالعاتي . اذ اني أذكر مرة اني قرأت كتاباً عدد صفحاته حوالي الاربعمائة وثمنه سبعون قرشاً دفعتها من مالي الخاص دون ان افهم من هذا الكتاب شيئاً على الاطلاق ، فلا يجب ان اقطع برأي في مسألة فرويد ، ولا يجب ان أتعنت في طريقة عرضي لآرائه ، ولكن ما قولك في ان كل من قرأتهم من علماء النفس متفقون على أنهم فهموا ما فهمت منهُ أنا ، وما قولك في انهم يتهمونه على ان نظريته في السيكلوجية مبنية في الاغلب على « الغريزة الجنسية » وعلى كل حال سواء أكان اتهام صديقي لي على حق أم على غير حق فاني اعتزم ان اترك الحكم للقرّاء في هـذا الموضوع ، اريد ان أبسط امامهم نظريته ولهم وحدهم ان يحكموا في هـذا النزاع

ينكر فرويد الزعم بأن سيكلوجيته مبنية على الغريزة الجنسية فقط . ينكر هذا ويلحُّ في الانكار . ولكنهُ يزعم ان أهم شيء في التحليل النفساني هو العوامل الجنسية . هـذا من جهة ، واما من الجهة الأخرى فان جميع حالاته يرجعها الى عوامل جنسية في تحليله ، لا بل يفسر جميع الظواهر النفسية على هذا الاساس ، فكأنهُ ينقض باليمين ما يبنيه باليسار ، واظن ان الخلاف بينه

وبين أدلر نشب في هذا الميدان ، وانفصل التلميذ عن استاذه لهذا السبب دون غيره . واستمرت بينهما الحرب لهذا وليس لشيء آخر ، فبينما يزعم فرويد ان جميع الحالات النفسية التي عالجها ترجع الى نزاع جنسي في النفس او الى نزوع جنسي لم يتحقق بشكل من الاشكال ، بينما يزعم فرويد هذا يقول أدلر ان رغبة التسلط هي الحافز لنا في جميع انواع النشاط ، وان الالتواء في هذه النزعة او القصور في تحقيق غاياتها هو السبب الاساسي في الاضطرابات النفسية ، وتكفي ان تكون المسألة الجنسية هي محور الخلاف وسبب القطيعة بين الاثنين لكي اكون مطمئناً الى اني لم أعدُ الصواب حين ازعم ان محور التحليل النفساني على طريقة فرويد هو المسألة الجنسية ، واذا كان صديقي الذي اوردت قوله فيما سبق لم يقتنع بعد فليرجع الى اسباب الخلاف بين فرويد وبين يونج ، فان يونج فهم ما فهمت ، واختلف معهُ فيما اختلف معه فيه الآن ، فما ذنبي يا ترى اذا كان الجميع قد فهموا من فرويد ما فهمت

ونظريات فرويد في الغريزة الجنسية يتلو بعضها بعضاً ويأخذ بعضها برقاب بعض حتى لا نكاد نفيق من كثرة تزاحمها امامنا . فالانسان في رأيه لا يأكل او ينام او يلهو او يجد او يفكر او يحلم الا بدافع من الجنس . وقد يكون واعياً للدافع الجنسي ، وقد لا يكون واعياً ، ولكن الدافع الجنسي موجود بلا شك في جميع الحالات

طفل في السنة الاولى او في الشهور الاولى من حياته ، تضعه أمه على صدرها وترضعه فيشبع ويعاف الطعام ويريد ان يترك لنفسه ليلهو بنفسه ويلعب، يشاهد الدنيا حوله ويتتبع الحركات فيها بعينيه ، وبينما هو يراقب المناظر الطبيعية والاجتماعية حواليه يضع ابهامه في فمه ويمتصه ، ثم يمتصه وقتاً طويلاً ، تدور انت تبحث عن الدافع لهذا العمل فتجد اجوبة تتعدد بتعدد المجيبين والدوافع الممكنة لمثل هذا العمل ، قد تقول ، وقد تصيب فيما تقول ان هذا الطفل يلهو بهذا العمل ، وقد يقول غيرك لثته مهتاجة فهو يضع اصبعه فيها ليبرد من هياجها . قد يقول أحدنا هذا او شيئاً مثله ، وقد نخطىء او نصيب في البحث عن العلة في تصرف الطفل ، ولكن فرويد يزعم ان عمل الطفل هذا هو الغريزة الجنسية بعينها ، او هو وظيفة هذه الغريزة عند الاطفال ، وبالطبع هذا زعم لا نقبله لانهُ لا يقوم عليه دليل اولاً ، ولانهُ يتعارض مع الذوق العقلي في أبسط مظاهره

ومثل آخر على ما يراه فرويد في شأن هذه الغريزة التي اوشك ان لا يرى في الانسان سواها — انسان يرى فيما يرى النائم انهُ يتسلق سلم منزله او اي منزل آخر. بالطبع لا تكون هذه الحقيقة هي كل محتويات الحلم ، وانما يتبعها مشاهد ومظاهر اخرى ، فلو سألني هذا الانسان في معنى حلمه لأجبته ان معدته ليست على ما يرام او ان احد اعضاء جسمه لا يؤدي وظيفته كما يجب ان يؤديها ، او ان حرارة جسمه ارتفعت في اثناء النوم لسبب من الاسباب ، وان لم يعجبهُ واحد من هذه الآراء اقول له انها اضغاث احلام . اما فرويد فيفسره هكذا : في صعود السلم توافق من الحركات

الايقاعية Rythm ، فالابعاد بين الدرجات متساوية ، والحركة التي يأتيها الانسان في صعوده تكون بالتالي متوافقة ، ثم يجب ان لا ننسى ان الحركات التي تستتبع تحقيق الغريزة الجنسية فيها توافق ايضاً ، فيكون مغنى هذا الحلم هو في الواقع تحايل من تلك الغريزة على تحقيق غاياتها بشكل غامض مبرقع ، فهذه الغريزة تريد ان تتحقق على اي حال ، ولما كان تحقيقها تقوم في سبيله صعوبات جمة لا قبل للواعية بالتغلب عليها ، فتتحقق بطريقة لا تستطيع ان تعترض عليها الواعية

وهذا التفسير لا يستقيم لافهامنا على اي حال ، لانهُ مناقض لابسط قواعد الذوق السليم Common sense ولا ارى ان هنالك علاقة بين صعود السلم والغريزة الجنسية ، ومسألة التوافق هذه ان هي الأ تسكأة لا تصلح لتدعيم هذا الرأي بحال من الاحوال ، لاني ارى هذا التوافق او هذا الايقاع Rythm في المشي والعدو والعوم ، واراه في الطيور وهي تطير والحيوان وهو يسير ، واراه في جريان الماء واهتزاز الاشجار واراه في الموسيقى وفي الشعر والنثر ، وبالاختصار انا ارى هذا التوافق في كثير من المظاهر الطبيعية من النجوم في افلاكها الى الذرات في مداراتها ، وبالطبع لا يستطيع انسان ان يزعم ان جميع هذه هي مظاهر للغريزة الجنسية بشكل من الاشكال

يقولون ان الغريزة الجنسية عند فرويد لا يقصد منها ما نقصده عادة من هذا الاصطلاح في اللغة العادية وانما يقصد امراً اوسع واعرض مما تواضع عليه الناس ، فليس هو قاصراً على الدوافع الطبيعية التي تجذب الذكر الى الانثى من جميع الاحياء ، وليس الغرض منهُ فقط إخلاف النسل واشباع الرغبة الطبيعية ، وانما معناه عند فرويد اعم واوسع من هذا بكثير ، فحب الجمال من الغريزة الجنسية وحب السلطان والشهرة منهُ كذلك ، وغريزة حب البقاء والنسل من الغريزة الجنسية

ونحن نظن ان هذا تعسف في التفسير ، ومن قبيل تسمية الاشياء بغير مسمياتها ، فشأنهم في هذا شأن من يطلق مرضاً معيناً على جميع الامراض ، او لوناً معيناً على جميع الالوان ، وعلى هذا القياس يصح ان نسمي مجموعة الوان الطيف الشمسي احمر او اصفر ، على زعم اننا نقصد باللون الواحد جميع الالوان ، مع ان هذا لا يصح لان فيهِ كثيراً من الخلط والارتباك الذي لا يعود بفائدة على احد لا بل فيهِ ضرر كثير وتشويش للافهام

وعلى هذا القياس نزعم انهُ سواء اراد فرويد بالغريزة الجنسية ما نريد ، ام اراد بها اكثر مما نريد فالنتيجة في الحالين سواء ، هي انهُ اغفل من حسابهِ معظم الدوافع النفسية التي تحفز الناس على العمل والحركة والسعي للحياة في مجموعها

يتبين هذا الاغفال للدوافع النفسية المتباينة من كثير مما كتب فرويد ، ومن مذاهبهِ في علم النفس حتى وان كنا نحن لا ننبه الى هذا الاغفال ، فمثلاً يزعم فرويد ان الصبي يميل لامه ويحبها اكثر مما يحب اباه . وينصب نفسه عنها مدافعاً ويقف منها موقف القوي يحمي الضعيف ، وتحب الابنة اباها اكثر مما تحب امها ، وتظهر لابيها العواطف الرقيقة المحببة ، التي تظهرها الانثى عادة

للذكر وليس هذا فقط ولكنها تفاخر بأبيها وتعجب به وتزعم انهُ اقوى جميع الآباء وامضاهم عزيمة واشدهم بأساً

ويزيد فرويد على ما تقدم ان الصبي يغار من ابيه للعلاقة القائمة بين الوالد والوالدة ، ويحقد عليهِ ويود لو اختفى ابوه وترك الام للصبي وحده ، وكذلك البنت تغار من امها ، وتود لو احتلّت هي المكان الممتاز عند ابيها الى آخر هذه المزاعم ، ثم يختم فرويد مزاعمه هذه بأن يعطي لهذه الظاهرة اسماً قديماً حتى تبين عليها المسحة الكلاسيكية ، فيدعم الاسم الطنان هذا التخريج الذي اقل ما يقال فيهِ انهُ قد لا يكون هو الواقع

اما ان هذه الظاهرة النفسية تظهر على بعض الاولاد فقد يجوز لا بل ربما نزعم انها محتملة ، ان الابن يحب امهُ اكثر من ابيه ، ويجوز انهُ يغار من الاب ايضاً ، ثم يجوز ان هذه الظاهرة النفسية تبين على البنت ، ولكن ماذا بعد ذلك ، قد نسلم ان هذه الظاهرة النفسية موجودة في الواقع ، فكيف نعللها ؟ وهل لا يمكن تعليلها الاَّ عن طريق الغريزة الجنسية ألا يمكن بحال ان تكون هنالك دوافع نفسية غير هذه ؟ هل اثبت فرويد بما لا يدع مجالاً للشك ان الدافع لهذه الظاهرة هو الغريزة الجنسية ؟ الحق انهُ لم يفعل شيئاً من هذا وانما هو قد زعم هذا الزعم وذهب هذا المذهب ، ولكنهُ لم يقم الحجة القاطعة على صحته

ثم ما قول هذه المدرسة في هذه الظاهرة ؟ ابن يحب اباه اكثر من امه ، وابنة تحب امها اكثر من ابيها ، هل هذا مستحيل ؟ هلاَّ يمكن ان نجد هذه الظاهرة بنفس الكثرة التي نجدها في الظاهرة الاخرى ؟ وهل هذا الحب وهذه الغيرة في هذه الحالة ناتجان ايضاً من الغريزة الجنسية

الحق ان هذه المدرسة تغالت في توكيد الغريزة الجنسية الى حد انها فقدت توازنها ، وعرضت نفسها للنقد الشديد ، لقد امعنت في هذا المذهب حتى اصبحت لا ترى في رضاعة الطفل من ثدي امه مظهراً من مظاهر الغريزة الجنسية ، واظنه من المعقول ان نزعم ان حركات الرضاعة ان هي الاَّ عمليات عضلية تتطلبها الرضاعة وكفى ، فكل عمل يتطلب بعض الحركات العضلية من غير ان تكون لتلك الحركات غاية خارجة عنها ، كتحريك الذراعين عندما يجري الانسان ، وهذا بالطبع لا يستدعي منا ان نبحث له عن دوافع نفسية ، اذ يكفي ان نقول فيه انهُ حركات يستلزمها الجري

ومع كل ما تقدم نستطيع ان نؤكد للقارىء ان الفرويدية خدمت السيكولوجية الحديثة خدمة لا تقدر ، وانهُ لولا هذا المذهب لبقي كثير من المسائل النفسية مستعصياً على الفهم ولصار من المتعذر على علماء النفس ان يعرفوا الدوافع لكثير من تصرفات الانسان ، ولعجزوا ايضاً عن فهم كثير من الاسباب الاساسية لبعض المشكلات النفسية

فان كنا قد تعرضنا لفرويد بالنقد فذلك لاننا نشعر بما له علينا من الفضل في الكشف عن بعض المبادىء الاساسية للسيكلوجية الحديثة

أناتول فرانس

بعد عشرة أعوام من وفاته

لعلي كامل

مقدمة

بلغ اناتول فرانس في حياته اسمى ما يمكن ان يبلغهُ كاتب عبقري . فوصل اسمه الى اقصى البلاد . وترجمت مؤلفاته الى معظم اللغات الحية وغير الحية. وطبعت كتبه مئات الطبعات . ونال من الجوائز والمراتب ارفعها شأناً واعلاها ذكراً مما تتقطع دونها أعناق أعاظم الكتّاب . فمنذ خط طريقه الى عالم الآداب منح وسام اللجيون دونور في ٣١ ديسمبر عام ١٨٨٤ وفي عام ١٨٩٦ انتخب عضواً في الاكاديمي فرانسيز . وفي عام ١٩٢٠ منح جائزة نوبل للآداب وحصل بذلك على ما يقرب من خمسة عشر الفاً من الجنيهات تبرع بها كلها لأهل روسيا ايام المجاعة !

على ان اناتول فرانس لم يكد يفارق حياته الحافلة عام ١٩٢٤ حتى برز له النقاد يحاسبونه حساباً عسيراً . ينهشون اعماله ويحللون ويناقشون افكاره فانتهى الكثير منهم الى ان اناتول فرانس قد نال في حياته من المجد اكثر مما يستحق بكثير ! واتهموه بأنهُ كان على نقيض ما اراد ان ينشره حول اسمه ويحيج فيه بفضل « ادعائه ودجله » ! فقد اراد ان يظهر بمظهر الرجل الذي جاء الى هذا العالم ليغرس الرحمة في قلوب البشر المتحجرة . ولكنهُ كان في نظرهم ابعد الناس عن الرحمة والرثاء للضعفاء والمساكين . قالوا : كيف يمكن ان يحمل بين جنبيه قلباً رحيماً وهو الرجل الذي سخّر حياته للسخرية من صرعى الحياة . رجل جاء الى هذا العالم ليستمتع بأكبر لذة مستطاعة وليسخر من اكبر عدد ممكن من الناس . نعم كيف يفهم آلام الغير ويحس باوجاع المتألمين انسان لم يشعر بالألم الحقيقي مرة واحدة في حياته الطويلة لانه كان يكره الألم ويحتقر المتألمين فيطير من وجوههم فراراً الى سماء اللذات ومتع الحياة !

ولقد كان اناتول فرانس في كتاباته واقواله ديموقراطيـًا بل شيوعيـًا ثائراً . ولكم سخر منهُ في ذلك ايضاً فريق ناقديه . ألم يهزأ بالثورات ورجالها في قصته (الآلهة ظمأى) ؟ ! ألم يعتبر الديموقراطية وحكم الشعوب طعنة للفكر الانساني والثقافة العليا ؟ !

ولقد اضاف النقاد الى ما سبق فاعتبروا اناتول فرانس (لصـًا بارعاً) سرق كل ما جاء بهِ من الافكار من آداب وفلسفة الرومان والاغريق على الخصوص . ولقد خرج الناقد اندريه ليLilly من

ذلك الى اعتبار اناتول فرانس (مفكراً من الدرجة الثانية)[١] اما الكاتب العظيم اندريه جيد Gide فقد قال عنهُ (كان يمكن ان يفيض حي لاناتول فرانس اكثر مما هو الآن لولا ان عدداً من قليلي التبصر والدراية ارادوا ان يجعلوا منهُ كاتباً ممتازاً . . . . . . ان قيمة الكاتب كما يقول ستندهال هي في قدرته على هزّ قارئهِ وانا حين اقرأ أناتول فرانس لا اشعر مطلقاً بأقل اهتزاز)[٢]

ولسنا نود ان نذكر شيئاً من التحقير والتشهير الذي وجههُ جماعة الـ Surréalistes الى أدب اناتول فرانس لانهُ يتعدى حد النقد المعتدل البريء

على ان اناتول فرانس لم يحرم من يدافعون عنه ويردون على كل نقد وجه الى (الاستاذ الاعظم) — كما كان يسميه الفرنسيون — حتى اعتبره ميشيل كورداي في كتابه عنهُ (نصف إلـه)

يا له من تناقض عجيب ! ان الانسان ليشعر بالعجز المذل حين يقف وسط عواصف هذه الآراء المتضاربة . على اننا سنحاول ان نتجرد من التأثر برأي كل من الفريقين . ولننظر الى اناتول فرانس كما كان هو ينظر الى الناس . لننظر اليه متعالين متكبرين . لان التعالي والكبرياء ينفعاننا في الحكم عليهِ دون التأثر بتحزب عدو او الخضوع لمحاباة صديق . لنحكم عليه من خلال اعماله المجردة ولنستعن الى جانب ذلك بخلاصة صرخات النقاد طوال هذه السنوات العشر التي انقضت على وفاته ، من اصدقاء واعداء على السواء

﴿ حياته واعماله ﴾ ولد اناتول فرانس في باريس في اليوم السادس عشر من ابريل عام ١٨٤٤ وكان والده — ويدعى فرانسوا نوبل تيبو — بائع كتب . فنشأ اناتول بين تلال المؤلفات العديدة المتنوعة يقلب فيها بغريزة الطفل المتطلع لمعرفة كل شيء دون ان يدري كنهها وقيمتها . فلما شبّ قليلاً وابتدأ يشعر بقيمة الجو المحيط به شرع ينهل من ثروة الأفكار وتراث العقول بجشع غريب وابتدأت تتفتح أمامه أبواب المعرفة والخبرة النظرية يستمدها من ثنايا الاسفار

على ان احوال حياته العائلية قد أعانته أيضاً اكثر من غيره على استكمال الخبرة العملية بالحياة فلقد عرفنا الآن ان أناتول فرانس ابن بائع كتب فكان طبيعيّاً ان يقضي الصبي اناتول معظم يومه في الشوارع والطرقات بين أمثاله من الصغار. لذلك كانت طفولته أقرب الى التشرد والاضطراب منها الى الهدوء والاستقرار الذي تخلقه الحياة المنزلية الوادعة . ولقد ساعدته حساسيته الممتازة على التأثر بهذه الحياة وإجادة فهمها واكتساب كثير من التجارب من (مدرسة الشارع) كما يقول Craincabille وقد ظهر كل ذلك واضحاً في قصتهِ . وعند ما شبّ اناتول فرانس اشتغل مساعداً لأبيه يخالط صنوف الناس ويرى مختلف الوجوه ما يحبها وما يكرهها . فعرف من ألوان الحياة كثيراً مما لا يعرفه الكثيرون

(1) André Lilly : La litterature française contemporaine p. 152
(2) André Gide : Morceaux choisis. 20eme édition p. 137.

وكان اناتول فرانس يعتز الى جانب هذا وذاك بباريسيته الصميمة ويظهر انهُ كان يعلّق بها شأناً خاصاً في توجيه تفكيره وتلوين أدبه وطبعهما بالطابع الخاص الذي كان يمتاز به. وهذا هو ما دعاه لأن يقول في (كتاب صديقي) Le livre de mon ami هذه العبارة القصيرة التي تضم روح الاعتزاز والغرور (إني باريسي بكل نفسي وبكل جسمي) لذا لكي ندرس أناتول فرانس وتفكيره وروحه يجب ان نضع أمام أعيننا هذه الحقائق الثلاث

باريسي صميم — ابن بائع كتب — طفولة متشردة

***

لم يكن اناتول فرانس طالباً مجداً. وكان اهتمامه بقراءة الادب وبناء آمال ادبية اكثر من اهتمامه بتحصيل دروسه المدرسية . بل انهُ كان يعتبر ان حياة المدرسة ودروسها كانت حائلاً بينه وبين العلم الحقيقي اذ يقول (انني لم ابتدىء في التعلم الاّ عند ما انقطعت عن الدراسة المدرسية)

وكان اناتول طول حياته المدرسية فتىً مشاغباً دائم السخرية من أساتذته. ومجموعة ذكريات حياته التي كتبها فيما بعد حافلة بالشخصيات التي تمثل أساتذته أيام الدراسة مصورة بروح ساخرة ماجنة !

وكانت والدة أناتول فرانس — كسائر الامهات — تؤمن ايماناً صادقاً بأن ولدها سوف يصادف النجاح في جميع مراحل حياته . أما والده فكان على الضدّ شديد الخوف على مصير ولده وانك لتشعر بما كان يساوره من خطاب كتبهُ عام ١٨٦٨ وكان أناتول فرانس في الرابعة والعشرين . قال فيه

(ان ولدي لا يتبع نصائحي فهو لا يزال دون عمل . انه يكتب . بل يجب ان اقول انهُ يكتب بأسلوبه الرديء يشوه بهِ الصفحات ! [1] ان ما كنت اخشاه منذ صغره قد شاء القدر ان يتحقق الآن . لقد عيل صبري في مقاومته . فهل سيكون من الفطنة والذكاء بحيث يستطيع ان يعول نفسه . وا أسفاه ! وا أسفاه !)

أجل لم يقبل أناتول فرانس ان ينتظم في عمل من الاعمال يحقق بها رجاء والديه . بل ظلّ يقاوم مشيئتهما بعناد مثابراً على اعداد نفسه لمجد مستقبل حتى بلغهُ بعد جهد جهيد

نعم بعد جهد جهيد . فقد كان الدور التحضيري لمجده الادبي طويلاً مملاً ، اذ قضى سنين طويلة يعمل في مكتبة ابيه . وكان ينشر بين حين وآخر مؤلفات راسين وموليير وغيرهما بعد ان يعلق عليها بشروح لا تخلو من فائدة . وكان يشتغل في ذلك الوقت ايضاً بكتابة دراسات تاريخية وأدبية نقدية كانت اولاها رسالة عن الفريد دوفيني (١٨٦٨) ثم ابتدأ يخوض غمار الشعر فنظم عدداً من المقطوعات جمعت في مجموعتين الأولى بعنوان Les Poèmes dorés (١٨٧٣) والثانية بعنوان Noces Corinthiennes (١٨٧٦) وكانت جميع هذه الاعمال — بأجماع النقاد — خالية من التفكير

(١) سيرى القارىء فيما بعد ان النقاد يجمعون على ان اناتول فرانس خير من كتب الفرنسية من الثورة الفرنسية الى الآن !

النيّر والذهن الصافي فلم ترفع ذكر مؤلفها . وفي عام ١٨٧٩ نشر اناتول فرانس قصتين كانتا أولى محاولاته في التأليف القصصي وهما Jocaste et le chat maigre فلم تسترعيا اليهما الانظار

وفي عام ١٨٨١ نشر Le Crime de Sylvestre Bonnard (جريمة سيلفستر بونار) فخرج اسمه بهذه القصة مرة واحدة من الظلمة الى النور . وتوالت بعد هذه القصة اعماله الادبية فكتب قصة (آمال جان سرفيان) Les Désirs des Jean Servien و (كتاب صديقي) Livre de mon ami (١٨٨٥) وهو الكتاب الاول من كتبه الاربعة التي ضمنها ذكريات حياته . ثم كتب Balthazar و (تاييس) Thaïs (١٨٩٠) و L'Etui de nacre و (آراء جيروم كوانيار) Opinions de Gérôme Coignard و La Rôtisserie de la reine Pédauque (١) و Lys Rouge و Jardin d'Epicure و Puits de Sainte Claire (١٨٩٥)

ومن عام ١٨٨٨ الى عام ١٨٩٢ كان اناتول فرانس يتولى تحرير قسم النقد الادبي بجريدة الطان بعنوان الحياة الادبية Vie littéraire

الى ذلك الوقت كان اناتول فرانس مخلصاً لفنه واقفاً حياته عليه حتى كانت حادثة دريفوس الشهيرة فجذبتهُ الى غمار السياسة ووقف معارضاً لدوداً لتلميذه شارل موراس . وكانت هذه الحادثة دافعة له على كتابة مجلداته الاربعة في (التاريخ المعاصر) Histoire contemporaine وهي Le Mannequin d'osier و L'orme du mail و L'Anneau d'Améthyste و M. Bergeret à Paris

وفي اثناء هذه المدة ظهرت قصتاه Clio و Pièrre Nosière وهو الكتاب الثاني من ذكرياته

ومضى اناتول فرانس يوالي انتاجه القصصي وهو يسعى جهده في ان يغير طابع اعماله الادبية من قصص تشرح افكاره الفلسفية ونظراته العلمية الى اخرى تطغى فيها روحه الساخرة ونفسه المراحة فكتب في هذه الفترة من حياته من النوع الاول قصصه Sur la pierre blanche و L'Ile des pingouin و Vers les temps meilleurs ومن النوع الثاني Histoire comique و Les Contes de Jacques Tournebroche و Les Sept femmes de Barbe—bleue

وفي عام ١٩٠٨ نشر اناتول فرانس كتابه (حياة جان دارك) Vie de Jeanne d'Arc الذي حاول به ان يخرج عن طريقته في معالجة التاريخ كقصاص الى معالجته كمؤرخ ولكن النقاد يكادون يجمعون على ان اناتول فرانس قد اخفق في تحقيق ما تمنى

وفي عام ١٩١٢ نشر اناتول فرانس قصته (الآلهة ظمأى) Les Dieux ont soif ثم ظهرت قصة (ثورة الملائكة) La Revolte des Anges وبكتابيه Le petit Pierre و La vie en fleur أتم

(١) يكاد يجمع النقاد ان قصته La Rôtisserie de la Reine Pédauque هي خير قصص اناتول فرانس . على ان هذا الرأي لا يتفق ورأي اناتول فرانس نفسه . اذ هو يقول (اذا اعدت كتابة كل قصصي . فان القصة الوحيدة التي اعيدها كما هي . كلة بكلمة . هي قصة : Histoire Comique) فهي في نظره خير قصصه

اناتول فرانس كتبه الاربعة عن ذكريات حياته . وقد ذكر في ختام كتابه الأخير La vie en fleur ان هذه الذكريات صادقة (من حيث الوقائع الرئيسية والاخلاق والعادات) وان التغيير الذي حدث ينحصر فقط في تغيير الاسماء واحوال معظم اشخاصها

﴿ كلاسيكية اناتول فرانس ﴾ تفتحت عينا اناتول فرانس منذ طفولته على مناظر السين ومياهه الجارية (كما تجري صور الحياة في هذا العالم كل منها يمر ولا يبقى شيء) كما شبهها اناتول فرانس . وكان غرامه النادر بالكتب والدرس يجعله يهيم بأرصفة نهر السين (القديمة الحزينة — كما يقول — تلك الجهات المختارة من رجال الفكر والفن الجميل . أجمل مكان في العالم . حيث تجتمع الاشجار والكتب . وتمر النساء أمام العيون) . وكانت نفسه الشاعرة الفنانة تدفعهُ الى طول التأمل في (اللوفر) وفي (كنيسة نوتردام) وغيرهما من آثار قرون المجد السالفة . تلك الآثار التي لم تكن نضرتها الموفورة وسكونها الوقور قد ذهبا بعد بازدحام وسائل النقل الحديثة والمدنية الصاخبة . فلم يكن غريباً اذن ان يطبع كل ذلك نفس اناتول فرانس بما عرف عنه من حب الآثار والحنين الى الماضي السحيق فانكبَّ منذ صغره على دراسة آداب الاغريق وعلومهم ونقشت في ذهنه المتفتح آراء فلاسفتهم سواء منهم أهل الجد مثل هوميروس وصفوقليس وثيوقريطس أو أهل المجون مثل ابيقوروس ولقد تأثر فرانس ايضاً بالآداب اللاتينية وان كان تأثره بمظاهر الحياة اكثر من تأثره بأفكار الكتَّاب . كذلك كان لفلاسفة القرن الثامن عشر وعلى رأسهم فولتير أثر كبير في تفكيره . ولا يجب ان ننسى أيضاً ما كان بين أناتول فرانس ومفكري القرن التاسع عشر مثل رينان وشوبنهور وداروين من التجاوب الروحي والفكري

من ذلك نرى ان اناتول فرانس قد جمع في عقله عصير تفكير الفلاسفة القدماء والمحدثين وتأثر بهم جميعاً وظهر ذلك واضحاً في كتبه حتى انه يؤثر عنهُ قوله : — لست اعثر على شيء جديد الاَّ في كتاب قديم

﴿ نفسيته ونظرته الى الحياة ﴾ ان فن اناتول فرانس ما هو الاَّ صورة من نفسه فالشخصيات التي رسمها في كتبه تكاد تكون كلها شخصيات واقعية خالطها وعاشرها . كذلك الآراء التي سردها على لسان ابطاله هي فيض نفسه وخلاصة تفكيره ودراسته وما وصل اليه فهمه للحياة والناس

كان اناتول فرانس سطحيَّ النظرة الى الحياة . ولعل هذا هو السبب في خلو افكاره من العمق الفلسفي . فهو لم يحاول أن يتغلغل الى اعماق عوالم يجهلها ليكشف عن اسرارها ثم يصبها في فنه وأدبه بل كان ينظر الى الحياة نظرة متفرج . كأنهُ قائد جلس على ربوة عالية يشرف من فوقها على معركة الحياة وهو قابع مستريح . ولقد شرح اناتول فرانس فلسفته في ذلك فقال (لقد كنت دائماً ميالاً في كل وقت الى النظر الى الحياة كما ينظر الانسان الى منظر من المناظر الطبيعية . فلم اكن يوماً من الايام ملاحظاً مدققاً لأن الملاحظة لا بد لها من طريقة توجهها وانا ليس لي طريقة من الطرق . ان

الملاحظ المدقق يقود عينيه ويوجههما الوجهة التي يريدها . اما المتفرج فهو يستسلم لعينيه قانعاً بما تراه . لقد ولدت متفرجاً وسأحافظ طول حياتي — كما اعتقد — على السذاجة العظمى التي تميز اطفال باريس . تلك السذاجة التي تجعلهم يحبون كل شيء والتي يحافظون عليها مهما تقدمت بهم السنون)

والواقع الذي لا سبيل الى إنكاره ان اناتول فرانس قد جمع في نفسه سجايا المتكبر المغرور ولقد ساعده على ذلك علمه الواسع وثقافته المترامية المستمدة من الثقافة الاغريقية وهي ام الثقافات جميعاً. فاصبح ينظر الى الجيل الذي يعيش فيه كما ينظر اجدادنا وآباؤنا الينا . انهم ينظرون الينا بعيون ملؤها الاشفاق والرثاء كأننا مهما نلنا من سعادة مُتَصَوَّرة او علم نزهى به وهو في نظرهم قشور . لا يمكن ان نبلغ ما بلغوا من سعادة ولا يمكن ان تحوي عقولنا ما حوته عقولهم من علوم ومعارف ! تلك كانت نفسية اناتول فرانس وكأنهُ كان يقصد نفسه بقوله (متى توصل الانسان الى فهم كل شيء لم يرد شيئاً) لذا كان أناتول فرانس يترفع عن الاهتمام بما خفي عليه من الامور . كان كبرياؤه العجيب يدفعهُ الى الايمان بأن كل ما يجهله لا يستحق ان يعرف ! ولذا لم يكلف نفسهُ عبء التغلغل الى صميم الاشياء لكي يصل الى فهم الحياة والناس كما يجب . وكيف يكلف نفسه وهو الذي يقول (ان علم الحياة الحقيقي هو احتقارٌ كريم للناس اجمعين)

لقد فرض اناتول فرانس الشر في كل شيء وكان يجد العزاء الواسع في احضان الملذات ينتهبها انتهاباً . وكان ايمانه بمذهب ابيقوروس في التمتع في الحياة بأكبر لذة مستطاعة انما وصل اليه بعد تفكير هادىء رزين . ولقد بلغ به حبه للذة لمجرد اللذة ان أنكر الغيرة (التي لم اشعر بها قط طول حياتي) كما قال [1] كما انهُ انكر الحب العظيم واعتبر علاقة الرجل بالمرأة لا تخرج عن (مهمة جسدية)

﴿ تفكير أناتول فرانس ﴾ كان تفكير اناتول فرانس يدور حول أمرين

(١) الشك Scepticisme (٢) الاشتراكية

فالامر الاول يحدد نفسيته العامة ورأيهُ في الاديان ، والامر الثاني يبين فكرته السياسية والاجتماعية

﴿ شكه ﴾ ان شك اناتول فرانس ليس شك الرجل الذي يؤمن بعظم مسائل الكون وضآلة تفكيره حين يمعن في التعمق فيها بل شك العالم المستهتر الذي ركبه الغرور فصار يهزأ بكل رأي ويسخر من كل فكرة فجميع الآراء والنظريات في نظره سخافات تتناقض بين جيل وجيل كما تغير الزمن وتغير مبدعوها وأي سخرية تلك التي دفعته لان يقول على لسان أحد أبطال قصة (آمال جان سرفيان) هـذا القول (ان رأي العالم أجمع لا يستحق التضحية برغبة واحدة من رغباتنا) فأنت ترى ان أناتول فرانس كان ينظر الى العالم نظرة متشكك ثائر ساخر من كل ما يراه هازىء بكل من حوله حتى دفعه ذلك الى القول (كل قاعدة بحثت في اصلها وجدت تحتها شيئاً ولم يطل الأمر

(1) Michel Corday : Anatole France d'aprés ses confidences et ses souvenirs p. 220 et p.224

حتى علمت انها لم تكن قاعدة) ! وفي (حديقة ابيقور) يقول :

— كلما فكرت في الحياة الانسانية زاد اعتقادي في ان السخرية والشفقة هما الوسيلتان الوحيدتان للنظر اليها والحكم عليها . اذ ان السخرية والشفقة ناصحان رفيقان فالسخرية تحبب الينا الحياة . والشفقة تجعلها مقدسة لدينا . والسخرية التي أعنيها ليست السخرية القاسية المريرة . انها لا تسخر من الحب ولا من القلب النبيل ، انها السخرية الهادئة الكريمة . فالابتسامة الساخرة تسكن سورة الغضب وهي التي تعلمنا التهكم بالاشرار والحمقى وبدونها نضعف ويتسلط علينا الحقد والضغينة

ولقد اراد أناتول فرانس ان يرسم نفسه في كتابه (آراء جيروم كوانيار) ففي مقدمة الكتاب تراه يحلل شخصية (جيروم) فيصفه بأنهُ : (ذو فكر ثاقب وبصيرة واسعة) هما في نظر أناتول فرانس ثمرة (نوع من الشك المستفيض) وجيروم هـذا (فيلسوف ومسيحي) تأثر باثنين كان لهما الأثر الاكبر في تفكيره : الاول ابيقور Epicure الذي اكتسب منه انطلاق الرأي وحرية الفكر والثاني سان فرانسوى داسيز Saint François d'Assise الذي أخـذ منهُ بساطة النفس والبعد عن التكلف المرذول . والقارىء لكتاب (آراء جيروم كوانيار) لا يلبث ان يحس بذلك الجموح الذي يغمر آراء جيروم وبتلك الروح الماجنة الساخرة التي تجعله يعصف بالدين والاخلاق والتشريع والفكر الانساني وكل ما اصطلح على تمجيده وتقديسه

فالهدم . الهدم . هو صفة أناتول فرانس العظمى . ان كلَّ صفحة يخطها هي احتقار لتقليد من التقاليد أو تسفيه لفكرة سائدة من الافكار . خذ المجتمع الانساني مثلاً . أنهُ حين يذكره تراه قد انقلبت شخصيته وتحول استهتاره ومجونه الى قسوة لا رحمة فيها فينزل على المجتمع وعلى تقاليده واخلاق ابنائه بسياط من نار . حتى العقل الذي طالما مجده لم يسلم من مهاجمته وسخريته اذ يقول في نهاية (آراء جيروم كوانيار) — اذا أردنا أن نخدم الناس فيجب ان ننبذ كل منطق وتفكير . ونلقي بهِ كما نلقي بأثاث يضايقنا . يجب ان نطير على أجنحة العاطفة والحمية . أما التفكير والتمعن فلا . ان الانسان اذا فكر فانهُ لن يتقدم مطلقاً تقدماً محسوساً

﴿ اناتول فرانس والدين ﴾ كان طبيعيًّا ان يؤدي شك أناتول فرانس الى عدم الايمان بالله فقد كان ماديًّا عنيداً وكان احتقاره للكنيسة وسخريته من رجالها لا مثيل له . اذ كان يعتقد انها العدو اللدود لكل فكر حر ورأي مستنير

ان جميع كتب اناتول فرانس تجيش بإلحاد راسخ . ولقد بقي حتى آخر لحظة من حياته محافظاً على إلحاده مخالفاً بذلك لكثير من المفكرين الملحدين الذين حين تتقدم بهم الشيخوخة و تخور قوة أعصابهم وينطفي جموح شبابهم يهرعون الى صفوف المؤمنين كأشد الناس ايماناً واعظمهم تديناً

ولقد لخص اناتول فرانس كل آرائه في الدين في كتابهِ (احاديث عن وجود الله) [1]

---

(١) راجع تلخيص هذه الآراء في كتاب ميشيل كورداي : Anatole France d'après ses confidences et ses souvenirs من ص ١٨٩ الى ص ١٩٧

Entretiens sur l'existence de Dieu الذي كتبه في آخر حياته وانتهى منه قبل موته بشهرين وسلمهُ الى صديقه الكاتب ميشيل كورداي وعهد اليه في نشره فظهر بعد موته بعام

كان هذا الكتاب آخر ما خطته يدا أناتول فرانس في عالم التأليف وهذا وحده يكفي لان يبرهن لنا ان اناتول فرانس بقي ملحداً حتى آخر لحظة من حياته . اسمعه وهو يقول : —

— نعم انني بالتأكيد ملحد . لقد فكرت وكل من وصل الى قدر معين من الذكاء لايستطيع ان يكون غير ذلك . انني لا أبغي شيئاً من وراء اعلان إلحادي . وكل ما اريد قوله هو أنهُ حتى في العهود التي كان الدين مسيطراً فيها على كل شيء كان هنالك عدد من الكافرين اكثر من عددهم الآن . وكل ما هنالك انهم كانوا عاجزين عن اظهار ما يبطنون

وأناتول فرانس كغيره من الماديين يرى انهُ ليست هناك قوة خارجية تسيّر الكون . وان كل هذه القوانين الطبيعية التي تتحرك بمقتضاها الكواكب والرياح وغيرها هي قوانين تحدث من تلقاء نفسها ولا تتغير . فالكون في نظره هو مجموعة قوانين يتوقف كل قانون منها على الآخر ويؤثر فيه (١)

على ان اناتول فرانس يرى ان الدين كان حدثاً لا بدَّ منه . ذلك ان الدين في نظره وليد العذاب والشقاء . وما دام العذاب والشقاء لا يفارقان هذا العالم . فاذن كان لا بدَّ من ظهور الاديان وسيادتها (فالمؤمن المتدين — في نظر اناتول فرانس — هو الشخص الغارق في الخطيئة الذي يأمل بتدينه الصفح والغفران او المعذب البائس الذي فاته نعيم الدنيا فالتمس العزاء بتصور نعيم الآخرة) (٢)

وكثيراً ما ترى اناتول فرانس يمزج انكاره لوجود الخالق بنوع من السخرية الجريئة التي هي اول خصائص تفكيره كقوله (ان علينا من واجبات الحياة ما فيه الكفاية فلمَ نخلق في تصورنا واجبات نحو إله لا وجود له) وقوله لقد جعل الناس من الله شخصية مخيفة . فكيف يمكن لانسان ان يتوسل ويبتهل الى كائن ثقيل الظل — Les hommes ont fait de lui un personnage odieux. Comment peut-on prier un être aussi antipathique ? وقوله ايضاً (ان عجز الله لا حدَّ له) (٣) L'impuissance de Dieu est infinie ولنختم الكلام عن الحاد أناتول فرانس بهذه العبارة التي تريك كيف يجد في الإلحاد والكفر نعيماً نفسيًّا لا يقبل التنازل عنه — ان الحزن الفلسفي قد فسر نفسه اكثر من مرة تفسيراً رائعاً مكتئباً . فكما ان المؤمنين الذين وصلوا الى أقصى حدٍّ من الجمال المعنوي يتذوقون سعادة الاستسلام والخضوع . كذلك العالم الذي اقتنع بأن كل ما يحيط بنا ما هو الا كذب وخداع تسكره تلك الحسرة الفلسفية وينسى نفسه بين لذات يأس هادىء . ان الذين يتذوقون

(١) Emmanuel Chrysostome : Anatole France p. 40

(٢) راجع تلخيص الامير شكيب ارسلان لكتاب نقولا سيجور Ségur المسمى Coversations avec Anatole France, ou, Inquiétudes de l'intelligence الملحق بكتاب (اناتول فرانس في مباذله) تأليف بروسون وتعريب الامير شكيب (ص ٦٤ و ٦٥)

(٣) Michel Corday : Anatole France d'après ses confidences et ses souvenirs p. 191 et 192

جمال ذلك الشمم الدفين لايقبلون ان يستبدلوه بالمسرات الجامحة والاماني الوهمية التي تلازم رجل الشارع ﴿ اشتراكيته ﴾ ورأينا ان الشك الساخر بالحياة والمجتمع والناس أجمعين هو الظاهرة الطاغية على فن اناتول فرانس . وانت اذا اردت ان تفتش من خلال عباراته عن مبعث هذا الشك المستفيض والسخرية المريرة وجدتهما يرجعان الى خيبة امله في النفس الانسانية والفكر الانساني فنحن كما كنا منذ عشرات القرون لا نزال ننغمس جمياً في حمأة الرذائل والنقائص الاخلاقية والفكرية فاذا اردت ان تعرف بعد ذلك السبب الذي اليه يرجع اناتول فرانس معظم هذه الرذائل والنقائص وجدته يرجعها الى شيء واحد وذلك الشيء هو المال

فالمال . المال عند اناتول فرانس هو الاساس الذي قامت عليه دعامة معظم الرذائل الانسانية لذلك نرى ان اناتول فرانس رغم استهتاره بكل شيء ونظرته المتشائمة اليائسة كانت تمر على ثغره بين حين وحين بسمات مضيئة من الامل العريض في مستقبل الانسانية . فقد كان يعتقد ان شيئاً واحداً لو تحقق انارت العالم موجة من السعادة الخالدة والهناءة العميمة . ذلك الشيء هو تحطم سلطة المال وانهيار صرح النظام الاجتماعي الذي نعيش الآن في ذيله ليحل محله نظام اشتراكي ينشر العدالة الاقتصادية بين الناس ويمحو من الوجود ظلم الغني وعبودية الفقير ذلك ان (الاخاء بين الناس — كما يقول — هو النتيجة المحتمة للاشتراكية)وهو يقول ايضاً (ان السلام العالمي سوف يتحقق يوماً من الايام لا لأن الناس سوف يصبحون خيراً مما هم عليه الآن — فليس من السهل التعلق بهذا الامل — بل لان نظاماً جديداً للاشياء او علماً جديداً وضروريات اقتصادية جديدة سوف تفرض عليهم حالة الهدوء والطمأنينة كما كانت تفرض عليهم شروط الحياة في الماضي ان يعيشوا في حالة حرب دائمة)

وكان اناتول فرانس يرى رأي كارل ماركس في ان اتحاد العمال من الوسائل الاكيدة لحفظ السلام العالمي . وكان يهزأ من القول بأن الوطنية تحتم على الفرد خوض الحروب . وكثيراً ما كان يكرر هذه العبارة (يظن البعض ان المرء يموت في الحرب من اجل الوطن . كلا . انهُ يموت من اجل اصحاب المصانع)

على ان اناتول فرانس رغم دعوته الاشتراكية وما يبدو فيها من نزعة انسانية عظمى كان لا يؤمن بسيادة البراهين وبالتالي كان لا يؤمن بالديموقراطية . ولذا هاجمهُ النقاد واتهموه بالتذبذب والرياء والتجرد من اولى صفات الاديب العظيم وهي التعلق بمثال انساني أعلى . واعتبروا اشتراكيته ودفاعه عن الفقراء واحتقاره للمال والاغنياء نوعاً من الدجل الفكري الذي اتخذه سلماً لبلوغ قمة المجد الادبي . على ان اناتول فرانس رغم عدم ايمانه بالديموقراطية ومهاجمته لها كان يفضل النظام الجمهوري على غيره من نظم الحكم الراهنة (لانه اخف من غيره ايذاء واقل ضرراً . فهو ليس العدالة ولكنهُ اقرب الى الطبيعة والبساطة من غيره من النظم)

واناتول فرانس من هذه الناحية شديد التأثر بالفيلسوف ارنست رينان [1] فقد كان هذا شديد

(١) André Billy : La littérature française contemporaine p. 152.

الطعن في الديموقراطية متهماً اياها انها تتعارض والمدنية لانها تعوق التقدم الفكري . على ان رينان اعترف في النهاية بأن الديموقراطية لا تتعارض مطلقاً والمدنية بل هي من اكبر العوامل على دفعها الى الامام في سبيل السمو والكمال . ومثل رينان كان اناتول فرانس فقد كان هذا الاخير رجلاً ثوريًا يتخذ الاشتراكية مثله الاجتماعي الاعلى . على انه كان يعتقد الى جانب ذلك ان الفكر لا ينهض الاّ في احضان الارستقراطية لذا كان يرى ان رسالته ككاتب واديب فنان تقضي عليه ان يوفق بين الثورة والثقافة فاذا كان يرى ان سيادة الشعب تسيء الى الفكر الانساني فهو لا يتردد في ان يظهر قلقهُ من سيادة الجماهير مبيناً عيوب النظام الديموقراطي وان كان هو نفسه يفضله على غيره من نظم الحكم لما فيهِ من الفضائل التي تفوق نسبيًّا فضائل النظم الاخرى

ويفسر أميل فاجيه[1] كره اناتول فرانس لحركات الجماهير وحكمهم بأن اناتول فرانس كان كأستاذه فولتير شديد الكره للأديان وما يتخذ صورتها كالثورات العنيفة . ذلك ان الجماهير التي عض احشاءها الجوع ومزج كرامتها بالثرى جهل الحكام الظالمين — هذه الجماهير حين تنفجر انفاسها المخنوقة في ثورة تأكل في طريقها الاخضر واليابس تراها تتخذ مثل الثورة الاعلى ديناً تمجده كسائر الاديان فتتعصب له وترتكب في سبيله وبنفس الروح نفس الجرائم والآثام التي يرتكبها رجال الدين الغاشمون ضد الخارجين عليهم . وقد اظهر ذلك اناتول فرانس بطريقة بارعة في قصته (الآلهة ظماءى)

ان اناتول فرانس يمتاز بأنه لا يأخذ بفكرة من الافكار على ان في تحقيقها بلوغ الكمال المطلق . لذا تراه رغم ايمانه الصارخ بالاشتراكية كان لا يفتأ يوجه اليها نقداً لا يقل في مرارته عن النقد الذي يوجهه اليها اعداؤها الالداء . من ذلك قوله في حديث له مع جوريس رئيس الحزب الاشتراكي الفرنسي الذي اغتيل عام ١٩١٤ — ان من البين ان تحول الانواع الحية لا يطابق المساواة فنظرية داروين في الانتخاب التي هي مفتاح التاريخ الطبيعي او التاريخ بالاجمال كل اعتمادها على الفروق . والمخلوقات لا ترتقي الاّ بالبعد عن المساواة . ان في تاريخ الهيئات الاجتماعية وتواريخ الفنون والآداب والاختراعات براهين على انه لا سبيل لوجود شيء الاّ بوجود المتفوقين والتفوق هو نقيض التساوي[2]

وليس هنا مجال القول ان الاشتراكية — كما اجابه جوريس — لا تساوي بين كفاءات الاشخاص بل تساوي بينهم في الحقوق ودرجات الرفاهية وتوزيع العدل . وانما الذي نريد بيانه ان اناتول فرانس كان لا يتردد في انتقاد الاشتراكية واظهار ما يراه فيها من عيوب . وان كان يرى انها المثل الاعلى لنظم الحكم جميعاً حيث بها يمكن تحقيق اكبر قسط ممكن من العدالة الانسانية ومحو اعظم قدر من الشقاء الانساني ان لم يكن كله

والواقع ان هذه الطريقة التي يفكر بها اناتول فرانس لا تعيبه ولا يجب ان تكون موضعاً

---

(١) Emile Faguet : Pettite histoire de la littérature franiçase p 306 et 307

(٢) راجع كتاب (اناتول فرانس في مباذله) ص ٧٢ و ٧٣

الرم او نقد بل هي في نظرنا دليل سعة الفكر والعقل الراجح فقد تعوَّدنا ان نرى الشخص الذي يؤمن بمبدأ من المبادئ السياسية او الاجتماعية يتعصب له تعصباً شديداً ويدافع عن مبدئه في الحق والباطل . ينسى رذائله ويتشبث بأتفه فضائله . اما اناتول فرانس فلم يكن كذلك وكان اعتزازه الذي لا حد له وفكره الواسع المترامي بجملانه لا يشعر بالنقص الذي يشعر بهِ غيره من الناس حين يعترف بنواحي الضعف في الفكرة التي يؤمن بها . وكانت طبيعة الشك التي تغمره تساعده على استكشاف مواضع الخطأ قبل مواضع الصواب في كل شيء يراه او يفكر فيهِ

ان الذي لا ريب فيه ان اناتول فرانس كانت تجري في دمائه روح العدل والمساواة وكان قلبهُ الكبير يفيض بالرحمة ويترفع عن الصغائر . واذا كان همه طول حياته السخرية والتعالي فهي سخرية الأب الرحيم بتصرفات اطفاله الصغار الذين يحمل لهم في قلبهِ اعظم الحب واقدس الوفاء . ولقد بقي اناتول فرانس حتى آخر نسمة من حياته يردد هذا القول

— ان الاشتراكية هي ضمير العالم وان النزاع بين الطبقات سوف لا ينتهي الا باختفاء هذه الطبقات

﴿ اسلوب اناتول فرانس ﴾ اذا كان النقاد قد اختلفوا في تقدير قيمة اعمال اناتول فرانس وتفكيره فان سوادهم متفق على انهُ خير من كتب الفرنسية منذ الثورة الفرنسية الى الآن . بل ان الناقد اندريه بيتي يعتقد ان ما يمتاز بهِ اسلوبه من الرقة والسهولة يجعله لا نظير له في الآداب الفرنسية جميعاً

لقد كان اناتول فرانس هو المنقذ الاكبر للغة الفرنسية مما انتابها من التدهور والانحطاط بعد الثورة الكبرى . ورغم انهُ كان في تفكيره ثائراً فنبذ الافكار جميعاً الا انهُ كان بالعكس من جهة اللغـة محافظاً فأعاد لها مجدها القديم . مضيفاً الى ذلك عبقريته الخاصـة في حسن الصياغة والدقة النادرة في الاحساس بجمال الالفاظ والتعابير

ولقد كانت سهولة اسلوبه وابتعاده عن التكلف هي ميزته الكبرى . وكان يفتخر قائلاً (ان كمية الفاظهِ اللغوية محدودة فقيرة) وكان ايمانه بوجوب السهولة المطلقة في الاساليب تدفعه للاعتقاد — بخلاف الكثيرين — ان الصحافة تساعد على تقدم اسلوب الكتابة لانها بإرغامها الكاتب الصحفي على الاسراع في الكتابة تحول بينهُ وبين التكلف والافتعال فيخرج اسلوبه طبيعيًّا مستقيماً سلساً

لقد كان اسلوب اناتول فرانس — كما يقول الناقد بول سوداي — فريداً لا يمكن تقليده ولقد صدق جول لومتر في قوله : (لقد كان اسلوب اناتول فرانس سبيكة من المعادن الثمينة ففيه ترى أثر اساليب راسين وفولتير وفلوبير وريتان . . . . . واسلوب اناتول فرانس دائماً)

المراجع — (١) Michle Corday : Anatole France d'après ses confidences et ses souvenirs
(٢) Emmanuel Chrysostome : Anatole France
(٣) (اناتول فرانس في مباذله) تأليف بروسون وتعريب الامير شكيب ارسلان . وبه ايضاً تلخيص كتاب نيقولا سيجور
(٤) René Lalou : Histoire de la littérature française contemporain
(٥) André Billy : La littérature française contemporaine
(٦) Emile Faguet : Histoire de lalittérature française

الإنسان الأخير[1]

لسيد قطب

صحا ذات يوم حين تصحو البواكرُ ... وتستيقظ الدنيا ، وتجلو الدياجر
ويشرق وجه الصبح في غمرة الدجى ... كما تشرق الآمال واليأس غامر
وتضطرب الانفاس خفضها الكرى ... وتخفق ارواح ، وتذكو مشاعر
وحين يعج الكون بالصوت والصدى ... وبالكدح تزجيه المنى والمخاطر
وبالصرخة الهوجاء ، والضحكة التي ... يضج بها الأحياء ، والدهر ساخر !

***

ولكنهُ لم يلف للكون نأمة ... تنم على حيٍ ، ولم يهف خاطر
ففي نفسه ما يشبه الموت سكرة ... ومن حوله موت تمته المقابر
جلالٌ كأن الله أطلعَ وجهه ... عليه ، فقرّت في النفوس الضمائر
وصمتٌ فما في الكون صوت ولا صدى ... ولا خفقة يُحيي بها الكون شاعر
فأدرك في اعماقه عن بديهة ... نهاية ما صارت اليه المصائر !

***

وما همّ بالتنقيب عن اي صاحب ... ففي نفسه يأس ، من النفس صادر
ولكنه ألقى بها عبرَ نظرةٍ ... على الكونِ والأيام وهي دوائر
ركام واشلاء وأطلال نعمةٍ ... وبؤسٍ ، وشتى ما حوته الأداهر
وفي نفسه من مثلها كل ذرّة ... فهاتيك اشلاء ، وهذي خواطر !
تجمّع فيها ما تفرّق في الورى ... وما ضمنت تلك السنون الغوابر
خلاصة اعمار ، وشتى تجارب ... ومجمع اشواق بها الكون حائر

***

وأوغل في إطراقةٍ ملؤها الأسى ... فمرّت عليه الذكريات العوابر
تحث خطاها موكباً إثر موكب ... وقد جاورت فيها المآسي البشائر
وأقبلت الآمال واليأس حولها ... تمزقها انيابه والاظافر
وجمّع فيها الخير والشرّ رابطٌ ... من النفس مشدود إليها محاصر

(١) من ديوان تحت الطبع يصدر اول يناير.

وشتى عبادات ، وشتى عقائد يؤلفها الايمان وهي نوافر [١]
وفيها من المجهول سرٌّ وروعة ورغبة محرومٍ وخوفٌ مساورُ
وقد كان في المجهول مطمح كاشف تحجبه عن طالبيه الستائر
فيا ليته يدري بما خلف ستره فيختم سفر الناس في الارض ظافر [٢]

***

وعادت له الآمال اذ جدَّ مطمح يُرجّي وأذكاه الخيال المغامر
لعلّ وراء الكون مفتاحَ لغزه وطلسمَ ما ضمت عليه السرائر
وما هي الاّ ومضة تكشف الدجى ويخلع هذا الجسم ، والجسم جائرُ
ولولا مواثيق الحياة تشده اليها ، لأمضى عزمه وهو صابر
وخلّف هذا الجسم للموت والبلى وأشرق روحاً حيث تصفو البصائر

***

وعاوده حب الحياة لذاتها وقد اجفلت تلك النوازي الكوافر [٣]
وهاجت به الاطماع حبّ امتلاكها له وحده والناس ميتٌ ودائر !
فعاد الى الدنيا العريضة مالكاً ولا من يعاديه ، ولا من يشاطر
ولكنه لم يستطب ملكه الذي تمحّض لا يسعى به او يغامر
وما فيه من كد ، ولا من تسابق ولا سابقٌ في الكادحين وقاصر
وليس يطيب العيش إلاّ تزاحماً فيربح مجدودٌ ويخسر عاثر

***

هنالك دوّت في السماكين صيحةٌ دعاء لعزرائيل والكون سادر
«برمت بهذا الكون همدان موحشاً برمت بملك ربه فيه خاسر »
« فهيا اذن الموت اروح رحلة لتكشف استارٌ ويهدأ ثائرٌ »

***

وفيما يعاني سكرة الموت رقرقت الى مسمعيه هاتفات سواحر
« هو السر : ان تهفوا الى السرّ لهفة وان تشتروا الآتي بما هو حاضر» !

(١) مختلف العبادات والعقائد المتناقضة تجتمع عند عاطفة الايمان بالمجهول رغبة او رهبة (٢) ظافر بالسر الذي يبحث عنه الاحياء جميعاً فيما وراء المنظور (٣) النوازي الكوافر جمع نازية كافرة وهي التي كفرت بالحياة في نفسه ودعته ان يخلع الجسم

عبقرية محيطة

— ليوناردو الرجل —

لاديب عباسي

في يوم من ايام الربيع الضاحكة عام ١٤٥١ قام مسجّل العقود بيترو دافنشي من مدينة فلورنسا يؤمُّ قريته فنشي . ولكن عرض له ان يعرج على قرية صغيرة في الطريق . وبعد ان قضى حاجته بدا له ان يزور حانتها ويروي غُلّته مما في دنانها من خمور واشربة سائغة . وكان رويُّ الحانة فتاة قروية ساذجة في منتصف العقد الثاني من عمرها ، شخص نهداها واعتدل قوامها ونضجت أنوثتها ورآها بيترو تغدو وتجيء بين الشرب ، ولكن في وقار وحشمة . على ان بيترو المجرّب لم يحفل هذا المظهر من مظاهر الوقار والحشمة في الفتاة ، وآلى ألاّ يفوته هذا الصيد الطريف . وتلكّأ هناك بحجة صيد السماني ، واخذ الفتى ينصب شراكه ويعدُّ شباكه ، ولكن لا ليصطاد السماني ، بل ليصطاد القروية العذراء كاترين . وقاومت الفتاة فتنة الرجولة الكاملة والأثواب الزاهية والالفاظ المعسولة ؛ واستنجدت العذراء وتحصّنت بجميع القديسين ، ولكن بيترو — برغم ذلك — استطاع ان يصطاد سماناه المشتهاة

ودار الفلك دورته ، واذا كاترين تضع بشراً سويّاً ، واذا بيترو يفرُّ فراراً ، واذا الشائعة تطير وتقع في مسمع الشيخ انطونيو والد بيترو واذا الشيخ تغلي مراجله ويرسلها شواظ لعنات تترى لتنصبَّ على رأس هذا الابن الفاسد المفسد ، ثم يدفع به فوراً الى فلورنسا ويعقد على خود دميمة ، ولكنها ذات ثراء وفي نسب

اما الفتاة — وكانت يتيمة — فقد رأى الشيخ ان يزفها الى عامل فقير من عمّاله ورضي هذا ان يُسبل عليها ستره ويغطيها بشرفه مقابل كرم من الزيتون يُوهبه . واستكانت المسكينة لتدبير الشيخ ، كما استكان الابن من قبل ، وان كان ذلك على كره منه ، وكان يؤثر الاّ تقطع بينهُ وبينها جميع الاسباب

وضمَّ الجدُّ حفيده اليه وعهد بتربيته الى زوجه . وظاهر من فعلة الشيخ وحدبه على الصغير ان حوادث السفاح والولادة غير الشرعية لم يكن يُنظر اليها اذ ذاك نظرة الاحتقار والزراية . ودليل ذلك ان ليوناردو شبَّ وترعرع لايشعر بمهانة ولا يحسُّ حقداً او موجدة على والدته التي ترخصت واسلمت نفسها لأثم ابيه فأتت به سفاحاً . بل هو — على العكس — لم ينسها قط ، ولم ينسَ ان

يتسلل في سواد الليل من حضن الجدّة ، وهي تغط ، ويفتح النافذة وينحدر على اغصان تينة دانية ثم يذهب يعدو كالظليم على الاحجار شاغبة الاسنان والاشواك مشرعة كالاسل لينعم ببعض ساعات بحنو الأم . فاذا اقبل الفجر ايقظته الأم ليعود الى حيث كان فلا تعلم الجدّة بهذه الزورات الليلية

***

وشبّ ليوناردو بين اترابه ولداته غريباً عنهم بعض الغرابة بعيداً عنهم بعض البعد . فلم يكن يروقه ما يمارسوه من العاب عنيفة ويرتكبونهُ من قسوة ، ولم يكن يطيق ان يرى الفراشة الجميلة في ايديهم يُنتف جناحاها وتطرح على الارض لتدبّ بدل ان تطير وتحبو بدل ان ترفّ . ويروي مترجمو ليوناردو انهُ اضرب عن اكل اللحوم زمناً غير يسير لانهُ رأى خادماً في بيت جدّه يضرب خنّوصاً رضيعاً ضرباً مؤلماً . ويروون ايضاً انهُ شاهد ذات يوم صبية تعلّقوا بخلد كانوا قد احتالوا على اسره ، وبعد ان اروا رغبتهم الجامحة من تعذيبه ربطوه بخيط ليطوّحوا بهِ ويلقوه بين فكي كلب من كلاب الصيد . وادرك ما يوشكون ان يصنعوا فهجم عليهم ، وفي لكمات سريعات قوية صرع ثلاثة من الصبيان واختطف الخلد وانطلق يعدو لا يلوي على شيء . ولم يفق الصبية من دهشة المفاجأة التي لم يكونوا يتوقعونها من الفتى المسالم حتى اصبح منهم على بعد غير يسير . وعندها قاموا يلعبون ويضحكون ويصفرون ، ثم اندفعوا وراءهُ يحرقون الأرم . وكان اكبرهم سناً يكبر ليوناردو بخمس سنوات . فلم يمضِ الاّ القليل حتى لحق بهِ وامسك بتلابيبه . ولحقت بهِ بقية الزمرة واشتبك معهم ليوناردو في نضال عنيف ما كان ليخرج سالماً منهُ لولا ان قيّض له الحظ بستاني جدّه فأسرع حالاً الى نجدته وخلّصهُ من قبضة هذا الرهط الحانق الموتور . واستطاع ليوناردو في اثناء العراك ان يطلق الخلد من يده ، فراح هذا يعدو ناجياً بجلده . وهكذا نال ليوناردو بغيته من تخليص الخلد من اذى آسريه

هذا وقد زاد في حب ليوناردو للعزلة في طفولته انهُ كان في تفكيره وذكائه يسمو درجات فوق مستوى الصبيان في سنهِ . فلم يكن يرتاح الى الاختلاط بهم ومشاركتهم في متعهم الصبيانية

اضف الى هذا ما كان يعانيه من عنت اخوته الكثيرين (تزوج والده اربع مرات) وحسدهم الذي كان يشبّهُ في صدورهم ويذكيه ما كان عليهِ من بروز في الصفات الجسمية والعقلية على السواء . وقد زيّن الحقد لهؤلاء الاخوة ان يستغلّوا ولادة ليوناردو غير المشروعة ليحرموه من ارثه . الاّ ان هذه العداوة لم تؤثر فيهِ قط . وذلك ان العالم كان في نظره اوسع من محيط العائلة الضيق . لهذا لم يحقد على اخوته ولم يختزنها لهم . بل نحن نرى من اريحيته وكرم طباعه انهُ يوصي في وصيته بمبلغ من المال لهؤلاء الاخوة الناقين

واعتزم الجدّ ان يعلّم الحفيد ، واختار ان يكون هو اوّل المعلمين لهُ . الاّ ان ميول الشيخ واذواقه كانت غير ميول الفتى العبقري ، فلم يمضِ الاّ القليل حتى برم التلميذ بمعلّمه واخذ يسعى

اشدّ السعي ليتخلّص من مجالس الشيخ التدريسية وعلى كل لم تلبث ميول الفتى الصحيحة ان تكشّفت واسفرت ، فراح بذلك واستراح

***

وفي ذات يوم وقعت في يدي الأب صورة مما كان يصوّره ليوناردو عابثاً ، فرآها على شيء تستحق من أجله ان تعرض على ارباب الفن ، فأخذها وسار بها الى صديق من اصدقائه الفنانين . فتبين الفنان توّاً مواهب الفتى الفنّية . ونصح للأب ان يدفع ابنه في هذه الناحية، ورضي هو ان يكون مدرِّبه واستاذه . ولم يكن في فلورنسا اذ ذاك فنان أنبه منهُ شأناً وارسخ قدماً . الاَّ ان الفتى المتوقد لم يلبث حتى بزّ الاستاذ وحتى لم يبق لهذا الأخير ما يستطيع ان يعلل بهِ نَهم هذا الطالب الى المعرفة والاستزادة من أسباب التجديد في الفن . ولم يجيء عام ١٤٧٢ حتى كان ليوناردو عضواً في نقابة المصورين في فلورنسا

بيد ان ليوناردو لم ينجح نجاحاً ماديًّا في فلورنسا مع انهُ كان في نظر القوم خير من تمخضت عنهُ النهضة واشرف من أنجبته . واحسَّ في فلورنسا بغربة الغريب الذي يشعر انهُ مخلوق لغير هذا المحيط وموجود لخلاف تلك البيئة . والذي كان ينقص ليوناردو من عناصر النجاح المادي عناصر المغالبة والاندفاع مع الدعوى العريضة واجادة الاعلان عن النفس . وهي صفات أبعد ما تكون عن طبيعة ليوناردو المتأبية وعرفانهِ قدر نفسه . لهذا نراه في سن الثلاثين قد انتقل الى ميلان وانتظم في خدمة الدوق وانبرى في تنفيذ رغائبه المتعددة دون ان يبدو منهُ شيء من السأم او ايثار نوع من العمل على نوع آخر . ولعلَّ هذا ناشىء من اعتقاد ليوناردو اعتقاداً قويًّا ان جميع الاشياء على السواء في قيمتها المطلقة لا تفاضل ولا ترجيح بينها ، وان الفرق بين شيء وآخر انما هو فرق في العرض دون الجوهر . بل لقد ذهب ليوناردو الى أبعد من هذا وقال ان جميع اشكال المادة يمكن تحويلها بعضها الى بعض

***

ولبث ليوناردو ثلاث سنوات في ميلان يعمل اعمالاً فنية وعلمية مختلفة أهمها صورة العشاء الرباني . وبعدها بعام قطع الفرنسيون جبال الالب وأسروا دوق ميلان ، فرأى ليوناردو عندها ان يغادر المدينة الى البندقية. الاَّ اننا نعود فنراه وقد رجع ثانية الى فلورنسا . وذلك في فاتحة القرن السادس عشر . وهناك انكبَّ انكباباً على الهندسة والتشريح دون ان يعنى بالتصوير الاَّ أقل العناية وأهم اعمال ليوناردو الفنية في هذه الفترة صورة موناليزا : وهي امرأة بارعة الجمال فقدت وحيدها فخيّمت عليها سحابة ملازمة من الحزن . رآها ليوناردو ذات يوم فراعهُ جمالها ، وعرض عليها ان

يصوّرها فقبلت راضية . ولكي يبدد ليوناردو عنها هذه السحابة المخيفة من الحزن كان يستأجر جوقة موسيقية تعزف امامها واناساً يجيدون العبث ليُسَرّوا عنها فيستطيع الفنان ان يسترق من شفتيها تلك الابتسامة العجيبة ويخلدها على القماش . ولقد سلخ ليوناردو اربع سنوات في رسم هذه الصورة مما اطلق الالسنة بالاقاويل عن علاقة الفنان بأنموذجه . وليس ثمّ غير هذه الاقاويل والاّ هذا الحرص الشديد من ليوناردو على الصورة اشياء تشير الى نوع العلاقة التي كانت بين الفنان وأنموذجه . ولم يتخلَّ ليوناردو عن الصورة طيلة حياته . فكان ينقلها من محل الى آخر بين اقدس الاشياء لديه ، وظلّت هي وقمصان صوفية من صنع والدته أعزّ ما يحرص عليه ويتمتع به الى ان وافاه أجله . على ان مرجفسكي يلتمس عذراً للفنان على هذا الولوع بالصورة ان ليوناردو قد سكب في طلائها روحه ومزج في ألوانها بعض شخصه . فهو اذ يحرص عليها يحرص على بضعة من نفسه . هذا ويجب ألاّ ننسى ان ليوناردو ظلّ اعزب طيلة حياته . ومخطوطاته على كثرتها لا يرد فيها ذكر للمرأة الاّ مرة واحدة ، وذلك في صدد الكلام عن امرأة قبيحة المنظر أحبَّ ان يرسم صورتها : وهنا يحسن ان نشير الى ان جميع الاشكال والصور كانت عند ليوناردو على مستوى واحد من حيث استحقاقها للتخليد والبقاء . فكان يرسم القبيح والمليح على السواء . وذلك ناشيء — في اعتقادنا — من نظرته الفلسفية التي ألمعنا بها فيما سبق : وهي ان جميع الاشياء على السواء في قيمتها المطلقة وان وجودها محتوم لا محيص عنه ، ولكن هذا الوجود لا يسيطر عليه السخف انما تسيطر عليه الحكمة او المنطق والقوانين الكونية والرياضية الخالدة . لهذا كان أشرف ما يمارسه المرء ويسعى اليه اكتشاف هذه القوانين والتنبيه اليها

ويعلل احجام ليوناردو عن الزواج والنساء بانصرافه الانصراف كله الى الفن والعلم اللذين لا شك سموا به عن مستوى اللذائذ الحسية . وليوناردو نفسه يقول في هذا الشأن : «ان الاندفاع الفكري يطرد الشهوة ، وان عمل النسل وكل ما يتعلق به لمن الكراهة بحيث كان يزول الجنس البشري من الوجود لولا أنّ ثمة وجوهٌ جميلة وميولٌ شهوية »

***

ولما طُرد الفرنسيون من ميلان شخص ليوناردو الى روما . وهناك انتظم في خدمة البابا . الاّ ان هذا لم يعرف لليوناردو قدره . ولم يستطع ان يفهم استقلاله برأيه وإباءه التزلف وبطئه في العمل بالنسبة الى رفائيل الذي كان يخرج للبابا إذ ذاك مثل ما تخرجه آلة التصوير في هذه الايام وبعد ان صرف ليوناردو عامين في روما جاءته دعوة من فرنسيس الاول ملك فرنسا . ولبي الدعوة حالاً . وأُحلَّ في فرنسا محلاً ممتازاً واعدّ له الملك منزلاً جميلاً ولم يكلفهُ قطّ عملاً من الاعمال ، وما كان يستطيع ذلك ولو كلّفهُ . فقد شُلّت يده وعاد لا يستطيع العمل

وفي عام ١٥١٩ لفظ الفنان آخر نسمة من نسمات هذه الحياة الجافلة مستودعاً روحه الاله الأعظم والعذراء ماري وجميع الملائكة والقديسين

كذلك عاش ليوناردو موزعاً بين العلم والفن جاهداً في سبيلهما كل الجهد منصرفاً اليهما كل الانصراف . على ان هذا الجهد وهذا الانصراف لم يفقدا الفنان صفته الانسانية . وهو ما يتعرض له المنصرفون الى الاعمال العقلية في الغالب . وظلَّ على اتصال شديد بالحياة محبًّا للناس مؤثراً لهم كريماً رفيقاً بتلاميذه عطوفاً عليهم الى حدٍّ بعيد . وقد اتخذ خصوم ليوناردو هذه العلاقة المحببة بين المعلم وتلاميذه تكأة يتكئون عليها في نسبة ليوناردو الى الشذوذ الجنسي والميل الى الغلمان . وقد نسي هؤلاء المشنعون ان عطف ليوناردو لم يضق حتى عن الحيوان . وقد رأينا كيف ظهرت ميوله الرقيقة مذ كان يافعاً او صبيًّا

وهذا العطف من ليوناردو على الحيوان قاده في الشطر الأخير من حياته الى الانصراف عن اكل اللحوم والاستعاضة عنها بأكل الخضر والبقول والحبوب ليس غير

اما المعتقد فالراجح ان ليوناردو كان على ايمان وطيد ، ولكن ليس هذا الايمان الذي كان شائعاً لعهده ، انما هو ايمان العالم سما عقله عن مستوى الخرافة وتنزَّه عن تصديق المستحيل

وقد تساءل مرجفسكي في عرض الحديث على معتقد ليوناردو فقال : أيعقل ان يكون ملحداً من يرسم صورة كصورة العشاء الرباني ؟ ! ومن يكون اقرب الى المسيح من مصوّر هذه الصورة ؟ !

وكان ليوناردو يميل الى البساطة في كل شيء . فلم يكن يطيق الالوان القوية في اللباس . وكان يكره التضمُّخ بالطيب من اي نوع كان . وهذه البساطة لم تكن مقتصرة على هذه النواحي المادية وحدها انما كانت بادية في سلوكه وعلاقاته مع الناس . ولكنها كانت بساطة الرجل العظيم تحفُّها المهابة ويجلّلها الوقار وتُعلي من قدرها في نفوس اصفيائه واصدقائه ما وهبهُ من ذكاء خارق وعبقرية نادرة

ويروى من تساهله ودماثة خلقه ان الفنان الناشىء ميخائيل انجيلو انفجر يوماً في وجهه انفجاراً شديداً لتوهمه ان ليوناردو نال منهُ في مناسبة من المناسبات . وخاطب ميخائيل ليوناردو بكلام جارح وعيَّرهُ بأنه لم يستطع ان يكمل تمثالاً من تماثيله الضخمة عجزاً وقصور باع . وكان كل رد ليوناردو على هذا الفتى الثائر ابتسامة هادئة مسامحة

ونقف عند هذا الحد من الحديث عن هذه العبقرية ، آملين ان نكون قد جلونا لقراء « المقتطف » الأغر في هذا المقال والمقال السابق صورة لا شك انها من اروع صور العبقرية وابقاها على الدهر

أجل الأنواع والامم (١)

للدكتور شوكت موفق الشطي
الاستاذ بمعهد الطب العربي في دمشق

تختلف اعمار الأنواع اختلافاً عظيماً فنها ما يعيش ابداً كأنواع الحيوان والنبات الإبتدائية التي يتركب فردها من خلية واحدة تتكاثر تكاثراً مستمراً فينشأ منها فردان مماثلان للأصل تماماً وينتج من انقسام كل من هاتين الخليتين خليتان اخريان وهكذا دواليك . ولذلك نعت رهط من المؤلفين هذه المخلوقات البسيطة بالخلود . الا ان ما يشاهد في العوالم الدنيا لايبدو في غيرها اذ يعرض للمخلوقات المركبة من خلايا كثيرة عوارض تعوق توالدها فتموت بعد حياة تتباين مددها . ولكن بعض الخلايا التناسلية في الحيوانات العليا مستمتعة بالخلود كالحييوينات المنوية اللاقحة وهذا ما دعا فيسمن الى تقسيم الخلايا فئتين

١ — خلايا بدنية (Soma) فانية

٢ — خلايا تناسلية (germen) خالدة . تستطيع هذه الخلايا اذا توافرت لها بعض الشروط ان تولد مخلوقاً جديداً مشابهاً لأصليه . واما الخلايا البدنية فتعيش مدة من الزمن ثم تموت وتعود جثة تداعبها عوامل الفناء فهي والحالة هذه خلايا موقتة خلقت لتعيش اجلاً مسمى وليس الأمر كذلك في الخلايا التناسلية التي خصّت الطبيعة بعضها بتخليد النوع وبقاء الامة

« عمر النبات » لا تعيش بعض الفطور والأشنيات وبعض انواع النبات الكمئية الا اياماً معدودة. وحياة الطحلب قصيرة ايضاً على ان بعض مربي النبات جففوا الطحلب وحفظوه مجففاً عشرين سنة ثم اعادوا اليه الحياة باروائه وتبليله وصح ان يتخذ ذلك دليلاً على ان هذا النبات لم يمت بالتجفاف بل وقفت فيه ظواهر الحياة طول هذه المدة فلم يبد التجفيف الخلايا وما فيها من الغرويات بل ثبتّها تثبيتاً وابطل المبادلات فيها لأنه حرمها من الماء ولا يمكن ان تتجلى الظواهر الحيوية في مخلوق من المخلوقات ما لم يتوسط الماء ذلك وقد جاء في القرآن الكريم « وجعلنا من الماء كل شيء حي »

ان انواع النبات الوحيدة الفلقة كالقمح والشعير والقطاني وغير ذلك لا تعيش الا سنة واحدة . وكذلك انواع النبات ذات الفلقتين كالقطاني (فول حمص وغير ذلك من البقول) وقد اشار الامام ابو حنيفة بتقسيم النبات الى ما هو باق منه وما هو بائد فقسمه ثلاثة اصناف : شيء باق على

(١) الامم اي اجناس الحيوان

الشتاء اصلهُ وفرعهُ ، وشيءٌ آخر يبيد الشتاء فرعه ويبقي اصله فيكون نباته في ارومته تلك الباقية ، وشيءٌ ثالث يبيد الشتاء فرعه واصله فيكون نباته مما ينتثر من بذوره

ويعيش الشمندر او الشمندور [1] سنتين وقد استطاع المختبرون اطالة بقائه ٤ — ٥ سنوات ويعتقد فريز (Frise) ان الحؤول دون موت بعض انواع النبات ممكن بنزع الازهار ابتساراً . جُرّب ذلك في بعض انواع النبات فعاشت سنتين بدلاً من سنة واحدة . ولا يخفى ان العشب اذا اجتزَّ قبل التنوير دام سنين عديدة . وهذا ما دعا بعض النباتيين الى القول بأن من دواعي موت النبات نفاد قواه الحيوية في الإحباب [2] ويعيش نبات الصبر الاميركي مدة تختلف من ٥٠ الى ١٠٠ سنة ولا ينوّر الاّ مرة واحدة ويموت اثر ازهاره . وذكر هيلدبراند (Hildebrand) ان النباتات السريعة التنوير والإحباب قليلة البقاء لأنها تصرف قواها الحيوية الكامنة في الإبزار [3] فتموت سريعاً . واما النباتات التي لا تنوّر الاّ بعد سنين عديدة فتعيش مدة طويلة

ومن النبات ما يزهر ويثمر في كل حول دون ان يؤثر ذلك في مدى حياته . ويزعم هيلدبراند وغيره من المؤلفين ان النبات يغتذي وينمو سعياً وراء غاية اساسية وهي التكاثر فمتى تمَّ له ذلك مات . وينطبق هذا الزعم على بعض انواع النبات ولا يجوز اتخاذ هذه الفكرة قاعدة جامعة مانعة

بحث ميتالينكوف في كتابه الخلود والاشباب عن اسباب الموت السريع في بعض انواع النبات فقال : يموت النبات دون ما سبب ظاهر وآفة مؤذية او عامل ضار . وتَبيدُ بعض انواع النبات قبل حلول الشتاء مع انها لا تصاب بالنفاد وليس التنوير فيها عاملاً مؤدياً الى الموت كما وان كثيراً من النباتات تنوّر وتثمر ولا يؤثر ذلك في اجلها . وقد جرب كليبس ان يطيل عمر نبات الشوع فأخذ عقاقيله [4] وشنغوبه [5] وغرسها في الارض فنبتت ونمت ودامت . يؤخذ من ذلك ان موت النبات في مدة معينة ليس امراً محتماً وان اطالة العمر ممكنة . لذلك جدَّ المؤلفون في البحث عن اسباب الموت الطبيعي الاّ ان هذه الابحاث لم تثمر بعد الثمر المطلوب لأن بابها لم يقرع الاّ في العهد الحديث

وقد عرف ان الاشجار ذات الخشب الابيض الاسفنجية الخفيفة كالحور وغيره تعيش مدة تختلف من ٥٠ الى ١٠٠ سنة وان الاشجار القاسية الخشب البطيئة النمو تعمر عشرات العصور . ذكر لوبينكو في ابحاثه ان الزان يعيش ٣٠٠ سنة وان الصنوبر يبقى ٥٧٠ سنة وان العرعر يدوم ٦٠٠ سنة وان ارز سيبريا يحيي ٧٠٠ سنة وان اجل التنُّوب اوصنوبر القطران ١٢٠٠ سنة وان الكستنة والبلوط يبقيان ٢٠٠٠ سنة وان السرو والفشاغ taxus baccata والأرز تعمر ٣٠٠٠ سنة وان البقس Baxus (شمشير) والزيتون والبرتقال يبقى عصوراً . وقد جاؤا على ذلك بأدلة

(١) تأويل Bettrave وتسميه العامة شوندر وصحيحها الشمندر كما ابقتنا وهو نبات غليظ الاصل يتخذ منه السكر (الافصاح) ويعرف في مصر بـ « البنجر » (٢) أحب الزرع صار ذا حب
(٣) ابزر النبات وبزر ادرك بزره (٤) عقاقيل الكرم ما غرس منه ولم يذكر لها واحداً (اللسان)
(٥) الشنغوب والشغنوب والشنغب اعالي الاغصان

خاصة منها : بزر دوكاستيل في العصر الخامس عشر بزرة برتقال في بستان فرساي فنبتت ولا تزال حتى الآن . وفي حديقة الكونت كوبر في انكلترا بلوطة يبلغ عمرها اثني عشر عصراً . وفي جادة الفيرا كروز في المكسيك بهاة[1] التجأ اليها فرناند كورتز يزيد عمرها عن خمسة آلاف سنة وفي القدس زيتون شهد المسيح وفي الهرمل شجرة استظل بها عيسى عليهِ السلام وفي كاليفورنيا رُبُض عُبارة (باووباب) يزيد ارتفاعها عن ١٥٠ متراً ومحيطها عن ٣٠ متراً وعمرها بضعة آلاف من السنين

وقد بحث الامير مصطفى الشهابي في المقال الذي نشره في هذه المجلة الزاهرة [2] عن الارز وعن بقائه فقال عن ارز بشري : اعظم حراج الارز شأناً واقدمها سناً حرج بشري فهو الذي يطلقون عليهِ اسم ارز لبنان تعميماً الى ان يقول :

وتعلو الحرجة ١٩٠٠ متر ونيف عن سطح البحر وفيها ٤٠٠ ارزة تقريباً كبيرة وصغيرة اما الكبيرة ففيها جلال مسوّق الشجر العظام ولقد قست ساق كبراها فبلغ محيطها نحو ١٦ متراً وعمرها اكثر من الفي سنة ويقول بعضهم انها تبلغ ٤٠٠٠ سنة من العمر لكنه لا يمكن معرفة سنها على وجه الضبط ولا على وجه التقريب . وشاهدت اربع ارزات مسنة محيط ساقها بين ١٢ و١٣ متراً وعلوها نحو ٣٠ متراً وسنها اكثر من الف سنة في الغالب

﴿أجَل الامم «اجناس الحيوان»﴾ تعيش الامم الدنيا المشابهة للنبات مدة طويلة ويبدو تكاثرها بنمو طبقات جديدة كما في النبات وتراكب بعضها فوق بعض وتعيش اكثر الحشرات المتحولة كذوات الاجنحة المغلفة وذوات الاجنحة الغشائية وذوات الجناحين سنة واحدة او سنتين وتموت عادة بعد الاخلاف وقد تبلغ الحيوانات القشرية والأصداف خمس سنوات من العمر . اما الاسماك فتعمر كثيراً وقد اصطاد الصيادون سمكة من بطانح القيصر فبلغ طولها تسع عشرة قدماً ووزنها ١٦٠ ليبرا وكانت مطوقة بقطعة من النحاس نقش عليها « ان هذه السمكة وضعت في البحيرة عملاً بأمر الامبراطور فردريك الثاني » وقد حسب الفرق بين تاريخ وضعها في البحيرة ويوم اقتناصها فاذا بها تبلغ مائة وسبعة وستين سنة من العمر . ويعيش القمل مدة تختلف من ٢٧ — ٦٤ يوماً والثول (ذكر النحل) مدة ٤ — ٥ اشهر والنحل العامل ١٦ شهراً والزُّباد سنة واحدة والرتيلاء من سنة الى سنتين والعصفور التُفّاحي خمس سنوات والأرنب والسنجاب ٧ سنوات والجرذ والبزاق ٨ سنوات والعصفور والسماني والدجاج والنمّار والحسّون والطيهوج[1] والخروف ١٢ عاماً والبط والبلبل والسنونو ١٥ سنة والثعلب والثور ١٦ سنة والبقر والخنزير والظبي والحمام والقط والكلب والذئب ٢٠ سنة والحصان ٢٥ سنة وكذلك الطاووس والبرقش .

---

(١) مفرد السرو (٢) ارز لبنان ومغارة قاديشا للامير مصطفى الشهابي في المقتطف المجلد ٨١ جزء ٤ ص ٤٠٤

(٢) تأويل rougegorge وقد جاء في حياة الحيوان للدميري : الطيهوج بفتح الطاء طائر شبيه بالحجل الصغير غير ان عنقه ومنقاره ورجلاه حمر

وأما الحمار فيعمر ٣٠ سنة والببغاء والغراب والنسر والحدأة من ٦٠ الى ١٠٠ وكذلك السلحفاة وأما الصقر والباز فيعيشان مدة تختلف من ١٠٠ الى ١٥٠ سنة ويلبث الفيل ٢٠٠ سنة والتمساح ٣٠٠ عام. يتضح من ذلك ان مدة الحياة في مملكة الحيوان تختلف كثيراً كما اختلفت في مملكة النبات فمنها مايعمر كثيراً ومنها ما لا يعيش اكثر من ساعات محدودة . ولم يعرف السبب حتى اليوم في تباين الأعمار واختلاف الآجال

﴿عمر الانسان﴾ لا يزيد عمر الانسان في عهدنا الحاضر عن مائة سنة . وقد تساءل البحاثون هل تبدل عمر الانسان وعاد في زمننا غير ما كان في الزمان السابق ؟

اذا بحثنا في الكتب المقدسة رأينا ان آدم عاش ٩٣٠ سنة وان شيث لبث ٩١٢ سنة وأنوش عمّر ٩٠٥ سنين وقينان بقي حيًّا ٩١٩ سنة ومهلئيل ٨٩٥ سنة ويارد ٩٦٢ سنة وأخنوخ ٩٦٥ سنة ولامك ٧٧٧ سنة ونوح ٩٥٠ وسام ٦٠٠ سنة وأرفخشاد ٣٣٨ سنة ولا نعهد في التاريخ المعروف نظير هذه الاعمار وأما التاريخ القديم فمجهول تماماً وقد تكون سنتهم غير سنتنا

وعاش يعقوب مجتمعاً ببنيه سبع سنين وادركته الوفاة فقبض لمائة وعشرين سنة من عمره وعاش يوسف ١١٠ سنين وقبض الله موسى اليه لمائة وعشرين سنة وقبض هارون لمائة وعشرين سنة ايضاً

ولبث ابقراط في قومه ١٠٤ سنين وبلغ جالينوس ١٤٠ سنة من العمر وبقي سقراط الخطيب حيًّا ١٠٦ سنين . ومن شعراء العرب المعمرين عمرو بن كلثوم ويؤخذ ذلك من وصية قالها لبنيه « يا بنيّ قد بلغت من العمر ما لم يبلغه احد من آبائي ولا بدّ ان ينزل بي ما نزل بهم من الموت » وكان الحارث اكبر سنًّا من عمرو وعاش ١٥٠ سنة على رأي بعضهم

ويجمع الرواة على ان زهيراً كان من المعمرين ويقول زهير نفسه في معلقته :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا ابا لك يسأم

وعاش لبيد بن ربيعة اكثر من مائة وعشر سنوات ونسب الرواة اليه عدة ابيات في ايامه الطويلة تدل على عمره منها واحد قاله وهو ابن سبعين

كأني وقد جاوزت سبعين حجة خلعت بها عن منكبيّ ردائيا

وآخر قاله في السابعة والسبعين :

باتت تشكّي اليّ الموت مجهشة وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا

وقال في العاشرة بعد المائة :

اليس في مئة قد عاشها رجل وفي تكامل عشر بعدها عُمُرا

وقال لما بلغ مائة وعشرين :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد
غلب الرجال فكان غير مغلّب دهرٌ جديد دائم معدود

يوم ارى يأتي عليّ وليلة وكلاهما بعد المضاء يعود

﴿ اخبار المعمرين في العصر الحاضر ﴾ ذكرت الصحف سنة ١٩٠٩ خبر وفاة امرأة عن عمر يناهز ١٣٠ سنة ونبهت الجرائد الى ان السيدة مارك غورك ولدت سنة ١٧٨٠ وماتت سنة ١٩١٠ اي عاشت ١٣٠ سنة وذكرت القبس الدمشقية خبر معمر كان يكرمه جلالة المغفور له الملك فيصل بلغ من العمر مائة وعشرين سنة وما زال نشيطاً. وتذكر الصحف بين حين وآخر طرفاً كثيرة عن اخبار المعمرين وقد تقصى اخونا الاستاذ جميل الشطي مفتي الحنابلة خبر الشيوخ المعمرين فقال:

ادركنا من الشيوخ المعمرين في دمشق ممن بلغوا القرن او كادوا ثلاثة اجلة احدهم الشيخ عبد الله السكري الركابي وهو فقيه كبير ولد فيما اخبر به سنة ١٢٣١ هـ واخذ الفقه عن فقيه الشام الشيخ سعيد الحلبي المتوفي سنة ١٢٥٩ هـ والحديث وغيره عن المحدث الشهير الشيخ عبد الرحمن الكزبري المتوفي سنة ١٢٦٢ هـ وكانت وفاته سنة ١٣٣٠ هـ . الشيخ الثاني : الشيخ عبد الله الحموي وهو مقرىء جليل ادرك الخطاط المعروف الشيخ عبد اللطيف الشطي المتوفي سنة ١٢٥٢ هـ وحدث عنه بنوادر طريفة وكانت وفاته سنة ١٣٣٠ ايضاً . الشيخ الثالث : الحاج علي الشطي وهو معمر قضى حياته بالتجارة والزراعة والكد وقد ادرك ابراهيم باشا المصري واخبر عنه بأنه تغلب على الشام تسع سنوات من عام ١٢٤٧ الى عام ١٢٥٦ هـ وكانت وفاته سنة ١٣٣٤ هـ وهؤلاء جل من ادركنا من المعمرين الذين تمتعوا بصحة جيدة وعقل وافر حتى آخر حياتهم

وذكر بلنيوس Pline خبر قوم من الهند الشرقية يعيش بعض افراده ٤٠٠٠ سنة يغتذون بالثعابين والحيات ثم يسأل هل كان لذلك شأن في طول بقائهم

اذا امعنا النظر فيما اوردناه حتى الآن جاز لنا ان نستنتج من ذلك ان عمر الانسان في العهد الماضي لا يختلف عن مدى عمره اليوم . واما ما ذكر عن اللبث مئات من السنين فذلك دليل على ان الواحد القياسي للسنة فيما سبق يختلف عن واحد السنة القياسي اليوم . ويشاطرنا في هذا الرأي المفسرون المصريون مثل العالم الجليل طنطاوي جوهري

﴿ اختلاف متوسط مدى الحياة ﴾ يتضح من الاحصاءات الصحية العامة ان متوسط عمر الانسان قد زاد في القرنين الاخيرين بفضل الطرائق الحديثة المتبعة اليوم في مكافحة الاوبئة كالجدري والطاعون والهيضة والربيض (التيفوس التي كانت تتفشى فتجرف ملايين) . فقد وقع في حلب طاعون سنة ٨٢٠ فأربى من هلك فيها وفي ضواحيها على مائتي الف انسان. وفي سنة ٨٩٧ اشتد الوباء بالقدس ودمشق وحلب وبلغ عدد الهالكين بدمشق في كل يوم ثلاثة آلاف وبحلب في كل يوم الفاً وخمسمائة وبغزة في كل يوم اربعمائة وبالرملة مائة [1] ويقدر عدد من هلكوا في القرون الوسطى بالطاعون بـ ٢٣ مليوناً من البشر فمات في باريس سنة ١٤١٨ ثمانين الف شخص من ٣٠٠،٠٠٠ شخص وهو

(١) خطط الشام ج ٢ ص ٢٠١

مجموع عدد سكانها اذ ذاك وهلك في اوروبا خلال اربع سنوات اي من سنة ١٦٦٣ الى سنة ١٦٦٧ اكثر من ٥٠ مليون ولا يأخذك العجب ايها القارىء من ذلك فقد روى الرواة ان الطاعون حل بدمشق فاهلك من فيها الا خمسين شخصاً اجتمعوا حول الجامع الاموي . ولا يخفى ان دمشق كانت مأهولة بعدد اوفر من السكان. ان كشف الجراثيم والتعرف على طرائق التلقيح الحديثة وتقليل امراض العمال والعناية الصحية ومكافحة السرطان والسل قد ساعدت على تخفيف وطأة العوامل الخارجية في تقصير العمر

ولم يك في الماضي من سبيل الى تخليص الطفل المولود في بيئة مسلولة من مخالب السل الا ابعاده عن البيت الذي ولد فيه وارساله الى حيث لا يجد بيئة ملوثة غير ان اكتشافاً حديثاً باهراً ابتدعته عبقرية العلامة كالمت ومؤازره غاران التي في ايدي البشرية سلاحاً جديداً ماضياً يقي الطفولة الاولى من شر هذا الداء نعني به اللقاح المسمى (ع . ك . غ B. C. G.) اي «عصيات كالمت وغاران» من مؤسسة باستور في باريز[1] . بدىء باستعمال هذا اللقاح اولاً في فرنسا منذ اول تموز (يوليو) سنة ١٩٢٤ ثم في بلدان اخرى . وقد أبان الاحصاء ان معدل وفيات العائشين في بيئة مسلولة ولم يلقحوا هو ١٦ — ٢٥ ٪ بين الشهر الاول والسنة الاولى . وقد هبط هذا المعدل في الملقحين الى ٠.٤ ٪ واذا فصل الطفل بسرعة شهراً واحداً عن والديه بعد ولادته وتلقيحه هبط معدل الوفيات بالسل الى ما يقرب من الصفر . ومعدل الموت بالامراض الاخرى الى النصف . وقد افادت مستوصفات السل ايضاً فائدة كلية فهبطت نسبة الوفيات بعد ان انشئت هذه المستوصفات في فرنسا هبوطاً محسوساً واذا قسنا نسبة الوفيات في انكلترا بعد انشاء هذه المستوصفات وقبل ثلاثين سنة من انشائها تحققنا انها هبطت هبوطاً معادلاً لـ ٧٢ ٪ وقد بلغت الوفيات بالسل في برلين ٥٨٠٠ في سنة ١٩٢٠ و ٤٣٠٠ في سنة ١٩٢٨ و ٤٠٠٠ سنة ١٩٣١ . وصفوة القول إن لقاح «ع . ك . غ» والمستوصف وقفا حصناً منيعاً في وجه هذا الداء الجارف وقد اشتركت خمس وثلاثون دولة في مكافحة السل وتألف من مجموعها (اتحاد مكافحة السل الدولي) الذي يلتئم مندوبوه في كل سنة للبحث في الطرق الحديثة التي يجب اتخاذها

***

ويؤخذ من احصاءات شركات التأمين الاميركية ان متوسط عمر الانسان زاد ١٢ سنة من اوائل هذا القرن الى الآن . ولا ريب في ان زيادة متوسط عمر الانسان سببها تقليل الوفيات بين الاطفال ، وعدد الرجال والنساء الذين يجتازون سن الخمسين او الخامسة والاربعين اكثر الآن مما كان قبلاً[2] . فيتبين لنا من ذلك ان العوامل الخارجية المميتة ابتساراً قد خف شأنها ولم يتبدل مع ذلك حد التعمير الاقصى لان العوامل الباطنة التي تحدد عمر كل امة من الأمم لم تعرف بعد ولا يزال عليها ستار كثيف من الغموض

(١) من محاضرة القاها الدكتور لوسركل Lecercle الاستاذ في معهد الطب بدمشق وترجمها الدكتور شرة بك مريدن
(٢) فتوحات العلم الحديث لمحرر المقتطف فؤاد صروف ص ٣١٠

﴿ العوامل التي تنظم عمر الامم (اجناس الحيوان) والانواع ﴾ سعى بعض الحيويين الى تعليل اختلاف عمر انواع النبات فزعمت طائفة منهم ان الشجرة ليست مخلوقاً واحداً ولكنها مخلوقات عديدة مجتمعة تحيي حياة مشتركة وتتكاثر وتبقى كذلك حتى ينفذ الغذاء من الارض ولا يعود كافياً لادامة حياتها فتموت . ينطبق هذا الزعم على بعض المخلوقات الدنيا ولكنه لا يناسب ما يقع في انواع النبات والامم العليا التي تتركب من اعضاء مختصة بوظائف نوعية خاصة عويصة . ان لهذه المخلوقات العليا في الحيوان والنبات دورة حيوية خاصة تختلف باختلاف الانواع والأمم . ولكنها ثابتة نوعاً في النبات الواحد او الامة الواحدة

وقد زعم بعضهم ان لطول عمر النبات صلة بقساوة بنائه وان العصارات الراتنجية او العطرية التي يفرزها بعض انواع النبات تقيه شرّ المؤثرات الاقليمية والخارجية فيطول عمره وان كثرة السماد وغزارة الاخصاب من العوامل المبيدة للنبات . قد ينطبق هذا القول على بعض انواع النبات غير انهُ لا يبين لنا السبب في نظام مدة الحياة واختلافه بتباين الامم والانواع . ويقول بعض المؤلفين ان السبب في طول حياة النبات حرمانه من الجملة العصبية الا ان ياغاديس شوندر Yagadis Chunder وغيره من جهابذة العلماء لا يقرون هذا الرأي كما وان النبات غير محروم من الاعصاب وقد نبه الى ذلك الدكتور يعقوب صرُّوف في كتابه «فصول في التاريخ الطبيعي من مملكتي النبات والحيوان».

ودليل آخر على فساد هـذا الزعم هو ان الحيوانات الدنيئة التي لا تعرف للعواطف معنى ولا تقيم للاحساس وزناً ولا تدرك للضمير مغزى تموت في برهة وجيزة بينا يعيش الانسان عصراً او اكثر من ذلك . وقد استنتج من ذلك بعض المؤلفين ان شأن الجملة العصبية في تقصير العمر او اطالته ثانوي . الا اننا لا نشاطر اصحاب هذا الرأي ولا نستنّ بسنتهم لان الخلية العصبية النبيلة المميزة تتكاثر فلا يرى في هيولاها جسيم مركزي ولا في نواتها صور الانقسام المعتنف. واما الخلايا العصبية التي لا تتكاثر فهي التي لا تزال في دور الفتوة ولا تكون قد اكملت نموها وتميزها . وما دامت الخلية العصبية محرومة من خاصة التوالد كانت معرضة للموت لا محالة ويقدر العلماء امكان بقائها نشيطة وفعالة مدة ١٤٠ سنة ولذلك يجوز ان يبلغ عمر الانسان الاقصى هذا الحد

ويعتقد اوغست لومبار ان للعامل الأساسي في اطالة العمر صلة بحادثة التكاثر الخلوي فما زال التكاثر نشيطاً دامت الحياة وتناءت الشيخوخة ومتى بطل الانقسام فسدت الغرويات وشاخت الخلايا ثم تموت بسبب رسوب الغرويات فيها او ذوبانها

ان لهذا الرأي قيمة علمية وهو رأي من جملة الآراء المقترحة على ان الفكرة المستندة الى الرسل وعملها اصح وعدد مناصريها كبير اليوم . وليس من الصعب التوفيق بين الرأيين فالرسل تدعو الخلايا الى التكاثر وتحفزها على الانقسام ومتى تم ذلك تجددت الغرويات واستمرت المبادلات فيها وسوف نفرد بحثاً او ابحاثاً خاصة نبين فيها ما عرف عن صلة الرسل والغدد الصم بالإشباب

غرائب الاعداد

وعجائب المعادلات

لقدري حافظ طوقان

لايخلو الكون من غرائب في نواحيه المتعددة المختلفة ففي بعض الظواهر الطبيعية غرائب وفي بعض الحوادث غرائب ، وفي بعض العادات غرائب ، وفي بعض التقاليد غرائب ، وفي بعض العلوم غرائب . وتختلف هذه الغرائب اختلافاً بيناً ويصعب في حالات كثيرة تعليلها وفي بعضها يستحيل. وقد تختلف غرائب العلوم عن غيرها فيمكن تعليلها عند التدقيق والتعمق في البحث واذا اتفق ورأينا غرائب ولم نجد لها تعليلاً فالذنب يقع على الانسان الذي لم يستطع اكتشاف السبب وادراك كنه التعليل . وكثيراً ما نجد في علم الفلك ظواهر وحوادث تبدو غريبة عجيبة لاول وهلة ولكن عند البحث نجد ان لا غرابة فيها وهي فوق ذلك ليست خارجة عن دائرة القوانين والانظمة التي تسيطر على علم الهيئة . ألم يبد الراديو للناس غريباً ؟ الم يكن الحديث عنه كحديث السحر والسحرة لغرابته ؟ ولكن الملم بقواعد العلوم الطبيعية والواقف على بعض اسرارها يرى ان عمل الراديو مبني على مبادىء بسيطة كشف عنها الانسان وعرف كيف يستغلها لمنفعته . وما قول القارىء في التلفزة ؟ اليس الحديث عنها يثير الدهشة والاستغراب ؟ افرض ايها القارىء ان قال لنا قائل قبل عشر سنين ان عالماً يقول بأنهُ يستطع رؤية الاشياء عن بعد وان لديه آلات تمكنه من ذلك ! ! ما ذا كنا نقول عن ذلك القائل وذلك العالم ؟ من الطبيعي اننا لا نصدق قولهُ . ومما لا ريب فيه اننا نرمي العالم بالشعوذة وقد نتساهل في التعبير فنقول ان ذلك العالم ذو خيال رائع . والآن اليست التلفزة حقيقة لا يمكن نكران مبادئها وآلاتها ؟ والذي يدرس المبادىء التي تقوم عليها التلفزة لا يجد فيها ما هو فوق العقل فالقوانين السائدة عليها معروفة والاساس الذي تستند اليهِ غير غامض وقد استطاع الانسان ان يكشفه وينتفع من تطبيقه

قد لا يصدق القارىء اذا قلنا ان في الاعداد وفي بعض فروع العلوم الرياضية غرائب وعجائب من الصعب تعليلها، ولكن اذا انعمنا النظر في هذه نجدها على غير ما تبدو لاول وهلة اذ ليس فيها ما يبعث على الاستغراب والدهشة فهي ترتكز على مبادىء اساسية وقوانين ثابتة . ومن البديهي انني في هذا المقال لا استطيع ان آتي على جميع غرائب الاعداد وعجائب المعادلات . فغرائب الاعداد لاتدخل تحت حصر عداً كون بعضها يحتاج الى استعمال ما قد يدخل السأم والملل على نفوس القراء. واما عجائب المعادلات فسنأتي على ذكرها تنويهاً اذ تحتاج الى استعمال الصعب من القوانين الرياضية

والمعادلات العويصة وهذا ما سنحاول تجنبه في مقالنا هذا . ولكننا سنأتي على بعض امثلة بسيطة من غرائب الاعداد وعجائب المعادلات من التي لا تحتاج الا الى المام بسيط في قواعد الحساب ومبادىء الجبر الاولية

خذ الكسر $\frac{1}{7}$ وحوله الى كسر عشري فينتج لدينا الكسر الدوري البسيط (١٤٢٨٥٧ و.) ومعنى ذلك ان ارقامه تعيد نفسها اذا ما مضينا في عملية التحويل . واذا ضربنا هذا العدد (١٤٢٨٥٧) في ٢ ينتج العدد ٢٨٥ ٧١٤ . انعم النظر في العددين ، تجد ان ارقام العدد الاول هي نفس ارقام العدد الثاني والفرق بين الاثنين اختلاف في ترتيب الارقام فقط . واذا ضربنا نفس العدد في ٣ او ٤ او ٥ او ٦ ففي كل حالة ينتج معنا عدد ارقامه نفس ارقام العدد المذكور ويكون الاختلاف في منازل الارقام . ومن الغريب الطريف اننا اذا ضربنا العدد نفسه في ٧ ينتج لدينا عدد متكون من ست خانات تحتوي كل واحدة منها على الرقم ٩ اي ان ١٤٢ ٨٥٧ × ٧ = ٩٩٩ ٩٩٩

وكذلك خذ الكسر $\frac{1}{13}$ وحوله الى كسر عشري ينتج الكسر الدوري البسيط الآتي : ٩٢٣ ٠٧٦و٠ واذا ضربنا هذا العدد في ٣ ، ٤ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢كان الحاصل في كل حالة متكوناً من ارقام العدد المذكور نفسها مع اختلاف في الترتيب فقط ، ولكننا اذا ضربناه في ٢، ٥، ٦، ٧، ٨، ١١ نتج لدينا في كل مرة ست خانات تحتوي على الارقام ١، ٥، ٣، ٨، ٤، ٦ مع اختلاف في الترتيب

ومن الاعداد ما اذا ضربته في عدد آخر يصبح عدداً قد يبدو غريباً اذ تحتوي خاناته كلها على نفس الرقم . خذ العدد ١٢٣٤٥٦٧٩ ولنفرض انهُ يضرب في عدد بحيث يتكون حاصل الضرب من خانات كل منها يحتوي على الرقم ٥ ، فلدى البحث نجد انهُ اذا ضرب العدد المذكور في ٤٥ ينتج معنا عدد يحقق الشرط المطلوب . اي ان ٦٧٩ ١٢٣٤٥ × ٤٥ = ٥٥٥ ٥٥٥ ٥٥٥ واذا كان الشرط ان تحتوي الخانات على الرقم ٨ فما عليك الا ان تضرب العدد في ٧٢ وهكذا

اليس هذا عجيباً ومثيراً للاستغراب ؟ ولكن ما لنا ولهذا النمط من الغرائب فقد لا يكون ممتعاً وقد لا يجد فيه القارىء ما يحمله على متابعة قراءة المقال . والآن لنأخذ نوعاً آخر غير الذي ألمحنا اليه . يوجد في الجبر بعض حالات تقودك الى نتائج تناقض الحقائق المسلم بها وتناقض المنطق. ومن الغريب انك اذا تتبعت الخطوات التي توصل الى النتيجة الغريبة تجدها منطقية ومبنية على قوانين حسابية وجبرية نسلم بصحتها ولا يختلف فيها اثنان ، وبديهي انهُ لايوجد في علم الرياضيات حقائق ومبادىء أساسية تسير بك الى متناقضات او الى ما هو مخالف للواقع والحقيقة وقد يسأل غير واحد : اذن . كيف اوصلتنا هذه الخطوات المنطقية الصحيحة الى متناقضات بل ومضحكات في بعض الاحايين ؟ والجواب على ذلك بسيط ويتلخص في القول بأن احدى الخطوات تكون مغلوطة وغير صحيحة ولا يظهر فيها الغلط الا عند التفكير العميق وهي (بذاتها) التي اوصلتنا الى ما

اوصلتنا اليه ، وقد يكون من الصعب جدًّا اكتشاف الخطوة المغلوطة كما انهُ قد لا يكون . ويمكن الاتيان بأمثلة عديدة على ذلك . ولكننا نكتفي بايراد مثلين يجدهما القارىء في اسفل الصفحة ينتهي بنا الى المتناقضة ١ = ٢ . والثاني ايضاً الى ان ١ = ٢ ، ومن مطالعة الطريقة الاولى (١) التي قادت الى ان ١ = ٢ يتبين ان الخطوات المتبعة فيها لا غبار عليها يحيط بها (كما يظهر) المنطق من كل جانب وتسري فيها القوانين الاساسية للجبر . ولكن لدى التفكير يجد القارىء انه توجد خطوة ما كان لنا ان نستعملها بل ومن الخطأ الذي لا يغتفر (في عُرف الرياضيين على الاقل) المرور بها والسكوت على ذلك . ومن مطالعة الطريقة الثانية (٢) التي انتهت الى ان ١ = ٢ نجد انهُ يصعب اكتشاف الغلط اذ يحتاج اكتشافهُ الى وقت وتفكير ، والنتيجة في الحالتين مضحكة حقاً ومثيرة للاستغراب . والخطوات التي اوصلتنا اليها لا تخالف (كما يظهر) قواعد الرياضيات واساساتها . ولكن ضمن الخطوات خطوة لا يجوز استعمالها ، فهل للقارىء ان يكتشفها ؟ !! . . .

وفي الهندسة طرق تظهر كأنها صحيحة ومنطقية وتنتهي الى نتائج غريبة تناقض الحقائق المسلم بها ، تنتهي الى متناقضات مضحكة !! ومن هذه الطرق ما يجعل القارىء ان يبرهن على انهُ يمكن انزال عمودين من نقطة خارجة الى اي مستقيم معلوم وان الزاوية تعادل جزءها . وان الخط يساوي جزءهُ ايضاً

وانه يمكن ان يبرهن على ان اي مثلث يكون متساوي الساقين وانه يمكن اتباع خطوات هندسية توصلنا الى ان الواحد يساوي صفراً . وفي هذه الحالات قد يجد الانسان لذة في قراءة حلولها وقد يجد متعة عند المحاولة لايجاد الغلط او الخطوة التي لا يجوز استعمالها والتي ادت الى نتيجة غير معقولة . ولكل هذه فائدتان مزدوجتان : الاولى ان فيها شيئاً من التسلية والتفكهة والثانية انها تثير في قارئها رغبة في اكتشاف الغلط ، وفي هذا بعض الفائدة للراغب في التعمق في علم الهندسة وفي الوقوف على بعض دقائقها

---

(١) افرض ان س = ص ∴ س٢ = س ص
اطرح ص٢ من الطرفين ينتج س٢ − ص٢ = س ص − ص٢
اي ان (س − ص) (س + ص) = ص (س − ص)
اي ان س + ص = ص وبما ان س = ص ∴ ٢ص = ص
اي ان ٢ = ١

(٢) لو (١ + س) = س − ١/٢ س٢ + ١/٣ س٣ − ...... واذا كانت س = ١
ينتج لو ٢ = ١ − ١/٢ + ١/٣ − ١/٤ + ١/٥ − ١/٦ + ١/٧ − ١/٨ + ...
اي ان ٢لو٢ = ٢ − ١ + ٢/٣ − ١/٢ + ٢/٥ − ١/٣ + ٢/٧ − ١/٤ + ...
اي ان ٢لو٢ = ١ − ١/٢ + ١/٣ − ١/٤ + ١/٥ − ١/٦ + ... = لو ٢
اي ان ٢لو٢ = ٢ ∴ ٢ = ١

حسب المعادلات انها تسهل حل الاعمال الصعبة الى درجة كبرى وتوفر وقتاً في ايجاد اقرب الطرق للوصول الى النتيجة ، وتعبر عن كلام كثير برموز قليلة وحسبها ايضاً انها سهلت الاختراع والاكتشاف ووسعت مجال الاستفادة من القوانين الطبيعية ، وفوق ذلك فللمعادلات فوائد اخرى هي من خطورة الشأن بمكان عظيم . لقد استطاع بعض العلماء بفضل استعمال المعادلات واكتشاف بعض انواعها ان يقدموا للحضارة الصناعية خدمات جليلة . وقد استخرج غاليليو من العلاقة الموجودة بين الكتلة والحركة معادلة لولاها لما تمكن الانسان من صنع آلات تحركها القوى على اختلاف انواعها وقد لاحظ ملكن العالم الاميركي الشهير الفوائد التي جنتها الحضارة الصناعية من القوانين والمعادلات الرياضية فقال « اننا اذا ازلنا من العمران الحالي احد القوانين الرياضية التي ابتدعها وحققها نيوتن لوجب ان نزيل كل آلة بخارية فكل سيارة وكل محرك وكل مولد كهربائي بل كل آلة تستعمل لتحويل القوة الى حركة لانها كلها بنيت على هذا القانون الرياضي الشامل . . »

***

ولعلّ اغرب شيء في المعادلات انها استطاعت ان تتنبأ عن اشياء كانت مجهولة وحوادث ما كانت معروفة وظواهر لم يلتفت لها الانسان في بادىء الامر . ولا يخفى انهُ ليس في استطاعة كل واحد ان يرى المجهولات في المعادلات او ان يتنبأ بواسطتها فهذا ما لا يستطيعهُ الاّ القليلون الذين عكفوا على دراسة العلوم الرياضية والطبيعية والذين مارسوا هذه سنين كثيرة وتفهموا دقائقها ووقفوا على اسرارها وغاصوا على كنوزها بقصد التعمق والتثبت . ولا ارى بأساً من ذكر قصة اكتشاف بعض السيارات ففيها ما يؤيد قولنا بخصوص التنبؤ من المعادلة . لقد اقتنع بعض العلماء كنتيجة لبحوثهم بانهُ يوجد اضطراب في فلك اورانوس وقالوا بان هذا الاضطراب يجب ان يكون ناتجاً عن سيار غير معروف ، ولم يكن في الامكان التثبت من ذلك ومن وجود سيار الاّ باستعمال الرياضيات فقام ادمس ولفريه واستطاعا بالمعادلات ان يتأكدا من وجود كوكب سيار جديد قبل ان يروهُ . اما الكوكب المكتشف فهو نبتون ، وتنبأ الاستاذ لول بوجود سيار وراء نبتون وكان تنبؤه عن طريق المعادلة وقد شغل جانباً كبيراً من حياته في حساب بعده وقدره وجرمه وسرعتهِ ، واستطاع ان يعين الفلك الذي يسير فيهِ السيار الجديد الذي سمي بالسيار بلوطو . واتفق العلماء على ان اكتشاف بلوطو من اهم الاعمال العلمية التي جاءت مؤيدة لكثير من مبادىء علم الفلك وقوانينه ومشيرة الى الارتباط المحكم المتين بين الرياضيات والفلك وسائر العلوم الطبيعية .

وقبل الختام اود ان أوجّه النظر الى ان الاسلوب العلمي او الطريقة العلمية الحديثة التي هي اساس الاكتشاف والاختراع والتي ميزت هذا القرن عن غيره ، ترتكز الى درجة جديرة بالاعتبار على المعادلة . اذ بالمعادلة توسع مجال الدقة واصبح في الامكان وضع كثير من المبادىء والقوانين في قالب رياضي وفي هذا توسيع لدائرة الاستفادة العملية من العلوم المختلفة والفنون المتنوعة

الاثير : لغز الدهور

تحول صورته في اذهان العلماء والفلاسفة [١]

من نيوتن الى اينشتين

نشأ القول بالاثير عن حاجة الانسان الى تعليل التفاعل بين اجسام بعيد بعضها عن بعض . ولم تبدُ هذه الحاجة مُلِحّة الا بعد ما وضع نيوتن قواعد الجاذبية . ذلك ان وزن الجسم كان الى عهد نيوتن شيئاً مستمراً يتوقف على الجسم وحده دون اي جسم آخر . فلما بيَّن نيوتن ان وزن الجسم يمكن تعليله بالتجاذب بين كتلتي جسمين ، وان تطبيق هذه القواعد على القمر تعلل حركتهُ سأل المفكرون كيف يتم هذا الفعل وليس بين الارض والقمر صلة مادية تصلح ان تكون وسطاً لنقل القوة الجاذبة . ومما لا ريب فيه ان انتقال الحرارة وغيرها من مظاهر الطاقة تحتاج الى وسط ينقلها

وقال احدهم : ايستطيع جسم من الاجسام انِ يفعل حيث لا يكون الجسم نفسه . فكان الجواب المبني على الاختبار ان ذلك متعذر . فرغبة في توحيد القوى الطبيعية ، قيل ان الجاذبية تفعل في الظاهر من دون وسيط ، ولكنها في الواقع تنتقل عن طريق وسط متصل يملأ الكون ، لا فجوة فيه ولا انقطاع ، ودعي هذا الوسط ، الاثير . ولكن لم يشر احد الى تصرف هذا الوسط في نقلِ القوة الجاذبة . بيد ان نيوتن لم يعلق بهِ شأناً كبير ، لانه كان يراهُ استنتاجاً محضاً ، لا عاملاً اصيلاً في نظريته في الجاذبية

***

وكانت الخطوة التالية في نظرية الاثير ، اخراج النظرية الموجية للضوء على يد العلاَّمتين هوجنس وينغ . ومؤدَّاها ان الضوء ظاهرة موجيــة ، ذات نبضات مستطيلة . وكانت هذه النظرية في حاجة الى وسط تنقل بواسطته طاقة الشمس ضوءاً وحرارة ، اذ المعروف ان ضوء الشمس وحرارتها يجتازان الفضاء بين الشمس وسياراتها ، فاذا كانا ضرباً من الامواج وجب ان يكون هناك شيء في ذلك الفضاء يستطيع ان يتموَّج

وتلا ذلك تكهن العلماء بخواص هذا الوسط . فقيل اولاً انهُ شفاف كلَّ الشفاف اي ان الطاقة التي تخترقه لا تفقد شيئاً من قوتها ، والاَّ لما استطعنا ان نرى النجوم والسدم القصية ، لأن ضوءها لا يتبدد في اختراق مسافات شاسعة من الاثير

---

(١) تلخيص مقالة نشرت في مجلة السينتفك اميركان

ثم قيل ان من خواصّهِ ان الاجرام لا تحتكُّ بهِ في خلال اختراقها اياه ، والاَّ لما استطاعت ان تمضي في افلاكها من دون عائق يعوقها

ولما كان الاثير ، ينقل امواجاً مستطيلة ، فيجب ان يكون سائلاً او من قبيل السائل ولكن لا يمكن ان يكون لزجاً لان الازوجة تقتضي الاحتكاك بين الاثير والاجرام. واما نقلهُ الحركة الموجية بسرعة عظيمة هي سرعة الضوء فيقتضي ان يكون شديد المرونة

هذه هي الخواص التي كانت تسند الى الاثير لما اعلن فرنل Fresnel الفرنسي (١٧٨٨—١٨٢٧) مباحثهُ في الضوء المستقطب polarized التي اثبت بها ان الضوء امواج مستعرضة transverse لا مستطيلة longtitudinal فاقتضى هذا التعديل في نظرية الضوء الموجية تعديلاً يقابلهُ في الاثير الناقل الضوء . فالقدرة على نقل امواج ما على الاطلاق يقتضي مرونةً ، ولكن نقل امواج مستعرضة يقتضي مرونة من ضربٍ خاص هي المرونة الخاصة بالاجسام الجامدة او مرونة الشكل . وبكلمة اقتضى اكتشاف فرنل ان يكون الاثير جامداً ومرناً في آن

ثم تباحث العلماءُ في موضوع حركة الاثير ، او حركة بعض اجزائهِ ، وخرجوا من مُباحثهم الى انهُ لا بدَّ للاثير من ان يكون مستقرًّا لكي يمكن تفسير تجربة فيزو Fizeau (١٨٥١) التي اثبت بها ان سرعة الضوء لا تتغير ، سواءٌ كان الضوء متجهاً مع مجرى من الماء او ضدَّهُ . بل قالوا حينئذٍ انهُ لا يشترك في حركة الاجسام ، وان اجزاءهُ لا تتحرك بقياس بعضها الى بعض ، الاَّ حركتها الخاصة بالتموّج

وشرع الحاسبون يحاولون ان يقرّروا هذا الخواص تقريراً رياضيًّا . فقالوا ان كثافتهُ تفوق كثافة الرصاص ١٠ ملايين مرّة ، وان قصور inertia سنتمتر مكعب منهُ يفوق قصور سنتمتر مكعب من الماء مليون مليون مليون ضعف . وقالوا كذلك انهُ لما كان الاثير ينقل امواجاً مستعرضة بسرعة الضوء فيجب ان يكون جسماً جامداً صلابتهُ تفوق صلابة الفولاذ مليون مليون مرة

هذه هي الاركان التي قامت عليها صورة الاثير في اذهان علماء القرن التاسع عشر الى مطلع نصفه الثاني وقد كانوا يظنون ان معرفتهم بالاثير وخواصه تضاهي معرفتهم بالمادة وخواصّها

ولكن هؤلاء العلماء كانوا في مأزقٍ . فليس من المستطاع ان تنتقل طاقة الضوء والحرارة في الفضاء من دون وسط تنتقل فيهِ ، ولكن انتقالها امواجاً مستعرضة ، اقتضيا في هذا الوسط خواصَّ عجيبة تناقض الخبرة الانسانية

كان الطبيعيون الى هنا ينظرون الى الاثير نظرهم الى المادة ، فوجدوا ان هذه النظرة تقضي عليهم باسناد خواص للاثير ، لا تتفق وخبرتهم العملية ، فحملهم ذلك على القول بأن خواص الاثير لا يمكن ان تحدَّد بما حدّدت بهِ خواص المادة

فلما خابت النظرة المادية الميكانيكية الى الاثير ، تطلعوا الى ميدان الكهربائية والمغنطيسية .

واول من أدخل الأثير في هذا الميدان من ميادين البحث كان العلامة ميشيل فراداي . وقد كان علماء الكهربائية يقولون حتى عهد فراداي بشيءٍ دعوه ُ الشحنة الكهربائية تستقرُّ على الجسم المكهرب وتؤثر في الاجسام المكهربة ، البعيدة عنهُ ، على نحو ما تؤثر الاجسام بعضها في بعض بفعل التجاذب . بل كانوا قد افرغوا تلك القوة الكهربائية في معادلات رياضية . ولكن فراداي لم ترقهُ فكرة التفاعل عن بعد . وقد أشار مكسويل في مقدمة كتابهِ (رسالة في الكهربائية والمغنطيسية) الى فراداي فقال : ان فراداي رأى بعين عقله خطوط القوة تخترق الفضاء ، حيث رأى الرياضيون مراكز القوة تتفاعل عن بعد . ففراداي رأى وسطاً حيث لم يروا هم الا مسافة . لذلك بحث فراداي عن مركز هذه الظاهرات في الافعال الحادثة في هذا الوسط »

وفي نظر فراداي كان هذا الوسط ينقل الكهربائية

ولما كانت القوى الكهربائية تنتقل في الفراغ فرض فراداي ان الوسط الذي تنتقل فيهِ هو الاثير ، وان خواصهُ تتغير بوجود المادة فيهِ ، وبهـذا يعلل نقص القوى الكهربائية بين جسمين مكهربين اذا توسَّط بينهما لوح من الزجاج

وعلى هذا النحو كذلك فسّرت الظاهرات المغنطيسية

وبعيد ذلك جرَّب فراداي وكار Kerr تجارب ادخلت في روعهما ان الضوء والكهربائية والمغناطيسية تنتقل في الوسط نفسهِ — اي في الاثير

***

وأوحت مباحث فراداي الى مكسويل البحث العظيم الذي تفرَّد بهِ ، فأثبت بالمعادلات الرياضية أنهُ اذا وجد وسط كالوسط الذي فرضهُ فراداي وجب ان يكون في الامكان احداث اهتزازات متساوية فيهِ قوتها قوة المجال المغنطيسي والكهربائي ، وتتصف بصفات الأمواج . وبعيد ذلك تمكن هرتز من توليد هذه الامواج الكهرطيسية (اللفظ منحوت من كهربائي ومغنطيسي) واثبت أنها من قبيل الضوء وان الفرق الوحيد بين نوعي الامواج انما هو في طولها فقط

فنجم عن تجارب هرتز ان رسخت دعامة النظرية الاثيرية ولكن تحولت من ناحيتها الميكانيكية الى ناحيتها الكهربائية والمغنطيسية بل ان العلماء تطرفوا في هذا التحوُّل حتى لنرى هرتز يحسب المادة والاثير شيئاً واحداً وان المادة ليست الا اثيراً قد اصابه التنويع . وقد قاده الى هذا الاعتقاد ما رآه من اختراق الامواج الكهرطيسية لأصناف مختلفة من المادة ، من دون ان يعوقها عائق ما

وكانت الحال على ما تقدَّم لما خاض الاستاذ لورنتز Lorentz الميدان فوفّق بمباحثهِ الرياضية ومعادلاته بين النظريات السائدة حينئذٍ وحقائق الخبرة الانسانية العملية ، فالأثير في نظرتهِ كان مجرداً من خواصه الميكانيكية القديمة . والمادة من خواصها الكهرطيسية . وما يرى في المادة من الظاهرات الكهرطيسية (خواص نقل الضوء والكهربائية والمغناطيس) لم يسند الى الذرات بل

الى الاثير الذي يتخلّلها ويفبثّ فيها . فعلّلت هذه النظرية تعليلاً بديعاً ما يشاهد من ضعف الضوء بعد اختراقهِ لا شدّ الاجسام شفوفاً ، وكذلك عللّل بها ما يشهد من زيادة امتصاص الاشعاع الكهرطيسي بزيادة كثافة المادة . وعلى ذلك لم يبق من خواص الاثير الميكانيكية الا خاصة الاستقرار ، وهي خاصة تلتئم وتجربة فيزو القديمة ومباحث ولسن C. W. Wilson الحديثة

اما اليوم فليس للاثير شأن خاص في النظرية الكهرطيسية . فاذا كتب عالم هذا الموضوع فرض وجوده بوجهٍ عام ثم قال كما قال ادنفتن في كتابهِ « الفضاء والزمن والجاذبية » : « ان في نقطة معينة فيهِ مقداراً كهرطيسيًّا لهُ كتلة واتجاه ويمكن قياس قوتهِ » وبعدها يعود الباحث لا يعني بالاثير ، بل بخواص هذا المقدار . والمفروض ان هذا المقدار يمثل حالة الاثير « ولكن الاثير ليس عاملاً فعَّالاً في النظرية »

فلما بدا للعلماء ان الاثير مستقرٌّ قالوا : اذن نستطيع ان نتبين سرعة الارض فيهِ . ولكننا نعلم اننا لا نستطيع ان نتبين سرعة جسم ما الاَّ بالقياس الى جسمٍ آخر . فكيف نستطيع ان نتبين سرعة الارض بالقياس الى الاثير المستقر ؟

المقرَّر ان الضوء يسير في الاثير ، فاذا بعثنا بشعاعة ضوءٍ في اتجاه حركة الارض وجب ان تنقص سرعة الضوء الظاهرة ، لانهُ لا بدَّ من طرح سرعة الارض من سرعتهِ ، لأنهما سائران في اتجاه واحد

من هنا نشأت تجربة ميكلصن ومورلي المشهورة . فتعذَّر عليهما ان يتبينا بها سرعة الارض في الاثير ، فظنَّ اولاً ان الآلات التي استعملاها لم تكن على جانب كافٍ من الدقة . ولكن هذه الآلات كانت شديدة الاحساس يستطيع الباحث ان يتبين بها حركة دقيقة أدق من حركة الأرض حول الشمس . ثم أعيدت هذه التجربة ، أعادها ميكلصن نفسهُ بعد وفاة زميلهِ واعادها غيرهُ كذلك ، فلم يظفر أحدٌ بما يدلُّ على حركة الأرض — الاَّ عالم يدعى دايتون ملر — فتعدَّدت أساليب التفسير الى ان جاء اينشتين بنظرية النسبية الخاصة ففرض فيها ان سرعة الضوء في الفضاء ثابتة لا تتغير ، وانها مستقلة عن حركة مصدرها ومشاهدها . ولذلك لا يمكن تبيُّن حركة الارض في الاثير عن طريق الاختلاف في سير شعاعتين من الضوء احداها سائرة في اتجاه الأرض والأخرى في اتجاه معاكس للاوَّل

وكذلك فقد الاثير اخرى الصفات الميكانيكية التي اسندت اليهِ

والواقع ان الاثير لم يكن يوماً ما حقيقة اقيم الدليل على وجودها ، بل كان يتصف بخواص تناقض خبرتنا العملية ، وهو الآن في نظرية النسبية فرض لا ضرورة لهُ

ونختم هذا التلخيص بكلمة للسر اوليفر لدج قال : « صحيح اننا نستطيع ان نمضي في الحساب الطبيعيّ والاكتشاف العلمي من دون ان نستند الى الاثير ، ولكن اذا اردنا ان نتفلسف وجدنا انهُ لا مندحة لنا عن ان يتصف الفضاء بخواص طبيعية وانهُ جدير بشيءٍ اكثر من اسم هندسيّ » !

معلم مصري ينظر في

تقرير هادو (١)

واصلاح التعليم في انكلترا

لعلي حسن الحايك

عرف عن الانكليز عدم النزوع الى التغيير المفاجيء العنيف ، وها هي الثورات السياسية والاقتصادية تعصف بأنحاء العالم ، فلم ترحم قوماً ولم تسه عن امة الا وعبثت بها ما عدا انكلترا . فهي الامة الهادئة العملية ، لا تزال أمنع من أن تستهويها فكرة او نظرية ، ولا تحترم الا الامر الواقع والتجربة الناطقة . فاذا أخذت أي ناحية من نواحي حياتها السياسية والاجتماعية فلن تعثر الا على نمو بطيء وتعديل فوق تعديل . وكما يميل الانكليز الى التريث في الاخذ بالآراء الحديثة حتى يستبينوا قيمتها فانهم اذا ما أخذوا بها كانت يقيناً وديناً ، اذ يضعون قوتهم كلها في دعمها ولا يتراجعون قبل تحقيقها

لذلك لم يكن عجيباً أن ينبت هذا المجتمع الناضج اقوم الآراء وامتن الحجج . أليست انكلترا خالقة النظام النيابي ومنشئة العناية بالابدان والالعاب ومبتكرة حركة الكشافة ؟ وانك اذا احتككت بأفرادهم في مجتمعاتهم او اطلعت على منتجاتهم العقلية وجدت فارقاً جلياً بين تفكيرهم وتفكير غيرهم من الامم حتى البارزة منها . وقد تجد في الصحف اللاتينية كالايطالية والفرنسية حماسة ولهيباً في اسلوب رشيق جذاب وفي الالمانية غزارة في العلم وتعمقاً في الفكرة . اما الانكليزية فهي لا تتعمق ولا تصخب وانما تبسط الحقائق المحسوسة بأسلوب عملي خالٍ من الاسهاب والتجميل . ومن هنا كان الأدب الانكليزي غير متذوق كثيراً لدى غيرهم من الامم الحالية التي لا يشبعها الا السطحي الضحضاح من الادب الذي لا يحرك الا الغرائز الفطرية . وهذا لون من ألوان التسمم العقلي

ومن هنا كانت للآراء الانكليزية في مختلف ميادين النشاط العقلي قدر ممتاز بين خاصة المفكرين فاذا ما صدر الرأي في صحيفة او مجلة تناولته اسلاك البرق بالاهتمام لما عرف عن هؤلاء القوم من الاناة والتريث ووزن الحقائق . لذلك أحث قومي على التزود من الآراء الانكليزية الناضجة في مختلف الشؤون

وكرجل مربٍّ يدهشني حقاً ان يصدر في عام ١٩٣١ تقرير لجنة — برآسة السير هادو Sir Hadow — كلفتها الحكومة فحص حالة التعليم العام بانكلترا ، ثم لا نقرأ كلمة عنه في صحفنا . فبعد جلسات كثيرة عقدتها اللجنة واتصال مباشر بكبار علماء النفس والتشريح ورجال الاعمال اصدرت اللجنة تقريرين طافحين بزبد الآراء النظرية والعملية . وقد اخذت الحكومة فعلاً بجل ما جاء في التقريرين حتى اصبحت روح التقريرين هي المتسلطة في ميدان التربية الانكليزية

---

(١) Hadow Report

ولضيق وقتي لم افرغ من قراءة التقرير الخاص بالتعليم الابتدائي الا منذ بضعة شهور ، فاذا به كنز قيّم لا يقتصر على آراء أئمة المربين بل يتناول آراء كبار المفكرين وعلماء النفس والتشريح ورجال الاعمال الذين استطلعت اللجنة آراءهم في سبيل اصلاح التعليم العام . واني لا ارى مندوحة عن جلاء نقطة هامة في هذا الصدد . وذلك ان التقرير خاص بالمدارس الابتدائية الانكليزية ، وفي انكلترا وفي سائر بلاد العالم لا نجد مرحلة في التعليم العام اسمها التعليم الاولي واخرى اسمها التعليم الابتدائي كما هو الحال في مصر مع الاسف المرّ بل هناك مرحلة واحدة تسمى في بلد « ابتدائية » وفي آخر « اولية » وفي ذلك ضمان لوحدة الامة وعدم التحطيم بين طبقاتها وألوان حياتها كما في مصر

ومع الفارق العظيم بين مستوى التعليم في انكلترا وبينه في مصر فانك تجد مقابلات كثيرة بين الحالين ففي كثير من المواضع تستعرض نفس المشكلات المصرية كمشكلة تعليم اللغتين الثنائيتين في ويلز وهي تقابل مشكلة اللغات الاجنبية هنا . ومما يزيد في قيمة هذا التقرير استناده الى ملحقين علميين نفيسين في ذيله يشملان أحدث وأقوم ما وصلت اليه الحقائق العلمية بشأن الطفل وطبيعته . فالملحق الأول خاص بجسم الطفل من الولادة الى سن الانتهاء من التعليم الابتدائي من الوجهة التشريحية والفسيولوجية ، والملحق الثاني يتناول خصائصه النفسية . ولما كانت مهمة اللجنة البحث في مناهج الدراسة وخاصة ما اتصل منها بالاوساط الريفية ، كانت تلك الآراء عظيمة القدر للباحثين من المصريين

يقول التقرير في المقدمة « ان المشكلات عديدة وخطيرة »

فالمدرسة محيط طبيعي ومحل تربية العقل وجمية روحية في وقت واحد

ويعجبني من التقرير انهُ بعيد عن الرجعية بعده عن الثورية ، اذ لم يغفل أحدث الأساليب في التربية ، وأخذ منها الكثير الذي طبقته الحكومة الانكليزية ومجالسها المحلية

واني أحثُّ اخواني المدرسين ، وبصفة خاصة القائمين بشؤون التعليم في مصر كباراً وصغاراً على التزود من هـذا التقرير النافع إذ انهُ كما قلت خلاصة دسمة ثمينة للنظريات العلمية ونتائج التطبيقات العملية لها كما قطعت بهِ التجربة والاختبار . فهو لذلك يغني من لا يتسع له الوقت عن قراءة عشرات من الكتب . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان في استعراض مشكلات التربية كما استعرضها واضعو التقرير من جهابذة ، خير مرشد لنا في معالجة مشكلاتنا وبالاخص في الطريقة العلمية النافذة التي تتطلبها مثل هذه المعالجة

يبدأ التقرير بمقدمة عن مهمة اللجنة ، يتلوها استعراض تاريخي لمشكلة التعليم الابتدائي بانكلترا وتطوراتها ، ثم فصل علمي ممتع عن نمو جسم الطفل الى سن ١١ آخذاً بأحدث الآراء كالرأي القائل بنموّ الطفل في مراحل محدودة على نوعين امتلاء ثم انفراد ثم امتلاء وهكذا . ومن اهم ما جاء في هـذا البحث ان مرحلة التعليم الابتـدائي تتفق مع مرحلة امتـلاء (filling out) ويسميه البحث « تمكيناً » أي (Consolidation) تستطيع فيه التربية الحقة ان تصلح العيوب الجسمانية

واعداد الجسم للمرحلة الانفرادية الثالثة في البلوغ عند ما يكثر استعداده للامراض المعدية الخطيرة كما أثبتت الابحاث التشريحية الاخيرة . ان عظام الكتف والحوض لا يتم نموها ولا تحكم مفاصلها الا في سن ١٦ سنة تقريباً وبذلك يتبين الخطر من اجهاد الجسم في حركات عنيفة قبل بلوغ هذه السن .وقد اثبتت الابحاث أيضاً ضرورة الراحة الجسمانية وبخاصة بعد تناول الطعام ، وكيف ان الطفل يجنح بالغريزة الى جلسة التربع (Squatting)

ومما هو جدير بالذكر ان واضعي التقرير لزموا ، في المواضع التي لم يأت العلم فيها بجديد ،جانب الصراحة باقرار العجز عن المعرفة ، كتلك المفاجأة الهامة بالاقرار بعجز العلم الى الآن عن معرفة معظم التفصيلات عن المخ وأدوار نموه وعلاقته المحكمة بالاحوال النفسية والعقلية وحثه علماء التشريح والفسيولوجيا على توجيه عناية كبيرة خاصة الى هذه الناحية الرئيسية

ثم يلي فصل عن نمو عقل الصبي في نفس الفترة مع التعرض المستمر لناحية التربية التطبيقية applied وهو يأخذ اجمالاً بالرأي الحديث الذي يقول به الاستاذ Spearman وهو ان التفكير ادراك للعلاقات .ويشيد بالتفكير الاستنباطي inductive فيقول بأنه اسهل للطفل من التفكير القياسي deductive . اي عكس ما هو مألوف . ثم يأتي فصل نفيس عن الناحية الذوقية aesthetic والعاطفية في الطفل ثم بحث يتناول علاقة المحيط بالصبي ومن ذاك يخرج الى بحث سن التخرج في التعليم الابتدائي وعلاقته بالتعليم الاولي من جهة والتعليم الذي يتلوه من جهة اخرى ، ويحث التقرير على ضرورة التعاون والاتصال الدائم بين القائمين بالتعليم في هذه المراحل بعضهم ببعض ، ويقرر بأنه مع التسليم بضرورة جعلها مدارس منفصلة احتراماً لطبيعة النشء المتباينة عنها في الاخرى ، فان النمو المستمر والانسجام يتطلبان هذا الاتصال ويتلو ذلك فصل في توزيع التلاميذ على الفصول وادارة المدارس

ثم ينساب الى فصل ممتع جمع بين العلم والتجربة القيمة عن ضعاف العقول مقسماً اياهم الى طبقات متفاوتة في الضعف ويرى ضرورة وضع الضعاف في فرق معزولة تحت عناية خاصة مبنية على دراسة للضعف العقلي من جانب القائمين بتدريسهم . ولم يكتف بذلك بل ابان اسباب ذلك الضعف وضرورة عزل الطلبة من مبدأ الدراسة وبذلك يُقتصد مجهود عظيم مع كل من الضعفاء والعاديين ويحسن توجيه الصبيان الى المهنة المقبلة . ويرى التقرير عدم الاقتصار على تخصيص فرق خاصة بل مدارس منفصلة للممعنين في الضعف العقلي اي الذين يقربون من البله idiocy

ثم يتلو ذلك فصل عن المنهج ثم فصل عن توزيع العمل واعداد المدرسين ثم فصل عن بناء المدارس واثاثها ووسائل الايضاح وبحث في الاخذ بالوسائل الحديثة من سينما وراديو الخ

ويلي ذلك فصل ممتع في الامتحانات وفيه يأخذ التقرير بأحدث الآراء من حيث الاخذ باختبار الكفاءة والمقدرة لا المعلومات Capacities not attainments وان يكون النقل على هذا الاساس . ويسمح بأن يعاد النظر بين حين وحين في حالة التلاميذ كأن ينقل تلميذ سبق تقرير اعادته . ونص

التقرير على التسهيل في الامتحانات كأن يقصر اختبار الدخول في المدارس الثانوية على اللغة والحساب (هذا رأي المستر بان في تقريره الممتع عن التعليم في مصر) وبذلك يُجتنب ذلك الارهاق وتلك القدسية الصناعية التي أُسبغت على الامتحانات العامة . وقد تعرض لاختبارات الذكاء الجمعية group tests فوصل الى انه مع التسليم بفائدتها لا يرى الاقتصار على الارتكان عليها

وقد اتى بشيء جديد حقاً عن الاختبارات الشفوية ذلك ان الاختبارات المألوفة التي يتيه المختبر فيها مع الطالب كما تسوقه خواطره لا فائدة منها ، بل يجب ان يكون الشفهي اختباراً أُعدّت اسئلته ونواحيه . ويرى فائدة كبيرة في الاختبارات الفردية للذكاء كوسيلة منتجة لتوجيه الطالب في حياته الدراسية . وبذلك قضى هذا التقرير قضاءً قطعيًّا على الامتحانات كما هي شائعة ويرى ان يستبدل بها في تقرير مستوى المدارس والتلاميذ تفتيش دقيق نزيه . ثم يتلو ذلك تقرير تفصيلي عن مواد المنهج مادة مادة وهي صفحات جدير بكل معلم ان يقرأها بعناية لانها زبدة قيمة لاحدث الابحاث كما سبق ان بينت . وعلى ذكرها يحسن ان نبين ان المناهج في انكلترا ليست موحدة كما في مصر . اذ لكل مجلس مقاطعة بل لكل مدرسة ان تضع منهجها غير متقيدة الا بحدود عامة

ويأخذ التقرير في المناهج بكثير من النظريات والطرق الحديثة ويدمجها بدون ازعاج الأنظمة القائمة . ولما كان هذا الفصل ممعناً في التفصيل لا أرى لبسطه محلاً هنا ولعلي اعرض له في فرصة اخرى وانما لا يفوتني التنويه بما اجمعت عليه المذاهب الحديثة وما اقره التقرير من ضرورة الاخذ بالعمل قبل المعرفة action . ولذلك يقرر ضرورة الاتصال بالحياة وشمولها في كل شيء والترابط بين المواد بعضها ببعض في ذلك الاتصال ويعلق شأناً عظيماً بالأعمال اليدوية كدروس الاشغال والرسم وتربية النباتات والحيوانات وعمل نماذج لمختلف المشاهدات من اعمال وصناعات وسائر ما يتصل بالحياة العملية حتى يشب الصبي مندمجاً في بيئته ، نافعاً لمجتمعه ، خبيراً بالحياة ، بعيداً عن اوهام النظريات والمعلومات التي تتطاير بمجرد فوات الامتحان

وهنا يسترعي نظرنا عيب رئيسي لا يزال قائماً في مصر . هو ان الطالب في مدارسنا الابتدائية يُوجَّه من قِبَل عدة مدرسين كلٌّ يوجههُ في ناحية معينة اسمها علم . فهذا يدرسهُ العربية وآخر الانجليزية وآخر الحساب وهكذا ، وبذلك يُقضى على وحدة الملاحظة والتوجيه وما يتبع ذلك من ربط وانسجام بين سائر المواد ويتسلط على الناشيء اكبار واعظام للمعلومات فيشحن حافظته بحقائق كل مادة . ويصبح الامر حشواً لا تربية حقة

هذا تنويه بسيط بذلك التقرير النفيس الذي لم احظ بأشارة ولو بسيطة اليه في مجلة او صحيفة علمية او ادبية !! واني اطلب الى اخواني المعلمين عامة والى كبار القائمين بالتعليم خاصة ان يقرأوه وينعموا النظر فيه . ولعل وزارة المعارف تعنى بترجمته وتوزيعه على المعاهد . ففيه فائدة لا تقدر لاستخلاصه زبدة الحقائق العلمية واحتوائه على نظرات ثاقبة عملية في احدث الطرق والاساليب في التربية

روح الصومعة (١)

في معترك الحياة المادي

سادتي :— تهجع روح الشعب دهراً او دهوراً ، ثم تستيقظ . ويلبث الشعب امينا مستقراً ثم تغمره اليقظة كموجة طاغية تدفعها ريح عاتية ، وتعصف بحياته المستتبة كفتنة مجتاحة ، وبنظامه المستقر كاعصار مكتسح . واذا الامة الهاجعة المطمئنة تتلظى بحمى الحياة شيباً وشباناً ، نساءً ورجالاً تنهب جذوتها من اشتباك النصال آناً او تقبس شعلتها من منائر الآداب وصروح العلم آونة اخرى

وشد ما اخشاه ايها السادة ، ان يمنعنا اندفاعنا في تيار الحياة العصرية ، والسير مع رياحها ، والاخذ بكل ما يثير ويدهش من بدائعها ، عن التريث للتأمل في هذه المظاهر . اهي تتصل باعماق النفوس وتنبثق من قراراتها ، فيلقنها الجيل الحاضر للجيل المقبل ، ويترك الآباء الامانة في اعناق الابناء ، ام هي مظاهر تطفو على وجه الحياة ، كالحباب على سطح الكأس ، ولا تتصل بجذورها ؟

ان قراءتي للتاريخ ، ولعبر العمران ، تدلني على ان المحك في كل ذلك هو امر واحد

المحك هو الحرية الروحية ، التي يدفعنا اليها اتساع افق النفس ، وسمو معاني الحياة ، والطموح الى غايات من الرفعة والنبل والجمال لا يشتاقها الا الانسان الكامل . ثم ان الحرية الروحية ، وما يلازمها من الحرية الفكرية ، أساس كل نهضة ، ولا اقول سياسية او اجتماعية او علمية ، لأن هذه المظاهر ، انما هي نواح لحقيقة خالدة ، ولا يمكن ان تجلى هذه الحقيقة ولا ان تكمل تلك النهضة الا اذا اندمجت هذه المظاهر بعضها ببعض واتصلت باعماق النفوس

قد يقال ان التفكير الحر يفضي الى تراخ هنا وانحلال هناك وانقلاب وفوضى هنالك . اما انا فأقول : لا تسألوا عما يفضي اليه التفكير الحر ، بل دعوه يسير ، يقاوم ويقاوم ، وتصطدم حريته بحريات اخرى ، وثقوا بأن النصر النهائي لا يكون الا للفكر الصحيح . فاصطدام الافكار ينقيه ، والاختبار يمحصه ، والتنازع على البقاء في عالم الفكر كالتنازع في عالم الاحياء ، يستبقي الاحسن والاصلح

وليس المقام مقام تحليل لنهضتنا الشرقية ، ولا هو مقام موازنة نبغي منه التعرف على مكانة هذا الركن الاساسي من اركان النهضات ، في حياتنا ، فأنا اعرف وانتم تعرفون اسماء عشرات من المفكرين الاحرار ، احياءً وامواتاً ، قد عانوا ما عانوا في سبيل هذه الحرية ، فلم يلينوا ولم تغمز لهم قناة . ان ذكريات هذا الاضطهاد الذي لقوا ، او تلك المقاومة التي وعّرت امامهم السبيل ، لن تذهب ادراج الرياح ، في امم تتوثب الى النور ، وتتلظى بحمى الابداع في ميادين الجهاد الانساني . كلا ورب الحق ! ان

---

(١) من الخطبة التي القاها رئيس تحرير المقتطف على جمهور كبير من اعيان نابلس ووجهائها في لوكاندة فلسطين بدعوة من الوجيه قدري حافظ طوقان

الذاكرة الشعبية تختزن هذه الذكريات ثم تطلقها قوة تدفع الى الامام، وحكمة ترشد الى الطريق القويم

فروح الشعب تهجع ثم تستيقظ . ويلبث الشعب آمناً مستقراً ، ثم تغمره اليقظة مزعجة ، وتعصف بحياته كفتنة ، وبنظامه كاعصار ، فتهز حياته من اركانها

قال الدكتور بطلر، رئيس جامعة كولومبيا من سنوات في مقال جليل ، ان مركز الثقل في العمران الحديث، انتقل من سياسة المبدأ الى سياسة المنفعة ومن العناية بمشكلات الحرية الى العناية بمشكلات الثروة ولو ان الناس يعنون في مقدمة ما يعنون به، بالشعر والفلسفة والحياة الروحية، لكان اعظم الاحياء واعلاهم مقاماً واعظمهم نفوذاً، هم الشعراء والفلاسفة والحكماء ... أما انهم ليسوا كذلك فدليل على روح العصر

هذا حكم غربي على روح الحضارة الصناعية الاقتصادية الغربية التي تكاد تكتسحنا

أما نحن القائمين على القنطرة التي تصل بين الشرق والغرب، حيث يلتقي المشرقان والمغربان، فجدير بنا ان نمهد لجعل هذه البقاع المباركة ، مهداً لنهضة روحية غرضها اخضاع وسائل المادة لاغراض الروح العليا ، فنجعلها وسيلة لبناء الحياة الأدبية السامية في الافراد والامم ، ورابطة تحكم ما بين الشعوب بصلة الصداقة والتفاهم والتعاون لتحقيق تلك الاغراض

هذا يجب ان يكون لبُّ الثقافة الشرقية الجديدة ، والى هذا الهدف الاسمى يجب ان نتجه

ولكن الشقة طويلة . والمخاطر جمة ومهاوي السقوط تغوينا . ننظر الى حضارة الغرب فنؤخذ بما فيها من ابداع ونخلد الى نفوسنا فنقول بلسان عالمها الصناعي - ولا أقول بلسان عالمها الفيلسوف: —

ما أعجب الانسان . ينقذ جماهير العمال من العمل المضني بآلة. ويبلغ السدم القصية بنظارة . ويطير الى القطبين على جناحين من النسيج والحديد. ويجلس في القدس فيصغي الى لندن او يخاطبها وغداً قد يراها . اننا نؤخذ بكل هذا . ولكن أرضى ان نغدو عقولاً متحجرة تديرها آلات صنعتها آلات اخرى ؟

قد يناجي الشباب نفسهُ فرحاً هازجاً وهو قابض على زمام سيارة : لاسيرنَّ بسرعة مائتي ميل الى القمر . . . كل ما تفعله يا أخي رهن الروح التي تقبل بها على عملك . أتتقدم اليهِ كقطعة مندفعة من الانسانية لا تعلم من اين أتت ولا الى اين تقصد ولا لماذا تسير ؟ ومتى وصلت الى القمر فاذا يمثل لك القمر اذا لم تأخذ اليهِ الاّ عقلاً ضيقاً وروحاً مستعبدة تحيط بها كرة او اسطوانة من الفولاذ؟

اننا نؤخذ اذ نرى الالعوبة الميكانيكية ! ! أفنكتفي بذلك أم نؤثر ان نكون جميعاً ، الرجل الذي يحلم احلاماً ويرى رؤًى ويظل يحلم ويرى حتى تصير احلامه ورؤياه قواعد واصولاً تقوم عليها صلته باخيه الانسان ! ليس في هذا الكلام دعوة الى الاعراض عن الغرب، ولكن فيهِ دعوة الى اخضاعه . انا لا اقول اعرضوا عن العلم، بل اقول ارتفعوا بالعلم الى مستوى الروح حتى يندمج الاثنان في سبيل الخير العام . أنا لا اقول اصدفوا عن الصناعة بل اقول يجب ألاّ تلهينا الصناعة عن قوى الابداع التي وراءها. انا لا اقول لكم اقيموا في صوامعكم واعتصموا بقمم جبال بل اقول انزلوا الى ميادين الحياة ولا تنسوا روح الصومعة في التغلب على سخائف الحياة ، او روح القمة التي تشرف على السهل الفسيح

كذلك علمنا أنبياؤنا في قديم الزمان . وكذلك يجب ان نعلم العالم اليوم

تأسيس القاهرة

— ٢ —

بقلم الكابتن كرسويل استاذ الآثار الاسلامية بالجامعة المصرية
Capt. K. A. C. Creswell
ونقله الى العربية السيد محمد رجب بوزارة المعارف

﴿اسوار القاهرة وابوابها﴾ يمكن تتبع حدود سور جوهر في اكثر اجزاء دائرته بكثير من الضبط بفضل المعلومات التي امدّنا بها المقريزي ، ما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب النصر وباب البرقية ،فاننا ليس لدينا تفاصيل عنهُ

ولما كانت الاعمال الاولية قد تمت في اثناء الليل وبعجلة كبيرة فقد لحظ في الصباح التالي لوضع الاسس ان هناك اضطراباً في تخطيط القصر وان الخطوط لا تسير على استقامة . وكانت هذه بلا شك حال اسوار المدينة ايضاً . ومع ذلك فقد كوّنت مربعاً منتظماً تقريباً تواجه اضلاعه الجهات الاربع الاصلية . فيواجه الجانب الجنوبي منهُ الفسطاط ويسير الغربي محاذياً للخليج .ويواجه الشرقي المقطم والشمالي الخلاء . وكانت هناك سبعة ابواب كما يلي :

ففي الجنوب باب زويلة المزدوج الاقواس : وفي الغرب باب الفرج وباب السعادة : وفي الشمال باب الفتوح وباب النصر : وفي الشرق باب البرقية وباب القراطين الذي سمي فيما بعد بالباب المحروق

ولا يوجد الآن شيء من هذه الابواب ولكن يمكن تعيين مواقع الكثير منها بكثير من الدقة كما بين ذلك رافيس وكازانوفا

﴿باب زويلة الاول﴾ يمكن تحديد موقع باب زويلة الاول اعتماداً على ما رواهُ القلقشندي والمقريزي [١] من ان قسماً منهُ كان لا يزال موجوداً في عصره بالقرب من مسجد سام بن نوح . واذا اجتاز الانسان باب زويلة الحالي وسار تاركاً مسجد المؤيد على يساره فانهُ يجد نفسه امام سبيل تركي من العهد الاخير (سمي مدرسة العقادين على خريطة مصلحة المساحة $\frac{١}{٥٠٠٠}$) وفي ركن هذا السبيل القريب من باب زويلة باب صغير لمسجد سام بن نوح وهو يعطينا نقطتنا المحددة لموقع باب زويلة الاول

(١) « كان باب زويلة عند ما وضع القائد جوهر القاهرة بابين متلاصقين بجوار المسجد المعروف اليوم بسام بن نوح. فلما قدم المعز الى القاهرة دخل من احدهما وهو الملاصق للمسجد الذي بقي منه الى اليوم عقد ويعرف بباب القوس فتيامن الناس به وصاروا يكثرون الدخول والخروج منه وهجروا الباب المجاور له حتى جرى على الالسنة ان من مر به لا تقضى له حاجة . وقد زال هذا الباب ولم يبق له اثر اليوم » مقريزي جزء ٢ ص ٢٠٩

﴿ باب الفرج ﴾ لا يعرف بالضبط موقع باب الفرج وقد جمع كازانوفا ما ورد في المقريزي عن هذا الباب كما يلي

١ — « كان في الجانب الغربي من القاهرة وهو الجانب الذي يواجه الخليج الكبير بابان : احدهما باب السعادة والآخر باب الفرج »

وهناك اشارات اخرى في خطط المقريزي الى ان هذا الباب كان يقع في الجانب الغربي

٢ — « رَبْع السلطان خارج باب زويله بين باب زويله وباب الفرج وتعرف هذه البقعة الآن بهذا الاسم ويطلقون عليها اسم تحت الربع » ولا يزال تحت الربع موجوداً

٣ — « وفي منتصف جمادي الثانية ٨١٨ بدأوا بهدم السور الحجري بين باب زويله وباب الفرج »

ويضيف كازانوفا ان شارع سكة الشيخ فرج — الذي ربما كان تذكاراً لهذا الباب — موضح على خريطة القاهرة في عهد نابوليون (١٧٩٨) بجانب شارع تحت الربع بقرب الخليج

ومن ذلك نستخلص انهُ كان يقع بالطرف الجنوبي من الجانب الغربي وليس كما يضعه كازانوفا بالطرف الغربي من الجانب الجنوبي على عكس رواية المقريزي التي كررها في كتابه اربع مرات انهُ كان يقع في الجانب الغربي

ولنحاول الآن تعيين موقع هذه الزاوية من السور فاذا رسمنا خطًّا وهميًّا متجهاً الى الغرب من مسجد سام بن نوح فاننا نجد جنوبيه مباشرة شارعاً يسمى القسم الغربي منهُ سكة النبوية والقسم الشرقي شارع الاشراقية ، وعلى شمال هذا الخط الوهمي نجد عدداً لا يحصى من الشوارع الصغيرة المسدودة والازقة المغلقة بدلاً من ان تفتح على شارع سكة النبوية . فلماذا تقف كل هذه الشوارع والازقة الملتوية مقفلة عند هذا الطريق

اننا نرى انها تقف جميعاً امام سور جوهر الذي كان يمتد جنوبيها وان تخطيط الشوارع قد احتفظ بالنظام الذي كان عليهِ منذ ذلك الوقت الى الآن

ولدينا دليل آخر في شيء مشابه لهذا هو انهُ لا توجد فتحات مطلقاً في الجانب الشمالي من شارع تحت الربع الذي نعرف انهُ كان يسير خارج السور الجنوبي الذي انشأهُ بدر الجمالي ، وان كان هذا السور قد ازاله المؤيد منذ خمسمائة عام

فاذا قبل هذا الرأي ، وكان صحيحاً ، فان السور الجنوبي كان لابد أن يتصل بالسور الغربي في المكان الذي تشغله الآن محكمة الاستئناف ويكون موقع باب الفرج في هذه النقطة

﴿ باب السعادة ﴾ يضع رافيس باب الفرج وباب السعادة في الجانب الغربي ، ولكنهُ يجعل الباب الاخير بقرب الزاوية الجنوبية الغربية من المدينة . ولما كان المقريزي يتكلم عن ربع السلطان خارج باب زويلة ، بين باب زويلة وباب الفرج ، فمن المؤكد ان هذين البابين كانا متجاورين ، وان باب السعادة كان ابعد منهما ، وبمعنى آخر كان موضعه الى جهة الشمال اكثر من باب الفرج

ويضع كازانوفا باب السعادة بالقرب من الطرف الجنوبي للسور الغربي لما رواه المقريزي من ان هذا الباب قد سمي باب السعادة تيمناً باسم سعادة بن حيان الذي قدم من مراكش بعد ان بنى جوهر القاهرة ونزل بالجيزة . فذهب جوهر لمقابلته وتلا ذلك ان دخل سعادة بجيشه مدينة القاهرة من هذا الباب في رجب سنة ٣٦٠ (مايو سنة ٩٧١) وعسكر بها

ويرى كازانوفا ان سعادة لابدَّ قد عبر النيل الى الفسطاط على الجسر الذي كان مقاماً من المراكب ثم سار الى القاهرة من الجنوب ولدخوله من باب سعادة — الذي نعرف انهُ كان في الجانب الغربي — يرى كازانوفا ان هذا الباب لا بد كان قريباً جداً من الطرف الجنوبي لهذا الجانب

ولو كان سعاده بن حيان عازماً على دخول القاهرة من اول باب يلقاه في طريقه لكان هذا الاستنتاج صحيحاً

ولكننا نعلم انهُ قد امتنع من الدخول من باب الفرج وهو اول باب يلقاهُ

لذلك فنحن لا نوافق كازانوفا على رأيه . اذ من الواضح انهُ قد اختار باب سعادة لانهُ اصلح الطرق الموصلة الى قصر الخليفة او الى القصور الاخرى التي كان يدعوه الواجب الى التوجه اليها

ولا يزال يوجد شارع يسمى درب سعادة يحفظ لنا ذكرى هذا الباب ونظراً لان هذا الشارع يسير موازياً للخليج من باب الخلق الى مسجد السلطان جقمق فربما كان موقع هذا الباب الى جهة الشمال بالقرب من هذا المسجد

﴿ باب الفتوح الاول ﴾ يقول المقريزي انهُ كان لا يزال يوجد في عصره من باب الفتوح الاول اجزاء من عقده وعضادته اليسرى وبعض أسطر من الكتابة الكوفية وان هذه الأجزاء كانت على رأس حارة بهاء الدين من جنوبيها دون جدار الجامع الحاكمي (١)

وقد بدىء في بناء هذا المسجد في رمضان سنة ٣٨٠ (نوفبر — ديسمبر ٩٩٠) وكان خارج أسوار ذلك العهد

ولذلك فباب الفتوح الاول لا بدَّ كان يقع قريباً من ركن هذا المسجد الغربي

﴿ باب النصر الاول ﴾ كان يقع باب النصر الاول قرب المكان الذي يشغله الباب الحالي . وقد روى المقريزي (٢) انهُ رأى جزءًا من جانبه المواجه للركن الغربي للمدرسة القاصدية حيث كانت توجد رحبة تفصل هذه المدرسة عن البابين الجنوبيين لمسجد الحاكم

وهذه المدرسة لا توجد الآن ولكن يظهر على خريطة القاهرة في عهد نابليون التي رسمتها البعثة العلمية سنة ١٧٩٨ مسجد يسمى مسجد الشيخ قاصد . فلذلك نرى ان موضع هذا الباب كان بشارع باب النصر قريباً من الركن الجنوبي لمسجد الحاكم . ويظهر ان تخطيط هذا الشارع واتجاهه بقي على حاله ولم يتغير

(١) المقريزي جزء ٢ ص ٢١١ (٢) المقريزي جزء ٢ ص ٢١٠

﴿ باب البرقية ﴾ ان تحديد موقع باب البرقية امر صعب التحقيق لأن الفصل الذي عالج فيه المقريزي ابواب القاهرة يقف عند عنوان باب البرقية

ويقول كازانوفا ان الفصل الخاص بباب البرقية غير موجود في جميع مخطوطات المقريزي التي رجع اليها في باريس بل ان بعض هذه المخطوطات لا يوجد به حتى عنوان هذا الفصل

ولا يوجد الآن باب بهذا الاسم . كما انهُ لا يوجد على خريطة القاهرة في عهد نابوليون سنة ١٧٩٨ باب بهـذا الاسم ايضاً . اضف الى ذلك اننا لا نعرف بالضبط موقع الجزء الشمالي من السور الشرقي

﴿ باب القراطين ﴾ يمكن تعيين موقع باب القراطين تعييناً أقرب الى الضبط نظراً لأن موقع الباب الذي حلَّ محله لا يزال معروفاً باسم الباب المحروق (١) وقد اطلق عليه هذا الاسم بسبب ما فعله سبعمائة مملوك هربوا من القاهرة عندما علموا بقتل الفارس الامير اقطاي في ٢١ شعبان ٦٥٢هـ (٦ اكتوبر ١٢٥٤م) ففي اثناء الليل تركوا منازلهم وتقدموا نحو هـذا الباب فوجدوه مغلقاً كما كانت العادة في ذلك العصر اذ كانت تغلق ابواب مدينة القاهرة في الليل . فأوقدوا النار في الباب « حتى سقط من الحريق » وخرجوا منه ؛ ومن ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق

ونظراً لان المقريزي يخبرنا انهُ كان يوجد حتى سنة ٨٠٣ هـ (سنة ١٤٠٠—١م) جانب كبير من السور الذي بناه جوهر بالطوب بين باب البرقية ودرب بطوط . وان هـذا السور كان يبعد خمسين ذراعاً خلف سور صلاح الدين

فلذلك نقرر ان موقع باب القراطين الاول كان على مسافة خمسين ذراعاً من الباب المحروق الحالي واذا رسمنا خطّاً متجهاً نحو الشرق من مسجد سام بن نوح الى نقطة تقع تماماً على امتداد الموقع الذي قررناه آنفاً لباب القراطين الاول فمن المحتمل ان نكون قريبين جداً من سور القاهرة

ومن المهم ان يلاحظ ان هـذا الخط يمكن رسمه بين نهايات عدد من الشوارع والازقة المغلقة التي تقع على جانبيه كما رأينا عند ما رسمنا خطّاً متجهاً الى الغرب من المسجد نفسه ، ولا يخترقه الاَّ شارع واحد متعرج هو شارع حيضان الموصلي الذي يقع فيه مسجد الامير سودون القصروي

***

﴿ باب القنطرة ﴾ بعـد ان مضى عامان على تأسيس القاهرة اضاف جوهر باباً آخر هو باب القنطرة(٢) الذي سمي باسم القنطرة او الجسر الذي أقامه فوق الخليج ليوصل المدينة بميناء المقس حين تقدم القرامطة في شوال ٣٦٠ هـ (يوليو — اغسطس ٩٧١م)

ونضيف نحن ان جسراً يدعى القنطرة الجديدة كان يوجد هنا حتى ردم الخليج في نهاية القرن

(١) المقريزي جزء ٢ ص ٢١٣

(٢) المقريزي ص ٢١٣ جزء ثان

التاسع عشر . وقد جمع كازانوفا ما ورد بالمقريزي عن هذا الباب . واني اذكره هنا مع تغيير يسير في الترتيب حتى يكون اقرب الى الوضوح والتسلسل المنطقي

١ — « ان خط باب القنطرة كان يعرف باسم المرتاحية والفرحية » وهذا الحي الأخير تبعاً للمقريزي هو نفسه سوق أمير الجيوش

٢ — «ويوصل سوق امير الجيوش الىباب القنطرة» ويخبرنا ابو المحاسن ان اسم امير الجيوش قد غير الى مرجوش فنستنتج من ذلك ان باب القنطرة كان يقع في النقطة التي يقطع فيها هـذا الشارع الخليج . ولا يزال يطلق على هذا الشارع الاسم الاخير أي مرجوش

٣ — « والى جانب باب الفتوح يقع طريق يوصل لحارة بهاء الدين وباب القنطرة » وهذا الحي تبعاً للمقريزي يقع بين باب الفتوح القديم وباب الفتوح الجديد أي بين السورين القديم والجديد . وفي الحقيقة يسير شارع بين السورين متجهاً الى الغرب من الركن الجنوبي الغربي لمسجد الحاكم حيث وضعنا باب الفتوح الأول

وأهم من ذلك انهُ يميل بزاوية قائمة عند طرفه الغربي ليلتقي بسوق مرجوش عند نفس النقطة التي قررنا انها كانت موضع باب القنطرة . وفي نفس هذا الموضع في الجانب الشمالي من نقطة اتصال الشارع بالخليج وجد باتريكولو اثناء عمليات الحفر التي باشرها منذ اثني عشر عاماً قاعدة البرج الشمالي للباب مع واجهة نصف دائرية شبيهة بالابراج التي تقع الى جانب باب الفتوح وباب زويلة

ويرى في القسم الخلفي من البرج الجزء الاسفل من سلم حلزوني والى الشمال منهُ وعلى بعد كبير من سطح الارض الحالي يوجد الجزء الاسفل من حائط حجري يسير شمالاً موازياً لشارع الخليج المصري او بمعنى آخر موازياً للخليج القديم

***

﴿ باب حديدي منقول من الفسطاط ﴾ لحظ ريتمر انهُ كما كان العرب مغرمين عند انشائهم مدناً جديدة في العراق بنقل ابواب المدن القديمة الى المدينة الجديدة فكذلك فعل جوهر حين انشأ القاهرة اذ نقل اليها باباً حديديًّا من قصر الامارة بالفسطاط . ولكننا لا نعلم بالضبط اين وضع هذا الباب . ومن المحتمل ان جوهر كان يقصد بذلك ان ينافس المهدية التي كان لها كما روى البكري بابان من الحديد . وربما كان اشهر الامثلة لوضع ابواب حديدية للمدن هو ما يأتي : —

استولى الخليفة المعتصم على عامورية سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨م) بعد حصار دام ٥٥ يوماً سويت بعده المدينة بالارض ثم اخذ باب المدينة الى سر من رأى وبعد ان هجرت سر من رأى اخذ الباب الى الرقة . وفي سنة ٣٥٣ هـ (٩٦٤م) ارسله سيف الدولة الى القرامطة ليسد حاجتهم الى الحديد . ثم نسمع بعد ذلك ثانية انهُ استخدم في حلب . استخدمه الملك الناصر يوسف ٦٥٤ هـ (١٢٥٦م) عند ما اعاد اصلاح باب قنسرين . وعند ما اخذ المغول حلب ١٢٥٨ كان هذا الباب اول ما

نهبوه . ولكن استردهُ منهم بيبرس عند ما اخذ المدينة . ثم نزع الصفائح الحديدية التي كانت بواجهته وأرسلها هي والمسامير الكبيرة المستخرجة منهُ الى القاهرة

***

﴿ الخندق ﴾ رأينا فيما سبق ان موقع القاهرة قد اختير لغرض سريع هو تغطية الاماكن القريبة من المدينة الثلاثية الفسطاط والعسكر والقطائع وحمايتها من غارات القرامطة الذين كانوا يغيرون وينهبون ويخربون السهل ويهددون الفسطاط

فتنفيذاً لهذه الخطة الدفاعية امر جوهر بحفر خندق كبير عمقه واتساعه عشرة اذرع كان يتجه غرباً من المقطم الى منية الاصابغ . وقد بدىء فيهِ في شعبان ٣٦٠ هـ (يونيه ٩٧١م) وتم حفره سريعاً وقد حفظ لنا التاريخ خبر غارتين للقرامطة عقب ذلك بقليل احداهما في ربيع الاول ٣٦١ هـ (دسمبر ٩٧١) والثانية في ٣٦٣ هـ (٩٧٤م) وقد استطاع القرامطة ان يعبروا الخندق في الغارة الثانية ولكنهم لم يستطيعوا ان يستولوا على القاهرة

***

﴿ الطوب المستعمل في بناء الاسوار والابواب ﴾ ليس لدينا مع — الاسف الشديد — تفاصيل معمارية عن الاسوار والابواب التي بناها جوهر الا ما رواه المقريزي مما سبق ذكره من ان اللبن الذي بنى منهُ ذلك الجزء من السور الذي كان قريباً من باب البرقية كان مقاسه ذراعاً × $\frac{2}{3}$ ذراع

وقد كان استعمال الطوب الكبير الحجم من خصائص العمارة قديماً في فارس وبلاد النهرين

ويقول أشر ان الطوب المبني منهُ السور القديم لمدينة نينوى كان متوسط مقاسه ١٥ بوصة وسمكه ٥ بوصات . كما شاهد بالقرب من اصفهان بقايا سور معبد قديم من معابد النار كان مبنيًّا بطوب كبير الحجم ايضاً

ورأى Ferrier طوباً محروقاً في القهان مقاسه ٢٠ بوصة × ١٥ بوصة في خرائب بلخ . بل وجد أحياناً قوالب من الطوب طولها تقريباً ثلاثة اقدام وسمكها اربع بوصات مبعثرة في قلعة فرح في سستان وذكر ايضاً طوباً تبلغ الواحدة منهُ ياردة مربعة في رود بار وپولكار على نهر هلمند

وذكر الكولونيل ث. ا. ييت انهُ شاهد طوباً كبير الحجم مستوي السطح مساحته قدم مربع وسمكه بوصتان او ثلاث بوصات في اكوام وخرائب بستان بين مرجان وجلال أباد على نهر هامون وكذلك في جسر متخرب ذي عقدين يسمى تختپل بالقرب من پلجي

وشاهد ايضاً في جومش تپي (او التل الفضي) — وهو تل يقع على شواطىء بحر قزوين يبلغ ارتفاعهُ عشرين قدماً تقريباً ومملوء بقوالب الطوب المهشمة — بعض هذه القوالب ومتوسط حجمها ١٤ بوصة مربعة × $3\frac{1}{2}$ بوصة

وذكر الكولونيل ايضاً اربعة جسور هي پل خاتون وماروشاك وترپل وپل خشتي (عند التقاء

نهر الكوش بنهر مرغاب) مبنية جميعها بالطوب المستوي المحروق الكبير الحجم الذي مساحة الواحدة منهُ قدم مربع

وذكر أيوان سميث طوباً محروقاً مساحته ١١ بوصة مربعة بقلعة الفتح في سستان كما تكلم عن خزان في ناد على مبني بالطوب الكبير الحجم . وتقول Lady Shiel ان معاقل ڤيرامين التي تبلغ مساحتها نصف ميل مربع ومحصنة بأبراج على مسافات قصيرة قد بنيت بلبن كبير الحجم . ومع انهُ لا يوجد اي شك في قدم هذه الامثلة فانهُ لا يمكن تحديد تاريخها بالدقة . ولكنها مع ذلك تدلنا على ان استعمال الطوب الكبير في البناء كان واسع الانتشار

***

ولنذكر الآن بعض الامثلة المعروفة التواريخ : فقد بنى السور الداخلي لمدينة المدائن بفارس (طيشفون) على اساس مكوّن من مداميك من ثلاث طبقات من الطوب المحروق المطبوع عليهِ اسم بختنصر (٦٠٤—٥٦١ ق . م.) المأخوذ من خرائب بابل . وكان مقاس هذا الطوب ٣١ الى ٣٣ سم مربع ويتراوح سمكه من ٦ الى ٧½ سم

اما طوب السور الخارجي وبقية السور الداخلي فيبلغ حوالي ٣٦ سم مربع وسمكه ١٣ سم .

كذلك الطوب الذي استعمل في بناء ايوان كسرى بالمدائن الذي اثبت العلامة هرتسفلد انهُ من عمل شابور الاول (٢٤١—٢٧٢م) فان مقاسه ٣٠—٣٢ سم مربع وسمكه ٨ - ٩ سم وفي تل مسماي التي تبعد عن المدائن بمسافة يقطعها الراكب في ساعتين وجد الكومندر جون لبناً مساحة الواحدة منه ١٤ بوصة مربعة ونوعاً آخر كبير الحجم من المحروق في القهاش . وبالقرب من دستجرد وجد هرتسفلد سور مدينة مبنيًا بطوب مساحتهُ ٤٢ سم وسمكهُ ½١٣ سم . كما ان اسوار مدينة بغداد المستديرة التي اسسها المنصور العباسي سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢م) قد بنيت بالطوب المجفف في الشمس وبعضه مربع طول كل ضلع من اضلاعهِ ذراع وزنتهُ مائتا رطل . وبعضه طوله ذراع وعرضه نصف ذراع

وقد بني السور المحيط بمسجد الرقة سنة ١٥٤ هـ (٧٧٠ م) بلبن مساحتهُ ٤٣ سم مربع وسمكه ١١ سم

اما احدث الامثلة المعروفة لنا فتوجد بشرجاز في ميل نادري في مئذنة يرجع عهدها الى القرن الحادي عشر او الثاني عشر مبنية بالطوب المحروق الذي تبلغ مساحته ١٤ × ١٢ × ٢ بوصة

***

لذلك يمكننا ان نقرر اعتماداً على الحقيقة المعارية الوحيدة المعروفة لنا عن سور جوهر — وهي حجم الطوب — ان هذا السور مظهر من مظاهر تأثر فن البناء في مصر بالفن الفارسي حيث ان الطوب الذي كان يستعمل بمصر الى ذلك العهد كان معتدل الحجم

مصطلحات علم النفس

ومشكلة تعريبها

لمحمد مظهر سعيد
استاذ علم النفس في معهد التربية وكلية اصول الدين

تناولت هذا الموضوع الهام في عدة مقالات بينت فيها كيف صارت لغة هذا العلم خليطاً غريباً من كل صنف . من فلسفي قديم ينوء تحت عظمة مجده وتاريخه القديم . الى دخيل من علوم اخرى لم ترد عاريته . الى حديث موضوع لم يجف مداده بعد . وعرضت نماذج متعددة لكلمات تخيرتها من الوف مصطلحات هذا العلم في اللغة الانجليزية تظهر بأجلى وضوح مبلغ اختلاف اللغات الاجنبية — بل اللغة الواحدة — والمدارس السيكولوجية في تحديد مدلولها ، ومبلغ تضارب العلماء المصريين من رجال التعليم الذين درسوا علم النفس دراسة منظمة ودرسوه للطلاب ورجال الادب الذين لم يدرسوه دراسة تعمق وتخصص ، في نقلها الى العربية . او اقتصار الواحد منهم على لفظ او مدلول واحد يستعمله في جميع مؤلفاته وكتاباته . كل هذا لاستطرد الى النقطة الجوهرية التي دفعتني الى خوض هذا المضمار . وهي صعوبة نقل هذه المصطلحات الى العربية ومبلغ العناء الذي سيجده المجمع اللغوي في تأدية هذه المهمة اذا حاول ان يقوم بها وحده على مكانة اعضائه من اللغة وتملكهم لناصيتها . ذلك لأن الكثير من هذه المصطلحات يصعب تحديد معناه بكلمة عربية واحدة . ويشق نقله على المترجم الذي يعتمد الاعتماد كله على قواميس اللغة ومعاجمها وألفاظها المثبتة فيها ، من غير ان يدرس جميع فروع علم النفس دراسة محكمة مستفيضة تتناول جميع ادواره ونظرياته ومدارسه المختلفة وآراء علمائه واحداً واحداً . واذا كان هذا في الكلمات العادية المألوفة التي يستخدمها المدرسون والطلاب كل يوم والنوع الواحد من علم النفس الذي يدرس في مدارسنا وهو علم النفس التعليمي ، فكيف يكون الحال في الكلمات البعيدة كل البعد عن القراء العاديين او التي تتناول فروعاً اخرى في علم النفس لم تصل الى علمهم بعد ولم تدخل في ميدان تأليفهم واطلاعهم . وهي داخلة لا محالة اذا اردنا ان ننهض بهذا العلم ونحله المكانة اللائقة به بين العلوم كما فعل الغرب ؟

***

وما بالك بالكلمات الجديدة التي يضعها العلماء لتبيان ظاهرة خاصة درسوها هم ولم تصل بعد الى علم سائر المشتغلين بالعلم ، ولم تثبت في قواميس اللغات ككلمة Abience التي وضعها Holt للدلالة

على النزعة لتجنب زيادة التهيج العصبي او كل ما يهيج الجهاز العصبي الى اكثر من طاقته الطبيعية . وعكسها كلمة Adience للدلالة على النزعة او الاستعداد لاستبقاء الحالة المهيجة

والكلمات التي لا تفيد ترجمتها الحرفية شيئاً من معناها على الاطلاق لانها حددت تحديداً خاصًّا في لغة مدرسة من المدارس السيكولوجية . فعبارة Absolute Factor التي تدل في لغة مدرسة Gestalt تعلم الحيوان اختيار احد شيئين لميزة يمتاز بها عن الآخر ، لا تفيد اي معنى اذا ترجمت حرفيًّا (العامل المطلق) ولذلك نرى ان نترجم (عامل التعلم المطلق) . ومثلها عبارة Problem Achievement الدالة على الطرق التي يتسنى بها للانسان ان يقوم بكل عملية أولى من نوعها . ويجب ان نترجم (مشكلة العملية الاولى) لان الترجمة الحرفية قاصرة . والصفات التي تلحق بالمصطلحات فتحدد معناها تحديداً خاصًّا تحتاج الى شيء من التفسير فالفعل العادي Habitual Action يختلف عن الفعل الآلي Mechanical Action في ان الاول يقوم به الانسان من غير ضرورة بحكم تعوده القيام به في احواله المناسبة كتدوير زنبرك الساعة كلما أخرجت من الجيب. والثاني يقوم به الانسان بطريقة آلية من دون تفكير او شعور كامل به لتعوده او اتقانه كربط الحذاء مع ان الكثير من الناس لا يفرقون بين الصفتين — عادي وآلي . وهذان بدورهما لهما معنى آخر غير معنى mechanistic و automatic

والكلمات الاخرى التي اذا ترجمت حرفيًّا لم تجعل المعنى غامضاً كالسابقة فحسب وانما هي قد تضلل القارىء . فنحن نطلق على الصورة الذهنية التي تحدث في العقل على اثر تأثره بمؤثر ما مدة طويلة after-image فاذا كانت مطابقة للاصل تماماً Positive او Homochromatic (من نفس اللون) اذا كانت لوناً .واذا كانت عكس الاصل تماماً negative وفي حالة الالوان تسمى مكملة Complementary فاللون الاخضر مثلاً يعطي بعد زواله صورة حمراء . ولا معنى لترجمتهما بالصورة الموجبة او السالبة اذ لا محل للحالة الايجابية او السلبية و الأفضل ان نترجمهما بالصورة المتخلفة المطابقة او العكسية او المكملة

***

وكذلك اسماء الأجهزة والآلات التي تستطيع اللغات الافرنجية ان تضع لها كلمة واحدة ولها في الأصول اليونانية واللاتينية خير معين فالجهاز Algesimeter هو آلة قياس مقدار الألم اللمسي الناتج من ضغط الجلد بشيء مدبّب . ولا نستطيع ان نختصر الترجمة فنقول مقياس الألم لان هناك جهازاً آخر كالسابق يقيس النهاية القصوى للألم اسمه Algometer والأفضل ان نسميهما باسميهما الافرنجيين الجيزمتر والجومتر. والكلمات التي لا يمكننا ترجمتها حرفيًّا كعبارة All-or-none التي تطلق على طائفة من الاحساسات الغشومة المختلطة غير المحدودة وهي تسمية يرتاح اليها العالم الفسيولوجي السير هنري هيدالك اكثر من كلمة propopathic وخير ترجمة لها الاحساسات الغشومة

والكلمات القديمة المعروفة التي اختلفت المدارس الفلسفية والسيكولوجية في تحديد معناها. مثل كلمة Apperception فقد استخدمتها مدرسة هربارت الالمانية للدلالة على تمثيل العقل للمعلومات وهضمه لها. والمدرسة الانجليزية التجاريبية Empirical ومن اقطابها ستاوت وجيمس وسلي ودارو اعتبرتها مجرد اعطاء الآثار الحسية او المواقف الجديدة معنىً محدوداً مستمدّاً من التجارب القديمة او من كتلة المدركات القديمة وزادت مدرسة هوفدغ وفنط الالمانية على هذا اندماج المواقف الجديدة بعد تحديد معناها بكتلة الآثار القديمة المماثلة لها حتى تصير جزءاً منهما . ولكن الرأي الحديث يعتبر تحديد المعنى ادراكاً حسياً . اما هذه العملية فهي تثبيت الموقف في الذهن بعد تحديد معناه عن طريق اندماجه فيما يماثله في المدركات القديمة ولذلك ترجمتها (تثبيت المدركات الحسية)

***

ولعلَّ القارىء المنصف بعد هذا البيان يغفر لنا ما سيجده من نقص في معجمنا لمصطلحات علم النفس الذي اضعه انا والسيدة حرمي لنؤدي شيئاً من الواجب نحو اللغة التي نقدسها والعلم الذي وقفنا حياتنا عليهِ . أما مجلة « المقتطف » الغراء فلا استطيع أن أفيها هي وصديقي العزيز الاستاذ فؤاد صروف حقهما من الشكر . جعلهما الله منارة للعلم . ولهما من العلماء كل تقدير واعجاب

السهم والاغنية

للشاعر الاميركي لونغفلو

اطلقت سهماً الى الفضاء فهوى على الارض حيث لا أدري

انطلق السهم بسرعةٍ فعجز البصر عن تتبعهِ في خلال انطلاقهِ

وارسلتُ اغنية في الهواء فوقعت على الارض حيث لا ادري

اذ من يملك بصراً حادّاً يستطيع ان يتتبع امواج الاغنية

وبعد انقضاء زمن طويل ، وجدت السهم سليماً في شجرة من البلوط

والاغنية من اولها الى آخرها ، وجدتُها ثانيةً في قلب صديق

العوامل المعنوية

ووحدة الامم

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

﴿الفن والوطنية﴾ لا ادلّ على ان الوطنية شعور داخلي وفيض معنوي من التفاعل القائم بين الفن وحب الوطن ، فكم من وطنية خاملة ايقظتها عبقرية الشاعر وقومية ذابلة انعشتها ألحان المغنين ، وكم من فن ميت احيته الانتصارات في الحروب وادب صامت انطقته اعمال الابطال المجددين ، والفن من الاصل ميزة وطنية خاصة تتفرد بها الامة بل هو عصارتها والافراز الداخلي من غددها الصُم الذي يوقظ انتباهها الى نفسها وشعورها بحوزتها ، في حين تكون العلوم والمعارف وقفاً على جميع الشعوب ، فنرى العامل الميكانيكي في الحجاز مثلاً يتلذذ بدرس السيارة وتفكيكها والاطلاع على سرها كما يتلذذ العامل في سويسرا ولكنهُ لا يرى لذة في شعر السويسريين كما يراها ابناؤها . ذلك لان الفن نتيجة انفعالات الامة مما اصابها من الاختبارات الخاصة بها على ظهر سفينة الحياة ، فاذا كان البحر هادئاً كان الفن سهلاً سلس القياد والاَّ كان هائجاً مضطرباً تتخللهُ الانقلابات والثورات ، فلا عجب والحالة هذه ان يكون كبار اهل الفن من كبار الوطنيين وذلك للمهمة الروحية التي يقومون بها من الافصاح عن الهواجس التي تجول في افئدة الامة التي ينتمون اليها . قال الاستاذ (بايندر) وتتوقف عظمة اهل الفن على طاقتهم ان يقدموا للمجتمع موضوعات طفحت بانفعالاتها انفسهم وان يشرحوها للقوم من وجهة نظرة الشريك المساهم لا من وجهة نظر المشاهد المحايد ، يعني اذا اراد الفنان والاديب ان يفصحا عن مواهبهما خير الافصاح فعليهما ان ينتخبا الموضوعات المعاصرة جهد الطاقة ، وهذا هو سر الفن جميعاً ، وعليهما ان يعرضاها من الوجهة الوطنية لان روح الامة تتطلب الافصاح والتجلي بطريقتها الخاصة واسلوبها الممتاز

وحدث لنا اننا لما كنا في الولايات المتحدة في سنة ١٩٢٤ دعينا الى حفلة اقامتها بعثة هندوكية في احد مسارح نيويورك وفيها شنف مسامعنا اعضاؤها بمنتخبات روحية من اغاني (الفيدا) الشعرية الجيدة مع رقص مقدس غاية في الاحكام كانت تتوسل به الراقصة الى الآلهة الهندوكيين ، وكان الى جانبي عين من اعيان الاميركيين الحريصين على العرب ونهضتهم فقال لي اذا كان عندكم فن من الفنون الجميلة فهاتوه الى هنا لانهُ يكون خير دعاية تبثونها لقضيتكم ولاظهار العرى المعنوية التي تربط افراد امتكم بعضهم ببعض وتدلون الاجانب بواسطته على ما في بلادكم من الذخيرة الروحية الادبية . فاذا كان هذا فعل الفن في ايقاظ اعجاب الأجنبي بنا فما أحوجنا اليهِ في ايقاظ اعجابنا بأنفسنا — بوطننا وبجدودنا وبأوضاعنا وتاريخنا

ولما كانت الوطنية في الاصل كما قلنا شعوراً داخلياً متأصلاً في اعماق النفس فهي تحتاج الى الفنان لينصح عنها ويبرزها بصورتها الفتانة وثوبها القشيب ، وهنا يتجلى فضل اللغة على النهضات الوطنية لانها هي المادة التي يستعين بها الفنانون من أهل الادب . وقد قال أهل التتبع من علماء فلسفة التاريخ ان الامة التي ليس لها شعراء وملحنون وكتّاب متأجِّجون وغيرهم من أهل الفن تموت سراعاً ما لم تحصل على ما يعادلهم بطرق اخرى

ونكون قد اغفلنا مسألة جوهرية في بحثنا هـذا اذا نحن لم نشر هنا الى بعض المتحجرين منا ممن جعلوا ديدنهم محاربة الفن، وقد يتلمس لهم المرء بعض العذر عند ما كانت ستائر الجهل مسدولة على النهضات الحديثة في ديار الغرب والادوار الخطيرة التي مثلها الفن فيها ، ولكن ما عذرهم اليوم والامم تجمعهم شبكة وثيقة من ثقافة لا يتعذر على أحد ان يحيط بمجملاتها. ثم ان هذه الحياة ثقيلة على الرجل الحسّاس مع كل هـذه الفنون الخلابة ، فليت شعري ماذا يكون الحال لو نجح هؤلاء المتحجرون بتجريدنا منها ؟ ألا يصبح المجتمع حينئذٍ شبيهاً بحلقة درس عقيم او مجلس نواب جامد غلب على اعضائه النعاس ؟

﴿ المجد والوطنية ﴾ تزداد الامة تصلباً وتماسكاً بقدر ما كان لها من مجد غابر تمت اليه بأنسابها ، فالابطال المتقدمون من افرادها ممن دوخوا الممالك ومصروا الامصار ووطئوا بسنابك الخيل عروش الملوك هم النواة التي تجتمع حولها مشاعر الافراد وتتعاون بواسطتها عقولهم وتخضع لها ارادتهم . وكذلك شأن من كان لها من العلماء المبرزين والمخترعين المتفوقين والفنانين العبقريين وسائر الرجال من افرادها ممن تركوا وراءهم في المجتمع المادي والعقلي والروحي دوياً وأثاروا عاصفة من الدهشة والاعجاب ، وقد كان للخلفاء الراشدين في هـذا المضمار ولمن اختاروا من اهل القيادة والزعامة من الاثر في تكوين العرب خاصة والمسلمين عامة ما لا يتطلع الدهر الى محوه . وكذلك الحال في تلك الشموس التي أنارت حندس الليل في القرون الوسطى بعلمها وأدبها وفنها من أبي الطيب المتنبي وابي العلاء المعري وابن رشد وابن تيمية الى ابن خلدون ، ومما نورده من الامثلة الحديثة في العالم العربي على شأن الرجل العظيم في تكوين الأمم ان الملك فيصلاً أفاد الجامعة العربية ليس في حياته فقط بل بعد مماته ايضاً . فالمآتم التي اقيمت له في طول البلدان العربية وعرضها وعُدِّدت فيها مناقبه والمثل الاعلى الذي وضعه نصب عينيه أثارت موجة من الانتباه الى القرابة بينها لم يشهد التاريخ مثلها منذ دهور

ولا مراء ان الحضارة العربية التي اسبطرت واخضرَّ عودها في الشام والاندلس ومصر والعراق والفتوحات التي طوقت اوربا من جانبيها الشرقي والغربي ما فتئت موضوع شعرائنا وكتّابنا وروّاد الاصلاح فينا منذ دبَّ فينا وعينا القومي . ذلك لأن تذكير الامم بمجدها الغابر بصور معقولة هو اشبه شيء بتوجيه نظر الفرد الى عظمة آبائه وجدوده يولد الأنفة واحترام النفس والابتعاد عن الذلّ والمسكنة

﴿ الالم والوطنية ﴾ رأينا البلدان المغلوبة على امرها والخاضعة للمصالح الاجنبية والمعرضة براثنه الاستعمار تشعر بالكثير من الاشتراك في العواطف التي تغلي في صدور ابنائها . فاذا كان وراء هذا العامل السلبي القائم على الكراهية والنفرة من المستعمرين الطفيليين عوامل اخرى ايجابية من العوامل الوطنية التي عرضنا لها ازداد تأثيره فكان من اكبر الدواعي الى توحيد الجبهة ، لا جرم اننا رأينا المحنة التي تعانيها فلسطين من وعد بلفور الجائر مثلاً تحدث في الاقطار العربية الاخرى استياء يبلغ حد المشاركة ، وكذلك الحال في الظهير البربري الذي اعلنته فرنسا في المغرب الاقصى لفصل البربر عن اخوانهم العرب ، وقد امتلأت الصحف السيارة بالاحتجاجات على المستعمرين من أجله وعقدت الاجتماعات في شتى البلدان لاظهار الصخب والسخط مما دلّنا على شدة التماسك بين أبناء العربية . ومما لحظه علماء الاجتماع ان الافراح المشتركة هي مثل الدواعي المؤدية الى الشعور بالمجد تسبغ على الوطنية حلة من الزهو والابهة في حين تلقي عليها الآلام المبرحة ستاراً حالكاً من نكد وغم وتنفث فيها ما دعاه الاستاذ (بايندر) شعوراً تصوفيّاً من حيرة واسرار ، ويصاب أهل الآلام بمرض الاكثار من التشكي قد يبلغ حدّ (الهستريا) في المرأة المصيبة مع اقلال من العمل يجعل صاحبه في حكم المقعد ، ولحظنا في بعض الأحيان افراطاً عظيماً جدّاً في التشدق بالعظمة المدفونة تحت الثرى والتمدح بالماضي والافاضة في ذكر محامد الجدود حتى ضاق صدرنا كما يضيق صدر كل احد بالفقير الحافي الذي يجعل ديدنهُ في الحياة التغني بما كان «المرحوم» جده من الاحذية ! وليس من مصلحة الامة في شيء ان نجعل المثل الاعلى للنشء الحديث الرضى بالانتساب الى العظماء فقط

اننا نمجد الآباء والجدود ونبني على محامدهم الصحيحة وطنيتنا الناهضة ولكننا لن نعبدهم ، ويكون فارغاً من كان خالياً من جميع المزايا الاّ ما يدعيه من كرم المحتد

ولعلّ الموسيقى العربية وما فيها من أنّات وآهات وبكاء واحزان ورجيع وحنين هي المدرهُ المعبر عن الالم المتأصل في شعوب العالم العربي ، وقد ينحط هذا التوجع في بعض المغنين حتى يصير مخنثاً ويفقد جميع اسباب الرجولة ، ولم يصبّ فننا الموسيقي بمصيبة أكبر من تلك البدعة المبتذلة الثقيلة المعنعنة الباردة التي يكررها المغني في كل محفل وهي « ياليلي » فليت شعري متى يزول الظلام عن الافق فيلمع الشرق بنور الفجر ليصبح المغني « يا نهاري » ؟ والالم نافع ما بقي حافزاً للعمل منبهاً لعزة النفس ولكنهُ متى صار اداة للتسول والاستجداء والاستعطاف وعلامة على القنوط فهو حشرجة الصدر ساعة الموت . وقد بقيت الموسيقى التركية الى السنين الاخيرة على هذا النمط ولكن الانقلاب السياسي الخطير الذي تناول تركيا من بعد الحرب اخذ يحدث أثراً ظاهراً في ألحانها فلا يمضي زمن طويل حتى تتخللها اصوات شديدة تردّد اصوات قعقعة السلاح في صقاريه وكوك صو ويتلألأ منها في صدور سامعيها لمعان ينعكس عن وميض سيوف الغازي وقنابله المتفجرة

وقد عاب الاستاذ (بايندر) على اهل البلدان الضعيفة المرهقة استعمالهم التورية والتمويه في كلامهم

وتجنبهم الصراحة حتى في ابسط الامور فلو انك سألت الواحد منهم عن صحة زوجه او عن عمله او عن الحدث السياسي المنتظر اجابك جواباً مطلقاً من كل قيد وربما اصحبه باشارة ذات معنى او بهز الكتف . وبديهي ان مثل هذا الموقف يحمل الظالم على حسبان المظلوم بليداً او غداراً في حين يتهم المظلومون اسيادهم بكل انواع الجناية ويميلون كما قال (نيتشه) الى التخلق باخلاق العبيد لحماية انفسهم وللاحتفاظ بالبقية الباقية من حرمتهم القومية [1]

وقد لحظنا شيئاً آخر في بعض بلدان العالم العربي غير ما اشار اليه الاستاذ (بايندر) وهو ما يدعو الى الاشمئزاز كثيراً ويستحق اصحابه الاستنكار الشديد لانه يطبع في نفس الاوربي فكرة سيئة عن المشتغلين بالقضايا العامة ، فقد اعتاد بعض ابناء البلاد انهم اذا ظهروا على المسرح امام الجمهور ابدوا من التطرف في الوطنية الشيء الكثير فهم لا يفاوضون مثلاً — اذا كان هنالك حديث مفاوضة — الاّ اذا القى الاجنبي بقضه وقضيضه في البحر ، ولكنهم متى خلوا بهذا الاجنبي نفسه اظهروا من اللين « والكياسة » ما كانوا يعدونه على المسرح خيانة عظمى في الآخرين ، فالخروف الذي رفضوه في الوليمة أمام المدعوين الآخرين بحجة قلة الغذاء والدسم قبلوا في الخلوة محله كسرة من الخبز ، ومثل هذا الموقف المداجي المخزي يدعو المحتل الى تجنب الامة والطمع في الافراد يقوم بمساومتهم للحصول على ما يعتقد انه متعذر مع الشعب

﴿ الوطنية تعصب للوطن ﴾ نحن نعترف هنا بمنتهى الصراحة ان التربية الاممية الحرة وما يلازمها من نظرة سمحة عامة وعقيدة تعاونية مشتركة هي تربية لا تتفق والتعصب على انواعه في شيء — سواء في ذلك التعصب الديني والتعصب الجنسي والتعصب الوطني — ولو كانت الامم سمحة لا يفكر بعضها في استثمار بعض وتسخيره لغاياته الحقيرة لفقدت الوطنية ركناً من اعظم الاركان التي تعتمد عليها وهو ركن التعصب . وطالما قلنا ان التعصب الديني في القرون الوسطى كان السور الوحيد الذي يحمي ذمار الجماعات لان الرابطة الدينية كانت اساس ارتكازهم ومبنى حوزتهم وقد حلَّ محلها في القرون الحاضرة عند معظم الامم الراقية التعصب الوطني لان الوطنية اصبحت اساس هذا الارتكاز، فالوطنية بهذا المعنى اذن دين من الاديان . وقد تصدر من بعض كبار الوطنيين المتصفين بالعلم والنباهة والاخلاق اقوال وأعمال لتمجيد الوطن تكاد تكون في نظر العالم الحكيم السمح هزءاً وسخرية ولا تقل سخافة عن بعض الذين جعلوا دينهم في الحياة وصناعتهم في كسب المعاش الطعن المنكر في الاديان جميعها الاّ الدين الذي وجدوا عليه آباءهم عرضاً ، فمن ذلك ما كان يزعمه قادة السياسة البريطانية من ان الله ارسل انكلترا رحمة للعالمين ، وكان الامبراطور غليوم يزعم انهُ مرسل من الله على رأس الامة الجرمانية لقيادة العالم ، وما حاربت امة امةً اخرى الاّ اعلنت على رؤوس الاشهاد يوم شهر الحرب ان الله انحاز الى جانبها ، ومن اعجب المظاهر الوطنية السخيفة ان

(1) Major Social Problems p. 213

كتب الفرنسيين في تاريخ العلم والادب والسياسة تنسب كل اختراع او ابتكار او اكتشاف الى رجل من الفرنسيين حتى لو ان فرنسيًّا استبدل بتفاحة (نيوتن) رمانة مثلاً ما خجلوا ان ينسبوا اليه ناموس الجاذبية محتجين بأن الرمانة غير التفاحة ! وفي احد الكتب الجرمانية المنتشرة في الايدي كثيراً عبارة مضحكة عن ميزة اللغة الالمانية وفضلها على غيرها ذكرها الاستاذ (بايندر) وهي « ان الفرنسي يقبع في كلامه كما يقبع الخنزير والانكليزي ينخر من انفه نخراً ولكن الجرماني هو الوحيد الذي يتكلم » وسئل احد المبشرين وهو يستعرض المعجزات والخوارق الواردة في الكتاب المقدس وما لها من الشأن في تأييد دينه عن كرامات الاولياء في الاسلام فقال هذه من عمل الشيطان وأما تلك فمن عمل الرحمن !

لقد رجعت الى نفسي وحللت عقيدتي في التعصب فوجدتها تنحو هذا النحو من الاستهجان وهذا ما يجب ان يتصف به كل من كانت له نزعة علمية مجردة عن الهوى ، بيد انني ويا للاسف مرغم على القول بمنتهى الصراحة ان التعصب الوطني قد يكون العلاج الوحيد الذي ينقذ امتنا من براثن عبدة المادة من المستعمرين المستنزفين ، وانني اصف هذا الدواء على مضض مني كما يصفه كل طبيب غيري يرى مثل هذا الخطر المهلك محدقاً بالمريض الذي يداويه . لا جرم ان الامم المغلوبة على امرها تبالغ في شأن لغتها وعاداتها وتعاليمها وعقائدها وأدبها وفنها وعلمها وجمال بلادها مبالغة تتجاوز المعقول في بعض الاحيان كما ذكرنا سابقاً وتنقب عن المستعمرين بعين مجهرية فتذكر عيوبهم ومساويهم وتكرّه ابناءها بهم وبالروائح المنبعثة من اوضاعهم لان دواء الافاعي في نظرها جعل الرجفة من منظر هذه الافاعي والخوف من انيابها غريزة طبيعية

وكانت كلمتا مؤمن وكافر في عصر التعصب الديني سبب رعشة عند الامم لما يحدث مدلولها في الاذهان من النفرة المستنكرة ، وسترغم الدول الاوربية المستعمرة اهل البلدان المقهورة على جعل كلمة افرنجي في نظرهم سبب رعشة ايضاً لانها تمثل في اذهانهم تلك المغارم والمظالم التي شهدناها بام العين فلا يحق لاحد ان يجادلهم او يجادلنا بها . والبغض المتوارث يزداد شدة باستمرار الدواعي التي احدثته وينتهي بالانفجار الخطير عند حدوث الشرارة الاولى

﴿ القناعة الاقليمية خطر على الارتقاء ! ﴾ لقد أيدنا في هذه المقالات « الجامعة العربية » تأييداً كليًّا وابتعدنا عن السياسة الاقليمية او الموضعية ابتعاداً كبيراً لسبب اجتماعي يعد في المقام الاول وذلك لما عرف عند علماء الاجتماع من ان الارتقاء يسير سيراً حثيثاً متى كان للافراد المتحدين وجهات نظر يختلف بعضها عن بعض ومميزات خاصة متباينة في حد ذاتها ولكنها لم تبلغ في تباينها هذا حدّ النفرة او ما يدعو الى التفتت بل هي مشدودة برباط الوطنية الوثيق ، فاذا ما طلبنا تنظيم الشعوب العربية وتقريبها بعضها من بعض فلا نعني ابداً اننا نريد طبع افرادها على غرار واحد بل نريد ان يترك للفرد فيها مجال تظهر فيه ميزاته الخاصة ضمن الوحدة العقلية الاجتماعية الشاملة ،

والفرد الواحد لا يخرج عن دائرة الجمود التي يأسن فيها ولا يشعر بالحوافز التي تبعثهُ على الحركة والعمل الاَّ بالاحتكاك بغيره ممن اختلفت مزاياهم وبرزت خصالهم ، فلو قدّر له ان يعيش دائماً بجانب من هم على شاكلته بحيث يطابقهم ويطابقونه حفراً وتنزيلاً لم يتغير ولم يتغيروا ، وهذا التباين الفردي هو سر الجلاء الذي يكتسبه اهل السياحات ممن يختلطون بالامم الاخرى ويمازجونها ، والميزات الفردية الخاصة التي تطبع صاحبها بطابعها الممتاز لا تتيسر الاَّ في الامم الكبيرة ، فقد رأينا اهل القرية الصغيرة اكثر تشابهاً واتساقاً فيما بينهم من اهل المدينة الكبيرة لذلك كانوا اقرب الى الجمود والسير في الحياة على نمط واحد حقباً من الزمن

وهذا ما حمل كبار الوطنيين في الامم العظيمة الناشئة على محاربة السياسة الاقليمية وما تؤدي اليه من اقتصار على البقاع الموضعية ، ويكون من الضربة الاجتماعية قاصمة الظهر ان يقتصر زعماء البلدان العربية كل منهم على خدمة القطر المحلي الخاص الذي يعيش فيه ويغفل شأن الخصائص الموجودة في الاقطار الاخرى ، ولقد اصاب الاستاذ (بايندر) المحز حين قال « ليس للامم الصغرى او المظلومة حرمة مقدسة وسياستها سياسة وضيعة غالباً تكاد تكون على نسبة مساحة ارضها بالضبط والعطايا التي تتحف بها الانسانية هي مادّة لتسلية الامم الاخرى غالباً »[1] وقد حمله كرهه لمثل هذه الامم الصغيرة على التمسك بأهداب مذهب النشوء وتنازع البقاء وبقاء الانسب فلا رحمة في قلبه لمن ليس في طاقته ان يخلع بقوة ذراعه نير الاستعباد ، والضعيف محكوم عليه بالخضوع والتسخير سواء كان انساناً ام حيواناً ، لاجرم انه يأبى ان يمد يد المساعدة للمقعد الذي لم تنبت له اطراف يقوم عليها، فليتذكر متسولو الاستقلال وشحاذو الحرية هذا الكلام اللاذع وهذه العبرة البالغة . ثم ان هذا التباين المعقول في الميزات الفردية لا يأتي بالثمرة المطلوبة من التقدم والارتقاء بحيث تتولد من الاحتكاك بين الافراد المتباينين شرارة النهضة الاَّ اذا كان هنالك تربية وطنية تتحلى من اساسها بالتسامح الداخلي وسعة الصدر وبعد النظر بحيث تستطيع مع الزمن تعرُّف الصالح والطالح من خصائص ابناء العشيرة

﴿الارادة العامة والوطنية﴾ وقد تجتمع عوامل التجانس التي ذكرناها جميعاً المادية منها والمعنوية ولكن الجماعة المزدانة بها لا تؤلف الوحدة المنشودة ، وذلك لفقد عامل اجتماعي خطير عليه المعول في توحيد الافراد وهذا العامل هو تنظيم هؤلاء الافراد في داخل الجماعة تنظيماً يجعل لهم رأياً عامّاً وارادة شاملة مرتكزة عليه ، فكل شعب مهما بلغت فيه عوامل التجانس من الظهور لا يحسب وحدة ما لم يفكر تفكيراً واحداً ويجزم جزماً واحداً ويرد ارادة واحدة — ولا عبرة بالشذوذ الذين خرجوا على الجماعة وانشقوا عن الدولة . ويجرنا هذا الكلام الى البحث في الزعامة وضرورة افراد باب لها لأن هذا التنظيم المعنوي الذي جعلناه اس الوحدة هو عمل الزعماء والسرّ الذي تبنى شخصيتهم عليه ، فحيث لا توجد زعامة صحيحة لا يوجد رأي عام خير ولا ارادة عامة صادقة

(1) Major Social Problems, p. 216.

سبل الانتعاش الاقتصادي

في بريطانيا

بحث في تاريخ السنوات الثلاث الاخيرة

الانتعاش الاقتصادي الذي اصابتهُ بريطانيا في السنوات الثلاث الاخيرة ، مثل بليغ على مآثر الزعامة الحكيمة في عصر تكاد تكون آيتهُ الاضطراب والاخفاق. اذ قلما يزور لندن زائر في هذه الايام من دون ان يحس بأنها مدينة لا تجثم على صدرها اشباح القلق والخوف من المستقبل . فلندن اكثر العواصم رخاء في العالم اليوم، يستطيع الاحصائي ان يثبت ذلك بالارقام تتناول الثروة العامة واتساع نطاق العمل ومقدار ما يستهلك من العروض . ولكن الزائر الاجنبي لا يحتاج الى برهان ، ذلك انهُ يحس عند وصوله الى لندن بطمأنينة لا يحس بها في العواصم الأخرى . فانهُ اذا قدمها من برلين شعر بفرج يطلق لسانهُ في تناول المشكلات العامة بكلام هادىء صريح . واذا جاءها من باريس نسي حوادث الشغب وانباء الارتكاب وشبح الاضطراب محوماً على مجلس النواب . اما إذا أتاها من ناحية الولايات المتحدة الاميركية فانهُ يرى فيها أمةً سمتها الطمأنينة والثقة بالنفس

الا أن لندن ليست نموذجاً لسائر المدن والمقاطعات البريطانية ، ففي شمال بريطانيا وويلز مناطق اكتسحها الفقر وغلب عليها القنوط. ولكن بريطانيا بوجه عام اصابت انتعاشاً ملموساً ، أعاد ألوفاً من العمال الى العمل ونثر عن جمرة الثقة رماد الاستكانة واليأس

من الاقوال الشائعة ان البريطانيين ادركوا هذا الانتعاش بتركهم القوى الطبيعية تفعل فعلها . ونحن لا ندري ولا المنجم يدري مدى ما كانت تصيبه بريطانيا من الانتعاش لو أنها حقيقة تركت القوى الطبيعية تفعل فعلها اي لو أنها امتنعت عن انشاء الحكومة القومية ، والخروج عن قاعدة الذهب ، وإحاطة أسواقها بحواجز جمركية ، وخفض دخل المموّلين ثلاثين في المائة بعملية تحويل القروض ، وتشجيع الزارعة بتنظيمها وامدادها بالاعانات المالية

***

ان تاريخ الشعب البريطاني من سنة ١٩٣١ الى الآن شبيه بتاريخ رجل فرد من بعض الوجوه . فالرجل يحكم في شؤونهِ المختلفة احكاماً متباينة فيكون بعض احكامهِ غاية في الحكمة ويكون البعض الآخر اعتباطاً فتؤاتيه الاقدار فيدرك بهِ الامل المنشود كلهُ او بعضهُ . كذلك القرارات التي اتخذتها الحكومة البريطانية في خلال هذه السنوات الثلاث . فقد كان بعضها بالغاً منتهى الحكمة والحصافة ، وكان البعض الآخر مما آتتهُ الاحوال فاصاب الهدف . بل ان واحداً منها على الاقل كان اشبه بحال الفقير البائس أتى على آخر فلسٍ عندهُ ، ثم اصاب في ارضهِ كنزاً ثميناً

فلنبدأ بالحادث الذي مهّد له الحظُّ سبيل النجاح . وليس الحظ عاملاً يصحُّ ان نغفله في درس التاريخ الاقتصادي . فالكشف عن منجم ذهب ، يؤثر في مصير بلاد او مقاطعة بأسرها . ولكن الكشف عن المنجم امر لا يمكن القطع فيهِ ، وخاصة في بلاد لم يعدَّن فيها الذهب من قبل . فيكون كشفهُ حينئذٍ مرهوناً بالحظ ، الى حدٍّ بعيد

فماذا حدث في بريطانيا ؟ كانت الحكومة القومية قد انشئت للدفاع عن قاعدة الذهب . وكان المستر مكدونلد قد اثار مخاوف البريطانيين بحديثهِ عن ملايين الماركات تدفع لقاء طابع بريد واحد ، في عهد التضخم المالي في المانيا . وكان الحائل الوحيد بين بريطانيا والتضخم ، مبلغ ما في خزائن بنك انكلترا من الذهب ، وتوازن الميزانية البريطانية . اما احتياطي الذهب في خزائن البنك فكان قد رهن لقاء القروض التي عقدت في باريس ونيويورك لسدّ مطالب الذين طلبوا سحب اموالهم من انكلترا وكان ميعاد توفية هذه القروض قد اوشك . وكانت البلاد لا تملك زيادة في صادرها على واردها لتشتري بها فرنكات او دولارات لتوفية ما عليها . ولم يكن للخزينة البريطانية اموالٌ في الخارج ولا سبيل لها الى الحصول عليها الاَّ بالتجوء الى ما يملكهُ الافراد الانكليز من الاموال في البلدان الاجنبية . نعم كانت الحكومة البريطانية قد عمدت الى مثل هذا العمل في خلال الحرب ، اذ كانت النزعة الوطنية تبعث على البذل . ولكن اعادتهُ الآن وسير الحوادث ينذر بالخراب المالي ، متعذر او مستحيل . فاذا بعثت انكلترا بما تملكهُ من الذهب لتوفية هذا الدين ، فقدت لندن مكانتها المالية العالية . وإذا عجز البنك عن توفية قروضهِ حقّر بين البنوك

ما العمل ؟ ! لا مكدونلد يدري ، ولا وزير ماليتهِ يدري ، ولا رجال وزارة المالية يدرون

***

ما كادت بريطانيا تخرج عن قاعدة الذهب حتى اتجه اليها جدول من الذهب ، من نبع غير منتظر . ثم ما لبث هذا الجدول ان تحوَّل الى نهر كبير ، فصبَّ في لندن في خلال سنتين نحو سبعين مليوناً من الجنيهات . وكذلك استطاع بنك انكلترا ان يوفي دينه لباريس ولاميركا ، قبل ميعاد الاستحقاق ، فأخذت بريطانيا تستعيد مكانتها المالية ، التي هزّها الخروج عن قاعدة الذهب ، وتطلع الناس الى البريطانيين يعجبون بمقدرتهم المالية

على ان هذا الذهب لم يستخرج من منجم جديد ، بل من مخبإ عظيم هو بلاد الهند . ذلك ان عشرات من السنين كانت قد انقضت على شعب يُربي على ٣٠٠ مليون نفس ، وهو يخزن الذهب . فكان يصوغ بعض الذهب أساور وحليًّا للنساءِ ، ويحفظ بعضهُ سبائك او نقوداً مسكوكة

فلما خرجت بريطانيا عن قاعدة الذهب ، لم يفقد الجنيه الاسترليني من مقدرتهِ على الشراء لا في بريطانيا ولا في الهند . اي ان قيمة الذهب زادت من حيث مقدرتهُ على الشراء . واصبح خازن الذهب يستطيع ان يخرج ذهبهُ ويبيعهُ فيجني من بيعهِ ربحاً غير يسير . وكان الهنود يحتاجون الى

المال ، فأخرجوا نقودهم وسبائكهم وصهروا الاساور والحليّ ، وبعثوا بها جميعاً الى لندن

وادركت الخزينة البريطانية في الحال قيمة هذا الاتجاه . فأنشأت « حساب التسوية والمبادلة » لتجهّز الحكومة بالمال اللازم لشراء الذهب في الهند وافريقية الجنوبية . نعم كان لهذا الحساب غرض آخر هو منع سعر الجنيه الاسترليني من الهبوط كثيراً او الارتفاع كثيراً ، ولكن غرضهُ الاساسي كان شراء الذهب ، وقد حقق الغرض على أوفى وجهٍ ، لان المخزون من الذهب في انكلترا بلغ من نحو سنة أعلى ما بلغهُ في التاريخ . فذهبُ الهند أنقذ بريطانيا من موقفها العصيب

ولكن الهند ما كانت تستطيع ذلك لولا حدوث حدث آخر ما كان في مكنة أحدٍ ان يتنبأ بحدوثهِ . ذلك أنهُ لما خرجت بريطانيا عن قاعدة الذهب لم يدرِ أحدٌ ، هل ترتفع أسعار العروض بالنقد الورق او تهبط اسعار العروض بالذهب . فالتجاريب السابقة في فرنسا والمانيا وايطاليا كانت تشير الى هبوط اسعار النقد الورق اي الى ارتفاع اسعار العروض بعد الخروج عن قاعدة الذهب ، وهذا يفضي الى زيادة المطبوع من ورق النقد فالى التضخم النقدي . والراجح ان مكدونلد كان يرى هذا والاّ لما انشأ الحكومة القومية جاعلاً هدفها الاول الدفاع عن قاعدة الذهب ، ولما بثّ الخوف في طول البلاد وعرضها من تضخم شبيه بتضخم النقد في المانيا سنة ١٩٢٣

الاّ ان الحوادث اتت على غير ما كان يتوقع . ذلك انهُ لما خرجت بريطانيا عن قاعدة الذهب هبطت اسعار العروض بالذهب ، ولم ترتفع اسعارها بالنقد الورق . وجرت بلدان اخرى مجرى بريطانيا في التخلي عن الذهب كأساسٍ للنقد واتخذت الجنيه الاسترليني اساساً لنقدها ، فاصبح الجنيه في اسواق العالم المالية اقوى من ان تسيطر عليهِ قوة الذهب . والانكليز يجملون لك هذه الحالة في قولهم ، انهم لم يخرجوا عن قاعدة الذهب ، ولكن الذهب خرج عن قاعدة الجنيه الاسترليني

وكذلك احتفظ الجنيه بقدرتهِ الشرائية ، وفي الوقت نفسهِ خفض اسعار البضائع البريطانية بالقياس الى نقد الامم الباقية على قاعدة الذهب ، فنشطت تجارة الاصدار البريطانية . وهذا كلهُ كان من بواعث اقبال الهند على اخراج ذهبها المخبوء ، وابدال جنيهات استرلينية بهِ لجني الربح من الفرق فاستعادت لندن مقامها المالي بين عواصم العالم

***

قلنا ان « الحكومة القومية » الاولى انشئت في بريطانيا لانقاذ قاعدة الذهب . فلما اضطرّت الحكومة ان تخرج عن قاعدة الذهب ، كانت نزعة التعاون القومي وتأييد الوزارة القومية ، قد استساغها الشعب البريطاني ، فاستطاعت الحكومة ان تتقدم الى البلاد في انتخاب عام احرزت فيهِ كثرة ساحقة . فكان لذلك أثر عظيم في الانتعاش الاقتصادي ، لان الثقة بالوزارة القومية مكّنت الشعب البريطاني من اجتياز تلك الايام العصيبة في اواخر سنة ١٩٣١ التي تلت الخروج عن قاعدة الذهب وما عقبهُ من القلق لما يكنّهُ المستقبل في ثناياهُ . فلما فازت الحكومة القومية بتأييد البلاد

في الانتخاب العام ، مكنتها جمع أعنّة السلطة في يدها من اتخاذ الخطط التي رأتها كفيلة باجتناب الانهيار بل واعادة الرخاء

كان الشعب البريطاني ينفق حينئذٍ اكثر مما يجني . فكان يبتاع في الخارج اكثر مما يبيع . وهذا الخلل في ميزانه التجاري مضافاً الى العجز في ميزانية الحكومة ، كان سبب الازمة التي اخذت الامة البريطانية بخناقها في اواخر سنة ١٩٣١ ، لانهما افضيا الى سحب الاموال المودعة في لندن ، وقرار الحكومة ان تخرج عن قاعدة الذهب . فكان الغرض الاول الذي يجب ان تتجه اليهِ الحكومة اعادة التوازن الى الميزان التجاري والميزانية معاً

لم ترَ الحكومة صعوبة ما في موازنة الميزانية . بل ان حكومة العمال السابقة كانت مستعدة لموازنتها وكانت تستطيع ذلك لولا إحجام بعض اعضائها عن الموافقة على نقص الاعانات التي تمنح المتعطلين عن العمل . فلما جاءت الحكومة القومية ، ضربت بفأس التوفير ، مرتبات رجال الحكومة — فنقصت مرتبات الموظفين والمعلمين ورجال البوليس وغيرهم — اسوة بمُنَح العمال المتعطلين

ولم يكن في عملها هذا اي خروج على مبدإ مقرر . غير ان اعادة الموازنة الى الميزان التجاري احتاجت الى التوسل بوسيلة غير مألوفة عند الانكليز — نعني انشاء حاجز جمركي عام . ولكن مسألة الحاجز الجمركي ، لم تُثَر في الانتخاب العام صراحة ليبدي الجمهور رأيهُ فيها . والراجح انهُ لو اثيرت لكان في وسع المعارضين ان يقنعوا الجماهير البريطانية بأن اقامة هذا الحاجز يعني ارتفاع اسعار الاغذية ، ولخسرت الحكومة القومية الانتخاب

لذلك عمدت الحكومة القومية الى عبارة كان لها اكبر اثر في فوزها ، اذ طلبت من الشعب البريطاني ان يمنحها وصاية تامة كما يمنح المريضُ طبيبَهُ وصاية مطلقة في علاجه . وليس في هذا التشبيه اي نشوز . لان العجز في الميزان التجاري كان مرضاً يحتاج الى افعل اسباب العلاج ولو لم يكن بعضها مألوفاً . فلما فازت الحكومة في الانتخاب طلبت الى مجلس النواب الموافقة على اقامة الحاجز ففعل . فهذا تدخل صريح من جانب الحكومة البريطانية في فعل القوى الطبيعية . بل ان جل علماء الاقتصاد في بريطانيا ، كانوا يذهبون الى انه من الاثم اقفال الاسواق الصغيرة في وجه الامم الصناعية . فاقفال اكبر الاسواق العالمية — اي سوق بريطانيا — كان اثماً كبيراً بحسب زعمهم . ولكن الحكومة البريطانية اقدمت على اقفاله من دون ان تحس بأنها اجترحت اثماً ولا هي اعتذرت عن ذلك للبلدان التي كانت تعيش في الغالب من بيع منتجاتها في بريطانيا

ولا ريب في ان جانباً من انتعاش بريطانيا الاقتصادي ، يعود الفضل فيه الى الحواجز الجمركية لانها فتحت السوق البريطانية نفسها لاصحاب المصانع البريطانية بعد ان كان اصحاب المصانع الاجنبية يزاحمونهم فيها . ولكن هذه الفائدة التي جنتها بريطانيا لم تكن خالصة . لان نقص مقدرة الامم التي تعامل بريطانيا على الشراء ، اسفر عن نقص في صادرات بريطانيا . الاَّ ان تجارة الصادر البريطانية

كانت تمتاز في ذلك العهد بنقص في اسعار العروض لخروج الجنيه عن قاعدة الذهب . يضاف الى ذلك ان العالم حينئذ بدأ يلمس تحسيناً في التجارة العالمية ، فكانت النتيجة التي اسفرت عنها هذه العوامل — اي زيادة تصريف البضائع البريطانية في بريطانيا نفسها ، ورخص المصنوعات البريطانية لخروج النقد الانكليزي عن قاعدة الذهب والتحسُّن الملموس في التجارة العالمية — ان زاد الطلب على مصانع بريطانيا ، فازداد الطلب على العمال وقلَّ التعطُّل . ولعلَّ ابلغ مثل على هذا الانتعاش صناعة الحديد والصلب التي ضعفت حتى كادت تتلاشى ، لشدة المنافسة التي اصابتها من الصناعات التي تقابلها على البرِّ الاوربي ، فأصبحت بعد التحوُّل الجديد تنتج تسعين في المائة مما تستطيع انتاجهُ

على ان الحواجز الجمركية ليست حافزاً كافياً للانتعاش الاقتصادي . بل ان الحواجز لا تجدي كثيراً الا في بلاد مستعدة ان تتخلى عن صادرها بقدر ما تتخلى عن واردها . ولا ريب في ان خروج بلدان كثيرة عن قاعدة الذهب سلب البضائع البريطانية بعض الميزة التي كانت تمتاز بها في سنة ١٩٣٢ . بيد ان الرأي السائد في بريطانيا الآن هو ان الحواجز افادت واذن فيجب الاحتفاظ بها . على ان ذلك لا يكفي . ولا بدَّ لبريطانيا من ان تعنى باعادة تنظيم صناعاتها ملاءمةً للنقص في صادراتها . فبريطانيا في الغالب ، تبيع ٣٠ في المائة من مصنوعاتها في الخارج ، ولكن الزيادة في ما تستهلكه السوق البريطانية بعد احاطتها بالحواجز الجمركية ، لا يقرب من هذا ولا من نصفهِ . فالانتعاش الى درجة الرخاء ، عن طريق الحواجز غير مرجَّح ان لم يكن متعذراً . وقد ترى بريطانيا قبل انقضاءِ زمن قصير ، ان هذا الحاجز سوف يصبح سلسلة من الابواب ، كل باب منها يمثل معاهدة تبادل تجاري مع البلدان التي يهم بريطانيا ان تعاملها

***

وعلى كل حال لا نستطيع ان نعلل الاَّ جانباً من انتعاش بريطانيا الاقتصادي بالحواجز الجمركية . وأما الجانب الآخر فيمكن تعليله بتلك العملية المالية العظيمة التي تعرف باسم « تحويل قروض الحرب » من قروض فائدتها ٥ في المائة الى قروض فائدتها ٣½ في المائة فوفَّر على الخزينة دفع فائدة قدرها ١½ في المائة على مبالغ كبيرة من المال كل سنة . وقد كان لهذا التحويل أثر اجتماعي كبير ، الاَّ ان نجاحهُ كان يقتضي ان ترضى طبقة المستثمرين البريطانيين — وهي غنية وذات حولٍ — بخفض دخلها من الاموال التي تثمرها في هذه القروض ثلاثين في المائة

كان مقدار دين الحرب الذي فائدتهُ ٥ في المائة ، الفي مليون جنيه . فكان على الحكومة اذا شاءت ان تنجح في عملية التحويل ان تدبر تدبيراً يمكنها من اقناع اصحاب السندات ، بأن مصلحتهم تحتّم عليهم قبول التحويل . وهذا في ظاهره كان متعذراً ، اذ كيف تستطيع ان تقنع الناس ، بأن يقبلوا مختارين نقصاً في دخلهم يبلغ ثلاثين في المائة ؟ ولكن وزير المالية البريطانية المستر نفيل

تشمبرلين ابدع كل الابداع في معالجة الامر . وقد آتتهُ الاحوال الاقتصادية العامة في ما فعل ذلك ان الصناعة كانت راكدة حينئذٍ ، وتثمير الاموال في الخارج لا يغري ، بل ان الحكومة البريطانية كانت تثني الناس عنهُ . وكان المال يتجمع في الخزائن وليس ثمة سبل لتثميره او استغلاله. فقال وزير المالية في ذات نفسهِ ، ان عملية التحويل تصيب النجاح المرغوب ، اذا بدا لأصحاب الاموال، ان سبل التثمير في البلاد ضيقة او غير ميسَّرة ، وان السندات الوحيدة المأمونة التي يمكن تثمير المال بشرائها هي سندات الحكومة البريطانية ، ولو كانت فائدتها يسيرة

ونظرت الحكومة البريطانية الى الحالة الاقتصادية العامة في بريطانيا ، فرأتها يسودها القتام ، فعمدت اولاً الى موازنة ميزانيتها واستعادة مكانتها المالية كمقترض في سوق المال . ثم عمدت الى منع اصدار سندات جديدة الا اذا عرضت عليها اولاً ونالت قبولها. ثم حظرت بيع السندات الاجنبية في السوق البريطانية . ولما كانت واثقة من ان حال الصناعة لا تغري بتثمير الاموال فيها ، لبثت قليلاً تنتظر وهي واثقة من ارتفاع اسعار سندات الحكومة . فارتفعت اسعارها لشدة الاقبال عليها . ومضت في الارتفاع حتى اصبحت نسبة الفائدة الاصلية الى ثمنها الجديد لا تزيد على ½ ٣ في المائة

هنا تقدمت الحكومة البريطانية واعلنت مشروع التحويل ، وقالت انها في تاريخ معين تقبل ان تسدد لأصحاب السندات سعرها الأصلي نقداً — كان سعرها في السوق حينئذٍ أعلى من السعر الاصلي — او ان تعطيهم سندات جديدة بفائدة ½ ٣ في المائة بدلاً من ٥ في المائة . ورغبة في اغراء الناس بالتحويل . وعدت ان تدفع للمولين مبلغاً نسبيًّا معيناً ، لا يكفي ليعوضهم مما يخسرونهُ بنقص الفائدة ، ولكنهُ يغري على كل حال . وارفقت الحكومة نداءها المتقدم باستفزاز الشعور الوطني . ولكن الوطنية لم تكن العامل الفعَّال في الاقبال على التحويل . لان اصحاب السندات قالوا اذا نحن لم نقبل التحويل واستوفينا ثمن سنداتنا نقداً فماذا نفعل بالنقد ولا سبيل امامنا لتثميره

فكانت النتيجة ان تسعة أعشار أصحاب السندات اقبلوا على التحويل ، والعشر الباقي استوفى ثمن سنداته بسعرها الاصلي فكان المبلغ الذي استوفوه مائتي مليون جنيه . وكانت عملية التحويل هذه باعتراف كبار الماليين اكبر عملية مالية في التاريخ . ومما لا ريب فيهِ ان احوال الصناعة والاقتصاد حينئذٍ ساعدت وزير المالية في تحقيق غرضهِ . ولكن ذلك لا ينتقص من البراعة التي عالج بها الموضوع . فالمستر سنودن وزير مالية العمال ، كان يرغب قبل ذلك كل الرغبة في تحويل قروض الحرب ، ولكنهُ لو حاولهُ لباء بالخسران ، لأن الاحوال لم تكن مؤاتية لهُ حينئذٍ

بقي علينا ان نبين أثر هذا التحويل في انتعاش بريطانيا الاقتصادي . وهذا الأثر يبدو في ناحيتين الاولى ان النقص في عبء الدين العام افضى الى نقص يسير في ضريبة الدخل . اما الناحية الثانية وهي أهم من الاولى فارتفاع اسعار السندات المأمونة مجاراة لسندات الحكومة . فارتفعت كذلك قيمة السندات المحفوظة في خزائن الشركات الصناعية البريطانية . وكانت نتيجة هذا انتعاش الصناعات . ذلك ان اسعار السندات

كانت قد هبطت عند حدوث الازمة فاضطر أصحاب الصناعات ان يحولوا جانباً من ربحهم في الصناعة لتوفية خسارتهم في ما كانوا يجنونه من السندات. فلما تمت عملية التحويل، وجد أصحاب الصناعات ان قيمة سنداتهم قد زادت، فتمكنوا من تجديد مصانعهم او توزيع ارباح على مساهميهم . وهذا افضى بدوره الى زيادة الطلب على الآلات من صناعها من ناحية ، والى زيادة المال المتداول الناتج من توزيع الارباح على المساهمين ، من ناحية اخرى

وقد يتعذَّر على الباحث ان يعين نصيب الحواجز وعملية التحويل والتحسُّن الاقتصادي العام في انتعاش بريطانيا . ولكن يرجح ان نصف انتعاش بريطانيا الاقتصادي يعود الفضل فيهِ الى عملية التحويل في قروض الحرب ، وهو النصف الاهم ، لانهُ ينطوي على بزور الانتعاش الصحيح ، حالة ان التحسُّن الناشيء عن الحواجز الجمركية ، محدودٌ في أثره ومداه

***

اما انتعاش الزراعة البريطانية فلم يكن عاملاً اساسيًّا في الانتعاش العام ، مع ان مقدرة الزراع الشرائية قد زادت زيادة لا بأس بها . وانما يهمنا ان نشير اليهِ لأنهُ مرتبط بشخصية رجلٍ يقولون ان الدهر يعدُّ له مكان الصدر في سياسة البلاد نعني المستر ولتر اليوت وزير الزراعة . فهو رجل يميل الى التنظيم في شؤون الحياة القومية زراعية وصناعية وغرضهُ ان يجعل الجزُر البريطانية من الناحية الزراعية قادرة على كفاية نفسها بنفسها . ولتحقيق هذا الغرض نظم الزُّراع البريطانيين حتى يتمكنوا من منافسة زرَّاع البلدان الاخرى التي تبيع منتجاتها في السوق البريطانية . ولا يخيفهُ ان يفضي عملهُ هذا الى ارتفاع اسعار الاغذية . فاذا قال لهُ دعاة التجارة الحرة ان تجارة الصادرات البريطانيــة تضعف اذا نقص ما تبيعهُ البلدان الزراعية في بريطانيــا ، ردَّ عليهم ان صناعة الصــادرات البريطانية تستطيع ان تبيع الفــلاحين البريطــانيين متى بدأ هؤلاء يجنون ربحاً من زراعاتهم . وقد انشأ المستر اليوت نظماً تعاونية للحاصلات الزراعية الرئيسية خاصة بتنظيم الانتاج والبيع وتعيين الاسعار. وما على جماعات الفلاحين الاَّ ان يأتوا اليهِ جماعة جماعة ويعربوا عن رغبتهم في وضع نظام خاص لكل جماعة منهم فيضع لهم مشروعاً ثم يعرضهُ على البرلمان ويفوز في الغالب باقراره. فالمستر اليوت اشبهُ ما يكون الآن بدكتاتور سوق الاطعمة في بريطانيا ، فانه اذا وجد مثلاً ان ما تصدرهُ الدنمارك الى بريطانيا من لحم الخنزير ينافس ما ينتجه الانكليز انفسهم منافسة قوية يصدر انذاراً الى الدنماركيين بوجوب نقص ما يصدرونهُ والاَّ طبَّق عليهم نظام الحصص ، فيفضي هذا في الغالب الى اتفاق ودي قائم على اساس من التبادل . ولهُ في بريطانيا معجبون كثيرون يرون فيهِ رئيساً للوزارة البريطانية في المستقبل . اما مقاوموه فجُلُّ مقاومتهم لهُ تستند الى انهُ يعوق القوى الطبيعية عن ان تفعل فعلها . ولكن البريطانيين بوجهٍ عام يدركون الآن انهُ اذا تُركت القوى الطبيعية تفعل فعلها قضت على الزراعة في بريطانيا قضاءً مبرماً

فرنسا والاصلاح الدستوري

بحث تاريخي دستوري

في اكتوبر سنة ١٩٣٢ كتب المسيو غاستون دومرج مقدمة لكتاب اصدره الشيخ موريس ورديتير عنوانهُ « المساوي الدستورية ومشكلة التنقيح » . قال فيها : — ان فرنسا تتوق الى السلم الداخلي توقها الى السلم الخارجي ، ورغبتها الشديدة هي ان تجد وسيلة تمكنها من تحقيق السلمين معاً . ان نتيجة من هذا القبيل لا يمكن الحصول عليها من دون تعديل شرائعنا الدستورية ، لانها هرمت كما تهرم كل الاشياء ، و يجب ان تعدل حتى تتلاءم مع الاحوال الجديدة السائدة في حياتنا العامة »

وقد يبدو للباحث ان اقل تعديل في الدستور الفرنسي ، يجعل النظام البرلماني ، اعلى مكانة وأصلح حالا مما هو الآن . وموطن الضعف في النظام البرلماني الفرنسي ، انما هو في منح سلطة عظيمة لمجلس النواب . فرئيس الجمهورية ، هو من الناحية النظرية ، رئيس السلطة التنفيذية ولكنه في الواقع ليس الا صورة . ورئيس الوزارة هو رئيس السلطة التنفيذية الفعلي . ثم انه واعضاء وزارته مسؤولون امام مجلس النواب ، وفي السنوات الاخيرة اصبحوا مسؤولين امام مجلس الشيوخ كذلك

ومجلس النواب الفرنسي ، مؤلف من احزاب كثيرة ، قيل انها سبعة عشر حزباً في المجلس الحالي وقد تزيد . والفرق بين الحزب الواحد ، والحزب الذي إلى يمينه او الى يساره ، قد لا يكون إلا يسيراً ، ولذلك يقتضي انشاء الحكومات الفرنسية ، انشاء كتل مؤتلفة من طوائف من الاحزاب ، لها كثرة في المجلس . فاذا عرضت مسألة يختلف فيها رأي الاحزاب المؤيدة للحكومة ، استردَّ بعضها تأييدهُ للحكومة فتسقط الوزارة ، فيعهد الى من يستطيع انشاء كتلة اخرى مؤتلفة من الاحزاب ، في تأليف الوزارة التالية . وهذا محتمل إلى حدٍّ ما . ولكن اذا عجز مجلس النواب عن ايجاد اكثرية مستقرة بعض الاستقرار تستند اليها الوزارات المتعاقبة ، تضطرب الحالة اي اضطراب ، وتعجز الحكومات عن تصريف شؤون الامة . وهذا ما حدث في مجلس النواب الفرنسي الذي انتخب سنة ١٩٢٤ ، وفي مجلس النواب الذي انتخب سنة ١٩٣٢ وفي الحالين ، كانت الاكثرية لاحزاب الميسرة — الاشتراكيين ، والراديكاليين الاشتراكيين — وفي الحالين كذلك انشأ هذان الحزبان ائتلافاً دعي « كتلة اليسار » Cartel des Gauches في خلال الحرب الانتخابية ، فاستطاعا معاً ان يفوزا بأكثرية المقاعد في المجلس . فلما اجتمع المجلس المنتخب فُضَّ الائتلاف ، لان الاشتراكيين يرفضون الاشتراك في حكومة اذا لم يكونوا وحدهم يستطيعون ان يؤلفوها من دون ان يستندوا الى تأييد حزب آخر . ولكنهم مع رفضهم كانوا يؤيدون الحكومات التي يؤلفها زعماء حزب الراديكاليين الاشتراكيين على شروط خاصة لكي يظلوا احراراً في استرداد تأييدهم متى شاءوا

وكانت حكومات الراديكاليين الاشتراكيين تستند الى احزاب الوسط او ما يليها من احزاب الميمنة ، اذ تفقد تأييد الاشتراكيين لها وكذلك كانت حكومات الرايكاليين الاشتراكيين — ومن

زعمائهم هريو ودالاديبه — في مجلس ١٩٢٤ و١٩٣٢ رهناً باهواء من يؤيدها من الاحزاب ، ومن هنا منشأ التقلقل والاضطراب ، وسقوط الوزارات وقيامها ، بين عشية وضحاها

اما الاصلاح الدستوري الرئيسي الذي يراه المسيو دومرج وعلى صخرته تحطمت سفينة وزارته القومية هو ان يمنح رئيس الوزارة حق حل مجلس النواب بعد موافقة رئيس الجمهورية . فالدستور الفرنسي الذي وضع سنة ١٨٧٥ يمنح رئيس الجمهورية الحق في حل مجلس النواب ولكنه يحتاج في حله الى موافقة مجلس الشيوخ . وقد كان الغالب ان مجلس الشيوخ يرفض ان يمنح هذه الموافقة

ذلك ان هناك منافسة بين مجلسي الشيوخ والنواب في فرنسا ، واتجاها المجلسين متعارضان دائماً فاذا اتجه مجلس النواب ، الى اليسار والتطرف ، اتجه مجلس الشيوخ قليلاً الى اليمين والاعتدال او المحافظة . والعكس بالعكس . اي اذا اتجه مجلس النواب الى اليمين والمحافظة اتجه مجلس الشيوخ قليلاً الى اليسار والتطرف . خذ مثلاً على ذلك مجلس النواب الذي انتخب سنة ١٩٣٢ ، فقد كان أكثر تطرفاً من المجلس الذي سبقه ، لذلك اتجه مجلس الشيوخ ، أكثر مما كان قبلاً ، الى المحافظة . ولو أن أحد رؤساء الوزارات الراديكالية الاشتراكية طلب في خلال السنتين الماضيتين ، حل مجلس النواب الفرنسي ، لكان فعل ذلك وهو واثق او متأمل على الاقل ، ان تزداد أكثريته في المجلس . وهو غرض لا يتفق ونزعة مجلس الشيوخ المحافظة ، ولذلك كان يرجح في هذه الحال ان يرفض مجلس الشيوخ التسليم بالحل ، لانه طبعاً لا يرضى ان يجيء مجلس جديد تكون فيه قوى احزاب اليسار ، اعظم مما هي

ومن هنا نرى ، ان مجلس النواب الفرنسي ، لم يحل قبل ميعاد حله الطبيعي إلا مرة واحدة ، في خلال تاريخ الجمهورية الفرنسية الثالثة

فاذا قابلنا هذه الحالة بما يماثلها في بريطانيا ، وجدنا ، ان لرئيس الوزارة البريطانية ، ان يطلب الى مليك البلاد حل مجلس النواب والمليك قلما يرفض ذلك الطلب . فاذا احست وزارة من الوزارات البريطانية ، أنها أخذت تفقد أكثريتها التي تستند اليها في المجلس ، أو اذا اختلفت مع المجلس على خطة أساسية من خططها او تشريع مهم ، يرمي الى اصلاح معين تقيم له الوزارة شأناً كبيراً ، — لان المجلس لا يدري حقيقة ما يطلبه الرأي العام في صدد هذا التشريع — طلب رئيس الوزارة حل المجلس واجراء انتخاب عام ، على أساس المسألة المختلف فيها . فاذا كان الرأي العام مؤيداً للتشريع المقترح من قبل الحكومة ، أقبل على انتخاب مرشحيها في الانتخاب العام وكذلك يعود حزب الوزارة الى المجلس وهو اقوى مما كان ويعاد تأليف الوزارة فتستطيع ان تقر التشريع المطلوب . كذلك فعل بلدوين سنة ١٩٢٤ فقد كان له أكثرية في مجلس النواب ولكنه اراد ان يدخل الحماية الجركية ولكن المجلس الذي انتخب قبيل ذلك وكان لبلدوين أكثرية فيه لم يكن قد انتخب على أساس الحماية الجركية لذلك رأى بلدوين انه لا بدَّ من استفتاء الشعب ، فطلب حل المجلس الى المليك ، فحل واجري انتخاب بريطاني عام ، على أساس « الحماية الجركية » فخذل أنصارها اي بلدوين واتباعه وانشئت حكومة العمال الاولى برآسة

المستر مكدونالد . وعلى الضد من ذلك تجري الانتخابات الفرنسية العامة في مواعيد معينة ، اي عند ما تنتهي مدة مجلس النواب اي مرة كل اربع سنوات وقد يحدث — وهو الغالب — ان لا يكون على الناخبين ان يبدوا آراءهم في مسألة خطيرة بعينها وقت الانتخاب فيتسع المجال للمشعوذين السياسيين ووعودهم الخلابة . هذا فيما يتعلق بالاصلاح الدستوري الاساسي ، الذي يطلبه المسيو دومرج

ثم هناك نظام الاستجواب في مجلس النواب الفرنسي . فان النواب يمادون فيه لاغراض خاصة في الغالب ، فيستجوبون الوزير المختص او رئيس الوزراء في اقل مسألة ادارية ، ورئيس الوزراء مسئول عن وزارته بوجه الاجمال ، وقد يفضي الجدال العنيف في مسألة لا شأن لها على الاطلاق ، الى سقوط الوزارة وحدوث اضطراب في الدوائر السياسية ، مع ان تلك المسألة قد لا يكون لها اي اثر في سياسة الوزارة بوجه عام . ومع ان البلاد تكون راضية عن الوزارة وخططها

بل ، ان نظام الاستجواب هذا ، غير المقيد بقيد ما ، يصرف النظر عن العناية بشؤون التشريع الخطيرة ، ويفضي في الغالب الى التراشق بالتهم والمؤاخذات الشخصية . ولما كان نظام الاحزاب في مجلس النواب الفرنسي ، مضطرباً كالزئبق ويهم الوزارة ان تحتفظ بالاكثرية التي تؤيدها ، افضى نظام الاستجواب ، الى قسر الوزارة على العناية ، بموضوعات الاستجوابات المختلفة — واكثرها تافه — وكذلك تراهم ينصرفون مرغمين عن العناية بما هو اهم منها من الاعمال الادارية الخاصة بهم

ثم هنالك نواح اخرى . فبعضهم يفكر مثلاً في نقص عدد النواب والشيوخ ولا يخفى ان عدد النواب في المجلس الفرنسي ٦١٥ وعدد الشيوخ ٣٠٠ شيخ . يضاف الى ذلك التفكير في منح السلطة القضائية الحق في الفصل في شرعية القوانين التي تسن وهو النظام الذي تسير عليه الولايات المتحدة الاميركية . وقد قرأنا اخيراً ، انهُ ثبت من تحقيق فضيحة ستافسكي ، ان طائفة كبيرة من النواب تنتظم انتظاماً صورياً في شركات مختلفة ، بقصد ان تستفيد الشركات من نفوذهم ومقامهم ، وان هذا العمل افضى الى ضروب من الفساد والارتكاب ولذلك . يفكر البعض في اقتراح تعديل او سن قانون دستوري ، من شأنهِ ان يحول دون امثال هذه الفضائح التي تضعف من مقام الحكم الديمقراطي في نفس الشعب الفرنسي . وطريقة ادخال تعديل على الدستور الفرنسي ، هو ان يعرض التعديل على مجلسي النواب والشيوخ ، كل على حدة ، فيقترع كل مجلس على التعديل كأنهُ مشروع قانون عادي . فاذا وافق المجلسان — كل على حدة — على التعديل ، اجتمعا في هيئة مؤتمر ، واقترعا عليه مجتمعين ، والاكثرية المطلقة تكفي لادخال التعديل على الدستور حينئذ

لما ألَّف المسيو دومرغ وزارتهُ القومية في فبراير كان احد اغراضه تعديل الدستور الفرنسي تعديلاً يتفق ورأيه المتقدم . ولكن وزراء الحزب الراديكالي الاشتراكي رفضوا تأييده في هذا الصدد خوفاً من أن تفضي الزيادة في سلطة رئيس الوزراء الى تحكم دكتاتوري من جانب رئيس وزراء ليس في خلق دومرغ الديمقراطي . فسقطت وزارتهُ في اوائل نوفمبر وتألفت الوزارة الحالية برآسة المسيو فلاندان

ضامنات الحب

وهي محاورة بين فتاة وأبيها

لحنا خباز

الوالد : من ملك جوهرة حرص عليها . والحب اثمن جواهر الوجود . فيهمنا وقايته بما علكهُ من ضامنات

الفتاة : الذي أفهمه يا والدي ان للحب آفات وان له ايضاً ضامنات . ولقد أحسنت في انك قدّمت هذه على تلك

الوالد : واول ضامنات الحب : تبادل المصلحة : وارجو ان نتفق في الكل وان اختلفنا في الجزء

الفتاة : فهمتك يا والدي . فانك تؤسس العلاقات البشرية على المصلحة ، على جلالة قدر تلك العلاقات كالحب والدين

الوالد: ألا تعلمين يا عزيزتي ان المرء عبد مصلحته ؟ فاذا فقدت المصلحة زال الحب . فالمصلحة ، مادية او روحية ، هي ضالة الانسان ، ينشدها حيث يجدها . فهو ابداً انتفاعي ، في سياسته ، والمصلحة بعد كل حساب هي فوق كل عامل في الوجود . وفي حبه وفي دينه

الفتاة : مع ميلي للتسليم بذلك ، ارجوك ان تزيدني ايضاحاً

الوالد : هل رأيتِ الفلاح يدفن البذار في التربة ؟

الفتاة : مراراً

الوالد : فلو حكّمت النظر دون الاختبار لجزمتِ بأنهُ مجنون . لانهُ ينفق قوته عبثاً ؟

الفتاة : والحال انه يبذل القليل ليجني الكثير فهو ليس بمسرف

الوالد : هذا هو سنن الانسانية الاسامي: بذار واستغلال. ناموس عام في جميع الدوائر الانسانية ومنها:

١ : الطالب في المدرسة : يقضي السنين الطوال ، وينفق بدر الاموال رغبة في احراز العلم ليتمكن من تحصيل الاموال والمراتب واللذائذ

٢ : الوالدون : ينفقون كثيراً على اطفالهم . آملين انهم في مستقبل الزمن يكونون سنداً لهم

٣ : كذلك الشركاء ، والمتضامنون

الفتاة : وهل التدين ، ومحبة الله هو من هذا القبيل ؟

الوالد : الديانة حسب وضعها الاصلي هي اما رغبة في ثواب ، او رهبة من عقاب . فهي مذهب نفعي

الفتاة : اولا يوجد تدين لله ؟ لا رغبة في جنة ، ولا رهبة من نار

الوالد : لا اظن واليك نصوص التوراة ، وهي المرجع الديني الاسمى عندنا

١ : اكرم أباك وأمك لكي تطول ايامك على الارض الخ
٢ : ان سمعتم واطعتم تأكلون خير الارض
٣ : وان ابيتم وتمردتم يأكلكم السيف
٤ : ان سمعت لكلامي وحفظت اقوالي : فبارك تكون في خروجك ومباركاً تكون في دخولك الخ

***

الفتاة : كان ذلك يا والدي في طفولة الديانة وطفولة الانسانية . ولكن لما ارتقى الانسان تنزه تدينه عن المصلحة فقال له تعالى : اعبدك لا طمعاً في جنتك ، ولا خوفاً من نارك ، بل حبّاً بك

الوالد : ذلك ما يقوله الفم . اما الحياة اليومية فدلتنا على ان : البشرية لا تزال في طور الطفولة فعلاً ، وهي اسيرة المنافع . واعلمي يا عزيزتي ان للفلاسفة في الفضيلة ثلاثة مذاهب

١ : ان الفضيلة تراد لذاتها
٢ : انها تراد للخيرات الناتجة عنها
٣ : انها تراد للامرين معاً ، لذاتها ونتائجها

فالأول مذهب الرواقيين والكلبيين والمتصرفين اتباع الأفلاطونية وجميع النساك من كل المذاهب ، نصارى ومسلمين ويهود وهندوكيين وبوذيين ومنهم رابعة العدوية صاحبة القول المشهور : احبك لا رغبة الخ

٢ : مذهب الهيدونيين والابيقوريين ومدرسة بنتام ، وكارل ماركس وجميع الماديين في كل عصر وفي كل مصر . وهذا المذهب هو محور التمدن ، وقاعدة السياسة . وهو المذهب النفعي : Utilitarianiom : وهو بخار ميكانيكا الحياة البشرية في كل العصور

٣ : مذهب افلاطون وارسطوطاليس وكنت وسبينوزا وليبنتز . وتوافق تعاليم الاديان التي تقرن الفضيلة بالثواب ، والرذيلة بالعقاب . ولذا كانت الاديان افلاطونية بهذا الاعتبار ، اي ان الفضيلة تراد لذاتها ، ولنتائجها . وهذا المذهب نظري اكثر من كونه عمليًّا . والحب يتمشى على القاعدة نفسها . قال افلاطون افرض انا سئلنا قراءة كتابة بحروف من قطع صغير ، وعن بعد ، فلم نتمكن من تبينها . ولكن احدنا اكتشف ان تلك الكلمات نفسها مكتوبة في موضع آخر بحروف كبيرة . وعلى رقعة واسعة . فن المعقول اننا نقرأ الكلمات الكبيرة الحروف اولاً . ثم نحول نظرنا الى الكتابة ذات الحروف الصغيرة ، وتفحصها لنرى هل الكتابة واحدة في الرقعتين : وهو ، في ما ترين ، رأي حكيم فلننح نحو افلاطون في درس الحب ، فندرسهُ اولاً في الدولة ، ثم في الفرد ، فنتبين حقيقتهُ

الفتاة : اوافقك في ذلك يا بابا فما الحب بين الدول ؟

الوالد : هوذا اليابان وروسيا والمانيا وفرنسا وايطاليا وبريطانيا وبولونيا والولايات المتحدة

الامريكية . هل من واحدة من هذه الدول تحب اختها « لله » ؟ . واذا كتب صحافي ان : فرنسا تحب بولونيا لله : افلا تضحكين ؟ . فلماذا تصدقين ان الفرنسي يحب البولوني لله ؟ افليس الفرنسي جزءاً من فرنسا ، وله طبيعتها ؟ فكيف يصح في الفرد ما لا يصح في المجموع ؟ والرأي القطير هو هذا :

تتألف الدولة من الافراد ، فتمثلن طبائعهم وصفاتهم . والحكم في الفرد وفي الدولة واحد . وكما ان المصلحة حافز حب الدولة وضامنها كذلك الحال في حب الفرد . هنالك مصلحة حفزت الى ذلك الحبّ وضمنته . فالمصلحة اول ضامنات الحب لذا قالوا : حبيبي من نفعني :

الفتاة : اراني يا بابا قد بدأت افتح عيني لنور الحقيقة . فالمرء نفعي في كل شؤونه حتى في حبه

الوالد : الحمد لله . فما قولك في من تزعم انها تحب مع ضياع المصلحة ؟

الفتاة : ارى انها مجنونة — بحسب قياسك —

الوالد : فالمصلحة اولاً . هذا هو الحكم العام . والحب ضد المصلحة ليس مبدءاً انسانيًا ، بل هو مرض نفسي

الضامن الثاني : عدالة المحب . والعدالة ضرورية . وذلك لاربعة اسباب

١ : اخلاقي : لا ثقة بالخائنين الظالمين

٢ : اقتصادي : الحذر من الخسارة

٣ : فنّي : فان الظالم قبيح والعادل جميل والجمال هو المحبوب

٤ : اختباري : عند التناهي يقصر المتطاول

فدرس الشخص يتقدم فتح القلب لحبه ابداً . ومن خالف هذا القانون جنى على نفسه . فالحب لاول نظرة ضلال مبين . والقانون هو امتحن اولاً ثم احكم . واحكم اولاً ثم احب . فالحب قبل الحكم ، وقبل المعرفة ، سخافة وجنون . نعم ان النظرة الاولى قد تقرع ابواب القلب . ولكن العقل لا يسلمها المفاتيح قبل التحقق من سلامة العواقب

الفتاة : ان كلامك هذا يا ابت يوافق رواية شهدناها بالامس في مسرح ديانا وقد استمطرت دموعي

الوالد : وخلاصتها ؟

الفتاة : شاب يتودد الى فتاة . فتمنعت اولاً قائلة له : انك بعد ان تنال مني تتركني . فأغلظ الاقسام انه لن يتركها . فاستسلمت لحبه الزائف . ولما ولدت ثمرة ذلك الحب ، قلاها وانكر حبه وابنته . ولما همت بأن تشكوه للحكومة ، وهو موظف ، وقد خشي سوء العاقبة ، عمد الى الحيلة . فتظاهر بالتوبة وعاد يتودد الى الفتاة . فعادت واستسلمت له كما في المرة الاولى . ولكن هذه المرة اوردها الحتف المريع فركب معها قصد التسلية . ولما بلغا وسط النهر تقلب ذلك الافعى في صورة انسان . والقى بها الى اللجج فماتت غرقاً ، وقد رأيتها تستغيث ولا مغيث

الوالد : فاذا انتفت المدالة ، فلا ضمان لحب . والاّ فأين الوجد والغرام الذي كان بين هذا وتلك وهو الآن يلقي بها الى التهلكة ؟

والضامن الثالث : خلق المحبوب . اي الخلق الحسن . واذا فقد المحبوب الخلق الحميد فلا ضامن لثبوت الحب بل على الضد من ذلك ينقض الحب سريعاً . عرفت فتاة قبل نحو ثلاثين سنة ، في شرخ الصبا ، وهي آية في الجمال كالبدر وجهاً ، والمهى عيناً ، والورد خدًّا ، والغصن قدًّا ، والرمان نهداً ، مقببة الصدر ، نحيلة الخصر ، مصقولة النحر ، مجدولة الساعدين ، ريا الخلخلين ، بسامة ، هيامة ، طروب لعوب . كالصبح طلعتها والليل طرّتها والند نكهتها

الفتاة : وماذا فعلت بها يا بابا ، قبل الثلاثين ؟

الوالد : كما يفعل من كان مثلي ، بمن كان مثلها ، اي اني شغفت بها سريعاً . هذه هي النظرة الاولى ولكنها شرعت تتكلم ، فاذا هي بليدة ، ثم اخذت اعاشرها ، فاذا هي حمقاء . فشرع قلبي ينسحب ويتراجع ، حتى صار قلبي في الشرق وهي في الغرب . فأن حسنها جذبني اليها ، ولكن خلقها دفعني عنها

الفتاة : وهوت شامخات حبك يا بابا

الوالد : الى ادنى الدركات يا فتاتي

الفتاة : وجمالها ؟

الوالد : توارى بالحجاب

وما ينفع الفتيان حسن وجوههم اذا كانت الافعال غير حسان
فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى فما كلُّ مصقول الحديد يماني

ان سوء الخلق يرغم العاقل على هجر الحبيب . فيطير الغرام كندى الصباح . والخلق الحميد هو السيد الازلي على القلب ، لانه له قد خلق وله يدين

والضامن الرابع : ملاءمة الاحوال

الفتاة : احتجاج يا بابا . فانك تعلّق الحب على الاحوال والحب لا يخضع لحكم الاحوال بل هو فوقها

الوالد : وهل عليَّ من حرج وانا اقرر الواقع ؟ فقد تتحكم الازمات المالية في الناس فيصيرون الى الفاقة بعد الثراء ، والالم بعد اللذة ، فتذوي يانعات الحب بريح السموم الهابة عليه

الفتاة : اراك تلاشي الحب يا أبت

الوالد : لاني عن عقل أتكلم لا عن هوى

والعقل والهوى على طرفي نقيض . واراهما في كفتي ميزان . فحيث رجح العقل خفَّ الهوى . ولا يرجح الهوى الا وقد رُجِح العقل . ذلك في ما ارى ناموس الاجتماع والسيكولوجيا . اجل قد يتغلب الحب على الاحوال ، ولكن ذلك في واحدة من الف . فلا تنسي التسعمائة والتسع والتسعين . لان الحكم على الناموس العام . والنادر لا يقاس عليه

الفتاة : لقد احزنتني على روحي وعلى الحب وعلى بني حوّاء . ابهذا المقدار حبهم نحيف وبه يفخرون ؟

الوالد : مهلاً . فهنالك ضامن خامس للحب وهو ضامن وثيق

الفتاة : رجاء . فما هو ؟ . اني اراك نسفت الحب نسفاً

الوالد : مهلاً . هل تذكرين انك شربت من ينبوع صافٍ ؟

الفتاة : في لبنان لا في مصر

الوالد : وهل تذكرين العودة الى الارتشاف المرة بعد المرة ؟

الفتاة : اذكر ذلك ولي فيه سرور عظيم

الوالد : فلماذا لا يأسن ماء النبع كما يأسن ماء البرك ؟

الفتاة : لأن ماء النبع متجدد . وماء البرك غير متجدد ، بل هو راكد

الوالد : ذلك ما ارمي اليه

فتجدُّد اللذة هو ضامن ثبوت الحب . والحب ارتشاف من ينبوع فياض . اما اذا كان من بركة لا يتجدّد ماؤها . فالعاقبة وخيمة . لان الماء الآسن تعافه النّفس . هذا داء الحب الدفين

الفتاة : افصح عن مرادك . ماذا تريد بالتجدُّد هل تجدُّد الرغبة في نفس المحب ، او زيادة الكشف عما في المحبوب من مجالي الجمال ؟

الوالد : اريد هذا الثاني بالاكثر

للحب موضوعات واغراض . ولهذه الاغراض أثر في النفس . فاذا كان المحبوب غنيًّا في حقيقة الجمال . كان اعلان ذاك الجمال نبعاً فياضاً تتجدّد مياهه فلا يأسن . فيظل المحب منفعلاً انفعال القطار بتجدّد البخار . واذا انقطع البخار وقف القطار . واذا جمد المحبوب ذوت يانعات الحب في نفس من يهواه

واراني كدت المس الحقيقة الازلية وهي : الحب الخالد هو حب النفس : لأن الجسد يشيخ ويهرم ويذبل فالحب المرتبط بنضارة الجسد وبريق العيون هو كالبخار في الجو . يظهر قليلاً ثم يضمحل . اما النفس فلا تشارك الجسد في هرمه . بل تزداد صبوة وجمالاً كلما تقدّم المرء في السن . فلا تشيخ النفس الجميلة مع الزمان ، بل تتجدّد مجالي جمالها ونضارتها . فمن اهم ضامنات الحب ان لا يكون محصوراً في الظاهرات. فزعازع الحب وآفاته كونه سطحيًّا . وليس للسطحيات حظ من الخلود. ان الخلود حظ اعمق اعاميق الوجود

الفتاة : شكراً لك يا بابا . فقد رأيت الحب غير ما كنت اتوهمه قبلاً

الوالد : ولسوف ترين اكثر مما رأيت الآن . فليس ما امليته على سمعك الساعة الا قطرة من يم او قليلاً من جم

الحمية في الامراض

للدكتور عبده رزق

متى يجب اطعام المريض وفي أية حالة يجدر بنا ان نحتم عليهِ اتباع الحمية ، اعني الامساك عن الطعام ? تلك امور لا يجهلها احد من الناس تقريباً لكن اذا ما اتى دور التطبيق العملي وخصوصاً دور التفصيلات الدقيقة في كيفية الاعتناء بالمرضى فالتردد يمنع في غالب الاحيان اتخاذ قرار جازم للعمل به . ولذلك يتريث بعضهم وينتظر ما يأتي بهِ الغد علَّهُ يوحي بفكرة يركن اليها ، او ان ينتهي الامر على احسن حال من تلقاء نفسه من دون معرفة حقيقية للطريقة المثلى الواجب اتخاذها من هذه الناحية

ويلاحظ من بضع سنين عند فريق من الاطباء ميل جديد الى تفضيل الاطعمة الجامدة على سواها وقت حدوث الامراض المعدية . فهذه الطريقة المبتكرة في اتباع الحمية التي يتخيل لاصحابها تحقيق نجاحها ، لا تعود فقط بنا ٢٥٠٠ سنة الى الوراء قبل ولادة ابقراط ، بل انها تؤدي الى اوخم العواقب اذا كان القصد منها تخفيف وطأة تلك الامراض او إزالتها

وغير خاف ان الحمية تقوم بتقليل الطعام ، فهذا التقليل يمكن ان يؤول في بعض الحالات الى منع كل طعام سائلاً كان ام جامداً ، وفي احوال اخرى تقتصر الحمية على التغذية المائية او اللبنية . اما اذا كان المرض خفيف الوطأة او في دور النقه فلا مانع يمنع اضافة بعض الاطعمة الجامدة الملائمة

فلكل من هذه الطرق المختلفة في اتباع الحمية ظروف استعمالها ويمكننا ان نقسمها هنا بإيجاز الى ثلاثة اقسام وهي : (١) ظروف المنع التام عن الاطعمة السائلة والجامدة (٢) الاقتصار على الاطعمة المائية او اللبنية (٣) تقليل الاطعمة السائلة والجامدة

١ — ظروف المنع التام عن الاطعمة السائلة والجامدة

تكون طريقة هذه المداواة بنوع خاص في امراض الجهاز الهضمي . وبين الاعراض الموجبة لاستعمال الطريقة المذكورة بصورة مطلقة القيء الدموي مع التقيوآت الاخرى المختلفة . فالقيء الدموي تختلف اسبابهُ ويكون في اغلب الاحيان ناشئاً اما عن وجود قرحة في المعدة ، او سرطان ، او مرض في الكبد (يرقان مزمن) او قد يكون احد امراض الدم العمومية كالحميات الحادة والملاريا والاسقربوط ، فالمداواة العاجلة لهذه الحالات هي واحدة مهما كان سبب القيء ، وعلى كل يجب ترك الوقت اللازم للدم المتخثر الذي يغطي المكان المتآكل في المعدة ريثما تتكون فيهِ الالتحامات الجديدة ثم اندمالها

فاراحة العضو المريض اذن بالحمية عن السوائل والجوامد تتركان له والحالة هذه الوقت اللازم لاصلاحه وإعادته الى حالته الاصلية . أما مدة الانقطاع هذه فتختلف باختلاف طبيعة القيء الدموي : ففي السرطان أو أمراض الكبد مثلاً لا يتطلب النزف الدموي بوجه عام أكثر من يومين او ثلاثة لاراحة العضو ، بينما في قرحة المعدة تكون مدة الاراحة اطول . وعند ما يكون النزف شديداً يمتنع المريض عن كل طعام مدة تتراوح بين الثمانية ايام والاثني عشر يوماً وفي خلالها يحقن كل ساعتين او ثلاثة بـ ٢٥٠ غراماً من الماء الفاتر (المغلى قبلاً) مضافاً اليه ٢ بالالف من ملح الطعام منعاً لجفاف انسجة الجسم . ومن الحكمة ألاَّ يزيد عن ذلك مقدار الماء المذكور في كل مرة خشية من تهييج غشاء المعدة المخاطي وحصول فعل عصبي عكسي ينشأ عنهُ افرازات العصارة المعدية الحامضة في مقادير وافرة ومعلوم ان افرازات هذه العصارة تكون زائدة في حالة وجود قرحة في المعدة

واذا ما اعترى المريض دوار أو اغماء يخشى منهما على حياته فيعمل له حينذاك حقنة صغيرة شرجية بالماء مع قليل من الكنياك . اما اذا استمرَّ القيء رغماً عن ذلك فيستحسن أن يغذَّى بالحقن المغذّية

أما التقيوآت الاخرى فأشدها خطراً هي التقيوآت الناجمة عن التسممات البولية Urémie وهي كثيراً ما تؤدي الى الوفاة في أيام قليلة . اما في ما عدا هذه فالتقيوآت بوجه عام تهدأ بسهولة بالراحة التامة للمعدة ويساعدها على تحسين الحالة سريعاً منع المريض عن كافة الاطعمة

وهناك حالات اخرى من التقيؤ ، وهي فجائية ، لا علاقة لها بالهضم فيجب ان نخشى إذ ذاك من وجود فتق مختنق . فالألم المحلي الذي يسببه هذا الفتق ، لا سيما عند المرأة ، يكون احياناً خفيفاً جداً والمريض لا يشعر بهِ ولا يشكو منه ، حتى اذا اقتضت الضرورة بعدئذٍ العلاج الجراحي ولم يبق مفرٌّ منهُ يكون الوقت قد فات

أما تقيوآت الحمل المستعصية فتتطلب في بعض الحالات ايضاً منعاً تامًّا عن الاطعمة وذلك لمدة بضعة أيام ، والاكتفاء في خلالها بحقن ٢٠٠ غرام من الماء المالح (٥ بالالف) مرة كل ثلاث ساعات

٢ — الاطعمة السائلة وظروف استعمالها

ان هذه الحمية للمريض يمكن ان تقتصر على الحليب . فالحمية المائية ليست الاَّ مداواة اضطرارية تستعمل في احوال خاصة ولا يمكن ان تدوم اكثر من أيام قليلة لكنها ذات فوائد لا ينكرها باحث واستعمالها المذكور يكون عادة في الساعات التي تعقب المنع التام عن الاطعمة ، وكواسطة أيضاً لتعويد المعدة الرجوعَ الى الطعام . كذلك في الزائدة المعوية والالتهاب المعوي الصفراوي . او وقت ابتداء الامراض المعدية والتسمم البولي

فعلاج الزائدة المعوية يلخص في الامور الثلاثة التالية : (١) وضع كيس ثلج على مكان الألم ، (٢) حقن مورفين تحت الجلد (نصف سنتغرام) مرتين الى ثلاث يوميًّا ، (٣) الاقتصار على شرب الماء أثناء الستة أو العشرة الايام تقريباً ، اي طيلة وجود الالم الموضعي الحاد ، وانه لا مانع في هذه

الحالة من شرب منقوع ماء الزيزفون او البقلة او الشاي الخفيف ايضاً . واذا كان المريض متقدماً في السن فلا بأس ايضاً من السماح له،ابتداء من اليوم الثالث بتناول صحن او صحنين من مرق بعض الخضروات المطبوخة من دون سمن (٦٠ غراماً من البطاطس والجزر والفجل والفاصوليا الخضراء في ١٠٠٠ غرام ماء وتغلى الى ان تصير الى ثلث حجمها ثم تصفى بعد ذلك)

ومن الضرر الكلي استعمال اللبن الحليب في الزائدة المعوية ، لانهُ يساعد على تولد الاختمارات المعوية كما انهُ لا يصلح بوجهٍ عام في الالتهابات المعوية المختلفة سواء أ كان ذلك عند الرضيع أم عند البالغ . واللبن الحليب الذي يعطى للمريض عن جهل في حالة كهذه لا يعمل الاّ على اطالة المرض ان لم يزده تفاقماً . هـذا عدا ان في بعض الحالات المزمنة يجب الامتناع عنه بتاتاً مدى بضعة شهور والاكتفاء في خلالها بمرق بعض انواع الدقيق الغذائي من دون لبن حليب . وقد اعتاد بعضهم حين ابتداء الامراض المعدية ان يصف للمريض الحليب والمرق فهذه الطريقة قد تكون غير صالحة . . ويظهر ان الالتهابات المعوية بل وبعض الامراض الاخرى ايضاً ترتاح الى الحميـة المائية . كالانفلونزا والتهاب اللوزتين والخناق التي اتضح انها تشفى بأسرع وقت في الست وثلاثين الساعة الاولى . ومما هو جدير بالذكر ان مدارس الطب في القرن الثاني للميلاد كانت تصر كثيراً على هذه النقطة فتوصي اولاً باستعمال الماء الحار ومن ثم ماء الارز والشعير ، وفي احيان اخرى ، كما في الانفلونزا والذبحة الصدرية، كانت توصي باستعمال الماء الحار في اليوم الاول والحليب والمرق المجرد عنهُ الدسم بعد اليوم الثاني او الثالث

***

أما في الحمى التيفية فالاقتصار على شرب الماء خلال مدة المرض يُعدُّ مغالاة وتجاوزاً للحدّ في نظرنا . وفي الواقع يمكن اعطاء المريض بعد اليوم الثالث او الرابع ، الحليب ومرق البقول او مرقاً خفيفاً من لحم الدجاج او الثور بعد نزع الدسم منهُ (لتر ونصف حليب ، ونصف لتر مرق، ولتران الى ثلاث لترات ماء) ، ويحسن عدم الاكثار من الحليب ، لأنهُ ، على ما ذكرنا سابقاً ، مهيج للاختمارات المعوية ، ومعلوم ان الجهاز الهضمي يكون في حالة سيئة عند المصاب بالحمى التيفية ، كذلك يستحسن عدم الاكثار من المرق لانهُ مملوح والملح يصعب طرده في الامراض الحادة . اما الاطعمة المغذية التي يوصي بعضهم باستعمالها منذ بضع سنين فلا يخلو استعمالها هذا من الخطر

اما ظروف استعمال اللبن الحليب وفوائده الجمة في كثير من الامراض فغنية عن الشرح والبيان، ففي كافة الامراض التي يشار فيها بتناول الماء يعقب ذلك تناول الحليب . غير انه في بعض الحالات (كالالتهابات المعوية الهيضية وغيرها) يجب الاحتراز في هـذا الاستعمال بتناول مقادير قليلة لأنه كثيراً ما يسبب رجوع الاضطراب الى تلك الامعاء

وبين الامراض التي ترتاح بنوع خاص الى استعمال اللبن الحليب يجب ان نذكر بعض امراض المعدة والقلب والاوعية الدموية والكليتين والمثانة ومن هذا نفهم ان الحليب لا ينجح في كافة امراض المعدة ، وكما انه يفيد في حالة ازدياد العصارة المعدية الحامضة تكون فائدته معدومة بالعكس وقت نقص هذه العصارة لا سيما في الاختمارات المعوية . اما الحالات التي يجب الاقتصار فيها على الحليب فيعطى المريض كل ثلاث ساعات ، من الساعة ٧ صباحاً الى ١٠ مساء ، نصف لتر حليب يؤخذ بجرعات صغيرة في مدة نصف ساعة وذلك لمدة عشرة ايام تقريباً . لكن في قرحة المعدة قد تطول هذه المدة الى الثلاثة الاسابيع والشهر و الشهرين ايضاً حتى اذا زال الالم يضاف الى الحليب ملعقة او ملعقتان من الدقيق الغذائي ويغليان قبل الاستعمال وافضل طريقة لتحمل شرب الحليب بسهولة تكون باضافة قدر ملعقة حساء (شوربا) من ماء الجير الى كل كأس من الحليب او نحو ١٠٠ غرام من ماء الجير في الاربع والعشرين ساعة

***

أشرنا فيما تقدم الى منافع اللبن الحليب ايضاً في بعض امراض القلب والاوعية الدموية ، لكن تطبيق هذا الاستعمال هو هنا عمل معقد يحتاج الى شرح واف لا يتسع لهُ هذا المقام . اما في امراض الكلى فشهرة تلك المنافع لا ينازعهُ عليها منازع لانه العلاج الممتاز في كافة التهاب الكلية الحادة : فيؤخذ منه اذ ذاك حتى ثلاثة لترات يومياً وتستمر الحال على ذلك مدة ١٥ الى ٣٠ يوماً، ويستحسن ان يضاف اليه ، ابتداء من اليوم الخامس عشر ، قليل من الدقيق الغذائي ليصير بشكل ثريد غير مملح . لكن في التهابات الكلية المزمنة قد فقد الحليب شيئاً من مكانته الممتازة منذ ان عرفت فوائد التغذية غير المملحة Regime dechlorure وفي هذه الحالة يعطى المريض يومياً قدر لتر حليب مع بعض الخضروات وقليلاً من اللحم غير المملح

ولا يفوتنا ايضاً ذكر منافع اللبن الحليب في التهابات المثانة خاصة وقت ابتداء التهابها الحاد على ان يكون تناوله باعتدال .. لان الافراط في شرب السوائل من شأنه ان يسبب تمدد المثانة ويزيد في التهابها . وخلال مدة استعمال الحليب يمكن للمريض ان يأخذ مشروبات ملينة مدرة للبول : كالخطمية وغيرها ، ثم بعد عشرة ايام من ذلك يبدأ بمداواة سبب الالتهاب

٣ — تقليل الاطعمة الجامدة والسائلة

ان الاطعمة على انواعها قد تكون خطرة على صحة الانسان سواء من جهة مقدارها ام من جهة نوعها . وفي حالة المرض بنوع خاص هناك شرطان مهمان لا بد من العمل بهما : اولاً انتخاب ما يوافق من تلك الاطعمة . ثانياً عدم الافراط في تناولها . فالمواد الغذائية المعروف انها غير مضرة تعرّض المريض لعواقب غير محمودة حينما تؤخذ مقادير كبيرة منها . وكما ان الافراط في تناول الاطعمة الجامدة يتعب القلب والجهاز الهضمي ، كذلك الافراط في تناول الاطعمة السائلة يتعب

الكلى والاوعية الدموية . فلتران من السوائل يوميًّا يكفيان عادة للشخص السليم ، حالة ان المقدار نفسهُ قد لا يكفي للشخص المريض ، وهذا المقدار يختلف باختلاف كل حالة

وفي امراض المعدة من الضروري تجنب بعض الاطعمة الفجة وغير المطبوخة ، والمعجنات والمواد الشحمية . كذلك في امراض الكبد يجب الابتعاد على التوابل والمشروبات الكحولية ويجب الامتناع في امراض الكلى عن اللحوم والمرق الدسم والاطعمة الزائد ملحها ايضاً

اما في امراض القلب فالذي يؤذي بنوع خاص مقدار الاطعمة سائلة كانت ام جامدة ، والتي فضلاً عن انها تمدد المعدة وتعوق بهذا وظيفة القلب ، تحدث امتلاء الاقنية الدموية فيتضاعف بذلك شغل القلب ، وتزداد الحالة سوءًا

***

ومن الحكمة في دور النقه من الامراض المعدية (كالحمى التيفية او الحصبة مثلاً) اعطاء الطعام الى المريض بصورة تدريجية . ففي الحالة الاولى (الحمى التيفية) يجب التريث حتى هبوط الحمى لتحت الدرجة ٣٧ وحينئذ يعطى مدة اربعة ايام بعض انواع الحساء ، واذا سهل تحمل هذا فيعطى بعدها شيئاً من اللحوم الحمراء ، اما اذا عادت الحمى فيجب الرجوع الى الاطعمة السائلة ، لكن في الحصبة يجب الاقتصار خلال الخمسة عشر يوماً (دور النقه) على الاطعمة اللبنية والنباتية

واخيراً في الزائدة المعوية لا يجب اطعام المريض الاّ بعد زوال الالتهاب الموضعي اي بعد مضي عشرة ايام تقريباً ، اذ لا توجد قاعدة عامة يعمل بها بصورة مطلقة . فالخواص الشخصية تخلق كثيراً من الشذوذ بين كل فرد وآخر

٤ — خلاصة فوائد الحمية والاسباب الموجبة لها

إن فوائد هذه الحمية تنحصر في الامور التالية : إراحة العضو او الاعضاء المريضة ، توفير التعب على المسالك الهضمية ، تنزيل درجة الحرارة في الحمّيات وما اليها ، المساعدة على ازالة الانتفاخ في أمراض القلب والكلى ، عدم تهيئة محيط صالح لنمو أنواع البكتريا المعوية بما يتناوله المريض من الطعام وأخيراً تقوية مناعة الجسم ، أي مقاومته لميكروبات الامراض وسمومها . وإثباتاً لهذا قد أخذت طائفة من الحيوانات وحقنت بسموم مكروبات مرضية : فالتي ابتلعت منها طعاماً كان فتك المرض بها أسرع بكثير من تلك التي لم تعط أي طعام

أما اضرار الحمية — اذا كانت هنالك اضرار بمعناها الحقيقي — فطفيفة ، والخوف منها أقل بكثير من الخوف الذي يعقب الافراط في الطعام فكل ما يمكن أن يعتري المريض هو قليل من الضعف اذا ما طالت مدة الحمية ، ولذا يجب أن يحفظ مقياس مناسب لكل حالة وعدم الافراط في مدة هذه الحمية فالمسألة مسألة فهم ومعرفة تامة لحالة المريض

قصص الحياة — ٢

رجلٌ وغد

في حياة كل امرأة حادثة تفوق سائر الحوادث في حياتها خطراً وأثراً في نفسها. وقد شرعت احدى المجلات النسائية الانكليزية تنشر قصص الحياة هذه من دون تنميق او تعديل خلا تغيير الاسم الصحيح، فرأينا ان نختار لقراء المقتطف ما تحلو قراءته او تجل فائدته، ففي بعضها فوائد تستطيع نساؤنا ان تقتبسها وفي بعضها مهاوٍ تستطيع نساؤنا ان تجتنبها وفيها على الحالين نواح من حياة المرأة الغربية يحسن بنسائنا الاطلاع عليها والقصة التالية مبنية على ان القران او تزوج الرجل اكثر من زوجة واحدة جريمة يعاقب عليها في القوانين المسيحية!

أتملكينَ من وقتكِ خمس دقائق تفرغين فيها لقراءة قصتي؟ اذن لنازعتك بعد قراءتها عاطفتان، عاطفة المقت او عاطفة الرثاء لحالي. ولست اجد في ايهما ما يخفف عني. ولكنك في الحالين لا تستطيعين ان تضرّي بي، لانني عدت لا اقيم وزناً لآراء الناس. فقد كنت فتاةً من اللائي يتصفنَ «بالبراءة» جلب عليَّ العار والبؤس رجلٌ لاخلاق له، حوّل الحلاوة في كأس حياتي الى مرارة، ومحا آية الغبطة من شبابي

التقيت بتريفور في لندن، فأحببتهُ وتزوجتهُ في خلال شهر واحد. لم اجد فيهِ عطفاً خاصّاً عليَّ، ولا تجاوباً خاصّاً بين روحهِ وروحي، ولكن استرعى عنايتي بهِ ما بدا في تصرفهِ من كمال الرجولة والخبرة، ثم ما كان ينطوي عليهِ تودُّده اليَّ من شباب ملتهبٍ واغراءٍ قويّ

كنت وحيدة في لندن. وكان يبدو لي ان جميع من ارى من الناس لهم معارف واصدقاء يخففون عنهم ألم الوحدة والعزلة، او بيوت يأوون اليها فيجدون فيها الدفء والراحة. اما انا فلم يكن لي الاّ غرفة باردة آوي اليها بعد عملي، ولم يكن لي اصدقاء احدثهم او اختلف معهم الى دور الصور المتحركة او الملاهي او النزه الخلوية

وفي ذات ليلةٍ ذهبت لأتناول الشاي في دكان حلواني قرب المكتب الذي اعمل فيهِ وجلست الى مائدة من دون ان انظر الى اثنين جالسين اليها. ثم التفتُّ فاذا احدهما رجل، كان قد تردد على المكتب في الايام الاخيرة، فبسم لي فرددت بسمتهُ بمثلها. كانت عيناهُ زرقاوين وفي وجههِ ملامح ذكرتني بوالدي. وكان يجيد الحديث، وفي كلامهِ رنةٌ تقربهُ اليك، فشكرت في ذات نفسي المصادفات التي منحتني، بعد ما اشقتني بوحدتي، صديقاً يملأ ذلك الفراغ في نفسي

حاولت ان احدثهُ، بعد ما توثقت معرفتنا ببعض ما يقع لي وما كنت احسُّ بهِ قبل تعرفنا، ولكن جوابهُ الوحيد كان تقبيله اياي، لكي أنسى ما قاسيتهُ من ألم في الايام السابقة. فاذا حاولت الآن ان أتذكر الحديث الذي كان يدور بيننا في تلك الايام، ذكرت انهُ قلما فاه بشيء عن حياتهِ الخاصة الاّ انهُ مقيم في اميركا الجنوبية وانهُ قادم لانكلترا في رحلة خاصة بعمله

كانت تربيتي وبداهتي تصرخان في وجهي ان انصرفي عن هذا الرجل . وكنت اعلم عند التأمل ان الرجل ليس من النوع الذي يوافقني ، وانهُ لا يحسن بي ان اصادق رجلاً لقيتهُ مصادفة ، ولكنني كنت احاول ان اكون فتاة عصرية ظناً مني ان هـذا يغريهِ ، وكنت أخشى ان يسأم صداقتي فأعود الى حياة الوحدة التي عانيت آلامها. وكنت متوهمة ان شعوري يتغير عند ما نتزوج

ذلك انهُ كان قد طلب ان اصبح زوجاً لهُ . ولست ادري الآن ما بعثهُ على ذلك . ولست اعرف تعليلاً لذلك ، الا انهُ كان رجلاً لا يعرف معنى لكلمة «التبعة» . ولست ادري هل كان هو وحدهُ الملوم . ولـكنني أرى انهُ كان ملوماً كل اللوم بعد كل ما بدا من خفاياه

انني امقتهُ ، لانهُ كان خسيساً كل الخسة في معاملتي . فقد كان يشتهيني ، وكان يعلم ان لا سبيل لهُ لتحقيق غرضهُ الا بالزواج ، فعرض علي الزواج فقبلت وأنا جاهلة غرضهُ الحقيقي ، فكانت حفلة الزواج مقدسة في نظري ، ومن قبيل السخرية في نظره

تزوجت واستأجرنا شقة صغيرة رثة في احدى ضواحي لندن الجنوبية . ولا اريد ان ادعي انني كنت سعيدة في الزواج ، مع انني حاولت ان اقنع نفسي بأنني كنت سعيدة . كنت قد نشأت في قرية حيث يعرف الناس بعضهم بعضاً ، فكان اليأس يستولي علي إذ يهجرني للاختلاط بجيراننا ومصادقتهم ، ثم كان يغضب إذ أحاول ان اتعرف بهم ، فكان يقول سوف يتسع امامك الوقت لكل هذا في المستقبل اما الآن فيجب ان تكتفي بي . ولما كان زوجي كنت أنقاد لمطالبهِ

وفي ذات يوم تجلت لي الحقيقة القاسية ، فهبطت بي الى ادنى دركات اليأس . ذلك ان ريفور قال لي ذات يوم انهُ مضطر الى السفر الى جنوب اميركا ، وانهُ متى استقرت بهِ الحال هناك ، بعث يستقدمني اليهِ . وفي اليوم الذي ابحرت بهِ الباخرة تسلمت كتاباً يقول فيهِ ان لهُ زوجاً واولاداً هناك . فثارت نفسي على هذه الخيانة العظيمة . ولبثت بضعة ايام بعد ذلك مريضة لا اقوى على النهوض ، بل امتنعت عن الاكل والشرب بغية الموت

وكان لنا جارة تعرفت عليها قبيل ذلك من دون ان يدري ريفور بذلك ، فجاءت لزيارتي ، لما لاحظت غيابي ، فعطفت علي عطفاً عظيماً ، ولما رأتني استرد قوتي قالت لي ، انني لا بد حامل

على انني خجلت كل الخجل ان اقول لها انني في عرف القانون لست صحيحة الزواج ، ولكنها لم تزعجني باسئلتها بل امدتني ما استطاعت بعونها وارشادها ،ودبرت لي تأجير احدى غرف الشقة لاستعين بايجارها على نفقاتي . وارجو ان تنال تلك السيدة يوماً ما جزاء ما صنعت ، فانها اجدر بهِ من اي انسان اعرفهُ

وقع كل هذا قبل سنتين . اما الآن فلي طفل استعذب في سبيله متاعب الحياة رغماً عن الشقاء الذي احاط بولادتهِ . على انني احياناً اخشى ان يعرف والدهُ بهِ فيسلبني اياهُ ، ولـكنهُ لن يفوز بهِ ، ولو اضطررت الى قتل الرجل بيدي

وصايا للزوجين

للزوجة

١ — لا تكوني مسرفة فكل رجل يرغب في ان يكون مستقلاً استقلالاً ماليًّا وهو لذلك يفقد كل لذة في العمل وكسب المال اذ وجد ان ما يجنيه بعرق جبينه ينفق من دون حساب — ٢ — إحفظي بيتك نظيفاً مرتباً لان في البيت النظيف المرتَّب يجد الرجل المتعب راحة وطمأنينة — ٣ — أعني بهندامك لان المرأة التي لا تتقن هندامها ولا تعنى بمظهرها الاَّ عند الذهاب الى زيارة الاصحاب او دور الصور المتحركة تغري زوجها بالافتتان بغيرها — ٤ — لا تبدي اهتماماً بما يوجهه اليك الرجال من العناية الخاصة فكثيراً ما توغر الغيرة والريبة قلب الرجل من دون سبب الاَّ عناية المرأة بثناء الرجال وعبارات التودُّد والثناء المألوفة التي يفوهون بها — ٥ — لا تقاومي زوجك اذا شاء تأديب اولادكما وكان التأديب معقولاً — ٦ — لا تقضي وقتاً طويلاً عند والدتك — ٧ — لا تقبلي نصحاً من أهلك او جيرانك في مسائل تتعلق ببيتك قبل ان تتأملي في امورك وتخاطبي زوجك في شأنها بصراحة تامة فأنت وزوجك شريكان والرأي الصالح وليد المباحثة الهادئة الصريحة — ٨ — شجعي زوجك على الدوام ونشطيه واعربي عن اعجابك بما يجيده — ٩ — كوني بشوشة — ١٠ — لا تنسي ان الامور الصغيرة كبيرة الشأن فكوني حذرة واعمدي في معاملة زوجك الى وسائل العطف والاغراء فالرجال يكرهون ان يقادوا ولكن يسرّون ان يمنحوا ما يطلب منهم بكلمة لطيفة ترافقها بسمة حلوة او ألقة في العينين

للزوج

١ — لا تكن بخيلاً مقتراً ، فللزوجة حقٌّ في ان تحصل على ما يقوم بنفقاتها وهي اذا دعت الحال قادرة ان تقتصد الى درجة لا تصدّق — ٢ — لا تتعرّض لشؤون المنزل الخاصة بالزوجة ، فهي افضل منك ربة بيت واحكم — ٣ كن بشوشاً لان الرجل المقطب الحاجبين يشقي زوجتهُ وقد يدفعها الى البحث عن الهناءة في غير منزلها — ٤ — لا تجرح شعور زوجتك فالمرأة في الغالب تكون سريعة الانفعال واقرب من الرجال الى التأثر بكلمة قاسية واحدة — ٥ — لا تتوقف عن اظهار محبتك لزوجتك بمظاهر مختلفة بمجلة تبتاعها لها او علبة حلوى او حلية صغيرة او كلمة لطيفة — ٦ — لا تجفو في كلامك معها فهي ندّتك لا خادمك — ٧ — لا تسكن مع اهلها ولا مع اهلك بل انشئا بيتاً مستقلاً — ٨ — لا تسكن في منزلك عائلة اخرى — ٩ — اعنَ بهندامك ولا تقضي يومين من دون حلق ذقنك — ١٠ — انصف اولادك فاذا لم تنصفهم انحازت اليهم عليك

الزوجة ونجاح الرجل

كتب احد الكتاب في مجلة اميركية قصة صريحة عن حياته الزوجية بيّن فيها كيف حالت زوجته بينهُ وبين النجاح التام باستسلامها لاهوائها وضيق نظرها ، وذيّل قصته بذكر خمس طوائف من الزوجات يُقعدن رجالهنَّ عن ادراك غاياتهم البعيدة

الاولى — المرأة التي لا تبقى زوجة بعد ان تصبح امًّا فينحصر اهتمامها باولادها وتلهو بذلك عن زوجها وعن مشاركته في الشعور والرأي والاهتمام بعمله

الثانية — المرأة التي تبقى ابنةً لوالديها بعد ان تتزوَّج اي ان افكارها تبقى منحصرة في اقاربها لا تفكّر الاّ بهم ولا تهتمُّ الاّ بامورهم ولا تعمل الاّ برأيهم . فكل رجل بالغاً ما بلغ من الوداعة والمسالمة ، يتململ حينما يرى ان رأي غيره سائد في بيتهِ لا رأيهُ وان زوجتهُ تهتمُّ بسواه ولو كانوا اقاربها الادنين اكثر من اهتمامها بهِ وبراحتهِ وبشؤونهِ بوجه عام

الثالثة — الزوجة التي تريد ان تبقى حيث هي . على الرجل ان يقطن حيث مجال العمل والكسب متسع امامه . وزوجته يجب ان تكون جنباً الى جنب معهُ حيث يرحل وحيث يحلُّ . فالمرأة التي ترفض ان تلحق بزوجها او ترغمهُ على البقاء في مدينة دون مدينة ، او مدينة دون قرية ، مهما تكن الاسباب التي تبعثها على ذلك تضع العراقيل في سبيله وتحول بينه وبين ادراك النجاح الذي يسعى اليهِ في سبيلهما معاً

الرابعة — الزوجة التي تقابل زوجها بغيرهِ من الرجال فتراهُ مقصراً عنهم وهي لا تعلم ان كل رجل يختلف عن سائر الرجال وان ما هو موطن ضعف في الواحد قد يكون موضع قوة في الآخر . اما الزوجة الحكيمة العاقلة فتدرس خلق زوجها وتعلم ان سرَّ نجاحه رهن معاونتها وحثها اياهُ على الاجتهاد والمثابرة ، واغتباطها بما يصنع وفرحها بكل فوز يناله ، وسعيها لحمله على احترام نفسهِ وثقتهِ بها ، بما تظهره من احترامها لهُ واعجابها بهِ

الخامسة — الزوجة التي تريد ان تبقى عائشة مع زوجها في دائرة ضيقة من المعارف والاصدقاء وذلك مخالفٌ لما هو معروف عن اسباب النجاح التي منها ان مبلغ نجاح الانسان يكون على قدر ما يحيط بهِ من المعارف والاصدقاء ، وان اتساع دائرة الاصدقاء يزيد اختبار الانسان ويوسّع أُفق نظرهِ الى أمور الحياة

اذا أردت ان يكون ما تصنعينهُ من الهلام Jelly مختلف الألوان فلوّني كلَّ جزء منهُ على حدة باللون الذي تختارينهُ وقطعيهِ قطعاً غير منتظمة ، واحشكي هذه القطع جميعها في قالب واحد واصنعي قليلاً من هلام الليمون باللبن بدل الماء وصبيهِ في القالب فوق أجزاء الهلام المختلفة الالوان فتلتحم بعضها ببعض ويصير منهُ هلام مختلف الالوان

درامة وطنية

بطلتها سيارة نقل

الفن والحث الوطني لا يجتمعان. كذلك يقول بعض النقدة. وحجتهم في ذلك ان الفن اذا خرج من نطاق الاعراب الفني عن خوالج النفس وأثر البيئة او الطبيعة فيها الى ميدان العظة الخلقية أو الحث القومي، أصبح نوعاً من الدعاية . والدعاية ابداً مشوبة بالغرض. غير ان القطع الفنية، لابد ان تصوّر او تردّد في الحانها والوانها اوكلماتها او قسماتها حالة العصر الذهنية والادبية والاجتماعية الذي انجب أصحابها. فاذا كان بعضها مما يثير الشعور الوطني ويوقظه ، أو يحث على ضرب معين من السلوك الاجتماعي ،وكان ذلك عن طريق الايحاء والرمز، تعذّر اخراجه من ميدان الفن وحصره حصراً مطلقاً في ميدان الدعاية

تقدم هذه الكلمة توطئة لدرامة حديثة ، قد تكون فتحاً جديداً في ميدان الادب المسرحي مع انها تعيد الى الذهن في الوقت نفسه درامات الاغريق الاقدمين من ناحية اخراجها . وهي درامة ايطالية ، اخرجتها جماعة الفاشستيين الجامعيين في مدينة فلورنسا . والغرض منها دعاية لاريب فيها ، للنظام الفاشستي . ولكن الدعاية فيها تجيء عن سبيل الايحاء والرمز في الغالب. بطلها او بطلتها سيارة نقل ، واستعمال هذه السيارة ينطوي على رمز بديع تتلخص فيه المثل الروحية العليا التي ترنو اليها ايطاليا في بعثها العجيب . بل ان اساليب هذه الدرامة الجديدة وأثرها في العين والاذن، يصح ان يكون فاتحة تحوّل جديد في هذا الضرب من الادب او الفن . فهي تنصرف عن الكلام — الا اليسير منه — الى الاصوات والالوان فتؤلف من ذلك وحدة فنية متناسقة ، غرضها بيان فضل الفاشستية على ايطاليا الحديثة

مثلت هذه الدرامة في الساعة التاسعة من احدى امسيات الربيع العطرة وحضرها عشرون الف مشاهد . وكان مؤلفها الساندور لاستي ، قد اختار قطعة مخضلة من الارض في جوار فلورنسا ، مساحتها نحو ٣٠٠ متر مربع ، امامها نهر الأرنو ، ووراءها آكام توسكانا ترصعها قرى الفلاحين . وجعل مقاعد المشاهدين امام النهر ، يتطلعون عبره الى الساحة التي تجري عليها حوادث الرواية وتتوالى . وكان المشرفون على اخراجها قد حفروا في هذا المسرح الفسيح ، خنادق كخنادق الحرب ، وانشأوا طرقاً وعرة كطرقها ، واقام المؤلف في غرفة صغيرة تشرف على الساحة وحوله جماعة من الكهربائيين لجعلوا يديرون مشاهد الرواية بالوسائل الكهربائية . والغرض منها عرض ثلاثة مشاهد على الجمهور كل مشهد منها يمثل دوراً في تاريخ ايطاليا الحديث

فالمشهد الاول مشهد معركة من معارك الحرب الكبرى على نهر البياڤي بين الايطاليين

والحسريين . والخسويون في هذا الفصل يصلون الجيش الايطالي ناراً حامية : فالمدافع تبرق وترعد ، والايطاليون في حالة يرثى لها من النصب والسغب ، والانوار تماوج فوق هـذا المسرح الطبيعي فتلقي في روع المشاهدين بأس الجيش المهاجم . ثم تتجه الانوار وقد اتخذت لوناً ازرق الى ناحية معينة من الميدان . هو ذا رتل من سيارات النقل يحمل للايطاليين المؤونة والذخيرة . وفي مقدمة الرتل السيارة B. L. ١٨ بطلة الرواية

القنابل منطلقة في الجو على جانبي الطريق الذي يسلكه الرتل وامامهُ ، والدخان منعقد كالسرادق ، والمقذوفات الجهنمية تقع على الارض فتسفو التراب وتنثر الحجارة ولكن الرتل يمضي في سيره البطيء والاضواء تماوج فوقه وامامه حتى يرى المشاهدون ما يعتور سبيله من العقبات . هنا يتفرق الرتل ، وتأخذ كل سيارة سبيلها الى خندق من الخنادق وتتقدم السيارة B. L. ١٨ الى اشد المواقع خطراً . هل تبلغه وتنجد الواقفين فيه موقف الدفاع عن الوطن او تصيبها قنبلة من قنابل العدو ؟

هنا ينتهي المشهد الاول . وفي الفترة يتسلى الجمهور بمشاهدة الالعاب النارية

اما المشهد الثاني فيمثل ايطاليا تمزقها انياب الفوضى بعيد الحرب . فالجو فوق الساحة تماوج فيه الاضواء الحمر ، رمزاً الى الحركة الشيوعية . وانت تسمع في جمهور المشاهدين ، همسات يريد اصحابها ان ينددوا بها بروسيا السوفيتية وشيوعيتها . ثم ينكشف المشهد عن معمل فيه إضراب وامامه ساحة فيها العمال هائجون مائجون بفعل الدعاية التي بثها بين صفوفهم زعماء الشيوعية . واذا السيارة B. L. ١٨ التي شاهدناها في المشهد الاول تتقدم نحو المعمل ، وفيها طائفة من شبان الجماعات الفاشستية الاولى . فما يكاد العمال يرونها حتى يلمحوا رمزاً للحرب والاستعباد . فيتقدمون اليها يحملون الاعلام الحمر ويحيطون بها احاطة السوار بالمعصم ، وهم يصيحون ويتوعدون ، والابواق تضخم صيحاتهم حتى يحس الجمهور المشاهد انهُ على مقربة منهم

عندئذٍ تنشب معركة بين الفريقين . فينهض سائق السيارة ويقف في مقعده ، فترى ثوبه الفاشستي الاسود ، يختلف عن الجو الاحمر المسردق فوق الساحة ، فيهجم عليهِ العمال . هل قضوا عليهِ ؟ ان ذلك لا يهم لان وراءهُ شاباً آخر يتقدم ليحل محله فيسير بالسيارة الى الامام . هذه السيارة ترمز الى ايطاليا ، التي تسير في طريقها ، كائنة العقبات التي تعتور تلك الطريق ما كانت . انها رمز لايطاليا التي لا تقهر . واذ يرى العمال الحمر هذه العزيمة على المضي ، يتقهقرون ، وعندئذٍ يتحول الضوء الاحمر الى ضوء مصفر ، فتراهم فيه ضعافاً هزالاً دلالة على هزيمتهم امام حيوية ايطاليا وقوتها

وعند ما يخلو الميدان يظهر فيه اعضاء البرلمان وهم يلغطون ويتنازعون ثم يحمى بينهم وطيس الجدال فيقتل بعضهم بعضاً، ومن ورائهم رجال الماسون يدسون للدولة الدسائس

وبعد قليل تعود السيارة مخترقة الميدان امام المعمل ، فيقف سائقها في مقعده وينادي فتردد الآكام التوسكانية نداءه بعد ما تضخمهُ الابواق . ومما يقوله : لقد خسرت ايطاليا مائة وثلاثين مليوناً في حاصلاتها الزراعية في المنطقة المجاورة لروما فقط بسبب دكتاتورية الاشتراكيين ، واقوالاً اخرى من هذا القبيل

لقد اسدل ستار الليل الكثيف على الميدان . وقد انتهى الفصل الثاني . وشعور الجماهير قد بلغ درجة الغليان . فاذا كانت الفترة الثانية ، زاد غليان الشعور بالموسيقى الفاشستية تعزفها الجوقات ، وبطوائف من شبان الفاشست منبثة بين الصفوف تنادي على اعداد من جريدة البوبولو ديطاليا تاريخ ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٢٢ ، وهي النسخة التي اعلن فيها موسوليني انهُ تقلد زمام الامر في الدولة . ثم تظهر طيارة على ارتفاع يسير توزع المنشورات الفاشستية ، فيعجز الجمهور حينئذ عن كبح جماح شعوره وحماسته

اما المشهد الثالث فيمثل دور التعمير وهو فصل يسوده السكون والطمأنينة. فالعمال يعملون في ظل النظام الفاشستي بهدوء، في المعامل وبسلام مع اصحابها . هوذا الحقول حافلة بالفلاحين والمزروعات فيها تبشر بخير وفيض وجماعات الفاشستيين في كل مكان ينظمون ويعلمون وطوائف الشبان والشابات من الفلاحين يرقصون رقص الطرب في الحقول

المشهد مشهد زراعي. لقد رُدمت خنادق الحرب، ومهّدت الطرق الوعرة، وظهرت المحاريث الحديثة تشق الارض وتعدها للزرع ، وجففت البطائح القديمة الوبيئة

ان عمل التعمير سائرٌ على قدم وساق بحماسة ولا حماسة الجيوش في الحرب والسيارة B. L. ١٨ التي كان لها شأن كبير في الحرب الكبرى، وفي دور الانتقال من الفوضى الى النظام ، لها شأن كبير كذلك ، في دور التعمير . ها هي تظهر من جديد على المسرح الطبيعي ، تحمل للفلاحين ادوات الزراعة واكياس السماد . ولكن طال عليها القدم فهي تسير في طريقها متعبة ، لطول ما قاستهُ في خدمة بلادها . واذ هي تحاول الوصول الى جماعة من الفلاحين ، تطلق نفسها الاخير وتقضي في الميدان . عند ذلك ينزل سائقها ويرديها في حفرة كان العمال قد حفروها في تمهيدهم طريقاً جديدة ، ويهيل عليها التراب ، لكي تعود الى الارض التي نبتت منها وكافحت في سبيلها . نعم قضت البطلة في خدمة بلادها ، ولكن السيارات الجديدة القوية آتية وراءها لتتم العمل الذي بدأت

وكذلك تنتهي الرواية بهذا الرمز الوطني البديع

رحمة الله عليها

لاوسكار وايلد

[عني محمود محمد شاكر بنقل هذه القصيدة نقلاً حرفياً وتوخى علاوة على ذلك ان يكون في الترجمة العربية شيء من الايقاع الموسيقي المعهود في الشعر المرسل باللغات الاجنبية]

خفف الخُطا إنها قريب تحت الضريب (١)

واخفض الصوتا انها تكادُ تسمعُ النبتا وهو ينمو

وفرعها الجثلُ يلمعُ كالتبرِ خبا به الصَّدا

تلك التي كانت غريرةً طفلةً قد ضمَّها التراب

زنبقةً كانت بيضاء كالضريب ما علمت يوماً

بأنها انثى فشبَّ عودها في رقة ولين

هذا هو التابوت والحجر الصلدُ يقسو على الصدرِ

دعني انا وحدي اعذب القلبا فإنها ترتاح

صَهٍ صَهٍ صَهٍ لن تسمع الغناءَ ولا حنين الناي

كلُّ مُنى حياتي مدفونة هنا سُنُّوا عليها التُرْب

(١) الضريب : الثلج

الشباب والشيخوخة

لروبنصن جفرز — شاعر اميركي معاصر

زَكِّ دَمَ الشباب الفائر ما بدا لك، فإن السعادة لا تتحقَّقُ لأحد الأحين يخوضُ الحياة في الشباب والدَّمِ الفوَّار . . . . الى شتائها حيثُ يسعُ الرجُلَ ان يتلبَّثَ ويتذكَّر ما مضى

في الشباب والدم الفوَّار فتنةٌ وجمالٌ، ومثل ذلك في السكينة

في بحر الشباب جزُرٌ عارضةٌ، ولكن الكبر كلُّهُ جزيرة وقمةٌ عاليةٌ

وفي الكِبرَ وهنٌ غير قليل، ولكنَّ الشباب جميعه حمّى دائمة

لأن تلفّتَ في سكينة الى آثار صنع الله مملوءَ القلب بالمحبة، اجدى عليك فيما ارى من ان ترتضع ثديَ الأمِّ او ثدي الحبيبة

. . . . لن تجد فيما تملك ابقى عليك من الذكرى

ولكني حين ابلغ تلك الجزيرة الغبراء واعلو قمتها فكل المنى ان تكون بعيني منازل احبابي الاقدمين — بحورها وجبالها، فامدُّ الطرف متأملاً في بحر الموت بظمإٍ ابلغ من ظمإي الى الكبر

إن الذي يشتدُّ بهِ الظمأُ الى الحياة لهو اشدُّ بعدُ ظمأً الى الموتِ

[افرغها في القالب العربي محمود محمد شاكر]

قطعة من الشاهنامة

من كتاب «بيران»

أحد قوّاد الترك الى «كودرز» أحد أمراء الفرس

ميرزا عباس خان الخليلي صاحب جريدة «اقدام» الفارسية اديب يجيد اللغتين الفارسية والعربية وله في المقتطف مقالات نفيسة في شعراء الفرس وقصائد تلمس فيها صور الفرس الشعرية الزاهية. وقد نظم في اوقات فراغه وايام تشريده السياسي جانباً كبيراً من شعر الفردوسي وأتحف المقتطف بهذا المقطع وقد قال في الكلمة التي صحبته: «ولا اشير الى حكمة شاعرنا في ذم الحرب وحب السلم والحنان بأكثر من قولي انه ما ترك لاحد من شيء وما نظمي بحجة ولكن «الشاهنامه» أعظم دليل على ذلك»

أنذروا «بيران» بالموت وما … من يد الموت مفرٌّ لو درى
فانبرى يحتال حقناً للدما … ودعا كاتبه كي يسطرا
قال: فابدأ حامداً رب السما … واستعذ بالله من شر الورى
أنا ارجوكَ الهي كرما … وفؤادي مملوٌّ ما استترا

ان تبيد الحرب من لوح الوجود
وتزيل الضغن عن قلب الجنود

انت ياه «كودرز» ان شئت الخصام … فتروّي من دم الترك التراب
فاحسبنْ انك قد نلت المرام … ثم سدت الخلق من شيخ وشاب
ثم عمّرت طويلاً الف عام … بعد ذا قل لي الى اين الذهاب ؟
ويك قد جندلت من قومي الكرام … كلّ ندبٍ فهو نهبٌ للحراب

كم عن الابدان فرّقت الرؤوس
ويك فاخشى الله واليوم العبوس

قـد تركت الحب ظهريًّا ، ألا ترعوي صفحاً فتدري ما الحنان
هيك احرزت بذي الحرب العلى وارتوى الصارم منكم والسنان
تحسب السّفاك يُسمي بطلاً ، والكمي الشهم من يفري الجنان؟
تهتَ ، فالباسلُ من بات على كرمٍ والناس منهُ في أمان
والشجاع القرم يرعى الذمما
لا الذي عادتُهُ سفـك الدّما

اين فرسانُ بني الترك الأباة ؟ خلفونا بين شيخ ووليد
نحن ضحينا لايران الكماة ثم بالطارف جُدنا والتليد
فاذا ما حان يوم المكرمات وبهِ بُلّغتَ اقصى ما تريد
فاجعل الرأفة من خير الصفات واعصمنْ كفك عن حز الوريد
ألثارِ الميت والعظم الرّميم
تقتل الاحياء ؟ ذا إثم عظيم(١)

اتخال الدهر يبقى ابدا ؟ سوف تفنى ثم يطويك الدثور
ان بعـد اليوم لو تدري غدا لست يا «كودرز» الا في غرور
لا تذب جسمك فينا كمدا وأعذ روحك وانعم بالسرور
ويك لا تسرف فما الخلق سُدى ودم الانسان لا يشفي الصدور
سوف تُبقي العارَ ان حان رداك
فابق والعار إنِ الخير عداك

ان ترَ ابيضَّ من الرأس السواد فاعلمنْ ان الردى قد قربا

(١) لقد سبق القائل (الانتقام عدالة المتوحشين)

أنا أخشى ان نذير الحرب عاد ... وبشير السلم عنا غربا
والتقى الجمعان في يوم الطراد ... ان تطير الهام في الجو هبا
ويدوم الضغن ما بين العباد ... وينال السيل بالغدر الزبى

بعد ذا من يعلم الظافر من ؟
ايُّنا يغلبه جور الزمن ؟

واذا لم يجدكم نصحي وهل ... ينفع النصح اذا شبَّ الغرام
وخطبت الحرب والمَهرُ الأسل ... وتجبرت وطلقت السلام
جئتكم حراً بجندي والخول ... وأبيت الذلَّ والذلّ حرام
فلأم الجاهل الباغي الهبل ... إنْ بنو الترك ارتضوا احد الحسام

لأبيدنَّ جيوش العجم
ثم أحمي عرض قومي بدمي

وأناديهم جميعاً للهياج ... يا لقومي جاست الدار الذئاب
سوف لا يبقى لكم «تخت» و«تاج» ... فاغمدوا الصارم ضرباً في الرقاب
وانفروا واكسوا الفضا ثوب العجاج ... وليكن قائدكم (افراسياب)[1]
اشربوا عذب الدما قبل الاجاج ... ثم خوضوا من أعادينا العباب

ثم نطوي بعده حلس الحروب
فيعود السلم عفواً ويؤوب

طهران

ميرزا عباس خان الخليلي
صاحب جريدة اقدام ومطبعتها

(١) احد القواد الذين اشتهروا في التاريخ الفارسي

باب المراسلة والمناظرة

إرشاد لغوى

« في كل جزء كلمة »

الاستاذ عبد الرحيم بن محمود غني عن التعريف لان قراء المقتطف يذكرون له مباحثه النفيسة في « نظامنا الاجتماعي » و « تاريخ الغناء العربي » ومساجلاته الادبية واللغوية مع كبار علماء اللغة مثل المغفور له الاستاذ الشيخ محمد الخضري والاستاذ اسعد خليل داغر والاستاذ مصطفى جواد وغيرهم . وها هوذا يقدم لقراء المقتطف سلسلة جديدة من مباحثه اللغوية الدقيقة نرجو ان يعيروها عنايتهم العظيمة

(قَدَمِيَّة)

نرى الترك وهم مسلمون ينقون لغتهم مما يزينها ويزيدها ثروة أي من الألفاظ العربية ويكتبون صحفهم وكتبهم بحروف لاتينية ولم يخترعوا حروفاً يصطلحون عليها لتدل على استقلالهم اللغوى كتابة كما استقلوا نطقاً . فطلقوا الحروف العربية لأنها غير تركية فهل الحروف اللاتينية تركية ؟! لا . لا . وإذا أرادوا أن يتقربوا من الدول الغربية باستعمال حروفها فأوربا وأمريكا لا يشعران بأن هذه الحروف المرسومة على طريقتهم وسيلة للتعارف والتقرب. وللترك لغتهم وللغربيين لغات متقاربة وبينها وبين التركية بعد المشرقين والمغربين . « عمرك الله كيف يلتقيان » ولكنّ الغلوّ فى القومية جعل القوم يتركون كل شيء حتى القرآن والآذان !! — وليتهم تركوا الحروف أو أبقوها على ما كانت عليه ولهم فى دولة الفرس ودولة الأفغان أسوة حسنة فانهما دائبتان فى استعمال الحروف العربية على حين أن الشعوب الغربية تتقرب اليوم إلى العرب ولغتهم . والمستعربون منهم فى تكاثر وإن كان أكثرهم لا يدينون بدين العرب على أننا نرجو لتركيا حياة حرة سعيدة دائمة

وإذا كان الترك قد غلوا فى قوميتهم فقد غلونا نحن المصريين فى هجرنا كثيراً من ألفاظنا العربية الفصيحة وقد وصلنا أقلامنا بالغريبات الغريبّات — وبنات شفاهنا أولى بمصاهرة أقلامنا

فأطباؤنا وهم من خيرة المتعلمين وصحفيّونا وهم من نخبة المتأدبين وأساتذتنا وهم من صفوة المربّين وأبناؤنا وهم من نجباء الناشئين المتعلمين يجب عليهم أن يتحسّسوا من الألفاظ العربية ويعملوا على إذاعتها بألسنتهم وأقلامهم ولاسيما فيماله اتصال بأعمالهم فعليهم أن يذكروا (القدميّة) التي استعملها اجدادنا القدامى بدلاً من ڤزِت ويذيعوها بوسائل الإذاعة كما اقتضاها المقام

فإن اللفظ ڤزت (visit) الانجليزى واللفظ ڤيزيت (visite) الفرنسى هما وليدا الفعل اللاتيني ڤيزيتارى (visitare) ومعناه يذهب ليزور فالطبيب يسعى إلى المريض« وسعيه زيارة » فيتعرّف مرضه فيعرفه بأعراضه . والقدميّة — المنسوبة إلى القدم — هى اللفظة الجديرة بهذا المعنى .

وقد استعملها أطباء العرب من قبل كما أخبرني صديقي الطبيب اللغوي محمد عبد الحميد بك مدير مستشفى الملك الآن وقد أثبتها في معجمه اللغوي الطبي العربي المرتب ترتيب الحروف العربية والافرنجية ولما يطبعه . وقد أطلعني عليه مخطوطاً « وأنا معه »

وإطلاق اللفظ الأجنبي المذكور ڤزت أو ڤيزيت على الأجرة هو إطلاق مجازي لأن الذهاب بالقدم أو ما ناب عنها كالسيارة إلى المريض تلزمه الأجرة وكذلك يقال في القدمية المستعملة بمعنى الأجرة التي يستحقها الطبيب جزاء سعيه إلى المريض لاكتناه مرضه ومعالجته فقد أطلق العرب المتحضرون (القدميّة) وأرادوا لازمها أي الاجرة أو يقال إنهم أطلقوا القدمية التي هي سبب لاستحقاق الاجرة وأرادوا تلك الأجرة — وللمجاز المرسل علاقات — فنتخيّر منها أهداها إليه سبيلاً . واجعل المقام عليها دليلاً

فإذا قيل ما قولك في الطبيب الذي يسعى اليه المرضى في مستوصفه فهل تطلق على الأجور التي ينالها من المرضى قدميّات أيضاً على أنهُ لم يسر اليهم بقدم ولا بسيارة ونحوها قلت نعم لأنهُ سار من منزله إلى مستوصفه ليستقبل مرضاه فلهُ الأجر على ذلك لأنهُ ما سعى سعيه حيث المستوصف الآ لأجل مرضاه وما قصد بذلك الآ القصد من وقته والتيسير على نفسه وعليهم بخدمة كثير منهم في المستوصف وقد لا يستطيع أداء هذه الخدمة في ذيّالك الوقت فنفعه إياهم وهم مجتمعون اكثر من نفعه لهم وهم متفرقون والأجر الذي يناله من المريض وهو في المستوصف أقل منه وهو في منزله — فالقدمية محققة في كلتا الحالين —

ولا يقال إن العرب في حضارتيها العباسية والأندلسية قد نقلت معنى اللفظ اللاتيني المذكور أو نقلت معنى وليده الفرنسي أو الانكليزي فقالت القدميّة لأن هذا المعنى مما تقضي به الحياة المشتركة في الامم كلها ولو تطابق اللفظان أيضاً في المعنى حقيقة ومجازاً في تلك اللغتين العربية واللاتينية كما تقدم

ومما يجب أن أوجه إليه أنظار القرّاء أن المعنى اللاتيني العام قد خصص عند الانكليز والفرنسيين ونحوهم فإني بالبحث في المصادر الموثوق بصحتها رأيت الفعل اللاتيني ڤيزيتاري (visitare) ومعناه (يذهب ليزور) لصداقة أو لحب استطلاع أو للفحص عن مرض مريض أو لأيّ غرض كما في الشرح — فتخصيص القدميّة بسعي الطبيب إلى المريض أو إلى المستوصف لتشخيص المرضى وعلاجهم المستوجبين الأجر قد وافق أيضاً تخصيص الإفرنج (ڤزت أو ڤيزيت) بذلك أيضاً . وليس ذلك بسرقة بل هو من باب اتفاق الخواطر فليت شعري هل كان شيطان العرب والافرنج واحداً ؟ ! فأرجو أن نعمل على إحياء لغتنا في مشارق الارض ومغاربها فننقيها مما يشينها ولا يزيدها لأن مغاص المفردات والأساليب العربية قد زخر باللآلىء الثمينة فلنغص عليها فنستخرجها « وإن أجهدتنا » ونقلّدها أجياد الصحف والمجلات ونمشطها الناطقين بالضاد في كلّ البلاد

لغة الضاد كاد يقضى عليها في زمان فيه اللّغى تتقدّم !!

عبد الرحيم بن محمود

النثر الفني

في القرن الرابع : تأليف الدكتور زكي مبارك

تفضل صديقي المفضال الدكتور (زكي مبارك) فأهدى اليّ مؤلَّفه العظيم (النثر الفني في القرن الرابع) فشكرت له هذا التفضل ، ثم أقبلت على قراءة ذلك الكتاب الحافل ، قراءة معنيٍ بموضوعه ، معجب بمادته واسلوبه ، مغتبط بجمال طبعه وحسن تقسيمه ، مقدّرٍ لمؤلفه الفاضل غزارة مادته ، وانسجام عبارته ، وطرافة بحثه ، وكمال استيعابه ، مدرك تمام الادراك عظيمَ جهده وحسن بلائه ، ومقدار صبره ، حتى أبرز هـذا الكتاب الجليل في ذلك الثوب القشيب ، في زمن طغت فيه المادة ، وفترت عزائم الادباء

ان كتاباً يتناول موضوع النثر الفني ، في جزأين حافلين ، فيأتي بذلك المظهر الرائع ، لهو كتاب خالد، وان مؤلفاً يتوفر على بحثه تلك السنين الطوال، بين متاعب الحياة ، ومشقة الاغتراب، فيأتي بهِ على هذه الصورة لهو مؤلف عظيم

اول ما ينال اعجاب القارىء من كتاب (الدكتور زكي مبارك) هو جلال الحجم ، وجمال الطبع فقلما رأينا في هذا الجيل كُتباً تجمع المزيتين، ثم يزداد الاعجاب متى رأى القارىء أثر عناية المؤلف بجمال التبويب ، واتساع نطاق البحث ، وتتبع المسائل — في صبر عجيب — بالتنقيب والتقصّي ، حتى يردّ الاشياء الى اصولها ، ثم يبلغ الاعجاب نهايته متى اوغل القارىء في درس الكتاب ، ولم يشعر في ذلك بضجرٍ ولا ملل ، لما يتذوقه من حسن البيان ، ووضوح الفكر ، وجزالة العبارة ، وقوة الروح . واطراد البحث في غير قلق، وكثرة المفاجآت التي تشيع في جزأي الكتاب ، فتنقل القارىء من هدوء شامل ، الى جدال قائم ، لا يخلو من الطرافة واللذة ، وفيه من بواعث الشوق ما فيه ، وبخاصة اذا كان القارىء ممن اعتادوا البحث العميق الذي لا يخلو من تعارض الآراء ، فيوازن ويرجح ، وينتهي من ذلك الى رأي حاسم ، قد يكون للمؤلف او عليه ، وهو على كلتا الحالتين شاكر للمؤلف ان اتاح لهُ تلك الفرص التي تجعل للبحث جدّةً ، وتمتع القارىء برياضة روحية

لقد وفق الدكتور الى كل اولئك ، واندفع أيمـا اندفاع في تيار المفاجآت والمعارضات ، فما يكاد يخلو رأي يعرض لهُ من مفاجأة او معارضة ، فبينا هو يهاجم صاحب (العمدة) واذا بهِ يكر على (الحريري) او على المعاصرين ، سواءٌ منهم الشرقي والغربي ، وتلك عادة في الدكتور زكي مبارك تحسُّ آثارها في اكثر ما يكتب او يؤلف ، ولعلها نتيجة الدرس العميق او الثقة بالنفس او هما معاً ، وانما ألمُّ بتلك الظاهرة لأقرر بصددها ما اسلفتهُ ، ثم اصارح الدكتور اني برغم ما قرنته أراه قاسياً في مواطن كثيرة ، وخير من ذلك العنف في الحِجاج أخذُ باللين والهوادة . ومناقشة

لآراء المعارضين في رفق وتؤدة ، ولن يؤثر هذا في قيمة الحق ، ما دامت الحقيقة واحدة ، وفي الناس قراء منصفون ، يطلبون الحق أنى وجدوه

هذا رأيي في شكل الكتاب ، وأسلوبه الأدبي ، ومنهاجه الجدلي ، وأما موضوعه فطريف جليل ، وهو بوصفه هذا حسنة من حسنات العصر الحالي ، ويد من أيادي المؤلف يسبغها على الادب والمتأدبين ، وما ظنك بكتاب يتصدى لدراسة (النثر الفني في القرن الرابع) ويتقدم الى الناس بهذه السمة ، ثم هو لا يدع شاردة ولا واردة مما يتعلق بالنثر الا عرض لها ، وخاض فيها ، وأقرها او نفاها ، وتناولها بالبحث المستفيض ، على نمط يربي ملكة النقد ، ويذكي روح البحث ويشبع نهم الخاصة ، ويبعث شوق الشادين في الادب الى درسه والتعمق فيه ؟

ذلك شأن الكتاب ، يعرض للنثر فيوازن بينه وبين النظم ، ثم يوغل في جوف الماضي ، حتى يتناول النثر في العصور الاولى ، ثم يساير النثر في جميع أعصره ناقداً مؤرخاً ، حتى يصل به الى القرن الرابع ، وهنا يبسط شعاع بحثه ، فيلم بأشتات الموضوع ، ويبين كيف صار النثر صناعة فنية ، وكيف سيطرت المحسنات على اقلام الكتاب في ذلك العصر ، وما الذي دفعهم اليها ، او دفعها اليهم ، وهل كان لها عناصر في ادب القرون الخالية ، وما قيمة تلك العناصر ، ثم يتناول اعلام النثر الفني بالدرس العميق ، وما خلفوه من آثار ، أو سنّوه من سنن ، ومن قفّى من الكتاب على آثارهم ، ومقدار توفقهم او ابتكارهم فيما اتبعوا من سنن او ابتكروا من حديث ، واذ كان دأبه الدرس العميق والبحث الدقيق فقد خصّ (المقامات) وهي ابرز مظاهر النثر الفني بجانب كبير من عنايته ، وترجم لبديع الزمان ، والحريري ، ووازن بين مقاماتهما ، اسلوباً وموضوعاً ، ولم يهمل في هذه الناحية (ابن دريد) بل عني به ، وعدّه مبدع (فن المقامات) واستاذاً (لبديع الزمان) نتيجة خطأ ألحقه (بالحريري)

وهكذا يسير الاستاذ في دراسته تحدوه ثقافة واسعة ، ويدفعه شوق شديد لخير الأدب والمتأدبين . وهناك ظاهرة تبدو في غير موضع من الكتاب ، هي تعصب الدكتور للثقافة العربية وانحيازه الى جانبها ، فقد ذهب مؤرخو الأدب الى اعتبار المقامة فارسية الأصل ، فجاء الدكتور برأي جديد ، يردّ المقامة الى اصل عربي ، ثم هو يقرر في الجزء الاول (صفحة ٢٠٣) ان (بروكلمان) يرى ان فن المقامة نقل من العربية الى الفارسية ويقول عقب ذلك (وكان الدكتور ضيف يرى العكس) ، ولكن المؤلف الفاضل ، لم يعرض أدلة الرأيين ، وكأنما جاء برأي (بروكلمان) معززاً لحسب لما ذهب اليه ، ثم لم يجد بعدُ من حاجة الى عرض ادلة الطرفين ما دامت نظرية (بروكلمان) تساير نزعة المؤلف التي حاول اثباتها ، وهي نزعة مشكورة على كل حال ، غير ان الانصاف يوجب علينا ان نقول ان بحوث الدكتور (ضيف) مازالت تقرر ان المقامة فارسية الاصل ، وان الحق كما يبدو لنا يؤيد هذا الرأي ، سواء أكان مبتدع المقامة (بديع الزمان) ام كان مبتدعها (ابن دريد) ،

اذ الاول فارسي الاصل ، والثاني أقام بفارس، وكتب لابني (ميكال)

هذه ناحية مما لا نوافق الدكتور عليه ، ونعتقد ان الاعجاب بعمله الجليل لا يمنعنا ان نجهر بذلك ، كما لا نعتقد ان ذلك الاعجاب يحول بيننا وبين ايراد المسائل الآتية : —

١ — يأخذ الدكتور على مؤرخي الأدب العربي ما رآه غضاً من قيمة الادب الجاهلي، ويقول في صفحة (٣٣) من الجزء الاول (لقد اتفق مؤرخو المسلمين ومؤرخو اللغة العربية وآدابها على ان العرب لم يكن لهم وجود ادبي قبل النبوة) ، ثم يستطرد في ذلك حتى يقرر ان للعرب قبل النبوة حياة ادبية تسمح لهم بفهم القرآن الكريم وتدبر معانيه ، ثم يغلو في ذلك حتى يقرر (ان القرآن نص جاهلي) ثم هو الى جانب هذه الغيرة المتقدة ينفي ما أثر من النثر الجاهلي حتى خطبة (قس بن ساعدة)

ونحن نوافق الدكتور على ان للعرب قبل البعثة ادباً له قيمته ، وانه لولا ذلك لما خوطبوا بذلك الكتاب الكريم الذي امرهم ان يتدبروا آياته ، ونقرر للدكتور ان مؤرخي الادب العربي لم يناقضوا ذلك ، بل قرروه بالعبارات الصريحة التي لا تحتمل تأويلاً ولا تكذيباً ، هذا (ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) يقول بصدد الكلام في اعجاز القرآن (بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم اكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً ، واحكم ما كانت لغة ، واشد ما كانت عدة) وهؤلاء اصحاب (المجمل) من الاساتذة المعاصرين يقولون (والامة العربية كغيرها من الامم القديمة الراقية لها ادب ممتع ، فيه الشعر الرائع ، والنثر البليغ) الى غير ذلك مما قرره مؤرخو الادب في القديم والحديث ، اما القول بأن القرآن الكريم (نص جاهلي) فقول نسمح لنفسنا برده ، مهما يكن في هذا التعبير من التجوز، ومهما يكن له من أثر في الحكم على الآداب الجاهلية ، وحسب العرب دليلاً على سمو ملكاتهم، وحياة آدابهم ان خوطبوا من الله بذلك الكتاب المجيد ، وان فهموا مقدار بلاغته، وسمو عبارته ، فاعترفوا بها ، وحسبهم بعد هذا ما أثر لهم من النثر الرصين ، وان قل المأثور منه ، لعوامل لا تخفى على الباحثين ، وبعد فلا يكفي للحكم بانتحال كل النثر الجاهلي ان يشك الباحث في بعضه ، وقد نسلم للدكتور بوضع بعض ما نسب الى بعض الكهان، ولكنا لا نوافقه البتة على نفي خطبة (قس بن ساعدة) التي رويت بطريق واضح لا سبيل الى الطعن فيه والتي سمعها النبي عليه الصلاة والسلام من (قس) في سوق عكاظ قبل البعثة ، كما روى ذلك ابو الفرج في (الاغاني) بسند صحيح عن (ابن عباس)

٢ — رد الدكتور (في صفحة ٦٩ من الجزء الاول) على المسيو (ديمومبين) غضه من قيمة ما نسب من الخطب (لعلي كرم الله وجهه) ، وهذا رأي له مكانته ، ولكن صديقي الدكتور يعتمد في رده على قول الجاحظ (ان خطب علي وعثمان كانت محفوظة في مجموعات) وما ارى هذا كافياً في الدفع الذي قام به الدكتور ، وقد يكون لديه وجوه اخرى اقوى من كلام الجاحظ ، فماذا يمنع ان يكون كلام (علي) كرم الله وجهه مجموعاً في صحائف ثم يزيد فيه من اراد المزيد ؟

٣ — قرر الدكتور ان عدة مقامات (بديع الزمان) خمسون لا (اربعمائة) معتمداً على دليلين

اولهما ان (البديع) كان يعارض (ابن دريد) والاحاديث المنسوبة الى (ابن دريد) اربعون حديثاً ، والمعارضة تقتضي التقارب دائماً في الكمية وثانيهما ان مقامات البديع لم يحفظ منها سوى خمسين (كما قرر الدكتور)

واحب ان يسمح لي الدكتور بمناقشة هذين الدليلين . فاما ان (البديع) كان يعارض (ابن دريد) فامرٌ متوقف على الجزم بأسبقية (ابن دريد) في فن المقامات ، وهذا رأي غير مضمون التسليم ، اذ لبعض الناس ان يشك في المشابهة بين المقامات وما نسب من الاحاديث الى (ابن دريد) ، وله ان يسأل: اين هي الاربعون حديثاً المعزوة اليه ? واذاً لا يلقى الا جواباً يشوبه شيء من الشك ، ويعتمد كثيراً على مجرد الترجيح . واذا لم نقطع باسبقية (ابن دريد) لم يعد لنا الحق في جعل البديع معارضاً له ، وبالتالي لا يلزم ان تكون مقامات (البديع) خمسين لانها تعارض احاديث (ابن دريد) وعدتها اربعون ، واما ان ما حفظ من مقامات البديع خمسون مقامة فحسب ، فلا يصلح دليلاً حاسماً على نفي ما عدا هذه الخمسين ، لانهُ لا يبعد ان يقول الرجل اربعمائة مقامة ، ثم تقصر لسبب ما على تدوين خمسين

وبعد فلا يعنيني ما اراهُ قابلاً للمناقشة فيما قرأت من الكتاب ان أُعلن عظيم اعجابي به موضوعاً واسلوباً ، وان اهنيء الادب بهذا الكتاب الحافل ، واهنيء صديقي الدكتور بهذا الأثر الخالد

محمود علي البشبيشي
المدرس بدار العلوم العليا بمصر

الطرق العملية لدراسة

الحياة العقلية

تفضلت مكتبة المقتطف فقدمت كتابنا الجديد الى قرائها في العدد الماضي بعبارة بالغة حد الرقة وجميل التقدير . ولو انها بالغت في المديح والاطراء بما اخجلنا فلحضرة كاتبها الفاضل منا جزيل الشكر . وإنا لنحمد له حث الطلاب والمدرسين على اجراء ما فيه من تجارب وارسال نتائجهم الينا وان كان الكتاب كما قلنا في مقدمته « قد وضع بحيث يستطيع كل انسان ان يجد فيه المدى الذي يوافقه ويناسب معلوماته » . اما ما كان يتوقعه من تقديم دراسة تفصيلية لهذه الاختبارات مع بعض الامثلة التي تسهل فهم الموضوع ولم يجده ، وطريقته التي اشار علينا بملاحظتها في كتابنا الثاني وهي البدء بالمبادىء الاولية ثم التجارب حتى يعرف المجرب ما يقوم به — فليعذرنا ان خالفناه فيها . فنحن لم نخرج البتة على الطريقة التي يعمل بها جميع علماء النفس التجريبيين مما نجده في الكتب الافرنجية . وقد قصدنا هذا النظام الذي وضعنا به الكتاب ولم يأت عفواً لأن الخبرة الطويلة بالتدريس والاساليب الحديثة فيه عودتنا ان نبدأ بالتجارب غير مقيدين برأي او نظرية تسهل على

المجرب طبخ نتائجه حتى تتفق معها ثم نوجه الطلاب بالاسئلة المرتبة المتدرجة نحو الطريق التي يوصلهم الى النتائج بأنفسهم ومعرفة تطبيقها والكتاب مليء بها . وبعد ان ينتهي المجرب من الكتاب كله نعطيه مفتاحاً مستقلاً نلخص فيه اهم القواعد والنتائج المقطوع بصحتها ليقابل به نتائجه

ولعلّ الكاتب لم يقرأ مقدمة كتابنا . وقصدنا ايضاً ان يتأخر المفتاح عن الكتاب ستة شهور ولعله لاحظ ان كل ما في الكتاب وضع لغرض خاص من نوع الورق والكتابة المقلوبة والهوامش التي في بعض الصفحات وليست في البعض الآخر واختلاف بنط بعض السطور عن الأخرى .

وكنا نرجو كذلك ان لا يترجم كلمة Subject بموضوع لأنها تأتي بهذا المعنى في الانشاء ومواد الدراسة فقط اما في علم النفس فتدل دائماً على المجرب أو الذات او الشخص او الفاعل أما الموضوع فترجمة Object . والكلمة لم ترد في كتابنا بهذا النص كما قد يفهم القارىء

ولا يسعنا بعد هذا الا ان نقدم جزيل الشكر وعظيم الامتنان لحضرة الكاتب المحترم ونرجو ان يكون لكتبنا المقبلة نصيب من ملاحظاته القيمة نظلة الحكيم ومظهر سعيد

المقتطف في اللغة

كنا قد شهدنا بعض الكتاب في الصحف يخطىء كلمة « المقتطف » زاعماً ان الفعل « اقتطف » لا وجود له في اللغة العربية ، معولاً في ذلك على عدم وجود الكلمة في معاجم اللغة ، وليس الامر في ذلك كله يرجع الى المعاجم ، اذ ان هناك كلمات كثيرة سقط على مؤلفيها ان يلتفتوا اليها ، فلم تحظَ منهم بتدوين

من هذه الكلمات « اقتطف » التي نحن بصددها ، فقد رأيتها في بيت للاعشى وهو :

لما امالوا الى النشاب ايديهم ملنا ببيض فظل الهام يقتطف

من قصيدته التي مطلعها :

لو ان كل معد كان شاركنا في يوم ذي قار ما اخطاهم الشرف

وقال ابن رشيق في مستهل العمدة « اما بعد فان احق من جنى ثمر الالباب واقتطف زهر الآداب . . الخ »

وقال الحريري في مقامته الرملية « حتى خلت ان الجن اختطفته او الارض اقتطفته . . الخ »

فها نحن ألاء نرى الكلمة عريقة في العربية مقتطفة من دوحتها ، ودليلنا قول الاعشى ، وناصرنا ومعزز دليلنا استعمال الحريري وابن رشيق ، فليس ثمة مجال لتخطئة « المقتطف » الذي هو اسم مفعول من « اقتطف »

فالمقتطف — وان لم تقتطفه المعاجم — مقتطف من اللغة العربية ومن ثمراتها الطيبات

عباس حسان خضر



رسالة من باريس — لبشر فارس

كتب شرقية جديدة

بالغة الفرنسية

الزواج عند مسلمي العرب

٢٩٩ ص من القطع المتوسط

Le Mariage chez les Musulmans en Syrie par Khalid Chatila
Editions Geuthner, Paris.

ألّف هذا الكتاب صديقي الاستاذ خالد شتيلة وبه نال شهادة الدكتوراه من السوربون . وقد صنع اليّ جميلاً اذ استند الى كتابي «العرض عند عرب الجاهلية» فيما كتب ، غير مرة

ان كتاب الأستاذ شتيلة يعدّ معاونة (Contribution) ذات شأن على فحص احوال الزواج وشرائطه عند المسلمين . وهو على ثمانية أبواب : الباب الاول في الخطبة ، والثاني في اعمار الطرفين و «البلوغ» ، والثالث في قبول الطرفين واهلهما ، والرابع في مساواة الطبقات الاجتماعية ، والخامس في المَهر ، والسادس في موانع الزواج ، والسابع في اشكال الزواج الخارجية ، والثامن في طريقة عقد الزواج

وبعد فان الاستاذ شتيلة أحسن في البحث عن احوال الزواج لهذا العهد . غير انهُ لم يذهب فيما كتب عن الجاهلية والاسلام مذهباً بعيداً ، والسبب في ذلك أنهُ لم يعول على الكتب المُسنَد. فانك لتراه يرجع الى تآليف المؤرخين والعلماء المعاصرين أمثال الخضري والالوسي وزيدان وعبدالله عفيفي والبافي وعلي عبدالواحد وبشر فارس من الشرقيين ، وجودفروى دومامبين وغيره من المستشرقين

ولقد كان يحقّ بالاستاذ شتيلة ان يرجع الى الاصول ، ومن الغريب انهُ لم يعوّل على الشعر الجاهلي (لا شعراء النصرانية ولا الحماستين ولا الجمهرة وما اليها) ولا على الاغاني ولا طبقات ابن سعد ولا كتب الأدب والتاريخ (الاّ انهُ اعتمد على سيرة ابن هشام وكتاب التاج وكتاب الحيوان) فتراه ان تكلم على المهر في الاسلام لم يستند الاّ الى القرآن ولسان العرب . وقد رجع الى حديث البخاري مرة واحدة والى منهاج الطالبين مرة واحدة (لا الاصل ولكن الترجمة ؟)

والذي ترتب على هــذا النقص في البحث ان الاستاذ شتيلة لم يجمع لاشتات الموضوع زمن الجاهلية والاسلام ، ولربما اضطربت آراؤه الحين بعد الحين لفراغ يديه من النصوص . ومما يزيد في

ذلك الاضطراب انهُ يدأب دأبه في تطبيق نظريات جماعة من علماء الغرب على عادات العرب الاولى . فالذي قاله في مساواة العرب يتطلب المراجعة، والذي قاله في اسباب المهر يقتضي التحقيق، واما الذي قاله في «المفاخرة» فغير وافٍ . وما ضرَّ الاستاذ شتيلة لو قصر موضوعه على الزواج لهذا المهد في الشام (١) . فوالله لو فعل لكان عزز لباب بحثهِ ونحَّى عن كتابهِ مواطن الضعف

مقدمة ابن خلدون

٢٢٦ ص من القطع المتوسط

Les Proiégomènes d'Ibn Khaldoun Editions Geuthner, Paris.

هل هنالك حاجة الى تعريف ابن خلدون ، ذلك العَلَم ؟ ان قراء المقتطف يعرفون عنهُ الشيء الكثير ولاسيما ان مقدمتهُ متداولة والمباحث عنهُ مستفيضة متداركة بالعربية واللغات الاوربية

وبعد فان مقدمة ابن خلدون في المحل الاول عند علماء الفرنجة . وقد فطن المستشرقون الى عظمة شأنها ورفعة مكانتها من زمان . فقلبوا النظر فيها واشادوا بذكرها وقد نقلها (البارون دي سلان) الى اللغة الفرنسية حوالي سنة ١٨٦٠ . فاقبل العلماء من مستشرقين وفلاسفة واجتماعيين واقتصاديين على المقدمة يبحثونها ويستمدون منها آراء ويوازنون بينها وبين غيرها من المؤلفات التي تجري مجراها حتى اصبحت نسخها عزيزة ندرة

واليوم عزم ناشر فرنسي على طبع ترجمة المقدمة مرة ثانية .فظهر الجزء الاول وسيليه الثاني والثالث

ومثل هذا العزم يدل على أن مكانة ابن خلدون ما تزال في صعود وكيف لا تكون كذلك وهو مرسل طائفة من الآراء العصرية في الاجتماع والاقتصاد . ثم ان في طيات مقدمته ما يسمونهُ اليوم « الفكر الحديث » ذلك الفكر الذي اخذ بهِ علماء النهضة الاوربية وبلغ بهِ (ديكارت) الى الغاية المثلى . ومن دعائم هذا الفكر : نبذ النقل وتحليل الوقائع وتعليل الحوادث . فكأن عقل ابن خلدون صفوة عقول العلماء الاقدمين وباكورة عقول العلماء المحدثين

سلمان باك والمقدمات الروحانية في الاسلام الايراني

تأليف لويس ماسينيون ٥٢ ص من القطع المتوسط

Salmân Pâk et les prémices Spirituelles de l'Islâm Irânien par Louis Massignon.

اشتغل الاستاذ لويس ماسينيون (عضو المجمع اللغوي الملكي) بالتصوف زماناً حتى اصبح العالم الثقة بهذا الفن ، واليهِ تنصرف الانظار فيهِ وعنهُ تؤخذ مسائله . وها هوذا يؤلف رسالة في منشإ

(١) كان يحسن بالاستاذ شتيلة ان يحدد لنا الشام . فان الشام La Syrie شيء غامض وبخاصة من بعد دخول فرنسا بلاد سوريا

الشيعة والتصوف مستنداً الى سيرة سلمان الفارسي . وفي هذه الرسالة نقد دقيق لتلك السيرة . وقد انتهى المؤلف في بحثهِ الى الزيادة في تقويم المنهج الذي بهِ تميز الاحاديث الصحيحة من الموضوعة . وطريقه في هذا أن يرتب رواة الحديث بحسب أنسابهم وقبائلهم

دولة اشتراكية لاحد عشر قرناً قبل المسيح

٢١٢ ص من القطع المتوسط

Un socialisme d'Etat onze siècles avant J.—Ch. par Serge Dairaines
Editions Geuthner, Paris.

يعلم الذين اطلعوا على تاريخ الاقتصاد السياسي ان الالماني (فردريك لِست) List طلع على قومهِ بمبدإ قائم على القومية سمّاهُ الاقتصاد القومي ، وذلك في القسم الثاني من القرن الماضي

وهذا فرنسيٌّ عالم بالمصريات يدعى (ديرين) يخبرنا بأنَّ ذلك المبدأَ كان شائعاً في مصر لاثنين وثلاثين قرناً قبل (فردريك لست) في عهد (أمينوفيس الرابع) الفرعون الشاب

ان بحث الاستاذ (ديرين) ناهض على فحص الاوضاع المصرية لذلك العهد البعيد والحياة الزراعية والاقتصادية والتجارية ومسئلة السكّة والامتلاك ومختلف المعاملات داخل القطر وخارجهُ

والذي يستخرج من هذا البحث ان الفرعون (وهو ممثل الدولة على الاطلاق) كان يناسب بين الحاجة والانتاج ثم يجعل الانتاج يساير مقدرة القطر عليهِ ثم يوزع الوان الانتاج بحق وعدل . ومما يجب ذكره ان العدل كان غاية لا دافعاً. وهذا مظهر من مظاهر الانسانية لم يبرز في العالم قبل ذلك العهد

ثم ان المؤلف في خاتمة الكتاب اخذ يعارض اقتصاد مصر ايام الاسرة الثامنة عشرة بنظريات (لست) و (روبرتس) وغيرهما من الاقتصاديين الذين قالوا بالاقتصاد القومي

معاونة على بحث النزاع القائم بين المسلمين في الهند

٢٥٢ صفحة — من القطع المتوسط —

Contribution à l'Etude du conflit Hindou—Musulman par Rahmat Ali
Editions Geuthner, Paris.

يفحص الاستاذ رحمت علي صاحب هذا الكتاب عن السبب الذي من اجله يضطرب حبل المسلمين في الهند وتختلف كلمتهم حتى انهم لا يقدرون على ان يخرجوا بنتيجة من بين ايدي الانجليز

يرى الاستاذ رحمت علي ان مسلمي الهند على ثلاثة مذاهب : مذهب المحافظين الذين يعتمدون على لندن ويستمدون منها عزَّهم وجاههم ، وهؤلاء المحافظون من الخاصة والامراء . فمذهب القوميين المائلين ميل غاندي المتعصبين له ، وهم بين الخاصة والعامة ورئيسهم الدكتور أنصاري . ثم مذهب المفكرين المتشيعين لآراء (كارل ماركس) ابي الشيوعية في اوربا ، وهؤلاء المفكرون يعللون

اضطراب الهند وانكسار شوكتها بما بين جنبيها من المناقضات الاقتصادية . والظاهر ان صاحب الكتاب ممن يذهب هذا المذهب الاخير

على ان هذا الكتاب وان يعمل لبث العدل في الهند ونشر الوفاق فيها لينشىء بعض المشكلات واعظم هذه المشكلات شأناً مسايرة الاسلام لمذهب (كارل ماركس)

هذا وان في ثنايا الكتاب ما لا يشرح الصدر ، ذلك ان المؤلف لا يخفي ان السبب في استحكام الشقاق بين الهنود والمسلمين يرجع — آخر الامر — الى نزاع ديني (ص ١٤٠) مستور على الغالب

الدراسات الاسلامية

تأليف جودفروى دومبامبين — ١٠ ص ، من القطع المتوسط

Les Etudes Musulmanes (La Science Française)
par Gaudefroy Demombynes, chez Larousse, Paris.

هذه رسالة صغيرة تبسط للقارىء تاريخ الدراسات الاسلامية في فرنسا منذ القرن السابع عشر حتى اليوم . وتمتاز هذه الرسالة بالجمع بين الاجمال والاستيعاب في اسلوب سهل مشرق . ولا غرو ان تأتي هذه على ذلك النحو من الحسن ، فان صاحبها من أولي العرفان ومن ذوي البسطة في فن الاستشراق

التاريخ العام للفنون (الفن القديم)

Histoire Universelle des Arts (L'Art Antique)
Librairie Armand Colin, Paris, 1930.

ان الدراسات التي تتعلق بالفن من بنايات وتصوير ونحت ونقش وما اليها قد بلغت في السنين الاخيرة مبلغاً عظيماً . وذلك يرجع الى ان علماء الاجتماع انتهوا في مباحثهم الى ان الفن من اكبر الدلائل على عقلية الامم

والكتاب الذي نحن بصدده يبحث عن منشأ الفن وقدمه . ففيه فصل طويل عن آسيا ومصر يمتد من التاريخ الغابر حتى سنة ٣١٠٠ قبل المسيح اي في الزمن الذي لم يكن الحكم بين يدي الأسر . ثم فصل يمتد من سنة ٣١٠٠ الى ٢٠٠٠ ثم آخر من سنة ٢٠٠٠ الى ١٠٠٠ ثم آخر من سنة ١٠٠٠ الى عهد المسيح . اذ لكل من هذه المدد خصائص تذهب مذهبين احدهما مصري والآخر آسيوي . ثم ان فن فلسطين ملتقى هذين المذهبين

وهذا الكتاب يبحث عن روما واثينا اذ يفرغ من آسيا ومصر . وان بحثه ليمتد في الزمان امتداده هنالك . وخيرما في هذا البحث الاخير مقابلة بين اتجاه فن الرومانيين واتجاه فن الاغريقيين قائمة على الفحص عن الآثار والظواهر على اختلاف انواعها

كتابان في الحيات

امامي كتابان طُلب مني نقدهما وهما في موضوع يكاد يكون واحداً وارجو ان يكون النقد ما يراد بالنقد اي بلا تحامل ولا افراط في المدح او بيان المساوىء دون غيرها والكتابان بحسب تاريخ ورودهما على رئيس تحرير المقتطف هما الكتابان الآتي ذكرهما

الكتاب الاول

المصطلحات العلمية العربية وما يقابلها باللاتينية والانجليزية والفرنسية لاسماء الحيّات

بقلم جرجس فيلوثاوس عوض ودكتور رمسيس جرجس

واني استأذن الزميل الفاضل قبل كل شيء في ان اضيف اداة التعريف الى كلمة دكتور واقول الدكتور رمسيس جرجس فان كلمة دكتور وان تكن غير عربية فان اللغة العربية تقتضي اضافة اداة التعريف اليها في هذا الموقف فهي رتبة علمية يحملها كثيرون من الاطباء والادباء ولا يحق لاحد ان يكتبها كما يشاء . اما الآن وبعد هذه المداعبة فاني ابدأ في نقد الكتاب فأقول :

هو كتاب جمع فيه المؤلفان الفاضلان اي الاب والابن — ولكليهما شأن في عالم الادب والعلم — اسماء الحيّات على انواعها فذكرا نحو الف من الانواع وذكرا لكل واحد منها اسم الجنس واسم النوع باللاتينية فعرّبا اسم الجنس وترجما اسم النوع ثم ذكرا لكل واحد منها الاسم العربي والانجليزي والفرنسي فجاء كتاباً وافياً ذكرت فيه انواع كثيرة من الحيات المعروفة . اما الاسماء العربية فانهما ذكرا نحو مائتي نوع منها مما ورد في كتب اللغة والمؤلفات العربية ولم يقصرا في ايراد الاسماء العامية احياناً اما اعتمادها فكان على التصحيح منها ولما كان يتعذر ضبطها دائماً فقد جمعاها في آخر الكتاب مضبوطة بالشكل الكامل . ومما يعود عليهما بالشكر انهما اوردا جميع المصادر التي اخذا عنها وهي المصادر العربية والاعجمية فنسبا لكل قائل قوله شأن كبار العلماء

ويتعذر على الناقد ان يفي هذا الكتاب حقه بلا بحث دقيق قد لا يجد فيهِ عامة القراء ما يلذ لهم وانما على الناقد تبعة كبيرة فعليهِ ان يبين اوجه النقص ولا سيما في كتاب علمي مثل هذا الكتاب فاستأذن العالمين الفاضلين في الاشارة الى بعضها فمنها ما يأتي

الطبع — كنت اود ان يكون احسن من هذا فالطبع ليس نموذجاً من النماذج الحسنة التي نراها عادة في ايامنا فالحرف صغير جدًّا والحروف قديمة يتعذر تمييزها ولو كان الحرف اكبر قليلاً وجديداً لجاء الطبع أحسن من ذلك

التعريب — لا بأس بهِ وكنت افضل ان لا يتصرف المؤلفان في تعريب الكلمات العلمية بل يتركانها كما هي مثال ذلك فانهما عربا الكلمات الآتية Typhlopidae و Typhlops و Uropeltis و Boidae و Boinae بما يأتي : طفلبية وطفلب وربلط وبوية وبونية واني افضل تعريبها بما يأتي طفلبيدة

وطفلبس وبُربلطس وبويدة وبوينة . الا ترى انهما اضطرا في تعريب ما يأتي على الصورة الآتية Viperidae و Viperinae فبردية وفبرينية لكي يميزا بين الفصيلة والعشيرة واني افضل تعريبهما كما يأتي فبريدة وفبرينة وذلك للتمييز بين الفصيلة والعشيرة وهو بحث دقيق جداً قد لا يلذ لعامة القراء

ومما يؤخذ عليهما في التعريب هو انهما عربا Naja haje ناغة حية فان هذا الحرف الذي عرباه بالغين هو ياء اي انهُ Naia haie وكثيراً ما يكتب كذلك فيجب ان يعرب بالياء كما فعل صاحب دائرة المعارف فانهُ عرّبهُ بالياء وحولّه عيناً وكتبه ناعية ونقل ذلك عنه المؤلفان ولا أدري لأي سبب كتبه صاحب دائرة المعارف بالعين فقال ناعية ولعله ظنّ اما خطأً او صواباً ان اصل الكلمة ناعية فهذا الاسم الجنسي ليس لاتينيًّا في الاصل ولعلّ اصله ناعية فكتب باللاتينية على هذه الصورة كما تكتب كلمة يسوع Jesus واحياناً Iesus فيقال يسوع ويوسف وبايازيد وهلليويا وامثال هذه الالفاظ وهي كثيرة . وعلى كل فانهُ لو كان لفظ هذا الاسم الجنسي كالجيم فانهُ ينبغي كتابته بالجيم لا بالغين ولكنهُ ليس جيماً بل ياءٌ فينبغي ان يقال في تعريبه ناية او ناعية

الترجمة — ترجمة الانواع حسنة جداً وانما اخالفهما في بعضها مثل Carinata , Carinatus في ص ١١ فانهما ترجماها بالقاعي ثم عادا في ص ٤٥ وترجماها بالجؤجؤي وهو الصواب فهذه الكلمة نسبة الى Carina وعربيتها الجؤجؤ وهو من الطائر والسفينة الصدر اي انهُ هذا الشيء الناشز فيهما ويكون في صدر الطائر واسفل السفينة الى صدرها . كذلك اخالفهما في ترجمة Class فقد ترجماها بالفصيلة ولا اعلم احداً ترجمها كذلك فالفصيلة هي Family وعليه جمهور المؤلفين في مصر والشام وهي التي سماها المؤلفان بالعائلة وهذه عامية ويفضل اهمالها . ومما أخالفهما فيه ترجمة Blindworm snakes ص ٨ فقد ترجماها بالحيات العمياء وافضل الحيات العمي لجمع اعمى واصم وابكم واحمر وابيض عمي وصم وبكم وحمر وبيض ومثله جمع عمياء وصماء وبكماء وحمراء وبيضاء فيقال الحيات العمي والصم والكريات الحمر والكريات البيض . وفي سورة البقرة « صُمٌّ بُكْمٌ عُميٌ » الآية فان قيل هذا للعاقل وللمذكر قلت قد جاء في غيرها لغير العاقل وهو . . . . « ومن الجبال جُدَدٌ بيض مختلف الوانها وغرابيب سُودٌ » الآية . واني لا انكر انهُ يجوز ان يقال حيات عمياء لكن العرب لم يقولوا قط الحيات او الافاعي الصماء . بل قالوا الصمّ فلو وصفوا الحيات بالعمى لسموها بالعمي قياساً على الصمّ

تحقيق اسماء الحيات — لا ارى تحقيقاً دقيقاً في اسماء الحيات فقد ذكرا حيّات في اميركة واسترالية ووضعا لها اسماء عربية فصيحة وردت في كلام العرب ولا دليل عندنا على ان العرب كانوا يعرفون اميركة او استرالية قبل تدوين لغتهم فاذا كان هذا الوضع استعارة لهذا الغرض فلا بأس بهِ ولكن ينبغي ان يشار الى ذلك لكي يعلم انهُ استعارة او انهُ احياء لالفاظ مهجورة لا يعرف ما هي عام المعرفة . في مجمع اللغة العربية علماء محققون لا يجوز عليهم مثل ذلك فورود كلمة فصيحة في كتب اللغة لا يكفي لتعيينها اسماً لنوع من الحيات بلا تحقيق دقيق . واذكر ان عالمين من علماء هذا المجمع

تتبعا كلمة فونقس واخواتها مدة خمسة وعشرين سنة حتى عثرا عليها في اساطير الاولين وقاداها صاغرة ذليلة الى كتب اللغة فأمثالها لا يكفيهم قولنا ان العنظب مثلاً هو النوع الفلاني من الافاعي في استرالية والعرب لم تعرف استراليا قبل تدوين لغتها وامثال ذلك كثيرة . على ان المؤلفين الفاضلين فضلاً كبيراً في جمع ما جمعاهُ من الالفاظ التي وردت في المؤلفات العربية ولكن الجمع وحده لا يكفي

وارجو من حضرة المؤلفين الفاضلين ان لا يظنا نقدي هذا تحاملاً بل هي حقيقة اقولها . ثم ان كثيراً من انواع الحيات التي ذكرا لها اسماء علمية مختلفة هي حقيقة لنوع واحد جاء باسمين مختلفين

الكتاب الثاني — الثعابين

بحث يتناول الثعابين عامة والانواع المصرية خاصة

تأليف الدكتور حسين فرج زين الدين

اطلعت على هذا الكتاب قبل نشره وقدمتهُ للقراء بالكلمة الآتية :

كنت في سنة ١٩٣١ كثير التردد الى حدائق الحيوانات في الجيزة . واتفق ان دخلت يوماً لزيارة صديقي المرحوم محمود حلمي السمّاع فلقيت عندهُ شابًّا منهمكاً في فحص الافاعي فظننتهُ موظفاً في الحدائق ثم علمت انه ليس موظفاً فيها بل في وزارة المعارف وفي المنيا وقد اخذ اجازة انقطع اثناءها الى موالاة زيارة حدائق الحيوانات والتوفر على دراسة الحيات ولا سيما ما كان منها سامًّا قتالاً كالأسود والناشر والافعى القرناء وذي الطفيتين وغير ذلك . وانقضت اشهر لم أره فيها ثم ما لبث ان سافر الى بلاد الانجليز وغيرها لزيارة حدائق الحيوانات ومتاحف التاريخ الطبيعي والدرس على الخبيرين بهذا العلم في ممالك اوربة المختلفة وعاد ثم زارني في احد الايام ومعه نسخة مخطوطة من كتابه هذا . وانه ليسرني ان اقدم هذا للجمهور ولا ادري كيف اقدمه واقدم مؤلفه واني لا اعرف قدر ما يعرف عن هذا العلم

فقد قرأت الكتاب من اوله الى آخره فوجدته مكتوباً بلغة علمية فصيحة واسلوب علمي سهل المنال . مما يثبت ان اللغة العربية غير قاصرة عن التعبير العلمي لمن اراده . هذا من جهة اللغة. اما العلم فقد بحث المؤلف بحثاً وافياً في الحيات ولاسيما ما كان منها في مصر وما جاورها . وذكر اسماءها العربية الفصيحة والعامية واذا لم يجد لها اسماً فصيحاً ذكر الاسم العامي . وبحث في الحيات والانسان وانواع الحيات واشكالها بوجه عام ثم بحث في تشريحها ووصفها وعضلاتها وحركتها واسنانها وانسلاخها ودورتها الدموية وتزاوجها وتناسلها وغير ذلك . ثم بحث في السم وانواعه واعراض التسمم والمصل في علاج الملدوغين . ثم ذكر انواع الحيات واحداً واحداً ووصفها وصفاً علميًّا دقيقاً

وهو مجهود بذله المؤلف لم يسبق اليهِ في اللغة العربية

واني لأهنئهُ عليهِ واقدم هذا الكتاب النفيس الى الجمهور مثلاً باهراً من التخصص العلمي في الشرق ينتفع منهُ ابناء العربية انتفاعاً قائماً على أساس علمي صحيح . اه

على ان ذلك لا يمنع ان ابيّن اوجه النقص منها استعمال الحية والثعبان والافعى كأنها الفاظ مترادفة مع انهُ ذكر اسماءَها العلمية في محلها فقوله الثعابين في عنوان الكتاب ينبغي ان يكون الحيات فالحية اسم عام تشمل الثعابين والافاعي فالثعابين عادة الطوال من الحيات والافاعي القصار ومن امثلة الثعابين هذه الحية المعروفة بالحنش الاسود وهي طويلة جداً اما الافعى فقصيرة ومن الخطإ الفاحش ان بعض الجرائد تكتب احياناً انهُ قتلت افعى طولها خمسة امتار فالافاعي في الشام ومصر قصار لا تكاد الواحدة تبلغ المتر الواحد في طولها ولكنها سامة جداً . ومما يؤخذ عليه قوله الثعابين العمياء واظن لو قال العمي كان اصلح وقوله الزواحف واظن لو قال الزحافات بصيغة المبالغة كان اصلح وقد وقعتُ نفسي بما يشبه هذا الخطأ فقلت القوارض وكان ينبغي ان اقول القراضات وهذا بحث طويل لا متسع له هنا

هليوبوليس امين المعلوف

الغذاء والمطبخ والمائدة

لحياتنا العائلية

تأليف بسيمة زكي — ثلاثة اجزاء — مجموع صفحاتها ٦٥٠ — مطبعة وديع ابو فاضل

هذا الكتاب دليل عملي لسيدة البيت في صنع مختلف الوان الطعام والفطائر والمربيات ، ومرشدٌ صحي لتغذية الطفل والمرضى بالبول السكري وغيرهم ممن يحتاجون الى الوان خاصة من الغذاء . فالجزء الاول خاصٌ بالفطائر الحديثة ولكنه يحتوي على مقدمة مسهبة في الغذاء وما يجب ان يشتمل عليهِ من العناصر ومقدار ما يحتاج اليهِ الانسان كل يوم منها وتلخيصٌ حسنٌ في الجهاز الهضمي والغدد المتصلة به . ثم يليهِ فصل عام في المائدة وترتيبها والاستضافة على مائدة الافطار والغداء والعشاء وآداب المائدة . ثم كلام عام على الفطائر والمواد التي تصنع منها والقوالب التي تفرغ فيها والموازين والمكاييل المختلفة . ويلي ذلك عشرات من الوصفات للبسكويت والكعك والبودنج. وكل وصفة تحتوي على مقادير دقيقة للمواد التي تتألف منها وطريقة خلطها وطبخها وما الى ذلك ، بحيث لا تحتاج سيدة البيت الآ الى يسير من العناية والدقة في اتباع التعليمات لتفوز بالنتيجة المتوقَّعة

والجزء الثاني يشتمل على الطبخ الحديث والوان الطعام القومية . وفيهِ مقدمة كذلك في اصول الطبخ وقواعده واجهزة المطبخ الحديث ومواد الطبخ من لحم وسمك وطير وحبوب وما شاكل . اما الفصل الثاني فيشتمل على وصفات لصنع الحساء (الشوربة) والصلصة والوان المكرونة والبيض والخضراوات والاسماك والسلطات وما يصنع من لحوم العجول والبقر والضأن والطيور والارانب. وفي الفصل الثالث وصفات للالوان القومية المختلفة التي اشتهرت بها المانيا وفرنسا وايطاليا والنمسا وغيرها من البلدان . وقد خصّت الفصل الاخير بفن تقطيع اللحوم والطيور على المائدة والادوات

اللازمة لذلك . اما الجزء الثالث ففصول منها فصل خاص بتغذية الطفل وآخر بصنع المربّيات والمسكّرات وآخر بالالوان النباتية والالوان التي تصلح للمرضى بالسكّر

والكتاب من اوله الى آخره غرضهُ النفع العملي ، فهو مكتوب بلغة مفهومة ومزيَّن برسوم وصور كثيرة . ونحن نعرف طائفة من سيدات الغرب او سيدات الشرق المثقفات بثقافة الغرب ، يلتفتنَ في مقدمة ما يلتفتن اليهِ في المجلات الاوربية والاميركية الى ما تحتوي عليهِ من الوان جديدة للطعام او الفطائر او المربيات ويجرّبنَ عملها بايديهن مع ان بيت الواحدة منهنَّ لا يخلو من طباخ ماهر ، ولا يجدنَ في ذلك غضاضة بل يجدنَ لذة عظيمة

فنحن نشكر للآنسة بسيمة عنايتها باخراج هذا الكتاب على هذا الوجه المتقن ولا نغالي اذا قلنا انهُ يجب ان يكون في متناول كل سيدة شرقية

المطبوعات الجديدة

[اجتمعت لدينا طائفة من نفائس المطبوعات الجديدة ولكن ضاق عنها نطاق هذا الجزء فارجأنا النظر فيها الى الاعداد القادمة نكتفي الآن بذكرها]

« الاسلام والحضارة العربية » تأليف محمد كرد علي طبع بمطبعة دار الكتب المصرية ونشرته لجنة الترجمة والتأليف والنشر

« الشخصيات البارزة » تأليف الدكتور احمد فريد رفاعي . نشرته مطبعة المعارف بمصر

« ايام بغداد » تأليف امين سعيد نشرته مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

« اثر قديم في العراق » تأليف كوركيس حنا عواد طبع بمطبعة النجم بالموصل

« احسن ما كتبت » مختارات لاكابر كتاب العصر . نشرته دار الهلال بمصر

« علم الطبيعة » الجزء الرابع في الكهرباء تأليف هاشم الفصيح وتوفيق المنجد وانطون الجنادي مطبعة الترقي بدمشق

« قصص الاطفال » لكامل كيلاني — قصة جلفر في جزئين . نشرتها مطبعة المعارف بمصر

«اساطير الف يوم» لكامل كيلاني — ابو القاسم المصري وقصص اخرى . نشرتها مطبعة المعارف بمصر

« كتاب الام » بحث فيه الدكتور زكي مبارك طبع بمطبعة حجازي بالقاهرة

« علم قياس المثلثات » تأليف توفيق علوش طبع بمطبعة السلامة في حمص سورية

« مشاكل العصر الحديث » تأليف عطية الجداوي طبع بمطبعة الصاوي درب الجماميز مصر

« كيف تعالت بروسية » تأليف المؤرخ احمد رفيق التركي وترجمة العقيد بهاء الدين نوري

[Schistosomiasis (Bilharziasis) by Dr. Rameses Girges. Published by John Bale Sons, and Danielsson Ltd. London.]

[The Tarriff of Syria 1919 - 1929 Norman Burns M. A. American University of Beirut.]

[A Controlled Experiment on Rural Hygiene in Syria. Stuart C. Dodd Ph. D. American University of Beirut.]

[Criteria of Capacity for Independence Walter H. Ritsher. American University, of Beirut.]

باب الأخبار العلمية

رحلة جوية الى فلسطين (١)

قد يكون من قبيل الامتهان لعقول القراء ان تقول اليوم ان الطيران ارتقى او انهُ آخذ في الارتقاء، وبوجه خاص لان الصحف تشير في كل فرصة سانحة الى فعال الطيارين وآثارهم العجيبة في السرعة والتحليق وقطع المسافات الطويلة. فاجتياز المسافة بين لندن وملبورن في أقل من ثلاثة أيام من قبيل المعجزات، وسرعة الملازم آجلو الايطالي عندقطعه ما معدّله ٤٤١ ميلاً في الساعة، تكاد تقرب من سرعة الصوت، وعلى ذلك فقد لا يدهشهم ان تجتاز الطائرة الخاصة بشركة مصر للطيران المسافة بين الماظه واللد في ثلاث ساعات

ولكن يجب عليَّ ان انبه الى ان هناك فرقاً كبيراً بين الطائرات التي تصنع للسباقات، ويطير بها الطيارون لغرض خاص، كالتفوق في السرعة او طول المسافة من غير وقوف او غير ذلك، والطائرات التي تصنع لتنظيم خطوط الطيران التجاري وهي التي يعتمد عليها في امانة جانبها ودقتها في المحافظة على مواعيد القيام ومواعيد الوصول وراحة المسافر في اثناء الطيران. فهذه الطائرات تصنع في الغالب لتكون «وسطاً ذهبيًّا» جامعاً بين اهم مميزات الطيارة — وهي سرعة الانتقال وقواعد الاقتصاد في ما تنفقه من وقود وما يجب ان تتقاضاه من الركاب

وطائرات شركة مصر للطيران جامعة لهذه المميزات على اوفى وجه

***

لقد اتيح لي من قبل ان اقطع المسافة بين لندن وباريس مراراً بالطائرة فلم القَ في رحلاتي السابقة من راحة في السفر، او عناية ولطف من قبل رجال الشركة في مكاتبها المختلفة اكثر مما لقيت في رحلتي الاخيرة بين مصر وفلسطين. فمواعيد العمل في جميع تفصيلاته مضبوطة لا تتقدم دقيقة ولا تتأخر دقيقة. وعبارة الرجال من سائق السيارة الى سائق الطائرة الى رجال المكتب جميعاً عبارة كلها لطف وادب. حتى ولو جفا كلامك قليلاً على غير قصد منك. بل ان سائق الطائرة نفسه يهتم بالركاب في اثناء الطيران، فيكتب على قطعة من الورق احياناً اسم المكان المحاذي للطيارة على الارض وسرعتها وعلوها، لان حديث العهد بالطيران لا يستطيع ان يتبين جميع هذه الحقائق من مراقبة الخارطة

(١) دعي رئيس تحرير المقتطف الى القدس لالقاء محاضرة في نادي جمعية الشبان المسيحية فيها فاختار ان يذهب اليها طائراً وفي هذا المقال وصف لرحلته الجوية

او مقياس السرعة والعلو . ولما كان السفر بالطائرات يقع احياناً حوالي الظهر او بعيده ، يجد كل راكب في كرسيه علبة طريفة تحتوي على قطع من الصندوتش الفاخر وفاكهة جيدة وزجاجة ماء معدني مع الاداة التي تفتحها وكأساً من الورق ولوحاً صغيراً من الشكولاته . وعلى العلبة رقعة كتب عليها « مع تحيات شركة مصر للطيران » . واني على ما اذكر الآن دفعت ثمن مثل هذه العلبة في اوربا نحو اربعة شلنات . ومما يحسن ذكره هنا اننا قرأنا صحف مصر الصباحية يوم الاثنين في اثناء عودتنا بعد ظهر ذلك اليوم ، لان الشركة كانت قد وضعت في الطائرة الذاهبة صباحاً الى فلسطين نسخاً منها . واغرب من ذلك انك قد تكون وحدك بين الركاب قاصداً الى القدس فتقدم لك الشركة مع ذلك سيارة خاصة تسير بك من اللد الى مقرك

فشركة مصر للطيران من هذا القبيل مثل يضرب في اتقان الخدمة ورعاية المسافرين

***

أفطرت في بيتي بالقاهرة في الساعة السابعة صباحاً وذهبت الى فندق الكونتننتال حيث تنتظر سيارة الشركة فركبتها مع مسافرين آخرين الى مطار ألماظة في الساعة السابعة والنصف فبلغناه حوالي الساعة الثامنة حيث وزن كل من الركاب وأمتعته ثم فتشت هذه الامتعة من قبل مصلحة جمارك مصر وبصمت جوازات السفر . ودخلنا الطيارة فتحرك الركاب العالي في الساعة الثامنة والربع تماماً . درجت الطيارة على الارض مئات من الأمتار ثم رفعت ذيلها وزادت سرعتها فاذا هي في الجو متجهة الى بور سعيد ، فبلغناها في نحو ساعة — والمسافة بين ألماظة وبور سعيد مائة ميل في خط مستقيم — مارين فوق بلبيس وفاقوس وبحيرة المنزلة

لم نقف في بور سعيد ، لان جميع الركاب كانوا قاصدين الى فلسطين ، فبلغنا البحر المتوسط مارين فوق أحياء المدينة الغربية فرأينا بيوتها وشوارعها ومدخل القنال وبور فؤاد ، كأنها رقعة يبني عليها الطفل بالحجارة والمكعبات بيوتاً ويخطط مدناً . ثم اتجهنا الى الشرق الشمالي وسرنا محاذين للشاطىء ، صحراء سينا الى يميننا والبحر الى يسارنا ، فررنا قبالة العريش ورفح وغزة الى ان بلغنا الرمال التي الى جنوب يافا . فتحولت الطيارة الى اليمين محلقة فوق منطقة البرتقال المشهورة فرأينا « البيارات » واستطعنا ان نتبين مبلغ اشجارها من النمو ، باختلاف ما يظهر من التربة الحمراء بين الاشجار ورأينا الخطوط المنتظمة التي غرست فيها . وفي الساعة الحادية عشرة والربع نزلت الطيارة في مطار اللد ، والمسافة بين مطار ألماظة ومطار اللد في الخط الذي سرنا فوقه نحو ثلاث مائة ميل

هناك فحصت جوازات السفر وفتشت الامتعة ، او سئل الركاب عما فيها ، وفي الساعة الثانية عشرة والنصف كنّا في القدس فتناولنا طعام الغداء فيها على أحسن حال

وقد سرنا في الخط نفسه عند العودة ، فطارت بنا الطيارة في الساعة الواحدة والنصف تماماً من مطار اللد فبلغنا الماظة في الساعة

الخامسة الآ ثلثاً ، لأننا وقفنا في بور سعيد لنزول سيدة وصعود مسافر قادم من بورسعيد الى مصر . وقد حلقت الطيارة اذ كانت محاذية لغزة الى علو ٧٥٠٠ قدم فرأيناها كأنها تحتنا مع أن بعدها عن الشاطئ ليس يسيراً

***

وطيارات شركة مصر للطيران التي تسير على هذا الخط نوعان احدهما يحمل ستة ركاب والآخر يحمل ثمانية . وقد قيل لي انه ينتظر قريباً وصول طائرة تحمل ستة عشر راكباً

ولكل طائرة محركان قوة كل منهما ١٣٠ حصاناً ، احدهما كاف للطيران بها ولكن بسرعة اقل ، فاذا تعطل احدهما في اثناء الطيران كان الآخر كافياً لاتمام الرحلة ، او على الاقل للنزول على الارض من غير تعريض الطائرة وركابها لخطر ما . ولكن هذا التعطيل لا يحدث ، لان العناية كبيرة جدًّا بالمحركات وامتحانها قبل كل سفر

***

اما المقاعد فغاية في الراحة ، وهي من النوع الذي يتحرك ظهره ليستطيع المسافر ان يتمدد قليلاً اذا شاء . واذا كان صوت المحرك يزعج المسافر فله قطن يضعه في اذنيه ، ولكن صوته لم يزعجني قط ، فقرأت واكلت وتفرست في الاماكن التي مررنا فوقها وصوت المحركات لا يصرفني عن كل ذلك ولا احس منه بأي ضيق . بل اذا شئت ان تقف في الطائرة منحنياً — لأن سقفها لا يزيد علوه على متر ونصف — لتطل من نافذة غير النافذة التي قربك على المشاهد المختلفة كان لك ذلك من دون ان يؤثر عملك في موازنة الطيارة على شريطة ان تكون في مقعدك عند ما تهم بالنزول على الارض . ولتهوية الطيارة طريقة بديعة تستطيع ان تدخل لها الهواء من ثقب انبوب بالقدر الذي تريده

وقد يسأل القراء عن الدوار فأقول لهم انني لم احس في وقت ما بشيء منه ولا راودتني نفسي عليه ، ولا احسَّ به احد من الركاب في الرحلتين وان الطائرة كانت اثبت جدًّا في الجو من القطار او السيارة التي تسير في طريق غير تامة الاستواء . ولولا اعلام من الغيم احياناً وقرى وحقول مررنا فوقها لما عرفنا ان الطيارة تتحرك على الاطلاق — فذكرني بذلك بصندوق اينشتين العظيم — والطائرة مع ذلك تسير بسرعة مائة ميل في الساعة

وهذا الخط منتظم ثلاثة ايام في الاسبوع هي الاثنين والاربعاء والجمعة . تطير الطائرة في كل من هذه الايام من الماظة في الساعة الثامنة والربع صباحاً الى فلسطين وتغادر مطار اللد في الساعة الواحدة والنصف من اليوم نفسه عائدة الى الماظة . ولا اعرف مواعيد الوصول الى حيفا او القيام منها لأن حيفا نهاية هذا الخط ولم أطر اليها . اما اجرة السفر فستة جنيهات في الرحلة الواحدة و ١١٤٠ قرشاً ذهاباً واياباً وهي لا تزيد على اجرة السفر بالسكة الحديد علاوة على انك توفر وقتاً وتعباً ونوماً في القطار وغباراً في الصحراء

استدراك

في الصفحة ٥٠٩ س ٧ كلمة (الآذان) بالمد وصوابها (بالهمز)

الجزء الرابع من المجلد الخامس والثمانين

صفحة

٣٩٧ أثر العلم الحديث في خلق الفرد والجماعة : لفؤاد صرّوف
٤١٢ سر الحياة في الكربون : لنقولا الحداد
٤١٨ السيكلوجية الحديثة : ليعقوب فام
٤٢٢ أناتول فرانس : لعلي كامل
٤٣٣ الانسان الاخير (قصيدة) لسيد قطب
٤٣٥ عبقرية محيطة : لأديب عباسي
٤٤٠ الشباب والإشباب : للدكتور شوكت موفق الشطّي
٤٤٧ غرائب الاعداد : لقدري حافظ طوقان
٤٥١ الأثير لغز الدهور
٤٥٤ تقرير هادو : لعلي حسن الحاكم
٤٦١ تأسيس القاهرة : للكابتن كرسويل وترجمة سيد محمد رجب
٤٦٨ مصطلحات علم النفس : لمحمد مظهر سعيد
٤٧٠ السهم والاغنية (قصيدة) للشاعر الاميركي لونغفلو
٤٧١ سير الزمان : العوامل المعنوية : للدكتور عبد الرحمن شهبندر — سبل الانتعاش الاقتصادي — فرنسا والاصلاح الدستوري
٤٨٧ مملكة المرأة : ضامنات الحب : لحنا خباز — الحمية في الامراض : للدكتور عبده رزق — قصص الحياة : رجلٌ وغدٌ — وصايا للزوجين — الزوجة ونجاح الرجل
٥٠١ حديقة المقتطف : درامة وطنية : بطلتها سيارة نقل — رحمة الله عليها : لاوسكا وبلد — الشباب والشيخوخة : لروبنصن جفرز — قطعة من الشاهنامه : لميرزا عباس الخليلي

٥٠٩ باب المراسلة والمناظرة ٭ ارشاد لغوي : لعبد الرحيم بن محمود : النثر الفني : لمحمود علي البشبيشي . الطرق العملية : لنظلة الحكيم ومظهر سعيد . المقتطف في اللغة : لعباس حسان خضر
٥١٦ مكتبة المقتطف ٭ الزواج عند مسلمي العرب : مقدمة ابن خلدون . سليمان بك والمقدمات الروحانية . دولة اشتراكية لاحدى عشر قرناً قبل المسيح . معاونة على بحث النزاع القائم بين المسلمين في الهند . الدراسات الاسلامية : التاريخ العام للفنون : كتابان في الحيات : الغذاء والمطبخ والمائدة : كتب جديدة
٥٢٥ باب الاخبار العلمية ٭ رحلة جوية الى فلسطين

فهرس المجلد الخامس والثمانون

وجه

(ا)

* آريوستو الشاعر ٢٢٣
الاثير لغز الدهور ٤٥١
الارواح العائدة (قصيدة) ١٠٠
اسئلة واجوبتها ٣٦٧
اشعة غما والايدروجين
الثقيل ٢٦٠
الاشعة وقتل الخلايا ٢٥٩
الاصداء (قصة) ١٧
الاعداد غرائبها ٤٤٧
الاغذية الكيميائية ٣٢٩
الاقتصاد الزراعي المصري
نكبتهُ ٩٤
المانيا بعد غليوم ٣٣٥
ام في السابعة من عمرها ٣٩٢
* اناتول فرانس ٤٢٢
الانتعاش الاقتصادي
في بريطانيا ٤٧٧
الانسان والنبات تجاربهما ٣٥

(ب)

* بارتو ٣٤٠
بريطانيا واليابان المنافسة
التجارية ٨١
بلون كشاف يحمل مذيعاً
لاسلكياً ٢٥٨
* بوانكاره ٣٤٢

وجه

بيضة عجيبة فيها ٢٥٩

(ت)

التطفل في الاحياء ٢٨١
التعقيم واصلاح النسل ١٨١
« حمق دعاته ٣١٤
التلفونات احصاء عالمي ٣٤٤

(ج)

جبران ونيويورك ١٤١
الجماد مرضه وتلقيحه ونموه ٦٣
جنة العاملين ٣٥٣
الجنس التحكم فيه
بالكهربائية ١٢٩

(ح)

الحب والزواج بحث
استقرائي ١١٠
الحب ضماناته ٤٨٧
الحرب تجارها ٢١٢
الحمية في الامراض ٤٩٢
الحياة داعيها (قصيدة) ٢٩٦
الحياة والكربون ٤١٢
الحيوان في عصر الآلة ٢٨٣
« والنبات ١٤٩

(خ)

خلاط. دمتري ٢٤٠
* خيري الشاعر ٥٠٥

وجه

(د)

درامة وطنية فاشستية ٥٠١

(ر)

رحلة جوية الى فلسطين ٥٢٥
رحمة الله عليها (قصيدة) ٥٠٤
رضا توفيق ٤٤
* روسيا بعد القيصر ٢٠٥
ريادة الاعماق ٢٥٧

(ز)

زجاجة سياحتها ٢٥٩
الزراعة والحضارة ١٤٦
* الزراعة الفرعونية ادواتها ١٨٥
زكي باشا احمد ١٥٣
زنانيري غاستون شعره ٢٢١
زهر يتفتح ليلاً ١٠٢
الزوجان وصايا لهما ٤٩٩
الزوجة ونجاح الرجل ٥٠٠

(س)

السودان القضاء فيه ٧٤، ٢٨٧
السيكلوجية الحديثة ٤١٩

(ش)

الشاهنامه (قطع منها
منظومة) ٥٠٦
الشباب والاشباب ١٦٥، ٤٤٠
الشباب والشيخوخة ٥٠٥
شلي : من قبرته ٣٥٦

	وجه
شهاب يرى في النهار	٢٦٠
الشيطان كتابةٌ	٦٥
(ص)	
الصفر فضله على المدنية	٥٠
صفصافتي (قصيدة)	٩٩
الصوت احدث معجزاته	١٩٩
الصومعة روحها	٤٥٩
الصيف حرارتهُ	١٠٦
(ط)	
الطب المصري القديم	٢٣
الطفولة المبكرة	٣٧٢
(ع)	
العلم والخلق	٣٩٧
علم النفس مصطلحاته	١٧٢، ٤٦٨
العمل وطول العمر	٢٦٥
العوالم الجزرية: ارخبيل	٣٩٣
العنصر الحادي والتسعون	٣٩٢
العنصر الثالث والتسعون	١٩٥ و ٢٦١
(غ)	
الغاز كامنتهُ والحرب	٢٩٧
الغريبة (قصيدة)	١٥٧
(ف)	
* الفردوسي	٢٧٧
فرنسا والاصلاح الدستوري	٤٨٤
الفروق الجنسية بين الرجل والمرأة	٢٣٢
(ق)	
* القاهرة تأسيسها	٣٠١ و ٤٦١
قدمية استعمالها	٥٠٩
القَرْم والقرقم	٣٩٤
قصص الحياة	٣٧٠ و ٤٩٧
القصة روحها في الادب الحديث	١١
القطن قدمهُ في مصر	٣٢٧
القضايا الاجتماعية الكبرى	٨٧ و ٤٧١
القوة والجمال	٣٦١
(ك)	
كتاب الارض صفحات منهُ	٢٧٢
كتب ومراجعتها	١١٤ — ١٢٨ و ٢٤٥ — ٢٥٦ و ٣٧٩ — ٣٩٠ و ٥١٦ — ٥٢٤
كراين ستيفن شعرهُ	٢١٩
الكريم والفتى والسيد	٣٧
الكندي التعريف بهِ	٣١٨
الكندي صلتهُ بعصرهِ	١٥٩
الكهارب معجزاتها	٥٤
* كوري مدام سيرتها وآثارها	١٣٣
الكون لبناتهُ	١
(ل)	
اللغتان الصينية والعربية تناظرهما	٧١
* ليوناردو ده فنشي	١٧٦ و ٤٥٣
(م)	
المادة فناؤها بالتشعُّع	٢٩١
المرأة التركية الجديدة	١٠١
المرأة مهامها في الحياة	٢٣٨
المرأة النازية واتجاهها	٢٢٩
المرأة اليابانية	٣٦٨
المشتري اقمر عاشر	٨٠
معجم الحيوان استدراك	١٩٢
مكاريوس سليم وفاتهُ	١٩٧
ملدنهول ملبورن والطيران	٣٩١
المكروبات حربها	٢٦١
(ن)	
النجوم قياس حرارتها	٣٩٣
النحاس المشع	٢٦٠
النثر الفني	٥١١
ندامة بعد الموت (قصيدة)	٣٥٨
النسبية لبابها مبسطاً	٣٠٨
نشيد الى الشرق (قصيدة)	٣٥٩
نوبل جائزتهُ الطبية	٣٩٤
النوم سرُّهُ	٢٣٧
(هـ)	
هادو تقريرهُ في التعليم	٤٥٥
الهيموفيليا والنزف الوراثي	٢٦٢
(لا)	
لافونتين امثاله بالعربية	٢٧٦
(ي)	
اليابان نفسية شعبها	٣٤٧

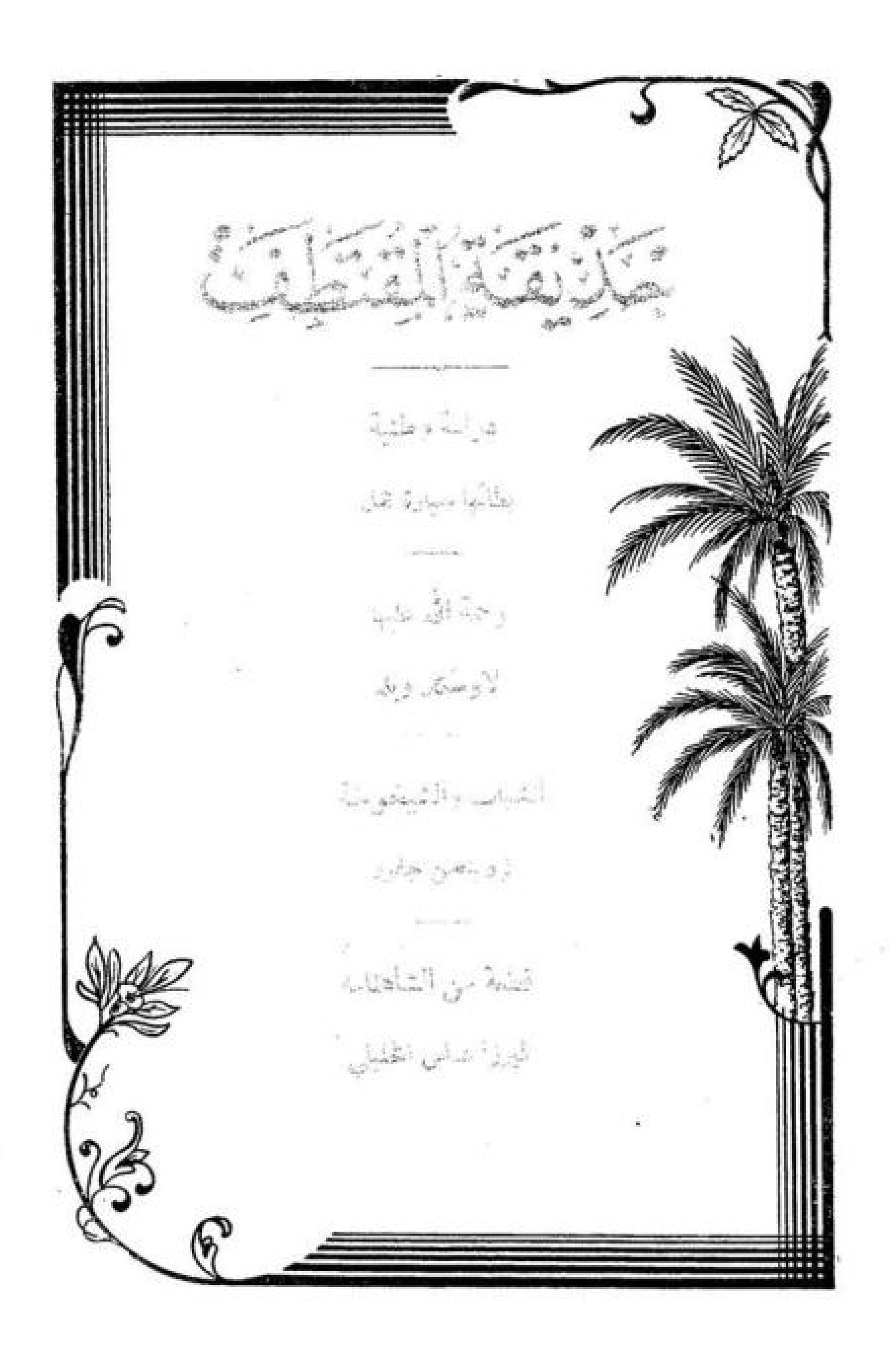


ليوناردو دە ڤنشي

Leonardo da Vinci


سير الزمان
العوامل المعنوية ووحدة الأمم
للدكتور شهبندر
سبل الانتعاش الاقتصادي
في بريطانيا
الإصلاح الدستوري في فرنسا


مملكة المرأة
مناجاة الحب
الحمية في الأمراض
الدكتور محمد رزق
قصص الحياة
وصايا للزوجين
الزوجة وشجاعة الرجال



حديقة القلب

رواية وطنية

مؤلفتها سيدة عجمية

رحمة الله عليها

لا وصلت روحها

الشباب والشيخوخة

ترويح مصور جزائر

تقدمة من الشاهد

الميرزا عباس الخليلي



الشاعر محمود خيري

(راجع مقتطف يوليو ١٩٣٤ صفحة ٥٠٥)

بعد نشر القصيدتين الآتيتين نقلاً عن الشاعر المصري المختار محمود خيري في مقتطف يونيو الماضي طلب الينا القراء نشر صورته وها هي ذي منشورة هنا نقلاً عن صورة شمسية أهديت الينا ،

فهرست الكتاب

وجه

(ا)

الابراشي محمد عطيه ٢٣٢

ابو شبكة الياس ٤٤

اديب عباسي ١٧٦ و٤٣٥

(ب)

البشبيشي محمود علي ٥١١

(ج)

جفرز روبنصن ٥٠٥

جينز السر جيمز ٢٧٢

(ح)

حامد عبد القادر ٢٣٢

الحداد نقولا ٢٩١ و٣٨٧ و٤١٢

حسن كامل ٢٣ و١٨٥ و٣٢١

حسن محمود ١١

الحكيم زينب ٣٧٢

(خ)

خباز حنا ٣٠٨ و٤٨٧

خيري محمود ٩٩

الخوري خليل ٧٤ و٢٨٧

(ر)

رزق الدكتور عبده ٤٩٢

الريحاني امين ٦٥

(ز)

زنانيري فاستون ٢٢١

(س)

السيد محمد رجب ٣٠١ و٤٦١

وجه

(ش)

الشطي الدكتور شوكت ١٦٥ و٤٤٠

الشهابي الامير مصطفى ٣٥ و١٤٩ و٢٨١

شهبندر الدكتور ٨٧ و٣٨٢ و٤٧١

شيبوب خليل ١٥٥

(ط)

طاغور ٣٥٣

طه فوزي ٢٢٣

طوقان قدري حافظ ٥٠ و٤٤٧

(ع)

عبد الرحيم بن محمود ٥٠٩

العقاد عباس محمود ٢٤٥

علي حسن الهاكم ٤٥٥

علي كامل ٤٢٢

علي محمود طه ٣٥٦

عوض جندي ٥٤ و١٢٩ و١٩٩ و٣٢٩

(ف)

فارس بشر ١٥٣ و٥١٦

فام يعقوب ٣٧٩ و٤١٨

(ق)

قطب سيد ٢٩٦ و٤٣٣

وجه

(ك)

كراين ستيفن ٢١٩

كرسويل الكابتن ٣٠١ و٤٦١

الكرملي الاب انستاس ٧١

(م)

متولي محمد ١٥٩ و٣٢٠

محمد مظهر سعيد ١٧٢ و٤٦٨

محمود محمد شاكر ١١٤ و٢٥٠ و٣٥٣ و٥٠٤

المعلوف امين باشا ٣٧ و١٩٢ و٥٢٠

ميرزا عباس الخليلي ٥٠٦

ميلاي ادنا سانت فنسنت ٢٢٢

مي الآنسة ٣٥٩

(ن)

نعيمه ميخائيل ١٤١

نقولا شكري ٢٤٠

نيقولاوس جورجي ٩٩ و٢٢٢ و٣٥٩

(و)

وايلد اوسكار ٥٠٤

وهبه توفيق ١٢١

(لا)

لاغالين رتشرد ٣٥٥

(ي)

اليازجي توفيق ٩٤